

فَتْحُ الْفِتْرِ

لِلْجَامِعِ بْنِ فَنِي الرَّوَايَةِ وَالِدِّرَايَةِ مِنْ

عِلْمِ النَّفْسِ

تَأَلَّفَ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ الشَّوْكَانِي

”وَفَاتَهُ بِصَفَاءَ ١٢٥٠ هـ“

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَ أَصُولَهُ

يُوسُفُ الْغُوشُ

دارُ المَعْرِفَةِ

بِزُوت - لُبْنَان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright® All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953 - 420 - 75 - 0

الطبعة الرابعة
1428 هـ \ 2007 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

فَتْحُ الْفِتَنِ

لِلْجَامِعِ بَيْنَ فَنَى الرِّوَايَةِ وَالذِّلَالَةِ مِنْ

عِلْمِ النَّفْسِ

ترجمة الإمام الشوكاني

اسمه ولقبه:

الحاجب، والتهذيب للعلامة التفتازاني، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، والغاية لابن الإمام، وبعض مختصر المنتهى لابن الحاجب في أصول الفقه، ومنظومة الجزري في القراءات، ومنظومة الجزار في العروض، وأدب البحث والمناظرة للإمام العزدي، ورسالة الوضع له أيضاً. وكان حفظه لبعض هذه المختصرات قبل شروعه في الطلب، وبعضها بعد ذلك، وقبل شروعه في الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه في المكتب، فطالع كتباً عدة ومجاميع كثيرة، ثم شرع في الطلب والسماع والتلقي من أفواه الرجال، إلى أن صار إماماً يشار إليه، ورأساً يرحل إليه، ولم يزل مكباً على العلم قراءة وتدريساً، إلى أن فارقه أجله ولقي ربه، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

مشايخه الذين أخذ عنهم العلم سماعاً وقراءة:

قرأ رحمه الله على والده شرح الأزهاري، وشرح الناظري لمختصر العيصيفري، وقرأ شرح الأزهاري أيضاً على السيد العلامة عبد الرحمن بن قاسم المدني، والعلامة أحمد بن عامر الحدائي، والعلامة أحمد بن محمد الحارثي وبه انتفع في الفقه وعليه تخرج، وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة، وكوّن عليه قراءة شرح الأزهاري وحواشيه. وقرأ عليه بيان ابن مظفر، وشرح الناظري وحواشيه. وفي أيام قراءته في الفروع شرع في قراءة النحو، فقرأ الملحة وشرحها على السيد العلامة إسماعيل بن الحسن بن أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم بن محمد، وقواعد الإعراب وشرحها للزهرري والحواشي جميعاً على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، وشرح السيد المفتي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني والعلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، وأكمل من أوله إلى آخره على كل واحد منهما. وقرأ شرح الخبيصي على الكافية وحواشيه على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي من أوله إلى آخره. وكذلك قرأه من أوله إلى آخره على شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني. وقرأ شرح الجامي على الكافية مع ما يحتاج إليه من حواشيه على السيد العلامة عبد الله بن الحسين بن علي ابن الإمام المتوكل على الله إسماعيل من أوله إلى آخره، وقرأ شرح الرضي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني وبقي منه بقية يسيرة. وقرأ شرح الشافية للطف الله الغياث جميعاً على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني. وقرأ شرح إيساغوجي للقاضي زكريا على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي جميعاً، وشرح التهذيب للشيرازي والمليزي على

هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني، الإمام العلامة الرباني، والسهيل الطالع من القطر اليماني، إمام الأئمة ومفتي الأمة، بحر العلوم وشمس الفهوم، سند المجتهدين الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، نادرة الدهر، شيخ الإسلام، قوة الأنام، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، علم الزهاد، أوجد العباد، قاصم المبتدعين، آخر المجتهدين، رأس الموحدين، تاج المتبعين، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة، شيخ الرواية والسماعة، عالي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد، على الأكابر الأمجاد، المطلع على حقائق الشريعة ومواردها، العارف بغوامضها ومقاصدها.

مولده ونسبه:

ولد حسيباً وجد بخطه في وسط نهار الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة 1173 هجرية في بلدة هجرة شوكان. وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة 1250 هـ.

قال صاحب الترجمة في كتابه «البدر الطالع» عند ذكر نسب والده: وعرف (أي والده) في صنعاء بالشوكاني، نسبة إلى شوكان، وهي قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان، بينها وبين صنعاء نون مسافة يوم، وهو أحد المواضع التي يطلق عليها شوكان. قال في القاموس: وشوكان موضع بالبحرين وحصن باليمن، وبلدة بين سرخس وأبيورد: منه عتيق بن محمد بن عنبس وأخوه أبو العلاء عنبس بن محمد الشوكاني هـ ونسبة صاحب الترجمة إلى شوكان ليست حقيقية، لأن وطنه ووطن سلفه وقرباته بمكان عني شوكان، بينه وبينها جبل كبير مستطيل، يقال له هجرة شوكان، فمن هذه الحيثية كان انتساب أهله إلى شوكان، والله أعلم.

نشأته وطلبه العلم:

نشأ رحمه الله تعالى بصنعاء، وتربى في حجر أبيه على العفاف والطهارة، وأخذ في طلب العلم وسماع العلماء الاعلام، وفرغ نفسه للطلب وجد واجتهد، فقرأ القرآن على جماعة من المعلمين، وختمه على الفقيه حسن بن عبد الله الهبل، وجوّه على جماعة من مشايخ القرآن (بصنعاء). ثم حفظ الأزهاري للإمام مهدي في الفقه، ومختصر الفرائض للعصيفري، والملحة للحريري، والكافية والشافعية لابن

البحث وحواشيه على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والخالدي في الفرائض والضرب والوصايا والمساحة، وطريقة ابن الهائم في المناسخة على السيد العارف يحيى بن محمد الحوثي، وبعض صحاح الجوهري وبعض القاموس على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد مع مؤلفه الذي سماه فلك القاموس. هذا ما أمكن سرده من مسموعات صاحب الترجمة ومقروءاته وله غير ذلك من المسموعات.

بعض تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم:

أخذ عنه العلم ابنه العلامة علي بن محمد الشوكاني وكان صالحاً عالماً مبرزاً في جميع العلوم وكان نادرة زمانه على صغر سنه، والعلامة المتحلي بفرائض البيان والمعاني حسين بن محسن السبعي الأنصاري اليماني، والعلامة الأديب محمد بن حسن الشجني الذماري، والعلامة الشيخ عبد الحق بن فضل الهندي، والشريف الإمام محمد بن ناصر الحازمي وغير هؤلاء، وكلهم جهابذة محققون ونبلاء مدققون، أولو أقدام خارقة وفضائل فائقة، ولبعضهم تأليف رحم الله الجميع.

مذهبه وعقيدته:

تفقه على مذهب الإمام زيد وبرع فيه، وآلف وأقمت حتى صار قدوة فيه، وطلب الحديث وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ريقة التقليد وتحلى بمنصب الاجتهاد، فألف كتاب «السليل الجرار المتدفق على حداثق الأزهار»، وقد تكلم فيه على عيون من المسائل وصحيح ما هو مقيد بالدلائل، وزيف ما لم يكن عليه دليل، فقام عليه أهل عصره وغالبهم من المقلدة الجامدين على التعصب في الأصول والفروع، ولم تزل المجادلة والمصالوة بينه وبينهم دائمة، ولم يزلوا يندنون عليه في المباحث من غير حجة، فجعل كلامه في شرح الأزهار الذي هو في فقه آل البيت المختار موجهاً إليهم في التنفير عن التقليد المذموم، وإيقاظهم إلى النظر في اللبيل، لأنه كان يرى تحريم التقليد، وقد ألف في تلك رسالة سماها «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد».

وعندما ألف هذه الرسالة تحامل عليه جماعة من علماء الوقت، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت؛ وثار من أجل ذلك فتنة في صنعاء اليمن بين من هو مقلد، ومن هو مقتد باللبيل، توهماً من المقلدين أنه ما أراد إلا هدم مذهب آل البيت.

قال بعض من ترجمه: وحاشاه من التعصب على من أوجب الله محبتهم، وجعل أجر نبينا ﷺ في تبليغ الرسالة موثقتهم، لأن له الولاء التام لهم، وقد نشر محاسنهم في مؤلفه نر السحابة، بما لا يخالف بعده ريبة لمرتاب، على أن كلامه مع الجميع من أهل المذاهب سواء بسواء، لأن المأخذ واحد، والرد واحد والخطب يسير، والخلاف في المسائل العلمية الظنية سهل، وعقيدته عقيدة مذهب السلف من حمل صفات البارئ تعالى، الواردة في القرآن الحكيم والسنة

شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني من أولهما إلى آخرهما، وشرح الشمسية للقطب وحاشيته للشريف على شيخه العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، واقتصر على البعض من ذلك، وشرح التلخيص المختصر للسعد وحاشيته للطف الله الغياث على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني جميعاً، ما عدا بعض المقدمة فعلى العلامة علي بن هادي عرهب، والشرح المطول للسعد التفتازاني أيضاً وحاشيته للجلبي وللشريف؛ أما المطول فجميعه وكذلك حاشية الجلبي، وأما حاشية الشريف فما تدعو إليه الحاجة، وقرأ الكافل وشرحه لابن لقمان على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي جميعاً، وشرح الغاية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني وحاشيته لسيلان، وشرح العصد على المختصر وحاشيته للسعد، وما تدعو إليه الحاجة من سائر الحواشي، وكمل ذلك على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وشرح جمع الجوامع للمحلى وحاشيته لابن أبي شريف على شيخه السيد الإمام عبد القادر بن أحمد، وكذلك شرح القلائد للنجري، وشرح المواقف العنصرية للشريف، واقتصر على البعض من ذلك، وقرأ شرح الجزرية على العلامة هادي بن حسين القارني، وقرأ جميع شفاء الأمير الحسين على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، وسمع أوائله على العلامة عبد الرحمن بن حسن الأكوخ، وقرأ في البحر الزخار وحاشيته وتخريجه وضوء النهار على شرح الأزهار على الشيخ السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ولم يكمل، وقرأ الكشاف وحاشيته للسعد، وبعد انقطاعها حاشيته للسراج مع مراجعة غير ذلك من الحواشي على شيخه العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وتم ذلك إلا فوفاً يسيراً في آخر الثلث الأوسط، وسمع البخاري من أوله إلى آخره على السيد العلامة علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامر، وسمع صحيح مسلم جميعه، وسنن الترمذي جميعاً، وبعض موطأ مالك، وبعض شفاء القاضي عياض على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وكذلك سمع منه بعض جامع الأصول وبعض سنن النسائي، وبعض سنن ابن ماجه وسمع جميع سنن أبي داود وتخريجها للمنذري وبعض المعالم للخطابي، وبعض شرح ابن رسلان على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وكذلك بعض المنتقى لابن تيمية على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وكذلك سمع شرح بلوغ المرام على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي وفاته بعض من أوله. وكذلك سمع على العلامة عبد القادر بن أحمد بعض فتح الباري، وعلى الحسن بن إسماعيل بعض شرح مسلم للنووي، وبعض شرح العمدة على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والتتقيع في علوم الحديث على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، والنخبة وشرحها على العلامة القاسم بن يحيى، وبعض ألفية الزين العراقي وشرحها له على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وجميع منظومة الجزار وجميع شرحها له في العروض على شيخنا المذكور، وشرح آداب

النبوية الصحيحة على ظاهره من غير تأويل ولا تحريف، وقد ألف رسالة في ذلك سماها [التحفة بمذهب السلف].

ذكر مؤلفاته:

له مؤلفات مفيدة في فنون عديدة: منها، كتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار في الحديث الشريف، وأنب الطلب ومنتهى الأرب، وتحفة الذكركين شرح عدة الحصن الحصين، وإرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوءات: ردّاً على الخبيث موسى بن ميمون الأندلسي اليهودي في ظاهر المستند والزندق في باطن المعتد، والطود المنيف في الانتصاف للسعد من الشريف: في المسألة المشهورة التي تنازعا فيها بين يدي تيمورلنك، وشفاء العلل في حكم الزيادة في الثمن لمجرد الأجل، وشرح الصدور في تحريم رفع القبور، وطيب النشر في المسائل العشر: جواب عن سؤال القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي، ورسالة أجاب بها الشريف إبراهيم بن أحمد بن إسحاق، ومنها الصوارم الهندية المسلوقة على الرياض الندية: لإبطال قول من أوجب غسل الفرجين قبل الوضوء وجعله من أركانه كما هو مذهب الزيدية، ورسالة في اختلاف العلماء في تقدير مدة النفاس، ورسالة في الرد على القائل بوجوب التحية، والقول الصائق في حكم الإمام الفاسق، ورسالة في حد السفر الذي يجب معه قصر الصلاة، وله تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع يعني: جمع الصلاتين في الحضر ردّاً على القائلين بجوازه من الزيدية، والرسالة المكملة في أدلة البسطة، وإطلاع أرباب الكمال على ما في رسالة الجلال في الهلال من الاختلال، ورسالة في حكم الطلاق البديعي هل يقع أم لا، ورسالة في أن الطلاق لا يتبع الطلاق، ورسالة في حكم رضاع الكبير هل يقتضي التحريم أم لا، ورسالة تنبيه نوي الحجا على حكم بيع الرجا، ورسالة القول المحرر في حكم لبس المعصفر وسائر أنواع الأحمر، وعقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد، ورسالة في إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع، ورسالة زهر النسرين في حديث المعمرين، وإتحاف المهرة في الكلام على حديث: «لا عدوى ولا طيرة»، وعقود الجمان في بيان حدود البلدان، وأخرى سماها إرشاد الأعيان إلى تصحيح ما في عقود الجمان ردّاً على السيد العلامة حسين بن يحيى الليلمي، ورسالة حل الإشكال في إيجاب اليهود على التقاط الأزيال، وأخرى ردّاً على مناقضها السيد العلامة عبد الله بن عيسى بن محمد الكوكباني، التي سماها: إرسال المقال على إزالة حل الإشكال، فردّ شيخ الإسلام المترجم له على تعقبه بتفويق النبال إلى إرشاد المقال، ورسالة البغية في مسألة الرؤية يعني: رؤية الله في الآخرة بين فيها مذهب أهل السنة، وزيف مقال أهل البدعة،

والتشكيك على التفكيك، وإرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي، ورسالة رفع الجناح عن نافي المباح هل هو مأمور به أم لا، والقول المقبول في ردّ خبر المجهول من غير صحابة الرسول، وجواب السائل عن قول الله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ [يس: 39]، وأمنية المتشوق إلى معرفة حكم علم المنطق، وإرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد في الإطلاق والتقييد، ورسالة وبيل الغمامة في قوله تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ [آل عمران: 55]، ورسالة في قول المحدثين رجال إسناده ثقات، ورسالة البحث الملم المتعلق بقوله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ [النساء: 148]، والبحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر، ورسالة النواء العاجل لدفع العنوّ الصائل، ورسالة عجبية في رفع المظالم والمآثم، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ورسالة في وجوب توحيد الله عز وجل، ورسالة المقالة الفاخرة في اتفاق الشرائع على إثبات الدار الآخرة، ونزهة الأحداق في علم الاشتقاق، ورفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة، وتحرير الدلائل على مقدار ما يجوز بين الإمام والمؤتم من الارتفاع والانخفاض والبعد والحائل، وكشف الأستار عن حكم الشفعة بالجوار، والوشى المرقوم في تحريم التحلي بالذهب للرجال على العموم، وكشف الأستار في إبطال القول بفناء النار، ورسالة في الإرشاد إلى مذهب السلف سماها: التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف: جواب سؤال ورد عليه من علماء مكة المشرفة في إجراء الصفات الإلهية على ظاهرها من غير تأويل، ورسالة الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقال أهل الإلحاد، ورسالة على حديث: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»، ورسالة إشراق النيرين في بيان الحكم إذا تخلف عن الوعد لأحد الخصمين، ورسالة في حكم التسعير، ورسالة نثر الجواهر في شرح حديث أبي ذر، ورسالة منحة المنان في أجرة القاضي والسجان، ورسالة في مسائل العول، ورسالة تنبيه الأمثال على جواز الاستعانة من خالص المال يعني: طلب ولاية الجور من الأغنياء ظملاً من المال يسمونه معونة، وقطر الولي في معرفة الولي، والتوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والنجال والمسيح، ورسالة في حكم الاتصال بالسلطين، ورسالة جيد النقد في عبارة الكشف والسعد، ورسالة بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد، والروض الواسع في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع، ورسالة فتح الخلاق في جواب مسائل عبد الرزاق مشتملة على جواب مائة وخمسين سؤالاً في علم المنطق، إلى غير ذلك من التصانيف التي لم يتسع المقام لبسطها ونكرها. وأما الأبحاث التي اشتملت عليها فتلاوه المسماة بالفتح الرباني فكثيرة جداً، والله أعلم.

مراجعته

عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الانصاري القرطبي المالكي، نزيل منية ابن خصيب من الديار المصرية، عمل التفسير الكبير، وتعب عليه، وحشاه بكل فريدة، وألف كتاب: الأسنى في الأسماء الحسنی، وكتاب التذكرة في أمور الآخرة، وغير ذلك. وكان من أوعية العلم، ثم قال: وسمع من ابن بواح، وابن الحميري وأبي العباس بن المزني وعدة، روى عنه بالإجازة ولده شهاب الدين أبو العباس بالمنية، ثم قال: ومات سنة نيف وسبعين وستمائة في أوائل سنة إحدى بالمنية انتهى.

وقال في تاريخ الإسلام: العلامة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن بكير بن فرج: الإمام القرطبي إمام متقن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه، ووفور فضله. ثم نكر موته.

وقال بعده: وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، وله الأسنى في شرح الأسماء الحسنی، والتذكرة، وأنها تدل على إمامته ونكاته وكثرة اطلاعه انتهى.

وقال الكتبي في تاريخه: كان شيخاً فاضلاً، وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه، ووفور علمه، منها تفسير القرآن مليح إلى الغاية في ستة عشر مجلداً انتهى.

(أ) النحاس: هو أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس أبو جعفر من أهل مصر، رحل إلى بغداد فأخذ عن المبرد، والأخفش علي بن سليمان، ونفطويه، والزجاج، وغيرهم، ثم عاد إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

(ب) ابن عطية: هو عبد الله بن عطية بن حبيب أبو محمد المقرئ المفسر، مات سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، قيل أنه كان يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر للإستشهاد بها على معاني القرآن وغيره، وكان ثقة.

(ج) ابن عطية أيضاً: هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي، عالم بالتفسير، والأحكام، والحديث، والفقه، والنحو، والأدب، واللغة، حسن التقييد، له نظم ونثر. ولي قضاء «المرية» من بلاد المغرب سنة تسع وعشرين وخمسمائة. ألف كتابه الوجيز في التفسير، فأحسن فيه، وأبدع، وطار لحسن نيته كل مطار، كذا قال في الإحاطة من مؤلفات المغاربة، ومولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة ست وأربعين وخمسمائة في بلاد المغرب.

(د) القرطبي: قال الذهبي في النبلاء في ترجمته ما لفظه: القرطبي الإمام العلامة المفسر صاحب التصانيف أبو

«فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

ولما كان هذا العلم بهذه المنزل الشامخة الأركان، العالية البنیان، المرتفعة المكان، ورغبت إلى النخول من أبوابه، وتنشط إلى القعود في محرابه، والكون من أحزابه، ووطنت النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول:

إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، وسلخوا طريقتين: الفريق الأول اقتصر في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الرواية، والفريق الآخر جربوا انظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تنقده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جازوا بها لم يصححوا لها أساساً، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب، فإن ما كان من التفسير ثابتاً عن رسول الله ﷺ، وإن كان المصير إليه متعيناً، وتقديمه متحتماً، غير أن الذي صح عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن، ولا يختلف في مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان. وأما ما كان منها ثابتاً عن الصحابة رضي الله عنهم، فإن كان من الألفاظ التي قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي بوجه من الوجوه فهو مقدم على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع، فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم. فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب، فبالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة. وأيضاً كثيراً ما يقتصر الصحابي، ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية، ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التي تتبين بها نقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة، لا تفسير بمحض الرأي المنهني عنه، وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه، وابن المنذر، والبيهقي في كتاب: الرؤية عن سفيان قال: ليس في تفسير القرآن اختلاف، إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا، وأخرج ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية، عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً. وأخرج ابن سعد أن علياً قال لابن عباس: اذهب إليهم - يعني الخوارج - ولا تخاصمهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة؛ فقال له: أنا أعلم بكتاب الله منهم، فقال: صدقت، ولكن القرآن حمال ذو وجوه. وأيضاً لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن، ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم، وإن صح إسناده إليه، وبهذا تعرف أنه لا بد من

كُتِبَ فُصِّلَتْ أَنْتُمْ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا الْقَوْمَ يَلْمُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يروي المفتقر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسني اليميني غفر الله له، وللمؤمنين. للقاضي الحافظ الشهير محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني، المتوفى سنة 1250 هجرية، عن المولى الجهبذ الكبير سيف الإسلام أحمد بن قاسم بن عبد الله حميد الدين أباه الله تعالى، عن السيد الحافظ عبد الكريم بن عبد الله أبي طالب الحسن اليميني، المتوفى سنة 1309، عن القاضي الحافظ أحمد بن محمد بن علي الشوكاني، المتوفى سنة 1281، عن أبيه المؤلف. قال رحمه الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل كتابه المبين كافلاً ببيان الأحكام، شاملاً لما شرعه لعباده من الحلال والحرام، مرجعاً للأعلام عند تفاوت الأفهام، وتباين الأقدام، وتخالف الكلام، قاطعاً للخصام شافياً للسقام مرهماً للألوهام. فهو العروة الوثقى التي من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم، والجادة الواضحة التي من سلكها فقد هدي إلى الصراط المستقيم. فإني عبارة تبليغ أننى ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم، وأني لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم. كلا والله إن بلاغات البلغاء المصاقع، وفصاحات الفصحاء البواقع، وإن طالت ذيولها، وسالت سيولها، واستنتت بميادينها خيولها، تنقاصر عن الوفاء بأوصافه، وتتصاغر عن التشبث بأنى أطرافه، فيعود جيدها عنه عاطلاً، وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً، فهو كلام من لا تحيط به العقول علماء، ولا تدرك كنهه الطباع البشرية فهماً، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام، وأوفق بما تقتضيه الحال من الإجلال والإعظام. والصلاة والسلام على من نزل إليه الروح الأمين، بكلام رب العالمين، محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله المطهرين، وصحبه المكرمين.

وبعد: فإن أشرف العلوم على الإطلاق، وأولاهما بالترفضيل على الاستحقاق، وأرفعها قدراً بالاتفاق، هو: علم التفسير لكلام القوي القدير، إذا كان على الوجه المعتبر في الورد والصدر، غير مشوب بشيء من التفسير بالرأي الذي هو من أعظم الخطر، وهذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان، قريبة إلى الأفهام والأذهان، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق والحق، ويدري بها من يميز بين كلام البشر، وكلام خالق القوي والقدر، فمن فهم هذا استغنى عن التطويل، ومن لم يفهمه، فليس بمتاهل للتحصيل، ولقد صلق رسول الله ﷺ حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

واعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جداً، ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته. قال القرطبي: ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو؛ فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه، ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وينبغي له أن يعرف المكّي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أوّل الإسلام، وما نديهم إليه في آخر الإسلام، وما فرض في أوّل الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن.

وقال أيضاً: قال علمائنا: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك أن علي بن أبي طالب ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]. وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيمن نزلت وما يعني بها. وقال الشعبي: رجل مسروق في تفسير آية إلى البصرة، ف قيل له إن الذي يفسرها رجل إلى الشام، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها. وقال عكرمة في قوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: 100] طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجته. قال ابن عبد البر: هو ضميرة بن حبيب. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المراتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ. ما يمنعي إلا مهابته، فسألته فقال: هي حفصة وعائشة. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتدخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب. وذكر ابن أبي الحواري أن فضيل بن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم: لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريون، فقالوا: قد تعلمنا القرآن، فقال: إن في تعلمكم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم، فقالوا: كيف يا أبا علي؟ قال: لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ومحكمه ومتشابهه وناسخه من منسوخه، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة. وللأسف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر.

الجمع بين الأمرين، وعدم الاختصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي وطنت نفسي عليه، والمسلك الذي عزمت على سلوكه إن شاء الله مع تعرضي للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لي وجهه، وأخذني من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين أو تابعيهم، أو الأئمة المعبرين. وقد أنكر ما في إسناده ضعف، إما لكونه في المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربي، وقد أنكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد؛ لأنني أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك، كما يقع في تفسير ابن جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسيوطي، وغيرهم، ويبعد كل البعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً، ولا يبينونه، ولا ينبغي أن يقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائر أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن؛ لأنهم لو كشفوا عنه، فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة، أو الحسن، فمن وجد الأصول التي يروون عنها، ويعزون ما في تفاسيرهم إليها، فلينظر في أسانيدها موقفاً إن شاء الله.

واعلم أن تفسير السيوطي المسمى: «بالدر المنثور» قد اشتمل على غالب ما في تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبي ﷺ، وتفسيرات الصحابة ومن بعدهم، وما فاتته إلا القليل النادر. وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظاً، واتحد معنى بقولي، ومثله أو نحوه، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها وجنتها في غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التي لاحت لي من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقب، أو جمع، أو ترجيح.

فهذا التفسير وإن كبر حجمه، فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائده وقواعد شوارده، فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو: لبّ اللباب، وعجب العجاب، ونخيرة الطلاب، ونهاية مآرب اللباب، وقد سميت:

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية

من علم التفسير

مستمداً من الله سبحانه بلوغ الغاية، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية، راجياً منه جل جلاله أن يديم به الانتفاع، ويجعله من النخائر التي ليس لها انقطاع.

تفسير سورة الفاتحة

معنى الفاتحة في الأصل: أول ما من شأنه أن يفتح به، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام، والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية، فسميت هذه السورة «فاتحة الكتاب» لكونه افتتح بها، إذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من الكتاب العزيز، وإن لم تكن أول ما نزل من القرآن. وقد اشتهرت هذه السورة الشريفة بهذا الإسم في أيام النبوة، قيل هي مكية، وقيل مدنية.

وقد أخرج الواحدي في أسباب النزول، والثعلبي في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة، والثعلبي والواحدي من حديث عمرو بن شرحبيل: أن رسول الله ﷺ لما شكى إلى خديجة ما يجده عند أوائل الوحي، فذهبت به إلى ورقة، فأخبره فقال له: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلقي: يا محمد يا محمد يا محمد، فانطلق هارباً في الأرض»، فقال: لا تفعل، إذا أتاك، فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم اثنتي، فأخبرني؛ فلما خلا ناداه: يا محمد قل: «بسم الله الرحمن الرحيم، حتى بلغ: ولا الضالين» يا الحديث. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلمت فتيان بني سلمة، وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له: هل لك أن تسمع من أبيك ما روي عنه؟ فسأله، فقرأ عليه: «الحمد لله رب العالمين»، وكان ذلك قبل الهجرة. وأخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف، عن عبادة قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة. فهذا جملة ما استدل به من قال: إنها نزلت بمكة.

واستدل من قال: إنها نزلت بالمدينة بما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه، والطبراني في الأوسط من طريق مجاهد، عن أبي هريرة: «رن إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب»، وأنزلت بالمدينة.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو نعيم في الحلية، وغيرهم من طرق عن مجاهد قال: نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة، وقيل: إنها نزلت مرتين مرة بمكة، ومرة بالمدينة جمعاً بين هذه الروايات.

وتسمى «أم الكتاب» قال البخاري في أول التفسير: وسميت أم الكتاب؛ لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة. وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن أيوب، عن محمد بن سيرين، كان يكره أن يقول: أم الكتاب ويقول: قال الله تعالى: «وعنده أم الكتاب» [الرعد: 39] ولكن يقول: فاتحة الكتاب. ويقال لها: الفاتحة؛ لأنها يفتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام. قال ابن كثير في تفسيره: وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تثني في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال لام القرآن: هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم. وأخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي هريرة أيضاً، عن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن، وهي: فاتحة الكتاب، وهي: السبع المثاني». وأخرج نحوه ابن مروي في تفسيره، والدارقطني من حديثه، وقال: كلهم ثقات. وروى البيهقي عن علي، وابن عباس، وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى: «سبعاً من المثاني» [الحجر: 87] بالفاتحة.

ومن جملة أسمائها، كما حكاها في الكشف سورة الكنز، والواقية، وسورة الحمد، وسورة الصلاة. وقد أخرج الثعلبي أن سفيان بن عيينة كان يسمي فاتحة الكتاب: الواقية. وأخرج الثعلبي أيضاً عن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير أنه سأل سائل عن قراءة الفاتحة خلف الإمام، فقال: عن الكافية تسأل؟ قال السائل: وما الكافية؟ قال: الفاتحة، أما علمت أنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها. وأخرج أيضاً عن الشعبي أن رجلاً اشتكى إليه وجع الخاصرة فقال: عليك بأساس القرآن، قال: وما أساس القرآن؟ قال: فاتحة الكتاب. وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني فيما من به علي فاتحة الكتاب، وقال هي من كنوز عرشي» وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، عن علي نحوه مرفوعاً. وقد ذكر القرطبي في تفسيره للفاتحة اثني عشر اسماً، وهي سبع آيات بلا خلاف، كما حكاها ابن كثير في تفسيره. وقال القرطبي: أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست، وهو شاذ. وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل إياك نعبد آية، فهي عنده ثمان، وهو شاذ انتهى. وإنما اختلفوا في البسمة، كما سيأتي إن شاء الله. وقد أخرج عبد بن حميد، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن الأنباري في المصاحف، عن محمد بن سيرين: أن أبي بن كعب، وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب، والمعولتين، ولم يكتب ابن مسعود شيئاً منه. وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال: كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال: لو كتبتها لكتبت في أول كل شيء.

وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث، منها ما أخرجه البخاري، وأحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلى: أن رسول الله ﷺ قال له: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»، قال: فأخذ يدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد، قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن؟ قال: «نعم - الحمد لله رب العالمين - هي: السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته». وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، من حديث أبي بن كعب: أن النبي ﷺ قال له: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلاً؟» ثم أخبره أنها الفاتحة. وأخرجه النسائي، وأخرج أحمد في المسند من حديث عبد الله بن جابر: أن

الحاكم وصححه، وأبو نر الهروي في فضائله، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: كان النبي ﷺ في مسير له، فنزل فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه، فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن، فتلا عليه الحمد لله رب العالمين». وأخرج أبو نعيم، والبيهقي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان، وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات». وأخرج أبو عبيد في فضائله، عن الحسن مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ فاتحة الكتاب فكانما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفقران».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختلف أهل العلم هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها، أو هي بعض آية من أول كل سورة، أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها، أو أنها ليست بآية في الجميع وإنما كتبت للفصل والاقوال وأدلتها مبسطة في موضع الكلام على ذلك. وقد اتفقوا على أنها بعض آية في سورة النمل. وقد جزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة. وخالفهم قراء المدينة، والبصرة، والشام، فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور، قالوا: وإنما كتبت للفصل والتبرك، وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: بسم الله الرحمن الرحيم. وأخرجه الحاكم في المستدرک، وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وغيرها آية، وفي إسناده عمرو بن هارون البلخي، وفيه ضعف، وروى نحوه الدارقطني مرفوعاً عن أبي هريرة.

وكما وقع الخلاف في إثباتها وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة. وقد أخرج النسائي في سننه، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم في المستدرک عن أبي هريرة: «أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ»، وصححه الدارقطني، والخطيب، والبيهقي، وغيرهم. وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم، قال الترمذي: وليس إسناده بذلك. وقد أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس بلفظ: «كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم»، ثم قال: صحيح. وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. وأخرج أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم في مستدرکه عن أم سلمة أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن

رسول الله ﷺ قال له: «ألا أخبرك بأخير سورة في القرآن؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختتمها»، وفي إسناده ابن عقيل، وقد احتج به كبار الأئمة، وبقيّة رجاله ثقات. وعبد الله بن جابر هذا هو: العبدی، كما قال ابن الجوزي، وقيل: الأنصاري البياضي كما قال ابن عساکر. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد: «أن النبي ﷺ قال لما أخبروه بأن رجلاً رقى سليماً بفاتحة الكتاب: «وما كان يدريه أنها رقية» الحديث. وأخرج مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته»، وأخرج مسلم، والنسائي، والترمذي وصححه من حديث أبي هريرة: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خداج، ثلاثاً غير تامة». وأخرج البزار في مسنده بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد» فقد أمنت من كل شيء إلا الموت»، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي زيد، وكان له صحبة قال: كنت مع النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة، فسمع رجلاً يتهجّد، ويقرأ بأم القرآن، فقام النبي ﷺ، فاستمع حتى ختمها، ثم قال: «ما في القرآن مثلاًها». وأخرج سعيد بن منصور في سننه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم». وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه، وحديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج الدارمي، والبيهقي في شعب الإيمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ: «في فاتحة الكتاب: شفاء من كل داء». وأخرج أحمد، وأبو داود والنسائي، وابن السني في عمل اليوم والليلة، وابن جرير، والحاكم وصححه عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه: أنه أتى رسول الله ﷺ، ثم أقبل راجعاً من عنده، فمرّ على قوم، وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: أعنك ما تدّوي به هذا؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غنوة وعشية، أجمع بزاق، ثم أتفل، فبرأ، فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي ﷺ، فنكرت ذلك له فقال: «كل، فمن أكل برقية باطل، فقد أكلت برقية حق». وأخرج الغرياني في تفسيره عن ابن عباس قال: «فاتحة الكتاب ثلث القرآن». وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد» فكانما قرأ ثلث القرآن». وأخرج عبد بن حميد في مسنده بسند ضعيف، عن ابن عباس يرفعه إلى النبي ﷺ: «فاتحة الكتاب تعدل بثلاثي القرآن». وأخرج

الرحيم* مالك يوم الدين» وقال الدارقطني: إسناده صحيح.

ولاحتج من قال بأنه لا يجر بالبسملة في الصلاة بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين». وفي الصحيحين عن أنس قال: «صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين». ولمسلم «لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة، ولا في آخرها». وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مغفل. وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة، وجماعة من الصحابة. وأحاديث الترك، وإن كانت أصح، ولكن الإثبات أرجح مع كونه خارجاً من مخرج صحيح، فالأخذ به أولى، ولا سيما مع إمكان تأويل الترك، وهذا يقتضي الإثبات الذاتي، أعني كونها قرآناً؛ والوصفي أعني الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور في الصلاة. ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالاً، ورداً، وتعقباً، ونفعاً، ورواية، ودراسة موضع غير هذا. ومتعلق الباء محذوف، وهو: اقرأ أو أتلى لأنه المناسب لما جعلت البسملة مبدأ له، فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل، ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيرها على الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم والإشارة إلى أن البداية به أهم لكون التبرك حصل به، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام، ولا يعارضه قوله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» [العلق: 1] لأن ذلك المقام مقام القراءة، فكان الأمر بها أهم، وأما الخلاف بين أئمة النحو في كون المقدر اسماً أو فعلاً فلا يتعلق بذلك كثير فائدة، والباء للاستعانة أو للمصاحبة، ورجح الثاني الزمخشري. واسم أصله سمو حذفت لامه، ولما كان من الأسماء التي بنوا أوائلها على السكون زادوا في أوله الهمزة إذا نطقوا به لئلا يقع الابتداء بالسكان، وهو: للفظ الدال على المسمى؛ ومن زعم أن الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة، وسيبويه، والباقلاني، وابن فورك، وحكاه الرازي عن الحشوية والكرامية والأشعرية، فقد غلط غلطاً بيناً، وجاء بما لا يعقل، مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل لا من الكتاب، ولا من السنة، ولا من لغة العرب، بل العلم الضروري حاصل بأن الاسم الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله، والبحث مبسوط في علم الكلام. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها نخل الجنة»، وقال الله عز وجل: «وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» [الأعراف: 180] وقال تعالى: «قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تدعوا فله الأسماء الحسنَى» [الإسراء: 110]. والله علم لذات الواجب الوجود لم يطلق على غيره، وأصله إله حذفت الهمزة وعوضت عنها أداة التعريف، فلزمت. وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود

بحق كالنجم والصعق، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة، وبعده من الأعلام المختصة. والرحمن الرحيم: اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا. وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى. وقال ابن الأنباري، والزجاج: إن الرحمن عبراني والرحيم عربي وخالفهما غيرهما. والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عز وجل. وأما قول بني حنيفة في مسيلمة رحمن اليمامة، فقال في الكشف: إنه باب من تعنتهم في كفرهم. قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، قال الله تعالى: «وكان بالمؤمنين رحيماً» [الأحزاب: 43] وقد ورد في فضلها أحاديث. منها ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه وابن خزيمة في كتاب البسملة والبيهقي عن ابن عباس قال: استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم، وأخرج نحوه أبو عبيد، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضاً. وأخرج الدارقطني بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «كان جبريل إذا جاءني بالوحي أول ما يلقي عليّ بسم الله الرحمن الرحيم». وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره، والحاكم في المستدرک، وصححه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس: أن عثمان بن عفان سأل النبي ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين، وبياضها من القرب». وأخرج ابن جرير وابن عدي في الكامل، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساکر في تاريخ دمشق، والثعلبي بسند ضعيف جداً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب لتعلمه، فقال له المعلم: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناه، والميم مملكته، والله إله الألهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة» وفي إسناده إسماعيل بن يحيى، وهو كذاب. وقد أورد هذا الحديث ابن الجوزي في الموضوعات. وأخرج ابن مردويه والثعلبي عن جابر قال: لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الريح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بأنانها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله بعزته وجلاله أن لا تسمى على شيء إلا بارك فيه. وأخرج أبو نعيم، والديلمي عن عائشة قالت: لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت الجبال حتى سمع أهل مكة نوبها فقالوا: سحر محمد الجبال، فبعث الله دخاناً حتى أظلم على أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موقناً سبحت معه الجبال إلا أنه لا يسمع ذلك منها». وأخرج

الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة». ورفع له أربعة آلاف درجة». وأخرج الخطيب في الجامع عن أبي جعفر محمد بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب». وهذه الأحاديث ينبغي البحث عن أسانيدها والكلام عليها بما يتبين بعد البحث إن شاء الله. وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء وعند النبیحة، وعند الأكل، وعند الجماع وغير ذلك.

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ① اَلرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ② مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ③ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ④ هَذِهِ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ⑤ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑥

﴿الحمد لله﴾ الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل وبقيد الاختيار، فارق المدح، فإنه يكون على الجميل وإن لم يكن الممدوح مختاراً، كمدح الرجل على جماله، وقوته، وشجاعته. وقال صاحب الكشف: إنهما أخوان، والحمد أخص من الشكر مورداً، وأعم منه متعلقاً. فمورد الحمد اللسان فقط، ومتعلقه النعمة وغيرها. ومورد الشكر اللسان والجنان والأركان، ومتعلقه النعمة. وقيل إن مورد الحمد كمورد الشكر، لأن كل ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح ليس بحمد بل سخرية واستهزاء. وأجيب بأن اعتبار موافقة القلب والجوارح في الحمد لا يستلزم أن يكون مورداً له بل شرطاً - وفرق بين الشرط والشرط، وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد، وإنها مختصة بالرّب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله عزّ وجلّ، أو على أن حمده هو الفرد الكامل، فيكون الحصر ادعائياً. ورجع صاحب الكشف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق، والصواب ما نكرناه. وقد جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله» وهو مرتفع بالابتداء وخبره الظرف وهو الله. وأصله النصب على المصدرية بإضمار فعله كسائر المصادر التي تنصبها العرب، فعدل عنه إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام، والثبات المستفاد من الجمل الاسمية بون الحنوث، والتجدد للذين تفيدهما الجمل الفعلية، واللام الداخلة على الاسم الشريف هي لام الاختصاص. قال ابن جرير: الحمد ثناء أثني به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكانه قال: قولوا الحمد لله؛ ثم رجع اتحاد الحمد والشكر مستدلاً على ذلك بما حاصله: أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر. قال ابن كثير: وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو: الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية. والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان، واللسان، والأركان، انتهى. ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا إلى معنى الحمد في لغة العرب لا إلى ما قاله

الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة». ورفع له أربعة آلاف درجة». وأخرج الخطيب في الجامع عن أبي جعفر محمد بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب». وهذه الأحاديث ينبغي البحث عن أسانيدها والكلام عليها بما يتبين بعد البحث إن شاء الله. وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء وعند النبیحة، وعند الأكل، وعند الجماع وغير ذلك.

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ① اَلرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ② مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ③ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ④ هَذِهِ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ⑤ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑥

﴿الحمد لله﴾ الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل وبقيد الاختيار، فارق المدح، فإنه يكون على الجميل وإن لم يكن الممدوح مختاراً، كمدح الرجل على جماله، وقوته، وشجاعته. وقال صاحب الكشف: إنهما أخوان، والحمد أخص من الشكر مورداً، وأعم منه متعلقاً. فمورد الحمد اللسان فقط، ومتعلقه النعمة وغيرها. ومورد الشكر اللسان والجنان والأركان، ومتعلقه النعمة. وقيل إن مورد الحمد كمورد الشكر، لأن كل ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح ليس بحمد بل سخرية واستهزاء. وأجيب بأن اعتبار موافقة القلب والجوارح في الحمد لا يستلزم أن يكون مورداً له بل شرطاً - وفرق بين الشرط والشرط، وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد، وإنها مختصة بالرّب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله عزّ وجلّ، أو على أن حمده هو الفرد الكامل، فيكون الحصر ادعائياً. ورجع صاحب الكشف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق، والصواب ما نكرناه. وقد جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله» وهو مرتفع بالابتداء وخبره الظرف وهو الله. وأصله النصب على المصدرية بإضمار فعله كسائر المصادر التي تنصبها العرب، فعدل عنه إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام، والثبات المستفاد من الجمل الاسمية بون الحنوث، والتجدد للذين تفيدهما الجمل الفعلية، واللام الداخلة على الاسم الشريف هي لام الاختصاص. قال ابن جرير: الحمد ثناء أثني به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكانه قال: قولوا الحمد لله؛ ثم رجع اتحاد الحمد والشكر مستدلاً على ذلك بما حاصله: أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر. قال ابن كثير: وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو: الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية. والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان، واللسان، والأركان، انتهى. ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا إلى معنى الحمد في لغة العرب لا إلى ما قاله

وقد ورد في فضل الحمد أحاديث. منها ما أخرجه أحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، والبخاري في الأب المفرد عن الأسود بن سريع قال: قلت: يا رسول الله ألا أنشذك محامد حممت بها ربي تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد». وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل النكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وأخرج ابن ماجه والبيهقي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ». وأخرج الحكيم الترمذي في نوار الأصول، والقرطبي في تفسيره عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله، لكان الحمد أفضل من ذلك» قال القرطبي: معناه: لكان إلهامه الحمد أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا، لأن ثواب الحمد لا يفنى، ونعيم الدنيا لا يبقى. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من

(1) وذلك لقوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ سورة إبراهيم، الآية: 7.

عبد ينعم عليه بنعمة إلا كان الحمد أفضل منها. وأخرج عبد الرزاق في المصنف نحوه عن الحسن مرفوعاً. وأخرج مسلم والنسائي، وأحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان» الحديث. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن مردويه عن رجل من بني سليم أن رسول الله ﷺ قال: «سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والطهور نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر». وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تملؤه، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه». وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «التاني من الله، والعجلة من الشيطان، وما شيء أكثر معاذير من الله، وما شيء أحب إلى الله من الحمد». وأخرج ابن شاهين في السنة والنيلمي عن إبان بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «التوحيد ثمن الجنة، والحمد ثمن كل نعمة، ويتقاسمون الجنة بأعمالهم». وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله، فهو أقطع». وأخرج ابن ماجه في سننه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فلم يدر الملكان كيف يكتبانه، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها. قال الله وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ قالوا يا رب إنه قال: لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباهما كما قال عبدي حتى يلقاني، ولجزيه بهاء. وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال في الصحاح: الرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة. وقد قالوه في الجاهلية للملك. وقال في الكشف: الرب: المالك. ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. ثم نكر نحو كلام الصحاح. قال القرطبي في تفسيره: والرب: السيد، ومنه قوله تعالى: ﴿انكروني عند ربك﴾ [يوسف: 42] وفي الحديث: «أن تلد الأمة ربها»، والرب: المصلح، والمدير، والجابر، والقائم قال: والرب المعبود. ومنه قول الشاعر:

عبد ينعم عليه بنعمة إلا كان الحمد أفضل منها. وأخرج عبد الرزاق في المصنف نحوه عن الحسن مرفوعاً. وأخرج مسلم والنسائي، وأحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان» الحديث. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن مردويه عن رجل من بني سليم أن رسول الله ﷺ قال: «سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والطهور نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر». وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تملؤه، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه». وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «التاني من الله، والعجلة من الشيطان، وما شيء أكثر معاذير من الله، وما شيء أحب إلى الله من الحمد». وأخرج ابن شاهين في السنة والنيلمي عن إبان بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «التوحيد ثمن الجنة، والحمد ثمن كل نعمة، ويتقاسمون الجنة بأعمالهم». وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله، فهو أقطع». وأخرج ابن ماجه في سننه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فلم يدر الملكان كيف يكتبانه، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها. قال الله وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ قالوا يا رب إنه قال: لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباهما كما قال عبدي حتى يلقاني، ولجزيه بهاء. وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال في الصحاح: الرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة. وقد قالوه في الجاهلية للملك. وقال في الكشف: الرب: المالك. ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. ثم نكر نحو كلام الصحاح. قال القرطبي في تفسيره: والرب: السيد، ومنه قوله تعالى: ﴿انكروني عند ربك﴾ [يوسف: 42] وفي الحديث: «أن تلد الأمة ربها»، والرب: المصلح، والمدير، والجابر، والقائم قال: والرب المعبود. ومنه قول الشاعر:

أرب يبسول الثعلبان برأسه لقد هان من بالث عليه الثعلب و ﴿الْعَالَمِينَ﴾: جمع العالم، وهو: كل موجود سوى الله تعالى، قاله قتادة. وقيل أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل. وقال ابن عباس: العالمون الجن، والإنس، وقال الفراء، وأبو عبيد: العالم عبارة عن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس، والجن، والملائكة، والشياطين. ولا يقال للبهائم عالم،

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قد تقدم تفسيرهما. قال القرطبي: وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان في انصافه برّب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه. فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال تعالى: ﴿نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ [الحجر: 49، 50] وقال: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ [غافر: 3]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد». انتهى. وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ما وصف من خلقه، وفي قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال: مدح نفسه.

ثم نكر بقية الفاتحة ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قرئ: ملك، وملك، وملك بسكون اللام، وملك بصيغة الفعل. وقد اختلف العلماء أيهما أبلغ: الملك، أو مالك؟ فقيل إن ملك أعم وأبلغ من مالك، إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك، قاله أبو عبيد، والمبرد، ورجحه الرّمخسري. وقيل ملك أبلغ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرفاً وأعظم. وقال أبو حاتم: إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك، لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكاً كان ملكاً. واختار هذا القاضي أبو بكر بن العربي. والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر؛ فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما

هو مالك له بالبيع، والهبة، والعق، ونحوها، والمالك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك، وحياطته، ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله. ويوم الدين: يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين* يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴿[الانفطار: 17 - 19] وهذه الإضافة إلى الظرف على طريق الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، ويوم الدين وإن كان متأخراً فقد يضاف اسم الفاعل وما في معناه إلى المستقبل كقولك: هذا ضارب زيداً غداً. وقد أخرج الترمذي عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ ملك بغير ألف. وأخرج نحوه ابن الأنباري عن أنس، وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضاً: أن النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، وعثمان كانوا يقرؤون مالك بالألف. وأخرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً وكيع في تفسيره وعبد بن حميد، وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلاً. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في تفسيره وعبد ابن حميد، وأبو داود عن ابن المسيب مرفوعاً مرسلاً. وقد روي هذا من طرق كثيرة، فهو أرجح من الأول. وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ مالك يوم الدين، وكذا رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، وناس من الصحابة أنهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب. وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال: يوم الدين يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قراءة السبعة، وغيرهم بتشديد الياء، وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر؛ وقرأ الفضل والرقاشي بفتح الهمزة؛ وقرأ أبو السوار الغنوي «هياك» في الموضعين وهي لغة مشهورة. والضمير المنفصل هو «إيا»، وما يلحقه من الكاف، والهاء، والياء هي: حروف لبيان الخطاب، والغيبة، والتكلم، ولا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص، وقيل للاهتمام، والصواب أنه لهما، ولا تزاحم بين المقتضيات. والمعنى: نخصك بالعبادة، ونخصك بالاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل. قال ابن كثير: وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني. والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد، وقيل إن المقام لما كان عظيماً لم يستقل به

الواحد استقصاراً لنفسه، واستصغاراً لها، مجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس، وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحقيق المطالب، وإطلاق الاستعانة لقصد التعميم. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله إياك نعبد: يعني إياك نوجد ونخاف يا ربنا لا غيرك، وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها. وحكى ابن كثير عن قتادة أنه قال في إياك نعبد وإياك نستعين: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم. وفي صحيح مسلم من حديث المعلى بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال: حمدي لعبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال: أثني عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال مجدي عبدي، فإذا قال: ﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني، وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». وأخرج أبو القاسم البغوي والباوردي معاً في معرفة الصحابة، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلقى العدو فسمعته يقول: «يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين»، قال: فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ قرأه الجمهور بالصاد، وقرأ السراط بالسين، والزراط بالزاي؛ والهداية قد يتعذر فعلها بنفسه كما هنا، وكقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: 10] وقد يتعدى إلى كقوله: ﴿اجتباها وهداه إلى صراط مستقيم﴾ [النحل: 121] ﴿فاهدهم إلى صراط الجحيم﴾ [الصافات: 23] ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: 52] وقد يتعدى باللام كقوله ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف: 43] ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: 9] قال الزمخشري: أصله أن يتعدى باللام أو يلقى. انتهى. وهي الإرشاد، أو التوفيق، أو الإلهام، أو الدلالة. وفرق كثير من المتأخرين بين معنى المتعدي بنفسه، وغير المتعدي، فقالوا: معنى الأول الدلالة، والثاني الإيصال. وطلب الهداية من المهتدي معناه طلب الزيادة كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [محمد: 17]، ﴿والذين جاهلوا فينا لهندينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: 69] والصراط: الطريق، قال ابن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو كذلك في لغة جميع العرب. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فتصف المستقيم باستقامته، والمعوجّ باعوجاجه. وقد أخرج الحاكم

المستقيم. انتهى.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ انتصب صراط على أنه بدل من الأول، وفائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، ويجوز أن يكون عطف بيان، وفائدته الإيضاح، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال: ﴿ومن يطع الله والرسول، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾. ذلك الفضل من الله، وكفى بالله علماً﴾ [النساء: 69، 70] وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام، وغير المغضوب عليهم بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا غضب الله والضللال، أو صفة له على معنى أنهم جمعوا بين النعمتين: نعمة الإيمان والسلامة من ذلك، وصح جعله صفة للمعرفة مع كون «غير» لاتتعرف بالإضافة إلى المعارف لما فيها من الإبهام، لأنها هنا غير مبهمة لاشتهار المغيرة بين الجنسين، والغضب في اللغة قال القرطبي: الشدة، ورجل غضوب أي: شديد الخلق، والغضوب: الحية الخبيثة لشدها. قال: ومعنى الغضب في صفة الله: إرادة العقوبة، فهو صفة ذاته، أو نفس العقوبة، ومنه الحديث: «إن الصلقة لتطفئ غضب الرب»، فهو صفة فعله. قال في الكشف: هو: إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده، والفرق بين عليهم الأولى، وعليهم الثانية، أن الأولى في محل نصب على المفعولية، والثانية في محل رفع على النباية عن الفاعل. ودلاً في قوله: ولا الضالين تأكيد للنفي المفهوم من غير، والضللال في لسان العرب قال القرطبي: هو: الذهاب عن سنن القصد، وطريق الحق، ومنه: ضل اللبن في الماء، أي: غاب، ومنه ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: 10] أي: غبنا بالموت، وصرنا تراباً. وأخرج وكيع، وأبو عبيد، وسعيد ابن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان يقرأ: (صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، وغير الضالين) وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد أن عبد الله بن الزبير قرأ كذلك. وأخرج الأنباري، عن الحسن أنه كان يقرأ «عليهم» بكسر الهاء والميم، وإثبات الياء. وأخرج ابن الأنباري عن الأعرج، أنه كان يقرأ: «عليهم» بضم الهاء والميم، وإلحاق الواو. وأخرج أيضاً عن ابن كثير، أنه كان يقرأ: «عليهم» بكسر الهاء، وضم الميم مع إلحاق الواو. وأخرج أيضاً عن أبي إسحاق، أنه قرأ: «عليهم» بضم الهاء، والميم من غير إلحاق واو. وأخرج ابن داود عن عكرمة، والأسود أنهم كانوا يقرآن كقراءة عمر السابقة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ يقول: طريق من أنعمت عليهم من الملائكة، والنبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين الذين أطاعوك وعبدوك. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: أنهم المؤمنون. وأخرج عبد بن حميد عن الربيع

وصححه وتعبه الذهبي عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ بالصاد». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه عن ابن عباس: «أنه قرأ الصراط بالسين». وأخرج ابن الأنباري عن ابن كثير: أنه كان يقرأ الصراط بالسين. وأخرج أيضاً عن حمزة: أنه كان يقرأ الزراط بالزاي. قال الفراء: وهي لغة لعذرة وكلب وبني القين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ يقول: الهما دينك الحق». وأخرج ابن جرير عنه، وابن المنذر نحوه. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله أنه قال: «هو دين الإسلام، وهو أوسع مما بين السماء والأرض». وأخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس. وأخرج نحوه أيضاً عن ابن مسعود، وناس من الصحابة. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في شعب الإيمان عن النّوّاس بن سميان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق: واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم». قال ابن كثير بعد إخراجها: وهو إسناد حسن صحيح. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو بكر الأنباري، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود أنه قال: «هو كتاب الله». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن عساکر، عن أبي العالية قال: هو رسول الله ﷺ وصاحبه من بعده. وأخرج الحاكم، وصححه عن أبي العالية، عن ابن عباس مثله. وروى القرطبي، عن الفضيل بن عياض، أنه قال: الصراط المستقيم طريق الحج، قال: وهذا خاص، والعموم أولى. انتهى. وجميع ما روي في تفسير هذه الآية ما عدا هذا المروي عن الفضيل يصدق بعضه على بعض، فإن من اتبع الإسلام أو القرآن أو النبي، فقد اتبع الحق. وقد ذكر ابن جرير نحو هذا فقال: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي معنياً به، وفقنا للثبات على ما ارتضىته، ووفقت له من أنعمت عليه من عبائك من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق إليه ممن أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط

بنصيبك من سخط الله، فقال لا استطيعه، فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان.

[قائدة في مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة] اعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً قد دلت على ذلك، فمن ذلك ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن وائل بن حجر قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، فقال: آمين مد بها صوته، ولأبي داود: «رفع بها صوته»، وقد حسنه الترمذي. وأخرجه أيضاً النسائي، وابن أبي شيبه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وفي لفظ من حديثه أنه ﷺ قال: رب اغفر لي آمين» أخرجه الطبراني، والبيهقي. وفي لفظ أنه قال: «آمين ثلاث مرات» أخرجه الطبراني. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه، عن أبي مسرة قال لما قرأ جبريل رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب فبلغ، ﴿ولا الضالين﴾ قال: «قل آمين، فقال آمين». وأخرج ابن ماجه عن علي قال: «سمعت رسول الله ﷺ إذا قال ﴿ولا الضالين﴾ قال: «آمين». وأخرج مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ، يعني الإمام ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا آمين يحكم الله». وأخرج البخاري ومسلم، وأهل السنن، وأحمد، وابن أبي شيبه، وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فامنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»، وأخرج أحمد، وابن ماجه، والبيهقي بسند قال السيوطي: صحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ما حسنتكم اليهود على شيء ما حسنتكم على السلام، والتأمين». وأخرج ابن عدي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود قوم حسد، حسوكم على ثلاثة: إقضاء السلام، وإقامة الصف، وآمين». وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث معاذ مثله. وأخرج ابن ماجه بسند ضعيف عن ابن عباس قال: «ما حسنتكم اليهود على شيء ما حسنتكم على آمين، فلكثروا من قول آمين، ووجه ضعفه أن في إسناده طلحة بن عمرو، وهو: ضعيف. وأخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم قال آمين لم يبق ملك في السماء مقرب إلا استغفر له». وأخرج أبو داود عن بلال، أنه قال: «يا رسول الله لا تسبقني بآمين»، ومعنى آمين: استجب. قال القرطبي في تفسيره: معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا، وضع موضع الدعاء. وقال في الصحاح: معنى آمين: كذلك فليكن. وأخرج جويرير في تفسيره عن الضحاک عن ابن عباس قال: قلت يا رسول الله: ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل». وأخرج الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس مثله. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه في المصنف عن هلال بن يساف، ومجاهد قال: آمين اسم من أسماء الله. وأخرج ابن أبي شيبه عن حكيم بن جبير مثله. وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا. وفيه لغتان، المد على وزن

ابن أنس في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ قال: النبيون: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ قال اليهود: ﴿ولا الضالين﴾ قال النصارى. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج أيضاً عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبغوي، وابن المنذر، وأبو الشيوخ عن عبد الله بن شقيق قال: أخبرني من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى على فرس له، وسأله رجل من بني القين، فقال: من المغضوب عليهم يا رسول الله؟ قال: «اليهود»، قال: فمن الضالون؟ قال: «النجاري». وأخرجه ابن مروي عن عبد الله بن شقيق، عن أبي نر قال: سألت رسول الله ﷺ، فذكره. وأخرجه وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن عبد الله بن شقيق قال: كان رسول الله ﷺ يحاصر أهل وادي القرى، فقال له رجل... إلى آخره، ولم ينكر فيه: أخبرني من سمع النبي كالأول، وأخرجه البيهقي في الشعب عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بني القين، عن ابن عم له أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ... فذكره. وأخرجه سفيان بن عيينة، في تفسيره، وسعيد بن منصور، عن إسماعيل بن أبي خالد أن النبي ﷺ قال: «المغضوب عليهم: اليهود، والضالون: النصارى». وأخرجه أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين النصارى». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم وصححه، والطبراني عن الشريد قال: مر بي رسول الله ﷺ، وأنا جالس هكذا، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري، وتكات على آية يدي فقال: «أتعتقد قعدة المغضوب عليهم؟» قال ابن كثير بعد ذكره لحديث عدي بن حاتم: وقد روي حديث عدي هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول نكرها. انتهى. والمصير إلى هذا التفسير النبوي متين، وهو: الذي أطبق عليه أئمة التفسير من السلف. قال ابن أبي حاتم: لا أعلم خلافاً بين المفسرين في تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. ويشهد لهذا التفسير النبوي آيات من القرآن، قال الله تعالى في خطابه لبني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿بشما اشتروا به أنفسكم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فيأزوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ [البقرة: 90]. وقال في المائدة: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل﴾ [المائدة: 60] وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل: أنه لما خرج هو، وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قال اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أقر، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ

عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج مسلم، والترمذي، وأحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة». وأخرج أبو عبيد عن أنس نحوه مرفوعاً، وأخرج ابن عدي في الكامل، وابن عساكر في تاريخه عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه، وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن عبد الله بن مغفل مرفوعاً نحوه، وأخرج النسائي، والطبراني، والبيهقي عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه، وسنده ضعيف وأخرجه الدارمي، والبيهقي، والحاكم، وصححه من حديثه بنحوه. وأخرج أبو يعلى، وابن حبان، والطبراني والبيهقي عن سهل بن الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، من قرأها في بيته نهراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام، ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال». وأخرج أحمد، ومحمد بن نصر، والطبراني بسند صحيح، عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت ﷻ إلى إله إلا هو الحي القيوم» من تحت العرش فوصلت بها. وأخرج البغوي في معجم الصحابة، وابن عساكر في تاريخه عن ربيعة الجرسى قال: سئل رسول الله ﷺ أي القرآن أفضل؟ قال: «السورة التي يذكر فيها البقرة قيل فأي البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة نزلت من تحت العرش». وأخرج أبو عبيد، وأحمد، والبخاري في صحيحه تعليقاً، ومسلم، والنسائي عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت، فأنصرف إلى ابنه يحيى، وكان قريباً منها، فاشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء، فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حثّ رسول الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أتدري ما ذاك؟» قال: لا يا رسول الله ﷺ، قال: «تلك الملائكة نبت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت تنظر إليها الناس لا تتوارى منهم» ولهذا الحديث الفاظ. وأخرج الترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً، فاستقروا كل رجل منهم - يعني: ما معه من القرآن - «فأتى على رجل من أحدهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة، قال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: «نعم، قال: «أذهب، فانت أميرهم». وأخرج البيهقي في الدلائل، عن عثمان بن أبي العاص قال: استعملني رسول الله ﷺ، وأنا أصغر القوم الذين وفدوا عليه من ثقيف، وذلك أنني كنت قرأت سورة البقرة. وأخرج البيهقي في الشعب بسند صحيح عن الصلصال بن الديهمس أن رسول الله ﷺ قال: «اقربوا سورة البقرة في بيوتكم، ولا تجعلوها قبوراً» قال: «ومن قرأ سورة البقرة في

فاعيل كياسين. والقصر على وزن يمين، قال الشاعر في المد:

يارب لا تسلبني حبها أبداً ويرحم الله عبداً قال آمينا وقال آخر:

أمين أمين لا أرضى بواحدة حتى أبلغها الفين آمينا قال الجوهري: وتشديد الميم خطأ. وروي عن الحسن، وجعفر الصائق، والحسين بن فضل التشديد، من أم إذا قصد: أي نحن قاصدون نحوك، حكى ذلك القرطبي. قال الجوهري: وهو مبني على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين، وتقول منه: آمن فلان تاميناً. وقد اختلف أهل العلم في الجهر بها، وفي أن الإمام يقولها أم لا؟ وذلك مبين في مواطنه.

تفسير سورة البقرة

قال القرطبي في تفسير سورة البقرة: مدنية نزلت في مد شتى. وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى: «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» [البقرة: 281] فإنها آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمعى، وآيات الربا أيضاً من أولها ما نزل من القرآن. انتهى. وأخرج أبو الضريس في فضائله، وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ، وابن مردويه، والبيهقي في دلائل النبوة من طرق عن ابن عباس قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله، وأخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ عن عكرمة قال: أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة.

وقد ورد في فضلها أحاديث منها ما أخرجه مسلم، والترمذي، وأحمد، والبخاري في تاريخه، ومحمد بن نصر عن النّوّاس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمهم سورة البقرة، وآل عمران» قال: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال: «كانهما غماتان، أو كانهما غيابتان، أو كانهما ظلتان سوداوان، أو كانهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»، ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان تظلان صاحبهما يوم القيامة كانهما غماتان، أو غيابتان، أو فرقان من طير صواف»، قال ابن كثير: وإسناده حسن على شرط مسلم، وأخرج نحوه أبو عبيد، وأحمد، وحמיד بن زنجويه، ومسلم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً الطبراني، وأبو نرّ الهروي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً البزار في سننه بسند صحيح

والبيهقي عن عائشة قالت: كنت أقوم مع رسول الله ﷺ في الليل فيقرأ بالبقرة، وآل عمران، والنساء. وأخرج أبو داود، والترمذي في الشمائل، والنسائي، والبيهقي عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام، فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف، الحديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر

﴿المر﴾ قال القرطبي في تفسيره: اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال الشعبي، وسفيان الثوري، وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، والله في كل كتاب من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها، وتمد كما جاءت، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، قال: وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله عز وجل، قال جمع من العلماء كثير: بل نحب أن نتكلم فيها، ونلتزم الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها. واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فروي عن ابن عباس، وعلي أيضاً أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تاليه منها. وقال قطرب، والفراء، وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها؛ ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قطرب: كان ينغرون عند استماع القرآن، فلما نزل الميم والميم استنكروا هذا اللفظ، فلما انصتوا له ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤلف؛ ليثبت في أسماعهم وأذانهم، ويقم الحجة عليهم. وقال قوم: روي أن المشركين لما عرضوا عن القرآن بمكة ﴿وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: 26] فانزلها استغربوها، فيفتحون أسماعهم، فيسمعون القرآن بعدها، فتجب عليهم الحجة. وقال جماعة: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها، وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس، وغيره: الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد. وذهب إلى هذا الزجاج، فقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى. وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة كقوله: فقلت لها قفي، فقالت قاف

أي وقفت. وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق: هو أن يقول في أقتل اق كما قال ﷺ: «كفى بالسيف شا» أي شافياً، وفي نسخة شاهد. وقال زيد ابن أسلم: هي أسماء للسور. وقال الكلبي: هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه.

ومن أنق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ما نكره الزمخشري في الكشاف، فإنه قال: وأعلم أنك إذا تأملت

ليلة توج بتاج في الجنة». وأخرج أبو عبيد، عن عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوا عن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر إلى ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح، قال: «فعله قرا سورة البقرة» قال: فسئل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة. قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد، إلا أن فيه إبهاماً، ثم هو مرسل.

وقد روى أئمة الحديث في فضائلها أحاديث كثيرة، وآثاراً عن الصحابة واسعة، ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي، وما هو خاص بخواتم هذه السورة، وقد سبق بعض ذلك، وما هو في فضلها، وفضل آل عمران، وقد سبق أيضاً بعض من ذلك، وما هو في فضل السبع الطوال، كما أخرج أبو عبيد عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» وفي إسناده سعيد بن بشير، وفيه لين، وقد رواه بسند آخر عن سعيد بن أبي هلال. وأخرج أيضاً عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع فهو خير». وقد رواه عنها أحمد في المسند باللفظ أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول القرآن فهو خير». وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ [الحجر: 87] قال: هي: السبع الطوال البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وبذلك قال مجاهد، ومكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد القارئ شداد بن عبد الله، ويحيى بن الحارث الذمري.

وقد ورد ما يدل على كراهة أن يقول القائل سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله. فأخرج ابن الضريس، والطبراني في الأوسط، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا السورة التي تذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله» قال ابن كثير: هذا حديث غريب لا يصح رفعه، وفي إسناده يحيى بن ميمون الخواص، وهو ضعيف الرواية لا يحتج به، وأخرج البيهقي في الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال: «لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا السورة التي تذكر فيها البقرة». وقد روي عن جماعة من الصحابة خلاف هذا. ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. وأخرج ابن شعبة، وأحمد، ومسلم، وأهل السنن، والحاكم وصححه عن حذيفة قال: صليت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان، فافتتح البقرة، فقلت: يصلي بها في ركعة، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها مترسلاً الحديث. وأخرج أحمد، وابن الضريس،

ما أورده الله عزَّ سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجندتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء: وهي الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر، وجندتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء، ومن المجهورة نصفها الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون، ومن الشديدة نصفها الألف، والكاف، والطاء، والقاف، ومن الرخوة نصفها اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون، ومن المطبقة نصفها الصاد، والطاء، ومن المستعلية نصفها القاف، والصاد، والطاء، ومن المنخفضة نصفها الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والتاء، والعين، والسين، والحاء، والنون، ومن حروف القلقة نصفها القاف، والطاء، ثم إذا استقرت الكلم، وتراكيبها رأيت الحروف التي أغى الله نكرها من هذه الأجناس المعدودة مكنوزة بالذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف بالتنزيل واختصاراته، فكان الله عزَّ اسمه عندَّ على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما نكرت من التبكيت لهم، وإلزام الحجة إياهم، وما يدل على أنه تعتمد بالذکر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم، أن الألف واللام لما تكثر وقوعهما فيها جاءت في معظم هذه الفواتح مكررتين، وهي فواتح سورة البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، والأعراف، والرعد، ويونس، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والحجر. انتهى. وأقول: هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتدُّ بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة، والتبكيت كما قال، فهذا متيسر بأن يقال لهم: هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتاً وإلزاماً يفهمه كل سامع منهم من نون إلغاز، وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح، هو أيضاً مما لا يفهمه أحد من السامعين، ولا يتفعل شيئاً منه فضلاً عن أن يكون تبكيتاً له وإلزاماً للحجة أياً كان، فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه، ولم يفهم السامع هذا، ولا نكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلاً عن كله. ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا مقر ولا منكر، ولا مسلم ولا معارض، ولا يصح أن يكون مقصداً من مقاصد

الرَّبِّ سبحانه الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه، والهداية به. وهب أن هذه صناعة عجيبه، ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيداً أنه كلام بليغ أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم، ولا مدخل لذلك فيما نذكر. وأيضاً لو فرض أنها كلمات مترتبة بتقدير شيء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك، لأنها تعمية غير مفهومة للسامع إلا بأن يأتي من يريد بيانها بمثل ما يأتي به من أراد بيان الألفاظ والتعمية، وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة في ورد ولا صدر بل من عكسهما، وضد رسمهما، وإذا عرفت هذا، فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أَرَادَهُ الله عزَّ وجل، فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرهما به راجعاً إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدوداً عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتضرون على أحرف، أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدم ما يدل عليه، ويفيد معناه، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثلهما ما تقدم نكره. ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا؟ وإذا تقررت لك أنه لا يمكن استفادة ما ادَّعَوْه من لغة العرب، وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين: الأول التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه، والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه، والصد عنه، والتنكب عن طريقه، وهم اتقى الله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به، ويضمون حماقات أنظارهم، وخزعبلات اقتكارهم عليه. الثاني التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو المهيغ الواضح، والسبيل القويم، بل الجادة التي ما سواها مردوم، والطريقة العامرة التي ما عداها معدوم، فمن وجد شيئاً من هذا، فغير ملوم أن يقول بملء فيه، ويتكلم بما وصل إليه علمه، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري، أو الله أعلم بمراده، فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه، ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظاً عربية، وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ، فكيف بما نحن بصدده؟ فإنه ينبغي أن يقال فيه إنه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلاً، ولكلام العرب فيه مدخل، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير. وانظر كيف فهم اليهود عند سماع آله فاتنهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذي يجعلونه لها، كما أخرج ابن إسحاق، والبخاري في تاريخه، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله قال: مرَّ أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة

شبية، والبزار بسند ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعي نحوه مرفوعاً. فإن قلت: هل روي عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله لم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبي عن ابن عباس وعلي؟ قلت: قد روى ابن جرير، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن مسعود أنه قال: ﴿الْم﴾ حرف اشتقت من حروف اسم الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْم﴾، ﴿وَحَمَّ﴾، و﴿ن﴾ قال: اسم مقطوع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في كتاب الأسماء عن ابن عباس أيضاً في قوله: ﴿الْم﴾، و﴿الْقَصَّ﴾، و﴿الرَّ﴾، و﴿كَهَيْقِصَ﴾، و﴿طَهَ﴾، و﴿طَسَمَ﴾، و﴿طَسَ﴾، و﴿يَمِينَ﴾، و﴿صَ﴾، و﴿حَمَّ﴾، و﴿وَقَ﴾، و﴿نَ﴾ قال: هو قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله ﴿الْم﴾ قال: هي اسم الله الأعظم. وأخرج عبد بن حميد، عن الربيع بن أنس في قوله أَلَمْ قال: ألف مفتاح اسمه الله، ولأم مفتاح اسمه لطيف، وميم مفتاح اسمه مجيد. وقد روي نحو هذه التفسيرات عن جماعة من التابعين منهم عكرمة والشعبي والسدي، وقتادة، ومجاهد، والحسن. فإن قلت: هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال في تفسير شيء من هذه الفواتح قولاً صح إسناده إليه؟ قلت: لا لما قدمنا، إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله ﷺ. فإن قلت: هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا مدخل للغة العرب، فلم لا يكون له حكم الرفع؟ قلت: تنزيل هذا منزلة المرفوع، وإن قال به طائفة من أهل الأصول وغيرهم، فليس مما ينشرح له صدور المنصفين، ولا سيما إذا كان في مثل هذا المقام، وهو التفسير لكلام الله سبحانه، فإنه يدخل في أعظم الخطر بما لا برهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم إنه يبعد من الصحابي كل البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لا مجال فيه للاجتهاد، وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوغاً للوقوع في خطر الوعيد الشديد. على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه، كما نجده كثيراً في تفاسيرهم المنقولة عنهم، ويجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه، ثم ها هنا مانع آخر، وهو أن المروي عن الصحابة في هذا مختلف متناقض، فإن عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكماً لا وجه له، وإن عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف متناقض، ولا يجوز. ثم ها هنا مانع غير هذا المانع، وهو أنه لو كان شيء إما قالوه مأخوذاً عن النبي ﷺ لاتفقوا عليه ثم لو كان عندهم شيء عن النبي ﷺ في هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعوا إليه، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه، ولا مدخل لها. والذي أراه لنفسه ولكل من أحب السلامة، واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في

سورة البقرة ﴿الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾ فأتى أخاه حي بن أخطب في رجال من اليهود فقال: تعلمون، والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿الْمَ﴾ ذلك الكتاب، فقال: أنت سمعته؟ فقال نعم، فمشى حي في أولئك نفر إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد ألم تذكر أنك تتلو، فيما أنزل عليك ﴿الْمَ﴾ ذلك الكتاب؟ قال: «بلى»، قالوا: لجامك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: «نعم». قالوا: لقد بعث الله قبلك الأنبياء ما تعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه، وما أجل أمته غيرك، فقال حي بن أخطب وأقبل على من كان معه: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، اقتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه، وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: «نعم»، قال: وما ذاك؟ قال: ﴿الْقَصَّ﴾، قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال «نعم»، قال: وما ذاك؟ قال: ﴿الرَّ﴾ قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، هذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان، فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم: ﴿الْمَرَّ﴾ قال: فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري قليلاً أعطيت أم كثيراً، ثم قاموا، فقال أبو ياسر لأخيه حي، ومن معه من الأخبار: ما يديكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ [آل عمران: 7] فنانظر ما بلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيء، وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله ﷺ من هذا الموضع، فإن هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع ﴿الْمَ﴾ ذلك للكتاب من تلك العدد موجباً للتثبيط عن الإجابة له، والدخول في شريعته، فلو كان لذلك معنى يعقل، ومندلول يفهم، لنفع رسول الله ﷺ ما ظنوه بادئ بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاوزوا به من التشكيك على من معهم.

فإن قلت: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟ قلت: لا أعلم أن رسول الله ﷺ تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وصححه، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الْمَ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» وله طرق عن ابن مسعود. وأخرج ابن أبي

هناك: فلا تجاوزه، وسياي لنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَمِّنْ﴾ آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴿آل عمران: 7﴾ كلام طويل الذيل، وتحقيق تقبله صحيحات الأقدم وسليمات العقول.

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

الإشارة بقوله ذلك إلى الكتاب المنكور بعده. قال ابن عباس: ﴿ذلك الكتاب﴾ هذا الكتاب، وبه قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، ومقاتل، وزيد بن أسلم، وابن جريج، وحكاه البخاري عن أبي عبيدة. والعرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب مكان الإشارة إلى القريب الحاضر، كما قال خفاف:

أقول له والرمح ياطرمتنه تأمل خفافاً أنني أنا لكنا أي: أنا هذا، ومنه قوله تعالى: ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ [السجدة: 6] ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم﴾ [الأنعام: 83] ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك﴾ [البقرة: 252] ﴿ولك حكم الله يحكم بينكم﴾ [المتحنة: 10] وقيل: إن الإشارة إلى غائب، واختلف في ذلك الغائب، فقيل: هو الكتاب الذي كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة، والأجل، والرزق ﴿لا ريب فيه﴾ أي: لا مبدل له، وقيل: ذلك الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الأزل أن رحمته سبقت غضبه، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه، فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي». وفي رواية «سبقت». وقيل: الإشارة إلى ما قد نزل بمكة، وقيل: إلى ما في التوراة والإنجيل، وقيل: إشارة إلى قوله قبله ﴿الْقَلَمُ﴾، ورجحه الزمخشري، وقد وقع الاختلاف في ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبما حكاه القرطبي، وأرجحها ما صرّناه، واسم الإشارة مبتدأ، والكتاب صفة، والخبر لا ريب فيه، ومن جورّ الابتداء بـ ﴿الْقَلَمُ﴾ جعل ذلك مبتدأ ثانياً، وخبره الكتاب، أو هو صفة، والخبر لا ريب فيه، والجملة خبر المبتدأ. ويجوز أن يكون المبتدأ مفعلاً، وخبره ﴿الْقَلَمُ﴾، وما بعده. والريب مصدر، وهو: قلق النفس واضطرابها، وقيل: إن الريب: الشك. قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً. وقد يستعمل الريب في التهمة والحاجة، حكى ذلك القرطبي. ومعنى هذا النفي العام أن الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالة وضوحاً يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغي الارتياح فيه بوجه من الوجوه، والوقف على ﴿فيه﴾ هو المشهور. وقد روي عن نافع، وعاصم الوقف على ﴿لا ريب﴾، قال في الكشف: ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً، ونظيره قوله تعالى: ﴿قالوا لا ضير﴾ [الشعراء: 50] وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز، والتقدير: لا ريب فيه فيه هدى. والهدى مصدر. قال الزمخشري: وهو: الدلالة الموصلة إلى البغية ببليل وقوع الضلال في مقابلته انتهى. ومحل الرفع على الابتداء وخبره الظرف المذكور قبله على ما سبق. قال القرطبي: الهدى

هناك: هدى دلالة، وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله تعالى: ﴿ولكل قوم هاد﴾ [الرعد: 7] وقال: ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: 52] فأنبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرّد سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه ﷺ: ﴿انك لا تهدي من أحببت﴾ [القصص: 56] فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿اولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: 5] وقوله: ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: 56] انتهى. والمتقين من ثبتت لهم التقوى. قال ابن فارس: وأصلها في اللغة قلة الكلام. وقال في الكشاف: المتقي في اللغة: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، والوقاية: الصيانة، ومنه: فرس واق، وهذه الدابة تقي من وجارها: إذا أصلها ضلع من غلط الأرض ورقة الحافر، فهو يقي حافره أن يصيبه أنى شيء يؤلمه. وهو في الشريعة: الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. انتهى. وأخرج ابن جرير، والحاكم، وصححه عن ابن مسعود أن الكتاب: القرآن، لا ريب فيه: لا شك فيه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لا ريب فيه﴾، قال: لا شك فيه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء قال: الريب الشك. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله، وكذا ابن جرير عن مجاهد. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿هدى للمتقين﴾ قال: نور للمتقين، وهم المؤمنون. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿هدى للمتقين﴾ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق مما جاء منه، وأخرج ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل أنه قيل له: من المتقون؟ فقال: قوم اتقوا الشرك، وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن أبي هريرة: أن رجلاً قال له: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقاً ذا شوك؟ قال نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عللت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذلك التقوى. وأخرج أحمد في الزهد، عن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال نرة حين يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً يكون حجاباً بينه وبين الحرام. وقد روي نحو ما قاله أبو الدرداء، عن جماعة من التابعين. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس» فالمصير إلى ما أقاده هذا الحديث واجب، ويكون هذا معنى شرعياً للمتقي لخص من المعنى الذي قلنا عن صاحب الكشف زاعماً أنه المعنى الشرعي.

نصركم، فيا ليتني قد لقيت إخواني» وأخرج نحوه ابن عسلكر في الأربعين السباعية من حديث أنس، وفي إسناده أبو هبة، وهو كتاب، وزاد فيه: «ثم قرأ النبي ﷺ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة» [البقرة: 3] الآية. وأخرج أحمد، والدارمي، والبارودي وابن قانع معاً في معجم الصحابة، والبخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم عن أبي جمعة الأنصاري قال: قلت: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً؟ أمنا بك، واتبعناك، قال: «ما يمنعكم من ذلك، ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعكم يأتيهم كتاب الله بين لوحيين فيؤمنون به، ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً». وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، والحاكم، عن أبي عبد الرحمن الجهني قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع راكبان، فقال رسول الله ﷺ: «كنديان أو منجحيان» حتى أتيا، فإذا رجلان من منجج، فدنا أحدهما ليبياعه، فلما أخذ بيده قال: يا رسول الله أرايت من جاءك فأمن بك واتبعك وصنّك فمأذا له؟ قال: «طوبى له» فمسح على زنده، وانصرف، ثم جاء الآخر حتى أخذ بيده ليبياعه فقال: يا رسول الله أرايت من آمن بك، وصنّك، واتبعك، ولم يرك؟ قال: «طوبى له ثم طوبى له»، ثم مسح على زنده، وانصرف. وأخرج الطيالسي، وأحمد، والبخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن رأيي وأمن بي، وطوبى لمن آمن بي، ولم يرني سبع مرات». وأخرج أحمد، وابن حبان، عن أبي سعيد: أن رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك، وأمن بك؟ قال: «طوبى لمن رأيي وأمن بي، وطوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني»، وأخرج الطيالسي، وعبد بن حميد، عن ابن عمر نحوه. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، والطبراني من حديث أنس نحو حديث أبي أمامة الباهلي المتقدم. وأخرج سفيان بن عيينة، وسعيد بن منصور، وأحمد بن منيع في مسنده، وابن أبي حاتم، وابن الضبائي، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، أنه قال: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ [البقرة: 1-5] وللتابعين أقوال، والراجح ما تقدم من أن الإيمان الشرعي يصق على جميع ما نكر هنا، قال ابن جرير: والأولى أن تكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً، واعتقاداً، وعملاً. قال: وتدل الخشية في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله، وكتبه، ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. وقال ابن كثير: إن الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً، وقولاً، وعملاً، وهكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي، ولحمد بن حنبل، وأبو عبيد، وغير واحد إجماعاً أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص. وقد ورد فيه آيات كثيرة. انتهى.

وَيُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢٠٠﴾

هو معطوف على «يؤمنون» والإقامة في الأصل: النوام

هو وصف للمؤمنين كاشف. والإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع ما سيأتي. والغيب في كلام العرب: كل ما غاب عنك، قال القرطبي: واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية هو الله سبحانه، وضعفه ابن العربي. وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدي إليه العقول من اشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر والنشر، والصراط، والميزان، والجنة، والنار. قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها، قال: وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل حين قال للنبي ﷺ: «فأخبرني عن الإيمان؟» قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت. انتهى. وهذا الحديث هو ثابت في الصحيح بلفظ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره». وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وأبو نعيم، كلاهما في معرفة الصحابة عن تويلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر، أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيليا، فصلينا سجدتين، ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت، فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب». وأخرج البزار، وأبو يعلى، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ فقال: أنبئوني بأفضل أهل الإيمان إيماناً؟ فقالوا: يا رسول الله الملائكة، قال: «هم كذلك، ويحق لهم، وما يمنعهم، وقد أنزلهم الله المنزل التي أنزلهم بها» قالوا: يا رسول الله الأنبياء أكرمهم الله برسالته والنبوّة، قال: «هم كذلك، ويحق لهم، وما يمنعهم، وقد أنزلهم الله المنزل التي أنزلهم بها» قالوا: يا رسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء، قال: «هم كذلك، وما يمنعهم، وقد أكرمهم الله بالشهادة» قالوا: فمن يا رسول الله؟ قال: أقوام في أصلاب الرجال يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً. وفي إسناده محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف، وأخرج الحسن بن عرفة في حزه المشهور، والبيهقي في الدلائل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: فنكر نحو الحديث الأول، وفي إسناده المغيرة بن قيس البصري، وهو منكر الحديث. وأخرج نحوه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، والإسماعيلي عن أبي هريرة مرفوعاً أيضاً، والبزار عن أنس مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ليتني قد لقيت إخواني» قالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك؟ قال: «بلى، ولكن قوم يجيئون من بعكم يؤمنون بي إيمانكم ويصدقوني تصديقكم وينصرونني

والثبات. يقال قام الشيء: أي دام وثبت. وليس من القيام على الرجل، وإنما هو من قولك قام الحق. أي: ظهر وثبت. قال الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال آخر:

وإذا يقال أقيموا لم تبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طعان وإقامة الصلاة أدائها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها. والصلاة أصلها في اللغة: الدعاء من صلى يصلي إذا دعا. وقد نكر هذا الجوهر في غيره. وقال قوم: هي مأخوذة من الصلاة، وهو عرق في وسط الظهر، ويفترق عند العجب. ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي في الحلية، ورأسه عند صلوى السابق، فاشتقت منه الصلاة لأنها ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وإما لأن الراكع يثني صلويه، والصلاة مغزى الذنب من الفرس، والاثنان صلوان، والمصلي تالي السابق؛ لأن رأسه عند صلوه. نكر هذا القرطبي في تفسيره. وقد نكر المعنى الثاني في الكشف، هذا المعنى اللغوي، وأما المعنى الشرعي، فهو هذه الصلاة التي هي ذات الأركان والأنكار. وقد اختلف أهل العلم هل هي مبقاة على أصلها اللغوي، أو موضوعة وضماً شرعياً ابتدائياً. فقول: بالأول، وإنما جاء الشرع بزيادات هي الشروط والفروض الثابتة فيها. وقال قوم بالثاني. والبرزق عند الجمهور ما صلح للانتفاع به حلالاً كان أو حراماً خلافاً للمعتزلة، فقالوا: إن الحرام ليس برزق، ولمبحث في هذه المسألة موضع غير هذا. والإنفاق: إخراج المال من اليد، وفي المجيء بمن التبعية هاهنا نكتة سرية هي الإرشاد إلى ترك الإسراف. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن إسحاق، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال: الصلوات الخمس ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: أن إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: انفقوا في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله. وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبيرة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: هي نفقة الرجل على أهله. وأخرج ابن جرير عن الضحاک قال: كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر ميسورهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصلوات في سورة براءة من النسخات المبينات. واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة، والنفقات، وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم، وصدقة الفرض، والنفل، وعدم التصريح بنوع من الأنواع التي يصدق عليها مسمى الإنفاق يشعر أنهم إشعار بالتعميم.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْآخِرَةُ هُمْ يَرْجُونَ ﴿٥١﴾

وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، فإنهم جمعوا بين الإيمان بما أنزل الله على محمد ﷺ، وما أنزله على من قبله، وفيهم

نزلت. وقد رجح هذا ابن جرير، ونقله السدي في تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود، وأنس من الصحابة، واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: 119] ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: 52 - 54] الآية. والآية الأولى نزلت في مؤمني العرب. وقيل: الآيتان جميعاً في المؤمنين على العموم. وعلى هذا، فهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى صفة للمؤمنين بعد صفة، ويجوز أن تكون مرفوعة على الاستئناف، ويجوز أن تكون معطوفة على المتقين، فيكون التقدير: هدى للمتقين، وللمؤمنين يؤمنون بما أنزل إليك. والمراد بما أنزل إلى النبي ﷺ هو القرآن. وما أنزل من قبله: هو الكتب السابقة. والإيقان: إيقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، قاله في الكشف. والمراد أنهم يؤمنون بالبعث، والنشور، وسائر أمور الآخرة من دون شك. والآخرة تأنث الآخر الذي هو نقيض الأول، وهي صفة الدار كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾ [القصص: 83] وفي تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير المذكور إشعار بالحصر، وإن ما عدا هذا الأمر الذي هو أساس الإيمان ورأسه ليس بمستأهل للإيقان به والقطع بوقوعه. وإنما عبر بالماضي مع أنه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل تغليبا للموجود على ما لم يوجد، أو تنبيهاً على تحقق الوقوع كأنه بمنزلة النازل قبل نزوله. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: يصقونك بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جأؤهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إيماناً بالبعث، والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان أي: لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاء من ربك. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه.

والحق أن هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها، وليس مجرد ذكر الإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ، وما أنزل إلى من قبله بمقتضى لجعل ذلك وصفاً لمؤمني أهل الكتاب، ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا ولا في النظم القرآني ما يقتضي ذلك. وقد ثبت الثناء على من جمع بين الأمرين من المؤمنين في غير آية. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: 136] وكقوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: 46]، وقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ

منهم] [النساء: 152].

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

مجاهد، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة. وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: قيل يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنجري ونقرأ فنكاد أن نيلس أو كما قال: فقال: «ألا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ﴿الْم﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» إلى قوله: ﴿المفلحون﴾ [البقرة: 1 - 5] هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 6] إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ هؤلاء أهل النار، قالوا: السنا هم يا رسول الله؟ قال: «لعل».

وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث: منها ما أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والحاكم والبيهقي، عن أبي بن كعب قال: كنت عند النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله إن لي أخاً وبه وجع فقال: «وما وجعه؟ قال: به لم، قال: «فأنتني به»، فوضعه بين يديه، فعوذته النبي بفاتحة الكتاب، وأربع آيات ومن أول سورة البقرة، وهاتين الآيتين ﴿وَالْهَيْكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: 163] وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، وآية من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 54]، وآخر سورة المؤمنین ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنين: 114]، وآية من سورة الجن ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبْنَا﴾ [الجن: 3]، وعشر آيات من أول الصفات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وقل هو الله أحد، والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشك قط. وأخرج نحوه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عبد الرحمن بن أبي يعلى عن رجل عن أبي مثله. وأخرج الدارمي، وابن الضريس، عن ابن مسعود قال: من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة، وآية الكرسي، وأيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر سورة البقرة لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان، ولا شيء يكرهه في أهله، ولا ماله، ولا تقراً على مجنون إلا أفاق. وأخرج الدارمي، وابن المنذر، والطبراني عنه قال: «من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل تلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح: أربع من أولها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث خواتمها أولها ﴿الله ما في السموات﴾ [البقرة: 284]. وأخرج سعيد بن منصور، والدارمي، والبيهقي عن المغيرة بن سبيع، وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرج الطبراني، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات أحدكم، فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره، وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة، وعند رجله بخاتمة سورة البقرة» وقد ورد في ذلك غير هذا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٣﴾
حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَبَثَ بِأَبْصَارِهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٥٤﴾

نكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من نكر فريق الخير

هذا كلام مستأنف استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: كيف حال هؤلاء الجامعين بين التقوى والإيمان بالغيب، والإتيان بالفرائض، والإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ وعلى من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقيل: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ ويمكن أن يكون هذا خبراً عن الذين يؤمنون بالغيب الخ، فيكون متصلاً بما قبله. قال في الكشف: ومعنى الاستعلاء في قوله ﴿على هدى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق، وعلى الباطل. وقد صرّحوا بذلك في قوله: جعل الغواية مركباً، وامتنى الجهل، واقتعد غارب الهوى. انتهى. وقد أطل المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام، واشتبه الخلاف في ذلك بين المحقق السعد والمحقق الشريف. واختلف من بعدهم في ترجيح الراجح من القولين، وقد جمعت في ذلك رسالة سميتها [الطود المنيف في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف] فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام، ويجمع بين أطراف الكلام على التمام. قال ابن جرير: إن معنى ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى من ربهم﴾ على نور من ربهم، وبرهان واستقامة، وسداد بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم، و﴿المفلحون﴾ أي: المنجحون المبركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم، وإيمانهم بالله، وكتبه، ورسله. هذا معنى كلامه. والفلاح أصله في اللغة: الشقّ والقطع، قاله أبو عبيد: ويقال للذي شقت شفته أقلح، ومنه سمي الأكار فلاحاً؛ لأنه شقّ الأرض بالحرث، فكان المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه. قال القرطبي: وقد يستعمل في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة، فمعنى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنة، والباقيون، وقال في الكشف: المفلح الفائز بالغيبة، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر، ولم تستغلّق عليه. انتهى. وقد استعمل الفلاح في السحور، ومنه الحديث للذي أخرجه أبو داود: «حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله ﷺ». قلت: وما الفلاح؟ قال: السحور. فكان معنى الحديث: أن السحور به بقاء الصوم، فلماذا سمي فلاحاً. وفي تكرير اسم الإشارة دلالة على أن كلاً من الهدى، والفلاح مستقلّ بتمييزهم به عن غيرهم، بحيث لو انفرد أحدهما لكفى تمييزاً على حياله. وفائدة ضمير الفصل للدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند لغيره. وقد روى السدي عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أنس من الصحابة أن الذين يؤمنون بالغيب: هم المؤمنون من العرب، الذين يؤمنون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ، وما أنزل إلى من قبله: هم، والمؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقين فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى من ربهم وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقد قمنا الإشارة إلى هذا، وإلى ما هو أرجح منه كما هو منقول عن

أهل السنة على المعتزلة، وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما نكره صاحب الكشاف، والكلام على مثل هذا متقرر في مواطنه.

وقد اختلف في قوله تعالى ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ هل هو داخل في حكم الختم، فيكون معطوفاً على القلوب، أو في حكم التغشية، فقيل: إن الوقف على قوله ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ تام، وما بعده كلام مستقل، فيكون الطبع على القلوب والاسماع، والغشاوة على الأبصار كما قاله جماعة، وقد قرئ ﴿غشاوة﴾ بالنصب. قال ابن جرير: يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الإتيان على محل: وعلى سَمْعِهِمْ، كقوله تعالى ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ﴾ [الواقعة: 22] وقول الشاعر:

علفتها تبناً وماءً بارداً

وإنما وحد السمع مع جمع القلوب والأبصار، لأنه مصدر يقع على القليل، والكثير، والعذاب: هو ما يؤلم، وهو مأخوذ من الحبس والمنع، يقال في اللغة: أعذبه عن كذا: حبسه ومنعه، ومنه عنوبة الماء؛ لأنها حبست في الإناء حتى صفت. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً في تفسير الآية: أنهم قد كفروا بما عندهم من نكره، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين نكروهم الله في هذه الآية: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَكَوْا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ [إبراهيم: 28] قال: فهم الذين قتلوا يوم بدر، ولم يدخل القادة في الإسلام إلا رجلان: أبو سفيان، والحكم بن العاص. وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ قال: أوعظتهم أم لم تعظهم. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في هذه الآية قال: أطاعوا الشيطان، فاستحوذ عليهم، فختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون، ولا يفقهون، ولا يعقلون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: الختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، والغشاوة على أبصارهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، فلا يعقلون، ولا يسمعون، وجعل على أبصارهم: يعني أعينهم غشاوة، فهم لا يبصرون. وروى ذلك السدي، عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير، عن ابن

قاطعاً لهذا الكلام عن الكلام الأول، معوناً له بما يفيد أن شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم، وأنه لا يترتب عليهم ما هو المطلوب منهم من الإيمان، وأن وجود ذلك كعدمه. و«سواء» اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر، والهمزة وأم مجزئتان لمعنى الاستواء غير مراد بهما ما هو أصلهما من الاستفهام، وصح الابتداء بالفعل، والإخبار عنه بقوله: سواء، هجراً لجانب اللفظ إلى جانب المعنى، كأنه قال: الإنذار وعدمه سواء، كقولهم: تسمع بالمعديني خير من أن تراه أي: سماعك. وأصل الكفر في اللغة: الستر والتغطية، قال الشاعر:

في ليلة كفر النجوم غمامها

أي: سترها، ومنه سمي الكافر كافراً؛ لأنه يغطي بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان. والإنذار: الإبلاغ والإعلام.

قال القرطبي: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: هي عامة، ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره. أراد الله تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً. وقال ابن عباس، والكلبي: نزلت في رؤساء اليهود حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، ونظرائهما. وقال الربيع بن أنس: نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب، والأول أصح، فإن من عين أحداً فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر. انتهى. وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هم لا يؤمنون، وهي جملة مستأنفة؛ لأنها جواب سؤال مقدر كأنه قيل: هؤلاء الذين استوى حالهم مع الإنذار وعدمه ماذا يكون منهم؟ فقيل: لا يؤمنون أي: هم لا يؤمنون. وقال في الكشاف: إنها جملة مؤكدة للجملة الأولى، أو خبر لأن، والجملة قبلها اعتراض. انتهى. والأولى ما نكرناه، لأن المقصود الإخبار عن عدم الاعتداد بإنذارهم، وأنه لا يجدي شيئاً بل بمنزلة العدم، فهذه الجملة هي التي وقعت خبراً لأن، وما بعدها من عدم الإيمان متسبب عنها لا أنه المقصود. وقد قال بمثل قول الزمخشري القرطبي. وقال ابن كيسان: إن خبر «إن» سواء، وما بعده مقام الصلة. وقال محمد بن يزيد المبرّد: سواء رفع بالابتداء، وخبره «أأنذرتهم أم لم تنذرهم»، والجملة خبر إن. والختم: مصدر ختمت الشيء، ومعناه: التغطية على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه ختم الكتاب، والباب، وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غيره. والغشاوة: الغطاء، ومنه غاشية السرج، والمراد بالختم والغشاوة هنا هما المعنويان لا الحسيان أي: لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها، والاسماع غير مؤنية لما يطرقها من الآيات البينات إلى العقل على وجه مفهوم، والأبصار غير مهنية للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختماً حسياً، والمستوثق منها استيثاقاً حقيقياً، والمغطاة بغطاء مبرك استعارة أو تمثيلاً، وإسناد الختم إلى الله قد احتج به

بواطنهم، كما أن المنافقين خادعهم بإظهار الإسلام، وإبطان الكفر. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخَادَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن. وأما من عرف البواطن فمَن دخل معه في الخداع فإِنما يخدع نفسه، وما يشعر بذلك، ومن هذا قول من قال: من خادعته فأنخدع لك، فقد خدعك. وقد قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو «يخادعون» في الموضعين، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وابن عامر في الثاني «يخدعون»، والمراد بمخادعتهم أنفسهم: أنهم يَمُونُها الأمانِي الباطلة، وهي كذلك تمنِيهم. قال أهل اللغة: شعرت بالشيء فطنت. قال في الكشف: والشعور علم الشيء علم حس، من الشعار، ومشاعر الإنسان: حواسه. والمعنى: أن لحوق ضرر ذلك لهم كالمحسوس، وهم لتمامي غفلتهم كالذي لا حس له. والمراد بالأنفس هنا نواتهم لا سائر المعاني التي تدخل في مسمى النفس كالروح، والدم، والقلب. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أنهم المنافقون من الأوس، والخزرج، ومن كان على أمرهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود أنه قال: والمراد بهذه الآية المنافقون. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج ابن المنذر، عن ابن سيرين قال: لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج ابن سعد، عن حذيفة أنه قيل له: ما التفاق؟ قال: أن يتكلم بالإسلام، ولا يعمل به. وأخرج أحمد بن منيع في مسنده بسند ضعيف، عن رجل من الصحابة: أن قاتلاً من المسلمين قال: يا رسول الله ما النجاة غداً؟ قال: «لا تخادع الله» قال: وكيف نخادع الله؟ قال: أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره، فاتقوا الرياء، فإنه الشرك بالله، فإن المرآئي ينادي يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر يا فاجر يا خاسر يا غادر، ضلّ عملك، ويطل أجرك، فلا خلاق لك اليوم عند الله، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع، وقرأ آيات من القرآن ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: 110] الآية، وإن المنافقين يخادعون الله﴾ [النساء: 142] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قوله: ﴿يَخَادَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا أنهم مؤمنون بما أظهروه. وعن قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم ضرّوا أنفسهم بما أضَمروا من الكفر، والتفاق. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله ﴿يَخَادَعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون لا إله إلا الله يريون أن يحزروا بذلك دماءهم، وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك.

فِي مَلُوكِهِمْ نَرَّسُ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَصًّا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٦٠﴾

المرض: كل ما يخرج به الإنسان عن حدِّ الصحة من

جريح قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: 24] وقال: ﴿وَوَخِّمْتُ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلْتُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: 23]. قال ابن جرير في معنى الختم: والحق عندي في ذلك ما صحّ نظيره عن رسول الله ﷺ، ثم ذكر إسناداً متصلاً بأبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَ نَكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ، وَنَزَعَ، وَاسْتَعْتَبَ صَقَلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَغْلِقَ قَلْبُهُ» فذلك الران الذي قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: 23]». وقد رواه من هذا الوجه الترمذي وصححه، والنسائي. ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أَنَّ الذُّنُوبَ إِذَا تَتَابَعَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقَتْهَا، وَإِذَا أَغْلَقَتْهَا أَثَامًا حِينَئِذٍ الْخَتَمُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَالطَّبِيعُ، فَلَا يَكُونُ إِلَيْهَا مَسْلُكٌ، وَلَا لِلْكَفَرِ مِنْهَا مَخْلَصٌ، فَذَلِكَ هُوَ الْخَتَمُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع، والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بقبض ذلك عنها، ثم حلها، فذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضّ خاتمته، وحلّ رباطه عنها.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَإِلَآئِهِ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾
يُخٰدِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٨١﴾

ذكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخالص، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخالص، ثم نكر ثالثاً المنافقين، وهم: الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين، بل صاروا فرقة ثالثة لأنهم، وافقوا في الظاهر الطائفة الأولى وفي الباطن الطائفة الثانية، ومع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار. وأصل ناس أناس حثفت همزته تخفيفاً، وهو من النوس، وهو: الحركة، يقال: ناس ينوس أي: تحرك، وهو: من أسماء الجموع جمع إنسان، وإنسانة على غير لفظه، واللام الداخلة عليه للجنس، ومن تبعيضية: أي بعض الناس، ومن موصوفة: أي ومن الناس ناس يقول. والمراد باليوم الآخر: الوقت الذي لا ينقطع، بل هو دائم أبداً. والخداع في أصل اللغة: الفساد، كحاك ثعلب عن ابن الأعرابي، وأنشد:

أبيض اللون رقيق طعمه طيب الريق إذا الريق خدع
وقيل: أصله الإخفاء، ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه
الشيء، حكاه ابن فارس، وغيره. والمراد من مخادعتهم الله
أنهم صنعوا معه صنع المخادعين، وإن كان العالم الذي لا
يخفى عليه شيء لا يخدع. وصيغة فاعل تنفيد الاشتراك في
أصل الفعل، فكأنهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله
سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم. والمراد بالمخادعة من الله:
أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في
شيء، فكانه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام
وإبطان الكفر ومشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه. والمراد
بمخادعة المؤمنين لهم: هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله
به من أحكام الإسلام ظاهراً، وإن كانوا يعلمون فساد

الصلاح، ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت، والزور المحض حتى جعلوا صفة الصلاح مختصة بهم خالصة لهم، فردَّ الله عليهم ذلك أبلغ ردٍّ لما يفيد حُرْف التنبية من تحقق ما بعده، ولما في «إن» من التأكيد، وما في تعريف الخبر مع توسيط ضمير الفصل من الحصر المبالغ فيه بالجمع بين أمرين من الأمور المفيدة له، وردَّهم إلى صفة الفساد التي هم متصفون بها في الحقيقة ردًّا مؤكِّداً مبالغاً فيه بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة من مجرد الحصر المستفاد من إنما. وأما نفي الشعور عنهم، فيحتمل أنهم لما كانوا يظهرُونَ الصلاح مع علمهم أنهم على الفساد الخالص، ظنوا أن ذلك ينفي على النبي ﷺ، وينكتم عنه بطلان ما أضمروه، ولم يشعروا بأنه عالم به، وأن الخبر يأتيه بذلك من السماء، فكان نفي الشعور عنهم من هذه الحيثية لا من جهة أنهم لا يشعرون بأنهم على الفساد، ويحتمل أن فسادهم كان عندهم صلاحاً لما استقرَّ في عقولهم من محبة الكفر، وعداوة الإسلام. وقد أخرج ابن جرير، عن ابن مسعود أنه قال: الفساد هنا هو: الكفر والعمل بالمعصية. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: إذا ركبوا معصية، فقبل لهم: لا تفعلوا كذا قالوا إنما نحن على الهدى. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن سلمان أنه قرأ هذه الآية فقال: لم يَجِئ أهل هذه الآية بعد. قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، لا أنه عني أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد. انتهى. ويحتمل أن سلمان يرى أن هذه الآية ليست في المنافقين، بل يحملها على مثل أهل الفتن التي يدين أهلها بوضع السيف في المسلمين، كالخوارج، وسائر من يعتقد في فساده أنه صلاح لما يطرأ عليه من الشبه الباطلة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ أَشْهَكُمُ الْآلَةُ
إِنَّهُمْ هُمُ أَشْهَكُمُ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

أي: وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار، أجابوا بأحمق جواب، وأبعده عن الحق والصواب، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء، واستخفافاً، فتسببوا بذلك إلى تسجيل الله عليهم بالسفه بابلغ عبارة، وأكد قول. وحصر السفاهة وهي: رقة الحلو، وفساد البصائر، وسخافة العقول فيهم مع كونهم لا يعلمون أنهم كذلك إما حقيقة، أو مجازاً، تنزيلاً لإصرارهم على السفه منزلة عدم العلم بكونهم عليه، وأنهم متصفون به؛ ولما نكر الله هنا السفه ناسبه نفي العلم عنهم؛ لأنه لا يتساقفه إلا جاهل، والكاف في موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف أي: إيماناً كإيمان الناس. وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا

عله، أو نفاق، أو تقصير في أمر، قاله ابن فارس. وقيل: هو الألم، فيكون على هذا مستعزاً للفساد الذي في عقائدهم إما شكا ونفاقاً، أو جحداً وتكذيباً، وتقديم الخبر للإشعار بأن المرض مختص بها مبالغة في تعلق هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدة الحسد، وفرط العداوة. والمراد بقوله ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مِرْضًا﴾ الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله ﷺ من النعم، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية. ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك، وترانف الحسرة، وفرط النفاق. والأليم المؤلم أي: الموجع، وهما في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُوبُونَ﴾ مصدرية أي: بتكذيبهم، وهو: قولهم ﴿أَمَّا بِاللَّهِ يَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8] والقراء مجتمعون على فتح الراء من قوله مرض، إلا ما رواه الأصمعي عن أبي عمرو أنه: قرأ بإسكان الراء، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي ﴿يَكْتُوبُونَ﴾ بالتخفيف، والباقون بالتشديد. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: شك ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مِرْضًا﴾ قال: شكاً. وأخرج عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: النفاق ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: نكال موجع ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُوبُونَ﴾ قال: يبتلون ويحرفون. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود مثل ما قاله ابن عباس أولاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل شيء في القرآن أليم، فهو الموجع. وأخرج أيضاً عن أبي العالية مثله. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: ريبة وشك في أمر الله ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مِرْضًا﴾ ريبة وشكاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يكتبون. قال: إياكم والكذب، فإنه باب النفاق. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجساد، وهم للمنافقون. والمرض: للشك الذي دخل في الإسلام. وروي عن عكرمة وطاوس أن المرض: الرياء.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿٢٧﴾
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٨﴾

(إذا) في موضع نصب على الظرف، والعامل فيه قالوا المذكور بعده. وفيه معنى الشرط. والفساد ضد الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها. فسد الشيء يفسد فساداً، وفسوداً، فهو فاسد وفسيد. والمراد في الآية: لا تفسدوا في الأرض بالنفاق، وموالة الكفرة، وتفریق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما في الأرض بهلاك الأبدان، وخراب الديار، وبطلان الزرائع، كما هو مشاهد عند ثوران الفتن والتنازع. و«إنما» من أدوات القصر، كما هو مبين في علم المعاني. والصلاح ضد الفساد. لما نهاهم الله عن الفساد الذي هو دأبهم أجابوا بهذه الدعوى العريضة، ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هي عليه حقيقة، وهو الفساد، إلى الاتصاف بما هو ضد ذلك، وهو

أي: إذا كنتم معنا فما بالكم إذا لقيتم المسلمين وافقتموهم؟ فقالوا: إنما نحن مستهزؤون بهم في تلك الموافقة، ولم تكن بواطننا موافقة لهم، ولا مائلة إليهم، فردَّ الله ذلك عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: ينزل بهم الهوان والحقارة، وينتقم منهم، ويستخفُّ بهم انتصافاً منهم لعباده المؤمنين، وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة مشاكلة. وقد كانت العرب إذا وضعت لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء نكرته يمثل ذلك اللفظ، وإن كان مخالفاً له في معناه. وورد ذلك في القرآن كثيراً، ومنه ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194] والجزاء لا يكون سيئة. والقصاص لا يكون اعتداء؛ لأنه حق، ومنه ﴿وَمَكَرُوا مَكَرَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 54] و﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ و﴿وَإِذَا كُذِبُوا﴾ [الطارق: 15، 16] ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]. وهو في السنة كثير كقوله ﷺ: «إن الله لا يمل حتى تملوا» وإنما قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لأنه يفيد التجرد وقتاً بعد وقت، وهو: أشدَّ عليهم، وأنكأ لقلوبهم، وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الإسمية، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتاً بعد وقت، والمتجددة حيناً بعد حين، أشدَّ على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر لأنه يالغ، ويوطن نفسه عليه. والمد: الزيادة. قال يونس بن حبيب: يقال مد في الشر، ومد في الخير، ومنه ﴿وَأَمْسَدْنَاهُمْ بَأْمَأَسَدٍ﴾ [الإسراء: 6] ﴿وَأَمْسَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِ وَلِحْمٍ﴾ [الطور: 22]. وقال الأخفش: مددت له إذا تركته، وأمديته: إذا أعطيته. وقال الفراء: واللحياني: مددت فيما كانت زيادته من مثله، يقال: مدَّ النهر، ومنه ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [القمان: 27] وأمديت فيما كانت زيادته من غيره، ومنه: ﴿يَمْدِدْكُمْ بِكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران: 125] والطفيان مجاوزة الحد، والغلو في الكفر، ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة: 11] أي: تجاوز المقدار الذي قدرته الخزان. وقوله في فرعون: ﴿إِنِّه طَغَى﴾ [طه: 24] أي: أسرف في الدعوى حيث قال: ﴿إِنَّا رَبُّكُمُ اللَّهُ﴾ [النازعات: 24]. والعمه: والعامه: الحائر المتروك، وذهبت إليه لعمى: إذا لم يدر أين ذهبت، والعمه في القلب كالعمى في العين. قال في الكشف: العمه مثل العمى، إلا أن العمى في البصر والرأي، والعمه في الرأي خاصة. انتهى. والمراد: أن الله سبحانه يطيل لهم المدة ويمهلهم كما قال: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. قال ابن جرير: ﴿فِي طَغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ﴾ في ضلالهم، وكفرهم الذين قد غمهم يرتدون حيارى ضلالاً يجنون إلى المخرج منه سبيلاً، لأن الله قد طبع على قلوبهم، وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً. وقد أخرج الواحدي

أمن الناس. أي: صدقوا كما صدق أصحاب محمد أنه نبي ورسول، وإن ما أنزل عليه حق، ﴿قَالُوا لَنُؤْمِنَ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون أصحاب محمد ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يقول: الجاهل ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يعقلون. وروي عن ابن عسكرك في تاريخه بسند واه أنه قال: آمنوا كما آمن الناس أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ قال: يعنون أصحاب النبي ﷺ. وأخرج عن الربيع، وابن زيد، مثله. وروى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود أي: إذا قيل لهم: يعني اليهود ﴿آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿قَالُوا لَنُؤْمِنَ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

وَإِذَا لَمَرُّ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَرَا إِلَى شَتْرَاطِنَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٧١﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُ فِي ظُلُمَاتِهِمْ يَمَهُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴿لَقَوْلِهِمْ﴾ أصله لقيوا، نقلت الضمة إلى اللقاف، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين. ومعنى لقيته ولاقيته: استقبلته قريباً. وقرأ محمد بن السميع اليماني، وأبو حنيفة (لاقوا)، وأصله لاقبوا تحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فانقلبت ألفاً، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. وخلوت بفلان وإليه: إذا انفردت به. وإنما عدي بالي، وهو يتعدى بالياء فيقال: خلوت به لا خلوت إليه، لتضمنه معنى ذهبوا وانصرفوا. والشياطين جمع شيطان على التكسير. وقد اختلف كلام سيبويه في نون الشيطان، فجعلها في موضع من كتابه أصلية، وفي آخر زائدة، فعلى الأول هو من شطن أي: بعد عن الحق، وعلى الثاني من شط أي: بعد، أو شاط أي: بطل، وشاط أي: احترق، وإشاط: إذا هلك قال: وقد يشيط على أرماحنا البطل أي: يهلك.

وقال آخر:

وأبيض ذي تاج أشاطت رملحنا لمعترك بين الفوارس اقتما أي: أهلك. وحكي سيبويه أن العرب تقول: تشيطان فلان: إذا فعل أفعال الشياطين. ولو كان من شاط لقالوا: تشيط، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

أيما شاطن عصاه عكا هـ ورماه في السجن والأغلال وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ معناه مصاحبوكم في دينكم، وموافقوكم عليه. والهز: السخرية واللعب. قال الرازي:

قد هزئت مني أم طيسله قالت أراه معصماً لا مال له قال في الكشف: وأصل الباب الخفة من الهز، وهو: القتل السريع، وهزا يهزأ: مات على المكان. عن بعض العرب: مشيت، فلغبت، فظننت لأهزاناً على مكاني، ونأقته تهزأ به أي: تسرع، وتخف. انتهى. وقيل أصله الانتقام، قال الشاعر:

قد استهزؤوا منهم بالفي مدجج سراتهم وسط الصالحات جثم فافاد قولهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أنهم ثابتون على الكفر، وأفاد قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ ردَّهم للإسلام ورفقهم للحق، وكأنه جواب سؤال مقتر ناشئ من قولهم: إنا معكم

عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، وهو من الإسناد المجازي، وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل، كما هو مقرر في علم المعاني. والمراد: ربحوا، وخسروا. والاهتداء قد سبق تحقيقه أي: وما كانوا مهتدين في شرائهم الضلالة، وقيل: في سابق علم الله. وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ﴿اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى﴾ أي: الكفر بالإيمان. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: آمنوا ثم كفروا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: استحبوا الضلالة على الهدى، قد والله رأيتهم يخرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ دَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَرَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ ضَمُّ بَكْمَ عَمَى فَمَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧٨﴾

﴿مثلهم﴾ مرتفع بالابتداء، وخبره إما الكاف في قوله ﴿كمثل﴾ لأنها اسم أي: مثل مثل كما في قول الأعشى: استنهن ولن تنهى لوى شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والقتل وقول امرئ القيس:

ورحنا بكبان الماء يجنب وسطنا تصوب فيه العين طوراً وترقي أراد مثل الطعن ويمثل ابن الماء، ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً أي: مثلهم مستنير كمثل، فالكاف على هذا حرف. والمثل: الشبه، والمثلاث: المتشابهان ﴿والذي﴾ موضوع للذين أي: كمثل الذين استوقدوا، وذلك موجود في كلام العرب كقول الشاعر:

ولن الذي حانت بفلج نأؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد ومنه ﴿ورخصتم كالذي خاضوا﴾ [التوبة: 69] ومنه ﴿والذي جاء بالصدق وصنق به أولئك هم المتقون﴾ [الزمر: 33]. ووقود النار: سطوعها وارتفاع لهبها، ﴿واستوقد﴾ بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب، فالسین والتاء زائدتان، قاله الأخفش. ومنه قول الشاعر:

وداع دعا يامن يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذلك مجيب أي: يجبه، والإضاءة فرط الإنارة، وفعلها يكون لازماً ومتعياً. ﴿وما حوله﴾ قيل ما زائدة، وقيل هي موصولة في محل نصب على أنها مفعول أضاءت، وحوله منصوب على الظرفية، و﴿ذهب﴾ من الذهاب، وهو زوال الشيء. و﴿تركهم﴾ أي: أبقاهم ﴿في ظلمات﴾ جمع ظلمة. وقرأ الأعمش بإسكان اللام على الأصل. وقرأ أشهب العقيلي بفتح اللام، وهي غم النور. و﴿صم﴾ وما بعده خبر مبتدأ محذوف أي: هم. وقرأ ابن مسعود «صمًا بكماً عمياً» بالنصب على الذم، ويجوز أن ينتصب بقوله تركهم. والصم: الانسداد، يقال قناة صماء: إذا لم تكن مجوفة. وصممت القارورة: إذا سدتها، وفلان أصم: إذا انسدت خروقه

والثعلبي بسند واه، لأن فيه محمد بن مروان، وهو متروك، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وإصحابه، وذكر قصة وقعت لهم مع أبي بكر، وعمر، وعلي رضي الله عنهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي ﷺ، أو بعضهم قالوا: إنا على دينكم ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ وهم إخوانهم قالوا: ﴿إنا معكم﴾ على مثل ما أنتم عليه ﴿إنما نحن مستهزؤون﴾ بأصحاب محمد ﷺ الله يستهزئ بهم قال: يسخر بهم للنعمة منهم ﴿ويمدهم في طغيانهم﴾ قال: في كفرهم ﴿يعمهم﴾ قال: يتركون. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه بمعناه، وأطول منه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه بنحو الأول، وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ قال: رؤسائهم في الكفر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك قال: ﴿وإذا خلوا﴾ أي: مضوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحو ما قاله ابن مسعود، وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ويمدهم﴾ قال: يملئ لهم ﴿في طغيانهم يعمهم﴾ قال: في كفرهم يتمنون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحو ما قاله ابن مسعود في تفسير ﴿يعمهم﴾. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿يمدهم﴾ يزيدهم ﴿في طغيانهم يعمهم﴾ قال: يلعبون ويتربصون في الضلالة. وأخرج أحمد في المسند، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: «نعم».

أَوَلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ كَمَا رَحِمْتَ جَحْرُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٧٩﴾

قال سيبويه: صحت الواو في ﴿اشتروا﴾ فرقاً بينها، وبين الواو الأصلية في نحو ﴿والو استقاموا﴾ [الجن: 16]. وقال الزجاج: حركت بالضم كما يفعل في نحن. وقرأ يحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك العنوي بفتحها لخفة الفتحة. وأجاز الكسائي همز الواو. والشراء هنا مستعار للاستبدال أي: استبدلوا الضلالة بالهدى كقوله تعالى: ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [قصص: 17] فاما أن يكون معنى الشراء المعاوضة، كما هو أصله حقيقة فلا، لأن المناققين لم يكونوا مؤمنين، فبييعوا إيمانهم، والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء. قال أبو ذؤيب:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم فإني شريت اللحم بعك بالجهل وأصل الضلالة: الحيرة، والجور عن القصد، وفقد الاهتداء، وتطلق على النسيان، ومنه قوله تعالى: ﴿قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ [الشعراء: 20]، وعلى الهلاك كقوله: ﴿وقالوا إذا ضللنا في الأرض﴾ [السجدة: 10] وأصل الريح الفضل. والتجارة: صناعة التاجر، وأسند الريح إليها على

والخير من الشر، فبينما هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر، فهم صم بكم هم الخرس، فهم لا يرجعون إلى الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمِثْلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: ضربه الله مثلاً للمنافق، وقوله ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ قال: أما النور، فهو إيمانهم الذي يتكلمون به، وأما الظلمة، فهو ضلالهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرجنا أيضاً عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة، والحسن والسدي، والربيع بن أنس نحو ما تقدم.

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُبٌ يُصْهِرُونَ أَمْ يَكُونُونَ لَمَّا بَرَأَ مِنَ الْمَرْيُوتِ حَذَرَ الْكَوْنِ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ يَكَاذِبُونَ يُخَفِّفُ أَيْسَرَهُمْ كُلًّا أَصْحَابَهُ لَهُمْ مَسَاقِيَةٌ وَإِذَا لَمْ يَلْمُزْهُمْ عَظِيمًا قَالُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْبَصَرَهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَّامٌ لِّغُيُوبِهِ ﴿٩﴾

عطف هذا المثل على المثل الأول بحرف الشك لقصد التخيير بين المثلين أي: مثلهم بهذا، أو هذا، وهي وإن كانت في الأصل للشك، فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوي من غير شك - وقيل: إنها بمعنى الواو، قاله: الفراء، وغيره، وأنشد:

وقد زعمت ليلى بناني فاجر لنفسى نقاما أو عليها فجورها
وقال آخر:

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
والمراد بالصيب: المطر، واشتقاقه من صاب يصوب: إذا نزل. قال علقمة:

فلا تعنلي بيني وبين معمر سقتك روايا الموت حيث تصوب
وأصله صيوب، اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداها بالساكن، فقلبت الواو ياء وأدغمت، كما فعلوا في ميت، وسيد. والسماء في الأصل: كل ما علاك فأنطك. ومنه قيل لسقف البيت سماء. والسماء أيضاً: المطر، سمي بها لنزوله منها، وفائدة ذكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلا منها أنه لا يختص نزوله بجانب منها نون جانب، وإطلاق السماء على المطر واقع كثيراً في كلام العرب، فمنه قول حسان:

ليار من بني الحسحاس فقر تعفيها السوامس والسماء

وقال آخر:

إذا نزل السماء بأرض قوم

والظلمات قد تقدم تفسيرها، وإنما جمعها إشارة إلى أنه انضم إلى ظلمة الليل ظلمة الغيم. والرعد: اسم لصوت الملك الذي يزرع السحاب. وقد أخرج الترمذي من حديث ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زرجه بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره». قالت: صدقت، الحديث بطوله، وفي إسناده مقال. قال القرطبي: وعلى هذا التفسير أكثر العلماء، وقيل: هو: اضطراب أجرام

مسامعه. والأيكيم: الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل: الأخرس والأيكيم واحد. والعصى: ذهاب البصر. والمراد بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى الحق، وجواب لما في قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾، قيل هو: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وقيل: محذوف تقديره: طفت فبقوا حائرين. وعلى الثاني فيكون قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ كلاماً مستأنفاً، أو بدلاً من المقدر.

ضرب الله هذا المثل للمنافقين ليبين أن ما يظهره من الإيمان مع ما يبيتونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام، كمثله المستوقد الذي أضاءت ناره، ثم طفت، فإنه يعود إلى الظلمة، ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة، فكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده، وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل؛ لأن الباطل كذلك تسطع نواصب لهب ناره لحظة، ثم تخفت. ومنه قولهم: «للباطل صولة، ثم يضمحل»، وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأناً عظيماً في إبراز خفيات المعاني، ورفع أستار محجبات الدقائق ولهذا استكثر الله من ذلك في كتابه العزيز، وكان رسول الله ﷺ أكثر من ذلك في مخاطباته ومواظله. قال ابن جرير: إن هؤلاء المضروب لهم المثل هانئاً لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]. وقال ابن كثير: إن الصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه، وطبع على قلوبهم كما يفيد قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3]. قال ابن جرير: وصح ضرب مثل الجماعة بلواحد كما قال «رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت» [الأحزاب: 19] أي: كدوران عيني الذي يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ [الجمعة: 5] اهـ. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام، فينلحهم المسلمون، ويوارثونهم، ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه «وتركهم في ظلمات لا يبصرون» يقول: في عذاب «صم بكم عمي» فهم لا يسمعون الهدى، ولا يبصرونه، ولا يعقلونه. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قالوا: إن ناساً دخلوا في الإسلام عند مقدم النبي ﷺ المدينة ثم نافقوا، فكان مثلهم كمثله رجل كان في ظلمة فأوقد ناراً فأضاء ما حوله من قذى وأذى، فأبصره حتى عرف ما يتقي، فبينما هو كذلك إذا طفت ناره فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى. فكنك المنافق كان في ظلمة الشرك، فأسلم فعرف الحلال من الحرام،

الله ﷻ إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق، فجعلنا كلما أصابهما الصواعق يجعلان أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلها، وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه وإذا لم يلمع لم يبصرا قاما مكانهما لا يمشيان فجعلنا يقولان: ليتنا قد أصبحنا ففاتي محمداً فنضع أيدينا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما، ووضعنا أيديهما في يده وحسن إسلامهما فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة، وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء، أو ينكروا بشيء فيقتلوا، كما كان ذلك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما، وإذا أضاء لهم مشوا فيه أي: فإذا كثرت أموالهم وأولادهم، وأصابوا غنيمة، وفتحاً مشوا فيه، وقالوا: إن دين محمد ﷺ حينئذ صدق، واستقاموا عليه، كما كان ذاك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهم البرق، وإذا أظلم عليهم قاموا، فكانوا إذا هلكت أموالهم وأولادهم، وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل دين محمد ﷺ وارتدوا كفراً كما قام المنافقان حين أظلم البرق عليهما. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: ﴿أو كصيب﴾ قال: هو، المطر، وهو مثل للمنافق في ضوئه يتكلم بما معه من كتاب الله مرآة الناس، فإذا خلا وحده عمل بغيره، فهو في ظلمة ما أقام على ذلك. وأما الظلمات: فالضلالات. وأما البرق: فالإيمان، وهم أهل الكتاب، وإذا أظلم عليهم: فهو رجل يأخذ بطرف الحق لا يستطيع أن يجاوزه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً نحو ما سلف. وقد روي تفسيره بنحو ذلك عن جماعة من التابعين.

واعلم أن المنافقين أصناف، فمنهم من يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، ومنهم من قال فيه النبي ﷺ كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» ورد بلفظ أربع، وزاد: «وإذا خاصم فجر». ورد بلفظ «وإذا عاهد غدر». وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين أن هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَعْوَنُ
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ رِيشًا وَالسَّمَاءَ بَنَةً وَأَرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الْأَشْجَارِ رِيشًا لَكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُ إِلهًا أَنْدَادًا وَاتَّقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ

لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين، والكافرين، والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب التفاتاً للنكتة السابقة في الفاتحة. ويا حرف نداء، والمنادى أي: وهو اسم مفرد مبني على الضم، وها حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته. قال سيبويه: كأنك كررت «يا» مرتين، وصار الاسم بينهما كما قالوا: هاهذا. وقد تقدّم الكلام في تفسير الناس، والعبادة، وإنما خص نعمة الخلق، وامتن بها عليهم؛ لأن جميع النعم مترتبة

السحاب عند نزول المطر منها، وإلى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعاً للفلاسفة، وجهلة المتكلمين، وقيل: غير ذلك، والبرق: مخراق حديد بيد الملك الذي يسوق السحاب، وإليه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة للحديث السابق. وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة: إن البرق ما ينقذ من اصطكاك أجرام السحاب المتركمة من الأبخرة المتصعدة المشتعلة على جزء ناري يتلهب عند الاصطكاك. وقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها، كأن قائلها قال: فكيف حالهم عند ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم في آذانهم. وإطلاق الأصبع على بعضها مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية والكلية؛ لأن الذي يجعل في الأذن إنما هو: رأس الأصبع لا كلها. والصواعق، ويقال الصواعق: هي قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذي يزرع السحاب عند غضبه، وشدة ضربه لها، ويدل على ذلك ما في حديث ابن عباس الذي ذكرنا بعضه قريباً وبه قال كثير من علماء الشريعة. ومنهم من قال: إنها نار تخرج من فم الملك. وقال الخليل: هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار تحرق ما أتت عليه. وقال أبو زيد: الصاعقة: نار تسقط من السماء في رعد شديد. وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة ومن قال بقولهم: إنها نار لطيفة تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامها. وسيأتي في سورة الرعد إن شاء الله في تفسير الرعد، والبرق، والصواعق ماله مزيد فائدة، وإيضاح. ونصب ﴿حذر للموت﴾ على أنه مفعول لأجله. وقال الفراء: منصوب على التمييز، والموت: ضد الحياة. والإحاطة: الأخذ من جميع الجهات حتى لا تفوت المحاط به بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿يكاد البرق يخطف لبصارهم﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ ويكاد: يقارب. والخطف: الأخذ بسرعة، ومنه سمي الطير خطافاً لسرعته. وقرأ مجاهد ﴿يخطف﴾ بكسر الطاء، والفتح أنصح. وقوله: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ كلام مستأنف كأنه قيل: كيف تصنعون في تارتي خفوق البرق وسكونه، وهو تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشئته على أهل الصيب ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ بالزيادة في الرعد والبرق ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ وهذا من جملة مقبوراته سبحانه. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ﴿أو كصيب﴾ هو: المطر ضرب مثله في القرآن ﴿فيه ظلمات﴾ يقول: ابتلاء ﴿ورعد وبرق﴾ تخويف ﴿يكاد البرق يخطف لبصارهم﴾ يقول: يكاد يحكم القرآن يدل على عورات المنافقين ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ يقول: كلما أصاب المنافقون من الإسلام عزاً اطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ [الحج: 11] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول

واحد. انتهى. وحذف مفعول تعلمون للدلالة على عدم اختصاص ما هم عليه من العلم بنوع واحد من الأنواع الموجبة للتوحيد. وقد أخرج البزار، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: ما كان **«يا أيها الذين آمنوا»** فهو أنزل بالمدينة، وما كان **«يا أيها الناس»** فهو أنزل بمكة. وروى نحو ذلك عن ابن أبي شيبه وعبد بن حميد، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه. وروى نحوه أبو عبيد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر من قول علقمة. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن مريويه، وابن المنذر عن الضحاك مثله. وكذا أخرج أبو عبيد عن ميمون بن مهران. وأخرج نحوه أيضاً ابن أبي شيبه، وابن مريويه عن عروة، وعكرمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«يا أيها الناس»** قال: هي للفریقین جميعاً من الكفار والمؤمنين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: **«لعلكم»** يعني: كي. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: لعل من الله واجب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: **«الذي جعل لكم الأرض فراشاً»** [البقرة: 22] أي: تمشون عليها وهي: المهاد والقرار **«والسماء بناءً»** [البقرة: 22] قال: كهيئة القبة وهي سقف الأرض. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن أنه سئل: المطر من السماء أم من السحاب قال: من السماء. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن كعب قال: السحاب غريال المطر، ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض والبذر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن خالد بن معدان قال: المطر ماء يخرج من تحت العرش، فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع في سماء الدنيا، فيجتمع في موضع يقال: له الأيضم، فتجعي السحاب السود، فتدخله، فتشربه مثل شرب الإسفنج، فيسوقها الله حيث يشاء. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة قال: ينزل الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن خالد بن يزيد قال: المطر منه من السماء، ومنه ما يستقيه الغيم من البحر، فيعذبه الرعد والبرق. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المطر عن ابن عباس قال: إذا جاء القطر من السماء تفتحت له الأصداف، فكان لؤلؤاً. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي الدنيا في كتاب المطر، وأبو الشيخ في العظمة عن المطلب بن حنطب أن النبي ﷺ قال: «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء». وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما نزل مطر من السماء إلا ومعه البذر، أما لو أنكم بسطتم نطعاً لرأيتموه. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: المطر. مزاجه من الجنة، فإذا كثر المزاج عظمت البركة وإن قلَّ المطر، وإذا قلَّ المزاج قلت البركة وإن كثر المطر. وأخرج أبو الشيخ عن

عليها، وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها بدونها وأيضاً، فالكفار مقرّون بأن الله هو الخالق **«ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله»** [الزخرف: 87] فامتن عليهم بما يعترفون به، ولا ينكرونه. وفي أصل معنى الخلق، وجهان: أحدهما التقدير، يقال: خلقت الأبيم للسقاء: إذا قُترته قبل القطع. قال زهير:

ولأنت تغري ما خلقت وبعـ خـ القوم يخلق ثم لا يغري
الثاني: الإنشاء، والإختراع، والإبداع. ولعل أصلها: الترجي، والطمع، والتوقع، والإشفاق، وذلك مستحيل على الله سبحانه، ولكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كان بمنزلة قوله لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع، وبهذا قال جماعة من أئمة العربية منهم سيبويه. وقيل: إن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كي. والمعنى هنا: لتتقوا، وكذلك ما وقع هذا الموضع، ومنه قول الشاعر:

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكفـ ووَقِتم لنا كل موثق
فلما كلفنا الحرب كانت عهوبكم كـشبه سراب في الملا متالق
أي: كفوا عن الحرب لنكف، ولو كانت لعل للشك لم يوثقوا لهم كل موثق، وبهذا قال جماعة منهم قطرب. وقيل إنها بمعنى التعرّض للشيء كأنه قال: متعرّضين للتقوى. وجعل هنا بمعنى صير لتعنيّه إلى المفعولين، ومنه قول الشاعر:

وقد جعلت أرى الإثنين أربعة والأربع اثنين لما هدني الكبير
«وفراشاً» أي: وطاء يستقرون عليها. لما قَدِمَ نعمة خلقهم أتبعه بنعمة خلق الأرض فراشاً لهم، لما كانت الأرض التي هي مسكنهم، ومحل استقرارهم من أعظم ما تدعو إليه حاجتهم، ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم، والسقف للبيت الذي يسكنونه كما قال: **«وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً»** [الأنبياء: 32]. وأصل البناء: وضع لبنة على أخرى، ثم امتدَّ عليهم بإنزال الماء من السماء. وأصل ماء موه، قلبت الواو لتحركها وانفتاح ما قبلها الفاء فصار ماءه، فاجتمع حرفان خفيفان، فقلبت الهاء همزة. والثمرات جمع ثمرة. والمعنى: أخرجنا لكم الواو من الثمرات، وأنواعاً من النبات ليكون ذلك متاعاً لكم إلى حين. والانداد جمع ند، وهو المثل والنظير. وقوله: **«وأنتم تعلمون»** جملة حالية، والخطاب للكفار والمنافقين. فإن قيل: كيف وصفهم بالعلم، وقد نعتهم بخلاف ذلك حيث قال: **«ولكن لا يعلمون»**. [البقرة: 13] **«ولكن لا يشعرون»** [البقرة: 12]. **«وما كانوا مهتدين»** [البقرة: 16]. **«صمّ بكم عمي»** [البقرة: 18]. فيقال: إن المراد أن جهلهم، وعدم شعورهم لا يتناول هذا أي: كونهم يعلمون أنه المنعم بون غيره من الأنداد، فإنهم كانوا يعلمون هذا، ولا ينكرونه كما حكاه الله عنهم في غير آية. وقد يقال: المراد، وأنتم تعلمون، وحدانيته بالقوة والامكان لو تبرّتم ونظرتهم. وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج، وترك التقليد. قال ابن فورك: المراد: وتجعلون لله أنداداً بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله

الحسن قال: ما من عام يامطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، وينزل مع المطر كذا وكذا من الملائكة يكتبون حيث يقع ذلك المطر، ومن يزرقه، ومن يخرج منه مع كل قطرة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا أَي: لا تشركوا به غيره من الأنداد التي لا تضُرُّ ولا تنفع﴾ **﴿وَلَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** أنه لا رب لكم يرزقكم غيره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿أَنْدَادًا﴾** قال: أشباهاً. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود **﴿أَنْدَادًا﴾** قال شركاء. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في الألب المفرد، والنسائي، وابن ماجه، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: «قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: جعلتني لله نداً ما شاء الله وحده». وأخرج ابن سعد عن قتيلة بنت صيفي قالت: جاء خبر من الأخبار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، قال: «وكيف؟» قال: يقول أحكم لا والكعبة فقال النبي ﷺ: «من حلف، فليحلف برب الكعبة». فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله نداً، قال: «وكيف ذلك؟» قال: يقول أحكم ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «فمن قال منكم ما شاء الله قال ثم شئت». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان». وأخرج أحمد، وابن ماجه، والبيهقي، وابن مردويه عن طفيل بن سخبرة: أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مرَّ برهط من اليهود فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيراً ابن الله، فقالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله، وشاء محمد. ثم مرَّ برهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبح أخبر النبي ﷺ، فخطب، فقال: «إن طفيلاً رأى رؤيا، وإنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم، فلا تقولوها، ولكن قولوا ما شاء الله وحده لا شريك له». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفا سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتي يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كلبه هذا لاتانا للصوص، ولولا القط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان، هذا كله شرك. وأخرج البخاري، ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً، وهو خلقك» الحديث.

وَأَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِهِ مَعَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٨﴾ إِنْ لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَأَتُوا النَّارَ كَذِبًا وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْجَارَةُ أَعْبَدَتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾

﴿في ريب﴾ أي: شك مما نزلنا على عبدنا أي: القرآن انزله على محمد ﷺ. والعبد مأخوذ من التعبد، وهو التذلّل. والتنزيل: التدرّج والتنجيم. وقوله: **﴿فَاتُوا﴾** الفاء جواب

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالبنون من كان نونا والقرب يقال: هذا نون ذاك أي: أقرب منه، ويكون إغراء، تقول: نونك زيداً: أي خذه من أننى مكان **﴿من نون الله﴾** متعلق بادعوا أي: ادعوا الذين يشهدون لكم من نون الله إن كنتم صابقين فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، وهذا تعجيز لهم، وبيان لانقطاعهم. والصق خلاف الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع، أو للاعتقاد أولهما على الخلاف المعروف في علم المعاني **﴿فإن لم تفعلوا﴾** يعني فيما مضى **﴿ولن تفعلوا﴾** أي: تطبقوا ذلك، فيما يأتي وتبين لكم عجزكم عن المعارضة **﴿فاتقوا النار﴾** بالإيمان بالله، وكتبه، ورسله، والقيام بفرائضه، واجتناب مناهيه، وعبر عن الإتيان بالفعل، لأن الإتيان فعل من الأفعال لقصد الاختصار، وجملة لن تفعلوا لا محل لها من الإعراب، لأنها اعتراضية، ولن للنفي المؤكد لما دخلت عليه، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها؛ لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيام النبوة، وفيما بعدها، وإلى الآن. والوقود بالفتح: الحطب، وبالضم: التوقد أي: المصدر، وقد جاء فيه الفتح. والمراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها؛ لأنهم قرنوا أنفسهم بها في الدنيا، فجعلت وقوداً للنار معهم. ويدل على هذا قوله تعالى: **﴿إنكم وما تعبدون من دُونِ اللَّهِ حصب جهنم﴾** [الأنبياء: 98] أي: حطب جهنم. وقيل: المراد بها حجارة الكبريت، وفي هذا من التهويل مالا يقتر قدره من كون هذه النار تنقد بالناس والحجارة، فأوقدت بنفس ما يراك إحراقه بها، والمراد بقوله: **﴿أعدت﴾** جعلت عدة لعذابهم، وهيئت لذلك. وقد كرّر الله سبحانه تحذّر الكفار بهذا في مواضع في القرآن، منها هذا، ومنها قوله تعالى في سورة القصص: **﴿قل فاتوا بكتاب من عند**

الآية ﴿وقودها للناس والحجارة﴾ قال: «أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى أبيضت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها». وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن مروي، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد، ومالك، والبخاري، ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزءاً من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ قال: «فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها». وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي سعيد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن ماجه، والحاكم وصححه عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج مالك في الموطأ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: أترونها حمراء مثل ناركم هذه التي توقنون، إنها لأشد سواداً من القار. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿اعذت للكافرين﴾ قال أي: لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر.

وَيَبْرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَفَلُوا الْمُكَلِّبَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّتَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾

لما نكر تعالى جزاء الكافرين عقبه جزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز، لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعته، وتنشيط عباده الكافرين عن معاصيه. والتبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشرية، وهي الجدة الظاهرة، من البشر، والسرور. قال القرطبي: أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال: من بشرني من عبيدي، فهو حر، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حراً دون الثاني، واختلفوا إذا قال: من أخبرني من عبيدي بكذا، فهو حر، فقال أصحاب الشافعي: يعم لأن كل واحد منهم مخبر، وقال علماؤنا: لا، لأن المكلف إنما قصد خبراً يكون بشاره، وذلك مختص بالأول. انتهى. والحق أنه إن أراد مدلول الخبر عتقوا جميعاً، وإن أراد الخبر المقيد بكونه بشاره عتق الأول، فالخلاف لفظي. والمأمور بالتبشير قيل: هو: النبي ﷺ، وقيل: هو كل أحد كما في قوله ﷺ: «بشر المشائين» وهذه الجملة وإن كانت مصدرة بالإنشاء، فلا يقدح ذلك في عطفها على ما قبلها، لأن المراد عطف جملة وصف ثواب المطيعين على جملة وصف عقاب العاصين، من دون نظر إلى ما اشتمل عليه الوصفان من الأفراد المتخالفة خبراً وإنشاء. وقيل: إن قوله: ﴿وبشركم﴾ معطوف على قوله: ﴿فاتقوا النار﴾ [البقرة: 24]، وليس هذا بجيد. و﴿الصالحات﴾ الأعمال المستقيمة. والمراد هنا: الأعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم، وفيه رد على من يقول إن الإيمان بمجردة يكفي، فالجنة تنال بالإيمان، والعمل الصالح. والجنات: البساتين، وإنما سميت جنات: لأنها تجر من فيها أي: تستر شجرها، وهو اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على

الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صائقين» [القصاص: 49] وقال في سورة سبحان: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: 88] وقال في سورة هود: ﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صائقين﴾ [هود: 13] في سورة يونس: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صائقين﴾ [يونس: 37، 38].

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز في القرآن هو كونه في الرتبة العلمية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر، أو كان العجز عن المعارضة للصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه، والحق الأول، والكلام في هذا مبسوط في مواضعه. وقد أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وإن كنتم في ريب﴾ قال: هذا قول الله لمن شك من الكفار فيما جاء به محمد ﷺ، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وإن كنتم في ريب﴾ قال: في شك ﴿مما نزلنا على عبينا فاتوا بسورة من مثله﴾ قال: من مثل القرآن حقاً وصدقاً لا باطل فيه، ولا كذب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿فاتوا بسورة من مثله﴾ قال: مثل القرآن ﴿وادعوا شهداءكم﴾ قال: ناس يشهدون لكم إذا أتيتم بها أنها مثله. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿شهداءكم﴾ قال: أعوانكم على ما أنتم عليه ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ فقد بين لكم الحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ يقول: لن تقدروا على ذلك، ولن تطيقوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد: أنه كان يقرأ كل شيء في القرآن وقودها برفع الواو الأولى، إلا التي في السماء ذات البروج ﴿النار ذات الوقود﴾ [البروج: 5] بنصب الواو. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إن الحجارة التي نكرها الله في القرآن في قوله: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ [البقرة: 24] حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير أيضاً عن عمرو بن ميمون مثله أيضاً. وأخرج ابن مروي، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه

عبد ابن حميد، عن عكرمة قال: قولهم ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ معناه: هذا مثل للذي كان بالأمس. وأخرج ابن جرير عن، يحيى بن أبي كثير، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ في اللون مختلفاً في الطعم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال: خيار كله يشبه بعضه بعضاً لا رذل فيه، ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترنلون بعضها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مريويه، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: من الحيض، والغائط، والبزاق، والنخامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: من القدر، والأذى. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: لا يحضن، ولا يحدثن، ولا يتنخمن. وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين وقد ثبت عن النبي ﷺ في صفات أهل الجنة في الصحيحين، وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة أن أهل الجنة لا يبصقون، ولا يتمخون، ولا يتغوطون. وثبت أيضاً عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة في الصحيحين، وغيرهما من صفات نساء أهل الجنة ما لا يتسع المقام لبسطه، فليُنظر في نواوين الإسلام، وغيرها. وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: خالدين أبداً، يخبرهم أن الثواب بالخير، والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني لا يموتون. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «يُخَلُّ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُومُ مُؤَنِّنٌ بَيْنَهُمْ: يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ، كُلُّ هُوَ خَالِدٌ فِيهِمَا هُوَ فِيهِ». وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة نحوه. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه من حديث معاذ نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ قِيلَ لِأَهْلِ النَّارِ إِنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ فِي النَّارِ عُدَّ كُلُّ حِصَاةٍ فِي الدُّنْيَا لَفَرَحُوا بِهَا، وَلَوْ قِيلَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ عُدَّ كُلُّ حِصَاةٍ لَحَزَنُوا، وَلَكِنْ جَعَلَ لَهُمُ الْآدَمُ» ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا يَوْصِيهِ كَمَا قَوْلُهُ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَمُوتُونَ مَاتُوا بِمَلَكُوتِ اللَّهِ إِنَّهُ أَخَذَ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ عَهْدُ اللَّهِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ كَذِبٌ وَيَقُولُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُصَلُّوا وَيُسَلِّتُوا فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

أنزل الله هذه الآية رداً على الكفار لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الأمثال كقوله: ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 19] فقالوا الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال. وقال

جنات كثيرة. والأنهار جمع نهر، وهو: المجرى الواسع فوق الجنول ويون البحر، والمراد: الماء الذي يجري فيها، وأسند الجري إليها مجازاً، والجاري حقيقة هو الماء كما في قوله تعالى ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] أي: أهلها، وكما قال الشاعر:

ونبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس والضمير في قوله ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ عائذ إلى الجنات لاشتغالها على الأشجار أي: من تحت أشجارها. وقوله: ﴿كُلُّمَا رَزَقُوا﴾ وصف آخر للجنات، أو هو جملة مستأنفة كان سائلاً قال: كيف ثمارها. و﴿مَنْ ثَمَرَةٌ﴾ في معنى من أي ثمرة، أي: نوع من أنواع الثمرات. والمراد بقوله ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أنه شبيهه، ونظيره، لأنه هو، لأن ذات الحاضر لا تكون عين ذات الغائب لاختلافهما، وذلك أن اللون يشبه اللون، وإن كان الحجم، والطعم، والرائحة، والماوية متخالفة. والضمير في به عائذ إلى الرزق، وقيل: المراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهاً، فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره، فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجئوا له طعماً غير طعم الأول. و﴿مُتَشَابِهًا﴾ منصوب على الحال. والمراد بتطهير الأزواج أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قدر الحيض، والنفاس، وسائر الأناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا. والخلود: البقاء الدائم الذي لا ينقطع، وقد يستعمل مجازاً فيما يطول، والمراد هنا الأول. وقد أخرج ابن ماجه، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبزار، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والبيهقي، وابن مريويه، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا هَلْ مَشَمْرٌ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ نَوْرٌ يَتَلَأَلُ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مَطْرِدٌ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلٌّ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ، وَفَلَكَهَةٌ خَضِرَاءُ» الحديث. والأحاديث في وصف الجنة كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَفْجَرُ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ مَسْكٍ». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو حاتم، وأبو الشيخ، وابن حبان، والبيهقي في البعث وصححه عن ابن مسعود نحوه، موقوفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك في قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قال: يعني المساكين تجري أسفلها أنهارها. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿كُلُّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا﴾ قال: أتوا بالثمرة في الجنة، فنظروا إليها ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَاتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم. وأخرج عبد بن حميد، عن علي بن زيد، وقاتادة نحوه. وأخرج مسدد في مسنده، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء. وأخرج

الرازي: إنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزاً أورد ها هنا شبهة أوردتها الكفار قدحاً في ذلك، ولجأب عنها، وتقدير الشبهة أنه جاء في القرآن نكر النحل، والعنكبوت، والنمل، وهذه الأشياء لا يليق نكرها بكلام الفصحاء، فاشتتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً. وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الأشياء لا تقدح في الفصاحة إذا كان نكرها مشتملاً على حكمة بالغة. انتهى. ولا يخفك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه، وإرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له، ولا دليل عليه، وقد تقدم إلى شيء من هذا صاحب الكشف، والظاهر ما نكرناه أولاً لكون هذه الآية جاءت بعقب المثليين الذين هما منكوردان قبلها، ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قاصحاً في الفصاحة والإعجاز. والحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم؛ كذا في الكشف، وتبعه الرازي في مفاتيح الغيب. وقال القرطبي: أصل الاستحياء: الانقباض عن الشيء، والامتناع منه خوفاً من مواجهة القبيح، وهذا محال على الله. انتهى. وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من نكر الحياء فقيل: ساغ ذلك لكونه واقعاً في الكلام المحكي عن الكفار، وقيل: هو من باب المشكلة كما تقدم، وقيل هو جار على سبيل التمثيل. قال في الكشف: مثل تركه تخيب العبد، وأنه لا يرد يديه صفراً من عطائه لكرمه بترك من يترك رذ المحتاج إليه حياء منه. انتهى. وقد قرأ ابن محيصة، وابن كثير في رواية عنه «يستحي» بياء واحدة، وهي لغة تميم، ويكر بن وائل، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء، فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين. وضرب المثل: اعتماده وصنعه. و«ما» في قوله: «ما بعوضة» إبهامية أي: موجبة لإبهام ما دخلت عليه حتى يصير أعم مما كان عليه، وأكثر شيوعاً في أفراذه، وهي في موضع نصب على الليل من قوله: «مثلاً» و«بعوضة» نعت لها لإبهامها، قاله الفراء، والزجاج، وشعلب، وقيل: إنها زائدة، وبعوضة بدل من مثل. ونصب بعوضة في هذين الوجهين ظاهر، وقيل: إنها منصوبة بنزع الخافض، والتقدير: أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة، فحذف لفظ بين. وقد روي هذا عن الكسائي، وقيل: إن يضرب بمعنى يجعل، فتكون بعوضة المفعول الثاني. وقرأ الضحاك، وإبراهيم بن أبي عبلة ورؤية بن العجاج «بعوضة» بالرفع، وهي لغة تميم. قال أبو الفتح: وجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة الذي، وبعوضة رفع على إضمار المبتدأ، ويحتمل أن تكون «ما» استفهامية كأنه قال تعالى: «ما بعوضة فما فوقها» حتى لا يضرب المثل به، بل يدان لمثل بما هو أقل من ذلك بكثير، والبعوضة فعولة من بعض: إذا قطع، يقال: بعض وبعض بمعنى، والبعض: البق، للواحدة بعوضة، سميت بذلك لصغرها، قاله الجوهري وغيره. وقوله: «فما فوقها» قال الكسائي وأبو عبيدة وغيرهما: فما فوقها والله أعلم ما دونها:

أي أنها فوقها في الصغر كجناحها. قال الكسائي، وهذا كقولك في الكلام أترأه قصيراً، فيقول القائل: أو فوق ذلك أي: أقصر مما ترى. ويمكن أن يرد، فما زاد عليها في الكبر. وقد قال بذلك جماعة. قوله: «فاما الذين آمنوا» أما حرف فيه معنى الشرط، وقدره سيوييه بمهما يكن من شيء، فكذا. وبكر صاحب الكشف أن فائدته في الكلام أنه يعطيه فضل توكيد، وجعل تقدير سيوييه لئلا على ذلك. والضمير في «لأنه» راجع إلى المثل. و«الحق» الثابت، وهو المقابل للباطل، والحق، واحد الحقوق، والمراد هنا الأول. وقد اختلف النحاة في (ماذا) فقيل: هي بمنزلة اسم واحد بمعنى: أي شيء أراد الله، فتكون في موضع نصب بأراد. قال ابن كيسان: وهو: الجيد. وقيل: «ما» اسم تام في موضع رفع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو: خبر المبتدأ مع صلته، وجوابه يكون على الأول منصوباً وعلى الثاني مرفوعاً. والإرادة نقيض الكراهة، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز إطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه، و«مثلاً» قال شعلب: منصوب على القطع، والتقدير: أراد مثلاً. وقال ابن كيسان: هو: منصوب على التمييز الذي وقع موقع الحال، وهذا أقوى من الأول. وقوله: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً» هو: كالتفسير للجملتين السابقتين المصترتين باما، فهو خبر من الله سبحانه. وقيل: هو: حكاية لقول الكافرين كأنهم قالوا: ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة، وإلى هدى؟ وليس هذا بصحيح، فإن الكافرين لا يقرّون بأن في القرآن شيئاً من الهداية، ولا يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة. قال القرطبي: ولا خلاف أن قوله: «وما يضل به إلا الفاسقين» من كلام الله سبحانه. وقد أطلال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال المذكور هنا، وفي نسبه إلى الله سبحانه. وقد نزع البحث الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب في هذا الموضوع تنقيحاً نفيساً، وجوده وطوله، وأوضح فروعاً، وأصوله، فليرجع إليه فإنه مفيد جداً. وأما صاحب الكشف، فقد اعتمد ها هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره، فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه بكونه سبباً، فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي، وحكى القرطبي عن أهل الحق من المفسرين أن المراد بقوله: «يضل» يخذل. والفسق: الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت عن قشرها. والفارة من جحرها نكر معنى هذا الفراء. وقد استشهد أبو بكر بن الأنباري في كتاب الزاهر له على معنى الفسق بقول رؤية بن العجاج:

يهوين في نجد وغوراً غائراً فواسقاً عن قصدها جوائر
قد زعم ابن الأعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية، ولا في شعرهم فاسق، وهذا مردود عليه، فقد حكى ذلك عن العرب، وأنه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس، والجوهري، وابن الأنباري، وغيرهم. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «خمسة فواسق» الحديث. وقال في

مسعود، وناس من الصحابة قال: لما ضرب الله هذين المثليين للمنافقين قوله: ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] وقوله: ﴿أَوْ كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 19] قال المنافقون: الله أعلا وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فانزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مِثْلًا﴾ الآية. وأخرج الواحدي في تفسيره عن ابن عباس قال: إن الله نكر آلهة المشركين، فقال: ﴿وَأَنْ يَسْلِبَهُمُ الذَّنْبَ شَيْئًا﴾ [الحج: 73] ونكر كيد الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: رأيت حيث نكر الله الذناب، والعنكبوت، فيما أنزل من القرآن على محمد أي شيء كان يصنع بهذا؟ فانزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحو قول ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبُ مِثْلٍ﴾ [الحج: 73] قال المشركون: ما هذا من الأمثال، فيضرب؟ فانزل الله هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال: يؤمن به المؤمن، ويعلمون أنه الحق من ربهم، ويهتديهم الله به، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المنافقين ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المؤمنين ﴿وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون. وفي قوله: ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: هو ما عهد إليهم في القرآن، فآفَرُوا به، ثم كفروا، فنقضوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يقول: يعرف الكافرون، فيكفرون به. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: فسقوا، فاضلهم الله بفسقهم. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعد بن أبي وقاص قال: الحروية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان يسميهم الفاسقين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: ما نعلم الله أوعد في ننب ما أوعد في نقض هذا الميثاق، فمن أعطى عهد الله، وميثاقه من ثمرة قلبه، فليوف به الله. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في أحاديث ثابتة في الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهي عن نقض العهد، والوعيد الشديد عليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قال: الرحم والقرابة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعملون فيها بالمعصية. وأخرج ابن المنذر عن مقاتل في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول: هم أهل النار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام مثل خاسر، ومسرر، وظالم، ومجرم، وفاسق، فإنما يعني به الكفر، وما نسبته إلى الإسلام، فإنما يعني به الذم.

الكشاف: الفسق الخروج عن القصد، ثم نكر عجز بيت رؤية المنكور، ثم قال: والفاسق في الشريعة: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة. انتهى. وقال القرطبي: والفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان. انتهى. وهذا هو: أنسب بالمعنى اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض. قال الرازي في تفسيره: واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن، أو كافر؟ فعند أصحابنا أنه مؤمن، وعند خوارج أنه كافر، وعند المعتزلة لا مؤمن، ولا كافر، واحتج المخالف بقوله تعالى: ﴿يَبْسُ اسْمُ الْفَاسِقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 11] وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67] وقوله: ﴿حَبِيبٌ إِلَيْكَ الْإِيمَانُ وَزِينَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكَ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ﴾ [الحجرات: 7] وهذه المسألة طويلة منكرة في علم الكلام. انتهى. وقوله ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾ في محل نصب وصفاً للفاسيقين. والنقض: إفساد ما أبرم من بناء، أو حبل، أو عهد، والنقضة: ما نقض من حبل الشعر. والعهد: قيل: هو الذي أخذ الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره، وقيل: هو: وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على اللسان رسله، ونقضهم ذلك: ترك العمل به، وقيل: بل نصب الآية على وحدانيته بالسموات، والأرض، وسائر مخلوقاته، ونقضه: ترك النظر فيه، وقيل: هو ما عهده إلى الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس والميثاق: العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة وهي الشدة في العقد، والربط، والجمع المواثيق، والميثاق، وأنشد ابن الأعرابي:

حمى لا يحل الدهر إلا بإننا ولا نسال الأقوام عهد الميثاق واستعمال النقض في إبطال العهد على سبيل الاستعارة، والقطع معروف، والمصدر في الرحم القطعية، وقطعت الحبل قطعاً، وقطعت النهر قطعاً. وماء في قوله: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ في موضع نصب بيقطعون، و ﴿أَنْ يُوصَلَ﴾ في محل نصب بامر. ويحتمل أن يكون بدلاً من ماء، أو من الهاء في به. واختلفوا ما هو الشيء الذي أمر الله بوصله، فقيل: الأرحام، وقيل: أمر أن يوصل القول بالعمل، وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه، فقطعوه بتصديق بعضهم، وتكذيب البعض الآخر، وقيل: المراد به حفظ شرائعه، وحدوده التي أمر في كتبه المنزل، وعلى اللسان رسله بالمحافظة عليها، فهي عامة، وبه قال الجمهور، وهو: الحق. والمراد بالفساد في الأرض الأفعال، والأقوال المخالفة لما أمر الله به، كعبادة غيره، والإضرار بعباده، وتغيير ما أمر بحفظه، وبالجمل، فكل ما خالف الصلاح شرعاً أو عقلاً، فهو فساد. والخسران: النقصان، والخاسر، هو: الذي نقص نفسه من الفلاح، والفوز، وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل كان عملهم فساداً لما نقصوا أنفسهم من الفلاح، والربح. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٨﴾

كيف مبنية على الفتح لخفته، وهي في موضع نصب بتكفرون، ويسأل بها عن الحال، وهذا الاستفهام هو للإنكار عليهم، والتعجب من حالهم، وهي متضمنة لهمزة الاستفهام، والوار في ﴿وكنتم﴾ للحال، وقد مقدرة كما قال الزجاج والفرء، وإنما صح جعل هذا الماضي حالا لأن الحال ليس هو مجرد قوله ﴿كنتم أمواتاً﴾ بل هو وما بعده إلى قوله ﴿ترجعون﴾ كما جزم به صاحب الكشف كأنه قال: كيف تكفرون؟ وقصتكم هذه أي: وأنتم عالمون بهذه القصة، وبأولها، وآخرها. والأموات جمع ميت، واختلف المفسرون في ترتيب هاتين الموتتين، والحياتين - فقيل: إن المراد ﴿كنتم أمواتاً﴾ قبل أن تخلقوا أي: معدومين، لأنه يجوز إطلاق اسم الموت على المعلوم لاجتماعها في عدم الاحساس ﴿فأحياكم﴾ أي: خلقكم ﴿ثم يميتكم﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ يوم القيامة. وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة، فمن بعدهم. قال ابن عطية: وهذا القول هو: المراد بالآية، وهو الذي لا محيد للكفار عنه، وإذا أذعن نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين، ثم أحياء في الدنيا، ثم أمواتاً فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى. قال غيره: والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا. وقيل: إن المراد كنتم أمواتاً في ظهر آدم ثم أخرجكم من ظهره كالأثر، ثم يميتكم موت الدنيا، ثم يبعثكم. وقيل: ﴿كنتم أمواتاً﴾ أي: نطفاً في أصلاب الرجال ﴿فأحياكم﴾ حياة الدنيا. ﴿ثم يميتكم﴾ بعد هذه الحياة ﴿ثم يحييكم﴾ في القبر ﴿ثم يميتكم﴾ في القبر «ثم يحييكم» الحياة التي ليس بعدها موت. قال القرطبي: فعلى هذا التأويل هي: ثلاث موتات، وثلاث إحياءات، وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره، والشهادة عليهم غير كونهم نطفاً في أصلاب الرجال، فعلى هذا يجيء أربع موتات وأربع إحياءات. وقد قيل: إن الله أوجدكم قبل خلق آدم كالبهائم، وأماتهم، فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات، وموتة سابعة للعصاة من أمة محمد ﷺ كما ورد في الحديث: «ولكن ناس أصابتهم النار بنوبهم، فأماتهم الله إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أنز في الشفاعة فجيء بهم، إلى أن قال: فينبطون نبات الحبة في حميل السيل» وهو في الصحيح من حديث أبي سعيد. وقوله: ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي: إلى الله سبحانه، فيجازيكم بأعمالكم. وقد قرأ يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، ومجاهد، وسلام، ويعقوب بفتح حرف المضارعة، وقرأ الجماعة بضمه. قال في الكشف: عطف الأول بالفاء، وما بعده بثم، لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت، فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر، فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزء أيضاً متراخ عن النشور.

انتهى. ولا يخفك أنه إن أراد بقوله إن الإحياء الأول قد تعقب الموت أنه وقع على ما هو متصف بالموت، فالموت الآخر وقع على ما هو متصف بالحياة، وإن أراد أنه وقع الإحياء الأول عند أول اتصافه بالموت بخلاف الثاني، فغير مسلم، فإنه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثاني عند آخر أوقات حياته، فتامل هذا. وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ الآية، قال: لم تكونوا شيئاً، فخلقكم ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: يميتكم، ثم يحييكم في القبر، ثم يميتكم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العلية في قوله: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ قال: حين لم تكونوا شيئاً، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، ثم يرجعون إليه بعد الحياة. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خلقهم من ظهر آدم، فأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم، ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. والصحيح الأول.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قال ابن كيسان: ﴿خلق لكم﴾ أي: من أجلكم، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات، وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله ﴿جميعاً﴾ أقوى دلالة على هذا. وقد استدل بهذه الآية على تحريم أكل الطين، لأنه تعالى خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض. وقال الرازي في تفسيره: إن لقاتل أن يقول: إن في جملة الأرض ما يطلق عليه أنه في الأرض، فيكون جامعا للوصفين، ولا شك أن المعادن داخلة في ذلك، وكذلك عروق الأرض، وما يجري مجرى البعض لها؛ ولأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه. انتهى. وقد ذكر صاحب الكشف ما هو أوضح من هذا فقال: فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى: خلق لكم الأرض، وما فيها وجه صحة؟ قلت: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء، ويراد الجهات العلوية جاز ذلك، فإن الغبراء، وما فيها واقعة في الجهات السفلية. انتهى. وأما التراب، فقد ورد في السنة تحريمه، وهو أيضاً ضار، فليس مما ينتفع به أكلاً، ولكنه ينتفع به في منافع أخرى، وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الأكل، بل كل ما يصدق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه، وجميعاً منصوب على الحال. والاستواء في اللغة: الاعتدال، والاستقامة، قاله في الكشف، ويطلق على الارتفاع، والعلو على الشيء، قال تعالى: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ [المؤمنون: 28] وقال: ﴿لنستويوا على ظهوره﴾ [الزخرف: 13] وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية. وقد قيل: إن هذه الآية من

المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء، والصفات عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض﴾ الآية، قالوا: إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسمّا عليه فسماه سماء، ثم انبسط الماء، فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها سبع أرضين في يومين الأحد، والاثنين، فخلق الأرض على حوت، وهو: الذي نكره في قوله: ﴿هَنَ والقلم﴾ [القلم: 1] والحوث في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي: الصخرة التي نكر لقمان ليست في السماء، ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرسل عليها الجبال فقرّت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15] وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها، وسخرها، وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء، والأربعاء، وذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَارِكْ فِيهَا﴾ [فصلت: 9] أنبت شجرها ﴿وَوَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: 10] يقول: أقوات أهلها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْإِنْسَانِ﴾ [فصلت: 10] يقول: من سأل، فهكذا الأمر، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ تَخَانُ﴾ [فصلت: 11] وكان ذلك البخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة؛ وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات، والأرض ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12] قال: خلق في كل أسماء خلقها من الملائكة، والخلق الذي فيها من البحار، وجبال البرد، وما لا يعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة، وحفظاً من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش. وأخرج البيهقي في الاسماء، والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني صعد أمره إلى السماء، فسواهن: يعني خلق سبع سموات، قال: أجرى النار على الماء، فبخر البحر، فصعد في الهواء، فجعل السموات منه. وقد ثبت عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة في الصحيح قال: «أخذ النبي ﷺ بيدي، فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر». وقد ثبت عن النبي ﷺ من طرق عند أهل السنن، وغيرهم عن جماعة من الصحابة لحديث في وصف السموات، وإن غلط كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام، وأنها سبع سموات، وإن الأرض سبع أرضين، وكذلك ثبت في وصف السماء آثار عن جماعة من الصحابة وقد نكر السيوطي في الدر المنثور بعض ذلك في تفسير هذه الآية، وإنما تركنا نكره ها هنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص،

المشكلات. وقد ذهب كثير من الأئمة إلى الإيمان بها، وترك التعرّض لتفسيرها، وخالفهم آخرون. والضمير في قوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ مبهم يفسره ما بعده كقولهم: زيد رجلاً، وقيل: إنه راجع إلى السماء؛ لأنها في معنى الجنس، والمعنى: أنه عدل خلقهن، فلا اعوجاج فيه. وقد استدلل بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء. وكذلك الآية التي في حمّ السجدة. وقال في النزاعات: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النزاعات: 27] فوصف خلقها، ثم قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ بِنَاهَا﴾ [النزاعات: 30] فكان السماء على هذا خلقت قبل الأرض، وكذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] وقد قيل: إن خلق جرم الأرض متقدم على السماء، وبحوها متأخر. وقد نكر نحو هذا جماعة من أهل العلم، وهذا جم جيد لا بدّ من المصير إليه، ولكن خلق ما في الأرض لا يكون إلا بعد الدحو، والآية المذكورة هنا دلّت على أنه خلق ما في الأرض قبل خلق السماء، وهذا يقتضي بقاء الإشكال، وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع. وقوله: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فيه التصريح بأن السموات سبع، وأما الأرض، فلم يأت في نكر عددها إلا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلُهَا﴾ [الطلاق: 12] فقليل أي: في العدد، وقيل أي: في غلظته، وما بينهما. وقال الداودي: إن الأرض سبع، ولكن لم يفتق بعضها من بعض. والصحيح أنها سبع كالسموات. وقد ثبت في الصحيح قوله ﷺ: «من أخذ شبراً من الأرض ظمأ طوّقه الله من سبع أرضين»، وهو ثابت من حديث عائشة، وسعيد بن زيد. ومعنى قوله تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ سَوَّى سطوحهن بالإملاص، وقيل: جعلهن سواء. قال الرازي في تفسيره: فإن قيل: فهل يدل التنصيص على سبع سموات أي: فقط قلنا: الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد، والله أعلم. انتهى. وفي هذا إشارة إلى ما نكره الحكماء من الزيادة على السبع. ونحن نقول: إنه لم يأتنا عن الله، ولا عن رسوله إلا السبع، فنقتصر على ذلك، ولا نعمل بالزيادة إلا إذا جاءت من طريق الشرع، ولم يأت شيء من ذلك، وإنما أثبت لنفسه سبحانه أنه بكل شيء عليم، لأنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما ثبت أنه خالفه. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال: سخر لكم ما في الأرض جميعاً كرامة من الله، ونعمة لابن آدم، وبلغة، ومنفعة إلى أجل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد في قوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال: سخر لكم ما في الأرض جميعاً ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال: خلق الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ يقول: خلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها فوق بعض. وأخرج ابن جرير، وابن

بل هو متعلق بما هو أعم منها.

وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿إِذَا﴾ من الظروف الموضوعة للتوقيت، وهي للمستقبل، وإذا للماضي، وقد توضع إحداها موضع الأخرى. وقال المبرد: هي مع المستقبل للمضي، ومع الماضي للاستقبال. وقال أبو عبيدة: إنها هنا زائدة. وحكاها الزجاج وابن النحاس وقالوا: هي ظرف زمان ليست مما يزايد، وهي هنا في موضع نصب بتقدير انكر، أو بقالوا، وقيل: هو متعلق بخلق لكم، وليس بظاهر، والملائكة جمع ملك بوزن فعل، قاله ابن كيسان، وقيل، جمع ملاك بوزن مفعول قاله أبو عبيدة، من لأك: إذا أرسل، والألوكة: الرسالة. قال لبيد:

وغلام أرسلته أمه بالوك قبلنا ما سال

وقال عدي بن زيد:

أبلغ النعمان عني مالكا أنه قد طال حبسي وانتظار
ويقال الكني أي: أرسلني. وقال النضر بن شميل: لا اشتقاق لملك عند العرب، والهاء في الملائكة تأكيد لتانيث الجمع، ومثله الصلامة، والصلادم: الخيل الشداد واحداها صلدم - وقيل: هي للمبالغة كعلامة، ونسابة ﴿وجاعل﴾ هنا من جعل المتعدي إلى مفعولين. وذكر المطرزي أنه بمعنى خالق، وذلك يقتضي أنه متعمد إلى مفعول واحد، والأرض هنا: هي هذه الغبراء، ولا يختص ذلك بمكان دون مكان - وقيل إنها مكة. والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة، ويجوز أن يكون بمعنى المخولف، أي: يخلفه غيره؛ قيل هو آدم؛ وقيل كل من له خلافة في الأرض، ويقوي الأوّل قوله خليفة دون خلافت، واستغنى بآدم عن نكر من بعده قيل: خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما عندهم، وقيل خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم تلك السؤال، فيجابون بذلك الجواب، وقيل لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم. وأما قولهم ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها﴾ فظاهره أنهم استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض لكونهم مظنة للإفساد في الأرض، وإنما قالوا هذه المقالة قبل أن يتقدم لهم معرفة ببني آدم، بل قبل وجود آدم فضلاً عن نزيته، لعلم قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه؛ لأنهم لا يعلمون الغيب؛ قال بهذا جماعة من المفسرين. وقال بعض المفسرين: إن في الكلام حذفاً، والتقدير: إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا، فقالوا: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها﴾ وقوله: ﴿يفسد﴾ قائم مقام المفعول الثاني. والفساد: ضدّ الصلاح، وسفك الدم: صبه، قاله ابن فارس، والجوهري: ولا يستعمل السفك إلا في الدم، ووحد الدماء دم، وأصله نَمَى حذف لامه، وجملة ﴿ونحن نُسبِّح بحمديك﴾ حالية. والتسبيح في كلام العرب: التنزيه، والتبديد من سوء على وجه التعظيم. قال الأعشى:

أقول لما جاءني فخره سبحانه من علقمة الفاجر

﴿بحمديك﴾ في موضع الحال أي: حامدين لك، وقد تقدم معنى الحمد. والتقديس: التطهير، أي: ونطهرك عما لا يليق بك مما نسب إليه الملحون، وافتراه الجاحدون. ونكر في الكشف أن معنى التسبيح، والتقديس واحد، وهو: تبديد الله من السوء، وأنها من سبح في الأرض، والماء، وقُس في الأرض إذا ذهب فيها، وأبعد. وفي القاموس، وغيره من كتب اللغة ما يرشد إلى ما نكرناه، والتأسيس خير من التأكيد خصوصاً في كلام الله سبحانه: ولما كان سؤالهم واقعاً على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم. أجاب الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل؛ لأن من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقاً بأن يسلم له ما يصدر عنه، وعلى من لا يعلم أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم، وتقتضيه المصلحة الراجحة، والحكمة البالغة. ولم ينكر متعلق قوله: ﴿تعلمون﴾ ليفيد التعميم، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب، ويعترف بالعجز، ويقر بالقصور. وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه، ثم قرأ: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً نحوه وزاد. وقد كان فيها قبل أن يخلق بالفي عام الجن بنو الجان، فافسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله عليهم جنوداً من الملائكة، فضربوهم حتى أحرقوهم بجزائر البحور، فلما قال الله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ كما فعل أولئك الجان، فقال الله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر ومثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أطول منه. وأخرج ابن جرير، وابن عساكر، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سموا الجن؛ لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازناً، فوقع في صدره كبر، وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي، فاطلع الله على ذلك منه، فقال للملائكة: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ قالوا: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له نرية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً قالوا ربنا: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...﴾ قال إني أعلم ما لا تعلمون. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية قال: قد علمت الملائكة وعلم الله أنه لا شيء أكره عند الله من سفك الدماء، والفساد في الأرض. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس قال: إياكم، والرأي، فإن الله ردّ الرأي على الملائكة وذلك أن الله قال ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ قالت الملائكة: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها﴾ قال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾. وأخرج ابن جرير،

واختلف في اشتقاقه، ف قيل: من أديم الأرض، وهو وجهها، وقيل: من الأدمة، وهي: السمرة. قال في الكشف: وما آدم إلا اسم عجمي، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر، وعازر، وعابر، وشالغ، وقالغ، وأشبهه ذلك، ﴿والأسماء﴾ هي العبارات والمراد: أسماء المسميات، قال بذلك أكثر بذلك العلماء، وهو المعنى الحقيقي للاسم. والتأكيد بقوله: ﴿كلها﴾ يفيد أنه علمه جميع الأسماء، ولم يخرج عن هذا شيء منها كائناً ما كان. وقال ابن جرير: إنها أسماء الملائكة، وأسماء نرية آدم، ثم رجع هذا، وهو: غير راجح. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أسماء الذرية. وقال الربيع بن خيثم: أسماء الملائكة. واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات، أو الأسماء، والظاهر الأول؛ لأن عرض نفس الأسماء غير واضح. وعرض الشيء إظهاره، ومنه عرض الشيء للبيع، وإنما ذكر ضمير المعروضين تليغياً للعلاء على غيرهم. وقرأ ابن مسعود: «عرضهن» وقرأ أبي: «عرضها» وإنما رجع ضمير عرضهم إلى مسميات مع عدم تقدم ذكرها؛ لأنه قد تقدم ما يدل عليها، وهو: أسماؤها. قال ابن عطية: والذي يظهر أن الله علم آدم الأسماء، وعرض عليه مع تلك الأجناس أشخاصاً، ثم عرض تلك على الملائكة، وسألهن عن أسماء مسمياتها التي قد تعلمها آدم، فقال لهم آدم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. قال الماوردي: فكان الأصح توجه العرض إلى المسمين. ثم في زمن عرضهم قولان: أحدهما: أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثاني: أنه صورهم لقلوب الملائكة، ثم عرضهم. وأما أمره سبحانه للملائكة بقوله: ﴿انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فهذا منه تعالى لقصد التثبيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك. والمراد ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض فانبئوني، كذا قال المبرد. وقال أبو عبيد، وابن جرير: إن بعض المفسرين قال: معنى ﴿إن كنتم صادقين﴾: إذ كنتم، قالوا: وهذا خطأ. ومعنى ﴿انبئوني﴾: أخبروني. فلما قال لهم ذلك اعترفوا بالعجز، والقصور ﴿فقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ وسبحان: منصوب على المصدرية عند الخليل، وسيبويه، وقال الكسائي: هو: منصوب على أنه منادى مضاف، وهذا ضعيف جداً. والعليم: للمبالغة، والدلالة على كثرة المعلومات. والحكيم صيغة مبالغة في إثبات الحكمة له. ثم أمر الله سبحانه آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة فعجزوا واعترفوا بالقصور، ولهذا قال سبحانه: ﴿الم أقل لكم﴾ الآية. قال فيما تقدم: ﴿أعلم ما لا تعلمون﴾ ثم قال هنا: ﴿أعلم غيب السموات والأرض﴾ تنرجحاً من المجلل إلى ما هو مبين بعض بيان، وميسوط بعض بسط. وفي اختصاصه بعلم غيب السموات، والأرض رد لما يتكلفه كثير من العباد من الإطلاع على شيء من علم الغيب كالمنجمين، والكهان، وأهل الرمل، والسحر، والشعوذة. والمراد بما يبشرون، وما يكتُمون: ما يظهرهون، ويسرون كما

وابن أبي حاتم، وابن عسكرك، عن أبي سابط: أن النبي ﷺ قال: «نحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت» فهي أول من طاف به، وهي الأرض التي قال الله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ قال ابن كثير: وهذا مرسل في سنده ضعف، وفيه منرج، وهو: أن المراد بالأرض مكة، والظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك. انتهى. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: التسبيح، والتقدیس المنكور في الآية هو: الصلاة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول من لبى الملائكة قال الله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ قال: قرأوه، فأعرض عنهم، فطافوا بالعرش ست سنين يقولون: لبيك لبيك اعتذاراً إليك، لبيك لبيك نستغفرك، وننتوب إليك» وثبت في الصحيح من حديث أبي نر أن النبي ﷺ قال: «أحب الكلام إلى الله ما اصطفاه لملائكته سبحانه ربي، وبحمده». وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله ﴿ونقدس لك﴾ قال: نصلي لك. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: التقديس: التطهير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿ونقدس لك﴾ قال: نعظمك ونكبرك. وأخرج ابن أبي صالح قال: نعظمك ونمجك. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿أعلم ما لا تعلمون﴾ قال: علم من إبليس المعصية، وخلقها لها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في تفسيرها قال: كان في علم الله أنه سيكون من الخليقة أنبياء، ورسول، وقوم صالحون، وساكنون الجنة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن آدم لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أي رب ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ الآية، قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم قال الله لملائكته: هلموا ملكين من الملائكة حتى يهبطا إلى الأرض فننظر كيف يعملان؟ فقالوا: ربنا هاروت وماروت، قال: فاهبطا إلى الأرض، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر وذكر القصة. وقد ثبت في كتب الحديث المعتمدة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة في صفة خلقه سبحانه لأدم وهي موجودة فلا تطول بذكرها.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾ قَالَ يَكَادُمُ إِلَهُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ عَلِمْتُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٢﴾

(آدم) أصله أدم بهمزتين إلا أنهم لينوا الثانية، وإذا حركت قلبت واواً، كما قالوا في الجمع أوادم، قاله الأخفش.

يفيده معنى ذلك عند العرب، ومن فسر به بشيء خاص فلا يقبل منه ذلك إلا بليل. وقد أخرج القرطبي، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: إنما سمي آدم، لأنه خلق من أديم الأرض. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصخرة، والقدر، وكل شيء. وأخرج ابن جرير، عنه نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عنه في تفسير الآية قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والنواب، فقيل هذا الجمل، هذا الحمار، هذا الفرس. وأخرج الحاكم في تاريخه، وابن عسكرو، والديلمي عن عطية بن بشر مرفوعاً في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علم الله آدم في تلك الأسماء ألف حرفاً من الحرف، وقال له: قل لأولئك، ولزيتك إن لم تصبروا عن الدنيا، فاطلبوها بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصاً، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له. وأخرج الديلمي عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلت لي أمي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها» وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في تفسير الآية قال: أسماء نريته أجمعين ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ قال: أخذهم من ظهره. وأخرج عن الربيع بن أنس قال: أسماء الملائكة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ يعني عرض أسماء جميع الأشياء التي علمها آدم من أصناف الخلق. ﴿فَقَالَ أَتُبْنُونِي﴾ يقول: أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون أنني لم أجعل في الأرض خليفة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لله من أن يكون يعلم الغيب أحد غيره تبناً إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ تبرؤوا منهم من علم الغيب ﴿إِلَّا مَا عَلِمْنَا﴾ كما علمت آدم. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: عرض أصحاب الأسماء على الملائكة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال: العليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء ﴿وَأَعْلَمَ مَا تَبْدُونَ﴾ قال: قولهم: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا... وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 30 - 33] يعني: ما أسر إيليس في نفسه من الكبر. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: ﴿مَا تَبْدُونَ﴾ ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية.

وَلَقَدْ نَفَّأً لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَصْجَاداً لَّآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾

﴿إِنَّ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ قلنا. وقال أبو عبيدة: إذ زائدة، وهو ضعيف. وقد تقدم الكلام في الملائكة، وآدم، السجود معناه في كلام العرب: التذلل والخضوع.

وغايته وضع الوجه على الأرض. قال ابن فارس: سجد إذا تطامن، وكل ما سجد، فقد ذل، والإسجد: إدامة النظر. وقال أبو عمر: وسجد إذا طأطأ رأسه، وفي هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له ملائكته. وقيل: إن السجود كان لله، ولم يكن لآدم، وإنما كانوا مستقبليين له عند السجود، ولا ملجئ لهذا، فإن السجود للبشر قد يكون جائزاً في بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح. وقد دلت هذه الآية على أن السجود لآدم، وكذلك الآية الأخرى أعني قوله: ﴿فَلَمَّا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: 100] فلا يستلزم تحريمه لغیر الله في شريعة نبينا محمد ﷺ أن يكون كذلك في سائر الشرائع. ومعنى السجود هنا: هو وضع الجبهة على الأرض، وإليه ذهب الجمهور. وقال قوم: هو مجرد التذلل، والانقياد. وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الأسماء أم بعده؟ وقد أطال البحث في ذلك البقاعي في تفسيره. وظاهر السياق أنه وقع التعليم، وتعبقه الأمر بالسجود وتعبقه إسكانه الجنة، ثم إخراجهم منها، وإسكانه الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناء متصل؛ لأنه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور. وقال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ الذين كانوا في الأرض. فيكون الاستثناء على هذا منقطعاً. واستدلوا على هذا بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: 6] ويقول تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: 50] والجن غير الملائكة، وأجاب الأولون بأنه لا يمتنع أن يخرج إيليس عن جملة الملائكة، لما سبق في علم الله من شقائه عدلاً منه ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23] وليس في خلقه من نار، ولا تركيب الشهوة فيه حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة وأيضاً على تسليم ذلك لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلاً تغليياً للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إيليس الذي هو فرد واحد بين أظهرهم. ومعنى ﴿إِبْلِيسَ﴾: امتنع من فعل ما أمر به. والاستكبار: الاستعظام للنفس، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ: «أن الكبر بطل الحق، وغمط الناس» وفي رواية «غمص» بالصاد المهملة ﴿وَوَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: من جنسهم. قيل إن: «كان» هنا بمعنى صار. وقال ابن فورك: إنه خطأ ترده الأصول. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت السجدة لآدم، والطاعة لله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: سجدوا كرامة من الله أكرم بها آدم. وأخرج ابن عسكرو عن إبراهيم المزني قال: إن الله جعل آدم كالكلعبة وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، عن ابن عباس قال: كان إيليس اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة من نوي الأجنحة الأربعة، ثم أيلس بعد. وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: إنما سمي إيليس، لأن الله أيلسه من الخير كله أي: أيسه منه. وأخرج

﴿إِنَّ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ قلنا. وقال أبو عبيدة: إذ زائدة، وهو ضعيف. وقد تقدم الكلام في الملائكة، وآدم، السجود معناه في كلام العرب: التذلل والخضوع.

وقربت أقرب قرابة مثل كتبت أكتب كتابة: إذا سرت إلى الماء، وبينك وبينه ليلة، والاسم القرب قال الأصمعي: قلت لأعرابي ما القرب؟ قال: سير الليل لورود الغد. والنهي عن القرب فيه سد للزريعة، وقطع للوسيلة، ولهذا جاء به عوضاً عن الأكل، ولا يخفى أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل، لأنه قد يكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا يحمل إليه، فالأولى أن يقال: المنع من الأكل مستفاد من المقام. والشجر: ما كان له ساق من نبات الأرض، وواحدة شجرة، وقرئ بكسر الشين، وبالياء المثناة من تحت مكان الجيم. وقرأ ابن محيصن: «هذي» بالياء بدل الهاء وهو: الأصل. واختلف أهل العلم في تفسير هذه الشجرة، فقيل: هي: الكرم وقيل السنبل، وقيل التين، وقيل الحنطة، وسيأتي ما روي عن الصحابة، فمن بعدهم في تعيينها. وقوله: ﴿فَتَكُونُوا﴾ معطوف على ﴿تَقْرَبُوا﴾ في الكشف، أو نصب في جواب النهي وهو: الأظهر. والظلم أصله: وضع الشيء في غير موضعه، والأرض المظلومة: التي لم تحفر قط، ثم حفرت، ورجل ظليم: شديد الظلم. والمراد هنا ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالمعصية، وكلام أهل العلم في عصمة الأنبياء، واختلاف مذاهبهم في ذلك مبني في موطنه، وقد أطال البحث في ذلك الرازي في تفسيره في هذا الموضع، فليرجع إليه، فإنه مفيد. وأزلهما من الزلة، وهي الخطيئة أي: استزلهما، وأوقعهما فيها، وقرأ حمزة: «فأزلهما» بإثبات الألف من الإزالة، وهي التنحية أي: نحاها - وقال: الباقر بن بحنف الألف. قال ابن كيسان: هو: من الزوال، أي: صرعهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية. قال القرطبي: وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى؛ يقال منه: أزلته فزل و﴿عنه﴾ متعلق بقوله أزلهما على تضمينه معنى أصدر، أي: أصدر الشيطان زلتهما عنها أي بسببها، يعني الشجرة. وقيل: الضمير للجنة، وعلى هذا، فالفعل مضمن معنى أبعدهما أي: أبعدهما عن الجنة. وقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ تأكيد لمضمون الجملة الأولى أي: أزلهما إن كان معناه زال عن المكان، وإن لم يكن معناه كذلك، فهو تأسيس، لأن الإخراج فيه زيادة على مجرد الصرف، والإبعاد، ونحوهما: لأن الصرف عن الشجرة، والإبعاد عنها قد يكون مع البقاء في الجنة بخلاف الإخراج لهما عما كانا فيه من النعيم، والكرامة، أو من الجنة، وإنما نسب ذلك إلى الشيطان؛ لأنه الذي تولى إغواء آدم حتى أكل من الشجرة. وقد اختلف أهل العلم في الكيفية التي فعلها الشيطان في إزالتهما، فقيل: إنه كان ذلك بمشاهدة منه لهما، وإليه ذهب الجمهور واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21] والمقاسمة ظاهرها المشاهدة، وقيل: لم يصدر منه إلا مجرد الوسوسة، وقيل: غير ذلك مما سيأتي في المروي عن السلف. وقوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾ خطاب لأدم وحواء، وخوطبا بما يخاطب به الجمع؛ لأن الاثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية،

ابن إسحاق، وابن جرير، وابن الأنباري، عنه قال: كان إبليس قبل أن يرتكب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، فلذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جنا. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في الشعب عنه قال: كان إبليس من خزان الجنة، وكان يدبر أمر سماء الدنيا. وأخرج محمد بن نصر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمر آدم بالسجود، فسجد، فقال: لك الجنة، ولمن سجد من ولدك، وأمر إبليس بالسجود، فابى أن يسجد، فقال: لك النار، ولمن أبى من ولدك أن يسجد». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: جعله الله كافراً لا يستطيع أن يؤمن. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: ابتداء الله خلق إبليس على الكفر، والضلالة، وعمل بعمل الملائكة فصيره إلى ما ابتدئ إليه خلقه من الكفر، قال الله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

وَقَدْ يَتَذَكَّرُ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةَ وَلَكِنَّهَا رَحَدًا حَيْثُ شِئْنَا وَلَا نَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢١﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ قَاتِبَ عَلَيْهِنَ مَوَاقِفَ الْوُكُوفِ الرَّجِيمِ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا مِنْهَا بَرِئَا مِنْهَا فَإِنَّا بَأْتِيَكَمُ إِنِّي هُنَاكَ فَنَجِّهِ هَذَا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٤﴾

﴿اسكن﴾ أي: اتخذ الجنة مسكناً وهو: محل السكن، وإما ما قاله بعض المفسرين من أن في قوله: «اسكن» تنبيهاً على الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكاً، وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلاً منزلاً له، فإنه لا يملكه بذلك، وإن له أن يخرج منه، فهو: معنى عرفي، والواجب الأخذ بالمعنى العربي إذا لم تثبت في اللفظ حقيقة شرعية. و﴿أنت﴾ تأكيد للضمير المستكن في الفعل ليصح العطف عليه كما تقرر في علم النحو أنه لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المستكن إلا بعد تأكيده بمنفصل. وقد يجيء العطف نادراً بغير تأكيد كقول الشاعر:

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى كنعاج الملائع سفن رملا
وقوله: ﴿وَرُجُوكَ﴾ أي: حواء، وهذه هي اللغة الفصيحة زوج بغير هاء، وقد جاء بها قليلاً كما في صحيح مسلم من حديث أنس: «أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه، فمر به رجل، فدعاه وقال: يا فلان هذه زوجتي فلانة» الحديث، ومنه قول الشاعر:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستميلها
و﴿رغدا﴾ بفتح المعجمة، وقرأ النخعي، وابن وثاب يسكونها، والرغد: العيش الهنيء الذي لا عناء فيه، وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف. و﴿حيث﴾ مبنية على الضم، وفيها لغات كثيرة مذكورة في كتب العربية. والقرب: اللزق. قال في الصحاح: قرب الشيء بالضم يقرب قريباً أي: بناه، وقربته بالكسر أقربه قرباناً أي: ننوات منه،

﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ [طه: 121]. وأما قوله: ﴿قلنا اهبطوا﴾ بعد قوله: ﴿قلنا اهبطوا﴾، فكرره للتوكيد، والتغليظ. وقيل إنه لما تعلق به حكم غير الحكم الأوّل كره، ولا تراحم بين المقترضات. فقد يكون التكرير للأمرين معاً. وجواب الشرط في قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ هو الشرط الثاني مع جوابه قاله سيبويه. وقال الكسائي: إن جواب الشرط الأوّل، والثاني قوله: ﴿فلا خوف﴾ واختلفوا في معنى الهدى المنكور، فقيل: هو كتاب الله، وقيل التوفيق للمهتدية. والخوف هو: الذعر، ولا يكون إلا في المستقبل. وقرأ: الزهري والحسن وعيسى بن عمار، وابن أبي إسحاق، ويعقوب: ﴿فلا خوف﴾ بفتح الفاء، والحزن ضد السرور. قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم. وقد قرئ بهما. وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران، والملازمة. وقد تقدّم ذكر تفسير الخلود. وقد أخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن أبي زر قال: «قلت يا رسول الله أرأيت آدم نبياً كان؟ قال: نعم كان نبياً رسولاً كلمه الله قال له: «يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» وأخرج ابن أبي شيبة، والطبراني، عن أبي زر قال: «قلت: يا رسول الله من أوّل الأنبياء؟ قال: آدم قلت: نبي؟ قال: نعم. قلت: ثم من؟ قال: نوح وبينهما عشرة آباء». وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، والبيهقي في الشعب نحوه من حديث أبي زر مرفوعاً وزاد «كم كان المرسلون؟ قال: ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن أبي أمامة الباهلي، أن رجلاً قال: «يا رسول الله أنبيى كان آدم؟ قال: نعم، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون قال: كم بين نوح، وبين إبراهيم؟ قال: عشرة قرون، قال: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قال: يا رسول الله كم كانت الرسل من ذلك؟ قال: ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً». وأخرج أحمد، وابن المنذر، والطبراني، وابن مروي، عن حديث أبي أمامة نحوه، وصرح بأن السائل أبو زر. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن مروي، والبيهقي عنه قال: «ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى اهبط من الجنة». وأخرج الفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا. وقد روي تقدير اللبث في الجنة عن سعيد بن جبير بمثل ما تقدّم، عن ابن عباس كما رواه أحمد في الزهد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي، وابن عساكر، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: لما سكن آدم الجنة كان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه. وأخرج البخاري، ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة

وقيل إنه خطاب لهما، ولزيرتهما؛ لأنهما لما كانا أصل هذا النوع الإنساني جعلنا بمنزلته، ويدل على ذلك قوله: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ فإن هذه الجملة الواقعة حالاً مبيناً للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك. والعدو خلاف الصديق، وهو من عدا إذا ظلم، ويقال: نثب عنوان: أي يعو على الناس، والعنوان: الظلم الصراح وقيل: إنه مأخوذ من المجاوزة، يقال عداه: إذا جاوز، والمعنيان متقاربان، فإن من ظلم، فقد تجاوز. وإنما أخير عن قوله: ﴿بعضكم﴾ بقوله: ﴿عدو﴾ مع كونه مفرداً؛ لأن لفظ بعض، وإن كان معناه محتملاً للتعديد، فهو مفرد فروعي جانب اللفظ، وأخبر عنه بالمفرد، وقد يراعى المعنى، فيخبر عنه بالمتعدد. وقد يجاب بأن ﴿عدو﴾ وإن كان مفرداً، فقد يقع موقع المتعدد كقوله تعالى: ﴿وهم لكم عدو﴾ [الكهف: 50] وقوله: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو﴾ [المنافقون: 4] قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد، والاثنتين، والثلاثة. والمراد بالمستقر: موضع الاستقرار، ومنه ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقر﴾ [الفرقان: 24] وقد يكون بمعنى الاستقرار، ومنه ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ [القيامة: 12] فالآية محتملة للمعنيين، ومثلها قوله: ﴿جعل لكم الأرض قراراً﴾ [غافر: 64] والمتاع: ما يستمتع به من المأكول، والمشروب، والملبوس، ونحوها. واختلف المفسرون في قوله: ﴿إلى حين﴾ فقيل إلى الموت، وقيل إلى قيام الساعة. وأصل معنى الحين في اللغة: الوقت البعيد، ومنه ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ [الإنسان: 1] والحين الساعة، ومنه ﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾ [الزمر: 58] والقطعة من الدهر، ومنه ﴿فقرهم في غمرتهم حتى حين﴾ [المؤمنون: 54] أي: حتى تفنى آجالهم، ويطلق على السنة، وقيل على ستة أشهر، ومنه ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ [إبراهيم: 25] ويطلق على المساء، والصبح، ومنه ﴿حين تمسون وحين تصبحون﴾ [الروم: 17] وقال الفراء: الحين حينان: حين لا يوقف على حده، ثم ذكر الحين الآخر، واختلافه بحسب اختلاف المقامات كما ذكرنا. وقال ابن العربي: الحين المجهول لا يتعلق به حكم، والحين المعلوم سنة. ومعنى تلقى آدم للكلمات: أخذها لها، وقبوله لما فيها، وعمل بهاء، وقيل فهمه لها، وفطانتها لما تضمنته. وأصل معنى التلقي الاستقبال أي: استقبل الكلمات الموحاة إليه، ومن قرأ بنصب «آدم» جعل معناه استقبلته الكلمات. وقيل إن معنى تلقي تلقن، ولا وجه له في العربية. واختلف السلف في تعيين هذه الكلمات وسيأتي. والتوبة: الرجوع يقال تاب العبد: إذا رجع إلى طاعة مولاه، وعبد تَوَّاب: كثير الرجوع فمعنى تاب عليه: رجع عليه بالرحمة فقبل توبته، أو وفقه للتوبة. واقتصر على ذكر التوبة على آدم لونه حواء مع اشتراكهما في الذنب؛ لأن الكلام من أوّل القصة معه، فاستمر على ذلك، واستغنى بالتوبة عليه عن ذكر التوبة عليها لكونها تابعة له، كما استغنى بنسبة الذنب إليه عن نسبته إليها في قوله:

خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء من الضلع رأسه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته تركته، وفيه عوج» وروى أبو الشيخ، وابن عساكر، عن ابن عباس قال: إنما سميت حواء؛ لأنها أم كل حي. وأخرج ابن عدي، وابن عساكر، عن النخعي قال: لما خلق الله آدم، وخلق له زوجة بعث إليه ملكاً، وأمره بالجماع ففعل، فلما فرغ قالت له حواء: يا آدم هذا طيب زينا منه. وأخرج ابن جرير، وابن عساكر، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: الرغد الهنيء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الرغد سعة المعيشة. وأخرج عنه في قوله: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قال: لا حساب عليكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر من طرق، عن ابن عباس قال: الشجرة التي نهى الله عنها آدم السنبلة وفي لفظ: البر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي: الكرم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود مثله. وأخرج أبو الشيخ، عنه قال: هي: اللوز. وأخرج ابن جرير، عن بعض الصحابة قال: هي: التينة. وروى مثله أبو الشيخ عن مجاهد، وابن أبي حاتم عن قتادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه قال: هي: البر. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي مالك قال: هي: النخلة. وأخرج أبو الشيخ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: هي: الأترج. وأخرج أحمد في الزهد، عن شعيب الجبائي قال: هي تشبه البر، وتسمى الدعة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَازْلِهَمَا﴾ قال: فأغواهما. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عاصم بن بهنلة قال: ﴿فَازْلِهَمَا﴾ فنحاهما. وأخرج أبو داود في المصاحف، عن الأعمش قال: قراءتنا في البقرة مكان فازلهما فوسوس. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة، فمئنته الخزنة، فأتى الحية، وهي: دابة لها أربع قوائم، كانها البعير، وهي: كاحسن الدواب، فكلما أن تدخله في فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأدخلته في فمها، فمرت الحية على الخزنة فدخلت، ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر، فكلمه من فمها فلم يبال بكلامه، فخرج إليه فقال: يا آدم ﴿هَلْ أُنِلكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِكَ لَا يَبُلَى﴾ [طه: 120] وحلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21] فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء، فأكلت، ثم قالت: يا آدم كل، فإنني قد أكلت، فلم يضرني، فلما أكلا ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 22]. وقد أخرج قصة الحية، ودخول إبليس معها عبد الرزاق، وابن جرير، عن ابن عباس. وأخرج ابن سعد، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: ﴿إِنَّ أَدَمَ كَانَ رَجُلًا طَوَالًا كَانَتْ نَخْلَةٌ سَحَقَتْ طَوْلَهُ سِتُونَ ذِرَاعًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، فَلَمَّا رَكِبَ الْخَطِيئَةَ بَدَتْ لَهُ عَوْرَتُهُ﴾ الحديث. وأخرج ابن منيع،

وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس. قال: قال الله لأدم: ما حملك على أن أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: يا رب زينت لي حواء، قال: فأني عاقبتها بأن لا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً، وأميتها في كل شهر مرتين. وأخرج البخاري، والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿لَوْ لَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنُزْ لِلْحَمِّ، وَلَوْ لَا حَوَاءُ لَمْ تَخْنُ أَنْثَى زَوْجَهَا. وَقَدْ ثَبَتَتْ أَحَابِيثُ كَثِيرَةٌ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي الصَّحِيحِينَ، وَغَيْرِهِمَا فِي مَحَاجَةٍ أَدَمَ، وَمُوسَى، وَحُجَّ أَدَمَ مُوسَى يَقُولُهُ: أَتْلُوْنِي عَلَى أَمْرِ قَرْنِهِ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: آدم، وحواء، وإبليس، والحية ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسَاقِدٌ﴾ قال: القبور ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ قال: الحياة. وروى نحو ذلك عن مجاهد، وأبي صالح، وقاتدة كما أخرجه عن الأول، والثاني أبو الشيخ، وعن الثالث عبد بن حميد. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسَاقِدٌ﴾ قال: القبور ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ قال: إلى يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: اهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: ﴿أَوَّلُ مَا أَهْبَطَ اللهُ أَدَمَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ﴾ وفي لفظ «بجنى أرض الهند». وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه اهبط إلى أرض بين مكة، والطائف. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي عنه قال: قال علي بن أبي طالب: أطيب ريح الأرض الهند، هبط بها آدم، فعلق شجرها من ريح الجنة. وأخرج ابن سعد، وابن عساكر، عن ابن عباس قال: اهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، فجاء في طلبها حتى أتى جمعاً، فأنزلت إليه حواء، فلذلك سميت المزنلفة، واجتمعا بجمع. وأخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل آدم عليه السلام بالهند، فاستوحش، فنزل جبريل، فنادى بالأذان، فلما سمع نكر محمد قال له: ومن محمد هذا؟ قال: هذا آخر، ولك من الأنبياء». وقد روي عن جماعة من الصحابة أن آدم اهبط إلى أرض الهند، منهم جابر أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن عساكر، ومنهم ابن عمر أخرجه الطبراني. وأخرج ابن عساكر، عن علي قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهباً، ولا فضة، فلما اهبط آدم، وحواء أنزل معهما ذهباً، وفضة، فسلكه يتابع في الأرض منفعة لأولادهما من بعدهما وجعل ذلك صدقاً لحواء فلا ينبغي لأحد أن يتزوج إلا بصدق». وأخرج ابن عساكر بسند ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هبط آدم، وحواء عريانين جميعاً عليهم ورق الجنة تعد يبكي، ويقول لها: يا حواء قد آذاني الحر، فجاءه جبريل بقطن، وأمرها أن تغزل، وعلمها، وأمر آدم بالحياكة، وعلمه». وأخرج الديلمي في مسند الفردوس

هم يحزنون» يعني لا يحزنون للموت.

يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا يَتَوَقَّى آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْكَ وَأَوَّلُوا يَهْدِيَتْ أَوْبَ يَهْدِيكُمْ
وَلِئَلَّا تَأْتِيَهُمْ وَيَكُونُوا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَى
كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْكُرُوا يَتَوَقَّى آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْكَ وَأَوَّلُوا يَهْدِيَتْ أَوْبَ يَهْدِيكُمْ
وَلِئَلَّا تَكُونُوا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَى كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْكُرُوا يَتَوَقَّى آلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْكَ وَأَوَّلُوا يَهْدِيَتْ أَوْبَ يَهْدِيكُمْ

اعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يتكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات، وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أقردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقدّمه حسماً نكر في خطبته، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وكل عاقل فضلاً عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالاً، وتحليل أمر كان حراماً، وإثبات أمر لشخص، أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحيناً في عبادة، وحيناً في معاملة، ووقتاً في ترغيب، ووقتاً في ترهيب، وأونة في بشارة، وأونة في نذارة، وطوراً في أمر دنيا، وطوراً في أمر آخرة، ومرة في تكليف آتية، ومرة في إقاصيص ماضية، وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب، والنون، والماء، والنار، والملاح، والحادي، وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك، وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل، والقصور، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع أي القرآن، ويفردون ذلك بالتصنيف، تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة، وتبين الأمر الموجب للارتباط، فإن وجد الاختلاف بين الآيات، فرجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك، فوجده تكلفاً محضاً، وتعسفاً بيناً انقذ في قلبه ما كان عنه في عافية، وسلامة، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب الكائن في المصحف؛ فكيف، وكل من له أدنى علم بالكتاب، وأيسر حظ من معرفته يعلم علماً يقيناً أنه لم يكن كذلك، ومن شك في هذا، وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع إلى كلام

عن أنس مرفوعاً: «أول من حاك آدم عليه السلام». وقد روى عن جماعة من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم حكايات في صفة هبوط آدم من الجنة، وما أهبط معه، وما صنع عند وصوله إلى الأرض، ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: «فتلقى آدم من ربه كلمات» قال: أي رب ألم تخلقني بيك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تنفخ في من روحك؟ بلى قال: بلى، قال: أي رب ألم تسبق إلي رحمتك قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب أرايت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن عساكر بسند ضعيف، عن عائشة عن النبي ﷺ قال «لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجاء الكعبة فصلى ركعتين» الحديث. وقد روي نحوه بإسناد لا بأس به أخرجه الأزرقي في تاريخ مكة، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدعوات، وابن عساكر من حديث بريدة مرفوعاً. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في قوله: «فتلقى آدم من ربه كلمات» قال: قوله: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» [الأعراف: 23]. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جرير عنه مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن كعب القرظي في قوله: «فتلقى آدم من ربه كلمات» مثله: وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد مثله. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن، والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قيل له: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم شأن الحج، فهي الكلمات. وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن زيد في قوله: «فتلقى آدم من ربه كلمات» قال: لا إله إلا أنت سبحانه وبحمده عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانه، وبحمده رب عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانه، وبحمده رب عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فتب علي إنك أنت التواب الرحيم. وأخرج نحوه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عساكر، عن أنس. وأخرج نحوه هذا، وفي الزهد عن سعيد بن جبيرة. وأخرج نحوه ابن عساكر من طريق جوبير، عن الضحاك، عن ابن عباس. وأخرج نحوه الدليمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن علي مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: «فلما ياتينكم مني هدى» قال الهدي: الأنبياء، والرسول، والبيان. وأخرج ابن الأنباري، في المصاحف عن أبي الطفيل قال: قرأ رسول الله ﷺ «فمن تبع هدي» بتثنية الياء، وفتحها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «فلا خوف عليهم» يعني في الآخرة «ولا

قيل إن له اسمين؛ وقيل إسرائيل لقب له، وهو اسم عجمي غير منصرف، وفيه سبع لغات: إسرائيل بزنة إبراهيم، وإسرائيل بمدة مهموزة مختلصة رواها ابن شنبوذ، عن ورش، وإسرائيل بمدة بعد الياء من غير همز وهي: قراءة الأعمش، وعيسى بن عمر، وقرأ الحسن من غير همز، ولا مد، وإسرائيل بهمزة مكسورة. وإسرائيل بهمزة مفتوحة، وتميم يقولون إسرائيل. والذكر هو ضد الإنصات وجعله بعض أهل اللغة مشتركاً بين ذكر القلب، واللسان. وقال الكسائي: ما كان بالقلب، فهو مضموم الذال. وما كان باللسان، فهو مكسور الذال. قال ابن الأنباري: والمعنى في الآية: انكروا شكر نعمتي، فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة، وهي اسم جنس، ومن جعلها أنه جعل منهم أنبياء، وأنزل عليهم الكتب، والمن، والسوى، وأخرج لهم الماء من الحجر، ونجاهم من آل فرعون، وغير ذلك. والعهد قد تقدم تفسيره. واختلف أهل العلم في العهد المذكور في هذه الآية ما هو؟ فقيل هو: المذكور في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 63] وقيل هو: ما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ [المائدة: 12] وقيل هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 187]. وقال الزجاج: هو ما أخذ عليهم في التوراة من اتباع محمد ﷺ، وقيل: هو أداء الفرائض، ولا مانع من حمله على جميع ذلك. ومعنى قوله: ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: بما ضمنت لكم من الجزاء، والرهب، والرغبة، والخوف، ويتضمن الأمر به معنى التهديد، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدم في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5] وإذا كان التقديم على طريقة الإضمار، والتفسير مثل زياد ضربته ﴿وَيَايَا فَارِهِبُونَ﴾ كان أوكد في إفادة الاختصاص، ولهذا قال صاحب الكشف: وهو أوكد في إفادة الاختصاص من إياك نعبد، وسطعت الياء من قوله: ﴿فَارِهِبُونَ﴾ لأنها رأس آية ﴿وَمُصْطَفَا﴾ حال من «ما» في قوله: ﴿مَا أُنْزِلَتْ﴾ أو من ضميرها المقدر بعد الفعل أي: أنزلته. وقوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ إنما جاء به مفرداً، ولم يقل كافرين حتى يطابق ما قبله؛ لأنه وصف لموصوف محنوف مفرد اللفظ، متعدد المعنى نحو فريق، أو فوج. وقال الأخفش، والفراء: إنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر. وقد يكون من باب قولهم: هو أظرف الفتیان، ولجملة كما حكى ذلك سيبويه، فيكون هذا المفرد قائماً مقام الجمع، وإنما قال: أول مع أنه قد تقدمهم إلى الكفر به كفار قريش؛ لأن المراد أول كافر به من أهل الكتاب؛ لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء، وما يلزم من التصديق، والضمير في به عائد إلى النبي ﷺ أي: لا تكونوا أول كافر بهذا النبي مع كونكم قد وجئتموه مكتوباً عندكم في التوراة، والإنجيل، ميسراً به في الكتب المنزلة عليكم، وقد حكى الرازي في تفسيره في هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول الله ﷺ في الكتب السالفة، وقيل: إنه عائد إلى القرآن المدلول عليه بقوله:

أهل العلم العارفين بالسبب النزول، المطلعين على حوادث النبوة، فإنه ينتلج صدره، ويحول عنه الريب، بالنظر في سورة من السور المتوسطة، فضلاً عن المطولة؛ لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة، وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها، وما نزل فيها في الترتيب، بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] وبعده ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ﴾ [المدثر: 1] ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ [المزمل: 1] وينظر أين موضع هذه الآيات، والسور في ترتيب المصحف؛ وإذا كان الأمر هكذا، فأي معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة، وما أقل نفع مثل هذا، وأنزله ثمرته، وأحقر فائده، بل هو عند من يفهم ما يقول، وما يقال له من تضییع الأوقات، وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله، ولا على من يقف عليه من الناس، وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه، ورسائله وإنشاءاته، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة منجاً، وأخرى هجاء، وحيناً نسيباً، وحيناً رثاء، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة، فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع، فناسب بين فقره، ومقاطعته، ثم تكلف تكلفاً آخر، فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد، والخطبة التي خطبها في الحج، والخطبة التي خطبها في النكاح، ونحو ذلك؛ وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء، وما يشابه ذلك، لعد هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله، متلاعباً بأوقاته، عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله، وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة، وهو ركوب الأحموقة في كلام البشر، فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بلغاء العرب، وأبكت فصاحته فصحاء عدنان، وقحطان، وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى به مجاريهم في الخطاب. وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفنون متخالفة، وطرائق متباينة فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات، فضلاً عن جميع ما قاله ما دام حياً، وكذلك شاعرهم. ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي تعثر في ساحاتها كثير من المحققين، وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن؛ لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام، فإذا قال متكلف: كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا: لا كيف: فدع عنك نهياً صريحاً في حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله؛ لأن أسر في لغتهم هو: العبد، وإيل هو الله،

عليهم تبليغها، وأخذ عليهم بيانها، ومن فسر اللبس أو الكتمان بشيء معين، ومعنى خاص، فلم يصب أن أراد أن ذلك هو: المراد بون غيره، لا إن أراد أنه مما يصدق عليه. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، وفيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل، وذلك أغلظ للذنب، وأوجب للعقوبة، وهذا التقييد لا يفيد جواز اللبس، والكتمان مع الجهل؛ لأن الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شيء حتى يعلم بحكمه خصوصاً في أمور الدين، فإن التكلم فيها، والتصدي للإصدار، والإيراد في أبوابها إنما أنشأ الله به لمن كان رأساً في العلم فرداً في الفهم، وما للجهال، والدخول فيما ليس من شأنهم، والقعود في غير مقاعدهم. وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: للأنبياء من اليهود: ﴿أَنْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بلائي عنكم، وعند آبائكم لما كان نجاحهم به من فرعون، وقومه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي أخذت في أعناقكم للنبى ﷺ إذا جاءكم ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ أنجز لكم ما وعظمتكم عليه بتصديقه، واتباعه بوضع ما كان عليكم من الإصر، والأغلال ﴿وَأَيُّهَا فَارِهِيُونَ﴾ أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النعمات ﴿وَأَمْنُوا﴾ بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولي، وبما جاءكم به وأنتم تجدونه عنكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ يقول: ما أمرتكم به من طاعتي، ونهيتمكم عنه من معصيتي في النبي ﷺ، وغيره ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ يقول: أرض عنكم، وأدخلكم الجنة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: هو: الميثاق الذي أخذه عليهم في سورة المائدة ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: 12] الآية. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: أوفوا لي بما افترضت عليكم أوف لكم بما وعظمتكم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿أَيُّهَا فَارِهِيُونَ﴾ قال: فاحشون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جريج، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَمْنُوا﴾ بما أنزلت قال: القرآن: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ﴾ قال التوراة والإنجيل. وأخرج ابن جريج، عن ابن جرير في قوله: ﴿أَوَّلُ كَافِرٍ بِهِ﴾ قال: بالقرآن. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في الآية قال: يقول يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمد مصدقاً لما معكم؛ لأنهم يجعلونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلُ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: أول من كفر بمحمد ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً، قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يابن آدم علم مجاناً كما علمت مجاناً. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: لا تأخذ على ما

﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ وقيل: عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله: ﴿لَمَّا مَعَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ أي: بأوامري ونوامي ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عيشاً نزرًا، ورئاسة لا خطر لها. جعل ما اعتاضوه ثمنًا، وأوقع الاشتراء عليه وإن كان الثمن هو المشتري به، لأن الاشتراء هنا مستعار للاستبدال: أي لا تستبدلوا بآياتي ثمنًا قليلًا، وكثيراً ما يقع مثل هذا في كلامهم، وقد قمنا الكلام عليه في تفسير قوله تعالى: ﴿اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ [البقرة: 16]، ومن إطلاق اسم الثمن على نيل عرض من أعراض الدنيا قول الشاعر:

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أصبت بترك الحج من ثمن وهذه الآية، وإن كانت خطاباً لبني إسرائيل، ونهياً لهم فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب، أو بلحنه، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به، أو إثبات باطل نهى الله عنه، أو امتنع من تعليم ما علمه الله، وكتم البيان أخذ الله عليه ميثاقه به، فقد اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا، وقوله: ﴿وَأَيُّهَا فَاتِقُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا فَارِهِيُونَ﴾ وقد تقدم قريباً. واللبس: الخلط، يقال لبست عليه الأمر البسه: إذا خلطت حقه بباطله، وواضحه بمشكله، قال الله تعالى: ﴿وَلِلْبَسِنا عَلَيْهِمَ ما يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9] قالت الخنساء:

تري الجليس يقول الحق تحسبه رشداً وهيهات فانظر ما به للتبسا صدق مقالته واحذر عداوته والبس عليه أموراً مثل ما لبسا وقال العجاج:

لما لبست الحق بالتجني عتبني فاستبدلني زيدا مني ومنه قول عنتره:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبت نفضت لها يدي وقيل: هو مأخوذ من التغطية: أي لا تغطوا الحق بالباطل، ومنه قول الجعدي:

إذا ما الضجيج ثنى جيدها ثخن عليه وكانت لبسا وقول الأخطل:

وقد لبست لهذا الأمر أعصره حتى تجلل رأسي الشيب فاشتعل الأول أولى. والباطل في كلام العرب: الزائل، ومنه قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ويطل الشيء يبطل بطولاً أو بطلاناً، وأبطله غيره، ويقال ذهب دمه بطلاً: أي هدرًا، والباطل: الشيطان، وسمي الشجاع بطلاً؛ لأنه يبطل شجاعة صاحبه، والمراد به هنا خلاف الحق. والباء في قوله: بالباطل يحتمل أن تكون صلة، وأن تكون للاستعانة نكر معناه في الكشف، ورجح الرازي في تفسيره الثاني. وقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ يجوز أن يكون داخلًا تحت حكم النهي، أو منصوباً بإضمار أن، وعلى الأول يكون كل واحد من اللبس، والكتم منهيًا عنه، وعلى الثاني يكون المنهي عنه هو: الجمع بين الأمرين، ومن هذا يلوح رجحان دخوله تحت حكم النهي، وأن كل واحد منهما لا يجوز فعله على انفراده، والمراد النهي عن كتم حجج الله التي أوجب

سنة مؤكدة مرغّب فيها، وليس بواجب، وهو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة، من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة، أو بسبع وعشرين درجة. وثبت في الصحيح عنه ﷺ الذي يصلي مع الإمام أفضل من الذي يصلي وحده، ثم ينাম. والبحث طويل الذيل، كثير النقول، والهمزة في قوله: ﴿اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بل بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ مع التطهر بتركية النفس، والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاماً للناس وتلبساً عليهم كما قال أبو العتاهية:

وصفت التقى حتى كأنك نوثقي وريح الخطايا من ثيابك يسطع
والبر: الطاعة، والعمل الصالح، والبر: سعة الخير،
والمعروف، والبر: الصدق، والبر: ولد الثعلب، والبر: سوق
الغنم، ومن إطلاقه على الطاعة قول الشاعر:

لا هم ربّ أن يكونوا موركاً يبرك الناس ويفجرونا
أي: يطيعونك، ويعصونك. والنسيان بكسر النون هو: هنا
بمعنى الترك أي: وتتركون أنفسكم، وفي الأصل خلاف
الذكر، والحفظ أي: زوال الصورة التي كانت محفوظة عن
المدركة، والحافظة. والنفس: الروح، ومنه قوله تعالى: ﴿الله
يتوفى الأنفس حين موتها﴾ [الزمر: 42] يريد الأرواح. وقال
أبو خراش: نجا سالم، والنفس منه بشقه والنفس أيضاً
الدم.

ومنه قولهم: سألت نفسه، قال الشاعر:

تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير الطبات تسيل
والنفس الجسد، ومنه:

نبئت أن بني سحيم أدخلوا أبياتهم تامور نفس المنذر
والتامور البدن. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ جملة
حالية مشتملة على أعظم تقييد، وأشد توبيخ، وأبلغ تبيكيت
أي: كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به، وأنتم من أهل
العلم العارفين بقبح هذا الفعل، وشدة الوعيد عليه، كما
ترونه في الكتاب الذي تتلونه، والآيات التي تقرأونها من
التوراة. والتلاوة: القراءة، وهي المراد هنا، وأصلها الاتباع؛
يقال تلوته: إذا تبعته؛ وسمي القارئ تالياً، والقراءة تلاوة؛
لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذي هو عليه.
وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام للإنكار عليهم، والتقييد
لهم، وهو أشد من الأول، وأشد، وأشد ما قرع الله في هذا
الموضع من يأمر بالخير، ولا يفعله من العلماء الذين هم
غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أولاً أمرهم للناس بالبر
مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع،
ونادوا به في المجالس إيهاماً للناس بأنهم مليفون عن الله ما
تحملوه من حجه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه،
وموصلون إلى خلقه ما استودعهم، واثمنهم عليه، وهم
أترك الناس لذلك، وأبعدهم من نفعه، وأزهدهم فيه، ثم ربط

علمت أجراً، إنما أجر العلماء، والحكماء، والحنفاء على الله.
وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا
لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: لا تخلطوا الصديق بالكذب ﴿وَتَكْتُمُوا
لِلْحَقِّ﴾ قال: لا تكتُموا الحق، وأنتم قد علمتم أن محمداً
رسول الله. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا
تَلْبِسُوا﴾ الآية، قال: لا تلبسوا اليهودية، والنصرانية
بالإسلام ﴿وَتَكْتُمُوا لِحَقِّ﴾ قال: كتموا محمداً وهم يعلمون
أنه رسول الله يجذونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل.
وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال:
الحق التوراة، والباطل الذي كتبه بأيديهم.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٢٣٨﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ
بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَسَوْنَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَأَسْتَوِيضًا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٢٤٠﴾ الَّذِينَ يَنْتَوِنَ أَنْفُسَهُمْ لَكُمْ
رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَجُوعُونَ ﴿٢٤١﴾

قد تقدم الكلام في تفسير إقامة الصلاة، واشتقاقها،
والمراد هنا الصلاة المعهودة، وهي: صلاة المسلمين على
أن التعريف للعهد، ويجوز أن تكون للبهس، ومثلها الزكاة.
والإيتاء: الإعطاء يقال آتيته: أي أعطيته. والزكاة مأخوذة من
الزكاء وهو: النماء، زكا الشيء: إذا نما، وزاد، ورجل زكي
أي: زائد الخير، وسمي إخراج جزء من المال زكاة أي: زيادة
مع أنه نقص منه؛ لأنها تكثر بركته بذلك، أو تكثر أجر
صاحبه، وقيل الزكاة مأخوذة من التذهيب، كما يقال: زكا
فلان أي: طهر.

والظاهر أن الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحوها
قد نقلها الشرع إلى معان شرعية سي: المرادة بما هو
مذكور في الكتاب، والسنة منها. وقد تكلم أهل العلم على
ذلك بما لا يتسع المقام لبسطه. وقد اختلف أهل العلم في
المراد بالزكاة هنا، فقليل المراد المفروضة لاقتنائها بالصلاة،
وقيل صدقة الفطر، والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك.
والركوع في اللغة: الانحناء، وكل منح ركع، قال لبيد:

أخبر أخبار القرون التي مضت أنبكاذي كلما قمت ركع
وقيل: الانحناء يعم الركوع، والسجود، ويستعار الركوع
أيضاً للانحناء في المنزلة، قال الشاعر:

لا تهين الفقير عليك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه
وإنما خص الركوع بالذكر هنا؛ لأن اليهود لا ركوع في
صلاتهم؛ وقيل لكونه كان ثقيلاً على أهل الجاهلية وقيل إنه
أراد بالركوع جميع أركان الصلاة. والركوع الشرعي: هو: أن
ينحني الرجل ويمد ظهره، وعنقه، ويفتح أصابع يديه،
ويقبض على ركبتيه، ثم يطمئن ركعاً ذكراً بالذكر المشروع.
وقوله: ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة،
والخروج إلى المساجد. وقد ورد في ذلك من الأحاديث
الصحيحة الثابتة في الصحيحين، وغيرها. - معروف.
وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم عر خلاف
بينهم في كون ذلك عيناً أو كفاية، وذهب الجمهور إلى أنه

إليها» [الجمعة: 11] فأرجع الضمير هنا إلى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعاً، وأكثر، وجوداً، والتجارة هي الحاملة على الانقضا، والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول أن الصبر هناك جعل داخلاً تحت الصلاة، وهنا لم يكن داخلاً، وإن كان مراداً، وقيل إن المراد الصبر، والصلاة، ولكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر، ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ [المؤمنون: 50] أي: ابن مريم آية وأمه آية. ومنه قول الشاعر:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها الغريب
وقال آخر:

لكل هم من الهموم سعة والصبح والمساء لافلاح معه
وقيل: رجع الضمير إليهما بعد تأويلهما بالعبادة، وقيل: رجع إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿واستعيناؤا﴾ وهو الاستعانة، وقيل: رجع إلى جميع الأمور التي نهى عنها بنو إسرائيل. والكبيرة التي يكبر أمرها، ويتعظم شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها، والقيام بها من المشقة، ومنه ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ [الشورى: 13]. والخاشع: هو المتواضع، والخشوع: التواضع. قال في الكشف: والخشوع: الإخبات والتطامن، ومنه الخشعة للرملة المتطامنة، وأما الخضوع: فاللين والانقياد، ومنه خضعت بقولها: إذا لينته. انتهى. وقال الزجاج: الخاشع الذي يرى أثر الذل، والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الأقوى، ومكان خاشع: لا يهتدى إليه، وخشعت الأصوات أي: سكنت، وخشع ببصره: إذا غضه، والخشعة: قطعة من الأرض رخوة. وقال سفيان الثوري: سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثوري أنت تريد أن تكون إماماً للناس، ولا تعرف الخشوع؟ ليس الخشوع باكل الخشن، ولبس الخشن، وتطأ الراس، لكن الخشوع أن ترى الشريف، والنبى في الحق سواء، وتخضع لله في كل فرض افترض عليك. انتهى. وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته: إنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون، وتواضع، واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة، وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة، وإتباعهم لأنفسهم إتباعاً عظيماً في الأسباب الموجبة للحضور، والخشوع: لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر، وتوفر الجزاء، والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب، تسهل عليهم تلك المتاعب، ويتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة، وراحة عندهم محضة، ولامر ما هان على قوم ما يلاقونه من حر السيوف عند تصادم الصفوف، وكانت الأمنية عندهم طعم النية حتى قال قائلهم:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين، ومنه قوله تعالى: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابي﴾ [الحاقة: 20]، وقوله:

هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبنية لحالهم، وكاشفة لعوارهم، وهاتكة لاستارهم، وهي: أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة، والخصلة الفظيعة على علم منهم، ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم، وملازمة لتلاوته، وهم في ذلك كما قال المعري:

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لاحب التلاوات
ثم انتقل معهم من تقرير إلى تقرير، ومن توبيخ إلى توبيخ فقال: إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم، وحمة الحجة، وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك ذائداً لكم عنه زاجراً لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجب العلم. والعقل في أصل اللغة: المنع، ومنه عقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة، ومنه العقل في البنية؛ لأنه يمنع ولي المقتول عن قتل الجاني. والعقل نقيض الجهل، ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو، أصل معنى العقل عند أهل اللغة أي: أقل تمنعون أنفسكم من موقعة هذه الحال المزرية ويصح أن يكون معنى الآية: أقل تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما ليكم من العلم. وقوله: ﴿واستعيناؤا بالصبر﴾ الصبر في اللغة: الحبس، وصبرت نفسي على الشيء: حبستها. ومنه قول عنتره:

فصبرت عارفة لنلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
والمراد هنا: استعيناؤا بحبس أنفسكم عن الشهوات، وقصرها على الطاعات على نفع ما يرد عليكم من المكروهات، وقيل الصبر هنا هو: خاص بالصبر على تكاليف الصلاة، واستدل هذا القائل بقوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [طه: 132]، وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما تفيد الألف، واللام الداخلة على الصبر من الشمول كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما تصبى عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة، ونافلة. واختلف المفسرون في رجوع الضمير في قوله: ﴿وإنها لكبيرة﴾ فقيل: إنه راجع إلى الصلاة، وإن كان المتقدم هو: الصبر، والصلاة، فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما. كما قال تعالى: ﴿وإياهم ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: 62] إذا كان أحدهما داخلاً تحت الآخر بوجه من الوجوه، ومنه قول الشاعر:

إن شرخ الشباب والشعر الأس ود ما لم يعاض كان جنونا
ولم يقل ما لم يعاض بل جعل الضمير راجعاً إلى الشباب؛ لأن الشعر الأسود داخل فيه، وقيل: إنه عائد إلى الصلاة من بون اعتبار دخول الصبر تحتها؛ لأن الصبر هو عليها، كما قيل سابقاً، وقيل: إن الضمير راجع إلى الصلاة وإن كان الصبر مراداً معها، لكن لما كانت أكد، وأعم تكليفاً، وأكثر ثواباً كانت الكناية بالضمير عنها، ومنه قوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة: 34] كذا قيل، وقيل إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا راوا تجارة أو لهواً انفضوا

﴿ووظنوا أنهم واقعوها﴾ [الكهف: 53] ومنه قول نريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بالفي مبيج سراتهم بالفارسي المسود
وقيل: إن الظن في الآية على بابيه، ويضم في الكلام
بذنوبهم، فكانهم توقعوا لقاءه منذين، نكره المهنوي
والموردي، والأول أولى. وأصل الظن: الشك مع الميل إلى
أحد الطرفين، وقد يقع موقع اليقين في مواضع، منها هذه
الآية. ومعنى قوله: ﴿ملاقوا ربهم﴾ ملاقوا جزائه، والمفاعلة
هنا ليست على بابها، ولا أرى في حمله على أصل معناه
من دون تقدير المضاف باساً. وفي هذا مع ما بعده من
قوله: ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ إقرار بالبعث، وما وعد الله به
في اليوم الآخر. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في
قوله: ﴿واركعوا﴾ قال: صلوا. وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً
عن مقاتل في قوله: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ قال: أمرهم
أن يركعوا مع أمة محمد يقول: كونوا منهم ومعهم. وأخرج
عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿اتامرون الناس
بالبز﴾ الآية، قال: أولئك أهل الكتاب كانوا يأمرون الناس
بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ولا ينتفعون بما
فيه. وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن عباس قال: نزلت هذه
الآية في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره،
ولذي قرابته، ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين: اثبت
على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل، يعنون
محمداً ﷺ، فإن أمره حق، وكانوا يأمرون الناس بذلك، ولا
يفعلونه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿اتامرون الناس
بالبز﴾ قال: بالخول في دين محمد. وأخرج ابن إسحاق،
وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: تنهون الناس
عن الكفر بما عندكم من النبوة، والعهد من التوراة، وأنتم
تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسلي؟ وأخرج
عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي، عن أبي
الدرداء في الآية قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت
الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه، فيكون لها أشد مقتاً.
وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبزار، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، وابن حبان،
وابن مردويه، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت
ليلة أسري بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار،
كلما قرضت رجعت، فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء
خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم،
وهم يتلون الكتاب أقلا يعقلون». وثبت في الصحيحين من
حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتتلق به أقتابه،
فيثور بها كما يثور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار،
فيقولون: يا فلان ما لك ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا
بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: «كنت آمركم
بالمعروف، ولا أتية، وأنهاركم عن المنكر، وأتية» وفي الباب
أحاديث منها عن جابر مرفوعاً عند الخطيب، وابن النجار،

وعن الوليد بن عقبة مرفوعاً عند الطبراني، والخطيب بسند
ضعيف، وعند عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه
موقوفاً، ومعناها جميعاً: أنه يطلع قوم من أهل الجنة على
قوم من أهل النار، فيقولون لهم: بما بخلتم النار، وإنما دخلنا
الجنة بتعليمكم؟ قالوا: إنا كنا نأمركم، ولا نفعل. وأخرج
الطبراني، والخطيب في الاقتضاء، والأصبهاني في الترغيب
بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:
«مثل العالم الذي يعلم الناس الخير، ولا يعمل به كمثل
السراج يضيء للناس، ويحرق نفسه». وأخرج ابن أبي شيبة،
وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه نحوه. وأخرج
الطبراني، والخطيب في الاقتضاء عن أبي برزة مرفوعاً
نحوه. وأخرج ابن قانع في معجمه، والخطيب في الاقتضاء
عن سليك مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة،
وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال: «ويل للذي لا يعلم
مرة، ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم، ولا يعمل سبع
مرات». وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن مسعود مثله،
وما أحسن ما أخرجه ابن مردويه، والبيهقي في شعب
الإيمان، وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: يا
ابن عباس إني أريد أن أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر،
قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: فإن لم تخش أن تقتضح
بثلاثة أحرف في كتاب الله، فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله
عز وجل: ﴿اتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ [البقرة:
44] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني، قال:
قوله تعالى: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون﴾ كبر مقتاً عند الله أن
تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف: 2] أحكمت هذه الآية؟ قال:
لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب ﴿ما
أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاركم عنه﴾ [هود: 88] أحكمت هذه
الآية؟ قال: لا، قال: فابداً بنفسك. وأخرج عبد بن حميد عن
قتادة في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ قال:
إنهما معونتان من الله، فاستعينوا بهما. وقد أخرج ابن أبي
الدنيا في كتاب الصبر، وأبو الشيخ في الثواب، والديلمي في
مسند الفردوس عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر
ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن
المعصية». وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الصبر،
والترغيب فيه، والجزاء للصابرين، ولم ننكرها هنا، لأنها
ليست بخاصة بهذه الآية، بل هي واردة في مطلق الصبر،
وقد نكر السيوطي في الدر المنثور ما هنا منها شطراً
صالحاً، وفي الكتاب العزيز من الثناء على ذلك، والترغيب فيه
الكثير الطيب. وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن جرير عن
حذيفة قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»
وأخرج أحمد، والنسائي، وابن حبان، عن صهيب، عن النبي
ﷺ قال: «كانوا: يعني الأنبياء، يفرعون إذا فزعوا إلى
الصلاة». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر، عن أبي
الدرداء مرفوعاً نحو حديث حذيفة. وأخرج سعيد بن
منصور، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان،

في كل زمان، فليس في اللفظ ما يفيد هذا، ولا في اشتقاقه ما يدل عليه؛ وأما من جعل العالم أهل العصر، فغايتة أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضليهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا ﷺ، ولا على ما بعده من العصور، ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْ فَيْكُمُ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 20] وعند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: 32] وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33] فإن قيل: إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم. قلت: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزماً لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] فإن هذه الآية، ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أمر معناه الوعيد، وقد تقدم معنى التقوى. والمراد باليوم يوم القيامة أي: عذابه. وقوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ في محل نصب صفة ليوم، والعائد محذوف. قال البصريون في هذا وأمثاله تقديره فيه. وقال الكسائي هذا خطأ، بل التقدير لا تجزيه. لأن حذف الظرف لا يجوز، ويجوز حذف الضمير وحده. وقد روي عن سيبويه، والأخفش، والزجاج جواز الأمرين. ومعنى: لا تجزي لا تكفي، وتقضي، يقال: جزا عني هذا الأمر يجزي أي: قضى، واجتزأت بالشئ اجتزى أي: اكتفيت، ومنه قول الشاعر:

لإن الغدري في الأقوام عار وإن الحري يجزي بالكراع والمراد أن هذا اليوم لا تقضي نفس عن نفس شيئاً، ولا تكفي عنها، ومعنى التذكير التحقير أي: شيئاً يسيراً حقيراً، وهو منصوب على المفعولية، أو على أنه صفة مصدر محذوف أي: جزاء حقيراً، والشفاعة مأخوذة من الشفع، وهو الاثنان، تقول استشفعتني أي: سألته أن يشفع لي، أي: يضمّ جاهه إلى جاهك عند المشفوع إليه ليصل النفع إلى المشفوع له، وسميت الشفاعة شفاعة؛ لأنك تخضع ملك شريك إلى ملكك. وقد قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، «تقبل» بالمشناة الفوقية، لأن الشفاعة مؤنثة، وقرأ الباقر بالباء التحتية؛ لأنها بمعنى الشفيع. قال الأخفش: الأحسن التذكير. وضمير منها يرجع إلى النفس المذكورة ثانياً أي: إن جاءت بشفاعة شفيع، ويجوز أن يرجع إلى النفس المذكورة أولاً أي: إذا شفعت لم يقبل منها. والعدل بفتح العين: الفداء، وبكسرهما: المثل. يقال: عدل، وعبيل للذي ماثل في الوزن والقدر. وحكى ابن جرير أن في العرب من يكسر العين في معنى الفدية. والنصر: العون، والانتصار: الأعوان، وانتصر الرجل: انتقم، والضمير أي: هم يرجع إلى النفوس المللولة عليها بالذكورة في سياق النفي، والنفس تنكر وتؤنث. وقوله: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿انكروا﴾ والنجاة: النجوة من الأرض، وهي ما ارتفع منها، ثم سمي كل فائز ناجياً. وآل

عن ابن عباس أنه كان في مسير له، فنعى إليه ابن له، فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع فقال: فعلنا كما أمرنا الله فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. وقد روى عنه نحو ذلك سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي لما نعى إليه أخوه قثم. وقد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة، والتابعين، وأخرج ابن جرير، عن الضحاک في قوله: ﴿وَإِنِهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: لثقلية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قال: المؤمنين حقاً. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قال: الخائفين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كل ظن في القرآن، فهو يقين، ولا يتم هذا في مثل قوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: 28] وقوله: ﴿إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12] ولعله يريد الظن المتعلق بأمر الآخرة كما رواه ابن جرير عن قتادة قال: ما كان من ظن الآخرة، فهو علم. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَإِنَّمَا إِلَهُ الْبَاطِنِ﴾ قال: يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة.

يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا بَنِيَّ إِلَهِي أَنَّمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلَىٰ فَعَلْتُكُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَنفَرُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ قَارِثٍ فَمَا تُسَوِّوْنَ سَوًىٰ أَلَمَّا يَدْعُونَ أَبْنَاءَهُمْ لِكَيْتَعْبَدُوا إِلَهُكُمْ فِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَإِذْ قَرَّبْنَا بَلَدَ الْبَيْتِ لَأُفْجِيَنَّكُمْ وَأَقْرِضًا ءَالَ قَارِثٍ وَأَشَدُّ نَظَرًا ﴿٨٠﴾

قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ انكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ قد تقدم تفسيره، وإنما كرر ذلك سبحانه تأكيداً للحجة عليهم، وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد ﷺ، ثم قرنه بالوعيد، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾. وقوله: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ معطوف على مفعول انكروا أي: انكروا نعمتي، وتفضيلي لكم على العالمين، قيل المراد بالعالمين: عالم زمانهم، وقيل: على جميع العالمين بما جعل، فيهم من الأنبياء. وقال في الكشف: على الجم الغفير من الناس كقوله: ﴿يَبَارِكُنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71] يقال رأيت عالماً من الناس: يراه الكثرة انتهى. قال الرازي في تفسيره: وهذا ضعيف؛ لأن لفظ العالم مشتق من العلم، وهو اللبيل، وكل ما كان لبيلاً على الله كان عالماً، وكان من العالم. وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كل موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات. انتهى. وأقول هذا الاعتراض ساقط، أما أولاً: فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه، وأما ثانياً: فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجوداً بما يتحصل معه مفهوم اللبيل على الله الذي يصح إطلاق اسم العلم عليه، وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستل بها على الخالق، وغايتة أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات؛ وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات

الشَّرَّ بِلُوتِهِ ابْلُوه بِلَاء، وفي الخير ابْلِيهِ بِلَاء وبِلَاء، قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلى
قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد، فأنعم عليهما خير
النعم التي يختير بها عباده. وقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ متعلق بما
تقدم من قوله: ﴿أَنكَرُوا﴾ وفرقنا: فلقنا، وأصل الفرق
الفصل، ومنه فرق الشعر، وقرأ الزمهرى: «فَرَقْنَا» بالتشديد،
والباء في قوله: ﴿بِكُمْ﴾ قيل هي بمعنى اللام أي: لكم، وقيل
هي الباء السببية أي: فرقناهم بسببكم، وقيل إن الجار
والمجرور في محل الحال أي: فرقناهم متلبساً بكم، والمراد
ها هنا أن فرق البحر كان بهم أي: بسبب دخولهم فيه. أي:
لما صاروا بين المائين صار الفرق بهم. وأصل البحر في
اللغة: الاتساع، أطلق على البحر الذي هو مقابل البرِّ لما فيه
من الاتساع بالنسبة إلى النهر، والخليج، ويطلق على الماء
المالح، ومنه أبحر الماء: إذا ملح، قال نصيب:

وقد عاد ماء الأرض بحراً فزادني إلى مرضي أن أبحر المشرب العنب
وقوله: ﴿فَانجَيْنَاكُمْ﴾ أي: أخرجناكم منه. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾
فرعون في قوله: ﴿فَانجَيْنَاكُمْ﴾ أي: أخرجناكم منه. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾
على الحال أي: حال كونكم ناظرين إليهم بأبصاركم، وقيل
معناه: وأنتم تنظرون. أي: ينظر بعضكم إلى البعض الآخر
من السالكين في البحر، وقيل نظروا إلى أنفسهم ينجون
وإلى آل فرعون يفرقون. والمراد بآل فرعون هنا: هو وقومه،
وأتباعه. وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عمر بن
الخطاب أنه كان إذا تلا: ﴿أَنكَرُوا نَعْمَتِي﴾ التي أنعمت
عليكم. قال: مضى القوم، وإنما يعني به أنتم، وأخرج ابن
جرير عن سفيان بن عيينة قال في قوله: ﴿أَنكَرُوا نَعْمَتِي﴾
هي أيادي الله، وإياه. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال:
نعمة الله التي أنعم بها على بني إسرائيل، فيما سمى، وفيما
سوى ذلك، فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المنّ، والسلاوى،
وأنجاهم من عبودية آل فرعون. وأخرج عبد الرزاق،
وعبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾
﴿فَضَلَّكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك،
والرسل، والكتب على من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان
عالمه. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾
﴿فَضَلَّكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: لا يغني نفس مؤمنة
عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً. وأخرج ابن جرير، عن
عمرو بن قيس الملائي، عن رجل من بني أمية من أهل
الشام أحسن الثناء عليه قال: «قيل يا رسول الله ما العدل؟
قال: العدل الفقيه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن
عباس نحوه. قال ابن أبي حاتم وروى عن أبي مالك،
والحسن، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو
ذلك، وأخرج عبد الرزاق عن علي في تفسيره،

فرعون: قومه، وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهمل،
وقيل غير ذلك، وهو يضاف إلى نوي الخطر. وقال الأخفش:
إنما يقال في الرئيس الأعظم نحو آل محمد. ولا يضاف إلى
البلدان، فلا يقال من آل المدينة. وقال الأخفش: قد سمعناه
في البلدان قالوا آل المدينة. واختلفوا هل يضاف إلى
المضمر أم لا. فمنعه قوم وسوّغ آخرون، وهو الحق، ومنه
قول عبد المطلب:

وانصر على آل الصلبي وعابديه اليوم ألك
وفرعون: قيل هو اسم ذلك الملك بعينه، وقيل إنه اسم
لكل ملك من ملوك العمالة كما يسمى من ملك الفرس
كسرى، ومن ملك الروم قيصر، ومن ملك الحبشة النجاشي.
واسم فرعون موسى المذكور هنا: قابوس في قول أهل
الكتاب. وقال وهب: اسمه الوليد بن مصعب بن الريان. قال
المسعودي: لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية. وقال
الجهري: إن كل عات يقال له فرعون، وقد تفرعن وهو ذو
فرعنة أي: دهاء ومكر. وقال في الكشاف: تفرعن فلان: إذا
عتا وتجير. ومعنى قوله: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾ يولونكم، قاله أبو
عبيدة، وقيل يذيقونكم، ويلزمونكم إياه، وأصل السوم الدول،
ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعي، ويقال سامه خطة
خسف: إذا أولاه إياها. وقال في الكشاف: أصله من سام
السلعة إذا طلبها، كانه بمعنى يبيغونكم سوء العذاب،
ويريدونكم عليه. انتهى. ﴿وَيَسْؤُمُونَكُمْ﴾: أشدّه، وهو
صفة مصدر محذوف: أي يسومونكم سوماً سوء العذاب،
ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، وهذه الجملة في محل رفع
على أنها خبر لمبتدأ مقتر، ويجوز أن يكون في محل نصب
على الحال أي: سائمين لكم. وقوله: ﴿يُنَبِّحُونَكُمْ﴾ وما بعده
بدل من قوله: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾ وقال الفراء: إنه تفسير لما
قبله، وقرأ الجماعة بالتشديد، وقرأ ابن محيصن بالتخفيف.
والذبح في الأصل: الشقّ، وهو فري أوداج المنبوح، والمراد
بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركونهن أحياء
ليستخدمن، ويمتهنوهن وإنما أمر بنبيح الأبناء، واستحياء
البنات، لأن الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على
يده، وعبر عن البنات باسم النساء؛ لأنه جنس يصدق على
البنات. وقالت طائفة: أنه أمر بنبيح الرجال، واستنبلوا بقوله:
﴿نِسَاءَكُمْ﴾ والأوّل أصح بشهادة السبب، ولا يخفى ما في
قتل الأبناء، واستحياء البنات للخدمة، ونحوها من إنزال الذل
بهم، والصاق الإهانة الشديدة بجميعهم لما في ذلك من
العار. والإشارة بقوله: ﴿وَفِي نَارِكُمْ﴾ إلى جملة الأمر. والبلاء
يطلق تارة على الخير، وتارة على الشرّ، فإن أريد به هنا
الشرّ كانت الإشارة بقوله: ﴿وَفِي نَارِكُمْ﴾ إلى ما حلّ
بهم من النعمة بالنبيح، ونحوه، وإن أريد به الخير كانت
الإشارة إلى النعمة التي أنعم الله عليهم بالإتجاه، وما هو
منكور قبله من تفضيلهم على العالمين. وقد اختلف السلف
ومن بعدهم في مرجع الإشارة، فرجح الجمهور الأوّل،
ورجح الآخرون الآخر. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في

والعدل قال: التطوع والفريضة. قال ابن كثير: وهذا القول غريب ههنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالت الكهنة لفرعون إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكه، فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل، وعلى كل مائة عشرة، وعلى كل عشر رجلاً، فقال: انظروا كل امرأة حامل في المدينة، فإذا وضعت حملها، فإن كان نكراً فانبجوه، وإن كان أنثى، فخلوا عنها، وذلك قوله: ﴿يَنْبِجُونَ لِبَنَائِكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال: إن فرعون ملكهم أربع مائة سنة. فقالت له الكهنة: إنه سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوابل، فإذا ولدت امرأة غلاماً أتى به فرعون فقتله، ويستحي الجواري. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يقول: نقمة. وأخرج وكيع عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُم الْبَحْرَ﴾ فقال: إي والله لفرق البحر بينهم حتى صار طريقاً يبساً يمشون فيه، فأنجاهم الله، وأغرق آل فرعون عدوهم. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: ما هذا اليوم؟ قالوا: هذا يوم صالح نجي الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، فقال رسول الله ﷺ: نحن أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصومه». وقد أخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير أن هرقل كتب إلى معاوية يسأله عن أمور، منها عن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة، فكتب معاوية إلى ابن عباس، فأجابته عن تلك الأمور وقال: وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار: فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل. ولعله سيأتي إن شاء الله تعالى زيادة على ما هنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْ أَضْرَبَ بِمَعْصَاكُمُ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63].

وَأِذْ وَكَذَلِكَ مُوسَى آتَيْنِ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُعْزِرُكُمْ أَنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَعَادُوا إِلَيْكَ الْعِجْلَ تَتْرِكُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ بِكُمْ عَزَّ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

قرأ أبو عمرو «وعندنا» بغير ألف، ورجحه أبو عبيدة، وأنكر «واعندنا» قال: لأن المواعدة إنما تكون من البشر، فاما من الله فلإنما هو: التفرد بالوعد على هذا، وجدنا القرآن كقوله: ﴿وَعِدْكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22] وقوله: ﴿وَإِذْ يَعْزِمُكَ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ [الأنفال: 7] ومثله، قال أبو حاتم ومكي: وإنما قالوا هكذا نظراً إلى أصل المفاعلة أنها تفيد الاشتراك في أصل الفعل، وتكون من كل واحد من

حيث من طلل تقام عهده أقوى وأقرب بعد أم الهيثم وقيل إن الواو صلة، والمعنى: آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزداد في النعوت كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزجم
وقيل المعنى: أن ذلك المنزل جامع بين كونه كتاباً وفارقاً
بين الحق، والباطل، وهو كقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

وأباه، وابنه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى: مرهم، فليرفعوا أيديهم، وقد غفر لمن قتل، وتيب على من بقي. وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة، وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير عن الزهري نحواً مما سبق. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿إلى بارئكم﴾ قال: خالقكم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَتُوبُونَ لَنَا نَوْصِينَ لَكَ حَتَّى رَأَى اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَيْنِ مَوْتِكَمُ لَكُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَكَلَّمْنَا عَلَيْكُمُ الْقَمَارَ وَأَرْكَنَا عَلَيْكُمُ النَّارَ وَأَسْلَوْنِي كُفْرًا مِنْ مِثْلِنَا مَا زَرَفْتُمْ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ كَانُوا أَشْهَمُ يَظْهَرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ هذه الجملة معطوفة على التي قبلها، وظاهر السياق أن القائلين هذه المقالة هم: قوم موسى، وقيل هم السبعون الذين اختارهم، وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم دعا موسى ربه، فأحياهم كما قال تعالى هنا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَيْنِ مَوْتِكَمُ﴾ وسياقي ذلك في الأعراف إن شاء الله. والجهرة: المعاينة، وأصلها الظهور، ومنه الجهر بالقراءة، والمجاهرة بالمعاصي، ورأيت الأمر جهرة وجهاً: أي غير مستتر بشيء، وهي مصدر واقع موقع الحال. وقرأ ابن عباس: «جهرة» بفتح الهاء، وهي لغتان مثل زهرة، وزهرة، ويحتمل أن يكون على هذه القراءة جمع جاهر. والصاعقة قد تقدم تفسيرها، وقرأ عمر، وعثمان وعلي: «الصعقة» وهي قراءة ابن محيصن، والمراد بأخذ الصاعقة إصابتها إياهم ﴿وَإِنَّمَا تَنْظُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد من هذا النظر الكائن منهم أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذي ماتوا عنده، وقيل المراد بالصاعقة الموت، واستدل عليه بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَيْنِ مَوْتِكَمُ﴾ ولا موجب للمصير إلى هذا التفسير، لأن المصعوق قد يموت كما في هذه الآية، وقد يغشى عليه، ثم يفيق كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعَقاً فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ [الأعراف: 143] ومما يوجب بعد ذلك قوله: ﴿وَإِنَّمَا تَنْظُرُونَ﴾ فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كبير معنى، بل قد يقال إنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل بهم إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت، والمراد بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ﴾ الإحياء لهم لوقوعه بعد الموت، وأصل البعث الإثارة للشيء من محله، يقال: بعثت الناقة أي: أثرتها، ومنه قول امرئ القيس:

وَإِخْوَانُ صُلُقٍ قَدْ بَعَثَتْ بِسَحْرَةٍ فَقَامُوا جَمِيعاً بَيْنَ غَاثٍ وَنَشْوَانٍ
وَقَوْلُ عَنَتَرَةٍ:

وصحابة شم الأنوف بعثتهم ليلاً وقد مال الكرى بطلاها
ولنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم؛ لأنهم طلبوا ما لم يأتوا
الله به من رؤيته في الدنيا. وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا، والآخرة، وذهب من عداها إلى

تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء ﴿[الأنعام: 154]﴾ وقيل الفرقان: الفرق بينهم، وبين قوم فرعون، أنجي هؤلاء، وأغرق هؤلاء. وقال ابن زيد: الفرقان: انفراق البحر، وقيل الفرقان: الفرج من الكرب، وقيل: إنه الحجة، والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا، واليد، وغيرهما، وهذا أولى، وأرجح، ويكون العطف على ببابه، كأنه قال: آتينا موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له. قوله: ﴿يَا قَوْمُ﴾ القوم يطلق تارة على الرجال دون النساء، ومنه قول زهير: وما أبري وسوف إخال أبري أقوم آل حصن لم نساء ومنه قوله تعالى تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: 11]، ثم قال: ﴿لَا نَسَاءَ مِنْ نَسَاءٍ﴾ [الحجرات: 11]، ومنه ﴿وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 30، النحل: 54، العنكبوت: 28] أراد الرجال، وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ [توح: 1] والمراد هنا بالقوم عبدة العجل. والباريء الخالق، وقيل إن البارئ هو: المبدع المحدث، والخالق هو: المقدر الناقل من حال إلى حال، وفي ذكر البارئ هنا إشارة إلى عظيم جرمهم أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم، وقد عبثتم معه غيره. والثاء في قوله: ﴿فَتُوبُوا﴾ للسببية أي: لتسبب التوبة عن الظلم، وفي قوله: ﴿فَأَقْتُلُوا﴾ للتعقيب أي: اجعلوا القتل متعقباً للتوبة. قال القرطبي: وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده، قيل قاموا صفين، وقتل بعضهم بعضاً، وقيل: وقف الذين عبدوا العجل، وبخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلهم. وقوله: ﴿فَتَأْتِيكُمْ﴾ قيل في الكلام حذف أي: فقتلتكم أنفسكم، فتأب عليكم أي: على الباقي منكم. وقيل هو: جواب شرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم، فقد تأب عليكم. وأما ما قاله صاحب الكشف من أنه يجوز أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالتفات، فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتأب عليكم بارئكم، فهو بعيد جداً كما لا يخفى. وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قال: ذا القعدة، وعشراً من ذي الحجة. وقد أخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ مَوْتِكَمُ﴾ قال: من بعد ما اتخذتم العجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ قال: الكتاب هو: الفرقان، فرق بين الحق والباطل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الفرقان جماع اسم التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن. وأخرج ابن جرير عنه قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم، واختبأ الذين عكفوا على العجل، فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وأخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضهم بعضاً، فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه،

بعد موتكم» قال: فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿نَمُ بِعَفْنَاكُمْ﴾ نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ووظلنا عليكم الغمام﴾ قال: غمام أبرد من هذا، وأطيب، وهو: الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، وكان معهم في التيه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ووظلنا عليكم الغمام﴾ كان هذا الغمام في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس، وأطعمهم المَن، والسُلوى حين برزوا إلى البرية، فكان المَن يسقط عليهم في محلهم سقوط الثلج أشدَّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإن تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده، حتى إذا كان يوم سائسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سائسه، ويوم سابعه فبقي عنده، لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة، ولا لطبقة شيء، وهذا كله في البرية. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: المَن شيء أنزل الله عليهم مثل الطل، والسُلوى طير أكبر من العصفور. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: المَن صمغة، والسُلوى طائر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي قال: قالوا يا موسى كيف لنا بما هنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المَن، فكان يسقط على الشجرة للترنجيبين. وأخرجوا عن وهب أنه سئل ما المَن؟ قال: خبز الرقاق مثل الذرة، أو مثل النقي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: المَن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء، ثم يشربونه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المَن ينزل عليهم بالليل على الأشجار، فيفقدون إليه، فيكفون منه ما شاؤوا، والسُلوى طائر يشبه السمانى كانوا ياكلون منه ما شاؤوا. وأخرج ابن جرير عنه نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة في السُلوى مثله. وقد روي نحو ذلك عن جماعة من التابعين، ومن بعدهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما ظلمونا﴾ قال نحن أعز من أن نظلم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ قال: يضرّون.

وَأَذْنًا أَنْخَلُوا مَدْيَ الْقَرْيَةِ فَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ وَثَمَتْ رَعْدًا وَأَذْنُوا الْبَابَ سَكَنًا وَقُولُوا جَعَلْنَا نَزَرَ لَكُمْ خَلِيقَتَكُمْ وَسَيَرِيدَ الْحَمِيمِينَ ﴿٥٨﴾ قَدْ أَلَيْتَ ظَلَمَكُمْ قَوْلًا يَخْتِ الْأَرْبَ قَدْ لَهْمُ قَارَنَّا عَلَى الْأَرْبِ ظَلَمَكُمْ رَجْرًا يَنْ السَّمَاءَ بِمَا كَانُوا يَسْمُونَ ﴿٥٩﴾

قال جمهور المفسرين: القرية هي بيت المقدس، وقيل إنها أريحا قرية من قرى بيت المقدس، وقيل من قرى الشام. وقوله: ﴿كلوا﴾ أمر بإباحة، و ﴿رعداً﴾ كثيراً واسعاً، وهو نعت لمصدر محنوف أي: أكلاً رعداً، ويجوز أن يكون

جوازها في الدنيا، والآخرة، ووقعها في الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يفتقر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب، وسيأتي إن شاء الله بيان ما تمسكوا به من الأدلة القرآنية، وكلها خارج عن محل النزاع بعيد من موضع الحجة، وليس هذا موضع المقال في هذه المسألة قوله: ﴿وظلنا عليكم الغمام﴾ أي: فعلناه كالظلة. والغمام جمع غمامة كسحاب، وسحاب، قاله الأخفش. قال الفراء ويجوز غمام. وقد نكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر، والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين. والمَن: قيل هو: الترنجيبين. قال النحاس: هو بتشديد الراء، وإسكان النون، ويقال: الطرنجبين بالطاء، وعلى هذا أكثر المفسرين، وهو: طل ينزل من السماء على شجر، أو حجر، ويحلو، وينعقد عسلاً، ويجف جفاف الصمغ، نكر معناه في القاموس، وقيل إن المَن العسل، وقيل شراب حلو، وقيل خبز الرقاق، وقيل إنه مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب، ولا زرع، ومنه ما ثبت في صحيح البخاري، ومسلم من حديث أبي سعيد بن زيد عن النبي ﷺ: «إن الكرامة من المَن الذي أنزل على موسى». وقد ثبت مثله من حديث أبي هريرة عند أحمد، والترمذي، ومن حديث جابر، وأبي سعيد، وابن عباس عند النسائي. والسُلوى: قيل هو: السمانى، كجباري طائر ينحونه، فيكفونه. قال ابن عطية: السُلوى طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهنلي فقال: وقاسمهما بالله جهداً لأنتما اللذان السُلوى إذا ما أشورها ظن أن السُلوى العسل. قال القرطبي: ما ادعاه من الإجماع لا يصح. وقد قال المؤرّج أحد علماء اللغة، والتفسير: إنه العسل. واستدل ببيت الهنلي، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة، وأنشد:

لوشربت السُلوى ماسلوت ما بي غنا عنك وإن غنيت
وقال الجوهري: والسُلوى العسل. قال الأخفش: السُلوى لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر، وهو يشبه أن يكون واحده سُلوى. وقال الخليل: واحده سلواة، وأنشد:

وإني لتعروني لنكرك سلوة كما انتفض السلواة من سلكه القطر
وقال الكسائي: السُلوى واحدة، وجمعه سلواى. وقوله: (كلوا) أي: قلنا لهم كلوا، وفي الكلام حذف، والتقدير: قلنا كلوا فعضوا، ولم يقابلوا النعم بالشكر، فظلموا أنفسهم، وما ظلمونا، فنحن هذا لدلالة ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ عليه، وتقديم الأنفس هنا يفيد الاختصاص. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ قال: علانية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أنس قال: هم: السبعون الذين اختارهم موسى ﴿فلاخنتكم لصاعقة﴾ قال: ماتوا ﴿نم بعفناكم من

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا ففكر الموت في البيت ثلاثاً تهويلاً لأمره، وتعظيماً لشأنه. وقوله: ﴿رَجَزًا﴾ بكسر الراء في قراءة الجميع إلا ابن محيصن، فإنه قرأ بضم الراء. والرجز: العذاب، والفسق قد تقدم تفسيره. وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ قال: بيت المقدس. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: هي أريحاء قرية من بيت المقدس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿ادخلوا الباب﴾ قال: باب ضيق ﴿سجداً﴾ قال: ركعاً. وقوله: ﴿حطة﴾ قال: مغفرة، فدخلوا من قبل أستاذهم، وقالوا: حطة استهزاء، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الباب هو أحد أبواب بيت المقدس، وهو يدعى باب حطة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال: قيل لهم: ﴿ادخلوا الباب سجداً﴾ فدخلوا مقنعي رؤوسهم، وقالوا: حطة حبة حمراء فيها شعيرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ قال: طأطأوا رؤوسكم ﴿وقولوا حطة﴾ قال: قولوا لا إله إلا الله. وأخرج البيهقي في الأسماء، والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿قولوا حطة﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: كان الباب قبل القبلة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا حبة في شعرة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس، وأبي هريرة قالاً: قال رسول الله ﷺ: «دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حطة في شعيرة، والأول أرجح لكونه في الصحيحين. وقد أخرجه معهما من أخرج هذا الحديث الآخر: أعني ابن جرير، وابن المنذر. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي قال: إنما مثلنا في هذه الأمة كسفينة نوح، وكباب حطة في بني إسرائيل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب. وأخرج مسلم، وغيره من حديث أسامة بن زيد، وسعد بن مالك، وخزيمة بن ثابت قالوا: قال رسول الله ﷺ: «وإن هذا الطاعون رجز، وبقيّة عذاب عنب به أناس من قبلكم، فإذا كان بارض، وأنتم بها، فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بارض، فلا تدخلوها».

﴿وَإِذْ أَسْتَشَنَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِسَاطِئِكَ أَتَعْلَمَ ۖ فَانْتَحَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَسْلًا ۚ قَالَ أَنَبِيَ اللَّهِ لِقَوْمٍ أَتَىٰ مِنْهُ تَقَرُّهُمُ كَلُومًا ۚ وَافْتَرَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ كَانَ مُؤْمِنًا ۚ﴾

في موضع الحال، وقد تقدم تفسيره. والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة، وقيل: هو باب القبة التي كان يصلي إليها موسى، وبني إسرائيل. والسجود قد تقدم تفسيره وقيل: هو هنا الانحناء، وقيل: التواضع والخضوع، واستدلوا على ذلك: بأنه لو كان المراد السجود الحقيقي الذي هو وضع الجبهة على الأرض لامتنع الدخول المأمور به؛ لأنه لا يمكن الدخول حال السجود الحقيقي. وقال في الكشف: إنهم أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله، وتواضعاً. واعترضه أبو حيان في النهر الماد فقال: لم يؤمروا بالسجود، بل هو: قيد في وقوع المأمور به، وهو: الدخول، والأحوال نسب تقييدية، والأوامر نسب إنشائية. انتهى. ويجاب عنه بأن الأمر بالمعقيد أمر بالمعقيد، فمن قال أخرج مسرعاً، فهو أمر بالخروج على هذه الهيئة، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفاً للأمر. ولا ينافي هذا كون الأحوال نسباً تقييدية، فإن اتصافها بكونها قيوداً مأموراً بها هو شيء زائد على مجرد التقييد. وقوله: ﴿حطة﴾ بالرفع في قراءة الجمهور على إضمار مبتدأ، قال الأخفش: وقرئت: «حطة» نصباً على معنى انحطط عنا دنوبنا حطة، وقيل معناها الاستغفار ومنه قول الشاعر:

فاز بالحطة التي أمر الله بها نذب عبده مغفورا
وقال ابن فارس في المجل: ﴿حطة﴾ كلمة أمروا بها، ولو قالوها لحطت أوزارهم. قال الرازي في تفسيره: أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وذلك لأن التوبة صفة القلب، فلا يطلع الغير عليها، وإذا اشتهر، وأخذ بالذنب، ثم تاب بعده لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب؛ لأن التوبة لا تتم إلا به. انتهى، وكون التوبة لا تتم إلا بذلك لا دليل عليه، بل مجرد عقد القلب عليها يكفي سواء أطلع الناس على ذنبه أم لا، وربما كان التكتّم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا الله عز وجل أحب إلى الله، وأقرب إلى مغفرته. وأما رفع ما عند الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية، فذلك باب آخر. وقوله: ﴿يُغْفِرْ لَكُمْ﴾ قرأ نافع بالياء التحتية المضمومة، وقرأه ابن عامر بالتاء الفوقية المضمومة، وقرأه الباقر بالنون، وهي: أولى. والخطايا جمع خطيئة بالهمز، وقد تكلم علماء العربية في ذلك بما هو معروف في كتب الصرف. وقوله: ﴿وَسَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نزيدهم إحساناً على إحسانهم المتقدم، وهو: اسم فاعل من أحسن، وقد ثبت في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ قيل إنهم قالوا حنطة، وقيل غير ذلك. والصواب أنهم قالوا: حبة في شعرة كما سيأتي مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وقوله: ﴿فَانزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هو من وضع الظاهر موضع المضممر لنكتة كما تقرّر في علم البيان، وهي هنا: تعظيم الأمر عليهم وتقبيح فعلهم، ومنه قول عدي بن زيد:

مفعولاً، والأولى أن يكون المفعول محذوفاً دل عليه سياق الكلام، أي: تخرج لنا ملكولاً. وقوله: ﴿من بقلها﴾ بدل من ما بإعادة الحرف، والبقل: كل نبات ليس له ساق، والشجر: ما له ساق. قال في الكشف: البقل ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطايب البقول التي ياكلها الناس كالنخاع، والكرفس، والكراث، والشباهما. انتهى. والقثاء بكسر القاف، وفتحها. والأولى قراءة الجمهور. والثانية قراءة يحيى بن وثاب، وطلحة بن مصرف، وهو معروف. والقوم: قيل هو: الثوم، وقد قرأه ابن مسعود بالثاء. وروي نحو ذلك عن ابن عباس، وقيل: القوم الحنطة، وإليه ذهب أكثر المفسرين، كما قال القرطبي. وقد رجح هذا ابن النحاس. وقال الجوهري: القوم الحنطة، وممن قال بهذا الزجاج، والأخفش، وأنشد:

قد كنت أحسبني كإفنى واحد ترك المدينة عن زراعة قوم
وقال بالقول الأول الكسائي، والنضر بن شميل، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة فيها الفرائس والفومات والبصل
أي الثوم، وقال حسان:

وانتم أناس لشام الأصول طعامكم القوم والحوقل
يعني الثوم، والبصل، وقيل القوم: السنبل، وقيل: الحمص، وقيل: القوم كل حب يخبز. والعفس، والبصل معروفان. والاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر ﴿وإني﴾ قال الزجاج: إنه مأخوذ من الدنو أي: القرب. والمراد: اتضعون هذه الأشياء التي هي بون موضع المن، والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستئذان، والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه، والحل الذي لا تطرقه الشبهة، وعدم الكلفة بالسعي له، والتعب في تحصيله، وقوله: ﴿أهبطوا مصر﴾ أي: أنزلوا، وقد تقدم معنى الهبوط. وظاهر هذا أن الله أنزلهم بمصر، وقيل إن الأمر للتعجيز؛ لأنهم كانوا في التيه، فهو مثل قوله تعالى: ﴿كونوا حجارة أو حديد﴾ [الإسراء: 50]، وصرف مصر هنا مع اجتماع العلمية، والتأنيث؛ لأنه ثلاثي ساكن الوسط، وهو: يجوز صرفه مع حصول السببين، وبه قال الأخفش والكسائي. وقال الخليل، وسيبويه: إن ذلك لا يجوز، وقال: إنه لا علمية هنا؛ لأنه أراد مصرّاً من الأمصار، ولم يرد المدينة المعروفة، وهو خلاف الظاهر. وقرأ الحسن، وأبان بن تغلب، وطلحة بن مصرف بترك التنوين، وهو كذلك في مصحف أبي، وابن مسعود. ومعنى ضرب الذلة، والمسكنة إلزامهم بذلك، والقضاء به عليهم قضاء مستمراً لا يفارقهم، ولا ينفصل عنهم، مع دلالة على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها، ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً:

ضربت عليك العنكبوت بوزنها وقضى عليك به الكتاب المنزل
وهو ضرب من الهجاء بليغ، كما أنه إذا استعمل في المديح كان في منزلة رفيعة، ومنه قول الشاعر:

إن المروءة والشجاعة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَجِبَ قَادُهُ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا ثَلُثُ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَبِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِمَعْصِيََةِ اللَّهِ ذَلِكَ بَآئِنَةٌ كَثُورٌ مِمَّا كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَفْتُلُوا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥١﴾

الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء، وجبس المطر. ومعناه في اللغة: طلب السقيا. وفي الشرع ما ثبت عن النبي ﷺ في صفته من الصلاة، والدعاء، والحجر يحتمل أن يكون حجراً معيناً، فتكون اللام للعهد، ويحتمل أن لا يكون معيناً، فتكون للجنس، وهو أظهر في المعجزة، وأقوى للحجة. وقوله: ﴿فانفجرت﴾ الفاء مترتبة على محذوف تقديره: فضرِب، فانفجرت، والانفجار: الانشقاق، وانفجر الماء انفجاراً تفتح، والفجرة: موضع تفتح الماء. قال ابن عطية: ولا خلاف أنه كان حجراً مربعاً يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون، وإذا استغنوا عن الماء جفت. والمشرَب: موضع الشرب، وقيل هو: المشروب نفسه. وفيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركونهم غيرهم. قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعدها إلى غيرها، والأسباط ذرية الاثني عشر من أولاد يعقوب. وقوله: ﴿كلوا﴾ أي: قلنا لهم كلوا المن، والسلوى، واشربوا الماء المتفجر من الحجر. وعثا يعني عيثاً، وعثا يعثو عثوا، وعثا يعيث عيثاً، لغات: بمعنى أفسد. وقوله: ﴿مفسدين﴾ حال مؤكدة. قال في القاموس: عثي كرمي، وسعى ورضي، عثياً، وعثياً، وعثياناً، وعثا يعثو عثوا: أفسد. وقال في الكشف: العثي أشد الفساد. فقيل لهم: لا تملأوا في الفساد في حال فسادكم؛ لأنهم كانوا متمادين فيه. انتهى. قوله: ﴿لن نصير على طعام واحد﴾ تضجر منهم بما صاروا فيه من النعمة، والرزق الطيب، والعيش المستند، ونزوع إلى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش:

إن الشقي بالشقاء مولى لا يملك الرد له إذا اتى
ويحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقاً إلى ما كانوا فيه، ونظراً لما صاروا إليه من العيشة الرافهة، بل هو: باب من تعنتهم، وشعبة من شعب تعجرهم كما هو دأبهم، وهجيرهم في غالب ما قص علينا من أخبارهم. وقال الحسن البصري: إنهم كانوا أهل كراث، وأبصال، وأعداس، فنزعوا إلى عكرهم، أي: أصلهم عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا: ﴿لن نصير على طعام واحد﴾ والمراد بالطعام الواحد هو: المن والسلوى، وهما، وإن كانا طعامين لكن لما كانوا ياكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاماً واحداً. وقيل لتكرهما في كل يوم، وعدم وجود غيرهما معهما، ولا تبيلة بهما. ومن في قوله: ﴿هما تنبت﴾ تخرج. قال الأخفش: زائدة، وخالفه سيبويه لكونها لا تزداد في الكلام الموجب. قال النحاس: وإنما دعا الأخفش إلى هذا؛ لأنه لم يجد مفعولاً ليخرج، فأراد أن يجعل ما

حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: الخبز، وفي لفظ: البر، وفي لفظ: الحنطة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: القوم الثوم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن مسعود: أنه قرأ: «وثومها» وروى ابن أبي الدنيا، عن ابن عباس أنه قال: قراءتي قراءة زيد، وأنا أخذ ببضعة عشر حرفاً من قراءة ابن مسعود هذا أحدها: «من بقلها وقثائها وثومها». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿الَّذِي هُوَ أُنْتَى﴾ قال: إردأ. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿هَابِطُوا مِصْرًا﴾ قال مصرأً من الأمصار. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية: أنه مصر فرعون. وأخرج نحوه ابن أبي داود، وابن الأنباري عن الأعمش. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ النَّلَّةُ﴾ قال: هم: أصحاب الجزية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، والحسن قال: ضربت عليهم النلة، والمسكنة أي: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية قال: المسكنة الفاقة. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في قوله: ﴿وَبَاؤُوا بْغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال: استحقوا الغضب من الله. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿وَبَاؤُوا﴾ قال: انقلبوا. وأخرج أبو داود الطيالسي، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاث مئة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٧﴾

قيل: إن المراد بالذين آمنوا المنافقون، بدلالة جعلهم مقترنين باليهود، والنصارى، والصابئين أي: آمنوا في الظاهر. والأولى أن يقال: إن المراد الذين صلّقوا النبي ﷺ، وصاروا من جملة أتباعه، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية، وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد، وهو: أن من آمن منهم بالله، واليوم الآخر، وعمل صالحاً استحق ما ذكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كله، والأجر دقه وجهه. والمراد بالإيمان هاهنا هو: ما بينه رسول الله ﷺ من قوله لما سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره، وشره» ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ، ولا بالقرآن، فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ولم يبق يهودياً، ولا نصرانياً، ولا مجوسياً. وقوله: ﴿هَادُوا﴾ معناه صاروا يهوداً، قيل هو: نسبة لهم إلى يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة، فقلبته العرب دالا مهملة، وقيل معنى هادوا: تابوا لتوبتهم عن عبادة العجل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ﴾ [الأعراف: 156] أي تبنا، وقيل إن معناه السكون، والموادعة. وقال في الكشف: إن معناه دخل في اليهودية،

وهذا الخبر الذي أخبرنا الله به هو: معلوم في جميع الأزمنة، فإن اليهود أقامهم الله أزل الفرق، وأشدهم مسكنة، وأكثرهم تصاغراً، لم ينتظم لهم جمع، ولا خفقت على رؤوسهم راية، ولا ثبتت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصى في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أي مبلغ، فهو متظاهر بالفقر متردء بأثواب المسكنة لينفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرؤ على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه. ومعنى ﴿بَاؤُوا﴾ رجعوا، يقال باء بكذا، أي: رجع به، وباء إلى المباءة، أي: رجع إلى المنزل، والباء: الرجوع، ويقال: هم في هذا الأمر بواء، أي: سواء يرجعون فيه إلى معنى واحد، وباء فلان بفلان: إذا كان حقيقاً بأن يقبل به لمساواته له، ومنه قول الشاعر:

ألا تنتهي عنا ملوك وتنتهي محاربنا لا يباؤا الدم بالدم والمراد في الآية أنهم رجعوا بغضب من الله، أو صاروا أحقاء بغضبه، وقد تقدم تفسير الغضب. والإشارة بقوله ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من حديث النلة، وما بعده بسبب كفرهم بالله، وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه، والعمل به، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال: إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال لمكان العصمة، بل المراد نعي هذا الأمر عليهم، وتعظيمه، وأنه ظلم بحت في نفس الأمر. ويمكن أن يقال: أنه ليس بحق في اعتقادهم الباطل، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لم يعارضوهم في مال ولا جاه، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين، والدنيا كما كان من شعياً، وزكريا، ويحيى، فإنهم قتلوهم، وهم يعلمون، ويعتقدون أنهم ظالمون. وتكرير الإشارة لقصد التأكيد، وتعظيم الأمر عليهم، وتهويله، ومجموع ما بعد الإشارة الأولى، والإشارة الثانية هو السبب لضرب النلة، وما بعده، وقيل: يجوز أن تكون الإشارة الثانية إلى الكفر، والقتل، فيكون ما بعدها سبباً للسبب وهو بعيد جداً. والاعتدال تجاوز الحد في كل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر، فصار فيها اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، ومجاهد، وابن أبي حاتم عن جويرير نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: لا تسعوا في الأرض فساداً. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: يعني لا تمشوا بالمعاصي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: لا تسيروا في الأرض مفسدين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ قال: المن، والسلى واستبطلوا به البقل، وما حكى معه. وأخرج عبد بن

حاتم، عن مجاهد قال: الصابئون فرقة بين اليهود، والنصارى، والمجوس، ليس لهم دين. وأخرج عبد الرزاق، عنه قال: قال ابن عباس، فذكر نحوه. وقد روي في تفسير الصابئين غير هذا.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَإِذْ كُتِبَ فِي الْكِتَابِ لَكُمْ تُتَفَقَّحُونَ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ قَوَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي
الْحَبَشَةِ فَعَلْنَا لَهُمْ كُونًا زَرَّةً خَرِيرِينَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّاهُمْ نَجَلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا
خَلَّفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٠﴾

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ هو في محل نصب بعامل مقدر هو: انكروا كما تقدم غير مرة. وقد تقدم تفسير الميثاق، والمراد أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق بأن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة، وبما هو أعم من ذلك، أو أخص. والطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وأنزل عليه التوراة فيه، وقيل هو: اسم لكل جبل بالسريانية. وقد ذكر كثير من المفسرين أن موسى لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالالواح قال لهم: اسم خنوها، والتزموها، فقالوا: لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك، فصعقوا، ثم أحيوا، فقال لهم: خنوها، والتزموها، فقالوا: لا، فأمر الله الملائكة، فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأتوا ببحر من خلفهم، ونار من قبل وجوههم، وقيل لهم خنوها، وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق. قال ابن جرير عن بعض العلماء: لو أخذوها أول مرة، لم يكن عليهم ميثاق. قال ابن عطية: والذي لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان، لا أنهم آمنوا كرهاً، وقلوبهم غير مطمئنة. انتهى. وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم ليه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه إليها كغيره، وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا، أو أشد منه. ونحن نقول: أكرههم الله على الإيمان، فأمنوا مكرهين، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان. وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عن من تكلم بكلمة الإسلام، والسيف مصلت قد هرّج حامله على رأسه. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتزلاً عن قتله بأنه قالها تقية، ولم تكن عن قصد صحيح: «أنت فتشت عن قلبه، وقال: لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، وقوله: ﴿خُنُوا﴾ أي: وقتلنا لكم خنوا: ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ والقوة: الجِدُّ والاجتهاد. والمراد بذكر ما فيه أن يكون محفوظاً عندهم ليعملوا به. قوله: ﴿ثُمَّ قَوَّيْتُمْ﴾ أصل التولي الإبرار عن الشيء، والإعراض بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور، والألبان، والمعتقدات اتساعاً، ومجازاً، والمراد هنا: إعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم، وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد البرهان لهم، والترهيب بأشد ما يكون،

والنصارى قال سيبويه: مفردة نصران، ونصرانة كننمان، وندمانة، وأنشد شاهداً على ذلك قول الشاعر:
تراه إذا زار العشما متخففاً ويضحى لديه وهو نصران شامس
وقال الآخر:

فكلتاها خرت وأسجد رأسها كما سجدت نصرانة لم تحنف
قال: ولكن لا يستعمل إلا بياء النسب فيقال: رجل نصراني، وامرأة نصرانية. وقال الخليل: واحد النصارى نصري. وقال الجوهري: ونصران قرية بالشام تنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة، وعلى هذا، فالياء للنسب. وقال في الكشف: إن الياء للمبالغة كالتي في أحمرى، سمووا بذلك؛ لأنهم نصروا المسيح. والصابين جمع صابي، وقيل: صاب. وقد اختلف فيه القراء، فهمزوه جميعاً إلا نافعا، فمن همزه جعله من صبات النجوم: إذا طلعت، وصبات ثنية الغلام: إذا خرجت. ومن لم يهمزه جعله من صبا يصبو: إذا مال، والصابى في اللغة: من خرج، ومال من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبا، وسموا هذه الفرقة صابئة؛ لأنها خرجت من دين اليهود، والنصارى، وعبدوا الملائكة. وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ في موضع نصب بدلاً من الذين آمنوا، وما بعده، وقد تقدم معنى الإيمان، ويكون خبر. إن قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ خبره قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وهما جميعاً خبر إن، والعائد مقدر في الجملة الأولى أي: من آمن منهم، وبخلت الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقد تقدم تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38] وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سلمان قال: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فنكرت من صلاتهم، وعيانتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية. وأخرج الواحدي عن مجاهد نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في ذكر السبب بنحو ما سبق، وحكى قصة طويلة. وأخرج أبو داود في الناسخ، والمنسوخ، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ قال: فأنزل الله بعد هذا ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ الْإِسْلَامَ دِينًا، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن علي قال: إنما سميت اليهود؛ لأنهم قالوا ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: نحن أعلم من أين سميت اليهود باليهودية من كلمة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ ولم تسمت النصارى بالنصرانية؟ من كلمة عيسى عليه السلام: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [الصف: 14] وأخرج أبو الشيخ نحوه عنه. وأخرج ابن جرير عن قتادة: إنما تسموا نصارى بقرية يقال لها ناصرة. وأخرج ابن سعد في طبقاته، وابن جرير، عن ابن عباس قال: إنما سميت النصارى؛ لأن قرية عيسى كانت تسمى ناصرة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي

﴿وَأَنكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قال: اقرؤوا ما في التوراة، واعملوا به. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: لعلكم تتزعمون عما أنتم عليه. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَيَّ عِزَّتِي﴾ عرفتكم ﴿وَأَعْتَدُوا﴾ يقول: اجتروا في السبت بصيد السمك، فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، ولم يعيش مسيخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم ياكل، ولم يشرب، ولم ينسل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: القردة، والخنازير من نسل الذين مسخوا، وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: انقطع ذلك النسل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو: مثل ضربه الله لهم كقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: 5] وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية قال: أحلت لهم الحيتان، وحُرِّمَتْ عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، فكان فيهم ثلاثة أصناف، ونكر نحو ما قُتِمْنَا عن المفسرين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: صار شباب القوم قردة، والمشيخة صاروا خنازير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ قال: نليلين. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ قال: صاغرين. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من القرى ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يعني الحيتان ﴿نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ من الذنوب التي عملوا قبل، وبعد. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ قال: جعلنا تلك العقوبة، وهي المسخة ﴿نَكَالًا﴾ عقوبة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يقول: ليحذر من بعدهم عقوبتي ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يقول: للذين كانوا معهم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ قال: تنكرة، وعبرة للمؤمنين.

وَأَذَى قَالَ مَوْئِي لِقَوْمِي إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَلَيْسَ النَّبِيُّدُ فَهَرُورًا قَالَ أَغَوَىٰ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْجِلِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَذَىٰ لَّا رَيْكَ بَيْنَنَا وَمَا مَنَىٰ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ وَلَا يَقْرَأُ بِكُرٍّ عَوَاقِبُهَا ذَٰلِكَ قَاتَمُوا مَا تَوَمَّرُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا أَذَىٰ لَّا رَيْكَ بَيْنَنَا وَمَا لَوْ نَبَّهْتَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَذَىٰ لَّا رَيْكَ بَيْنَنَا وَمَا مَنَىٰ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْقَرْيَةَ مَسْلُومَةً لَا رَيْبَ فِيهَا قَالُوا أَأَنَّنَىٰ جِئْتَ بِالْحَقِّ قَدْ جَاءَكُمْ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٠﴾

قيل: إن قصة نبح البقرة المذكورة هنا مقدم في التلاوة، ومؤخر في المعنى على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: 72] ويجوز أن يكون قوله: قتلتم مقدماً في النزول، ويكون الأمر بالنبح مؤخراً، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكان الله أمرهم بنبح البقرة حتى نبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها هذا على فرض أن الواو تقتضي الترتيب، وقد تقرر

وأعظم ما تجوزه العقول، وتقدره الأنعام، وهو: رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم. وقوله: ﴿قُلُوبًا فُضِّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن تدارككم بلطفه، ورحمته حتى أظهرتم التوبة لخسرتم. والفخسل: الزيادة. قال ابن فارس في المجل: الفضل تزيادة، والخير، والإفضال: الإحسان. انتهى. والخسران: النقصان، وقد تقدم تفسيره. والسبت في أصل اللغة: القطع؛ لأن الأشياء تمت فيه، وانقطع العمل؛ وقيل: هو: مأخوذ من السبوت، وهو الراحة، والدعة. وقال في الكشف: السبت مصدر سببت اليهود: إذا عظمت يوم السبت. انتهى. وقد نكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت قريقتين: ففرقة اعتنت في السبت أي: جاوزت ما أمرها الله به من العمل فيه فصابوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه: والفرقة الأخرى انقسمت إلى قريقتين: ففرقة جاهرت بالنهي، واعتزلت، وفرقة لم توافق المعتندين، ولا صالوا معهم لكنهم جالسوهم، ولم يجاهروهم بالنهي، ولا اعتزلوا عنهم، فمسخهم الله جميعاً، ولم تنج إلا الفرقة الأولى فقط، وهذه من جملة المحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا في العجرفة، وعاندوا أنبياءهم، وما زالوا في كل موطن يظهرون من حماقاتهم، وسخف عقولهم، وتعتنتهم نوعاً من أنواع التعسف، وشعبة من شعب التكلف، فإن الحيتان كانت في يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كُنُكٌ نَّبِلُهُمْ﴾ [الأعراف: 163] فاحتالوا لصيدها، وحفروا الحفائر، وشقوا الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت، فيصيدها يوم الأحد، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة. والخاسئ: المبعد، يقال: خسأته، فحسأ، وخسي، وانخسأ: أبعدته، فبعد. ومنه قوله تعالى: ﴿يُنْقَلَبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَلْسًا﴾ [الملك: 4] أي: مبعداً. وقوله: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا﴾ [المؤمنون: 108] أي: تباعدوا تباعد سخط، ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر. والمراد هنا: كونوا بين المصير إلى أشكال القردة مع كونهم مطروحين صاغرين، فقردة خير الكون. وخاسئين خير آخر، وقيل إنه صفة لقردة، والأول أظهر. واختلف في مرجع الضمير في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ وفي قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ فقيل العقوبة، وقيل الأمة، وقيل القرية، وقيل القردة، وقيل الحيتان، والأول أظهر. والنكال: الزجر والعقاب، والنكل: القيد؛ لأنه يمنع صاحبه، ويقال للجام الدابة نكل؛ لأنه يمنعه، والموعظة مأخوذة من الاتعاط، والانزجار، والوعظ: التخويف. وقال الخليل: الوعظ التنكير بالخير. وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الطور الجبل الذي أنزلت عليه التوراة، وكان بنو إسرائيل أسفل منه. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: الطور ما أثبت من الجبال، وما لم ينبت، فليس بطور. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ قال: أي جذ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله:

تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجاباً بها، واستحساناً لولونها. قال وهب: كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ثم لم ينزعوا عن غوايتهم، ولا ارعوا من سفهم، وجهلهم، بل علوا إلى تعنتهم فقال: ﴿إدع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾ أي: أن جنس البقر يتشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة، ووعدا من أنفسهم بالاهتداء إلى ما نلهم عليه، والامتثال لما أمروا به. والنلول: التي لم ينلها العمل أي: هي غير منللة بالعمل، ولا روضة به. وقوله: ﴿تثير﴾ في موضع رفع على الصفة لبقرة أي: هي بقرة لا نلول مثيرة، وكذلك قوله: ﴿ولا تسقي الحرث﴾ في محل رفع؛ لأنه وصف لها: أي ليست من النواضع التي يسنى عليها لسقي الزروع، وحرف النفي الآخر توكيد للأول أي: هي بقرة غير منللة بالحرث، ولا بالنضج، ولهذا قال الحسن: كانت البقرة، وحشية. وقال قوم: إن قوله: ﴿تثير﴾ فعل مستأنف. والمعنى: إيجاب الحرث لها، والنضج بها. والأول أرجح؛ لأنها لو كانت مثيرة ساقية، لكانت مثلية روضة، وقد نفى الله ذلك عنها. وقوله: ﴿مسلمة﴾ مرتفع على أنه من أوصاف البقرة، ويجوز أن يكون مرتفعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هي مسلمة. والجملة في محل رفع على أنها صفة، والمسلمة: هي التي لا عيب فيها، وقيل مسلمة من العمل، وهو: ضعيف؛ لأن الله سبحانه قد نفى ذلك عنها، والتأسيس خير من التاكيد، والإفادة أولى من الإعادة، والشية أصلها، وشية حنفت الواو كما حنفت من يشي، وأصله يوشي، ونظيره الزنة، والعدة، والصلة، وهي مأخوذة من وشي الثوب: إذا نسج على لونين مختلفين، وثور موسى في وجهه، وقوائمه سواد. والمراد أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر: فلما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبقى بعدها ريب، ولا يخالج سامعها شك، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه، أقصروا من غوايتهم، وانتبهوا من رقتهم، وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضيق عليهم ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي: أوضحت لنا الوصف، وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها، فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات ﴿فنبحوها﴾ وامتثلوا الأمر الذي كان يسرا، ففسروه، وكان اسماً، فضيقوه ﴿وما كانوا يفعلون﴾ ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط، والتعنت، وعدم المبالاة، فكان ذلك مظنة للاستبعاد، ومحلاً للمجئ بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم، وقيل إنهم ما كانوا يفعلون لعدم، وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف، وقيل لارتفاع ثمنها، وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول، والأول أرجح. وقد استدلت جماعة من المفسرين، والاصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل إمكان الفعل.

وليس ذلك عندي بصحيح لوجهين: الأول: أن هذه الأوصاف المزينة بسبب تكرار السؤال هي من باب التقييد

في علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب، ولامية، وسيأتي في قصة القتل تمام الكلام، والبقرة اسم للأنثى، ويقال للذكر ثور، وقيل إنها تطلق عليهما، وأصله من البقر، وهو: الشق؛ لأنها تشق الأرض بالحرث، قال الأزهري: البقر اسم جنس، وجمعه باقر. وقد قرأ عكرمة ويحيى بن يعمر «إن البقر تشابه علينا» وقوله: ﴿هزوا﴾ الهزو هنا: اللعب والسخرية، وقد تقدم تفسيره، وإنما يفعل ذلك أهل الجهل؛ لأنه نوع من العبث الذي لا يفعله العقلاء، ولهذا أجابه موسى بالاستعانة بالله سبحانه من الجهل. وقوله: ﴿قالوا ادع لنا ربك﴾ هذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به، ولو تركوا التعنت، والأسئلة المتكلفة لأجأهم نبخ بقرة من عرض البقر، ولكنهم شذبوا فشد الله عليهم كما سيأتي بيانه. والفارض: المسنة، ومعناه في اللغة الواسع. قال في الكشاف: وكانها سميت فارضاً؛ لأنها فرضت سنها أي: قطعتها وبلغت آخرها. انتهى. ويقال للشية القديم: فارض، ومنه قول الراجز:

يا رب ذي ضغن علي فارض له قروك قرو الحائض
أي قديم، وقيل الفارض: التي قد ولدت بطوناً كثيرة فيتسع جوفها. والبكر: الصغيرة التي لم تحمل، وتطلق في إناث البهائم وبني آدم على ما لم يفتح له الفحل، وتطلق أيضاً على الأول من الأولاد، ومنه قول الراجز:

يا بكر بكريين يا صلب الكبد أصبحت مني كذراع من عضد
والعوان: المتوسطة بين سني الفارض، وهي التي قد ولدت بطناً، أو بطنين؛ ويقال: هي التي قد ولدت مرة بعد مرة، والإشارة بقوله: ﴿يبين ذلك﴾ إلى الفارض، والبكر، وهما: وإن كانتا مؤنثتين، فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكر، كأنه قال: بين ذلك المذكر، وجاز دخول بين المقتضية لشئيتين؛ لأن المذكر متعبد. وقوله: ﴿فافعلوا﴾ تجنيد للأمر، وتأكيد له، وزجر لهم عن التعنت، فلم ينفعهم ذلك، ولا نجح فيهم، بل رجعوا إلى طبيعتهم، وعادوا إلى مكرهم واستمروا على عانتهم المألوفة، فقالوا: ﴿فادع لنا ربك﴾. واللون: واحد الألوان، وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء. قال بعضهم: حتى قرنها، وظلفها. وقال الحسن، وسعيد بن جبير: إنها كانت صفراء القرن، والظف فقط، وهو: خلاف الظاهر. والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة. وروي عن الحسن أن صفراء معناه سوداء، وهذا من بدع التفسير، ومكراتها، وليت شعري كيف يصدق على اللون الأسود الذي هو: اقبح الألوان أنه يسر الناظرين، وكيف يصح وصفه بالفقوع الذي يعلم كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجزي على الأسود بوجه من الوجوه، فإنهم يقولون في وصف الأسود: حالك، وحلكوك، ودجوجي، وغريب. قال الكسائي: يقال فقح لوناً يفقع فقوعاً: إذا خلصت صفوته. وقال في الكشاف: للفقوع أشد ما يكون من الصفرة، وأنصعه. ومعنى ﴿تسر الناظرين﴾:

أيضاً في قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر في قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾ قال: صفراء الظلف ﴿فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: صافي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال: ﴿فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ أي: صاف ﴿تَسْرُ النَّاظِرِينَ﴾ أي: تعجب. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾ قال: سوداء شديدة السواد. وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿لَا تُلْوُ﴾ أي: لم ينلها العمل ﴿تَثِيرِ الْأَرْضِ﴾ يعني ليست بثلول، فتثير الأرض ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يقول: ولا تعمل في الحرث ﴿مُسْلِمَةً﴾ قال: من العيوب. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد. وقال: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ لا بياض فيها، ولا سود. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس ﴿مُسْلِمَةً﴾ لا عوار فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾ قالوا: الآن بينت لنا: ﴿فَنَذِجُوهَا وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها.

وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ تَسَاءً فَأَذَّنَ مُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرَجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْنَا أَمْرُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَلِيُذَكِّرَكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَنَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَدِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾

قد تقدم ما نكرناه في قصة ذبح البقرة، فيكون تقدير الكلام ﴿وَإِذَا قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَأَذَارُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرَجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال موسى لقومه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ [البقرة: 67] إلى آخر القصة، وبعدها: ﴿قُلْنَا اضْرِبُوهَ بِبَعْضِهَا﴾ الآية. وقال الرازي في تفسيره: اعلم أن وقوع القتل لا بد أن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح، فاما الإخبار عن وقوع ذلك القتل، وعن أنه لا بد أن يضرب القتل ببعض تلك البقرة، فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة، فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ، لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى في الوجود، فاما التقدم في الذكر، فغير واجب، لأنه تارة يقدم نكر السبب على ذكر الحكم، وأخرى على العكس من ذلك، فكانهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة، فلما ذبحوها قال: وإن قتلتم نفساً من قبل، ونسب القتل إليهم يكون القاتل منهم، وأصل أذارتهم تدارتهم: ثم ادغمت التاء في الدال، ولما كان الابتداء بالمدمع الساكن لا يجوز زائداً لف الوصل، ومعنى أذارتهم: اختلفتم وتنازعتم؛ لأن المتنازعين يدرا بعضهم بعضاً، أي: يدفعه، ومعنى ﴿مَخْرَجٌ﴾ مظهر أي: ما كنتم بينكم من أمر القتل، فانه مظهره لعباده، ومبينه لهم، وهذه الجملة معترضة بين أجزاء

للمأمور به لا من باب النسخ، وبين البابين بون بعيد كما هو مقرر في علم الأصول. الثاني: أنا لو سلمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه، فإنه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأول أن يعملوا إلى بقرة من عرض البقر فيذبحوها، ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان، والصفراء، ولا دليل يدل على أن هذه المحاورة بينهم، وبين موسى عليه السلام واقعة في لحظة واحدة، بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنة كانوا يتواطؤون عليها، ويديرون الرأي بينهم في أمرها، ثم يوردونها، وأقل الأحوال الاحتمال القادح في الاستدلال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فقال لو الرأي منهم: علام يقتل بعضهم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فاتوا موسى، فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ الآية، قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أنى بقرة، ولكنهم شددوا، فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا انقصها من ملة جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً، فذبحوها فضربه ببعضها، فقام فقالوا: من قتلنا؟ فقال: هذا، لابن أخيه، ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، ولم يورث قاتل بعده. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب: «من عاش بعد الموت» عن ابن عباس أن القاتل وجد بين قريتين، وأن البقرة كانت لرجل كان يبرأ أباه، فاشتروها بوزنها ذهباً. وأخرج ابن جرير، عنه نحوه من ذلك، ولم ينكر ما تقدم في البقرة. وقد روي في هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة. وأخرج البزار، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل لو أخذوا أنى بقرة لأجزأهم، أو لأجزأت عنهم» وأخرج ابن أبي حاتم وابن مروي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن بني إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمَهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا أبداً، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر، فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، فشدد الله عليهم» وأخرج نحوه الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عكرمة يبلغ به النبي ﷺ. وأخرجه ابن جرير، عن ابن جريج يرفعه. وأخرجه ابن جرير، عن قتادة يرفعه أيضاً، وهذه الثلاثة مرسله. وأخرج نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال: «فأرض الهرمة، والبكر الصغيرة، والعوان النصف». وأخرج نحوه عن مجاهد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: بين الصغيرة، والكبيرة، وهي أقوى ما يكون، وأحسنه. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع ونكر الجاحظ أن الضمير في قوله: ﴿وإن منها﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة، وهو فاسد، فإن الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت في القسوة، وفطرو اليبس الموجبين لعدم قبول الحق، والتأثر للمواعظ إلى مكان لم تبلغ إليه الحجارة، التي هي أشد الأجسام صلابة، وأعظمها صلادة، فإنها ترجع إلى نوع من اللين، وهي تفجرها بالماء، وتشققها عنه، وقبولها لما توجهبه الخشية لله من الخشوع، والانقياد بخلاف تلك القلوب. وفي قوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من التهديد، وتشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه مطلعاً عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وإن قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾ قال: اختلفتم فيها ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ قال: ما تغيبون. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن المسيب بن رافع قال: «ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾» وأخرج أحمد، والحاكم وصححه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب لها، ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائنًا ما كان» وأخرج البيهقي من حديث عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له سريرة صالحة، أو سيئة أظهر الله عليها منها رداء، يعرف به» ورواه البيهقي أيضاً بنحوه من قول عثمان قال: والموقوف أصح. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي عن أنس مرفوعاً حديثاً طويلاً في هذا المعنى، ومعناه: أن الله يلبس كل عامل عمله حتى يتحدث به الناس، ويزيدون، ولو عمله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد، وفي إسناده ضعف. وأخرج ابن عدي من حديث أنس أيضاً مرفوعاً: «إن الله مرد كل امرئ رداء عمله». ولجماعة من الصحابة، والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ قال: ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة أنهم ضربوه بفخذها. وأخرج مثله ابن جرير، عن عكرمة. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: ضرب بالبضعة التي بين الكتفين. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ في العظمة، عن وهب بن منبه قصة طويلة في نكر البقرة، وصاحبها لا حاجة إلى التطويل بنكرها، وقد استوفاهما في الدر المنثور. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ قال: من بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى، ومن بعد ما أراهم من أمر القليل: ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ ثم عذر الله الحجارة، ولم يعذر

الكلام أي: فادارأتم فيها فقلنا. واختلف في تعيين البعض الذي أمروا بأن يضربوا القليل به، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم، ويكفي أن نقول: أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها، فأني بعض ضربوا به، فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا، فهو من فضول العلم إذا لم يرد به برهان. قوله: ﴿كنك يحيى الله الموتى﴾ في الكلام حنف، والتفسير: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ فإحياء الله ﴿كنك يحيى الله الموتى﴾ أي: إحياء كمثل هذا الإحياء. ﴿ويريمك آيته﴾ أي: علاماته، ودلائله الدالة على كمال قدرته، وهذا يحتمل أن يكون خطاباً لمن حضر القصة، ويحتمل أن يكون خطاباً للموجودين عند نزول القرآن. والقسوة: الصلابة، واليبس، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة، والإنعان لآيات الله مع وجود ما يقتضى خلاف هذه القسوة من إحياء القليل، وتكلمه، وتعيينه لقاتله، والإشارة بقوله: ﴿من بعد ذلك﴾ إلى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلوب ورفقتها. قيل «أو» في قوله: ﴿أو أشد قسوة﴾ بمعنى الواو كما في قوله تعالى: ﴿أثماً أو كفوراً﴾ [الإنسان: 24] وقيل: هي بمعنى بل، وعلى أن «أو» على أصلها، أو بمعنى الواو، فالعطف على قوله: ﴿كالحجارة﴾ أي: هذه القلوب هي كالحجارة، أو هي أشد قسوة منها، فشبها بها بأي الامرين شئتم، فإنكم مصيبون في هذا التشبيه. وقد أجاب الرازي في تفسيره عن وقوع «أو» ههنا مع كونها للترديد أي: لا يليق لعالم الغيوب بثمانية أوجه، وإنما توصل إلى أقبل التفضيل بأشد مع كونه يصح أن يقال، وأقسى من الحجارة، لكونه أبين، وأدل على فوط القسوة، كما قاله في الكشف. وقرأ الأعمش «أو أشد» بنصب الدال، وكأنه عطفه على الحجارة، فيكون أشد مجروراً بالفتحة. وقوله: ﴿وإن من الحجارة﴾ إلى آخره، قال في الكشف إنه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة، وتقرير لقوله: ﴿أو أشد قسوة﴾. انتهى. وفيه أن مجيء البيان بالواو غير معروف، ولا مألوف، والأولى جعل ما بعد الواو تذييلاً أو حالاً. التفجر: التفتح، وقد سبق تفسيره. وأصل «يتشقق» يتشقق أدغم التاء في الشين، وقد قرأ الأعمش «يتشقق» على الأصل. وقرأ ابن مصرف ينشق بالنون، والشق واحد الشقوق. وهو: يكون بالطول، أو بالعرض، بخلاف الانفجار، فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق. والمراد: أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار، والانشقاق، ومن الحجارة ما يهبط أي: ينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل منه من الخشية لله التي تدخله، وتحل به، وقيل: إن الهبوط مجاز عن الخشوع منها، والتواضع للكائن فيها انقياداً لله عز وجل، فهو مثل قوله تعالى: ﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ [الحشر: 21] وقد حكى ابن جرير، عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار، وكما قال الشاعر:

الحاكمين، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيثيين، والمحاجة: إبراز الحجة، أي: لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب، فيكون ذلك حجة لهم عليكم، فيقولون: نحن أكرم على الله منكم، وأحق بالخير منه. والحجة، الكلام المستقيم، وحاججت فلاناً، فحججته أي غلبته بالحجة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فيه الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم. ثم وبخهم الله سبحانه ﴿وَإِلَّا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من جميع أنواع الأسرار، وأنواع الإعلان، ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ثم قال الله لنبيه، ومن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وليس قوله يسمعون التوراة كلهم قد سمعها، ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم، فأخذتهم الصاعقة فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآية. قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما سمعوه، ووعوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآية، قال: الذين يحرفونه، والذين يكتبونه هم العلماء منهم، والذين نبؤوا كتاب الله وراء ظهورهم هؤلاء كلهم يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال: هي التوراة حرفوها. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي: بصاحبكم رسول الله ﷺ، ولكنه إليكم خاصة ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قالوا لا تحدثوا العرب بهذا، فقد كنتم تستفتحون به عليهم، وكان منهم ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي: تترؤون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ عليكم الميثاق باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كان ينتظر، ونجد في كتابنا أجحوده، ولا تقرأوا به. وأخرج ابن جرير، عنه أن هذه الآية في المنافقين من اليهود وقوله: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بما أكرمكم به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: نزلت هذه الآية في ناس من اليهود آمنوا، ثم نافقوا، وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به، فقال بعضهم لبعض: اتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب لتقولوا نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم. وقد أخرج ابن جرير، عن ابن زيد أن سبب نزول الآية: أن النبي ﷺ قال: «لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن، فكان اليهود يظهرون الإيمان، فيدخلون ويرجعون إلى قومهم بالأخبار، وكان المؤمنون يقولون لهم: اليس قد قال الله في التوراة كذا وكذا؟ فيقولون: نعم، فإذا رجعوا إلى قومهم: ﴿قَالُوا اتَّحَدَّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية». وروى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أن سبب نزول الآية: «أن النبي ﷺ

شقي بني آدم فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ الْحَجَرِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال أي: من الحجارة لأكين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «إن الحجر ليقع على الأرض ولو اجتمع عليه فئام من الناس ما استطاعوه، وأنه ليهبط من خشية الله».

﴿أَنْتُمْ مَعَهُ أَنْتُمْ مَعَهُ أَنْتُمْ مَعَهُ﴾ وَفَدَّ كَانُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَدْنِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَلْعَنُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتَعِدُّونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود. والخطاب لأصحاب النبي ﷺ أوله ولهم. و ﴿يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم، أو على تضمين آمن معنى استجاب أي: تطمعون أن يستجيبوا لكم. والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه. و ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: التوراة، وقيل إنهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه، وعلى هذا، فيكون الفريق هم: السبعون الذين اختارهم موسى، وقرأ الأعمش: «كلم الله». والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حاله حراماً، أو نحو ذلك مما فيه موافقة لاموائهم كتحريلهم صفة رسول الله ﷺ وإسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام الله لموسى، فزأوا فيه، ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر، وإنكار على من طمع في إيمانهم، وحالهم هذه الحال أي: ولهم سلف حرفوا كلام الله، وغيروا شرائعه، وهم مقتنون بهم متبعون سبيلهم. ومعنى قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذي، فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من بليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها، وذلك أشد لعقوبتهم، وابن لضلالتهم. ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أن المنافقين إذا لقوا الذين آمنوا: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: إذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتبين عليهم: ﴿اتَّحَدَّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حكم عليكم من العذاب، وذلك أن ناساً من اليهود أسلموا، ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به آبائهم، وقيل: إن المراد ما فتح الله عليهم في التوراة من صفة محمد، وقد تقدم معنى خلا. والفتح عند العرب: القضاء، والحكم، والفتاح: القاضي بلغة اليمن، والفتح: النصر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 89] وقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: 19] ومن الأول ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبا: 26] أي: ﴿خير الحاكمين﴾ [الأعراف: 89] أي

قوم كانوا أهل كتاب، فرفع كتابهم للذئوب ارتكبوها، وقيل: هم: المجوس، وقيل غير ذلك، والراجح الأول. ومعنى ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأمانى التي يتمنونها، ويعلمون بها أنفسهم. والأمانى جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهو لا علم لهم بالكتاب الذي هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون، ولا يقرؤون المكتوب، والاستثناء منقطع أي: لكن الأمانى ثابتة لهم من كونهم مغفوراً لهم بما يدعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة، أو بما لهم من السلف الصالح في اعتقادهم؛ وقيل الأمانى الأكاذيب كما سيأتي عن ابن عباس. ومنه قول عثمان بن عفان: ما تمنيت منذ أسلمت أي: ما كذبت، حكاه عنه القرطبي في تفسيره، وقيل الأمانى: التلاوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: 52] أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، ومنه قول كعب بن مالك:

تمنى كتاب الله أول ليلة
وأخيره لاقى حمام المقابر
وقال آخر:

تمنئ كتاب الله أخلر لئلة تمنئ داود الزبور على رسل
وقئل الأمانئ: التقدير. قال الجوهرئ: يقال منئ له أئ:
قنر، ومنه قول الشاعر:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني
أي: يقدر لك المقدر. قال في الكشف: والاشتقاق من مني
إذا قنر: لأن المتمني يقدر في نفسه، ويجوز ما يتمناه،
وكذلك المخلتق، والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا. انتهى.
«وإن» في قوله: «وإن هم إلا يظنون» نافية. أي: ما هم.
والظن هو: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم
كذا في القاموس، أي: ما هم إلا يترددون بغير جزم، ولا
يقين، وقيل: الظن هنا بمعنى الكذب، وقيل هو: مجرد
الحس. لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير
عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون،
نكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأمانى، ويعتمدون
على الظن الذي لا يقفون من تقليدهم على غيره، ولا
يظفرون بسواه، والويل: الهلاك. وقال الفراء: الأصل في
الويل وي أي: حزن كما تقول وي لفلان أي: حزن له،
فوصلته العرب باللام، قال الخليل: ولم نسمع على بنائه إلا
ويح، وويس، وويه، وويك، وويب، وكله متقارب في المعنى،
وقد فرق بينها قوم، وهي: مصادر لم ينطق العرب بأفعالها،
وجاز الابتداء به، وإن كان نكرة؛ لأن فيه معنى الدعاء.
والكتابة معروفة، والمراد: أنهم يكتبون الكتاب المحرف، ولا
يبينون، ولا ينكرونه على فاعله. وقوله: «بأيديهم» تأكيد؛
لأن الكتابة لا تكون إلا باليد، فهو مثل قوله: «ولا طائر يطير
بجناحيه» [الأنعام: 38] وقوله: «يقولون بأفواههم» [آل
عمران: 167] وقال ابن السراج: هو: كناية عن أنه من تلقائهم
دون أن ينزل عليهم. وفيه أنه قد دلَّ على أنه من تلقائهم

قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال: يا إخوان القرمة،
والخنازير، ويا عبدة الطاغوت، فقالوا: من أخبر هذا الأمر
محمداً؟ ما خرج هذا الأمر إلا منكم: ﴿اتحشثونهم بما فتح
الله عليكم﴾: أي: بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم.
يروى ابن أبي حاتم عن عكرمة أن السبب في نزول الآية:
«أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة، فجاؤا إلى النبي ﷺ
يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة، فدعا رسول الله ﷺ
عالمهم، وهو ابن صوريا فقال له: احكم، قال: فجبوه،
والتجبية: يحملونه على حمار ويجعلون وجهه إلى نذب
الحمار، فقال رسول الله ﷺ: أبحكم الله حكمت؟ قال: لا،
ولكن نساءنا كنَّ حساناً، فأسرع فيهنَّ رجالنا، فغيرنا الحكم،
وفيه نزل: ﴿وَإِذَا خلا بعضهم إلى بعض﴾ الآية» وأخرج
عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا لقوا الذين آمنوا
قالوا آمنا﴾ قال: هم اليهود، وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا:
آمنا، فصانعهم بذلك ليرضوا عنهم: ﴿وَإِذَا خلا بعضهم
إلى بعض﴾ نهى بعضهم بعضاً أن يحدثوا بما فتح الله
عليهم، وبين لهم في كتابه من أمر محمد ﷺ، ونعته،
ونبوته، وقالوا: إنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا بذلك عليكم عند
ربكم ﴿أفلا تعقلون﴾ * أولاً يعلمون أن الله يعلم ما
يسرون وما يعلنون﴾ قال: ما يعلنون من أمرهم، وكلامهم،
إذا لقوا الذين آمنوا، وما يسرون إذا خلا بعضهم إلى بعض
من كفرهم بمحمد ﷺ، وتكذيبهم به، وهم يجبونه مكتوباً
عندهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿أو لا
يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يعني من
كفرهم بمحمد ﷺ، ولكنَّهم، وما يعلنون حين قالوا
للمؤمنين: آمنا، وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف.

وَمِنْهُمْ أَتَّبِعُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْشَوْنَ ﴿٧٨﴾
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا
بِهِ نَسْأًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾
وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ
عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ ثُمَّ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ مِنْ
كُتُبٍ سَكَنَتْهُ وَاسْطَلَّتْ بِهِ سَاطِئَاتُهَا فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْفُقَرَاءِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا لَئِيْلًا مُنْجِمًا وَأَنْتُمْ
مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود. والامي منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل، ولانتهائها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة، ولا تحسن القراءة للمكتوب، ومنه حديث «إنا أمة أمية لا نكتب، ولا نحسب» وقال أبو عبيدة: إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب، فكانه قال: ومنهم أهل الكتاب، وقيل: هم نصارى العرب، وقيل: هم

قوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ فإسناد الكتابة إليهم يفيد ذلك. والاشتراء: الاستبدال، وقد تقدّم الكلام عليه، ووصفه بالقلّة لكونه فانياً لا ثواب فيه، أو لكونه حراماً لا تحلّ به البركة، فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا بالتحريف، ولا بالكتابة لذلك المخزف حتى نادوا في المحافل بأنه من عند الله، لينالوا بهذه المعاصي المتكررة هذا الغرض التزير، والعوض الحقيق. وقوله: ﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ قيل: من الرشا ونحوها، وقيل: من المعاصي، وكرر الويل تغليظاً عليهم، وتعظيماً لفعلهم، وهتكاً لاستارهم ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ﴾ الآية. وقد اختلف في سبب نزول الآية كما سيأتي بيانه. والمراد بقوله: ﴿قُلْ تَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدَكُمْ﴾ الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة أي: لم يتقدّم لكم مع الله عهداً بهذا، ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصلق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك، وعدم إخلاف العهد أي: إن اتخذتم عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون. قال في الكشف: «وأم» إما أن تكون معاملة بمعنى أيّ الأمرين كلثن على سبيل التقرير: لأن العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة. انتهى، وهذا توبيخ لهم شديد. قال الرازي في تفسيره: العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد، وإنما سمي خبره سبحانه عهداً؛ لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة. وقوله: ﴿بَلَى﴾ إثبات بعد النفي أي: بلى تمسك لا على الوجه الذي نكرتم من كونه أياماً معدودة. والسيئة المراد بها الجنس هنا، ومثله قوله تعالى ﴿وَرَجْزَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] ﴿مَنْ يَفْعَلْ سُوءًا يَجْزُ بِهِ﴾ [النساء: 123] ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار، بل لا بد أن تكون سيئة محيطية به، قيل هي الشرك، وقيل الكبيرة. وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت في السنة تواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار، ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد قرأ نافع «خطيئته» بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد، وقد تقدم تفسير الخلود.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال لا يدرون ما فيه: ﴿وَأَنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قال: وهم يحسبون نبوتك بالظن. وأخرج ابن جرير عنه قال: الأُمَيُّون قوم لم يصلقوا رسولا أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله. وقد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله. وأخرج ابن جرير، عن النخعي قال: منهم من لا يحسن أن يكتب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا أُمَانِي﴾ قال: الأحابيث. وأخرج ابن جرير عنه أنها الكذب. وكذا روى مثله عبد بن حميد، عن مجاهد، وزاد ﴿وَأَنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قال: إلا يكذبون. وأخرج النسائي، وابن المنذر، عن ابن عباس في

قوله: ﴿فَقِيلَ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: نزلت في أهل الكتاب. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه وصححه، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» وأخرج ابن جرير من حديث عثمان مرفوعاً قال: «الويل جبل في النار» وأخرج البزار، وابن مردويه، من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً أنه حجر في النار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقِيلَ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: هم أحبار اليهود، وجنوا صفة النبي ﷺ مكتوبة في التوراة أكحل أعين ربعة جعد الشعر حسن الوجه، فلما وجدوه في التوراة محوه حسداً، وبغياً، فاتاهم نفر من قريش فقالوا: تجبن في التوراة نبياً أمياً؟ فقالوا: نعم نجده طويلاً أزرق سبط الشعر، فانكرت قريش وقالوا: ليس هذا منا. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ثُمَّ مَنَّا قَلِيلًا﴾ قال: عرضاً من عرض الدنيا ﴿فَقِيلَ لَهُمْ﴾ قال: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب ﴿وَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: بما ياكلون به الناس السفلة، وغيرهم. وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثاراً عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستبدلين بهذه الآية، ولادلالة فيها على ذلك، ثم ذكر آثاراً عن جماعة منهم أنهم جؤزوا ذلك، ولم يكرهوه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والوالحدي، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار، وإنما هي: سبعة أيام معدودة، ثم ينقطع العذاب، فانزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: وجد أهل الكتاب مسيرة ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين، فقالوا: لن تعذب أهل النار إلا قدر أربعين، فإذا كان يوم القيامة أجموا في النار، فساروا فيها حتى انتهوا إلى سقر، وفيها شجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيام المعدودة، فقال لهم خزنة النار: يا أعداء الله زعمتم أنكم لن تعذبوا في النار إلا أياماً معدودة، فقد انقضى العدد وبقي الأبد، فيؤخّنون في الصعود يرهقون على وجوههم. وأخرج ابن جرير، عنه أن اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة مدة عبادة العجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: اجتمعت يهود يوماً، فخاصموا النبي ﷺ فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات أربعين يوماً، ثم خلفنا فيها ناس، وأشأروا إلى النبي ﷺ، وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ وردّ يديه على رأسه: «كنيتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لا تخلفكم فيها إن شاء الله أبداً، ففهم نزلت هذه الآية: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ﴾» وأخرج ابن جرير، عن زيد بن أسلم مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، والبخاري، والدارمي، والنسائي، من حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ سأل اليهود في خير: من

ويدل عليه أيضاً ما عطف عليه من قوله: «وقولوا - وأقيموا - وآتوا» وقال قطرب، والمبرّد: إن قوله: «لا تعبدون» جملة حالية أي: أخذنا ميثاقهم موحدين، أو غير معاندين. قال القرطبي: وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائي «يعبدون» بالياء التحتية. وقال الفراء، والزجاج، وجماعة: إن معناه أخذنا ميثاقكم بأن لا تعبدوا إلا الله، وبأن تحسنوا بالوالدين، وبأن لا تسفكوا الدماء؛ ثم حذف أن، فارتفع الفعل لزوالها. قال المبرّد: هذا خطأ؛ لأن كل ما أضمر في العربية، فهو يعمل عمله مظهراً. وقال القرطبي: ليس بخطأ بل هما وجهان صحيحان، وعليهما أشد:

الآلهة الزلجري لحضر الوغى وإن أشهد اللذات هل أنت مخلدي بالنصب لقوله لحضر، وبالرفع، والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتنال أمرهما، وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق. والقربى: مصدر كالرجعى، والعقبى، هم القرابة، والإحسان بهم صلتهم، والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة، ويقدر ما تبلغ إليه القدرة. واليتامى جمع يتيم، واليتيم في بني آدم من فقد أبوه، وفي سائر الحيوانات من فقدت أمه. وأصله الانفراد - يقال: صبي يتيم أي: منفرد من أبيه، والمساكين جمع مسكين، وهو: من أسكنته الحاجة، ونزلته، وهو أشد فقراً من الفقير عند أكثر أهل اللغة، وكثير من أهل الفقه. وروي عن الشافعي أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين. وقد نكر أهل العلم لهذا البحث ألبه مستوفاة في مواطنها. ومعنى قوله: «وقولوا للناس حسنى» أي: قولوا لهم قولاً حسناً، فهو صفة مصدر محذوف، وهو: مصدر كبشئى. وقرأ حمزة، والكسائي: «حسناً» بفتح الحاء، والسين. وكذلك قرأ زيد بن ثابت، وابن مسعود. قال الأخفش هما بمعنى واحد، مثل البخل، والبخل، والرشد، والرشد، وحكى الأخفش أيضاً: «حسنى» بغير تنوين على فعلى. قال النحاس: وهذا لا يجوز في العربية، لا يقال من هذا شيء إلا بالالف، واللام نحو الفضلى، والكبرى، والحسنى، وهذا قول سيبويه. وقرأ عيسى بن عمر: «حسناً» بضمتين: والظاهر أن هذا القول الذي أمرهم الله به لا يختص بنوع معين، بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعاً كان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر. وقد قيل إن ذلك هو: كلمة التوحيد، وقيل الصدق، وقيل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقيل غير ذلك. وقوله: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» قد تقدم تفسيره، وهو: خطاب لبني إسرائيل، فالمراد الصلاة التي كانوا يصلونها، والزكاة التي كانوا يخرجونها. قال ابن عطية: وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها، فتنزل النار على ما يقبل، ولا ينزل على ما لا يقبل. وقوله: «ثم توليتكم» قيل الخطاب للحاضرين منهم في عصر النبي ﷺ؛ لأنهم مثل سلفهم في ذلك، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب. وقوله: «إلا قليلاً» منصوب على الاستثناء، ومنهم عبد الله بن سلام، وأصحابه. وقوله: «وانتم معرضون» في موضع النصب

أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «قل لتخنتم عند الله عهداً» أي: موثقاً من الله بذلك أنه كما تقولون. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أنه فسر العهد هنا بانهم قالوا: لا إله إلا الله، لم يشركوا به، ولم يكفروا، وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «ثم تقولون على الله ما لا تعلمون» قال: قال القوم: الكذب والباطل، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «بلى من كسب سيئة» قال: الشرك. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وعكرمة، وقتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة في قوله: «وأحاطت به خطيئته» قال: لحاط به شركه، وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: «بلى من كسب سيئة» أي: من عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم حتى يحيط كفره بماله من حسنة «فإولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» وللذين آمنوا وعملوا الصالحات أي: من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «وأحاطت به خطيئته» قال: هي الكبيرة الموجبة لأهلها النار. وأخرج وكيع، وابن جرير، عن الحسن أنه قال: كل ما وعد الله عليه النار، فهو الخطيئة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن الربيع بن خيثم قال: هو الذي يموت على خطيئته قبل أن يتوب، وأخرج مثله ابن جرير عن الأعمش.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَرَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨١﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ
ثُمَّ أَفْرَدْتُمْ وَأَنْتُمْ تَنْهَدُونَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ
وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيُكْفَرُونَ عَنْكُمْ بِالْإِيمِ وَالْمَدُونِ وَإِنْ
يَأْتَوْكُمْ أَسْرَىٰ تَنْفُدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ
إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْفَىٰ الْمَذَابِ وَمَا اللَّهُ
بِعَذِيبٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا
يُخَفِّفُهُمُ الْمَذَابُ وَلَا هُمْ يَصْرُورُونَ ﴿٨٤﴾

قد تقدم تفسير الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل. وقال مكي: إن الميثاق الذي أخذه الله عليهم هنا هو: ما أخذه الله عليهم في حياتهم على السن أنبيائهم، وهو قوله: «لا تعبدون إلا الله» وعبادة الله إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه. قال سيبويه: إن قوله: «لا تعبدون إلا الله» هو: جواب قسم، والمعنى، استخلفناهم، والله لا تعبدون إلا الله، وقيل هو: إخبار في معنى الأمر، ويدل عليه قراءة أبي، وابن مسعود: «لا تعبدوا» على النهي،

الجمهور، والأسير مشتق من السير، وهو: القيد الذي يشد به المحمل، فسمي أسيراً؛ لأنه يشد وثاقه، والعرب تقول: قد أسرقت أي: شدة، ثم سمي كل أخيد أسيراً، وإن لم يؤخذ. وقوله: ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ جواب الشرط، وهي: قراءة حمزة، ونافع، والكسائي، وقرأ الباقون: «تفدوهم». والفداء: هو: ما يوجد من الأسير ليفك به أسره، يقال فداءه، وفاداه: إذا أعطاه فداءه. قال الشاعر:

قفى فادى أسيرك إن قومي وقومك ما أرى لهم اجتماعاً
وقوله: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ إِخْرَاجُهُمْ﴾ الضمير للشأن وقيل مبهم تفسره الجملة التي بعده، وزعم الفراء أن هذا الضمير عماد، واعترض عليه بأن العماد لا يكون في أول الكلام. ﴿وَإِخْرَاجُهُمْ﴾ مرتفع بقوله: ﴿مُحَرَّمٌ﴾ ساد مسد الخبر، وقيل: بل مرتفع بالابتداء، ومحرم خبره. قال المفسرون: كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أسراهم؛ فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبخهم الله على ذلك. يقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. والخزي: الهوان. قال الجوهري: والخزي بالكسر بخزي خزيًا: إذا ذل، وهان، وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به الملعين اليهود موفراً، فصاروا في خزي عظيم بما ألصق بهم من الذل، والمهانة بالقتل، والأسر، وضرب الجزية، والجلاء، وإنما ردهم الله يوم القيامة إلى أشد العذاب؛ لأنهم جاؤوا بنذب شديد، ومحصية فظيعة. وقد قرأ الجمهور يرتون بآلية التحتية. وقرأ الحسن بالفوقية على الخطاب. وقد تقدم تفسير قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وكذلك تفسير ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ وقوله: ﴿فَلَا يَخَفُ﴾ إخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون في عذاب موفر لازم لهم بالجزية، والصغار، والذلة، والمهانة، فلا يخفف عنهم ذلك أبداً ما داموا، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم، ولا يثبت لهم نصر في أنفسهم على عدوهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال يؤنبهم أي ميثاقكم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنً﴾ قال: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وروى البيهقي في الشعب عن علي في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنً﴾ قال: يعني الناس كلهم، ومثله روى عبد بن حميد، وابن جرير، عن عطاء. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قال أي: تركتم ذلك كله. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: معناه أعرضتم عن طاعتي إلا قليلاً منكم، وهم: الذين اخترتهم لطاعتي. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ بَيَارِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم بعضاً من البيار ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وأنتم شهود. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم

على الحال، والإعراض، والتولي بمعنى واحد، وقيل: التولي بالجسم، والإعراض بالقلب. وقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام في لا تعبدون، وقد سبق. وقرأ طلحة بن مصرف، وشعيب بن أبي حمزة بضم الفاء، وهي لغة. وقرأ أبو نهيك بضم الياء، وتشديد الفاء، وفتح السين، والسفك: الصب، وقد تقدم، والمراد أنه لا يفعل ذلك بعضهم ببعض. والدار: المنزل الذي فيه أبنية المقام، بخلاف منزل الارتحال. وقال الخليل: كل موضع حله قوم، فهو دار لهم، وإن لم يكن فيه أبنية؛ وقيل سميت داراً لدورها على سكانها، كما يسمى الحائط حائطاً لإحاطته على ما يحويه. وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ من الإقرار: أي حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم في حال شهادتكم على أنفسكم بذلك، قيل الشهادة هنا بالقلب، وقيل: هي بمعنى الحضور أي: أنكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك، وكان الله سبحانه قد أخذ في التوراة على بني إسرائيل أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا ينفية، ولا يسترقه. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: أنتم هؤلاء المشاهدون الحاضرون تخالفون ما أخذ الله عليكم في التوراة، فتقتلون أنفسكم إلى آخر الآية؛ وقيل إن هؤلاء منصوب بإضمار أعني، ويمكن أن يقال منصوب بالذم، أو الاختصاص أي: أنتم، أو أخص. وقال القتيبي: إن التقدير: يا هؤلاء قال النحاس: هذا خطأ على قول سيبويه لا يجوز. وقال الزجاج هؤلاء بمعنى الذين أي: ثم أنتم الذين تقتلون. وقيل هؤلاء مبتدأ، وأنتم خبر مقدم، وقرأ الزهري: «تقتلون» مشدداً، فمن جعل قوله: ﴿أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ، وخبراً جعل قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بياناً؛ لأن معنى قوله: ﴿أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أنهم على حالة كحالة أسلافهم من نقض الميثاق. ومن جعل هؤلاء منادى، أو منصوباً بما نكرنا جعل الخبر تقتلون، وما بعده. وقوله: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ بالتشديد، وأصله تتظاهرون أدغمت التاء في الظاء لقربها منها في المخرج، وهي قراءة أهل مكة. وقرأ أهل الكوفة: «تظاهرون» مخففاً بحذف التاء الثانية، لدلالة الأولى عليها. وأصل المظاهرة المعاونة، مشتقة من الظهر؛ لأن بعضهم يقوي بعضاً، فيكون له كالظهر، ومنه قول الشاعر:

تظاهرت من كل أرب وجهة على واحد لا زلت قرن واحد
ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرَ عَلَى رَبِّهِ ظَهيراً﴾ [الفرقان: 55] وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: 4]. وأسارى حال. قال أبو عبيد، وكان أبو عمرو يقول: ما صار في أيديهم، فهو أسارى، وما جاء مستأسراً، فهو الأسرى. ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو. وإنما هذا كما تقول سكارى، وسكرى. وقد قرأ حمزة: «أسرى». وقرأ الباقون: «أسارى»، والأسرى جمع أسير كالقتلى جمع قتيل، والجرحى جمع جريح. قال أبو حاتم: ولا يجوز أسارى. وقال الزجاج: يقال أسارى كما يقال سكارى. وقال ابن فارس: يقال في جمع أسير أسرى، وأسارى. انتهى. فلعجب من أبي حاتم حيث ينكر ما ثبت في التنزيل. وقرأ به

الفريق المكنيين عيسى، ومحمد، ومن الفريق المقتولين يحيى، وزكريا. والغلف جمع أغلف، المراد به هنا: الذي عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام إليه، ومنه غلفت السيف أي: جعلت له غلافاً. قال في الكشف: هو: مستعار من الأغلف الذي لم يختن كقوله: «قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه» [فصلت: 5] وقيل إن الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر أي: قلوبنا أوعية للعلم، فما بالها لا تفهم عنك، وقد وعينا علماً كثيراً، فرد الله عليهم ما قالوه فقال: «ويل لعنهم الله بكفرهم» وأصل اللعن في كلام العرب الطرد، والإبعاد، ومنه قول الشاعر:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين
أي: كالرجل المطرود. والمعنى: أبعدهم الله من رحمته، و «قليلاً» نعت لمصدر محذوف أي: إيماناً قليلاً «وما يؤمنون» و«ما» زائدة، وصف إيمانهم بالقلة؛ لأنهم الذين قص الله علينا من عنادهم، وعجرفتهم، وشدة لجابهم، وبعدهم عن إجابة الرسل ما قصه، ومن جملة ذلك أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض. وقال معمر: المعنى لا يؤمنون إلا قليلاً مما في أيديهم، ويكفرون بالكثرة، وعلى هذا يكون قليلاً منصوباً بنزع الخافض. وقال الواقدي معناه لا يؤمنون قليلاً، ولا كثيراً. قال الكسائي: تقول العرب مررنا بأرض قل ما تنبت الكراث، والبصل أي: لا تنبت شيئاً.

وقد أخرج ابن عساکر عن ابن عباس في قوله: «ولقد آتينا موسى الكتاب» يعني به التوراة جملة، واحدة مفصلة محكمة «ووقفنا من بعده بالرسول» يعني رسولا يدعى أشمويل بن بابل، ورسولا يدعى منشايل، ورسولا يدعى شعيا، ورسولا يدعى حزقيل، ورسولا يدعى أرمياء، وهو الخضر، ورسولا يدعى داود، وهو أبو سليمان، ورسولا يدعى المسيح عيسى ابن مريم، فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله، وانتخبهم من الأمة بعد موسى، فأخذنا عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ، وصفة أمته. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «وآتينا عيسى ابن مريم البينات» قال: هي الآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهية الطير، وإبراء الأسقام. والخبر بكثير من الغيوب، وما ورد عليهم من التوراة، والإنجيل الذي أحدث الله إليه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: «وأيدينا» قال: قويناه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: روح من القدس الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: القدس: الله تعالى. وأخرج عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج عن ابن عباس قال: القدس الطهر: وأخرج عن السدي قال: القدس البركة. وأخرج عن إسماعيل بن أبي خالد أن روح القدس جبريل. وأخرج عن ابن مسعود مثله وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن جابر عن النبي ﷺ قال: روح القدس جبريل. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «اللهم أيد حسان بروح القدس» وأخرج

عن ابن عباس في قوله: «ثم أقررتم» أن هذا حق من ميثاقي عليكم «ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم» أي: أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم «وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم» قال: تخرجونهم من ديارهم معهم «تظاهرون عليهم بالإثم والعنوان» فكانوا إذا كان بين الأوس، والخزرج حرب خرجت معهم بنو قينقاع مع الخزرج، والنضير، وقريظة مع الأوس، وظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يسافكوا دماءهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة «وإن ياتوكم أسارى فتادوهم» وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم «وهو محرم عليكم» في كتابكم لإخراجهم «افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» اتفادونهم مؤمنين بذلك، وتخرجونهم كفراً بذلك. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: «ولولك للذين اشتروا للحياة الدنيا بالآخرة» قال: استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْوَسْلَى وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبُيُوتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿١٧١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا عَلَّمْنَا بِكُلِّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ قَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٢﴾

الكتاب: التوراة، والتقنية: الإتيان، والإرداف، مأخوذة من القفا، وهو مؤخر العنق، تقول: استقفيته: إذا جئت من خلفه، ومنه سميت قافية الشعر؛ لأنها تتلو سائر الكلام. والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلاً جعلهم تابعين له، وهم أنبياء بني إسرائيل المبعوثون من بعده. و «البينات» الأدلة التي نكرها الله في آل عمران، والمائدة. والتأييد: التقوية. وقرأ مجاهد، وابن محيصن: «أيدينا» بالمد، وهما لغتان. وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة أي: الروح المقدسة. والقدس: الطهارة، والمقدس: المطهر، وقيل هو: جبريل أيد الله به عيسى، ومنه قول حسان:

وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس به خفاء
قال النحاس: وسمي جبريل روحاً، وأضيف إلى القدس؛ لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة، وقيل القدس، هو الله عز وجل، وروحه جبريل، وقيل المراد بروح القدس: الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى، وقيل المراد به الإنجيل، وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه، أيده الله به لما فيه من القوة. وقوله: «بما لا تهوى أنفسكم» أي: بما لا يوافقها، ويلائمها، وأصل الهوى: الميل إلى الشيء. قال الجوهري: وسمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى النار. وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنوي بهمة التوبيخ فقال: «أفكلما جاءكم رسول» منكم «بما لا» يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول، واستبعاداً للرسالة، والفاء في قوله: «أفكلما» للعطف على مقدر أي: آتيناكم يا بني إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم أفكلما جاءكم رسول. وفريقاً منصوب بالفعل الذي بعده، والفاء للتفصيل، ومن

يخالفه. والاستفتاح الاستنصار أي: كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المنعوت في آخر الزمان الذي يجنون صفته عندهم في التوراة، وقيل: الاستفتاح هنا بمعنى الفتحة أي: يخبرونهم بأنه سيبعث، ويعترفونهم بذلك، وجواب «لما» في قوله: «ولما جاءهم كتاب» قيل هو: قوله: «فلما جاءهم ما عرفوا» وما بعده، وقيل هو محذوف أي: كذبوا، أو نحوه، كذا قال الأخفش، والزجاج. وقال المبرد: إن جواب «لما الأولى هو قوله: «كفروا» وأعييت «لما» الثانية لطول الكلام، واللام في الكافرين للجنس. ويجوز أن تكون للعهد، ويكون هذا من وضع الظاهر موضع المضمرة، والأول أظهر، و«ما» في قوله: «بئسما» موصولة، أو موصوفة أي: بئس الشيء، أو شيئاً «اشتروا به أنفسهم» قاله سيبويه. وقال الأخفش: «ما» في موضع نصب على التمييز كقولك: بئس رجلاً زيد. وقال الفراء: بئسما بجملته شيء واحد ركب كحبذا. وقال الكسائي: «ما»، «اشتروا» بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، والتقدير: بئس اشتراؤهم أن يكفروا. وقوله: «أن يكفروا» في موضع رفع على الابتداء عند سيبويه، وخبره ما قبله. وقال الفراء، والكسائي: إن شئت كان في موضع خفض بدلاً من الهاء في به أي: اشتروا أنفسهم بأن يكفروا. وقال في الكشف: إن «ما» نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس، بمعنى شيئاً اشتروا به أنفسهم، والمخصوص بالنم أن يكفروا، واشتروا بمعنى باعوا. وقوله: «بغياً» أي: حسداً. قال الأصمعي: البغي مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح: إذا فسد، وقيل: أصله الطلب، ولذلك سميت الزانية بغياً. وهو علة لقوله: «اشتروا» وقوله: «أن ينزل» علة لقوله: «بغياً» أي: لأن ينزل. والمعنى: أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسداً، ومناقسة «أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده» وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن: «أن ينزل» بالتخفيف. «فباؤوا» أي: رجعوا، وصاروا أحقاء «بغضب على غضب» وقد تقدم معنى باؤوا، ومعنى الغضب، قيل الغضب، الأول لعبادتهم العجل، والثاني لكفرهم بمحمد، وقيل: كفرهم بعباسي، ثم كفرهم بمحمد، وقيل: كفرهم بمحمد، ثم البغي عليه، وقيل غير ذلك. والمهين مأخوذ من الهوان، قيل وهو: ما اقتضى الخلود في النار. وقوله: «بما أنزل الله» هو: القرآن، وقيل: كل كتاب أي: صلّقوا بالقرآن، أو صلّقوا بما أنزل الله من الكتب «قالوا نؤمن» أي: نصنق «بما أنزل علينا» أي: التوراة. وقوله: «ويكفرون بما وراءه» قال الفراء: بما سواه. وقال أبو عبيدة: بما بعده. قال الجوهري: وراء بمعنى خلف، وقد يكون بمعنى قدام، وهي من الأضداد. ومنه قوله تعالى: «وكان وراءهم ملك» [الكهف: 79] أي: قدامهم، وهذه الجملة أعني، ويكفرون في محل النصب على الحال أي: قالوا نؤمن بما أنزل علينا حال كونهم كافرين بما وراءه مع كون هذا الذي هو وراء ما يؤمنون به هو الحق. وقوله:

ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: «فريقاً» قال: طائفة. وأخرج عن ابن عباس قال: إنما سمي القلب لتقلبه. وأخرج الطبراني في الأوسط عنه أنه كان يقرأ: «قلوبنا غلف» مثقلة أي: كيف نتعلم، وقلوبنا غلف للحكمة أي: أوعية للحكمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «وقالوا قلوبنا غلف» ملوثة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «قلوبنا غلف» قال: في غطاء. ودوى ابن إسحاق، وابن جرير عنه أنه قال: في أكنة. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: هي القلوب المطبوع عليها. وأخرج وكيع عن عكرمة، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: هي التي لا تفقه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير عن حنيفة قال: القلوب أربعة: قلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب مصفح، فذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه مثل السراج، فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان، ونفاق، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدّها ماء طيب، ومثل المنافق كمثل قرحة يمدّها القيح، والدم. وأخرج أحمد بسند جيد، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن سراجاً فيه نوره، وأما القلب الأغلف، فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس، فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح، فقلب فيه إيمان، ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح، فأبى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان الفارسي مثله سواء موقوفاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «فقليل ما يؤمنون» قال: لا يؤمن منهم إلا قليل.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مِمْهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله. عَنِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبْلَهُ وَيَنْصِبُ عَلَى عَصَبٍ وَلِكُلِّفِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نؤمن بما أنزل علينا وَيَكْفُرُونَ بَمَا وَرَاءَهُمْ وَهُوَ الَّذِي مُصَدِّقًا لِمَا مِمْهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَلَيْسَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ نُورٌ بِالْكِتَابِ ثُمَّ أَخَذْتُمْ الْعِجْلَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٣١﴾

«ولما جاءهم» يعني اليهود «كتاب» يعني القرآن، و«مصديق» وصف له، وهو في مصحف أبي منصور، ونصبه على الحال، وإن كان صاحبها نكرة، فقد تخصصت بوصفها بقوله: «من عند الله» وتصديقه لما معهم من التوراة، والإنجيل أنه يخبرهم بما فيهما، ويصدقهما، ولا

يَقُولُونَ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَصَدَّقْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ أَلَمْ يَجْعَلْ بِكُفْرِهِمْ قُلٌّ يَتَسَكَّبُ بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيْمَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ وَلَنَجْذِذَهُمْ أَعْرَضَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ مِنَ الذِّكْرِ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَهْلَهُمْ لَوْ يَسْمُرُونَ آلَفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَّزَبُوءٍ مِنْ أَلْمَدَابِ أَنْ يُسَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَسْمُرُونَ ﴿١٦﴾

قد تقدم تفسير أخذ الميثاق، ورفع الطور. والامر بالسمع معناه الطاعة، والقبول، وليس المراد مجرد الإدراك بحاسة السمع، ومنه قولهم: «سمع الله لمن حمده» أي: قبل وأجاب، ومنه قول الشاعر:

دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول
أي يقبل، وقولهم في الجواب «سمعنا» هو: على بابه، وفي معناه أي: سمعنا قولك بحاسة السمع، وعصيانك أي: لا تقبل ما تأمرنا به، ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم: «سمعنا» ما هو معهود من تلاعبهم، واستعمالهم المغالطة في مخاطبة أنبيائهم، وذلك بأن يحملوا قوله تعالى: «اسمعوا» على معناه الحقيقي أي: السماع بالحاسة. ثم أجابوا بقولهم: «سمعنا» أي: أدركنا ذلك باسماعنا عملاً بموجب ما تأمر به، ولكنهم لما كانوا يعلمون أن هذا غير مراد الله عز وجل بل مراده بالامر بالسمع الامر بالطاعة، والقبول لم يقتصر على هذه المغالطة بل ضموا إلى ذلك ما هو الجواب عندهم فقالوا: «وعصينا»، وفي قوله: «وأشربوا» تشبيه بليغ أي: جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه، ومثله قول زهير:

فصحوت عنها بعد حب داخل والحب يشربه فؤادك دائماً
وإنما عبر عن حب العجل بالشرب لونه الأكل؛ لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، والطعام يجاوزها، ولا يتغلغل فيها، والباء في قوله: «بكفروهم» سببية أي: كان ذلك بسبب كفرهم عقوبة لهم، وخذلانا. وقوله: «قل بئسما يامرکم به إيمانكم» أي: إيمانكم الذي زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بما وراءه، فإن هذا الصنع، وهو قولكم: «سمعنا وعصينا» في جواب ما أمرتم به في كتابكم، وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بابلغ نداء بخلاق ما زعمتم، وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل، ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يدل على أنكم كاتبون في قولكم: «نؤمن بما أنزل علينا» [البقرة: 91] لا صائقون، فإن زعمتم أن كتابكم الذي أمنتكم به أمركم بهذا، فبئسما يامرکم به إيمانكم بكتابكم، وفي هذا من التهكم بهم ما لا يخفى. وقوله: «قل إن كانت لكم الدار الآخرة» هو رد عليهم لما ادَّعوا أنهم يدخلون الجنة، ولا يشاركونهم في نخلها غيرهم، وإلزام لهم بما يتبين به أنهم كاتبون في تلك الدعوى، وأنها صادرة منهم لا عن برهان،

«مصنقاً» حال مؤكدة، وهذه أحوال متداخلة أعني قوله: «ويكفرون» وقوله: «وهو الحق» وقوله: «مصنقاً» ثم اعترض الله سبحانه عليهم لما قالوا نؤمن بما أنزل علينا بهذه الجملة المتشتملة على الاستفهام المفيد للتوبيخ أي: إن كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم، فكيف تقتلون الأنبياء، وقد نهيتهم عن قتلهم، فيما أنزل عليكم؟ وهذا الخطاب، وإن كان مع الحاضرين من اليهود، فالمراد به أسلافهم، ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم. واللام في قوله: «ولقد» جواب لقسم مقدر. والبيئات يجوز أن يراد بها التوراة، أو التسع الآيات المشار إليها بقوله تعالى: «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» [الإسراء: 101] ويجوز أن يراد الجميع، ثم عيبت العجل بعد النظر في تلك البيئات حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عناداً بعد قيام الحجة عليكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصنقاً» قال: هو القرآن «مصنقاً» لما معهم من التوراة، والإنجيل. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري قال: حدثني أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا؛ لأن معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكانوا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا: إن نبياً ليبعث الآن قد اظلم زمانه نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث رسول الله ﷺ اتبعناه، وكفروا به، ففينا، والله، وفيهم أنزل الله: «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا» وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: كانت العرب تمر باليهود، فيؤثنونهم، وكانوا يجنون محمداً في التوراة، فيسألون الله أن يبعث نبياً، فيقاتلون معه العرب، فلما جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل. وقد روي نحو هذا، عن ابن عباس من غير وجه بالفاظ مختلفة، ومعانيها متقاربة. وروي عن غيره من السلف نحو ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «بئسما اشتروا به أنفسهم» قال: هم اليهود كفروا بما أنزل الله، وبمحمد ﷺ بغياً، وحسداً للعرب «فبأثروا بغضب على غضب» قال: غضب الله عليهم مرتين بكفرهم بالإنجيل، وبعبسى، وبكفرهم بالقرآن، وبمحمد. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «بغياً أن ينزل الله» أي: أن الله جعله من غيرهم «فبأثروا بغضب» بكفرهم بهذا النبي «على غضب» كان عليهم بما صنعوه من التوراة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة نحوه. وأخرج أيضاً عن مجاهد معناه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: «ويكفرون بما وراءه» قال: بما بعده. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: بما وراءه أي القرآن. وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْكَ بَيعَاتِكُمْ وَرَقَعْنَا لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَلْطَمْنَا لَكُمْ

فيه خروج من الكلام في اليهود إلى غيرهم من مشركي العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكليف، ولا ضير في استطراده نكر حرص المشركين بعد نكر حرص اليهود. وقال الرازي: إن الثاني أرجح ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعوهم، وفي إظهار كذبهم في قولهم إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا. انتهى. ويجاب عنه بأن هذا الذي جعله مرجحاً قد أقاده قوله تعالى: ﴿وَلَتَجْلِبَنَّهُمْ لِحِرْصِ النَّاسِ﴾ ولا يستلزم استئناف الكلام في المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس، وخص الألف بالنكر؛ لأن العرب كانت تنكر ذلك عند إرادة المبالغة. وأصل سنة سنة، وقيل سنة، واختلف في الضمير في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَرْحُوحَةٍ﴾ فقيل هو: راجع إلى أحدهم، والتقدير: وما أحدهم بمَرْحُوحَةٍ من العذاب أن يعمر، وعلى هذا يكون قوله: ﴿أَنْ يَعْمَرَ﴾ فاعلاً لَمَرْحُوحَةٍ، وقيل هو: لما دل عليه يعمر من مصدره أي: وما التعمير بمَرْحُوحَةٍ، ويكون قوله: ﴿أَنْ يَعْمَرَ﴾ بدلاً منه. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: هو عماد، وقيل هو: ضمير الشأن، وقيل: «ما» هي الحجازية، والضمير اسمها، وما بعده خبرها، والأول أرجح، وكذلك الثاني، والثالث ضعيف جداً؛ لأن العماد لا يكون إلا بين شيئين، ولهذا يسمونه ضمير الفصل، والرابع فيه أن ضمير الشأن يفسر بجملة سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة. والزحزحة: التنحية، يقال زحزحته، فزحزحه: أي نحيت فتتحى، وتباعد، ومنه قول ذي الرمة:

يا قابض الروح عن جسم عصى زماً وغافر الذنب زحزحي عن النار
والبصير: العالم بالشيء الخبير به، ومنه قولهم: فلان بصير بكذا: أي خبير به، ومنه قول الشاعر:

فإن تسألوني بالنساء فأنني بصير بأدواء النساء طبيب
وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعُجْلَ﴾ قال: أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية، أن اليهود لما قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111] الآية، نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، مثله عن قتادة. وأخرج البيهقي، في الدلائل عن ابن عباس، أن قوله: ﴿خَالِصَةً مِنْ نُونِ النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين: ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ فقال لهم رسول الله: «إن كنتم في مقاتلكم صائقين، فقولوا: اللهم أمتنا، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه، فمات مكانه». وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ أي: ادعوا بالموت على أيّ الفريقين أكتب، فأبوا ذلك، ولو تمنوا يوم قال ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم عنه قال: «لو تمنى اليهود الموت لماتوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه نحوه. وأخرج البخاري، وغيره من حديثه مرفوعاً: «لو أن اليهود تمنوا لماتوا، ولراوا مقادهم من النار». وأخرج ابن أبي حاتم،

و «خالصة» منصوب على الحال، ويكون خبر كان هو عند الله، أو يكون خبر كان هو خالصة، ومعنى الخلوص أنه لا يشاركهم فيها غيرهم إذا كانت اللام في قوله: ﴿مَنْ نُونِ النَّاسِ﴾ للجنس، أو لا يشاركهم فيها المسلمون إن كانت اللام للعهد. وهذا أرجح لقولهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111] وإنما أمرهم بتمني الموت؛ لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة، ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ و«ما» في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ لِنَفْسِهِمْ﴾ موصولة، والعائد محذوف أي: بما قدمته من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع في دخول الجنة، فضلاً عن كونه قاطعاً بها فضلاً عن كونها خالصة له مختصة به، وقيل: إن الله سبحانه صرفهم عن التمني ليجعل ذلك آية لنبيه ﷺ والمراد بالتمني هنا هو: التلطف بما يدل عليه، لا مجرد خطوره بالقلب، وميل النفس إليه، فإن ذلك لا يرد في مقام الحاجة، ومواطن الخصومة، ومواقف التحدي، وفي تركهم للتمني، أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله ﷺ، فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف، والتجور على الله، وعلى أنبيائه بالدعوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل، فلم يتركوا عادتهم هنا إلا لما قد تقرّر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمني نزل بهم الموت، إما لأمر قد علموه، أو للصرفة من الله عز وجل. وقد يقال: ثبت النهي عن النبي ﷺ عن تمني الموت، فكيف أمره الله أن يأمرهم بما هو منهى عنه في شريعته. ويجاب بأن المراد هنا إلزامهم الحاجة، وإقامة البرهان على بطلان دعوهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم، وتسجيل عليهم بأنهم كذلك. واللام في قوله: ﴿وَلَتَجْلِبَنَّهُمْ﴾ جواب قسم محذوف، وتنكير حياة للتحقير أي: أنهم أحرص الناس على أحقر حياة، وأقل لبث في الدنيا، فكيف بحياة كثيرة، ولبث متطاوّل؟ وقال في الكشف: إنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة، وهي: الحياة المتطاولة، وتبعه في ذلك الرازي في تفسيره. وقوله: ﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قيل: هو: كلام مستأنف، والتقدير: ومن الذين أشركوا ناس ﴿يُودُّ أَحَدَهُمْ﴾ وقيل: إنه معطوف على الناس أي: أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يُودُّ أَحَدَهُمْ﴾ راجعاً إلى اليهود بياناً لزيادة حرصهم على الحياة، ووجه ذكر الذين أشركوا بعد نكر الناس مع كونهم داخلين فيهم الدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب، ومن شابههم من غيرهم. فمن كان أحرص منهم، وهم: اليهود كان بالغاً في الحرص إلى غاية لا يقاير قدرها. وإنما بلغوا في الحرص إلى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين؛ لأنهم يعلمون بما يحلّ بهم من العذاب في الآخرة، بخلاف المشركين من العرب، ونحوهم، فإنهم لا يقرّون بذلك، وكان حرصهم على الحياة نون حرص اليهود. والأول، وإن كان

لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما ذكره صاحب الكشاف، وقرره علماء البيان. وفي جبريل عشر لغات نكرها ابن جرير الطبري، وغيره، وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك. وفي ميكائيل ست لغات، وهما اسمان عجميان، والعرب إذا نطقت بالعجمي تساهلت فيه. وحكى الزمخشري عن ابن جني أنه قال: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه. وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر أي: فإن الله عدو لهم لقصد الدلالة على أن هذه العداوة موجبة لكفر من وقعت منه. وقد أخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: «حضرت عصابة من اليهود النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسالك عنهم لا يعلمهن إلا نبي، قال: سلوني عما شئتم، فسالوه، وأجابهم؛ ثم قالوا: فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامك، أو نفارقك، فقال: وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه؛ قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك، وصديقناك، قال: فما يمنعكم أن تصبقوه؟ قالوا: هذا عدونا، فعند ذلك أنزل الله الآية. وأخرج نحو ذلك ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي عن عمر بن الخطاب في قصة جرت له معهم، وإسنادهما صحيح، ولكن الشعبي لم يدرك عمر، وقد رواها عكرمة، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى، عن عمر. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وغيرهم، عن أنس قال: «سمع عبد الله ابن سلام بمقدم النبي ﷺ وهو في أرض يخترف، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سأتلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه، أو إلى أمه؟ فقال: أخبرني بهن جبريل أنفاً، فقال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال: أما أول أشرط الساعة، فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يأكل أهل الجنة، فزيادة كبد حوت، وأما ما ينزع الولد إلى أبيه، أو أمه، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها؛ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يقول: فإن جبريل نزل القرآن بأمر الله يشدد به قواك، ويربط به على قلبك: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يقول لما قبله من الكتب التي أنزلها، والآيات، والرسائل التي بعثهم الله. وقد ذكر السيوطي في هذا الموضوع من تفسيره: «الدر المنثور» أحاديث كثيرة وأرادة في جبريل، وميكائيل، وليست مما يتعلق بالتفسير حتى نذكرها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٦١﴾
أَوْكَلِمَا عَلَهُدُوا عَهْدًا بَيِّنًا قَرِيبًا وَنَهَمُوا بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾

والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ﴾ قال اليهود: ﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: وذلك أن المشركين لا يرجون بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ماله من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَّهِ﴾ قال: بمنحيه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عنه في قوله: ﴿يَوْمَ أَحْذَهُمْ لَوْ يَعْمُرُ لَفِ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم «ذه هز ارسال» يعني عش ألف سنة.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَبِكُنْزِ اللَّهِ فَاتَّكَ اللَّهُ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ ﴿١٧٢﴾

هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت في اليهود. قال ابن جرير الطبري: وأجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم. ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك؟ فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ من أمر نبوته، ثم نكر روايات في ذلك ستأتي آخر البحث إن شاء الله. والضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ يحتمل، وجهين: الأول أن يكون لله، ويكون الضمير في قوله: ﴿نَزَّلَهُ﴾ لجبريل أي: فإن الله سبحانه نزل جبريل على قلبك، وفيه ضعف كما يفيدته قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. الثاني أنه لجبريل، والضمير في «نزله» للقرآن أي: فإن جبريل نزل القرآن على قلبك، وخص القلب بالذكر؛ لأنه موضع العقل، والعلم، وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بعلمه، وإرادته، وتيسيره، وتسهيله، ﴿وَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو: التوراة كما سلف، أو جميع الكتب المنزلة، وفي هذا دليل على شرف جبريل، وارتقاء منزلته، وأنه لا وجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ما نكر من تنزيل الكتاب على قلبك، أو من تنزيل الله له على قلبك، وهذا هو وجه الربط بين الشرط، والجواب، أي: من كان معانياً لجبريل منهم، فلا وجه لمعاداته له، فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبة دون العداوة، أو من كان معانياً له، فإن سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل، وليس ذلك بذنوب له، وإن نزهوه، فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم، وعدوان، لأن هذا الكتاب الذي نزل به هو مصدق لكتابتهم، وهدى، وبشرى للمؤمنين، ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط، وجزاء يتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب، والوعيد الشديد له فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ والعداوة من العبد هي: صدور المعاصي منه لله، والبغض لاوليائه، والعداوة من الله للعبد هي: تعذيبه بذنوبه، وعدم التجاوز عنه، والمغفرة له، وإنما خص جبريل، وميكائيل بالذكر بعد نكر الملائكة لقصد التشريف لهما، والدلالة على فضلهما، وأنهما، وإن كانا من الملائكة، فقد صارا باعتبار ما

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشِّرَ قَوْمٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَاتِبُهُمْ لَا يَلْعَنُونَ ﴿٥١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَازِلٍ وَزُورٍ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا عَنَّا وَفَنَّا فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَذَنُّوا اللَّهُ يَبْتُلُوهُمْ مَا يَصْرِفُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّكَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾

الضمير في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ للنبي ﷺ أي: أنزلنا إليك علامات واضحات دالة على نبوتك. وقوله: ﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ قد تقدم تفسيره، والظاهر أن المراد جنس الفاسقين، ويحتمل أن يراد اليهود؛ لأن الكلام معهم، والواو في قوله: ﴿أَوْ كَلِمًا﴾ للطف دخلت عليها همزة الاستفهام كما تدخل على الفاء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَحْكُمِ الْجَاهِلِيَةَ بِيغُونٍ﴾ [المائدة: 50] «فأنت تسمع الصم» [يونس: 42، الزخرف: 40] «فأنت تخذونه وذريته» [الكهف: 50] ثم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ [يونس: 51] وهذا قول سيبويه. وقال الأخفش: الواو زائدة. وقال الكسائي: إنها أو حركت الواو تسهيلاً. قال ابن عطية: وهذا كله متكلف، والصحيح قول سيبويه، والمعطوف عليه محذوف، والتقدير: اكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا. وقوله: ﴿بَشِّرَ قَوْمٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال ابن جرير: أصل النبذ الطرح، والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر، والزييب إذا طرحا في الماء، قال أبو الأسود:

نظرت إلى عنوانه فنبيذته كنبذك نعلأً أخلقت من نعالكا
وقال آخر:

إن الذين أمرتهم أن يعملوا نبذوا كتابك واستحل المحرم
وقوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: خلف ظهورهم، وهو: مثل يضرب لمن يستخف بالشيء، فلا يعمل به تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك، ونبر أذنك، وتحت قدمك: أي اتركه، واعرض عنه، ومنه ما أشده الفراء:

تميم بن زيد لا تكون حاجتي بظهر فلا يعي علي جوابها
وقوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: التوراة؛ لأنهم لما كفروا بالنبي ﷺ، وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم في التوراة الإيمان به، وتصديقه، واتباعه، وبين لهم صفته، كان ذلك منهم نبذاً للتوراة، ونقضاً لها، ورفضاً لما فيها، ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن أي: لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذي جاء به هذا الرسول، وهذا أظهر من الوجه الأول. وقوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئاً مع كونهم يعلمون علماً يقيناً من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي، ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من

نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم. قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ معطوف على قوله: «نبذوا» أي: نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تتلوا الشياطين من السحر، ونحوه. قال الطبري: اتبعوا بمعنى فعلوا. ومعنى: «تتلوا» تتقول، وتقروء. و﴿عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ على عهد ملك سليمان، قاله الزجاج، وقيل: المعنى في ملك سليمان، يعني في قصصه، وصفاته، وأخباره. قال الفراء: تصلح «على»، وفي «في» هذا الموضع، والأول أظهر. وقد كانوا يظنون أن هذا هو: علم سليمان، وأنه يستجيزه، ويقول به، فرد الله ذلك عليهم، وقال: ﴿وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يتقدم أن أحداً نسب سليمان إلى الكفر، ولكن لما نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبته إلى الكفر؛ لأن السحر يوجب ذلك، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بتعليمهم. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ في محل نصب على الحال، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر بعد خبر. وقرأ ابن عامر، والكوفيون سوى عاصم: «ولكن الشياطين» بتخفيف لكن، ورفع الشياطين، والباقيون بالثشديد، والنصب. والسحر هو: ما يفعله الساحر من الحيل، والتخييلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب، فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة، أو الدابة من أن الجبال تسير، وهو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته، وقيل أصله الخفاء، فإن الساحر يفعله خفية، وقيل: أصله الصرف؛ لأن السحر مصروف عن جهته، وقيل: أصله الاستمالة؛ لأن من سحر، فقد استمالك. وقال الجوهري: السحر الأخذ، وكل ما لطف مأخذه ونق، فهو سحر. وقد سحره، يسحره سحراً، والساحر: العالم، وسحره أيضاً بمعنى خدعه. وقد اختلف هل له حقيقة أم لا؟ فذهبت المعتزلة، وأبو حنيفة إلى أنه خداع لا أصل له، ولا حقيقة. وذهب من عدهم إلى أن له حقيقة مؤثرة. وقد صح أن النبي ﷺ سحر، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي حتى كان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه، ثم شفاه الله سبحانه، والكلام في ذلك يطول. وقوله: ﴿وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين، فهو معطوف على السحر، وقيل هو: معطوف على قوله: «ما تتلوا الشياطين» أي: واتبعوا ما أنزل على الملكين. وقيل: إن «ما» في قوله: ﴿وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ﴾ نافية، والواو عاطفة على قوله: ﴿وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ﴾ وفي الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت، وماروت، فهاروت، وماروت بدل من الشياطين في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ ذكر هذا ابن جرير، وقال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين، ولكن الشياطين كفروا

يتعلمه ليكون ساحراً، ومن تعلمه ليقدر على نفعه. وقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ فيه ضمير يرجع إلى قوله: «من أحد» قال سيبويه: التقدير، فهم يتعلمون، قال: ومثله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117] وقيل هو: معطوف على موضع ما يعلمان؛ لأنه وإن كان منفياً، فهو يتضمن الإيجاب. وقال الفراء: هي مبنية على قوله: «يعلمون الناس السحر» أي: يعلمون الناس، فيتعلمون، وقوله: ﴿مَا يَفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرءِ وَزَوْجِهِ﴾ في إسناده التفريق إلى السحرة، وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب، والبغض، والجمع، والفرقة، والقرب، والبعد. وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرة؛ لأن الله نكر ذلك في معرض الذم للسحر، وبين ما هو الغاية في تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لنكره. وقالت طائفة أخرى: إن ذلك خرج مخرج الأغلب، وأن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه، وقيل ليس للسحر تأثير في نفسه أصلاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والحق أنه لا تنافي بين قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرءِ وَزَوْجِهِ﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيراً في نفسه، ولكنه لا يؤثر ضرراً إلا فيمن أن الله بتأثيره فيه. وقد لجمع أهل العلم على أن له تأثيراً في نفسه، وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة، وأبو حنيفة كما تقدم، وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة، ولا يجلب إليه منفعة بل هو: ضرر محض، وخسران بحت، واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف، وفي قوله: ﴿لَمِنْ اشْتَرَاهُ﴾ للتأكيد، ومن: موصولة، وهي في محل رفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿وَمَالِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ وقال الفراء إنها شرطية للمجازاة. وقال الزجاج: ليس هذا بموضع شرط، ورجح أنها موصولة كما نكرنا. والمراد بالشراء هنا: الاستبدال أي من استبدل ما تملوا الشياطين على كتاب الله. والخلق: النصيب عند أهل اللغة، كذا قال الزجاج. والمراد بقوله: ﴿مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: باعوها. وقد أثبت لهم العلم في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ ونفاه عنهم في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ واختلفوا في توجيه ذلك، فقال قطرب، والأخفش: إن المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ الشياطين، والمراد بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الإنسان. وقال الزجاج: إن الأول للملكين، وإن كان بصيغة الجمع، فهو مثل قولهم: الزيدان قاموا. والثاني المراد به علماء اليهود، وإنما قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم تركوا العمل بعلمهم. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ أي بالنبي ﷺ، وما جاء به من القرآن، ﴿وَاتَّقُوا﴾ ما وقعوا فيه من السحر، والكفر، واللام، في قوله: ﴿لَمُتُّوبَةٌ﴾ جواب لو، والمُتُّوبَةُ: التوبة. وقال الأخفش: إن الجواب محذوف، والتقدير، ولو أنهم آمنوا، واتقوا لأثبوا،

يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل؛ لأن سحرة اليهود فيما نكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وإن الذين يعلمونهم تلك رجالان أحدهما هاروت، والآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التاويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم. انتهى. وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام، ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه: هذا أولى ما حملت عليه الآية، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواء، فالسحر من استخراج الشياطين للطائفة جوهرهم، وبقة أفعالهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء، وخاصة في حال طمئهن، قال الله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفرقان: 4] ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنتان بدلاً من جمع، والبدل إنما يكون على حد المبدل؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنتين قد يطلق عليهما الجمع، أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس، والضحاك، والحسن: «الملكين» بكسر اللام، ولعل وجه الجزم بهذا التاويل مع بعده، وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على السن ملائكته. وعندي أنه لا موجب لهذا التحسف المخالف لما هو الظاهر، فإن الله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتْنَةٌ﴾ قال ابن جرير: وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، ويابل قيل: هي العراق، وقيل نهاوند، وقيل نصيبين، وقيل المغرب. وماروت وماروت اسمان أعجميان لا ينصرفان. وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ قال الزجاج: تعليم إنداز من السحر لا تعليم دعاء إليه، قال: وهو الذي عليه أكثر أهل اللغة، والنظر، ومعناه: أنهما يعلمان على النهي، فيقولان لهم: لا تفعلوا كذا، ومن: في قوله: «من أحد» زائدة للتوكيد، وقد قيل إن قوله: «يعلمان» من الإعلام لا من التعليم، وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كما حكاه ابن الأنباري، وابن الأعرابي، وهو كثير من شعاعهم كقول كعب بن مالك:

تعلم رسول الله أنك مسركي وإن وعيداً منك كالأخذ باليد وقال القطامي:

تعلم أن بعد الغي رشداً وإن لنك الغي نقشاعا وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتْنَةٌ﴾ هو: على ظاهره أي: إنما نحن ابتلاء، واختبار من الله لعباده، وقيل إنه استهزاء منهما؛ لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله، وفي قولهما: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أبلغ إنداز، وأعظم تحذير أي: أن هذا نذير يكون من فعله كافراً، فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد، وغير المعتقد، وبين من

الأيام كتباً فيها سحر، وكفر، ثم لفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها فقرؤها على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب، فبرئ الناس من سليمان، وكفروه حتى بعث الله محمداً، وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ قال: ما تتبع. وأخرج أيضاً عن عطاء في قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ قال: نراه ما تحدث. وأخرج أيضاً عن ابن جريج في قوله: ﴿عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ يقول: في ملك سليمان. وأخرج أيضاً عن السدي في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: هذا سحر آخر خاصموه به، فإن كلام الملائكة، فيما بينهم إذا علمته الإنس، فصنع، وعمل به كان سحراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ قال: لم ينزل الله السحر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عليّ قال: هما ملكان من ملائكة السماء. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني جبريل وميكائيل: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ يعلمان الناس السحر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن، بن أبزي أنه كان يقرؤها وما أنزل على الملكين داود وسليمان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحّاك قال: هما عُلجان من أهل بابل. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث، ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُشْرِفَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى الدُّنْيَا، فَرَأَتْ بَنِي آدَمَ يَعْمُصُونَ، فَقَالَتْ يَا رَبِّ مَا أَجْهَلُ هَؤُلَاءِ، مَا أَقَلَّ مَعْرِفَةَ هَؤُلَاءِ بِعَظَمَتِكَ، فَقَالَ اللَّهُ: لَوْ كُنْتُمْ فِي مُحَلَّاتِهِمْ لَعَصِمْتُونِي، قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا، وَنَحْنُ نَسْبِحُ بِحَمْدِكَ، وَنُقَدِّسُ لَكَ؟ قَالَ: فَاخْتَارُوا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً، فَاخْتَارُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ، ثُمَّ أَهْبَطَا إِلَى الْأَرْضِ، وَرَكِبَتْ فِيهِمَا شَهَوَاتُ بَنِي آدَمَ، وَمَثَلَتْ لِهَمَا امْرَأَةً، فَمَا عَصَمَا حَتَّى وَاقَعَا الْمَعْصِيَةَ، فَقَالَ اللَّهُ: اخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا، أَوْ عَذَابَ الْآخِرَةِ، فَنَظَرَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ قَالَ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: أَقُولُ إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا يَنْقُطِعُ، وَإِنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ لَا يَنْقُطِعُ، فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا، فَهَما اللذان نكر الله في كتابه: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر، أنه كان يقول: أطلعت الحمراء بعد، فإذا رآها قال: لا مرحباً، ثم قال: إن ملكين من الملائكة هاروت وماروت سالا الله أن يهبطهما إلى الأرض، فاهبطا إلى الأرض فكانا يقضيان بين الناس، فإذا أمسيا تكلمتا بكلمات، فخرجتا بها إلى السماء، ففقيض لهما امرأة من أحسن النساء، وألقيت عليهما الشهوة، فجعلتا يزخرانهما، وألقيت في أنفسهما، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعاداً، فأتتهما للميعاد فقالت: علماني الكلمة التي تعرجان بها، فعلماهما الكلمة فتكلمتا بها فخرجتا إلى السماء، فمسخت فجعلت كما ترون، فلما أمسيا تكلمتا بالكلمة، فلم يعرجا، فبعت إليهما: إن شئتما فعذاب الآخرة، وإن شئتما، فعذاب الدنيا إلى أن تقوم الساعة على أن تلقيا الله، فإن شاء عذبكما، وإن شاء

فحذف لدلالة قوله: «لمنوبة» عليه وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هو: إما للدلالة على أنه لا علم لهم، أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: «قال ابن صوريا للنبي ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء يعرف، وما أنزل الله عليك من آية بينة، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾. وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ، ونكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد: والله ما عهد إلينا في محمد، ولا أخذ علينا شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَأُكْلِمُوا عَاهِدَهُمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: ﴿آيَاتٍ بَيْنَاتٍ﴾ يقول: فأنزلت تتلوه عليهم، وتخبرهم به غوبة، وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ الكتاب، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، ففي ذلك عبرة لهم، وحجة عليهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿نَبِيذُهُ﴾ نقضه. وأخرج أيضاً عن السدي في قوله: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ قال: قال: لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة، واتفقت التوراة، والقرآن، فنبيذوا التوراة، وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، كأنهم لا يعلمون بما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ، وتصديقه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فإذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كذبة، فأشربتها قلوب الناس، واتخذوها نواوين، فاطلع الله على ذلك سليمان بن داود، فأخذها، فنقنها تحت الكرسي، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق، فقال: أَلَا أُنْكِمُ عَلَى كَنْزِ سُلَيْمَانَ الَّذِي لَا كَنْزَ لِأَحَدٍ مِثْلَ كَنْزِهِ الْمَمْنَعِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَأَخْرَجُوهُ فَإِذَا هُوَ: سَحَرٌ، فَتَنَاسَخَتْهَا الْأُمَمُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَذْرَ سُلَيْمَانَ، فِيمَا قَالُوا مِنَ السَّحَرِ، فَقَالَ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ الآية. وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، عنه قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان، ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً، وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، فكفره جهال الناس، وسبوه، ووقف علماءهم، فلم يزل جهالهم يسبون حتى أنزل الله على محمد: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عنه قال: كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتي شيئاً من شأنه أعطى الجرادة، وهي: امرأته خاتمه، فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي، فأخذته، فلبسه، فلما لبسه دانت له الشياطين، والجن، والإنس، فجاء سليمان، فقال: هاتي خاتمي، فقالت: كذبت لست سليمان، فعرف أنه بلاء ابتلي به، فانطلقت الشياطين، فكتبت في تلك

بالسمع، ولم يصح. انتهى. وأقول هذا مجرد استبعاد. وقد ورد الكتاب العزيز في هذا الموضع بما تراه، ولا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات، وما نكره من أن الأصول تنفع تلك، فعلى فرض، وجود هذه الأصول، فهي مخصصة بما وقع في هذه القصة، ولا وجه لمنع التخصيص، وقد كان إبليس يملك المنزلة العظيمة، وصار أشد البرية، وإكفر العالمين. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ﴾ قال: بلاء. وأخرج البزار بإسناد صحيح، والحاكم وصححه عن ابن مسعود، قال: «من أتى كاهناً، أو ساحراً، وصنّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد». وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من تطير، أو تطير له، أو تكهن، أو سحر، أو سحر له، ومن عقد عقدة، ومن أتى كاهناً، فصنّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج عبد الرزاق، عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم شيئاً من السحر قليلاً، أو كثيراً كان آخر عهده من الله». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ قال: قوام. وأخرج ابن حاتم، عنه قال: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ من نصيب، وكذا روى ابن جرير، عن مجاهد. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ قال: ليس له دين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَلِبَاسُ مَا شَرَوْا بِهِ﴾ قال: باعوا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٍ﴾ قال: ثواب.

يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ۖ مَا يَوْمُ الذِّبْرِ ۚ كَثُرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿رَاعِنًا﴾ أي: راقبنا، واحفظنا، وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى ﴿رَاعِنًا﴾ ارعنا، ونرعاك، واحفظنا، ونحفظك، وراقبنا، ونرقيبك، ويجوز أن يكون من ارعنا سمعك أي: فرغه لكلامنا، وجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سباً، قيل: إنه في لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت، وقيل غير ذلك، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي ﷺ راعنا طلباً منه أن يراعيهم من المراعاة اغتناموا الفرصة، وكانوا يقولون للنبي ﷺ كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، مبطلين أنهم يقصدون السب الذي هو: معنى هذا اللفظ في لغتهم وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب، والنقص، وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم سداً للذريعة، ودفعاً للوسيلة، وقطعاً لمادة المفسدة، والتطرق إليه، ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبي ﷺ بما لا يحتمل النقص، ولا يصلح للتعريض، فقال: ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أي: أقبل علينا، وانظر إلينا، فهو من باب الحذف، والإيصال، كما قال الشاعر:

ظاهرات الجمال والحسن ينظر ن كما ينظر الأراك الطباء

رحمكما، فنظر أحدهما إلي صاحبه، فقال: بل نختر عذاب الدنيا ألف ضعف، فهما يعنiban إلى يوم القيامة. وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بالفاظ، وفي بعضها أنه يروي ذلك ابن عمر عن كعب الأحبار، كما أخرجه عبد الرزاق، وابن شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب من طريق الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم، وما يأتون من الذنوب، فقيل لو كنتم مكانهم لاتيتم مثل ما يأتون، فاخترنا منكم اثنين، فاخترنا هاروت وماروت، فقال لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً، فليس بيني، وبينكم رسول، انزلا لا تشركا بي شيئاً، ولا تزنيا، ولا تشربا الخمر، قال كعب: فوالله ما أسيما من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استعملا جميع ما نهيا عنه. قال ابن كثير: وهذا أصح، يعني من الإنسابين اللذين نكرهما قبله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب، قال: إن هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة، والعجم أناهيد، ونكر نحو الرواية السابقة عن ابن عمر، عند الحاكم. قال ابن كثير: وهذا الإسناد رجاله ثقات، وهو غريب جداً. وقد أخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه عن ابن عباس، قال: كانت الزهرة امرأة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عنه: أن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت، فهي هذه الكوكبة الحمراء: يعني الزهرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عنه، فذكر قصة طويلة، وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر، وزنيا بالمرأة، وقتلاها. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، وابن عباس هذه القصة، وقالوا: إنها أنزلت إليهما الزهرة في صورة امرأة، وأنهما وقعا في الخطيئة. وقد روى في هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاهما السيوطي في الدر المنثور، ونكر ابن كثير في تفسيره بعضها، ثم قال: وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد، والسدي، والحسن البصري، وقاتدة، وأبي العالية، والزهري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم، وقصصها خلق من المفسرين من المتقدمين، والمتأخرين. وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصالح المصدق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط، ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراه الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. انتهى. وقال القرطبي بعد سياق بعض ذلك: قلنا هذا كله ضعيف، وبعيد عن ابن عمر، وغيره لا يصح منه شيء، فإنه قول تنفعه الأصول في الملائكة الذين هم: أمناء الله على وجهه، وسفرأوه إلى رسله لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ثم نكر ما معناه: أن العقل يجوز وقوع ذلك منهم، لكن وقوع هذا الجائر لا يدرى إلا

ويضحكون، فيما بينهم، فأنزل الله الآية. وأخرج أبو نعيم في الدلائل، عنه أنه قال المؤمنون بعد هذه الآية: من سمعتموه يقولها، فاضربوا عنقه، فانتهت اليهود بعد ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن السدي قال: كان رجلان من اليهود: مالك بن الصيف، ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي ﷺ قالوا له، وهما يكلمانه: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع، فظن المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم، فقالوا للنبي ﷺ فأنزل الله الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صخر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أثير ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فقالوا: ارعنا سمعك، فاعظم الله رسوله أن يقال له ذلك، وأمرهم أن يقولوا: ﴿انظرونا﴾ ليعززوا رسول الله ﷺ، ويوقروه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم، عن قتادة: أن اليهود كانت تقول ذلك استهزاء، فكره الله للمؤمنين أن يقولوا كقولهم، وأخرج ابن حاتم، عن مجاهد قال: الرحمة القرآن والإسلام.

﴿مَا تَنَسَّحَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُسْخَةٍ نَّاتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ يَشَاءُ لَمْ تَلَمْ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿لَمْ تَلَمْ أَنْ اللَّهُ لَمْ تَكُنْ الْكَوْبُ وَالْأَرْضُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَنْزِلُ وَلَا يُعِيرُ﴾ ﴿١٦٧﴾

النسخ في كلام العرب على وجهين: أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً، أعني من اللوح المحفوظ، فلا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية، ومنه: ﴿إِذَا كُنَّا نَسْتَسْخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29] أي نأمر بنسخه. الوجه الثاني الإبطال، والإزالة، وهو المقصود هنا. وهذا الوجه الثاني ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة: أحدهما إبطال الشيء، وزواله، وإقامة آخر مقامه، ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته، وحلت محله، وهو: معنى قوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ وفي صحيح مسلم: «لم تكن نبوة قط إلا تناسخت، أي: تحولت من حال إلى حال. والثاني إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم: نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: 52] أي: يزيله. وروي عن أبي عبيد أن هذا قد كان يقع في زمن رسول الله ﷺ، فكانت تنزل عليه السورة، فترفع، فلا تتلى، ولا تكتب. ومنه ما روي عن أبي، وعائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول. قال ابن فارس: النسخ نسخ الكتاب، والنسخ أن تزيل أمراً كان من قبل يعمل به، ثم تنسخه بحادث غيره، كآية تنزل بأمر، ثم تنسخ بأخرى، وكل شيء خلف شيئاً، فقد انتسخه: يقال نسخت الشمس الظل، والشيب الشباب، وتناسخ الورثة أن يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم، وكذا تناسخ الأزمنة والقرون. وقال ابن جرير: ﴿مَا نَسَخَ﴾ ما ننقل من حكم آية إلى غيره، فنبدله، ونغيره، وذلك أن تحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر، والنهي، والحظر، والإطلاق، والمنع، والإباحة، فاما الأخبار، فلا يكون فيها نسخ، ولا

أي: إلى الأراك، وقيل: معناه انتظرونا، وتأن بنا، ومنه قول الشاعر:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى لم جنب
وقرأ الأعمش ﴿انظرونا﴾ قطع الهمزة وكسر الظاء بمعنى أخرجنا، وأملنا حتى نفهم عنك، ومنه قول الشاعر:

أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقيناً
وقرأ الحسن: ﴿راعنا﴾ بالتثنية، وقال الراعي من القول السخري منه انتهى. وأمرهم بعد هذا النهي والأمر بأمر آخر، وهو قوله: ﴿واسمعوا﴾ أي: اسمعوا ما أمرتم به ونهيتم عنه، ومعناه: أطيعوا الله في ترك خطاب النبي ﷺ بذلك اللفظ، وخطبوه ما أمرتم به، ويحتمل أن يكون معناه: اسمعوا ما يخطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة، ثم توعدهم اليهود بقوله: ﴿وللكافرين عذاب اليم﴾ ويحتمل أن يكون وعيداً شاملاً لجنس الكفرة. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: ﴿راعنا﴾ لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه ﷺ نظير الذي نكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعب الكرم، ولكن قولوا الحبلة، ولا تقولوا عبدي، ولكن قولوا فتاي» وما أشبه ذلك. وقوله: ﴿ما يؤذ الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ الآية، فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يؤذون إنزال الخير عليهم من الله سبحانه، ثم رد الله سبحانه ذلك عليهم، فقال: ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ الآية. وقوله: ﴿أن ينزل﴾ في محل نصب على المفعولية، و«من» في قوله: ﴿من خير﴾ زائدة، قاله النحاس، وفي الكشف أن «من» في قوله: ﴿من أهل الكتاب﴾ بيانية، وفي قوله: ﴿من خير﴾ مزيدة لاستغراق الخير، وفي قوله: ﴿من ربيكم﴾ لإبتداء الغاية، وقد قيل بأن الخير الوحي، وقيل غير ذلك، والظاهر أنهم لا يؤذون أن ينزل على المسلمين أي خير كان، فهو لا يختص بنوع معين كما يفيد وقوع هذه النكرة في سياق النفي، وتأكيد العموم بدخول «من» المزيدة عليها، وإن كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض، فذلك لا يوجب التخصيص. والرحمة قيل هي: القرآن، وقيل النبوة، وقيل جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي: صاحب الفضل العظيم، فكيف لا تكون أن يختص برحمته من يشاء من عباده.

وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود: أن رجلاً أتاه، فقال: أعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاعوها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهي عنه. وأخرج أبو نعيم في الدلائل، عن ابن عباس قال: ﴿راعنا﴾ بلسان اليهود: السب القبيح، وكان اليهود يقولون ذلك لرسول الله ﷺ سرّاً، فلما سمعوا أصحابه يقولون ذلك أعلنوا بها، فكانوا يقولون ذلك،

﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ يفيد أن النسخ من مقبوراته، وأن إنكاره إنكار للقدرة الإلهية، وهكذا قوله: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي: له التصرف في السموات، والأرض بالإيجاد، والاختراع، وتنفيذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبد بهم بها، وشرعها لهم. وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال، والأزمنة، والأشخاص، وهذا صنع من لا ولي لهم غيره، ولا نصير سواء، فعليهم أن يتلقوه بالقبول، والامتثال، والتعظيم، والإجلال.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن عدي، وابن عساکر، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل، وينساه بالنهار، فانزل الله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وفي إسناده الحجاج الجزري ينظر فيه. وأخرج الطبراني، عن ابن عمر، قال: «قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأهما رسول الله ﷺ وكنا يقرآن بها، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ، فقال: إنها مما ننسخ، أو ننسي، فآلهوا عنها» وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو: ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس، في قوله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ يقول: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نبيلها: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ يقول: خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أنه قال: ﴿ننسها﴾ نؤخرها. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله: ﴿ما ننسخ من آية﴾ قال: نثبت خطها، ونبدل حكمها: ﴿أو ننسها﴾ قال: نؤخرها. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿نأت بخير منه أو مثلها﴾ يقول فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهي. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وأبو ذر الهروي في فضائله، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: «أن رجلاً كانت معه سورة، فقام من الليل: فقام بها، فلم يقدر عليها، وقام آخر يقرأ بها، فلم يقدر عليها، وقام آخر، فلم يقدر عليها، فأصبحوا، فاتوا رسول الله ﷺ فاجتمعوا عنده، فأخبروه، فقال: إنها نسخت البارحة، وقد روي نحوه عنه من وجه آخر. وقد ثبت في البخاري، وغيره عن أنس أن الله أنزل في النين قتلوا في بئر معونة: «أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا، وأرضانا» ثم نسخ، وهكذا ثبت في مسلم، وغيره عن أبي موسى قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول، والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أنني حفظت منها: «لو كان لابن آدم واديان من مال لايتقى وأنيا ثالثاً، ولا يملا جوفه إلا التراب»، وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات، أولها ﴿سبح لله ما في السموات﴾ [الحديد: 1] فأنسيتها، غير أنني حفظت منها: «يا أيها الذين

منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى، فكذا معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله إلى غيره، وسواء نسخ حكمها، أو خطها، إذ هي في كلتي حالتها منسوخة. انتهى. وقد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن، فلا تطول بذكره، بل نحيل من أراد الاستشفاء عليه. وقد اتفق أهل الإسلام على ثبوته سلفاً، وخلفاً، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه، ولا يؤبه لقوله. وقد اشتهر عن اليهود، أقامهم الله، إنكاره، وهم محجوجون بما في التوراة أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: «إني قد جعلت كل دابة مأكلاً لك، ولذريتك، وأطلقت لك كنبات العشب ما خلا الدم، فلا تأكلوه، ثم قد حرّم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان، وثبت في التوراة أن آدم كان يزوّج الأخ من الأخت، وقد حرّم الله ذلك على موسى عليه السلام، وعلى غيره. وثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بنبح ابنه، ثم قال الله له: لا تنبحه، وبنّ موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم، ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بأيديهم. وقوله: ﴿أو ننسها﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير بفتح النون، والسين، والهمز، وبه قرأ عمر، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد وأبي بن كعب، وعبيد بن عمير، والنخعي، وابن محيصن ومعنى هذه القراءة نؤخرها عن النسخ من قولهم: نسأت هذا الأمر إذا أخرته. قال ابن فارس: ويقولون نسأ الله في أجلك، وأنسأ الله أجلك. وقد انتسأ القوم إذا تأخروا، وتباعنوا، ونسأتهم أنا أخرتهم؛ وقيل معناه نؤخر نسخ لفظها: أي نتركه في أم الكتاب، فلا يكون. وقيل نذهبها عنكم حتى لا تقرأ، ولا تذكر. وقرأ الباقر «ننسها» بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك أي: نتركها، فلا نبيلها، ولا ننسخها، ومنه قوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: 67] أي تركوا عبادته، فتركهم في العذاب. واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وحكى الأزهري أن معناه نأمر بتركها يقال أنسيته الشيء: أي أمرته بتركه، ونسيته تركته، ومنه قول الشاعر:

إن عليّ عقبه أقضيها لست بناسيها ولا منسيها
أي: ولا أمر بتركها. وقال الزجاج: إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك، لا يقال أنسى بمعنى ترك. قال: وما روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أو ننسها﴾ قال: نتركها لا نبيلها، فلا يصح، والذي عليه أكثر أهل اللغة، والنظر أن معنى: ﴿أو ننسها﴾ نهي لكم تركها من نسي إذا ترك، ثم تعديه. ومعنى: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ نأت بما هو: أنفع للناس منها في العاجل والأجل، أو في أحدهما، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة، ومرجع ذلك إلى إعمال النظر في المنسوخ والناسخ، فقد يكون الناسخ أخف، فيكون أنفع لهم في العاجل، وقد يكون أثقل، وثوابه أكثر، فيكون أنفع لهم في الأجل، وقد يستويان، فتحصل المماثلة. وقوله:

نقروه، أو فجر لنا أنهاراً نتبعك، ونصدقك، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - سِوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وكان حيي بن أخطب من أشد اليهود حسداً للعرب إذ خصهم الله برسوله، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَمُرُّوا بِالْجَبَلِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْغَمَامَ كَمَا نَزَلَ فِي يَوْمِ أُتُوهُمُ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: سألت العرب محمداً ﷺ أن يأتيهم بالله فيروهم جهره، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: قال رجل: لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل، فقال النبي ﷺ: «ما أعطاكم الله خير، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على باب، وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزاي في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزاي في الآخرة. وقد أعطاكم الله خيراً من ذلك قال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: 110] الآية، والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن، فأنزل الله: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: سألت قرش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهاباً، فقال: نعم، وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم، فأبوا ورجعوا، فأنزل الله: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أن يريهم الله جهره. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ قال: يتبدل الشدة بالرخاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قال: عدل عن السبيل. وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن كعب بن مالك، قال: كان اليهود، والمشركون من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ، وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، وأنزل الله: ﴿وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وفي الصحيحين، وغيرهما عن أسامة بن زيد، قال: كان رسول الله ﷺ، وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: 186] وقال: ﴿وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ الآية، وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قرش. وأخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: من قبل أنفسهم: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول: إن محمداً رسول الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، نحوه وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ وقوله: ﴿وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 106] ونحو هذا في العفو عن المشركين قال: نسخ ذلك كله بقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا النَّبِينَ﴾

أمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فنكتب شهادة في أعناقكم فتسألوا عنها يوم القيامة، وقد روي مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة، ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق، وأحمد، وابن حبان، عن عمر.

أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١٠﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا نَزَلَ حَسْبًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١١﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَرِّبُوا لِلنَّاسِ مِنَ خَيْرٍ يُجْزَوُ عَنْهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَبَرٌ

﴿أم﴾ هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل أي: بل تريدون، وفي هذا توبيخ، وتقرير، والكاف في قوله: ﴿كَمَا سَأَلَ﴾ في موضع نصب نعت لمصدر محذوف أي: سؤالاً مثل ما سئل موسى من قبل حيث سأله أن يريهم الله جهره، وسألوا محمداً ﷺ: أن يأتي بالله، والملائكة قبيلاً. وقوله: ﴿سِوَاءَ﴾ هو الوسط من كل شيء قاله أبو عبيدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 55] ومنه قول حسان يرثي النبي ﷺ:

يا ربيع أصحاب النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد وقال الفراء: السواء القصد أي: ذهب عن قصد الطريق، وسمته أي: طريق طاعة الله. وقوله تعالى: ﴿وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنهم، ورذمهم عن الإسلام، والتشكيك عليهم في دينهم. وقوله: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ في محل نصب على أنه مفعول للفعل المذكور. وقوله: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله «وَدَّ» أي: ونوا ذلك من عند أنفسهم، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿حَسْبًا﴾ أي: حسداً ناشئاً من عند أنفسهم، وهو: علة لقوله: «وَدَّ». والعفو: ترك المؤاخذة بالذنوب. والصفح: إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان: إذا عرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحاً: إذا عرضت عنه، وفيه الترغيب في ذلك، والإرشاد إليه، وقد نسخ ذلك بالامر بالقتال، قاله أبو عبيدة. وقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ هو غاية ما أمر الله سبحانه به من العفو والصفح أي: افعلوا ذلك إلى أن يأتي إليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه، وما قد قضى به في سابق علمه، وهو: قتل من قتل منهم، وإجلاء من أجلى، وضرب الجزية على من ضربت عليه، وإسلام من أسلم. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وتقدير الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم، وينصرهم على المخالفين لهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أنه قال: قال رافع بن حريملة، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد اثنتا بكتبا ينزل علينا من السماء

﴿قله﴾ معطوف على: «من أسلم» وإن كانت من شرطية، فقله: «قله» هو: الجزء، ومجموع الشرط، والجزاء ردّ على أهل الكتاب، وإبطال لتلك الدعوى. وقوله: ﴿وقالت اليهود﴾ وما بعده فيه أن كل طائفة تنفي الخير عن الأخرى، ويتضمن ذلك إثباته لنفسها تحجراً لرحمة الله سبحانه. قال: وهذه في الكشف: إن الشيء هو: الذي يصح ويعتدّ به، قال: وهذه مبالغة عظيمة؛ لأن المحال، والمعنوم يقع عليهما اسم الشيء، وإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه، فقد بولغ في ترك الاعتماد به إلى ما ليس بعده، وهكذا قولهم أقل من لا شيء. وقوله: ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي التوراة، والإنجيل، والجملة حالية، وقيل المراد جنس الكتاب، وفي هذا أعظم توبيخ، وأشدّ تقريع؛ لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة، والتكلم بما ليس عليه برهان هو: وإن كان قبيحاً على الإطلاق لكنه من أهل العلم، والدراسة لكتب الله أشدّ قبحاً، وأقطع جرماً، وأعظم نكباً. وقوله: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون﴾ المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا: مثل مقالة اليهود اقتداء بهم؛ لأنهم جهلة لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم، وقيل المراد بهم طائفة من اليهود، والنصارى، وهم الذين لا علم عندهم، ثم أخبرنا سبحانه بأنه المتولي لفصل هذه الخصومة التي وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه، فيعذب من يستحق التعذيب، وينجي من يستحق النجاة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة﴾ الآية، قال: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً: ﴿تلك أمانيتهم﴾ قال: أمانتي يتمنونها على الله بغير حق: ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ قال: حجتكم: ﴿إن كنتم صائقين﴾ بما تقولونه أنه كما تقولون: ﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ يقول: أخلص ش. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ قال: حجتكم، وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿بلى من أسلم وجهه﴾ قال: أخلص دينه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، اتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريمة: ما أنتم على شيء وكفر بعبيسى والإنجيل، فقال له رجل من أهل نجران: ما أنتم على شيء، وجدد نبوة موسى، وكفر بالتوراة، قال: فأنزل الله في ذلك: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ أي: كل يتلو في كتابه تصديق من كفر به. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: هم: أمم كانت قبل اليهود والنصارى. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: هم العرب قالوا ليس محمد على شيء.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ نَعَىٰ سَجْدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي رَجَائِهِ

يؤمنون بالله﴾ [التوبة: 29] الآية، وقوله: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجنتهم﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير، عن السدي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾ يعني من الأعمال من الخير في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿تجدوه عند الله﴾ قال: تجدوا ثوابه.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥١﴾

قوله: ﴿هوداً﴾ قال الفراء: يجوز أن يكون هوداً بمعنى يهودياً، وأن يكون جمع هائد. وقال الأخفش: إن الضمير المفرد في كان هو باعتبار لفظ من، والجمع في قوله: «هوداً» باعتبار معنى من، قيل: في هذا الكلام حذف، وأصله: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. هكذا قال كثير من المفسرين، وسبقهم إلى ذلك بعض السلف. وظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود، والنصارى وقع منهم هذا القول، وأنهم يختصون بذلك نون غيرهم؛ ووجه القول بأن في الكلام حذفاً ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى، وتنفي عنها أنها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة كما في هذا الموضع، فإنه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت: ليست للنصارى على شيء، وقالت النصارى ليست لليهود على شيء، والأمانتي قد تقدمت تفسيرها، والإشارة بقوله تلك إلى ما تقدم لهم من الأمانتي التي أخرجها أنه لا يدخل الجنة غيرهم، وقيل إن الإشارة إلى هذه الأمانية الأخرى، والتقدير أمثال تلك الأمانية أمانيتهم على حذف المضاف ليطلق أمانيتهم، قوله: ﴿هاتوا﴾ أصله هاتوا حذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، ويقال للمفرد المنكر: هات، وللمؤنث هاتي، وهو: صوت بمعنى: أحضر. والبرهان: الدليل الذي يحصل عنده اليقين. قال ابن جرير: طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر، ويردّ على من ينفيه. وقوله: ﴿إن كنتم صائقين﴾ أي: في تلك الأمانتي المجردة، والدعاوى الباطلة، ثم ردّ عليهم، فقال: ﴿بلى من أسلم﴾ وهو: إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة أي: ليس كما يقولون بل يدخلها من أسلم وجهه لله. ومعنى أسلم: استسلم، وقيل: أخلص. وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس الظاهرة، وفيه يظهر العزّ والذل، وقيل: إن العرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء، وأن المعنى هنا الوجه، وغيره؛ وقيل المراد بالوجه هنا: المقصد أي: من أخلص مقصده وقوله: ﴿وهو محسن﴾ في محل نصب على الحال، والضمير في قوله: ﴿وجهه﴾ «وله» باعتبار لفظ من، وفي قوله: ﴿عليهم﴾ باعتبار معناها. وقوله: ﴿من﴾ إن كانت الموصولة، فهي فاعل لفعل محذوف أي: بلى يدخلها من أسلم. وقوله:

قال: «يوسع كل شيء علماً» [طه: 98]، وقال الفراء: الواسع الجوار الذي يسع عطاؤه كل شيء.

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا بِأَسْمَاءٍ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هم النصارى، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: هم الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس. وفي قوله: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ قال: فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، وقد أخيف بأداء الجزية، فهو يؤيها. وفي قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قال: أما خزيتهم في الدنيا، فإنه إذا قام المهدي، وفتحت القسطنطينية قتلهم، فذلك الخزي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة أنهم الروم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن كعب: أنهم النصارى لما أظهروا على بيت المقدس حرقوه. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: هم المشركون حين صدوا رسول الله ﷺ، عن البيت يوم الحديبية. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي صالح قال: ليس للمشركين أن يدخلوا المسجد إلا خائفين. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن، فيما ذكر لنا، والله أعلم شأن القبلة، قال الله تعالى: ﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ الآية، فاستقبل رسول الله ﷺ، فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى البيت العتيق، ونسخها فقال: ﴿مَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 149]، وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يصلي على راحلته تطوعاً أينما توجهت به، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية: ﴿أَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وقال: في هذا أنزلت هذه الآية. وأخرج نحوه عنه ابن جرير، والدارقطني، والحاكم وصححه: وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر، عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلي على راحلته قبل المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل، واستقبل القبلة، وصلى. وروي نحوه من حديث أنس مرفوعاً أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وضعفه، وابن ماجه، وابن جرير، وغيرهم عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلاً، فجعل الرجل يأخذ الأحجار، فيعمل مسجداً، فيصلي فيه، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة، فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله: ﴿وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الآية،

هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم أي: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، واسم الاستفهام في محل رفع على الابتداء، وأظلم خبره. وقوله: ﴿أَنْ يَذْكَرَ فِيهَا اسْمَهُ﴾ قيل: هو بدل من مساجد، وقيل: إنه مفعول له بتقدير كراهية أن يذكر، وقيل: إن التقدير من أن يذكر، ثم حذف حرف الجر لطول الكلام، وقيل: إنه مفعول ثان لقوله: ﴿مَنْعَ﴾ والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله منع من يأتي إليها للصلاة، والتلاوة، والذكر، وتعليمه. والمراد بالسعي في خرابها: هو السعي في هدمها، ورفع بنائها، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها، فيكون أعم من قوله: ﴿أَنْ يَذْكَرَ فِيهَا اسْمَهُ﴾ فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها المساجد كتعلم العلم وتعليمه، والقعود للاعتكاف، وانتظار الصلاة، ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 18]. وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي: ما كان ينبغي لهم دخولها إلا حال خوفهم، وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجل أنه ينبغي لهم أن يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد، وبين كافر وكافر، كما يفيد عموم اللفظ، ولا ينافيه خصوص السبب، وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يقطن لهم أحد من المسلمين، فينزلون بهم ما يوجب الإهانة، والإذلال، وليس فيه الإذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا، والخزي: قيل هو ضرب الجزية عليهم، وإذلالهم، وقيل غير ذلك، وقد تقدم تفسيره. والمشرق: موضع الشروق. والمغرب: موضع الغروب أي: هما ملك الله، وما بينهما من الجهات، والمخلوقات، فيشمل الأرض كلها. وقوله: ﴿فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا﴾ أي: أي جهة تستقبلونها، فهناك وجه الله أي: المكان الذي يرتضي لكم استقباله، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره [البقرة: 144] قال في الكشاف: والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أي: في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا تختص أماكنها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان انتهى. وهذا التخصيص لا وجه له، فإن اللفظ أوسع منه. وإن كان المقصود به بيان السبب، فلا بأس. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إرشاد إلى سعة رحمته. وأنه يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شيء كما

بين معان، يقال: قضى بمعنى خلق، ومنه: ﴿وقضاهن سبع سموات﴾ [فصلت: 12] وبمعنى أعلم، ومنه: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ [الإسراء: 4] وبمعنى أمر، ومنه: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء: 23] وبمعنى الزم، ومنه: قضى عليه القاضي، وبمعنى أوفاه، ومنه: ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ [القصص: 29] وبمعنى أراد، ومنه: ﴿فلذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [غافر: 68]، والأمر واحد الأمور. وقد ورد في القرآن على أربعة عشر معنى: الأول الدين، ومنه: ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله﴾ [التوبة: 48] الثاني بمعنى القول، ومنه: ﴿فلذا جاء أمراً﴾ [المؤمنون: 27] الثالث العذاب، ﴿فلما قضى الأمر﴾ [إبراهيم: 22] الرابع عيسى، ومنه: ﴿فلذا قضى أمراً﴾ [غافر: 68] أي: أوجد عيسى عليه السلام. الخامس القتل، ومنه: ﴿فلذا جاء أمر الله﴾ [غافر: 78] الساس فتوح مكة، ومنه: ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ [التوبة: 24]. السابع قتل بني قريظة، وإجلاء النضير، ومنه: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ [البقرة: 109]، الثامن القيامة، ومنه: ﴿إلى أمر الله﴾ [النحل: 1] التاسع القضاء، ومنه: ﴿يدير الأمر﴾ [يونس: 3]، العاشر الوحي، ومنه: ﴿ينزل الأمر بينهن﴾ [الطلاق: 12] الحادي عشر أمر الخلائق، ومنه: ﴿إلا إلى الله تصير الأمور﴾ [الشورى: 53] الثاني عشر النصر، ومنه: ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾ [البقرة: 154]. الثالث عشر الذنب، ومنه: ﴿فذاقت وبأل أمرها﴾ [الطلاق: 9] الرابع عشر الشان، ومنه: ﴿وما أمر فرعون برشيده﴾ [هود: 97] هكذا أورد هذه المعاني بأطول من هذا بعض المفسرين، وليس تحت تلك كثير فائدة، وإطلاقه على الأمور المختلفة لصق اسم الأمر عليها. وقوله: ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ [البقرة: 117] الظاهر في هذا المعنى الحقيقي، وإنه يقول سبحانه هذا اللفظ، وليس في ذلك مانع، ولا جاء ما يوجب تأويله، ومنه قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: 82] وقال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: 40] وقال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر: 50] ومنه قول الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قوله فيكون
وقد قيل إن ذلك مجاز، وإنه لا قول، وإنما هو: قضاء يقضيه، فغير عنه بالقول، ومنه قول الشاعر، وهو عمر بن حمزة اللوسي:

فأصبحت مثل النسر طار فراخه إذا رام تطياراً يقال له قم
وقال آخر:

قالت جناحه لساقيه الحقاً ونجبا لحكمكما أن يمزقا
والمراد بقوله: ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ اليهود، وقيل النصراني، ورجحه ابن جرير: لأنهم المنكفرون في الآية؛ وقيل مشركو العرب، و﴿لولا﴾ حرف تحضيض أي: هلا ﴿يكلّمنا الله﴾ بنبوة محمد، فنعلم أنه نبي ﴿أو تاتينا﴾

فقال: مضت صلاتكم. وأخرج الدارقطني، وابن مريويه، والبيهقي عن جابر مرفوعاً نحوه، إلا أنه نكر أنهم خطوا خطأ. وأخرج نحوه ابن مريويه بسند ضعيف، عن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عطاء يرفعه، وهو مرسل. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿فنفخ وجه الله﴾ قال: قبله الله أينما توجهت شرقاً، أو غرباً. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة». وأخرج ابن أبي شيبة، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي عن عمر نحوه.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَمَأِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِئُونَ ﴿٣٠﴾ بَيِّنَاتٍ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَئِذَا قَمَعَ أَمْرًا فَإِنَّا بِأَمْرِهِ لَمَ كُنْ قَانِئُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتْلُوهُمْ أَكْبَرُ فَتَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْتُونَ ﴿٣٢﴾

قوله: ﴿وقالوا﴾ هم اليهود والنصارى، وقيل اليهود: أي قالوا: ﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل النصارى أي: ﴿قالوا المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل: هم كفار العرب أي: قالوا الملائكة بنات الله. وقوله: ﴿سبحانه﴾ قد تقدم تفسيره، والمراد هنا تبرؤ الله تعالى عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد. وقوله: ﴿هل له ما في السموات والأرض﴾ رد على القائلين: بأنه اتخذ ولداً. أي بل هو مالك لما في السموات، والأرض، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه، والولد من جنسهم لا من جنسه، ولا يكون الولد إلا من جنس الولد. والقائت: المطيع الخاضع أي: كل من في السموات، والأرض مطيعون له خاضعون لعظمته خاشعون لجلاله، والقنوت في أصل اللغة أصله القيام. قال الزجاج: فالخلق قانتون أي: قاشمون بالعبودية إما إقراراً، وإما أن يكونوا على خلاف ذلك، فائر الصنعة بين عليهم، وقيل: أصله الطاعة، ومنه: ﴿والقانتين والقانتات﴾ [الأحزاب: 35] وقيل: السكون، ومنه قوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة: 238] ولهذا قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام، وقيل القنوت: الصلاة، ومنه قول الشاعر:

قانتاً لله يتلو كُتبه وعلى عمد من الناس اعتزل
والأولى أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة، قيل هي: ثلاثة عشر معنى، وهي: مبنية. وقد نظمها بعض أهل العلم، كما أوضحت ذلك في شرحي علم المنتقى. وبديع فعيل للمبالغة، وهو خبر مبتدأ، محذوف أي: هو بديع سمواته، وأرضه، أبدع الشيء: أنشأه لا عن مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع. وقوله: ﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي: أحكمه، وأتقنه. قال الأزهري: قضى في اللغة على وجه مرجعها إلى انقطاع الشيء، وتمامه، قيل: هو مشترك

قَالَ لَكَ هُمْ الْخَيْرُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يحتمل أن يكون منصوباً على الحال، ويحتمل أن يكون مفعولاً له أي: أرسلناك لأجل التبشير، والإنذار. وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَلْ﴾ قرأه الجمهور بالرفع مبنياً للمجهول أي: حال كونك غير مسؤول، وقرأه بالرفع مبنياً للمعلوم. قال الأخفش: ويكون في موضع الحال عطفاً على ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: حال كونك غير سائل عنهم؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤالهم، وقرأ نافع: ﴿وَلَا تَسْتَلْ﴾ بالجزم أي: لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء، أو لا يصدر منك السؤال عمن مات منهم على كفره، ومعصيته تعظيماً لحاله، وتغليظاً لشأنه: أي أن هذا أمر فظيع، وخطب شنيع، يتعاطم المتكلم أن يجريه على لسانه، أو يتعاطم السامع أن يسمعه. قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ﴾ الآية، أي: ليس غرضهم، ومبلغ الرضا منهم ما يقرحونه عليك من الآيات، ويورونهم من التعتات، فإنك لو جئتهم بكل ما يقترحون، وأجبتهم عن كل تعتت لم يرضوا عنك، ثم أخبره بأنهم لن يرضوا عنه حتى يدخل في بينهم ويتبع ملتهم. والملة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه على اللسان أنبيائه، وهكذا الشريعة، ثم رد عليهم سبحانه، فأمره بأن يقول لهم: ﴿إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى﴾ الحقيقي، لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة، والكتب المحرقة ثم اتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله ﷺ أن اتبع أهواءهم وحاول رضاهم واتبع نفسه في طلب ما يوافقهم، ويحتمل أن يكون تعريضاً لأمته، وتحذيراً لهم أن يوافقوا شيئاً من ذلك، أو يدخلوا في أهوية أهل الملل، ويطلبوا رضا أهل البدع. وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب، وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب، والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهم؛ فإن غالب هؤلاء، وإن أظهر قبولاً، وأبان من أخلاقه ليناً لا يرضيه إلا اتباع بدعته، والدخول في مداخله، والوقوع في حباله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه، وسنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة، وجهالة بيّنة، ورأي منهج، وتقليد على شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ما له من الله من ولي، ولا نصير، ومن كان كذلك، فهو مخول لا محالة، وهاك بلا شك، ولا شبهة. وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قيل: هم المسلمون، والكتاب هو: القرآن، وقيل: من أسلم من أهل الكتاب، والمراد بقوله: ﴿يَتْلُونَهُ﴾ أنهم يعلمون بما فيه، فيحللون حلاله، ويحرمون حرامه، فيكون من تلاه يتلوه إذا اتبعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنُ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: 2] أي: اتبعها كذا قيل، ويحتمل أن يكون من التلاوة أي: يقرؤونه حق قراءته لا يحرقونه، ولا يبطلونه. وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مبتداً وخبره ﴿يَتْلُونَهُ﴾

بنلك علامة على نبوته. والمراد بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قيل: هم اليهود، والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب، أو الأمم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود، والنصارى، أو اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى ﴿تَشَابِهَتْ﴾ أي: في التعتت، والافتراء، وقال الفراء: ﴿تَشَابِهَتْ﴾ في اتفاقهم على الكفر ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يعترفون بالحق، وينصفون في القول، ويدعونون لأوامر الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم.

وقد أخرج البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «كُنْبَنِي ابْنُ آدَمَ وَشَتْمَنِي، فَأَمَّا تَكْنِيهِ إِيَّايَ، فَيَزْعِمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أَعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسَبْحَانِي أَنْ أَخْذُ صَاحِبَةً، أَوْ وَلَدًا». وأخرج نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة، وفي الباب أحاديث. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿سَبْحَانَ اللَّهِ﴾ قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عن موسى بن طلحة، عن النبي ﷺ، أنه سئل عن التسبيح أن يقول الإنسان: سبحان الله، قال: براه الله من السوء. وأخرجه الحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه عن جده طلحة بن عبيد الله، قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: هو: تنزيه الله من كل سوء. وأخرجه ابن مروي، عنه من طريق أخرى مرفوعاً. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والضياء في المختارة، عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت، فهو الطاعة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ لَه قَانْتُونَ﴾ قال مطيعون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿بِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: ابتدئ خلقهما، ولم يشركه في خلقهما أحد. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: قال رافع بن حرملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله، فليكلنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة أنهم كفار العرب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: هم النصارى، والذين من قبلهم يهود.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجُمُحِ ﴿١٠٧﴾ وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبْجَحَ بِهِمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلَئِنْ أَسْأَلْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَةٍ أَوَّلَ ذَلِكَ قَدِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ لَا يَبْدُوَ لَهُمْ

أو الخير قوله: ﴿أولئك﴾ مع ما بعده.

ونكر معناه ابن كثير في تفسيره. وقال البقاعي في تفسيره: إنه لما طال المدى في استقصاء تنكيرهم بالنعم، ثم في بيان عوارهم، وهتك أستارهم، وختم ذلك بالترهيب لتضييع أيانهم بأعمالهم، وأحوالهم، وأقوالهم، أعاد ما صدر به قصتهم من التنكير بالنعم، والتحذير من حلول النقم يوم تجمع الأمم، ويوم فيه الندم لمن زلت به القدم، ليعلم أن تلك، فنلكة القصة، والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة. انتهى. وأقول: ليس هذا بشيء، فإنه لو كان سبب التكرار ما نكره من طول المدى، وأنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك لكان الأولى بالتكرار، والأحق بإعادة النكر هو قوله سبحانه: ﴿يا بني إسرائيل انكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ [البقرة: 40] فإن هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم، والخطاب لهم في هذه السورة هي أيضاً أولى بأن تعاد، وتكرر لما فيها من الأمر بذكر النعم، والوفاء بالعهد، والرهبة لله سبحانه، وبهذا تعرف صحة ما قدمناه لك عند أن شرع الله سبحانه في خطاب بني إسرائيل من هذه السورة، فراجعه، ثم حكى البقاعي بعد كلامه السابق عن الحوالي أنه قال: كثره تعالى إظهاراً لمقصود التثام آخر الخطاب بأوله، وليتخذ هذا الإفصاح، والتعليم أصلاً لما يمكن بأن يرد من نحوه في سائر القرآن حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمه يجب أن يلحظ القلب بذاته تلك الغاية، فيتلوها ليكون في تلاوته جامعاً لطرفي الثناء، وفي تفهيمه جامعاً لمعاني طرفي المعنى. انتهى. وأقول: لو كان هذا هو سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك. وإما قوله: وليتخذ ذلك أصلاً لما يرد من التكرار في سائر القرآن فمعلوم أن حصول هذا الأمر في الأذهان وتقديره في الأفهام لا يختص بتكرير آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها، فلم تتم حينئذ النكتة في تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما، والله الحكمة البالغة التي لا تبلغها الأفهام ولا تتركها العقول، فليس في تكليف هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هناك فتذكر قوله: ﴿وإذ ابتلى﴾ الابتلاء: الامتحان والاختبار أي: ابتلاه بما أمره به، و﴿إبراهيم﴾ معناه في السريانية أب رحيم، كذا قال الماوردي، قال ابن عطية: ومعناه في العربية ذلك. قال السهيلي: وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني، والعربي. وقد أورد صاحب الكشف هنا سؤالاً في رجوع الضمير إلى إبراهيم مع كون رتبته التأخير، وإجاب عنه بأنه قد تقدم لفظاً، فرجع إليه، والأمر في هذا أوضح من أن يشتغل بذكره، أو ترد في مثله الأسئلة، أو يسود وجه القرطاس بليضله. قوله: ﴿بكلمات﴾ قد اختلف العلماء في تعيينها، فقيل: هي شرائع الإسلام، وقيل نبح ابنه، وقيل أداء الرسالة، وقيل: هي خصال الفطرة، وقيل: هي قوله ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ وقيل: بالطهارة كما سيأتي بيانه. قال الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة: لأن هذا كله مما ابتلي به إبراهيم. انتهى. وظاهر النظم القرآني أن الكلمات

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزل: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسال عن أصحاب الجحيم﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله. قال السيوطي: هذا مرسل ضعيف الإسناد. ثم رواه من طريق ابن جرير، عن داود بن أبي عاصم مرفوعاً، وقال: هو معضل الإسناد ضعيف لا تقوم به، ولا بالذي قبله حجة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: ﴿الجحيم﴾ ما عظم من النار. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس قال: إن يهود المدينة، ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم. فانزل الله: ﴿ولن ترضى عنك لليهود ولا النصارى﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿يتلونهُ حق تلاوته﴾ قال: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه. وأخرجوا عنه أيضاً قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرؤوا: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ يقول اتبعها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب، قال في قوله: ﴿يتلونهُ حق تلاوته﴾ إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار. وأخرج الخطيب في كتاب الرواة بسند فيه مجاهيل، عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يتلونهُ حق تلاوته﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، وكذا قال القرطبي في تفسيره: أن في إسناده مجاهيل، قال: لكن معناه صحيح، وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير من طرق، عن ابن مسعود في تفسيره هذه الآية مثل ما سبق عن ابن عباس في قوله: (يحلون حلاله) إلى آخره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم قال: يتكلمون به كما أنزل، ولا يكتُمونه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في هذه الآية قال: هم أصحاب محمد، ثم حكى نحو ذلك عن عمر بن الخطاب. وأخرج وكيع، وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿يتلونهُ حق تلاوته﴾ قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

يَنْبَغِي إِسْتِزْهَالُ أَذْكُرُوا يَمَعِيَ الْآلِيَّ أَتَمَّتْ عَلَيْكَ وَالْيَ فَصَلِّتُكَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ
﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا يَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُبَدَّلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نُنْعِمُهَا
شَفَعَةً وَلَا هُمْ يُسْرُونَ﴾ ﴿وَلِإِذْ أَتَىكَ الْفَرَجُ رُبَّمَا كُنْتَ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قَالَ إِنْ
جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿وَإِذْ
جَعَلْنَا آيَةً مَبَآئِلَ النَّاسِ وَأَنَّا وَآخِذُونَ مِنْ مَقَارِ إِبْرَاهِيمَ مُعَلِّ

قوله: ﴿يا بني إسرائيل - إلى قوله - ولا هم ينصرون﴾ قد سبق مثل هذا في صدر السورة، وتقدم تفسيره، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي،

تختلف. وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة، وغيرها كثيراً من الظالمين. قوله: ﴿وَإِنْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ هُوَ: للكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا، و «مثابة» مصدر من ثاب يثوب مثابة، ومثابة، أي: مرجعاً يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه، ومنه قول ورقة بن نوفل في الكعبة:

مثاب لأقفاء القبائل كلها تخب إليها اليعملات النوايل
وقرأ الأعمش «مثابات» وقيل: المثابة من الثواب أي: يثابون هنالك. وقال مجاهد: المراد أنهم لا يقضون منه أوطارهم، قال الشاعر:

جعل البيت مثابات لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر
قال الأخفش: ودخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه، فهي كعلامة، ونسابة. وقال غيره: هي للتأنيث، وليست للمبالغة. وقوله: ﴿وَأَمَّا﴾ هو اسم مكان أي: موضع أمن. وقد استدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحدّ على من لجأ إليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: 97] وقيل: إن ذلك منسوخ. وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرأ نافع، وابن عامر بفتح الخاء على أنه فعل ماضٍ أي: جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً، واتخذوه مصلى. وقرأ الباقون على صيغة الأمر عطفاً على انكروا المنكور أول الآيات، أو على انكروا المقرّ عاملاً في قوله: ﴿وَإِنْ﴾ ويجوز أن يكون على تقدير القول، أي: وقلنا: اتخذوا. والمقام في اللغة: موضع القيام، قال النحاس هو من قام يقوم، يكون مصدرّاً واسماً للموضع، ومقام من أقام، وليس من هذا قول الشاعر:

وفيه مقامات حسان وجوها وأنبية ينتابها القول والفعل
لأن معناه أهل مقامات. واختلف في تعيين المقام على أقوال أصحابها أنه الحجر الذي يعرفه الناس، ويصلون عنده ركعتي الطواف، وقيل: المقام الحج كله، روي ذلك عن عطاء، ومجاهد، وقيل: عرفة، والمزلفة، روي عن عطاء أيضاً، وقال الشعبي: الحرم كله مقام إبراهيم. وروي عن مجاهد.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ لَبِثْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس؛ وخمس في الجسد. في الرأس قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، وتنف الإبط، وغسل مكان الغائط، والبول بالماء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عنه نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروي، وابن عساكر عنه قال: ما ابتلي أحد بهذا الدين، فقام به كله إلا إبراهيم. وقرأ هذه الآية فقيل له: ما الكلمات؟ قال: سهام الإسلام ثلاثون سهماً: عشرة في براءة «التائبون العابدون» [التوبة: 112] إلى آخر الآية، وعشرة في أول سورة قد أفلح وسال سائل «والذين يصنفون بيوم الدين» [المعارج: 26] الآيات، وعشرة في

هي قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وما بعده، ويكون ذلك بياناً للكلمات، وسيأتي عن بعض السلف ما يوافق ذلك، وعن آخرين ما يخالفه. وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ مستأنفاً كأنه ماذا قال له. وقال ابن جرير ما حاصله إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا حديث، أو إجماع، ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له، ثم قال: فلو قال قائل إن الذي قاله مجاهد، وأبو صالح، والربيع بن أنس أولى بالصواب: يعني أن الكلمات هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَعَبَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: 125] وما بعده، ورجح ابن كثير أنها تشمل جميع ما نكر، وسيأتي التصريح بما هو الحق بعد إيراد ما ورد عن السلف الصالح، وقوله: ﴿فَاتَمَّهْنُ﴾ أي قام بهنّ أتم قيام، وامتلأ اكمل امتثال. والإمام هو: ما يؤتم به، ومنه قيل: للطريق إمام، وللبناء إمام، لأنه يؤتم بذلك أي: يهتدي به السالك، والإمام لما كان هو القوة للناس لكونهم ياتمون به، ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ. وقوله: ﴿وَمَنْ ذَرَيْتِي﴾ يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم، أي: واجعل من ذريتي أئمة، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم بقصد الاستفهام، وإن لم يكن بصيغته أي: ومن ذريتي ماذا يكون يا رب؟ فأخبره أن فيهم عصاة، وظلمة، وأنهم لا يصلحون لذلك، ولا يقومون به، ولا ينالهم عهد الله سبحانه. والذرية مأخوذة من الذر؛ لأن الله أخرج الخلق من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم كالذر، وقيل: مأخوذة من نرا الله الخلق يذروهم إذا خلقتهم. وفي الكتاب العزيز: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحَ﴾ [الكهف: 45] قال في الصحاح: نرت الرّيح السحاب، وغيره تذروه، وتذريه ذرواً، ونرياً أي: نسفت، وقال الخليل: إنما سماوا ذرية؛ لأن الله تعالى نراها على الأرض كما نرا الزارع البذر. واختلف في المراد بالعهد، فقيل: الإمامة، وقيل النبوة، وقيل: عهد الله أمره، وقيل: الأمان من عذاب الآخرة، ورجحه الزجاج، والأول أظهر كما يفيد السياق. وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل، والعمل بالشرع كما ورد؛ لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالماً. ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد، وما تفيد الإضافة من العموم، فيشمل جميع ذلك اعتباراً بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب، ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمور الدينية. وقد اختار ابن جرير أن هذه الآية، وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه. انتهى. ولا يخفك أنه لا جدوى لكلامه هذا، فالأولى أن يقال: إن هذا الخبر في معنى الأمر لعباده أن لا يولوا أمور الشرع ظالماً، وإنما قلنا: إنه في معنى الأمر؛ لأن أخباره تعالى لا يجوز أن

في ذلك على الله سبحانه، وأما روي عن ابن عباس، ونحوه من الصحابة، ومن بعدهم في تعيينها، فهو أولاً أقوال صحابة لا تقوم بها الحجة فضلاً عن أقوال من بعدهم، وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك، وأن له حكم الرفع، فقد اختلفوا في التعيين اختلافاً يمتنع معه العمل ببعض ما روى عنهم نون البعض الآخر بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قلنا عن ابن عباس، فكيف يجوز العمل بذلك، وبهذا تعرف ضعف قول من قال: إنه يصار إلى العموم، ويقال تلك الكلمات هي: جميع ما ذكر هنا، فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف، والمتناقض، وما لا تقوم به الحجة. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس، «قال إني جاعلك للناس إماماً» يقتدى ببنيك، وهنيك، وسنتك «قال ومن ذريتي» إماماً لغير ذريتي: «قال لا ينال عهدي الظالمين» أن يقتدى بدينهم، وهديهم، وسنتهم. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، عنه قال: قال الله لإبراهيم: «إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي» فإني أن يفعل، ثم قال: «لا ينال عهدي الظالمين». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالماً، فأما في الدنيا، فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين، وغازوهم، وتكاثروهم، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده، وكرامته على أوليائه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في تفسير الآية أنه قال: لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به، وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: يخبره أنه إن كان في ذريته ظالم لا ينال عهده، ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عنه أنه قال: ليس لظالم عليك عهد في معصية الله. وقد أخرج وكيع، وابن مروي عن حديث علي عن النبي ﷺ في قوله: «لا ينال عهدي الظالمين» قال: لا طاعة إلا في المعروف، وإسناده عند ابن مروي هكذا: قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عبد الله بن سعد الأسدي، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني، حدثنا وكيع عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي عن النبي ﷺ، فنكره. وأخرج عبد بن حميد، من حديث عمران بن حصين، سمعت النبي ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله» وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، أنه قال في تفسير الآية: ليس للظالم عهد، وإن عاهدته فأنقضه. قال ابن كثير: وروي عن مجاهد، وعطاء، ومقاتل، وابن حبان نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ وَأَمَّا» قال: يثوبون إليه، ثم يرجعون. وأخرج ابن جرير، عنه أنه قال: لا يقضون منه وطراً يأتونه، ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعاونون إليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله:

الاحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الاحزاب: 35] إلى آخر الآية، «فَاتَمَّهْنَ» كلهن فكتب له براءة قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم: 37]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عنه قال: منهون مناسك الحج. وأخرج ابن جرير عنه قال: الكلمات: «إني جاعلك للناس إماماً - وإذ يرفع إبراهيم القواعد» والآيات في شأن المناسك، والمقام الذي جعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنو البيت، وبعث محمد في ذريتهما. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «وإذا ابتلي إبراهيم وبه بكلمات» قال: ابتلي بالآيات التي بعدها. وأخرج أيضاً، عن الشعبي مثله. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم، فاتمهن: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاكته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلاقتهم، وصبره على قذفهم إياه في النار، ليجرقوه في الله، والهجرة بعد ذلك من وطنه، وبلاده حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة، والصبر عليها، وما ابتلي به من ذبح ولده، فلما مضى على ذلك كله: «قال» الله له: «أسلم قال أسلمت لرب العالمين» [البقرة: 131]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: ابتلاه بالكوكب، فرضي عنه، وابتلاه بالقمر، فرضي عنه، وابتلاه بالشمس، فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة، فرضي عنه، وابتلاه بالختان، فرضي عنه، وابتلاه بابنه، فرضي عنه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: «فَاتَمَّهْنَ» قال: فاداهن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: قال رسول الله ﷺ: «من فطرة إبراهيم السواك» قلت: وهذا على تقدير أن إسناده إلى عطاء صحيح، فهو مرسل لا تقوم به الحجة، ولا يحل الاعتماد على مثله في تفسيره كلام الله سبحانه، وهكذا لا يحل الاعتماد على مثل ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: من فطرة إبراهيم غسل الذكر، والبراجم، ومثل ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عنه قال: ست من فطرة إبراهيم: قص الشارب، والسواك، والفرق، وقص الأظفار، والاستنجاء، وحلق العانة، قال: ثلاثة في الرأس - وثلاثة في الجسد. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيح، وغيره من طريق جماعة من الصحابة مشروعية تلك العشر لهذه الأمة، ولم يصح عن النبي ﷺ أنها الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم. وأحسن ما روي عنه ما أخرجه الترمذي، وحسنه عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يقص، أو يأخذ من شاربيه. قال: وكان خليل الرحمن إبراهيم يفعله، ولا يخفك أن فعل خليل له لا يستلزم أنه من الكلمات التي ابتلي بها، وإذا لم يصح شيء عن رسول الله ﷺ، ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول: إنها ما ذكره الله سبحانه في كتابه بقوله: «قال إني جاعلك» إلى آخر الآيات، ويكون ذلك بياناً للكلمات، أو السكوت، وإحالة العلم

والمراد بقوله: ﴿الرَّكْعَ السَّجُودَ﴾ المصلون، وخص هذين الركنين بالنكر؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ستأتي الأحاديث الدالة على أن إبراهيم هو الذي حرّم مكة، والأحاديث الدالة على أن الله حرّمها يوم خلق السموات والأرض، والجمع بين هذه الأحاديث في هذا البحث. وقوله: ﴿يَلِدْأَ أَمْنًا﴾ أي: مكة، والمراد الدعاء لأهله من نريته وغيرهم كقوله: ﴿عَيْشَةَ رَاضِيَةً﴾ [الحاقة: 21، القارة: 7] أي: راض صاحبها. وقوله: ﴿مَنْ أَمَنَ﴾ بدل من قول أهله أي: أرتق من آمن من أهله بون من كفر. وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ الظاهر أن هذا من كلام الله سبحانه رداً على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين بون غيرهم أي: وأرتق من كفر، فامتعه بالرزق قليلاً، ثم اضطره إلى عذاب النار، ويحتمل أن يكون كلاماً مستقلاً بياناً لحال من كفر، ويكون في حكم الإخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية أي: من كفر، فإنني امتعه في هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق: ﴿ثُمَّ اضْطَرَّه﴾ بعد هذا التمتع ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ فآخبر سبحانه أنه لا ينال الكفرة من الخير إلا تمتيعهم في هذه الدنيا، وليس لهم بعد ذلك إلا ما هو شرّ محض، وهو: عذاب النار؛ وأما على قراءة من قرأ: ﴿فَامْتَعَهُ﴾ بصيغة الأمر، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ اضْطَرَّه﴾ بصيغة الأمر، فهي مبنية على أن ذلك من جملة كلام إبراهيم، وأنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالإمتاع قليلاً، ثم دعا عليهم بأن يضطروهم إلى عذاب النار. ومعنى: ﴿اضْطَرَّه﴾ ألزمه حتى صيره مضطراً لذلك لا يجد عنه مخلصاً، ولا منه متحولاً. قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ هو: حكاية لحال ماضية استحضاراً لصورتها العجيبة. والقواعد: الأساس، قاله أبو عبيدة والفراء. وقال الكسائي: هي الجدر. والمراد برفعها رفع ما هو مبني فوقها لا رفعها في نفسها، فإنها لم ترتفع، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه، كما يقال: ارتفع البناء، ولا يقال: ارتفع أعالي البناء، ولا أسافله. قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ في محل الحال بتقدير القول أي: قائلين ربنا، وقرأ أبي، وابن مسعود: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ويقولان: ربنا تقبل منا». وقوله: ﴿وَلَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ أي: لجعلنا ثابتين عليه، أو زدنا منه. قيل: المراد بالإسلام هنا مجموع الإيمان، والأعمال. وقوله: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتُنَا﴾ أي: واجعل من ذريتنا، و«من» للتبعية، أو للتبيين. وقال ابن جرير: إنه أراد بالذرية العرب خاصة، وكذا قال السهيلي. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت في العرب وغيرهم من الذين آمنوا به. والأمة: الجماعة في هذا الموضع، وقد تطلق على الواحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانَتْ أَشْهُهُ﴾ [النحل: 120] وتطلق على الدين ومنه: ﴿وَإِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 23] وتطلق على الزمان، ومنه: ﴿وَأَنكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]. وقوله: ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ هي من الرؤية البصرية. وقرأ عمر بن عبد العزيز، وقتادة، وابن

﴿وَأَمْنًا﴾ قال: أمناً للناس. وأخرج البخاري، وغيره من حديث أنس، عن عمر بن الخطاب قال: وافقت ربي في ثلاث ووافقتني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلی، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلًی﴾. قلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر، والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ أَنْ يَبْلُغَنَّ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ﴾ [التحریم: 5] فنزلت كذلك، وأخرجه مسلم، وغيره مختصراً من حديث ابن عمر عنه. وأخرج مسلم، وغيره من حديث جابر: «أن النبي ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلًی﴾» وفي مقام إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة في الأمهات، وغيرها، والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام إبراهيم هو: الحجر الذي كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار، أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه، كما في البخاري من حديث ابن عباس، وهو: الذي كان ملصقاً بجدار الكعبة، وأول من نقله عمر بن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق، والبيهقي، بإسناد صحيح، وابن أبي حاتم، وابن مروييه من طرق مختلفة، وأخرج ابن أبي حاتم من حديث جابر في وصف حج النبي ﷺ، قال: لما طاف النبي ﷺ قال له عمر: هذا مقام إبراهيم؟ قال: نعم. وأخرج نحوه ابن مروييه.

وَعِذْنَا إِنْ لَمْ يَرْجِعْ وَاسْتَكْبَلْ أَنْ يَهْرَاقَ يَدَيْهِ لِلْإِثْمِ وَالْمَكْرِهَاتِ
وَأَرْكَعَ السُّجُودَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَةً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ
الْثَرَاتِ مِنْ مَاءٍ مِنْهُمُ الْمَاءُ وَالْبُرْءُ الْآخِرُ قَالَ وَبَرَّكَ قَائِمُهُ قَلِيلًا ثُمَّ انْطَرَاهُ
إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَرَأَى الْمَصِيرَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ الْفَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَاسْتَكْبَلَتْ رَبُّهَا وَقَالَ لَكَ أَنْتَ السَّيِّعُ الْكَلِيمُ ﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَبَارِكْ فِيكَ أَنْتَ الْغَوَّابُ
الْكَرِيمُ ﴿١٣٠﴾

قوله: ﴿عِذْنَا﴾ معناه هنا: أمرنا، أو أوجبنا. وقوله: ﴿إِنْ لَمْ يَرْجِعْ﴾ في موضع نصب بنزع الخافض أي: بأن طهرا قاله الكوفيون، وقال سيبويه: هو: بتقدير أي: المفسرة أي: أن طهرا، فلا موضع لها من الإعراب، والمراد بالتطهير قيل: من الأوثان، وقيل: من الآفات، والريب، وقيل: من الكفار؛ وقيل: من النجاسات، وطواف الجنب، والحائض، وكل خبيث. والظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع، وإن كل ما يصدق عليه مسمى التطهير، فهو يتناولها إما تناولاً شمولياً، أو بديلاً، والإضافة في قوله: ﴿بَيْتِي﴾ للتشريف، والتكريم، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، وأهل المدينة، وهشام، وحفص «بَيْتِي» بفتح الياء، وقرأ الآخرون بإسكانها. والطائف: الذي يطوف به، وقيل: الغريب الطارئ على مكة. والعاكف: المقيم، وأصل العكوف في اللغة: للزوم، والإقبال على الشيء، وقيل: هو: المجاور بون المقيم من أهلها.

كثير، وابن محيصن، وغيرهم: «أرنا» بسكون الراء، ومنه قول الشاعر:

أرنا إداولة عبد الله يملؤها من ماء زمزم إن القوم قد ظمئوا
والمناسك جمع نسك، وأصله في اللغة: الغسل، يقال: نسك ثوبه: إذا غسله. وهو في الشرع اسم للعبادة، والمراد هنا مناسك الحج، وقيل: مواضع الذبح، وقيل جميع المتعبدات. وقوله: ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ قيل: المراد بطلبهما للتوبة التثبيت؛ لأنهما معصومان لا ذنب لهما، وقيل: المراد تب على الظلمة منا.

وقد أخرج ابن جرير، عن عطاء قال: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أمرناه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَن طَهَّرْنَا بَيْتِي﴾ قال: من الأوثان. وأخرج أيضاً عن مجاهد، وسعيد بن جبير مثله، وزألو الريب، وقول الزور، والرجس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إذا كان قائماً، فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً، فهو من العاكفين، وإذا كان مصلياً، فهو من الركع السجود. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون في المسجد فقال: هم العاكفون. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يصاد صيدها، ولا يقطع عضاهها، كما أخرجه أحمد، ومسلم، والنسائي، وغيرهم من حديث جابر. وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة، منهم رافع بن خديج عند مسلم، وغيره، ومنهم أبو قتادة عند أحمد، ومنهم أنس عند الشيخين، ومنهم أبو هريرة عند مسلم، ومنهم علي بن أبي طالب عند الطبراني في الأوسط، ومنهم أسامة بن زيد عند أحمد، والبخاري، ومنهم عائشة عند البخاري. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وهي حرام إلى يوم القيامة» أخرجه البخاري تعليقاً، وابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة. وأخرجه الشيخان، وغيرهما من حديث ابن عباس. وأخرجه الشيخان وأهل السنن من حديث أبي هريرة، وفي الباب أحاديث غير ما ذكرنا، ولا تعارض بين هذه الأحاديث، فإن إبراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرمها، وأنها لم تزل حراماً آمناً نسب إليه أنه حرمها: أي أظهر للناس حكم الله فيها، وإلى هذا الجمع ذهب ابن عطية، وابن كثير. وقال ابن جرير: إنها كانت حراماً، ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأل إبراهيم، فحرمها، وتعبدوا بذلك. انتهى. وكلا الجمعين حسن. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن محمد بن مسلم الطائفي قال: بلغني أنه لما دعا إبراهيم للحرم فقال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ نقل الله الطائف من فلسطين. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، والأزرق، عن الزهري. وأخرج نحوه أيضاً الأزرق عن بعض ولد نافع بن جبير بن مطعم. وقد أخرج الأزرق نحوها مرفوعاً من طريق محمد بن

المنكدر. وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب القرظي قال: دعا إبراهيم للمؤمنين، وترك الكفار، ولم يدع لهم بشيء، قال الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَاَمْتَعْنَاهُ﴾ الآية. وأخرج نحوه سفيان بن عيينة، عن مجاهد. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بَايَعْتَهُ﴾ قال: كأن إبراهيم احتجها على المؤمنين بون الناس، فأنزل الله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أيضاً فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقاً لا أرزقهم أمتعهم قليلاً، ثم اضطروهم إلى عذاب النار، ثم قرأ ابن عباس: ﴿كَلَّا نَمْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ [الإسراء: 20] الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: قال أبي بن كعب في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أن هذا من قول الرب. وقال ابن عباس: هذا من قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر، فأمتعه قليلاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: القواعد أساس البيت. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وغيرهم عن سعيد بن جبير، قصة مطوأة، وأخبرها في بناء البيت، قال: فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك. وقد أكثر المفسرون في تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف في كيفية بناء البيت، ومن أي أحجار الأرض بني، وفي أي زمان عرف، ومن حجه؟ وما ورد فيه من الآلة الدالة على فضله، أو فضل بعضه كالحجر الأسود. وفي الدر المنثور من ذلك ما لم يكن في غيره، فليرجع إليه، وفي تفسير ابن كثير بعض من ذلك، ولما لم يكن ما نكره متعلقاً بالتفسير لم نذكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ قال: كنا مسلمين، ولكن سألناه الثبات. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم، قال: مخلصين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَمَن ذَرَيْتُنَا﴾ قال: يعنينا العرب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: قال إبراهيم رب أرنا مناسكتنا، فأتاه جبريل فأتى به البيت فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد، وأتم البنيان، ثم أخذ بيده، فأخرجه، فانطلق به نحو منى، فلما كان عند العقبة، فإذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه، فكبر ورماه، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة الوسطى ففعل به إبراهيم كما فعل في الأولى، ثم كنك في الجمرة الثالثة، ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب حتى أتى به عرفات، قال: وقد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاثاً، قال: نعم، قال: فأنزل في الناس بالحج، قال: وكيف أؤذن؟ قال: قل يا أيها الناس أجيئوا ربكم ثلاث مرات، فأجاب العباد:

﴿اصطفيناه﴾ أي: اخترناه وقت أمرنا له بالإسلام، ويحتمل أن يتعلق بمحنوف هو: انكر. قال في الكشف: كانه قيل انكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله، والضمير في قوله: ﴿وَأَوْصَىٰ بِهَا﴾ راجع إلى الملة، أو إلى الكلمة، أي: أسلمت لرَبِّ العالمين. قال القرطبي: وهو أصوب؛ لأنه أقرب مذكور أي: قولوا أسلمنا. انتهى. والأول أرجح؛ لأن المطلوب ممن بعده هو: إتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الإسلام، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم، وأولى بهم. ووصى وأوصى بمعنى، وقرئ بهما، وفي مصحف عثمان: ﴿وَأَوْصَى﴾ وهي قراءة أهل الشام، والمدينة، وفي مصحف عبد الله بن مسعود ﴿وَوَصَّى﴾ وهي قراءة الباقين ﴿ويعقوب﴾ معطوف على إبراهيم، أي: وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه. وقرأ عمر بن فايد الأسواري، وإسماعيل بن عبد الله المكي بنصب يعقوب، فيكون داخلاً فيمن أوصاه إبراهيم، قال القشيري: وهو بعيد، لأن يعقوب لم يدرك جدّه إبراهيم، وإنما ولد بعد موته. وقوله: ﴿يَا بَنِي﴾ هو بتقدير أن. وقد قرأ أبي، وابن مسعود، والضحاك بإثباتها. قال الفراء: ألغيت أن، لأن التوصية كالقول، وكل كلام رجع إلى القول جاز فيه دخول أن وجاز فيه إلغاؤها، وقيل: إنه على تقدير القول، أي: قائلاً يا بني. روي ذلك عن البصريين. وقوله: ﴿اصطفى لكم الدين﴾ أي: اختاره لكم، والمراد ملته التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، وهي الملة التي جاء بها محمد ﷺ. وقوله: ﴿فَلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ فيه إيجاز بليغ، والمراد الزموا الإسلام، ولا تفارقوه حتى تموتوا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ قال: رغبت اليهود، والنصارى عن ملته، واتخذوا اليهودية، والنصرانية بدعة ليست من الله، تركوا ملة إبراهيم الإسلام، وبذلك بعث الله نبيه محمداً ﷺ بملة إبراهيم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك في قوله: ﴿ولقد اصطفيناه﴾ قال: اخترناه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ قال: وصاهم بالإسلام، ووصى يعقوب بنيه بمثل ذلك. وأخرج الثعلبي، عن فضيل بن عياض في قوله: ﴿فَلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي: محسنون بربكم الظن.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُا وَحِدًا وَكُنَّا لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ خَلَّتْ لَهَا مَا كَبَتْ وَلَكَمْ مَا كَبْتُمْ وَلَا تَشْتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَسْكُونُ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٣﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَلَا يُعْتَبِلُ إِلَّا سَعْيُكَ وَأَلَّا تَسْبُطَ وَمَا أَفْوَىٰ مَوْسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَفْوَىٰ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا تَمُرُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِّنْهُمْ وَهُمْ لَمْ يُسَلِّمُوا ﴿١٣٤﴾ فَإِنِ آمَنُوا بِبَعْثِ مَا بَأْسْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَلَئِن لَّا

لبيك اللهم لبيك، فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق، فهو حاج. وأخرج ابن جرير من طريق ابن المسيب، عن علي قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: قد فعلت أي رب، فأرنا مناسكتنا: أبرئها لنا علمناها، فبعث الله جبريل، فحج به. وفي الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة، ومن بعدهم تتضمن أن جبريل أرى إبراهيم المناسك، وفي أكثرها أن الشيطان تعرّض له كما تقدم عن مجاهد. وقد أخرج ابن خزيمة، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس نحو ذلك، وكذلك أخرج عنه أحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٥﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ تَابِعِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٧﴾ وَوَعَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٨﴾

الضمير في قوله: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقاً. وقرأ أبي: «وابعث في آخرهم» ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى النرية. وقد أجاب الله لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث في نريته ﴿رسولاً منهم﴾ وهو محمد ﷺ. وقد أخبر عن نفسه بأنه دعوة إبراهيم كما سيأتي تخريج ذلك إن شاء الله، ومراده هذه الدعوة. والرسول هو: المرسل. قال ابن الأنباري: يشبه أن يكون أصله ناقة مرسل، ورسلة إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق. ويقال جاء القوم أرسالاً أي: بعضهم في أثر بعض، والمراد بالكتاب: القرآن. والمراد بالحكمة: المعرفة بالدين، والفقه في التاويل، والفهم للشريعة. وقوله: ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من الشرك، وسائر المعاصي. وقيل إن المراد بالآيات ظاهر الألفاظ، والكتاب معانيها، والحكمة الحكم، وهو: مراد الله بالخطاب، والعزیز الذي لا يعجزه شيء قاله ابن كيسان. وقال الكسائي ﴿العزیز﴾ الغالب: ﴿ومن يرغب﴾ في موضع رفع على الابتداء، والاستفهام للإنكار. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ في موضع الخبر، وقيل هو: بدل من فاعل يرغب، والتقدير: وما يرغب عن ملة إبراهيم أحد إلا من سفه نفسه. قال الزجاج: سفه بمعنى جهل، أي: جهل أمر نفسه، فلم يفكر فيها. وقال أبو عبيدة: المعنى أهلك نفسه، وحكى ثعلب، والمبرد أن سفه بكسر الفاء يتعدى كسفه بفتح الفاء مشددة. قال الاخفش: ﴿سفه نفسه﴾ أي: فعل بها من السفه ما صار به سفيهاً، وقيل: إن نفسه منتصب بنزع الخافض، وقيل: هو: تمييز، وهذان ضعيفان جداً، وأما سفه بضم الفاء، فلا يتعدى قاله المبرد، وثعلب. والاصطفاء: الاختيار، أي: اخترناه في الدنيا، وجعلناه في الآخرة من الصالحين، فكيف يرغب عن ملته راغب. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون متعلقاً بقوله:

نسبه، والمراد: أنكم لا تنتفعون بحسناتهم، ولا تؤخذون بسيئاتهم، ولا تسألون عن أعمالهم كما لا يسألون عن أعمالكم، ومثله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: 164] ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: 39]. ولما أدعت اليهود، والنصارى أن الهداية بيدها، والخير مقصور عليها رد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿بل ملة إبراهيم﴾ أي: قل يا محمد هذه المقالة، ونصب ملة بفعل مقدر، أي: نتبع، وقيل: التقدير: تكون ملة إبراهيم، أي: أهل ملته، وقيل: بل نهتدي بملة إبراهيم، فلما حذف حرف الجر صار منصوباً. وقرأ الأعرج، وابن أبي عبلة: «ملة» بالرفع، أي: بل الهدى ملة إبراهيم. والحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وهو في أصل اللغة: الذي تميل قدماه كل واحدة إلى أختها. قال الزجاج، وهو منصوب على الحال: أي نتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفاً. وقال علي بن سليمان: هو منصوب بهتقدير أعني، والحال خطأ كما لا يجوز جاءني غلام هند مسرعة. وقال في الكشف: هو حال من المضاف إليه كقولك: رأيت وجه هند قائمة، وقال قوم: الحنف الاستقامة، فسمي ديناً إبراهيم حنيفاً لاستقامته، وسمي معوج الرجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة، كما قيل للبلغ سليم، وللمهلكة مفازة. وقد استدل من قال بأن الحنيف في اللغة المائل لا المستقيم بقول الشاعر:

إذا حول الظل العشي رأيت حنيفاً ومن قرن الضحى ينتصر
أي: إن الحرياء تستقبل القبلة بالعشي، وتستقبل المشرق بالغداة، وهي قبلة النصارى، ومنه قول الشاعر:

والله لولا حنف في رجله ما كان في رجالكم من مثله
وقوله: ﴿وما كان من المشركين﴾ فيه تعريض باليهود لقولهم: ﴿عزيز ابن الله﴾ [التوبة: 30] وبالنصارى لقولهم: ﴿المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] أي: أن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التي أنتم عليها من الشرك بالله، فكيف تدعون عليه أنه كان على اليهودية، أو النصرانية. وقوله: ﴿قولوا آمناً بالله﴾ خطاب للمسلمين، وأمر لهم بأن يقولوا هذه المقالة، وقيل: إنه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك حتى يكونوا على الحق، والأول أظهر. والأسباط: أولاد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل واحد منهم من الأولاد جماعة، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، وسموا الأسباط من السبط، وهو: التتابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل: أصله من السبط بالتحريك، وهو الشجر، أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر، وقيل: الأسباط حفدة يعقوب، أي: أولاد أولاده لا أولاده، لأن الكثرة إنما كانت فيهم نون أولاد يعقوب في نفسه، فهم أفراد لا أسباط. وقوله: ﴿لا تفرق بين أحد منهم﴾ قال الفراء: معناه لا تؤمن ببعضهم، ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود، والنصارى. قال في الكشف: وأحد في معنى الجماعة، ولذلك صح دخول بين عليه. وقوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ هذا الخطاب للمسلمين أيضاً، أي: فإن آمن أهل الكتاب، وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع

فإنما هم في شفاعتي سيئكم الله وهو السميع العليم ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ ﴿قُلْ أَعْمَأَجُونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَيُحْكُمُ بَيْنَنَا وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ مَا أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ كَتَرَ شَهَادَةٍ عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ غَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَفُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله: ﴿إمام كنتم شهداء﴾ أم هذه قيل: هي: المنقطعة، وقيل: هي: المتصلة، وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع، والتوبيخ، والخطاب لليهود، والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم، وإلى بنيه أنهم على اليهودية، والنصرانية، فرد الله ذلك عليهم، وقال لهم: أشهدتم يعقوب، وعلمتم بما أوصى به بنيه، فتدعون ذلك عن علم، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون. والشهداء جمع شاهد، ولم ينصرف؛ لأن فيه ألف التانيث التي لتانيث الجماعة، والعمل في «إذ» الأولى معنى الشهادة، وإذ الثانية بدل من الأولى، والمراد بحضور الموت حضور مقدماته، وإنما جاء بما نون من في قوله: ﴿وما تعبدون﴾ لأن المعبودات من نون الله غالبها جمادات كالآلات، والنار، والشمس، والكواكب. ومعنى: ﴿من بعدي﴾ أي من بعد موتي. وقوله: ﴿إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آبائكم﴾ وإسماعيل، وإن كان عمأ ليعقوب؛ لأن العرب تسمي العم أباً، وقوله: ﴿إلهاء﴾ بدل من إلهك، وإن كان نكرة، فذلك جائز، ولا سيما بعد تخصيصه بالصفة التي هي قوله: ﴿واحداً﴾ فإنه قد حصل المطلوب من الإبدال بهذه الصفة. وقيل إن إلهاً منصوب على الاختصاص، وقيل: إنه حال. قال ابن عطية: وهو قول حسن؛ لأن الغرض الإثبات حال الوجدانية. وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء العطاردي: «واله أبيك» فقيل: أراد إبراهيم وحده. ويكون قوله: ﴿وإسماعيل﴾ عطفأ على أبيك، وكذلك ﴿إسحاق﴾ وإن كان هو أباه حقيقة، وإبراهيم جدّه، ولكن لإبراهيم مزيد خصوصية، وقيل: إن قوله: «أبيك» جمع كما روي عن سيبويه أن أبين جمع سلامة، ومثله أبون، ومنه قول الشاعر: فلما تبين أصواتنا بكين وقد بنينا بالآبينا
وقوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ جملة حالية أي: نعبد له حال إسلامنا له، وجوز الزمخشري أن تكون اعتراضية على ما يذهب إليه من جواز وقوع الجمل الاعتراضية آخر الكلام، والإرشاد بقوله: ﴿تلك﴾ إلى إبراهيم، وبنيه، ويعقوب، وبنيه، و«أمة» بدل منه، وخبره «قد خلت» أو أمة خبره، وقد خلت نعت لامة، وقوله: ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ بيان لحال تلك الأمة، وحال المخاطبين بأن لكل من الفريقين كسبه، لا ينفعه كسب غيره، ولا يناله منه شيء، ولا يضمره ذنب غيره، وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه، ويروج نفسه بالأماني الباطلة، ومنه ما ورد في الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع

وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: لنا أعمال، ولكم أعمال، فلستم بأولى بالله منا، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41]. وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مَخْلُصُونَ﴾ أي: نحن أهل الإخلاص للعبادة بونكم، وهو: المعيار الذي يكون به التفاضل، والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره، فكيف تدعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم، وأحق؟ وفيه توبيخ لهم، وقطع لما جاؤوا به من المجادلة، والمناظرة. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص: «تقولون» بالياء الفوقية، وعلى هذه القراءة تكون أم هانئاً معاملة للهمزة في قوله: ﴿اتَّحَاجُونَنَا﴾ أي: اتحاجوننا في الله أم تقولون إن هؤلاء الأنبياء على دينكم، وعلى قراءة الياء التحتية تكون أم منقطعة، أي: بل يقولون. وقوله: ﴿قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ فيه تقييد، وتوبيخ، أي: أن الله أخبرنا بأنهم لم يكونوا هوداً، ولا نصارى، وأنتم تدعون أنهم كانوا هوداً أو نصارى، فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام، أي: لا أحد أظلم: «ممن كتم شهادة عنده من الله» يحتمل أن يريد بذلك الذم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً، ولا نصارى، بل كانوا على الملة الإسلامية، فظلموا أنفسهم بكتهم لهذه الشهادة بل بأدعائهم لما هو مخالف لها، وهو أشد في الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذي لا أحد أظلم منه، ويحتل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب، وقيل: المراد هنا ما كتموه من صفة محمد ﷺ. وفي قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد شديد، وتهديد ليس عليه مزيد، وإعلام بأن الله سبحانه لا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح، والذنب الفظيع، وكثر قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ إلى آخر الآية لتضمنها معنى التهديد، والتخويف الذي هو المقصود في هذا المقام.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني أهل الكتاب. وأخرج أيضاً عن الحسن في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ قال: يقول: لم يشهد اليهود، ولا النصارى، ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت لا أن تعبدوا إلا الله، فأقرؤا بذلك، وشهد عليهم أن قد أقرؤا بعبادتهم أنهم مسلمون. وأخرج عن ابن عباس أنه كان يقول: الجذب، ويتلو الآية. وأخرج أيضاً عن أبي العالية في الآية قال: سمي العم أباً. وأخرج أيضاً نحوه عن محمد بن كعب. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن سوريا الأغور للنبي ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فأتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿حَنِيفاً﴾ قال: متبعاً.

كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فقد اهتموا، وعلى هذا، فمثل زائدة كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] وقول الشاعر:

فصيروا مثل كعصف مأكول

وقيل: إن المماثلة وقعت بين الإيمانيين، أي: فإن آمنوا بمثل إيمانكم. وقال في الكشف: إنه من باب التبكيت؛ لأن دين الحق واحد لا مثل له، وهو: بين الإسلام، قال أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة، والسداد، فقد اهتموا، وقيل: إن الباء زائدة مؤكدة، وقيل: إنها للاستعانة. والشقاق أصله من الشق، وهو: الجانب، كأن كل واحد من الفريقين في جانب غير الجانب الذي فيه الآخر، وقيل: إنه مأخوذ من فعل ما يشق، ويصعب، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه، ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين، وكذلك قول الشاعر:

والأفاعلموا أننا وإنتم بغاة ما بقينا في شقاق

وقوله الآخر:

إلى كم تقبل العلماء قسراً وتغفر بالشقاق وبالنفق

وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيهِمْ اللَّهُ﴾ وعد من الله تعالى لنبيه أنه سيكفيه من عانده، وخالفه من المتولين، وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقرينة، والنضير وبني قينقاع. وقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال الأخفش، وغيره أي: دين الله، قال: وهي: منتصبه على البديل من ملة. وقال الكسائي: هي: منصوبة على تقدير اتبعوا، أو على الإغراء، أي: الزموا، ورجح الزجاج الانتصاب على البديل من ملة، كما قاله الفراء. وقال في الكشف: إنها مصدر مؤكد منتصب عن قوله: ﴿أَمَّا بِاللَّهِ﴾ كما انتصب «وَعَدَ اللَّهُ» عما تقدمه، وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى تطهير الله، لأن الإيمان تطهير النفوس. انتهى. وبه قال سيبويه أي: كونه مصدراً مؤكداً. وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمونية، ويجعلون ذلك تطهيراً لهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً، فرد الله عليهم بقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: الإسلام، وسماه صبغة استعارة، ومنه قول بعض شعراء همدان:

وكل أناس لهم صبغة وصبغة همدان خير الصبغ صبغنا على ذاك أولاننا فأكرم بصبغتنا في الصبغ

وقيل: إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام بدلاً من معمونية النصارى، ذكره الماوردي. وقال الجوهري: صبغة الله دينه، وهو: يؤيد ما تقدم عن الفراء؛ وقيل: الصبغة الختان. وقوله: ﴿قُلْ اتَّحَاجُونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: اتجاولونا في الله، أي: في دينه، والقرب منه، والحظوة عنده، وذلك كقولهم «نحن أبناء الله وأحباؤه» [المائدة: 18] وقرأ ابن محيصن: «اتحاجونا» بالإدغام لاجتماع المثليين. وقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: نشترك نحن، وأنتم في ربوبيته لنا وعبوديتنا له، فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحاجوننا في ذلك.

حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿تَحَاجُّونَنَا﴾ قال: اتخاصموننا. وأخرج ابن جرير، عنه قال: اتجادلونا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً﴾ الآية قال: أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام، وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية، والنصرانية، وكتموا محمداً، وهم يعلمون أنه رسول الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، والربيع في قوله: ﴿تِلْكَ أَمَةٌ قَدْ خَلَّتْ﴾ قال: يعني إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

﴿سَيَقُولُ الْكَافِرُ إِنَّا إِنْسَانٌ مَّا وَلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ شَيْءٌ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَبْلُوَكُمْ أَهْلَاءَ عَلَى الْإِنْسَانِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ أَعْمَالَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالْكَافِرِينَ لَءَوَّاهٌ مُنِيعٌ

قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود، والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وقيل إن: ﴿سَيَقُولُ﴾ بمعنى قال، وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته، واستمرار عليه، وقيل: الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة، وأن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهويناً لصدمته، وتخفيفاً لروعه، وكسراً لسورته. والسفهاء جمع سفيه، وهو: الكذاب البهات المعتمد خلاف ما يعلم، كذا قال بعض أهل اللغة. وقال في الكشف: هم خفاف الأحلام، ومثله في القاموس. وقد تقدّم في تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130] ما ينبغي الرجوع إليه، ومعنى: ﴿مَا وَلاَهُمْ﴾ ما صرفهم ﴿عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ وهي بيت المقدس. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فله أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء. وفي قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي ﷺ، ولأهل ملته إلى الصراط المستقيم وقوله: ﴿وَكذلك جَعَلْنَاكُمْ﴾ أي: مثل ذلك جعلناكم جعلناكم أمة وسطاً. والوسط الخيار، أو العدل، والآية محتملة للامرين، ومما يحتملها قول زهير:

هم وسط ترضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم ومثله قول الآخر:

أنتم أوسط حي علموا بصغير الأمر أو إحدى الكبير وقد ثبت عن النبي ﷺ تفسير الوسط هنا بالعدل كما سيأتي، فوجب الرجوع إلى ذلك، ومنه قول الرازي: لا تذهبن في الأمور مفراطاً لا تسألن إن سالت شططا وكن من الناس جميعاً وسطاً

وأخرج أيضاً، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ قال: حاجاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب قال: الحنيف المستقيم. وأخرج أيضاً، عن خصيف قال: الحنيف المخلص. وأخرج أيضاً عن أبي قلابة قال: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم. وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة». وأخرج أحمد أيضاً، والبخاري في الألب المفرد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: «قيل يا رسول الله: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة». وأخرج الحاكم في تاريخه، وابن عساكر، من حديث أسعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منه الآية التي في البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كلها وفي الآخرة ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وأشهد باننا مسلمون. [آل عمران: 52]. وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله» الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: الأسباط بنو يعقوب كانوا اثني عشر رجلاً كل واحد منهم ولد أمة من الناس. وروى نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي، وحكاه ابن كثير في تفسيره عن أبي العالية، والربيع، وقاتدة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: لا تقولوا: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فإن الله لا مثل له، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم به، وأخرج ابن أبي داود، في المصالحف، والخطيب في تاريخه عن أبي جمره قال: كان ابن عباس يقرأ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بمثل آمنتم به﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ قال فراق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال: دين الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: فطرة الله التي فطر الناس عليها. وأخرج ابن مريويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه: يا موسى سالوك هل يصبغ ربك فقل نعم أنا أصبغ الألوان الأحمر، والأبيض، والأسود، والألوان كلها في صبغتي، وأنزل الله على نبيه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾. وأخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عباس موقوفاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله الإسلام، ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام، ولا أظهر، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً، ومن كان بعده من الأنبياء. وأخرج ابن النجار في تاريخ بغداد عن ابن عباس في قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال: البياض. وأخرج ابن أبي

أي: أنها لا تخف، ولا تسهل إلا على الذين هدى الله. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ قال القرطبي: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات، وهو يصلي إلى بيت المقدس، ثم قال: فسمى الصلاة إيماناً لاجتماعها على نية، وقول، وعمل، وقيل: المراد ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة، وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم. والأول يتعين القول به، والمصير إليه لما سيأتي من تفسيره ﷺ للآية بذلك. والرووف كثير الرافة، وهي أشد من الرحمة. قال أبو عمرو ابن العلاء: الرافة أكبر من الرحمة، والمعنى متقارب. وقرأ أبو جعفر بن يزيد بن القعقاع: «لروف» بغير همز، وهي لغة بني أسد، ومنه قول الوليد بن عتبة:

وشر الغالبين فلا تكنه يقاتل عمه الروف الرحيم
وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن البراء أن النبي ﷺ كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأن أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد، وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل الكعبة، فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولي وجهه قبل البيت أنكروا ذلك، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال، وقتلوا، فلم ندر ما يقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وله طرق آخر، والفاظ متقاربة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس، قال: إن أول ما نسخ في القرآن القبلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود في ناسخه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وبعد ما تحول إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة. وفي الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدم، وكذلك وردت أحاديث في الوقت الذي نزل فيه استقبال القبلة، وفي كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك، وقد كانوا في الصلاة، فلا تطول بذكرها. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والإسماعيلي في صحيحه، والحاكم وصححه عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَكُنْزُكُم جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مثله. وأخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أئانا من نذير، وما أئانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه» فنلك قوله: ﴿وَكُنْزُكُم جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: والوسط العدل، فتدعون،

ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً، أي: هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في عيسى، ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم، ويقال: فلان أوسط قومه وواسطتهم، أي: خيارهم. وقوله: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: يوم القيامة تشهدون للأنبياء على أممهم أنهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم، ويكون الرسول شهيداً على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم، ومثله قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]، قيل إن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يعني لكم أي: يشهد لهم بالإيمان، وقيل معناه: يشهد عليكم بالتبليغ لكم. قال في الكشف: لما كان الشهيد كالرقيب، والمهيم على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 9] ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117]. انتهى. وقالت طائفة: معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت، وقيل: المراد لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا، فيما لا يصح إلا بشهادة العدول، وسيأتي من المرفوع ما يبين معنى الآية إن شاء الله؛ وإنما أخر لفظ «على» في شهادة الأمة على الناس، وقدمها في شهادة الرسول عليهم، لأن الغرض كما قال صاحب الكشف في الأول: إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ قيل المراد بهذه القبلة: هي بيت المقدس أي: ما جعلناها إلا لنعلم المتبع، والمنقلب، ويؤيد هذا قوله: ﴿كُنْتُ عَلَيْهَا﴾ إذا كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة، وقيل: المراد الكعبة أي: ما جعلنا القبلة التي أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس إلا لنلك الغرض، ويكون ﴿كُنْتُ﴾ بمعنى الحال، وقيل: المراد بذلك القبلة التي كان عليها قبل استقبال بيت المقدس، فإنه كان يستقبل في مكة الكعبة، ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفاً لليهود، ثم صرف إلى الكعبة. وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ قيل: المراد بالعلم هنا الرؤية، وقيل: المراد إلا لتعلموا أننا نعلم بأن المنافقين كانوا في شك، وقيل: ليعلم النبي؛ وقيل: المراد لنعلم ذلك موجوداً حاصلاً، وهكذا ما ورد معللاً بعلم الله سبحانه لا بد أن يؤول بمثل هذا كقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140]. وقوله: ﴿وَأَنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: ما كانت إلا كبيرة، كما قاله الفراء في أن، وإن: أنهما بمعنى ما وإلا. وقال البصريون: هي الثقيلة خفت، والضمير في كانت راجع إلى ما يدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ من التحويلة، أو التولية، أو الجعلة، أو الردة، ذكر معنى ذلك الأخفش، ولا مانع من أن يرجع الضمير إلى القبلة المذكورة أي: وإن كانت القبلة المتصفة بآنك كنت عليها لكبيرة إلا على الذين هداهم الله للإيمان، فانشرح صدورهم لتصديقك، وقبلت ما جئت به عقولهم، وهذا الاستثناء مفرغ، لأن ما قبله في قوة النفي

جَعَلَهُ مِنْ أَلِيمٍ إِنَّكَ إِذَا لَيْتَ الْفَلَّاحِينَ ﴿١٤٦﴾ الَّذِينَ مَاتَتْهُمْ الْكَنْبَ
يَمُوتُونَ كَمَا يَمُوتُونَ أَنَاءَهُمْ وَلَئِنْ قَرَّبْنَا نَحْنُ إِلَهُكَ وَمَنْ يَمُوتُ ﴿١٤٧﴾
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك﴾ قال القرطبي في تفسيره: قال العلماء: هذه الآية مقننة في النزول على قوله: ﴿سيقول السفهاء﴾ [البقرة: 142]، ومعنى: ﴿قد﴾ تكثير الرؤية، كما قاله صاحب الكشاف، ومعنى: ﴿تقلب وجهك﴾ تحوّل وجهك إلى السماء، قاله قطرب. وقال الزجاج: تقلب عينيك في النظر إلى السماء، والمعنى متقارب. وقوله: ﴿فلنولينك﴾ هو إما من الولاية أي: فلنعطيكك ذلك، أو من التولي أي: فلنجعلك متولياً إلى جهتها، وهذا أولى لقوله: ﴿قول وجهك شطر للمسجد للحرام﴾. والمراد بالشرط هنا: الناحية والجهة، وهو منتصب على الظرفية ومنه قول الشاعر:

أقول لأم زنباع أقيمي صدور العيس شطر بني تميم
ومنه أيضاً قول الآخر:
ألا من مبلغ عمراً رسولاً وما تغني الرسالة شطر عمرو
وقد يراد بالشرط النصف، ومنه «الوضوء شطر الإيمان»،
ومنه قول عنترة:

إني امرؤ من خير عيس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل
قال ذلك: لأن أباه من سادات عيس، وأمه أمة، ويرد معنى البعض مطلقاً. ولا خلاف أن المراد بشرط المسجد هنا الكعبة. وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعايين، وعلى أن غير المعايين يستقبل الناحية، ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به، والضمير في قوله: ﴿أنه الحق﴾ راجع إلى ما يدل عليه الكلام من التحوّل إلى جهة الكعبة، وعلم أهل الكتاب بذلك إما لكونه قد بلغهم عن أنبيائهم، أو وجدوا في كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبي يستقبل الكعبة، أو لكونهم قد علموا من كتبهم، أو أنبيائهم أن النسخ سيكون في هذه الشريعة، فيكون ذلك موجباً عليهم الدخول في الإسلام، ومتابعة النبي ﷺ. وقوله:

﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ قد تقدّم معناه. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي يعملون بالمثناة الفوقية على مخاطبة أهل الكتاب، أو أمة محمد ﷺ، وقرأ الباقر بالباء التحتية. وقوله: ﴿ولئن أتيت﴾ هذه اللام هي موطئة للقسم، والتقدير: والله لئن أتيت. وقوله: ﴿وما تبعوا﴾ جواب القسم المقدر قال الأخفش والفراء: أجيب لئن بجواب ولو لأن المعنى: ولو أتيت، ومثله قوله تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا﴾ [الروم: 51] أي: ولو أرسلنا، وإنما قال هكذا: لأن لئن هي ضد لو، وذلك أن الأولى تطلب في جوابها الماضي، والوقوع، ولئن تطلب في جوابها الاستقبال. وقال سيبويه: إن معنى لئن يخالف معنى لو، فلا تدخل إحداهما على الأخرى، فالمعنى: ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلك. قال سيبويه: ومعنى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً﴾ ليظللن. انتهى. وفي هذه الآية مبالغة عظيمة، وهي متضمنة

فتشهدون له بالبلاغ، وأشهد عليكم. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي سعيد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا، وما من نبي كذب قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه». وأخرج ابن جرير، عن أبي سعيد في قوله: ﴿وكنذك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ بأن الرسل قد بلغوا: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ بما عملتم، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس قال مرّوا بجنّازة فأتى عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: «وجبت وجبت وجبت، ومرّوا بجنّازة فأتى عليها شراً، فقال النبي ﷺ: «وجبت وجبت وجبت، فسأله عمر فقال: من أثنتم عليه خيراً، وجبت له الجنة، ومن أثنتم عليه شراً، وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وكنذك جعلناكم أمة وسطاً﴾ الآية، وفي الباب أحاديث منها عن جابر مرفوعاً عند ابن المنذر، والحاكم وصححه، ومنها عن عمر مرفوعاً عند ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، ومنها عن أبي زهير الثقفي مرفوعاً عند أحمد، وابن ماجه، والطبراني، والدارقطني في الأفراد، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في السنن، ومنها عن أبي هريرة مرفوعاً عند ابن جرير، وابن أبي حاتم، ومنها عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً عند ابن أبي شيبة، وابن جرير، والطبراني. وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ قال: يعني بيت المقدس ﴿إلا لنعلم﴾ قال نبتليهم لنعلم من يسلم لأمره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ قال: لنميز أهل اليقين من أهل الشك ﴿وإن كانت لكبيرة﴾ يعني تحويلها على أهل الشرك، والريب. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: بلغني أن ناساً ممن أسلم رجعوا، فقالوا مرة ها هنا، ومرة ها هنا. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن عباس، قال: لما وجه رسول الله ﷺ إلى القبلة، قالوا: يا رسول الله، فكيف بالذين ماتوا، وهم يصلون إلى بيت المقدس، فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾. وقد تقدّم حديث البراء، وفي الباب أحاديث كثيرة، وآثار عن السلف.

قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَلِلَّهِ الْاَلْاَلِ الْكَنْبَ لَيَقُولُنَّ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِمُتَّبِعٍ عَمَّا يُمَلُّونَ ﴿١٤٩﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبَيَّنُوا فَلَئِنَّكَ وَمَا أَنْتَ بِمُتَّبِعٍ لِنَبِيِّكَ وَمَا بَعْضُهُمْ بِشَاحٍ قِبْلَةً بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ مَا

عليه إثم، وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة، نسال الله اللطف، والسلامة، والهداية وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ قيل: الضمير لمحمد ﷺ أي: يعرفون نبوته. روي ذلك عن مجاهد، وقتادة، وطائفة من أهل العلم، وقيل: يعرفون تحويل القبلية عن بيت المقدس إلى الكعبة بالطريق التي قَدَّمْنَا نذكرها، وبه قال جماعة من المفسرين، ورجح صاحب الكشف الأول. وعندي أن الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذي سبقت له هذه الآيات. وقوله: ﴿يَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ هو عند أهل القول الأول نبوة محمد ﷺ، وعند أهل القول الثاني استقبال الكعبة. وقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به الحق الأول، ويحتمل أن يراد به جنس الحق على أنه خير مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره قوله: «من ربك» أي الحق، هو الذي من ربك لا من غيره. وقرأ علي بن أبي طالب الحق بالنصب على أنه بدل من الأول، أو منصوب على الإغراء أي: الزم الحق. وقوله: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والامتراء: الشك، نهى الله سبحانه عن الشك في كونه الحق من ربه، أو في كون كتمانهم الحق مع علمهم، وعلى الأول هو: تعريض للامة أي لا يكن أحد من أمته من الممترين، لأنه ﷺ لا يشك في كون ذلك هو: الحق من الله سبحانه.

وقد أخرج ابن ماجه عن البراء قال: صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً، وصرفت القبلية إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه في السماء، وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة، فصعد جبريل، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره، وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ﴾. وأخرجه الطبراني من حديث معاذ مختصراً لكنه قال: سبعة عشر شهراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو في قوله تعالى: ﴿فَلَنُؤَلِّبَنَّكَ قَبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ قال: قبلية إبراهيم نحو الميزاب. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن البراء في قوله: ﴿قَوْلُ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: قبله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن علي بن عيسى، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، والبيهقي عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية قال: ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لقاءه، وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: البيت كله قبلية، وقبلية البيت الباب. وأخرج البيهقي في سننه عنه، مرفوعاً قال:

للتسلي لرسول الله ﷺ، وترويح خاطره، لأن هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية، ولا يرجعون إلى الحق، وإن جاءهم بكل برهان فضلاً عن برهان واحد، وذلك أنهم لم يتركوا اتباع الحق ليليل عندهم، أو لشبهة طرات عليهم، حتى يوازنوا بين ما عندهم، وما جاء به الرسول الله ﷺ، ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق، بل كان تركهم للحق تمرداً، وعناداً مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا، فهو لا ينتفع بالبرهان أبداً. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَتِهِمْ﴾ هذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه ﷺ أي: لا تتبع يا محمد قبلتهم، ويمكن أن يكون على ظاهره دفعا لأطماع أهل الكتاب، وقطعا لما يرجونه من رجوعه ﷺ إلى القبلية التي كان عليها. وقوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قَبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فيه إخبار بأن اليهود، والنصارى مع حرصهم على مبايعة الرسول ﷺ لما عندهم مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه الله سبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته. قال في الكشف: وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس. انتهى. وقوله: ﴿وَلَنْ تَلْبِثَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إلى آخر الآية، فيه من التهديد العظيم، والزجر البالغ ما تقشعر له الجلود، وترجف منه الأفئدة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء، والملة الشريفة من رسول الله ﷺ الذي هو سيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون وحاشاه من الظالمين، فما ظنك بغيره من أمته، وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام، وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية، ووسيلة طاغوتية، وهي ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم، أو الجاه لبيهم إن كان لهم في الناس نولة، أو كانوا من نوي الصولة، وهذا الميل ليس ببنون تلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والتمرة التمرة، وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين، ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويفقهونه من شناعة إلى شناعة، حتى يسلكوه من الدين، ويخرجوه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي هو عليه هو الصراط المستقيم، هذا إن كان في عداد المقصرين، ومن جملة الجاهلين، وإن كان من أهل العلم، والفهم المميزين بين الحق، والباطل كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم، وختم على قلبه، وصار نقمة على عباد الله، ومصيبة صلبها الله على المقصرين، لأنهم يعتقدون أنه في علمه، وفهمه لا يميل إلا إلى حق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله، فيكون

وحكى الطبري أن قوماً قرؤوا: «ولكل وجهة» بالإضافة، ونسب هذه القراءة أبو عمرو الداني إلى ابن عباس. قال في الكشف: والمعنى: وكل وجهة الله موليها، فزيت اللام لتقدم المفعول كقولك لزيد ضربت، ولزيد أبوه ضاربه. انتهى. وقرأ ابن عباس، وابن عامر: «مولاها» على ما لم يسم فاعله، قال الزجاج: والضمير على هذه القراءة لواحد، أي: ولكل واحد من الناس قبله الواحد مولاها، أي: مصروف إليها. وقوله: «فاستبقوا الخيرات» أي: إلى الخيرات على الحذف، والإيصال، أي: بادروا إلى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيد السياق، وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصق عليه أنه خير كما يفيد العموم المستفاد من تعريف الخيرات، والمراد من الاستباق إلى الاستقبال: الاستباق إلى الصلاة في أول وقتها. ومعنى قوله: «إينما تكونوا يات بكم الله» أي: في أي جهة من الجهات المختلفة تكونوا يات بكم الله للجزاء يوم القيامة، أو يجمعكم جميعاً، ويجعل صلاتكم في الجهات المختلفة كأنها إلى جهة واحدة، وقوله: «ومن حيث خرجت» كَرَّرَ سبحانه هذا لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة، ولإتمام به، لأن موقع التحويل كان معنئ به في نفوسهم، وقيل: وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة، ومواطن الشبهة، فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا، وانفع ما يختلج في صدورهم، وقيل إنه كَرَّرَ هذا الحكم لتعدد علله، فإنه سبحانه نكر للتحويل ثلاث علل: الأولى ابتغاء مرضاته، والثانية جري العادة الإلهية أن يولى كل أهل ملة، وصاحب دعوة جهة يستقل بها، والثالثة دفع حجج المخالفين، فقرن بكل علة معلولها، وقيل: أراد بالاول: ول وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاها، ثم قال: وحيثما كنتم معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة، وغيرها، فولوا وجوهكم شطره، ثم قال: «ومن حيث خرجت» يعني وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمر بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواطن من نواحي الأرض. وقوله: «لئلا يكون للناس عليكم حجة» قيل معناه: لئلا يكون لليهود عليكم حجة إلا للمعانين منهم القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه فعلى هذا المراد بالذين ظلموا: المعانين من أهل الكتاب، وقيل: هم مشركو العرب، وحجتهم قولهم: راجعت قبلتنا، وقيل معناه: لئلا يكون للناس عليكم حجة لئلا يقولوا لكم قد أمرتم باستقبال الكعبة، ولستم ترونها، وقال أبو عبيدة: إن إلا هنا بمعنى الواو، أي: والذين ظلموا، فهو استثناء بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

ما بالمدينة دار غير واحدة دار الخليفة إلا دار مروانا
كانه قال: إلا دار الخليفة ودار مروان، وأبطل الزجاج هذا القول، وقال: إنه استثناء منقطع أي: لكن الذين ظلموا منهم، فإنهم يحتجون، ومعناه إلا من ظلم باحتجاجه، فيما قد وضع له كما تقول مالك علي حجة إلا أن تظلمني أي: مالك علي حجة البتة، ولكنك تظلمني، وسمي ظلمه حجة: لأن

البيت قبله لأهل المسجد، والمسجد قبله لأهل الحرم، والحرم قبله لأهل الأرض في مشارقها، ومغاربها من أمتي، وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: «وإن للذين أوتوا الكتاب» قال: أنزل ذلك في اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «ليعلمون أنه للحق» قال: يعني بذلك القبلة. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير عن أبي العالية نحوه. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: «وما بعضهم بتابع قبله بعض» يقول: ما اليهود بتابعي قبله النصراني، ولا النصراني بتابعي قبله اليهود. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: «الذين آتيناهم الكتاب» قال: اليهود والنصارى: «يعرفونه» قال: يعرفون رسول الله في كتابهم: «كما يعرفون أبناءهم». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عنه في قوله: «يعرفونه» أي: يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة. وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» قال: يكتمون محمداً، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل. وأخرج أبو داود، في ناسخه، وابن جرير، عن أبي العالية قال: قال الله لنبيه ﷺ: «الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» يقول: لا تكونن في شك يا محمد أن الكعبة هي قبلتك، وكانت قبله الأنبياء من قبلك.

وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْبِدٌّ فَاسْتَبَقُوا الْيَوْمَ أَنْ تَخْلُفَ أَيْدِيكُمْ أَنَّ اللَّهَ جَبِيماً إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٠﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْعَلَمِ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ نَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْزَنُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَأْتِي عَذَابُكُمْ وَلَكُمْ تَهْنُوتٌ ﴿١٦٢﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٣﴾ فَادْكُرُوا أَذْذَكُمْ وَأَتَعَكَّرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴿١٦٤﴾

قوله: «ولكل» بحذف المضاف إليه دلالة التنوين عليه أي: لكل أهل دين وجهة، والوجهة فعلة من المواجهة، وفي معناها الجهة، والوجه، والمراد القبلة، أي: أنهم لا يتبعون قبلك، وأنت لا تتبع قبيلتهم «ولكل وجهة» إما بحق، وإما بباطل، والضمير في قوله: «هو موليها» راجع إلى لفظ كل. والهاء في قوله: «موليها» هي: المفعول الأول، والمفعول الثاني محذوف أي: موليها وجهه، والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبله صاحب القبلة موليها وجهه، أو لكل منكم يا أمة محمد قبله يصلي إليها من شرق، أو غرب، أو جنوب، أو شمال إذا كان الخطاب للمسلمين، ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه، وإن لم يجر له نكر، إذ هو معلوم أن الله فاعل ذلك، والمعنى: أن لكل صاحب ملة قبله الله موليها إياه.

المحتج بها سماه حجة، وإن كانت داحضة. وقال قطرب: يجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا، فالذين بدل من الكاف، والميم في عليكم. ورجح ابن جرير الطبري أن الاستثناء متصل، وقال: نفى الله أن يكون لأحد حجة على النبي ﷺ، وأصحابه في استقبالهم الكعبة، والمعنى: لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا ما ولاهم، وقالوا: إن محمداً تحير في دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا أهدى منه. وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن، أو من يهودي، أو منافق. قال: والحجة بمعنى المحاجة التي هي المخاصمة، والمجادلة، وسماها تعالى حجة، وحكم بفسادها حيث كانت من ظالم. ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع، كما قال الزجاج. قال القرطبي: وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب كانه قال: لكن الذين ظلموا في قولهم رجع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا كله. وقوله: ﴿فلا تخشوهم﴾ يريد الناس أي: لا تخافوا مطاعنهم، فإنها داحضة باطلة لا تضركم. وقوله: ﴿وَلَا تَمْنَعُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على: ﴿لئلا يكون﴾ أي: لأن أتم قاله الأخفش، وقيل: هو مقطوع عما قبله في موضع رفع بالابتداء، والخبر مضمَر، والتقدير: ولأتَم نِعْمَتِي عليكم عَزَمْتُكُمْ قَبْلَتِي قاله الزجاج، وقيل: معطوف على علة مقدره كأنه قيل: واخشوني لأوفقكم، ولأتَم نِعْمَتِي عليكم. وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة، وقيل: دخول الجنة. وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ الكاف في موضع نصب على التعت لمصدر محذوف. والمعنى: ولأتَم نِعْمَتِي عليكم إتماماً مثل ما أَرْسَلْنَا قاله الفراء، ورجحه ابن عطية. وقيل: الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى: ولأتَم نِعْمَتِي عليكم في هذه الحال، والتشبيه واقع على أن النعمة في القبلة كالنعمة في الرسالة. وقيل: معنى الكلام على التقدير والتأخير، أي: فأنكروني كما أَرْسَلْنَا قاله الزجاج. وقوله: ﴿فَأَنكُرُونِي أَنكُرَكُمْ﴾ أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة. قال سعيد بن جبیر: ومعنى: الآية أنكروني بالطاعة أنكركم بالثواب، والمغفرة حكاها عنه القرطبي في تفسيره، وأخرجه عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وقد روي نحوه مرفوعاً كما سيأتي. وقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ قال الفراء: شكر لك وشكرت لك. والشكر: معرفة الإحسان، والتحدث به، وأصله في اللغة: الطهور. وقد تقدّم الكلام فيه. وقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ نهي، ولذلك حذف نون الجماعة، وهذه الموجودة في الفعل هي: نون المتكلم، وحذفت الياء؛ لأنها رأس آية، وإثباتها حسن في غير القرآن. والكفر هنا: ستر النعمة لا التكذيب، وقد تقدّم الكلام فيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْمِعُوا بِلَاغِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ آمَنَّا بِالْآيَةِ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَتَبْلُوَكُمْ فِي فِتْنَةٍ وَالْجُوعِ وَنَفْسٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرُّتِ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَاتٌ مُبِينَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿١٥٨﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٩﴾

لما فرغ سبحانه من إرشاد عباده إلى نكره، وشكره، عقب ذلك بإرشادهم إلى الاستعانة بالصبر، والصلاة، فإن

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ قال: يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في تفسير هذه الآية: صلوا نحو بيت المقدس مرة، ونحو الكعبة مرة أخرى. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن

عبد الرحمن بن عوف قال: غشي على عبد الرحمن بن عوف في وجهه غشية ظنوا أنه قد فاضت نفسه فيها، حتى قاموا من عنده، وجللوه ثوباً، وخرجت أم كلثوم بنت عقبة امرأته إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر، والصلاة، فلبثوا ساعة، وهو في غشيته، ثم أفاق. وأخرج ابن منده في المعرفة، عن ابن عباس قال: قتل تميم بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله في قتال المشركين. وقد وردت أحاديث أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تاكل من ثمار الجنة. فمنها: عن كعب بن مالك مرفوعاً عند أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه. وروي أن أرواح الشهداء تكون على صور طيور بيض، كما أخرجه عبد الرزاق، عن قتادة قال: بلغنا، فنذكر ذلك. وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً بنحوه، وروى أنها على صور طيور خضر، كما أخرجه ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي العلية. وأخرجه ابن أبي شيبة في البعث، والنشور عن كعب. وأخرجه هناد بن السري عن هذيل. وأخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف عن عبد الله بن كعب بن مالك مرفوعاً، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عطاء في قوله: ﴿وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ﴾ الآية، قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر، وبشرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ وأخبر: أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتخفيف سبيل الهدى. وقال رسول الله ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتته، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن رجاء بن حيوة في قوله: ﴿وَنُقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا تمر. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «أعطيت أمتي شيئاً لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة: إنا لله، وإنا إليه راجعون» وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة.

﴿إِنَّ أَصْفَا وَآثَرَةَ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ اللَّهَ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ أَتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُورَ بِهِمَا وَنَ تَلَقَّى حَبْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكَ عَلَيْهِ ﷺ﴾

(اصل) «الصفاء» في اللغة: الحجر الاملس، وهو هنا علم لجبل من جبال مكة معروف، وكذلك «المروة» علم لجبل بمكة معروف، وأصلها في اللغة: واحدة المروى، وهي الحجارة التي فيها لين. وقيل: التي فيها صلابة، وقيل: تعم

من جمع بين ذكر الله، وشكره، واستعان بالصبر، والصلاة على تلبية ما أمر الله به، وبلغ ما يرد عليه من المحن، فقد هدى إلى الصواب، ووفق إلى الخير، وإن هذه المعية التي أوضحها الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال. وأموات، وأحياء مرتفعان على أنهما خبران لمحذوفين، أي: لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات بل هم أحياء، ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم، لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليهم علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر، وليسوا كذلك في الواقع بل هم أحياء في البرزخ. وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة وبلت عليه الآيات القرآنية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: 169]. والبلاء أصله المحنة، ومعنى نبلوكم: نمتحنكم لختبركم هل تصبرون على القضاء أم لا؟ وتذكير شيء للتحليل أي: بشيء قليل من هذه الأمور. وقرأ الضحاك بأشياء. والمراد بالخوف: ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو، أو غيره. وبالجوع: المجاعة التي تحصل عند الجنب، واللقط. وينقص الأموال: ما يحدث فيها بسبب الجوائح، وما أوجب الله فيها من الزكاة، ونحوها. وينقص الأنفس: الموت، والقتل في الجهاد. وينقص الثمرات: ما يصيبها من الآفات، وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها، وقيل: المراد بنقص الثمرات: موت الأولاد. وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أمر لرسول الله ﷺ، أو لكل من يقدر على التبشير. وقد تقدم معنى البشارة. والصبر أصله الحبس، ووصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة؛ لأن ذلك تسليم ورضا. والمصيبة واحدة المصائب، وهي: النكبة التي يتأذى بها الإنسان، وإن صغرت. وقوله: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون﴾ فيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين، وعصمة للمتقين، فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله، والاعتراف بالبعث، والنشور. ومعنى الصلوات هنا: المغفرة، والثناء الحسن قاله الزجاج. وعلى هذا، فنذكر الرحمة لقصد التأكيد. وقال في الكشف: الصلاة الرحمة، والتعطف، فوضعت موضع الرقة، وجمع بينها، وبين الرحمة كقوله: رقة ورحمة ﴿رؤوف رحيم﴾ والمعنى: عليهم رقة بعد رقة، ورحمة بعد رحمة. انتهى. وقيل المراد بالرحمة: كشف الكربة، وقضاء الحاجة. و«المهتدون» قد تقدم معناه، وإنما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع، والتسليم.

وأخرج الحاكم، والبيهقي في الدلائل، عن إبراهيم بن

الجميع. قال أبو نؤيب:

حتى كائني للحوائث مروة بصفا المشقر كل يوم تقرر
وقيل: إنها الحجارة البيض البراقة: وقيل: إنها الحجارة
السود. والشعائر جمع شعيرة، وهي: العلامة، أي: من أعلام
مناسكه. والمراد بها مواضع العبادة التي أشعرها الله إعلاماً
للناس من الموقف، والسعي، والمنحر، ومنه إشعار الهدى،
أي: إعلامه بغرز حديد في سنامه، ومنه قول الكميت:
نقتلهم جيلاً فجيلاً تراهم شعائر قربان بهم يتقرب
وحج البيت في اللغة: قصده، ومنه قول الشاعر:

وأشهد من عوف حثولاً كثيرة يحجون سب لزيرقان المزعفرا
والسب: للعمامة: وفي الشرع: الإتيان بمناسك الحج التي
شرعها الله سبحانه. والعمرة في اللغة: الزيارة. وفي الشرع:
الإتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة. والجناح أصله
من الجنوح، وهو: الميل، ومنه الجوانح لاعوجاجها. وقوله:
«يطوف» أصله يطوف، فادغم. وقرأ: «أن يطوف»، ورفع
الجناح يدل على عدم الوجوب، وبه قال أبو حنيفة،
وأصحابه، والثوري. وحكى الزمخشري في الكشف عن أبي
حنيفة، أنه يقول: إنه واجب، وليس بركن، وعلى تاركة دم.
وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس، وابن الزبير،
وأنس بن مالك، وابن سيرين. ومما يقوّي دلالة هذه الآية
على عدم الوجوب قوله تعالى في آخر الآية: «ومن تطوع
خيراً فإن الله شاكر عليم» وذهب الجمهور إلى أن السعي
واجب، ونسك من جملة المناسك، واستدلوا بما أخرجه
الشيخان، وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها: رأيت قول
الله: «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت
أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» فما أرى على
أحد جناحاً أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بش ما قلت يا
ابن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها كانت، فلا جناح عليه
أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الانصرار قبل أن
يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها، وكان
من أهل لها يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية،
فأنزل الله: «إن الصفا والمروة من شعائر الله» الآية،
قالت عائشة: ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس
لأحد أن يدع الطواف بهما. وأخرج مسلم، وغيره عنها أنها
قالت: لعمرى ما أتمّ الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة،
ولا عمرته؛ لأن الله قال: «إن الصفا والمروة من شعائر
الله». وأخرج الطبراني، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله
ﷺ، فقال: «إن الله كتب عليكم السعي، فاسعوا» وأخرج
أحمد في مسنده، والشافعي، وابن سعد، وابن المنذر، وابن
قانع، والبيهقي عن حبيبة بنت أبي تجرأة قالت: «رأيت
رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين
يديه، وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي
يدور به إزاره، وهو يقول: اسعوا، فإن الله عز وجل كتب
عليكم السعي» وهو في مسند أحمد، من طريق شيخه
عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت

شبية عنها، ورواه من طريق أخرى عن عبد الرزاق، أخبرنا
معمر، عن أصل مولى أبي عبيدة عن موسى بن عبيدة، عن
صفية بنت شبية أن امرأة أخبرتها، فنكرته. ويؤيد ذلك
حديث: «خنوا عني مناسككم» اهـ.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَاكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُنْكَرِ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّكَ لِلنَّاسِ فِي
الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ۝١٠١
وَيَبَيِّنُوا قَوْلَكَ أَوْثُبْ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٠٢ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَمَا نَالُوا مِنْ كُنْزِ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٠٣
حَكِيمِينَ فِيهَا لَا يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ مَخْرُوجًا ۝١٠٤ وَلِلَّهِ الْإِسْلَامُ وَحَدُّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝١٠٥

قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ» إلى آخر الآية، فيه الإخبار
بأن الذي يكتم تلك ملعون، واختلفوا من المراد بذلك؟ فقيل:
أخبار اليهود، ورواه النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ،
وقيل: كل من كتم الحق، وترك بيان ما أوجب الله بيانه، وهو
الراجع؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما
تقرر في الأصول، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من
اليهود، والنصارى من الكتم، فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية
كل من كتم الحق. وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا
يقاقر قدره، فإن من لعنه الله، ولعنه كل من يتأتى منه اللعن
من عباده قد بلغ من الشقاوة، والخسران إلى الغاية التي لا
تلحق، ولا يدرك كنهها. وفي قوله: «مَنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى»
ليل على أنه يجوز كتم غير ذلك كما قال أبو هريرة:
«حفظت عن رسول الله ﷺ، وعامين: أما أحدهما، فبئثته،
وأما الآخر، فلو بئثته قطع هذا البلعوم» أخرجه البخاري.
والضمير في قوله: «مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّاهُ» راجع إلى ما أنزلنا.
والكتاب اسم جنس، وتعريفه يفيد شموله لجميع الكتب،
وقيل: المراد به التوراة. واللعن: الإبعاد والطرده. والمراد بقوله:
«لِلْعَالَمِينَ» الملائكة، والمؤمنون قاله: الزجاج وغيره،
ورجحه ابن عطية، وقيل: كل من يتأتى منه اللعن، فيدخل في
ذلك الجن؛ وقيل: هم الحشرات والبهايم. وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ
تَابُوا» الخ، فيه استثناء التائبين، والمصلحين لما فسد من
أعمالهم، والمبينين للناس ما بينه الله في كتبه، وعلى السن
رسله. قوله: «وَمَا نَالُوا مِنْ كُنْزِ أُولَئِكَ» هذه الجملة حالية، وقد
استدل بذلك على أنه لا يجوز لعن كافر معين؛ لأن حاله عند
الوفاة لا يعلم، ولا ينافي ذلك ما ثبت عنه ﷺ من لعنه لقوم
من الكفار بأعيانهم؛ لأنه يعلم بالوحي ما لا تعلم، وقيل:
يجوز لعنه عملاً بظاهر الحال كما يجوز قتاله. قوله: «أُولَئِكَ
عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ» الخ، استدلال به على جواز لعن الكفار على
العموم. قال القرطبي: ولا خلاف في ذلك. قال: وليس لعن
الكافر بطريق الزجر له عن الكفر، بل هو جزاء على الكفر،
وإظهار قبح كفره سواء كان الكافر عاقلاً، أو مجنوناً. وقال
قوم من السلف: لا فائدة في لعن من جنّ، أو مات منهم لا
بطريق الجزاء، ولا بطريق الزجر. قال: ويدل على هذا القول
أن الآية دالة على الإخبار عن الله، والملائكة، والناس بلعنهم

عن أبي العالية في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: خالدين في جهنم في اللعنة. وقال في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يقول: لا ينظرون، فيعتذرون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال: لا يؤخرون. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي وصححه، وابن ماجه، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وَاللَّهُمَّ إِلَهَ الْإِلَهِاتِ الْغَيْبِ الْقَيُّومِ» [آل عمران: 1 - 2]. وأخرج الديلمي، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «ليس شيء أشد على مرده الجن من هؤلاء الآيات التي في سورة البقرة: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ﴾ والآيتين».

إِنَّ فِي حَقِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِذَتِ أَيْدِيَهُمَا أَلْوَاحٌ وَأَنَّ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ إِلَهُ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥٦﴾

لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: 163] عقب ذلك بالليل الدال عليه، وهو هذه الأمور التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهاى من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار أن يأتي بشيء منها، أو يقتدر عليه، أو على بعضه، وهي خلق السموات، وخلق الأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجرى الفلك في البحر، وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به، وبثّ الدواب منها بسببه، وتصريف الرياح، فإن من أمعن نظره، وأعمل فكره في واحد منها انبهر له، وضاق ذهنه عن تصوّر حقيقته. وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه، وإنما جمع السموات؛ لأنها أجناس مختلفة، كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووجد الأرض؛ لأنها كلها من جنس واحد، وهو التراب. والمراد باختلاف الليل، والنهار تعاقبهما بإقبال أحدهما، وإدبار الآخر، وإضاءة أحدهما، وإظلام الآخر. والنهار: ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وقال النضر بن شميل: أول النهار طلوع الشمس، ولا يعدّ ما قبل ذلك من النهار. وكذا قال ثعلب، واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت:

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد
وكذا قال الزجاج. وقسم ابن الأنباري الزمان إلى ثلاثة أقسام: قسماً جعله ليلاً محضاً، وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقسماً جعله نهاراً محضاً، وهو من طلوع الشمس إلى غروبها. وقسماً جعله مشتركاً بين النهار والليل، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل، ومبادئ ضوء النهار. هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة. وأما في الشرع، فالكلام في ذلك معروف. والفلك: السفن، وإفرادها، وجمعه بلفظ واحد، وهو هذا، ويذكر، ويؤنث. قال الله تعالى: ﴿فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: 119] ﴿وَالْفَلَكَ

لا على الأمر به. قال ابن العربي: إن لعن العاصي المعين لا يجوز باتفاق، لما روي: «أن النبي ﷺ أتى بشارب خمر مراراً، فقال بعض من حضر: لعنه الله ما أكثر ما يشربه، فقال النبي ﷺ: لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك» والحديث في الصحيحين. وقوله: ﴿وَالنَّاسُ لَجَمْعِينَ﴾ قيل: هذا يوم القيامة، وأما في الدنيا ففي الناس المسلم، والكافر، ومن يعلم بالعاصي، ومعصيته ومن لا يعلم، فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس، وقيل في الدنيا، والمراد أنه يلعنه غالب الناس، أو كل من علم بمعصيته منهم. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار، وقيل: في اللعنة. والإنظار: الإمهال، وقيل: معنى لا ينظرون: لا ينظر الله إليهم، فهو من النظر، وقيل: هو من الانتظار أي: لا ينتظرون ليعتذروا، وقد تقدّم تفسير: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. وقوله: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ﴾ فيه الإرشاد إلى التوحيد، وقطع علائق الشرك، والإشارة إلى أن أول ما يجب بيانه، ويحرم كتمانها هو أمر التوحيد.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل أخو بني سلمة، وسعد بن معاذ أخو بني الأشهل، وخارجة بن زيد أخو بني الحارث بن الخزرج نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة، فكتمهم إياه، وأبوا أن يخبروهم، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَاكَ الْآيَةَ﴾ وقد روي عن جماعة من السلف أن الآية نزلت في أهل الكتاب لكتهم نبوة نبينا ﷺ. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة مع النبي ﷺ. فقال: إن الكافر يضرب ضربة بين عيني، فتسمعه كل دابة غير الثقلين، فتلعه كل دابة سمعت صوته، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ يعني دواب الأرض. وأخرج عبد بن حميد، عن عطاء قال: الجن، والإنس، وكل دابة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن مجاهد قال: إذا أجبت البهائم دعت على فجار بني آدم. وأخرج عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان قال في تفسير الآية: إن دواب الأرض، والعقارب، والخنافس يقولون: إنما منعنا القطر بنزوبهم، فيلعنونه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي جعفر قال: يلعنهم كل شيء حتى الخنفساء. وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن كتم العلم، والوعيد لفاعله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ قال: أصلحوا ما بينهم، وبين الله. وبينوا الذي جاءهم من الله، ولم يكتموا، ولم يجهلوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أتجاوز عنهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: إن الكافر يوقف يوم القيامة، فيلعنه الله، ثم تلعه الملائكة، ثم يلعه الناس أجمعون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: يعني بالناس أجمعين المؤمنين. وأخرج ابن جرير،

في هذا يطول.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ قال: مباهاة، ومضاربة للحق بالانداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قال: من الكفار لأهبتهم. وأخرج ابن جرير، عن أبي زيد في هذه الآية قال: هؤلاء المشركون أندادهم ألهمتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من حبيبهم لأهبتهم. وأخرج ابن جرير، عن السدي في الآية قال: الانداد من الرجال يطيعونهم كما يطيعون الله إذا أمرهم أطاعوهم، وعصوا الله. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة نحو ما قال ابن زيد. وأخرج ابن جرير، عن الزبيري في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا أنفسهم، فاتخذوا من نوني أنداداً يحبونهم كحبكم إياي حين يعاينون عذابي يوم القيامة الذي أعدت لهم، لعلمتم أن القوة كلها لي نون الأنداد، والأكلية لا تخني عنهم هنالك شيئاً، ولا تنفع عنهم عذاباً أحلت بهم، وأيقنتهم أنني شديد عذابي لمن كفر بي، وأدعى معي إلهاً غيري. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ قال: هم الجبابرة، والقادة، والرؤوس في الشرك. ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ قال: هم: الشياطين تبرؤوا من الإنس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَقَطَّعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ قال: المودة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي: المنازل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه قال: هي: الأرحام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم في الحلية، عن مجاهد قال: هي الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا، والمودة. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي صالح قال: هي الأعمال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الربيع قال: هي المنازل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَوْ أَن لَّنَا كَرْهٌ إِلَى الدُّنْيَا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿حَسْرَاتٍ﴾ قال: صارت أعمالهم الخبيثة حسرة عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ قال: أولئك أهلها الذين هم أهلها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ثابت بن معبد قال: ما زال أهل النار ياملون الخروج منها حتى نزلت ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُفُّوا رِئَاسَ فِي الْأَرْضِ ۚ هَلْ مِنْكُمْ شَيْءٌ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيَاطِينِ ۚ إِنَّهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٦﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ زَادَ قَالَ ثُمَّ أَلْبَسُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ ءَايَةً ؕ أَرَأَيْتُمْ لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٨﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّبْيِ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ۚ صُمٌّ

بالجيدة؛ لأنه يقدَّر: ولو يرى الذين ظلموا العذاب، فكأنه يجعله مشكوكاً فيه. وقد أوجب الله تعالى، ولكن للتقدير، وهو الأحسن: ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله، ويرى بمعنى يعلم. أي: لو يعلمون حقيقة قوة الله، وشدة عذابه. قال: وجواب لو محذوف، أي: لتبينوا ضرر اتخاذهم الأكلية، كما حذف في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 30] ومن قرأ بالفوقية، فالتقدير: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب، وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعاً. وقد كان النبي ﷺ علم ذلك، ولكن خوطب بهذا الخطاب، والمراد به أمته، وقيل: ﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب مفعول لأجله، أي: لأن القوة لله، كما قال الشاعر:

وَأَغْفِرْ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ أَنْفَارَهُ وَأَعْرِضْ عَنْ شَتَمِ اللَّثِيمِ تَكْرِمًا
أي: لا تخاره؛ والمعنى: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب؛ لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال؛ ودخلت (إذ) وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريباً للأمر، وتصحيحاً لوقوعه. وقرأ ابن عامر: ﴿إِذْ يَرُونَ﴾ بضم الياء، والباقون بفتحها. وقرأ الحسن، ويعقوب، وأبو جعفر: ﴿إِنَّ الْقُوَّةَ﴾، وإن الله بكسر الهمزة فيهما على الاستثناف، وعلى تقدير القول. قوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ يَرُونَ العذاب﴾ ومعناه: أن السادة، والرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر. وقوله: ﴿وَرَأَوْا العذاب﴾ في محل نصب على الحال: يعني التابعين، والمتبوعين، قيل: عند المعاينة في الدنيا، وقيل: عند العرض، والمساءلة في الآخرة. ويمكن أن يقال فيهما جميعاً إذ لا مانع من ذلك. قوله: ﴿وَتَقَطَّعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ هي: جمع سبب، وأصله في اللغة: الحبل الذي يشد به الشيء، ويجذب به، ثم جعل كل ما جَرَّ شيئاً سبباً، والمراد بها: الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحم، وغيره، وقيل: هي الأعمال. والكثرة: الرجعة، والعودة إلى حال قد كانت، ولو هنا في معنى التمني كأنه قيل: ليت لنا كربة، ولهذا وقعت الغاء في الجواب. والمعنى: أن الاتباع قالوا: لو رددنا إلى الدنيا حتى تعمل صالحاً، ونتبرأ منهم كما تبرؤوا منا. والكاف في قوله: ﴿كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا﴾ في محل نصب على النعت لمصدر محذوف، وقيل: في محل نصب على الحال، ولا أراه صحيحاً. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ﴾ في موضع رفع. أي: الأمر كذلك، أي: كما أراه الله العذاب يريهم أعمالهم، وهذه الرؤية إن كانت البصرية فقوله: ﴿حَسْرَاتٍ﴾ منتصب على الحال، وإن كانت القلبية، فهو المفعول الثالث، والمعنى: أن أعمالهم الفاسدة يريهم الله إياها، فتكون عليهم حسرات، أو يريهم الأعمال الصالحة التي أوجبها عليهم، فتركوها، فيكون ذلك حسرة عليهم. وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فيه دليل على خلود الكفار في النار، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص، وجعله الزمخشري للتقوية لغرض له يرجع إلى المذهب، والبحث

بِكُمْ عُنِيَ قَوْلُهُ لَا يَتَوَلَّوْنَ ﴿١٧٦﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قيل: إنها نزلت في ثقيف، وخزاعة، وبني ملج فيما حرموه على أنفسهم من الأنعام. حكاية القرطبي في تفسيره، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقوله: ﴿حَلَالًا﴾ مفعول، أو حال، وسمي الحلال حلالاً لانهلال عقدة الحظر عنه. والطيب هنا هو المستلذ كما قاله الشافعي، وغيره. وقال مالك، وغيره: هو الحلال، فيكون تأكيداً لقوله: ﴿حَلَالًا﴾. ومن في قوله: ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ للتبعض للقطع بأن في الأرض ما هو حرام ﴿وخطوات﴾ جمع خطوة بالفتح، والضم، وهي: بالفتح للمرة، وبالضم لما بين القدمين. وقرأ القراء خطوات بفتح الخاء، وقرأ أبو سمالك بفتح الخاء، والطاء، وقرأ علي، وقتادة، والأعرج، وعمرو بن ميمون، والأعمش: «خطوات» بضم الخاء، والطاء، والهمز على الواو. قال الأخفش: وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطية من الخطأ لا من الخطو. قال الجوهري: والخطوة بالفتح: المرة الواحدة، والجمع خطوات، وخطا. انتهى. والمعنى على قراءة الجمهور: لا تقفوا أثر الشيطان، وعمله، وكل ما لم يرد به الشرع، فهو منسوب إلى الشيطان، وقيل: هي الذنور، والمعاصي، والأول التعميم، وعدم التخصيص بفرد، أو نوع. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: 15] وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 26] وقوله: ﴿بِالسُّوءِ﴾ سمي السوء سوءاً؛ لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته، وهو مصدر ساءه يسوؤه سوءاً، ومساءة إذا أضرته. ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ أصله سوء المنظر، ومنه قول الشاعر:

وجيد كجيد الرثم ليس بفالحش

ثم استعمل فيما يقبح من المعاني، وقيل السوء: والقبيح، والفحشاء: التجاوز للحد في القبح، وقيل السوء: ما لا حد فيه، والفحشاء: ما فيه الحد، وقيل الفحشاء: الزنا، وقيل: إن كل ما نهت عنه الشريعة، فهو من الفحشاء. وقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن جرير الطبري: يريد ما حرموه من البحيرة، والسائبة، ونحوهما مما جعلوه شرعاً، وقيل: هو قولهم هذا حلال، وهذا حرام بغير علم. والظاهر أنه يصبق على كل ما قيل في الشرع بغير علم. وفي هذه الآية دليل على أن كل ما لم يرد فيه نص، أو ظاهر من الأعيان الموجودة في الأرض، فاصله الحل حتى يرد دليل يقتضي تحريمه، وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 29] والضمير في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ راجع إلى الناس؛ لأن الكفار منهم، وهم المقصودون هنا، وقيل: كفار العرب خاصة، و﴿الْفِينَا﴾ معناها: وجننا، والالف في قوله: ﴿أَوَّلُو﴾ كان أبأؤهم للاستفهام، وفتحت الواو؛ لأنها واو العطف. وفي هذه الآية من الذم للمقلدين، والدناء بجهلهم الفالحش، واعتقادهم الفاسد ما لا يقاير قدره، ومثل هذه الآية قوله

تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104] الآية، وفي ذلك دليل على قبح التقليد، والمنع منه، والبحث في ذلك يطول. وقد أقرته بمؤلف مستقل سميته [القول المفيد: في حكم التقليد] واستوفيت الكلام فيه في [أدب الطلب] ومنتهى الأرب. وقوله: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ فيه تشبيه واعظ الكافرين، وداعيهم، وهو: محمد ﷺ بالراعي الذي ينق بالغنم، أو الإبل، فلا يسمع إلا دعاء، ونداء، ولا يفهم ما يقول، هذا فسر الزجاج، والفراء، وسيبويه، وبه قال جماعة من السلف، قال سيبويه: لم يشبهوا بالناق، إنما شبهوا بالمنعوق به، والمعنى: مثلك يا محمد، ومثل الذين كفروا، كمثل الناق، والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، فحنن لدلالة المعنى عليه. وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم: يعني الأصنام، كمثل الراعي إذا نعى بغنمه، وهو لا يدري أين هي. وبه قال ابن جرير الطبري. وقال ابن زيد: المعنى: مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح في جوف الليل، فيجيبه الصدى، فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه. والنعي: زجر الغنم، والصياح بها، يقال نعى الراعي بغنمه ينعى نعيقاً، ونعاقاً، ونعاقناً أي: صاح بها وزجرها، والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل، ويقولون: أجهل من راعي ضأن. وقوله: ﴿صَمٌّ﴾ وما بعده أخبار لمبتدأ محذوف أي: هم صمٌ بكم عمي، وقد تقدم تفسير ذلك.

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: «تليت هذه الآية عند النبي ﷺ يعني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقف اللقمة الحرام في جوفه، فما يتقبل منه أربعين يوماً، وإيما عبد نبت لحمه من السحت، والربا، فالنار أولى به» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قال: عمله. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أنه قال: «ما خالف القرآن، فهو من خطوات الشيطان» وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أنه قال: خطاه. وأخرج أيضاً، عن عكرمة قال: هي نزغات الشيطان. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، قال: هي تزوين الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: كل معصية لله، فهي من خطوات الشيطان. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: ما كان من يمين، أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود أنه أتى بضرع، وملح، فجعل ياكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم: فقال: لا أريد، فقال:

يجعل «ماء» في «إنماء» موصولة منفصلة في الخط، والميتة وما بعدها خبر الموصول، وقراءة الجميع بالنصب. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع الميتة بتشديد الباء، وقد نكر أهل اللغة أنه يجوز في ميت التخفيف، والتشديد. والميتة ما فارقتها الروح من غير نكاة. وقد خصص هذا العموم بمثل حديث: «أحل لنا ميتتان وبمان» أخرجه أحمد، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم، وابن مريويه، عن ابن عمر مرفوعاً، ومثل حديث جابر في العنبر الثابت في الصحيحين مع قوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ [المائدة: 96] فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لا ميتة البحر. وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها، وميتها. وقال بعض أهل العلم: إنه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبيهه في البر، وتوقف ابن حبيب في خنزير الماء. وقال ابن القاسم: وأنا أتقيه، ولا أراه حراماً. قوله: ﴿والدم﴾ قد اتفق العلماء على أن الدم حرام، وفي الآية الأخرى: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ [الأنعام: 145] فيحمل المطلق على المقيد؛ لأن ما خلط باللحم غير محرم. قال القرطبي: بالإجماع. وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم، فتعلو الصفرة على البرمة من الدم، فيأكل ذلك النبي ﷺ، ولا ينكره. قوله: ﴿ولحم الخنزير﴾ ظاهر هذه الآية، والآية الأخرى أعني قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ [الأنعام: 145] أن المحرم إنما هو: اللحم فقط. وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبي في تفسيره وقد نكر جماعة من أهل العلم أن اللحم يبخل تحته الشحم. وحكى القرطبي الإجماع أيضاً على أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر، فإنه تجوز الخرازة به. قوله: ﴿وما أهل به لغير الله﴾ الإهلال: رفع الصوت، يقال أهل بكذا أي: رفع صوته. قال الشاعر يصف فلاة:

تهلّ بالفرد ركبائنها كما يهلّ الراكب المعتمر
وقال النابغة:

أوردة صدفية غواصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد
ومنه إهلال الصبي، واستهلاله: وهو: صياحه عند ولادته. والمراد هنا: ما نكر عليه اسم غير الله كاللات والعزى، إذا كان الذابح، وثنياً، والنار إذا كان الذابح مجوسياً. ولا خلاف في تحريم هذا، وأمثاله، ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من التبح على قبورهم، فإنه مما أهل به لغير الله، ولا فرق بينه، وبين الذبح للوثن. قوله: ﴿فمن اضطر﴾ قرئ بضم النون للاتباع، ويكسرهما على الأصل في التقاء الساكنين، وفيه إضمار. أي: فمن اضطر إلى شيء من هذه المحرمات. وقرأ ابن محيصن بإدغام الضاد في الطاء. وقرأ أبو السماك بكسر الطاء. والمراد من صيره الجوع، والعدم إلى الاضطرار إلى الميتة. قوله: ﴿غير باغ﴾ نصب على الحال. قيل المراد بالباغي: من يأكل فوق حاجته، والعادي: من يأكل هذه المحرمات، وهو يجد عنها منوحة، وقيل: غير باغ على

أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت على نفسي أن أكل ضرعاً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فأطعمهم، وكفر عن يمينك. وأخرج عبد بن حميد، عن عثمان بن غياث، قال: سألت جابر بن زيد، عن رجل نذر أن يجعل في أنفه حلقة من ذهب، فقال: هي من خطوات الشيطان، ولا يزال عاصياً لله، فليكفر عن يمينه. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن أنه جعل يمين من حلف أن يحجّ حبوا من خطوات الشيطان. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن أبي مجلز قال: هي: النذور في المعاصي. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿إنما يامركم بالسوء﴾ قال: المعصية ﴿والفحشاء﴾ قال: الزنا. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله، ونقمته، فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم، وخيراً منا، فأنزل الله في ذلك: ﴿وإذا قيل لهم لتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ وأخرج ابن جرير، عن الربيع، وقتادة في قوله: ﴿الفينا﴾ قالوا: وجدنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وممل للذين كفروا﴾ الآية، قال: كممل البقر، والحمار، والشاة إن قلت لبعضهم كلاماً لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير، أو نهيته عن شرٍّ، أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك. وروي نحو ذلك عن مجاهد أخرجه عبد بن حميد، وعن عكرمة، أخرجه وكيع. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم: اليهود الذين أنزل الله فيهم: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿فما أصبرهم على النار﴾ [البقرة: 174 - 175].

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن مَّحَلِّبَتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ هذا تأكيد للأمر الأول: أعني قوله: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ [البقرة: 168] وإنما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس، وقيل: والمراد بالأكل الانتفاع، وقيل: المراد به الأكل المعتاد، وهو الظاهر. قوله: ﴿واشكروا لله﴾ قد تقدم أنه يقال شكره، وشكر له يتعدى بنفسه، وبالحرف. وقوله: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: تخصونه بالعبادة كما يفيد تقدم المفعول. قوله: ﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿حرم﴾ على البناء للمفعول ﴿إنما﴾ كلمة موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب، وتنفي ما عداها. وقد حصرت ما هنا التحريم في الأمور المذكورة بعدها. قوله: ﴿للميتة﴾ قرأ ابن أبي عبيدة بالرفع، ووجه ذلك أنه

المسلمين، وعاد عليهم، فيدخل في الباغي، والعادي قطاع الطريق، والخارج على السلطان، وقاطع الرحم، ونحوهم، وقيل: المراد غير باغ على مضطر آخر، ولا عاد سد الجوعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: من الحلال. وأخرج ابن سعد، عن عمر بن عبد العزيز، أن المراد بما في الآية: طيب الكسب لا طيب الطعام، وأخرج ابن جرير، عن الضحاك: أنها حلال الرزق. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172] ثم نكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَهْلُ﴾ قال: نبيح. وأخرج ابن جرير، عنه قال: ﴿وَمَا أَهْلُ بِهِ﴾ للطواغيت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: ما نبيح لغير الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية. قال: ما نكر عليه اسم غير الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ يقول: من أكل شيئاً من هذه، وهو مضطر، فلا حرج، ومن أكله، وهو غير مضطر، فقد بغى، واعتدى. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ قال: في الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قال: في الأكل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: غير باغ على المسلمين، ولا معتد عليهم. فمن خرج يقطع الرحم، أو يقطع السبيل، أو يفسد في الأرض، أو مفارقاً للجماعة، والأئمة، أو خرج في معصية الله، فاضطر إلى الميتة لم تحل له. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، قال: العادي الذي يقطع الطريق، وقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ يعني في أكله ﴿إِنْ﴾ الله غفور رحيم ﴿لَمَنْ﴾ أكل من الحرام رحيم به إذ حلّ له الحرام في الاضطرار. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ غير باغ في أكله، ولا عاد يتعدى الحلال إلى الحرام، وهو يجد عنه بلفة، ومنذوحة.

﴿وَإِنْ لَآتَيْتُمْ يَكُفِّرُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَشَرَكُوا بِهِ فَمَا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا أَنْفَارًا وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُكْسِبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَكَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْوَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَیِّنٍ﴾

قوله: ﴿إِنْ لَآتَيْتُمْ يَكُفِّرُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ قيل: المراد بهذه الآية علماء اليهود؛ لأنهم كتبوا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد

وقد أخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿إِنْ لَآتَيْتُمْ يَكُفِّرُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ قال: نزلت في يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: كتبوا اسم محمد ﷺ، وأخذوا عليه طمعا قليلاً. وأخرج ابن جرير، أيضاً عن أبي العالية نحوه.

حَبَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا لغرض آخر، وهو مثل قوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطعام على حبه﴾ [الإنسان: 8] ومثله قول زهير:

إن الكريم على علاته هرم

وقدّم نوي القريبى لكون نفع المال إليهم صدقة، وصلة إذا كانوا فقراء، وهكذا اليتامى الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا بيتامى، لعدم قدرتهم على الكسب. والمسكين: السالك إلى ما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئاً. ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾: المسافر المنقطع، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له. وقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: في معاونة الأرقاء الذين كاتبهم المالكون لهم، وقيل: المراد شراء الرقاب، وإعتاقها، وقيل: المراد فك الأسارى، وقوله: ﴿وَوَلَّتِي الزُّكَاةَ﴾ فيه دليل على أن الإيتاء المتقدم هو صدقة التطوع، لا صدقة الفريضة. وقوله: ﴿وَالْمُؤَفَّقُونَ﴾ قيل: هو: معطوف على «من آمن»، كأنه قيل: ولكن البرّ المؤمنون، والموفون. قاله الفراء، والأخفش، وقيل: هو مرفوع على الابتداء، والخبر محذوف، وقيل: هو: خبر لمبتدأ محذوف. أي: هم الموفون، وقيل: إنه معطوف على الضمير في آمن، وإنكره أبو علي، وقال: ليس المعنى عليه. وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ منصوب على المدح كقوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 162] ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معركة والطيبين معاقدا الأزر
وقال الكسائي: هو: معطوف على نوي القريبى كأنه قال: وأتي الصابرين. وقال النحاس: إنه خطأ. قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله: ﴿وَالْمُؤَفَّقِينَ وَالصَّابِرِينَ﴾. قال النحاس: يكونان على هذه القراءة منسوقين على نوي القريبى، أو على المدح. وقرأ يعقوب، والأعمش: ﴿وَالْمُؤَفَّقُونَ وَالصَّابِرُونَ﴾ بالرفع فيهما. ﴿وَالْيَاسَاءَ﴾: الشدة، والفقر. ﴿وَالضَّرَاءَ﴾: المرض، والزمانة ﴿وَوَحِينَ اللَّيَاسِ﴾ قيل: المراد وقت الحرب، والياساء، والضراء اسمان بنيا على فعلاء، ولا فعل لهما؛ لأنهما اسمان، وليسا بنعت. وقوله: ﴿صَلُّوا﴾ وصفهم بالصلق، والتقوى في أمورهم، والوفاء بها، وأنهم كانوا جانيين، وقيل: المراد صدقوهم القتال، والأول أولى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وصححه عن أبي نر، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقلنا: ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم﴾ حتى فرغ منها، ثم سألها أيضاً، فتلاها، ثم سألها، فتلاها. قال: وإذا عملت بحسنة أحبها قلبك، وإذا عملت بسيئة أبغضها قلبك، وأخرج عبد بن حميد، وابن مروي، عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رجل إلى أبي نر فقال: ما الإيمان؟ فتلا عليه هذه الآية، ثم ذكر له نحو الحديث السابق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية قال: يقول ليس البرّ أن تصلوا، ولا تعملوا، هذا حين تحوّل من مكة إلى المدينة، وأنزلت الفرائض. وأخرج عنه ابن جرير، أنه قال: هذه الآية نزلت بالمدينة، يقول: ليس البرّ أن تصلوا، ولكن البرّ ما ثبت في

وأخرج الثعلبي، عن ابن عباس بسندين ضعيفين أنها نزلت في اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ قال: اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ قال: ما أجراهم على عمل النار، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ قال: ما عملهم بأعمال أهل النار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر في قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ قال: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن يقول ما أجراهم على النار. وأخرج ابن جرير، عن قتادة ونحوه. وأخرج ابن جرير أيضاً عن السدي في الآية قال: هذا على وجه الاستفهام يقول: ما الذي أصبرهم على النار؟ وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ قال: هم: اليهود والنصارى ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ قال: في عداوة بعيدة.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ يَكُنْ الشَّرِيفُ وَالْمُتَرَبِّ وَالْبَرُّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْكَتِبِ وَالْيَتِيمِ وَءَاتَى الْكَمَالَ عَلَى حَيْثُ دَوَّى الشَّرِيفُ وَالْيَتِيمُ وَالْمُسْكِينُ وَإِنَّ السَّبِيلَ وَالسَّابِقِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْرَكِ يَهْدِهِمْ إِذَا عَصُوا وَالْعَافِينَ فِي الْإِنْسَاءِ وَالْعَافِرِينَ الَّذِينَ ءُؤْتِيَهُمْ مَدَنُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

قوله: ﴿ليس البرّ﴾ قرأ حمزة، وحفص بالنصب على أنه خبر ليس، والاسم: ﴿أن تولوا﴾ وقرأ الباقون بالرفع على أنه الاسم قيل: إن هذه الآية نزلت للردّ على اليهود، والنصارى، لما أكثروا الكلام في شأن القبلة عند تحويل رسول الله ﷺ إلى الكعبة، وقيل: إن سبب نزولها أنه سأل رسول الله سائل، وسيأتي ذلك آخر البحث إن شاء الله. وقوله: ﴿قبل المشرق والمغرب﴾ قيل: أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى؛ لأنهم يستقبلون مطلع الشمس، وأشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود؛ لأنهم يستقبلون بيت المقدس، وهو: في جهة الغرب منهم إذ ذاك. وقوله: ﴿ولكن البرّ﴾ هو: اسم جامع للخير، وخبره محذوف تقديره: برّ من آمن. قاله الفراء، وقطرب، والزجاج، وقيل: إن التقدير: ولكن نوي البر من آمن، ووجه هذا التقدير: الفرار عن الإخبار باسم العين عن اسم المعنى، ويجوز أن يكون البرّ بمعنى البار، وهو يطلق المصدر على اسم الفاعل كثيراً، ومنه في التنزيل: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: 30] أي: غائراً، وهذا اختيار أبي عبيدة، والمراد بالكتاب هنا الجنس، أو القرآن، والضمير في قوله: ﴿على حبه﴾ راجع إلى المال، وقيل: راجع إلى الإيتاء المنلول عليه بقوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ وقيل: إنه راجع إلى الله سبحانه، أي: على حبّ الله، والمعنى على الأول: أنه أعطى المال، وهو يحبه، ويشح به، ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] والمعنى على الثاني: أنه يحب إيتاء المال، وتطيب به نفسه، والمعنى على الثالث: أنه أعطى من تضمنته الآية في

عاهدوا يعني فيما بينهم وبين الناس. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال: ﴿الباساء﴾ الفقر ﴿والضراء﴾ السقم ﴿ووحين الباس﴾ حين القتال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ قال: تكلموا بكلام الإيمان. فكانت حقيقة العمل صدقوا لله. قال: وكان الحسن يقول هذا كلام الإيمان، وحقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل، فلا شيء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ فِي الْأَشْهُارِ كُلِّ شَهْرٍ وَالصَّدَقَةُ الْمَأْتِيَّةُ وَالْحَجُّ مَلْفًا بِالْمَدِّ وَالْأَشْهُارُ بِالْأَلْفِ مَنْ عَنِيَ لَهُ مِنْ آيَةٍ شَيْءٌ فَلْيَصْغِرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاهُ إِلَيْنَا بِأَحْسَنِ ذَلِكَ نَخْفِيفُ مِنْ رِيكُمُ وَرَحْمَةً مِّنْ أَعْدَائِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَكُلُوا عَذَابُ آيَةٍ ۖ وَلَكُمْ فِي الصِّيَامِ حَيَوةٌ يَّأْكُلُونَ الْآيَاتِ لَمْ لَكُمْ تَشْكُرُونَ

قوله: ﴿كتب﴾ معناه فرض، وأثبت، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جز الذبول
وهذا إخبار من الله سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك، وقيل إن: ﴿كتب﴾ هنا إشارة إلى ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ. و﴿القصاص﴾ أصله قص الأثر، أي: اتباعه، ومنه القاص؛ لأنه يتتبع الآثار، وقص الشعر اتباع أثره، فكان القاتل يسلك طريقاً من القتل، يقص أثره فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿فارتدّا على آثارهما قصصاً﴾ [الكهف: 64] وقيل: إن القصاص مأخوذ من القص، وهو: القطع، يقال قصصت ما بينهما، أي: قطعت. وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن الحر لا يقتل بالعبد، وهم: الجمهور. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وابن أبي ليلى، وداود إلى أنه يقتل به. قال القرطبي: وروي ذلك عن علي، وابن مسعود، وبه قال سعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقاتادة، والحكم بن عتيبة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ [المائدة: 45] وأجاب الأولون عن هذا الاستدلال بأن قوله تعالى: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد﴾ مفسر لقوله تعالى: ﴿النفس بالنفس﴾ وقالوا أيضاً: إن قوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها﴾ يفيد أن ذلك حكاية عما شرعه الله لبني إسرائيل في التوراة. ومن جملة ما استدل به الآخرون قوله ﷺ: «المسلمون متكافؤون ماؤهم» ويجاب عنه بأنه مجمل، والآية مبينة، ولكنه يقال إن قوله تعالى: ﴿الحر بالحر، والعبد بالعبد﴾ إنما أفاد بمنطوقه أن الحر لا يقتل بالحر، والعبد يقتل بالعبد، وليس فيه ما يدل على أن الحر لا يقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه اللول به هنا، ومن لم يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا، والبحث في هذا محذور في علم الأصول. وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر، وهم:

القلب من طاعة الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: نكر لنا أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن البر، فأنزل الله: ﴿ليس البر﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة قال: كانت اليهود تصلي قبل المغرب، والنصارى قبل المشرق، فنزلت: ﴿ليس البر﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية مثله. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وأتى المال على حبه﴾ قال: يعطي، وهو صحيح شحيح يأمل العيش، ويخاف الفقر. وأخرج عنه مرفوعاً مثله، وأخرج البيهقي في الشعب عن المطلب: «أنه قيل: يا رسول ما أتى المال على حبه، فكلنا نحبه. قال رسول ﷺ: تؤتاه حين تؤتاه، ونفسك تحدثك بطول العمر، والفقر». وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وأتى المال على حبه﴾ يعني على حب المال. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿نوي القريب﴾ يعني قرابته. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة» أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبي. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود: «أنها سألت رسول الله ﷺ هل تجزي عنها من الصدقة النفقة على زوجها، وأيتام في حجرها؟ فقال: لك أجران: أجر الصدقة، وأجر القرابة» وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح». وأخرج أحمد، والدارمي والطبراني من حديث حكيم بن حزام عن النبي ﷺ نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: هو الذي يمر بك، وهو مسافر، وأخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿والسائلين﴾ قال: السائل الذي يسالك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾ قال: يعني فك الرقاب. وأخرج أيضاً عنه في قوله: ﴿واقام الصلاة﴾ يعني وأتم الصلاة المكتوبة. ﴿وأتى الزكاة﴾ يعني الزكاة المفروضة وأخرج الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، والدارقطني، وابن مردويه عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله ﷺ: «في المال حق سوى الزكاة، ثم قرأ: ﴿ليس البر﴾ أن تولوا وجوهكم﴾ الآية». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿والموفون بعهدهم﴾ قال: فمن أعطى عهد الله، ثم نقضه، فالله ينتقم منه، ومن أعطى نمة النبي ﷺ، ثم غدر بها، فالنبي ﷺ خصمه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا

ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة. وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى. قوله: ﴿ولكم في القصص حياة﴾ أي: لكم في هذا الحكم الذي شرعه الله لكم حياة؛ لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كف عن القتل، وانزجر عن التسرع إليه، والوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفس الإنسانية. وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصص الذي هو موت حياة باعتبار ما يؤول إليه من ارتداد الناس عن قتل بعضهم بعضاً، إبقاء على أنفسهم، واستدامة لحياتهم، وجعل هذا الخطاب موجهاً إلى أولي الألباب؛ لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب، ويتحامون ما فيه الضرر الآجل، وأما من كان مصاباً بالحق، والطيش، والخفة، فإنه لا ينظر عند سورة غضبه، وغليان مراحل طيشه إلى عاقبة، ولا يفكر في أمر مستقبل، كما قال بعض فتاكهم:

ساغسل عني العار بالسيف جالباً علي قضاء الله ما كان جالباً
ثم علل سبحانه هذا الحكم الذي شرعه لعباده بقوله:
﴿لعلكم تتقون﴾ أي: تتحامون القتل بالمحافظة على
القصص، فيكون ذلك سبباً للتقوى، وقرأ أبو الجوزاء:
﴿ولكم في القصص حياة﴾ قيل: أراد بالقصص القرآن: أي
لكم في كتاب الله الذي شرع فيه القصص حياة، أي: نجاة،
وقيل: أراد حياة القلوب، وقيل: هو مصدر بمعنى القصص،
والكل ضعيف، والقراءة به منكراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: إن
حيين من العرب أقتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل،
فكان بينهم قتل، وجراحات حتى قتلوا العبيد، والنساء، ولم
ياخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين
يتناول على الآخر في العدة، والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا
حتى يقتل بالعبد منا الحرّ منهم، وبالمراة منا الرجل منهم،
فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن
الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كانوا لا
يقتلون الرجل بالمراة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمراة
بالمراة، فأنزل الله: ﴿النفس بالنفس﴾، فجعل الأحرار في
القصص سواء فيما بينهم في العمد رجالهم، ونساءهم في
النفس، وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين في العمد
في النفس، وفيما دون النفس رجالهم، ونساءهم. وأخرج ابن
جرير، وابن مردويه، عن أبي مالك قال: كان بين حيين من
الانصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول، فكانهم طلبوا
الفضل، فجاء النبي ﷺ ليصلح بينهم، فنزلت هذه الآية:
﴿الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ قال ابن
عباس: فسختها: ﴿النفس بالنفس﴾، وأخرج عبد بن حميد،
وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن
عباس: ﴿فمن عفي له﴾ قال: هو: العمد رضي أهله بالعفو.
﴿فاتباع بالمعروف﴾ أمر به الطالب ﴿وإداء إليه
بإحسان﴾ من القابل، قال: يؤدي المطلوب بإحسان. ﴿ذلك

الكوفيون، والثوري، لأن الحرّ يتناول الكافر كما يتناول
المسلم، وكذا العبد، والأنثى يتناولان الكافر كما يتناولان
المسلم. واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿إن النفس بالنفس﴾
لأن النفس تصدق على النفس الكافرة كما تصدق على
النفس المسلمة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل المسلم
بالكافر، واستدلوا بما ورد من السنة عن النبي ﷺ أنه لا
يقتل مسلم بكافر، وهو مبين لما يرد في الآيتين، والبحث
في هذا يطول. واستدل بهذه الآية القائلون بأن الذكر لا يقتل
بالأنثى، وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق إلا إذا سلم
أولياء المرأة الزيادة على بيتها من بية الرجل. وبه قال مالك،
والشافعي، وأحمد، وإسحاق، والثوري، وأبو ثور. وذهب
الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمراة، ولا زيادة، وهو الحق.
وقد بسطنا البحث في شرح المنتقى، فليرجع إليه. قوله:
﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ «من» هنا عبارة عن
القاتل. والمراد بالآخ المقتول، أو الولي، والشيء: عبارة عن
الدم، والمعنى: أن القاتل، أو الجاني إذا عفي له من جهة
المجني عليه، أو الولي دم أصابه منه على أن يأخذ منه شيئاً
من الدية، أو الأرض، فليتبع المجني عليه الولي من عليه الدم
فيما يأخذه منه من ذلك اتباعاً بالمعروف، وليؤد الجاني ما
لزمه من الدية، أو الأرض إلى المجني عليه، أو إلى الولي أداء
بإحسان، وقيل إن: «من» عبارة عن الولي، والآخ يرد به
القاتل، والشيء: الدية، والمعنى أن الولي إذا جنح إلى العفو
عن القصص إلى مقابل الدية، فإن القاتل مخير بين أن
يعطيها، أو يسلم نفسه للقصص كما روي عن مالك أنه
يثبت الخيار للقاتل في ذلك، وذهب من عاده إلى أنه لا يخير،
بل إذا رضى الأولياء بالدية، فلا خيار للقاتل بل يلزمه
تسليمها، وقيل معنى: «عفى» بذل. أي: من بذل له شيء من
الدية، فليقبل، وليتبع بالمعروف، وقيل إن المراد بذلك: أن من
فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من الديات، فيكون
عفي بمعنى فضل، وعلى جميع التقادير، فتذكير شيء
للتقليل، فيتناول العفو عن الشيء اليسير من الدية، والعفو
الصائر عن فرد من أفراد الورثة. وقوله: ﴿فاتباع﴾ مرتفع
بفعل محذوف، أي: فليكن منه اتباع، أو على أنه خبر مبتدأ
محذوف، أي: فالأمر اتباع، وكذا قوله: ﴿وإداء إليه
بإحسان﴾ وقوله: ﴿ذلك تخفيف﴾ إشارة إلى العفو، والدية
أي: أن الله شرع لهذه الأمة العفو من غير عوض، أو يعوض،
ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود، فإنه أوجب عليهم
القصص، ولا عفو، وكما ضيق على النصارى، فإنه أوجب
عليهم العفو ولا دية. قوله: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي:
بعد التخفيف، نحو أن يأخذ الدية، ثم يقتل القاتل، أو يعفو،
ثم يستقص. وقد اختلف أهل العلم فيمن قتل القاتل بعد أخذ
الدية. فقال جماعة منهم مالك، والشافعي: إنه كمن قتل ابتداء،
إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه. وقال قتادة، وعكرمة،
والسدي، وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة، ولا يمكن الحاكم
الولي من العفو. وقال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط،

عليه أئمة العربية، وشرط سبحانه ما كتبه من الوصية بأن يترك الموصي خيراً. واختلف في جواب هذا الشرط ما هو؟ فروي عن الأخفش، وجهان:
أحدهما أن التقدير: إن ترك خيراً، فالوصية، ثم حذفت الفاء كما قال الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلاًن
والثاني: أن جوابه مقدر قبله، أي: كتب الوصية للوالدين، والأقربين إن ترك خيراً. واختلف أهل العلم في مقدار الخير، فقيل ما زاد على سبعمائة دينار، وقيل: ألف دينار، وقيل: ما زاد على خمسمائة دينار. والوصية في الأصل: عبارة عن الأمر بالشيء، والعهد به في الحياة، وبعد الموت، وهي هنا: عبارة عن الأمر بالشيء لبعد الموت. وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين، أو عنده وديعة، أو نحوها. وأما من لم يكن كذلك، فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبة عليه سواء كان فقيراً، أو غنياً، وقالت طائفة: إنها واجبة، ولم يبين الله سبحانه ها هنا القدر الذي كتب الوصية به للوالدين، والأقربين، فقيل: الخمس، وقيل: الربع، وقيل: الثلث. وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فذهب جماعة إلى أنها محكمة، قالوا: وهي، وإن كانت عامة فمعناها الخصوص. والمراد بها من الوالدين من لا يرث كالأبوين الكافرين، ومن هو في الرق، ومن الأقربين من عدا الورثة منهم. قال ابن المنذر: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين الذين لا يرثان، والأقرباء الذين لا يرثون جائزة. وقال كثير من أهل العلم: إنها منسوخة بآية الموارث مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»، وهو حديث صححه بعض أهل الحديث، وروي من غير وجه. وقال بعض أهل العلم: إنه نسخ الوجوب، ونفى النسخ، وروي عن الشعبي، والنخعي، ومالك، قوله: «بالمعروف»، أي: العدل لا وكس فيه، ولا شطط. وقد أذن الله للميت بالثلث دون ما زاد عليه. وقوله: «حقاً»، مصدر معناه الثبوت، والوجوب. قوله: «فمن بئله»، هذا الضمير عائد إلى الإيصاء المفهوم من الوصية، وكذلك الضمير في قوله: «سمعه»، والتبديل: التغيير، والضمير في قوله: «فإنما إثمهم»، راجع إلى التبديل المفهوم من قوله: «بئله». وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التي لا جنف فيها، ولا مضارة، وأنه يبوء بالإثم، وليس على الموصي من ذلك شيء، فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به. قال القرطبي: ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز، مثل أن يوصي بخمر، أو خنزير، أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله، ولا يجوز إمضاؤه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث. قاله أبو عمر. انتهى. والجنف: المجاوزة، من جنف يجنف: إذا جاوز، قاله النحاس، وقيل: الجنف: الميل، ومنه قول الأعشى:

تجانف عن حجر اليمامة يافتي وما قصدت من أهلها لسوائكا
قال في الصحاح: الجنف الميل، وكذا في الكشاف. وقال لبيد:

تخفيف من ريكهم ورحمة مما كان على بني إسرائيل.
وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، عنه من وجه آخر. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن الدية فيهم، فقال الله لهذه الأمة: «كتب عليكم القصاص في القتل»، إلى قوله: «فمن عفي له من أخيه شيء»، فالعفو أن تقبل الدية في العمد «فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ريكهم ورحمة». مما كتب على من كان قبلكم «فمن اعتدى بعد ذلك» قيل: بعد قبول الدية «فله عذاب اليم» وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: كان أهل التوراة إنما هو القصاص، أو العفو ليس بينهما أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو العفو أمروا به، وجعل الله لهذه الأمة القتل، والعفو، والدية إن شأوا أحلها لهم، ولم تكن لامة قبلهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل، أو خيل، فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة، فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك، فله نار جهنم خالداً فيها أبداً». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة أنه إذا قتل بعد أخذ الدية، فله عذاب عظيم، قال: فعلية القتل لا تقبل منه الدية. قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية»، وأخرج سمويه في فوائده، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ، فنكر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة أنه قال: يقتل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: «ولكم في القصاص حياة» قال: جعل الله في القصاص حياة، ونكالا، وعظة إذا نكره الظالم المعتدي كف عن القتل. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في قوله: «لعلكم تتقون» قال: لعلك تتقي أن تقتله، فتقتل به. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر في قوله: «يا أولي الأبواب» قال: من كان له لب ينكر القصاص، فيحجزه خوف القصاص عن القتل «لعلكم تتقون» قال: لكي تتقوا الدماء مخافة القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمَوْتِينَ ﴿٢٦٩﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا سِوَمَا يَمُوتْ فَإِنَّا إِنَّمَا
عَلِ الْبَيْنِ يَدُولُونَهُ إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿٢٧٠﴾ فَمَنْ حَافَ مِنْ مَوْسِ جَنَفًا أَوْ إِثْنًا
فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧١﴾

قد تقدم معنى: «كتب» قريباً، وحضور الموت: حضور أسبابه، وظهور علاماته، ومنه قول عنتره:
وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندواني
وقال جرير:

أنا الموت الذي حلت عن فليس لهارب مني نجاة
وإنما لم يؤث الفعل المسند إلى الوصية، وهو: «كتب» لوجود الفاصل بينهما، وقيل: لأنها بمعنى الإيصاء، وقد روي جواز إسناد ما لا تأنث فيه إلى المؤنث مع عدم الفصل. وقد حكى سيبويه: قام امرأة، وهو خلاف ما أطبق

قوله: ﴿جنفا﴾ يعني: إثمًا ﴿فاصلح بينهم﴾ قال: إذا أخطأ الميت في وصيته، أو حاف فيها، فليس على الأولياء حرج أن يربوا خطاه إلى الصواب. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر نحوه؛ لكنه فسر الجنف بالميل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿جنفا أو إثمًا﴾ قال: خطأ، أو عمداً. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في سننه عنه قال: الجنف في الوصية، والإضرار فيها من الكبائر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ ثَلَاثُونَ ۖ أَيَّامًا تَمْدُدُونَ مَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۚ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

قد تقدم معنى: ﴿كتب﴾ ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على هذه الأمة. والصيام أصله في اللغة: الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال، ويقال: للصمت صوم؛ لأنه إمساك، عن الكلام، ومنه: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ [مريم: 26] أي: إمساكاً عن الكلام، ومنه قول النابغة:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تملك للجماء
أي: خيل ممسكة عن الجري، والحركة. وهو في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وقوله: ﴿كما كتب﴾ أي: صوماً كما كتب على أن الكاف في موضع نصب على النعت، أو كتب عليكم الصيام مشبهاً ما كتب على أنه في محل نصب على الحال. وقال بعض النحاة: إن الكاف في موضع رفع نعتاً للصيام، وهو ضعيف؛ لأن الصيام معرف باللام، والضمير المستتر في قوله: ﴿كما كتب﴾ راجع إلى ما. واختلف المفسرون في وجه التشبيه ما هو، فقيل: هو قدر الصوم، ووقته، فإن الله كتب على اليهود، والنصارى صوم رمضان، فغيروا، وقيل: هو: الوجوب، فإن الله أوجب على الأمم الصيام، وقيل: هو الصفة. أي: ترك الأكل، والشرب، ونحوهما في وقت، فعلى الأول معناه: أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم، وعلى الثاني: أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجب على الذين من قبلهم، وعلى الثالث: أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجب على الذين من قبلهم. وقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ بالمحافظة عليها، وقيل: تتقون المعاصي بسبب هذه العبادة؛ لأنها تكسر الشهوة، وتضعف نواحي المعاصي، كما ورد في الحديث أنه جُئْتُ، وأنه وجاء. وقوله: ﴿أياماً﴾ منتصب على أنه مفعول ثانٍ لقوله: ﴿كتب﴾ قاله الفراء: وقيل إنه منتصب على أنه ظرف، أي: كتب عليكم الصيام في أيام. وقوله: ﴿معدودات﴾ أي: معينات بعدد معلوم، ويحتمل أن يكون في هذا الجمع لكونه من جموع القلة

إني امرؤ منعت أرومة عامر ضيمي وقد جفنت علي خصومي وقوله: ﴿فاصلح بينهم﴾ أي: أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق، والاضطراب بسبب الوصية بإبطال ما فيه ضرار، ومخالفة لما شرعه الله، وإثبات ما هو حق كالوصية في قرية لغير وارث، والضمير في قوله: ﴿بينهم﴾ راجع إلى الورثة، وإن لم يتقدم لهم نكر؛ لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق، وقيل راجع إلى الموصي لهم، وهم الأبوان والقرابة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن ترك خيراً﴾ قال: مالا. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد نحوه، وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في سننه عن عروة، أن علي ابن أبي طالب دخل على مولى لهم في الموت، وله سبع مائة درهم، أو ستمائة درهم فقال: ألا أوصي؟ قال: لا؟ إنما قال الله: ﴿إن ترك خيراً﴾ وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي، عن عائشة، أن رجلاً قال لها: أريد أن أوصي قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: قال الله: ﴿إن ترك خيراً﴾ وإن هذا شيء يسير، فاتركه لعيالك، فهو أفضل. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبيهقي عن ابن عباس قال: إذا ترك الميت سبع مائة درهم، فلا يوصي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن الزهري. قال: جعل الله الوصية حقاً مما قل منه، ومما كثر، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ، ونكر حديثاً، وفيه: «انظر قرابتك الذين يحتاجون، ولا يرثون، فأوص لهم من مالك بالمعروف» وأخرج أيضاً، عن طاوس قال: من أوصى لقوم، وسماهم، وترك نوي قرابته. محتاجين انتزعت منهم، وردت على قرابته، وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في الناسخ، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن محمد بن بشر، عن ابن عباس قال: نسخت هذه الآية. وأخرج عنه من وجه آخر أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أن هذه الآية نسختها قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ [النساء: 7] الآية. وأخرج عنه من وجه آخر ابن جرير، وابن أبي حاتم أنها منسوخة بآية الميراث. وأخرج عنه أبو داود في سننه، والبيهقي مثله. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: في الآية نسخ من يرث، ولم ينسخ الأقربين الذين لا يرثون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عمر أنه قال: هذه الآية نسختها آية الميراث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فمن بئله﴾ الآية. قال: وقد وقع أجر الموصي على الله، وبرئ من إثمه، وقال في

الطاء على أنه فعل ماضٍ. وقوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ معناه: أن الصيام خير لهم من الإفطار مع الفدية، وكان هذا قبل النسخ، وقيل معناه: وأن تصوموا في السفر، والمرض غير الشاق.

وقد أخرج أحمد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن معاذ بن جبل قال: أحملت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال، فنذكر أحوال الصلاة، ثم قال: وأما أحوال الصيام، فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله سبحانه فرض عليه الصيام، وأنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فَنِيَّةً طَعَامَ مُسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فلجأ ذلك عنه، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185] فأنشأ الله صيامه على الصحيح المقيم، ورخص فيه للمريض، والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، ثم نكر تمام الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: يعني بذلك أهل الكتاب. وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، عن دغفل بن حنظلة، عن النبي ﷺ قال: «كان على النصارى صوم شهر رمضان، فمرض ملكهم، فقالوا: لئن شفاه الله لنزينا عشرين عاماً، ثم كان آخر، فاكل لحماء فأوجع فوه، فقال: لئن شفاه الله ليزيدن سبعة، ثم كان عليهم ملك آخر، فقال: ما ندع من هذه الثلاثة الأيام شيئاً أن نتمها، ونجعل صومنا في الربيع، ففعل، فصارت خمسين يوماً، وأخرج ابن جرير، عن السدي، في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: تتقون من الطعام، والشراب، والنساء مثل ما اتقوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحو ما سبق، عن معاذ. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم». وأخرج البخاري، ومسلم عن عائشة قالت: كان عاشوراء صياماً، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام، ومن شاء أفطر. وأخرج عبد بن حميد أن ابن عباس قال: إن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ قد نسخت. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عن نحو ذلك، وزاد أن النسخ لها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ الآية. وأخرج نحو ذلك عنه أبو داود في ناسخه. وأخرج نحوه عنه أيضاً سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث سلمة بن الأكوع قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فَنِيَّةً طَعَامَ مُسْكِينٍ﴾ كان من شاء صام، ومن شاء أن يفطر ويفتدي فعل، حتى نزلت هذه الآية بعدها فنسختها: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾. وأخرج البخاري، عن

إشارة إلى تقليل الأيام. وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ قيل: للمريض حالتان: إن كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة، وإن كان يطيقه مع تضرر، ومشقة كان رخصة، وبهذا قال الجمهور وقوله: ﴿وَعَلَى سَفَرٍ﴾ اختلف أهل العلم في السفر المبيح للإفطار، فقليل مسافة قصر الصلاة، والخلاف في قدرها معروف، وبه قال الجمهور، وقال غيرهم بمقايير لا ليل عليها. والحق أن ما صدق عليه مسمى السفر، فهو الذي يباح عنده الفطر، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض، فهو الذي يباح عنده الفطر. وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة. واختلفوا في الأسفار المباحة، والحق أن الرخصة ثابتة فيه، وكذا اختلفوا في سفر المعصية. وقوله: ﴿فَعِدَّةٌ﴾ أي: فعليه عدة، أو فالحكم عدة، أو فالواجب عدة، والعدة فعلة من العدد، وهو بمعنى: المعدود. وقوله: ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ قال سيبويه: ولم ينصرف؛ لأنه معول به عن آخر؛ لأن سبيل هذا الباب أن يأتي بالالف واللام، وقال الكسائي: هو معول به عن آخر، وقيل: إنه جمع أخرى، وليس في الآية ما يدل على وجوب التتابع في القضاء. قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ قراءة الجمهور بكسر الطاء، وسكون الياء، وأصله يطوقونه نقلت الكسرة إلى الطاء، وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وقرأ حميد على الأصل من غير إعلال. وقرأ ابن عباس بفتح الطاء مخففة، وتشديد الواو أي: يكلفونه. وروى ابن الأنباري، عن ابن عباس: «يطيقونه» بفتح الياء، وتشديد الطاء، والياء مفتوحتين بمعنى: يطيقونه. وروى عن عائشة، وابن عباس، وعمر بن دينار، وطاوس أنهم قرؤوا «يطيقونه» بفتح الياء، وتشديد الطاء مفتوحة. وقرأ أهل المدينة، والشام: «فَنِيَّةً طَعَامَ» مضافاً. وقرؤوا أيضاً: «مَسَاكِينَ» وقرأ ابن عباس: «طَعَامَ مُسْكِينٍ» وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي. وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، هل هي: محكمة، أو منسوخة، فقليل: إنها منسوخة، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام؛ لأنه شق عليهم، فكان من أطعم كل يوم مسكيناً ترك الصوم، وهو يطيقه، ثم نسخ ذلك، وهذا قول الجمهور. وروى عن بعض أهل العلم، أنها لم تنسخ، وأنها رخصة للشيوخ، والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة، وهذا يناسب قراءة التشديد، أي: يكلفونه كما مر. والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]. وقد اختلفوا في مقدار الفدية، فقليل: كل يوم صاع من غير البر، ونصف صاع منه، وقيل: مد فقط. وقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ قال ابن شهاب: معناه: من أراد الإطعام مع الصوم. وقال مجاهد معناه: من زاد في الإطعام على المد؛ وقيل: من أطعم مع المسكين مسكيناً آخر. وقرأ عيسى بن عمرو، ويحيى بن وثاب، وحزمة، والكسائي: «يَطْوَعُ» مشدداً مع جزم الفعل على معنى يتطوع، وقرأ الباقون بتخفيف

النحاس، وقال: إنه منصوب على الإغراء. وقال الأخفش: إنه نصب على الظرف، ومنع الصرف للالف، والنون الزائدتين. قوله: ﴿انزل فيه القرآن﴾ قيل: أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم كان جبريل ينزل به نجماً نجماً. وقيل: أنزل فيه أوله، وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهذه الآية أعم من قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: 1]. وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ [الدخان: 3] يعني: ليلة القدر. والقرآن اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعني المقروء كالمشروب سمي شراباً، والمكتوب سمي كتاباً، وقيل: هو مصبر قرأ يقرأ، ومنه قول الشاعر:

ضحوا بأشعث عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرأنا
أي: قراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر﴾ [الإسراء: 78] أي: قراءة الفجر. وقوله: ﴿هدى للناس﴾ منتصب على الحال أي: هادياً لهم. وقوله: ﴿وبينات من الهدى﴾ من عطف الخاص على العام إظهاراً لشرف المعطوف بإفراده بالذكر؛ لأن القرآن يشمل محكمه، ومتشابهه، والبينات تختص بالحكم منه. والفرقان: ما فرق بين الحق، والباطل، أي: فصل. قوله: ﴿من شهد منكم الشهر﴾ أي: حضر، ولم يكن في سفر بل كان مقيماً، والشهر منتصب على أنه ظرف، ولا يصح أن يكون مفعولاً به. قال جماعة من السلف والخلف: إن من أدركه شهر رمضان مقيماً غير مسافر لزمه صيامه، سافر بعد ذلك، أو أقام استدلالاً بهذه الآية. وقال الجمهور: إنه إذا سافر أقطر، لأن معنى الآية: إن حضر الشهر من أوله إلى آخره لا إذا حضر بعضه، وسافر، فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره، وهذا هو الحق، وعليه يلتزم الأئمة الصحيحة من السنة. وقد كان يخرج ﷺ في رمضان، فيفطر. وقوله: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعذة من أيام أخر﴾ قد تقدم تفسيره. وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فيه أن هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه، ومراد من مراداته في جميع أمور الدين، ومثله قوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78] وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يرشد إلى التيسير، وينهي عن التعسير كقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» وهو في الصحيح. واليسر السهل الذي لا عسر فيه. وقوله: ﴿ولتكموا العذة﴾ الظاهر أنه معطوف على قوله: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ أي: يريد بكم اليسر، ويريد إكمالكم للعذة، وتكبيركم، وقيل: إنه متعلق بمحذوف تقديره: رخص لكم هذه الرخصة لتكموا العذة، وشرع لكم الصوم لمن شهد الشهر لتكموا العذة. وقد ذهب إلى الأول البصريون قالوا: والتقدير: يريد لأن تكملوا العذة، ومثله قول كثير بن صخر:

أريد لأنسى نكرها فكأنما تمثلي لي ليلاً بكل سبيل
وذهب الكوفيون إلى الثاني، وقيل: الواو مقحمة، وقيل: إن هذه اللام لام الأمر، والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها. وقال في الكشف: إن قوله: ﴿لتكموا

ابن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد، فنكر نحوه. وأخرج ابن جرير، عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ قال: الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم، فيفطر، ويطعم مكان كل يوم مسكيناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والدارقطني، والبيهقي، أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم عاماً قبل موته، فصنع جفنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكيناً، فاطعمهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والدارقطني وصححه، عن ابن عباس أنه قال لأم ولد له حامل، أو مرضعة: أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصيام، عليك الطعام لا قضاء عليك. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والدارقطني، عن ابن عمر أن إحدى بناته أرسلت تسأله، عن صوم رمضان، وهي حامل، قال: تفطر، واطعم كل يوم مسكيناً، وقد روي نحو هذا، عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة في قوله: ﴿فمن تطوع خيراً﴾ قال: أطعم مسكينين. وأخرج عبد بن حميد، عن طاوس في قوله: ﴿فمن تطوع خيراً﴾ قال: إطعام مساكين. وأخرج ابن جرير، عن ابن شهاب في قوله: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ أي: أن الصوم خير لكم من الفدية. وقد ورد في فضل الصوم أحاديث كثيرة جداً.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ مَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا آلِدَئِكُمْ وَلِتُذَكَّرُوا ۚ اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَكُمُ الْغَنَاءُ

تَنْكُرُونَ ﴿٢١٨﴾

﴿رمضان﴾ مأخوذ من رمض الصائم يرمض: إذا احترق جوفه من شدة العطش، والرمضاء مملود: شدة الحر، ومنه الحديث الثابت في الصحيح: «صلاة الأوَّلين إذا رمضت الفصل» أي: أحرقت الرمضاء أجوافها. قال الجوهري: وشهر رمضان يجمع على رمضان، وأرمضاء - يقال: إنهم لما نقلوا أسماء الشهور، عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام الحر، فسمي بذلك، وقيل: إنما سمي رمضان؛ لأنه يرمض الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة. وقال الماوردي: إن اسمه في الجاهلية نائق، وأشد المفضل:

وفي نائق أجلت لدى حومة الوغا وولت على الأبيار فرسان خثعما
وإنما سموه بذلك؛ لأنه كان ينتقم لشئته عليهم، وشهر مرتفع في قراءة الجماعة على أنه مبتدأ خبره: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: المفروض عليكم صومه شهر رمضان، ويجوز أن يكون بدلاً من الصيام المذكور في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ [البقرة: 183]. وقرأ مجاهد، وشهر بن حوشب بنصب الشهر، ورواهما هارون الأعور، عن أبي عمرو، وهو منتصب بتقدير الزموا، أو صوموا. قال الكسائي، والفراء: إنه منصوب بتقدير فعل «كتب عليكم الصيام وأن تصوموا» وأنكر ذلك

عن ابن عباس قال: نزل القرآن جملة لأربعة وعشرين من رمضان، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزله على رسول الله ﷺ ترتيباً. وأخرج ابن جرير، عنه أنه قال: ليلة القدر هي الليلة المباركة، وهي في رمضان أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿هَدَى النَّاسَ﴾ قال: يهتدون به ﴿وَيُبينات من الهدى﴾ قال: فيه الحلال، والحرام، والحدود. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ لَكُمْ الشَّهْرَ فليصمه﴾ قال: هو إلهاله بالدار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن علي قال: من أدرك رمضان، وهو مقيم، ثم سافر، فقد لزمه الصوم؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فليصمه﴾. وأخرج سعيد بن منصور، عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ قال: اليسر الإفطار في السفر، والعسر: الصوم في السفر. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: ﴿وَلِتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ﴾ قال: عدّة شهر رمضان. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك: أنه قال: عدة ما أفطر المريض في السفر. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صوموا لرؤيتي، وأفطروا لرؤيتي، فإن غم عليكم، فأكملوا العدّة ثلاثين يوماً». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: حق على الصائمين إذا نظروا إلى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم؛ لأن الله يقول: ﴿وَلِتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ وَلِتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، عن ابن مسعود أنه كان يكبر: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر لله الحمد. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي في سننه عن ابن عباس، أنه كان يكبر: الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً، الله أكبر، والله الحمد وأجل، الله أكبر على ما هدانا.

وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليست بعبثي وليؤمروا بملهم رشدك ﴿٢١٨﴾

قوله: ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ يحتمل أن السؤال عن القرب، والبعد كما يدل عليه قوله: ﴿فإني قريب﴾ ويحتمل أن السؤال عن إجابة الدعاء كما يدل على ذلك قوله: ﴿أجيب دعوة الداع﴾ ويحتمل أن السؤال عما هو أعم من ذلك، وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذي سيأتي بيانه. وقوله: ﴿فإني قريب﴾ قيل: بالإجابة، وقيل: بالعلم، وقيل: بالإنعام. وقيل: في الكشف؛ إنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه، وسرعة إنجابه حاجة من سأل به من قرب مكانه، فإذا دعي أسرع تلبية. ومعنى الإجابة هو: معنى ما في قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: 60] وقيل: معناه: أقبل عبادة من عبادي بالدعاء لما ثبت عنه ﷺ من أن الدعاء هو: العبادة، كما أخرجه أبو داود، وغيره من حديث النعمان بن بشير، والظاهر أن الإجابة هنا هي باقية على معناها اللغوي، وكون الدعاء من

العدّة: علة للأمر بمراعاة العدّة ﴿ولتكبروا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء، والخروج عن عهدة الفطر ﴿ولعلكم تشكرون﴾ علة الترخيص، والتيسير، والمراد بالتكبير هنا: هو قول القائل: الله أكبر. قال الجمهور ومعناه: الحض على التكبير في آخر رمضان. وقد وقع الخلاف في وقته، فروي عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر، وقيل: إذا رآوا هلال شوال كبروا إلى انقضاء الخطبة، وقيل: إلى خروج الإمام، وقيل: هو التكبير يوم الفطر. قال مالك: هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: يكبر في الأضحية، ولا يكبر في الفطر. وقوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ قد تقدّم تفسيره.

وقد أخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ، وابن عدي، والبيهقي في سننه، عن أبي هريرة مرفوعاً، وموقوفاً: «لا تقولوا رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا شهر رمضان». وقد ثبت، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه». وثبت عنه أنه قال: «من قام رمضان إيماناً، واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه». وثبت عنه أنه قال: «شهرنا عيد لا ينقصان: رمضان، ونو الحجة» وقال: إذا نخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وهذا كله في الصحيح. وثبت، عنه في أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول: رمضان بدون نكر الشهر. وأخرج ابن مردويه: والأصبهاني في الترغيب: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي رمضان؛ لأن رمضان يرمض الذنوب» وأخرج أيضاً، عن عائشة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن ابن عمر نحوه. وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة، وأخرج أحمد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن وثالة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزل الزبور لثمانين عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان». وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه عن جابر مثله، لكنه قال: «وأنزل الزبور لاثني عشر» وزاد: «وأنزل التوراة لست خلون من رمضان، وأنزل الإنجيل لثمانين عشرة خلت من رمضان» وأخرج محمد بن نصر عن عائشة نحو قول جابر، إلا أنها لم تذكر نزول القرآن. وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء، والصفات عن مقسم قال: سأل عطية بن الأسود ابن عباس فقال: إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾. وقوله: ﴿إننا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: 1] وقوله: ﴿إننا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ [الدخان: 3] فقال ابن عباس إنه أنزل في ليلة القدر، وفي رمضان، وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور، والأيام. وأخرج محمد بن نصر، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي، والضياء في المختارة،

عَنْكُمْ فَأَلْقَى يَزِيدُورَهُ وَاسْتَوْعَا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصَّيَّامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا يُبَيِّرُورَهُ وَأَشْرَبَ عَلَيْكُمُورَ فِي الْمَسْجِدِ يَاكَ عُدُوهُ اللَّهُ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ مَا يَكُونُ لِلنَّاسِ لَمَّا هُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾

قوله: ﴿لَحَلَّ لَكُمْ﴾ فيه دلالة على أن هذا الذي أحله الله كان حراماً عليهم، وهكذا كان كما يفيد السبب لنزول الآية، وسيأتي. والرفث: كنالة عن الجماع. قال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امراته، وكذا قال الأزهري، ومنه قول الشاعر:

ويرين من أنس الحديث زوانيا ويهن عن رفث الرجال نفا
وقيل الرفث: أصله قول الفحش، رفث وأرفث: إذا تكلم بالقبيح، وليس هو المراد هنا، وعذي الرفث بلى لتضمينه معنى الإمضاء، وجعل النساء لباساً للرجال، والرجال لباساً لهم لا امتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب، ولا يسه. قال أبو عبيدة، وغيره: يقال للمرأة: لباس، وفراش، وإزار. وقيل: إنما جعل كل واحد منهما لباساً للآخر، لأنه يستتره عند الجماع، عن أعين الناس. وقوله: ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها بالمباشرة في ليالي الصوم، يقال: خان، واختان بمعنى، وهما من الخيانة. قال القتيبي: أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء، فلا يؤدي الأمانة فيه. انتهى. وإنما سماهم خائنين لأنفسهم؛ لأن ضرر ذلك عائد عليهم، وقوله: ﴿فَقَاتِبْ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم، والآخر التخفيف عنهم بالرخصة، والإباحة كقوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تَحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: 20] يعني: تخفف عنكم، وكقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 92] يعني تخفيفاً، وهكذا قوله: ﴿وَعَفَّ عَنْكُمْ﴾ يحتمل العفو من الذنب، ويحتمل التوسعة، والتسهيل. وقوله: ﴿وَابْتَغُوا﴾ قيل: هو الولد، أي: ابتغوا بمباشرة نساكنكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح، وهو حصول النسل، وقيل: المراد ابتغوا القرآن بما أبيع لكم فيه قاله الزجاج وغيره، وقيل: ابتغوا الرخصة، والتوسعة، وقيل: ابتغوا ما كتب لكم من الإماء، والزوجات، وقيل: غير ذلك مما لا يفيد النظم القرآني، ولا دل عليه ليل آخر، وقرأ الحسن البصري: ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ بالعين المهملة من الإتيان، وقوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هو: تشبيه بليغ، والمراد هنا بالخيط الأبيض: هو: المعترض في الأفق، لا الذي هو كذنب السرحان، فإنه الفجر الكذاب الذي لا يحل شيئاً، ولا يحرمه. والمراد بالخيط الأسود: سواد الليل، والتبين: أن يمتاز أحدهما عن الآخر، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر. وقوله: ﴿ثُمَّ لَمَّا وَصَلَا إِلَى الصَّيَّامِ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فيه التصريح بأن للصوم غاية هي الليل، فعند إقبال الليل من المشرق، وإنبار النهار من المغرب يفطر الصائم، ويحل له الأكل، والشرب

العبادة لا يستلزم أن الإجابة هي: القبول للدعاء، أي: جعله عبادة متقبلة، فالإجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة. والمراد أنه سبحانه يجب بما شاء، وكيف شاء، فقد يحصل المطلوب قريباً، وقد يحصل بعيداً، وقد ينفع عن الداعي من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعوته، وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعي في دعوته، كما في قوله سبحانه ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55] ومن الاعتداء أن يطلب ما لا يستحقه، ولا يصلح له، كمن يطلب منزلة في الجنة مساوية لمنزلة الأنبياء، أو فوقها. وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: كما أجبتهم إذا دعوني، فليستجيبوا لي قيمة دعوتهم إليهم من الإيمان، والطاعات، وقيل معناه: أنهم يطلبون إجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له أي: القيام بما أمرهم به، والترك لما نهاهم عنه. والرشد خلاف الغي، رشد يرشد رشداً، ورشداً. قال الهروي: الرشـد، والرشـد، والرشاد: الهدى، والاستقامة. قال: ومنه هذه الآية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله اقريب ربنا، فنناجيه أم بعيد، فنناجيه؟ فسكت النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن قال: سأل أصحاب النبي ﷺ أين ربنا؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن مريويه، عن أنس أنه سأل أعرابي النبي ﷺ أين ربنا؟ فنزلت. وأخرج ابن عسـاكر في تاريخه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعجزوا عن الدعاء، فإن الله أنزل علي ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] فقال رجل: يا رسول الله ربنا يسمع الدعاء أم كيف ذلك؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطاء أنه بلغه لما نزلت ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قالوا: لو نعلم أي ساعة ندعو، فنزلت. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن ينخر له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثله». وثبت في الصحيح أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحـكم ما لم يعجل، يقول دعوت، فلم يستجب لي». وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ قال: ليدعوني: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: أنهم إذا دعوني استجبت لهم. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: فليطيعوني. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ يَرْشُدُونَ﴾ قال: يهتدون.

أَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَّامِ الرَّتُّ إِلَى يَسَافِكُمْ مِّنْ يَّامٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ يَاسُ لَهْنُ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا

لکم ليلة الصيام ﴿الآية﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: إن المسلمين كانوا في شهر رمضان، إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء، والطعام والشراب إلى مثلها من القابلة، ثم إن ناساً من المسلمين أصابوا النساء، والطعام في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أحل لكم ليلة الصيام﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق، عن ابن عباس قال: الرث الجماع. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر مثله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: اللؤلؤ، والتغشي، والإقضاء، والمباشرة، والرث، والممس، والمس هذا الجماع، غير أن الله حيي كريم يكتفي بما شاء عما شاء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس، في قوله: ﴿هَنَ لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال: هَنَ سكن لكم، وأنتم سكن لهن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿تختانون أنفسكم﴾ قال: تظلمون أنفسكم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ قال: انكوهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَبِغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: الولد. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وقتادة والضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَلَبِغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ليلة القدر. وأخرج البخاري في تاريخه، عن أنس مثله. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة قال: ﴿وَلَبِغُوا﴾ الرخصة التي كتب الله لكم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض، والخيط الأسود، فلا يزال يأكل، ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ فعلوا أنه يعني الليل والنهار. وفي الصحيحين، وغيرهما عن عدي بن حاتم، أنه جعل تحت وساده خيطين أبيض وأسود، وجعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود، فغدا على رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: إن وسادك إذا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل. وفي رواية في البخاري، وغيره. إنه قال له: إنك لعريض القفا. وفي رواية عند ابن جرير، وابن أبي حاتم: أنه ضحك منه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاك قال: كانوا يجامعون، وهم معتكفون حتى نزلت: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، عن الربيع نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: «إذا جامع المعتكف بطل اعتكافه ويستأنف». وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله:

وغيرهما. وقول: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ قيل: المراد: بالمباشرة هنا الجماع، وقيل: تشمل التقبيل، واللمس إذا كانا لشهوة لا إذا كانا لغیر شهوة، فهما جائزان كما قاله عطاء، والشافعي، وابن المنذر، وغيرهم، وعلى هذا يحتمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على أن المعتكف لا يباشِر، ولا يقبل، فتكون هذه الحكاية للإجماع مقيدة بأن يكونا لشهوة، والاعتكاف في اللغة: الملازمة، يقال عكف على الشيء: إذا لازمه، ومنه قول الشاعر:

وظل بنات الليل حولي عكفا عكوف البواكي حولهن صريع ولما كان المعتكف يلزم المسجد قيل له عاكف في المسجد، ومعتكف فيه؛ لأنه يحبس نفسه لهذه العبادة في المسجد، والاعتكاف في الشرع: ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص. وقد وقع الإجماع على أنه ليس بواجب، وعلى أنه لا يكون إلا في مسجد، وللاعتكاف أحكام مستوفاة في كتب الفقه، وشروح الحديث. وقوله: ﴿تلك حدود الله﴾ أي: هذه الأحكام حدود الله. وأصل الحد المنع، ومنه سمي البواب، والسجان حداداً، وسميت الأوامر، والنواهي حدود الله؛ لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج عنها ما هو منها، ومن تلك سميت الحدود حدوداً؛ لأنها تمنع أصحابها من العود. ومعنى النهي عن قربانها النهي عن تعيها بالمخالفة لها، وقيل: إن حدود الله هي محارمه فقط، ومنها المباشرة من المعتكف، والإفطار في رمضان لغیر عذر، وغير ذلك مما سبق النهي عنه، ومعنى النهي عن قربانها على هذا واضح. وقوله: ﴿كذلك يبين الله آياته﴾ أي: كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات الهادية إلى الحق، وقد أخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر لم ياكل ليلته، ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس ابن صرمة الأنصاري كان صائماً، فكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق، فأطلب لك، فغلبته عينه، فنام، وجاءت امرأته، فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك أئمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أحل لكم ليلة الصيام﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً. وأخرج البخاري أيضاً من حديثه قال: لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، فكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ الآية. وقد روي في بيان سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام، ثم قال: وإن عمر بن الخطاب أتى امرأته، ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله إني أعتذر إلى الله، وإليك من نفسي، ونكر ما وقع منه، فنزل قوله تعالى: ﴿أحل

سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن مجاهد قال: معناها لا تخاصم، وأنت تعلم أنك ظالم. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير أن امرأ القيس بن عابس، وعبدان بن أشوع الحضرمي اختصما في أرض، وأراد امرؤ القيس أن يحلف، فنزلت: **﴿وَلَا تَاكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾** الآية.

﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَقْرَبُوا اللَّهَ لِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

قوله: **﴿يسألونك﴾** سيأتي بيان من هم السائلون له **﴿والأهله﴾** جمع هلال، وجمعها باعتبار هلال كل شهر، أو كل ليلة، تنزيلاً لاختلاف الاوقات منزلة اختلاف النوات، والهلال: اسم لما يبدو في أول الشهر، وفي آخره. قال الأصمعي: هو هلال حتى يستدير، وقيل هو: هلال حتى ينير بضوئه السماء، وذلك ليلة السابع. وإنما قيل له: هلال؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته، ومنه استهل الصبي: إذا صاح، واستهل وجهه، وتهلل إذا ظهر فيه السرور. قوله: **﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾** فيه بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال، ونقصانه، وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم، ومعاملاتهم بها كالصوم، والفطر، والحج، ومدة الحمل، والعدة، والإجازات، والإيمان، وغير ذلك، ومثله قوله تعالى: **﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾** [يونس: 5] والمواقيت جمع الميقات، وهو الوقت. وقراءة الجمهور: «والحج» بفتح الحاء. وقرأ ابن أبي إسحاق بكسرهما في جميع القرآن. قال سيبويه: الحج بالفتح كالرد والشذ، وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى، وقيل: بالفتح مصدر، وبالكسر الاسم. وإنما أقرد سبحانه الحج بالذكر؛ لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، ولا يجوز فيه النسيء، عن وقته، ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه، أو أخطأ وقتها، أو وقت بعضها. وقد جعل بعض علماء المعاني هذا الجواب، أعني قوله: **﴿قل هي مواقيت﴾** من الأسلوب الحكيم، وهو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها، ونقصانها، فأجيبوا بالحكمة التي كانت تلك الزيادة، والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل، وأحق بأن يتطلع لعلمه. قوله: **﴿وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها﴾** وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهلة، والجواب بأنها مواقيت للناس، والحج أن الانصراف كانوا إذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم إذا رجع أحدهم إلى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه؛ لأنهم يعتقنون أن المحرم لا يجوز أن يحول بينه، وبين السماء حائل، وكانوا يتسمنون ظهور بيوتهم. وقال أبو عبيدة: إن هذا من ضرب المثل، والمعنى: ليس البر أن تسألوا الجهال، ولكن البر التقوى، وسألوا العلماء كما تقول: أتيت هذا الأمر من باب، وقيل: هو مثل في جماع النساء، وأنهم أمروا بإتيانهن في

﴿تلك حدود الله﴾ قال: يعني طاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: **﴿حدود الله﴾** معصية الله: يعني المباشرة في الاعتكاف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل أنها الجماع. وأخرج أيضاً عن سعيد بن جبير في قوله: **﴿هكذا﴾** يعني هكذا بين الله.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْخِلُوا بِهَا إِلَى الْمَكْرِ إِيَّاهُ كَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

هذا يعم جميع الأمة، وجميع الأموال، لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه، فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل، وماكول بالحل لا بالإثم، وإن كان صاحبه كارهاً كقضاء الدين إذا امتنع منه من هو عليه، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها، ونفقة من أوجب الشرع نفقته. والحاصل: أن ما لم يبيح الشرع أخذه من مالكه، فهو مأكول بالباطل، وإن طابت به نفس مالكه: كمهر البغي، وحلوان الكاهن، وثمن الخمر. والباطل في اللغة: الذاهب الزائل. وقوله: **﴿وتتلوا﴾** مجزوم عطفاً على تأكلوا، فهو من جملة المنهي عنه، يقال: أدلى الرجل بحجته، أو بالأمر الذي يرجو النجاح به تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر، يقال: أدلى دلوه: أرسلها، والمعنى أنكم لا تجمعوا بين أكل الأموال بالباطل، وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة، وفي هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الأموال، والفروج، فمن حكم له القاضي بشيء مستنداً في حكمه إلى شهادة زور أو يمين، فجور، فلا يحل له أكله، فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وهكذا إذا أرسى الحاكم، فحكم له بغير الحق، فإنه من أكل أموال الناس بالباطل. ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال. وقد روي عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك، وهو مرئود لكتاب الله تعالى، ولسنة رسول الله **﴿صلى الله عليه وسلم﴾**، كما في حديث لم سلمة قالت: قال رسول الله **﴿صلى الله عليه وسلم﴾**: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فاقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيء، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار» وهو في الصحيحين، وغيرهما. وقوله: **﴿فريقاً﴾** أي: قطعة، أو جزء، أو طائفة، فعبر بالفريق عن ذلك، وأصل الفريق: القطة من الغنم تشذ عن معظمها. وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير، لتأكلوا أموال فريق من الناس بالإثم، وسمي الظلم، والعنوان إثمأ باعتبار تعلقه بفاعله. وقوله: **﴿وانتم تعلمون﴾** أي: حال كونكم عالمين أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء، وهذا أشد لعقابهم، وأعظم لجرمهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿ولا تأكلوا أموالكم﴾** الآية، قال: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه بينة، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه. وروى

الهجرة لقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: 13] وقوله: ﴿وَأَمْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [الزمر: 10] وقوله: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسِيرٍ﴾ [الغاشية: 22] وقوله: ﴿إِنْفَعُ بِالْأَمْرِ إِحْسَنُ﴾ [المؤمنون: 96، فصلت: 34] ونحو ذلك مما نزل بمكة، فلما هاجر إلى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال، ونزلت هذه الآية، وقيل: إن أول ما نزل قوله تعالى: ﴿إِنِّ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ يَغْتَابُونَ﴾ [الحج: 39] فلما نزلت الآية كان ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عن كف عنه حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36]. وقال جماعة من السلف: إن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ من عدا النساء، والصبيان، والرهبان، ونحوهم، وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة، والمراد بالاعتداء عند أهل القول الأول: هو مقاتلة من يقاتل من الطواف الكفرية. والمراد به على القول الثاني: مجاوزة قتل من يستحق القتل إلى قتل من لا يستحقه ممن تقدم ذكره. قوله: ﴿حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يقال: تقف يثقف ثقفًا، ورجل ثقيف: إذا كان محكمًا لما يتناول من الأمور. قال في الكشف: والتقف وجود على وجه الأخذ، والغلبة، ومنه رجل ثقف: سريع الأخذ لأقرانه. انتهى. ومنه قول حسان:


فإما يثقفن بني لؤي جنيمة إن قتلهم بواء
قوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: مكة. قال ابن جرير: الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش. انتهى. وقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه، فأخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها الله عليه. قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: الفتنة التي أرادوا أن يفتنوك، وهي: رجوعكم إلى الكفر أشد من القتل، وقيل المراد بالفتنة: المحنة التي تنزل بالإنسان في نفسه، أو أهله، أو ماله، أو عرضه، وقيل: إن المراد بالفتنة الشرك الذي عليه المشركون، لأنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم، فأخبرهم الله أن الشرك الذي هم عليه أشد مما يستعظمونه، وقيل: المراد فتنتهم بإيكم بصلكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم. والظاهر أن المراد: الفتنة في الدين بأي سبب كان، وعلى أي صورة اتفقت، فإنها أشد من القتل. قوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية، اختلف أهل العلم في ذلك، فذهبت طائفة إلى أنها محكمة، وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا بعد أن يتعدى بالقتال فيه، فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له، وهذا هو الحق. وقالت طائفة: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ وَجَنَّتُمْهُمْ﴾ [التوبة: 5] ويجاب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن ببناء العلم على الخاص، فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم، ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ: «إنها لم تحل لأحد قبلي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار» وهو في الصحيح. وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله ﷺ لابن خطل، وهو متعلق بأسار الكعبة: ويجاب عنه بأنه وقع في تلك الساعة التي أحل الله لرسوله ﷺ. قوله: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ أي:




القبل لا في الدبر، وقيل: غير ذلك. والبيوت جمع بيت، وقري بضم الباء، وكسرهما. وقد تقدم تفسير التقوى، والفلاح، وسبق أيضاً أن التقدير في مثل قوله: ﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ مِنْ لَدُنِّي﴾ ولكن البر بر من اتقى.

وقد أخرج ابن عساکر بسند ضعيف، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ قال: نزلت في معاذ بن جبل، وشعلبة بن عثمة. وهما رجلان من الأنصار قالوا: يا رسول الله ما بال الهلال يبسو، ويطلع بقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم، ويستوي، ثم لا يزال ينقص، وينق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ في حل بينهم، ولصومهم ولفطرمهم، وعدد نسائهم، والشروط التي إلى أجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: سألت النبي ﷺ عن الأهلة لم جعلت؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ الآية، فجعلها لصوم المسلمين، ولإفطارهم، ولمناسكهم، وحجهم، وعدد نسائهم، ومحل دينهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية نحوه. وأخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس نحوه. وقد روى ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحوه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم، فعنوا ثلاثين يوماً». وأخرج أحمد، والطبراني، وابن عدي، والدارقطني بسند ضعيف، عن طلق بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «فذكر نحو حديث ابن عمر». وأخرج البخاري، وغيره، عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِالْأَهْلِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن جابر قال: كانت قريش تدعي الحمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار، وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله إن قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلت ففعلت كما فعلت، فقال: إني رجل أحمسي، قال: فإن ديني دينك، فأنزل الله الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس نحوه. وقد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة، والتابعين.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتَنُونَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا إِلَيْكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْلَبُوا حَيْثُ فَتَنُوكُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَنُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَرَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَيَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

لا خلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعاً قبل

الظالمين قال: هم من أبى يقول لا إله إلا الله. وأخرج عبد ابن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. **أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُفْرُ بِأَلْقَامِهِ كُفْرًا وَكَانَ يُعَذِّبُ عَنِّيكَ مَا كُنَّ تَعَذِّبُ** **بِئْسَ مَا أَعْزَدَ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَعَ الْكَلْبِينَ** 

قوله: **الشهر الحرام بالشهر الحرام** أي: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام، وهتكوا حرمة قاتلتكموهم في الشهر الحرام مكافأة لهم، ومجازاة على فعلهم. **والحرمات** جمع حرمة، كالظلمات جمع ظلمة، وإنما جمع الحرمات؛ لأنه أراد الشهر الحرام، والبلد الحرام، وحرمة الإحرام، والحرمة: ما منع الشرع من انتهاكه. والقصاص: المساواة، والمعنى: أن كل حرمة يجري فيها القصاص، فمن هتك حرمة عليكم، فلکم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصاً، قيل وهذا كان في أول الإسلام، ثم نسخ بالقتال، وقيل: إنه ثابت بين أمة محمد  لم ينسخ، ويجوز لمن تعدي عليه في مال، أو بدن أن يتعدى بمثل ما تعدي عليه، وبهذا قال الشافعي، وغيره. وقال آخرون: إن أمور القصاص مقصورة على الحكام، وهكذا الأموال لقوله : «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» أخرجه الدارقطني، وغيره، وبه قال أبو حنيفة، وجمهور المالكية، وعطاء الخراساني، والقول الأول أرجح، وبه قال ابن المنذر، واختاره ابن العربي، والقرطبي، وحكاه الداودي عن مالك، ويؤيده إننه  لامرأة أبي سفيان أن تأخذ من ماله ما يكفيها، ولدها، وهو في الصحيح، ولا أصرح، وأوضح من قوله تعالى: في هذه الآية **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** وهذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الأولى، أعني قوله: **والحرمات قصاص** وإنما سمي المكافاة اعتداءً مشكلة كما تقدم.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما سار رسول الله  معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحبسهم المشركون، عن الدخول، والوصول إلى البيت، وصنوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة، وهو شهر حرام قاضاهم على الدخول من قابل، فنخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم نزلت في ذلك هذه الآية: **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص**. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج أيضاً عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: **فمن اعتدى عليكم** الآية، وقوله **وجزاء سيئة** [يونس: 27] الآية، وقوله: **ولمن انتصر بعد ظلمه** [الشورى: 41] الآية، وقوله: **وإن عاقبتكم** [النحل: 126] الآية قال: هذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم، والأذى، فأمر الله المسلمين من يتجاذى منهم أن يتجاذى بمثل ما أوتي إليه، أو يصبروا، ويعفوا،

عن قتالكم، وبخلوا في الإسلام. قوله: **ووقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هي أن لا تكون فتنة، وأن يكون الدين لله، وهو الدخول في الإسلام، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له، فمن دخل في الإسلام، وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله، قيل: المراد بالفتنة هنا الشرك، والظاهر أنها الفتنة في الدين على عمومها كما سلف. قوله: **فلا عدوان إلا على الظالمين** أي: لا تعتدوا إلا على من ظلم، وهو من لم ينته عن الفتنة، ولم يدخل في الإسلام، وإنما سمي جزاء الظالمين عدواناً مشكلة كقوله تعالى: **وجزاء سيئة سيئة مثلها** [الشورى: 40]. وقوله: **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه** [البقرة: 194].

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قوله تعالى: **ووقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** الآية أنها أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة، وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في هذه الآية قال: إن أصحاب محمد أمروا بقتال الكفار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **ولا تعتدوا** يقول: لا تقتلوا النساء، والصبيان، والشيخ الكبير، ولا من ألقى السلم، وكف يده، فإن فعلتم، فقد اعتديتم. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: إن هذه الآية في النساء، والذرية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: **والفتنة أشد من القتل** يقول: الشرك أشد من القتل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في الآية قال: ارتداد المؤمن إلى الوثن أشد عليه من أن يقتل محقاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، عن قتادة في قوله: **ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه** قال: حتى يبيدوا بالقتال، ثم نسخ بعد ذلك فقال: **ووقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه عن قتادة أن قوله: **ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام** وقوله: **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير** [البقرة: 217] فكان كذلك حتى نسخ هاتين الآيتين جميعاً في براءة قوله: **فقاتلوا المشركين حيث وجئتموهم** [التوبة: 5] **ووقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** [التوبة: 36] وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: **فإن انتهوا** قال: فإن تابوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل من طرق، عن ابن عباس في قوله: **ووقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** يقول: شرك بالله: **ويكون الدين** ويخلص التوحيد لله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في الآية، قال: الشرك. وقوله: **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** قال: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: **ويكون الدين** يقول: حتى لا تعبوا إلا الله. وأخرج أيضاً، عن عكرمة في قوله: **فلا عدوان إلا على**

عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه قال: هو البخل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في الآية قال: كان رجال يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة، فلما يقطع لهم، وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة. والتهلكة: أن تهلك رجال من الجوع، والعطش، ومن المشي. وقال لمن بيده فضل: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». وأخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، والبيهقي في معجمه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مانع، والطبراني، عن الضحاك ابن أبي جبير: أن الأنصار كانوا ينفقون في سبيل الله، ويتصدقون، فأصابتهم سنة، فساء ظنهم، وأمسكوا عن ذلك، فأنزل الله الآية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن أسلم بن عمران قال: كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج صفٌ عظيم من الروم، فصفنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس، وقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلى التهلكة؟ فقام أبو أيوب صاحب رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إنكم تؤولون الآية هذا التأويل. وإنما أنزلت فينا هذه الآية معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله ﷺ: إن أموال الناس قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله على نبيه يرد علينا: «وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ». فكانت التهلكة الإقامة في الأموال، وإصلاحها، وترك الغزو. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، والبيهقي، عن البراء بن عازب، قال في تفسير الآية: هو الرجل يذنب الذنب، فيلقي بيديه، فيقول: لا يغفر الله لي أبداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن النعمان بن بشير نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، قال في تفسير الآية: إنه القنوط. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: التهلكة عذاب الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أنهم حاصروا دمشق، فأسرع رجل إلى العدو وحده، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفع حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه فردّه، وقال: قال الله: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ». وأخرج ابن جرير، عن رجل من الصحابة في قوله: «وَأَحْسِنُوا» قال: أتو الفرائض. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي إسحاق مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأعز الله سلطانه، أمر الله المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، ولا يعدو بعضهم على بعض كاهل الجاهلية، فقال «ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً» [الإسراء: 33] الآية، يقول: ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه، ومن انتصر لنفسه دون السلطان، فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية، ولم يرض بحكم الله تعالى. انتهى. وأقول: هذه الآية التي جعلها ابن عباس رضي الله عنه ناسخة مؤيدة لما تدل عليه الآيات التي جعلها منسوخة، ومؤيدة له، فإن الظاهر من قوله: «فقد جعلنا لوليه سلطاناً» أنه جعل السلطان له. أي: جعل له تسليطاً يتسلط به على القاتل، ولهذا قال: «فلا يسرف في القتل» [الإسراء: 33] ثم لو سلمنا أن معنى الآية كما قاله لكان ذلك مخصصاً للقتل من عموم الآيات المذكورة لا ناسخاً لها، فإنه لم ينص في هذه الآية إلا على القتل وحده، وتلك الآيات شاملة له، ولغيره، وهذا معلوم من لغة العرب التي هي: المرجع في تفسير كلام الله سبحانه.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾

في هذه الآية الأمر بالإتفاق في سبيل الله، وهو الجهاد، واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله، والباء في قوله: «بأيديكم» زائدة، والتقدير: ولا تلقوا أيديكم، ومثله: «ألم يعلم بأن الله يرى» [العلق: 14] وقال المبرد: «بأيديكم» أي: بأنفسكم تعبيراً بالبعض عن الكل، كقوله: «بما كسبت أيديكم» [الشورى: 30] وقيل: هذا مثل مضروب، يقال: فلان ألقي بيده في أمر كذا. إذا استسلم؛ لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيديه، فكنك فعل كل عاجز في أي فعل كان وقال قوم: للتقدير، ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم. والتهلكة: مصدر من هلك يهلك هلاكاً، وهلكاً، وتهلكة. أي: لا تأخذوا فيما يهلككم. وللسلف في معنى الآية أقوال سيأتي بيانها، وبيان سبب نزول الآية. والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين، أو الدنيا، فهو داخل في هذا، وبه قال ابن جرير الطبري. ومن جملة ما يدخل تحت الآية أن يقتحم الرجل في الحرب، فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص، وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين، ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكروه من الذين رأوا السبب، فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها، وهو ظن تنفعه لغة العرب. وقوله: «وَأَحْسِنُوا» أي: في الإتفاق في الطاعة، أو أحسنوا الظن بالله في إخلافه عليكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، والبخاري، والبيهقي في سننه، عن حنيفة في قوله: «وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» قال: نزلت في النفقة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو ترك النفقة في سبيل الله مخافة العيلة. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي، عن ابن

عكرمة قال: أحسنوا الظن بالله.

وَأَمَّا الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ لِلَّهِ فَإِنَّ أُحْمَرَهُمَا مِمَّا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحِلُّوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَيَنْ كَانَ بَيْنَكُمْ مَرِيضًا أَوْ بَرَاءً أَدَّى مِنْ زَأْبِهِ فَنَذِيَّةٌ مِنْ بَيَارٍ أَوْ مَدَقَّةٌ أَوْ شُكْلٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِنْ تَمَنُّعِ الْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ مَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَسِيرًا لَتَلْتَوِ أَيْامُ فِي الْحَجِّ وَسَعَوْا إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَتَرَةً كَأَيْلَةٍ ذَلِكَ لِئِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاسِرِي السَّجْدِ الْحَرَامِ وَأَتَوْا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢٤﴾

قوله: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ﴾ اختلف العلماء في المعنى المراد بإتمام الحج، والعمرة لله، فقيل: أداؤهما، والإتيان بهما من دون أن يشوبهما شيء مما هو محظور، ولا يخل بشروط، ولا فرض لقوله تعالى: ﴿فَاتِمُّهُنَّ﴾ [البقرة: 124] وقوله: ﴿ثُمَّ ائْتُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187]. وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج لهما لا لغيرهما، وقيل: إتمامهما أن تفرد كل واحد منهما من غير تمتع، ولا قران، وبه قال ابن حبيب. وقال مقاتل: إتمامهما أن يستحلوا فيهما ما لا ينبغي لهما، وقيل: إتمامهما أن يحرم لهما من بويرة أهله، وقيل: أن ينفق في سفرهما الحلال الطيب، وسيأتي بيان سبب نزول الآية، وما هو مروي عن السلف في معنى إتمامهما. وقد استدل بهذه الآية على وجوب العمرة؛ لأن الأمر بإتمامهما أمر بها، وبذلك قال علي، وابن عمر، وابن عباس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، والشعبي، وسعيد بن جبير، ومسروق، وعبد الله بن شداد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو عبيد، وابن الجهم من المالكية. وقال مالك، والنخعي، وأصحاب الرأي كما حكاه ابن المنذر عنهم: أنها سنة. وحكي عن أبي حنيفة أنه يقول بالوجوب. ومن القائلين بأنها سنة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله. ومن جملة ما استدل به الأوّلون ما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدي فليهل بحج وعمرة». وثبت عنه أيضاً في الصحيح أنه قال: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة». وأخرج الدارقطني، والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرّك بأيهما بدأت». واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعي في الآية، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي صالح الحنفي قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج جهاد، والعمرة تطوّع». وأخرج ابن ماجه عن طلحة بن عبيد الله مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه عن جابر: «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هي؟ قال: لا، وأن تعتمروا خير لكم» وأجابوا عن الآية، وعن الأحاديث المصرحة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها، وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف، وهذا، وإن كان فيه بعد، لكنه يجب المصير إليه جمعاً بين الآلة، ولا سيما بعد تصريحه ﷺ بما تقدّم في حديث جابر من عدم الوجوب، وعلى هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها، كما أخرجه الشافعي في الأم أن في الكتاب الذي

كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم: «إن العمرة هي الحج الأصغر». وكحديث ابن عمر عند البيهقي في الشعب قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أوصني، فقال: تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحجّ وتعتمر، وتسمع وتطيع، وعليك بالعلانية، وإليك السرّ» وهكذا ينبغي حمل ما ورد من الأحاديث التي قرن فيها بين الحج والعمرة في أنهما من أفضل الأعمال، وأنهما كفارة لما بينهما، وأنهما يهتمان ما كان قبلهما ونحو ذلك. قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ الحصر: الحبس. قال أبو عبيدة، والكسائي، والخليل: إنه يقال أحصر بالمرض، وحصر بالعنوّ. وفي المجلد لابن فارس العكس يقال: أحصر بالعنوّ، وحصر بالمرض. ورجح الأوّل ابن العربي، وقال: هو رأي أكثر أهل اللغة. وقال للزجاج: أنه كذلك عند جميع أهل اللغة. وقال الفراء: هما بمعنى واحد في المرض، والعنوّ. ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيباني فقال: حصرني الشيء، وأحصرني، أي: حبسني. وبسبب هذا الاختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه في معنى الآية، فقالت الحنفية: المحصر من يصير ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض، أو عدوّ، أو غيره. وقالت الشافعية، وأهل المدينة المراد بالآية حصر العنوّ. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المحصر بعنوّ يحل حيث أحصر، وينحر هديه إن كان ثمّ هدي، ويحلق رأسه، كما فعل النبي ﷺ هو، وأصحابه في الحديبية. وقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ «ما» في موضع رفع على الابتداء، أو الخبر، أي: فالواجب، أو فعليكم، ويحتمل أن يكون في موضع نصب، أي: فأنحروا، أو فاهدوا ما استيسر، أي: ما تيسر، يقال: يسر الأمر، واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب، والهدْيُ، والهدْيُ لغتان، وهما جمع هدية، وهي ما يهدى إلى البيت من بدنة، أو غيرها. قال الفراء: أهل الحجاز وبني أسد يخففون الهدى، وتميم، وسفلى قيس يثقلون. قال الشاعر:

حلفت برّب كعبة والمصلى وأعناق الهدى مقلدات
قال: وواحد الهدى هدية، ويقال في جمع الهدى أهد. واختلف أهل العلم في المراد بقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ فذهب الجمهور إلى أنه شاة. وقال ابن عمر، وعائشة، وابن الزبير: جمل، أو بقرة. وقال الحسن: أعلا الهدى بدنة، وأوسطه بقرة، وأبناء شاة، وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيَ مَحَلَّهُ﴾ هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق بين محصر، وغير محصر، وإليه ذهب جمع من أهل العلم، وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة، أي: لا تحلوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهدى الذي يعتنموه إلى الحرم قد بلغ محله، وهو الموضع الذي يحل فيه نبحه. واختلفوا في تعيينه، فقال مالك، والشافعي: هو موضع الحصر اقتداء برسول الله ﷺ حيث أحصر في عام الحديبية. وقال أبو حنيفة: هو: الحرم لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: 33] وإيجاب عن ذلك بأن

من الهدى ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الآية، أي: فمن لم يجد الهدى، إما لعدم المال، أو لعدم الحيوان، صام ثلاثة أيام في الحج. أي: في أيام الحج، وهي من عند شروعه في الإحرام إلى يوم النحر، وقيل: يصوم قبل يوم التروية يوماً، ويوم التروية، ويوم عرفة، وقيل: ما بين أن يحرم بالحج إلى يوم عرفة، وقيل: يصومهم من أول عشر ذي الحجة، وقيل: ما دام بمكة، وقيل: إنه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم. وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدى، ومنعه آخرون. قوله: ﴿وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قرأه الجمهور بخفض سبعة، وقرأ زيد بن علي، وابن أبي عيطة بالنصب على أنه معمول بفعل مقدر، أي: وصوموا سبعة، وقيل: على أنه معطوف على ثلاثة؛ لأنها وإن كانت مجرورة لفظاً، فهي في محل نصب كأنه قيل: فصيام ثلاثة. والمراد بالرجوع هنا: الرجوع إلى الاوطان. قال أحمد، وإسحاق: يجزئ الصوم في الطريق، ولا يتضيق عليه الوجوب إلا إذا وصل وطنه، وبه قال الشافعي، وقتادة، والربيع، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وغيرهم. وقال مالك: إذا رجع من منى، فلا بأس أن يصوم، والأول أرجح. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ: «فمن لم يجد، فليصم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله» فبين ﷺ أن الرجوع المذكور في الآية هو: الرجوع إلى الأهل. وثبت أيضاً في الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ: «وسبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم، وإنما قال سبحانه: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة، والسبعة عشرة، لنفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام في الحج، والسبعة إذا رجع. قاله الزجاج. وقال المبرد: ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدة لثلاث يتوهم متوهم أنه قد بقي منه شيء بعد ذكر السبعة، وقيل هو: تأكيد كما تقول كتبت بيدي. وقد كانت العرب تأتي بمثل هذه الفلزة فيما دون هذا العدد، كقول الشاعر:

ثلاث واثنان فهنَّ خمس وسانسة تميل إلى سهامي
وكذا قول الآخر:

ثلاث بالعدد وذاك حسبي وست حين يتركني العشاء
فلنك تسعة في اليوم ري وشرب الممرء فوق الري داء
وقوله: ﴿كاملة﴾ تأكيد آخر بعد الفلزة لزيادة التوصية بصيامها، وأن لا ينقص من عددها. وقوله: ﴿تلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ الإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ قيل: هي راجعة إلى التمتع، فتدل على أنه لا متعة لحاضري المسجد الحرام كما يقوله أبو حنيفة، وأصحابه، قالوا: ومن تمتع منهم كان عليه دم، وهو دم جنابة لا يأكل منه، وقيل: إنها راجعة إلى الحكم، وهو وجوب الهدى، والصيام، فلا يجب ذلك على من كان من حاضري المسجد الحرام، كما يقوله الشافعي، ومن وافقه. والمراد بمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام: من لم يكن ساكناً في الحرم، أو من لم يكن ساكناً في المواقيت، فما نونها على الخلاف

المخاطب به هو الأمن الذي يمكنه الوصول إلى البيت. وإجاب الحنفية عن نحره ﷺ في الحديبية بأن طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة هو من الحرم، ورد بأن المكان الذي وقع فيه النحر ليس هو من الحرم. قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ الآية، المراد بالمرض هنا ما يصلى عليه مسمى المرض لغه. والمراد بالأذى من الرأس: ما فيه من قمل، أو جراح، ونحو ذلك، ومعنى الآية: أن من كان مريضاً، أو به أذى من رأسه، فحلق فعليه فدية. وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام، والصلوة، والنسك، وثبت في الصحيح: «أن رسول الله رأى كعب بن عجرة، وهو محرم، وقمله يتساقط على وجهه، فقال: أيؤذيك هوام رأسك؟ قال: نعم، فأمره أن يحلق، ويطعم ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام». وقد ذكر ابن عبد البر أنه لا خلاف بين العلماء أن النسك هنا هو: شاة. وحكي عن الجمهور أن الصوم المذكور في الآية ثلاثة أيام، والإطعام لستة مساكين. وروي عن الحسن، وعكرمة، ونافع أنهم قالوا: الصوم في فية الأذى عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين. والحديث الصحيح المتقدم يردّ عليهم، ويبطل قولهم. وقد ذهب مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم، ودأود إلى أن الإطعام في ذلك مدان بعد النبي ﷺ أي: لكل مسكين، وقال الثوري نصف صاع من برّ، أو صاع من غيره. وروي ذلك عن أبي حنيفة. قال ابن المنذر: وهذا غلط؛ لأن في بعض أخبار كعب أن النبي ﷺ قال له: تصدق بثلاثة أصوع من تمر على ستة مساكين. واختلفت الرواية عن أحمد بن حنبل، فروي عنه مثل قول مالك، والشافعي، وروي عنه أنه إن أطعم برّاً، فمدّ لكل مسكين، وإن أطعم تمرّاً، فنصف صاع. واختلفوا في مكان هذه الفدية، فقال عطاء: ما كان من دم، فبمكة، وما كان من طعام، أو صيام، فحيث شاء. وبه قال أصحاب الرأي. وقال طائوس، والشافعي: الإطعام، والدم لا يكونان إلا بمكة، والصوم حيث شاء. وقال مالك، ومجاهد: حيث شاء في الجميع، وهو: الحق لعدم الليل على تعيين المكان. قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: برأت من المرض، وقيل: من خوفكم من العدو على الخلاف السابق، ولكن الأمن من العدو أظهر من استعمال أمنتكم في ذهاب المرض، فيكون مقوياً لقول من قال إن قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ المراد به: الإحصار من العدو، كما أن قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ يقوِّي قول من قال بذلك لإفراد عذر المرض بالذكر. وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصورون خاصة لم جميع الأمة على حسب ما سلف، والمراد بالتمتع المذكور في الآية: أن يحرم الرجل بعمره، ثم يقيم حلالاً بمكة إلى أن يحرم بالحج، فقد استباح بذلك ما لا يحل للمحرم استباحته، وهو معنى: تمتع واستمتع. ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع، بل هو عندي أفضل أنواع الحج كما حررته في شرحي على المنتقى. وقد تقدّم الخلاف في معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ

في ذلك بين الأئمة. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما فرضه عليكم في هذه الأحكام، وقيل: هو أمر بالتقوى على العموم، وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل، وابن عبد البر في التمهيد، عن يعلى بن أمية قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، وهو بالجعرانة، وعليه جبة، وعليه أثر خلوق، فقال: كيف تأمرني يا رسول الله أن أصنع في عمرتي؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلِلَّهِ الْوَعْدُ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل عن العمرة؟ فقال: ها أنذا، قال: اخلع الجبة، واغسل عنك أثر الخلوق، ثم ما كنت صانعاً في حجك، فاصنعه في عمرتك». وقد أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديثه، ولكن فيهما أنه نزل عليه ﷺ الوحي بعد السؤال، ولم يذكر ما هو الذي أنزل عليه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلِلَّهِ الْوَعْدُ﴾ قال: أن تحرم من نويرة أهلك. وأخرج ابن عدي، والبيهقي مثله من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: من تأمهما أن يفرد كل واحد منهما عن الآخر، وأن يعتزم في غير أشهر الحج. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمره العقبة، وزار البيت، فقد حل، وتام العمرة إذا طاف بالبيت، وبالصفا، والمروة، فقد حل. وقد ورد في فضل الحج، والعمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن نكرها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ يقول: من أحرم بحج، أو عمرة، ثم حبس عن البيت بمرض يجده، أو عتق يحبسه، فعليه نبح ما استيسر من الهدى شاة فما فوقها، وإن كانت حجة الإسلام، فعليه قضاؤها، وإن كانت بعد حجة الفريضة، فلا قضاء عليه، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ يقول: الرجل إذا أهل بالحج، فأحصر بعث بما استيسر من الهدى، فإن كان عجل قبل أن يبلغ الهدى محله، فحلقت رأسه، أو مس طيباً، أو تدأوى بدواء، كان عليه فدية من صيام، أو صدقة، أو نسك، فالصيام ثلاثة أيام، والصدقة ثلاثة أصع على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع، والنسك شاة ﴿فَإِذَا أَمْنْتُمْ﴾ يقول: فإذا برئ، فمضى من وجهه ذلك إلى البيت أحل من حجته بعمرة، وكان عليه الحج من قابل، فإن هو رجع، ولم يتم من وجهه ذلك إلى البيت كان عليه حجة، وعمرة، فإن هو رجع متمتعاً في أشهر الحج كان عليه ما استيسر من الهدى شاة، فإن هو لم يجد، فصيام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع، قال إبراهيم: فنكرت هذا الحديث لسعيد بن جبيرة فقال: هكذا قال ابن عباس في هذا الحديث كله. وأخرج مالك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن علي في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: شاة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي

شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس مثله. وأخرج الشافعي في الأم، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: بقرة، أو جزور؛ قيل: أوما يكفيه شاة؟ قال: لا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن ابن عباس قال في تفسير: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ ما يجد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: إن كان موسراً، فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق القاسم، عن عائشة، وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل، والبقر. وكان ابن عباس يقول: ما استيسر من الهدى شاة. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لا حصر إلا حصر العتق، فأما من أصابه مرض، أو وجع، أو ضلال، فليس عليه شيء، إنما قال الله: ﴿فَإِذَا أَمْنْتُمْ﴾ فلا يكون الأمن إلا من الخوف، وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر قال: لا إحصار إلا من عتق. وأخرج أيضاً عن الزهري نحوه. وأخرج أيضاً، عن عطاء قال: لا إحصار إلا من مرض، أو عتق، أو أمر حائض. وأخرج أيضاً، عن عروة قال: كل شيء حبس المحرم، فهو إحصار. وأخرج البخاري، عن المسود أن رسول الله ﷺ نحر قبل أن يخلق، وأمر أصحابه بذلك. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ الآية. وأخرج الترمذي، وابن جرير، عن كعب بن عجرة قال: لفني نزلت، وإياي عني بها ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ أو به أذى من رأسه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ يعني من اشتد مرضه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر عنه. قال: يعني بالمرض أن يكون برأسه أذى، أو قروح، أو به أذى من رأسه، قال: الأذى: هو القمل. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: النسك المنكور في الآية شاة. وروي أيضاً، عن علي مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ يقول: من أحرم بالعمرة في أشهر الحج. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أن ابن الزبير كان يقول: إنما المتعة لمن أحصر، وليست لمن خلي سبيله. وقال ابن عباس: هي لمن أحصر، ومن خلي سبيله. وأخرج ابن جرير، عن علي في قوله: ﴿فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ قال فإن أخر العمرة حتى يجتمعها مع الحج، فعليه الهدى. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ قال: قبل

بالحج قبلها أحل بعمرة، ولا يجزئيه عن إحرام الحج، كمن نخل في صلاة قبل وقتها، فإنها لا تجزئيه. وقال أحمد، وأبو حنيفة: إنه مكروه فقط. وروي نحوه عن مالك، والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج في جميع السنة من غير كراهة. وروي مثله عن أبي حنيفة. وعلى هذا القول ينبغي أن ينظر في فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة في الآية. وقد قيل: إن النص عليها لزيادة فضلها. وقد روي القول بجواز الإحرام في جميع السنة عن إسحاق بن راهويه، وإبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد، واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189] فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج، ولم يخص الثلاثة الأشهر، ويجب بأن هذه الآية عامة، وتلك خاصة، والخاص مقدم على العام. ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة، فكما يجوز الإحرام للعمرة في جميع السنة، كذلك يجوز للحج، ولا يخفى أن هذا القياس مصادم للنص القرآني، فهو باطل، فالحق ما ذهب إليه الأولون إن كانت الأشهر المذكورة في قوله: ﴿الحج أشهر﴾ مختصة بالثلاثة المذكورة بنص، أو إجماع، فإن لم يكن كذلك، فالأشهر جمع شهر، وهو من جموع القلة يتردد ما بين الثلاثة إلى العشرة، والثلاثة هي المتينة، فيجب الوقوف عندها، ومعنى قوله: ﴿معلومات﴾ أن الحج في السنة مرة واحدة في أشهر معلومات من شهرها ليس كالعمرة، أو المراد معلومات ببيان النبي ﷺ، أو معلومات عند المخاطبين لا يجوز التقدم عليها، ولا التأخر عنها، قوله: ﴿فمن فرض فيهنّ للحج﴾ أصل الفرض في اللغة: الحرّ والقطع، ومنه فرضة القوس، والنهر، والجبل، ففرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحرّ للقوس، وقيل معنى فرض: إبان، وهو أيضاً يرجع إلى القطع؛ لأن من قطع شيئاً فقد إبان عن غيره. والمعنى في الآية: فمن أزم نفسه فيهنّ الحج بالشروع فيه بالنية قصداً باطنياً، وبالإحرام فعلاً ظاهراً، وبالتالي نطقاً مسموعاً. وقال أبو حنيفة: إن إلزامه نفسه يكون بالتلبية، أو بتقليد الهدي، وسوقه، وقال الشافعي: تكفي النية في الإحرام بالحج. والرفث قال ابن عباس، وابن جبير، والسدي، وقتادة، والحسن، وعكرمة، والزهري، ومجاهد، ومالك: هو الجماع. وقال ابن عمر، وطوس، وعطاء، وغيرهم: الرفث: الإفحاش بالكلام. قال أبو عبيدة: الرفث: اللغاء من الكلام، وأنشد:

وربّ أسراب حجيج كظم
عن اللغاف ورفث التكلم
يقال رفث بكسر الفاء، وضمها. والفسوق: الخروج عن حدود الشرع؛ وقيل: هو الذبح للأصنام، وقيل: التناكب بالألقاب؛ وقيل: السباب. والظاهر أنه لا يختص بمعصية معينة، وإنما خصصه من خصصه بما نكر باعتباره أنه قد أطلق، على ذلك الفرد اسم الفسوق، كما قال سبحانه في الذبح للأصنام ﴿أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ [الأنعام: 145]. قال في التناكب ﴿بئس الاسم الفسوق﴾ [الحجرات: 11].

التروية يوم، ويوم التروية، ويوم عرفة، فإن فاتته صامهنّ أيام التشريق. وأخرج هؤلاء إلا ابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عمر مثله إلا أنه قال: وإذا فات صام أيام منى، فإنهنّ من الحج. وأخرج ابن جرير، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر نحوه مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علقمة، ومجاهد، وسعيد بن جببر مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: الصيام للمتمتع ما بين إحرامه إلى يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: إذا لم يجد المتمتع بالعمرة هدياً، فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة. وإن كان يوم عرفة الثالث، فقد تمّ صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله. وأخرج الدارقطني عن عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لم يكن معه هدي، فليصم ثلاثة أيام قبل يوم النحر، ومن لم يكن صام تلك الثلاثة الأيام، فليصم أيام التشريق». وأخرج أيضاً عن عبد الله بن حذافة: «أن رسول الله ﷺ أمره في رهط أن يطوفوا في منى في حجة الوداع، فينادوا: إن هذه أيام أكل، وشرب، ونكر الله، فلا نصوم فيهنّ إلا صوماً في هدي». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن عطاء في قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال: ست قريبات: عرفة، وعرنة، والرجيع والنخلتان، ومز الظهران، وضجنان، وقال مجاهد: هم أهل الحرم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: هم أهل الحرم. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر مثله.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ مِّن رَّغَبٍ فِيهِمْ لَحَجٍّ فَلَا رَفْعَ وَلَا سُوءَ وَلَا حِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَعَلَّمُوا مِنْ حَيْرٍ يَمْلِكُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَرَاكَ حَيْرَ آرَاوِ النَّفْوَى وَأَتَوَيْنِ بِتَأْوِيلِ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ قَدْ آفَضَ رَبِّيَ عَرَفَتِ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَسَرِّ وَالْحَرَارِ وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَبِينَ الْمَكَايِدِ ﴿١٩١﴾

قوله: ﴿الحج أشهر﴾ فيه حنف، والتقدير: وقت الحج أشهر، أي: وقت عمل الحج، وقيل التقدير: الحج في أشهر، وفيه أنه يلزم النصب مع حنف حرف الجر لا الرفع. قال الفراء: الأشهر رفع؛ لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات، وقيل التقدير: الحج حج أشهر معلومات. وقد اختلف في الأشهر المعلومات، فقال ابن مسعود، وابن عمر، وعطاء، والربيع، ومجاهد، والزهري: هي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة كله، وبه قال مالك. وقال ابن عباس، والسدي، والشعبي، والنخعي: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد، وغيرهم. وقد روي أيضاً عن مالك، ويظهر فائدة الخلاف في ما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر، فمن قال إن ذا الحجة كله من الوقت لم يلزمه دم التأخير، ومن قال ليس إلا العشر منه قال يلزمه دم التأخير. وقد استدلل بهذه الآية من قال إنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهر الحج، وهو عطاء، وطوس، ومجاهد، والأوزاعي، والشافعي، وأبو ثور قالوا: فمن أحرم

تقدّر تاء التانيث في بنت؛ لأن التاء التي هي بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التانيث، فابت تقديرها. انتهى. وسميت عرفات؛ لأن الناس يتعارفون فيها، وقيل: إن آدم التقى هو وحواء فيها، فتعارفا، وقيل غير ذلك، قال ابن عطية: والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع، واستدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة؛ لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده، والمراد بذكر الله عند المشعر الحرام: دعاؤه، ومنه التلبية والتكبير، وسمي المشعر مشعراً من الشعار، وهو: العلامة، والدعاء عنده من شعائر الحج، ووصف بالحرام لحرمة، وقيل: المراد بالذكر: صلاة المغرب، والعشاء بالمزلفة جمعاً. وقد أجمع أهل العلم على أن السنة أن يجمع الحاج بينهما فيها. والمشعر: هو جبل قزح الذي يقف عليه الإمام، وقيل: هو ما بين جبلي المزلفة من مازمي عرفة إلى وادي محسر. قوله: ﴿وأنكروه كما هداكم﴾ الكاف نعت مصدر محنوف، وما مصدرية، أو كافة أي: أنكروه ذكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، وكثر الأمر بالذكر تأكيداً، وقيل: الأول أمر بالذكر عند المشعر الحرام، والثاني أمر بالذكر على حكم الإخلاص، وقيل: المراد بالثاني تعبد النعمة عليهم، و «إن» في قوله: ﴿وإن كنتم من قبله﴾ مخففة كما يفيد دخول اللام في الخبر، وقيل: هي بمعنى قد، أي: قد كنتم، والضمير في قوله: ﴿من قبله﴾ عائذ إلى الهدي، وقيل: إلى القرآن.

وقد أخرج الطبراني في الأوسط، وابن مريويه، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ سؤال، وهو القعدة، وهو الحج. وأخرج الطبراني في الأوسط أيضاً، عن ابن عمر مرفوعاً مثله. وأخرج الخطيب، عن ابن عباس مرفوعاً مثله أيضاً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن عمر بن الخطاب موقوفاً مثله. وأخرج الشافعي في الأم، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر موقوفاً مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عباس، وعطاء، والضحاك مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من طرق، عن ابن عمر في قوله: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ قال سؤال، وهو القعدة، وعشر ليل من ذي الحجة. وأخرجوا إلا الحاكم، عن ابن مسعود مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي، عن ابن عباس من طرق مثله. وأخرج ابن المنذر، والدارقطني، والطبراني، والبيهقي عن عبد الله بن الزبير مثله أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، عن الحسن، ومحمد، وإبراهيم مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عمر في قوله: ﴿فمن قرض فيهن الحج﴾ قال: من أهل فيهن بحج، وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال القرض: الإحرام. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن

وقال ﷺ في السباب: «سباب المسلم فسوق». ولا يخفى على عارف أن إطلاق اسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصي لا يوجب اختصاصه به. والجدال مشتق من الجدل، وهو القتل، والمراد به هنا: المماراة، وقيل: السباب، وقيل الفخر بالأباء. والظاهر الأول، وقد قرئ بنصب الثلاثة، ورفعها، ورفع الأولين، ونصب الثالث، وعكس ذلك، ومعنى النفي لهذه الأمور النهي عنها. وقوله: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ حث على الخير بعد ذكر الشر، وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية، وفيه أن كل ما يفعلونه من ذلك، فهو معلوم عند الله لا يفوت منه شيء. وقوله: ﴿وتزودوا﴾ فيه الأمر باخذ الزاد؛ لأن بعض العرب كانوا يقولون كيف نحج بيت ربنا، ولا يطعمنا؟ فكانوا يحجون بلا زاد، ويقولون: نحن متولكون على الله سبحانه، وقيل: المعنى تزودوا لمعانكم من الأعمال الصالحة ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ والأول أرجح كما يدل على ذلك سبب نزول الآية، وسيأتي وقوله: ﴿فإن خير الزاد للتقوى﴾ إخبار بأن خير الزاد اتقاء المنهيات، فكانه قال: اتقوا الله في إتيان ما أمركم به من الخروج بالزاد، فإن خير الزاد التقوى، وقيل: المعنى فإن خير الزاد ما اتقى به المسافرين من الهلكة، والحاجة إلى السؤال، والتكفف، وقوله: ﴿واتقوا يا أولي الألباب﴾ فيه التخصيص لأولي الألباب بالخطاب بعد حث جميع العباد على التقوى؛ لأن أرباب الألباب هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها، ولب كل شيء خالصه. قوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فيه الترخيص لمن حج في التجارة، ونحوها من الأعمال التي يحصل بها شيء من الرزق، وهو المراد بالفضل هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ [الجمعة: 10] أي: لا إثم عليكم في أن تبتغوا فضلاً من ربكم. مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحج. قوله: ﴿فإذا أفقستم﴾ أي: دفعتم، يقال فاض الإناء إذا امتلأ ماء حتى ينصب من نواحيه؛ ورجل فياض أي: متدفقة يداه بالعطاء، ومعناه: أفقستم أنفسكم، فترك ذكر المفعول، كما ترك في قولهم نفعا من موضع كذا. وعرفات: اسم لتلك البقعة، أي: موضع الوقوف، وقرأ الجماعة بالتثوين، وليس التثوين هنا للفرق بين ما ينصرف وما لا ينصرف، وإنما هو بمنزلة النون في مسلمين. قال النحاس: هذا الجيد. وحكى سيبويه عن العرب حذف التثوين من عرفات قال: لما جعلوها معرفة حذفوا التثوين. وحكى الأخفش، والكوفيون فتح التاء تشبيهاً بتاء فاطمة، وأنشدوا: تنورتها من أزعات وأهلها بيثرب إنني دارها نظر عالي وقال في الكشف: فإن قلت هلا منعت الصرف، وفيها السببان التعريف، والتأنيث، قلت: لا يخلو التانيث، إما أن يكون بالتاء التي في لفظها، وإما بتاء مقدرة كما في سعد، فالتاء في لفظها ليست للتأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث، ولا يصح تقدير التاء فيها؛ لأن هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها، كما لا

والزبير قال: الإهلال. وأخرج عنه ابن المنذر، والدارقطني، والبيهقي قال: فرض الحج الإحرام. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الفرض الإهلال. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج من أجل قول الله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن خزيمة، والحاكم وصححه، والبيهقي عنه نحوه. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي شيبة، وابن مردويه، والبيهقي عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج». وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فلا رفث، ولا فسوق، ولا جدال في الحج﴾. قال: الرفث: التعريض للنساء بالجماع، والفسوق: المعاصي كلها، والجدال: جدال الرجل صاحبه. وأخرج ابن مردويه، والأصبهاني في الترغيب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «فلا فرث: لا جماع، ولا فسوق: المعاصي والكذب». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد ابن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه من طرق عن ابن عباس في الآية قال: الرفث الجماع، والفسوق: المعاصي، والجدال: المراء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: الرفث: غشيان النساء، والفسوق: السباب، والجدال: المراء. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي عنه نحوه. وروي نحو ما تقدم عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة، وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، ثم يقدمون، فيسألون الناس، فأنزل الله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد للفقوى﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: كان ناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة يقولون: نحج بيت الله، ولا يطعمنا؟ فنزلت الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عمر قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزودهم رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر، فأنزل الله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد للفقوى﴾. فنهوا عن ذلك، وأمروا أن يتزودوا الكعك، والقيق، والسويق. وأخرج الطبراني عن ابن الزبير قال: كان الناس يتوكل بعضهم على بعض في الزاد، فأمرهم الله، أن يتزودوا. وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ما تقدم عن الصحابة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع، والتجارة في الموسم، والحج، ويقولون أيام نكر الله، فنزلت: ﴿ليس عليكم جناح﴾ الآية. وقد أخرج نحوه عنه البخاري، وغيره. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن جرير،

وإبن المنذر، وإبن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن أبي أمامة التميمي قال: قلت لأبن عمر: إنا أناس نكري، فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وبين الصفا والمروة، وتأتون المعزف، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قلت: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فدعاه النبي ﷺ، فقرأ عليه الآية، وقال: أنتم حجاج. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن الزبير أنه قرأها كما قرأها ابن عباس. وأخرج ابن أبي داود في المصاحف: أن ابن مسعود قرأها كذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: إنما سمي عرفات: لأن جبريل كان يقول لإبراهيم عليه السلام حين رأى المناسك عرفت. وأخرج مثله ابن أبي حاتم، عن ابن عمر. وأخرج مثله عبد الرزاق، وابن جرير، عن علي. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر أنه سئل، عن المشعر الحرام، فسكت، حتى إذا هبطت أيدي الرواحل بالمزلفة قال: هذا المشعر الحرام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أنه قال: المشعر الحرام: المزلفة كلها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عنه قال: هو: الجبل، وما حوله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مثله، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: ما بين الجبلين الذي بجمع مشعر. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن الزبير في قوله: ﴿وانكروه كما هداكم﴾ قال: ليس هذا بعام، هذا لأهل البلد كانوا يفيضون من جمع، ويفيض سائر الناس من عرفات، فأبى الله لهم ذلك، فأنزل: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ [البقرة: 199] وأخرج عبد بن حميد، عن سفيان في قوله: ﴿وان كنتم من قبله﴾ قال: من قبل القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وان كنتم من قبله لمن الضالين﴾ قال لمن الجاهلين.

قيل: الخطاب في قوله: ﴿ثم أفيضوا﴾ للحمس من

ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فأنزل الله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد للفقوى﴾. فنهوا عن ذلك، وأمروا أن يتزودوا الكعك، والقيق، والسويق. وأخرج الطبراني عن ابن الزبير قال: كان الناس يتوكل بعضهم على بعض في الزاد، فأمرهم الله، أن يتزودوا. وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ما تقدم عن الصحابة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع، والتجارة في الموسم، والحج، ويقولون أيام نكر الله، فنزلت: ﴿ليس عليكم جناح﴾ الآية. وقد أخرج نحوه عنه البخاري، وغيره. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن جرير،

قريش، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات. بل كانوا يقفون بالمزلفة، وهي من الحرم، فأمرؤا بذلك، وعلى هذا تكون، ثم لعطف جملة على جملة لا للترتيب. وقيل: الخطاب لجميع الأمة، والمراد بالناس إبراهيم، أي: ثم أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم، فيحتمل أن يكون أمراً لهم بالإفاضة من عرفة. ويحتمل أن يكون إفاضة أخرى، وهي التي من المزلفة، وعلى هذا تكون، ثم على بابها أي: للترتيب، وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبري، وإنما أمرؤا بالاستغفار؛ لأنهم في مساقط الرحمة، ومواطن القبول، ومظنات الإجابة، وقيل: إن المعنى استغفروا للذي كان مخالفاً لسنة إبراهيم، وهو: وقوفكم بالمزلفة دون عرفة، والمراد بالمناسك: أعمال الحج، ومنه قوله: ﴿وَكُنَّا عَنِ مَنَاسِكِكُمْ أَيْ: فَإِذَا فَرَّغْتُمْ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ، فَانْكُرُوا اللَّهَ وَقِيلِ الْمَرَادُ: بِالْمَنَاسِكِ النَّبَاتِجِ، وَإِنَّمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كُنَّا عَنِ آبَاءِكُمْ﴾ لَأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا فَرَّغُوا مِنْ حَجِّهِمْ يَقِفُونَ عِنْدَ الْجَمْرَةِ، فَيَنْكُرُونَ مَفَاخِرَ آبَائِهِمْ، وَمَنَاقِبَ أَسْلَافِهِمْ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِنُكْرِهِ مَكَانَ ذَلِكَ النُّكْرِ، وَيَجْعَلُونَهُ نُكْرًا مِثْلَ نُكْرِهِمْ لِأَبَائِهِمْ، أَوْ أَشَدَّ مِنْ نُكْرِهِمْ لِأَبَائِهِمْ. قَالَ الزَّجَّاجُ: إِنْ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ فِي مَوْضِعِ خَفْضِ عَطْفٍ عَلَى نُكْرِكُمْ، وَالْمَعْنَى، أَوْ كَأَشَدَّ نُكْرًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ: أَيْ: أَنْكُرُوهُ أَشَدَّ نُكْرًا. وَقَالَ فِي الْكُشَافِ: إِنَّهُ عَطْفٌ عَلَى مَا أَضِيفَ إِلَيْهِ النُّكْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنَّا عَنِ آبَائِكُمْ﴾ كَمَا تَقُولُ كُنَّا قَرِيشَ آبَائِهِمْ، أَوْ قَوْمِ أَشَدَّ مِنْهُمْ نُكْرًا. قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ﴾ الْآيَةُ، لَمَّا أُرْشِدَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ إِلَى نُكْرِهِ، وَكَانَ الدُّعَاءُ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ النُّكْرِ جَعَلَ مِنْ يَدْعُوهُ مُنْقَسِمًا إِلَى قَسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا يَطْلُبُ حَظَّ الدُّنْيَا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى حَظِّ الْآخِرَةِ، وَالْقِسْمُ الْآخَرُ يَطْلُبُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، وَمَفْعُولُ الْفِعْلِ، أَعْنَى قَوْلُهُ: ﴿فَتَنَا﴾ مُحْذَوْفٌ أَيْ: مَا نُرِيدُ، أَوْ مَا نَطْلُبُ، وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُ﴾ وَآوُ الْحَالِ، وَالْجُمْلَةُ بَعْدَهَا حَالِيَّةٌ. وَالْخِلَاقُ: النَّصِيبُ، أَيْ: وَمَا لِهَذَا الدَّاعِي فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ؛ لِأَنَّ هَمَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى الدُّنْيَا لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا، وَلَا يَطْلُبُ سِوَاهَا. وَفِي هَذَا الْخَبَرِ مَعْنَى النِّهْيِ عَنِ الْاِقْتِصَارِ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا، وَالذَّمُّ لِمَنْ جَعَلَهَا غَايَةً رَغْبَتَهُ، وَمَعْظَمُ مَقْصُودِهِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِ الْحَسَنَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي الْآيَةِ، فَقِيلَ: هُمَا مَا يَطْلُبُهُ الصَّالِحُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعَافِيَةِ، وَمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الرِّزْقِ، وَمَا يَطْلُبُونَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَالرِّضَا؛ وَقِيلَ الْمَرَادُ بِحَسَنَةِ الدُّنْيَا: الزَّوْجَةُ الْحَسَنَاءُ، وَحَسَنَةُ الْآخِرَةِ: الْحُورُ الْعَيْنُ، وَقِيلَ حَسَنَةُ الدُّنْيَا: الْعِلْمُ وَالْعِبَادَةُ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْحَسَنَتَيْنِ: نَعِيمِ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ. قَالَ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، فَإِنَّ اللَّفْظَ يَقْتَضِي هَذَا كُلَّهُ، فَإِنَّ حَسَنَةَ نُكْرَةٍ فِي سِيَاقِ الدُّعَاءِ، فَهُوَ مُحْتَمَلٌ لِكُلِّ حَسَنَةٍ مِنَ الْحَسَنَاتِ عَلَى الْبَدَلِ، وَحَسَنَةُ الْآخِرَةِ: الْجَنَّةُ بِجَمَاعٍ. انْتَهَى. قَوْلُهُ: ﴿وَقَنَا﴾ أَصْلُهُ أَوْقَنَا حَذَفَتْ الْوَاوُ، كَمَا حَذَفَتْ فِي يَقِي؛ لِأَنَّهَا بَيْنَ يَاءٍ، وَكَسْرَةٍ مِثْلُ يَعِدُ، هَذَا قَوْلُ الْبَصْرِيِّينَ. وَقَالَ الْكُوفِيُّونَ: حَذَفَتْ فَرَقًا

بين اللازم، والمتعدّي. وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ﴾ جنس ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأعمال أي: من ثوابها، ومن جملة أعمالهم الدعاء، فما أعطاهم الله بسببه من الخير، فهو مما كَسَبُوا، وقيل: إن معنى قوله: ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ التعليل. أي: من أجل ما كَسَبُوا، وهو بعيد، قيل إن قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الفريقين جميعاً، أي: للأوليين نصيب من الدنيا، ولا نصيب لهم في الآخرة، وللآخرين نصيب مما كَسَبُوا في الدنيا، وفي الآخرة. وسريع من سرع يسرع كعظم يعظم سرعاً، وسرعة، والحساب مصدر كالمحاسبة، وأصله العدد، يقال: حسب يحسب حساباً، وحساباً، وحسباناً، وحسباً. والمراد هنا المحسوب، سمي حساباً تسمية للمفعول بالمصدر، والمعنى: أن حساباً لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه، فبادروا ذلك بأعمال الخير، أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عندهم، وأنه لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسبهم في حالة واحدة كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بِعَنْكُمْ إِلَّا كُنُفُسٌ وَاحِدَةٌ﴾ [لقمان: 28]، قوله: ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي: أيام منى، وهي أيام التشريق، وهي أيام رمي الجمار. وقال الثعلبي: قال إبراهيم: الأيام المعدودات أيام العشر، والأيام المعلومات أيام النحر. وكذا روي عن مكّي، والمهدي. قال القرطبي: ولا يصح لما ذكرناه من الإجماع على ما نقله أبو عمر بن عبد البر، وغيره وروى الطحاوي عن أبي يوسف أن الأيام المعلومات أيام النحر، قال: لقوله تعالى: ﴿وَيُنْكِرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام [الحج: 28] وحكى الكرخي عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة: يوم الأضحي، ويومان بعده. قال الكيا الطبري: فعلى قول أبي يوسف، ومحمد لا فرق بين المعلومات، والمعدودات، لأن المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف. وروي عن مالك أن الأيام المعدودات، والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام، يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، فيوم النحر معلوم غير معدود، واليومان بعده معلومان معدودان، واليوم الرابع معدود لا معلوم، وهو مروى عن ابن عمر. وقال ابن زيد: الأيام المعلومات: عشر ذي الحجة، وأيام التشريق. والمخاطب بهذا الخطاب المذكور في الآية، أعني قوله تعالى: ﴿وَانْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ هو الحاج، وغيره كما ذهب إليه الجمهور، وقيل: هو خاص بالحاج. وقد اختلف أهل العلم في وقته، فقيل: من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق؛ وقيل: من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر النحر، وبه قال أبو حنيفة، وقيل: من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال مالك، والشافعي، قوله: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ الآية، اليومان هما يوم ثاني النحر، ويوم ثالثه. وقال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والنخعي، من

عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا ينكرون من أمر الآخرة شيئاً، فانزل الله فيهم: ﴿فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ ويحيى بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فانزل الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وأخرج الطبراني، عن عبد الله بن الزبير قال: كان الناس في الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام دعوا، فقال أحدهم: اللهم ارزقني إبلاً، وقال الآخر: اللهم ارزقني غنماً، فانزل الله الآية. وأخرج ابن جرير، عن أنس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراً، فيدعون: اللهم اسقنا المطر، وأعطينا على عدونا الظفر، وربنا صالحين إلى صالحين، فنزلت الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ قال: مما عملوا من الخير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال: سريع الإحصاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، عن علي قال: الأيام المعدودات ثلاثة أيام: يوم الأضحى، ويومان بعده، أتبع في أيها شئت، وأفضلها أولها. وأخرج الفريابي، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، عن ابن عمر أنها أيام التشريق الثلاثة. وفي لفظ: هذه الأيام الثلاثة بعد يوم النحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة، عن ابن عباس قال: الأيام المعلومات أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق. وأخرج الطبراني، عن ابن الزبير قال في قوله: ﴿وَأَنكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: هن أيام التشريق، ينكر فيهن بتسبيح، وتهليل، وتكبير، وتحميد، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الأيام المعدودات أربعة أيام: يوم النحر، والثلاثة أيام بعده. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه كان يكبر تلك الأيام بمعنى، ويقول التكبير واجب، ويتأول هذه الآية: ﴿وَأَنكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه كان يكبر يوم النحر، ويتلو هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿وَأَنكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: التكبير أيام التشريق، يقول في دبر كل صلاة: الله أكبر الله أكبر الله أكبر. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر أنه كان يكبر ثلاثاً ثلاثاً وراء الصلوات ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وأخرج المروزي عن الزمري قال: كان رسول الله ﷺ يكبر أيام التشريق كلها. وأخرج مالك، عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر بمنى حين ارتفع النهار شيئاً، فكبر، وكبر الناس بتكبيره، ثم خرج الثانية في يومه ذلك بعد ارتفاع النهار، فكبر، وكبر الناس بتكبيره حتى بلغ تكبيرهم البيت، ثم خرج الثالثة من يومه ذلك حين زاغت الشمس، فكبر، وكبر الناس بتكبيره. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ كان

رمى في اليوم الثاني من الأيام المعدودات، فلا حرج، ومن تأخر إلى الثالث، فلا حرج، فمعنى الآية كل ذلك مباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً، وتأكيداً؛ لأن من العرب من كان يذم التعجل، ومنهم من كان يذم التأخر، فنزلت الآية رافعة للجناح في كل ذلك. وقال علي، وابن مسعود: معنى الآية: من تعجل، فقد غفر له، ومن تأخر، فقد غفر له والآية قد دلت على أن التعجل، والتأخر مباحان. وقوله: ﴿لَمَن لَّتَقَى﴾ معناه أن التخيير، ورفع الإثم ثابت لمن اتقى؛ لأن صاحب التقوى يتحرز، عن كل ما يريبه، فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم. قال الأخفش: التقدير ذلك لمن اتقى، وقيل: لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي، وقيل: لمن اتقى قتل الصيد؛ وقيل معناه: السلامة لمن اتقى، وقيل: هو متعلق بالذكر. أي: الذكر لمن اتقى.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن عائشة قالت: «كانت قريش، ومن دان ببنيها يقفون بالمرزلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكانت سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات، ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾». وأخرج أيضاً، عنها موثقاً، نحوه. وقد ورد في هذا المعنى روايات، عن الصحابة، والتابعين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: إذا كان يوم عرفة هبط الله إلى سماء الدنيا في الملائكة، فيقول لهم: عبادي آمنوا بوعدي، وصَلُّوا برسلي ما جزاؤهم؟ فيقال أن تغفر لهم، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد رويت أحاديث كثيرة في المغفرة لأهل عرفة، ونزول الرحمة عليهم، وإجابة دعائهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ﴾ قال: حجكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ﴾ قال: إهراق الدماء ﴿فَإَنكُرُوا اللَّهَ كَنُكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ قال: تفاخر العرب بينها بفعل آبائها يوم النحر حين يفرغون، فأمروا بنكر الله مكان ذلك. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: كان المشركون يجلسون في الحج، فينكرون أيام آبائهم، وما يعنون من أنسابهم يومهم أجمع، فانزل الله على رسوله: ﴿فَإَنكُرُوا اللَّهَ كَنُكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ إِشْدَ نَكَرًا﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبير، وعكرمة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَنُكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ يقول: كما ينكر الابناء الآباء. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أيضاً أنه قيل له في قوله: ﴿كَنُكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ إن الرجل ليأتي عليه اليوم، وما ينكر أباه، فقال: إنه ليس بذلك، ولكن يقول: تغضب لله إذا عصي أشد من غضبك إذا نكر والدك بسوء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله

وقرأ أبي، وابن مسعود: «ويستشهد الله على ما في قلبه». وقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بالقول، أو بيعجبك، فعلى الأول القول صادر في الحياة، وعلى الثاني الإعجاب صادر فيها. والألذ: التشديد الخصومة. يقال: رجل ألد، وامرأة لداء، ولدت له ألد: إذا جالته، فغلبته، ومنه قول الشاعر:

ولذي جنف عليّ كأنما نغلى عداوة صدره في مرجل
والخصام مصدر خاصم. قاله الخليل، وقيل: جمع خصم، قاله الزجاج ككلب، وكلاب، وصعب، وصعاب، وضخم، وضخام. والمعنى: أنه أشد المخاصمين خصومة، لكثرة جداله، وقوة مراجعته، وإضافة الألد إلى الخصام بمعنى في. أي: ألد في الخصام، أو جعل الخصام ألد على المبالغة. وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أي: أنبر، وذهب عنك يا محمد، وقيل: إنه بمعنى ضل، وغضب، وقيل: إنه بمعنى الولاية، أي: إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض. والسعي المذكور يحتمل أن يكون المراد به السعي بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض، كقطع الطريق، وحرب المسلمين، ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد، وإن لم يكن فيه سعي بالقدمين، كالتدبير على المسلمين بما يضرهم، وأعمال الحيل عليهم، وكل عمل يعمل الإنسان بجوارحه، أو حواسه يقال له سعي، وهذا هو الظاهر من هذه الآية. وقوله: ﴿وَيُوبِهَكَ﴾ عطف على قوله: ﴿يُفْسِدُ﴾ وفي قراءة أبي: ﴿وَلِيُوبِهَكَ﴾. وقراه قتادة بالرفع. وروي عن ابن كثير: ﴿وَيُوبِهَكَ﴾ بفتح الياء وضم الكاف، ورفع الحرف، والنسب. وهي قراءة الحسن، وابن محيصن. والمراد بالحرث: النزوع والنسل: الأولاد، وقيل الحرث: النساء. قال الزجاج: وذلك، لأن النفاق يؤدي إلى تفريق الكلمة، ووقوع القتال، وفيه هلاك الخلق، وقيل معناه: أن الظلم يفسد في الأرض، فيمسك الله المطر، فيهلك الحرث، والنسل. وأصل الحرث في اللغة: الشق، ومنه المحراث لما يشق به الأرض، والحرث: كسب المال، وجمعه. وأصل النسل في اللغة: الخروج، والسقوط، ومنه نسل الشعر، ومنه أيضاً: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: 51] ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حُذُبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96]، ويقال لما خرج من كل أنثى نسل لخروجه منها. وقوله: ﴿وَوَاهٍ لَا يَحِبُّ لِلْفَسَادِ﴾ يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، وما فيه فساد الدنيا. والعزة: القوة والغلبة، من عزة يعزه: إذا غلبه، ومنه ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: 23] وقيل: العزة هنا: الحمية، ومنه قول الشاعر:

أخذته عزة من جهله فتولى مغضباً فعل الضجر
وقيل العزة هنا: المنعة وشدة النفس. ومعنى: ﴿لأخذه العزة بالإثم﴾ حملته العزة على الإثم، من قولك أخذته بكذا: إذا حملته عليه، وألزمته إياه، وقيل: أخذته العزة بما يؤثمه أي: ارتكب الكفر للعزة، ومنه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: 2] وقيل: الباء في قوله: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ بمعنى اللام، أي: أخذته العزة، والحمية عن قبول الوعظ للإثم الذي

يرمي الجمار، ويكبر مع كل حصة. وقد روي نحو ذلك من حديث عائشة عند الحاكم وصححه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال: في تعجيله: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال: في تأخيره. وأخرج ابن جرير، عن ابن عمر قال: النفر في يومين لمن اتقى. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه قال: من غابت له الشمس في اليوم الذي قال الله فيه: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وهو بمنى، فلا ينفر حتى يرمى الجمار من الغد، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمَنْ اتَّقَى﴾ قال: لمن اتقى الصيد، وهو محرم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأهل السنن، والحاكم وصححه، عن عبد الرحمن بن يعمر الليلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وهو واقف بعرفة، وآتاه الناس من أهل مكة، فقالوا: يا رسول الله كيف الحج؟ قال: الحج عرفات، فمن أدرك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك أيام منى ثلاثة أيام: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال: مغفوراً له: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ قال مغفوراً له. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿لَمَنْ اتَّقَى﴾ قال: لمن اتقى في حجه. قال قتادة، ونكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: من اتقى في حجه غفر له ما تقدم من ذنبه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ قال: ذهب إثمك كله إن اتقى فيما بقي من عمره.

وَمَنْ أُنْثِيَ مِنْ يَوْمَيْنِ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَمَنْ أَلْخَصَّارُ ﴿٩٦﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُذْهِبَ فِيهَا رَيْبُكَ إِلَهُكَ وَالشَّلَّ وَالشَّلَّ لَا يَحِبُّ النَّكَاسَ ﴿٩٧﴾ وَإِذَا يَدُكَ أُنْثِيَ اللَّهُ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَصَبَّهْهُمْ وَلَيْسَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَمَنْ أُنْثِيَ مِنْ يَوْمَيْنِ نَسَّكَ أَبْنَاءَهُ مَكَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْكَافِرِ ﴿٩٨﴾

لما نكر سبحانه طائفتي المسلمين بقوله: ﴿فَمَنْ لَئِيسَ مِنْ يَوْمَيْنِ﴾ عقب ذلك بنكر طائفة المنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر. وسبب النزول الأخنس بن شريق كما يأتي بيانه. قال ابن عطية: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم، وقيل إنها نزلت في قوم من المنافقين، وقيل: إنها نزلت في كل من أضمر كفرًا، أو نفاقًا، أو كذبًا، وأظهر بلسانه خلافه. ومعنى قوله: ﴿يُعِجِبُكَ﴾ واضح. ومعنى قوله: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه يحلف على ذلك فيقول: يشهد الله على ما في قلبي من محبتك، أو من الإسلام، أو يقول: الله يعلم أنني أقول حقًا، وأني صادق في قولك لك. وقرأ ابن محيصن: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ﴾ بفتح حرف المضارعة، ورفع الاسم الشريف على أنه فاعل، والمعنى: ويعلم الله منه خلاف ما قال، ومثله قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1] وقرأه الجماعة أبلغ في الذم. وقرأ ابن عباس: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾

والنواب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أيضاً أنه سئل، عن قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يلي في الأرض، فيعمل فيها بالعنوان، والظلم، فيحبس الله بذلك القطر من السماء، فتهلك بحبس القطر الحرث، والنسل، والله لا يحب الفساد. ثم قرأ مجاهد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿وَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ﴾ قال: المحرث الزرع، والنسل: نسل كل دابة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود قال: «إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول عليك بنفسك أنت تأمرني». وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في الشعب، عن سفيان قال: قال رجل لمالك بن مغول: اتق الله، فسقط، فوضع خذّه على الأرض تواضعاً لله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلِبَئْسَ الْمَهَادُ﴾ قال: بئس المنزل. وأخرجنا عن مجاهد قال: بئس ما شهدوا لأنفسهم. وأخرج ابن مردويه، عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا، ولا مال لك، وتخرج أنت، ومالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرايتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ وسلم فقال: ربح البيع صهيب مرتين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر، عن سعيد بن المسيب، نحوه. وأخرج الطبراني، والحاكم، والبيهقي في الدلائل، عن صهيب، نحوه. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه، عن أنس قال: نزلت في خروج صهيب إلى النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: هم المهاجرون والانصار.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ ﴿٢٠٦﴾ تِلْكَ رُكُوتَاتُ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا اللَّهَ مُغَايِرَةً لِّدِينِهِ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا جَاءَكُمْ بِالْحَبْرَةِ وَأَتَيْتُمْ لَهَا عِلْمًا إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٨﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْسَّامِ وَالْمَكْبَكَةِ فَفُتِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٠٩﴾

لما نكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملة واحدة. وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان؛ لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم، وكتابهم، والمنافق مؤمن بلسانه، وإن كان غير مؤمن بقلبه. والسلم بفتح السين، وكسرهما قال الكسائي: ومعناها واحد، وكذا عند البصريين، وهما جميعاً يقعان للإسلام، والمسالمة. وقال أبو عمرو بن العلاء: إنه بالفتح للمسالمة، وبالكسر للإسلام. وأنكر المبرد هذه التفرقة. وقال الجوهري: السلم بفتح السين: الصلح، وتكسر، ويذكر ويؤنث، وأصله من

في قلبه، وهو: التفاق، وقيل: الباء بمعنى مع. أي: أخذته العزة مع الإثم. وقوله: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: كافية معاقبة، وجزاء، كما تقول للرجل: كفك ما حل بك، وأنت تستعظم عليه ما حل به. والمهاد جمع المهد، وهو الموضع المهيأ للنوم، ومنه مهد الصبي، وسميت جهنم مهاداً؛ لأنها مستقر الكفار، وقيل المعنى: أنها بدل لهم من المهاد كقوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] وقول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

ويشري بمعنى يبيع، أي: يبيع نفسه في مرضاة الله كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومثله قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] وأصله الاستبدال ومنه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: 111]، ومنه قول الشاعر: وشريت برديا ليتني من بعد برد كنت هامة ومنه قول الآخر:

يعطي بها ثمناً فيمنعها ويقول صاحبه لا تشري والمرضاة: الرضا، تقول: رضي يرضى، رضا ومرضاة. ووجه نكر الرافقة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجب ليجازيهم، ويثيبهم عليه، فكان ذلك رافقة بهم، ولطفاً لهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لما أصيبت السرية التي فيها عاصم، ومردث قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعِجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما يظهر من الإسلام بلسانه: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه مخالف لما يقوله بلسانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ﴾ أي: ذو جدال إذا كلمك وراجعك: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ خرج من عنك: ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ والله لا يحب للفساد أي: لا يحب عمله، ولا يرضى به: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الذين يشرون أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله، والقيام بحقه، حتى هلكوا على ذلك يعني: هذه السرية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعِجِبُكَ﴾ الآية، قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة أقبل إلى النبي ﷺ المدينة، وقال جثث أريد الإسلام، ويعلم الله أنني لصائق، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، فذلك قوله: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾. ثم خرج من عند النبي ﷺ، فمر بزرع لقوم من المسلمين، وحمز، فأحرق الزرع، وعقر الحمز، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ﴾ قال هو: شديد الخصومة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ قال عمل في الأرض: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾ قال نبات الأرض: ﴿وَالنَّسْلَ﴾ نسل كل شيء من الحيوان، الناس،

عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه؛ فكانه قد كان، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة، أي: وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم. وقرأ معاذ بن جبل: «وقضاء الأمر» بالمصدر عطفاً على الملائكة. وقرأ يحيى بن يعمر: «وقضى الأمور» بالجمع. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: «ترجع الأمور» على بناء الفعل للفاعل، وقرأ الباقون على البناء للمفعول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اخْلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾ قال: يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة، والشرائع التي أنزلت فيهم، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد، ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم الإيمان بالتوراة، وما فيها. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة: أن هذه الآية نزلت في ثعلبة، وعبد الله بن سلام، وابن يامين، وأسد، وأسيد ابني كعب، وسعيد بن عمرو وقيس بن زيد كلهم من يهود قالوا: يا رسول الله يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنسب فيهِ، وإن التوراة كتاب الله، فلنقم بها الليل، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اخْلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: السلم الطاعة لله، وكافة يقول: جميعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: السلم: الإسلام، والزلزل: ترك الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنَ السَّلَامِ﴾ قال: فإن ظلمتم من بعد ما جاءكم محمد ﷺ. وأخرج ابن مريويه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين، والأخريين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصاً أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عمر في هذه الآية قال: يهبط حين يهبط، وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور، والظلمة، والماء، فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخل له القلوب. وأخرج أبو يعلى، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية قال: يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب قد قطعت طاقات. وأخرج ابن جرير، والديلمي عنه أن النبي ﷺ قال: «إن من الغمام طاقات يأتي الله فيها محفوفات بالملائكة، وذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة: «في ظلل من الغمام» قال: طاقات، والملائكة حوله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وتأتيهم الملائكة عند الموت. وأخرج عن عكرمة في قوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يقول: قامت الساعة.

سَلِّ بِحَسْرَةٍ كَمْ مَاتَتْهُمْ مِنْ عَالَمٍ يَسْتَرْوْنَ وَمَنْ يَزِيلُ رَحْمَةً اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠٠﴾ زَيْنَ اللَّيْلِ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَحَرُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا قَوْمَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَزِدُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

الاستسلام، والانقياد. ورجح الطبري أنه هنا بمعنى الإسلام، ومنه قول الشاعر الكندي:

دعوت عشيرتي للسلم لما رأيتهم تولوا مبشرين
أي: إلى الإسلام. وقرأ الأعمش: «السلم» بفتح السين، واللام. وقد حكى البصريون في سلم، وسلم، وسلم أنها بمعنى واحد: «وكافة» حال من السلم، أو من ضمير المؤمنين، فمعناه على الأول: لا يخرج منكم أحد، وعلى الثاني: لا يخرج من أنواع السلم شيء بل ادخلوا فيها جميعاً. أي: في خصال الإسلام، وهو مشتق من قولهم كفت، أي: منعت، أي: لا يمتنع منكم أحد من الدخول في الإسلام، والكف: المنع، والمراد به هنا: الجميع «الداخلوا في السلم كافة» أي: جميعاً. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تسلكوا الطريق التي يدعوكم إليه الشيطان، وقد تقدم الكلام على خطوات. قوله: ﴿زَلَلْتُمْ﴾ أي: تنحيتم عن طريق الاستقامة، وأصل الزلل في القدم، ثم استعمل في الاعتقادات، والآراء، وغير ذلك، يقال زل يزل زلاً، وزللاً، وزلواً، أي: انحضت قدمه. وقرئ: ﴿زَلَلْتُمْ﴾ بكسر اللام، وهما لغتان، والمعنى: فإن ضللت، وعزجت عن الحق: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الحجج الواضحة، والبراهين الصحيحة، أن الدخول في الإسلام هو: الحق «فاعلموا أن الله عزيز» غالب لا يعجزه الانتقام منكم «حكيم» لا ينتقم إلا بحق. قوله «هل ينظرون» أي: ينتظرون، يقال: نظرت وانتظرت بمعنى، والمراد هل ينتظر التاركين للدخول في السلم، والظلل جمع ظلة، وهي ما يظلك، وقرأ قتادة، ويزيد بن القعقاع: «في ظلال» وقرأ يزيد أيضاً «والملائكة» بالجر عطفاً على الغمام، أو على ظلل. قال الأخفش: «والملائكة» بالخفض بمعنى: وفي الملائكة قال: والرفع أجود. وقال الزجاج: التقدير في ظلل من الغمام، ومن الملائكة. والمعنى: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب، والعذاب في ظلل من الغمام، والملائكة. قال الأخفش: وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزء، فسمي الجزء إتياناً كما سمي التخويف، والتعذيب في قصة ثمود إتياناً، فقال «فأتى الله بنيانهم من القواعد» [النحل: 26] وقال في قصة النضير «فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» [الحشر: 2] وإنما احتمل الإتيان هذا؛ لأن أصله عند أهل اللغة القصد إلى الشيء، فمعنى الآية: هل ينظرون إلا أن يظهر الله فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى محاربتهم وقيل إن المعنى: يأتيهم أمر الله، وحكمه، وقيل: إن قوله: «في ظلل» بمعنى بظلل، وقيل: المعنى: يأتيهم ببأسه في ظلل. والغمام: السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك؛ لأنه يغم. أي: يستر. ووجه إتيان العذاب في الغمام على تقدير أن ذلك هو المراد ما في مجيء الخوف من محل الأمن من الفظاعة، وعظم الموقع؛ لأن الغمام مظنة الرحمة لا مظنة العذاب. وقوله: «وقضى الأمر» عطف على يأتيهم داخل في حيز الانتظار، وإنما

أسفل سافلين، أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام، وسقوط الكفر، وقتل أهله، وأسرهم، وتشريدهم، وضرب الجزية عليهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة. قوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. يحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين، ويوسع عليهم، ويجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب. أي: بغير تقدير، ويحتمل أن المعنى: أن الله يوسع على بعض عباده في الرزق، كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدرجا لهم، وليس في التوسعة دليل على أن من وسع عليه، فقد رضي عنه، ويحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال سبحانه: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 3]. قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: كانوا على دين واحد فاختلوا: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ ويدل على هذا المحذوف: أعني: قوله، فاختلوا قراءة ابن مسعود، فإنه قرأ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾. واختلف في الناس المذكورين في هذه الآية من هم؟ فقيل: هم بنو آدم حين أخرجهم الله نسماً من ظهر آدم وقيل: آدم وحده، وسمي ناساً: لأنه أصل النسل، وقيل: آدم وحواء، وقيل: المراد: القرون الأولى التي كانت بين آدم ونوح، وقيل: المراد: نوح ومن في سفينته، وقيل: معنى: الآية كان الناس أمة واحدة كلهم كفار فبعث الله النبيين؛ وقيل: المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم كانوا أمة واحدة في خلوقهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا أن الله من عليهم بإرسال الرسل. والأمة مأخوذة من قولهم أمت الشيء، أي: قصده، أي: مقصدهم واحد غير مختلف. قوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ قيل: جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر. وقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ بالنصب على الحال. قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الجنس. وقال ابن جرير الطبري: إن الألف واللام للعهد والمراد التوراة. وقوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ مسند إلى الكتاب في قول الجمهور، وهو: مجاز مثل قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: 29] وقيل: إن المعنى ليحكم كل نبي بكتابه، وقيل: ليحكم الله، والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ الأولى راجع إلى ما في قوله: ﴿فِيهِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ والضمير في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ يحتمل أن يعود إلى الكتاب، ويحتمل أن يعود إلى المنزل عليه وهو محمد ﷺ، قاله الزجاج: ويحتمل أن يعود إلى الحق. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: أوتوا الكتاب، أو أوتوا الحق، أو أوتوا النبي، أي: أعطوا علمه. وقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ منتصب على أنه مفعول به أي، لم يختلفوا إلا للبغي: أي: الحسد والحرص على الدنيا، وفي هذا تنبيه على السفه في فعلهم، والقبیح الذي وقعوا فيه؛ لأنهم جعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الخلاف. وقوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ

حِسَابٍ ۖ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ الْكَافِرِينَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَهُمْ الْكِتَابُ بِبَيِّنَاتٍ مِنْهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ أُوتُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ لِإِذْ بَدَّيْنَهُمْ يَهُودِيٌّ مِنْ يَصْرٍ ۖ فَسَتَفِيقُ ۝

المأمور بالسؤال لبني إسرائيل هو النبي ﷺ، ويجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين، وهو سؤال تقرير وتوبيخ. و﴿حكم﴾ في محل نصب بالفعل المذكور بعدها على أنها مفعول بآتي، ويجوز أن ينتصب بفعل مقتر دل عليه المذكور. أي: كم آتينا آتيناها، وقتر متاخراً؛ لأن لها صدر الكلام، وهي إما استفهامية للتقرير، أو خبرية للتكثير. و﴿من آية﴾ في موضع نصب على التمييز، وهي البراهين التي جاء بها أنبياءهم في أمر محمد ﷺ، وقيل: المراد بذلك الآيات التي جاء بها موسى، وهي التسع. والمراد بالنعمة هنا: ما جاءهم من الآيات. وقال ابن جرير الطبري: النعمة هنا الإسلام، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائناً من كان، فوقع منه التبديل لها، وعدم القيام بشكرها، ولا ينافي ذلك كون السياق في بني إسرائيل، أو كونهم السبب في النزول لما تقرر من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ من الترهيب، والتخويف ما لا يقادر قدره. قوله: ﴿زَيْنٌ﴾ مبني للمجهول، والمزین: هو الشيطان، أو الانفس المجبولة على حب العاجلة. والمراد بالذين كفروا: رؤساء قريش، أو كل كافر. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس: «زین» على البناء للمعلوم. قال النحاس: وهي قراءة شاذة؛ لأنه لم يتقدم للفعل نكر. وقرأ ابن أبي عبلة: «زینت» وإنما خص الذين كفروا بالذكر مع كون الدنيا مزينة للمسلم، والكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليلو الخلق أيهم أحسن عملاً؛ لأن الكافر افتتن بهذا للترزين، وأعرض عن الآخرة، والمسلم لم يفتتن به، بل أقبل على الآخرة. قوله: ﴿وَيُؤَسِّرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال. أي: والحال أن أولئك الكفار يسخرون من الذين آمنوا لكونهم فقراء لا حظ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفر، وأساطين الضلال، وذلك: لأن عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذي يكون من ناله سعيداً وراجحاً، ومن حرمه شقياً خاسراً. وقد كان غالب المؤمنين إذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة، وأمر الآخرة، وعدم التفاتهم إلى الدنيا وزينتها. وحكى الأخفش أنه يقال: سخرت منه، وسخرت به، وضحكت منه، وضحكت به، وهزأت منه، وهزأت به، والاسم السخرية، والسخري. ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين رد الله عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والمراد بالفوقية هنا: العلو في الدرجة؛ لأنهم في الجنة، والكفار في النار، ويحتمل أن يراد بالفوق المكان؛ لأن الجنة في السماء، والنار في

«كان الناس أمة واحدة فاختلَفوا فبعث الله النبيين» وإن الله إنما بعث الرسل، وأنزل الكتب بعد الاختلاف، وما اختلف الذين أوتوه: يعني بني إسرائيل أوتوا الكتاب، والعلم بغياً بينهم، يقول: بغياً على الدنيا، وطلب ملكها، وزخرفها أيهم يكون له الملك، والمهابة في الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: «كان الناس أمة واحدة» قال: كفاراً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة في قوله: «فهدى الله الذين آمنوا» قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، وأول الناس سخرلاً يبدأ بهم، أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناها من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتناس لنا فيه تبع، فهدا لليهود، وبعد غد للنصارى» وهو في الصحيح بدون ذكر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في قوله: «فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق» قال: اختلفوا في يوم الجمعة، فأخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة، واختلفوا في القبلية، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، وهدى أمة محمد للقبلة، واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع، ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم النهار، ومنهم من يصوم من بعد الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى، فكذبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتَّخَذُوا الْيَمِينُ وَلَكِنَّ يَأْتِيَكُمْ مُتْلَى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَنْهُمْ الْبَاسَاءُ وَالْأَشْرَارُ وَذُرُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ
أَوَّلِهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ أَوَّلِهِ قَرِيبٌ ﴿١٤٢﴾

«أم» هنا منقطعة بمعنى بل. وحكى بعض اللغويين أنها قد تجيء بمثابة همزة الاستفهام يبتدأ بها الكلام، فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير، والإنكار. أي: أحسبتم دخولكم الجنة واقعاً، ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم، فتصبروا كما صبروا، نكر الله سبحانه هذه التسلية بعد أن نكر اختلاف الأمم على أنبيائهم، تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، ومثل هذه الآية قوله تعالى: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم» [آل عمران: 142] وقوله تعالى: «الأم حسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون» [العنكبوت: 1 - 2] وقوله: «مستهم» بيان لقوله: «مثل الذين خلوا». والبأساء والضراء: قد تقدم تفسيرهما، والزلزلة: شدة التحريك يكون في الأشخاص وفي الأحوال، يقال: زلزل الله الأرض زلزلة، وزلزالاً بالكسر،

للحق» أي: فهدى الله أمة محمد ﷺ إلى الحق، وذلك بما بينه لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم وقيل: معناه: فهدى الله أمة محمد للتصديق، بجميع الكتب بخلاف من قبلهم، فإن بعضهم كذب كتاب بعض، وقيل: إن الله هداهم إلى الحق من القبلية، وقيل: هداهم ليوم الجمعة، وقيل: هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كذبت اليهود، وجعلته النصراني رباً، وقيل: المراد بالحق: الإسلام. وقال الفراء: إن في الآية قلباً، وتقديره: فهدى الله الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه. واختاره ابن جرير، وضعفه ابن عطية. وقوله: «وبأنه». قال الزجاج: معناه بطله. قال النحاس: وهذا غلط، والمعنى بأمه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: «وسل بني إسرائيل» قال: هم اليهود «كم أتيناها من آية بيينة» ما نكر الله في القرآن، وما لم ينكر: «ومن يبذل نعمة الله» قال: يكفرها: وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: أتاهم الله آيات بينات: عصى موسى، ويده، وأقطعهم البحر، وأغرق عذومهم، وهم ينظرون، وظلل من الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. «ومن يبذل نعمة الله» يقول من يكفر بنعمة الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: «زين للذين كفروا الحياة الدنيا» قال: الكفار يبتغون الدنيا، ويطلبونها «ويسخرون من الذين آمنوا» في طلبهم الآخرة. قال ابن جريج: لا أحسبه إلا عن عكرمة. قال: قالوا: لو كان محمد نبياً لاتبعه ساداتنا، وأشرافنا، والله ما اتبعه إلا أهل الحاجة مثل ابن مسعود، وأصحابه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: «ويسخرون من الذين آمنوا» يقولون: ما هؤلاء على شيء استهزاء، وسخرية «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» هنا كم التفاضل. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة قال: فوقهم في الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: سألت ابن عباس، عن هذه الآية «والله يرزق من يشاء بغير حساب» قال: تفسيرها ليس على الله رقيب، ولا من يحاسبه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد ابن جبير قال: لا يحاسب الرب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو يعلى، والطبراني بسند صحيح، عن ابن عباس قال: كان الناس أمة واحدة قال: على الإسلام كلهم. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه قال: كان بين آدم، ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلَفوا، فبعث الله النبيين. قال: وكذلك في قراءة عبد الله «كان الناس أمة واحدة فاختلَفوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب قال: كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم، ففطروهم الله على الإسلام، واقرؤوا له بالعربية، وكانوا أمة واحدة مسلمين، ثم اختلفوا من بعد آدم. وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد «كان الناس أمة واحدة» قال: آدم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي أنه كان يقرؤها:

فتزلزلت إذا تحركت، واضطربت، فمعنى زلزلوا: خوفوا وأزعجوا إزعاجاً شديداً. وقال الزجاج: أصل الزلزلة: نقل الشيء من مكانه، فإذا قلت: زلزلته فمعناه كررت زلله من مكانه. وقوله: **﴿حتى يقول﴾** أي: استمر ذلك إلى غاية هي: قول الرسول، ومن معه: **﴿متى نصر الله﴾** والرسول هنا قيل: هو محمد ﷺ؛ وقيل: هو شعيب؛ وقيل هو كل رسول بعث إلى أمته. وقرأ مجاهد، والأعرج، ونافع، وابن محيصن بالرفع في قوله: **﴿حتى يقول﴾** وقرأ غيرهم بالنصب فالرفع على أنه حكاية لحال ماضية، والنصب بإضمار أن على أنه غاية لما قبله. وقرأ الأعمش: **﴿وزلزلوا ويقول الرسول﴾** بالواو بدل حتى، ومعنى ذلك أن الرسول ومن معه بلغ بهم الضجر إلى أن قالوا هذه المقالة المقتضية لطلب النصر، واستبطاء حصوله واستطالة تأخره، فبشرهم الله سبحانه بقوله: **﴿إلا إن نصر الله قريب﴾**. وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول ﷺ: إلا إن نصر الله قريب، ولا ملجئ لهذا التكلف؛ لأن قول الرسول، ومن معه: **﴿متى نصر الله﴾** ليس فيه إلا استعجال النصر من الله سبحانه، وليس فيه ما زعموه من الشك، والارتياح حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة أن هذه الآية نزلت في يوم الأحزاب، أصاب النبي ﷺ يومئذ، وأصحابه بلاء، وحصر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه، وصفوته لطيب أنفسهم، فقال **﴿مستهم البأساء والضراء﴾** فالبأساء: الفتن، والضراء: السقم، وزلزلوا بالفتن، وأذى الناس إياهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: **﴿ولما ياتكم مثل الذين خلوا﴾** قال: أصابهم هذا يوم الأحزاب حتى قال قائلهم: **﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾** [الأحزاب: 12] ولعله يعني بقوله: حتى قال قائلهم: يعني: قائل المنافقين كما يفيد ذلك قوله تعالى: **﴿إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾** هناك ابتلي المؤمنين وزلزلوا زلزالاً شديداً. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً [الأحزاب: 10 - 12].

بَسَّالُوكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلْ مَا أَفْقَرُ مِنْ حَيْرٍ كَيْلُولِيْنَ وَالْأَقْرَبِينَ
وَالْأَيْتَنِي وَالْمَكِينِ وَإِنِّي السَّيِّئُ وَمَا تَعْمَلُونَ مِنْ حَيْرٍ إِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ١٣
كَيْبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ وَمَوْ كَرُهُ لَكُمْ وَنَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ حَيْرٌ
لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ١٤

السائلون هنا: هم المؤمنون سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ما هو؟ فأجيبوا ببيان المصروف الذي يصرفونه فيه

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: **﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾** قال: يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، وهي: النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها، فنسختها الزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جرير قال: سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم؟ فنزلت: **﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾** الآية، فنلك النفقة في التطوع، والزكاة سواء ذلك كله. وأخرج ابن المنذر، أن عمرو بن الجموح سأل رسول الله ﷺ: ماذا ننفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: **﴿كتب عليكم القتال﴾** قال: إن الله أمر النبي ﷺ، والمؤمنين بمكة بالتوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يكفوا أيديهم، عن القتال، فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض، وإن لهم في القتال، فنزلت: **﴿كتب عليكم القتال﴾** يعني فرض عليكم، وأن لهم بعد ما نهاهم عنه **﴿وهو كره لكم﴾** يعني: القتال، وهو مشقة عليكم **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾** يعني: الجهاد قتال المشركين، وهو خير لكم، ويجعل الله عاقبته، فتحاً، وغنمة، وشهادة **﴿وعسى أن تحبوا شيئاً﴾** يعني: القعود عن الجهاد **﴿وهو شر لكم﴾** فيجعل الله عاقبته شراً، فلا تصيبوا ظفراً، ولا غنمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج قال: قلت: لعطاء ما يقول في

سبيل الله، والكفر به، والصدّ عن المسجد الحرام، وإخراج أهل الحرم منه: ﴿أكبر عند الله﴾ أي: أعظم إثماً، وأشدّ ذنباً من القتال في الشهر الحرام كذا قال المبرد، وغيره، والضمير في قوله: ﴿وكفر به﴾ يعود إلى الله، وقيل: يعود إلى الحج. وقال الفراء: إن قوله: ﴿وصد﴾ عطف على كبير، والمسجد عطف على الضمير في قوله: ﴿وكفر به﴾ فيكون الكلام منتسقاً متصلاً غير منفصل. قال ابن عطية: وذلك خطأ: لأن المعنى يسوق إلى أن قوله: ﴿وكفر به﴾ أي: بالله عطف أيضاً على كبير، ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر بالله، وهذا بين فساده. ومعنى الآية على القول الأوّل الذي ذهب إليه الجمهور: أنكم يا كافر قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصدّ عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن الكفر بالله، ومن الصدّ عن المسجد الحرام، ومن إخراج أهل الحرم منه أكبر جرماً عند الله. والسبب يشهد لهذا المعنى، ويفيد أنه المراد كما سيأتي بيانه، فإن السؤال منهم المذكور في هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ، والمراد بالفتنة هنا الكفر. أي: كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ. وقيل: المراد بالفتنة: الإخراج لأهل الحرم منه، وقيل: المراد بالفتنة هنا: فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا. أي: فتنة المستضعفين من المؤمنين، أو نفس الفتنة التي الكفار عليها. وهذا أرجح من الوجهين الأولين، لأن الكفر، والإخراج قد سبق ذكرهما، وأنهما مع الصدّ أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام. وقوله: ﴿ولا يزلون﴾ ابتداء كلام يتضمن الإخبار من الله عزّ وجلّ للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار لا يزلون مستمرين على قتالكم، وعداوتكم حتى يردوكم عن الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك، وتهايا لهم منكم، والتقيد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك، وقدرتهم عليه، ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار، والدخول فيما يربونهم من رذمهم عن دينهم الذي هو الغاية لما يربونهم من المقاتلة للمؤمنين، فقال: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ إلى آخر الآية والردة: الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، والتقيد بقوله: ﴿فيمت وهو كافر﴾ يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر. وحبط: معناه بطل، وفسد، ومنه الحبط، وهو: فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها للكلأ، فتنتفخ أجوافها، وربما تموت من ذلك، وفي هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام. ومعنى قوله: ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أنه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئاً مما يستحقه المسلمون، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام، ويستحقه أهله. وقد اختلف أهل العلم في الردّة هل تحبط العمل بمجرد ما لا تحبط إلا بالموت على الكفر، والواجب حمل ما أطلقته الآيات في غير هذا الموضع على ما في هذه الآية

قوله: ﴿كتب عليكم القتال﴾ أوجب الغزو على الناس من أجلها؟ قال: لا، كتب على أولئك حينئذ. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في الآية قال: الجهاد مكتوب على كل أحد غزاً أو قعد، فالقاعد إن استعين به أعان، وإن استغنى به أغاث، وإن استنفر نفر، وإن استغنى عنه قعد، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿وهو كره لكم﴾ قال: نسختها هذه الآية: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ [البقرة: 285]. وأخرج ابن جرير موصولاً، عن عكرمة، عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق عليّ قال: عسى من الله واجب. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي نحوه أيضاً. وقد ورد في فضل الجهاد، ووجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لمبسطها.

يَسْتَلُونَك عَنِ الْكُفْرِ يَتَالِي فِيهِ كَيْفَ وَمَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظَلُّوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَمَتَّى كَانَ فَلِئَلَّيْكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨٦﴾ إِنَّ الدِّينَ أَمَانٌ وَالَّذِينَ قَامُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨٧﴾

قوله: ﴿قتال فيه﴾ هو بدل اشتغال، قاله سيبويه. وجهه أن السؤال عن الشهر لم يكن إلا باعتبار ما وقع فيه من القتال. قال الزجاج: المعنى يستلونك عن القتال في الشهر الحرام، وأنشد سيبويه قول الشاعر:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنّه بنينان قوم تهلما
فقوله: هلكه بدل اشتغال من قيس، وقال الفراء: هو مخفوض يعني قوله: ﴿قتال فيه﴾ على نية عن وقال أبو عبيدة: هو: مخفوض على الجوار. قال النحاس: لا يجوز أن يعرب الشيء على الجوار في كتاب الله، ولا في شيء من الكلام، وإنما وقع في شيء شاذ، وهو قولهم: هذا جحر ضب خرب. وتابع النحاس ابن عطية في تخطئة أبي عبيدة. قال النحاس: ولا يجوز إضمار عن، والقول فيه أنه بدل. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة: «يسالونك عن الشهر الحرام، وعن قتال فيه». وقرأ الأعرج: «قتال فيه» بالرفع. قال النحاس: وهو غامض في العربية، والمعنى: يسالونك عن الشهر الحرام جائز قتال فيه. وقوله: ﴿قتال فيه كبير﴾ مبتدأ وخبر، أي: القتال فيه أمر كبير مستنكر، والشهر الحرام: المراد به الجنس. وقد كانت العرب لا تسفك فيه دمًا، ولا تغير على عدو، والأشهر الحرم هي: نو القعدة، ونو الحجة، ومحرم، ورجب، ثلاثة سرد وواحد فرد. وقوله: ﴿وصدّ عن سبيل الله﴾ مبتدأ. وقوله: ﴿وكفر به﴾ معطوف على صدّ. وقوله: ﴿والمسجد الحرام﴾ عطف على سبيل الله. وقوله: ﴿وإخراج أهله منه﴾ معطوف أيضاً على صدّ. وقوله: ﴿أكبر عند الله﴾ خبر صدّ، وما عطف عليه، أي: الصدّ عن

الثوري: أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا شيء منسوخ، ولا بأس بالقتال في الشهر الحرام. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عمر: ﴿وَالْفَتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ قال: الشرك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ قال: كفار قريش، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء خيار هذه الأمة جعلهم الله أهل رجاء، إنه من رجا طلب، ومن خاف هرب. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَسْئَلُوكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَسْئُورُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة وسْئَلُوكَ عَنِ الْيَسَنِ قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ حَرَّزَ وَإِنْ تَحْلُلُوهُمْ فَلَمْ تَخُونَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ أَنْ يَرْجِيَ حَرْبُهُ ﴿١٧٠﴾

السائلون في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ هم المؤمنون كما سيأتي بيانه عند نكر سبب نزول الآية، والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة، وكل شيء غطي شيئاً، فقد خمره، ومنه: «خمروا أنفسكم» وسمي خمراً لأنه يخمر العقل، أي: يغطيه ويستتره، ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر بفتح الميم، لأنه يغطي ما تحته ويستتره، يقال منه أخمرت الأرض: كثر خمرها. قال الشاعر:

ألا يا زيد والضحك سيراً فقد جاوزتما خمر الطريق
أي: جاوزتما الوحد، وقيل: إنما سميت الخمر خمراً: لأنها تركت حتى أدركت، كما يقال: قد اختمر العجين، أي: بلغ إدراكه، وخمر الراي أي: ترك حتى تبين فيه الوجه، وقيل: إنما سميت الخمر خمراً: لأنها تخلط العقل من المخامرة، وهي: المخالطة. وهذه المعاني الثلاثة متقاربة موجودة في الخمر: لأنها تركت حتى أدركت، ثم خالطت العقل، فخمرت أي: سترته. والخمر: ماء العنب الذي غلا، واشتد، وقذف بالزبد، وما خامر العقل من غيره، فهو في حكمه كما ذهب إليه الجمهور. وقال أبو حنيفة، والثوري، وابن أبي ليلى، وابن عكرمة، وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب، فهو حلال أي: ما لونه المسكر فيه. وذهب أبو حنيفة إلى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ، والخلاف في ذلك مشهور. وقد أطلت الكلام على الخمر في شرحي للمنتقى، فليرجع إليه. والميسر مأخوذ من اليسر، وهو وجوب الشيء لصاحبه، يقال: يسر لي كذا: إذا وجب، فهو يسر يسراً، وميسراً، والياسر اللاعبين بالقرداح. وقد يسر يسراً. قال الشاعر:

فأعنهم وأيسر كما يسروا به وإذا هم نزلوا بضنك فأنزل
وقال الأزهري: الميسر: الجوز التي كانوا يتقامرون عليه، سمي ميسراً: لأنه يجزأ أجزاء، فكانه موضع التجزئة،

من التقبيد. وقد تقدم الكلام في معنى الخلود. قوله: ﴿وَهَاجِرُوا﴾ الهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع، وترك الأول لإيثار الثاني، والهجر ضد الوصل، والتهاجر: التقاطع والمراد بها هنا: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. والمجاهدة: استخراج الجهد، جهد، مجاهدة، وجهاد، والجهاد والتجاهد: بذل الوسع. وقوله: ﴿يَرْجُونَ﴾ معناه يطمعون، وإنما قال: يرجون بعد تلك الأوصاف المانحة التي وصفهم بها، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة، ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ. والرجاء الأمل، يقال: رجوت فلاناً أرجو رجاء، ورجاوة، وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون عظمة الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في سننه بسند صحيح، عن جندب بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح، أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب لينطلق بكى شوقاً، وصالباً إلى النبي ﷺ، فجلس، فبعث مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا، وكذا، وقال: لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعاً، وطاعة لله، ولسروله، فخيرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلان، ومضى بقيتهم، فلحقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب، أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزراً، فليس لهم أجر، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى آخر الآية. وأخرج البزار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية، هو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: إن المشركين صدوا رسول الله ﷺ، وروءه عن المسجد الحرام في شهر حرام، ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام. فقال الله: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ من القتال فيه، وإن محمداً ﷺ بعث سرية، فلحقوا عمرو بن الحضرمي، وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب، وإن أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا، فقتله رجل منهم، وأخذوا ما كان معه، وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك، فنزلت الآية. وأخرج ابن إسحاق عنه: أن سبب نزول الآية مصاب عمرو بن الحضرمي. وقد ورد من طرق كثيرة في تعيين السبب مثل ما تقدم. وأخرج ابن أبي داود عن عطاء بن ميسرة قال: أحل القتال في الشهر الحرام في براءة في قوله: ﴿فَلَا تَقْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وقاتلوا المشركين كافة [التوبة: 36]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان

وكل شيء جزاته، فقد يسرته، والياسر: الجازر، قال: وهذا الأصل في الياسر، ثم يقال للضاربين بالقداح، والمتقامين على الجزور: ياسرون، لأنهم جازرون، إذ كانوا سبباً لذلك. وقال في الصحاح: ويسر القوم الجزور: إذا اجتزروها، واقتسموا أعضاءها، ثم قال: ويقال يسر القوم: إذا قامروا، ورجل ميسر ويسر بمعنى، والجمع أنيسار، قال النابغة:

إنني أتمم أنيساري وأمنحهم مشي الأيادي وكسوا الحفنة الأدماء والمراد بالميسر في الآية: قمار العرب بالأزلام. قال جماعة من السلف من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم: كل شيء فيه قمار من نرد، أو شطرنج، أو غيرهما، فهو الميسر، حتى لعب الصبيان بالجو، والكعب إلا ما أبيح من الرهان في الخيل، والقرعة في إفران الحقيق. وقال مالك: الميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر اللهو: الترد، والشطرنج، والملاهي كلها، وميسر القمار: ما يتخاطر الناس عليه، وكل ما قورم به، فهو ميسر، وسيأتي البحث مطوًلاً في هذا في سورة المائدة عند قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90]. قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ يعني الخمر، والميسر، فإثم الخمر، أي: إثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها، فيصدر عنه ما يصدر عن فساد العقل من المخاصمة، والمشاتمة، وقول الفحش، والنزور، وتعطيل الصلوات، وسائر ما يجب عليه. وأما إثم الميسر، أي: إثم تعاطيه، فما ينشأ عن ذلك من الفقر، وذهاب المال في غير طائل، والعبادة، وإحشاش الصدور. وأما منافع الخمر فربح التجارة فيها، وقيل: ما يصدر عنها من الطرب، والانشط، وقوة القلب، وثبات الجنان، وإصلاح المعدة، وقوة الباءة، وقد أشار شعراء العرب إلى شيء من ذلك قال:

وإذا شربت فإني ربّ الخورنق والسيير
وإذا صحت فإني ربّ الشويهة والبعير

وقال آخر:

ونشر بها فتنركنا ملوكاً وأسداً ما يهنهنا اللقاء

وقال من أشار إلى ما فيها من المفسد، والمصالح:

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الحلماً
فلا والله أشربها صحيحاً ولا أشفي بها أبداً سقيماً

ولا أعطي بها ثمناً حياتي ولا أدعولها أبداً نديماً

ومنافع الميسر: مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب، ولا كد، وما يحصل من السرور، والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح. وسهام الميسر أحد عشر، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الحظوظ. الأول: الفذ بفتح الفاء بعدها معجمة، وفيه علامة واحدة، وله نصيب، وعليه نصيب. الثاني: التوام بفتح التاء المثناة الفوقية، وسكون الواو وفتح الهمزة، وفيه علامتان، وله وعليه نصيبان. الثالث: الرقيب، وفيه ثلاث علامات، وله وعليه ثلاثة أنصباء. الرابع: الحلس بمهملة، الأولى مكسورة، واللام ساكنة، وفيه أربع علامات، وله وعليه أربعة أنصباء. الخامس: النافر بالنون، والفاء، والمهملة، ويقال: النافس بالسین المهملة مكان الراء، وفيه

خمس علامات، وله وعليه خمسة أنصباء. السادس: المسبل بضم الميم، وسكون المهملة، وفتح الباء الموحدة، وفيه ست علامات، وله وعليه ستة أنصباء. السابع: المعلى بضم الميم، وفتح المهملة، وتشديد اللام المفتوحة، وفيه سبع علامات، وله وعليه سبعة أنصباء، وهو أكثر السهام حظاً، وأعلاماً قدرها، فجملة ذلك ثمانية وعشرون فرداً. والجزور تجعل ثمانية وعشرين جزءاً، هكذا قال الأصمعي، وبقي من السهام أربعة أغفلاً، لا فروض لها، وهي: المنيع بفتح الميم، وكسر النون وسكون الباء التحتية، وبعدها مهملة، والسفيح بفتح المهملة، وكسر الفاء، وسكون اللام التحتية بعدها مهملة، والوعد بفتح الواو وسكون المعجمة بعدها مهملة والضعف بالمعجمة بعدها مهملة ثم فاء، وإنما أنخلوا هذه الأربعة التي لا فروض لها بين نوات الفروض لتكثر السهام على الذي يجيلها، ويضرب بها، فلا يجد إلى الميل مع أحد سبباً. وقد كان المجيل للسهم يلتحف بثوب، ويحثوا على ركبتيه، ويخرج رأسه من الثوب، ثم يدخل يده في الرابية بكسر المهملة، وبعدها باء موحدة، وبعد الألف باء موحدة أيضاً، وهي الخريطة التي يجعل فيها السهام، فيخرج منها باسم كل رجل سهماً، فمن خرج له سهم له فرض أخذ فرضه، ومن خرج له سهم لا فرض له لم يأخذ شيئاً، وغرم قيمة الجنور، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء. وقد قال ابن عطية: إن الأصمعي أخطأ في قوله: إن الجزور تقسم على ثمانية وعشرين جزءاً، وقال: إنما تقسم على عشرة أجزاء. قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أخبر سبحانه بأن الخمر، والميسر، وإن كان فيهما نفع، فالإثم الذي يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع؛ لأنه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر، فإنه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتي عليه الحصر، وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيها من المخاطرة بالمال، والتعرض للفقر، واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء، وهتك الحرم.

وقرأ حمزة، والكسائي: كثير، بالمثلثة. وقرأ الياقوت بالباء الموحدة. وقرأ أبي: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾. قوله: ﴿قُلْ الْعَفْوَ﴾ قرأه الجمهور بالنصب. وقرأ أبو عمرو وحده بالرفع. واختلف فيه عن ابن كثير، وبالرفع قرأه الحسن، وقتادة قال النحاس: إن جعلت ذا بمعنى الذي كان الاختيار الرفع على معنى الذي يتفقون هو: العفو، وإن جعلت ما وذا شيئاً واحداً كان الاختيار النصب على معنى: قل يتفقون العفو، والعفو: ما سهل، وتيسر، ولم يشق على القلب، والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تجهدوا فيه أنفسكم، وقيل: هو ما فضل عن نفقة العيال. وقال جمهور العلماء: هو نفقات التطوع، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة، وقيل: هي محكمة، وفي المال حق سوى الزكاة. قوله: ﴿كُنْكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: في أمر النفقة. وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تتفكرون في أمرهما، فتحبسون من

وإذا شربت فإني ربّ الخورنق والسيير
وإذا صحت فإني ربّ الشويهة والبعير

وقال آخر:

ونشر بها فتنركنا ملوكاً وأسداً ما يهنهنا اللقاء

وقال من أشار إلى ما فيها من المفسد، والمصالح:

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الحلماً
فلا والله أشربها صحيحاً ولا أشفي بها أبداً سقيماً

ولا أعطي بها ثمناً حياتي ولا أدعولها أبداً نديماً

ومنافع الميسر: مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب، ولا كد، وما يحصل من السرور، والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح. وسهام الميسر أحد عشر، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الحظوظ. الأول: الفذ بفتح الفاء بعدها معجمة، وفيه علامة واحدة، وله نصيب، وعليه نصيب. الثاني: التوام بفتح التاء المثناة الفوقية، وسكون الواو وفتح الهمزة، وفيه علامتان، وله وعليه نصيبان. الثالث: الرقيب، وفيه ثلاث علامات، وله وعليه ثلاثة أنصباء. الرابع: الحلس بمهملة، الأولى مكسورة، واللام ساكنة، وفيه أربع علامات، وله وعليه أربعة أنصباء. الخامس: النافر بالنون، والفاء، والمهملة، ويقال: النافس بالسین المهملة مكان الراء، وفيه

عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: 91] قال عمر: انتهينا انتهينا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس قال: كنا نشرب الخمر، فانزلت: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ الآية، فقلنا نشرب منها ما ينفعنا، فنزلت في المائدة: ﴿إنما الخمر والميسر﴾ [المائدة: 90] الآية فقالوا: اللهم انتهينا. وأخرج أبو عبيد، والبخاري في الأدب المفرد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: الميسر القمار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس مثله قال: كان الرجل في الجاهلية يخاطر عن أهله، وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله، وماله. وقوله: ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ يعني: ما ينقص من الدين عند شربها: ﴿ومنافع للناس﴾ يقول: فيما يصيبون من لذتها، وفرحها إذا شربوا: ﴿وإنهما أكبر من نفعهما﴾ يقول: ما يذهب من الدين، فالإثم فيه أكبر مما يصيبون من لذتها، وفرحها إذا شربوها، فانزل الله بعد ذلك: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: 43] الآية، فكانوا لا يشربونها عند الصلاة، فإذا صلوا العشاء، شربوها، ثم إن ناساً من المسلمين شربوها فقاتل بعضهم بعضاً، وتكلموا بما لم يرض الله من القول، فانزل الله: ﴿إنما الخمر والميسر والانصاب﴾ [المائدة: 90] الآية، فحرم الخمر، ونهى عنها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: منافعها قبل التحريم، وإنهما بعد ما حرمهما. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عنه أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إنا لا ندرى ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما ننفق منها؟ فانزل الله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به، ولا ما ياكل حتى يتصدق عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: العفو هو ما لا يتبين في أموالكم، وكان هذا قبل أن تفرض الصدقة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال: ﴿العفو﴾ ما يفضل عن أهلك وفي لفظ قال: الفضل عن العيال. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿قل للعفو﴾ قال: لم تفرض فيه فريضة معلومة ثم قال: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف﴾ [الأعراف: 199] ثم نزلت في الفرائض بعد ذلك مسماة. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: خير الصلقة ما كان عن ظهر غنى، وأبداً بمن تعمل. وثبت نحوه في الصحيح مرفوعاً من حديث حكيم بن حزام. وفي الباب أحاديث كثيرة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ قال: يعني في زوال الدنيا، وفنائها، وإقبال الآخرة، وبقائها.

أموالكم ما تصلحون به معاش دنياكم، وتتفكرون الباقي في الوجوه المقرّبة إلى الآخرة، وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير أي: كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا، وزوالها، في الآخرة، وبقائها، فترغبون عن العاجلة إلى الآجلة، وقيل: يجوز أن يكون إشارة إلى قومه: ﴿وإنهما أكبر من نفعهما﴾ أي: لتتفكروا في أمر الدنيا، والآخرة، وليس هذا بجيد. وقوله: ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ [الأنعام: 152، الإسراء: 34] وقوله: ﴿إن الذين ياكلون أموال اليتامى﴾ [النساء: 10] وقد كان ضاق على الأولياء الأمر كما سيأتي بيانه إن شاء الله، فنزلت هذه الآية. والمراد بالإصلاح هنا: مخالطتهم على وجه الإصلاح لأموالهم، فإن ذلك أصلح من مجانبتهم. وفي ذلك دليل على جواز التصرف في أموال اليتامى من الأولياء، والأوصياء بالبيع، والمضاربة، والإجارة، ونحو ذلك. وقوله: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ اختلف في تفسير المخالطة لهم، فقال أبو عبيد، مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال، ويشق على كافله أن يفرّد طعامه عنه، ولا يجد بداً من خلطه بهياله، فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحري، فيجعله مع نفقة أهله، وهذا قد تقع فيه الزيادة، والنقصان، فدلّت هذه الآية على الرخصة، وهي: ناسخة لما قبلها، وقيل: المراد بالمخالطة: المعاشرة للآيتام، وقيل: المراد بها: المصاهرة لهم. والأولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص بل تشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية. وقوله: ﴿فإخوانكم﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: فهم إخوانكم في الدين. وفي قوله: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ تحذير للأولياء، أي: لا يخفى على الله من ذلك شيء، فهو يجازي كل أحد بعمله من أصلح، فلنفسه، ومن أفسد فعلي نفسه. وقوله: ﴿لا اعتكف﴾ أي: ولو شاء لجعل ذلك شاقاً عليكم، ومتعباً لكم، وأوقعكم فيما فيه الحرج، والمشقة، وقيل العنت هنا: معناه الهلاك. قاله أبو عبيد، وأصل العنت المشقة. وقال ابن الأنباري: أصل العنت التشديد، ثم نقل إلى معنى الهلاك. وقوله: ﴿عزيز﴾ أي: لا يمتنع عليه شيء، لأنه غالب لا يغالب ﴿حكيم﴾ يتصرف في ملكه بما تقتضيه مشيئته، وحكمته، وليس لكم أن تختاروا لأنفسكم.

وقد أخرج أحمد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فإنها تذهب بالمال، والعقل، فنزلت: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ يعني هذه الآية، فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت التي في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [النساء: 43] فكان ينادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة أن لا يقرب الصلاة سكران، فدعي عمر، فقرئت

جبير، والحسن، وطاوس، وعكرمة، والشعبي، والضحاك كما حكاه النحاس، والقرطبي. وقد حكاه ابن المنذر عن المنكوريين، وزاد عمر بن الخطاب وقال: لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك. وقال بعض أهل العلم: إن لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمَشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ خَيْرِ رِبِّكُمْ﴾ [البقرة: 105]. وقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَشْرِكِينَ﴾ [البينة: 1] وعلى فرض أن لفظ المشركين يعم، فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا. قوله: ﴿وَالْأَمَةُ الْمُؤْمِنَةُ﴾ أي: ولرقيقة مؤمنة، وقيل: المراد بالامة: الحرة؛ لأن الناس كلهم عبيد الله، وإماؤه، والأول أولى لما سيأتي؛ لانه الظاهر من اللفظ؛ ولانه أبليغ، فإن تفضيل الامة الرقيقة المؤمنة على الحرة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة بالأولى. وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: ولو أعجبكم المشركة من جهة كونها ذات جمال، أو مال، أو شرف، وهذه الجملة حالية. قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمَشْرِكِينَ﴾ أي: لا تزوجوهم بالمؤمنات ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ قال القرطبي: واجمعت الامة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام، وأجمع القراء على ضم التاء من تنكحوا. وقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله: ﴿وَالْأَمَةُ﴾ والترجيح كالترجيح. قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين، والمشركات ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى الْفَنَاءِ﴾ أي: إلى الاعمال الموجبة للنار، فكان في مصاهرتهم، ومعاشرتهم، ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له، وينخلوا فيه ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ أي: إلى الاعمال الموجبة للجنة، وقيل: المراد: أن أولياء الله هم المؤمنون يدعون إلى الجنة. وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإمره، قاله الزجاج، وقيل: بتيسيره، وتوفيقه، قاله صاحب الكشاف.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن مقاتل بن حيان قال: نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي استأذن النبي ﷺ في عناق أن يتزوجها، وكانت ذات حظ من جمال، وهي مشركة، وأبو مرثد يومئذ مسلم، فقال: يا رسول الله إنها تعجبني، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمَشْرَكَاتِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمَشْرَكَاتِ﴾ قال: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 5]. وقد روي هذا المعنى عنه من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمَشْرَكَاتِ﴾ يعني أهل الأوثان. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي عن مجاهد نحوه، وكذلك أخرج عبد الرزاق، وعبد ابن حميد، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، عن النخعي نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه كره نكاح نساء أهل الكتاب، وتأول: ﴿وَلَا

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْبُوءٍ، وَالحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عنه قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 34] ﴿وَالَّذِينَ يَكْلَلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: 10] الآية، انطلق من كان عنده يتيم يعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه، فجعل يفصل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يلكه، أو يفسد فيرمى به، فاشتد ذلك عليهم، فنكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ الآية. فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. وقد روي نحو ذلك، عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَخَالَطُوا هُمْ﴾ قال: المخالطة أن يشرب من لبنك، وتشرب من لبنه، ويكل من قصعتك، وتكل من قصعته، ويكل من ثمرتك، وتاكل من ثمرته: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمَفْسَدَ مِنَ الْمُصْلَحِ﴾ قال: يعلم من يتعمد لكل مال اليتيم، ومن يتحرج منه، ولا يالو عن إصلاحه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ يقول: لو شاء ما أحل لكم ما أعنتكم مما لا تتعمدون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ يقول: لأخرجكم، وضيق عليكم، ولكنه وسع، ويسر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ قال، ولو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقاً.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَكِنَّهُ مُؤْمِنٌ حَرِّ بْنِ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَكُنْ مَرْءٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَرَبُّوَاعِيَّتِهِ لِنَارٍ لَعْنَةً لَعَنَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾

قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ قرأه الجمهور بفتح التاء، وقرئ في الشواذ بضمها؛ قيل: والمعنى: كان المتزوج لها أنكحها من نفسها. وفي هذه الآية النهي عن نكاح المشركات، فقيل: المراد بالمشركات: الوثنيات، وقيل: إنها تعم الكتابيات؛ لأن أهل الكتاب مشركون، وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله [التوبة: 30]، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، فقالت طائفة: إن الله حرم نكاح المشركات فيها، والكتابيات من الجملة، ثم جاءت آية المائدة، فخصصت الكتابيات من هذا العموم. وهذا محكي عن ابن عباس، ومالك، وسفيان بن سعيد، وعبد الرحمن بن عمر، والأوزاعي. وذهبت طائفة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة، وأنه يحرم نكاح الكتابيات، والمشركات، وهذا أحد قولي الشافعي، وبه قال جماعة من أهل العلم. ويجب عن قولهم أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة بأن سورة البقرة من أول ما نزل، وسورة المائدة من آخر ما نزل. والقول الأول هو الراجح. وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان، وطلحة، وجابر، وحذيفة، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن

من هذا الاعتزال: ترك المجامعة لا ترك المجامعة، أو الملامسة، فإن ذلك جائز، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج، أو بما لونه الإزار على خلاف في ذلك، وأما ما يروى عن ابن عباس، وعبيدة السلماني: أنه يجب على الرجل أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت، فليس ذلك بشيء، ولا خلاف بين أهل العلم في تحريم وطء الحائض، وهو معلوم من ضرورة الدين. قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص عنه بسكون الطاء، وضم الهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر: «يطهرن» بتشديد الطاء، وفتحها، وفتح الهاء، وتشديدها. وفي مصحف أبي، وابن مسعود: «ويتطهرن». والطهر انقطاع الحيض، والتطهر: الاغتسال. وبسبب اختلاف القراءة اختلف أهل العلم، فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء. وقال محمد بن كعب القرظي، ويحيى بن بكير: إذا طهرت الحائض، وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها، وإن لم تغتسل. وقال مجاهد، وعكرمة: إن انقطاع الدم يحلها لزوجها، ولكن تنوضاً. وقال أبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد: إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل، وإن كان انقطاعه قبل العشر لم يجز حتى تغتسل، أو يدخل عليها، وقت الصلاة. وقد رجح ابن جرير الطبري قراءة التشديد. والأولى أن يقال: إن الله سبحانه جعل للحل غاييتين كما تقتضيه القراءتان: إحداهما انقطاع الدم، والأخرى التطهر منه، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى، فيجب المصير إليها. وقد دل أن الغاية الأخرى هي المعتمدة. قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر، لا مجرد انقطاع الدم. وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين. قوله: ﴿فَاتَّوَهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: فجامعوهن، وكفى عنه بالإتيان، والمراد أنهم يجامعونهن في المأتي الذي أباحه الله، وهو: القبل قيل: ﴿وَمِنْ حَيْثُ﴾ بمعنى في حيث، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9] أي: في يوم الجمعة، وقوله: ﴿مَآذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 4] أي: في الأرض، وقيل: إن المعنى من الوجه الذي أنشأ الله لكم فيه، أي: من غير صوم، وإحرام، واعتكاف، وقيل: إن المعنى من قبل الطهر، لا من قبل الحيض، وقيل: من قبل الحلال، لا من قبل الزنا. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قيل: المراد: التوابون من الذنوب، والمتطهرون من الجنابة، والأحداث، وقيل: التوابون من إتيان النساء في ألبارهن، وقيل: من إتيانهن في الحيض، والأول أظهر. قوله: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَاتَّقُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القبل خاصة، إذ هو مزدرع الذرية، كما أن الحرث مزدرع النبات. فقد شبه

تَنَكَّحُوا لِلْمَشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ. وأخرج البخاري عنه قال: حَرَّمَ اللَّهُ نِكَاحَ الْمَشْرَكَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْإِسْرَاقِ أَكْثَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ رِبْهًا عَيْسَى، أَوْ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ. وأخرج الواحدي، وابن عسكرك من طريق السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَآءَ مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِنْ مَشْرُكَةٍ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن رواحة، وكانت له أمة سوداء، وأنه غضب عليها فطلمها، ثم إنه فزع فأتى النبي ﷺ، فأخبره خبرها، فقال النبي ﷺ: ما هي يا عبد الله؟ قال: تصوم، وتصلّي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: يا عبد الله هذه مؤمنة، فقال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق، لأعتقنها، ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَا مَآءَ مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِنْ مَشْرُكَةٍ﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في قوله: ﴿وَلَا مَآءَ مُؤْمِنَةٍ﴾ قال: بلغنا أنها كانت أمة لحنيقة سوداء، فأعتقها وتزوجها حنيقة. وأخرج ابن جرير، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: النكاح يولي في كتاب الله، ثم قرأ: ﴿وَلَا تَنكَّحُوا الْمَشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾.

وَسَلَّوْهُنَّ عَلَى الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا الْنِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ يَسْأَلُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمَلُوا لَكُمْ مَلَكُوتًا وَذَكِّرُوا التَّوَّابِينَ ﴿٢٢٣﴾

قوله: ﴿المحيض﴾ هو: الحيض، وهو مصدر، يقال: حاضت المرأة حيضاً، ومحيضاً، فهي حائض، وحائضة، كذا قال الفراء، وأنشده:

كحائضة تزني بها غير طاهرة

ونساء حيض، وحواض، والحيضة بالكسر: المرة الواحدة وقيل: الاسم، وقيل: للمحيض عبارة عن الزمان، والمكان، وهو مجاز فيهما، وقال ابن جرير الطبري: المحيض اسم الحيض، ومثله قول رؤبة:

إليك أشكوشدة المعيش

أي: المعيش، وأصل هذه الكلمة من السيلان، والانفجار يقال: حاض السيل، وقاض، وحاضت الشجرة، أي: سالت رطوبتها، ومنه الحيض، أي: الحوض، لأن الماء يحوض إليه. أي: يسيل. وقوله: ﴿قل هو أذى﴾ أي: قل هو شيء يتأذى به. أي: برائسته، والأذى كناية عن القفر، ويطلق على القول المكروه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَفَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَدَعِ آثَاهُمْ﴾ [الأحزاب: 48] وقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: فاجتنبوهن في زمان الحيض إن حمل المحيض على المصدر، أو في محل الحيض إن حمل على الاسم. والمراد

واليزار، عن جابر قال: إن اليهود قالوا: من أتى المرأة في دبرها كان ولده أحول فجاءوا إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن ذلك، وعن إتيان الحائض، فنزلت. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال الأذني: الدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاعْتَرَلُوا للنِّسَاء﴾ يقول: اعتزلوا نكاح فروعهن. وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ قال: من الدم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد قال: حتى ينقطع الدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ قال: بالماء. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، وعطاء: أنهما قالاً: إذا رأت الطهر، فلا بأس أن تستطيب بالماء ويأتيها قبل أن تغتسل. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلْتَوَهَّنْ مِنْ حَيْثُ أَمْرُكُمْ اللهُ﴾ قال: يعني: أن يأتيها طاهراً غير حائض. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلْتَوَهَّنْ مِنْ حَيْثُ أَمْرُكُمْ اللهُ﴾ قال: من حيث أمركم أن تعتزلوهن. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن ابن عباس قال: من حيث نهاكم أن تأتوهن وهن حيض: يعني من قبل الفرج. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن الحنفية قال: ﴿فَلْتَوَهَّنْ مِنْ حَيْثُ أَمْرُكُمْ اللهُ﴾ من قبل التزويج. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿يُحِبُّ التَّوَابِينَ﴾ قال: من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال: بالماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأعمش قال: التوبة من الذنوب، والتطهير من الشرك. وأخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نَسْأُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ لَنِي شَعْتُمْ﴾ إن شاء محببة، وإن شاء غير محببة، غير أن ذلك في صمام واحد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد ابن حميد، وابن جرير، عن مرة الهمداني نحوه. وقد روي هذا عن جماعة من السلف، وصرحوا أنه السبب، ومن الراويين لذلك عبد الله بن عمر، عند ابن عساکر، وأم سلمة، عند عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب. وأخرجه أيضاً، عنها ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، وعبد ابن حميد، والترمذي، وحسنه: «أنها سألت رسول الله ﷺ بعض نساء الأنصار عن التحبة، فتلا عليها الآية. وقال: صماماً واحداً والصمام: السبيل، وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، والنسائي، والضياء في المختارة، وغيرهم، عن ابن عباس قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله هلكت قال: وما أهلكك؟ قال: حوَّلت رحلي الليلة، فلم يرد عليه شيئاً، فلوحي الله إلى رسوله هذه الآية: ﴿نَسْأُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ يقول: اقبل، وأدبر، واتق الببر،

ما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقي في الأرض من البنور التي منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى، أعني قوله: ﴿فَلْتَوَهَّنْ مِنْ حَيْثُ أَمْرُكُمْ اللهُ﴾. وقوله: ﴿لَنِي شَعْتُمْ﴾ أي: من أي جهة شعثتم من خلف، وقدام، وباركة، ومستلقية، ومضطجعة، إذا كان في موضع الحرث، وأنشد ثعلب:

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات فلعينا الزرع فيها وعلى الله النبات وإنما عبر سبحانه بقوله: ﴿لَنِي﴾ لكونها أعم في اللغة من كيف، وأين، ومتى. وأما سيوبه، ففسرها ها هنا بكيف، وقد ذهب السلف، والخلف من الصحابة، والتابعين، والأئمة إلى ما نكرناه من تفسير الآية، وإن إتيان الزوجة في دبرها حرام، وروي عن سعيد بن المسيب، ونافع، وابن عمر، ومحمد بن كعب القرظي، وعبد الملك بن الماجشون أنه يجوز ذلك، حكاه عنهم القرطبي في تفسيره قال: وحكي ذلك عن مالك في كتاب له يسمى: «كتاب السر» وحذاق أصحاب مالك، ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر، ووقع هذا القول في العتبية. ونكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند جواز ذلك إلى زمرة كبيرة من الصحابة، والتابعين، وإلى مالك من روايات كثيرة في كتاب: «جماع النسوان وأحكام القرآن» وقال الطحاوي: روى أصبغ ابن الفرج، عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحداً أفتدي به في ديني شك في أنه حلال: يعني وطء المرأة في دبرها ثم قرأ: ﴿نَسْأُكُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ ثم قال: فأي شيء أبين من هذا. وقد روى الحاكم، والدارقطني، والخطيب البغدادي، عن مالك من طرق ما يقتضي إباحتها. وفي أسانيدنا ضعف. وقد روى الطحاوي عن محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم، أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله، ولا تحريمه شيء، والقياس أنه حلال. وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب. قال ابن الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا الله هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعي في ذلك، فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه. قوله: ﴿وَقَدِمُوا لَنَفْسِكُمْ﴾ أي: خيراً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لَنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ [البقرة: 110] وقيل: ابتغاء الولد، وقيل: التزويج بالعفاف، وقيل: غير ذلك. وقوله: ﴿وَلْتَقُوا اللهُ﴾ فيه تحذير عن الوقوع في شيء من المحرمات. وفي قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ لَكُمْ مَلَاقِدُ﴾ مبالغة في التحذير. وفي قوله: ﴿وَيُشِرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر.

وقد أخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم، عن أنس: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يؤكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح» وأخرج النسائي،

والحيضة. وأخرج أحمد، عن ابن عباس مرفوعاً: أن هذه الآية نزلت في أناس من الأنصار أتوا النبي ﷺ، فسألوه فقال: انتهوا على كل حال إذا كان في الفرج. وأخرج الدارمي، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عنه قال ابن عمر: والله يغفر له أوهم، إنما كان هذا الحي من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود، وهم أهل الكتاب كانوا يرون لهم، فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتنون بكثير من فعلهم، فكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بفعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً، ويتلذذون منهن مقبلات، ومديرات، ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار. فذهب يفعل بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ يقول: مقبلات، ومديرات بعد أن يكون في الفرج، وإن كان من قبل ببرها في قبلها زاد الطبراني: قال ابن عباس، قال ابن عمر: في ببرها، فأرهم، والله يغفر له، وإنما كان هذا الحديث على هذا، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والدارمي، والبيهقي، عن ابن مسعود: أنه قال: محاش النساء عليكم حرام. وأخرج الشافعي في الأم، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق خزيمة بن ثابت: «أن سائلاً سأل رسول الله ﷺ عن إتيان النساء في أبارهن»، فقال: حلال، أو لا بأس، فلما ولى دعاه فقال: كيف قلت؟ أمن ببرها في قبلها، فنعم، أم من ببرها في ببرها فلا، إن الله لا يستحيي من الحق لا تاتوا النساء في أبارهن». وأخرج ابن عدي، والدارقطني، عن جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان عن ابن عباس: قال قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في الدبر». وأخرج أحمد، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في ببرها هي اللوطية الصغرى». وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأته في ببرها». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والنسائي، والبيهقي عنه قال: إتيان الرجال، والنساء في أبارهن كفر. وقد رواه ابن عدي، عن أبي هريرة مرفوعاً قال ابن كثير: والموقوف أصح. وقد ورد النهي عن ذلك من طرق منها عند البزار عن عمر مرفوعاً، وعند النسائي عنه موقوفاً، وهو أصح. وعند ابن عدي في الكامل، عن ابن مسعود مرفوعاً، وعند ابن عدي أيضاً عن عقبة بن عامر مرفوعاً، وعند أحمد عن طلق بن يزيد، أو يزيد بن طلق مرفوعاً، وعند ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، عن علي بن طلق مرفوعاً، وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من

الصحابه، والتابعين مرفوعاً، وموقوفاً، وأخرج البخاري، وغيره عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أبارهن. وأخرج البخاري عن ابن عمر أنه قال: ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ قال: في الدبر. وقد روي هذا عن ابن عمر من طرق كثيرة، وفي رواية عند الدارقطني أنه قال له نافع: من ببرها في قبلها؟ فقال: لا إلا في ببرها. وأخرج ابن راهويه، وأبو يعلى، وابن جرير، والطحاوي، وابن مريويه بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري، أن رجلاً أصاب امرأته في ببرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فنزلت الآية. وأخرج البيهقي في سننه عن محمد بن علي قال: كنت عند محمد بن كعب القرظي، فجاءه رجل، فقال: ما تقول في إتيان المرأة في ببرها؟ فقال: هذا شيخ من قريش، فسله، يعني عبد الله بن علي بن السائب، فقال: قدر، ولو كان حلالاً. وقد روي القول بحل ذلك، عن محمد بن المنكدر، عند ابن جرير، وعن ابن أبي مليكة، عند ابن جرير أيضاً، وعن مالك بن أنس عند ابن جرير، والخطيب، وغيرهما، وعن الشافعي عند الطحاوي، والحاكم والخطيب. وقد قمنّا مثل هذا، وليس في أقوال هؤلاء حجة البتة: ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم، فإنهم لم يأتوا ببليل يدل على الجواز، فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية، فقد أخطأ في فهمه. وقد فسرها لنا رسول الله ﷺ، وكأبر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطئ في فهمه كأننا من كان، ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية: أن رجلاً أتى امرأته في ببرها، فليس في هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك، فقد أخطأ، بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله، فإن الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا، وتارة بتحريمه. وقد روي عن ابن عباس: أنه فسر هذه الآية بغير ما تقمّم، فقال: معناها إن شئتم، فاعزلوا وإن شئتم، فلا تعزلوا. روى ذلك عنه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والضياء في المختارة. وروي نحو ذلك عن ابن عمر. أخرجه ابن أبي شيبة، وعن سعيد بن المسيب، أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَهُ لَإِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنْذِرِينَ
أَنَّا نَسَى اللَّهُ سَبِيحَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَابْنُ مَرْيَمَ وَابْنُ مَرْيَمَ
بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٥﴾

العرضة: النصب، قاله الجوهري. يقال: جعلت فلاناً عرضة لكذا، أي: نصبه. وقيل: العرضة من الشدة، والقوة، ومنه قولهم للمرأة عرضة للنكاح: إذا صلحت له، وقويت عليه، ولفلان عرضة، أي: قوة، ومنه قول كعب بن زهير: من كل نضالخة البقرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول ومثله قول أوس بن حجر: وأماء مثل العجل يوماً عرضتها لرحلي وفيها هزة وتقائف

ويطلق العرضة على الهمة، ومنه قول الشاعر:

هم الانصار عرضتها للقاء

أي: همتها، ويقال: فلان عرضة للناس لا يزالون يقعون فيه، فعلى المعنى الذي ذكره الجوهري: أن العرضة النصب كالقبضة، والغرفة يكون ذلك اسماً لما تعرضه دون الشيء، أي تجعله حاجزاً له، ومانعاً منه. أي: لا تجعلوا الله حاجزاً، ومانعاً لما حلفتم عليه، وذلك؛ لأن الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة رحم، أو إحسان إلى الغير، أو إصلاح بين الناس بأن لا يفعل ذلك، ثم يمتنع من فعله معللاً لذلك الامتناع بأنه قد حلف أن لا يفعله، وهذا المعنى: هو الذي ذكره الجمهور في تفسير الآية، ينهاهم الله أن يجعلوه عرضة لأيمانهم، أي: حاجزاً لما حلفوا عليه، ومانعاً منه، وسمي المحلوف عليه مماناً لتلبسه باليمين، وعلى هذا يكون قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ عطف بيان لأيمانكم، أي: لا تجعلوا الله مانعاً للأيمان التي هي بركم، وتقواكم، وإصلاحكم بين الناس، ويتعلق قوله: ﴿لَأَيْمَانَكُمْ﴾ بقوله: ﴿لَا تَجْلَعُوا﴾ أي: لا تجعلوا الله لأيمانكم مانعاً، وحاجزاً، ويجوز أن يتعلق بعرضة. أي: لا تجعلوه شيئاً معترضاً بينكم، وبين البر، وما بعده، وعلى المعنى الثاني، وهو أن العرضة: الشدة، والقوة يكون معنى الآية: لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم، وعدة في الامتناع من الخير، ولا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث، وهو: تفسير العرضة بالهمة، ولما على المعنى الرابع، وهو من قولهم: فلان لا يزال عرضة للناس، أي: يقعون فيه، فيكون معنى الآية عليه: ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم، فتبتذلونه بكثرة الحلف به، ومنه ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ [المائدة: 89] وقد نَمَّ الله المكثرين للحلف فقال: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حِلَافٍ مَهِينٍ﴾ [القلم: 10] وقد كانت العرب تتماذج بقلة الأيمان حتى قال قائلهم:

قليل الألباء حافظ ليمينه وإن نسرت منه الآلية برت
وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ علة للنهي أي: لا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم إرادة أن تبروا، وتتقوا، وتصلحوا؛ لأن من يكثر الحلف بالله يجترئ على الحنث، ويفجر في يمينه. وقد قيل في تفسير الآية أقوال هي راجعة إلى هذه الوجوه التي ذكرناها، فمن ذلك قول الزجاج معنى الآية: أن يكون الرجل إذا طلب منه الفعل الذي فيه خير اعتل بالله: فقال علي يمين، وهو لم يحلف، وقيل معناها: لا تحلفوا بالله كاذبين إذا أربتم البر، والتقوى، والإصلاح، وقيل: معناها: إذا حلفتم على أن لا تصلوا أرحامكم، ولا تتصدقوا، ولا تصلحوا، وعلى أشباه ذلك من أبواب البر، فكفروا عن اليمين، وقد قيل إن قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: البر، والتقوى، والإصلاح أولى. قاله الزجاج وقيل: إنه منصوب أي: لا تمنعكم اليمين بالله البر، والتقوى، والإصلاح وروي ذلك عن الزجاج أيضاً، وقيل: معناها: أن لا تبروا، فحنث لا، كقوله: ﴿يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضْلُوا﴾ [النساء: 176] أي: لا تضلوا. قاله ابن جرير الطبري، وقيل: هو في موضع

جزء على قول الخليل، والكسائي، والتقدير في ﴿أَنْ تَبْرُوا﴾ وقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوال العباد: ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منهم. وللغو: مصدر لفا يلغو لغواً، ولغى يلغي لغياً: إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، وهو الساقط الذي لا يعتد به، فاللغو من اليمين: هو الساقط الذي لا يعتد به، ومنه اللغو في الدية، وهو الساقط الذي لا يعتد به من أولاد الإبل، قال جرير:

ويذهب بينها المري لغواً كما الغيت في الدية الحوار
وقال آخر:

رب أسراب حبيج كظم عن اللغا ورث التكلم
أي: لا يتكلم بالساقط، والرفث، ومعنى الآية: لا يعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم أي: اقترفته بالقصد إليه: وهي اليمين المعقودة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَوَازُنْكُمْ بِمَا عَقَنْتُمُ الْإِيمَانَ﴾ [المائدة: 89] ومثله قول الشاعر:

ولست بملخوذ بلغو يقول إذا لم تعد عاقدات العزائم
وقد اختلف أهل العلم في تفسير اللغو، فذهب ابن عباس، وعائشة، وجمهور العلماء أيضاً: أنه قول الرجل لا والله، وبلى والله في حديثه، وكلامه غير معتقد لليمين، ولا مريد لها. قال المروزي: هذا معنى لغو اليمين الذي اتفق عليه عامة العلماء. وقال أبو هريرة، وجماعة من السلف: هو أن يحلف الرجل على الشيء لا يظن إلا أنه إياه فإذا ليس هو ما ظنه، وإلى هذا ذهب الحنفية، والزيدية، وبه قال مالك في الموطأ. وروي عن ابن عباس: أنه قال: لغو اليمين أن تحلف، وأنت غضبان، وبه قال طائفة، ومكحول. وروي عن مالك، وقيل: إن اللغو هو يمين المعصية، قاله سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبد الله بن الزبير، وأخوه عروة كالذي يقسم ليشرب الخمر، أو ليقطعن الرحم، وقيل: لغو اليمين: هو دعاء الرجل على نفسه، كأن يقول: أعمر الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، قاله زيد بن أسلم. وقال مجاهد: لغو اليمين أن يتبايع الرجلان، فيقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا. وقال الضحاك: لغو اليمين هي المكفرة: أي: إذا كفرت سقطت، وصارت لغواً. والراجح القول الأول لمطابقتها للمعنى اللغوي، ولدلالة الأدلة عليه كما سيأتي. وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بألسنتكم من دون عمد، وقصد. وأخذكم بما تعمته قلوبكم، وتكلمت به ألسنتكم، وتلك هي اليمين المعقودة المقصودة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْلَعُوا اللَّهُ عَرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ يقول: لا تجعلني عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك، وأصنع الخير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه: هو أن يحلف الرجل أن لا يكلم قرايبه أو لا يتصدق، ويكون بين رجلين مغاضبة، فيحلف لا يصلح بينهما، ويقول قد حلفت، قال: يكفر عن

غضبان. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة قال: لغو اليمين حلف الإنسان على الشيء يظن أنه الذي حلف عليه، فإذا هو غير ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي عن عائشة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنها أن يحلف الرجل على تحريم ما أحل الله له. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: هو الرجل يحلف على المعصية، وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن النخعي: هو أن يحلف الرجل على الشيء ثم ينسى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يعني إذ تجاوز عن اليمين التي حلف عليها ﴿حليم﴾ إذ لم يجعل فيها الكفارة.

لِّلَّذِينَ يُؤَلِّونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ رِبَاً زَيْمَةً أَنْتُمْ قَائِلُونَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

رَجِيمٌ

قوله: ﴿يُؤَلِّونَ﴾ أي: يحلفون: والمصدر إيلاء، والية، والوة، وقرأ ابن عباس: «الذين ألوا» يقال: ألى يؤالي إيلاً، ويألي بالياء ابتلاء، أي: حلف، ومنه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ [النور: 22] ومنه:

قليل الإيلاء حافظ ليمينه

البيت. وقد اختلف أهل العلم في الإيلاء، فقال الجمهور: إن الإيلاء هو أن يحلف أن لا يبطأ أمراته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر، فما دونها لم يكن مولياً، وكانت عندهم يميناً محضاً، وبهذا قال مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو ثور. وقال الثوري، والكوفيون: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعداً، وهو قول عطاء. وروي عن ابن عباس: أنه لا يكون مولياً حتى يحلف أن لا يمسها أبداً. وقالت طائفة: إذا حلف أن لا يقرب امراته يوماً، أو أقل، أو أكثر ثم لم يطأ أربعة أشهر بانت منه بالإيلاء. وبه قال ابن مسعود، والنخعي، وابن أبي ليلى، والحكم، وحماد بن أبي سليمان، وقتادة، وإسحاق. قال ابن المنذر: وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم. قوله: ﴿مَنْ نَسَاهُمْ﴾ يشمل الحرائر، والإماء إذا كن زوجات، وكذلك يدخل تحت قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلِّونَ﴾ العبد إذا حلف من زوجته، وبه قال الشافعي، وأحمد، وأبو ثور قالوا: وإيلاؤه كالحر. وقال مالك، والزهري، وعطاء، وأبو حنيفة، وإسحاق: إن أجله شهران. وقال الشعبي: إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة. والتريص: التاني والتأخر، قال الشاعر:

تريص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها
وقت الله سبحانه بهذه المدة نفعاً للضرار عن الزوجة.
وقد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة، والسنتين، وأكثر من ذلك يقصون بذلك ضرار النساء. وقد قيل: إن الأربعة الأشهر هي التي لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها. قوله: ﴿فَإِنْ قَاوُوا﴾ أي: رجعوا ومنه ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجرات: 9] أي: ترجع، ومنه قيل: للزل بعد الزوال في؛ لأنه رجع عن جانب المشرق إلى جانب المغرب، يقال: فاء فيء فيئة، وفيوء، وإنه لسريع الفئته، أي: الرجعة،

يمينه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: جاء رجل إلى عائشة، فقال: إني نذرت إن كلمت فلاناً، فإن كل مملوك لي عتيق، وكل مال لي ستر للبيت، فقالت: لا تجعل مملوكيك عتقاء، ولا تجعل مالك ستراً للبيت، فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ﴾ فكفر عن يمينك، وقد ورد أن هذه الآية نزلت في أبي بكر في شأن مسطح. رواه ابن جرير، عن ابن جريج، والقصة مشهورة، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة في الصحيحين، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين قرأ غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه». وثبت أيضاً في الصحيحين، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وكفرت عن يميني». وأخرج ابن ماجه، وابن جرير عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين قطيعة رحم، أو معصية، فبزه أن يحثن فيها، ويرجع عن يمينه». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر، ولا يمين، فيما لا يملك ابن آدم، ولا في معصية الله، ولا في قطيعة رحم». وأخرج أبو داود، والحاكم، وصححه عن عمر مرفوعاً مثله. وأخرج النسائي، وابن ماجه، عن مالك الجشمي قال: قلت: يا رسول الله يأتييني ابن عمي، فأحلف أن لا أعطيه، ولا أصله، فقال: كفر عن يمينك. وأخرج مالك في الموطأ، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وغيرهم عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي إِيْمَانِكُمْ﴾ في قول الرجل لا والله، وبلى والله، وكلا والله. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي من طريق عطاء بن أبي رباح: أنه سئل عن اللغو في اليمين، فقال: قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته كلاً والله، وبلى والله». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عائشة: أنها قالت في تفسيره الآية: إن اللغو هو القوم يتدارون في الأمر يقول هذا: لا والله، ويقول هذا: كلا والله، يتدارون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عائشة أنها قالت: هو اللغو في المزلة والهلز، وهو قول الرجل لا والله، وبلى والله، فذلك لا كفارة فيه، وإنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله، ثم لا يفعله. وأخرج ابن جرير، عن الحسن: قال: «مر رسول الله ﷺ يقوم ينتضلون، ومع النبي ﷺ رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم، فقال: أصبت والله، وأخطأت والله، فقال الذي مع النبي ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله، فقال: كلا، إيمان الرماة لغو لا كفارة فيها، ولا عقوبة. وقد روى أبو الشيخ عن عائشة، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو أن اللغو لا والله، وبلى والله. أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال: لغو اليمين أن تحلف، وأنت

ومنه قول الشاعر:

ففاء ولم تقض الذي أقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا
قال ابن المنذر: وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن
الفيء الجماع لمن لا عذر له، فإن كان عذر مرض، أو سجن
فهو امرأته، فإذا زال العذر فابى الوطء فرّق بينهما إن كانت
المدة قد انقضت، قاله مالك؛ وقالت طائفة إذا أشهد على
فيئته بقلبه في حال العذر أجزأه. وبه قال الحسن، وعكرمة،
والنخعي، والأوزاعي، وأحمد بن حنبل. وقد أوجب الجمهور
على المولى إذا فاء بجماع امرأته الكفارة. وقال الحسن،
والنخعي: لا كفارة عليه. قوله: ﴿وإن عزموا للطلاق﴾ العزم:
العقد على الشيء، ويقال: عزم يعزم عزمًا، وعزيمة، وعزمانًا،
واعترزم اعترزامًا، فمعنى عزموا الطلاق: عقدوا عليه قلوبهم.
والطلاق من طلقت المرأة تطلق كنصر ينصر طلاقًا، فهي
طالق، وطالقة أيضًا، ويجوز طلقت بضم اللام، مثل عظم
يعظم، وأنكره الأخفش. والطلاق حلّ عقد النكاح، وفي ذلك
دليل على أنها لا تطلق بمضي أربعة أشهر كما قال مالك؛ ما
لم يقع إنشاء تطليق بعد المدة، وأيضًا، فإنه قال: ﴿سميع﴾،
وسميع يقتضي مسموعًا بعد المضي. وقال أبو حنيفة:
﴿سميع﴾ لإيلائه ﴿عليم﴾ بعزمه الذي دل عليه مضي
أربعة أشهر. وأعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية
بما يطابق مذهبهم، وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ، ولا دليل
آخر، ومعناها ظاهر واضح، وهو أن الله جعل الأجل لمن
يولي: أي يحلف من امرأته أربعة أشهر. ثم قال مخبرًا لعباده
بحكم هذا المولى بعد هذه المدة: ﴿فإن فاءوا﴾ رجعوا إلى
بقاء الزوجية، واستدامة النكاح ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي:
لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم، ويرحمهم ﴿وإن
عزموا للطلاق﴾ أي: وقع العزم منهم عليه، والقصد له
﴿فإن الله سميع﴾ لذلك منهم ﴿عليم﴾ به، فهذا معنى الآية
الذي لا شك فيه، ولا شبهة، فمن حلف أن لا يطأ امرأته، ولم
يقيد بمدة، أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا إمهاله
أربعة أشهر، فإذا مضت، فهو بالخيار إما رجوع إلى نكاح
امرأته، وكانت زوجته بعد مضي المدة كما كانت زوجته
قبلها، أو طلقها، وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداءً، وأما إذا
وقت بدون أربعة أشهر، فإن أراد أن يبرّ في يمينه اعتزل
امرأته التي حلف منها حتى تنقضي المدة كما فعل رسول
الله ﷺ حين ألى من نسائه شهرًا، فإنه اعتزلهن حتى
مضى الشهر، وإن أراد أن يطأ امرأته قبل مضي تلك المدة
التي هي نون أربعة أشهر حنث في يمينه، ولزمته الكفارة،
وكان ممثلاً لما صح عنه ﷺ من قوله: «من حلف على
شيء، فرأى غيره خيراً منه فليات الذي هو خير منه، وليكفر
عن يمينه».

وقد أخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن
المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: الإيلاء أن
يحلف أنه لا يجامعها أبداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه في قوله: ﴿لئن

يؤلون من نسائهم﴾ قال: هو الرجل يحلف لامرأته بالله لا
ينكحها، فتتربص أربعة أشهر، فإن هو نكحها كفر عن يمينه،
فإن مضت أربعة أشهر قبل أن ينكحها خيره السلطان إما أن
يفي، وإما أن يعزم، فيطلق كما قال الله سبحانه. وأخرج
سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني، والبيهقي عنه
قال: كان إيلاء الجاهلية السنة، والسنتين، وأكثر من ذلك،
فوقت الله لهم أربعة أشهر، فإن كان إيلاؤه أقل من أربعة
أشهر، فليس بإيلاء. وأخرج عبد بن حميد، عن علي قال:
الإيلاء إيلاءً، إيلاء في الغضب، وإيلاء في الرضا، فأما
الإيلاء في الغضب: فإذا مضت أربعة أشهر، فقد بانث منه،
وأما ما كان في الرضا، فلا يؤاخذ به. وأخرج ابن جرير، عن
ابن عباس قال: لا إيلاء إلا بغضب. وأخرج أبو عبيد في
فضائله، وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه قرأ: ﴿فإن فاءوا﴾
فيهن فإن الله غفور رحيم. وأخرج عبد بن حميد، عن علي
قال: الفيء: الجماع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في
سننه من طرق، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن المنذر، عن
ابن مسعود مثله. وأخرج ابن المنذر عن علي قال: الفيء
الرضا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود مثله. وأخرج
عبد بن حميد عن الحسن، قال: الفيء الإشهاد، وأخرج
عبد الرزاق عنه قال: الفيء الجماع، فإن كان له عذر أجزأه
أن يفى بلسانه. أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود قال:
إذا حال بينه، وبينها مرض، أو سفر، أو حبس، أو شيء
يعذر به، فإشهاده فيء. وللشلف في الفيء أقوال مختلفة،
فينبغي الرجوع إلى معنى الفيء لغة، وقد بيناه. وأخرج ابن
جرير، عن عمر بن الخطاب: أنه قال في الإيلاء: إذا مضت
أربعة أشهر لا شيء عليه حتى يوقف، فيطلق، أو يمكس.
وأخرج الشافعي، وابن جرير، والبيهقي، عن عثمان بن عفان
نحوه. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد بن حميد، وابن جرير،
والبيهقي عن علي نحوه. وأخرج البخاري، وعبد بن حميد،
عن ابن عمر نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، والبيهقي، عن
عائشة نحوه. وأخرج ابن جرير، والدارقطني، والبيهقي من
طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: سألت اثني عشر
رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن الرجل يولي من امرأته،
فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر،
فتوقف، فإن فاء، وإلا طلق. وأخرج البيهقي، عن ثابت بن
عبيدة مولى زيد بن ثابت، عن اثني عشر رجلاً من الصحابة
نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
والبيهقي عن عمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وابن
مسعود، وابن عمر، وابن عباس قالوا: الإيلاء تطليقة بائنة إذا
مرت أربعة أشهر، قبل أن يفى، فهي أملك بنفسها،
وللصحابة، والتابعين في هذا أقوال مختلفة متناقضة،
والمتعين الرجوع إلى ما في الآية للكرامة، وهو ما عرفناك،
فاشدد عليه يديك. وأخرج عبد الرزاق عن عمر قال: إيلاء
العبد شهران. وأخرج مالك عن ابن شهاب قال: إيلاء العبد

نحو إيلاء الحر.

وَلَنْ عَزَايَ الطَّلَاقُ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَرْجِعُ بِنَفْسِهَا
ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهَا إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُؤْتَيْنِ أَحَدُ بَرِيَّتَيْنِ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادَا إِسْلَامًا وَلَمْ يَشَأْ الْاِئْتِ
عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرِفَةِ وَالرِّبَا لَعَلَّيْنِ ذَرَبَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿والمطلقات﴾ يدخل تحت عمومها المطلقة قبل
الدخول، ثم خصص بقوله تعالى: ﴿فما لكم عليهن من عدة
تعتدونها﴾ [الأحزاب: 49] فوجب بناء العام على الخاص،
وخرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول، وكذلك خرجت
الحامل بقوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن
حملهن﴾ [الطلاق: 4] وكذلك خرجت الآية بقوله تعالى:
﴿فعلتهن ثلاثة أشهر﴾ [الطلاق: 4] والترصيص: الانتظار، قيل:
هو خبر في معنى الأمر، أي: ليتربصن قصد بإخراجه
مخرج الخبر تأكيد وقوعه، وزاده تأكيداً وقوعه خبراً للمبتدأ.
قال ابن العربي: وهذا باطل، وإنما هو: خبر عن حكم الشرع،
فإن وجدت مطلقة لا تتربص، فليس ذلك من الشرع، ولا
يلزم من ذلك، وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره.
والقروء جمع قرء. ويوي عن نافع أنه قرأ: «قرو» بتشديد
الواو. وقرأ الجمهور بالهمز. وقرأ الحسن بفتح القاف،
وسكون الراء، والتثوين. قال الأصمعي: لو اُحد قرء بضم
القاف. وقال أبو زيد بالفتح: وكلاهما قال أقرأت المرأة:
حاضت، وأقرأت: ظهرت. وقال الأخفش: أقرأت المرأة: إذا
صارت صاحبة حيض، فإذا حاضت قلت قرأت بلا ألف. وقال
أبو عمرو بن العلاء من العرب من يسمي الحيض قرءاً،
ومنهم من يسمي الطهر قرءاً، ومنهم من يجمعهما جميعاً،
فيسمى الحيض مع الطهر قرءاً، وينبغي أن يعلم أن القرء
في الأصل: الوقت؛ يقال: هبت الرياح لقرئها، ولقارئها، أي:
لوقتها، ومنه قول الشاعر:

كرهت العقر عقربني شليل إذا هبت لقارئها الرياح
فيقال للحيض: قرء، وللطهر قرء؛ لأن كل واحد منهما له
وقت معلوم. وقد أطلقته العرب تارة على الأطهار، وتارة على
الحيض، فمن إطلاقه على الأطهار قول الأعشى:
أني كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاما عزم عزائك
موردة مالا وفي الحي رفة لما ضاع فيها من قروء نساك
أي أطهارهن، ومن إطلاقه على الحيض قول الشاعر:
يارب ذي حنق علي قارض له تزو كقرؤ الحائض
يعني أنه طعنه، فكان له دم كدم الحائض. وقال قوم: هو
ماخوذ من قري الماء في الحوض، وهو جمعه، ومنه القرآن
لاجتماع المعاني فيه. قال عمرو بن كلثوم:

نراعي عيطل أماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا
أي: لم تجمع في بطنها. والحاصل أن القروء في لغة
العرب مشترك بين الحيض، والطهر، ولأجل هذا الاشتراك،
اختلف أهل العلم في تعيين ما هو المراد بالقروء المذكورة
في الآية، فقال أهل الكوفة: هي الحيض، وهو قول عمر،

وعلي، وابن مسعود، وأبي موسى، ومجاهد، وقتادة،
والضحاك، وعكرمة، والسدي، وأحمد بن حنبل. وقال أهل
الحجاز هي: الأطهار، وهو قول عائشة، وابن عمر، وزيد بن
ثابت، والزهري، وأبان بن عثمان، والشافعي، وأعلم أنه قد
وقع الاتفاق بينهم على أن القرء الوقت، فصار معنى الآية
عند الجميع، والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة أوقات، فهي
على هذا مفسرة في العدد مجملة في المعبود، فوجب طلب
البيان للمعبود من غيرها، فأهل القول الأول استدلوا على أن
المراد في هذه الآية الحيض بقوله ﴿دعي الصلاة أيام
أقراك﴾، ويقولون ﴿﴿﴾: «طلاق الأمة تطليقتان، وعنتها
حيضتان» وبأن المقصود من العدة استبراء الرحم، وهو
يحصل بالحيض لا بالطهر. واستدل أهل القول الثاني بقوله
تعالى: ﴿﴿﴾ لعنتهن﴾ [الطلاق: 1] ولا خلاف أنه يؤمر
بالطلاق، وقت الطهر. ولقوله ﴿﴿﴾ لعمر: «مره فليراجعها، ثم
ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، فتلك العدة التي
أمر الله أن تطلق لها النساء» وذلك؛ لأن زمن الطهر هو الذي
تطلق فيه النساء. قال أبو بكر بن عبد الرحمن: ما أدركنا
أحداً من فقهاءنا إلا يقول: بأن الأقراء هي: الأطهار، فإذا طلق
الرجل في طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقي منه، ولو ساعة،
ولو لحظة، ثم استقبلت طهراً ثانياً بعد حيضة، فإذا رأت الدم
من الحيضة الثالثة خرجت من العدة. انتهى. وعندني أن لا
حجة في بعض ما احتج به أهل القولين جميعاً. أما قول
الأولين أن النبي ﴿﴿﴾ قال: «دعي الصلاة أيام أقراك» فغاية
ما في هذا أن النبي ﴿﴿﴾ أطلق الأقراء على الحيض، ولا نزاع
في جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك، فإنه يطلق تارة
على هذا، وتارة على هذا، وإنما النزاع في الأقراء المذكورة
في هذه الآية، وأما قوله ﴿﴿﴾ في الأمة: «وعنتها حيضتان»
فهو حديث أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه،
والدارقطني، والحاكم وصححه، من حديث عائشة مرفوعاً.
وأخرجه ابن ماجه، والبيهقي من حديث ابن عمر مرفوعاً
أيضاً، ودلالته على ما قاله الأولون قوية. وأما قولهم: إن
المقصود من العدة استبراء الرحم، وهو يحصل بالحيض لا
بالطهر، فيجيب عنه: بأنه إنما يتم لو لم يكن في هذه العدة
شيء من الحيض على فرض تفسير الأقراء بالأطهار، وليس
كذلك بل هي مشتملة على الحيض، كما هي مشتملة على
الأطهار، وأما استدلال أهل القول الثاني بقوله تعالى:
﴿﴿﴾ لعنتهن﴾ [الطلاق: 1] فيجيب عنه: بأن التنازع
في اللام في قوله: ﴿﴿﴾ لعنتهن﴾ يصير ذلك محتملاً، ولا تقوم
الحجة بمحتمل. وأما استدلالهم بقوله ﴿﴿﴾ لعمر: «مره
فليراجعها» الحديث، فهو في الصحيح، ودلالته قوية على ما
ذهبوا إليه، ويمكن أن يقال: إنها تنقضي العدة بثلاثة أطهار،
أو بثلاث حيض، ولا مانع من ذلك، فقد جوز جمع من أهل
العلم حمل المشترك على معنويه، وبذلك يجمع بين الأدلة،
ويرتفع الخلاف، ويندفع النزاع. وقد استشكل الزمخشري
تمييز الثلاثة بقوله: قروء، وهي جمع كثرة دون أقراء التي

يكن من فضيلة الرجال على النساء إلا كونهن خلقن من الرجال لما ثبت أن حواء خلقت من ضلع آدم.

وقد أخرج أبو داود، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله حين طلقت العدة للطلاق، فقال: ﴿والمطلقات يتربصن﴾ الآية. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ ثم قال: ﴿واللاني يثن من المحيض من نسائك إن ارتبتم فعتتهن ثلاثة أشهر﴾ [الطلاق: 4] فنسخ، وقال: ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ [الأحزاب: 49]. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي من طرق، عن عائشة أنها قالت: الأقراء: الأطهار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عمر، وزيد بن ثابت مثله. وأخرج المنكروون، عن عمرو بن دينار، قال الأقراء: الحيض عن أصحاب محمد ﷺ. وأخرج البيهقي، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثلاثة قروء﴾ قال: ثلاث حيض. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ قال: كانت المرأة تكتن حملها حتى تجعله لرجل آخر، فنهاهن الله عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر في الآية قال: الحمل، والحيض، وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ويعولتهن أحق بردهن﴾ يقول: إذا طلق الرجل امرأته طليقة، أو تطليقتين، وهي حامل، فهو أحق برجعتهما ما لم تضع حملها، وهو قوله: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن مجاهد في قوله: ﴿ويعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ قال: في العدة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله، وزاد ما لم يطلقها ثلاثاً. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک في قوله: ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ قال: إذا أظعن الله، وأظعن أزواجهن، فعليه أن يحسن صحبتها، ويكف عنها إذاه، وينفق عليها من سعته. وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن لكم على نسائك حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، أما حقكم على نسائكم أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأتين في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن، وطعامهن، وصحبه الترمذي. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي عن معاوية بن حيدة القشيري: «أنه سأل النبي ﷺ ما حق المرأة على الزوج؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت،

هي من جموع القلة. وأجاب بأنهم يتسعون في ذلك، فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية. قوله: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ قيل: المراد به: الحيض، وقيل: الحمل، وقيل: كلاهما، ووجه النهي عن الكتمان ما فيه في بعض الأحوال من الإضرار بالزوج، وإذهاب حقه، فإذا قالت المرأة: حضت، وهي لم تحض ذهب بحقه من الارتجاع، وإذا قالت: لم تحض، وهي قد حضت ألزمته من النفقة ما لم يلزمه، فاضرت به، وكذلك الحمل ربما تكتمه التقطع حقه من الارتجاع، وربما تدعيه لتوجب عليه النفقة، ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للإضرار بالزوج. وقد اختلفت الأقوال في المدة التي تصلّق فيها المرأة إذا ادعت انقضاء عتتها. وقوله: ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيه، وعيد شديد للكاتمات، وبيان أن من كتمت ذلك منهن لم تستحق اسم الإيمان. والبعولة جمع بعل، وهو الزوج، سمي بعلاً لعلوه على الزوجة؛ لأنهم يطلقونه على الرب، ومنه قوله: تعالى: ﴿أتدعون بعللاً﴾ [الصافات: 125] أي: رباً، ويقال: بعلول، وبعولة، كما يقال في جمع الذكر نكور، ونكورة، وهذه التاء لتأنيث الجمع، وهو شاذ لا يقاس عليه بل يعتبر فيه السماع، والبعولة أيضاً تكون مصدراً من بعل الرجل يبعل، مثل منع يمنة. أي: صار بعللاً. وقوله: ﴿لحق بردهن﴾ أي: برجعتهن، وذلك يختص بمن كان يجوز للزوج مراجعتها، فيكون في حكم التخصيص لعموم قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ لأنه يعم المثلثات، وغيرهن. وقوله: ﴿في ذلك﴾ يعني في مدة التربص، فإن انقضت مدة التربص، فهي أحق بنفسها، ولا تحل له إلا بنكاح مستأنف بولي، وشهود، ومهر جديد، ولا خلاف في ذلك، والرجعة تكون باللفظ، وتكون بالوطء، ولا يلزم المراجع شيء من أحكام النكاح بلا خلاف. وقوله: ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي: بالمراجعة أي: إصلاح حاله معها، وحالها معه، فإن قصد الإضرار بها، فهي محرمة لقوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتنوا﴾ [البقرة: 231] قيل: وإذا قصد بالرجعة الضرار، فهي صحيحة، وإن ارتكب بذلك محرماً، وظلم نفسه، وعلى هذا، فيكون الشرط المذكور في الآية الحث للأزواج على قصد الإصلاح، والزجر لهم عن قصد الضرار، وليس المراد به جعل قصد الإصلاح شرطاً لصحة الرجعة. قوله: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي: لهن من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهن، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم، وهي: كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهن يفعلنه؛ لأزواجهن من طاعة، وتزين، وتحب، ونحو ذلك. قوله: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أي: منزلة ليست لهن، وهو قيامه عليها في الإنفاق، وكونه من أهل الجهاد، والعقل، والقوة، وله من الميراث أكثر مما لها، وكونه يجب عليها امتثال أمره، والوقوف عند رضاه، ولو لم

هذا يكون إسناد الأخذ إليهم لكونهم الأمرين بذلك. والاول أولى لقوله: ﴿مِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فإن إسناده إلى غير الأزواج بعيد جداً، لأن إيتاء الأزواج لم يكن عن أمرهم، وقيل: إن الثاني أولى لثلاث تشوُّش النظم. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي: لا يجوز لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ﴿أَنْ لَا يَاقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: عدم إقامة حدود الله التي حدّها للزوجين، وأوجب عليهما الوفاء بها من حسن العشرة والطاعة، فإن خافا ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: لا جناح على الرجل في الأخذ، وعلى المرأة في الإعطاء بأن تفتدي نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج، فيطلقها لأجله، وهذا هو الخلع، وقد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج، وأنه يحلّ له الأخذ مع ذلك الخوف، وهو الذي صرح به القرآن. وحكى ابن المنذر، عن بعض أهل العلم أنه لا يحلّ له ما أخذ، ولا يجبر على رده، وهذا في غاية السقوط. وقرأ حمزة: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ على البناء للمجهول، والفاعل محذوف، وهو الأئمة، والحكام، واختاره أبو عبيد قال لقوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ﴾ فجعل الخوف لغير الزوجين. وقد احتج بذلك من جعل الخلع إلى السلطان، وهو سعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين. وقد ضعف النحاس اختيار أبي عبيد المنكر. وقوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ أَنْ لَا يَاقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: إذا خاف الأئمة، والحكام، أو المتوسطون بين الزوجين، وإن لم يكونوا أئمة، وحكاماً عدم إقامة حدود الله من الزوجين، وهي: ما أوجب عليهما كما سلف. وقد حكى عن بكر بن عبد الله المدني: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ، وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا، فَلَا تَلْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا تُلْخِذُونَهُ بِهِتَانًا، وَإِنَّمَا مَبْنِيٌّ﴾ [النساء: 20] وهو قول خارج عن الإجماع، ولا تنافي بين الاثنين. وقد اختلف أهل العلم إذا طلب الزوج من المرأة زيادة على ما نفعه إليها من المهر، وما يتبعه، ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا؟ وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين، وبهذا قال مالك، والشافعي، وأبو ثور، وروي مثل ذلك عن جماعة من الصحابة، والتابعين، وقال طائوس، وعطاء، والأوزاعي، وأحمد، وإسحاق: إنه لا يجوز، وسيأتي ما ورد في ذلك عن النبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكام النكاح، والفرق المذكورة هي: حدود الله التي أمرت بامتثالها، فلا تعتوها بالمخالفة لها، فتستحقوا ما نكره الله من التسجيل على فاعل ذلك بأنه ظالم. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي: الطلقة الثالثة التي نكرها سبحانه بقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيعَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: فإن وقع منه ذلك، فقد حرمت عليه بالتلذث ﴿فَلَا تَحِلْ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي: حتى تتزوج بزواج آخر. وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب، ومن وافقه قالوا: يكفي مجرد العقد؛ لأنه المراد بقوله: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ وذهب الجمهور من السلف، والخلف إلى أنه لا بدّ مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبي

وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تهجر إلا في البيت». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ قال: فضل ما فضله الله به عليها من الجهاد، وفضل ميراثه على ميراثها، وكل ما فضل به عليها. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك في الآية قال: يطلقها، وليس لها من الأمر شيء. وأخرج عن زيد بن أسلم قال: الإمارة.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَرْوَةٍ أَوْ نَسِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

المراد بالطلاق المنكر: هو: الرجعي بلبيل ما تقدم في الآية الأولى، أي: الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة للأزواج هو مرتان أي: الطلقة الأولى، والثانية، إذ لا رجعة بعد الثالثة، وإنما قال سبحانه: ﴿مَرَّتَانٍ﴾ ولم يقل طلقتان إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة، لا طلقتان دفعة واحدة، كذا قال جماعة من المفسرين، ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية إلا أحد أمرين، إما إيقاع الثالثة التي بها تبين الزوجة، أو الإمساك لها، واستدامة نكاحها، وعدم إيقاع الثالثة عليها قال سبحانه: ﴿فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: فإمساك بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين بمعروف، أي: بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة ﴿أَوْ تَسْرِيعَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بإيقاع طلقة ثالثة عليها من دون ضرار لها، وقيل: المراد: ﴿فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: برجعة بعد الطلقة الثانية ﴿أَوْ تَسْرِيعَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنتقضي عتبتها. والاول أظهر. وقوله: ﴿الطَّلَاقُ﴾ مبتدأ بتقدير مضاف أي: عند الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة مرتان. وقد اختلف أهل العلم في إرسال الثلاث دفعة واحدة هل يقع ثلاثاً، أو واحدة فقط، فذهب إلى الأوّل الجمهور، وذهب إلى الثاني من عداهم، وهو الحق. وقد قررته في مؤلفاتي تقريراً بالغاً، وأقرته برسالة مستقلة. قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ الخطاب للأزواج. أي: لا يحلّ للأزواج أن يأخذوا مما دفعوه إلى نسائهم من المهر شيئاً على وجه المضارة لهم، وتنكير «شيئاً» للتحقير، أي: شيئاً نزرأ فضلاً عن الكثير، وخص ما دفعوه إليهنّ بعدم حلّ الأخذ منه مع كونه لا يحلّ للأزواج أن يأخذوا شيئاً من أموالهنّ التي يملكنها من غير المهر لكون ذلك، هو الذي تتعلق به نفس الزوج، وتتطلع لأخذه دون ما عدها مما هو في ملكها، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحلّ له كان ما عدها ممنوعاً منه بالاولى، وقيل: الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ للأئمة، والحكام ليطبق قوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ﴾ فإن الخطاب فيه للأئمة، والحكام، وعلى

مرتبان ﴿ قالوا: وهو الميقات الذي تكون فيه الرجعة، فإذا طلق واحدة، أو اثنتين، فلما أن يمस्क، ويراجع بمعروف، وإما أن يسكت عنها حتى تنقضي عدتها، فتكون أحق بنفسها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الرجل ياكل من مال امرأته الذي نحلها، وغيره لا يرى أن عليه جناحاً، فأنزل الله: ﴿ولا يحل لكم أن تاتخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ فلم يصح لهم بعد هذه الآية أخذ شيء من أموالهن إلا بحقها، ثم قال: ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ وقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ [النساء: 4]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ قال: إلا أن يكون النشوز، وسوء الخلق من قبلها، فتدعوك إلى أن تفتدي منك، فلا جناح عليك فيما افتتت به. وأخرج مالك، والشافعي وأحمد، وأبو داود والنسائي، والبيهقي من طريق عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن حبيبة بنت سهل الأنصاري: «أنها كانت تحب ثابت بن قيس، وأن رسول الله خرج إلى الصبح، فوجدها عند بابها في الغلس، فقال: من هذه؟ قالت: أنا حبيبة بنت سهل، فقال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا، ولا بانت، فلما جاء ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: هذه حبيبة بنت سهل، فنكرت ما شاء الله أن تنكر، فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عنده، فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها، فأخذ منها، وجلست في أهلها». وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس، وفي حبيبة، وكانت اشتكته إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «تدريين عليه حقيقته؟ قالت: نعم، فدعاه، فنكر ذلك له، فقال: ويطيبي لي ذلك، قال: نعم، قال ثابت: قد فعلت، فنزلت: ﴿ولا يحل لكم أن تاتخذوا﴾ الآية» وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود، وابن جرير، والبيهقي من طريق عمرة، عن عائشة نحوه. وأخرج البخاري، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي، عن ابن عباس: أن جميلة بنت عبد الله بن سلول، امرأة ثابت بن قيس بن شماس: «أنت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق، ولا دين، ولكن لا أطيقه بغضاً، وأكره الكفر في الإسلام، قال: أتدريين عليه حقيقته؟ قالت: نعم، قال: أقبل الحقيقة، وطلقها تطليقة». ولفظ ابن ماجه: «فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حقيقته، ولا يزداده». وأخرج البيهقي من طريق عطاء قال: «أنت امرأة النبي ﷺ، وقالت: إني أبغض زوجي، وأحب فراقه، قال: أتدريين عليه حقيقته التي أصدقك؟ قالت: نعم، وزيادة، فقال النبي ﷺ: أما الزيادة من ملك فلا». وأخرج البيهقي، عن أبي الزبير: أن ثابت بن قيس، فنكر القصة، وفيه: «أما الزيادة فلا» وأخرج ابن مردويه بإسناد جيد عن ابن عباس، وفيه «أنه أمر النبي ﷺ ثابتاً أن يأخذ

من اعتبار ذلك، وهو زيادة يتعين قبولها، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب، ومن تابعه، وفي الآية دليل على أنه لا بد من أن يكون ذلك نكاحاً شرعياً مقصوداً لذاته لا نكاحاً غير مقصود لذاته، بل حيلة للتخليل، ونذرية إلى ردها إلى الزوج الأول، فإن ذلك حرام للأبلة الواردة في نكاحه، وبم فاعله، وأنه التيسر المستعار الذي لعنه الشارع، ولعن من اتخذه لذلك. قوله: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الزوج الثاني: ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: الزوج الأول والمرأة ﴿أن يترجعا﴾ أي: يرجع كل واحد منهما لصاحبه. قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن الحر إذا طلق زوجته ثلاثاً، ثم انقضت عدتها، ونكحت زوجاً، ودخل بها، ثم فارقها، وانقضت عدتها، ثم نكحها الزوج الأول أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات. قوله: ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أي: حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر. وإما إذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلموا، أو أحدهما عدم الإقامة لحدود الله، أو تردداً، أو أحدهما، ولم يحصل لهما الظن، فلا يجوز الدخول في هذا النكاح؛ لأنه مظنة للمعصية لله، والوقوع فيما حرّمه على الزوجين. وقوله: ﴿وتلك حدود الله﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة، كما سلف، وخص الذين يعلمون مع عموم الدعوة للعالم، وغيره، وجوب التبليغ لكل فرد؛ لأنهم المنتفعون بالبيان المذكور.

وقد أخرج مالك، والشافعي، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: كان الرجل إذا طلق امرأته، ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان ذلك له، وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا ما دنا وقت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم طلقها، ثم قال: والله لا أويك إلي ولا تحلين أبداً، فأنزل الله: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ فاستقبل الناس الطلاق جديداً من يومئذ من كان منهم طلق، ومن لم يطلق. وأخرج نحوه الترمذي، وابن مردويه، والحاكم وصححه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. وأخرج البخاري عنها: أنها أتتها امرأة، فسألتها عن شيء من الطلاق، قالت: فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿الطلاق مرتان﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي رزين الأسدي قال: قال رجل: «يا رسول الله أ رأيت قول الله الطلاق مرتان؟ فإن الثالثة؟ قال: التسريح بإحسان الثالثة» وأخرج نحوه ابن مردويه، والبيهقي عن ابن ابن عباس مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد أنه قال: قال الله للثالثة: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن أبي حبيب قال: التسريح في كتاب الله الطلاق. وأخرج البيهقي، من طريق السدي، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿الطلاق

تتخذوا آيات الله هزواً، فالزمه رسول الله ﷺ الطلاق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن مرفوعاً نحو حديث عبادة، وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة».

وَلَا تَلْقَمُوا النِّسَاءَ قُلُوبَكُمْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَمْلُوهُنَّ أَنْ يَكُونَ زَوْجُهُنَّ إِذَا رَزَاؤُنَّ بَيْنَهُنَّ يَأْتُرُونَهُ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْتِرُ الْآخِرُ ذَلِكَ أَنْ لَكُمْ وَأَطَرُ وَاللَّهُ يَسْمُ وَأَنْتُمْ لَا تَمْلُوهُنَّ ﴿٢١٦﴾

الخطاب في هذه الآية بقوله: «وإذا طلقتم» وبقوله: «فلا تعضلوهن» إما أن يكون للأنزاج، ويكون معنى العضل منهم أن يمنعوهم من أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عنتهن لحمية الجاهلية، كما يقع كثيراً من الخلفاء، والسلاطين غيرة على من كنّ تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم؛ لأنهم لما نالوه من رياسة الدنيا، وما صاروا فيه من النخوة، والكبرياء، يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بني آدم إلا من عصمه الله منهم بالورع، والتواضع؛ وإما أن يكون الخطاب للآلوية، ويكون معنى إسناد الطلاق إليهم أنهم سبب له لكونهم المزوجين للنساء المطلقات من الأزواج المطلقين لهن. وبلوغ الأجل المذكور هنا المراد به: المعنى الحقيقي. أي: نهايته لا كما سبق في الآية الأولى. والعضل: الحبس. وحكى الخليل نجاة معضلة قد احتبس بيضها، وقيل: العضل: التضيق والمنع، وهو راجع إلى معنى الحبس، يقال أربت امرأة، فعضلتي عنه أي: منعنتي، وضيق علي، وأعضل الأمر: إذا ضاقت عليك فيه الحيل. وقال الأزهري: أصل العضل من قولهم عضلت الناقة: إذا نشب ولدها، فلم يسهل خروجه، وعضلت اللجاجة: نشب بيضها، وكل مشكل عند العرب معضل، ومنه قول الشافعي رحمه الله:

إذا المعضلات تصنين لي كشفت خفاء لها بالنظر
ويقال أعضل الأمر: إذا اشتد، وداء عضال. أي: شديد عسير البرء أعيا الأطباء، وعضل فلان آيمه، أي: منعها يعضلها بالضم، والكسر لغتان. قوله: «أن ينكحن» أي: من أن ينكحن، فمحل الجر عند الخليل، والنصب عند سيبويه، والفراء، وقيل: هو بدل اشتغال من الضمير المنصوب في قوله: «فلا تعضلوهن». وقوله: «أزواجهن» إن أريد به المطلوق لهن، فهو مجاز باعتبار ما كان، وإن أريد به من يردن أن يتزوجنه، فهو مجاز باعتبار ما سيكون. وقوله: «نلك» إشارة إلى ما فصل من الأحكام، وإنما أقرد مع كون المنكوح قبله جمعاً حملاً على معنى الجمع بتأويله بالفريق، ونحوه. وقوله: «نلكم» محمول على لفظ الجمع، خالف سبحانه ما بين الإشارتين افتناناً. وقوله: «أزكى» أي: أنمى وأنفع: «وأظهر» من الأناس «وأله يعلم» ما لكم فيه الصلاح «وأنتم لا تعلمون» ذلك.

وقد أخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن معقل بن

الإسماك بمعروف من غير قصد لضرار، أو التسريح بإحسان أي: تركها حتى تنقضي عنتها من غير مراجعة ضرار، ولا تمسكوهن ضراراً، كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عنتها، ثم مراجعتها لا عن حاجة، ولا لمحبة، ولكن لقصد تطويل العدة، وتوسيع مدة الانتظار «ضراراً» لقصد الاعتداء منكم عليهن، والظلم لهن «ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه» لأنه عرضها لعقاب الله وسخطه. قال الزجاج: يعني عرض نفسه للعذاب، لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله «ولا تتخذوا آيات الله هزواً» أي: لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزؤ، فإنها جد كلها، فمن هزل فيها فقد لزمته - نهام سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل، فإنه كان يطلق الرجل منهم، أو يعتق، أو يتزوج، ويقول: كنت لأعياً. قال القرطبي، ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلاً أن الطلاق يلزمه. قوله: «وأنكروا نعمت الله عليكم» أي: النعمة التي صرتم فيها بالإسلام، وشرائعه بعد أن كنتم في جاهلية جهلاء، وظلمات بعضها فوق بعض، والكتاب: هو القرآن. والحكمة قال المفسرون: هي السنة التي سننها لهم رسول الله ﷺ «يعظكم به» أي: يخوفكم بما أنزل عليكم، وأقرد الكتاب، والحكمة بالذكر مع نخولهما في النعمة بخولاً أولياً، تنبيهاً على خطرهما، وعظم شأنهما.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الرجل يطلق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء عنتها، ثم يطلقها، فيفعل بها نكاحاً يضارها، ويعطلها، فأنزل الله: «وإذا طلقتم النساء» الآية. وأخرج نحوه مالك، وابن جرير، وابن المنذر، عن ثور بن يزيد، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن الحسن في قوله: «ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا» قال: هو الرجل يطلق امرأته، فإذا أرادت أن تنقضي عنتها أشهد على رجعتها، يريد أن يطول عليها. وأخرج ابن ماجه، وابن جرير، والبيهقي، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام يلعبون بحسد الله يقول: قد طلقتك، قد راجعتك، قد طلقتك، قد راجعتك، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قبل عنتها. وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبادة بن الصامت قال: كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يقول للرجل: زوجتك ابنتي، ثم يقول: كنت لأعياً، ويقول: قد اعتقت، ويقول: كنت لأعياً، فأنزل الله سبحانه: «ولا تتخذوا آيات الله هزواً» فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لأعياً، أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والنكاح، والعتاق، وأخرج ابن مردويه، عن أبي الدرداء قال: كان الرجل يطلق، ثم يقول: لعبت، ويعتق، ثم يقول: لعبت، فأنزل الله: «ولا تتخذوا آيات الله هزواً» فقال رسول الله ﷺ: «من طلق، أو اعتق، فقال لعبت، فليس قوله بشيء، يقع عليه، فيلزمه». وأخرج ابن مردويه أيضاً، عن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته، وهو يلعب لا يريد الطلاق، فأنزل الله: «ولا

يسار قال: كانت لي أخت، فأتاني ابن عم، فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهو يها، وهويته، ثم خطبها مع الخطاب فقلت له: يا لكع أكرمك بها، وزوجتكها، فطلقتها، ثم جئت تخطبها، والله لا ترجع إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعْلِها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية، قال: ففي نزلت هذه الآية، فكفرت عن يميني، وأنكحتها إياه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلاقاً، أو طلاقين، فتنقض عنتها، ثم يبدو له تزويجها، وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فمنعها وليها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن السدي قال: نزلت هذه الآية في جابر بن عبد الله الأنصاري، كانت له ابنة عم، فطلقها زوجها تطليقة، وانقضت عنتها، فأراد مراجعتها فأبى جابر، فقال: طلقت بنت عمنا، ثم تريد أن تنكحها الثانية، وكانت المرأة تريد زوجها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل: ﴿إِذَا تَرَاثَرُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني بمهر، وبينة، ونكاح مؤتلف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مريويه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنكحوا الأياشي، فقال رجل: يا رسول الله ما العلائق بينهم؟ قال: ما تراضى عليه أهلهم». وأخرج ابن المنذر، عن الضحاك قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: الله يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلم أنت أيها الولي.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَزْوَاجَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ رِجَالُ بَدَنٍ لَّهُمْ وَالْزَّوْجُ كَالْفَرْجِ لَهُمْ وَخَلَعُوا كَالْعَمَامَةِ لَهُمْ وَخَلَعُوا كَالْعَمَامَةِ لَهُمْ وَخَلَعُوا كَالْعَمَامَةِ لَهُمْ﴾

لما نكر الله سبحانه النكاح، والطلاق، نكر الرضاع؛ لأن الزوجين قد يفترقان، وبينهما ولد، ولهذا قيل: إن هذا خاص بالمطلقات، وقيل: هو عام. وقوله: ﴿يَرْضَعْنَ﴾ قيل: هو خبر في معنى الأمر للدلالة على تحقق مضمونه، وقيل: هو خبر على بابه ليس هو في معنى الأمر على حسب ما سلف في قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: 228] وقوله: ﴿كاملين﴾ تأكيد للدلالة على أن هذا التقدير تحقيقي لا تقريبي. وقوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ أي: ذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة، وفيه دليل على أن إرضاع الحولين ليس حتماً بل هو التمام، ويجوز الاقتصار على ما نونه. وقرأ مجاهد، وابن محيصن: «لمن أراد أن تتم» بفتح التاء، ورفع الرضاعة على إسناد الفعل إليها. وقرأ أبو حيو، وابن أبي عتبة، والجارود ابن أبي سبرة بكسر الراء من الرضاعة، وهي لغة. وروي عن مجاهد أنه قرأ: الرضعة، وقرأ ابن عباس: «لمن أراد أن يكمل

الرضاعة». قال النحاس: لا يعرف البصريون الرضاعة إلا بفتح الراء. وحكى الكوفيون جواز الكسر. والآية تدل على وجوب الرضاع على الأم لولدها، وقد حمل ذلك على ما إذا لم يقبل الرضيع غيرها. قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي: على الأب الذي يولد له، وأثر هذا اللفظ نون قوله: وعلى الوالد للدلالة على أن الأولاد للأباء لا للأمهات، ولهذا ينسبون إليهم نونهن، كأنهن إنما ولدن لهم فقط، نكر معناه في الكشف، والمراد بالرزق هنا: الطعام الكافي المتعارف به بين الناس، والمراد بالكسوة: ما يتعارفون به أيضاً، وفي ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للأمهات المرضعات. وهذا في المطلقات، وأما غير المطلقات، فنفتقنهن، وكسوتهن واجبة على الأزواج من غير إرضاعهن لأولادهن. وقوله: ﴿لَا تَكُلْفُ نَفْسٌ إِلَّا وَسْعَهَا﴾ هو: تقيد لقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: هذه النفقة، والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه، وطاقته لا ما يشق عليه، ويعجز عنه، وقيل المراد: لا تكلف المرأة الصبر على التقدير في الأجرة، ولا يكلف الزوج ما هو إسراف، بل يراعي القصد. قوله: ﴿لَا تَضَارُّ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وجماعة ورواه أبان عن عاصم بالرفع على الخبر، وقرأ نافع، وابن عامر، وحَمْزَة، والكسائي، وعاصم في المشهور عنه: «تضار» بفتح الراء المشددة على النهي، وأصله لا تضار، أو لا تضار على البناء للفاعل، أو المفعول، أي: لا تضار الأب بسبب الولد بأن تطلب منه ما لا يقدر عليه من الرزق، والكسوة، أو بأن تفرط في حفظ الولد، والقيام بما يحتاج إليه، أو لا تضار من زوجها بأن يقصر عليها في شيء مما يجب عليه، أو ينتزع ولدها منها بلا سبب، وهكذا قراءة الرفع تحتل الوجهين؛ وقرأ عمر بن الخطاب: «لا تضار» على الأصل بفتح الراء الأولى، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «لا تضار» بإسكان الراء، وتخفيفها، وروي عنه الإسكان، والتشديد، وقرأ الحسن، وابن عباس: «لا تضار» بكسر الراء الأولى؛ ويجوز أن تكون الباء في قوله: بولده، صلة لقوله تضار على أنه بمعنى تضر. أي: لا تضر ولده بولدها، فتسيء تربيته، أو تقصر في غذائه، وأضيف الولد تارة إلى الأب، وتارة إلى الأم، لأن كل واحد منهما يستحق أن ينسب إليه مع ما في ذلك من الاستعطف، وهذه الجملة تفصيل للجملة التي قبلها وتقرير لها. أي: لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما لا يطيقه، فلا تضاره بسبب ولده. قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ هو: معطوف على قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ وما بينهما تفسير للمعروف، أو تحليل له معترض بين المعطوف، والمعطوف عليه. واختلف أهل العلم في معنى قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ مثل ذلك فقيل: هو وارث الصبي، أي: إذا مات المولود له كان على وارث هذا الصبي المولود إرضاعه كما كان يلزم أباه ذلك، قاله عمر بن الخطاب، وقتادة، والسدي، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وأحمد، وإسحاق، وأبو حنيفة، وابن أبي

للوالدين. والفصال: الفطام عن الرضاع. أي: التفريق بين الصبي، والثدي، ومنه سمي الفصيل؛ لأنه مفصول عن أمه. وقوله: ﴿عن تراض منهما﴾ أي: صانراً عن تراض من الأبوين إذا كان الفصال قبل الحولين: ﴿فلا جناح عليهما﴾ في تلك الفصال. سبحانه لما بين أن مدة الرضاع حولين كاملين قيد ذلك بقوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وظاهره أن الأب وحده إذا أراد أن يفصل الصبي قبل الحولين كان ذلك جائزاً له، وهذا اعتبر سبحانه تراضي الأبوين وتشاورهما فلا بد من الجمع بين الأمرين بأن يقال: إن الإرادة المذكورة في قوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ لا بد أن تكون منهما، أو يقال: إن تلك الإرادة إذا لم يكن الأبوان للصبي حينئذ كان الموجود أحدهما، أو كانت المرضعة للصبي ظئراً غير أمه. والتشاور: استخراج الرأي يقال: شرت العسل: استخرجته، وشرت الدابة: أجريتها لاستخراج جريها، فلا بد لأحد الأبوين إذا أراد فصال الرضيع أن يراضي الآخر، ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك. قوله: ﴿وإن أريتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ قال الزجاج: التقدير أن تسترضعوا أولادكم غير الوالدة. وعن سيبويه أنه حذف اللام؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول محذوف، والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم ﴿إذا سلمتم ما آتيتكم﴾ بالمد أي: أعطيت، وهي: قراءة الجماعة إلا ابن كثير، فإنه قرأ بالقصر. أي: فعلتم، ومنه قول زهير:

وما كان من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل والمعنى: أنه لا بأس عليكم أن تسترضعوا أولادكم غير أمهاتهم إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما قد أرضعن لكم إلى وقت إرادة الاسترضاع، قاله سفيان الثوري، ومجاهد. وقال قتادة، والزهري: إن معنى الآية: إذا سلمتم ما آتيتكم من إرادة الاسترضاع أي: سلم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك عن اتفاق منهما، وقصد خير وإرادة معروف من الأمر، وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿سلمتم﴾ عاماً للرجال، والنساء تغليباً، وعلى القول الأول الخطاب للرجال فقط، وقيل: المعنى: إذا سلمتم لمن أريتم استرضاعها أجرها، فيكون المعنى: إذا سلمتم ما أريتم إيتاءه، أي: إعطاءه إلى المرضعات بالمعروف. أي: بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من نون ماطلة لهن، أو حظ بعض ما هو لهن من ذلك، فإن عدم توفير أجرهن يبعثهن على التساهل بامر الصبي، والتفريط في شأنه.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن مجاهد في قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ قال: المطلقات ﴿حولين﴾ قال: سنتين ﴿لا تضارَّ والدة بولدها﴾ يقول: لا تباي أن ترضعه ضرراً لتشق على أبيه ﴿ولا مولود له بولده﴾ يقول: ولا يضارَّ الوالد بولده، فيمنع أمه أن ترضعه ليحزنها بذلك ﴿وعلى

يلبى على خلاف بينهم، هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيباً من الميراث، أو على الذكور فقط، أو على كل ذي رحم له، وإن لم يكن، وارثاً منه، وقيل: المراد بالوارث: وارث الأب تجب عليه نفقة المرضعة، وكسوتها بالمعروف، قاله الضحاك. وقال مالك في تفسير هذه الآية بمثل ما قاله الضحاك، ولكنه قال: إنها منسوخة، وإنها لا تلزم الرجل نفقة أخ، ولا ذي قرابة، ولا ذي رحم منه، بشرطه الضحاك بأن لا يكون للصبي مال، فإن كان له مال أخذت أجره رضاعه من ماله. وقيل: المراد: بالوارث المذكور في الآية هو: الصبي نفسه. أي: عليه من ماله إرضاع نفسه إذا مات أبوه، وورث من ماله، قاله قبيصة بن ذؤيب، ويشير بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز. وروي عن الشافعي، وقيل: هو الباقي من والدي المولود بعد موت الآخر منهما، فإذا مات الأب كان على الأم كفاية الطفل إذا لم يكن له مال، قاله سفيان الثوري، وقيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أي: وارث المرضعة يجب عليه أن يصنع بالمولود كما كانت الأم تصنعه به من الرضاع، والخدمة، والتربية. وقيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أنه يحرم عليه الإضرار بالأم كما يحرم على الأب، وبه قالت طائفة من أهل العلم، قالوا: وهذا هو الأصل، فمن ادعى أنه يرجع فيه العطف إلى جميع ما تقدم، فعليه الدليل. قال القرطبي: وهو الصحيح، إذ لو أراد الجميع الذي هو: الرضاع، والإنفاق، وعدم الضرر يقال: وعلى الوارث مثل هؤلاء، فدل على أنه معطوف على المنع من المضاربة، وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيما حكى القاضي عبد الوهاب. قال ابن عطية، وقال مالك، وجميع أصحابه، والشمسي، والزهري، والضحاك، وجماعة من العلماء: المراد بقوله: مثل ذلك أن لا تضارَّ، وأما الرزق، والكسوة، فلا يجب شيء منه. وحكى ابن القاسم، عن مالك، مثل ما قدمنا عنه، في تفسير هذه الآية، ودعوى النسخ. ولا يخفى عليك ضعف ما ذهب إليه هذه الطائفة، فإن ما خصصوا به معنى قوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ من ذلك المعنى. أي: عدم الإضرار بالمرضعة قد أفاده قوله: ﴿لا تضارَّ والدة بولدها﴾ لصق ذلك على كل مضاربة ترد عليها من المولود له، أو غيره. وأما قول القرطبي: لو أراد الجميع لقال مثل هؤلاء، فلا يخفى ما فيه من الضعف البين، فإن اسم الإشارة يصلح للمتعدد كما يصلح للواحد بتأويل المذكور، أو نحوه. وأما ما ذهب إليه أهل القول الأول من أن المراد بالوارث: وارث الصبي، فيقال عليه إن لم يكن وارثاً حقيقة مع وجود الصبي حياً، بل هو وارث مجازاً باعتبار ما يؤول إليه. وأما ما ذهب إليه أهل القول الثاني، فهو وإن كان فيه حمل الوارث على معناه الحقيقي، لكن في إيجاب النفقة عليه مع غنى الصبي ما فيه، ولهذا قيده القائل به بأن يكون الصبي فقيراً، ووجه الاختلاف في تفسير الوارث ما تقدم من ذكر الوالدات، والمولود له والولد، فاحتمل أن يضاف الوارث إلى كل منهم. قوله: ﴿فإن أراداً فصلاً﴾ الضمير

وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٢٢﴾

لما نكر سبحانه عدة الطلاق، واتصل بنكرها نكر الإرضاع عقب ذلك بنكر عدة الوفاة، لئلا يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق. قال الزجاج: ومعنى الآية، والرجال الذين يتوفون منكم، ويذرون أزواجاً، أي: ولهم زوجات، فالزوجات يتربصن. وقال أبو علي الفارسي: تقديره، والذين يتوفون منكم، ويذرون أزواجاً، يتربصن بعدهم؛ وهو: كقولك السمن منوان بدرهم. أي: منه. وحكى المهندي عن سيبويه أن المعنى: وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون، وقيل: التقدير: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، نكره صاحب الكشف، وفيه أن قوله: «وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا» لا يلائم ذلك التقدير، لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة. وقال بعض النحاة من الكوفيين: إن الخبر عن الذين متروك، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يتربصن. ووجه الحكمة في جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك في الغالب لثلاثة أشهر، والأنثى لأربعة، فزاد الله سبحانه على ذلك عشرًا؛ لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة، فتتأخر حركته قليلاً، ولا تتأخر عن هذا الأجل. وظاهر هذه الآية العموم، وأن كل من مات عنها زوجها تكون عدتها هذه العدة، ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى: «وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» [الطلاق: 4] وإلى هذا ذهب الجمهور. وروي عن بعض الصحابة، وجماعة من أهل العلم أن الحامل تعتد بأخر الأجلين جمعاً بين العام، والخاص، وإعمالاً لهما، والحق ما قاله الجمهور. والجمع بين العام، والخاص على هذه الصفة لا يناسب قوانين اللغة، ولا قواعد الشرع، ولا معنى لإخراج الخاص من بين أفراد العام إلا بيان أن حكمه مغاير لحكم العام، ومخالف له. وقد صرح عنه ﷺ أنه أئناً لسبعية الأسلمية أن تتزوج بعد الوضع، والتربص الثاني، والتصبر عن النكاح. وظاهر الآية عدم الفرق بين الصغيرة، والكبيرة، والحرّة، والأمة، وذات الحيض، والأيسة، وأن عدتهن جميعاً للوفاة أربعة أشهر وعشر، وقيل: إن عدة الأمة نصف عدة الحرة شهران وخمسة أيام. قال ابن العربي إجماعاً إلا ما يحكى عن الأصم، فإنه سوى بين الحرة، والأمة، وقال الباجي: ولا تعلم في ذلك خلافاً إلا ما يروى عن ابن سيرين أنه قال: عدتها عدة الحرّة، وليس بالثابت عنه، ووجه ما ذهب إليه الأصم، وابن سيرين ما في هذه الآية من العموم، ووجه ما ذهب إليه من عداها قياس عدة الوفاة على الحد، فإنه ينصف للأمة بقوله سبحانه: «فَعَلِيهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُخْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ» [النساء: 25]. وقد تقدم حديث: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان» وهو: صالح للاحتجاج به، وليس المراد منه: إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرة، وعدتها على النصف من عدتها، ولكنه لما لم يمكن أن يقال: طلاقها تطليقة ونصف، وعدتها حيضة ونصف، لكون ذلك لا يعقل كانت عدتها، وطلاقها ذلك

للوأثر قال: يعني الولي من كان «مثل ذلك» قال: النفقة بالمعروف، وكفالتة، ورضاعه إن لم يكن للمولود مال، وأن لا تضار أمه «فإن أراداً فصلاً عن تراض منهما وتشاور» قال: غير مسيتين في ظلم أنفسهما، ولا إلى صبيهما، فلا جناح عليهما «وإن أريتم أن تسترضعوا أولادكم» قال: خيفة الضيعة على الصبي «فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف» قال: حساب ما أرضع به الصبي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية أنه قال: المراد بقوله: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ» هي في الرجل يطلق امرأته، وله منها ولد. وقال في قوله: «إِذَا سَلِمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ» قال: ما أعطيتكم الظئر من فضل على أجرها. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن زيد بن أسلم في قوله: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ» قال: إنها المرأة تطلق، أو يموت عنها زوجها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في التي تضع لسته أشهر أنها ترضع حولين كاملين، وإذا وضعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهراً لتنام ثلاثين شهراً، وإذا وضعت لتسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً، ثم تلا: «وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» [الأحقاف: 15] وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» قال: على قدر الميسرة، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في قوله: «لَا تَضَارَّ وَالِدَةُ بَوْلِهَا وَلَا مَوْلُودُهَا بَوْلُهَا» ليس لها أن تلقى ولدها عليه، ولا يجد من يرضعه، وليس له أن يضارها، فينتزع منها ولدها، وهي تحب أن ترضعه «وَعَلَى الْوَارِثِ» قال: هو ولي الميت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء، وإبراهيم، والشعبي في قوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ» قال: هو وارث الصبي ينفق عليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة نحوه، وزاد: إذا كان المولود لا مال له مثل الذي على والده من أجر الرضاع. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن ابن سيرين نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن قبيصة بن ذؤيب في قوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ» قال: هو الصبي. وأخرج وكيع عن عبد الله بن مغفل نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ» قال: لا يضار. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك: «فإن أراداً فصلاً» قال: الفطام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد. قال: التشاور فيما دون الحولين ليس لها أن تقطعه إلا أن يرضى، وليس له أن يقطعه إلا أن ترضى. وأخرجوا أيضاً عن عطاء في قوله تعالى: «وإن أريتم أن تسترضعوا أولادكم» قال: أمه أو غيرها «فلا جناح عليكم إذا سلمتم» قال: إذا سلمت لها أجرها «ما آتيتكم» ما أعطيتكم.

وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي العالية قال: ضمت هذه الأيام العشر إلى الأربعة أشهر، لأن في العشر ينفخ فيه الروح. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ لَجْلَهُنَّ﴾ يقول: إذا انقضت عنتها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أوليائها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس أنه كره للمتوفي عنها زوجها الطيب، والزينة، وأخرج مالك، وعبد الرزاق، وأهل السنن وصححه الترمذي، والحاكم عن الفريرة بنت مالك بن سنان، وهي أخت أبي سعيد الخدري أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأل أن ترجع إلى أهلها في بني خزيمة، وأن زوجها خرج في طلب أعبد لها أبقوا حتى إذا تطرف القنوم لحقهم، فقتلوه، قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي، فإن زوجي لم يتركني في منزل يملكه، ولا نفقة، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فأنصرفت حتى إذا كنت في الحجرة، أو في المسجد، فدعاني، أو أمر بي، فدعيت، فقال: كيف قلت؟ قالت: فريدت إليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي، فقال: امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله. قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي، فسألني عن ذلك، فآخبرته، فاتبعه وقضى به.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطَابِ الْإِسَاءِ أَوْ كُنْتُمْ فِي
أَنْفُسِكُمْ عَلَمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَنَكُونُونَ وَلَكِنْ لَا تَعِدُّوهُنَّ يَرَاءً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا
قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَتْرَكُوا عَهْدَ الزَّيْكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْصَرِفُ أَيْ أَنْتُمْ قَائِدُونَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
لِيمٌ

الجناح: الإثم، أي: لا إثم عليكم، والتعريض ضد التصريح، وهو: من عرض الشيء، أي: جانبه، كأنه يحوم به حول الشيء، ولا يظهره، وقيل: هو من قولك: عرضت الرجل، أي: أهديت له. ومنه أن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ، وأبا بكر ثياباً بيضاء أي: أهدوا لهما، فالمرعش بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاماً يفهم معناه. وقال في الكشف: الفرق بين الكناية، والتعريض، أن الكناية: أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. والتعريض: أن يذكر شيئاً يدل به على شيء لم يذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكَ لاسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا:

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح؛ لأنه يلوح منه ما يريده. انتهى. والخطبة بالكسر: ما يفعله الطالب من الطلب، والاستلطاف بالقول، والفعل، يقال: خطبها يخطبها خطبة، وخطباً. وأما الخطبة بضم الخاء، فهي الكلام الذي يقوم به الرجل خاطباً. وقوله: «**اُكْنُتُم**» معناه سترتم، وأضرمت من التزويج بعد انقضاء العدة. والإكنان:

القدر المذكور في الحديث جبراً للكسر، ولكن ها هنا أمر يمنع من هذا القياس الذي عمل به الجمهور، وهو أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً هو ما قلّمنا من معرفة خلوها من الحمل، ولا يعرف إلا بتلك المدة، ولا فرق بين الحرة، والأمة في مثل ذلك، بخلاف كون عنها في غير الوفاة حيضتين، فإن ذلك يعرف به خلوه الرحم، ويؤيد عدم الفرق ما سيأتي في عدة أم الولد. واختلف أهل العلم في عدة أم الولد لموت سيدها. فقال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، والزهري، وعمر بن عبد العزيز، والأوزاعي، وإسحاق، وابن راهويه، وأحمد بن حنبل في رواية عنه: أنها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا ﷺ: «عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر». أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وضعفه أحمد، وأبو عبيد. وقال الدارقطني: الصواب أنه موقوف. وقال طائوس، وقتادة: عنها شهران وخمس ليال. وقال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، والحسن بن صالح: تعتد بثلاث حيض، وهو: قول علي، وابن مسعود، وعطاء، وإبراهيم النخعي. وقال مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه: عنها حيضة، وغير الحائض شهر، وبه يقول ابن عمر، والشعبي، ومكحول، والليث، وأبو عبيد، وأبو ثور، والجمهور. قوله: «فإذا بلغن أجلهن» المراد بالبلوغ هنا: انقضاء العدة «فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن» من التزين، والتعرض للخطاب «بالمعروف» الذي لا يخالف شرعاً، ولا عادة مستحسنة. وقد استدل بذلك على وجوب الإحداد على المعتدة عدة الوفاة. وقد ثبت ذلك في الصحيحين، وغيرهما من غير وجه أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله، واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» وكذلك ثبت عنه ﷺ في الصحيحين، وغيرهما النهي عن الكحل لمن هي في عدة الوفاة، والإحداد: ترك الزينة من الطيب، وليس الثياب الجيدة، والحلي، وغير ذلك، ولا خلاف في وجوب ذلك في عدة الوفاة، ولا خلاف في عدم وجوبه في عدة الرجعية، واختلفوا في عدة البائنة على قولين، ومحل ذلك كتب الفروع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مِنْكُمْ﴾ قال: كان الرجل إذا مات، وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله. ثم أنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مِنْكُمْ﴾ الآية. فهذه عدة المتوفى عنها إلا أن تكون حاملاً، فعنتها أن تضع ما في بطنها. وقال في ميراثها: ﴿وَلَهُنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمُ﴾ [النساء: 12] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية، والنفقة ﴿فَإِذَا بَلَغَ لِحْجَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: إذا طلقت المرأة، أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها، فلا جناح عليها أن تتزين، وتتصنم، وتعرض للزواج، فذلك المعروف.

تنقضي العدة، والكتاب هنا هو: الحد، والقدر الذي رسم من المدة، سماه كتاباً لكونه محدوداً، ومفروضاً كقوله تعالى: ﴿إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: 103] وهذا الحكم أعني تحريم عقد النكاح في العدة مجمع عليه.

وقد أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ قال: التعريض أن تقول: إني أريد التزويج، وإني لأحب المرأة من أمرها، وأمرها، وإن من شأني النساء، ولوددت أن الله يسر لي امرأة صالحة. وأخرج ابن جرير عنه أنه يقول لها: إن رأيت أن لا تسبقيني بنفسك، ولوددت أن الله قد هيا بيني وبينك، ونحو هذا من الكلام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: يقول: إني فيك لراغب، ولوددت أنني تزوجتك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ﴾ قال: أسررتم. وأخرج عبد الرزاق عن الضحاك مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ قال: بالخطبة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن مجاهد قال: نكحه إياها في نفسه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سَرًَّا﴾ قال: يقول: لها إني عاشق، وعامد بيني أن لا تتزويجي غيري ونحو هذا ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو قوله: إن رأيت أن لا تسبقيني بنفسك. وأخرج ابن جرير عنه في السر أنه الزنا، كان الرجل يدخل من أجل الزنا، وهو يعرض بالنكاح، وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: إنك لجميلة، وإنك إلي خير، وإن النساء من حاجتي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَا تَعْزَمُوا عَقْدَ النِّكَاحِ﴾ قال: لا تنكحوا حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ قال: حتى تنقضي العدة. لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِسُوهُنَّ لهنَّ رِيشَةٌ وَيَتَزَوَّجْنَ عَلَى الْوَرِيعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُعْتَرِ قَدَرُهُ مَتْنًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ رِيشَةً فَحَبَسْتُمْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَمُوتَ الَّذِي يَبْرُهُ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَإِنْ تَمَتَّوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرٌ

المراد بالجناح هنا: التبعة من المهر، ونحوه، فرفعه رفع لذلك. أي: لا تبعة عليكم بالمهر، ونحوه إن طلقتم النساء على الصفة المذكورة، وماء في قوله: ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ هي مصدرية ظرفية بتقدير المضاف. أي: مدة عدم مسيسكم. ونقل أبو البقاء أنها شرطية من باب اعتراض الشرط على الشرط ليكون الثاني قيداً للأول كما في قولك:

التستر والإخفاء: يقال: اكنته، وكنته بمعنى واحد. ومنه بيض مكنون، ودر مكنون. ومنه أيضاً كُنَّ البيت صاحبه. أي: ستره. وقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: علم الله أنكم لا تصيرون عن النطق لهنَّ برغبتكم فيهن، فرخص لكم في التعريض دون التصريح. وقال في الكشف: إن فيه طرفاً من التوبيخ كقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 187]. وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سَرًَّا﴾ معناه: على سرٍّ، فحذف الحرف؛ لأن الفعل لا يتعدى إلى المفعولين. وقد اختلف العلماء في معنى السر، فقيل: معناه نكاحاً. أي: لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزويجني بل يعرض تعريضاً. وقد ذهب إلى أن معنى الآية هذا جمهور العلماء، وقيل: السرُّ: الزنا، أي: لا يكن منكم مواعدة على الزنا في العدة، ثم التزويج بعدها. قاله جابر بن زيد، وأبو مجلز، والحسن، وقتادة، والضحاك، والنخعي، واختاره ابن جرير الطبري، ومنه قول الحطيئة:

ويحرم سرَّ جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع
وقيل: السرُّ: الجماع، أي: لا تصفوا أنفسكم لهنَّ بكثرة الجماع ترغيباً لهنَّ في النكاح، وإلى هذا ذهب الشافعي في معنى الآية، ومنه قول امرئ القيس:

الأزمت بسباسة اليوم أنني كبرت وإن لا يحسن السر أمثالي
ومثله قول الأعشى:
فلن تطلبوا سرَّها للغنى ولن تسلموها لأزهادها
أراد: تطلبون نكاحها لكثرة مالها، ولن تسلموها لقلة مالها، والاستبرك بقوله: ﴿لَكِنْ﴾ من مقرر محذوف دل عليه ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: فأنكروهنَّ ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سَرًَّا﴾. قال ابن عطية: أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفق من نكر جماع، أو تحريض عليه لا يجوز. وقال أيضاً: أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها، وللأب في ابنته البكر، وللسيد في أمته. قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قيل: هو استثناء منقطع بمعنى لكن، والقول المعروف: هو ما أبيح من التعريض. ومنع صاحب الكشف أن يكون منقطعاً، وقال: هو مستثنى من قوله: ﴿لَا تَوَاعِدُوهُنَّ﴾ أي: لا تواعدهنَّ مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة، فجعله على هذا استثناء مفرغاً، ووجه منع كونه منقطعاً أنه يؤدي إلى جعل التعريض موعوداً، وليس كذلك؛ لأن التعريض طريق المواعدة، لا أنه الموعود في نفسه. قوله: ﴿وَلَا تَعْزَمُوا عَقْدَ النِّكَاحِ﴾ قد تقدم الكلام في معنى العزم، يقال: عزم الشيء، وعزم عليه، والمعنى هنا: لا تعزموا على عقد النكاح، ثم حذف على. قال سيبويه: والحذف في هذه الآية لا يقاس عليه. وقال النحاس: يجوز أن يكون المعنى، ولا تعقدوا عقد النكاح؛ لأن معنى تعزموا، وتعقدوا واحد، وقيل: إن العزم على الفعل يتقنمه، فيكون في هذا النهي مبالغة؛ لأنه إذا نهى عن المتقدم على الشيء، كان النهي عن ذلك الشيء بالأولى. قوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجْلَهُ﴾ يريد حتى

في أحد قوليه، وأحمد وإسحاق، ولكنهم اختلفوا هل هي واجبة في غير المطلقة قبل البناء، والفرض أم مندوبة فقط، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241] وبقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرَحْكِنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 28] والآية الأولى عامة لكل مطلقة، والثانية في أزواج النبي ﷺ، وقد كُنَّ مفروضا لهنَّ مدخولا بهنَّ. وقال سعيد بن المسيب: إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضا لها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَوْنَهَا فَتَمْتِعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49] قال: هذه الآية التي في الأحزاب نسخت التي في البقرة، وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء، والتسمية: لأن المدخول بها تستحق جميع المسمى، أو مهر المثل، وغير المدخولة التي قد فرض لها زوجها فريضة أي: سمي لها مهرا، وطلقتها قبل الدخول تستحق نصف المسمى، ومن القائلين بهذا ابن عمر، ومجاهد. وقد وقع الإجماع على أن المطلقة قبل الدخول، والفرض لا تستحق إلا المتعة إذا كانت حرة. وأما إذا كانت أمة، فذهب الجمهور إلى أن لها المتعة، وقال الأزاعي، والثوري: لا متعة لها؛ لأنها تكون لسيدها، وهو لا يستحق مالا في مقابل تاذي مملوكته؛ لأن الله سبحانه إنما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول، والفرض، لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك. وقد اختلفوا في المتعة المشروعة هل هي مقننة بقدر أم لا؟ فقال مالك، والشافعي في الجني: لا حد لها معروف بل ما يقع عليه اسم المتعة. وقال أبو حنيفة: إنه إذا تنازع الزوجان في قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلهما، ولا يتقص من خمسة دراهم؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم. وللسلف فيها أقوال سيأتي ذكرها إن شاء الله. وقوله: ﴿عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ يدل على أن الاعتبار في ذلك بحال الزوج، فالمتعة من الغني فوق المتعة من الفقير. وقرأ الجمهور على الموسع بسكون الواو، وكسر السين، وهو الذي اتسعت حاله. وقرأ أبو حنيفة بفتح الواو، وتشديد السين، وفتحها. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر قدره بسكون الدال فيهما. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص بفتح الدال فيهما. قال الأخفش، وغيره: هما لغتان فصيحتان، وهكذا يقرأ في قوله تعالى: ﴿فَسَأَلْتُ أَوْدِيَةَ بِقَدْرِهَا﴾ [الرعد: 17]. وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91] والمقتر المقل، ومتاعا مصدر مؤكد لقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ والمعروف ما عرف في الشرع، والعادة الموافقة له. وقوله: ﴿حَقًّا﴾ وصف لقوله: ﴿مَتَاعًا﴾ أو مصدر لفعل محذوف. أي: حق ذلك حقا، يقال: حققت عليه القضاء، وأحققت. أي: أوجبت. قوله: ﴿وَأَنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ الآية، فيه دليل على أن المتعة لا تجب

إن تأنى إن تحسن إليّ أكرمك. أي: إن تأنى محسنا إليّ، والمعنى: إن طلقتموهن غير ماسين لهن. وقيل: إنها موصولة. أي: إن طلقتم النساء اللاتي لم تمسوهن، وهكذا اختلفوا في قوله: ﴿أَوْ تَفْرَضُوا﴾ فقيل: أو بمعنى إلا. أي: إلا أن تفرضوا، وقيل: بمعنى حتى. أي: حتى تفرضوا، وقيل: بمعنى الوار. أي: وتفرضوا. ولست أرى لهذا التظويل وجهًا، ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس، فإن الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقات ما لم يقع أحد الأمرين. أي: مدة انتفاء ذلك الأحد، ولا ينتفي الأحد المبهم إلا بانتفاء الأمرين معًا، فإن وجد المسيس، وجب المسمى، أو مهر المثل، وإن وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس، وكل واحد منها جناح. أي: المسمى، أو نصفه، أو مهر المثل. واعلم أن المطلقات أربع: مطلقة مدخول بها مفروض لها، وهي التي تقدم ذكرها قبل هذه الآية، وفيها نهي الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهن شيئًا، وأن يعتنهن ثلاثة قروء. ومطلقة غير مفروض لها، ولا مدخول بها، وهي المذكورة هنا، فلا مهر لها، بل المتعة، وبين في سورة الأحزاب أن غير المدخول بها إذا طلقت، فلا عدة عليها. ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها، وهي المذكورة بقوله سبحانه هنا: ﴿وَأَنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: 24] والمراد بقوله: ﴿فَمَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ما لم تجامعهن؛ وقرأ ابن مسعود: «من قبل أن تجامعهن» أخرجه عنه ابن جرير، وقرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «ما لم تمسوهن» وقرأه حمزة، والكسائي: «تماسوهن» من المفاعلة والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر. قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن شيئًا يكون متاعًا لهن، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال علي، وابن عمر، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وأبو قلابة، والزهري، وقتادة، والضحاك، ومن ألة الوجوب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ فَتَمْتِعُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَوْنَهَا فَتَمْتِعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 49] وقال مالك، وأبو عبيد، والقاضي شريح، وغيرهم: إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين، ويجاب عنه بأن ذلك لا ينافي الوجوب بل هو تأكيد له، كما في قوله في الآية الأخرى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241] أي: أن الوفاء بذلك، والقيام به شأن أهل التقوى، وكل مسلم يجب عليه أن يتقي الله سبحانه، وقد وقع الخلاف أيضًا هل المتعة مشروعة لغیر هذه المطلقة قبل المسيس، والفرض أم ليست بمشروعة إلا لها فقط؟ فقيل إنها مشروعة لكل مطلقة، وإليه ذهب ابن عباس، وابن عمر، وعطاء، وجابر بن زيد، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، والحسن البصري، والشافعي

مالها، والمهر مالها. فالراجع ما قاله الأولون لوجهين: الأول أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح حقيقة. الثاني أن عفوهُ بكمال المهر هو صابر عن المالك مطلق التصرف بخلاف الولي، وتسمية الزيادة عفواً، وإن كان خلاف الظاهر، لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملاً عند العقد كان العفو معقولاً، لأنه تركه لها، ولم يسترجع النصف منه، ولا يحتاج في هذا إلى أن يقال، إنه من باب المشكلة كما في الكشاف، لأنه عفو حقيقي أي: ترك لما يستحق المطالبة به، إلا أن يقال، إنه مشكلة، أو طيب في توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج. قوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ قيل: هو خطاب للرجال، والنساء تغليباً؛ وقراه الجمهور بالتاء الفوقية، وقراه أبو نهيك، والشعبي بالياء التحتية، فيكون الخطاب مع الرجال. وفي هذا دليل على ما رجحناه من أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج؛ لأن عفو الولي عن شيء لا يملكه ليس هو أقرب إلى التقوى، بل أقرب إلى الظلم، والجور. قوله: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ قراه الجمهور بضم الواو، وقراه يحيى بن يعمر بكسرهما، وقراه علي، ومجاهد، وأبو حنيفة، وابن أبي عبيدة: «ولا تناسوا» والمعنى: أن الزوجين لا ينسيان الفضل من كل واحد منهما على الآخر، ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف، ويتفضل الرجل عليها بكمال المهر، وهو إرشاد للرجال، والنساء من الأزواج إلى ترك التقصي على بعضهم بعضاً، والمسامحة فيما يستغفره أحدهما على الآخر للوصلة التي قد وقعت سهماً من إفشاء البعض إلى البعض، وهي وصلة لا يشبهها، وصلة، فمن رعاية حقها، ومعرفتها حق معرفتها الحرص منهما على التسامح. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه من ترغيب المحسن، وترهيب غيره ما لا يخفى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا لَمْ تَمْسُوهُمْ أَوْ تَفْرَضُوا لَهُمْ فَرِيضَةً﴾ قال: المس: النكاح، والفريضة: الصداق ﴿مَتَعُوهُمْ﴾ قال: هو على الرجل يتزوج المرأة، ولم يسم لها صداقاً، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها. فأمره الله أن يمتعها على قدر عسرته، ويسره، فإن كان موسراً متعها بخادم، وإن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب، أو نحو ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أنه قال: متعة الطلاق: إعلاها الخادم، وبون ذلك الورق، وبون ذلك الكسوة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن ابن عمر قال: إنني ما يكون من المتعة ثلاثون درهماً. وروى القرطبي في تفسيره عن الحسن بن علي أنه متع بعشرين ألفاً، ورقاق من غسل. وعن شريح أنه متع بخمسمائة درهم. وأخرج الدارقطني عن الحسن بن علي أنه متع بعشرة آلاف. وأخرج عبد الرزاق، عن ابن سيرين أنه كان يمتع بالخادم، والنفقة، أو بالكسوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَمْسُوهُمْ﴾ قال المس: الجماع، فلها نصف صداقها،

لهذه المطلقة لوقوعها في مقابلة المطلقة قبل البناء، والفرض التي تستحق المتعة. وقوله: ﴿فَنَنْصِفْ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فالواجب عليكم نصف ما سميتم له من المهر، وهذا مجمع عليه. وقراه الجمهور: ﴿فَنَنْصِفْ﴾ بالرفع. وقراه من عدا الجمهور بالنصب. أي: فانصفوا نصف ما فرضتم، وقرئ أيضاً بضم النون، وكسرها، وهما لغتان. وقد وقع الاتفاق أيضاً على أن المرأة التي لم يدخل بها زوجها، ومات، وقد فرض لها مهراً تستحقه كاملاً بالموت، ولها الميراث، وعليها العدة. واختلفوا في الخلوة هل تقوم مقام الدخول، وتستحق المرأة بها كمال المهر، كما تستحقه بالدخول أم لا؟ فذهب إلى الأول مالك، والشافعي في القديم، والكوفيون، والخلفاء الراشدون، وجمهور أهل العلم، وتجب عندهم أيضاً العدة. وقال الشافعي في الجديد: لا يجب إلا نصف المهر، وهو ظاهر الآية لما تقدم من أن المسيس هو الجماع، ولا تجب عنده العدة، وإليه ذهب جماعة من السلف قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: المطلقات، ومعناه: يتركن، ويصفحن، ووزنه يفعِلن، وهو استثناء مفرغ من أعم العام، وقيل: منقطع، ومعناه: يتركن النصف الذي يجب لهن على الأزواج. ولم تسقط النون مع إن؛ لأن جمع المؤنث في المضارع على حالة واحدة في الرفع، والنصب، والجزم لكون النون ضميراً، وليست بعلامة إعراب كما في المذكر في قولك: الرجال يعفون، وهذا عليه جمهور المفسرين. وروى عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يعني: الرجال، وهو ضعيف لفظاً. ومعنى قوله: ﴿أَوْ يَعْفُو لََّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ معطوف على محل قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ لأن الأول مبني، وهذا معرب؛ قيل: هو الزوج، وبه قال جبير بن مطعم، وسعيد بن المسيب، وشريح، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وعكرمة، ونافع، وابن سيرين، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، وجابر بن زيد، وأبو مجلز، والربيع بن أنس، وإياس بن معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حيان، وهو الجديد من قول الشافعي، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه، والثوري، وابن شبرمة، والأوزاعي، ورجحه ابن جرير. وفي هذا القول قوة وضعف، أما قوته، فلكون الذي بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج؛ لأنه هو الذي إليه رفعه بالطلاق، وأما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول، وما قالوا به من أن المراد بعفو أن يعطيها المهر كاملاً غير ظاهر. لأن العفو لا يطلق على الزيادة، وقيل: المراد بقوله: ﴿أَوْ يَعْفُو لََّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هو: الولي، وبه قال النخعي، وعلقمة، والحسن، وطاوس، وعطاء، وأبو الزناد، وزيد بن أسلم، وربيعة، والزهرري، والأسود بن يزيد، والشعبي، وقتادة، ومالك، والشافعي في قوله القديم، وفيه قوة، وضعف؛ أما قوته فلكون معنى العفو فيه معقولاً، وأما ضعفه، فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده، ومما يزيد هذا القول ضعفاً أنه ليس للولي أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه. وقد حكى القرطبي الإجماع على أن الولي لا يملك شيئاً من

يمكن أن يدعى فيه التواتر، وإذا لم تقم الحجة بأقوال الصحابة لم تقم بأقوال من بعدهم من التابعين، وتابعهم بالأولى، وهكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد حسن، عن ابن عباس أنه قال: صلاة الوسطى المغرب، وهكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة: أنها الظهر، أو غيرها من الصلوات، ولكن المحتاج إلى إمعان نظر، وفكر ما ورد مرفوعاً إلى النبي ﷺ مما فيه دلالة على أنها الظهر، كما أخرجه ابن جرير، عن زيد بن ثابت مرفوعاً: «إن الصلاة الوسطى صلاة الظهر». ولا يصح رفعه بل المروى، عن زيد بن ثابت ذلك من قوله، واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ كان يصلي بالهجرة، وكانت أثقل الصلاة على أصحابه، وابن يقر هذا الاستدلال من تلك الأحاديث الصحيحة الثابتة، عن النبي ﷺ، وهكذا الاعتبار بما روي، عن ابن عمر من قوله: إنها الظهر. وكذلك ما روي، عن عائشة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم، فلا حجة في قول أحد مع قول رسول الله ﷺ. وأما ما رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وغيرهما أن حفصة قالت لأبي رافع مولاها، وقد أمرته أن يكتب لها مصحفاً: إذا أتيت على هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فتعال حتى أملكها عليك، فلما بلغ تلك أمرته أن يكتب: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وأخرج ابن جرير، وابن حميد، وابن مالك، وعبد بن حميد، وأحمد، وإسحاق، وقالوا: أشهد أنني سمعتها من رسول الله ﷺ. وأخرج مالك، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي يونس مولى عائشة أنها أمرته أن يكتب لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فأنني ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ قال: فلما بلغت أكتفتها، فأملت علي: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وقالت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن أم سلمة أنها أمرت من يكتب لها مصحفاً، وقالت له، كما قالت حفصة، وعائشة. فغاية ما في هذه الروايات، عن أمهات المؤمنين الثلاث رضي الله عنهن أنهن يروين هذا الحرف هكذا عن رسول الله ﷺ، وليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى أنها الظهر، أو غيرها، بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على صلاة الوسطى أنها غيرها؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه، وهذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه ﷺ ثبوتاً لا يدفع أنها العصر كما قدمنا بيانه. فالحاصل أن هذه القراءة التي نقلتها أمهات المؤمنين الثلاث بثبوت قولها: «وصلاة العصر» معارضة بما أخرجه ابن جرير، عن عروة قال: كان في مصحف عائشة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وهي صلاة العصر. وأخرج وكيع، عن حميدة قالت: قرأت في مصحف عائشة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾. وأخرج ابن أبي داود،

عن قبيصة بن نؤيب مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وأبو عبيد، عن زياد بن أبي مريم أن عائشة أمرت بمصحف لها أن يكتب، وقالت: إذا بلغت ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ فلا تكتبوها حتى تؤننوني، فلما أخبروها أنهم قد بلغوا قالت: اكتبوها صلاة الوسطى صلاة العصر. وأخرج ابن جرير، والطحاوي، والبيهقي، عن عمرو بن رافع: قال كان مكتوباً في مصحف حفصة ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وهي صلاة العصر. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ صلاة العصر. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، والطحاوي، عن ابن عباس: أنه كان ليقرؤها: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ صلاة العصر. وأخرج المحاملي عن السائب بن يزيد أنه تلاها كذلك، فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة، ونقل القراءة، ويبقى ما صرح عن النبي ﷺ من التعيين صافياً، عن شوب كدر المعارضة. على أنه قد ورد ما يدل على نسخ تلك القراءة التي نقلتها حفصة، وعائشة، وأم سلمة. فأخرج عبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، والبيهقي، عن البراء بن عازب، قال: نزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فقرأناها على عهد رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله، فانزل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فقيل له: هي إنن: صلاة العصر؟ قال: قد حدثتكم كيف نزلت، وكيف نسخها الله، والله أعلم. وأخرج البيهقي، عنه من وجه آخر، نحوه. وإذا تقرر لك هذا، وعرفت ما سققناه تبين لك أنه لم يرد ما يعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر. وأما حجج بقية الأقوال، فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ في ذلك شيء، وبعض القائلين عول على أمر لا يعول عليه، فقال: إنها صلاة كذا؛ لأنها وسطى بالنسبة إلى أن قبلها كذا من الصلوات، وبعدها كذا من الصلوات، وهذا الرأي المحض، والتخمين البحث لا ينبغي أن تسند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه، عن النبي ﷺ، فكيف مع وجود ما هو في أعلا درجات الصحة، والقوة، والثبوت، عن رسول الله ﷺ؟ وبالله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم في علم السنة، وإعراضهم عن خير العلوم، وأنفعها، حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله، والتحري على تفسير كتاب الله بغير علم، ولا هدى، فجاءوا بما يضحك منه تارة، ويبكى منه أخرى. قوله: ﴿وَقَوْمُوا لَه قَاتِنِينَ﴾ القنوت قيل: هو الطاعة. أي: قوموا له في صلاتكم طائعين، قاله جابر بن زيد، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، والشافعي. وقيل: هو الخشوع، قاله ابن عمر، ومجاهد. ومنه قول الشاعر: قَانَتْ أَلْأَدْعُورِيهِ وَعَلَى عَمَدٍ مِنَ النَّاسِ اعْتَزَلَ وَقِيلَ: هُوَ الدَّعَاءُ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وفي الحديث أن

عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قال: مصلين. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كل أهل دين يقومون فيها عاصين، قوموا أنتم مطيعين، وأخرج ابن أبي شيبة، عن الضحاك مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قال: من القنوت الركوع، والخشوع، وطول الركوع: يعني طول القيام، وغض البصر، وخفض الجناح، والرهبة لله. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشَفْلَاءَ» وفي صحيح مسلم، وغيره أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ». وقد اختلفت الأحاديث في القنوت المصطلح عليه، هل هو قبل الركوع، أو بعده، وهل هو في جميع الصلوات، أو بعضها، وهل هو مختص بالنوازل أم لا؟ والراجح اختصاصه بالنوازل، وقد أوضحنا ذلك في شرحنا للمنتقى، فليرجع إليه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ قال: يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجليه ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ يعني: كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون. يعني: كما علمكم أن يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجليه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن جابر بن عبد الله، قال: إذا كانت المسابقة، فليوم براسه حيث كان وجهه، فنلك قوله: ﴿فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ قال: ركعة ركعة. وأخرج وكيع، وابن جرير، عن مجاهد: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ قال: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة.

وَأَلَّذِينَ يَبْتَغُونَ رِزْقَهُمْ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَهُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ تَتَمَتَّأُ إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنَّ حَرْجَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي شَهْرِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ وَلَمَّا طَلَّ مَتْنُ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى النَّبِيِّ ﴿١١١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾

هذا عود إلى بقية الأحكام المفصلة فيما سلف. وقد اختلف السلف، ومن تبعهم من المفسرين في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فذهب الجمهور إلى أنها منسوخة بالأربعة الأشهر والعشر كما تقدم، وإن الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهم من الميراث. وحكى ابن جرير، عن مجاهد أن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، وإن العدة أربعة أشهر وعشر، ثم جعل الله لهم وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت. وقد حكى ابن عطية، والقاضي عياض أن الإجماع منعقد على أن الحول منسوخ، وأن عدتها أربعة أشهر وعشر. وقد أخرج عن مجاهد، ما أخرجه ابن

رسول الله ﷺ قنوت شهرأ يدعو على رعل، ونكون. وقال قوم: إن القنوت طول القيام، وقيل معناه: ساكتين قاله السدي، ويدل عليه حديث زيد بن أرقم في الصحيحين، وغيرهما قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فامرنا بالسكوت، وقيل: أصل القنوت في اللغة النوام على الشيء، فكل معنى يناسب النوام يصح إطلاق القنوت عليه. وقد ذكر أهل العلم أن القنوت ثلاثة عشر معنى، وقد نكرنا ذلك في شرح المنتقى، والمتعين هاهنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور. قوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ الخوف هو: الفزع، والرجال جمع رجل، أو راجل، من قولهم: رجل الإنسان يرجل رجلاً: إذا عدم المركوب، ومشى على قنميه، فهو رجل، وراجل. يقول أهل الحجاز: مشى فلان إلى بيت الله حافياً رجلاً. حكاه ابن جرير الطبري، وغيره. لما ذكر الله سبحانه الأمر بالمحافظة على الصلوات، ذكر حالة الخوف أنهم يضيعون فيها ما يمكنهم، ويدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها حال الترجل، وحال الركوب، وإبان لهم أن هذه العبادة لازمة في كل الأحوال بحسب الإمكان. وقد اختلف أهل العلم في حد الخوف المبيح لذلك، والبحث مستوفى في كتب الفروع. قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: إذا زال خوفكم، فارجعوا إلى ما أمرتم به من إتمام الصلاة مستقبلين القبلة قائمين بجميع شروطها، وأركانها، وهو قوله: ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ وقيل: معنى الآية: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة، وهو خلاف معنى الآية. وقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَكُمُ﴾ أي: مثل ما علمكم من الشرائع: ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف أي: نكرنا كأننا كتلميذكم إياكم، أو مثل تعليمه إياكم.

وقد أخرج ابن جرير، عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا، وشبك بين أصابعه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أنه سئل عن الصلاة الوسطى؟ فقال: هي فيهن، فحافظوا عليهن. وأخرج عبد بن حميد، عن زيد بن ثابت: أنه سأل رجل عن الصلاة الوسطى، فقال: حافظ على الصلوات تدركها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن الربيع بن خيثم: أن سأل سأل عن الصلاة الوسطى، قال: حافظ عليهن، فإنك إن فعلت أصبتها، إنما هي واحدة منهن. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن سيرين قال: سئل شريح عن الصلاة الوسطى، فقال: حافظوا عليها تصيبوها. وقد قدمنا ما روي عن النبي ﷺ، وعن أصحابه رضي الله عنهم في تعيينها. وأخرج الطبراني، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ مثل ما قدمنا، عن زيد بن أرقم. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن محمد بن كعب، نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة نحوه. وأخرج

جرير عنه البخاري في صحيحه. وقوله: ﴿وصية﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، والكسائي بالرفع على أن ذلك مبتدأ لخبر محذوف يقدر مقدماً. أي: عليهم وصية، وقيل: إن الخبر قوله: ﴿لأزواجهم﴾ وقيل: إنه خبر مبتدأ محذوف. أي: وصية الذين يتوفون وصية، أو حكم الذين يتوفون وصية. وقرأ أبو عمرو، وحمره، وابن عامر بالنصب على تقدير فعل محذوف. أي: فليوصوا وصية، أو أوصى الله وصية، أو كتب الله عليهم وصية. وقوله: ﴿متاعاً﴾ منصوب بوصية، أو بفعل محذوف. أي: متعوهن متاعاً، أو جعل الله لهنّ ذلك متاعاً، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال. والمتاع هنا: نفقة السنة. وقوله: ﴿غير إخراج﴾ صفة لقوله: ﴿متاعاً﴾ وقال الأخفش: إنه مصدر كأنه قال: لا إخراجاً، وقيل: إنه حال. أي: متعوهن غير مخرجات، وقيل: منصوب بنزع الخافض. أي: من غير إخراج، والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم أن يمتعن بعدهم حولاً كاملاً بالنفقة، والسكنى من تركتهم، ولا يخرجن من مسكنهنّ. وقوله: ﴿فإن خرجن﴾ يعني: باختيارهنّ قبل الحول ﴿فلا جناح عليكم﴾ أي: لا حرج على الولي، والحاكم، وغيرهما ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾ من التعرض للخطاب، والتزين لهم. وقوله: ﴿من معروف﴾ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر. وفيه دليل على أن النساء كنّ مخيرات في سكنى الحول، وليس ذلك بحتم عليهنّ، وقيل: المعنى: لا جناح عليكم في قطع النفقة عنهنّ، وهو ضعيف؛ لأن متعلق الجناح هو منكر في الآية بقوله: ﴿فيما فعلن﴾ وقوله: ﴿وللمطلقات متاع﴾ قد اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: هي المتعة، وأنها واجبة لكل مطلقة، وقيل: إن هذه الآية خاصة بالثيبات اللواتي قد جومن؛ لأنه قد تقدم قبل هذه الآية نكر المتعة للواتي لم يدخل بهنّ الأزواج. وقد قدمنا الكلام على هذه المتعة، والخلاف في كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء، والفرض، أو عامة للمطلقات، وقيل: إن هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة، وهي متعة المطلقة قبل البناء، والفرض، وغير الواجبة، وهي متعة سائر المطلقات، فإنها مستحبة فقط، وقيل: المراد بالمتعة هنا النفقة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَرَّ السُّمُومِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذَرُّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٤٦﴾ وَتَوَلَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٧﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرُضُ اللَّهُ فَرَضًا حَسَنًا فَيُضِلُّهُمُ لَهُ أَصْحَابًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيُمِصُّ وَيُؤَنِّسُ رُجُومًا ﴿١٤٨﴾

الاستفهام هنا للتقرير، والرؤية المذكورة هي رؤية القلب لا رؤية البصر. والمعنى، عند سيئويه: تنبه إلى أمر الذين خرجوا، ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين كذا قيل. وحاصله أن الرؤية هنا التي بمعنى الإدراك مضمنة معنى التنبيه، ويجوز أن تكون مضمنة معنى الانتهاء. أي: ألم ينته علمك إليهم، أم معنى الوصول. أي: ألم يصل علمك إليهم، ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية. أي: ألم تنظر إلى الذين خرجوا، جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيع، والشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد، أو المبصرة لكل مبصر؛ لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها وبنوؤها، وأشهرها أمرها، والخطاب هنا لكل من يصلح له. والكلام جار مجرى المثل في مقام التعجيب أدعاء لظهوره، وجلالة بحيث

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن الزبير، قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها، أو لم تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية، قال: كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها، وسكنها في الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لهنّ الربع، والثمن مما ترك الزوج. وأخرج ابن جرير، نحوه عن عطاء. وأخرج نحوه أيضاً أبو داود، والنسائي، عن ابن عباس من وجه آخر. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، عن جابر بن عبد الله، قال: ليس للمتوفى عنها زوجها نفقة حسبها الميراث. وأخرج أبو داود في ناسخه،

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن الزبير، قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها، أو لم تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية، قال: كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها، وسكنها في الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لهنّ الربع، والثمن مما ترك الزوج. وأخرج ابن جرير، نحوه عن عطاء. وأخرج نحوه أيضاً أبو داود، والنسائي، عن ابن عباس من وجه آخر. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، عن جابر بن عبد الله، قال: ليس للمتوفى عنها زوجها نفقة حسبها الميراث. وأخرج أبو داود في ناسخه،

ورفع الفاء، وقرأ ابن عامر، ويعقوب: «فيضعفه» بإسقاط الألف مع تشديد العين، ونصب الفاء. وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر بالتشديد، ورفع الفاء. فمن نصب، فعلى أن جواب الاستفهام، ومن رفع، فعلى تقدير مبتدأ، أي: هو يضاعفه. وقد اختلف في تقدير هذا التضعيف على أقوال. وقيل: لا يعلمه إلا الله وحده. وقوله: «والله يقبض ويبسط» هذا عام في كل شيء، فهو القابض الباسط، والقبض: التقتير، والبسط: التوسيع، وفيه وعيد بأن من بخل من البسط يوشك أن يبذل بالقبض، ولهذا قال: «وإليه ترجعون» أي: هو يجازيك بما قدمتم عند الرجوع إليه، وإذا أنفقت مما وسع به عليكم أحسن إليكم، وإن بخلتم عاقبكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم عن ابن عباس في قوله: «إلى الذين خرجوا من ديارهم» قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، وقالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا، وكذا قال لهم الله: موتوا، فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم حتى يعيروه، فأحياهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه: أن القرية التي خرجوا منها داودان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم هذه القصة مطولة، عن أبي مالك، وفيها أنهم بضعة وثلاثون ألفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن عبد العزيز: أن ديارهم هي أنرعات. وأخرج أيضاً، عن أبي صالح قال: كانوا تسعة آلاف. وأخرج جماعة من محدثي المفسرين هذه القصة على أنحاء، ولا يأتي الاستكثار من طرقها بفائدة. وقد ورد في الصحيحين، وغيرهما، عن النبي ﷺ النهي عن الفرار من الطاعون، وعن دخول الأرض التي هو بها من حديث عبد الرحمن بن عوف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود، قال: «لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله إن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني ياك يا رسول الله، فنأوله يده، قال: فإنني قد أقرضت ربي حائطي، وله فيه ستمائة نخلة». وقد أخرج هذه القصة عبد الرزاق، وابن جرير من طريق زيد بن أسلم، زاد الطبراني، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، وابن مروي، عن أبي هريرة، وابن إسحاق، وابن المنذر، عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: «أضعافاً كثيرة» قال: هذا التضعيف لا يعلم أحد ما هو. وأخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي عثمان النهدي قال: بلغني عن أبي هريرة، حديث أنه قال: «إن الله ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة» فحججت ذلك العلم، ولم أكن أريد أن أحج إلا لآلهاء في هذا الحديث، فلقيت أبا هريرة، فقلت له، فقال: ليس هذا، قلت: ولم يحفظ هذا الحديث الذي حدثك إنما قلت: «إن الله ليعطي العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة» ثم قال أبو

يستوي في إدراكه الشاهد، والغائب. وقوله: «وهم الوفاء» في محل نصب على الحال من ضمير خرجوا، والوفاء من جموع الكثرة، فدل على أنها الوفاء كثيرة. وقوله: «وحدث الموت» مفعول له. وقوله: «فقال لهم الله موتوا» هو أمر تكوين عبارة عن تعلق إرادته بموتهم نفعاً، أو تمثيل لإماتته سبحانه إياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا، فأطاعوا. وقوله: «ثم أحياهم» هو معطوف على مقرر يقتضيه المقام أي: قال الله لهم موتوا، فماتوا ثم أحياهم، أو على قال لما كان عبارة، عن الإمامة، وقوله: «إن الله لنؤ فضل على الناس» التذكير في قوله فضل للتعظيم. أي: لنؤ فضل عظيم على الناس جميعاً، أما هؤلاء الذين خرجوا، فلكونه أحياهم، ليعتبروا، وأما المخاطبون، فلكونه قد أرشدهم إلى الاعتبار، والاستبصار بقصة هؤلاء، وقوله: «ووقتلوا في سبيل الله» هو معطوف على مقرر، كأنه قيل: اشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم، وقتلوا، هذا إذا كان الخطاب بقوله: «ووقتلوا» راجعاً إلى المخاطبين بقوله: «إلى الذين خرجوا» كما قال جمهور المفسرين، وعلى هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد، وقيل: إن الخطاب للذين أحيوا من بني إسرائيل، فيكون عطفاً على قوله: «وموتوا» وفي الكلام محذوف تقديره: وقال لهم قاتلوا. وقال ابن جرير: لا وجه لقول من قال: إن الأمر بالقتال للذين أحيوا. وقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله» لما أمر سبحانه بالقتال، والجهاد أمر بالإتفاق في ذلك، ومنه: استفهامية مرفوعة المحل بالبتداء، وهذا خبره، «والذي» وصلته وصف له، أو بدل منه، وإقراض الله مثل لتقديم العمل الصالح الذي يستحق به فاعله الثواب، وأصل القرض اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، يقال: اقترض فلان فلاناً، أي: أعطاه ما يتجازه. قال الشاعر:

وإذا جوزيت قرضاً فأجزه

وقال الزجاج: القرض في اللغة: البلاء الحسن، والبلاء السيء.

قال أمية:

كل امرئ سوف يجزي قرضه حسناً أو سيئاً وميناً مثل ما دانا وقال آخر:

فجأزي القروض بأمثالها فبالخير خيراً وبالشر شراً

وقال الكسائي القرض: ما أسلفت من عمل صالح، أو سيء، وأصل الكلمة القطع، ومنه المقرض، واستدعاء القرض في الآية إنما هو: تأنيس، وتقريب للناس بما يفهمونه. والله هو الغني الحميد. شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس، والأموال في أخذ الجنة بالبيع، والشراء. وقوله: «حسناً» أي: طيبة به نفسه من دون من، ولا أذى. وقوله: «فيضاعفه» قرأ عاصم، وغيره بالألف، ونصب الفاء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمره، والكسائي بإثبات الألف،

عنهم أذى العطش بعض الارتقاء، وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال، وفيه أن الغرفة تكف سورة العطش عند الصابرين على شغل العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية. فالمراد بقوله: ﴿فمن شرب منه﴾ أي: كرع، ولم يقتصر على الغرفة، «ومن» ابتدائية. ومعنى قوله: ﴿فليس مني﴾ أي: ليس من أصحابي من قولهم: فلان من فلان، كانه بعضه لاختلاطهما، وطول صحبتهما، وهذا مهيع في كلام العرب معروف، ومنه قول الشاعر:

إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لست منك ولست مني
وقوله: ﴿ومن لم يطعمه﴾ يقال: طعمت الشيء أي: ذقته، وأطعمته الماء أي: أنقته، وفيه دليل على أن الماء يقال له طعام، والاعتراف: الأخذ من الشيء باليد، أو بالآلة، والغرف مثل الاعتراف، والغرفة المرة الواحدة. وقد قرئ بفتح الغين، وضمها، فالفتح للمرة، والضم اسم للشيء المغترف، وقيل: بالفتح الغرفة بالكف الواحدة، وبالضم الغرفة بالكفين، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

لا يبلغون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الخدران بالراح
قوله: ﴿إلا قليلاً﴾ سيأتي بيان عددهم، وقرئ «إلا قليل» ولا وجه له إلا ما قيل من أنه من هجر اللفظ إلى جانب المعنى أي: لم يعطه إلا قليل، وهو تعسف. قوله: ﴿فلما جاوزه﴾ أي: جاوز النهر طالوت: ﴿والذين آمنوا معه﴾ وهم القليل الذين أطاعوه، ولكنهم اختلّفوا في قوة اليقين، فبعضهم قال: ﴿لا طاقة لنا﴾ وقال الذين يظنون: ﴿أي: يتيقنون﴾ أنهم ملاقوا الله، والفتنة: الجماعة، والقطعة منهم من فاوت رأسه بالسيف أي: قطعت. وقوله ﴿برزوا﴾ أي: صاروا في البراز، وهو المنسج من الأرض. وجالوت أمير العمالقة. قلوا أي: جميع من معه من المؤمنين، والإفراغ يفيد معنى الكثرة. وقوله: ﴿وثبت أقدامنا﴾ هذا عبارة عن القوة، وعدم الفشل، يقال: ثبت قدم فلان على كذا إذا استقر له، ولم يزل عنه، وثبت قدمه في الحرب إذا كان الغلب له، والنصر معه. قوله: ﴿وانصرونا على القوم الكافرين﴾ هم جالوت، وجنوده. ووضع الظاهر موضع المضمّر إظهاراً لما هو العلة الموجبة للنصر عليهم، وهي كفرهم، ونكر النصر بعد سؤال تثبيت الأقدام، لكون الثاني هو غاية الأوّل. قوله: ﴿فهزمهم بإذن الله﴾ الهزم: الكسر. ومنه سقاء منهزم أي: انتنى بعضه على بعض مع الجفاف، ومنه ما قيل في زعم إنها هزمة جبريل أي: هزمها برجله، فخرج الماء، والهزم: ما يكسر من يابس الحطب، وتقدير الكلام: فأنزل الله عليهم النصر ﴿فهزمهم بإذن الله﴾ أي: بامر وإرادته. قوله: ﴿وقتل داود جالوت﴾ هو: داود بن إيشا بكسر الهمة، ثم تحية ساكنة بعدها معجمة، ويقال: داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوة، والملك بعد أن كان راعياً، وكان أصغر إخوته، اختاره طالوت لمقاتلة جالوت، فقتله. والمراد بالحكمة هنا: النبوة، وقيل: هي تعليمه صنعة الدروع، ومنطق الطير، وقيل هي: إعطاؤه

نياتهم، وفتور عزائمهم. واختلف في عدد القليل الذين استثناهم الله سبحانه، وهم الذين اكتفوا بالغرفة. وقوله ﴿وقال لهم نبيهم﴾ شروع في تفصيل ما جرى بينهم وبين نبيهم من الأقوال والأفعال. وطالوت: اسم أعجمي، وكان سقاء، وقيل: دباغاً، وقيل: مكارياً، ولم يكن من سبط النبوة، وهم بنو لاري، ولا من سبط الملك، وهم بنو يهوذا، فلذلك: ﴿قالوا أنى يكون له الملك علينا﴾ أي: كيف ذلك، ولم يكن من بيت الملك، ولا هو ممن أوتي سعة من المال حتى نتبعه لشرفه، أو لماله، وهذه الجملة أعني قوله: ﴿ونحن أحق﴾ حالية وكذلك الجملة المعطوفة عليها. وقوله: ﴿اصطفاه عليكم﴾ أي: اختاره، واختيار الله هو الحجة القاطعة. ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء: بأن الله زاده بسطة في العلم، الذي هو ملاك الإنسان، ورأس الفضائل، وأعظم وجوه الترجيح، وزاده بسطة في الجسم الذي يظهر به الأثر في الحروب، ونحوها، فكان قوياً في بنيه، وبنيه، وذلك هو المعتبر، لا شرف النسب. فإن فضائل النفس مقدّمة عليه ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ فالملك ملكه، والعبيد عبيده، فما لكم والاعتراض على شيء ليس هو لكم، ولا أمره إليكم. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ من قول نبينا محمد ﷺ، وقيل: هو من قول نبيهم، وهو الظاهر. وقوله: ﴿ولوسع﴾ أي: واسع الفضل، يوسع على من يشاء من عباده ﴿عليهم﴾ بمن يستحق الملك، ويصلح له. والتابوت، فعلوت من التوب، وهو الرجوع؛ لأنهم يرجعون إليه أي: علامة ملكه إتيان التابوت الذي أخذ منهم. أي: رجوعه إليكم، وهو صندوق التوراة. والسكينة فعيلة مأخوذة من السكون، والوقار، والطمأنينة أي: فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت. قال ابن عطية: الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء، وأثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به، وتتقوى. وقد اختلف في السكينة على أقوال سيأتي بيان بعضها، وكذلك اختلف في البقية، فقليل هي عصا موسى، ورضاض الألواح، وقيل: غير ذلك. وقيل: والمراد بآل موسى، وهارون هما أنفسهما. أي: مما ترك هارون، وموسى، ولفظ آل مقحمة، لتفخيم شأنهما، وقيل المراد: الأنبياء من بني يعقوب؛ لأنهما من ذرية يعقوب، فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما. وفصل معناه: خرج بهم، فصلت الشيء، فانفصل أي: قطعت، فانقطع، وأصله متعد، يقال فصل نفسه، ثم استعمل استعمال اللازم كالفصل، وقيل: إن فصل يستعمل لازماً، ومتعدياً، يقال: فصل عن البلد فصلاً، وفصل نفسه فصلاً. والابتلاء: الاختبار. والنهر: قيل: هو بين الأردن، وفلسطين، وقرأ الجمهور بنهر بفتح الهاء. وقرأ حميد، ومجاهد، والأعرج بسكون الهاء. والمراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم، فمن أطاع في ذلك الماء أطاع فيما عداه، ومن عصى في هذا، وغلبته نفسه، فهو بالعصيان في سائر الشدائد أخرى، ورخص لهم في الغرفة ليرتفع

السلسلة التي كانوا يتحكمون إليها. قوله: ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ قيل: إن المضارع هنا موضوع موضع الماضي، وفاعل هذا الفعل هو الله تعالى، وقيل: داود، وظاهر هذا التركيب أن الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته، وتعلقت به إرادته، وقد قيل: إن من ذلك ما قلّمنا من تعليمه صنعة المروع، وما بعده، قوله: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ﴾ قرأه الجماعة: «ولولا دفع الله» وقرأ نافع: «دفاع» وهما مصدران لدفع، كذا قال سيبويه. وقال أبو حاتم: دافع، ودفع واحد مثل: طرقت نعلي، وطارقتها. واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، وأنكر قراءة نافع، قال: لأن الله عز وجل لا يغالبه أحد، قال مكي: يوهم أبو عبيدة أن هذا من باب المفاعلة، وليس به، وعلى القراءةتين، فالمصدر مضاف إلى الفاعل أي: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ وبعضهم بدل من الناس، وهم الذين يباشرون أسباب الشر، والفساد ببعض آخر منهم، وهم الذين يكفونهم عن ذلك ويرتّبونهم عنه ﴿وَلَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ لتغلب أهل الفساد عليها، وإحداثهم للشرور التي تهلك الحرث، والنسل، وتتكبر فضل للتعظيم. وآيات الله هي: ما اشتملت عليه هذه القصة من الأمور المذكورة. والمراد ﴿بِالْحَقِّ﴾ هنا: الخبر الصحيح الذي لا ريب فيه عند أهل الكتاب، والمطلعين على أخبار العالم. وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إخبار من الله سبحانه بأنه من جملة رسل الله سبحانه تقوية لقلبه، وتثبيتاً لجنانته، وتشبيهاً لأمره.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: هذا حين رفعت النبوة، واستخرج أهل الإيمان، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم، وأبنائهم ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ﴾ وذلك حين اتّاهم التابوت، قال: وكان من إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط خلافة، فلا تكون الخلافة إلا في سبط الخلافة، ولا تكون النبوة إلا في سبط النبوة، ﴿فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾ قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه؟ وليس من أحد السبطين لا من سبط النبوة، ولا من سبط الخلافة ﴿قَالَ إِنْ أَشْغَفَاكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فابوا أن يسلموا له الرئاسة حتى قال لهم: ﴿إِنْ آيَةٌ مَلَكَهَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾ وكان موسى حين ألقى الألواح تكسرت، ورفع منها وجمع ما بقي، فجعله في التابوت، وكانت العمالة قد سبت تلك التابوت، والعمالة فرقة من عاد كانوا باريحاء، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، فلما راوا ذلك قالوا: نعم، فسلموا له، وملكوه، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتلاً قَدَّمُوا التَّابُوتَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ويقولون: إن آم نزل بذلك التابوت، وبالركن، وبعضاً موسى من الجنة. وبلغني أن التابوت، وعصا موسى في بحيرة طبرية، وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة. وقد ورد هذا المعنى مختصراً، ومطولاً عن

وأقول: هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقمامهم الله، فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضي الله عنهم، والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً، وتارة جماداً، وتارة شيئاً لا يعقل، كقول مجاهد: كهيئة الريح لها وجه كوجه الهر، وجناحان، ونذب مثل نذب الهر. وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل يتناقض، ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مروياً عن النبي ﷺ، ولا رأياً رآه قائله، فهم أجل قدراً من التفسير بالرأي، وبما لا مجال للاجتهاد فيه، إذا تقرّر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة، وهو معروف، ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة، فقد جعل الله عنها سعة، ولو ثبت لنا في السكينة تفسير، عن النبي ﷺ لوجب علينا المصير إليه، والقول به، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت أنها تنزلت عن

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: هذا حين رفعت النبوة، واستخرج أهل الإيمان، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم، وأبنائهم ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ﴾ وذلك حين اتّاهم التابوت، قال: وكان من إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط خلافة، فلا تكون الخلافة إلا في سبط الخلافة، ولا تكون النبوة إلا في سبط النبوة، ﴿فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾ قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه؟ وليس من أحد السبطين لا من سبط النبوة، ولا من سبط الخلافة ﴿قَالَ إِنْ أَشْغَفَاكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فابوا أن يسلموا له الرئاسة حتى قال لهم: ﴿إِنْ آيَةٌ مَلَكَهَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾ وكان موسى حين ألقى الألواح تكسرت، ورفع منها وجمع ما بقي، فجعله في التابوت، وكانت العمالة قد سبت تلك التابوت، والعمالة فرقة من عاد كانوا باريحاء، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، فلما راوا ذلك قالوا: نعم، فسلموا له، وملكوه، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتلاً قَدَّمُوا التَّابُوتَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ويقولون: إن آم نزل بذلك التابوت، وبالركن، وبعضاً موسى من الجنة. وبلغني أن التابوت، وعصا موسى في بحيرة طبرية، وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة. وقد ورد هذا المعنى مختصراً، ومطولاً عن

ثلاثين ألفاً. وقد نكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس، والله أعلم. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ قال: يدفع الله بمن يصلي عمن لا يصلي، وبمن يحج عمن لا يحج، وبمن يزكي عمن لا يزكي. وأخرج ابن عدي، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لينفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء». ثم قرأ ابن عمر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ﴾ الآية وفي إسناده يحيى بن سعيد العطار الحمصي، وهو ضعيف جداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّخَذُوا فَتَذَرُوا سُبُلَ اللَّهِ حَلَّالِهَا وَحَرِّمُهَا يُخَوِّفُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلُ لَا يَنْزِلُ فِي يَدَيْهِمْ مِنْ بَدَا مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَوْا فَيَنْهَوْنَ عَنْ مَنٍّ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

قوله: ﴿هَذِهِ السُّبُلُ﴾ قيل: هو إشارة إلى جميع الرسل، فتكون الألف واللام للاستغراق، وقيل: هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة، وقيل: إلى الأنبياء الذين بلغ علمهم إلى النبي ﷺ. والمراد بتفصيل بعضهم على بعض: أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر، فكان الأكثر مزايا فاضلاً، والآخر مفضولاً. وكما دلت هذه الآية على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض كذلك دلت الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55]. وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «لا تفضلوا بين الأنبياء»، وفي لفظ «لا تخيروا بين الأنبياء» فقال قوم: إن هذا القول منه ﷺ كان قبل أن يوحى إليه بالفضل، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل، وقيل: إنه قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع كما قال: «لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى» تواضعاً مع علمه أنه أفضل الأنبياء كما يدل عليه قوله: «أنا سيد ولد آدم»؛ وقيل: إنما نهى عن ذلك قطعاً للجدال، والخصام في الأنبياء، فيكون مخصوصاً بمثل ذلك لا إذا كان صدور ذلك مأموراً، وقيل: إن النهي إنما هو من جهة النبوة فقط؛ لأنها خصلة واحدة لا تفاضل فيها، ولا نهى عن التفاضل بزيادة الخصوصيات، والكرامات، وقيل: إن المراد النهي عن التفضيل لمجرد الأهواء، والعصبية، وفي جميع هذه الأقوال ضعف. وعندي أنه لا تعارض بين القرآن، والسنة. فإن القرآن دلّ على أن الله فضل بعض أنبيائه على بعض، وذلك لا يستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض، فإن المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عليه منها خافية، وليست بمعلومة عند البشر، فقد يجهل أتباع نبي من الأنبياء بعض مزاياه، وخصوصياته

بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن، كما في صحيح مسلم، عن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط، فتغشته سحابة، فجعلت تدور، وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها: فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فنكر ذلك له، فقال: تلك السكينة نزلت للقرآن. وليس في هذا إلا أن هذه التي سماها رسول الله ﷺ سكينة سحابة دارت على ذلك القارئ، فالله أعلم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبِيقِينَةٍ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى﴾ قال: عصاه، ورضاض الألواح. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح قال: كان في التابوت عصى موسى، وعصى هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ولوحان من التوراة، والممن وكلمة الفرج: «لا إله إلا الله الحليم الكريم» وسبحان الله رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة في قوله: ﴿نَحْمِلُهُ لِمَلَائِكَةٍ﴾ قال: أقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعته في بيت طلوت، فاصبح في داره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ قال: علامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿إِنْ اللَّهُ يَمْتَلِكُمْ بِيَدِهِ﴾ يقول: بالعطش، فلما انتهى إلى النهر، وهو نهر الأردن كرع فيه عامة الناس، فشرّبوا منه، فلم يزد من شرب منه إلا عطشاً، وأجزأ من اغترف غرفة بيده، وانقطع الظما عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال: القليل ثلاث مئة وبضعة عشر عدة أهل بدر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن البراء قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طلوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاث مئة. وقد أخرج ابن جرير عن قتادة قال: نكر لنا أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «أنتم بعدة أصحاب طلوت يوم لقي جالوت». وأخرج ابن عساکر من طريق جويبر، عن الضحاک عن ابن عباس قال: كانوا ثلاث مئة ألف وثلاثة آلاف وثلاث مئة وثلاثة عشر، فشرّبوا منه كلهم إلا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً عدة أصحاب النبي ﷺ يوم بدر، فردّهم طلوت، ومضى ثلاث مئة وثلاثة عشر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ قال: الذين يستيقنون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان طلوت أميراً على الجيش، فبعث أبو داود مع داود بشيء إلى إخوته، فقال داود لطلوت: ماذا لي، وأقبل جالوت فقال: لك ثلث ملكي، وانكحك ابنتي، فأخذ مخلّة، فجعل فيها ثلاث مرات، ثم سمى إبراهيم، وإسحاق ويعقوب، ثم أدخل يده، فقال: بسم الله إلهي، وإله آبائي إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فخرج على إبراهيم، فجعله في مرحمته، فرمى بها جالوت، فخرق ثلاثة وثلاثين بيضة عن رأسه، وقتلت ما وراءه

شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا، فمفعول المشيئة محذوف على القاعدة ﴿ولكن اختلفوا﴾ استثناء من الجملة الشرطية أي: ولكن الاقتتال ناشيء عن اختلافهم اختلافاً عظيماً حتى صاروا ملأاً مختلفة ﴿منهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله﴾ عدم قتالهم بعد هذا الاختلاف ﴿لما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ لا راد لحكمه، ولا مبدل لقضائه، فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ قال: اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلم موسى تكليماً، وجعل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن، فيكون، وهو عبد الله، وكلمته وروحه، وأتى داود زبوراً، وأتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه، وما تأخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد في قوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ قال: كلم الله موسى، وأرسل محمداً ﷺ إلى الناس كافة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عامر الشعبي في قوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ يقول: من بعد موسى، وعيسى. وأخرج ابن عساکر، عن ابن عباس قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية إذ أقبل علي، فقال النبي ﷺ لمعاوية: «أحب علياً؟ قال: نعم قال: إنها ستكون بينكم فتنة هنيئة، قال معاوية: فما بعد ذلك يا رسول الله؟ قال: عفو الله ورضوانه، قال: رضيينا بقضاء الله، فعند ذلك نزلت هذه الآية: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾، قال السيوطي: وسنده واه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ مِمَّا كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفْعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١٧﴾

ظاهر الأمر في قوله: ﴿انفقوا﴾ الوجوب، وقد حملة جماعة على صدقة الفرض لذلك، ولما في آخر الآية من الوعيد الشديد، وقيل: إن هذه الآية تجمع زكاة الفرض، والتطوع. قال ابن عطية: وهذا صحيح، ولكن ما تقدم من الآيات في نكر القتال، وأن الله ينفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الذنب إنما هو في سبيل الله. قال القرطبي: وعلى هذا التأويل يكون إنفاق المال مرة واجباً، ومرة نبياً بحسب تعيين الجهاد، وعدم تعيينه. قوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ أي: أنفقوا ما دمتم قادرين ﴿من قبل أن يأتي﴾ ما لا يمكنكم الإنفاق فيه، وهو: ﴿يوم لا بيع فيه﴾ أي: لا يتبايع الناس فيه. والخلة: خالص المودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين. أخبر سبحانه أنه لا خلة في يوم القيامة نافعة، ولا شفاعة مؤثرة إلا لمن أذن الله له. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، بنصب لا بيع ولا خلة، ولا شفاعة، من غير تنوين. وقرأ الباقر برفعها منونة، وهما لغتان مشهورتان للعرب، ووجهان معروفان عند النحاة، فمن الأوّل قول حسان:

فضلاً عن مزايا غيره، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً، وهذا مفضولاً، لا قبل العلم ببعضها، أو بكثرها، أو باقلها، فإن ذلك تفضيل بالجهل، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له، وهو ممنوع منه، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا القرآن في الإخبار لنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك؟ وإذا عرفت هذا علمت أنه لا تعارض بين القرآن، والسنة بوجه من الوجوه، فالقرآن فيه الإخبار من الله بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض، والسنة فيها النهي لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه، فمن تعرض للجمع بينهما زاعماً أنهما متعارضان، فقد غلط غلطاً بيناً. قوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ وهو موسى، ونبينا سلام الله عليهما. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال في آدم: «إنه نبي مكرم». وقد ثبت ما يفيد ذلك في صحيح ابن حبان من حديث أبي زر. قوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ هذا البعض يحتمل أن يراد به من عظمت منزلته عند الله سبحانه من الأنبياء، ويحتمل أن يراد به نبينا ﷺ لكثرة مزاياه المقتضية لتفضيله، ويحتمل أن يراد به إدريس؛ لأن الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكاناً علياً، وقيل: إنهم أولوا العزم، وقيل: إبراهيم، ولا يخفك أن الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع، فلا يجوز لنا التعرض للبيان له إلا ببرهان من الله سبحانه، أو من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ولم يرد ما يرشد إلى ذلك، فالتعرض لبيانه هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأي، وقد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك نريعة إلى التفضيل بين الأنبياء، وقد نهينا عنه، وقد جزم كثير من أئمة التفسير أنه نبينا ﷺ، وأطالوا في ذلك، واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات، ومزايا الكمال، وخصال الفضل، وهم بهذا الجزم بدليل لا يدل على المطلوب قد وقعوا في خطرين، وارتكبوا نهيين، وهما: تفسير القرآن بالرأي، والخلول في ذرائع التفضيل بين الأنبياء، وإن لم يكن ذلك تفضيلاً صريحاً، فهو نريعة إليه بلا شك، ولا شبهة؛ لأن من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبي ﷺ الفلاني، انتقل من ذلك إلى التفضيل المنهي عنه، وقد أغنى الله نبينا المصطفى ﷺ عن ذلك بما لا يحتاج معه إلى غيره من الفضائل، والفضائل، فليأكل أن تتقرب إليه ﷺ بالخلول في أبواب نهاك عن خلولها، فتعصيه، وتسيء، وأنت تظن أنك مطيع محسن. قوله: ﴿وأتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي: الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة من إحياء الأموات، وإبراء المرضى، وغير ذلك. قوله: ﴿وأتينا بروح القدس﴾ هو: جبريل، وقد تقدم الكلام على هذا. قوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ أي: من بعد الرسل، وقيل: من بعد موسى، وعيسى، ومحمد، لأن الثاني منكر صريحاً، والأول، والثالث وقعت الإشارة إليهما بقوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ أي: لو

الاطمئنان الأفرسان عادية ألا يحشؤكم حول التنانير ومن الثاني قول الراعي:

وما صرمتك حتى قلت معلنة لا ناقة لي في هذا ولا جمل ويجوز في غير القرآن التغاير برفع البعض، ونصب البعض، كما هو مقرر في علم الإعراب. قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فيه دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه، ومن جملة من يبخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعاً يوجب كفره لوقوع ذلك في سياق الأمر بالإنفاق.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: من الزكاة، والتطوع. وأخرج ابن المنذر، عن سفيان قال: يقال نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن، ونسخ شهر رمضان كل صوم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: قد علم الله أن ناساً يتخاللون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فاما يوم القيامة، فلا خلة إلا خلة المتقين. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم عن عطاء قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي الْقِيَوْمُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو، وهذه الجملة خبر المبتدأ. والحي: الباقي، وقيل: الذي لا يزول، ولا يحول، وقيل: المصروف للأمور، والمقدر للأشياء. قال الطبري عن قوم إنه يقال: حيّ كما وصف نفسه، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه، وهو خير ثان، أو مبتدأ خبره محنوف، والقيوم: القائم على كل نفس بما كسبت، وقيل: القائم بذاته المقيم لغیره، وقيل: القائم بتدبير الخلق، وحفظه، وقيل: هو الذي لا ينام، وقيل: الذي لا يبدل له. وأصل قيوم: قيوم اجتمعت الباء والواو، وسبقت إحداهما بالساكن، فادغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء. وقرأ ابن مسعود، وعلقمة، والنخعي، والأعمش: «الحيّ القيام» بالالف، وروي ذلك عن عمر، ولا خلاف بين أهل اللغة أن القيوم أعرف عند العرب، وأصح بناء، وأثبت علة. والسنة: النعاس في قول الجمهور، والنعاس: ما يتقدم النوم من الفتور، وانطباق العينين، فإذا صار في القلب صار نوماً. وفرق المفصل بين السنة، والنعاس، والنوم فقال: السنة من الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب. انتهى. والذي ينبغي التحويل عليه في الفرق بين السنة والنوم، أن السنة لا يفقد معها العقل، بخلاف النوم، فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل، بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر، والمراد: أنه لا يعتريه سبحانه شيء منهما، وقدم السنة على النوم، لكونها تتقدمه في الوجود. قال الرازي في

تفسيره: إن السنة ما تتقدم النوم، فإذا كانت عبارة عن مقدمة النوم، فإذا قيل: لا تأخذه سنة دل على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى، فكان نكر النوم تكراراً، قلنا: تقدير الآية لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه نوم، والله أعلم بمراده. انتهى. وأقول: إن هذه الأولوية التي نكرها غير مسلمة، فإن النوم قد يرد ابتداء من دون ما نكر من النعاس. وإذا ورد على القلب، والعين دفعة واحدة، فإنه يقال له نوم، ولا يقال له سنة، فلا يستلزم نفي السنة نفي النوم. وقد ورد عن العرب نفيهما جميعاً، ومنه قول زهير:

ولا سنة طوال الدهر تأخذه ولا ينام وما في أمره فند فلم يكتف بنفي السنة، وأيضاً، فإن الإنسان يقدر على أن يدفع عن نفسه السنة، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه النوم، فقد يأخذه النوم، ولا تأخذه السنة، فلو وقع الاختصار في النظم القرآني على نفي السنة لم يفد ذلك نفي النوم، وهكذا لو وقع الاختصار على نفي النوم لم يفد نفي السنة، فكم من ذي سنة غير نائم، وكثر حرف النفي للتخصيص على شمول النفي لكل واحد منهما. قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ في هذا الاستهزام من الإنكار على من يزعم أن أحداً من عباده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعته، أو غيرها، والتفريع، والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عباد القبور، والصد في وجوههم، والفت في أعضادهم ما لا يقار قدره، ولا يبلغ مداه، والذي يستفاد منه فوق ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28] وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26] وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [الأنبياء: 38] بدرجات كثيرة. وقد بينت الأحاديث الصحيحة الثابتة في دواوين الإسلام صفة الشفاعته، ولمن هي، ومن يقوم بها. قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضميران لما في السموات، والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم، وما بين أيديهم، وما خلفهم عبارة، عن المتقدم عليهم، والمتأخر عنهم، أو عن الدنيا والآخرة، وما فيهما. قوله: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ قد تقدم معنى الإحاطة، والعلم هنا بمعنى: المعلوم أي: لا يحيطون بشيء من معلوماته. قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ الكرسي الظاهر أنه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتي بيان ذلك. وقد نفي وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطؤوا في ذلك خطأ بيناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً. وقال بعض السلف: إن الكرسي هنا عبارة عن العلم. قالوا: ومنه قيل للعلماء: الكرسي، ومنه الكراسة التي يجمع فيها العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بيبهم بيض الوجوه وعصبة كراسي بالآخبار حين تنوب ورجح هذا القول ابن جرير الطبري، وقيل كرسية: قدرته التي يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسياً: أي ما يعمده، وقيل: إن الكرسي هو العرش،

قوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾. وأخرج الدارقطني في الصفات، والخطيب في تاريخه عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: كرسية موضع قدمه، والعرش لا يقترق قدره إلا الله عز وجل». وأخرجه الحاكم وصححه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مثله موقوفاً. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: لو أن السموات السبع، والأرضين السبع بسطن، ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كنَّ في سعتة: يعني الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي ذر الغفاري: أنه سأل رسول الله ﷺ، عن الكرسي، فقال رسول الله ﷺ: «الذي نفسي بيده ما السموات السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة». وأخرج عبد بن حميد، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وأبو الشيخ، والطبراني، والضياء المقدسي في المختارة عن عمر قال: «أتت امرأة إلى النبي ﷺ، وقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فعظم الرب سبحانه وقال: إن كرسية وسع السموات والأرض، وإن له أطيافاً كأطياف الرجل الجديد من ثقله، وفي إسناده عبد الله بن خليفة، وليس بالمشهور. وفي سماعه من عمر نظر، ومنهم من يرويه، عن عمر موقوفاً. وأخرج ابن مردويه، عن أبي هريرة مرفوعاً: أنه موضع القدمين. وفي إسناده الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي وهو متروك. وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة، وتغيرهم، في وصف الكرسي آثار لا حاجة في بسطها. وقد روى أبو داود في كتاب السنة من سننه من حديث جبير بن مطعم حديثاً في صفته، وكذلك أورد ابن مردويه عن بريدة، وجابر، وغيرهما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ قال: لا يثقل عليه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ﴾ قال: ولا يكثره. وأخرج ابن جرير عنه قال: العظيم الذي قد كمل في عظمتة.

واعلم أنه قد ورد في فضل هذه الآية أحاديث. فأخرج أحمد، ومسلم، واللفظ له عن أبي بن كعب: «أن النبي ﷺ سأل أي آية من كتاب الله أعظم؟ قال: آية الكرسي، قال: ليهنك العلم أبا المنذر». وأخرج النسائي، وأبو يعلى، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، والطبراني، والحاكم وصححه، عن أبي بن كعب: أنه كان له جرن فيه تمر، فكان يتعاهده، فوجهه ينقص، فحرصه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم، قال: فسلمت فرد السلام، فقلت: ما أنت، جني أم إنسي؟ قال: جني، قلت: ناولني يدك، فناولني، فإذا يده يد كلب، وشعره شعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجن؟ قال: لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد مني، قلت: ما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة، فأحببنا أن نصيب من طعامك، فقال له أبي: فما الذي يجيرنا منكم؟

وقيل: هو تصوير لعظمته، ولا حقيقة له، وقيل: هو عبارة عن الملك. والحق القول الأول، ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلا مجرد خيالات تسببت، عن جهالات وضلالات، والمراد بكونه وسع السموات والأرض: أنها صارت فيه، وأنه وسعها، ولم يضيق عنها لكونه بسيطاً واسعاً. وقوله: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ معناه لا يثقله ثقله أدنى الشيء، بمعنى أثقلني، وتحملت منه مشقة. وقال الزجاج: يجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿يُؤُودُهُ﴾ الله سبحانه، ويجوز أن يكون للكرسي؛ لأنه من أمر الله ﴿وَالْعَلِيِّ﴾ يراد به علو القدرة، والمنزلة. وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه، عن أماكن خلقه. قال ابن عطية: وهذه أقوال جهلة مجسمين، وكان الواجب أن لا تحكى. انتهى. والخلاف في إثبات الجهة معروف في السلف، والخلف، والنزاع فيه كائن بينهم، والأدلة من الكتاب، والسنة معروفة، ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجاً عن الشرع، ولا ينظر في أدلته، ولا يلتفت إليها، والكتاب، والسنة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل، ويتبين به الصحيح من الفاسد ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: 71] ولا شك أن هذا اللفظ يطلق على الظاهر الغالب كما في قوله: ﴿إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: 4] وقال الشاعر:

فلما علونا واستويينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر
والعظيم بمعنى عظم شأنه، وخطره. قال في الكشاف: إن الجملة الأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه. والثانية بيان لكونه مالِكاً لما يدبره. والجملة الثالثة بيان لكبرياء شأنه. والجملة الرابعة بيان لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى. والجملة الخامسة بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله، وعظم قدره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿الْحَيِّ﴾ أي: حي لا يموت ﴿وَالْقَيُّومُ﴾ القائم الذي لا بديل له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن مجاهد في قوله: ﴿الْقَيُّومُ﴾ قال: القائم على كل شيء. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: القيوم الذي لا زوال له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ قال: السنة: النعاس، والنوم هو: النوم. وأخرجوا إلا البيهقي عن السدي قال: السنة ريح النوم الذي تأخذه في الوجه، فينعس الإنسان. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: ما مضى من الدنيا: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿وَمَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما قفوا من أعمالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما أضاعوا من أعمالهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه، إلا ترى إلى

كَفَرُوا أَوَلَيْسَ اللَّهُمُّ أَكْثَرُ مَعْلُومَاتٍ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦٧﴾

قد اختلف أهل العلم في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على أقوال: الأول أنها منسوخة؛ لأن رسول الله ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام، وقتلهم، ولم يرض منهم إلا بالإسلام، والناسخ لها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: 73] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفْرَ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123] وقال: ﴿سُتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: 16]، وقد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين. القول الثاني: أنها ليست بمنسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أتوا الجزية، بل الذين يكرهون هم أهل الأوثان، فلا يقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف، وإلى هذا ذهب الشعبي، والحسن، وقتادة، والضحاك. القول الثالث: أن هذه الآية في الانصار خاصة، وسيأتي بيان ما ورد في ذلك. القول الرابع: أن معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف إنه مكروه، فلا إكراه في الدين - القول الخامس: أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الإسلام. وقال ابن كثير في تفسيره أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلالة، وبراهينه لا تحتاج إلى أن يكره لحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته نخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه، وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، وهذا يصلح أن يكون قولاً سانساً. وقال في الكشف في تفسيره هذه الآية أي: لم يجر الله أمر الإيمان على الإكراه، والقسر، ولكن على التمكن، والاختيار، ونحوه قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهِمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99] أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكن لم يفعل، وبني الأمر على الاختيار، وهذا يصلح أن يكون قولاً سابغاً، والذي ينبغي اعتماده، ويتمين الوقوف عنده: أنها في السبب الذي نزلت لأجله محكمة غير منسوخة، وهو أن المرأة من الانصار تكون مقالة لا يكاد يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّه، فلما أجليت يهود بني نضير كان فيهم من أبناء الانصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فنزلت، أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي في السنن، والضياء في المختارة عن ابن عباس. وقد وردت هذه القصة من وجوه، حاصلها ما نكره ابن عباس مع زيادات تتضمن أن الانصار قالوا: إنما جعلناهم على دينهم أي: دين اليهود، ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وأن الله جاء بالإسلام، فلنكرههم، فلما نزلت خير الأبناء رسول الله ﷺ، ولم يكرههم على الإسلام. وهذا يقتضي أن أهل الكتاب لا يكرهون على

قال: هذه الآية، آية الكرسي التي في سورة البقرة ومن قالها حين يمسي أجير منا حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح أجير منا حتى يمسي، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: صدق الخبيث. وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، وأبو نعيم في المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الأسقع البكري: «أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان أي آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ حتى انقضت الآية». وأخرج أحمد من حديث أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه، عن انس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج الدارمي، عن أنفع بن عبد الله الكلامي نحوه. وأخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو، ونكر قصة، وفي آخرها أنه قال له: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فقرأ آية الكرسي، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فأخبر أبو هريرة بذلك رسول الله ﷺ، فقال: أما إنه صدقك، وهو كذوب، تعلم من تخاطب يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال: ذلك شيطان كذا». وأخرج نحو ذلك أحمد عن أبي أيوب. وأخرج الطبراني، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي عن معاذ بن جبل مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أعظم آية في كتاب الله ﷻ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وأخرج نحوه أحمد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي نر مرفوعاً. وأخرج نحوه أيضاً أحمد، والطبراني من حديث أبي أمامة مرفوعاً. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة أي القرآن لا تقرا في بيت فيه شيطان إلا خرج منه، آية الكرسي». قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وأخرج الحاكم من حديث زائدة مرفوعاً لكل شيء سنم، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة أي القرآن، آية الكرسي، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبيل. وقد تكلم فيه شعبة، وضعفه، وكذا وضعفه أحمد، ويحيى بن معين، وغير واحد، وتركه ابن مهدي، وكذبه السعدي. وأخرج أبو داود، والترمذي وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إن فيهما اسم الله الأعظم. وقد وردت أحاديث في فضلها غير هذه، وورد أيضاً في فضل قراءتها ببر الصلوات، وفي غير ذلك، وورد أيضاً في فضلها مع مشاركة غيرها لها أحاديث، وورد عن السلف في ذلك شيء كثير.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرَّسُولُ مِنَ اللَّهِ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْمَرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ يَجْعَلُ خَيْمًا
﴿١٦٨﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ

فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى ظلمات الكفر التي وقعوا فيها بسبب ذلك الإخراج.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن سعيد بن جبير نحو ما تقدم، عن ابن عباس من نكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وزاد أن النبي ﷺ خير الأبناء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الشعبي نحوه أيضاً، وقال: فلحق بهم أي: ببني النضير من لم يسلم، وبقي من أسلم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: كان ناس من الأنصار مسترضعين في بني قريظة، فثبتوا على دينهم، فلما جاء الإسلام أراد أهلهم أن يكرهوهم على الإسلام، فنزلت. وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما، فإنهما قد آبيا إلا النصرانية؟ فنزلت. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن عبيدة نحوه. وكذلك أخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير عن قتادة قال: كانت العرب ليس لها دين، فأكروها على الدين بالسيف. قال: ولا تكروها اليهود، ولا النصراني، والمجوس إذا أعطوا الجزية. وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن نحوه. وأخرج البخاري عن أسلم: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمي تسلمي، فابت، فقال: اللهم اشهد، ثم تلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وروى عنه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أنه قال لزنبق الرومي غلامه: لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين فابى، فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سليمان بن موسى في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: نسختها «جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» [التوبة: 73]. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال: الطاغوت الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الطاغوت الكاهن، وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال: الطاغوت الساحر. وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس قال: الطاغوت ما يعبد من دون الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العروة الوثقى لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك: أنها القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد: أنها الإيمان. وعن سفيان: أنها كلمة الإخلاص. وقد ثبت في الصحيحين تفسير العروة الوثقى في غير هذه الآية بالإسلام مرفوعاً في تعبيره ﷺ لرؤيا عبد الله بن سلام. وأخرج ابن عساكر عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

الإسلام إذا اختاروا البقاء على دينهم، وآثروا الجزية. وأما أهل الحرب، فالآية وإن كانت تعمهم؛ لأن النكرة في سياق النفي، وتعريف الدين يفيدان ذلك، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن قد خص هذا العموم بما ورد من آيات في إكراه أهل الحرب من الكفار على الإسلام. قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ الرشد هنا الإيمان، والغى الكفر أي: قد تميز أحدهما من الآخر. وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله. والطاغوت فعلوت من طغى يطغي، ويطغى: إذا جاوز الحد. قال سيبويه: هو اسم منكر مفرد أي: اسم جنس يشمل القليل، والكثير، وقال أبو علي الفارسي: إنه مصدر كرهبوت، وجبروت يوصف به الواحد، والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين، وعينه إلى موضع اللام كجبد، وجذب، ثم تقلب الواو ألفاً لتحركها، وتحرك ما قبلها، فقيل: طاغوت، واختار هذا القول النحاس، وقيل: أصل الطاغوت في اللغة مأخوذ من الطفيان يؤدي معناه من غير اشتقاق، كما قيل: لآلى من اللؤلؤ. وقال المبرد: هو جمع. قال ابن عطية: وذلك مردود. قال الجوهري: والطاغوت: الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، وقد يكون واحداً. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: 60] وقد يكون جمعاً. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ والجمع الطواغيت أي: فمن يكفر بالشيطان، أو الأصنام، أو أهل الكهانة، ورؤوس الضلالة، أو بالجميع «يُؤَيِّمُونَ بِلَاهِهِ» عز وجل بعد ما تميز له الرشد من الغي، فقد فاز، وتمسك بالحبل الوثيق أي: المحكم. والوثقى فعلى من الوثاقة، وجمعها وثق مثل الفضلى، والفضل. وقد اختلف المفسرون في تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه، والتمثيل لما هو معلوم بالليل بما هو مدرك بالحاسة، فقيل: المراد بالعروة الإيمان، وقيل: الإسلام، وقيل: لا إله إلا الله، ولا مانع من الحمل على الجميع. والانقسام: الانكسار من غير بينونة. قال الجوهري: فسم الشيء كسره من غير أن يبين. وأما القسم بالقاف، فهو الكسر مع البينونة، وفسر صاحب الكشاف الانقسام بالانقطاع. قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الولي فعيل بمعنى فاعل، وهو الناصر. وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم﴾ تفسير للولاية، أو حال من الضمير في ولي، وهذا يدل على أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين أرادوا الإيمان؛ لأن من قد وقع منه الإيمان قد خرج من الظلمات إلى النور إلا أن يرد بالإخراج إخراجهم من الشبه التي تعرض للمؤمنين، فلا يحتاج إلى تقدير الإرادة، والمراد بالنور في قوله: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ما جاء به أنبياء الله من الدعوة إلى الدين، فإن ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم عنه إلى ظلمة الكفر أي: قرروهم أولياؤهم على ما هم عليه من الكفر بسبب صرفهم عن إجابة الداعي إلى الله من الأنبياء. وقيل: المراد بالذين كفروا هنا: الذين ثبت في علمه تعالى كفرهم يعرجهم أولياؤهم من الشياطين، ورؤوس الضلال من النور الذي هو

المغرب) لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة، ومشافية. قوله: ﴿فَبِهَتِ الَّذِي كَفَرَ﴾ بهت الرجل، وبهت، وبهت: إذا انقطع، وسكت متحيراً. قال ابن جرير: وحكى عن بعض العرب في هذا المعنى بهت بفتح الباء، والهاء. قال ابن جني: قرأ أبو حيوة، فبهت بفتح الباء، وضم الهاء، وهي لغة في بهت بكسر الهاء؛ قال: وقرأ ابن السميع، فبهت بفتح الباء، والهاء على معنى، فبهت إبراهيم الذي كفر، فالذي في موضع نصب، قال: وقد يجوز أن يكون بهت بفتحهما لغة في بهت. وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة: «فبهت» بكسر الهاء، قال: والأكثر بالفتح في الهاء. قال ابن عطية: وقد تأول قوم في قراءة من قرأ، فبهت بفتحهما أنه بمعنى سب، وقذف، وإن النمرود، هو الذي سب حين انقطع، ولم يكن له حيلة. انتهى. وقال سبحانه: ﴿فَبِهَتِ الَّذِي كَفَرَ﴾ ولم يقل، فبهت الذي حاج، إشعاراً بأن تلك المحاجة كفر. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تنبيل مقرر لمضمون الجملة التي قبله.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب أن الذي حاج إبراهيم في ربه هو: نمرود بن كنعان. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، وقتادة، والربيع، والسدي. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن زيد بن أسلم: أن أول جبار كان في الأرض نمرود، وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام، فخرج إبراهيم عليه السلام يمتار مع من يمتار، فإذا مر به ناس قال: من ربكم؟ قالوا: أنت، حتى مر به إبراهيم، فقال: من ربك؟ قال: الذي يحيي ويميت، قال: أن أحيي وأميت، قال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر، فردّه بغير طعام. فرجع إبراهيم إلى أهله، فمرّ على كتيب من رمل أصفر فقال: ألا تأخذ من هذا فأتني به أهلي، فتطيب أنفسهم حين ادخل عليهم، فأخذ منه فأتى أهله، فوضع متاعه، ثم نام، فقامت امرأته إلى متاعه، ففتحتة فإذا هي بأجود طعام رآه أخذ، فصنعت له منه، فقرّبه إليه، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعرف أن الله رزقه، فحمد الله. ثم بعث الله إلى الجبار ملكاً أن آمن وأتركك على ملكك. قال: فهل ربّ غيري؟ فجاءه الثانية، فقال له ذلك فأبى عليه، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه، فقال له الملك: فاجمع جموعك إلى ثلاثة أيام، فجمع الجبار جموعه، فأمر الله الملك، ففتح عليه باباً من البعوض، وطلعت الشمس، فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم، فاكلت شحومهم، وشربت دماءهم، فلم يبق إلا العظام، والملك كما هو لا يصيبه من ذلك شيء، فبعث الله عليه بعوضة، فدخلت في منخره، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه، ثم ضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربعمئة سنة، فعذب الله أربعمئة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، فأتى الله بنيانه من

«اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر، فإنهما حبل الله الممدود، فمن تمسك بهما، فقد تمسك بعروة الله الوثقى التي لا انفصام لها». وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس قال: إذا وحد الله وأمن بالقدر فهي العروة الوثقى. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاذ أنه سئل عن قوله: ﴿لَا انفصام لها﴾ قال: لا انقطاع لها دون دخول الجنة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني عن ابن عباس في قوله ﴿والله ولي الذين آمنوا﴾ الآية: قال: هم قوم كانوا كفروا بعبسى فأمنوا بمحمد ﷺ ﴿الذين كفروا أولياؤهم للطاغوت﴾ الآية: قال: هم قوم آمنوا بعبسى، فلما بعث محمد كفروا به. وأخرج ابن جرير عن الضحك قال: الظلمات الكفر. والنور: الإيمان. وأخرج أبو الشيخ عن السدي مثله.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَمَدُ وَيُؤْتِي قَالَ أَنَا أَنِّي. وَأُيُتُّ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١٢٨﴾

في هذه الآية استشهد على ما تقدم ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، وهمزة الاستفهام لإنكار النفي، والتقرير المنفي أي: ألم ينته علمك، أو نظرك إلى هذا الذي صدرت منه هذه المحاجة. قال الفراء: ألم تر بمعنى هل رأيت، أي: هل رأيت الذي حاج إبراهيم، وهو النمرود بن كوس بن كنعان بن سلم بن نوح، وقيل: إنه النمرود بن فالخ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام. وقوله: ﴿وَأَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي: لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله على معنى أن إيتاء الملك أبطره، وأورثه الكبر، والعقو، فحاج لذلك، أو على أنه وضع المحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر، كما يقال: عانيتني؛ لأنني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملك. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ هو ظرف لحاج، وقيل: بدل من قوله: ﴿وَأَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ على الوجه الأخير، وهو بعيد. قوله: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بفتح ياء ربي، وقرئ بحذفها. وقوله: ﴿أَنَا أَحْيِي﴾ قرأ جمهور القراء أنا أحيي بطرح الالف التي بعد النون من أنا في الوصل، وأثبتها نافع، وابن أبي أويس، كما في قول الشاعر:

أنا شيخ العشيرة فأعرفوني حميداً قد تذبذب السناما
أراد إبراهيم عليه السلام أن الله هو: الذي يخلق الحياة، والموت في الأجساد، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل، فيكون ذلك إحياء، وعلى أن يقتل، فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جواباً أحق لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراده الكفار، فلو قال له: ربه الذي يخلق الحياة، والموت في الأجساد، فهل تقدر على ذلك؟ لبهت الذي كفر بادئ بدء، وفي أول، وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيساً لخناقها، وإرسالاً لعنان المناظرة فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ

شاهده عند أن أماته الله، وعمر إلى عند بعثه. والأول أولى لقوله فيما بعد ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ وقرأ ابن عامر، وأهل الكوفة إلا عاصماً ﴿كم لبثت﴾ بإدغام التاء في التاء لتقاربهما في المخرج. وقرأ غيرهم بالإظهار، وهو أحسن لبعد مخرج التاء من مخرج التاء. و﴿كم﴾ في موضع نصب على الظرفية، وإنما قال: ﴿يوماً أو بعض يوم﴾ بناء على ما عنده، وفي ظنه، فلا يكون كاتباً، ومثله قول أصحاب الكهف: ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ [الكهف: 19] ومثله قوله ﷺ في قصة ذي اليمين: «لم تقصر ولم أنس» وهذا مما يؤيد قول من قال: إن الصديق ما طابق الاعتقاد، والكذب ما خالفه. وقوله: ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ هو: استئناف أيضاً كما سلف، أي: ما لبثت يوماً، أو بعض يوم بل لبثت مائة عام. وقوله: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أمره سبحانه أن ينظر إلى هذا الأثر العظيم من آثار القدرة، وهو عدم تغير طعامه، وشرابه مع طول تلك المدة. وقرأ ابن مسعود: «وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه» وقرأ طلحة بن مصرف «وانظر لطعامك وشرابك لم يتسنه سنة». وروي عن طلحة أيضاً أنه قرأ: «لم يسن» بإدغام التاء في السين، وحذف الهاء. وقرأ الجمهور بإثبات الهاء في الوصل، والتسنه مأخوذ من السنة أي: لم تغيره السنون، وأصلها سنه، أو سنة من سنهت النخلة، وتسنته: إذا أتت عليها السنون، ونخلة سنا أي: تحمل سنة، ولا تحمل أخرى، وأسنته عند بني فلان: أقمت عندهم، وأصله يتسنا سقطت الألف للجزم، والهاء للسكت، وقيل: هو من أسن الماء: إذا تغير، وكان يجب على هذا أن يقال: يتأسن من قوله: ﴿حمأ مسنون﴾ [الحجر: 26، 28] قاله أبو عمرو الشيباني. وقال الزجاج: ليس كذلك؛ لأن قوله ﴿مسنون﴾ ليس معناه متغير، وإنما معناه مصبوب على سنه الأرض. وقوله: ﴿وانظر إلى حمارك﴾ اختلف المفسرون في معناه، فذهب الأكثر إلى أن معناه انظر إليه كيف تفرقت أجزأؤه، ونخرت عظامه، ثم أحياه الله، وعاد كما كان. وقال الضحاک، ووهب بن منبه: انظر إلى حمارك قائماً في مربطه لم يصبه شيء بعد أن مضت عليه مائة عام، ويؤيد القول الأول قوله تعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ ويؤيد القول الثاني مناسبتة لقوله: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ وإنما نكر سبحانه عدم تغير طعامه، وشرابه بعد إخباره أنه لبث مائة عام، مع أن عدم تغير تلك الطعام، والشراب لا يصلح أن يكون دليلاً على تلك المدة الطويلة، بل على ما قاله من لبثه يوماً، أو بعض يوم لزيادة استعظام ذلك الذي أماته الله تلك المدة، فإنه إذا رأى طعامه، وشرابه لم يتغير مع كونه قد ظلَّ أنه لم يلبث إلا يوماً، أو بعض يوم زانت الحيرة، وقويت عليه الشبهة، فإذا نظر إلى حماره عظماً نخرة تقرّر لديه أن ذلك صنع من تأتي قدرته بما لا تحيط به العقول، فإن الطعام، والشراب سريع التغير. وقد بقي هذه المدة الطويلة غير متغير، والحمار يعيش المدة الطويلة. وقد

القواعد. وإخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في الآية، قال: هو نمرود بن كنعان يزعمون أنه أول من ملك في الأرض أتى برجلين قتل أحدهما، وترك الآخر، فقال: ﴿إننا أحيين وأميت﴾. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي: ﴿والله لا يهدي للقوم الظالمين﴾ قال: إلى الإيمان.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُغِي هَذِهِ اللَّهُ بِدَمْدَمٍ فَلَمَّا تَافَتْهُ اللَّهُ يَأْتَهُ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى مَلَأَيْكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْإِطَارِ كَفَّ ثُبُورُهَا ثُمَّ نَكَّرْهَا لِحَمَآ فَمَا تَبَيَّنَ لَكَ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

قوله: ﴿أو كالذي﴾ أو كالذي حملاً على المعنى، والتقدير: هل رأيت كالذي حاج، أو كالذي مرَّ على قرية، قاله الكسائي، والغراء. وقال المبرد: إن المعنى: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، ألم تر من هو كالذي مرَّ على قرية، فحذف قوله من هو. وقد اختار جماعة أن الكاف زائدة، واختار آخرون أنها إسمية. والمشهور أن القرية هي بيت المقدس بعد تخريب بخنصر لها، وقيل: المراد بالقرية: أهلها. وقوله: ﴿خاوية على عروشها﴾ أي: ساقطة على عروشها، أي: سقط السقف، ثم سقطت الحيطان عليه، قاله السدي، واختاره ابن جرير، وقيل: معناه خالية من الناس، والبيوت قائمة، وأصل الخواء الخلو، يقال: خوت الدار وخويت تخوى خواء ممدود، وخوياً، وخوياً: أقفرت، والخواء أيضاً: الجوع لخلو البطن عن الغذاء. والظاهر القول الأول بدلالة قوله: ﴿على عروشها﴾ من خوى البيت إذا سقط، أو من خوت الأرض إذا تهدمت، وهذه الجملة حالية أي: من حال كونها كذلك. وقوله: ﴿فأحيى هذه الله﴾ أي: متى يحيي، أو كيف يحيي، وهو استبعاد لإحيائها، وهي على تلك الحالة المشابهة لحالة الأموات الميأنة لحالة الأحياء، وتقديم المفعول لكون الاستبعاد ناشئاً من جهته لا من جهة الفاعل. فلما قال المارَّ هذه المقالة مستبعداً لإحياء القرية المذكورة بالعمارة لها، والسكون فيها ضرب الله له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: كان هذا القول شكاً في قدرة الله على الإحياء، فلذلك ضرب له المثل في نفسه. قال ابن عطية: ليس يخل شك في قدرة الله سبحانه على إحياء قرية بجلب العمارة إليها، وإنما يتصور الشك إذا كان سؤاله عن إحياء موتاهها. وقوله: ﴿مائة عام﴾ منصوب على الظرفية. والعام: السنة، أصله مصدر كالعوام سمي به هذا القدر من الزمان. وقوله: ﴿بعثه﴾ معناه أحياه. وقوله: ﴿قال﴾ كم لبثت هو استئناف كأن سائلاً سأل ماذا قال له بعد بعثه. واختلف في فاعل قال، فقيل: هو الله عز وجل، وقيل: ناداه بذلك ملك من السماء، قيل: هو جبريل، وقيل غيره، وقيل: إنه نبي من الأنبياء، قيل: رجل من المؤمنين من قومه

ابن أبي حاتم، عن رجل من أهل الشام أنه حزقييل. وروى ابن كثير، عن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل. والمشهور القول الأول، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ قال: خراب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة قال: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ليس فيها أحد. وأخرج أيضاً عن الضحاك قال: ﴿على عروشها﴾ سقوفها. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: ساقطة على سقوفها. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: ﴿لبثت يوماً﴾ ثم التفت فرأى الشمس، فقال: ﴿أو بعض يوم﴾. وأخرج عنه أيضاً قال: كان طعامه الذي معه سلة من تين، وشرابه زق من عصير. وأخرج أيضاً عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لم يتسنه﴾ قال: لم يتغير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير قال: ﴿لم يتسنه﴾ لم ينتن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ مثل ما تقدم عن الأعمش، وكذلك أخرج مثله أيضاً عن عكرمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿كيف ننشزها﴾ قال: نخرجها. وأخرج ابن جرير، عن زيد بن ثابت قال: نحييها.

وَرَأَى قَالِ إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ أَرِنِي صَكَيْتُ نَبِيَّ الْمَوْتِ قَالَ أَوْلَمْ تُؤَيِّنْ قَالِ بَلَى وَلَكِنْ يَطْمَئِنُّ قَلْبِي قَالَ فَمَدُّ أَرَمَةً بَيْنَ الظُّلُمِ فَمَرَمَتْ لَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعَاهُ فَأَتَيْنَكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾

قوله: ﴿وَأَذِ﴾ ظرف منصوب بفعل محذوف أي: انكر وقت قول إبراهيم، وإنما كان الأمر بالذكر موجهاً إلى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة؛ لأن طلب وقت الشيء يستلزم طلبه بالأولى، وهكذا يقال في سائر المواضع الواردة في الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف. وقوله: ﴿رب﴾ أكره على غيره لما فيه من الاستعفاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء. وقوله: ﴿أُرِنِي﴾ قال الأخفش: لم يرد رؤية القلب، وإنما أراد رؤية العين، وكذا قال غيره، ولا يصح أن يراد الرؤية القلبية هنا؛ لأن مقصود إبراهيم أن يشاهد الإحياء لتحصل له الطمأنينة، والهمزة الداخلة على الفعل لقصد تعنيته إلى المفعول الثاني، وهو الجملة: أعني قوله: ﴿كيف تحيي الموتى﴾ وكيف: في محل نصب على التشبيه بالظرف، أو بالحال، والعامل فيها الفعل الذي بعدها. وقوله: ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنْ﴾ عطف على مقرر أي: ألم تعلم، ولم تؤمن بآتي قادر على الإحياء حتى تسألني إراءته: ﴿قال بلى﴾ علمت، وأمنت بآتي قادر على ذلك، ولكن سألت ليطمئن قلبي باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان. وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم لم يكن شاكاً في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه، ولهذا قال النبي ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». وحكى ابن جرير، عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك؛ لأنه شك في قدرة الله. واستدلوا بما صح عنه

صار كذلك ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: 14]. قوله: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ قال الفراء: إنه أدخل الواو في قوله: ﴿ولنجعلك﴾ دلالة على أنها شرط لفعل بعدها؛ معناه: ولنجعلك آية للناس، ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك. وإن شئت جعلت الواو مقحمة زائدة. قال الأعمش: موضع كونه آية هو أنه جاء شباباً على حاله يوم مات، فوجد الأبناء، والحفدة شيوخاً. قوله: وانظر إلى العظام كيف ننشزها، قرأ الكوفيون، وابن عامر بالزاي، والباقيون بالراء. وروى أبان عن عاصم: «ننشزها» بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الشين، والراء. وقد أخرج الحاكم وصححه، عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ قرأ: وكيف ننشزها بالزاي. فمعنى القراءة بالزاي نرفعها، ومعنى النشر: وهو المرتفع من الأرض، أي: يرفع بعضها إلى بعض. وأما معنى القراءة بالراء المهمة، فواضحة من أنشر الله الموتى أي: أحياهم، وقوله: ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ أي: نسترها به كما نستتر الجسد باللباس، فاستعار اللباس لذلك، كما استعاره النابتة للإسلام، فقال:

الحمد لله إذ لم يأتني لجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا
قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: ما تقدم ذكره من الآيات التي أراه الله سبحانه، وأمره بالنظر إليها، والتفكر فيها: ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ لا يستعصي عليه شيء من الأشياء. قال ابن جرير: المعنى في قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: لما اتضح له عياناً ما كان مستكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه. ﴿قال أعلم﴾ وقال أبو علي الفارسي معناه: أعلم أن هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قال أعلم﴾ على لفظ الأمر خطاباً لنفسه على طريق التجريد.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن علي في قوله: ﴿أو كالذي مر على قرية﴾ قال: خرج عزيز نبي الله من مدينته، وهو شاب، فمر على قرية خربة، وهي خاوية على عروشها، فقال: ﴿أئني يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ فأول ما خلق الله عيانه، فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فقيل له: ﴿كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام﴾ فأتى مدينته. وقد ترك جأراً له إسكافاً شاباً، فجاء، وهو شيخ كبير. وقد ورد عن جماعة من السلف أن الذي أماته الله عزيز، منهم ابن عباس عند ابن جرير، وابن عساکر، ومنهم عبد الله بن سلام عند الخطيب، وابن عساکر، ومنهم عكرمة، وقتادة، وسليمان، وبريدة، والضحك، والسدي عند ابن جرير، وورود عن جماعة آخرين أن الذي أماته الله هو نبي اسمه أرميا، فمنهم عبد الله بن عبيد بن عمير، عند عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ومنهم: وهب بن منبه، عند عبد الرزاق، وابن جرير، وأبي الشيخ. وأخرج ابن إسحاق عنه أيضاً أنه الخضسر. وأخرج

وإنما هي ألف إيجاب، وتقرير، كما قال جرير:
 أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بِطَوْنِ رَاحٍ
 وَالْوَاوِ وَالْهَالِ، وَتَوْمَنٌ: معناه إيماناً مطلقاً دخل فيه
 فضل إحياء الموتى، والطمأنينة: اعتدال، وسكون. وقال ابن
 جرير: معنى: ﴿لِيُطْمِئِنَّ قُلُوبِي﴾ لِيُوقِنَ. قوله: ﴿فَخَذَ أَرْبَعَةً
 مِنَ الطَّيْرِ﴾ الفاء جواب شرط محذوف أي: إن أردت ذلك
 فخذ، والطير: اسم جمع لطائر كركب لراكب، أو جمع، أو
 مصدر، وخص الطير بذلك، قيل: لأنه أقرب أنواع الحيوان
 إلى الإنسان، وقيل: إن الطير همته الطيران في السماء،
 والخليل كانت همته العلو، وقيل: غير ذلك من الأسباب
 الموجبة لتخصيص الطير. وكل هذه لا تثمن، ولا تغني من
 جوع، وليس إلا خواطر أفهام، وبوارر أذهان لا ينبغي أن
 تجعل وجوها لكلام الله، وعلا لما يرد في كلامه، وهكذا
 قيل: ما وجه تخصيص هذا العدد، فإن الطمانينة تحصل
 بإحياء واحد؟ فقيل: إن الخليل إنما سال واحداً على عدد
 العبودية، فأعطى أربعاً على قدر الربوبية، وقيل: إن الطيور
 الأربعة إشارة إلى الأركان الأربعة التي منها تتركب أركان
 الحيوان، ونحو ذلك من الهذيان. قوله: ﴿فَصَرَهْنَ إِلَيْكَ﴾
 قرئ بضم الصاد، وكسرها أي: أضمهنَّ إليك، وأملهن،
 واجمعهن، يقال: رجل أصور: إذا كان مائل العنق، ويقال:
 صار الشيء يصوره: أماله. قال الشاعر:

أَلْهَيْعِلْمُ أَنَا فِي تَلَفْتِنَا يَوْمَ الْفِرَاقِ إِلَى جِيرَانِنَا صَوْرٍ
 وَقِيلَ: معناه قطعهنَّ، يقال: صار الشيء يصوره أي:
 قطعه، ومنه قول توبة بن الحمير:

فَانْتَلِي الْأَسْبَابَ حَتَّى بَلَغْتَهَا بِنَهْضِي وَقَدْ كَانَ اجْتِمَاعِي بِصَوْرَهَا
 أَي: يقطعها، وعلى هذا يكون قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلقاً بقوله:
 ﴿خُذْ﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ لَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾
 فيه الأمر بالتجزئة: لأن جعل كل جزء على جبل تستلزم
 تقدّم التجزئة. قال الزجاج: المعنى، ثم اجعل على كل جبل
 من كل واحد منهن جزءاً، والجزء النصيب. وقوله:
 ﴿يَا تَيْتِيكَ﴾ في محل جزم على أنه جواب الأمر، ولكنه بني
 لأجل نون الجمع المؤنث. وقوله: ﴿سَعْيَا﴾ المراد به:
 الإسراع في الطيران، أو المشي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن
 عباس قال: إن إبراهيم مرَّ برجل ميت زعموا أنه حبشي على
 ساحل البحر، فرأى نواب البحر تخرج، فتاكل منه، وسباع
 الأرض تأتيه، فتاكل منه، والطير يقع عليه، فياكل منه، فقال
 إبراهيم عند ذلك: ربِّ، هذه نواب البحر تاكل من هذا،
 وسباع الأرض، والطير، ثم تميت هذه فتبلى، ثم تحيها،
 فأراني كيف تحيي الموتى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تَوْمَنْ﴾ يا إبراهيم
 أني أحيي الموتى؟ ﴿قَالَ بَلَى﴾ يا ربِّ ﴿وَلَكِنْ لِيُطْمِئِنَّ
 قُلُوبِي﴾ يقول: لأرى من آياتك، وأعلم أنك قد أجبتني، فقال
 الله: خذ أربعاً من الطير، واصنع ما صنع، والطير الذي أخذ:
 وز، ورا، وديك، وطاوس، وأحد نصفين مختلفين: ثم أتى
 أربعة أجبل، فجعل على كل جبل نصفين مختلفين، وهو

﴿فِي الصَّحِيحِينَ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ قَوْلِهِ:﴾ نحن أحق بالشك
 من إبراهيم ﴿وَيَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:﴾ ما في
 القرآن عندي آية أرجى منها. أخرجه عنه عبد الرزاق،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه،
 ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له. قال ابن عطية: وهو
 عندي مردود، يعني: قول هذه الطائفة، ثم قال: وأما قول
 النبي ﷺ: ﴿نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فمعناه: أنه لو
 كان شاكاً لكنا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم أحرى
 أن لا يشك. فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. وأما
 قول ابن عباس: هي أرجى آية، فمن حيث أن فيها الإدلال
 على الله، وسؤال الإحياء في الدنيا، وليست مظنة ذلك.
 ويجوز أن نقول هي أرجى آية لقوله: ﴿أَوَلَمْ تَوْمَنْ﴾ أي: أن
 الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير، وبحث، قال: فالشك
 يبعد على من ثبت قنمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة
 النبوة، والخلة؟ والأنبياء معصومون من الكبائر، ومن
 الصفات التي فيها رذيلة إجماعاً، وإذا تأملت سؤاله عليه
 السلام، وسائر الالفاظ للأية لم تعط شكاً، وذلك أن
 الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود
 متقرر الوجود عند السائل، والمسؤول نحو قولك: كيف علم
 زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا، ومتى قلت: كيف تكون
 وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله. وقد تكون
 كيف خبراً، عن شيء شأنه أن يستفهم، عنه بكيف نحو
 قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء
 الوحي؟ وهي في هذه الآية استفهام، عن هيئة الإحياء،
 والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود
 شيء قد يعبرون، عن إنكاره بالاستفهام، عن حالة لذلك
 الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في
 نفسه لا يصح، مثال ذلك أن يقول مدح: أنا أرفع هذا الجبل،
 فيقول المكذب له: أرني كيف ترفعه، فهذه طريقة مجاز في
 العبارة، ومعناها تسليم جدل، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه.
 فلما كان في عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازي خلص الله
 له ذلك، وحمله على أن بين له الحقيقة، فقال له: ﴿أَوَلَمْ
 تَوْمَنْ قَالَ بَلَى﴾ فكمك الأمر، وتخلص من كل شيء، ثم
 علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة. قال القرطبي: هذا ما
 ذكره ابن عطية، وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات
 الله عليهم مثل هذا الشك، فإنه كفر، والأنبياء متفقون على
 الإيمان بالبعث. وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه، وأوليائه
 ليس للشيطان عليهم سبيل: فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
 عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: 65]. وقال اللعين: ﴿إِلَّا عِبَانِكَ
 مِنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ﴾ [الحجر: 40] وإذا لم يكن له عليهم
 سلطنة، فكيف يشككهم، وإنما سال أن يشاهد كيفية جمع
 أجزاء الموتى بعد تفريقها، واتصال الأعصاب، والجلود بعد
 تمزيقها، فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين،
 فقوله: ﴿أَرَأَيْتَ كَيْفَ﴾ طلب مشاهدة الكيفية. قال الماوردي:
 وليست الألف في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَوْمَنْ﴾ ألف الاستفهام،

قوله: ﴿ثم لجعل على كل جبل منهم جزءاً﴾ ثم تنحى ورؤوسها تحت قدميه، فدعا باسم الله الأعظم، فرجع كل نصف إلى نصفه، وكل ريش إلى طائره، ثم أقبلت تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها، فرفع قدميه، فوضع كل طائر منها عنقه في رأسه، فعدلت كما كانت. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج أيضاً، عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ يقول: أعلم أنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قال: الغرنوق، والطاوس، والديك، والحمامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال الأربعة من الطير: الديك، والطاوس، والغراب، والحمام. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: ﴿قصرهن﴾ قال: قطعهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي بالنبطية: شققهن. وأخرج عنه أنه قال: ﴿قصرهن﴾ لوثقهن، وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: وضعهن على سبعة أجبيل، وأخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تلقي القطرة، والريشة تلقي الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس، فجثن إلى رؤوسهن، فدخلن فيها.

مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتَ سَعِ سَائِلٍ فِي كُلِّ سَبْطٍ مِائَةُ حَبٍّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٠﴾ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُبْغُونَ مَا أَنْفَقُوا مَكَ وَلَا آذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣١﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَرْتَمِيزُ بِهَا أَلَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ يَتَابَعُ الَّذِينَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلَاطُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْأَنَّى وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيَّةً النَّاسِ وَلَا يُؤْنِ اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَكُلُّكُمْ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَسَابَهُ وَإِنْ مَرَّكَ صَدَقَةً لَا يَنْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ أَنْيَاءً مَرْمَسَاتِ اللَّهِ وَتَلْبِيسًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ يَرْزُقُ أَهْلَهَا وَإِنْ فَاتَتْ أَكْلَهَا يَمْتَرِفُ فَإِنْ لَمْ يَمْسَسْهَا زَائِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَكْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣٤﴾

قوله: ﴿كمثل حبة﴾ لا يصح جعل هذا خبراً عن قوله: ﴿مثل الذين ينفقون﴾ لاختلافهما، فلا بد من تقدير محذوف إما في الأول أي: مثل نفقة الذين ينفقون، أو في الثاني أي: كمثل زارع حبة، والمراد بالسبع السنابل: هي التي تخرج في ساق واحد يتشعب منه سبع شعب في كل شعبة سنبل، والحبة اسم لكل ما يزرعه ابن آدم، ومنه قول المتلمس:

قوله: ﴿ثم لجعل على كل جبل منهم جزءاً﴾ ثم تنحى ورؤوسها تحت قدميه، فدعا باسم الله الأعظم، فرجع كل نصف إلى نصفه، وكل ريش إلى طائره، ثم أقبلت تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها، فرفع قدميه، فوضع كل طائر منها عنقه في رأسه، فعدلت كما كانت. وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج أيضاً، عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ يقول: أعلم أنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قال: الغرنوق، والطاوس، والديك، والحمامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال الأربعة من الطير: الديك، والطاوس، والغراب، والحمام. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: ﴿قصرهن﴾ قال: قطعهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هي بالنبطية: شققهن. وأخرج عنه أنه قال: ﴿قصرهن﴾ لوثقهن، وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: وضعهن على سبعة أجبيل، وأخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تلقي القطرة، والريشة تلقي الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس، فجثن إلى رؤوسهن، فدخلن فيها.

مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتَ سَعِ سَائِلٍ فِي كُلِّ سَبْطٍ مِائَةُ حَبٍّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٠﴾ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُبْغُونَ مَا أَنْفَقُوا مَكَ وَلَا آذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣١﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَرْتَمِيزُ بِهَا أَلَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ يَتَابَعُ الَّذِينَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلَاطُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْأَنَّى وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيَّةً النَّاسِ وَلَا يُؤْنِ اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَكُلُّكُمْ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَسَابَهُ وَإِنْ مَرَّكَ صَدَقَةً لَا يَنْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ أَنْيَاءً مَرْمَسَاتِ اللَّهِ وَتَلْبِيسًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ يَرْزُقُ أَهْلَهَا وَإِنْ فَاتَتْ أَكْلَهَا يَمْتَرِفُ فَإِنْ لَمْ يَمْسَسْهَا زَائِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَكْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣٤﴾

قوله: ﴿كمثل حبة﴾ لا يصح جعل هذا خبراً عن قوله: ﴿مثل الذين ينفقون﴾ لاختلافهما، فلا بد من تقدير محذوف إما في الأول أي: مثل نفقة الذين ينفقون، أو في الثاني أي: كمثل زارع حبة، والمراد بالسبع السنابل: هي التي تخرج في ساق واحد يتشعب منه سبع شعب في كل شعبة سنبل، والحبة اسم لكل ما يزرعه ابن آدم، ومنه قول المتلمس:

أليت حب الحراق الدهر أطعمه والحب ياكله في القرية السوس قيل: المراد بالسنابل هنا سنابل البخن، فهو الذي يكون

لا تدخلنك شجرة من سائل فلخير دهرك أن ترى مسؤولاً لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولاً والمراد بالمغفرة: الستر للخلعة، وسوء حالة المحتاج،

والعفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكثر صدر المسؤول، وقيل المراد: أن العفو من جهة السائل؛ لأنه إذا ردة رداً جميلاً عذره، وقيل: المراد: فعل يؤدي إلى المغفرة خير من صدقة أي: غفران الله خير من صدقتكم. وهذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المنى، والأذى للصدقة. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ الإبطال للصدقات: إذهاب أثرها، وإفساد منفعتها أي: لا تبطلوا بالمنى، والأذى، أو بأحدهما. قوله: ﴿كَالَّذِي﴾ أي: إبطالاً كإبطال الذي على أنه نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن يكون حالاً أي: لا تبطلوا مشابهين للذي ينفق ماله رثاء الناس، وانتصاب رثاء على أنه علة لقوله: ﴿يَنْفِقْ﴾ أي: لأجل الرياء، أو حال أي ينفق مراثياً لا يقصد بذلك وجه الله، وثواب الآخرة، بل يفعل ذلك رياء للناس استجلاباً لثناهم عليه، ومنحهم له، قيل: والمراد به: المنافق بليل قوله: ﴿وَلَا يُوْمِنُ بِآلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. قوله: ﴿فَقُمْلَهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ الصفوان: الحجر، الكبير، الأملس. وقال الأخفش: صفوان جمع صفوانة. وقال الكسائي: صفوان واحد، وجمعه صفى، وأصفى، وأنكره المبرد. وقال النحاس: يجوز أن يكون جمعاً، ويجوز أن يكون واحداً، وهو أولى لقوله: ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَاصْبَاهُ وَلَيْلٌ﴾ والوابل المطر الشديد، مثل الله سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضاً منبئة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب، وبقي صلباً أي: أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، فكنك هذا المرثي، فإن نفقته لا تنفعه، كما لا ينفع المطر الواقع على الصفوان الذي عليه تراب. قوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا ينتفعون بما فعلوه رياء، ولا يجدون له ثواباً، والجملة مستأنفة، كأنه قيل: ماذا يكون حالهم حينئذ؟ فقيل: لا يقدرُونَ السخ، والضميران للموصول أي: كالذي باعتبار المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: 69] أي: الجنس، أو الجمع، أو الفريق. قوله: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيَتٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: إن قوله: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ مفعول له، وتثبيتاً معطوف عليه، وهو أيضاً مفعول له. أي: الإنفاق لأجل الابتغاء، والتثبيت كذا قال مكي في المشكل. قال ابن عطية: وهو مردود لا يصح في تثبيتاً أنه مفعول من أجله؛ لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت. قال: وابتغاء نصب على المصدر في موضع الحال، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو تثبيتاً عليه، وابتغاء معناه طلب، ومرضات مصدر رضي يرضى، وتثبيتاً معناه: أنهم يتثبتون من أنفسهم ببذل أموالهم على الإيمان، وسائر العبادات رياضة لها، وتدريباً، وتمريناً، أو يكون التثبيت بمعنى التصديق أي: تصديقاً للإسلام ناشئاً من جهة أنفسهم. وقد اختلف السلف في معنى هذا الحرف، فقال الحسن، ومجاهد: معناه أنهم يتثبتون لن يضيعوا

صدقاتهم، وقيل: معناه: تصديقاً، ويقيناً، روي ذلك عن ابن عباس، وقيل: معناه احتساباً من أنفسهم، قاله قتادة، وقيل: معناه: أن أنفسهم لها بصائر، فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتاً. قاله الشعبي، والسدي، وابن زيد، وأبو صالح، وهذا أرجح مما قبله. يقال: ثبت فلاناً في هذا الأمر أثبته تثبيتاً أي: صححت عزمه قوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ الجنة: البستان، وهي أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها، مأخوذة من لفظ الجن، والجنين لاستتارها. والربوة: المكان المرتفع ارتفاعاً يسيراً، وهي مثلثة الرؤ، وبها قرئ؛ وإنما خص الربوة، لأن نباتها يكون أحسن من غيره، مع كونه لا يصطلمه البرد في الغالب للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له، قال الطبري: وهي رياض الحزن التي تستكثر العرب من نكرها، واعتبره ابن عطية، فقال: إن رياض الحزن منسوبة إلى نجد؛ لأنها خير من رياض تهامة، ونبات نجد أعطر، ونسيمه أبرد وأرق، ونجد يقال لها: حزن، وليست هذه المذكورة هنا من ذلك، ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو إذا زاد. وقال الخليل الربوة: أرض مرتفعة طيبة. والوابل: المطر الشديد، كما تقدم، يقال: وبلت السماء تبل، والأرض موبلة. قال الأخفش: ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِبَيِّنَاتٍ﴾ [المزمل: 16] أي: شديداً، وضرب وبيل، وعذاب وبيل ﴿فَأَتَتْ أَكْلَهَا﴾ بضم الهمزة: الثمر الذي يؤكل كقوله تعالى: ﴿تَوْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25] وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص، كسرج الفرس، وباب الدار قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر، وأكلها بضم الهمزة، وسكون الكاف تخفيفاً. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي بتحريك الكاف بالضم. وقوله: ﴿ضَعْفَيْنِ﴾ أي: مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل. فالمراد بالضعف: المثل، وقيل: أربعة أمثال، ونصبه على الحال من أكلها أي: مضاعفاً. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَصْبِهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ أي: فإن الطل يكفيها: وهو المطر الضعيف المستبق القطر. قال المبرد، وغيره: وتقديره، فطل يكفيها. وقال الزجاج: تقديره، فالذي يصيبها طل، والمراد: أن الطل ينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين. وقال قوم: الطل: الندى. وفي الصحاح: الطل: أضعف المطر، والجمع أطلال. قال الماوردي: وزرع الطل أضعف من زرع المطر. والمعنى: أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضع بحال، وإن كانت متفاوتة، ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير، والقليل، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها، فكذلك نفقتهم جلت، أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة في أجورهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. قرأ الزهري بالتاء التحتية. وقرأ الجمهور بالفوقية، وفي هذا ترغيب لهم في الإخلاص مع ترهيب من الرياء، ونحوه، فهو وعد، ووعيد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿كَمَثَلِ

الخير، ولا حاجة إلى التطويل بذكرها، فهي معروفة في مواطنها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول الحق، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿قُولُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِدْقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى﴾». وأخرج ابن المنذر، عن الضحك في قوله: ﴿قُولُ مَعْرُوفٍ﴾ قال: رد جميل، تقول: يرحمك الله، يرزقك الله، ولا تنهره، ولا تغلظ له القول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «لا يدخل الجنة منان، وذلك في كتاب الله: ﴿لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿صِفْوَانٌ﴾ يقول: الحجر ﴿فَفَتْرَكَهُ صَلْدًا﴾ يقول: ليس عليه شيء. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الوابل المطر. وأخرجنا عن قتادة قال: الوابل المطر الشديد، قال: وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ يومئذ، كما ترك هذا المطر هذا الحجر ليس عليه شيء أنقى مما كان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿فَفَتْرَكَهُ صَلْدًا﴾ قال: يابساً جافاً لا ينبت شيئاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع في قوله: ﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِبَتْغَاءِ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ قال: هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الشعبي في قوله: ﴿وَتَثْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: تصديقاً، وبقيناً. وأخرج ابن جرير، عن أبي صالح نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير قال: يتثبتون أين يضعون أموالهم. وأخرجنا عن الحسن قال: كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت، فإن كان له أمضاء، وإن خالطه شيء من الرياء أمسك. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿تَثْبِيئًا﴾ قال: النية، وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: الربوة: النشز من الأرض. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: الربوة: الأرض المستوية المرتفعة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: هي المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار. وأخرج ابن جرير عنه في قوله تعالى: ﴿فَطُلْ﴾ قال: لندي. أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الضحك قال: الطل الرذاذ من المطر: يعني: اللين منه. وأخرجنا عن قتادة قال: هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن يقول: ليس لخير خلف كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أي حال كان، إن أصابها وابل، وإن أصابها طل.

أَيُّ أَمْرِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَكُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَسَافُةٌ أَلْبَنَىٰ وَلَمْ يُدْرِكْهُ مُمْسِكَةٌ فَأَصَابَهَا إِمْعَارٌ فِيهِ نَارٌ فَامْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلِكُمْ تَتَكَلَّمُونَ

الود: الحب للشيء مع تمنيه، والهزمة الداخلة على الفعل، لإنكار الوقوع، والجنة تطلق على الشجر الملتف، وعلى الأرض التي فيها الشجر. والاول أولى هنا لقوله: ﴿تَجْرِي

حبة أنبتت سبع سنابل﴾ عن الربيع قال: «كان من بايع النبي ﷺ على الهجرة، ورابط معه بالمدينة، ولم يذهب وجهها، إلا بإذنه كانت له الحسنة بسبعمئة ضعف، ومن بايع على الإسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها». وأخرج مسلم، وأحمد، والنسائي، والحاكم، والبيهقي، عن ابن مسعود: أن رجلاً تصدق بناقاة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقة كلها مخطومة». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن خزيم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمئة ضعف». وأخرجه البخاري في تاريخه من حديث أنس، وأخرجه أحمد من حديث أبي عبيدة وزاد: «ومن أنفق على نفسه، وأهله، أو عاد مريضاً، فالحسنة بعشر أمثالها». وأخرج نحوه النسائي في الصوم. وأخرج ابن ماجه، وابن أبي حاتم، من حديث عمران بن حصين، وعلي، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، كلهم، يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «من أرسل بنفقة في سبيل الله، وأقام في بيته، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمئة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله، وأنفق في وجهه ذلك، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمئة ألف درهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَصَاعِفُونَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾». وأخرجه أيضاً ابن ماجه، من حديث الحسن بن علي. وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله ﷻ: «إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به»، وأخرجه أيضاً مسلم. وأخرج الطبراني من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «طوبى لمن أكثر، في الجهاد في سبيل الله من نكر الله، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة، كل حسنة منها عشرة أضعاف» وقد تقدّم ذكر طرف من أحاديث التضعيف للحسنات عند قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ [البقرة: 245]. وقد وردت الأحاديث الصحيحة في أجر من جهز غازياً. وأخرج أبو داود، والحاكم وصححه، عن سهل بن معاذ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلاة، والصوم، والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله سبعمئة ضعف». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في سننه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمئة ضعف». وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْذُ وَلَا أَذَى﴾ أن أقواماً يبعثون الرجل منهم في سبيل الله، أو ينفق على الرجل، أو يعطيه النفقة، ثم يمنّ عليه ويؤنّيه: يعني: أن هذا سبب النزول. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وقد وردت الأحاديث الصحيحة في النهي، عن المنّ، والأذى، وفي فضل الإنفاق في سبيل الله، وعلى الأقارب، وفي وجوه

يَكْزُرَ إِلَّا أُولَ الْأُكْبَرِ ﴿٦٦﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ ثَقَفَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ وَمَا لِلْغُلَايِطِ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٦٧﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَأَسَدَدْتُمْ فِينَا مِنْ وَلَدٍ تُحْمَلُونَ وَتُؤْتَوْنَ الْفَقْرَةَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ كُفْرِ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٨﴾

قوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: من جيد ما كسبتم، ومختاره، كذا قال الجمهور. وقال جماعة: إن معنى الطيبات هنا: الحلال، ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعاً؛ لأن جيد الكسب، ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، وإن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالاً كان، أو حراماً، فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية. وقوله: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض، وحذف لدلالة ما قبله عليه، وهي: النباتات، والمعادن، والركاز. قوله: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي: لا تقصدوا المال الرديء، وقرأه الجمهور بفتح حرف المضارعة، وتخفيف الباء، وقرأ ابن كثير بتشديدها. وقرأ ابن مسعود: «ولا تأمموها» وهي لغة. وقرأ أبو مسلم بن خباب بضم الفوقية، وكسر الميم. وحكى أبو عمرو: أن ابن مسعود قرأ: «تتمموها» بهمزة بعد المضمومة، وفي الآية الأمر بإنفاق الطيب، والنهي عن إنفاق الخبيث. وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن الآية في الصدقة المفروضة، وذهب آخرون إلى أنها تعم صدقة الفرض، والتطوع، وهو: الظاهر، وسيأتي من الآية ما يؤيد هذا، وتقديم الظرف في قوله: ﴿مِنْهُ تَنْفَقُونَ﴾ يفيد التخصيص أي: لا تخصوا الخبيث بالإنفاق، والجملة في محل نصب على الحال أي: لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الإنفاق به قاصرين له عليه. قوله: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْيَافٍ﴾ أي: والحال أنكم لا تأخونونه في معاملتكم في وقت من الأوقات هكذا بين معناه الجمهور، وقيل: معناه: ولستم بأخذي لو وجدتموه في السوق يباع. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَغْمُضُوا فِيهِ﴾ هو من أغمض الرجل في أمر كذا: إذا تساهل ورضي ببعض حقه، وتجاوز، وغض بصره عنه، ومنه قول الشاعر:

إلى كم وكم أشياء منك تريبني أغض عنها لست عنها بذي عمي
وقرأ الزهري بفتح التاء، وكسر الميم مخففاً. وروي عنه أنه قرأ بضم التاء، وفتح الغين، وكسر الميم مشددة، وكذلك قرأ قتادة، والمعنى على القراءة الأولى من هاتين القراءتين: إلا أن تهضموا سوماً من البائع منكم، وعلى الثانية: إلا أن تأخذوا بنقصان. قال ابن عطية: وقراءة الجمهور تخرج على التجاوز، أو على تغميض العين، لأن أغمض بمنزلة غمض، وعلى أنها بمعنى حتى أي: حتى تأتوا غامضاً من التاويل، والنظر في أخذ ذلك. قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم بِالْفَقْرِ﴾ قد تقدم معنى الشيطان، واشتقاقه. ويعدكم معناه يخوفكم الفقر أي: بالفقر لئلا تنفقوا، فهذه الآية متصلة بما قبلها. وقرئ: «الفقر» بضم الفاء، وهي لغة. قال الجوهري: والفقر لغة في الفقر، مثل الضعف، والضعف. والفحشاء

من تحتها الأنهار﴾ بإرجاع الضمير إلى الشجر من دون حاجة إلى مضاف محذوف، وإما على الوجه الثاني، فلا بد من تقديره، أي: من تحت أشجارها، وهكذا قوله: ﴿فاحتترقت﴾ لا يحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه الأول، وإما على الثاني، فيحتاج إلى تقديره، أي: فاحتترقت أشجارها، وخص النخيل، والأعناب بالذكر مع قوله: ﴿له فيها من كل الثمرات﴾ لكونهما أكرم الشجر، وهذه الجملة صفات للجنة، والوالو في قوله: ﴿وأصابه الكبير﴾ قيل: عاطفة على قوله: ﴿تَكُونُ﴾ ماض على مستقبل، وقيل: على قوله: ﴿يُؤْتَى﴾ وقيل: إنه محمول على المعنى إذ تكون في معنى كانت، وقيل: إنها والو الحال أي: وقد أصابه الكبير، وهذا أرجح. وكبر السن هو: مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي الأسباب. وقوله: ﴿وله ذرية ضعفاء﴾ حال من الضمير في أصابه أي: والحال أن له ذرية ضعفاء، فإن من جمع بين كبر السن، وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة في غاية الشدة. والإعصار: الريح الشديدة التي تهب من الأرض إلى السماء كالعمود، وهي التي يقال لها: الزوبعة، قاله الزجاج. قال الجوهري: الزوبعة رئيس من رؤساء الجن، ومنه سمي الإعصار زوبعة، ويقال أم زوبعة: وهي ريح يثير الغبار، ويرتفع إلى السماء، كأنه عمود، وقيل: هي ريح تثير سحباً ذات رعد، وبرق. وقوله: ﴿فاحتترقت﴾ عطف على قوله: ﴿فأصابها﴾ وهذه الآية تمثيل من يعمل خيراً، ويضم إليه ما يحيطه، فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته إليه لا يسمن، ولا يغني من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة، وهو متصف بتلك الصفة.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ، فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّوهُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ قالوا: الله أعلم، قال: قولوا نعم أو لا نعم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل، ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل عني يعمل لطاعة الله، ثم يبعث الله له الشيطان، فعمل في المعاصي حتى أغرق عمله. وأخرج ابن جرير عن عمر قال: هذا مثل ضرب لإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿إِعْصَاهُ فِيهِ نَارٌ﴾ قال: ريح فيها سموم شديدة.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ كَسْبَتِهِ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيْمَمُوا الْحَبِثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِخَافِيِيهِ إِلَّا أَنْ تُقْرَبُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم بِالْفَقْرِ رِيَاكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً يَنْتَهُ وَقَضَاءً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٠﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا

أشياء، فهو يتأويل المنكور أي: فإن الله يعلم المنكور، وبه جزم ابن عطية، ورجحه القرطبي، ونكر معناه كثير من النحاة في مؤلفاتهم. قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: ما للظالمين أنفسهم بما وقعوا فيه من الإثم لمخالفة ما أمر الله به من الإنفاق في وجوه الخير من أنصار ينصرونهم يمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به أنفسهم، والأولى الحمل على العموم من غير تخصيص لما يفيد السباق أي: ما للظالمين بأي مظلمة كانت من أنصار. قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لِلصَّدَقَاتِ فَنَعْمَا هِيَ﴾ قرئ بفتح النون، وكسر العين، وبكسرهما، وبكسر النون، وسكون العين، وبكسر النون، وإخفاء حركة العين. وقد حكى النحويون في: «نعم» أربع لغات، وهي: هذه التي قرئ بها، وفي هذا نوع تفصيل لما أجمل في الشرطية المتقدمة، أي: إن تظهروا الصدقات، فنعم شيئاً إظهارها، وإن تخفوها، وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء، فالإخفاء خير لكم. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صفة التطوع لا في صفة الفرض، فلا فضيلة للإخفاء فيها بل قد قيل: إن الإظهار فيها أفضل، وقالت طائفة: إن الإخفاء أفضل في الفرض، والتطوع. قوله: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، وقتادة، وابن إسحاق نكفر بالنون، والرفع. وقرأ ابن عامر، وعاصم في رواية حفص بالياء، والرفع. وقرأ الأعمش، ونافع، وحمرزة، والكسائي، بالنون، والجزم، وقرأ ابن عباس بالتاء الفوقية، وفتح الفاء، والجزم. وقرأ الحسين بن علي الجعفي بالنون، ونصب الراء. فمن قرأ بالرفع، فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جواباً بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف. ومن قرأ بالجزم، فهو معطوف على الفاء، وما بعدها. ومن قرأ بالنصب فعلى تقدير أن. قال سيبويه: والرفع هاهنا الوجه الجيد، وأجاز الجزم بتأويل، وإن تخفوها يكن الإخفاء خيراً لكم، ويكفر، وبمثل قول سيبويه قال الخليل. ومن في قوله: ﴿مَنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ للتبعيض، أي: شيئاً من سيئاتكم. وحكى الطبري عن فرقة أنها زائدة، وذلك على رأي الأخفش. قال ابن عطية: وذلك منهم خطأ.

وقد أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: من الذهب، والفضة ﴿وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني من الحب، والثمر، وكل شيء عليه زكاة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: من التجارة. ﴿وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال: من الثمار. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن البراء بن عازب في قوله: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تَنْفَقُونَ﴾ قال: نزلت فينا معشر

الخصلة الفحشاء، وهي المعاصي، والإنفاق فيها، والبخل عن الإنفاق في الطاعات. قال في الكشف: والفاحش عند العرب البخل. انتهى. ومنه قول طرفة بن العبد:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد ولكن العرب، وإن أطلقت على البخل، فذلك لا يتأني إطلاقهم له على غيره من المعاصي، وقد وقع كثيراً في كلامهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ الوعد في كلام العرب: إذا أطلق، فهو في الخير، وإذا قيد، فقد يقيد تارة بالخير، وتارة بالشر. ومنه قوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعِدَاهَا﴾ الله الذين كفروا ﴿[الحج: 72]﴾ ومنه أيضاً ما في هذه الآية من تقييد، وعد الشيطان بالفقر، وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة، والفضل. والمغفرة: الستر على عباده في الدنيا، والآخرة لنزوبهم، وكفارتها، والفضل أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا، فيوسع لهم في أرزاقهم، وينعم عليهم في الآخرة بما هو أفضل، وأكثر، وأجل، وأجمل. قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ هي: العلم، وقيل: الفهم، وقيل: الإصابة في القول، ولا مانع من الحمل على الجميع شمولاً أو بدلاً، وقيل: إنها النبوة، وقيل: العقل، وقيل: الخشية، وقيل: الورع، وأصل الحكمة ما يمنع من السفه، وهو كل قبيح. والمعنى: أن من أعطاه الله الحكمة، فقد أعطاه خيراً كثيراً. أي: عظيماً قدره، جليلاً خطره. وقرأ الزهري، ويعقوب: «ومن يؤتي الحكمة» على البناء للفاعل، وقرأ الجمهور على البناء للمفعول، والالباب: العقول، واحدها لب، وقد تقدّم الكلام فيه. قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ ما شرطية، ويجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف أي: الذي أنفقتموه، وهذا بيان لحكم عام يشمل كل صفة مقبولة، وغير مقبولة، وكل نذر مقبول، أو غير مقبول. وقوله: ﴿فَإِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ﴾ فيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول، والوعيد لمن جاء بعكس ذلك. ووجد الضمير مع كون مرجعه شيئين، هما النفقة، والنذر؛ لأن التقدير: وما أنفقتم من نفقة، فإن الله يعلمها، أو نذرت من نذر، فإن الله يعلمه، ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر، قاله النحاس، وقيل: إن ما كان العطف فيه بكلمة: «أو» كما في قولك: زيد، أو عمرو، فإنه يقال: أكرمته، ولا يقال: أكرمتهما، والأولى أن يقال: إن العطف بـ«أو» يجوز فيه الأمران توحيد الضمير، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11]. وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا﴾ [النساء: 112]، وتثنيته كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135] ومن الأوّل في العطف بالواو قول امرئ القيس:

فتوضّع فالمقرّة لم يعف رسمها لما نسجت من جنوب وشمال ومنه قول الشاعر:

نحن بما عنينا وأنت بما عنك راض والرأي مختلف ومنه ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفَقُونَهَا﴾ [التوبة: 34] وقيل: إنه إذا وحد الضمير بعد نكر شيئين، أو

قال: هي الإصابة في القول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: هي الخشية لله. وأخرج أيضاً عن مطر الوراق مثله. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِنْ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ قال: يحصيه. وقد ثبت عن النبي ﷺ في نذر الطاعة، والمعصية في الصحيح، وغيره ما هو معروف، كقوله ﷺ: «لأنذر في معصية الله» وقوله: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه، ومن نذر أن يعصيه، فلا يعصه» وقوله: «النذر ما ابتغى به وجه الله» وثبت عنه في كفارة النذر ما هو معروف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَاتُ﴾ فنعمنا هي الآية، قال: فجعل السر في التطوع يفضل علانيتهما سبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً. وكذلك جميع الفرائض، والنفائل في الأشياء كلها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَاتُ﴾ الآية، قال: كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة، فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات، وتفصيلها انتهت الصدقات إليها. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَاتُ﴾ الآية، قال: هذا منسوخ. وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ للسائل والمحروم [المعارج: 24] قال: منسوخ، نسخ كل صدقة في القرآن الآية التي في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: 60] وقد ورد في فضل صدقة السر أحاديث صحيحة مرفوعة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ عَلَيْهِمْ وَلَا خَيْرٌ لَّكَ مِنْهُمْ﴾ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ نَرْشُدْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَرْشُدْكُمْ وَلَا تَقْلُقُوا ۖ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُتْمِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَتْلِفُونَ مَكْرًا فِي الْأَنْفُسِ يَتَّبِعُهُمُ الْخَوَالِفُ أَفْضَاةً مِنَ الْعَلَفِ تَرْفُهُمْ بِسَبْعٍ لَا يَتْلِفُونَ النَّاسَ إِلَّا حَقًّا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۖ لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْكَهْرِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي: ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهتدين قائلين لما أمروا به ونهوا عنه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هداية توصله إلى المطلوب، وهذه الجملة معترضة، وفيها الالتفات، وسيأتي بيان السبب الذي نزلت لأجله، والمراد بقوله: ﴿مَنْ خَيْرٌ﴾ كل ما يصدق عليه اسم الخير كائنًا ما كان، وهو متعلق بمحذوف، أي: أي شيء تنفقون كائنًا من خير، ثم بين أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان ابتغاء وجه الله سبحانه، أي: لا ابتغاء وجه الله. وقوله: ﴿يُوفَى إِلَيْكُمْ﴾ أي: أجره، وثوابه على الوجه الذي تقدم نكره من التضمين. قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أو بمحذوف أي: اجعلوا ذلك للفقراء، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: إنفاقكم للفقراء الذين

الانصار، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته، وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين، فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان لخدمهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعضاه، فيسقط للبسر، والتمر، فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص، والحشف، وبالقنو قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: لو أن أحكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض، وحياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي إلينا بصالح ما عنده. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: نكر لنا أن الرجل كان يكون له الحائطان، فينظر إلى أرضهما تمرًا، فيتصنق به، ويخلط به الحشف، فنزلت الآية، فعاب الله تلك عليهم، ونهاهم عنه. وأخرج عبد بن حميد، عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما أمر رسول الله ﷺ بصدقة الفطر، فجاء رجل بتمر رديء، فأمر النبي ﷺ الذي يحرص النخل أن لا يجيز. فأنزل الله تعالى الآية هذه. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي في سننه عن سهل بن حنيف قال: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة، فجاء رجل بكائس من هذا السخل: يعني: الشيص فوضعه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال: من جاء بهذا؟ وكان كل من جاء بشيء نسب إليه، فنزلت: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ الآية. ونهى رسول الله ﷺ عن لونين من التمر أن يوجد في الصدقة، الجعور ولون الحبيق. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يشتررون الطعام الرخيص، ويتصنقون، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن عبيدة السلماني قال: سألت علي بن أبي طالب عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ الآية، فقال: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التمر، فيصرمه، فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُوفَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال: المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، محكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله. وأخرج ابن مريويه عنه: أنها القرآن يعني: تفسيره. وأخرج ابن المنذر عنه أنها النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: إنها الفقه في القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء: ﴿يُوفَى الْحِكْمَةَ﴾ قال قراءة القرآن، والفكرة فيه. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية قال: هي الكتاب، والفهم به. وأخرج أيضاً عن النخعي نحوه، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال: هي الكتاب يوتي إصابته من يشاء. وأخرج عبد بن حميد عنه

نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن الحنفية، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان أناس من الأنصار لهم نسب، وقربة من قريظة، والنضير، وكان يتقون أن لا يتصنقوا عليهم، ويريدونهم أن يسلموا، فنزلت: ﴿ليس عليك هدام﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، عن عمرو الهلالي قال: سئل النبي ﷺ انتصنق على فقراء أهل الكتاب؟ فأنزل الله: ﴿ليس عليك هدام﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء الخراساني قال في قوله: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ قال: إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله. وأخرج ابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ قال: هم أصحاب الصفة. وأخرج ابن سعد، عن محمد بن كعب القرظي، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبي ﷺ أمروا بالصدقة عليهم. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: ﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾ قال: حصرروا أنفسهم في سبيل الله للغزو فلا يستطيعون تجارة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: هم قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله، فصاروا زمني، فجعل لهم في أموال المسلمين حقاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن رجاء بن حيوة في قوله: ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ قال: لا يستطيعون تجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿يحسبهم لجاهل أغنياء﴾ قال: دل الله المؤمنين عليهم، وجعل نفقاتهم لهم، وأمرهم أن يضعوا نفقاتهم فيهم، ورضي عنهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ قال: التخشع. وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع أن معناد تعرف في وجوههم الجهد من الحاجة. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ قال: رثاء ثيابهم، وثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة، والتمرتان، واللقمة، واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، وأقرؤوا إن شئتم: ﴿لا يسألون الناس إحافاً﴾. وقد ورد في تحريم المسألة أحاديث كثيرة إلا لذي سلطان، أو في أمر لا يجد منه بدءاً. وأخرج ابن سعد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، والطبراني، وأبو الشيخ، عن يزيد بن عبد الله بن غريب المليكي، عن أبيه، عن جده عن النبي ﷺ قال: «أنزلت هذه الآية ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار﴾ في أصحاب الخيل». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن أبي أمامة الباهلي نحوه قال: فيمن لا يربطها خيلاء، ولا رياء، ولا سمعة. وأخرج ابن جرير، عن أبي الدرداء نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن

أحسروا في سبيل الله بالغزو، أو الجهاد، وقيل: منعوا عن التكسب لما هم فيه من الضعف ﴿الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ للتكسب بالتجارة، والزراعة، ونحو ذلك بسبب ضعفهم، قيل: هم فقراء الصفة، وقيل: كل من يتصف بالفقر، وما نكر معه. ثم نكر سبحانه من أحوال أولئك الفقراء ما يوجب الحنو عليهم، والشفقة بهم، وهو: كونهم متعففين عن المسألة، وإظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء. والتعفف تفعل، وهو بناء مبالغة من عف عن الشيء: إذا أمسك عنه، وتنزّه عن طلبه، وفي: «يحسبهم لغتان: فتح السين، وكسرهما. قال أبو علي الفارسي: والفتح أقيس: لأن العين من الماضي مكسورة، فبابها أن تأتي في المضارع مفتوحة. فالقراءة بالكسر على هذا حسنة، وإن كانت شاذة. ومن» في قوله: «من التعفف» لابتداء الغاية، وقيل: لبيان الجنس. قوله: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي: برثاءة ثيابهم، وضعف أبدانهم، وكل ما يشعر بالفقر، والحاجة. والخطاب إما لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للمخاطبة، والسيما مقصورة: العلامة، وقد تمد. والإحاف: الإلحاح في المسألة، وهو مشتق من اللحاف، سمي بذلك لاشتغاله على وجوه الطلب في المسألة، كاشتغال اللحاف على التغطية. ومعنى قوله: ﴿لا يسألون الناس إحافاً﴾ أنهم لا يسألونهم البتة، لا سؤال إلحاح، ولا سؤال غير إلحاح. وبه قال الطبري، والزجاج، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ووجه أن التعفف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم، ومجرد السؤال ينافيها، وقيل: المراد أنهم إذا سألوا سألوا بتلطّف، ولا يلحفون في سؤالهم، وهذا وإن كان هو الظاهر من توجه النفي إلى القيد نون المقيد، لكن صفة التعفف تنافيها، أيضاً كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون إلا مع عدم السؤال البتة. وقوله: ﴿بالليل والنهار﴾ يفيد زيادة رغبتهم في الإنفاق، وشدة حرصهم عليه حتى أنهم لا يتركون ذلك ليلاً، ولا نهاراً، ويفعلونه سرّاً وجهراً عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين، ويظهر لديهم فاقة المفتاقين في جميع الأزمنة على جميع الأحوال. ويدخل الغاء في خبر الموصول أعني قوله: ﴿فلهم أجرهم﴾ للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها، وقيل: هي للعطف، والخبر للموصول محذوف، أي: ومنهم الذين ينفقون.

وقد أخرج عبد بن حميد، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فنزلت هذه الآية: ﴿ليس عليك هدام﴾ إلى قوله: ﴿وانتم لا تظلمون﴾ فرخص لهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء عنه قال إن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصنق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سالك من كل دين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير،

به لا لتفهيم أن أصل الكلمة كذا مما لا يجري به النطق، فأعرف هذا، ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم في هذه النقوش، ويلزمون به أنفسهم، ويعيبون من خالفه، فإن ذلك من المشاححة في الأمور الاصطلاحية التي لا تلزم أحداً أن يتقيد بها، فعليك بأن ترسم هذه النقوش على ما يلغظ به الالفاظ عند قراءتها، فإنه الأمر المطلوب من وضعها، والتواضع عليها، وليس الأمر المطلوب منها أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة التي يتلغظ بها المتلغظ مما لا يجري في لفظه الآن، فلا تغتر بما يروى عن سيبويه، ونحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو؛ لأنه يقول في ثنثيته: ربوان. وقال الكوفيون: يكتب بالياء، وثنثيته ربيان. قال الزجاج: ما رأيت خطأ أقبح من هذا، ولا أشنع، لا يكفيهم الخطأ في الخط حتى يخطئوا في الثنثية، وهم يقرؤون: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّمِزْيُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو﴾ [الروم: 39]

وليس المراد بقوله هنا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله، بل هو عام لكل من يعامل بالربا، فيأخذه، ويعطيه، وإنما خص الأكل لزيادة التشنيع على فاعله، ولكونه هو الغرض الأهم، فإن أخذ الربا إنما أخذه للآكل قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: يوم القيامة، كما يدل عليه قراءة ابن مسعود: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وبهذا، فسرهم جمهور المفسرين قلوا: إنه يبعث كالمجنون عقوبة له، وتمقيتاً عند أهل المحشر، وقيل: إن المراد تشبيه من يحرص في تجارته، فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون؛ لأن الحرص، والطمع، والرغبة في الجمع قد استفزته حتى صار شبيهاً في حركته بالمجنون، كما يقال لمن يسرع في مشيه، ويضطرب في حركاته: أنه قد جنّ، ومنه قول الأعشى في ناقته:

وتصبح من غب السري وكانت أُمّ بها من طائف الجنّ أولق
فجعلها بسرعة مشيها، ونشاطها كالمجنون. قوله: ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: إلا قياماً كقيام الذي يتخبطه، والخبط: الضرب بغير استواء كخبط العشواء، وهو المصروع. والمسّ: الجنون، والامسّ: المجنون، وكذلك الأولق، وهو: متعلق بقوله: ﴿يَقُومُونَ﴾ أي: لا يقومون من المسّ الذي بهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أو متعلق بيقوم. وفي الآية دليل على فساد قول من قال: إن الصرع لا يكون من جهة الجنّ، وزعم أنه من فعل الطبائع، وقال: إن الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان، وليس بصحيح، وإن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مسّ. وقد استعاذ النبي ﷺ من أن يتخبطه الشيطان، كما أخرجه النسائي، وغيره. قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّمِزْيُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم وعقوبتهم بسبب قولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي: أنهم جعلوا البيع، والربا شيئاً واحداً، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً، والبيع فرعاً، أي: إنما البيع بلا

حنش الصنعاني أنه سمع ابن عباس يقول في هذه الآية: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن عساکر من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه عن ابن عباس في هذه الآية: قال: نزلت في علي بن أبي طالب كانت له أربعة دراهم، فأنفق بالليل درهماً، وبالنهار درهماً، ودرهماً سراً، ودرهماً علانية. وعبد الوهاب ضعيف، ولكن قد رواه ابن مردويه من وجه آخر، عن ابن عباس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في هذه الآية قال: هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله الذي افترض عليهم في غير سرف، ولا إملاق، ولا تبذير، ولا فساد. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن المسيب قال: نزلت في عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان في نفقتهم في جيش العسرة.

الرِّبَا يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَتُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَسْأَلُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الرِّبَا وَآمَنُوا وَكَلِمَاتُ الْمُكَلِّبِينَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤١﴾

الربا في اللغة: الزيادة مطلقاً، يقال: ربا الشيء يربو: إذا زاد، وفي الشرع: يطلق على شيئين، على ربا الفضل، وriba النسبة حسبما هو مفصل في كتب الفروع، وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حلّ أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه: اتقضي أم تربى؟ فإذا لم يقض زاد مقداراً في المال الذي عليه، وآخر له الأجل إلى حين. وهذا حرام بالاتفاق، وقيل كتابه الربا بالياء للكسرة في أوله. وقد كتبوه في المصحف بالواو. قال في الكشاف: على لغة من يفخم⁽¹⁾ كما كتبت الصلاة، والزكاة، وزيت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. انتهى. قلت: وهذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشي عليه، فإن هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية لا يشاح في مثلها إلا فيما كان يدل به منها على الحرف الذي كان في أصل الكلمة، ونحوه، كما هو مقرر في مباحث الخط من علم الصرف، وعلى كل حال، فرسم الكلمة، وجعل نقشها الكتابي على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأولى، فما كان في النطق ألفاً كالصلاة، والزكاة، ونحوهما كان الأولى في رسمه أن يكون كذلك، وكون أصل هذا الألف واواً، أو ياء لا يخفى على من يعرف علم الصرف، وهذه النقوش ليست إلا لفهم اللفظ الذي يدل بها عليه كيف هو: في نطق من ينطق

(1) والمراد بالتفخيم هنا الفتح، وضد الترقيق بالألف وهو الإمالة.

على الله: ﴿واحل الله البيع وحرم الربا﴾ ومن عاد فاكل الربا: ﴿فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من وجه آخر عنه أيضاً في قوله: ﴿لا يقومون﴾ قال: ذلك حين يبعث من قبره. وأخرج الاصبهاني في ترغيبه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي أكل الربا يوم القيامة مختبلاً يجر شفتيه، ثم قرأ: ﴿لا يقومون﴾ إلا كما يقوم للذي يتخبطه الشيطان من المس» وقد وردت أحاديث كثيرة في تعظيم نيب الربا، منها من حديث عبد الله بن مسعود، عند الحاكم وصححه، والبيهقي عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم» ومن حديث أبي هريرة مرفوعاً، عند ابن ماجه، والبيهقي بلفظ: «سبعون باباً» ورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن عبد الله بن سلام، وكعب، وابن عباس، وأنس. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في الآية قال: يبعثون يوم القيامة، وبهم خبل من الشيطان، وهي في بعض القراءات: «لا يقومون يوم القيامة». يعني قراءة ابن مسعود المتقدم ذكرها. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا «خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقرأه على الناس، ثم حرم التجارة في الخمر» وأخرج ابن جرير، وابن مروي، عن عمر بن الخطاب: أنه خطب، فقال: إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ﷺ، ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس أنه قال: آخر آية أنزلها على رسوله آية الربا. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن عمر مثله. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد في الربا الذي نهى الله، عنه قال: كان أهل الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين، فيقول: لك كذا وكذا، وتؤخر عني، فيؤخر عنه. وأخرج أيضاً، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه أيضاً، وزاد في قوله: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ قال: يعني البيان الذي في القرآن في تحريم الربا، فانتهى عنه: ﴿قله ما سلف﴾ يعني: فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم: ﴿وامره إلى الله﴾ يعني بعد التحريم، وبعد تركه إن شاء عصمه منه، وإن شاء لم يفعل ﴿ومن عاد﴾ يعني في الربا بعد التحريم، فاستحلّه بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا - فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يعني لا يموتون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، من طريق ابن جريج، عن ابن عباس في قوله: ﴿يمحق الله الربا﴾ قال: ينقص الربا ﴿ويربي للصقات﴾ قال: يزيد فيها، وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً «من تصلق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحنكم فلوه حتى تكون مثل الجبل».

زيادة عند حلول الأجل، كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿واحل الله البيع وحرم الربا﴾ أي: أن الله أحل البيع، وحرم نوعاً من أنواعه، وهو البيع المشتمل على الربا. والبيع مصدر باع يبيع، أي: بفع عوضاً، وأخذ معوضاً، والجملة بيانية لا محل لها من الإعراب. قوله: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ أي: من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الأوامر، والنواهي، ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا ﴿فانتهى﴾ أي: فامتثل النهي الذي جاءه، وانزجر عن المنهي عنه، وهو معطوف، أي: قوله: ﴿فانتهى﴾ على قوله: ﴿جاءه﴾ وقوله: ﴿من ربه﴾ متعلق بقوله: ﴿جاءه﴾ أو بمحذوف وقع صفة لموعظة، أي: كائنة من ﴿من ربه قلّه ما سلف﴾ أي: ما تقدّم منه من الربا لا يؤخذ به؛ لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا، أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا. وقوله: ﴿فأمره إلى الله﴾ قيل: الضمير عائد إلى الربا، أي: وأمر الربا إلى الله في تحريمه على عباده، واستمرار ذلك التحريم، وقيل: الضمير عائد إلى ما سلف، أي: أمره إلى الله في العفو عنه، وإسقاط التبعة فيه، وقيل: الضمير يرجع إلى المربي، أي: أمر من عامل بالربا إلى الله في تثبيته على الإنتهاء، أو الرجوع إلى المعصية ﴿ومن عاد﴾ إلى أكل الربا، والمعاملة به ﴿فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ والإشارة إلى من عاد، وجمع أصحاب باعتبار معنى من، وقيل: إن معنى من عاد: هو أن يعود إلى القول: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ وأنه يكفر بذلك، فيستحق الخلود، وعلى التقدير الأول: يكون الخلود مستعاراً على معنى المبالغة، كما تقول العرب ملك خالد، أي: طويل البقاء، والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار. قوله: ﴿يمحق الله الربا﴾ أي: يذهب بركته في الدنيا، وإن كان كثيراً، فلا يبقى بيد صاحبه، وقيل: يحق بركته في الآخرة. قوله: ﴿ويربي للصقات﴾ أي: يزيد في المال الذي أخرجت صلته، وقيل: يبارك في ثواب الصدقة، ويضاعفه، ويزيد في أجر المتصدق، ولا مانع من حمل ذلك على الأمرين جميعاً. قوله: ﴿واش لا يحب كل كفار أثيم﴾ أي: لا يرضى؛ لأن الحب مختص بالتوابين، وفيه تشديد، وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر، ووصفه بأثيم للمبالغة، وقيل: لإزالة الاشتراك، إذ قد يقع على الزنا، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل كفار﴾ من صدرت منه خصلة توجب الكفر، ووجه التصاقه بالمقام أن الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا كفار. وقد تقدم تفسير قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إلى آخر الآية.

وقد أخرج أبو يعلى من طريق الكلبى، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿الذين ياكلون الربا لا يقومون﴾ إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس قال: يعرفون يوم القيامة بذلك لا يستطيعون القيام، إلا كما يقوم المتخبط المنخفق: ﴿ذلك بانهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ وكتبوا

وأخرج البزار، وابن جرير، وابن حبان، والطبراني من حديث عائشة نحوه. وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه أيضاً. وفي حديث عائشة، وابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ بعد أن ساق الحديث: ﴿يُحَقِّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾. وأخرج الطبراني عن أبي هريرة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل لحد» وهذه الأحاديث تبين معنى الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠١﴾ إِنْ لَمْ تَمْلِكُوا قُلُوبَكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُجُورٌ أَمْزَلَكُمْ لَا تَطْلُمُونَ وَلَا تَظْلُمُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَأَتَوْا يَوْمَ تَرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوُفِيَ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: قوا أنفسكم من عقابه، واتركوا البقايا التي بقيت لكم من الربا، وظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضاً. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو شرط مجازي على جهة المبالغة، وقيل: إن «إِنْ» في هذه الآية بمعنى إذ. قال ابن عطية: وهو مرئود لا يعرف في اللغة، والظاهر أن المعنى: إن كنتم مؤمنين على الحقيقة، فإن ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني ما أمرتم به من الاتقاء، وترك ما بقي من الربا ﴿فَإِنَّا بَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فاعلموا بها، من أنن بالشئ، إذا علم به، قيل: هو من الإئن بالشئ، وهو الاستماع، لأنه من طرق العلم. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحزمة: «فاننوا» على معنى فاعلموا غيركم أنكم على حربهم. وقد نلت هذه على أن أكل الربا، والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك، وتنكير الحرب للتعظيم، وزادها تعظيماً نسبتها إلى اسم الله الأعظم، وإلى رسوله الذي هو: أشرف خليقته. قوله: ﴿فَإِنْ تَبْتُمْ﴾ أي من الربا ﴿فَلَكُمْ زُجُورٌ أَمْوَالُكُمْ﴾ تآخونها ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ أنتم من قبلهم بالمطل، والنقص، والجملة الحالية، أو استثنائية. وفي هذا دليل على أن أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الأئمة، ونحوهم ممن ينوب عنهم. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ لما حكم سبحانه لأهل الربا برؤوس أموالهم عند الواجبين للمال حكم في ذوي العسرة بالنظرة إلى يسار، والعسرة: ضيق الحال من جهة عدم المال، ومنه جيش العسرة. والنظرة: التأخير، والميسرة مصدر بمعنى اليسر، وارتفع «نو» بكان التامة التي بمعنى وجد، وهذا قول سيبويه، وأبي علي الفارسي، وغيرهما. وأنشد سيبويه:

فدى لبني ذهل بن شيبان يافتي إذا كان يوم نو كوكب أشهب
وفي مصحف أبي: «وإن كان ذا عسرة» على معنى: وإن كان المطلوب ذا عسرة. وقرأ الأعمش: «وإن كان معسراً». قال أبو عمرو الداني، عن أحمد بن موسى، وكذلك في

قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: قوا أنفسكم من عقابه، واتركوا البقايا التي بقيت لكم من الربا، وظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضاً. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو شرط مجازي على جهة المبالغة، وقيل: إن «إِنْ» في هذه الآية بمعنى إذ. قال ابن عطية: وهو مرئود لا يعرف في اللغة، والظاهر أن المعنى: إن كنتم مؤمنين على الحقيقة، فإن ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني ما أمرتم به من الاتقاء، وترك ما بقي من الربا ﴿فَإِنَّا بَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فاعلموا بها، من أنن بالشئ، إذا علم به، قيل: هو من الإئن بالشئ، وهو الاستماع، لأنه من طرق العلم. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحزمة: «فاننوا» على معنى فاعلموا غيركم أنكم على حربهم. وقد نلت هذه على أن أكل الربا، والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك، وتنكير الحرب للتعظيم، وزادها تعظيماً نسبتها إلى اسم الله الأعظم، وإلى رسوله الذي هو: أشرف خليقته. قوله: ﴿فَإِنْ تَبْتُمْ﴾ أي من الربا ﴿فَلَكُمْ زُجُورٌ أَمْوَالُكُمْ﴾ تآخونها ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ أنتم من قبلهم بالمطل، والنقص، والجملة الحالية، أو استثنائية. وفي هذا دليل على أن أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الأئمة، ونحوهم ممن ينوب عنهم. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ لما حكم سبحانه لأهل الربا برؤوس أموالهم عند الواجبين للمال حكم في ذوي العسرة بالنظرة إلى يسار، والعسرة: ضيق الحال من جهة عدم المال، ومنه جيش العسرة. والنظرة: التأخير، والميسرة مصدر بمعنى اليسر، وارتفع «نو» بكان التامة التي بمعنى وجد، وهذا قول سيبويه، وأبي علي الفارسي، وغيرهما. وأنشد سيبويه:

فدى لبني ذهل بن شيبان يافتي إذا كان يوم نو كوكب أشهب
وفي مصحف أبي: «وإن كان ذا عسرة» على معنى: وإن كان المطلوب ذا عسرة. وقرأ الأعمش: «وإن كان معسراً». قال أبو عمرو الداني، عن أحمد بن موسى، وكذلك في

فدى لبني ذهل بن شيبان يافتي إذا كان يوم نو كوكب أشهب
وفي مصحف أبي: «وإن كان ذا عسرة» على معنى: وإن كان المطلوب ذا عسرة. وقرأ الأعمش: «وإن كان معسراً». قال أبو عمرو الداني، عن أحمد بن موسى، وكذلك في

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب، ورجل من بني المغيرة، كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا إلى ناس من ثقيف، فجاء الإسلام، ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج، قال: كانت ثقيف قد صالحت النبي ﷺ على أن ما لهم من ربا على الناس، وما كان للناس عليهم من ربا، فهو موضوع، فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وكان بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام، ولهم عليهم مال كثير، فاتاهم بنو عمرو، يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ فكتب بها رسول الله ﷺ إلى عتاب، وقال: إن رضوا، وإلا فأنهم بحرب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنَّا بَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: من كان مقيماً

بيان حال الدنيا، أي: إذا دأب بعضكم بعضاً، وعامله بذلك،
وذكر الدين بعد ذكر ما يغني عنه من المداينة لقصد التأكيد
مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] وقيل:
إنه نكر ليرجع إليه الضمير من قوله: ﴿فاكتبوه﴾ ولو قال:
﴿فاكتبوا﴾ لكان ليدل على ما في قوله: ﴿إذا
تداليفتم بيني﴾، والدين عبارة، عن كل معاملة كان أحد
العوضين فيها نقداً، والآخر في الزمة نسيئة، فإن العين عند
العرب ما كان حاضراً، والدين ما كان غائباً، قال الشاعر:
وعندنا بدمهمينا طلاء وسواء معجلاً غير دين
وقال الآخر:

إِنَّمَا أَقْبَلُونَا رَأً وَحُطْبَةً ۖ فَذَٰكَ الْمَوْتُ نَقْدًا غَيْرِ دِينَ
وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقد استدل به على أن الأجل المجهول لا يجوز، وخصوصاً أجل السلم. وقد ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ: «من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم إلى أجل معلوم، وقد قال بذلك الجمهور، واشتروا توقيته بالأيام، أو الأشهر، أو السنين، قالوا: ولا يجوز إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع القافلة، أو نحو ذلك، وجوزَه مالك. قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أي: الدين بأجله؛ لأنه أضع للنزاع، وأقطع للخلاف. قوله: ﴿وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كِتَابٌ﴾ هو: بيان لكيفية الكتابة المأمور بها، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال علماء، والشعبي، وغيرهما، فأوجبوا على الكاتب أن يكتب إذا طلب منه ذلك، ولم يوجد كاتب سواه، وقيل: الأمر للندب. وقوله: ﴿بِالْعَدْلِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لكاتب أي: كاتب كائن بالعدل، أي: يكتب بالسوية لا يزيد، ولا ينقص، ولا يميل إلى أحد الجانبين، وهو أمر للمتدائنين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون في قلبه، ولا قلمه هودة لأحدهما على الآخر، بل يتحرى الحق بينهم، والمعلقة فيهم. قوله: ﴿وَلَا يَأْب كَاتِبٌ﴾ النكرة في سياق النفي مشعرة بالعموم، أي: لا يتمتع أحد من الكتاب أن يكتب كتاب التدوين، كما علمه الله، أي: على الطريقة التي علمه الله من الكتابة، أو كما علمه الله بقوله: ﴿بِالْعَدْلِ﴾. قوله: ﴿وَلِيَمْلَأَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ الإملاء، والإملاء لغتان: الأولى لغة أهل الحجاز، وبني أسد، والثانية لغة بني تميم، فهذه الآية جاءت على اللغة الأولى، وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى: ﴿نَهَىٰ تَمْلِي عَلَيْهِ بَكْرَةَ وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 5] ﴿وَالَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ هو من عليه الدين، أمره الله تعالى بالإملاء، لأن الشهادة إنما تكون على إقراره بشئ في الدين في نتمته، وأمره الله بالتقوى فيما يمليه على الكاتب، بالغ في ذلك بالجمع بين الاسم، والوصف في قوله: ﴿وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ ونهاه عن البخس، وهو النقص، وقيل: إنه نهى للكاتب. والأول أولى؛ لأن من عليه الحق هو الذي يتوقع منه النقص، ولو كان نهياً للكاتب لم يقتصر في نهيه على النقص؛ لأنه يتوقع منه الزيادة، كما يتوقع منه النقص. والسفيه هو: الذي لا رأي له في حسن التصرف، فلا يحسن الأخذ، ولا الإعطاء، شبه بالثوب السفيه، وهو

على الربا لا ينزع منه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيه، فإن نزع، والا ضرب عنقه. وأخرجوا أيضاً عنه في قوله: ﴿فَانْزِلُوا حَرْبًا﴾ قال: استيقنوا بحرب، وأخرج أهل السنن، وغيرهم عن عمرو بن الأوحص، أنه شهد حجة لوداع مع رسول الله ﷺ، فقال: «إِنَّ كُلَّ رَبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ، وَلَا تَظْلَمُونَ، وَأُولَ رَبَا مَوْضُوعٌ رَبَا الْعَبَّاسِ» وأخرج ابن منده، عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في ربيعة بن عمرو، وأصحابه: ﴿وَإِنْ تَبْتَغُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ نُوَ عَسْرَةً﴾ قال: نزلت في الربا، وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن شريح، نحوه، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الضحاک في الآية، قال: وكذلك كل دين على مسلم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه. وقد وردت أحاديث صحيحة في الصحيحين، وغيرهما في الترغيب لمن له دين على معسر أن ينظره. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي، عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، عن السدي، وعطية العوفي مثله. وأخرج ابن الأنباري، عن أبي صالح، وسعيد بن جبیر، مثله أيضاً وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت، وكان بين نزولها، وبين موت النبي ﷺ إحدى وثمانون يوماً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر: أنه عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال، ثم مات.

[illegible]

هذا شروع في بيان حال المدينة الواقعة بين الناس بعد

ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابه إلى أنه مندوب، وهذا الخلاف بين هؤلاء هو في وجوب الإشهاد على البيع. واستدل الموجبون بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ ولا فرق بين هذا الأمر، وبين قوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا﴾ فيلزم القائلين بوجوب الإشهاد في البيع أن يقولوا بوجوبه في المداينة. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ﴾ أي: الشاهدان ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فليشهد رجل، وامرأتان، أو فرجل، وامرأتان يكفون. وقوله: ﴿لِمَنْ تَرْضُونَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل، وامرأتان، أي: كائنون ممن ترضون حال كونهم من الشهداء. والمراد ممن ترضون دينهم، وعدالتهم، وفيه أن المرأتين في الشهادة برجل، وأنها لا تجوز شهادة النساء إلا مع الرجل لا وحدهن، إلا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة. واختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدعي كما جاز الحكم برجل مع يمين المدعي؟ فذهب مالك، والشافعي إلى أنه يجوز ذلك، لأن الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل في هذه الآية. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه إلى أنه لا يجوز ذلك، وهذا يرجع إلى الخلاف في الحكم بشاهد مع يمين المدعي، والحق أنه جائز لورود الليل عليه، وهو زيادة لم تخالف ما في الكتاب العزيز، فيتعين قبولها. وقد أوضحنا ذلك في شرحنا للمنتقى، وغيره من مؤلفاتنا، ومعلوم عند كل من يفهم أنه ليس في هذه الآية ما يرد به قضاء رسول الله ﷺ بالشاهد، واليمين، ولم يدفعوا هذا إلا بقاعدة مبنية على شفا جرف هار هي قولهم: إن الزيادة على النص نسخ، وهذه دعوى باطلة، بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاءت بها من جاءنا بالنص المتقدم عليها، وأيضاً كان يلزمهم أن لا يحكموا بنكول المطلوب، ولا بيمين الرد على الطالب. وقد حكموا بهما، والجواب الجواب. قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ قال أبو عبيد: معنى تضل تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها، وذكر جزء. وقرأ حمزة: «إن تضل» بكسر الهمزة. وقوله: ﴿فَتُذَكِّرُ﴾ جوابه على هذه القراءة، وعلى قراءة الجمهور هو منصوب بالعطف على تضل، ومن رفعه فعلى الاستئناف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «فتذكر» بتخفيف الذال، والكاف، ومعناه: تزيدها نكراً. وقراءة الجماعة بالتشديد، أي: تنبيهاً إذا غفلت، ونسيت، وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد في النساء، أي: فليشهد رجل، وتشهد امرأتان عوضاً، عن الرجل الآخر لأجل تنكير إحداهما للآخرى إذا ضلت، وعلى هذا، فيكون في الكلام حذف، وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضاً عن الرجل الواحد، فقليل وجهه أن تضل إحداهما، فتذكر إحداهما الأخرى، والعلة في الحقيقة هي: التنكير، ولكن الضلال لما كان سبباً له نزل منزلته، وأبهم الفاعل في تضل، وتذكر، لأن كلا منهما يجوز عليه الوصفان: فالمعنى: إن ضلت هذه نكرتها هذه، وإن ضلت هذه نكرتها هذه لا على التعيين، أي: إن ضلت إحدى المرأتين نكرتها المرأة

الخفيف النسج، والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة، وعلى ضعف البين أخرى، فمن الأول قول الشاعر:
نخاف أن تسف أحلامنا ونجهل الدهر مع الجاهل
ومن الثاني قول ذي الرمة:
مشين كما اهتزت رماح تسفحت أعاليها من الرياح النواسم
أي: استضعفها، واستلانتها بحركتها، وبالجمله بالسفيه هو المبذر إما لجهله بالصرف، أو لتلاعبه بالمال عبثاً مع كونه لا يجهل الصواب. والضعيف هو: الشيخ الكبير، أو الصبي. قال أهل اللغة: الضعيف بضم الضاد في البين، ويفتحها في الرأي. والذي لا يستطيع أن يمل هو الآخرس، أو العبي الذي لا يقدر على التعبير كما ينبغي، وقيل: إن الضعيف هو المذهول العقل الناقص الفطنة العاجز عن الإملاء، والذي لا يستطيع أن يمل هو: الصغير. قوله: ﴿فَلْيَمْلِكْ وَلِيهِ بِالْعَدْلِ﴾ الضمير عائد إلى الذي عليه الحق فيمل عن السفيه وليه المنصوب عنه بعد حجره، عن التصرف في ماله، ويمل عن الصبي، وصيه، أو وليه، وكذلك يمل عن العاجز، الذي لا يستطيع الإملال لضعف وليه؛ لأنه في حكم الصبي، أو المنصوب عنه من الإمام، أو القاضي، ويمل عن الذي لا يستطيع، وكيله إذا كان صحيح العقل، وعرضت له آفة في لسانه، أو لم تعرض، ولكنه جاهل لا يقدر على التعبير، كما ينبغي. وقال الطبري: إن الضمير في قوله: ﴿وَلِيهِ﴾ يعود إلى الحق، وهو ضعيف جداً. قال القرطبي في تفسيره: وتصرف السفيه المحجور عليه نون وليه فاسد إجماعاً مفسوخ أبداً لا يوجب حكماً، ولا يؤثر شيئاً، فإن تصرف سفيه، ولا حجر عليه، ففيه خلاف. انتهى. قوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ الاستشهاد: طلب الشهادة، وسامهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول أي: باعتبار ما يؤول إليه أمرهما من الشهادة، و ﴿مَنْ رَجَالِكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا﴾ أو بمحذوف هو: صفة لشهيدين، أي: كائنين من رجالكم، أي: من المسلمين، فيخرج الكفار، ولا وجه لخروج العبيد من هذه الآية. فهم إذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين، وبه قال شريح، وعثمان البتي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور. وقال أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وجمهور العلماء: لا تجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص البرق. وقال الشعبي، والنخعي: يصح في الشيء اليسير نون الكثير. واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب في هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة، والعبيد لا يملكون شيئاً تجري فيه المعاملة. ويجاب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأيضاً للعبد تصح منه المداينة، وسائر المعاملات إذا أذن له ماله بذلك. وقد اختلف الناس هل الإشهاد واجب، أو مندوب، فقال أبو موسى الأشعري، وابن عمر، والضحاك، وعطاء، وسعيد بن المسيب، وجابر بن زيد، ومجاهد، وداد بن علي الظاهري، وابنه: إنه واجب، ورجحه ابن جرير الطبري، وذهب الشعبي، والحسن،

منذوباً. قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، أو للمفعول، فعلى الأول معناه: لا يضار كاتب، ولا شهيد من طلب ذلك منهما، إما بعدم الإجابة، أو بالتحريف، والتبديل، والزيادة، والنقصان في كتابته، ويدل على هذا قراءة عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن أبي إسحاق: «ولا يضار» بكسر الراء الأولى، وعلى الثاني لا يضار كاتب، ولا شهيد بأن يدعي إلى ذلك، وهما مشغولان بهم، لهما، ويضيق عليهما في الإجابة، ويؤنيان إن حصل منهما التراخي، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد، ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود: «ولا يضار» بفتح الراء الأولى، وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الأمرين جميعاً. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿لا تضار والدة بولدها﴾ [البقرة: 233] ما إذا راجعته زانك بصيرة إن شاء الله. قوله: ﴿وإن تفعلوا﴾ أي: ما نهيتم عنه من المضارة ﴿فإنه﴾ أي: فعلكم هذا ﴿فسوق بكم﴾ أي: خروج عن الطاعة إلى المعصية ملتبس بكم ﴿والتقوا الله﴾ في فعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه ﴿ويعلمكم الله﴾ ما تحتاجون إليه من العلم، وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه، ومنه قوله تعالى: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ [الأنفال: 29]. قوله: ﴿وإن كنتم على سفر﴾ لما نكر سبحانه مشروعية الكتابة، والإشهاد لحفظ الأموال، وبغ الريب، عقب ذلك بذكر حالة العذر، عن وجود الكاتب، ونص على حالة السفر، فإنها من جملة أحوال العذر، ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر، وجعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة، أي: فإن كنتم مسافرين ﴿ولم تجدوا كاتباً﴾ في سفركم ﴿فرهان مقبوضة﴾ قال أهل العلم: الرهن في السفر ثابت بنص التنزيل، وفي الحضر بفعل رسول الله ﷺ، كما ثبت في الصحيحين: «أنه ﷺ رهن برعاً له من يهودي». وقرأ الجمهور: «كاتباً» أي: رجلاً يكتب لكم. وقرأ ابن عباس، وأبي مجاهد، والضحاك، وعكرمة، وأبو العالية: «كتاباً» قال ابن الأنباري: فسرهم مجاهد فقال: معناه فإن لم تجدوا مداداً: يعني في الأسفار. وقرأ أبو عمرو وابن كثير «فرهن» بضم الراء والهاء. وروي عنهما تخفيف الهاء جمع رهن، قاله الفراء، والزجاج، وابن جرير الطبري. وقرأ عاصم بن أبي النجود: «فرهن» بفتح الراء، وإسكان الهاء. وقرأ الجمهور: «رهن». قال الزجاج: يقال في الرهن: رهن، وأرهن، وكذا قال ابن الأعرابي، والأخفش. وقال أبو علي الفارسي: يقال أرهن في المعاملات، وأما في القرض، والبيع، فرهنت، وقال ثعلب: الرواة كلهم في قول الشاعر:

فلما خشيت لظافيرهم نجوت وأرهنتهم مالكا
على أرهنتهم على أنه يجوز رهنته، وأرهنته إلا الأصمعي، فإنه رواه، وأرهنهم على أنه عطف لفعل مستقبل على فعل ماض وشبهه بقوله قمت، وأصك وجهه. وقال ابن السكيت: أرهن فيهما بمعنى أسلفت، والمرتهن الذي يأخذ الرهن، والشئ مرهون، ورهين،

الأخرى، وإنما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال. وقد يكون الوجه في الإيهام أن ذلك يعني الضلال، والتذكير يقع بينهما متناوباً حتى ربما ضلت هذه عن وجه وضلت تلك عن وجه آخر، فنكرت كل واحدة منهما صاحبها. وقال سفيان بن عيينة: معنى قوله: ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ تصيرها نكراً، يعني: أن مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد. وروي نحوه عن أبي عمرو بن العلاء، ولا شك أن هذا باطل لا يدل عليه شرع، ولا لغة، ولا عقل. قوله: ﴿ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا﴾ أي: لأداء الشهادة التي قد تحملوها من قبل، وقيل: إذا ما دعوا لتحمل الشهادة، وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدم، وحملها الحسن على المعنيين. وظاهر هذا النهي أن الامتناع من أداء الشهادة حرام. قوله: ﴿ولا تساموا أن تكتبوه﴾ معنى تساموا: تملوا. قال الأخفش: سئمت أسام سامة، وسناماً، ومنه قول الشاعر:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسام
أي: لا تملوا أن تكتبوه، أي: الدين الذي تدينتم به، وقيل: الحق، وقيل: الشاهد، وقيل: الكتاب، نهاهم الله سبحانه عن ذلك؛ لأنهم ربما ملوا من كثرة المداينة أن يكتبوا، ثم بالغ في ذلك، فقال: ﴿صغيراً أو كبيراً﴾ أي: حال كون ذلك المكتوب صغيراً، أو كبيراً أي: لا تملوا في حال من الأحوال سواء كان الدين كثيراً، أو قليلاً، وقيل: إنه كنى بالسامة عن الكسل. والأول أولى. وقدم الصغير هنا على الكبير للاهتمام به لنفع ما عساه أن يقال: إن هذا مال صغير، أي: قليل لا احتياج إلى كتبه، والإشارة في قوله: ﴿نلكم﴾ إلى المكتوب المنكور في ضمير قوله: ﴿أن تكتبوه﴾ وأقسط معناه أعدل، أي: أصح، وأحفظ ﴿واقوم للشهادة﴾ أي: أعون على إقامة الشهادة، وثابت لها، وهو مبني من أقام، وكذلك أقسط مبني من فعله، أي: أقسط. وقد صرح سيبويه بأنه قياسي، أي: بني أفعال التفضيل. ومعنى قوله: ﴿وانني أن لا ترتبوا﴾ أقرب لنفي الريب في معاملاتكم، أي: الشك، ولذلك أن الكتاب الذي يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الريب كائناً ما كان. قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾ أن في موضع نصب على الاستثناء قاله الأخفش، وكان تامة، أي: إلا أن تقع، أو توجد تجارة، والاستثناء منقطع، أي: لكن وقت تباعكم، وتجارتم حاضرة بحضور البئلين ﴿تديرونها بينكم﴾ تتعاونونها يداً بيد، فالإدارة: التعاطي، والتقاض، فالمراد التابع الناجز يداً بيد، فلا حرج عليكم إن تركتم كتابته. وقرئ بنصب تجارة على أن كان ناقصة، أي: إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة. قوله: ﴿واشهدوا إذا تباعتم﴾ قيل: معناه: واشهدوا إذا تباعتم هذا التابع المنكور هذا، وهو التجارة الحاضرة على أن الإشهاد فيها يكفي، وقيل: معناه: إذا تباعتم أي تباع كان حاضراً، أو كائناً، لأن ذلك أنفع لمادة الخلاف وأقطع لمنشأ الشجار. وقد تقدم قريباً نكر الخلاف في كون هذا الإشهاد واجباً، أو

قال: كانت الكتابة عزيمة، فنسخها ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ قال: هو الجاهل. ﴿أو ضعيفاً﴾ قال: هو الأحمق. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك، والسدي، في قوله: ﴿سفيهاً﴾ قال: هو الصبي الصغير. وأخرج ابن جرير، من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس: ﴿فليملل وليه﴾ قال صاحب الدين: وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: ولي اليتيم. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك قال ولي السفيه، أو الضعيف. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والبيهقي، عن مجاهد في قوله: ﴿من رجالكم﴾ قال: من الأحرار. وأخرج ابن جرير، عن الربيع في قوله: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ قال: عدول. وأخرج الشافعي، والبيهقي، عن مجاهد قال: عدلان حران مسلمان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿أن تضل إحداهما﴾ يقول: أن تنسى إحدى المراتين الشهادة ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ يعني تنكرها التي حبطت شهادتها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا ياب الشهداء﴾ قال: إذا كانت عندهم شهادة، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع قال: كان الرجل يطوف في القوم الكثير يدعوهم يشهدون، فلا يتبعه أحد منهم، فأنزل الله: ﴿ولا ياب الشهداء﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن عائشة في قوله: ﴿أقسط عند الله﴾ قالت: عدل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ قال: يأتي الرجل الرجلين، فيدعوهما إلى الكتابة، والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجيبا، فليس له أن يضارهما. وأخرج ابن جرير، عن طلوس: ﴿ولا يضار كاتب﴾، فيكتب ما لم يمل عليه ﴿ولا شهيد﴾ فيشهد بما لم يستشهد. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في قوله: ﴿وإن كنتم على سفر﴾ الآية، قال: من كان على سفر، فباع بيعاً إلى أجل، فلم يجد كاتباً، فرخص له في الرهان المقبوضة، وليس له أن يجد كاتباً أن يرتهن. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: لا يكون الرهن إلا في السفر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن نعيم، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري، أنه قرأ هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تدليتم بدين﴾ حتى بلغ ﴿فإن آمن بعضكم بعضاً﴾ قال: هذه نسخت ما قبلها. وأقول: رضي الله عن هذا الصحابي الجليل، ليس هذا من باب النسخ، فهذا مقيد بالائتمان، وما قبله ثابت محكم لم

وراهنت فلاناً على كذا مراهنه خاطرته. وقد ذهب الجمهور إلى اعتبار القبض، كما صرح به القرآن، وذهب مالك إلى أنه يصح الارتهان بالإيجاب، والقبول من دون قبض. قوله: ﴿فإن آمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته﴾ أي: إن كان الذي عليه الحق أميناً، عند صاحب الحق لحسن ظنه به، وأمانته لديه، واستغنى بأمانته عن الارتهان ﴿فليؤد الذي أؤتمن﴾ وهو: المدينون ﴿أمانته﴾ أي: الدين الذي عليه، والأمانة مصدر سمي به الذي في الذمة، وأضافها إلى الذي عليه الدين من حيث أن لها إليه نسبة، وقرئ: ﴿أيتن﴾ بقلب الهمزة ياء، وقرئ بإدغام الياء في التاء، وهو خطأ؛ لأن المنقلة من الهمزة لا تدغم؛ لأنها في حكمها ﴿وليتق الله ربه﴾ في أن لا يكتم من الحق شيئاً. قوله: ﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ نهى للشهود أن يكتموا ما تحملوه من الشهادة، وهو في حكم التفسير لقوله: ﴿ولا يضار كاتب﴾ أي: لا يضار بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين المتقنين. قوله: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ خص القلب بالذكر؛ لأن الكتم من أفعاله، ولكونه رئيس الأعضاء، وهو المضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد كله، وارتفاع القلب على أنه فاعل، أو مبتدأ، وآثم خبره على ما تقرر في علم النحو، ويجوز أن يكون قلبه بدلاً من آثم بدل البعض من الكل، ويجوز أن يكون أيضاً بدلاً من الضمير الذي في آثم الراجع إلى من، وقرئ: ﴿قلبه﴾ بالنصب كما في قوله ﴿إلا من سغه نفسه﴾ [البقرة: 130].

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تدليتم بدين﴾ قال: نزلت في السلم في كيل معلوم إلى أجل معلوم. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وغيرهم عنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أجله، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية. قال: أمر بالشهادة عند المدابنة لكيلا يدخل في ذلك جحود، ولا نسيان، فمن لم يشهد على ذلك، فقد عصى ﴿ولا ياب الشهداء﴾ يعني من احتجج إليه من المسلمين ليشهد على شهادة، أو كانت عنده شهادة، فلا يحل له أن يابي إذا ما دعي، ثم قال بعد هذا: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ والضرار أن يقول الرجل للرجل، وهو عنه غني: إن الله قد أمرك أن لا تأبى إذا دعيت، فيضار به بذلك، وهو مكتف بغیره، فنهاه الله عن ذلك. وقال: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ يعني: معصية. قال: ومن الكبائر كتمان الشهادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ولا ياب كاتب﴾ قال: واجب على الكاتب أن يكتب. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك

والباء، فالفاء عاطفة لما بعدها على المجزوم قبلها، وهو: جواب الشرط: أعني قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾. وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو العالية، وعاصم الجحدري بنصب الراء، والياء في قوله: ﴿فَيَغْفِرُ - وَيُعَذِّبُ﴾ على إضمار أن عطفاً على المعنى. وقرأ طلحة بن مصرف يغفر بغير فاء على البدل، وبه قرأ الجعفي، وخلاّد.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي الْأَرْضِ وَتَبَدُّوا مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، فقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة، والصيام، والجهد، والصنعة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا، كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا، وعصينا، بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ غفرانك ربنا وإليك المصير» [البقرة: 85] فلما اقتراها القوم، وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 285] الآية، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾ [البقرة: 286] إلى آخرها. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس مرفوعاً نحوه، وزاد، فأنزل الله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286] قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا﴾ كما حملته على الذين من قبلنا» [البقرة: 286] قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286] قال: قد فعلت: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: 286] الآية، قال: قد فعلت. وقد رويت هذه القصة، عن ابن عباس من طرق. وأخرج البخاري، والبيهقي عن مروان الأصغر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أحسبه ابن عمر: ﴿إِنْ تُبَدُّوا مَا فِي الْأَرْضِ وَتَبَدُّوا مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ قال: نسخها الآية التي بعدها. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، عن علي نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عائشة نحوه أيضاً.

وبمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما أخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: نزلت في كتمان الشهادة، فإنها لو كانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة. وعلى كل حال، فيبعد هذه الأحاديث المصروفة بالنسخ، والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها، ومما يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين، والسنن الأربع من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ، أَوْ تَعْمَلْ بِهِ». وأخرج ابن جرير، عن عائشة قالت: كل عبد هم بسوء، ومعصية، وحديث نفسه به حاسبه الله في

ينسخ، وهو مع عدم الائتمان. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿أَنْتُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال: فاجر قلبه. وأخرج ابن جرير، بإسناد صحيح، عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وأخرج أبو عبيد في فضائله، عن ابن شهاب قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا، وآية الدين.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي الْأَرْضِ وَتَبَدُّوا مَا فِي السَّمَاوَاتِ
يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَمْحُورُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُصَوِّدُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ

قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد تقدم تفسيره. قوله: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي الْأَرْضِ وَتَبَدُّوا مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ظاهره أن الله يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم، أو أظهرته من الأمور التي يحاسب عليها، فيغفر لمن يشاء منهم ما يغفره منها، ويعذب من يشاء منهم بما أسره، أو أظهر منها، هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية. وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية على أقوال: الأول: أنها، وإن كانت عامة، فهي: مخصوصة بكتمان الشهادة، وأن الكاتم للشهادة يحاسب على كتبه سواء أظهر للناس أنه كاتم للشهادة، أو لم يظهر. وقد روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والشعبي ومجاهد، وهو: مربود بما في الآية من عموم اللفظ، ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهي عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به. والقول الثاني: أن ما في الآية مختص بما يطرأ على النفوس من الأمور التي هي بين الشك، واليقين، قاله مجاهد، وهو أيضاً: تخصيص بلا مخصص. والقول الثالث: أنها محكمة عامة، ولكن العذاب على ما في النفس يختص بالكفار، والمنافقين. حكاه الطبري عن قوم، وهو أيضاً: تخصيص بلا مخصص، فإن قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ لا يختص ببعض معين إلا بدليل. والقول الرابع: أن هذه الآية منسوخة، قاله ابن مسعود، وعائشة، وأبو هريرة، والشعبي، وعطاء، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن كعب، وموسى بن عبيدة، وهو مروى، عن ابن عباس، وجماعة من الصحابة، والتابعين، وهذا هو الحق لما سيأتي من التصريح بنسخها، ولما ثبت عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ غَفَرَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا». قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قدم الجار، والمجرور على الفاعل لإظهار العناية به، وقدم الإبداء على الإخفاء؛ لأن الأصل في الأمور التي يحاسب عليها هو الأعمال البانية، وأما تقديم الإخفاء في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 29] فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخافية، والبانية على السوية، وقدم المغفرة على التعذيب لكون رحمته سبقت غضبه، وجملة قوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ مستأنفة، أي: فهو يغفر، وهي متضمنة لتفصيل ما أجمل في قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ وهذا على قراءة ابن عامر، وعاصم. وأما على قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وحزمة، والكسائي بجزم الراء،

المتوّل عند قول صاحب التلخيص «واستغراق المفرد اشم». وقرأ الجمهور ورسله بضم السين. وقرأ أبو عمرو، بتخفيف السين. وقرأ الجمهور «لا نفرّق» بالنون. والمعنى: يقولون: لا نفرّق. وقرأ سعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، وأبو زرعة، وابن عمر، وابن جرير، ويعقوب «لا يفرّق» بالياء التحتية. وقوله: ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ولم يقل بين أحاد، لأن الأحاد يتناول الواحد، والجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 47] فوصفه بقوله: ﴿حَاجِزِينَ﴾ لكونه في معنى الجمع، وهذه الجملة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال، وأن تكون خبراً آخر لقوله: ﴿كُلٌّ﴾. وقوله: ﴿مِنْ رُسُلِهِ﴾ أظهر في محل الإضمار للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم، أو الإشعار بعله عدم التفريق بينهم. وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَاطَعْنَا﴾ هو: معطوف على قوله: ﴿آمَنَ﴾ وهو: وإن كان للمفرد، وهذا للجماعة، فهو جائز نظراً إلى جانب المعنى، أي: أتركناه بأسمعنا، وفهمناه، وأطعنا ما فيه؛ وقيل: معنى سمعنا: أجبنا دعوتك. قوله: ﴿وَعَفْرَانِكَ﴾ مصدر منصوب بفعل مقدّر، أي: اغفر غفرانك. قاله الزجاج، وغيره، وقدم السمع، والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدّم على المتوسل إليه. قوله: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ التكليف هو: الأمر بما فيه مشقة، وكلفة، والوسع: الطاقة، والوسع: ما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَبْلُغُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 284] الآية لكشف كربة المسلمين، وبفع المشقة عليهم في التكليف بما في الأنفس، وهي كقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فيه ترغيب، وترهيب، أي: لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها وزر ما اكتسبت من الشر، وتقدّم لها، وعليها على الفعلين، ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها، وعليها لا على غيرها، وهذا مبني على أن كسب للخير فقط، واكتسب للشر فقط، كما قاله صاحب الكشاف، وغيره، وقيل: كل واحد من الفعلين يصدق على الأمرين، وإنما كثر الفعل، وخالف بين التصريفين تحسناً للنظم، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُودًا﴾ [الطارق: 17]. قوله: ﴿وَبِنَا لَا تُؤْلَخْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تؤلّخنا بآثم ما يصدر منا من هذين الأمرين. وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين، وغيرهم قائلين إن الخطأ، والنسيان مغفوران غير مؤاخذ بهما، فما معنى الدعاء بذلك، فإنه من تحصيل الحاصل. وأجيب عن ذلك بأن المراد طلب المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان، والخطأ من التفريط، وعدم المبالاة، لا من نفس النسيان، والخطأ، فإنه لا مؤاخذة بهما، كما يفيد ذلك قوله ﷺ: «رفع عن أمّتي الخطأ، والنسيان، وسيأتي مخرجه، وقيل: إنه يجوز للإنسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدামته، وقيل: إنه وإن ثبت شرعاً أنه لا مؤاخذة بهما، فلا

الدنيا يخاف، ويحزن ويشتدّ همه لا يناله من ذلك شيء، كما هم بالسوء، ولم يعمل منه بشيء. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عنها نحوه، والأحاديث المتقدمة المصروفة بالنسخ تنفعه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: إن الله يقول يوم القيامة: إن كتابي لم يكتبوا من أعمالكم إلا ما ظهر منها، فاما ما أسروا في أنفسكم، فانا أحاسبكم به اليوم، فأغفر لمن شئت، وأعذب من شئت، وهو مدفوع بما تقدم.

مَا مَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْزِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

قوله: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: بجميع ما أنزل الله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الرسول، وقوله: ﴿كُلٌّ﴾ أي: من الرسول والمؤمنين ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ. وقوله: ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ ثان. وقوله: ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ خبر المبتدأ الثاني، وهو: وخبره خبر المبتدأ الأول، وأقرّد الضمير في قوله: ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ مع رجوعه إلى كل المؤمنين، لما أن المراد ببيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع، كما اعتبر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87]. قال الزجاج لما نكر الله سبحانه في هذه السورة فرض الصلاة، والزكاة، وبين أحكام الحج، وحكم الحيض، والطلاق، والإيلاء، وأقاصيص الأنبياء، وبين حكم الربا، نكر تعظيمه سبحانه بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 284] ثم نكر تصديق نبيه ﷺ، ثم نكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك، فقال ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: صدّق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى نكرها، وكذلك المؤمنون كلهم صدّقوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وقيل: سبب نزولها الآية التي قبلها. وقد تقدّم بيان ذلك. قوله: ﴿وَمَلَأْنَاهُ﴾ أي: من حيث كونهم عباده المكرّمين المتوسطين بينه، وبين أنبيائه في إنزال كتبه، وقوله: ﴿وَكُتُبِهِ﴾ لأنها المشتملة على الشرائع التي تعبد بها عباده. وقوله: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ لأنهم المبلغون لعباده ما نزل إليهم. وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر، وكتبه بالجمع. وقرؤوا في التحريم، وكتابته. وقرأ ابن عباس هنا، وكتابته، وكذلك قرأ حمزة، والكسائي، وروى عنه أنه قال: الكتاب أكثر من الكتب. وبينه صاحب الكشاف، فقال: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس، والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء، وأما الجمع، فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع. انتهى. ومن أراد تحقيق المقام، فليرجع إلى شرح التلخيص

مخرج التعليم كيف يدعون، وقيل: معناه: أنت سيدنا، ونحن عبيدك ﴿فانصرونا على القوم الكافرين﴾ فإن من حق المولى أن ينصر عبيده، والمراد عامة الكفرة، وفيه إشارة إلى إعلاء كلمة الله في الجهاد في سبيله. وقد قدمنا في شرح الآية التي قبل هذه أعني قوله: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم﴾ [البقرة: 284] إلخ، أنه ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: قد فعلت، فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشيء من الخطأ، والنسيان، ولا حمل، عليهم شيئاً من الإصر الذي حمله على من قبلهم، ولا حملهم ما لا طاقة لهم به، وعفا عنهم، وغفر لهم، ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حبان ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ لا نكفر بما جاءت به الرسل، ولا نفرق بين أحد منهم، ولا نكذب به: ﴿وقالوا سمعنا﴾ للقرآن الذي جاء من الله ﴿واطعنا﴾، أقروا له أن يطيعوه في أمره ونهيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿غفرانك ربنا﴾ قال: قد غفرت لكم ﴿والإيك المصير﴾ قال: إليك المرجع، والمآب يوم يقوم الحساب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت: ﴿أمن الرسول﴾ الآية، قال جبريل للنبي ﷺ: إن الله قد أحسن الثناء عليك، وعلى أمتك، فسل تعطه، فقال: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ حتى ختم السورة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ قال: هم المؤمنون وسع الله عليهم أمر دينهم، فقال: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78]. وقال: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: 185] وقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: 16] وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ قال: من العمل. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿إلا وسعها﴾ قال: إلا طاقتها. وأخرج ابن المنذر، عن الضحاك، نحوه. وقد أخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن حبان في صحيحه، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه﴾ وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي نر مرفوعاً، والطبراني من حديث ثوبان، ومن حديث ابن عمر، ومن حديث عتبة بن عامر. وأخرجه البيهقي أيضاً من حديثه. وأخرجه ابن عدي في الكامل، وأبو نعيم من حديث أبي بكر. وأخرجه ابن أبي حاتم من حديث أم الدرداء. وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، من حديث الحسن مرسلأ، وأخرجه عبد بن حميد، من حديث الشعبي مرسلأ. وفي أسانيد هذه الأحاديث مقال، ولكنها يقوياً بعضها بعضاً، فلا تقصر عن رتبة الحسن لغيره. وقد تقدم حديث:

امتناع في المؤاخذه بهما عقلاً، وقيل: لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمداً، وإنما يصدر عنهم خطأ، أو نسياناً، فكانه وصفهم بالدعاء بذلك إيماناً بنزاهة ساحتهم، عما يؤاخذون به، كانه قيل: إن كان النسيان، والخطأ مما يؤاخذ به، فما منهم سبب مؤاخذه إلا الخطأ، والنسيان. قال القرطبي: وهذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع، وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام هل ذلك مرفوع، ولا يلزم منه شيء، أو يلزم أحكام ذلك كله؟ اختلف فيه، والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات، والديانات، والصلوات المفروضات، وقسم يسقط باتفاق كالقصاص، والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسياً في رمضان، أو حنث ساهياً، وما كان مثله مما يقع خطأ، ونسياناً، ويعرف ذلك في الفروع. انتهى. قوله: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ عطف على الجملة التي قبله، وتكرير النداء للإيمان بمزيد التضرع، والرجاء إلى الله سبحانه. والإصر: العبء الثقيل الذي ياصر صاحبه، أي: يحبس مكانه لا يستقل به لثقله. والمراد به هنا: التكليف الشاق، والأمر الغليظ الصعب، وقيل الإصر: شدة العمل، وما غلظ على بني إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة، ومنه قول النابغة:

يا مانع الضيم أن تغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما غرقوا وقيل: الإصر: المسخ قودة، وخنازير، وقيل: العهد، ومنه قوله تعالى: ﴿وأخذاً على نلكم إصري﴾ [آل عمران: 81] وهذا الخلاف يرجع إلى بيان ما هو الإصر الذي كان على من قبلنا، لا إلى معنى الإصر في لغة العرب، فإنه ما تقدم نكره بلا نزاع، والإصرار: الحبل الذي تربط به الاحمال، ونحوها، يقال: أصر يأصر إصراً: حبس، والإصر بكسر الهمزة من ذلك. قال الجوهري: والموضع ماصر، والجمع مآصر، والعامة تقول معاصر. ومعنى الآية: أنهم طلبوا من الله سبحانه أن لا يحملهم من ثقل التكليف ما حمل الأمم قبلهم. وقوله: ﴿كما حملته﴾ صفة مصدر محذوف، أي: حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، أو صفة لإصر، أي: إصراً مثل الإصر الذي حملته على من قبلنا. قوله: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ هو أيضاً عطف على ما قبله، وتكرير النداء للنكته المذكورة قبل هذا، والمعنى: لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق وقيل: هو عبارة عن إنزال العقوبات، كانه قال: لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا في المحافظة على تلك التكالييف الشاقة التي كلفت بها من قبلنا، وقيل المراد به: الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكالييف. قال في الكشف: وهذا تقرير لقوله: ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾. قوله: ﴿واعف عنا﴾ أي: عن ذنوبنا، يقال عفوت عن ذنبي: إذا تركته، ولم تعاقبه عليه ﴿واغفر لنا﴾ أي: استر على ذنوبنا، والغفر: الستر ﴿وارحمنا﴾ أي: تفضل برحمة منك علينا ﴿أنت مولانا﴾ أي: ولينا، وناصرنا، وخرج هذا

يشفيان، وهما مما يحبهما الله الأيتان من آخر البقرة». وأخرج الطبراني بسند جيد، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا يقرآن في دار ثلاث ليال، فيقربها شيطان» وأخرج ابن عدي، عن ابن مسعود الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل». وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة، أو آية الكرسي ضحك وقال: إنهما من كنز تحت العرش. وأخرج ابن مريويه، عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش» وأخرج مسلم، والنسائي، واللفظ له، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً، فرفع جبريل بصره فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال أبشر بنودين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته. فهذه ثلاثة عشر حديثاً في فضل هاتين الآيتين مرفوعة إلى النبي ﷺ. وقد روى في فضلها من غير المرفوع، عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي مسعود، وكعب الأحبار، والحسن، وأبي قلاب، وفي قول النبي ﷺ ما يغني عن غيره.

تفسير سورة آل عمران

هي: مدنية، قال القرطبي: بالإجماع، ومما يدل على ذلك أن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية نزل في وفد نجران، وكان قومهم في سنة تسع من الهجرة. وقد أخرج البيهقي في الدلائل من طرق، عن ابن عباس قال: نزلت سورة آل عمران بالمدينة. وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما هو مشترك بينهما، وبين هذه السورة من الأحاديث الدالة على فضلها، وكذلك تقدم ما ورد في السبع الطوال. وأخرج الطبراني بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه، وملائكته حتى تغيب الشمس». وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في الشعب، عن عمر بن الخطاب قال: من قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء كتب عند الله من الحكماء. وأخرج الديلمي، ومحمد بن نصر، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود: من قرأ آل عمران، فهو غني. وأخرج الدارمي، وعبد بن حميد، والبيهقي عنه قال: نعم كنز الصعلوك آل عمران يقوم بها الرجل من آخر الليل. وأخرج سعيد بن منصور، عن أبي عطاء قال: اسم آل عمران في التوراة طيبة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عبد الملك بن عمير قال: قرأ رجل البقرة، وآل عمران، فقال كعب: قد قرأ السورتين إن

«إن الله قال قد فعلت» وهو في الصحيح وهو يشهد لهذه الأحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِصْرًا﴾ قال: عهداً. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج مثله. وأخرج أيضاً عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ قال: لا تمسحنا قردة، وخنازير. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية أن الإصر: الذنب الذي ليس فيه توبة، ولا كفارة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الفضيل في الآية قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا أذنّب قيل له: توبتك أن تقتل نفسك، فيقتل نفسه، فوضعت الأصار عن هذه الأمة. وأخرج عبد بن حميد، عن عطاء قال: لما نزلت هذه الآيات: ﴿وَيْمَا لَا تُولَخَنَّاهُ﴾ إلخ، كلما قالها جبريل للنبي ﷺ قال النبي: آمين رب العالمين. وأخرج أبو عبيد، عن مسيرة أن جبريل لقن النبي ﷺ خاتمة البقرة آمين. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين. وأخرج أبو عبيد عن جبير بن نفير: أنه كان يقول: آمين آمين. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي نر قال: هي للنبي ﷺ خاصة. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك في هذه الآية قال: سألها نبي الله ربه، فاعطاه إياها، فكانت للنبي ﷺ خاصة. وقد ثبت عند الشيخين، وأهل السنن، وغيرهم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». وأخرج أبو عبيد، والدارمي، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي، عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال، فيقربها شيطان». وأخرج أحمد، والنسائي، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب بسند صحيح، عن حنيفة أن النبي ﷺ كان يقول: «أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي». وأخرج أحمد، والبيهقي، عن أبي نر مرفوعاً، نحوه. وأخرج أبو عبيد، وأحمد، ومحمد بن نصر، عن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة: ﴿أَمَّا لِلرَّسُولِ﴾ إلى خاتمتها، فإن الله اصطفى بها محمداً» وإسناده حسن. وأخرج مسلم، عن ابن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدره المنتهى، وأعطى ثلاثاً، أعطي الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً الممحطات. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن أبي نر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش، فتعلموهما، وعلموهما نساءكم، وأبناءكم، فإنهما صلاة، وقرآن، ودعاء». وأخرج الديلمي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنان هما قرآن، وهما

فيهما الاسم الذي إذا دعى به أجاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ زَكَرَ عَلَيْكَ الْكَذِبُ بِالْحَقِّ مَصْرُفًا لَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِنَّاوِيلَ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نَبَأٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ هُوَ الَّذِي يُمْسِكُكُمْ فِي الْأَرْضِ كَيْفَ تَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ ۝

قرأ الحسن، وعمرو بن عبدة، وعاصم بن أبي النجود، وأبو جعفر الرواسي «وَالَمْ اللَّهُ» بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على «وَالَمْ» كما يقدر الوقف على أسماء الأعداد نحو واحد اثنين ثلاثة أربعة مع وصلهم. قال الأخفش: ويجوز «وَالَمْ اللَّهُ» بكسر الهمزة لالتقاء الساكنين. قال الزجاج: هذا خطأ، ولا تقوله العرب لثقله. وقد ذكر سيبويه في الكتاب أن فواتح السور التي لم تكن موازنة لمفرد طريق التلطف بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواء جعلت أسماء، أو مسرودة على نمط التعديد، وإن لزمها التلطف الساكنين لما أنه مفتفر في باب الوقف، فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها، ثم يبدأ بما بعدها، كما فعله الحسن، ومن معه في قراءتهم المحكية سابقاً. وأما فتح الميم على القراءة المشهورة، فوجه ما روى عن سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين. وقال الكسائي: حروف التهجى إذا لقيتها ألف وصل، فحلفت الألف، وحركت الميم بحركة الألف، وكذا قال الفراء. وهذه الفواتح إن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها من الإعراب، وإن جعلت أسماء للسورة، فمحلها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدره قبلها، أو النصب على تقدير أفعال يقتضيها المقام كأنكر، أو اقراء، أو نحوهما، وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما يغني عن الإعادة. وقوله: «وَالَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة، أي: هو المستحق للعبودية. والحي القيوم: خبران آخران للاسم الشريف، أو خبران لمبتدأ محذوف، أي: هو الحي القيوم، وقيل: إنهما صفتان للمبتدأ الأول، أو بدلان منه، أو من الخبر، وقد تقدم تفسير الحي والقيوم. وقرأ جماعة من الصحابة القيام عمر، وأبي بن كعب، وابن مسعود. قوله: «يُنَزَّلُ عَلَيْكَ الْكِتَابُ» أي: القرآن، وقدم الظرف على المفعول به للاعتناء بالمنزل عليه ﷺ. وهي: إما جملة مستأنفة، أو خبر آخر للمبتدأ الأول. قوله: «بِالْحَقِّ» أي: بالصدق، وقيل: بالحجة الغالبة، وهو في محل نصب على الحال. وقوله: «مُصْنَفًا» حال آخر من الكتاب مؤكدة؛ لأنه لا يكون إلا مصنفًا، فلا تكون الحال منتقلة أصلاً، وبهذا قال الجمهور، وجوز بعضهم الانتقال على معنى أنه مصنف لنفسه وبغيره. وقوله: «لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ» أي: من الكتب المنزلة، وهو متعلق بقوله: مصنفًا، واللام للتقوية. قوله: «وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ» هذه

الجملة في حكم البيان لقوله: لما بين يديه. وإنما قال هنا أنزل، وفيما تقدم نزل: لأن القرآن نزل منجماً، والكتابان نزلاً بفعلة واحدة، ولم ينكر في الكتابين من أنزلاً عليه، ونكر فيما تقدم أن الكتاب نزل على رسول الله ﷺ؛ لأن القصد هنا ليس إلا إلى نكر الكتابين لا نكر من أنزلاً عليه. وقوله: «مَنْ قَبْلُ» أي: أنزل التوراة، والإنجيل من قبل تنزيل الكتاب. وقوله: «هُدًى لِلنَّاسِ» إما حال من الكتابين، أو علة للإنزال. والمراد بالناس: أهل الكتابين، أو ما هو أعم؛ لأن هذه الأمة متعبدية بما لم ينسخ من الشرائع. قال ابن فورك: هدى للناس المتقين، كما قال في البقرة هدى للمتقين. قوله: «وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ» أي: الفارق بين الحق والباطل، وهو القرآن، وكرر نكره تشريفاً له مع ما يشتمل عليه هذا النكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق والباطل، وذكر التنزيل أولاً، والإنزال ثانياً لكونه جامعاً بين الوصفين، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة، ثم نزل منها إلى النبي ﷺ مفزقاً منجماً على حسب الحوادث كما سبق. وقيل: أراد بالفارقان جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله، وقيل: أراد الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة، وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» أي: بما يصق عليه أنه آية من الكتب المنزلة، وغيرها، أو بما في الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد إليها، وفيه بيان الأمر الذي استحقوا به الكفر «لَهُمْ» بسبب هذا الكفر «عَذَابٌ شَدِيدٌ» أي: عظيم «وَالَهُ عَزِيزٌ» لا يغالبه مغالب «فَنُؤِ انتقام» عظيم، والنقمة السطوة، يقال انتقم منه: إذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدم منه. قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه، وإحاطته بالمعلومات، وعبر عن معلوماته بما في الأرض، والسماء مع كونها أوسع من ذلك، لقصور عبادته عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته، وسائر معلوماته، ومن جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه، وكفر من كفر. قوله: «هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ» أصل اشتقاق الصورة من صاره إلى كذا أي: أماله إليه، فالصورة ماثلة إلى شبه، وهيئة، وأصل الرحم من الرحمة؛ لأنه مما يتراحم به، وهذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان إحاطة علمه، وأن من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود، وهو: تصوير عبادته في أرحام أمهاتهم من نطف آبائهم كيف يشاء من حسن، وقبيح، وأسود، وأبيض، وطويل، وقصير. وكيف معمول يشاء، والجملة حالية.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن جعفر بن محمد بن الزبير قال: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم، فكلّم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب، وعبد المسيح، والسيد، وهو الأيهم، ثم نكروا القصة في الكلام الذي دار بينهم وبين رسول الله ﷺ، وإن

لما يفيد من الاختصاص. وقوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ الموافق لقواعد العربية أن يكون الظرف خبراً مقدماً، والأولى بالمعنى أن يكون مبتدأً تقييده من الكتاب آيات بينات على نحو ما تقدم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ [البقرة: 8] وإنما كان أولى؛ لأن المقصود انقسام الكتاب إلى القسمين المذكورين لا مجرد الإخبار عنهما بأنهما من الكتاب، والجملة حالية في محل نصب، أو مستأنفة لا محل لها. وقد اختلف العلماء في تفسير المحكمات، والمتشابهات على أقوال: فقيل: إن المحكم ما عرف تأويله، وفهم معناه، وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل؛ ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله، والشعبي، وسفيان الثوري، قالوا: وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور، وقيل: المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً، فإذا رُتبت إلى وجه واحد، وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً، وقيل: إن المحكم ناسخه، وحرامه، وحلاله، وفرائضه، وما تؤمن به، ونعمل عليه، والمتشابه منسوخه، وأمثاله، وأقسامه وما تؤمن به، ولا نعمل به. روى هذا عن ابن عباس، وقيل: المحكم: الناسخ، والمتشابه: المنسوخ، روي عن ابن مسعود، وقتادة، والربيع، والضحاك، وقيل: المحكم: الذي ليس فيه تصريف، ولا تحريف عما وضع له، والمتشابه: ما فيه تصريف، وتحريف، وتأويل قاله مجاهد، وابن إسحاق. قال ابن عطية: وهذا أحسن الأقوال، وقيل: المحكم: ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره، والمتشابه: ما يرجع فيه إلى غيره. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل في المحكمات، والمتشابهات. قال القرطبي ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية، وهو الجاري على وضع اللسان، وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم، والإحكام: الإتقان، ولا شك في أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه، ولا تردد، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته، وإتقان تركيبها، ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه، والإشكال. وقال ابن خويزمي: للتشابه وجه ما اختلف فيه للعلماء أي الآيتين نسخت الأخرى، كما في الحامل المتوفى عنها زوجها، فإن من الصحابة من قال: إن آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر، والعشر، ومنهم من قال بالعكس. وكاختلافهم في الوصية للوارث، وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن يقدّم إذا لم يعرف النسخ، ولم توجد شرائطه، وكتعارض الأخبار، وتعارض الأقيسة، هذا معنى كلامه.

والأولى أن يقال: إن المحكم هو: الواضح المعنى الظاهر للدلالة، إما باعتبار نفسه، أو باعتبار غيره، والمتشابه ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالاته لا باعتبار نفسه، ولا باعتبار غيره. وإذا عرفت هذا عرفت أن هذا الاختلاف الذي قدمناه ليس كما ينبغي، وذلك لأن أهل كل قول عرّفوا المحكم ببعض صفاته، وعرّفوا المتشابه بما يقابلها. وبيان ذلك أن أهل القول الأول جعلوا المحكم ما وجد إلى علمه سبيل،

الله أنزل في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع، فنكر وقد نجران، ومخاصمتهم للنبي ﷺ في عيسى عليه السلام، وأن الله أنزل: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْإِنسَانِ إِلَهُ أَحَدٌ﴾ [البقرة: 213] وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿مُصَنَّفًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال: لما قبله من كتاب، أو رسول. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه، وقال في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ هو القرآن فرق بين الحق والباطل، فأحل فيه حلاله، وحرم فيه حرامه، وشرع فيه شرائعه، وحد فيه حدوده، وفرض فيه فرائضه، وبين فيه بيانه، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى، وغيره. وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ نُّو لِنِقَامِهِ﴾ أي: إن الله ينتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء منه فيها. وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: قد علم ما يريدون، وما يكيدون، وما يضاؤون بقولهم في عيسى إذ جعلوه رباً وإلهاً، وعندهم من علمه غير ذلك غرّة بالله، وكفراً به. ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قد كان عيسى ممن صور في الأرحام لا يدفعون ذلك، ولا ينكرونه، كما صور غيره من بني آدم، فكيف يكون إلهاً، وقد كان بذلك المنزل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: نكورا، وإنشأ. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوماً، ثم تكون علقة أربعين يوماً، ثم تكون مضغة أربعين يوماً، فإذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكاً يصورها، فيأتي الملك بتراب بين أصبعيه، فيخلط منه المضغة، ثم يعجنه بها، ثم يصور، كما يؤمر فيقول: أنكر أم أنثى، أشقي أم سعيد، وما رزقه، وما عمره، وما أثره، وما مصائبه؟ فيقول الله، ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال: من نكر، وأنثى، وأحمر، وأسود، وتأم الخلق، وغير تام الخلق. ﴿مَوْالِيَهُمْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْهُ أَمْ الْكِتَابِ وَالْمُرْسَلَاتُ مُمَكَّنَتُهَا فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالْأَوَّلُ فِي الْآيَةِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٦٦﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَدَلًا إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿١٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَانِبُ الثَّوَرِ لَا رِبَا فَبِئْسَ مَا كُنَّا لَا يَخْلُقُ إِلَيْكُمْ سَاءَ

الكتاب هو: القرآن، فالإمام للعهد، وقدم الظرف، وهو عليك

يوم يأتي تأويله ﴿[الأعراف: 53] أي: يوم يرون ما يوعدون من البعث، والنشور، والعذاب﴾ يقول الذين نسوه ﴿[الأعراف: 53] أي تركوه﴾ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴿[الأعراف: 53] أي: قد رأينا تأويل ما أنبأنا به الرسل. قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ التأويل يكون بمعنى التفسير، كقولهم تأويل هذه الكلمة على كذا، أي: تفسيرها، ويكون بمعنى ما يثول الأمر إليه، واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يثول إليه، أي: صار، وأولته تأويلاً، أي: صيرته، وهذه الجملة حالية، أي: يتبعون المتشابه لا يتفاه تأويله، والحال أن ما يعلم تأويله إلا الله. وقد اختلف أهل العلم في قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾ هل هو كلام مقطوع، عما قبله، أو معطوف على ما قبله؟ فتكون الواو للجمع، فالذي عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله، وأن الكلام تم عند قوله: ﴿إلا الله﴾ هذا قول ابن عمر، وابن عباس، وعائشة، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، وأبي الشعثاء، وأبي نعيم، وغيرهم، وهو مذهب الكسائي، والفراء، والأخفش، وأبي عبيد، وحكاه ابن جرير الطبري، عن مالك، واختاره، وحكاه الخطابي، عن ابن مسعود، وأبي بن كعب قال: وإنما روي عن مجاهد أنه نسق الراسخين على ما قبله، وزعم أنهم يعلمونه، قال: واحتج له بعض أهل اللغة، فقال: معناه: والراسخون في العلم يعلمونه قائلين ﴿أمنّا به﴾ وزعم أن موضع ﴿يقولون﴾ نصب على الحال، وعامة أهل اللغة ينكرونه، ويستبعدونه؛ لأن العرب لا تضرع الفعل، والمفعول معاً، ولا تنكر حالا إلا مع ظهور الفعل، فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالاً، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال عبد الله راكباً، يعني أقبل عبد الله راكباً، وإنما يجوز ذلك مع نكر الفعل كقوله عبد الله يتكلم يصلح بين الناس، فكان يصلح حالا كقول الشاعر: أنشدني أبو عمرو. قال: أنشدنا أبو العباس ثعلب: أرسلت فيهارجلاً لكالكا - يقصر يمشي ويطول باركاً فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده. وأيضاً، فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئاً عن الخلق، وينسبه لنفسه، فيكون له في ذلك شريك، ألا ترى قوله عز وجل: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النمل: 65]، وقوله: ﴿كل شيء جليلها لوقتها إلا هو﴾ [الأعراف: 187]، وقوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصاص: 88] فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ ولو كانت الواو في قوله: ﴿والراسخون﴾ للنسق لم يكن لقوله: ﴿كل من عند ربنا﴾ فائدة. انتهى. قال القرطبي: ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره. فقد روي عن ابن عباس: أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون أمنّا به. وقاله الربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد، وغيرهم، و﴿يقولون﴾ على هذا التأويل نصب على الحال من

والمتشابه ما لا سبيل إلى علمه، ولا شك أن مفهوم المحكم، والمتشابه أوسع دائرة مما نكروه، فإن مجرد الخفاء، أو عدم الظهور، أو الإحتمال، أو التردد يوجب التشابه؛ وأهل القول الثاني خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال، والمتشابه بما فيه احتمال، ولا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم، والمتشابه لا كلها، وهكذا أهل القول الثالث، فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها؛ وأهل القول الرابع خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التي نكروها أهل القول الثالث، والأمر أوسع مما قالوه جميعاً، وأهل القول الخامس خصوا المحكم بوصف عدم التصريف، والتحريف، وجعلوا المتشابه مقابله، وأعملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل إلى علمه من دون تصريف، وتحريف كفواتح السور المقطعة، وأهل القول السادس خصوا المحكم بما يقوم بنفسه، والمتشابه بما لا يقوم بها، وأن هذا هو بعض أوصافهما، وصاحب القول السابع، وهو ابن خويز منداد عمد إلى صورة الوفاق، فجعلها محكماً، وإلى صورة الخلاف، والتعارض، فجعلها متشابهة، فأعمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى، أو غير مفهوم. قوله: ﴿هؤلاء الكتاب﴾ أي: أصله الذي يعتمد عليه، ويرد ما خالفه إليه، وهذه الجملة صفة لما قبلها. قوله: ﴿ولآخر متشابهات﴾ وصف لمحتوف مقدر، أي: وآيات آخر متشابهات، وهي جمع أخرى، وإنما لم ينصرف؛ لأنه عدل بها عن الآخر؛ لأن أصلها أن يكون كذلك. وقال أبو عبيد: لم ينصرف؛ لأن واحدها لا ينصرف في معرفة، ولا نكرة، وإنكر ذلك المبرّد. وقال الكسائي: لم تنصرف؛ لأنها صفة، وإنكره أيضاً المبرّد. وقال سيبويه: لا يجوز أن يكون آخر معدولة عن الآلاف، واللام؛ لأنها لو كانت معدولة عنها لكان معرفة، ألا ترى أن سحر معرفة في جميع الأقاويل لما كانت معدولة. قوله: ﴿فما للذين في قلوبهم زيغ﴾ الزيغ: الميل؛ ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأَبصار؛ ويقال زاغ يزيع زيغاً: إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: 5] وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق. وسبب النزول نصارى نجران، كما تقدم، وسيأتي. قوله: ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي: يتعلقون بالمتشابه من الكتاب، فيشككون به على المؤمنين، ويجعلونه ليلاً على ما هم فيه من البينة المائلة عن الحق، كما تجده في كل طائفة من طوائف البديعة، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعباً شديداً، ويوردون منه لتفنيق جهلهم ما ليس من الدلالة في شيء. قوله: ﴿لبتغاء لفتنه﴾ أي: طلباً منهم لفتنه الناس في دينهم، والتلبس عليهم، وإفساد ذات بينهم ﴿ولبتغاء تأويله﴾ أي: طلباً لتأويله على الوجه الذي يريدونه، ويوافق مذاهبهم للفاسدة. قال الزجاج: معنى ابتغائهم تأويله: أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم، فأعلم الله عز وجل أن تأويل ذلك، ووقته لا يعلمه إلا الله. قال: والدليل على ذلك قوله: ﴿هل ينظرون إلا تأويله

الراسخون كما قال:

الريح يبكي شجوه والبرق يلعب في الغمام وهذا البيت يحتمل المعنيين، فيجوز أن يكون، والبرق مبتداً، والخبر يلعب على التأويل الأول، فيكون مقطوعاً مما قبله، ويجوز أن يكون معطوفاً على الريح، ويلعب في موضع الحال على التأويل الثاني أي: لامعاً. انتهى. ولا يخفك أن ما قاله الخطابي في وجه امتناع كون قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً من أن العرب لا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل إلى آخر كلامه لا يتم إلا على فرض أنه لا فعل هنا، وليس الأمر كذلك، فالفعل مذكور، وهو قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ ولكنه جاء الحال من المعطوف، وهو قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ دون المعطوف عليه، وهو قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وذلك جائز في اللغة العربية. وقد جاء مثله في الكتاب العزيز. ومنه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر: 8] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ [الحشر: 10] الآية، وكقوله: ﴿وَجَاءَ رَيْكُ وَالْمَلِكُ صَفَا صَفَا﴾ [الفجر: 22] أي: وجاءت الملائكة صفا صفا، ولكن ما هنا مانع آخر من جعل ذلك حالاً، وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمناً به ليس بصحيح، فإن الراسخين في العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه في كل حال من الأحوال لا في هذه الحالة الخاصة، فافتضى هذا أن جعل قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً غير صحيح، فتعين المصير إلى الاستثناف والجزم بأن قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتداً خبره ﴿يَقُولُونَ﴾ ومن جملة ما استدلل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه منحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمنحهم، وهم لا يعلمون ذلك؟ ويجب عن هذا بأن تركهم لطلب علم ما لم يأن الله به، ولا جعل لخلقه إلى علمه سبيلاً هو من رسوخهم، لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه، وأن الذين يتبعونه هم الذين في قلوبهم زيغ، وناهيك بهذا من رسوخ. وأصل الرسوخ في لغة العرب: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ، وأصله في الأجرام أن ترسخ الخيل، أو الشجر في الأرض، ومنه قول الشاعر:

لقد رستخ في الصدر منى مودة لئليلى أبت آياتها أن تغيرا
فهؤلاء ثبتوا في امتثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع
المتشابه، وإرجاع علمه إلى الله سبحانه. ومن أهل العلم من
توسط بين المقامين فقال التأويل يطلق ويراد به في القرآن
شيئان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يثول أمره
إليه، ومنه قوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف: 100]، وقوله:
﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الاعراف: 53] أي:
حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا،
فالوقوف على الجلالة: لأن حقائق الأمور، ولكنها لا يعلمها إلا
الله عز وجل، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتداً،
و ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى

الآخر وهو: التفسير، والبيان، والتعبير عن الشيء، كقوله:
﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [لقمان: 34] أي بتفسيره فالوقوف على
﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون، ويفهمون ما
خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق
الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا، فيكون ﴿يَقُولُونَ
آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً منهم، ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون
تأويله، وأطنب في ذلك، وهكذا جماعة من محققي المفسرين
رجحوا ذلك. قال القرطبي: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن
عمر: وهو: الصحيح فإن تسميتهم راسخين تقضي بأنهم
يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من
يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا
إلا ما يعلم الجميع، لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم
البته كأمير الروح، والساعة مما استأثر الله بعلمه، وهذا لا
يتعاطى علمه أحد، فمن قال من العلماء الحذاق بأن
الراسخين لا يعلمون علم المتشابه، فإنما أراد هذا النوع.
وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة، فيتأول، ويعلم
تأويله المستقيم، ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم.
انتهى.

واعلم أن هذا الاضطراب الواقع في مقالات أهل العلم
أعظم أسباب اختلاف أقوالهم في تحقيق معنى المحكم،
والمتشابه. وقد قلنا لك ما هو الصواب في تحقيقهما،
ونزيدك ما هنا إيضاحاً، وبياناً، فنقول: إن من جملة ما
يصدق عليه تفسير المتشابه الذي قلناه فواتح السور،
فإنها غير متضمنة المعنى، ولا ظاهرة الدلالة، لا بالنسبة إلى
أنفسها؛ لأنه لا يدري من يعلم بلغة العرب، ويعرف عرف
الشرع ما معنى ألم، ألمر، حم طس، طسم ونحوها؛ لأنه لا
يجد بيانها في شيء من كلام العرب، ولا من كلام الشرع،
فهي غير متضمنة المعنى، لا باعتبارها نفسها، ولا باعتبار
أمر آخر يفسرها، ويوضحها، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن
لغة العجم، والألفاظ الغريبة التي لا يوجد في لغة العرب، ولا
في عرف الشرع ما يوضحها، وهكذا ما استأثر الله بعلمه
كالروح، وما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34]
إلى آخر الآية، ونحو ذلك، وهكذا ما كانت دلالته غير
ظاهرة لا باعتبار نفسه، ولا باعتبار غيره، كوزود الشيء
محتماً لأمرين احتمالاً لا يترجح أحدهما على الآخر باعتبار
ذلك الشيء في نفسه، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم
ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور
الخارجة، وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضاً كلياً بحيث
لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر لا باعتبار نفسه، ولا
باعتبار أمر آخر يرجحه. وأما ما كان واضح المعنى باعتبار
نفسه بأن يكون معروفاً في لغة العرب، أو في عرف الشرع،
أو باعتبار غيره، وذلك كالأمر المجمل التي ورد بيانها في
موضع آخر من الكتاب العزيز، أو في السنة المطهرة، أو
الأمور التي تعارضت دلالتها، ثم ورد ما يبين راجحها من
مرجوحها في موضع آخر من الكتاب، أو السنة، أو سائر

﴿اليوم﴾ هو يوم القيامة أي: لحساب يوم، أو لجزاء يوم على تقدير حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. قوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه من الحساب، والجزاء، وقد تقدم تفسير الريب، وجملته قوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ للتعليل لمضمون ما قبلها، أي: أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه، وخلفه يخالف الألوهية، كما أنها تنافية، وتباينه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحجوده، وفرائضه، وما يؤمن به، ونعمل به، والمتشابهات منسوخه، ومقتمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يؤمن به، ولا نعمل به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، عن ابن عباس قال في قوله: ﴿منه آيات محكمات﴾ قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات: ﴿قل تعالوا﴾ [الأنعام: 151] والآيتان بعدها. وفي رواية عنه أخرجهما عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿آيات محكمات﴾ قال: من هنا ﴿قل تعالوا﴾ إلى ثلاث آيات، ومن هنا ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء: 23] إلى ثلاث آيات بعدها. وأقول: رحم الله ابن عباس ما أقل جنوى هذا الكلام المنقول عنه. فإن تعيين ثلاث آيات، أو عشر، أو مائة من جميع آيات القرآن، ووصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة شيء، فالمحكمات هي أكثر القرآن على جميع الأقوال حتى على قوله المنقول عنه قريباً من أن المحكمات ناسخه، وحلاله الخ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام. وأخرج عبد بن حميد، عنه قال: المحكمات: الحلال والحرام، وللسلف أقوال كثيرة هي راجعة إلى ما قمنا في أول هذا البحث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ﴿فاما الذين في قلوبهم زيغ﴾ يعني: أهل الشك، فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون، فلبس الله عليهم: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قال: تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود ﴿زيغ﴾ قال: شك. وفي الصحيحين، وغيرهما، عن عائشة قالت «تلا رسول الله ﷺ وهو الذي أنزل عليك الكتاب» إلى قوله: ﴿فاما الذين في قلوبهم زيغ﴾ إلى قوله: ﴿أولوا الألباب﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: إذا رايتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عني، فلحنوهم. وفي لفظ «فإذا رايت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذي سمامهم الله، فاحذروهم» هذا لفظ البخاري، ولفظ ابن جرير، وغيره «فإذا رايتم الذين يتبعون ما تشابه منه، والذين يجادلون فيه، فهم الذين عني الله، فلا تجالسوهم» وأخرج عبد بن حميد، وعبد الرزاق، وأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في سننه عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾

المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الإنصاف، فلا شك، ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه، ومن زعم أنها من المتشابه، فقد اشتبه عليه الصواب، فاشدد يدك على هذا، فإنك تنجو به من مضايق، ومزالق وقعت للناس في هذا المقام حتى صارت كل طائفة تسمى ما دل لما ذهب إليه محكماً، وما دل على ما يذهب إليه من يخالفها متشابهاً: سيما أهل علم الكلام، ومن أنكر هذا، فعليه بمؤلفاتهم.

واعلم أنه قد ورد في الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم، ولكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية بل بمعنى آخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ [هود: 1] وقوله: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ [يونس: 1] والمراد بالمحكم بهذا المعنى: أنه صحيح الالفاظ قوي المعاني فائق في البلاغة والفصاحة على كل كلام. وورد أيضاً ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها بل بمعنى آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿كتاباً متشابهاً﴾ [الزمر: 23] والمراد بالمتشابه بهذا المعنى: أنه يشبه بعضه بعضاً في الصحة، والفصاحة، والحسن، والبلاغة. وقد نكر أهل العلم لورود المتشابه في القرآن فوائد: منها أنه يكون في الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة، ومشقة، وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق، وهم الأئمة المجتهدون، وقد نكر الرمزخشري، والرازي، وغيرهما وجوهاً هذا لحسنها، وبقيتها لا تستحق الذكر ما هنا. قوله: ﴿كل من عند ربنا﴾ فيه ضمير مقدر عائد على مسمى المحكم، والمتشابه أي: كله، أو المحنوف غير ضمير، أي: كل واحد منهما، وهذا من تمام المقول المذكور قبله. وقوله: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ أي: العقول الخالصة: وهم الراسخون في العلم، الواقفون عند متشابهه، العالمون بمحكمه العاملون بما أرشدهم الله إليه في هذه الآية. وقوله: ﴿ربنا لا تزغ﴾ الخ من تمام ما يقوله الراسخون، أي: يقولون آمنا به كل من عند ربنا، ويقولون: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ قال ابن كيسان: سألوا ألا يزيغوا، فتزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: 5] كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه: ﴿واما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ قالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ بتابع المتشابه: ﴿بعد إذ هديتنا﴾ إلى الحق بما أننت لنا من العمل بالآيات المحكمات، والظرف، وهو قوله: ﴿بعد﴾ منتصب بقوله: لا تزغ. قوله: ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: كائنة من عندك، ومن لابتداء الغاية ولئن بفتح اللام، وضم الدال، وسكون النون، وفيه لغات أخر هذه أفصحها، وهو ظرف مكان، وقد يضاف إلى الزمان، وتكثير رحمة للتعظيم أي: رحمة عظيمة واسعة وقوله: ﴿إنك أنت الوهاب﴾ تعليل للسؤال، أو لإعطاء المسؤول. وقوله: ﴿ربنا إنك جامع الناس﴾ أي: باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم

بالمتشابه، ولا نئين به، وهو من عند الله كله. وأخرج الدارمي في مسنده، ونصر المقدسي في الحجة، عن سليمان بن يسار: أن رجلاً يقال له ضبيع قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن. فأرسل إليه عمر، وقد أعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله ضبيع، فقال: وأنا عبد الله عمر، فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين، فضربه حتى دمي رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين حسيك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي. وأخرجه الدارمي أيضاً من وجه آخر، وفيه: أنه ضربه ثلاث مرات يتركه في كل مرة حتى يبرأ، ثم يضربه. وأخرج أصل القصة ابن عسكرك في تاريخه، عن أنس. وأخرج الدارمي، وابن عسكرك: أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا ضبيعاً، وقد أخرج هذه القصة جماعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن أنس، وأبي أمامة، ووائل بن الأسقع، وأبي الدرداء: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم؟ فقال: من برت يمينه، وصلى لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه، وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم» وأخرج ابن عسكرك من طريق عبد الله بن يزيد الأزدي عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو داود، والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجدال في القرآن كفر». وأخرج نصر المقدسي في الحجة، عن ابن عمر قال: «خرج رسول الله ﷺ، ومن وراء حجرته قوم يتجادلون بالقرآن، فخرج محمرة وجنتاه، كأنما يقطران نماً، فقال: يا قوم لا تجادلوا بالقرآن، فإنما ضل من كان قبلكم بجدهم، إن القرآن لم ينزل، ليكنب بعضه بعضاً، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضاً، فما كان من محكمه، فاعملوا به، وما كان من متشابهه، فأمّنوا به». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أم سلمة: «أن النبي ﷺ كان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، ثم قرأ: ﴿رَبِّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا﴾ الآية». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وابن جرير، والطبراني، وابن مروي عنهما مرفوعاً نحوه بأطول منه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن مروي، عن عائشة مرفوعاً نحوه. وقد ورد نحوه من طرق أخر. وأخرج ابن النجار في تاريخه في قوله: «ربنا إنك جامع الناس ليوم» الآية. عن جعفر بن محمد الخلدی قال: روي عن النبي ﷺ «أن من قرأ هذه الآية على شيء ضاع منه رده الله عليه، ويقول بعد قراءتها: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين مالي إنك على كل شيء قدير».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَوْلِيَهُمْ وَلَا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقَوْمُهُمْ لَكَ أَعْدَاءُ ۖ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاحْذَرُوا اللَّهَ يَذَّبُكُمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوا سَتَلَذَّتْ رُحُوتُكُمْ إِلَّا جَهَنَّمَ وَبِقَسْ أَلْيَها ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَيْتِنِ الْقَتَنِ فَمَنْ تَدْبِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَفَرًا يَرْوَدُهُمْ فَلْيَنْهَيْهِمْ رَأَى الْكَافِرَ وَاللَّهُ يُؤَيِّنُ بِخَبْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَوَكِيدٌ

قال: هم الخوارج. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن على سبعة أحرف: زاجر، وأمر، وحلال وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وأمّنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا» وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود موقوفاً. وأخرج الطبراني، عن عمر بن أبي سلمة أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن مسعود، فذكر نحوه، وأخرج البخاري في التاريخ عن علي مرفوعاً بإسناد ضعيف نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي داود في المصاحف، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وأبو يعلى، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمراء في القرآن كفر، ما عرفتم، فاعملوا به، وما جهلتم منه، فدلوه إلى عالمه، وإسناده صحيح. وأخرج البيهقي في الشعب، عن أبي هريرة مرفوعاً، وفيه: «واتبعوا المحكم وأمّنوا بالمتشابه». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، عن طائوس قال: كان ابن عباس يقرأها: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون في العلم آمنا به﴾ وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش قال في قراءة عبد الله: وإن حقيقة تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي الشعثاء، وأبي نهيك قال: إنكم تصلون هذه الآية، وهي مقطوعة: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ فانتهى علمهم إلى قولهم الذي قالوا. وأخرج ابن جرير، عن عروة، قال: الراسخون في العلم لا يعلمون تأويله، ولكنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، عن أبي قال: كتاب الله ما استبان، فاعمل به، وما اشتبه عليك، فأمّن به، وكله إلى عالمه. وأخرج أيضاً، عن ابن مسعود قال: إن للقرآن مناراً، كمنار الطريق، فما عرفتم، فتمسكوا به، وما اشتبه عليكم، فدلوه. وأخرج أيضاً، عن معاذ نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: تفسير القرآن على أربعة وجوه: تفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال، أو حرام، وتفسير تعرفه العرب بلغتها، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله، من ادعى علمه، فهو كاذب. وأخرج ابن جرير عنه قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه سوى الله، فهو كاذب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: أنا ممن يعلم تأويله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفي عنه في قوله: ﴿يقولون آمنا به﴾ نؤمن بالمحكم، وندين به، ونؤمن

لَأَزِلُّ الْأَمْسَكَ

المراد بالذين كفروا جنس الكفرة، وقيل: وفد نجران، وقيل: قريظة، وقيل: النضير، وقيل: مشركو العرب. وقرأ السلمي: «لن يغني» بالتحية، وقرأ الحسن بكون الياء الآخرة تخفيفاً. قوله: «من الله شيئاً» أي: من عذابه شيئاً من الإغناء، وقيل: إن كلمة من بمعنى عند، أي: لا تغني عند الله شيئاً قاله أبو عبيد، وقيل: هي بمعنى بدل. والمعنى بدل رحمة الله، وهو بعيد. قوله: «وأولئك هم وقود النار» الوقود: اسم للحطب، وقد تقدم الكلام عليه في سورة البقرة، أي: هم حطب جهنم الذي تسعر به، وهم: مبتدأ، ووقود خبره، والجملة خبر أولئك، أو هم ضمير فصل، وعلى التقديرين، فالجملة مستأنفة مقررّة لقوله: «لن تغني عنهم أموالهم» الآية. وقرأ الحسن، ومجاهد، وطلحة بن مصرف «وقود» بضم الواو، وهو مصدر، وكذلك الوقود بفتح الواو في قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسماً للحطب، كما تقدم، فلا يحتاج إلى تقدير، ويحتمل أن يكون مصدراً؛ لأنه من المصادر التي تأتي على وزن الفعول، فتححتاج إلى تقدير، أي: هم أهل، ووقود النار. قوله: «كذاب آل فرعون» الداب: الاجتهاد، يقال داب الرجل في عمله يداب دأباً، ويؤبأ: إذا جد، واجتهد، والدائبان الليل، والنهار، والداب: العادة، والشان، ومنه قول امرئ القيس:

كذابك من لم الحويرث قبلها وجارتها لم الرباب بماسل
والمراد هنا: كعادة آل فرعون، وشأنهم، وحالهم، واختلفوا في الكاف، فقيل: هي في موضع رفع تقديره دأبهم كذاب آل فرعون مع موسى. وقال الفراء: إن المعنى كفرت العرب ككفر آل فرعون. قال النحاس: لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا، لأن كفروا داخله في الصلة، وقيل: هي متعلقة بأخذهم الله، أي: أخذهم أخذة، كما أخذ آل فرعون، وقيل: هي متعلقة بلن تغني، أي: لم تغن عنهم غناء، كما لم تغن عن آل فرعون، وقيل: إن العامل فعل مقدر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه في نفس الإحراق. قالوا: ويؤيده قوله تعالى: «أنخلوا آل فرعون أشد العذاب» [غافر: 46]. النار يعرضون عليها غدواً وعشياً [غافر: 46]، والقول الأول هو الذي قاله جمهور المحققين، ومنهم الأزهري. قوله: «والذين من قبلهم» أي: من قبل آل فرعون من الأمم الكفرة، أي: وكذاب الذين من قبلهم. قوله: «كنبوا بأياتنا فأخذهم الله» يحتمل أن يريد الآيات المتلوة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوجدانية، ويصح إرادة الجميع. والجملة بيان، وتفسير لدأبهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد: أي دأب هؤلاء كذاب أولئك قد كذبوا الخ. وقوله «ينبؤهم» أي بسائر نوبهم التي من جملتها تكذيبهم. قوله: «قل للذين كفروا» قيل: هم اليهود، وقيل: هم مشركو مكة، وسيأتي بيان سبب نزول الآية. وقوله: «ستغلبون» قرئ بالفوقية، والتحتية، وكذلك

«تحشرون». وقد صدق الله، وعده بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وفتح خيبر، وضرب الجزية على سائر اليهود، والله الحمد. قوله: «ويؤس المهاد» يحتمل أن يكون من تمام القول الذي أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقوله لهم، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة تهويلًا، وتفظيلاً. قوله: «قد كان لكم آية» أي: علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم، وهذه الجملة جواب قسم محذوف، وهي: من تمام القول المأمور به لتقرير مضمون ما قبله، ولم يقل كانت؛ لأن التانيث غير حقيقي. وقال الفراء: إنه نكر الفعل لأجل الفصل بينه، وبين الاسم بقوله: «لكم». والمراد بالفئتين المسلمون والمشركون لما التقوا يوم بدر. قوله: «فئة تقاتل في سبيل الله» قراءة الجمهور برفع فئة. وقرأ الحسن، ومجاهد «فئة» وكافرة، بالخفض، فالرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف أي: إحداهما فئة. وقوله: «تقاتل» في محل رفع على الصفة، والجرّ على البذل من قوله: «فئتين». وقوله: «ولخرى» أي: وفئة أخرى كافرة. وقرأ ابن أبي عتبة بالنصب فيهما، قال ثعلب: هو على الحال، أي: التقتا مختلفتين، مؤمنة، وكافرة. وقال الزجاج: النصب بتقدير أعني، وسميت الجماعة من الناس فئة؛ لأنه يفاء إليها أي: يرجع في وقت الشدة. وقال الزجاج الفئة: الفرقة مأخوذ من فأت رأسه بالسيف: إذا قطعته، ولا خلاف أن المراد بالفئتين هما: المقتتلان في يوم بدر، وإنما وقع الخلاف في الخطاب بهذا الخطاب، فقيل: الخطاب بها المؤمنون، وقيل: اليهود، وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت نفوسهم، وتشجيعهم، وفائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين. قوله: «ترونها مثلهم» قال أبو علي الفارسي: الرؤية في هذه الآية رؤية العين، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد، ويدل عليه قوله: «رأى العين» والمراد أنه يرى المشركون المسلمين مثلي عند المشركين، أو مثلي عند المسلمين، وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية، وقرأ نافع بالفوقية. وقوله: «مثلهم» منتصب على الحال. وقد ذهب الجمهور إلى أن فاعل ترون هم: المؤمنون، والمفعول هم: الكفار. والضمير في مثلهم يحتمل أن يكون للمشركين، أي: ترون أيها المسلمون المشركين مثلي ما هم عليه من العبد، وفيه بعد أن يكثر الله المشركين في أعين المؤمنين، وقد أخبرنا أنه قللهم في أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم في العبد، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلل الله المشركين في أعين المسلمين، فأراهم إياهم مثلي عدتهم لتقوى أنفسهم. وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، ويحتمل أن يكون الضمير في مثلهم للمسلمين، أي: ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلي ما أنتم عليه من العبد لتقوى بذلك أنفسكم، وقد قال من ذهب إلى التفسير الأول: أعني أن فاعل الرؤية المشركون، وأنهم رأوا المسلمين مثلي عددهم أنه لا ينافض هذا ما في سورة الانفال من قوله تعالى: «ويقللهم في

فِيهَا وَأَرْجَى مُنْكَرَةً وَرُحْرُوتَ رَبِّكَ اللَّهُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِأَلْسَابٍ ۝
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَكَاتُكَ فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَرِهَ عَذَابَ الْعَذَابِ ۝
الْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ ۝

قوله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾ الخ: كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس في هذه الدار، والمزين قيل: هو الله سبحانه، وبه قال عمر، كما حكاه عنه البخاري، وغيره، ويؤيد قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ [الكهف: 7]. وقيل: للمزين هو الشيطان، وبه قال الحسن، حكاه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه. وقرأ الضحاك: ﴿زَيْنَ﴾ على البناء للفاعل. وقرأه الجمهور على البناء للمفعول. والمراد بالناس: الجنس. والشهوات جمع شهوة، وهي نزوع النفس إلى ما تريده. والمراد هنا: المشتبهات عبر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مرغوباً فيها، أو تحقيراً لها لكونها مسترثلة عند العقلاء من صفات الطبايع البهيمية، ووجه تزيين الله سبحانه لها ابتلاء عباده، كما صرح به في الآية الأخرى. وقوله: ﴿مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ في محل الحال أي: زين للناس حب الشهوات حال كونها من النساء، والبنين الخ. وبدأ بالنساء لكثرة تشوق النفوس إليهن؛ لأنهن حبايل الشيطان، وخص البنين دون البنات لعدم الاطراء في محبتهم. والقناطير جمع قنطار، وهو اسم للكثير من المال. قال الزجاج: القنطار مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه: تقول العرب قنطرت الشيء: إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها. وقد اختلف في تقديره على أقوال للسلف ستأتي إن شاء الله. واختلفوا في معنى القنطرة، فقال ابن جرير الطبري: معناها المضعفة، وقال القناطير: ثلاثة، والمقنطرة تسعة. وقال الفراء: القناطير جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فتكون تسع قناطير، وقيل: المقنطرة المضروبة، وقيل: الكلمة كما يقال بكرة مبردة، والوف مؤلفة، وبه قال مكي، وحكاه الهروي. وقال ابن كيسان: لا تكون المقنطرة أقل من سبع قناطير. وقوله: ﴿مَنْ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ﴾ بيان للقناطير، أو حال ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ قيل: هي المربعة في المروج، والمسارح، يقال سامت الدابة، والشاة: إذا سرحت، وقيل: هي المعدة للجهاد، وقيل: هي الحسان، وقيل: المعلمة من السومة، وهي العلامة أي: التي يجعل عليها علامة لتتميز عن غيرها. وقال ابن فارس في المجلد المسومة: المرسل، وعليها ركبائها. وقال ابن كيسان: البلق، والآنعام هي: الإبل، والبقر، والغنم، فإذا قلت نعم، فهي الإبل خاصة قاله الفراء، وابن كيسان، ومنه قول حسان:

وكانت لا يزال بها أنيس
خلال مروجها نعم وشاء
والحرث: اسم لكل ما يحرق، وهو مصدر سمي به المحروث، يقول حرث الرجل حرثاً: إذا أثار الأرض، فيقع على الأرض، والزرع. قال ابن الأعرابي: الحرث: التفتيش. قوله: ﴿نَلَّكَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ذلك المنكور ما يتمتع به، ثم يذهب، ولا يبقى، وفيه تزهد في الدنيا، وترغيب في الآخرة. والمآب: المرجع أب يثوب إيلاباً: إذا رجع، ومنه قول

أعينهم] [الأنفال: 44] بل قللوا أولاً في أعينهم ليلاقوهم، ويجتروا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا. قوله: ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ أي: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ﴿وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يقوي من يشاء أن يقويه، ومن جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية ﴿إِنْ فِي نَفْسِكَ﴾ أي: في رؤية القليل كثيراً ﴿لَعِبْرَةٍ﴾ فعلة من العبور، كالجلسة من الجلوس. والمرد الاتعاض، والتعكير للتعظيم، أي: عبرة عظيمة، وموعظة جسيمة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿كُتِبَ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ قال: كصنيع آل فرعون. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه قال كفل. وأخرج مثله أبو الشيخ، عن مجاهد. وأخرج ابن جرير، عن الربيع قال: كسنتهم. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع قال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً، قالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً كانوا غماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس، وإنك لم تلق مثلاً، فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلنَّاسِ كُفْرًا سَتَغْلِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَى الْأَبْصَارِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عاصم بن عمر بن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: قال فحصاص اليهودي، ونكر نحوه. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ عبرة، وتفكر. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّيْثَةِ فَتَةُ تَقَاتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أصحاب رسول الله ﷺ ببدر ﴿وَالْآخَرَى كَافِرَةٌ﴾ فئة قريش الكفار. وأخرج عبد الرزاق أن هذه الآية نزلت في أهل بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ يقول: قد كان لكم في هؤلاء عبرة، ومتفكر أيدهم الله، ونصرهم على عدوهم يوم بدر كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً، وكان أصحاب محمد ﷺ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود في الآية قال: هذا يوم بدر نظرنا إلى المشركين، فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم، فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: أنزلت في التخفيف يوم بدر على المؤمنين كانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان المشركون مثلهم ستمائة وستة وعشرين، فايد الله المؤمنين.

زَيْنَ لِلنَّاسِ مُنْكَرَةً وَرُحْرُوتَ رَبِّكَ اللَّهُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِأَلْسَابٍ ۝
مَنْ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ ۝ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۝ ذَلِكُمْ
مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَ حَرْثِ الْمَآبِ ۝ قُلْ أَتُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ
مِنْ دَلِيلِكُمْ لِئَلَّا تُغْوَا عَنْ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۝

امريء القيس:

لقد طرقت في الأفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإيلاب
 قوله: ﴿قُلْ أُوذِينَكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ نَلِكُمْ﴾ أي: هل أخبركم
 بما هو خير لكم من تلك المستلذات، وإبهام الخير للتفخيم،
 ثم بينه بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ وَعِنْدَ فِي
 محل نصب على الحال من جنات، وهي مبتدأ، وخبرها للذين
 اتقوا، ويجوز أن تتعلق اللام بخير. وجنات خبر مبتدأ مقدر،
 أي: هو جنات، وخص المتقين؛ لأنهم المنتفعون بذلك. وقد
 تقدم تفسير قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وما بعده.
 قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أو
 خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين، أو منصوب على المدح،
 والصابرين، وما بعده نعت للموصول على تقدير كونه بدلاً،
 أو منصوباً على المدح، وعلى تقدير كونه خبراً يكون
 الصابرين، وما بعده منصوبة على المدح، وقد تقدم تفسير
 الصبر، والصق، والقنوت. قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
 بِالْأَسْحَارِ﴾ هم: السائلون للمغفرة بالأسحار، وقيل:
 المصلون، والأسحار جمع سحر بفتح الحاء، وسكونها. قال
 الزجاج: هو من حين يدير الليل إلى أن يطلع الفجر، وخص
 الأسحار؛ لأنها من أوقات الإجابة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عمر بن
 الخطاب، لما نزلت: ﴿زِينِ لِلنَّاسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ﴾ قال: الآن
 يا ربّ حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿قُلْ أُوذِينَكُمْ بِخَيْرٍ﴾
 المنذر عنه بلفظ خير انتهى إلى قوله: ﴿قُلْ أُوذِينَكُمْ بِخَيْرٍ﴾
 فبكى، وقال: بعد ماذا بعد ماذا بعد ما زينتها. وأخرج أحمد،
 وابن ماجه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
 «القنطار اثنا عشر ألف أوقية». رواه أحمد من حديث
 عبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد، عن عاصم عن أبي
 صالح عنه. ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن
 عبد الصمد به. وقد رواه ابن جرير موقوفاً على أبي هريرة.
 قال ابن كثير: وهذا أصح. وأخرج الحاكم وصححه، عن أنس
 قال: سئل رسول الله ﷺ عن القنطاري المقنطرة، فقال:
 «القنطار ألف أوقية». ورواه ابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه
 مرفوعاً بلفظ ألف دينار. وأخرج ابن جرير، عن أبي بن كعب
 قال: قال رسول الله ﷺ: «القنطار ألف أوقية، ومائتا أوقية».
 وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
 والبيهقي من قول معاذ بن جبل، وأخرجه ابن جرير من قول
 ابن عمر، وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي من
 قول أبي هريرة، وأخرجه ابن جرير، والبيهقي من قول ابن
 عباس، وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن
 أبي سعيد الخدري، قال: القنطار مئة مسك جلد الثور ذهباً.
 وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر أنه قال:
 القنطار سبعون ألفاً، وأخرجه عبد بن حميد، عن مجاهد.
 وأخرج أيضاً عن سعيد بن المسيب قال: القنطار ثمانون ألفاً.
 وأخرج أيضاً عن أبي صالح قال: القنطار مائة رطل.
 وأخرجه أيضاً عن قتادة، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي

جعفر قال: للقنطار خمسة عشر ألف مثقال، والمثقال أربعة
 وعشرون قيراطاً، وأخرج ابن جرير، عن الضحاك قال: هو
 المال الكثير من الذهب، والفضة. وأخرجه أيضاً عن الربيع.
 وأخرج عن السدي: أن المقنطرة المضروبة. وأخرج ابن
 جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس ﴿وَالْخَيْلَ
 الْمُسَوَّمَةَ﴾ قال: الراعية. وأخرج ابن المنذر، عنه من طريق
 مجاهد. وأخرج ابن جرير عنه قال: هي الراعية، والمطهمة
 الحسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد قال:
 هي المطهمة الحسان. وأخرجها، عن عكرمة قال: تسويهما
 حسنهما. وأخرج ابن أبي حاتم، قال: ﴿وَالْخَيْلَ الْمُسَوَّمَةَ﴾
 الغزاة، والتحجيل، وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله
 للصابرين قال: قوم صبروا على طاعة الله، وصبروا عن
 محارمه، والصانقون قوم صنقت نياتهم، واستقامت قلوبهم،
 والسنتهم، وصنقوا في السرّ، والعلانية، والقانتون هم:
 المطيعون، والمستغفرون بالأسحار أهل الصلاة. وأخرج ابن
 أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة
 قال: هم الذين يشهون صلاة الصبح. وأخرج ابن جرير،
 وابن مريويه، عن أنس قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستغفر
 بالأسحار سبعين مرة. وأخرج ابن جرير، وأحمد في الزهد،
 عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن داود عليه السلام سأل
 جبريل، فقال: يا جبريل أي الليل أفضل؟ قال: يا داود ما
 أدري إلا أن العرش يهتز في السحر. وقد ثبت في
 الصحيحين، وغيرهما، عن جماعة من الصحابة أن رسول
 الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء
 الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول هل من سائل،
 فأعطيه، هل من داع، فأستجيب له، هل من مستغفر، فأغفر
 له؟».

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الْأَوَّلَ عِنْدَ اللَّهِ الْآخِرُ وَنَا اخْتَلَفَ
 الْأَوَّلَ أَوَّلًا الْآخِرَ إِلَّا مِنْ تَمَدٍّ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَرِّ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ إِنْ جَاءَكَ قَوْمٌ نَسَبُوا إِلَيْكَ
 وَأَنْتَ بَرٌّ لَهُمْ فَبَشِّرْهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 الرَّسُولَ فَإِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي أُوذِيكُمْ بِالْأَسْحَارِ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ
 عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْعِيسْيَةِ لَنَضْحَكُنَّ مِنْكُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أي: بين وأعلم. قال الزجاج: الشاهد
 هو الذي يعلم الشيء، وبينه، فقد لنا الله على وحدانيته بما
 خلق وبين، وقال أبو عبيدة: شهد الله بمعنى قضى، أي: أعلم.
 قال ابن عطية، وهذا مردود من جهات، وقيل: إنها شبّهت
 دلالاته على وحدانيته بأفعاله، ووجهه بشهادة الشاهد في
 كونها مبنية. وقوله أنه بفتح الهمزة. قال المبرد أي: بأنه ثم
 حنفت الباء، كما في أمرتك الخير أي: بالخير. وقرأ ابن
 عباس: «إنه» بكسر الهمزة بتضمين شهد معنى قال. وقرأ
 أبو المهلّب: «شهداء الله» بالنصب على أنه حال من
 الصابرين، وما بعده، أو على المدح: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ عطف
 على الاسم الشريف، وشهادتهم إقرارهم بأنه لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ معطوف أيضاً على ما قبله، وشهادتهم بمعنى الإيمان منهم، وما يقع من البيان للناس على السننهم، وعلى هذا لا بد من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله، وشهادة الملائكة، وأولي العلم. وقد اختلف في أولي العلم هؤلاء من هم؟ فقيل: هم: الأنبياء؛ وقيل: المهاجرون، والأنصار، قاله ابن كيسان، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب، قاله مقاتل، وقيل: المؤمنون كلهم، قاله السدي، والكلبي، وهو الحق إذ لا وجه للتخصيص. وفي ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة، ومنقبة نبيلة لقريتهم باسمه، واسم ملائكته، والمراد بأولي العلم هنا علماء الكتاب، والسنة، وما يتوصل به إلى معرفتهما، إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له في العلم الذي اشتمل عليه الكتاب العزيز، والسنة المطهرة. وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل، أي: قائماً بالعدل في جميع أموره، أو مقيماً له، وانتصاب قائماً على الحال من الاسم الشريف. قال في الكشف: إنها حال مؤكدة كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: 91] وجاز إفراده سبحانه بذلك دون ما هو معطوف عليه من الملائكة، وأولي العلم لعدم اللبس، وقيل: إنه منصوب على المدح، وقيل: إنه صفة لقوله: ﴿إِلَهِهُ﴾ أي: لا إله قائماً بالقسط، إلا هو، أو هو حال من قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ والعامل فيه معنى الجملة. وقال الفراء: هو منصوب على القطع؛ لأن أصله الألف، واللام، فلما قطعت نصب كقوله: ﴿يُولِي الدِّينَ وَأَصْبَأُ﴾ [النحل: 52] ويدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود القائم بالقسط. وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تكرير لقصد التأكيد؛ وقيل: إن قوله: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدعوى، والأخيرة كالحكم. وقال جعفر الصادق الأولى وصف، وتوحيد، والثانية رسم، وتعليم. وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مرتفعان على البلية من الضمير، أو الوصفية لفاعل شهد لتقرير معنى الوحدانية. قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. قرأه الجمهور بكسر إن على أن الجملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى، وقرئ بفتح أن. قال الكسائي: أنصبهما جميعاً يعني قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ بمعنى شهد الله أنه كذا، وإن الدين عند الله الإسلام. قال ابن كيسان: إن الثانية بدل من الأولى. وقد ذهب الجمهور إلى أن الإسلام هنا بمعنى الإيمان، وإن كانا في الأصل متغايرين، كما في حديث جبريل الذي بين فيه النبي ﷺ معنى الإسلام، ومعنى الإيمان، وصلقه جبريل، وهو في الصحيحين، وغيرهما ولكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر، وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة. قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فيه الإخبار بأن اختلاف اليهود، والنصارى كان لمجرد البغي بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول في دين الإسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم. قال الأخفش: وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم. والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو

خلافهم في كون نبينا ﷺ نبياً أم لا؟ وقيل اختلافهم في نبوة عيسى، وقيل: اختلافهم في ذات بينهم حتى قالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء. قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بالآيات الدالة على أن الدين عند الله الإسلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيجازيه، ويعاقبه على كفره بآياته، والإظهار في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ مع كونه مقام الإضمار للتحويل عليهم، والتهديد لهم. قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أي: جادلوك بالشبه الباطلة، والأقوال المحرفة، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: أخلصت ذاتي لله، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان، وأجمعها للحواس، وقيل: الوجه هنا بمعنى: القصد. وقوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على فاعل أسلمت، وجاز للفصل، وأثبت نافع، وأبو عمرو، ويعقوب الباء في اتبعن على الأصل، وحذفها الآخرون اتباعاً لرسم المصحف، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع والمراد بالأميين هنا مشركو العرب. وقوله: ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ استفهام تقرير يضمن الأمر، أي: أسلموا، كذا قاله ابن جرير، وغيره. وقال الزجاج: ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ تهديد، والمعنى: أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام، فهل علمتم بموجب ذلك أم لا؟ تبكيتم لهم، وتصغيراً لشأنهم في الإنصاف، وقبول الحق. وقوله: ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ أي: ظفروا بالهداية التي هي الحظ الأكبر، وفازوا بخير الدنيا، والآخرة ﴿وَأَنْ تُولُوا﴾ أي: أعرضوا عن قبول الحجة، ولم يعملوا بموجبها ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي: فإنما عليك أن تبلغهم ما أنزل إليك، ولست عليهم بمسيطر، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، والبلاغ مصدر. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بصير بالعباد﴾ فيه وعد ووعيد لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ قال: بالعدل. وأخرج أيضاً عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، ويعت به رسله، ودل عليه أوليائه لا يقبل غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: لم يبعث الله رسلاً إلا بالإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير قال: كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم لكل قبيلة من قبائل العرب صنم، أو صنمان، فانزل الله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، فأصبحت الأصنام كلها قد خربت، سجداً للكعبة. وأخرج ابن السني في عمل اليوم، والليلة، وأبو منصور الشحامي في الأربعين، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَالْآيَتَيْنِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ﴾ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوْتِي الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءَ وَتَنْزَعُ الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءَ

تَسَمُّنَا أَكْثَرَ إِلَّا إِنَّا تَمْدُدُنَا بِعِزِّهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٤﴾
فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُلَاحِظُونَ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ظاهره عدم الفرق بين آية وآية
﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني: اليهود قتلوا الانبياء
﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي:
بالعدل، وهم الذين يأمرُونَ بالمعروف، وينهون عن المنكر،
قال المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم الانبيون،
فدعوههم إلى الله، فقتلوههم، فقام أناس من بعدهم من
المؤمنين، فأمرهم بالإسلام، فقتلوههم، ففيهم نزلت الآية.
وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾
البح، وبخلته الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، وذهب
بعض أهل النحو إلى أن الخبر قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ
أَعْمَالُهُمْ﴾ وقالوا إن الفاء لا تدخل في خبر إن، وإن تضمن
اسمها معنى الشرط؛ لأنه قد نسخ بدخول إن عليه، ومنهم
سيبويه، والأخفش، وذهب غيرهما إلى أن ما يتضمنه المبتدأ
من معنى الشرط لا يتنسخ بدخول إن عليه، ومثل المكسورة
المفتوحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا إِنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: 41]. وقوله: ﴿حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾
قد تقدم تفسير الإحباط، ومعنى كونها حبطت في الدنيا،
والآخرة أنه لم يبق لحسناتهم أثر في الدنيا، حتى يعاملوا
فيها معاملة أهل الحسنات، بل عوملوا معاملة أهل السيئات،
فلعنوا وحل بهم الخزي، والصغار، ولهم في الآخرة عذاب
النار. قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾
فيه تعجيب لرسول الله ﷺ، ولكل من تصح منه الرؤية من
حال هؤلاء، وهم أحبار اليهود. والكتاب: التوراة، وتذكير
النصيب للتعظيم، أي: نصيباً عظيماً، كما يفيد مقام المبالغة،
ومن قال: إن التنكير للتحقير، فلم يصب، فلم ينتفعوا بذلك،
وذلك بأنهم يدعون إلى كتاب الله الذي أُوتوا نصيباً منه، وهو
التوراة: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرْقَانَهُمْ﴾ والحال
أنهم معرضون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه مع علمهم به،
واعترافهم بوجوب الإجابة إليه، و ﴿لَكُمْ﴾ إشارة إلى ما مر
من التولي، والإعراض بسبب ﴿أَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ
إِلَّا إِنَّمَا مَعْدُونَاتٌ﴾ وهي: مقدار عبادتهم العجل. وقد تقدم
تفسير ذلك: ﴿وَوُغِرْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من
الأكانيب التي من جملتها هذا القول. قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا
جُمِعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو: رد عليهم، وإبطال لما
غرمهم من الأكانيب، أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم
ليوم لا ريب فيه، وهو يوم الجزاء الذي لا يرتاب مرتاب في
وقوعه، فإنهم يوقعون لا محالة، ويعجزون عن دفعه بالحيل،
والأكانيب ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما
كسبت على حنف المضاف ﴿وَهُمْ لَا يُلَاحِظُونَ﴾ بزيادة، ولا
نقص. والمراد كل الناس المنلول عليهم بكل نفس. قال
الكسائي: اللام في قوله: ﴿لِيَوْمٍ﴾ بمعنى في، وقال
البصريون: المعنى لحساب يوم. وقال ابن جرير الطبري

وتعز من تشاء وتذل من تشاء إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[آل عمران: 26، 27] هن معلقات بالعرش ما بينهن، وبين
الله حجاب، يقلن يا رب تهبطنا إلى أرضك، وإلى من
يعصيك؟ قال الله: إني خلقت لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر
كل صلاة إلا جعلت الجنة ماواه على ما كان منه، وإلا
أسكنته حظيرة القدس، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة كل
يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة
أنهاها المغفرة، وإلا اعتنته من كل علو، ونصرت منه.
وأخرج الديلمي في مسند الفردوس، عن أبي أيوب
الأنصاري مرفوعاً نحوه، وفيه: «لا يملؤكن عيد دبر كل
صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان منه، وأسكنته جنة
الفردوس، ونظرت إليه كل يوم سبعين مرة، وقضيت له
سبعين حاجة أنهاها المغفرة». وأخرج أحمد، وابن أبي
حاتم، والطبراني، وابن السني، عن الزبير بن العوام قال:
«سمعت رسول الله ﷺ، وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فقال: وأنا على ذلك
من الشاهدين، ولغظ الطبراني «وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت
العزیز الحكيم». وأخرج ابن عدي، والطبراني في الأوسط،
والبيهقي في شعب الإيمان، وضعفه، والخطيب في تاريخه،
وابن النجار عن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة،
فنزلت قريباً من الأعمش. فلما كان ليلة أريت أن أنحدر قام،
فتنهجد من الليل، فمر بهذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فقال: وأنا
أشهد بما شهد به الله، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي
وديعة عند الله، قالها مراراً، فقلت: لقد سمع فيها شيئاً،
فسألته فقال: حدثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول
الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله: عبيدي عهد
إلي، وأنا أحق من وفي بالعهد أنخلوا عبيدي الجنة». وأخرج
ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ
لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال: بنو إسرائيل. وأخرج ابن جرير،
عن أبي العالية في قوله: ﴿بِغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ يقول: بغيا على
الدنيا، وطلب ملكها، وسلطانها، فقتل بعضهم بعضاً على
الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس. وأخرج ابن أبي حاتم،
عن الحسن في قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ قال: إن حاجك
اليهود، والنصارى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج،
ونحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن
ابن عباس: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال: لليهود،
والنصارى ﴿وَالْأَمِينُ﴾ قال: هم: الذين لا يكتبون.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ الَّذِينَ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٤﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي أَلْبَابِهِمْ وَأَخْرَجَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نُصْرَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ تَرَى إِلَى إِلَهِكَ أُولُوا تَيْبٍ مِنَ الْحَكِيمَةِ يَفْعَلُونَ إِنْ كُنْ
اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرْقَانَهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ وَأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ

المعنى لما يحدث في يوم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي عبيدة بن الجراح: «قلت يا رسول الله أي الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً، أو رجلاً أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أوّل النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل وسبعون رجلاً من عباد بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوه عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين نكر الله». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: بعث عيسى يحيى بن زكريا في اثني عشر رجلاً من الحواريين يعلمون الناس، فكان ينهي عن نكاح بنت الأخ، وكان ملك له بنت أخ تعجبه، فأرادها، وجعل يقضي لها كل يوم حاجة، فقالت لها أمها: إذا سالك عن حاجة، فقولني حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا، فقال: سلي غير هذا، فقالت: لا أسالك غير هذا، فلما أبت أمر به، فذبح في طست، فبدرت قطرة من دمه، فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر، فلدت عجوز عليه، فالتقى في نفسه أن لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم، فقتل في يوم واحد من ضرب واحد وسن واحد سبعين ألفاً فسكن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن معقل بن أبي مسكين في الآية قال: كان الوحي يأتي بني إسرائيل، فيذكرون قومهم، ولم يكن يأتيهم كتاب، فيقوم رجال ممن اتبعهم، وصدقهم، فيذكرون قومهم، فيقتلون فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، نحوه. وأخرج ابن عساکر، عن ابن عباس، قال: الذين يأمرون بالقسط من الناس: ولاة العدل. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أتيت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم، وبينه، قال: فإن إبراهيم كان يهودياً قال لهما النبي ﷺ: فهلما إلى التوراة، فهي بيننا، وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكَ الْوَالِدِينَ﴾ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله﴾ الآية». وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك في قوله: ﴿نَصِيباً﴾ قال: خطأ ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال: التوراة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في قوله: ﴿قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ قال: يعنون الأيام التي خلق الله فيها آدم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَعَزَّاهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ حين قالوا نحن أبناء الله، وأحباءه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعني توفي كل نفس بر، أو فاجر ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ ما عملت من خير، أو شر ﴿وَهُمْ لَا

يظلمون﴾ يعني: من أعمالهم.

قُلِ اللَّهُمَّ مِلَّةَ الْكَلْبِ قَوْلُ الْكَلْبِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنَزَّ الْكَلْبُ وَمَنْ تَشَاءُ وَبَرِّ مَنْ تَشَاءُ وَتَشَدُّ مَنْ تَشَاءُ بِرَكَ الْكَلْبِ إِلَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٣﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّتِ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَرْفَعُ مَنْ تَشَاءُ بِمَنْزِلٍ جَابِ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ قال الخليل، وسيبويه، وجميع البصريين: إن أصل اللهم يا الله، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذي هو «يا» جعلوا ببله هذه الميم المشددة، فجاءوا بحرفين، وهما الميمان عوضاً من حرفين، وهما الياء والألف، والضمة في الهاء هي: ضمة الاسم المنادي المفرد. وذهب الفراء، والكوفيون إلى أن الأصل في اللهم يا الله أمنا بخير. فحذف، وخلط الكلمتان؛ والضمة التي في الهاء هي: الضمة التي كانت في أمنا لما حذفت الهمزة انتقلت الحركة. قال النحاس: هذا عند البصريين من الخطأ العظيم، والقول في هذا ما قاله الخليل، وسيبويه، قال الكوفيون، وقد يدخل حرف النداء على اللهم، وأنشدوا في ذلك قول الرازي:

غفرت أو عذبت يا اللهما

وقول الآخر:

وما عليك أن تقول كلماً سبحت أو هللت يا اللهما

وقول الآخر:

إنسي إذا ما حلت المأوى أقول يا اللهم يا اللهما قالوا: ولو كان الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتمعتا. قال الزجاج: وهذا شاذ لا يعرف قائله. قال النضر بن شميل: من قال اللهم، فقد دعا الله بجميع أسمائه. قوله: ﴿مَالِكُ الْمَلِكِ﴾ أي: مالك جنس الملك على الإطلاق، ومالك منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان، أي: يا مالك الملك، ولا يجوز عنده أن يكون، وصفاً لقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾ لأن الميم عنده تمنع الوصفية. وقال محمد بن يزيد المبرد، وإبراهيم بن السري الزجاج: إنه صفة لاسم الله تعالى، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: 46]. قال أبو علي الفارسي: وهو مذهب المبرد، وما قاله سيبويه أصوب، وأبين، وذلك لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت، والأصوات لا توصف نحو غاق، وما أشبهه. قال الزجاج: والمعنى مالك العباد، وما ملكوا، وقيل: المعنى مالك الدنيا، والآخرة، وقيل: الملك هنا: النبوة، وقيل: الغلبة، وقيل: المال والعبد، والظاهر شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص ﴿تَوْتِي الْمَلِكُ مِنْ تَشَاءٍ﴾ أي: من تشاء إيتاءه إياه ﴿وَتَنْزَعُ الْمَلِكُ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ نزعه منه. والمراد بما يؤتيه من الملك، وينزعه هو نوع من أنواع تلك الملك العام. قوله: ﴿وَتَعَزَّ مِنْ تَشَاءٍ﴾ أي: في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما، يقال عز: إذا غلب، ومنه: ﴿وعزني في الخطاب﴾ [ص: 23]. وقوله: ﴿وَتَنْزَلُ مِنْ تَشَاءٍ﴾ أي: في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما، يقال نزل: ينزل ذلاً: إذا غلب وقهر. وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ تقديم الخبر للخصيص، أي: بيدك الخير لا بيد غيرك، ونكر الخير دون

وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: «تخرج الحي من الميت» قال: تخرج النطفة الميتة من الحي، ثم تخرج من النطفة بشراً حياً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة «تخرج الحي من الميت» قال: هي البيضة تخرج من الحي، وهي ميتة، ثم يخرج منها الحي. وأخرج ابن جرير عنه قال: النخلة من النواة، والنواة من النخلة، والحب من السنبل، والسنبل من الحبة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن قال: المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. والمؤمن عبد حي الفؤاد، والكافر عبد ميت الفؤاد. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن سلمان الفارسي، نحوه. وأخرج ابن مريويه، عنه مرفوعاً نحوه، وأخرجه أيضاً عنه، أو عن ابن مسعود، مرفوعاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن عبيد الله بن عبد الله: «أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث دخلت على النبي ﷺ، فقال: من هذه؟ قيل: خالدة بنت الأسود، قال: سبحان الذي يخرج الحي من الميت، وكانت امرأة سالحة، وكان أبوها كافراً. وأخرج ابن سعد، عن عائشة مثله.

لَا يَتَخَذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأَنَّهُ يَتَّخِذُ اللَّهَ تَعَالَى أَعْدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا قُلْ إِنَّمَا يَتَخَفَتُهُ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا لَمْ يَحْصُرْ وَمَا يُبْدُوهُ يَخَافُهُ اللَّهُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا يَنْصُرُهُمْ أَوْلِيَاءُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ يَبْهَتُونَ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِعُونَ عِلْمًا إِنَّهُمْ إِلَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدْرِكُهُ الْغُيُوبُ

قوله: «لا يتخذ» فيه النهي للمؤمنين عن موالة الكفار لسبب من الأسباب، ومثله قوله تعالى: «لا تتخذوا بطانة من دونكم» [آل عمران: 118] الآية، وقوله: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم» [المائدة: 51]، وقوله: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله» [المجادلة: 22] الآية، وقوله: «لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء» [المائدة: 51]، وقوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء» [المتحنة: 1] وقوله: «ومن يول المؤمنين» في محل الحال، أي: متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالاً، أو اشتراكاً، والإشارة بقوله: «ومن يفعل ذلك» إلى الاتحاد الملل عليه بقوله: «لا يتخذ» ومعنى قوله: «فليس من الله في شيء» أي: من ولايته في شيء من الأشياء، بل هو منسلخ عنه بكل حال. قوله: «إلا أن تتقوا منهم تقاة» على صيغة الخطاب بطريق الالتفات، أي: إلا أن تخافوا منهم أمراً يجب اتقاؤه وهو: استثناء مفرغ من أعم الأحوال. وتقاة مصدر واقع موقع المفعول، وأصلها وقية على وزن فعلة قلبت الواو تاء، والياء ألفاً، وقرأ رجاء، وقتادة تقيّة. وفي ذلك دليل على جواز

الشر؛ لأن الخير بفضل محض بخلاف الشر، فإنه يكون جزاء لعمل وصل إليه، وقيل: لأن كل شر من حيث كونه من قضائه سبحانه هو: متضمن للخير، فافعله كلها خير، وقيل: إنه حذف، كما حذف في قوله: «سراييل تقيكم الحر» [النحل: 81] وأصله بينك الخير والشر، وقيل: خص الخير؛ لأن المقام مقام دعاء. قوله: «إنك على كل شيء قدير» تعليل لما سبق، وتحقيق له. قوله: «وتولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل» أي: تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر، وقيل: المعنى تعاقب بينهما، ويكون زوال أحدهما ولو جاً في الآخر. قوله: «وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي» قيل: المراد: إخراج الحيوان، وهو حي من النطفة، وهي ميتة، وإخراج النطفة، وهي ميتة من الحيوان، وهو حي، وقيل المراد: إخراج الطائر، وهو حي من البيضة، وهي ميتة، وإخراج البيضة، وهي ميتة من الدجاجة، وهي حية، وقيل المراد: إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. قوله: «بغير حساب» أي: بغير تضيق، ولا تقتير، كما تقول فلان يعطي بغير حساب، والباء متعلقة بمحذوف وقع حالاً.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: نكر لنا أن نبي الله ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس، والروم في أمته، فنزلت الآية. وأخرج الطبراني، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: اسم الله الأعظم «قل اللهم مالك الملك» إلى قوله: «بغير حساب» وأخرج ابن أبي الدنيا، والطبراني، عن معاذ أنه شكاً إلى النبي ﷺ ديناً عليه، فعلمه أن يتلو هذه الآية، ثم يقول: رحمن الدنيا، والآخرة، ورحيمهما، تعطي من تشاء منها، وتمنع من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك، اللهم أغنني من الفقر، واقض عني الدين». وأخرجه الطبراني في الصغير من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل لدنيا لاداه الله عنك» فنكره، وإسناده جيد، وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: «شهد الله أنه لا إله إلا هو» [آل عمران: 18] بعض فضائل هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «نؤتي الملك من تشاء» قال: النبوة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود في قوله: «وتولج الليل في النهار» الآية، قال: تأخذ الصيف من الشتاء، وتأخذ الشتاء من الصيف «وتخرج الحي من الميت» تخرج الرجل الحي من النطفة الميتة «وتخرج الميت من الحي» تخرج النطفة الميتة من الرجل الحي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس «وتولج الليل في النهار» قال: ما نقص من النهار تجعله في الليل، وما نقص من الليل تجعله في النهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك، نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر،

للكافرين ﴿إلى قوله: ﴿والله على كل شيء قدير﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طرق عنه قال: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، ويتخنوهم، وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللطف، ويخلفونهم في الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ فقد برئ الله منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن تتقوا منه تقاة﴾ قال: التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به، وهو معصية الله، فيتكلم به مخافة الناس، وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن ذلك لا يضره، إنما التقية باللسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عنه في الآية قال: التقاة التكلم باللسان، والقلب مطمئن بالإيمان، ولا يمسط يده، فيقتل، ولا إلى إثم، فإنه لا عذر له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في الآية قال: التقية باللسان، وليس بالعمل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قال إلا أن يكون بينك وبينه قرابة، فتصله لذلك. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، عن الحسن قال: التقية جائزة إلى يوم القيامة. وحكى البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: إنا نبش في وجوه أقوام، وقلوبنا تلعنهم، ويدل على جواز التقية، قوله تعالى: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً، فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم﴾ [النحل: 106]. ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء، والضحاك، والربيع بن أنس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿قل إن تخفوا﴾ الآية قال: أخبرهم أنه يعلم ما أسروا، وما أعلنوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله محضراً، يقول موفراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: يسر أحنكم أن لا يلقي عمله ذلك أبداً، يكون ذلك مناه. وأما في الدنيا، فقد كانت خطيئته يستلذها، وأخرج أيضاً، عن السدي: ﴿أمدأ بعيداً﴾ قال: مكاناً بعيداً. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج أمدأ قال: أجلاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ قال: من رافته بهم حذرهم نفسه.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بِغَيْرِهَا مِنْ بَنِي إِسْرَافِيلَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

الحب، والمحبة ميل النفس إلى الشيء، يقال: أحبه، فهو محبٌ، وحبه يحبه بالكسر، فهو محبوب. قال الجوهري: وهذا شاذ؛ لأنه لا يأتي في المضاعف يفعل بالكسر. قال ابن

الموالاة لهم مع الخوف منهم، ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً. وخالف في ذلك قوم من السلف، فقالوا: لا تقية بعد أن أعز الله الإسلام. قوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي ذاته المقدسة، وإطلاق ذلك عليه سبحانه جائز في المشكلة، كقوله: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسي﴾ [المائدة: 116] وفي غيرها. وذهب بعض المتأخرين، إلى منع ذلك إلا مشكلة. وقال الزجاج: معناه: ويحذركم الله إياه، ثم استغنوا عن ذلك بهذا، وصار المستعمل. قال: وأما قوله: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسي﴾ فمعناه تعلم ما عندي، وما في حقيقتي، ولا أعلم ما عندي، ولا ما في حقيقتك، وقال بعض أهل العلم: معناه: ويحذركم الله عقابه مثل ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: 82] فجعلت النفس في موضع الإضمار، وفي هذه الآية تهديد شديد، وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه. قوله: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم﴾ الآية فيه أن كل ما يضره العبد، ويخفيه، أو يظهره، ويبيئه، فهو معلوم لله سبحانه، لا يخفى عليه منه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة: ﴿ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ مما هو أعم من الأمور التي يخفونها، أو يبدونها، فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك. قوله: ﴿يوم تجد﴾ منصوب بقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ وقيل: بمحذوف، أي: انكروا، و﴿محضراً﴾ حال، وقوله: ﴿وما عملت من سوء﴾ معطوف على ما الأولى أي: وتجد ما عملت من سوء محضراً تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. فحنف محضراً لدلالة الأول عليه، وهذا إذا كان «تجد» من وجدان الضلالة، وأما إذا كان من وجد بمعنى علم كان محضراً، هو المفعول الثاني، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ جملة مستأنفة، ويكون «ما» في ما عملت مبتدأ، ويؤد خبره. والأمد: الغاية، وجمعه آماد أي: تود لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً، وقيل: إن قوله: ﴿يوم تجد﴾ منصوب بقوله: ﴿تود﴾ والضمير في قوله: ﴿وبينه﴾ لليوم، وفيه بعد، وكرر قوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ للتأكيد، وللاستحضار ليكون هذا التهديد العظيم على ذكر منهم، وفي قوله: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفاً بهم. وما أحسن ما يحكي عن بعض العرب أنه قيل له: إنك تموت، وتبعث، وترجع إلى الله فقال: أتهدونني بمن لم أر الخير قط إلا منه.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق، وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الانصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر، وعبد الله بن جبير، وسعد بن خثمة، لاولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود، واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فابى اولئك النفر، فانزل الله فيهم: ﴿لا يتخذ المؤمنون

يحببكم الله قال: على البر، والتقوى، والتواضع، ونلة النفس. وأخرجه أيضاً الحكيم الترمذي، وأبو نعيم، والديلمي، وابن عساكر عنه. أخرج ابن عساكر، مثله عن عائشة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، وإنه أن يحب على شيء من الجور، ويبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب، والبغض في الله قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَلْ إِبْرَاهِيمَ وَأَلْ عِمْرَانَ﴾ قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ذَرِيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ قال: في النية، والعمل، والإخلاص، والتوحيد.

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَقَبَّلَ رَبُّهُ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْغَلِيظُ ﴿١٩٠﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَيِّئَةٌ زَمِيرٌ وَلَئِنِّي لَأُبْرَأُ بِكَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنَ الْكَفَرِ الْبَاقِي ﴿١٩١﴾ فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولِ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا وَكَلَّمَهَا زَكَاةً كَمَا نَحَلَ عَلَيْهَا زَكَاةَ الْوَحَرَاءِ وَبَدَّ عِنْدَهَا رُفْقًا قَالَ يَدْرَأُ أَنَّ لِلرَّبِّ مَدَدًا قَالَتْ هُوَ مِنْ جِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِمَنْزَرٍ حَسَبِ ﴿١٩٢﴾

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ قال أبو عمرو: «إذ» زائدة. وقال محمد بن يزيد: إنه متعلق بمحذوف تقديره انكر إذ قالت. وقال الزجاج: هو متعلق بقوله: ﴿اصْطَفَى﴾ وقيل: متعلق بقوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وامرأة عمران اسمها حنة بالحاء المهملة، والنون، بنت فاقود بن قبييل أم مريم، فهي جدة عيسى. وعمران هو ابن ماثان جد عيسى. قوله: ﴿رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ تقديره الجار، والمجرور، لكمال العناية، وهذا النذر كان جائزاً في شريعتهم. ومعنى: ﴿لَكَ﴾ أي: لعبابتك. ومحذوف منصوب على الحال، أي: عتيقاً خالصاً لله خالصاً للكنيسة. والمراد هنا: الحرية التي هي ضد العبودية. وقيل: المراد بالحرر هنا الخالص لله سبحانه الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا. ورجح هذا بأنه لا خلاف أن عمران، وامراته حران. قوله: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ التقبل أخذ الشيء على وجه الرضا، أي: تقبل مني نذري بما في بطني. قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ اللتانيت باعتبار ما علم من المقام أن الذي في بطنها أنثى، أو لكونه أنثى في علم الله، أو بتأويل ما في بطنها بالنفس، أو النسمة، أو نحو ذلك. قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّي إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ إنما قالت هذه المقالة؛ لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكر دون الأنثى، فكانها تحسرت، وتحزنت لما فاتها من ذلك الذي كانت ترجوه، وتقدره، وأنثى حال مؤكدة من الضمير، أو بدل منه. قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قرأ أبو بكر، وابن عامر بضم التاء، فيكون من جملة كلامها، ويكون متصلاً بما قبله، وفيه معنى التسليم لله، والخضوع، والتذرية له أن يخفى عليه شيء. وقرأ

الدهان: في حب لغتان حب وأحب، وأصل حب في هذا الباب حب كطرق، وقد فسرت المحبة لله سبحانه بإرادة طاعته. قال الأزهري: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما، وإتباعه أمرهما، ومحبة الله للعبد إنعامه عليهم بالفقران. وقرأ أبو رجاء العطاردي: «فاتبعوني» بفتح الباء. وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه ادغم الراء من يغفر في اللام. قال النحاس: لا يجيز الخليل، وسيبويه إدغام الراء في اللام، وأبو عمرو أجل من أن يغلط في هذا، ولعله كان يخفي الحركة، كما يفعل في أشياء كثيرة. قوله: ﴿قُلْ اطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في جميع الأوامر، والنواهي. قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل أن يكون من تمام مقول القول، فيكون مضارعاً حذف فيه إحدى التاءين، أي: تتولوا، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى، فيكون ماضياً. وقوله: ﴿فَإِنْ اللَّهَ لَا يَحِبُّ لِلْكَافِرِينَ﴾ نفي المحبة كناية عن البغض، والسخط. ووجه الإظهار في قوله: ﴿فَإِنْ اللَّهَ﴾ مع كون المقام مقام إضمار لقصد التعظيم، أو التعميم. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ الخ لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضي هو: الإسلام، وأن محمداً ﷺ، هو الرسول الذي لا يصح لأحد أن يحب الله إلا بإتباعه، وإن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغي عليه، والحسد له، شرع في تقرير رسالة النبي ﷺ، وبين أنه من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة. والاصطفاء الاختيار. قال الزجاج: اختارهم بالنبوة على عالمي زمانهم، وقيل: إن الكلام على تقدير مضاف، أي: اصطفى دين آدم الخ، وقد تقدم الكلام على تفسير العالمين، وتخصيص آدم بالذكر؛ لأنه أبو البشر، وكذلك نوح، فإنه آدم الثاني، وأما آل إبراهيم، فلكون النبي ﷺ منهم مع كثرة الأنبياء منهم. وأما آل عمران فهم، وإن كانوا من آل إبراهيم، فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه. وقيل المراد: بآل إبراهيم إبراهيم، نفسه، وبآل عمران عمران نفسه. قوله: ﴿ذَرِيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ نصب ذرية على البلية مما قبله قاله الزجاج، أو على الحالية قاله الاخفش، وقد تقدم تفسير الذرية، وبعضها من بعض في محل نصب على صفة للذرية، ومعناه متناصلة متشعبة، أو متناصرة متعاضدة في الدين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن من طرق قال: قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ: والله يا محمد إنا لنحب ربنا، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية. وأخرج الحكيم الترمذي عن يحيى بن كثير نحوه. وأخرج أيضاً ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: إن كان هذا من قولكم في عيسى حباً لله، وتعظيماً له: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم: أي: ما مضى من كفركم بالله غفور رحيم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾

أيضاً: «وأنبتتها» بإسكان التاء «وكفلها» بتشديد الفاء المكسورة، وإسكان اللام، ونصب «زكريا» مع المد. وقرأ حفص، وحمة، والكسائي: «زكريا» بغير مد، ومده الباقون، وقال القراء: أهل الحجاز يمدون زكريا، ويقصرونه. قال الأخفش: فيه لغات المد، والقصر، وزكري بتشديد الياء، وهو ممتنع على جميع التقابير للعجمة، والتعريف مع الف التانيث. قوله: ﴿كَلِمًا يَخْلُ عَلَيْهَا زَكْرِيَا الْمِحْرَابِ﴾ قَدَّمَ الظرف للاهتمام به، وكلمة كل ظرف، والزمان محذوف، وما مصدرية، أو نكرة موصوفة، والعامل في ذلك قوله: ﴿وَوَجَدَ أَيُّ كُلِّ زَمَانٍ لَخَوْلُهَا عَلَيْهَا، وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا أَيُّ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ. وَالْمِحْرَابِ فِي اللُّغَةِ: أَكْرَمُ مَوْضِعٍ فِي الْمَجْلِسِ قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ، وَهُوَ: مَنْصُوبٌ عَلَى التَّوَسُّعِ، قِيلَ: إِنْ زَكْرِيَا جَعَلَ لَهَا مِحْرَابًا: لَا يَرْتَقِي إِلَيْهِ إِلَّا بِسَلَمٍ، وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا حَتَّى كَبُرَتْ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا وَجَدَ عِنْدَهَا فَاكْهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكْهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، فَقَالَ: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لَكَ هَذَا﴾ أَيُّ: مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ لَكَ هَذَا الرِّزْقُ الَّذِي لَا يَشْبَهُ أَرْزَاقَ الدُّنْيَا ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَجِيبٍ، وَلَا مُسْتَنَكِرٍ، وَجُمْلَةُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تَعْلِيلِيَّةٌ لِمَا قَبْلُهَا، وَهُوَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِهَا، وَمِنْ قَالِ إِنَّهُ مِنْ كَلَامِ زَكْرِيَا، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ مُسْتَانَفَةً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قال: كانت نذرت أن تجعله في الكنيسة يتعبد بها، وكانت ترجو أن يكون نكراً. وأخرج ابن المنذر عنه قال: نذرت أن تجعله محرراً للعبادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿مُحَرَّرًا﴾ قال: خالماً للبيعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: محرراً خالصاً لا يخالطه شيء من أمر الدنيا، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهلّ صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم، وإبناها، ثم يقول أبو هريرة: أقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أَعْيِذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾» وللحديث الفاظ عن أبي هريرة هذا أحدها، وروى من حديث غيره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: كفّلها زكريا، فدخل عليها المحراب، فوجد عندها عنباً في مكتل في غير حينه، فقال: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، قال: إن الذي يرزقك العنب في غير حينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولداً ﴿هَذَاكَ دَعَا زَكْرِيَا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: 38]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: كانت مريم ابنة سيدهم، وإمامهم، فتشاح عليها إخبارهم، فاقترعوا فيها بسامهم أيهم يكفلها، وكان زكريا زوج أختها، فكفلها، وكانت عنده، وحضنها. وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَكَفَّلَهَا

الجمهور وضعت، فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته، والتفخيم لشأنه، والتجليل لها حيث وقع منها التحسر، والتحنن: مع أن هذه الأنثى التي وضعتها سيّجها الله، وإبناها آية للعالمين، وعبرة للمعتبرين، ويختصها بما لم يختص به أحداً. وقرأ ابن عباس: «بما وضعت» بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها، أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب، وما علم الله فيه من الأمور التي تنقاصر عنها الأفهام، وتتضافر عندها العقول. قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ أي: وليس الذكر الذي طلبت، كالأنثى التي وضعت، فإن غاية ما أُرُت من كونه نكراً أن يكون نكراً خادماً للكنيسة، وأمر هذه الأنثى عظيم، وشأنها فخم. وهذه الجملة اعتراضية مبينة لما في الجملة الأولى من تعظيم الموضوع، ورفع شأنه، وعلو منزلته، واللام في الذكر، والأنثى للمعهد، هذا على قراءة الجمهور، وعلى قراءة ابن عباس، وأما على قراءة أبي بكر، وابن عامر، فيكون قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ من جملة كلامها، ومن تمام تحسرها، وتحزنها، أي: ليس الذكر الذي أُرُت أن يكون خادماً، ويصلح للنذر كالأنثى التي لا تصلح لذلك، وكأنها أعذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصت. قوله: ﴿وَإِنِّي سَمِّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿وَإِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنى اسمها، فإن معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي، وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات. قوله: ﴿وَإِنِّي أَعْيِذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِنِّي سَمِّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، والرجيم المطرود، وأصله المرمى بالحجارة، طلبت الإعانة لها، ولولدها من الشيطان، وأعوانه. قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: رضي بها في النذر، وسلك بها مسلك السعداء. وقال قوم: معنى التقبل التكفل، والتربية، والقيام بشأنها، والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق، والباء زائدة، والأصل قبلاً، وكذلك قوله: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وأصله إنباتاً، فحذف الحرف الزائد، وقيل: هو مصدر لفعل محذوف، أي: فنبتت نباتاً حسناً. والمعنى أنه سوّى خلقها من غير زيادة، ولا نقصان، قيل: إنها كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام، وقيل: هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَا﴾ أي: ضمها إليه. وقال أبو عبيدة ضمن القيام بها. وقرأ الكوفيون: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بالتشديد، أي: جعله الله كافلاً لها، وملتزماً بمصالحها، وفي معناه ما في مصحف أبي، وكفلها، وقرأ الباقون بالتخفيف على إسناد الفعل إلى زكريا، ومعناه ما تقدّم من كونه ضمها إليه، وضمن القيام بها. وروى عمرو بن موسى، عن عبد الله بن كثير، وأبي عبد الله المزني، وكفلها بكسر الفاء. قال الأخفش: لم أسمع كفل. وقرأ مجاهد: «فتقبلها» بإسكان اللام على المسألة، والطلب، ونصب ربها على أنه منادى مضاف. وقرأ

زكريا قال: جعلها معه في محرابه.

هَذَا لَكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ مُصَدِّقًا لِمَقْرُورٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الْمَكِيلِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَقَعُ مَا يُنْهَى ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَوْجًا وَذَكَرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْغَيْثِ وَالْإِبْكَارِ ﴿٢١﴾ وَذَاقَ قَائِلُ الْمَلَكَةِ يَمْرُومَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَلَاكِ عَلَى يَسَاءِ الْمَكِيلِينَ ﴿٢٢﴾ يَتَرَبَّصُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَفَلَهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَوِمُونَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿هَذَا لَكَ﴾ ظرف يستعمل للزمان، والمكان، وأصله للمكان، وقيل: إنه للزمان خاصة، وهناك للمكان، وقيل: يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر، واللام للدلالة على البعد، والكاف للخطاب. والمعنى أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم، أو في ذلك الزمان أن يهب الله له ذرية طيبة، والذي بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنة لمريم، وقد كانت عاقراً، فحصل له رجاء الولد، وإن كان كبيراً، وامراته عاقراً، أو بعثه على ذلك ما رآه من فلكة الشتاء في الصيف، والصيف في الشتاء عند مريم؛ لأن من أوجد ذلك في غير وقته يقدّر على إيجاد الولد من العاقر، وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سبقت في غرضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط، والنزرة النسل يكون للواحد، ويكون للجمع، ويدل على أنها هنا للواحد. قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ولم يقل أولياء، وتأنيت طيبة لكون لفظ الذرية مؤنثاً. قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي: ﴿فَنَادَاهُ﴾، وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود. وقرأ الباقر: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ﴾، قيل: المراد هنا جبريل، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد، جائز في العربية، ومنه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: 173]؛ وقيل: ناداه جميع الملائكة، وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع والمعنى الحقيقي مقدّم، فلا يصار إلى المجاز إلا لقرينة. قوله: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ﴾ جملة حالية، و﴿يَصِلِي فِي الْمِحْرَابِ﴾ صفة لقوله: ﴿قَائِمٌ﴾ أو خبر ثان لقوله: ﴿وَهُوَ﴾. قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبَشِّرُكَ﴾ قرئ بفتح أن، والتقدير بأن الله، وقرئ بكسرهما على تقدير القول. وقرأ أهل المدينة يبشرك بالتشديد. وقرأ حمزة بالتخفيف. وقرأ حميد بن قيس المكي بكسر الشين، وضم حرف المضارعة. قال الأخفش: هي ثلاث لغات بمعنى واحد، والقراءة الأولى هي التي وردت كثيراً في القرآن، ومنه: ﴿يَبْشُرُ عَبْدًا﴾ [الزمر: 17] ﴿يَبْشُرُهُمْ بِمَغْفِرَةٍ﴾ [يس: 11] ﴿يَبْشُرُنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: 71] ﴿قَالُوا بِشْرُنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: 55] وهي قراءة الجمهور. والثانية لغة أهل تهامة، وبها قرأ أيضاً

عبد الله بن مسعود، والثالثة من أبشر يبشر بإشاراً. ويحيى ممتنع إما لكونه أعجمياً أو لكون فيه وزن الفعل، كيتمر مع العلمية. قال القرطبي حاكياً عن النقاش: كان اسمه في الكتاب الأول حنا. انتهى. والذي رأيته في مواضع من الإنجيل أنه يوحنا، قيل: سمي بذلك؛ لأن الله أحياه بالإيمان، والذبيّة، وقيل: لأن الله أحيا به الناس بالهدى، والمراد هنا: التبشير بولادته، أي: يبشرك بولادة يحيى. وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، وسمي كلمة الله؛ لأنه كان بقوله سبحانه كن، وقيل: سمي كلمة الله؛ لأن الناس يهتدون به، كما يهتدون بكلام الله. وقال أبو عبيد: معنى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ بكتاب من الله، قال: والعرب تقول أنشدني كلمته، أي: قصيدته، كما روي أن الحويردة نكر لحسان، فقال: لعن الله كلمته، يعني قصيدته. انتهى. ويحيى أول من آمن بعيسى، وصنق، وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين، وقيل: بستة أشهر. والسيد: الذي يسود قومه، قال الزجاج: السيد الذي يفوق أقرانه في كل شيء من الخير. والحصور أصله من الحصر، وهو الحبس، يقال حصرني الشيء، وأحصرتني: إذا حسنتي، ومنه قول الشاعر: وما هجر ليلى أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغل والحصور: الذي لا يأتي النساء، كأنه يحجم عنهن، كما يقال رجل حصور، وحصير: إذا حبس رفده، ولم يخرج، فيحصى عليه السلام كان حصوراً عن إتيان النساء، أي: محصوراً لا يأتيهن، كغيره من الرجال، إما لعدم القدرة على ذلك، أو لكونه يكف عنهن منعاً لنفسه عن الشهوة مع القدرة. وقد رجّح الثاني بأن المقام مقام مدح، وهو لا يكون إلا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه، لا على ما كان من أصل الخلقة، وفي نفس الجيلة. وقوله: ﴿مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ أي: ناشئاً من الصالحين، لكونه من نسل الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130]. قال الزجاج: الصالح الذي يؤدي لله ما افترض عليه، وإلى الناس حقوقهم. قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لَنَلْبِسُنَّ لِبَاسًا يَكُونُ لِي غِلَامًا﴾ ظاهر هذا أن الخطاب منه لله سبحانه، وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملائكة، وذلك لمزيد التضرّع، والجذ في طلب الجواب، عن سؤاله، وقيل: إنه أراد بالرب جبريل، أي: يا سيدي، قيل: وفي معنى هذا الاستفهام، وجهان: أحدهما أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر، أو من غيرها؟ وقيل: معناه بأي سبب استوجب هذا، وأنا، وامراتي على هذه الحال؟ والحاصل أنه استبعد حدوث الولد منهما مع كون العادة قاضية بأنه لا يحدث من مثلهما؛ لأنه كان يوم التبشير كبيراً، قيل: في تسعين سنة، وقيل: ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأته في ثمان وتسعين سنة، ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ بَلَّغْنِي الْكِبَرَ﴾ أي: والحال ذلك، جعل الكبير، كالطالب له لكونه طليعة من طلائع الموت، فأسند الفعل إليه. والعاقر: التي لا تلد، أي: ذات عقر على النسب، ولو كان على الفعل

سبق من الأمور التي أخبره الله بها. والوحي في اللغة: الإعلام في خفاء، يقال وحي، وأوحى بمعنى. قال ابن فارس: الوحي الإشارة، والكتابة، والرسل، وكل ما ألقته إلى غيرك حتى تعلمه. قوله: ﴿وَمَا كُنْتُ لِيهِمْ﴾ أي: تحضرهم يعني المتنازعين في تربية مريم، وإنما نفى حضوره عندهم مع كونه معلوماً، لأنهم أنكروا الوحي، فلو كان ذلك الإنكار صحيحاً لم يبق طريق للعلم به إلا المشاهدة، والحضور، وهم لا يدعون ذلك، فثبت كونه، وحيّاً مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة، ولا ممن يلبس أهلها. والأقلام جمع قلم، من قلمه إذا قطعه، أي: أقلامهم التي يكتبون بها، وقيل: قداحهم. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: يحضنها، أي: يلقون أقلامهم؛ ليعلموا أيهم يكفلها، وذلك عند اختصامهم في كفالتها، فقال زكريا: هو أحق بها لكون خالتها عنده، وهي أشيع أخت حنة أم مريم، وقال بنو إسرائيل: نحن أحق بها لكونها بنت عالمنا، فافتزعوا، وجعلوا أقلامهم في الماء الجاري على أن من وقف قلمه، ولم يجر مع الماء، فهو صاحبها، فجرت أقلامهم، ووقف قلم زكريا، وقد استدل بهذا من أثبت القرعة، والخلاف في ذلك معروف، وقد ثبتت أحاديث صحيحة في اعتبارها.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما رأى زكريا ذلك، يعني فأكفه الصيف في الشتاء، وفأكفه الشتاء في الصيف، عند مريم قال: إن الذي أتى بهذا مريم في غير زمانه قاصر أن يرزقني ولداً، فذلك حين دعا ربه. وأخرج ابن عساكر، عن الحسن نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿ذُرِّيَّة طَيِّبَةٌ﴾ يقول: مباركة. وأخرج ابن جرير، عن عبد الرحمن بن أبي حماد قال: في قراءة ابن مسعود: فناداه جبريل، وهو قائم يصلي في المحراب، وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنه قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: جبريل. وأخرج ابن المنذر، عن السدي قال: المحراب المصلى. وقد أخرج الطبراني، والبيهقي، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «أتقوا هذه المذابح، يعني: المحارب، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، عن موسى الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح ك مذابح النصارى» وقد رويت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: إنما سمي يحيى؛ لأن الله أحياه بالإيمان. وأخرجوا، عن ابن عباس قال: ﴿مُصَلِّياً بِكَلِمَةِ اللَّهِ﴾ قال: عيسى بن مريم هو الكلمة، وأخرج ابن جرير، من طريق ابن جريج، عنه قال، كان يحيى، وعيسى ابني الخالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك، فذلك تصديق عيسى سجوده في بطن أمه، وهو: أول من صدق بعيسى. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال: حليماً تقياً. وأخرج عبد بن حميد، وابن

لقال عقيرة، أي: بها عقر يمنعا من الولد، وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة، ومشاهدته لتلك الآية الكبرى في مريم استعظماً لقدرة الله سبحانه لا لمحض الاستبعاد، وقيل: إنه قد مر بعد دعائه إلى وقت يشاء ربه أربعون سنة، وقيل: عشرون سنة، فكان الاستبعاد من هذه الحيثية. قوله: ﴿كَنُكَّ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو: إيجاد الولد من الشيخ الكبير، والمرأة العاقر، والكاف في محل نصب نعتاً لمصدر محذوف، والإشارة إلى مصدر يفعل، أو الكاف في محل رفع على أنها خبر، أي: على هذا الشأن العجيب شأن الله، ويكون قوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ بياناً له، أو الكاف في محل نصب على الحال، أي: يفعل الله الفعل كائناتاً مثل ذلك. قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة أعرف بها صحة الحمل، فالتقى هذه النعمة بالشكر ﴿قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لا عن غيره من الإنكار، ووجه جعل الآية هذا لتخلص تلك الأيام لذكر الله سبحانه شكراً على ما أنعم به عليه، وقيل: بأن ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه، حكاه القرطبي عن أكثر المفسرين. والرمز في اللغة: الإيماء بالشفقتين، أو العينين، أو الحاجبين، أو اليدين، وأصله الحركة، وهو: استثناء منقطع، لكون الرمز من غير جنس الكلام، وقيل: هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الإقحام من لفظ، أو إشارة، أو كتابة، وهو بعيد. والصوراب الأول، وبه قال الأخفش، والكسائي. قوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: سبحه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وهو: جمع عشية، وقيل: هو واحد، وهو: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، وقيل: من العصر إلى زهاب صدر الليل، وهو ضعيف جداً. ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقيل: المراد بالتسبيح: الصلاة. قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ الظَّرْفُ مَتَّعِلٌ بِمَحْذُوفٍ، كَالظَّرْفِ الْأَوَّلِ﴾ إن الله اصطفاك، اختارك ﴿وَوَهَبُكَ﴾ من الكفر، أو من الأناس على عمومها ﴿وَاصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأول، فالأول هو: حيث تقبلها بقبول حسن، والآخر لولادة عيسى. والمراد بالعالمين هنا قيل: نساء عالم زمانها، وهو الحق، وقيل: نساء جميع العالم إلى يوم القيامة، واختاره الزجاج، وقيل: الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول، والمراد بهما جميعاً واحد. قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: أطيلي القيام في الصلاة، أو أنيمي وقد تقدّم الكلام على معاني الفتوت، وقدّم السجود على الركوع، لكونه أفضل، أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب. وقوله: ﴿وَارْكَعِي﴾ مع الرَّاكِعِينَ ظاهره أن ركوعها يكون مع ركوعهم، فيدل على مشروعيتها صلاة الجماعة، وقيل: المعنى: أنها تفعل مثل فعلهم، وإن لم تصل معهم، والإشارة بقوله: ﴿وَلَكَّ﴾ إلى ما

ريك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لِيهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ﴾ قال: إن مريم لما وضعت في المسجد اقترع عليها أهل المصلى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أبهم يكفلها. قال الله لمحمد: ﴿وَمَا كُنْتَ لِيهِمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: لقوا أقلامهم في الماء، فذهبت مع الجرية، وصعد قلم زكريا، فكفلها زكريا. وأخرج ابن جرير، عن الربيع نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وكذلك أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جريج، أن الأقلام هي التي يكتبون بها التوراة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عطاء: أنها القдах.

إِذْ قَالَتِ الْفَلَكَةُ يَسِّرْ لِي إِنَّ اللَّهَ بَيَّرَ لِي بِكَوْنِهِ أَسْمَهُ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجِيحًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمَقْرَبِينَ ﴿١٥﴾ يَحْكُمُ النَّاسُ فِي الْهَيْدِ وَكَهَلًا مِنَ الْفَلَكِيِّينَ ﴿١٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَسْنِ بِي رَبِّي قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾ وَوَعَدُكَ الْكِتَابَ وَالْعَصَىٰ وَالْتُورَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿١٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ إِنَّهُ أَتَىٰكُمْ مِّنَ الْبَلَدِ الْكَاسِبِ ﴿١٩﴾ فَأَتَتْهُ قَبِيلُ قَيْدٍ فَيَكُونُ لَهَا يَوْمَئِذٍ أَلْفًا وَلِأَخِيهِمْ وَأَخِي الْمَوْتِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَنْخَرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآتِيكُمْ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَصَدَقْنَا لِمَا يَكُ يَدْعُو مِنَ التُّورَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ آيَاتِي حَرَمَ عَلَيْكُمْ وَجْهَتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتُوا اللَّهَ وَلِأَطِيعُوا ﴿٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ بدل من قوله: «وإذ قالت» المنكسر قبله، وما بينهما اعتراض، وقيل: بدل من «إذ يختصمون» وقيل: منصوب بفعل مقدر، وقيل: بقوله: «يختصمون» وقيل: بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لِيهِمْ﴾.

والمسيح اختلف فيه مماذا أخذ؟ فقيل: من المسح، لأنه مسح الأرض، أي: ذهب فيها، فلم يستكن بكن، وقيل: إنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برى، فسمي مسيحاً، فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل، وقيل: لأنه كان يمسح بالدهن الذي كانت الأنبياء تمسح به، وقيل: لأنه كان ممسوح الأخصمين، وقيل: لأن الجمال مسحه، وقيل: لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، وهو على هذه الأربعة الأقوال: فعيل بمعنى مفعول. وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيخ بالخاء المعجمة. وقال ابن الأعرابي: المسيح الصديق. وقال أبو عبيد: أصله بالعبرانية مشيخاً بالمعجمتين فعرب، كما عرب موسى بموسى. وأما اللجال، فسمي مسيحاً؛ لأنه ممسوح إحدى العينين، وقيل: لأنه يمسح الأرض أي: يطوف بلدانها إلا مكة، والمدينة وبيت المقدس. وقوله: ﴿عِيسَى﴾ عطف بيان، أو بدل، وهو اسم أعجمي، وقيل: هو عربي مشتق من عاسه يعوسه إذا ساسه. قال في الكشف: هو معرب من إيشوع انتهى. والذي رأيناه في الإنجيل في مواضع أن اسمه يشوع بدون همزة، وإنما قيل: ابن مريم مع كون الخطاب معها

جرير، عن مجاهد قال: السيد الكريم على الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن المسيب قال: السيد الفقيه العالم. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحْصُورًا﴾ قال: السيد الحلیم، والحصور الذي لا يأتي النساء. وأخرج أحمد في الزهد، عن سعيد بن جبیر في الحصور مثله. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الحصور الذي لا ينزل الماء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «كان نكره مثل هدية الثوب، وأخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، من وجه آخر، عن ابن عمرو موقوفاً، وهو أقوى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن شعيب الجبائي قال: اسم أم يحيى أشيع. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿لَجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ قال: بالحمل به. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿أَيُّكَ أَنْ لَا تَكْلَمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ قال: إنما عوقب بذلك، لأن الملائكة شافهته بذلك مشافهة، فبشرته بيحيى، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه، فأخذ عليه بلسانه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا وَمَرْأَةٍ﴾ قال: الرمز بالشفتين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر قال: الرمز بالإشارة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَسُيِّحٌ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ قال: العشي ميل الشمس إلى أن تغيب، والإبكار أول الفجر. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نساها مريم بنت عمران، وخير نساها خديجة بنت خويلد». وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء العالمين خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية امرأة فرعون». وأخرج ابن مريويه، عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج نحوه، أحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم، من حديثه مرفوعاً، وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام» وفي المعنى أحاديث كثيرة، وكلها تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها، لا نساء جميع العالم. ويؤيده ما أخرجه ابن عساکر، عن مقاتل، عن الضحاک، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أربع نسوة سادات نساء عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأفضلهن عالماً فاطمة». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال: أطيلي الركود يعني القيام. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبیر ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال: اخلصي. وأخرج عن قتادة قال: أطيلي

يتغير ريش، ويلد، كما ولد سائر الحيوانات مع كونه من الطير، ولا يبيض، كما يبيض سائر الطيور، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، وهو: يضحك، كما يضحك الإنسان؛ وقيل: إن سؤالهم له كان على وجه التعنت، قيل: كان يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليميز فعل الله من فعل غيره، وقوله: ﴿يَبْذُرُ اللَّهُ﴾ فيه دليل على أنه لولا الإنسان من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجزاه على يد عيسى عليه السلام، قيل: كانت تسوية الطين، والنفخ من عيسى، والخلق من الله عز وجل. قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ الْأَكْمَهَ﴾ الأكمة: الذي يولد أعمى، كذا قال أبو عبيدة. وقال ابن فارس: الكلمة العمى يولد به الإنسان، وقد يعرض، يقال كره يكمر كمرها: إذا عمى، وكمرت عينه: إذا أعمتها؛ وقيل: الأكمة: الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل، وقيل: هو الممسوح العين. والبرص معروف، وهو بياض يظهر في الجلد. وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ من أمراض عدة، كما اشتمل عليه الإنجيل، وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر؛ لأنهما لا يبرآن في الغالب بالمداواة، وكذلك إحياء الموتى قد اشتمل الإنجيل على قصص من ذلك. قوله: ﴿وَوَهَبْنَاكُمْ بَما تَكُلُونَ﴾ أي: أخبركم بالذي تاكلونه، وبالذي تنخرونه. قوله: ﴿وَمَصْنَعًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾ وقيل: المعنى وجئكم مصنعاً. قوله: ﴿وَلَا حُلَّ﴾ أي: ولا حل أن أحل، أي: جئتم بأية من ربكم، وجئتم لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم من الأطعمة في التوراة، كالشحم، وكل ذي ظفر، وقيل: إنما أحل لهم ما حرمته عليهم الأحبار، ولم تحرمه التوراة. وقال أبو عبيدة: يجوز أن يكون بعض بمعنى كل، وأنشد:

تركا أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
قال القرطبي: وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة؛ لأن البعض، والجزء لا يكونان بمعنى الكل، ولأن عيسى لم يحل لهم جميع ما حرمته عليهم التوراة، فإنه لم يحل القتل، ولا السرقة، ولا الفاحشة، وغير ذلك من المحرمات الثابتة في الإنجيل مع كونها ثابتة في التوراة، وهي: كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين، ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة، كقول الشاعر:

أبا منذر أقنيت فاستبق بعضنا حنانك بعض الشر أهون من بعض
أي: بعض الشر أهون من كله. قوله: ﴿بِأَيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وإنما كان ذلك آية، لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك، فمجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته، ويحتمل أن تكون هذه الآية هي: الآية المتقدمة، فتكون تكريراً لقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ إِنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ الآية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ قال: عيسى هو: الكلمة من

تنبيهاً على أنه يولد من غير أب، فنسب إلى أمه. والوجه هو الوجاهة: وهي: القوة والمنعة، ووجاهته في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة، وعلو الدرجة، وهو: منتصب على الحال من كلمة، وإن كانت نكرة، فهي موصوفة، وكذلك قوله: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ في محل نصب على الحال. قال الأخفش: هو: معطوف على وجيها. والمهد: مضجع الصبي في رضاعه، ومهدت الأمر: هيأته، ووطأته. والكهل هو: من كان بين سن الشباب، والشيوخة، أي: يكلم الناس حال كونه رضيعاً في المهد، وحال كونه كهلاً بالوحي، والرسالة، قاله الزجاج. وقال الأخفش، والفراء: إن كهلاً معطوف على وجيها. قال الأخفش: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ عطف على وجيهاً، أي: هو من العباد الصالحين. قولها: ﴿إِنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون على طريقة الاستبعاد العادي ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ﴾ جملة حالية، أي: والحال أنه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هو: من كلام الله سبحانه. وأصل القضاء الأحكام، وقد تقدم، وهو هنا الإرادة، أي: إذا أراد أمراً من الأمور ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ من غير عمل ولا منازلة، وهو تمثيل لكمال قدرته. قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ قيل هو معطوف على ﴿يَبْشُرُكَ﴾ أي: إن الله يبشرك وإن الله يعلمه، وقيل: على ﴿يَخْلُقُ﴾ أي: وكذلك يعلمه الله، أو كلام مبتداً سبق تطبيقاً لقلبها، والكتاب الكتابة. والحكمة العلم، وقيل: تهذيب الأخلاق، وانتصاب رسولاً على تقدير، ويجعله رسولاً، أو ويكلمهم رسولاً، أو وأرسلت رسولاً، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَجِئْهَا﴾ فيكون حالاً؛ لأن فيه معنى النطق، أي: وناطقاً، قال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو في قوله: ورسولاً مقحمة، والرسول حالاً. وقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ معمول لرسول؛ لأن فيه معنى النطق كما مر، وقيل: أصله بأنني قد جئتم، فحذف الجار، وقيل: منصوب بمضمر أي: تقول أنني قد جئتم، وقيل: معطوف على الأحوال السابقة. وقوله: ﴿بِأَيَّةٍ﴾ في محل نصب على الحال، أي: متلبساً بعلامة كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وقوله: ﴿إِنِّي أَخْلَقُ﴾ أي: أصور، وأقدر ﴿لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ وهذه الجملة بدل من الجملة الأولى، وهي: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ أو بدل من آية، أو خبر مبتداً محذوف، أي: هي: أني، وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف. وقرأ الأعرج، وأبو جعفر، كهية الطير بالتشديد، والكاف في قوله: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ نعت مصدر محذوف، أي: أخلق لكم خلقاً، أو شيئاً مثل هيئة الطير. وقوله: ﴿فَنَنْفِخُ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الخلق، أو تلك الشيء، فالضمير راجع إلى الكاف في قوله: كهية الطير، وقيل: الضمير راجع إلى الطير، أي: الواحد منه، وقيل: إلى الطين، وقرئ: فيكون طائراً، وطيراً، مثل تاجر وتجر، وقيل: إنه لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة، فإن له ثياباً، وأسناناً، وأذنًا، ويحيض، ويطهر، وقيل: إنهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المنكرة، ولكونه

وأخرج ابن جرير، عن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى، وكان يسبت، ويستقبل بيت المقدس، وقال لبني إسرائيل: إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وأضع عنكم من الأصار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع في الآية: قال كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل، والثروب، فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرم عليهم الشحوم، فأحل لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير، وفي أشياء أخر حرمها عليهم، وشدد عليهم فيها، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال: ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها، وما أعطاه ربه.

﴿لَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَصَارَ إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْوَاقِفُونَ﴾ مَن أَصَارَ اللَّهُ مَاذَا وَاللَّهُ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾ رَبَّنَا ءَمَّا بِمَا آزَلْتَ وَآتَيْتَنَا الرُّسُولَ فَاسْتَكْبَرْنَا مَعَ الْكُفَّيْنَ ﴿٥٢﴾ وَمَكَّرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴿٥٣﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَسْمِعَ إِلَىٰ مَوْلَانَا وَرَأَيْنَاكَ إِلَيْنَا وَطَلَّهِكَ رِبِّكَ الْذِينَ كَفَرُوا وَبَإِلَّهِ الْذِينَ آمَنُوا قُوَّةَ الْذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٤﴾ فَمَا الْذِينَ كَفَرُوا فَعَذَابُهُمْ عَذَابًا سَكِينًا فِي الْأُنْثَىٰ وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَأَمَّا الْذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٧﴾

قوله: ﴿فلما أحسن﴾ أي: علم ووجد: قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة معنى أحسن: عرف، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة، والاحساس: العلم بالشيء. قال الله تعالى: ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ [مريم: 98]. والمراد بالاحساس هنا: الإدراك القوي الجاري مجرى المشاهدة، وبالكفر إصرارهم عليه، وقيل: سمع منهم كلمة الكفر. وقال الفراء: أرادوا قتله. وعلى هذا فمعنى الآية: فلما أدرك منهم عيسى إرادة قتله التي هي كفر قال من أنصاري إلى الله، الأنصار جمع نصير. وقوله: ﴿إلى الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا، أي: متوجهاً إلى الله، أو ملتجئاً إليه، أو ذاهباً إليه، وقيل: إلى بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿ولا تكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ [النساء: 2] وقيل: المعنى: من أنصاري في السبيل إلى الله، وقيل: المعنى: من يضم نصرته إلى نصرته الله. والحواريون جمع حواري، وحواري الرجل: صفوته، وخلاصته، وهو مأخوذ من الحور، وهو البياض عند أهل اللغة، حوَّرت الثياب ببيضتها، والحواري من الطعام: ما حوَّز أي بيض، والحواري أيضاً الناصر، ومنه قوله ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير، وهو في البخاري، وغيره. وقد اختلف في سبب

الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: المهد: مضجع الصبي في رضاعه. وقد ثبت في الصحيح أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي، فجاءته أمه فدعته فقال: أجيدها، أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تربه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعة، فتعرضت له امرأة، وكلمته، فابى، فأتت راعياً، فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت من جريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه، وسبوه، فقتلوه، وصلى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين. وكانت امرأة من بني إسرائيل ترضع ابناً لها، فمر بها رجل راكب نو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، ثم مر بأمة تجرجر، ويلعب بها، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلاً، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون لها زني، وتقول حسبي الله، ونعم الوكيل، ويقولون سرقت، وتقول حسبي الله. وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ قال: يكلمهم صغيراً، وكبيراً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الكهل هو من في سن الكهولة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الكهل الحليم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ويعلمه الكتاب﴾ قال: الخط بالقلم. وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس قال: إنما خلق عيسى طليراً واحداً، وهو الخفاش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق الضحاك، عن ابن عباس قال: الأكمه الذي يولد أعمى. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: الأكمه الأعمى الممسوح العينين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الأكمه الذي يبصر بالنها، ولا يبصر بالليل، وأخرجوا عن عكرمة قالوا: الأكمه الأعمش. وأخرج أحمد في الزهد، عن خالد الحذاء قال: كان عيسى ابن مريم إذا سرح رسله يحيون الموتى يقول لهم: قولوا كذا، فإذا وجدتم قشعريرة، ودمعة، فادعوا عند ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وانبئكم بما تاكلون﴾ قال: بما أكلتم البازحة من طعام، وما خبأتم منه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمار بن ياسر قال: ﴿انبئكم بما تاكلون﴾ من المائدة ﴿وما تدخرون﴾ منها، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن ياكلوا، ولا يبخروا، فاكلوا، وأنخروا، وخانوا، فجعلوا قرده، وخنازير.

تسميتهم بذلك، فقليل لبياض ثيابهم، وقيل: لخلوص نياتهم، وقيل: لانهم خاصة الانبياء، وكانوا اثني عشر رجلاً، ومعنى انتصار الله: انتصار دينه ورسله. وقوله: ﴿وَأَمَّا بآلِهِ﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله، فإن الإيمان يبعث على النصرة. قوله: ﴿وَأَشْهَد بآنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: أشهد لنا يوم القيامة بآنا مخلصون لإيماننا منقائون لما تريد منا. ومعنى: ﴿بِمَا أُنْزِلَتْ﴾ ما أنزله الله سبحانه في كتبه. والرسول عيسى، وحذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: اتبعناه في كل ما يأتي به، فآكبتنا مع الشاهدين لك بالوحدانية، ولرسولك بالرسالة. أو آكبتنا مع الانبياء الذين يشهدون لأمرهم، وقيل: مع أمة محمد ﷺ. قوله: ﴿وَمَكْرُواهُ﴾ أي: الذي أحس عيسى منهم الكفر، وهم: كفار بني إسرائيل. ومكر الله استدرجه للعباد من حيث لا يعلمون. قاله الفراء، وغيره. وقال الزجاج: مكر الله مجازاتهم على مكرهم، فسمى الجزء باسم الابتداء، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15] ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] وأصل المكر في اللغة: الاغتيال، والخدع: حكاة ابن فارس، وعلى هذا، فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة، وقيل: مكر الله هنا إلقاء شبه عيسى على غيره، ورفع عيسى إليه ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: أقوام مكرًا، وأنفذهم كيدًا، وأقوامهم على إيصال الضرر بمن يريد إيصاله به من حيث لا يحتسب. قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى الْعَامِلُ فِي إِذٍ مَكْرُوا، أَوْ قَوْلُهُ: ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أَوْ فَعَلَ مَضْمَرٌ تَقْدِيرُهُ وَقَعَ ذَلِكَ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: إِنْ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمًا، وَتَأْخِيرًا تَقْدِيرُهُ إِنِّي رَافِعُكَ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَمُتَوَفِّيكَ بَعْدَ إِنْزَالِكَ مِنَ السَّمَاءِ. وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: مُتَوَفِّيكَ قَابِضُكَ. وَقَالَ فِي الْكَشَافِ: مُسْتَوْفِي أَجْلِكَ، وَمَعْنَاهُ: إِنِّي عَاصِمُكَ مِنْ أَنْ يَقْتُلَكَ الْكَفَّارُ، وَمُؤَخِّرُ أَجْلِكَ إِلَى أَجْلِ كِتَابَتِهِ لَكَ، وَمِمَّنْكَ حَتَفَ أَنْفَكَ لَا قَتْلًا بِأَيْدِيهِمْ. وَإِنَّمَا احْتِجَاجُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى تَأْوِيلِ الْوَفَاةِ بِمَا نَكَرَ، لِأَنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ غَيْرِ وَفَاةٍ، كَمَا رَجَحَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ، وَوَجَّهَ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ صَحَّ فِي الْأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَزُولُهُ، وَقَتْلُهُ الْجَالِ، وَقِيلَ: إِنْ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ تَوَفَّاهُ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْوَفَاةِ هُنَا النَّوْمُ وَمِثْلُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60] أي: ينيمكم، وبه قال كثيرون. قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من حيث جوازهم برفعه إلى السماء وبعده عنهم. قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: الذين اتبعوا ما جئت به، وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله إلهًا، ومنهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلو، فلم يفرطوا في وصفه، كما فرطت اليهود، ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى. وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم. وقيل: المراد: بالآية أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ قال: كفروا وأرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم كانوا صبايين. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك قال: الحواريون قضاؤون مرَّ بهم عيسى فأمنوا به. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: الحواريون هم الذين تصلح لهم الخلافة. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: هم أصفياء الانبياء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الضحاك مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: الحواري الوزير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة قال: الحواري الناصر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبراني وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال: مع محمد، وأمتهم أنهم شهدوا له أنه قد بلغ، وشهدوا للرسول أنهم

تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقاً من غير أب كآدم، ولا يقدح في التشبيه اشتغال المشبه به على زيادة، وهو كونه لا أم له: كما أنه لا أب له، فنلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه، وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه، وأعظم عجباً، وأغرب أسلوباً. وقوله: ﴿خلقه من تراب﴾ جملة مفسرة لما أبهم في المثل، أي: أن آدم لم يكن له أب، ولا أم، بل خلقه الله من تراب. وفي نلك نفع لإنكار من أنكر لخلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب، وأم. قوله: ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ أي: كن بشراً، فكان بشراً. وقوله: ﴿ففيكون﴾ حكاية جال ماضية، وقد تقدم تفسير هذا. وقوله: ﴿الحق من ربك﴾ قال الفراء: هو مرفوع بإضمار هو. وقال أبو عبيدة: هو استئناف كلام، وخبره قوله: ﴿من ربك﴾ وقيل: هو فاعل فعل محذوف، أي: جاءك الحق من ربك. قوله: ﴿فلا تكن من الممترين﴾ الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس، أي: لا يمكن أحد منكم ممترياً، أو للرسول ﷺ، ويكون النهي له لزيادة التثبيت؛ لأنه لا يكون منه شك في نلك. قوله: ﴿فمن حاجك فيه﴾ هذا وإن كان عاماً، فالمراد به الخاص، وهم النصارى الذين وفدوا إليه من نجران، كما سيأتي بيانه، ويمكن أن يقال هو على عمومه، وإن كان السبب خاصاً، فيدل على جواز المبالغة منه ﷺ لكل من حاجة في عيسى عليه السلام، وأمه أسوته، وضمير فيه لعيسى، والمراد بمجيء العلم هنا مجيء سببه، وهو: الآيات البينات، والمحاجة: المخاصمة، والمجالة. وقوله: ﴿تعالوا﴾ أي: هلموا، وأقبلوا، وأصله الطلب لإقبال النوات، ويستعمل في الرأي إذا كان المخاطب حاضراً، كما تقول لمن هو حاضر عنك: تعال ننظر في هذا الأمر. قوله: ﴿ندع أبناءنا﴾ الخ اكتفى بذكر البنين عن البنات، إما لسخولهن في النساء، أو لكونهم الذين يحضرون. مواقف الخصام بونهن، ومعنى الآية: ليدع كل منا ومنكم أبناءه، ونسائه، ونفسه إلى المبالغة. وفيه دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء لكونه ﷺ أراد بالأبناء الحسنين، كما سيأتي. قوله: ﴿نبتهل﴾ أصل الابتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن، وغيره، يقال بهله الله، أي: لعنه، والبهل: اللعن. قال أبو عبيد، والكسائي: نبتهل نلتعن، ويطلق على الاجتهاد في الهلاك، ومنه قول لبيد:

في كهول سادة من قومه نظر الدهر إليهم فابتهل
أي: فاجتهد في هلاكهم. قال في الكشف: ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. قوله: ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه. قوله: ﴿إن هذا﴾ أي: الذي قصه الله على رسوله من نبأ عيسى ﷺ ﴿لهو القصص للحق﴾ القصص التتابع، يقال: فلان يقص أثر فلان أي: يتبعه، فأطلق على الكلام الذي يتبع، بعضه بعضاً، وضمير الفصل للحصر، وبخول اللام عليه لزيادة تأكيد، ويجوز أن يكون مبتداً وما بعده خبره، وزيادة من في قوله: ﴿من إله﴾ لتأكيد العموم، وهو رد على من قال بالتثليث من النصارى.

قد بلغوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح عنه قال **﴿مع الشاهدين﴾** مع أصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: إن بني إسرائيل حصرُوا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتي، فيقتل، وله الجنة، فاخذا رجل منهم، وصعد بعيسى إلى السماء، فنلك قوله: **﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿إني متوفيك﴾** يقول: مميتك. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن قال: متوفيك من الأرض. وأخرج الأخران عنه قال: وفاة المنام. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة قال: هذا من المقدم، والمؤخر أي: رافعك إلي، ومتوفيك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مطر الوراق قال: متوفيك من الدنيا، وليس بوفاة موت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن وهب قال: توفي الله عيسى ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه، وأخرج ابن عساكر، عنه قال: أماته ثلاثة أيام ثم بعثه، ورفعه. وأخرج الحاكم، عنه قال: توفي الله عيسى سبع ساعات. وأخرج ابن سعد، وأحمد في الزهد، والحاكم، عن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسى، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وأخرج ابن عساكر، عن وهب مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله تعالى: **﴿ومطهره من الذين كفروا﴾** قال: طهره من اليهود، والنصارى، والمجوس، ومن كفار قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: **﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا﴾** قال: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته، وملته، وسنته. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن النعمان بن بشير سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يبالون بمن خالفهم حتى يأتي أمر الله» قال النعمان: من قال إني أقول على رسول الله ما لم يقل، فإن تصديقك ذلك في كتاب الله، قال الله: **﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾** الآية. وأخرج ابن عساكر، عن معاوية مرفوعاً نحوه، ثم قرأ معاوية الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة، وليس بلد فيه أحد من النصارى، إلا وهم فوق اليهود في شرق، ولا غرب، هم البلدان كلها مستتلون.

[illegible]

والسواء: العدل. قال الفراء: يقال في المعنى العدل سوى، وسواء، فإذا فتحت السين ملئت، وإذا ضمنت، أو كسرت قصرت. قال زهير:

أرؤي خطة لا ضيم فيها يروي نبتها فيها السواء
وفي قراءة ابن مسعود: «إلى كلمة عدل بيننا، وبينكم»
فالمعنى: أقبلوا إلى ما دعيتم إليه، وهي: الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق، وقد فسرها بقوله: «إِنْ لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ» وهو: في موضع خفض على البدل من كلمة، أو رفع على إضمار مبتدأ، أي: هي أن لا نعبد، ويجوز أن تكون أن مفسرة لا موضع للجملة التي دخلت عليها، وفي قوله: «وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا» تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح، وعزير، وإشارة إلى أن هؤلاء من جنس الشر، وبعض منهم، وإزاء على من قلد الرجال في دين الله، فحلل ما حللوه له، وحرّم ما حرّمه عليه، فإن من فعل ذلك، فقد اتخذ من قلده ربا، ومنه «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» [التوبة: 84] وقد جوز الكسائي، والفراء الجزم في «وَلَا تُشْرِكْ» ولا يتخذ على التروهم. قوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أي: اعرضوا عما دعوا إليه: «فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» أي: منقادون لأحكامه مرتضون به معترفون بما أنعم الله به علينا من هذا الدين القويم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، والنسائي، عن ابن عباس قال: حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، إلى قوله: «بأنا مسلمون». وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول الله ﷺ إلى الكفار «تعالوا إلى كلمة» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج قال: بلغني أن رسول الله ﷺ دعا يهود المدينة إلى ما في هذه الآية، فابوا عليه، فجاهدهم حتى أقروا بالجزية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: نكر لنا أن النبي ﷺ دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء. وأخرج ابن جرير، عن الربيع نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: «إلى كلمة سواء» قال: عدل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: «وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا» قال لا يطبع بعضنا بعضاً في معصية الله؛ ويقال: إن تلك الربوبية أن يطبع الناس سادتهم، وقادتهم في غير عبادة، وإن لم يصلوا لهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: «وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا» قال: سجود بعضهم لبعض.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ الذِّكْرُ إِلَّا بِالْإِنْجِيلِ

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث حنيفة: أن العاقب، والسيد أتيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يلاعنهما، فقال أحدهما لصاحبه: لا نلاعنه، فوالله لئن كان نبياً، فلاعنا لا نفلح أبداً نحن، ولا عقبتنا من بعدنا، فقالوا له: نعطيك ما سالت، فابعت معنا رجلاً أميناً، فقال: قم يا أبا عبيدة، فلما قام قال: هذا أمين هذه الأمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس: أن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله، قالوا: فهل رأيت مثل عيسى، وأنبئت به، ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل، فقال: قل لهم إذا أتوك: «إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ» إلى آخر الآية. وقد رويت هذه القصة على وجوه، عن جماعة من التابعين. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل، عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب، والسيد، فدعاهما إلى الإسلام، فقالا: أسلمنا يا محمد، فقال: كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام، قالاهما. قال: حبّ الصليب، وشرب الخمر، وكل لحم الخنزير. قال جابر: فدعاهما إلى الملاعة، فواعدها على الغد، فغدا رسول الله ﷺ، وأخذ بيد علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيباه، وأقرأ له، فقال: والذي بعثني بالحق لو فعلا، لامطر الوادي عليهما ناراً. قال جابر: فيهم نزلت: «تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا» الآية. قال جابر: «وَنَفْسُنَا وَنَفْسَكُمْ» رسول الله ﷺ، وعلي، وأبنائنا الحسن، والحسين، ونساءنا فاطمة، ورواه أيضاً الحاكم، من وجه آخر عن جابر وصححه، وفيه أنهم قالوا للنبي ﷺ: هل لك أن نلاعنك؟ وأخرج مسلم، والترمذي، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي، عن سعد بن أبي وقاص: قال لما نزلت هذه الآية: «قُلْ تَعَالَوْا» دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً، فقال: اللهم هؤلاء أهلي. وأخرج ابن عساكر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: «تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا» الآية، قال: فجاء بابي بكر، وولده، ويعمر، وولده، وبعثمان، وولده، وبعلي، وولده. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج، عن ابن عباس: «ثُمَّ نَبْتَهِلُ» نجتهد. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: هذا الإخلاص يشير بأصبعه التي تلي الإبهام، وهذا الدعاء، فرفع يديه حنو منكبيه، وهذا الابتهاج، فرفع يديه مداً.

قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَسَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّيْنَا وَبَيْنَا وَلَا مَبْدَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٣﴾

قيل: الخطاب لأهل نجران بدليل ما تقدم قبل هذه الآية، وقيل: لليهود المدينة، وقيل: لليهود والنصارى جميعاً، وهو: ظاهر النظم القرآني، ولا وجه لتخصيصه باليهود؛ لأن هذه دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله ﷺ.

المحمدية ﴿والذين آمنوا﴾ من أمة محمد ﷺ.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران، وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فنزل فيهم: ﴿يا أهل الكتاب لما تحاجون﴾ الآية. وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالقة: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ يقول فيما شهدتم، ورايتهم، وعايينتم: ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ يقول فيما لم تشهدوا، ولم تروا، ولم تعانوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: أما الذي لهم به علم، فما حرم عليهم وما أمروا به، وأما الذي ليس لهم به علم فشان إبراهيم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: يعذر من حاج بعلم، ولا يعذر من حاج بالجهل. وأخرج ابن جرير، عنه عن الشعبي، في قوله: ﴿ما كان إبراهيم﴾ قال: اكذبهم الله، وانقض حاجتهم. وأخرج أيضاً عن الربيع مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان نحوه. وأخرج عبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب حدثني ابن غنم أنه لما خرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، فذكر قصتهم معه، وما قالوه له لما قال له عمرو بن العاص إنهم يشتمون عيسى، وهي قصة مشهورة، ثم قال: فانزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله ﷺ، وهو بالمدينة: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن لكل نبي ولاية من النبيين، وإن وليي منهم أبي خليل ربي، ثم قرأ: ﴿إن أولى الناس﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحكم بن ميثاء أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون، فكونوا أنتم سبيل ذلك، فانظروا أن لا يلغاني الناس يحملون الأعمال، وتلقوني بالنديا تحملونها، فاصد عنكم بوجهي، ثم قرأ عليهم: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى، ومن بقي.

وَدَّ عَلَاقَةً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُولُواْ وَمَا يُولُواْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْمُرُونَ ﴿١٢٥﴾ يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَكْفُرُونَ ﴿١٢٦﴾ يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَكْفُرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالَ عَلَاقَةُ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَا آلِ الْكَرْبِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِمَا نُنزِّلُ مِنَ الذِّكْرِ ؕ آمَنُوا بِهِ وَآخِزُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامِ ؕ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ هُدًى اللَّهِ أَن يُؤْتِيَ أَحَدٌ نَّفْسًا مَّا أَوْتِيَتْ أَوْ يُنَازِلُ عَنْ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْقَبْلَ يَدُ اللَّهِ يَدُ اللَّهِ يَوْمَ يُؤْتِي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَخْنَسُ رَحْمَتَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٠﴾

إِلَّا مِنْ بَدْوٍ أَقَلَّ تَمَعُونَ ﴿١٣١﴾ هَآؤُلَآءِ هَآؤُلَآءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْكُمُ وَأَنْتُمْ لَا تَكْمُلُونَ ﴿١٣٢﴾ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَكِنَّ أَتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالْذِّكْرُ ؕ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾

لما ادّعت كل واحدة من طائفتي اليهود، والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم رد الله سبحانه ذلك عليهم، وأبان بأن الملة اليهودية، والملة النصرانية إنما كانتا من بعده. قال الزجاج: هذه الآية أبين حجة على اليهود، والنصارى أن التوراة، والإنجيل نزلا من بعده، وليس فيهما اسم لواحد من الأنبياء، واسم الإسلام في كل كتاب. انتهى. وفيه نظر، فإن الإنجيل مشحون بالآيات من التوراة، ونكر شريعة موسى، والاحتجاج بها على اليهود، وكذلك الزبور فيه في مواضع نكر شريعة موسى، وفي أوائله التبشير بعيسى، ثم في التوراة نكر كثير من الشرائع المتقدمة، يعرف هذا كل من عرف هذه الكتب المنزلة. وقد اختلف في قدر المدة التي بين إبراهيم وموسى، والمدة التي بين موسى، وعيسى. قال القرطبي: يقال كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى، وعيسى ألف سنة. وكذا في الكشف. قوله: ﴿افلا تعقلون﴾ أي: تتفكرون في بحوض حجتكم، وطلان قولكم. قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ الأصل في ما أنتم أنتم أبطلت لهمزة الأولى هاء؛ لأنها اختها كذا قال أبو عمرو بن العلاء، والأخفش. قال النحاس: وهذا قول حسن. وقرأ قنبل: ﴿هأنتم﴾ وقيل: الهاء للتثنية نخلت على الجملة التي بعدها، أي: ها أنتم هؤلاء الرجال الحمقى حاججتم، وفي هؤلاء لغتان المد والقصر. والمراد بما لهم به علم هو ما كان في التوراة، وإن خالفوا مقتضاه، وجادلوا فيه بالباطل، والذي لا علم لهم به هو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم لجهلهم بالزمن الذي كان فيه. وفي الآية دليل على منع الجدل بالباطل، بل ورد الترغيب في ترك الجدل من المحق، كما في حديث: «من ترك المراء، ولو محقاً، فانا ضمينه على الله يبيت في ربح الجنة». وقد ورد تسويغ الجدل بالتي هي أحسن لقوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل: 125] «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» [العنكبوت: 46] ونحو ذلك، فينبغي أن يقصر جوازه على المواطن التي تكون المصلحة في فعله أكثر من المفسدة، أو على المواطن التي المجادلة فيها بالمحاسبة لا بالمخاشنة. قوله: ﴿والله يعلم﴾ أي: كل شيء، فيدخل في ذلك ما حاججوا به. وقد تقدم تفسير الحنيف. قوله: ﴿إن أولى الناس﴾ أي: أحقهم به، وأخصهم للذين اتبعوا ملته، واقتنوا بدينه «وهذا النبي» يعني محمداً ﷺ، أفرده بالذكر تعظيماً له، وتشريفاً، وألويته ﷺ بإبراهيم من جهة كونه من نريته، ومن جهة موافقته لدينه في كثير من الشريعة

أحد مثل ما أوتيتهم، بالمذ على الاستفهام تأكيداً للإنكار الذي قالوه أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه، فتكون على هذا أن، وما بعدها في محل رفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره تصدقون بذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب على إضمار فعل تقديره تقرون أن يؤتى، وقد قرأ: «أن يؤتى» بالمذ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד. وقال الخليل: أن في موضع خفض، والخافض محذوف. وقال ابن جريج: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى: المعنى: لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا من تبع دينكم، لئلا يكون ذلك سبباً لإيمان غيرهم بمحمد ﷺ. وقال الفراء: يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله: «إلا لمن تبع دينكم» ثم قال الله لمحمد ﷺ: «قل إن الهدى هدى الله» أي: إن البيان الحق بيان الله بين أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم على تقدير لا كقوله تعالى: «يبين الله لكم أن تضلوا» [النساء: 176] أي: لئلا تضلوا، «أو» في قوله: «أو يحاجوكم» بمعنى حتى، وكذلك قال الكسائي، وهي عند الأخفش عاطفة، كما تقدم. وقيل: إن هدى الله بدل من الهدى، وأن يؤتى خبر إن على معنى قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم. وقد قيل: إن هذه الآية أعظم أي: هذه السورة إشكالاً، وذلك صحيح. وقرأ الحسن يؤتى بكسر التاء الفوقية. وقرأ سعيد بن جبير إن يؤتى بكسر الهمزة على أنها النافية. وقوله: «يختص برحمته من يشاء» قيل: هي النبوة، وقيل: أمم منها، وهو رد عليهم وبفع لما قالوه، وذبوه.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سفيان قال: كل شيء في آل عمران من نكر أهل الكتاب، فهو في النصراني، ويبلغ هذا أن كثيراً من خطابات أهل الكتاب المنكورة في هذه السورة لا يصح حملها على النصراني البتة، ومن ذلك هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها، فإن الطائفة التي وثت إضلال المسلمين، وكذلك الطائفة القائلة: «آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار» هي: من اليهود خاصة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: «يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون» قال: تشهدون أن نعت نبي الله محمد في كتابكم، ثم تكفرون به، وتكفرون به، ولا تؤمنون به، وأنتم تجنونه مكتوباً عنكم في التوراة، والإنجيل النبي الأمي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً، عن السدي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج: «وأنتم تشهدون» على أن الدين عند الله الإسلام ليس له دين غيره. وأخرج عن الربيع في قوله: «لم تلبسون الحق بالباطل» يقول: لم تخلطون اليهودية، والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره الإسلام: «وكتفون الحق» يقول: تكتفون شأن محمد، وأنتم تجنونه مكتوباً عنكم في التوراة، والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله.

الطائفة من أهل الكتاب هم: يهود بني النضير، وقريظة، وبني قينقاع حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم، وسيأتي وقيل: هم جميع أهل الكتاب، فتكون من لبيان الجنس. وقوله: «وما يضلون إلا أنفسهم» جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المؤمنين في الإيمان، فلا يعود وبإل من أراد فتنهم إلا عليه. والمراد بآيات الله ما في كتبهم من دلائل نبوة محمد ﷺ «وأنتم تشهدون» ما في كتبكم من ذلك، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرون بنبوتهم، أو المراد: كنتم كل الآيات عناداً، وأنتم تعلمون أنها حق. ولبس الحق بالباطل خلطه بما يتعمونه من التحريف «وأنتم تعلمون» جملة حالية. وقوله: «وقالت طائفة من أهل الكتاب» هم رؤسائهم، وأشرفهم، قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة. ووجه النهار: أوله، وسمي وجهاً؛ لأنه أحسنه قال:

وتضئ في وجه النهار منيرة كجمانة البحرى سل نظامها وهو: منصوب على الظرف، أمرهم بذلك لإخبال الشك على المؤمنين، لكونهم يعتقدون أن أهل الكتاب لبيهم علم، فإذا كفروا بعد الإيمان وقع الريب لغيرهم، واعتراه الشك، وهم لا يعلمون أن الله قد ثبت قلوب المؤمنين، ومكن أقدامهم، فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله، ولا تحركهم ريح المعاندين. وقوله: «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم» هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض، أي: قال ذلك الرؤساء للسفلة لا تصدقوا تصديقاً صحيحاً إلا لمن تبع دينكم من أهل الملة التي أنتم عليها، وأما غيرهم ممن قد أسلم، فأظهروا لهم ذلك خداعاً «وجه النهار وكفروا آخره» ليفتنوا، ويكون قوله: «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم» على هذا متعلقاً بمحذوف، أي: فعلتم ذلك؛ لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم: يعني أن ما يكمن من الحسد، والبيغى أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم من فضل العلم، والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم. وقوله: «أو يحاجوكم» معطوف على أن يؤتى، أي: لا تؤمنوا إيماناً صحيحاً، وتقرؤا بما في صدوركم إقراراً صانعاً لغير من تبع دينكم، فعلتم ذلك، ووبرتموه أن المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق. وقوله: «إن الهدى هدى الله» جملة اعتراضية. وقال الأخفش: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم، ولا تصدقوا أن يحاجوكم، فذهب إلى أنه معطوف، وقيل: المراد: لا تؤمنوا وجه النهار، وتكفروا آخره إلا لمن تبع دينكم، أي: لمن دخل في الإسلام، وكان من أهل دينكم قبل إسلامه؛ لأن إسلام من كان منهم هو: الذي قتلتم غيظاً وأماهم حسرة، وأسفاً، ويكون قوله: «أن يؤتى» على هذا متعلقاً بمحذوف كالاول، وقيل: إن قوله: «أن يؤتى» متعلق بقوله: «ولا تؤمنوا» أي: لا تظهروا إيمانكم «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم» أي: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتهم، ولا تفشوه إلا لاتباع دينكم، وقيل: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى

نَمَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكْفِرُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُرْحِمُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

هذا شروع في بيان خيانة اليهود في المال بعد بيان
خيانتهم في الدين، والجار، والمجرور في قوله: ﴿وَمَنْ أَهْلُ
الْكِتَابِ﴾ في محل رفع على الابتداء على ما مر في قوله:
﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ﴾ [البقرة: 8] وقد تقدم تفسير
القنطار. وقوله: ﴿تَامَنَّهُ﴾ هذه قراءة الجمهور. وقرأ ابن
وثاب، والأشهب العقيلي: «تيمنه» بكسر التاء الفوقية على
لغة بكر، وتميم، ومثله قراءة من قرأ: «نستعين» بكسر النون.
وقرأ نافع، والكسائي: ﴿يُؤَدُّهُ﴾ بكسر الهاء في الدرج. قال
أبو عبيد: واتفق أبو عمرو، والأعمش، وحمزة، وعاصم في
رواية أبي بكر على إسكان الهاء. قال النحاس: إسكان الهاء لا
يجوز إلا في الشعر عند بعض النحويين، وبعضهم لا يجيزه
أبنة، ويرى أنه غلط من قرأ به، ويوهم أن الجزم يقع على
الهاء، وأبو عمرو أجل من أن يجوز عليه شيء من هذا،
والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء. وقال الفراء: مذهب
بعض العرب يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها، فيقولون
ضربنه ضرباً شديداً، كما يسكنون ميم أتم، وقمت، وأنشد:

لما رأى أن لادعه ولا شبع مال إلى أرضاه حقف فاضطجع
وقرأ أبو المنذر سلام، والزهري: «يؤده» بضم الهاء بغير
واو. وقرأ قتادة، وحمزة، ومجاهد: «يؤد هو» بواو في
الإبراج، ومعنى الآية: أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذي يؤدي
أمانته، وإن كانت كثيرة، وفيهم الخائن الذي لا يؤدي أمانته،
وإن كانت حقيرة، ومن كان أميناً في الكثير، فهو في القليل
أمين بالاولى، ومن كان خائناً في القليل، فهو في الكثير
خائن بالاولى. وقوله: ﴿إِلَّا مَا دَمَتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ استثناء
مفرغ، أي: لا يؤده إليك في حال من الأحوال إلا ما دمت
عليه قائماً مطالباً له مضيئاً عليه متقاضياً لرده، والإشارة
بقوله ذلك إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله: ﴿لَا يُؤَدُّهُ﴾.
والأميون هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب، أي: ليس علينا
في ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا في ديننا، وأدعوا لعنهم الله
أن ذلك في كتابهم، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بلى. أي: بلى عليهم سبيل
لكنهم، واستحللهم أموال العرب، فقوله: ﴿بِلَى﴾ إثبات لما
نفوه من السبيل. قال الزجاج: تم الكلام بقوله: ﴿بِلَى﴾ ثم
قال: ﴿مَنْ أَوْفَى بَعْدَهُ وَاتَّقَى﴾ وهذه جملة مستأنفة، أي:
من أوفى بعهده، واتقى، فليس من الكاذبين. أو فإن الله يحبه،
والضمير في قوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ راجع إلى من أو إلى الله
تعالى، وعموم المتقين قائم مقام العائد إلى من، أي: فإن الله
يحبه. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي: يستبدلون،
كما تقدم تحقيقه غير مرة. وعهد الله هو ما عاهدوه عليه من
الإيمان بالنبي ﷺ، والأيمان هي التي كانوا يحلفون أنهم
يؤمنون به، وينصرونه، وسيأتي بيان سبب نزول الآية
﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفة ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ﴾ بشيء أصلاً،

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد،
والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل
على محمد، وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية حتى نلبس
عليهم دينهم لعلهم يصنعون، كما نصنع، فيرجعون عن
دينهم، فأنزل الله فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَسِعْ عَلَيْهِمْ﴾ وقد روى نحو
هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي
حاتم، وابن مريويه، والضياء في المختارة من طريق أبي
ظبيان، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ﴾ الآية، قال:
كانوا يكونون معهم أول النهار، ويجالسونهم، ويكلمونهم،
فإذا أمسوا، وحضرت الصلاة كفروا به، وتركوه. وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا
لِمَنْ تَبِعَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: هذا قول بعضهم لبعض. وأخرج ابن
جرير، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً عن السدي نحوه.
وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن
مجاهد: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ حسداً من يهود
أن تكون النبوة في غيرهم، وإرادة أن يتابعوا على دينهم.
وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي
مالك، وسعيد بن جبير: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾
قال أمة محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن
السدي قال الله لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّ الْهَدَى هَدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى
أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يا أمة محمد: ﴿أَوْ يَحْجُوكُمْ عِنْدَ
رَبِّكُمْ﴾ يقول اليهود: فعل الله بنا كذا، وكذا من الكرامة حتى
أنزل علينا المن، والسوى، فإن الذي أعطيتكم أفضل، فقولوا
﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وأخرج عبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: ﴿قُلْ إِنْ الْهَدَى
هَدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يقول لما أنزل الله
كتاباً مثل كتابكم، ويحث نبياً كنبيكم حسنتموه على ذلك
﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وأخرج ابن
جرير، عن الربيع مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج:
﴿قُلْ إِنْ الْهَدَى هَدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾
يقول: هذا الأمر الذي أنعم الله عليه ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا
أُوتِيتُمْ أَوْ يَحْجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قال: قال بعضهم لبعض
لا تخبروهم بما بين الله لكم في كتابه ﴿لِيَحْجُوكُمْ﴾ قال:
ليخاصموكم ﴿بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ فنكون لهم حجة عليكم: ﴿قُلْ
إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ﴾ قال: الإسلام ﴿يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ
يَشَاءُ﴾ قال القرآن، والإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿يَخْتَصُ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال: النبوة. وأخرج ابن أبي حاتم عن
الحسن قال: رحمته الإسلام يختص بها من يشاء.

﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ يُوَرِّدْهُمُ إِلَى اللَّهِ وَيَنْهَرُ مَنْ إِنْ
تَأْمَنُوا بِدِينَارٍ لَا يُوَرِّدُهُمْ إِلَى اللَّهِ مَا دَمَّتْ عَلَيْهِمْ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا
فِي الْأُثْمَانِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ كُلُّ مَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

الكتاب، وقيل: في الكلام حنف. والمعنى: وإن أخذ الله ميثاق النبيين! لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب، وحكمة، ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا، ودلّ على هذا الحنف قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ نَفْسِكُمْ إِصْرِي﴾ و «ما» في قوله: ﴿لَمَّا أَتَيْنَاكُمْ﴾ بمعنى الذي. قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْنَّبِيِّينَ لَمَّا أَتَيْنَاكُمْ﴾ فقال: «ما» بمعنى الذي. قال النحاس: التقدير في قول الخليل الذي أتيتكموه، ثم حذفت الهاء لطول الاسم، واللام لام الابتداء، وبهذا قال الأخفش، وتكون ما في محل رفع على الابتداء، وخبرها من كتاب، وحكمة. وقوله: ﴿فَمَجَاءَكُمُ﴾ وما بعده جملة معطوفة على الصلوة، والعائد محذوف أي: مصنقٌ به. وقال المبرد، والزجاج، والكسائي: «ما» شرطية بخلت عليها لام التحقيق، كما تدخل على إن، ولتؤمنن به، جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف، كما تقول: أخذت ميثاقك، لتفعلن كذا، وهو: سأد مسدّ الجزء. وقال الكسائي: إن الجزء قوله: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾. وقال في الكشف: إن اللام في قوله: ﴿لَمَّا أَتَيْنَاكُمْ﴾ لام التوطئة، واللام في قوله: ﴿لَتَأْمُنُنَّ﴾ جواب القسم، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط، ولتؤمنن سأد مسدّ جواب القسم، والشرط جميعاً، وإن تكون موصولة بمعنى للذي أتيتكموه لتؤمنن به. انتهى، وقرأ حمزة: «لما أتيتكم» بكسر اللام وما بمعنى الذي، وهي متعلقة بأخذ. وقرأ أهل المدينة: «أتيناكم» على التعظيم. وقرأ الباقون: «أتيتكم» على التوحيد، وقيل: إن «ما» في قراءة من قرأ بكسر اللام مصدرية. ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب، والحكمة، ثم لمجيء رسول مصنق لما معكم، واللام لام التعليل، أي: لأجل ذلك أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمنن به. قوله: ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ هو من الإقرار. والإصر في اللغة: الثقل، سمي العهد إصرأ لما فيه من التشديد. والمعنى: وأخذتم على ذلك عهدي. قوله: ﴿قَالُوا اقْرَأْنَا﴾ جملة استثنائية، كأنه قيل: ماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل قالوا أقرنا، وإنما لم ينكر أحدهم الإصر اكتفاءً بذلك. قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي: قال الله سبحانه فاشهدوا، أي: ليشهد بعضهم على بعض: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا على إقراركم، وشهادة بعضكم على بعض من الشاهدين. قوله: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾ أي: أعرض عما نكر بعد ذلك الميثاق ﴿فَقَالُوا هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن الطاعة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن أصحاب عبد الله يقرأون: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَئِنْ آتَوْنَاكَ الْكِتَابَ لَئِنْ عَلَّمْتِكُمْ مِنْ كِتَابِ وَحْكَمَةٍ﴾ ونحن نقرأ ميثاق النبيين، فقال ابن عباس: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طائوس في الآية، قال: ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أن يصق بعضهم بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾

بالنصب عطفًا على «ثم يقول» «ولا» مزيدة لتأكيد النفي، أي: ليس له أن يأمر بعبادة نفسه، ولا يأمر باتخاذ الملائكة، والنبیین أرباباً بل ينتهي عنه، ويجوز عطفه على أن يؤتیه، أي: ما كان لبشر أن يأمرکم بأن تتخنوا الملائكة، والنبیین أرباباً، وبالنصب قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمرزة، وقرأ الباقون بالرفع على الاستثناف، والقطع من الکلام الأول، أي: ولا يأمرکم الله أن تتخنوا الملائكة، والنبیین أرباباً، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود، ولن يأمرکم. والهمز في قوله: «يأمرکم» لإنکار ما نفي عن البشر. وقوله: «بعد إذ أنتم مسلمون» استدل به من قال إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبی ﷺ من المسلمين في أن يسجدوا له.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحزاب من اليهود، والنصارى، من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره ما بئلك بعثني، ولا بئلك أمرني، فأنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُقَالُوا لَهُمْ ااتُوا بِالْحُكْمِ﴾ الآية». وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن قال: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك، كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: لا ولكن اكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لاهله، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُقَالُوا لَهُمْ ااتُوا بِالْحُكْمِ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال: فقهاء علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: حكماء علماء حلماء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: علماء فقهاء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود قال: حكماء علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي رزين في قوله: ﴿وَبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال: مذاكرة الفقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿وَبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال: ولا يأمرهم للنبي.

وَلَمَّا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ لَمَّا بَارَأْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ وَحِمْيَرٍ مُمِ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَصْدُوقٌ لِمَا مَعَكُمْ تَتُوبُونَ بِهِ وَلِتَضَعُوا يَدَكُمْ وَأَقْرَبْتُمْ
وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَأَيْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ
(٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

قد اختلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ فقال سعيد بن جببر، وقتادة، وطاوس، والحسن، والسديّ إنه أخذ الله ميثاق الأنبياء أن يصنّق بعضهم بعضاً بالإيمان، ويامر بعضهم بعضاً بذلك، فهذا معنى النصرة له، والإيمان به، وهو ظاهر الآية، فحاصله أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر، وينصره، وقال الكسائي: يجوز أن يكون معنى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ بمعنى إذا أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين، ويؤيده قراءة ابن مسعود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أَوْتُوا

الارض». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال في الآية: ﴿أسلم من في السموات والارض﴾ حين أخذ عليهم الميثاق. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وله أسلم﴾ قال: المعرفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: أما المؤمن، فأسلم طائعا، فنفعه ذلك، وقبل منه، وأما الكافر، فأسلم حين رأى بأس الله، فلم ينفعه ذلك، ولم يقبل منه ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ [غافر: 85]. وأخرج الطبراني في الأوسط عن انس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ساء خلقه من الرقيق، والدواب، والصبيان، فاقروا في آذنه ﴿أفغير دين الله تبغون﴾». وأخرج ابن السني في عمل اليوم، والليلة، عن يونس بن عبيد قال: ليس رجل يكون على دابة صعبة، فيقرأ في آذنها ﴿أفغير دين الله تبغون﴾ الآية إلا نلت بإذن الله عز وجل. وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجي الأعمال يوم القيامة، فتجي الصلاة، فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول إنك على خير، وتجي الصلوة فتقول: يا رب أنا الصلوة، فيقول إنك على خير، ويجي الصيام، فيقول: أنا الصيام، فيقول إنك على خير، ثم تجي الأعمال كل ذلك يقول الله إنك على خير، ثم يجي الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول: إنك على خير بك اليوم أخذ، وبك أعطى، قال الله تعالى في كتابه: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾».

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ رَسُولَ حَقٍّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُهمُ أَنَّا عَلَيْنَا لَقْنَةُ اللَّهِ وَالْعَذَابُ وَالنَّارُ الْجَوْوِيَّةُ ﴿٦٨﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَخْفُ عَنَّهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا كُفْرًا قَبِيلَ تَوْبَتِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمَكَاوُنُ ﴿٧٠﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ إِلَّا أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴿٧١﴾

قوله: ﴿كيف يهدي الله قوما﴾ هذا الاستفهام معناه الجحد، أي: لا يهدي الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله﴾ [التوبة: 71] أي: لا عهد لهم، ومثله قول الشاعر:

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
أي: لا نوم لي. ومعنى الآية: لا يهدي الله قوماً إلى الحق كفروا بعد إيمانهم، وبعدما شهدوا أن الرسول حق، وبعد ما جاءتهم البينات من كتاب الله سبحانه، ومعجزات رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿وإله لا يهدي القوم الظالمين﴾ جملة حالية، أي: كيف يهدي المرتدين، والحال أنه لا يهدي من حصل منهم مجرد الظلم؛ لأنفسهم، ومنهم الباقون على الكفر، ولا ريب أن نذب المرتد أشد من نذب من هو باق على الكفر؛ لأن المرتد قد عرف الحق، ثم أعرض عناداً، وتمرداً. قوله:

قال: هي خطأ من الكتاب، وهي في قراءة ابن مسعود: «ميثاق الذين أوتوا الكتاب» وأخرج ابن جرير، عن علي قال: لم يبعث الله نبياً أتم، فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث، وهو حي ليؤمنن به، ولينصرن، ويأمره، فيأخذ العهد على قومه، ثم تلا: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في الآية نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، من طريق العوفي عنه في قوله: ﴿إصري﴾ قال: عهدي. وأخرج ابن جرير، عن علي في قوله: ﴿قال فاشهدوا﴾ يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك ﴿وإنا معكم من الشاهدين﴾ عليكم وعليهم ﴿فمن تولي﴾ عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ هم العاصون في الكفر.

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ إِنَّمَا بَأْسُهُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا بِإِذْنِهِمْ وَإِسْمِ اللَّهِ وَالْأَسْبَابُ وَمَا أُوْتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿أفغير﴾ عطف على مقدر، أي: اتتولون، فتبغون غير دين الله، وتقديم المفعول؛ لأنه المقصود بالإنكار. وقرأ أبو عمرو وحده «تبغون» بالتحية، و «ترجعون» بالفوقية، قال: لأن الأول خاص، والثاني عام، ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى. وقرأ حفص بالتحية في الموضعين. وقرأ الباقون بالفوقية فيهما، وانتصب طوعاً، وكرهاً على الحال، أي: طائعين، ومكرهين. والطوع: الانقياد، والاتباع بسهولة، والكره: ما فيه مشقة، وهو من أسلم مخافة القتل، وإسلامه استسلام منه. قوله: ﴿أمننا﴾ إخبار منه ﷺ عن نفسه، وعن أمته ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ كما فرقت اليهود، والنصارى، فأمنوا ببعض، وكفروا ببعض. وقد تقدم تفسير هذه الآية ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي: منقادون مخلصون. قوله: ﴿ديننا﴾ مفعول للفعل، أي: يبتغ ديناً حال كونه غير الإسلام، ويجوز أن ينتصب غير الإسلام على أنه مفعول الفعل، وديناً إما تمييز، أو حال إذا أول بالمشتق، أو بدل من غير. قوله: ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إما في محل نصب على الحال، أو جملة مستأنفة، أي: من الواقعين في الخسران يوم القيامة.

وقد أخرج الطبراني بسند ضعيف، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وله أسلم من في السموات والارض﴾ قال: أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الارض، فمن ولد على الإسلام، وأما كرها، فمن أتى به من سبائيا الأمم في السلاسل، والاغلال يقانون إلى الجنة، وهم كارهون. وأخرج الديلمي عن انس قال: قال رسول الله ﷺ في الآية «الملائكة أطاعوه في السماء، والانصار، وعبد القيس أطاعوه في

حميد، وابن جرير، عن السدي نحوه، وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، عن ابن عباس، نحوه أيضاً. وقد روى عن جماعة نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾. قال: هم أهل الكتاب من اليهود عرفوا محمداً، ثم كفروا به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن قال: هم أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ونكروا نحو ما تقدم عنه. وأخرج البزار، عن ابن عباس: أن قوماً أسلموا، ثم ارتدوا، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فنكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَانُوا كُفْرَهُمْ﴾ قال السيوطي: هذا خطأ من البزار. وأخرج ابن جرير، عن الحسن في الآية قال: اليهود، والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: هم اليهود كفروا بالإنجيل، وعيسى، ثم ازدانوا كفراً بمحمد ﷺ، والقرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في الآية قال: إنما نزلت في اليهود، والنصارى كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدانوا كفراً بذنوب أنبؤوها، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب في كفرهم، ولو كانوا على الهدى قبلت توبتهم، ولكنهم على الضلالة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿ثُمَّ أَزْدَانُوا كُفْرَهُمْ﴾ قال: نموا على كفرهم. وأخرج ابن جرير، عن السدي في قوله: ﴿ثُمَّ أَزْدَانُوا كُفْرَهُمْ﴾ قال: ماتوا وهم كفار: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال: إذا تاب عند موته لم تقبل توبته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال: تابوا من الذنوب، ولم يتوبوا من الأصل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قال: هو كل كافر. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له أريت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكننت مفتدياً به، فيقول نعم، فيقال له لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الآية.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُ إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ

عَلِيمٍ ﴿١١﴾

هذا كلام مستأنف خطاب للمؤمنين عقب ذكر ما لا ينفع الكفار. قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ يقال: نالني من فلان معروف ينالني، أي: وصل إلي، والنوال: العطاء من قولك نولته تنويلاً أعطيته. والبر: العمل الصالح، وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعمر بن ميمون، والسدي: هو الجنة، فمعنى الآية: لن تنالوا العمل الصالح، أو الجنة، أي: تصلوا إلى ذلك، وتبلغوا إليه حتى تنفقوا مما تحبون، أي: حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها، و ﴿مَنْ﴾ تبغيضية، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «حتى تنفقوا بعض ما

﴿أولئك﴾ إشارة إلى القوم المتصفين بتلك الصفات السابقة، وهو: مبتدأ خبره الجملة التي بعده. وقد تقدم تفسير اللعن. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ معناه: يؤخرون ويمهلون. ثم استثنى التائبين: فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد الارتداد ﴿وَاصْلَحُوا﴾ بالإسلام ما كان قد أفسدوه من دينهم بالردة. وفيه دليل على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسلام مخلصاً، ولا خلاف في ذلك فيما أحفظ. قوله: ﴿ثُمَّ أَزْدَانُوا كُفْرَهُمْ﴾. قال قتادة، وعطاء الخراساني، والحسن: نزلت في اليهود، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته، وصفته: ﴿ثُمَّ أَزْدَانُوا كُفْرَهُمْ﴾ بإقامتهم على كفرهم، وقيل: ازدانوا كفراً بالذنوب التي اكتسبوها، ورجحه ابن جرير الطبري، وجعلها في اليهود خاصة. وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [التوبة: 7] مع كون التوبة مقبولة، كما في الآية الأولى، وكما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: 25] وغير ذلك، فقيل: المعنى لن تقبل توبتهم بعد الموت. قال النحاس: وهذا قول حسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ﴾ [النساء: 18] وبه قال الحسن، وقاتادة، وعطاء، ومنه الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغفره»، وقيل: المعنى لمن تقبل توبتهم التي كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر أحبط، وقيل: لمن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر، والأولى أن يحمل عدم قبولهم التوبة في هذه الآية على من مات كافراً غير تائب، فكانه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة، وتكون الآية المنكورة بعد هذه الآية، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ في حكم البيان لها. قوله: ﴿بِمَلءِ الْأَرْضِ ذَهَباً﴾ الملاء بالكسر مقدارا ما يملأ الشيء، والملاء بالفتح مصدر ملأت الشيء، وذهباً تمييز: قاله الفراء وغيره. وقال الكسائي نصب على إضمار من ذهب. كقوله: ﴿أَوْ عَدِلَ ذَلِكَ صَيَاماً﴾ [المائدة: 95] أي: من صيام. وقرأ الأعمش: «ذهب» بالرفع على أنه بدل من ملء، والواو في قوله: ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ قيل: هي مقحمة زائدة، والمعنى لو افتدى به، وقيل: فيه حمل على الغنى كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، وقيل: هو عطف على مقدر، أي: لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تصدق به في الدنيا، ولو افتدى به من العذاب أي: بمثله.

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد، ولحق بالمشركين، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه، فأسلم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه، وقال: هو الحارث بن سويد. وأخرج عبد بن

تحبون» وقيل: ببيانية ﴿وما﴾ موصولة، أو موصوفة، والمراد النفقة في سبيل الخير من صدقة، أو غيرها من الطاعات، وقيل: المراد: الزكاة المفروضة. وقوله: ﴿من شيء﴾ بيان لقوله: ﴿ما تنفقوا﴾ أي: ما تنفقوا من أي شيء سواء كان طبيباً، أو خبيراً ﴿فإن الله به عليهم﴾ وما شرطية جازمة. وقوله: ﴿فإن الله به عليهم﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس: «أن أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة» الحديث. وقد روي بالفاظ. وأخرج عبد بن حميد، والبزار، عن ابن عمر قال: حضرته هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فنكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحب إليّ من مرجانة جارية لي رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، فأنكحتها نافعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلواء، فدعا بها عمر، فقال: إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فاعتقتها عمر، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم: إنها لما نزلت الآية جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها: سبل، لم يكن له مال أحب إليه منها، فقال: هي صدقة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر﴾ قال: الجنة. وأخرج ابن جرير، عن عمرو بن ميمون، والسدي مثله. وأخرج ابن المنذر، عن مسروق مثله.

وقد أخرج الترمذي، وحسنه، عن ابن عباس: «أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: فأخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البؤ، فاشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلازمه إلا تحريم الإبل، والبانها، فلذلك حرمها، قالوا صدقت، ونكر الحديث. وأخرجه أيضاً أحمد، والنسائي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في الآية قال: العرق أجده عرق النساء، فكان يبيت له ريق يعني صياح، فجعل الله عليه إن شفاه أن لا ياكل لحماً فيه عرق، فحرمته اليهود. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس من قوله ما أخرجه الترمذي سابقاً عنه مرفوعاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: الذي حرم إسرائيل على نفسه، زائنتا الكبد، والكليتان، والشحم إلا ما كان على الظهر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: قالت اليهود للنبي ﷺ: نزلت التوراة بتحريم الذي حرم إسرائيل، فقال الله لمحمد ﷺ: ﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صابقين﴾ وكذبوا ليس في التوراة.

وقد أخرج الترمذي، وحسنه، عن ابن عباس: «أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: فأخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البؤ، فاشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلازمه إلا تحريم الإبل، والبانها، فلذلك حرمها، قالوا صدقت، ونكر الحديث. وأخرجه أيضاً أحمد، والنسائي. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في الآية قال: العرق أجده عرق النساء، فكان يبيت له ريق يعني صياح، فجعل الله عليه إن شفاه أن لا ياكل لحماً فيه عرق، فحرمته اليهود. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس من قوله ما أخرجه الترمذي سابقاً عنه مرفوعاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: الذي حرم إسرائيل على نفسه، زائنتا الكبد، والكليتان، والشحم إلا ما كان على الظهر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: قالت اليهود للنبي ﷺ: نزلت التوراة بتحريم الذي حرم إسرائيل، فقال الله لمحمد ﷺ: ﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صابقين﴾ وكذبوا ليس في التوراة.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فِيهِ

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس: «أن أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة» الحديث. وقد روي بالفاظ. وأخرج عبد بن حميد، والبزار، عن ابن عمر قال: حضرته هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فنكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحب إليّ من مرجانة جارية لي رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، فأنكحتها نافعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلواء، فدعا بها عمر، فقال: إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فاعتقتها عمر، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم: إنها لما نزلت الآية جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها: سبل، لم يكن له مال أحب إليه منها، فقال: هي صدقة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر﴾ قال: الجنة. وأخرج ابن جرير، عن عمرو بن ميمون، والسدي مثله. وأخرج ابن المنذر، عن مسروق مثله.

﴿كُلِّ الطَّعَامِ﴾ أي: المطعوم، والحل مصدر يستوي فيه المفرد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وهو الحلال، وإسرائيل هو: يعقوب، كما تقدم تحقيقه. ومعنى الآية: أن كل المطعومات كانت حلالاً لبني يعقوب، لم يحرم عليهم شيء منها إلا ما حرم إسرائيل على نفسه. وسياتي بيان ما هو الذي حرمه على نفسه، وهذا الاستثناء متصل من اسم كان. وقوله: ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ متعلق بقوله: ﴿كان حلالاً﴾ أي: أن كل المطعومات كانت حلالاً ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ أي: كان ما عدا المستثنى حلالاً لهم: ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ مشتملة على تحريم ما حرمه عليهم لظلمهم، وفيه رد على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله ﷺ من أن سبب ما حرمه الله عليهم هو ظلمهم، وبغيهم، كما في قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا

ولا تجادلوا. قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ اللام في قوله: ﴿هُوَ﴾ هي التي يقال لها لام الإيجاب، والإلزام، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف ﴿عَلَى﴾ فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب، كما إذا قال القائل لفلان علي كذا، فنكر الله سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمة، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصصه الليل كالصبي، والعبد. وقوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ في محل جرٍّ على أنه يدل بعض من الناس. وبه قال أكثر النحويين. وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بحج. والتقدير: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وقيل: إن من حرف شرط، والجزاء محذوف، أي: من استطاع إليه سبيلاً فعليه الحج. وقد اختلف أهل العلم في الاستطاعة ماذا هي؟ فقيل الزاد، والراحلة، وإليه ذهب جماعة من الصحابة، وحكاه الترمذي، عن أكثر أهل العلم، وهو: الحق. قال مالك: إن الرجل إذا وثق بقوته لزمه الحج، وإن لم يكن له زاد، وراحلة إذا كان يقدر على التكسب، وبه قال عبد الله بن الزبير، والشعبي، وعكرمة. وقال الضحاك: إن كان شاباً قوياً صحيحاً، وليس له مال فعليه أن يؤجر نفسه حتى يقضي حجه، ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة دخولاً أولياً أن تكون الطريق إلى الحج آمنة، بحيث يأمن الحاج على نفسه، وماله الذي لا يجد زاداً غيره، أما لو كانت غير آمنة، فلا استطاعة؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وهذا الخائف على نفسه، أو ماله لم يستطع إليه سبيلاً بلا شك، ولا شبهة. وقد اختلف أهل العلم إذا كان في الطريق من الظلمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لا يحجف بزاد الحاج، فقال الشافعي: لا يعطى حبة، ويسقط عنه فرض الحج ووافقه جماعة، وخالفه آخرون. والظاهر أن من تمكن من الزاد، والراحلة، وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها، ولو بمصانعة بعض الظلمة لنفع شيء من المال يتمكن منه الحاج، ولا ينقص من زاده، ولا يحجف به، فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه، لأنه قد استطاع السبيل بدفع شيء من المال، ولكنه يكون هذا المال المنفوع في الطريق من جملة ما تتوقف عليه الاستطاعة، فلو وجد الرجل زاداً، وراحلة، ولم يجد ما ينفعه لمن يأخذ المكس في الطريق لم يجب عليه الحج؛ لأنه لم يستطع إليه سبيلاً، وهذا لا بد منه، ولا ينافي تفسير الاستطاعة بالزاد، والراحلة، فإنه قد تعذر المرور في طريق الحج لمن وجد الزاد، والراحلة إلا بذلك القدر الذي يأخذه المكاسون، ولعل وجه قول الشافعي إنه سقط الحج أن أخذ هذا المكس منكراً، فلا يجب على الحاج أن يدخل في منكر، وأنه بذلك غير مستطيع. ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب، فلو كان زمناً بحيث لا يقدر على المشي، ولا على الركوب فهذا، وإن وجد الزاد، والراحلة، فهو لم يستطع السبيل. قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

إِنَّمَا يَنْتَظِرُ مَوْتَهُمْ وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آمِنًا وَلَوْ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢١٧﴾

هذا شروع في بيان شيء آخر مما جالبت فيه اليهود بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن بيت المقدس أفضل، وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدسة فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، فقوله: ﴿وَضِعَ﴾ صفة لبیت، وخبر إن قوله: ﴿لِلَّذِي بِيكَةِ﴾ فنية تعالى بكونه أول متعبد على أنه أفضل من غيره، وقد اختلف في الباني له في الابتداء، فقيل: الملائكة، وقيل: آدم، وقيل: إبراهيم، ويجمع بين ذلك بأول من بناه الملائكة، ثم جنده آدم، ثم إبراهيم. وبكة علم للبلد الحرام، وكذا مكة، وهما لغتان، وقيل: إن بكة اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام؛ وقيل: بكة للمسجد، ومكة للحرم كله؛ قيل: سميت بكة لازحام الناس في الطواف، يقال بك القوم: ازحموا، وقيل: البك: بق العنق، سميت بذلك؛ لأنها كانت تنق أعناق الجابرة. وأما تسميتها بمكة، فقيل: سميت بذلك لقلة ما بها؛ وقيل: لأنها تمك المع من العظم بما ينال ساكنها من المشقة، ومنه مكنت العظم إذا أخرجت ما فيه، ومك الفصل ضرع أمه، وامتك: إذا امتصه؛ وقيل: سميت بذلك؛ لأنها تمك من ظلم فيها، أي: تهلكه. قوله: ﴿مَبَارَكًا﴾ حال من الضمير في وضع، أو من متعلق الظرف؛ لأن التفسير للذي استقر ببكة مباركاً، والبركة: كثرة الخير الحاصل لمن يستقر فيه، أو يقصده، أي: الثواب المتضاعف. والآيات البينات الواضحات: منها الصفا، والمروة، ومنها أثر القدم في الصخرة الصماء، ومنها أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليماني كان الخصب في اليمن، وإن كان بناحية الشامي كان الخصب بالشام، وإذا عم البيت كان الخصب في جميع البلدان، ومنها انحراف الطيور، عن أن تمر على هوائه في جميع الأزمان، ومنها هلاك من يقصده من الجابرة، وغير ذلك. وقوله: ﴿مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل من آيات قاله محمد بن يزيد المبرد. وقال في الكشف: إنه عطف بيان. وقال الأخفش: إنه مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير منها مقام إبراهيم؛ وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف أي: هي مقام إبراهيم، وقد استشكل صاحب الكشف بيان الآيات، وهي: جمع بالمقام، وهو: فرد، وأجاب بأن المقام جعل وحده بمنزلة آيات لقوة شأنه، أو بانه مشتمل على آيات، قال: ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله؛ لأن الإثنين نوع من الجمع. قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آمِنًا﴾ جملة مستأنفة لبيان حكم من أحكام الحرم، وهو: أن من دخله كان آمناً، وبه استدل من قال: إن من لجأ إلى الحرم، وقد وجب عليه حد من الحدود، فإنه لا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وهو قول أبي حنيفة، ومن تابعه، وخالفه الجمهور، فقالوا: تقام عليه الحدود في الحرم. وقد قال جماعة: إن الآية خبر في معنى الأمر، أي: ومن دخله، فأمناه كقوله: ﴿لَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ [البقرة: 197] أي: لا ترفثوا، ولا تفسقوا،

عبد بن حميد، وابن المنذر، والأزرقى، عن عمر بن الخطاب قال: لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه. وقد روي عنه هذا المعنى من طرق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه قال: لو وجدت قاتل أبي في الحرم لم أعرض له. وأخرج ابن جرير، عن ابن عمر قال: لو وجدت قاتل أبي في الحرم ما هجته. وأخرج الشيخان، وغيرهما، عن أبي شريح العدوي قال: قام النبي ﷺ الغد من يوم الفتح فقال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله، واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعصدها بشجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله قد أنزل رسوله، ولم يأن لكم، وإنما أنزل لي ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم، كحرمتها أمس». وأخرج الدارقطني، والحاكم وصححه، عن أنس: «أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقيل: ما السبيل؟ قال: الزاد، والراحلة». وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر مرفوعاً: أنه قام رجل، فقال: ما السبيل؟ فقال: الزاد، والراحلة. وأخرج الدارقطني، والبيهقي في سننهما من طريق الحسن، عن أمه، عن عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ ما السبيل إلى الحج؟ قال: الزاد، والراحلة». وأخرج الدارقطني في سننه، عن ابن مسعود مرفوعاً مثله. وأخرج الدارقطني، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعاً مثله. وأخرج الدارقطني، عن جابر مرفوعاً مثله. وقد روى هذا الحديث من طرق أقل أحواله أن يكون حسناً لغيره، فلا يضره ما وقع من الكلام على بعض طرقه، كما هو معروف. وأخرج الدارقطني، عن علي مرفوعاً في الآية: «أنه سئل النبي ﷺ، فقال: تجد ظهر بعير». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: الزاد، والراحلة. وأخرج ابن عباس مثله. وأخرجه عنه مرفوعاً ابن ماجه، والطبراني، وابن مريويه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عنه قال: السبيل أن يصح بدن العبد، ويكون له ثمن زاد، وراحلة من غير أن يجحف به. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عنه قال: ﴿سَبِيلًا﴾ من وجد إليه سعة، ولم يحل بينه، وبينه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الله بن الزبير قال: الاستطاعة القوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن النخعي قال: إن المحرم للمرأة أن تسافر بغير ذي محرم. وأختلف الأحاديث في قدر المدة، ففي لفظ ثلاثة أيام، وفي لفظ يوم وليلة، وفي لفظ بريد.

قيل: إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج تأكيداً لوجوبه، وتشديداً على تاركه، وقيل: المعنى: ومن كفر بفرض الحج، ولم يره واجباً، وقيل: إن من ترك الحج، وهو قادر عليه، فهو كافر. وفي قوله: ﴿فَإِنْ اللَّهُ غَنَىٰ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة، وخذلانه، وبعده من الله سبحانه ما يتعاطفه سامعه، ويرجف له قلبه، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم، ومصلحتهم، وهو تعالى شأنه، وتقس سلطانه غني لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ الآية، قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي نر قال: «قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر، قال: «خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، وكان إذ كان عرشه على الماء زبدية بيضاء، وكانت الأرض تحته، كأنها حشفة فلدحت الأرض من تحته». وأخرج نحوه ابن المنذر، عن أبي هريرة. وأخرج ابن المنذر، والأزرقى، عن ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة، فقال المسلمون: بل الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فنزلت: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ وليس ذلك في بيت المقدس: ﴿وَهُوَ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الله بن الزبير قال: إنما سميت بكة؛ لأن الناس يجيئون إليها من كل جانب حجاجاً. وروى سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي، عن مجاهد: إنما سميت بكة؛ لأن الناس يتباكون فيها، أي: يزحمون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حبان، في قوله: ﴿مَبَارَكًا﴾ قال: جعل فيه الخير، والبركة: ﴿وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: بالهدى قبلتهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ فمنهن مقام إبراهيم، والمشعر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ قال: مقام إبراهيم: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ والله على الناس حج البيت. وأخرج الأزرقى، عن زيد بن أسلم نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَمَنْ نَخْلُهُ كَانَ آمَنًا﴾ قال: كان هذا في الجاهلية، كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه، ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول، ولم يطلب، فاما في الإسلام، فإنه لا يمنع من حدود الله، من سرق فيه قطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد، ومن قتل فيه قتل. وأخرج

والعرب، والنصارى، واليهود، والمجوس، والصابئين، فقال: إن الله فرض عليكم الحج، فحجوا البيت، فلم يقبله إلا المسلمون، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نستقبله، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي في سننه، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي داود نفيح قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَوَاشِعُ عَلَى النَّاسِ حَجَّ الْبَيْتِ﴾ الآية، فقال رجل من هذيل فقال: يا رسول الله من تركه كفر؟ فقال: من تركه لا يخاف عقوبته، ومن حج لا يرجو ثوابه، فهو ذاك». وأخرج ابن جرير، عن عطاء بن أبي رباح في الآية قال: من كفر بالبيت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في قول الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قال: من كفر بالله، واليوم الآخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد مثله من قوله. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد أنه سئل عن ذلك، فقرا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلًا﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بهذه الآيات. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود في الآية قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ فلم يؤمن به: فهو الكافر.

قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٦﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا آمَنَ تَبَوَّعَهَا عِوَابًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَنِيٍّ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ آمِنُوا إِنَّمَا أُوتِيتُمْ قَبْلَهَا مِنَ الْكِتَابِ أَوْ كَذَّبْتُمْ بِهَا كَذِبًا عَصَاكُمْ كَفَرًا ﴿١٦٨﴾ وَكَذَّبْتُمْ بِهَا كَذِبًا عَصَاكُمْ كَفَرًا ﴿١٦٩﴾ تَتْلُو عَالِيكُمْ رَسُولَهُ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ مَرْكَبٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٧٠﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ آمِنُوا أَنْفُسَكُمْ وَاللَّهُ حَقُّ تَقْوَاهُ وَلَا تَمُوتُوا وَلَا أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٧١﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٧٢﴾

قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب لليهود، والنصارى، والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ للإنكار، والتوبيخ. وقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ جملة حالية مؤكدة للتوبيخ، والإنكار، وهكذا المجيء بصيغة المبالغة في شهيد يفيد مزيد التشديد، والتهويل، والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ يفيد ما أقاده الاستفهام الأول. وقرأ الحسن: ﴿تَصُدُّونَ﴾ من أصد، وهما لفتان: مثل صد اللحم، وأصد: إذا تغير، وانتن، وسبيل الله دينه الذي ارتضاه لعباده، وهو دين الإسلام، والعوج: الميل، والزيغ، يقال عوج بالكر إذا كان في البين، والقول، والعمل، وبالفتح في الأجسام كالجدار، ونحوه، روي ذلك عن أبي عبيدة، وغيره، ومحل قوله: ﴿يَعْبُوْنَهَا عِوَابًا﴾ النصب على الحال. والمعنى: تطلبون لها عوجاجاً، وميلاً عن القصد، والاستقامة بإيهامكم على الناس بأنهم كذلك تنقيفاً لتحريفكم، وتقويماً لدعائكم الباطلة. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ جملة حالية، أي: كيف

وقد وردت أحاديث في تشديد الوعيد على من ملك زاداً، وراحلة، ولم يحج. فأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً، وراحلة تبلغه إلى بيت الله، ولم يحج بيت الله، فلا عليه بأن يموت يهودياً، أو نصرانياً، وذلك بأن الله يقول: ﴿وَوَاشِعُ عَلَى النَّاسِ حَجَّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. وفي إسناده هلال الخراساني أبو هاشم، قال البخاري: منكر الحديث. وقيل: مجهول. وقال ابن عدي: هذا الحديث ليس بمحفوظ وفي إسناده أيضاً الحارث الأعور، وفيه ضعف. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في كتاب الإيمان، وأبو يعلى، والبيهقي، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات، ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس، أو سلطان جائر، أو حاجة ظاهرة، فليمت على أي حال شاء يهودياً، أو نصرانياً». وأخرج ابن أبي شيبة، عن عبد الرحمن بن سابط مرفوعاً مرسلاً مثله. وأخرج سعيد بن منصور. قال السيوطي بسند صحيح، عن عمر بن الخطاب قال: لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة، ولم يحج، فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين. وأخرج الإسماعيلي عنه يقول: «من أطاق الحج، ولم يحج، فسواء عليه يهودياً مات، أو نصرانياً، قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده: وهذا إسناده صحيح. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: «من مات، وهو موسر، ولم يحج جاء يوم القيامة، وبين عينيه مكتوب كافر». وأخرج سعيد بن منصور، عنه «من وجد إلى الحج سبيلاً سنة، ثم سنة، ثم سنة ثم مات، ولم يحج لم يصل عليه، ولا يدري مات يهودياً، أو نصرانياً». وأخرج سعيد بن منصور، عن عمر بن الخطاب، قال: لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه، كما نقاتلتهم على الصلاة، والزكاة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ قال: من زعم أنه ليس بفرض عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في الآية قال: من كفر بالحج، فلم يرجعه برأ، ولا تركه مائماً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: 85] قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبي ﷺ: إن الله فرض على المسلمين حج البيت، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبو أن يحجوا، قال الله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاک قال: «لما نزلت آية الحج ﴿وَوَاشِعُ عَلَى النَّاسِ حَجَّ الْبَيْتِ﴾ الآية، جمع رسول الله ﷺ أهل الملل مشركي

وتبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام، وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضاً، وينهب بعضهم بعضاً، فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخواناً وكانوا على شفا حفرة من النار بما كانوا عليه من الكفر، فأنقذهم الله من هذه الحفرة بالإسلام. ومعنى قوله: ﴿أصبحتُمْ﴾ صرتم، وليس المراد به معناه الأصلي: وهو الدخول في وقت الصباح، وشفا كل شيء حرفه، وكذلك شفيره، وأشفى على الشيء: أشرف عليه، وهو تمثيل للحالة التي كانوا عليها في الجاهلية. وقوله: ﴿هكلك﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده أي: مثل تلك البيان البليغ يبين الله لكم. وقوله: ﴿لعلكم تهتدون﴾ إرشاد لهم إلى الثبات على الهدى، والازدياد منه.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مر شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسى في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس، والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من الفتهم، وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام. بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملا بني قبيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم نكروهم يوم بعث، وما كان قبله، وأنشدكم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، وكان يوم بعث يوماً اقتتلت فيه الأوس، والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيطي أحد بني حارثة من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم، والله ربدناهما الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، للسلاح السلاح موعنكم الظاهرة، والظاهرة الحرة، فخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين الله الله أبدوئى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عنوهم لهم، فالفقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفا الله عنهم كيد عدو الله شاس، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس، وما صنع ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾ إلى قوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وأنزل في أوس بن قيطي، وجبار بن صخر، ومن كان معهم من

تطلبون تلك بلمة الإسلام، والحال أنكم تشهدون أنها دين الله الذي لا يقبل غيره، كما عرفتكم ذلك من كتبكم المنزلة على أنبيائكم، قيل: إن في التوراة أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام، وأن فيه نعت محمد ﷺ؛ وقيل: المراد: ﴿وأنتم شهداء﴾ أي: عقلاء، وقيل: المعنى وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون عندهم، فكيف تاتون بالباطل الذي يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم؟ ثم توعدهم سبحانه بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذراً لهم عن طاعة اليهود، والنصارى مبيناً لهم أن تلك الطاعة تقضي إلى أن يردونهم بعد إيمانهم كافرين، وسيأتي بيان سبب نزول الآية، والاستفهام في قوله: ﴿وكيف تكفرون﴾ للإنكار، أي: من أين يأتاكم ذلك، ولينكم ما يمنع منه ويقطع أثره، وهو: تلاوة آيات الله عليكم، وكون رسول الله ﷺ بين أظهركم؟ ومحل قوله: ﴿وأنتم﴾ وما بعده النصب على الحال. ثم أرشدكم إلى الاعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو الإسلام، وفي وصف الصراط بالاستقامة رد على ما ادعوه من العوج. قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة؛ لأن رسول الله ﷺ كان فيهم، وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره، وعلامته، والقرآن الذي أوتيها، فكان رسول الله ﷺ فيها، وإن لم نشاهده. انتهى. ومعنى الاعتصام بالله التمسك بدينه، وطاعته، وقيل: بالقرآن، يقال: اعتصم به، واستعصم، وتمسك، واستمسك: إذا امتنع به من غيره، وعصمه الطعام: منع الجوع منه. قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ أي: التقوى التي تحق له، وهي: أن لا يترك العبد شيئاً مما يلزمه فعله، ولا يفعل شيئاً مما يلزمه تركه، ويبدل في ذلك جهده، ومستطاعه. قال القرطبي: ذكر المفسرون أنها لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله من يقوى على هذا؟ وشق عليهم ذلك، فأنزل الله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: 16] فنسخت هذه الآية. روي ذلك عن قتادة، والربيع، وابن زيد. قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذا. وقيل: إن قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ مبين بقوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ والمعنى: اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم. قال: وهذا أصوب؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن؛ فهو أولى. قوله: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي: لا تكونن على حال سوى حال الإسلام، فالاستثناء مفرغ، ومحل الجملة: أعني: قوله: ﴿وأنتم مسلمون﴾ النصب على الحال، وقد تقدم في البقرة تفسير مثل هذه الآية. قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ الحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو: إما تمثيل، أو استعارة. أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام، أو بالقرآن، ونهاهم عن التفرق الناشيء عن الاختلاف في الدين، ثم أمرهم بأن ينكروا نعمة الله عليهم،

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَرَّوْا وَخَافَلَوْا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾ تِلْكَ نَائِكَتُ اللَّهِ نَتَلَوُهَا عَلَيْكَ يَا لَحِيَّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلُمًا لِّلْمَلِكِينَ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٥﴾

قوله: ﴿ولتكن﴾ قرأه الجمهور بإسكان اللام، وقرئ بكسر اللام على الأصل، ومن في قوله: ﴿منكم﴾ للتبويض، وقيل: لبيان الجنس. ورجح الأول بأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمرون به معروفاً، وينهون عنه منكراً. قال القرطبي: الأول أصح، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عينهم الله سبحانه بقوله: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾ [الحج: 41] الآية. وقرأ ابن الزبير: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم) قال أبو بكر بن الأنباري: وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقليين، فالحق بالفاظ القرآن. وقد روى أن عثمان قرأها كذلك، ولكن لم يكتبها في مصحفه، فدل على أنها ليست بقرآن. وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب، والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها. وقوله: ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ من باب عطف الخاص على العام، إظهاراً لشرفهما، وإثباتاً للفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه، كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة، أي: يدعون، ويأمرون، وينهون لقصد التعميم، أي: كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك، والإشارة في قوله: ﴿وأولئك﴾ ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها ﴿هم المفلحون﴾ أي: المختصون بالفلاح، وتعريف المفلحين للعهد، أو للحقيقة التي يعرفها كل أحد. قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ هم: اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين، وقيل: هم المبتدعة من هذه الأمة، وقيل: الحرورية، والظاهر الأول. والبيئات الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة لعدم الاختلاف. قيل: وهذا النهي عن التفرق، والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية، وأما المسائل الفرعية الاجتهادية، فالاختلاف فيها جائز، وما زال الصحابة، فمن بعدهم من التابعين، وتابعيهم مختلفين في أحكام الحوادث، وفيه نظر، فإنه ما زال في تلك العصور المنكر للاختلاف موجوداً وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها نون البعض الآخر ليس بصواب،

قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ وقد رويت هذه القصة مختصرة، ومطولة من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿لم تصنوا عن سبيل الله﴾ قال: كانوا إذا سألهم أحد تجلبون محمداً؟ قالوا: لا، قال: فصدوا الناس عنه، وبغوا محمداً عوجاً هلاكاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: لم تصنوا عن الإسلام، وعن نبي الله من آمن بالله، وأنتم شهداء فيما تقرأون من كتاب الله أن محمداً رسول الله، وأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿ومن يعتصم بالله﴾ قال: يؤمن به. وأخرجوا عن أبي العالية قال: الاعتصام: الثقة بالله. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن مسعود في قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: أن يطاع، فلا يعصى، وينكر، فلا ينسى، ويشكر، فلا يكفر. وقد رواه الحاكم وصححه، وابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً ببنو قوله: ويشكر، فلا يكفر. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: حق تقاته أن يطاع، فلا يعصى، فمن تستطيعوا، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: 16] وأخرج عبد بن حميد، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿حق تقاته﴾ قال: لم تتسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم، وآبائهم، وأبنائهم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن مسعود في قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ قال: حبل الله القرآن. وقد روت أحاديث أن كتاب الله هو حبل الله الممدود. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: واعتصموا بحبل الله بالإخلاص لله وحده. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: بطاعته. وأخرج أيضاً، عن قتادة قال: بعهدته، وأمره. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: بالإسلام. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿إذ كنتم أعداء﴾ قال: ما كان بين الأوس، والخزرج في شأن عائشة. وأخرج ابن إسحاق قال: كانت الحرب بين الأوس، والخزرج عشرين ومائة سنة، حتى قام الإسلام، فاطفاً الله ذلك، وألف بينهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ يقول: كنتم على طرف النار، من مات منكم، وقع في النار، فبعث الله محمداً ﷺ، واستنقذكم به من تلك الحفرة.

إلى الخير» أي: الإسلام: «ويأمرون بالمعروف» بطاعة ربهم «وينهون عن المنكر» عن معصية ربهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاك في الآية قال: هم أصحاب محمد ﷺ خاصة، وهم: الرواة. انتهى. ولا أدري ما وجه هذا التخصيص، فالخطاب في هذه الآية، كالخطاب بسائر الأمور التي شرعها الله لعباده، وكلفهم بها. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وأخرج أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن معاوية، مرفوعاً نحوه، وزاد: «كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة». وأخرج الحاكم، عن عبد الله بن عمرو، مرفوعاً نحوه أيضاً، وزاد: «كلها في النار إلا ملة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم، وأصحابي». وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك، مرفوعاً نحوه، وفيه: «فواحدة في الجنة وثنان وسبعون في النار، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة» وأخرجه أحمد من حديث أنس، وفيه: «قيل يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة». وقد وردت آيات، وأحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي الأمر بالكون في الجماعة، والنهي عن الفرقة. وأخرج ابن أبي حاتم، والخطيب، عن ابن عباس في قوله: «يوم تبيض وجوه» قال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة. وأخرجه الخطيب، والديلمي، عن ابن عمر مرفوعاً وأخرجه أيضاً مرفوعاً أبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي سعيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب في الآية قال: صاروا فرقتين يوم القيامة، يقال لمن أسود وجهه أكفرتم بعد إيمانكم؟ فهو الإيمان الذي كان في صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة، وأما الذين أبيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم، وأخلصوا له الدين فبيض الله وجوههم، وأدخلهم في رضوانه، وجنته، وقد روى غير ذلك.

كُتِبَ خَيْرَ أَمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَذُوُورُهُمْ بِاللَّهِ وَلَوْ أَمَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَلَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُنْفِكُوا يُؤْلَكُوا بِأَمْرِ الْآزِفَاتِ لَمْ يَصْرُوكُمْ ﴿١١١﴾ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ أَنْ مَا تَفْعَلُوا إِلَّا حَيْلٌ مِنَ اللَّهِ وَحَيْلُ مِنَ النَّاسِ وَكَأُومٌ يَفْسَسُ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ السَّكَّةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

قوله: «كنتم خير أمة» هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم، وكان قيل: هي التامة، أي: وجدتم، وخلقتهم خير أمة، ومثله ما أنشده سيبويه:

وجيران لنا كانوا كرام

فالمسائل الشرعية المساوية للأقدام في انتسابها إلى الشرع. وقوله: «يوم تبيض وجوه» منتصب بفعل مضمر أي: انكسر، وقيل: بما يدل عليه قوله: «لهم عذاب عظيم» فإن تقديره استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه، أي: يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة، وجوه الكافرين مسودة. ويقال إن ذلك عند قراءة الكتاب إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسنته، فاستبشر وأبيض وجهه، وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئاته، فحزن وأسود وجهه، والتنكير في وجوه للكثير، أي: وجوه كثيرة. وقرأ يحيى بن وثاب تبيض، وتسود بكسر التاءين. وقرأ الزهري تبيض، وتسود. قوله: «أكفرتم» أي: فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ، والتعجب من حالهم، وهذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام مقام تحذير وترهيب، قيل: هم أهل الكتاب، وقيل: المرتدون، وقيل: المنافقون، وقيل: المبتدعون. قوله: «ففي رحمة الله» أي: في جنته ودار كرامته، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة، بل لا بد من الرحمة، ومنه حديث: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» وهو في الصحيح. وقوله: «هم فيها خالدون» جملة استثنائية جواب سؤال مقدر. وتلك إشارة إلى ما تقدم من تعذيب الكافرين، وتنعيم المؤمنين. وقوله: «فتتلوها عليكم بالحق» جملة حالية، وبالحق متعلق بمحذوف، أي: متلبسة بالحق، وهو العدل. وقوله: «وما الله يريد ظلماً للعالمين» جملة تنزيلية مقررة لمضمون ما قبلها، وفي توجه النفي إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فرداً من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم. والمراد بما في السموات، وما في الأرض مخلوقاته سبحانه، أي: له ذلك يتصرف فيه كيف يشاء، وعلى ما يريد، وعبر بما تغليباً لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم، أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم. قال المهدي: وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين، والكافرين، وأنه لا يريد ظلماً للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته، وغناه عن الظلم لكون ما في السموات، وما في الأرض في قبضته، وقيل: هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع ما في السموات، وما في الأرض له حتى يسألوه، ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره. وقوله: «والى الله ترجع الأمور» أي: لا إلى غيره، لا شركة، ولا استقلالاً.

وقد أخرج ابن مردويه، عن أبي جعفر الباقر قال: «قرأ رسول الله ﷺ: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير» قال: الخير اتباع القرآن وسنتي». وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: كل آية نكرها الله في القرآن في الأمر بالمعروف، فهو الإسلام، والنهي عن المنكر، فهو عبادة الأوثان، والشيطان. انتهى. وهو تخصيص بغير مخصص، فليس في لغة العرب، ولا في عرف الشرع ما يدل على ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان قال: «يدعون

في كل حال، وعلى كل تقدير في أي مكان وجدوا ﴿إلا بحبل من الله﴾ أي: إلا أن يعتصموا بحبل من الله، قاله الفراء أي: بئمة الله، أو بكتابه ﴿وحبل من الناس﴾ أي: بئمة من الناس، وهم المسلمون، وقيل المراد بالناس: النبي ﷺ ﴿وياؤوا﴾ أي: رجعوا ﴿بغضب من الله﴾ وقيل: احتملوا، وأصل معناه في اللغة اللزوم، والاستحقاق، أي: لزمهم غضب من الله هم مستحقون له، ومعنى ضرب المسكنة: إحاطتها بهم من جميع الجوانب، وهكذا حال لليهود، فإنهم تحت الفقر المدقع، والمسكنة الشديدة إلا النادر الشاذ منهم. والإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدم من ضرب الثلثة، والمسكنة، والغضب، أي: وقع عليهم ذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، والإشارة بقوله: ذلك إلى الكفر، وقتل الأنبياء بسبب عصيانهم الله، واعتدائهم لحنوده. ومعنى الآية: أن الله ضرب عليهم الثلثة، والمسكنة، والبلاء بالغضب منه لكونهم كفروا بآياته، وقتلوا أنبياءه بسبب عصيانهم، واعتدائهم.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في الآية قال: قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله لقال أنتم فكننا كلنا، ولكن قال كنتم في خاصة أصحاب محمد، ومن صنعهم مثل صنعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس، وفي لفظ عنه أنه قال يكون لأولنا، ولا يكون لآخرنا. وأخرج ابن جرير، عن قتادة قال: نكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية، ثم قال: يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في ابن مسعود، وعمار بن ياسر، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل. وأخرج البخاري، وغيره، عن أبي هريرة في الآية قال: خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن معاوية بن حيدة: أنه سمع النبي ﷺ يقول في الآية: إنكم تسمون سبعين أمة أنتم خيرها، وأكرمها. وروى من حديث معاذ، وأبي سعيد نحوه. وقد روت أحاديث كثيرة في الصحيحين، وغيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ولا عذاب، وهذا من فوائد كونها خير الأمم. وأخرج ابن جرير عن الحسن: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ قال: تسمعون منهم كذباً على الله يدعونكم إلى الضلالة. وأخرج أيضاً عن ابن جريج قال: إشراكهم في عزيز، وعيسى، والصليب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، وقاتادة: ﴿ضربت عليهم الثلثة﴾ قالوا: يعطون الجزية عن يد

ومنه قوله تعالى ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ [مريم: 29] وقوله: ﴿وانكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ [الأعراف: 86]. وقال الأخفش: يريد أهل أمة: أي خير أهل دين، وأنشد:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يائمن نومة وهو طائع
وقيل: معناه: كنتم في اللوح المحفوظ، وقيل: كنتم منذ آمنتم. وفيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق، وأن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه الأمة، وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت متفاوتة في ذات بيتها. كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم. قوله: ﴿أخرجت للناس﴾ أي: أظهرت لهم. وقوله: ﴿تأمرون بالمعروف﴾ الخ كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك، واتصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك، ولهذا قال مجاهد: إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية، وهذا يقتضي أن يكون تأمرون، وما بعده في محل نصب على الحال أي: كنتم خير أمة حال كونكم أمرين ناهين مؤمنين بالله، وبما يجب عليكم الإيمان به من كتابه، ورسوله، وما شرعه لعباده، فإنه لا يتم الإيمان بالله سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور. قوله: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ أي: اليهود إيماناً كإيمان المسلمين بالله، ورسله وكتبه: ﴿لكان خيراً لهم﴾ ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل قالوا: نؤمن ببعض الكتاب، ونكفر ببعض، ثم بين حال أهل الكتاب بقوله: ﴿منهم المؤمنون﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ منهم، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه، وما أنزل من قبله: ﴿واكثرهم الفاسقون﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق المتمردون في باطلهم المكذبون لرسول الله ﷺ ولما جاء به، فيكون هذا التفصيل على هذا كلاماً مستأنفاً جواباً، عن سؤال مقدر، كأنه قيل: هل منهم من آمن فاستحق ما وعده الله. قوله: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ أي: لن يضروكم بنوع من أنواع الضرر إلا بنوع الأذى، وهو الكذب، والتحريف، والبهت، ولا يقدرون على الضرر الذي هو الضرر في الحقيقة بالحرب، والنهب، ونحوهما، فالاستثناء مفرغ، وهذا وعد من الله لرسوله، وللمؤمنين أن أهل الكتاب لا يغلبونهم، وأنهم منصورون عليهم، وقيل: الاستثناء منقطع. والمعنى: لن يضروكم البتة لكن يؤنؤنكم، ثم بين سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله: ﴿وإن يقاتلوك يولوكم الألبار﴾ أي: ينهزمون ولا يقدرن على مقاومتكم فضلاً عن أن يضروكم. وقوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾ عطف على الجملة الشرطية، أي: ثم لا يوجد لهم نصر، ولا يثبت لهم غلب في حال من الأحوال، بل شأنهم الخذلان ما داموا. وقد وجدنا ما وعدنا سبحانه حقاً، فإن اليهود لم تخفق لهم راية نصر، ولا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية، فهي من معجزات النبوة. قوله: ﴿ضربت عليهم الثلثة﴾ قد تقدم في البقرة معنى هذا التركيب. والمعنى: صارت الثلثة محيطة بهم

لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُعَقِّلِينَ ﴿١٥٨﴾ هَكَأَنَّهُ أَوْلَاةٌ يُبْغُونَهُمْ وَلَا يَحْسِبُونَ بِالْكِتَابِ حَقًّا وَإِذَا لَعَنُوا قَائِلًا ءَامَنُوا وَإِذَا عَلَوْا عَنِكَ الْأَنفَالُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِ قُلْ مَثَلُ مَثَلِي مَثَلُ مَثَلِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ يَدَايِ الْفُتُورِ ﴿١٥٩﴾ إِنْ تَسْأَلُكُمْ عَنْهُ سَأَلُوكُمْ فَلْيَسْأَلُكُمْ سَأَلَهُمْ بِمَثَلٍ قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ بَيِّنَاتٍ لَكُمْ وَلَكُمْ تَعْلِيمٌ ﴿١٦٠﴾

البطانة مصدر يسمى به الواحد، والجمع، وبطانة الرجل: خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصله البطن الذي هو: خلاف الظهر، وبطن فلان بفلان بطناً، وبطانة: إذا كان خاصاً به، ومنه قول الشاعر:

وهم خلصائي كلهم وبطانتني وهم عيبتي من نون كل قريب
قوله: ﴿مَنْ دُونَكُمْ﴾ أي: من سواكم قاله الفراء أي: من نون المسلمين، وهم الكفار، أي: بطانة كائنة من دُونكم، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿لَا تَتَخَذُوا﴾. وقوله: ﴿لَا يَالِئُكُمْ خِيَالًا﴾ في محل نصب صفة لبطانة، يقال لا ألوك جهداً أي: لا أقصر. قال امرؤ القيس:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمركب أطراف الخطوب ولا آل
والمراد: لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، وإنما عدي إلى مفعولين لكونه مضمناً معنى المنع أي: لا يمنعونكم خيالاً، والخبال، والخبل: الفساد في الأفعال، والابدان، والعقول. قال أوس:

أبني لبني لستم بيد إلا يد مخبولة العضد
أي: فاسدة العضد. قوله: ﴿وَوَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ ما مصدرية، أي: وودوا عنكم، والعنت المشقة، وشدة الضرر، والجملة مستأنفة مؤكدة للنهي. قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ هي: شدة البغض، كالخضراء لشدة الضرر. والافواه جمع فم. والمعنى: أنها قد ظهرت البغضاء في كلامهم؛ لأنهم لما خامرهم من شدة البغض، والحسد أظهرت السننهم ما في صدورهم، فتركوا التقية، وصرحوا بالكذب. أما اليهود، فالامر في ذلك واضح. وأما المنافقون، فكان يظهر من فلتات السننهم ما يكشف عن خبث طويتهم. وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم ﴿وَمَا تَخْفِي صدورهم أكبر﴾ لأن فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور، بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما في الصدور قليلة جداً. ثم إنه سبحانه امتنَّ عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الإخلاص إن كانوا من أهل العقول المركبة لذلك البيان. قوله: ﴿هَذَا أَنْتُمْ أَوْلَاةٌ﴾ جملة مصدرية بحرف التنبيه، أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاتهم، ثم بين خطاهم بتلك الموالات بهذه الجملة التوبيخية. فقال ﴿تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ﴾، وقيل: إن قوله: ﴿تَحِبُّونَهُمْ﴾ خبر ثان لقوله أنتم، وقيل: إن أولاء موصول، وتحبونهم صلته أي: تحبونهم لما أظهروا لكم الإيمان، أو لما بينكم، وبينهم من القرابة: ﴿وَلَا يَحِبُّونَكُمْ﴾ لما قد استحكم في صدورهم من الغيظ والحسد. قوله: ﴿وَتَوَمَّنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بجنس الكتاب جميعاً، ومحل الجملة النصب على الحال، أي: لا يحبونكم، والحال أنكم مؤمنون بكتب الله سبحانه التي من

المنفقين من الكافرين ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلُمُونَ﴾ بالكفر المانع من قبول النفقة التي أنفقوها، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص؛ لأن الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الدلائل، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيد، وأسيد بن سعيد، ومن أسلم من يهود معهم، فأمنوا، وصنقوا، ورجعوا في الإسلام، قالت أحبار يهود، وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد، وتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿أَمَامَ قَائِمَةٍ﴾ يقول: مهتية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه، ولم تتركه، كما تركه الآخرون، وضيعوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم قال: ﴿أَمَامَ قَائِمَةٍ﴾ عائلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال: جوف الليل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع قال: ساعات الليل. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ قال: لا يستوى أهل الكتاب، وأمة محمد: ﴿يَقْتُلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة العتمة هم: يصلونها، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها. وأخرج أحمد، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني. قال السيوطي بسند حسن، عن ابن مسعود قال: «آخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ليلة، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم، ولفظ ابن جرير، والطبراني فقال: إنه لا يصلي هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب. قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن منصور قال: بلغني أنها نزلت هذه الآية: ﴿يَقْتُلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ فيما بين المغرب، والعشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة ﴿فَلَنْ تَكْفُرُوهُ﴾ قال: لن يضل عنكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن ﴿فَلَنْ تَكْفُرُوهُ﴾ قال: لن تظلموه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في الآية يقول: ﴿مَثَلُ مَا يَنْفَقُونَ﴾ أي: المشركون، ولا يتقبل منهم، كمثله هذا الزرع إذا زرعته القوم الظالمون، فاصلبه ربح فيها صر، فاهلكته، فكنلك أنفقوا، فاهلكهم شركهم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فِيهَا صَرْ﴾ قال: برد شديد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَبَالٍ وَوَدَّ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفِي صدورهم أكبر قد بينا

والخير ﴿تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تَصْبِحُمْ سَيِّئَةً﴾ يعني القتل، والهزيمة، والجهد.

وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ أَمَلِكُ ثُبُوءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعَهُ لِقَاتِلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عِلْمُ
 ﴿١٤١﴾ إِذْ مَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَوْلَاهُ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ
 ﴿١٤٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ مِائَةٍ مِنْ
 الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٤٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ
 رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ مِائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ
 وَلِظُلْمَ قُلُوبِكُمْ بِهٖ وَمَا أُنْتَبِرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْمُبْرِزِ الْحَكِيمِ ﴿١٤٦﴾ يَنْقُطُ
 طَرَفَايَ الَّذِينَ كَذَبُوا رَبَّكَ وَأَوْ يَكْفِهِمْ يُنْفِلُوا غَيْرِينَ ﴿١٤٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ
 أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٩﴾

العامل في «إذ» فعل محذوف، أي: وانكروا إذ غدت من منزل أهلك، أي: من المنزل الذي فيه أهلك. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية نزلت في غزوة أحد. وقال الحسن: في يوم بدر. وقال مجاهد، ومقاتل، والكلبي: في غزوة الخندق. قوله: ﴿يَتُوبُ﴾ أي: تتخذ لهم مقاعد للقتال، وأصل التوبة: اتخاذ اتخاذ المنزل، يقال بوائته منزلاً: إذا أسكنته إياه، والفعل في محل نصب على الحال. ومعنى الآية: وانكروا إذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مقاعد للقتال، أي: أماكن يقعدون فيها، وغير عن الخروج بالغدو الذي هو: الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة، كما سيأتي؛ لأنه قد يعبر بالغدو، والرواح، عن الخروج، والنخول من غير اعتبار أصل معناهما، كما يقال، أضحى، وإن لم يكن في وقت الضحى. قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ هو: بدل من إذ غدت، أو متعلق بقوله تبوء، أو بقوله سميع عليم، والطائفتان بنو سلمة من الخروج، وبنو حارثة من الأوس، وكننا جناحي العسكر يوم أحد، والغشل الجبن، والهَمُّ من الطائفتين كان بعد الخروج، لما رجع عبد الله بن أبي بن معمر من المنافقين، فحفظ الله قلوب المؤمنين، فلم يرجعوا، ونلك قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ جملة مستأنفة سيقى لتصبيرهم بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر. وبدر اسم لماء كان في موضع الوقعة، وقيل: هو اسم الموضع نفسه، وسيأتي سياق قصة بدر في الانفصال إن شاء الله. وأتت جمع قلة، ومعناها: أنهم كانوا بسبب قتلهم أئمة، وهو: جمع قليل استعير للقلة، إذ لم يكونوا في أنفسهم أئمة، بل كانوا أعزة. والنصر: العون. وقد شرح أهل التواريخ، والسير غزوة بدر، وأحد باتم شرح، فلا حاجة لنا في سياق ذلك هاهنا. قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ متعلق بقوله: ﴿نَصَرَكُمُ﴾ والهمزة في قوله: ﴿إِنَّ يَكْفِيَكُمْ﴾ للإنكار منه ﷺ عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة، ومعنى الكفاية سد الخلة، والقيام بالأمر، والإمداد في الأصل: إعطاء الشيء حالاً بعد

جملتها كتابهم، فما بالكم تحبونهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم. وفيه توبيخ لهم شديد، لأن من بيده الحق أحق بالصلاة، والشدة ممن هو على الباطل ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقاً وتقية ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْإِنَّمَالُ مِنَ الْغِيظِ﴾ تأسفاً، وتحسراً، حيث عجزوا عن الانتقام منكم، والعرب تصف المغتاز، والنام بعض الأنامل والبنان، ثم أمره الله سبحانه بأن يدعو عليهم، فقال: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغِيظِكُمْ﴾ وهو يتضمن استمرار غيظهم ما داموا في الحياة حتى ياتيهم الموت، وهم عليه، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يعلم ما في صدوركم، وصدورهم، والمراد بذات الصدور: الخواطر القائمة بها، وهو كلام داخل تحت قوله: ﴿قُلْ﴾ فهو من جملة المقول. قوله: ﴿إِنَّ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان تنامي عداوتهم، وحسنة، وسيئة يعمان كل ما يحسن، وما يسوء. وغير بالمس في الحسنة، وبالإصابة في السيئة، للدلالة على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساواة، ولا يفرجون إلا بإصابة السيئة، وقيل: إن المس مستعار لمعنى الإصابة. ومعنى الآية: أن من كانت هذه حالته لم يكن أهلاً؛ لأن يتخذ بطانة ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم، أو على التكليف الشاق ﴿وَتَتَّقُوا﴾ موالاتهم، أو ما حرّمه الله عليكم ﴿يُضِرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾، يقال ضارّه يضره، ويضيره ضيراً، وضيراً: بمعنى ضرّه يضره، وبه قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. وقرأ الكوفيون، وابن عامر لا يضركم بضم الراء، وتشديد هاء من ضرّ يضر، فهو على القراءة الأولى مجزوم على أنه جواب الشرط، وعلى القراءة الثانية مرفوع على تقدير إضمار الفاء، كما في قول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

قاله الكسائي، والفاء، وقال سيوبه: إنه مرفوع على نية التقديم، أي: لا يضرركم أن تصبروا. وحكى أبو زيد عن المفضل عن عاصم «لا يضرركم» بفتح الراء، وشيئاً صفة مصدر محذوف.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار، والحلف في الجاهلية، فأنزل الله فيهم ينهاهم، عن مبايحتهم لخوف الفتنة عليهم منهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه قال: هم المنافقون. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: هم الخوارج. قال السيوطي، وسنده جيد. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بكتابكم وبكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغيضاء، لهم منهم لكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل ﴿إِنَّ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً﴾ يعني: النصر على العدو، والرزق،

يسألون ﴿الأنبياء: 23﴾ وفي قوله: ﴿والله غفور رحيم﴾ إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة، والرحمة على وجه المبالغة، وما أوقع هذا التنزيل الجليل وأحبه إلى قلوب العارفين بأسرار التنزيل.

وقد أخرج ابن إسحاق، والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والحسين بن عبد الرحمن بن أسعد بن معاذ قالوا: كان يوم أحد يوم بلاء، وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحق به المنافقين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه، وهو مستخف بالكفر، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته. وكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومه ذلك، ومعاتبته من عاتب منهم، يقول الله لنبيه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية قال: يوم أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر في قوله: ﴿وَتَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: توطن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن الآفة في يوم الأحزاب. وقد ورد في كتب السير، والتاريخ كيفية الاختلاف في المشورة على النبي ﷺ في يوم أحد، فمن قائل نخرج إليهم، ومن قائل نبقى في المدينة، فخرج، وكان من جملة المشيرين عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كان رأيه البقاء في المدينة، والمقاتلة فيها، ثم لما خولف في رأيه انخرل بمن معه من المنافقين، وهم قدر الثلث من القوم الذين خرج بهم النبي ﷺ. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن جابر قال: فينا نزلت في بني حارثة، وبني سلمة: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وما يسرني أنها لم تنزل لقوله: ﴿والله وليهما﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ﴾ قال: ذلك يوم أحد. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: هم بنو حارثة، وبني سلمة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى ﴿ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ في قصة بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَثَلَّةٌ﴾ يقول: وأنتم قليل، وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يمدّ المشركين فشق ذلك عليهم، فأنزل الله: ﴿إِن يَكْفِيكُمْ أَنِ يَمْنُكُم رَيْبُكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَسْؤْمِينَ﴾ قال: فبلغت كرزاً، فلم يمدّ المشركين، ولم يمدّ المسلمين بالخمس. وأخرج ابن جرير عن الشعبي لما كان يوم بدر بلغ رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحوه إلا أنه قال: ﴿وَيَاتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ يعني كرزاً، وأصحابه ﴿يَمْدُدْكُمْ رَيْبُكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَسْؤْمِينَ﴾ فبلغ كرزاً، وأصحابه الهزيمة، فلم يمدّهم، ولم ينزل الخمسة، وأمدوا بعد ذلك

حال، والمجيء بلن لتأكيد النفي، وأصل الفور: القصد إلى الشيء، والأخذ فيه بجد، وهو: من قولهم فارت القدر تفور فوراً، وفوراناً. إذا غلت، والفور: الغليان، وفار غضبه: إذا جاش، وفعله من فوره أي: قبل أن يسكن، والفؤارة ما يفور من القدر، استعير للسرعة، أي: إن يأتوكم من ساعتهم هذه يمددكم ربكم بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر عن ذلك. قوله: ﴿مَسْؤْمِينَ﴾ بفتح الواو اسم مفعول، وهي: قراءة ابن عامر، وحزمة، والكسائي، ونافع أي: معلمين بعلامات. وقرا أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم ﴿مَسْؤْمِينَ﴾ بكسر الواو اسم فاعل، أي: معلمين أنفسهم بعلامات. ورجح ابن جرير هذه القراءة، والتسويم إظهار سيما الشيء. قال كثير من المفسرين: ﴿مَسْؤْمِينَ﴾ أي: مرسلين خيلهم في الغارة، وقيل: إن الملائكة اعتمد بعنانهن بيض، وقيل: حمى، وقيل: خضر، وقيل: صفر، فهذه هي العلامة التي علموا بها أنفسهم حكى ذلك عن الزجاج، وقيل: كانوا على خيل بلق، وقيل: غير ذلك. قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ كلام مبتدأ غير داخل في مقول القول، والضمير في قوله: (جعله للإمداد المنلول عليه بالفعل، أو للتسويم، أو للإنزال، ورجح الأول الزجاج، وصاحب الكشاف. وقوله: ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ استثناء مفرغ من أعم العام، والبشرى اسم من البشارة، أي: إلا لتبشروا بأنكم تنصرون، ولتطمئن قلوبكم به، أي: بالإمداد، واللام لام كي، جعل الله ذلك الإمداد بشرى بالنصر، وطمانية للقلوب، وفي قصر الإمداد عليهما إشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من عند غيره، فلا تنفع كثرة المقاتلة، ووجود العدة. قوله: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وقيل: متعلق بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وقيل: متعلق بقوله: ﴿يَمْدُدْكُمْ﴾ والطرف الطائفة، والمعنى: نصركم الله ببدر ليقطع طائفة من الكفار، وهم: الذين قتلوا يوم بدر، أو وما النصر إلا من عند الله ليقطع تلك الطائفة، أو يمددكم ليقطع. ومعنى يكبتهم يحزنهم، والمكبوت المحزون. وقال بعض أهل اللغة: معناه يكيدهم، أي: يصيبهم بالحزن، والغيط في أكبادهم، وهو غير صحيح، فإن معنى كبى كبت أحزن، وأغاظ، وأذل، ومعنى كبد أصاب الكبد ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَاطِبِينَ﴾ أي: غير ظافرين بمطلبهم. قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف، والمعطوف عليه، أي: أن الله مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك، أو الهزيمة، أو التوبة إن أسلموا، أو العذاب، فقله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله، أو يكبتهم، وقال الفراء: إِنَّ أَوْ بمعنى إلا أن، بمعنى ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم، فتقرح بذلك، أو يعذبهم فتشفى بهم. قوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلام مستأنف لبيان سعة ملكه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفر له: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يعذبه يفعل في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ

ومسلم، وغيرهما أيضاً من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، يجره بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: اللهم العن فلاناً، وفلاناً لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ وفي لفظ: اللهم العن لحيان، ورعلا، ونكوان، وعصية عصت الله ورسوله، ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مَتَّعَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٦٨﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٦٩﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَعَلُوا عَمَلَهُمْ طَائِفَةً مِّنَ السَّعَاتِ وَالَّذِينَ يَشِينُونَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْعَرَاءِ وَالْكَافِرِينَ الْقَسِيطَ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّارِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُغِيرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمِنَ ثَمَرِهِمْ أَلْتَوْبُ إِلَّا اللَّهُ وَكَمْ يَغْتَوَّعُونَ مَا مَنَعُوا وَأَنَّهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٧٣﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَجَعَلْتَ جَعْلَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارَ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَوْمَ أُخْرِجُوا مِنَهَا أُخْرِجُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٧٤﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ قيل: هو كلام مبتدأ للترهيب، والترغيب فيما نكر؛ وقيل: هو اعتراض بين أثناء قصة أحد. وقوله: ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ ليس لتقيد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقدراً يتراضون عليه، ثم يزينون في أجل التين، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذوا الربوي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء؛ وأضعافاً حال، ومضاعفة نعت له، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام، والمبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ. قوله: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ فيه الإرشاد إلى تجنب ما يفعله الكفار في معاملاتهم. قال كثير من المفسرين: وفيه أنه يكفر من استحل الربا، وقيل: معناه: اتقوا الربا الذي ينزع منكم الإيمان، فتستوجبون النار، وإنما خص الربا في هذه الآية؛ لأنه الذي توعد الله عليه بالحرب منه لفاعله. وقوله: ﴿واطيعوا الله والرسول﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في كل أمر، ونهي ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي: راجين الرحمة من الله عز وجل. وقوله: ﴿وسارعوا﴾ عطف على أطيعوا، وقرأ نافع، وابن عامر ﴿سارعوا﴾ بغير واو، وكذلك في مصاحف أهل المدينة، وأهل الشام، وقرأ الباقون بالواو. قال أبو علي: كلا الأمرين سائغ مستقيم، والمسارعة: المباردة، وفي الآية حذف، أي: سارعوا إلى ما يوجب

بالف، فهم أربعة آلاف. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في الآية قال: آمنوا بالف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، وذلك يوم بدر. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة في قوله: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ الآية، قال: هذا يوم أحد، فلم يصبروا، ولم يتقوا، فلم يمتوا يوم أحد، ولو آمنوا لم ينهزموا يومئذ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ يقول: من سفرهم هذا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عكرمة من فورهم قال: من وجههم. وأخرج ابن جرير عن الحسن، والربيع، وقاتدة، والسدي مثله، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد من فورهم قال: من غضبهم. وأخرجنا عن أبي صالح مولى أم هانئ مثله. وأخرج الطبراني، وابن مريويه بسند ضعيف عن ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿مؤمنين﴾ قال: معلمين، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سوداء، ويوم أحد عمائم حمراء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عبد الله بن الزبير: أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر. وأخرج ابن إسحاق، والطبراني عن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراء، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون عدداً، ومدداً لا يضررون. وفي بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ قال قطع الله يوم بدر طرفاً من الكفار، وقتل صنائدهم، ورؤوسهم، وقانتهم في الشَّرِّ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ليقطع طرفاً﴾ قال: هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم، وبقيت طائفة. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: نكر الله قتلى المشركين بأحد، وكانوا ثمانية عشر رجلاً، فقال: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ ثم نكر الله الشهداء، فقال: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ [آل عمران: 169]. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿أو يكتبهم﴾ قال: يحزنهم. وأخرج ابن جرير، عن قتادة، والربيع مثله. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أنس: أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في وجهه حتى سال الدم، فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية. وقد روى هذا المعنى في روايات كثيرة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية، فنزلت هذه الآية: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾». وأخرج البخاري،

فعلهم. وقد تقدم تفسير الإصرار. والمراد به هنا: العزم على معاودة الذنب، وعدم الإقلاع عنه بالتوبة منه. وقوله: ﴿وهم يعلمون﴾ جملة حالية، أي: لم يصروا على فعلهم عالمين بقبحه. قوله: ﴿أولئك جزاؤهم﴾ الإشارة إلى المذكورين بقوله: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾. وقوله: ﴿جزاؤهم﴾ بدل اشتمال من اسم الإشارة. وقوله: ﴿مغفرة﴾ خبر ﴿ومن ربه﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة، أي: كائنة من ربه. وقوله: ﴿ونعم لجر العالمين﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: أجرهم، أو تلك المذكور. وقد تقدم تفسير الجنات، وكيفية جرى الأنهار من تحتها.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: كانوا يتبايعون إلى الأجل، فإذا جاء الأجل زالوا عليهم، وزالوا في الأجل، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بضاعات﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عطاء قال: كانت ثقيف تبين بني المغيرة في الجاهلية، ونكر نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن معاوية بن قرّة قال: كان الناس يتأولون هذه الآية: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ اتقوا لا أعذبكم بنؤيكهم في النار التي أعدتها للكافرين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عطاء بن أبي رباح قال: قال المسلمون: يا رسول الله أبني إسرائيل كانوا أكرم على الله منا؟ كانوا إذا أنذب أحدهم نذبا أصبح كفارة نذبه مكتوبة في عتبة بابه لجدع أنفك لجدع أنفك أفعل كذا وكذا، فسكت النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وسارعوا﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، عن أنس بن مالك في تفسير: ﴿وسارعوا﴾ قال: التكبيرة الأولى. وأخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابن عباس في قوله: ﴿عرضها للسموات والأرض﴾ مثل ما ذكرناه سابقاً عن الجمهور. وأخرج نحوه عنه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق كريب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ يقول: في اليسر والعسر ﴿والكاظمين الغيظ﴾ يقول: كاظمين على الغيظ. وقد وردت أحاديث كثيرة. في ثواب من كظم الغيظ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن النخعي في الآية: قال: الظلم من الفاحشة، والفاحشة من الظلم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال: إن في كتاب الله لأيتين ما أنذب عبد نذبا، فقرأهما، فاستغفر الله إلا غفر له ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ الآية، وقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ [النساء: 110] الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن ثابت البناني قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ الآية. وأخرج الحكيم الترمذي عن عطاء بن خالد قال: بلغني أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم

المغفرة من الطاعات. وقوله: ﴿عرضها للسموات والأرض﴾ أي: عرضها، كعرض السموات والأرض، ومثله الآية الأخرى ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ [الحديد: 21] وقد اختلف في معنى ذلك، فذهب الجمهور إلى أنها تقرن السموات، والأرض بعضها إلى بعض، كما تبسط الثياب، ويوصل بعضها ببعض، فذلك عرض الجنة، ونبه بالعرض على الطول؛ لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، وقيل: إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة بون الحقيقة، وذلك أنها ما كانت الجنة من الاتساع، والانتفاخ في غاية قصوى، حسن التعبير عنها بعرض السموات، والأرض مبالغة؛ لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده، ولم يقصد بذلك التحديد. والسراء: اليسر، والضراء: العسر. وقد تقدم تفسيرهما، وقيل السراء: الرخاء، والضراء: الشدة، وهو مثل الأول، وقيل: السراء في الحياة، والضراء بعد الموت. قوله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ يقال: كظم غيظه أي: سكت عليه، ولم يظهره، ومنه كظمت السقاء أي: ملأته. والكَظَامَةُ: ما يسد به مجرى الماء، وكظم البعير جرتة: إذا رُدّها في جوفه، وهو عطف على الموصول الذي قبله. قوله: ﴿والعافين عن الناس﴾ أي: التاركين عقوبة من أذنب إليهم، واستحق المؤاخذه، وذلك من أجل ضروب الخير. وظاهره العفو عن الناس سواء كانوا من المماليك أم لا. وقال الزجاج وغيره: المراد بهم المماليك. واللام في المحسنين يجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء، وغيرهم، ويجوز أن تكون للعهد، فيختص بهؤلاء. والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السياق، فيدخل تحته كل من صدر منه مسمى الإحسان، أي: إحسان كان. قوله: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ هذا مبتدأ، وخبره ﴿أولئك﴾ وقيل: معطوف على المتقين. والأول أولى، وهؤلاء هم: صنف بون الصنف الأول ملحقين بهم، وهم التوابون، وسيأتي ذكر سبب نزولها، والفاحشة وصف لموصوف محذوف، أي: فعلة فاحشة، وهي تطلق على كل معصية. وقد كثر اختصاصها بالزنا. وقوله: ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ أي: باقتراف ذنب من الذنوب، وقيل: أو بمعنى الواو. والمراد ما ذكر، وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة؛ وقيل غير ذلك. قوله: ﴿اذكروا الله﴾ أي: بالسننهم، أو أخطروهم في قلوبهم، أو نكروا وعده، ووعيده ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي: طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه، وتفسيره بالتوبة خلاف معناه لغة، وفي الاستفهام بقوله: ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ من الإنكار مع ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه بون غيره، أي: لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله، وفيه ترغيب لطلب المغفرة منه سبحانه، وتنشيط للمذنبين أن يقفوا في مواقف الخضوع، والتذلل، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف، والمعطوف عليه. وقوله: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ عطف على فاستغفروا، أي: لم يقيموا على قبيح

بأبقي القصة. والمراد بالسنة: ما سنّه الله في الأمم من وقائع، أي: قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنّها الله في الأمم المكذبة، وأصل السنة جمع سنة: وهي الطريقة المستقيمة، ومنه قول الهذلي:

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها
والسنة: الإمام المتبع الموثّم به، ومنه قول لبيد:

من معشر سنت لهم أبأؤهم ولكل قوم سنة وإمام

والسنة: الأمة، والسنة: الأمم، قاله المفضل الضبي. وقال الزجاج: المعنى في الآية أهل سنن، فحذف المضاف، والفاء في قوله: ﴿فسيروا﴾ سببية؛ وقيل: شرطية، أي: إن شككتم، فسيروا. والعاقبة: آخر الأمر، والمعنى: سيروا، فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين، فإنهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا، ثم انقضوا، فلم يبق من نبيّهم التي أتوها أثر. هذا قول أكثر المفسرين. والمطلوب من هذا السير المأمور به هو: حصول المعرفة بذلك، فإن حصلت بدونه، فقد حصل المقصود، وإن كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلة لمن لم يشاهدها، والإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ إلى قوله: ﴿قد خلت﴾ وقال الحسن إلى القرآن: ﴿بيان للناس﴾ أي: تبين لهم، وتعريف الناس للعهد، وهم المكذّبون، أو للجنس، أي: للمكذّبين، وغيرهم. وفيه حثٌّ على النظر في سوء عاقبة المكذّبين، وما انتهى إليه أمرهم. قوله: ﴿وهدي وموعظة﴾ أي: هذا النظر مع كونه بياناً فيه هدى، وموعظة للمتقين من المؤمنين، فعطف الهدى، والموعظة على البيان يدل على التغاير، ولو باعتبار المتعلق، وبيانه أن اللام في الناس إن كانت للعهد، فالبيان للمكذّبين، والهدى، والموعظة للمؤمنين، وإن كانت للجنس، فالبيان لجميع الناس مؤمنهم، وكافرهم، والهدى، والموعظة للمتقين وحدهم. قوله: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ عزاهم، وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل، والجراح، وحثهم على قتال عدوهم، ونهاهم عن العجز، والفشل، ثم بين لهم أنهم الأعلون على عدوهم بالنصر والظفر، وهي: جملة حالية، أي: والحال أنكم الأعلون عليهم، وعلى غيرهم بعد هذه الواقعة. وقد صدق الله وعده، فإن النبي ﷺ بعد وقعة أحد ظفر بعنوه في جميع وقعاته؛ وقيل: المعنى: وأنتم الأعلون عليهم بما أصبتم منهم في يوم بدر، فإنه أكثر مما أصابوا منكم اليوم. وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بقوله: ﴿ولا تهنوا﴾ وما بعده، أو بقوله: ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي: إن كنتم مؤمنين، فلا تهنوا، ولا تحزنوا، أو إن كنتم مؤمنين، فأنتم الأعلون، والفرح بالضم، والفتح: الجرح، وهما لغتان فيه، قاله الكسائي، والأخفش. وقال الفراء: هو: بالفتح الجرح، وبالضم ألمه. وقرأ محمد بن السمينغ: «قرح» بفتح القاف، والراء على المصدر. والمعنى في الآية: إن نالوا منكم يوم أحد، فقد نلتهم منهم يوم بدر، فلا تهنوا لما أصابكم في هذا اليوم، فإنهم لم يهنوا لما أصابهم في ذلك اليوم، وأنتم أولى بالصبر منهم؛ وقيل: إن المراد بما أصاب المؤمنين والكافرين في هذا اليوم، فإن المسلمين

يصرّوا على ما فعلوا، صاح إبليس بجنوده، وحثاً على رأسه التراب، ودعا بالويل، والثبور حتى جاءت جنوده من كل برّ، وبحر، فقالوا: مالك يا سيدنا؟ قال: آية نزلت في كتاب الله لا يضرّ بعدها أحدٌ من بني آدم نذب، قالوا: وما هي؟ فأخبرهم، قالوا فتفتح لهم باب الأهواء، فلا يتوبون، ولا يستغفرون، ولا يرون إلا أنهم على الحق، فرضى منهم بذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والحميدي، وعبد بن حميد، وأهل السنة الأربع، وحسنه النسائي، وابن حبان، والدارقطني في الأفراد، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السني، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة عن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يذنب ذنباً، ثم يقوم عند نكر ذنبه فيتطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله من ذنبه ذلك إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ الآية. وأخرج البيهقي في الشعب، عن الحسن مرفوعاً نحوه، ولكنه قال: ثم خرج إلى براز من الأرض فصلى. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿ولم يصرّوا﴾ فيسكتون، ولا يستغفرون. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: ﴿ونعم لجر العاملين﴾ قال: أجر العاملين بطاعة الله الجنة.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ إِنْ يَسْكُمْ فَوْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ شَيْءٌ وَشَلَّةٌ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَائُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَالَّذِي لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ وَلِيَمْجَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْمُرَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَكْلِفِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ أَلْمُوتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أَرْسُلٌ أَقْبَانُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَاقٌ إِلَّا إِذْ يَأْذَنُ اللَّهُ كِتَابًا مُؤَيَّداً وَمَنْ يَرِدْ تَوَابُ اللَّهِ فَيُؤْخِرْهُ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ تَوَابُ الْآخِرَةِ نُؤْخِرْهُ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَكَانَ يَنْبَغِي قَتْلُ مَنْ رِيثُونَ كَيْدَ مَا وَهَبُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا حُمِلُوا مَا اسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الشَّكِرِينَ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَبِحَبْلٍ أَقْدَمْنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ فَجَانَبَهُمُ اللَّهُ تَوَابُ اللَّهِ وَحَسَنُ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ هذا رجوع إلى وصف

انس بن النضر عم أنس بن مالك. وقوله: ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أي: القتال، أو الشهادة التي هي سبب الموت. وقرأ الأعمش: «من قبل أن تلاقوه» وقد ورد النهي عن تمني الموت، فلا بد من حمله هنا على الشهادة. قال القرطبي: وتمني الموت من المسلمين يرجع إلى تمني الشهادة المبينة على الثبات، والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد، وإن أدى إلى القتل. قوله: ﴿فقد رايتهم﴾ أي: القتال، أو ما هو سبب للموت، ومحل قوله: ﴿وانتم تنظرون﴾ النصب على الحال، وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة، أي: قد رايتهم معانيين له حين قتل من قتل منكم. قال الأخفش: إن التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38] وقيل معناه: بصراء ليس في أعينكم علل، وقيل معناه: وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ. وقوله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾. سبب نزول هذه ما سيأتي من أن النبي ﷺ لما أصيب في يوم أحد صاح الشيطان قائلاً: قد قتل محمد، ففشل بعض المسلمين حتى قال قاتل: قد أصيب محمد، فأعطوا بأيديكم، فإنما هم إخوانكم، وقال آخر: لو كان رسولاً ما قتل، فرد الله عليهم ذلك، وأخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل، وسيخلو، كما خلوا، فجعله قوله: ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول. والقصر قصر إفراء، كأنهم استبعضوا هلاكه، فاثبتوا له صفتين: الرسالة، وكونه لا يهلك، فرد الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك، وقيل: هو: قصر قلب. وقرأ ابن عباس: «قد خلت من قبل رسل» ثم أنكر الله عليهم بقوله: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أي: كيف ترتدون، وتتركون دينه إذا مات، أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو، ويتمسك أتباعهم بدينهم، وإن فقلوا بموت، أو قتل، وقيل الإنكار لجعلهم خلؤ الرسل قبله سبباً لانقلابهم بموته، أو قتله، وإنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لا يقتل لكونه مجزئاً عند المخاطبين. قوله: ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ أي: بإبباره عن القتال، أو بارتداده عن الإسلام ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ من الضرر، وإنما يضر نفسه ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي: الذين صبروا، وقاتلوا، واستشهدوا؛ لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام، ومن امتثل ما أمر به، فقد شكر النعمة التي أنعم الله بها عليه. قوله: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن الحث على الجهاد، والإعلام بأن الموت لا بد منه. ومعنى: ﴿بإذن الله﴾ بقضاء الله، وقدره، وقيل: إن هذه الجملة متضمنة للإنكار على من فشل بسبب ذلك الإرجاف بقتله ﷺ، فبين لهم أن الموت بالقتل، أو بغيره منوط بإذن الله، وإسناده إلى النفس مع كونها غير محتارة له للإيذان بأنه لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله. وقوله: ﴿كتاباً﴾

انتصروا عليهم في الابتداء، فأصابوا منهم جماعة، ثم انتصر الكفار عليهم، فأصابوا منهم. والأول أولى؛ لأن ما أصابه المسلمون من الكفار في هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه. وقوله: ﴿وتلك الأيام﴾ أي: الكائنة بين الأمم في حروبها، والآتية فيما بعد كالأيام الكائنة في زمن النبوة؛ تارة تغلب هذه الطائفة، وتارة تغلب الأخرى، كما وقع لكم أيها المسلمون في يوم بدر، وأحد، وهو معنى قوله: ﴿نداولها بين الناس﴾ فقوله: ﴿تلك﴾ مبتدأ، والأيام صفة، والخبر نداولها، وأصل المداولة: المعاورة، داولته بينهم: عاورته. والذلة: الكرة، ويجوز أن تكون الأيام خبراً، ونداولها حالاً، والأول أولى. وقوله: ﴿وليعلم الله﴾ معطوف على علة مقترنة كأنه قال: نداولها بين الناس ليظهر أمركم وليعلم، أو يكون المعلل محذوفاً، أي: ليعلم الله الذين اتقوا، فعلنا ذلك، وهو من باب التمثيل، أي: فعلنا فعل من يريد أن يعلم لأنه سبحانه لم يزل عالماً، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصبرهم علماً يقع عليه الجزاء، كما علمه علماً أزلياً ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ أي: يكرمهم بالشهادة. والشهداء جمع شهيد، سمي بذلك لكونه مشهوداً له بالجنة، أو جمع شاهد لكونه، كالمشاهد للجنة، ومن للتبعيض، وهم شهداء أحد. وقوله: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ جملة معترضة بين المعطوف، والمعطوف عليه لتقرير مضمون ما قبله. وقوله: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ من جملة العلل معطوف على ما قبله. والتمحيص: الاختبار، وقيل: التطهير على حذف مضاف، أي: ليمحص ذنوب الذين آمنوا، قاله الفراء، وقيل: يمحص يخلص، قاله الخليل، والزجاج، أي: ليخلص المؤمنين من ذنوبهم. وقوله: ﴿ويمحق للكافرين﴾ أي: يستأصلهم بالهلاك، وأصل التمحيق محو الآثار، والمحق نقصها. قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التمييز، وأم هي المنقطعة، والهزمة للإنكار، أي: بل أحسبتم، والواو في قوله: ﴿ولما يعلم الله﴾ واو الحال. والجملة حالية، وفيه تمثيل كالأول، أو علم يقع عليه الجزاء. وقوله: ﴿وليعلم الصابرين﴾ منصوب بإضمار أن، كما قال الخليل، وغيره على أن الواو للجمع. وقال الزجاج: الواو بمعنى حتى، وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر: «ويلعلم الصابرين» بالجرم عطفاً على ﴿ولما يعلم﴾ وقرأ بالرفع على القطع، وقيل: إن قوله: ﴿ولما يعلم﴾ كناية عن نفي المعلوم، وهو: الجهاد. والمعنى: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد، والصبر، أي: الجمع بينهما، ومعنى ﴿لما﴾ معنى: «لم» عند الجمهور، وقرئ سببويه بينهما، فجعل لم لنفي الماضي، ولما لنفي الماضي، والمتوقع. قوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ هو خطاب لمن كان يتمنى القتال، والشهادة في سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر، فإنهم كانوا يتمنون يوماً يكون فيه قتال، فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ بالخروج، ولم يصبر منهم إلا نفر يسير مثل

عطف على قاتل، أو قتل. والوهن: انكسار الجِدِّ بالخوف. وقرأ الحسن: «وهنوا» بكسر الهاء، وضمها. قال أبو زيد: لفتان وهن الشيء أيهن، وهنا: ضعف، أي: ما وهنوا لقتل نبيهم، أو لقتل من قتل منهم. «وما ضعفوا» أي: عن عدوهم «وما استكانوا» لما أصابهم في الجهاد. والاستكانة: الذلة، والخضوع، وقرئ: «وما وهنوا وما ضعفوا» بإسكان الهاء، والعين. وحكى الكسائي ضعفوا بفتح العين، وفي هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد، وذل، واستكان، وضعف بسبب ذلك الإرجاف الواقع من الشيطان، ولم يصنع، كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل. قوله: «وما كان قولهم: أي: قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء إلا هذا القول، وقولهم منصوب على أنه خبر كان. وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية عنهما برفع قولهم. وقوله: «إلا أن قالوا» استثناء مفرغ أي: ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون، أو قتل نبيهم: «إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا» قيل: هي الصغائر. وقوله: «وإسرافنا في أمرنا» قيل: هي الكبائر، والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنباً من صغيرة، أو كبيرة، والإسراف ما فيه مجاوزة للحد، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين مضمناً لأنفسهم «ووثبت أقدامنا» في مواطن القتال: «فقاتلهم الله» بسبب ذلك «ثواب الدنيا» من النصر، والغنيمة، والعزة، ونحوها «وحسن ثواب الآخرة» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة، جعلنا الله من أهلها.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: «قد خلت من قبلكم سنن» قال: تداول من الكفار، والمؤمنين في الخير، والشر. وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب المصاحف عن سعيد بن جبيرة قال: أول ما نزل من آل عمران، «هذا بيان للناس» ثم أنزل بقيتها يوم أحد. وأخرج ابن جرير، عن الحسن في قوله: «هذا بيان» يعني القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة نحوه، وأخرج ابن جرير، عن طريق العوفي، عن ابن عباس قال: أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلو علينا» فانزل الله: «ولا تهنوا ولا تحزنوا» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج قال: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب يوم أحد، فسألوا ما فعل النبي ﷺ، وما فعل فلان، فنعى بعضهم لبعض، وتحذثوا أن النبي ﷺ قد قتل، فكانوا في هم، وحزن، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين، فوقهم على الجبل، وكانوا على أحد مجنبتَي المشركين، وهم أسفل من الشعب، فلما رأوا النبي ﷺ فرحوا، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا قوة لنا إلا بك، وليس أحد يعيبك بهذا البلد غير هؤلاء النفر، فلا تهلكهم» وثاب نفر من المشركين رماة فصعدوا، فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله، وعلا المسلمون

مصدر مؤكد لما قبله؛ لأن معناه كتب الله الموت كتاباً. والمؤجل: المؤقت الذي لا يتقدم على أجله، ولا يتأخر. قوله: «ومن يرد» أي: بعمله «ثواب الدنيا» كالغنيمة، ونحوها، واللفظ يعم كل ما يسمى ثواب الدنيا وإن كان السبب خاصاً «ونوته منها» أي: من ثوابها على حذف المضاف «ومن يرد» بعمله «ثواب الآخرة» وهو الجنة نوته من ثوابها، ونضاعف له الحسنات أضعافاً كثيرة «وسنجزي الشاكرين» بامثال ما أمرناهم به كالقتال، ونهيناهم عنه كالفرار، وقبول الإرجاف. وقوله: «وكلين» قال الخليل، وسيبويه: هي، أي: دخلت عليها كاف التشبيه، وثبتت معها، فصارت بعد التركيب بمعنى كم، وصورت في المصحف نوناً، لأنها كلمة نقلت عن أصلها، فغير لفظها لتغيير معناها، ثم كثر استعمالها، فتصرفت فيها العرب بالقلب، والحنف، فصار فيها أربع لغات قرئ بها: أحدها كائن مثل كاعن، وبها قرأ ابن كثير، ومثله قول الشاعر:

وكانن بالباطح من صديق تراه لو أصبت هو المصايب
وقال آخر:

وكانن ربنا عنكم من مدجج بحي أمام الركب يردى مقنعا
وقال زهير:

وكانن ترى من معجب لك شخصه زبانه أو نقصه في التكلم
وكانن بالتشديد مثل كعين، وبه قرأ الباقون، وهو الأصل. والثالثة كايين مثل كعين مخففاً. والرابعة كيثن بياء بعدها همزة مكسورة، ووقف أبو عمرو بغير نون، فقال كاي: لأنه تنوين، ووقف الباقون بالنون. والمعنى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب قتل على البناء للمجهول، وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو حاتم، وفيه وجهان: أحدهما أن يكون في «قتل» ضمير يعود إلى النبي، وحينئذ يكون قوله: «ومعه ربيون» جملة حالية، كما يقال: قتل الأمير معه جيش، أي: ومعه جيش، والوجه الثاني أن يكون القتل، واقعاً على ربيون، فلا يكون في قتل ضمير، والمعنى: قتل بعض أصحابه، وهم الربيون. وقرأ الكوفيون، وابن عامر: «قاتل» وهي قراءة ابن مسعود، واختارها أبو عبيد، وقال: إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخل فيه، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل، ولم يقتل، فقاتل أعم، وأمدح، ويرجح هذه القراءة الأخرى. والوجه الثاني من القراءة الأولى قول الحسن: ما قتل نبي في حرب قط، وكذا قال سعيد بن جبيرة، والربيون بكسر الراء قراءة الجمهور، وقرأ علي بضمها، وابن عباس بفتحها، وواحد ربي بالفتح منسوب إلى الرب، والربى بضم الراء، وكسرهما منسوب إلى الربة بكسر الراء، وضمها، وهي الجماعة، ولهذا، فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة، وقيل: هم الاتباع، وقيل: هم العلماء. قال الخليل: الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء، وهم الربانيون نسبوا إلى التاله، والعبادة، ومعرفة الربوبية. وقال الزجاج: الربيون بالضم الجماعات. قوله: «فما وهنوا»

قوله: ﴿رَبِيبُونَ﴾ قال: الوف. وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك قال: الربة الواحدة ألف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿رَبِيبُونَ﴾ قال: جموع. وأخرج ابن جرير عنه قال: علماء كثير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قال: تخشعوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَأَسْرَفْنَا فِي أَمْرِنَا﴾ قال: خطايانا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُلِيمُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّكُمْ عَلَىٰ عَفْوِكُمْ فَتَنَلُوا خَيْرِينَ ﴿١٥١﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٢﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ يَمَّا أَمْرُكُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْتِيهِمُ الْكَاذُ وَرِيشَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ إِذْ تَحْسُوتُهُمْ إِيذِيهِ حَتَّىٰ إِذَا تَشَلَّوْا وَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مَا تَجِبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْإِثْمَ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَكَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٤﴾ إِذْ تُصَوِّرُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ زَأْسُوكُمْ بِذُنُوبِكُمْ فِي أَهْرَافِكُمْ فَأَتَيْنَكُمْ غَمًّا بِغَيْرِ لِسَانٍ لَّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُم وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٥﴾

لما أمر الله سبحانه بالاعتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر عن طاعة الكفار، وهم مشركو العرب؛ وقيل اليهود والنصارى؛ وقيل المنافقون في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة أرجعوا إلى دين آبائكم. وقوله: ﴿يُرِثُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يخرجوكم من دين الإسلام إلى الكفر ﴿فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ﴾ أي ترجعوا مغبورين. وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ إضراب عن مفهوم الجملة الأولى: أي إن تطيعوا الكافرين يخذلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم لا غيره؛ وقري: «بل الله» بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله. قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ قرأ السخستاني بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالنون. وقرأ ابن عامر، والكسائي: ﴿الرَّعْبَ﴾ بضم العين. وقرأ الباقر بالسكون، وهما لغتان، يقال: رعبته رعباً، ورعباً، فهو مرعوب، ويجوز أن يكون مصدرأ، والرعب بالضم: الاسم، وأصله الملاء، يقال: سيل راعب، أي: يملأ الوادي، ورعبت الحوض: ملأته، فالمعنى: سنملأ قلوب الكافرين رعباً، أي: خوفاً، وفزعاً، والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام، ومجازاً في غيرها، كهذه الآية، وذلك أن المشركين بعد وقعة أحد ندموا أن لا يكونوا استأصلوا المسلمين، وقالوا: بثسما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشرير تركناهم أرجعوا، فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا، عما هموا به: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ وما مصدرية، أي: بسبب إشراكهم ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: ما لم ينزل الله بجعله شريكاً له حجة، وبياناً، وبرهاناً، والنفي يتوجه إلى القيد، والمقيد، أي: لا حجة، ولا إنزال، والمعنى: أن الإشراك

الجبل، فذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ﴾ قال: وأنتم الغالبون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ﴾ قال: جراح، وقتل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ قال: إن يقتل منكم يوم أحد، فقد قتل منهم يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ قال: كان يوم أحد بيوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، من طريق ابن جريج، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ الآية، قال: أدال المشركين على النبي ﷺ يوم أحد، وبلغني أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين عدد الأسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين، وكان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلاً. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ قال: إن المسلمين كانوا يسألون ربه: اللهم ربنا أرنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبليك فيه خيراً، ونلتمس فيه الشهادة، فلقوا المشركين يوم أحد، فاتخذ منهم شهداء. وأخرج عنه في قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: يبتليهم ﴿وَيُمَحِّقَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: ينقصهم. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق العوفي عنه أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون: ليتنا نقتل، كما قتل أصحاب بدر، ونستشهد، أو ليت لنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبلي فيه خيراً، ونلتمس الشهادة، والجنة، والحياة، والرزق، فاشهدهم الله أحداً، فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم. فقال الله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْلَ مِنَ الْمَوْتِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن كليب قال: خطبنا عمر بن الخطاب، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول إنها أحذية، ثم قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فصعدت الجبل فسمعت يهودياً يقول: قتل محمد، فقلت: لا أسمع أحداً يقول قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون إليه، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نادى مناد يوم أحد ألا إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول، فانزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. وأخرج أيضاً عن مجاهد نحوه. وأخرج أيضاً عن علي في قوله: ﴿وَسِيحْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه، فكان علي يقول: كان أبو بكر أمير الشاكرين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم عنه أنه كان يقول في حياة رسول الله ﷺ: إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ والله لا نقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مَاتَ أَوْ قُتِلَ لَأَقَاتِلَنَّ عَلَى مَا قُتِلَ عَلَيْهِ حَتَّى أَمُوتَ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في

إلا أيها ذا السائلين أين أصعنت فإن لها من بطن يثرب موعداً وقال الفراء: الإصعاد: الابتداء في السفر، والانحدار: الرجوع منه، يقال: أصعدنا من بغداد إلى مكة، وإلى خراسان، وأشباه ذلك: إذا خرجنا إليها، وأخذنا في السفر، وانحدرتنا: إذا رجعنا. وقال المفضل: صعد، وأصعد بمعنى واحد. ومعنى: ﴿تَلَوْن﴾: تخرجون، وتقيمون، أي: لا يلتفت بعضهم إلى بعض هرباً، فإن المعرج إلى الشيء يلوي إليه عنقه أو عنق دابته: ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: على أحد ممن معكم، وقيل: على رسول الله ﷺ، وقرأ الحسن: «تلون» بواو واحدة، وقرأ عاصم في رواية عنه بضم التاء، وهي لغة. قوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُم﴾ أي: في الطائفة المتأخرة منكم، يقال جاء فلان في آخر الناس، وآخرة الناس، وأخرى الناس، وأخريات الناس. وكان دعاء النبي ﷺ: «أي عباد الله ارجعوا». قوله: ﴿فَأَنبَأَكُمْ﴾ عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله غمّاً حين صرفكم عنه بسبب غمّ أنقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم، أو غمّاً موصولاً بغمّ بسبب ذلك الإرجاف، والجرح، والقتل، وظفر المشركين، والغمّ في الأصل: التغطية، غميت الشيء: غطيته، ويوم غمّ، وليلة غمة: إذا كنا مظلّمين، ومنه غمّ الهلال، وقيل: الغمّ الأول: الهزيمة، والثاني: إشراف أبي هريرة، وخلد بن الوليد عليهم في الجبل. قوله: ﴿لَكِلَا تَحْزَنُوا﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿فَأَنبَأَكُمْ﴾ أي: هذا الغمّ بعد الغمّ لكلا تحزنوا على ما فات من الغنime، ولا ما أصابكم من الهزيمة، تمريناً لكم على المصائب، وتدريباً لاحتمال الشدائد. وقال المفضل: معنى: ﴿لَكِلَا تَحْزَنُوا﴾ لكي تحزنوا، ولا زائدة كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تُسْجِدَ﴾ [الأعراف: 12] أي: أن تسجد، وقوله: ﴿لَوْلَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: 29] أي: ليعلم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ قِيلَ: لَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى دِينِكُمْ، وَلَا تَصْنَعُوا مِثْلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ يقول: إن تطيعوا أبا سفيان بن حرب يركبكم كفاراً. وأخرج ابن جرير، عنه في قوله: ﴿وَسَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ نحو ما قدّمناه في سبب نزول الآية. وأخرج البيهقي في الدلائل عن عروة في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ قال: كان الله وعدهم على الصبر، والتقوى أن يمدّمهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مصافهم، وتركوا الرماة عهد الرسول إليهم أن لا يبرحوا منازلهم، وأرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة. وقصة أحد مستوفاة في السير، والتواريخ، فلا حاجة إلى إطالة الشرح هنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الرحمن بن عوف في قوله: ﴿إِذْ تَحْسَبُونَهُمْ﴾ قال: الحسن: القتل. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه. قال: الفشل: الجبن. وأخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب في

باله لم يثبت في شيء من الملل. والمثوى: المكان الذي يقام فيه، يقال ثوي يثوي ثواء. قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ نزلت لما قال بعض المسلمين من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله النصر، وذلك أنه كان الظفر لهم في الابتداء، حتى قتلوا صاحب لواء المشركين، وتسعة نفر بعده؛ فلما اشتغلوا بالغنime، وترك الرماة مركزهم طلباً للغنime كان ذلك سبب الهزيمة. والحسن: الاستئصال بالقتل، قاله أبو عبيد. يقال جراد محسوس: إذا قتله البرد، وسنة حسوس، أي: جبهة تأكل كل شيء. قيل: وأصله من الحسن الذي هو الإبرك بالحاسة، فمعنى حسه: أذهب حسه بالقتل، وتحسونهم: تقتلونهم، وتستأصلونهم، قال الشاعر:

حسناهم بالسيف حساً فأصبحت بقتلهم قد شربوا وتبنوا
وقال جرير:

تحسهم السيوف كما تسامى حريق النار في الأجم الحصيد
﴿بِإِنِّهِ﴾ أي: بعلمه، أو بقضائه ﴿حَتَّى إِذَا قُتِلْتُمْ﴾ أي: جبنتم وضعفتكم، قيل: جواب حتى محذوف تقديره امتحنتم وقال الفراء: جواب حتى قوله: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾ والواو مقحمة زائدة، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفاء: 103] وقال أبو علي: يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: حتى إذا تنازعتم، وعصيتهم، فشلتهم، وقيل: إن الجواب عصيتهم، والواو مقحمة. وقد جَوَزَ الأخفش مثله في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ﴾ [التوبة: 118]، وقيل: حتى بمعنى إلى، وحينئذ لا جواب لها، والتنازع المذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضهم: نلحق الفئائم، وقال بعضهم: نثبت في مكاننا، كما أمرنا رسول الله ﷺ. ومعنى قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أُرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ ما وقع لهم من النصر في الابتداء في يوم أحد، كما تقدّم: ﴿مَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ النِّدْيَا﴾ يعني: الغنime ﴿وَمَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: الأجر بالبقاء في مراكزهم امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ ﴿لَمْ صَرْفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: رنكم الله عنهم بالانهزام بعد أن استوليتهم عليهم ليمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ لما علم من ندمكم، فلم يستأصلكم بعد المعصية، والمخالفة، والخطاب لجميع المنهزمين، وقيل: للرماة فقط. قوله: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿صَرْفَكُمْ﴾ أو بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أو بقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وقرأ الجمهور بضمّ التاء، وكسر العين، وقرأ أبو رجاء العطاردي، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقتادة بفتح التاء، والعين. وقرأ ابن محيصن، وقنبل: «تصعدون» بالتحية. قال أبو حاتم: أصعنت إذا مضيت حيال وجهك، وصعنت إذا ارتقيت في جبل، فالإصعاد: السير في مستوى الأرض، ويطون الأودية، والصعود: الارتفاع على الجبال، والسطوح، والسلام، والدرج، فيحتمل أن يكون صعودهم في الجبل بعد إصعادهم في الوادي، فيصح المعنى على القراءتين. وقال القتبي: أصعد: إذا أبعد في الذهاب، وأمعن فيه، ومنه قول الشاعر:

يقولون لرسول الله ﷺ: «هل لنا من الأمر من شيء؟» أي: هل لنا من أمر الله نصيب، وهذا الاستفهام معناه الجحد، أي: ما لنا شيء من الأمر. وهو النصر والاستظهار على العدو، وقيل: هو الخروج، أي: إنما خرجنا مكرهين، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: «قل إن الأمر كله لله» وليس لكم، ولا لعنوكم منه شيء، فالنصر بيده، والظفر منه. وقوله: «يخفون في أنفسهم» أي: يضمرون في أنفسهم النفاق، ولا يبينون لك ذلك، بل يسألونك سؤال المسترشدين. وقوله: «يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا» استئناف، كأنه قيل: ما هو الأمر الذي يخفون في أنفسهم؟ فقيل: يقولون فيما بينهم، أو في أنفسهم «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا» أي: ما قتل من قتل منا في هذه المعركة، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم» أي: لو كنتم قاعين في بيوتكم لم يكن بدم من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع التي صرعوا فيها، فإن قضاء الله لا يرد. وقوله: «وليبتلّي الله ما في صدوركم» علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علة له أخرى مطوية للإيذان بكثرتها، كأنه قيل: فعل ما فعل لمصالح جمّة «وليبتلّي» الخ، وقيل: إنه معطوف على علة مطوية لبرز، والمعنى: ليمتحن ما في قلوبكم من وساوس الشيطان، والإخلاص، وليمحص ما في قلوبكم من وساوس الشيطان. وقوله: «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان» أي: انهزموا يوم أحد، وقيل: المعنى: إن الذين تولوا المشركين يوم أحد: «إنما استزلهم الشيطان» استدعى زللهم بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب التي منها مخالفة رسول الله ﷺ: «ولقد عفا الله عنهم» لتوبتهم، واعتذارهم.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: أمنهم الله يومئذ بنعاس غشاهم، وإنما بنعس من يامن. وقد ثبت في صحيح البخاري، وغيره أن أبا طلحة قال: غشينا، ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذته، ويسقط وأخذته، فنلك قوله: «ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمانة نعاساً» الآية. وأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل، عن الزبير بن العوام قال: رفعت رأسي يوم أحد، فجعلت أنظر، وما منهم من أحد إلا وهو يميل تحت جحفته من النعاس، وتلا هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جرير قال: إن المنافقين قالوا لعبد الله بن أبي، وكان سيد المنافقين: قتل اليوم بنو الخزرج، فقال: وهل لنا من الأمر شيء، أما، والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليرجعن الأعرّ منها الأذل. وأخرج ابن جرير، عن قتادة والربيع في قوله: «ظنّ الجاهلية» قال: ظنّ أهل الشرك. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: معتب هو الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن أن الذي قال ذلك عبد الله بن أبي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن

قوله: «من بعد ما أراكم ما تحبون» قال: الغنائم، وهزيمة القوم. وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله: «ولقد عفا عنكم» قال: يقول الله: قد عفوت عنكم أن لا أكون استاصلتكم. وأخرج أيضاً عن ابن جرير نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس: «إذ تصعدون» قال: أصدعوا في أحد فراراً، والرسول يدعوهم في أصرامهم: «إليّ» عباد الله ارجعوا إليّ عباد الله ارجعوا. وأخرج ابن مريويه عن عبد الرحمن بن عوف: «فتأبىكم غمّاً بغم» قال: الغمّ الأوّل بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: «غمّاً بغم» قال: فرّة بعد الفرّة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمداً قد قتل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الغم الأوّل: الجراح، والقتل، والغم الآخر: حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ بَدُوِّ النَّبَرِ أَمْنَةً تَأْسَا بِنَفْسِكَ وَمَكَانَةً قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّوْنَ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ هُمُ الْمُتَوَلَّوْنَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَوِّنُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَهُمْ يُقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي يَدَيْكُمْ لَكُنْتُ أَلَدَّ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِنَّكُمْ لَعَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْلِحُوا وَبَدَّلَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

الأمانة، والأمن سواء، وقيل: الأمانة إنما تكون مع أسباب الخوف، والأمن مع علمه، وهي منصوبة بأنزل. ونعاساً بدل منها، أو عطف بيان، أو مفعول له، وأما ما قيل: من أن أمانة حال من نعاساً مقدّمة عليه، أو حال من المخاطبيين، أو مفعول له، فبعيد. وقرأ ابن محيصن: «أمنة» بسكون الميم. قوله: «يغشى» قرئ بالتحتية على أن الضمير للنعاس، وبالفوقية على أن الضمير لأمنة، والطائفة: تطلق على الواحد، والجماعة، والطائفة الأولى: هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلباً للأجر، والطائفة الأخرى هم: معتب بن قشير، وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة، وجعلوا يناشدون على الحضور، ويقولون الأقاويل. ومعنى: «أهمتهم أنفسهم» حملتهم على الهمة، أهمني الأمر: ألتفتني، والواو في قوله: «وطائفة» للحال، وجاز الابتداء بالذكرة لاعتمادها على واو الحال، وقيل: إن معنى «أهمتهم أنفسهم» صارت مهمهم لا همّ لهم غيرها. «يظنون بالله غير الحق» هذه الجملة في محل نصب على الحال، أي: يظنون بالله غير الحق الذي يجب أن يظن به، وظنّ الجاهلية بدل منه. وهو: الظنّ المختص بملة الجاهلية، أو ظنّ أهل الجاهلية، وهو ظنهم أن أمر النبي ﷺ باطل، وأنه لا ينصر، ولا يتمّ ما دعا إليه من دين الحق. وقوله: «يقولون» بدل من «يظنون»، أي:

عبد الرحمن بن عوف في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ قال: هم ثلاثة: واحد من المهاجرين، واثنان من الأنصار. وأخرج ابن منده، وابن عساكر، عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في عثمان ورافع بن المعلى، وخارجة بن زيد. وقد روى في تعيين: «من» في الآية روايات كثيرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى أَوْ كَانُوا عِنْدَ مَا مَاتُوا وَمَا قِيلُوا يَجْمَعُ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٤﴾ وَلَكِنْ قُتِلَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مَاتَ مَعْفُوفٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةُ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٥﴾ وَلَكِنْ مِمَّنْ أَوْ قُتِلَتْ لَأَنَّ اللَّهَ تَعَزَّيْتُمْ ﴿١٥٦﴾ وَمَا رَحِمَ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَبَارِئُكُمُ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٧﴾ إِنْ يَصْرَحْكَ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصْرِفُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمٍ أَلِيصٍ ثُمَّ تَوَلَّى كَتَلًا فَغَصَّ نَبَسَ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُلْكَمُونَ ﴿١٥٩﴾ أَمْسَى النَّبِيُّ يَرْتُونَ اللَّهَ كَرِهَ بَاءَ إِحْمَالٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهَّجَهُمْ وَبَسَّ الْكَبِيرُ ﴿١٦٠﴾ ثُمَّ دَرَجَتْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ يَمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرَزَقَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا شَيْنٌ ﴿١٦٢﴾

قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المنافقون الذين قالوا: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا. قوله: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في النفاق، أو في النسب، أي: قالوا لأجلهم: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا ساروا فيها للتجارة، أو نحوها، قيل: إذا هنا المفيدة لمعنى الاستقبال، بمعنى: إذا المفيدة لمعنى المضى، وقيل: هي على معناها، والمراد هنا: حكاية الحال الماضية. وقال الزجاج: إذا هنا تنوب عن ما مضى من الزمان، وما يستقبل ﴿لَوْ كَانُوا غُرًى﴾ جمع غار كراكع وركع، وغائب وغيب، قال الشاعر:

قل للقوافل والغزى إذا غزوا

﴿ليجعل الله تلك حسرة في قلوبهم﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿قَالُوا﴾ أي: قالوا ذلك، واعتقدوه؛ ليكون حسرة في قلوبهم. والمراد: أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا حسرة، أو متعلقة بقوله: ﴿لَا تَكُونُوا﴾ أي: لا تكونوا مثلهم في اعتقاد ذلك؛ ليحمله الله حسرة في قلوبهم، فقط دون قلوبكم، وقيل: المعنى لا تلتفتوا إليهم؛ ليحمله الله عدم التفاتكم إليهم حسرة في قلوبهم، وقيل المراد: حسرة في قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزي، والندامة: ﴿وَاللَّهُ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فيه رد على قولهم، أي: ذلك بيد الله سبحانه يصنع ما يشاء، ويحكم ما يريد، فيحیی من يريد، ويميت من يريد من غير أن يكون للسفر، أو الغزو أثر في ذلك، واللام في قوله: ﴿وَلَنْتُمْ قَتَلْتُمْ﴾ موطئة. وقوله: ﴿لِلمَغْفَرَةِ﴾ جواب

القسم ساء مسد جواب الشرط، والمعنى: أن السفر، والغزو ليسا مما يجلب الموت، ولئن وقع ذلك بأمر الله سبحانه: ﴿لِلمَغْفَرَةِ﴾ من الله ورحمة خير مما يجمعون، أي: الكفرة من منافع الدنيا، وطبيباتها مدة أعمارهم على قراءة من قرأ بالياء التحتية، أو خير مما تجمعون أيها المسلمون من الدنيا، ومنافعها على قراءة من قرأ بالفوقية. والمقصود في الآية بيان مزية القتل، أو الموت في سبيل الله، وزيادة تأثيرهما في استجلاب المغفرة، والرحمة. قوله: ﴿وَلَنْتُمْ قَتَلْتُمْ﴾ على أي وجه حسب تعلق الإرادة الإلهية ﴿إِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ﴾ هو: جواب القسم المبدل عليه باللام الموطئة ساء مسد جواب الشرط، كما تقدم في الجملة الأولى، أي: إلى الرب الواسع المغفرة تحشرون لا إلى غيره، كما يفيدته تقديم الظرف على الفعل مع ما في تخصيص اسم الله سبحانه بالذكر من الدلالة على كمال اللطف، والقهـر. «وما» في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ مزيـدة للتأكيد، قاله سيـبويه وغيره، وقال ابن كيسان: إنها نكرة في موضع جر بالياء، ورحمة بدل منها، والأول أولى بقواعد العربية، ومثله قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: 155، المائدة: 13]

والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿لَنْتُمْ لَهُمْ﴾ وقدم عليه لإفادة القصر، وتنوین رحمة للتعظيم، والمعنى: أن لينة لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة منه، وقيل: إن ما استفهامية، والمعنى: فبأي رحمة من الله لنت لهم، وفيه معنى التعجب، وهو بعيد، ولو كان كذلك لحذف الألف من ما، وقيل: فبم رحمة من الله. والفظ: الغليظ الجافي. وقال الراغب: الفظ هو: الكرية الخلق، وأصله فظظ كحذر. وغلظ القلب: قساوته، وقلة إشفاقه، وعدم انفعاله للخير. والانفضاض: التفريق، يقال: فضضتهم، فانفضوا، أي: فرقتهم، ففترقوا والمعنى: لو كنت فظاً غليظ القلب لا ترفق بهم لتفرقوا من حولك هيبة لك، واحتشاماً منك بسبب ما كان من توليهم، وإذا كان الأمر، كما ذكر: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلق بك من الحقوق: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الله سبحانه فيما هو إلى الله سبحانه ﴿وَوَشَّوْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: الذي يرد عليك، أي: أمر كان مما يشاور في مثله، أو في أمر الحرب خاصة، كما يفيد السياق لما في ذلك من تطييب خواطرهم، واستجلاب موئنتهم، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يائس منه أحد بعك. والمراد هنا: المشاورة في غير الأمور التي يرد الشرع بها. قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذة من قول العرب: شرت الدابة، وشورتها: إذا علمت خبرها، وقيل: من قولهم: شرت العسل إذا أخذته من موضعه. قال ابن خوزمندان: ولجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا، ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس، فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب، والعمال، والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد، وعمارتها. وحكى القرطبي عن ابن عطية: أنه لا خلاف في وجوب عزل من لا يستشير أهل

الغلول، واجتنابه، ومن بآء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول. ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت، فقال: ﴿هم درجات عند الله﴾ أي: متفاوتون في الدرجات، والمعنى: هم نور درجات، أو لهم درجات، فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجات من بآء بسخط من الله، فإن الأولين في أرفع الدرجات. والآخرين في أسفلها. قوله: ﴿ولقد من الله على المؤمنين﴾ جواب قسم محذوف، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته. ومعنى: ﴿من أنفسهم﴾ أنه عربي مثلهم، وقيل: بشر مثلهم، ووجه المنة على الأول: أنهم يفقهون عنه، ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان ومعناهما على الثاني: أنهم يأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكاً لم يحصل كمال الانس به لاختلاف الجنسية، وقرئ: ﴿من أنفسهم﴾ بفتح الفاء، أي: من أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبني هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم، ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له، وأقرب إلى تصديقه، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني، فلا حاجة إلى هذا التخصيص، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص، لأن بني هاشم هم أنفس العرب، والعجم في شرف الأصل، وكرم النجار، ورفاعة المحتد. ويدل على الوجه الأول قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ [الجمعة: 2] وقوله: ﴿وإنه لنذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: 44]. قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ هذه مئة ثانية، أي: يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع ﴿ويؤمهم﴾ أي: يطهر من نجاسة الكفر، وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى، وهما في محل نصب على الحال، أو صفة لرسول، وهكذا قوله: ﴿ويعلمهم الكتاب﴾، والمراد بالكتاب هنا: القرآن. والحكمة: السنة. وقد تقدم في البقرة تفسير ذلك: ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي: من قبل محمد، أو من قبل بعثته: ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي: واضح لا ريب فيه، واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة، وبين النافية، فهي تدخل في خبر المخففة لا النافية، واسمها ضمير الشأن، أي: وإن الشأن، والحديث، وقيل: إنها النافية، واللام بمعنى إلا، أي: وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين، وبه قال الكوفيون، والجملة على التقديرين في محل نصب على الحال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض﴾ الآية، قال: هذا قول عبد الله بن أبي بن سلول، والمنافقين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿ليجعل الله تلك حسرة في قلوبهم﴾ قال: يحزنهم قولهم، ولا ينفعهم شيئا. وأخرجوا عن قتادة في قوله: ﴿فبما رحمة من

العلم والدين. قوله: ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾ أي: إذا عزم عقب المشاورة على شيء، وأطمانت به نفسك، فتوكل على الله في فعل ذلك، أي: اعتمد عليه، وفوض إليه؛ وقيل: إن المعنى: فإذا عزم على أمر أن تمضي فيه، فتوكل على الله لا على المشاورة، والعزم في الأصل: قصد الإمضاء، أي: فإذا قصدت إمضاء أمر، فتوكل على الله. وقرأ جعفر الصائغ، وجابر بن زيد: ﴿فإذا عزم، بضم التاء بنسبة العزم إلى الله تعالى، أي: فإذا عزم لك على شيء، وأرشدت إلى، فتوكل على الله. وقوله: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ جملة مستأنفة لتأكيد التوكل، والحث عليه. والخذلان: ترك العون، أي: وإن يترك الله عونكم: ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ وهذا الاستفهام إنكاري. والضمير في قوله: ﴿من بعده﴾ راجع إلى الخذلان الملول عليه بقوله: ﴿وإن يخذلكم﴾ أو إلى الله، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه، وأن من نصره الله لا غالب له، ومن خذله لا ناصر له، ففوض أموره إليه، وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره، وتقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ لإفادة قصره عليه. قوله: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ أي: ما صح له ذلك لتنافي الغلول، والنبوّة. قال أبو عبيد: الغلول من المغنم خاصة، ولا نراه من الخيانة، ولا من الحقد، ومما يبين ذلك أنه يقال: من الخيانة أغل يغفل، ومن الحقد غل يغفل بالكسر، ومن الغلول غل يغفل بالضم، يقال غل المغنم غلولا، أي: خان بأن يأخذ لنفسه شيئا يستره على أصحابه، فمعنى الآية على القراءة بالبناء للمفاعل: ما صح لنبي أن يخون شيئا من المغنم، فيأخذ لنفسه من غير اطلاع أصحابه. وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول. ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول: ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه أي: يخونه في الغنمية، وهو على هذه القراءة الأخرى نهى للناس عن الغلول في المغنم، وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأمّة، والسلطين، والأمراء حراما، لأن خيانة الأنبياء أشدّ نبيّا، وأعظم وزرا ﴿ومن يغفل يات بما غل يوم القيامة﴾ أي: يات به حاملا له على ظهره، كما صح ذلك عن النبي ﷺ، فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول، والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر وهي: مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له قبل أن يحاسب عليه، ويعاقب عليه. قوله: ﴿من توفي كل نفس ما كسبت﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت وأقيا من خير وشر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرا، أو شرا، ويدخل تحتها الغال دخولا أوليا لكون السياق فيه. قوله: ﴿أمن اتبع رضوان الله كمن بآء بسخط من الله﴾ الاستفهام للإنكار، أي: ليس من اتبع رضوان الله في أوامره، ونواهيه، فعمل بأمره، واجتنب نهيه كمن بآء أي: رجع بسخط عظيم كائن من الله بسبب مخالفته لما أمر به، ونهى عنه. ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك

حال، وقيل: إن المراد بقوله: ﴿هو من عند أنفسكم﴾ خروجهم من الدنيا. ويرد أن الوعد بالنصر إنما كان بعد ذلك؛ وقيل: هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل، و﴿يوم التقى الجمعان﴾ يوم أحد، أي: ما أصابكم يوم أحد من القتل، والجرح، والهزيمة ﴿فبإذن الله﴾ ففعله، وقيل: بقضائه، وقدره، وقيل: بتخليته بينكم، وبينهم، والفاء دخلت في جواب الموصول لكونه يشبه الشرط، كما قال سيبويه. وقوله: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ عطف على قوله: ﴿فبإذن الله﴾ عطف سبب على سبب. وقوله: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ عطف على ما قبله، قيل: أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم، وإلى المنافقين، واحداً. والمراد بالعلم هنا: التمييز والإظهار؛ لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك، والمراد بالمنافقين هنا: عبد الله بن أبي وأصحابه. قوله: ﴿وقيل لهم﴾ هو معطوف على قوله: ﴿نافقوا﴾ أي: ليعلم الله الذين نافقوا، والذين قيل: لهم، وقيل هو كلام مبتدأ أي: قيل لعبد الله بن أبي، وأصحابه ﴿تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾ إن كنتم ممن يؤمن بالله، واليوم الآخر ﴿أو انفضوا﴾ عن أنفسكم إن كنتم لا تؤمنون بالله، واليوم الآخر، فأبوا جميع ذلك، وقالوا: لو نعلم أنه سيكون قتالاً لاتبعناكم، وقاتلنا معكم، ولكنه لا قتال هناك؛ وقيل المعنى: لو كنا نقدر على القتال، ونحسنه لاتبعناكم، ولكننا لا نقدر على ذلك، ولا نحسنه. وعبر عن نفي القدرة على القتال بنفي العلم به لكونها مستلزماً له، وفيه بعد لا ملجئ إليه، وقيل معناه: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، لعدم القدرة منا، ومنكم على نفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم، والخروج من المدينة، وهذا أيضاً فيه بعد دون بعد ما قبله، وقيل: معنى الدفع هنا تكثير سواد المسلمين، وقيل: معناه رابطوا، والقاتل للمنافقين هذه المقالة التي حكاها الله سبحانه: هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، والد جابر بن عبد الله. قوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ أي: هم في هذا اليوم الذي انخلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون؛ لأنهم قد بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك، وقيل المعنى: أنهم لاهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لاهل الإيمان. قوله: ﴿يقولون بافواهم ما ليس في قلوبهم﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها، أي: أنهم أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، ونكر الأفواه للتاكيد، مثل قوله: ﴿يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38]. قوله: ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ الخ، أي: هم الذين قالوا لإخوانهم على أنه خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون بدلاً من واو يكتمون، أو منصوباً على الذم، أو وصف للذين نافقوا. وقد تقدم معنى: ﴿قالوا لإخوانهم﴾ أي: قالوا لهم ذلك، والحال أن هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال: ﴿لو أطاعونا﴾ بترك الخروج

الله، يقول: فبرحمة من الله: ﴿كنت لهم﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿انفضوا من حولك﴾ قال: انصرفوا عنك. وأخرج ابن عدي، والبيهقي في الشعب، قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس: قال: لما نزلت: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ: ﴿لما إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن الله جعلها رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيأً. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: ﴿وشاورهم في الأمر﴾. قال: أبو بكر وعمر. وأخرج ابن مريويه، عن علي قال: «سئل رسول الله ﷺ، عن العزم، فقال: مشاورة أهل الرأي، ثم اتباعهم». وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزلت. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ قال: ما كان لنبي أن يتعمه أصحابه. وقد ورد في تحريم الغلول أحاديث كثيرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس: ﴿هم درجات عند الله﴾ يقول: بأعمالهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عائشة في قوله: ﴿لقد من الله على المؤمنين﴾ الآية، قالت: هذه للعرب خاصة.

أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْبِيَّةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ يَتْلُوَ قُلُومًا أَنْ هَذَا قُلُومٌ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٧﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَإِذْنُ اللَّهِ وَلِعَلَّكَ الْتَوَيْنِ ﴿٣٨﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَسَالَوُا قَتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذَقُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قَالُوا لَأَتَّبِعْتُمْكُمْ هُمْ لَكَفَرُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا أَوْ أَطَاعُوا مَا قَاتَلُوا قُلُومًا فَادْرَأُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمَتُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾

قوله: ﴿أو لما أصابكم مصيبة﴾ الألف للاستفهام بقصد التقرير، والواو للعطف. والمصيبة: الغلبة، والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد: ﴿قد أصبتم مثلها﴾ يوم بدر، وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون، وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، فكان مجموع القتلى، والأسرى يوم بدر مثلي القتلى من المسلمين يوم أحد، والمعنى: أحيان أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم، وقتلتم من أين أصابنا هذا؟ وقد وعدنا بالنصر. وقوله: ﴿إني هذا﴾ أي: من أين أصابنا هذا الانهزام، والقتل، ونحن نقاتل في سبيل الله، ومعنا رسول الله ﷺ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم. وقوله: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب، أي: هذا الذي سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبي ﷺ من لزوم المكان الذي عينه لهم، وعدم مفارقتهم له على كل

بكاؤه ﷺ، هو وأبو بكر ندماً على أخذ الفداء، ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه، ولا حصل ما حصل من النبي ﷺ، ومن معه من الندم، والحزن، ولا صوب النبي ﷺ رأي عمر رضي الله عنه، حيث أشار بقتل الأسرى، وقال ما معناه: لو نزلت عقوبة لم ينج منها إلا عمر، والجميع في كتب الحديث، والسير. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس: ﴿قلتم أنى هذا﴾ ونحن مسلمون نقاتل غضباً لله، وهؤلاء مشركون. فقال: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبي ﷺ حين قال لا تتبعوهم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿أو انفعوا﴾ قال: كثروا بأنفسكم، وإن لم تقاتلوا. وأخرج أيضاً، عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي عون الأنصاري في قوله: ﴿أو انفعوا﴾ قال: رابطوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن شهاب وغيره قال: خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد، والمدينة انخزل عنهم عبد الله بن أبي بلثث الناس، وقال: أطاعهم، وعصاني، والله ما ندري على ما تقتل أنفسنا ههنا؟ فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق، وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بني سلمة يقول: يا قوم أنكركم الله أن تخذلوا نبيكم، وقومكم عند ما حضروهم عدوهم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولا نرى أن يكون قتال. وأخرج ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن شهاب الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحسين بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، فنكره، وزاد أنهم: لما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف قال: أبعديكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ قال: لو نعلم أننا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ ﴿١٦٧﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَاسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٨﴾ يَسْتَشِيرُونَ بِعَمْرِ بْنِ اللَّهِ وَفَضْلِ بْنِ أَبِي عَاصِمٍ الَّذِي أُحْصِنُوا بِهِمْ وَأَقْبَعُوا أَبْرَ عَظِيمَ ﴿١٦٩﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ الْإِنْسَانُ إِذَا كُنَّ أَفْئِدَتُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ فَارَادَهُمْ بِرَبِّكُمْ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَبِعَمِّ الْوَكِيلِ ﴿١٧٠﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى ديارِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ رِزْقَهُمْ وَكَانَ رِزْقَهُمْ هَاجِلًا فَذُكِّرُوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَكَانَ خَلْقُهُمْ خَفِيفًا ﴿١٧١﴾ وَإِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَجْعَلُ أَوْلِيَاءَهُمْ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَكَافُّونَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾

لما بين الله سبحانه أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحاناً لتمييز المؤمنين من المنافق، والكاذب من الصديق، بين ههنا أن من لم ينهزم، وقتل فله هذه الكرامة، والنعمة، وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون، لا مما يخاف،

من المدينة ما قتلوا، فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ والدرء: الدفع، أي: لا ينفع الحذر من القدر، فإن المقتول يقتل بأجله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾ الآية. يقول: إنكم قد أصبتم من المشركين يوم بدر مثلي ما أصابوا منكم يوم أحد، وقد بين هذا عكرمة. فأخرج ابن جرير عنه قال: قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال: لما رأوا من قتل منهم يوم أحد قالوا من أين هذا؟ ما كان للكفار أن يقتلوا منا، فلما رأى الله ما قالوا من ذلك، قال الله: هم بالأسرى الذين أخذتم يوم بدر. فردهم الله بذلك، وعجل لهم عقوبة ذلك في الدنيا ليسلموا منها في الآخرة، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن مريويه، عن علي قال: جاء جبريل إلي النبي ﷺ، فقال: يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا، فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقبل منهم عدتهم، فدعا رسول الله ﷺ الناس، فنكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله عشارتنا، وإخواننا لا بل نأخذ، فداءهم، فنقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً عدة أسارى أهل بدر. وهذا الحديث في سنن الترمذي، والنسائي هو من طريق أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة عن علي: قال الترمذي بعد إخراج: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن النبي ﷺ مرسلاً، وإسناد ابن جرير لهذا الحديث هكذا: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن علي، عن ابن عون ح قال سنيد، وهو حسين، وحدثني حجاج، عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن علي فنكره. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا قراد بن نوح، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سمك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب محمد ﷺ عنه، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فانزل الله عز وجل: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾ الآية. وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن غزوان، وهو قراد بن نوح به، ولكن باطل منه، ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق ما نزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ [الأنفال: 67] وما روى من

عائنا ثواب الله وحصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا، وهذا أقوى، لأن معناه أوسع، وفائدته أكثر، واللفظ يحتمله بل هو الظاهر، وبه قال الزجاج، وابن فورك. وقوله: ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ بدل من الذين، أي: يستبشرون بهذه الحالة الحاصلة لإخوانهم من أنه لا خوف عليهم، ولا حزن، وإن هي: المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، وكرر قوله: ﴿يستبشرون﴾ لتأكيد الأول، ولبيان أن الاستبشار ليس لمجرد عدم الخوف، والحزن، بل به، وبنعمة الله، وفضله، والنعمة: ما ينعم الله به على عباده، والفضل: ما يتفضل به عليهم، وقيل النعمة: الثواب، والفضل الزائد، وقيل: النعمة الجنة، والفضل داخل في النعمة نكر بعدها لتأكيد، وقيل: إن الاستبشار الأول متعلق بحال إخوانهم، والاستبشار الثاني بحال أنفسهم. قوله: ﴿وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ قرأ الكسائي بكسر الهمزة من أن، وقرأ الباقون بفتحها فعلى القراءة الأولى هو: مستأنف اعتراض. وفيه دلالة على أن الله لا يضيع أجر شيء من أعمال المؤمنين، ويؤيده قراءة ابن مسعود، والله لا يضيع أجر المؤمنين. وعلى القراءة الثانية الجملة عطف على فضل داخلة في جملة ما يستبشرون به. وقوله: ﴿الذين استجابوا﴾ صفة للمؤمنين، أو بدل منهم، أو من الذين لم يلحقوا بهم، أو هو مبتدأ خبره: ﴿للمؤمنين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ بجملة، أو منصوب على المدح، وقد تقدم تفسير القرطبي. قوله: ﴿الذين قال لهم الناس﴾ المراد بالناس هنا: نعيم بن مسعود، كما سيأتي بيانه، وجاز إطلاق لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم، وقيل المراد بالناس: ركب عبد القيس الذين مروا بأبي سفيان، وقيل هم: المنافقون. والمراد بقوله: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ أبو سفيان، وأصحابه، والضمير في قوله: ﴿فزداهم﴾ راجع إلى القول المنلول عليه، يقال، أو إلى المقول، وهو: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فآخضوهم﴾ أو إلى القائل، والمعنى: أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك، ولا التفقوا إليه، بل أخلصوا له، وأزادوا طمأنينة، و يقيناً. وفيه دليل على أن الإيمان يزيد، وينقص. قوله: ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ حسب مصدر حسبه، أي: كفاه، وهو بمعنى الفاعل، أي: محسب بمعنى كافٍ. قال في الكشف: والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به التركة؛ لأن إضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية. انتهى. والوكيل هو من توكل إليه الأمور، أي: نعم الموكل إليه أمرنا، أو الكافي، أو الكافل، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نعم الوكيل الله سبحانه. قوله: ﴿فانقلبوا﴾ هو: معطوف على محذوف، أي: فخرجوا إليهم، فانقلبوا بنعمة هو: متعلق بمحذوف وقع حالاً. والتونين للتعظيم، أي: رجعوا متلبسين: ﴿بنعمة﴾ عظيمة، وهي السلامة من عدوهم، وعافية ﴿وفضل﴾ أي: أجر تفضل الله

ويحذر، كما قالوا من حكى الله عنهم: ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ [آل عمران: 156] وقالوا: ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ [آل عمران: 168] فهذه الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد، وقرئ بآليات التحية، أي: لا يحسبن حاسب.

وقد اختلف أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية من هم؟ فقيل: في شهداء أحد، وقيل: في شهداء بدر، وقيل: في شهداء بئر معونة. وعلى فرض أنها نزلت في سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محقة، ثم اختلفوا، فمنهم من يقول: أنها ترد إليهم أرواحهم في قبورهم، فينتعمون. وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أي: يجدون ريحها، وليسوا فيها. وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى: أنهم في حكم الله مستحقون للنتع في الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز. وقد رويت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم في الجنة يرزقون، ويكلمون، ويتمتعون وقوله: ﴿الذين قتلوا﴾ هو: المفعول الأول. والحاسب هو النبي ﷺ، أو كل أحد، كما سبق، وقيل: يجوز أن يكون الموصول هو: فاعل الفعل، والمفعول الأول محذوف، أي: لا تحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً، وهذا تكلف لا حاجة إليه، ومعنى النظم القرآني في غاية الوضوح، والجلال. وقوله: ﴿بل أحياء﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: بل هم أحياء. وقرئ بالنصب على تقدير الفعل، أي: بل أحسبهم أحياء. وقوله: ﴿عند ربهم﴾ إما خبر ثان، أو صفة لأحياء، أو في محل نصب على الحال، وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: عند كرامة ربهم. قال سيبويه: هذه عنية الكرامة لا عنية القرب. وقوله: ﴿يرزقون﴾ يحتمل في إعرابه الوجوه التي نكرناها في قوله: ﴿عند ربهم﴾ والمراد بالرزق هنا: هو الرزق المعروف في العادات على ما ذهب إليه الجمهور، كما سلف، وعند من عدا الجمهور المراد به: الثناء الجميل، ولا وجه يقتضي تحريف الكلمات العربية في كتاب الله تعالى، وحملها على مجازات بعيدة، لا لسبب يقتضي ذلك. وقوله: ﴿فرحين﴾ حال من الضمير في يرزقون، وبما آتاهم الله من فضله متعلق به. وقرأ ابن السميع: «فرحين» وهما: لغتان كالفره والفاره، والحزن والحائر. والمراد: ﴿بما آتاهم الله﴾ ما ساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة، وما صاروا فيه من الحياة، وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه. ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا إذ ذاك. فالمراد بالحق هنا: أنهم لم يلحقوا بهم في القتل، والشهادة، بل سيلحقون بهم من بعد. وقيل المراد: لم يلحقوا بهم في الفضل، وإن كانوا أهل فضل في الجملة، والواو في: ﴿ويستبشرون﴾ عاطفة على: ﴿يرزقون﴾ أي: يرزقون، ويستبشرون، وقيل المراد: بإخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء، وغيرهم؛ لأنهم لما

إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، وفي لفظ: «قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لثلاً يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هؤلاء الآيات: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا﴾ الآية وما بعدها» وأخرج الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن جابر بن عبد الله: أن أباه سال الله سبحانه أن يبلغ من وراءه ما هو فيه، فنزلت هذه الآية، وهو من قتلى أحد. وقد روى من وجوه كثيرة أن سبب نزول الآية قتلى أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أنس: أن سبب نزول هذه الآية قتلى بشر معونة، وعلى كل حال، فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد، وقد ثبت في أحاديث كثيرة في الصحيح، وغيره أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، وثبت في فضل الشهداء ما يطول تعداد، ويكثر إيراده مما هو معروف في كتب الحديث. وأخرج النسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح، عن ابن عباس قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أرفتم بشس ما صنعتم أرجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد، أو بدر أبي عتبة، شك سفيان، فقال المشركون: يرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَسُولِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن عائشة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَسُولِ اللَّهِ﴾ الآية، أنها قالت لعروة بن الزبير: يا بن أختي كان أبوك منهم: الزبير، وأبو بكر، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد انصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، فقال: من يرجع في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون فيهم أبو بكر، والزبير. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: خرج رسول الله ﷺ بجمراء الأسد، وقد أجمع أبو سفيان بالرجعة إلى رسول الله ﷺ، وأصحابه، وقالوا: رجعنا قبل أن نتأصلهم لنكون على بقيتهم، فبلغه أن النبي ﷺ خرج في أصحابه يطلبهم، فثنى ذلك أبو سفيان، وأصحابه، ومركب من عبد القيس، فقال لهم أبو سفيان: بلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه؛ لنستأصلهم؛ فلما مرَّ الركب برسول الله ﷺ بجمراء الأسد أخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ، والمسلمون معه: حسبنا الله، ونعم الوكيل، فأنزل الله في ذلك: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَسُولِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآيات. وأخرج موسى بن عقبة في مغازيه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب قال: إن رسول الله ﷺ استنفر المسلمين لموعده أبي سفيان بداراً. فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس، فمشوا في الناس يخوفونهم، وقالوا: إنا قد أخبرنا أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل يرجون أن يواقعكم. والروايات في هذا

به عليهم؛ وقيل ربح في التجارة، وقيل: النعمة خاصة بمنافع الدنيا، والفضل بمنافع الآخرة، وقد تقدم تفسيرهما قريباً بما يناسب ذلك المقام لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين قد صاروا في الدار الآخرة، والكلام هنا مع الأحياء. قوله: ﴿لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ﴾ في محل نصب على الحال، أي: سالمين عن سوء لم يصيبهم قتل، ولا جرح، ولا ما يخافونه ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ في ما يأتون، وينزون، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة ﴿وَاللَّهُ نُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ لا يقاوم قدره، ولا يبلغ مداه، ومن تفضله عليهم تثبيتهم، وخروجهم للقاء عدوهم، وإرشادهم إلى أن يقولوا هذه المقالة التي هي جالبة لكل خير، ودافعة لكل شر. قوله: ﴿إِنَّمَا نُلْكُم﴾ أي: الميثب لكم أيها المؤمنون ﴿الشَّيْطَانُ﴾ هو: خبر اسم الإشارة، ويجوز أن يكون الشيطان صفة لاسم الإشارة، والخبر قوله: ﴿يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ فعلى الأول يكون قوله: ﴿يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ جملة مستأنفة، أو حالية، والظاهر أن المراد هنا: الشيطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتثبيط، وقيل المراد به: نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة، وقيل: أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم؛ والمعنى أن الشيطان يخوف المؤمنين أولياءه، وهم الكافرون، وقيل: إن قوله: ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ منصوب بنزع الحافض أي: يخوفكم بأوليائه، أو من أوليائه، قاله الفراء، والزجاج، وأبو علي الفارسي. ورده ابن الأنباري بأن التخويف قد يتعدى بنفسه إلى مفعولين، فلا ضرورة إلى إضمار حرف الجر. وعلى قول الفراء، ومن معه يكون مفعول يخوف محذوفاً، أي: يخوفكم. وعلى الأول يكون المفعول الأول محذوفاً، والثاني منكوراً، ويجوز أن يكون المراد: أن الشيطان يخوف أولياءه، وهم القاعون من المنافقين، فلا حذف. قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: أولياء الذين يخوفكم بهم الشيطان، أو فلا تخافوا الناس المذكورين في قوله: ﴿إِنَّ لِلنَّاسِ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ نِهَامَ سَبْحَانَهُ عَنْ أَنْ يَخَافُوهُمْ، فَيَجْبِنُوا عَلَى الْلِقَاءِ، وَيَفْشَلُوا عَنِ الْخُرُوجِ، وَأَمْرُهُمْ بَأَنْ يَخَافَهُ سَبْحَانَهُ، فَقَالَ: ﴿وَخَافُونَ﴾ فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه لأنني الحقيق بالخوف مني، والمراقبة لأمرى، ونهيبى لكون الخير، والشر بيدي، وقيد بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضي ذلك.

وقد أخرج الحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في حمزة، وأصحابه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عن أبي الضحى أنها نزلت في قتلى أحد، وحمزة منهم. أخرج عبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأتي إلى قتائيل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجئوا طيب ماكلهم، ومشربهم، وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت

مثل قول ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن: إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا ولي الشيطان.

وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسْتَرْعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِ يُضَرُّوا اللَّهُ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنِ يُضَرُّوا اللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّا نَكْفِي لَهُمْ خَيْرَ لَأَشْفِيَهُمْ إِنَّنَا نَمْلِكُ لَهُمْ أَرْزَادًا وِاسَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦٩﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْلِمَكُمْ عَلَى الطَّيِّبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمِيزُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ يَنْفَعُ الْبَارِئِينَ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِن تَوَلَّوْا وَلَكُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ يَبْعَثُونَ يَمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَحْمِلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَبْزُغُ الْوَرْدَ وَالْأَرْضَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧١﴾

قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قرأ نافع بضم الياء، وكسر الزاي، وقرأ ابن محيصن بضم الياء، والزاي، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم الزاي، وهما لغتان، يقال: حزني الأمر، وحزني، والأولى أقصح. وقرأ طلحة: ﴿يسرعون﴾ قيل: هم قوم ارتدوا، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فسلاه الله سبحانه، ونهاه عن الحزن، وعلل ذلك بأنهم لن يضروا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم بأن لا حظ لهم في الآخرة، ولهم عذاب عظيم، وقيل: هم كفار قريش، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هو عام في جميع الكفار. قال القشيري، والحزن على كفر الكافر طاعة، ولكن النبي ﷺ كان يفرط في الحزن، فنهى عن ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: 8] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ عَلَى أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6] وعدى السارعون بفي دون إلى للدلالة على أنهم مستقرون فيه مقيمون لملاسته، ومثله يسارعون في الخيرات. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَنِ يُضَرُّوا اللَّهُ شَيْئًا﴾ تعليل للنهي، والمعنى: أن كفرهم لا ينقص من ملك الله سبحانه شيئاً، وقيل المراد: لن يضروا أوليائه، ويحتمل أن يراد لن يضروا بينه الذي شرعه لعباده، وشيئاً منصوب على المصدرية أي: شيئاً من الضرر، وقيل: منصوب بنزع الخافض: أي بشيء. والخط: النصيب. قال أبو زيد: يقال رجل حظيظ إذا كان ذا حظ من الرزق، والمعنى أن الله يريد أن لا يجعل لهم نصيباً في الجنة، أو نصيباً من الثواب، وصيغة الاستقبال للدلالة على نوايا الإرادة، واستمرارها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بسبب مسارعهم في الكفر، فكان ضرر كفرهم عائداً عليهم جالباً لهم عدم الحظ في الآخرة، ومصيرهم في العذاب العظيم. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: استبدلوا الكفر بالإيمان، وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة: ﴿لَنِ يُضَرُّوا اللَّهُ شَيْئًا﴾ معناه كالأول، وهو للتأكيد لما تقدمه، وقيل: إن الأول خاص بالمنافقين، والثاني يعم جميع الكفار، والأول أولى. قوله:

الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث، والسير. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير قال: القرع الجراحات. وأخرج ابن جرير، عن السدي أن أبا سفيان، وأصحابه لقوا أعرابياً، فجعلوا له جعلاً على أن يخبر النبي ﷺ، وأصحابه أنهم قد جمعوا لهم، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال هو، والصحابة: حسبنا الله، ونعم الوكيل، ثم رجعوا من حمراء الأسد، فأنزل الله فيهم، وفي الأعرابي: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: الْآيَةُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ مَرْيُومَ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ أَنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ مِنْ خِزَاعَةٍ.

وقد ورد في فضل هذه الكلمة أعني: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ أحديث منها ما أخرجه ابن مريويه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقعت في الأمر العظيم، فقولوا: حسبنا الله، ونعم الوكيل»، قال ابن كثير بعد إخراجها: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج أبو نعيم، عن شداد بن أوس قال: قال النبي ﷺ: «حسبي الله، ونعم الوكيل، أمان كل خائف». وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر، عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه، ولحيته، ثم تنفس الصعداء، وقال: حسبني الله، ونعم الوكيل». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: حسبنا الله، ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ لِلنَّاسِ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، عن عوف بن مالك أنه حدثهم: «أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أبهر: حسبني الله، ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: ربوا علي الرجل، فقال: ما قلت؟ قال: قلت: حسبني الله، ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر، فقل: حسبني الله، ونعم الوكيل». وأخرج أحمد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد لتقم القرن، وحتى جبهته يسمع متى يؤمر، فينفخ؟ ثم أمر الصحابة أن يقولوا حسبنا الله، ونعم الوكيل على الله توكلائه وهو حديث جيد. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل أن عيراً مرت، وكان في أيام الموسم، فاشتراها رسول الله ﷺ، فربح مالاً، فقسمه بين أصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في الآية قال: الفضل ما أصابوا من التجارة، والأجر. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: أما النعمة: فهي العافية، وأما الفضل: فالتجارة، والسوء: القتل. أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لَمْ يَمَسَّ سِمْسَهُمْ سُوءٌ﴾ قال: لم يؤذهم أحد: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانُ اللَّهِ﴾ قال: أطاعوا الله، ورسوله. وأخرج ابن جرير، من طريق العوفي عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا نُلْكُمُ لِلشَّيْطَانِ يَخْوَفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ قال: يقول الشيطان يخوف بأوليائه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك قال: يعظم أوليائه في أعينكم. وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة

في الأصلاب، والأرحام، أي: ما كان الله ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم، وبينهم، وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي: ما كان الله؛ ليترككم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم، وعلى هذا الوجه، والوجه الثاني يكون في الكلام التفات. وقرئ: ﴿يُمَيِّزُ﴾ بالتشديد للمخفف، من ماز الشيء يميزه ميزاً إذا فرق بين شيئين، فإن كانت أشياء قيل: ميزه تمييزاً ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ حتى تميزوا بين الطيب والخبيث، فإنه المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول من رسله يجتبيه، فيطلعه على شيء من غيبه، فيميز بينكم، كما وقع من نبينا ﷺ من تعيين كثير من المنافقين، فإن ذلك كان بتعليم الله له، لا بكونه يعلم الغيب؛ وقيل المعنى: وما كان الله ليطلحكم على الغيب في من يستحق النبوة، حتى يكون الوحي باختياركم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجِيبُكَ﴾ أي: يختار ﴿مَنْ رُسُلَهُ مِنْ يَشَاءُ﴾. قوله: ﴿فَأَمَّا بَاءُ اللَّهِ وَرُسُلَهُ﴾ أي: افعلوا الإيمان المطلوب منكم، ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنْ﴾ بما نكر ﴿وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ﴾ عوضاً عن ذلك: ﴿لِجْرٍ عَظِيمٍ﴾ لا يعرف قدره، ولا يبلغ كنهه. قوله: ﴿وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ للموصول في محل رفع على أنه فاعل الفعل على قراءة من قرأ بالياء التحتية، والمفعول الأول محذوف، أي: لا يحسبن الباخلون البخل خيراً لهم. قاله الخليل، وسيبويه، والفراء، قالوا: وإنما حذف لدلالة يبخلون عليه، ومن ذلك قول الشاعر:

إذا نهى السفية جرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف
أي: جرى إلى السفه، فالففيه دل على السفه. وأما على قراءة من قرأ بالفوقية، فالفعل مسند إلى النبي ﷺ، والمفعول الأول محذوف، أي: لا تحسبن يا محمد بخل الذين يبخلون خيراً لهم. قال الزجاج: هو: مثل ﴿وَاسْأَلِ الْقُرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] والضمير المذكور هو ضمير الفصل. قال المبرد: والسين في قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ﴾ سين الوعيد، وهذه الجملة مبينة لمعنى قوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ قيل: ومعنى التطويق هنا أنه يكون ما بخلوا به من المال طوقاً من نار في أعناقهم، وقيل معناه: أنه سيمحلقون عقاب ما بخلوا به، فهو من الطاقة، وليس من التطويق، وقيل المعنى: أنهم يلزمون أعمالهم، كما يلزم الطوق العنق، يقال: طوق فلان عمله طوق الحمامة أي: ألزم جزاء عمله، وقيل: إن ما لم تؤد زكاته من المال يمثل له شجاعاً أقرع حتى يطوق به في عنقه، كما ورد ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ، قال القرطبي: والبخل في اللغة أن يمنع الإنسان الحق الواجب، فأما من منع ما لا يجب عليه، فليس ببخل. قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له وحده لا لغيره، كما يفيد التقديم. والمعنى: أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلها، فما بالهم يبخلون بذلك، ولا ينفقونهم، وهو الله سبحانه لا لهم،

﴿وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ خَيْرَ لَأَنفُسِهِمْ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وغيرهما: ﴿يُحْسِنُ﴾ بالياء التحتية، وقرأ حمزة بالفوقية، والمعنى على الأولى: لا يحسبن الكافرون إنما نملِي لهم بطول العمر، ورغد العيش، أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد ﴿خَيْرَ لَأَنفُسِهِمْ﴾ فليس الأمر كذلك بل إنما نملِي لهم ليزدادوا إثماً. ولهم عذاب مهين. وعلى القراءة الثانية: لا تحسبن يا محمد أن الإملاء للذين كفروا بما نكر خير لأنفسهم، بل هو شرّ واقع عليهم، ونازل بهم، وهو أن الإملاء الذي نمليه لهم؛ ليزدادوا إثماً، فالموصول على القراءة الأولى فاعل الفعل، وإنما نملِي، وما بعده ساد مسد مفعولي الحسين عند سيبويه، أو ساد مسد أحدهما، والآخر محذوف عند الأخفش. وأما على القراءة الثانية، فقال الزجاج: إن الموصول هو: المفعول الأول، وإنما وما بعدهما بدل من الموصول ساد مسد المفعولين، ولا يصح أن يكون اثماً، وما بعده هو المفعول الثاني؛ لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو: الأول في المعنى. وقال أبو علي الفارسي: لو صح هذا لكان خيراً بالنصب؛ لأنه يصير بدلاً من الذين كفروا، فكانه قال: لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيراً. وقال الكسائي، والفراء: إنه يقرر تكرير الفعل كأنه قال: ولا تحسبن الذين كفروا، ولا تحسبن إنما نملِي لهم، فسدت مسد المفعولين. وقال في الكشاف: فإن قلت كيف صح مجيء البديل، ولم ينكر إلا أحد المفعولين، ولا يجوز الاختصار بفعل الحسين على مفعول واحد؟ قلت: صح ذلك من حيث أن التعويل على البديل، والمبدل منه في حكم المنحى، ألا تراك تقول جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك. انتهى. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي﴾ بكسر إن فيهما، وهي قراءة ضعيفة باعتبار العربية. وقوله: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ جملة مستأنفة مبينة لوجه الإملاء للكافرين. وقد احتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ما تقوله المعتزلة؛ لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار الكفار، ويجعل عيشهم رغداً؛ ليزدادوا إثماً. قال أبو حاتم: وسمعت الأخفش ينكر كسر: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي﴾ الأولى، وفتح الثانية، ويحتج بذلك لأهل القدر؛ لأنه منهم، ويجعله على هذا التقدير: ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملِي لهم؛ ليزدادوا إثماً إنما نملِي لهم خير لأنفسهم. وقال في الكشاف: إن ازدياد الإثم علة، وما كل علة بعرض ألا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز، والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء يعرض لك، وإنما هي علل، وأسباب. قوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا لَنُتَمَّ عَلَيْهِ﴾ كلام مستأنف، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار، والمنافقين، أي: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر، والنفاق ﴿حَتَّى يُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمنافقين، أي: ما كان الله؛ ليترككم على الحال التي أنتم عليه من الاختلاط حتى يميز بعضكم من بعض؛ وقيل: الخطاب للمشركين. والمراد بالمؤمنين من

قرضاً حسناً﴾ [البقرة: 245] قال قوم من اليهود: هذه المقالة تمويهاً على ضعفائهم، لا أنهم يعتقدون ذلك؛ لأنهم أهل الكتاب، بل أرادوا أنه تعالى إن صح ما طلبه منا من القرض على لسان محمد، فهو فقير ليشتكوا على إخوانهم في دين الإسلام. وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ سنكتبه في صحف الملائكة، أو سنحفظه، أو سنجازيهم عليه. والمراد: الوعيد لهم، وأن ذلك لا يفوت على الله، بل هو معد لهم ليوم الجزاء. وجملة سنكتب على هذا مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، كانه قيل: ماذا صنع الله بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع؟ فقال: قال لهم: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ وقرأ الأعمش، وحمزة: «سيكتب» بالمشنة التحتية مبني للمفعول. وقرأ برفع اللام من «قتلهم» ويقول بالياء المثناة تحت. قوله: ﴿وَقَتْلُهمُ الأنبياء﴾ عطف على ما قالوا، أي: ونكتب قتلهم الأنبياء، أي: قتل أسلافهم للأنبياء، وإنما نسب ذلك إليهم لكونهم رضوا به، جعل ذلك القول قريناً لقتل الأنبياء تنبيهاً على أنه من العظم، والشناعة بمكان يعدل قتل الأنبياء. قوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ معطوف على ﴿سَنَكْتُبُ﴾ أي: ننقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذي نقوله لهم في النار، أو عند الموت، أو عند الحساب. والحريق: اسم للنار الملتهبة وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة. وقرأ ابن مسعود: «ويقال نوقوا» والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى العذاب المذكور قبله، وأشار إلى القريب بالصيغة التي يشار بها إلى البعيد للدلالة على بعد منزلته في الفظاعة، ونكر الأيدي لكونها المباشرة لغالب المعاصي. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ معطوف على ﴿مَا قَتَلْتُمْ إِيَّيْكُمْ﴾ ووجه أنه سبحانه عنهم بما أصابوا من الذنب، وجازاهم على فعلهم، فلم يكن ذلك ظلاماً، أو بمعنى: أنه مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء، وليس بظالم لمن عذبه بذنبه، وقيل: إن وجهه أن نفي الظلم مستلزم للعقل المقتضي لإثابة المحسن، ومعاقبة المسيء، ورد بأن ترك التعذيب مع وجود سببه، ليس بظلم عقلاً، ولا شرعاً، وقيل: إن جملة قوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي: والأمر أن الله ليس بظالم للعبيد، والتعبير بذلك عن نفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلاً عن كونه ظلاماً بالغا لبيان تنزهه عن ذلك، ونفي ظلام المشعر بالكثرة، يفيد ثبوت أصل الظلم. وأجيب عن ذلك بأن الذي توعد بأن يفعله بهم لو كان ظلاماً لكان عظيماً، فنفاه على حدّ عظمه لو كان ثابتاً. قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ هو خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين قالوا، وقيل: نعت للعبيد، وقيل: منصوب على الذم، وقيل: هو في محل جر بدل من ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وهو ضعيف؛ لأن البدل هو المقصود بون المبدل منه، وليس الأمر كذلك هنا، والقائلون هؤلاء هم جماعة من اليهود، كما سيأتي، وهذا المقول، وهو أن الله عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بالقرآن هو من جملة دعاويهم الباطلة.

وإنما كان عندهم عارية مستردة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرضَ وَمَن عَلَيْهَا﴾ [مريم: 40] وقوله: ﴿وَانْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7] والميراث في الأصل: هو ما يخرج من مالك إلى آخر، ولم يكن مملوكاً لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، ومعلوم أن الله سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ قال: هم المنافقون، وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: ما من نفس برّة، ولا فاجرة إلا، والموت خير لها من الحياة إن كان برّاً، فقد قال الله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْإِبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198] وإن كان فاجراً، فقد قال: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن أبي الرداء نحوه، وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن محمد بن كعب، نحوه، وأخرج عبد بن حميد، عن أبي برزة أيضاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: قالوا إن كان محمد صادقاً، فليخبرنا بمن يؤمن به منا، ومن يكفر، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: يميز بينهم في الجهاد، والهجرة، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ قال: ولا يطلع على الغيب إلا رسول. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿وَلَكِنَّ اللهُ يُجْتَنِبُ﴾ قال: يختص. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مالك قال: يستخلص. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾ قال: هم أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: هم يهود. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: بخلوا أن ينفقوها في سبيل الله لم يؤدوا زكاتها. وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتاه الله مالاً، فلم يؤد زكاته، مثل له شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بهلزمته: يعني بشقه، فيقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية» وقد ورد هذا المعنى في أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة يرفعونها.

لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ وَحْدَهُ أَنفِئَةَ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِخَيْرٍ حَتَّى وَقُولُوا دُؤُوبًا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٧١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَتَلْتُمْ إِيَّيْكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهْدٌ لِّنَا أَلَّا نُؤْمِرَ بِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ الْإِسْنَتِ وَإِلَّا تَتَذَكَّرْنَ فَكَيْفَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ مَسْكُونِينَ ﴿١٧٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءَهُ الْإِسْنَتُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْكِتَابُ الْمُنِيرُ ﴿١٧٤﴾

قال أهل التفسير: لما أنزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله

المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحك في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا﴾ قال: هم اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [التوبة: 30] قال: يتصدق الرجل منا، فلذا تقبل منه أنزلت عليه النار من السماء، فأكثته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا﴾ قال: كذبوا على الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قال: الحلال، والحرام ﴿وَالزُّبُرِ﴾ قال: كتب الأنبياء ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ قال: هو القرآن.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أجْرُكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَمَن زُجِرَ عَنِ الْكَفَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَادَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الدُّنْيَا ﴿١٥٠﴾ تَتَّبِعُونَ فِي أُمُورِكُمْ وَأُتْرِكُكُمْ وَلْتَمَسْنَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَكْثَرَ كَيْدًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ ﴿١٥١﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ وَلا تَكُونُنَّ فَتْنَةً وَرَأَى ظُهُورَهُمْ وَأَشْرَفُوا بِهِمْ ثُمَّ قَالَ لِيَلْزِمُوا مِثْقَلَهُمْ أَشْرَكُوا أَكْثَرَ كَيْدًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ ﴿١٥٢﴾ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ بَعْدَ إِتْرَائِهِمْ أَن يَكُونُوا بِنَاهِكُمْ مِمَّا بَغْتَابًا لَّا يُفْعَلُ بِهِمْ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ بَعْدَ إِتْرَائِهِمْ أَن يَكُونُوا بِنَاهِكُمْ مِمَّا بَغْتَابًا لَّا يُفْعَلُ بِهِمْ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ بَعْدَ إِتْرَائِهِمْ أَن يَكُونُوا بِنَاهِكُمْ مِمَّا بَغْتَابًا لَّا يُفْعَلُ بِهِمْ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ بَعْدَ إِتْرَائِهِمْ أَن يَكُونُوا بِنَاهِكُمْ مِمَّا بَغْتَابًا لَّا يُفْعَلُ بِهِمْ

قوله: ﴿ذَائِقَةُ﴾ من النوق، ومنه قول أمية بن أبي الصلت: من لم يمت غبطة يمت هرما الموت كاس والمرء ذائقها وهذه الآية تتضمن الوعد، والوعيد للمصدق، والمكذب بعد إخباره، عن البخاليين القائلين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاهُ﴾. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وابن أبي إسحاق: ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ بالتونين ونصب الموت. وقرأ الجمهور بالإضافة. قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أجر المؤمن: الثواب، وأجر الكافر: العقاب، أي: أن توفية الأجور، وتكميلها إنما تكون في ذلك اليوم، وما يقع من الأجور في الدنيا، أو في البرزخ، فإنما هو بعض الأجور، والزحزحة: التنحية، والإبعاد: تكرير الزح، وهو الجذب بعجلة، قاله في الكشاف، وقد سبق الكلام عليه، أي: فمن بعد عن النار يومئذ، ونحو، فقد فاز، أي: ظفر بما يريد، ونجا مما يخاف، وهذا هو الفوز الحقيقي الذي لا فوز يقاربه، فلن كل فوز، وإن كان بجميع المطالب دون الجنة ليس بشيء بالنسبة إليها اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة، ولا عيش إلا عيشها، ولا نعيم إلا نعيمها، فاغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا، وارض عنا رضا لا سخط بعده، واجمع لنا بين الرضا منك علينا، والجنة، والمتاع: ما يتمتع به الإنسان، وينتفع به، ثم يزول، ولا يبقى كذا قال أكثر المفسرين. الغرور: الشيطان يغرر الناس بالأماني الباطلة، والمواعيد الكاذبة، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذي يلبس به على من يريده، وله ظاهر محبوب، وباطن مكروه. قوله: ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أُمُورِكُمْ وَأُتْرِكُكُمْ وَأُتْرِكُكُمْ وَأُتْرِكُكُمْ﴾ هذا الخطاب للنبي ﷺ، وأمره تسليية لهم عما سيلقونه من الكفرة، والفسقة: ليوطنوا أنفسهم على الثبات، والصبر على

وقد كان دأب بني إسرائيل أنهم كانوا يقربون القربان، فيقوم النبي، فيدعو، فتتزل نار من السماء، فتحرقه، ولم يتعبد الله بذلك كل أنبيائه، ولا جعله دليلاً على صدق دعوى النبوة، ولهذا رد الله عليهم، فقال: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ من القربان ﴿فَلَمَّا قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ كيحيى بن زكريا وشعيا، وسلتر من قتلوا من الأنبياء، والقربان: ما يتقرب به إلى الله من نسيسة، وصلقة، وعمل صالح، وهو فعلا من القربة: ثم سلى الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَإِن كُذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِهِ جَاءُوا﴾ بمثل ما جئت به من البينات. والزبر جمع زبور: وهو الكتاب، وقد تقدم تفسيره ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ الواضح الجلي المضيء، يقال نار الشيء، وأنار، ونوره، واستناره بمعنى.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر بيت المدراس، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم، وأخبارهم. فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجبونه مكتوباً عندكم في التوراة، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقر، وما ننضرع إليه، كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا، ويعطينا، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي، فقال رسول الله ﷺ: لا يبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت له مما قال، فضربت وجهه، فجدد فنحاص فقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ الآية، ونزل في أبي بكر، وما بلغه في ذلك من الغضب ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَكْثَرَ كَيْدًا﴾ [آل عمران: 186] الآية. وقد أخرج هذه القصة ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، وأخرجها ابن جرير، عن السدي بأخصر من ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة من طريق سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أتت اليهود محمداً ﷺ حين أنزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: 245] فقالوا: يا محمد أقتير ربك يسأل عباداه القرض؟ فأنزل الله الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: أن القائل لهذه المقالة حي بن أخطب، وأنها نزلت فيه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن العلاء بن بدير أنه سئل عن قوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْإِنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهم: لم يبركوا ذلك، قال: بموالاتهم من قتل الأنبياء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ قال: ما أنا بمعذب من لم يجترم. وأخرج ابن

فرحهم، والمفعول الثاني بمفازة من العذاب. وقوله: ﴿فَلا تحسبنهم﴾ تأكيد للمفعول الأوّل على القراءتين، والمفازة: المنجاة، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا، أي: ليسوا بفائزين، سمي موضع الخوف مفازة على جهة التفاضل قاله الأصمعي. وقيل: لأنها موضع تفويض، ومظنة هلاك، تقول العرب: فوز الرجل إذا مات. قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعي، فقال خطأ. قال لي أبو المكارم: إنما سميت مفازة: لأن من قطعها فاز. وقال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه. وقيل المعنى: لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب: لأن الفوز التباعد عن المكروه. وقرأ مروان بن الحكم، والأعمش، وإبراهيم النخعي: «أتوا» بالمد، أي: يفرحون بما أعطوا. وقرأ جمهور القراء السبعة، وغيرهم «أتوا» بالقصر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن حبان، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، أقرؤوا إن شئتم: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما للحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾». وأخرج ابن مريويه، عن سهل بن سعد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الزهري في قوله: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ قال: هو كعب بن الأشرف، وكان يحرض المشركين على رسول الله ﷺ، وأصحابه في شعره. وأخرج ابن المنذر، عن طريق الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في الآية قال: يعني: اليهود والنصارى، فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم: ﴿عزيز ابن الله﴾ [يوسف: 82]، ومن النصارى قولهم: ﴿المسيح ابن الله﴾ [البقرة: 167] ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ قال: من القوة مما عزم الله عليه، وأمركم به. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ قال: فنحاص، وأشيخ، وأشباههما من الأخبار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ قال: كان الله أمرهم أن يتبعوا النبي الأمي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: في التوراة والإنجيل أن الإسلام بين الله الذي افترضه على عباده، وأن محمداً رسول الله يجعلونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل، فنبنوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: هم اليهود: ﴿لتبيننه للناس﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن السدي مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم، فمن علم علماً،

المكاره. والابتلاء: الامتحان، والاختبار، والمعنى: لمتحنن، ولتختبرن في أموالكم بالمصائب، والإنفاقات الواجبة، وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال. والابتلاء في النفس بالموت، والأمراض، وفقد الأحباب، والقتل في سبيل الله. وهذه الجملة جواب قسم محذوف نلت عليه اللام الموطئة: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وهم: اليهود والنصارى. ﴿ومن الذين أشركوا﴾ وهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب: ﴿إذى كثيراً﴾ من الطعن في دينكم، وأعراضكم، والإشارة بقوله: ﴿فإن ذلك﴾ إلى الصبر، والتقوى الملل عليهما بالفعلين. وعزم الأمور: معزوماتها، أي: مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله التي أوجب عليهم القيام بها، يقال عزم الأمر، أي: شدّه، وأصلحه. قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ هذه الآية توبيخ لأهل الكتاب وهم: اليهود والنصارى، أو اليهود فقط على الخلاف في ذلك، والظاهر أن المراد بأهل الكتاب: كل من أتاه الله علم شيء من الكتاب، أي: كتاب كان، كما يفيد التعريف الجنسي في الكتاب. قال الحسن، وقتادة: إن الآية عامة لكل عالم، وكذا قال محمد بن كعب، ويدل على ذلك قول أبي هريرة: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية، والضمير في قوله: ﴿لتبيننه﴾ راجع إلى الكتاب، وقيل: راجع إلى النبي ﷺ، وإن لم يتقدم له نكر؛ لأن الله أخذ على اليهود والنصارى أن يبينوا نبوته للناس، ولا يكتموها ﴿فنبذوا وراء ظهورهم﴾. وقرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، وأهل المدينة: «لتبيننه» بـياء التحتية، وقرأ الباقر بالمثناة الفوقية. وقرأ ابن عباس: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتبيننه﴾ [التوبة: 30] ويشكل على هذه القراءة قوله: ﴿فنبذوه﴾ فلا بد من أن يكون فاعله الناس. وفي قراءة ابن مسعود: «لتبينونه» والنبد: الطرح، وقد تقدم في البقرة. وقوله: ﴿وراء ظهورهم﴾ مبالغة في النبد، والطرح، وقد تقدم أيضاً معنى قوله: ﴿واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ والضمير عائد إلى الكتاب الذي أمروا ببيانه، ونهوا عن كتمانها، وقوله: ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي: حقيراً يسيراً من حطام الدنيا، وأعراضها، قوله: ﴿فبئس ما يشترون﴾ ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بش، ويشترون صفة، والمخصوص بالذم محذوف، أي: بئس شيئاً يشترونه بذلك الثمن. قوله: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون﴾ قرأ الكوفيون بالتاء الفوقية، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له. وقوله: ﴿بما أتوا﴾ أي: بما فعلوا. وقد اختلف في سبب نزول الآية، كما سيأتي، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملاً بعموم اللفظ، وهو المعبر دون خصوص السبب، فمن فرح بما فعل، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل، فلا تحسبنه بمفازة من العذاب. وقرأ نافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو: «لا يحسبن» بـياء التحتية، أي: لا يحسبن الفارحون فرحهم منجياً لهم من العذاب، فالمفعول الأوّل محذوف، وهو

إلى الإيمان الذي لا تزلزله الشبه، ولا تدفعه التشكيكات. قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الموصول نعت لأولي الألباب، وقيل: هو مفصول عنه خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح. والمراد بالذكر هنا: نكره سبحانه في هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة، وغيرها. وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر هنا عبارة عن الصلاة، أي: لا يضيعونها في حال من الأحوال، فيصلونها قياماً مع عدم العذر، وقعوداً، وعلى جنوبهم مع العذر. قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ وقيل: إنه معطوف على الحال، أعني: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ وقيل: إنه منقطع عن الأول، والمعنى: أنهم يتفكرون في بديع صنعهما، وإتقانهما مع عظم أجرامها، فإن هذا الفكر إذا كان صالحاً، أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه. قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ هو على تقدير القول، أي: يقولون ما خلقت هذا عبثاً، ولهوا، بل خلقتة بليلاً على حكمتك، وقدرتك. والباطل: الزائل الذاهب، ومنه قول لبيد:

الأكل شيء ما خلا الله باطل

وهو منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف، أي: خلقاً باطلاً، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: هو مفعول ثان، وخلق بمعنى: جعل، أو منصوب على الحال، والإشارة بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى السموات والأرض، أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلوق. قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها أن يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلاً. وقوله: ﴿فَقَفْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الفاء لترتيب هذا الدعاء على ما قبله. وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَخْلُلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه، وبيان للسبب الذي لأجله دعاه عباده بأن يقيمهم عذاب النار، وهو أن من أدخله النار، فقد أخزاه، أي: أنه، وأهان. وقال المفضل: معنى أخزيت أهلكته، وأنشد:

أخزى الإله بني الصليب عذبةً واللباسين ملايس الرهبان
وقيل: معناه: فضحته، وأبعثته، يقال: أخزاه الله: أبعدته ومقته، والاسم الخزي. قال ابن السكيت: خزي يخزي خزياً: إذا وقع في بلية. قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ عند أكثر المفسرين هو النبي ﷺ، وقيل: هو القرآن، وأوقع السماع على المنادي مع كون المسموع هو النداء؛ لأنه قد وصف المنادي بما يسمع، وهو قوله: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا﴾. وقال أبو علي الفارسي: إن «ينادي» هو المفعول الثاني ونكر ينادي مع أنه قد فهم من قوله: ﴿مُنَادِيًا﴾ قصد التأكيد، والتفخيم لشأن هذا المنادي به، واللام في قوله: ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ بمعنى إلى، وقيل: إن ينادي يتعدى باللام، وبإلى، يقال ينادي لكذا، وينادي إلى كذا، وقيل: اللام لليلة، أي: لأجل الإيمان. قوله: ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ هي: إما تفسيرية، أو مصدرية، وأصلها بأن آمنوا، فحذف حرف الجر. قوله: ﴿فَأَمْنًا﴾ أي: امتثلنا ما يأمر به هذا المنادي من

فليعلمه للناس، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة. وأخرج ابن سعد عن الحسن قال: لولا الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم ما حدثكم بكثير مما تسألون عنه. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما: أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية، إنما أنزلت في أهل الكتاب، ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية، قال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا، وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه. وفي البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقدمهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت. وقد روى أنها نزلت في فحاص، وأشيع، وأشباهها. وروي أنها نزلت في اليهود. وأخرج مالك، وابن سعد، والطبراني، والبيهقي في الدلائل، عن محمد بن ثابت أن ثابت بن قيس قال: يا رسول الله لقد خشيت أن أكون قد هلكت قال: لم؟ قال: قد نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل، وأجنتي أحب الحمد، ونهانا عن الخيلاء، وأجنتي أحب الجمال، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل جهير الصوت، فقال: يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ فعاش حميداً، وقتل شهيداً يوم مسيمة الكذاب. وأخرج ابن المنذر، عن الضحك في قوله: ﴿بِمُغَازَةِ﴾ قال بمنجاة، وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد مثله.

إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَكْبَرُ
الْأَلْبَسِ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ يَمْسَكُوا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٨﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّأْ مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩﴾ رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْنَاكَ عَلَىٰ رَسُولِكَ وَلَا غُرْبَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ لِكَيْدًا ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها. والمراد ذات السموات، والأرض، وصفاتهما: ﴿وَوَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما، وكون كل واحد منهما يخلق الآخر، وكون زيادة أحدهما في نقصان الآخر، وتفاوتهما طولاً، وقصراً، وحرراً، وبرداً وغير ذلك: ﴿آيَاتِ﴾ أي: دلالات واضحة، وبراهين بيّنة تدل على الخالق سبحانه. وقد تقدم تفسير بعض ما هنا في سورة البقرة. والمراد بأولي الألباب: أهل العقول الصحيحة الخالصة، عن شوائب النقص، فإن مجرد التفكير فيما قصه الله في هذه الآية يكفي العاقل، ويوصله

قتادة في الآية قال: هذه حالاتك كلها يا بن آدم، انكر الله، وانت قائم، فإن لم تستطع، فانكره جالساً، فإن لم تستطع جالساً، فانكره، وانت على جنبك، يسر من الله، وتخفيف.

وأقول هذا التقييد الذي نكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكر لا وجه له لا من الآية، ولا من غيرها، فإنه لم يرد في شيء من الكتاب، والسنة ما يدل على أنه لا يجوز الذكر من قعود إلا مع عدم استطاعة الذكر من قيام، ولا يجوز على جنب إلا مع عدم استطاعته من قعود، وإنما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا: الصلاة، كما سبق عن ابن مسعود. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه، عن عائشة مرفوعاً: ويل لمن قرأ هذه الآية، ولم يتفكر فيها. وأخرج ابن أبي الدنيا في التفكر عن سفيان رفعه «من قرأ آخر سورة آل عمران، فلم يتفكر فيها، ويله فعذ أصابعه عشرأه. قيل للأوزاعي: ما غاية التفكر فيها؟ قال: يقرؤهن، وهو يعقلهن. وقد وردت أحاديث، وأشار عن السلف في استحباب التفكر مطلقاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أنس في قوله: ﴿مَنْ تَخَلَّ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ قال: من تخلد. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن المسيب في الآية قال: هذه خاصة بمن لا يخرج منها. وأخرج ابن جرير، والحاكم، عن عمرو بن دينار قال: قدم علينا جابر بن عبد الله في عمرة، فأنتهيت إليه أنا، وعطاء فقلت: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ قال: أخبرني رسول الله ﷺ أنهم الكفار، قلت لجابر: فقوله: ﴿إِنَّكَ مَنْ تَخَلَّ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ قال: وما أخزاه حين أحرقه بالنار، وإن دون ذلك خزيأ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿مَنْ آمَنَّا يَدِينَا لِلإِيمَانِ﴾ قال: هو محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي قال: هو القرآن، ليس كل أحد سمع النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: ﴿وَبَيْنَا وَأَتْنَا مَا وَعَدْنَا عَلَى رَسْلِكَ﴾ قال: يستنجزون موعد الله على رسله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَخْزَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: لا تفضحنا.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عِبْدِي مَنْكُم مَّن ذَكَرَ أَوْ أَنِّي بِعَشْمِكُمْ مِنْ بَعْضِ قَالِدِينَ مَا جَرُّوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَّلُوا وَقِيلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَعَاتِهِمْ وَلَا عِظَمَ جُنْدٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ التَّوَابِ ﴿١٥٠﴾

قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ الاستجابة بمعنى: الإجابة؛ وقيل: الإجابة عامة، والاستجابة خاصة بإعطاء المسؤول، وهذا الفعل يتعدى بنفسه، وبالإلام، يقال استجاب، واستجاب له، والفاء للعطف؛ وقيل: على مقدر أي: ندعوا بهذه

الإيمان فأمننا، وتكرير النداء في قوله: ﴿وَبَيْنَا﴾ لإظهار التضرع، والخضوع، قيل المراد: بالذنوب هنا الكبائر، وبالسبب الصغائر. والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين، والآخر بالآخر، بل يكون المعنى في الذنوب، والسبب واحد، والتكرير للمبالغة، والتأكيد، كما أن معنى الغفر، والكفر الستر. والأبرار جمع بار أو بر، وأصله من الاتساع، فكان البار متسع في طاعة الله، ومتسعة له رحمته، قيل: هم الأنبياء، ومعنى اللفظ أوسع من ذلك. قوله: ﴿وَبَيْنَا وَأَتْنَا مَا وَعَدْنَا عَلَى رَسْلِكَ﴾ هذا دعاء آخر والنكتة في تكرير النداء ما تقدم، والموعود به على السن الرسل هو الثواب الذي وعد الله به أهل طاعته، ففي الكلام حذف، وهو لفظ الألسن، كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقُرْيَةَ﴾ [آل عمران: 193] وقيل: المحذوف التصديق، أي: ما وعدتنا على تصديق رسلك، وقيل: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً على رسلك، والأول أولى. وصدر هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على السن رسله كائن لا محالة، إما لقصد التعجيل، أو للخضوع بالدعاء، لكونه مخ العبادة، وفي قولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْمِيعَادَ﴾ دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، وأن الحامل لهم على الدعاء هو ما نكرنا.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود، فقالوا ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا عصاه، ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصراني، فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبرئ الأكهم، والأبرص، ويحيي الموتى، فأتوا النبي ﷺ، فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فدعا ربه، فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: بث عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، ثم استيقظ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والطبراني، والحاكم في الكنى، والبغوي في معجم الصحابة، عن صفوان بن المعطل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فنكر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، من طريق جوبير، عن الضحاک، عن ابن مسعود في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقَعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: إنما هذه في الصلاة إذا لم يستطع قائماً، فقاعداً، وإن لم يستطع قاعداً، فعلى جنبه. وقد ثبت في البخاري من حديث عمران بن حصين قال: «كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة، فقال: صل قائماً، فإن لم تستطع، فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». وثبت فيه عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ، عن صلاة الرجل، وهو قاعد، فقال: من صلى قائماً، فهو أفضل، ومن صلى قاعداً، فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائماً، فله نصف أجر القاعد». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن

﴿فاستجاب لهم ربهم﴾. وأخرج ابن مردويه، عن أم سلمة قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ إلى آخرها. وقد ورد في فضل الهجرة أحاديث كثيرة.

لَا يَرْفَعُ قَلْبُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى اللَّهِ ﴿١٦٦﴾ سَخَّ قَلِيلٌ مَّا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَنْفَسُ الْكُفَّاءُ ﴿١٦٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تَزُلَّ عَنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٦٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبَرُوا وَصَابَرُوا وَرَاطَبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٧٠﴾

قوله: ﴿لا يرفع قلبك﴾ خطاب للنبي ﷺ. والمراد: تثبّيته على ما هو عليه، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ [النساء: 136] أو خطاب لكل أحد، وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد نكر حسن حال المؤمنين؛ والمعنى: لا يرفعك ما هم فيه من تقلبهم في البلاد بالأسفار للتجارة التي يتوسعون بها في معاشهم، فهو متاع قليل يتمتعون به في هذه الدار، ثم مصيرهم إلى جهنم، فقوله: ﴿متاع﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو متاع قليل لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب الله سبحانه ﴿ووماوهم﴾ أي: ما ياورون إليه. والتقلب في البلاد: الاضطراب في الأسفار إلى الأمكنة، ومثله قوله تعالى: ﴿فلا يرفعك تقلبهم في البلاد﴾ [غافر: 4] والمتاع ما يعجل الانتفاع به، وسماه قليلاً؛ لأنه فان وكل فان وإن كان كثيراً، فهو قليل. وقوله: ﴿وبئس المهاد﴾ ما مهدوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم، أو ما مهد الله لهم من النار، فالخصوص بالذم محذوف، وهو هذا المقتر. قوله: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ هو استدراك مما تقدّم؛ لأن معناه معنى النفي كأنه قال: ليس لهم في تقلبهم في البلاد كثير انتفاع ﴿لكن الذين اتقوا﴾ لهم الانتفاع الكثير، والخلد الدائم. وقرأ يزيد بن القعقاع لكن بتشديد النون. قوله: ﴿نزلاً﴾ مصدر مؤكد عند البصريين، كما تقدّم في «ثواب»، وعند الكسائي والفراء مثل ما قال في ثواب، والنزل ما يهيا للنزل، والجمع أنزال، قال الهروي: ﴿نزلاً من عند الله﴾ أي: ثواباً من عند الله ﴿وما عند الله﴾ مما أعدّه لمن أطاعه ﴿خير للابرار﴾ مما يحصل للكفار من الربح في الأسفار فإنه متاع قليل عن قريب يزول. قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ هذه الجملة سقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين، وليسوا كسائرهم في فضائهم التي حكاها الله عنهم فيما سبق، وفيما سيأتي، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله، وبما أنزل الله على نبيينا محمد ﷺ، وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم ﴿خاشعين لله لا يشترون﴾ أي: يستبدلون ﴿بآيات الله ثمنًا قليلاً﴾ بالتحريف، والتبديل، كما يفعله سائرهم، بل يحكون كتب الله سبحانه، كما هي، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى هذه الطائفة الصالحة من

الادعية، فاستجاب لهم، وقيل: على قوله: ﴿ويتفكرون﴾ وإنما نكر سبحانه الاستجابة، وما بعدها في جملة ما لهم من الأوصاف الحسنة؛ لأنها منه، إذ من أجيب دعوته، فقد رفعت درجته. قوله: ﴿إني لا اضيع عمل عامل منكم﴾ أي باني، وقرأ عيسى بن عمرو بكسر الهمزة على تقدير القول، وقرأ أبي بثبوت الباء، وهي للسببية، أي: فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم. والمراد بالإضاعة: ترك الإثابة. قوله: ﴿من ذكر أو أنشئ﴾ من بيانية ومؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة في سياق النفي من العموم. قوله: ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: رجالكم مثل نساكنكم في الطاعة، ونساؤكم مثل رجالكم فيها، والجملة معترضة لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشعبهما من أصل واحد. قوله: ﴿فالنين هاجروا﴾ الآية، هذه الجملة تتضمن تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿إني لا اضيع عمل عامل﴾ أي فالنين هاجروا من أوطانهم إلى رسول الله ﷺ وواخرجوا من بيارهم في طاعة الله عز وجل وقاتلوا أعداء الله وقاتلوا في سبيل الله، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «وقتلوا» على التكثير وقرأ الأعمش، وحزمة، والكسائي: «وقتلوا وقاتلوا» وهو مثل قول الشاعر:

تصابى وامسى علاه الكبير

أي: قد علاه الكبير، وأصل الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب، كما قال به الجمهور. ولمراد هنا: أنهم قاتلوا، وقتل بعضهم، كما قال امرؤ القيس:

فإن تقتلونا نقتلكم

وقرأ عمر بن عبد العزيز: «وقتلوا وقتلوا». ومعنى قوله: ﴿واوونوا في سبيلي﴾ أي: بسببه، والسبيل: الدين الحق. والمراد هنا: ما نالهم من الآنية من المشركين بسبب إيمانهم بالله، وعملهم بما شرعه الله لعباده. وقوله: ﴿لا كفرون﴾ جواب قسم محذوف. وقوله: ﴿ثواباً من عند الله﴾ مصدر مؤكد عند البصريين، لأن معنى قوله: ﴿لا يخلنهم جنات﴾ لا يبينهم ثواباً، أي: إثابة، أو تثويباً كائنًا من عند الله. وقال الكسائي: إنه منتصب على الحال. وقال الفراء: على التفسير «والله عنده حسن الثواب» أي: حسن الجزاء، وهو ما يرجع على العامل من جزاء عمله من ثاب يثوب: إذا رجع.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد الرزاق، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن أم سلمة قالت: يا رسول الله لا أسمع الله نكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله: ﴿فاستجاب لهم﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء قال: «ما من عبد يقول يا رب يا رب ثلاث مرات إلا نظر الله إليه» فنكر للحسن، فقال: أما تقرأ القرآن؟ «ربنا إننا سمعنا منادياً» [آل عمران: 193] إلى قوله:

صلوا عليه، قالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟
 فنزل الله ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ الآية. وأخرج ابن
 جرير، عن جابر مرفوعاً أن المنافقين قالوا: انظروا إلى
 هذا يعني النبي ﷺ يصلي على عجل نصراني، فنزلت.
 وأخرج الحاكم وصححه، عن عبد الله بن الزبير أنها نزلت
 في النجاشي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد
 قال: هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وأخرج
 ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا
 قبل محمد، والذين اتبعوا محمداً ﷺ. وأخرج ابن المبارك،
 وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في
 الشعب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ما قدمنا ذكره.
 وأخرج ابن مريويه عنه عن أبي هريرة قال: أما إنه لم
 يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرايون فيه، ولكنها نزلت
 في قوم يعمرن المساجد يصلون الصلوات في مواقيتها
 ثم يذكرون الله فيها. وقد ثبت في الصحيح وغيره من
 قول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا،
 ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة
 الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم
 الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». وأخرج ابن جرير،
 وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي
 قال: أصبروا على نيتكم، وصابروا، الوعد الذي وعنتكم،
 ورابطوا عندي، وعنوكم. وقد روي من تفاسير السلف
 غير هذا في سر الصبر على نوع من أنواع الطاعات،
 والمصابرة على نوع آخر، ولا تقوم بذلك حجة، فالواجب
 الرجوع إلى المنلول اللغوي، وقد قدمناه. وقد وردت
 أحاديث كثيرة في فضل الرباط، وفيها التصريح بأنه
 الرباط في سبيل الله، وهو يرد ما قاله أبو سلمة بن
 عبد الرحمن، فإن رسول الله ﷺ قد ندب إلى الرباط في
 سبيل الله، وهو الجهاد، فيحمل ما في الآية عليه، وقد
 ورد عنه ﷺ أنه سمي حراسة جيش المسلمين رباطاً،
 فأخرج الطبراني في الأوسط بسند جيد عن أنس قال:
 سئل رسول الله ﷺ عن أجر المرباط، فقال: من رباط
 ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن
 صام وصلى.

وقد ورد في فضل هذه العشر الآيات التي في آخر هذه
 السورة مرفوعاً إلى النبي ﷺ ما أخرجه ابن السني، وابن
 مريويه، وابن عساکر، عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ
 كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة». وفي
 إسنادها مظاهر بن أسلم، وهو ضعيف. وقد تقدم من حديث
 ابن عباس في الصحيحين أن النبي ﷺ قرأ هذه العشر
 الآيات لما استيقظ. وكذلك تقدم في غير الصحيحين من
 رواية صفوان بن المعطل عن النبي ﷺ. وأخرج الدارمي
 عن عثمان بن عفان قال: «من قرأ آخر آل عمران في ليلة
 كتب له قيام ليلة».

أهل الكتاب من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة ﴿لهم
 أجرهم﴾ الذي وعد الله سبحانه به بقوله: ﴿أولئك يؤتون
 أجرهم مرتين﴾ [القصص: 54] وتقديم الخبر يفيد
 اختصاص ذلك الأجر بهم. وقوله: ﴿عند ربهم﴾ في محل
 نصب على الحال. قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أصبروا﴾
 الخ. هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه: ﴿إن في خلق
 السموات﴾ [البقرة: 164، آل عمران: 190] ختم بها هذه
 السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التي جمعت خير
 الدنيا، والآخرة، فحضر على الصبر على الطاعات، والشهوات،
 والصبر: الحبس، وقد تقدم تحقيق معناه. والمصابرة
 مصابرة الأعداء، قاله الجمهور أي: غالبهم في الصبر على
 الشدائد الحرب، وخص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر
 لكونها أشد منه، وأشق. وقيل: المعنى: صابروا على
 الصلوات، وقيل صابروا الأنفس عن شهواتها، وقيل: صابروا
 الوعد الذي وعنتم، ولا تياسوا، والقول الأول هو المعنى
 العربي، ومنه قول عنتره:

فلم أر حياً صابراً مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين نكافح
 أي: صابروا العنوة في الحرب. قوله: ﴿ورابطوا﴾ أي:
 أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، كما يربطها أعداؤكم
 وهذا قول جمهور المفسرين. وقال أبو سلمة بن
 عبد الرحمن: هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم
 يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه، وسيأتي ذكر
 من خرج عنه هذا، والرباط اللغوي هو الأول، ولا يناقيه
 تسميته ﷺ، لغيره رباطاً، كما سيأتي. ويمكن إطلاق الرباط
 على المعنى الأول، وعلى انتظار الصلاة. قال الخليل: للرباط
 ملازمة الثغور، ومواظبة الصلاة، هكذا قال، وهو من أئمة
 اللغة. وحكى ابن فارس عن الشيباني أنه قال: يقال ماء
 مترابط دائم لا يبرح، وهو يقتضي تعدي الرباط إلى غير
 ارتباط الخيل في الثغور. قوله: ﴿ولتقوا الله﴾ فلا تخالفوا ما
 شرعه لكم ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: تكونون من جملة
 الفائزين بكل مطلوب، وهم: المفلحون.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن عكرمة في
 قوله: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا﴾ تقلب ليلهم،
 ونهارهم وما يجري عليهم من النعم، قال عكرمة: قال
 ابن عباس، وبش المهاد، أي: بش المنزل. وأخرج ابن
 جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿تقلبهم
 في البلاد﴾ قال ضربهم في البلاد. وأخرج عبد بن
 حميد، والبخاري في الأب المفرد، وابن أبي حاتم، عن
 ابن عمر في قوله: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ قال:
 إنما سماهم الله أبراراً؛ لأنهم بروا الأبناء، كما أن
 لوالدك عليك حقاً كذلك لوليك عليك حقاً. وأخرجه ابن
 مريويه، عنه مرفوعاً، والأول أصح قاله السيوطي. وأخرج
 ابن جرير، عن ابن زيد: ﴿خير للأبرار﴾ لمن يطيع الله.
 وأخرج النسائي، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
 وابن مريويه، عن أنس قال: لما مات النجاشي قال ﷺ:

تفسير سورة النساء

والبيهقي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع، فهو حبر». وأخرج البيهقي في الشعب عن وثالة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال والمئين كل سورة بلغت مائة فصاعداً، والمئاني: كل سورة دون المئين، وفوق المفصل. وأخرج أبو يعلى، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن انس قال: «وجد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئاً، فلما أصبح قيل: يا رسول الله إن أثر الوجد عليك لبين، قال: أما إني على ما ترون بحمد الله قد قرأت السبع الطوال» وأخرج أحمد عن حذيفة قال: «قمت مع رسول الله ﷺ، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات» وأخرج عبد الرزاق عن بعض أهل النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ قرأ بالسبع الطوال في ركعة واحدة» وأخرج الحاكم، عن ابن عباس أنه قال: «سلوني عن سورة النساء، فإني قرأت القرآن، وأنا صغير، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عنه قال: «من قرأ سورة النساء، فعلم ما يجب مما لا يجب علم الفرائض».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَوْ بِهِمْ وَالْأَرْحَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَأَوَّلُ الْبَنَىٰ أَمْرُهُمْ وَلَا تَنَبَّؤُوا لِلنِّسَاءِ بِالْأَيْمَانِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُنَّ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنْ كَانَ حَوَالَا كَيْدًا ﴿٢﴾ وَإِنْ جَفَنُمْ وَلَا نَقِطُوا فِي الْبَنَىٰ فَالَّذِينَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُنَّ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ فَإِنَّ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣﴾ وَأَوَّلُ الْبَنَىٰ صَدَقَتُهُنَّ فَإِنْ عَلِمُوا لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْكُتُوا لَكُمْ عَنَّا ﴿٤﴾

المراد بالناس: الموجودون عند الخطاب من بني آدم، ويدخل من سيوجد بليل خارجي، وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد، كما غلب الذكر على الإناث في قوله: «اللتقوا ربكم» لاختصاص ذلك بجمع المذكر. والمراد بالنفس الواحدة هنا: آدم. وقرأ ابن أبي عبيدة، واحد بغير هاء على مراعاة المعنى، فالتائين باعتبار اللفظ، والتذكير باعتبار المعنى. قوله: «وخلق منها زوجها» قيل: هو معطوف على مقدر يدل عليه الكلام، أي: خلقكم من نفس واحدة خلقها أولاً، وخلق منها زوجها، وقيل: على خلقكم، فيكون الفعل الثاني داخلاً مع الأول في حيز الصلة. والمعنى: وخلق من تلك النفس التي هي عبارة عن آدم زوجها، وهي حواء. وقد تقدم في البقرة معنى التقوى، والرب، والزوج، والبيت، والضمير في قوله: «منها» راجع إلى آدم وحواء المعبر عنهما بالنفس، والزوج. وقوله: «كثيراً» وصف مؤكد لما تفيد صيغة الجمع لكونها من جموع الكثرة وقيل: هو نعت لمصدر محذوف، أي: بشأ كثيراً. وقوله: «ونساء» أي: كثيرة، وترك التصريح به استغناء بالوصف الأول. قوله:

هي مدنية كلها. قال القرطبي: إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحببي، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58] على ما سيأتي إن شاء الله، قال النقاش: وقيل: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وعلى ما تقدم عن بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ حيثما وقع، فإنه مكي يلزم أن يكون صدر هذه السورة مكية، وبه قال علقمة، وغيره. وقال النحاس: هذه الآية مكية. قال القرطبي: والصحيح الأول، فإن في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ. يعني قد بني بها. ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ إنما بني بعائشة بالمدينة، ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها. قال: وأما من قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكي حيث وقع، فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في موضعين. وقد أخرج ابن الضريس في فضائله، والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة النساء بالمدينة، وفي إسناده العوفي، وهو ضعيف، وكذا أخرجه ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وأخرجه ابن المنذر عن قتادة.

وقد ورد في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنني أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40] الآية، و﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 31] الآية، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] الآية «ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم» [النساء: 64] الآية. ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف في ذلك. وأخرجه عبد الرزاق، عن معمر عن رجل، عن ابن مسعود قال: خمس آيات من النساء هن أحب إلي من الدنيا جميعاً «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ» [النساء: 35] الآية «وَلَنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعِفُهَا» [النساء: 30] الآية «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» [النساء: 48] الآية «مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ» [النساء: 110] الآية «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفِرْقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» [النساء: 152] الآية. ورواه ابن جرير. ثم روى من طريق صالح المري، عن قتادة، عن ابن عباس قال: ثمان آيات نزلت في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، وغربت، وذكر ما ذكره ابن مسعود، وزاد: «يريد الله ليبين لكم» [النساء: 26] الآية «والله يريد أن يتوب عليكم» [النساء: 27] الآية «يريد الله أن يخفف عنكم» [النساء: 28] الآية. وأخرج أحمد، وابن الضريس، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه،

صلوها، أو والأرحام أهل أن توصل، وقيل: إن الرفع على الإغراء عند من يرفع به، ومنه قول الشاعر:

إن قوماً منهم عمير وأشبا هـ عمير ومنهم السفاح
لجديرين باللقاء إذا قالا ل أخ النجدة السلاح
والأرحام: اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره، لا خلاف في هذا بين أهل الشرع، ولا بين أهل اللغة. وقد خصص أبو حنيفة، وبعض الزيدية الرحم بالمحرم في منع الرجوع في الهبة مع موافقتهم على أن معناها أعم، ولا وجه لهذا التخصيص. قال القرطبي: اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة؛ وأن قطيعتها محرمة، انتهى. وقد ورنيت بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة، والرقيب: المراقب، وهي صيغة مبالغة، يقال رقيب رقيباً ورقباً: إذا انتظرت.

قوله: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ خطاب للأولياء، والأوصياء. والإيتاء: الإعطاء. واليتيم: من لا أب له. وقد خصصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم. وقد تقدم تفسير معناه في البقرة مستوفي، وأطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم، مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم بالبلوغ مجازاً باعتبار ما كانوا عليه؛ ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقي، وبالإيتاء ما يدفعه الأولياء، والأوصياء إليهم من النفقة، والكسوة لا نفعا جميعها، وهذه الآية مقيدة بالآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَانْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6] فلا يكون مجرد ارتفاع اليتيم بالبلوغ مسوغاً لنفع أموالهم إليهم حتى يؤنس منهم الرشد. قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ نهى لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامى، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى، ويعوضونه بالرديء من أموالهم، ولا يرون بذلك بأساً؛ وقيل المعنى: لا تأكلوا أموال اليتامى، وهي محرمة خبيثة، وتدعوا الطيب من أموالكم وقيل المراد: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله. والأول أولى؛ فإن تبدل الشيء بالشيء في اللغة أخذ مكانه، وكذلك استبداله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108] وقوله: ﴿اتَّبِعُوا الَّذِي هُوَ أُنْثَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61] وأما التبديل، فقد يستعمل، كذلك كما في قوله: ﴿وَيَبْدُلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبا: 16] وأخرى بالعكس، كما في قوله بكت الحلفة بالخاتم: إذا أنبتها، وجعلتها خاتماً، نص عليه الأزهري. قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المنهي عنه في هذه الآية هو الخلط، فيكون الفعل مضمناً معنى الضم، أي: لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَخَالَطُوهُمْ فَلْوَائِكُمْ﴾ [البقرة: 220] وقيل: إن إلى بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] والأول أولى. والحبوب: الإثم يقال حاب الرجل يحوب حوباً: إذا اثم، وأصله الزجر للإبل، فسمي الإثم حوباً؛ لأنه يزجر عنه. والحبوة: الحاجة. والحبوب أيضاً:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف التاء الثانية، وأصله تتساءلون تخفيفاً لاجتماع المثنيين. وقرأ أهل المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإدغام التاء في السين؛ والمعنى: يسأل بعضكم بعضاً بالله، والرحم، فإنهم كانوا يقرنون بينهما في السؤال، والمناشدة، فيقولون: أسألك بالله، والرحم، وأنشدك الله، والرحم، وقرأ النخعي، وقتادة، والأعمش، وحمزة: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالجر. وقرأ الباقر بن النصب.

وقد اختلف أئمة النحو في توجيه قراءة الجر، فلما البصريون، فقالوا: هي لحن لا تجوز القراءة بها. وأما الكوفيون، فقالوا هي قراءة قبيحة. قال سيبويه في توجيه هذا القبح: إن المضممر المجزور بمنزلة التنوين، والتنوين لا يعطف عليه. وقال الزجاج، وجماعة: بقبح عطف الاسم الظاهر على المضممر في الخفض إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: 81] وجوز سيبويه ذلك في ضرورة الشعر، وأنشد:

فاليوم قرّبت تهجونا وتمسحنا فانهب فمابك والأيام من عجب
ومثله قول الآخر:

تعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب بهون غنائف
بعطف الكعب على الضمير في بينها. وحكى أبو علي الفارسي أن المبرد قال: لو صليت خلف إمام يقرأ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ بالجر، لأخذت نعلي، ومضيت. وقد رد الإمام أبو نصر القشيري ما قاله القادحون في قراءة الجر، فقال: ومثل هذا الكلام مربود عند أئمة الدين، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراءة ثبتت عن النبي ﷺ وتأثر، ولا يخفى عليك أن دعوى التواتر باطلة يعرف ذلك من يعرف الأسانيد التي رووها بها، ولكن ينبغي أن يحتج للجواز بورود ذلك في أشعار العرب، كما تقدم، وكما في قول بعضهم:

وحسبك والضحاك سيف مهذ

وقول الآخر:

وقد رام أفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً
وقول الآخر:

ما إن بها والأمور من تلسف

وقول الآخر:

أكر على الكتبية لست أري أحثفي كان فيها لم سواها
فسواها في موضع جر عطفاً على الضمير في فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: 20]. وأما قراءة النصب، فمعناها واضح جلي؛ لأنه عطف الرحم على الاسم الشريف، أي: اتقوا الله واتقوا الأرحام فلا تقطعوهما، فإنها مما أمر الله به أن يوصل؛ وقيل إنه عطف على محل الجار والمجرور في قوله ﴿بِهِ﴾ كقولك مررت بزيد وعمراً، أي: اتقوا الله الذي تتساءلون به، وتتساءلون بالأرحام. والأول أولى. وقرأ عبد الله بن يزيد، والأرحام بالرفع على الابتداء، والخبر مقتر، أي: والأرحام

تتصرف للعدل، والوصفية، كما هو مبين في علم النحو والاصل: انكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

وقد استدل بالآية على تحريم ما زاد على الأربع، وبينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة، وأن كل نكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد، كما يقال للجماعة: اقتسموا هذا المال، وهو ألف درهم، أو هذا المال الذي في البكرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. وهذا مسلم إذا كان المقسوم قد نكرت جملته، أو عين مكانه، أما لو كان مطلقاً، كما يقال: اقتسموا الدراهم، ويراد به ما كسبوه، فليس المعنى هكذا. والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول. على أن من قال لقوم يقتسمون مالا معيناً كثيراً اقتسموه مثنى ومثنى ورباع، فقسّموا بعضه بينهم درهمين درهمين، وبعضه ثلاثة ثلاثة، وبعضه أربعة أربعة كان هذا هو المعنى العربي، ومعلوم أنه إذا قال القائل جاءني القوم مثنى، وهم مائة ألف، كان المعنى أنهم جاؤوه اثنين اثنين، وهكذا جاء في القوم ثلاث ورباع، والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد، كما في قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5] ﴿اقْتُمُوا الصَّلَاةَ﴾ ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ ونحوها، فقوله: ﴿فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ معناه لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، هذا ما تقتضيه لغة العرب. فالآية تدل على خلاف ما استدلوا بها عليه، ويؤيد هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فإنه وإن كان خطاباً للجميع، فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد. فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن.

وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة، فكأنه قال: انكحوا مجموع هذا العدد المذكور، فهذا جهل بالمعنى العربي، ولو قال: انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً كان هذا القول له وجه وأما مع المحي بصيغة العدل فلا، وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون أو، لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره، وذلك ليس بمراد من النظم القرآني. وقرأ النخعي، ويحيى بن وثاب ثلث وربيع بغير ألف، قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فانكحوا واحدة، كما يدل على ذلك قوله: ﴿فَانْكَحُوا مَا طَابَ﴾ وقيل: التقدير فالزمو، أو فاختاروا واحدة. والأول أولى، والمعنى: فإن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجات في القسم، ونحوه، فانكحوا واحدة، وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك. وقرأ بالرفع على أنه مبتدأ. والخبر محذوف. قال الكسائي: أي فواحدة تقنع، وقيل التقدير: فواحدة فيها كفاية، ويجوز أن تكون واحدة على قراءة الرفع خبر مبتدأ محذوف، أي: فالقنع واحدة. قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ معطوف على واحدة، أي: فانكحوا واحدة، أو انكحوا ما ملكت أيمانكم من السراري، وإن كثر

الوحشة، وفيه ثلاث لغات: ضم الحاء وهي قراءة الجمهور. وفتح الحاء، وهي قراءة الحسن، قال الأخفش: وهي لغة تميم. والثالثة الحاب. وقرأ أبي بن كعب حاباً على المصدر، كقال قالوا. والتحوي التحزن، ومنه قول طفيل:

فنفقوا كما نفقنا عدها يحجر من لغيظ في اكباننا والتحوي قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكَحُوا﴾ وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ويريد أن يتزوجها، فلا يقسط لها في مهرها، أي: يعدل فيه، ويعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، فنهام الله أن ينكحهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن، فهذا سبب نزول الآية كما سيأتي، فهو نهي يخص هذه الصورة. وقال جماعة من السلف: إن هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية، وفي أول الإسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما شاء، فقصروهم بهذه الآية على أربع، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا ألا يقسطوا في اليتامى، فكذا يخافون ألا يقسطوا في النساء، لأنهم كانوا يتخرجون في اليتامى، ولا يتخرجون في النساء، والخوف من الأضداد، فإن المخوف قد يكون معلوماً، وقد يكون مظنوناً، ولهذا اختلف الأئمة في معناه في الآية، فقال أبو عبيدة: ﴿خِفْتُمْ﴾ بمعنى أيقنتم. وقال آخرون: ﴿خِفْتُمْ﴾ بمعنى ظننتم. قال ابن عطية: وهو الذي اختاره الحذاق، وأنه على بابه من الظن لا من اليقين، والمعنى: من غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة، فليتركها، وينكح غيرها. وقرأ النخعي وابن وثاب: ﴿تَقْسُطُوا﴾ بفتح ثاء من قسط: إذا جار، فتكون هذه القراءة على تقدير زيادة لا، كانه قال: وإن خفتم أن تقسطوا. وحكى الزجاج أن أقسط يستعمل استعمال قسط، والمعروف عند أهل اللغة أن أقسط بمعنى عدل، وقسط بمعنى جار، وماء في قوله: ﴿مَا طَابَ﴾ موصولة، وجاء بما مكان من لأنهما قد يتعاقبان، فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما في قوله: ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: 2] ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور: 45]. وقال البصريون: إن ماء تقع للنوع كما تقع لما لا يعقل، يقال ما عندك، فيقال ظريف، وكريم، فالمعنى: فانكحوا الطيب من النساء، أي: الحلال، وما حرّمه الله، فليس بطيب، وقيل: إن ماء هنا منية، أي: ما لمت مستحسنين للنكاح، وضعفه ابن عطية. وقال الفراء: إن ماء هنا مصرية. قال النحاس: وهذا بعيد جداً. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿فَانْكَحُوا مِنْ طَابَ﴾. وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور في الآية لا مفهوم له، وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط في اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة، ومنه في قوله: ﴿مَنْ النِّسَاءِ﴾ إما بيانية، أو تبعية، لأن المراد غير اليتامى. قوله: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ في محل نصب على البدل من ماء كما قاله أبو علي الفارسي، وقيل: على الحال، وهذه الالفاظ لا

ابن الأعرابي أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله، وكفى بهذا.

وقد ورد عال لمعان غير السبعة التي ذكرها ابن العربي، منها عال: اشتد وتفاقم، حكاه الجوهري، وعال الرجل في الأرض: إذا ضرب فيها، حكاه الهروي، وعال: إذا أعجز، حكاه الأحمر، فهذه ثلاثة معانٍ غير السبعة؛ والرابع عال كثر عياله، فجملة معاني عال أحد عشر معنى. قوله: ﴿وَوَاتُوا للنساء صدقاتهنّ نحلة﴾ الخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء، والصدقات بضم الدال جمع صدقة كثرمة، قال الأخفش: وبنو تميم يقولون صدقة، والجمع صدقات، وإن شئت فتحت، وإن شئت أسكنت. والنحلة بكسر النون وضمها لغتان، وأصلها العطاء نحلّت فلاناً: أعطيته، وعلى هذا، فهي منصوبة على المصدرية: لأن الإيتاء بمعنى الإعطاء، وقيل: النحلة التدين فمعنى نحلة تديناً، قاله الزجاج، وعلى هذا، فهي منصوبة على المفعول له. وقال قتادة: النحلة الفريضة، وعلى هذا، فهي منصوبة على الحال، وقيل: النحلة طيبة النفس، قال أبو عبيد: ولا تكون النحلة إلا عن طيبة نفس. ومعنى الآية على كون الخطاب للأزواج: أعطوا النساء من قربائكم التي قبضتم مهورهنّ من أزواجهنّ تلك المهور. وقد كان الولي يأخذ مهر قريبته في الجاهلية، ولا يعطيها شيئاً، حكى ذلك عن أبي صالح، والكلبي. والأول أولى، لأن الضمان من أول السياق للأزواج. وفي الآية دليل على أن الصداق واجب على الأزواج للنساء، وهو مجمع عليه، كما قال القرطبي، قال: وأجمع العلماء أنه لا حدّ لكثيره، واختلفوا في قليله. وقرأ قتادة: «صدقاتهن» بضم الصاد وسكون الدال. وقرأ النخعي، وابن وثاب بضمهما. وقرأ الجمهور بفتح الصاد وضم الدال. قوله: ﴿فإن طبن لکم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ الضمير في منه راجع إلى الصداق الذي هو واحد الصدقات، أو إلى المنكور، وهو الصدقات، أو هو بمنزلة اسم الإشارة، كأنه قال من ذلك، ونفساً تمييز. وقال أصحاب سيبويه: منصوب بإضمار فعل لا تمييز، أي: أعني نفساً. والأول أولى، وبه قال الجمهور. والمعنى: فإن طبن، أي: النساء لكم أيها الأزواج، أو الأولياء عن شيء من المهر ﴿فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ وفي قوله: ﴿طبن﴾ دليل على أن المعتبر في تحليل ذلك منهنّ لهم إنما هو طيبة النفس لا مجرد ما يصدر منها من الألفاظ التي لا يتحقق معها طيبة النفس، فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحلّ للزوج، ولا للولي، وإن كانت قد تلفظت بالهبة، أو النذر، أو نحوهما. وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار ما يصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للملك بمجرد ما لنقصان عقولهنّ، وضعف إدراكهنّ، وسرعة انخداعهنّ، وانجذابهنّ إلى ما يراد منهنّ بإيسر ترغيب، أو ترهيب. وقوله: ﴿هنيئاً مريئاً﴾ منصوبان على

عدهنّ، كما يفيد الموصول. والمراد: نكاحهن بطريق الملك لا بطريق النكاح، وفيه دليل على أنه لا حق للمملوكات في القسم، كما يدل على ذلك جملة قسماً للواحدة في الأمن من عدم العدل، وإسناد الملك إلى اليمين، لكونها المباشرة لقبض الأموال، وإقباضها، وإسائر الأمور التي تنسب إلى الشخص في الغالب، ومنه:

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابية باليمين
قوله: ﴿ذلك أنبئ ألا تعولوا﴾ أي ذلك أقرب إلى ألا تعولوا، أي: تجوروا، من عال الرجل يعول: إذا مال وجار، ومنه قولهم عال السهم عن الهدف: مال عنه، وعال الميزان إذا مال، ومنه:

قالوا اتبعنا رسول الله واطرحوا قول الرسول وعالوا في الموازين
ومنه قول أبي طالب:
بميزان صقل لا يغفل شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل
ومنه أيضاً:

فنجس ثلاثة وثلاث نود لقد عال الزمان على عيال
والمعنى: إن خفتم عدم العدل بين الزوجات، فهذه التي أمرتم بها أقرب إلى عدم الجور، ويقال عال الرجل يعيل: إذا افتقر، وصار عائلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وإن خفتم عيلة﴾ [التوبة: 28]، ومنه قول الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل
وقال الشافعي: ﴿ألا تعولوا﴾ لا تكثروا عيالك، قال الثعلبي: وما قال هذا غيره، وإنما يقال أعال يعيل: إذا كثر عياله. وذكر ابن العربي أن عال تأتي لسبعة معان: الأول عال: مال. الثاني زاد. الثالث جار. الرابع افتقر الخامس أثقل. السادس قام بمؤونة العيال، ومنه قوله ﷺ: «وأيّدأ بمن تعول». السابع عال: غلب، ومنه عيل صبري، قال: ويقال أعال الرجل: كثر عياله. وأما عال بمعنى كثر عياله، فلا يضح، ويجب عن إنكار الثعلبي لما قاله الشافعي، وكذلك إنكار ابن العربي لذلك، بأنه قد سبق الشافعي إلى القول به زيد بن أسلم وجابر بن زيد، وهما إمامان من أئمة المسلمين لا يفسران القرآن هما، والإمام الشافعي بما لا وجه له في العربية. وقد أخرج ذلك عنهما الدارقطني في سننه. وقد حكاه القرطبي عن الكسائي وأبي عمر الدوري، وابن الأعرابي، وقال أبو حاتم: كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا، ولعله لغة. وقال الثعلبي: قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: سألت أبا عمر الدوري عن هذا، وكان إماماً في اللغة غير مدافع، فقال: هي لغة حمير، وأنشد:

وإن الموت يأخذك حي بلا شك وإن أمشي وعالا
أي: وإن كثرت ماشيته وعياله. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أن لا تعيلوا﴾ قال ابن عطية: وقدح الزجاج في تأويل عال من العيال بأن الله سبحانه قد أباح كثرة السراري، وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى أن لا يكثرُوا، وهذا القدح غير صحيح؛ لأن السراري إنما هي مال يتصرف في البليغ، وإنما العيال الحرائر نوات الحقوق الواجبة. وقد حكى

الله عز وجل: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت: يابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في مالها، ويعجبه مالها، وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سننهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، وأن الناس قد استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: 127] قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: 127] رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال، والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوها في مالها، وجمالها من باقي النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال، والجمال. وأخرج البخاري، عن عائشة: أن رجلاً كانت له يتيمة، فنكحها، وكان لها عتق، فكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العتق، وفي مالها. وقد روى هذا المعنى من طرق. وأخرج ابن جرير، من طريق العوفي، عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل يتزوج بمال اليتيم ما شاء الله تعالى، فنهى الله عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: قصر الرجال على أربع نسوة من أجل أموال اليتامى. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قال: كان الرجل يتزوج ما شاء، فقال: كما تخافون ألا تعملوا في اليتامى، فخافوا ألا تعملوا فيه، فقصرهم على الأربع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: كانوا في الجاهلية ينكحون عسراً من النساء الأيامى، وكانوا يعظمون شأن اليتيم، فتفقده من دينهم شأن اليتامى، وتركوا ما كانوا ينكحون في الجاهلية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في الآية قال: كما خفتم ألا تعملوا في اليتامى، فخافوا ألا تعملوا في النساء إذا جمعتموهن عنكم. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق محمد بن أبي موسى الأشعري عنه قال: فإن خفتم الزنا، فانكحوهن، يقول: كما خفتم في أموال اليتامى ألا تقسطوا فيها، فكن ذلك، فخافوا على أنفسهم ما لم تنكحوا، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مالك: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ قال: ما أحل لكم. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، وسعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن عائشة نحوه. وأخرج الشافعي، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والنحاس في ناسخه، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر: «أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم، وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن» وفي لفظ: «أمسك

أنتهما صفتان لمصدر محذوف، أي: أكلا هنيئاً مريئاً، أو قائمان مقام المصدر، أو على الحال، يقال: هنا الطعام الشراب يهنيه ومراه، وأمرأه من الهنيء، والمريء، والفعل هنا، ومراه، أي: أتى من غير مشقة، ولا غيظ، وقيل: هو الطيب الذي لا تنغص فيه، وقيل: المحمود العاقبة الطيب الهضم، وقيل: مالا إثم فيه، والمقصود هنا أنه حلال لهم خالص عن الشوائب، وخص الأكل؛ لأنه معظم ما يراد بالمال وإن كان سائر الانتفاعات به جائزة كالأكل.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال: آدم ﴿وَوَخَّلَى مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قال: حواء من قصيري آدم، أي: قصيري أضلاعه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر قال: خلقت حواء من خلف آدم الأيسر، وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: من ضلع الخلف، وهو من أسفل الأضلاع. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَوَلَّتْهُمَا اللَّهُ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ قال: تعاطون به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع قال: تعافدون وتعاهدون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: يقول أسالك بالله والرحم. وأخرج ابن جرير، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: اتقوا الله الذي تساءلون به، واتقوا الأرحام، وصلوها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ قال: حفيظاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: إن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له، فلما بلغ اليتيم طلب ماله، فمنعه عمه، فخاصمه إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني الأوصياء، يقول: أعطوا اليتامى أموالهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا لَخْبِيثٍ بِالطَّيِّبِ﴾ يقول: لا تستبطلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تدروا أموالكم الحلال، وتاكلوا أموالهم الحرام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن مجاهد قال: لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتك الحلال الذي قدر لك: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال: مع أموالكم تخلطونها، فتكولونها جميعاً ﴿إِنَّهُ كَانَ حَوِيًّا﴾. وإثماً. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا يورثون الصغار يأخذوه الأكبر، فنصيبه من الميراث طيب، وهذا الذي يأخذ خبيث. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة قال: مع أموالكم، وأخرج ابن جرير، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية في أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم، وجعل ولي اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: 220] قال: فخالطوهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما: أن عروة سأل عائشة عن قول

قال: ألا تميلوا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: ألا تميلوا، ثم قال: أما سمعت قول أبي طالب:

بميزان قسط لا يخيس شعيرة ووزن صلق وزنه غير عائيل
وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد: قال: ألا تميلوا. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي رزين، وأبي مالك، والضحاك مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم في الآية، قال: ذلك أدنى ألا يكثر من تعولوا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة قال: ألا تفقروا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج أيمته أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، ونزلت: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتَهُنَّ نَحْلَةً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿نَحْلَةً﴾ قال: يعني: بالنحلة المهر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عائشة: ﴿نَحْلَةً﴾ قالت: واجبة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتَهُنَّ نَحْلَةً﴾ قال: فريضة مسماء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ﴾ قال: هي للزواج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ قال: من الصداق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق علي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ يقول: إذا كان من غير ضرار، ولا خديعة، فهو هنيء مريء، كما قال الله.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَاءَ اللَّهُ بِكُمْ بِهَا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمُنَاقَا ۚ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفِنُوا لَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ عَنَيْكَ فَلْيَسْتَمِمْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا ۝

هذا رجوع إلى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى. وقد تقدّم الأمر بنفع أموالهم إليهم في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا اليتامى أموالهم﴾ [النساء: 2] فبين سبحانه هاهنا أن السفهية، وغير البالغ لا يجوز نفع ماله إليه. وقد تقدّم في البقرة معنى السفهية لغة.

واختلف أهل العلم في هؤلاء السفهاء من هم؟ فقال سعيد بن جبيرة: هم اليتامى لا تؤتوهم أموالكم. قال النحاس، وهذا من أحسن ما قيل في الآية. وقال مالك: هم الأولاد الصغار لا تعطوهم أموالكم، فيفسدوها، وتبقوا بلا شيء. وقال مجاهد: هم النساء. قال النحاس، وغيره: وهذا القول لا يصح إنما تقول العرب سفاهة، أو سفهات. واختلفوا في وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين، وهي للسفهاء، فقيل: أضافها إليهم؛ لأنها بأيديهم، وهم الناظرون فيها، كقول:

منهن أربعاً، وفارق سائرهن» هذا الحديث أخرجه هؤلاء المنكرين من طرق، عن إسماعيل بن علية، وغندر، وزيد بن زريع، وسعيد بن أبي عروبة، وسفيان الثوري، وعيسى بن يونس، وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، والفضل بن موسى، وغيرهم من الحفاظ عن معمر، عن الزهري، عن سالم عن أبيه، فنكره. وقد علل البخاري هذا الحديث، فحكي عنه الترمذي أنه قال: هذا حديث غير محفوظ. والصحيح ما روي عن شعب، وغيره، عن الزهري حدثت، عن محمد بن سويد الثقفي أن غيلان بن سلمة، فنكره، وأما حديث الزهري، عن أبيه: أن رجلاً من ثقيف طلق نساءه، فقال له عمر: لأرجمن قبرك، كما رجم قبر أبي رغال. وقد رواه معمر، عن الزهري مرسلًا، وهكذا رواه مالك عن الزهري مرسلًا. قال أبو زرعة: وهو أصح. ورواه عقيل، عن الزهري: بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبي سويد قال: أبو حاتم: وهذا وهم، إنما هو الزهري، عن عثمان بن أبي سويد. وقد ساهم أحمد برجال الصحيح، فقال: حدثنا إسماعيل، ومحمد بن جعفر قالوا: حدثنا معمر، عن الزهري قال أبو جعفر في حديثه: أخبرنا ابن شهاب، عن سالم عن أبيه أن غيلان، فنكره، وقد روى من غير طريق معمر، والزهري، فأخرجه البيهقي، عن أيوب، عن نافع، وسالم، عن ابن عمر: أن غيلان فنكره. وأخرج أبو داود وابن ماجه في سننهما عن عمير الأسدي قال: أسلمت، وعندي ثمان نسوة، فنكرت للنبي ﷺ، فقال: اختر منهن أربعاً. قال ابن كثير: إن إسناده حسن. وأخرج الشافعي في مسنده، عن نوفل بن معاوية الديلي قال: أسلمت، وعندي خمس نسوة، فقال رسول الله ﷺ: أمسك أربعاً، وفارق الأخرى. وأخرج ابن ماجه، والنحاس في ناسخه، عن قيس بن الحارث الأسدي قال: «أسلمت وكان تحتي ثمان نسوة، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: اختر منهن أربعاً، وخلّ سائرهن، ففعلت» وهذه شواهد للحديث الأول، كما قال البيهقي. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي في سننه عن الحكم قال: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن المملوك لا يجمع من النساء فوق اثنتين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية يقول: إن خفت ألا تعدل في أربع فثلاث، وإلا فثنتين، وإلا فواحدة، فإن خفت ألا تعدل في واحدة، فما ملكت يمينك. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج أيضاً، عن الضحاك: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا﴾ قال: في المجامعة، والحب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ إِيْمَانُكُمْ﴾ قال: السراري. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه، عن عائشة، عن النبي ﷺ: ﴿تِلْكَ أُنثَىٰ أَلَّا تَعْلُوا﴾ قال: ألا تجروا. قال ابن أبي حاتم قال أبي: هذا حديث خطأ، والصحيح، عن عائشة موقوف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طرق، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾

تحقيقه. وقد اختلفوا في معنى الاختبار، فقيل: هو أن يتأمل الوصي أخلاق يتيمة، ليعلم بنجابتها، وحسن تصرفه، فيدفع إليه ماله إذا بلغ النكاح، وأنس منه الرشد، وقيل: معنى الاختبار: أن يدفع إليه شيئاً من ماله، ويأمره بالتصرف فيه حتى يعلم حقيقة حاله، وقيل: معنى الاختبار: أن يرد النظر إليه في نفقة الدار ليعرف كيف تبديره، وإن كانت جارية رد إليها ما يرد إلى ربة البيت من تبدير بيتها. والمراد ببلوغ النكاح بلوغ الحلم لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ [النور: 59] ومن علامات البلوغ الإنبات، وبلوغ خمس عشرة سنة. وقال مالك، وأبو حنيفة، وغيرهما: لا يحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ إلا بعد مضي سبع عشرة سنة، وهذه العلامات تعم الذكر، والأنثى، وتختص الأنثى بالحب، والحيض. قوله: ﴿فَإِنْ أَنْسَمَ﴾ أي: أبصرتم، ورأيتم، ومنه قوله: ﴿أَنْسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصاص: 29]. قال الأزهري: تقول العرب اذهب، فاستأنس هل ترى أحداً، معناه: تبصر، وقيل: هو هنا بمعنى: وجد وعلم، أي: فإن وجدتم، وعلمتم منهم رشداً. وقراءة الجمهور: «رشداء» بضم الراء وسكون الشين. وقرأ ابن مسعود، والسلمي، وعيسى الثقفي بفتح الراء، والشين، قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالضم مصدر رشد، وبالفتح مصدر رشد.

اختلف أهل العلم في معنى الرشد هاهنا، فقيل: الصلاح في العقل، والدين، وقيل: في العقل خاصة. قال سعيد بن جبير، والشعبي: إنه لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشده، وإن كان شيخاً. قال الضحاک: وإن بلغ مائة سنة. وجمهور العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم لا يزول عنه الحجر. وقال أبو حنيفة، لا يحجر على الحر البالغ، وإن كان أفسق الناس، وأشدهم تبذيراً، وبه قال النخعي، وزفر، وظاهر النظم القرآني أنها لا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد بلوغ غاية هي: بلوغ النكاح مقيدة هذه الغاية بإنباس الرشد، فلا بد من مجموع الأمرين، فلا تدفع إلى اليتامى أموالهم قبل البلوغ، وإن كانوا معروفين بالرشد، ولا بعد البلوغ إلا بعد إنباس الرشد منهم. والمراد بالرشد: نوعه، وهو المتعلق بحسن التصرف في أمواله، وعدم التبذير بها، ووضعها في مواضعها. قوله: ﴿وَلَا تَاكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ الإسراف في اللغة: الإفراط، ومجاوزة الحد. وقال التضر بن شميل: السرف التبذير، والبدار المبادرة ﴿وَأَنْ يَكْبُرُوا﴾ في موضع نصب بقوله: ﴿بِدَارًا﴾ أي: لا تاكلوا أموال اليتامى أكل إسراف، وأكل مبادرة لكبرهم، أو لا تاكلوا لأجل السرف، ولأجل المبادرة أو لا تاكلوها مسرفين، ومبادرين لكبرهم، وتقولوا ننفق أموال اليتامى. فيما نشتهي قبل أن يبلغوا، فينتزعوها من أيدينا. قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بين سبحانه ما يحل لهم من أموال اليتامى، فأمر الغني بالاستعفاف وتوفير مال الصبي عليه، وعدم تناوله منه،

﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: 61]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 54] أي: ليسلم بعضكم على بعض، وليقتل بعضكم بعضاً، وقيل: أضافها إليهم؛ لأنها من جنس أموالهم، فإن الأموال جعلت مشتركة بين الخلق في الأصل، وقيل المراد: أموال المخاطبين حقيقة، وبه قال أبو موسى الأشعري، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والمراد: النهي عن دفعها إلى من لا يحسن تبديرها كالنساء، والصبيان، ومن هو ضعيف الإدراك لا يهتدي إلى وجه النفع التي تصلح المال، ولا يتجنب، وجوه الضرر التي تهلكه، وتذهب به. قوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ المفعول الأول محذوف، والتقدير التي جعلها الله لكم، وقيما، قراءة أهل المدينة، وأبي عامر، وقرأ غيرهم: «قياماً» وقرأ عبد الله بن عمر: «قواماً» والقِيَام والقَوَام: ما يقيمك، يقال فلان قِيَام أهله، وقوام بيته، وهو الذي يقيم شأنه، أي: يصلحه، ولما انكسرت القاف في قوام أبطلوا الواو ياء. قال للكسائي، والفراء: قِيَمًا وقَوَامًا بمعنى قِيَامًا، وهو: منصوب على المصدر أي: لا تؤثروا السفهاء أموالكم التي تصلح بها أموالكم، فتقومون بها قِيَامًا، وقال الأخفش: المعنى قائمة بأموالكم، فذهب إلى أنها جمع. وقال البصريون: قِيَمًا جمع قيمة كريمة وقيم، أي: جعلها الله قيمة للأشياء. وخطأ أبو علي الفارسي هذا القول، وقال: هي مصدر، كقيام وقوام. والمعنى: أنها صلاح للحال، وثبات له، فاما على قول من قال: إن المراد أموالهم على ما يقتضيه ظاهر الإضافة، فالمعنى واضح. وأما على قول من قال إنها أموال اليتامى، فالمعنى أنها من جنس ما تقوم به معاشيتكم، ويصلح به حالكم من الأموال. وقرأ الحسن، والنخعي: «اللاتي جعل» قال الفراء: الأكثر في كلام العرب النساء اللواتي، والأموال التي، وكذلك غير الأموال، نكره النحاس. قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي: اجعلوا لهم فيها رزقاً، أو افرضوا لهم، وهذا فيمن تلزم نفقته، وكسوته من الزوجات، والأولاد، ونحوهم. وأما على قول من قال: إن الأموال هي أموال اليتامى، فالمعنى اتجروا فيها حتى تربحوا، وتنفقوهم من الأرباح، أو اجعلوا لهم من أموالهم رزقاً ينفقونه على أنفسهم، ويكتسبون به. وقد استدلل بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء، وبه قال الجمهور. وقال أبو حنيفة: لا يحجر على من بلغ عاقلاً، واستدل بها أيضاً على وجوب نفقة القرابة، والخلاف في ذلك معروف في مواطنه. قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قيل: ادعوا لهم: بارك الله فيكم، وحاطكم، وصنع لكم، وقيل معناه: عنوهم وعداً حسناً قولوا لهم: إن رشدتم نفعنا إليكم أموالكم، ويقول الأب لابنه: مالي سيصير إليك، وأنت إن شاء الله صاحبه، ونحو ذلك. والظاهر من الآية ما يصق عليه مسمى القول الجميل، ففيه إرشاد إلى حسن الخلق مع الأهل، والأولاد، أو مع الأيتام المكولين. وقد قال النبي ﷺ فيما صح عنه: «خيركم خيركم أهله، وأنا خيركم لأهلي». قوله: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى﴾ الابتلاء: الاختبار. وقد تقدم

والمعنى: وليخش الذين صفتهم، وحالهم أنهم لو شاربوا أن يتركوا خلفهم نرية ضعافاً، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم، وكاسبهم، ثم أمرهم بتقوى الله، والقول السديد للمحتضرين، أو لأولادهم من بعدهم على ما سبق. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى﴾ استئناف يتضمن النهي عن ظلم الأيتام من الأولياء، والأوصياء، وانتصاب قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ على المصدرية، أي: أكل ظلم، أو على الحالية، أي: ظالمين لهم. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: ما يكون سبباً للنار، تعبيراً بالسبب عن السبب، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية. وقوله: ﴿وَيُصِصُّونَ﴾ قراءة عاصم، وابن عامر بضم الياء على ما لم يسم فاعله. وقرأ أبو حية بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام من التصلية بكثرة الفعل مرة بعد أخرى. وقرأ الباقون بفتح الياء من صلى النار يصلها، والصلى هو: التسخن بقرب النار، أو مباشرتها، ومنه قول الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتها علم الله وإنني لحزها اليوم صالي
والسعين: الجمر المشتعل.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، ولا الصغار حتى يدركوا، فمات رجل من الأنصار يقال له: أوس بن ثابت، وترك ابنتين، وابناً صغيراً، فجاء ابنه عمه، وهما عصبته إلى رسول الله ﷺ، فأخذ ميراثه كله، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية، فأرسل إليهما رسول الله فقال: لا تحركا من الميراث شيئاً، فإنه قد أنزل على شيء احترت فيه إن للذكر والأنثى نصيباً، ثم نزل بعد ذلك: ﴿وَيُصِصُّونَ فِي الْيَتَامَى﴾ [النساء: 127]، ثم نزل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَانِكُمْ﴾ [النساء: 11] فدعا بالميراث، فأعطى المرأة الثمن، وقسم ما بقي للذكر مثل حظ الأنثيين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في أم كلثوم ابنة أم كحلّة، أو أم كحة، وشعلبة بن أوس، وسويد، وهم من الأنصار، كان أحدهم زوجها، والآخر عم ولدها، فقالت: يا رسول الله توفي زوجي، وتركني، وابنته، فلم نورث من ماله، فقال عم ولدها: يا رسول الله لا يركب فرساً، ولا ينكى عدواً ويكسب عليها، ولا يكتسب، فنزلت. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ قال: هي محكمة، وليست بمنسوخة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن خطاب بن عبد الله في هذه الآية قال: قضى بها أبو موسى. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في الآية قال: هي ولجة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، عن الحسن، والزهرى قالاً: هي محكمة ما طابت به أنفسهم. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال:

النساء بعد نكر الرجال، ولم يقل للرجال، والنساء نصيب، للإيذان بأصالتها في هذا الحكم، ونفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء، وفي نكر القرابة بيان لعل الميراث مع التعميم لما يصلق عليه مسمى القرابة من نوع تخصيص. وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل من قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بإعادة الجار، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى المبدل منه. وقوله: ﴿نَصِيبًا﴾ منتصب على الحال، أو على المصدرية، أو على الاختصاص، وسيأتي نكر السبب في نزول هذه الآية إن شاء الله، وقد أجمل الله سبحانه في هذه المواضع قدر النصيب المفروض، ثم أنزل قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَانِكُمْ﴾ [النساء: 11] فبين ميراث كل فرد. قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى﴾ المراد بالقرابة هنا: غير الوارثين، وكذا اليتامى، والمساكين، شرع الله سبحانه أنهم إذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق، فيرضخ لهم المتقاسمون شيئاً منها. وقد ذهب قوم إلى أن الآية محكمة، وأن الأمر للنسب. وذهب آخرون إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَانِكُمْ﴾ [النساء: 11] والأول أرجح، لأن المذكور في الآية للقرابة غير الوارثين ليس هو من جملة الميراث حتى يقال إنها منسوخة بآية الوارثين، إلا أن يقولوا إن أولى القرابة المذكورين هنا هم الوارثون كان للنسخ وجه. وقالت طائفة: إن هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ما تطيب به أنفس الورثة، وهو معنى الأمر الحقيقي، فلا يصار إلى النذب إلا لقريظة، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى المال المقسوم المبدول عليه بالقسمة، وقيل: راجع إلى ما ترك. والقول المعروف: هو القول الجميل الذي ليس فيه من بما صار إليهم من الرضخ ولا أدنى. قوله: ﴿وَلِيُخْشِ اللَّهُ النَّاسَ﴾ تركوا، هم الأوصياء، كما ذهب إليه طائفة من المفسرين، وفيه وعظ لهم بأن يفعلوا باليتامى الذين في حوزهم ما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم؛ وقالت طائفة: المراد جميع الناس أمروا باتقاء الله في الأيتام، وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حوزهم؛ وقال آخرون: إن المراد بهم: من يحضر الميت عند موته، أمروا بتقوى الله، وبأن يقولوا للمحتضر قولاً سديداً من إرشادهم إلى التخلص عن حقوق الله، وحقوق بني آدم، وإلى الوصية بالقرب المقررة إلى الله سبحانه، وإلى ترك التبذير بماله، وإحرام ورثته، كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم، فقراء عالة يتكففون الناس، وقال ابن عطية: الناس صنفان يصلح لأحدهما أن يقال له عند موته ما لا يصلح للآخر، وذلك أن الرجل إذا ترك ورثته مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن ينذب إلى الوصية، ويحمل على أن يقدم لنفسه، وإذا ترك ورثته ضعفاء مفلسين حسن أن ينذب إلى الترك لهم، والاحتياط، فإن أجره في قصد ذلك كاجره في المساكين. قال القرطبي: وهذا التفصيل صحيح. قوله: ﴿لَوْ تَرَكَوْا﴾ صلة الموصول، والفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛

«السدس» يسكن الدال، وكذلك قرأ الثلث، والرابع إلى العشر بالسكون، وهي لغة بني تميم، وربيعة، وقرأ الجمهور بالتحريك ضمًا، وهي لغة أهل الحجاز، وبني أسد في جميعها. والمراد بالأبوين: الأب والأم، والتثنية على لفظ الأب للتغليب.

وقد اختلف العلماء في الجد، هل هو بمنزلة الأب، فستسقط به الأخوة أم لا؟ ذهب أبو بكر الصديق إلى أنه بمنزلة الأب، ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام خلافته، واختلفوا في ذلك بعد وفاته، فقال بقول أبي بكر ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعائشة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وعطاء، وطاوس، والحسن، وقتادة، وأبو حنيفة، وأبو ثور، وإسحاق، واحتجوا بمثل قوله تعالى: ﴿مِثْلَ آبَائِكُمْ إِبراهيم﴾ [الحج: 78] وقوله: ﴿يَا بني آدم﴾ [الأعراف: 26، 27، 31، 35]، وقوله ﷺ: «أروما يا بني إسماعيل». وذهب علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت، وابن مسعود إلى توريث الجد مع الإخوة لأبوين أو لأب، ولا ينقص معهم من الثلث، ولا ينقص مع نوي الفريوس من السدس في قول زيد، ومالك، والأوزاعي، وأبي يوسف، ومحمد، والشافعي. وقيل: بشرك بين الجد، والإخوة إلى السدس، ولا ينقصه من السدس شيئاً مع نوي الفريوس، وغيرهم، وهو: قول ابن أبي ليلى، وطائفة. وذهب الجمهور إلى أن الجد يسقط بني الإخوة، وروى الشعبي عن علي أنه أجرى بني الإخوة في القاسمة مجرى الإخوة. وأجمع العلماء على أن الجد لا يرث مع الأب شيئاً، وأجمع العلماء على أن للجد السدس إذا لم يكن للميت أم، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم، وأجمعوا على أن الأب لا يسقط الجدة أم الأم.

واختلفوا في توريث الجدة، وابنها حي، فروي عن زيد بن ثابت، وعثمان، وعلي أنها لا ترث، وابنها حي، وبه قال مالك، والثوري، والأوزاعي، وأبو ثور، وأصحاب الرأي. وروي عن عمر وابن مسعود، وأبي موسى: أنها ترث معه وروي أيضاً، عن علي، وعثمان، وبه قال شريح، وجابر بن زيد، وعبيد الله بن الحسن، وشريك، وأحمد، وإسحاق وابن المنذر. قوله: ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الولد يقع على الذكر، والأنثى، لكنه إذا كان الموجود الذكر من الأولاد، وحده أو مع الأنثى منهم، فليس للجد إلا السدس، وإن كان الموجود أنثى كان للجد السدس بالفرض، وهو عصبية فيما عدا السدس، وأولاد ابن الميت كأولاد الميت. قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولا ولد ابن لما تقدم من الإجماع ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ منفردين، عن سائر الورثة، كما ذهب إليه الجمهور من أن الأم لا تأخذ ثلث للتركة إلا إذا لم يكن للميت وارث غير الأبوين، أما لو كان معهما أحد الزوجين، فليس للأم إلا ثلث الباقي بعد الموجود من الزوجين. وروي عن ابن عباس أن للأم ثلث الأصل مع أحد الزوجين، وهو يستلزم تفضيل الأم على الأب في مسئلة زوج، وأبوين مع الاتفاق على أن أفضل منها عند انفرداهما عن أحد الزوجين. قوله: ﴿فَإِنْ

فَإِنْ أَلَّهِ سَبَّحَانَهُ قَالَ فِي شَانِهِمَا: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ﴾ [النساء: 76] فالحقرا البنيتين بالاختين في استحقاقهما الثلثين، كما الحقرا الأخوات إذا زبن على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين، وقيل: في الآية ما يدل على أن للبنيتين الثلثين، وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث كان للإبنتين إذا انفردتا الثلثان، هكذا احتج بهذه الحجة إسماعيل بن عياش، والمبرد. قال النحاس: وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط؛ لأن الاختلاف في البنيتين إذا انفردتا عن البنين، وأيضاً للمخالف أن يقول إذا ترك بنتين، وابناً ف للبنيتين النصف، فهذا دليل على أن هذا فرضهما، ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنين الواحدة إذا انفردت النصف بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ كان فرض البنيتين إذا انفردتا فوق فرض الواحدة، وأوجب القياس على الاختين الاقتصار للبنيتين على الثلثين. وقيل: إن فوق زائدة، والمعنى: وإن كنَّ نساء اثنتين، كقوله تعالى: ﴿فَافْضِرُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: 12] أي: الأعناق، ورد هذا النحاس، وابن عطية، فقالا: هو خطأ؛ لأن الظروف، وجميع الأسماء لا تجوز في كلام العرب أن تزاد لغير معنى. قال ابن عطية: ولأن قوله: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ هو الفصيح، وليست فوق زائدة، بل هي محكمة المعنى؛ لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ، كما قال يزيد بن الصمة: اخفض عن الدماغ، وارفع عن العظم، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال. انتهى. وأيضاً لو كان لفظ فوق زائداً، كما قالوا لقال، فلهما ثلثا ما ترك، ولم يقل، فلهن ثلثا ما ترك، وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان، إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي، فهو لك. أخرجه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه. قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ قرأ نافع، وأهل المدينة: «واحدة» بالرفع على أن كان تامة بمعنى: فإن وجدت واحدة، أو حدث واحدة. وقرأ الباقر بالنصب قال النحاس: وهذه قراءة حسنة، أي: وإن كانت المتروكة، أو المولودة واحدة. قوله: ﴿وَلِلْأَبَوِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السَّدَسُ﴾ أي: لأبوي الميت، وهو: كناية عن غير منكر، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السَّدَسُ﴾ بدل من قوله: ﴿وَلِلْأَبَوِيهِ﴾ بتكرير العامل للتأكيد، والتفصيل. وقرأ الحسن، ونعيم بن ميسرة:

ما ترك أزولجكم إن لم يكن لهنّ ولدٌ الخطاب هنا للرجال. والمراد بالولد ولد الصلب، أو ولد الولد لما قمنا من الإجماع ﴿فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن﴾، وهذا مجمع عليه لم يختلف أهل العلم في أن للزوج مع عدم الولد النصف، ومع وجوده، وإن سفل الربع. وقوله: ﴿ومن بعد وصية﴾ الخ الكلام فيه، كما تقدم. قوله: ﴿ولهنّ الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهنّ الثمن مما تركتم﴾ هذا النصيب مع الولد، والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات، ويشترك فيه الأكثر من واحدة لا خلاف في ذلك، والكلام في الوصية، والدين، كما تقدم. قوله: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ المراد بالرجل الميت، و﴿يورث﴾ على البناء للمفعول من ورث لا من أورث، وهو خبر كان و﴿كلالة﴾ حال من ضمير ﴿يورث﴾ أي: يورث حال كونه ذا كلالة، أو على أن الخبر كلالة، ويورث صفة لرجل، أي: إن كان رجل يورث ذا كلالة ليس له ولد، ولا والد، وقرئ ﴿يورث﴾ مخففاً، ومشدداً، فيكون كلالة مفعولاً، أو حالاً، والمفعول محذوف، أي: يورث، وأريد حال كونه ذا كلالة، أو يكون مفعولاً له، أي: لأجل الكلالة. والكلالة مصدر من تكلمه النسب، أي: أحاط به، وبه سمي الإكليل لإحاطته بالرأس. وهو الميت الذي لا ولد له، ولا والد، هذا قول أبي بكر الصديق، وعمر، وعلي، وجمهور أهل العلم، وبه قال صاحب كتاب العين وأبو عبيد، وابن الأنباري، وقد قيل: إنه عرفة، قال ابن كثير: وبه يقول أهل المدينة، والكوفة، والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة، والاثنية الأربعة، وجمهور الخلف، والسلف بل جميعهم. وقد حكى الإجماع غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع. انتهى. وروى أبو حاتم، والأثرم، عن أبي عبيدة أنه قال: الكلالة كل من لم يرث أب، أو ابن، أو أخ، فهو عند العرب كلالة. قال أبو عمر بن عبد البر: نكر أبي عبيدة الأخ هنا مع الأب، والابن في شرط الكلالة غلط لا وجه له، ولم يذكره في شرط الكلالة غيره، وما يروى عن أبي بكر، وعمر من أن الكلالة من لا ولد له خاصة، فقد رجعا عنه. وقال ابن زيد: الكلالة: الحي، والميت جميعاً، وإنما سموا القرابة كلالة: لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه، وليسوا منه، ولا هو منهم، بخلاف الابن، والأب، فإنهما طرفان له، فإذا ذهباً تكلمه النسب، وقيل: إن الكلالة مأخوذة من الكلال، وهو الإعياء، فكانه يصير الميراث إلى الوراث عن بعد، وإعياء. وقال ابن الأعرابي: إن الكلالة بنو العم الأبعد. وبالجمله فمن قرأ: ﴿يورث كلالة﴾ بكسر الراء مشددة، وهو بعض الكوفيين، أو مخففة، وهو الحسن، وأيوب جعل الكلالة القرابة، ومن قرأ: ﴿يورث﴾ بفتح الراء، وهم الجمهور لاحتتمل أن يكون الكلالة الميت، واحتمل أن يكون القرابة. وقد روي عن علي، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، والشعبي أن الكلالة ما كان سوى الولد، والوالد من الورثة. قال الطبري: الصواب أن الكلالة هم الذين

كان له إخوة فلامه السدس، إطلاق الإخوة يدل على أنه لا فرق بين الإخوة لأبوين أو لأحدهما.

وقد أجمع أهل العلم على أن الإثنين من الإخوة يقومون مقام الثلاثة، فصاعداً في حجب الأم إلى السدس إلا ما يروى، عن ابن عباس أنه جعل الاثنين كالواحد في عدم الحجب. واجمعوا أيضاً على أن الاختين، فصاعداً كالأخوين في حجب الأم. قوله: ﴿ومن بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم: «يوصى» بفتح الصاد. وقرأ الباقر بكسرها، واختار الكسر أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأنه جرى نكر الميت قبل هذا. قال الأخفش: وتصنيق ذلك قوله: ﴿يوصين وتوصون﴾.

واختلف في وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدماً عليها بالإجماع، فقيل: المقصود تقديم الأمرين على الميراث من غير قصد إلى الترتيب بينهما، وقيل: لما كانت الوصية أقل لزوماً من الدين قُدمت اهتماماً بها؛ وقيل: قُدمت لكثرة وقوعها، فصارت كالأمر اللازم لكل ميت، وقيل: قدمت لكونها حظ المساكين، والفقراء، وآخر الدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان، وقيل: لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت قدمت، بخلاف الدين، فإنه ثابت مؤدي ذكر أو لم يذكر، وقيل: قُدمت لكونها تشبه الميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، فربما يشق على الورثة إخراجها، بخلاف الدين، فإن نفوسهم مطمئنة بأدائه، وهذه الوصية مقيدة بقوله تعالى: ﴿غير مضار﴾ كما سيأتي إن شاء الله. قوله: ﴿أبأؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾ قيل: خبر قوله: ﴿أبأؤكم وأبناؤكم﴾ مقدر أي: هم المقسوم عليهم، وقيل: إن الخبر قوله: ﴿لا تدرون﴾ وما بعده ﴿وأقرب﴾ خبر قوله: ﴿أيهم﴾ و﴿نفعا﴾ تمييز، أي: لا تدرون أيهم قريب لكم نفعه في الدعاء لكم، والصنقة عنكم، كما في الحديث الصحيح: «أو ولد صالح يدعو له». وقال ابن عباس، والحسن: قد يكون الابن أفضل، فيشفع في أبيه. وقال بعض المفسرين: إن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه في الآخرة سال الله أن يرفع إليه أباه، وإذا كان الأب أرفع درجة من ابنه سال الله أن يرفع ابنه إليه؛ وقيل المراد: النفع في الدنيا، والآخرة، قاله ابن زيد، وقيل: المعنى: إنكم لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم، وأبنائكم، أمن أوصى منهم، فعرضكم لثواب الآخرة بامضاء وصيته، فهو أقرب لكم نفعا، أو من ترك الوصية، ووفر عليكم عرض الدنيا؟ وقرئ هذا صاحب الكشاف: قال: لأن الجملة اعتراضية، ومن حق الاعتراض أن يؤكد ما اعترض بينه، ويناسبه قوله: ﴿قريضة من الله﴾ نصب على المصدر المؤكدة، إذ معنى: ﴿يوصيكم﴾ يفرض عليكم. وقال مكي، وغيره: هي حال مؤكدة، والعامل يوصيكم. والأول أولى: ﴿إن الله كان عليماً﴾ بقسمة الموارث ﴿حكيماً﴾ حكم بقسمتها، وبينها لاهلها. وقال الزجاج: ﴿عليماً﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حكيماً﴾ فيما يقرره ويمضيه منها. قوله: ﴿ولكم نصف

عليه، أو يوصي بوصية لا مقصد له فيها إلا الإضرار بالورثة. أو يوصي لوارث مطلقاً، أو لغيره بزيادة على الثلث، ولم تجزئه الورثة، وهذا القيد أعني قوله: ﴿غير مضار﴾ راجع إلى الوصية، والبنين المذكورين، فهو قيد لهما، فما صدر من الإقرارات بالبنين، أو الوصايا المنهي عنها له، أو التي لا مقصد لصاحبها إلا المضارة لورثته، فهو باطل مردود لا ينفذ منه شيء، لا الثلث، ولا بونه. قاله القرطبي: وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز. انتهى. وهذا القيد أعني عدم الضرر هو قيد لجميع ما تقدم من الوصية، والبنين. قال أبو السعود في تفسيره: وتخصيص القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت في حقهم. قوله: ﴿وصية من الله﴾ نصب على المصدر، أي: يوصيكم بذلك وصية من الله كقوله: ﴿فريضة من الله﴾ قال ابن عطية: ويصح أن يعمل فيها مضار. والمعنى: أن يقع الضرر بها، أو بسببها، فأوقع عليها تجوزاً، فتكون وصية على هذا مغعولاً بها؛ لأن الاسم للفاعل قد اعتمد على ذي الحال، أو لكونه منقياً معنى، وقرأ الحسن: ﴿وصية من الله﴾ بالجر على إضافة اسم الفاعل إليها، كقوله يا سارق الليلة أهل الدار. وفي كون هذه الوصية من الله سبحانه دليل على أنه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة الفرائض، وأن كل وصية من عباده تخالفها، فهي مسبوقه بوصية الله، وذلك كالوصايا المتضمنة: لتفضيل بعض الورثة على بعض، أو المشتملة على الضرر بوجه من الوجوه، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى الأحكام المتقدمة، وسماها حدوداً لكونها لا تجوز مجاوزتها، ولا يحل تعديها ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في قسمة الموارث، وغيرها من الأحكام الشرعية، كما يفيد عموم اللفظ: ﴿ننخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وهكذا قوله: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ قرأ نافع، وابن عامر ﴿ننخله﴾ بالنون. وقرأ الباقون بالياء التحتية. قوله: ﴿وله عذاب مهين﴾ أي: وله بعد إدخاله النار عذاب لا يعرف كنهه.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن جابر قال: عانني رسول الله ﷺ، فقلت: ما تامرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت. وقد قمتُ أن سبب النزول سؤال امرأة سعد بن الربيع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري، ولا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجل من ولده إلا من أطلق القتال. فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر، وترك امرأة يقال لها: أم كحة، وترك خمس جوار، فأخذ الورثة ماله، فشكت ذلك أم كحة إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فإن كن نساء فوق لثنتين﴾ ثم قال في أم كحة: ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم، والبيهقي، عن ابن مسعود قال: كان عمر بن الخطاب إذا سلك بنا طريقاً، فاتبعناه، وجدناه سهلاً، وأنه سئل عن امرأة، وأبوين، فقال: للمرأة الربع، وللأم ثلث ما بقي، وما بقي

يرثون الميت من عدا ولده، ووالده، لصحة خبر جابر «فقلت: يا رسول الله إنما يرثني كلاله، أفأوصي بمالي كله؟ قال: لا». انتهى. وروي عن عطاء أنه قال: الكلاله المال. قال ابن العربي وهذا قول ضعيف لا وجه له. وقال صاحب الكشف: إن الكلاله تنطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولداً، ولا والدًا، وعلى من ليس بولد، ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد، والوالد. انتهى. قوله: ﴿أو امرأة﴾ معطوف على رجل مقيد بما قيد به، أي: أو امرأة تورث كلاله. قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ قرأ سعد بن أبي وقاص من أم. وسيأتي ذكر من أخرج ذلك عنه. قال القرطبي: أجمع العلماء أن الإخوة ما هنا هم الإخوة لام قال: ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للاب، والأم، أو للاب ليس ميراثهم هكذا، فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين في قوله تعالى: ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ [النساء: 176] هم الإخوة لأبوين، أو لأب، وأقرب الضمير في قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ لأن المراد كل واحد منهما، كما جرت بذلك عادة العرب إذا ذكروا اسمين مستويين في الحكم، فإنهم قد يذكرون الضمير الراجع إليهما مفرداً، كما في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة﴾ [البقرة: 45] وقوله: ﴿يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة: 34]. وقد يذكرونه مثنى، كما في قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ [النساء: 135]. وقد قمنا في هذا كلاماً أطول من المنكور هنا. قوله: ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ الإشارة بقوله: «من ذلك» إلى قوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي: أكثر من الأخ المنفرد، أو الأخت المنفردة بواحد، وذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعداً، ذكرين، أو أنثيين، أو ذكراً، وأنثى. وقد استدل بذلك على أن الذكر، كالأنثى من الإخوة لام؛ لأن الله شرك بينهم في الثلث، ولم يذكر فضل الذكر على الأنثى، كما ذكره في البنين، والإخوة لأبوين، أو لأب. قال القرطبي: وهذا إجماع. وبلت الآية على أن الإخوة لام إذا استكمل بهم المسألة كانوا أقدم من الإخوة لأبوين، أو لأب، وذلك في المسألة المسماة بالحمارية، وهي إذا تركت الميتة زوجاً، وأمّاً، وأخوين لأم، وإخوة لأبوين، فإن للزوج النصف، وللأم السدس، وللأخوين لأم الثلث، ولا شيء للإخوة لأبوين. ووجه ذلك أنه قد وجد الشرط الذي يرث عنده الإخوة من الأم، وهو كون الميت كلاله، ويؤيد هذا حديث: «الحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي، فلأولي رجل ذكر» وهو في الصحيحين، وغيرهما، وقد قررنا دلالة الآية، والحديث على ذلك في الرسالة التي سميناها: «المباحث الدرية في المسألة الحمارية». وفي هذه المسألة خلاف بين الصحابة، فمن بعدهم معروف. قوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ الكلام فيه، كما تقدم. قوله: ﴿غير مضار﴾ أي: يوصي حال كونه غير مضار لورثته بوجه من وجوه الضرر، كان يقر بشيء ليس

فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿تلك حدود الله﴾ إلى قوله: ﴿عذاب مهين﴾ وفي إسناده شهر بن حوشب، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن ماجه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة». وأخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه ابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، عن سليمان بن موسى قال: قال رسول الله ﷺ، فذكر نحوه. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص: «أن النبي ﷺ أتاه يعودوه في مرضه، فقال: إن لي مالا كثيراً وليس يرثني إلا ابنة لي أفتتصدق بالثلثين؟ فقال لا، قال فالشطر؟ قال لا، قال فالثلث؟ قال الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر، ورثتك أغنياء خير من أن تفرهم عائلة يتكففون الناس». وأخرج ابن أبي شيبة، عن معاذ بن جبل قال: إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة في حسناتكم: يعني: الوصية. وفي الصحيحين، عن ابن عباس قال: ويبت أن الناس غصوا من الثلث إلى الربع؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث كثير». وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر قال: نكر عند عمر الثلث في الوصية، فقال: الثلث وسط لا بخص، ولا شطط. وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي قال: لأن أوصي بالخمسة أحب إلي من أن أوصي بالربع؛ ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك.

[فائدة] ورد في الترغيب في تعلم الفرائض، وتعليمها ما أخرجه الحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض، وعلموه الناس، فإنني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يقضي بها». وأخرجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض، وعلموه، فإنه نصف العلم، وإنه ينسى، وهو أول ما ينزع من أمتي». وقد روى عن عمر، وابن مسعود، وأنس آثار في الترغيب في الفرائض، وكذلك روي عن جماعة من التابعين، ومن بعدهم.

وَأَلَيْكَ يَا بَيْتَ الْفَجْجَةِ مِنْ سَاكِبِكُمْ فَاسْتَشِدُّوا عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ كَأَن شَهِدُوا فَاسْكُرْهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَوَفَّيَهُمُ الْوَتُونَ أَوْ يَحْمِلِ اللَّهُ لَهُمْ سَبِيلًا ۝ وَالَّذِينَ يَأْتِيهِمْ مِنْكُمْ فَتَأْذُوهُمْ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ أَتَى وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَذِبٌ أُولَئِكَ أَعْتَدَ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝

لما نكر سبحانه في هذه السورة الإحسان إلى النساء، وإيصال صدقاتهن إليهن، وميراثهن مع الرجال، نكر التغليب عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهم أنه يسوغ

فلأب. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي، عن زيد بن ثابت نحوه. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه نخل على عثمان، فقال: إن الأخوين لا يردان الأم عن الثلث. قال الله: ﴿فإن كان له إخوة﴾ والأخوان ليس بلسان قومك إخوة، فقال عثمان: لا أستطيع أن أرد ما كان قبلي، ومضى في الأمصار، وتوارث به الناس. وأخرج الحاكم والبيهقي في سننه، عن زيد بن ثابت؛ أنه قال: إن العرب تسمي الأخوين إخوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن الجارود، والدارقطني، والبيهقي في سننه عن علي قال: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وأن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أبأؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾ يقول: أطوعكم لله من الآباء، والأبناء أرفعكم درجة عند الله يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه شفع المؤمنين بعضهم في بعض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أقرب لكم نفعا﴾ قال: في الدنيا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والدارمي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يقرأ: ﴿وله أخ أو أخت من أم﴾. وأخرج البيهقي، عن الشعبي قال: ما ورث أحد من أصحاب النبي ﷺ الإخوة من الأم مع الجد شيئاً قط، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب قال: قضى عمر أن ميراث الإخوة لأم بينهم للذكر مثل الأنثى، قال: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علمه من رسول الله، ولهذه الآية التي قال الله: ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس قال: الإضرار في الوصية من الكبائر، ثم قرأ: ﴿غير مضار﴾. وقد رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه مرفوعاً. وفي إسناده عمر بن المغيرة أبو حفص المصيصي، قال أبو القاسم بن عساكر: ويعرف بمفتي المساكين، وروي عنه غير واحد من الأئمة، قال فيه أبو حاتم الرازي: هو شيخ. قال: وعلي بن المدني: هو مجهول لا أعرفه. قال ابن جرير: والصحيح الموقوف. انتهى. ورجال إسناده هذا الموقوف رجال الصحيح، فإن النسائي رواه في سننه، عن علي بن حجر، عن علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة عنه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، واللفظ له، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى خاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة،

ينبئ عنه قوله: ﴿تَوَاباً رَحِيماً﴾ بل إنما تقبل من البعض من البعض، كما بينه النظم القرآني ها هنا، فقوله: ﴿إِنَّمَا لِلتَّوْبَةِ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾. وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار، أو متعلق بمحذوف وقع حالاً عند من يجوز تقديم الحال التي هي ظرف على عاملها المعنوي، وقيل: المعنى: إنما التوبة على فضل الله ورحمته بعباده، وقيل: المعنى: إنما التوبة واجبة على الله، وهذا على مذهب المعتزلة؛ لأنهم يوجبون على الله عز وجل واجبات من جعلتها قبول توبة التائبين، وقيل: على هنا بمعنى عند، وقيل: بمعنى من.

وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: 31] وذهب الجمهور إلى أنها تصح من نذوب من ذنب خلافها للمعتزلة، وقيل: إن قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ هو الخبر. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر، أو بمحذوف وقع حالاً. والسوء هنا: العمل السيئ. وقوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة، أو حالاً، أي: يعملونها متصفين بالجهالة، أو جاهلين. وقد حكى القرطبي، عن قتادة أنه قال: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل معصية، فهي بجهالة عمداً كانت، أو جهلاً. وحكى عن الضحك، ومجاهد أن الجهالة هنا: العمد، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: 36] وقال الزجاج: معناها بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية، وقيل معناها: أنهم لا يعلمون كنه العقوبة، نكره ابن فورك، وضعفه ابن عطية. قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ معناها قبل أن يحضرهم الموت، كما يدل عليه قوله: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وبه قال أبو مجلز، والضحاك، وعكرمة، وغيرهم، والمراد قيل: المعاينة للملائكة، وغلبة المرء على نفسه، و«من» في قوله: ﴿مَنْ قَرِيبٍ﴾ للتبعية، أي: يتوبون بعض زمان قريب، وهو ما عدا وقت حضور الموت، وقيل معناها: قبل المرض، وهو ضعيف، بل باطل لما قدمنا، ولما أخرجه أحمد، والترمذي، وحسنه، وابن ملجم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ» وقيل معناها: يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار. قوله: ﴿فَاُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم بعد بيانه أن التوبة لهم مقصورة عليهم. وقوله: ﴿وَلَيْسَتْ لِلتَّوْبَةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة، ثم تاب من قريب قوله: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ حتى حرف ابتداء، والجملة المنكورة بعدها غاية لما قبلها، وحضور الموت حضور علاماته، وبلوغ المريض إلى حالة السيق، ومصيره مغلوباً على نفسه مشغولاً بخروجها من بدنه، وهو وقت الفرغرة المذكورة في

لهن ترك التعفف ﴿وَاللَّاتِي﴾ جمع التي بحسب المعنى لولفظ، وفيه لغات: اللاتي بإثبات التاء، والياء، واللات بحذف الياء، وإبقاء الكسرة؛ لتدل عليها، واللاتي بالهمزة، والياء، واللاء بكسر الهمزة، وحذف الياء، ويقال في جمع الجمع اللواتي، واللواتي، واللوات، واللاء. والفاحشة: الفعلة القبيحة، وهي مصدر كالعافية، والعاقبة، وقرأ ابن مسعود: ﴿بِالْفَاحِشَةِ﴾. والمراد بها هنا: الزنا خاصة، وإتيانها فعلها، ومباشرتها. والمراد بقوله: ﴿مَنْ نَسَأَكُمْ﴾ المسلمات، وكذا ﴿مَنْكُمْ﴾ المراد به: المسلمون. قوله: ﴿فَامْسُكُوهُنَّ فِي اللَّيُوتِ﴾ كان هذا في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ [النور: 2] وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبس المذكور، وكذلك الأذى باقيا مع الجلد؛ لأنه لا تعارض بينهما بل الجمع ممكن. قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ هو ما في حديث عبادة الصحيح من قوله ﷺ: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، الحثيث. قوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ اللذان تثنية الذي، وكان القياس أن يقال للذيان كرحيان. قال سيبويه: حذفت الياء؛ ليفرق بين الأسماء الممكنة، وبين الأسماء المبهمة. وقال أبو علي: حذفت الياء تخفيفاً. وقرأ ابن كثير: ﴿لِلَّذَانِ﴾ بتشديد النون، وهي لغة قريش، وفيه لغة أخرى، وهي: ﴿لِلَّذَا﴾ بحذف النون. وقرأ الباقر بتخفيف النون. قال سيبويه: المعنى، وفيما يتلى عليكم اللذان يأتياها أي: الفاحشة منكم، وبخلت الفاء في الجواب؛ لأن في الكلام معنى الشرط. والمراد بالذنان هنا: الزاني، والزانية تغليبا، وقيل: الآية الأولى في النساء خاصة محصنات، وغير محصنات، والثانية في الرجال خاصة، وجاء بلفظ التثنية لبيان صنفَي الرجال من أحصن، ومن لم يحصن، فعقوبة النساء للحبس، وعقوبة الرجال الأذى، واختار هذا النحاس، ورواه عن ابن عباس، ورواه القرطبي، عن مجاهد، وغيره، واستحسنه. وقال السدي، وقاتدة، وغيرهما الآية الأولى في النساء المحصنات، ويخل معهن الرجال المحصنون، والآية الثانية في الرجل، والمرأة البكرين، ووجهه الطبري، وضعفه النحاس وقال: تغليب المؤنث على المذكر بعيد. وقال ابن عطية: إن معنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يقلق عنه، وقيل: كان الإمساك للمرأة الزانية نون الرجل، فخصت المرأة بالذكر في الإمساك، ثم جمعا في الإيذاء، قال قتادة: كانت المرأة تحبس ويؤذنان جميعاً. واختلف المفسرون في تفسير الأذى، فقيل التوبيخ، والتعيير، وقيل: السب، والجفاء من نون تعيير، وقيل: النيل باللسان، والضرب بالنعال، وقد ذهب قوم إلى أن الأذى منسوخ كالحبس، وقيل: ليس بمنسوخ كما تقدم في الحبس. قوله: ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ أي: من الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل فيما بعد ﴿فَاعْرَضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: اتركوهما، وكفوا عنهما الأذى، وهذا كان قبل نزول الحدود على ما تقدم من الخلاف. قوله: ﴿إِنَّمَا لِلتَّوْبَةِ عَلَى اللَّهِ﴾ استئناف لبيان أن التوبة ليست بمقبولة على الإطلاق، كما

جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: القريب ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن الضحاك قال: كل شيء قبل الموت، فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت، فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت، فليس له ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: القريب: ما لم يغفر، وقد وردت أحاديث كثيرة في قبول توبة العبد ما لم يغفر، نكرها ابن كثير في تفسيره، ومنها الحديث الذي قدمنا نكره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَمْلِكُنَّ لَهُنَّ سَبْعًا مِائَةً تَرَثُنَّ بِمَا نَسِيْنَ كَرِهًا وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْهُمْ فَرَغْتُمْ مِنْ سَوَاسِئِهِمْ وَتَرَايْتُمْ مَخِرَّكُمْ عَلَى الْقَوْلِ فَلْيَنْتَهِزُوا لَهُمْ إِنْ هُمْ غَيْرُ مَعَاصِينَ ١٠١

هذا متصل بما تقدم من نكر الزوجات، والمقصود نفي الظلم عنهن، والخطاب للأولياء، ومعنى الآية يتضح بمعرفة سبب نزولها، وهو ما أخرجه البخاري، وغيره، عن ابن عباس في قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا» قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بأمراته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجها، وإن شاءوا لم يزوجها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت. وفي لفظ لأبي داود عنه في هذه الآية: كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها حتى يموت، أو ترد إليه صداقتها. وفي لفظ لابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دمية حبسها حتى تموت، فيرثها. وقد روى هذا السبب بالفاظ، فمعنى قوله: «لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا» أي: لا يحل لكم أن تآخروهن بطريق الإرث، فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم، وتحبسونهن لأنفسكم «وَلَا» يحل لكم أن «تعضلوهن» عن أن يتزوجن غيركم لتآخزنوا ميراثهن إذا متن، أو ليفعلن إليكم صداقهن إذا أنتمن لهن بالنكاح. قال الزهري، وأبو مجلز: كان من عاداتهم إذا مات الرجل، وله زوجة ألقى ابنه من غيرها، أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها، ومن أوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من غيره، وأخذ صداقها، ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها لتفتدي منه بما ورثت من الميت، أو تموت، فيرثها، فنزلت الآية. وقيل: الخطاب لأزواج النساء إذا حبسوهن مع سوء العشرة طمعاً في إرثهن، أو يفتدين ببعض مهرهن، واختاره ابن عطية. قال: وليل ذلك قوله: «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ» إذا أتت بفاحشة، فليس للولي حبسها حتى تذهب بماله إجماعاً من الأمة، وإنما ذلك للزوج. قال الحسن: إذا زنت البكر، فإنها تجلد مائة، وتنفي،

الحديث السابق، وهي بلوغ روحه حلقومه، قاله الهروي. وقوله: «قَالَ إِنِّي تَبِتُ الْآنَ» أي: وقت حضور الموت. قوله: «وَلَا لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ» معطوف على الموصول في قوله: «لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» أي: ليست التوبة لأولئك، ولا للذين يموتون، وهم كفار مع أنه لا توبة لهم رأساً، وإنما نكروا مبالغة في بيان عدم قبول توبة من حضرهم الموت، وأن وجودها كعدمها.

وقد أخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس في قوله: «وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ» قال: كانت المرأة إذا فجرت حبست في البيوت، فإن ماتت ماتت، وإن عاشت عاشت، حتى نزلت الآية في سورة النور: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا» [النور: 2] فجعل الله لهن سبيلاً. فمن عمل شيئاً جلد، وأرسل، وقد روى هذا عنه من وجوه، وأخرج أبو داود في سننه عنه، والبيهقي في قوله: «وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ» إلى قوله: «سَبِيلًا» ثم جمعها جميعاً، فقال: «وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَنُوهمَا» ثم نسخ ذلك بآية الجلد، وقد قال بالنسخ جماعة من التابعين، أخرجه أبو داود، والبيهقي، عن مجاهد، وأخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، وأخرجه البيهقي في سننه، عن الحسن، وأخرجه ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، وأخرجه ابن جرير عن السدي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: «وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ» قال: كان الرجل إذا زنا أؤدي بالتعيير، وضرب بالنعال، فأنزل الله بعد هذه الآية: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» [النور: 2] فإن كانا محصنين رجماً في سنة رسول الله ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: «وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ» قال: الرجلان الفاعلان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة: «وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ» يعني البكرين. وأخرج ابن جرير، عن عطاء قال: الرجل، والمرأة، وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: «إِنَّمَا لِلتَّوْبَةِ عَلَى اللَّهِ» الآية قال: هذه للمؤمنين وفي قوله: «وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» قال: هذه لاهل النفاق «وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ» قال: هذه لاهل الشرك. وأخرج ابن جرير، عن الربيع مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى به، فهو جهالة عمداً كان، أو غيره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن أبي العالية: أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد، فهو جهالة. وأخرج ابن جرير من طريق الكلبي، عن أبي عن صالح، عن ابن عباس في قوله: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ» الآية، قال: من عمل السوء، فهو جاهل من جهالته عمل السوء «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» قال: في الحياة، والصحة، وأخرج ابن

للإنكار، والتقريع. والجملة مقررة للجملة الأولى المشتملة على النهي. وقوله: ﴿وكيف تلخونوه﴾ إنكار بعد إنكار مشتمل على العلة التي تقتضي منع الأخذ، وهي: الإفضاء. قال الهروي: وهو إذا كنا في لحاف واحد، جامع، أو لم يجمع، وقال الفراء: الإفضاء، أن يخلو الرجل، والمرأة، وإن لم يجمعها. وقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: الإفضاء في هذه الآية: الجماع، وأصل الإفضاء في اللغة: المخالطة، يقال للشيء المختلط فضاء، ويقال القوم فوضى، وفضاء، أي: مختلطون لا أمير عليهم. قوله: ﴿ولأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ معطوف على الجملة التي قبله، أي: والحال أن قد أقضى بعضكم إلى بعض، وقد أخذن منكم ميثاقاً غليظاً، وهو عقد النكاح، ومنه قوله ﷺ: «فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ [البقرة: 229] وقيل: هو الأولاد. قوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء﴾ نهى عما كانت عليه الجاهلية من نكاح نساء آبائهم إذا ماتوا، وهو شروع في بيان من يحرم نكاحه من النساء، ومن لا يحرم. ثم بين سبحانه وجه النهي عنه، فقال: ﴿إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾ هذه الصفات الثلاث تدل على أنه من أشد المحرمات، وأقبحها، وقد كانت الجاهلية تسميه نكاح المقت. قال ثعلب: سألت ابن الأعرابي، عن نكاح المقت، فقال: هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها، أو مات عنها، ويقال لهذا الضيم، وأصل المقت البغض، من مقته يمقتة مقتاً، فهو ممقوت، ومقيت. قوله: ﴿إلا ما قد سلف﴾ هو استثناء منقطع أي: لكن ما قد سلف فاجتنبوه، ودعوه، وقيل: إلا بمعنى بعد، أي: بعد ما سلف، وقيل: المعنى: ولا ما سلف، وقيل: هو استثناء متصل من قوله: ﴿ما نكح آبائكم﴾ يفيد المبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعلق بالمحال: يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف، فأنكحوا، فلا يحل لكم غيره. قوله: ﴿وساء سبيلاً﴾ هي جارية مجرى بئس في الذم، والعمل، والمخصوص بالذم محذوف، أي: ساء سبيلاً سبيل ذلك النكاح، وقيل: إنها جارية مجرى سائر الأفعال، وفيها ضمير يعود إلى ما قبلها.

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وقد كان لهم ذلك في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في كبيشة بنت معمر بن معن بن عاصم من الأوس كانت عند أبي قيس بن الأسلت، فتوفي عنها، فجنح عليها ابنه، فجاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت، فأنكح، فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن عبد الرحمن بن البيلماني في قوله: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر

وترد إلى زوجها ما أخذت منه. وقال أبو قلابة: إذا زنت امرأة الرجل، فلا بأس أن يضارها، ويشق عليها حتى تقتدى منه، وقال السدي: إذا فعلن ذلك، فخنوا مهورهن. وقال قوم: الفاحشة البذاءة باللسان، وسوء العشرة قولاً وفعلًا. وقال مالك، وجماعة من أهل العلم: للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك. هذا كله على أن الخطاب في قوله: ﴿ولا تعضلوهن﴾ للزوج، وقد عرفت مما قدمنا في سبب النزول أن الخطاب في قوله: ﴿ولا تعضلوهن﴾ لمن خوطب بقوله: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ فيكون المعنى: ولا يحل لكم أن تمنعن من الزوج: ﴿لنذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ أي: ما آتاهن من ثروته: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ جاز لكم حبسهن عن الأزواج، ولا يخفى ما في هذا من التعسف مع عدم جواز حبس من آتت بفاحشة عن أن تتزوج، وتستعف من الزنا، وكما أن جعل قوله: ﴿ولا تعضلوهن﴾ خطاباً للأولياء فيه هذا التعسف، كذلك جعل قوله: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ خطاباً للأزواج فيه تعسف ظاهر مع مخالفته لسبب نزول الآية الذي نكرناه، والأولى أن يقال إن الخطاب في قوله: ﴿لا يحل لكم﴾ للمسلمين، أي: لا يحل لكم معاشر المسلمين أن ترثوا النساء كرهاً، كما كانت تفعله الجاهلية، ولا يحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم، أي: تحبسوهن عنكم مع عدم رغوبكم فيهن، بل لقصد أن تذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهر يفتنين به من الحبس، والبقاء تحتكم، وفي عقبتكم مع كراهتكم لهن: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ جاز لكم مخالعتهن ببعض ما آتيتموهن. قوله: ﴿مبينة﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، وحمرزة، والكسائي بكسر الياء. وقرأ الباقر بفتحها. وقرأ ابن عباس: ﴿مبينة﴾ بكسر الباء، وسكون الياء من إبان الشيء، فهو مبين. قوله: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي: بما هو معروف في هذه الشريعة، وبين أهلها من حسن المعاشرة، وهو خطاب للأزواج، أو لما هو أعم، وذلك يختلف باختلاف الأزواج في الغنى، والفقر، والرفاعة، والوضاعة: ﴿فإن كرهتموهن﴾ لسبب من الأسباب من غير ارتكاب فاحشة، ولا نشوز ﴿ففعسى﴾ أن يثول الأمر إلى ما تحبونه من ذهاب الكراهة، وتبيلها بالحببة، فيكون في ذلك خير كثير من استدامة الصحبة، وحصول الأولاد، فيكون الجزء على هذا محذوفاً مدلولاً عليه بعلته، أي: فإن كرهتموهن، فاصبروا: ﴿ففعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ قوله: ﴿وأتيتم إحداهن قنطاراً﴾ قد تقدم بيانه في آل عمران، والمراد به هنا: المال الكثير، فلا تأخروا منه شيئاً. قيل: هي محكمة، وقيل: هي منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ولا تأخروا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ [البقرة: 229] والأولى أن الكل محكم، والمراد هنا: غير المختلة لا يحل لزوجها أن يأخذ مما آتاه شيئاً. قوله: ﴿تأخونوهن بهتانا وإثماً مبيناً﴾ الاستفهام

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ صَوِيحًا ﴿٦٨﴾

ولده من ولته، وإن سفل. ويدخل في لفظ البنات بنات الأولاد، وإن سفلن، والأخوات تصدق على الأخت لأبوين، أو لأحدهما، والعمة اسم لكل أنثى شاركت أباك، أو جدك في أصله، أو أحدهما. وقد تكون العمة من جهة الأم وهي أخت أب الأم. والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك في أصلها أو في أحدهما، وقد تكون الخالة من جهة الأب، وهي أخت أم أبيك، وبنت الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بواسطة، ومباشرة، وإن بعثت، وكذلك بنت الأخت. قوله ﴿وَأَمْهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ هذا مطلق مقيد بما ورد في السنة من كون الرضاع في الحولين إلا في مثل قصة إرضاع سالم مولى أبي حنيفة، وظاهر النظم القرآني أنه يثبت حكم الرضاع بما يصدق عليه مسمى الرضاع، لغة، وشرعاً، ولكنه قد ورد تقييده بخمس رضعات في أحاديث صحيحة، والبحث عن تقرير ذلك، وتحقيقه يطول، وقد استوفيناها في مصنفاتنا، وقررنا ما هو الحق في كثير من مباحث الرضاع. قوله ﴿وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ الأخت من الرضاع هي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك، أو مع من قبلك، أو بعك من الإخوة، والأخوات، والأخت من الأم هي التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر. قوله ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ قد تقدم الكلام على اعتبار الدخول، وعدمه، والمحرمات بالمصاهرة أربع: أم المرأة، وابنتها، وزوجة الأب، وزوجة الابن. قوله ﴿وَأَوْرَاقُكُمْ﴾ الربيبة بنت امرأة الرجل من غيره؛ سميت بذلك؛ لأنه يرببها في حجره، فهي مربوبة فعيلة بمعنى مفعولة. قال القرطبي: واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم، وإن لم تكن الربيبة في حجره، وشذ بعض المتقدمين، وأهل الظاهر، فقالوا: لا تحرم الربيبة إلا أن تكون في حجر المتزوج، فلو كانت في بلد آخر، وفارق الأم، فله أن يتزوج بها؛ وقد روي ذلك عن علي. قال ابن المنذر، والطحاوي: لم يثبت ذلك عن علي؛ لأن راويه إبراهيم بن عبيد، عن مالك بن أوس بن الحنثان، عن علي، وإبراهيم هذا لا يعرف. وقال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا عن علي: وهذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم. والحجور جمع حجر. والمراد: أنهم في حضنة أمهاتهم تحت حماية أزواجهن، كما هو الغالب، وقيل المراد بالحجور: البيوت، أي: في بيوتكم، حكاه الأثرم عن أبي عبيدة. قوله ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا تَخْلُتُمْ بِهِمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في نكاح الربايب، وهو: تصريح بما دل عليه مفهوم ما قبله.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الدخول الموجب لتحريم الربايب: فروى عن ابن عباس أنه قال: للدخول الجماع، وهو قول طاوس، وعمر بن دينار، وغيرهما. وقال مالك، والثوري، وأبو حنيفة، والأوزاعي، والليث، والزيدي: إن الزوج إذا لمس الأم لشهوة حرمت عليه ابنتها، وهو أحد قولي الشافعي. قال ابن جرير الطبري: وفي إجماع الجميع أن خلوة الرجل بامراته لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل

قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي: نكاحهن، وقد بين الله سبحانه في هذه الآية ما يحل، وما يحرم من النساء، فحرم سبعة من النسب، وستاً من الرضاع، والصهر، والحقت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة، وعمتها، وبين المرأة، وخالتها، ووقع عليه الإجماع. فالسبع المحرمات من النسب الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت. والمحرمات بالصهر، والرضاع: الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء، والربائب، وحلائل الإبناء، والجمع بين الأختين، فهؤلاء ست، والسابعة منكوحات الآباء، والثامنة الجمع بين المرأة، وعمتها. قال الطحاوي: وكل هذا من المحكم المتفق عليه، وغير جائز نكاح واحدة منهن بالإجماع إلا أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن، فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة، ولا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم. وقال بعض السلف: الأم، والربيبة سواء لا تحرم منهما واحدة إلا بالدخول بالآخرى. قالوا: ومعنى قوله: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ أي: اللاتي نخلتم بهن، وزعموا أن قيد الدخول راجع إلى الأمهات، والربائب جميعاً، رواه خلاص عن علي بن أبي طالب. وروى عن ابن عباس، وجابر، وزيد بن ثابت، وابن الزبير، ومجاهد، قال القرطبي: ورواية خلاص عن علي لا تقوم بها حجة، ولا تصح روايته عند أهل الحديث، والصحيح عنه مثل قول الجماعة. وقد أجيب عن قولهم إن قيد الدخول راجع إلى الأمهات، والربائب بأن ذلك لا يجوز من جهة الإعراب، وبيانه أن الخبرين إذا اختلفا في العامل لم يكن نعتهما واحداً، فلا يجوز عند النحويين مررت بنسائك، وهويت نساء زيد الظريقات، على أن يكون الظريقات نعتاً للجميع، فكذلك في الآية لا يجوز أن يكون اللاتي نخلتم بهن نعتاً لهما جميعاً؛ لأن الخبرين مختلفان. قال ابن المنذر: والصحيح قول الجمهور للدخول جميع أمهات النساء في قوله: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾. ومما يدل على ما ذهب إليه الجمهور ما أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريقين عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «إذا نكح الرجل المرأة، فلا يحل له أن يتزوج أمها نخل بالابنة أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم، فلم يدخل بها، ثم طلقها، فإن شاء تزوج الابنة» قال ابن كثير في تفسيره مستدلاً للجمهور: وقد روي في ذلك خبر غير أن في إسناده نظراً، فنكر هذا الحديث، ثم قال، وهذا الخبر، وإن كان في إسناده ما فيه، فإن إجماع الحجة على صحة القول به يغني عن الاستشهاد على صحته بغيره، قال في الكشاف: وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم لكون تحريم الربائب على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى. انتهى. ودعوى الإجماع منقوعة بخلاف من تقدم. وأعلم أنه يدخل في لفظ الأمهات أمهاتهن، وجداتهن، وأم الأب، وجداته، وإن علون؛ لأن كلهن أمهات لمن

أبناءكم ﴿[الأحزاب: 4] ومنه: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ [الأحزاب: 40] وأما زوجة الابن من الرضاع، فقد ذهب الجمهور إلى أنها تحرم على أبيه، وقد قيل: إنه إجماع مع أن الابن من الرضاع ليس من أولاد الصلب. ووجهه ما صح عن النبي ﷺ من قوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» ولا خلاف أن أولاد الأولاد، وإن سفلوا بمنزلة أولاد الصلب في تحريم نكاح نسائهم على آبائهم.

وقد اختلف أهل العلم في وطء الزنا هل يقتضي التحريم أم لا؟ فقال أكثر أهل العلم: إذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك، وكذلك لا تحرم عليه امراته إذا زنا بأمرها، أو بابنتها، وحسبه أن يقام عليه الحد، وكذلك يجوز له عندهم أن يتزوج بأم من زنى بها، وبابنتها. وقالت طائفة من أهل العلم: إن الزنا يقتضي التحريم، حكى ذلك عن عمران بن حصين، والشعبي، وعطاء، والحسن، وسفيان الثوري، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي، وحكى ذلك عن مالك، والصحيح عنه كقول الجمهور. احتج الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ﴾ ويقولون: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ والموطوءة بالزنا لا يصح عليها أنها من نسائهم، ولا من حلائل آبائهم.

وقد أخرج الدارقطني عن عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة، فأراد أن يتزوجها، أو إبنتها، فقال: لا يحرم الحرام الحلال». واحتج المحرمون بما روي في قصة جريج الثابتة في الصحيح أنه قال: يا غلام من أبوك؟ فقال: فلان الراعي، فنسب الابن نفسه إلى أبيه من الزنا، وهذا احتجاج ساقط، واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة، وإبنتها، ولم يفصل بين الحلال، والحرام». ويجب عنه بأن هذا مطلق مقيد بما ورد من الأدلة الدالة على أن الحرام لا يحرم الحلال.

واختلفوا في اللواط هل يقتضي التحريم أم لا؟ فقال الثوري: إذا لاط بالصبوي حرمت عليه أمه، وهو: قول أحمد بن حنبل قال: إذا تلوط بابن امراته، أو أبيها، أو أخيها حرمت عليه امراته. وقال الأوزاعي: إذا لاط بغلام وولد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوجها؛ لأنها بنت من قد نخل به. ولا يخفى ما في قول هؤلاء من الضعف، والسقوط النازل، عن قول القائلين بأن وطء الحرام يقتضي التحريم بدرجات لعدم صلاحية ما تمسك به أولئك من الشبه على ما زعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم. قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ أي: وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين، فهو في محل رفع عطفاً على المحرمات السابقة، وهو يشمل الجمع بينهما بالنكاح، والوطء بملك اليمين. وقيل: إن الآية خاصة بالجمع في النكاح لا في ملك اليمين، وأما في الوطء بالملك، فلا حق بالنكاح، وقد أجمعت الأمة على منع جمعها في عقد نكاح.

واختلفوا في الأختين بملك اليمين، فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما في الوطء بالملك، وأجمعوا على

مسيبها، ومباشرتها، وقبل النظر إلى فرجها لشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع. انتهى. وهكذا حكى الإجماع القرطبي، فقال: وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها، أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها. واختلفوا في النظر، فقال مالك: إذا نظر إلى شعرها، أو صدرها، أو شيء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها، وابنتها. وقال الكوفيون: إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة لمس المس للشهوة، وكذا قال الثوري، ولم ينكر الشهوة. وقال ابن أبي ليلى: لا تحرم بالنظر حتى يلمس، وهو قول الشافعي. والذي ينبغي التوصل إليه في مثل هذا الخلاف هو: النظر في معنى الدخول شرعاً أو لغة، فإن كان خاصاً بالجماع، فلا وجه لإلحاق غيره به من لمس، أو نظر، أو غيرهما، وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصح على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك. وأما الربية في ملك اليمين فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه كره ذلك. وقال ابن عباس: أحلتها آية، وحرمتها آية، ولم أكن لأفعله. وقال ابن عبد البر: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة، وابنتها من ملك اليمين؛ لأن الله حرم ذلك في النكاح قال: ﴿وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ وَرِبَائِكُمْ بِلَاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نَسَائِكُمْ﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روي، عن عمر، وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى، ولا من تبعهم. انتهى. قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ الحلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، سميت بذلك؛ لأنها تحل مع الزوج حيث حل، فهي فعيلة بمعنى فاعلة. وذهب الزجاج، وقوم إلى أنها من لفظة الحلال، فهي حليلة بمعنى محللة. وقيل: لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه. وقد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء، وما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء كان مع العقد وطء، أو لم يكن، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾.

واختلف الفقهاء في العقد إذا كان فاسداً هل يقتضي التحريم أم لا؟ كما هو مبين في كتب الفروع. قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الأمصار أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه، وابنه، وعلى أجداده. وأجمع العلماء على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرمها على أبيه، وابنه، فإذا اشترى جارية فلمس، أو قبل حرمت على أبيه، وابنه لا أعلمهم يختلفون فيه، فوجب تحريم ذلك تسليماً لهم. ولما اختلفوا في تحريمها بالنظر دون للمس لم يجز ذلك لاختلافهم قال: ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ خلاف ما قلناه. قوله: ﴿السَّيْنِ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ وصف للأبناء، أي: دون من تبنيتم من أولاد غيركم، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية، ومنه قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْراً زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْراً﴾ [الأحزاب: 37] ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ

الخلاف المعروف في الأصول فتبصر هذا.

وقد اختلف أهل العلم إذا كان الرجل يوطأ مملوكته بالملك، ثم أراد أن يوطأ أختها بالملك، فقال علي، وابن عمر، والحسن البصري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه ببيع، أو عتق، أو بأن يزوجه. قال ابن المنذر: وفيه قول ثان لقتادة، وهو أنه ينوي تحريم الأولى على نفسه، وإن لا يقربها، ثم بمسك عنهما حتى تستبرئ المحرمة، ثم يغشى الثانية. وفيه قول ثالث، وهو أنه لا يقرب واحدة منهما، هكذا قال الحكم، وحمام. وروى معنى ذلك عن النخعي. وقال مالك: إذا كان عنده أختان بملك فله أن يوطأ إيهما شاء، والكف عن الأخرى موكل إلى أمانته، فإن أراد وطء الأخرى، فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعله من إخراج عن الملك، أو تزويج، أو بيع، أو عتق، أو كتابة، أو إخدام طويل، فإن كان يوطأ إحدهما، ثم وثب على الأخرى نون أن يحرم الأولى وقف عنهما، ولم يجز له قرب إحدهما حتى يحرم الأخرى، ولم يوكل ذلك إلى أمانته، لأنه متهم. قال القرطبي: وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها أنه ليس له أن ينكح أختها حتى تنقضي عدة المطلقة. واختلفوا إذا طلقها طلاقاً لا يملك رجعتها، فقالت طائفة: ليس له أن ينكح أختها، ولا رابعة حتى تنقضي عدة التي طلق. روي ذلك عن علي، وزيد بن ثابت، ومجاهد، وعطاء، والنخعي، والثوري، وأحمد بن حنبل، وأصحاب الرأي. وقالت طائفة: له أن ينكح أختها، وينكح الرابعة لمن كان تحته أربع، وطلق واحدة منه نكاحاً بائناً. روي ذلك عن سعيد بن المسيب، والحسن، والقاسم، وعروة بن الزبير، وابن أبي ليلى، والشافعي، وأبي ثور، وأبي عبيد. قال ابن المنذر: ولا أحسبه إلا قول مالك. وهو أيضاً إحدى الروايتين عن زيد بن ثابت، وعطاء. قوله: ﴿إلا ما قد سلف﴾ يحتمل أن يكون معناه معنى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ويحتمل معنى آخر، وهو جواز ما سلف وأنه إذا جرى الجمع في الجاهلية كان النكاح صحيحاً، وإذا جرى في الإسلام خير بين الأختين. والصواب الاحتمال الأول. قوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾ عطف على المحرمات المذكورات. وأصل التحصن التمتع، ومنه قوله تعالى: ﴿لتمنعنكم من بأسكم﴾ [الأنبياء: 80] أي: لتمنعنكم، ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس؛ لأنه يمنع صاحبه من الهلاك. والحصان بفتح الحاء: المرأة العفيفة لمنعها نفسها، ومنه قول حسان:

حصان رزان ما نرّز بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
والمصدر الحصانة بفتح الحاء. والمراد بالمحصنات هنا: نوات الأزواج. وقد ورد الإحصان في القرآن لمعان، هذا أحدها. والثاني يراد به الحرّة، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات﴾ [النساء: 25] وقوله: ﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين

أنه يجوز الجمع بينهما في الملك فقط. وقد توقف بعض السلف في الجمع بين الأختين في الوطء بالملك، وسيأتي بيان ذلك. واختلفوا في جواز عقد النكاح على أخت الجارية التي توطأ بالملك. فقال الأوزاعي: إذا وطئ جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوج أختها. وقال الشافعي: ملك اليمين لا يمنع نكاح الأخت. وقد ذهبت الظاهرية إلى جواز الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما يجوز الجمع بينهما في الملك. قال ابن عبد البر بعد أن ذكر ما روي عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الأختين في الوطء بالملك: وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز، ولا بالعراق، ولا ما وراءها من المشرق، ولا بالشام، ولا المغرب إلا من شذّ، عن جماعتهم باتباع الظاهر، ونفي القياس. وقد ترك من تعمد ذلك، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ إلى آخر الآية، أن النكاح بملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذا يجب أن يكون قياساً ونظراً الجمع بين الأختين، وأمّهات النساء، والريائب، وكذا هو عند جمهورهم، وهي: الحجة المحجوج بها من خلفها، وشذ عنها، والله المأمود. انتهى.

وأقول: ها هنا إشكال، وهو أنه قد تقرّر أن النكاح يقال على العقد فقط، وعلى الوطء فقد، والخلاف في كون أحدهما حقيقة، والآخر مجازاً، أو كونهما حقيقتين معروف، فإن حملنا هذا التحريم المذكور في هذه الآية، وهي قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم﴾ إلى آخرها، على أن المراد تحريم العقد عليهن لم يكن في قوله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ دلالة على تحريم الجمع بين المملوكتين في الوطء بالملك، وما وقع من إجماع المسلمين على أن قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ إلى آخره، يستوي فيه الحرائر، والإماء، والعقد، والملك لا يستلزم أن يكون محل الخلاف، وهو الجمع بين الأختين في الوطء بملك اليمين مثل محل الإجماع، ومجرد القياس في مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض، وإن حملنا التحريم المذكور في الآية على الوطء فقط لم يصح ذلك للإجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أول الآية إلى آخرها، فلم يبق إلا حمل التحريم في الآية على تحريم عقد النكاح، فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الأختين في الوطء بالملك إلى دليل، ولا ينفعه أن ذلك قول الجمهور، فالحق لا يعرف بالرجال، فإن جاء به خالصاً عن شوب الكدر فيها ونعمت، وإلا كان الأصل الحل، ولا يصح حمل النكاح في الآية على معنييه جميعاً أعني العقد، والوطء؛ لأنه من باب الجمع بين الحقيقة، والمجاز، وهو ممنوع، أو من باب الجمع بين معنييه المشترك، وفيه

للمعلوم عطفاً على الفعل المقتر في قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وقيل على قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ ولا يقدح في ذلك اختلاف الفعلين، وفيه دلالة على أنه يحل لهم نكاح ما سوى المنكورات، وهذا عام مخصوص بما صح عن النبي ﷺ من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها. وقد أبعد من قال: إن تحريم الجمع بين المنكورات مأخوذ من الآية هذه؛ لأنه حرم الجمع بين الأخنتين، فيكون ما في معناه في حكمه، وهو الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وكذلك تحريم نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرّة، كما سيأتي، فإنه يخص هذا العموم. قوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ في محل نصب على العلة، أي: حرم عليكم ما حرم، وأحل لكم ما أحل لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء اللاتي أحلن الله لكم، ولا تبتغوا بها الحرام، فتذهب حال كونكم: ﴿مُحْصَنِينَ﴾ أي: متعافين عن الزنا: ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ أي: غير زانين. والسفاح: الزنا، وهو مأخوذ من سفح الماء، أي: صبه، وسيلانه، فكانه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح، لا على وجه السفاح، وقيل: إن قوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بدل من «ما» في قوله: ﴿مَا وَرَاءَ نَفْسِكُمْ﴾ أي: وأحل لكم الابتغاء بأموالكم. والأول أولى، وأراد سبحانه بالأموال المنكورة ما يدفعونه في مهور الحرائر وأثمان الإماء. قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ﴾ «ما» موصولة فيها معنى الشرط، والفاء في قوله: ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ لتضمن الموصول معنى الشرط، والعائد محذوف، أي: فآتوهن أجورهن عليه.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الآية: فقال الحسن، ومجاهد، وغيرهما: المعنى فما انتفعتن، وتلذذتن بالجماع من النساء بالنكاح الشرعي ﴿فَآتُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ﴾ أي: مهورهن. وقال الجمهور: إن المراد بهذه الآية: نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام، ويؤيد ذلك قراءة أبي بن كعب، وابن عباس، وسعيد بن جبير: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى لَئْلِ مَسْمِي فَآتُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ﴾ ثم نهى عنها النبي ﷺ، كما صحّ ذلك من حديث عليّ قال: نهى النبي ﷺ عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، وهو في الصحيحين وغيرهما، وفي صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني، عن النبي ﷺ: أنه قال يوم فتح مكة «يا أيها الناس إني كنت أئنت لكم في الاستمتاع من النساء، والله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهنّ شيء، فليخلّ سبيلها، ولا تأخوها مما أتيتوهنّ شيئاً». وفي لفظ لمسلم أن ذلك كان في حجة الوداع، فهذا هو الناسخ. وقال سعيد بن جبير: نسختها آيات الميراث إذ المتعة لا ميراث فيها. وقالت عائشة، والقاسم بن محمد: تحريمها، ونسخها في القرآن، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: 29] وليست المنكوحة

أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ [المائدة: 5]. والثالث يراه به: العيافة ومنه قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٌ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ﴾ [النساء: 25]، ﴿مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: 24]، والرابع المسلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية، أعني قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وأبو قلاب، ومكحول، والزهري: المراد بالمحصنات هنا: المسيبات نوات الأزواج خاصة، أي: هنّ محرّمات عليكم إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي من أرض الحرب، فإن تلك حلال، وإن كان لها زوج، وهو قول الشافعي، أي: أن السباء يقطع العصمة، وبه قال ابن وهب، وابن عبد الحكم، وروياه عن مالك، وبه قال أبو حنيفة، وأصحابه، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور. واختلفوا في استبرائها بماذا يكون؟ كما هو منون في كتب الفروع. وقالت طائفة: المحصنات في هذه الآية العفاف، وبه قال أبو العالية، وعبيدة السلماني، وطاوس، وسعيد بن جبير، وعطاء، ورواه عبيدة، عن عمر. ومعنى الآية عندهم: كل النساء حرام إلا ما ملكت أيمانكم، أي: تملكون عصمتهنّ بالنكاح، وتملكون الرقبة بالشراء. وحكى ابن جرير الطبري أن رجلاً قال لسعيد بن جبير: أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية، فلم يقل فيها شيئاً؟ فقال: كان ابن عباس لا يعلمها. وروى ابن جرير أيضاً عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه أكباد الإبل. انتهى. ومعنى الآية، والله أعلم واضح لا ستره به، أي: وحُرِّمَتْ عليكم المحصنات من النساء، أي: المزوجات أعم من أن يكنّ مسلمات، أو كافرات إلا ما ملكت أيمانكم منهنّ، أما بسبي، فإنها تحلّ، ولو كانت ذات زوج، أو بشراء، فإنها تحلّ، ولو كانت مزوجة، وينفسخ النكاح الذي كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذي زوجها، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية إن شاء الله، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد قرئ: «المحصنات» بفتح الصاد وكسرها، فالفتح على أن الأزواج أحصنوهنّ؛ والكسر على أنهنّ أحصنّ فروجهنّ عن غير أزواجهنّ، أو أحصنّ أزواجهنّ. قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ منصوب على المصدرية، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً. وقال الزجاج، والكوفيون: إنه منصوب على الإغراء، أي: الزموا كتاب الله، أو عليكم كتاب الله، واعترضه أبو عليّ الفارسي بأن الإغراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب، وهذا الاعتراض إنما يتوجه على قول من قال: إنه منصوب بعلينكم المذكور في الآية، وروي عن عبيدة السلماني أنه قال: إن قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَنْعَى وَثِلَاتِ وَرِبَاعٍ﴾ وهو بعيد، بل هو إشارة إلى التحريم المذكور في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية. قوله: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ نَفْسِكُمْ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص، وأحلّ على البناء للمجهول، وقرأ الباقر على البناء

نفسه العنت. والمراد هنا: الأمة المملوكة للغير، وأما أمة الإنسان نفسه، فقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز له أن يتزوجها، وهي تحت ملكه لتعارض الحقوق، واختلافها. والفتيات جمع فتاة، والعرب تقول للمملوك فتى، وللمملوكة فتاة. وفي الحديث الصحيح: «لا يقولن أحبكم عبيدي، وأمتي، ولكن ليقل فتاتي، وفتاتي» قوله: «والله أعلم بإيمانكم» فيه تسلية لمن ينكح الأمة إذا اجتمع فيه الشرطان المنكوران، أي: كلكم بنو آدم، وأكرمكم عند الله أتقاكم، فلا تستنكفوا من الزواج بالإماء عند الضرورة، فربما كان إيمان بعض الإماء أفضل من إيمان بعض الحرائر. والجملة اعتراضية. وقوله: «بعضكم من بعض» مبتدأ وخبر، ومعناه: أنهم متصلون في الأنساب؛ لأنهم جميعاً بنو آدم، أو متصلون في الدين؛ لأنهم جميعاً أهل ملة واحدة، وكتابهم واحد ونبيهم واحد. والمراد بهذا: توطئة نفوس العرب؛ لأنهم يستهجنون أولاد الإماء، ويستصغرونهم، ويغضون منهم: «فإنكحوهن بإذن أهلهن» أي: بإذن المالكين لهن؛ لأن منافعهن لهن لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشيء منها إلا بإذن من هي له. وقوله: «وأتوهن لجورهن بالمعروف» أي: أتوا إليهن مهودهن بما هو بالمعروف في الشرع، وقد استدل بهذا من قال: إن الأمة أحق بمهرها من سيدها، وإليه ذهب مالك، وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد، وإنما اضافها إليهن؛ لأن الثانية إليهن تانية إلى سيدهن لكونهن ماله. وقوله: «محصنات» أي: عفائف. وقرأ الكسائي محصنات بكسر الصاد في جميع القرآن إلا في قوله: «والمحصنات من النساء» وقرأ الباقر بالفتح في جميع القرآن. وقوله: «غير مسافحات» أي: غير معلنات بالزنا. والاختدان: الاخلاء، والخدن، والخدين المخادن، أي: المصاحب، وقيل ذات الخدن: هي التي تزني سرّاً، فهو مقابل للمسافحة، وهي التي تجاهر بالزنا، وقيل: المسافحة، المبتولة، وذات الخدن، التي تزني بواحد. وكانت العرب تعيب الإعلان بالزنا، ولا تعيب اتخاذ الأخدان، ثم رفع الإسلام جميع ذلك، قال الله: «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» [الأنعام: 151]. وقوله: «فإذا أحصن» قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بفتح الهمزة. وقرأ الباقر بضمها، والمراد بالإحصان هنا: الإسلام. روي ذلك عن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، والأسود بن يزيد، وزد بن حبيش، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، وإبراهيم النخعي، والشعبي، والسدي، وروي عن عمر بن الخطاب، بإسناد منقطع، وهو الذي نص عليه الشافعي، وبه قال الجمهور. وقال ابن عباس، وأبو الدرداء، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، وغيرهم: إنه التزويج. وروي عن الشافعي، فعلى القول الأول لا حد على الأمة الكافرة. وعلى القول الثاني لا حد على الأمة التي لم تتزوج. وقال القاسم وسالم: إحصانها: إسلامها، وعفافها. وقال ابن جرير: إن معنى القراءتين مختلف، فمن قرأ أحصن بضم الهمزة، فمعناه التزويج، ومن قرأ بفتح الهمزة، فمعناه

بالمتعة من أزواجهم، ولا مما ملكت أيانهم، فإن من شأن الزوجة أن ترث، وتورث، وليست المستمتع بها كذلك. وقد روي عن ابن عباس أنه قال بجواز المتعة، وأنها باقية لم تنسخ، وروى عنه أنه رجع عن ذلك عند أن بلغه النسخ. وقد قال بجوازها جماعة من الروافض، ولا اعتبار بأقوالهم. وقد اتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسألة، وتقوية ما قاله المجوزون لها، وليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه.

وقد طولنا البحث، وبغنا الشبه الباطلة التي تمسك بها المجوزون لها في شرحنا للمنتقى، فليرجع إليه. وقوله: «فريضة» منتصب على المصدرية المؤكدة، أو على الحال، أي: مفروضة. وقوله: «ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة» أي: من زيادة، أو نقصان في المهر، فإن ذلك سائغ عند التراضي، هذا عند من قال بأن الآية في النكاح الشرعي، وأما عند الجمهور القائلين بأنها في المتعة، فالمعنى التراضي في زيادة مدة المتعة، أو نقصانها، أو في زيادة ما يقعه إليها إلى مقابل الاستمتاع بها، أو نقصانها. وقوله: «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات للمؤمنات» الطول: الغنى، والسعة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وابن زيد، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وجمهور أهل العلم. ومعنى الآية: فمن لم يستطع منكم غنى، وسعة في ماله يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات، فليكن من فتيانكم المؤمنات، يقال طال يطول طولا في الفضال، والقدرة، وفلان ذو طول، أي: ذو قدرة في ماله. والطول بالضم: ضد القصر. ومعنى قتادة، والنخعي، وعطاء، والثوري: إن الطول الصبر. ومعنى الآية عندهم أن من كان يهودى أمة حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن يتزوجها إذا لم يملك نفسه، وخاف أن يبغى بها، وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة. وقال أبو حنيفة، وهو مروى عن مالك: إن الطول المرأة الحرة، فمن كان تحته حرة لم يحل له أن ينكح الأمة، ومن لم يكن تحته حرة جاز له أن يتزوج أمة، ولو كان غنياً، وبه قال أبو يوسف، واختاره ابن جرير، واحتج له. والقول الأول هو المطابق لمعنى الآية، ولا يخلو ما عده عن تكلف، فلا يجوز للرجل أن يتزوج بالأمة إلا إذا كان لا يقدر على أن يتزوج بالحرّة لعدم وجود ما يحتاج إليه في نكاحها من مهر، وغيره. وقد استدل بقوله: «من فتيانكم المؤمنات» على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وبه قال أهل الحجاز، وجوزّه أهل العراق، وبخلت الفاء في قوله: «فمما ملكت إيمانكم» لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقوله: «من فتيانكم المؤمنات» في محل نصب على الحال، فقد عرفت أنه لا يجوز للرجل الحر أن يتزوج بالمملوكة إلا بشرط عدم القدرة على الحرّة. والشرط الثاني ما سينكره الله سبحانه آخر الآية من قوله: «ذلك لمن خشى العنت منكم» فلا يحل للفقير أن يتزوج بالمملوكة إلا إذا كان يخشى على

الحرائر؛ لأنهنَّ أضعف، وقيل: لأنهنَّ لا يصلنَّ إلى مرادهنَّ، كما تصل الحرائر؛ وقيل: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: 30] ولم ينكر الله سبحانه في هذه الآية العبيد، وهم لاحقون بالإماء بطريق القياس، وكما يكون على الإماء، والعبيد نصف الحد في الزنا، كذلك يكون عليهم نصف الحد في القذف، والشرب، والإشارة بقوله: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مِنْ خَشْيِ الْعَنَتِ مِنْكُمْ﴾ إلى نكاح الإماء. والعنت: الوقوع في الإثم، وأصله في اللغة انكسار العظم بعد الجبر، ثم استعير لكل مشقة: ﴿وَأَنْ تُصْبِرُوا﴾ عن نكاح الإماء ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ من نكاحهنَّ، أي: صبركم خير لكم؛ لأن نكاحهنَّ يفرضي إلى إرقاق الولد، والغض من النفس. قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اللام هنا هي لام كي التي تعاقب: «أن». قال الفراء: العرب تعاقب بين لام كي وأن، فتأتي باللام التي على معنى كي في موضع أن في أرت، وأمرت، فيقولون أرت أن تفعل، وأرت لتفعل، ومنه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ﴾ [الصف: 8] ﴿وَأَمَرْتُ لَأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: 15] ﴿وَأَمَرْنَا لِنَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 71] ومنه:

أريد لأنسى نكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل
وحكى الزجاج هذا القول وقال: لو كانت اللام بمعنى أن
لنخلت عليها لام أخرى، كما تقول: جئت كي تكرمني، ثم
تقول: جئت لكي تكرمني، وأنشد:

أرت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود
وقيل اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال، أو لتأكيد إرادة
التبيين، ومفعول ببين محذوف، أي: ليبين لكم ما خفي عليكم
من الخير، وقيل: مفعول يريد محذوف، أي: يريد الله هذا
ليبين لكم، وبه قال البصريون، وهو مروى عن سيبويه،
وقيل: اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار أن، وهي
وما بعدها مفعول للفعل المتقدم، وهو مثل قول الفراء
السابق، وقال بعض البصريين: إن قوله: ﴿يُرِيدُ﴾ مؤول
بالمصدر مرفوع بالابتداء مثل: تسمع بالمعيدي خير من أن
تراه. ومعنى الآية: يريد الله ليبين لكم مصالح دينكم، وما
يحل لكم، وما يحرم عليكم: ﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ﴾ أي: طرقهم، وهم الأنبياء، وأتباعهم لتقتلوا بهم: ﴿وَيُتَوَبُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ويريد أن يتوب عليكم فتوبوا إليه،
وتلاقوا ما فرط منكم بالتوبة يغفر لكم ذنوبكم: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ
أَنْ يُتَوَبَّ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تأكيد لما قد فهم من قوله: ﴿وَيُتَوَبُّ
عَلَيْكُمْ﴾ المتقدم؛ وقيل: الأول معناه للإرشاد إلى الطاعات،
والثاني فعل أسبابها، وقيل: إن الثاني لبيان كمال منفعة
إرادته سبحانه، وكمال ضرر ما يريده النية يتبعون
الشهوات، وليس المراد به: مجرد إرادة التوبة حتى يكون من
باب التكرير للتأكيد، قيل: هذه الإرادة منه سبحانه في جميع
أحكام الشرع، وقيل: في نكاح الأمة فقط.

واختلف في تعيين المتبعين للشهوات، فقيل: هم الزناة،
وقيل: اليهود والنصارى، وقيل: اليهود خاصة، وقيل هم

الإسلام. وقال قوم: إن الإحصان المذكور في الآية هو:
التزويج، ولكن الحد واجب على الأمة المسلمة إذا زنت قبل أن
تتزوج بالسنة، وبه قال الزهري. قال ابن عبد البر: ظاهر
قول الله عز وجل يقتضي أنه لا حد على الأمة، وإن كانت
مسلمة إلا بعد التزويج، ثم جاءت السنة بجلدها، وإن لم
تحصن، وكان ذلك زيادة بيان. قال القرطبي: ظهر المسلم
حمى لا يستباح إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف لولا ما
جاء في صحيح السنة من الجلد. قال ابن كثير في تفسيره:
والأظهر، والله أعلم أن المراد بالإحصان هنا: التزويج؛ لأن
سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَنْتُمْ فَانْ تَيْنِ بِفَاحِشَةٍ
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فالسياق
كله في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا
أَحْصَنْتُمْ﴾ أي: تزوجن، كما فسره به ابن عباس، ومن تبعه،
قال: وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور؛
لأنهم يقولون إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة سواء
كانت مسلمة، أو كافرة مزوجة، أو بكراً، مع أن مفهوم الآية
يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة من الإماء. وقد
اختلفت أجوبتهم عن ذلك، ثم نكر أن منهم من أجاب، وهم
الجمهور بتقديم منطوق الأحاديث على هذا المفهوم، ومنهم
من عمل على مفهوم الآية، وقال: إذا زنت، ولم تحصن، فلا
حد عليها، وإنما تضرب تأنيباً. قال: وهو المحكي عن ابن
عباس، وإليه ذهب طائفة، وسعيد بن جبيرة، وأبو عبيد،
وداود الظاهري في رواية عنه، فهؤلاء قنموا مفهوم الآية
على العموم، وأجابوا عن مثل حديث أبي هريرة، وزيد بن
خالد في الصحيحين، وغيرهما «أن رسول الله ﷺ سئل عن
الأمة: إذا زنت، ولم تحصن، قال: إن زنت، فاجلدوها، ثم إن
زنت، فاجلدوها، ثم إن زنت، فاجلدوها، ثم بيعوها، ولو
بضفير، بأن المراد بالجلد هنا: التأنيب، وهو تعسف، وأيضاً
قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: سمعت
رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة لأحدكم، فليجلدها الحد،
ولا يثرَب عليها. ثم إن زنت، فليجلدها الحد» الحديث.
ولمسلم من حديث علي قال: «يا أيها الناس أقيموا على
أركانكم الحد من أحصن، ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول
الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجدها الحديث. وأما ما أخرجه
سعيد بن منصور، وابن خزيمة، والبيهقي عن ابن عباس
قال: قال رسول الله ﷺ «ليس على الأمة حد حتى تحصن
بزوج، فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات
من العذاب» فقد قال ابن خزيمة، والبيهقي: إن رفعه خطأ،
والصواب وقفه قوله: ﴿فَإِنْ تَيْنِ بِفَاحِشَةٍ﴾ الفاحشة هنا
الزنا: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: الحرائر
الابكار؛ لأن الثيب عليها الرجم، وهو لا يتبعض، وقيل المراد
بالمحصنات هنا: المزوجات؛ لأن عليهنَّ الجلد، والرجم،
والرجم لا يتبعض، فصار عليهنَّ نصف ما عليهنَّ من الجلد.
والمراد بالعذاب هنا: الجلد، وإنما نقص حد الإماء عن حد

في النكاح. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: نكح في الحرائر، فأما الممالك، فلا بأس. وأخرج ابن المنذر عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج مالك، والشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عثمان بن عفان: أن رجلاً سأله عن الأختين في ملك اليمين هل يجمع بينهما؟ قال: أحلتها آية، وحُرِّمَتْها آية، وما كنت لأصنع ذلك، فخرج من عنده، فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أراه علي بن أبي طالب، فسأله عن ذلك، فقال: لو كان لي من الأمر شيء، ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي عن علي: أنه سئل عن رجل له أمتان أختان، وطئ إحداهما، وأراد أن يطأ الأخرى، فقال: لا حتى يخرجها من ملكه، وقيل: فلن زوجها عبده؟ قال: لا حتى يخرجها من ملكه. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين الأمتين، فكرهه، فقيل: يقول الله: ﴿إِذَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقال: ويعيركم أيضاً مما ملكت يمينكم. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي، من طريق أبي صالح، عن علي بن أبي طالب قال في الأختين المملوكتين: أحلتها آية، وحُرِّمَتْها آية، ولا أمر، ولا أنهي، ولا لحل، ولا أحرم، ولا أفلع أنا، وأهل بيتي. وأخرج أحمد عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على المرأة، وابنتها مملوكتين له؟ فقال: أحلتها آية، وحُرِّمَتْها آية، ولم أكن لأفعله. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي عنه في الأختين من ملك اليمين: أحلتها آية، وحُرِّمَتْها آية. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبيهقي، عن ابن عمر قال: إذا كان للرجل جارتان أختان، ففشى إحداهما، فلا يقرب الأخرى حتى يخرج التي غشى من ملكه. وأخرج البيهقي، عن مقاتل بن سليمان قال: إنما قال الله في نساء الآباء: ﴿إِذَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لأن العرب كانوا يتكلمون نساء الآباء، ثم حرم النسب والصهر، فلم يقل إلا ما قد سلف: لأن العرب كانت لا تنكح النسب، والصهر. وقال في الأختين: ﴿إِذَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لأنهم كانوا يجمعون بينهما، فحرم جمعهما جميعاً إلا ما قد سلف قبل التحريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ لما كان من جماع الأختين قبل التحريم. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ بعث يوم حنين جيشاً إلى أوطاس، فلقوا عدواً، فقاتلوه، فظفروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكان ناساً من أصحاب النبي ﷺ تخرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يقول: إلا ما أقام الله عليكم. وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن ذلك سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ

المجوس؛ لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب. والأول أولى. والميل: العول عن طريق الاستواء. والمراد بالشهوات هنا: ما حرّمه الشرع دون ما أحله، ووصف الميل بالعظم بالنسبة إلى ميل من اقترب خطيئة نادراً. قوله: ﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ بما مر من الترخيص لكم، أو بكل ما فيه تخفيف عليكم: ﴿وَوُضِعَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ عاجزاً غير قادر على ملك نفسه، ونفعها عن شهواتها، وفاء بحق التكليف، فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف، فلها أراد الله سبحانه التخفيف عنه.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾ هذا من النسب، وباقى الآية من الصهر، والسابعة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي، عن عمران بن حصين في قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ قال: هي مبهمه. وأخرج هؤلاء، عن ابن عباس قال: هي مبهمه إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها، أو ماتت لم تحل له أمها. وأخرج هؤلاء إلا البيهقي، عن علي في الرجل يتزوج المرأة، ثم يطلقها، أو ماتت قبل أن يدخل بها هل تحل له أمها؟ قال: هي بمنزلة الربيبية. وأخرج هؤلاء عن زيد بن ثابت أنه كان يقول: إذا ماتت عنده، فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها، فلا بأس أن يتزوج أمها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد قال في قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِبَائِيكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أريد بهما الدخول جميعاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن الزبير قال: الربيبية والام سواء لا بأس بهما إذا لم يدخل بالمرأة. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، بسند صحيح، عن مالك بن أوس بن الحنثان قال: كانت عندي امرأة، فتوفيت، وقد ولدت لي فوجئت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب، فقال: مالك؟ قلت: توفيت المرأة، فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهي بالطائف، قال: كانت في حجر؟ قلت لا، قال: فأنكحها، قلت: فلين قول الله: ﴿وَرِبَائِيكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قال: إنها لم تكن في حجر.

وقد قُتِمْنَا قول من قال: إنه إسناد ثابت على شرط مسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: الدخول الجماع. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطاء قال: كنا نتحدث أن محمداً ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكَ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: 4]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾ قال يعني

من النساء﴾ قال: كل ذات زوج إتيانها زنا إلا ما سببت. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، والطبراني، عن علي، وابن مسعود في قوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾ إلا ما ملكت إيمانكم﴾ قال: على المشركات إذا سبين حلت له. وقال ابن مسعود: المشركات، والمسلمات. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة، ولها زوج، فسيدها أحق ببضعها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾ قال: نوات الأزواج. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن أنس بن مالك مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن مسعود مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿والمحصنات﴾ قال: العفيفة العاقلة من مسلمة، أو من أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عنه في الآية قال: لا يحل له أن يتزوج فوق الأربع، فما زاد، فهو عليه حرام، كامه، وأخته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي العالية في قوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾ قال: يقول أنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى، وثلاث، ورباع، ثم حرم ما حرم من النسب، والصهر، ثم قال: ﴿والمحصنات من النساء﴾ فرجع إلى أول السورة، فقال: هن حرام أيضاً، إلا لمن نكح بصدائق، وسنة، وشهود. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عبيدة قال: لحل الله لك أربعاً في أول السورة، وحرم نكاح كل محصنة بعد الأربع إلا ما ملكت يمينك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «الإحصان إحصانان: إحصان نكاح، وإحصان عفاف، فمن قرأها، والمحصنات بكسر الصاد، فهن العفاف، ومن قرأها، والمحصنات بالفتح، فهن المتزوجات. قال ابن أبي حاتم: قال أبي هذا حديث منكرو. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿واحل لكم ما وراء ذلكم﴾ قال: ما وراء هذا النسب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: ما دون الأربع. وأخرج ابن جرير، عن عطاء قال: ما وراء ذات القرابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿واحل لكم ما وراء ذلكم﴾ قال: ما ملكت إيمانكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبيدة السلماني نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿محصنين غير مسافحين﴾ قال غير زانين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فأتوهن لجورهن﴾ يقول: إذا تزوج الرجل منكم المرأة، ثم نكحها مرة واحدة، فقد وجب صداقها كله، والاستمتاع هو: النكاح، وهو قوله: ﴿وأتوا النساء صنفاتهن﴾ [النساء: 4]. وأخرج الطبراني، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كانت المتعة في أول الإسلام، وكانوا يقرؤون هذه الآية: ﴿فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى﴾ [النساء: 24] الآية، فكان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج بقدر ما يرى أنه يفرغ من حاجته؛

ليحفظ متاعه، ويصلح شأنه. حتى نزلت هذه الآية: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ فسخت الأولى، فحرمت المتعة، وتصديقها من القرآن: ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ [المؤمنون: 6] وما سوى هذا الفرج، فهو حرام.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه: أن ابن عباس قرأ: ﴿فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى﴾ [النساء: 24] وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن أبي بن كعب أنه قرأها كذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد، أن هذه الآية في نكاح المتعة، وكذلك أخرج ابن جرير، عن السدي، والأحاديث في تحليل المتعة، ثم تحريمها، وهل كان نسخها مرة، أو مرتين؟ مذكورة في كتب الحديث. وقد أخرج ابن جرير في تهنيئه، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي، عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: ماذا صنعت ذهبت الركاب بفتيك، وقالت فيها الشعراء قال: وما قالوا؟ قلت: قالوا:

أقول للشيخ لما طال مجلسه يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس هل لك في رخصة الأعطاف آنسة تكون مثوك حتى مصدر الناس فقال: إنا لله، وإنا إليه راجعون، لا والله ما بهذا أفتيت، ولا هذا أرت، ولا أحلتها إلا للمضطر، وفي لفظ، ولا أحلت منها إلا ما أحل الله من الميتة، والدم، ولحم الخنزير. وأخرج ابن جرير، عن حضرمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن تترك أحدهم العسرة، فقال الله: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيت به من بعد الفريضة﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيت به﴾ قال: الراضي أن يوفى لها صداقها، ثم يخيرها. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية قال: إن وضعت لك منه شيئاً، فهو سائغ، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ يقول: من لم يكن له سعة ﴿أن ينكح المحصنات﴾ يقول الحرائر: ﴿فما ملكت إيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ فليكن من إماء المؤمنين ﴿محصنات غير مسافحات﴾ يعني عفاف غير زواني في سر، ولا علانية ﴿ولا متخذات أخدان﴾ يعني أخلاء ﴿فإذا أحصن﴾ ثم إذا تزوجت حراً، ثم زنت ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ قال: من الجلد ﴿لكن خشى للعت منكم﴾ هو: الزنا، فليس لأحد من الأحرار أن ينكح أمة إلا أن لا يقدر على حرة، وهو يخشى العنت ﴿وأن تصبروا﴾ عن نكاح الإماء ﴿فهو خير لكم﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن مجاهد ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ يعني من لا يجد منكم غنى ﴿أن ينكح المحصنات﴾ يعني: الحرائر، فليكنح الأمة المؤمنة ﴿وأن تصبروا﴾ عن نكاح الإماء ﴿خير لكم﴾ وهو حلال. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عنه قال مما وسع الله به على هذه الأمة نكاح الأمة النصرانية،

ولذلك سوف نؤتيهم لجورهم وكان الله للذين عملوا من الذنوب «غفوراً رحيمًا» [النساء: 152].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ يَدًا إِلَىٰ أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ رِزْقِكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٥١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوًًا وظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٥٢﴾ إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ تُكْوِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿١٥٣﴾

الباطل: ما ليس بحق، ووجوه ذلك كثيرة، ومن الباطل البيوعات التي نهى عنها الشرع، والتجارة في اللغة عبارة عن المعارضة، وهذا الاستثناء منقطع، أي: لكن تجارة عن تراض منكم جائزة بينكم، أو لكن كون تجارة عن تراض منكم حلالاً لكم. وقوله: «عن تراض» صفة لتجارة، أي: كائنة عن تراض، وإنما نص الله سبحانه على التجارة بكون سائر أنواع المعامضات لكونها أكثرها، وأغلبها، وتطلق التجارة على جزاء الأعمال من الله على وجه المجاز، ومنه قوله تعالى: «هل ألكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم» [الصف: 10]. وقوله: «يرجون تجارة لن تبور» [فاطر: 29].

اختلف العلماء في التراضي، فقالت طائفة: تمامه وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه: اختر كما في الحديث الصحيح: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، أو يقول أحدهما لصاحبه: اختر. وإليه ذهب جماعة من الصحابة، والتابعين، وبه قال الشافعي، والثوري، والأوزاعي، والليث، وابن عيينة، وإسحاق وغيرهم. وقال مالك، وأبو حنيفة: تمام البيع هو أن يعقد البيع بالأسنة، فيرتفع بذلك الخيار، وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته. وقد قرئ تجارة بالرفع على أن كان تامة، وتجارة بالنصب على أنها ناقصة. قوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» أي: لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضاً إلا بسبب أثبتته الشرع، أو لا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصي أو المراد النهي عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني. ومما يدل على ذلك احتجاج عمرو بن العاص بها حين لم يفتسل بالماء البارد حين أجنب في غزاة ذات السلاسل، فقرر النبي ﷺ احتجاجه، وهو في مسند أحمد، وسنن أبي داود وغيرهما. قوله: «ومن يفعل ذلك» أي: القتل خاصة، أو أكل أموال الناس ظلماً، والقتل عدواناً، وظلماً، وقيل: هو إشارة إلى كل ما نهى عنه في هذه السورة، وقال ابن جرير: إنه عائد على ما نهى عنه من آخر، وعيد، وهو قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كراهًا» [النساء: 19] لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قرن به وعيد إلا من قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم» فإنه لا وعيد بعده إلا قوله: «ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً» والعدوان: تجاوز الحد. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وقيل: إن معنى العدوان، والظلم واحد، وتكريره لقصد التأكيد، كما في قول الشاعر:

واليهودية، وإن كان موسراً. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عنه قال: لا يصلح نكاح إمام أهل الكتاب؛ لأن الله يقول: «من فتيانكم المؤمنات». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، عن الحسن: «أن رسول الله ﷺ نهى أن تنكح الأمة على الحرّة، والحرّة على الأمة، ومن وجد طولاً لحرّة، فلا ينكح أمة». وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي عن ابن عباس قال: لا يتزوج الحرّ من الإمام إلا واحدة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل في قوله: «والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض» يقول: أنتم إخوة بعضكم من بعض. وأخرج ابن المنذر، عن السدي: «فانكحوهن بإذن أهلهن» قال: بإذن مواليهن: «وتوهن لجورهن» قال: مهورهن. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: المسافحات المعلنات بالزنا، والمتخذات لخدان: ذات الخليل الواحد. قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفي، فأنزل الله: «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» [الأنعام: 151]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «فإذا لحصن» قال: إحصانها إسلامها. وقال عليّ: لجلوهن. قال ابن أبي حاتم، حديث منكر، وقال ابن كثير في إسناده ضعيف، ومبهم لم يسم، ومثله لا تقوم به حجة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: حدّ العبد يفترى على الحرّ أربعون. وأخرج ابن جرير عنه قال: لعنت الزنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: «ويريد الذين يتبعون الشهوات» قال: هم اليهود، والنصارى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس: «ويريد الذين يتبعون الشهوات» قال: الزنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: «يريد الله أن يخفف عنكم» يقول: في نكاح الأمة، وفي كل شيء فيه يسر. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد: «يريد الله أن يخفف عنكم» قال: رخص لكم في نكاح الإمام «وخلق الإنسان ضعيفاً» قال: لو لم يرخص له فيها. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: ثمانى آيات نزلت في سورة النساء من خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، وغربت: أولهن: «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم» [النساء: 26]، والثانية: «والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً» [النساء: 27]، والثالثة: «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً» [النساء: 28]، والرابعة: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَارًا مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ تُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا» [النساء: 31]، والخامسة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» [النساء: 40] الآية، والسادسة: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله» [النساء: 110] الآية، والسابعة: «إِنْ اللَّه لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» [النساء: 48، 116] الآية، والثامنة: «والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم

والفسى قولها كاذباً وميناً

وخرج بقيد العنوان والظلم ما كان من القتل بحق كالقصاص، وقتل المرتد، وسائر الحدود الشرعية، وكذلك قتل الخطأ. قوله: ﴿فسوف نصلي﴾ جواب الشرط، أي: نصله ناراً عظيمة: ﴿وكان ذلك﴾ أي: إصلاؤه النار ﴿على الله يسيراً﴾ لأنه لا يعجزه بشيء. وقرئ: ﴿نصليه﴾ بفتح الذون، روي ذلك عن الأعمش، والنخعي، وهو: على هذه القراءة منقول من صلى، ومنه شاة مصلية. قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي نهاكم الله عنها: ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: ننوبكم التي هي صفات، وحمل السيئات على الصفات هنا متعين لذكر الكبائر قبلها، وجعل اجتنابها شرطاً لتكفير السيئات.

وقد اختلف أهل الأصول في تحقيق معنى الكبائر، ثم في عدها، فاما في تحقيقها، فقيل: إن الذنوب كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال: الزنا صغيرة بالإضافة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقد روي نحو هذا عن الإسفرائيني، والجويني، والقشيري، وغيرهم قالوا: والمراد بالكبائر التي يكون اجتنابها سبباً: لتكفير السيئات هي: الشرك، واستلوا على ذلك بقراءة من قرأ: ﴿إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه﴾ وعلى قراءة الجمع، فالمراد أجناس الكفر، واستلوا على ما قالوه بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48] قالوا: فهذه الآية مقيدة لقوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ وقال ابن عباس: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وقال ابن مسعود: الكبائر ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية. وقال سعيد بن جبیر: كل ذنب نسبته الله إلى النار فهو كبيرة. وقال جماعة من أهل الأصول: الكبائر كل ذنب رتب الله عليه الحد، أو صرح بالوعيد فيه. وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره. وأما الاختلاف في عدها، فقيل: إنها سبع، وقيل: سبعون، وقيل: سبعمائة، وقيل: غير منحصرة، ولكن بعضها أكبر من بعض، وسيأتي ما ورد في ذلك إن شاء الله. قوله: ﴿وَنُخَلِّكُم مَّخْلَاطًا﴾ أي: مكان نخول، وهو الجنة: ﴿وَكُرِيماً﴾ أي: حسناً مرضياً، وقد قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، والكوفيون ﴿مَخْلَاطًا﴾ بضم الميم. وقرأ أهل المدينة بفتح الميم، وكلاهما اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، قال السيوطي بسند صحيح، عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: إنها محكمة ما نسخت، ولا تنسخ إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة، والحسن في الآية قال: كان الرجل يتخرج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية، فنسخ ذلك الآية

التي في النور: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ [النور: 61] الآية. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما البيع عن تراض» وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي صالح، وعكرمة في قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ قالوا: نهاهم عن قتل بعضهم بعضاً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن عطاء بن أبي رباح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن السدي: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ قال: أهل دينكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً﴾ يعني: متعمداً اعتداءً بغير حق: ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ يقول: كان عذابه على الله هيناً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: رأيت قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً﴾ في كل ذلك أم في قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾؟ قال: بل في قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾. وأخرج عبد بن حميد، عن أنس بن مالك قال: هان ما سالكم ربكم: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: كل ما نهى الله عنه، فهو كبيرة، وقد ذكرت الطرفة، يعني النظرة. وأخرج ابن جرير، عنه قال: كل شيء عصى الله فيه، فهو كبيرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: كل ما وعد الله عليه النار كبيرة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب عنه قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبیر ما قدمنا عنه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس: أنه سئل عن الكبائر أسبع هي؟ قال: هي إلى السبعين أقرب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: أن رجلاً سأل كم الكبائر أسبع هي؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وأخرج البيهقي في الشعب عنه: كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة، وليس بكبيرة ما تاب عنه العبد. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكرة قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بالكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس «شك شعبة» واليمين الغموس». وأخرج البخاري، ومسلم،

يتمنى أن يكون به حال مثل حال صاحبه من نون أن يتمنى زوال تلك الحال عن صاحبه، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، واستدلوا بالحديث الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار، وقد بوب عليه البخاري: «باب الاغتباط في العلم، والحكم» وعموم لفظ الآية يقتضي تحريم تمنى ما وقع به التفضيل سواء كان مصحوباً بما يصير به من جنس الحسد أم لا، وما ورد في السنة من جواز ذلك في أمور معينة يكون مخصصاً لهذا العموم، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقوله: «للرجال نصيب» الخ، فيه تخصيص بعد التعميم، ورجوع إلى ما يتضمنه سبب نزول الآية من أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال، ولا يغزي، ولا نقاتل، فنستشهد، وإنما لنا نصف الميراث، فنزلت. أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي، وقد روى نحو هذا السبب من طرق بالفاظ مختلفة. والمعنى في الآية: أن الله جعل لكل من الفريقين نصيباً على حسب ما تقتضيه إرادته، وحكمته، وعبر عن ذلك المجهول لكل فريق من فريقَي النساء، والرجال بالنصيب، مما اكتسبوا على طريق الاستعارة التبعية شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه. قال قتادة: للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب، والعقاب، وللنساء كذلك. وقال ابن عباس: المراد بذلك: الميراث والاكتساب على هذا القول بمعنى ما ذكرنا. قوله: «ووالسألو الله من فضله» عطف على قوله: «ولا تتمنوا» وتوسيط التعليل بقوله: «للرجال نصيب» الخ. بين المعطوف، والمعطوف عليه لتقرير ما تضمنه النهي، وهذا الأمر يدل على وجوب سؤال الله سبحانه من فضله، كما قاله جماعة من أهل العلم. قوله: «ولكل جعلنا مولى» مما ترك الولدان والأقربون أي: جعلنا لكل إنسان ورثة موالى يلون ميراثه، فلكل مفعول ثان قدم على الفعل؛ لتأكيد الشمول، وهذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها، أي: ليتبع كل أحد ما قسم الله له من الميراث، ولا يتمنأ ما فضل الله به غيره عليه، وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله بعدها: «والذين عاقدت أيمانكم» وقيل: العكس، كما روى ذلك ابن جرير. وذهب الجمهور إلى أن الناسخ لقوله «والذين عاقدت أيمانكم» قوله تعالى - وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض - والموالى جمع مولى، وهو: يطلق على المعتق، والمعتق، والناصر، وابن العم، والجار قيل: والمراد هنا: العصبية، أي: ولكل جعلنا عصبية يرثون ما أبقت الفرائض. قوله: «والذين عاقدت أيمانكم» المراد بهم: موالى الموالاة: كان الرجل من أهل الجاهلية يعاهد الرجل، أي: يحالفه فيستحق من ميراثه نصيباً، ثم ثبت في صدر

وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل واليه، قالوا: وكيف يلعن الرجل واليه؟ قال: يسب أباه، ويسب أمه، ويسب أمه، فيسب أمه». والأحاديث في تعداد الكبائر، وتعيينها كثيرة جداً، فمن رام الوقوف على ما ورد في ذلك، فعليه بكتاب الزواجر في الكبائر، فإنه قد جمع، فاعى.

واعلم أنه لا بد من تقييد ما في هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن أبي هريرة، وأبي سعيد أن النبي ﷺ جلس على المنبر، ثم قال: «والذي نفسي بيده ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويؤدي الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتى إنها لتصفق، ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود قال: إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا، وما فيها، ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 31] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48، 116] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ﴾ [النساء: 64] الآية، وقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: 110] الآية.

وَلَا تَمْنَوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَرَسَلُوا إِلَى اللَّهِ مِن تَضَلُّعٍ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٣١﴾ وَلِكُلِّ جَمَلًا مَّوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ آبَتَكُمْ فَتَأْتُواهُمْ بِنَصِيْبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٢﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَلِلْمَوْلَى فَلِلْمَوْلَى فَتَيْنَدُ حَفِظْتُ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي نَفَاوْنُ شُرَكَهُ لِيُظْهِرُوا أَفْهَرُهُمْ فِي الْأَمْصَارِ وَأَشْرُوهَا فَإِنَّ أَلَمَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله: «ولا تتمنوا» التمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل، كالتلف نوع منها يتعلق بالماضي، وفيه النهي عن أن يتمنى الإنسان ما فضل الله به غيره من الناس عليه، فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التي قسمها الله بين عباده على مقتضى إرادته، وحكمته البالغة، وفيه أيضاً نوع من الحسد المنهى عنه إذا صاحبه إرادة زوال تلك النعمة عن الغير.

وقد اختلف العلماء في الغبطة هل تجوز أم لا؟ وهي أن

العصيان. وقد تقدم بيان أصل معناه في اللغة. قال ابن فارس: يقال: نشزت المرأة: استعصت على بعلها، ونشز بعلها عليها: إذا ضربها وجفاها **﴿فَعَظُوهُنَّ﴾** أي: نكروهن بما أوجبه الله عليهن من الطاعة، وحسن العشرة، ورغبوهن، ورهبوهن، **﴿وَأَمْجِرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾** يقال: مَجَرَهُ، أي: تبعاده منه. والمضاجع: جمع مضجع، وهو محل الاضطجاع، أي: تبعادوا عن مضاجعتهن، ولا تسخلوهن تحت ما تجعلونه عليكم حال الاضطجاع من الثياب، وقيل: هو أن يوليها ظهره عند الاضطجاع، وقيل: هو كناية عن ترك جماعها، وقيل: لا تبث مع في البيت الذي يضطجع فيه **﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾** أي: ضرباً غير مبرح. وظاهر النظم القرآني أنه يجوز للزوج أن يفعل جميع هذه الأمور عند مخافة النشوز، وقيل: إنه لا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ، فإن أثر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر، وإن كفاه الهجر لم ينتقل إلى الضرب **﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾** كما يجب، وترك النشوز **﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾** أي: لا تتعرضوا لهن بشيء مما يكرهن لا بقول، ولا بفعل، وقيل: المعنى: لا تكلفوهن الحب لكم، فإنه لا يدخل تحت اختيارهن **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾** إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح، ولين الجانب، أي: وإن كنتم تقدرون عليهن، فأنكروا قدرة الله عليكم، فإنها فوق كل قدرة، والله بالمرصاد لكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** يقول: لا يتمنى الرجل، فيقول: ليت أن لي مال فلان، وأهله، فنهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله: **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** يعني مما ترك الوالدان، والأقربون للذكر مثل حظ الأنثيين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة: أن سبب نزول الآية أن النساء قلن: لو جعل أنصباؤنا في الميراث، كأنصباء الرجال؟ وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهن في الميراث. وقد تقدم ذكر سبب النزول. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قال: ليس بعرض الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة **﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قال: العبادة ليس من أمر الدنيا. وأخرج الترمذي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾** فإن الله يحب أن يسأله. قال الترمذي: كذا رواه حماد بن واقد، وليس بالحافظ، ورواه أبو نعيم، عن إسرائيل، عن حكيم بن جبيرة، عن رجل، عن النبي ﷺ: وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح، وكذا رواه ابن جرير، وابن مروي، ورواه أيضاً ابن مروي، عن حديث ابن عباس. وأخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس **﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّ﴾** قال: ورثة **﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ إِيْمَانَكُمْ﴾** قال: كان المهاجرون

الإسلام بهذه الآية، ثم نسخ بقوله: **﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾** [الأنفال: 75] وقراءة الجمهور: «عاقدت» وروي عن حمزة أنه قرأ: «عقدت» بتشديد القاف على التكتير، أي: والذين عقدت لهم إيمانكم الحلف، أو عقدت عهودهم إيمانكم، والتقدير على قراءة الجمهور: والذين عاقدتهم إيمانكم، فاتوهم نصيبهم، أي: ما جعلتموه لهم بعقد الحلف. قوله: **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾** بما فضل الله بعضهم على بعض **﴿هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى بَيَانِ الْعِلَّةِ الَّتِي اسْتَحَقَّ بِهَا الرِّجَالُ الزِّيَادَةَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ اسْتَحَقَّ الرِّجَالُ مَا اسْتَحَقُّوا مِمَّا لَمْ تَشَارِكْهُمْ فِيهِ النِّسَاءُ، فَقَالَ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾﴾** الخ، والمراد: أنهم يقومون بالنب عهدهن، كما تقوم الحكام، والأمراء بالنب عن الرعية، وهم أيضاً يقومون بما يحتج إليه من النفقة، والكسوة، والمسكن، وجاء بصيغة المبالغة في قوله: **﴿قَوَّامُونَ﴾** ليدل على أصالتهم في هذا الأمر، والباء في قوله: **﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾** للسببية والضمير في قوله: **﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** للرجال، والنساء، أي: إنما استحقوا هذه المزية؛ لتفضيل الله للرجال على النساء بما فضلهم به من كون فيهم الخلفاء، والسلاطين، والحكام، والأمراء، والغزاة، وغير ذلك من الأمور. قوله: **﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾** أي: وبسبب ما أنفقوا من أموالهم، وما مصدريه، أو موصولة، وكذلك هي في قوله: **﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾** ومن تبعيضية، والمراد: ما أنفقوه في الإنفاق على النساء، وبما دفعوه في مهورهن من أموالهم، وكذلك ما ينفقونه في الجهاد، وما يلزمهم في العقل.

وقد استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على جواز فسخ النكاح إذا عجز الزوج عن نفقة زوجته، وكسوتها، وبه قال مالك، والشافعي، وغيرهما. قوله: **﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾** أي: من النساء **﴿قَانِتَاتٌ﴾** أي: مطيعات لله قائمات بما يجب عليهن من حقوق الله، وحقوق أزواجهن **﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾** أي: لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهن عنهن من حفظ نفوسهن، وحفظ أموالهم، وما في قوله: **﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾** مصدريه، أي: بحفظ الله. والمعنى: أنهن حافظات لغيب أزواجهن بحفظ الله لهن، ومعونته، وتسديده، أو حافظات له بما استحفظهن من أداء الأمانة إلى أزواجهن على الوجه الذي أمر الله به، أو حافظات له بحفظ الله لهن بما أوصى به الأزواج في شأنهن من حسن العشرة، ويجوز أن تكون «ما» موصولة، والعائد محذوف، وقرأ أبو جعفر: **﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾** بنصب الاسم الشريف، والمعنى بما حفظن الله أي: حفظن أمره، أو حفظن دينه، فحفظ الضمير الراجع إليهن للعلم به، و«ما» على هذه القراءة مصدريه، أو موصولة، كالقراءة الأولى، أي: بحفظهن الله، أو بالذي حفظن الله به. قوله: **﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾** هذا خطاب للأزواج، قيل: الخوف هنا على بابه، وهو حالة تحدث في القلب عند حدوث أمر مكروه، أو عند ظن حدوثه، وقيل المراد: بالخوف هنا العلم. والنشوز:

لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري نون نوي رحمه
للاخوة التي أذى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ
جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ
فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ من النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد
ذهب الميراث، ويوصي له. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾
قال: عصبه ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ قال: كان الرجلان
أيهما مات، ورث الآخر، فانزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ
تَفْعَلُوا إِلَىٰ أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 6] يقول: إلا أن
يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية، فهو لهم جائز من
ثلث مال الميت، وهو المعروف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي
حاتم، عنه في الآية قال: كان الرجل قبل الإسلام يعاقد
الرجل يقول: ترثني، وأرثك، وكان الأحياء يتحالفون، فقال
رسول الله ﷺ: «كل حلف كان في الجاهلية، أو عقد أنكره
الإسلام، فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا عقد، ولا حلف في
الإسلام، فنسختها هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ
بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75]. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن
مردويه، والبيهقي، عنه في الآية قال: كان الرجل يحالف
الرجل ليس بينهما نسب، فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك
في الأنفال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾. وأخرج
عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن
الحسن: أن رجلاً من الأنصار لطم امرأته، فجاءت تلتصق
بالقصاص، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص، فنزل: ﴿وَلَا
تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: 114]
فسكت رسول الله ﷺ، ونزل القرآن: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ
عَلَى النَّسَاءِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: أردنا أمراً وأراد
الله غيره. وأخرج ابن مردويه، عن علي نحوه. وأخرج ابن
جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ
عَلَى النَّسَاءِ﴾ يعني أمراء عليهن أن تطيعه فيما أمرها
الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله
حافضة لماله ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ فضله عليها بنفقته،
وسعيه ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ قال: مطيعات ﴿حَافِظَاتُ
لِلْغَيْبِ﴾ يعني: إذا كنَّ كذا، فأحسنوا إليهن. وأخرج
عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة
﴿حَافِظَاتُ لِلْغَيْبِ﴾ قال: حافظات للغيب بما استودعهن
الله من حقه، وحافظات لغيب أزواجهن. وأخرج ابن
المنذر، عن مجاهد قال: ﴿حَافِظَاتُ لِلْغَيْبِ﴾ للأزواج.
وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: تحفظ على زوجها
ماله، وفرجها حتى يرجع، كما أمرها الله. وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه،
عن ابن عباس ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ قال: تلك
المرأة تنشز، وتستخف بحق زوجها، ولا تطيع أمره،
فأمره الله أن يعظها، وينكرها بالله، ويعظم حقه عليها،
فإن قبلت، وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير

وَأَنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأُمْنُوا حَكْمًا مِّنَ اللَّهِ. وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلَيْهَا
إِنْ يُرِيدُوا إِصْلَاحًا يُوَفِّي اللَّهُ بَيْنَهُمَا مِنْ اللَّهِ كَأَنْ عَلِيًّا خَيْرًا ﴿٣٥﴾
قد تقدم معنى الشقاق في البقرة، وأصله أن كل واحد
منهم يأخذ شقاً غير شق صاحبه، أي: ناحية غير ناحيته،
واضيف الشقاق إلى الظرف لإجرائه مجرى المفعول به،
كقوله تعالى: ﴿هَلْ مَكَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: 32] وقوله:
يا سارق الليلة أهل الدار

والخطاب للأمراء والحكام، والضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾
للزوجين؛ لأنه قد تقدم نكر ما يدل عليهما، وهو نكر الرجال،
والنساء ﴿فَابْعَثُوا﴾ إلي الزوجين ﴿حُكْمًا﴾ يحكم بينهما
ممن يصلح لذلك عقلاً، وبيناً، وإنصافاً، وإنما نص الله
سبحانه على أن الحكيمين يكونان من أهل الزوجين؛ لأنهما
أقعد بمعرفة أحوالهما، وإذا لم يوجد من أهل الزوجين من
يصلح للحكم بينهما كان الحكمان من غيرهم، وهذا إذا
أشكل أمرهما، ولم يتبين من هو المسيء منهما؛ فاما إذا
عرف المسيء، فإنه يؤخذ لصاحبه الحق منه، وعلى الحكيمين
أن يسعيا في إصلاح ذات البين جهدهما، فإن قدرا على ذلك
عملا عليه، وإن أعياهما إصلاح حالهما، ورأيا التفريق بينهما
جاز لهما ذلك من نون أمر من الحاكم في البلد، ولا توكيل
بالفرقة من الزوجين. وبه قال مالك، والأوزاعي، وإسحاق،
وهو مروى، عن عثمان، وعلي، وابن عباس، والشعبي،
والنخعي، والشافعي، وحكاه ابن كثير عن الجمهور، قالوا:
لأن الله قال: ﴿فَابْعَثُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾
وهذا نص من الله سبحانه أنهما قاضيان لا وكيلان، ولا
شاهدان. وقال الكوفيون، وعطاء، وابن زيد، والحسن، وهو

الآخر، فليس حكمه بشيء حتى يجتمعا.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالَّذِينَ إِحْسَنًا وَبَدَى الشَّرِّ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارَ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارَ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبَ بِالْجُنُبِ وَأَنَّى السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

قد تقدّم بيان معنى العبادة. وشيئاً إما مفعول به، أي: لا تشركوا به شيئاً من الأشياء من غير فرق بين حيٍّ وميت، وجماد وحيوان، وإما مصدر، أي: لا تشركوا به شيئاً من الاشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر، والأصغر، والواضح، والخفي. وقوله: ﴿إِحْسَانًا﴾ مصدر لفعل محذوف، أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً. وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع، وقد دل نكر الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادة الله، والنهي عن الإشراك به على عظم حقهما، ومثله: «إِنَّ اشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ» [لقمان: 14] فأمر سبحانه بأن يشكرا معه. قوله: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ أي: صاحب القرابة، وهو من يصح إطلاق اسم القرى عليه، وإن كان بعيداً. ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾ قد تقدّم تفسيرهم، والمعنى وأحسنوا بذى القرى إلى آخر ما هو مذكور في هذه الآية: ﴿وَالْجَارَ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: القريب جواره، وقيل: هو من له مع الجوار في الدار قرب في النسب ﴿وَالْجَارَ الْجُنُبِ﴾ المجانب، وهو مقابل للجار ذي القرى، والمراد من يصدق عليه مسمى الجوارم كون داره بعيدة، وفي ذلك دليل على تعميم الجيران بالإحسان إليهم سواء كانت الديار متقاربة، أو متباعدة، وعلى أن الجوار حرمة مرعية مأمور بها. وفيه رد من على يظن أن الجار مختص بالملاصق دون من بينه، وبينه حائل، أو مختص بالقرى دون البعيد، وقيل: إن المراد بالجار الجنب هنا: هو الغريب، وقيل: هو الأجنبي الذي لا قرابة بينه، وبين المجاور له. وقرأ الأعمش، والمفضل: ﴿وَالْجَارَ الْجُنُبِ﴾ بفتح الجيم، وسكون النون، أي: ذي الجنب، وهو: الناحية، وأنشد الاخفش:

الناس جنس، والأمير جنس

وقيل: المراد بالجار ذي القرى: المسلم، وبالجار الجنب: اليهودي، والنصراني.

وقد اختلف أهل العلم في المقدار الذي يصدق عليه مسمى الجوار، ويثبت لصاحبه الحق، فروي عن الأوزاعي والحسن أنه إلى حد أربعين داراً من كل ناحية، وروي عن الزهري نحوه، وقيل: من سمع إقامة الصلاة، وقيل: إذا جمعتما محلة، وقيل: من سمع النداء، والأولى أن يرجع في معنى الجار إلى الشرع، فإن وجد فيه ما يقتضي بيانه، وأنه يكون جاراً إلى حد كذا من الدور، أو من مسافة الأرض، كان العمل عليه متعيناً، وإن لم يوجد رجع إلى معناه لغة أو عرفاً. ولم يأت في الشرع ما يفيد أن الجار هو الذي بينه، وبين جاره مقدار كذا، ولا ورد في لغة العرب أيضاً ما يفيد ذلك، بل المراد بالجار في اللغة: المجاور، ويطلق على معان.

أحد قولي الشافعي: إن التفريق هو إلى الإمام، أو الحاكم في البلد لا إليهما، ما لم يوكلهما الزيجان، أو يامرهما الإمام، والحاكم: لأنهما رسولان شاهدان، فليس إليهما التفريق، ويرشد إلى هذا قوله: ﴿إِنْ يريدا﴾ أي: الحكمان ﴿إصلاحاً﴾ بين الزوجين ﴿يوفق الله بينهما﴾ لاقتصاره على نكر الإصلاح دون التفريق. ومعنى: ﴿إِنْ يريدا﴾ إصلاحاً يوفق الله بينهما، أي: يقع الموافقة بين الزوجين حتى يعودا إلى الألفة، وحسن العشرة. ومعنى الإرادة: خلوص نيتهما لإصلاح الحال بين الزوجين، وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿يوفق الله بينهما﴾ للحكمين، كما في قوله: ﴿إِنْ يريدا إصلاحاً﴾ أي: يوفق بين الحكمين في اتحاد كلمتهما، وحصول مقصودهما، وقيل: كلا الضميرين للزوجين، أي: إن يريدا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله بينهما الألفة، والوفاق، وإذا اختلف الحكمان لم ينفذ حكمهما، ولا يلزم قبول قولهما بلا خلاف.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ خُفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ قال: هذا الرجل، والمرأة إذا تفسدت الذي بينهما أمر الله أن تبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا امرأته عنه، وقسروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة قسروها على زوجها، ومنعوها النفقة، فإذا اجتمع رأيهما على أن يفرقا، أو يجمعا، فأمرهما جائز، فإن رآيا أن يجمعا، فرضي أحد الزوجين، وكره الآخر ذلك، ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرث الذي كره، ولا يرث الكاره الراضي ﴿إِنْ يريدا إصلاحاً﴾ قال: هما، الحكمان ﴿يوفق الله بينهما﴾ وكذلك كل مصلح يوفقه للحق، والصواب. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق في المصنف، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عبيدة السلماني في هذه الآية قال: جاء رجل، وامرأة إلى عليٍّ، ومعهما فئام من الناس، فأمرهم عليٌّ، فبعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها، ثم قال للحكمين: تدریان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتم أن تجمعا أن تجمعا، وإن رأيتم أن تفرقا أن تفرقا، قالت المرأة: رضيت بكتاب الله بما عليّ فيه ولي؛ وقال الرجل: أما الفرقة، فلا، فقال: كذبت، والله حتى تقرّ مثل الذي أقررت به. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: بعثت أنا، ومعاوية حكماً، فقيل لنا: إن رأيتم أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتم أن تفرقا ففرقتما، والذي بعثهما عثمان. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن الحسن قال: إنما يبعث الحكمان ليصلحا، ويشهدا على الظالم بظلمه، فاما الفرقة، فليست بابيئهما. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج البيهقي، عن علي قال: إذا حكم أحد الحكمين، ولم يحكم

والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: **«والصاحب بالجانب»** قال: الرفيق في السفر. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير، ومجاهد مثله. وأخرج الحكيم، والترمذي في نوازل الأصول، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: **«والصاحب بالجانب»** قال: هو جليسه في الحضر، ورفيقك في السفر، وامراتك التي تضاجعك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي قال: هو المرأة. وأخرج هؤلاء، والطبراني عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«وما ملكك إيمانكم»** قال: مما خولك الله، فأحسن صحبتته: كل هذا أوصى الله به. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل نحوه، وقد ورد مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ في بَرِّ الوالدين، وفي صلة القرابة، وفي الإحسان إلى اليتامى، وفي الإحسان إلى الجار، وفي القيام بما يحتاجه الممالك لأحاديث كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة لا حاجة بنا إلى بسطها هنا، وهكذا ورد في نم الكبر والاختيال والفخر ما هو معروف.

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ رِئَاسَةً عَلَى النَّاسِ يَبْخُلُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًا ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ يُبْتَغُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاسَةً عَلَى النَّاسِ لَا يُلْفِئُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَفْعَلْ يَكُنِ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٧﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آتَاهُمُ اللَّهُ الْفَيْزَ الْأَخِيرَ وَأَنْفَعُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٧٨﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا عَظِيمًا ﴿٧٩﴾ وَكَفَى إِذَا يَحْشَى مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَنَاصِيرًا وَجَعَلْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٨٠﴾ يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ فَسَّوْا الْأَرْضَ بِمَا يَكُونُونَ اللَّهُ عَذِيبًا ﴿٨١﴾

قوله: **«الذين يبخلون»** هم في محل نصب بدلاً من قوله: **«من كان مختالاً»** أو على الذم، أو في محل رفع على الابتداء، والخبر مقدر، أي: لهم كذا، وكذا من العذاب، ويجوز أن يكون مرفوعاً بدلاً من الضمير المستتر في قوله: **«مختالاً فخوراً»** ويجوز أن يكون منصوباً على تقدير أعنى، أو مرفوعاً على الخبر، والمبتدأ مقدر، أي: هم الذين يبخلون، والجملة في محل نصب على البدل. والبخل المذموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله، وهؤلاء المذكورون في هذه الآية ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل الذي هو اشتراط خصال الشر ما هو أقبح منه، وأدل على سقوط نفس فاعله، وبلوغه في الرذالة إلى غايتها، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم، وكنتمهم لما أنعم الله به عليهم من فضله **«يامرون الناس بالبخل»** كأنهم يجنون في صنوبرهم من جود غيرهم بماله حرجاً، ومضاضة، فلا كثر في عباده من أمثالكم، هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها بإخراج بعضها في مواضعه، فما بالكم بخلتم بأموال

قال في القاموس. والجار المجاور، والذي أجرته من أن يظلم، والمجير، والمستجير، والشريك في التجارة، وزوج المرأة، وهي جارته، وفرج المرأة، وما قرب من المنزل، والاست كالجارة، والقاسم، والحليف، والناصر. انتهى. قال القرطبي في تفسيره: وروي: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: إني نزلت محلة قوم، وإن أقربهم إلي جواراً أشدهم لي أذى فبعث النبي ﷺ أبا بكر، وعمر، وعلياً يصيحبون علي أبواب المساجد: إلا إن أربعين داراً جار، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه». انتهى. ولو ثبت هذا لكان مغنياً عن غيره، ولكنه رواه، كما ترى من غير عزوله إلى أحد كتب الحديث المعروفة، وهو: وإن كان إماماً في علم الرواية، فلا تقوم الحجة بما يرويه بغير سند منكر، ولا نقل عن كتاب مشهور، ولا سيما، وهو ينكر الواهيات كثيراً، كما يفعل في تنكرته، وقد ورد في القرآن ما يدل على أن المساكنة في مدينة مجاورة، قال الله تعالى: «لئن لم ينته المنافقون» إلى قوله: **«ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً»** [الأحزاب: 60] فجعل اجتماعهم في المدينة جواراً. وأما الأعراف في مسمى الجوار، فهي تختلف باختلاف أهلها، ولا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة، واصطلاحات متواضعة. قوله: **«والصاحب بالجانب»** قيل: هو الرفيق في السفر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن أبي ليلى: هو الزوجة. وقال ابن جريج: هو الذي يصحبك، ويلزمك رجاء نفعك. ولا يبعد أن تتناول الآية جميع ما في هذه الأقوال مع زيادة عليها وهو: كل من صدق عليه أنه صاحب بالجانب أي: بجانبك كمن يقف بجانبك في تحصیل علم، أو تعلم صناعة، أو مباشرة تجارة، أو نحو ذلك. قوله: **«ولبن السبيل»** قال مجاهد: هو الذي يجتاز بك ماراً، والسبيل الطريق، فنسب المسافر إليه لمروده عليه، ولزومه إياه، فالأولى تفسيره بمن هو على سفر، فإن على المقيم أن يحسن إليه، وقيل: هو المنقطع به، وقيل: هو الضيف. قوله: **«وما ملكك إيمانكم»** أي: وأحسنوا إلى ما ملكت إيمانكم إحساناً، وهم: العبيد والإماء، وقد أمر النبي ﷺ بأنهم يطعمون مما يطعم مالكم، ويلبسون مما يلبس. والمختال ذو الخيلاء، وهو والكبر، والتهية، أي: لا يجب من كان متكبراً تأثها على الناس مفتخراً عليهم. والفخر: المدح للنفس، والتطاول، وتعدد المناقب، وخص هاتين الصفتين: لأنهما يحملان صاحبهما على الأثرة مما ندب الله إليه في هذه الآية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان من طرق، عن ابن عباس في قوله: **«والجار ذي القربى»** يعني: الذي بينك، وبينه قرابة **«والجار الجنب»** يعني: الذي ليس بينك، وبينه قرابة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن نوف البكالي قال: الجار ذي القربى: المسلم، والجار الجنب: اليهودي، والنصراني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

شهيذاً؟ وهذا الاستفهام معناه: التوبيخ، والتقريع ﴿يَوْمَذِ الْأَرْضِ﴾ قرأ نافع، وابن عامر ﴿تَسْؤَى﴾ بفتح التاء، وتشديد السين، وقرأ حمزة، والكسائي بفتح التاء، وتخفيف السين، وقرأ الباقون بضم التاء، وتخفيف السين. والمعنى على القراءة الأولى والثانية: أن الأرض هي التي تسوى بهم، أي: أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض، فساخوا فيها، وقيل الباء في قوله: ﴿بِهِمْ﴾ بمعنى على، أي: تسوى عليهم الأرض. وعلى القراءة الثالثة الفعل مبني للمفعول، أي: لو سوى الله بهم الأرض، فيجعلهم، والأرض سواء حتى لا يبعثوا. قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَيْثُ﴾ عطف على ﴿يَوْمَذِ﴾ أي: يومئذ يودّ الذين كفروا، ويومئذ لا يكتُمون الله حيثاً، ولا يقدرون على ذلك. قال الزجاج: قال بعضهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَيْثُ﴾ مستأنف: لأن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانها. وقال بعضهم: هو معطوف. والمعنى: يؤثرون أن الأرض سويت بهم، وأنهم لم يكتُموا الله حيثاً؛ لأنه ظهر كذبهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان كردم بن يزيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو، وحبي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحنون لهم، فيقولون: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون؟ فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾. وقد أخرج ابن أبي حاتم، عنه أنها نزلت في اليهود. وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد. وأخرجه ابن جرير، عن سعيد بن جبيرة. وأخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ قال: رأس نملة حمراء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً﴾ وزن ذرة زادت على سيشاته ﴿يُضَاعَفُهَا﴾ فاما المشرق، فيخفف به عنه العذاب، ولا يخرج من النار أبداً. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ»، قلت يا رسول الله اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: نعم إني أحب أن أسمع من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ قال: حسبك الآن، فإذا عيناه تذرفان. وأخرجه الحاكم، وصححه من حديث عمرو بن حريث. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ يعني: أن تسوى الأرض بالجيال، والأرض عليهم، وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية: يقول: ونوا لو

غيركم؟ مع أنه لا يلحقكم في ذلك ضرر، وهل هذا إلا غاية اللوم، ونهاية الحمق، والرقاعة، وقبح الطباع، وسوء الاختيار. وقد تقدم اختلاف القراءات في البخل. وقد قيل: إن المراد بهذه الآية: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال، والفخر، والبخل بالمال، وكتمان ما أنزل الله في التوراة، وقيل: المراد بها المنافقون، ولا يخفى أن اللفظ أوسع من ذلك، وأكثر شمولاً، وأعم فائدة. قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ عطف على قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ ووجه ذلك أن الأولين قد فرطوا بالبخل ويأمر الناس به وبكتهم ما آتاهم الله من فضله، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم في غير مواضعها لمجرد الرياء، والسمعة، كما يفعله من يريد أن يتسامع الناس بأنه كريم، ويتناول على غيره بذلك، ويشمخ بأنفه عليه، مع ما ضم إلى هذا الإنفاق الذي يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله، وباليوم الآخر. قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً﴾ في الكلام إضمار، والتقدير، ولا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، فقربتهم الشيطان ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً﴾ فساء قريناً، والقريين المقارن، وهو صاحب، والخليل. والمعنى: من قبل من الشيطان في الدنيا، فقد قارنه فيها، أو فهو قريته في النار، فساء الشيطان قريناً: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هذه الطوائف ﴿وَلَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وانفقوا مما رزقهم الله ابتغاء لوجهه، وامتنالاً لامره، أي: وماذا يكون عليهم من ضرر لو فعلوا ذلك، قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الميثقال مفعول من الثقل، كالمقدار من القدر، وهو منتصب على أنه نعت لمفعول محذوف، أي: لا يظلم شيئاً مثقال ذرة. والذرة واحدة الذر. وهي: النمل الصغير، وقيل: رأس النملة، وقيل: الذرة الخريدة، وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء الذي يظهر فيما يدخل من الشمس من كوة، أو غيرها ذرة. والأول هو المعنى اللغوي الذي يجب حمل القرآن عليه. والمراد من الكلام: أن الله لا يظلم كثيراً، ولا قليلاً، أي: لا يبخسهم من ثواب أعمالهم، ولا يزيد في عقاب ذنوبهم وزن ذرة فضلاً عما فوقها. قوله: ﴿وَأَنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعَفُهَا﴾ قرأ أهل الحجاز: «حسنة» بالرفع. وقرأ من عداهم بالنصب، والمعنى على القراءة الأولى: إن توجد حسنة، على أن «كان» هي التامة لا الناقصة، وعلى القراءة الثانية: إن تك فعلته حسنة يضاعفها، وقيل: إن التقدير: إن تك مثقال الذرة حسنة، وإنث ضمير المثقال لكنه مضافاً إلى المؤنث، والأول أولى. وقرأ الحسن: ﴿نُضَاعَفُهَا﴾ بالنون، وقرأ الباقون بالياء، وهي الأرجح لقوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ وقد تقدم الكلام في المضاعفة، والمراد: مضاعفة ثواب الحسنة قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ كيف منصوبة بفعل مضمر، كما هو رأي سيبويه، أو محلها رفع على الابتداء، كما هو رأي غيره، والإشارة بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى الكفار، وقيل: إلى كفار قريش خاصة. والمعنى: فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء

وطنب، وأطناب. وقوله: ﴿إلا عابري سبيل﴾ استثناء مفرغ، أي: لا تقربوها في حال من الأحوال إلا في حال عبور السبيل. والمراد به هنا: السفر، ويكون محل هذا الاستثناء المفرغ النصب على الحال من ضمير لا تقربوا بعد تقييده بالحال الثانية، وهي قوله: ﴿ولا جنباً﴾ لا بالحال الأولى، وهي قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ فيصير المعنى: لا تقربوا الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال السفر، فإنه يجوز لكم أن تصلوا بالتييم، وهذا قول علي، وابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والحكم، وغيرهم، قالوا: لا يصح لأحد أن يقرب الصلاة، وهو جنب إلا بعد الاغتسال إلا المسافرين، فإنه يتييم؛ لأن الماء قد يعدم في السفر لا في الحضر، فإن الغالب أنه لا يعدم. وقال ابن مسعود، وعكرمة، والنخعي، وعمرو بن دينار، ومالك، والشافعي: عابر السبيل هو: المجتاز في المسجد، وهو مروي عن ابن عباس، فيكون معنى الآية على هذا لا تقربوا مواضع الصلاة، وهي: المساجد في حال الجنابة إلا أن تكونوا مجتازين فيها من جانب إلى جانب، وفي القول الأول قوة من جهة كون الصلاة فيه باقية على معناها الحقيقي، وضعف من جهة ما في حمل عابر السبيل على المسافرين، وإن معناه: أنه يقرب الصلاة عند عدم الماء بالتييم، فإن هذا الحكم يكون في الحاضر إذا عدم الماء، كما يكون في المسافرين، وفي القول الثاني قوة من جهة عدم التكلف في معنى قوله: ﴿إلا عابري سبيل﴾ وضعف من جهة حمل الصلاة على مواضعها، وبالجمله، فالحال الأولى، أعني قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ تقوي بقاء الصلاة على معناها الحقيقي من دون تقدير مضاف، وكذلك ما سيأتي من سبب نزول الآية يقوي ذلك. وقوله: ﴿إلا عابري سبيل﴾ يقوي تقدير المضاف، أي: لا تقربوا مواضع الصلاة. ويمكن أن يقال: إن بعض قيود النهي أعني: «لا تقربوا» وهو قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ يدل على أن المراد بالصلاة: معناها الحقيقي، وبعض قيود النهي وهو قوله: ﴿إلا عابري سبيل﴾ يدل على أن المراد: مواضع الصلاة، ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه، ويكون ذلك بمنزلة تعيين مقيد كل واحد منهما بقيد، وهما لا تقربوا الصلاة التي هي ذات الإنكار، والأركان، وأنتم سكارى، ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال عبوركم في المسجد من جانب إلى جانب، وغاية ما يقال في هذا أنه من الجمع بين الحقيقة، والمجاز، وهو جائز بتأويل مشهور. وقال ابن جرير بعد حكايته للقولين: والأولى قول من قال: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ إلا مجتازي طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء، وهو جنب في قوله: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ فكان معلوماً بذلك، أي: أن قوله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ حتى تغتسلوا لو كان معنياً به المسافر لم يكن لإعادة نكره في قوله: ﴿وإن كنتم

انخرقت بهم الأرض، فساخوا فيها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ قال: بجوارحهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَابُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٥﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ جعل الخطاب خاصاً بالمؤمنين؛ لأنهم كانوا يقربون الصلاة حال السكر، وأما الكفار، فهم لا يقربونها سكارى، ولا غير سكارى. وقوله: ﴿ولا تقربوا﴾ قال أهل اللغة: إذا قيل: لا تقرب بفتح الراء معناه لا تتلبس بالفعل، وإذا كان بضم الراء كان معناه: لا تن من. والمراد هنا: النهي عن التلبس بالصلاة، وغشائها. وبه قال جماعة من المفسرين، وإليه ذهب أبو حنيفة. وقال آخرون المراد: مواضع الصلاة، وبه قال الشافعي. وعلى هذا، فلا بد من تقدير مضاف، ويقوي هذا قوله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ وقالت طائفة: المراد: الصلاة ومواضعها معاً؛ لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة، ولا يصلون إلا مجتمعين، فكانا متلازمين. وقوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ الجملة في محل نصب على الحال، وسكارى جمع سكران، مثل كسالى جمع كسلان. وقرأ النخعي: «سكرى» بفتح السين، وهو تكسير سكران. وقرأ الأعمش: «سكرى» كحبل صفة مفردة. وقد ذهب العلماء كافة إلى أن المراد بالسكر هنا: سكر الخمر، إلا الضحك، فإنه قال: المراد سكر النوم. وسيأتي بيان سبب نزول الآية، وبه يندفع ما يخالف الصواب من هذه الأقوال. وقوله: ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ هذا غاية النهي عن قربان الصلاة في حال السكر، أي: حتى يزول عنكم أثر السكر، وتعلموا ما تقولونه، فإن السكران لا يعلم ما يقوله، وقد تمسك بهذا من قال: إن طلاق السكران لا يقع؛ لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد. وبه قال عثمان بن عفان، وابن عباس، وطاوس، وعطاء، والقاسم، وربيعه، وهو قول الليث بن سعد، وإسحاق، وأبي ثور، والمزني. واختاره الطحاوي، وقال: أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز، والسكران معتوه كالموسوس. وأجازت طائفة، وقروا طلاقه، وهو محكي عن عمر بن الخطاب، ومعاوية، وجماعة من التابعين، وهو: قول أبي حنيفة، والثوري، والأوزاعي. واختلف قول الشافعي في ذلك. وقال مالك: يلزمه الطلاق، والقود في الجراح، والقتل، ولا يلزمه النكاح، والبيع. وقوله: ﴿ولا جنباً﴾ عطف على محل الجملة الحالية، وهي قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ والجنب لا يؤنث، ولا يثنى، ولا يجمع؛ لأنه ملحق بالمصدر كالبعد، والقرب. قال الفراء: يقال جنب الرجل، وأجنب من الجنابة، وقيل: يجمع الجنب في لغة على أجنب، مثل عنق، وأعناق،

مرضى أو على سفر» معنى مفهوم. وقد مضى نكر حكمه قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها، وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل المجتاز مرأً وقطعاً، يقال منه: عبرت هذا الطريق، فأنا عبره عبراً، وعبوراً، ومنه قيل: عبر فلان النهر إذا قطعه، وجاوزه، ومنه قيل للناقة القوية: هي عبر أسفار لقوتها على قطع الأسفار. قال ابن كثير: وهذا الذي نصره يعني ابن جرير هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية. انتهى. قوله: ﴿حتى تغتسلوا﴾ غاية للنهي عن قربان الصلاة أو مواضعها حال الجنابة. والمعنى: لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا إلا حال عبورك السبيل. قوله: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال، والاعتدال إلى الاعوجاج، والشذوذ، وهو على ضربين كثير، ويسير. والمراد هنا: أن يخاف على نفسه التلف، أو الضرر باستعمال الماء، أو كان ضعيفاً في بدنه لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء. ودوي عن الحسن أنه يتطهر، وإن مات، وهذا باطل يدفعه قوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾. [الحج: 78]. وقوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: 29] وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ [البقرة: 185] قوله: ﴿أو على سفر﴾ فيه جواز التيمم لمن صدق عليه اسم المسافر، والخلاف مبسوط في كتب الفقه، وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يشترط أن يكون سفر قصر، وقال قوم: لا بد من ذلك. وقد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر. واختلفوا في الحاضر، فذهب مالك، وأصحابه، وأبو حنيفة، ومحمد إلى أنه يجوز في الحاضر، والسفر. وقال الشافعي: لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف. قوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ هو المكان المنخفض، والمجيء منه كناية عن الحدث، والجمع الغيطان، والأغواط، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تستراً عن أعين الناس، ثم سمي الحدث الخارج من الإنسان غائطاً توسعاً، ويدخل في الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء. قوله: ﴿أو لامستم النساء﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «لامستم» وقرأ حمزة، والكسائي: «لمستم» قيل المراد بها: بما في القراءتين الجماع، وقيل: المراد به: مطلق المباشرة، وقيل: إنه يجمع الأمرين جميعاً. وقال محمد بن يزيد المبرد: الأولى في اللغة أن يكون: «لامستم» بمعنى قبلتم، ونحوه، ولمستم، بمعنى غشيتهم.

واختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال، فقالت فرقة: الملامسة هنا مختصة باليد لئلا ينجس، وقالوا: والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل، أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. وقد روي هذا عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود. قال ابن عبد البر: لم يقل بقولهما في هذه المسئلة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي، وحملة الآثار. انتهى. وأيضاً

الأحاديث الصحيحة تدفعه، وتبطله، كحديث عمار، وعمران بن حصين، وأبي نر في تيمم الجنب. وقالت طائفة: هو الجماع كما في قوله: ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ [الأحزاب: 49]، وقوله: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ [البقرة: 237] وهو مروى عن علي، وأبي بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، والحسن، وعبيد بن عمير، وسعيد بن جبير، والشعبي، وقتادة، ومقاتل بن حبان، وأبي حنيفة. وقال مالك: الملامس بالجماع يتيمم، والملامس باليد يتيمم إذا التذ، فإن لمسه بغير شهوة، فلا وضوء، وبه قال أحمد، وإسحاق. وقال الشافعي: إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى بدن المرأة سواء كان باليد، أو غيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة، وإلا فلا. وحكاه القرطبي عن ابن مسعود، وابن عمر، والزهرى، وبربيعة. وقال الأوزاعي: إذا كان اللمس باليد نقض الطهر، وإن كان بغير اليد لم ينقضه لقوله تعالى - فلمسوه بأيديهم - وقد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة أن حجتها تدل على أن الملامسة المنكورة في الآية هي ما ذهب إليه، وليس الأمر كذلك. فقد اختلفت الصحابة، ومن بعدهم في معنى الملامسة المنكورة في الآية، وعلى فرض أنها ظاهرة في الجماع، فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة، والكسائي بلفظ: «أو لمستم» وهي محتملة بلا شك، ولا شبهة، ومع الاحتمال، فلا تقوم الحجة بالمحتمل. وهذا الحكم تعم به البلوى، ويثبت به التكليف العام، فلا يحل إثباته بمحتمل قد، وقد وقع النزاع في مفهومه. وإذا عرفت هذا، فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من اجتنب، ولم يجد الماء، فكان الجنب داخلًا في الآية بهذا الدليل، وعلى فرض عدم دخوله فالسنة تكفي في ذلك. وأما وجوب الوضوء، أو التيمم على من لمس المرأة بيده، أو بشيء من بدنه، فلا يصح القول به استدلالاً بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال. وأما ما استدلوا به من أنه إذا أتاه رجل، فقال: يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها؟ وليس يأتي الرجل من امرأته شيئاً إلا قد أتاه منها غير أنه لم يجامعها فأنزل الله: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك نكروى للذاكرين﴾ [هود: 114]. أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي من حديث معاذ، قالوا: فأمره بالوضوء؛ لأنه لمس المرأة، ولم يجامعها، ولا يخفك أنه لا دالة بهذا الحديث على محل النزاع، فإن النبي ﷺ إنما أمره بالوضوء ليأتي بالصلاة التي نكرها الله سبحانه في هذه الآية، إذ لا صلاة إلا بوضوء. وأيضاً فالحديث منقطع؛ لأنه من رواية ابن أبي ليلى عن معاذ، ولم يلقه، وإذا عرفت هذا، فالأصل البراءة عن هذا الحكم، فلا يثبت إلا ببليلى خالص عن الشوائب الموجبة لقصوره عن الحجّة. وأيضاً قد ثبت عن عائشة من طرق أنها قالت: «كان النبي ﷺ يتوضأ، ثم يقبل، ثم يصلي، ولا يتوضأ». وقد روي هذا الحديث بألفاظ مختلفة، رواه أحمد، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وما قيل

الضرب في الأرض مظنة لإعواز الماء في بعض البقاع دون بعض. قوله: ﴿فتيمموا﴾ التيمم لغة: القصد، يقال: تيممت الشيء: قصدته، وتيممت الصعيد: تعمدته، وتيممته بسهمي، ورمحي: قصدته دون من سواه، وأنشد الخليل:

يتممته لرمح شزرا ثم قلت له هذي البسالة لالعب الزحاليق
وقال امرؤ القيس:

تيممتمها من أنرعاء وأهلها بيثرب أننى دارها نظر عالي
وقال:

تيممت العين التي عند ضارج يغيء عليها الظل عرمضها ظامي
قال ابن السكيت: قوله: ﴿فتيمموا﴾ أي: أقصدوا، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب. وقال ابن الأنباري في قولهم قد تيمم الرجل: معناه قد مسح التراب على وجهه، وهذا خلط منهما للمعنى اللغوي بالمعنى الشرعي، فإن العرب لا تعرف التيمم بمعنى مسح الوجه واليدين، وإنما هو معنى شرعي فقط، وظاهر الأمر الوجوب، وهو مجمع على ذلك. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وتفاصيل التيمم، وصفاته مبينة في السنة المطهرة، ومقالات أهل العلم مؤونة في كتب الفقه، قوله: ﴿صعيداً﴾ الصعيد: وجه الأرض سواء كان عليه تراب، أو لم يكن، قاله الخليل، وابن الأعرابي، والزجاج. قال الزجاج: لا أعلم فيه خلافاً بين أهل اللغة، قال الله تعالى: ﴿وإننا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا﴾ [الكهف: 8] أي: أرضاً غليظة لا تثبت شيئاً، وقال تعالى: ﴿فتصيح صعيداً زلquake﴾ [الكهف: 40] وقال: ذو الرمة:

كانه بالضحى يرمي الصعيد به ونابه في عظام الرأس خرطوم
وإنما سمي صعيداً؛ لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض، وجمع الصعيد صعادات.

وقد اختلف أهل العلم فيما يجزئ التيمم به، فقال مالك، وأبو حنيفة، والثوري، والطبري: إنه يجزئ بوجه الأرض كله تراباً كان، أو رملاً، أو حجارة، وحملوا قوله: ﴿طيباً﴾ على الطاهر الذي ليس بنجس، وقال الشافعي، وأحمد، وأصحابهما: إنه لا يجزئ التيمم إلا بالتراب، فقط، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿صعيداً زلquake﴾ [الكهف: 40] أي: تراباً أملس طيباً، وكذلك استدلوا بقوله: ﴿طيباً﴾ قالوا: والطيب التراب الذي يثبت. وقد تنوزع في معنى الطيب، فقيل: الطاهر كما تقدم، وقيل: المنبت كما هنا، وقيل: الحلال. والمحمّل لا تقوم به حجة، ولو لم يوجد في الشيء الذي يتيمم به إلا ما في الكتاب العزيز، لكان الحق ما قاله الأولون، لكن ثبت في صحيح مسلم من حديث حنيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا الناس بثلاث: جعلت صفوفنا، كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» وفي لفظ «وجعل ترابها لنا طهوراً» فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور في الآية، أو مخصص لعمومه، أو مقيد لإطلاقه، ويؤيد هذا ما حكاه ابن فارس عن كتاب الخليل: تيمم بالصعيد، أي: أخذ من غباره. انتهى، والحجر الصلد لا غبار له. قوله: ﴿فامسحوا بوجوهكم

من أنه من رواية حبيب بن أبي ثابت، عن عروة، عن عائشة، ولم يسمع من عروة، فقد رواه أحمد في مسنده من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، ورواه ابن جرير من حديث ليث، عن عطاء، عن عائشة، ورواه أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي من حديث أبي روق الهمداني، عن إبراهيم التيمي، عن عائشة، ورواه أيضاً ابن جرير من حديث لم سلمة، ورواه أيضاً من حديث زينب السهمية. ولفظ حديث لم سلمة: «أن رسول الله ﷺ كان يقبلها، وهو صائم، ولا يفطر، ولا يحدث وضوءاً». ولفظ حديث زينب السهمية: «أن النبي ﷺ كان يقبل، ثم يصلي، ولا يتوضأ». ورواه أحمد، عن زينب السهمية، عن عائشة. قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ هذا القيد إن كان راجعاً إلى جميع ما تقدم مما هو منكر بعد الشرط، وهو المرض، والسفر، والمجيء من الغائط، وملامسة النساء كان فيه دليل على أن المرض، والسفر بمجردهما لا يسوّغان التيمم، بل لا بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء، فلا يجوز للمريض أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، ولا يجوز للمسافر أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، ولكنه يشكل على هذا أن الصحيح، كالمريض إذا لم يجد الماء تيمم، وكذلك المقيم، كالمسافر إذا لم يجد الماء تيمم، فلا بد من فائدة في التنصيص على المرض والسفر؛ فقل وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول إلى الماء، وكذلك المسافر عدم الماء في حقه غالب، وإن كان راجعاً إلى الصورتين الأخيرتين: أعني قوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء﴾ كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال، وهو أن من صلق عليه اسم المريض، أو المسافر جاز له التيمم، وإن كان واجداً للماء قادراً على استعماله، وقد قيل: إنه رجع هذا القيد إلى الآخرين مع كونه معتبراً في الأولين لندرته وقوعه فيهما. وأنت خبير بأن هذا كلام ساقط، وتوجيه بارد. وقال مالك، ومن تابعه: نكر الله المرض، والسفر في شرط التيمم اعتباراً بالأغلب في من لم يجد الماء بخلاف الحاضر، فإن الغالب وجوده، فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه. انتهى. والظاهر أن المرض بمجرد عدم مسوّغ للتيمم، وإن كان الماء موجوداً إذا كان يتضرر باستعماله في الحال، أو في المال، ولا تعتبر خشية التلف، فالحق سبحانه يقول: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ [البقرة: 185] ويقول: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78]، والنبي ﷺ يقول: «الدين يسر» ويقول: «يسروا ولا تعسروا» وقال: «قتلوه قتلهم الله» ويقول: «أمرت بالشرعية السمحة» فإذا قلنا: إن قيد عدم وجود الماء راجع إلى الجميع كان وجه التنصيص على المرض هو أنه يجوز له التيمم، والماء حاضر موجود إذا كان استعماله يضره، فيكون اعتبار ذلك القيد في حقه إذا كان استعماله لا يضره، فإن في مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب، لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف. وأما وجه التنصيص على المسافر، فلا شك أن

وأبيكم ﴿ هذا المسح مطلق يتناول المسح بضربة، أو ضربتين، ويتناول المسح إلى المرفقين، أو إلى الرسغين، وقد بينته السنة بياناً شافياً، وقد جمعنا بين ما ورد في المسح بضربة، وبضربتين، وما ورد في المسح إلى الرسغ، وإلى المرفقين في شرحنا للمنتقى، وغيره من مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. قوله: ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ عَقْوَ غُفُوراً﴾ أي: عفا عنكم، وغفر لكم تقصيركم، ورحمكم بالتخفيف لكم، والتوسعة عليكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: 1-2] ونحن نعبد ما تعبدي، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه: أن الذي صلى بهم عبد الرحمن. وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في أبي بكر، وعمر، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، صنع لهم علي طعاماً، وشرباً، فاكلوا، وشربوا، ثم صلى بهم المغرب، فقرا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى ختمها، فقال: ليس لي دين، وليس لكم دين، فنزلت. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في هذه الآية قال: نسختها: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك في الآية قال: لم يعن بها الخمر إنما عني بها سكر النوم. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ قال: النعاس. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن علي. قوله: ﴿وَلَا جُنْبَ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ قال: نزلت في المسافرين تصيبه الجنابة، فيتيمم ويصلي. وفي لفظ قال: لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء، فيتيمم، ويصلي حتى يجد الماء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن ابن عباس في الآية يقول: لا تقربوا الصلاة، وأنتم جنب إذا، وجنم الماء، فإن لم تجنوا الماء، فقد أحلت أن تمسحوا بالأرض. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد قال: لا يمر الجنب، ولا الحائض في المسجد، إنما أنزلت: ﴿وَلَا جُنْبَ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ للمسافر يتيمم، ثم يصلي. وأخرج الدارقطني، والطبراني، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، والضياء في المختارة عن الأسلم بن شريك قال: كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ، فأصابتني جنابة في ليلة باردة، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، فكرهت أن أرحل ناقة، وأنا جنب، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد، فأموت، أو أمرض، فأمرت

رجالاً من الأنصار، فرحلها، ثم رصفت أحجاراً فأسخنت بها ماء فاغتسلت، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: يا أسلم، ما لي أرى راحلتك تغيرت؟ قلت: يا رسول الله لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار، قال: ولم؟ قلت: إني أصابتني جنابة، فخشيت القر على نفسي، فأمرت أن يرحلها، ورضفت أحجاراً، فأسخنت بها ماء، فاغتسلت به، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا جُنْبَ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي من وجه آخر عن أسلم قال: «كنت أخدم النبي ﷺ وأرحل له، فقال لي ذات ليلة: يا أسلم قم، فأرحل لي، قلت: يا رسول الله أصابتني جنابة، فسكت عني ساعة حتى جاء جبريل بآية الصعيد، فقال: قم يا أسلم فتيمم» الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: المساجد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي من طريق عطاء الخراساني عنه: ﴿وَلَا جُنْبَ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ قال: لا تدخلوا المسجد، وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمر به مرأً، ولا تجلس. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، والبيهقي في سننه عنه أنه كان يرخص للجنب أن يمر في المسجد، ولا يجلس فيه، ثم قرأ قوله: ﴿وَلَا جُنْبَ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. وأخرج البيهقي، عن أنس نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي، عن جابر قال: كان أحدنا يمر في المسجد، وهو جنب مجتازاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً، فلم يستطع أن يقوم، فيتوضأ، ولم يكن له خادم فينأوله، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ قال: هو الرجل المجنون أو به الجراح، أو القرع يجنب، فيخاف إن اغتسل أن يموت، فيتيمم. وأخرج ابن جرير، عن إبراهيم النخعي قال: نال أصحاب رسول الله ﷺ جراح ففشت فيهم، ثم ابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي من طرق عن ابن مسعود في قوله: ﴿أَوْ لَا مَسْتَمِمْ الْنِسَاءَ﴾ قال: للمس ما دون الجماع، والقبلة منه، وفيه الوضوء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن ابن عمر أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة، ويقول هي: اللباس. وأخرج الدارقطني، والبيهقي، والحاكم عن عمر قال: إن القبلة من اللبس، فتوضأ منها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن علي قال: اللبس هو الجماع، ولكن الله كنى عنه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد،

من يحرفون الكلم كقوله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾
[الصفات: 164] أي: من له، ومنه قول ذي الرمة:

فظلوا ومنهم بمع سابق له

أي: من بمع، وأنكره المبرّد، والزجاج: لأن حذف الموصول، كحذف بعض الكلمة؛ وقيل إن قوله: ﴿ومن الذين هانوا﴾ بيان لقوله: ﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾. والتحريف: الإمالة والإزالة، أي: يميلونه، ويزيلونه، عن مواضعه، ويجعلون مكانه غيره، أو المراد: أنهم يتأولونه على غير تأويله، ونمهم الله عز وجل بذلك، لأنهم يفعلونه عناداً وبغياً، وتأثيراً لغرض الدنيا. قوله: ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿واسمع غير مسمع﴾ أي: اسمع حال كونك غير مسمع. وهو يحتمل أن يكون نداء على النبي ﷺ، والمعنى: اسمع لا سمعت، ويحتمل أن يكون المعنى: اسمع غير مسمع مكروهاً، أو اسمع غير مسمع جواباً. وقد تقدم الكلام في راعنا. ومعنى: ﴿لما بالستهم﴾ أنهم يلونونها على الحق، أي: يميلونها إلى ما في قلوبهم، وأصل اللي: الفتل، وهو منتصب على المصدر، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله. قوله: ﴿وطعنا في الدين﴾ معطوف على لما، أي: يطعنون في الدين بقولهم: لو كان نبياً لعلم أنا نسبه، فاطلع الله سبحانه نبيه ﷺ على ذلك: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا﴾ قولك: ﴿وطعنا﴾ أمرك: ﴿واسمع﴾ ما نقول: ﴿وانظرنا﴾ أي: لو قالوا هذا مكان قولهم راعنا ﴿لكان خيراً لهم﴾ مما قالوه: ﴿واقوم﴾ أي: اعدل، وأولى من قولهم الأول، وهو قولهم: ﴿سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا﴾ لما في هذا من المخالفة، وسوء الأنب، واحتمال الذم في راعنا: ﴿ولكن﴾ لم يسلكوا المسلك الحسن، وياتوا بما هو خير لهم، وأقوم، ولهذا: ﴿لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي: إلا إيماناً قليلاً، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وببعض الرسل دون بعض. قوله: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ نكر سبحانه أولاً أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، وهنا نكر أنهم أوتوا الكتاب. والمراد: أنهم أوتوا نصيباً منه؛ لأنهم لم يعملوا بجميع ما فيه، بل حرقوا وبكروا. وقوله: ﴿مصنفا﴾ منتصب على الحال. والطمس: استئصال أثر الشيء، ومنه: ﴿وانا النجوم طمست﴾ [المرسلات: 8] يقال: طمس بكسر الميم وضمتها لغتان في المستقبل، ويقال: طمس الأثر أي: محاه كله، ومنه: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ [يونس: 88] أي: أهلكها، ويقال: هو مطموس البصر، ومنه: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ [يس: 66] أي: أعميانهم.

واختلف العلماء في المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة؟ فيجعل الوجه كالحق، فيذهب بالأنف، والفم، والحجاب، والعين، أو تلك عبارة عن الضلالة في قلوبهم، وسلبهم التوفيق؟ فذهب إلى الأول طائفة، وذهب إلى الآخر آخرون، وعلى الأول، فالمراد بقوله: ﴿فقرئها على أنبارها﴾ نجعلها قفاً، أي: نذهب بكتار الوجه، وتخطيطه

وابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير قال: كنا في حجرة ابن عباس، ومعنا عطاء بن أبي رباح، ونفر من الموالي، وعبيد بن عمير، ونفر من العرب، فتذاكرنا للمساء، فقلت أنا وعطاء، والموالي: اللبس باليد، وقال عبيد بن عمير، والعرب: هو الجماع، فدخلت على ابن عباس، فاخبرته فقال: غلبت الموالي، وأصابت العرب، ثم قال: إن اللبس والمساء، والمباشرة إلى الجماع ما هو، ولكن الله يكتن ما شاء بما شاء. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: إن أطيب الصعيد أرض الحرث.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ أَفْسَلَهُ وَرِثَتَهُ أَنْ يَصِلُوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۚ وَالَّذِينَ هَادُوا يُخَوِّفُونَ الْكُفْرَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرِثَتَنَا لَنَا يَا نَبِيَّهُمْ وَلَكُنَّا فِي الْبُيُوتِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْشُرْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَمْنَهُمْ اللَّهُ يَكْتُمُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ تَبَايَأَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَا إِيمَانُ بآيَاتِهِمْ لِأَئِمَّةٍ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُطَمَّسُ وَجُوهًا وَتُرَدَّ رَأْسًا أَوْ يَتَّبِعُوا آلَهُمْ أَوْ يَكُونُوا آلَهُمْ أَلَا يُنْظَرُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شِرْكُهُمْ وَمَتَّعَهُمْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ۚ

قوله: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ كلام مستأنف، والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المسلمين. والنصيب: الحظ، والمراد: اليهود أوتوا نصيباً من التوراة. وقوله: ﴿يشتركون﴾ جملة حالية، والمراد بالاشتراء الاستبدال، وقد تقدم تحقيق معناه. والمعنى: أن اليهود استبدلوا الضلالة، وهي: البقاء على اليهودية بعد وضوح الحجة على صحة نبوة نبينا ﷺ. قوله: ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ عطف على قوله: ﴿يشتركون﴾، مشارك له في بيان سوء صنيعهم، وضعف اختيارهم، أي: لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى، بل أرادوا مع ضلالهم أن يتوصلوا بكتهم، وجحدهم إلى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذي هو سبيل الحق: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ أيها المؤمنون، وما يريدونه بكم من الإضلال، والجملة اعتراضية ﴿وكفى بالله ولياً﴾ لكم ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ ينصركم في مواطن الحرب، فاكثفوا بولايتهم، ونصره، ولا تتولوا غيره، ولا تستنصروه، والباء في قوله: ﴿بإيه﴾ في الموضوعين زائدة. قوله: ﴿ومن الذين هانوا﴾ قال الزجاج: إن جعلت متعلقة بما قبل، فلا يوقف على قوله: ﴿نصيراً﴾ وإن جعلت منقطعة، فيجوز الوقف على «نصيراً» والتقدير: من الذين هانوا قوم يحرفون، ثم حذف، وهذا مذهب سيوي، ومثله قول الشاعر:

لو قلت ما في قومها لم أهتم بفضلها في حسب وميسم
قالوا: المعنى: لو قلت ما في قومها لحد بفضلها، ثم حذف. وقال الفراء: المحذوف لفظ من: أي من الذين هانوا

﴿واسمع غير مسمع﴾ قال: غير مقبول ما تقول: ﴿ليا بالسنتهم﴾ قال: خلافاً يلويون به السنتهم ﴿واسمع وانظرونا﴾ قال: أقمنا لا تعجل علينا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس في قوله: ﴿واسمع غير مسمع﴾ قال: يقولون اسمع لا سمعت. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار اليهود: منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: يا معشر اليهود اتقوا الله، وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتمكم به لحق، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وأنزل الله فيهم: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ قال: طمسها أن تعمي ﴿فنرذها على أنبارها﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم، فيمشون القهقري، ونجعل لأدهم عينين في قفاه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ يقول: عن صراط الحق ﴿فنرذها على أنبارها﴾ قال: في الضلالة، وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي، عن الحرام، قال: وما بينه؟ قال: يصلي ويوحد الله، قال: استوهب منه دينه، فإن أبي فابتعه منه، فطلب الرجل منه ذلك، فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال: وجنته شحياً على دينه، فنزلت: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية. وأخرج ابن الضريس، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن عدي بسند صحيح، عن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما نون ذلك لمن يشاء، وقال: إنني أنخرت دعوتي، وشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر: 53] الآية قام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي ﷺ، فقال: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، عن أبي مجلز أن سؤال هذا الرجل هو سبب نزول: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال في هذه الآية: إن الله حرّم المغفرة على من مات، وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته، فلم يؤيسهم من المغفرة. وأخرج الترمذي، وحسنه عن علي قال: أحب آية إلى في القرآن ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِلَى اللَّهِ بَزْءٌ مِّنْ يَّسَّكَ وَلَا يَظْلُمُونَ فَيَلَا
 ١٨ أَنْظَرُ كَيْفَ يَتَزَوَّدُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَكَانَ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ۖ أَلَمْ تَرَ إِلَى

حتى يصير على هيئة القفا، وقيل: إنه بعد الطمس يرذها إلى موضع القفا، والقفا إلى مواضعها، وهذا هو الصق بالمعنى الذي يفيد قوله: ﴿فنرذها على أنبارها﴾ فإن قيل: كيف جاز أن يهذهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا، ولم يفعل ذلك بهم؟ فقيل: إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقيين. وقال الميرد: الوعيد باقٍ منتظر وقال: لا بد من طمس في اليهود، ونسخ قبل يوم القيامة. قوله: ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ الضمير عائذ إلى أصحاب الوجوه، قيل المراد باللعن هنا: المسخ لأجل تشبيهه بلعن أصحاب السبت، وكان لعن أصحاب السبت مسخهم قردة، وخنزير، وقيل المراد: نفس اللعنة، وهم ملعونون بكل لسان. والمراد: وقوع أحد الأمرين: إما الطمس، أو اللعن. وقد وقع اللعن، ولكنه يقوي الأول تشبيه هذا اللعن بلعن أهل السبت. قوله: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي: كائناً موجوداً لا محالة، أو يراد بالأمر المأمور. والمعنى أنه متى أراد الله أن يلعنهم، ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: 82] قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ولا يختص بكفار أهل الحرب، لأن اليهود قالوا عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقالوا ثالث ثلاثة. ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته؛ وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين، فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء. قال ابن جرير: قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله عز وجل. وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلاً منه، ورحمة، وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة، وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة. وقد تقدم قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ [النساء: 31] وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر، فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، وإذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه، وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام، وعابه، فأنزل الله فيه: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ يعني: يحرفون حدود الله في التوراة، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ قال: تبديل اليهود التوراة ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ قالوا: سمعنا ما تقول، ولا نطيعك

السحر، والطاغوت الشيطان. وروي عن ابن مسعود أن الجبت، والطاغوت هاهنا كعب بن الأشرف. وقال قتادة: الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن، وروي عن مالك أن الطاغوت: ما عبد من دون الله، والجبت: الشيطان، وقيل: هما كل معبود من دون الله، أو مطاع في معصية الله. وأصل الجبت الجبس، وهو: الذي لا سير فيه، فأبيلت التاء من السين قاله قطرب، وقيل: الجبت: إبليس، والطاغوت: أولياؤه. قوله: «ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً» أي: يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى من الذين آمنوا بمحمد سبيلاً أي: أقوم ديناً، وأرشد طريقاً. وقوله: «ولذلك» إشارة إلى القائلين «الذين لعنهم الله» أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته «ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً» ينفع عنه ما نزل به من عذاب الله، وسخطه. قوله: «إم لهم نصيب من الملك» أم منقطعة، والاستفهام للإنكار، يعني: ليس لهم نصيب من الملك «فإن لا يؤتون للناس نقيراً» والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أي: إن جعل لهم نصيب من الملك، فإن لا يعطون الناس نقيراً منه لشدة بخلهم، وقوة حسدهم، وقيل: المعنى: بل لهم نصيب من الملك على أن معنى أم الإضراب عن الأول، والاستثناء للثاني، وقيل: هي: عاطفة على محذوف، والتقدير: أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته، أم لهم نصيب من الملك، فإن لا يؤتون الناس نقيراً؟ والتقدير: النقرة في ظهر النواة، وقيل: ما نقر الرجل بإصبعه، كما ينقر الأرض. والنقير أيضاً: خشبة تنقر، وينبذ فيها. وقد نهى النبي ﷺ عن النقير، كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما، والنقير: الأصل، يقال: فلان كريم النقير أي: كريم الأصل. والمراد هنا: المعنى الأول، والمقصود به المبالغة في الحقارة، كالقطمير، والفنيل. وإن هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها، ولو نصب لجاز. قال سيبويه: إن في عوامل الأفعال بمنزلة أظن في عوامل الأسماء التي تلغى إذا لم يكن الكلام معتمداً عليها، فإن كانت في أول الكلام، وكان الذي بعدها مستقبلاً نصبت. قوله: «إم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» أم منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر أي: بل يحسدون الناس يعني: اليهود يحسدون النبي ﷺ فقط، أو يحسدونه هو، وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة، والنصر، وقهر الأعداء. قوله: «فقد آتينا آل إبراهيم» هذا إلزام لليهود بما يعترفون به، ولا ينكرونه أي: ليس ما آتينا محمداً، وأصحابه من فضلنا ببداية حتى يحسدكم اليهود على ذلك، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم، وهم أسلاف محمد ﷺ. وقد تقدم تفسير الكتاب، والحكمة، والملك العظيم، قيل: هو ملك سليمان، واختاره ابن جرير «فمنهم» أي: اليهود «من آمن به» أي: بالنبي ﷺ «ومنهم من صد عنه» أي: أعرض عنه، وقيل: الضمير في به راجع إلى ما ذكر من حديث آل إبراهيم، وقيل: الضمير راجع إلى إبراهيم.

الَّذِينَ أَوْفُوا نَفْسًا مِّنَ الصَّكِّبِ يَوْمَئِذٍ بِالْحَبِيبِ وَالْمَلَكُوتِ وَيُؤْتُونَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿١٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَسَبُوا مِنَ اللَّهِ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿١٩﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ النَّارِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَبِيرًا ﴿٢٠﴾ أُرِّسُوا عَلَىٰ مِثْلِهِم مَّا أَتَاهُمْ فَلَهُم فِيهِمْ فَضْلٌ فَقَدْ أَتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٢١﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٢٢﴾

قوله: «إم تر إلى الذين يزكون أنفسهم» تعجب من حالهم. وقد اتفق المفسرون على أن المراد: اليهود. واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم، فقال الحسن، وقتادة: هو قولهم: «نحن أبناء الله وأحبناؤه» [المائدة: 18] وقولهم: «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى» [البقرة: 111] وقال الضحاك: هو قولهم لا نذوب لنا، ونحن كالأطفال، وقيل: قولهم: إن آباهم يشفعون لهم، وقيل: ثناء بعضهم على بعض. ومعنى التزكية: التطهير، والتزنية، فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير، وعلى غيرها، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق، أو بباطل من اليهود، وغيرهم، ويدخل في هذا التلقب بالالقب المتضمنة للتزكية، كمحيي الدين، وعز الدين، ونحوهما. قوله: «هل الله يزكي من يشاء» أي: تلك إليه سبحانه، فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده، ومن لا يستحقها، فليدع العباد تزكية أنفسهم، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوي فاسدة تحمل عليها محبة النفس، وطلب العلو، والترفع، والتفاخر، ومثل هذه الآية قوله تعالى: «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» [النجم: 32]. قوله: «ولا تظلمون» أي: هؤلاء المزكون لأنفسهم «فتيلاً» وهو: الخيط الذي في نواة التمر، وقيل: القشرة التي حول النواة؛ وقيل: هو ما يخرج بين أصبعيك، أو كفك من الوسخ إذا فلتتهما، فهو: فتيل بمعنى مفتول، والمراد هنا: الكناية عن الشيء الحقيق، ومثله: «ولا يظلمون نقيراً» [النساء: 124] وهو: النكتة التي في ظهر النواة. والمعنى: أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لأنفسهم بقدر هذا الذنب، ولا يظلمون بالزيادة على ما يستحقون، ويجوز أن يعود الضمير إلى «من يشاء» أي: لا يظلم هؤلاء الذين يزكيهم الله فتيلاً مما يستحقونه من الثواب، ثم عجب النبي ﷺ من تزكيتهم لأنفسهم، فقال: «لنظر كيف يفترون على الله الكذب» في قولهم ذلك. والافتراء: الاختلاق، ومنه افترى فلان على فلان أي: رماه بما ليس فيه، وفريت الشيء: قطعته، وفي قوله: «وكفى به إثماً مبيناً» من تعظيم الذنب، وتهويله ما لا يخفى. قوله: «إم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» هذا تعجب من حالهم بعد التعجب الأول، وهم: اليهود.

واختلف المفسرون في معنى الجبت: فقال ابن عباس، وابن جبير، وأبو العالية، الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن، وروي عن عمر بن الخطاب أن الجبت:

عثمان بن طلحة لما قبض منه ﷺ مفتاح الكعبة، فدعاه، وفعه إليه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة، عن علي قال: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك، فحق على الناس أن يسمعو له، وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا. وأخرج أبو داود، والترمذي، والحاكم، والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أد الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك» وقد ثبت في الصحيح أن من خان إذا ائتمن، ففيه خصلة من خصال النفاق.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٤٣﴾

لما أمر سبحانه القضاة، والولاة إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق، أمر الناس بطاعتهم ها هنا، وطاعة الله عز وجل هي أمثال أوامره، ونواهيها، وطاعة رسوله ﷺ هي فيما أمر به، ونهى عنه. وأولي الأمر هم: الأئمة، والسلطين، والقضاة، وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية، والمراد: طاعتهم فيما يأمرون به، وينهون عنه ما لم تكن معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ. وقال جابر بن عبد الله، ومجاهد: إن أولي الأمر، هم: أهل القرآن، والعلم، وبه قال مالك، والضحاك. وروي عن مجاهد أنهم أصحاب محمد ﷺ. وقال ابن كيسان: هم أهل العقل، والرأي، والراجح القول الأول. قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ المنازعة المجانية، والنزع: الجنب، كان كل واحد ينتزع حجة الآخر، ويجنبها، والمراد: الاختلاف، والمجالبة، وظاهر قوله: ﴿فِي شَيْءٍ﴾ يتناول أمور الدين، والدنيا، ولكنه لما قال: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ تبين به أن الشيء المتنازع فيه يختص بأمور الدين دون أمور الدنيا، والرد إلى الله: هو الرد إلى كتابه العزيز، والرد إلى الرسول: هو الرد إلى سنته المطهرة بعد موته، وأما في حياته، فالرد إليه سؤاله، هذا معنى الرد إليهما، وقيل: معنى الرد أن يقولوا: الله أعلم، وهو قول ساقط، وتفسير بارد، وليس الرد في هذه الآية إلا الرد المنكور في قوله تعالى: ﴿يُولُوا رُؤُوه إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83] قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه دليل على أن هذا الرد متحتم على المتنازعين، وإنه شأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، والإشارة بقوله: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى الرد المأمور به ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأحسن تأويلاً: أي: مرجعاً، من الأول آل يؤول إلى كذا، أي: صار إليه؛ والمعنى: أن ذلك الرد لكم، وأحسن مرجعاً ترجعون إليه. ويجوز أن يكون المعنى أن الرد أحسن تأويلاً من تأويلكم الذي صرتم إليه عند التنازع.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس في قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

قوله: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ قال: إذا احترقت جلودهم بكناهم جلوداً بيضاء أمثال القراطيس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عنه بسند ضعيف قال: قرئ عند عمر: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ الآية، فقال معاذ: عندي تفسيرها تبدل في ساعة مائة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت من رسول الله ﷺ. وأخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن مروي عن القائل كعب، وأنه قال: تبدل في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن مسعود أن غلظ جلد الكافر اثنتان وأربعون نراعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ظِلَالًا﴾ قال: هو ظل العرش الذي لا يزل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأُ طَعْنُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٤٤﴾

هذه الآية من امهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع؛ لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس في جميع الأمانات، وقد روي عن علي، وزيد بن أسلم، وشهر بن حوشب أنها خطاب لولاة المسلمين، والأول أظهر، وورودها على سبب، كما سيأتي لا يتنافي ما فيها من العموم، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما تقرر في الأصول، وتدخل الولاة في هذا الخطاب دخولاً أولياً، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات، ورد الظلمات، وتحري العدل في أحكامهم، ويدخل غيرهم من الناس في الخطاب، فيجب عليهم رد ما لديهم من الأمانات، والتحري في الشهادات، والأخبار. وممن قال بعموم هذا الخطاب: البراء بن عازب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، واختاره جمهور المفسرين، ومنهم ابن جرير، وأجمعوا على أن الأمانات مبنية إلى أربابها: الأبرار منهم، والفجار، كما قال ابن المنذر. والأمانات جمع أمانة، وهي: مصدر بمعنى المفعول. قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي: وإن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. والعدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ، لا للحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، فلا يلس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله. قوله: ﴿نَعْمًا﴾ ما موصوفة، أو موصولة، وقد قمننا البحث في مثل ذلك.

وقد أخرج ابن مروي، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما فتح مكة، وقبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، فنزل جبريل عليه السلام برداً المفتاح، فدعا النبي ﷺ عثمان بن طلحة، وردّه إليه، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن عساكر، عن ابن جريج: أن هذه الآية نزلت في

ثم لم يكتف بذلك، بل ضم إليه المصدر المؤكد، فقال: ﴿تسليماً﴾ فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه ويسلم لحكم الله وشرعه، تسليماً لا يخالطه ردة، ولا تشوبه مخالفة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني بسند قال السيوطي: صحيح عن ابن عباس، قال: كان برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله: ﴿لَم تَر إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية، وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: كان الجلاس بن الصامت قبل توبته، ومعقب بن قشير، ورافع بن زيد، كانوا يدعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الكهان حكام الجاهلية، فنزلت الآية المنكورة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ قال: الطاغوت رجل من اليهود كان يقال له: كعب بن الأشرف، وكانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول، ليحكم بينهم قالوا: بل نحاكمكم إلى كعب، فنزلت الآية. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن عبد الله بن الزبير: أن الزبير خالص رجلاً من الأنصار قد شهد براءً مع النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرّة، وكانا يسقيان به كلاهما للنخل. فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فقال رسول الله ﷺ: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري، وقال يا رسول الله أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يا زبير، ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك، واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له، وللأنصاري، فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصاري، استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فَلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، من طريق ابن لهيعة عن الأسود: أن سبب نزول الآية أنه اختصم إلى رسول الله ﷺ رجلان، فقاضى بينهما، فقال المقضي عليه: رننا إلى عمر، فردهما، فقتل عمر الذي قال رننا، ونزلت الآية، فاهلر النبي ﷺ دم المقتول، وأخرجه الحكيم الترمذي في نوارد الأصول عن مكحول، فنكر نحوه، وبين أن الذي قتله عمر كان منافقاً، وهما مرسلان، والقصة غريبة، وابن لهيعة فيه ضعف.

وَأَنَا كَيْبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ تُخْرَبُوا مِنْ يَدَيْكُمْ مَا قَمَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَكَرِهْتُمْ قَمَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَكُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيْناً ﴿١١١﴾ وَإِذْ لَا تَقِيْنَهُمْ يَنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيْماً ﴿١١٢﴾ وَلَٰكِنْ يَنْتَهِمُ صِرَاطًا مُّسْتَقِيْمًا ﴿١١٣﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، ثم استأنف القسم بقوله: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُوْمِنُونَ﴾ وقيل: إنه قدّم «لا» على القسم اهتماماً بالنفي، وإظهاراً لقوته، ثم كرره بعد القسم تأكيداً، وقيل: لا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفي، والتقدير: فوربك لا يؤمنون، كما في قوله: ﴿فَلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: 75] ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ﴾ أي: يجعلوك حكماً بينهم في جميع أمورهم لا يحكمون أحداً غيرك، وقيل: معناه: يتحاكمون إليك، ولا ملجئ لذلك ﴿فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلف بينهم، واختلط، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه، ومنه قول طرفة:

وهم الحكم أرباب الهدى وسعاة الناس في الأمر للشجر أي: المختلف، ومنه: تشاجر الرماح، أي: اختلفا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ قيل: هو معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام، أي: فتقضي بينهم، ثم لا يجدوا. والحرج: الضيق، وقيل: الشك، ومنه قيل للشجر الملتف: حرج وحرجة، وجمعها حراج، وقيل: الحرج: الإثم، أي: لا يجدون في أنفسهم إثماً بأنكارهم ما قضيت ﴿وَيُؤَسِّلُوا تَسْلِيْمًا﴾ أي: يتقاولوا لأمرك، وقضائك لتقياد لا يخالفونه في شيء. قال الزجاج: ﴿تَسْلِيْمًا﴾ مصدر مؤكد، أي: ويسلمون لحكمك تسليماً لا يخلون على أنفسهم شكاً، ولا شبهة فيه. والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم، كما يؤيد ذلك قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فلا يختص بالمقصودين بقوله: ﴿يَرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهذا في حياته ﷺ، وأما بعد موته، فتحكيم الكتاب، والسنة، وتحكيم الحاكم بما فيهما من الأئمة، والقضاة إذا كان لا يحكم بالرأي المجرد مع وجود الدليل في الكتاب، والسنة، أو في أحدهما، وكان يعقل ما يردّ عليه من حجج الكتاب، والسنة، بأن يكون عالماً باللغة العربية، وما يتعلق بها من نحو، وتصريف، ومعاني، وبيان عارفاً بما يحتاج إليه من علم الأصول، بصيراً بالسنة المطهرة، مميزاً بين الصحيح، وما يلحق به، والضعيف، وما يلحق به، من النحل، ورعاً لا يحيف، ولا يميل في حكمه، فمن كان هكذا، فهو قائم في مقام النبوة مترجم عنها حاكم بأحكامها. وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود، وترجف له الأفئدة، فإنه أولاً أقسم سبحانه بنفسه مؤكداً لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون، فنفي عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالحى عباد الله حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله ﷺ، ثم لم يكتف بهذا كله، بل ضمّ بذلك حتى قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ فضم إلى التحكيم أمراً آخر، هو عدم وجود حرج أي: حرج في صدورهم، فلا يكون مجرد التحكيم، والإنعان كافياً حتى يكون من صميم القلب عن رضا، واطمئنان، وانثلاج قلب، وطيب نفس، ثم لم يكتف بهذا كله، بل ضمّ إليه قوله: ﴿وَيُؤَسِّلُوا تَسْلِيْمًا﴾ أي: يدعوا، ويتقاولوا ظاهراً، وباطناً،

خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاتَّقُوا ثَبَاتٍ أَوْ أَنْفُرُوا جَمِيعًا ﴿٦٦﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ يُبْتَغَىٰ قَاتِلًا فَاصْبِرْ لَهُمْ صَبِيرَةً وَلَا تُسَبِّحُوا لَهُمْ نَسِيحًا ﴿٦٧﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٦٨﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٦٩﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٠﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧١﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٣﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٤﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٥﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٦﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٨﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٧٩﴾ وَلَئِنْ أَسْبَغَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ لَكَ لَأَمْرٌ أَنْ تَقْنَطَ مِنْهُمْ سَبْعًا ﴿٨٠﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذا خطاب لخلص المؤمنين، وأمر لهم بجهاد الكفار، والخروج في سبيل الله، والحذر، والحذر لغتان: كالمثل، والمثل. قال الفراء: أكثر الكلام الحذر، والحذر مسموع أيضاً، يقال: خذ حذرك أي: احذر، وقيل: معنى الآية: الأمر لهم بأخذ السلاح حذراً، لأن به الحذر. قوله: ﴿فانفروا﴾ نفر ينفر بكسر الفاء نفيراً، ونفرت الدابة تنفر بضم الفاء نفوراً. والمعنى: انهضوا لقتال العدو. أو النفير اسم للقوم الذين ينفرون، وأصله من النفار، والنفور، وهو: الفزع، ومنه قوله تعالى: ﴿ولوا على أنبارهم نفوراً﴾ [الإسراء: 46] أي: نافرين، قوله: ﴿ثبات﴾ جمع ثبة، أي: جماعة. والمعنى: انفروا جماعات متفرقات. قوله: ﴿أو انفروا جميعاً﴾ أي: مجتمعين جيشاً واحداً. ومعنى الآية: الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين؛ ليكون ذلك أشد على عيولهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده، أو نحو ذلك، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ [التوبة: 41] ويقول: ﴿إن لا تنفروا بعنكم﴾ [التوبة: 39] والصحيح أن الآيتين جميعاً محكمتان: إحداهما في الوقت الذي يحتاج فيه إلى نفور الجميع، والأخرى عند الاكتفاء بنفود البعض دون البعض. قوله: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ التبطئة، والإبطاء التأخر، والمراد: المنافقون كانوا يقعون عن الخروج، ويقعون غيرهم. والمعنى: أن من خلافتكم، وجنسكم، ومن أظهر إيمانه لكم نفاقاً من يبطن المؤمنين، ويبطئهم، واللام في قوله: ﴿لمن﴾ لام تركيد، وفي قوله: ﴿ليبطئن﴾ لام جواب القسم، و «من» في موضع نصب، وصلتها الجملة. وقرا مجاهد، والنخعي، والكلبي ﴿ليبطئن﴾ بالتخفيف ﴿فإن أصابكم مصيبة﴾ من قتل، أو هزيمة، أو ذهاب مال. قال هذا المنافق قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم حتى يصيبني ما أصابهم ﴿ولئن أصابكم فضل من﴾ غنيمة، أو فتح

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَحَسَنَ أَتْلُوكَ رَئِيفًا ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٦٧﴾

﴿لو﴾ حرف امتناع، وأن مصدرية، أو تفسيرية؛ لأن ﴿كتبنا﴾ في معنى أمرنا. والمعنى: أن الله سبحانه لو كتب القتل، والخروج من الديار على هؤلاء الموجودين من اليهود ما فعله إلا القليل منهم، أو لو كتب ذلك على المسلمين ما فعله إلا القليل منهم، والضمير في قوله: ﴿فعلوه﴾ راجع إلى المكتوب الذي دل عليه كتبنا، أو إلى القتل، والخروج المملول عليهما بالفعلين، وتوحيد الضمير في مثل هذا قد قنمنا وجهه. قوله: ﴿إلا قليل﴾ قراه الجمهور بالرفع على البذل. وقرا عبد الله بن عامر، وعيسى بن عمر ﴿إلا قليلاً﴾ بالنصب على الاستثناء، وكذا هو في مصاحف أهل الشام، والرفع أجود عند النحاة. قوله: ﴿ولو لنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ من اتباع الشرع، والانقياد لرسول الله ﷺ ﴿لكن﴾ ذلك خيراً لهم، في الدنيا، والآخرة، ﴿ولشدّ تثبيثاً﴾ لأقدامهم على الحق، فلا يضطربون في أمر دينهم ﴿وإذن﴾ أي: وقت فعلهم لما يوعظون به ﴿لأتيناهم من لنا لجرأ عظيماً ولهيناهم صراطاً مستقيماً﴾ لا عوج فيه؛ ليصلوا إلى الخير الذي يناله من امتثل ما أمر به، وانقاد لمن يدعوه إلى الحق. قوله: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى المطيعين، كما تفيد من ﴿مع الذين أنعم الله عليهم﴾ بدخول الجنة، والوصول إلى ما أعد الله لهم. والصديق المبالغ في الصديق، كما تفيد الصيغة، وقيل: هم فضلاء أتباع الأنبياء، والشهداء؛ من ثبتت لهم الشهادة، والصالحين: أهل الأعمال الصالحة. والرفيق مأخوذ من الرفق، وهو: لين الجانب، والمراد به: المصاحب لارتفاقك بصحبته، ومنه الرفقة لارتفاق بعضهم ببعض، وهو منتصب على التمييز، أو الحال، كما قال الأخفش.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ولو لنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم﴾ هم: يهود، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سفيان أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وقد روي من طرق أن جماعة من الصحابة قالوا: لما نزلت الآية لو فعل ربنا لفعلنا. أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن. وأخرجه ابن أبي حاتم، عن عامر بن عبد الله بن الزبير. وأخرجه أيضاً عن شريح بن عبيد. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والضياء المقدسي في صفة الجنة، وحسنه عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإنني لأكون في البيت، فأنكرت، فما أصبر حتى آتي، فأنظر إليك، وإذا نكرت موتي، وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإنني إذا دخلت الجنة

للمؤمنين، وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره **﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾** أي: سبيل الشيطان، أو الكهان، أو الأصنام، وتفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى لقوله: **﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾** أي: مكره، ومكر من اتبعه من الكفار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿فانفروا ثبات﴾** قال: عصباً، يعني سرايا متفرقين **﴿أو انفروا جميعاً﴾** يعني كلكم. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه قال في سورة النساء: **﴿خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾** نسختها: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾** [التوبة: 122]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: **﴿ثبات﴾** أي: فرقا قليلا. وأخرج عن قتادة في قوله: **﴿أو انفروا جميعاً﴾** أي: إذا نفر نبي الله ﷺ، فليس لأحد أن يتخلف عنه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾** إلى قوله: **﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** ما بين ذلك في المناققين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في الآية قال: هو فيما بلغنا عبد الله بن أبي بن سلول رأس المناققين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر **﴿فليقاتل﴾** يعني: يقاتل المشركين **﴿في سبيل الله﴾** في طاعة الله **﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل﴾** يعني: يقتله العدو **﴿أو يغلب﴾** يعني: يغلب العدو من المشركين **﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** يعني: جزاء وإفراً في الجنة، فجعل القتال، والمقتول من المسلمين في جهاد المشركين شريكين في الأجر. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **﴿في سبيل الله والمستضعفين﴾** قال: وفي المستضعفين. وأخرج ابن جرير، عن الزهري قال: وسبيل المستضعفين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه من طريق العوفي قال: المستضعفون أناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها. وأخرج البخاري، عنه قال: «أنا وأمي من المستضعفين». وأخرج ابن جرير، عنه قال: القرية الظالم أهلها مكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عائشة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: إذا رأيت الشيطان، فلا تخافوه، واحملوا عليه **﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾**. قال مجاهد: كان الشيطان يتراءى لي في الصلاة، فكنت أنكر قول ابن عباس، فأحمل عليه، فيذهب عني.

أَنْزَلَ إِلَهُ الَّذِينَ قَاتَلْتُمْ بِكُمْ آلَافًا وَقَاتَلْتُمُ الْمَلَائِكَةَ وَمَا أَزْكَاكُمْ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِئَةٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قِيلَ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُرُورِ ۚ أَلَيْسَ لَكُمْ الْمَوْتُ وَالْكَرُورُ فِي

﴿ليقولن﴾ هذا المناق قول نادم حاسد **﴿يا ليتني كنت معهم فافوز فوزاً عظيماً﴾**. قوله: **﴿كان لم يكن بينكم وبينه مودة﴾** جملة معترضة بين الفعل الذي هو ليقولن وبين مفعوله، وهو: **﴿يا ليتني﴾** وقيل: إن في الكلام تقديم، وتأخيراً، وقيل: المعنى: ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة أي: كان لم يعاينكم على الجهاد، وقيل: هو في موضع نصب على الحال. وقرأ الحسن: **﴿ليقولن﴾** بضم اللام على معنى من. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم **﴿كان لم تكن﴾** بالثاء على اللفظ المودة. قوله: **﴿فافوز﴾** بالنصب على جواب التمني. وقرأ الحسن: **﴿فافوز﴾** بالرفع. قوله: **﴿فليقاتل في سبيل الله﴾** هذا أمر للمؤمنين، وقم الظرف على الفاعل للاهتمام به. و **﴿الذين يشرون﴾** معناه: يبيعون، وهم المؤمنون، والفاء في قوله: **﴿فليقاتل﴾** جواب الشرط مقترن أي: لم يقاتل هؤلاء المنكروون سابقاً الموصوفون بأن منهم لمن ليبطئن، فليقاتل المخلصون البائسون أنفسهم البائعون للحياة الدنيا بالآخرة، ثم وعد المقاتلين في سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجراً عظيماً لا يقدر قدره، وذلك أنه إذا قتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الأجور، وإن غلب، وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله مع ما قد ناله من العلو في الدنيا، والغنمة، وظاهر هذا يقتضي التسوية بين من قتل شهيداً، أو انقلب غانماً، وربما يقال: إن التسوية بينهما إنما هي في إيتاء الأجر العظيم، ولا يلزم أن يكون أجرهما مستوياً، فإن كون الشيء عظيماً هو من الأمور النسبية التي يكون بعضها عظيماً بالنسبة إلى ما هو بونه، وحقيراً بالنسبة إلى ما هو فوقه. قوله: **﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾** خطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريق الالتفات. قوله: **﴿والمستضعفين﴾** مجرور عطفاً على الاسم الشريف أي: ما لكم لا تقاتلون في سبيل الله، وسبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من الأسر، وتريحوهم مما هم فيه من الجهد، ويجوز أن يكون منصوباً على الاختصاص، أي: وأخص المستضعفين، فإنهم من أعظم ما يصدق عليه سبيل الله، واختار الأول الزجاج، والأزهري. وقال محمد بن يزيد: اختار أن يكون المعنى، وفي المستضعفين، فيكون عطفاً على السبيل، والمراد بالمستضعفين هنا: من كان بمكة من المؤمنين تحت إزدال الكفار، وهم: الذين كان يدعو لهم النبي ﷺ، فيقول: **﴿واللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين﴾** كما في الصحيح. ولا يبعد أن يقال: إن لفظ الآية أوسع، والاعتبار بعموم اللفظ لولا تقييده بقوله: **﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾** فإنه يشعر باختصاص تلك بالمستضعفين الكائنين في مكة؛ لأنه قد أجمع المفسرون، على أن المراد بالقرية الظالم أهلها: مكة. وقوله: **﴿من الرجال والنساء والولدان﴾** بيان للمستضعفين. قوله: **﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾** هذا ترغيب

حكاه مكّي عن مالك، وقال: ألا ترى إلى قوله: ﴿والسماوات ذوات البروج﴾ [البروج: 1] ﴿جعل في السماء بروجاً﴾ [الفرقان: 61] ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ [الحجر: 16] وقيل: إن المراد بالبروج المشيدة هنا: قصور من حديد. وقرأ طلحة بن سليمان: ﴿يدرككم الموت﴾ بالرفع على تقدير الفاء، كما في قوله:

وقال رائدهم أرسوا نزلوها

قوله: ﴿وان تصبهم حسنة﴾ هذا، وما بعده مختص بالمنافقين، أي: إن تصبهم نعمة نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية، ونقمة نسبوها إلى رسول الله ﷺ، فردّ الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ ليس، كما ترعمون، ثم نسبهم إلى الجهل، وعدم الفهم، فقال: ﴿فمأل هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي: ما بالهم هكذا. قوله: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ هذا الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس، أو لرسول الله ﷺ تعريضاً لأمره، أي: ما أصابك من خصب، ورخاء، وصحة، وسلامة، فمن الله بفضل، ورحمته، وما أصابك من جهد، وبلاء، وشدة، فمن نفسك بذنب أتيت، فعوقبت عليه، وقيل: إن هذا من كلام الذين لا يفقهون حديثاً، أي: فيقولون ما أصابك من حسنة، فمن الله، وقيل: إن ألف الاستفهام مضمرة، أي: أقمن نفسك، ومثله قوله تعالى: ﴿وذلك نعمة تمنها علي﴾ [الشعراء: 22] والمعنى، أو تلك نعمة، ومثله قوله: ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ [الأنعام: 77] أي: أهذا ربي، ومنه قول أبي خراش الهللي:

رموني وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم
أي: أهم هم، وهذا خلاف الظاهر، وقد ورد في الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة، فيما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: 30]، وقوله: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل: هو من عند أنفسكم﴾ [آل عمران: 165]. وقد يظن أن قوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ مناف لقوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ ولقوله: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان، فبإذن الله﴾ [آل عمران: 166]، وقوله: ﴿ونبيلوكم بالشر، والخير فتنة﴾ [الأنبياء: 45]، وقوله: ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً، فلا مردّ له، وما لهم من دونه من وال﴾ [الرعد: 11] وليس الأمر كذلك، فالجمع ممكن، كما هو مقرّر في مواطنه. قوله: ﴿وارسلناك للناس رسولا﴾ فيه البيان لعموم رسالته ﷺ إلى الجميع، كما يفيد التأكيد بالمصدر، والعموم في الناس، ومثله قوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبا: 28]، وقوله: ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: 158] ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: 28] على ذلك. قوله: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ فيه أن طاعة الرسول طاعة الله، وفي هذا من النداء بشرف رسول الله ﷺ، وعلوّ شأنه، وارتفاع مرتبته ما لا يقار قدره، ولا يبلغ مداه، ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا

يرجئ مسيئته وإن نصبتهم حسنة يقولوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نُسِبتُمْ سَيئَةً يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ كَلَامُ الْكَافِرِينَ لَا يَكْادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴿٧٧﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٨﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٧٩﴾ وَيَتَوَلَّوْكَ طَاعَةً فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيِّنَ طَلَافَهُ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَلَّى عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٠﴾

قوله: ﴿الم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية، قيل: هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال في مكة بعد أن تسرعوا إليه. فلما كتب عليهم بالمدينة تثبطوا عن القتال من غير شك في الدين بل خوفاً من الموت، وفرقاً من هول القتل، وقيل: إنها نزلت في اليهود، وقيل: في المنافقين أسلموا قبل فرض القتال، فلما فرض كرهوه، وهذا أشبه بالسباق لقوله: ﴿وقالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ وقوله: ﴿وان تصبهم حسنة﴾ الآية، ويبعد صدور مثل هذا من الصحابة. قوله: ﴿كخشية الله﴾ صفة مصدر محذوف، أي: خشية خشية الله، أو حال، أي: تخشونهم مشبهين أهل خشية الله، والمصدر مضاف إلى المفعول، أي: كخشيتهم الله. وقوله: ﴿أو أشد خشية﴾ معطوف على خشية الله في محل جر، أو معطوف على الجار والمجرور جميعاً، فيكون في محل الحال كالمعطوف عليه، وأو للتوزيع على معنى أن خشية بعضهم خشية الله، وخشية بعضهم أشد منها. قوله: ﴿وقالوا﴾ عطف على ما يدل عليه قوله: ﴿إذا فريق منهم﴾ أي: فلما كتب عليهم القتال، فاجأ فريق منهم خشية الناس: ﴿وقالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا﴾ أي: هلا أخرتنا، يريسون المهلة إلى وقت آخر قريب من الوقت الذي فرض عليهم فيه القتال، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ سريع الفناء لا يدوم لصاحبه، وثواب الآخرة خير لكم من المتاع القليل ﴿لمن اتقى﴾ منكم، ورغب في الثواب الدائم ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾ أي: شيئاً حقيراً يسيراً، وقد تقدّم تفسير الفتيل قريباً، وإذا كنتم توفرون أجوركم، ولا تنقصون شيئاً منها، فكيف ترغبون عن ذلك، وتشتملون بمتاع الدنيا مع قلتها، وانقطاعه. وقوله: ﴿أيضاً تكونوا يدرككم الموت﴾ كلام مبتدأ، وفيه حدّ لمن قعد عن القتال خشية الموت، وبيان لفساد ما خالطه من الجبن، وخامره من الخشية، فإن الموت إذا كان كائنًا لا محالة، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره. والبرج جمع برج: وهو البناء المرتفع، والمشيدة: المرفعة من شاد القصر: إذا رفعه، وطلاده بالشيد، وهو الجصّ، وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه.

وقد اختلف في هذه البروج ما هي؟ قيل: الحصون التي في الأرض، وقيل: هي القصور، قال الزجاج، والقتيبى: ومعنى مشيدة مطولة، وقيل: معناه مطلية بالشيد، وهو الجصّ، وقيل: المراد بالبرج: برج في سماء الدنيا مبنية،

ينهي إلا عما نهى الله عنه: ﴿ومن تولي﴾ أي: أعرض ﴿فما أرسلناك عليهم حفيفاً﴾ أي: حافظاً لأعمالهم، إنما عليك البلاغ، وقد نسخ هذا بآية السيف ﴿ويقولون طاعة﴾ بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرنا طاعة، أو شأنا طاعة. وقرأ الحسن، والجحدري، ونصر بن عاصم بالنصب على المصدر، أي: نطيع طاعة، وهذه في المنافقين في قول أكثر المفسرين، أي: يقولون إذا كانوا عندك طاعة ﴿وإذا برزوا من عندك﴾ أي: خرجوا من عندك. ﴿بيت طائفة منهم﴾ أي: زوّرت طائفة من هؤلاء القائلين غير الذي تقول لهم أنت، وتأمّره بهم، أو غير الذي تقول لك هي من الطاعة لك، وقيل: معناه: غيروا، وبكّلوا، وحزّفوا قولك فيما عهدت إليهم، والتبّيت: التبديل، ومنه قول الشاعر:

أتوني فلم أرض ما بيئتوا وكانوا أتوني بامرئ نكر
يقال بيت الرجل الأمر: إذا بهره ليلاً، ومنه قوله تعالى:

﴿إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ [النساء: 108] ﴿وإنه يكتب ما يبيتون﴾ أي: يثبته في صحائف أعمالهم؛ ليجازيهم عليه. وقال الزجاج: المعنى ينزله عليك في الكتاب. قوله: ﴿فأعرض عنهم﴾ أي: دعهم، وشأنهم حتى يمكن الانتقام منهم، وقيل: معناه: لا تخبر بأسمائهم، وقيل: معناه: لا تعاقبهم. ثم أمره بالتوكل عليه، والثقة به في النصر على عدوه قيل: وهذا منسوخ بآية السيف.

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف، وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة، ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أئمة؟ فقال: إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا، فأنزل الله: ﴿الم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في تفسير الآية نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: أنها نزلت في اليهود. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فلما كتب عليهم للقتال إذا فريق﴾ الآية، قال: نهى الله هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿إلى لجل قريب﴾ قال: هو الموت. وأخرج نحوه، عن ابن جريج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة ﴿في بروج مشيدة﴾ قال: في قصور محصنة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: هي قصور في السماء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سفيان نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وإن تصيبهم حسنة﴾ يقول: نعمة ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ قال: مصيبة ﴿قل كل من عند الله﴾ قال: النعم، والمصائب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية في قوله: ﴿وإن تصيبهم حسنة﴾ قال:

هذه في السراء، والضراء، وفي قوله: ﴿ما أصابك من حسنة﴾ قال: هذه في الحسنات، والسيئات، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ يقول: الحسنة، والسيئة من عند الله، أما الحسنة، فأنعم بها عليك، وأما السيئة، فابتلاك بها، وفي قوله: ﴿وما أصابك من سيئة﴾ قال: ما أصابه يوم أحد أن شجّ وجهه، وكسرت رباعيته. وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق العوفي عنه في قوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ قال: هذا يوم أحد يقول: ما كانت من نكبة، فبذلك، وأنا قُترت ذلك. وأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد أن ابن عباس كان يقرأ: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبها عليك﴾ قال مجاهد: وكذلك قراءة أبي، وابن مسعود. وأخرج نحو قول مجاهد هذا ابن الأنباري في المصاحف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ويقولون طاعة﴾ قال: هم أناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ آمنا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم، وأموالهم ﴿فإذا برزوا﴾ من عند رسول الله ﷺ طائفة منهم يقول: خالفوا إلى غير ما قالوا عنده، فعابهم الله. وأخرج ابن جرير، عنه قال غير أولئك ما قاله النبي ﷺ.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١٠٨﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظِرُونَ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٩﴾

الهمزة في قوله: ﴿أفلا يتدبرون﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، أي: أيعرضون عن القرآن، فلا يتدبرونه يقال تدبرت الشيء: تفكرت في عاقبته، وتاملته، ثم استعمل في كل تامل، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته، وبلت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: 24] على وجوب التدبر للقرآن؛ ليعرف معناه. والمعنى: أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني، قوي المياني، بالغا في البلاغة إلى أعلى درجاتها ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ أي: تفاوتاً، وتناقضاً، ولا يدخل في هذا اختلاف مقادير الآيات، والسور؛ لأن المراد اختلاف التناقض، والتفاوت، وعدم المطابقة للواقع، وهذا شأن كلام البشر لا سيما إذا طال، وتعرض قائله للإخبار بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحاً مطابقاً للواقع إلا القليل النادر. قوله: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ يقال: أذاع الشيء، وأذاع به: إذا أفشاه، وأظهره، وهؤلاء هم: جماعة من ضعفة المسلمين كانوا إذا سمعوا شيئاً من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين، وقتل عدوهم، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين، وقتلهم أقشوه، وهم يظنون أنه لا شيء عليهم في ذلك. قوله: ﴿ولو رآه إلى الرسول وإلى أولي الأمر

مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّؤَيَّدًا ﴿٦٩﴾ وَإِذَا حُجِمَ بِهِمْ يَبْتَغِيْ حِمْرًا يَّخْسَنُ مِنْهَا أَوْ رُدُوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيْبًا ﴿٧٠﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْزِيََكُمْ إِنْ يَّوْرَ الْيَوْمِ لَا رَبَّ يَوْمَ ذَلِكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَذِيْكَ ﴿٧١﴾

الفاء في قوله: ﴿فَقَاتِلْ﴾ قيل: هي متعلقة بقوله: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ [النساء: 74] الخ، أي: من أجل هذا، فقاتل، وقيل: متعلقة بقوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ [النساء: 75] فقاتل، وقيل: هي جواب شرط محذوف يدل عليه السياق تقديره: إذا كان الأمر ما نكر من عدم طاعة المنافقين، فقاتل، أو إذا أفروك، وتركوك، فقاتل. قال الزجاج: أمر الله رسوله ﷺ بالجهاد، وإن قاتل وحده؛ لأنه قد ضمن له النصر. قال ابن عطية: هذا ظاهر اللفظ، إلا أنه لم يجيء في خبر قط أن القتال فرض عليه بون الأمة، فالمعنى والله أعلم: أنه خطاب له في اللفظ، وفي المعنى له، ولأتمته، أي: أنت يا محمد، وكل واحد من أمتك يقال له: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ أي: لا تكلف غير نفسك، ولا تلزم فعل غيرك، وهو استثناء مقرر لما قبله؛ لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده، وقرئ: ﴿لَا تَكْفُفُ﴾ بالجزم على النهي، وقرئ بالنون. قوله: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حضهم على القتال، والجهاد، يقال حرضت فلاناً على كذا: إذا أمرته به، وحارص فلان على الأمر، وكتب عليه، وواظب عليه بمعنى واحد. قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إطماع للمؤمنين بكف بأس الذين كفروا عنهم، والإطماع من الله عز وجل واجب، فهو وعد منه سبحانه، ووعد كائن لا محالة ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا﴾ أي: أشد صولة، وأعظم سلطاناً ﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ أي: عقوبة، يقال: نكلت بالرجل تنكيلاً من النكل، وهو: للعذاب. والمنكل الشيء الذي ينكل بالإنسان ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أصل الشفاعة، والشفعة، ونحوهما من الشفع وهو: الزوج، ومنه الشفع؛ لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً، ومنه ناقة شفوع: إذا جمعت بين محبين في حلبة واحدة، وناق شفع: إذا اجتمع لها حمل، وولد يتبعها. والشفع: ضم واحد إلى واحد، والشفعة: ضم ملك الشريك إلى ملكك، فالشفاعة: ضم غيرك إلى جاهك، ووسيلتك، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفع عند المشفع، واتصال منفعة إلى المشفوع له. والشفاعة الحسنة هي: في البر والطاعة. والشفاعة السيئة في المعاصي، فمن شفع في الخير؛ لينفع، فله نصيب منها، أي: من أجرها، ومن شفع في الشر، كمن يسعى بالنميمة، والغيبة كان له كفل منها، أي: نصيب من وزرها. والكفل: الوزر والإثم، واشتقاقه من الكساء الذي يجعله الراكب على سنام البعير لئلا يسقط، يقال اكتفلت البعير: إذا أرت على سنامه كساء، وركبت عليه؛ لأنه لم يستعمل الظهر كله بل استعمل نصيباً منه ويستعمل في النصيب من الخير والشر. ومن استعمله في الخير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كُفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: 28] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾

منهم ﴿وهم أهل العلم، والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم أو هم الولاة عليهم﴾ لعلمه للذين يستنبطونه منهم ﴿أي: يستخرجونه بتدبيرهم، وصحة عقولهم. والمعنى: أنهم لو تركوا الإذاعة للأخبار حتى يكون النبي ﷺ هو الذي ينيعها، أو يكون أولي الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك؛ لأنهم يعلمون ما ينبغي أن يفشي، وما ينبغي أن يكتم. والاستنباط مأخوذ من استنبط الماء: إذا استخرجته. والنبط: الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر عند حفرها، وقيل: إن هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجاقات المنافقين على المسلمين، فينيعونها، فتحصل بذلك المفسدة. قوله: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لولا ما تفضل الله به عليكم من إرسال رسوله، وإنزال كتابه لاتبعتم الشيطان، فبقيتم على كفركم إلا قليلاً منكم، أو إلا اتباعاً قليلاً منكم، وقيل: المعنى: أذاعوا به إلا قليلاً منهم، فإنه لم يذع، ولم يفش، قاله الكسائي، والأخفش، والفراء، وأبو عبيدة، وأبو حاتم، وابن جرير، وقيل: المعنى لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلاً منهم، قاله الزجاج.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجبوا فيه لختلافاً كثيراً﴾ يقول: إن قول الله لا يختلف، وهو حق ليس فيه باطل، وإن قول الناس يختلف. وأخرج عبد بن حميد، ومسلم، وابن أبي حاتم، من طريق ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي ﷺ نساءه بخلت المسجد، فوجبت الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقامت على باب المسجد، فنانيت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في الآية، قال هذا في الإخبار إذا غزت سرية من المسلمين أخبر الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمون من عنوهم كذا وكذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا، فافشوه بينهم من غير أن يكون النبي ﷺ هو يخبرهم به. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ قال: هم أهل التفاق. وأخرج ابن جرير، عن أبي معاذ مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ قال: فانقطع الكلام. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهو في أول الآية يخبر عن المنافقين: قال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: بالقليل المؤمنين.

فَقَدْ بَلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٧٠﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَمْ كُفْلٌ

أي: مقتدرًا، قاله الكسائي. وقال الفراء: المقيت الذي يعطي كل إنسان قوته، يقال: قته أقوقته قوتًا، وأقته أقيته إقانة، فإنا قاتت ومقيت، وحكى الكسائي أقات يقيت. وقال أبو عبيدة: المقيت الحافظ. قال النحاس: وقول أبي عبيدة أولى؛ لأنه مشتق من القوت، والقوت معناه: مقدار ما يحفظ الإنسان. وقال ابن فارس في المجل: المقيت المقتدر، والمقيت: الحافظ والشاهد. وأما قول الشاعر:

إني الفضل أم علي إذا حو سبت إني على الحساب مقيت
فقال ابن جرير الطبري إنه من غير هذا المعنى. قوله: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رثوها﴾ التحية تفعلت من حييت، والأصل تحية مثل ترضية، وتسمية؛ فادغموا الياء في الياء، وأصلها الدعاء بالحياة، والتحية: السلام، وهذا المعنى هو المراد هنا، ومثله قوله تعالى: ﴿وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحبك به الله﴾ [المجالة: 8] وإلى هذا ذهب جماعة المفسرين، وروي عن مالك أن المراد بالتحية هنا: تشميت العاطس. وقال أصحاب أبي حنيفة: التحية هنا الهدية لقوله: ﴿أو رثوها﴾ ولا يمكن رد السلام بعينه، وهذا فاسد لا ينبغي الالتفات إليه. والمراد بقوله: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أن يزيد في الجواب على ما قاله المبتدئ بالتحية، فإذا قال المبتدئ: السلام عليكم، قال المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا زاد المبتدئ لفظًا زاد المجيب على جملة ما جاء به المبتدئ لفظًا، أو اللفاظًا نحو: وبركاته، ومرضاته، وتحيتة.

قال القرطبي: لجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغّب فيها، وردّه فريضة لقوله: ﴿فحيوا بأحسن منها أو رثوها﴾ واختلفوا إذا ردّ واحد من جماعة هل يجزئ أو لا؟ فذهب مالك، والشافعي إلى الإجزاء، وذهب الكوفيون إلى أنه لا يجزئ عن غيره، ويردّ عليهم حديث عليّ عن النبي ﷺ قال: «يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يردّ أحدهم» أخرجه أبو داود، وفي إسناده سعيد بن خالد الخزاعي المدني، وليس به بأس، وقد ضعفه بعضهم. وقد حسن الحديث ابن عبد البر. ومعنى قوله: ﴿أو رثوها﴾ الاقتصار على مثل اللفظ الذي جاء به المبتدئ، فإذا قال السلام عليكم، قال المجيب: وعليكم السلام. وقد ورد في السنة المطهرة في تعيين من يبتدئ بالسلام، ومن يستحق التحية، ومن لا يستحقها ما يغني عن البسط هاهنا قوله: ﴿إن الله كان على كل شيء حسيبًا﴾ يحاسبكم على كل شيء؛ وقيل: معناه حفيظًا؛ وقيل: كافيًا من قولهم أحسبني كذا أي: كفاني، ومثله: ﴿حسبك الله﴾ [الأنفال: 62، 64]. قوله: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ مبتدأ وخبر، واللام في قوله: ﴿ليجمعنكم﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله ليجمعنكم الله بالحشر إلى يوم القيامة، أي: إلى حساب يوم القيامة؛ وقيل: إلى بمعنى في، وقيل: إنها زائدة. والمعنى: ليجمعنكم يوم القيامة، ﴿ويوم القيامة﴾ يوم القيام من القبور ﴿لا ريب فيه﴾ أي: في يوم القيامة، أو في الجمع،

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي سنان في قوله: ﴿وحرّض للمؤمنين﴾ قال: عظمهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾ الآية، قال: شفاعة الناس بعضهم لبعض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿يكن له نصيب منها﴾ قال: حظ منها. وقوله: ﴿كفل منها﴾ قال: الكفل هو الإثم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: الكفل الحظ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتًا﴾ قال: حفيظًا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن ربيعة: أنه سأل رجل، عن قول الله: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتًا﴾ قال: يقيت كل إنسان بقدر عمله. وفي إسناده رجل مجهول. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿مقيتًا﴾ قال: شهيدًا. وأخرج ابن جرير عنه ﴿مقيتًا﴾ قال: شهيدًا حسيبًا حفيظًا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿مقيتًا﴾ قال: قاتلًا. وأخرج ابن جرير، عن السدي قال: المقيت القنير. وأخرج أيضًا، عن ابن زيد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: المقيت الرزاق. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأب المفرد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: من سلم عليك من خلق الله، فارد عليه، وإن كان يهوديًا، أو نصرانيًا، أو مجوسيًا، ذلك بأن الله يقول: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رثوها﴾ الآية. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه قال السيوطي بسند حسن عن سلمان الفارسي قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: وعليك ورحمة الله، ثم أتى آخر، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال: وعليك ورحمة الله وبركاته، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال له: وعليك، فقال له الرجل: يا نبي الله، بابي أنت، وأمي أذاك فلان وفلان، فسلمنا عليك، فرددت عليهما أكثر مما رددت علي؟ فقال: إنك لم تدع لنا شيئًا، قال الله: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رثوها﴾ فرددناها عليك». وأخرج البخاري في الأب المفرد، عن أبي هريرة: «أن رجلاً مرّ على رسول الله ﷺ، وهو في مجلس، فقال: سلام عليكم، فقال: عشر حسنات، فمرّ رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال: عشرون حسنة، فمرّ رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: ثلاثون حسنة». وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر مرفوعاً نحوه. وأخرج

البهيقي، عن سهل بن حنيف مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج أحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والبيهقي، عن عمران بن حصين مرفوعاً نحوه أيضاً، وزاد بعد كل مرة أن النبي ﷺ ردّ عليه، ثم قال: عشر إلى آخره. وأخرج أبو داود، والبيهقي عن معاذ بن انس الجهني مرفوعاً نحوه. وزاد بعد قوله وبركاته: ومغفرته، فقال: أربعون، يعني حسنة.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ وَدُّوا أَنْ تُكْفَرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَنجِدُوا مِنْهُمْ أُولَئِكَ حَتَّى تَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذَرُهُمْ وَأَقْبَرُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنجِدُوا مِنْهُمْ وَلَا جَنَاحَ لَكُمْ وَلَئِنْ يَسْعَوْا إِلَى قَوْمٍ يَتَّبِعُهُمْ يَتَّبِعُوهُمْ يَتَّبِعُوا أَوْ يَحْصِرُوا فَرَأَيْتُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَغْلِبَ اللَّهُ فُورَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَدْ تَلَاوَكُمُ فَإِنْ اعْتَذَرْتُمْ عَنْهُمْ فَلَمْ يَنْصَلِحْكُمْ وَاتَّقُوا إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِجَلِيلٍ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيْكُمْ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ سَيَحْذَرُونَ مِمَّنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَتَّزَلَوْكُمْ فَلَقَا يُكْرَهُ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَاشٍ لِكُمُ الْبُرْءِ وَكَلِّمُوا أَيْدِيَهُمْ فَعُذِرْتُمْ وَأَقْبَرْتُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَلَكًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

الاستفهام في قوله: ﴿المالك﴾ للإنكار، واسم الاستفهام مبتدأ، وما بعده خبره. والمعنى أي: شيء كائن لكم ﴿في المنافقين﴾ أي: في أمرهم وشأنهم حال كونكم ﴿ففتن﴾ في ذلك. وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم في شأن المنافقين. وقد اختلف النحويون في انتصاب فتنتين، فقال الأخفش، والبصريون على الحال، كقولك: مالك قائماً. وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان، وهي: مضمره، والتقدير: فما لكم في المنافقين كنتم فتنتين. وسبب نزول الآية ما سيأتي، وبه يتضح المعنى.

وقوله: ﴿والله أركسهم﴾ معناه ردهم إلى الكفر ﴿بما كسبوا﴾ وحكى الفراء، والنضر بن شميل، والكسائي أركسهم، وركسهم، أي: ردهم إلى الكفر، ونكسهم، فالركس والنكس: قلب الشيء على رأسه، أو ردّ أوله إلى آخره، والمنكوس المركوس، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي ﴿والله ركسهم﴾ ومنه قول عبد الله بن رواحة:

اركسوا في فتنه مظلمة كسواد الليل يتلوها فتن والباء في قوله: ﴿بما كسبوا﴾ سببية، أي: أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام في قوله: ﴿أتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنج فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

[القصص: 56] قوله: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: طريقاً إلى الهداية. قوله: ﴿وولو لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، وإيضاح أنهم يرون أن يكفر

المؤمنون، كما كفروا، ويتمنوا ذلك عناداً، وغلوّاً في الكفر، وتماذياً في الضلال، فالكاف في قوله: ﴿كما﴾ نعت مصدر محذوف، أي: كفراً مثل كفرهم، أو حال، كما روي عن سيبيويه. قوله: ﴿فتكونون سواء﴾ عطف على قوله: ﴿تكفرون﴾ داخل في حكمه، أي: ولو كفركم كفركم، وولو مساواتكم لهم. قوله: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ جواب شرط محذوف، أي: إذا كان حالهم ما نكر، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا، ويحققوا إيمانهم بالهجرة ﴿فإن تولوا﴾ عن ذلك ﴿فخذوهم﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿واقتلوهم حيث وجبتهم﴾ في الحل، والحرم ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً﴾ تالونه ﴿ولا نصيراً﴾ تستنصرون به. قوله: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ هو: مستثنى من قوله: ﴿فخذوهم واقتلوهم﴾ أي: إلا الذين يصلون، ويصلون في قوم بينكم، وبينهم ميثاق بالجار، والطف، فلا تقتلوهما لما بينهم وبين من بينكم وبينهم عهد وميثاق، فإن العهد يشملهم، هذا أصح ما قيل في معنى الآية، وقيل الاتصال هنا: هو اتصال النسب. والمعنى: إلا الذين ينتسبون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق قاله أبو عبيدة، وقد أنكر ذلك أهل العلم عليه؛ لأن النسب لا يمنع من القتال بالإجماع، فقد كان بين المسلمين وبين المشركين أنساب، ولم يمنع ذلك من القتال. وقد اختلف في هؤلاء القوم الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ميثاق، فقيل: هم قريش كان بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق ﴿والذين يصلون﴾ إلى قريش هم: بنو مدلج، وقيل: نزلت في هلال بن عويمر، وسراقة بن جعشم، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد، وقيل: خزاعة، وقيل: بنو بكر بن زيد. قوله: ﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم﴾ عطف على قوله: ﴿يصلون﴾ داخل في حكم الاستثناء، أي: إلا الذين يصلون، والذين جاؤوكم، ويجوز أن يكون عطفاً على صفة قوم، أي: إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، والذين يصلون إلى قوم جاؤوكم حصرت صدورهم، أي: ضاقت صدورهم، عن القتال، فأمسكوا عنه، والحصر: الضيق، والانقباض. قال الفراء: وهو أي: حصرت صدورهم حال من المضمر المرفوع في جاؤوكم، كما تقول: جاء فلان ذهب عقله، أي: قد ذهب عقله. وقال الزجاج: هو خبر بعد خبر، أي: جاؤوكم، ثم أخبر، فقال: ﴿حصرت صدورهم﴾ فعلى هذا يكون حصرت بدلاً من جاؤوكم، وقيل: حصرت في موضع خفض على النعت لقوم، وقيل التقدير: أو جاؤوكم رجال، أو قوم حصرت صدورهم. وقرأ الحسن: ﴿أو جاؤوكم حصرة صدورهم﴾ نصباً على الحال. وقرئ حصرات، وحاصرات، وقال محمد بن يزيد المبرّد: حصرت صدورهم هو دعاء عليهم، كما تقول لعن الله الكافر، وضعفه بعض المفسرين، وقيل: أو بمعنى الواو. وقوله: ﴿إن يقاتلوهم أو يقاتلوا قومهم﴾ هو متعلق بقوله: ﴿حصرت صدورهم﴾ أي: حصرت صدورهم عن قتالكم، والقتال معكم

الآية، قال: نسختها براءة ﴿فإذا انسلكوا الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن السدي: «حصرت صدورهم» يقول: ضاقت صدورهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن الربيع «والقوا إليكم السلم» قال: الصلح. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فإن اعتزلوكم﴾ الآية، قال: نسختها «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» [التوبة: 5] وأخرج ابن جرير، عن الحسن، وعكرمة في هذه الآية قال: نسختها براءة وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: «يستجدون آخرين» الآية، قال: ناس من أهل مكة كانوا ياتون النبي ﷺ، فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قومهم، فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمَنوا هاهنا وهاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا، ويصالحوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة أنهم ناس كانوا بتهامة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنها نزلت في نعيم ابن مسعود.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَوَيْتَهُ مُسْلِمُهُ إِلَى أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ بَيْنَةٌ فَدْيَةٌ مُسْلِمُهُ إِلَى أَهْلِيهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ شَهْرَيْنِ مُسْتَأْمِنِينَ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُعَذِّبًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنُهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٥٧﴾

قوله: ﴿وما كان لمؤمن﴾ هذا النفي هو بمعنى النهي المقضي للتحريم كقوله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ [الأحزاب: 53] ولو كان هذا النفي على معناه لكان خيراً، وهو يستلزم صدقه، فلا يوجد مؤمن قتل مؤمناً خطأ؛ وقيل المعنى: ما كان له ذلك في عهد الله، وقيل: ما كان له ذلك فيما سلف، كما ليس له الآن ذلك بوجه، ثم استثنى منه استثناء منقطعاً فقال: إلا خطأ، أي: ما كان له أن يقتله البتة، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا، هذا قول سيبويه، والزجاج، وقيل: هو استثناء متصل؛ والمعنى: وما ثبت، ولا وجد، ولا ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ إذ هو مغلوب حينئذ، وقيل: المعنى: ولا خطأ. قال النحاس: ولا يعرف ذلك في كلام العرب، ولا يصح في المعنى؛ لأن الخطأ لا يحظر؛ وقيل: إن المعنى: ما ينبغي أن يقتله لعة من العلل إلا للخطأ وحده، فيكون قوله خطأ منتصباً بأنه مفعول له، ويجوز أن ينتصب على الحال، والتقدير: لا يقتله لعة من العلل إلا للخطأ إلا في حال الخطأ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف، أي: إلا قتلاً خطأ، ووجه الخطأ كثيرة، ويضبطها عدم القصد، والخطأ الاسم من أخطأ خطأ إذا لم يعتمد. قوله:

لقومهم، فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين، وكرهوا ذلك ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم﴾ ابتلاء منه لكم، واختباراً، كما قال سبحانه: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [محمد: 31] أو تحصيماً لكم، أو عقوبة بنوكم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، واللام في قوله: ﴿فلقاتلوكم﴾ جواب لو على تكرير الجواب، أي: لو شاء الله لسلطهم، ولقاتلوكم، والفاء للتعقيب ﴿فإن اعتزلوكم﴾ ولم يتعرضوا لقتالكم ﴿والقوا إليكم السلم﴾ أي: استسلموا لكم، وانقادوا ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي: طريقاً، فلا يحل لكم قتلهم، ولا أسرهم، ولا نهب أموالهم، فهذا الاستسلام يمنع من ذلك، ويحرمه «يستجدون آخرين» يريدون أن يأمَنوكم ويأمَنوا قومهم فيظهرون لكم الإسلام، ويظهرون لقومهم الكفر؛ ليأمَنوا من كلا الطائفتين، وهم قوم من أهل تهامة طلبوا الأمان من رسول الله ﷺ؛ ليأمَنوا عنده، وعند قومهم وقيل هي في قوم من أهل مكة، وقيل: في نعيم بن مسعود، فإنه كان يأمن المسلمين، والمشركين، وقيل: في قوم من المنافقين، وقيل: في أسد وغطفان ﴿كلما رتوا إلى الفتنة﴾ أي: دعاهم قومهم إليها، وطلبوا منهم قتال المسلمين «أركسوا فيها» أي: قلبوا فيها، فرجعوا إلى قومهم، وقاتلوا المسلمين، ومعنى الارتكاس: الانتكاس ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ يعني: هؤلاء الذين يريدون أن يأمَنوكم، ويأمَنوا قومهم ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: يستسلمون لكم، ويدخلون في عهدكم، وصلحكم، وينسلخون عن قومهم ﴿ويكفوا أيديهم﴾ عن قتالكم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ أي: حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم ﴿ولو أنكم﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة تسلطون بها عليهم، وتقهرونهم بها بسبب ما في قلوبهم من المرض، وما في صدورهم من الدغل، وارتكاسهم في الفتنة بايسر عمل، وأقل سعي.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فأنزل الله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ الآية كلها، فقال رسول الله ﷺ: إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث، كما تنفي النار خبث القضة. هذا أصح ما روي في سبب نزول الآية، وقد رويت أسباب غير ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿ووالله أركسهم﴾ يقول: أوقعهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: ردهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ قال: نزلت في هلال بن عويمر، وسراقة بن مالك المملجي، وفي بني خزيمة بن عامر بن عبد مناف. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في سننه عنه في قوله: ﴿إلا الذين يصلون﴾

وغيرهما: هو القتل بحديدة كالسيف، والخنجر، وسنان الرمح، ونحو ذلك من المحدث، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقل الحجارة، ونحوها. وقال الجمهور: إنه كل قتل من قاتل قاصد للفعل بحديدة، أو بحجر، أو بعصى، أو بغير ذلك، وقيد به بعض أهل العلم بأن يكون بما يقتل مثله في العادة. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: عمد، وشبه عمد، وخطأ. واستدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها. وذهب آخرون إلى أنه ينقسم إلى قسمين: عمد، وخطأ ولا ثالث لهما. واستدلوا بأنه ليس في القرآن إلا القسمان. ويجب عن ذلك بأن اقتصار القرآن على القسمين لا ينفي ثبوت قسم ثالث بالسنة، وقد ثبت ذلك في السنة. وقد جاءت هذه الآية بتغليظ عقوبة القاتل عمداً، فجعل الله له فيها بين كون جهنم جزاء له، أي: يستحقها بسبب هذا الذنب، وبين كونه خالداً فيها، وبين غضب الله عليه، ولعنته له، وإعادته له عذاباً عظيماً. وليس وراء هذا التشديد تشديد، ولا مثل هذا الوعيد وعيد. وانتصاب خالداً على الحال. وقوله: «وغضب الله عليه» معطوف على مقدر، يدل عليه السياق، أي: جعل جزاءه جهنم، أو حكم عليه، أو جازاه، وغضب عليه، وأعد له.

وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها علماء أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس، فسأته عنها، فقال: نزلت هذه الآية: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً» وهي آخر ما نزل، وما نسختها شيء، وقد روى النسائي عنه نحو هذا. وروى النسائي، عن زيد بن ثابت نحوه، ومن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبو سلمة، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم، عنهم. وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى: «إن الحسنات يذهبن السيئات» [هود: 114] وقوله: «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده» [الشورى: 25]. وقوله: «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» [النساء: 48]، قالوا أيضاً: والجمع ممكن بين آية النساء هذه، وآية الفرقان، فيكون معناهما: فجزأه جهنم إلا من تاب، لا سيما، وقد اتحد السبب، وهو: القتل، والموجب، وهو: التوعد بالعقاب. واستدلوا أيضاً بالحديث المذكور في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أنه رضي الله عنه: «قال بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ثم قال: فمن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه» وبحديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وغيره، في الذي قتل مائة نفس، وذهب جماعة منهم أبو حنيفة، وأصحابه، والشافعي إلى أن القاتل عمداً داخل تحت المشيئة تاب، أو لم يتب. وقد أوضحت في شرحي على المنتقى متمسك كل فريق.

والحق أن باب التوبة لم يغلق بون كل عاص، بل هو

«فتحرير رقبة مؤمنة» أي: فعلية تحرير رقبة مؤمنة يعتقها كفارة عن قتل الخطأ، وعبر بالرقبة عن جميع الذات.

واختلف العلماء في تفسير الرقبة المؤمنة، فقيل: هي التي صلت، وعقلت الإيمان فلا تجزئ الصغيرة، وبه قال ابن عباس، والحسن، والشعبي، والنخعي، وقتادة، وغيرهم. وقال عطاء بن أبي رباح: إنها تجزئ الصغيرة المولودة بين مسلمين. وقال جماعة منهم مالك، والشافعي: يجزي كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه إن مات، ولا يجزي في قول جمهور العلماء أعمى، ولا مقعد، ولا أشل، ويجزي عند الأكثر الأعرج، والأعور. قال مالك: إلا أن يكون عرجاً شديداً. ولا يجزي عند أكثرهم المجنون، وفي المقام تفاصيل طويلة منكرة في علم الفروع. قوله: «وبية مسلمة إلى أهله» البية: ما تعطى عوضاً عن دم المقتول إلى ورثته، والمسلمة: المدفوعة المؤداة، والأهل المراد بهم: الورثة، وأجناس البية، وتفصيلها قد بينتها السنة المطهرة. قوله: «إلا أن يصدقوا» أي: إلا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل بالدية، سمي العفو عنها صدقة ترغيباً فيه. وقرأ أبي: إلا يتصدقوا، وهذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله: «فنية مسلمة» أي: فعلية بية مسلمة إلا أن يقع العفو من الورثة عنها. قوله: «فإن كان من قوم عدو لكم» أي: فإن كان المقتول من قوم عدو لكم، وهم الكفار الحربيون، وهذه مسألة المؤمن الذي يقتله المسلمون في بلاد الكفار الذين كان منهم، ثم أسلم، ولم يهاجر، وهم يظنون أنه لم يسلم، وأنه باق على دين قومه، فلا بية على قاتله بل عليه تحرير رقبة مؤمنة. واختلفوا في وجه سقوط البية، فقيل: وجهه أن أولياء القاتل كفار لا حق لهم في البية، وقيل: وجهه أن الذي آمن، ولم يهاجر حرمة لقلول الله تعالى: «والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء» [الأنفال: 72] وقال: بعض أهل العلم إن بيته واجبة لبنت المال. قوله: «وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق» أي: مؤقت، أو مؤبد. وقرأ الحسن: «وهو مؤمن فنية مسلمة إلى أهله» أي: فعلى قاتله بية مؤداة إلى أهله من أهل الإسلام، وهم ورثته «وتحرير رقبة مؤمنة» كما تقدم «فمن لم يجد» أي: الرقبة، ولا اتسع ماله لشراؤها «فصيام شهرين متتابعين» أي: فعلية صيام شهرين متتابعين، لم يفصل بين يومين من أيام صومهما إنطار في نهار، فلو أقطر استأنف، هذا قول الجمهور، وأما الإنطار لعذر شرعي كالحيض، ونحوه، فلا يوجب الاستئناف. واختلف في الإنطار لعرض المرض. قوله: «توبة من الله» منصوب على أنه مفعول له، أي: شرع ذلك لكم توبة، أي: قبولاً لتوبتكم، أو منصوب على المصدرية، أي: تاب عليكم توبة، وقيل: منصوب على الحال أي: حال كونه ذا توبة كائنة من الله. قوله: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزأه جهنم» لما بين سبحانه حكم القاتل خطأ بين حكم القاتل عمداً.

وقد اختلف العلماء في معنى العمد، فقال عطاء، والنخعي،

مؤمنة. وقد روي من طرق، وهو في صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي. وقد وردت أحاديث في تقدير الدية، وفي الفرق بين نية الخطأ، ودية شبه العمد، ودية المسلم، ودية الكافر، وهي معروفة، فلا حاجة لنا في نكرها في هذا الموضع. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَبِئْسَ مَسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ قال: هذا المسلم الذي ورثته مسلمون: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ﴾ قال: هذا الرجل المسلم، وقومه مشركون، وليس بينهم وبين رسول الله ﷺ عقد ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ قال: هذا الرجل المسلم، وقومه مشركون، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عقد، فيقتل، فيكون ميراثه للمسلمين، وتكون بيته لقومه؛ لأنهم يعقلون عنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ﴾ يقول: فإن كان في أهل الحرب، وهو مؤمن، فقتله خطأ، فعلى قاتله أن يكفر بتحرير رقبة مؤمنة، أو صيام شهرين متتابعين، ولا دية عليه، وفي قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ يقول: إذا كان كافراً في نتمكم، فقتل، فعلى قاتله الدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن أبي عياض قال: كان الرجل يجيء، فيسلم، ثم يأتي قومه، وهم مشركون، فيقيم فيهم، فتغزوهم جيوش النبي ﷺ، فيقتل الرجل، فيمن يقتل، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ﴾ فتحرير رقبة مؤمنة، وليست له دية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من طريق عطاء بن السائب عن أبي يحيى، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿تُؤْتِيهِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني تجاوزاً من الله لهذه الأمة حيث جعل في قتل الخطأ الكفارة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة: أن رجلاً من الأنصار قتل أخاً مقيس بن صبابه، فأعطاه النبي ﷺ الدية، فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه، وفيه نزلت الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة نحوه، وفيه أن مقيس بن صبابه لحق بمكة بعد ذلك، وارتد عن الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ بعد التي في سورة الفرقان بثمان سنين، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: 68] إلى قوله: ﴿غُفُورًا رَحِيمًا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن زيد بن ثابت أن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ نزلت بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بستة أشهر. وأخرج ابن المنذر عنه قال: نزلت هذه الآية التي في النساء بعد قوله: ﴿وَيُغْفَرُ مَا تَوَنَّى﴾ قال: نزلت هذه الآية التي في [النساء: 116] بأربعة أشهر، والآثار عن الصحابة في هذا كثيرة جداً،

مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه، وإذا كان الشرک، وهو أعظم الذنوب، وأشدّها تمحوه التوبة إلى الله، ويقبل من صاحبه الخروج منه، والدخول في باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصي التي من جملتها القتل عمداً، لكن لا بدّ في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل، وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجباً، أو تسليم الدية إن لم يكن القصاص واجباً، وكان القاتل غنياً متمكناً من تسليمها، أو بعضها، وأما مجرد التوبة من القاتل عمداً، وعزمه على أن لا يعود إلى قتل أحد من دون اعتراف، ولا تسليم نفس، فنحن لا نقطع بقبولها، والله أرحم الراحمين، هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ ذَلِكَ فِيمَا آتَاهُ مِنْ رَبِّهِ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآية، قال: إن عياش بن أبي ربيعة قتل رجلاً مؤمناً كان يعذبه هو وأبو جهل، وهو أخوه لأمه في اتباع النبي ﷺ، وعياش يحسب أن ذلك الرجل كافر. وأوضح من هذا السياق ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: كان الحارث بن يزيد من بني عامر بن لؤي يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل، ثم خرج مهاجراً إلى النبي ﷺ، يعني: الحارث، فلقبه عياش بالحرة فعلاه بالسيف، وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فأخبره، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ الآية، فقرأها النبي ﷺ، ثم قال له: قم فحرّر. وأخرجه ابن جرير، وابن المنذر، عن السدي بأطول من هذا. وقد روي من طرق غير هذه. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد قال: نزلت في رجل قتل أبو الدرداء كان في سرية، فعزل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له، فوجد رجلاً من القوم في غنم فحمل عليه بالسيف، فقال لا إله إلا الله، فضربه. وأخرج ابن منده، وأبو نعيم نحو ذلك، ولكن فيه أن الذي قتل المتعوز بكلمة الشهادة هو: بكر بن حارثة الجهني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ قال: يعني بالمؤمنة من قد عقل الإيمان وصلى. وكل رقبة في القرآن لم تسم مؤمنة، فإنه يجوز المولود، فما فوقه ممن ليس به زمانة، وفي قوله: ﴿وَبِئْسَ مَسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ قال: عليه الدية مسلمة إلا أن يتصلّق بها عليه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: في حرف أبي «فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبي». وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والبيهقي، عن أبي هريرة: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجلارية سوداء، فقال: يا رسول الله إن عليّ عتق رقبة مؤمنة، فقال لها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء بأصبعها، فقال لها: فمن أنا؟ فأشارت إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء، أي: أنت رسول الله، فقال: اعتقها، فإنها

والحق ما عرفناك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَجِزًا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَ إِلَى كُمْ سَلَامٌ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَسَدَ اللَّهُ مَكَائِدَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٥٧﴾

هذا متصل بذكر الجهاد، والقتال، والضرب: السير في الأرض، تقول العرب ضربت في الأرض: إذا سرت لتجارة، أو غزو، أو غيرهما، وتقول ضربت الأرض بدون في: إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان، ومنه قوله ﷺ: «لا يخرج رجلان يضربان الغائط. قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من التبيين، وهو التامل، وهي قراءة الجماعة إلا حمزة، فإنه قرأ: «فَتَبَيَّنُوا» من التثبت. واختار القراءة الأولى أبو عبيدة، وأبو حاتم قالا: لأن من أمر بالتبيين، فقد أمر بالثبوت، وإنما خص السفر بالأمر بالتبيين، مع أن التبيين، والتثبت في أمر القتل، ولجبان حضراً، وسفراً بلا خلاف؛ لأن الحادثة التي هي سبب نزول الآية كانت في السفر، كما سيأتي. قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ وقرئ السلام، ومعناها واحد. واختار أبو عبيدة السلام. وخالفه أهل النظر، فقالوا: السلم هنا أشبه؛ لأنه بمعنى الانقياد، والتسليم، والمراد هنا: لا تقولوا لمن ألقى بيده إليكم، واستسلم لست مؤمناً، فالسلم، والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام، وقيل: هما بمعنى: الإسلام، أي: لا تقولوا لمن ألقى إليكم الإسلام، أي: كلمته، وهي: الشهادة لست مؤمناً، وقيل: هما بمعنى التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام، أي: لا تقولوا لمن ألقى إليكم التسليم، فقال للسلام عليكم: لست مؤمناً. والمراد: نهى المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه، ويقولوا إنه إنما جاء بذلك تعوداً، وتقية. وقرأ أبو جعفر: ﴿لست مؤمناً﴾ من آمنه: إذا أجرته، فهو مؤمن.

وقد استدلل بهذه الآية على أن من قتل كافراً بعد أن قال لا إله إلا الله قتل به؛ لأنه قد عصم بهذه الكلمة دمه، وماله، وأهله، وإنما سقط القتل عمن وقع منه ذلك في زمن النبي ﷺ؛ لأنهم تأولوا، وظنوا أن من قالها خوفاً من السلاح لا يكون مسلماً؛ ولا يصير بها لمة معصوماً؛ وأنه لا بد من أن يقول هذه الكلمة، وهو مطمئن غير خائف، وفي حكم التكلم بكلمة الإسلام إظهار الانقياد بأن يقول أنا مسلم، أو أنا على دينكم، لما عرفت من أن معنى الآية الاستسلام، والانقياد، وهو يحصل بكل ما يشعر بالإسلام من قول، أو فعل، ومن جملة ذلك كلمة الشهادة، وكلمة التسليم، فالقولان الآخران في معنى الآية داخلان تحت القول الأول. قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: لا تقولوا تلك المقالة طالبين الغنيمة، على أن يكون النهي راجعاً إلى القيد، والمقيد لا إلى القيد فقط، وسمي متاع الدنيا عرضاً؛ لأنه عارض زائل غير ثابت. قال أبو عبيدة: يقال جميع متاع الدنيا عرض بفتح الراء، وأما العرض

يسكون الراء، فهو ما سوى الدنانير، والدرهم، فكل عرض بالسكون عرض بالفتح، وليس كل عرض بالفتح عرضاً بالسكون. وفي كتاب العين: العرض ما نيل من الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال: 67] وجمعه عروض. وفي المجمل لابن فارس: والعرض ما يعترض للإنسان من مرض ونحوه، وعرض الدنيا ما كان فيها من مال قل، أو أكثر، والعرض من الأثاث ما كان غير نقد. قوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمَ كَثِيرَةٌ﴾ هو تحليل للنهي، أي: عند الله مما هو حلال لكم من نون ارتكاب محظور مغانم كثيرة تغتصونها، وتستغنون بها عن قتل من قد استسلم، وانقاد، واغتنام ماله: ﴿وَكُنْكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كنتم كفاراً، فحقت بماؤكم لما تكلمتم بكلمة الشهادة، أو كذلك كنتم من قبل، تخفون إيمانكم عن قومكم خوفاً على أنفسكم حتى من الله نون الله عليكم بإعزاز دينه، فظهرتم الإيمان، وأعلنتم به، وكُزِرَ الأمر بالتبيين للتأكيد عليهم لكونه واجباً لا فسحة فيه، ولا رخصة.

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: لحق ناس من المسلمين رجلاً معه غنيمة له، فقال السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمة، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَجِزًا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم، فقالوا ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعادوا إليه، فقتلوه، وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي، عن عبد الله بن أبي حنرد الأسلمي قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحرث بن ربيعة، ومسلم بن جثامة بن قيس الليثي، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متيع، ووطب من لبن، فلما مر بنا سلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، وحمل عليه مسلم بن جثامة لشيء كان بينه وبينه، فقتله، ولخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ، وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَجِزًا﴾ الآية. وفي لفظ عند ابن إسحاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من حديث أبي حنرد هذا أن النبي ﷺ قال لمسلم: أقتلته بعد ما قال أمنت بالله؟ فنزل القرآن. وأخرج ابن جرير، من حديث ابن عمر أن مسلماً جلس بين يدي النبي ﷺ، ليستغفر له، فقال: لا يغفر الله لك، فقام، وهو يتلقى لموعه ببرديه، فما مضت به ساعة حتى مات، وبدنوه، فلفظته الأرض، فجاءوا إلى النبي ﷺ، فنكروا ذلك له، فقال:

المفهوم من نكر عدم الاستواء إجمالاً، والمراد هنا: غير أولى الضرر حملاً للمطلق على المقيد، وقال هنا: «درجة»، وقال فيما بعد: «درجات». فقال قوم: التفضيل بالدرجة، ثم بالدرجات، إنما هو مبالغة، وبيان، وتأكيد. وقال آخرون: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة، وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر بدرجات، قاله ابن جريج، والسدي، وغيرهما، وقيل: إن معنى درجة علو، أي: أعلى نكرهم، ورفعهم بالثناء، والمدح، ودرجة منتصبة على التمييز، أو المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل، أي: فضل الله تفضيله، أو على نزاع الخافض، أو على الحالية من المجاهدين أي: ذوي درجة. قوله: «وكلا» مفعول أول لقوله: «وعد الله» قدم عليه لإقائته للقصر، أي: كل واحد من المجاهدين، والقاعدين، وعده الله الحسن، أي: المثوبة، وهي: الجنة. قوله: «أجر» هو: منتصب على التمييز، وقيل: على المصدرية، لأن فضل بمعنى أجر، فالتقدير أجرهم أجراً، وقيل: مفعول ثان لفضل لتضمنه معنى الإعطاء، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: على الحال من درجات مقدم عليها، وأما انتصاب درجات، ومغفرة رحمة، فهي بدل من أجر، وقيل: إن مغفرة، ورحمة ناصبهما أفعال مقترنة، أي: غفر لهم مغفرة، ورحمهم رحمة.

وقد أخرج البخاري وأحمد، وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين، والمجاهدون في سبيل الله» فجاء ابن أم مكتوم، وهو يملها علي، فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى؟ فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفحذه على فحذي: «غير أولى الضرر». وقد أخرج هذا المعنى عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث البراء، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، من حديث خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه. وأخرج الترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر» عن بدر، والخارجون إلى بدر. وأخرجه عنه أيضاً عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر. وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، والبيهقي عنه قال: نزلت في قوم كانت تشغلهم أمراض، وأوجاع، فأنزل الله عنهم من السماء. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، عن أنس بن مالك قال: نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم، ولقد رأيته في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج في قوله: «فضل الله المجاهدين بأمولهم وأنفسهم على القاعدين درجة» قال: على أهل الضرر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «وكلا وعد الله الحسن» قال: الجنة. وأخرج ابن جرير، عن ابن جريج قال: كان يقال

إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظمكم، ثم طرحوه في جبل، وألقوا عليه الحجارة، فنزلت: «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم الآية». وأخرج البزار، والدارقطني في الأفراد، والطبراني، والضياء في المختارة، عن ابن عباس أن سبب نزول الآية: أن المقداد بن الأسود قتل رجلاً بعد ما قال لا إله إلا الله. وفي سبب النزول روايات كثيرة، وهذا الذي نكرناه أحسنها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة في قوله: «كنك كنتم من قبل» قال: تستخفون بإيمانكم، كما استخفى هذا الراعي بإيمانه، يعني: الذين قتلوه بعد أن لقي إليهم السلام وفي لفظ تكتمون إيمانكم من المشركين: «فمن الله عليكم» فأنظر الإسلام، فأعلنتم إيمانكم: «فتبينوا» قال: وعبد من الله ثان. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في قوله: «كنك كنتم من قبل» قال: كنتم كفاراً حتى من الله عليكم بالإسلام، وهذلكم له.

لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَائِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِئَةَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥٩﴾ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٠﴾

التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله، ونفسه، وإن كان معلوماً، لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين، ليرغبوا، وتبكيك القاعدين، لياتفوا. قوله: «غير أولى الضرر» قرأ أهل الكوفة، وأبو عمرو بالرفع على أنه وصف للقاعدين، كما قال الأخفش: لأنهم لا يقصد بهم قوم بأعيانهم، فصاروا كالنكرة، فجاز وصفهم بغير. وقرأ أبو حيوة بكسر الراء على أنه وصف للمؤمنين. وقرأ أهل الحرمين بفتح الراء على الاستثناء من القاعدين، أو من المؤمنين، أي: إلا أولى الضرر، فإنهم يستوون مع المجاهدين. ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من القاعدين، أي: لا يستوي القاعدون الأصحاء في حال صحتهم، وجازت الحال منهم؛ لأن لفظهم لفظ المعرفة. قال العلماء: أهل الضرر هم أهل الأعداء؛ لأنها أضرت بهم حتى منعهم عن الجهاد، وظاهر النظم القرآني أن صاحب العذر يعطي مثل أجر المجاهد، وقيل: يعطى أجره من غير تضعيف، فيفضله المجاهد بالتضعيف لأجل المباشرة. قال القرطبي: والأول أصح إن شاء الله للحديث الصحيح في ذلك: «إن بالمدينة رجالاً ما قطعتم، وانبأ، ولا سرتهم مسيراً إلا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر». قال: وفي هذا المعنى ما ورد في الخبر: «إذا مرض العبد قال الله تعالى: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل في الصحة إلى أن يبرأ، أو اقبضه إلي». قوله: «فضل الله المجاهدين بأمولهم وأنفسهم على القاعدين درجة» هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل

وضميره. وقوله: ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ متعلق بمحذوف، أي: كائنين منهم، والمراد بالمستضعفين من الرجال الزماني، ونحوهم، والولدان كعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، وإنما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة في أمر الهجرة، وإيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف، فكيف من كان مكلفاً، وقيل: أراد بالولدان المراهقين، والمماليك. قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ صفة للمستضعفين، أو للرجال، والنساء، والولدان، أحوال من الضمير في المستضعفين، وقيل: الحيلة لفظ عام لأنواع أسباب التخلص، أي: لا يجدون حيلة، ولا طريقاً إلى ذلك، وقيل: السبيل: سبيل المدينة: ﴿فَإُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما نكر ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفو عَنْهُمْ﴾ وجيء بكلمة الإطعام، لتأكيد أمر الهجرة، حتى يظن أن تركها ممن لا تجب عليه يكون ذنباً يجب طلب العفو عنه. قوله: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذه الجملة متضمنة للترغيب في الهجرة، والتنشيط إليها. وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه دليل على أن الهجرة لا بد أن تكون بقصد صحيح، ونية خالصة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا، ومنه الحديث الصحيح: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وقد اختلف في معنى قوله سبحانه: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا﴾ فقال ابن عباس، وجماعة من التابعين، ومن بعدهم: المراغم المتحول، والمذهب. وقال مجاهد: المراغم المتزحزح. وقال ابن زيد: المراغم المهاجر، وبه قال أبو عبيدة. قال النحاس: فهذه الأقوال متفقة المعاني، فالمراغم: المذهب والمتحول، وهو الموضع الذي يراغم فيه، وهو مشتق من الرغام، وهو: التراب، ورغم أنف فلان، أي: لصق بالتراب، ورأغمت فلاناً: هجرته، وعابيته، ولم أبال أن رغم أنفه، وقيل: إنما سمي مهاجراً، ومراغماً، لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه، وهجرهم، فسمي خروجه مراغماً، وسمي مسيره إلى النبي ﷺ هجرة. والحاصل في معنى الآية أن المهاجر يجد في الأرض مكاناً يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين هاجروهم، أي: على نلهم، وهوانهم. قوله: ﴿وَسَعَةً﴾ أي: في البلاد، وقيل: في الرزق، ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك. قوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ قرئ يدركه بالمجزم على أنه معطوف على فعل الشرط، وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وبالنصب على إضمار أن. والمعنى أن من أدركه الموت قبل أن يصل إلى مطلوبه، وهو المكان الذي قصد الهجرة إليه، أو الأمر الذي قصد الهجرة له: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ثبت ذلك عنده ثبوتاً لا يتخلف ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ أي: كثير المغفرة ﴿رَحِيمًا﴾ أي: كثير الرحمة. وقد استدل بهذه الآية على أن

الإسلام درجة، والهجرة درجة في الإسلام، والجihad في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن محيريز في قوله: ﴿درجات﴾ قال: الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمهر سبعين سنة. وأخرج نحوه عبد الرزاق في المصنف، عن أبي مجلز. وأخرج البخاري، والبيهقي في الأسما، والصفات عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين، كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَلَاحَةَ ظَالِمِينَ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْسَ بِنُفُسِهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ قَالُوا لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَعمُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَزُومًا غَفُورًا ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

قوله: ﴿تَوْفَاهُمْ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً، وحذفت منه علامة التانيث؛ لأن تانيث الملائكة غير حقيقي، ويحتمل أن يكون مستقبلًا، والأصل تتوفاهم، فحذفت إحدى التاءين. وحكى ابن فورك، عن الحسن أن المعنى تحشرهم إلى النار وقيل تقبض أرواحهم، وهو الظاهر. والمراد بالملائكة: ملائكة الموت لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11]. وقوله: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حال، أي: في حال ظلمهم أنفسهم، وقول الملائكة: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ سؤال توبيخ، أي: في شيء كنتم من أمور دينكم؟ وقيل المعنى: كنتم في أصحاب النبي ﷺ أم كنتم مشركين، وقيل: إن معنى السؤال التقرير لهم بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين. وقولهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: مكة، لأن سبب النزول من أسلم بها، ولم يهاجر، كما سيأتي، ثم أوقفتم الملائكة على دينهم، والزمتمهم الحجة، وقطعت معزرتهم، فقالوا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ قيل: المراد بهذه الأرض: المدينة، والأولى العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق، فيراد بالأرض كل بقعة من بقاع الأرض تصلح بالهجرة إليها، ويراد بالأرض الأولى كل أرض ينبغي الهجرة منها. قوله: ﴿مَوَاهِمَ جَهَنَّمَ﴾ هذه الجملة خبر لأولئك، والجملة خبر إن في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوْفَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾ ويدخل الفاء لتضمن اسم إن معنى الشرط: ﴿وَسَاءَتْ﴾ أي: جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ أي: مكاناً يصيرون إليه. قوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ هو استثناء من الضمير في ماوَاهم، وقيل: استثناء منقطع لعدم دخول المستضعفين في الموصول،

وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿مِرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ قال: المِراغِم المتحول من أرض إلى أرض. والسعة: الرزق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿مِرَاغِمًا﴾ قال: متزحزحاً عما يكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في قوله: ﴿وَسَعَةً﴾ قال: ورخاء. وأخرج أيضاً عن مالك قال: سعة البلاد. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني قال السيوطي بسند: رجاله ثقات عن ابن عباس قال: خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً، فقال لقومه احملوني، فأخرجوني من أرض الشرك إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ، فنزل الوحي: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من وجه آخر، عنه نحوه. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والحاكم وصححه، عن عبد الله بن عتيك قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله، وأين المجاهدون في سبيل الله؟ فخر عن دابته، فمات، فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة، فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه، فقد وقع أجره على الله، يعني: بحتف أنفه على فراشه، وإله إنها كلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ، ومن قتل قعصاء، فقد استوجب الجنة». وأخرج أبو يعلى، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من خرج حاجاً، فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً، فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله، فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة». قال ابن كثير: وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وَلَا كُنْتُمْ يَوْمَ فَاقَتِ لَهُمُ الْمَكَاةُ فَلَقَّكُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلِيَاخُذُوا أَسْلِحَهُمْ فَلَا يُدْعَوْنَ إِلَى كُفْرَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِنْ طَائِفَةٌ أُخْرِجَتْ لَمْ يُدْعَوْا إِلَى كُفْرَانٍ مِنْكُمْ وَلِيَاخُذُوا جُذُومَهُمْ وَأَسْلِحَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِكُمْ عَلَيْكُمْ مِثْلَهُ وَجَدُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ تَطَرُّوْا أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا جُذُومَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٦﴾

قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ قد تقدم تفسير الضرب في الأرض قريباً. قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فيه دليل على أن القصر ليس بواجب، وإليه ذهب الجمهور. وذهب الأقلون إلى أنه واجب، ومنهم عمر بن عبد العزيز، والكوفيون، والقاضي إسماعيل، وحماد بن أبي سليمان، وهو مروى عن مالك. واستلوا بحديث عائشة الثابت في الصحيح: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيت في الحضر، وأقرت في السفر» ولا يقدح في ذلك مخالفتها لما روت، فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول الله ﷺ، ومثله حديث يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس، فقال لي عمر: عجبت مما، عجبت

الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك، أو بدار يعمل فيها بمعاصي الله جهاراً إذا كان قادراً على الهجرة، ولم يكن من المستضعفين لما في هذه الآية الكريمة من العموم، وإن كان السبب خاصاً، كما تقدم. وظاهرها عدم الفرق بين مكان، ومكان، وزمان وزمان وقد ورد في الهجرة أحاديث، وورد ما يدل على أنه لا هجرة بعد الفتح. وقد أوضحنا ما هو الحق في شرحنا على المتنقي، فليرجع إليه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم، وقتل البعض، فقال المسلمون: قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكروها، فاستغفروا لهم، فنزلت بهم هذه الآية: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ تُوَفَّاهُمُ الْمَلَأُكَةَ ظَٰلِمِي لِنَفْسِهِمْ﴾ قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، وأنه لا عذر لهم، فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10] إلى آخر الآية فكتب المسلمون إليهم بذلك، فحزنوا، وأيسوا من كل خير، فنزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبِرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 110] فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فأخرجوا، فخرجوا، فأنكرهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقتل من قتل. وقد أخرجه البخاري وغيره عنه مقتصراً على أوله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ تُوَفَّاهُمُ الْمَلَأُكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ قال: نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحاتر بن ربيعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبي العاص بن منبه بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش، وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب، وعير قريش من رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نحلة، خرجوا معهم بشباب كارهين كانوا قد أسلموا، واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهم. وأخرج نحوه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن إسحاق. وقد روي نحو هذا من طرق. وقد أخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ فقال: كنت أنا، وأمي من المستضعفين أنا من الولدان، وأمي من النساء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ قال: قوة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ قال: نهوضاً إلى المدينة: ﴿لَا يَهْتِنُونَ سَبِيلًا﴾ قال: طريقاً إلى المدينة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصنق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أخرجه أحمد، ومسلم، وأهل السنن. وظاهر قوله: «فاقبلوا صدقته» أن القصر واجب. قوله: «إن خفتهم أن يفتنكم الذين كفروا» ظاهر هذا الشرط أن القصر لا يجوز في السفر إلا مع خوف الفتنة من الكافرين لا مع الأمن، ولكنه قد تقرّر بالسنة أن النبي ﷺ قصر مع الأمن، كما عرفت، فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب، والقصر مع الأمن ثابت بالنسبة، ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه ﷺ من القصر مع الأمن. وقد قيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف في الأسفار، ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر ما قال، كما تقدّم. وفي قراءة أبي: «أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا» يسقط «أن خفتهم» والمعنى على هذه القراءة: كراهة أن يفتنكم الذين كفروا. وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية إنما هي مبيحة للقصر في السفر للخائف من العدو، فمن كان آمناً، فلا قصر له. وذهب آخرون إلى أن قوله: «إن خفتهم» ليس متصلاً بما قبله، وأن الكلام تمّ عند قوله: «من الصلاة» ثم افتتح، فقال: «إن خفتهم أن يفتنكم الذين كفروا» فاقم لهم يا محمد صلاة الخوف. وقوله: «إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً» معترض، نكر معنى هذا الجرجاني، والمهدي، وغيرهما. ورده القشيري، والقاضي أبو بكر بن العربي. وقد حكى القرطبي، عن ابن عباس معنى ما نكره الجرجاني ومن معه، ومما يرد هذا، ويدفعه الواو في قوله: «وإذا كنت فيهم» وقد تكلف بعض المفسرين، فقال: إن الواو زائدة، وإن الجواب للشرط المذكور، أعني قوله: «إن خفتهم» هو قوله: «فلتقم طائفة» وذهب قوم إلى أن نكر الخوف منسوخ بالسنة، وهي حديث عمر الذي قدّمنا ذكره، وما ورد في معناه. قوله: «أن يفتنكم الذين كفروا» قال الفراء: أهل الحجاز يقولون، فتنت الرجل، وربيعه، وقيس، وأسد، وجميع أهل نجد يقولون أفتنت الرجل، وفرق الخليل، وسيبويه بينهما، فقالا فتنته: جعلت فيه فتنة مثل كحلته، وأفتنته: جعلته مفتناً، وزعم الأصمعي أنه لا يعرف أفتنته. والمراد بالفتنة: القتال، والتعرض بما يكره. قوله: «عدواً» أي: أعداء. قوله: «وإذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة» هذا خطاب لرسول الله ﷺ. ولمن بعده من أهل الأمر حكمه، كما هو معروف في الأصول، ومثله قوله تعالى: «خذ من أموالهم صدقة» [التوبة: 103] ونحوه، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، وشذّ أبو يوسف، وإسماعيل بن علية، فقالا: لا تصلي صلاة الخوف بعد النبي ﷺ؛ لأن هذا الخطاب خاص برسول الله ﷺ، قالوا: ولا يلحق غيره به لماله ﷺ من المزية العظمى، وهذا مدفوع، فقد أمرنا الله باتباع رسوله، والتأسي به، وقد قال ﷺ «صلوا كما رأيتموني أصلي» والصحابة رضي الله عنهم أعرّف بمعاني القرآن، وقد صلّوها بعد موته في غير مرة، كما ذلك معروف. ومعنى:

«واقمت لهم للصلاة» أريت الإقامة، كقوله: «وإذا قمتم إلى الصلاة فاعسلوا وجوهكم» [المائدة: 6]، وقوله: «وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله» [النحل: 98] قوله: «فلتقم طائفة منهم معك» يعني: بعد أن تجعلهم طائفتين، طائفة تقف بإزاء العدو، وطائفة تقوم معهم في الصلاة: «وليأخذوا أسلحتهم» أي: الطائفة التي تصلي معه، وقيل: الضمير راجع إلى الطائفة التي بإزاء العدو، والأوّل أظهر؛ لأن الطائفة القائمة بإزاء العدو لا بدّ أن تكون قائمة بأسلحتهم، وإنما يحتاج إلى الأمر بذلك من كان في الصلاة؛ لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه حال الصلاة، فأمره الله بأن يكون أخذاً لسلحه، أي: غير واضح له. وليس المراد: الأخذ باليد، بل المراد: أن يكونوا حاملين لسلحهم؛ ليتناولوه من قرب إذا احتاجوا إليه، وليكون ذلك أقطع لرجاء عدوهم من إمكان فرصته فيهم. وقد قال بإرجاع الضمير من قوله: «وليأخذوا أسلحتهم» إلى الطائفة القائمة بإزاء العدو. ابن عباس قال: لأن المصلية لا تحارب، وقال غيره: إن الضمير راجع إلى المصلية، وجوّز الزجاج، والنحاس أن يكون ذلك أمراً للطائفتين جميعاً، لأنه أربح للعدو. وقد أوجب أخذ السلاح في هذه الصلاة أهل الظاهر حملاً للأمر على الوجوب. وذهب أبو حنيفة إلى أن المصلين لا يحملون السلاح، وأن ذلك يبطل الصلاة، وهو مدفوع بما في هذه الآية، وبما في الأحاديث الصحيحة. قوله: «فإذا سجدوا» أي: القائمون في الصلاة «فليكنوا» أي: الطائفة القائمة بإزاء العدو «من ورائكم» أي: من وراء المصلين. ويحتمل أن يكون المعنى: فإذا سجد المصلون معه، أي: أتموا الركعة تعبيراً بالسجود عن جميع الركعة، أو عن جميع الصلاة «فليكنوا من ورائكم» أي: فلينصرفوا بعد الفراغ إلى مقابلة العدو للحراسة «ولتات طائفة أخرى» وهي: القائمة في مقابلة العدو التي لم تصل «فليصلوا معك» على الصفة التي كانت عليها الطائفة الأولى «وليأخذوا» أي: هذه الطائفة الأخرى «أحذهم وأسلحتهم» زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح. قيل: وجهه أن هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي ﷺ في شغل شاغل، وأما في المرة الأولى، فربما يظنونهم قائمين للحرب، وقيل: لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت، لأنه آخر الصلاة، والسلاح: ما يدفع به المرء عن نفسه في الحرب، ولم يبين في الآية الكريمة كم تصلي كل طائفة من الطائفتين؟ وقد وردت صلاة الخوف في السنة المطهرة على أنحاء مختلفة، وصفات متعددة، وكلها صحيحة مجزئة من فعل واحدة منها، فقد فعل ما أمر به، ومن ذهب من العلماء إلى اختيار صفة دون غيرها، فقد أبعد عن الصواب، وقد أوضحنا هذا في شرحنا للمنتقى، وفي سائر مؤلفاتنا. قوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً» هذه الجملة متضمنة للعلة التي لأجلها أمرهم الله بالحذر، وأخذ السلاح،

هنا. وأخرج البخاري، وغيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى من مطر أو كنتم مرضى﴾ قال: نزلت في عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِيسَى وَمُوسَى وَعَلَى جُوبِكُمْ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ﴿٢٠٠﴾ وَلَا تَهْوَ فِي آيَاتِهِ الْقُوَى إِنَّ تَكُونُوا تَالُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ كَمَا تَأْتُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٢٠١﴾

﴿قضيتكم﴾ بمعنى فرغتم من صلاة الخوف، وهو أحد معاني القضاء، ومثله: ﴿فإذا قضيت مناسككم﴾ [البقرة: 200] ﴿فإذا قضيت الصلاة، فانتشروا في الأرض﴾ [الجمعة: 10]. قوله: ﴿فانكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ أي: في جميع الأحوال حتى في حال القتال. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الذكر المأمور به، إنما هو أثر صلاة الخوف، أي: إذا فرغتم من الصلاة، فاذكروا الله في هذه الأحوال؛ وقيل: معنى قوله: ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ إذا صليتم، فصلوا قياماً، وقعوداً، أو على جنوبكم حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال، فهي مثل قوله: ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا﴾ [البقرة: 239]. قوله: ﴿فإذا اطمأننتكم﴾ أي: اطمئنت، وسكنت قلوبكم، والطمأنينة: سكون النفس من الخوف ﴿فأقيموا للصلاة﴾ أي: فاتوا بالصلاة التي نخل وقتها على الصفة المشروعة من الإنكار، والأركان، ولا تفعلوا ما أمكن، فإن ذلك إنما هو في حال الخوف. وقيل: المعنى في الآية أنهم يقضون ما صلوه في حال المسابقة؛ لأنها حالة قلق، وانزعاج، وتخصير في الإنكار، والأركان، وهو مروي عن الشافعي، والأول أرجح ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي: محبباً معيناً، يقال: يقال: فهو موقوت، ووقته، فهو موقت. والمعنى: إن الله افترض على عباده الصلوات، وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعي من نوم، أو سهو، أو نحوهما. قوله: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي: لا تضعفوا في طلبهم، وظهروا القوة، والجلد. قوله: ﴿إن تكونوا تاليمون فإنهم ياليمون كما تاليمون﴾ تعليل للنهي المذكور قبله، أي: ليس ما تجدونه من ألم الجراح، ومزاولة القتال مختصاً بكم، بل هو أمر مشترك بينكم وبينهم، فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال، ومرارة الحرب، ومع ذلك فلكم عليهم مزية لا توجد فيهم، وهي: أنكم ترجون من الله من الأجر، وعظيم الجزاء ما لا يرجونه لكفرهم، وجحودهم، فأنتم أحق بالصبر منهم، وأولى بعدم الضعف منهم، فإن أنفسكم قوية؛ لأنها ترى الموت مغنماً، وهم يرونه مغزماً. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ [آل عمران: 140] وقيل: إن الرجاء هنا بمعنى الخوف؛ لأن من رجا شيئاً، فهو غير قاطع بحصوله، فلا يخلو من خوف ما يرجو. وقال الفراء، والزجاج: لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف

أي: ونوا غفلتكم عن أخذ السلاح، وعن الحذر؛ ليصلوا إلى مقصودهم، وينالوا فرصتهم، فيشتبون عليكم شدة ولحدة، والامتنعة: ما يتمتع به في الحرب، ومنه الزاد، والراحلة. قوله: ﴿ولا جناح عليكم إن كان أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾ رخص لهم سبحانه في وضع السلاح إذا نالهم أذى من المطر، وفي حال المرض؛ لأنه يصعب مع هذين الأمرين حمل السلاح، ثم أمرهم بأخذ الحذر لئلا يأتيهم العدو على غرة، وهم غافلون.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي حنظلة قال: سألت ابن عمر، عن صلاة السفر، فقال: ركعتان قلت: فإن قوله تعالى: ﴿إن خفتم أن يفتكم الذين كفرا﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي، عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه سأل ابن عمر: أرايت قصر الصلاة في السفر؟ إننا نجدها في كتاب الله، إنما نجد ذكر صلاة الخوف، فقال ابن عمر: يا بن أخي إن الله أرسل محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً، وإنما نفعل، كما رأينا رسول الله ﷺ يفعل، وقصر الصلاة في السفر سنة سننها رسول الله ﷺ. وفي الصحيحين، وغيرهما عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر، والعصر بمعى أكثر ما كان الناس، وأمنه ركعتين. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، والنسائي، عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة، والمدينة، ونحن آمنون لا نخاف شيئاً ركعتين. وأخرج ابن جرير، عن علي قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إننا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ، فصلى الظهر، فقال المشركون: قد أمكنكم محمد، وأصحابه من ظهورهم هلا شئتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلاً في أثرها، فأنزل الله بين الصلاتين: ﴿إن خفتم أن يفتكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً وإذا كنتم فيهم﴾ إلى قوله: ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ فنزلت صلاة الخوف. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والدارقطني، والحاكم وصححه، عن أبي عياش الزرقني قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا النبي ﷺ الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم، وأنفسهم، فنزل جبريل بهذه الآيات: ﴿وإذا كنتم فيهم فاقمتم لهم للصلاة﴾ ثم ذكر صفة الصلاة التي صلوها مع النبي ﷺ. والأحاديث في صفة صلاة الخوف كثيرة، وهي مستوفاة في مواطنها، فلا نطول بذكرها ها

الخصمين يريد أن يلقي صاحبه عليها، وسمي ذلك خيانة لأنفسهم؛ لأن ضرر معصيتهم راجع إليهم. والخَوَانُ: كثير الخيانة، والاثيم: كثير الإثم، وعدم المحبة كناية عن البغض. قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يستترون منهم كقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ﴾ [الرعد: 10] أي: مستتر، وقيل: معناه: يستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله، أي: لا يستترون منه أو لا يستحيون منه، والحال أنه معهم في جميع أحوالهم عالم بما هم فيه، فكيف يستخفون منه؟ ﴿إِنْ يَبِينُونَ﴾ أي: يبدون الرأي بينهم، وسماء تبييناً، لأن الغالب أن تكون إدارة الرأي بالليل: ﴿وَمَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: من الرأي الذي أداروه بينهم، وسماء قولاً؛ لأنه لا يحصل إلا بعد المقابلة بينهم. قوله: ﴿هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: القوم الذين جادلوا عن صاحبهم السارق، كما سيأتي، والجملة مبتدأ وخبر. قال الزجاج: ﴿أُولَآءِ﴾ بمعنى الذين و﴿جَابِلْتُمْ﴾ بمعنى حاججتم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الاستفهام للإنكار، والتوبيخ، أي: فمن يخاصم، ويجادل الله عنهم يوم القيامة عند تعذيبهم بنزوبهم؟ ﴿أَمْ مِنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: مجادلاً، ومخاصماً والوكيل في الأصل: القائم بتسيير الأمور. والمعنى: من ذاك يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه.

وقد أخرج الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا؛ فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة أصموها فقالوا ابن أبيرق قالها قال: وكنا أهل بيت حاجة، وفاقة في الجاهلية، والإسلام، وكان الناس إنما طعماهم بالمدينة التمر، والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطة، أي: حمولة من الشام من الدرك ابتاع الرجل منها، فخص بها نفسه، وأما العيال، فلإنما طعماهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاة بن رافع جملاً من الدرك، فجعله في مشربة، وفي المشربة سلاح له درعان، وسيفاهما، وما يصلحهما، فعدي عليه من تحت الليل، فنقبت المشربة، وأخذ الطعام، والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاة، فقال: يا ابن أخي تعلم أن قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا، وسلاحنا، قال: فتحسسنا في الدار، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقفوا ناراً في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا، ونحن نسال في الدار: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلاً مثاله صلاح وإسلام، فلما سمع ذلك لبيد اخترط سيفه، ثم أتى بني أبيرق وقال: أنا أسرق؟ فواه

إلا مع النفي، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون له عظمة. وقرأ عبد الرحمن الأعرج: ﴿إِنْ تَكُونُوا﴾ بفتح الهمزة، أي: لأن تكونوا. وقرأ منصور بن المعتمر تيلمون بكسر التاء ولا يجوز عند البصريين كسر التاء لثقله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا﴾ وعلى جنوبكم قال: بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أنه بلغه أن قوماً يذكرون الله قِيَامًا، وقَعُودًا، وعلى جنوبهم، فقال: إنما هذه إذا لم يستطع الرجل أن يصلي قائماً صلى قاعداً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ قال: إذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ قال: أتموها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جرير نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ الصَّلَاةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ يعني: مفروضاً. وأخرج ابن جرير، عنه قال: الموقوت الواجب. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿وَلَا تَهْنُؤُوا﴾ قال: ولا تضعفوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿تَالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: توجعون: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ قال: ترجون الخير.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴿١٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَ عَقُورًا رَجِيماً ﴿١٦﴾ وَلَا تَجِدُ عَنِ الْبَيْتِ يَنْتَازُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَكْثَرًا ﴿١٧﴾ يَسْتَفْهِنُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَفْهِنُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا لَا تَرَوْنَ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٨﴾ هَتَأَتْهُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلَتْهُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٩﴾

قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ إما بوحى، أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى الله به، وليس المراد هنا: رؤية العين؛ لأن الحكم لا يرى، بل المراد بما عرفه الله به وأرشده إليه. قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ أي: لأجل الخائنين خصيماً، أي: مخاصماً عنهم مجادلاً للمحقين بسببهم. وفيه دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق. قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بالاستغفار. قال ابن جرير: إن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين؛ وسيأتي بيان السبب الذي نزلت لأجله الآية، وبه يتضح المراد. وقيل: المعنى: واستغفر الله للمذنبين من أمثك والمخاصمين بالباطل. قوله: ﴿وَلَا تَجَادَلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم، والمجادلة مأخوذة من الجدل، وهو: الفتل، وقيل: مأخوذة من الجدالة، وهي: وجه الأرض؛ لأن كل واحد من

المنذر، في تفسيره قال: حدثنا محمد بن إسماعيل: يعني: الصانع، حدثنا أحمد بن أبي شعيب الحراني، حدثنا محمد بن سلمة، فنكره بطوله، ورواه أبو الشيخ الأصهباني في تفسيره، عن محمد بن العباس بن أيوب، والحسن بن يعقوب كلاهما، عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني، عن محمد بن سلمة به، ثم قال في آخره: قال محمد بن سلمة: سمع مني هذا الحديث يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن أبي إسرائيل. وقد رواه الحاكم في المستدرک عن أبي العباس الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار الطاطري، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق بمعناه ثم منه، ثم قال: هذا صحيح على شرط مسلم. وقد أخرجه ابن سعد، عن محمود بن لبيد قال: غدا بشير، فنكره مختصراً، وقد رويت هذه القصة مختصرة، ومطولة عن جماعة من التابعين.

وَمَنْ يَمَلْ سَوْءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ. وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَصَلَ بِهَيِّئَتِنَا وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ ﴿١١٢﴾ وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ كَثُورَةٌ طَائِفَةٌ مِنْهَا أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِوْكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

هذا من تمام القصة السابقة، والمراد بالسوء: القبيح الذي يسوء به: ﴿أو يظلم نفسه﴾ بفعل معصية من المعاصي، أو ذنب من الذنوب التي لا تتعدى إلى غيره: ﴿ثم يستغفر الله﴾ يطلب منه أن يغفر له ما قارفه من الذنب: ﴿يجد الله غفوراً﴾ لذنبه: ﴿رحيماً﴾ به، وفيه ترغيب لمن وقع منه السرقة من بني أبيرق أن يتوب إلى الله، ويستغفره، وأنه غفور لمن يستغفره رحيم به. وقال الضحاك: إن هذه الآية نزلت في شأن وحشي قاتل حمزة، أشرك بالله، وقتل حمزة، ثم جاء إلى النبي ﷺ، وقال: هل لي من توبة؟ فنزلت. وعلى كل حال، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي لكل عيب من عباد الله أذن ذنباً، ثم استغفر الله سبحانه. قوله: ﴿ومن يكسب إثماً﴾ من الآثام بذنب يذنبه ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ أي عاقبته عائدة عليه، والكسب ما يجز به الإنسان إلى نفسه نفعاً أو يدفع به ضرراً، ولهذا لا يسمى فعل الرب كسباً، قاله القرطبي: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ قيل: هما بمعنى واحد كرر للتأكيد. وقال الطبري: إن الخطيئة تكون عن عمد، وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد، وقيل: الخطيئة: الصغيرة، والإثم: الكبيرة. قوله: ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ توحيد الضمير لكون العطف باو، أو لتغليب الإثم على الخطيئة، وقيل: إنه يرجع إلى الكسب. قوله: ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالثقل الذي يحمل، ومثله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: 13]، والبهتان مأخوذ

ليخالطكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوآه ما أنت بصاحبها، فسالنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك له، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد، فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه، وطعامه، فليروا علينا سلاحنا، وأما الطعام، فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: سأنظر في ذلك، فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة، فكلموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فاتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان، وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام، وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة، ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فكلمته، فقال: عمدت إلى أهل بيت نكر منهم إسلام، وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة، ولا ثبت، قال قتادة: فرجعت، ولودت أنني خرجت من بعض مالي، ولم اكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فاتاني عمي رفاعة فقال لي: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ بني أبيرق ﴿واستغفر الله﴾ أي: مما قلت لقتادة: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ ولا تجادل عن الذين يخطئون أنفسهم إلى قوله: ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: 110] أي: لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿ومن يكسب إثماً﴾ [النساء: 111] إلى قوله: ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ [النساء: 111] قولهم للبيد: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمهت طائفة منهم أن يضلوك﴾ [النساء: 113] يعني: أسير بن عروة، فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح، فردّه إلى رفاعة؛ قال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد غشى في الجاهلية، أي: كبير، وكنت أرى إسلامه منخولاً، فلما أتيت به بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد، فأنزل الله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى﴾ [النساء: 115] إلى قوله: ﴿ضلالاً بعيداً﴾ [النساء: 115 - 116] فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بابيات من شعر، فاخذت رحله، فوضعت على رأسها، ثم خرجت، فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان ما كنت تاتيني بخير. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني. ورواه يونس بن بكير، وغير واحد، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلًا لم ينكر فيه، عن أبيه، عن جده. ورواه ابن أبي حاتم، عن هاشم بن القاسم الحراني، عن محمد بن سلمة به ببعضه. ورواه ابن

به الجماعة، كما يقال قوم عدل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: 47] فعلى الأول يكون الاستثناء منقطعاً. أي: لكن من أمر بصدقة، أو متصلاً على تقدير إلا نجوى من أمر بصدقة، وعلى الثاني يكون الاستثناء متصلاً في موضع خفض على البذل من كثير، أي: لا خير في كثير إلا فيمن أمر بصدقة. وقد قال جماعة من المفسرين: إن النجوى كلام الجماعة المنفردة، أو الاثنين سواء كان ذلك سرّاً، أو جهراً، وبه قال الزجاج. قوله: ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ الظاهر أنها صدقة التطوع، وقيل: إنها صدقة الفرض. والمعروف صدقة التطوع، والأول أولى. والمعروف لفظ عام يشمل جميع أنواع البر. وقال مقاتل: المعروف هنا القرض. والأول أولى، منه قول الخطيب:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس ومنه الحديث: «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»، وقيل: المعروف إغاثة الملهوف. والإصلاح بين الناس عام في الدماء والأعراض والأموال، وفي كل شيء يقع التداعي فيه. قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأمور المنكورة، جعل مجزء الأمر بها خيراً، ثم رغب في فعلها بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ لأن فعلها أقرب إلى الله من مجزء الأمر بها، إذ خيرية الأمر بها إنما هي لكونه وسيلة إلى فعلها. قوله: ﴿فِي تَبَتُّغِ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ علة للفعل؛ لأن من فعلها لغير ذلك، فهو غير مستحق لهذا المدح، والجزاء، بل قد يكون غير ناج من الوزر، والأعمال بالنيات: ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ المشاققة: المعادة والمخالفة. وتبين الهدى ظهوره، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك، ثم يفعل المشاققة ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: غير طريقهم، وهو ما هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه. ﴿قَوْلُهُ مَا تَوَلَّى﴾ أي: نجعله والياً لما توالاه من الضلال ﴿وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ﴾ قرأ عاصم وحزمة، وأبو عمرو: ﴿قَوْلُهُ وَنُصَلِّهِ بِسُكُونِ الْهَاءِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِكُسْرِهِمَا، وَهَذَا لُغَتَانِ، وَقُرِئَ وَنُصَلِّهِ بِفَتْحِ النُّونِ مِنْ صَلَاةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ. وَقَدْ اسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى حُجِّيَةِ الْإِجْمَاعِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَلَا حُجَّةَ فِي ذَلِكَ عِنْدِي؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِغَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ هُنَا: هُوَ الْخُرُوجُ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ إِلَى غَيْرِهِ، كَمَا يَفِيدُهُ اللَّفْظُ وَيَشْهَدُ بِهِ السَّبَبُ، فَلَا تَصْلُقُ عَلَى عَالَمٍ مِنْ عُلَمَاءِ هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ اجْتِهَادُ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَأَذَاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى مُخَالَفَةِ مَنْ بَعْصَرَهُ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ، فَلِئَنَّمَا رَامَ السُّلُوكَ فِي سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَالْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ، وَلَمْ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ.

وقد أخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو نكراً لله عز وجل». قال سفيان الثوري هذا في كتاب الله: ﴿لَا خَيْرَ فِي

من البهت: وهو الكذب على البريء بما ينهت له، ويتحير منه، يقال بهت بهتاً، وبهتاناً: إذا قال عليه ما لم يقل، ويقال بهت الرجل بالكسر: إذا دهش، وتحير، وبهت بالضم، ومنه: ﴿فَبَهَّتِ الذِّي كُفْرًا﴾ [البقرة: 258]، والإثم المبين: الواضح. قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد بهذا: الفضل، والرحمة لرسول الله أنه نبهه على الحق في قصة بني أبيرق. وقيل: المراد بهما: النبوة والعصمة ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من الجماعة الذين عضدوا بني أبيرق، كما تقدم: ﴿أَنْ يَضْلُوكَ﴾ عن الحق: ﴿وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن وبال ذلك عائد عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأن الله سبحانه هو عاصمك من الناس؛ ولأنك عملت بالظاهر، ولا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي، والجار والمجرور في محل نصب على المصدرية، أي: وما يضرُّونك شيئاً من الضرر. قوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ قيل: هذا ابتداء كلام، وقيل: الواو للحال، أي: وما يضرُّونك من شيء حال إنزال الله عليك الكتاب، والحكمة، أو مع إنزال الله ذلك عليك. قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ معطوف على أنزل، أي: علمك بالوحي ما لم تكن تعلم من قبل: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة ونزول الوحي.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ﴾ الآية. قال: أخبر الله عباده بحلمه، وعفوه، وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنّب ذنباً صغيراً كان، أو كبيراً، ثم استغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض، والجبال. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن مسعود قال: من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء، ثم استغفر الله غفر له: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ﴾ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً. ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك، فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول [النساء: 64] الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ قال: علمه الله ببيان الدنيا، والآخرة بين حلاله، وحرامه ليحتج بذلك على خلقه. وأخرج أيضاً عن الضحاك قال: علمه الخير والشر، وقد ورد في قبول الاستغفار، وأنه يمحو الذنوب لحديث كثيرة مدونة في كتب السنة.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ اتَّبِعْنَا مَرْغَبَاتِ اللَّهِ قَسَوْنَ نُزَيْدٍ أُجْرًا عَظِيمًا﴾ وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَهُ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِمْ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٥﴾

النجوى: السر بين الاثنين، أو الجماعة، تقول نالجيت فلاناً مناجاة، ونجاء، وهم ينتجون، ويتناجون، ونجوت فلاناً أنجوه نجوى، أي: ناجيته، فنجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه، أي: خلصته، وأقربته. والنجوة من الأرض المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله، فالنجوى: المسارة مصدر، وقد تسمى

بالإناث: الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله. وقرئ «وثنا» بضم الواو والثاء جمع وثن، روى هذه القراءة ابن الأنباري عن عائشة. وقرأ ابن عباس «إلا اثنا» جمع وثن أيضاً، وأصله وثن، فأنبئت الواو همزة، وقرأ الحسن إلا اثنا بضم الهمزة والنون بعدها مثناة، جمع أنيث كغدير وغدر. وحكى الطبري أنه جمع إنث كثمار وثمر. وحكى هذه القراءة أبو عمرو الداني عن النبي ﷺ قال: وقرأ بها ابن عباس، والحسن، وأبو حيوه. وعلى جميع هذه القراءات، فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين، والإزراء عليهم، والتضعيف لعقولهم، لكنهم عبدوا من دون الله نوعاً ضعيفاً «وإن يدعون إلا شيطناً مريباً» أي: وما يدعون من دون الله إلا شيطناً مريباً، وهو إبليس لعنه الله، لأنهم إذا أطاعوه فيما سؤل لهم، فقد عبدوه. وقد تقدم اشتقاق لفظ الشيطان. والمريد: المتمرد العاتي، من مرد: إذا عتا. قال الأزهري: المريد الخارج عن الطاعة. وقد مرد الرجل مردواً: إذا عتا، وخرج عن الطاعة، فهو مارد، ومريد، ومتمرد. وقال ابن عرفة: هو الذي ظهر شره، يقال شجرة مرداء: إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها، ومنه قيل للرجل أمرد أي: ظاهر مكان الشعر من عارضيه. قوله: «لعنه الله» أصل اللعن الطرد، والإبعاد. وقد تقدم وهو في العرف إبعاد مقتدرين بسخط. قوله: «وقال لا تخذن من عباك نصيباً مفروضاً» معطوف على قوله: «لعنه الله» والجملة صفة لشيطان، أي: شيطناً مريباً جامعاً بين لعنة الله له وبين هذا القول الشنيع. والنصيب المفروض: هو المقطوع المقتدر، أي: لأجعلن قطعة مقترنة من عباد الله تحت غوايتي، وفي جانب إضلاي حتى أخرجهم من عبادة الله إلى الكفر به. وقوله: «ولا ضلنهم» اللام جواب قسم محذوف. والإضلال: الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية، وهكذا اللام في قوله: «ولا مئنيهم ولا مئنيهم» والمراد بالأماني التي يمنهم بها الشيطان: هي الأماني الباطلة الناشئة عن تسويله، ووسوسته. قوله: «ولا مئنيهم فليبتكن أذان الأنعام» أي: ولأمرنهم ببتك أذان الأنعام أي: تقطيعها فليبتكنها بموجب أمرى. والبتك: القطع، ومنه سيف باتك، يقال بتكه وبتكه مخففاً، ومشنداً، ومنه قول زهير:

طارت وفي كفه من ريشها بتك

أي: قطع. وقد فعل الكفار ذلك امتثالاً لأمر الشيطان، واتباعاً لرسمه، فشقوا أذان البحائر والسواحب، كما ذلك معروف. قوله: «ولا مئنيهم فليغيرن خلق الله» أي: ولأمرنهم بتغيير خلق الله، فليغيرنه بموجب أمرى لهم. واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو؟ فقالت طائفة: هو الخصاء وفقء العين، وقطع الأذان. وقال آخرون: إن المراد بهذا التغيير هو أن الله سبحانه خلق الشمس، والقمر، والأحجار، والنار، ونحوها من المخلوقات لما خلقها له، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، وبه قال الزجاج؛ وقيل المراد بهذا التغيير: تغيير الفطرة التي فطر الله الناس

كثير من نجواهم» الآية، وقوله: «يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أنن له الرحمن وقال صواباً» [النبا: 38]، وقوله: «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» [العصر: 1-3]. وقد ورثت أحاديث صحيحة في الصمت، والتحذير من آفات اللسان، والترغيب في حفظه، وفي الحث على الإصلاح بين الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان في قوله: «ومن يفعل ذلك» تصدق، أو اقترض، أو أصلح بين الناس. وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن أنس قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: إن الله أنزل علي القرآن يا أعرابي: «لا خير في كثير من نجواهم» إلى قوله: «فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» يا أعرابي الأجر العظيم الجنة؛ قال الأعرابي: الحمد لله الذي هدانا للإسلام. وأخرج الترمذي، والبيهقي في الأسماء، والصفات عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله على الجماعة، فمن شذ شذ في النار». وأخرجه الترمذي والبيهقي أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَغَيَّرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَيَتَغَيَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٧﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّطَنًا مَرِيدًا ﴿١٧٨﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوسًا ﴿١٧٩﴾ وَلَا تَسْلُمْهُمْ وَلَا تُنِيبْهُمْ وَلَا تَرْهَبْهُمْ وَلِلَّهِ يَكُونُ أَمْثَالُ الْأَنْهَارِ وَلَأَمْرُهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٨٠﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٨١﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا حَتَّى يُمِيتَهُمُ اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْلِلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٨٢﴾

قوله: «إن الله لا يغفر أن يشرك به» قد تقدم تفسير هذه الآية، وتكريرها بلفظها للتأكيد، وقيل: كررت هنا لأجل قصة بني أبيرق، وقيل إنها نزلت هنا لسبب غير قصة بني أبيرق. وهو ما رواه الثعلبي، والقرطبي في تفسيريهما على الضحاك: أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني شيخ منهمك في الذنوب، والخطايا إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً مذ عرفت، وأمنت به، ولم اتخذ من دونه، ولياً، ولم أوقع المعاصي جرأة على الله، ولا مكابرة له، وإني لنادم، وتائب، ومستغفر، فما حالي عند الله؟ فأنزل الله تعالى: «إن الله لا يغفر أن يشرك به» الآية «ومن يشرك بالله فقد ضلّ» عن الحق «ضلالاً بعيداً» لأن الشرك أعظم أنواع الضلال، وأبعدها من الصواب «وإن يدعون من دونه إلا إناثاً» أي: ما يدعون من دون الله إلا أصناماً لها أسماء مؤنثة كاللات والعزى ومناة؛ وقيل المراد بالإناث: الموات التي لا روح لها كالخشبة، والحجر، وقيل المراد

من دونه إلا إنثاءً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: اتخذوهن أرباباً، وصوروهن صور الجواري، فحلوا وقلدوا، وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبد: يعنون الملائكة. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله: ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكُمُ الْخَ﴾ قال: هذا إبليس يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿فَلْيَبْتَكَنْ أَذَانُ الْإِنْعَامِ﴾ قال التبتك في البحيرة، والسائبة يبتكون أذنانها لطواغيتهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أنس أنه كره الإخصاء، وقال فيه نزلت: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْنَ خَلْقُ اللَّهِ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي، عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ عن خصاء البهائم، والخيل. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن صبر الروح، وإخصاء البهائم، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْنَ خَلْقُ اللَّهِ﴾ قال: بين الله. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جببر مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: الوشم.

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يَجْزِي بِهِ وَلَا يَجِدَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْكُفْرَاتِ مِنْ دَكِّرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَتَلَوَّنَ فِيهَا ﴿١١١﴾ وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١١٢﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١١٣﴾

قرا أبو جعفر بتخفيف الياء من أمانى في الموضعين، واسم ليس محذوف، أي: ليس بدخول الجنة، أو الفضل، أو القرب من الله بأمانيتكم، ولا أمانى أهل الكتاب، كما يدل على ذلك سبب نزول الآية الآتي، وقيل: ضمير يعود إلى وعد الله، وهو بعيد، ومن أمانى أهل الكتاب قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111] وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] وقولهم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]. قوله: ﴿مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا﴾ يعني يعمل سوءاً يجزى به، قيل المراد بالسوء: الشرك، وظاهر الآية أعم من ذلك، فكل من عمل سوءاً: أي سوء كان فهو مجزي به من غيره فرق بين المسلم، والكافر. وفي هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد، وقد كان لها في صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة، قال: لما نزلت: ﴿مَنْ

عليها، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملاً شمولياً، أو بلياً.

وقد رخص طائفة من العلماء في خصاء البهائم إذا قصد بذلك زيادة الانتفاع به لسمن، أو غيره، وكره ذلك آخرون، وأما خصاء بني آدم فحرام، وقد كره قوم شراء الخصي. قال القرطبي: ولم يختلفوا أن خصاء بني آدم لا يحل، ولا يجوز وأنه مثله وتغيير لخلق الله، وكذلك قطع سائر أعضائهم في غير حد، ولا قود، قاله أبو عمر بن عبد البر، ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ باتباعه وامتنال ما يامر به من دون اتباع لما أمر الله به، ولا امتثال له ﴿فَقَدْ خَسِرَ خَسْرَانًا مَبِينًا﴾ أي: واضحاً ظاهراً ﴿يَعْدَهُمُ الْمَوَاعِيدُ الْبَاطِلَةَ﴾ ويؤمنهمهم الأماني العاطلة ﴿وَمَا يَعْدَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: وما يعدهم الشيطان بما يوقعه في خواطرهم من الوسوس الفارغة ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يغرهم به ويظهر لهم فيه النفع، وهو ضرر محض، وانتصاب غروراً على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: وعداً غروراً، أو على أنه مفعول ثان، أو مصدر على غير لفظه. قال ابن عرفة: الغرور ما رأيت له ظاهراً تحبه، وله باطن مكروه؛ وهذه الجملة اعتراضية. قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى أولياء الشيطان، وهذا مبتدأ، وخبره الجملة، وهي قوله: ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾. قوله: ﴿مَحْيِصًا﴾ أي: معداً، من حاص يحيص؛ وقيل ملجأ، ومخلصاً، والمحيص اسم مكان، وقيل: مصدر. قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخ، جعل هذا الوعد للذين آمنوا مقترناً بالوعيد المتقدم للكافرين. قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ قال في الكشف مصدران: الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره، ووجه أن الأول مؤكد لمضمون الجملة الاسمية، ومضمونها وعد، والثاني مؤكد لغيره، أي: حق ذلك حقاً. قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ هذه الجملة مؤكدة لما قبلها، والقيل مصدر قال كالقول، أي: لا أجد أصدق قولاً من الله عز وجل؛ وقيل: إن قيلاً اسم لا مصدر، وإنه منتصب على التمييز.

وقد أخرج الترمذي من حديث علي أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قال الترمذي: حسن غريب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي مالك في قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً﴾ قال: اللات والعزى، ومناة كلها مؤنثة. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب في الآية قال مع كل صنم جنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً﴾ قال: موتى. وأخرج مثله عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن. وأخرج مثله أيضاً عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن قال: كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونها يسمونها أنثى بني فلان، فانزل الله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ

حاتم، عن مسروق قال: تفاخر النصارى، وأهل الإسلام، فقال هؤلاء نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء نحن أفضل منكم، فنزلت وقد ورد معنى هذه الروايات من طرق كثيرة مختصرة، ومطوّلة. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، عن أبي بكر الصديق أن النبي ﷺ قال له لما نزلت هذه الآية: أما أنت، وإصحابك يا أبا بكر، فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم نوب، وأما الآخرون، فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة، وأبي سعيد أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن حتى ألهم يهمله إلا كفر الله به من سيئاته». وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس أن ابن عمر لقيه، فسأله عن هذه الآية: «ومن يعمل من الصالحات» قال: الفرائض. وأخرج الحاكم، وصححه عن جنذب: أنه سمع النبي ﷺ يقول قبل أن يتوفى: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً». وأخرج الحاكم أيضاً وصححه، عن ابن عباس قال: اتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ؟

وَسَتَفْتَوُكَ فِي السَّأَلِ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يَتْلُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى الْإِنْسَاءَ الَّتِي لَا تَوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُتَنَبِّئِينَ مِنَ الْوَلَدَانِ وَأَنْ تَقُولُوا لِيَتَنَبَّيَ بِالْقِسْطِ وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٦﴾

سبب نزول هذه الآية سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء، وأحكامهن في الميراث وغيره، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: «الله يفتيككم» أي: يبين لكم حكم ما سألتم عنه، وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها، فسألوا، فقيل لهم: «الله يفتيككم». قوله: «وما يتلى عليكم» معطوف على قوله: «الله يفتيككم» والمعنى: والقرآن الذي يتلى عليكم يفتيككم فيهن. والمتلو في الكتاب في معنى اليتامى قوله تعالى: «وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى» [النساء: 3] ويجوز أن يكون قوله: «وما يتلى» معطوفاً على الضمير في قوله: «يفتيكم» الراجع إلى المبتدأ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالمفعول والجار والمجرور، ويجوز أن يكون مبتدأ، وفي الكتاب خبره على أن المراد به: اللوح المحفوظ، وقد قيل في إعرابه غير ما ذكرنا، ولم نذكره لضعفه. وقوله: «في يتامى النساء» على الوجه الأول، والثاني صلة لقوله: «يتلى» وعلى الوجه الثالث بدل من قوله: «فيهن». «اللاتي لا توتونهن ما كتب لهن» أي: ما فرض لهن من الميراث وغيره «وترغبون» معطوف على قوله: «لا توتونهن» عطف جملة مثبتة على جملة منفية. وقيل: حال من فاعل «توتونهن». وقوله: «أن تنكحوهن» يحتمل أن يكون التقدير في أن تنكحوهن، أي:

يعمل سوءاً يجز به. بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسدّوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها. قوله: «ولا يجد له» قرأه الجماعة بالجزم عطفًا على الجزء، وروى ابن بكار عن ابن عامر «ولا يجد» بالرفع استئنافاً، أي: ليس لمن يعمل السوء من نون الله ولياً يوليه ولا نصيراً ينصره «ومن يعمل من الصالحات» أي: بعضها حال كونه «من ذكر أو أنثى» وحال كونه مؤمناً، والحال الأولى لبيان من يعمل، والحال الأخرى لإفادة اشتراط الإيمان في كل عمل صالح «فأولئك» إشارة إلى العمل المتصف بالإيمان «يدخلون الجنة» قرأ أبو عمرو، وابن كثير: «يدخلون» بضم حرف المضارعة على البناء للمجهول. وقرأ الباقون بفتحها على البناء للمعلوم «ولا يظلمون نقيراً» أي: لا ينقصون شيئاً حقيراً، وقد تقدّم تفسير النقيز: «ومن أحسن نبياً ممن أسلم وجهه لله» أي: أخلص نفسه له حال كونه محسناً، أي: عاملاً للحسنات «واتبع ملة إبراهيم» أي: دينه حال كون المتبع «حنيفاً» أي: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وهو الإسلام: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» أي: جعله صفة له، وخصه بكراماته، قال ثعلب: إنما سمي الخليل خليلاً: لأن محبته تتخلل القلب، فلا تدع فيه خليلاً إلا ملاته، وأنشد قول بشار: قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلاً

وخليل فعيل بمعنى فاعل كالعليم بمعنى العالم؛ وقيل: هو بمعنى المفعول كالحيبيب بمعنى المحبوب. وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوباً لله، ومحباً له، وقيل: الخليل من الاختصاص، فالله سبحانه أختص إبراهيم برسالته في ذلك الوقت واختاره لها، واختار هذا النحاس. وقال الزجاج: معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل «ولله ما في السموات وما في الأرض» فيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلاً لطاعته لا حاجته، ولا للتكبر به، والاعتضاد بمخالته «وكان الله بكل شيء محيطاً» هذه الجملة مقررّة لمعنى الجملة التي قبلها، أي: أحاط علمه بكل شيء: «ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» [الكهف: 49].

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: قالت العرب: لا نبعث، ولا نحاسب، وقالت اليهود، والنصارى: «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى» [البقرة: 11] وقالوا: «لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة» [البقرة: 80] فانزل الله: «ليس بامانيكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به». وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن مسروق قال: احتج المسلمون، وأهل الكتاب، فقال المسلمون: نحن أهدى منكم، وقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، فنزلت ففلج عليهم المسلمون بهذه الآية: «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن» الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

امرأة مرفوعة بفعل مقتر يفسره ما بعده، أي: وإن خافت امرأة، وخافت بمعنى: توقعت ما تخاف من زوجها وقيل معناها: تيقنت وهو خطأ. قال الزجاج: المعنى: «وإن امرأة خافت من بعلها» دوام النشوز. قال النحاس: الفرق بين النشوز، والإعراض: أن النشوز التباعد، والإعراض أن لا يكلمها، ولا يأنس بها، وظاهر الآية أنها تجوز المصالحة عند مخافة أي نشوز، أو أي إعراض، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي سيأتي، وظاهرها أنه يجوز التصالح بأي نوع من أنواعه، إما بإسقاط النوبة، أو بعضها، أو بعض النفقة، أو بعض المهر. قوله: «أن يصلحا» هكذا قرأه الجمهور، وقرأ الكوفيون: «أن يصلحا» وقرأه الجمهور أولى؛ لأن قاعدة العرب أن الفعل إذا كان بين اثنين فصاعداً قيل: تصلح الرجلان، أو القوم، لا أصلح. وقوله: «صلحا» منصوب على أنه اسم مصدر، أو على أنه مصدر محذوف الزوائد، أو منصوب بفعل محذوف، أي: فيصلح حالهما صلحاً، وقيل: هو منصوب على المفعولية. وقوله: «بينهما» ظرف للفعل، أو في محل نصب على الحال. قوله: «والصلح خير» لفظ عام يقتضي أن الصلح الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق أو خير من الفرقة، أو من الخصومة، وهذه جملة اعتراضية. قوله: «وألحضرنا الأنفس الشخ» إخبار منه سبحانه بأن الشخ في كل واحد منهما بل في كل الأنفس الإنسانية كائن، وأنه جعل كانه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال، وأن ذلك بحكم الجبلة، والطبيعة، فالرجل يشخ بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة، وحسن النفقة ونحوها، والمرأة تشخ على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج، فلا تترك له شيئاً منها. وشخ الأنفس: بخلها بما يلزمها، أو يحسن فعله بوجه من الوجوه، ومنها: «ومن يوق شخ نفسه فاولئك هم المفلحون» [الحشر: 9]. قوله: «وإن تحسنوا وتتقوا» أي: تحسنوا عشرة النساء، وتتقوا ما لا يجوز من النشوز والإعراض «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» فيجازيكم يا معشر الأزواج بما تستحقونه. قوله: «ولن تستطيعوا أن تعملوا بين النساء» أخبر سبحانه بنفي استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذي لا ميل فيه البتة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه، وزيادة هذه في المحبة، ونقصان هذه، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم، ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية، ولهذا كان يقول الصادق المصدق عليه السلام: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك» ولما كانوا لا يستطيعون ذلك، ولو حرصوا عليه، وبالفعل فيه نهامهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل؛ لأن ترك ذلك وتجنب الجور كل الجور في وسعهم ودأخل تحت طاعتهم، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداها إلى الأخرى كل الميل حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التي ليست ذات زوج، ولا

ترغبون في أن تنكحوهن لجمالهن، ويحتمل أن يكون التقدير، وترغبون عن أن تنكحوهن لعدم جمالهن. قوله: «والمستضعفين من ولدان» معطوف على يتامى النساء، أي: وما يتلى عليكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين من ولدان، وهو قوله تعالى: «يوصيكم الله في أولادكم» [النساء: 11] وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا من كان مستضعفاً من ولدان، كما سلف، وإنما يورثون الرجال القائمين بالقتال وسائر الأمور. قوله: «وأن تقوموا لليتامى بالقسط» معطوف على قوله: «وفي يتامى النساء» كالمستضعفين أي: وما يتلى عليكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين، وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط، أي: العدل، ويجوز أن يكون في محل نصب، أي: ويأمركم أن تقوموا «وما تفعلوا من خير» في حقوق المذكورين: «فإن الله كان به عليمًا» يجازيكم بحسب فعلكم من خير وشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: «ويستفتونك في النساء» الآية، قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، ولا يورثون المرأة، فلما كان الإسلام قال: «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن» وما يتلى عليكم في الكتاب في أول السورة في الفرائض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصبيان شيئاً، كانوا يقولون لا يغزون، ولا يغمنون خيراً، ففرض الله لهن الميراث حقاً واجباً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير نحوه بأطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن إبراهيم في الآية قال: كانوا إذا كانت الجارية يتيمة نميمة لم يعطوها ميراثها، وحبسوها من التزويج حتى تموت، فيورثونها، فأنزل الله هذا. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن عائشة في قوله: «ويستفتونك في النساء» إلى قوله: «وترغبون أن تنكحوهن» قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العنق، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلاً، فتشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن عون عن الحسن، وابن سيرين في هذه الآية قال أحدهما: ترغبون فيهن، وقال الآخر: ترغبون عنهن.

وَإِنْ أَمْرُهُ خَافَتْ مِنْ بَيْلِهِ شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحًا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٠﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَبِيلُوا كَغُلٍّ كَلِيلٍ فَنَادَوْهَا كَالْمَعْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩١﴾ وَإِنْ يَنْفَرَقَا بِإِذْنِ اللَّهِ كَلًّا مِنْ سَمَرِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَسيماً حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» وإسناده صحيح. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأهل السنن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة، ولحد شقيه ساقط». قال الترمذي: إنما أسنده همام. ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال: كان يقال، ولا يعرف هذا الحديث مرفوعاً إلا من حديث همام. وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود في قوله: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء» قال: الجماع. وأخرج ابن أبي شيبة، عن الحسن قال: الحب.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿٣٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣٧﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَمِنَ اللَّهِ ثَوَابٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٣٨﴾

قوله: «ووه ما في السموات وما في الأرض» هذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه، وشمول قدرته «ولقد وصينا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم» أمرناهم فيما أنزلناه عليهم من الكتب، واللام في الكتاب للجنس «ولياكم» عطف على الموصول «أن اتقوا الله» أي: أمرناهم وأمرناكم بالتقوى، وهو في موضع نصب بقوله: «وصيناكم» أو منصوب بنزع الخافض. قال الأخفش أي: بأن اتقوا الله، ويجوز أن تكون أن مفسرة: لأن التوصية في معنى القول. قوله: «وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض» معطوف على قوله: «أن اتقوا الله» أي: وصيناكم، وإياكم بالتقوى، وقلنا لهم، ولكم إن تكفروا، وفائدة هذا التكرير التأكيد ليتنبه العباد على سعة ملكه، وينظروا في ذلك، ويعلموا أنه غني عن خلقه «إن يشأ يذهبكم» أي: يفتنكم «بآخري» أي: بقوم آخرين غيركم، وهو كقوله تعالى «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» [محمد: 38] «من كان يريد ثواب الدنيا» وهو من يطلب بعمله شيئاً من أمور الدنيا كالمجاهد يطلب الغنيمة نون الأجر «فعند الله ثواب الدنيا والآخرة» فما باله يقتصر على أدنى الثوابين، وأحق الأجرين، وهما طلب بعمله ما عند الله سبحانه، وهو ثواب الدنيا، والآخرة، فيجرهما جميعاً، ويفوز بهما، وظاهر الآية العموم. وقال ابن جرير الطبري: إنها خاصة بالمشركون والمنافقين: «وكان الله سميعاً بصيراً» يسمع ما يقولونه، ويصير ما يفعلونه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «وكان الله غنياً» عن خلقه «حميداً» قال: مستحماً إليهم. وأخرج أيضاً عن علي مثله. وأخرج ابن

مطلقة تشبيهاً بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء، وفي قراءة أبي «فتنروها كالمسجونة» قوله: «وإن تصلحوا» أي: ما أقسمتم من الأمور التي تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء، والعدل بينهما «وتتقوا» كل الميل الذي نهيتم عنه: «فإن الله كان غفوراً رحيماً» لا يؤاخذكم بما فرط منكم. قوله: «وإن يتفرقا» أي: لم يتصالحا بل فارق كل واحد منهما صاحبه: «يغن الله كلا» منهما أي: يجعله مستغنياً عن الآخر بأن يهيئ للرجل امرأة توافقه، وتقرب بها عينه، وللمرأة رجلاً تغتبط بصحبته، ويرزقهما «من سعته» رزقاً يغنيهما به عن الحاجة: «وكان الله واسعاً حكيماً» واسع الفضل صادرة أفعاله على جهة الإحكام، والإتقان.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله لا تطلقني، وأجعل يومي لعائشة، ففعل، ونزلت هذه الآية: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً» الآية، قال ابن عباس: فما اصطلاحاً عليه من شيء، فهو جائز. وأخرج أبو داود، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عائشة أن سبب نزول الآية هو قصة سودة المنكورة. وأخرج البخاري وغيره عنها في الآية قالت: الرجل تكون عند المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية. وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبيهقي عن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن سلمة كانت عند رافع بن خديج، ففكره منها أمراً، إما كبراً، أو غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني وأقسم لي ما بدا لك، فاصطلحا، وجرت السنة بذلك ونزل القرآن: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً» الآية. وأخرج أبو داود الطيالسي، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن علي أنه سئل عن هذه الآية، فقال: هو رجل عنده امرأتان، فتكون إحدهما قد عجزت، أو تكون دمية، فيريد فراقها، فتصالحه على أن يكون عندها ليلة، وعند الأخرى ليلي، ولا يفارقها، فما طابت به نفسها، فلا بأس به، فإن رجعت سوى بينهما. وقد ورد عن جماعة من الصحابة نحو هذا، وثبت في الصحيحين من حديث عائشة قالت: «لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يوماً لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لها بيوم سودة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: «واحضرت الأنفس الشح» قال: هواه في الشيء يحرص عليه، وفي قوله: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء» قال: في الحب والجماع، وفي قوله: «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» قال: لا هي أئمة، ولا ذات زوج. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر عن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه، فيعدل، ثم يقول:

من اللي، يقال لويت فلاناً حقه: إذا دفعته عنه. والمراد لي الشهادة ميلاً إلى المشهود عليه. وقرأ ابن عامر، والكوفيون⁽¹⁾ «وإن تلوا» من الولاية، أي: وإن تلوا الشهادة، وتتركوا ما يجب عليكم من تأييدها على وجه الحق. وقد قيل: إن هذه القراءة تفيد معنيين: الولاية، والإعراض. والقراءة الأولى تفيد معنى واحداً وهو الإعراض: وزعم بعض النحويين أن القراءة الثانية غلط، ولحن؛ لأنه لا معنى للولاية هاهنا. قال النحاس وغيره: وليس يلزم هذا، ولكن يكون تلوا بمعنى تلوا، وذلك أن أصله تلوا، فاستقلت الضمة على الواو بعدها واو أخرى، فالتفت الحركة على اللام وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين. وذكر الزجاج نحوه. قوله: «أو تعرضوا» أي: عن تأدية الشهادة من الأصل «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» أي: بما تعملون من اللي، والإعراض، أو من كل عمل، وفي هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة، كما تجب عليه، وقد روى أن هذه الآية تعم القاضي، والشهود، أما الشهود فظاهر، وأما القاضي فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين، أو يلوى عن الكلام معه؛ وقيل: هي خاصة بالشهود. قوله: «يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله» أي: اثبتوا على إيمانكم، وبوموا عليه، والخطاب هنا للمؤمنين جميعاً «والكتاب الذي نزل على رسوله» هو القرآن، واللام للعهد «والكتاب الذي أنزل من قبل» هو كل كتاب، واللام للجنس. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر نزل، وأنزل بالضم. وقرأ الباقر بالفتح فيهما. وقيل إن الآية نزلت في المنافقين. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا في الظاهر اخلصوا لله. وقيل نزلت في المشركين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله، وهما ضعيفان. قوله: «ومن يكفر بالله وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر» أي: بشيء من ذلك «فقد ضل» عن القصد «ضلالاً بعيداً» وذكر الرسول فيما سبق لذكر الكتاب الذي أنزل عليه، وذكر الرسل هنا لذكر الكتب جملة، فناسبه ذكر الرسل جملة، وتقديم الملائكة على الرسل؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين» الآية، قال، أمر الله المؤمنين أن يقولوا بالحق، ولو على أنفسهم، أو آبائهم، أو إبنائهم لا يحابون غنياً لغناه، ولا يرحمون مسكيناً لمسكنته، وفي قوله: «فلا تتبعوا الهوى» فنذروا الحق فتجربوا «وإن تلوا» يعني بالسنتكم بالشهادة «أو تعرضوا» عنها، وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عنه في معنى الآية قال: الرجلان

جرير، عن قتادة في قوله: «وكفى بالله وكيلاً» قال: حفيظاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: «إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويات بأخرين» قال قادر والله ربنا على ذلك أن يهلك من خلقه ما شاء ويأتي بأخرين من بعدهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَدُولُوا وَإِنْ تَرَوْهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالصَّبْرِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْثُرِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلًا بَعِيدًا ﴿١٢٥﴾

قوله: «قوامين» صيغة مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وهو الاقرار بما عليكم من الحقوق، وأما شهادته على والديه فإن يشهد عليهما بحق للغير، وكذلك الشهادة على الأقربين وذكر الأبوين لوجوب برهما، وكونهما أحب الخلق إليه، ثم ذكر الأقربين؛ لأنهم مظنة المودة، والتعصب، فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم، فالأجنبي من الناس لحرى أن يشهدوا عليه. وقد قيل: إن معنى الشهادة على النفس أن يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه، وهو بعيد. وقوله: «شهداء لله» خبر بعد خبر لكان، أو حال، ولم ينصرف؛ لأن فيه ألف التانيث. وقال ابن عطية: الحال فيه ضعيفة في المعنى؛ لأنها تخصص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط. وقوله: «لله» أي: لمرضاته وثوابه. وقوله: «ولو على أنفسكم» متعلق بشهداء، هذا المعنى الظاهر من الآية؛ وقيل معنى: «شهداء لله» بالوحدانية، فيتعلق قوله: «ولو على أنفسكم» بقوامين، والأول أولى. قوله: «إن يكن غنياً أو فقيراً» اسم كان مقدر، أي: إن يكن المشهود عليه غنياً، فلا يراعي لأجل غناه استجلاباً لنفعه، أو استيفاعاً لضره فيترك الشهادة عليه، أو فقيراً، فلا يراعي لأجل فقره رحمة له، وإشفاقاً عليه، فيترك الشهادة عليه، وإنما قال: «فالشاهد أولى بهما» ولم يقل به مع أن التخيير إنما يدل على الحصول لواحد؛ لأن المعنى: فالله أولى بكل واحد منهما. وقال الاخفش: تكون أو بمعنى الواو؛ وقيل: إنه يجوز ذلك مع تقدم نكرهما كما في قوله: «ولو أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس» [النساء: 12]. وقد تقدم في مثل هذا ما هو أبسط مما هنا. وقرأ أبي: «فالشاهد أولى بهم». وقرأ ابن مسعود: «إن يكن غنياً أو فقيراً» على أن كان تامة: «فلا تتبعوا الهوى» نهامهم عن اتباع الهوى. وقوله: «أن تعملوا» في موضع نصب، وهو إما من العمل كأنه قال: فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعملوا بين الناس، أو من العمل كأنه قال: فلا تتبعوا الهوى مخافة أن تعملوا عن الحق، أو كراهة أن تعملوا عن الحق. قوله: «وإن تلوا»

(1) صوابه (حمزة) اهـ مصحح القرآن.

ثم كفروا بعبسى، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ؛ وقيل: آمنوا بموسى، ثم كفروا به بعبادتهم العجل، ثم آمنوا به عند عوده إليهم، ثم كفروا بعبسى، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ والمراد بالأية: أنهم ازدادوا كفراً، واستمروا على ذلك كما هو الظاهر من حالهم، وإلا فالكافر إذا آمن، وأخلص إيمانه، وأقلع عن الكفر، فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة، والإسلام يجب ما قبله، ولكن لما كان هذا مستبعداً منهم جداً كان غفران نوبهم، وهدايتهم إلى سبيل الحق مستبعداً. قوله: ﴿بِشَرِّ الْمُنَافِقِينَ بَان لَهُمْ عَذَابٌ لَّيْمٌ﴾ إطلاق البشارة على ما هو شرّ خالص لهم تهكم بهم، وقد مرّ تحقيقه. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وصف للمنافقين، أو منصوب على الذمّ، أي: يجعلون الكفار أولياء لهم يوالونهم على كفرهم، ويمالئونهم على ضلالهم. وقوله: ﴿مَنْ يُوَلِّهِمْ يَكُونُ مِمَّنْ﴾ في محل نصب على الحال، أي: يوالون الكافرين متجاوزين ولاية المؤمنين ﴿يَتَّبِعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ﴾ هذا الاستفهام للتقريع، والتوبيخ، والجملة معترضة. قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدّم من توبيخهم بابتغاء العزّة عند الكافرين، وجميع أنواع العزّة، وأفرادها مختص بالله سبحانه، وما كان منها مع غيره، فهو من فيضه، وتفضله كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8] والعزّة: الغلبة، يقال عزّه يعزّه عزّاً: إذا غلبه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق؛ لأن من أظهر الإيمان، فقد لزمه أن يمثل ما أنزله الله؛ وقيل إنه خطاب للمنافقين، فقط كما يفيد التشديد، والتوبيخ. وقرأ عاصم، ويعقوب: «نزل» بفتح النون والزاي وتشديدها، وفاعله ضمير راجع إلى اسم الله تعالى في قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وقرأ حميد بتخفيف الزاي مفتوحة مع فتح النون، وقرأ الباقون بضم النون مع كسر الزاي مشددة على البناء للمجهول. وقوله: ﴿إِنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ﴾ في محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول نزل. وفي محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل، وفي محل رفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله على القراءة الثالثة. وإن هي المخففة من الثقيلة، والتقدير أنه إذا سمعتم آيات الله، والكتاب: هو القرآن. وقوله: ﴿يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا﴾ حالان، أي: إذا سمعتم الكفر، والاستهزاء بآيات الله، فأوقع السماع على الآيات. والمراد: سماع الكفر والاستهزاء. وقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: أنزل عليكم في الكتاب أنكم عند هذا السماع للكفر، والاستهزاء بآيات الله لا تقعدوا معهم ما داموا كذلك حتى يخوضوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها. والذي أنزله الله عليهم في الكتاب هو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68] وقد كان جماعة من الداخلين في الإسلام يقعدون مع المشركين، واليهود حال سخريتهم بالقرآن، واستهزائهم به، فنهوا عن ذلك.

يجلسان عند القاضي، فيكون ليّ القاضي، وإعراضه لأحد الرجلين على الآخر. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانت البقرة أوّل سورة نزلت، ثم أُرِفها سورة النساء، قال: فكان الرجل تكون عنده الشهادة قبل ابن عمه، أو نوي رحمه، فيلوى بها لسانه، أو يكتهما مما يرى من عسرته حتى يوسر، فيقضي حين يوسر، فنزلت: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿وَأَنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا﴾ يقول: تلوى لسانك بغير الحق، وهي اللجلة، فلا تقيم الشهادة على وجهها. والإعراض: الترك. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس «أن عبد الله بن سلام وأسدًا وأسيداً ابني كعب، وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه، ويامين بن يامين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك، ويكتابك، وموسى، والتوراة، وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال رسول الله ﷺ: بل آمنوا بالله ورسوله محمد، وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لا نفعل، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الآية. وينبغي النظر في صحة هذا، فالثعلبي رحمه الله ليس من رجال الرواية، ولا يفرق بين الصحيح، والموضوع. وأخرج ابن المنذر، عن الضحك في هذه الآية قال: يعني بذلك: أهل الكتاب، كان الله قد أخذ ميثاقهم في التوراة والإنجيل، وأقرّوا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، فلما بعث الله رسوله دعاهم إلى أن يؤمنوا بمحمد، والقرآن، ونكروهم الذي أخذ عليهم من الميثاق، فممنهم من صدّق النبي ﷺ واتبعه، وممنهم من كفر.

[illegible]

أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التي آمنت، ثم كفرت ثم آمنت، ثم كفرت، ثم ازدادت كفراً بعد ذلك كله أنه لم يكن الله سبحانه؛ ليغفر لهمذنوبهم، ولا ليهديهم سبيلاً يتوصلون به إلى الحق، ويسلكونه إلى الخير؛ لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله، ويؤمنوا إيماناً صحيحاً، فإن هذا الاضطراب منهم تارة يدعون أنهم مؤمنون، وتارة يمرقون من الإيمان ويرجعون إلى ما هو دأبهم، وشأنهم من الكفر المستمر، والجحود الدائم يدلّ أبغح دلالة على أنهم متلاعبون بالبين ليست لهم نية صحيحة، ولا قصد خالص. قيل المراد بهؤلاء اليهود فإنهم آمنوا بموسى، ثم كفروا بعزير، ثم آمنوا بعزير،

هايكم المسلمون وخذلناهم عنكم؟ والأول أولى، فإن معنى الاستحواذ: الغلب، يقال: استحوذ على كذا، أي: غلب عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ [الجملة: 19] ولا يصح أن يقال: ألم تغلبكم حتى هايكم المسلمون، ولكن المعنى: ألم تغلبكم يا مشر الكافرين، وتتمكن منكم فتركتكم، وأبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين: ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بتخيلهم وتثبيطهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم عن الدفع لكم وعجزوا عن الانتصاف منكم؛ والمراد أنهم يميلون مع من له الغلب، والظفر من الطائفتين، ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة، وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله، وشأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام من التظاهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى، والميل إلى من معه الحظ من الدنيا في مال أو جاه، فيلقاه بالتملق، والتودد، والخضوع، والذلة، ويلقى من لا حظ له من الدنيا بالشدة، والغلظة، وسوء الخلق، ويزدري به، ويكافحه بكل مكروه، فقبح الله أخلاق أهل النفاق، وأبعدها. قوله: ﴿فأله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق، والبغض للحق، وأهله، ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق، وتظهر الضمائر، وإن حقنوا في الدنيا نماءهم، وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الإسلام نفاقاً ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾، هذا في يوم القيامة إذا كان المراد بالسبيل: النصر والغلب، أو في الدنيا إن كان المراد به الحجة. قال ابن عطية. قال جميع أهل التأويل: إن المراد بذلك يوم القيامة. قال ابن العربي: وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه، وسببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله يعني قوله: ﴿فأله يحكم بينكم يوم القيامة﴾. وذلك يسقط فائدته، إذ يكون تكراراً هذا معنى كلامه؛ وقيل المعنى: إن الله لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين يحو به نولتهم، ويذهب آثارهم، ويستطيع بيضتهم كما يفيد الحديث الثابت في الصحيح وإن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستطيع بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من باقظارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، وقيل إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل، ولا تاركين للنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: 30] قال ابن العربي: وهذا نفيس جداً؛ وقيل: إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً شرعاً، فإن وجد، فبخلاف الشرع. هذا خلاصة ما قاله أهل العلم في هذه الآية، وهي: صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا﴾ الآية، قال: هم اليهود والنصارى أمّنت اليهود بالتوراة، ثم كفرت، وأمّنت النصارى بالإنجيل، ثم كفرت. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه في الآية قال: هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة، ثم

وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب ليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التفتق، والاستهزاء للآلة الشرعية، كما يقع كثيراً من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب، والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بأية قرآنية، أو بحديث نبوي سخروا منه، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأساً، ولا بالوا به بالة، وظنوا أنه قد جاء بأمر فطيع، وخطب شنيع، وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه الفاتل، واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل، مقدماً على الله، وعلى كتابه، وعلى رسوله، فإننا لله، وإننا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها، والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برأء من فعلهم، فإنهم قد صرّحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم، كما أوضحنا ذلك في رسالتنا المسماة بـ[القول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا المسمى بـ[أنب الطلب، ومنتهى الأرب] اللهم انفعنا بما علمتنا، واجعلنا من المقتدين بالكتاب، والسنة وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبينة على شفا جرف هار، يا محيي السائلين.

قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ تعليل للنهي أي: إنكم إن فعلتم ذلك، ولم تنتهوا، فأنتم مثلهم في الكفر. قيل: وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما في قول القائل:

وكل قرين بالمقارن يقتدي

وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم إلا ما يروى عن الكلبي فإنه قال: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ [الأنعام: 61] وهو مردود، فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله، ويستهزئون بها. قوله: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ هذا تعليل لكونهم مثلهم في الكفر، قيل: وهم القاعدون، والمقعود إليهم عند من جعل الخطاب موجهاً إلى المنافقين. قوله: ﴿الذين يتريصون بكم﴾ أي: ينتظرون بكم ما يتجدد، ويحدث لكم من خير، أو شر، والموصول في محل نصب على أنه صفة للمنافقين، أو بدل منهم فقط دون الكافرين لأن التريص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم، ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم تكن معكم﴾ هذه الجملة، والجملة التي بعدها حكاية لتريصهم، أي: إن حصل لكم فتح من الله بالنصر على من يخالفكم من الكفار ﴿قالوا﴾ لكم ﴿ألم تكن معكم﴾ في الاتصاف بظاهر الإسلام، والتزام أحكامه والمظاهرة، والتسويد، وتكثير العدد ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ من الغلب لكم، والظفر بكم ﴿قالوا﴾ للكافرين ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: ألم نقهركم، ونغلبكم وتتمكن منكم، ولكن أبقينا عليكم. وقيل المعنى: إنهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين ألم نستحوذ عليكم حتى

قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين، وفصائحهم، وقد تقدم معنى الخدع في البقرة، ومخادعتهم لله هي أنهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان، وإبطان الكفر، ومعنى كون الله خادعهم: أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظاهر بالإسلام في الدنيا، فعصم به أموالهم، ودماءهم، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار. قال في الكشف: والخادع اسم فاعل من خادعته، فخدعته إذا غلبته، وكنت أخدع منه. والكسالى بضم الكاف جمع كسلان، وقرئ بفتحها، والمراد أنهم يصلون، وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً. والرياء إظهار الجميل ليراه الناس، لا اتباع أمر الله، وقد تقدم بيانه، والمرءاة المفاعلة. قوله: ﴿وَلَا يَنْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوف على يراؤون، أي: لا ينكرون سبحانه إلا نكراً قليلاً أو لا يصلون إلا صلاة قليلة، ووصف الذكر بالقلة لعدم الإخلاص، أو لكونه غير مقبول، أو لكونه قليلاً في نفسه؛ لأن الذي يفعل الطاعة لقصد الرياء، إنما يفعلها في المجمع، ولا يفعلها خالياً كالْمُخْلِص. قوله: ﴿مُتَنَبِّئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المتنبئ المتردد بين أمرين، والنبئة الاضطراب، يقال نبئبه فتنبئ، ومنه قول النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك نونها يتنذب
قال ابن جني: المتنبئ القلق الذي لا يثبت على حال، فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين، والمشركون لا مخلصين الإيمان، ولا مصرحين بالكفر. قال في الكشف: وحقيقة المتنبئ الذي يذب عن كلا الجانبين، أي: يذاد، ويدفع، فلا يقر في جانب واحد، كما يقال: فلان يرمى به الرجوان، إلا أن النبذة فيها تكرير ليس في الذب؛ كان المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه. انتهى. وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح الذالين. وقرأ ابن عباس بكسر الذاة الثانية، وفي حرف أبي «متنبئين» وقرأ الحسن بفتح الميم والذالين، وانتصاب متنبئين إما على الحال، أو على النظم، والإشارة بقوله بين ذلك إلى الإيمان، والكفر. قوله: ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، ومحل الجملة: النصب على الحال، أو على البديل من متنبئين، أو على التفسير له «ومن يضل الله» أي: يخله، ويسلبه التوفيق «فلن تجد له سبيلاً» أي: طريقاً يوصله إلى الحق. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تجعلوهم خاصة لكم، وبطانة توالونهم من دون إخوانكم من المؤمنين، كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين: «اتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً» الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: اتريدون أن تجعلوا الله عليكم حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالة الكافرين «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» قرأ الكوفيون الدرك

كفروا، ثم نكر النصارى، فقال: ﴿ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ يقول: آمنوا بالإنجيل، ثم كفروا، ﴿ثُمَّ آذَنُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين، ثم كفروا مرتين، ثم آذَنُوا كُفْرًا بعد ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ آذَنُوا كُفْرًا﴾ قال: تموا على كفرهم حتى ماتوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم في المجلس بالكلمة من الكذب؛ ليضحك بها جلساءه، فيسخط الله عليهم جميعاً، فنكروا ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صنف أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله؟ ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: أنزل في سورة الأنعام ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68] ثم نزل التشديد في سورة النساء ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبيرة: أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والكافرين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤا بالقرآن في جهنم جميعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد: ﴿السَّائِينَ يَتْرِبُصُونَ بِكُمْ﴾ قال: هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ إن أصاب المسلمين من عدوهم غنيمة قال المنافقون ﴿هَلْ تَكُنْ﴾ قد كنا «معكم» فاعطونا من الغنيمة مثل ما تأخون ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار ﴿هَلْ نَسْتَحُوزُ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نبين لكم أنما على ما أنتم عليه، قد كنا نثبطهم عنكم. وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿هَلْ نَسْتَحُوزُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: نغلب عليكم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب، والحاكم وصححه عن علي أنه قيل له: أرايت هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وهم يقاتلوننا، فيظهرون ويقتلون، فقال: ابنه ابنه، ثم قال: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: في الآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي مالك نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن السدي ﴿سَبِيلًا﴾ قال: حجة.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٦﴾ مُتَنَبِّئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَنْ يَحْمِلُوا إِلَهُكُمْ عَلَيْهِمْ فَاتَّخِذُوا بَيْنَكُمْ سَبِيلًا ﴿١٤٨﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا فِيهِمْ تِلْكَ الْفُتُوحُ وَمَنْ يُؤْتِ اللَّهُ الْهُدَىٰ وَاللَّهُ عَظِيمٌ ﴿١٥٠﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَا يُنَادِبُكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٥١﴾

المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿مُتَنَبِّئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: هم المنافقون: ﴿إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: لا إلى أصحاب محمد ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ اليهود، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الشَّاةِ الْغَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَغِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً فَلَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتَّبِعُ؟». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ قال: إنَّ الله السُّلْطَانُ عَلَى خَلْقِهِ وَلَكِنَّهُ يَقُولُ عَزْرًا مُبِينًا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والفريرابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس قال: «كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ، فَهُوَ حُجَّةٌ وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت من حديد مقلعة عليهم، وفي لفظ مبهمه عليهم أي: مغلقة لا يهتدي لمكان فتحها. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن ابن مسعود نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿فَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ الآية، قال: إنَّ الله لا يعذب شاكرًا، ولا مؤمنًا.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَرِ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ حَكِيمًا عَلِيمًا﴾
 ﴿إِنْ يُبْدُوا حَبْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ يَمُوتُوا عَنْ سُورَةٍ مِنَ اللَّهِ كَانُ عَوًّا ذَرِيرًا﴾
 نفى الحبِّ كناية عن البغض، وقراءة الجمهور: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ على البناء للمجهول. وقرأ زيد بن أسلم، وابن أبي إسحاق، والضحاك، وابن عباس، وابن جبير، وعطاء بن السائب: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ على البناء للمعلوم، وهو على القراءة الأولى استثناء متصل بتقدير مضاف محذوف، أي: إلا جهر من ظلم؛ وقيل: إنه على القراءة الأولى أيضاً منقطع، أي: لكن من ظلم، فله أن يقول ظلمي فلان.

واختلف أهل العلم في كيفية الجهر بالسوء الذي يجوز لمن ظلم، فقيل: هو أن يدعو على من ظلمه؛ وقيل: لا بأس أن يجهر بالسوء من القول على من ظلمه بأن يقول: فلان ظلمي، أو هو ظالم، أو نحو ذلك؛ وقيل معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر، أو نحوه، فهو مباح له، والآية على هذا في الإكراه، وكذا قال قطرب، قال: ويجوز أن يكون على البديل كأنه قال لا يحبُّ الله إلا من ظلم، أي: لا يحبُّ الظالم بل يحبُّ المظلوم، والظاهر من الآية أنه يجوز لمن ظلم أن يتكلم بالكلام الذي: هو من السوء في جانب من ظلمه، ويؤيده الحديث الثابت في الصحيح بلفظ: «لِيَ الْوَاجِدُ ظَلَمَ يَحِلُّ عَرْضُهُ وَعَقُوبَتُهُ»، وأما على القراءة الثانية، فالاستثناء منقطع، أي: إلا من ظلم في فعل، أو قول، فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله، والتوبيخ له. وقال قوم: معنى الكلام لا يحبُّ الله أن يجهر أحدٌ بالسوء من القول، لكن من ظلم، فإنه يجهر بالسوء ظلمًا، وعنوانًا، وهو ظالم في ذلك، وهذا شأن كثير من

يسكون الرءاء، وقرأ غيرهم بتحريكها. قال أبو علي: هما لغتان والجمع أدراك؛ وقيل جمع المحرك أدراك مثل جمل، وأجمال، وجمع الساكن أدراك مثل فلس، وأفلس. قال النحاس: والتحريك أقصح. والدرك: الطبقة. والنار دركات سبع، فالمنافق في الدرك الأسفل منها، وهي: الهاوية، لغلظ كفره، وكثرة غوائله، وأعلى الدركات جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى جميعها باسم الطبقة العليا، أعاننا الله من عذابها: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخلصهم من ذلك الدرك والخطاب لكل من يصلح له، أو للنبي ﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من المنافقين، أي: إلا الذين تابوا عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أقسوا من أحوالهم ﴿وَأَخْلَصُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: جعلوه خالصاً له غير مشوب بطاعة غيره. والاعتصام بالله: التمسك به والوثوق بوعده، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الذين تابوا، واتصفوا بالصفات السابقة. قوله: ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الفراء أي: من المؤمنين يعني الذين لم يصدر منهم نفاق أصلاً. قال القتيبي: حاد عن كلامهم غضباً عليهم، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل هم المؤمنون. انتهى. والظاهر أن معنى مع معتبر هنا، أي: فأولئك مصاحبون للمؤمنين في أحكام الدنيا والآخرة. ثم بين ما أعد الله للمؤمنين الذين هؤلاء معهم، فقال: ﴿وَسَوْفَ يُوْثِقُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وحذفت الياء من يوثق في الخط، كما حذفت في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها، ومثله ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: 6] و﴿سَدْعَ الزَّبَانِيَةِ﴾ [العلق: 18] و﴿يَوْمَ ينادِ الْمُنَادِ﴾ [ق: 41] ونحوها فإن الحذف في الجميع لالتقاء الساكنين. قوله: ﴿فَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتَمْتُمْ﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه في التذنب إلا مجرد المجازاة للعصاة. والمعنى: أتى منفعة له في عذابكم إن شكرتم، وأمتمتم، فإن ذلك لا يزيد في ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: يشكر عباده على طاعته، فيثيبهم عليها، ويتقبلها منهم. والشكر في اللغة: الظهور، يقال دابة شكور: إذا ظهر من سمنها فوق ما تعطى من العلف.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ الآية، قال: يلقي على مؤمن، ومنافق نور يمشون به يوم القيامة حتى إذا انتهوا إلى الصراط طغى نور المنافقين، ومضى المؤمنون بنورهم، فتلك خديعة الله إياهم. وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، وسعيد بن جبير نحوه أيضاً، ولا أدري من أين جاء لهم هذا التفسير، فإن مثله لا ينقل إلا عن النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في الآية قال: نزلت في عبد الله بن أبي، وأبي عامر بن النعمان. وقد ورد في الأحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق، وأنه يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام، فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً. وأخرج ابن جرير، وابن

بموسى، وكفروا بعيسى ومحمد، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى، وكفروا بمحمد: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: يتخذوا بين الإيمان والكفر ديناً متوسطاً بينهما، فالإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى قوله نؤمن، ونكفر ﴿أولئك هم الكافرون﴾ أي: الكاملون في الكفر. وقوله: ﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي: حق ذلك حقاً، أو هو صفة لمصدر الكافرين، أي: كفراً حقاً. قوله: ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ بأن يقولوا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، ويدخل بين على أحد لكونه عاماً في المفرد مذكراً، ومؤنثاً، ومثناهما، وجمعهما. وقد تقدم تحقيقه، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الذين آمنوا بالله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة في الآية، قال: ﴿أولئك﴾ أعداء الله اليهود، والنصارى أمنت اليهود بالتوراة، وموسى، وكفروا بالإنجيل، وعيسى، وأمنت النصارى بالإنجيل، وعيسى، وكفروا بالقرآن، ومحمد، وتركوا اليهودية والنصرانية، وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الإسلام، وهو دين الله الذي بعث به رسله. وأخرج ابن جرير، عن السدي، وابن جريج نحوه.

يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ نُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِمَّنْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَى اللَّهَ فَاحْذَرُوهُ الشَّيْطَانُ يَطْلُمُهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْوَجَلَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْيَهُودَ فَقَعَوْا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٠٠﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الْكُتُبَ وَبِيعْتَهُمُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠١﴾ وَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ إِلَّا بِأَفْهَىٰ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَبِيعْتَهُمُ الْوَسِيلَةَ يُبَيِّعُهَا عَلَيْهِمْ ﴿١٠٣﴾ فَمَا تَقْبَضُهُمْ يُشَقُّهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقِيلُوا الْأَنْبِيَاءُ بَعْثٌ حَتَّىٰ وَقِيلَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٤﴾ وَكَفَرِهِمْ وَقِيلَهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ هَبْنِي عِظِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَقِيلَهُمْ إِنَّا قُلْنَا لِلنَّبِيِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَاسُودًا وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَبَّوهُ وَلَكِنْ شَيْءٌ مِّمَّنْ دَاوُدَ الَّذِي أَخْلَصْنَا لَهُ لِيُفِي سَوَاءَ مَا مَنَّمُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا إِنَّا جَاءَ قُلُوبَهُمْ قَبِيضًا ﴿١٠٦﴾ بَلْ رَفَعْنَا اللَّهُ إِلَهُهُ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا ﴿١٠٧﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ حُجَّةً ﴿١٠٨﴾

قوله: ﴿يسألك أهل الكتاب﴾ هم اليهود سالوه ﴿فإنهم﴾ أن يرقى إلى السماء، وهم يرونه، فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه يدل على صلفه نفعاً واحدة كما أتى موسى التوراة تعنتاً منهم، أبعدهم الله، فأخبره الله عز وجل بأنهم قد سالوا موسى سؤالاً أكبر من هذا السؤال، فقالوا: ﴿أرأى الله جهره﴾ أي: عياناً، وقد تقدم معناه في البقرة، وجهره نعت لمصدر محذوف، أي: رؤية جهره. وقوله: ﴿فقد سالوا﴾ جواب شرط مقدر، أي: إن استكبرت هذا السؤال منهم لك، فقد سالوا موسى أكبر من ذلك. قوله: ﴿فاختتمهم الصاعقة﴾ هي النار التي نزلت عليهم من السماء، فاهلكتهم، والباء في قوله: ﴿بظلمهم﴾ للسببية، أي: بسبب ظلمهم في سؤالهم الباطل لامتناع الرؤية عياناً في هذه الحالة، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة، فقد جاءت بذلك

الظلمة، فإنهم مع ظلمهم يستطيعون بالاستئذان على من ظلموه، وينالون من عرضه. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى إلا من ظلم، فقال سوءاً، فإنه ينبغي أن يأخذوا على يديه، ويكون استثناء ليس من الأول ﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ هذا تحذير للظالم بأن الله يسمع ما يصدر منه ويعلم به، ثم بعد أن أباح للظالم أن يجهز بالسوء نذب إلى ما هو الأولى، والأفضل، فقال: ﴿إن تبوءوا خيراً لو تخفوه أو تعفوا عن سوء﴾ تصابون به ﴿فإن الله كان عفواً غفيراً﴾ على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم، فاقتوا به سبحانه، فإنه يعفو مع القدرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يحب الله للجهنم بالسوء من القول﴾ قال: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه رخص له أن يدعو على من ظلمه، وإن يصبر فهو خير له. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في الآية قال: نزلت في رجل ضاف رجلاً بفلاة من الأرض، فلم يصفه، ثم نكر أنه لم يصفه لم يزد على ذلك. وأخرج ابن المنذر عن إسماعيل ﴿لا يحب الله للجهنم بالسوء من القول﴾ إلا من ظلمه. قال: كان الضحاک بن مزاحم يقول هذا على التقديم والتأخير، يقول الله: ما يفعل الله بعدابكم إن شكرتم، وأمتنتم إلا من ظلم، وكان يقرؤها كذلك، ثم قال: ﴿لا يحب الله للجهنم بالسوء من القول﴾ أي: على كل حال هكذا قال، وهو قريب من التحريف لمعنى الآية. وقد أخرج ابن أبي شيبة، والترمذي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا على من ظلمه، فقد انتصره». وروى نحوه أبو داود عنها من وجه آخر. وقد أخرج أبو داود من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «المتسلبان ما قالاه، فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم».

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتْرَكُوا يَتَرَكُوا اللَّهُ وَرُسُلَهُ وَيَتْلُونَ تَوْرَانِ وَيَتْلُونَ نَبِيَّيْنِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتْرَكُوا يَتْرَكُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٠٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١١٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكَانُوا يَتْلُونَ تَوْرَانِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا وَلَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ ﴿١١١﴾

لما فرغ من نكر المشركين، والمنافقين نكر الكفار من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل، والكتب المنزلة، والكفر بذلك كفر بالله، وينبغي حمل قوله: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعاً، فإن أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله، لكنهم لما كفروا ببعض كان ذلك كفر بالله وبجميع الرسل. ومعنى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ بين الله ورسله. أنهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله، فكان ذلك تفريقاً بين الله وبين رسله ﴿وَيَقُولُونَ نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ هم اليهود آمنوا

واهو كقولهم: ﴿قلوبنا في اكنة﴾ [فصلت: 5] وغرضهم بهذا رد حجة الرسل. قوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ هذه الجملة اعتراضية، أي: ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفاً بحسب مقصدهم الذي يريدونه، بل بحسب الطبع من الله عليها. والطبع: الختم، وقد تقدم ايضاح معناه في البقرة، وقوله: ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي: هي مطبوع عليها من الله بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، أو إلا قليلاً منهم كعبد الله بن سلام، ومن أسلم معه منهم، وقوله: ﴿وبكفرهم﴾ معطوف على قولهم، وإعادة الجار لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا التكرير لإفادة أنهم كفروا كفراً بعد كفر؛ وقيل: إن المراد بهذا الكفر: كفرهم بالمسيح، فحنف لدلالة ما بعده عليه. قوله: ﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ هو رميها بيوسف النجار، وكان من الصالحين. والبهتان: الكذب المفرط الذي يتعجب منه. قوله: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ معطوف على ما قبله، وهو من جملة جنائياتهم، وذنوبهم لأنهم كتبوا بأنهم قتلوه، واقتضوا بقتله، ونكروه بالرسالة استهزاء؛ لأنهم ينكرونها، ولا يعترفون بأنه نبي، وما ادّعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته، وإيضاح حقيقته الانجيل، وما فيه هو من تحريف النصارى؛ أبعدهم الله، فقد كتبوا وصديق الله القائل في كتابه العزيز: ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ والجملة حالية، أي: قالوا ذلك والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه ﴿ولكن شبه لهم﴾ أي: ألغى شبهه على غيره؛ وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه، وقتلوا الذين قتلوه، وهم شاكون فيه: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ أي: في شأن عيسى، فقال بعضهم: قتلناه، وقال من عاين رفعه إلى السماء ما قتلناه، وقيل: إن الاختلاف بينهم، هو أن النسبورية من النصارى قالوا: صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لا هوته، وقالت الملكانية: وقع القتل، والصلب على المسيح بكماله ناسوته، ولاهوته، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له، ولهذا قال الله: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾ أي: في تردد لا يخرج إلى حيز الصحة، ولا إلى حيز البطلان في اعتقادهم، بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون، وفي جهلهم يتحيرون، ﴿وما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ من زائدة لتوكيد نفي العلم، والاستثناء منقطع، أي: لكنهم يتبعون الظن؛ وقيل: هو يدل بما قبله. والأول أولى، لا يقال إن اتباع الظن ينافي الشك الذي أخبر الله عنهم بأنهم فيه، لأن المراد هنا بالشك: التردد كما قدمنا، والظن نوع منه، وليس المراد به هنا: ترجح أحد الجانبين. قوله: ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ أي: قتلاً يقيناً على أنه صفة مصدر محذوف، أو متيقنين على أنه حال، وهذا على أن الضمير في قتلوه لعيسى، وقيل: إنه يعود إلى الظن، والمعنى: ما قتلوا ظنهم يقيناً كقولك قتلتها علماً إذا علمته علماً تاماً. قال أبو عبيدة: ولو كان المعنى: وما قتلوا عيسى يقيناً لقال، وما قتلوه فقط، وقيل المعنى:

الأحاديث المتواترة. ومن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة، فقد غلط غلطاً بيناً؛ ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذي نشأ منهم بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات، بل ضموا إليه ما هو أقبح منه، وهو عبادة العجل. وفي الكلام حنف والتقدير: فأحييناهم فاتخذوا العجل. والبيئات: البراهمين، والدلائل، والمعجزات من اليد، والعصا، وقلق البحر وغيرها ﴿ففعلونا عن ذلك﴾ أي: عما كان منهم من التعت، وعبادة العجل، ﴿وأتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة بينة وهي: الآيات التي جاء بها، وسميت سلطاناً؛ لأن من جاء بها قهر خصمه، ومن ذلك أمر الله سبحانه له بأن يأمرهم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم، فإنه من جملة السلطان الذي قهرهم به: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ أي: بسبب ميثاقهم ليعطوه؛ لأنه روى أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى، فرفع الله عليهم الطور، فقبلوها، وقيل: إن المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم الذي أخذ منهم، وهو العمل بما في التوراة، وقد تقدم رفع الجبل في البقرة، وكذلك تفسير دخولهم الباب سجداً: ﴿وقلنا لهم لا تعبدوا في السبت﴾ فاتخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان، وقد تقدم تفسير ذلك، وقرئ لا تعبدوا، وتعبدوا بفتح العين، وتشديد الدال ﴿ولخّنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ مؤكداً، وهو العهد الذي أخذه عليهم في التوراة؛ وقيل: إنه عهد مؤكداً باليمين، فسمي غليظاً لذلك. قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ ما مزيده للتوكيد، أو نكرة، ونقضهم بدل منها، والباء متعلقة بمحذوف، والتقدير: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم. وقال الكسائي: هو متعلق بما قبله والمعنى: فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إلى قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ قال: ففسر ظلمهم الذي أخذتهم الصاعقة بسببه بما بعده من نقضهم ميثاقهم، وقتلهم الأنبياء، وما بعده، واثكر ذلك ابن جرير الطبري وغيره؛ لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء، ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برمتهم بالبهتان. قال المهدي وغيره: وهذا لا يلزم لأنه يجوز أن يخبر عنهم، والمراد آبائهم، وقال الزجاج: المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرماً عليهم طيبات أحلت لهم؛ لأنه هذه القصة ممتدة إلى قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا﴾ [النساء: 160] ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبي ﷺ، وقيل المعنى: فبنقضهم ميثاقهم، وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم؛ وقيل المعنى: فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلاً، والفاء في قوله: ﴿فلا يؤمنون﴾ مقحمة. قوله: ﴿وبكفرهم بآيات الله﴾ معطوف على ما قبله، وكذا قوله: ﴿وقتلهم﴾، والمراد بآيات الله كتبهم التي حرّفوها، والمراد بالأنبياء الذين قتلوهم يحيى، وزكرياء. وغلف جمع أغلف، وهو المغطى بالغلاف، أي: قلوبنا في أغطية، فلا نفقه ما تقول؛ وقيل: إن غلف جمع غلاف، والمعنى: أن قلوبهم أوعية للعلم، فلا حاجة لهم إلى علم غير ما قد حوته قلوبهم،

ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أياكم يلقي عليه شبهي، فيقتل مكاني، ويكون معي في رجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال أنا، فقال: أنت ذاك فالقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء؛ قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه، فقتلوه، ثم صلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، فهؤلاء اليعقوبية؛ وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً، فأنزل الله عليه: ﴿فَأَمْنَتِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الصف: 14] يعني: الطائفة التي أمنت في زمن عيسى؛ وكفرت طائفة؛ يعني التي كفرت في زمن عيسى ﴿فَلَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في زمن عيسى بإظهار محمد بينهم على بين الكافرين. قال ابن كثير بعد أن ساقه بهذا اللفظ عن ابن أبي حاتم قال: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فنكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، وصلى ابن كثير، فهؤلاء كلهم من رجال الصحيح. وأخرجه النسائي، من حديث أبي كريب، عن أبي معاوية بنحوه. وقد رويت قصته عليه السلام من طرق بالفاظ مختلفة، وساقها عبد بن حميد، وابن جرير، عن وهب بن منبه على صفة قريبة مما في الإنجيل، وكذلك ساقها ابن المنذر عنه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قال: لم يقتلوا ظنهم يقيناً. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن ابن جوير، والسدي مثله أيضاً. وأخرج الفريابي وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: خروج عيسى ابن مريم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طرق عنه في الآية قال: قبل موت عيسى. وأخرج عنه أيضاً قال: قبل موت اليهودي. وأخرج ابن جرير عنه قال: إنه سيدرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث سيؤمنون به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: «ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى؛ قيل لابن عباس أرايت إن خر من فوق بيت؟ قال يتكلم به في الهواء؛ فقيل أرايت إن ضرب عنق لحدهم؟ قال: يتلجلج بها لسانه». وقد روي نحو هذا عنه من طرق، وقال به جماعة من التابعين، وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أن المراد: قبل موت عيسى، كما روي عن ابن عباس قبل هذا، وقيده كثير منهم بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض. وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما، أوضحنا ذلك في مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد

وما قتلوا الذي شبه لهم؛ وقيل المعنى: بل رفعه الله إليه
يقيناً، وهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها. وأجاز
ابن الأنباري نصب يقيناً بفعل مضمر هو جواب قسم،
ويكون ﴿بل رفعه الله إليه﴾ كلاماً مستأنفاً ولا وجه لهذه
الأقوال، والضمائر قبل قتلوه، وبعده لعيسى، وذكر اليقين
هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة. قوله:
﴿بل رفعه الله إليه﴾ رد عليهم، وإثبات لما هو الصحيح،
وقد تقدم ذكر رفعه عليه السلام في آل عمران. قوله: ﴿وإن
من أهل الكتاب إلا ليوؤمنن به قبل موته﴾ المراد بأهل
الكتاب: اليهود والنصارى، والمعنى: وما من أهل الكتاب أحد
إلا والله ليوؤمنن به قبل موته، والضمير في به راجع إلى
عيسى، والضمير في موته راجع إلى ما دل عليه الكلام،
وهو لفظ أحد المقتدر، أو الكتابي المملول عليه بأهل الكتاب،
وفيه دليل على أنه لا يموت يهودي، أو نصراني إلا وقد آمن
بالمسيح؛ وقيل: كلا الضميرين لعيسى، والمعنى: أنه لا
يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابي في عصره؛ وقيل:
الضمير الأول لله؛ وقيل: إلى محمد، وقد اختار كون
الضميرين لعيسى ابن جرير، وقال به جماعة من السلف،
وهو الظاهر، والمراد الإيمان به عند نزوله في آخر الزمان،
كما ورث بذلك الأحاديث المتواترة ﴿ويوم القيامة يكون﴾
عيسى على أهل الكتاب ﴿شهاداً﴾ يشهد على اليهود
بالتكذيب له، وعلى النصارى بالغلو فيه حتى قالوا هو ابن
الله.

وقد أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاء بالآلواح من عند الله، فاتنا بالآلواح من عند الله حتى نصنعك، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمُ الْكُتَابُ أَنْ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى ﴿وَقُولِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جرير في الآية قال: إن اليهود والنصارى قالوا لمحمد ﷺ: إن نبياك على ما تدعوننا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله وإلى فلان أنك رسول الله، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكُمُ الْكُتَابُ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ هُوَ يَقُولُ﴾ قال: إنهم إذا رأوه، فقد رأوه، وإنما قالوا جهرة أرنا الله قال: هو مقسم ومؤخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ قال: جبل كانوا في أصله فرفعه الله، فجعله فوقهم كأنه ظلة، فقال: لتأخذن أمري، أو لأرمينكم به، فقالوا تأخذنه، فأمسكه الله عنهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُولِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾ قال: رموها بالزنا. وأخرج سعيد بن منصور، والنسائي، وابن أبي حاتم، وإبم مردويه، عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر

في المنتظر، والنجال، والمسيح.

فَظَلِمَ بَيْنَ يَدَيْكَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كِبِيرًا ﴿١٥١﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَوَّلَتِ نَاسٌ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥٢﴾ لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْوَيْلِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥٣﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْيُسُوفِ مِنْ قَبْلِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِزْرَافًا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَيُوسُفَ وَأَيُّوبَ وَهُنَّاءٌ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَمَا كُنَّا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٥٤﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٥٥﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٦﴾

الباء في قوله: ﴿فبظلم﴾ للسببية، والتذكير والتثنية للتعظيم، أي: فبسبب ظلم عظيم حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم، لا بسبب شيء آخر، كما زعموا أنها كانت محرّمة على من قبلهم. وقال الزجاج: هذا بدل من قوله: ﴿فبما نقضهم﴾ [النساء: 155، المائدة: 13]. والطيبات المذكورة هي ما نصّه الله سبحانه: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ [الأنعام: 146] الآية ﴿وبصدهم﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ وهو اتباع محمد ﷺ وتحريفهم، وقتلهم الأنبياء، وما صدر منهم من الذنوب المعروفة. وقوله: ﴿كثيراً﴾ مفعول للفعل المنكّر، أي: بصدهم ناساً كثيراً، أو صفة مصدر محذوف، أي: صدّاً كثيراً ﴿ولخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾ أي: معاملتهم فيما بينهم بالربا، وكلهم له، وهو محرّم عليهم ﴿واكلهم أموال الناس بالباطل﴾ كالرشوة والسحت الذي كانوا يأخذونه. قوله: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ استدراك من قوله: ﴿واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ أو ﴿من الذين هادوا﴾، وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا: إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل، وأنت تحلها، فنزل: ﴿لكن الراسخون﴾ والراسخ: هو المبالغ في علم الكتاب الثابت فيه، والرسوخ: الثبوت. وقد تقدّم الكلام عليه في آل عمران. والمراد عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ونحوهما. والراسخون مبتدأ، ويؤمنون خبره، والمؤمنون معطوف على الراسخون. والمراد بالمؤمنين: إما من آمن من أهل الكتاب، أو من المهاجرين، والانصار، أو من الجميع. قوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قرأ الحسن، وملك بن دينار، وجماعة: ﴿والمقيمون الصلاة﴾ على العطف على ما قبله، وكذا هو في مصحف ابن مسعود، واختلف في وجه نصبه على قراءة الجمهور على أقوال: الأول قول سيبويه أنه نصب على المدح، أي: وأعني المقيمين. قال سيبويه: هذا باب ما ينتصب على التعظيم، ومن ذلك: ﴿والمقيمين الصلاة﴾

وانشد:

وكل قوم أطاعوا امر سيدهم إلا نميراً أطاعت أمر غاويها

الطاعنين ولما يطعنوا أحداً والقائلون لمن دار نخلها وانشد:

لا يبعدن قومي الذين هم سمّ العداة وآفة الجزر النازلين بكل معترك والطيبون معاهد الأزر قال النحاس: وهذا أصح ما قيل في المقيمين. وقال الكسائي، والخليل: هو معطوف على قوله: ﴿بما أنزل إليك﴾ قال الأخفش: وهذا بعيد لأن المعنى يكون هكذا: ويؤمنون بالمقيمين. ووجهه محمد بن يزيد المبرد بأن المقيمين هنا هم الملائكة، فيكون المعنى: يؤمنون بما أنزل إليك، وبما أنزل من قبلك، وبالملائكة، واختار هذا. وحكى أن النصب على المدح بعيد؛ لأن المدح إنما يأتي بعد تمام الخبر، وخبر الراسخون هو قوله: ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ وقيل: إن المقيمين معطوف على الضمير في قوله: ﴿منهم﴾ وفيه أنه عطف على مضمر بدون إعادة الخافض. وحكى عن عائشة أنها سئلت، عن المقيمين في هذه الآية، وعن قوله تعالى: ﴿إن هذان لساحران﴾ [طه: 63] وعن قوله: ﴿والصابئون﴾ [المائدة: 69] في المائدة؟ فقالت: يا ابن أخي الكتاب أخطئوا. أخرجه عنها أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر. وقال أبان بن عثمان كان الكاتب يملئ عليه، فيكتب، فكتب: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون﴾ ثم قال ما أكتب؟ فقل له أكتب: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ فمن ثم وقع هذا. أخرجه عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر. قال القشيري: وهذا باطل؛ لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة في اللغة، فلا يضمن بهم ذلك، ويجاب عن القشيري بأنه قد روي عن عثمان بن عفان أنه لما فرغ من المصحف وأتى به إليه قال: أرى فيه شيئاً من لحن سقيمه العرب بالسنة. أخرجه عنه ابن أبي داود من طرق. وقد رجح قول سيبويه كثير من أئمة النحو والتفسير، ورجح قول الخليل، والكسائي ابن جرير الطبري، والقفال، وعلى قول سيبويه تكون الجملة معترضة بين المبتدأ، والخبر على قول من قال: إن خبر الراسخون هو قوله: ﴿أولئك سنؤتيهم﴾ أو بين للمعطوف والمعطوف عليه إن جعلنا الراسخون هو يؤمنون، وجعلنا قوله: ﴿والمؤمنون الزكاة﴾ عطفاً على المؤمنون لا على قول سيبويه أن المؤمنون الزكاة مرفوع على الابتداء، أو على تقدير مبتدأ محذوف، أي: هم المؤمنون الزكاة. قوله: ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب، وصفوا أولاً بالرسوخ في العلم، ثم بالإيمان بكتب الله، وأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالله، واليوم الآخر؛ وقيل المراد بهم: المؤمنون من المهاجرين، والانصار، كما سلف، وأنهم جامعون بين هذه الأوصاف، والإشارة بقوله: ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ إلى الراسخون، وما عطف عليه. قوله: ﴿إننا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ هذا متصل بقوله: ﴿يسالك أهل الكتاب﴾ والمعنى: أن أمر محمد

وقيل: ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. قال النحاس: واجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً. قوله: ﴿رَسُولًا مَبْشَرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ بدل من رسلاً الأول، أو منصوب بفعل مقتر، أي: وأرسلنا، أو على الحال بأن يكون رسلاً موطئاً لما بعده، أو على المدح، أي: مبشرين لاهل الطاعات، ومنذرين لاهل المعاصي. قوله: ﴿لَعَلَّاهُ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي: معذرة يعتذرون بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَمَلْنَاكُمْ بَعْدَ مَقْدَرٍ مِنْ قَبْلِهِ لَفَالِقُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه: 134] وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة تنبيهاً على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلاً منه ورحمة. ومعنى قوله: ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ بعد إرسال الرسل ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا لَا يَغَالِبُهُ مَغَالِبٌ﴾ ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله التي من جملتها إرسال الرسل.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد: ﴿وَيَصْنَعُهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ قال: أنفسهم وغيرهم عن الحق. وأخرج ابن إسحاق في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكِنِ لِلرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن سلام، وأسيد بن شعبة، وثعلبة بن شعبة حين فارقوا اليهود، وأسلموا. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل عنه أن بعض اليهود قال: يا محمد ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْآيَةَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوازل الأصول، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وابن عساكر، عن أبي نر قال: «قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، عن أبي امامة مرفوعاً إلا أنه قال: والرسل ثلثمائة وخمسة عشر» وأخرج أبو يعلى، والحاكم بسند ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى، ثم كنت أنا بعده، وأخرج الحاكم، عن أنس بسند ضعيف نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه؛ ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

لَيْكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَخْشَى لِيُغَيِّرَ لَهُمْ وَلَا لِيُدْهِمَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٠٢﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَكَايَمُوا خَيْرًا

كأمر من تقدمه من الأنبياء، فما بالكم تطلبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل، والوحي إعلام في خفاء، يقال: وحي إليه بالكلام وحيًا، وأوحى يوحى إichاء، وخصّ نوحاً لكونه أول نبي شرعت على لسانه الشرائع، وقيل: غير ذلك، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ نعت مصدر محنوف، أي: إichاء مثل إichائنا إلى نوح، أو حال، أي: أوحينا إليك هذا الإichاء حال كونه مشبهاً بإichائنا إلى نوح. قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ معطوف على ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم أولاد يعقوب كما تقدم ﴿وَعِيسَى وَيُوشَعَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ خص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم في لفظ النبيين تشريفاً لهم كقوله: ﴿وَمَلَأْنَاهُ وَرَسُولَهُ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: 98]، وقدم عيسى على أيوب، ومن بعده مع كونهم في زمان قبل زمانه، رداً على اليهود الذي كفروا به، وأيضاً فالواو ليست إلا لمطلق الجمع. قوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَيْبُورًا﴾ معطوف على أوحينا. والزبور: كتاب داود. قال القرطبي: وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم، ولا حلال، ولا حرام، وإنما هي حكم، ومواعظ. انتهى. قلت: هو مائة وخمسون مزموراً. والمزمور: فصل يشتمل على كلام لداود يستغث بالله من خصومه، ويدعو الله عليهم، ويستنصره، وتارة يأتي بمواعظ، وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة، ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئاً من الآلات التي لها نغمات حسنة، كما هو مصرح بذلك في كثير من تلك المزمورات. والزبور: الكتابة. والزبور بمعنى المزمور، أي: المكتوب. كالرسول، والخطوب، والركوب. وقرأ حمزة: ﴿زَيْبُورًا﴾ بضم الزاي، جمع زبر كفلس، وفلوس. والزبر بمعنى المزمور، والأصل في الكلمة التوثيق يقال بشر مزبورة، أي: مطوية بالحجارة، والكتاب سمي زبوراً لقوة الوثيقة به. قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ أي: وأرسلنا رسلاً ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وقيل: هو منصوب بفعل دل عليه ﴿قَصَصْنَاهُمْ﴾ أي: وقصصنا رسلاً، ومثله ما أنشدته سيبويه:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والنَّسب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

أي: وأخشى النذب، وقرأ أبي: ﴿رَسُولٌ﴾ بالرفع على تقدير، ومنهم رسل. ومعنى: ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أنه قصهم عليه من قبل هذه السورة، أو من قبل هذا اليوم. قيل: إنه لما قص الله في كتابه بعض أسماء أنبيائه، ولم يذكر أسماء بعض قالت اليهود: نكر محمد الأنبياء، ولم يذكر موسى، فنزل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وقراءة الجمهور برفع الاسم الشريف على أن الله هو الذي كلم موسى. وقرأ النخعي، ويحيى بن وثاب بنصب الاسم الشريف على أن موسى هو الذي كلم الله سبحانه وتعالى ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد. وفائدة التأكيد نفع توهم كون التكلیم مجازاً، كما قال الفراء إن العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق،

وَالْأَرْضِ ﴿١٧﴾ من مخلوقاته، وأنتم من جملتهم، ومن كان خالقاً لكم، ولها فهو قادر على مجازاتكم بقبیح أفعالكم، ففي هذه الجملة، وعيد لهم مع إيضاح وجه البرهان، وإمطة الستر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول، والإذعان. لأنهم يعترفون بأن الله خلقهم ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87] قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي بَيْنِكُمْ﴾ الغلو: هو التجاوز في الحد، ومنه غلا السعر يغلو غلاءً، وغلا الرجل في الأمر غلواً، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها. والمراد بالآية: النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى، فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى حتى جعلوه رباً، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة، وما أحسن قول الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور نميم
﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزيز ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ المسيح مبتدأ، وعيسى بدل منه، وابن مريم صفة لعيسى، ورسول الله الخبر، ويجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان، والجملة تعليل للنهي، وقد تقدم الكلام على المسيح في آل عمران. قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطف على رسول الله، و﴿قَالَهَا﴾ إلى مريم ﴿حال، أي: كونه بقوله كن، فكان بشراً من غير أب، وقيل: ﴿كَلِمَتُهُ﴾ بشارة الله مريم، ورسالته إليها على لسان جبريل بقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 45] وقيل: الكلمة هاهنا بمعنى: الآية، ومنه: ﴿وَصَبَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: 12]، وقوله: ﴿مَا تَفَلَّتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: 27]. قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: أرسل جبريل فنفخ في درع مريم فحملت بإن الله، وهذه الإضافة للتفضيل، وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى؛ وقيل قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً ويضاف إلى الله، فيقال هذا روح من الله، أي: من خلقه، كما يقال في النعمة إنها من الله وقيل: ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾ أي من خلقه كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13] أي: من خلقه، وقيل: ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: رحمة منه، وقيل: ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: برهان منه، وكان عيسى برهاناً وحجة على قومه، وقوله: ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لروح، أي: كائنة منه وجعلت الروح منه سبحانه، وإن كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الأمر لجبريل بالنفخ: ﴿فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: بانه سبحانه إله واحد لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه، ولا تكذيبهم، ولا تغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آله. قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ ارتفاع ثلاثة على أنه خير مبتدأ محذوف قال الزجاج أي: لا تقولوا ألهتنا ثلاثة، وقال الفراء، وأبو عبيد أي:

لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهِ الْكُتُبُ لَا تَعْلَمُ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ لَهْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٩﴾

قوله: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والفعل خبره، ومع تشديد النون هو منصوب على أنه اسم لكن والاستدراك من محذوف مقتر كانهم قالوا: ما نشهد لك يا محمد بهذا، أي: الوحي، والنبوة، فنزل: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولى، أو جملة حالية، وكذلك قوله: ﴿لَنْزِلُهُ يَعْلَمُهُ﴾ جملة حالية، أي: متلبساً بعلمه الذي لا يعلمه غيره من كونك أملاً لما اصطفاك الله له من النبوة، وأنزله عليك من القرآن ﴿وَوَكُفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: كفى الله شاهداً والياء زائدة، وشهادة الله سبحانه هي: ما يصنعه من المعجزات الدالة على صحة النبوة، فإن وجود هذه المعجزات شهادة للنبي ﴿بَصَقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ هَذَا، وَغَيْرِهِ﴾ [إِنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا] بكل ما يجب الإيمان به، أو بهذا الأمر الخاص، وهو ما في هذا المقام: ﴿وَوَصَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام بإنكارهم نبوة محمد ﷺ، ويقولهم ما نجد صفته في كتابنا، وإنما النبوة في ولد هرون وداد، ويقولهم إن شرع موسى لا ينسخ ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق بما فعلوا، لأنهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بجحدهم ﴿وَوَظَلَمُوا﴾ غيرهم بصددهم عن السبيل، أو ظلموا محمداً بكتماهم نبوته، أو ظلموا أنفسهم بكفرهم، ويجوز الحمل على جميع هذه المعاني: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إذا استمروا على كفرهم، وماتوا كافرين ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ لكونهم اقتصروا ما يوجب لهم نك بسوء اختيارهم، وفرط شقاوتهم، وجحدوا الواضح، وعاندوا البين: ﴿وَخَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: يدخلهم جهنم خالدين فيها، وهي حال مقررة. وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ منصوب على الظرفية، وهو لرفع احتمال، أن الخلود هنا يراد به: المكث الطويل ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: تخليدهم في جهنم، أو ترك المغفرة لهم، والهداية مع الخلود في جهنم: ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه سبحانه لا يصعب عليه شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] ﴿فَأَمْنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ اختلف أئمة النحو في انتصاب خيراً على ماذا؟ فقال سيبويه، والخليل بفعل مقتر، أي: واقتصدوا، أو أتو خيراً لكم، وقال الفراء: هو نعت لمصدر محذوف، أي: فأمنوا إيماناً خيراً لكم، وذهب أبو عبيدة، والكسائي إلى أنه خبر لكان مقتر، أي: فأمنوا يكن الإيمان خيراً لكم، وأقوى هذه الأقوال الثالث، ثم الأول، ثم الثاني على ضعف فيه: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ أي: وإن تستمروا على كفركم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ

رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني والله أعلم أنكم تعلمون اني رسول الله، قالوا ما نعلم ذلك. فأنزل الله: ﴿لكن الله يشهد﴾ الآية». وأخرج عبد بن حميد، والحكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي موسى أن النجاشي قال لجعفر: ما يقول صاحبك في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قول الله هو روح الله، وكلمته، أخرجه من البتول العذراء لم يقربها بشر، فتناول عودا من الأرض، فرفعه فقال: يا معشر القسيسين، والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه. وأخرجه البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود باطول من هذا. وأخرج البخاري عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».

لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَكَرَ فَمَيْمَرُهُ إِلَىٰ جَمِيعًا ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجْرَهُمْ وَزَيَّدْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَمِعَدْنَاهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٧﴾ يَأْتِيَهُمُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَهُمْ يُبْذَرُونَ مِنْ رَبِّكَ وَأُزْلِفُوا لَكُمْ قُرْآنًا مُبِينًا ﴿١٧٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَغْضَوْا بِهِ فَمَنْ صَبَرُوا وَمَنْ هَمَزَ مِنْهُ وَلَمْ يُبْذَرُوا فَيُؤْتَوْنَ أَجْرًا مَرَكَبًا مُنْتَصِمًا ﴿١٧٩﴾

أصل يستنكف نكف وباقي الحروف زائدة، يقال نكفت من الشيء، واستنكفت منه، وأنكفته أي: نزهته عما يستنكف منه. قال الزجاج: استنكف أي: أنف، مأخوذ من نكفت الدمع: إذا نحيت بأصبعك عن خديك؛ وقيل: هو من النكف، وهو العيب، يقال: ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف أي: عيب. ومعنى الأول: لن يأنف عن العبودية، ولن يتنزه عنها. ومعنى الثاني: لن يعيب العبودية، ولن ينقطع عنها: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ عطف على المسيح، أي: ولن يستنكف الملائكة المقربون عن أن يكونوا عباداً لله.

وقد استدلل بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء، وقرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لا يسمن ولا يغني من جوع وأدعى أن النوق قاض بذلك، ونعم النوق العربي إذا خالطه محبة المذهب، وشابه شواهب الجمود كان هكذا، وكل من يفهم لغة العرب يعلم أن من قال لا يأنف من هذه المقالة إمام، ولا مأموم أو لا كبير، ولا صغير أو لا جليل، ولا حقير، ثم يدل هذا على أن المعطوف أعظم شأنًا من المعطوف عليه، وعلى كل حال، فما أردا الاشتغال بهذه المسألة، وما أقل فائدتها، وما أبعداها عن أن تكون مركزاً من المراكز الشرعية الدينية، وجسراً من الجسور: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر﴾ أي: يأنف تكبراً، ويعد نفسه كبيراً عن العبادة ﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ المستنكف وغيره، فيجازي كلًّا بعمله. وترك ذكر غير المستنكف هنا لدلالة أول الكلام عليه. ولكن الحشر لكلا الطائفتين ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ من غير أن يفوتهم منها شيء: ﴿وأما الذين

لا تقولوا هم ثلاثة كقوله: ﴿سيقولون ثلاثة﴾ [الكهف: 22] وقال أبو علي الفارسي: لا تقولوا هو ثالث ثلاثة، فحنف المبتدأ، والمضاف، والنصارى مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث، ويعنون بالثلاثة الأقانيم، فيجعلونه سبحانه جوهرًا واحدًا، وله ثلاثة أقانيم، ويعنون بالأقانيم اقنوم الوجود، واقنوم الحياة، واقنوم العلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالآب، والابن وروح القدس، فيعنون بالآب: الوجود، وبالروح: الحياة، وبالابن: المسيح. وقيل: للمراد بالآلهة الثلاثة: الله سبحانه وتعالى، ومريم، والمسيح. وقد اختلط النصارى في هذا اختطاطاً طويلاً.

ووقفنا في الأناجيل الأربعة التي يطل عليها عندهم اسم الإنجيل على اختلاف كثير في عيسى: فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان، وتارة يوصف بأنه ابن الله، وتارة يوصف بأنه ابن الرب، وهذا تناقض ظاهر، وتلاعب بالدين. والحق ما أخبرنا الله به في القرآن، وما خالفه في التوراة، أو الإنجيل، أو الزبور، فهو من تحريف المحرفين، وتلاعب المتلاعبين. ومن أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام.

وحاصل ما فيها جميعاً أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه إليه، وذكر ما جرى له من المعجزات، والمراجعات لليهود ونحوهم، فاختلقت الفاظهم، واتفقت معانيها، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ، والضبط، ونكر ما قاله عيسى، وما قيل له، وليس فيها من كلام الله سبحانه شيء، ولا أنزل على عيسى من عنده كتاباً، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما في التوراة، ويذكر أنه لم يأت بما يخالفها، وهكذا الزبور، فإنه من أوله إلى آخره من كلام داود عليه السلام. وكلام الله أصدق، وكتاباً أحق، وقد أخبرنا أن الانجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، وأن الزبور كتابه آتاه ⁽¹⁾ داود وأنزله عليه. قوله: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي: انتهوا عن التثليث، وانتصاب «خيراً» هنا فيه الوجوه الثلاثة التي تقدمت في قوله: ﴿فأمنوا خيراً لكم﴾. ﴿إنما الله إله واحد﴾ لا شريك له صاحبة، ولا ولد: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي: أسبحة تسبيحاً عن أن يكون له ولد: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ وما جعلتموه له شريكاً، أو ولداً هو من جملة ذلك، والمملوك المخلوق لا يكون شريكاً، ولا ولداً: ﴿وكفى بالله وكيلًا﴾ نكل الخلق أمورهم إليه، ولا يملكون لأنفسهم ضراً، ولا نفعاً.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: دخل جماعة من اليهود على

(1) من هذا تفهم أن ما تقدم له محكي عن عقيدة غيره، اهـ مصححه.

من كونه حالاً، والولد يطلق على الذكر، والأنثى، واقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الولد معتبر في الكلالة اتكلاً على ظهور ذلك، قيل: والمراد بالولد هنا: الابن، وهو أحد معني المشترك؛ لأن البنت لا تسقط الأخت. وقوله: ﴿وله أخت﴾ عطف على قوله: «ليس له ولد». والمراد بالأخت هنا: هي الأخت لأبوين، أو لأب لا لأم، فإن فرضها السبس، كما نكر سابقاً. وقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم إلى أن الأخوات لأبوين، أو لأب عصبه للبنات، وإن لم يكن معهم أخ. وذهب ابن عباس إلى أن الأخوات لا يعصبن البنات، وإليه ذهب داود الظاهري، وطائفة، وقالوا: إنه لا ميراث للأخت لأبوين، أو لأب مع البنت، واحتجوا بظاهر هذه الآية، فإنه جعل عدم الولد المتناول للذكر، والأنثى قيداً في ميراث الأخت، وهذا استدلال صحيح لو لم يرد في السنة ما يدل على ثبوت ميراث الأخت مع البنت، وهو ما ثبت في الصحيح أن معاذاً قضى على عهد رسول الله ﷺ في بنت، وأخت، فجعل للبنت النصف، وللأخت النصف. وثبت في الصحيح أيضاً: «أن النبي ﷺ قضى في بنت وبنت ابن. وأخت فجعل للبنت النصف وللبنت الابن السبس وللأخت الباقي» فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت. وقوله: ﴿وهو يرثها﴾ أي: المرء يرثها، أي: يرث الأخت «إن لم يكن لها ولد» نكر إن كان المراد بإرثه لها: حيازته لجميع ما تركته، وإن كان المراد: ثبوت ميراثه لها في الجملة أعم من أن يكون كلاً، أو بعضاً صح تفسير الولد بما يتناول الذكر، والأنثى، واقتصر سبحانه في هذه الآية على نفي الولد مع كون الأب يسقط الأخ، كما يسقطه الولد الذكر لأن المراد: بيان حقوق الأخ مع الولد فقط هنا. وأما سقوطه مع الأب، فقد تبين بالسنة، كما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل نكر» والأب أولى من الأخ: ﴿فإن كانتا اثنتين﴾ أي: فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين، والعطف على الشرطية السابقة، والتانيث والتثنية، وكذلك الجمع في قوله: ﴿وإن كانوا إخوة﴾ باعتبار الخبر: ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ المرء إن لم يكن له ولد، كما سلف، وما فوق اثنتين من الأخوات يكون لهنّ الثلثان بالأولى ﴿وإن كانوا﴾ أي: من يرث بالأخوة «إخوة رجالاً ونساء» أي: مختلطين ذكراً وإناً «فللذكر» منهم «مثل حظ الأنثيين» تعصياً «يبين الله لكم أن تضلوا» أي: يبين لكم حكم الكلالة، وسائر الأحكام كراهة أن تضلوا، هكذا حكاه القرطبي عن البصريين. وقال الكسائي: المعنى لثلاثاً تضلوا، ووافقه الفراء وغيره من الكوفيين «والله بكل شيء عليم» من الأشياء التي هذه الأحكام المذكورة منها «عليهم» أي: كثير العلم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال: «دخل علي رسول الله ﷺ، وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، ثم صب علي، ففعلت، فقلت إنه لا

استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً» بسبب استنكافهم واستكبارهم «ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا يوليهم» «ولا نصيراً» ينصرهم. وقوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ بما أنزل عليكم من كتبه وبمن أرسله إليكم من رسله، وما نصبه لهم من المعجزات. والبرهان: ما يبرهن به على المطلوب: ﴿وانزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ وهو القرآن، وسماه نوراً لأنه يهتدى به من ظلمة الضلال: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾ أي: بالله، وقيل: بالنور المذكور: ﴿فسيبخلهم في رحمة منه﴾ يرحمهم بها «وفضل» يتفضل به عليهم «ويهديهم إليه» أي: إلى امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه أو إليه سبحانه وتعالى باعتبار مصيرهم إلى جزائه، وتفضله: ﴿صراطاً مستقيماً﴾ أي: طريقاً يسلكونه إليه مستقيماً لا عوج فيه، وهو التمسك بدين الإسلام، وترك غيره من الأديان، قال أبو علي الفارسي: الهاء في قوله «إليه» راجعة إلى ما تقدم من اسم الله: وقيل: راجعة إلى القرآن: وقيل: إلى الفضل، وقيل: إلى الرحمة والفضل لأنهما بمعنى الثواب وانتصاب صراطاً على أنه مفعول ثان للفعل المذكور، وقيل: على الحال.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «لن يستنكف المسيح» لن يستكبر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، والإسماعيلي في معجمه بسند ضعيف، عن ابن مسعود قال: قال: رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ قال: أجورهم يخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا. وقد ساقه ابن كثير في تفسيره، فقال: وقد روى ابن مريويه، من طريق بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود، فذكره، وقال: هذا إسناد لا يثبت، وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً، فهو جيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة «قد جاءكم برهان» أي: بينة «وانزلنا إليكم نوراً مبيناً» قال: هذا القرآن. وأخرج أيضاً عن مجاهد قال: برهان حجة. وأخرج أيضاً عن ابن جريج في قوله: ﴿واعصموا به﴾ قال: القرآن.

يَسْتَفْتُونَكَ وَاللَّهُ يَمُنُّ بِكُمْ فِي الْكَلَّةِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ إِنْ كَانَتْ أَنْثَىٰ فَلَهَا الْثُلَاثَانِ بِمَا تَرَكَ وَلَئِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَىٰ بَيِّنَاتٌ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ يَكْتُبُ لَكُمْ مَا تَشَاءُونَ عَلَيْهِ ﷺ

قد تقدم الكلام في الكلالة في أول هذه السورة، وسبأتي نكر المستفتي المقصود بقوله: «يستفتونك». قوله: ﴿إن امرؤ هلك﴾ أي: إن هلك امرؤ هلك، كما تقدم في قوله: ﴿وإن امرأة خافت﴾ [النساء: 128]. وقوله: «ليس له ولد» إما صفة لامرؤ، أو حال، ولا وجه للمنع

يرثني إلا كلاله، فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض، وأُخرج عنه ابن سعد، وابن أبي حاتم بلفظ أنزلت في **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾**. وأخرج ابن زَاهَوِيه، وابن مَرْبُوطِيه، عن عمر أنه سأل رسول الله ﷺ: **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾** الآية. وأخرج مالك، ومسلم، وابن جرير، والبيهقي، عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته في الكلاله حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: ما تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، والبيهقي، عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الكلاله؟ فقال: تكفيك آية الصيف، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عمر قال: ثلاث، وبدت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيه عهداً تنتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء بن عازب قال: آخر سورة نزلت كاملة براءة، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾**. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب إذا قرأ **﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضْلُوا﴾** قال: اللهم من بينت له الكلاله، فلم تبين لي.

وقد أوضحنا الكلام خلافاً، واستدلالاً، وترجيحاً في شأن الكلالة في أوائل هذه السورة، فلا نعيده.

وإلى هنا، انتهى. الجزء الأول من التفسير المبارك: المسمى «فتح القدير» الجامع بين فني الرواية، والدرية من علم التفسير بقلم مؤلفه الراجي من ربه سبحانه أن يعينه على تمامه، وينفع به من شاء من عباده، ويجعله ذخيرة له عند وفوده إلى دار الآخرة «محمد بن علي بن محمد الشوكاني» غفر الله لهما.

وكان الانتهاء إلى هذا الموضوع في يوم العيد الأكبر، يوم النحر المبارك من سنة أربع وعشرين بعد مائتين وألف من الهجرة النبوية، حامداً لله ومصلياً ومسلماً على رسوله وحبيبه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه. أ هـ.

الحمد له: كمل سماعاً، والحمد لله في شهر القعدة من عام سنة 1232.

يحيى بن علي الشوكاني

[تنبيه] وضعنا في هذه الصفحة تنمة المؤلف للجزء الأول بخط يده الشريفة تبركاً به، وليطلع القراء على نموذج من النسخة الخطية الوحيدة التي كان الطبع عليها.

واللهنا انتقم الحق الاول من الظلم والمظالم المسمى في الحق الاول
الماضي بين قديم الزمان والوراثه من علم التنجس وتقدمه من علم الوراثة من
سبحانه ان يعطيني على قادمه وينقضي من بين من عبادته وعلمه وخبره له
عنه فوره المداد الراضة جوده من كونه الشرايق في العلم وكما لا يكتفي
الرهه الموضع في يد العبد الامير الخ المكن من منتهى اريج خريز
بعده من الف من الهبة النبوية حاشا له وعلمها هو سلك على
رسله وصيته هو بر كبره الم والاله وجههم

تفسير سورة المائدة^(١)

قال القروطبي: هي منية بالإجماع. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: المائدة منية. وأخرج أحمد والنسائي وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن جبير بن نفير، قال: حجبت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير اقرأ المائدة؟ فقلت نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرّموه. وأخرج أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في سننه، عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح. وأخرج أحمد عنه قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها. قال ابن كثير: تقرّد به أحمد. قلت: وفي إسناده ابن لهيعة. وأخرج أحمد وعبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، والطبراني، وأبو نعيم في

(1) (تنبيه) جرى المفسر رحمه الله في ضبط الفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرضه للقراءات السبع وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني.

نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن التثكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا. قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يقال أوفى ووفى لغتان وقد جمع بينهما الشاعر فقال:

أما ابن طوف فقد أوفى بزمته كما وفى بقلاص النجم حادياً
والعقود: العقود، وأصل العقود الربوط، واحداً عقد، يقال عقدت الحبل والعهد، فهو يستعمل في الأجسام والمعاني، وإذا استعمل في المعاني كما هنا أفاد أنه شديد الإحكام، قويّ التوثيق؛ قيل المراد بالعقود هي التي عقدها الله على عباده والزمهم بها من الأحكام؛ وقيل هي العقود التي يعقودونها بينهم من عقود المعاملات والأولى شمول الآية للامرين جميعاً، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض. قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله عليكم وبعقدكم بعضكم على بعض انتهى. والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله، فإن خالفها فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل. قوله: ﴿احِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ الخطاب للذين آمنوا. والبهيمة: اسم لكل ذي أربع، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعقلها، ومنه باب مبهم: أي مغلق، وليل بهيم، وبهية للشجاع الذي لا يدرى من أين يؤتى، وحلقة مبهم: لا يدرى أين طرفاها. والأنعام: اسم للإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لما في مشيها من اللين؛ وقيل بهيمة الأنعام: وحشيها كالظباء وبقر الوحش والحمير الوحشية وغير ذلك، حكاه ابن جرير الطبري عن قوم، وحكاه غيره عن السدي والربيع وقتادة والضحاك. قال ابن عطية: وهذا قول حسن، وذلك أن الأنعام هي الثمانية الأزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له أنعام مجموعة معها، وكان المفترس كالأسد، وكل ذي ناب خارج عن حد الأنعام، فبهيمة الأنعام هي الراعي من نوات الأربع؛ وقيل بهيمة الأنعام: ما لم تكن صيداً، لأن الصيد يسمى وحشاً لا بهيمة؛ وقيل بهيمة الأنعام: الأجنة التي تخرج عند الذبح من بطون الأنعام، فهي تؤكل من دون نكاه. وعلى القول الأول، أعني تخصيص الأنعام بالإبل والبقر والغنم، تكون الإضافة بيانية، ويلحق بها ما يحل مما هو خارج عنها بالقياس، بل وبالنصوص التي في الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً﴾ [الأنعام، الآية: 145] الآية، وقوله ﷺ، «يحرم كل ذي ناب من السبع ومخلب من الطير»، فإنه يدل بمفهومه على أن ما عداه حلال، وكذلك سائر النصوص الخاصة بنوع، كما في كتب السنة المطهرة. قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ استثناء من قوله: ﴿احِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾، أي إلا ملول ما يتلى عليكم فإنه ليس بحلال. والمتلن: هو ما نص الله على تحريمه، نحو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمِيتَةُ﴾

الدلائل، والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده، والبخاري في معجمه، وابن مروي، والبيهقي في دلائل النبوة، عن أم عمرو بنت عيسى عن عمها نحوه أيضاً. وأخرج أبو عبيد، عن محمد بن كعب القرظي نحوه. وزاد أنها نزلت في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة. وهكذا أخرج ابن جرير، عن الربيع بن أنس بهذه الزيادة، وأخرج أبو عبيد، عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله ﷺ: «المائدة من آخر القرآن تنزيلاً، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها». وأخرج أبو داود والنحاس، كلاهما، في الناسخ عن أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل، قال: لم ينسخ من المائدة شيء. وكذا أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، عنه. وكذا أخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي. وكذا أخرجه عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر عن الحسن البصري. وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه، وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي قال: لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقُلُودَ﴾ [المائدة: 2]. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان، آية القلائد. وقوله: ﴿فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: 42]. وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ في خطبته سورة المائدة والتوبة، وذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: «لما رجع ﷺ من الحديبية قال: يا علي أشعرت أنها نزلت علي سورة المائدة؟ ونعمت الفائدة». قال ابن العربي هذا حديث موضوع لا يحل لمسلم اعتقاده، وقال ابن عطية هذا عندي لا يشبه كلام النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مِثْلِ الْحَبِيدِ وَأَنْتُمْ حُرٌّ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقُلُودَ وَلَا مَا بَيْنَ أَلَيْتِ الْحَرَامِ يَتَنَوَّنَ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَمَنْ كَانُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَيْئًا قَوْلِي أَنْ مَدَّكُمْ عَنِ السَّجْدِ لَكُمْ أَنْ تَمْدُدُوا وَمَا تَوْفَعُ الْكَلْبِ وَالْقَوَى وَلَا تَمَافُوا عَلَى الْأَيْدِ وَالْمَدْرَى وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

هذه الآية التي افتتح الله بها هذه السورة إلى قوله: ﴿إِنْ اللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها لأحكام عدة: منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما سيتلى مما لا يحل، ومنها تحريم الصيد على المحرم، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم. وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال:

[المائدة: 32] الآية، ويلحق به ما صرحت السنة بتحريمه، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به إلا ما يتلى عليكم الآن، ويحتمل أن يكون المراد به في مستقبل الزمان، فيدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، ويحتمل الأمرين جميعاً. قوله: ﴿غير محلي الصيد﴾ ذهب البصريون إلى أن قوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ استثناء من بهيمة الأنعام، وقوله: ﴿غير محلي الصيد﴾ استثناء آخر منه أيضاً، فالاستثناء أن جميعاً من بهيمة الأنعام، والتقدير: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد وأنتم محرمون؛ وقيل الاستثناء الأول من بهيمة الأنعام، والاستثناء الثاني هو من الاستثناء الأول، وردّ بأن هذا يستلزم إباحة الصيد في حال الإحرام، لأنه مستثنى من المحظور فيكون مباحاً، وأجاز الفراء أن يكون ﴿إلا ما يتلى﴾ في موضع رفع على البذل، ولا يجيزه البصريون إلا في النكرة وما قاربها من الأجناس. قال: وانتصاب ﴿غير محلي الصيد﴾ على الحال من قوله: ﴿أوفوا بالعقود﴾، وكذا قال الأخفش، وقال غيرهما: حال من الكاف والميم في ﴿لكم﴾ والتقدير: أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلي الصيد: أي الاصطياد في البرّ وأكل صيده، ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمة عملاً واعتقاداً وهم حرم: أي محرمون وجملة ﴿وأنتم حرم﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿محلي﴾، ومعنى هذا التقيد ظاهر عند من يخص بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التي يحلّ أكلها كأنه قال: أحلّ لكم صيد البرّ إلا في حال الإحرام؛ وأما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى: أحلت لكم بهيمة، هي الأنعام، حال تحريم الصيد عليكم بدخولكم في الإحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك، فيكون المراد بهذا التقيد الامتنان عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرّم عليهم في تلك الحال. والمراد بالحرم من هو محرّم بالحجّ أو العمرة أو بهما، وسمي محرماً لكونه يحرم عليه الصيد والطيب والنساء، وهكذا وجه تسمية الحرم محرماً، والإحرام إحراماً. وقرأ الحسن والنخعي ويحيى بن وثاب ﴿حرم﴾ بسكون الراء وهي لغة تميمية، يقولون في رسل رسل، وفي كتب كتب ونحو ذلك. قوله: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ من الأحكام المخالفة لما كانت العرب تعتاده، فهو مالك لكل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه. قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ الشعائر: جمع شعيرة على وزن فعيلة. قال ابن فارس: ويقال للواحدة شعارة وهو أحسن، ومنه الإشعار للهدى، والمشاعر: المعالم، واحداً مشعر، وهي المواضع التي قد أشعرت بالعلامات؛ قيل المراد بها هنا جميع مناسك الحج: وقيل الصفا والمروة، والهدي والبذل، والمعنى على هذين القولين: لا تحلوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشئ منها، أو بأن تحلوا بينها وبين من أراد فعلها، نكر سبحانه النهي عن أن يحلوا شعائر الله عقب نكره تحريم صيد المحرم؛ وقيل المراد بالشعائر هنا فرائض الله، ومنه ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾

[الحج: 32]؛ وقيل هي حرمت الله، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولا بما يدل عليه السياق. قوله: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ المراد به الجنس، فيدخل في ذلك جميع الأشهر الحرم وهي أربعة، نر القعدة، ونو الحجة ومحرّم، ووجب: أي لا تحلوا بالقتال فيها؛ وقيل المراد به هنا شهر الحج فقط. قوله: ﴿ولا الهدى﴾ هو ما يهدي إلى بيت الله من ناقه أو بقرة أو شاة، الواحدة هنية. نهام سبحانه عن أن يحلوا حرمة الهدى بأن يأخذوه على صاحبه أو يحولوا بينه وبين المكان الذي يهدي إليه، وعطف الهدى على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته والتشديد في شأنه. قوله: ﴿ولا القلائد﴾ جمع قلادة، وهي ما يقلد به الهدى من نعل أو نحوه. وإحلالها بأن تؤخذ غضباً، وفي النهي عن إحلال القلائد تأكيد للنهي عن إحلال الهدى؛ وقيل المراد بالقلائد المقلدات بها، ويكون عطفه على الهدى لزيادة التوصية بالهدى، والأول أولى؛ وقيل المراد بالقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمانة لهم، فهو على حذف مضاف: أي ولأصحاب القلائد. قوله: ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ أي: قاصديه من قوله أمت كذا: أي قصده. وقرأ الأعمش: ﴿ولا آمي البيت الحرام﴾ بالإضافة، والمعنى: لا تمنعوا من قصد البيت الحرام الحجّ أو عمرة أو ليسكن فيه؛ وقيل إن سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجون ويعتصرون ويهودون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فنزل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ إلى آخر الآية، فيكون ذلك منسوخاً بقوله: ﴿أقتلوا المشركين حيث وجئتموهم﴾ [التوبة: 5]، وقوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة: 28]، وقوله ﷺ: ﴿لا يحجّ بعد العام مشرك﴾، وقال قوم: الآية محكمة وهي في المسلمين. قوله: ﴿يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ جملة حالية من الضمير المستتر في ﴿أمين﴾ قال جمهور المفسرين: معناه يبتغون الفضل والأرباح في التجارة، ويبتغون مع ذلك رضوان الله، ويكون هذا الابتغاء للرضوان الله؛ وقيل كان منهم من يطلب التجارة، ومنهم من يبتغي بالحج رضوان الله، ويكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم، وفي ظنهم عند من جعل الآية في المشركين؛ وقيل المراد بالفضل هنا الثواب لا الأرباح في التجارة. قوله: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ هذا تصريح بما أفاده مفهوم ﴿وأنتم حرم﴾ إباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذي حرّم لأجله، وهو الإحرام. قوله: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم﴾ قال ابن فارس: جرم وأجرم ولا جرم بمعنى قولك لا بدّ ولا محالة، وأصلها من جرم أي كسب، وقيل المعنى: لا يحملنكم قاله الكسائي وثعلب، وهو يتعدى إلى مفعولين، يقال جرمني كذا على بغضك: أي حملني عليه ومنه قول الشاعر:

ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة جرمت فزاره بعدها أن يغضبوا
أي حملتهم على الغضب. وقال أبو عبيدة والفراء: معنى

وهو داخل تحت هذا النهي لصديق هذين النوعين على كل ما يوجد فيه معناهما، ثم أمر عباده بالتقوى وتوعد من خالف ما أمر به فتركه، أو خالف ما نهى عنه ففعله، بقوله: ﴿إِنْ أَنْتَ إِذْ جُرِمْتَ لَمْ تَكُنْ بِمُجْرِمٍ﴾.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: ما أحل الله وما حرّم، وما فرض وما حد في القرآن كله لا تغدروا ولا تنكثوا. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال: هي عقود الجاهلية الحلف. وروى عنه ابن جرير أنه قال: نكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «وأوفوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقداً في الإسلام». وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿وَلَحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ قال: الإبل والبقر والغنم. وأخرج ابن جرير عن ابن عمر في قوله: ﴿وَلَحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ قال: ما في بطونها، قلت: إن خرج ميتاً أكله؟ قال نعم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي، في شعب الإيمان، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ قال: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به إلى آخر الآية، فهذا ما حرّم الله من بهيمة الأنعام. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: كان المشركون يحجون البيت الحرام ويهدون الهدايا ويعظمون حرمة المشاعر وينحرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فقال الله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾. وفي قوله: ﴿وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ يعني: لا تستحلوا قتلاً فيه ﴿وَالْأَمِينُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ﴾ يعني: من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون جميعاً، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً حج البيت أو يعترضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعد هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: 28] وفي قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ يعني: أنهم يرضون الله بحجهم، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يقول: لا يحملنكم ﴿شَتَانُ قَوْمٍ﴾ يقول: عداوة قوم. ﴿وَتَعَانُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ قال: البر ما أمرت به، والتقوى ما نهيت عنه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: شعائر الله ما نهى الله عنه أن تصيبه وأنت محرم، والهدي: ما لم يقلد، والقلائد مقلدات الهدي ﴿وَالْأَمِينُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ﴾ يقول: من توجه حاجاً. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: مناسك الحج. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدمه المشركون عن البيت، وقد اشتدّ ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: نصدّ هؤلاء كما صدّنا أصحابنا، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ الآية. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه عن وابصة أن النبي ﷺ قال له: «البرّ

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الجور، والجريمة والجارم بمعنى الكاسب، ومنه قول الشاعر:

جريمة ناهض في رأس نيق يرى لعظام ما جمعت صليباً
معناه كاسب قوت. والصليب: الولك، ومنه قول الآخر:

يا أيها المشتكى عكلاً وما جرمت إلى القبائل من قتل وإيلاس
أي كسبت، والمعنى في الآية: لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم، أولاً يكسبنكم بغضهم اعتداءكم للحق إلى الباطل، ويقال جرم يجرم جرماً: إذا قطع. قال علي بن عيسى الرماني: وهو الأصل، فجرم بمعنى حمل على الشيء لقطعه من غيره، وجرم بمعنى كسب لانقطاعه إلى الكسب، ولا جرم بمعنى حق؛ لأن الحق يقطع عليه قال الخليل: معنى ﴿لَا جرم أن لهم النار﴾ [النحل: 62] لقد حق أن لهم النار. وقال الكسائي: جرم وأجرم لغتان بمعنى واحد: أي اكتسب. وقرأ ابن مسعود: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بضم الياء، والمعنى: لا يكسبنكم، ولا يعرف البصريون أجرم، وإنما يقولون جرم لا غير. والشتان: البغض. وقرئ بفتح النون وإسكانها، يقال شنيت الرجل أشنوه شناء ومشنة وشنأناً كل ذلك: إذا أبغضته، وشنآن هنا مضاف إلى المفعول: أي بغض قوم منكم لا بغض قوم لكم. قوله: ﴿إِنْ صَدُوكُمْ﴾ بفتح الهمزة مفعول لأجله. أي: لأن صدوكم. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهمزة على الشرطية، وهو اختيار أبي عبيد، وقرأ الأعمش: ﴿إِنْ يَصُدُّوكُمْ﴾ والمعنى على قراءة الشرطية: لا يحملنكم بغضهم إن وقع منهم الصدّ لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء عليهم. قال النحاس: وأما إن صدوكم بكسر إن، فالعلماء الجلة بالنحو والحديث والنظر، يمتنعون القراءة بها لأشياء: منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، وكان المشركون صدّوا المؤمنين عام الحديبية سنة ست، فالصد كان قبل الآية؛ وإذا قرئ بالكسر لم يجز أن يكون إلا بعده، كما تقول: لا تعط فلاناً شيئاً إن قاتلك، فهذا لا يكون إلا للمستقبل، وإن فتحت كان للماضي، وما أحسن هذا الكلام. وقد أنكر أبو حاتم وأبو عبيدة شأن بسكون النون. لأن المصادر إنما تأتي في مثل هذا متحركة، وخالفهما غيرهما فقال: ليس هذا مصدرأ، ولكنه اسم على وزن كسلان وغضبان. ولما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البرّ والتقوى: أي ليعن بعضكم بعضاً على ذلك، وهو يشمل كل أمر يصلى عليه أنه من البرّ والتقوى كائناً ما كان؛ قيل إن البرّ والتقوى لفظان بمعنى واحد، وكرر للتأكيد. وقال ابن عطية: إن البرّ يتناول الواجب والمنسوب، والتقوى تختص بالواجب، وقال الماوردي: إن في البرّ رضا الناس وفي التقوى رضا الله، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته ثم نهاهم سبحانه عن التعاون على الإثم والعدوان، فالإثم: كل فعل أو قول يوجب إثم فاعله أو قائله، والعدوان: التعدي على الناس بما فيه ظلم، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للإثم، ولا نوع من أنواع الظلم للناس الذين من جملتهم النفس، إلا

أدرك نكاته على ما روى عن ابن عمر، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأصحابه والثوري والشافعي، وخالفهم الشاميون في ذلك. قال الأوزاعي في المعارض: كله خرق أو لم يخرق، فقد كان أبو الدرداء وفضالة بن عبيد وعبد الله بن عمر ومكحول لا يرون به بأساً. قال ابن عبد البر: هكذا نكر الأوزاعي عن عبد الله بن عمر، والمعروف عن ابن عمر ما نكر مالك عن نافع، قال: والأصل في هذا الباب والذي عليه العمل وفيه الحجة، حديث عدي بن حاتم، وفيه: «ما أصاب بعرضه فلا تكل فإنه وقيد»، انتهى.

قلت: والحديث في الصحيحين وغيرهما عن عديّ قال: «قلت يا رسول الله إنني أرمي بالمعراض الصيد، فأصيب فقال: إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصاب بعرضه، فإنما هو وقيد فلا تاكله». فقد اعتبر ﷺ الخرق وعدمه، فالحق: أنه لا يحلّ إلا ما خرق لا ما صدم، فلا بد التذكية قبل الموت وإلا كان وقيداً. وأما البنائق المعروفة الآن: وهي بنائق الحديد التي تجعل فيها البارود والرصاص ويرمي بها، فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها، فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المائة العاشرة من الهجرة، وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تنكيته حياً، والذي يظهر لي أنه حلال؛ لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح السابق: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله»، فاعتبر الخرق في تحليل الصيد. قوله: «والمعترضة» هي التي تتردى من علو إلى أسفل فتموت، من غير فرق بين أن تتردى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها، والتردي مأخوذ من الردى وهو الهلاك، وسواء تردت بنفسها أو ردها غيرها. قوله: «والنطيحة» هي فعلية بمعنى مفعولة، وهي التي تنطحها أخرى فتموت من دون تنكية. وقال قوم أيضاً: فعلية بمعنى فاعلة، لأن الدابتين تتناطحان فتموتان، وقال: نطيحة ولم يقل تنطيع مع أنه قياس فاعيل، لأن لزوم الحذف مختص بما كان من هذا الباب صفة لموصوف مذكور فإن لم يذكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية. وقرأ أبو ميسرة «والمنطوحة». قوله: «وما أكل السبع» أي: ما افترسه نو ناب كالأسد والنمر والنثب والضبغ ونحوها، والمراد هنا ما أكل منه السبع، لأن ما أكله السبع كله قد فنى، ومن العرب من يخص اسم السبع بالأسد، وكانت العرب إذا أكل السبع شاة، ثم خلصوها منه أكلوها، وإن ماتت ولم يذكوها. وقرأ الحسن وأبو حيوة «السبع» بسكون الباء، وهي لغة لأهل نجد، ومنه قول حسان في عتبة بن أبي لهب

من يرجع العلم إلى أهله فما أكمل السبع بالراجح
وقرأ ابن مسعود «واكلة السبع». وقرأ ابن عباس: «واكيل
السبع». قوله: ﴿إِلَّا مَا نَكَيْتُمْ﴾ في محل نصب على
الاستثناء المتصل عند الجمهور، وهو راجع على ما أنكرت
نكاته من المنكرات سابقاً، وفيه حياة، وقال المدنيون: وهو

ما اطمأن إلى القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك». وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد، والبخاري، في الأب، ومسلم والترمذي والحاكم والبيهقي، عن النّوّاس بن سميّان قال: سألت النبي ﷺ عن البرّ والإثم، فقال: «البرّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس». وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي أمامة، أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الإثم، فقال: «ما حاك في نفسك فدعه. قال فما الإيمان؟ قال: من ساءته سيئته، وسرته حسنته، فهو مؤمن».

حَرَمْتُ عَلَيْكُمُ السَّيِّئَةَ وَالذَّمَّ وَلَتَمُ الْخِزِيرُ وَمَا أَيْلَ لَعْنِ اللَّهِ بِهِ وَالسَّخِيفَةَ
وَالْمُرْقُودَةَ وَالْمَرْدِيَّةَ وَالنَّارِيضَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبَحَ عَلَى
النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَى ذَلِكُمْ فُسْخُ الْيَوْمِ بِئْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
وَبَيْنَكُمْ فَلَا غُفُورَ لَكُمْ وَأَعْمَدُوا الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْسَتْ عَلَيْكُمْ بَعْثِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾

هذا شروع في المحرمات التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. والميتة قد تقدّم نكرها في البقرة، وكذلك الدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، وما هنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحاً كما تقدّم، حملاً للمطلق على المقيد، وقد ورد في السنة تخصيص الميتة بقوله ﷺ: «أَهْلٌ لَنَا مِيتَتَانِ وَبِئْسَانِ، فَمَا الْمِيتَتَانِ فَالْحَوْتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَا الْبِئْسَانُ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»، أخرجه الشافعي، وأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وفي إسناده يقال، ويؤيِّيه حديث: «هُوَ الطَّهْوَرُ مَأْزُهُ وَالْحَلْ مِيتَتُهُ»، وهو عند أحمد وأهل السنن، وغيرهم، وصححه جماعة منهم ابن خزيمة وابن حبان، وقد أطلنا الكلام عليه في شرحنا للمنتقى. والإهلال رفع الصوت لغير الله، كأن يقول: بسم اللات والعزى ونحو ذلك، ولا حاجة بنا هنا إلى تكرير ما قد أسلفناه، ففيه ما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿وَالْمُنْخَنَقَةُ﴾ هي التي تموت بالخنق: وهو حبس النفس، سواء كان ذلك بفعلها كأن تدخل رأسها في حبل أو بين عودين، أو بفعل آدمي أو غيره، وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة، فإذا ماتت أكلوها. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ هي التي تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تنكية، يقال وقذه يقذه وقذا فهو وقيد، والوقذ شدة الضرب، وفلان وقيد: أي مثخن ضرباً، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فيضربون الأنعام بالخشب لأكلتهم حتى تموت ثم ياكلونها، ومنه قول الفرزدق:

شغارة تقذ الفصيل برجلها فطارة لقوام الاظفار
قال ابن عبد البر: واختلف العلماء قديماً وحديثاً في
الصيد بالبنق والحجر والمعرض، ويعني بالبنق: قوس
البنقة، وبالمعرض: السهم الذي لا ريش له. أو العصا التي
رأسها محند، قال: فمن ذهب إلى أنه وقيد لم يحزه إلا ما

المشهور من مذهب مالك، وهو أحد قولي الشافعي أنه: إذا بلغ السبع منها إلى ما لا حياة معه فإنها لا تؤكل. وحكاها في الموطأ عن زيد بن ثابت، وإليه ذهب إسماعيل القاضي، فيكون الاستثناء على هذا القول منقطعاً: أي حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما نكيتم فهو الذي يحل ولا يحرم، والأول أولى. والنكاة في كلام العرب الذبح، قاله قطرب وغيره. وأصل النكاة في اللغة: التمام: أي تمام استكمال القوة، والنكاء حدة القلب، والنكاء سرعة الفطنة، والنكوة ما تنكى منه النار، ومنه أنكيت الحرب والنار: أوقنتهما، ونكاء اسم الشمس والمراد هنا: إلا ما أنركتم نكاته على التمام، والتذكية في الشرع: عبارة عن إنباء الدم، وفري الأوداج في المنبوح، والنحر في المنحور، والعقر في غير المقدور مقروناً بالقصد لله، ونكر اسمه عليه. وأما الآلة التي تقع بها النكاة، فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم. وفري الأوداج فهو آلة للنكاة ما خلا السن والعظم، وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة. قوله: ﴿وَمَا نَبِجَ عَلَى النَّصَبِ﴾ قال ابن فارس: النصب حجر كان ينصب فيعبد ويصحب عليه دماء الذبائح، والنصائب حجارة تنصب حوالى شفير البئر، فتجعل عضائد. وقيل النصب: جمع واحد نصاب، كحمار وحمر. وقرأ طلحة بضم النون وسكون الصاد. وروى عن أبي عمرو بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ الجحدري بفتح النون والصاد، جعله اسماً موحداً كالجبل والجمل، والجمع أنصاب كالأجبال والإجمال، قال مجاهد: هي حجارة كانت حوالى مكة ينبحون عليها قال ابن جريج: كانت العرب تنبج بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي ﷺ: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال، فأنزل الله ﴿وَمَا نَبِجَ عَلَى النَّصَبِ﴾ والمعنى: والنية بذلك تعظيم النصب لا أن النبج عليها غير جائز، ولهذا قيل إن ﴿على﴾ بمعنى اللام: أي لأجلها. قاله قطرب، وهو على هذا داخل فيما أهل به لغير الله، وخص بالذكر لتأكيد تحريمه، ولنفخ ما كانوا يظنونونه من أن ذلك لتشريف البيت وتعظيمه. قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ معطوف على ما قبله: أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، وقداح الميسر واحداً زلم، قال الشاعر:

المشهور من مذهب مالك، وهو أحد قولي الشافعي أنه: إذا بلغ السبع منها إلى ما لا حياة معه فإنها لا تؤكل. وحكاها في الموطأ عن زيد بن ثابت، وإليه ذهب إسماعيل القاضي، فيكون الاستثناء على هذا القول منقطعاً: أي حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما نكيتم فهو الذي يحل ولا يحرم، والأول أولى. والنكاة في كلام العرب الذبح، قاله قطرب وغيره. وأصل النكاة في اللغة: التمام: أي تمام استكمال القوة، والنكاء حدة القلب، والنكاء سرعة الفطنة، والنكوة ما تنكى منه النار، ومنه أنكيت الحرب والنار: أوقنتهما، ونكاء اسم الشمس والمراد هنا: إلا ما أنركتم نكاته على التمام، والتذكية في الشرع: عبارة عن إنباء الدم، وفري الأوداج في المنبوح، والنحر في المنحور، والعقر في غير المقدور مقروناً بالقصد لله، ونكر اسمه عليه. وأما الآلة التي تقع بها النكاة، فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم. وفري الأوداج فهو آلة للنكاة ما خلا السن والعظم، وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة. قوله: ﴿وَمَا نَبِجَ عَلَى النَّصَبِ﴾ قال ابن فارس: النصب حجر كان ينصب فيعبد ويصحب عليه دماء الذبائح، والنصائب حجارة تنصب حوالى شفير البئر، فتجعل عضائد. وقيل النصب: جمع واحد نصاب، كحمار وحمر. وقرأ طلحة بضم النون وسكون الصاد. وروى عن أبي عمرو بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ الجحدري بفتح النون والصاد، جعله اسماً موحداً كالجبل والجمل، والجمع أنصاب كالأجبال والإجمال، قال مجاهد: هي حجارة كانت حوالى مكة ينبحون عليها قال ابن جريج: كانت العرب تنبج بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي ﷺ: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال، فأنزل الله ﴿وَمَا نَبِجَ عَلَى النَّصَبِ﴾ والمعنى: والنية بذلك تعظيم النصب لا أن النبج عليها غير جائز، ولهذا قيل إن ﴿على﴾ بمعنى اللام: أي لأجلها. قاله قطرب، وهو على هذا داخل فيما أهل به لغير الله، وخص بالذكر لتأكيد تحريمه، ولنفخ ما كانوا يظنونونه من أن ذلك لتشريف البيت وتعظيمه. قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ معطوف على ما قبله: أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، وقداح الميسر واحداً زلم، قال الشاعر:

بات يقاسيها غلام كلزم ليس براعي إيل ولا غنم ولا بجزار على لحم وضم

وقال آخر:

فلئن جنيمة قتلت ساداتها فنساؤها يضربن بالأزلام والأزلام للعرب ثلاثة أنواع: أحدها مكتوب فيه أفعول، والآخر مكتوب فيه لا تفعل، والثالث مهمل لا شيء عليه، فيجعلها في خريطة معه، فإذا أراد فعل شيء، أدخل يده وهي متشابهة فاخرج واحداً منها، فلن خرج الأول: فعل ما عزم عليه، وإن خرج الثاني: تركه، وإن خرج الثالث: أعاد الضرب حتى يخرج واحد من الأولين. وإنما قيل لهذا الفعل

استقسام؛ لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق، وما يريدون فعله، كما يقال استسقى: أي استدعى السقي، فالاستقسام: طلب القسم والتصيب. وجملة قداح الميسر عشرة، وقد قنمنا بيانها، وكانوا يضربون بها في المقامرة، وقيل إن الأزلام كعاب فارس والروم التي يتقمارون بها، وقيل هي الشطرنج، وإنما حرم الله الاستقسام بالأزلام؛ لأنه تعرض لدعوى علم الغيب، وضرب من الكهانة. قوله: ﴿فَلَكُمْ فُسُقٍ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا. والفسق: الخروج عن الحد، وقد تقدم بيان معناه، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن الفسق هو أشد الكفر، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه: منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر. قوله: ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ نَيْبِكُمْ﴾ المراد: اليوم الذي نزلت فيه الآية، وهو يوم فتح مكة، لثمان بقين من رمضان، سنة تسع وقيل، سنة ثمان؛ وقيل المراد باليوم: الزمان الحاضر وما يتصل به، ولم يرد يوماً معيناً. وينس في لغتان ييس بيامين يأساً، وأيس يائس يأساً وإياساً. قاله النضر بن شميل: أي حصل لهم اليأس من إبطال دينكم وأن يرونكم إلى دينهم كما كانوا يزعمون ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: لا تخافوا منهم أن يغلبوك أو يبتلوا دينكم ﴿وَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فانا القادر على كل شيء إن نصرتمكم. فلا غالب لكم، وإن خذلتكم لم يستطع غيري أن ينصركم. قوله: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ جعلته كاملاً غير محتاج إلى إكمال؛ لظهوره على الأنيان كلها وغلبته لها، ولكمال أحكامه التي يحتاج المسلمون إليها من الحلال والحرام والمشتبه، ووفى ما تضمنه الكتاب والسنة من ذلك، ولا يخفى ما يستفاد من تقديم قوله: ﴿لَكُمْ﴾ قال الجمهور المراد بالإكمال هنا: نزول معظم الفرائض والتحليل والتحريم. قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية الربا وآية الكلاله ونحوهما. والمراد باليوم المذكور هنا هو يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، هكذا ثبت في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب؛ وقيل: إنها نزلت في يوم الحج الأكبر. قوله: ﴿وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بإكمال الدين المشتغل على الأحكام، وفتح مكة وقهر الكفار، وإياسهم عن الظهور عليكم، كما وعدتكم بقولي: ﴿وَأَتَمْتُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 150] قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: أخبرتكم برضائي به لكم، فإنه سبحانه لم يزل راضياً لامة نبيه ﷺ بالإسلام، فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره، ويحتمل أن يريد رضى لكم الإسلام الذي أنتم عليه اليوم دينا باقياً إلى انقضاء أيام الدنيا. ودينا منتصب على التمييز، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً. قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ هذا متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض: أي من دعت الضرورة ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي: مجاعة إلى أكل الميتة وما بعدها من المحرمات. والخمص: ضمور البطن، ورجل خميص وخمضان، وامرأة

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مروي، والحاكم وصححه، عن أبي أمامة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله، وأعرض عليهم شعائر الإسلام، فبينما نحن كذلك، إذ جاؤوا بقصعة دم واجتمعوا عليها ياكلونها، قالوا: هلم يا صدي فكل قلت: ويحكم إنما تبيتكم من عند من يحرم هذا عليكم، لما أنزل الله عليه، قالوا: وما ذلك؟ قال: فتلوت عليهم هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ اللَّمِيتَةُ﴾ وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَهْلُ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ قال: وما أهل للطواغيت به: ﴿وَالْمُنْخَنَقَةُ﴾ التي تخنق فتموت ﴿وَالْمُوقُوذَةُ﴾ قال: التي تضرب بالخشب فتموت، ﴿وَالْمُتْرِبَةُ﴾ قال: التي تتردى من الجبل فتموت، ﴿وَالْمُظْلِجَةُ﴾ قال: الشاة التي تنطح الشاة، ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ يقول: ما أخذ السبع، ﴿إِلَّا مَا كَتَبْتُمْ﴾ يقول: نبحتم من ذلك، وبه روح فكلوه. ﴿وَمَا نَجَّحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ قال: النصب أنصاب كانوا يذبحون ويهللون عليها: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: هي القداح كانوا يستقسمون بها في الأمور، ﴿فَإِنَّكُمْ فَسُقَ﴾ يعني: من أكل ذلك كله فهو فسق. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الرداءة التي تتردى في البئر، والمتربة التي تتردى من الجبل. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: حصى بيض كانوا يضربون بها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن الحسن في الآية قال: كنوا إذا أراؤا أمراً أو سفيراً يعملون إلى قداح ثلاثة، يكتبون على واحد منها: أمرني، وعلى الآخر: نهاني، ويتركون الثالث مخللاً بينهما ليس عليه شيء ثم يجبلونها، فإن خرج الذي عليه: أمرني مضوا لأمرهم، وإن خرج الذي عليه: نهاني كفوا، وإن خرج الذي: ليس عليه شيء أعادوها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿الْيَوْمَ يَثْسُ الْغَنُّ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قال: يشبوا أن يرجعوا إلى دينهم أبداً. وأخرج البيهقي عنه في الآية قال: يقول يثس أهل مكة أن يرجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبداً. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ في اتباع محمد ﴿وَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ في عبادة الأوثان وتكذيب محمد قلما كان واقفاً بعرفات، نزل عليه جبريل وهو راقع بديه،

أبي وقاص، وأبي هريرة وعبد الله بن عمر، وروي عن علي، وابن عباس والحسن البصري، والزهري وربيعة، ومالك، والشافعي في القديم، أنه يؤكل صيده، ويرد عليهم قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم ونكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك» وهو في الصحيحين وغيرهما، وفي لفظ لهما: «فإن أكل فلا تاكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه». وأما ما أخرجه أبو داود بإسناد جيد من حديث أبي ثعلبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلت كلبك المعلم ونكرت اسم الله فكل وإن أكل منه». وقد أخرجه أيضاً بإسناد جيد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وأخرجه أيضاً النسائي، فقد جمع بعض الشافعية بين هذه الأحاديث بأنه إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم؛ لحديث عدي بن حاتم، وإن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار وجاع فاكل من الصيد لجوعه لا لكونه أمسكه على نفسه فإنه لا يؤثر ذلك ولا يحرم به الصيد، وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني، وحديث عمرو بن شعيب، وهذا جمع حسن. وقال آخرون: إنه إذا أكل الكلب منه حرم لحديث عدي، وإن أكل غيره لم يحرم للحديثين الآخرين؛ وقيل: يحمل حديث أبي ثعلبة على ما إذا أمسكه وخلاه، ثم عاد فاكل منه.

وقد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح، ولم يسلكوا طريق الجمع لما فيها من البعد، قالوا: وحديث عدي بن حاتم أرجح لكونه في الصحيحين. وقد قررت هذا المسلك في شرحي للمتنقي بما يزيد الناظر فيه بصيرة. قوله: ﴿وَأَنذَرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الضمير في ﴿عليه﴾ يعود إلى ﴿مِمَّا عَلِمْتُمْ﴾ أي: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن عليكم أي سموا عليه إذا أربتم نكاته. وقد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجارح، واستدلوا بهذه الآية، ويؤيده حديث عدي بن حاتم الثابت في الصحيحين، وغيرهما بلفظ: «إذا أرسلت كلبك فانكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فانكر اسم الله». وقال بعض أهل العلم: إن المراد التسمية عند الأكل. قال القرطبي: وهو الأظهر، واستدلوا بالأحاديث التي فيها الإرشاد إلى التسمية وهذا خطأ، فإن النبي ﷺ قد وقت التسمية بإرسال الكلب وإرسال السهم، ومشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر، ومسألة غير هذه المسألة، فلا وجه لحمل ما ورد في الكتاب والسنة هنا على ما ورد في التسمية عند الأكل، ولا ملجئ إلى ذلك، وفي لفظ في الصحيحين من حديث عدي: «إن أرسلت كلبك وسميت فأكذ فكل». وقد ذهب جماعة إلى أن التسمية شرط وذهب آخرون إلى أنها سنة فقط، وذهب جماعة إلى أنها شرط على الذكور لا النسائي، وهذا أقوى الأقوال وأرجحها. قوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: حسابه سبحانه سريع إتيانه وكل أت قريب. قوله: ﴿الْيَوْمَ أَحْلَ لَكُمْ لَطِيبَاتٍ﴾ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى، وهي قوله: ﴿أَحْلَ لَكُمْ لَطِيبَاتٍ﴾ وقد تقدّم بيان الطيبات. قوله:

الأكل من الجوارح: أي الكواشب من الكلاب وسباع الطير. قال: أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود، وعلمه مسلم، ولم ياكل من صيده الذي صاده وأثر فيه بجرح أو تنبيب، وصاد به مسلم ونكر اسم الله عند إرساله، أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف، فإن انخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف، فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالقهد وما أشبهه، وكالبازي والصقر ونحوهما من الطير، فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جازح كاسب، يقال جرح فلان واجترح: إذا اكتسب، ومنه الجارحة لأنه يكتسب بها، ومنه اجتراح السيئات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60]. وقوله: ﴿مِمَّا حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية: 21]. قوله: ﴿مَكْلَبِينَ﴾ حال، والمكلب: معلم الكلاب لكيفية الاصطياد، والأخص معلم الكلاب، وإن كان معلم سائر الجوارح مثله، لأن الاصطياد بالكلاب هو الغالب، ولم يكتف بقوله: ﴿مِمَّا عَلِمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ مع أن التكليب هو التعليم، لقصد التأكيد لما لا بد منه من التعليم؛ وقيل: إن السبع يسمى كلباً فيدخل كل سبع يصاد به؛ وقيل: إن هذه الآية خاصة بالكلاب. وقد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال: ما يصاد بالبزة وغيرها من الطير، فما أتركت نكاته فهو لك حلال، وإلا فلا تطعمه. قال ابن المنذر: وسئل أبو جعفر عن البازي هل يحل صيده؟ قال لا، إلا أن تترك نكاته. وقال الضحاک والسدي: ﴿مِمَّا عَلِمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مَكْلَبِينَ﴾ هي الكلاب خاصة، فإن كان الكلب الأسود بهيماً: فكره صيده الحسن وقتاده والنخعي. وقال أحمد: ما أعرف أحداً يرخص فيه إذا كان بهيماً، وبه قال ابن راهويه. فأما عامة أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلم، واحتج من منع من صيد الكلب الأسود بقوله ﷺ: «الكلب الأسود شيطان». أخرجه مسلم وغيره، والحق أنه يحل صيد كل ما يدخل تحت عموم الجوارح من غير فرق بين الكلب وغيره، وبين الأسود من الكلاب وغيره وبين الطير وغيره، ويؤيد هذا أن سبب نزول الآية: سؤال عدي بن حاتم عن صيد البازي كما سيأتي. قوله: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلِمَكُمُ اللَّهُ﴾ الجملة في محل نصب على الحال: أي مما علمكم الله مما أتركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذي تهتدون به إلى تعليمها وتدريبها، حتى تصير قابلة لإمساك الصيد عند إرسالكم لها. قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الفاء للتفريع، والجملة متفرعة على ما تقدّم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح، ومن في قوله: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ للتبويض، لأن بعض الصيد لا يؤكل كالجلد والعظم وما أكله الكلب ونحوه، وفيه دليل على أنه لا بد أن يمسه على صاحبه، فإن أكل منه فإنما أمسكه على نفسه كما في الحديث الثابت في الصحيح. وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يحل أكل الصيد الذي يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال. وقال عطاء بن أبي رباح والأوزاعي: وهو مروى عن سلمان الفارسي، وسعد بن

للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من ثباتهم، وهذا من باب المكافأة والمجازاة، وإخبار المسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعراض الطعام حلال لهم بطريق الدلالة الالتزامية. قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ اختلف في تفسير المحصنات هنا، فقليل العفاف، وقيل الحرائر. وقرأ الشعبي بكسر الصاد، وبه قرأ الكسائي. وقد تقدّم الكلام في هذا مستوفي في البقرة والنساء. والمحصنات مبتدأ، ومن المؤمنات وصف له والخبر محذوف أي حل لكم، وذكرهن هنا توطئة وتمهيداً لقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ والمراد بهنّ الحرائر دون الإماء، هكذا قال الجمهور، وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعم كل كتابية حرة أو أمة؛ وقيل المراد بأهل الكتاب هنا الإسرائيليات، وبه قال الشافعي، وهو تخصيص بغير مخصص. وقال عبد الله بن عمر: لا تحلّ النصرانية، قال: ولا أعلم شركاً أكبر من أن تقول ربها عيسى، وقد قال الله ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: 221] الآية، ويجاب عنه بأن هذه الآية مخصصة للكتابيات من عموم المشركات فيبينى العام على الخاص. وقد استدل من حرم نكاح الإماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر، ويقول تعالى ﴿فَمَنْ مَا مَلَكَتْ إيمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: 25] وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم وخالفهم من قال: إن الآية تعم أو تخصّ العفاف كما تقدّم. والحاصل أنه يدخل تحت هذه الآية الحرة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال، إلا على قول ابن عمر في النصرانية، ويدخل تحتها الحرة التي ليست بعفيفة والأمة العفيفة، على قول من يقول إنه يجوز استعمال المشرك في كلا معنييه، وأما من لم يجوز ذلك فإن حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة عفيفة كانت أو غير عفيفة إلا لبليل آخر، ويقول بجواز نكاح الحرة العفيفة كانت أو غير عفيفة، وإن حمل المحصنات هنا على العفاف قال بجواز نكاح الحرة العفيفة والأمة العفيفة دون غير العفيفة منهما. قوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهرهنّ، وجواب إذا محذوف: أي فهنّ حلال، أو هي ظرف لخبر المحصنات المقدر: أي حل لكم قوله: ﴿مُحْصَنِينَ﴾ منصوب على الحال: أي حال كونكم أعماء بالنكاح، وكذا قوله: ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ منصوب على الحال من الضمير في محصنين، أو صفة لمحصنين، والمعنى: غير مجاهرين بالزنا. قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا لَخْدَانٍ﴾ معطوف على ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ أو على ﴿مُسَافِحِينَ﴾. ﴿وَلَا﴾ مزيدة للتأكيد، والخدن يقع على الذكر والأنثى: أي لم يتخذوا معشوقات، فقد شرط الله في الرجال العفة، وعدم المجاهرة بالزنا، وعدم اتخاذ خدان، كما شرط في النساء أن يكنّ محصنات ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: بشرائع الإسلام، ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي: بطل، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقرأ ابن السميع «فقد حبط» بفتح الباء اهـ.

﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾ الطعام: اسم لما يؤكل، ومنه الذبائح، وذهب أكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالذبائح. وفي هذه الآية دليل على أن جميع طعام أهل الكتب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وإن كانوا لا يذكرون على ثباتهم اسم الله، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 121]. وظاهر هذا أن ذبائح أهل الكتاب حلال، وإن نكر اليهودي على ذبيحته اسم عزيز، ونكر النصراني على ذبيحته اسم المسيح. وإليه ذهب أبو اللرداء وعبادة بن الصامت، وابن عباس والزهري وربيعة، والشعبي ومكحول. وقال عليّ وعائشة وابن عمر: إذا سمعت الكتابي يسمى غير الله فلا تأكل، وهو قول طاوس والحسن، وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 121] ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿وَمَا أَهْلٌ لغير الله به﴾ [المائدة: 3] وقال مالك: إنه يكره ولا يحرم. فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب نكروا على ثباتهم اسم غير الله، وأما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبري وابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التي أهدتها إليه اليهودية، وهو في الصحيح، وكذلك الجراب النشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر، وعلم بذلك النبي ﷺ، وهو في الصحيح، أيضاً وغير ذلك. والمراد بأهل الكتاب هنا لليهود والنصارى. وأما المجوس، فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نسائهم؛ لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم، وخالف في ذلك أبو ثور، وأنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال أحمد ابن حنبل: أبو ثور كاسمه، يعني في هذه المسئلة، وكأنه تمسك بما يروي عن النبي ﷺ مرسلأ أنه قال في المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»، ولم يثبت بهذا اللفظ، وعلى فرض أن له أصلاً، ففيه زيادة تدفع ما قال، وهي قوله غير أكل ذبائحهم، ولا ناكحي نسائهم. وقد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة لهم بفنّ الحديث من المفسرين والفقهاء، ولم يثبت الأصل ولا الزيادة، بل الذي ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وأما بنو تغلب، فكان علي بن أبي طالب ينهى عن ذبائحهم لأنهم عرب، وكان يقول: إنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر، وهكذا سائر العرب المنتصرة، كنتوخ وجذام ولخم وعاملة، ومن أشبههم. قال ابن كثير: وهو قول غير واحد من السلف والخلف. وروي عن سعيد بن المسيب والحسن البصري، إنهما كانا لا يريان بأساً بذبائح نصارى بني تغلب. وقال القرطبي: وقال جمهور الأمة إن ذبيحة كل نصراني حلال، سواء كان من بني تغلب أو من غيرهم، وكذلك اليهود. قال: ولا خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج إلى نكاة كالطعام يجوز أكله. قوله: ﴿وَطَعَامَكُمْ حَلَّ لَكُمْ﴾ أي: وطعام المسلمين حلال لأهل الكتاب، وفيه دليل على أنه يجوز

يُؤْيُوكُمْ وَأَيَّدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَكُمْ تَكُونُوا ①

قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ إذا أريتم القيام تعبيراً بالمسبب عن السبب، كما في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: 98]. وقد اختلف أهل العلم في هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة، فقالت طائفة: هو عام في كل قيام إليها، سواء كان القائم متطهراً أو محدثاً، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ، وهو مروى عن علي وعكرمة. وقال ابن سيرين: كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة. وقالت طائفة أخرى: إن هذا الأمر خاص بالنبي ﷺ وهو ضعيف، فإن الخطاب للمؤمنين والأمر لهم. وقالت طائفة: الأمر للندب طلباً للفضل. وقال آخرون: إن الوضوء لكل صلاة كان فرضاً عليهم بهذه الآية، ثم نسخ في فتح مكة. وقال جماعة: هذا الأمر خاص بمن كان محدثاً. وقال آخرون: المراد إذا قمتُم من النوم إلى الصلاة، فيعمُّ الخطاب كل قائم من نوم. وقد أخرج مسلم، وأحمد وأهل السنن عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح، توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله، فقال: عمداً فعلته يا عمر، وهو مروى من طرق كثيرة بالفاظ متفقة في المعنى. وأخرج البخاري وأحمد، وأهل السنن، عن عمرو بن عامر الأنصاري سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث، فتقرر بما نكر أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث، وبه قال جمهور أهل العلم وهو الحق. قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الوجه في اللغة مأخوذ من المواجهة، وهو عضو مشتمل على أعضاء، وله طول وعرض، فحده في الطول: من مبتدئ سطح الجبهة إلى منتهى اللحيين، وفي العرض: من الأذن إلى الأذن، وقد ورد الدليل بتخلييل اللحية. واختلف العلماء في غسل ما استرسل، والكلام في ذلك مبسوط في مواطنه. وقد اختلف أهل العلم أيضاً: هل يعتبر في الغسل النلك باليد أم يكفي إمرار الماء، والخلاف في ذلك معروف، والمرجع اللغة العربية، فإن ثبت فيها أن النلك داخل في مسمى الغسل، كان معتبراً، وإلا فلا. قال في شمس العلوم: غسل الشيء غسلاً: إذا أجري عليه الماء ولكنه انتهى. وأما المضمضة والاستنشاق، فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم والأنف، فقد ثبت غسلها بالسنة الصحيحة، والخلاف في الوجوب وعدمه معروف، وقد أوضحنا ما هو الحق في مؤلفاتنا. قوله: ﴿وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى اللغاية، وأما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فمحل خلاف. وقد ذهب سيبويه وجماعة إلى أن ما بعدها إن كان من نوع ما قبلها نخل وإلا فلا؛ وقيل إنها هنا بمعنى مع. وذهب قوم إلى أنها تفيد الغاية مطلقاً، وأما الدخول وعدمه فأمر يدور مع الدليل. وقد ذهب الجمهور إلى أن المرافق تغسل، واستدلوا بما

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن أبي رافع: أن النبي ﷺ أمره بقتل الكلاب في الناس، فقالوا: يا رسول الله ماذا يحد لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه. وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب القرظي نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: أن عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائفين، سالا رسول الله ﷺ، فقالا يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبراة، فنزلت. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي: أن عدي بن حاتم الطائي أتى رسول الله ﷺ فسأله، فنكر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال: هي الكلاب المعلمة، والبازي والجوارح يعني: الكلاب والفهود والصقور وأشباهها. وأخرج ابن جرير عنه قال: آية المعلم أن يمسك صيده فلا ياكل منه حتى يأتي صاحبه. وأخرج عنه أيضاً قال: إذا أكل الكلب فلا تاكل، فلئما أمسك على نفسه. وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه، وإذا أكل الصقر فلا تاكل، لأن الكلب تستطيع أن تضر به، والصقر لا تستطيع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عنه في قوله: ﴿وَوُطْعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال: ذبائحهم، وفي قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: حل لكم ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ لِجُورِهِنَّ﴾ يعني: مهورهن ﴿مُحْصَنِينَ﴾ يعني: تنكحونهن بالمهر والبينة ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ غير متغالين بالزنا ﴿وَلَا مُتَخَذِي لُحْدَانٍ﴾ يعني: يسرن بالزنا. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال: أحل الله لنا محصنتين: محصنة مؤمنة، ومحصنة من أهل الكتاب. نسألنا عليهم حرام، ونسأؤهم لنا حلال. وأخرج ابن جرير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «فتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا». وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عمر بن الخطاب قال: المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: إنما أحلت ذبائح اليهود والنصارى من أجل أنهم آمنوا بالتوراة والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال الحرائر. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: العفاف.

يَتَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا

يجزئ مسحهما؛ لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطئ ما أخطأ، فلو كان مجزئاً لما قال «ويل للأعقاب من النار»، وقد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ وغسل رجليه: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به. وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره: أن رجلاً توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له: أرجع فأحسن وضوءك. وأما المسح على الخفين، فهو ثابت بالأحاديث المتواترة. وقوله: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الكلام فيه كاللحم في قوله: ﴿إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ﴾. وقد قيل: في وجه جمع المرفق وتثنية الكعب إنه لما كان في كل رجل كعبان ولم يكن في كل يد إلا مرفق واحد ثنيت الكعب تنبيهاً، على أن لكل رجل كعبين، بخلاف المرفق فإنها جمعت لأنه لما كان في كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره، نكر معنى هذا ابن عطية. وقال الكواشي: ثنى الكعبين وجمع المرفق لنفي توهم أن في كل وحدة أمن الرجلين كعبين، وإنما في كل واحدة كعب واحد، له طرفان من جانبي الرجل، بخلاف المرفق فهي أبعد عن الوهم انتهى.

وبقي من فرائض الوضوء النية والتسمية ولم يذكر في هذه الآية، بل وردت بهما السنة؛ وقيل إن في هذه الآية ما يدل على النية، لأنه لما قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ كان تقدير الكلام: فاغسلوا وجوهكم لها، وذلك هو النية المعتبرة. قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا﴾ أي فاغتسلوا بالماء. وقد ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود إلى أن الجنب لا يتيمم البتة بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالاً بهذه الآية، وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنب مع عدم الماء، وهذه الآية هي للواجد، على أن التطهر هو أعم من الحصول بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه، وهو التراب. وقد صَحَّ عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور، للأحاديث الصحيحة الواردة في تيمم الجنب، مع عدم الماء. وقد تقدّم تفسير الجنب في النساء. قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: 43] قد تقدّم تفسير هذا في سورة النساء مستوفي، وكذلك تقدّم الكلام على ملامسة النساء، وعلى التيمم وعلى الصعيد، ومن في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ لا ابتداء الغاية، وقيل للتبعيض. قيل وجه تكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام في أنواع الطهارة: ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما يريد بأمركم بالطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم في الدين، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] ثم قال: ﴿وَلَكِنْ يَرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الذنوب، وقيل: من الحدث الأصغر والأكبر، ﴿وَلِيَقْتَرِنَ نِعَمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالترخيص لكم في التيمم عند عدم الماء، أو بما شرعه لكم من الشرائع التي عرَضَكم بها للثواب، ﴿لِيُعَلِّمَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته عليكم، فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين.

وقد أخرج مالك والشافعي، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، عن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى

أخرجه الدارقطني والبيهقي من طريق القاسم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جده، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه، ولكن، القاسم، هذا متروك، وجده ضعيف. قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ قيل: الباء زائدة، والمعنى: امسحوا رؤوسكم، وذلك يقتضي تعميم المسح لجميع الرأس وقيل هي للتبعيض، وذلك يقتضي أنه يجزئ مسح بعضه. واستدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ﴾ ولا يجزئ مسح بعض الوجه اتفاقاً؛ وقيل إنها للإصاق: أي الصقوا أيكم برؤوسكم، وعلى كل حال، فقد ورد في السنة المطهرة ما يفيد أنه يكفي مسح بعض الرأس، كما أوضحناه في مؤلفاتنا، فكان هذا دليلاً على المطلوب غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة، ولا شك أن من أمر غيره بأن يمسح رأسه، كان ممثلاً بفعل ما يصلق عليه مسمى المسح، وليس في لغة العرب ما يقتضي أنه لا بد في مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس، وهكذا سائر الأفعال المتعدية نحو اضرب زيداً أو اطعنه أو ارجمه، فإنه يوجد المعنى العربي بوقوع الضرب، أو الطعن، أو الرجم، على عضو من أعضائه، ولا يقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها إنه لا يكون ضارباً إلا بإيقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد، وكذلك الطعن والرجم وسائر الأفعال، فاعرف هذا حتى يتبين لك ما هو الصواب من الأقوال في مسح الرأس. فلن قلت: يلزم مثل هذا في غسل الوجه واليدين والرجلين. قلت: ملتزم لولا البيان من السنة في الوجه، والتحديد بالغاية في اليدين والرجلين بخلاف الرأس، فإنه ورد في السنة مسح الكل ومسح البعض. قوله: ﴿وَأَرْجِلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قرأ نافع بنص الأرجل، وهي قراءة الحسن البصري والأعمش، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمة بالجر. وقراءة النصب، تدل على أنه يجب غسل الرجلين، لأنها معطوفة على الوجه، وإلى هنا ذهب جمهور العلماء. وقراءة الجر تدل على أنه يجوز الاقتصار على مسح الرجلين لأنها معطوفة على الرأس وإليه ذهب ابن جرير الطبري، وهو مروى عن ابن عباس. قال ابن العربي: اتفقت الأمة على وجوب غسلهما وما علمت من رد ذلك إلا الطبري من فقهاء المسلمين، والرافضة من غيرهم، وتعلق الطبري بقراءة الجر، قال القرطبي: قد روى عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلة ومسحتان، قال: وكان عكرمة يمسح رجليه؛ وقال ليس في الرجلين غسل، إنما نزل فيها المسح. وقال عامر الشعبي: نزل جبريل بالمسح. قال: وقال قتادة: افترض الله مسحين وغسلتين. قال: وذهب ابن جرير الطبري إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح وجعل القراءة كالروايتين، وقواه النحاس ولكنه قد ثبت في السنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة من فعله ﷺ، وقوله غسل الرجلين فقط، وثبت عنه أنه قال: «ويل للأعقاب من النار»، وهو في الصحيحين وغيرهما فافاد وجوب غسل الرجلين، وأنه لا

تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا بها أتم قيام ﴿الله﴾ أي: لأجله تعظيماً لأمره وطعماً في ثوابه. والقسط: العدل. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿يجرمكم﴾ مستوفى: أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، وكتب الشهادة ﴿اعملوا هو﴾ أي: العدل المملول عليه بقوله: اعملوا ﴿أقرب للثقوى﴾ التي أمرتم بها غير مرة: أي أقرب لأن تتقوا الله، أو لأن تتقوا النار. قوله ﴿لهم مغفرة ولجر عظيم﴾ هذه الجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني لقوله: ﴿وعذ﴾ على معنى: وعدهم أن لهم مغفرة، أو وعدهم مغفرة فوقعت الجملة موقع المفرد فاغنت عنه، ومثله قول الشاعر:

وجننا الصالحين لهم جزاء وجنات وعيناً سلسبيلاً
قوله: ﴿أصحاب الجحيم﴾ أي: ملاسوها. قوله: ﴿إذ هم قوم﴾ ظرف لقوله: ﴿انكروا﴾ أو للنعمة، أو لمحنوف وقع حالاً منها ﴿أن يبسطوا﴾ أي: بأن يبسطوا. وقوله: ﴿فكف﴾ معطوف على قوله: ﴿هم﴾ وسيأتي بيان سبب نزول هذه الآية، وبه يتضح المعنى.

وقد أخرج ابن جرير، والطبراني في الكبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿إذ قلتم سمعنا واطعنا﴾ يعني حين بعث الله النبي ﷺ، وأنزل عليه الكتاب قالوا آمنا بالنبي والكتاب، وأقرنا بما في التوراة، فذكرهم الله ميثاقه الذي أقرأ به على أنفسهم، وأمرهم بالوفاء به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد قال: النعم الآلاء، وميثاقه الذي واثقهم به، قال الذي واثق به بني آدم، في ظهر آدم عليه السلام. وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير، في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ الآية. قال: نزلت في يهود خيبر، ذهب إليهم رسول الله ﷺ يستفتيهم في بية، فهموا أن يقتلوه، فنلك قوله: ﴿ولا يجرمكم شأن قوم على أن لا تعبدوا﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ، نزل منزلاً ففترق الناس في العضاء يستظلون تحتها، فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسله، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، قال الأعرابي: مرتين أو ثلاثاً من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: الله، فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابي وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه. قال معمر: وكان قتادة ينكر نحو هذا. وينكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكروا بالنبي ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابي، ويتأول: ﴿انكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه، عنه بنحوه، ونكر أن اسم الرجل غوث بن الحارث، وأنه لما قال النبي ﷺ «الله» سقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، قال: فشهد أن لا إله إلا الله. وأخرجه أيضاً ابن إسحاق وأبو نعيم في الدلائل

للصلاة قال قمتم من المضاجع، يعني: النوم. وأخرج ابن جرير عن السدي مثله. وأخرج ابن جرير أيضاً عنه يقول: إذا قمتم وأنتم على غير طهر. وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن، في قوله: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ قال: نلك الغسل البلك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، عن أنس أنه قيل له: إن الحجاج خطبنا فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وأنه ليس شيء من ابن آدم أقرب إلى الخبث من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما. قال أنس: صدق الله وكتب الحجاج، قال الله: ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾ وكان أنس إذا مسح قدميه بهما. وأخرج سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على غسل القدمين. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿من حرج﴾ قال: من ضيق. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ قال: تمام النعمة دخول الجنة، لم يتم نعمته على عبد لم يدخل الجنة.

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِمَّا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَقُولُوا اَعْمَلُوا مِثْلَ الَّذِي كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَا يَسْطُورُ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ كَذَّبَ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكُمْ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَٰكِبُونَ ﴿١١﴾

﴿نعمة الله﴾ قيل: هي الإسلام. والميثاق: العهد؛ قيل المراد به هنا: ما أخذه على بني آدم كما قال ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ [الأعراف: 172] الآية. قال مجاهد وغيره: نحن وإن لم نذكره فقد أخبرنا الله به؛ وقيل هو خطاب لليهود، والعهد: ما أخذه عليهم في التوراة. وذهب جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم، إلى أنه العهد الذي أخذه النبي ﷺ ليلة العقبة عليهم، وهو السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأضافه تعالى إلى نفسه؛ لأنه عن أمره وإنه، كما قال ﴿إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: 10]، وبيعة العقبة مذكورة في كتب السير، وهذا متصل بقوله ﴿أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: 1]. قوله ﴿إذ قلتم سمعنا واطعنا﴾ أي: وقت قولكم هذا القول، وهذا متعلق بوائتكم، أو بمحنوف وقع حالاً أي: كأننا هذا الوقت. و﴿ذات الصدور﴾: ما تخفيه الصدور؛ لكونها مختصة بها لا يعلمها أحد، ولهذا أطلق عليها ذات التي بمعنى الصاحب، وإذا كان سبحانه عالماً بها، فكيف بما كان ظاهراً جلياً. قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين﴾ قد تقدم تفسيرها في النساء، وصيغة المبالغة في ﴿قوامين﴾

عزّرت فلاناً: إذا أثبتته وربّنته عن القبيح، فقلوه: **﴿وعزّرتموهم﴾** أي: عظمتوهم على المعنى الأول، أو ربّنتهم عنهم أعداءهم ومنعتموهم على الثاني. قوله **﴿واقترضتم الله قرضاً حسناً﴾** أي: انتفتم في وجوه الخير، **﴿وقرضاً﴾** مصدر محذوف الزوائد، كقوله تعالى: **﴿وانتبتها نباتاً حسناً﴾** [آل عمران: 37] أو مفعول ثانٍ لأقرضتم. والحسن: قيل هو ما طابت به النفس؛ وقيل ما ابتغى به وجه الله؛ وقيل الحلال. قوله: **﴿فمن كفر بعد ذلك﴾** أي: بعد الميثاق أو بعد الشرط المذكور، **﴿فقد ضلّ سواء السبيل﴾** أي: أخطأ وسط الطريق. قوله: **﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾** الباء سببية وما زائدة، أي: فبسبب نقضهم ميثاقهم: **﴿لعناهم﴾** أي: طرناهم وأبعناهم **﴿وجعلنا قلوبهم قسية﴾** أي: صلبة لا تعي خيراً ولا تغفل. وقرأ حمزة والكسائي «قسية» بتشديد الباء من غير ألف، وهي قراءة ابن مسعود والنخعي ويحيى بن وثاب؛ يقال درهم قسي مخفف السين مشدّد الباء: أي زائف، نكر ذلك أبو عبيد. وقال الأصمعي وأبو عبيدة: درهم قسيّ كأنه معرب قاس. وقرأ الأعمش «قسية» بتخفيف الباء وقرأ الباقون: «قاسية» **﴿يحرفون للكلم عن مواضعه﴾** الجملة مستأنفة لبيان حالهم أو حاله أي: يبطلونه بغيره أو يتأولونه على غير تأويله. وقرأ السلمي والنخعي «الكلام». قوله: **﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾** أي: لا تزال يا محمد تقف على خائنة منهم، والخائنة: الخيانة؛ وقيل هو نعت لمحذوف، والتقدير فرقة خائنة، وقد تقع للمبالغة نحو علامة ونسابة إذا أردت المبالغة في وصفه بالخيانة؛ وقيل خائنة معصية. قوله: **﴿إلا قليلاً منهم﴾** استثناء من الضمير في منهم **﴿فأعف عنهم واصفح﴾** قيل: هذا منسوخ بآية السيف؛ وقيل: خاص بالمعاصيين. قوله: **﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾** الجار والمجرور متعلق بقوله: **﴿أخفنا﴾** والتقدير للاهتمام، والتقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، أي: في التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به. قال الأخفش: هو كقولك أخذت من زيد ثوبه ودرهمه، فرتبة الذين بعد أخذنا. وقال الكوفيون بخلافه؛ وقيل إن الضمير في قوله: **﴿ميثاقهم﴾** راجع إلى بني إسرائيل، أي أخذنا من النصارى مثل ميثاق المذكورين قبلهم من بني إسرائيل، وقال: **﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾** ولم يقل، ومن النصارى، للإيدان بأنهم كانوا في دعوى النصرانية وأنهم أنصار الله. قوله: **﴿فنسوا حظاً مما ذكرناهم﴾** أي: نسوا من الميثاق المأخوذ عليهم نصيباً وأفرا عقب أخذه عليهم: **﴿فأغرينا بينهم العدوة والبغضاء﴾** أي: ألصقنا ذلك بهم، مأخوذ من الغراء: وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه يقال غرى بالشيء يغري غرياً بفتح الغين مقصوراً، وغراء بكسرهما معبوداً أي أولع به حتى كأنه صار ملتصقاً به، ومثل الإغراء التحرش، وأغريت الكلب: أي أولعته بالصيد،

عنه. وأخرج أبو نعيم في الدلائل، عن ابن عباس: أن بني النضير هموا أن يطرحوا حجراً على النبي ﷺ ومن معه، فجاء جبريل فأخبره بما هموا، فقام ومن معه، فنزلت: **﴿يا أيها الذين آمنوا انكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم﴾** الآية، وروى نحو هذا من طرق عن غيره، وقصة الأعرابي وهو غورث المنكود ثابتة في الصحيح.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُم مِّنْ ثَمَرٍ طَيِّبٍ مِّنْ ثَمَرَاتِ الْجَنَّةِ ثُمَّ جَاءَ بِكُمْ جَدَّتْكُمْ وَأَن تَصْنَعُوا فَمِثْلُ شِمْرِكِكُمْ﴾ [آل عمران: 179] **﴿فَمَا نَقِضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** [النور: 21] **﴿وَرَبِّ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنْفِثُ اللَّهُ نَسَاكَانًا مُّبِينَيْنِ﴾** [النور: 22]

قوله: **﴿ولقد أخذ الله﴾** كلام مستأنف يتضمن نكر بعض ما صدر من بني إسرائيل من الخيانة. وقد تقدّم بيان الميثاق الذي أخذه الله عليهم. واختلف المفسرون في كيفية بعث هؤلاء النقباء، بعد الإجماع منهم على أن النقيب كبير القوم العالم بأمورهم الذي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها، والنقاب: الرجل العظيم الذي هو في الناس على هذه الطريقة، ويقال نقيب القوم لشاهدتهم وضمينهم. والنقيب: الطريق في الجبل هذا أصله، وسمي به نقيب القوم لأنه طريق إلى معرفة أمورهم. والنقيب: أعلى مكاناً من العريف، فقبل المراد ببعث هؤلاء النقباء، أنهم بعثوا أمناء على الإطلاع على الجبارين، والنظر في قوتهم ومنعتهم ليختبروا حال من بها ويخبروا بذلك، فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة وظنوا أنهم لا قبل لهم بها، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بني إسرائيل، وأن يعلموا به موسى، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فأخبروا قرابتهم، ففشا الخبر حتى بطل أمر الغزو، وقالوا: **﴿انذهب أنت وربك فقاتلا﴾** [المائدة: 24] وقيل إن هؤلاء النقباء كفل كل واحد منهم على سبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله، وهذا معنى بعثهم، وسيأتي نكر بعض ما قاله جماعة من السلف في ذلك. قوله: **﴿وقال الله إني معكم﴾** أي: قال ذلك لبني إسرائيل، وقيل للنقباء؛ والمعنى: إني معكم بالنصر والعون، واللام في قوله: **﴿لئن أقمتم للصلاة﴾** هي: الموطئة للقسم المحذوف، وجوابه: **﴿لا كفرن﴾** وهو ساء مسدّد جواب الشرط. والتعزير: التعظيم والتوقير، وأنشد أبو عبيدة:

وكم من ماجد لهم كريم ومن ليث يعززي الندي
أي يعظم ويوقر. ويطلق التعزير على الضرب والرد، يقال

منهم﴾ قال: هم يهود مثل الذي هموا به من النبي ﷺ يوم دخل عليهم حائطهم. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ قال: كذب وفجور، وفي قوله: ﴿فأعف عنهم وأصفح﴾ قال: لم يؤمر يومئذ بقتالهم، فأمره الله أن يعفو عنهم ويصفح، ثم نسخ ذلك في براءة فقال ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ [التوبة: 29] الآية. وأخرج أبو عبيد وابن جرير، وابن المنذر عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ قال: أغرى بعضهم ببعض بالخصومات والجدال في الدين.

يَتَاخَلَّ الْعَصَبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْعَصَبِ وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ نَتَوَكَّلْ عَلَى سُبُلِ الْمَسَلِكِ يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦﴾

الألف واللام في الكتاب للجنس، والخطاب لليهود والنصارى ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ أي: محمد ﷺ حال كونه: ﴿يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ المنزل عليكم، وهو التوراة والإنجيل: كآية الرجم وقصة أصحاب السبت الممسوخين قرده ﴿ويعفوا عن كثير﴾ مما تخفونه، فيترك بيانه لعدم اشتماله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية، فإن ما لم يكن كذلك لا فائدة تتعلق ببيانه إلا مجرد افتضاحكم؛ وقيل المعنى: إنه يعفو عن كثير فيتجاوز ولا يخبركم به؛ وقيل: يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم، والجملة في محل نصب عطفاً على الجملة الحالية: أعني قوله: ﴿يبين لكم﴾. قوله: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمداً ﷺ قد تضمنت بعثته فوائد غير ما تقدم من مجرد البيان. قال الزجاج: النور: محمد ﷺ، وقيل الإسلام. والكتاب المبين: القرآن، فإنه المبين، والضمير في قوله: ﴿يهدي به﴾ راجع إلى الكتاب أو إليه وإلى النور لكونهما كالشيء الواحد ﴿ومن تتبع رضوانه﴾ أي: ما رضى الله، و﴿سبيل السلام﴾: طرق السلامة من العذاب الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة؛ وقيل المراد بالسلام: الإسلام ﴿ويخرجهم من الظلمات﴾ الكفرية ﴿إلى النور﴾ الإسلامي، ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ إلى طريق يتوصلون بها إلى الحق، لا عوج فيها ولا مخافة.

وقد أخرج ابن جرير، عن قتادة، في قوله: ﴿رسولنا﴾ قال: هو محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير أيضاً عن عكرمة قال: إن نبي الله ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فنأشده بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور بالمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذها أكل، فقال: إنه لما كثر فينا جللنا مائة جلدة

والمراد بقوله: ﴿بينهم﴾ اليهود والنصارى؛ لتقدم نكرهم جميعاً؛ وقيل: بين النصارى خاصة، لأنهم أقرب منكور، وذلك لأنهم افترقوا إلى اليعقوبية والنسطورية والملكانية، وكفر بعضهم بعضاً، وتظاهروا بالعداوة في ذات بينهم. قال النحاس: وما أحسن ما قيل في معنى: ﴿أغرينا بينهم العداوة والبغضاء﴾: إن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبها وإبغاضها قوله: ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ تهديد لهم: أي سيلقون جزاء نقض الميثاق.

وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ قال: أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: كثيراً كلوا عليهم بالوفاء لله بما ألقوه عليه من العهد فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿الذي أخذنا من بني إسرائيل ميثاقهم﴾ قال: من كل سبط من بني إسرائيل رجال أرسلهم موسى إلى الجبارين، فوجدهم يدخل في كم لأحدهم اثنان منهم، ولا يحمل عنقود عندهم إلا خمسة أنفس منهم في خشية، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقباء كلهم ينهى سبطه عن قتالهم، إلا يوشع بن نون، وكالب بن يافثة، فإنهما أمرا الأسباط بقتال الجبارين، ومجاهدتهم فعصروهما وأطاعوا الآخرين، فهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما، فتاهت بنو إسرائيل أربعين سنة، يصبحون حيث أمسوا، ويمسسون حيث أصبحوا، في تيههم ذلك، فضرب موسى الحجر لكل سبط عينا حجراً لهم يحملونه معهم، فقال لهم موسى: اشربوا يا حمير، فنهاه الله عن سبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿الذي أخذنا من بني إسرائيل ميثاقهم﴾ قال: هم من بني إسرائيل بعثهم موسى لينظروا إلى المدينة، فجاءوا بحبة من فاكهتهم وقر رجل، فقال: اقتدروا قوة قوم وبأسهم، وهذه فاكهتهم، فعند ذلك فتنوا فقالوا لا نستطيع القتال ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا﴾ [المائدة: 24] وقد نكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الأسباط، وأسماؤهم منكورة في السفر الرابع من التوراة، وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وعزتموهم﴾ قال: أعنتموهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وعزتموهم﴾ قال: نصرتموهم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾ قال: هو ميثاق أخذه الله على أهل التوراة فنقضوه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿يحزفون للكلم عن مواضعه﴾ يعني حدود الله، يقولون إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه، وإن خالفكم فاحذروا، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ونسوا حظاً مما ذكرنا به﴾ قال: نسوا الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة﴾

كما تعترفون بذلك، لقولكم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا إِيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] فإن الابن من جنس أبيه لا يصدر عنه ما يستحيل على الأب وأنتم تنذرون، والحبیب لا یعنب حبیبه وأنتم تعنبن، فهذا يدل على أنكم كاتبون في هذه الدعوى. وهذا البرهان هو المسمى عند الجليليين ببرهان الخلف. قوله: ﴿هَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ عطف على مقدر يدل عليه الكلام: أي فلستم حينئذ كذلك، ﴿هَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: من جنس من خلقه الله تعالى يحاسبهم على الخير والشر، ويجازي كل عامل بعمله ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ والله ملك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ﴿وَاللَّهُ لِلْمُصِيرِ﴾ أي: تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعلان بن أضاء وبحري بن عمرو وشاس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد ﴿نَحْنُ أِبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ كقول النصارى؛ فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ إلى آخر الآية. وأخرج أحمد في مسنده عن أنس قال: «مرَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَصَبَّ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّ الْقَوْمِ خَشِيتُ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يَوطَأَ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَتَقُولُ، ابْنِي ابْنِي، فَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَتْ هَذِهِ لَتَلْقَى ابْنَهَا فِي النَّارِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا، وَاللَّهِ لَا يَلْقَى حَبِيبِي فِي النَّارِ. وَأَسَانَدُهُ فِي الْمُسْنَدِ هَكَذَا: حَنُّثْنَا، ابْنُ أَبِي عَدِي، عَنْ حَمِيدٍ، عَنْ أَنَسٍ فَذَكَرَهُ. وَمَعْنَى الْآيَةِ يُشِيرُ إِلَى مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ مُشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ لِبَعْضِ الْفُقَهَاءِ: أَيْنَ تَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الْحَبِيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ؟ فَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ، فَتَلَا الصُّوفِيُّ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي الزُّهْدِ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ حَبِيبَهُ، وَلَكِنْ قَدْ يُبْتَلَى فِي الدُّنْيَا. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ السَّيِّدِي فِي قَوْلِهِ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يَقُولُ: يَهْدِي مَنكُم مِّن يَشَاءُ فِي الدُّنْيَا وَيَغْفِرُ لَهُ، وَيُمِيتُ مَن يَشَاءُ مَنكُم عَلَى كُفْرِهِ فَيُعَذِّبُهُ.

يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ فَذَكَرَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَرَقٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَيِّنَةٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٧﴾

المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى. والرسول هو محمد ﷺ ﴿وَيُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال. والمبين هو: ما شرعه الله لعباده وحذف للعلم به، لأن بعثة الرسل إنما هي بذلك. والفترة أصلها السكن، يقال فتر الشيء: سكن؛ وقيل: هي الانقطاع. قاله أبو علي الفارسي وغيره؛ ومنه فتر الماء: إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة؛ وفتر الرجل عن عمله: إذا انقطع عما كان عليه من الجد فيه، وامرأة فاترة الطرف: أي منقطعة عن حدة النظر. والمعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثته ﷺ مدة من الزمان. واختلف في قدر مدة

وحالقتنا الرؤوس، فحكم عليهم بالرجم، فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَيُغْفِرُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ يقول: عن كثير من الذنوب. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: ﴿سَبِيلَ السَّلامِ﴾ هي: سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه وابتعث به رسله: وهو الإسلام.

لَقَدْ كَفَرَ الْآزِفُونَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ قَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَنَّهُ وَكَانَ فِي الْأَرْضِ حِيمًا وَلِلَّهِ ثَلَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَهْدِي مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣٩﴾

ضمير الفصل في قوله: ﴿هُوَ الْمَسِيحُ﴾ يفيد الحصر؛ قيل: وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى؛ وقيل: لم يقل به أحد منهم، ولكن استلزم قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ لا غيره، وقد تقدّم في آخر سورة النساء ما يكفي ويغني عن التكرار. قوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والملك، والملك: الضبط والحفظ والقدرة، من قولهم ملكت على فلان أمره: أي قدرت عليه: أي فمن يقدر أن يمنع ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَمَهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك، فلا إله إلا الله، ولا ربّ غيره، ولا معبود بحق سواه، ولو كان المسيح إلهاً كما تزعم النصارى، لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أكل حال، ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في عموم من في الأرض، لكون الدفع منه عنها أولى وأحق من غيرها، فهو إذا لم يقدر على الدفع عنها، أعجز عن أن يدفع عن غيرها، ونكر من في الأرض للدلالة على شمول قدرته، وأنه إذا أراد شيئاً كان لا معارض له في أمره، ولا مشارك له في قضاءه: ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين النوعين من المخلوقات. قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة مستأنفة مسوقة؛ لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته، وأنه يقدر على كل شيء لا يستصعب عليه شيء. قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير، حيث قالوا ﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة: 30] وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا ﴿المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] وقيل هو على حذف مضاف: أي نحن أتباع أبناء الله، وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحياء الله بمجرد الدعوى الباطلة والأمانى العاطلة، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إن كنتم كما تزعمون، فما باله يعذبكم بما تقتربونه من الذنوب بالقتل، والمسح، وبالنار في يوم القيامة

يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ أَتَوْهُمُ عَلَى الْبَابِ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِذَا فِيكُمْ
عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فِتْنَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا لَنْ
نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا
قَائِدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَتِيكَ إِلَّا نَفْسِي وَآخِي فَأَفْرَقَ بَيْنَهُمَا وَبَيَّتَ
الْقَوْمَ النَّصِيفِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُخِزَّةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَيُوهُونَ فِي
الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ النَّصِيفِينَ ﴿٢٥﴾

هذه الآيات متضمنة للبيان من الله سبحانه، بأن أسلاف
اليهود الموجودين في عصر محمد ﷺ تمرّدوا على موسى،
وعصوه، كما تمرّد هؤلاء على نبينا ﷺ وعصوه، وفي ذلك
تسليّة له ﷺ، وروى عن عبد الله بن كثير أنه قرأ ﴿يَا قَوْمِ
انْكُرُوا﴾ بضم الميم وكذا قرأ فيما أشبهه، وتقديره: يا أيها
القوم انكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء: أي وقت
هذا الجعل، وإيقاع الذكر على الوقت مع كون المقصود ما
وقع فيه من الحواش للمبالغة؛ لأن الأمر بذكر الوقت أمر
بذكر ما وقع فيه بطريق الأولى، وامتنع عليهم سبحانه بجعل
الأنبياء فيهم مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم، لكثرة من
بعثه من الأنبياء منهم قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ أي: وجعل
منكم ملوكاً، وإنما حذف حرف الجر لظهور أن معنى الكلام
على تقديره، ويمكن أن يقال: إن منصب النبوة لما كان لعظم
قدره وجلالة خطره بحيث لا ينسب إلى غير من هو له قال
فيه: ﴿إِذْ جَعَلْ فَيْكُمُ أَنْبِيَاءَ﴾ ولما كان منصب الملك مما
يجوز نسبته إلى غير من قال به، كما تقول قرابة الملك نحن
الملوك، قال فيه: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ وقيل المراد بالملك: أنهم
ملكو أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون، فهم جميعاً
ملوك بهذا المعنى. وقيل معناه: أنه جعلهم ذوي منازل لا
ينخل عليهم غيرهم إلا بلان؛ وقيل غير ذلك. والظاهر أن
المراد من الآية الملك الحقيقي، ولو كان بمعنى آخر لما كان
للامتنان به كثير معنى. فإن قلت: قد جعل غيرهم ملوكاً كما
جعلهم. قلت: قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء، فهذا وجه
الامتنان. قوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾
أي: من المنّ والسلوى، والحجر والغمام، وكثرة الأنبياء،
وكثرة الملوك، وغير ذلك. والمراد عالمي زمانهم. وقيل إن
الخطاب ما هنا لأمة محمد ﷺ، وهو عدول عن الظاهر لغير
موجب، والصواب ما ذهب إليه جمهور المفسرين، من أنه من
كلام موسى لقومه، وخاطبهم بهذا الخطاب توطئة وتمهيداً
لما بعده من أمره لهم بدخول الأرض المقدسة.

وقد اختلف في تعيينها؛ فقال قتادة: هي الشام، وقال
مجاهد: الطور وما حوله، وقال ابن عباس والسدي وغيرهما:
أريحاء، وقال الزجاج: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقول
قتادة يجمع هذه الأقوال المنكورة بعده. والمقدسة: المطهرة،
وقيل المباركة: ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي: قسمها وقدرها
لهم في سابق علمه، وجعلها مسكناً لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى
أَنْبِيَائِهِمْ﴾ أي: لا ترجعوا عن أمري وتتركوا طاعتي، وما
أوجبته عليكم من قتال الجبارين، جنباً وفشلاً ﴿فَتَقْتُلُوا﴾

تلك الفترة، وسياقي بيان ذلك. قوله: ﴿إِنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا
مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ تحليل لمجيء الرسول بالبيان على
حين فترة: أي كراهة أن تقولوا هذا القول معتردين عن
تفريطكم، ومنه في قوله ﴿مِنْ بَشِيرٍ﴾ زائدة للمبالغة في
نفي المجيء، والفاء في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ هي الفصيحة
مثل قول الشاعر:

فقد جئنا خراسانا

أي: لا تعترضوا فقد جاءكم بشير ونذير، وهو: محمد ﷺ
﴿وَأَوْشَكُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيرٍ﴾، ومن جملة مقبوراته إرسال
رسوله على فترة من الرسل.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: دعا
رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام، فرغبهم فيه وحذرهم
فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عباد،
وعقبة بن وهب: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله إنكم
لتعلمون أنه رسول الله ﷺ، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل
مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حرمة ووهب بن
يهودا: ما قلنا لكم هذا وما أنزل الله من كتاب من بعد
موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله: ﴿يَا
أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ
الرَّسْلِ الْآيَةَ﴾. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، وابن
المنذر، عن قتادة في الآية قال: هو: محمد ﷺ جاء بالحق
الذي فرق الله به بين الحق والباطل، فيه بيان وموعظة، ونور
وهدى وعصمة لمن أخذ به. قال: وكانت الفترة بين عيسى
ومحمد ستمائة سنة، وما شاء الله من ذلك. وأخرج
عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن جرير، عنه قال: كانت
خمس مائة سنة وستين سنة. وقال الكلبي: خمس مائة سنة
وأربعين سنة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير قال: كانت
خمس مائة سنة. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: كانت
أربع مائة سنة وبضعاً وثلاثين سنة. وأخرج ابن سعد في
كتاب الطبقات، عن ابن عباس قال: كان بين موسى وعيسى
ألف سنة وتسعمائة سنة، ولم يكن بينهما فترة، فإنه أرسل
بينهما ألف نبي من بني إسرائيل، سوى من أرسل من
غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى، ومحمد ﷺ خمس مائة سنة
وتسعون سنة، بعث في أولها ثلاثة أنبياء كما قال الله
تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾
[يس: 14] والذي عزّزه به شمعون وكان من الحواريين، وكانت
الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولا أربع مائة سنة وأربعة
وثلاثين سنة. وقد قيل غير ما نكرناه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ
أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ يُقَوِّمُ
أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى الْأَذْيَارِ فَتَنْقَلِبُوا
خَاسِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا
مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ

من الذين يخافهم بنو إسرائيل. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير «يخافون» بضم الياء: أي يخافهم غيرهم. قوله: «أنعم الله عليهما» في محل رفع على أنه صفة ثانية لرجلان، بالإيمان، واليقين بحصول ما وعدوا به من النصر والظفر: «ادخلوا عليهم الباب» أي: باب بلد الجبارين، «فإذا دخلتموه فإنكم غالبون» قالا هذه المقالة لبني إسرائيل. والظاهر: أنهما قد علما بذلك من خبر موسى، أو قالاه ثقة بوعده الله، أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفاً ورعباً. «قالوا» أي: بنو إسرائيل لموسى: «إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها» وكان هذا القول منهم فشلاً وجبناً، أو عناداً وجرأة على الله وعلى رسوله «فأذهب أنت وربك فقاتلا» قالوا هذا جهلاً بالله عز وجل وبصفاته وكفراً بما يجب له، أو استهانة بالله ورسوله؛ وقيل: أرادوا بالذهاب الإرادة والقصد؛ وقيل أرادوا بالرَّبِّ هارون، وكان أكبر من موسى، وكان موسى يطيعه: «إننا هنا قاعدون» أي: لا نبرح ما هنا لا نتقدم معك ولا نتأخر عن هذا الموضع؛ وقيل أرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر «قال» موسى «ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي» يحتمل أن يعطف وأخي على نفسي، وأن يعطف على الضمير في «إني» أي: إني لا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه، قال هذا تحسراً وتحزناً واستجلاً للنصر من الله عز وجل «فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين» أي: افصل بيننا، يعني نفسه وأخاه، وبين القوم الفاسقين، وميزنا عن جملتهم، ولا تلحقنا بهم في العقوبة؛ وقيل المعنى: فاقض بيننا وبينهم؛ وقيل إنما أراد في الآخرة، وقرأ عبيد بن عمير «فافرق» بكسر الراء «قال فإنها» أي: الأرض المقدسة «محزومة عليهم» أي على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم من قتال الجبارين «أربعين سنة» ظرف للتحريم أي: أنه محرم عليهم لدخولها هذه المدة لا زيادة عليها، فلا يخالف هذا التحريم ما تقدم من قوله: «التي كتب الله لكم» فإنها مكتوبة لمن بقي منهم بعد هذه المدة؛ وقيل: إنه لم يدخلها أحد ممن قال «إننا لن ندخلها» فيكون توقيت التحريم بهذه المدة باعتبار نزاريهم؛ وقيل: إن «أربعين سنة» ظرف لقوله «يتيهون في الأرض» أي: يتيهون هذا المقدار فيكون التحريم مطلقاً. والموقت: هو التيه، وهو في اللغة الحيرة، يقال منه تاه يتيه تيهاً أو توهأ إذا تحير، فالمعنى: يتحيرون في الأرض؛ قيل: إن هذه الأرض التي تاهوا فيها كانت صغيرة نحو ستة فراسخ كانوا يمشون حيث أصبحوا ويصبحون حيث أمسوا، وكانوا سيرة مستمرين على ذلك لا قرار لهم.

واختلف أهل العلم هل كان معهم موسى وهارون أم لا؟ فقيل: لم يكونا معهم، لأن التيه عقوبة؛ وقيل: كانا معهم لكن سهل الله عليهما ذلك، كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم. وقد قيل كيف يقع هذا لجماعة من العقلاء في مثل هذه الأرض اليسيرة، في هذه المدة الطويلة؟ قال أبو علي: يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التي هم عليها إذا ناموا إلى

بسبب ذلك «خاسرين» لخير الدنيا والآخرة «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين» قال الزجاج: الجبار من الأكمين العاني، وهو الذي يجبر الناس على ما يريد، وأصله على هذا من الإجبار وهو الإكراه، فإنه يجبر غيره على ما يريد، يقال أجبره إذا كرهه؛ وقيل: هو مأخوذ من جبر العظم، فاصل الجبار على هذا المصلح لأمر نفسه، ثم استعمل في كل من جرَّ إلى نفسه نفعاً بحق أو باطل، وقيل: إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه. قال الفراء: لم أسمع فعلاً من أفعال إلا في حرفين، جبار من أجبر، وبرك من أترك. والمراد هنا: أنهم قوم عظام الأجسام طوال متعاطمون؛ قيل هم قوم من بقية قوم عاد؛ وقيل هم من ولد عيص بن إسحاق؛ وقيل هم من الروم؛ ويقال إن منهم عوج بن عنق المشهور بالطول المفرط، وعنق هي بنت آدم، قيل كان طوله ثلاثة آلاف نراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين نراعاً وثلاث نراع. قال ابن كثير: وهذا شيء يستحيا من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون نراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص» ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب السفينة وإن الطوفان لم يصل إلى ركبته، وهذا كذب وافتراء، فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» [نوح: 26]، وقال تعالى: «فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين» [الشعراء: 119، 120] وقال تعالى: «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم» [هود: 43]. وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف بقي عوج بن عنق وهو كافر ولد زنية؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع، ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم، انتهى كلامه.

قلت: لم يأت في أمر هذا الرجل ما يقتضي تطويل الكلام في شأنه، وما هذا بأول كنية اشتهرت في الناس، ولسنا بملزمين برفع الأكايب التي وضعها القصاص، ونفقت عند من لا يميز بين الصحيح والسقيم، فكم في بطون لفاتر التفاسير من أكايب وبلايا، وأقاصيص كلها حديث خرافة، وما لحق من لا تمييز عنده لفن الرواية ولا معرفة به أن يدع التعرض لتفسير كتاب الله، ويضع هذه الحماقات والأضحوكات في المواضع المناسبة لها، من كتب القصص. قوله: «فإن يخرجوا منها فإننا داخلون» هذا تصريح بما هو مفهوم من الجملة التي قبل هذه الجملة، لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس إلا لهذا السبب. قوله: «قال رجلاً» هما: يوشع وكالب بن يوفنا أو ابن فانيا، وكانا من الاثنى عشر نقيباً كما مرَّ بيان ذلك. وقوله: «من الذين يخافون» أي: يخافون من الله عز وجل؛ وقيل: من الجبارين أي: هذان الرجلان من جملة القوم الذين يخافون من الجبارين؛ وقيل من الذين يخافون ضعف بني إسرائيل وجبنهم، وقيل: إن الوار في «يخافون» لبني إسرائيل أي

أثأرهم فتتبعهم، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة، حتى التقط الاثني عشر كلهم فجعلهم في كفه مع الفاكهة، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا اذهبوا فآخبروا أصحابكم، قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم، فقال: اكنتم اكنتموا عنا، فجعل الرجل يخبر أباه وصديقه ويقول: اكنتم عني، فأشيع ذلك في عسكرهم، ولم يكتم منهم إلا رجلان يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، وهما اللذان أنزل الله فيهما ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ وقد روي نحو هذا مما يتضمن المبالغة في وصف هؤلاء وعظم أجسامهم، ولا فائدة في بسط ذلك فغالبه من أكايب القصاص، كما قدمنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأَفْرِقْ﴾ يقول: افقر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه يقول: أفصل بيننا وبينهم. وأخرج ابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ قال: أبداً، وفي قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: أربعين سنة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تاهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون في التيه، وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قيل له اليوم يوم الجمعة، فهموا بافتتاحها فدنّت الشمس للغروب، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يسبّتوا، فنادى الشمس إني مأمور وأنت مأمورة فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقرّبوه إلى النار فلم تات، فقال فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً، فبايعهم والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان فأتت النار فاكلتها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خلق لهم في التيه ثياب لا تخلق ولا تدن.

وَأَتَىٰ عَصِيْمَ بْنَ أَتَىٰ مَادَّ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُفِّلُ مِنَ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُفِّتْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٦٧﴾ لَئِن بَسَطَ إِلَهُ رَبِّي يَدَهُ لَيَمْسِكَنَّ إِلَهُكَ يَدَكَ لِتَفْتَنَنِي مَا أَنَا بِمُطَاعٍ بِيَدِكَ لَأَتْلُوكَ وَإِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾ إِلَهُ أُرِيدُ أَنْ تَبْنِيَا لِي مِذْبَاحًا فَتُكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْقَاسِيَةِ ﴿١٧٠﴾ بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوْدَةُ أَخِيهِ قَالَ يُورَثُ أَعْرَجٌ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْكُرْبِ فَأَوْرَثَ سَوْدَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِرِينَ ﴿١٧١﴾

ووجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من الله على أن ظلم اليهود ونقضهم المواثيق واليهود هو كظلم ابن آدم لأخيه، فالداء قديم، والشر أصيل.

وقد اختلف أهل العلم في ابني آدم المنكورين، هل هما لصلبه أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأول. وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني، وقالوا: إنهما كانا من بني إسرائيل،

المكان الذي ابتدؤوا منه، وقد يكون بغير ذلك من الأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارقة للعادة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ قال: ملكهم الخدم، وكانوا أول من ملك الخدم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل من بني إسرائيل، إذا كانت له الزوجة والخادم والدار سمي ملكاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه في الآية قال: «الزوجة والخادم والبيت». وأخرج القرطبي، وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، عنه أيضاً في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ قال: المرأة والخدم «وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» قال: الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً». وأخرج ابن جرير، والزبير بن بكار في الموقوفات، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له بيت وخدم فهو ملك». وأخرج أبو داود في مراسيله، عن زيد بن أسلم في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «زوجة ومسكن وخدم». وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سأل رجل: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ قال: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا﴾ قال: جعل لهم أزواجاً وخداماً وبيوتاً «وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» قال: الممن والسلوى، والحجر والغمام. وأخرج ابن جرير عن طريق مجاهد عن ابن عباس في الآية قال: الممن والسلوى والحجر والغمام، وقد ثبت في الحديث الصحيح: «من أصبح منكم معافى في جسده آمناً في سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها». وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: الطور وما حوله. وأخرج عنه أيضاً قال: هي أريحاء. وأخرج ابن عساکر عن معاذ بن جبل قال: هي ما بين العريش إلى الفرات. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة قال: هي الشام. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله: ﴿الَّتِي كُتِبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: التي أمركم الله بها. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: أمر القوم بها كما أمرنا بالصلاة والزكاة والحج والعمرة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين، فسار بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة وهي أريحاء، فبعث إليهم اثني عشر عيناً من كل سبط منهم عين، لياتوه بخير القوم، فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجسمهم وعظمتهم، فدخلوا حائطاً ليعضهم فجاء صاحب الحائط؛ ليجتني الثمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار فنظر إلى

هم فيه، ولكن إن خشيت أن يردك شعاع السيف، فالتق طرف رداك على وجهك كي يبهو بإثمه وإثمك». وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وخباب بن الأثر وأبي بكر وابن مسعود وأبي واقد، وأبي موسى. قوله: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾ هذا تعليل لامتناعه من المقاتلة، بعد التعليل الأول وهو: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾.

اختلف المفسرون في المعنى فقيل: أراد هابيل إني أريد أن تبوء بالإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصاً على قتلك، وبإثمك الذي تحملته بسبب قتلي؛ وقيل المراد بإثمي الذي يختص بي بسبب سيأتي، فيطرح عليك بسبب ظلمك لي وتبوء بإثمك في قتلي. وهذا يوافق معناه معنى ما ثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه»، ومثله قوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: 13] وقيل المعنى: إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿والقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [النحل: 15] أي: أن لا تميد بكم. وقوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176] أي: لا تضلوا. وقال أكثر العلماء: إن المعنى: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمك﴾ أي: بإثم قتلك لي. ﴿وإثمك﴾ الذي قد صار عليك بنوبك من قبل قتلي. قال الثعلبي: هذا قول عامة المفسرين وقيل هو على وجه الإنكار أي: أو إني أريد على وجه الإنكار كقوله تعالى ﴿تلك نعمة﴾ [الشعراء: 22] أي أو تلك نعمة. قاله القشيري، ووجهه بأن إرادة القتل معصية. وسئل أبو الحسن بن كيسان كيف يريد المؤمن أن يأتى أخوه وأن يدخل النار؟ فقال: وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل، وهذا بعيد جداً، وكذلك الذي قبله. وأصل باء رجع إلى المباءة، وهي المنزل: ﴿وبأواؤهم بغضب من الله﴾ [آل عمران: 112] أي: رجعوا. قوله: ﴿قطعت له نفسه قتل أخيه﴾ أي: سهلت نفسه عليه الأمر وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طوع يده سهل عليه، يقال تطوع الشيء: أي سهل وانقاد وطوعه فلان له: أي سهله. قال الهروي: طوعت وطوعت واحد، يقال طاع له كذا: إذا أتاه طوعاً، وفي ذكر تطويع نفسه له بعد ما تقدم من قول قابيل ﴿لاقتلتك﴾ وقول هابيل ﴿للقنتلني﴾ دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المقالة. قوله ﴿فقتله﴾. قال ابن جرير ومجاهد وغيرهما: روي أنه جهل كيف يقتل أخاه فجاءه إبليس بطائر أو حيوان غيره، فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدي به قابيل ففعل؛ وقيل غير ذلك مما يحتاج إلى تصحيح الرواية. قوله: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سواة أخيه﴾ قيل: إنه لما قتل أخاه لم يدرك كيف يواري؛ لكونه أول ميت مات من بني آدم، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر

فحضر بهما المثل في إبادة حسد اليهود، وكانت بينهما خصومة، فتقربا بقربانين ولم تكن القربانين إلا في بني إسرائيل. قال ابن عطية: وهذا وهم كيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: واسمهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل، لأنه كان صاحب زرع واختارها من أراد زرعها، حتى إنه وجد فيها سنبل طيبة ففركها واكلها، وكان قربان هابيل كبشاً؛ لأنه كان صاحب غنم أخذه من لجد غنمه، فتقبل قربان هابيل، ورفع إلى الجنة فلم يزل يرمى فيها إلى أن قدى به النبيح عليه السلام، كذا قال جماعة من السلف، ولم يتقبل قربان قابيل، فحسده وقال لاقتلتك. وقيل: سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن نكراً وأنثى، إلا شيئاً عليه السلام فإنها ولدت منفرداً، وكان آدم عليه السلام يزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر. ولا تحل له أخته التي ولدت معه، فولدت مع قابيل أخت واسمها إقليما، ومع هابيل أخت ليست كذلك، واسمها ليودا فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق باختي، فأمره آدم فلم ياتم وزجره فلم ينزجر، فاتفقا على القربان وأن يتزوجها من تقبل قربانه. قوله: ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر، ﴿وأتل﴾ أي: تلاوة متلبسة بالحق، أو صفة لنبا أي: نبأ متلبساً بالحق، والمراد بأحدهما هابيل وبآخر قابيل، و﴿قال لاقتلتك﴾ استئناف بياني، كأنه فماذا حال الذي لم يتقبل قربانه؟ وقوله: ﴿قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ استئناف كالأول كأنه قيل: فماذا قال الذي تقبل قربانه؟ وإنما للحصر: أي إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم، وكأنه يقول لأخيه: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي، فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك. قوله: ﴿هلن بسطت إلي يدك لتقتلني﴾ أي: لأن قصدت قتلي، واللام هي الموطئة، و﴿وما أنا بباسط﴾ جواب القسم: ساد مسد جواب الشرط، وهذا استسلام للقتل من هابيل، كما ورد في الحديث: «إذا كانت الفتنة فكن خير إبن آدم، وتلا النبي ﷺ هذه الآية» قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ أن لا يسأل أحد سيقاً وأن لا يمتنع ممن يريد قتله، قال القرطبي: قال علماؤنا: وذلك مما يجوز ورود التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعاً، وفي وجوب ذلك عليه خلاف. والأصح، وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر، وفي الحشوية قوم لا يجوزون للموصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي نر، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة، على ما بيناه في كتاب التنكرة، انتهى كلام القرطبي. وحديث أبي نر المشار إليه هو عند مسلم، وأهل السنن إلا النسائي، وفيه «أن النبي ﷺ قال له: يا أبا نر أريت إن قتل الناس بعضهم بعضاً كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أقعد في بيتك وأغلِق عليك بابك، قال: فإن لم أترك، قال: فات من أنت منهم فكن فيهم، قال: فأخذ سلاحي؟ قال: إنن تشاركهم فيما

صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه، فلما رآه ﴿قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل». وقد روي في صفة قتله لأخيه روايات الله أعلم بصحتها.

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَثَ فِي ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿١٧٠﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ جَنْبٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧١﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُدْعُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْفُوَ أُولَئِكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٢﴾

قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ أي: من أجل ذلك القاتل وجريته ويسبب معصيته، وقال الزجاج: أي من جنائته قال: يقال أجل الرجل على أهله شراً يأجل أجلاً إذا جنى مثل أخذ يأخذ أخذاً. وقرأ أبو جعفر «من أجل» بكسر النون وحذف الهمزة، وهي لغة. قال في شرح الدرر: قرأ أبو جعفر منفرداً: «من أجل ذلك» بكسر الهمزة مع نقل حركتها إلى النون قبلها؛ وقيل يجوز أن يكون قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ متعلقاً بقوله: ﴿من للفائمين﴾، فيكون الوقف على قوله: ﴿من أجل ذلك﴾ متعلقاً بذلك، والأولى ما قدمنا، والمعنى: أن نبأ ابني آدم هو الذي تسبب عنه الكتب المذكور على بني إسرائيل، وعلى هذا جمهور المفسرين. وخصّ بني إسرائيل بالذكر؛ لأن السياق في تعداد جنائياتهم، ولأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس، ووقع التغليب فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء، وقتلهم للأنبياء وتقديم الجار والمجرور على الفعل الذي هو متعلق به أعني كتبنا: يفيد القصر: أي من أجل ذلك لا من غيره، ومن لابتداء الغاية «أنه من قتل نفساً» واحدة من هذه النفوس «بغير نفس» أي: بغير نفس توجب القصاص، فيخرج عن هذا من قتل نفساً بنفس قصاصاً. قوله: ﴿أو فساد في الأرض﴾ قرأ الجمهور بالجر عطفاً على نفس. وقرأ الحسن بالنصب على تقدير فعل محذوف يدل عليه أول الكلام تقديره: أو أحدث فساداً في الأرض، وفي هذا ضعف. ومعنى قراءة الجمهور: أن من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً. وقد تقرر أن كل حكم مشروط بتحقيق أحد شيئين، فنقيضه مشروط بانتفائهما معاً، وكل حكم مشروط بتحقيقهما معاً، فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه.

وقد اختلف في هذا الفساد المذكور في هذه الآية ماذا هو؟ فقيل هو الشرك، وقيل قطع الطريق. وظاهر النظم القرآني أنه ما يصنق عليه أنه فساد في الأرض، فالشرك

له ثم حثا عليه، فلما رآه قابيل: ﴿قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سواة لخي﴾ فواراه، والضمير المستكن في «ليريه» للغراب؛ وقيل لله سبحانه، و«كيف» في محل نصب على الحال من ضمير: «فأواري» والجملة ثاني مفعولي يريه. والمراد بالسوء هنا ذاته كلها لكونها ميتة، و«قال» استئناف جواب سؤال مقدر من سوق الكلام، كأنه قيل: فماذا قال عند أن شاهد الغراب يفعل ذلك؟ و«يا ويلتي» كلمة تحسر وتحزن، والالف بدل من ياء المتكلم كأنه دعا ويلته بأن تحضر في ذلك الوقت، والويلة الهلكة، والكلام خارج مخرج التعجب منه من عدم امتدائه لمواراة أخيه، كما امتدى الغراب إلى ذلك «فأواري» بالنصب على أنه جواب الاستفهام، وقرئ بالسكون على تقدير فإنا أواري «فأصبح من للفائمين» على قتله؛ وقيل: لم يكن ندمه ندم توبة بل ندم لفقده، لا على قتله؛ وقيل غير ذلك.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر، عن ابن عباس قال: «نهي أن تنكح المرأة أخاها وتأمها، وأن ينكحها غيره من إختوها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيفة، وولد له أخرى قبيحة دميعة، فقال أخو الدميعة: أنكحني أختك وأنكحك أختي، فقال: لا، أنا أحق بأختي، فقرباً قرباناً، فجاء صاحب الغنم بكيش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصبرة من طعام فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع». قال ابن كثير في تفسيره: إسناده جيد، وكذا قال السيوطي في الدر المنثور. وأخرج ابن جرير عنه قال: كان من شأن بني آدم أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا ثم نكرا ما قرباه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿لئن بسطت إلي يدي﴾ قال: كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلاً تركه ولا يمتنع منه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يقول: إني أريد أن تكون عليك خطيئتك، وبمي، فتبوء بهما جميعاً. وأخرج ابن جرير عنه «بإثمي»: قال بقتلك إياي، «وإثمك»: قال: بما كان منك قبل ذلك. وأخرج عن قتادة والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿فقطعت له نفسه قتل أخيه﴾ قال: شجعته على قتل أخيه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في الآية قال: زينت له نفسه. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿فقطعت له نفسه قتل أخيه﴾ فطلبه ليقته فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فاتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما

فساد في الأرض، وقطع الطريق فساد في الأرض، وسفك الدماء وهتك الحرم ونهب الأموال فساد في الأرض، والبغى على عباد الله بغير حق فساد في الأرض، وهدم البنين وقطع الأشجار، وتغویر الأنهار فساد في الأرض، فعرفت بهذا أنه يصسق على هذه الأنواع أنها فساد في الأرض، وهكذا الفساد الذي سيأتي في قوله: ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. يصسق على هذه الأنواع، وسيأتي تمام الكلام على معنى الفساد قريباً. قوله: ﴿فَكَانَ قَتْلُ النَّاسِ جَمِيعًا﴾. اختلف المفسرون في تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعاً أشد من عقاب من قتل واحداً منهم. فروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى من يأن عقاب من قتل الناس جميعاً أشد من عقاب من قتل واحداً منهم. فروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى من قتل نبياً أو إمام عدل فكانما قتل الناس جميعاً، ومن أحياء بأن شد عضده ونصره فكانما أحياء الناس جميعاً. أخرج هذا عنه ابن جرير. وروي عن مجاهد أنه قال: المعنى أن الذي يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاء جهنم، وغضب عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً، فلو قتل الناس جميعاً لم يزد على هذا قال: ومن سلم من قتل، فلم يقتل أحداً، فكانما أحياء الناس جميعاً.

وقد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وروى عن ابن عباس أيضاً أنه قال في تفسير هذه الآية. أوبق نفسه كما لو قتل الناس جميعاً، أخرجه عنه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وروى عن الحسن أنه قال: فكانما قتل الناس جميعاً في الوزر، وكانما أحياء الناس جميعاً في الأجر. وقال ابن زيد: المعنى أن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعاً ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: من عفا عمن وجب قتله، حكاه عنه القرطبي. وحكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة: يعني أحياءها. وروى عن مجاهد أن أحياءها: إنجاؤها من غرق أو حرق أو هدم أو هلكة، حكاه عنه ابن جرير وابن المنذر؛ وقيل المعنى: أن من قتل نفساً فالؤمنون كلهم خصماؤه، لأنه قد وتر الجميع ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَ مِثْلَ النَّاسِ جَمِيعًا﴾ أي وجب على الكل شكره؛ وقيل المعنى: أن من استحل واحداً، فقد استحل الجميع؛ لأنه أنكر الشرع. وعلى كل حال، فالإحياء هنا عبارة عن الترك والإنقاذ من هلكة فهو مجاز، إذ المعنى الحقيقي مختص بالله عز وجل. والمراد بهذا التشبيه في جانب القتل تهويل أمر القتل، وتعظيم أمره في النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجراءة والجراسة، وفي جانب الإحياء الترغيب إلى العفو عن الجناة واستنقاذ المتورطين في الهلكات. قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للإخبار بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاؤوا العباد بما شرعه الله لهم من الأحكام التي من جملتها أمر القتل، وثم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ للتراخي الرتبي والاستبعاد العقلي، والإشارة بقوله ﴿وَلَقَدْ﴾ إلى ما

نكر مما كتبه الله على بني إسرائيل: أي إن كثيراً منهم بعد نكرك الكتب ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القتل. قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ جزاء الذين يحاربون الله ورسوله. قد اختلف الناس في سبب نزول هذه الآية؛ فذهب الجمهور إلى أنها نزلت في العرنين، وقال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي: لأنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق ويسعى في الأرض بالفساد. قال ابن المنذر: قول مالك صحيح. قال أبو ثور محتجاً لهذا القول: إن قوله في هذه الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾ يدل على أنها نزلت في غير أهل الشرك؛ لأنهم قد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا فأسلموا أن دماءهم تحرم، فدل ذلك على أن الآية نزلت في أهل الإسلام انتهى. وهكذا يدل على هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]، وقوله ﴿وَالْإِسْلَامُ يَهْدِيكُمْ إِلَى سُبُلِهَا﴾ أخرجه مسلم وغيره، وحكى ابن جرير الطبري في تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية: أعني آية المحاربة نسخت فعل النبي ﷺ في العرنين، ووقف الأمر على هذه الحدود. وروى عن محمد بن سيرين أنه قال: كان هذا قبل أن تنزل الحدود: يعني فعله ﷺ بالعرنين وبهذا قال جماعة من أهل العلم. وذهب جماعة آخرون إلى أن فعله ﷺ بالعرنين منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة، والقائل بهذا مطالب ببيان تأخر النسخ، وسيأتي سياق الروايات الواردة في سبب النزول. والحق أن هذه الآية تعم المشرك وغيره لمن ارتكب ما تضمنته، ولا اعتبار بخصوص السبب، بل الاعتبار بعموم اللفظ. قال القرطبي في تفسيره: ولا خلاف بين أهل العلم في أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام، وإن كانت نزلت في المرتدين، أو اليهود انتهى. ومعنى قوله مترتب: أي ثابت؛ قيل المراد بمحاربة الله المنكورة في الآية: هي محاربة رسول الله ﷺ ومحاربة المسلمين في عصره، ومن بعد عصره بطريق العبارة نون الدلالة وبون القياس، لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول، فيحتاج في تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر؛ وقيل إنها جعلت محاربة المسلمين محاربة لله ورسوله إكباراً لحربهم وتعظيماً لأنيتهم، لأن الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب. والأولى أن تفسر محاربة الله سبحانه: بمعاصيه ومخالفة شرائعه، ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقي، وحكم أمته حكمه وهم أسوته. والسعي في الأرض فساداً، يطلق على أنواع من الشر كما قدمنا قريباً. قال ابن كثير في تفسيره: قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والناناير من الإفساد في الأرض، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 205]. انتهى.

إذا تقرر لك ما قررناه، من عموم الآية ومن معنى المحاربة والسعي في الأرض فساداً، فاعلم أن ذلك يصسق

وقد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وروى عن ابن عباس أيضاً أنه قال في تفسير هذه الآية. أوبق نفسه كما لو قتل الناس جميعاً، أخرجه عنه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وروى عن الحسن أنه قال: فكانما قتل الناس جميعاً في الوزر، وكانما أحياء الناس جميعاً في الأجر. وقال ابن زيد: المعنى أن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعاً ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: من عفا عمن وجب قتله، حكاه عنه القرطبي. وحكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة: يعني أحياءها. وروى عن مجاهد أن أحياءها: إنجاؤها من غرق أو حرق أو هدم أو هلكة، حكاه عنه ابن جرير وابن المنذر؛ وقيل المعنى: أن من قتل نفساً فالؤمنون كلهم خصماؤه، لأنه قد وتر الجميع ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَ مِثْلَ النَّاسِ جَمِيعًا﴾ أي وجب على الكل شكره؛ وقيل المعنى: أن من استحل واحداً، فقد استحل الجميع؛ لأنه أنكر الشرع. وعلى كل حال، فالإحياء هنا عبارة عن الترك والإنقاذ من هلكة فهو مجاز، إذ المعنى الحقيقي مختص بالله عز وجل. والمراد بهذا التشبيه في جانب القتل تهويل أمر القتل، وتعظيم أمره في النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجراءة والجراسة، وفي جانب الإحياء الترغيب إلى العفو عن الجناة واستنقاذ المتورطين في الهلكات. قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للإخبار بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاؤوا العباد بما شرعه الله لهم من الأحكام التي من جملتها أمر القتل، وثم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ للتراخي الرتبي والاستبعاد العقلي، والإشارة بقوله ﴿وَلَقَدْ﴾ إلى ما

خرج فقتل ولم يأخذ المال قتل، وإذا خرج وأخذ المال وقتل قتل وصلب، وإذا خرج فأخاف السبيل، ولم يأخذ المال ولم يقتل نفي. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: من شهر السلام في قبة الإسلام، وأفسد السبيل، فظهر عليه وقدر، فإمام المسلمين مخير فيه: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله، قال: ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ يهربوا ويخرجوا من دار الإسلام إلى دار الحرب. وأخرج ابن جرير عنه قال: نفيه أن يطلب. وأخرج أيضاً عن أنس نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التيمي من أهل البصرة قد أفسد في الأرض وحارب، فكلّم رجلاً من قريش أن يستأمنوا له علماً، فأبوا فأتى سعيد بن قيس الهمداني، فأتى علماً فقال: يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟ قال: ﴿إن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ ثم قال: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ فقال سعيد: وإن كان حارثة بن بدر، قال: وإن كان حارثة بن بدر، قال: هذا حارثة بن بدر، قد جاء تائباً فهو آمن، قال نعم، فجاء به إليه فبايعه، وقبل ذلك منه وكتب له أماناً.

يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لِمَلِكِكُمْ فَنُفِخَوتُ ۖ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَتَّقُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا لَقِيَ لِيَهُمْ وَلَقَدْ عَذَّبْنَا آلِيَّ ۖ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿ابْتَغُوا﴾ اطلبوا ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره، و﴿الوسيلة﴾ فعيلة من توسلت إليه، إذا تقررت إليه. قال عنتره:

إِن يَأْخُذُوكَ تَحْلِي وَتَخْضِبِي
وَقَالَ آخَرُ:

إذا غفل الواشون عندنا وصلنا وعاد التصابي بيننا والوسائل
فالوسيلة: القربة التي ينبغي أن تطلب، وبه قال أبو وائل
والحسن ومجاهد، وقتادة والسدي وابن زيد. وروى عن ابن
عباس، وعطاء، وعبد الله بن كثير. قال ابن كثير في تفسيره:
وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة، لا خلاف بين المفسرين فيه.
والوسيلة أيضاً درجة في الجنة مختصة برسول الله ﷺ.
وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال
رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه
الدعوة التامة والصلاة القائمة أت محمداً الوسيلة والفضيلة،
وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم
القيامة». وفي صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو،
أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما
يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله
عليه عشراً ثم سلوا لى الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا

الإهلاك، وليس هو مراداً هنا. قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي النَّارِ﴾ الإشارة إلى ما سبق ذكره من الأحكام، والخزي: الذل والفضيحة. قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استثنى الله سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة، والظاهر عدم الفرق بين السماء والأموال، وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك، وعليه عمل الصحابة. وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط للقصاص وسائر حقوق الأدميين بالتوبة قبل القدرة، والحق الأول. وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المنكورة في الآية، كما يدل عليه ذكر قيد: ﴿قَبْلِ أَنْ تَقْرُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: القرطبي: وأجمع أهل العلم على أن السلطان وليّ من حارب، فإن قتل محارب أخاً امرئ وأتاه في حال المحاربة، فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شيء، ولا يجوز عفو وليّ الدم.

وقد أخرج ابن جرير عن الضحك في قوله: ﴿مَنْ لَجَلَ
نَلَكًا كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ يقول: من أجل ابن آدم
الذي قتل أخاه ظلماً. وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قيل
له في هذه الآية يعني قوله: ﴿فَكُنَّا نَمَاتُ قَتْلَ النَّاسِ جَمِيعاً﴾
أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله
غيره. وأخرج أبو داود والنسائي عن ابن عباس في قوله:
﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال: نزلت في
المشركين، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه
سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن
قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله. وأخرج ابن
جرير والطبراني في الكبير عنه في هذه الآية قال: كان قوم
من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق،
ففقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخبر الله نبيه فيهم: إن
شاء قتل وإن شاء صلب، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم
من خلاف، وأما النفي فهو الضرب في الأرض، فإن جاء
تائباً فليدخل في الإسلام قبل منه، ولم يؤخذ بما سلف.
وأخرج ابن مريويه عن سعد بن أبي وقاص أن هذه الآية
نزلت في الحرورية. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن
أنس أن نفراً من عكل قدموا على رسول الله ﷺ، فأسلموا
وآجتوا المدينة، فامرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصلقة،
فيشربوا من أبوالها والبناها، فقتلوا راعيها واستاقوها: فبعث
النبي ﷺ في طلبهم قافة، فأتي بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم،
وسمل أعينهم، ولم يحسمهم وتركهم حتى ماتوا، فانزل الله
﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ﴾ الآية. وفي مسلم عن أنس
أنه قال: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين
الرعاة. وأخرج الشافعي في الأم، وعبد الرزاق والفرغاني،
وابن أبي شعبة، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر
وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في الآية قال: إذا
خرج المحارب فآخذ المال ولم يقتل قطم من خلاف، وإذا

بعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة؛ لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة، اللهم غفرًا.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

لما نكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهاراً وهو المحارب، عقبه بنكر من يأخذ المال خفية، وهو السارق، ونكر السارقة مع السارق؛ لزيادة البيان لأن غالب القرآن الاقتصاد على الرجال في تشريع الأحكام. وقد اختلف أئمة النحو في خبر السارق والسارقة، هل هو مقدر أم هو فاقطعوا؟ فذهب إلى الأول سيبويه، وقال تقديره: فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم، السارق والسارقة؛ أي حكمهما. وذهب المبرد والزجاج إلى الثاني، وبخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، إذ المعنى: الذي سرق والتي سُرقت، وقرئ: **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ** بالنصب على تقدير اقطعوا، ورجح هذه القراءة سيبويه، قال: الوجه في كلام العرب النصب، كما تقول زيداً أضربه، ولكن العامة أبت إلا الرفع، يعنى عامة القراء، والسارقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق، والمصدر من سرق يسرق سرقاً قاله الجوهري: وهو أخذ الشيء في خفية من الأعين، ومنه استرق السمع، وسارقه النظر. قوله: **فَاقْطَعُوا** القطع: معناه الإبانة والإزالة، وجمع الأيدي لكراهة الجمع بين تثنيتين، وقد بينت السنة المظهرة أن موضع القطع الرسغ. وقال قوم: يقطع من المرفق. وقال الخوارج: من المنكب. والسارقة لابد أن تكون ربع دينار فصاعداً، ولا بد أن تكون من حرز، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة. وقد ذهب إلى اعتبار الربع الدينار الجمهور. وذهب قوم إلى التقدير بعشرة دراهم. وذهب الجمهور إلى اعتبار الحرز. وقال الحسن البصري إذا جمع الثياب في البيت قطع. وقد أطل الكلام في بحث السرقة أئمة الفقه، وشرّح الحديث بما لا يأتى التطويل به ها هنا بكثير فائدة. قوله: **﴿جِزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾** مفعول له: أي فاقطعوا للجزاء، أو مصدر مؤكد لفعل محذوف: أي فجاوزهما جزاء، والباء سببية، وما مصدرية: أي بسبب كسبهما، أو موصولة: أي جزء بالذي كسباه من السرقة. وقوله: **﴿تَكْلَافًا﴾** بدل من جزاء؛ وقيل هو علة للجزاء؛ والجزاء علة للقطع، يقال نكلت به: إذا فعلت به ما يجب أن ينكل به عن ذلك الفعل. قوله: **﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾** السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة: أي فمن تاب من بعد سرقة، وأصلح أمره: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾** ولكن اللفظ عام، فيشمل السارق وغيره من المذنبين، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد استدلل

تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة. وفي الباب أحاديث، وعطف **﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾** على **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾** يفيد أن الوسيلة غير التقوى؛ وقيل هي التقوى، لأنها ملاك الأمر، وكل الخير، فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى. والظاهر أن الوسيلة التي هي القرية تصدق على التقوى، وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرب العباد بها إلى ربهم **﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾** من لم يقبل بينه **﴿وَالْعَلَمُ تَفْلَحُونَ﴾**. قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** كلام مبتدأ مسوق لجزع الكفار، وترغيب المسلمين في امتثال أوامر الله سبحانه **﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾** من أموالها ومنافعها؛ وقيل المراد لكل واحد منهم ليكون أشد تهويلاً، وإن كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك، **﴿وَجَمِيعًا﴾** تأكيد. وقوله **﴿وَمِثْلَهُ﴾** عطف على ما في الأرض، **﴿وَمَعَهُ﴾** في محل نصب على الحال **﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾**؛ ليجعلوه فدية لأنفسهم، وأفرد الضمير إما لكونه راجعاً إلى المذكور، أو لكونه بمنزلة اسم الإشارة: أي ليفتدوا بذلك، **﴿وَمِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** متعلق بالفعل المذكور **﴿وَمَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ﴾** ذلك، وهذا هو جواب لو. قوله: **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ﴾** هذا استئناف بياني، كأنه قيل: كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم؟ فقيل يريدون أن يخرجوا من النار. وقرئ: **﴿أَنْ يُخْرِجُوا﴾** من أخرج، ويضعف هذه القراءة **﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾** ومحل هذه الجملة، أعني قوله: **﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾** النصب على الحال؛ وقيل إنها جملة اعتراضية.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾** قال: الوسيلة القرية. وأخرج الحاكم وصححه، عن حذيفة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: **﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾** قال: تقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه. وأخرج مسلم، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال: يريد الفقير، فقلت لجابر يقول الله: **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾** قال: اتل آية **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾** إلا أنهم الذين كفروا. وأخرج ابن جرير عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: تزعم أن قوما يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: **﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾** فقال ابن عباس: ويحك، اقرا ما فوقها هذه للكفار. قال الزمخشري في الكشف بعد ذكره لهذا: إنه مما لفقته المجبرة. ويا لله العجب من رجل لا يفرق بين أصح الصحيح، وبين أكذب الكذب على رسول الله ﷺ، يتعرض للكلام على ما لا يعرفه ولا يدري ما هو قد تواترت الأحاديث تواتراً لا يخفى، على من له اننى إمام

وحزن الرجل بالكسر، فهو حزن وحزين: وأحزنه غيره وحزنه. قال اليزيدي: حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم، وقد قرئ بهما. وفي الآية النهي له ﷺ عن التأثر لمسارة الكفرة في كفرهم تأثراً بليغاً، لأن الله سبحانه قد وعده في غير موطن بالنصر عليهم، والمسارة إلى الشيء: الوقوع فيه بسرعة. والمراد هنا، وقوعهم في الكفر بسرعة عند وجود فرصة، وأثر لفظ «في» على لفظ إلى للدلالة على استقرارهم فيه، ومن في قوله: «من الذين قالوا» بيانية، والجملة مبينة للمسارعين في الكفر، والباء في «بافواههم» متعلقة بقالوا لا بآمنوا، ومؤلفاء الذين قالوا آمنوا بافواههم، ولم تؤمن قلوبهم هم المنافقون. «ومن الذين هابوا» يعني اليهود، وهو معطوف على «من الذين قالوا آمنوا» وهو تمام الكلام، والمعنى: أن المسارعين في الكفر طائفة المنافقين وطائفة اليهود. وقوله: «سماعون للكذب» خبر مبتدأ محذوف: أي هم سماعون للكذب، فهو راجع إلى الفريقين، أو إلى المسارعين، واللام في قوله: «للكذب» للتحوية أو لتضمين السماع معنى القبول؛ وقيل إن قوله: «سماعون» مبتدأ خبره «من الذين هابوا» أي: ومن الذين هابوا قوم «سماعون للكذب» أي: قابِلون لكنب رؤوسائهم المحرفين للتوراة. قوله: «سماعون لقوم آخرين» خبر ثان، واللام فيه كاللام في «للكذب»؛ وقيل اللام للتعليل في الموضوعين، أي: سماعون لكلام رسول الله لأجل الكذب عليه، وسماعون لأجل قوم آخرين، وجهوهم عيوناً لهم لأجل أن يبلغوهم، ما سمعوا من رسول الله ﷺ. قوله: «لم ياتوك» صفة لقوم: أي لم يحضروا مجلسك وهم طائفة من اليهود، كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ تكبراً وتمرداً؛ وقيل هم جماعة من المنافقين، كانوا يتجنبون مجلس رسول الله ﷺ قال الفراء: ويجوز سماعين كما قال «ملعونين أينما ثقفوا» [الأحزاب: 61]. قوله: «يحرفون للكلم من بعد مواضعه» من جملة صفات القوم المذكورين: أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، ويتأولونه على غير تأويله. والمنحرفون هم اليهود؛ وقيل: إن هذه الجملة خبر مبتدأ محذوف؛ وقيل في محل نصب على الحال، من «لم ياتوك» وقيل: مستأنفة لا محل لها من الإعراب، لقصد تعدد معانيهم ومثالبهم. ومعنى: «من بعد مواضعه» من بعد كونه موضوعاً في مواضعه، أو من بعد وضعه في مواضعه التي وضعه الله فيها، من حيث لفظه، أو من حيث معناه. قوله: «يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه» جملة حالية، من ضمير يحرفون، أو مستأنفة، أو صفة لقوم، أو خبر مبتدأ محذوف، والإشارة بقولهم «هذا» إلى الكلام المحرف: أي إن أوتيتهم من جهة محمد هذا الكلام الذي حرفناه، فخذوه واعملوا به، وإن لم تؤتوه بل جاءكم بغير، فاحذروا من قبوله والعمل به. قوله: «ومن يرد الله فتنته» أي: ضلالته «فلن تملك له من الله شيئاً» أي: فلا تستطيع نفع تلك عنه ولا تقدر على نفعه وهدايته،

بهذا عطاء، وجماعة، على أن القطع يسقط بالتوبة، وليس هذا الاستدلال بصحيح، لأن هذه الجملة الشرطية لا تفيد إلا مجرد قبول التوبة، وإن الله يتوب على من تاب، وليس فيها ما يفيد أنه لا قطع على التائب. وقد كان في زمن النبوة يأتي إلى النبي ﷺ من وجب عليه حد تأثراً عن الذنب الذي ارتكبه، طالباً لتطهيره بالحد، فيحده النبي ﷺ. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال للمسارق بعد قطعه: «تب إلى الله، ثم قال تاب الله عليك». أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة. وأخرج أحمد وغيره، أن هذه الآية نزلت في المرأة التي كانت تسرق المتاع، لما قالت للنبي ﷺ بعد قطعها، هل لي من توبة. وقد ورد في السنة ما يدل على أن الحدود إذا رفعت إلى الأئمة وجبت وامتنع إسقاطها. قوله: «الم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض» هذا الاستفهام للإنكار مع تقرير العلم، وهو كالعنوان لقوله: «يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء» أي: من كان له ملك السموات والأرض، فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة والمغفرة الموكولة إليها.

وقد أخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: «جزاء بما كسبنا نكلاً من الله» قال: لا ترثوا لهم فيه فإنه أمر الله الذي أمر به. قال: وذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: اشتدوا على الفساق، واجعلوهم يداً يداً رجلاً رجلاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه» يقول: الحد كفرته. والاحاديث في قدر نصاب السركة، وفي سائر ما يتعلق بتفاصيل هذا الحد منكرة في كتب الحديث، فلا نطيل بذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحْزَنْكَ أَلَيْسَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ وَمَنْ أَلَيْسَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمَنْ أَلَيْسَ هَادُوا سَكُونُوا لِلْكَذِبِ سَكُونُوا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُوبَةٍ بَعْدَ مَا بُدِئُوا بِالنُّوحِ وَمَنْ يَقُولُونَ إِنَّا أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذُوا وَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلْيُوْهُمْ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ سَكُونُوا لِلْكَذِبِ أَكْثُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَانَ بِصُورَتِكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَاسِطِينَ ﴿١٢﴾ وَكَفَى بِحُكْمِكَ وَعِزَّةِ الْتَّوْبَةِ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بَيْنَ الْيَتِيمِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّهِ هَادُوا وَالزَّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ الْكَاسَ وَالْخَمَّ وَلَا تَشْرَبُوا بِإِيتَانِي شَيْئاً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله «لا يحزنك» قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي، والحزن خلاف السرور،

شانها وأن فيها الهدى والنور، وهو بيان الشرائع، والتبشير بمحمد ﷺ وإيجاب اتباعه. قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ هم أنبياء بني إسرائيل، والجملة إما مستأنفة أو حالية، ﴿وَالَّذِينَ اسْلَمُوا﴾ صفة مابحة للنبيين، وفيه إرغام لليهود المعاصرين له ﷺ بأن أنبياءهم كانوا يدينون بين الإسلام الذي دان به محمد ﷺ، وقيل المراد بالنبيين محمد ﷺ، وعبر عنه بلفظ الجمع تعظيماً. قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلق بيحكم، والمعنى: أنه يحكم بها النبيون للذين هادوا وعليهم. والربانيون العلماء الحكماء، وقد سبق تفسيره، والأخبار العلماء، مأخوذ من التحبير وهو التحسين فهم يحبرون العلم: أي يحسنونه. قال الجوهري: الحبر واحد أخبار اليهود بالفتح وبالكسر والكسر أقصح، وقال الفراء: هو بالكسر، وقال أبو عبيدة: هو بالفتح. قوله: ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ الباء للسببية واستحفظوا أمروا بالحفظ: أي أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل، والجار والمجرور متعلق بيحكم: أي يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ، قوله: ﴿وَوُكِّلُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ أي على كتاب الله والشهداء الرقباء، فهم يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة، والخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ لرؤساء اليهود، وكذا في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والاشتراء الاستبدال، وقد تقدم تحقيقه. قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لفظ ﴿مَنْ﴾ من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة، بل بكل من ولي الحكم؛ وقيل إنها مختصة بأهل الكتاب؛ وقيل بالكفار مطلقاً لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبير؛ وقيل هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله، وقع استخفافاً، أو استحلالاً، أو جحداً، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها، وكذلك ضمير الجماعة في قوله: ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: هم اليهود ﴿مَنْ لِّلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هم المنافقون. وأخرج أحمد، وأبو داود وابن جرير، وابن المنذر والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال: إن الله أنزل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ - الظالمون - الفاسقون﴾ أنزلها الله في طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية حتى اصطالحوا على أن كل قتيل قتلته العريضة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العريضة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فنلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يومئذ لم يظهر عليهم، فقتلت الذليلة من العريضة، فأرسلت العريضة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حين قط دينهما واحد ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، ودية بعضهم نصف

وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وظاهرها العموم ويندخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم بخولاً أولياً، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من تقدم نكرهم، من الذين قالوا آمنا بأفواههم ومن الذين هادوا، وهو مبتدأ وخبره الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم: أي لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق، كما طهر قلوب المؤمنين ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ بظهور نفاق المنافقين، وبضرب الجزية على الكافرين، وظهور تحريفهم وكتهم لما أنزل الله في التوراة. قوله: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كَرَّرَهُ تأكيداً لقبه، وليكون كالمقدمة لما بعده، وهو: أكلون للمسحت، وهما من جملة أخبار نك المبتدأ المقر سابقاً. والسحت، بضم السين وسكون الحاء: المال الحرام، وأصله الهلاك والشدة، من سحته: إذا هلكه، ومنه ﴿فَيْسَحْتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: 61]، ومنه قول الفرزدق:

وَعَضَّ زَمَانُ يَابَنِ مِرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مَسْحَتَ أَوْ مَحْلَقَ وَيَقَالُ لِلْحَالِقِ اسْحَتْ: أي استأصل؛ وسمي الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات: أي يذهبها ويستأصلها، وقال الفراء: أصله كلب الجوع؛ وقيل هو الرشوة، والأول أولى، والرشوة تدخل في الحرام بخولاً أولياً. وقد فسره جماعة بنوع من أنواع الحرام، خاص كالهدية، لمن يقضى له حاجة، وحلوان للكاين، والتعميم أولى بالصواب. قوله: ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فيه تخيير لرسول الله ﷺ وبين الحكم بينهما والإعراض عنهم.

وقد استدلل به على أن حكام المسلمين مخيرون بين الأمرين. وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والنمى إذا ترافعا إليهم. واختلفوا في أهل الذمة إذا ترافعا فيما بينهم؛ فذهب قوم إلى التخيير، وذهب آخرون إلى الوجوب، وقالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وبه قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، والزهري وعمر بن عبد العزيز والسدي؛ وهو الصحيح من قول الشافعي، وحكاه القرطبي عن أكثر العلماء. قوله: ﴿وَأَنْ تَعْرِضَ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئًا﴾ أي: إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم، فلا سبيل لهم عليك، لأن الله حافظك وناصرك عليهم، وإن اخترت الحكم بينهم ﴿فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل الذي أمرك الله به وإنزله عليك. قوله: ﴿وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ فيه تعجيب له ﷺ من تحكيمهم إياه، مع كونهم لا يؤمنون به ولا بما جاء به، مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم في التوراة كالرجم، ونحوه، وإنما يأتون إليه ﷺ ويحكمونه طمعاً منهم في أن يوافق تحريفهم، وما صنعوه بالتوراة من التغيير. قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ عطف على يحكمونك ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد تحكيمهم لك، وجملة قوله: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ لتقرير مضمون ما قبلها. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ استئناف يتضمن تعظيم التوراة، وتفخيم

أرفع يده، فرفع يده فإذا آية الرجم، قالوا صدق، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن جابر بن عبد الله في قوله: **﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾** قال: يهود المدينة **﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتِكُمْ﴾** قال: يهود فلك **﴿يَحْزَنُونَ لَكُمْ﴾** قال: يهود فلك يقولون لليهود المدينة **﴿إِنْ أَوْتَيْتُمْ هَذَا﴾** الجلد **﴿فَخَذَوْهُ وَإِنْ لَمْ تَوْتُوهُ فَاحْذَرُوا﴾** الرجم. وأخرج أبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه، عنه قال: زنى رجل من أهل فلك، فكتب أهل فلك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً، ونكر القصة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿كَأَكَلُونَ الْحَسْبَ﴾** قال: أخذوا الرشوة في الحكم وقضوا بالكذب. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال: السحت الرشوة في الدين. قال سفيان: يعني في الحكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن مسعود أيضاً قال: من شفع لرجل ليبفع عنه مظلمة أو يرد عليه حقاً فأهدى له هدية فقبلها، فذلك السحت فقيل له: يا أبا عبد الرحمن إنا كنا نعد السحت الرشوة في الحكم، فقال ذلك الكفر **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** وقد روي نحو هذا عنه من طرق، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: رشوة الحكام حرام. وهي السحت الذي نكر الله في كتابه. وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال: السحت الرشوة. وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن السحت فقال: الرشا، فقيل له في الحكم، قال: ذاك الكفر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عمر قال: بابان من السحت ياكلهما الناس: الرشا في الحكم، ومهر الزانية. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في تحريم الرشوة ما هو معروف. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: آيتان نسختا من سورة المائدة: آية القلائد، وقوله: **﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾** فكان رسول الله ﷺ مخيراً: إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: **﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾** قال: فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا. وأخرج نحوه في الآية الأخيرة عنه أبو عبيدة وابن المنذر، وابن مريويه. وأخرج عبد الرزاق عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه عن ابن عباس أن الآيات من المائدة التي قال فيها: **﴿فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾** إلى قوله: **﴿الْمُقْسِطِينَ﴾** إنما نزلت في الية من بني النضير وقريظة، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف يوبون الية كاملة، وأن بني قريظة كانوا يوبون نصف الية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله

ﷺ دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم، فاما إذ قدم محمد ﷺ، فلا نعطيكم ذلك، فكانت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله ﷺ بينهما، ففكرت العزيرة فقالت: والله ما محمد يعطيكم منهم ضعف ما نعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً وقهراً لهم، ففسوا إلى رسول الله ﷺ من يخير لكم رأيهم، فإن أعطاكم ما تريدون حكمتوه، وإن لم يعطكم حذرتوه ولم تحكموه؛ ففسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين يختبرون لهم رأيهم، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله بأمرهم، كله وما أراؤا، فأنزل الله: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ﴾** إلى قوله: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** ثم قال فيهم: والله أنزلت وإياهم عني. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد وعبد بن حميد، وأبو داود وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة، قال: أول مرجوم رجمه رسول الله ﷺ من اليهود زنى رجل منهم وامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه نبي بعث بالتخفيف، فإن اقتانا بفتيانا بون الرجم قبلناهما واحتججنا بها عند الله وقلنا: فتيا نبي من أنبيائك، قال: فاتوا النبي ﷺ، وهو جالس في المسجد وأصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة منهم زنيا، فلم يكلمهم حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمم ونجبه ويجلد، والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أفتيتهما ويطاف بهما، وسكت شاب منهم، فلما رآه النبي ﷺ سكت الظ به النشدة فقال: اللهم إذ نشدتنا نجب فإننا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي ﷺ: فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟ قال: زنى رجل نو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه، فحال قومه بونه، وقالوا: والله لا ترجم صاحبنا حتى تجئ بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، قال النبي ﷺ: فإني أحكم بما في التوراة، فأمر بهما فرجما. قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾** فكان النبي ﷺ منهم. وأخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق أخرى عن أبي هريرة، وذكر فيه أن الشاب المذكور هو عبد الله بن سوريا. وأخرج نحو حديث أبي هريرة أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث البراء بن عازب. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث عبد الله بن عمر: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فنكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كنبتم إن فيها آية الرجم، فاتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام:

الأول، فيكون حالا من عيسى مؤكداً للحال الأول ومقرراً له. والأول أولى؛ لأن التأسيس خير من التأكيد. قوله: ﴿وهدي وموعظة للمتقين﴾ عطف على مصدقاً داخل تحت حكمه منضمّاً إليه: أي مصدقاً وهادياً وواعظاً للمتقين. قوله: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ هذا أمر لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه، فإنه قبل البعثة المحمية حق، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد ﷺ في القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة. وقرأ الأعمش وحمة بنصب الفعل من يحكم على أن اللام لام كي، وقرأ الباقر بن الجزم على أن اللام للأمر. فعلى القراءة الأولى، تكون اللام متعلقة بقوله: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه، وعلى القراءة الثانية: هو كلام مستأنف. قال مكي: والاختيار الجزم، لأن الجماعة عليه، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله لأهل الإنجيل. وقال النحاس: والصواب عندي أنهما قراءتان حسنتان؛ لأن الله سبحانه لم ينزل كتاباً إلا ليعمل بما فيه. قوله: ﴿وانزلنا إليك الكتاب﴾ خطاب لمحمد ﷺ، والكتاب القرآن والتعريف للعهد، و﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً: أي متلبساً بالحق؛ وقيل هو حال من فاعل أنزلنا؛ وقيل من ضمير النبي ﷺ و﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ حال من الكتاب، والتعريف في الكتاب أعني قوله: ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ للجنس: أي أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبساً بالحق وحال كونه مصدقاً لما بين يديه من كتب الله المنزلة؛ لكونه مشتملاً على الدعوة إلى الله، والأمر بالخير، والنهي عن الشر، كما اشتمل عليه قوله: ﴿ومهيماً عليه﴾ عطف على مصدقاً، والضمير في عليه عائذ إلى الكتاب الذي صدقه القرآن وهيمن عليه، والمهيمن الرقيب؛ وقيل الغالب المرتفع؛ وقيل الشاهد؛ وقيل الحافظ؛ وقيل المؤمن. قال المبرد: أصله مؤيّم أبداً من الهمة هاء، كما قيل في أرقط المال هرقط، وبه قال الزجاج وأبو علي الفارسي. وقال الجوهري: هو من آمن غيره من الخوف، وأصله آمن بهمتين فهو مؤمن بهمتين قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما، فصار مؤيّم ثم صيرت الأولى هاء، كما قالوا هراق الماء وأراقه، يقال هيمن على الشيء يهيمن: إذا كان له حافظاً، فهو له مهيم كذا عن أبي عبيد، وقرأ مجاهد وابن محيصن: «مهيماً عليه» بفتح الميم، أي: هيمن عليه الله سبحانه. والمعنى على قراءة الجمهور: أن القرآن صار شاهداً بصحة الكتب المنزلة ومقرراً لما فيها مما لم ينسخ، وناسخاً لما خالفه منها، ورقياً عليها وحافظاً لما فيها من أصول الشرائع، وغالباً لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ، ومؤمناً عليها لكونه مشتملاً على ما هو معمول به منها وما هو متروك. قوله: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي: بما أنزل إليك في القرآن؛ لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده في جميع الكتب السابقة عليه ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء أهل الملل السابقة. وقوله:

النفس هي مأخوذة بالنفس، فالأسماء معطوفة على هي. قال ابن المنذر: ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمن بيان الحكم للمسلمين. والظاهر من النظم القرآني أن العين إذا فقت حتى لم يبق فيها محال للإدراك أنها تفتق عين الجاني بها، والأنف إذا جدعت جميعها فإنها تجدد أنف الجاني بها، والأنف إذا قطعت جميعها فإنها تقطع أنف الجاني بها، وكذلك السن؛ فإما لو كانت الجنالية ذهبت ببعض إدراك العين، أو ببعض الأنف، أو ببعض الأذن، أو ببعض السن، فليس في هذه الآية ما يدل على ثبوت القصاص.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته، وكلامهم متون في كتب الفروع. والظاهر من قوله: ﴿والسن بالسن﴾ أنه لا فرق بين الثنايا والأنياب والأضراس والرباعيات، وأنه يؤخذ بعضها ببعض؛ ولا فضل لبعضها على بعض. وإليه ذهب أكثر أهل العلم، كما قال ابن المنذر، وخالف في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن تبعه، وكلامهم متون في مواطنه، ولكنه ينبغي أن يكون المأخوذ في القصاص من الجاني هو المماثل للسن المأخوذ من المجني عليه، فإن كانت ذاهبة فما يليها. قوله: ﴿والجروح قصاص﴾ أي نوات قصاص. وقد ذكر أهل العلم أنه لا قصاص في الجروح التي يخاف منها التلف، ولا فيما كان لا يعرف مقداره عمقاً أو طولاً أو عرضاً. وقد قنر أئمة الفقه أرش كل جراحة بمقايير معلومة، وليس هذا موضع بيان كلامهم، ولا موضع استيفاء بيان ما ورد له أرش مقنر. قوله: ﴿فمن تصنق به فهو كفارة له﴾ أي: من تصنق من المستحقين للقصاص بالقصاص، بأن عفا عن الجاني فهو كفارة للمتصنق يكفر الله عنه بها ذنوبه. وقيل إن المعنى: فهو كفارة للجراح فلا يؤخذ بجنائته في الآخرة، لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه. والأول أرجح، لأن الضمير يعود على هذا التفسير الآخر إلى غير منكر. قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ ضمير الفصل مع اسم الإشارة، وتعريف الخبر يستفاد منها أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية. قوله: ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم﴾ هذا شروع في بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة: أي جعلنا عيسى ابن مريم يقف آثارهم: أي آثار النبيين الذين أسلموا من بني إسرائيل، يقال قففته مثل عقبته: إذا تبعته؛ ثم يقال قففته بفلان وعقبته به فيتعدى إلى الثاني بالياء، والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف، وهو على آثارهم؛ لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، وانتصاب ﴿مصدقاً﴾ على الحال من عيسى ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ عطف على قفينا، ومحل الجملة أعني: ﴿فيه هدى﴾ النصب على الحال من الإنجيل ﴿ونور﴾ عطف على هدى. وقوله: ﴿ومصدقاً﴾ معطوف على محل ﴿فيه هدى﴾ أي: أن الإنجيل أوتي به عيسى حال كونه مشتملاً على الهدى والنور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة؛ وقيل إن مصدقاً معطوف على مصدقاً

عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية، والاستفهام في ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ للإنكار أيضاً أي: لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين لا عند أهل الجهل والأهواء.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿كتبنا عليهم فيها﴾ في التوراة. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه، قال: كتب عليهم هذا في التوراة، وكانوا يقتلون الحرَّ بالعبد، فيقولون كتب علينا أن النفس بالنفس. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر في قوله: ﴿فمن تصنق به فهو كفارة له﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصنق به. وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر ابن عبد الله ﴿فهو كفارة له﴾ قال: للمجروح. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيتصنق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس ﴿ومهمناً عليهم﴾ قال: مؤتمناً عليه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه قال: المهممن الأمين، والقرآن أمين على كل كتاب قبله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، عنه في قوله: ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ قال: سبيلاً وسنة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس: إذهبوا بنا إلى محمد لعنا أن نفتته عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصليك، فأبى ذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ إلى قوله: ﴿للقوم يوقنون﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿افحكم الجاهلية يبغون﴾ قال: يهود. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: هذا في قتل اليهود.

يَكُنَّا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ رَدَّ مِنْكُمْ مِّن دِينِهِ فَقَدْ بَايَ اللَّهَ وَيَوْمَ يُجْزَىٰ عَنْهُمْ
أُولَئِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَافٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ بِجَهْدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُوكَ لَوْمَةً إِلَّا بَرًّا
ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ وَهُمْ ذُكُورٌ ﴿٢٥﴾ وَمَن يَرْتَدَّ اللَّهُ رِجْلَهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ رِجْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٢٦﴾

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا﴾ الظاهر أنه خطاب للمؤمنين حقيقة؛ وقيل المراد بهم: المنافقون، ووصفهم بالإيمان باعتبار ما كانوا يظهرونه. وقد كانوا يوالون اليهود والنصارى فنهوا عن ذلك، والأولى: أن يكون خطاباً لكل من يتصف بالإيمان أعم من أن يكون ظاهراً

﴿عما جاءك من الحق﴾ متعلق بلا تتبع على تضمينه معنى لا تعدل أو لا تنحرف ﴿عما جاءك من الحق﴾ متبعاً لأهوائهم؛ وقيل متعلق بمحذوف: أي لا تتبع أهواءهم عادلاً أو منحرفاً عن الحق. وفيه النهي له ﷺ عن أن يتبع أهوية أهل الكتاب، ويعدل عن الحق الذي أنزله الله عليه، فإن كل ملة من الملل تهوي أن يكون الأمر على ما هم عليه، وما أنركوا عليه سلفهم، وإن كان باطلاً منسوخاً أو محرّفاً عن الحكم الذي أنزله الله على الأنبياء، كما وقع في الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله. قوله: ﴿لعل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ الشرعة والشرعية في الأصل: الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى الماء، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين. والمنهاج: الطريقة الواضحة البينة. وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الشرعية: ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر. ومعنى الآية: أنه جعل التوراة لاهلها، والإنجيل لاهلها، والقرآن لاهلها، وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن، وأما بعده فلا شرعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد ﷺ. قوله: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ بشرية واحدة وكتاب واحد ورسول واحد ﴿ولكن لئيلوكم﴾ أي ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد، بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع، فيكون ﴿لئيلوكم﴾ متعلقاً بمحذوف دل عليه سياق الكلام وهو ما نكرنا، ومعنى: ﴿فيما أتاكم﴾ فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والرسول هل تعملون بذلك وتذعنون له، أو تتركونه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته، وتميلون إلى الهوى وتشترون الضلالة بالهدى. وفيه دليل على أن اختلاف الشرائع هو لهذه العلة، أعني الابتلاء والامتحان، لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص. قوله: ﴿فاستبقيوا الخيرات﴾ أي: إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ما أمرتم بفعله وترك ما أمرتم بتركه. والاستباق: المسارعة ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ لا إلى غيره وهذه الجملة كالعلة لما قبلها. قوله: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ عطف على الكتاب: أي أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه. وقد استدلل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله: ﴿أو أعرض عنهم﴾ وقد تقدم تفسير ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ قوله: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي: يضلوك عنه ويصرفوك بسبب أهوائهم التي يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها ﴿فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك، فذلك لما أراد الله من تعذيبهم ببعض ذنوبهم وهو ذنب التولي عنك، والإعراض عما جئت به ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ متمردون عن قبول الحق خارجون عن الإنصاف. قوله: ﴿افحكم الجاهلية يبغون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقترن كما في نظائره. والمعنى: أيعرضون

يردّ عنك القدر المقدور وداثرات الدهر أن تدورا
أي: نولات الدهر الدائرة من قوم إلى قوم. وقوله:
﴿ففعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ ردّ عليهم ودفع لما وقع لهم
من الخشية، وعسى في كلام الله وعد صادق لا يتخلف.
والفتح: ظهور النبي ﷺ على الكافرين، ومنه ما وقع من
قتل مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم، وإجلاء بني النضير؛
وقيل هو فتح بلاد المشركين على المسلمين؛ وقيل فتح
مكة. والمراد بالأمر من عنده سبحانه: هو كل ما تندفع به
صولة اليهود ومن معهم وتتكسر به شوكتهم؛ وقيل: هو
إظهار أمر المنافقين وإخبار النبي ﷺ بما أسروا في
أنفسهم وأمره بقتلهم؛ وقيل: هو الجزية التي جعلها الله
عليهم؛ وقيل: الخصب والسعة للمسلمين، فيصبح المنافقون
﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من النفاق الحامل لهم على
الموالة ﴿فنادمين﴾ على ذلك؛ لبطلان الأسباب التي تخيلوها
وانكشاف خلافها. قوله: ﴿يقول الذين آمنوا﴾ قرأ أبو
عمرو، وابن أبي إسحاق، وأهل الكوفة بإثبات الواو، وقرأ
الباقيون بحذفها، فعلى القراءة الأولى مع رفع، يقول: يكون
كلاماً مبتدأ، مسوقاً لبيان ما وقع من هذه الطائفة، وعلى
قراءة النصب: يكون عطفاً على ﴿فيصبحوا﴾ وقيل: على
﴿يأتني﴾ والأولى أولى؛ لأن هذا القول إنما يصدر عن
المؤمنين عند ظهور ندامة الكافرين لا عند إتيان الفتح؛ وقيل
هو معطوف على الفتح كقول الشاعر:

لبس عباءة وتقرّ عيني

وأما على قراءة حذف الواو: فالجملة مستأنفة جواب
سؤال مقتر، والإشارة بقوله: ﴿أهؤلاء﴾ إلى المنافقين: أي
يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين:
﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم﴾
بالمناصرة والمعاضدة في القتال، أو يقول بعض المؤمنين
لبعض مشيرين إلى المنافقين، وهذه الجملة مفسرة للقول.
وجهد الإيمان: أغلظها، وهو منصوب على المصدر أو على
الحال. أي: أقسموا بالله جاهدين. قوله: ﴿حبطت أعمالهم﴾
أي: بطلت وهو من تمام قول المؤمنين، أو جملة مستأنفة،
والقائل الله سبحانه. والأعمال هي التي عملوها في الموالة
أو كل عمل يعملونه. قوله: ﴿ها أيها الذين آمنوا من يرتدّ
منكم﴾ قرأ أهل المدينة والشام: يرتدّ بدالين بفك الإدغام،
وهي لغة تميم، وقرأ غيرهم بالإدغام. وهذا شروع في بيان
أحكام المرتدين، بعد بيان أن موالة الكافرين من المسلم
كفر، وذلك نوع من أنواع الردّة. والمراد بالقوم الذين وعد الله
سبحانه بالإتيان بهم هم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه
وجيشه من الصحابة والتابعين، الذين قاتل بهم أهل الردّة،
ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين في جميع
الزمن، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف
العظيمة، المشتملة على غاية المدح ونهاية الثناء من كونهم
يحبون الله وهو يحبهم، ومن كونهم: ﴿أنلة على المؤمنين
أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون

وباطناً أو ظاهراً فقط، فيدخل المسلم والمنافق، ويؤيد هذا
قوله: ﴿فقرى الذين في قلوبهم مرض﴾ والاعتبار بعموم
اللفظ، وسياقي في بيان سبب نزول الآية ما يتضح به
المراد. والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء، أن يعاملوا
معاملة الأولياء في المصانقة والمعاشرة والمناصرة. وقوله:
﴿بعضهم أولياء بعض﴾ تعليل للنهي، والمعنى: أن بعض
اليهود أولياء البعض الآخر منهم، وبعض النصارى أولياء
البعض الآخر منهم، وليس المراد بالبعض إحدى طائفتي
اليهود والنصارى، وبالبعض الآخر الطائفة الأخرى للقطع
بأنهم في غاية من العداوة والشقاق ﴿وقالت اليهود ليست
النصارى على شيء﴾ [البقرة: 113] وقيل: المراد أن كل واحدة من
الطائفتين توالي الأخرى وتعاضدها، وتناصرها على عداوة
النبي ﷺ وعداوة ما جاء به، وإن كانوا في ذات بينهم
متعادين متضائين. ووجه تعليل النهي بهذه الجملة أنها
تقتضي أن هذه الموالة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم،
فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم، ولهذا عقب هذه
الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: ﴿ومن يتولهم
منكم فإنه منهم﴾ أي: فإنه من جملتهم وفي عدادهم وهو
وعيد شديد فإن المعصية الموجبة للكفر، هي التي قد بلغت
إلى غاية ليس وراءها غاية. وقوله: ﴿إن الله لا يهدي للظالمين﴾
تعليل للجملة التي قبلها: أي أن وقوعهم في
الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما
يوجب الكفر كمن يوالى الكافرين. قوله: ﴿فقرى الذين في
قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ الفاء للسببية، والخطاب
إما للرسل ﷺ، أو لكل من يصلح له أي: ما ارتكبه من
الموالة ووقعوا فيه من الكفر هو بسبب ما في قلوبهم من
مرض النفاق. وقوله: ﴿يسارعون﴾ في محل نصب إما على
أنه المفعول الثاني إذا كانت الرؤية قلبية أو على أنه حال إذا
كانت بصرية، وجعل المسارعة في موالاتهم مسارعة فيهم
للمبالغة في بيان رغوبهم في ذلك، حتى كأنهم مستقرّون
فيهم داخلون في عدادهم. وقد قرئ فيرى بالتحية. واختلف
في فاعله ما هو؟ فقيل: هو الله عز وجل؛ وقيل: هو كل من
تصح منه الرؤيا؛ وقيل: هو الموصول ومفعوله: ﴿يسارعون
فيهم﴾ على حذف أن المصدرية: أي فيرى القوم الذين في
قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم، فلما حذف ارتفع الفعل
كقوله:

إلا أي هذا اللائمي أحضر الوغا

والمرض في القلوب: هو النفاق والشك في الدين. وقوله:
﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ جملة مشتملة على
تعليل المسارعة في الموالة: أي أن هذه الخشية هي الحاملة
لهم على المسارعة؛ وقيل إن الجملة حال من ضمير
يسارعون. والدائرة: ما تدور من مكاره الدهر: أي نخشى أن
تظفر الكفار بمحمد ﷺ، فتكون الدولة لهم وتبطل دولته
فيصيبنا منهم مكروه، ومنه قول الشاعر:

لومة لائم ﴿والأنلة﴾ جمع نليل لا نلول، والأعزة: جمع عزيز: أي يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين، ويجمعون بين المجاهدة في سبيل الله، وعدم خوف الملامة في الدين، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق، وحزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوئ، ومنافيتهم مثالب، حسداً وبغضاً، وكراهة للحق وأهله، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من الصفات التي اختصهم الله بها. والفضل: اللطف والإحسان. قوله: ﴿إنما وليكم الله﴾ لما فرغ سبحانه من بيان من لا تحل موالاته، بين من هو الولي الذي تجب موالاته، ومحل ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ الرفع على أنه صفة للذين آمنوا، أو بدل منه، أو النصب على المدح. وقوله: ﴿وهم راعون﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله. والمراد بالركوع: الخضوع والخضوع: أي يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون؛ وقيل هو حال من فاعل الزكاة. والمراد بالركوع هو المعنى المذكور: أي يضعون الزكاة في مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم؛ وقيل المراد بالركوع على المعنى الثاني: ركوع الصلاة، وي دفعه عدم جواز إخراج الزكاة في تلك الحال، ثم وعد سبحانه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوهم، وهو من وضع الظاهر موضع المضمرة، ووضع حزب الله موضع ضمير الموالين له ورسوله وللمؤمنين. والحزب: الصنف من الناس، من قولهم حزبه كذا أي: نابه، فكان المتحزبين مجتمعين كاجتماع أهل النائية التي تنوب، وحزب الرجل: أصحابه، والحزب: الورد. وفي الحديث: «فمن فاتته حزبه من الليل، وتحزبوا: اجتمعوا. والأحزاب: الطوائف. وقد وقع، والله الحمد ما وعد الله به أوليائه وأوليائه رسله، وأوليائه عباداه المؤمنين من الغلب لعدوهم، فإنهم غلبوا اليهود بالنسي والقتل والإجلاء وضرب الجزية، حتى صاروا لعنهم الله أذل الطوائف الكفرية وأقلها شوكة، وما زالوا تحت كل كل المؤمنين يطحنونهم كيف شاؤوا، ويمتهنونهم كما يريدون من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغاية.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام بونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي بن سلول، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم. وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا

اليهود والنصارى أولياء﴾ إلى قوله: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أسلم عبد الله بن أبي بن سلول، ثم قال: إن بيني وبين قريظة والنضير حلفاً، وإنني أخاف الدوائر، فارتد كافراً. وقال عبادة بن الصامت: أتبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله، فنزلت. وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن أبيه، عن جده نحو ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة فنكر نحو ما تقدم. وأخرج ابن جرير، عن الزهري قال: لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر، فقال مالك بن الصيف: غرركم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال، أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يدان بقتالنا، فقال عبادة، نكر نحو ما تقدم عنه وعن عبد الله بن أبي. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ قال: إنها في الذبائح «من دخل في دين قوم فهو منهم». وأخرج عبد بن حميد عن حنيفة قال: «ليقت أحكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، وتلا ﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطية «فترى الذين في قلوبهم مرض» كعبد الله بن أبي «يسارعون فيهم» في ولايتهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي في سننه، وابن عساكر، عن قتادة قال: أنزل الله هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم﴾ وقد علم أنه سيرتد مرتون من الناس، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد: أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الجواثي من عبد القيس؛ وقال الذين ارتدوا: نصلي الصلاة ولا نركي، والله لا نقصب أموالنا، فكلم أبا بكر في ذلك ليتجاوز عنهم، وقيل له: إنهم لو قد فقهوا أنوا الزكاة؛ فقال: والله لا أفرق بين شيء جمعه الله، ولو منعوني عقلاً مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه، فبعث الله عصاباً مع أبي بكر، فقاتلوا حتى أقرروا بالماعون، وهو الزكاة. قال قتادة: فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه، «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه» إلى آخر الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل، عن الحسن نحوه. وأخرج ابن جرير، عن شريح بن عبيد قال: لما أنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن بيته﴾ الآية، قال عمر: أنا وقومي يا رسول الله؟ قال: لا بل هذا وقومه، يعني أبا موسى الأشعري. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة في مسنده، وعبد بن حميد، والحكيم، والترمذي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن عياض الأشعري قال: لما نزلت

وجئت فيه العلة المذكورة التي هي الباعثة على النهي. قوله: ﴿والكفار﴾ قرأ أبو عمرو، والكسائي بالجر على تقدير من: أي ومن الكفار. قال الكسائي: وفي حرف أبي ﴿ومن الكفار﴾ وقرأ من عداهما بالنصب. قال الخلاس: وهو أوضح وأبين. وقال مكي: لولا اتفاق الجماعة على النصب: لاخترت الخفض لقوته في الإعراب وفي المعنى، والمراد بالكفار هنا المشركون، وقيل: المنافقون، ﴿وتلقوا الله﴾ بترك ما نهاكم عنه، من هذا وغيره ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، والنداء الدعاء برفع الصوت، ونداءه مناداة ونداء: صاح به، وتنادوا: أي نادى بعضهم بعضاً. وتنادوا: أي جلسوا في النادي، والضمير في ﴿اتخذوها﴾ للصلاة: أي اتخذوا صلاتكم هزواً ولعباً؛ وقيل: الضمير للمناداة المللولة عليها بناديتهم. قيل: وليس في كتاب الله تعالى نكر الأذان إلا في هذا الموضع، وأما قوله تعالى في الجمعة: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ [الجمعة: 9] فهو خاص ببناء الجمعة. وقد اختلف أهل العلم في كون الأذان واجباً أو غير واجب، وفي الفاظه وهو مبسوط في موطنه. قوله: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون، لأن الهزؤ واللعب شأن أهل السفه والخفة والطيش. قوله: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ يقال: نقتم على الرجل فانا ناتم: إذا عبت عليه. قال الكسائي: نقتم بالكسر لغة، ونقتم الأمر أيضاً ونقتم: إذا كرهته، وانتقم الله منه: أي عاقبه، والاسم منه النقمة، والجمع نقمات، مثل كلمة وكلمات، وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون، والجمع: نقم مثل نعمة ونعم؛ وقيل: المعنى يسخطون؛ وقيل: ينكرون. قال عبد الله بن قيس الرقيات:

ما تنقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وقال الله سبحانه: ﴿وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ﴾ [البورج: 8]
والمعنى في الآية: هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو
تكرهون منا إلا إيماننا بالله ويكتبه المنزل، وقد علمتم بأننا
على الحق ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ بترككم للإيمان،
والخروج عن امتثال أوامر الله. وقوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرَهُمْ
فَاسِقُونَ﴾ معطوف على أن أئمتنا: أي ما تنقمون منا إلا
الجمع بين إيماننا وبين تمرّدكم وخروجكم عن الإيمان. وفيه
أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين، فإن الإيمان
من جهتهم والتمرّد والخروج من جهة الناقمين؛ وقيل هو
على تقدير محذوف: أي واعتقائنا أن أكثركم فاسقون؛ وقيل:
إن قوله ﴿أَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ هو منصوب على أنه مفعول له،
والمفعول محذوف، فيكون ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوفاً
عليه عطف العلة على العلة، والتقدير: وما تنقمون منا إلا لأن
أئمتنا، ولأن أكثركم فاسقون. وقيل: معطوف على علة محذوفة،
أي لقلة إنصافكم، ولأن أكثركم فاسقون؛ وقيل الواو في
قوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ هي التي بمعنى مع: أي ما
تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: هو
منصوب بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون: أي ولا

﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا»، وأشار إلى أبي موسى الأشعري. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم في جمعه لحديث شعبة، والبيهقي وابن عساکر، عن أبي موسى الأشعري قال: تليت عند النبي ﷺ ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: قومك يا أبا موسى أهل اليمن. وأخرج ابن أبي حاتم في الكنى، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، وابن مردويه بسند حسن عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ الآية، فقال: «هؤلاء قوم من أهل اليمن، ثم كندة، ثم السكون، ثم تجيب». وأخرج البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: هم قوم من أهل اليمن، ثم من كندة ثم من السكون. وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال: هم أهل القاسية. وأخرج البخاري في تاريخه عن القاسم بن مخيمرة قال: أتيت ابن عمر فرحب بي، ثم تلا ﴿من يرد منكم عن بيته فسوف يأتي الله بقوم﴾ الآية، ثم ضرب على منكبي وقال: أحلف بالله إنهم لمنكم أهل اليمن ثلاثاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عطية بن سعد. قال في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾، إنها نزلت في عبادة بن الصامت. وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عباس قال: تصدق علي بخاتم وهو راع، فقال النبي ﷺ للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذاك الراكع، فأنزل الله فيه ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، وابن عساکر، عن علي بن أبي طالب نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن عمار، نحوه أيضاً. وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه مجاهد عنه نحوه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ اخْتَلَفُوا بَيْنَكُمْ هُمْ وَمِنْ أَوْلِيائِهِمْ أَتُوبُوا
 الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَالْكَثِيرَ أُولَئِكَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُمْ مُخَوِّعُونَ ﴿١٠٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى
 الصَّفَافِ اخْتَلَعُوا بِكُمْ وَلِيَا ذَٰلِكُمْ وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقُونَ ﴿١٠٨﴾ قُلْ يَتَأَمَّلِ الْكُتُبَ
 هَلْ يَتَّقُونَ وَيَا آلَ آدَمَ إِنَّا جَاءُوكُمْ بِزُكْرٍ وَأَنَا نَبِيُّكُمْ وَمَا نُبِئُكُمْ مِنْ قَبْلِ وَأَنْ أَتَذَكَّرُ
 نَسِيئُونَ ﴿١٠٩﴾ قُلْ هَلْ أَتَيْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذِكْرِ مَنُوءَةٍ عَنْ أَهْلِ الْبَنَاتِ فَكَفَى اللَّهُ وَغَضِبَ
 عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْمُنَافِرَ وَعَبَدَ الصُّلُوفَ أُولَئِكَ سَرُّ نَكَاةٍ وَأَصْلٌ عَنْ سَوَاءِ
 السَّبِيلِ ﴿١١٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفَرِ وَمِمَّ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ وَرَبِّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَشْرَعُونَ فِي الْأَمْثَلِ وَالْمَذْذَنِ وَأَكْلِهِمْ
 الْأَسْحَبُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ لَوْلَا بَهْتُهُمُ الرِّبَايُونَ وَالْحَبَّارُ عَنْ قَوْلِهِ
 الْأَمْرُ وَأَعْمَهُمُ الْأَمْرُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَيْنَكُمْ وَهْوَ﴾ هذا النهي عن موالاة المتخذين للذين همزاً ولعياً يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين، وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام، والبيان بقوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكِتَابَ﴾ إلى آخره لا ينافي دخول غيرهم تحت النهي إذا

التنقمون أن أكثركم فاسقون؛ وقيل: هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف: أي وفسقم معلوم فتكون الجملة حالية، وقرئ بكسر إن من قوله: ﴿وإن أكثركم فاسقون﴾ فتكون جملة مستأنفة. قوله: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك﴾ بين الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن الله وغضبه ومسخه؛ والمعنى: هل أنبئكم بشر من نقمكم علينا أو بشر مما تريدون لنا من المكروه أو بشر من أهل الكتاب أو بشر من بينهم. وقوله: ﴿مثنوية﴾ أي جزاء ثابتاً، وهي مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر. ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة ﴿فنبشروهم ببذاب اليم﴾ [آل عمران: 21] وهي منصوبة على التمييز من بشر. وقوله: ﴿من لعنه الله﴾ خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف: أي هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله، ويجوز أن يكون في محل جر بدلاً من شر. قوله: ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ أي مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وهم اليهود، فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة، وكفار مائدة عيسى منهم خنازير وقوله: ﴿وعبد الطاغوت﴾ قرأ حمزة بضم الباء من عبد وكسر التاء من ﴿لطاغوت﴾ أي: جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد إلى الطاغوت. والمعنى: وجعل منهم من يبالغ في عبادة الطاغوت، لأن فعل من صيغ المبالغة؛ كحذر وفطن للتبليغ في الحذر والفطنة. وقرأ الباقر بفتح الباء من ﴿عبد﴾ وفتح التاء من ﴿لطاغوت﴾ على أنه فعل ماضٍ معطوف على فعل ماضٍ وهو غضب ولعن، كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت، أو معطوف على القردة والخنازير: أي جعل منهم القردة والخنازير، وجعل منهم عبد الطاغوت حملاً على لفظ من. وقرأ أبي مسعود ﴿وعبدوا الطاغوت﴾ حملاً على معناها. وقرأ ابن عباس ﴿وعبد﴾ بضم العين والباء كأنه جمع عبد، كما يقال: سقف وسقف، ويجوز أن يكون جمع عبيد، كزغيف وزغف، أو جمع عابد كبازل وبزل. وقرأ أبو واقد ﴿وعباد﴾ جمع عابد للمبالغة، كعامل وعمال. وقرأ البصريون وعباد جمع عابد أيضاً، كقائم وقيام، ويجوز أن يكون جمع عبد. وقرأ أبو جعفر الرقاشي وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، والتقدير وعبد الطاغوت فيهم. وقرأ عون العقيلي، وابن بريده وعابد الطاغوت على التوحيد. وروي عن ابن مسعود وأبي أنهما قرأ ﴿وعبد الطاغوت﴾ وقرأ عبيد بن عمير ﴿وأعبد الطاغوت﴾ مثل كلب وأكلب. وقرئ ﴿وعبد الطاغوت﴾ عطفًا على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف، وهي قراءة ضعيفة جداً، والطاغوت: الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدم مستوفى. قوله: ﴿لذلك شر مكاناً﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة، وجعلت الشرارة للمكان، وهي لاهله للمبالغة، ويجوز أن يكون الإسناد مجازياً. قوله: ﴿واضل عن سواء السبيل﴾ معطوف على شر، أي هم اضل من غيرهم عن الطريق المستقيم، والتفضيل في

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كان رفاة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث، قد أظهر الإسلام وناقفاً، وكان رجال من المسلمين يوالونهما، فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً﴾ إلى قوله: ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾. وأخرج

في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن الضحاک بن مزاحم نحوه، وقد وردت أحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا حاجة لنا في بسطها هنا.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَلَوْ مَا قَالُوا بِلَ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُقَيِّدُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَئِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ كِبَارًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفِقًا وَكُفْرًا وَالْقِيَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَمَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٤٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَوْا حَقَّهُمْ سَعَاتِهِمْ وَلَا كَفَلْنَاهُمْ جُنُودَ الْقِيَامِ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِحْسَانَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْبَرُوا مِنْ تَوْبِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ رَبُّهُمْ أَنَّهُ مُتَغَيِّبَةٌ وَكَبِيرٌ رَبُّهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤٦﴾

قوله: ﴿يد الله مقلوبة﴾ اليد: عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وخذ بيدك ضغثًا﴾ [ص: 44] وعلى النعمة، يقولون كم يد لي عند فلان؛ وعلى القدرة. ومنه قوله تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله﴾ [آل عمران: 73] أو على التأييد، ومنه قوله ﷺ: ﴿يد الله مع القاضي حين يقضي﴾ وتطلق على معانٍ أخرى. وهذه الآية هي على طريق التمثيل كقوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ [الإسراء: 29] والعرب تطلق غل اليد على البخل، وبسطها على الجود مجازاً، ولا يربون الجارحة كما يصفون البخل بأنه جعد الأنامل ومقبوض الكف، ومنه قول الشاعر:

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبطلت بعده جعداً أنامله كأنما وجهه بالبخل منضوح
فمراد اليهود هنا عليهم لعائن الله أن الله بخيل، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿غلت أيديهم﴾ دعاء عليهم بالبخل، فيكون الجواب عليهم مطابقاً لما أرآه يقول: ﴿يد الله مغلولة﴾ ويجوز أن يراد غل أيديهم حقيقة بالأسر في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة، ويقوي المعنى الأول: أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس، فلا ترى يهودياً، وإن كان ماله في غاية الكثرة، إلا وهو من أبخل خلق الله، وأيضاً المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله. قوله: ﴿ولنعونا بما قالوا﴾ معطوف على ما قبله والباء سببية: أي أبعونا من رحمة الله بسبب قولهم: ﴿يد الله مغلولة﴾، ثم رد سبحانه بقوله: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾ أي: بل هو في غاية ما يكون من الجود، وذكر اليمين مع كونهم لم ينكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليمين أبلغ من نسبتها إلى اليد الواحدة، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدرة يقتضيها المقام: أي كلا ليس الأمر كذلك: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾ وقيل المراد بقوله: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾ نعمة الدنيا الظاهرة ونعمتها الباطنة؛ وقيل: نعمة المطر والنبات؛ وقيل: الثواب والعقاب. وحكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ «بل يدها مبسوطتان»: أي منطلقتان كيف يشاء. قوله: ﴿ينفق كيف يشاء﴾ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه: أي

البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا نأيتهم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً﴾ قال: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إلى الصلاة، قالت اليهود والنصارى: قد قاموا لا قاموا، فإذا راوهم ركعوا وسجدوا استهزؤا بهم وضحكوا منهم. قال: وكان رجل من اليهود تاجراً، إذا سمع المنادي ينادي بالأذان قال: لحرقت الله الكائب؛ قال: فبينما هو كذلك، إذ نخلت جاريته بشعلة من نار، فطارت شرارة منها في البيت فأحرقته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي قال: كان رجل من النصارى فنكر نحو قصة الرجل اليهودي. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ نفر من اليهود، فسألوه عن يؤمن به من الرسل فقال: أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون؛ فلما نكر عيسى جعلوا نبوته، وقالوا: لا تؤمن بعيسى ولا تؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ إلى قوله: ﴿فاسقون﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وجعل منهم لقردة والخنازير﴾ قال: مسخت من يهود. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي مالك أنه قيل له: كانت القردة والخنازير قبل أن يمسخوا؟ قال: نعم، وكانوا مما خلق من الأمم. وأخرج مسلم، وابن مردويه، عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير هما مما مسخ الله، فقال: إن الله لم يهلك قوماً، أو قال: لم يمسح قوماً فيجعل لهم نسلًا ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وإذا جاؤكم قالوا آمنا﴾ الآية، قال أناس من اليهود: كانوا يدخلون على النبي ﷺ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به، وهم متمسكون بضلالتهم وبالكفر، فكانوا يدخلون بذلك ويخرجون به من عند رسول الله ﷺ. وأخرج ابن جرير، عن السدي في الآية قال: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهوداً، يقول نخلوا كفاراً وخرجوا كفاراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان﴾ قال: هؤلاء اليهود ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ إلى قوله: ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ قال: يصنعون ويعملون واحد، قال لهؤلاء حين لم ينتهوا، كما قال لهؤلاء حين عملوا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ قال: فهل لا ينهاهم الربانيون والأحبار، وهم الفقهاء والعلماء. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ وأخرج ابن المبارك

إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته، فإن شاء وسع، وإن شاء قتر، فهو الباسط القابض؛ فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة، لا لشيء آخر، فإن خزائن ملكه لا تفنى ومواد جوده لا تنتامى. قوله: ﴿وَلِيُزِيدَنَّا كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ الخ، اللام هي لام القسم: أي ليزيدن كثيراً من اليهود والنصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: طغياناً إلى طغيانهم، وكفراً إلى كفرهم. قوله: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين اليهود والعداوة والبغضاء، أو بين اليهود والنصارى. قوله: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَاها اللهُ﴾ أي: كلما جمعوا للحرب جمعاً وأعدوا له عدة شنت الله جمعهم، وذهب بريحهم، فلم يظفروا بطائل ولا عابوا بفائدة، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها، ثم يبطل الله ذلك، والآية مشتملة على استعارة بليغة، وأسلوب بديع ﴿وَيُوسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسادًا﴾ أي يجتهدون في فعل ما فيه فساد، ومن أعظمه ما يريدونه من إبطال الإسلام وكيد أهله؛ وقيل المراد بالنار هنا الغضب: أي كلما أثاروا في أنفسهم غضباً أطفأه الله بما جعله من الرعب في صدورهم، والنللة والمسكنة المضروبتين عليهم. قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ إن كانت اللام للجنس، فهم داخلون في تلك دخولاً أولياً، وإن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمحل لبيان شدة فسادهم، وكونهم لا ينفكون عنه. قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: لو أن المتمسكين بالكتاب، وهم اليهود والنصارى، على أن التعريف للجنس ﴿آمَنُوا﴾ الإيمان الذي طلبه الله منهم، ومن أهمه الإيمان بما جاء به محمد ﷺ كما أمروا بذلك في كتب الله المنزل عليهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ المعاصي التي من أعظمها ما هم عليه من الشرك بالله، والوجود لما جاء به رسول الله ﷺ لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ التي اقترفوها، وإن كانت كثيرة متنوعة؛ وقيل المعنى: لو سعنا عليهم في أرزاقهم، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: أقاموا ما فيهما من الأحكام التي من جملتها الإيمان بما جاء به محمد ﷺ. قوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَّبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله التي من جملتها القرآن، فإنها كلها وإن نزلت على غيرهم، فهي في حكم المنزل عليهم لكونهم متعبدين بما فيها؛ ﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾ ذكر فوق وتحت للمبالغة في تيسر أسباب الرزق لهم وكثرتها، وتعدد أنواعها. قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: هل جميعهم متصفون بالأوصاف السابقة، أو البعض منهم دون البعض، والمقتصدون منهم هم: المؤمنون كعبد الله بن سلام، ومن تبعه، وطائفة من النصارى ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وهم المصرون على الكفر المتمركزون عن إجابة محمد ﷺ والإيمان بما جاء به.

النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ عنه أنها نزلت في فنحاص اليهودي. وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي بخيلة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلِيُزِيدَنَّا كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قال: حملهم حسد محمد والعرب على أن تركوا القرآن، وكفروا بمحمد وبينه، وهم يحبونه مكتوباً عندهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ قال: حرب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في الآية: كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقته الله، وأطفأ حدتهم ونارهم، وقذف في قلوبهم الرعب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ قال: آمنوا بما أنزل على محمد، واتقوا ما حرم الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ قال: العمل بهما، وأما ما أنزل إليهم، فمحمد ﷺ، وما أنزل عليه، وأما: ﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فأرسلت عليهم مطراً، وأما: ﴿مَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾ يقول: أنبت لهم من الأرض من رزقي ما يغنيهم، ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ وهم مسلمة أهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿لَاكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني لأرسل عليهم السماء مدراراً ﴿وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾ قال: تخرج الأرض من بركتها. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الربيع بن أنس قال: الأمة المقتصدة: الذين لا هم فسقوا في الدين ولا هم غلوا. قال: والغلو الرغبة، والفسق التقصير عنه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ يقول: مؤمنة. وأخرج ابن مريويه قال: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس الضبي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنذكر حديثاً، قال: ثم حدثهم النبي ﷺ قال: «تفرقت أمة موسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار؛ وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، تعلوا أمتي على الفريقين جميعاً ملة واحدة في الجنة وثلثتان وسبعون منها في النار، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: الجماعات الجماعات» قال يعقوب بن زيد: كان علي بن أبي طالب إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآنًا، قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ

وقد أخرج ابن إسحاق، والطبراني في الكبير، وابن مريويه، عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له

من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلة وتوهمات باطلة، فإن كل محنة في الظاهر هي منحة في الحقيقة، لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والآخرى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَظَنَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]. قوله: ﴿إِنْ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ جملة متضمنة لتعليل ما سبق من العصمة: أي إن الله لا يجعل لهم سبيلاً إلى الإضرار بك، فلا تخف وبلغ ما أمرت بتبليغه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: يا رب إنما أنا واحد كيف أصنع؟ يجتمع علي الناس، فنزلت: ﴿وَأَنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أن رسول الله ﷺ قال: إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعاً وعرفت أن الناس مكذبني، فوعظني لأبلغن أو ليعذبنني، فأنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: إن كنتم آية مما أنزل إليك لم تبلغ رسالته. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خم، في علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إن علياً مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عنترة، قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عنكم شيئاً لم يده رسول الله ﷺ للناس، فقال: ألم تعلم أن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ والله ما ورنّا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء. وأخرج ابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل: أي آية أنزلت من السماء أشد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم، فاجتمع مشركوا العرب وأفناء الناس في الموسم، فأنزل علي جبريل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، قال: فقامت عند العقبة فناديت يا أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالة ربي وله الجنة، أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة، قال: فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون بالتراب والحجارة ويبرزون في وجهي ويقولون: كذب صابئ، فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبي ﷺ: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فجاء العباس عمه فانقذه منهم وطردهم عنه، قال الأعمش: فبذلك يفتخر بنو العباس ويقولون فيهم نزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] هو النبي ﷺ أبا طالب، وشاء الله عباس بن عبد المطلب.

ساء ما يعملون﴾ وتلا أيضاً: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: 181] يعني: أمة محمد ﷺ. قال ابن كثير في تفسيره بعد نكوه لهذا الحديث ما لفظه: وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين، مروى من طرق عديدة قد نكرناها في موضع آخر انتهى. قلت: أما زيادة كونها في النار إلا واحدة، فقد ضعفها جماعة من المحدثين، بل قال ابن حزم إنها: موضوعة.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

العموم الكائن في ما أنزل يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزله الله إليه، لا يكتم منه شيئاً. وفيه دليل على أنه لم يسر إلى أحد مما يتعلق بما أنزله الله إليه شيئاً، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من زعم أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد كذب. وفي صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عنكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ ما أمرت به من تبليغ الجميع، بل كتمت ولو بعضاً من ذلك ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. قرأ أبو عمرو، وأهل الكوفة إلا شعبة «رسالته»، على التوحيد. وقرأ أهل المدينة وأهل الشام «رسالاته»، على الجمع، قال النحاس: والجمع أبين لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحي شيئاً فشيئاً، ثم يبينه انتهى. وفيه نظر، فإن نفي التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن الرسالات، كما نكره علماء البيان على خلاف في ذلك، وقد بلغ رسول الله ﷺ لأمته ما نزل إليهم، وقال لهم في غير موطن: هل بلغت؟ فيشبهون له بالبيان، فجاءه الله عن أمته خيراً؟ ثم إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعاً لما يظن أنه حامل على كتم البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله، فإنه بين لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام، ثم حمل من أبي من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعاً أو كرهاً، وقتل صنائيد الشرك وفرق جموعهم وبند شملهم، وكانت كلمة الله هي العليا، فأسلم كل من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل، حتى قال يوم الفتح لصنائيد قريش وكابريهم: ما تظنون أنني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم فقال: انهبوا فأنتم الطلقاء، وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس، إن قام ببيان حجج الله، وإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهرائي من ضائد الله وعانده ولم يمثل لشعره كلوائف المبتدعة، وقد رأينا من هذا في أنفسنا وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيماناً وصلابة في بين الله وشدة شكيمه في القيام بحجة الله، وكل ما يظنه متزلزلاً الاقدام، ومضطرباً القلوب،

وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعصمكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله. قال الحاكم في المستدرک: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرج الطبراني، وابن مردويه من حديث أبي سعيد. وقد روى في هذا المعنى أحاديث. وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني النصارى نزل ذات الرقيع بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس يثر قد دلى رجله، فقال الوارث من بني النجار: لاقتلن محمداً، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له أعطني سيفك فإذا أعطانيه قتلته به؛ فأتاه فقال: يا محمد أعطني سيفك أشمه، فأعطاه إياه، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول الله ﷺ: حال الله بينك وبين ما تريد، فانزل الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية. قال ابن كثير: وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج ابن حبان في صحيحه، وابن مردويه عن أبي هريرة نحو هذه القصة، ولم يسم الرجل. وأخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظي نحوه، وفي الباب روايات. وقصة غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح، وهي معروفة مشهورة.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لَسْتُ عَلَىٰ مَنٍّ حَتَّىٰ تَتِيمُوا التَّوْرَةَ وَلَا الْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَٰزِمًا مِّمَّنْ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ مُطَاعًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِقُونَ وَالْآخِرُونَ مِن ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٨﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمْنَا هُمْ رَسُولًا بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿١٠٩﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ مِنكُمْ قِنَاقَةً فَمَآ وَصَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَّوْا كَيْدَ بَيْنِهِمْ وَاللَّهُ بِمَا يَمْكُرُونَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُم مِّنْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصَارٍ ﴿١١١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكٌ تَلْدُنَا وَكَأَنَّكَ إِلَٰهٌ مَّا لَنَا إِلَٰهٌ وَجَدَّ وَإِنَّهُم يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١٢﴾ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ الَّذِي كُفِّرُوا بِهِ ثُمَّ عَدَابُوا رَبَّهُمْ ﴿١١٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَتَنَفَّرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ مَرْيَمُ كَفَرُوا بِكَلِمَاتِهِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ أَفْطَرًا كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ نَنْظُرُ أَنَّنَا يَرْجُؤُنَا

ولا فاعلموا أنا وإنتم بغاة ما بقينا في شقاق أي: ولا فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، ومثله قول ضابي البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها الغريب أي: فإني لغريب وقيار كذلك. وقال الكسائي والآخر: إن الصابئون معطوف على المضمر في هادوا. قال النحاس: سمعت الزجاج يقول وقد ذكر له قول الكسائي والآخر: هذا خطأ من وجهين: أحدهما أن المضمر المرفوع لا يعطف عليه حتى يؤكد. وثانيهما أن المعطوف شريك المعطوف عليه، فيصير المعنى: إن الصابئين قد دخلوا في اليهودية، وهذا محال. وقال الفراء: إنما جاز الرفع لأن إن ضعيفة فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر، فعلى هذا هو عنده معطوف على محل اسم إن، أو على مجموع إن واسمها، وقيل إن خبر إن مقدر، والجملة الآتية خبر الصابئون والنصارى، كما في قول الشاعر:

نحن بما عندنا وإنت بما عندك راض والرائي مختلف وقيل: إن إن هنا بمعنى نعم: فالصابئون مرتفع بالابتداء، ومثله قول قيس بن الرقيات:

بكر العوائل في الصبا ح يلمنني والومنه ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

قال الأخفش: إنه بمعنى نعم والهاء للسكت. وقد تقدم الكلام على الصابئين والنصارى في البقرة، وقرئ الصابيون صريحة تخفيفاً للهمزة، وقرئ الصابئون بدون ياء، وهو من صبا يصبو لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى، وقرئ

قوله: ﴿على شيء﴾ فيه تحقير وتقليل لما هم عليه: أي لستم على شيء يعتد به حتى تقيموا التوراة والإنجيل: أي تعملوا بما فيهما من أوامر الله ونواهيه التي من جملتها

وقرى: ﴿عموا وصموا﴾ بالبناء للمفعول: أي أعماهم الله وأصمهم. قوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾. هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب، والقائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم: يقال لهم اليعقوبية؛ وقيل: هم الملكانية، قالوا: إن الله عز وجل حل في ذات عيسى، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي: والحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة، فكيف يدعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثله؟ قوله: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ الضمير للشأن، وهذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة، وقيل: هو من قول عيسى ﴿وما للظالمين من نصار﴾ ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار. قوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وهذا كلام أيضاً مبتدأ لبيان بعض مخازيهم. والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة، ولهذا يضاف إلى ما بعده، ولا يجوز فيه التثنية كما قال الزجاج وغيره، وإنما ينون وينصب ما بعده إذا كان ما بعده بونه بمرتبة نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة، والقائل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة هم النصاري، والمراد بالثلاثة: الله سبحانه، وعيسى، ومريم كما يدل عليه قوله: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾ [المائدة: 116] وهذا هو المراد بقولهم ثلاثة أقانيم: إقنيم الأب وإقنيم الابن، وإقنيم روح القدس، وقد تقدم في سورة النساء كلام في هذا، ثم رد الله سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال: ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ أي: ليس في الوجود إلا الله سبحانه، وهذه الجملة حالية، والمعنى: قالوا تلك المقالة، والحال أنه لا موجود إلا الله، ومن في قوله: ﴿من إله﴾ لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفي: ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾ من الكفر، ﴿ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم﴾ جواب قسم محذوف ساء مسد جواب الشرط، ومن في ﴿منهم﴾ بيانية أو تبعيضية ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾ الفاء للعطف على مقدر، والهمزة للإنكار. قوله: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي: هو مقصور على الرسالة، لا يجاوزها كما زعمتم، وجملة: ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول: أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، وما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلهاً، فقد كان لمن قبله من الرسل مثله، فإن الله أحيا العصى في يد موسى، وخلق آدم من غير أب، فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى، ووجوده من غير أب يوجبان كونه إلهاً، فإن كان كما تزعمون إلهاً لذلك، فمن قبله من الرسل الذين جاؤوا بمثل ما جاء به آله، وأنتم لا تقولون بذلك. قوله: ﴿وإنه صديقه﴾ عطف على المسيح: أي وما أمه إلا صديقة، أي صائقة فيما تقول أو مصدقة لما جاء به ولدها من الرسالة، وذلك لا يستلزم الإلهية لها، بل هي كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء. قوله: ﴿كانا

والصابئين﴾ عطفاً على اسم إن قوله: ﴿من آمن بالله﴾ مبتدأ وخبره ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والمبتدأ وخبره خبر لأن، وبخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، والعائد إلى اسم إن محذوف: أي من آمن منهم، ويجوز أن يكون من آمن بدلاً من اسم إن وما عطف عليه، ويكون خبر إن ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين كما قلنا: أن من آمن من هذه الطوائف إيماناً خالصاً على الوجه المطلوب، وعمل عملاً صالحاً، فهو الذي لا خوف عليه ولا حزن، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام: المخلص والمنافق، فالمراد بمن آمن من اتصف بالإيمان الخالص واستمر عليه، ومن أحدث إيماناً خالصاً بعد نفاقه. قوله: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ كلام مبتدأ؛ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة. وقد تقدم في البقرة بيان معنى الميثاق ﴿وارسلنا إليهم رسلاً﴾ ليعزفهم بالشرائع وينذروهم ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ جملة شرطية وقعت جواباً لسؤال ناس من الأحزاب بإرسال الرسل كأنه قيل: ماذا فعلوا بالرسول؟ وجواب الشرط محذوف: أي عصوه. وقوله: ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ جملة مستأنفة أيضاً جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأول كأنه قيل: كيف فعلوا بهم. ففريقاً منهم كذبوه ولم يتعرضوا لهم بضرب، وفريقاً آخر منهم قتلوه، وإنما قال: ﴿وفريقاً يقتلون﴾ لمرعاة رؤوس الآي، فمن كذبه عيسى وأمثاله من الأنبياء، ومن قتلوه زكريا ويحيى. قوله: ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن لا يقع من الله عز وجل ابتلاء واختبار بالشدائد اعتزازاً بقولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحببوه﴾ [المائدة: 18] قرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي ﴿تكون﴾ بالرفع على أن أن هي المخففة من الثقيلة، وحسب بمعنى علم، لأن أن معناها التحقيق. وقرأ الباقر بالنصب على أن أن ناصبة للفعل، وحسب بمعنى الخن، قال النحاس: والرفع عند النحويين في حسبت وأخواتها أجود، ومثله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يشهد للهو أمثالي
قوله: ﴿فعموا وصموا﴾ أي: عموا عن أبصار الهدى، وصموا عن استماع الحق، وهذه إشارة إلى ما وقع من بني إسرائيل في الابتداء من مخالفة أحكام التوراة، وقتل شعيا، ثم تاب الله عليهم حين تابوا، فكشف عنهم القحط ﴿ثم عموا وصموا كثير منهم﴾ وهذا إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا وقصدهم لقتل عيسى، وارتفاع ﴿كثير﴾ على البذل من الضمير في الفعلين. قال الأخفش: كما تقول رأيت قومك ثلاثتهم، وإن شئت كان على إضمار مبتدأ: أي العمى والصم كثير منهم، ويجوز أن يكون كثير مرتفعاً على الفاعلية على لغة من قال: لكتوني البراغيث، ومنه قول الشاعر:

ولكن نفاسي لبوه وأمه بحوران يعصرن السليط إقاربه

كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَتَاكَ إِلَّا مَا عَقَّدُوهُمْ أَزْلَةً
وَلَكِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُوا ﴿٨١﴾

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذا القول إلزاماً لهم وقطعاً لشبهتهم: أي أتعبدون من دون الله متجاوزين إياه ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً؟ بل هو عبد مأمور، وما جرى على يده من النفع، أو دفع من الضر، فهو بإقدار الله له وتمكينه منه، وأما هو فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئاً من ذلك، فضلاً عن أن يملكه لغيره، ومن كان لا ينفع ولا يضر فكيف تتخونونه إلهاً وتعبدونه، وأي سبب يقتضي ذلك؟ والمراد هنا المسيح عليه السلام، وقدم سبحانه الضر على النفع لأن دفع المفساد أهم من جلب المصالح. ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً، والحال أن الله هو السميع العليم، ومن كان كذلك فهو القادر على الضر والنفع لإحاطته بكل مسموع ومعلوم، ومن جملة ذلك مضاركم ومنافعكم. قوله: ﴿تَغْلُوا فِي بَيْتِكُمْ﴾ لما أبطل سبحانه جميع ما تعلقوا به من الشبه الباطلة، نهاهم عن الغلو في دينهم، وهو المجاوزة للحد كإثبات الإلهية لعيسى، كما يقوله النصارى، أو حطه عن مرتبته العلية، كما يقوله اليهود فإن كل ذلك من الغلو المذموم وسلوك طريقة الإفرات أو التفريط، واختيارهما على طريق الصواب. ﴿وَوَغَيْرِ﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف: أي غلواً غير غلو الحق، وأما الغلو في الحق بإبلاغ كلية الجهد في البحث عنه، واستخراج حقائقه فليس بمذموم، وقيل إن النصب على الاستثناء المتصل؛ وقيل: على المنقطع ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ وهم أسلاف أهل الكتاب من طائفتي اليهود والنصارى: أي قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ﴿وَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن قصدهم طريق محمد ﷺ بعد البعثة، والمراد أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة وأضلوا كثيراً من الناس إذ ذاك، وضلوا من بعد البعثة، وأضلوا كثيراً من الناس إذ ذاك، وضلوا من بعد البعثة، إما بانفسهم، أو جعل ضلال من أضلوه ضلالاً لهم؛ لكونهم سنوا لهم ذلك ونهجوه لهم؛ وقيل المراد بالأول: كفرهم بما يقتضيه العقل، وبالثاني: كفرهم بما يقتضيه الشرع. قوله: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: لعنهم الله سبحانه ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: في الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى بما فعلوه من المعاصي، كاعتدائهم في السبت، وكفرهم بعيسى. قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، والإشارة بذلك إلى اللعن: أي ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر، ثم بين سبحانه المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلَاهُمْ﴾ فأسند الفعل إليهم لكونه فاعله من جملتهم وإن لم يفعلوه جميعاً. والمعنى: أنهم كانوا لا ينهاون العاصي عن معاودة معصية قد فعلها، أو تهياً لفعلها، ويحتمل أن

يكلان الطعام استئناف يتضمن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أقراد البشر: أي من كان يكل الطعام كسائر المخلوقين فليس برّب، بل هو عبد مربوب ولدت النساء، فمتى يصلح لأن يكون رباً؟ وأما قولكم إنه كان يكل الطعام بناسوته لا بلاهوته، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله واجتماع الناسوت واللاهوت، ولو جاز اختلاط القديم بالحادث لجاز أن يكون القديم حادثاً، ولو صح هذا في حق عيسى لصح في حق غيره من العباد ﴿فَنَظَرَ كَيْفَ نَجَّيْنَاهُم مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي الدلالات، وفيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزماً للإلهية، ويغفلون عن كونها موجودة في من لا يقولون بأنه إله ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان؟ يقال أفكه يافكه إذا صرفه، وكرر الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب، وجاء بثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: جاء نافع بن حارثة وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حرملة فقالوا: يا محمد الست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق؟ فقال النبي ﷺ: بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق، وكفرتم منها بما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من أحداكم، قالوا: فلماذا تؤخذ بما في أيدينا وإنما على الهدى والحق، ولا تؤمن بك ولا تتبعك، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَن لَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: بلاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال: النصارى يقولون إن الله ثالث ثلاثة وكذبوا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: تفرقت بنو إسرائيل ثلاث فرقة في عيسى، فقالت فرقة هو الله، وقالت فرقة هو ابن الله، وقالت فرقة هو عبد الله وروحه، وهي المقصدية وهي مسلمة أهل الكتاب.

قُلْ أَشْهَدُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨٢﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي رِبِّكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٨٣﴾ لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٨٤﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلَاهُمْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٥﴾ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَوْ

يعني في الزبور ﴿وعيسى ابن مريم﴾ يعني في الإنجيل. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك الغفاري في الآية قال: لعنوا على لسان داود فجعلوا قرده، وعلى لسان عيسى فجعلوا خنازير. وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج البيهقي في مسند الفريوس، عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعاً: قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار، فقام مائة واثنان عشر رجلاً من عبادهم فأمرهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً في آخر النهار، فهم الذين نكر الله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ الآيات. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿لبئس ما قُتِمَ لهم أنفسهم﴾ قال: ما أمرتهم. وأخرج ابن أبي حاتم والخرائطي في مسأوى الأخلاق، وابن مريويه، والبيهقي في شعب الإيمان، وضعفه، عن حنيفة عن النبي ﷺ قال: «يا معشر المسلمين إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة؛ فاما التي في الدنيا: فذهاب البهاء، وبوام الفقر، وقصر العمر؛ واما التي في الآخرة: فسخط الله، وسوء الحساب، والخلود في النار؛ ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لبئس ما قُتِمَ لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾» قال ابن كثير في تفسيره: هذا الحديث ضعيف على كل حال. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ قال: المنافقون.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَتَوْكُم مِّنْ بَيْنِهِمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: كانوا مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ووضلوا عن سواء السبيل﴾ قال: يهود. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول له: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود﴾ إلى قوله: ﴿فاسقون﴾» ثم قال: كلا، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً. وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة، والاحاديث في هذا الباب كثيرة جداً فلا تطول بذكرها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود﴾

يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار، وبين العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر؛ لأن من أخل بواجب النهي عن المنكر فقد عصى الله سبحانه وتعدى حدوده. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجل الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه كما وقع لأهل السبت، فإن الله سبحانه مسح من لم يشاركهم في الفعل، ولكن ترك الإنكار عليهم، كما مسح المعتدين فصاروا جميعاً قرده وخنازير ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: 37] ثم إن الله سبحانه قال مقبحاً لعدم التناهي عن المنكر ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ أي: من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره ﴿ترى كثيراً منهم﴾ أي: من اليهود مثل كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يتولون الذين كفروا﴾ أي: المشركين وليسوا على دينهم ﴿لبئس ما قُتِمَ لهم أنفسهم﴾ أي: سولت وزينت، أو ما قُتِموا لأنفسهم؛ ليربوا عليه يوم القيامة، والمخصوص بالذم هو ﴿أن سخط الله عليهم﴾ أي: موجب سخط الله عليهم على حنف مضاف أو هو سخط الله عليهم على حنف المبتدأ؛ وقيل هو: أي أن سخط الله عليهم يدل من ما ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي﴾ أي: نبيهم ﴿وما أنزل إليه﴾ من الكتاب ﴿ما اتخذوهم﴾ أي: المشركين ﴿أولياء﴾ لأن الله سبحانه، ورسوله المرسل إليهم، وكتابه المنزل عليهم قد نهواهم عن ذلك ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن ولاية الله وعن الإيمان به وبرسوله وكتابه.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿لا تغلوا في بينكم﴾ يقول: لا تبتدعوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: كانوا مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ووضلوا عن سواء السبيل﴾ قال: يهود. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول له: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود﴾ إلى قوله: ﴿فاسقون﴾» ثم قال: كلا، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً. وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة، والاحاديث في هذا الباب كثيرة جداً فلا تطول بذكرها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود﴾

قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَتَوْكُم مِّنْ بَيْنِهِمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. الخ هذه جملة مستأنفة لما قبلها من تعداد مساوى اليهود وهناتهم، وبخول لام القسم عليها يزيدا تأكيداً وتقريباً، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز. والمعنى في الآية: أن اليهود والمشركين لعنهم الله أشد جميع الناس عداوة للمؤمنين وأصلبهم في ذلك. وإن النصرى أقرب الناس مودة للمؤمنين، واللام في ﴿للتنين آمنوا﴾ في الموضوعين متعلقة بمحذوف وقع صفة لعداوة ومودة، وقيل هو متعلق بعداوة ومودة؛ والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى كونهم أقرب مودة، والباء في ﴿بأن منهم قسيسين﴾ للسببية: أي ذلك بسبب أن منهم قسيسين، وهو

الدخول مع الصالحين؟ فالحال الأولى والثانية صاحبهما الضمير في ﴿لَنَا﴾ وعاملهما الفعل المقدر: أي حصل، ويجوز أن تكون الحال الثانية من الضمير في ﴿نُؤْمِنُ﴾ والتقدير: وما لنا نجتمع بين ترك الإيمان وبين الطمع في صحبة الصالحين. قوله: ﴿فَنُثَابِهِمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ الخ ثابهم على هذا القول مخلصين له معتقدين لضمونه. قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التأكيد بالآيات كفر، فهو من باب عطف الخاص على العام. والجحيم: النار الشديدة الإيقاد، ويقال جحيم فلان النار: إذا شدد إيقادها، ويقال أيضاً لعين الأسد: جحمة لشدة اتقادها. قال الشاعر:

والحرب لا تبقى لأحدهما التحيل والمزاح

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ﴾ الآية قال هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله» وفي لفظ: «إلا حثت نفسه بقتله» قال ابن كثير: وهو غريب جداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال: ما نكر الله به النصراني من خير فإنما يراد به النجاشي وأصحابه. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: هم ناس من الحبشة آمنوا إذا جاءتهم مهاجرة المؤمنین فنلك لهم. وأخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو نعيم، في الحلية والواحي من طريق ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعروة بن الزبير قالوا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتاباً إلى النجاشي، فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسل النجاشي إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع، وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مروي، عن سعيد بن جبير في الآية قال: هم رسل النجاشي بإسلامه وإسلام قومه، كانوا سبعين رجلاً يختارهم من قومه، الخير فالخير، في الفقه والسنن، وفي لفظ: نعت من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلاً، فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، فأنزل الله فيهم: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَمْرِهِمْ السَّيِّئِ﴾ الآية ونزلت هذه الآية فيهم أيضاً «الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون» [القصص: 52] إلى قوله:

جمع قس وقسيس قاله قطرب. والقسيس: العالم، وأصله من قس: إذا تتبع الشيء وطلبه. قال الرازي:

يصبح عن قس الأذى غوافلاً وتقتست أصواتهم بالليل تسمعتها

والقس: النعمة. والقس أيضاً: رئيس النصراني في الدين والعلم، وجمعه قسوس أيضاً، وكذلك القسيس: مثل الشر والشّرير، ويقال في جمع قسيس تكسيراً قساوسة بإبدال أحد السينين واواً، وأصل قساوسة، فالمراد بالقسيسين في الآية: المتبعون للعلماء والعباد، وهو إما عجمي خلطته العرب بكلامها، أو عربي، والرهبان: جمع راهب كركبان وراكب، والفعل رهب الله يرهبه: أي خافه. والرهبانية والترهب: التبعد في الصوامع. قال أبو عبيد: وقد يكون رهبان للواحد والجمع. قال الفراء: ويجمع رهبان إذا كان للمفرد رهبان ورهبان كقربان وقربانين. وقد قال جرير في الجمع:

رهبان مدين لو راوك ترهبوا

وقال الشاعر في استعمال رهبان مفرداً:

لو أبصرت رهبان دير في الجبل لانحدر الرهبان يسعى ونزل

ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن قول الحق، بل هم متواضعون، بخلاف اليهود فإنهم على ضد ذلك، وهذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ معطوف على جملة ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. «تفيض من الدمع» أي: تمتلئ فتفيض، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء، جعل الأعين تفيض، والفاضض: إنما هو الدمع قصداً للمبالغة كقولهم دمعت عينه. قال امرؤ القيس:

ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بلّ لمعي محلي

قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ من الأولى لابتداء الغاية، والثانية بيانية: أي كان ابتداء الفيض ناشئاً من معرفة الحق، ويجوز أن تكون الثانية تبعية، وقرئ: «تَرَى أَعْيُنُهُمْ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ». وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ استئناف مسوق لجواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما حالهم عند سماع القرآن؟ فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَكُتِبْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: آمنا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد وبمن أنزلته عليه فكُتِبْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ على الناس يوم القيامة، من أمة محمد أو مع الشاهدين بأنه حق، أو مع الشاهدين بصلق محمد وأنه رسولك إلى الناس. قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ كلام مستأنف، والاستفهام للاستبعاد ﴿وَلَنَا﴾ متعلق بمحذوف، و﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ في محل نصب في الحال، والتقدير: أي شيء حصل لنا حال كوننا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وبما جاءنا من الحق؟ والمعنى: أنهم استبعدوا انتفاء الإيمان منهم مع جود المقضى له، وهو الطمع في إنعام الله، فالاستفهام والنفي متوجهان إلى القيد والمقيد جميعاً كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح: 13]، والوار في ﴿وَنُطْمِعُ﴾ أن يبخلنا ربنا مع القوم للصالحين، للحال أيضاً بتقدير مبتدأ: أي أي شيء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع في

يحرم عليه ولا يلزمه كفارة. وقال أبو حنيفة وأحمد ومن تابعهما: إن من حرّم شيئاً صار محرماً عليه، وإذا تناوله لزمته الكفارة، وهو خلاف ما في هذه الآية، وخلاف ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، ولعله يأتي في سورة التحريم ما هو أبسط من هذا إن شاء الله. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ تعليل لما قبله، وظاهره أن تحريم كل اعتداء: أي مجاوزة لما شرعه الله في كل أمر من الأمور ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ حال كونه ﴿حَلَالاً طَيِّباً﴾ أي: غير محرّم ولا مستقذر، أو أكلا حلالاً طيباً، أو كلوا حلالاً طيباً مما رزقكم الله، ثم وصاهم الله سبحانه بالتقوى فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

وقد أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عدي في الكامل، والطبراني، وابن مروي، عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وأخذتني شهوة، وإني حرمت علي اللحم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وقد روي من وجه آخر مرسلًا، وروي موقوفًا على ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عنه في الآية قال: نزلت في رهط من الصحابة قالوا: نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا، ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك فقالوا نعم، فقال النبي ﷺ: «لكنني أصوم وأقصر وأصلي وأنام وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني». وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما، من دون ذكر أن ذلك سبب نزول الآية، وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، في المراسيل، وابن جرير، عن أبي مالك أن هؤلاء الرهط هم عثمان بن مظعون وأصحابه، وفي الباب روايات كثيرة بهذا المعنى، وكثير منها مصرّح بأن ذلك سبب نزول الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن عبد الله بن ربيعة ضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ ثم رجع إلى أهله، فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظاراً له، فقال لامراته: حبست ضيفي من أجلي هو حرام علي، فقالت امرأته: هو حرام علي فقال الضيف: هو حرام علي، فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا بسم الله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «قد أصبت» فانزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وهذا أثر منقطع، ولكن في صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا. وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال: كنا عند عبد الله فجاء بضرع، ففتحن رجل، فقال له عبد الله: ابن، فقال: إني حرمت أن أكله، فقال عبد الله: ابن فاطم وكفر عن يمينك، وتلا هذه الآية. وأخرجه أيضاً الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُلُوهِ فِي أَمْثَالِكُمْ وَلَكِنْ يُوَازِنُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ [القصاص: 54]. وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، وأبو الشيخ وابن مروي، عن ابن عباس نحوه بدون ذكر العدد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي قال: بعث النجاشي إلى رسول الله ﷺ اثني عشر رجلاً، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً، ينظرون إليه ويسألونه فلما لقوه قرأ عليهم ما أنزل الله بكوا وآمنوا، فانزل الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ الآية، والروايات في هذا الباب كثيرة، وهذا المقدار يكفي، فليس المراد إلا بيان سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿قَسِيصِينَ﴾ قال: هم علماءهم. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: القسيسون عبادهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِلَى اللَّهِ لَا يَحِبُّ الْمُكْتَبِينَ ﴿٥٥﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾

الطيبات: هي المستلذات لما أحله الله لعباده، نهى الذين آمنوا عن أن يحرموا على أنفسهم شيئاً منهم، إما لظنهم أن في ذلك طاعة لله وتقرباً إليه، وأنه من الزهد في الدنيا لرفع النفس عن شهواتها، أو لقصد أن يحرموا على أنفسهم شيئاً مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم: حرام علي، وحرّمته على نفسي، ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل تحت هذا النهي القرآني. قال ابن جرير الطبري: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات الطعام والملابس والمنكح، ولذلك ردّ النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون.

فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب الله عباده إليه، وعمل به رسول الله ﷺ وسنة لامته، واتباعه على منهجه الأئمة الراشدين، إذ كان خير الهدي هدي نبينا محمد ﷺ. فإذا كان ذلك كذلك، تبين خطأ من أثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، وأثر أكل الخشن من الطعام، وترك اللحم، وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء. قال: فإن ظن ظان أن الفضل في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وإكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة، فقد ظن خطأ، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها، ولا شيء، أضّر للجسم من الطعام الرديئة، لأنها مفسدة لعقله، ومضعفة لأبواته التي جعلها الله سبباً إلى طاعته. قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تعتدوا على الله بتحريم طيبات ما أحل الله لكم، أو لا تعتدوا فتحلوا ما حرّم الله عليكم: أي تترخصوا فتحلوا حراماً كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن من حرّم على نفسه شيئاً مما أحله الله له فلا

وصاع مما عده. وقد أخرج ابن ماجه، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كفر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وكفر الناس به، ومن لم يجد فنصف صاع من بر، وفي إسناده عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي وهو مجمع على ضعفه. وقال الدارقطني: متروك. قوله: ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾ عطف على إطعام. قرئ بضم الكاف وكسرها وهما لغتان مثل أسوة وإسوة. وقرأ سعيد بن جبيرة، ومحمد بن السميع اليماني «أو كاسوتهم»: يعني كاسوة أهليكم، والكسوة في الرجال تصدق على ما يكسو البدن، ولو كان ثوباً واحداً، وهكذا في كسوة النساء؛ وقيل الكسوة للنساء درع وخمار؛ وقيل المراد بالكسوة ما تجزئ به الصلاة. قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق مملوك، والتحرير: الإخراج من الرق، ويستعمل التحرير في فك الأسير وإعفاء المجهود بعمل عن عمله وترك إنزال الضرر به، ومنه قول الفرزدق:

أبني غدانة أنني حررتكم فومبتكم لعطية بن جعال
أي حررتكم من الهجاء الذي كان سيضع منكم ويضر بأحسابكم.

ولاهل العلم أبحاث في الرقبة التي تجزئ في الكفارة، وظاهر هذه الآية أنها تجزئ كل رقبة على أي صفة كانت. وذهب جماعة منهم الشافعي إلى اشتراط الإيمان فيها، قياساً على كفارة القتل: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام، وقرئ «متتابعات» حكى ذلك عن ابن مسعود وأبي، فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم. وبه قال أبو حنيفة والثوري، وهو أحد قول الشافعي. وقال مالك، والشافعي في قوله الآخر: يجزئ التفريق ﴿لَكُمْ كَفَّارَةٌ إِيْمَانُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي تلك المذكور كفارة إيمانكم إذا حلفتם وحنثتم، ثم أمرهم بحفظ الإيمان، وعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها، والإشارة بقوله: ﴿كذلك﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده، أي مثل تلك البيان ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ وقد تكرر هذا في مواضع من الكتاب العزيز، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما أنعم به عليكم من بيان شرائعه وإيضاح أحكامه.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في القوم الذين كانوا حرّموا على أنفسهم النساء واللحم قالوا: يا رسول الله كيف نصنع بليماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله: ﴿لَا يُلَاحِظْكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي إِيْمَانِكُمْ﴾ وأخرج عبد بن حميد، عن سعيد بن جبيرة، في اللغو قال: هو الرجل يحلف على الحلال. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: هما الرجلان يتبايعان، يقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا، وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن النخعي قال: اللغو أن يصل كلامه بالحلف: والله لتأكلن والله لتشربن ونحو هذا لا يريد به يميناً ولا يتعمد حلفاً، فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة، وقد تقدم الكلام في

فكفارتها. إِمَامٌ عَشْرَةَ مَسَكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْبَعُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتَهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ إِيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا إِيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
قد تقدم تفسير اللغو، والخلاف فيه، في سورة البقرة، و﴿في إيمانكم﴾ صلة ﴿يؤاخذكم﴾، قيل و﴿في﴾ بمعنى من والإيمان جمع يمين. وفي الآية دليل على أن إيمان اللغو لا يؤاخذ الله الحالف بها، ولا تجب فيها الكفارة. وقد ذهب الجمهور من الصحابة، ومن بعدهم، إلى أنها قول الرجل: لا والله وبلى والله في كلامه، غير معتقد لليمين، وبه فسر الصحابة الآية وهم أعرف بمعاني القرآن. قال الشافعي: وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة. قوله: ﴿وَلَكِنْ يُلَاحِظْكُمْ بِمَا عَقَبْتُمُ الْإِيْمَانِ﴾ قرئ بتشديد «عقدتم» وبخفيفه، وقرئ «عاقبتهم». والعقد على ضربين: حسي، كعقد الحبل؛ وحكمي، كعقد البيع، واليمين، والعهد. قال الشاعر:

قوم إذا عَقَبُوا عَقْدًا لَجَرَهُمْ شَبَّوا العَناجَ وشَبَّوا فوقه الكُربا
فاليمين المعقدة من عقد القلب ليفعلن أو لايفعلن في المستقبل: أي ولكن يؤاخذكم بإيمانكم المعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنثتم فيها. وأما اليمين الغموس: فهي يمين مكر وخديعة، وكذب قد باء الحالف بإثمها، وليست بمعقودة ولا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور، وقال الشافعي: هي يمين معقودة لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم الله، والراجح الأول، وجميع الأحاديث الواردة في تكفير اليمين متوجهة إلى المعقودة ولا يدل شيء منها على الغموس، بل ما ورد في الغموس إلا الوعيد والترهيب، وإنها من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وإِيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77] الآية. قوله: ﴿فكفارته﴾ الكفارة: هي مأخوذة من التكفير وهو التستير، وكذلك الكفر هو الستر، والكافر هو الساتر، لأنها تستر الذنب وتغطي، والضمير في كفارته راجع إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَا عَقَبْتُمْ﴾. إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، المراد بالوسط هنا المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، وليس المراد به الأعلى كما في غير هذا الموضع: أي أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه، وظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا. وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغنيهم ويعشيهم. قال أبو عمر: هو قول أئمة الفتوى بالأمصار. وقال الحسن البصري وابن سيرين: يكفي أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة: خبزاً وسمناً، أو خبزاً ولحماً. وقال عمر بن الخطاب، وعائشة، ومجاهد، والشعبي، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم النخعي، وميمون بن مهران، وأبو مالك، والضحاك والحكم، ومكحول، وأبو قلابة، ومقاتل: يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر. وروي ذلك عن علي. وقال أبو حنيفة نصف صاع بر

شَهْرَهُ ۝ وَالْيَهُودُ وَالنَّسَارَىٰ وَالْمَسِيحِيُّونَ وَالْأَنْصَارُ ۚ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَىٰ رِسْوَاتٍ لِّكُلِّ بَلِيٍّ ۖ لِّسَّ عَلَى الْأَيْدِي وَرِجَالِهِمُ النَّارُ ۚ فَاصْلَحُوا لِنَجَاتِ خَلْقٍ فِيكُمْ ۖ إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب لجميع المؤمنين. وقد تقدم تفسير الميسر في سورة البقرة ﴿وَالْأَنْصَابُ﴾ هي: الأصنام المنصوبة للعبادة، ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾. قد تقدم تفسيرها في أوّل هذه السورة، والرجس يطلق على العثرة والافتقار، وهو خبر للخمر، وخبر المعطوف عليه محذوف. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ﴾ صفة لرجس: أي كائن من عمل الشيطان، بسبب تحسينه لذلك وتزيينه له وقيل: هو الذي كان عمل هذه الأمور بنفسه فاقتدى به بنو آدم والضمير في ﴿فَلَجْتَئِبُوهُ﴾ راجع إلى الرجس أو إلى المنكور. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ علة لما قبله. قال في الكشف: أكد تحريم الخمر والميسر وجوهاً من التأكيد، منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام ومنه قوله ۞: «شارب الخمر كعابد الوثن»، ومنها أنه جعلهما رجساً، كما قال: ﴿فَلَجْتَئِبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَرْثَانِ﴾ [الحج: 30]، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشرّ البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة ومحنة، ومنها أنه نكر ما ينتج منهما من الويل، وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمر، وما يؤديان إليه من الصدّ عن نكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلوات انتهى.

وفي هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الأمر بالاجتناب من الوجوب وتحريم الصدّ، ولما تقرّر في الشريعة من تحريم قربان الرجس، فضلاً عن جعله شرباً يشرب. قال أهل العلم من المفسرين وغيرهم: كان تحريم الخمر بتدريج ونوازل كثيرة، لأنهم كانوا قد ألفوا شربها وحبيبها الشيطان إلى قلوبهم، فأول ما نزل في أمرها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219] فترك عند ذلك بعض من المسلمين شربها، ولم يتركها آخرون، ثم نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء: 43] فتركها البعض أيضاً، وقالوا لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها البعض في غير أوقات الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا لِلْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ فَصَارَتْ حَرَاماً عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ كَانَ يَاقُولُ بَعْضُهُمْ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ الْخَمْرِ، وَلَنُكَرَّ اللَّهُ مَا فَهَمُوهُ مِنَ التَّشْدِيدِ فِيمَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الزَّوْجَرِ، وَفِيمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَابِيثُ الصَّحِيحَةُ مِنَ الْوَعِيدِ لِشَارِبِهَا، وَأَنَّهَا مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.

وقد أجمع على ذلك المسلمون إجماعاً لا شك فيه ولا شبهة، وأجمعوا أيضاً على تحريم بيعها والانتفاع بها ما

البقرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَلَكِنْ يُولَخْذِكُمْ بِمَا عَقِبْتُمُ الْإِيمَانَ﴾ قال: بما تعمدتم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عمر: أن رسول الله ۞ كان يقيم كفارة اليمين مذاً من حنطة، وفي إسناده النضر بن زرار بن عبد الكريم اللذهلي الكوفي. قال أبو حاتم مجهول، ونكره ابن حبان في الثقات. وقد تقدّم حديث ابن عباس وتضعيفه. وأخرج ابن مريويه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: كنا نعطي في كفارة اليمين بالمد الذي نقتات به، وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: إنني أحلف لا أعطي أقواماً، ثم يبيعوني لي فأعطيهم، فأطعم عشرة مساكين كل مسكين صاعاً من شعير، أو صاعاً من تمر أو نصف صاع من قمح، وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال: في كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع من حنطة. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس مثله. وأخرج عنه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق قال: في كفارة اليمين مد من حنطة لكل مسكين. وأخرج هؤلاء إلا ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت مثله. وأخرج هؤلاء أيضاً عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب قال: تغديهم وتغشيهم إن شئت خبزاً ولحماً، أو خبزاً وزيتاً، أو خبزاً وسمناً، أو خبزاً وتمراً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: من عسرهم ويسرهم. وأخرج ابن ماجه عنه قال: الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه شدة، فنزلت: ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه عنه نحو ذلك. وأخرج الطبراني وابن مريويه، عن عائشة عن النبي ۞ في قوله: ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾ قال: عبادة لكل مسكين، قال ابن كثير: حديث غريب. وأخرج ابن مريويه عن حنيفة قال: قلت يا رسول الله ۞ ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾ ما هو؟ قال: عبادة عبادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: عبادة لكل مسكين أو شملة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: الكسوة ثوب أو إزار. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: في كفارة اليمين هو بالخيار في هؤلاء الثلاثة الأوّل فالأوّل، فإن لم يجد من ذلك شيئاً فصيام ثلاثة أيام متتابعات. وأخرج ابن مريويه عنه نحوه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَكْفُرُ بِالنَّاصِبِ وَالْأَكْثَرِ بِرَجْسٍ مِّنْ عَمَلِ الْفَاطِنِ فَاصْبِرُوا لِمَا لَكُم مِّنْ قَوْلِهِمْ ۖ إِنَّمَا يُرِيدُ الْفَاطِنُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْكَفْرِ وَالنَّيْبِ وَصَدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ

والثالث: الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل، وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: 219] الآية، فقيل: حرّمت الخمر، فقيل: يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله، فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: 43]، فقيل: حرّمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم، ثم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «حرّمت الخمر»، وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: حرّمت الخمر ثلاث مرات، ونكر نحو حديث ابن عمر، فقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فراشهم كانوا يشربون الخمر ويكلمون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وقال النبي ﷺ: «لو حرّم عليهم لتركوه كما تركتم». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن سعد بن أبي وقاص قال: في نزل تحريم الخمر، صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا ناساً، فأثروه، فاكلوا وشربوا، حتى انتشروا من الخمر، وذلك قبل تحريم الخمر فتفاخروا، فقالت الأنصار: الانتصار خير من المهاجرين، وقالت قريش: قريش خير، فأهوى رجل بلحى جمل فضرب على أنفي، فأتيت النبي ﷺ فنكرت ذلك له، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: أنزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته، فيقول صنع بي هذا أخي فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع بي هذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان قتل يوم بدر، وفلان قتل يوم أحد، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ الآية. وقد رويت في سبب النزول روايات كثيرة موافقة لما قد نكرناه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الميسر هو القمار كله. وأخرج ابن مروي، عن وهب بن كيسان قال: قلت لجابر متى حرّمت الخمر؟ قال: بعد أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة قال: نزل تحريم الخمر في سورة المائدة، بعد غزوة الأحزاب. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: كل القمار من الميسر حتى لعب

دامت خمرأً، وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر، دلت أيضاً على تحريم الميسر، والأنصاب، والأزلام. وقد أشارت هذه الآية إلى ما في الخمر والميسر من المفساد الدنيوية بقوله: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ ومن المفساد الدينية بقوله: ﴿وَيُصْنِتُكُمْ عَنْ نِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾. قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فيه زجر بليغ يفيد الاستفهام الدال على التوبيخ والتوبيخ. ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما سمع هذا: انتهينا، ثم أكد الله سبحانه هذا التحريم بقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ أي مخالفتها: أي مخالفة الله ورسوله، فإن هذا وإن كان أمراً مطلقاً فالمجيء به في هذا الموضع يفيد ما نكرناه من التأكيد، وهكذا ما أفاده بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا لِبَلَاغِ الْمُبِينِ﴾ أي: إن عرضتم عن الامتثال، فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذي فيه رشاكم وصلاحكم، ولم تضرّوا بالمخالفة إلا أنفسكم، وفي هذا من الزجر ما لا يقاير قدره ولا يبلغ مداه. قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ أي: من المطاعم التي يشتهونها، والطعم وإن كان استعماله في الأكل أكثر لكنه يجوز استعماله في الشرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: 249] أباح الله سبحانه لهم في هذه الآية جميع ما طعموا كائن ما كان مقيداً بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ أي: اتقوا ما هو محرّم عليهم كالخمر وغيره من الكبائر، وجميع المعاصي ﴿وَأَمْنُوا﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأعمال التي شرعها الله لهم: أي استمروا على عملها. قوله: ﴿ثُمَّ لَتَقْوَاهُ﴾ عطف على اتقوا الأوّل: أي اتقوا ما حرّم عليهم بعد ذلك مع كونه كان مباحاً فيما سبق ﴿وَأَمْنُوا﴾ بتحريمه ﴿ثُمَّ لَتَقْوَاهُ﴾ ما حرّم عليهم بعد التحريم المذكور قبله مما كان مباحاً من قبل، ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ أي: عملوا الأعمال الحسنة، هذا معنى الآية: وقيل: التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة: وقيل: إن التكرير باعتبار المراتب الثلاث، المبدأ، والوسط، والمنتهى؛ وقيل: إن التكرار باعتبار ما يتقيه الإنسان، فإنه ينبغي له أن يترك المحرّمات توقياً من العذاب، والشبهات توقياً من الوقوع في الحرام، وبعض المباحات حفظاً للنفس عن الخسة؛ وقيل إنه لمجرد التأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم كلا سوف تعلمون، ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 3، 4]، هذه الوجوه كلها مع قطع النظر عن سبب نزول الآية إما مع النظر إلى سبب نزولها، وهو أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها ويكل الميسر؟ فنزلت، فقد قيل: إن المعنى ﴿لَتَقْوَاهُ﴾ الشرك ﴿وَأَمْنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿ثُمَّ لَتَقْوَاهُ﴾ الكبائر ﴿وَأَمْنُوا﴾ أي: ازدادوا إيماناً ﴿ثُمَّ لَتَقْوَاهُ﴾ الصغائر ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ أي: تنفلوا. قال ابن جرير الطبري: الاتقاء الأول: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق،

والأزلام: قدام كانوا يستقسمون بها الأمور. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الأزلام قال: هي كعاب فارس التي يقتسمون بها، وسهام العرب. وقد وردت أحاديث كثيرة في نَم الخمر وشاربيها، والوعيد الشديد عليه، وأن كل مسكر حرام، وهي مدونة في كتب الحديث، فلا تطول المقام بذكرها، فلنسنا بصدد ذلك، بل نحن بصدد ما هو متعلق بالتفسير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ الْفِتْنَةُ مِنَ الصِّدْقِ تَنَالُهُمُ آيَاتُكُمْ وَرَمَاهُمْ يَسْتَرْكِبُونَ فِيهَا بِالْغَيْبِ مِمَّنْ آمَنُوا بَدَّ ذَٰلِكَ قَلَمًا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُفْقِدُوا الصِّدْقَ أَثَمَ حُرْمٌ وَمَنْ قَلَمًا مِنْكُمْ مُتَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُلَّ مِنَ النَّفَرِ مِنْكُمْ بِرُءُوسِهِمْ وَذَٰلِكَ عَدْلٌ بَيْنَكُمْ هَٰذَا بَيْنَ الْكَافِرِ أَوْ كَذِبَةٌ لَعَنَ اللَّهُ مَسْكِينَهُ أَوْ عَدْلٌ ذَٰلِكَ مِثْلًا لِيُذَوَّقَ وَبِأَلِّ أَمْرِهِ عَنَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَنَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٢٠﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ صَبْرٌ صَبْرًا وَعَمَّا مِمَّنْ مَنَّا لَكُمْ وَلَاسِيَرَةً وَمَنْ عَلَيْكُمْ صَبْرٌ أَلِيمٌ مَا دُمَّتْ حُرْمٌ وَأَقْبَلُوا اللَّهُ الْوَيْتَ إِلَىٰ تَحْشُرُونَ ﴿٢١﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّةَ آيَةً الْحَرَامِ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ وَالشَّهَرِ الْحَرَامَ وَالْمَدِينَةَ وَالْقَلْبَةَ ذَٰلِكَ لِيَسْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ أَصْلَحُوا إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣﴾ مَا عَلَى الْأَرْسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُدُونُ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿لَبِئْسَ لَكُمْ﴾ أي ليختبرنكم، واللام جواب قسم محذوف، كان الصيد أحد معاش العرب فابتلاههم الله بتحريمه مع الإحرام وفي الحرم، كما ابتلى بني إسرائيل أن لا يعتدوا في السبت، وكان نزول الآية في عام الحديبية، أحرم بعضهم وبعضهم لم يحرم، فكان إذا عرض صيد اختلفت فيه أحوالهم.

وقد اختلف العلماء في المخاطبين بهذه الآية، هل هم المحلون أو المحرمون؟ فذهب إلى الأول: مالك وإلى الثاني: ابن عباس، والراجح أن الخطاب للجميع، ولا وجه لقصره على البعض نون البعض، و«من» في ﴿مِنَ الصِّدْقِ﴾ للتبعيض وهو صيد البر، قاله ابن جرير الطبري وغيره؛ وقيل: إن «من» بليانية: أي شيء حقير من الصيد، وتنكير شيء للتحقير. قوله: ﴿تَنَالُهُمُ آيَاتُكُمْ وَرَمَاهُمْ﴾ قرأ ابن وثاب (يناله) بالياء التحتية، هذه الجملة تقتضي تعميم الصيد، وأنه لا فرق بين ما يؤخذ باليد، وهو ما لا يطبق الفرار كالصغار والبيض، وبين ما تناله الرماح: وهو ما يطبق الفرار وخص الأيدي بالذكر: لأنها أكثر ما يتصرف به الصائد في أخذ الصيد، وخص الرماح بالذكر: لأنها أعظم الآلات للصيد عند العرب. قوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليميز عند الله من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروي فإنه غائب عنكم غير حاضر، ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بعد هذا البيان الذي امتحنكم الله به، لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة لله سبحانه

الصبيان بالجوز والكعاب. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر، عن علي بن أبي طالب قال: النرد والشطرنج من الميسر. وأخرج عبد بن حميد عن علي قال: الشطرنج ميسر الأعاجم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن القاسم بن محمد، أنه سئل عن النرد أهى من الميسر؟ قال: كل من الهى عن نكر الله وعن الصلاة فهو ميسر. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، والبيهقي في الشعب، عنه أيضاً أنه قيل له: هذه النرد تكمونها فما بال الشطرنج؟ قال: كل ما الهى عن نكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر. وأخرجوا أيضاً عن ابن الزبير قال: يا أهل مكة بلغني عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها النردشير، والله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وإني أحلف بالله لا أوتي بأحد يلعب بها إلا عاقبته في شعره وبشره، وأعطيت سلبه من آتاني به. وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن انس قال: الشطرنج من النرد، بلغنا عن ابن عباس أنه ولي مال يتيم فاحرقها. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عبد الله بن عمير قال: سئل ابن عمر عن الشطرنج؟ فقال هي شر من النرد. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عبد الملك بن عبيد قال: رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن في كل يوم اثنتي عشرة مرة إلا أصحاب النشاة، يعني أصحاب الشطرنج. وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر أنه سئل عن الشطرنج، فقال تلك المجوسية فلا تلعبوا بها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فقد عصى الله ورسوله». وأخرج أحمد عن عبد الرحيم الخطمي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقبح ولم الخنزير ثم يقوم فيصلي». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر قال: اللاعب بالنرد قماراً كآكل لحم الخنزير، والللاعب بها من غير قمار كالمذهن بوبك الخنزير. وأخرج ابن أبي الدنيا، عن يحيى بن كثير قال: «مر رسول الله ﷺ يقوم يلعبون بالنرد فقال: قلوب لاهية وأيدي عليلة والسنة لاغية». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: الميسر القمار. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، من طريق ليث عن عطاء وطاوس، ومجاهد قالوا: كل شيء فيه قمار، فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن ابن سيرين قال: القمار من الميسر. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، عنه قال: ما كان من لعب فيه قمار، أو قيام أو صياح، أو شر، فهو من الميسر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن شريح، أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من الميسر: الصفير بالحمام، والقمار، والضرب بالكعاب». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأنصاب حجارة كانوا يذبحون لها،

وتجربة عليه. قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ﴾ نهاهم عن قتل الصيد في حال الإحرام، وفي معناه ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ [المائدة: 1] وهذا النهي شامل لكل أحد من نكور المسلمين وإناتهم، لأنه يقال رجل حرام وامرأة حرام والجمع حرم، وأحرَم الرجل: نخل في الحرم. قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً﴾ المتعمد: هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام، والمخطئ: هو الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً، والناسي: هو الذي يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه. وقد استدلل ابن عباس، وأحمد في رواية، وداود عنه باقتضاره سبحانه على العائد بأنه لا كفارة على غيره، بل لا تجب إلا عليه وحده. وبه قال سعيد بن جببر، وطولس، وأبو ثور. وقيل: إنها تلزم الكفارة المخطئ والناسي كما تلزم المتعمد، وجعلوا قيد التعمد خارجاً مخرج الغالب، روي عن عمر، والحسن، والنخعي، والزهري، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم، وروي عن ابن عباس. وقيل: إنه يجب التكفير على العائد الناسي لإحرامه، وبه قال مجاهد، قال: فإن كان ذاكراً لإحرامه فقد حل، ولا حج له، لارتكابه محذور إحرامه، فبطل عليه كما لو تكلم في الصلاة أو أحدث فيها. قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُتِلَ مِنَ النِّعَمِ﴾ أي: فعليه جزاء مماثل لما قتله، ومن النعم بيان للجزاء المماثل. قيل: المراد المماثلة في القيمة، وقيل: في الخلقة. وقد ذهب إلى الأول: أبو حنيفة، وذهب إلى الثاني: مالك والشافعي وأحمد والجمهور، وهو الحق لأن البيان للمماثل بالنعم يفيد ذلك، وكذلك يفيد هدباً بالغ الكعبة. وروي عن أبي حنيفة أنه يجوز إخراج القيمة ولو وجد المثل، وأن المحرم مخير. وقرئ: ﴿فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ مَا قُتِلَ﴾ وقرئ: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ﴾ على إضافة جزاء إلى مثل، وقرئ بنصبهما على تقدير فليخرج جزاء مثل ما قتل، وقرأ الحسن ﴿النَّعَمِ﴾ بسكون العين تخفيفاً، ﴿يُحَكَّمُ بِهِ﴾ أي: بالجزاء أو بمثل ما قتل ﴿نَوَا عَدْلَ مِنْكُمْ﴾ أي: رجلاً معروفاً بالعدالة بين المسلمين، فإذا حكما بشيء لزم، وإن اختلفا رجع إلى غيرهما، ولا يجوز أن يكون الجاني أحد الحكمين؛ وقيل يجوز، وبالأول: قال أبو حنيفة، وبالثاني: قال الشافعي في أحد قوليه: وظاهر الآية يقتضي حكمين غير الجاني. قوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ نصب هدباً على الحال، أو البدل من مثل، و﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ صفة لهدباً؛ لأن الإضافة غير حقيقية، والمعنى: أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدي من الإرسال إلى مكة والنحر هنالك، والإشعار والتقليد، ولم يرد الكعبة بعينها، فإن الهدى لا يبلغها، وإنما أراد الحرم، ولا خلاف في هذا. قوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾ معطوف على محل من النعم: وهو الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، و﴿طَعَامَ مَسَاكِينَ﴾ عطف بيان لكفارة، أو بدل منه، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿أَوْ عَدْلَ تِلْكَ﴾ معطوف على طعام؛ وقيل هو معطوف على جزاء، وفيه ضعف، فالجاني مخير بين هذه الأنواع المذكورة، وعدل الشيء ما عايله من غير جنسه،

و﴿صِيَاماً﴾ منصوب على التمييز، وقد قرّر العلماء عدل كل صيد من الإطعام والصيام، وقد ذهب إلى أن الجاني يخير بين الأنواع المذكورة جمهور العلماء. وروى عن ابن عباس أنه لا يجزئ المحرم الإطعام والصوم إلا إذا لم يجد الهدى، والعدل بفتح العين وكسرهما لغتان، وهما الميل قاله الكسائي. وقال الفراء: عدل الشيء بكسر العين مثله من جنسه، وبفتح العين مثله من غير جنسه، وبمثل قول الكسائي قال البصريون. قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ عليه لإيجاب الجزاء: أي أوجبنا ذلك عليه ليعذّب ويذوق وبال أمره، والنوق مستعار لإبرك المشقة، ومثله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [السخان: 49] والوبال: سوء العاقبة، والمرعى الوبيل: الذي يتأذى به بعد أكله، وطعام وبيل: إذا كان ثقيلاً. قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ يعني: في جاهليتك من قتلتك للصيد، وقيل عما سلف قبل نزل الكفارة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى ما نهيتكم عنه من قتل الصيد بعد هذا البيان، ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي فهو ينتقم الله منه. وقيل المعنى: إن الله ينتقم منه في الآخرة فيعذبه بنبيه، وقيل: ينتقم منه بالكفارة. قال شريح وسعيد بن جببر: يحكم عليه في أول مرة، فإذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له: اذهب ينتقم الله منك؛ أي نذك أعظم من أن يكفر. قوله: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ الخطاب لكل مسلم أو للمحرمين خاصة، وصيد البحر ما يصاد فيه؛ والمراد بالبحر هنا كل ماء يوجد فيه صيد بحري وإن كان نهراً أو غديراً. قوله: ﴿وَوُطِئَتُمُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْسيَّارَةِ﴾ الطعام لكل ما يطعم، وقد تقدّم. وقد اختلف في المراد به هنا فقيل: هو ما قذف به البحر وطفاً عليه، وبه قال كثير من الصحابة والتابعين؛ وقيل طعامه ما ملح منه وبقي، وبه قال جماعة، وروي عن ابن عباس؛ وقيل طعامه ملح الذي يعتقد من مائه وسائر ما فيه من نبات وغيره، وبه قال قوم؛ وقيل المراد به ما يطعم من الصيد: أي ما يحل أكله وهو السمك فقط، وبه قالت الحنفية. والمعنى: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأحل لكم المأكول منه وهو السمك، فيكون التخصيص بعد التعميم، وهو تكلف لا وجه له، ونصب «متاعاً» على أنه مصدر: أي تمتع به متاعاً، وقيل: مفعول له مختص بالطعام؛ أي أحل لكم طعام البحر متاعاً، وهو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير، بل إذا كان مفعولاً له كان من الجميع: أي أحل لكم مصيد البحر وطعامه تمتعاً لكم: أي لمن كان مقيماً منكم ياكله طرياً ﴿وَلِلْسيَّارَةِ﴾ أي المسافرين منكم يتزوّنون ويجعلونه قديداً، وقيل السيارة: هم الذين يركبونه خاصة. قوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي حرّم عليكم ما يصاد في البر ما دمت محرّمين، وظاهره تحريم صيده على المحرم ولو كان الصائد حلالاً، وإليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرّم لا إذا لم يصده لأجله، وهو القول الراجح، وبه يجمع بين الأحاديث؛ وقيل إنه يحلّ له مطلقاً، وإليه ذهب جماعة؛ وقيل يحرم عليه مطلقاً، وإليه ذهب آخرون، وقد بسطنا هذا

نحوه فعليه شاة تنبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أياً ونحوه فعليه بقرة، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعمة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بنية، فإن لم يجد أطعم ستين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، والطعام مذّ يشبعهم. وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم، عن الحكم، أن عمر كتب أن يحكم عليه في الخطأ والعمد، وأخرجاً نحوه عن عطاء، وقد روي نحو هذا عن جماعات من السلف، من غير فرق بين العابد والخطئ والناسي، وروي عن آخرين اختصاص ذلك بالعامد.

وللسلف في تقدير الجزاء المماثل، وتقدير القيمة أقوال مبسطة في مواطنها. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال في بيضة النعام: «صيام يوم أو إطعام مسكين». وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن نكوان، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج أيضاً عن عائشة، عنه ﷺ نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «في بيض النعام ثمنه». وقد استثنى النبي ﷺ من حيوانات الحرم الخمس، الفواسق، كما ورد ذلك في الأحاديث فإنه يجوز للمحرم أن يقتلها ولا شيء عليه. وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ﴾ ما لفظه ميتاً فهو طعامه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة موقوفاً مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي بكر الصديق نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة أن أبا بكر الصديق قال في قوله: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ﴾ قال: صيد البحر ما تصطاده أيدينا، وطعامه مالاثة البحر، وفي لفظ «طعامه كل ما فيه». وفي لفظ «طعامه ميتته». ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث العنبرة التي ألقاها البحر فأكَل الصُحابة منها، وقرَّره رسول الله ﷺ على ذلك، وحديث هو: «الطهور مأؤه والحل ميتته». وحديث: «أَحْلَلْ لَكُمْ مَيْتَاتٍ وَدِمَانٍ». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُبَاةَ حَرَامَ قِيَامِ النَّاسِ﴾ قال: قِيَاماً لِنَبِيِّنَا وَمَعَالِمِ حَجِّهِمْ. وأخرج ابن جرير، عنه قال: قِيَامُهَا أَنْ يَأْمَنَ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب قال: جعل الله الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام قِيَاماً لِلنَّاسِ يَأْمَنُونَ بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، لَا يَخَافُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حِينَ يَلْقَوْنَهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ، أَوْ فِي الْحَرَمِ، أَوْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُبَاةَ حَرَامَ قِيَامِ النَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ قال: حَوَاجِزُ أَبْقَامِ اللَّهِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَ الرَّجُلُ لَوْ جَرَّ كُلَّ جَرِيرَةٍ ثُمَّ لَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ لَمْ يَتَنَاوَلَ وَلَمْ يَقْرَبْ، وَكَانَ الرَّجُلُ لَوْ لَقِيَ قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، لَمْ يَعْزُضْ لَهُ وَلَمْ يَقْرَبْ،

فِي شَرْحِنَا لِلْمُنْتَقَى. قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ لَا إِلَى غَيْرِهِ، وَفِيهِ تَشْلِيدٌ وَمَبَالِغَةٌ فِي التَّحْنِيرِ. وقرئ: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَقُرِئَ ﴿مَا دَعَمْتُ﴾ بِكَسْرِ الدَّالِ. قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُبَاةَ حَرَامَ قِيَامِ النَّاسِ﴾ جَعَلَ هُنَا بِمَعْنَى خَلَقَ، وَاسْمُ الْكَعْبَةِ كَعْبَةٌ لِأَنَّهَا مَرَبِيعَةٌ، وَالتَّكْعِيبُ التَّرْبِيعُ، وَكَثْرُ بَيُوتِ الْعَرَبِ مَدْرُوزَةٌ لَا مَرَبِيعَةٌ، وَقِيلَ سَمِيَتْ كَعْبَةً لِنَتَوَثُّهَا وَبَرُوزِهَا، وَكُلُّ بَارِزٍ كَعْبٌ مُسْتَدِيرٌ كَانَ أَوْ غَيْرَ مُسْتَدِيرٍ، وَمِنْهُ كَعْبُ الْقَدَمِ، وَكَعُوبُ الْقَنَا، وَكَعْبٌ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، وَ﴿الْبَيْتُ الْحَرَامُ﴾ عَطْفٌ بَيَانٍ، وَقِيلَ: مَفْعُولُ ثَانٍ وَلَا وَجْهَ لَهُ، وَاسْمُ بَيْتٍ: لَأَنَّ لَهُ سَقُوفاً وَجِدْراً وَهِيَ حَقِيقَةُ الْبَيْتِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ سَاكِنٌ، وَاسْمُ حَرَامٍ لِتَحْرِيمِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِيَّاهُ. وقوله: ﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ كَذَا قَرَأَ الْجُمْهُورُ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ «قِيَاماً» وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ الْمَفْعُولُ الثَّانِي إِنْ كَانَ جَعَلَ هُوَ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى خَلَقَ كَمَا تَقَدَّمَ، فَهُوَ مُنْتَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَمَعْنَى كَوْنِهِ قِيَاماً: أَنَّهُ مَدَارٌ لِمَعَاشِهِمْ وَدِينِهِمْ أَي: يَقُومُونَ فِيهِ بِمَا يَصْلُحُ لَدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ: يَأْمَنُ فِيهِ خَائِفُهُمْ، وَيَنْصَرُّ فِيهِ ضَعِيفُهُمْ، وَيَرِيحُ فِيهِ تَجَارَهُمْ، وَيَتَعَبَدُ فِيهِ مُتَعَبِدُهُمْ. قوله: ﴿وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْكَعْبَةِ، وَهُوَ ذُو الْحِجَّةِ، وَخَصَّهُ مِنْ بَيْنِ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ: لَكُونَهُ زَمَانٌ تَأْتِيهِ الْحَجُّ، وَقِيلَ: هُوَ اسْمُ جِنْسٍ. والمراد به: الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ، ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَمَحَرَّمٌ، وَرَجَبٌ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَطْلُبُونَ فِيهَا نِمْأً، وَلَا يَقَاتِلُونَ بِهَا عَدُوًّا، وَلَا يَهْتَكُونَ فِيهَا حَرَمًا، فَكَانَتْ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ قِيَاماً لِلنَّاسِ ﴿وَالْهَدْيُ وَالْقَلَائِدُ﴾ أَي: وَجَعَلَ اللَّهُ الْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ قِيَاماً لِلنَّاسِ. والمراد بالقلائد: نَوَاتِ الْقَلَائِدِ مِنَ الْهَدْيِ، وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَرَادَ بِالْقَلَائِدِ أَنْفُسُهَا، وَالْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى الْجَعْلِ: أَيِ ذَلِكَ الْجَعْلِ ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ تَفَاصِيلَ أَمْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَصَالِحَ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ فَإِنَّهَا مِنْ جَمَلَةٍ مَا فِيهِمَا، فَكُلُّ مَا شَرَعَهُ لَكُمْ فَهُوَ جَلْبٌ لِمَصَالِحِكُمْ، وَدَفْعٌ لِمَا يَضُرُّكُمْ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ هَذَا تَعْمِيمٌ بَعْدَ التَّخْصِصِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّ اللَّهَ لَمَنْ أَنْتَهَكَ مُحَارِمَهُ وَلَمْ يَتَبَّ عَنْ ذَلِكَ شَيْءٌ الْعِقَابِ، وَأَنَّهُ لَمَنْ تَابَ وَأَتَابَ غُفُورٌ رَحِيمٌ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ مَا عَلَى رَسُولِهِ إِلَّا الْبَلَاغُ لَهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَمْتَلِكُوا وَيَطِيعُوا فَمَا ضَرُّوا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا جَنُوا إِلَّا عَلَيْهِا، وَأَمَّا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَدْ فَعَلَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً﴾ قال: إِنْ قَتَلَهُ مُتَعَمَّداً أَوْ نَاسِياً أَوْ خَطَا حَكَمَ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ مُتَعَمَّداً عَجَلَتْ لَهُ الْعُقُوبَةُ إِلَّا أَنْ يَغُفَرَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ قَالَ: إِذَا قَتَلَ الْمَحْرَمُ شَيْئاً مِنَ الصَّيْدِ حَكَمَ عَلَيْهِ فِيهِ، فَإِنْ قَتَلَ ظُلْمياً أَوْ

بعد انقطاع الوحي، بموت رسول الله ﷺ، فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال.

وقد ظن بعض أهل التفسير، أن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال، مع وجود رسول الله ﷺ ونزول الوحي عليه، فقال: إن الشرطية الأولى أفادت عدم جواز السؤال، والثانية أفادت جوازه، فقال إن المعنى: وإن تسألوا عن غيرها مما مست إليه الحاجة تبدل لكم بجواب رسول الله ﷺ عنها، وجعل الضمير في ﴿عنها﴾ راجعاً إلى أشياء غير الأشياء المذكورة، وجعل ذلك كقوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ [المؤمنون: 12] وهو آدم، ثم قال: ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ [المؤمنون: 13] أي: ابن آدم. قوله: ﴿عفا الله عنها﴾ أي: عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى ذلك. وقيل المعنى: إن تلك الأشياء التي سألتم عنها هي مما عفا عنه، ولم يوجب عليكم، فكيف تتسببون بالسؤال لإيجاب ما هو عفو من الله غير لازم؟ وضمير ﴿عنها﴾ عائد إلى المسألة الأولى، وإلى أشياء على الثاني، على أن تكون جملة «عفا الله عنها» صفة ثالثة لأشياء، والأول أولى؛ لأن الثاني يستلزم أن يكون ذلك المسؤول عنه قد شرعه الله ثم عفا عنه، ويمكن أن يقال إن العفو بمعنى الترك: أي تركها الله ولم ينكرها بشيء فلا تبحثوا عنها، وهذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل، ثم جاء سبحانه بصيغة المبالغة في كونه غفوراً حلماً ليدل بذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة: لكثرة مغفرته وسعة حلمه. قوله: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ الضمير: يرجع إلى المسألة المفهومة من ﴿لا تسألوا﴾ لكن ليست هذه المسألة بعينها، بل مثلها في كونها مما لا حاجة إليه، ولا توجه الضرورة الدينية ثم لم يعملوا بها، بل أصبحوا بها كافرين: أي ساترين لها تاركين للعمل بها، وذلك كسؤال قوم صالح الناقة، وأصحاب عيسى المائدة، ولا بد من تقييد النهي في هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قمنا، لأن الأمر الذي تدعو الحاجة إليه في أمور الدين والدنيا، قد أذن الله بالسؤال عنه فقال: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: 43] وقال ﷺ: «قاتلهم الله ألا سألوا فإنما شفاء العي السؤال». قوله: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن الرد على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه، وجعل هنا بمعنى سمي كما قال: ﴿إنما جعلناه قرآناً عربياً﴾ [الزخرف: 3]. والبحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة كالنطحة والنبيحة، وهي مأخوذة من البحر، وهو شق الأنثى، قال ابن سيده: البحيرة هي التي خلعت بلا راع؛ قيل: هي التي يجعل برها للطواغيت، فلا يحتلبها أحد من الناس، وجعل: شق أنفها علامة لذلك. وقال الشافعي: كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إنثاً بحت أنفها فحرمت؛ وقيل إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس نكراً، بحروا أنه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى، بحروا أنها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها؛ وقيل: إذا نتجت الناقة

وكان الرجل لو لقي الهدى مقلداً وهو ياكل العصب من الجوع لم يعرض له ولم يقربه، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر، فحتمه ومنعته من الناس، وكان إذا نفر تقلد قلادة من الأنخر أو من السم، فتمنعه من الناس حتى يأتي أهله حواجز إبقاها الله بين الناس في الجاهلية. وأخرج أبو الشيخ، عن زيد بن أسلم ﴿قياماً للناس﴾ قال أمنا.

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أَلَّا تُكْسِبُوا لَكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾ يَأْتِيهَا الْزَّيْرُ ؕ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلْكُمْ سَمُومٌ وَإِنْ تُسْأَلُوا عَنْهَا جِئْ يُنَزِّلَ الْقُرْآنَ يُدَلِّكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنَّا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٦﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَذِبِينَ ﴿١٧﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْتٍ وَلَا سَائِمَةٍ وَلَا صَيْبَةٍ وَلَا حَافٍ وَلَا يَكُونُ الَّذِينَ كَذَبُوا يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ؕ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٩﴾

قيل المراد بالخبِيث والطيب: الحرام والحلال، وقيل المؤمن والكافر، وقيل العاصي والمطيع، وقيل الرديء والجيد. والأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ فيشمل هذه المذكورات وغيرها مما يتصف بوصف الخبث والطيب من الأشخاص والأعمال والأقوال، فالخبِيث لا يساوي الطيب بحال من الأحوال. قوله: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ قيل الخطاب للنبي ﷺ، وقيل لكل مخاطب يصلح لخطابه بهذا. والمراد: نفى الاستواء في كل الأحوال، ولو في حال كون الخبيث معجبا للرائي للكثرة التي فيه، فإن هذه الكثرة مع الخبيث في حكم العدم، لأن خبث الشيء يبطل فائده، ويمحق بركته، ويذهب بمنفعته، والواو إما للحال أو للعطف على مقتر: أي لا يستوي الخبيث والطيب، لو لم تعجبك كثرة الخبيث، ولو أعجبك كثرة الخبيث، كقولك أحسن إلى فلان، وإن أساء إليك: أي أحسن إليه إن لم يسيء إليك وإن أساء إليك، وجواب لو محذوف: أي ولو أعجبك كثرة الخبيث فلا يستويان. قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء لا حجة لكم بالسؤال عنها، ولا هي مما يعينكم في أمر دينكم، فقلوه: ﴿إن تبد لكم تسؤكم﴾ في محل جر صفة لأشياء أي: لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بت لكم: أي ظهرت وكلفتكم بها ساءتكم، نهام الله عن كثرة مساءلتهم لرسول الله ﷺ، فإن السؤال عما لا يعني ولا تدعو إليه حاجة قد يكون سبباً لإيجابه على السائل وعلى غيره. قوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ هذه الجملة من جملة صفة أشياء، والمعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، وذلك مع وجود رسول الله ﷺ بين أظهركم، ونزول الوحي عليه ﴿تبد لكم﴾ أي: تظهر لكم بما يجيب عليكم به النبي ﷺ، أو ينزل به الوحي، فيكون ذلك سبباً للتكاليف الشاقة وإيجاب ما لم يكن واجباً وتحريم ما لم يكن محرماً، بخلاف السؤال عنها

خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقوا أنفها وحرّموا ركوبها ونزّها. والسائبة: الناقة تسبب، أو البعير يسبب نذر على الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة، فلا يحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبه أحد قاله أبو عبيد. قال الشاعر:

وسائبة لله تنمي تشكرا إن الله عافا عامراً ومجاشعا
وقيل: هي التي تسبب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها،
ومنه قول الشاعر:

عقرتم ناقة كانت لربي مسيبة فقوموا للعقاب
وقيل: هي التي تابعت بين عشر إنثى ليس بينهما نكر، فعند ذلك لا يركب ظهرها، ولا يجزّ وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف؛ وقيل: كانوا يسيبون العبد، فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد. والوصيلة: قيل: هي الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى؛ وقيل هي الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت نكرًا فهو لأبنتهم، وإن ولدت نكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم ينبحو الذكر لأبنتهم؛ وقيل: كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا؛ فإن كان السابع نكرًا نبّح فكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تركت في الغنم، وإن كان نكرًا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم ينبّح لمكانها، وكان لحماها حراماً على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يركب، وكانوا إذا ركب ولد الفحل قالوا حمى ظهره فلا يركب، قال الشاعر:

حماها أبو قابوس في عز ملكه كما قد حمى أولاد أولاده الفحل
وقيل: هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء، ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكذب، لا لشرع شرعه الله لهم، ولا لعقل بلهم عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها، يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة، ونفس الحمق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهذه أفعال آبائهم وسننهم التي سنوها لهم، وصلى الله سبحانه حيث يقول: ﴿أَوَلَوْ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ولو كنوا جهلة ضالين، والوao للحال دخلت عليها همزة الاستفهام؛ وقيل للعطف على جملة مقترنة: أي أحسبهم ذلك ولو كان أبأؤهم. وقد تقدّم الكلام على مثل هذه الآية في البقرة. وقد صارت هذه المقالة التي قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة وعصاهم التي يتوكلون عليها إن دعاهم داعي الحق وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة فاحتجّاهم بمن قلنوه ممن هو مثلهم في التعبد بشرع الله، مع مخالفة قوله لكتاب الله، أو لسنة رسوله، هو كقول هؤلاء، وليس الفرق إلا في مجرد العبارة اللفظية، لا في المعنى الذي عليه تنور الإفادة والاستفادة، اللهم غفرًا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية: قال الخبيث هم المشركون، والطيب هم

المؤمنون، وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن انس قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط، فقال رجل: من أبي؟ فقال فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾. وأخرج البخاري وغيره نحوه من حديث ابن عباس، وقد بين هذا السائل في روايات آخر، أنه عبد الله بن حذافة، وأنه قال:

من أبي؟ قال النبي ﷺ: «أبوك حذافة»، وأخرج ابن حبان، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «يا أيها الناس إن الله قد افترض عليكم الحجّ، فقام رجل، فقال: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه، فأعاده ثلاث مرات، فقال: لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما قمتم بها، ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»، وذلك أن هذه الآية: أعني ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ نزلت في ذلك. وقد أخرج عنه نحو هذا ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، عن أبي أمامة الباهلي نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس نحوه أيضاً. وأخرج أحمد

والترمذي وابن ماجه وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، عن عليّ نحوه، وكل هؤلاء صرحوا في أحاديثهم أن الآية نزلت في ذلك. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن سعد بن أبي وقاص، قال: كانوا يسألون عن الشيء وهو لهم حلال، فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم، وإذا حرّم عليهم وقعوا فيه. وأخرج ابن المنذر عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فيحرم من أجل مسألته». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حدّ حلوداً فلا تعتنوها، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة لكم فاقبلوها ولا تبخثوا عنها». وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ قال: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع نزّها للطواغيت، ولا يحلبها أحد من الناس؛ والسائبة كانوا يسيبون لها لأبنتهم لا يحمل عليها شيء؛ والوصيلة الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بانشئ. وكانوا يسيبون لها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى، ليس بينهما نكر؛ والحامي فحل الإبل، يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي، وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: البحيرة الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان نكرًا

سبعة أبطن نظروا؛ فإن كان السابع نكرًا نبّح فكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تركت في الغنم، وإن كان نكرًا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم ينبّح لمكانها، وكان لحماها حراماً على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء. والحام: الفحل الحامي ظهره عن أن يركب، وكانوا إذا ركب ولد الفحل قالوا حمى ظهره فلا يركب، قال الشاعر:

حماها أبو قابوس في عز ملكه كما قد حمى أولاد أولاده الفحل
وقيل: هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء، ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكذب، لا لشرع شرعه الله لهم، ولا لعقل بلهم عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها، يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة، ونفس الحمق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهذه أفعال آبائهم وسننهم التي سنوها لهم، وصلى الله سبحانه حيث يقول: ﴿أَوَلَوْ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ولو كنوا جهلة ضالين، والوao للحال دخلت عليها همزة الاستفهام؛ وقيل للعطف على جملة مقترنة: أي أحسبهم ذلك ولو كان أبأؤهم. وقد تقدّم الكلام على مثل هذه الآية في البقرة. وقد صارت هذه المقالة التي قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة وعصاهم التي يتوكلون عليها إن دعاهم داعي الحق وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة فاحتجّاهم بمن قلنوه ممن هو مثلهم في التعبد بشرع الله، مع مخالفة قوله لكتاب الله، أو لسنة رسوله، هو كقول هؤلاء، وليس الفرق إلا في مجرد العبارة اللفظية، لا في المعنى الذي عليه تنور الإفادة والاستفادة، اللهم غفرًا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية: قال الخبيث هم المشركون، والطيب هم

وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، والبغوي في معجمه، وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي أمية الشعثاني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ قال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وبنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم». وفي لفظ: «قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين منكم». وأخرج أحمد وابن أبي حاتم، والطبراني وابن مردويه، عن عامر الأشعري أنه كان فيهم أعمى، فاحتبس على رسول الله ﷺ ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول الله قرأت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: فقال له النبي ﷺ: أين ذهبت؟ إنما هي لا يضرّكم من ضلّ من الكفار إذا اهتديتم» وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ عن الحسن: أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله: ﴿عليكم بأنفسكم﴾ فقال: يا أيها الناس إنه ليس بزمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا أو شك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد عنه في الآية قال: «مروا بالمعروف وانهاو عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط والسيف، فإذا كان كذلك فعليكم أنفسكم»، وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عمر، أنه قال في هذه الآية: إنها لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن رجل قال: كنت في خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة في حلقة فيهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أبي بن كعب، فقراً ﴿عليكم أنفسكم﴾ فقال: إنما تأويلها في آخر الزمان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن أبي مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم جلوس فقراً أحدهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ فقال أكثرهم: لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم. وأخرج ابن جرير عن جبيرة بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب النبي ﷺ وإني لأصفر القوم، فتذكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت: ليس الله يقول: ﴿عليكم أنفسكم؟﴾ فأقبلوا عليّ بلسان واحد فقالوا: تنزع آية من القرآن لا نعرفها ولا ندري ما تأويلها؟ حتى تمتعت أني لم أكن تكلمت، ثم أقبلوا يتحدّثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حدث السن، وإنك نزع آية لا ندري ما هي؟ وعسى أن تدرك ذلك

ونحوه فكله الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى جدعوا أدانها فقالوا هذه بحيرة؛ وأما السائبة فكانوا يسيبون من أنعامهم لأهنتهم لا يركبون لها ظهراً، ولا يحلبون لها لبناً، ولا يجزون لها وبراً، ولا يحملون عليها شيئاً؛ وأما الوصيلة فالشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع، فإن كان نكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى استحيوها، وإن كان نكراً أو أنثى في بطن استحيوها وقالوا وصلته أخته فحرمته علينا، وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجزون له وبراً، ولا يمنعون من حمى ولا من حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وأخرج نحوه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق العوفي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْ تُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

أي: الزموا أنفسكم أو احفظوها كما تقول عليك زيداً: أي الزمه، قرئ: ﴿لا يضرّكم﴾ بالجرم على أنه جواب الأمر الذي يدلّ عليه اسم الفعل. وقرأ نافع وغيره بالرفع على أنه مستأنف، كقول الشاعر:

فقال رائدهم أرسوا نزلوها

أو على أن ضم الراء للاتباع، وقرئ: ﴿لا يضرّكم﴾ بكسر الضاد، وقرئ: «لا يضرّكم» والمعنى: لا يضرّكم ضلال من ضلّ من الناس إذا اهتديتم للحق أنتم في أنفسكم، وليس في الآية ما يدلّ على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وقد دلت الآيات القرآنية، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً مضيّقاً متحتماً، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال، أو يخشى على نفسه أن يحلّ به ما يضرّه ضرراً يسوغ له معه الترك ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والدارقطني والضياء، في المختارة وغيرهم، عن قيس بن أبي حازم قال: قام أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على غير مواضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» وفي لفظ لابن جرير عنه: «والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليعمنكم الله منه بعقاب». وأخرج الترمذي

تقدير محذوف: أي شهادة اثنين أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف: أي فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان، نكر الوجهين أبو علي الفارسي. قوله: ﴿نُوا عدل منكم﴾ صفة للاثنان وكذا منكم: أي كائنان منكم: أي من أقاربكم ﴿أو آخران﴾ معطوف على ﴿اثنان﴾، و﴿من غيركم﴾ صفة له: أي كائنان من الأجانب؛ وقيل: إن الضمير في ﴿منكم﴾ للمسلمين، وفي ﴿غيركم﴾ للكفار وهو الأنسب لسياق الآية، وبه قال أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس وغيرهما، فيكون في الآية دليل على جواز شهادة أهل النعمة على المسلمين، في السفر، في خصوص الوصايا كما يفيد النظم القرآني، ويشهد له السبب للنزول وسيأتي، فإذا لم يكن مع الموصي من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر، فإذا قلما وأتيا بالشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة انهما ما كذبا ولا بدلا، وأن ما شهدا به حق، فيحكم حينئذ بشهائتهما ﴿فإن عثر﴾ بعد ذلك ﴿على انهما﴾ كذبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الموصي وغرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها، هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره، وبه قال سعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر، وسعيد بن جبير، وأبو مجلز، والنخعي وشريح، وعبيدة السلماني، وابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والثوري، وأبو عبيد، وأحمد بن حنبل. وذهب إلى الأول: أعني تفسير ضمير ﴿منكم﴾ بالقرابة أو العشيرة، وتفسير ﴿من غيركم﴾ بالأجانب الزهري والحسن وعكرمة. وذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة، واحتجوا بقوله: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ وقوله: ﴿واشهدوا ذوي عدل منكم﴾ والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول، وخالفهم الجمهور فقالوا: الآية محكمة، وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ. وأما قوله تعالى: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ [البقرة: 282] وقوله: ﴿واشهدوا ذوي عدل منكم﴾ [الطلاق: 2] فهما عامان في الأشخاص والأزمان والأحوال، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب في الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين، ولا تعارض بين عام وخاص. قوله: ﴿إن أنتم﴾ هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم، أو مبتدأ وما بعده خبره، والأول: مذهب الجمهور من النحاة، والثاني: مذهب الأخفش والكوفيين، والضرب في الأرض هو السفر. وقوله: ﴿فأصابكم مصيبة الموت﴾ معطوف على ما قبله وجوابه محذوف: أي إن ضربتم في الأرض فنزل بكم الموت، وأرتم الوصية، ولم تجنوا شهوداً عليها مسلمين، ثم ذهب إلى ورثتكم بوصيتكم وبما تركتم فارتابوا في أمرهما وادعوا عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما، ويجوز أن يكون استئنافاً لجواب سؤال مقدر، كأنهم قالوا: فكيف نصنع إن ارتبنا في الشهادة؟ فقال: تحبسونهما من بعد الصلاة إن ارتبتم في شهادتهما. وخص بعد الصلاة: أي صلاة العصر،

الزمان «إذا رايت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك لا يضررك من ضل إذا اهتديت»، وأخرج ابن مروي، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ بنحو حديث أبي ثعلبة الخشني المتقدم، وفي آخره «كأجر خمسين رجلاً منكم» وأخرج ابن مروي، عن أبي سعيد الخدري قال: نكرت هذه الآية عند رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لم يجيء تأويلها، لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام»، والروايات في هذا الباب كثيرة، وفيما نكرناه كفاية، ففيه ما يرشد إلى ما قلناه من الجمع بين هذه الآية وبين الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَصَدَّكُمْ أَتَوْتُمْ مِنْ أَلَيْسَ دُونَ عَدْلٍ بَيْنَكُمْ أَوْ مَخْرَجٍ مِنْ بَيْنَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مِصْبَةَ الْأَوْبِقِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ يُفْسِمَانِ بِآلِهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا تَشْفَى بِهِ مَسْأَلُو كَانُوا قَرْنًا وَلَا تَكْثُرُ شَهَادَةُ أَوَّلِي إِنْ أَدْلَيْتُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨٢﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِذَا فَخَرَانِ يَوْمَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ يُفْسِمَانِ بِآلِهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِلَّا إِذَا لَيْتُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨٣﴾ ذَلِكَ أَنْتُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالْبَهْءَةِ عَلَى رُجُومِهِمَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِلَيْهِمْ عِلْمُهُمْ وَاللَّهُ لَمَّا شِعْرُ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٨٤﴾

قال مكي: هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنى وحكماً. قال ابن عطية: هذا كلام من لم يقع له النتائج في تفسيرها، وذلك بين من كتابه رحمه الله: يعني من كتاب مكي. قال القرطبي: ما نكره مكي نكره أبو جعفر النحاس قبله أيضاً. قال السعد في حاشيته علي الكشاف: واتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن إعراباً ونظماً وحكماً. قوله: ﴿شهادة بينكم﴾ أضاف الشهادة إلى البين توسعاً لأنها جارية بينهم؛ وقيل أصله شهادة ما بينكم فحذفت «ما»، وأضيفت إلى الظرف كقوله تعالى: ﴿بيل مكر الليل والنهار﴾ [سبا: 33] ومنه قول الشاعر:

تصافح من لا تقيت لي ذا عداوة صفائيا وعني بين عينيك منزوي أراد ما بين عينيك، ومثله قول الآخر:

ويوماً شهنائه سليماً وعامراً

أي: شهناء فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ [الكهف: 78] قيل: والشهادة هنا بمعنى الوصية؛ وقيل بمعنى الحضور للوصية. وقال ابن جرير الطبري: هي هنا بمعنى اليمين، فيكون المعنى: يمين ما بينكم أن يحلف اثنان، واستدل على ما قاله بأنه لا يعلم الله حكماً يجب فيه على الشاهد يمين. واختار هذا القول القفال، وضعف ذلك ابن عطية، واختار أن الشهادة هنا هي الشهادة التي تؤدي من الشهود. قوله: ﴿إذا حضر لحكم الموت﴾ ظرف للشهادة، والمراد إذا حضرت علاماته، لأن من مات لا يمكنه الإشهاد، وتقديم المفعول للاهتمام ولكمال تمكن الفاعل عند النفس. وقوله: ﴿حين الوصية﴾ ظرف لحضر أو للموت، أو بدل من الظرف الأول. وقوله: ﴿اثنان﴾ خبر شهادة على

استحقاقاً إثمياً فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق، وليس المراد أنهما يقومان مقامهما في أداء الشهادة التي شهدا المستحقان للإثم. قوله: ﴿مَنْ الشَّاهِدُ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ﴾ استحق مبنى للمفعول، في قراءة الجمهور: وقرأ علي وأبي وابن عباس وحفص على البناء للفاعل، و﴿الْأُولَيَانِ﴾ على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي هما الأوليان، كأنه قيل: من هما؟ فقيل هما الأوليان؛ وقيل: هو بدل من الضمير في يقومان أو من آخران. وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحزمة الأولين: جمع أول على أنه بدل من الذين، أو من الهاء والميم في عليهم. وقرأ الحسن «الأولان». والمعنى على بناء الفعل للمفعول: من الذين استحق عليهم الإثم: أي جنى عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم، فالأوليان ثنية أولى. والمعنى على قراءة البناء للفاعل: من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجروهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكذابين لكنهما الأقربين إلى الميت فالأوليان فاعل استحق ومفعوله أن يجروهما للقيام بالشهادة؛ وقيل المفعول محذوف، والتقدير: من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها. قوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ عطف على ﴿يَقُومَانِ﴾: أي فيحلفان بالله لشهادتنا: أي يميننا، فالمراد بالشهادة هنا اليمين، كما في قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ [النور: 6] أي: يحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنان أحق من شهادتهما: أي من يمينهما على أنهما صادقان أمينان ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي: تجاوزنا الحق في يميننا ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن كنا حلفنا على باطل. قوله: ﴿ذَلِكَ أَنْتَ إِنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِكُمْ﴾ أي: ذلك البيان الذي قدمه الله سبحانه، في هذه القصة وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصية في السفر؛ ولم يكن عنده أحد من أهله، وعشيرته، وعنده كفار أنتي: أي أقرب إلى أن يؤدي الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها، فلا يحرقوا ولا يبللوا، ولا يخونوا وهذا كلام مبتدأ يتضمن نكر المنفعة والفائدة، في هذا الحكم الذي شرعه الله في هذا الموضع من كتابه؛ فالضمير في ﴿يَأْتُوا﴾ عائد إلى شهود الوصية من الكفار؛ وقيل: إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم. والمراد تحذيرهم من الخيانة، وأمرهم بأن يشهدوا بالحق. قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِيمَانُ يَئِدْ إِيمَانَهُمْ﴾ أي: ترد على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية، وهو معطوف على قوله: ﴿إِنْ يَأْتُوا﴾ فتكون الفائدة في شرع الله سبحانه لهذا الحكم هي أحد الأمرين: إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها. أو يخافوا الاقتضاح إذا رتت الإيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سبباً لتأنيده شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب

قاله الأكثر؛ لكونه الوقت الذي يغضب الله على من حلف فيه فاجراً كما في الحديث الصحيح؛ وقيل: لكونه وقت اجتماع الناس وعود الحكام للحكومة؛ وقيل صلاة الظهر؛ وقيل: أي صلاة كانت. قال أبو علي الفارسي: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ صفة لآخران، واعترض بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، والمراد بالحبس: توقيف الشاهدين في ذلك الوقت لتحليفهما، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام، وعلى جواز التغليب على الحالف بالزمان والمكان ونحوهما. قوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ معطوف على ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ أي: يقسم بالله الشاهدان على الوصية أو الوصيان.

وقد استدلل بذلك ابن أبي ليلى على تحليف الشاهدين مطلقاً إذا حصلت الريبة في شهادتهما، وفيه نظر؛ لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها. قوله: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ جواب هذا الشرط محذوف دل عليه ما تقدم كما سبق. قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ جواب القسم، والضمير في ﴿بِهِ﴾ راجع إلى الله تعالى. والمعنى: لا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العرض النزر، فنحلف به كائنين لأجل المال الذي ادعيتموه علينا؛ وقيل يعود إلى القسم: أي لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من أعراض الدنيا؛ وقيل يعود إلى الشهادة، وإنما نكر الضمير لأنها بمعنى القول: أي لا نستبدل بشهادتنا ثمناً، قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وهذا مبنى على أن العروض لا تسمى ثمناً، وعند الأكثر أنها تسمى ثمناً، كما تسمى مبيعاً. قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان المقسم له، أو المشهود له قريباً فإننا نؤثر الحق والصديق، ولا نؤثر العرض الدنيوي، ولا القرابة، وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه: أي ولو كان ذا قربي، لا نشتري به ثمناً. قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ معطوف على ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ داخل معه في حكم القسم، وأضاف الشهادة إلى الله سبحانه لكونه الأمر بإقامتها والنهي عن كتمانها. قوله: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَى لُئِيمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ عثر على كذا: اطلع عليه، يقال عثرت منه على خيانة: أي اطلعت وأعثرت غيري عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: 21] وأصل العثر الوقوع والسقوط على الشيء، ومنه قول الأعشى:

بذات لوث عصرنه إذ عثرت فالتبس أولى لها من أن أقول لها والمعنى: إنه إذا اطلع بعد التحليف على أن الشاهدين أو الوصيين استحقا إثمًا: أي استوجبا إثمًا إما بكذب في الشهادة أو اليمين، أو بظهور خيانة. قال أبو علي الفارسي: الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ، لأن أخذه يائم بأخذه، فسمى إثمًا كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة. وقال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك فكنك سمي هذا المأخوذ، باسم المصدر. قوله: ﴿فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: فشاهدان آخران أو فحالفان آخران يقومان مقام اللذين عثر على أنهما

مخزّصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما، ثم وجدوا الجاه بمكة فقيل: اشتريتاه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجاه لصاحبهم، وأخذوا الجاه، قال: وفيهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ الآية، وفي إسناده محمد بن أبي القاسم الكوفي، قال الترمذي: قيل: إنه صالح الحديث، وقد روى ذلك أبو داود من طريقه. وقد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هي السبب في نزول الآية، ونكرها المفسرون في تفاسيرهم. وقال القرطبي: إنه أجمع أهل التفسير على أن هذه القصة هي سبب نزول الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ الآية قال: هذا لمن مات وعنده المسلمون أمره الله أن يشهد على وصيته عنيين مسلمين. ثم قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، أمر الله بشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة ما اشتريا بشهادتهما ثمناً قليلاً، فإن أطلع الأولياء على أن الكافرين كذباً في شهادتهما، وثم رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يقول: إن أطلع على أن الكافرين كذباً ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يأتي الكافران ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَن تَرُدَّ إِيمَانُ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الأولياء، فليس على شهود المسلمين أقسام: إنما الأقسام إذا كانا كافرين. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا رجل خرج مسافراً ومعه مال فأبدره قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين نفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عنيين من المسلمين، فرجلين من أهل الكتاب، فإن أدى فسبيل ما أدى، وإن جحد استحلف بالله الذي لا إله إلا هو دبر صلاة، إن هذا الذي نفع إلي وما غيبت منه شيئاً، فإذا حلف برئ، فإذا أتى بعد ذلك صاحباً الكتاب فشهدا عليه، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهما ما لهم جعلت إيمان الورثة مع شهادتهما ثم اقتطعوا حقه، فذلك الذي يقول الله: ﴿إِنَّمَا نَزَّلْنَا ذُوَ عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين من أهل الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: هذه الآية منسوخة. وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في الآية قال: كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، وأصحابه بالمدينة، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل المسلمون بها. وأخرج ابن جرير أيضاً عن الزهري قال:

ولا خيانة؛ وقيل: إن ﴿يَخَافُوا﴾ معطوف على مقتر بعد الجملة الأولى، والتقدير: ذلك أني أن يأتيوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة، أو يخافوا الافتضاح بردّ اليمين، فأتي الخوفين وقع حصل المقصود ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته بأيّ ذنب، ومنه الكذب في اليمين أو الشهادة.

وحاصل ما تضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز، أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عنيين من عول المسلمين، فإن لم يجد شهوداً مسلمين، وكان في سفر، ووجد كفاراً جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته، فإن ارتاب بهما ورثة الموصي حلفاً بالله على أنهما شهدا بالحق، وما كتما من الشهادة شيئاً ولا خانا مما تركه الميت شيئاً، فإن تبين بعد ذلك خلاف، ما أقسما عليه من خلل في الشهادة أو ظهور شيء من تركه الميت زعماً أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك.

وقد أخرج الترمذي وضعفه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس في تاريخه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة من طريق أبي النضر، وهو الكلبي، عن بإذان مولى أم هانئ عن ابن عباس، عن تميم الداري في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ لِلْمَوْتِ﴾ قال: برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بدء، وكنا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بنيل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله؛ قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجاه فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بدء، فلما قمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقوا الجاه فسالونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، أو ما دفع إلينا غيره؛ قال تميم: فلما أسلمت بعد قوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، وأتيت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به رسول الله ﷺ، فسألهم البيعة فلم يجلبوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فانزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ تَرَدَّتْ إِيمَانُ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بدء. وفي إسناده أبو النضر، وهو محمد بن السائب الكلبي صاحب التفسير، قال الترمذي: تركه أهل العلم بالحديث. وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدء، فمات السهمي بارض ليس فيها مسلم، فأوصى إليهما فلما قدما بتركته فقنوا جاماً من فضة

قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إذ بدل، من يوم يجمع، وهو تخصيص بعد التعميم وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفرطاً وتفریطاً؛ هذه تجعله إلهاً، وهذه تجعله كائناً، وقيل هو منصوب بتقدير انكر، قوله: ﴿وَإِذْ نَكُنْ لَكَ آيَةً﴾ وعلى والبتك ﴿نَكَرَهُ سُبْحَانَهُ نَعَمَتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمِّهِ، مع كونه ناكراً لها عالماً بتفضل الله سبحانه بها؛ لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علو المقام، أو لتأكيد الحجة، وتبكيك الجاحد، بأن منزلتهما عند الله هذه المنزل، وتوبيخ من اتخذهما إلهين، ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله سبحانه، وأنهما عبدان من جملة عباد الله منعم عليهما بنعم الله سبحانه، ليس لهما من الأمر شيء. قوله: ﴿إِذْ أَيْسَرْنَا لَكَ الْوَيْسَرَ﴾ إذ ظرف للنعمة؛ لأنها بمعنى المصنوع؛ أي أذكر إنعامي عليك وقت تليدي لك، أو حال من النعمة؛ أي كائنة ذلك الوقت ﴿أَيْسَرْنَا لَكَ﴾ قَوَيْتُكَ مَأْخُذَ مِنَ الْإِيْدِ، وهو القوة. وفي روح القدس وجهان: أحدهما أنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها، وقيل: إنه جبريل عليه السلام، وقيل إنه الكلام الذي يحيى به الأرواح. والقدس: الطهر، وإضافته إليه لكونه سببه، وجملة ﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ﴾ مبنية لمعنى التأييد، وفي المهدى في محل نصب على الحال: أي تكلم الناس حال كونك صبياً وكهلاً لا يتفاوت كلامك في الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتاً بيناً. وقوله: ﴿وَإِذْ عَلِمْتَ أَنَّكَ كَتَبْتَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيْسَرْنَا لَكَ﴾ أي: وأذكر نعمتي عليك وقت تعليمي لك الكتاب أي: جنس الكتاب، أو المراد بالكتاب الخط، وعلى الأول يكون نكر التوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام، وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصهما بهما؛ أما التوراة فقد كان يحتج بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدل كما هو مصرح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل فلكونه نازلاً عليه من عند الله سبحانه، والمراد بالحكمة جنس الحكمة؛ وقيل هي الكلام المحكم ﴿وَإِذْ تَخَلَّقَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: تصوّر تصويراً مثل صورة الطير ﴿بِإِنِّئِي﴾ لك بذلك وتيسيري له، ﴿وَفَتَنَّاكَ فِي الْهَيْئَةِ الْمَصُورَةِ﴾ ﴿فَتَكُونُ﴾ هذه الهيئة ﴿طَائِراً﴾ متحركاً حياً كسائر الطيور ﴿وَتُبْرئ الْأَكْمَةَ وَالْإِبْرَصَ بِإِنِّئِي﴾ لك وتسهيله عليك وتيسيره لك، وقد تقدّم تفسير هذا مطوّلاً في البقرة، فلا نعيده ﴿وَإِذْ تَخَرَجَ الْمُوتَى﴾ من قبورهم، فيكون ذلك آية لك عظيمة ﴿بِإِنِّئِي﴾، وتكرير بإنني في المواضع الأربعة؛ للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه. قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ تَخَرَجَ﴾ كَفَفْتَ معناه: دَفَعْتَ وصرَفْتَ ﴿بِإِنِّئِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جَثَّتْهُمُ بِالْبَيْنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جثّ به إلا سحر بين، لما عظم ذلك في صدرهم

مضت السنة أن لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن عبيدة في قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال: صلاة العصر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ قال: لا نأخذ به رشوة ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ وإن كان صاحبها بعيداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ لَتْمَهِمَا لِاسْتِحْقَاقِ لَتْمَا﴾ أي: اطلع منهما على خيانة على أنهما كذبا أو كتماً. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَالْأَوَّلِيَّانِ﴾ قال: بالميت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿فَإِنَّكَ إِنَّمَا أَنْتَ بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ يقول: ذلك أحرق أن يصنفوا في شهادتهم ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِيمَانًا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ يقول: وأن يخافوا العتب. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِيمَانًا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ قال: فيبطل إيمانهم ويؤخذ إيمان هؤلاء.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجْبِتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرَ تَعْمَىٰ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدِكَ إِذْ أَبَدْتَنِي بِرُوحِ الْقُدُسِ تُحَكِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْئَةِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنَّمُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرئ الْأَكْمَةَ وَالْإِبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ أَخْرَجَ الْمُوتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَثَّتْهُمُ بِالْبَيْنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْغَارِيَيْنِ أَنْ أَمْسُوا رَبِّ وَرَسُولُ قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ العامل في الظرف فعل مقتر: أي اسمعوا، أو انكروا، أو احذروا. وقال الزجاج: هو منصوب بقوله: ﴿وَلَتَقُولُوا اللَّهُ﴾ المذكور في الآية الأولى؛ وقيل بدل من مفعول ﴿وَلَتَقُولُوا﴾ بدل اشتغال؛ وقيل ظرف لقول: ﴿لَا يَهْدِي﴾ [المائدة: 108] المذكور قبله؛ وقيل منصوب بفعل مقتر متأخر تقديره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ يكون من الأحوال كذا وكذا. قوله: ﴿مَاذَا أُجْبِتُمْ﴾ أي: أي إجابة أجبتكم به أممكم الذين يعتمك الله إليهم؟ أو أي جواب أجابوكم به؟ وعلى الوجهين تكون ما منصوبة بالفعل المذكور بعدها، وتوجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم، وجوابهم بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ مع أنهم عالمون بما أجابوا به عليهم تفويض منهم، وإظهار للعجز، وعدم القدرة، ولا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ فإن تفويض الجواب إلى الله أبلغ في حصول ذلك، وقيل المعنى: لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا؛ وقيل لا علم لنا بما اشتغلت عليه بواطنهم. وقيل المعنى: لا علم لنا إلا علم ما أنت أعلم به منا؛ وقيل: إنهم ذهلو عما أجاب به قومهم لهول المحشر.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر أي: انكر أو نحوه كما تقدم، قيل والخطاب لمحمد ﷺ، قرأ الكسائي ﴿هل تستطيع﴾ بالفوقية، ونصب ربك، وبه قرأ علي وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقرأ الباقر بالتحية ورفع ربك. واستشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا: ﴿أَمانا واشهد بأننا مسلمون﴾ والسؤال عن استطاعته لذلك ينافي ما حكوه عن أنفسهم. وأجيب بأن هذا كان في أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام الصابر منهم، ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي: لا تشكوا في قدرة الله؛ وقيل: إنهم ادَّعوا الإيمان والإسلام دعوى باطلة، ويردُّه أن الحواريين هم خالصاء عيسى واتصاره، كما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] وقيل: إن ذلك صدر ممن كان معهم، وقيل: إنهم لم يشكوا في استطاعة البارئ سبحانه، فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي مع علمه بأنه يستطيع ذلك ويقدَّر عليه؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك وهل يجيب إليه؟ وقيل: إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: 260] الآية، ويدل على هذا قولهم من بعد ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ وأما على القراءة الأولى، فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك، قال الزجاج: للمعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله فهو من باب: ﴿وَسَأَلَ الْقُرَيْةَ﴾ [يوسف: 82]، والمائدة: الخوان إذا كان عليه الطعام، من ماله: إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تَقَمَّ إليه قاله قطرب وغيره؛ وقيل: هي فاعلة بمعنى مفعولة كـ ﴿عِيشَةَ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: 21] قاله أبو عبيدة، فاجابهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوه من هذا السؤال، وأمثاله إن كنتم صائقين في إيمانكم، فإن شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفة؛ وقيل: إنه أمرهم بالتقوى ليكون ذلك نريعة إلى حصول ما طلبوه، قوله: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ يعني به الغرض من سؤالهم نزول المائدة، وكذا ما عطف عليه من قولهم: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والمعنى: تطمئن قلوبنا بكمال قدرة الله، أو بأنك مرسل إلينا من عنده، أو بأن الله قد أجابنا إلى ما سألناه، ونعلم علماً يقيناً بأنك قد صدقتنا في نبؤك، ونكون عليها من الشاهدين عند من لم يحضرها من بني إسرائيل، أو من سائر الناس، أو من الشاهدين لله بالوحدانية، أو من الشاهدين أي: الحاضرين دون السامعين. ولما رأى عيسى ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: كائنة أو نازلة من السماء، وأصل اللهم عند سيبويه وأتباعه: يا الله، فجعلت الميم بدلاً من حرف النداء، وربنا نداء ثان، وليس بوصف، و﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾ وصف لمائدة، وقرأ الأعمش

وانبهروا منه لم يقدروا على جرده بالكلية، بل نسبوه إلى السحر. قوله: ﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ هو معطوف على ما قبله، وقد تقدم تفسير ذلك. والوحي في كلام العرب معناه الإلهام: أي ألهمت الحواريين وقنفت في قلوبهم؛ وقيل معناه: أمرتهم على السنة الرسل أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولي. قوله: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا ﴿وَاشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون للإيمان: أي واشهد يا رب، أو واشهد يا عيسى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرِّسَالَ فَيَقُولُ مَاذَا لَجِبْتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ فترد إليهم أفئدتهم فيعلمون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم، وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: قالوا لا علم لنا فرقاً يذهل عقولهم، ثم يردُّ الله إليهم عقولهم، فيكونون هم الذين يسألون بقول الله: ﴿فَلْيَسْأَلِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْيَسْأَلِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مريويه وابن عساکر عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَدْعَى بِالْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمًا ثُمَّ يَدْعَى بِعِيسَى فَيَنْكُرُهُ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ فَيَقْرَأُ بِهَا، فَيَقُولُ: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ انْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى النَّاسِ الْآيَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: هَؤُلَاءِ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخَذُونِي وَأُمِّي الْهَيْئَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ [المائدة: 116] فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصاري فيسألون، فيقولون نعم هو أمرنا بذلك، فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الشمقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيفة الطير وإبراء الأسقام، والخبر بكثير من الغيوب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ يقول قنفت في قلوبهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَأْمَنُونَ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْتَقَا وَاتَّخَذَ الرَّزِقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ مَن يَكْفُرُ بَدِّ مِنْكُمْ فَإِنِ عَذَّبُكُمْ عَذَابًا لَا تَعْلَمُونَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾

وبه قال الزجاج، ولا يجيز البصريون ما قاله إلا إذا أضيف الظرف إلى فعل ماضٍ. وقرأ الأعمش: ﴿هذا يوم ينفع﴾ بتنوين يوم كما في قوله: ﴿وأتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ [البقرة: 48] فكلاهما مقطوع عن الإضافة بالتنوين. وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾. قوله: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ أي: رضي عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له، ورضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم، وأعلى منازل الكرامة، والإشارة بذلك إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبداً، ورضوان الله عنهم. والفوز: الظفر المطلوب على أتم الأحوال. قوله: ﴿لهم ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ وهو على كل شيء قدير، جاء سبحانه بهذه الخاتمة دفعا لما سبق من إثبات من أثبت إلهية عيسى وأمه، وأخبر بأن ملك السموات والأرض له دون عيسى وأمه ودون سائر مخلوقاته، وأنه القادر على كل شيء دون غيره؛ وقيل المعنى: أن له ملك السموات والأرض يعطي الجنات للمطيعين، جعلنا الله منهم.

وقد أخرج الترمذي. وصححه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة قال: تلقى عيسى حجة الله لقاءه في قوله: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ، فلقاه الله سبحانه: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: يقول الله هذا يوم القيامة، ألا ترى أنه يقول: ﴿هذا يوم ينفع الصائقين صدقهم﴾. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: قال الله ذلك لما رفع عيسى إليه، وقالت النصارى ما قالت. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿إن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ قال: سيدي وسيكم. وأخرج ابن المنذر، عنه في قوله: ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ قال: الحفيظ. وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: ﴿كنت أنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم﴾ قال: ما كنت فيهم. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ يقول: عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقاتلتهم ﴿وإن تغفر لهم﴾ أي: من تركت منهم ومدّ في عمره حتى أميط من السماء إلى الأرض لقتل الجبال، فزالوا عن مقاتلتهم ووحودك ﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله: ﴿هذا يوم ينفع الصائقين صدقهم﴾ يقول: هذا يوم ينفع الموحنين توحيدهم.

لم يقله. وقوله: ﴿من دون الله﴾ متعلق بقوله: ﴿اتخذوني﴾ على أنه حال: أي متجاوزين الحد، ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لإلهين: أي كائنين من دون الله. قوله: ﴿سبحانك﴾ تنزيه له سبحانه: أي أنزهك تنزيهاً ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي: ما ينبغي لي أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها، ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ رد ذلك إلى علمه سبحانه، وقد علم أنه لم يقله، فثبت بذلك عدم القول منه. قوله: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ هذه الجملة في حكم التعليل لما قبلها: أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، وهذا الكلام من باب المشاكلة كما هو معروف عند علماء المعاني والبيان؛ وقيل المعنى: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك؛ وقيل تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه؛ وقيل: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد. قوله: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ هذه جملة مقررة لمضمون ما تقدم: أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني: ﴿إن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ هذا تفسير لمعنى ﴿ما قلت لهم﴾ أي: ما أمرتهم، وقيل: عطف بيان للمضمر في ﴿به﴾ وقيل بدل منه ﴿وكنتم عليهم شهداء﴾ أي: حفيظاً ورقياً أرعى أحوالهم وأمنعهم عن مخالفة أمرك ﴿ما دمت فيهم﴾ أي: مدة دوامي فيهم ﴿فلما توفيتني﴾ قيل: هذا يدل على أن الله سبحانه توفاه قبل أن يرفعه، وليس بشيء لأن الأخبار قد تظافرت بأنه لم يمت، وأنه باق في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا، حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان، وإنما المعنى: فلما رفعتني إلى السماء. قيل الوفاة في كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه: بمعنى الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ [الزمر: 42] وبمعنى النوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: 60] أي: ينيمكم، وبمعنى الرفع، ومنه ﴿فلما توفيتني﴾. ﴿وإذ قال الله يا عيسى إني متوفيك﴾ [آل عمران: 55]. ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أصل المراقبة: المراجعة، أي: كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد عليهم: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ تصنع بهم ما شئت وتحكم فيهم بما تريد، ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: القادر على ذلك الحكيم في أفعاله، قيل: قاله على وجه الاستعطف كما يستعطف السيد لعبده. ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوك؛ وقيل: قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم. قوله: ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصائقين صدقهم﴾ أي: صدقهم في الدنيا، وقيل: في الآخرة، والأول، أولى. قرأ نافع وابن محيصن ﴿يوم﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع، فوجه النصب أنه ظرف للقول: أي قال الله هذا القول يوم ينفع الصائقين، ووجه الرفع أنه خير للمبتدأ هو وما أضيف إليه. وقال الكسائي نصب ﴿يوم﴾ هاهنا لأنه مضاف إلى الجملة، وأنشد:

على حين عابت المشيب على الصبا وقلت لما أصح والشيب وزاع

تفسير سورة الأنعام

قال الثعلبي: سورة الأنعام مكية، إلا ست آيات نزلت بالمدينة، وهي ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ [الأنعام: 91] إلى آخر ثلاث آيات [الأنعام: 91 - 93]، و﴿قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم﴾ [الأنعام: 151] إلى آخر ثلاث آيات [الأنعام: 151 - 153]. قال ابن عطية: وهي الآيات المحكمات، يعني في هذه السورة. وقال القرطبي: هي مكية إلا آيتين هما ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ نزلت في مالك بن الصيف، وكعب بن الأشرف اليهوديين، وقوله تعالى ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ [الأنعام: 141] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عنه: قال أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة وحولها سبعون ألف ملك يجارون حولها بالتسبيح. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وأخرج ابن مردويه، عن أسماء قال: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ، وهو في مسير في زجل من الملائكة. وقد نظموا ما بين السماء والأرض. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، عن أسماء بنت يزيد نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد»، وهو من طريق إبراهيم بن نائلة شيخ الطبراني، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف، بن عطية بن عون، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «فكره»، وابن مردويه، رواه عن الطبراني عن إسماعيل المذكور به. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، والارض ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم». وأخرج الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وإسماعيلي في معجمه، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق». وأخرج البيهقي وضعفه، والخطيب في تاريخه، عن علي بن أبي طالب قال: أنزل القرآن خمساً خمساً، ومن حفظه خمساً خمساً لم ينسه، إلا سورة الأنعام، فإنها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكاً، حتى أتوها إلى النبي ﷺ، ما قرئت على عليل إلا شفاه الله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي بن كعب، مرفوعاً نحو حديث ابن عمر. وأخرج النحاس في تاريخه، عن ابن عباس قال: سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة ﴿قل تعالوا آتوا ما حرم﴾ إلى تمام

الآيات الثلاث [الآيات: 151 - 153]. وأخرج الديلمي بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً «ينادي مناد: يا قارئ سورة الأنعام هلم إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها». وأخرج ابن المنذر، عن أبي جحيفة قال: نزلت سورة الأنعام جميعاً معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ [الأنعام: 111] فإنها منية. وأخرج أبو عبيد في فضائله، والدارمي في مسنده، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: الأنعام من نواجذ القرآن. وأخرج محمد بن نصر، عن ابن مسعود مثله. وأخرج السلفي بسند واه عن ابن عباس مرفوعاً «من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى ﴿ويلعلم ما تكسبون﴾ [الأنعام: 3] نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مرزبة من حديد، فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئاً من الشر ضربه ضربة حتى يكون بينه وبينه سبعون حجاباً، فإذا كان يوم القيامة، قال الله تعالى: أنا ربك وأنت عبيدي، امش في ظلي واشرب من الكثر وأغتسل من السلسيل وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب». وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الفجر في جماعة وقعد في مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام، وكل الله به سبعين ملكاً يسبحون الله ويستغفرون له إلى يوم القيامة». وفي فضائل هذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة وغير مرفوعة. قال القرطبي: قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرف ذلك بوجه كثيرة، وعليها بنى المعتكمون أصول الدين.

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ النُّورَ ثُمَّ الْإِنِّ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ بِذُنُوبِهِمْ ۖ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَعَقَ أَجْلا ۖ وَأَجَلٌ
نُّسِئَ عَنْكُمْ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ ۖ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَلْمِزُكُمْ
وَجَهَنَّمَ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله، للدلالة على أن الحمد كله له، وإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعلون. وقد تقدم في سورة الفاتحة ما يغني عن الإعادة له هنا، ثم وصف نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض إخباراً عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، والخلق يكون بمعنى الاختراع، وبمعنى التقدير. وقد تقدم تحقيق ذلك، وجمع السموات لتعدد طباقها، وقدمها على الأرض لتقدمها في الوجود ﴿والأرض بعد ذلك لحواء﴾ [النازعات: 30]. قوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ معطوف على خلق، نكر سبحانه خلق الجواهر بقوله: ﴿خلق السموات والأرض﴾ ثم نكر خلق الأعراض بقوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ لأن الجواهر لا تستغني عن الأعراض.

أوقات الأهلّة والبروج وما يشبه ذلك؛ والثاني أجل الموت. وقيل: الأوّل لمن مضى. والثاني لمن بقي ولمن يأتي. وقيل: إن الأوّل الأجل الذي هو محتوم؛ والثاني الزيادة في العمر لمن وصل رحمه، فإن كان برّاً تقيّاً وصوّلاً لرحمه زيد في عمره، وإن كان قاطعاً للرحم لم يزد له، ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: 11]. وقد صح عن رسول الله ﷺ أن صلة الرحم تزيد في العمر، وورد عنه أن دخول البلاد التي قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت؛ وجاز الابتداء بالنكرة في قوله: ﴿وَلِجَلِّ مَسْمِي عَنْدَهُ﴾ لأنها قد تخصصت بالصفة. قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لصنور الشك منهم مع وجود المقتضى لعدمه: أي كيف تشكون في البعث مع مشاهدتكم في أنفسكم من الابتداء والانتفاء ما يذهب بذلك ويدفعه، من خلقكم من طين، وصيركم أحياء تعلمون وتعتقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتاً، وعنتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت، ويردّ إليها الأرواح التي فارقتها بقدرته ويبدع حكمته. قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ قيل: إن في السموات وفي الأرض متعلق باسم الله باعتبار ما يدل عليه من كونه معبوداً ومتصرفاً ومالكاً: أي هو المعبود أو المالك أو المتصرف في السموات والأرض كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب: أي حاكم أو متصرف فيهما؛ وقيل المعنى: وهو الله يعلم سرركم وجهركم في السموات وفي الأرض، فلا تخفى عليه خافية، فيكون العامل فيهما ما بعدهما. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه. وقال ابن جرير: هو الله في السموات ويعلم سرركم وجهركم في الأرض. والأوّل أولى، ويكون «يعلم سرركم وجهركم» جملة مقرّرة لمعنى الجملة الأولى، لأن كونه سبحانه في السماء والأرض، يستلزم علمه بأسرار عباده وجهركم، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشرّ، وجلب النفع ودفع الضرر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عليّ أن هذه الآية أعني: الحمد لله، إلى قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْلُنُونَ﴾ نزلت في أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله لم يخلق الظلمة ولا الخنافس، ولا العقارب، ولا شيئاً قبيحاً، وإنما يخلق النور وكل شيء حسن، فأنزلت فيهم هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ قال: الكفر والإيمان. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: إن الذين برّبههم يعْلُنون هم أهل الشرك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد،

واختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور؛ فقال جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل، وبالنور ضياء النهار. وقال الحسن: الكفر والإيمان. قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر انتهى. والأولى أن يقال: إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان. ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فَاحْبِيبْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: 122] وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها. قال النحاس: جعل هنا بمعنى خلق؛ وإذا كانت بمعنى خلق له تتعدّ إلا إلى مفعول واحد، وقال القرطبي: جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره. قال ابن عطية: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق، فيكون الجمع معطوفاً على الجمع، والمفرد معطوفاً على المفرد، وتقديم الظلمات على النور لأنها الأصل، ولهذا كان النهار مسلخاً من الليل. قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْلُنُونَ﴾ معطوف على الحمد لله، أو على خلق السموات والأرض، وثم لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم برّبههم يعْلُنون مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السموات والأرض والظلمات والنور، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر به واتخاذ شريك له، وتقديم المفعول للاهتمام، ورعاية الفواصل، وحذف المفعول لظهوره: أي يعْلُنون به ما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلك النعم، ويكون من الكفرة الكفر. قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ في معناه قولان: أحدهما، وهو الأشهر، وبه قال الجمهور أن المراد آدم عليه السلام، وأخرجه مخرج الخطاب للجميع، لأنهم ولده ونسله. الثاني، أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التي خلقوا منها مخلوقة من الطين، ذكر الله سبحانه خلق آدم وبنيه بعد خلق السموات والأرض إتياعاً للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، والمطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث، ودفع لجحودهم بما هو مشاهد لهم لا يمتزجون فيه. قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ جاء بكلمة «ثم» لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت.

وقد اختلف السلف ومن بعدهم في تفسير الأجلين، فقيل: ﴿قَضَى أَجْلاً﴾ يعني الموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني القيامة، وهو مروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم، وعطية والسديّ وخصيف، ومقاتل وغيرهم، وقيل الأوّل: ما بين أن يخلق إلى أن يموت؛ والثاني: ما بين أن يموت إلى أن يبعث، وهو قريب من الأوّل. وقيل الأوّل مدة الدنيا؛ والثاني عمر الإنسان إلى حين موته. وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: الأوّل قبض الأرواح في النوم؛ والثاني قبض الروح عند الموت. وقيل: الأوّل ما يعرف من

أهلكنا من قبلهم من قرن ﴿كلام مبتدأ؛ لبيان ما تقدمه، والهمزة للإنكار، و «كم» يحتمل أن تكون الاستفهامية وأن تكون الخبرية وهي معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده، و «من قرن» تمييز، والقرن: يطلق على أهل كل عصر، سموا بذلك لإقترانهم: أي ألم يعرفوا بسماع الأخبار، ومعاني الآثار، كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة في عصر بعد عصر؛ لتكذيبهم أنبياءهم. وقيل القرن مدة من الزمان. وهي ستون عاماً أو سبعون أو ثمانون أو مائة على اختلاف الأقوال، فيكون ما في الآية على تقدير مضاف محذوف: أي من أهل قرن. قوله: ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ مكن له في الأرض جعل له مكاناً فيها، ومكنه في الأرض: أثبتة فيها، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: كيف ذلك؛ وقيل: إن هذه الجملة صفة لقرن، والأول: أولى، و «ما» في «ما لم نمكن» نكرة موصوفة بما بعدها: أي مكناهم تمكيناً لم نمكنه لكم، والمعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم، ما لم نعطكم من الدنيا، وطول الأعمار وقوة الأبدان، وقد أهلكناهم جميعاً، فإهلاككم وأنتم دونهم بالأولى. قوله: ﴿وأنزلنا السماء عليهم مدراراً﴾ يريد المطر الكثير، عبر عنه بالسماء، لأنه ينزل من السماء، ومنه قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم

والمدرار صيغة مبالغة تدل على الكثرة كمنكار للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور، وميناء للتي تلد الإناء، يقال بر اللبن يدر: إذا أقبل على الحالب بكثرة وانتصاب ﴿مدراراً﴾ على الحال؛ وجريان الأنهار من تحتهم معناه: من تحت أشجارهم ومنازلهم: أي أن الله وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض، فكفروها، فأهلكهم الله بنذيرهم، ﴿وأنشاننا من بعدهم﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿قرناً آخرين﴾ فصاروا بدلاً من الهالكين، وفي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه، وقوة سلطانه، وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء. قوله: ﴿ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ في هذه الجملة بيان شدة صلابتهم في الكفر، وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتاباً مكتوباً في قرطاس بمرأى منهم ومشاهدة، ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، وحاسة اللمس ﴿لقال الذين كفروا﴾ منهم ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم في المرثي المحسوس، فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله ﷺ بواسطة ملك، لا يرونه، ولا يحسونه؛ والكتاب مصدر بمعنى الكتابة، والقرطاس: الصحيفة. قوله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته ﷺ وكفرهم بها: أي قالوا هلا أنزل الله عليك ملكاً نراه، ويكلمنا؛ أنه نبي حتى نؤمن به ونتبعه؛ كقولهم: ﴿ولو أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ [الفرقان: 7] ﴿ولو أنزلنا

وإبن جرير، وإبن المنذر، وإبن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: ﴿يعلمون﴾ يشركون. وأخرج ابن جرير، وإبن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعلمون﴾ قال: الآلهة التي عبدوها عللوها بالله، وليس لله عدل ولا نذ، وليس معه آلهة ولا اتخذ صاحبة ولا ولداً. وأخرج ابن جرير، وإبن المنذر، وإبن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ يعني آدم ﴿ثم قضى لجلال﴾ يعني أجل الموت ﴿وألجل مسمى عنده﴾ أجل الساعة والوقوف عند الله. وأخرج ابن أبي شيبة وإبن جرير، وإبن المنذر، وإبن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عنه في قوله: ﴿ثم قضى لجلال﴾ قال: أجل الدنيا، وفي لفظ أجل موته ﴿وألجل مسمى عنده﴾ قال: الآخرة لا يعلمه إلا الله. وأخرج ابن جرير، وإبن أبي حاتم عنه ﴿قضى لجلال﴾ قال: هو اليوم يقبض فيه الروح، ثم يرجع إلى صاحبه من اليقظة ﴿وألجل مسمى عنده﴾ قال: هو أجل موت الإنسان.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِنَا إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا إِلَيْنَا لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ أَمْ يَرَوْنَ كَمْ أَعْلَمْنَا مِنْ مَبْلَغِهِمْ قَرْنٌ مَضَىٰ مِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا رَوْا تُرْكٌ وَارْسَلْنَا أَنسَاءَ عَلَيْهِمْ يَذَرُونَا الْأَتْخَرُ يُعْرِى بَيْنَ عِيَالِهِمْ فَأَلْهَمْنَا فِتْنَةً يَذُوقُونَ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَيْسَ كَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِذْ يَأْتِيهِمْ مَرُّهُمُ ثَبِثٌ ﴿٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِنُوا الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٥﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَكِنَّا عَلَّمْنَاهُمْ مَا يَلْفُوفُونَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَؤُا بِرُسُلِ رَبِّكَ فَكَفَّ الْأَيْدِي سَحَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾

قوله: ﴿وما تأتيتهم﴾ الخ كلام مبتدأ؛ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمردهم، وهو الإعراض عن آيات الله التي تأتيتهم كمعجزات الأنبياء، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة مما لا يشك من له عقل أنه فعل الله سبحانه، والإعراض: ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستتلوا بها على توحيد الله و «من» في «من آية» مزيدة للاستغراق و «من» في «من آيات» تبعية؛ أي وما تأتيتهم آية من الآيات التي هي بعض آيات ربهم، إلا كانوا عنها معرضين، والفاء في «فقد كذبوا» جواب شرط مقدر: أي إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هم أعظم من ذلك، وهو الحق ﴿لما جاءهم﴾ قيل: المراد بالحق هنا القرآن، وقيل محمد ﷺ ﴿فسوف يأتيتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: أخبار الشيء الذي كانوا به يستهزؤون وهو القرآن، أو محمد ﷺ، على أن ما عبارة عن ذلك تهويلاً للأمر وتعظيماً له: أي سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزؤوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم، كما يقال: اصبر فسوف يأتيتك الخبر عند إرادة الوعيد والتوبيخ، وفي لفظ الأنباء ما يرشد إلى ذلك، فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم. قوله: ﴿فلم يروا كم

يقول: ما يأتيهم من شيء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه، وفي قوله: ﴿فقد كنوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ يقول: سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزؤوا به من كتاب الله عز وجل. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿من قرن﴾ قال: أمة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ يقول: أعطيناهم ما لم نعطكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ يقول يتبع بعضها بعضاً، وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن هارون التيمي في الآية قال: المطر في إبانة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ يقول: لو أنزلنا من السماء صحفاً فيها كتاب ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ لزادهم ذلك تكذيباً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ قال: فمسوه ونظروا إليه لم يصدقوا به. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق قال: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وكلهم قابض إليهم فيما بلغني، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كعدة، وعبيدة بن عبد يغوث، وأبي بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك، فأنزل الله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ قال: ملك في صورة رجل ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر﴾ لقامت الساعة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿لقضي الأمر﴾ يقول: لو أنزل الله ملكاً ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ قال: ولو أتاهم ملك في صورته ﴿لقضي الأمر﴾ لأمكناهم ﴿ثم لا ينظرون﴾ لا يؤخرون ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ يقول: لخلطنا عليهم ما يجاهد في قوله: ﴿ولو جعلناه رجلاً﴾ قال: في صورة رجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ يقول: في صورة آدمي. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وللبسنا عليهم﴾ يقول:

ملكاً لقضي الأمر﴾ أي: لو أنزلنا ملكاً على الصفة التي اقترحوا بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم ﴿لقضي الأمر﴾ أي: لأمكناهم إذ لو يؤمنوا عند نزوله، ورؤيتهم له؛ لأن مثل هذه الآية البينة، وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها، فقد استحقوا الإهلاك والمعالجة بالعقوبة ﴿ثم لا ينظرون﴾ أي: لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له؛ وقيل إن المعنى: إن الله سبحانه لو أنزل ملكاً مشاهداً لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء، بل تزهق أرواحهم عند ذلك، فيبطل ما أرسل الله له رسله، وأنزل به كتبه من هذا التكليف الذي كلف به عباده ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ [الكهف: 7]. قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ أي: لو جعلنا الرسول إلى النبي ملكاً يشاهدونه، ويخاطبونه، لجعلنا ذلك الملك رجلاً، لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التي خلقه الله عليها إلا بعد أن يتجسم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بني آدم؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه، فلو جعل الله سبحانه الرسول إلى البشر، أو الرسول إلى رسوله، ملكاً مشاهداً مخاطباً لنفروا منه ولم يأنسوا به، ولداخلهم الرعب وحصل معهم من الخوف ما يمنعه من كلامه ومشاهدته، هذا أقل حال فلا تتم المصلحة من الإرسال. وعند أن يجعله الله رجلاً: أي على صورة رجل من بني آدم، ليسكنوا إليه ويأنسوا به، سيقول الكافرون إنه ليس بملك وإنما هو بشر، ويعودون إلى مثل ما كانوا عليه. قوله: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ لأنهم إذا راوه في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملك، فإن استدلل لهم بأنه ملك كنوه قال الزجاج: المعنى للبسنا عليهم، أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق. فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فاعلم الله عز وجل أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل، لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون. واللبس: الخلط، يقال لبست عليه الأمر البسه لیساً: أي خلطته، وأصله التستر بالثوب ونحوه. ثم قال سبحانه مؤنساً لنبيه ﷺ ومسلماً له ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ يقال: حاق الشيء حييقاً حييقاً وحيوقاً وحيقناً نزل: أي فنزل ما كانوا به يستهزؤون، ولحاط بهم: وهو الحق حيث أهلکوا من أجل الاستهزاء به ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سافروا في الأرض، وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعدما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة وجناتهم مغبرة وأراضيهم مكفجرة، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة، فانتبه بهم لاحقون، وبعد هلاكهم هالكون.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾

شبهنا عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق قال: مرَّ رسول الله ﷺ فيما بلغني بالوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف، وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤوا به فغاظه ذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ لَسْتَهْزِئَ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

قُلْ لَنْ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتُبٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِرَبِّ فِيهِ الْكِتَابُ حَسْبَرًا أَنْفُسَهُمْ هَهُوَ لَا يُؤْمِرُونَ ﴿١١﴾ وَلَمْ يَأْسْكُنْ فِي الْبَيْتِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّيِّئُ الْعَمِيدُ ﴿١٢﴾ قُلْ أَخْبَرُ اللَّهَ أَتُحَدِّثُ بِالْقَابِلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِعَهُ وَذَلِكَ الْقَوْمُ الْأَمْيَنُ ﴿١٥﴾ وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا تُكَادِي لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْسَسْكَ يَخْلُقْ لَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْكَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٧﴾ قُلْ أَتَى قَوْمَهُ أَكْثَرُ شُبُهَةً قُلْ اللَّهُ شَهِدَ بَيْنَ رَبِّيكَمَّ وَأَرْضِي إِلَهُ هَذَا الْقَوْمِ أَنْ لَا يُدْرِكَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْمِ أَهْلَكُمْ لَتَشْهَدُوا أَنْتَ مَعَ اللَّهِ مَا لَهُ أَهْلٌ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَدِدِي وَإِنِّي نَذَرْتُ لِلَّهِ نَذْرًا كَرِيمًا ﴿١٨﴾ أَلَيْسَ مَا تَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ يَمْرُؤُنَ كَمَا يَمْرُؤُونَ أَتَأْتَهُمُ الْكُتُبُ حَسْبَرًا أَنْفُسَهُمْ هَهُوَ لَا يُؤْمِرُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَتَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَذْهُبُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ كَذْبُهُمْ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا احتجاج عليهم وتبكييت لهم، والمعنى: قل لهم هذا القول فإن قالوا فقل لله، وإذا ثبت أن له ما في السموات والأرض إما باعترافهم، أو بقيام الحجة عليهم، فالله قاهر على أن يعاجلهم بالعقاب، ولكنه كتب على نفسه الرحمة: أي وعد بها فضلاً منه وتكرماً، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكيد وعده، وارتفاع الوسائط بونه، وفي الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة، وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة، ومن رحمته لهم إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ونصب الأنبياء. قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ اللام جواب قسم محذوف. قال الفراء وغيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿الرحمة﴾ ويكون ما بعدها مستأنفاً على جهة التبيين، فيكون المعنى ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ليمهلنكم وليؤخرن جمعكم. وقيل المعنى: ليجمعنكم في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه. وقيل: ﴿إِلَى﴾ بمعنى في: أي ليجمعنكم في يوم القيامة. وقيل يجوز أن يكون موضع ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ الت نصب على البذل من الرحمة، فتكون اللام بمعنى أن. والمعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم كما قالوا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجَنَّهُ﴾ [يوسف: 35] أي أن يسجنوه، وقيل إن جملة ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مسوقة للترهيب بعد الترغيب، وللوعيد بعد الوعد: أي إن

أهلنكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم في معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة، والضمير في ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لليوم أو للجمع. قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. قال الزجاج: إن الموصول مرتفع على الابتداء وما بعده خبره كما تقول: الذي يكرمني فله درهم، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقال الأخفش: إن شئت كان ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على البذل من الكاف والميم في ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي: ليجمعن المشركين الذين خسروا أنفسهم، وأنكره المبرد، وزعم أنه خطأ، لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب. لا يقال: مررت بك زيد ولا مررت بي زيد؛ وقيل: يجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ مجروراً على البذل من المكذبين الذين تقدم نكرهم، أو على النعت لهم؛ وقيل: إنه منادى وحرف النداء مقدر. قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: الله، وخص السالكين بالذكر، لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة؛ وقيل المعنى: ما سكن فيهما أو تحرك فاكنتي بأحد الضمين عن الآخر، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة. قوله: ﴿قُلْ أَغْيَرُ اللَّهَ اتَّخَذَ وَلِيًّا﴾ الاستفهام للإنكار، قال لهم ذلك لما دعوهم إلى عبادة الأصنام، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً، لا لاتخاذ الولي مطلقاً، نخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل. والمراد بالولي هنا: المعبود أي: كيف اتخذ غير الله معبوداً؟ و ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مجرور على أنه نعت لاسم الله، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ، وأجاز الزجاج

النصب على المدح، وأجاز أبو علي الفارسي نصبه بفعل مضمر، كأنه قيل أترك فاطر السموات والأرض. قوله: ﴿وَهُوَ يَطْعَمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين في الأول، وضمها وفتح العين في الثاني: أي يرزق ولا يرزق، وقرأ سعيد بن جبير، ومجاهد، والأعمش بفتح الياء في الثاني وفتح العين، وقرأ بفتح الياء والعين في الأول، وضمها وكسر العين في الثاني على أن الضمير يعود إلى الولي المنكور، وخص الإطعام بون غيره من ضروب الإنعام؛ لأن الحاجة إليه أوسع. قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أمره سبحانه بعد ما تقدم من اتخاذ غير الله ولياً أن يقول لهم: إنه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه، وأخلص من أمته؛ وقيل معنى ﴿أَسْلَمَ﴾ استسلم لأمر الله، ثم نهى الله عز وجل أن يكون من المشركين. والمعنى: أمرت بأن أكون أول من أسلم ونهيت عن الشرك: أي يقول لهم هذا، ثم أمره أن يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه. والخوف: توقع المكروه؛ وقيل: هو هنا بمعنى العلم: أي إني أعلم إن عصيت ربي أن لي عذاباً عظيماً. قوله: ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِعَهُ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل مكة، وابن عامر، على البناء للمفعول: أي من يصرف عنه العذاب، واختار هذه القراءة سيبريه. وقرأ الكوفيون على البناء للفعل، وهو

[الأنعام: 150] وما في ﴿مما تشركون﴾ موصولة أو مصدرة: أي من الأصنام التي تجعلونها آلهة، أو من إشراككم بالله. قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ الكتاب للجنس فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما أي: يعرفون رسول الله ﷺ قال به جماعة من السلف، وإليه ذهب الزجاج؛ وقيل إن الضمير يرجع إلى الكتاب: أي يعرفونه معرفة محققة، بحيث لا يلتبس عليهم منه شيء، و﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ بيان لتحقيق تلك المعرفة وكمالها وعدم وجود شك فيها، فإن معرفة الآباء للأبناء هي البالغة إلى غاية الإتيان إجمالاً وتفصيلاً. قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ في محل رفع على الابتداء، وخبره ﴿فهم لا يؤمنون﴾ وبخول إلقاء في الخبر، لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ وقيل: إن الموصول خبر مبتدأ محذوف؛ وقيل: هو نعت للموصول الأول. وعلى الوجهين الآخرين يكون ﴿فهم لا يؤمنون﴾ معطوفاً على جملة ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾. والمعنى على الوجه الأول: أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتوهمهم لا يؤمنون بما جاء به رسول الله ﷺ، وعلى الوجهين الآخرين أن أولئك الذين آتاهم الله الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحق، وعدم العمل بالمعرفة التي ثبتت لهم فهم لا يؤمنون. قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: اختلق على الله الكذب فقال: إن في التوراة أو الإنجيل ما لم يكن فيهما ﴿أو كذب بآياته﴾ التي يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البينة. فجمع بين كونه كاذباً على الله، ومكذباً بما أمره الله بالإيمان به، ومن كان هكذا فلا أحد من عباد الله أظلم منه، والضمير في ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ للشأن.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سلمان الفارسي قال: إنا نجد في التوراة أن الله خلق السموات والأرض، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتبائنون، وبها يتزاوون وبها تحن الناقة، وبها تنتج البقرة، وبها تيعر الشاة، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع. وقد أخرج مسلم، وأحمد، وغيرهما، عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة: منها رحمة يتراحم بها الخلق، وتسعة وتسعون ليوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»؛ وثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي». وقد روي من طرق أخرى بنحو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ يقول

اختيار أبي حاتم، فيكون الضمير على هذه القراءة ش. ومعنى ﴿يومئذ﴾ يوم العذاب العظيم، ﴿فقد رحمهم﴾ الله أي: نجاه وأنعم عليه وأدخله الجنة، والإشارة بذلك إلى الصرف أو إلى الرحمة: أي فذلك الصرف أو الرحمة ﴿الفوز المبين﴾ أي: الظاهر الواضح، وقرأ أبي ﴿من يصرف الله عنه﴾. قوله: ﴿وان يمسسك الله بضر﴾ أي: إن ينزل الله بك ضرراً من فقر أو مرض ﴿فلا كشف له إلا هو﴾ أي: لا قادر على كشفه سواه ﴿وان يمسسك بخير﴾ من رخاء أو عافية ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ ومن جملة ذلك المس بالضر والخير. قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ القهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، وأقهر الرجل: إذا صار مقهوراً ذليلاً، ومنه قول الشاعر:

تمنى حصين أن يسود خزاعة فامسى حصين قد أنزل وأقهر
ومعنى: ﴿فوق عباده﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر، والغلبة عليهم، لا فوقية المكان كما تقول: السلطان فوق رعيته: أي بالمرتبة والرفعة. وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد ﴿وهو الحكيم﴾ في أمره ﴿الخبير﴾ بأفعال عباده. قوله: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ أي مبتدأ، وأكبر خبره، وشهادة تمييز، والشيء يطلق على القديم والحادث، والمحال والممكن. والمعنى: أي شهيد أكبر شهادة، فوضع شيء موضع شهيد، وقيل: إن ﴿شيء﴾ هنا موضوع موضع اسم الله تعالى. والمعنى: الله أكبر شهادة: أي انفرد به بالربوبية، وقيام البراهين على توحيدة أكبر شهادة، وأعظم فهو شهيد بيني وبينكم؛ وقيل: إن قوله: ﴿الله شهيد بيني وبينكم﴾ هو الجواب، لأنه إذا كان الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شهادة له ﷺ؛ وقيل: إنه قد تم الجواب عند قوله: ﴿قل الله﴾ يعني الله أكبر شهادة، ثم ابتدأ فقال: ﴿شاهد بيني وبينكم﴾ أي: شهيد بيني وبينكم، قوله: ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي: أوحى الله إلي هذا القرآن الذي تلوته عليكم؛ لأجل أن أنذركم به، وأنذر به من بلغ إليه: أي كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلية، وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد، كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت النزول، ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعات المذكورة في علم أصول الفقه، وقرأ أبو نهيك ﴿وأوحى﴾ على البناء للفاعل، وقرأ ابن عداة على البناء للمفعول. قوله: ﴿اتنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع على قراءة من قرأ بهمزة على الأصل أو بقلب الثانية، وأما من قرأ على الخبر فقد حقق عليهم شركهم، وإنما قال: ﴿آلهة أخرى﴾ لأن الآلهة جمع، والجمع يقع عليه التانيث، كذا قال الفراء، ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الأسماء الحسنى﴾ [الأعراف: 180] وقال: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ [طه: 51] ﴿قل لا أشهد﴾ أي: فانا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه، وذلك لكون هذه الشهادة باطلة، ومثله: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾

﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَذَّبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٤﴾ فَهُمْ مَن يَسْتَعِجِلُ إِلَيْكَ وَنَعْمَتَنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفَءَآذَانِهِمْ وَفَرًّا وَإِنْ يَبْرَأْ كُلُّ نَجْلٍ لَا يَرْجِعُوا بِهَا حَقًّا إِذَا جَاءَكَ بِجِدْلُوكَ فَقُولِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنْتَهُ وَيَتَّبِعُونَ عَنْتَ رَبِّكَ وَكَانَ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَنْ يَشْمُرُ ﴿١٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ دُعُوا إِلَى الْكُفْرِ فَقَالُوا يَنْتَهِكُنَا فَرُّهُ وَلَا نَحْكُمُكَ بِإِذْنِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ يَدْعَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَأَمَدُوا لِمَا بَرَّأُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ دُعُوا إِلَى رَبِّهِمْ قَالَ الْكَلْبُ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قرا الجمهور بالنون في الفعلين، وقرئ بالياء فيهما، وناسب الظرف محذوف مقدر متاخراً: أي يوم نحشرهم كان كيت وكيت، والاستفهام في ﴿أَيْنَ شَرَكَاؤُكُمْ﴾ للتقريع والتوبيخ للمشركين. وأضاف الشركاء إليهم، لأنها لم تكن شركاء الله في الحقيقة، بل لما سموها شركاء أضيفت إليهم، وهي ما كانوا يعبدونه من دون الله، أو يعبدونه مع الله. قوله: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمونها شركاء، فحذف المفعولان معاً، ووجه التوبيخ بهذا الاستفهام أن معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال، أو كانت حاضرة ولكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه، فكان وجودها كعدمها. قوله: ﴿لَهُمْ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الزجاج: تاويل هذه الآية، أن الله عز وجل أخبر بقصص المشركين وافتتاحهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حتى راوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنساناً يحب غلوياً، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فنقول: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه انتهى. فالمراد بالفتنة على هذا كفرهم: أي لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتخروا به، وقاتلوا عليه، إلا ما وقع منهم من الجحود والحلف على نفيه بقولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ وقيل المراد بالفتنة هنا جوابهم: أي لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرئ، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذباً، وجملته: ﴿لَهُمْ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ معطوفة على عامل الظرف المقدر كما مر والاستثناء مفرغ، وقرئ فتنتهم بالرفع وبالنصب. ويكن وتكن والوجه ظاهر، وقرئ ﴿وَمَا كَانَ فِتْنَتُهُمْ﴾ وقرئ ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على النداء ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ بإنكار ما وقع منهم في الدنيا من الشرك، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: زال وذهب افتراءهم وتلاشى، وبطل ما كانوا يظنونونه من أن الشركاء يقرّبونهم إلى الله، هذا على أن ما مصدرية؛ وقيل هي موصولة عبارة عن الآلة: أي فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئاً، وهذا تعجيب لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة؛ وقيل لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة؛ لأنها دار لا يجري فيها غير

ما استقر في الليل والنهار، وفي قوله: ﴿قُلْ اغْيِرِ اللَّهَ تَخَذَ وَلِيًّا﴾ قال: أما الولي فالذي تولاه، ويقر له بالربوبية. ولخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: بليغ السموات والأرض. ولخرج أبو عبيد في فضائله وابن جرير، وابن الأنباري، عنه قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها. ولخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿هُوَ يَطْعَمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ قال: يرزق ولا يرزق. ولخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿مَنْ يَصْرِفُ عَنْهُ﴾ قال: من يصرف عنه العذاب. وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿وَأَنْ يَمْسَسَكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: بعافية. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: جاء النعمان بن زيد، وقرم بن كعب، وبحري بن عمرو فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: لا إله إلا الله، بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد قال: أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشاً أي شيء أكبر شهادة؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول: الله شهيد بيني وبينكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يعني أهل مكة ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني من بلغه هذا القرآن من الناس فهو له نذير. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ. وأخرج ابن مريويه، وأبو نعيم، والخطيب وابن النجار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغه القرآن فكانما شافهته به، ثم قرأ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي قال: «من بلغه القرآن فكانما رأى النبي ﷺ»، وفي لفظ «من بلغه القرآن حتى تفهمه وتعلمه كان كمن عاين رسول الله ﷺ» وكلمه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ قال: العرب ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ قال: العجم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قال النضر وهو من بني عبد الدار: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية.

يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

بمعنى في؛ وقيل هي بمعنى الباء: أي وقفوا بالنار أي بقربها معانين لها، ومفعول ترى محذوف، وجواب لو محذوف، ليهذب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراهم إذا وقفوا على النار؛ لرأيت منظرًا هائلًا وحالًا فظيعًا ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي: إلى الدنيا ﴿وَلَا نَكْذِبُ بآيَاتِ رَبِّنَا﴾ أي: التي جاءنا بها رسوله ﷺ، ﴿وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بها العاملين بما فيها، والأفعال الثلاثة داخلية تحت التمني: أي تمنوا الرد، وأن لا يكذبوا، وأن يكونوا من المؤمنين، برفع الأفعال الثلاثة كما هي قراءة الكسائي وأهل المدينة، وشعبة، وابن كثير، وأبي عمرو. وقرأ حفص، وحزمة، بنصب نكذب ونكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمني، واختار سيبويه القطع في ﴿وَلَا نَكْذِبُ﴾ فيكون غير داخل في التمني، والتقدير: ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب: أي لا نكذب ربنا أو لم نرد، قال: وهو مثل دعني ولا أعود: أي لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني. واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمني بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَائِبُونَ﴾، لأن الكذب لا يكون في التمني. وقرأ ابن عامر ﴿وَنُكُونَ﴾ بالنصب، وأدخل الفعلين الأولين في التمني، وقرأ أبي ﴿وَلَا نَكْذِبُ بآيَاتِ رَبِّنَا أَبَدًا﴾ وقرأ هو وابن مسعود ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَلَا نَكْذِبُ﴾ بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في جواب التمني كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، وقال أكثر البصريين: لا يجوز الجواب إلا بالفاء. قوله: ﴿بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ هذا إضراب عما يدل عليه التمني من الوعد بالإيمان والتصديق: أي لم يكن ذلك التمني منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد، بل هو لسبب آخر، وهو أنه بدأ لهم ما كانوا يخفون: أي يجحدون من الشرك، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فعملوا إلى التمني والمواعيد الكاذبة؛ وقيل: بدأ لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم؛ وقيل: بدأ لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُكُونُونَ﴾ [الزمر: 47] وقال المبرد: بدأ لهم جزء كفرهم الذي كانوا يخفونه، وهو مثل القول الأول؛ وقيل: المعنى أنه ظهر للذين اتبعوا الغواية ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة، ﴿وَلَوْ رَدُّوا﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿لَعَادُوا﴾ لفعل ما نهوا عنه من القبائح التي رأسها الشرك، كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند، ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَائِبُونَ﴾ أي: متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ما شاهدوا؛ وقيل المعنى: وإنهم لكائبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان. وقرأ يحيى بن وثاب ﴿وَلَوْ رَدُّوا﴾ بكسر الراء؛ لأن الأصل ردوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء، وجملة ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَائِبُونَ﴾ معترضة بين المعطوف وهو وقالوا، وبين المعطوف عليه وهو لعادوا: أي لعادوا إلى ما نهوا عنه ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت، وهذا من شدة

الصدق، فمعنى ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ نفى شركهم عند أنفسهم، وفي اعتقادهم، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَيْثُ﴾ [النساء: 42]. قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هذا كلام مبتدأ؛ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين في الدنيا، والضمير عائد إلى الذين أشركوا: أي وبعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تتلو القرآن ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم، والأكنة: الأغشية جمع كنان مثل الأسنة والسنان، كننت الشيء في كنه: إذا جعلته فيه، وكننته أخفيته، وجملة: ﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ مستأنفة للإخبار بمضمونها، أو في محل نصب على الحال: أي وقد جعلنا على قلوبهم أغشية كراهة أن يفقهوا القرآن، أو لئلا يفقهوه، والوقر: الصمم؛ يقال وقرت أنه تقر وقرأ: أي صمت. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿وَقَرَأَ﴾ بكسر الواو: أي جعل في آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمله، وذكر الأكنة والوقر تمثيل؛ لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه، كان قلوبهم لا تعقل، وأسماعهم لا تدرک، ﴿وَأَن يَرَوْا كُل آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: لا يؤمنوا بشيء من الآيات التي يرونها من المعجزات، ونحوها؛ لعنادهم وتمردهم قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَالِسُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ حتى هنا هي الابتدائية التي تقع بعدها الجملة، وجملة يجالسونك في محل نصب على الحال، والمعنى: أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جاءوك مجاللين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين؛ وقيل: حتى هي الجارة وما بعدها في محل جر، والمعنى: حتى وقت مجيئهم مجاللين يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد. والأساطير قال الزجاج: واحدها أسطار. وقال الأخفش: أسطورة. وقال أبو عبيدة أسطارة. وقال النحاس: أسطور. وقال القشيري: أسطير. وقيل: هو جمع لا واحد له كعبايد وإبائيل، والمعنى: ما سطره الأولون في الكتب من القصص والأحاديث. قال الجوهري: الأساطير الأباطيل والثرهات. قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن، أو بمحمد ﷺ ويبيدون هم في أنفسهم عنه. وقيل: إنها نزلت في أبي طالب، فإنه كان ينهى الكفار عن آتية النبي ﷺ، ويبعد هو عن إجابته ﴿وَأَن يَهْلُكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يهلكون بما يقع منهم من النهي والنأي، إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله وسخطه، والحال: أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذي جلبوه على أنفسهم قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيهًا على تحقق وقوعه، كما ذكره علماء المعاني، و ﴿وَقَفُوا﴾ معناه حبسوا، يقال وقفته وقفًا ووقف وقوفًا، وقيل: معنى ﴿وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أدخلوها، فتكون على

نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس في الآية قال: ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به، وينأون عنه: يتباعون. وأخرج ابن جرير، من طريق العوفي عنه قال: لا يلقونه ولا يدعون أحداً يأتيه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن الحنفية، في الآية قال: كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه ولا يجيبونه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: ينهون عن القرآن، وعن النبي ﷺ، وينأون عنه يتباعون عنه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال، في الآية قال: نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يخفون من قبل﴾ قال: من أعمالهم ﴿وَلَوْ رَتَّبُوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ يقول: ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التي كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم، أعمال السوء التي كانوا نهوا عنها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: أخبر الله سبحانه أنهم لو رتبوا لم يقدروا على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ رَتَّبُوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ أي: ولو رتبوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حيل بينهم وبينه أول مرة، وهم في الدنيا.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِفَلَقِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَشْتًا قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا كَرِهْنَا فِيهَا وَمِمَّنْ يَحْسَرُونَ أُولَئِكَ عَلَى مَا ظَهَرَهُمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُهُمْ ۖ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ قَدْ تَلَمَّ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَكَ أَلَدَىٰ يَمُوتُونَ فَاِئْتَهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْسَرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُّوا حَرَِّٰنَهُمْ نَارًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّنَا الْأَنْبِيَاءُ ﴿١٨﴾ وَإِنْ كَانَ كَرِهَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُبَدِّلَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَكًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِبَهُمْ بِآيَاتِهِ وَكَوْشَاهُ اللَّهُ لَجَمْعِهِمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَالِئِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَحْشُرُهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رَجْعُهُمْ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ هم الذين تقدم نكروهم. والمراد من تكذيبهم بقاء الله تكذيبهم بالبعث، وقيل تكذيبهم بالجزاء. والأول أولى، لأنهم الذين قالوا قريباً: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29] حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة. أي: القيامة، وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها. ومعنى بغتة: فجأة، يقال بغتهم الأمر يبعثهم بغتاً وبغتة. قال سيبويه: وهي مصدر في موضع الحال، قال: ولا يجوز أن يقاس عليه، فلا يقال: جاء فلان سرعة، و﴿حتى﴾ غاية للتكليف لا للخسران، فإنه لا

تمزدهم وعنادهم، حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث. قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ قد تقدم تفسيره في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27] أي: حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم، وقيل: على بمعنى عند، وجواب لو محذوف: أي لشاهدت أمراً عظيماً، والاستفهام في ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ للتقريع والتوبيخ: أي أليس هذا البعث الذي ينكرونه كائنًا موجوداً، وهذا الجزاء الذي يجحدونه حاضراً. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بما أنكروا، ولكنوا اعترافهم باليقين ﴿قَالَ قَتَقُوا الْعَذَابِ﴾ الذي تشاهدونه وهو عذاب النار ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم به أو بكل شيء مما يؤرم بالإيمان به في دار الدنيا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ قال: معذرتهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ قال: حجبتهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعني: المنافقين والمشركين قالوا وهم في النار: هلم فلنكتب فلعله أن ينفعنا، فقال الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ فِي الْقِيَامَةِ﴾ ما كانوا يفترون، يكنون في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه في قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 42] قال بجوارحهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: باعتذارهم الباطل ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ قال: ما كانوا يشركون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ قال: قريش، وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ قال: كالجبعة للذلل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْآنًا﴾ قال: يسمعونه بأذانهم ولا يعون منه شيئاً، كمثّل البهيمة التي لا تسمع النداء ولا تدري ما يقال لها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: الغطاء أكن قلوبهم أن يفقهوه، والوقر الصمم، و﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أساجيع الأولين. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: أساطير الأولين: أحاديث الأولين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: أساطير الأولين: كذب الأولين وباطلهم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يردوا رسول الله ﷺ، ويتباعوا عما جاء به. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن القاسم بن مخيمرة نحوه. وأخرج ابن جرير عن عطاء

أبو عبيد قراءة التخفيف. قال النحاس: وقد خولف أبو عبيد في هذا. ومعنى «يكنبونك» على التشديد: ينسبونك إلى الكذب ويرنون عليك ما قلت. ومعنى المخفف: أنهم لا يجنونك كذاباً، يقال اكنبته: وجنته كذاباً، وأبخلته: وجنته بخيلاً. وحكى الكسائي عن العرب: اكنبت الرجل: أخبرت أنه جاء بالكذب، وكنبته: أخبرت أنه كاتب. وقال الزجاج: كنبته إذا قلت له كذبت، وكنبته: إذا أدبت أن ما أتى به كذب. والمعنى: أن تكذيبهم ليس يرجع إليك، فإنهم يعترفون لك بالصق، ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به، ولهذا قال: «ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون» ووضع الظاهر موضع المضمحل لزيادة التوبيخ لهم، والإزاء عليهم، ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذي وقع منهم ظاهر، لا «بين» قوله: «ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرتنا» هذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ: أي أن هذا الذي وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك، فاقتد بهم ولا تحزن واصبر كما صبروا على ما كذبوا به، وأوذوا، حتى يأتيك نصرنا كما اتاهم فإننا لا نخلف الميعاد و«لكل أجل كتاب» [الرعد: 38] «إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا» [غافر: 51] «ولقد سبقت كلمتنا لعباننا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جنتنا لهم الغالبون» [الصافات: 171 - 173] «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي» [المجادلة: 21] «ولا تبدل لكلمات الله» بل وعده كائن، وأنت منصور على المكذبين، ظاهر عليهم. وقد كان ذلك والله الحمد. «ولقد جاءك من نبي المرسلين» ما جاءك من تجزي قومهم عليهم في الابتداء، وتكذيبهم لهم، ثم نصرهم عليهم في الانتهاء، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسول، فيرجعون إليك ويخجلون في الدين الذي تدعوهم إليه طوعاً أو كرهاً. قوله: «وإن كان كبر عليك إعراضهم»، كان النبي ﷺ يكبر عليه إعراض قومهم، ويتعاضمهم، ويحزن له، فبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له، والإعراض عما دعا إليه، هو كائن لا محالة لما سبق في علم الله عز وجل، وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأتوا الله بذلك، ثم علق ذلك بما هو محال، فقال «فإن استطعت أن تبغي نفقاً في الأرض» فتأتيهم بآية منه «أو سلماً في السماء» فتأتيهم بآية، منها فافعل، ولكنك لا تستطيع ذلك فدع الحزن - و«ولا تذهب نفسك عليهم حسرات» [قاطر: 8] «ولست عليهم بمسيطر» [الغاشية: 22] «والنفق: السرب والمنفذ، ومنه النافق» لاجر اليربوع، ومنه المنافق. وقد تقدم في البقرة ما يقيني عن الإعادة. والسلم: الدرج الذي يرتقي عليه، وهو منكر لا يؤنث، وقال الفراء: إنه يؤنث. قال الزجاج: وهو مشتق من السلامة، لأنه يسلك به إلى موضع الأمن؛ وقيل: إن الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد به أمته،

غاية له «قالوا يا حسرتنا» هذا جواب إذا جاءتهم أوقعوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة ليدل ذلك على كثرة تحسره. والمعنى: يا حسرتنا احضري، فهذا أو أنك، كذا قال سيبويه في هذا النداء وأمثاله، كقولهم يا للعجب ويا للرجل؛ وقيل: هو تنبيه للناس على عظم ما يحل بهم من الحسرة، كأنهم قالوا: يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة، والحسرة: الندم الشديد «على ما فرطنا فيها» أي: على تفريطنا في الساعة: أي في الاعتداد لها، والاحتفال بشأنها، والتصديق بها. ومعنى فرطنا ضيعنا، وأصله التقتيم، يقال فرط فلان: أي تقدم وسبق إلى الماء، ومنه قوله ﷺ: وأنا فرطكم على الحوض، ومنه الفارط: أي المتقدم فكانهم أراهم يقولهم: «على ما فرطنا» أي: على ما قدمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها، وقال ابن جرير الطبري: إن الضمير في فرطنا فيها يرجع إلى الصفة، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، والدنيا بالآخرة «قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا» في صفقتنا، وإن لم تذكر في الكلام، فهو دالٌّ عليها؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة؛ وقيل الضمير راجع إلى الحياة: أي على ما فرطنا في حيلتنا. قوله: «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم» هذه الجملة حالية: أي يقولون تلك المقالة، والحال أنهم: «يحملون أوزارهم على ظهورهم» أي: ننوهم، جمع وزر: يقال: وزر، فهو وزر وموزر، وأصله من الوزر. قال أبو عبيدة: يقال للرجال إذا بسط ثوبه، فجعل فيه المتاع: أحمل وزرك: أي ثقلك، ومنه الوزير، لأنه يحمل أثقال ما يستند إليه من تبير الولاية. والمعنى: أنها لزمتهم الأثام فصاروا مثقلين بها، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل «لألساء ما يوزون» أي: بش ما يحملون. قوله: «وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو» أي: وما متاع الدنيا إلا لعب ولهو على تقدير حذف مضاف، أو ما الدنيا من حيث هي، إلا لعب ولهو. والقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: «ما هي إلا حياتنا الدنيا»، واللعب معروف، وكذلك اللهو، وكل ما يشغلك فقد الهك؛ وقيل: أصله الصرف عن الشيء. ورد بأن اللهو بمعنى الصرف لأمه ياء، يقال لهيت عنه، ولأم اللهو وأو، يقال لهوت بكذا «وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون» سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا: أي هي خير الذين يتقون الشرك والمعاصي، أفلا تعقلون ذلك. قرأ ابن عامر «ولدار الآخرة» بلام واحدة، وبالإضافة وقرأ الجمهور باللام التي للتعريف معها، وجعل الآخرة نعتاً لها والخبر خير، وقرئ تعقلون بالفوقية والتحتية. قوله: «قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون» هذا اللام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغم والحزن بتكذيب الكفار له. وبخول قد للتكثير، فإنها قد تأتي لإفادته كما تأتي رب والضمير في «إنه» للشأن، وقرئ بفتح الياء من يحزنك وضماها. وقرئ «يكنبونك» مشدداً ومخففاً، واختار

جريح مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسما والصفات، عن ابن عباس قال: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ والنفق: السرب، فتذهب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لهم سلماً في السماء فتصعد عليه ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَآيَةً﴾ أفضل مما أتياهم به، فافعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ يقول سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: سرباً ﴿أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال: يعني الدرج. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ قال: المؤمنون ﴿وَالْمَوْتَى﴾ قال: الكفار. وأخرج هؤلاء عن مجاهد مثله.

وَقَالُوا لَوْلَا رِزْقُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا فِي الْيَأْسِ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ عَلَى الْغُلَامِ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُ بَعْضِهِمْ وَلَا كَيْدُ الْبَعْضِ أَتُتْلَى سُورَةُ الْأَنْعَامِ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورٌ وَكُنُوفٌ فِي الْأُفُفِ مَنْ يَنْزِلُ اللَّهُ بِعَذَابِهِ مَنْ يَشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٩﴾

هذا كان منهم تنعتاً ومكابرة، حيث لم يقتلوا بما قد أنزله الله على رسوله من الآيات البينات التي من جملتها القرآن، وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله، ومرادهم بالآية هنا: هي التي تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمرأى منهم ومسمع، أو ننق الجبل كما وقع لبني إسرائيل، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذي هو الابتلاء والامتحان، وأيضاً لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها بل سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا. قال الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى، يعني جمع الإجماع، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن الله قادر على ذلك، وأنه تركه لحكمة بالغة لا تبلغها عقولهم. قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ الدابة من دب يدب فهو دابة، إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو. وقد تقدم بيان ذلك في البقرة ﴿وَلَا طَائِرٌ﴾ معطوف على ﴿دَابَّةٍ﴾ مجرور في قراءة الجمهور. وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق ﴿وَلَا طَائِرٌ﴾ بالرفع عطفاً على موضع من دابة على تقدير زيادة من، و﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لدفع الإبهام؛ لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير كقولهم: طر في حاجتي، أي أسرع؛ وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجنحين يعينه على الطيران، ومع عم الاعتدال ميل، فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجنحين؛ وقيل: نكر الجنحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينه ونحو ذلك. والجنح: أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من التواحي.

لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم، ولا يشعرون أن الله سبحانه في تلك حكمة، لا تبلغها العقول، ولا تتركها الأفهام، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذي هو الابتلاء والامتحان معنى، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ جمع الإجماع وقسر، ولكنه لم يشأ ذلك، والله الحكمة البالغة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأتى الله بذلك هو صنيع أهل الجهل، ولست منهم، فدرع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة، فهو أعلم بما فيه المصلحة، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها، لكان إيمانهم بها اضطراراً ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجبها الأفهام، وهؤلاء ليسوا كذلك، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكفة، وفي آذانهم من الوقر، ولهذا قال ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ شبههم بالأصوات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب، ولا يعقلون الحق، أي أن هؤلاء لا يلجئهم الله إلى الإيمان وإن كان قادراً على ذلك، كما يقدر على بعثه الموتى للحساب ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الجزء فيجازى كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا﴾ قال: الحسرة الندامة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب بسند صحيح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿يَا حَسْرَتُنَا﴾ قال: الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة، فتلك الحسرة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ قال: ما يعملون. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لَعِبَ وَلَهُوٌ﴾ قال: كل لعب: لهو، وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والضياء في المختارة، عن علي بن أبي طالب، قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذب ولكن نكتب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْنُبُونَكَ وَلَكِنْ لِّلظَّالِمِينَ بَآيَاتُ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي يزيد المنني، أن أبا جهل قال: والله إني لأعلم أنه صادق، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف؟ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي ميسرة، نحو رواية علي بن أبي طالب. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَآيَاتُ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ قال: يعلمون أنك رسول الله ويحسدون. وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال: يعزى نبيه ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن

قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في ظلمات الكفر، والجهل والحيرة، لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم. والمعنى: كائنين في الظلمات التي تمنع من إِبصار المبصرات، وضموا إلى الصمم، واليكم، عدم الانتفاع بالابصار لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال، وقد تقدّم في البقرة تحقيق المقام بما يفني عن الإعادة، ثم بين سبحانه أن الأمر بيده ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضلّه أضله، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم، لا يذهب به إلى غير الحق. ولا يمشي فيه إلا إلى صوب الاستقامة.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿إِلَّا أَمْرُ امثالكم﴾ قال: أصنافاً مصنفة تعرف بأسمائها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: قال: خلق أمثالكم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريح في الآية قال: الذرة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس ﴿مَا فَرَطْنَا فِي لِكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما تركنا شيئاً إلا وقد كتبناه في أم الكتاب. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: موت البهائم حشرها، وفي لفظ قال: يعني بالحشر الموت. وأخرج عبد الرزاق، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: «ما من دابة ولا طائر إلا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتصّ لبعضها من بعض، حتى يقتصّ لبعضها من بعض، حتى يقتصّ للجلعاء من ذات القرن، ثم يقال لها كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَاباً﴾. [الزبا: 40] وإن شئتم فافرقوا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن أبي نر قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال لي: «يا أبا نر أندري فيم انتطحتا؟ قلت: لا قال: لكن الله يدرى وسيقضي بينهما» قال أبو نر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقب طائر جناحيه في السماء ولا نكرنا منه علماً. وأخرجه أيضاً أحمد، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَوَلَّنَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلَعَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءُ».

والمعنى: ما من دابة من الدواب التي تدب في أي مكان من أمكنة الأرض، ولا طائر يطير في أي ناحية من نواحيها ﴿إِلَّا أَمْرُ امثالكم﴾ أي: جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم، ورزقهم كما رزقكم داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء؛ وقيل: ﴿امثالنا﴾ في نكر الله والدلالة عليه؛ وقيل: ﴿امثالنا﴾ في كونهم محشورين، روى ذلك عن أبي هريرة. وقال سفيان بن عيينة أي: ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشبه كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاوس؛ وقيل: ﴿امثالكم﴾ في أن لها أسماء تعرف بها. وقال الزجاج ﴿امثالكم﴾ في الخلق والرزق، والموت، والبعث، والاقتصاص. والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنات ما كان. قوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي لِكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شيء. والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، فإن الله أثبت فيه جميع الحوادث؛ وقيل إن المراد به القرآن: أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ النُّكُرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله ﷺ، فكل حكم سنه الرسول لأمته قد نكره الله سبحانه في كتابه العزيز، بهذه الآية وبنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: 31] ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، «ومن» في ﴿مَنْ شَيْءٍ﴾ مزيدة للاستغراق. قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: الأمم المذكورة، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا من العلماء، ومنهم أبو نر، وأبو هريرة، والحسن، وغيرهم. وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها، وبه قال الضحاك. والأول: أرجح للآية، ولما صرح في السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلعاء من الشاة القرناء، ولقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5]، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر: المذكور في الآية: حشر الكفار، وما تخلل كلام معترض. قالوا: وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص. واستدلوا أيضاً بأن في هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة، ولفظه: «حتى يقاد للشاة الجلعاء من القرناء، وللحجر لم ركب على الحجر؛ والعود لم خدش العود» قالوا: والجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها. قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صَمٌّ وَبِكَلِمِهِمْ﴾ أي: لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون باللسنتهم، نزلهم منزلة من لا يسمع ولا ينطق، لعدم قبولهم لما ينبغي قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة. وقال أبو علي: يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ كَسَاعَةُ اللَّهِ عَذَابٌ إِنَّ اللَّهَ يُدْعَوْنَ إِلَى شَاءِهِ وَيَنْتَسِرُونَ ﴿١﴾ كُنْتُمْ مَدِينُونَ ﴿٢﴾ بَلْ إِنَّمَا يُدْعَوْنَ فَيَكْشِفُ مَا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْتَسِرُونَ ﴿٣﴾ مَا تَشْكُرُونَ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَنْصَرِعُونَ ﴿٥﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ فَلَمَّا شَاءَ مَا دَعَيْنَاهُمْ يَوْمَ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ ابْوَابَ الْيَوْمِ كُلٌّ يَمُوجُ فِيهَا فِرْحَانًا يَوْمَ أُوتُوا لَعْنَتَهُمْ بَشَرَةً فَإِذَا هُمْ

مُتَلَسِّئُونَ ﴿١٦﴾ فَنَقُطِعْ دَائِرَ الْقَرَارِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَكِنْ يَلَوُ رَبِّ الْأَعْيُنِ ﴿١٧﴾

قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الكاف والميم عند البصريين للخطاب، ولا حظ لهما في الإعراب، وهو اختيار الزجاج. وقال الكسائي والفراء وغيرهما: إن الكاف والميم في محل نصب بوقوع الرؤية عليهما. والمعنى: أرايتم أنفسكم. قال في الكشف مرجحاً للمذهب الأول: إنه لا محل للضمير الثاني، يعني الكاف من الإعراب، لأنك تقول: أرايتك زيداً ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكنت كائنك تقول: أرايت نفسك زيداً ما شأنه، وهو خلف من القول انتهى. والمعنى: أخبروني ﴿إِنْ اتَّكَمَ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى غيركم من الهمزة ﴿أَوْ لَتَكُنَّ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿أَغِيرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ: أي اتدعون غير الله في هذه الحالة من الأصنام التي تعبثونها، أم تدعون الله سبحانه. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد لذلك التوبيخ: أي أغير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صائقي أن أصنامكم تضر وتنفع، وأنها آلهة كما تزعمون. قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ معطوف على منفى مقدر أي: لا تدعون غيره، بل إياه تخصصون بالدعاء ﴿فَيُكْشَفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك. قوله: ﴿وَتَتَسَوَّنَ مَا تَشْرَكُونَ﴾ أي: وتتسَوَّنَ عند أن ياتيكم العذاب ما تشركون به تعالى: أي ما تجعلونه شريكاً له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها، ولا ترجون كشف ما بكم منها، بل تعرضون عنها إغراض الناس. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: وتتركون ما تشركون. قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسليية النبي ﷺ أي: ولقد أرسلنا إلى أمم كائنة من قبلك رسلاً فكذبوهم ﴿فَاخْتَنَاهُمْ بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: البؤس والضَّرَّ وقيل: البِئْسَاءُ المصائب في الأموال، والضَّرَّاءُ المصائب في الأبدان، وبه قال الأكثر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يدعون الله بضرعة، مأخوذ من الضراعة وهي الذل، يقال: ضرع فهو ضارع، ومنه قول الشاعر:

لبنيك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح
قوله: ﴿فَقُلُوا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي: فهلا إذ جاءهم بَأْسُنَا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء في كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمردهم وغلوثهم في الكفر، ويجوز أن يكون المعنى أنهم تضرعوا عند أن نزل بهم العذاب، وذلك تضرع ضروري لم يصدر عن إخلاص، فهو غير نافع لصاحبه، والأول أولى، كما يدل عليه ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي صلبت وغلظت ﴿وَوَزِنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصي، قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما ذُكِّرُوا بِهِ، أو أعرضوا عما ذُكِّرُوا بِهِ، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به، إذ ليس هو من فعلهم، وبه قال ابن عباس، وابن جريج، وأبو علي الفارسي. والمعنى: أنهم لما تركوا الاعتاز

بما نكروا به من البِئْسَاءِ والضَّرَّاءِ وأعرضوا عن ذلك ﴿فَتَحْنَتْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لما نسوا ما نكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير على أنواعه فرح بطر وأشر وأعجبوا بذلك وظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذي هم عليه حقاً وصواباً ﴿لَخَنَّاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة وهم غير مترقبين لذلك والبغطة: الأخذ على غرة من غير تقدم أمانة، وهي مصدر في موضع الحال، لا يقاس عليها عند سيبويه. قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْلُسُونَ﴾ المبلس: الحزين الأيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال، ومن ذلك اشتق اسم إبليس، يقال أبلس الرجل إذا سكت، وأبلست الناقة إذا لم ترع. قال العجاج:

صاح هل تعرف رسماً مكرساً قال نعم أعرفه وأبلساً
أي: تحير لهول ما رأى، والمعنى: فإذا هم محزونون متحيرين أيسون من الفرح. قوله: ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر الآخر، يقال دبر القوم يدبرهم دبراً: إذا كان آخرهم في المجيء، والمعنى: أنه قطع آخرهم: أي استؤصلوا جميعاً حتى آخرهم. قال قطرب: يعني أنهم استؤصلوا واهلكوا. قال أمية بن أبي الصلت:

فاهلكوا بعد ذبح حصن دابرهم فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا
ومنه التدبير: لأنه أحكام عواقب الأمور. قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على هلاكهم، وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحملونه سبحانه عند نزول النعم التي من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، فإنهم أشد على عباد الله من كل شديد، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، واقطع دابرهم، وأبدلهم بالعدل الشامل لهم.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿فَاخْتَنَاهُمْ بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ قال: خوف السلطان وغلاء السعر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ قال: يعني تركوا ما نكروا به. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما دعاهم الله إليه ورسله، أبوه وروثه عليهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿فَتَحْنَتْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: رخاء الدنيا ويسرها. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي، في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ قال: من الرزق ﴿لَخَنَّاهُمْ بَغْتَةً﴾ فإذا هم مبلسون. قال: مهلكون متغير حالهم ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول: فقطع أصل الذين ظلموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثي في قوله: ﴿لَخَنَّاهُمْ بَغْتَةً﴾ قال: أمهلوا عشرين سنة، ولا يخفي أن هذا مخالف لمعنى البغطة

إليه، ﴿فلا خوف عليهم﴾ بوجه من الوجوه ﴿ولا هم يحزنون﴾ بحال من الأحوال، هذا حال من آمن وأصلح، وأما حال المكذبين فهو أنه يمسه العذاب بسبب فسقهم: أي خروجهم عن التصديق والطاعة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿يصدفون﴾ قال: يعملون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿يصدفون﴾ قال: يعرضون، وقال في قوله: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة﴾ قال: فجأة آمين، أو جهره، قال: وهم ينظرون. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: كل فسق في القرآن فمعناه الكذب.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي كُنْتُ مِنْ قَبْلُ مِنْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلَكُلْ لَا سَمِيعٌ لَّهُمْ يَشْفَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يُدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْشِ يُرِيدُونَ وَجْهًا مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْرَأَهُمْ فَيَكُونُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيُتْلَوْا أَهْوَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُ شَيْءًا مِنْهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْهُمْ رَجِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه، وتعتنهم بإنزال الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان، أنه لم يكن عنده خزائن الله حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات، والمراد خزائن قدرته التي تشتمل على كل شيء من الأشياء ويقول لهم: إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به ويعرفهم بما سيكون في مستقبل الدهر ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ حتى تكلفوني من الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر، وليس في هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء. وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا لدنيوية. بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي: ما أتبع إلا ما يوحى الله إلي، وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهد الأنبياء عملاً بما يفيد القصر في هذه الآية، والمسألة مدونة في الأصول والأدلة عليها معروفة. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «أوتيت القرآن ومثله معه» ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ هذا الاستفهام للإنكار، والمراد: أنه لا يستوي الضال والمهتدي، أو المسلم الكافر أو من اتبع ما أوحى إليه ومن لم يتبعه، والكلام تمثيل: ﴿أفلا تتفكرون﴾ في ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما، فإنه بين لا يلتبس على

لغة ومحتاج إلى نقل عن الشارع، وإلا فهو كلام لا طائل تحته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد قال: المبلس المجهود المكروب الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه، والمبلس أشد من المستكين، وفي قوله: ﴿فقطع دابر للقوم الذين ظلموا﴾ قال: استوصلوا.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمَكَكُمْ وَأَصْرَكُمْ وَحَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصِدُّونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَسْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْتَمِعُونَ الْقَذَابَ بِمَا كَانُوا يَسْتَمِعُونَ ﴿٦٥﴾

هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم، ووجد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر، ولهذا جمعه، والختم: الطبع، وقد تقدم تحقيقه في البقرة، والمراد: أخذ المعاني القائمة بهذه الجوارح أو أخذ الجوارح نفسها، والاستفهام في «من إله غير الله يأتيكم به» للتوبيخ، «ومن» مبتدأ. «وله» خبره، «وغير الله» صفة للخبر، ووجد الضمير في «به» مع أن المرجع متعدد على معنى: فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المنكور، وقيل: الضمير راجع إلى أحد هذه المنكورات وقيل إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أي يأتيكم بذلك المنكور، ثم أمر رسول الله ﷺ بالنظر في تصرف الآيات، وعدم قبولهم لها تعجباً له من ذلك، والتصريف المجيء بها على جهات مختلفة، تارة إنذار وتارة إغذار، وتارة ترغيب، وتارة ترهيب، وقوله: ﴿ثم هم يصدفون﴾ عطف على نصر، ومعنى يصدفون: يعرضون، يقال: صدف عن الشيء: إذا عرض عنه صلفاً وصلوفاً. قوله: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله﴾ أي: أخبروني عن ذلك، وقد تقدم تفسير البغته قريباً أنها المفاجأة. قال الكسائي: بغتهم بيغتهم بغتاً وبغته: إذا أتاهم فجأة أي: من نون تقييد مقدمات تدل على العذاب، والجهره أن يأتي العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه؛ وقيل البغته: إتيان العذاب ليلاً، والجهره: إتيان العذاب نهاراً كما في قوله تعالى: ﴿بياتاً أو نهاراً﴾ [يونس: 50]. ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام للتقرير: أي ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا القوم الظالمون. وقري «يهلك» على البناء للفاعل. قال الزجاج: معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم؟ انتهى. قوله: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ كلام مبتدأ: لبيان الغرض من إرسال الرسل: أي مبشرين لمن أطاعهم بما أعد الله له من الجزاء العظيم، ومنذرين لمن عصاهم بما له عنده الله من العذاب الوبيل؛ وقيل: مبشرين في الدنيا بسعة الرزق وفي الآخرة بالثواب، ومنذرين مخوفين بالعقاب، وهما حالان مقدرتان: أي ما نرسلهم إلا مقدرين تبشيرهم وإنذارهم ﴿فمن آمن وأصلح﴾ أي: آمن بما جاء به الرسل ﴿وأصلح﴾ حال نفسه بفعل ما يدعونه

عنني ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ أي: فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين، وحاشاه عن وقوع ذلك. وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الإسلام، كقوله تعالى: ﴿لئن اشركت ليحبطن عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]. وقيل: إن ﴿فتكون من الظالمين﴾ معطوف على ﴿تطردهم﴾ على طريق التسبب، والأول أولى. قوله: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أي: مثل تلك الفتن العظيمة فتنا بعض الناس ببعض، والفتنة الاختبار: أي عاملناهم معاملة المختبرين، واللام في ﴿ليقولوا﴾ للعاقبة: أي ليقول البعض الأول مشيرين إلى البعض الثاني ﴿أهؤلاء﴾ الذين ﴿منَّ الله عليهم من بيننا﴾ أي: أكرمهم بإصابة الحق بوننا. قال النحاس: وهذا من المشكل، لأنه يقال كيف فتنا ليقولوا هذا القول وهو إن كان على طريقة الإنكار كفر، وأجاب بجوابين: الأول: أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار؛ والثاني: أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبته هذا القوم منهم كقوله: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [قصص: 8]. قوله: ﴿أليس الله باعلم بالشاكرين﴾ هذا الاستفهام للتقرير. والمعنى: أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر، وهو أعلم بالشاكرين له، فما بالكم تعترضون بالجهل وتنتكرون الفضل. قوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾ هم الذين نجاه الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين، كما سيأتي بيانه: ﴿فقل سلام عليكم﴾ أمره الله بأن يقول لهم هذا القول تطبيقاً لخواطريهم، وإكراماً لهم. والسلام، والسلامة: بمعنى واحد، فمعنى سلام عليكم: سلمكم الله. وقد كان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم يدايم بالسلام؛ وقيل: إن هذا السلام هو من جهة الله: أي أبلغهم من السلام. قوله: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي: أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان؛ وقيل: كتب لك في اللوح المحفوظ. قيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيراً بسعة مغفرة الله، وعظيم رحمته. قوله: ﴿إن من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، ونافع بفتح أن من أنه، وقرأ الباقون بكسرها. فعلى القراءة الأولى: تكون هذه الجملة بدلاً من الرحمة: أي كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره. وعلى القراءة الثانية: تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف وموضع بجهالة النصب على الحال: أي عمله وهو جاهل. قيل: والمعنى أنه فعل فعل الجاهلين؛ لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه، فقد فعل فعل أهل الجهل، والسفه، لا فعل أهل الحكمة، والتدبير؛ وقيل المعنى: أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة، فتكون فائدة التقييد بالجهالة الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدي إلى الضرر. قوله: ﴿ثم تاب من بعده﴾ أي: من بعد عمله ﴿وواصل﴾ ما أقسده بالمعصية، فراجع الصواب وعمل الطاعة ﴿فإنه غفور رحيم﴾. قرأ ابن عامر،

من له أنى عقل، وأقل تفكير. قوله: ﴿وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ الإنذار: الإعلام، والضمير في به راجع إلى ما يوحى؛ وقيل إلى الله؛ وقيل إلى اليوم الآخر. وخص الذين يخافون أن يحشروا، لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك. قيل ومعنى يخافون: يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون، فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين، وأهل الذمة، وبعض المشركين؛ وقيل: معنى الخوف على حقيقته، والمعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبي ﷺ ينكره، وإن لم يكن مصيئاً به في الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبي ﷺ، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أئجع والتذكير له أنفع. قوله: ﴿وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ الجملة في محل نصب على الحال: أي أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولي لهم بوالهيم ولا نصير يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم من دون الله، وفيه رد على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم، وهم أهل الكتاب، أو أن أصنامهم تشفع لهم، وهم المشركون. قوله: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ الدعاء العبادة مطلقاً؛ وقيل: المحافظة على صلاة الجماعة؛ وقيل: الذكر وقراءة القرآن؛ وقيل: المراد الدعاء لله بجلب النفع وبفعل الضرر. قيل: والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام على ذلك والاستمرار؛ وقيل: هو على ظاهره، ويريدون وجهه في محل نصب على الحال. والمعنى: أنهم مخلصون في عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى: أي يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره. قوله: ﴿وما عليكم من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ هذا كلام معترض بين النهي وجوابه متضمن لنفي الحامل على الطرد: أي حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شيء، وحسابك على نفسك ما عليهم منه شيء فعلام تطردهم؟ هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله: ﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ [هود: 27] وطعن عنك في دينهم وحسبهم، فكيف وقد زكاهم الله عز وجل بالعبادة والإخلاص، وهذا هو مثل قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: 164] وقوله: ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: 39]. وقوله: ﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾ [الشعراء: 113]. قوله: ﴿فتطردهم﴾ جواب النفي في قوله: ﴿وما عليكم من حسابهم من شيء﴾ وهو من تمام الاعتراض: أي إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، ومن في ﴿ما عليكم من حسابهم من شيء﴾ للتبعيض، والثانية للتوكيد. وكذا في ﴿ما من حسابك عليهم من شيء﴾، قوله: ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب للنهي

بدهر. وأخرج مسلم والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم، عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد نزلت هذه الآية في ستة: أنا وعبد الله بن مسعود، وبلال، ورجل من هنبل، ورجلان لست أسميهما، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾. وقد روي في بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا في المعنى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال: يعني الصلاة المكتوبة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال: الصلاة المكتوبة الصبح والعصر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إبراهيم النخعي في الآية قال: هم أهل النكر لا تطردهم عن النكر. قال سفيان: أي أهل الفقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكذلكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني: أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، فقال الأغنياء للفقراء ﴿أَهؤلاءَ مَنْ اللهُ عليهم من بيننا﴾ يعني: أهؤلاء هدامهم الله، وإنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿أَهؤلاءَ الذين من الله عليهم من بيننا﴾ أي: لو كان لهم كرامة على الله ما أصابهم هذا الجهد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ماهان قال: أتى قوم النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظماً فما ردَّ عليهم شيئاً فأنصرفوا، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الآية، فدعاهم فقرأها عليهم. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: أخبرت أن قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ كانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ يدهم بالسلام، فقال ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وإذا لقيهم فكذلك أيضاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة في قوله: ﴿وَكذلكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ قال: نبين الآيات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمَجْرَمِينَ﴾ قال: اللذين يأمرونك بطرد هؤلاء.

قُلْ إِنِّي مُبَشِّرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَثْرَتُ دِينِهِمْ وَلَا بَلَاءُ مَا يَدْعُونَ مَا تَشْتَعِلُونَ بِهِ إِلَّا بِمَا كَانَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعِلُونَ بِهِ لَأَخَذْتُمُ الْآمُرَ مِنِّي وَبَيَّضْتُ وَأَلَّهَ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِشْرُ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ وَلَا ذَرْبٌ وَلَا يُبَايِسُ إِلَّا فِي كَيْفِ شَيْءٍ ﴿٧٩﴾

قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ﴾ أمره الله سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعونه ويعبده من دون الله أي: نهى الله عن ذلك وصرفه وزجره، ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم: ﴿لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ﴾ أي: لا أسلك المسلك الذي سلكتموه في دينكم، من اتباع الأهواء

وعاصم، بفتح الهمزة من «فإنه»، وقرأ الباقون بالكسر. فعلى القراءة الأولى تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف: أي فأمره أن الله غفور رحيم، وهذا اختيار سيبويه، واختار أبو حاتم أن الجملة في محل رفع على الابتداء، والخبر مضمرة، كأنه قيل: فله ﴿أنه غفور رحيم﴾ قال: لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء. وأما على القراءة الثانية: فالجملة مستأنفة. قوله: ﴿وَكذلكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: مثل ذلك التفصيل تفصيلها، والتفصيل التبيين، والمعنى: أن الله فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبين لهم حكم كل طائفة. قوله: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمَجْرَمِينَ﴾. قال الكوفيون: هو معطوف على مقتر: أي وكذلك نفصل الآيات لنبيين لكم، ولتستبين قال النحاس: وهذا الحذف لا يحتاج إليه. وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى: قرئ «لتستبين» بالفوقية والتحتية، فالخطاب على الفوقية للنبي ﷺ أي لتستبين يا محمد سبيل المجرمين، وسبيل منصوب على قراءة نافع. وأما على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص بالرفع، فالفعل مسند إلى سبيل وأما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل أيضاً، وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة بالرفع، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَقُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ قال: الأعمى الكافر، الذي عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه، والبصير: العبد المؤمن، الذي أبصر بصرأ نافعاً فوحده الله وحده، وعمل بطاعة ربه، وانتفع بما آتاه الله. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، عن عبد الله بن مسعود: قال مرُّ الملا من قريش على النبي ﷺ، وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ﴿أَهؤلاءَ مَنْ اللهُ عليهم من بيننا﴾ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء، اطردهم عنا، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل الله فيهم القرآن ﴿وَلَنُذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. وقد أخرج هذا السبب مطولاً ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، وفيه: إن الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وقرظة بن عبد، عمرو بن نوفل، والحارث بن عامر بن نوفل، ومطعم بن عدي بن الخيار بن نوفل في أشراف الكفار من عبد مناف، وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن ماجه وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الدلائل، عن خباب قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فنكر نحو حديث عبد الله بن مسعود مطولاً. قال ابن كثير: هذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة

يقول لهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقبوراً لي وفي وسعي ﴿لَقَضَى الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه بكم بسؤاله له وطلبي ذلك؛ أو المعنى: لو كان العذاب الذي تطلبونه وتستعجلون به عندي، وفي قبضتي لأنزلته بكم، وعند ذلك يقضي الأمر بيني وبينكم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبالوقت الذي ينزل فيه عذابهم وبما تقتضيه مشيئته من تأخيرهم استدراجاً لهم وإعذاراً إليهم. قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ المفاتيح جمع مفتاح بالفتح: وهو المخزن: أي عنده مخازن الغيب، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة، أو جمع مفتاح بكسر الميم، وهو المفتاح، جعل للأمور الغيبية مفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن منها على طريق الاستعارة أيضاً، ويؤيد أنها جمع مفتاح بالكسر قراءة ابن السميع ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ فإن المفاتيح جمع مفتاح والمعنى: إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب، أو المفاتيح التي يتوصل بها إلى المخازن. وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى، وأنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجاً أولاً. وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة، والأنواع المخدولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المنكورة في قول الصائق المصدق ﷺ «من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد»، قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما من أعظم مخلوقات الله: أي يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علماً مفصلاً لا يخفى عليه منه شيء، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: من ورق الشجر وهو تخصيص فعد التعميم: أي يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه، وقيل: المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال والأرزاق، وحكى النقاش عن جعفر بن محمد، أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بني آدم، قال ابن عطية: وهذا قول جار على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد، ولا ينبغي أن يلتفت إليه ﴿وَلَا حِجَابٌ كَائِنَ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي: في الأمكنة المظلمة، وقيل: في بطن الأرض ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ﴾ بالخفض عطفاً على حبة: وهي معطوفة على ورقة. وقرأ ابن السميع، والحسن، وغيرهما بالرفع عطفاً على موضع من ورقة، وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جميع الموجودات. قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، فتكون هذه الجملة بدل اشتغال من ﴿لَا يَعْلَمُهَا﴾ وقيل هو عبارة عن

والمشي على ما توجه المقاصد الفاسدة التي يتسبب عنها الوقوع في الضلال. قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتَ إِذَا﴾ أي: اتبعت أهواكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم، وطرد من أربتم طرده ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إن فعلت ذلك، وهذه الجملة الإسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، والمجيء بها اسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات، وقرئ ﴿ضَلَلْتَ﴾ بفتح اللام وكسرها وهما لغتان. قال أبو عمرو: ضللت بكسر اللام لغة تميم، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف، والأولى هي الأصح والأفصح؛ لأنها لغة أهل الحجاز، وهي قراءة الجمهور. قال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضللت أضل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ [سبا: 50] قال فهذه: يعني المفتوحة لغة نجد وهي الفصيحة، وأهل العالية يقول: ضللت بالكسر أضل انتهى. قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ البينة: الحجة والبرهان: أي إني على برهان من ربي وبيِّن، لا على هوى وشك، أمره الله سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية، لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التي لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة. قوله: ﴿وَكُنْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالرب أو بالعذاب أو بالقرآن أو بالبينية، والتذكير للضمير باعتبار المعنى. وهذه الجملة إما حالية بتقدير قد: أي والحال أن قد كنتم به، أو جملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول الله ﷺ من الحجج الواضحة والبراهين البينة. قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء، نحو قوله: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِشَافاً﴾ [الإسراء: 92]، وقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنَّكَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: 32]، وقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبا: 29]، وقيل: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من الآيات التي تقتربونها علي. قوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم في كل شيء إلا لله سبحانه، ومن جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة. والمراد: الحكم الفاصل بين الحق والباطل. قوله: ﴿يَقِصُّ الْحَقُّ﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم ﴿يَقِصُّ﴾ بالقاف والصاد المهملة، وقرأ الباقون ﴿يَقْضِي﴾ بالضاد المعجمة والياء، وكذا قرأ علي وأبو عبد الرحمن السلمي، وسعيد بن المسيب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء. فعلى القراءة الأولى، هو من القصص: أي يقص القصص الحق، أو من قص أثره: أي يتبع الحق فيما يحكم به. وعلى القراءة الثانية، هو من القضاء: أي يقضي القضاء بين عباده، والحق منتصب على المفعولية، أو على أنه صفة لمصدر محذوف: أي يقضي القضاء الحق، أو يقص القصص الحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: بين الحق والباطل بما يقضي به بين عباده ويفصله لهم في كتابه، ثم أمره الله سبحانه أن

علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي عمران الجوني، في قوله ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ قال: على ثقة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة في قوله: ﴿لِقَضِي الْأَمْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قال: لقامت الساعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ قال: يقول خزائن الغيب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ قال: مَنْ خَمَسَ ﴿إِنْ أَلَّهِ﴾ عنده علم الساعة ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وبها ملك يكتب ما يسقط من ورقها. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن محمد بن جحادة، في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ قال: لله تبارك وتعالى شجرة تحت العرش ليس مخلوق إلا له فيها ورقة فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده، فذلك قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وأخرج الخطيب في تاريخه بسند ضعيف، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا رزق فلان بن فلان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ﴾ الآية. وقد رواه يزيد بن هارون، عن محمد ابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ فنكره. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ فقال: الرطب واليابس من كل شيء.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَيْهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ أَقْوَمُ فَوقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَىٰ اللَّهِ مَوْتُهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي: ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التي بها تميزون وليس ذلك موتاً حقيقة، فهو مثل قوله: ﴿إِنَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42] والتوفي استيفاء الشيء، وتوفيت الشيء واستوفيته: إذا أخذته أجمع، قال الشاعر:

إن بني الأدم ليسوا من أحد ولا توفاهم قريش في العدد
قيل: الروح إذا خرجت من البدن في المنام بقيت فيه

الحياة؛ وقيل: لا تخرج منه الروح بل الذهن فقط، والأولى أن هذا أمر لا يعرفه إلا الله سبحانه. قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: كسبتم بجوارحكم من الخير والشر. قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ﴾ أي: في النهار يعني اليقظة؛ وقيل يبعثكم من القبور فيه: أي في شأن ذلك الذي قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: هو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه؛ وقيل ثم يبعثكم فيه: أي في المنام، ومعنى الآية: أن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم، فإنه عالم بذلك ولكن ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ المراد: فوقية القدرة والرتبة كما يقال: السلطان فوق الرعية، وقد تقدّم بيانه في أول السورة. قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: ملائكة جعلهم الله حافظين لكم، ومنه قوله: ﴿وَإِن عَلَيْكُمْ لحَافِظِينَ﴾ [الإنفاطار: 10] والمعنى: أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الأفات ويحفظ أعمالكم، والحفظة جمع حافظ، مثل كتبة جمع كاتب ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء، وتقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه وأنه أمر حقيق بذلك؛ وقيل هو متعلق بحفظة. قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ حتى يحتمل أن تكون هي الغائية: أي ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ ويحتمل أن تكون الابتدائية، والمراد بمجيء الموت: مجيء علاماته. وقرأ حمزة «توفاه رسلنا» وقرأ الأعمش «تتوفاه» والرسل هم أعوان ملك الموت، ومعنى توفته: استوفت روحه: ﴿لَا يُفْرِطُونَ﴾ أي: لا يقصرون ويضيعون، وأصله من التقدّم، وقال أبو عبيدة: لا يتوانون. وقرأ عبيد بن عمير «لا يفرون» بالتخفيف: أي لا يجاوزون الحد فيما أمروا به من الإكرام والإمانة. قوله: ﴿ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ معطوف على توفته، والضمير راجع إلى أحد؛ لأنه في معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: أي ردوا بعد الحشر إلى الله: أي إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ مالكم الذي يلي أمورهم ﴿الْحَقُّ﴾ قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم الله. وقرأ الحسن ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب على إضمار فعل: أي أعني أو أمدح، أو على المصدر ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر والروية والتدبر.

وقد أخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه، فإذا أذن الله في قبض روحه قبضه وإلا ردها إليه، فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في الآية قال: ما من ليلة إلا والله يقبض

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَشْرِكُونَ﴾ بالله سبحانه بعد أن أحسن إليك بالخلوص من الشدائد، وذهاب الكرب، شركاء لا ينفعونكم ولا يضرّونكم، ولا يقدرّون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعت هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟ ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم: ﴿هُوَ الْقَابَرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً﴾ أي: الذي قدر على إنجائكم من تلك الشدائد ونفع عنكم تلك الكرب قادر على أن يعينكم في شدة ومحنة وكرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب. فالعذاب المبعوث من جهة الفوق: ما ينزل من السماء من المطر والصواعق. والمبعوث من تحت الأرض: الخسف والزلازل والغرق، وقيل: ﴿مَنْ فَوْقَكُمْ﴾ يعني: الأمراء الظلمة ﴿وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: السفلة وعبيد السوء. قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً﴾ قرأ الجمهور بفتح التحتية، من لبس الأمر: إذا خلطه، وقرأ أبو عبد الله الميني بضمها: أي يجعل تلك لباساً لكم، قيل والاصل: أو يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ رَزَقَهُمْ﴾ [المطففين: 3] والمعنى: يجعلكم مختلطي الأهواء مختلفي النحل متفرقي الآراء. وقيل: يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضاً. والشيع: الفرق، أي يخلطكم فرقا. قوله: ﴿وَيُنِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: يصيب بعضكم بشدة بعض من قتل وأسر ونهب ﴿وَيُنِيقُ﴾ معطوف على ﴿يَبْعَثُ﴾. وقرأ ﴿نُنِيقُ﴾ بالنون ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ﴾ نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ الحقيقة فيعوبون إلى الحق الذي يبيناهم لهم بيانات متنوعة.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظَلَمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يقول: من كرب البر والبحر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، في تفسير الآية عن ابن عباس قال: يقول إذا أضل الرجل الطريق دعا الله ﴿لَنْ أَنْجِيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَابَرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقَكُمْ﴾ قال: يعني: من أمرائكم ﴿أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: سفلكم ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً﴾ يعني: بالشيع الأهواء المختلفة ﴿وَيُنِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه من وجه آخر في تفسير الآية قال: ﴿عَذَاباً مِنْ فَوْقَكُمْ﴾ أئمة السوء ﴿أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: خدم السوء. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً من وجه آخر قال: ﴿مَنْ فَوْقَكُمْ﴾ من قبل أمرائكم وإشرافكم ﴿أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: من قبل سفلكم وعبيدكم. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن أبي مالك ﴿عَذَاباً مِنْ فَوْقَكُمْ﴾ قال: القذف ﴿أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: الخسف. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد أيضاً

الأرواح كلها، فيسأل كل نفس عما عمل صاحبها من النهار، ثم يدعو ملك الموت فيقول: اقْبِضْ رُوحَ هَذَا؛ وما من يوم إلا وملك الموت ينظر في كتاب حياة الإنسان، قاتل يقول ثلاثاً، وقاتل يقول خمساً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: أما وفاته إياهم بالليل فمناهم، وأما ﴿جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ فيقول: ما اكتسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ قال: في النهار ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وهو الموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾ قال: ما كسبتم من الإثم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ قال: هم المعقبات من الملائكة يحفظونه ويحفظون عمله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: أعوان ملك الموت من الملائكة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿وَهُمْ لَا يَفْرَطُونَ﴾ يقول: لا يضيعون.

قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظَلَمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ دَعَاؤُهُمْ نَعْرَةً وَخَفِيَةً لَنْ أَنْجِيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ اللَّهُ يُنِيقُكُمْ مِمَّا فِي كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الْفَاوَرُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقَكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً وَيُنِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٢٤﴾

قيل: المراد بظلمات البر والبحر: شدائدهما. قال النحاس: والعرب تقول يوم مظلم: إذا كان شديداً، فإذا عظمت ذلك قالت: يوم نو كوكب: أي يحتاجون فيه لشدة ظلمته إلى كوكب، وأنشد سيويه:

بني أسد هل تعلمون بلاناً إذا كان يوم نو كوكب أشنعاً والاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي من ينجيكم من شدائدهما العظيمة؟ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿خَفِيَةً﴾ بكسر الخاء، وقرأ الباقر بضمها، وهما لغتان، وقرأ الأعمش ﴿وُخْفِيَةً﴾ من الخوف، وجملة ﴿تَدْعُوْنَهُ﴾ في محل نصب على الحال: أي من ينجيكم من تلك حال دعائكم له دعاء تضرع وخفية أو متضرعين ومخفين. والمراد بالتضرع هنا: دعاء الجهر. قوله: ﴿لَنْ أَنْجِيْتَنَا﴾ كذا قرأ أهل المدينة وأهل الشام. وقرأ الكوفيون ﴿لَنْ أَنْجَانَا﴾ والجملة في محل نصب على تقدير القول: أي قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نزلت بنا وهي الظلمات المذكورة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد. قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ قرأ الكوفيون وهشام ﴿يَنْجِيكُمْ﴾ بالتشديد، وقرأ الباقر بالتخفيف، وقراءة التشديد تفيد التأكيد؛ وقيل: معناهما واحد، والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ راجع إلى الظلمات. والكرب: الغم يأخذ بالنفس، ومنه رجل مكروب. قال عنترة:

ومكروب كشف الكرب عنه بطعنة فيصّل لما دعاني

أَعْقَابَنَا بِدِّ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالْيَاسَ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُمْ
أَمْرٌ حَسْبُ يَذَرُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَنْتَبَهُ قُلْ إِنَّكَ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَإِنَّمَا
لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ السَّالِكِينَ ﴿٧٠﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
عُشُورُهُ ﴿٧١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْكَ الْغَيْبِ
وَالشَّاهِدَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٢﴾

قوله: ﴿وَكُذِبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ الضمير راجع إلى القرآن أو إلى العذاب. وقومه المكذبون: هم قريش، وقيل: كل معاند، وجملة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ في محل نصب على الحال: أي كذبوا بالقرآن أو العذاب، والحال أنه حق. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿وَكُذِبْتَ﴾ بالتاء ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها. قيل: وهذه الآية منسوخة بأية القتال؛ وقيل ليست بمنسوخة إذ لم يكن إيمانهم في وسعه. قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكل شيء وقت يقع فيه. والنبأ: الشيء الذي ينبا عنه؛ وقيل المعنى: لكل عمل جزاء. قال الزجاج: يجوز أن يكون وعيداً لهم بما ينزل بهم في الدنيا. وقال الحسن: هذا وعيد من الله للكفار، لأنهم كانوا لا يقرؤون بالبعث ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك بحصوله ونزوله بهم، كما علموا يوم بدر بخصول ما كان النبي ﷺ يتوعدهم به. قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له. والخوض: أصله في الماء ثم استعمل في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيها بغمرات الماء، فاستعير من المحسوس للمعقول؛ وقيل: هو مأخوذ من الخلط، وكل شيء خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل: خلطه. والمعنى: إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالكذب والرد والاستهزاء فدعهم، ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا في حديث مغاير له، أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك.

وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرقون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويرتوون تلك إلى أهوائهم المضلة ويدعهم الفاسدة، فيقنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فاقبل الأحوال أن يتترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير. وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها، علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ

﴿من فوقكم﴾ قال: الصيحة والحجارة والريح ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: الرجة والخسف، وهما عذاب أهل التكذيب ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: عذاب أهل الإقرار. وأخرج البخاري وغيره، عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: هذا أهون أو أيسر». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم، من حديث طويل عن ثوبان، وفيه: «وسألت أن لا يسלט عليهم عذاباً من غيرهم فأعطينيها، وسألت أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها». وأخرج مسلم وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص: «أن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا فقال: سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت أن لا يهلك أمتي بالفرق، وسألت أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطينيها، وسألت أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها». وأخرج أحمد، والحاكم وصححه، من حديث جابر بن عتيك نحوه. وأخرج نحوه أيضاً ابن مروييه، من حديث أبي هريرة. وأخرج أيضاً ابن أبي شيبه وابن مروييه، من حديث حنيفة بن اليمان نحوه. وأخرج أحمد والنسائي، وابن مروييه، عن أنس نحوه أيضاً. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، وابن مروييه، عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾ فقال النبي ﷺ: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد. وأخرج ابن أبي شيبه، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروييه، وأبو نعيم في الحلية والضيء في المختارة، عن أبي بن كعب في هذه الآية قال: هن أربع وكلهن عذاب وكلهن واقع لا محالة. فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة: فالبسوا شيعاً، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة: الخسف، والرجم. والأحاديث في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ لَقَدْ لَبِثْتُ عَلَيْكُمْ بِرُكْبَىٰ ﴿٦٧﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ تَسْتَفْرِ
وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَامًا ۖ وَارْتُفِعَتِ الْأَرْضُ رُفُوعًا ۚ مِمَّا
فِي حُلِيِّهِ غَيْرُهُ ۚ وَلَمَّا يُبْسِئُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ ۚ مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَقُولُونَ مِنْ حُكْمِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ
ذِكْرٌ لِمَلَأَهُمْ بِتَقْوَرٍ ﴿٧٠﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاسًا
وَلَهْوًَا وَعَرَفُوهَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ۚ وَذَكَرَ بِهِ أَنْ يَسْأَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَئِنْ وَلَا يَسْمِعُ ۚ وَإِنْ تَقْدِرْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤَخِّرُ مَتَىٰ أَزْلَمُكَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابًا مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ أُنذِرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْقَهُنَّ وَلَا يَحْشُرُونَ ۚ وَنَزَلَ عَلَىٰ

والضلالات المتقدم ذكرها؛ وقيل: المراد بالدين هنا العيد: أي اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً، وجملته: ﴿وَوَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ معطوفة على ﴿اتَّخَذُوا﴾ أي: غرَّتْهُمْ حتى أثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: 37]. قوله: ﴿وَوَدَّعَاكَ أَن تَبْسِلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الضمير في ﴿بِهِ﴾ للقرآن أو للحساب. والإيسال: تسليم المرء نفسه للهلاك، ومنه أبسلت ولدي: أي رهنته في الدم، لأن عاقبة ذلك الهلاك. قال النابغة:

ونحن رهناً بالإفاقة عامراً بما كان في الدرداء رهناً فأبسلنا
أي: فهلك، والدرداء: كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم،
فالمعنى: وذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس
بما كسبت: أي ترتب وتسلم للهلاك، وأصل الإيسال: المنع،
ومنه شجاع بأسل: أي ممتنع من قرنه. قوله: ﴿وَأَنْ تَعْدِلَ
كُلَّ عَدَلٍ لَا يُوْخِذُ مِنْهَا﴾ العدل هنا: الفدية. والمعنى: وإن
بذلت تلك النفس التي سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها
تلك العدل حتى تنجو به من الهلاك، وفاعل ﴿يُوْخِذُ﴾
ضمير يرجع إلى العدل، لأنه بمعنى المفدى به كما في قوله:
﴿وَلَا يُوْخِذُ مِنْهَا عَدَلٌ﴾ [البقرة: 48] وقيل: فاعله منها، لأن
العدل هنا مصدر لا يسند إليه الفعل، وكل عدل منصوب
على المصدر: أي عدلاً كل عدل، والإشارة بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾
إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً، وخبره (الذين أبسلوا بما
كسبوا) أي هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً هم الذين
سلموا للهلاك بما كسبوا، و﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ جواب
سؤال مقدر كأنه قيل: كيف حال هؤلاء؟ فقيل لهم شراب من
حميم، وهو الماء الحار، ومثله قوله تعالى: ﴿يُصَبِّ مِنْ فَوْقَ
رُؤُوسِهِمْ الْحَمِيمَ﴾ [الحج: 19] وهو هنا شراب يشربونه
فيقطع أمعاهم. قوله: ﴿قُلْ لِّدَعْوَاكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ أمره الله سبحانه بأن يقول لهم هذه
المقالة، والاستفهام للتوبيخ: أي كيف ندعوا من دون الله
أصناماً لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع إن إربنا منها نفعاً
ولا نخشى ضرراً بوجه من الوجوه، ومن كان هكذا فلا
يستحق العبادة ﴿وَوَدَّعَاكَ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ عطف على «ندعوا»
ولأعقاب، جمع عقب أي: كيف ندعوا من كان كذلك ونرجع
إلى الضلالة التي أخرجنا الله منها. قال أبو عبيدة: يقال لمن
ردَّ عن حاجته ولم يظفر بها قد ردَّ على عقبيه. وقال المبرد:
تعقب بالشر بعد الخير

وأصله من المعاقبة والعقبي، وهما ما كان تالياً للشيء واجباً
أن يتبعه، ومنه ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]، ومنه
عقب الرجل، ومنه العقوبة، لأنها تالية للذنب. قوله: ﴿كَالَّذِي
اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ هو يهوى إلى الشيء
أسرع إليه. وقال الزجاج: هو من هوى النفس، أي زين له
الشیطان هواه، و﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ هوت به، والكاف
في ﴿كَالَّذِي﴾ إما نعت مصدر محذوف: أي ردَّ على أعقابنا
رداً كالذي، أو في محل نصب على الحال من فاعل ردَّ: أي

القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من
كنباتهم وهنيانهم ما هو من البطالان بأوضح مكان، فينتقد
في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدة
عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل
الباطل وأنكر المنكر. قوله: ﴿وَأَمَّا يَنْفِسُ الشَّيْطَانُ فَلَا
تَقْعُدُ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ «إما» هذه هي الشرطية وتلزمها غالباً
نون التأكيد ولا تلزمها نادراً ومنه قول الشاعر:

إما يصبك عرو في منازل يوماً فقل كيف يستعلي وينتصر
وقرأ ابن عباس «ينسيك» بتشديد السين، ومثله قول
الشاعر:

وقد ينسيك بعض الحاجة الكسل
والمعنى: إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد
الذكرى إذا ذكرت ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا
أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها. وقيل: وهذا
الخطاب وإن كان ظاهره للنبي ﷺ فالمراد التعريض لأمته
لتنزيهه عن أن ينسبه الشيطان؛ وقيل: لا وجه لهذا فالنسيان
جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة «إنما أنا بشر
أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني» ونحو ذلك. قوله:
﴿وَأَمَّا عَلَى الَّذِينَ يُتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما
على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله
من حساب الكفار من شيء. وقيل المعنى: ما على الذين
يتقون ما يقع منهم من الخوض في آيات الله في مجالستهم
لهم من شيء: وعلى هذا التفسير ففي الآية الترخيص
للمتقين من المؤمنين في مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى
ذلك كما سيأتي عند ذكر السبب: قيل: وهذا الترخيص كان
في أوّل الإسلام، وكان الوقت وقت تقية، ثم نزل قوله تعالى:
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتَ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا
وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ﴾ [النساء: 140] فنسخ ذلك، قوله: ﴿وَلَكِنْ ذَكَرْ
لِعَلَّهُمْ﴾ ذكرى في موضع نصب على المصدر، أو رفع على
أنها مبتدأ، وخبرها محذوف: أي ولكن عليهم ذكرى. وقال
الكسائي: المعنى ولكن هذه ذكرى. والمعنى على الاستدراك
من النفي السابق: أي ولكن عليهم الذكرى للكافرين
بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز. أما على التفسير
الأوّل، فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون في
آيات الله لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر. وأما على التفسير الثاني، فالترخيص في المجالسة لا
يسقط التنكير ﴿لِعَلَّهُمْ يُتَّقُونَ﴾ الخوض في آيات الله إذا
وقعت منكم الذكرى لهم. وأما جعل الضمير للمتقين فيعيد
جداً. قوله: ﴿وَوَدَّعَاكَ لَتَتَّخِذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَ﴾ أي:
اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذي كان يجب عليهم العمل
به والسخول فيه لعباً ولهواً، ولا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل
تعنت، وإن كنت مأموراً بإبلاغهم الحجة. وقيل: هذه الآية
منسوخة بآية القتال؛ وقيل المعنى: أنهم اتخذوا دينهم الذي
هم عليه لعباً ولهواً كما في فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات

للصور خاصة: أي ويوم يقول للصور كن فيكون. قوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ رفع عالم على أنه صفة للذي خلق السموات والأرض، ويجوز أن يرتفع على إضمار مبتدأ: أي هو عالم الغيب والشهادة، وروي عن بعضهم أنه قرأ «ينفخ» بالبناء للفاعل، فيجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل ﴿عالم الغيب﴾ ويجوز أن يرتفع بفعل مقدر كما أنشد سيبويه:

ليبك يزيد ضارح لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح
أي يبيكه مختبط. وقرأ الحسن والأعمش ﴿عالم﴾ بالخفض على البذل من الهاء في ﴿له الملك﴾ وهو للحكيم في جميع ما يصدر عنه ﴿الخبير﴾ بكل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وكتب به قومك﴾ يقول: كذبت قريش بالقرآن وهو الحق وأما الوكيل فالحفيظ، وأما ﴿لكل نبا مستقر﴾ فكان نبا القوم استقر يوم بدر بما كان يعدمهم من العذاب. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ قال: نسخ هذه الآية آية السيف ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجنتهم﴾ [التوبة 5]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿لكل نبا مستقر﴾ يقول: حقيقة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن أنه قال في قوله: ﴿لكل نبا مستقر﴾ قال: حبست عقوبتها حتى عمل ننبها أرسلت عقوبتها. وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لكل نبا مستقر﴾ قال: فعل وحقيقة ما كان منه في الدنيا وما كان منه في الآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا رايت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ ونحو هذا في القرآن قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنما أمك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿وإذا رايت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قال: يستهزئون بها، نهى محمداً ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسئ، فإذا نكر، فليقم ونلك قول الله: ﴿فلا تقعد بعد النكري مع اللقوم الظالمين﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن سيرين أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت في أهل الأهواء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو نعيم في الحلية، عن أبي جعفر قال: لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن محمد بن علي قال: إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون في آيات الله. وأخرج أبو الشيخ، عن مقاتل قال: كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي ﷺ خاضوا واستهزؤوا، فقال المسلمون: لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم، فانزل الله

نرد حال كوننا مشبهين للذي استهوته الشياطين: أي ذهب به مردة الجن بعد أن كان بين الإنسان. قرأ الجمهور «استهوته» وقرأ حمزة «استهواه» على تكثير الجمع. وقرأ ابن مسعود والحسن «استهواه الشيطان» وهو كذلك في قراءة أبي، و﴿حيران﴾ حال: أي حال كونه متحيراً تائهاً لا يدري كيف يصنع؛ والحيران: هو الذي لا يهتدي لجهة، وقد حار يحار حيرة وحيرة: إذا تردد، وبه سمى الماء المستنقع الذي لا منفذ له حائراً. قوله: ﴿له أصحاب يدعوهم إلى الهدى﴾ صفة لحيران أو حالية: أي له رفقة يدعوهم إلى الهدى يقولون له اتتنا فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم. قوله: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أمره الله سبحانه بأن يقول لهم: ﴿إن هدى الله﴾ أي بينه الذي ارتضاه لعباده ﴿هو الهدى﴾ وما عداه باطل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: 85]. ﴿وأمرنا﴾ معطوف على الجملة الإسمية: أي من جملة ما أمره الله بأن يقوله، واللام في ﴿لننسلم﴾ هي لام العلة، والمعلل هو الأمر: أي أمرنا لأجل نسلم لرّب العالمين. وقال الفراء: المعنى أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب، وبأن تذهب بمعنى. وقال النحاس: سمعت ابن كيسان يقول هي لام الخفض. قوله: ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ معطوف على «لنسلم» على معنى وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا، ويجوز أن يكون عطفاً على يدعوهم إلى الهدى أي يدعوهم إلى الهدى ويدعون أن أقيموا ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ فكيف تخالفون أمره ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ خلقاً ﴿بالحق﴾ أو حال كون الخلق بالحق فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة. قوله: ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ أي: وانكر يوم يقول كن فيكون، أو واتقوا يوم يقول كن فيكون؛ وقيل: هو عطف على الهاء في ﴿واتقوه﴾ وقيل: إن «يوم» ظرف لمضمون جملة «قوله الحق» والمعنى وأمره المتعلق بالاشياء الحق: أي المشهود له بأنه حق، وقيل: قوله مبتدأ، والحق صفة له ﴿ويوم يقول كن فيكون﴾ خبره مقدماً عليه، والمعنى: قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول كن فيكون؛ وقيل: إن قوله مرتفع بكون، والحق صفته: أي يوم يقول كن يكون قوله الحق. وقرأ ابن عامر «فكنون» بالنون، وهو إشارة إلى سرعة الحساب. وقرأ الباقون بالياء التحتية وهو الصواب. قوله: ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ الظرف منصوب بما قبله: أي له الملك في هذا اليوم، وقيل: هو بدل من اليوم الأول، والصور: قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء، وكذا قال الجوهري: إن الصور القرن، قال للرجز: لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحاً شديداً لا كنطح الصوريين والصور بضم الصاد ويكسرهما لغة، وحكى عن عمرو بن عبيد أنه قرأ «يوم ينفخ في الصور» بتحريك الواو، جمع صورة، والمراد: الخلق. قال أبو عبيدة: وهذا وإن كان محتملاً يرد بما في الكتاب والسنة. وقال الفراء: كن فيكون، يقال إنه

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ اتَّخَذَ أَصْنَامًا ؕ إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ۖ فَتَوَلَّىٰ مُدْبِرًا ۖ وَكَانَ فِي مَلَكُوتٍ مُّبِينٍ ۖ﴾ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المشرقين ﴿٧٥﴾ فلما جن عليه الليل دعا زوجته قائلاً هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الأوثان ﴿٧٦﴾ فلما دعا القمر باربعاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدى ربى لأكثر من القوم الضالين ﴿٧٧﴾ فلما دعا الشمس باربعاً قال هذا ربى فلما أفلت قال يتغير ربى يوماً ومثلاً فتركوه ﴿٧٨﴾ إلى وجهه وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴿٧٩﴾ وسأله قومه قال اتبعوني في الله وقد هدّين ولا آخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شيء علماً أفلا تتذكرون ﴿٨٠﴾ وكيف آخاف ما أنشركم ولا تخافون أنكم أنشركم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأتى القريظ أحق بالآمن إن كنتم تعلمون ﴿٨١﴾ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴿٨٢﴾ وتلك حجتنا بآياتنا إبراهيم على قومه رفّع درجات من شاء إن ربك حكيم عليم ﴿٨٣﴾

قوله: ﴿لأبيه أزر﴾ قال الجوهري: أزر اسم أعجمي، وهو مشتق من أزر فلان فلانة إذا علونه، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام. وقال ابن فارس: إنه مشتق من القوة. قال الجويني في النكت من التفسير له: ليس بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تاريخ، والذي في القرآن يدل على أن اسمه أزر. وقد تعقب في دعوى الاتفاق بما روى عن ابن إسحاق، والضحاك، والكلبي أنه كان له اسمان: أزر وتاريخ. وقال مقاتل: أزر لقب، وتاريخ اسم، وقال سليمان التيمي: إن أزر سب وعتب، ومعناه في كلامهم المعوج. وقال الضحاك معنى أزر: الشيخ الهيم بالفارسية. وقال الفراء: هي صفة ذم بلغت كانه قال: يا مخطئ، وروى مثله عن الزجاج. وقال مجاهد: هو اسم صنم. وعلى هذا إطلاق اسم الصنم على أبيه: إما للتعبير له لكونه معبوده، أو على حذف مضاف: أي قال لأبيه عابد أزر، أو تعبد أزر على حذف الفعل. وقرأ ابن عباس «أزر» بهزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة، وروى عنه أنه قرأ بهزتين مفتوحتين، ومحل «إذ قال» النصب على تقدير وإنكر إذ قال إبراهيم، ويكون هذا المقدر معطوفاً على «وقل أنادعوا من دون الله» وقيل: هو معطوف على «ونكر به أن تبسل» [الأنعام: 70] وأزر عطف بيان. قوله: ﴿اتخذ أصناماً آلهة﴾ الاستفهام للإنكار: أي تجعلها آلهة لك تعبد بها ﴿إني أراك وقومك﴾ المتبعين لك في عبادة الأصنام ﴿ففي ضلال﴾ عن طريق الحق ﴿مبين﴾ واضح، «وكنك نرى إبراهيم أي: ومثل تلك الإراءة نرى إبراهيم، والجملة معترضة، و «ملكوت السموات والأرض» ملكهما، وزينت التاء والواو للمبالغة في الصفة. ومثله الرغبت والرهبوت مبالغة في الرغبة والرغبة. قيل: أراد بملكوت السموات والأرض ما فيهما من الخلق؛ وقيل: كشف الله له عن ذلك حتى رأى إلى العرش وإلى

هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ أيضاً عن السدي أنه قال: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف. وأخرج النحاس عن ابن عباس في قوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ قال: نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية، وهي قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها﴾ [النساء: 140] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن مجاهد: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ إن قعدوا ولكن لا يقعدوا. وأخرج ابن أبي شيبة عن هشام بن عروة، عن عمر بن عبد العزيز، أنه أتى بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه وقال: لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا﴾ قال: هو مثل قوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [الم نشر: 11] يعني أنه للتهديد، وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، عن قتادة، في هذه الآية قال: نسختها آية السيف، وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه في قوله: ﴿لعباً ولهوا﴾ قال: أكلاً وشرباً. وأخرج ابن جرير، والمندر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أن تبسل﴾ قال: أن تفضح، وفي قوله: ﴿تبسلوا﴾ قال: فضحوا وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه في قوله: ﴿أن تبسل﴾ قال: تسلم، وفي قوله: ﴿تبسلوا﴾ كما كبسوا قال: أسلموا بجرائهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿قل اندعوا من دون الله﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للأكله وللدعاة الذين يدعون إلى الله. وقوله: ﴿كأذي لستهوته الشياطين في الأرض﴾ يقول: أضلته، وهم الغيلان يدعونه باسمه، واسم أبيه، وجده، فيتبعها ويرى أنه في شيء فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته أو تلقى في مضلة، من الأرض، يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿كأذي لستهوته الشياطين﴾ قال: هو الرجل لا يستجيب لهدي الله، وهو الرجل أطاع الشيطان وعمل في الأرض بالمعصية، وحاد عن الحق وضل عنه، و «له أصحاب يدعونه إلى الهدى» ويزعمون أن الذي يأمرون به هدى، يقول الله تلك لأوليائهم من الإنس يقول: ﴿إن للهدى هدى الله﴾ والضلالة ما تدعو إليه الجن. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، عن عبد الله بن عمرو قال: «سئل النبي ﷺ عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه، والأحاديث الواردة في كيفية النفخ ثابتة في كتب الحديث لا حاجة لنا إلى إيرادها ها هنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ يعني: أن عالم الغيب والشهادة هو الذي ينفخ في الصور.

﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ أي: من الأشياء التي تجعلونها شركاء لله وتعبدونها، وما موصولة أو مصرية، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضر، مستدلاً على ذلك بأفولها الذي هو دليل حوثها ﴿إني وجهت وجهي﴾ أي: قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل. ونكر الوجه لأنه العضو الذي يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدم. وقد تقدم معنى ﴿فطر السموات والأرض حنيفاً﴾ مائلاً إلى الدين الحق. قوله: ﴿وحاجه قومه﴾ أي: وقعت منهم الحاجة له في التوحيد بما يدل على ما يدعونه من أن ما يشركون به ويعبدونه من الأصنام آلهة. فأجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه الله عنه أنه قال: ﴿أتحاجوني في الله﴾ أي: في كونه لا شريك له ولا ند ولا ضد. وقرأ نافع بتخفيف نون اتحاجوني. وقرأ الباقون بتشديد ما بإدغام نون الجمع في نون الوقاية، ونافع خفف فحذف إحدى النونين، وقد أجاز ذلك سيبويه. وحكى عن أبي عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن، وجملة ﴿وقد هداني﴾ في محل نصب على الحال، أي هداني إلى توحيدهم وأنتم تريدون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية. قوله: ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ قال: هذا لما خوفوه من آلهتهم بأنهم ستغضب عليه وتصيبه بمكروه: أي إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع، والضمير في به يجوز رجوعه إلى الله وإلى معبوداتهم المدلول عليها بما في ﴿ما تشركون به﴾ إلا أن يشاء ربي شيئاً. أي: إلا وقت مشيئته ربي بأن يلحقني شيئاً من الضرر بنذب عملته فالأمر إليه، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التي لا تضر ولا تنفع. والمعنى: على نفي حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال، وإثبات الضرر والنفع لله سبحانه، وصورهما حسب مشيئته، ثم علل ذلك بقوله: ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ أي: إن علمه محيط بكل شيء، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته، وإذا شاء إنزال شر بي كان، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ثم قال لهم مكملاً للحجة عليهم، ودافعاً لما خوفوه به ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ أي: كيف أخاف ما لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله، وهو الضار النافع الخالق الرازق، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامي الذي لا يجدون عنه مخلصاً ولا متحلاً، والاستفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم. و ﴿ما﴾ في ﴿ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ مفعول أشركتم: أي ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التي لم ينزل بها عليكم سلطاناً شركاء له، أو بمعنى أن الله سبحانه لم يأنز بها جعلها شركاء له، ولا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها، فكيف عبدوها واتخذوها آلهة، وجعلوها شركاء لله سبحانه؟ قوله: ﴿فاني الفريقين لحق بالامن﴾ المراد: بالفريقين: فريق المؤمنين وفريق المشركين:

أسفل الأرضين؛ وقيل: رأى من ملكوت السموات والأرض ما قصه الله في هذه الآية؛ وقيل: المراد بملكوتهما الربوبية والإلهية: أي نريه ذلك ونوقفه لمعرفة بطريق الاستدلال التي سلكها؛ ومعنى ﴿نرى﴾ أريناه، حكاية حال ماضية. قوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾ متعلق بمقتدر: أي أريناه ذلك ﴿ليكون من الموقنين﴾ وقد كان أزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ؛ وقيل: إنه ولد في سرب، وجعل رزقه في أطراف أصابعه، فكان يمصها. وسبب جعله في السرب، أن النمرود رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود، والله أعلم. قوله: ﴿فلما جن عليه الليل﴾ أي: ستره بظلمته، ومنه الجنة والمجن والجن كله من الستر، قال الشاعر:

ولولا جنان الليل أنرك ركضنا بذي الرمث والأرطي عياض بن ثابت والفاء للعطف على ﴿قال إبراهيم﴾: أي وانكر إذ قال، وإذ جن عليه الليل، فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه، وجواب لما ﴿رأى كوكباً﴾ قيل: رآه من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذي كان فيه؛ وقيل رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس، قيل: رأى المشتري وقيل الزهرة. قوله: ﴿هذا ربي﴾ جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل فماذا قال عند رؤية الكوكب؟ وكان هذا منه عند قصور النظر؛ لأنه في زمن الطفولية؛ وقيل: أراد قيام الحجة على قومه كالحاكمي لما هو عندهم وما يعتقونه لأجل إلزامهم، وبالثاني قال الزجاج؛ وقيل: هو على حذف حرف الاستفهام: أي أهذا ربي، ومعناه إنكار أن يكون مثل هذا رباً، ومثله قوله تعالى: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ [الأنبياء: 34] أي: أفهم الخالدون، ومثله قول الهنلي:

رقوني وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وإنكرت الوجوه هم هم أي أهم هم، وقول الآخر:

لعمري ما أبري وإن كنت داريا بسبع رمين الجمر أم بثمانيا أي: أسبع، وقيل المعنى: وأنتم تقولون هذا ربي فاضمر القول، وقيل المعنى على حذف مضاف: أي هذا دليل ربي ﴿فلما أفل﴾ أي: غرب ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿لا أحب الأقلين﴾ أي: الآلهة التي تغرب، فإن الغروب تغير من حال إلى حال، وهو دليل الحدوث ﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾ أي: طالعا، يقال: بزغ القمر إذا ابتداء في الطلوع، والبزغ: الشق كان يشق بنوره الظلمة ﴿فلما أفل قال لئن لم يهني ربي﴾ أي: لئن لم يثبتني على الهداية، ويوفني للحجة ﴿لاكون من القوم الضالين﴾ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ويحرمونها حظها من الخير، ﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ بازغاً وبازغة منصوبان على الحال، لأن الرؤية بصرية، وإنما ﴿قال هذا ربي﴾ مع كون الشمس مؤنثة، لأن مراده هذا الطالع، قاله: الكسائي والأخفش - وقيل: هذا الضوء؛ وقيل: الشخص ﴿هذا أكبر﴾ أي: بما تقدمه من الكوكب والقمر

بقوله: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب﴾ إلى الأنبياء المذكورين سابقاً: أي جنس الكتاب، ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين: ﴿والحكم﴾ العلم ﴿والنبوة﴾ الرسالة أو ما هو أعم من تلك ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ الضمير في بها للحكم والنبوة والكتاب، أو للنبوة فقط، والإشارة بهؤلاء إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ هذا جواب الشرط: أي الزمنا بالإيمان بها قوماً ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ وهم المهاجرون والانصار، أو الأنبياء المذكورون سابقاً، وهذا أولى لقوله فيما بعد: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فإن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والانصار إذ لا يصح أن يؤمر النبي ﷺ بالاعتداء بهداهم، وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاعتداء، والاعتداء طلب موافقة الغير في فعله، وقيل المعنى: اصبر كما صبروا؛ وقيل اقتد بهم في التوحيد، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة. وفيها دلالة على أنه ﷺ مأمور بالاعتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نص. قوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجر﴾ أمره الله بأن يخبرهم بأنه لا يسألكم أجراً على القرآن، وإن يقول لهم ما ﴿هو إلا نكرى﴾ يعني القرآن ﴿للعالمين﴾ أي: موعظة وتذكير للخلق كافة، الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب قال: الخال والد العلم والد، نسب الله عيسى إلى أخواله فقال ﴿ومن نريته﴾ حتى بلغ إلى قوله: ﴿وزكريا ويحيى وعيسى﴾. وأخرج أبو الشيخ، والحاكم، والبيهقي عن عبد الملك بن عمير قال: نخل يحيى بن يعمر على الحجاج فنكر الحسين، فقال الحجاج: لم يكن من نرية النبي، فقال يحيى: كذب، فقال: لتأتيني على ما قلت ببينة فتلا ﴿ومن نريته﴾ إلى قوله: ﴿وعيسى﴾ فأخبر الله أن عيسى من نرية أم بامه، فقال: صدقت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي حرب، بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من نرية النبي، تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده، فنكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ولجبتيناهم﴾ قال: أخلصناهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ قال: يريد هؤلاء الذين هديناهم وفعلنا بهم. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد قال: الحكم اللب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ يعني أهل مكة. يقول: إن يكفروا بالقرآن: ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ يعني: أهل المدينة والانصار. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ قال: هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله فيهم ﴿فبهداهم

هدينا﴾ انتصاب كلاً، على أنه مفعول لما بعده مقدم عليه للقصر: أي كل واحد منهما هديناه، وكذلك نوحاً منصوب بهدينا الثاني، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿ومن نريته﴾ أي: من نرية إبراهيم، وقال الفراء: من نرية نوح. واختاره ابن جرير الطبري، والقشيري، وابن عطية، واختار الأول الزجاج، واعترض عليه بأنه عد من هذه النرية يونس ولوطاً، وما كانا من نرية إبراهيم، فإن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم، وانتصب داود وسليمان، يفعل مضمر أي وهدينا من نريته داود وسليمان، وكذلك ما بعدهما، وإنما عد الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التي عندها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء، ومعنى «من قبل» في قوله: ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ أي: من قبل إبراهيم، والإشارة بقوله: ﴿وكنك﴾ إلى مصدر الفعل المتأخر أي: ومثل تلك الجزاء ﴿نجزي المحسنين﴾، ﴿والإيس﴾ قال الضحاك: هو من ولد إسماعيل، وقال القتيبي: هو من سبط يوشع بن نون، وقرأ الأعرج والحسن، وكتادة ﴿والإيس﴾ بوصل الهمزة، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم «واليسع» مخففاً، وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بلامين، وكذا قرأ الكسائي، ورد القراءة الأولى، ولا وجه للرد فهو اسم أعجمي، والعجمة لا تؤخذ بالقياس، بل تؤدي على حسب السماع، ولا يمتنع أن يكون في الاسم لغتان للعجم، أو تغييره العرب تغييرين. قال المهدي: من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع والألف مزيتان، كما في قول الشاعر:

رايت الوليد بن اليزيد مباركاً شبيداً بأعباء الخلافة كامله
ومن قرأ بلامين فالاسم ليسع، وقد توهم قوم أن اليسع هو إلياس وهو وهم، فإن الله أقرد كل واحد منهما، وقال وهب: اليسع صاحب إلياس، وكننا قبل يحيى وعيسى وزكريا؛ وقيل: إلياس هو إدريس، وهذا غير صحيح لأن إدريس جد نوح وإلياس من نريته؛ وقيل: إلياس هو الخضر؛ وقيل: لا بل اليسع هو الخضر «وكلأ فضلنا على العالمين» أي: كل واحد فضلناه بالنبوة على عالمي زمانه، والجملة معترضة. قوله: ﴿ومن آبائهم ونرياتهم وإخوانهم﴾ أي: هدينا، «ومن» للتبعيض أي هدينا بعض آبائهم ونرياتهم وأزواجهم ﴿ولجبتيناهم﴾ معطوف على فضلنا، والاجتباء: الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته، فالاجتباء ضم الذي تجتبه إلى خاصيتك. قال الكسائي: جبيت الماء في الحوض جبي مقصور، والجابية الحوض، قال الشاعر:

كجابية الشيخ العراقي نفخ

والإشارة بقوله: ﴿ذلك هدى الله﴾ إلى الهداية والتفضيل والاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة ﴿يهدي به﴾ الله ﴿من يشاء من عباده﴾ وهم الذين وفقهم للخير، واتباع الحق ﴿ولو أشركوا﴾ أي: هؤلاء المذكورون بعبادة غير الله ﴿لحبط عنهم﴾ من حسناتهم ﴿ما كانوا يعملون﴾ والحبوط البطالان. وقد تقدم تحقيقه في البقرة، والإشارة

﴿تجعلونه﴾ راجع إلى الكتاب، وجملة تجعلونه في محل نصب على الحال، وجملة تبونها صفة لقراطيس **﴿وتخفون كثيراً﴾** معطوف على «تبونها»: أي وتخفون كثيراً منها، والخطاب في **﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾** لليهود: أي والحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استثنائية مقررة لما قبلها، والذي علموه هو الذي أخبرهم به نبينا محمد ﷺ من الأمور التي أوحى الله إليه بها، فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم، ولا على لسان أنبيائهم، ولا علمه آباؤهم، ويجوز أن يكون ما في **﴿ما لم تعلموا﴾** عبارة عما علموه من التوراة، فيكون ذلك على وجه المنع عليهم بإنزال التوراة؛ وقيل: الخطاب للمشركون من قريش وغيرهم، فتكون «ما» عبارة عما علموه من رسول الله ﷺ، ثم أمره الله رسوله بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذي ألزمهم به حيث قال: **﴿ومن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾** فقال: **﴿قل الله﴾** أي: أنزله الله **﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾** أي: ذرهم في باطلهم حال كونهم يلعبون: أي يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون. قوله: **﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾** هذا من جملة الرد عليهم في قولهم: **﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾** أخبرهم بأن الله أنزل التوراة على موسى، وعقبه بقوله: **﴿وهذا كتاب أنزلناه﴾** يعني: على محمد ﷺ، فكيف تقولون: **﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾** ومبارك ومصدق صفتان لكتاب، والمبارك كثير البركة، والمصدق كثير التصديق، والذي بين يديه ما أنزله الله من الكتب على الأنبياء من قبله، كالتوراة والإنجيل، فإنه يوافقها في الدعوة إلى الله، وإلى توحيده، وإن خالفها في بعض الأحكام. قوله: **﴿ولتذر﴾** قيل: هو معطوف على ما دل عليه مبارك كأنه قيل أنزلناه للبركات ولتذر، وخص أم القرى وهي مكة، لكونها أعظم القرى شأنًا، ولكونها أول بيت وضع للناس، ولكونها قبله هذه الأمة ومحل حجهم، فالإنذار لاهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض، والمراد بمن حولها، جميع أهل الأرض، والمراد بأنذر أم القرى: إنذار أهلها وأهل سائر الأرض، فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية **﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾** مبتدأ، و **﴿ويؤمنون به﴾** خبره، والمعنى: أن من حق من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب، ويصدق، ويعمل بما فيه، لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس إلى ما ينال به خيرها، ويندفع به ضررها، وجملة: **﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾** في محل نصب على الحال، وخص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات لكونها عمادها ويمنزلة الرأس لها. قوله: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتب على رسله: أي كيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً فزعم أنه نبي وليس بنبي، أو كذب

أفترده. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي رجاء الطاردي قال في الآية: هم الملائكة. وأخرج البخاري، والنسائي وغيرهما، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فيهداهم اقتده﴾** قال: أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهداهم وكان يسجد في ص، ولفظ ابن أبي حاتم عن مجاهد: سألت ابن عباس عن السجدة التي في ص، فقال هذه الآية، وقال: أمر نبيكم أن يقتدي بداد عليه السلام، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿قل لا أسألكم عليه لجر﴾** قال: قل لهم يا محمد لا أسألكم على ما ادعوكم إليه عرضاً من عروض الدنيا.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلْبَنِي إِسْرَءِيلَ لِيَجْعَلُوهُ قُرْآنًا وَتَذَكُّرًا وَيُخَوِّفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمَنَاهُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ وَلَا يَأْتَاكُمْ لَهُ اللَّهُ لُتْلُ ذَرَمٍ فِي خَوَافِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٦﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٧﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ النَّارِ وَالْمَلَائِكَةُ يَاسْطُورُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادًى كَمَا خَلَقْتُمُ الْأَوَّلَ مَرَّةً وَزَكَّمْنَا مَا حَوَّلْتُمْ ذَلِكُمْ فَطُورِكُمْ وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُعَمَاءُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** قدرت الشيء وقدرته عرفت مقداره، وأصله: الستر، ثم استعمل في معرفة الشيء: أي لم يعرفوه حق معرفته، حيث أنكروا إرساله للرسول وإنزاله للكتب. وقيل المعنى: وما قدروا نعم الله حق تقديرها. وقرأ أبو حية: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** بفتح الدال: وهي لغة، ولما وقع منهم هذا الإنكار وهم من اليهود، أمر الله نبيه ﷺ أن يورد عليهم حجة لا يطيقون نفعها، فقال: **﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾** وهم يعترفون بذلك ويذعنون له، فكان في هذا من التبكيت لهم والتقريع، ما لا يقاقر قدره مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال الله على البشر، وهم الأنبياء عليهم السلام، فبطل جدهم وتبين فساد إنكارهم؛ وقيل: إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش فيكون إلزامهم بإنزال الله الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك ويعلمونه بالأخبار من اليهود، وقد كانوا يصدقونهم، و **﴿نوراً وهدى﴾** منتصبان على الحال و **﴿للفناس﴾** متعلق بمحذوف هو صفة لهدى: أي كائنات للناس. قوله: **﴿تجعلونه قراطيس﴾** أي: تجعلون الكتاب الذي جاء به موسى في قراطيس تضعونه فيها ليتم لكم ما تريدونه من التحريف والتبديل، وكنتم صفة النبي ﷺ المنكورة فيه، وهذا تم لهم، والضمير في **﴿تبديونها﴾** راجع إلى القراطيس، وفي

واحداً كل واحد منفرد عن أهله وماله، وما كان يعبد من دون الله، فلم ينتفع بشيء من ذلك ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: على الصفة التي كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم، والكاف نعت مصدر محذوف: أي جئتمونا مجيئاً مثل مجيئكم عند خلقنا لكم، أو حال من ضمير فرادى: أي مشابهين ابتداء خلقنا لكم ﴿وَتَرْكُتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: أعطيناكم، والخول ما أعطاه الله للإنسان من متاع الدنيا: أي تركتم ذلك خلفكم لم تاتونا بشيء منه، ولا انتفعتكم به بوجه من الوجوه ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ عِبَدْتُمُوهُمْ وَقُلْتُمْ: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ»﴾ [الزمر: 3] و ﴿زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ الله يستحقون منكم العبادة كما يستحقها. قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. قرأ نافع والكسائي وحفص بنصيب بينكم على الظرفية، وفاعل تقطع محذوف: أي تقطع الوصل بينكم أنتم وشركاؤكم، كما يدل عليه: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾. وقرأ الباقر بالرفع على إسناد التقطع إلى البين: أي وقع التقطع بينكم، ويجوز أن يكون معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع في إسناد الفعل إلى الظرف، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفاً. وقرأ ابن مسعود: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ﴾ على إسناد الفعل إلى ما: أي الذي بينكم ﴿وَوَضَّلَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الشركاء والشرك، وحيل بينكم وبينهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قال: هم الكفار لم يؤمنوا بقدره الله، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير قد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزل الله ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. قالها مشركو قريش. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: قال فنحاص اليهودي ما أنزل الله على محمد من شيء فنزلت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: نزلت في مالك بن الصيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة، قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أناشك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يغيض الحبر السمين؟ وكان حبراً سميناً، فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزلت». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيضَ﴾ قال: اليهود، وقوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ

على الله في شيء من الأشياء﴾ ﴿أَوْ قَالَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي: والحال أنه لم يوح إليه شيء، وقد صان الله أنبياءه عما تزعمون عليهم، وإنما هذا شأن الكذابين رؤوس الإضلال: كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح، وقوله: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ معطوف على ﴿مَنْ أَفْتَرَىٰ﴾ أي: ومن أظلم ممن افتري أو ممن قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء، أو ممن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وهم القائلون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: 31] وقيل: هو عبد الله بن أبي سرح، فإنه كان يكتب الوحي لرسول ﷺ، فأملى عليه رسول ﷺ: ﴿نَمْ أَتَشَاءُنَا خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون: 14] فقال عبد الله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، ثم ارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركون، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والمراد كل ظالم، ويدخل فيه الجاحدين لما أنزل الله، والمذموم للنبوات افتراء على الله بخولاً أولياً، وجواب لو محذوف: أي لرايت أمراً عظيماً، والغمرات جمع غمرة: وهي الشدة، وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها، ومنه غمرة الماء، ثم استعملت في الشدائد، ومنه غمرة الحرب. قال الجوهري: والغمرة الشدة والجمع غمر: مثل نوبة ونوب، وجملة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ في محل نصب: أي والحال أن الملائكة باسطوا أيديهم، لقبض أرواح الكفار؛ وقيل للعذاب وفي أيديهم مطارق الحديد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْبَاسَهُمْ﴾ [الأنفال: 50]. قوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ أي: قائلين لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التي وقعت فيها، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب، أو أخرجوا أنفسكم من أجسانكم، وسلموها إلينا لنقبضها ﴿الْيَوْمَ تَجُزُّونَ عَذَابَ الْهَوْنِ﴾ أي: اليوم الذي تقبض فيه أرواحكم، أو أرادوا باليوم الوقت الذي يعذبون فيه الذي ميؤد عذاب القبر، والهوان والهوان بمعنى: أي اليوم تجزون عذاب الهوان الذي تصيرون به في إهانة وذلة بعدما كنتم فيه من الكبر والتعظيم، والباء في ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ للسببية: أي بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال الله كتبه على رسله والإشراك به ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن التصديق لها والعمل بها، فكان ما جؤزيت به من عذاب الهون: ﴿حِزَاءً وَفَاقاً﴾ [النبا: 26]. قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ﴾ قرأ أبو حيوة فرادى بالتنوين، وهي لغة تميم، وقرأ الباقر بالفتح التانيث للجمع فلم ينصرف. وحكى ثعلب «فراد» بلا تنوين مثل: ثلاث ورباع، وفرادى جمع فرد كسكاري جمع سكران، وكسالى جمع كسلان، والمعنى: جئتمونا منفردين واحداً

لي اللات والعزى، فنزلت ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى﴾ الآية، قال: كيوم ولد يرد عليه كل شيء نقص منه يوم ولد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ قال: من المال والخدم ﴿وَوَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ قال: في الدنيا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: ما كان بينهم من الوصل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: تواصلكم في الدنيا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ يُفْرِجُ أَمَّا مِنَ اللَّيْلِ وَنُفِجُ اللَّيْلِ مِنَ الْحَيِّ دَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ تَوَكَّلُوا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿إِلَى الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلُ سَكَنًا وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ حُسْنًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَمَوْءَاذُهُ يَمْشِي لَكُمْ النَّجْمُ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْأَنْهَارِ قَدْ فَعَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَمَوْءَاذُهُ أَنْتَاطُكُمْ مِنْ تَحْتِ وَجَدِّهِ فَاسْتَنْصِرُوا لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَمَوْءَاذُهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَبِرًا خُضِرًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْهُ الْخَلْجُ بَيْنَ ظُلُمَاتِهِ وَتَوَارَتْ دَائِيَةً وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَانِهِ الرُّيُوتَ وَأَرْسَلْنَا مِنْهَا مُمْسِكِينَ أَنْتَرُوا إِلَى نَمْرَةٍ إِذَا أَمَرَ وَيَتَوَعَّدُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه، والفلق الشق: أي هو سبحانه فالق الحب فيخرج منه النبت، وفالق النوى فيخرج منه النوى فيخرج منه الشجر؛ وقيل: معنى: ﴿فالق الحب والنوى﴾ الشق الذي فيهما من أصل الخلقة؛ وقيل معنى: ﴿فالق﴾ خالق، والنوى: جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ. قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ هذه الجملة خبر بعد خبر، فهي في محل رفع؛ وقيل: هي جملة مفسرة لما قبلها، لأن معناها معناه، والأول: أولى، فإن معنى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهي ميتة. ومعنى: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ مخرج النطفة والبيضة وهي ميتة من الحي، وجملة: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوفة على ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ عطف جملة اسمية على جملة فعلية ولا ضمير في ذلك؛ وقيل: معطوفة على (فالق) على تقدير أن جملة: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مفسرة لما قبلها، والأول: أولى، والإشارة ﴿بِكُلِّكُمْ﴾ إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقاً ﴿وَاللَّهُ﴾ خبره. والمعنى: أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال، والمفضل بكل إفضال، والمستحق لكل حمد وإجلال ﴿فَأَنَّى تَوَكَّلُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته. قوله: ﴿فالق الإصباح﴾ مرتفع على أنه من جملة

تعلموا انتم ولا آبائكم قال: هذه للمسلمين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ قال: هم اليهود أتاهم الله علماً فلم يقتدوا به، ولم يأخذوا به ولم يعملوا به، فذمهم الله في علمهم ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ قال: هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، عنه قال: ﴿مُصْنَقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب التي قد خلت قبله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَتَنْتَظِرُنَّ آَلَ الْقُرَى﴾ قال: مكة ومن حولها. قال: يعني ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي قال: إنما سميت أم القرى لأن أول بيت وضعت بها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَلَتَنْتَظِرُنَّ آَلَ الْقُرَى﴾ قال: هي مكة، وبلغني أن الأرض لحيت من مكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار نحوه. وأخرج الحاكم في المستدرک، عن شرحبيل بن سعد قال: نزلت في عبد الله بن أبي سرح ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الآية، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة فرأى عثمان أخيه من الرضاغة، فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة، ثم استأمن له. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي خلف الأعمى: أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح، وكذلك روى ابن أبي حاتم عن السدي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قال: نزلت في مسيلمة الكذاب ونحوه ممن دعا إلى مثل ما دعا إليه ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة لما نزلت: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عِرفًا، فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا﴾ [المرسلات: 1، 2] قال: النضر وهو من بني عبد الدار. والطاحنات طحناً والعاجنات عجاناً قولاً كثيراً، فأنزل الله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿غَمَرَاتُ الْمَوْتِ﴾ قال: سكرات الموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ هذا عند الموت، والبسط: الضرب ﴿يُضْرَبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَنْبَاهُهُمْ﴾ [الأنفال: 50، محمد: 27] وأخرج أبو الشيخ عنه قال: في الآية هذا ملك الموت عليه السلام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاک في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ قال: بالعذاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿عَذَابُ الْهَوْنِ﴾ قال: الهوان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع

الذي انشاكم من نفس واحدة ﴿أي: آدم عليه السلام كما تقدم، وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته ﴿فمستقر ومستودع﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعي بكسر القاف، والباقون بفتحها، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن وخبرهما محذوف، والتقدير: فمنكم مستقر أو فلكم مستقر، التقدير الأول على القراءة الأولى، والثاني على الثانية: أي فمنكم مستقر على ظهر الأرض، أو فلكم مستقر على ظهرها، ومنكم مستودع في الرحم، أو في باطن الأرض، أو في الصلب؛ وقيل المستقر في الرحم، والمستودع في الأرض؛ وقيل المستقر في القبر. قال القرطبي: وأكثر أهل التفسير يقولون المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما كان في الصلب؛ وقيل المستقر من خلق، والمستودع من لم يخلق؛ وقيل الاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث.

ومما يدل على تفسير المستقر بالكون على الأرض قول الله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ [البقرة: 36]، ونكر سبحانه هاهنا ﴿يفقهون﴾ وفيما قبله ﴿يعلمون﴾؛ لأن في إنشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقرًا وبعضها مستودعاً من الغموض والدقة ما ليس في خلق النجوم للاهتمام، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تنقيح وإمعان فكر. قوله: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء﴾ هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته. والماء هو ماء المطر، وفي ﴿فأخرجنا به﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم إظهاراً للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه، والضمير في ﴿به﴾ عائد إلى الماء، و﴿نبات كل شيء﴾ يعني: كل صنف من أصناف النبات المختلفة؛ وقيل: المعنى رزق كل شيء، والتفسير الأول: أولى. ثم فصل هذا الإجمال فقال: ﴿فأخرجنا منه خضراً﴾ قال الأخفش: أي أخضر. والخضر: رطب البقول، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة؛ وقيل: يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب ﴿نخرج منه حياً﴾ هذه الجملة صفة لخضر: أي نخرج من الأغصان الخضر حياً متراكباً أي مركباً بعضه على بعضه كما في السنابل ﴿وهمن النخل﴾ خبر مقدم، و﴿وهمن طلعها﴾ بدل منه، وعلى قراءة من قرأ يخرج منه حب يكون ارتفاع قنوان على أنه معطوف على حب، وأجاز الفراء في غير القرآن قنواناً عطفاً على حبا، وتميم يقولون قنيان. وقرئ بضم القاف وفتحها باعتبار اختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز. والطلع: الكفري قبل أن ينشق عن الإغريض، والإغريض يسمى طلعاً أيضاً. والقنوان: جمع قنو، والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثني مكسورة النون، والجمع على ما يقتضيه الأعراب، ومثله صنوان. والقنو: العنق. والمعنى: أن القنوان أصله من الطلع. والعنق: هو عنقود النخل، وقيل القنوان: الجمار. والدانية: القرية التي ينالها القائم والقاعد. قال الزجاج: المعنى منها دانية ومنها بعيدة فحنف، ومثله: ﴿سراويل تقيكم الحر﴾

أخبار «إن» في ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ وقيل: هو نعت للأسم الشريف في ﴿ذلكم الله﴾ وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر ﴿فالق الأصباح﴾ بفتح الهمزة، وقرأ الجمهور بكسرهما، وهو على قراءة الفتح جمع صبح، وعلى قراءة الكسر مصدر أصبح، والصبح والأصباح: أوّل النهار، وكذا الإصباح، وقرأ النخعي ﴿فلق الإصباح﴾ بفعل وهمزة مكسورة. والمعنى في ﴿فالق الإصباح﴾ أنه شاق الضياء عن الظلام وكاشفه، أو يكون المعنى على حذف مضاف: أي فالق ظلمة الإصباح، وهي الغبش، أو فالق عمود الفجر عن بياض النهار، لأنه يبدو مختلطاً بالظلمة ثم يصير أبيض خالصاً. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر، وعاصم وحزمة، والكسائي ﴿وجعل للليل سكناً﴾ حملاً على معنى ﴿فالق﴾ عند حمزة والكسائي، وأما عند الحسن وعيسى فمقطاً على فلق. وقرأ الجمهور، وجاعل عطفاً على فالق. وقرئ فالق وجاعل ينصبهما على المدح. وقرأ يعقوب وجاعل الليل ساكناً. والسكن: محل السكون، من سكن إليه: إذ اطمأن إليه، لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة في معاشهم، ويستريحون من التعب والنصب. قوله: ﴿والشمس والقمر حسباناً﴾ بالنصب على إضمار فعل: أي وجعل الشمس والقمر، وبالرفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر مجعولان حسباناً، وبالجر عطفاً على الليل على قراءة من قرأ وجاعل الليل، قال الأخفش: والحسبان جمع حساب مثل شهبان وشهاب. وقال يعقوب: حسبان مصدر حسبت الشيء أحسبه حسباً وحسباناً. والحساب: الاسم؛ وقيل الحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح، والحسبان بالكسر مصدر حسب. والمعنى: جعلهما محل حساب تتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص ليدل عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه؛ وقيل الحسبان: الضياء، وفي لغة أن الحسبان: النار، ومنه قوله تعالى: ﴿ويرسل عليها حسباناً من السماء﴾ [الكهف: 40] والإشارة بـ ﴿ذلك تقدير العزيز للعليم﴾ إلى الجعل المدلول عليه بجاعل أو بجعل على القراءتين. والعزیز: القاهر الغالب. والعليم: كثير العلم، ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التدبير المحكم. قوله: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها﴾ أي: خلقها للاهتمام بها ﴿في ظلمات﴾ الليل عند المسير في البر والبحر وإضافة الظلمات إلى البر والبحر لكونها ملازمة لهما، أو المراد بالظلمات: اشتباه طرقهما التي لا يهتدى فيها إلا بالنجوم، وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها، ومنها ما ذكره الله في قوله: ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ [الصفات: 7]. ﴿وجعلناهم رجوماً للشياطين﴾ [الملك: 5]، ومنها جعلها زينة للسماء، ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية ﴿قد فصلنا الآيات﴾ التي بينها بياناً مفصلاً لتكون أبخ في الاعتبار ﴿للقوم يعلمون﴾ بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته. قوله: ﴿وهو

الناس الأحياء من النطف، والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿فَأَنى تَوَفُّوْنَ﴾** أي: فكيف تكذبون. وأخرج أيضاً عن الحسن قال أنى تصرفون. وأخرج أيضاً عن ابن عباس في **﴿فَالقُ الإصباح﴾** قال: خلق الليل والنهار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه قال: يعني بالإصباح ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في **﴿فَالقُ الإصباح﴾** قال: إضاءة الفجر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: **﴿فَالقُ الإصباح﴾** قال: فالق الصبح. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: **﴿وَجَاعَلُ اللَّيْلُ سَكَنًا﴾** قال: سكن فيه كل طير ودابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾** يعني عدد الأيام والشهور والسنين، وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾** قال: يضلُّ الرجل وهو في الظلمة، والجور عن الطريق. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، والخطيب في كتاب النجوم، عن عمر بن الخطاب قال: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم، ثم أمسكوا، فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن مريويه، والخطيب، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا».

وقد ورد في استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لا لغير ذلك أحاديث: منها عند الحاكم وصححه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله». وأخرج ابن شاهين والطبراني، والحاكم، والخطيب، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ، فنكر نحوه. وأخرج أحمد في الزهد، والخطيب، عن أبي الدرداء نحوه. وأخرج الخطيب في كتاب النجوم، عن أبي هريرة نحو حديثه الأول مرفوعاً. وأخرج الحاكم في تاريخه، والبيهقي بسند ضعيف، عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: التاجر الأمين، والإمام المقتصد، وراعي الشمس بالنهار». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن سلمان الفارسي قال: سبعة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، فنكر منهم الرجل الذي يراعي الشمس لمواقيت الصلاة. فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله، والصلاة، لا لغير ذلك. وقد جعل الله انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس. وأول صلاة الظهر زوالها، ووقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية. ووقت المغرب غروب

[النحل: 81] وخصَّ الدانية بالذكر لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتتان، وذلك فيما يقرب تناوله أكثر. قوله: **﴿وَجَنَاتُ مِنْ أَعْنَابٍ﴾** قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، والأعمش، وعاصم في قراءته الصحيحة عنه برفع جنات، وقرأ الباقر بن النصب. وأنكر القراءة الأولى أبو عبيدة، وأبو حاتم، حتى قال أبو حاتم هي محال، لأن الجنات لا تكون من النخل. قال النحاس: ليس تأويل الرفع على هذا، ولكنه رفع بالابتداء، والخبر محذوف: أي ولهم جنات كما قرأ جماعة من القراء **﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾** [الواقعة: 22] وقد أجاز مثل هذا سيبويه والكسائي والفراء، وأما على النصب فقليل: هو معطوف على **﴿نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾** أي: وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب، أو النصب بفعل يقدَّر متأخراً: أي وجنات من أعناب أخرجناها، وهكذا القول في انتصاب الزيتون والرمان: وقيل: هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين، و**﴿مَشْتَبِهًا﴾** منتصب على الحال: أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضاً في بعض أوصافه، ولا يشبه بعضه بعضاً في البعض الآخر؛ وقيل: إن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتماله على جميع الفصن وباعتبار حجمه، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم؛ وقيل خصَّ الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما في قول الله سبحانه: **﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾** [الغاشية: 17]، ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر، وإلى ينعه إذا أينع. والثمر في اللغة: جنى الشجر. واليانع: الناضج الذي قد أدرك وحن قطافه. قال ابن الأنباري: الينع جمع يانع، كركب وراكب. وقال الفراء: أينع أحمز. قرأ حمزة والكسائي «ثمره» بضم الثاء والميم، وقرأ الباقر بفتحها، إلا الأعمش فإنه قرأ ثمره بضم الثاء، وسكون الميم تخفيفاً. وقرأ محمد بن السميع، وابن محيصن، وابن أبي إسحاق «وينعه» بضم الياء التحتية. قال الفراء: هي لغة بعض أهل نجد. وقرأ الباقر بفتحها، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ فِي لَكُمْ﴾** إلى ما تقدَّم ذكره مجعلاً ومفصلاً **﴿آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** بالله استدلالاً بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التي قصها عليهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله تعالى **﴿إِنْ أَتَى الرَّجُلُ مِنْكَ الْجِبَ وَالنَّوَى﴾** يقول: خلق الحب والنوى. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: يفلق الحب والنوى عن النبات. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: الشقان اللذان فيهما. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن أبي مالك نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه في قوله: **﴿يَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾** قال: النخلة من النواة والسنبلة من الحبة **﴿وَمُخْرَجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾** قال: النواة من النخلة والحبة من السنبلة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد **﴿يَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرَجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾** قال:

الشمس. وورد في صلاة العشاء: «إن النبي ﷺ كان يصلحها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر» وبها يعرف أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها. فمن راعى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذي أراده ﷺ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد، وهكذا النجوم، ورد النبي عن النظر فيها كما أخرجه ابن مروي، والخطيب، عن علي قال: نهاني رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج ابن مروي، والمرهبي، والخطيب، عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم. وأخرج الخطيب، عن عائشة مرفوعاً مثله. وأخرج الطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نكر أصحابي فأمسكوا، وإذا نكر القمر فأمسكوا، وإذا نكرت النجوم فأمسكوا». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مروي، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكير والاعتبار. وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكير والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق، وعليه يحمل ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه: أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم، فجعل الرجل يتحرج أن يخبره، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه ووجدت أنني علمته. وقد أخرج أبو داود، والخطيب، عن سمرة بن جندب، أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما بعد، فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وإنهم قد كذبوا، ولكنها آيات من آيات الله يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة». وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في كسوف الشمس والقمر عن النبي ﷺ: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بهما عباده». وأخرج ابن مروي، عن أبي أمامة مرفوعاً: «إن الله نصب آدم بين يديه، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت نريته من صلبه حتى ملئوا الأرض» فهذا الحديث هو معنى ما في الآية، وهو الذي انشأكم من نفس واحدة». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: «فمستقر ومستودع» قال: المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب. وفي لفظ: المستقر ما في الرحم، وعلى ظهر الأرض ويطنها مما هو حي ومما قد مات. وفي لفظ المستقر ما كان في الأرض، والمستودع ما كان في الصلب. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في الآية: قال مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال:

وَجَعَلُوا يَوْمَ شُرَكَاءَ الْإِنِّمْ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَيْنَ وَتَيْنَ يَمْنَنَ يَمْنَنَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ بَيِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَفْعَلُهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٨﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٩﴾

هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم. قال النحاس: الجن المفعول الأول، وشركاء المفعول الثاني كقوله تعالى: «رجعلكم ملوكاً» [المائدة: 20] «رجعلت له مالا ممدوداً» [المدثر: 12] وأجاز الفراء: أن يكون الجن بدلاً من شركاء ومفسراً له. وأجاز الكسائي رفع الجن بمعنى هم الجن، كأنه قيل: من هم؟ فقيل الجن، وبالرفع قرأ يزيد بن أبي قطيب، وأبو حيان، وقرأ بالجر على إضافة شركاء إلى الجن للبيان. والمعنى: أنهم جعلوا شركاء لله فعبدوهم كما عبده، وعظموهم كما عظموه. وقيل المراد بالجن هاهنا الملائكة لاجتماعهم: أي استتارهم، وهم الذين قالوا: للملائكة بنات الله؛ وقيل: نزلت في الزنادقة الذين قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، فإله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب. وروي ذلك عن الكلبي، ويقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا: للعالم صانعان هما الرب سبحانه والشيطان. وهكذا القائلون: كل خير من النور، وكل شر من الظلمة، وهم المانوية. قوله: «وخلقهم» جملة حالية بتقدير قد: أي وقد علموا أن الله خلقهم، أو خلق ما جعلوه شريكاً لله. قوله: «وخرقوا له بنين وبنات» قرأ نافع بالتشديد على التكثير، لأن المشركين ادَّعوا أن الملائكة بنات الله، والنصارى ادَّعوا أن المسيح ابن الله، واليهود ادَّعوا أن عزيراً ابن الله، فكثر ذلك

أبصار الكفار، هذا على تسليم أن نفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية، فالمراد به هذه الرؤية الخاصة، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأول تخلفه الجزئية، والتقدير: لا تدركه كل الأبصار بل بعضها، وهي أبصار المؤمنين. والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرّفناك من تواتر الرؤية في الآخرة، واعتضادها بقوله تعالى: ﴿وَجْهَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ﴾ [القيامة: 22] الآية. قوله: ﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي: يحيط بها ويبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية، وخص الأبصار ليجانس ما قبله. وقال الزجاج: في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار: أي لا يعرفون كيفية حقيقة البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه انتهى. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ أي: الرفيق بعباده: يقال لطف فلان بفلان: أي رفق به، واللفظ في العمل: الرفق فيه. واللفظ من الله التوفيق والعصمة والطفه بكذا: إذا أبرّه: والملاطفة: المبالغة. هكذا قال الجوهري وابن فارس، و﴿الخبير﴾ المختبر بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ قال: والله خلقهم ﴿وَوُخِّرُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ بِنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال: تخرّصوا. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله ﴿وَوُخِّرُوا﴾ قال: جعلوا؛ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد قال كذبوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن عدي وأبو الشيخ، وابن مردويه بسند ضعيف، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: لو أن الإنس والجن والملائكة والشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً. قال الذهبي: هذا حديث منكر انتهى. وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف، وأخرج الترمذي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه. قال عكرمة: فقلت له اليس الله يقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: لا أم لك ذاك نوره إذا تجلّى بنوره لا يدركه شيء. وفي لفظ «إنما ذلك إذا تجلّى بكيفيته لم يرق له بصر». وأخرج ابن جرير عنه قال: لا يحيط بصر أحد بالله. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في كتاب الرؤية، عن الحسن في قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إسماعيل بن علية مثله.

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ مَنَ أَمَرَ فَلْيَنْصِبُوا. وَمَنْ عَيَّرَ فَلْيَهْأَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٠﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ أَلَمْ يَأْتِ إِيَّاكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرَضَ عَنِ الشِّرْكِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا

من كفرهم فشدّ الفعل لمطابقة المعنى. وقرأ ﴿حرفوا﴾ من التحريف: أي زوّروا. قال أهل اللغة: معنى خرقوا اختلقوا وافتعلوا وكذبوا، يقال اختلق الإلفك، واخترقه وخرقه، أو أصله من خرق الثوب: إذا شقه: أي اشتقوا له بنين وبنات. قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بمحذوف هو حال: أي كائنين بغير علم، بل قالوا ذلك عن جهل خالص، ثم بعد حكاية هذا الضلال البين، والبهت الفظيع من جعل الجن شركاء لله، وإثبات بنين وبنات له، نزه الله نفسه، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ وقد تقدّم الكلام في معنى سبحانه، ومعنى «تعالى»: تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذي وصفوه به. قوله: ﴿يَبْدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما، فكيف يجوز أن ﴿يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وقد جاء البديع بمعنى المبدع كالسميع بمعنى السميع كثيراً، ومنه قول عمرو بن معدى كرب:

أمن ربحانة الداعي السميع يؤرّقني وأصحابي هجوع
أي: السميع، وقيل: هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل، والأصل بديع سمواته وأرضه. وأجاز الكسائي خفضه على النعت لله، والظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ وخبره ﴿أَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وقيل: هو مرفوع على أنه فاعل «تعالى»، وقرأ بالنصب على المدح، والاستفهام في ﴿أَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ للإنكار والاستبعاد: أي من كان هذا وصفه، وهو أنه خالق السموات والأرض وما فيهما، كيف يكون له ولد؟ وهو من جملة مخلوقاته، وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً، ثم بالغ في نفي الولد، فقال: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ أي: كيف يكون له ولد والحال أنه لم تكن له صاحبة، والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد، وجملة: ﴿وَوُخِّلَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ لتقرير ما قبلها، لأن من كان خالقاً لكل شيء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولداً ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، والإشارة بقوله ﴿لَكُمْ﴾ إلى الأوصاف السابقة، وهو في موضع رفع على الابتداء وما بعده خبره، وهو الاسم الشريف، و﴿رَبِّكُمْ﴾ خبر ثان، و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر ثالث، و﴿وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر رابع، ويجوز أن يكون ﴿إِلَهُ رَبِّكُمْ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، وكذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر المبتدأ، ويجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ، وأجاز الكسائي والفراء النصب فيه ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: من كانت هذه صفاته، فهو الحقيق بالعبادة فاعبده ولا تعبوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء. قوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الأبصار: جمع بصر، وهو الحاسة، وإدراك الشيء عبارة عن الإحاطة به. قال الزجاج أي لا تبلغ كنه حقيقته، فالمنفي هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية. فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا شك فيه ولا شبهة، ولا يجهل إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيماً، وأيضاً قد تقرّر في علم البيان، والميزان أن رفع الإيجاب الكلي سلب جزئي؛ فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار وهي

إلا أنه أبلغ. وحكى عن المبرد أنه قرأ ﴿وليقولوا﴾ بإسكان اللام، فيكون فيه معنى التهديد: أي وليقولوا ما شأؤوا فإن الحق بين، وفي هذا اللفظ أصله درس يدرس دراسة، فهو من الدرس، وهو القراءة؛ وقيل من درسته: أي نلثته بكثرة القراءة، وأصله درس الطعام: أي داسه. والدياس: الدراس بلغة أهل الشام؛ وقيل أصله من درست الثوب أدسه درساً: أي أخلقته، ودرست المرأة درساً: أي حاضت. ويقال: إن فرج المرأة يكتنى أبا دراس وهو من الحيض، والدرس أيضاً: الطريق الخفي. وحكى الأصمعي: يعير لم يدرس: أي لم يركب. وروى عن ابن عباس وأصحابه، وأبي، وابن مسعود، والاعمش، أنهم قرؤوا «درس» أي: درس محمد الآيات، وقرئ «درست» وبه قرأ زيد بن ثابت: أي الآيات على البناء للمفعول، «ودارست» أي دارست اليهود محمداً، واللام في ﴿لنبيئنه﴾ لام كي: أي نصرف الآيات لكي نبيئه لقوم يعلمون، والضمير راجع إلى الآيات؛ لأنها في معنى القرآن، أو إلى القرآن، وإن لم يجر له نكر؛ لأنه معلوم من السياق أو إلى التبيين الملل عليه بالفعل. قوله: ﴿اتبع ما أوحى إليك من ربك﴾ أمره الله باتباع ما أوحى إليه وأن لا يشغل خاطره بهم، بل يشتغل باتباع ما أمره الله، وجملته: ﴿لا إله إلا هو﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، لقصد تأكيد إيجاب الاتباع ﴿واعرض﴾ معطوف على ﴿اتبع﴾ أمره الله بالإعراض عن المشركين بعدما أمره باتباع ما أوحى إليه، وهذا قبل نزول آية السيف: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ أي: لو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا، وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه، والكلام في تقرير هذا على الوجه الذي يتعارف به أهل علم الكلام والميزان معروف فلا نطيل بإيراده، ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: رقيباً ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي: قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم، ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة. قوله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ الموصول عبارة عن الآفة التي كانت تعبدها الكفار. والمعنى: لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التي يدعونها من دون الله، فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدواناً وتجاوزاً عن الحق وجهلاً منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق والناهي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله، المتصدين لبياناتها للناس، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر، فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات؛ عناداً للحق وبغضاً لاتباع المحقين، وجراءة على الله سبحانه سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها

أنت عليهم بوكيل ﴿٧٣﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِنَّ رَبِّهِمْ خَزَنَهُمْ فَيَنشُرُهُمْ إِمَّا كَاثِرًا مِمَّنْ يَسْمُونَ ﴿٧٤﴾

البصائر جمع بصيرة، وهي في الأصل: نود القلب، والمراد بها هنا الحجة البينة والبرهان الواضح، وهذا الكلام وارد على لسان رسول الله ﷺ، ولهذا قال في آخره ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ ووصف البصائر بالمجيء تفخيماً لشأنها، وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه، كما يقال جاءت العافية، وانصرف المرض، وأقبلت السعود، وأدبرت النحوس ﴿فمن لبصر فليغفسه﴾ أي: فمن تعقل الحجة وعرفها وأذن لها فنفذ تلك لنفسه؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار ﴿ومن عمي﴾ عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذن لها، فضرر ذلك على نفسه؛ لأنه يتعرض لغضب الله في الدنيا ويكون مصيره النار ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ برقيب أحصى عليكم أعمالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي وهو الحفيظ عليكم. قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعمهم بالسيف من عبادة الأوثان ﴿وكنذك نصرف الآيات﴾ أي: مثل ذلك التصريف الببيع نصرفها في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه. قوله: ﴿وليقولوا درست﴾ العطف على محذوف: أي نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست، أو علة لفعل محذوف يقدّر متأخراً: أي وليقولوا درست صرفناها، وعلى هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة. والمعنى: ومثل ذلك التصريف نصرف الآيات وليقولوا درست، فإنه لا احتفال بقولهم ولا اعتداد بهم، فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم وعدم الاكتراث بقولهم. وقد أشار إلى مثل هذا الزجاج. وقال النحاس: وفي المعنى قول آخر حسن، وهو أن يكون معنى ﴿نصرف الآيات﴾ ناتي بها آية بعد آية ﴿ليقولوا درست﴾ علينا، فينكرون الأول بالأخر، فهذا حقيقته، والذي قاله أبو إسحاق: يعني الزجاج مجاز، وفي ﴿درست﴾ قراءات، قرأ أبو عمرو، وابن كثير «دارست» بآلف بين الدال والراء كفاعلت، وهي قراءة علي، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وأهل مكة. وقرأ ابن عامر «درست» بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف كخرجت، وهي قراءة الحسن. وقرأ الباقون «درست» كضربت، فعلى القراءة الأولى المعنى: دارست أهل الكتاب ودارسوك: أي ذاكرتهم وذاكركو، ويدل على هذا ما وقع في الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله: ﴿واعانته عليه قوم آخرون﴾ [الفرقان: 4] أي: أعان اليهود النبي ﷺ على القرآن، ومثله قولهم: «أساطير الأولين» اكتتبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً [الفرقان: 5]، وقولهم: ﴿إنما يعلمه بشر﴾ [النحل: 103]. والمعنى على القراءة الثانية: قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت، وهو كقولهم: «أساطير الأولين» [الأنعام: 25]، وفي ثمانية مواضع آخر من كتاب الله العزيز. والمعنى على القراءة الثالثة: مثل المعنى على القراءة الأولى. قال الأخفش: هي بمعنى دارست

قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهاهم أن لا يسبوا أولئهم ﴿فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سبَّ واليه، قالوا يا رسول الله وكيف يسبَّ الرجل واليه؟ قال: يسبَّ أبا الرجل فيسبَّ أباه، ويسبَّ أمه فيسبَّ أمه».

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ بِآيَةٍ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلُوبُ الْآلَيْنِ عَنِ اللَّهِ وَمَا يُشْرِكُهُمْ أَثَرُهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٦﴾ وَقُلْ أَفَدْتَهُمْ وَأَيُّكُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ سَرَرٍ وَذُرُوفٍ فِي طُغْيَانِهِمْ بِمَعْنَى ﴿١٠٧﴾ وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَهُنَّ الْمَلَكُوتَ وَكُنْهُنَّ أَلْوَنَ وَحَرَّنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا يَؤْمِنُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّ يَسَكَّةَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَصْحَرَهُمْ يَهْلُونَ ﴿١٠٩﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فُتِنَهُمْ وَمَا يَنْفِرُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُ أَفَيْدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْجُوهُنَّ لَيَفْتِنَهُنَّ أَعْيُنُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾

قوله: ﴿واقسموا بالله﴾ أي الكفار مطلقاً، أو كفار قريش، وجهد الايمان أشدها: أي أقسموا بالله أشد ايمانهم التي بلغت قدرتهم، وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، فلماذا أقسموا به، وانتصاب جهد على المصدرية، وهو بفتح الجيم المشقة، وبضمها الطاقة، ومن أهل اللغة من يجعلها لمعنى واحد، والمعنى: أنهم اقترحوا على النبي ﷺ آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وأقسموا لأن جاءتهم هذه الآية التي اقترحوها ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ وليس غرضهم الإيمان، بل معظم قصدهم التحكم على رسول الله ﷺ والتلاعب بآيات الله، فأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بقوله: ﴿إنما الآيات عند الله﴾ هذه الآية التي يقترحونها، وغيرها، وليس عندي من ذلك شيء، فهو سبحانه إن أراد إنزالها أنزلها، وإن أراد أن لا ينزلها لم ينزلها، قوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾. قرأ أبو عمرو، وابن كثير، بكسر الهمزة من أنها، وهي قراءة مجاهد، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود ﴿وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون﴾ قال مجاهد وابن زيد: المخاطب بهذا المشركين أي وما يديركم، ثم حكم عليهم بقوله: ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وقال الفراء وغيره: الخطاب للمؤمنين، لأن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون، فقال الله تعالى: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وقرأ أهل المدينة والأعمش، وحمزة والكسائي، وعاصم، وابن عامر «أنها إذا جاءت» بفتح الهمزة، قال الخليل: أنها بمعنى لعلها، وفي التنزيل: ﴿وما يديرك لعله يزكي﴾ [عبس: 3] أي: أنه يزكي. وحكى عن العرب أئت السوق أنك تشتري لنا شيئاً: أي لعلك، ومنه قول عدي بن زيد:

أعائل ما يديرك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
أي: لعل منيتي، ومنه قول دريد بن الصمة:

أريني جواداً مات هزلاً لأنني أرى ما ترين أو بخيلاً مخلصاً
أي: لعلني، وقول أبي النجم:

دينه وهجيره، كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أرشدوا إلى السنة، قابلوها بما لديهم من البدعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع، وهم شر من الزنادقة، لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين، والزنادقة قد أجمعتهم سيوف الإسلام وتحامهم أهله، وقد ينفق كيدهم ويتم باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سدِّ الذرائع، وقطع التفرق إلى الشبه. وقرأ أهل مكة «عدواً» بضم العين والدال وتشديد الواو، وهي قراءة الحسن، وأبي رجاء وقتادة. وقرأ من عداهم بفتح العين وضم ^(١) الدال وتشديد الواو، ومعنى القراءتين واحد أي: ظمناً وعدواناً، وهو منتصب على الحال، أو على المصدر أو على أنه مفعول له ﴿كذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾ أي: مثل ذلك التزيين زيننا لكل أمة من أمة الكفار عملهم من الخير والشر ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ [النحل: 93، فاطر: 8] ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ في الدنيا من المعاصي التي لم ينتهوا عنها، ولا قبلوا من المرسلين ما أرسلهم الله به إليهم، وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿قد جاءكم بصائر﴾ أي: بيئة ﴿فمن أبصر فلنفسه﴾ أي: فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴿ومن عمي﴾ أي: من ضل ﴿فعليناها﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مروي، والضياء في المختارة، عن ابن عباس أنه كان يقرأ «دارست» وقال: قرأت. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عنه «دارست» قال: قرأت وتعلمت. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي، عنه أيضاً قال «دارست» خاصمت جادلت تلوت. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، «وأعرض عن المشركين» قال: كف عنهم، وهذا منسوخ نسخته القتال: «فاقتلوا المشركين حيث وجبتهم» [التوبة: 5] وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ يقول الله تبارك وتعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي: بحفيظ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ قال:

(1) صوابه وسكون الدال وتخفيف الواو اهـ مصحح القرآن.

قلت لشيبان ابن من لقائه أني بعد اليوم من سوائه أي: علي، وقول جرير:

هل أنتم عائجون بنا لأن نرى العرصات أو أثر الخيام
أي: لعنا هـ وقد وردت في كلام العرب كثيراً بمعنى

لعل. وحكى الكسائي أنها كذلك في مصحف أبي بن كعب.

وقال الكسائي أيضاً والفراء: إن «لا» زائدة، والمعنى: وما يشعركم أنها: أي الآيات، إذا جاءت يؤمنون، فزيدت كما

زيدت في قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ [الأنبياء: 95] وفي قوله: ﴿ما منعك أن لا

تسجد﴾ [الأعراف: 12] وضعف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة لا وقالوا: هو غلط وخطأ، ونكر النحاس وغيره، أن في

الكلام حذفاً والتقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون، ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع، قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم

وإبصارهم﴾ معطوف على ﴿لا يؤمنون﴾ قيل والمعنى: تقلب أفئدتهم وإبصارهم يوم القيامة على لهب النار، وحز

الجمر ﴿كما لم يؤمنوا﴾ في الدنيا ﴿ونذرهم﴾ في الدنيا: أي نملهم ولا نعاقبهم فعلى هذا بعض الآية في الآخرة.

وبعضها في الدنيا؛ وقيل المعنى: ونقلب أفئدتهم وإبصارهم في الدنيا: أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءت تلك الآية

كما حللنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: أنها إذا

جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا، ونقلب أفئدتهم وإبصارهم ونذرهم في طغيانهم يعمهون: أي يتحيرون، والكاف في

﴿كما لم يؤمنوا﴾ نعت مصدر محذوف، وما مصدرية، و ﴿يعمهون﴾ في محل نصب على الحال، قوله: ﴿ولو أننا

نزلنا إليهم الملائكة﴾ أي: لا يؤمنون ولو نزلنا إليهم الملائكة كما اقترحوه بقولهم: ﴿لو أنزل عليه ملك﴾

[الأنعام: 8] ﴿وكلهم الموتى﴾ الذين يعرفونهم بعد إحيائنا لهم، فقالوا لهم إن هذا النبي صادق مرسل من عند الله،

فأمنا به، لم يؤمنوا ﴿وحشرنا عليهم كل شيء﴾ مما سألوه من الآيات ﴿قبلاً﴾ أي: كفاً وضمناً بما جئناهم به

من الآيات البينات. هذا على قراءة من قرأ قبلاً بضم القاف وهم الجمهور. وقرأ نافع، وابن عامر، قبلاً بكسرهما: أي

مقابلة. وقال محمد بن يزيد المبرد: قبلاً بمعنى ناحية، كما تقول لي قبل فلان مال، فقبلاً نصب على الظرف، وعلى

المعنى الأول ورد قوله تعالى: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ [الإسراء: 92] أي: يضمنون كذا قال الفراء. وقال

الأخفش: هو بمعنى قبيل قبيل: أي جماعة جماعة. وحكى أبو زيد، لقيت فلاناً قبلاً ومقابلة وقبلاً كله واحد، بمعنى

المواجهة، فيكون على هذا الضم كالکسر وتستوي القراءتان.

والحشر: الجمع ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾

إيمانهم، فإن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والاستثناء

مفرغ ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ جهلاً يحول بينهم وبين

درك الحق والوصول إلى الصواب. قوله: ﴿وكنك جعلنا

لكل نبي﴾ هذا الكلام لتسليية رسول الله ﷺ ونفع ما

حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم: أي مثل هذا الجعل ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾ والمعنى: كما ابتليناك بهؤلاء فقد

ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار، فجعلنا لكل واحد منهم عدواً من كفار زمنهم، و ﴿شياطين الإنس والجن﴾

بدل من عدواً؛ وقيل هو المفعول الثاني لجعلنا. وقرأ الأعمش الجن والإنس بتقديم الجن، والمراد بالشياطين المردة من

الفريقين، والإضافة بيانية، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل الإنس والجن الشياطين، وجملة

﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾ في محل نصب على الحال: أي حال كونه يوسوس بعضهم لبعض؛ وقيل إن الجملة

مستأنفة لبيان حال العدو، وسمي وحياً لأنه إنما يكون خفية بينهم، وجعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه،

والمزخرف: المزين، وزخارف الماء طرائقه، و ﴿غروراً﴾ منتصب على المصدر، لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض

يغرونهم بذلك غروراً، ويجوز أن يكون في موضع الحال، ويجوز أن يكون مفعولاً له، والغرور: الباطل. قوله: ﴿ولو

شاء ربك ما فعلوه﴾ الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقاً من الأمور التي جرت من الكفار في زمنه وزمن الأنبياء قبله: أي لو شاء ربك عدم وقوع ما تقدم نكره ما فعلوه وأوقعوه؛

وقيل: ما فعلوا الإيحاء الملل على بالفعل ﴿فذرهم﴾ أي: اتركهم، وهذا الأمر للتهديد للكفار كقوله: ﴿نذري ومن خلقت

وحيداً﴾ [المثدر: 11] ﴿وما يفترون﴾ إن كانت ما مصدرية فالتقدير: اتركهم واقتراهم، وإن كانت موصولة فالتقدير:

اتركهم والذي يفترونه. قوله: ﴿ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ اللام في لتصفي لام كي، فتكون علة

كقوله: ﴿يوحى﴾ والتقدير: يوحى بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصفي؛ وقيل: هو متعلق بمحذوف يقدر متأخراً:

أي لتصفي ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾ وقيل: إن اللام للأمر وهو غلط، فإنها لو كانت لام الأمر جزمتم الفعل، والإصغاء:

الميل، يقال صفوت أصفو صفواً، وصفيت أصفى؛ ويقال صفيت بالكسر؛ ويقال أصفيت الإناء: إذا أملت ليجتمع ما

فيه، وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض؛ ويقال صفت النجوم: إذا مالت للغروب، وأصغت الناقة: إذا أمالت رأسها، ومنه قول ذي الرمة:

تصغي إذا شدّها بالكور جانحة حتى إذا ما استوى في غرزا وثبت
والضمير في إليه لزخرف القول، أو لما ذكر سابقاً من زخرف القول وغيره: أي أوحى بعضهم إلى بعض زخرف

القول ليغروهم ﴿ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ من الكفار، ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم بعد الإصغاء

إليه ﴿وليقتروا ما هم مقترفون﴾ من الآثام، والاقتراف: الاكتساب؛ يقال خرج ليقترف لأمله: أي ليكتسب لهم، وقارف فلان هذا الأمر: إذا واقع، وقرفه: إذا رماه بالريبة،

واقترف: كذب، وأصله اقتطاع قطعة من الشيء. وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: نزلت

﴿واقسموا بالله جهد إيمانهم﴾ في قريش ﴿ما يشعركم﴾

وأبو الشيخ، عنه **﴿ولتصفي﴾** تزيغ **﴿وليقترفوا﴾** يكتسبوا.

أَفَتَعْتَبِرُ اللَّهُ بِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ وَتَوَلَّى الْآيَاتِ أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٢١﴾ وَكَذَلِكَ كُتِبَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنُ وَبَيِّنَّا لَكَ آيَاتِهِ وَهُوَ السَّامِعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٢﴾ وَإِنْ طَلَعَ كَثْرٌ مِنْ فِي الْأَرْضِ مُبْغِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَعْزِلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٤﴾

قوله: **﴿أفغير الله﴾** الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على فعل مقدر، والكلام هو على إرادة القول، والتقدير: قل لهم يا محمد كيف أضلّ وأبغى غير الله حكماً؟ وغير مفعول لأبغى مقدم عليه، وحكماً المفعول الثاني أو العكس. ويجوز أن ينتصب حكماً على الحال، والحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر في مثل هذه الصفة المشتقة، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه، من أن يجعل بينه وبينهم حكماً فيما اختلفوا فيه، وإن الله هو الحكم العدل بينه وبينهم، وجملة: **﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾** في محل نصب على الحال: أي كيف أطلب حكماً غير الله وهو الذي أنزل عليكم القرآن مفصلاً مبيناً واضحاً مستوفياً لكل قضية على التفصيل، ثم أخبر نبيه ﷺ بأن أهل الكتاب، وإن اظهروا الجحود والمكابرة، فإنهم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله بما دلّتهم عليه كتب الله المنزل، كالطهارة والإنجيل، من أنه رسول الله وأنه خاتم الأنبياء، و**﴿بالحق﴾** متعلق بمحذوف وقع حالاً: أي متلبساً بالحق الذي لا شك فيه ولا شبهة، ثم نهى الله عن أن يكون من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند الله بالحق، أو نهى عن مطلق الامتراء، ويكون ذلك تعريضاً لأمتة عن أن يمتري أحد منهم، أو الخطاب لكل من يصلح له: أي فلا يكون أحد من الناس من الممترين ولا يقدح في ذلك كون الخطاب لرسول الله ﷺ، فإن خطابه خطاب لأمتة. قوله: **﴿وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً﴾** قرأ أهل الكوفة كلمة بالتوحيد، وقرأ الباقون بالجمع، والمراد بالكلمات العبارات أو متعلقاتها من الوعد والوعيد. والمعنى: أن الله قد أتمّ وعده ووعيده، فظهر الحق وانطمس الباطل؛ وقيل: المراد بالكلمة أو الكلمات القرآن، و**﴿صدقاً وعدلاً﴾** منتصبان على التمييز أو الحال، أو على أنهما نعت مصدر محذوف: أي تمام صدق وعدل **﴿لا مبدل لكلماته﴾** لا خلف فيها ولا مغير لما حكم به، والجملة المنفية في محل نصب على الحال، أو مستأنفة **﴿وهو السميع﴾** لكل مسموع **﴿العليم﴾** بكل معلوم. قوله: **﴿وإن طلع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾** أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من في الأرض أضلوه، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، وهم الطائفة التي لا تزال على الحق، ولا يضربها خلاف من يخالفها، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ؛ وقيل المراد بالأكثر: الكفار؛ وقيل

يا أيها المسلمون **﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾** وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، قال: كلم رسول الله ﷺ، قريباً فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وأن شمود لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدّقه، فقال رسول الله ﷺ: أي شيء تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، قال: فإن فعلت تصدقوني؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يصسقوا عند ذلك لنعذبهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال: بل يتوب تائبهم، فأنزل الله: **﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم﴾** إلى قوله: **﴿يجهلون﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾** قال: لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء ورددت عن كل أمر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه **﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾** قال: معاينة **﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾** أي: أهل الشقاء **﴿إلا أن يشاء الله﴾** أي: أهل السعادة والذين سبق لهم في علمه أن يدخلوا في الإيمان. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة **﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾** أي: فعاينوا ذلك معاينة. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد قال: أفواجاً قبلاً وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وكنكلكم جعلنا لكل نبي عدواً﴾** شياطين الإنس والجنّ قال: إن للجنّ شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، فيلتقي شيطان الإنس وشيطان الجنّ، فيقول هذا لهذا: أضله بكذا واضلله بكذا، فهو: **﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾** وقال ابن عباس: الجنّ هم الجانّ وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس وهم لا يموتون إلا مع إبليس والجنّ يموتون، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن مسعود قال: الكهنة هم شياطين الإنس. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾** قال: شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، فإن الله يقول: **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾** [الأنعام: 121]. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: من الإنس شياطين، ومن الجن شياطين، يوحى بعضهم إلى بعض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، زخرف القول قال: يحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوه في فتنهم. وقد أخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا نر تعوذ بالله من شرّ شياطين الجن والإنس، قال: يا نبي الله وهل للإنس شياطين؟ قال: نعم، **﴿شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾**. وأخرج أحمد، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن أبي نر مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿ولتصفي﴾** لتميل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

عليه؛ وقيل: إنها نزلت في سبب خاص وسيأتي، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما نكر الذابح عليه اسم الله حل إن كان مما أباح الله أكله. وقال عطاء: في هذه الآية الأمر بذكر الله على الشراب والنبي وكل مطعوم، والشرط في ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ للتهيب والإلهاب: أي بأحكامه من الأوامر والنواهي التي من جملتها الأمر بالأكل مما نكر اسم الله عليه، والاستفهام في ﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ للإنكار: أي ما المانع لكم من أكل ما سميت عليه بعد أن أن الله لكم بذلك ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَاهِنُونَ﴾ أي: بين لكم بياناً مفصلاً يدفع الشك، ويزيل الشبهة بقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: 145] إلى آخر الآية، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: من جميع ما حرمه عليكم، فإن الضرورة تحلل الحرام، وقد تقدم تحقيقه في البقرة، قرأ نافع، ويعقوب ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح الفعلين على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، بالضم فيهما على البناء للمفعول. وقرأ عطية العوفي «فصل» بالتخفيف: أي أبان وأظهر. قوله: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لِيُضِلُّوهُم بِأَهْوَاهِهِمْ بَغِيرَ عِلْمِهِ﴾ هم الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة ونحوهما، فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل، كانوا يضلون الناس، فيتبعونهم، ولا يعلمون أن تلك جهل وضلالة، لا يرجع إلى شيء من العلم، ثم أمرهم الله أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه، والظاهر: ما كان يظهر كأفعال الجوارح، والباطن: ما كان لا يظهر كأفعال القلب؛ وقيل ما أعلنتم وما أسررتم؛ وقيل: للزنا الظاهر، والزنا المكتوم، وأضاف الظاهر والباطن إلى الإثم لأنه يتسبب عنهما، ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افتراءهم على الله سبحانه.

وقد أخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ: إنا ناكل مما قتلنا ولا ناكل مما قتل الله، فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطْعَمْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة ﴿فَكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فإنه حلال ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ﴾ يعني القرآن ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ قال: مصدقين ﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا نَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني: الذبائح، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ما حرم عليكم من الميتة ﴿وَإِنْ كَثِيرًا﴾ يعني: من مشركي العرب ﴿لِيُضِلُّوهُم بِأَهْوَاهِهِمْ بَغِيرَ عِلْمِهِ﴾ يعني في أمر الذبائح. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي من الميتة، والدم، ولحم الخنزير. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وَبِاطْنِهِ﴾ قال: هو الإثم. قال: هو نكاح الأمهات والبنات ﴿وَبِاطْنِهِ﴾ قال: هو

المراد بالأرض: مكة أي: أكثر أهل مكة، ثم علل ذلك سبحانه بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون إلا الظن الذي لا أصل له، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة وأنها تقر بهم إلى الله ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: وما هم إلا يخرصون: أي يحسبون ويقدرن، وأصل الخرص القطع، ومنه خرص النخل يخرص: إذا حزره لياخذ منه الزكاة، فالخراص يقطع بما لا يجوز القطع به، إذ لا يقين منه، وإذا كان هذا حال أكثر من في الأرض، فالعلم الحقيقي هو عند الله، فاتبع ما أمرك به، ودع عنك طاعة غيره، وهو العالم بمن يضل عن سبيله ومن يهتدي إليه. قال بعض أهل العلم: إن ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ﴾ في الموضوعين بمعنى يعلم، قال: ومنه قول حاتم الطائي:

فحلفت طي من بوننا حلفاً والله أعلم ما كنا لهم خولا
والوجه في هذا التأويل: أن أقبل التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر، فتكون من منصوبة بالفعل الذي جعل أقبل التفضيل نائباً عنه؛ وقيل: إن أقبل التفضيل على بابهِ والنصب بفعل مقتر؛ وقيل: إنها منصوبة بأقبل التفضيل أي: إن ربك أعلم، أي الناس يضل عن سبيله؛ وقيل: في محل نصب بنزع الخافض: أي بمن يضل، قاله بعض البصريين؛ وقيل: في محل جر بإضافة أقبل التفضيل إليها.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ قال: مبيناً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال: صدقاً فيما وعد، وعدلاً فيما حكم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نصر السجزي في الإبانة، عن محمد بن كعب القرظي، في قوله: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قال: لا تبديل لشيء قاله في الدنيا والآخرة لقوله: ﴿مَا يبدل القول لدي﴾ [ق: 29]. وأخرج ابن مريويه، وابن النجار، عن أنس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَوُتِّمَتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي اليمان عامر بن عبد الله قال: نزل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة، ومعه مخرصة، ولكل قوم صنم يعبدونه، فجعل يأتيها صنماً صنماً ويقطع في صدر الصنم بعضاً ثم يعقره، فكلما طعن صنماً أتبعه ضرباً بالقوس حتى يكسره ويطرحه خارجاً من المسجد، والنبي ﷺ يقول: ﴿وَوُتِّمَتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيْسَ بِأَهْوَاهِهِمْ بَغَيْرَ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٤٦﴾ وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْاِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْاِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤٧﴾

لما تقدم نكر ما يصنعه الكفار في الانعام من تلك السنن الجاهلية، أمر الله المسلمين بأن ياكلوا مما نكر اسم الله

أخرجه ابن عدي: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرايت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى؟ فقال النبي ﷺ: اسم الله على كل مسلم» فهو حديث ضعيف، قد ضعفه البيهقي وغيره. قوله: «وإنه لفسق» الضمير يرجع إلى «ما» بتقدير مضاف: أي وإن أكل ما لم يذكر لفسق، ويجوز أن يرجع إلى مصدر تاكلوا: أي فإن الأكل لفسق. وقد تقدم تحقيق الفسق.

قد استدل من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير الله بقوله: «وإنه لفسق» وجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقاً، بل الفسق الذبح لغير الله. ويجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعاً. «وإن للشياطين ليوحون إلى أوليائهم» أي يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق المبانية للصواب قاصدين بذلك أن يجالكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم «وإن اطعموهم» فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه «إنكم لمشركون» مثلهم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والطبراني وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: قال المشركون، وفي لفظ: قال اليهود: لا تاكلوا مما قتل الله وتاكلوا مما قتلتم انتم، فانزل الله: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه قال لما نزلت: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً، فقالوا له: ما ذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله بشمشار من ذهب يعني الميتة فهو حرام، فنزلت: «وإن للشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجالوكم» قال: الشياطين من فارس وأولياؤهم من قريش. وقد روى نحو ما تقدم في حديث ابن عباس الأول من غير طريق. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه أيضاً في قوله: «وإن للشياطين ليوحون إلى أوليائهم» قال: إبليس أوحى إلى مشركي قريش. وأخرج أبو داود، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عنه أيضاً في قوله: «ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق» ففسخ، واستثنى من ذلك فقال: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» [المائدة: 5]. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن يزيد الخطمي قال: كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم الله عليه. وروى ابن أبي حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس في النسخ.

أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَاحْيَيْنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي الْأَنْبَاءِ كَمَنُ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَسْمُكُونَ ﴿٦٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَسْكُرُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مِّنْ رَبِّهِمْ قَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكْطٍ

الزنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: الظاهر منه «ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء» [النساء: 22] و«حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم» [النساء: 23] الآية، والباطن: الزنا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: علانيته وسره.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْثَالَهُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَأَنْتُمْ عَنْهَا كَافِرُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِلَىٰ آيَاتِهِمْ يُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾
نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بعد أن أمر بالأكل مما نكر اسم الله عليه، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فذهب ابن عمر، ونافع، مولاه، والشعبي، وابن سيرين وهو رواية، عن مالك وعن أحمد بن حنبل، وبه قال أبو ثور، ودلود الظاهري أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العمد والناسي لهذه الآية، ولقوله تعالى في آية الصيد: «فكلوا مما أمسكن عليكم وانكروا اسم الله عليه» [المائدة: 4] ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه في هذه الآية: «وإنه لفسق».

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة، الأمر بالتسمية في الصيد وغيره. وذهب الشافعي وأصحابه، وهو رواية عن مالك، ورواية عن أحمد، أن التسمية مستحبة لا واجبة، وهو مروى عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله، وهو تخصيص للآية بغير مخصص. وقد روى أبو داود في المرسل أن النبي ﷺ قال: «نبیحة المسلم حلال، نكر اسم الله أو لم يذكر». وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: «إن قومًا يأتوننا بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سمو انتم واكلوا» يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح. وذهب مالك، وأحمد في المشهور عنهما، وأبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، أن التسمية إن تركت نسياناً لم تضر، وإن تركت عمداً لم يحل أكل الذبيحة. وهو مروى عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «المسلم إن نسي أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله» وهذا الحديث رفعه خطأ، وإنما هو من قول ابن عباس. وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر: نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى: «وإننا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» [البقرة: 286] كما سبق تقريره، وبقوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» وأما حديث أبي هريرة الذي

صَلَاً فُهَيْبِنَاهُ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ هو القرآن ﴿كَمَنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾: للكفر والضلالة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة في الآية قال: نزلت في عمار بن ياسر؛ وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَاحْيِينَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يعني: عمر بن الخطاب، ﴿كَمَنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ يعني: أبا جهل بن هشام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن زيد بن أسلم، في الآية قال: نزلت في عمر بن الخطاب، وأبي جهل بن هشام، كانا ميتين في ضلالتهما، فلحيا الله عمر بالإسلام وأعزّه، وأقرّ أبا جهل في ضلالتة وموته، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب». وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة في قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرُمِيهَا﴾ قال: نزلت في المستهزئين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: سلطنا شرارها فقصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال ﴿أَكْبَرًا مَجْرُمِيهَا﴾ عظماءها. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج في قوله: ﴿وَوَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ الآية قال: قالوا لمحمد حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق. لو كان هذا حقاً لكان فينا، من هو الحق أن يؤتي به محمد: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ لَجَرَمُوا﴾ قال: أشركوا ﴿صَغَارًا﴾ قال: هوان.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ مَسَدَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ مَسَدَهُ مَسَدًا حَرَبًا كَأَنَّمَا يَصَفُّهُ فِي السَّكَلِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَلْتَمَسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٦﴾ لَمْ دَارَ الْكَلْبِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَقَوْ وَلَهُمْ يَمَا كَاؤًا يَمْلُونَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يَمْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَتَمَشَّرُ الْجَنُّ قَدْ اسْتَكْرَأَتْ رَيْنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَنْتَعْ بَعْضًا يَتَعَيْنُ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَكَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَنُكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ مَسَدَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الشرح: الشق وأصله التوسعة، وشرحت الأمر بينته وأوضحته، والمعنى: من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح، ﴿وَمَنْ يُرِدْ إِضْلَالَهُ﴾ يجعل صدره ضيقاً حرجاً، قرأ ابن كثير ﴿ضيقاً﴾ بالتخفيف مثل هين ولين. وقرأ الباقر بالتشديد وهما لغتان. وقرأ نافع ﴿حرجاً﴾ بالكسر، ومعناه الضيق، كرر المعنى تأكيداً، وحسن ذلك اختلاف اللفظ. وقرأ الباقر بالفتح، جمع حرجة، وهي شدة الضيق، والحرجة الغيطة، والجمع حرج وحرجات،

سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَاؤًا يَمْكُرُونَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَاحْيِينَاهُ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام. وقرأ نافع، وابن أبي نعيم بإسكانها، قال النحاس: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى: أي انظروا وتدبروا ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُبْتَغَى حَكْمًا﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَاحْيِينَاهُ [الأنعام: 114] والمراد بالميت هنا الكافر، أحياه الله بالإسلام؛ وقيل معناه: كان ميتاً حين كان نطفة فاحْيِينَاهُ بنفخ الروح فيه. والأول أولى، لأن السياق يشعر بذلك؛ لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، وكثيراً ما تستعار الحياة للهداية وللعلم، ومنه قول القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله فاجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحيي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور
والنور عبارة عن الهداية والإيمان، وقيل هو القرآن، وقيل الحكمة، وقيل هو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَمَانَتِهِمْ﴾ [الحديد: 12] والضمير في به راجع إلى النور ﴿كَمَنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي كمن صفته في الظلمات، ومثله مبتدأ والظلمات خبره، والجملة صفة لمن؛ وقيل مثل زائدة، والمعنى: كمن في الظلمات، كما تقول: أنا أكرم من مثلك، أي منك، ومثله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قُتِلَ مِنْ النِّعَمِ﴾ [المائدة: 95] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] وقيل المعنى: كمن مثله مثل من هو في الظلمات، و ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ في محل نصب على الحال: أي حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال. قوله: ﴿وَكُنْكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرُمِيهَا لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ أي: مثل ذلك الجعل جعلنا في كل قرية، والأكابر جمع أكبر، قيل: هم الرؤساء والعظماء، وخصهم بالذكر؛ لأنهم أقدر على الفساد، والمكر: الحيلة في مخالفة الاستقامة، وأصله الفتل، فالماكر يقتل عن الاستقامة: أي يصرف عنها ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِنَفْسِهِمْ﴾ أي: وبال مكرهم عند عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك لفرط جهلهم ﴿وَوَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من الآيات، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ﴾ يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء، وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة، ونظيره: ﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مَنشُورَةً﴾ [المنثر: 52]. والمعنى: إذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة، فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي: إن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسلاً ويكون موضعاً لها وأميناً عليها، وقد اختار أن يجعل الرسالة في محمد صفيه وحبيبه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ لَجَرَمُوا صَغَارٌ﴾ أي: ذل وهوان، وأصله من الصغر كأن الذل يصغر إلى المرء نفسه؛ وقيل الصغار هو الرضا بالذل، روى ذلك عن ابن السكيت.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَاحْيِينَاهُ﴾ قال: كان كافراً

هو استمتاعهم بالجن؛ وقيل: استمتاع الإنس بالجن أنه كان إذا مرَّ الرجل بوادٍ في سفره وخاف على نفسه قال: أعوذ برَبِّ هذا الوادي من جميع ما أضر، يعني: ربه من الجن، ومنه قوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً﴾ [الجن: 6] وقيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، واستمتاع الإنس بالجن: أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكائب، ويتلون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان **﴿وبلغنا لجننا الذي أجلت لنا﴾** أي: يوم القيامة اعترافاً منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكذبون به، ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم ف**﴿قال النار مثواكم﴾** أي: موضع مقامكم، والمثوى المقام، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، قوله: **﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾** المعنى: الذي تقتضيه لغة العرب في هذا التركيب أنهم يخلدون في النار في كل الأوقات، إلا في الوقت الذي يشاء الله عدم بقائهم فيها، وقال الزجاج: إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة، أي خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في الحساب، وهو تعسف، لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ولا يصدق على من لم يدخل النار، وقيل الاستثناء راجع إلى النار: أي إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها في بعض الأوقات كالزهورير؛ وقيل: الاستثناء لاهل الإيمان، وما بمعنى من: أي إلا ما شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار؛ وقيل المعنى: إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب، وكل هذه التأويلات متكلفة، والذي ألجأ إليها ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار في النار أبداً، ولكن لا تعارض بين عام وخاص لا سيما بعد وروده في القرآن مكرراً كما سيأتي في سورة هود **﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾** [هود: 107] ولعله يأتي هناك إن شاء الله زيادة تحقيق.

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أبي جعفر المداثني رجل من بني هاشم، وليس هو محمد بن علي قال: «سئل النبي ﷺ عن هذه الآية **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾** قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له، قالوا: فهل لذلك من أماراة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت، وأخرج عبد بن حميد، عن فضيل نحوه، وأخرج ابن أبي الدنيا، عن الحسن نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن طريق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية فذكر نحوه. وأخرجه ابن مردويه عنه

ومنه فلان يتخرج: أي يضيق على نفسه. وقال الجوهري: مكان حرج وحرج: أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية، والحرج الإثم. وقال الزجاج: الحرج اضيق الضيق. وقال النحاس: حرج اسم الفاعل، وحرج مصدر وصف به كما يقال: رجل عدل. قوله: **﴿كانما يصعد في السماء﴾** قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود، شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه، بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء، وقرأ النخعي «يصاعد» وأصله يتصاعد، وقرأ الباقون «يصعد» بالتشديد وأصله يتصعد، ومعناه: يتكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة، كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء. وقيل: المعنى على جميع القراءات: كاد قلبه يصعد إلى السماء نبواً على الإسلام، وما في «كانما» هي المهيئة لدخول كان على الجمل الفعلية. قوله: **﴿عذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾** أي: مثل ذلك الجعل الذي هو جعل الصدر ضيقاً حرجاً يجعل الله الرجس. والرجس في اللغة: النتن، وقيل هو العذاب، وقيل: هو الشيطان يسلمه الله عليهم، وقيل: هو ما لا خير فيه؛ والمعنى الأول هو المشهور في لغة العرب، وهو مستعار لما يحل بهم من العقوبة وهو يصدق على جميع المعاني المذكورة. والإشارة بقوله: **﴿وهذا صراط ربك﴾** إلى ما عليه النبي ﷺ، ومن معه من المؤمنين أي: هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه؛ وقيل الإشارة إلى ما تقدم مما يدل على التوفيق والخذلان أي: هذا هو عادة الله في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وانتصاب **﴿مستقيماً﴾** على الحال كقوله تعالى: **﴿وهو الحق مصدق﴾** [البقرة: 91]، **﴿وهذا بعلي شيخاً﴾** [هود: 72] **﴿وقد فصلنا الآيات﴾** أي: بينها وأوضحناها **﴿لقوم يذكرون﴾** ما فيها، ويتفهمون معانيها **﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾** أي: لهؤلاء المتذكرين الجنة لأنها دار السلامة من كل مكروه، أو دار الرب السلام مسخرة لهم عند ربهم، ويوصلهم إليها **﴿وهو وليهم﴾** أي: ناصرهم، والباء في **﴿بما كانوا يعملون﴾** للسببية أي: بسبب أعمالهم. قوله: **﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾** الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدماً أي: واذكر يوم نحشرهم أو **﴿ويوم نحشرهم﴾** نقول: **﴿يا معشر الجن﴾** والمراد حشر جميع الخلق في القيامة، والمعشر الجماعة: أي يوم الحشر نقول، يا جماعة الجن **﴿قد استكثرتم من الإنس﴾** أي: من الاستمتاع بهم، كقوله: **﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** [الأنعام: 128] وقيل: استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا في حكم الأتباع لكم، فحشرناهم معكم، ومثله قوله: استكثر الأمير من الجنود، والمراد التفرع والتوبيخ، وعلى الأول، فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم **﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** أما استمتاع الجن بالإنس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي، فوقعوا فيها وتلذذوا بها. فذلك

الله يبعث في الدنيا إلى الجن رسلاً منهم، كما يبعث إلى الإنس رسلاً منهم؛ وقيل معنى منكم: أي ممن هو مجانس لكم في الخلق والتكليف، والقصد بالمخاطبة، فإن الجن والإنس متحدون في ذلك، وإن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجن من تلك الحيثية؛ وقيل: إنه من باب تغليب الإنس على الجن كما يغلب الذكر على الأنثى؛ وقيل المراد بالرسل إلى الجن هاهنا هم النذر منهم، كما في قوله: ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ [الأحقاف: 29]. قوله: ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ صفة أخرى لرسل، وقد تقدّم بيان معنى القص. قوله: ﴿قللوا شهدنا على أنفسنا﴾ هذا إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم بإرسال رسله إليهم، والجملة جواب سؤال مقتر فهي مستأنفة، وجملة ﴿ووغرتهم الحياة الدنيا﴾ في محل نصب على الحال، أو هي جملة معترضة ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين في الدنيا بالرسل المرسلين إليهم والآيات التي جاؤوا بها، وقد تقدّم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصروفة بإقرارهم بالكفر على أنفسهم، ومثل قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: 23] محمول على أنهم يقرّون في بعض مواطن يوم القيامة، وينكرون في بعض آخر لطول تلك اليوم، واضطراب القلوب فيه وطيشان العقول، وانغلاق الأفهام وتبليد الأذهان، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم. وأن في ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف. والمعنى: ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى، أو هي المصدرية، والباء في ﴿بظلم﴾ سببية: أي لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم، والحال أن أهلها غافلون، لم يرسل الله إليهم رسلاً. والمعنى: أن الله أرسل الرسل إلى عباده؛ لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى، والحال أنهم غافلون عن الإعذار والإنذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً﴾ [الإسراء: 15]؛ وقيل المعنى: ما كان الله يهلك أهل القرى بظلم منه، فهو سبحانه يتعالى عن الظلم، بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء؛ وقيل المعنى: أن الله لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك، فهو مثل قوله: ﴿ولا تزد وزراً﴾ [الأحقاف: 19]. قوله: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي: لكل من الجن والإنس درجات متفاوتة مما عملوا، ففجأزيهم بأعمالهم. كما قال في آية أخرى: ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهن أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ [الأحقاف: 19]، وفيه دليل على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي في النار ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ من أعمال الخير والشر، والغفلة ذهاب الشيء عنك لاشتغالك بغيره. قرأ ابن عامر ﴿تعملون﴾ بالفوقية،

مرفوعاً من طريق أخرى. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه عن عبد الله بن المستورد، وكان من ولد جعفر بن أبي طالب قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فنذكر نحوه. وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً، والمتصل يقوي المرسل، فالمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في الآية قال: كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله في قلبه. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في الآية يقول: من أراد أن يضل عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقاً، والإسلام واسع وذلك حين يقول: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: 78] يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿دار للسلام﴾ قال: الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن جابر بن زيد قال: السلام هو الله. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي قال: الله هو السلام، وداره الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ يقول: من ضلالتكم إياهم، يعني: أضللتهم منهم كثيراً، وفي قوله: ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ قال: إن هذه الآية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه لا ينزلهم جنة ولا ناراً.

وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦٦﴾ يَمَعَّرَ لَيْلٍ
وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَفْضَحُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي وَيُزِيلُنَّ كَيْفَ
يُؤْمِنُكُمْ هَذَا قَالُوا هَذَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَفَعَّلَهُمْ كَيْفَ الْوَدَّاعِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ ذَلِكَ أَن لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ
وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٦٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
يَسْعُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ أي: مثل ما جعلنا بين الجن والإنس ما سلف ﴿كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ والمعنى: نجعل بعضهم يتولى البعض، فيكونون أولياء لبعضهم بعضاً، ثم يتبرأ بعضهم من البعض، فمعنى نولي على هذا: نجعله ولياً له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: معناه نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس. وروى عنه أيضاً أنه فسر هذه الآية بأن بالمعنى: نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويئله، فيكون في الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلط الله عليه ظالماً آخر. وقال فضيل بن عياض: إذا رايت ظالماً ينتقم من ظالم، فقف وانظر متعجباً؛ وقيل معنى نولي: نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، والباء في ﴿بما كانوا يكسبون﴾ للسببية: أي بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضاً. قوله: ﴿بما معشر الجن والإنس لم يأتكم رسل منكم﴾ أي: يوم نحشرهم نقول لهم ﴿الم يأتكم أوهو شروء في حكاية ما سيكون في الحشر، وظاهره أن

وقرأ الباقون بالتحتية.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿وَكُنْكَ نُولِي بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: يولي الله بعض الظالمين بعضاً في الدنيا يتبع بعضهم بعضاً في النار. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الرحمن بن زيد، في الآية مثل ما حكينا عنه قريباً. وأخرج أبو الشيخ، عن الأعمش في تفسير الآية قال: سمعته يقولون إذا فسد الزمان أمر عليهم شرارهم. وأخرج الحاكم في التاريخ، والبيهقي في الشعب، من طريق يحيى بن هاشم حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كما تكونون كذلك يؤمر عليكم» قال البيهقي: هذا منقطع ويحيى ضعيف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿رَسُولَ مِنْكُمْ﴾ قال: ليس في الجنّ رسل، وإنما الرسل في الإنس، والندارة في الجنّ، وقرأ: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مَنْذَرِينَ﴾ [الأحقاف: 29]. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، أيضاً عن الضحاک قال: الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون. وأخرج أبو الشيخ في العظمة أيضاً، عن ليث بن أبي سليم قال: مسلمو الجنّ لا يدخلون الجنة ولا النار، وذلك أن الله أخرج إياهم من الجنة فلا يعيده ولا يعيد ولده. وأخرج أبو الشيخ في العظمة أيضاً، عن ابن عباس قال: الخلق أربعة فخلق في الجنة كلهم، وخلق في النار كلهم، وخلقان في الجنة والنار، فأما الذين في الجنة كلهم، فأما الملأكة، وأما الذين في النار كلهم، فالشياطين، وأما الذين في الجنة والنار فالإنس والجنّ، لهم الثواب وعليهم العقاب.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءْ يُدْخِلْكُمْ رَسَدًا مِنْ بَدْوِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ أَحْكَوتَ ﴿١٤٠﴾ إِنْ مَا تُؤْكَلُ لَأَنْتَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٤١﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى نَكَاتِكُمْ إِنْ عَمِلْ سَوَاءً تَمْلِكُوا مِنْ تَكْوُنٍ لَكُمْ عَذَابُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَا يَفْطَحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ ذَرٍّ مِنْ الْحَرِّثِ وَالْأَنْكُرِ نَصِيحًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَحْمَتِهِ هَذَا يَشْرَاهُ كَمَا كَانَتْ يُشْرِكُ بِهِمْ فَكَاتَرَتْ لِلَّهِ فَهِيَ تُعَصِّلُ الْإِنْسَانَ لِيُؤْخَذَ بِهِ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٤٣﴾ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ يُؤْخَذُونَ قَتَلُوا أَنْفُسَهُمْ لِيُؤْخَذُوا وَلِيُؤْخَذُوا بِرَحْمَةِ اللَّهِ مَا فَعَلُوا فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٤٤﴾

قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم، لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم، ومع كونه غنياً عنهم، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعاً من رحمته لهم، وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة نفي هذا المقام، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطوّل ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذِيقْكُمْ﴾ أيها العباد العصاة، فيستأصلكم بالعذاب المفضي إلى الهلاك ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إهلاككم ما يشاء

من خلقه ممن هو أطوع له وأسرع إلى امتثال أحكامه منكم ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، وما مصدرية: أي ويستخلف استخلفاً مثل إنشأكم من ذرية قوم آخرين، قيل: هم أهل سفينة نوح، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم، ولا استخلف غيرهم رحمة لهم ولطفاً بهم ﴿إِنْ مَا تَوَعَّدُونَ﴾ من البعث والمجازاة ﴿لَأَنْتَ﴾ لا محالة، فإن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَمَا لَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين عن ما هو نازل بكم، وواقع عليكم: يقال أعجزني فلان: أي فائتي وغلبي. قوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانة: الطريقة، أي اثبتوا على ما أنتم عليه، فإني غير مبال بكم ولا مكثرت بكفركم، إني ثابت على ما أنا عليه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من هو على الحق ومن هو على الباطل، وهذا وعيد شديد، فلا يرد ما يقال كيف يأمرهم بالثبات على الكفر؟ و﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ هي العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها: أي من له النصر في دار الدنيا، ومن له وراثته الأرض، ومن له الدار الآخرة. وقال الزجاج: معنى مكانتكم: تمسكنكم في الدنيا، أي اعملوا على تمسكنكم من أمركم، وقيل: على ناحيتكم وقيل: على موضعكم. قرأ حمزة والكسائي من يكون بالتحتية، وقرأ الباقون بالرفعية. والضمير في ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ للشان: أي لا يفلح من اتصف بصفة الظلم، وهو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم. قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِثْلَ ذَرٍّ مِنْ الْحَرِّثِ وَالْأَنْكُرِ نَصِيحًا﴾ هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم، وتأثيرهم لألتهتهم على الله سبحانه: أي جعلوا له سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج ثوابهم نصيباً، ولألتهتهم نصيباً، من ذلك يصرفونه في سدنيتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لألتهتهم بانفائه في ذلك عوّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك، والزعم الكذب: قرأ يحيى بن وثاب والسلمي والأعمش والكسائي ﴿بِرَحْمَتِهِمْ﴾ بضم الزاي، وقرأ الباقون بفتحها، وهما لغتان ﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى المصارف التي شرع الله الصرف فيها كالصدقة وصلة الرحم، وقرئ الضيف ﴿وَمَا كَانَ لَهُ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ أي: يجعلونه لألتهتهم وينفقونه في مصالحها ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء الحكم حكمهم في إظهار ألتهتهم على الله سبحانه؛ وقيل معنى الآية: أنهم كانوا إذا نبخوا ما جعلوه لله نكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا نبخوا ما لأصنامهم لم ينكروا عليه اسم الله، فهذا معنى الوصول إلى الله، والوصول إلى شركائهم، وقد قمنا الكلام في نرا: قوله: ﴿وَكُنْكَ زَيْنَ لَكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾ أي: ومثل ذلك التزيين الذي زينه الشيطان لهم في قسمة أموالهم بين الله وبين شركائهم زين لهم قتل أولادهم. قال الفراء والزجاج: شركاؤهم هاهنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان؛ وقيل: هم القواة من الناس؛ وقيل هم الشياطين، وأشار بهذا إلى الواد، وهو دفن البنات مخافة

فعلوه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا كان ذلك بمشيئة الله ﴿فذرهم وما يفترون﴾ فدعهم وافتراءهم فذلك لا يضر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبان بن عثمان قال: النرية الأصل، والنرية النسل. وأخرج أيضاً عن ابن عباس ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ قال: بسابقين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿على مكانتكم﴾ قال: على ناحيتكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عنه أيضاً في قوله: ﴿وجعلوا لله﴾ الآية. قال: جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيباً وللشيطان والأوثان نصيباً، فإن سقط من ثمره ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن سقط مما جعلوه للشياطين في نصيب الله، رنوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله نزحوه، فهذا ما جعلوا لله من الحرث وسقي الماء، وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ [المائدة: 103] الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: جعلوا لله مما ذرأ من الحرث جزءاً ولشركائهم جزءاً، فما ذهب به الريح مما سماه الله إلى جزء أوثانهم تركوه وقالوا الله عن هذا غني، وما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه. والأنعام التي سماه الله: البحيرة والسائبة، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وكنك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾ قال: شياطينهم يأمرونهم أن يثدوا أولادهم خوف العيلة.

وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي كَانَ لَدُنْكَ لَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَإِذَا نَسَخَ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُ جَاءَ بِكَ خَيْرٍ مِنْهُ وَأَمَّا حَرْجُ قَوْمِهِمْ وَأَمَّا قَوْمُهُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ أَفْرَاقٌ عَلَيْهِمْ سَبْعِينَ مِائَةً مِمَّا كَانُوا يَفْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْفُسِ إِلَّا كَرْهٌ وَمَعْرُوفٌ عَلَى أَرْوَاحٍ وَإِنْ يَكُنْ مِثْلُ هَذِهِ فَبِهِمْ شُرَكَائِهِمْ سَبْعِينَ مِائَةً مِمَّا كَانُوا يَفْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَهْوًا غَيْرَ عَلَى وَكْرٍ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٢٦﴾

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم. والحجر بكسر أوله وسكون ثانيه في قراءة الجمهور. وقرأ أبان بن عثمان «حجر» بضم الحاء والجيم، وقرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء وإسكان الجيم، وقرأ ابن عباس وابن الزبير «حرج» بتقديم الراء على الجيم، وكذا هو في مصحف أبي، وهو من الحرج، يقال فلان يتحرج: أي يضيق على نفسه الدخول فيما يشتهه عليه. والحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول: أي محجور، وأصله المنع، فمعنى الآية: هذه أنعام وحرج ممنوعة، يعنون أنها

السبي والحاجة؛ وقيل كان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم كما فعله عبد المطلب. قرأ الجمهور «زين» بالبناء للفاعل ونصب «قتل» على أنه مفعول زين، وجر أولاد بإضافة قتل إليه، ورفع «شركاؤهم» على أنه فاعل زين، وقرأ الحسن بضم الزاي ورفع قتل، وخفض أولاد، ورفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل، ورفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه: أي زينه شركاؤهم، ومثله قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارح لخصومة ومختبط ما تطيح الطوائح
أي يبك ضارح. وقرأ ابن عامر، وأهل الشام بضم الزاي، ورفع قتل، ونصب أولاد، وخفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم، ومعموله أولادهم؛ ففيه الفصل بين المصدر وما هو مضاف إليه بالمفعول، ومثله في الفصل بين المصدر وما أضيف إليه، قول الشاعر:

تمر على ما تستمر وقد شفت علائل عبد القيس صبورها
بجر صبورها، والتقدير: شفت عبد القيس علائل بجر صبورها، قال النحاس: إن هذه القراءة لا تجوز في كلام ولا في شعر، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الشعر لاتساعهم في الظروف، وهو أي الفصل بالمفعول به في الشعر بعيد، فجازته في القرآن أبعد. وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي: إن قراءة ابن عامر هذه لا تجوز في العربية وهي زلة عالم، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه، ورد قوله إلى الإجماع، وإنما أجازوا في الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف، كقول الشاعر:

كما خط الكتاب بكف يوماً يهودي يقارب أويزيل
وقول الآخر:

لله يوم من لا مهـا

وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة: إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبي ﷺ، فهي فصيحة لا قبيحة. قالوا: وقد ورد ذلك في كلام العرب، وفي مصحف عثمان رضي الله عنه «شركائهم» بالياء.

وأقول: دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعبرين، كما بينا ذلك في رسالة مستقلة، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوي فقراءته رد عليه، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل في النظم كما قدمنا، وكقول الشاعر:

فرجبتها بمزجة زج القلوص أبي مزاده
فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها، وفي الآية قراءة رابعة وهي جر الأولاد والشركاء، ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الأولاد؛ لكونهم شركاءهم في النسب والميراث. قوله: ﴿ليردوهم﴾ اللام لام كي: أي لكي يردوهم، من الإزداء وهو الإهلاك ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ معطوف على ما قبله: أي فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم ولخلط دينهم عليهم ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ أي: لو شاء الله عدم فعلهم ما

شبية، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾** قال: ما جعلوا لله ولشركائهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن قتادة **﴿وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾** قال: حرام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: يقولون حرام أن يطعم الابن شيئاً **﴿وَأَنْعَامٌ حَزَمَتْ ظُهُورُهَا﴾** قال: البهيمة والسائبة والحامي **﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾** إذا نحرورها. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي وائل في قوله: **﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾** قال: لم تكن يحج عليها وهي البهيمة. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾** الآية قال: اللبن. وأخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد في الآية قال: السائبة والبهيمة محرمة على أزواجنا قال: النساء **﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾** قال: قولهم الكذب في ذلك. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس في الآية قال: كانت الشاة إذا ولدت نكراً نبحوه، فكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركوها فلم تنبح، وإن كانت ميتة كانوا فيها شركاء. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام **﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾** وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عكرمة في الآية قال: نزلت فيمن كان يثد البنات من مضر وربيعه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في الآية قال: هذا صنع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبي والفاقة ويغزو كلبه **﴿وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾** قال: جعلوه بهيمة وسائبة ووصيلة وحامياً تحكماً من الشيطان في أموالهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّرْمُوسَاتٍ وَعَبَّرَ مَرْوَسَاتٍ وَأَنْخَلُ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّبَانَ مَتَّكِهَا وَغَيْرَ مُتَّكِهَا كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآمَنُوا مِنْهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الضَّالِّينَ ﴿١١١﴾ وَمَنْ أَلْتَمَسْ حَؤُلَةً وَزُشًّاً كَلُوا مِنْهَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١١٢﴾﴾

هذا فيه تنكير لهم ببديع قدرة الله وعظيم صنعه **﴿أَنْشَأَ﴾** أي: خلق، والجنات: البساتين **﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾** مرفوعات على الأعمدة **﴿وَعَبَّرَ مَرْوَسَاتٍ﴾** غير مرفوعات عليها؛ وقيل المعروشات؛ ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزروع والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار؛ وقيل المعروشات: ما أثبتته الناس وعرشوه، وغير المعروشات: ما نبت في البراري والجبال. قوله: **﴿وَالنَّخْلُ وَالزَّرْعُ﴾** معطوف على جنات، وخصهما بالذكر مع دخولهما في الجنات لما فيها من

لأصنامهم لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم، وهم خدام الأصنام. والقسم الثاني قولهم: **﴿وَأَنْعَامٌ حَزَمَتْ ظُهُورُهَا﴾** وهي البهيمة والسائبة والحام؛ وقيل: إن هذا القسم الثاني مما جعلوه لأنفسهم أيضاً. والقسم الثالث: **﴿أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾** وهي: ما ذبحوا لأنفسهم فإنهم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم الله. وقيل: إن المراد لا يحجون عليها افتراء على الله: أي للافتراء عليه **﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: بافتراءهم أو بالذي يفترونه، ويجوز أن يكون افتراء منتصباً على أنه مصدر: أي افتروا افتراء أو حال: أي مفتريين، وانتصابه على العلة أظهر، ثم بين الله سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم، فقال **﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾** يعنون البحائر والسوائب من الأجنة **﴿خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا﴾** أي: حلال لهم **﴿وَمَحْرُومٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾** أي: على جنس الأزواج، وهن النساء فيدخل في ذلك البنات والأخوات ونحوهن؛ وقيل: هو اللبن جعلوه حلالاً للذكور، ومحرماتاً على الإناث، والهاء في خالصة للمبالغة في الخلوص كعلامة ونسابة، قاله الكسائي والأخفش. وقال الفراء: ثانيها لتأنيث الأنعام. ورد بأن ما في بطون الأنعام غير الأنعام، وتعقب هذا الرد بأن ما في بطون الأنعام أنعام، وهي الأجنة، وما عبارة عنها، فيكون تأنيث خالصة باعتبار معنى ما، وتنكير محرم باعتبار لفظها. وقرأ الأعمش «خالص» قال الكسائي: معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدم عنه. وقرأ قتادة «خالصة» بالنصب على الحال من الضمير في متعلق الظرف الذي هو صلة لما، وخبر المبتدأ محذوف كقولك: الذي في الدار قائماً زيد، هذا قول البصريين. وقال الفراء: إنه انتصب على القطع. وقرأ ابن عباس «خالصة» بإضافة خالص إلى الضمير على أنه بدل من ما. وقرأ سعيد بن جبير «خالصاً» **﴿وَأِنْ يَكُنْ مِيتَةً﴾** قرئ بالتحية والفوقية: أي وإن يكن الذي في بطون الأنعام **﴿مِيتَةً فَهَمْ فِيهِ﴾** أي: في الذي في البطون **﴿شُرَكَاءُ﴾** ياكل منه الذكور والإناث **﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾** أي: بوصفهم على أنه منتصب بنزع الخافض، والمعنى: سيجزيهم بوصفهم الكذب على الله؛ وقيل المعنى: سيجزيهم جزاء وصفهم. ثم بين الله سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم فقال: **﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾** أي: بناتهم بالواد الذي كانوا يفعلونه سفهًا: أي لأجل السفه: وهو الطيش والخفة لا لجة عقلية ولا شرعية، كائنات ذلك منهم **﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** يهتدون به. قوله: **﴿وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾** من الأنعام التي سموها بحائر وسوائب **﴿اِفْتَرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾** أي: للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه **﴿قَدْ ضَلُّوا﴾** عن طريق الصواب بهذه الأفعال **﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾** إلى الحق، ولا هم من أهل الاستعداد لذلك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾** قال: الحجر ما حرّموا من الوصيلة، وتحريم ما حرّموا. وأخرج ابن أبي

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾** قال: المعروشات ما عرش الناس **﴿وَوَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ﴾** ما خرج في الجبال والبرية من الثمار. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: معروشات بالعيان والقصب وغير معروشات قال: الضاحي. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾** قال: الكرم خاصة. وأخرج ابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: **﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** قال: ما سقط من السنبل. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والنحاس، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر في قوله **﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** قال: كانوا يعطون من اعتز بهم شيئاً سوى الصدقة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن مجاهد في الآية قال: إذا حصلت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ميمون بن مهران ويزيد الأصم قال: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعلق فيضعونه في المسجد فيجئ السائل، فيضربه بالعصا فيسقط منه، فهو قوله: **﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن حماد بن أبي سليمان، في الآية قال: كانوا يطعمون منه رطباً. وأخرج أحمد، وأبو داود في سننه، من حديث جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ، أمر من كل حادي عشرة أوسق من التمر بعلق يعلق في المسجد للمساكين. وإسناده جيد. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: **﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** نسخها العشر، ونصف العشر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر عن السدي نحوه. وأخرج النحاس، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة نحوه. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن الضحاك نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن الشعبي قال: إن في المال حقاً سوى الزكاة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي العالية قال: ما كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة، ثم إنهم تباذروا وأسرفوا، فأنزل الله **﴿وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخل فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فاطعم حتى أمسى وليس له ثمرة، فأنزل الله **﴿وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله لم يكن إسرافاً، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان إسرافاً، وللسلف في هذا

الفضيلة **﴿مُخْتَلَفًا أَكَلَهُ﴾** أي: حال كونه مختلفاً أكله في الطعم والجودة والرداءة. قال الزجاج: وهذه مسئلة مشككة في النحو، يعني انتصاب مختلفاً على الحال؛ لأنه يقال قد أنشأها ولم يختلف أكلها، فالجواب أن الله سبحانه أنشأها مقدراً فيها الاختلاف، وقد بين هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً: أي مقدراً للصيد به غداً، كما تقول: لتدخلن الدار أكلين شاربين: أي مقدرين ذلك، وهذه هي الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المدونة في كتب النحو. وقال **﴿مُخْتَلَفًا أَكَلَهُ﴾** ولم يقل أكلهما اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله: **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا﴾** [الجمعة: 11] أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أي أكل ذلك. قوله: **﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانُ﴾** معطوف على جنات: أي وأنشا الزيتون والرمان حال كونه متشابهاً وغير متشابه، وقد تقدم الكلام على تفسير هذا **﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾** أي: من ثمر كل واحد منهما، أو من ثمر ذلك **﴿وَإِذَا أَثْمَرَ﴾** أي: إذا حصل فيه الثمر وإن لم يدرك ويبلغ حد الحصاد. قوله: **﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾**.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على النذب، فذهب ابن عمر، وعطاء، ومجاهد وسعيد بن جبير، إلى أن الآية محكمة، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطي من حضر من المساكين القبضة والضفت ونحوهما. وذهب ابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، والحسن، والنخعي، وطاوس، وأبو الشعثاء، وقتادة، والضحاك وابن جريج، أن هذه الآية منسوخة بالزكاة. واختاره ابن جرير، ويؤيده أن هذه الآية مكية، وآية الزكاة منية في السنة الثانية بعد الهجرة، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف. وقالت طائفة من العلماء: إن الآية محمولة على النذب لا على الوجوب. قوله: **﴿وَلَا تَسْرِفُوا﴾** أي: في التصديق، وأصل الإسراف في اللفة: الخطأ، والإسراف في النفقة: التبذير؛ وقيل: هو خطاب للولاة يقول لهم لا تأخذوا فوق حَقِّكم؛ وقيل المعنى: لا تأخذوا الشيء بغير حقه وتضعونه في غير مستحقه. قوله: **﴿وَمَنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾** معطوف على جنات: أي وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشاً، والحمولة ما يحمل عليها، وهو يختص بالإبل فهي فعولة بمعنى فاعلة؛ والفرش: ما يتخذ من الوبر والصوف، والشعر، فرشاً يفرشه الناس؛ وقيل: الحمولة الإبل، والفرش: الغنم؛ وقيل الحمولة: كل ما حمل عليه من الإبل والبقر والخيول والبغال والحمير، والفرش: الغنم، وهذا لا يتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات؛ وقيل الحمولة: ما تركب، والفرش: ما يؤكل لحمه **﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ﴾** من هذه الأشياء **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾** كما فعل المشركون من تحريم ما لم يحرمه الله، وتحليل ما لم يحلله **﴿إِنَّهُ﴾** أي: للشيطان **﴿لَكُمْ عَوَ مَبِينٌ﴾** مظهر للعداوة ومكاشف بها.

اسم جنس؛ وواحد المعز ماعز، مثل صحب وصاحب، وربك وراكب، وتجر وتاجر، والأنثى ماعزة. والمراد من هذه الآية: أن الله سبحانه بين حال الأنعام وتفصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحاً للامتنان بها على عباده، ودفعاً لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها وتحريم بعضها، تقولاً على الله سبحانه وإفتراء عليه، والهمزة في ﴿قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ﴾ للإنكار. والمراد بالذكركين الكبش والتمس، وبالأنثيين النعجة والعنز، وانتصاب الذكركين بحرّم، والأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه. والمعنى: الإنكار على المشركين في أمر البهيرة وما ذكر معها، وقولهم: ﴿مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أُنثَوَانَا﴾ أي: قل لهم إن كان حرم الذكور فكل ذكر حرام، وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني من الضأن والمعز، فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى وكلها مولود، فيستلزم أن كلها حرام. وقوله: ﴿إِنِّي بَوْنِي بَعْلَمَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أخبروني بعلم لا بجهل إن كنتم صادقين. والمراد من هذا التبكيت لهم وإلزام الحجة؛ لأنه يعلم أنه لا علم عندهم، وهكذا الكلام في قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ إلى آخره. قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أم هي المنقطعة، والإستهتام للإنكار، وهي بمعنى بل والهمزة: أي بل أكنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذ وصاكم الله بهذا التحريم. والمراد التبكيت وإلزام الحجة كما سلف قبله. قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً فحرم شيئاً لم يحرمه الله، ونسب ذلك إليه افتراء عليه كما فعله كبراء المشركين، واللام في ﴿يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للعلة: أي لأجل يضل الناس بجهل، وهو متعلق بافترى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على العموم، وهؤلاء المنكورون في السياق داخلون في ذلك نخولاً أولاً، وينبغي أن ينظر في وجه تقديم المعز والضأن على الإبل والبقر⁽¹⁾ مع كون الإبل والبقر أكثر نفعاً وأكبر أجساماً وأعود فائدة، لا سيما في الحمولة والفرش للذين وقع الإبدال منهما على ما هو الوجه الأوضح في إعراب ثمانية.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، من طرق عن ابن عباس قال: الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز. وليت شعري ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة، فإنها لا تتعلق به فائدة، وكون الأزواج الثمانية هي المذكورة، هو هكذا في الآية مصرحاً به تصريحاً لا لبس فيه. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الذكر والأنثى زوجان. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم،

(١) الترقى من أدنى إلى أعلى نوع من أنواع تحسين الكلام، فعمل هذا منه والله أعلم، اهـ من حاشية بالأصل.

مقاتلات طويلة. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: الحمولة ما حمل عليه من الإبل، والفرش صغار الإبل التي لا تحمل. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الحمولة الكبار من الإبل، والفرش الصغار من الإبل. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: الحمولة ما حمل عليه، والفرش ما أكل منه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً قال: الحمولة الإبل والخيل والبغال والحمير، وكل شيء يحمل عليه، والفرش الغنم. وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال: الحمولة الإبل والبقر، والفرش الضأن والمعز:

فَمَكِينَةٌ أَرْوَجَتْ رَبِّكَ الْفَصْلَانِ اثْنَيْنِ وَرَبِّكَ الْفَصْلَانِ اثْنَيْنِ قُلْ وَاللَّكْرَيْنِ
حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيْنِ أَمَا اسْتَحَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ يَتَوْنِ بِمِلْهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٧﴾ وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ وَرَبِّكَ الْفَصْلَانِ اثْنَيْنِ قُلْ وَاللَّكْرَيْنِ
حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيْنِ أَمَا اسْتَحَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ
إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ ظَلَمَ بَيْنَ يَدَيَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُفْسِلُ
إِنَّمَا يَسْتَعِزُّ بِعِلْمِهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾

اختلف في انتصاب ﴿ثمانية﴾ على ماذا؟ فقال الكسائي: بفعل مضمر، أي وأنشأ ثمانية أزواج - وقال الأخفش سعيد: هو منصوب على البذل من حمولة وفرشاً؛ وقال الأخفش علي بن سليمان: هو منصوب بكلا، أي كلا لحم ثمانية أزواج؛ وقيل: منصوب على أنه بدل من «ماء» في ﴿ومما رزقكم الله﴾ [الأنعام: 142] والزوج خلاف الفرد، يقال زوج أو فرد، كما يقال شفع أو وتر، فقوله: ﴿ثمانية أزواج﴾ يعني ثمانية أفراد، وإنما سمي الفرد زوجاً في هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، ويقع لفظ الزوج على الواحد، فيقال هما زوج، وهو زوج، ويقول اشتريت زوجي حمام: أي نكرا وأنثى. والحاصل أن الواحد إذا كان منفرداً سواء كان نكراً أو أنثى، قيل له فرد، وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه قيل لهما زوج، ولكل واحد على انفراده منهما زوج، ويقال لهما أيضاً زوجان، ومنه قوله تعالى: ﴿فجعل منه الأزوجين الذكر والأنثى﴾ [القيامة: 39]. قوله: ﴿ومن اللذان اثنين﴾ بدل من ثمانية منتصب بخاصبه على حسب الخلاف السابق، والضان ذوات الصوف من الغنم، وهو جمع ضائن، ويقال للأنثى ضائنة، والجمع ضوائن؛ وقيل: هو جمع لا واحد له؛ وقيل: في جمعه ضئين كعبد وعبيد. وقرأ طلحة بن مصرف «الضان» بفتح الهمزة، وقرأ الباقر بسكونها. وقرأ أبان بن عثمان ﴿ومن اللذان اثنين ومن المعز لثنان﴾ رفعاً بالابتداء. قوله: ﴿ومن المعز لثنين﴾ معطوف على ما قبله مشارك له في حكمه. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، وابن كثير، وأهل البصرة، بفتح العين من المعز. وقرأ الباقر بسكونها. قال النحاس: الأكثر في كلام العرب المعز والضان بالإسكان، والمعز من الغنم خلاف الضان، وهي ذوات الأشعار والأذناب القصار، وهو

صفة فسق: أي ذبح على الأصنام، وسمي فسقاً لتوغله في باب الفسق - قيل: ويجوز أن يكون **«فسقاً»** مفعولاً له لاهل: أي أهل به لغير الله، فسقاً، على عطف أهل على يكون، وهو تكلف لا حاجة إليه **«فمن اضطر غير باغ ولا عاد»** قد تقدم تفسيره في سورة البقرة، فلا نعيده **«فإن ربك غفور رحيم»** أي: كثير المغفرة والرحمة، فلا يؤاخذ المضطر بما دعت إليه ضرورته.

وقد أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال: إن أهل الجاهلية كانوا يحرّمون أشياء ويحلّون أشياء، فنزلت **«قل لا أجد»** الآية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية ياكلون أشياء ويتركون أشياء تعذراً، فبعث الله نبيه، وأنزل كتابه، وأحلّ حلاله وحرم حرامه، فما أحلّ فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، ثم تلا هذه الآية: **«قل لا أجد»** إلى آخرها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عنه أنه تلا هذه الآية فقال: ما خلا هذا حلال. وأخرج البخاري، وأبو داود، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة، عن رسول الله ﷺ، ولكن أبي ذلك البحر ابن عباس، وقرأ **«قل لا أجد»** الآية. وأقول: وإن أبي ذلك البحر، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ، والتمسك بقول صحابي في مقابلة قول النبي ﷺ، من سوء الاختيار، وعدم الإنصاف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ليس شيء من الدوابّ حرام إلا ما حرّم الله في كتابه: **«قل لا أجد فيما أوحى إلي محرّماً»** الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وأبو داود، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عمر: أنه سئل عن أكل القنفذ، فقال: **«قل لا أجد فيما أوحى إلي محرّماً»** الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: نكر عند النبي ﷺ فقال: «خبينة من الخبائث»، فقال ابن عمر: إن كان النبي ﷺ قاله، فهو كما قال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عائشة: أنها كانت إذا سئلت عن كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير، قلت **«قل لا أجد فيما أوحى إلي محرّماً»** الآية. وأخرج أحمد، والبخاري، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس: أن شاة لسودة بنت بنت زمعة ماتت فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة، تعني الشاة، قال: فولاً أخذتم مسكها؟ قالت: يا رسول الله أناخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال رسول الله ﷺ: **«قل لا أجد فيما أوحى إلي محرّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة»** وأنتم لا تطعمونه، وإنما تدبغونه حتى تستنفعوا به، فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته، فاتخذت منه قربة حتى تخزنت عندها. ومثل هذا حديث شاة ميمونة، وهو في الصحيح. ومثله حديث «إنما

وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **«ثمانية أزواج»** قال: في شأن ما نهى الله عنه من البحيرة والسائبة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ليث بن أبي سليم قال: الجاموس والبختي من الأزواج الثمانية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طرق عن ابن عباس، في قوله: **«ثمانية أزواج من الضأن لثنين ومن المعز لثنين»** قال: فهذه أربعة **«قل لثنين حرم أم الأنثيين»** يقول: لم أحرم شيئاً من ذلك **«لما اشتملت عليه أرحام الأنثيين»** يعني: هل تشتمل الرحم إلا على نكر أو أنثى فلم يحرّمون بعضاً ويحلّون بعضاً **«نبئوني بعلم إن كنتم صائقين»** يقول كلها حلال. يعني ما تقدم ذكره مما حرّمه أهل الجاهلية.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَنْ رَبِّكَ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٠﴾

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحى إليه محرّماً غير هذه المذكورات، فدل ذلك على انحصار المحرّمات فيها لولا أنها مكية، وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة والمترتبة والنطيحة، وصحّ عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك. وبالجمله فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدلّ عليه السياق ويفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو السنة مما يدلّ على تحريم شيء من الحيوانات - وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرّمه الله من حيوان وغيره، فإنه يضمّ إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء. وقد روي عن ابن عباس، وابن عمر، وعائشة، أنه لا حرام إلا ما نكره الله في هذه الآية، وروى ذلك عن مالك وهو قول ساقط، ومذهب في غاية الضعف: لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن، وإهمال ما صحّ عن النبي ﷺ أنه قاله بعد نزول هذه الآية، بلا سبب يقتضي ذلك ولا موجب يوجبّه. قوله: **«محرّماً»** صفة لموصوف محذوف: أي طعاماً محرّماً **«على»** أي: **«طاعم يطعمه»** من المطاعم، وفي **«يطعمه»** زيادة تأكيد وتقرير لما قبله **«إلا أن يكون ميتة»** أي: ذلك الشيء أو تلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس. وقرئ «يكون» بالتحية والفوقية، وقرئ «ميتة» بالرفع على أن يكون تامة. والدم المسفوح: الجاري، وغير المسفوح معفو عنه، كالدم الذي يبقى في العروق بعد الذبح، ومنه الكبد والطحال، وهكذا ما يتلخّط به اللحم من الدم. وقد حكى القرطبي الإجماع على هذا، قوله: **«أو لحم خنزير»** ظاهر تخصيص اللحم أنه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم، والضمير في **«فإنه»** راجع إلى اللحم، أو إلى الخنزير. والرجس: النجس، وقد تقدّم تحقيقه. قوله: **«أو فسقاً»** عطف على لحم خنزير، **«أهل به لغير الله»**

حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا فَإِنَّهُ غَيْرُ مَحْرَمٍ، وَلَا وَجْهَ لِهَذَا التَّكْلِيفِ، وَلَا مُوجِبَ لَهُ، لِأَنَّهُ يَكُونُ الْمَعْنَى إِنْ أَلَّهِ حَرَمَ عَلَيْهِمْ إِحْدَى هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ، وَالْمُرَادُ بِمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ: مَا لَصِقَ بِالْعَظْمِ مِنَ الشَّحُومِ فِي جَمِيعِ مَوَاضِعِ الْحَيَوَانِ، وَمِنَهُ الْإِلَافَةُ لِأَصْقَةِ بَعْجَبِ الذَّنْبِ، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿ثَلَاثًا﴾ إِلَى التَّحْرِيمِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِحَرَمِنَا، أَيْ تِلْكَ التَّحْرِيمِ جَزِينَاهُمْ بِهِ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ؛ وَقِيلَ: إِنْ الْإِشَارَةُ إِلَى الْجِزَاءِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿جَزِينَاهُمْ﴾ أَيْ: تِلْكَ الْجِزَاءُ جَزِينَاهُمْ، وَهُوَ تَحْرِيمٌ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فِي كُلِّ مَا نَخْبِرُ بِهِ، وَمِنْ جَمَلَةِ تِلْكَ هَذَا الْخَبَرِ، وَهُوَ مُوجُودٌ عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ، وَنُصَّحُوا بِحَرَمَتِ عَلَيْهِمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَزِيرِ وَكُلِّ دَابَّةٍ لَيْسَتْ مَشْقُوقَةُ الْحَافِرِ، وَكُلِّ حَوْتٍ لَيْسَ فِيهِ سَفَاسِفٌ أَيْ بَيَاضٌ انْتَهَى. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ لِلْيَهُودِ﴾ أَيْ فَإِنْ كَذَبَكَ الْيَهُودُ فِيمَا وَصَفْتَ مِنْ تَحْرِيمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ ﴿فَقُلْ﴾ رِيكُم نُو رَحْمَةً وَاسِعَةً وَمِنْ رَحْمَتِهِ حَلَمَهُ عَنْكُمْ، وَعَدِمَ مُعَاجَلَتَهُ لَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ إِنْ أَمْهَلَكُمْ وَرَحِمَكُمْ وَ﴿لَا يَرِدُ بِأَسَاسِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرُمِينَ﴾ إِذَا أَنْزَلَهُ بِهِمْ اسْتَحَقُّوا الْمُعَاجَلَةَ بِالْعُقُوبَةِ وَقِيلَ الْمُرَادُ: لَا يَرِدُ بِأَسَاسِهِ فِي الْآخِرَةِ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرُمِينَ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، فَإِنَّهُ سَبَحَانَهُ قَدْ عَاجَلَهُمْ بِعُقُوبَاتٍ مِنْهَا تَحْرِيمَ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا؛ وَقِيلَ الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَسَمُوا الْأَنْعَامَ إِلَى تِلْكَ الْأَقْسَامِ، وَحَلَّلُوا بَعْضَهَا وَحَرَّمُوا بَعْضَهَا؛ وَقِيلَ الْمُرَادُ: أَنَّهُ نُو رَحْمَةً لِلْمُطِيعِينَ ﴿وَلَا يَرِدُ بِأَسَاسِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرُمِينَ﴾ وَلَا مُلْجِئٌ لِهَذَا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كُلِّ ذِي ظُفْرٍ﴾ قال: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع، يعني ليس بمشقوق الأصابع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سنه، عنه: ﴿كُلِّ ذِي ظُفْرٍ﴾ قال: البعير والنعامة. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: هو كل شيء لم تنفرج قوائمها من البهائم، وما انفرج أكلته اليهود، قال: انفرجت قوائم الدجاج، والعصافير، فيهود تأكله، ولم ينفرج خف البعير ولا النعامة، ولا قائمة الوزينة، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوزينة، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته كذلك، ولا تأكل حمار الوحش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننهم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يعني: ما علق بالظهر من الشحم ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ هي المبعر: وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي صالح، في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ قال: الآية ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال: المبعر ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ قال: الشحم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال: المباعر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن الضحاک ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال: المرائض والمباعر: وأخرج ابن المنذر، وأبو

حرم من الميتة أكلها، وهو أيضاً في الصحيح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَوْ دُمًا مَسْفُوحًا﴾ قال: مهراقاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة وأخذوا الدم فأكلوه، قال: هو دم مسفوح. وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي: أنه سئل عن لحم الفيل والأسد فتلا: ﴿قُلْ لَا لِحُدٍّ فِيمَا أَوْحَى إِلَيَّ﴾ الآية. والأحاديث الواردة بتحريم كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير، والحمر الأهلية، ونحوها مستوفاة في كتب الحديث.

وَعَلَّ الْأَبْرَ مَا دُرُوا حَرَمَتَا كُلِّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزِينَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمُ عَنِ الْقَوَرِ الْأَعْرَضِ ﴿١٦١﴾

قَدَّمَ: ﴿عَلَى الَّذِينَ هَانُوا﴾ عَلَى الْفِعْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّحْرِيمَ مُخْتَصٌّ بِهِمْ لَا يَجَاوِزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ. وَالَّذِينَ هَانُوا: الْيَهُودُ، نَكَرَ اللَّهُ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ عَقِبَ نَكَرِ مَا حَرَّمَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. وَالظُّفْرُ: وَاحِدُ الْأُظْفَارِ، وَيَجْمَعُ أَيْضاً عَلَى أَظْفَافٍ، وَزَادَ الْفَرَاءُ فِي جَمْعِ ظُفْرٍ: أَظْفَافٌ وَأُظْفَافَةٌ، وَذُو الظُّفْرِ: مَا لَهُ أَصْبَعٌ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ طَائِرٍ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْحَافِرُ وَالْخَفُّ وَالْمَخْلَبُ، فَيَتَنَاوَلُ الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ، وَالْغَنَمَ وَالنَّعَامَ، وَالْأَوْزَ وَالْبَطَّ، وَكُلُّ مَا لَهُ مَخْلَبٌ مِنَ الطَّيْرِ، وَتَسْمِيَةُ الْحَافِرِ وَالْخَفِّ ظُفْرًا مُجَازٌ. وَالْأَوَّلَى حَمْلُ الظُّفْرِ عَلَى مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الظُّفْرِ فِي لَفْظِ الْعَرَبِ، لِأَنَّ هَذَا التَّعْمِيمَ يَأْبَاهُ مَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ فَإِنْ كَانَ فِي لَفْظِ الْعَرَبِ بَحِثٌ يَقَالُ عَلَى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ كَانَ نَكَرُهُمَا مِنْ بَعْدِ تَخْصِيصِهِمَا حَرَّمَ اللَّهُ تِلْكَ عَلَيْهِمْ عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى مَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الظُّلْمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبُظِّلَ مِنَ الَّذِينَ هَانُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: 160]. قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا﴾ لَا غَيْرَ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ كُلِّهِنَّ، وَالشَّحُومُ يَدْخُلُ فِيهَا الثَّرُوبُ وَشَحْمُ الْكَلْبَةِ؛ وَقِيلَ الثَّرُوبُ جَمْعُ ثَرَبٍ، وَهُوَ الشَّحْمُ الرَّقِيقُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى الْكَرْشِ، ثُمَّ اسْتَثْنَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الشَّحُومِ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا مِنَ الشَّحْمِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَحْرَمْهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَ﴿مَا﴾ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ظُهُورُهُمَا أَيْ: إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ حَمَلَتْ الْحَوَايَا، وَهِيَ الْمَبَاعِرُ الَّتِي يَجْتَمِعُ الْبَعِيرُ فِيهَا، فَمَا حَمَلَتْهُ مِنَ الشَّحْمِ غَيْرَ حَرَامٍ عَلَيْهِمْ، وَوَاحِدُهَا حَاوِيَةٌ، مِثْلُ ضَارِبَةٍ وَضَوَارِبٍ؛ وَقِيلَ: وَاحِدُهَا حَاوِيَاءٌ مِثْلُ قَاصِعَاءٍ وَقَوَاصِعٍ، وَقِيلَ حَوِيَّةٌ: كَسَفِينَةٍ وَسَفَائِثٍ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْحَوَايَا مَا تَحْوِي مِنَ الْبَطْنِ: أَيْ اسْتَدَارَ، وَهِيَ مَتَحْوِيَّةٌ: أَيْ مُسْتَدِيرَةٌ؛ وَقِيلَ الْحَوَايَا: خَزَائِنُ اللَّبَنِ، وَهِيَ تَتَّصِلُ بِالْمَبَاعِرِ؛ وَقِيلَ الْحَوَايَا: الْأَمْعَاءُ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّحُومُ. قَوْلُهُ: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى «مَا» فِي «مَا حَمَلَتْ» كَذَا قَالَ الْكَسَائِيُّ وَالْفَرَاءُ وَثَعْلَبُ؛ وَقِيلَ: إِنْ الْحَوَايَا وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الشَّحُومِ. وَالْمَعْنَى:

لهؤلاء المشركين ﴿هَلَمْ شَهِدْكُمْ﴾ أي: هاتوهم وأحضروهم، وهو اسم فعل يستوي فيه المنكر والمؤنث، والمفرد، والمثنى، والمجموع، عند أهل الحجاز، وأهل نجد يقولون: هلما هلمي هلموا، فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال، وبلغه أهل الحجاز نزل القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَاتِلِينَ إِخْوَانَهُمْ هَلْ لِلَّيْنِ﴾ [الأحزاب: 18] والأصل عند الخليل ما ضمت إليها لم، وقال غيره: أصلها هل زينت عليها الميم، وفي كتاب العين للخليل: أن أصلها هل أؤم: أي هل أقصصك، ثم كثر استعمالهم لها، وهذا أيضاً من باب التثنيك لهم، حيث يأمرهم بإحضار الشهود على أن الله حَرَّمَ تلك الأشياء، مع علمه أن لا شهود لهم ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ لهم بغير علم، بل مجازفة وتعصب ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: فلا تصدقهم ولا تسلّم لهم، فإنهم كانوا جاهلون، وشهانتهم باطلة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ولا تتبع أهواءهم، فإنهم رأس المكذبين بآياتنا. قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ معطوف على الموصول: أي لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا، وأهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يجعلون له عدلاً من مخلوقاته كالآوثان، والجملة إما في محل نصب على الحال، أو معطوفة على لا يؤمنون.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن مجاهد، في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: هذا قول قريش إن الله حرم هذا: أي البحيرة والسائبة، والوصيلة والحام. وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ قال: السلطان. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس أنه قيل له إن ناساً يقولون ليس الشرُّ بقدر، فقال ابن عباس: بيننا وبين أهل القدر هذه الآية ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إلى قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال ابن عباس: والعجز والكيس من القدر. وأخرج أبو الشيخ، عن علي بن زيد، قال: انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي، في قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِّنْ شُهَدَاءَ كُمْ﴾ قال: أروني شهداءكم.

[illegible]

الشيخ، عن ابن عباس **﴿لو ما اختلط بعظم﴾** قال: الآلية اختلط شحم الآلية بالعصعص، فهو حلال وكل شحم القوائم، والجنب، والرأس، والعين، والأذن، يقولون قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم، إنما حرّم عليهم الثرب وشحم الكلية، وكل شيء كان كذلك ليس في عظم. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿فإن كذبوك﴾** قال: اليهود. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ قال: كانت اليهود يقولون: إن ما حرّمه إسرائيل فنحن نحرّمه، فذلك قوله: **﴿فإن كذبوك﴾** الآية.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَقْنَا وَلَا مَأْتُواْنَا وَلَا حَرْسًا مِنْ
نَحْنُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَأَبُوا فَاَسْتَأْذَنُوا قُلْ هَلْ
عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَّ لَئِنْ نَخِيضُنَّ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا غَرْصُونَ
(١٧١) قُلْ فَبِمَا أَلْحَمْتُمُ التَّائِيلَةَ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٢﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ
الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ
أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا وَإِنِّي نَذِيرٌ لِلْعَادِيَةِ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ ﴿١٧٣﴾

أخبر الله عن المشركين أنهم سيقولون هذه المقالة، وهم كفار قریش أو جميع المشركين، يريدون أنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا هم ولا آبائهم، ولا حرموا شيئاً من الأنعام، كالبحيرة ونحوها، وظنوا أن هذا القول يخلصهم عن الحجة التي ألزمهم بها رسول الله ﷺ وإن ما فعلوه حق، ولو لم يكن حقاً لأرسل الله إلى آبائهم الذي ماتوا على الشرك، وعلى تحريم ما لم يحرمه الله، والتحليل لما لم يحلله، ﴿كنكذب الذين من قبلهم﴾ أي: مثل ما كذب هؤلاء كذب من قبلهم من المشركين أنبياء الله ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ أي: استمروا على التكذيب حتى ذاقوا بأسنا الذي أنزلناه بهم، ثم أمره الله أن يقول لهم: ﴿هل عنكم من علم فخرجوه لنا﴾ أي: هل عنكم دليل صحيح بعد من العلم النافع، فخرجوه إلينا لننظر فيه ونتدبره، والمقصود من هذا التوبيك لهم، لأنه قد علم أنه لا علم عندهم يصلح للحجة، ويقوم به البرهان ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شيء من العلم، وأنهم إنما يتبعون الظنون: أي ما يتبعون إلا الظن الذي هو محل الخطأ، ومكان الجهل ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ أي: تتوهمون مجرد توهم فقط كما يتوهم الحارص، وقد سبق تحقيقه ثم أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أن الله الحجة البالغة على الناس: أي التي تنقطع عندها معاذيرهم، وتبطل شبههم، وظنونهم وتوهماتهم. والمراد بها الكتب المنزلّة، والرسل المرسلّة، وما جاؤوا به من المعجزات ﴿قلو شاء﴾ هدايتكم جميعاً ﴿لهداكم أجمعين﴾ ولكنه لم يشأ ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ [الأنعام: 107] و ﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾ إلا أن يشاء الله. [الأنعام: 111] ومثله كثير. ثم أمره الله أن يقول

المحصن، وقتلها بسبب الردة، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها، والإشارة بقوله: ﴿نَلَكَم﴾ إلى ما تقدم مما تلاه عليهم، وهو مبتدأ ﴿وَوَصَّاكُم بِهِ﴾ خبره: أي أمركم به، وأوجبه عليكم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا بِهَ الْخَصْلَةَ﴾ التي هي أحسن من غيرها، وهي ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التي فيها نفع لليتيم وزيادة في ماله؛ وقيل: المراد بالتي هي أحسن التجارة ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: إلى غاية هي أن يبلغ اليتيم أشدّه، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُ رَشَدُوا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6].

واختلف أهل العلم في الأشد؛ فقال أهل المدينة: بلوغه وإيناس رشده. وقال أبو حنيفة: خمس وعشرون سنة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو البلوغ. وقيل: إنه انتهاء الكهولة، ومنه قول سحيم الرباعي:

أخو الخمسين مجتمع أشدي وبحديثي مداورة الشؤون
والأولى في تحقيق بلوغ الأشد: أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه والتبذير، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6] فجعل بلوغ النكاح، وهو بلوغ سن التكليف مقيد بإيناس الرشد، ولعله قد سبق هنالك كلام في هذا، والأشد واحد لا جمع له، وقيل: واحده شد كفلس وأقلس وأصله من شد النهار: أي ارتفع. وقال سيبويه: واحده شدة. قال الجوهري: وهو حسن في المعنى، لأنه يقال بلغ الكلام شدته، ولكن لا تجمع فعلة على أفعال. قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء ﴿وَلَا تَكْفُلْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا طاقتها في كل تكليف من التكليف، ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن، فلا يخاطب المتولي لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه في الزيادة والنقصان ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ أي: إذا قلتم بقول في خبر أو شهادة، أو جرح أو تعديل، فاعدوا فيه، وتحزوا الصواب، ولا تتعصبوا في ذلك لقريب ولا على بعيد، ولا تميلوا إلى صديق، ولا على عمو، بل سؤوا بين الناس، فإن ذلك من العدل الذي أمر الله به، والضمير في ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ راجع إلى ما يفيد «وإذا قلتم» فإنه لا بد للقول من مقول فيه، أو مقول له: أي ولو كان المقول فيه، أو المقول له ﴿ذَا قَرَّبَى﴾ أي: صاحب قرابة لكم. وقيل إن المعنى: ولو كان الحق على مثل قربابتكم والأول أولى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135]. قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: أوفوا بكل عهد عهده الله إليكم، ومن جملة ما عهده إليكم، ما تلاه عليكم رسوله بأمره في هذا المقام، ويجوز أن يراد به كل عهد، ولو كان بين المخلوقين، لأن الله

ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ، لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦﴾

قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أي تقدموا. قال ابن الشجري: إن المأمور بالتقدم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً، فقيل له تعال: أي ارفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والمأشي. وهكذا قال الزمخشري في الكشف: إنه من الخاص الذي صار عاماً، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثروا واتسع فيه حتى عم. قوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّكُمْ﴾ أتل جواب الأمر، وما موصولة في محل نصب به: أي أتل الذين حرّمه ربكم عليكم. والمراد من تلاوة ما حرّم الله تلاوة الآيات المشتملة عليه، ويجوز أن تكون ما مصدرية: أي أتل تحريم ربكم. والمعنى: ما اشتمل على التحريم؛ قيل ويجوز أن تكون ما استفهامية أي: أتل أي شيء حرّم ربكم، على جعل التلاوة بمعنى القول، وهو ضعيف جداً، وعليكم أن تعلق بآتل، فالمعنى: أتل عليكم الذي حرّم ربكم، وإن تعلق بحرّم، فالمعنى أتل الذي حرّم ربكم عليكم، وهذا أولى، لأن المقام مقام بيان ما هو محرّم عليكم لا مقام بيان ما هو محرّم مطلقاً؛ وقيل: إن عليكم للإغراء ولا تعلق لها بما قبلها. والمعنى عليكم أن لا تشركوا إلى آخره: أي الزموا ذلك كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: 105] وهو أضعف مما قبله، وإن في ﴿أَنْ لَا تَشْرِكُوا﴾ مفسرة لفعل التلاوة، وقال النحاس: يجوز أن تكون في موضع نصب بدلاً من ما: أي أتل عليكم تحريم الإشراك؛ وقيل: يجوز أن يكون في محل رفع بتقدير مبتدأ: أي المتلون أن لا تشركوا، وشيئاً مفعول أو مصدر أي لا تشركوا به شيئاً من الأشياء، أو شيئاً من الإشراك. قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بهما إحساناً، والإحسان إليهما البرّ بهما، وامتنال أمرهما ونهيهما. وقد تقدم الكلام على هذا. قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ لما نكر حق الوالدين على الأولاد، نكر حق الأولاد على الوالدين، وهو أن لا يقتلوه من أجل إملاق، والإملاق الفقر، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر والإناث خشية الإملاق، وتفعله بالإناث خاصة خشية العار، وحكى النقاش عن مؤرّج: أن الإملاق الجوع بلغة لخم، وذكر منذر بن سعيد البلوطي: أن الإملاق الإنفاق. يقال أملق ماله: بمعنى أنفقه. والمعنى الأول هو الذي أطبق عليه أئمة اللغة، وأئمة التفسير ما هنا. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ أي: المعاصي، ومنه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: 32] وما في ﴿مَا ظَهَرَ﴾ بدل من الفواحش، وكذا ما بطن، والمراد بما ظهر: ما أعلن به منها، وما بطن: ما أسر. وقد تقدم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ اللام في النفس للجنس، و﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ صفة للنفس: أي لا تقتلوا شيئاً من الأنفس التي حرّمها الله ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا بما يوجب الحق، والاستثناء مفرغ: أي لا تقتلوه في حال من الأحوال إلا في حال الحق، أو لا تقتلوهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً، وقتلها بسبب زنا

إلهك، لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تشهد على قريب شهادة زور، لا تشته بنت قريبك، ولا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك، ففعل مراد كعب الأخبار هذا، ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم. وأهل الإنجيل في أول إنجيلهم، وهي مكتوبة في لوحين، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾** قال: من خشية الفاقة، قال: وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبي **﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾** قال: سرّها وعلانيتهما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾** قال: خشية الفقر **﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾** قال: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرم الله الزنا في السر والعلانية. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً﴾** قال: اعلّموا أن السبيل سبيل واحد، جماعه الهدى ومصيره الجنة، وإن إبليس اشترع سبلاً متفرقة، جماعه الضلالة ومصيرها النار. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: «خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط، وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾**. وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن مردويه، من حديث جابر نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن مسعود أن رجلاً سأله: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمداً ﷺ، في إنائه وطرفه الجنة، وعن يمينه جواد وعن شماله جواد، وثم رجال يدعون من مرّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهت به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾** الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿ولا تتبعوا السبل﴾** قال: الضلالات.

ثُمَّ إِنَّا نَمُوسِي الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَنَقْصِيكَ لَكُلِّ مَنَ وَهَدَى رَحْمَةً لِّأُمَّمٍ لِّمَن يَهْتَدِ رِجْلُهُ يَوْمَئِذٍ ﴿١٥٨﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٩﴾ أَمْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَنَنْفِلِكَ ﴿١٦٠﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَنُكَلِّمَنَّ أَهْلَهُ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى رَحْمَةً مِّنْ أَفْطَرٍ وَمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّتْ عَنْهَا سَبَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوهُ الْعَذَابِ يَمَّا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٦١﴾

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التي وصى الله عباده

سبحانه لما أمر بالوفاء به في كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوغاً لإضافته إليه، والإشارة بقوله: **﴿ذلكم﴾** إلى ما تقدّم ذكره **﴿وصاكم به﴾** أمركم به أمراً مؤكداً **﴿لعلكم تذكرون﴾** فتتعتظون بذلك. وقوله: **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً﴾** أن في موضع نصب: أي وأتل أن هذا صراطي، قاله الفراء والكسائي. قال الفراء: ويجوز أن يكون خفضاً أي: وصاكم به، وإن هذا. وقال الخليل وسيبويه: إن التقدير وإن هذا صراطي مستقيماً، كما في قوله سبحانه: **﴿وإن المساجد لله﴾** [الجن: 18] وقرأ الأعمش وحزمة والكسائي **﴿وإن هذا﴾** بكسر الهمزة على الاستئناف، والتقدير: الذي نكر في هذه الآيات صراطي. وقرأ ابن أبي إسحاق، ويعقوب **﴿وإن هذا صراطي﴾** بالتخفيف على تقدير ضمير الشأن. وقرأ الأعمش **﴿وهذا صراطي﴾** وفي مصحف عبد الله بن مسعود **﴿وهذا صراط ربكم﴾** وفي مصحف أبي **﴿وهذا صراط ربك﴾** والصراط: الطريق، وهو طريق دين الإسلام، ونصب مستقيماً على الحال، والمستقيم المستوي الذي لا اعوجاج فيه، ثم أمرهم باتباعه ونهاهم عن اتباع سائر السبل: أي الأديان المتباينة طرقها **﴿فتفرق بكم﴾** أي: تميل بكم **﴿عن سبيله﴾** أي: عن سبيل الله المستقيم الذي هو دين الإسلام. قال ابن عطية: وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل، وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد، والإشارة بـ **﴿ذلكم﴾** إلى ما تقدّم وهو مبتدأ وخبره **﴿وصاكم به﴾** أي: أكد عليكم الوصية به **﴿لعلكم تتقون﴾** ما نهاكم عنه.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عباد بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبأييني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: **﴿قل تعالوا﴾** إلى ثلاث آيات، ثم قال: فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منه شيئاً فآلركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن المنذر، عن كعب الأخبار قال: أول ما أنزل في التوراة عشر آيات، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام **﴿قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم﴾** إلى آخرها. وأخرج أبو الشيخ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عدي بن الخيار قال: سمع كعب رجلاً يقرأ **﴿قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم﴾** ألا تشرعوا به شيئاً؟ فقال كعب: والذي نفس كعب بيده إنها لأول آية في التوراة: بسم الله الرحمن الرحيم **﴿قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم﴾** إلى آخر الآيات انتهى. قلت: هي الوصايا العشر التي في التوراة، وأولها أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك إله آخر غيري. ومنها: أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب

بها، وقد استشكل العطف بثم مع كون قصة موسى وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه. وهو ما تقدم من قوله: ﴿وَلَكُمْ وَصَايَا بِهِ﴾ فقول: إن ثم ها هنا بمعنى الواو؛ وقيل: تقدير الكلام، ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ، وقيل المعنى: قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم، ثم آتوا إيتاء موسى الكتاب؛ وقيل: إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبي يوصي بها أمته؛ وقيل: إن ثم للتراخي في الإخبار كما تقول: بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب. قوله: ﴿تَمَاماً﴾ مفعول لأجله أو مصدر، و ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قرئ بالرفع، وهي قراءة يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ: أي على الذي هو أحسن، ومنه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع: ما أنا بالذي قائل لك شيئاً. وقرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماضٍ عند البصريين، وأجاز الفراء والكسائي أن يكون اسماً نعتاً للذي، وهذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم قبل أن يتم، والمعنى عندهم تماماً على من أحسن قبوله والقيام به كائناً من كان، ويؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ: ﴿وَتَمَاماً عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وقال الحسن: كان فيهم محسن وغير محسن، فأنزل الله الكتاب تماماً على المحسنين؛ وقيل المعنى: أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزول التوراة عليه؛ وقيل المعنى: تماماً على الذي أحسن به الله عز وجل إلى موسى من الرسالة وغيرها، وقيل: تماماً على إحسان موسى بطاعة الله عز وجل قاله الفراء. قوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ معطوف على تماماً: أي ولأجل تفصيل كل شيء، وكذا ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفتان عليه أي: وللهدي والرحمة، والضمير في لعلهم راجع إلى بني إسرائيل، المملول عليه بذكر موسى، والباء في ﴿بِلِقَاءِ﴾ متعلقة بيؤمنون. قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ الإشارة إلى القرآن، واسم الإشارة مبتدأ وخبره كتاب، وأنزلناه صفة لكتاب ومبارك صفة أخرى له، وتقديم صفة الإنزال لكون الإنكار متعلقاً بها، والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فإنه لما كان من عند الله، وكان مشتملاً على البركة، كان أتباعه محتسماً عليكم ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفتها، والتكذيب بما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن قبلتموه ولم تخالفوه ﴿تَرْحَمُونَ﴾ برحمة الله سبحانه، وأن في ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع نصب، قال الكوفيون: لثلاثاً تقولوا، وقال البصريون: كراهة أن تقولوا. وقال الفراء والكسائي: المعنى فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة والإنجيل ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهم اليهود والنصارى، ولم ينزل علينا كتاب ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دَرَسَتِهِمْ﴾ أي: عن تلاوة كتبهم بلغاتهم ﴿لِغَافِلِينَ﴾ أي: لا ندري ما فيها، ومرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتدال عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهما، والغفلة عن معناهما. قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا

الكتاب﴾ معطوف على ﴿تَقُولُوا﴾ أي: أو أن تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ إلى الحق الذي طلبه الله، فإن هذه المقالة والمعذرة منهم مندفة بإرسال محمد ﷺ إليهم، وإنزال القرآن عليه، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: كتاب أنزله الله على نبيكم، وهو منكم يا معشر العرب، فلا تعتذروا بالأعداء الباطلة وتعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة، فقد أسفر الصبح لذي عينين ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوف على ﴿بَيْنَهُ﴾ أي: جاءكم البينة الواضحة، والهدى الذي يهتدي به كل من له رغبة في الاهتداء، ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله، والصلوف عنها: أي الانصراف عنها. وصرف من أراد الإقبال إليها ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ التي هي رحمة وهدى للناس ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ فُضِّلَ بانصرافه عنها، وأُضِلَّ بصرف غيره عن الإقبال إليها ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيئ ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ﴾ وقيل معنى صدف: أعرض، ويصدفون يعرضون، وهو مقارب لمعنى الصرف، وقد تقدّم تحقيق معنى هذا اللفظ، والاستفهام في فَمَنْ أَظْلَمُ لِلإنكار أي: إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وصف عنها ما يفيد ذلك من التكبُّت لهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: على المؤمنين المحسنين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي صخر: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: تماماً لما كان قد أحسن الله. وأخرج أيضاً عن ابن زيد قال: تماماً لنعمته عليهم وإحسانه إليهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابُ﴾ قال: هو القرآن الذي أنزل الله على محمد ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ يقول: فاتبعوا ما أحل الله فيه واتقوا ما حرم. وأخرج هؤلاء عن مجاهد في قوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: اليهود والنصارى، خاف أن تقول قريش. وأخرج ابن المنذر، وابن حاتم، عن ابن عباس، قال: هم اليهود والنصارى، ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دَرَسَتِهِمْ﴾ قال: تلاوتهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ قال: هذا قول كفار العرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: قد جاءكم بينة لسان عربي مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿صَدَفَ عَنْهَا﴾ قال: أعرض عنها. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك، في قوله: ﴿يَصْدَفُونَ﴾ قال: يعرضون.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْثُ إِلَهِكَ رَجُلٌ
يَوْمَ يَأْتِي بَعْثُ إِلَهِكَ رَجُلٌ لَا يَفْقَهُ شَيْئاً إِنْ شَاءَ رَبُّكَ لَتَكُنَّ آيَاتُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُنَّ
فِي إِيَّتِهَا حَيَّرُوا فَلْيَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿٦٦﴾

لهم: انتظروا ما تريدون إتيانه إنا منتظرون له، وهذا تهديد شديد ووعيد عظيم، وهو يَقْوِي ما قيل في تفسير: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أنها الآيات التي اقترحوها من إتيان الملائكة وإتيان العذاب لهم من قبل الله كما تقدّم بيانه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: عند الموت ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في تفسير الآية مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ قال: يوم القيامة في ظلل من الغمام. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، في مسنده، والترمذي وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قال: طلوع الشمس من مغربها، قال الترمذي غريب. ورواه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن أبي سعيد موقوفاً. وأخرجه الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ونعيم بن حماد، والطبراني عن ابن مسعود موقوفاً. فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قاذح فيه، فهو واجب التقديم له، متحتم الأخذ به، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، ثم قرأ الآية». وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي ذر مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ يقول: كسبت في تصديقها عملاً صالحاً، هؤلاء أهل القبلة وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيراً فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها، وإن عملت قبل الآية خيراً، ثم عملت بعد الآية خيراً قبل منها وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل، في قوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ قال: يعني: المسلم الذي لم يعمل في إيمانه خيراً وكان قبل الآية مقيماً على الكبائر. والآيات التي هي علامات القيامة، قد وردت الأحاديث المتكاثرة في بيانها وتعدادها، وهي منكرة في كتب السنة.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا إِلَى آخِرِهِمْ يَوْمَ تَأْتِيهِمْ سَافِرَاتُ الْغَمَامِ وَكَانَ لِلْغَمَامِ عَشْرُ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُم لَا يُحْكَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قرأ حمزة والكسائي «فارقوا دينهم» وهي قراءة علي بن أبي طالب: أي تركوا دينهم وخرجوا عنه. وقرأ الباقون فرّقوا بالتشديد إلا النخعي فإنه بالتخفيف. والمعنى: أنهم جعلوا دينهم متفرقاً فأخذوا ببعضه، وتركوا بعضه. قيل المراد بهم: اليهود والنصارى. وقد ردد في معنى هذا: في اليهود قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ

أَي لَمَّا أَقَمْنَا عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَأَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى رَسُولِنَا الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعِهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعُوا بِهِ عَنْ غَوَايَتِهِمْ، فَمَا بَقِيَ بَعْدَ هَذَا إِلَّا أَنَّهُمْ «يَنْظُرُونَ» أَي يَنْتَظِرُونَ «أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ» أَي: ملائكة الموت لقبض أرواحهم، وعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ كَمَا اقترحوه بقولهم: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: 21] وقيل معناه: أو ياتي أمر ربك بإهلاكهم؛ وقيل المعنى: أو ياتي كل آيات ربك بديل قوله: ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وقيل: هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيراً كقوله: ﴿وَإِسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] وقوله: ﴿وَإِشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعُجْلَ﴾ [البقرة: 93] أي حب العجل؛ وقيل: إتيان الله مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر: 22]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قرأ ابن عمر وابن الزبير «يَوْمَ يَأْتِي» بالفوقية، وقرأ الباقون بالتحنية، قال المبرد: التانيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل ومنه قول جرير:

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الزَّبِيرِ تَوَاضَعْتُ سُرُورَ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالِ الْخُشَعِ
وَقَرَأَ ابْنُ سِيرِينَ، لَا تَنْفَعُ بِالْفُوقِيَةِ. قال أبو حاتم: إن هذا غلط عن ابن سيرين. وقد قال الناس في هذا شيء دقيق من النحو نكره نغطويه، وذلك أن الإيمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر، فأنث الإيمان إذ هو من النفس. قال النحاس، وفيه وجه آخر، وهو أن يؤنث الإيمان، لأنه مصدر كما يذكر المصدر المؤنث مثل ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 275]. ومعنى «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ» يوم ياتي الآيات التي اقترحوها، وهي التي تضطرم إلى الإيمان ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا﴾ أو ما هو أعم من ذلك، فيدخل فيه ما ينتظرونه؛ وقيل: هي الآيات التي هي علامات القيامة المذكورة في الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ، فهي التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها. قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنْتَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إتيان بعض الآيات، فأما التي قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات فإيمانها ينفعها، وجملة: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنْتَ مِنْ قَبْلُ﴾ في محل نصب على أنها صفة نفساً. قوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ معطوف على ﴿آمَنْتَ﴾ والمعنى: أنه لا ينفع نفساً إيمانها عند حضور الآيات متصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل، أو آمنت من قبل ولكن لم تكسب في إيمانها خيراً، فحصل من هذا أنه لا ينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجيء بعض الآيات مع كسب الخير في الإيمان، فمن آمن من قبل فقط، ولم يكسب خيراً في إيمانه، أو كسب خيراً ولم يؤمن، فإن ذلك غير نافع، وهذا التركيب هو كقولك: لا أعطي رجلاً اليوم أتانني لم يأتني بالأمس أو لم يمدحني في إتيانه إلي بالأمس، فإن المستفاد من هذا أنه لا يستحق العطاء إلا رجل أتاه بالأمس ومنحه في إتيانه إليه بالأمس، ثم أمره الله سبحانه أن يقول

إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته، أو تغمدته الله برحمته، وتفضل عليه بمغفرته، فلا مجازاة، وإلّا الكتاب والسنة مصرّحة بهذا تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب، **﴿وهم﴾** أي: من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة **﴿لا يظلمون﴾** بنقص ثواب حسنات المحسنين، ولا بزيادة عقوبات المسيئين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ فتفرقوا، فلما بعث محمد أنزل عليه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُم﴾** الآية. وأخرج النحاس، عنه في ناسخه **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُم﴾** قال: اليهود والنصارى، تركوا الإسلام والدين الذي أمروا به **﴿وكانوا شيعاً﴾** فرقاً أحزاباً مختلفة **﴿لست منهم في شيء﴾** نزلت بمكة ثم نسخها **﴿قاتلوا المشركين﴾** [التوبة: 36]. وأخرج أبو الشيخ عنه **﴿وكانوا شيعاً﴾** قال: ملأ شتى. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، في قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُم﴾** الآية قال: هم في هذه الأمة. وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير، والطبراني، والشيخرازي في الألقاب، وابن مردويه، عنه، عن النبي ﷺ في الآية قال: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة، وفي إسناده عبد بن كثير، وهو متروك الحديث، ولم يرفعه غيره، ومن عده وقفوه على أبي هريرة. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي أمامة في الآية قال: هم الحرورية وقد رواه ابن أبي حاتم، والنحاس، وابن مردويه، عن أبي غالب عن أبي أمامة مرفوعاً ولا يصح رفعه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن شاهين، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، وأبو نصر السجزي في الإبانة، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمر، أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «يا عائش **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً﴾** هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة، يا عائشة إن لكل صاحب نيب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وهم مني براء». قال ابن كثير: هو غريب ولا يصح رفعه. وأخرج عبد بن حميد، عن سعيد بن جبیر، قال: لما نزلت **﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾** قال رجل من المسلمين: يا رسول الله لا إله إلا الله حسنة؟ قال: نعم، أفضل الحسنات، وهذا مرسل ولا ندرى كيف إسناده إلى سعيد؟ وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، في الحلية، عن ابن مسعود **﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾** قال: لا إله إلا الله. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، مثله أيضاً. وقد قلّمنا الإشارة إلى أنها قد ثبتت الأحاديث الصحيحة بمضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فلا تطيل بنكرها، ووردت أحاديث كثيرة في الزيادة على هذا المقدار، وفضل

البينة **﴿[البينة: 4]﴾** وقيل المراد بهم: المشركون عبد بعضهم الصنم، وبعضهم الملائكة؛ وقيل الآية عامة في جميع الكفار، وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله، وهذا هو الصواب لأن اللفظ يفيد العموم، فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب، طوائف المشركين، وغيرهم ممن ابتدع من أهل الإسلام، ومعنى شيعاً فرقاً وأحزاباً، فتصدق على كل قوم كان أمرهم في الدين واحداً مجتمعاً، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبير من كبارهم، يخالف الصواب ويبين الحق **﴿لست منهم في شيء﴾** أي لست من تفرقهم، أو من السؤال عن سبب تفرقهم والبحث عن موجب تحزبهم في شيء من الأشياء، فلا يلزمك من ذلك شيء، ولا تخاطب به، إنما عليك البلاغ، وهو مثل قوله ﷺ: «من غشنا فليس منا» أي نحن براء منه، وموضع: **﴿في شيء﴾** نصب على الحال. قال الفراء: هو على حذف مضاف: أي لست من عقابهم في شيء، وإنما عليك الإنذار، ثم سلاه الله تعالى بقوله: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾** فهو مجاز لهم بما تقتضيه مشيئته والحصص، وإنما هو في حكم التعليل لما قبله والتأكيد له **﴿ثم﴾** هو يوم القيامة **﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾** أي يخبرهم بما ينزله بهم من المجازاة **﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** من الأعمال التي تخالف ما شرعه الله لهم، وأوجب عليهم، وهذه الآية من جملة ما هو منسوخ بأية السيف. قوله: **﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾** لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد، بين عقب ذلك مقدار جزاء العالمين بما أمرهم به الممتثلين لما شرعه لهم، بأن من جاء بحسنة واحدة من الحسنات فله من الجزاء عشر حسنات، والتقدير: فله عشر حسنات أمثالها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف. قال أبو علي الفارسي: حسن التانيث في عشر أمثالها، لما كان الأمثال مضافاً إلى مؤنث، نحو ذهبت بعض أصابعه. وقرأ الحسن وسعيد بن جبیر والأعمش **﴿فله عشر أمثالها﴾** برفعهما.

وقد ثبت هذا التضعيف في السنة بأحاديث كثيرة، وهذا التضعيف هو أقل ما يستحقه عامل الحسنة. وقد وردت الزيادة على هذا عموماً وخصوصاً، ففي القرآن كقوله: **﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾** [البقرة: 261]. وورد في بعض الحسنات، أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب، وورد في السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى الوف مؤلفة. وقد قدمنا تحقيق هذا في موضعين من هذا التفسير، فليرجع إليهما **﴿ومن جاء بالسيئة﴾** من الأعمال السيئة **﴿فلا يجزي إلا مثلاً﴾** من نون زيادة عليها على قدرها في الخفة والعظم، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده في النار، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرّحة بأن من عمل كذا فعليه كذا، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب، فعلياً أن نقول يجازيه الله بمثلها، وإن لم نقف على حقيقة ما يجازى به، وهذا إن لم يتب، أما

الله واسع، وعطاؤه جم.

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا لِّلَّهِ إِنزِلَهُمْ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٠﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْمَالِكِينَ ﴿١٧١﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٢﴾

لما بين سبحانه أن الكفار تفرقوا فرقا وتحزبوا أحزابا، أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿إِنِّي هَدَانِي رَبِّي﴾ أرشدني بما أوحاه إليّ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو ملة إبراهيم عليه السلام، و﴿حَنِيفًا﴾ منتصب على الحال كما قال قطرب، أو على أنه مفعول هداني كما قال الأخفش؛ وقيل منتصب بفعل يدل عليه هداني؛ لأن معناه عرفني: أي عرفني ديناً؛ وقيل: إنه بدل من محل إلى صراط، لأن معناه هداني صراطاً مستقيماً كقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ [الفتح: 20] وقيل منصوب بإضمار فعل، كأنه قيل: اتبعوا ديناً، قوله ﴿حَنِيفًا﴾ قرأه الكوفيون، وابن عامر بكسر القاف، والتخفيف وفتح الياء. وقرأه الباقون بفتح القاف وكسر الياء المشددة، وهما لغتان؛ ومعناه الدين المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو صفة لدينا، وصف به مع كونه مصدراً مبالغة، وانتصاب ﴿ملة إبراهيم﴾ على أنها عطف بيان لدينا، ويجوز نصبها بتقدير أعني، و﴿حَنِيفًا﴾ منتصب على أنه حال من إبراهيم، قاله الزجاج. وقال علي بن سليمان: هو منصوب بإضمار أعني. والحنيف المائل إلى الحق، وقد تقدم تحقيقه ﴿وما كان من المشركين﴾ في محل نصب معطوف على حنيفاً، أو جملة معترضة مقررّة لما قبلها. قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ أمره الله سبحانه أن يقول لهم بهذه المقالة، عقب أمره بأن يقول لهم بالمقالة السابقة؛ قيل: ووجه ذلك أن ما تضمنه القول الأول إشارة إلى أصول الدين، وهذا إلى فروعها. والمراد بالصلاة: جنسها، فيدخل فيه جميع أنواعها؛ وقيل المراد بها هنا: صلاة الليل، وقيل صلاة العيد. والنسك: جمع نسيكة، وهي النسيحة كذا قال مجاهد والضحاك، وسعيد بن جبير، وغيرهم: أي نبيحتي في الحج والعمرة. وقال الحسن: بيني وقال الزجاج: عبادتي من قولهم: نسك فلان هو ناسك؛ إذا تعبد، وبه قال جماعة من أهل العلم ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي: ما عملته في حياتي ومماتي من أعمال الخير، ومن أعمال الخير في الممات الوصية بالصدقات، وأنواع القربات؛ وقيل: نفس الحياة ونفس الموت ﴿لله﴾ قرأ الحسن نسكي بسكون السين. وقرأ الباقون بضمها. وقرأ أهل المدينة محياي بسكون الياء. وقرأ الباقون بفتحها لثلا يجتمع ساكنان قال النحاس: لم يجزه، أي السكون أحد من النحويين إلا يونس، وإنما أجازوه لأن المدة التي في الألف تقوم مقام الحركة. وقرأ ابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، عاصم الجحدري، محيي، من غير ألف وهي لغة عليا مضر، ومنه قول الشاعر:

سبقوا هوي وأعنقوا الهوام
فتخرموا لكل جنب مصرع
﴿الله رب العالمين﴾ أي: خالصاً له لا شريك له فيه،

والإشارة ﴿بذلك﴾ إلى ما أفاده ﴿الله رب العالمين لا شريك له﴾ من الإخلاص في الطاعة وجعلها لله وحده. قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أَوَّلُ مسلمي أمته؛ وقيل: أَوَّلُ المسلمين أجمعين، لأنه وإن كان متأخراً في الرسالة، فهو أولهم في الخلق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوَّلَ أَخْنَاةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمَنْكَرٍ مِنْ نُوْحٍ﴾ [الأحزاب: 7] الآية، والأول: أولى. قال ابن جرير الطبري: استدلل بهذه الآية الشافعي على مشروعيتها افتتاح الصلاة بهذا الذكر، فإن الله أمر به نبيه وأنزله في كتابه، ثم ذكر حديث علي، أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» إلى قوله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قلت هذا هو في صحيح مسلم مطوّل، وهو أحد التوجهات الواردة، ولكنه مفيد بصلاة الليل كما في الروايات الصحيحة، وأصح التوجهات الذي كان يلازمه النبي ﷺ ويرشد إليه هو «اللهم باعد بيني وبين خطاياي» إلى آخره، وقد أوضحنا هذا في شرحنا للمنتقى بما لا يحتاج إلى زيادة عليه هنا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل، في قوله: ﴿وَأَنَّ صَلَاتِي﴾ قال: يعني: المفروضة ﴿ونسكي﴾ يعني: الحج. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير ﴿ونسكي﴾ قال: نبيحتي. وأخرج أيضاً عن قتادة ﴿إِنَّ صَلَاتِي ونسكي﴾ قال: حجي ونبيحتي. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿ونسكي﴾ قال: نبيحتي في الحج والعمرة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿ونسكي﴾ قال: ضحيتي. وفي قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال: من هذه الأمة. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك، فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملته، وقولي ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ - إلى - ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، قلت يا رسول الله هذا لك ولأهل بيتك خاصة، فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامة؟ قال: لا بل للمسلمين عامة».

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ إِلَهًا أَيُّ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا يُزِدُ وَارِدَةً وَزَدْ أَخْرَى ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ رَحِيمٌ قَبِيحٌ يَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٧٣﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ رَوَاقًا وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ جَبَلٌ سَائِجٌ قَدْ جَعَلْنَا فِيكُمْ رَحْمَةً وَفِيكُمْ قَلْبًا مُنَافِقًا ﴿١٧٤﴾

الاستفهام في ﴿أغير الله أبغي رباً﴾ للإنكار، وهو جواب على المشركين لما دعوهم إلى عبادة غير الله: أي كيف أبغي غير الله رباً مستقلاً وأترك عبادة الله، أو شريكاً لله فأعبدهما معاً، والحال أنه رب كل شيء، والذي تدعونني إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له، مخلوق مثلي لا يقدر على نفع ولا ضرر، وفي هذا الكلام من التقريع والتوبيخ لهم

قال: أهلك القرون الأولى، فاستخلفنا فيها بعدهم ﴿ورفع بعضهم فوق بعض درجات﴾ قال: في الرزق.

تفسير سورة الأعراف

هي مكية إلا ثمان آيات، وهي قوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾ إلى قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ [الأعراف: 163 - 171]. وقد أخرج ابن الضريس، والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، من طرق عن ابن عباس، قال: سورة الأعراف نزلت بمكة. وأخرج ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير، مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة: قال آية من الأعراف مدنية، وهي: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ [الأعراف: 163] إلى آخر الآية، وسأثرها مكية، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المغرب يفرقها في الركعتين، وآياتها مائتان وست آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ① كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِشَيْءٍ بِهِ وَدَكَّرَ ② لِلْمُؤْمِنِينَ ③ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ④ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ⑤ وَكَانَ قَرِيبٌ أَمَلُكُمْ أَنْ يَكُونُوا بِأَسْأَأَ بَشَرًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ⑥ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْأَأَ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑦ فَلَنَسْأَلَنَّ الْآزِلِينَ ⑧ أَرْبَعًا ⑨ لِمَ كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ⑩ وَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلُوا فِيهِمْ ⑪ فَلَنَقْصُرَ عَنْهُمْ

قوله: ﴿المص﴾ قد تقدم في فاتحة سورة البقرة ما يغني عن الإعادة، وهو إما مبتدأ وخبره كتاب: أي «المص» حروف ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا «المص» أي المسمى به، وأما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التعديد فلا محل له، وكتاب خبر المبتدأ على الوجه الأول، أو خبر مبتدأ محذوف على الثاني: أي هو كتاب. قال الكسائي: أي هذا كتاب، وأنزل إليك صفة له ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ الحرج: الضيق: أي لا يكن في صدرك ضيق منه، من إبلاغه إلى الناس، مخافة أن يكتبوك، ويؤذوك، فإن الله حافظك، وناصرك، وقيل: المراد لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾، وقال مجاهد وقاتدة: الحرج هنا الشك، لأن الشاك ضيق الصدر: أي لا تشك في أنه منزل من عند الله، وعلى هذا يكون النهي له ﷺ من باب التعريض، والمراد أمته: أي لا يشك أحد منهم في ذلك، والضمير في منه راجع إلى الكتاب، فعلى الوجه الأول: يكون على تقدير مضاف محذوف: أي من إبلاغه، وعلى الثاني: يكون التقدير من إنزاله، والضمير في ﴿لنتنذر به﴾ راجع إلى الكتاب: أي لتتنذر الناس بالكتاب الذي أنزلناه إليك، وهو متعلق بأنزل: أي أنزل إليك لإنتذارك للناس به، أو متعلق بالنهي، لأن انتفاء الشك في كونه منزلاً من عند الله، أو انتفاء الخوف من قومه

ما لا يقادر قدره، وغير منصوب بالفعل الذي بعده، وربما تمييز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصباً لمفعولين. قوله: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ أي: لا يؤاخذ مما أتت من الذنب وارتيكت من المعصية سواها، فكل كسبها للشّر عليها لا يتعداها إلى غيرها، وهو مثل قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ [البقرة: 286] وقوله: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ [طه: 15]. قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى: ﴿وورضعنا عنك وزرك﴾ [الشرح: 2] وهو هنا الذنب ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: 31] قال الأخفش، يقال وزد يوزد، وزر يزد وزراً، ويجوز إزراً، وفيه رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه، والواحد من القبيلة بذنب الآخر وقد قيل: إن المراد بهذه الآية في الآخرة، وكذلك التي قبلها لقوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: 25]، ومثله قول زينب بنت جحش: «يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»، والأولى حمل الآية على ظاهرها: أعني العموم، وما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التي تحملها العقلة ونحو ذلك، فيكون في حكم المخصص بهذا العموم، ويقر في موضعه ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: 13] فإن المراد بالأثقال التي مع أثقالهم هي: أثقال الذين يضلونهم كما في الآية الأخرى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ [النحل: 25] ثم إلى ربكم مرجعكم يوم القيامة ﴿ففينبئكم بما كنتم فيه تاختلون﴾ في الدنيا، وعند ذلك يظهر حق المحقين وباطل المبطلين. قوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ خلائف جمع خليفة: أي جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة، قال الشماخ:

أصيبهم وتخطئني المنيا وأخلف في ربوع عن ربوع أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضاً، أو أن هذا النوع الإنساني خلفاء الله في أرضه: ﴿ورفع بعضهم فوق بعض درجات﴾ في الخلق، والرزق، والقوة، والفضل، والعلم ودرجات منصوب بنزع الخافض: أي إلى درجات ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي: ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور، أو ليبلي بعضهم ببعض كقوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة﴾ [الفرقان: 20] ثم خوفهم فقال: ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ فإنه وإن كان في الآخرة فكل آت قريب كما قال: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ [النحل: 77] ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين، فقال: ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران والرحمة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر﴾ قال: لا يؤاخذ أحد بذنب غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾

الحال: أي بائتين. قوله: ﴿وَأُوْهُمْ قَاتِلُونَ﴾ معطوف على بياتاً: أي بائتين أو قاتلين، وجاءت الجملة الحالية بدون أو استقلاً لاجتماع الواوين والواو العطف وواو الحال، هكذا قال الفراء. واعترضه الزجاج فقال: هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو، تقول: جاءني زيد راكباً، أو هو ماش لأن في الجملة ضميراً قد عاد إلى الأول، وأو في هذا الموضع للتفصيل لا للشك. والقيولة هي نوم نصف النهار. وقيل: هي مجرد الاستراحة في ذلك الوقت لشدة الحر من دون نوم، وخص الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة، فمجيء العذاب فيهما أشد وأقطع. قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الدعوى: الدعاء: أي فما كان دعائهم ربهم عند نزول العذاب، إلا اعترافهم بالظلم على أنفسهم، ومثله ﴿وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ﴾ [يونس: 10] أي آخر دعائهم؛ وقيل: الدعوى هنا بمعنى الاندعاء، والمعنى: ما كان يدعوهم لينبهم وينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه وفساده، واسم كان ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ خبرها ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ ويجوز العكس؛ والمعنى: ما كان دعواهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين. قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ هذا وعيد شديد، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ، واللام لام القسم: أي لنسألهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم، والفاء لترتيب الأحوال الآخوية على الأحوال النبوية ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الأنبياء الذين بعثهم الله: أي نسألهم عما أجاب به أمهم عليهم ومن أطاع منهم ومن عصى؛ وقيل المعنى: فلنسأل الذين أرسل إليهم: يعني الأنبياء، ولنسأل المرسلين: يعني الملائكة، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 78] لما قدمنا غير مرة أن الآخرة مواطن، ففي مواطن يسألون، وفي مواطن لا يسألون، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى، بالنسبة إلى يوم القيامة، فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طويلاً عظيماً ﴿فَلَنَقْصِصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ أي: على الرسل والمرسل إليهم، ما وقع بينهم عند الدعوة منهم لهم بعلم لا بجهل: أي عالمين بما يسرون وما يعلنون ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم في حال من الأحوال حتى يخفى علينا شيء مما وقع بينهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الْمَص﴾ قال: أنا الله أقصّل. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبير، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به، وهي من أسماء الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿الْمَص﴾ قال: هو المصور. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿الْمَص﴾ قال: الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من

يقويه على الإنذار ويشجعه، لأن المتيقن يقدم على بصيرة، ويباشر بقوة نفس. قوله: ﴿وَنُكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ النكرى التذكير. قال البصريون: النكرى في محل رفع على إضمار مبتدأ. وقال الكسائي: هي في محل رفع عطف على كتاب، ويجوز النصب على المصدر: أي ونكر به نكرى قاله البصريون. ويجوز الجر حملاً على موضع لتندر أي للإنذار والنكرى، وتخصيص النكرى بالمؤمنين؛ لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك، وفيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين. قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: الكتاب ومثله السنة لقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] ونحوها من الآيات، وهو أمر للنبي ﷺ ولأمته؛ وقيل: هو أمر للأمة بعد أمره ﷺ بالتبليغ، وهو منزل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبي ﷺ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونَهُ أُولِيَاءَ﴾ نهي للأمة عن أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويعملونهم شركاء لله، فالضمير على هذا في ﴿مَن دُونَهُ﴾ يرجع إلى رب، ويجوز أن يرجع إلى «ما» في ما أنزل إليكم: أي لا تتبعوا من دون كتاب الله أولياء تقلبونه في دينكم، كما كان يفعل أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يطلونه لهم ويحرمونه عليهم. قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ انتصاب قليلاً على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر: أي تذكر أقل، وما مزيدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل لا تتبعوا، وما مصدرية: أي لا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً تذكرهم قرئ ﴿تَذْكُرُونَ﴾ بالتخفيف بحذف إحدى التامين، وقرئ بالتشديد على الإدغام. قوله: ﴿وَكُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ كم هي الخبرية المفيدة للتكثير، وهي في موضع رفع على الابتداء ﴿وَأَهْلَكْنَاهَا﴾ الخبر، ومن قرية تمييز، ويجوز أن تكون في محل نصب بإضمار فعل بعدها لا قبلها، لأن لها صدر الكلام، ولولا اشتغال أهلكناها بالضمير لجاز انتصاب كم به، والقرية موضع اجتماع الناس: أي كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها بإهلاك أهلها، أو أهلكنا أهلها، والمراد أردنا إهلاكها. قوله: ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنًا﴾ معطوف على أهلكناها بتقدير الإرادة كما مر؛ لأن ترتيب مجيء البأس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير، إذ الإهلاك هو نفس مجيء البأس. وقال الفراء: إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير، والمعنى: أهلكناها وجاءها بأسنا، والواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها؛ وقيل: إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية؛ فيكون المعنى: وكُم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع؛ وقيل المعنى: وكُم من قرية حكمتنا بإهلاكها فجاءها بأسنا؛ وقيل: أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا، والبأس: هو العذاب، وحكى عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى: وكُم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها، مثل لنا فقرب، وقرب فدنا ﴿بَيَاتًا﴾ أي: ليلاً، لأنه بيات فيه، يقال بات يبيت بياتاً وبياتاً، وهو مصدر واقع موقع

الصمد. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، قال معناه: أنا الله السابق، ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالظن، وتفسير بالحس، ولا حجة في شيء من ذلك، والحق ما قدمنا في فاتحة سورة البقرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿فَإِن يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قال: الشك، وقلل لأعرابي: ما الحرج فيكم؟ قال: اللبس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، قال: ضيق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود: ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم، ثم قرأ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ الآية. وأخرجه ابن جرير عنه مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: نسأل الناس عما لجاؤوا المرسلين، ونسأل المرسلين عما بلغوا، فلنقص عليهم بعلم، قال: بوضع الكتاب يوم القيامة فنتكلم بما كانوا يعملون. وأخرج عبد بن حميد، عن فرقد، في الآية قال: أحدهما الأنبياء، وأحدهما الملائكة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: نسأل الناس عن قول لا إله إلا الله، ونسأل جبريل.

وَالْوَزْنَ يَوْمَهُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَظُنُّونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْكُمْ فِيهَا مِيزَانٌ فَلْيَا مَا تَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ مِيزَانَكُمْ ثُمَّ قَلَّ لِلْمَلَكِكَةِ أَشْجِدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ لَا يَكُن مِّنَ السَّجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا سَجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَنِي مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ نَحْوَ الْكَلْبِ أَمْ تُبْدِلُ مَا كُنَّا يَكْفُرُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ يَمَّا أَوْفَيْتَنِي لَأَقْذِفَنَّكَ مِنَ مِيزَانِكَ أَلَمْ أَتَيْتَنِي ثُمَّ كَذَّبْتَنِي بَيْنَ يَدَيْ أَيْدِيهِمْ وَمِن ظَنِّهِمْ وَعَنْ أَنْفُسِهِمْ وَصَنَّمُوا لِيهِمْ وَلَا عِندَ أَحَدِهِمْ تَنَزَّلَتْ ﴿١٥﴾ قَالَ لَتَرَجَّ وَجْهٌ مَّذْمُومًا مَّنْذُورًا لَّنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ لَأَتْلَأَنَّهُمْ جَهَنَّمَ يَكْفُرُونَ بِحُكْمِي ﴿١٦﴾

قوله: ﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَهُ الْحَقُّ﴾ الوزن مبتدأ وخبره الحق: أي الوزن في هذا اليوم العدل الذي لا جور فيه، أو الخبر يومئذ، والحق وصف للمبتدأ، أي الوزن العدل كائن في هذا اليوم؛ وقيل: إن الحق خبر مبتدأ محذوف.

واختلف أهل العلم في كيفية هذا الوزن الكائن في هذا اليوم، فقليل المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزناً حقيقياً، وهذا هو الصحيح، وهو الذي قامت عليه الأدلة؛ وقيل: توزن نفس الأعمال، وإن كانت أعراضاً فإن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً كما جاء في الخبر الصحيح: «إن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف». وكذلك ثبت في الصحيح: أنه يأتي القرآن في صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك؛ وقيل: الميزان الكتاب الذي فيه أعمال الخلق؛ وقيل: الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء، ونكرهما من

وقد ورد ذكر الوزن والموازين في مواضع من القرآن كقوله: ﴿وَنُزِجَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ [الأنبياء: 47]، وقوله: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا انْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101]، وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ [المؤمنون: 102، 103]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40]، وقوله: ﴿فَمَا مِنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. وَأَمَّا مَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَمَا هُوَ إِلَّا فِي عَذَابٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القارعة: 6 - 9]، والفاء في ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ للتفصيل. والموازين: جمع ميزان، وأصله موزان قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، وثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال؛ وقيل: إن الموازين جمع موزون: أي فمن رجحت أعماله الموزونة، والأول: أولى. وظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله؛ وقيل: وهو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال: خرج فلان إلى مكة على البغال، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناه كما رجع إليه ضمير ﴿مَوَازِينُهُ﴾ باعتبار لفظه هو مبتدأ خبره ﴿وَهُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والكلام في قوله: ﴿وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ مثله، والباء في ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلَمُونَ﴾ سببية، وما مصدرية. ومعنى ﴿يَظْلَمُونَ﴾ يكذبون. قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَانَكُمْ فِي

أَنعاه من الخيرية بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ اعتقاداً منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين. وقد أخطأ عدو الله، فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزاقته وسكونه، وطول بقائه، وهي حقيقة مضطربة سريعة النفاد، ومع هذا فهو موجود في الجنة دونها، وهي عذاب نونه. وهي محتاجة إليه لتتحيز فيه، وهو مسجد وطهور، ولولا سبق شقاوته، وصنق كلمة الله عليه، لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقوة، فعنصرهم النوري أشرف من عنصره الناري، وجملة: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ﴾ استثنائية كالتي قبلها، والغاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر: أي اهبط من السماء التي هي محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم، إلى الأرض التي هي مقر من يعصي ويطيع، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر، ويعصى أمر ربه مثلك، ولهذا قال: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾. ومن التفاسير الباطلة ما قيل إن معنى ﴿اهبط منها﴾ أي: أخرج من صورتك النارية التي افتخرت بها صورة مظلمة مشوهة؛ وقيل المراد هبوطه من الجنة؛ وقيل من زمرة الملائكة، وجملة: ﴿فَاخْرُجْ﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط، وجملة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ تعليل للأمر: أي إنك من أهل الصغار، والهوان، على الله وعلى صالحى عبادته، وهكذا كل من تردى برداء الاستكبار، عوقب بلبس رداء الهوان والصغار. ومن ليس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع، وجملة: ﴿قَالَ انْظُرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾ استثنائية كما تقدم في الجمل السابقة: أي أمهلني إلى يوم البعث، وكأنه طلب أن لا يموت، لأن يوم البعث لا موت بعده، والضمير في ﴿يَبْعَثُونَ﴾ لأدم وذريته، فاجابه الله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي: الممهلين إلى ذلك اليوم، ثم تعاقب بما قضاه الله لك، وأنزله بك في دركات النار. قيل: الحكمة في إنظاره ابتلاء العباد، ليعرف من يطيعه ممن يعصيه، وجملة: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي﴾ مستأنفة كالجمل السابقة، وأردت جواباً لسؤال مقدر، والباء في ﴿فِيمَا﴾ للسببية، والغاء لترتيب الجملة على ما قبلها؛ وقيل: الباء للقسم كقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ لِجَمْعِينَ﴾ أي: فبإغوائك إياي لا أقعدن لهم صراطك المستقيم، والإغواء: الإيقاع في الغي؛ وقيل: الباء بمعنى اللام، وقيل: بمعنى مع. والمعنى: فمع إغوائك إياي؛ وقيل: ﴿فَمَا﴾ في ﴿فِيمَا أُغْوِيْتَنِي﴾ للاستفهام. والمعنى: فبأي شيء أغويتني والأول: أولى. ومراده بهذا الإغواء الذي جعله سبباً لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه، وأن ذلك كان بإغواء الله له، حتى اختار الضلالة على الهدى؛ وقيل: أراد به اللعنة التي لعنه الله: أي فيما لعنتني فأهلكتنني لا أقعدن لهم ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59] أي: هلاكاً. وقال ابن الأعرابي: يقال: غوي الرجل يغوي غياً: إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه، ومنه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121] أي فسد عيشه في الجنة ﴿لَا أَقْعَدُنْ لَهُمُ﴾ أي: لأجهن

الأرض﴾ أي: جعلنا لكم فيها مكاناً وهيئنا لكم فيها أسباب المعاش. والمعاش جمع معيشة: أي ما يتعاش به من المطعوم والمشروب، وما تكون به الحياة، يقال عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشاً. قال الزجاج: المعيشة ما يتوصلون به إلى العيش، والمعيشة عند الأخفش وكثير من النحويين مفعلة. وقرأ الأعرج «معاش» بالهمز، وكذا روى خارجة بن مصعب، عن نافع. قال النحاس: والهمز لحن لا يجوز، لأن الواحدة معيشة والياء أصلية، كمدينة ومدائن، وصحيفة وصحايف. قوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريباً من قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 3]. قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ هذا ذكر نعمة أخرى من نعم الله على عبده. والمعنى: خلقناكم نطفاً ثم صوّرناكم بعد ذلك، وقيل المعنى: خلقنا آدم من تراب، ثم صوّرناكم في ظهره؛ وقيل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: آدم نكر بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ راجع إليه، ويدل عليه: ﴿ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصور آدم عليه السلام. وقال الأخفش: إن ثم في ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بمعنى الواو؛ وقيل المعنى: خلقناكم من ظهر آدم ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال؛ وقيل المعنى: ولقد خلقنا الأرواح أولاً، ثم صوّرنا الأشباح، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم: أي أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر، وفعلوا السجود بعد الأمر ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قيل: الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس؛ لأنه كان منفرداً بينهم، أو كما قيل: لأن من الملائكة جنساً يقال لهم الجن؛ وقيل: غير ذلك. وقد تقدم تحقيقه في البقرة. قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ جملة مبنية لما فهم من معنى الاستثناء، ومن جعل الاستثناء منقطعاً قال معناه: لكن إبليس لم يكن من الساجدين، وجملة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال له الله؟ و«لا» في ﴿أَنْ لَا تَسْجُدَ﴾ زائدة للتوكيد بليل قوله تعالى في سورة ص، ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: 75]؛ وقيل إن منع بمعنى قال، والتقدير: من قال لك أن لا تسجد؛ وقيل منع بمعنى دعا: أي ما دعاك إلى أن لا تسجد؛ وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: ما منعك من الطاعة وأجوك إلى أن لا تسجد ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي وقت أمرتك، وقد استدل به على أن الأمر للفور، والبحث مقرر في علم الأصول، والاستفهام في ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ للتقريع والتوبيخ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك، وجملة: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فما قال إبليس؛ وإنما قال في الجواب أنا خير منه، ولم يقل: منعني كذا؛ لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المنع، وهو اعتقاده أنه أفضل منه. والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيد هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله. ثم علل ما

عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فيقول: أتُنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيهب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندي حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» وقد صححه أيضاً الترمذي، وإسناده أحمد حسن. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس، في قوله: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم» قال: خلقوا في أصلاب الرجال، وصوّروا في أرحام النساء. وأخرج الفريابي عنه أنه قال: خلقوا في ظهر آدم، ثم صوّروا في الأرحام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً قال: أما خلقناكم فآدم، وأما ثم صوّرناكم فذريته. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: خلق إبليس من نار العزة، وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار، وخلق آدم مما وصفه لكم». وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: أوّل من قاس إبليس في قوله: «خلقتني من نار وخلقته من طين» وإسناده صحيح إلى الحسن. وأخرج أبو نعيم في الحلية، والديلمي، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «أوّل من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله له اسجد لأدم، فقال: «إنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين». قال جعفر: فمن قاس أمر الدين برأيه، قرنه الله يوم القيامة بإبليس، لأنه اتبعه بالقياس، وينبغي أن ينظر في إسناد هذا الحديث، فما أظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: «فبما أغويتني» أضللتني. وأخرج عبد بن حميد، عنه، في قوله: «لأقعدن لهم صراطك المستقيم» قال: طريق مكة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس «ثم لأتينيهم من بين أيديهم» قال: أشككم في آخرتهم «ومن خلفهم» من حيث لا يبصرون «وعن إيمانهم» من حيث لا يبصرون «وعن شمائلهم» من حيث لا يبصرون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عنه، أيضاً في الآية قال: لم يستطع أن

في إغوائهم حتى يفسلوا بسببي كما فسدت بسبب تركي السجود لأبيهم. والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة، وانتصابه على الظرفية: أي في صراطك المستقيم كما حكى سيبويه ضرب زيد الظهر والبطن، واللام في «لأقعدن» لام القسم، والباء في «بما أغويتني» متعلقة بفعل القسم المحذوف: أي فيما أغويتني أقسم لأقعدن. قوله: «ثم لأتينيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم» نكر الجهات الأربع؛ لأنها هي التي يأتي منها العدو، ولهذا ترك نكر جهة الفوق والتحت، وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بمن، وإلى الآخرين بعن، لأن الغالب فيمن يأتي من قدام وخلف أن يكون متوجهاً إلى ما يأتيه بكنية بذنه، والغالب فيمن يأتي من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفاً، فناسب في الأوليين التعدية بحرف الابتداء، وفي الآخرين التعدية بحرف المجاوزة، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتي حقيقة؛ وقيل المراد: «من بين أيديهم» من دنياهم «ومن خلفهم» من آخرتهم «وعن إيمانهم» من جهة حسناتهم «وعن شمائلهم» من جهة سيئاتهم، واستحسنه النحاس. قوله: «ولا تجد أكثرهم شاكرين» أي وعند أن أفعل ذلك لا تجد أكثرهم شاكرين لتأثير وسوستي فيهم وإغوائي لهم، وهذا قاله على الظن ومنه قوله تعالى: «ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه» [سبأ: 20]، وقيل: إنه سمع ذلك من الملائكة فقال، وعبر بالشكر عن الطاعة أو هو على حقيقته وأنهم لم يشكروا الله بسبب الإغواء، وجملة «قال أخرج منها» استئناف، كالجملة التي قبلها: أي من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدّم «مذموماً» أي: مذموماً من ذامه إذا زمه، يقال: ذامته وذمته بمعنى. وقرأ الأعمش «مذموماً». وقرأ الزهري «مذموماً» بغير همزة؛ وقيل المنزوم: المنفي، والمحدود: المطرود. قوله: «لمن تبعك منهم» قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم، وجوابه: «لأملأن جهنم منكم لجمعين» وقيل: اللام في «لمن تبعك» للتوكيد، وفي «لأملأن» لام القسم. والأوّل: أولى، وجواب القسم سدّ جواب الشرط، لأن من شرطية، وفي هذا الجواب من التهديد ما لا يقاير قدره. وقرأ عاصم في رواية عنه «لمن تبعك» بكسر اللام، وأنكره بعض النحويين. قال النحاس: وتقديره، والله أعلم، من أجل من اتبعك؛ كما يقال: أكرمت فلاناً لك؛ وقيل: هو علة لأخرج، وضمير «منكم» له ولمن اتبعه، وغلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة، والأصل منك ومنهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «والوزن يومئذ الحق» قال: العدل «فمن ثقلت موازينه» قال: حسناته «ومن خفت موازينه» قال: حسناته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، توزن الأعمال. وقد ورد في كيفية الميزان والوزن والموزون أحاديث كثيرة. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي، عن

تكونوا ملكين ﴿أو تكونوا من الخالبيين﴾ في الجنة، أو من الذين لا يموتون. قال النحاس: فضل الله الملائكة على جميع الخلق في غير موضع في القرآن، فمنها هذا، ومنها: ﴿ولا أقول إنني ملك﴾ [هود: 31]، ومنها ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ [النساء: 172]. قال ابن فورك: لا حجة في هذه الآية، لأنه

يحتمل أن يريد ملكين في أن لا يكون لهما شهوة في الطعام. وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافاً كثيراً، وإطالوا الكلام في غير طائل، وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه، فالكلام فيها لا يعنيننا. وقرأ ابن عباس، ويحيى بن أبي كثير، والضحاك «ملكين» بكسر اللام، وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال: لم يكن قبل آدم ملك فيصيرا ملكين. وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى: ﴿هل انلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ [طه: 120]. قال أبو عبيد: هذه حجة بيينة لقراءة الكسر، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها. قال النحاس: هي قراءة شاذة، وأنكر على أبي عبيد، هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش. قال وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أن يصل إلى أكثر من ملك الجنة وهي غاية الطالبين، وإنما معنى ﴿وملك لا يبلى﴾ المقام في ملك الجنة والخلود فيه. قوله: ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: حلف لهما فقال: أقسم قسماً أي: حلف، ومنه قول الشاعر:

وقاسمهما بالله جهداً لأنتما الذم من السلوى ما إذا نشورها
وصيغة المفاعلة وإن كانت في الأصل تدل على المشاركة، فقد جاءت كثيراً لغير ذلك. وقد قَدَّمنا تحقيق هذا في المائدة، والمراد بها هنا المبالغة في صدور الأقسام لهما من إبليس؛ وقيل: إنهما أقسما له بالقبول، كما أقسم لهما على المناصحة، قوله: ﴿فدلاهما بغرور﴾ التولية والإدلاء: إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل، يقال أدلى لدوله: أرسلها والمعنى: أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة؛ وقيل معناه: أوقعهما في الهلاك؛ وقيل: خدعهما، وأنشد نفطويه:

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجرباً لا يخدع
وقيل معنى: ﴿فدلاهما﴾ دللهما من الدالة، وهي الجرأة: أي جأهما على المعصية، فخرجا من الجنة. قوله: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما﴾ أي: لما طعماها ظهرت لهما عورتاهما، بسبب زوال ما كان ساتراً لهما، وهو تقلص النور الذي كان عليهما. وقد تقدَّم في البقرة، قوله: ﴿وطففا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ طفق يفعل كذا بمعنى: شرع يفعل كذا. وحكى الأخفش: طفق يطفق مثل ضرب يضرب أي: شرعوا أو جعلوا يخصفان عليهما، قرأ الحسن «يخصفان» بكسر الخاء وتشديد الصاد، والأصل يخصفان، فادغم وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء. وقرأ الزهري «يخصفان» من أخصف. وقرأ الجمهور «يخصفان» من خصف. والمعنى: أنهما أخذوا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتاهما ليستراهما، من خصف

يقول من فوقهم. وفي لفظ علم أن الرحمة تنزل من فوقهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿منذوما﴾ قال: ملوماً، منحوراً: قال مقيتاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿منذوما﴾ قال: منقياً ﴿منحوراً﴾ قال: مطروداً.

وَبَهَادِمِ الشَّجَرِ أَنْتَ وَرَبِّكَ الْجَنَّةُ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَزِرَا وَرَأْسَ الشَّجَرِ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ فَوَسَّوْا لَهَا الشَّيْطَانُ يَبْشُرُ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَوْءٍ بَيْنَهُمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنْ كُنَا لِنَكُونَا مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطُفِفَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَكَادَتْهُمَا رَهْمًا أَنْ يَنْهَكُمَا عَنْ يَلِكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنْ الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبَّنَا عَلَّمَنَا أَنْفُسَنَا وَلَئِنْ لَمْ تَنْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٠﴾ قَالَ فِيهَا يَحْيَوْنَ وَفِيهَا يُمَوْتُونَ وَفِيهَا يُخْرَجُونَ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿ويا آدم﴾ هو على تقدير القول أي: قلنا يا آدم. قال له هذا القول، بعد إخراج إبليس من الجنة، أو من السماء، أو من بين الملائكة كما تقدَّم. وقد تقدَّم معنى الإسكان، ومعنى: ﴿لا تقربا هذه للشجرة﴾ في البقرة. ومعنى: ﴿ومن حيث شئتما﴾ من أي نوع من أنواع الجنة شئتما أكله، ومثله ما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾ [البقرة: 35] وحذف النون من ﴿فتكونا﴾ لكونه معطوفاً على المجزوم، أو منصوباً على أنه جواب النهي. قوله: ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ الوسوسة: الصوت الخفي، والوسوسة: حديث النفس، يقال وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواساً بكسر الواو، والوسوسة بالفتح الاسم: مثل الزلزلة والزلال، ويقال لهمس الصائد والكلاب، وأصوات الحلي: وسواس. قال الأعشى:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت

والوسواس: اسم الشيطان. ومعنى وسوس له: وسوس إليه، أو فعل الوسوسة لأجله. قوله: ﴿ليبيدي لهما﴾ أي: ليظهر لهما، واللام للعاقبة، كما في قوله: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: 8]؛ وقيل هي لام كي: أي فعل ذلك ليتعقبه الإيذاء، أو لكي يقع الإيذاء. قوله: ﴿ما ووري﴾ أي ما ستر وغطى ﴿عنهما من سواتهما﴾ سمي الفرج سوءة، لأن ظهوره يسوء صاحبه، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستوراً عنهما من عورتاهما، فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما، ولا يراها أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو في ﴿ووري﴾ همزة، لأن الثانية مدة؛ قيل: إنما بدت عورتها لهما لا لغيرهما، وكان عليهما نور يمنع من رؤيتهما ﴿وقال﴾ أي: الشيطان لهما ﴿ما نهاكما ربكما عن﴾ أكل هذه الشجرة ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ أن في موضع نصب، وفي الكلام مضاف محذوف تقديره: ولا كراهة أن تكونا ملكين، هكذا قال البصريون. وقال الكوفيون: التقدير لئلا

أخرى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس بن مالك، قال: كان لباس آدم في الجنة الباقوت، فلما عصى قلع فصار الظفر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ووطفقا يخصفان﴾ قال: يرقعان كهينة الثوب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تكلم الشجرة﴾ قال آدم: رب إنه حلف في بك، ولم أكن أعلم أن أحداً من خلقك يحلف بك إلا صانقاً، وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية قال: هي الكلمات التي تلقى آدم من ربه. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله.

يَنْبَغِي أَدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَزِّي سَوَءَ ذِكْرِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ رِيشٍ إِنَّكَ أَلَمَّا لَمْ تَدْعُوهُمْ ۖ يَنْبَغِي أَدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ۚ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُمْ يَرْنَكُمْ هُوَ وَيُغَلِّبُكُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَأْمُرُونَ وَإِنَّا جَنَّاتُنَا شَجَرًا ۖ أَوَّلِيَّةٌ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

عبر سبحانه بالإنزال عن الخلق: أي خلقنا لكم لباساً يوراري سواكم التي أظهرها إبليس من أبويكم، والسوء العورة كما سلف، والكلام في قدرها وما يجب ستره منها مبين في كتب الفروع. قوله: ﴿وريشاً﴾ قرأ الحسن وعاصم، من رواية المفضل الضبي، وأبو عمرو، من رواية الحسن بن علي الجعفي «وريشاً» وقرأ الباقر «وريشاً» والرياش جمع ريش: وهو اللباس. قال الفراء: ريش وریش كما يقال لبس ولباس، وريش الطائر ما ستره الله به. وقيل المراد بالريش هنا: للخصب ورفاهية العيش. قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل اللغة: أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة. وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة: وهبت له دابة وريشها: أي وما عليها من اللباس. وقيل: المراد بالريش هنا لباس الزينة لذكره بعد قوله: ﴿قد أنزلنا عليكم لباساً﴾ وعطفه عليه. قوله: ﴿ولباس التقوى﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب لباس. وقرأ الباقر بالرفع: فالنصب على أنه معطوف على لباس الأول، والرفع على أنه مبتدأ، وجملة ﴿ذلك خير﴾ خبره، والمراد بلباس التقوى: لباس الورع، واتقاء معاصي الله، وهو الورع نفسه والخشية من الله، فذلك خير لباس وأجمل زينة: وقيل: لباس التقوى الحياء: وقيل: العمل الصالح، وقيل: هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله: وقيل: هو الدرع والمغفر الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله، والأول أولى. وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال، ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع في كلام العرب، ومنه: إذ المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً وإن كان كاسياً ومثله:

تغط بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه
والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى لباس التقوى: أي هو خير لباس، وقرأ الأعمش: ﴿ولباس للتقوى خير﴾ والإشارة

النعل: إذا جعله طبقة فوق طبقة، ﴿وناداهما ربهما﴾ قائلاً لهما: ﴿ألم أنهكما عن تكلم الشجرة﴾ التي نهيتكما عن أكلها، وهذا عتاب من الله لهما وتوبيخ، حيث لم يحذرا ما حذرهما منه ﴿واقبل لكما﴾ معطوف على «أنهكما» ﴿إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ أي: مظهر للعداوة قوله: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل فماذا قالوا؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب، وإنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة، ثم قال: ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾، وجملة ﴿قال اهبطوا﴾ استئنافية كالتي قبلها، والخطاب لأنهم وحواء وذريتهما، أو لهما وإبليس، وجملة ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ في محل نصب على الحال ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: موضع استقرار ﴿و﴾ لكم ﴿متاع﴾ تتمتعون به في الدنيا، وتنتفعون به من الطعام والمشرب ونحوهما ﴿إلى حين﴾ أي: إلى وقت، وهو وقت موتكم، وجملة ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ استئنافية كالتي قبلها: أي في الأرض تحيون، وفيها ياتيكم الموت، ومنها تخرجون إلى دار الآخرة، ومثله قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: 55] وأعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى في البقرة فارجع إليه.

وقد أخرج الحكيم الترمذي في نوازل الأصول، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن وهب بن منبه في قوله: ﴿ليدي لهما ما وري عنهما من سواتهما﴾ قال: كان على كل واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما سوء صاحبه، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: أتاهما إبليس فقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكون ملكين مثله، يعني: مثل الله عز وجل، فلم يصنفاه حتى نخل في جوف الحية فكلهما. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في الآية ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ فإن أخطاكما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالدين فلا تموتان فيها أبداً ﴿وقاسمهما﴾ قال: حلف لهما ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿فدلاهما بغرور﴾ قال: مناهما بغرور. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي شيبة، عن عكرمة قال: لباس كل دابة منها، ولباس الإنسان الظفر، فادركت آدم التوبة عند ظفره. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساکر، عن ابن عباس، قال: كان لباس آدم وحواء كالظفر، فلما أكل من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر ﴿ووطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال: ينزعان ورق التين، فيجعلانه على سواتهما، وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالاً من الظفر، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال، فبقي في أطراف أصابعه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، نحوه من طريق

أَوَّلِيَّةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَنَسَبُونَ أَنْهُمْ مَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

الفاحشة: ما يتبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب. قال أكثر المفسرين: هي طواف المشركين بالبيت عراة. وقيل هي الشرك، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعاً، والمعنى: أنهم إذا فعلوا ذنباً قبيحاً متبالغاً في القبح، اعتذروا عن ذلك بعذرين: الأول: أنهم فعلوا ذلك اقتداءً بأبائهم لما وجبواهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة؛ والثاني: أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه. وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد، لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله، والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء، بل أمرهم باتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلّة ونهاهم عن مخالفتهم، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش، ولهذا ردّ الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه، فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو من تمام ما أمر النبي ﷺ بأن يقول لهم، وفيه من التقرّيع والتوبيخ أمر عظيم، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحاً في كل شيء، فكيف إذا كان في التقرّير على الله؟ وإن في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23] والقائلون: ﴿وَجِئْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾ والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية، والنصراني على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية، والنصرانية، أو البدعية، وأحسنوا الظنّ بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، وبحثوا عن دين الله كما ينبغي، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص، فإما من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ في التحذير، من أن تقول هذه المقالة وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشرّ بالخير، والصحيح بالسقيم، وفسد الرأي بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتباعه ونهى عن مخالفته فقال: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] ولو كان محض رأي أئمة المذاهب واتباعهم حجة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعدّدون يعدد أهل الرأي المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلدة لأراء الرجال مع وجود كتاب الله، ووجود سنة رسوله، ووجود من يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم. قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ القسط: العدل، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل،

بقوله ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إلى الإنزال الملول عليه بأنزلنا: أي ذلك الإنزال من آيات الله الدالة على أن له خالقاً، ثم كرّر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يوقعنكم في الفتنة، فالنهي وإن كان للشيطان، فهو في الحقيقة لبني آدم بأن لا يفتتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك، والكاف في ﴿كَمَا أَخْرَجَ﴾ نعت مصدر محذوف: أي لا يفتتنكم فتنة مثل إخراج أبويكم من الجنة، وجملة: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ في محل نصب على الحال، وقد تقدّم تفسيره، واللام في ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا﴾ لام كي: أي لكي يريهما، وقد تقدّم تفسيره أيضاً. قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها، مع ما تتضمنه من المبالغة في تحذيرهم منه، لأن من كان بهذه المثابة يرى بني آدم من حيث لا يرونه، كان عظيم الكيد، وكان حقيقاً بأن يحترس منه أبلغ احتراس ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ أعوانه من الشياطين وجنوده.

وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة، وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبداً، فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً، ثم أخبر الله سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون من عباده وهم الكفار.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوَاتِكُمْ﴾ قال: كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة، وفي قوله: ﴿وَرِيثاً﴾ قال: المال. وأخرج ابن جرير، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿لِبَاساً يُوَارِي سَوَاتِكُمْ﴾ قال: الثياب ﴿وَرِيثاً﴾ قال: المال ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ قال: خشية الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن علي، في قوله: ﴿لِبَاساً يُوَارِي سَوَاتِكُمْ﴾ قال: لباس العامة ﴿وَرِيثاً﴾ قال: لباس الزينة ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ قال: الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن طريق عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَرِيثاً﴾ قال: المال واللباس والعيش والنعيم، وفي قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ قال: الإيمان والعمل الصالح ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ قال: الإيمان والعمل خير من الريش واللباس، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿وَرِيثاً﴾ يقول: المال. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قال: التقوى، وفي قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ قال: الجن والشياطين.

وَإِذَا قَالُوا فَتْنَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً نَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ بَأْسٌ إِلَّا بِالشَّهَادَةِ أَمَرُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٥﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

نكر القدريّة فقال: قاتلهم الله، اليس قد قال الله تعالى: ﴿كما بداركم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضاً في الآية: يقول كما خلقتكم أول مرة كذلك تعودون.

﴿يَنْهَى آدَمَ عُدُوّاً زَيْنَكَرَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ مَنْ لِلزَّيْنِ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِتْمَارَ وَالْأَنفِيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذا خطاب لجميع بني آدم، وإن كان وارداً على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والزينة ما يترين به الناس من الملبوس، أمروا بالترزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف. وقد استدل بالآية على وجوب ستر العورة في الصلاة، وإليه ذهب جمهور أهل العلم، بل سترها واجب في كل حال من الأحوال، وإن كان الرجل خالياً كما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة، والكلام على العورة وما يجب ستره منها مفصل في كتب الفروع. قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أمر الله سبحانه عباده بالاكل والشرب، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرّة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار، كما صرح في الأحاديث الصحيحة، والمقلد منه على وجه يضاعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه، وعلى من يعول مخالفاً لما أمر الله به وأرشد إليه، والمُسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه، والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهي القرآني؛ وهكذا من حرّم حلالاً أو حلل حراماً، فإنه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتضيين. ومن الإسراف الأكل لا لحاجة، وفي وقت شبع. قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الزينة: ما يترزين به الإنسان، من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة، كالمعادن التي لم يرد نهى عن التزين بها، والجواهر ونحوها؛ وقيل الملبوس خاصة، ولا وجه له، بل هو من جملة ما تشمله الآية، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرّمه الله، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة، ولم يمنع منها مانع شرعي، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطاً بيناً. وقد قدّمنا في هذا ما يكفي، وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما، مما يأكله الناس، فإنه لا زهد في ترك الطيب منها، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرّم ذلك على نفسه، أو حرّمه على غيره. وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري: ولقد أخطأ من أثار لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان، مع وجود السبيل إليه من حله، ومن أكل البقول والعسل، واختاره على خبز البر، ومن ترك

لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء؛ وقيل القسط هنا هو: لا إله إلا الله، وفي الكلام حذف: أي قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه. قوله: ﴿وَاقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ معطوف على المحذوف المقدّر: أي توجهوا إليه في صلاتكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم، أو في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود، على أن المراد بالسجود: الصلاة ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء، أو العبادة له؛ وقيل: وحده ولا تشركوا به. قوله: ﴿كما بداركم تعودون﴾ الكاف: نعت مصدر محذوف. وقال الزجاج: هو متعلق بما قبله. والمعنى: كما أنشاكم في ابتداء الخلق يعيدكم، فيكون المقصود الاحتجاج على منكري البعث، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؛ وقيل: كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شيء، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقتكم أول مرة﴾ [الأنعام: 94] وقيل: كما بداركم من تراب تعودون إلى التراب ﴿فريقاً هدى﴾ منتصب بفعل يفسره ما بعده؛ وقيل: منتصب على الحال من المضمّر في تعودون: أي تعودون فريقين: سعداء وأشقياء، ويقويه قراءة أبي «فريقين فريقاً هدى»، والفريق الذي هداه الله هم: المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حقّت عليه الضلالة: هم الكفار. قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَشَيَاطِينُ أُولِيَاءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ أي: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله، ومع هذا فإنهم «يحسبون أنهم مهتدون»، ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة، وهذا أشدّ في تمردهم وعنادهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، فنهوا عن ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة في الآية قال: والله ما أكرم الله عبداً قط على معصيته، ولا رضيها له ولا أمر بها، ولكن رضي لكم بطاعته، ونهاكم عن معصيته، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿أمر ربي بالقسط﴾ قال: بالعدل ﴿وَاقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال: إلى الكعبة حيث صليتم في كنيسة أو غيرها ﴿كما بداركم تعودون﴾ قال: شقي وسعيد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كما بداركم تعودون﴾ الآية قال: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ [التغابن: 2] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً. وأخرج ابن جرير، عن جابر في الآية قال: يبعثون على ما كانوا عليه المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عنه أنه

جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عنه، في الآية قال: كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فامرهم الله بالزينة. والزينة: اللباس وما يوارى السوء، وما سوى ذلك من جيد البر والمتاع. وأخرج ابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خنوا زينة الصلاة، قالوا: وما زينة الصلاة؟ قال: البسوا نعالكم فصلوا فيها». وأخرج العقيلي، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أنس، عن النبي ﷺ في قول الله: «**خنوا زينتكم عند كل مسجد**» قال: صلوا في نعالكم. والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً، وأما كون ذلك هو تفسير الآية كما روي في هذين الحديثين فلا أدري كيف إسنادهما. وقد ورد النهي عن أن يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء، وهو في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي هريرة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس، قال: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: «**إنه لا يحب المسرفين**» قال: في الطعام والشراب. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: كانت قريش تطوف بالبيت، وهم عراة يصفرون ويصفقون، فانزل الله: «**قل من حرم زينة الله**» فامروا بالثياب أن يلبسوها. «**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**» قال: ينتفعون بها في الدنيا لا يتبعهم فيها ماثم يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الضحاك «**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**» قال: المشركون يشاركون المؤمنين في زهرة الدنيا، وهي خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس «**والطيبات من الرزق**» قال: الدوك، واللحم، والسمن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها، وهو قول الله: «**قل أريتكم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً**» [يونس: 59] وهذا هذا، فانزل الله: «**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**» يعني: شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا، فاكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من جيد ثيابها ونكحوا من صالحى نساها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: ما ظهر منها العرية، وما بطن الزنا، وكانوا يطوفون بالبيت عراة. وأخرج ابن جرير،

اكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة. وقد قمنا نقل مثل هذا عنه مطولاً والطيبات المستلذات من الطعام؛ وقيل هو اسم عام لما طاب كسباً ومطعماً. قوله: «**قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**» أي: أنها لهم بالأصالة، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة «**خالصة يوم القيامة**» أي: مختصة بهم يوم القيامة، لا يشاركهم فيها الكفار. وقرأ نافع «خالصة» بالرفع، وهي قراءة ابن عباس، على أنها خبر بعد خبر. وقرأ الباقون بالنصب على الحال. قال أبو علي الفارسي: ولا يجوز الوقف على الدنيا؛ لأن ما بعدها متعلق بقوله: «**للذين آمنوا**» حال منه بتقدير: قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها لهم يوم القيامة، قوله: «**كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**» أي: مثل هذا التفصيل نفصل الآيات المشتملة على التحليل والتحريم. قوله: «**قل إنما حرم ربي الفواحش**» جمع فاحشة. وقد تقدم تفسيرها «**ما ظهر منها وما بطن**» أي: ما أعلن منها وما أسر؛ وقيل: هي خاصة بفواحش الزنا، ولا وجه لذلك؛ والإثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم؛ وقيل: هو الخمر خاصة؛ ومنه قول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول ومثله قول الآخر:

يشرب الإثم بالصواع جهارا

وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصاً بالخمر. قال النحاس: فاما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك، وحقيقته أنه جميع المعاصي، كما قال الشاعر:

إنني وجدت الأمر أرشدته تقوى الإله وشره الإثم قال الفراء: الإثم ما دون الحق والاستطالة على الناس انتهى. وليس في إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به، فهو أحد المعاصي التي يصدق عليها. قال في الصحاح: وقد يسمى الخمر إثماً، وأنشد:

شربت الإثم

البيت، وكذا أنشده الهروي قبله في غريبته. قوله: «**والبغي بغير الحق**» أي: الظلم المجاوز للحد، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنباً عظيماً كقوله: «**وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**» [النحل: 90] «**وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً**» أي: وأن تجعلوا الله شريكاً لم ينزل عليكم به حجة. والمراد الاتهام بالمشركين، لأن الله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له: «**وان تقولوا على الله ما لا تعلمون**» بحقيقته وأن الله قاله، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم يأن بها.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والنسائي، وغيرهم، عن ابن عباس، أن النساء كنّ يظفن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول:

اليوم يلبو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله فنزلت: «**خنوا زينتكم عند كل مسجد**». وأخرج ابن

منها، بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسول ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أحد أظلم منه. وقد تقدّم تحقيقه، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المكذبين المستكبرين ﴿يُنَالِهِمْ فَتُصَيِّبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي:

مما كتب الله لهم من خير وشر؛ وقيل: ينالهم من العذاب بقدر كفرهم؛ وقيل: الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار منكور فيه؛ وقيل هو اللوح المحفوظ. قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا﴾ أي: إلى غاية هي هذه، وجملة ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ في محل نصب على الحال. والمراد بالرسول هنا: ملك الموت وأعوانه؛ وقيل: حتى هنا هي التي للابتداء، ولكن لا يخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها لا ينافي كونها غاية لما قبلها، والاستفهام في قوله ﴿إِنَّمَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ للتقريع والتوبيخ: أي أين الإلهة التي كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها، وجملة ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾

استئنافية بتقدير سؤال وقعت هي جواباً عنه: أي ذهبوا عنا وغابوا فلا ندري أي هم؟ ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: اقروا بالكفر على أنفسهم. قوله: ﴿قَالَ انْخَلَوْا فِي أَمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ الْقَائِلُ: هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي﴾ بمعنى مع: أي مع أمم؛ وقيل: هي على بابها، والمعنى: انخلوا في جملتهم؛ وقيل: هو قول مالك خازن النار، والمراد بالأمم التي قد خلت من قبلهم من الجن والإنس: هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية ﴿كَلِمًا نَخَلَتْ مِنْهُمُ الْأُمَمُ الْمَاضِيَّةُ﴾ أي: الإمة

الأخرى التي سبقتها إلى النار، وجعلت أختاً لها باعتبار الدين، أو الضلالة، أو الكون في النار ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكُوا فِيهَا﴾ أي: تداركوا، والتدارك: التلاحق والتتابع، والاجتماع في النار. وقرأ الأعمش «تداركوا» على الأصل من دون إدغام. وقرأ ابن مسعود ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكُوا﴾ أي: أدرك بعضهم بعضاً. وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بقطع ألف الوصل، فكانه سكت على إذا للتذكّر، فلما طال سكوته، قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها، وهو مثل قول الشاعر:

يا نفس صبراً كل حي لاقي وكل اثنين إلى افتراق
﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أي أخراهم دخولاً لأولاهم دخولاً؛ وقيل أخراهم: أي سفلتهم وأتباعهم ﴿لأُولَاهُمْ﴾ لرؤسائهم وكبارهم، وهذا أول كما يدل عليه ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ فإن المضلين هم الرؤساء. ويجوز أن يراد أنهم أضلّوهم لأنهم تبعوهم واقتدوا ببينهم من بعدهم، فيصح الوجه الأول، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم قوله: ﴿فَاتَّهَمُوا عَذَابًا ضَعِيفًا مِنَ النَّارِ﴾ الضعف الزائد على مثله مرة أو مرات، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَتَاهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا﴾ وقيل: الضعف هنا الانفاقي والحيات، وجملة ﴿قَالَ لِكُلِّ ضَعِيفٍ﴾ استئنافية جواباً لسؤال مقدّر؛ والمعنى لكل طائفة منكم ضعف من العذاب: أي الطائفة الأولى، والطائفة الأخرى ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بما لكل نوع من العذاب ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ﴾ أي: قال السابقون

عن مجاهد، في الآية قال: ما ظهر منها طواف الجاهلية عراة، وما بطن الزنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَالْإِثْمُ﴾ قال المعصية ﴿وَالْبَغْيُ﴾ قال: أن يبغى على الناس بغير حق.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَرْجِعُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٢١﴾ يَبْقَى عَادَمٌ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَنَ وَأَسْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَرْجُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَتْلُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا مِنْهُمُ الَّذِي قَالُوا لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ فَنَدُّوهُمُ بِالْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله أو يميتهم فيه، ويجوز أن تحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعاً، والضمير في ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدره عليهم واقعاً في تلك الأجل، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة. قال أبو السعود ما معناه: إن قوله: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عطف على ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لكن لا لبيان انتفاء التقدّم، مع إمكانه في نفسه، كالتأخر بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلاً؛ وقيل المراد بالمجيء النور حيث يمكن التقدّم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة منه وليس بذاك. وقرأ ابن سيرين ﴿أَجَالَهُمْ﴾ بالجمع، وخصّ الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات. وقد استدل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله، وإن كان موته بالقتل أو التردّي أو نحو ذلك، والبحث في ذلك طويل جداً، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: 5]. قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتِيَنكُمْ﴾ الآية، إن هي الشرطية، ما زائدة للتوكيد، ولهذا لزمت الفعل النون المؤكدة، والقصص قد تقدّم معناه؛ والمعنى: إن اتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامي ويبينونها لكم، ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي: اتقى معاصي الله، وأصلح حال نفسه باتباع الرسل، وإجابتهم ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذه الجملة الشرطية هي الجواب للشرط الأول؛ وقيل جوابه ما دل عليه الكلام: أي إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي، فأطيعوهم. والأول: أولى، وبه قال الزجاج ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي يقصاها عليهم رسلنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن إجابتهما، والعمل بما فيها ﴿قَالُوا لَكِ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون

لكل ضعف ﴿الاولى والآخرة﴾ وقالت اولاهم لآخرهم فما كان لكم علينا من فضل ﴿وقد ضللتكم كما ضللتنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿عذاباً ضعفاً﴾ قال: مضاعفاً ﴿قال لكل ضعف﴾ قال: مضاعف، وفي قوله: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ قال: تخفيف من العذاب.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ هُمْ فِي جَهَنَّمَ مَبْنُوءٌ مِنْ قُوَّتِهِمْ غَوَاةٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نَكُفُّ عَنْهُمْ نَسَبًا إِلَّا وَهُمْ فِي أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿لا تفتح لهم ابواب السماء﴾ قرأ ابن عباس، وحمزة، والكسائي يفتح التحتية؛ لكون تانيث الجمع غير حقيقي فجاز تفكيره. وقرأ الباقون بالفوقية على التانيث. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، تفتح بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، والمعنى: أنها لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، وقد دل على هذا المعنى، وأنه المراد من الآية: ما جاء في الأحاديث الصحيحة، أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء؛ وقيل لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا؛ قاله مجاهد والنخعي؛ وقيل لأعمالهم: أي لا تقبل، بل ترد عليهم فيضرب بها في وجوههم؛ وقيل المعنى: أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها، لأن الجنة في السماء، فيكون على هذا القول العطف لجملة ﴿ولا يدخلون الجنة﴾ من عطف التفسير، ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء والأعمال، ولا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره، مما يدخل تحت عموم الآية. قوله: ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ أي: أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين، لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، ولهذا علقه بالمستحيل، فقال: ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ وهو لا يلج أبداً، وخص الجمل بالذكر؛ لكونه يضرب به المثل في كبر الذات، وخص سم الخياط، وهو ثقب الإبرة بالذكر؛ لكونه غاية في الضيق. والجمل: الذكر من الإبل، والجمع جمال وأجمال وجماليات، وإنما يسمى جملاً إذا أربع. وقرأ ابن عباس «الجمل» بضم الجيم وفتح الميم مشددة، وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس، وهو حبال مجموعة قاله ثعلب؛ وقيل الحبل الغليظ من القنب؛ وقيل الحبل الذي يصعد به في النخل. وقرأ سعيد بن جبير «الجمل» بضم الجيم وتخفيف الميم: وهو القلس أيضاً. وقرأ أبو السماك «الجمل» بضم الجيم وسكون الميم. وقرئ أيضاً بضمهما. وقرأ عبد الله بن مسعود «حتى يلج الجمل الأصغر في سم الخياط» وقرئ «في سم»

اللاحقين، أو المتبوعون للتابعين ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ بل نحن سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه ﴿فتذوقوا﴾ عذاب النار، كما نقتناه ﴿بما كنتم تكسبون﴾ من معاصي الله والكفر به.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والخطيب، وابن النجار، عن أبي الدرداء قال: تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله ﷺ، فقلنا من وصل رحمه أنسى في أجله فقال: إنه ليس بزائد في عمره، قال الله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة، فيدعون الله من بعده فيبلغه ذلك، فذلك الذي ينسأ في أجله، وفي لفظ: فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر. وهذا الحديث ينبغي أن يكشف عن إسناد، ففيه نكارة، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما بخلافه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان الحسن يقول: ما أحق هؤلاء القوم يقولون اللهم أطل عمره، والله يقول: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، من طريق الزهري، عن ابن المسيب قال: لما طعن عمر قال كعب: لو دعا الله لأخر في أجله، فقليل له: اليس قد قال الله: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فقال كعب: وقد قال الله: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ [فاطر: 11]. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لؤلؤك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ قال: ما قدر لهم من خير وشر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: من الأعمال، من عمل خيراً جزى به، ومن عمل شراً جزى به. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: نصيبهم من الشقاوة والسعادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: ما سبق من الكتاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في الآية قال: رزقه وأجله وعمله. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي صالح، في الآية قال: من العذاب. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿قد خلت﴾ قال: قد مضت ﴿كلما نخلت أمة لعنت لاختها﴾ قال: كلما نخلت أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك، يلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى ﴿حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت لآخرهم﴾ الذين كانوا في آخر الزمان ﴿لاولاهم﴾ الذين شرعوا لهم تلك الدين ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ قال

الفضل من الله ﴿[النساء: 70] وفيه: ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ [النساء: 175].

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ يعني: لا يصعد إلى الله من عملهم شيء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: لا تفتح لهم لعمل ولا لدعاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً في الآية قال: لا تفتح لأرواحهم، وهي تفتح لأرواح المؤمنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه أيضاً ﴿حتى يلج الجمل﴾ قال: ذو القوائم ﴿في سم الخياط﴾ قال: في خرت الإبرة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الكبير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿حتى يلج الجمل﴾ قال: زوج الناقة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، من طرق عن ابن عباس، أنه كان يقرأ الجمل بضم الجيم وتشديد الميم وقال: هو الحبل الغليظ أو هو من حبال السفن. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عمر، أنه سئل عن سم الخياط فقال: الجمل في ثقب الإبرة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس قال: المهاد الفراش، والغواش اللحف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا الله فيكون حسرة عليهم، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لو أن هدانا الله فهذا شكرهم». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد وعبد بن حميد، والدارمي، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي سعيد، وأبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿ونوبوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قال: نوبوا أن صحوا فلا تسقموا، وانعموا فلا تبأسوا، وشبوا فلا تهرموا، واخلوا فلا تموتوا.

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ يُخَرِّجُ مِنْ نَحْمِهِمْ الْأَنفُسَ وَقَالُوا لَحْنَدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَذَا اللَّهُ فَقَدِ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمَهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَكَادَى أَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَحْسَبُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَدِدْنَا مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ مَوْذُونٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَقِيَ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَرْبُّونَ عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿١٨﴾ وَبَيْنَهُمَا جَهَنَّمُ وَالَّتِي الْأَعْرَابُ يَجَالُ بِرَبْوَةٍ كَلَّا يَسْبِقُهُمْ وَكَادُوا أَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَوْ يَدْعَوْهُمُ وَمَنْ يَتَّبِعُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْهِمْ أَحْسَبُ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ وَكَادَى أَحْسَبُ الْأَعْرَابِ يَجَالُ بِرَبْوَةٍ هُمْ يَسْبِقُهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ

بالحرركات الثلاث، والسم: كل ثقب لطيف، ومنه ثقب الإبرة، والخياط ما يخاط به، يقال خياط ومخيط ﴿وكنلك نجزي للمجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزء الفظيع نجزي المجرمين: أي جنس من أجرم وقد تقدم تحقيقه. والمهاد: الفراش، والغواش جمع غاشية: أي نيران تغشاها من فوقهم كالأغطية ﴿وكنلك نجزي الظالمين﴾ أي: مثل ذلك الجزء العظيم نجزي من اتصف بصفة الظلم. قوله: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: لا نكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم ويقدرُونَ عليه، ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم، وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر، ومثله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ [الطلاق: 7] وقرأ الأعمش تكلف بالفوقية ورفع نفس، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الموصول، وخبره ﴿أصحاب الجنة﴾ والجملة خبر الموصول، وجملة ﴿وهم فيها خالدون﴾ في محل نصب على الحال. قوله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة، أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغل على بعضهم بعضاً، حتى تصفو قلوبهم ويؤد بعضهم بعضاً، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا، لكان في تلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر. والغل: الحقد الكامن في الصدور؛ وقيل: نزع الغل في الجنة، أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل المنازل ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ أي لهذا الجزء العظيم، وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من صدورهم، والهداية هذه لهذا هي الهداية لسببه من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا ﴿وما كنا لنهتدي﴾ قرأ ابن عامر بإسقاط الواو، وقرأ الباقر بن أثباتها، وما كنا نطيع أن نهتدي بهذا الأمر لولا هداية الله لنا، والجملة مستأنفة أو حالية، وجواب لولا محذوف يدل عليه ما قبله: أي لولا هداية الله لنا ما كنا لنهتدي. قوله: ﴿فلقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ اللام لام القسم، قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزء العظيم، اغتباطاً بما صاروا فيه بسبب ما تقدم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبرهم به في الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه. قوله: ﴿ونوبوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي: وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقيل لهم تلکم الجنة أورثتموها: أي ورثتم منازلها بعملكم. قال في الكشف: بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما نقوله المبطله انتهى.

أقول: يا مسكين هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه «سئدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمطني الله برحمته» والتصريح بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل باقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطله، وفي التنزيل: ﴿ذلك

تَسْكُرُونَ ﴿١٨﴾ أَهْوَأَ الَّذِينَ أَفْسَدُوا لَا يَتَأْتُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا جَهَنَّمَ لَا حُوفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَشَدَّ حَرًّا وَتُحَرِّزُونَ ﴿١٩﴾

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبيكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم، **﴿وَأَن قَدْ وَجِنَا﴾** هو نفس النداء: أي إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم، فهل وصلتم إلى ما وعدكم الله به من العذاب الأليم، والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ، وحذف مفعول وعد الثاني لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب؛ وقيل حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد: **﴿قَالُوا نَعَمْ﴾** أي: وجننا ما وعدنا ربنا حقاً. وقرأ الأعمش والكسائي «نعم» بكسر العين. قال مكي: من قال نعم بكسر العين فكأنه أراد أن يفرق بين نعم التي جواب وبين نعم التي هي اسم للبقر والغنم والإبل. والمؤنن: المنادي، أي: فنادي مناد بينهم: أي بين الفريقين؛ قيل: هو من الملائكة **﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والبزي، بتشديد أن وهو الأصل. وقرأ الباقر بالتخفيف على أنها المخففة من الثقلة أو المفسرة. وقرأ الأعمش بكسر همزة إن على إضمار القول، وجملة: **﴿الَّذِينَ يَصْنَعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** صفة للظالمين، ويجوز الرفع والنصب على إضمارهم، أو أعني. والصد: المنع، أي يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق **﴿وَيُوبِقُونَهَا عُوجًا﴾** أي: يظلمون أعوجاجها: أي ينفرون الناس عنها ويقنحون في استقامتها، بقولهم إنها غير حق وإن الحق ما هم فيه، والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن منتصباً، وبالفتح ما كان في المنتصب كالرمح، وجملة: **﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾** في محل نصب على الحال. قوله: **﴿وَيُبِينُهُمَا حِجَابٌ﴾** أي: بين الفريقين أو بين الجنة والنار. والحجاب هو السور المذكور في قوله تعالى: **﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾** [الحديد: 13]. قوله: **﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾** الأعراف: جمع عرف، وهي شرفات السور المضروب بينهم، ومنه عرف الفرس وعرف الديك والأعراف في اللغة: المكان المرتفع، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله: **﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾** [النور: 37].

وقد اختلف العلماء في أصحاب الأعراف من هم؟ فقليل هم الشهداء، ذكره القشيري وشرحيل بن سعد؛ وقيل: هم فضلاء المؤمنين، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس ذكره مجاهد؛ وقيل: هم قوم أنبياء ذكره الزجاج؛ وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان، وابن عباس والشعبي، والضحاك وسعيد بن جببر؛ وقيل هم العباس وحمزة وعلي وجعفر الطيار، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيههم بسوادها، حكى ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة، واختار

هذا القول النحاس؛ وقيل هم أولاد الزنا، روي ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار، ذكره أبو مجلز، وجملة: **﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾** صفة لرجال: والسيما العلامة: أي يعرفون كلًّا من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها، أو مواضع الوضوء من المؤمنين، أو علامة يجعلها الله لكل فرق في ذلك الموقف، يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء **﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾** أي: نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم **﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾** أي: نادوهم بقولهم سلام عليكم، تحية لهم وإكراماً وتبشيراً، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب. قوله: **﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾** أي: لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف، والحال أنهم يطمعون في دخولها؛ وقيل معنى: **﴿يَطْمَعُونَ﴾** يعلمون أنهم يدخلونها وذلك معروف عند أهل اللغة: أي طمع بمعنى علم. ذكره النحاس. وهذا القول أعني كونهم أهل الأعراف مروى عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود. وقال أبو مجلز: هم أهل الجنة: أي أن أهل الأعراف قالوا لهم سلام عليكم، حال كون أهل الجنة لم يدخلوها والحال أنهم يطمعون في دخولها. قوله: **﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾** أي: إذا صُرِفَتْ أَبْصَارُ أَهْلِ الْأَعْرَافِ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ: أي جهة أصحاب، وأصل معنى **﴿تِلْقَاءَ﴾** جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة، ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أوله غير مصدرين، أحدهما هذا، والآخر تبيان، وما عاهاما بالفتح **﴿قَالُوا﴾** أي: قال أهل الأعراف **﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** سألوا الله أن لا يجعلهم منهم **﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾** من الكفار **﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾** أي بعلاماتهم **﴿قَالُوا﴾** بدل من نادى **﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾** الذي كنتم تجمعون للصد عن سبيل الله، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، قوله: **﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾**. «ما» مصدرية أي: وما أغنى عنكم استكباركم **﴿أَهْوَأَ لَنَيْنِ أَقْسَمْتُ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾** هذا من كلام أصحاب الأعراف: أي قالوا للمسلمين ادخلوا الجنة، فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول. وقرأ طلحة بن مصرف «الخلوا» بكسر الخاء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿أَن قَدْ وَجِنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾** قال: من النعيم والكرامة **﴿فَهَلْ وَجِنْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾** قال: من الخزي والهوان والعذاب. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عمر: أن النبي ﷺ لما وقف على قلبه بدر

والاستقرار. قال الجوهري: استوى على ظهر دابته: أي استقر، واستوى إلى السماء: أي صعد، واستوى: أي استولى وظفر، ومنه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهبraq
واستوى الرجل: أي انتهى شبابه، واستوى: أي انتسق واعتدل. وحكى عن أبي عبيدة أن معنى «استوى» هنا: علا، ومثله قول الشاعر:

فلورد بهم ماء ثقيفاً بقفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى
أي: علا وارتفع. والعرش. قال الجوهري: هو سرير الملك. ويطلق العرش على معان أخر منها عرش البيت: سقفه، وعرش البئر: طيها بالخشب، وعرش السماك: أربعة كواكب صغار، ويطلق على الملك والسلطان والعز ومنه قول زهير:

تداركتما عبساً وقد ثلَّ عرشها ونبيان إذ زلت بأقدامها النعل
وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحرث بن شهاب
وقول الآخر:

رأوا عرشي تلحم جانباه فلما أن تلحم أقرنوني
وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن، وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما، وهو المراد هنا. قوله: «يغشي الليل للنهار» أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار، فيغطي بظلمته ضياءه. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي «يغشي» بالتشديد، وقرأ الباقيون بالتخفيف وهما لغتان، يقال أغشى يغشي، وغشى يغشي، والتغشية في الأصل: لباس الشيء الشيء، ولم يذكر في هذه الآية يغشي الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى: «سراويل تقيكم الحر» [النحل: 81]. وقرأ حميد بن قيس «يغشي الليل للنهار» على إسناد الفعل إلى الليل، ومحل هذه الجملة النصب على الحال، والتقدير: استوى على العرش مغشياً الليل للنهار، وهكذا قوله: «يطلبه حثيثاً» حال من الليل: أي حال كون الليل طالباً للنهار طلباً حثيثاً لا يفتر عنه بحال، وحثيثاً صفة مصدر محذوف، أي يطلبه طلباً حثيثاً: أو حال من فاعل يطلب. والحث: الاستعجال والسرعة، يقال ولي حثيثاً: أي مسرعاً. قوله: «والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره» قال الأخفش: معطوف على السموات، وقرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء والخبر. والمعنى على الأول: وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات، وعلى الثاني: الإخبار عن هذه بالتسخير. قوله: «إلا له الخلق والأمر» إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له، والخلق: المخلوق، والأمر: كلامه، وهو كن في قوله: «إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» [النحل: 40]، أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل، أو التصرف في مخلوقاته، ولما ذكر سبحانه في هذه الآية خلق السموات والأرض في تلك الأمد اليسير، ثم ذكر استواءه على عرشه وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وإن له الخلق والأمر. قال:

للمعاصرين للنبي ﷺ، فالمراد بالكتاب: القرآن، والتفصيل التبيين، و«على علم» في محل نصب على الحال: أي عالمين حال كونه «هدى» للمؤمنين «ورحمة» لهم. قال الكسائي والفراء: ويجوز «هدى ورحمة» بالخفض على النعت لكتاب. قوله: «هل ينظرون إلا تأويله» بالهمز من آل، وأهل المدينة يخفون الهمزة. والنظر الانتظار: أي هل ينتظرون إلا ما وعدوا به في الكتاب من العقاب الذي يتول الأمر إليه: وقيل: تأويله جزأؤه؛ وقيل عاقبته. والمعنى متقارب. ويوم ظرف ليقول: أي يوم يأتي تأويله، وهو يوم القيامة «يقول للذين نسوه من قبل» أي: تركوه من قبل أن يأتي تأويله «قد جاءت رسل ربنا بالحق» الذي أرسلهم الله به إلينا «فهل لنا من شفعاء» استفهام منهم، ومعناه التمني «فشفعوا لنا» منصوب لكونه جواباً للاستفهام. قوله: «أو نرد» قال الفراء: المعنى أو هل نرد «فنعمل غير الذي كنا نعمل» وقال الزجاج: نرد عطف على المعنى: أي هل يشفع لنا أحد أو نرد. وقرأ ابن أبي إسحاق «أو نرد فنعمل» بنصبهما، كقول امرئ القيس:

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا
وقرأ الحسن برفعهما، ومعنى الآية: هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب، أو هل نرد إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير ما كنا نعمل من المعاصي «قد خسروا أنفسهم» أي: لم ينتفعوا بها، فكانت أنفسهم بلاء عليهم ومحنة لهم، فكانهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله؛ وقيل خسروا النعيم وحظ الأنفس «ووصل عنهم ما كانوا يفترون» أي: افترأهم أو الذي كانوا يفترونه. والمعنى أنه بطل كذبهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا، أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً فلم ينفعهم ولا حضر معهم. قوله: «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام» هذا نوع من بديع صنع الله، وجليل قدرته، وتفرده بالإيجاد، الذي يوجب على العباد توحيده وعبادته. وأصل ستة سبسة أبيلت التاء من أحد السيتين وأدغم فيها الدال، والليل على هذا أنك تقول في التصغير سديسة، وفي الجمع أسداس، وتقول جاء فلان سادساً. واليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، قيل: هذه الأيام من أيام الدنيا؛ وقيل: من أيام الآخرة، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة، وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد أن يعلم عباده الفرق والثاني في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلاً، وفي آية أخرى «ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب» [ق: 38]. قوله: «ثم استوى على العرش»:

قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقها وأولها بالصواب مذهب السلف الصالح أنه: استوى سبحانه عليه بلا كيف بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه، والاستواء في لغة العرب هو العلو

﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: كثرت بركته واتسعت، ومنه بورك الشيء وبورك فيه، كذا قال ابن عرفة. وقال الأزهري **﴿تَبَارَكَ﴾** معناه تعالى وتعاظم. وقد تقدم تفسير **﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** في الفاتحة مستكملاً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾** الآية قال: ينادي الرجل أخاه فيقول: يا أخي أغثنني، فإني قد احترقت، فأقض علي من الماء، فيقال أجبه، فيقول: إن الله حرّمهما على الكافرين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿أَفْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾** قال: من الطعام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في الآية قال: يستسقونهم ويستطعمونهم، وفي قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** قال: طعام الجنة وشرابها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾** يقول: نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾** قال: نؤخرهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾** قال: عاقبته. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: **﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾** جزأؤه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: **﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾** قال: يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾** قال: ما كانوا يكتبون في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿خُلِقَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** قال: كل يوم مقداره ألف سنة. وأخرج ابن مردويه، عن أم سلمة، قال في قوله: **﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** الكيف: غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود كفر. وأخرج اللالكائي عن مالك أن رجلاً سأله كيف استوى على العرش؟ فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه، عن الحسن بن علي، قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية في كل ليلة أن يحصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضاري، ومن كل لص عادي: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾** [الأعراف: 54 - 56] وعشرراً من أول سورة الصفات، وثلاث آيات من الرحمن. أولها **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾** [الرحمن: 33 - 35]، وخاتمة الحشر. وأخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبي مرزوق قال: من قرأ عند نومه **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ**

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْكًا وَقَطَمًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنْ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَمَا أَلَّاكُمُ الْفَوْقَ لِمَلَكِكُمْ تَنَكَّرْتُمْ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِي الْفُتُوحُ يَخْرُجُ بَنَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِيدًا كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

أمرهم الله سبحانه بالدعاء، وقيد ذلك بكون الداعي متضرعاً بدعائه مخفياً له، وانتصاب **﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾** على الحال أي: متضرعين بالدعاء مخفين له، أو صفة مصدر محذوف أي: ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية. والتضرع من الضراعة، وهي الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية: الإسرار به، فإن ذلك قطع لعرق الرياء، وأحسم لباب ما يخالف الإخلاص، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَبِينَ﴾** أي: المجاوزين لما أمروا به في الدعاء وفي كل شيء، فمن جاوز ما أمره الله به في شيء من الأشياء فقد اعتدى، والله لا يحب المعتبين، وتدخل المجاوزة في الدعاء في هذا العموم لخواً أولاً. ومن الاعتداء في الدعاء: أن يسأل الداعي ما ليس له، كالخلود في الدنيا، أو إدراك ما هو محال في نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء في الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به. قوله: **﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** نهاهم الله سبحانه عن الفساد في الأرض بوجه من الوجوه، قليلاً كان أو كثيراً، ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم، وقطع أشجارهم، وتغوير أنهارهم. ومن الفساد في الأرض: الكفر بالله والوقوع في

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾** الآية قال: ينادي الرجل أخاه فيقول: يا أخي أغثنني، فإني قد احترقت، فأقض علي من الماء، فيقال أجبه، فيقول: إن الله حرّمهما على الكافرين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿أَفْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾** قال: من الطعام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في الآية قال: يستسقونهم ويستطعمونهم، وفي قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** قال: طعام الجنة وشرابها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾** يقول: نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾** قال: نؤخرهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾** قال: عاقبته. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: **﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾** جزأؤه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: **﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾** قال: يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾** قال: ما كانوا يكتبون في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿خُلِقَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** قال: كل يوم مقداره ألف سنة. وأخرج ابن مردويه، عن أم سلمة، قال في قوله: **﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** الكيف: غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود كفر. وأخرج اللالكائي عن مالك أن رجلاً سأله كيف استوى على العرش؟ فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه، عن الحسن بن علي، قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية في كل ليلة أن يحصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضاري، ومن كل لص عادي: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾** [الأعراف: 54 - 56] وعشرراً من أول سورة الصفات، وثلاث آيات من الرحمن. أولها **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾** [الرحمن: 33 - 35]، وخاتمة الحشر. وأخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبي مرزوق قال: من قرأ عند نومه **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ**

معاصيه، ومعنى **﴿بعد إصلاحها﴾**: بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقرير الشرائع. قوله: **﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾** إعرابهما يحتمل الوجهين المتقدمين في **﴿تضرعاً وخفية﴾** وفيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجللاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء، ظفر بمطلوبه، والخوف: الانزعاج من المضار التي لا يؤمن من وقوعها، والطمع: توقع حصول الأمور المحبوبة. قوله: **﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾** هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباداه المحسنين، بأي نوع من الأنواع كان إحسانهم. وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم، فإن قرب هذه الرحمة التي يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عبادة الله.

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب في وجه تنكير خبر رحمة الله حيث قال قريب ولم يقل قريبة، فقال الزجاج: إن الرحمة مؤولة بالرحم، لكونها بمعنى العفو والغفران، ورجح هذا التأويل النحاس. وقال التضمر بن شميل: الرحمة مصدر بمعنى الترحم، وحق المصدر التنكير. وقال الأخفش سعيد: أراد بالرحمة هنا المطر، وتنكير بعض المؤنث جائز، وأنشد: فلما زنة وبقت وبقتها ولا أرض أبقل أبقالها وقال أبو عبيدة: تنكير قريب على تنكير المكان: أي مكان قريب. قال علي بن سليمان الأخفش: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان قريب منصوباً كما تقول: إن زيدا قريباً منك. وقال الفراء: إن القريب إذا كان بمعنى المسافة، فينكر ويؤنث، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم. وروي عن الفراء أنه قال: يقال في النسب قريبة فلان، وفي غير النسب يجوز التنكير والتأنيث فيقال: دارك عنا قريب، وفلانة منا قريب قال الله تعالى: **﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾** [الأحزاب: 63] ومنه قول امرئ القيس:

للكويل أن أمسيني ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا وروي عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله وقال: إن سبيل المنكر والمؤنث، أن يجريا على أفعالهما؛ وقيل: إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقي، جاز في خبرها التنكير، نكر معناه الجوهري. قوله: **﴿وهو الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته﴾** عطف على قوله: **﴿يغشي الليل النهار﴾** يتضمن نكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده، مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته. ورياح جمع ريح، وأصل ريح روح، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «نشراً» بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب: أي ذات نشر. وقرأ الحسن وقتادة، وابن عامر «نشراً» بضم النون وإسكان الشين من نشر. وقرأ الأعمش وحزمة والكسائي «نشراً» بفتح النون، وإسكان الشين على المصدر، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال، ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر، الذي هو خلاف الطي فكان الريح مع سكونها كانت مطوية، ثم ترسل

من طيها فتصير كالمنفتحة. وقال أبو عبيدة: معناه متفرقة في وجوهها، على معنى ننشرها ها هنا وما هنا. وقرأ عاصم **﴿يشراً﴾** بالياء الموحدة وإسكان الشين جمع بشير: أي الرياح تبشر بالمطر، ومثله قوله تعالى: **﴿وهو الذي يرسل الرياح مبشرات﴾** [الروم: 46]. قوله: **﴿بين يدي رحمته﴾** أراد بالرحمة هنا المطر: أي قدام رحمته، والمعنى: أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدي المطر. قوله: **﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾** أقل فلان الشيء: حملة ورفع، والسحاب ينكر ويؤنث، والمعنى: حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالياء الذي صارت تحمله **﴿سقناها﴾** أي السحاب **﴿بلبلد ميت﴾** أي: مجبب ليس فيه نبات، يقال سقته لبلد كذا، وإلى بلد كذا؛ وقيل اللام هنا لام العلة: أي لأجل بلد ميت، والبلد: هو الموضع العامر من الأرض **﴿فأنزلنا به الماء﴾** أي: بالبلد الذي سقناه لأجله أو بالسحاب أي: أنزلنا بالسحاب الماء الذي تحمله أو بالريح أي: فأنزلنا بالريح المرسله بين يدي المطر الماء؛ وقيل إن الباء هنا بمعنى من: أي فأنزلنا معه الماء **﴿فأخرجنا به﴾** أي بالياء **﴿من كل الثمرات﴾** أي: من جميع أنواعها. قوله: **﴿كنلك نخرج الموتى﴾** أي: مثل تلك الإخراج، وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم **﴿لعلكم تتكرون﴾** أي: تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته، وإنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التي تشاهدونها. قوله: **﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾** أي: التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره إخراجاً حسناً تاماً وافياً **﴿والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾** أي: والتربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكداً: أي لا خير فيه. وقرأ طلحة بن مصرف «نكداً» بسكون الكاف. وقرأ ابن القعقاع «نكداً» بفتح الكاف: أي ذا نكد. وقرأ الباقون «نكداً» بفتح النون وكسر الكاف. وقرأ **﴿يخرج﴾** أي: يخرج به البلد؛ قيل: ومعنى الآية التشبيه، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب، والبلد بالبلد الخبيث، نكره النحاس؛ وقيل هذا مثل للقلوب، فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب، والثاني عنه بالبلد الخبيث، قاله الحسن؛ وقيل: هو مثل لقلب المؤمن والمنافق قاله قتادة؛ وقيل هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم، قاله مجاهد، **﴿كنلك نصرف الآيات﴾** أي: مثل تلك التصريف **﴿لنقوم يشكرون﴾** الله ويعترفون بنعمته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿ادعوا ريكم تضرعاً وخفية﴾** قال: السر **﴿إنه لا يحب المعتدين﴾** في الدعاء ولا في غيره. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: التضرع علانية والخفية سر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبیر، في قوله: **﴿ادعوا ريكم تضرعاً وخفية﴾** يعني: مستكيناً، وخفية: يعني في خفض وسكون في حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة **﴿إنه لا يحب المعتدين﴾** يقول: لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشر: اللهم احزه والعنه ونحو ذلك فإن ذلك عبوان. وأخرج ابن

لما بيّن سبحانه كمال قدرته، وبديع صنعته في الآيات السابقة، ذكر هنا أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم، لتنبية هذه الأمة على الصواب، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة. واللام جواب قسم محذوف. وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، وقد تقدّم ذكر نوح في آل عمران، فأغني عن الإعادة هنا، وما قيل من أن إدريس قبل نوح، فقال ابن العربي: إنه وهم. قال المازري: فإن صح ما ذكره المؤرخون كان محمولاً على أن إدريس كان نبياً غير مرسل، وجملة: **﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾** استئنافية جواب سؤال مقدر. قوله: **﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾** هذه الجملة في حكم العلة، لقوله: **﴿اعْبُدُوا﴾** أي: اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره، حتى يستحق منكم أن يكون معبوداً. قرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، وابن كثير، وابن عامر برفع غيره على أنه نعت لإله على الموضع. وقرأ الكسائي بالخفض في جميع القرآن، على أنه نعت على اللفظ. وأجاز الفراء والكسائي النصب على الاستثناء: يعني ما لكم من إله إلا إياه. وقال أبو عمرو: ما أعرف الجزّ ولا النصب. ويردّه أن بعض بني أسد ينصبون «غير» في جميع الأحوال، ومنه قول الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطق حمامة في غضون ذات أرقال
وجملة: **﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة: أي إن لم تعبدوه فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة أو عذاب يوم الطوفان. قوله: **﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾** جملة استئنافية جواب سؤال مقدر، والملا أشرف القوم ورؤسائهم؛ وقيل: هم الرجال، وقد تقدّم بيانه في البقرة، والضلال: العدول عن طريق الحق والذهاب عنه: أي إنا لنراك في دعائك إلى عبادة الله وحده في ضلال عن طريق الحق، وجملة: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾** استئنافية أيضاً، جواب سؤال مقدر **﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾** كما تزعمون **﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**: أرسلني إليكم لسوق الخير إليكم، ودفع الشر عنكم، نفى عن نفسه الضلالة، وأثبت لها ما هو أعلى منصباً وأشرف رفعة، وهو أنه رسول الله إليهم، وجملة: **﴿أَبْلَغَكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي﴾** في محل رفع على أنها صفة لرَسُول، أو هي مستأنفة مبينة لحال الرسول. والرسالات: ما أرسله الله به إليهم مما أوجاه إليه **﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾** عطف على **﴿أَبْلَغَكُمْ﴾** يقال: نصحتك ونصحت له، وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في إحاض النصح، قال الأصمعي: الناصح: الخالص من الغل، وكل شيء خلص فقد نصح، فمعنى أنصح هنا: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد، والاسم النصيحة وجملة: **﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** معطوفة على الجملة التي قبلها، مقررة لرسالته ومبينة لمزيد علمه، وأنه يختص بعلم الأشياء التي لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك، قوله: **﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾** فتحت الواو لكونها العاطفة، ودخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم، والمعطوف عليه مقدر: كأنه قيل: استبعدتم

جدير، وابن أبي حاتم، عن أبي مجلز، في قوله: **﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾** قال: لا تسالوا منازل الأنبياء. وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول **﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾** وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً فرضي قوله فقال: **﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾** [مريم: 3]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن صالح، في قوله: **﴿وَلَا تَقْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** قال: بعدما أصلحها الأنبياء وأصحابهم. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي سنان، في الآية قال: أحللت حلالي وحرمت حرامي، وحذت حدودي، فلا تفسدوها. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾** قال: خوفاً منه، وطمعاً لما عنده **﴿إِنْ رَحِمَ اللَّهُ قَرِيبَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** يعني المؤمنين، ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾** قال: إن الله يرسل الرياح، فيأتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض، من حيث يلتقيان، فيخرجه من ثم، ثم ينشره فيسطه في السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء، فيسيل الماء على السحاب، ثم يطر السحاب بعد ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿بَشِّرْ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾** قال: يستبشر بها الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: **﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾** قال: هو المطر، وفي قوله: **﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾** قال: كذلك تخرجون، وكذلك النشور، كما يخرج الزرع بالماء. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾** قال: إذا أراد الله أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى يشق عنهم الأرض، ثم يرسل الأرواح فيهبو كل روح إلى جسده، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر، كحياته الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ﴾** الآية قال: هو مثل ضربه الله للمؤمن، يقول هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب **﴿وَالَّذِي خَبِثَ﴾** ضرب مثلاً للكافر، كالبلد السيئة المألحة التي لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَغْوِرُوا فِي الْيَمِّ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي
إِنَّهُ أَخَذَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٠﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠١﴾ قَالَ يَغْوِرُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّي الْأَعْلِيِّ ﴿١٠٢﴾ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَمْسِكُ يُنْذِرُكُمْ وَلَسْتُمْ أَتَىٰكُمْ رَحْمَتِي فَكذبوا فَأَجْبَيْتُهُ وَأَلَوْنِي مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَآغَرَقْنَا الْآلُونَ كَذِبًا وَتَأْتِيَنِي إِلَهُكُمْ كَأَنَّهُمْ قَوْمًا عَجِبُونَ ﴿١٠٤﴾

وعجبتهم، أو اكذبتم وعجبتهم، أو أنكرتم وعجبتهم ﴿أَن جَاءَكُمْ نَذْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: وحي وموعظة ﴿على رجل منكم﴾ أي: على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته، وقيل على بمعنى مع: أي مع رجل منكم لأجل يندركم به ﴿ولتلقوا﴾ ما يخالفه ﴿ولعلكم ترحمون﴾ بسبب ما يفيد الإنذار لكم، والتقوى منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم ﴿فكنبوه﴾ أي: فبعد ذلك كذبوه ولم يعملوا بما جاء به من الإنذار ﴿فانجيناهم والنذين معهم﴾ من المؤمنين به المستقرين معه ﴿في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ واستمروا على ذلك، ولم يرجعوا إلى التوبة، وجملة ﴿إنهم كانوا قوماً عمن﴾ علة لقوله: ﴿وأغرقنا﴾ أي: أغرقنا المكذبين لكونهم عمي القلوب لا تتجع فيهم الموعظة، ولا يفيدهم التذكير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أول نبي أرسل نوح».

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نعيم، وابن عساكر، عن يزيد الرقاشي قال: إنما سمي نوح عليه السلام نوحاً لطول ما نوح على نفسه. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك قال: الملا يعني الأشراف من قومه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي ﴿أَن جَاءَكُمْ نَذْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول: بيان من ربكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إنهم كانوا قوماً عمن﴾ قال: كفاراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿إنهم كانوا قوماً عمن﴾ قال: عن الحق.

﴿وَلَمَّا جَاءَ نَحْمُودُ قَالَ يَقُولُ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ قَالَ الْمَلَائِكَةُ الْوَحِيدُ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَقُولُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أُنْفِثَكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ عَلَاقٌ مِنْ رَبِّكَ يُنْذِرُكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا مَا آتَاهُ اللَّهُ لَمَلَكِهِ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ جَعَلُوا نَحْمُودَ اللَّهَ وَكَذَرُوا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ فَأَنَّى يَمَانُؤُنَا إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ قَدْ وَفَّعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجَسٌ وَعَصَبٌ أَتَجِدُونَنِي فِي أَسْوَ سَيِّئَتُهُمَا أَشَدَّ وَأَبْأَدَكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْطَلِقُوا إِلَى مَكَّتُمْ مِنَ الْمُنْطَلِقِينَ ﴿٢٠﴾ فَأَجْبَيْنَهُ وَالْوَحِيدُ مَعَهُ يَرْحَمُوهُمَا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الْوَحِيدِ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿والى عاد لآخاهم هوداً﴾ أي: وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم: أي واحداً من قبيلتهم أو صاحبهم، أو سماه أخاً لكونه ابن آدم مثلهم، وعاد من هو ولد سلم بن نوح. قيل

هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وهود هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و﴿هوداً﴾ عطف بيان ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾. قد تقدّم تفسير هذا قريباً، والاستفهام في ﴿أفلا تتقون﴾ للإنكار. وقد تقدّم أيضاً تفسير الملا، والسفاهة الخفة والحمق، وقد تقدّم بيان ذلك في البقرة، نسبوه إلى الخفة والطيش ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا: ﴿إننا لنظنك من الكاذبين﴾ مؤكداً لظنهم كذب فيما ادعاه من الرسالة، ثم أجاب عليهم بنفي السفاهة عنه، واستدرك من ذلك بأنه رسول رب العالمين، وقد تقدّم بيان معنى هذا قريباً، وكذلك سبق تفسير ﴿بلغكم رسالات ربي﴾ وتقدّم معنى الناصح، والأمين المعروف بالأمانة، وسبق أيضاً تفسير ﴿أو عجبتهم أن جاءكم نذر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ في قصة نوح التي قبل هذه القصة. قوله: ﴿وانكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أنكرهم نعمة من نعم الله عليهم، وهي أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح أي: جعلهم سكان الأرض التي كانوا فيها، أو جعلهم ملوكاً، وإن منصوب بانكر، وجعل الذكر للوقت. والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة، لأن الشيء إذا كان وقته مستحقاً للذكر، فهو مستحق له بالأولى ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي: طولاً في الخلق وعظم جسم، زيادة على ما كان عليه آبائهم في الأبدان. وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد. قوله: ﴿فانكروا آلاء الله﴾ الآلاء: جمع إلى ومن جملة نعمة الاستخلاف في الأرض، والبسطة في الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم، وكرر التذكير لزيادة التقرير، والآلاء النعم ﴿لعلكم تفلحون﴾ إن تنكرتم ذلك، لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها، ومن شكر فقد أفلح. قوله: ﴿قالوا اجئتنا لنعبد الله وحده﴾ هذا استنكار منهم لدعائهم إلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله، وإنما كان هذا مستنكراً عندهم لأنهم وجدوا آبائهم على خلاف ما دعاهم إليه ﴿ونذر ما كان يعبد آبائنا﴾ أي: نترك الذي كانوا يعبدونه، وهذا داخل في جملة ما استنكروه. قوله: ﴿فاننا بما تعبدنا إن كنتم للصائقين﴾ هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يدهم به، لشدة تمردهم على الله، ونكوصهم عن طريق الحق، وبعدهم عن اتباع الصواب، فأجابهم بقوله: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه، كما نكره أئمة المعاني والبيان، وقيل معنى وقع: وجب. والرجس: العذاب، وقيل: هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر، ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجاملة، فقال:

﴿اتجانلونني في أسماء﴾ يعني: أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها جعلها أسماء، لأن مسمياتها لا حقيقة لها، بل تسميتها بالألوهة باطلة فكانها معنومة لم توجد بل الموجود

قوله: ﴿والى عاد لآخاهم هوداً﴾ أي: وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم: أي واحداً من قبيلتهم أو صاحبهم، أو سماه أخاً لكونه ابن آدم مثلهم، وعاد من هو ولد سلم بن نوح. قيل

قوله: ﴿والى عاد لآخاهم هوداً﴾ أي: وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم: أي واحداً من قبيلتهم أو صاحبهم، أو سماه أخاً لكونه ابن آدم مثلهم، وعاد من هو ولد سلم بن نوح. قيل

عَبْرَةً قَدْ جَاءَكُمْ بِخَبْرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَتَّبِعُوا بِسُوءِ قِيَادِكُمْ عَذَابَ آيَةٍ ۖ ﴿٧٦﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن مُّهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا مَا لَآلَهُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَاعُوا مِن مَّوْنٍ مِّنْهُمْ أَتَشْكُرُونَ أَمْ سَكَنُوا مَنَازِلَهُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٧٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ ۖ ﴿٧٩﴾ فَفَعَّرُوا النَّاقَةَ وَعَتَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ بَنُو آدَمَ إِنَّمَا يَفْتَدُونَكُم بِثَمَنٍ كَثِيرٍ مِّنَ الْمَرْسَلِينَ ۖ ﴿٨٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْمَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينِينَ ۖ ﴿٨١﴾ تَوَلَّوْا عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰ قَوْمُ لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَصَحَّحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ ۖ ﴿٨٢﴾

قوله: ﴿وَالْيَاسُودُ لَخَافَهُمْ صَالِحًا﴾ معطوف على ما تقدم أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، وثمرود قبيلة سموها باسم أبيهم، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وصالح عطف بيان، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشع بن عبيد بن حازر بن ثمود، وامتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسماً للقبيلة. وقال أبو حاتم: لم ينصرف لأنه أعجمي. قال النحاس: وهو غلط لأنه من الثمد، وهو الماء القليل، وقد قرأ القراء ﴿إِلَّا إِنْ شِئُوا﴾ كفروا ربهم ﴿هود: 68﴾ على أنه اسم للحَيِّ، وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قد تقدم تفسيره في قصة نوح ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: معجزة ظاهرة، وهي إخراج الناقة من الحجر الصلد، وجملة ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ مشتملة على بيان البينة المذكورة وانتصاب آية على الحال، والعامل فيها معنى الإشارة، وفي إضافة الناقة إلى الله تشريف لها وتكريم. قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ أي: دعوها تأكل في أرض الله، فهي ناقة الله، والأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم، ولا تملكونه، ﴿وَلَا تَمْسُوهُ﴾ بشيء من السوء: أي لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها. قوله: ﴿فَيَاخُذْكُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ هو جواب النهي: أي إذا لم تتركوا مسها بشيء من السوء أخذكم عذاب اليم: أي شديد الألم. قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: استخلفكم في الأرض أو جعلكم ملوكاً فيها، كما تقدم في قصة هود ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعل لكم فيها مباءة، وهي المنزل الذي تسكنونه ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تتخذون من سهولة الأرض قصوراً، أو هذه الجملة مبيية لجملة: «وبوأكم في الأرض»، وسهول الأرض ترابها يتخذون منه اللبن والأجر، ونحو ذلك، فينبون به القصور ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي: تتخذون في الجبال التي هي صخور بيوتاً تسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها، كهوفاً يسكنون فيها، لأن الأبنية

أسمائها فقط ﴿سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاكُمْ﴾ أي: سميت بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم وأبائكم، ولا حقيقة لذلك ﴿وَمَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة تحتاجون بها على ما تدعونها لها من الدعوى الباطلة، ثم توعدهم بأشد وعيد فقال: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي: فانتظروا ما طلبتموه من العذاب، فإني معكم من المنتظرين له، وهو واقع بكم لا محالة، ونازل عليكم بلا شك؛ ثم أخبر الله سبحانه أنه نجى هوداً ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ولم تقبل رسالته، وأنه قطع دابر القوم المكذبين: أي استأصلهم جميعاً. وقد تقدم تحقيق معناه، وجملة: ﴿وَمَا كُنَّا مِنْ مُّؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على كذبوا: أي استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب بآياتنا وعدم الإيمان.

وقد أخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالْيَاسُودُ لَخَافَهُمْ هُودًا﴾ قال: ليس بأخيهم في الدين، ولكنه أخوهم في النسب؛ لأنه منهم فلذلك جعل أخاهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن خيثم قال: كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل النَرِّ. وأخرج ابن عساکر عن وهب قال: كان الرجل من عاد ستين ذراعاً بزرعهم، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة، وكان عين الرجل لتفرغ فيها السباع، وكذلك مناخرهم. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: نكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعاً طولاً. وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأصول، عن ابن عباس قال: كان الرجل منهم ثمانين باعاً، وكانت البرة فيهم ككلية البقرة، والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه ﴿وَوَإِذَاكُمْ فِي الْخَلْقِ بِسُوطَةٍ﴾ قال شدة. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة، قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا إِنْ شِئُوا﴾ نعم الله، وفي قوله: ﴿رَجَسَ﴾ قال: سخط. وأخرج ابن عساکر قال: لما أرسل الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس، وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض، وتدمغه بالحجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ قال: استأصلناهم وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن عساکر، عن علي بن أبي طالب، قال: قبر هود بحضرموت في كتيب أحمر عند رأسه سدره. وأخرج ابن عساکر، عن عثمان بن أبي العاتكة، قال: قبله مسجد لدمشق قبر هود. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، قال: كان عمر هود أربعمائة سنة واثنين وسبعين سنة.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَإِنَّمَا أَصْحَابُ الْاَلْبَابِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ

فنحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهداً في إبلاغهم الرسالة ومحض النصيح، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب، ونزل بهم ما كتبوا به واستعجلوه.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شعبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي الطفيل قال: قالت ثمود لصالح اثنتا بآية إن كنت من الصائقين، قال: اخرجوا، فخرجوا إلى هضبة من الأرض فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل، ثم إنها انفجرت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح: هذه ناقة الله لكم آية، فلما ملوها عقروها: ﴿فَقَالِ لِّلْمَلَأِ لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [هود: 65]. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة: أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة: تمتعوا ثلاثة أيام، ثم قال لهم: آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وتصبح اليوم الثاني محمرة، ثم تصبح اليوم الثالث مسودة، فأصبحت كذلك؛ فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فتكفئوا وتحنطوا، ثم أخذتهم الصيحة فاهممتهم. وقال عاقر الناقة: لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين، فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون أترضين؟ فتقول نعم، والصبى حتى رضوا أجمعين، فعقرها. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: «يا أيها الناس لا تسالوا نبيكم عن الآيات. فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غيبها وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعد من الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها، إلا رجلاً كان في حرم الله فممنعه حرم الله من عذاب الله، فقيل يا رسول الله من هو؟ فقال: أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه. قال ابن كثير: هذا الحديث على شرط مسلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث أبي الطفيل مرفوعاً مثله. وأخرج أحمد من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، وأصل الحديث في الصحيحين من غير وجه، وفي لفظ لأحمد من هذا الحديث قال: لما نزل رسول الله ﷺ على تبوك نزل بهم الحجر عن بيوت ثمود. وأخرج أحمد، وابن المنذر، نحوه مرفوعاً، من حديث أبي كبشة الأنماري، وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ قال: لا تعقروها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله:

والسقوف كانت تغنى قبل فناء أعمارهم، وانتصاب بيوتاً على أنها حال مقترنة أو على أنها مفعول ثانٍ لتنتحون على تضمينه معنى تتخذون. قوله: ﴿فَإِذَا نَكَّرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾ تقدم تفسيره في القصة التي قبل هذه. قوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ العثي والعتو لغتان، وقد تقدم تحقيقه في البقرة بما يغني عن الإعادة ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون، و﴿لَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا، بإعادة حرف الجر بدل البعض من كل، لأن في المستضعفين من ليس بمؤمن، هذا على عود ضمير «منهم» إلى الذين استضعفوا، فإن عاد إلى قومه كان بدل كل من المستضعفين، ومقول القول: ﴿تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية. قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته، مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسالته أم لا، مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان وتنبيهاً على أن كونه مرسلأ أمر واضح مكشوف، لا يحتاج إلى السؤال عنه، فأجابوا تمرداً وعناداً بقولهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذه الجملة المعنوية يقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقترنة كما سبق بيانه. قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ العقر: الجرح؛ وقيل: قطع عضو يؤثر في تلف النفس؛ يقال عقرت الفرس: إذا ضربت قوائمها بالسيف؛ وقيل أصل العقر: كسر عرقوب البعير ثم قيل للنحر عقر، لأن العقر سبب النحر في الغالب، وأسند العقر إلى الجميع مع كون العاقر واحداً منهم، لأنهم راضون بذلك موافقون عليه. وقد اختلف في عاقر الناقة ما كان اسمه، فقيل قدار بن سالف، وقيل غير ذلك ﴿وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا، يقال عتا يعتو عتواً: استكبر، وتعتي فلان: إذا لم يطع، والليل العاتي: الشديد الظلمة ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتُنْتَا بِمَا تَعْبُدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا استعجال منهم للنعمة، وطلب منهم لنزول العذاب، وحلول البلية بهم ﴿فَإِخْتَنَاهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة، يقال رجف الشيء يرجف رجفاناً، وأصله حركة مع صوت، ومنه: ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّجْفَةُ﴾ [النازعات: 6]؛ وقيل: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم ﴿فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي: بلدتهم ﴿جَانِمِينَ﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر، وأصل الجثم للأرنب وشبهها؛ وقيل للناس والطير، والمراد أنهم أصبحو في نورهم ميتين لا حراك بهم ﴿فَقَتَلُوا عَنْهُمْ﴾ صالح عند اليأس من إجابتهم ﴿وَقَالَ﴾ لهم هذه المقالة ﴿لَقَدْ بَلَغْتُكُمْ رَسُولاً رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ لِلنَّاصِحِينَ﴾ ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية، كما وقع من النبي ﷺ من التكليم لأهل قليب بدر بعد موتهم، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم، وكأنه كان مشاهداً لذلك،

هذه الفاحشة الفظيعة، قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ الواقعين في هذه الفاحشة على ما أنكره عليهم منها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا لَخَرَجُوهُمْ﴾ أي: لوطاً وأتباعه ﴿مَنْ قَرَيْتَكُمْ﴾: أي ما كان لهم جواب إلا هذا القول المبين للإنصاف، المخالف لما طلبه منهم وأنكره عليهم، وجملة: ﴿إِنَّهُمْ إِنْسٌ يَبْتَغُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ تعليل لما أمروا به من الإخراج، ووصفهم بالتطهر يمكن أن يكون على حقيقته، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يرتزحون عن الوقوع في هذه الفاحشة، فلا يساكنونها في قريتنا، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء، ثم أخبر الله سبحانه أنه أنجى لوطاً وأهله المؤمنين به، واستثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن به، ومعنى: ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أنها كانت من الباقيات في عذاب الله، يقال غير الشيء إذا مضى، وغير إذا بقي فهو من الأضداد. وحكى ابن فارس في المحمل عن قوم أنهم قالوا: الماضي عابر بالعين المهمة، والباقي غابر بالمعجمة. وقال الزجاج: ﴿مَنْ لَغَابِرِينَ﴾ أي: من الغائبين عن النجاة. وقال أبو عبيد: المعنى ﴿مَنْ لَغَابِرِينَ﴾ أي: من المعمرين وكانت قد هربت، وأكثر أهل اللغة على أن الغابر الباقي. قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ قيل: أمطر بمعنى إرسال المطر. وقال أبو عبيد: مطر في الرحمة وأمطر في العذاب، والمعنى هنا: إن الله أمطر عليهم مطراً غير ما يعتابونه، وهو رميهم بالحجارة كما في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: 74] ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ هذا خطاب لكل من يصلح له، أو لمحمد ﷺ، وسيأتي في هود قصة لوط بابين مما هنا.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن عساكر، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَتَوْنُ الْفَاحِشَةَ﴾ قال: أدبار الرجال. وأخرج ابن عساكر، عن ابن عباس، قال: إنما كان بدء عمل قوم لوط: أن إبليس جاءهم في هيئة صبي، أجمل صبي رآه الناس، فدعاهم إلى نفسه، فنكحوه ثم جسروا على ذلك، وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عنه، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ إِنْسٌ يَبْتَغُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ قال: من أدبار الرجال، ومن أدبار النساء. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قال: من الباقيات في عذاب الله. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان قوم لوط أربعة آلاف ألف.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ قَالُوا آمَنُوا بِمَا آمَنَ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ دِينٍ إِلَّا الْوَعْدُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ نُوحًا وَمَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا نَارًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ قَالُوا آمَنُوا بِمَا آمَنَ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ دِينٍ إِلَّا الْوَعْدُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ نُوحًا وَمَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا نَارًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ قَالُوا آمَنُوا بِمَا آمَنَ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ دِينٍ إِلَّا الْوَعْدُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ نُوحًا وَمَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا نَارًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَتُنَحِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا﴾ قال: كانوا ينقبون في الجبال البيوت. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿وَعَتُوا عَنْ لَمَرٍ بِهِمْ﴾ قال: غلوا في الباطل ﴿فَخَانَتْهُمْ الرِّجْفَةُ﴾ قال: الصيحة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد ﴿فَقَاصِبِحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ﴾ قال: ميتين. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة مثله.

وَلَوْ لَأَمَّا قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَمَلٍ وَرَبِّ الْغَابِرِينَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْتَغُونَ الْفَاحِشَةَ ﴿١٠٥﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠٧﴾

قوله: ﴿وَلَوْ لَأَمَّا﴾ معطوف على ما سبق: أي وأرسلنا لوطاً أو منصوب بفعل مقدر: أي وأذكر لوطاً وقت قال لقومه. قال الفراء: لوط مشتق من قولهم: هذا البيط بقلبي: أي الصق. قال الزجاج: زعم بعض النحويين أن لوطاً يجوز أن يكون مشتقاً من لطت الحوض إذا ملسته بالطين، وهذا غلط، لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق. وقال سيبويه نوح ولوط أسماء أعجمية إلا أنها خفيفة، فلذلك صرفت، ولوط هو ابن هارن بن تارخ، فهو ابن أخي إبراهيم، بعثه الله إلى أمة تسمى سدوم ﴿تَتَوْنُ الْفَاحِشَةَ﴾ أي: الخصلة الفاحشة المتמادية في الفحش والقبح، قال ذلك إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم ﴿وَمَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ لَحْدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لم يفعلها أحد قبلكم، فإن اللواط لم يكن في أمة من الأمم قبل هذه الأمة، و«من» مزيدة للتوكيد للعموم في النفي، وإنه مستغرق لما دخل عليه، والجملة مسوقة لتأكيد النكير عليهم والتوبيخ لهم. قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَتَوْنُ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة. وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضي للتوبيخ والتقريع، واختار القراءة الأولى أبو عبيد والكسائي وغيرهما، واختار الخليل وسيبويه القراءة الثانية، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبنية لقوله: ﴿تَتَوْنُ الْفَاحِشَةَ﴾ وكذلك على القراءة الثانية، مع مزيد الاستفهام وتكريره المفيد للمبالغة في التقريع والتوبيخ، وانتصاب شهوة على المصدرية أي: تشتهونهم شهوة، ويجوز أن يكون مصدرًا في موضع الحال: أي مشتتين، ويجوز أن يكون مفعولاً له: أي لأجل الشهوة، وفيه أنه لا غرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة من غير أن يكون لهم في ذلك غرض يوافق العقل، فهم في هذا كالبهائم التي ينزو بعضها على بعض، لما يتقاضاها من الشهوة ﴿مَنْ دُونَ النِّسَاءِ﴾ أي متجاوزين في فعلكم هذا للنساء، اللاتي هن محل لقضاء الشهوة، وموضع لطلب اللذة، ثم أضرب عن الإنكار المتقدم إلى الأخبار بما هم عليه من الإسراف الذي تسبب عنه إتيان

تقعوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب، قيل: كانوا يقدعون في الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه، ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وغيرهم؛ وقيل المراد: القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة، ويؤيده: ﴿وتصدقون عن سبيل الله من آمن به﴾. وقيل: المراد بالآية النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب، وكان ذلك من فعلهم؛ وقيل: إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس فتنهوا عن ذلك. والقول الأول: أقربها إلى الصواب مع أنه لا مانع من حمل النهي على جميع هذه الأقوال المذكورة. وجملة «توعدون» في محل نصب على الحال، وكذلك ما عطف عليها: أي لا تقعوا بكل طريق موعدين لأهله صائين عن سبيل الله باغين لها عوجاً، والمراد بالصد عن سبيل الله: صد الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه، ومنعهم من الوصول إلى شعيب، فإن سلوك الناس في تلك السبيل للوصول إلى نبي الله هو سلوك سبيل الله، ﴿ومن آمن به﴾ مفعول تصون، والضمير في آمن به يرجع إلى الله، أو إلى سبيل الله، أو إلى كل صراط أو إلى شعيب، ﴿وتبغونها عوجاً﴾ أي: تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة، وقد سبق الكلام على العوج. قال الزجاج: كسر العين في المعاني وفتحها في الاحرام ﴿وانكروا إذ كنتم﴾ أي: وقت كنتم ﴿قليلاً﴾ عديكم ﴿فكنركم﴾ بالنسب؛ وقيل: كنتم فقراء فأغناكم ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ من الأمم الماضية، فإن الله أملاكهم وأنزل بهم من العقوبات ما ذهب بهم ومحا أثرهم ﴿وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به﴾ إليكم من الأحكام التي شرعها الله لكم ﴿وطائفة﴾ منكم ﴿لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم. وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر. وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين، ومثله قوله تعالى: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ [التوبة: 52] أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على ما يحل بهم من أذى الكفار حتى ينصرهم الله عليهم ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي: قال الأشراف المستكبرون ﴿انخرجتك يا شعيب والذين آمنوا معك﴾ لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك بغياً وبطراً وأشرا إلى توعد نبيهم ومن آمن به بالإخراج من قريتهم، أو عوده هو ومن معه في ملتهم الكفرية: أي لا بد من أحد الأمرين: إما الإخراج، أو العود. قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الإبتداء، يقال عاد إلي من فلان مكروه: أي صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك فلا يرد ما يقال: كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسلاً؟ ويحتاج إلى الجواب بتقليب قومه المتبعين له عليه في الخطاب بالعود إلى ملتهم،

كان عاقبة المفسدين ﴿ولأن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به﴾ و﴿طائفة﴾ أي: يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه انخرجتك بشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ قال أبو بكر كبريت ﴿يد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ عجننا الله بيننا وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسيع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افئسح بيننا وبين قريتنا بالحق وأنت خير الفتيين﴾ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لبي أتبعتن شعباً إنكروا لتسرون ﴿فلقدتهم الزجفة فاصبروا في دارهم جثيين﴾ الذين كذبوا شعباً كان لم ينفوا فيها الذين كذبوا شعباً كانوا هم الخيرون ﴿نزل عنهم وقال يقول الله أبلنكم وسلت ربى ونصحت لكم تكلف آمن على قوم كثير﴾

قوله: ﴿والى مدين لخاهم شعيباً﴾ معطوف على ما تقدم: أي وأرسلنا. ومدين: اسم قبيلة، وقيل: اسم بلد والأول أولى، وجبت القبيلة باسم أبيهم: وهو مدين بن إبراهيم كما يقال بكر وتميم. قوله: ﴿لخاهم شعيباً﴾ شعيب عطف بيان، وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدين بن إبراهيم، قاله عطاء وابن إسحاق وغيرهما. وقال الشرفي بن القطامي: إنه شعيب بن عيفاء بن ثوب بن مدين بن إبراهيم. وزعم ابن سمعان أنه شعيب بن حرة بن يشجب بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقال قتادة: هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. قوله: ﴿قال ياقوم﴾ إلى قوله: ﴿بينة من ربكم﴾ قد سبق شرحه في قصة نوح. قوله: ﴿فاوفوا للكيل والميزان﴾ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن، وكانوا لا يوفونهما، وذكر الكيل الذي هو المصدر وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للألة.

اختلف في توجيه ذلك، فقيل المراد بالكيل: المكيال فتناسب عطف الميزان عليه؛ وقيل المراد بالميزان: الوزن فيناسب الكيل، والفاء في «فاوفوا» للعطف على اعبدوا. قوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ البخس النقص، وهو يكون بالتعيب للسلعة أو التزهد فيها، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكل ذلك من لكل أموال الناس بالباطل وظاهر قوله: ﴿أشياءهم﴾ أنهم كانوا يبخسون الناس في كل الأشياء، وقيل: كانوا مكاسين يكسون كل ما دخل إلى أسواقهم، ومنه قول زهير:

أفي كل أسواق العراق إتارة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
قوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ قد تقدم تفسيره قريباً، ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره، وديقيقه وجليله، والإشارة بقوله: ﴿ذلكم﴾ إلى العمل بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، والمراد بالخيرية هنا: الزيادة المطلقة، لأنه لا خير في عدم إيفاء الكيل والوزن، وفي بخس الناس، وفي الفساد في الأرض أصلاً. قوله: ﴿ولا تقعوا بكل صراط توعدون﴾ الصراط: الطريق أي: لا

لم يغنوا فيها﴾ هذه الجملة مستأنفة مبنية لما حل بهم من النعمة، والموصول مبتدأ، وكان لم يغنوا خبره: يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به، وغنى القوم في دارهم أي طال مقامهم فيها، والمغني: المنزل، والجمع المغاني. قال حاتم الطائي:

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى وكلا سقانا بكاسيهما الدهر

فما زاننا بغياً على ذي قرابة غناناً ولا أزرى بأحساننا الفقر

ومعنى الآية: الذين كذبوا شعبياً كأن لم يقيموا في دارهم، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب، والموصول في الذين كذبوا شعبياً مبتدأ خبره ﴿كانوا هم الخاسرين﴾، وهذه الجملة مستأنفة كالأولى متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين ﴿فقتلوا عنهم﴾ أي: شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم ﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي﴾ التي أرسلني بها إليكم ﴿ونصحت لكم﴾ ببيان ما فيه سلامة دينكم ودينكم وبنياكم ﴿فكيف آسى﴾ أي: أحنن ﴿على قوم كافرين﴾ بالله مصريين على كفرهم، متمربين عن الإجابة، أو الآسى شدة الحزن، آسى على ذلك فهو آس. قال شعيب هذه المقالة تحسراً على عدم إيمان قومه، ثم سلا نفسه بأنه كيف يقع منه الآسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن عساكر، عن عكرمة، والسدي قالاً: ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعبياً: مرة إلى مدين فأخذتهم الصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ قال: لا تظلموا الناس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ قال: لا تظلموهم ﴿ولا تقعوا بكل صراط توعدون﴾ قال: كانوا يوعدون من أتى شعبياً وغشيه وأراد الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ولا تقعوا بكل صراط توعدون﴾ قال: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون من أتى عليهم أن شعبياً كذاب، فلا يفتنكم عن دينكم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿بكل صراط توعدون﴾ قال: بكل سبيل حق ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ قال: تصدون أهلها ﴿وتبغونها عوجاً﴾ قال: تلتبسون لها الزينج. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي ﴿ولا تقعوا بكل صراط توعدون﴾ قال: هو العاشر ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ قال: تصدون عن الإسلام ﴿وتبغونها عوجاً﴾ قال: هلاكاً. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد، قال: هم العشار. وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره: شك أبو العالية قال: أتى النبي ﷺ ليلة أسرى به على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا خرقة، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقدعون على الطريق فيقطعونه ثم تلا ﴿ولا تقعوا بكل صراط توعدون﴾. وأخرج ابن

وجملة ﴿قال أو لو كنا كارهين﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود، والواو للحال: أي أتعبوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليها، أو أتخرجوننا من قريبتكم في حال كراهتنا للخروج منها، أو في حال كراهتنا للأميرين جميعاً، والمعنى: إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ولا يصح لكم ذلك، فإن المكره لا اختيار له ولا تعد موافقته مكرها موافقة ولا عوده إلى ملتكم مكرهاً عوداً، وبهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام حتى تسبب عن ذلك تطويل نبول الكلام ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عذنا في ملتكم﴾ التي هي الشرك ﴿بعد إذ نجانا الله منها﴾ بالإيمان، فلا يكون منا عود إليها أصلاً ﴿وما يكون لنا﴾ أي: ما يصح لنا ولا يستقيم ﴿أن نعود فيها﴾ بحال من الأحوال ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي: إلا حال مشيئته سبحانه، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. قال الزجاج: أي إلا بمشيئة الله عز وجل، قال: وهذا قول أهل السنة، والمعنى: أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك، فالاستثناء منقطع؛ وقيل: إن الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل كما في قوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ [هود: 88] وقيل: هو كقولهم لا أكلمك حتى يبيض الغراب، وحتى يلج الجمل في سم الخياط، والغراب لا يبيض: والجمل لا يلج، فهو من باب التعليق بالمحال. ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ أي: أحاط علمه بكل المعلومات، فلا يخرج عنه منها شيء، وعلماً منصوب على التمييز؛ وقيل المغنى: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ أي: القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم ﴿إلا أن يشاء الله﴾ عودنا إليها ﴿على الله توكلنا﴾ أي: عليه اعتمدنا في أن يثبتنا على الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله، ويتم علينا نعمته، ويعصمنا من نقمته. قوله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ الفتاحة الحكومة، أي احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين، دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين: كما أخبرنا به في غير موضع من كتابه فكانهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين، وحلول نعمة الله بهم ﴿وقال للملأ الذين كفروا من قومهم﴾ معطوف على ﴿وقال للملأ الذين استكبروا﴾ يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك، ويحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل إليهم شعيب، واللام في «لئن اتبعتم شعبياً» موطئة لجواب قسم محذوف: أي دخلتم في دينه، وتركتم دينكم ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾ جواب القسم ساد مسد جواب الشرط، وخسرانهم: هلاكهم أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذي كانوا يعاملون الناس به ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة؛ وقيل: الصيحة كما في قوله: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ [هود: 94] قد تقدم تفسيره في قصة صالح. قوله: ﴿الذين كذبوا شعبياً كان

النصب، والبأساء: البؤس والفقر، والضراء: الضر، وقد تقدم تحقيق معنى البأساء والضراء **﴿لعلهم يضرعون﴾** أي: لكي يضرعوا ويتنلوا، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء. قوله: **﴿ثم بئلنا﴾** معطوف على أخذنا: أي ثم بعد الأخذ لأهل القرى بئلناهم **﴿مكان السيئة﴾** التي أصبناهم بها من البلاء والامتحان **﴿الحسنة﴾** أي: الخصلة الحسنة: فصاروا في خير وسعة وأمن **﴿حتى عفوا﴾** يقال عفا كثر، وعفا درس، فهو من أسماء الأضداد، والمراد هنا: أنهم كثروا في أنفسهم وفي أموالهم: أي أعطيناهم الحسنة مكان السيئة، حتى كثروا **﴿وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسرء﴾** أي: قالوا هذه المقالة عند أن صاروا في الحسنة بعد السيئة: أي أن هذا الذي مسنا من البأساء والضراء، ثم من الرخاء والخصب من بعد هو أمر وقع لأبائنا قبلنا مثله، فمسهم من البأساء والضراء ما مسنا ومن النعمة والخير ما نلناه، ومعناهم: أن هذه العادة الجارية في السلف والخلف، وأن ذلك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم واختبار لما عندهم، وفي هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم ما لا يخفي، ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم فقال: **﴿فاخذنهم بغتة﴾** أي: فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا إمهال (و) الحال أنهم لا يشعرون، بذلك ولا يترقبونه، واللام في **﴿القرى﴾** للعهد أي: **﴿ولو أن أهل القرى﴾** التي أرسلنا إليها رسلنا **﴿أمنوا﴾** بالرسول المرسلين إليهم **﴿واتقوا﴾** ما صمموا عليه من الكفر، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح **﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾** أي: يسرنا لهم خير السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها؛ قيل المراد بخير السماء: المطر، وخير الأرض: النبات، والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك؛ ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس، والمراد: لو أن أهل القرى أين كانوا، وفي أي بلاد سكنوا آمنوا واتقوا إلى آخر الآية **﴿ولكن كتبوا﴾** بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا **﴿فاخذنهم﴾** بالعذاب **﴿بب﴾** سبب **﴿ما كانوا يكسبون﴾** من الذنوب الموجبة لعذابهم، والاستفهام في **﴿أفأمن أهل القرى﴾** للتقريع والتوبيخ، وأهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله، والفاء للعطف، وهو مثل: **﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾** [المائدة: 50]؛ وقيل: المراد بالقرى مكة وما حولها، لتكذيبهم للنبي ﷺ، والحمل على العموم أولى. قوله: **﴿أن يأتيهم بأسنا بياتا﴾** أي: وقت بيات، وهو الليل على أنه منصوب على الظرفية، ويجوز أن يكون مصدراً: بمعنى تبيات، أو مصدرأ في موضع الحال: أي مبيتين، وجملة: **﴿وهم نائمون﴾** في محل نصب على الحال، والاستفهام في **﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾** والضحى ضحوة النهار، وهو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا اشرقت وارتفعت. قرأ ابن عامر والحريري (أو أمن) بإسكان الواو وقرأ الباقون بفتحها، وجملة **﴿وهم**

جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾** قال: ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله **﴿إلا أن يشاء الله ربنا﴾** والله لا يشاء الشرك، ولكن يقول: إلا أن يكون الله قد علم شيئاً، فإنه قد وسع كل شيء علماً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن الأنباري في الوقف والابتداء، عن ابن عباس قال: ما ما كنت أدري ما قوله: **﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾** حتى سمعت ابنته ذي يزن تقول: تعال افتحك، تعني أقاضيك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: **﴿ربنا افتح﴾** يقول: أقض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: الفتح القضاء لغة يمانية إذا قال أحدهم تعال أقاضيك القضاء قال: تعال افتحك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿لم يغنوا فيها﴾** قال: لم يعيشوا فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿فكيف آسى﴾** قال: أحزن. وأخرج ابن عساکر، عن ابن عباس قال: في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما، قبر إسماعيل، وقبر شعيب، فقبر إسماعيل في الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود. وأخرج ابن عساکر عن وهب بن منبه أن شعيباً مات بمكة، ومن معه من المؤمنين، فقبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، عن ابن إسحاق قال: نكر لي يعقوب بن أبي مسلمة **﴿أن رسول الله ﷺ كان إذا نكر شعيباً قال: ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريد به، فلما كذبه وتوعوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة﴾**.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضَعَرُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلِهَاتُنَا آلِهَتُهُ وَالضَّرَّةُ فَآخَذَتْهُمْ بَنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَآخَذَتْهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحًى وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ﴿١٩﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو شَاءَ أَصْبَحْنَاهُمْ دِفْئِهِمْ وَنَطَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

قوله: **﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾** لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم، وهم المنكورون سابقاً أجمل حال سائر الأمم المرسل إليها: أي وما أرسلنا في قرية من القرى من نبي من الأنبياء، وفي الكلام محذوف أي فكذب أهلها إلا أخذناهم، والاستثناء مفرغ: أي ما أرسلنا في حال من الأحوال إلا في حال أخذنا أهلها فمحل أخذنا

أهل فريق أوسع الله عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعت الله عليهم الجوع. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَو لَمْ نَهْدِ﴾ قال: أو لم نبين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ قال: المشركون.

ذَلِكَ الْقَرْنُ نَفَسٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَرِيقِينَ ﴿١٦٢﴾

قوله: ﴿تلك القرى﴾ أي: التي اهلكناها، وهي قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، المتقدم ذكرها. ﴿نقص عليك﴾ أي: نتلو عليك ﴿من أنبيائها﴾ أي: من أخبارها، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونقص إما في محل نصب على أنه حال، و﴿تلك القرى﴾ مبتدأ وخبر، أو يكون في محل رفع على أنه الخبر، و﴿القرى﴾ صفة لتلك، ومن في ﴿من أنبيائها﴾ للتبعية: أي نقص عليك بعض أنبيائها، واللام في ﴿لقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ جواب القسم. والمعنى: أن من أخبرهم أنها جاءتهم رسل الله ببيناته كما سبق بيانه في قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل ﴿بما كتبوا﴾ به ﴿من قبل﴾ مجيئهم أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل في حال من الأحوال، ولا في وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم، بل هم مستمررون على الكفر، متشبثون بأنبيال الطغيان دائماً، ولم ينجع فيهم مجيء الرسل ولا ظهر له أثر، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله؛ وقيل المعنى: فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم كقوله: ﴿ولو ردوا لعابوا﴾ [الأنعام: 28] وقيل سألوا المعجزات، فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها. والأول: أولى، ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل: أنهم كانوا في الجاهلية يكنون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل، وإنزال الكتب. قوله: ﴿كنك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تنكير ولا ترغيب ولا ترهيب. قوله: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقاً: أي ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد: أي عهد يحافظون عليه ويتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود في كل حال، وقيل الضمير يرجع إلى الناس على العموم، أي ما وجدنا لأكثر الناس من عهد وقيل المراد بالعهد: هو المأخوذ عليهم في عالم النذر؛ وقيل الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى: أي الأكثر منهم لا عهد ولا وفاء، والقليل منهم قد يفي بعهد ويحافظ عليه، وإن في ﴿وإن وجدنا أكثرهم﴾

يلعبون﴾ في محل نصب على الحال: أي يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة، والاستفهام في ﴿اقاموا مكر الله﴾ للتقريع والتوبيخ، وإنكار ما هم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لأنكار ما أنكره عليهم، ثم بين حال من آمن مكر الله، فقال: ﴿فلا يامن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ أي: الذين أفرطوا في الخسران، ووقعوا في وعيده الشديد، وقيل: مكر الله هنا هو استدراجه بالنعمة والصحة. والأولى حمله على ما هو أعم من ذلك. قوله: ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ قرئ «نهد» بالنون وبالتحتية فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه ومفعول الفعل ﴿أن لو نشاء أصبناهم بنؤيبهم﴾ أي: أن الشأن هو هذا، وعلى القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو ﴿أن لو نشاء أصبناهم بنؤيبهم﴾ أي: أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم، والهداية هنا بمعنى التبيين، ولهذا عدت باللام. قوله: ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ أي: ونحن نطبع على قلوبهم على الاستئناف ولا يصح عطفه على أصبنا لأنهم ممن طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للإيمان؛ وقيل: هو معطوف على فعل مقدر دل عليه الكلام، كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع؛ وقيل معطوف على يرثون قوله: ﴿فهم لا يسمعون﴾ جواب لو: أي صاروا بسبب إصابتنا لهم بنؤيبهم والطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوهم عليهم من أرسله الله إليهم من الوعظ، والإعذار، والإنذار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ثم بكنائهم مكان السيئة الحسنة﴾ قال: مكان الشدة الرخاء ﴿حتى عفاوا﴾ قال: كثروا وكثرت أموالهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿حتى عفاوا﴾ قال: جموا. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿قد مس آباءنا للضراء والسراء﴾ قال: قالوا قد أتى على آباءنا مثل هذا فلم يكن شيئاً ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا﴾ قال: بما أنزل الله ﴿ولتقوا﴾ قال: ما حرّمه الله ﴿فلتحننا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ يقول: أعطتهم السماء بركاتها والأرض نباتها. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق معاذ بن رفاع، عن موسى الطائفي قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض». وأخرج البزار والطبراني، قال السيوطي بسند ضعيف عن عبد الله ابن أمّ حرام قال: صليت القبلتين مع رسول الله ﷺ وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء وسخر له بركات الأرض، ومن تتبع ما يسقط من السفرة غفر له». وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: كان

لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم بها، والمراد بالآيات هنا: هي الآيات التسع، أو معنى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ظلموا الناس بسببها لما صَدَّوهم عن الإيمان بها، أو ظلموا أنفسهم بسببها ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: المكذِبين بالآيات الكافِرِينَ بها وجعلهم مفسدين، لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد. قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أخبره بأنه مرسل من الله إليه، وجعل ذلك عنواناً لكلامه معه، لأن من كان مرسلًا من جهة من هو رب العالمين أجمعين، فهو حقيق بالقبول لما جاء به، كما يقول من أرسله الملك في حاجة إلى رعيته: أنا رسول الملك إليكم، ثم يحكى ما أرسل به فإن في ذلك من تربية المهابة، وإدخال الروعة، ما لا يقادر قدره. قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قرئ حقيق على أن لا أقول: أي واجب عليّ، ولازم لي، أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق، وقرئ ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ﴾ بدون ضمير في على؛ قيل: في توجيهه أن على معنى الباء: أي حقيق بأن لا أقول، ويؤيده قراءة أبي والاعمش، فإنهما قرأا «حقيق بأن لا أقول»؛ وقيل: إن ﴿حَقِيقٌ﴾ مضمن معنى حريص؛ وقيل: إنه لما كان لازماً للحق كان الحق لازماً له، فقول الحق حقيق عليه، وهو حقيق على قول الحق؛ وقيل إنه أغرق في وصف نفسه في ذلك المقام، حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق، كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله، وقرأ عبد الله بن مسعود «حقيق أن لا أقول» بإسقاط على، ومعناها واضح، ثم قال بعد هذا ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بما يتبين به صلقي، وأني رسول من رب العالمين. وقد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاوراة، كما في موضع آخر أنه قال فرعون ﴿فَمَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 49] ثم قال بعد جواب موسى ﴿يَوْمَا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 23] الآيات الحاكِية لما دار بينهما. قوله: ﴿فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أمره بأن يدع بني إسرائيل يذهبون معه، ويرجعون إلى أوطانهم، وهي الأرض المقدَّسة. وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فلما قال ذلك ﴿قَالَ﴾ له فرعون ﴿إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ﴾ من عند الله كما تزعم ﴿فَأَنْتَ بِهَا﴾ حتى نشاهدها، وننظر فيها ﴿إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في هذه الدعوى التي جئت بها. قوله: ﴿فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أي: وضعها على الأرض فانقلبَت ثُعْبَانًا أي حية عظيمة من ذكور الحيات، ومعنى ﴿مُبِينٌ﴾ أن كونها حية في تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه ﴿وَوَرَّعَ يَدَهُ﴾ أي: أخرجها وأظهرها من جيبه، أو من تحت إبطه، وفي التنزيل: ﴿وَأَسْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيَاضٌ مِنْ غَيْرِ سَوءٍ﴾ [النمل: 12]. قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بَيَاضٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أي: فإذا يده التي أخرجها بيضاء تتلألأ نوراً يظهر لكل مبصر ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أي:

لفاسقين هي المخففة من الثقلية، وضمير الشأن محذوف: أي أن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين. أو هي النافية، واللام في **﴿لفاسقين﴾** بمعنى إلا: أي إلا فاسقين خارجين عن الطاعة خروجاً شديداً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي بن كعب، في قوله: ﴿فَمَا كُنُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كُنُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: كان في علم الله يوم أقرأ له بالميثاق من يكتب به ممن يصدق به. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَمَا كُنُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كُنُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: مثل قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَانُوا لَمَّا نَهَوْا عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿وَمَا وَجِئْنَا لَأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ قال: الوفاء. وأخرج ابن أبي حاتم، في الآية قال: هو ذلك العهد يوم أخذ الميثاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَإِنْ وَجِئْنَا أَكْثَرَهُمْ لِفَاسِقِينَ﴾ قال: ذاك أن الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به.

ثُمَّ بَدَأَ مِنْ بَدْوِهِمْ ثَمَوَسَ وَيَابِئَنَا إِنْ فَرَعُونَ وَلِكَلِمَةٍ فَنَقُلُونَهَا يَا فُلَانُ
كَيْفَ كَانَتْ عَيْقَةُ الْمَيْسِدِينَ ﴿١٥٨﴾ وَقَالَ مُوسَى يُخْرِجُونَ إِيَّي رَسُولًا مِنْ
بَيْتِ الْمَلَكِينَ ﴿١٥٩﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمَّا بِلِسَانِي فَبِهِ إِسْرَءِيلُ ﴿١٦٠﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِبَيِّنَاتٍ
يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الصَّدِيقِينَ ﴿١٦١﴾ فَأَلْفَرِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٦٢﴾
وَنَزَعَ بَدْوَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاتُ اللَّيْلِ طَرِيقٌ ﴿١٦٣﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قُوهِ فَرَعُونَ إِنَّ هَذَا
لَسِحْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ ﴿١٦٥﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ
وَأَمَّا وَارْتِِلَ فِي الدَّيْنِ حَشِيمٍ ﴿١٦٦﴾ يَا ثَوَكُ بِكُلِّ سِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٦٧﴾ وَجَاءَ
السَّحَرَةُ وَفَعَلُوا قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ نَعَمْ
وَأِنْ كُنْتُمْ لَيْنَ الْمُفْرِينَ ﴿١٦٩﴾ قَالُوا يَا ثَمَوَسَ إِنَّمَا أَنْتَ ثَلْفٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ ثَلْفٌ نَحْنُ
الْمُفْلِقِينَ ﴿١٧٠﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَغْلَبُوا
وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٧١﴾ ۞ وَارْتَبْنَا إِيَّاهُ مُوسَى أَنْ آتَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثَلْفٌ مَا يَأْكُرُونَ ﴿١٧٢﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٣﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ
وَأَسْلَبُوا صُلْبَهُمْ ﴿١٧٤﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿١٧٥﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٧٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٧٧﴾

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى﴾ أي: من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب: أي ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل؛ وقيل: الضمير في ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ راجع إلى الأمم السابقة: أي من بعد إهلاكهم ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فرعون هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العملاقة، وملأ فرعون: أشرف قومه؛ وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم، لأن من عداهم كالاتباع لهم. قوله: ﴿فَقُتِلُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها. وأطلق الظلم على الكفر، لكون كفرهم بالآيات التي جاء بها موسى كان كفراً متباعاً

بنك تأنيباً معه، وثقة من أنفسهم بأنهم غالبون، وإن تأخروا، وإن في موضع نصب، قاله الكسائي والفراء: أي إما أن تفعل الإلقاء أو تفعله نحن. فأجابهم موسى بقوله: ﴿الْقَوَا﴾ اختار أن يكونوا المتقدمين عليه بإلقاء ما يقونه غير مبال بهم ولا هائب لما جاؤوا به. قال الفراء: في الكلام حذف. المعنى: قال لهم موسى إنكم لم تغلبوا ربكم ولن تبطلوا آياتي؛ وقيل هو تهديد: أي ابتدئوا بالإلقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح، والموجب لهذين التأويلين عند من قال بهما أنه لا يجوز على موسى أن يامرهم بالسحر ﴿فلما القوا﴾ أي: حيالهم وعصبيهم ﴿سحروا أعين الناس﴾ أي: قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاؤوا به من التمويه، والتخييل الذي يفعله المشعرون وأهل الخفة ﴿واستهرجوهم﴾ أي: أدخلوا الرهبة في قلوبهم إხالاً شديداً ﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾ في أعين الناظرين لما جاؤوا به، وإن كان لا حقيقة له في الواقع. قوله: ﴿واوحينا إلى موسى أن الق عصاك﴾ أمره الله سبحانه عند أن جاء السحرة بما جاؤوا به من السحر أن يلقى عصاه ﴿فإذا هي﴾ أي: العصا ﴿تلقف ما يافكون﴾ قرأ حفص ﴿تلقف﴾ بإسكان اللام، وتخفيف القاف من لقف يلقف. وقرأ الباقون بفتح اللام، وتشديد القاف من تلقف يلقف، يقال لقفت الشيء وتلقفته: إذا أخذته أو بلغته. قال أبو حاتم: وبلغني في بعض القراءات تلقم بالميم والتشديد، قال الشاعر:

أنت عصا موسى التي لم تزل تلقم ما يافك الساحر
و«ما» في ﴿ما يافكون﴾ مصدرية أو موصولة: أي إنكهم أو ما يافكونه، سماه إفاكاً، لأنه لا حقيقة له في الواقع، بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة ﴿فوقع الحق﴾ أي: ظهر وتبين لما جاء به موسى ﴿ويبطل ما كانوا يعملون﴾ من سحرهم: أي تبين بطلانه ﴿فغلبوا﴾ أي: السحرة ﴿هنالك﴾ أي: في الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم ﴿وانقلبوا﴾ من ذلك الموقف ﴿صاغرين﴾ أذلاء مقهورين ﴿والقي السحرة ساجدين﴾ أي: خروا ساجدين، كأنما أقامهم ملق على هيئة السجود، أو لم يتمالكوا مما رأوا فكانهم القوا أنفسهم، وجملة ﴿قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالوا عند سجودهم أرفي سجودهم؟ وإنما قالوا هذه المقالة وصرحوا بأنهم آمنوا برب العالمين، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا: رب موسى وهارون لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بإلهيته أن السجود له.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ثم بعثنا موسى﴾ قال: إنما سمي موسى، لأنه ألقى بين ماء وشجر فآلماء بالقبطية مو والشجر سي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد: أن فرعون كان فارسياً من أهل إصطخر. وأخرج أيضاً عن ابن لهيعة: أنه كانت من أبناء مصر. وأخرج أيضاً وأبو الشيخ، عن محمد بن المنكر قال: عاش فرعون ثلثمائة سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طلحة،

الأشراف ﴿من قوم فرعون﴾ لما شاهدوا انقلاب العصى حية، ومصير يده بيضاء من غير سوء ﴿إن هذا﴾ أي: موسى ﴿لساحر عليم﴾ أي: كثير العلم بالسحر ولا تنافي بين نسبة هذا القول إلى الملا هنا، وإلى فرعون في سورة الشعراء، فكلهم قد قالوه، فكان ذلك مصححاً لنسبته إليهم تارة وإلى أخرى، وجملة: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ وصف لساحر، والأرض المنسوبة إليهم هي أرض مصر: وهذا من كلام الملا، وأما ﴿فماذا تأمرون﴾ فقيل: هو من كلام فرعون، قال للملا لما قالوا بما تقدم: أي بأي شيء تأمرونني؛ وقيل: هو من كلام الملا: أي قالوا لفرعون، فبأي شيء تأمرنا وخاطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيماً له، كما يخاطب الرؤساء أتباعهم، وما في موضع نصب بالفعل الذي بعده، ويجوز أن تكون ذا بمعنى الذي، كما ذكره النحاة في ماذا صنعت، ويكون هذا من كلام فرعون هو الأولى، بلبيل ما بعده وهو: ﴿قالوا أرجه وإخاه﴾ قال الملا جواباً لكلام فرعون، حيث استشارهم وطلب ما عندهم من الرأي: أرجه، أي: أخره وإخاه يقال أرجأته وأرجيته: أخرته. قرأ عاصم والكسائي وحمة وأهل المدينة «أرجه» بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز وقرأ أهل الكوفة إلا الكسائي أرجه بسكون الهاء. قال الفراء: هي لغة للعرب يقفون على الهاء في الوصل، وأنكر ذلك البصريون؛ وقيل معنى أرجه: أحبسه؛ وقيل هو من رجا يرجو: أي أطمعه ودعه يرجو، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد ﴿وارسل في الممدائن حاشرين﴾ أي: أرسل جماعة حاشرين في الممدائن التي فيها السحرة، وحاشرين مفعول أرسل؛ وقيل: هو منصوب على الحال، و﴿ياتوك﴾ جواب الأمر: أي يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم ﴿بكل سحر عليم﴾ أي: بكل ماهر في السحر كثير العلم بصناعته. قرأ أهل الكوفة إلا عاصم «سحاره» وقرأ من عداهم «ساحر». قوله: ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ في الكلام طي: أي فبعث في الممدائن حاشرين، وجاء السحرة فرعون. قوله: ﴿قالوا إن لنا لأجراً﴾ أي: فلما جاؤوا فرعون قالوا له إن لنا لأجراً، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: أي شيء قالوا له لما جاؤوه؟ والأجر الجائزة والجعل، ألزموا فرعون أن يجعل لهم جعلاً إن غلبوا موسى بسحرهم. قرأ نافع، وابن كثير «إن لنا» على الإخبار، وقرأ الباقون «أئن لنا» على الاستفهام، استفهما فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة، ومعنى الاستفهام التقرير. وأما على القراءة الأولى، فكانهم قاطعون بالجعل، وأنه لا بد لهم منه، فأجابهم فرعون بقوله: ﴿نعم وإنكم لمن المقربين﴾ أي: إن تكم لأجراً وإنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقربين لدينا. قوله: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملحقين﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون نعم وإنكم لمن المقربين. والمعنى: أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بإلقاء ما يلقيه عليهم، أو يبتدئوه هم

وقيل: ثلاثين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، وقيل: ثمانين ألفاً، وقيل: ثمانمائة ألف، وقيل: تسعمائة ألف. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ﴾ أي: عطاء. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَلَمَّا لَقُوا﴾ قال: لقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، فأقبلت يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ قال: ألقي موسى عصاه فاكلت كل حية لهم، فلما رآوا ذلك سجدوا. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، ما يكتبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: ﴿تَلْقَفْ مَا يَلْفَكُونُ﴾ قال: تسترط حبالهم وعصيهم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قال: التقى موسى وأمير السحرة، فقال له موسى: أرايتك إن غلبتكَ أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق؟ فقال الساحر: لأتؤمن غداً بسحر لا يغلبه سحر، فو الله لئن غلبتني لأؤمنن بك ولأشهدن أنه حق، وفرعون ينظر إليهما وهو قول فرعون ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: 123]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأوزاعي قال: لما خرّ السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها.

قَالَ يَرْعَوْنَ دَانِيَهُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ لَكَ إِلَهُ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ يُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْبِلَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُزِيلَنَّ عَنْ يَمِينِكُمْ لَأَمْسِكَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّكَ مُنْجِلُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَعْمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ نَأْتِيَنَا رِبًّا لَنَا جَاءَتْهُمَا رِبًّا أَرْعَفَ عَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّاهُ مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ يَرْعَوْنَ أَنْدَرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُثْبِتُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَهَذَا الْبَلَدُ قَالَ سَقِطَ آيَاتُهُمْ وَكَلَّتْ نِسَاءَهُمْ رَبَّنَا وَتَوَقَّاهُ قَهْرًا ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْفِينَا بِقَوْلِ رَبِّكَ إِنَّا نَأْتِيَنَّكَ وَإِنْ يَمْدِدْ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ تَسْتَوْفُونَ فِي الْأَرْضِ فَتَنْظُرُ كَيْفَ تَقْعَلُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله: ﴿أَمْسِكُمْ بِهِ﴾ قرئ بحذف الهمزة على الإخبار وبإثباتها، أُنكر على السحرة فرعون إيمانهم بموسى قبل أن يأتين لهم بذلك، ثم قال بعد الإنكار عليهم مبيناً لما هو الحامل لهم على ذلك في رُغمه ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: حيلة احتملتموها أنتم وموسى عن مواطاة بينكم سابقة ﴿لَتُخْرِجُوا﴾ من مدينة مصر ﴿أَهْلَهَا﴾ من القبط، وتستولوا عليها وتسكنوا فيها أنتم وبنو إسرائيل، ومعنى ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أن هذه الحيلة والمواطاة كانت بينكم، وأنتم بالمدينة، مدينة مصر، قبل أن تبرزوا أنتم وموسى إلى هذه الصحراء، ثم هُدم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة صنعكم هذا، وسوء مغبته؛ ثم لم يكتف

أن فرعون كان قبطياً ولد زنا طوليه سبعة أشهر. وأخرج أيضاً عن الحسن قال: كان علجاً من همدان. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم بن مقسم الهنلي، قال: مكث فرعون أربعمئة سنة لم يصدع له رأس. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فَلَمَّا لَقُوا عَصَاهُ﴾ قال: نكر لنا أن تلك العصا عصا آدم، أعطاها إياها ملك حين توجه إلى مدين، فكانت تضوي بالليل، ويضرب بها الأرض بالنهار، فتخرج له رزقه ويهش بها على غنمه ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مَبِينٌ﴾ قال: حية تكاد تساوره. وأخرج ابن أبي حاتم، على ابن عباس، قال: لقد دخل موسى على فرعون وعليه زمامقة من صوف ما تجاوز مرفقيه، فاستأنن على فرعون فقال: أدخلوه، فدخل فقال: إن إلهي أرسلني إليك، فقال للقوم حوله: ما علمت لكم من إله غيري، خنوه. قال إنني قد جئتكم بآية، قال: فانت بها إن كنت من الصادقين، فالتقى عصاه، فصارت ثعباناً بين لحييه ما بين السقف إلى الأرض، وأدخل يده في جيبه، فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار، فخرجوا على وجوههم، وأخذ موسى عصاه ثم خرج، ليس أحد من الناس إلا نفر منه، فلما افتاق وذهب عن فرعون الروع قال للملأ حوله: ماذا تأمروني ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ ولا تأتينا به ولا يقربنا ﴿وَأَرْسَلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وكانت السحرة يخشون من فرعون، فلما أرسل إليهم قالوا: قد احتاج إليكم إلهكم؟ قال: إن هذا فعل كذا وكذا، قالوا: إن هذا ساحر سحر ﴿إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قال نعم وإنكم لمن المقربين. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: عصى موسى اسمها ماشا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق، عنه، في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مَبِينٌ﴾ قال: الحية النكر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ، في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مَبِينٌ﴾ قال: النكر من الحيات فاتحة فمها واضعة لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها دعر منها ووثب، فأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك، فصاح يا موسى خذها وأنا أوّمن بربك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فصارت عصا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَرْجِهْ﴾ قال: أخره. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، قال: أحبسها وأخاه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس من طرق في قوله: ﴿وَأَرْسَلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ قال: الشرط. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ قال: كانوا سبعين رجلاً أصبحوا سحرة، وأمساوا شهداء.

وقد اختلفت كلمة السلف في عددهم؛ فقيل: كانوا سبعين كما قال ابن عباس، وقيل كانوا اثني عشر، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: سبعة عشر ألفاً، وقيل: تسعة عشر ألفاً،

بالنصب بأن مقدرته على أنه جواب الاستفهام، والواو نائبة عن الفاء أو عطفاً على «يفسدوا» أي: ليفسدوا، وليذكر لأنهم على الفساد في زعمهم، وهو يؤدي إلى ترك فرعون وأهله.

واختلف المفسرون في معنى: «وَأَهْلُكُمْ» لكن فرعون كان يدعي الربوبية كما في قوله: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» [القصص: 38]. وقوله: «أَنَا رَبُّكُمْ» [النازعات: 24] فقيل معنى وأهلك: وطاعتك، وقيل معناه: وعبادتك، ويؤيده قراءة علي، وابن عباس، والضحاك «وَأَهْلُكُمْ» وفي حرف أبي «أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك» وقيل: إنه كان يعبد بقرة، وقيل: كان يعبد النجوم. وقيل: كان له أصنام يعبدها قومه تقريباً إليه فنسبت إليه، ولهذا قال «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» [النازعات: 24] قاله الزجاج، وقيل: كان يعبد الشمس. فقال فرعون مجيباً لهم، ومثبتاً لقلوبهم على الكفر «سَنَقْتَلُ أَبْنَاءَ هَؤُلَاءِ هَمًّا». قرأ نافع وابن كثير «سَنَقْتَلُ» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد: أي سنقتل الأبناء ونستحيي النساء: أي نتركهن في الحياة. ولم يقل سنقتل موسى، لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه «وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ» أي: مستعلون عليهم بالقهر والغلبة، أو هم تحت قهرنا وبين أيدينا، ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه، وجملة «قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ» مستأنفة جواب سؤال مقدر. لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة، ثم أخبرهم «أَنَّ الْأَرْضَ» يعني: أرض مصر «لِلَّهِ يورثها من يشاء من عباده» أو جنس الأرض، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم. ثم بشرهم بأن العقاب للمتقين: أي العقاب المحمودة في الدنيا والآخرة للمتقين من عباده، وهم موسى ومن معه. وعاقبة كل شيء آخره. وقرئ «وَالْعَاقِبَةُ» بالنصب عطفاً على الأرض، وجملة «قَالُوا أَوْيِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا» مستأنفة جواب سؤال مقدر كالتي قبلها: أي أويينا من قبل أن تأتينا رسولاً، وذلك يقتل فرعون أبناؤه عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده «ومن بعد ما جئتنا» رسولاً يقتل أبنائنا الآن؛ وقيل: المعنى أويينا من قبل أن تأتينا باستعمالنا في الأعمال الشاقة بغير جعل «من بعد ما جئتنا» بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا؛ وقيل: إن الأذى من قبل ومن بعد واحد، وهو قبض الجزية منهم، وجملة «قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِوَاكُمْ» مستأنفة كالتي قبلها، وعدهم بإهلاك الله لعدوهم، وهو فرعون وقومه. قوله: «وَيَسْتَخْلَفُكُمْ فِي الْأَرْضِ» هو تصريح بما رمز إليه سابقاً من أن الأرض لله. وقد حقق الله رجاءه وملكو مصر في زمان داود وسليمان، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، وأهلك فرعون وقومه بالغرق وأنجاهم «فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» من الأعمال بعد أن يمن عليكم بإهلاك عدوكم «وَيَسْتَخْلَفُكُمْ فِي الْأَرْضِ» فيجازيكم

بهذا الوعيد المجمل بل فصله فقال: «لَا قُطْعَنَ لِي بِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ» أي: الرجل اليمنى واليد اليسرى، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى، ثم لم يكتف عدو الله بهذا، بل جاوزه إلى غيره فقال: «ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ» في جنود النخل: أي أجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكيل بهم، وإفراطاً في تعذيبهم، وجملة «قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ» استئنافية جواب سؤال كما تقدم، ومعناه: إنك وإن فعلت بنا هذا الفعل، فتعده يوم الجزاء سيجازيك الله بصنعك ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته، فتوعده بعذاب الله في الآخرة لما توعدهم بعذاب الدنيا. ويحتمل أن يكون المعنى: «إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ» بالموت: أي لا بد لنا من الموت، ولا يضرنا كونه بسبب منك. قوله: «وَمَا نَنْتَقِمُ مِنْكَ» قرأ الحسن بفتح القاف. قال الأخفش: هي لغة، وقرأ الباقون بكسرهما، يقال نقتم الأمر أنكرته: أي لست تعيب علينا وتذكر منا «إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتُنَا» مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل، ومثله لا يكون موضعاً للعب ومكاناً للإنكار، بل هو حقيق بالثناء الحسن والاستحسان البالغ، ثم تركوا خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا إلى خطاب الجنب العلي مفوضين الأمر إليه طالبين منه عز وجل أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين: «رَبِّنَا أَفْرَغْ عَلَيْنَا صَبْرًا» الإفراغ: الصب: أي أصببه علينا حتى يفيض ويغمرنا، طلبوا إبلاغ أنواع الصبر، استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدو الله، وتوطئناً لأنفسهم على التصلب في الحق، وثبوت القدم على الإيمان، ثم قالوا: «وَتُوفِنَا مُسْلِمِينَ» أي: توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرّفين، ولا مبذلين، ولا مفتونين. ولقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شراً محضاً سبباً للفوز بالسعادة، لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر، وأنه من فعل الله سبحانه، فوصلوا بالشّر إلى الخير، ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الإنذعان والاعتراف والإيمان، وإذا كانت المهارة في علم الشر قد تأتي بمثل هذه الفائدة، فما بالك بالمهارة في علم الخير، اللهم انفعنا بما علمتنا، وثبت أقدامنا على الحق، وأفرغ علينا سجال الصبر وتوفنا مسلمين. قوله: «وَقَالَ لِمَلَأْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ» هذا الاستفهام منهم للإنكار عليه: أي أتتركه وقومه ليفسدوا في الأرض بلبقاع الفرقة وتشيت الشمل. والمراد بالأرض هنا: أرض مصر. قوله: «وَيَذَرُكَ وَأَهْلُكَ» قرأ نعيم بن ميسرة «ويذكر» بالرفع على تقدير مبتدأ: أي وهو يترك، أو على العطف على «تَذَرُ مُوسَى» أي: أتذره ويترك، وقرأ الأشهب العقيلي «ويذكر» بالجزم: إما على التخفيف بالسكون لنقل الضمة، أو على ما قيل في «وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» [المنافقون: 10] في توجيه الجزم. وقرأ أنس بن مالك «ونذكر» بالنون والرفع، ومعناه: أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سينرونه وأهله. وقرأ الباقون «ويذكر»

با علمتم فيه من خير وشر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ إذا التقيتما لتظاهرا فتخرجا منها أهلها ﴿لَا تَقْطَعَنَّ لِإِيتِيكُمْ﴾ الآية، قال: فقتلهم وقطعهم كما قال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان أول من صلب فرعون، وهو أول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، في قوله: ﴿مَنْ خَلَّافَ﴾ قال: يدا من ها هنا، ورجلا من ها هنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿أَوْتَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقِيَنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتُنَا﴾ قال: من قبل إرسال الله إليك ومن بعده. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه، في الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تاتينا، فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضا، فقال موسى: أي رب أهلك فرعون، حتى متى تبقيه؟ فأوحى الله إليهم إنهم لم يعملوا الذنب الذي أهلكهم به. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، في الآية قال: حزا لعنوا الله حاز أنه يولد في العام غلام يسلب ملكا، قال: فتتبع أولادهم في ذلك العام بذيبح الذكر منهم، ثم نبجهم أيضا بعد ما جاءهم موسى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: إن بنا أهل البيت يفتح ويختم، ولا بد أن تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن تكون من بني هاشم؟ وفيهم نزلت: ﴿عَسَىٰ رَيْبُكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وينبغي أن ينظر في صحة هذا عن ابن عباس، فالآية نازلة في بني إسرائيل، لا في بني هاشم، واقعة في هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى وفرعون.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّبْيَيْنِ وَنَقَضْنَا شَرَكَهُنَّ لَمَّا هَمَّ بِذِكْرِنَا ﴿١٧٧﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَوْ كُنَّا هَذِهِ وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِيبَةً يَطْلُرُوا بِمُوسَىٰ وَنُفْعَةٍ أَلَا إِنَّا نَحْنُ غَالِبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٨﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَيْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّنَسْحَرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالْبَعَادِ وَالْذَّمَ آيَاتٍ مُّضَعَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٨٠﴾ وَلَمَّا رَفَعْنَا عَلَيْهِمُ الرِّجَّزَ قَالُوا يَمْشِي آدَمُ لَنَا رَيْبٌ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ لَئِنْ كُنْتُمْ عَنَّا الرِّجَّزَ لَنُؤْمِنَنَّ بِكَ وَلَنَرِيكَ مِن مَّالِكَ بَرًّا ﴿١٨١﴾ إِنَّمَا نَحْنُ بِكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٢﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَّزَ لَكَ أَجَلُكَ هُمْ يَكْفُرُونَ إِذَا هُمْ يَنْكَبُونَ ﴿١٨٣﴾ فَانْقَضَا مِنْهُمْ فَأَعْرِفْتَهُمْ فِي آيَةٍ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنَّا غَافِلِينَ ﴿١٨٤﴾

المراد بآل فرعون هنا قومه، والمراد بالسنيين الجذب، وهذا معروف عند أهل اللغة، يقولون أصابتهم سنة: أي جذب سنة، وفي الحديث: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، وأكثر العرب يعربون السنين إعراب جمع المذكر السالم، ومن العرب من يعربه إعراب المفرد، ويجري الحركات على النون، وأنشد الفراء:

أرى من السنيين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال
بكسر النون من السنين. قال النحاس: وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون.

أقول: قد ورد ما لا احتمال فيه وهو قول الشاعر:

وماذا تزدري الأقسام مني وقد جاوزت حد الأربعين
وبعده:

أخو الخمسين مجتمع أشدي وتجذبني مداورة السنين
فإن الأبيات قبله وبعده مكسورة. وأول هذه الأبيات:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون: أقمت عنده سنيئاً مصروفاً، قال: وبنو تميم لا يصرفونه، ويقال أسنت القوم: أي أجذبوا، ومنه قول ابن الزبيري:

رجال مكة مسنتنون عجاف

﴿ونقص من الثمرات﴾ بسبب عدم نزول المطر، وكثرة العمامات ﴿لعلهم ينكرون﴾ فيتعطلون ويرجعون عن غوايتهم. قوله: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾ أي: الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر، وصلاح الثمرات، ورخاء الأسعار ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: أعطيناها باستحقاق، وهي مختصة بنا ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: خصلة سيئة من الجلب والقحط، وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به، والأصل يطيروا ادغمت التاء في الطاء، وقرأ طلحة ﴿يطيروا﴾ على أنه فعل ماض، وقد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك في كل من تشاءم بشيء، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ [النساء: 78] قيل: ووجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع، ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها، قوله: ﴿إلا إنما طائرهم عند الله﴾ أي: سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط، هو من عند الله، ليس بسبب موسى ومن معه، وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه، ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذي يجري بقدر الله وحكمته ومشيبته ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ بهذا، بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم. وقرأ الحسن «طيرهم» قوله: ﴿وقالوا مهما تاتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ قال الخليل: أصل مهما «ما» الشرطية زيدت عليه «ما» التي للتوكيد، كما تزداد في سائر الحروف مثل: حيثما وأينما وكيفما ومتى ما، ولكنهم كرهوا اجتماع المثلثين فأبدلوا ألف الأولى هاء. وقال الكسائي: أصله: أي أكف ما تاتينا به من آية، وزيدت عليها «ما» الشرطية؛ وقيل:

وهي كلمة مفردة يجازي بها، ومحل مهما الرفع على الابتداء، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها، ومن آية لبيان مهما، وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيد ما بعده، وهو ﴿لتسحرنا بها﴾ أي: لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم، والضمير في به عائذ إلى مهما، والضمير

فاجتوا النكت وبادروه **﴿فانتقمنا منهم﴾** أي: أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدم لهم من الذنوب المتعددة **﴿فاغرقناهم في اليم﴾** أي: في البحر، قيل: هو الذي لا يدرك قعره، وقيل هو لجته وأوسطه، وجملة **﴿بأنهم كتبوا بأياتنا﴾** تعليل للإغراق **﴿وكانوا عنها غافلين﴾** معطوف على كتبوا: أي كانوا غافلين عن النعمة المدلول عليها بانتقمنا، أو عن الآيات التي لم يؤمنوا بها، بل كتبوا بها، وكانوا في تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها، والثاني: أولى لأن الجملتين تعليل للإغراق.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود **﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾** قال: السنين الجوع. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: السنين الجوائح **﴿ونقص من الثمرات﴾** دون ذلك. وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأصول، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم، وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر، واجتمعوا إلى فرعون، فقالوا: إن كنت كما تزعم فائتنا في نيل مصر بماء، قال: غوة يصبحكم الماء، فلما خرجوا من عنده قال: أي شيء صنعت إن لم أقدر على أن أجري في نيل مصر ماء غوة كذبوني؟ فلما كان جوف الليل قام فاغتسل، ولبس مدرعة صوف، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر فقال: اللهم إنك تعلم، أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾** قال: العافية والرخاء **﴿قالوا لنا هذه﴾** نحن أحق بها **﴿وإن تصبهم سيئة﴾** قال: بلاء وعقوبة **﴿يطيروا بموسى﴾** قال: يتشاءموا به. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **﴿إلا إنما طأثرهم عند الله﴾** قال: الأمر من قبل الله، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت» قال ابن كثير: هو حديث غريب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الطوفان الغرق. وأخرج هؤلاء عن مجاهد قال: الطوفان الموت على كل حال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الطوفان: مطروا دائماً بالليل والنهار ثمانية أيام، والقمل: الجراد الذي له أجنحة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: الطوفان أمر من أمر ربك، ثم قرأ: **﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾** [القلم: 19]. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: الطوفان الماء، والطاعون والجراد. قال يكلل مسامير أرتجهم: يعني أبوابهم وثيابهم، والقمل: الدبابة

في بها عائد إلى آية؛ وقيل: إنها جميعاً عائدان إلى مهما، وتذكير الأول باعتبار اللفظ، وتانيث الثاني باعتبار المعنى **﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾** جواب الشرط: أي فما نحن لك بمصدقين: أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يجيء به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر، فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل الميمنة بقوله: **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾** وهو المطر الشديد. قال الأخفش: واحده طوفانة، وقيل: هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له، وقيل الطوفان: الموت. وقال النحاس: الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل: أي ما يطيف بهم فيهلكهم **﴿والجراد﴾** هو الحيوان المعروف، أرسله الله لأكل زروعهم فلكلها **﴿والقمل﴾** قيل: هي الدبابة؛ والدبابة الجراد قبل أن تطير، وقيل: هي السوس، وقيل: البراغيش، وقيل: دواب سود صغار، وقيل: ضرب من القردان، وقيل: الجعلان. قال النحاس: يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم. وقرأ الحسن «القمل» بفتح القاف وإسكان الميم. وقرأ الباقون بضم القاف وفتح الميم مشددة. وقد فسر عطاء الخراساني «القمل» بالقمل **﴿والضفادع﴾** جمع ضفدع، وهو الحيوان المعروف الذي يكون في الماء **﴿والدم﴾** روي أنه سال النيل عليهم دمًا، وقيل: هو الرعاف. قوله: **﴿آيات مفصلات﴾** أي: مبينات، قال الزجاج: هو منصوب على الحال. والمعنى: أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات **﴿فاستكبروا﴾** أي: ترفعوا عن الإيمان بالله **﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾** لا يهتدون إلى حق، ولا ينزعون عن باطل. قوله: **﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾** أي: العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم، وقرأ بضم الراء وهما لغتان؛ وقيل: كان هذا الرجز طاعونا مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً **﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾** أي: بما استودعك من العلم، أو بما اختصك به من النبوة؛ أو بما عهد إليك أن تدعو به فيجيبك، والباء متعلقة بادع على معنى: أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله، أو ادع لنا متوسلاً إليه بعهدك عندك؛ وقيل: إن الباء للقسمة، وجوابه لنؤمنن: أي أقسمنا بعهد الله عندك **﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك﴾** على أن جواب الشرط ساء مسد جواب القسم؛ وعلى أن الباء ليست للقسمة، تكون اللام في **﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾** جواب قسم محذوف، و **﴿لنؤمنن﴾** جواب الشرط ساء مسد جواب القسم **﴿ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾** معطوف على لنؤمنن، وقد كانوا حابسين لبني إسرائيل عندهم، يمتنونهم في الأعمال، فوعده بإرسالهم معه **﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾** أي: رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا إلى موسى وسألوه بما سألوه، لكن لا رفعاً مطلقاً، بل رفعاً مقيداً بغاية هي الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق، وجواب لما **﴿إذا هم يكتنون﴾** أي: ينقضون ما وعده على أنفسهم، وإذا هي الفجائية: أي

باركنا فيها﴾ صفة للمشارك والمغارب: وقيل: صفة الأرض، والمباركة فيها إخراج الزرع والثمار منها على أتم ما يكون، وأنفع ما ينفق. قوله: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنی﴾ أي: مضت واستمرت على التمام، والكلمة هي: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾ [القصص: 5]، وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملكهم، والحسنی: صفة للكلمة، وهي تأنيث الاحسن، وتمام هذه الكلمة ﴿على بني إسرائيل﴾ بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه. قوله: ﴿ووبّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ التمييز الإهلاك: أي أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات ﴿وما كانوا يعرشون﴾ قرأ ابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم «يعرشون» بضم الراء. قال الكسائي: هي لغة تميم. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة «يعرشون» بتشديد الراء وضم حرف المضارعة. وقرأ الباقر بكسر الراء مخففة أي ما كانوا يعرشونه من الجنات، ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ [الأنعام: 141] وقيل: معنى يعرشون يبنون، يقال عرش يعرش أي: بنى يبنى. قوله: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ هذا شروع في بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه. ومعنى جاوزنا ببني إسرائيل البحر: جزأه بهم وقطعناه. وقرئ «جوزنا» بالتشديد، وهو بمعنى قراءة الجمهور ﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾ قرأ حمزة والكسائي «يعكفون» بكسر الكاف، وقرأ الباقر بضمها، يقال عكف يعكف: ويعكف بمعنى أقام على الشيء ولزمه، والمصدر منهما عكوف: قيل: هؤلاء القوم الذين آتاهم بنو إسرائيل هم من لخم كانوا نازلين بالرقعة، كانت أصنامهم تماثيل بقر: وقيل: كانوا من الكنعانيين ﴿قالوا﴾ أي: بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً﴾ أي: صنماً نعبده كالثدي كالذي لهؤلاء القوم، فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة لإلهها، فأجاب عليهم موسى، و﴿قال إنكم تجهلون﴾ وصفهم بالجهل، لأنهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير الله، ولكن هؤلاء القوم: أعني بني إسرائيل أشد خلق الله عناداً وجهلاً وتلوثاً، وقد سلف في سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك، ثم قال لهم موسى ﴿إن هؤلاء﴾ يعني: القوم العاكفين على الأصنام ﴿ممتبر ما هم فيه﴾ التبار: الهلاك، وكل إناء منكسر فهو متبر: أي أن هؤلاء هالك ما هم فيه متمرّ مكسر، والذي هم فيه هو: عبادة الأصنام أخبرهم بأن هذا الدين الذي هؤلاء القوم عليه. هالك متمرّ لا يتمّ منه شيء. قوله: ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبائتهم للأصنام. قال في الكشف: وفي إيقاع هؤلاء اسماً لأن، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها، واسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرّضون للتبار، وأنه

والضفادع، تسقط على فرشهم وفي أطعمتهم، والدم: يكون في ثيابهم ومائهم وطعامهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: القمل اللبأ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: كانت الضفادع برية، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت، فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي، وفي التناوير وهي تغور. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: سال النيل دماً، فكان الإسرائيلي يستقي ماء طيباً، ويستقي الفرعوني دماً، ويشتركان في إناء واحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء طيباً وما يلي الفرعوني دماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿والدم﴾ قال: سلق الله عليهم الرعاف. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: مكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة أربعين سنة، يريهم الآيات، والجراد، والقمل والضفادع. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله: ﴿آيات مفصلات﴾ قال: كانت آيات مفصلات يتبع بعضها بعضاً ليكون لله الحجة عليهم. وأخرج ابن المنذر، عنه، قال: يتبع بعضها بعضاً تمكث فيهم سبباً إلى سبب، ثم ترفع عنهم شهراً. وأخرج ابن مردويه، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «الرجز: العذاب» وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: الرجز الطاعون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلى لجل هم بالغوه﴾ قال: الغرق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن طريق، عن ابن عباس قال: اليم البحر. وأخرج أيضاً عن السديّ مثله.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا إِلَى
بَنِي إِسْرَءِيلَ فِيهَا وَكُنْتَ رَبُّكَ الْحَقُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا
وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَسْخَبُ عَنْهُمْ وَإِعْزَازُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمَا كَانُوا يَشْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾
وَجَوْنَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَاوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُرُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا
يَبْسُوْا أَحْمَلْ لَنَا إِلَهُهَا كَمَا كُنَّا إِلَهُهُ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْعَلُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ
مُتَّبِعَاتُهُمْ فِيهِ وَلَقَدْ نَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنِيَكُمْ إِلَهُهَا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ
بُسُوفَكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ لِقَائِهِمْ يُغْلِقُونَ أَتَابَهُمْ لِسَانَهُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
لَايَةً لِمَنْ يَرْجِيكُمْ عَلَيْهِ ﴿١٨١﴾

قوله: ﴿وَلَوْ رُتِنَا الْقَوْمُ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَظْهَفُونَ﴾ أي: يئنون ويمنهون بالخدمة لفرعون، وقومه ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ منصوبان بأورثنا. وقال الكسائي والفراء: إن الأصل في مشارق الأرض ومغاربها ثم حذفت «في» فنصبها، والأوّل: أظهر لأنه يقال أورثته المال، والأرض هي مصر والشام، ومشارقتها جهات مشرقها. ومغاربها جهات مغربها، وهي التي كانت لفرعون وقومه من القبط؛ وقيل: المراد جميع الأرض؛ لأن داود وسليمان من بني إسرائيل، وقد ملكا الأرض. قوله: ﴿الَّتِي

فذلك كان أول شأن العجل ليكون لله عليهم الحجة، فينتقم منهم بعد ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمرنا بسدرة، فقلت: يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها فقال النبي ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم» وأخرج نحوه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعاً، وكثير ضعيف جداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَتَّبِعُوا﴾ قال: خسران. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: هلاك.

﴿وَوَعَدَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا يَمْسِرُ فَمَتَّ مِيقَاتَ رَبِّهِ أَتَمِمْتَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

هذا من جملة ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه. والثلاثين هي نو القعدة، والعشر هي عشر ذي الحجة ضرب الله هذه المدة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته؛ قيل: وكان التكليم في يوم النحر، والفائدة في ﴿فَمَتَّ مِيقَاتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون ليلاً يتوهم وأن المراد أتممت الثلاثين بعشر منها فبين أن العشر غير الثلاثين، وأربعين ليلة منصوب على الحال: أي فَمَتَّ حال كونه بالغاً أربعين ليلة. قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي يَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، قال موسى هذا لما أراد المضي إلى المناجاة ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم، والرفق بهم، وتفقد أحوالهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عوناً للظالمين.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَوَاعِدْنَا مُوسَىٰ﴾ الآية، قال: نو القعدة، وعشر من ذي الحجة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية، قال: إن موسى قال لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه، وأخلف هارون فيكم، فلما فصل موسى إلى ربه، زاده الله عشراً، فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبيل، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب، ثم ذكر قصة السامري.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أُنْظِرْ إِلَيْكَ قَوْمِي فَإِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلُوا دِينَهُمْ وَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

لا يعدهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا، وتبغض إليهم ما أحبوا. قوله: ﴿أَغْيِرْ اللَّهُ لِبَغْيِكُمُ إِلَهًا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ: أي كيف أطلب لكم غير الله إلهاً تعبدونه، وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي البعض منه؟ والمعنى: إن هذا الذي طلبتم لا يكون أبداً، وإدخال الهمزة على غير؛ للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلهاً، وغير مفعول للفعل الذي بعده، وإلهاً تمييز أو حال، وجملة: ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم به عليكم من إهلاك عدوكم، واستخلافكم في الأرض، وإخراجكم من الظل والهوان إلى العز والرفعة، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره. قوله: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: وأذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون، بعد أن كانوا مالمكين لكم، يستعبدونكم فيما يريدونه منكم، ويمتهنونكم بأنواع الامتهانات، هذا على أن هذا الكلام محكي عن موسى، وأما إذا كان في حكم الخطاب لليهود الموجودين في عصر محمد، فهو بمعنى: أذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون، وجملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ في محل نصب على الحال: أي أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه، وجملة: ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ مفسرة للجملة التي قبلها، أو بدل منها. وقد سبق بيان ذلك، والإشارة بقوله: ﴿وَفِي نَارِكُمْ﴾ إلى العذاب: أي في هذا العذاب الذي كنتم فيه ﴿بِإِلَاءِ﴾ عليكم ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٍ﴾ وقيل: الإشارة إلى الإنجاء، والبلاء النعمة. والأول: أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن في قوله: ﴿مُشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال: الشام. وأخرج هؤلاء عن قتادة مثله. وأخرج ابن عساکر عن زيد بن أسلم نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن عبد الله بن شونب، قال: هي فلسطين، وقد روي عن النبي ﷺ في فضل الشام لحديث ليس هذا موضع ذكرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَتَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ قال: ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض وما ورثهم منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا بِإَعْرَاشِهِمْ﴾ قال: يبنون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿فَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ﴾ قال: لخم وجذام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي عمران الجوني مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، في الآية قال: تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر،

فالمعتزلة استدلوا بقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وبأمره بأن ينظر إلى الجبل. والاشعرية قالوا: إن تطبيق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة، ولا يخفك أن الرؤية الآخروية هي بمعزل عن هذا كله، والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا، فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة، وكلامهم فيها معروف، قوله: ﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله نكاً﴾ تجلّى معناه: ظهر، من قولك جلوت العروس: أي أيرزتها، وجلوت السيف: أخلصته من الصدا، وتجلّى الشيء: انكشف. والمعنى: فلما ظهر ربه للجبل جعله نكاً، وقيل المتجلي: هو أمره وقدرته، قاله قطرب وغيره واليك مصدر بمعنى المفعول: أي جعله منكوكاً منقوفاً فصار تراباً، هذا على قراءة من قرأ بكأ بالمصدر، وهم أهل المدينة وأهل البصرة، وأما على قراءة أهل الكوفة ﴿جعلته نكاً﴾ على التانيث، والجمع نكوات، كحمراء وحمراوات، وهي اسم للرابية الناشزة من الأرض أو للأرض المستوية، فالمعنى: أن الجبل صار صغيراً كالرابية، أو أرضاً مستوية. قال الكسائي: النك: الجبال العراض واحدها نك، والنكوات جمع نكاء، وهي رواب من طين ليست بالغلاظ، والدكالك: ما التبد من الأرض فلم يرتفع، ونافقة نكاء: لا سنام لها ﴿وخز موسى صعباً﴾ أي: مغشياً عليه مأخوذاً من الصاعقة: والمعنى: أنه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له. يقال صعق الرجل، فهو صعق ومصعوق: إذا أصابته الصاعقة ﴿فلما أفاق﴾ من غشيته ﴿قال سبحانه﴾ أي: انزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به ﴿تبت إليك﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال. قال القرطبي: واجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون؛ وقيل: هي توبة من قتله للقبطي، نكره القشيري، ولا وجه له في مثل هذا المقام ﴿وإننا أول المؤمنين﴾ بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك، وجملة ﴿قال يا موسى﴾ مستأنفة كالتي قبلها، متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به، والاصطفاء: الاجتباء والاختيار: أي اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتني، كذا قرأ نافع، وابن كثير، بالافراد، وقرأ الباقرن بالجمع. والرسالة مصدر، والأصل فيه الأفراد، ومن جمع فكأنه نظر إلى أن الرسالة هي على ضروب فجمع لاختلاف الأنواع، والمراد بالكلام هنا: التكليم. امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه: أي أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم، والإكرام الجليل. قوله: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ من كل شيء: أي من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم، وهذه الألواح: هي التوراة، قيل: كانت من زمردة خضراء؛ وقيل: من ياقوتة حمراء، وقيل: من زبرجد، وقيل:

إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٠﴾ قَالَ يَتُوبُ إِلَىٰ أَسْفَلَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسْلَتِي وَيَكْلِمُ فَعُدَّ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧١﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَهُ بِأَخَذِهَا بِحَسَنَةٍ سَاطِرٍ دَارَ الْفَنَاءِ ﴿١٧٢﴾ سَاطِرٌ عَنِ الْإِثْمِ يَتَكَذَّبُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًَّ مَّائَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلَ الرُّخْصِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَيْلَ الْفَيْءِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٧٣﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٤﴾

اللام في ﴿المليقاتنا﴾ للاختصاص: أي كان مجيئه مختصاً بالمليقات المذكور، بمعنى أنه جاء في الوقت للموعود ﴿وكلمه ربه﴾ أي: أسمعته كلامه من غير واسطة. قوله: ﴿أرني انظر إليك﴾ أي: أرني نفسك أنظر إليك: أي سألته النظر إليه اشتياقاً إلى رؤيته لما أسمعته كلامه. وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها، والجواب بقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا. وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة، ومنهج الحق واضح، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده، مع عدم التنبيه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة، يوقع في التعصب، والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء، وإنه عن سماع الحق سماء، ينفع الحق، وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلاً بما أوجب الله عليه من النظر الصحيح، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهوره هذه المذاهب في الأصول والفروع فإنه صار بها باب الحق مرتجاً، وطريق الإنصاف مستورة، والأمر لله سبحانه، والهداية منه:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح وجملة: ﴿قال لن تراني﴾ مستأنفة، لكونها جواباً لسؤال مقدر كانه قيل: فما قال الله له؟ والاستدراك بقوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ معناه: أنك لا تثبت لرؤيتي، ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرمًا وصلابة وقوة، وهو الجبل، فانظر إليه ﴿فإن استقر مكانه﴾ ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿فسوف تراني﴾ وإن ضعف عن ذلك، فانت منه أضعف، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل؛ وقيل: هو من باب التعليق بالمحال، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدّمنا.

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتين المعتزلة والاشعرية:

سبيلاً من سبل الغي سلوكه واختاروه لأنفسهم. قرأ أهل المدينة وأهل البصرة «الرشد» بضم الراء وإسكان الشين. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بفتح الراء والشين. قال أبو عبيدة: فرق أبو عمرو بين الرشد والرشد فقال: الرشد الصلاح والرشد في الدين. قال النحاس: سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد، كالسخط والسخط. قال الكسائي: والصحيح عن أبي عمرو، وغيره، ما قال أبو عبيدة. وأصل الرشد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو: ضد الخيبة، والإشارة بقوله: «**ذلك**» إلى الصرف: أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، أو الإشارة إلى التكبر وعدم الإيمان بالآيات، وتجنب سبيل الرشد، وسلوك سبيل الغي، واسم الإشارة مبتداً، وخبره جملة: «**بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**» أي: بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها، والموصول في «**والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة**» مبتداً، وخبره «**حبطت أعمالهم**»، والمراد بقاء الآخرة: لقاء الدار الآخرة: أي لقاءهم لها، أو لقاءهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف، وحباط الأعمال بطلانها: أي بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة، كالصنعة والصلة، وإن كانوا في حال كفرهم لا طاعات لهم، ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعينها كانت مرجوة النفع على تقدير إسلامهم، لما في الحديث الصحيح: «أسلمت على ما أسفلت من خير». «**هل يجزون إلا ما كانوا يعملون**» من الكفر بالله، والتكذيب بآياته، وتكذب سبيل الحق، وسلوك سبيل الغي.

وقد أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن كعب قال: لما كلم الله موسى قال: يا رب أهكذا كلامك؟ قال: يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها، ولو كلمتك بكنه كلامي لم تك شيئاً. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الأسماء والصفات، من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه، فقال له موسى: يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها، وأقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقتل، في أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية، قال: إنما كلم الله موسى بقدر ما يطيق من كلامه ولو تكلم بكلامه كله لم يطقه شيء، فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد، إلا مات من نور رب العالمين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «**قال رب أرني أنظر إليك**» يقول: أعطني أنظر إليك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية، قال: لما سمع الكلام طمع في الرؤية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: حين قال موسى لربه تبارك وتعالى «**رب أرني**

من صخرة صماء. وقد اختلف في عدد الألواح، وفي مقدار طولها وعرضها، والألواح: جمع لوح، وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وأسند الله سبحانه الكتاب إلى نفسه تشريفاً للمكتوب في الألواح، وهي مكتوبة بأمره سبحانه؛ وقيل: هي كتابة خلقها الله في الألواح، و«**من كل شيء**» في محل نصب على أنه مفعول «**كتبنا**» و«**موعظة وتفصيلاً**» بدل من محل كل شيء، أي: موعظة لمن يتعظ بها من بني إسرائيل وغيرهم، وتفصيلاً للأحكام المحتاجة إلى التفصيل «**فخذها بقوة**» أي: خذ الألواح بقوة أي بجِدِّ ونشاط وقيل الضمير عائذ إلى الرسالات، أو إلى كل شيء، أو إلى التوراة، قيل: وهذا الأمر على إضمار القول: (أي فقلنا له خذها، وقيل: إن «**فخذها**» بدل من قوله: «**فخذ ما آتيتك**» و«**وامر قومك ياخذوا بأحسنها**» أي: بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: «**اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**» [الزمر: 55]، وقوله: «**فيتبعون أحسنه**» [الزمر: 18]، ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه، والعمل بالعزيمة دون الرخصة، وبالفرصة دون النافلة، وفعل المأمور به، وترك المنهي عنه. قوله: «**ساوريكم دار الفاسقين**» قيل: هي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه وقيل منازل عاد وثمود، وقيل هي جهنم، وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها، وقيل الدار: الهلاك. والمعنى: سأريكم هلاك الفاسقين. وقد تقدّم تحقيق معنى الفسق. قوله: «**ساصرف عن آياتي للذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**» قيل: معنى «**ساصرف عن آياتي للذين يتكبرون**» سامنهم فهم كتابي، وقيل: ساصرفهم عن الإيمان بها، وقيل: ساصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله: «**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**» [الصف: 5]، وقيل: ساطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها.

واختلف في تفسير الآيات، فقيل هي المعجزات، وقيل: الكتب المنزلة، وقيل: هي خلق السموات والأرض، وصرفهم عنها: أن لا يعتبروا بها، ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعاني المذكورة و«**بغير الحق**» إما متعلق بقوله: «**يتكبرون**» أي: يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالاً: أي يتكبرون متلبسين بغير الحق. قوله: «**وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها**» معطوف على «**يتكبرون**» منتظم معه في حكم الصلة. والمعنى: ساصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة، والآيات التكوينية، والمعجزات: أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت. وقرأ مالك بن دينار «يروا» بضم الياء في الموضعين، وجملة: «**وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً**» معطوفة على ما قبلها داخلة في حكمها، وكذلك جملة: «**وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً**» والمعنى: أنهم إذا وجنوا سبيلاً من سبل الرشد تركوه وتجنبوه، وإن رأوا

من ياقوته. وأنا أقول: إنما كانت من زمرد وكتابها الذهب، كتبها الله بيده، فسمع أهل السموات صريف الأقلام.

أقول: رحم الله سعيداً ما كان أغناه عن هذا الذي قاله من جهة نفسه، فمثله لا يقال بالراي ولا بالحس، والذي يغلب به الظن أن كثيراً من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور، فلهذا اختلفت واضطربت، فهذا يقول من خشب، وهذا يقول من ياقوت. وهذا يقول من زمرد، وهذا يقول من زبرجد، وهذا يقول من برد، وهذا يقول من حجر. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾** كل شيء أمروا به ونهوا عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، مثله. وقد اختلف السلف في المكتوب في الألواح اختلافاً كثيراً، ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافي. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس **﴿فخذها بقوة﴾** قال بجد وحزم **﴿ساوريكم دار للفاسقين﴾** قال: دار الكفار. وأخرج ابن جرير عنه **﴿وامر قومك ياخذوا بإحسنتها﴾** قال: أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس **﴿فخذها بقوة﴾** قال: بطاعة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي في قوله: **﴿فخذها بقوة﴾** يعني: بجد واجتهاد **﴿وامر قومك ياخذوا بإحسنتها﴾** قال: بأحسن ما يجدون منها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد **﴿ساوريكم دار للفاسقين﴾** قال: مصيرهم في الآخرة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: منازلهم في الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: جهنم. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: مصر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿ساصرف عن آياتي﴾** قال: عن أن يتفكروا في آياتي. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج **﴿عن آياتي﴾** قال: عن خلق السموات والأرض، والآيات التي فيها ساصرفهم عن أن يتفكروا فيها أو يعتبروا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سفيان بن عيينة في الآية قال: أنزع عنهم فهم القرآن.

وَأَخَذَ قَوْمٌ مَوْسَىٰ مِنْ نُفُوسِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ ثُمَّ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٠١﴾ وَكَأَنَّهُمْ قُلُوبٌ لَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْوَانَهُمْ فَكَيْدًا مَكْرُومًا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرُدَّ لَكَ يَا مُوسَىٰ وَلَنْ نَبْرُدَّ لَكَ بِأَنْفُسِنَا كَذَبًا وَعَدًّا عَلِيمًا ﴿١٠٣﴾ وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبْنُ مَرْثُومٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْأَلْوَحُ الَّتِي أَنْزَلْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ كَانَتْ مِنْ سِدْرِ الْجَنَّةِ كَانَ طُولُ اللَّوْحِ اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا». وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، قَالَ كَانُوا يَقُولُونَ كَانَتْ الْأَلْوَحُ

لنظر إليك قال الله: يا موسى إنك لن تراني، قال يقول: ليس تراني ولا يكون ذلك أبداً، يا موسى إنه لن يراني أحد فيحيا، قال موسى رب إني أراك ثم أموت، أحب إلي من أن لا أراك ثم أحيأ، فقال الله لموسى: يا موسى انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد **﴿فإن استقر مكانه﴾** يقول: فإن ثبت مكانه لم يتضعض، ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمتي **﴿فسوف تراني﴾** أنت لضعفك ونلتك، وإن الجبل انهد بقوة وشدة وعظمته، فانت أضعف وأذل. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي في الكامل، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في كتاب الرؤية من طرق، عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية **﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً﴾** قال هكذا، وأشار بأصبعيه ووضع إبهاميه على أتملة الخنصر، وفي لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل **﴿وخر موسى صعقاً﴾** وفي لفظ، فساخ الجبل في الأرض، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة، وهذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الجبل الذي أمره الله أن ينظر إليه الطور. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في كتاب الرؤية، عن ابن عباس **﴿فلما تجلّى ربه للجبل﴾** قال: ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر **﴿جعله دكاً﴾** قال: تراباً **﴿وخر موسى صعقاً﴾** قال: مغشياً عليه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والنيلمي، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لما تجلّى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة: أحد وورقان ورضوى، وبمكة: حراء وثبير وثور». وأخرج الطبراني في الأوسط، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لما تجلّى الله لموسى تطايرت سبعة أجبل، ففي الحجاز خمسة منها، وفي اليمن اثنان، في الحجاز: أحد وثبير وحراء وثور وورقان، وفي اليمن: حضور وصبر». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عباس، أن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه فسأله؛ فقال: **﴿لن تراني ولكن انظر إلى الجبل﴾** قال: فحفّ حول الجبل الملائكة، وحفّ حول الملائكة بنار، وحفّ حول النار بملائكة، وحفّ حولهم بنار، ثم تجلّى ربه للجبل تجلّى منه مثل الخنصر، فجعل الجبل دكاً وخر موسى صعقاً، فلم يزل صعقاً ما شاء الله، ثم أفاق فقال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن علي ابن أبي طالب، قال: كتب الله الألواح لموسى، وهو يسمع صريف الأقلام في لوح. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «الْأَلْوَحُ الَّتِي أَنْزَلْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ كَانَتْ مِنْ سِدْرِ الْجَنَّةِ كَانَ طُولُ اللَّوْحِ اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا». وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، قَالَ كَانُوا يَقُولُونَ كَانَتْ الْأَلْوَحُ

قوله: **﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾** أي: من بعد خروجه إلى الطور **﴿من حليهم﴾** متعلق باتخذ أو بمحذوف

وقع حالاً، ومن للتبعض، أو للابتداء، أو للبيان؛ والحلي جمع حلي. وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة «من حليهم» بضم الحاء وتشديد الياء. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بكسر الحاء. وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء. قال النحاس: جمع حلي وحلي وحلى مثل ثدي وثدي وثدي، والأصل حلوى أدغمت الواو في الياء، فانكسرت اللام لمجاورتها الياء، وتكسر الحاء لكسرة اللام وضمها على الأصل، وأضيفت الحلي إليهم وإن كانت لغيرهم؛ لأن الإضافة تجوز لأدنى ملايسة، و«عجلاً» مفعول اتخذ، وقيل: هو بمعنى التصيير، فيتعدي إلى مفعولين ثانيهما محذوف: أي اتخذوا عجلاً إلهاً. و«جسداً» بدل من عجلاً، وقيل وصف له، والخوار الصباح: يقال خار يخور خوراً إذا صاح. وكذلك خار يخار خواراً. ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعاً، مع أنه اتخذهم السامري وحده، لكونه واحداً منهم، وهم راضون بفعله. روي أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فابطأ عليهم في العشر المزیدة، قال السامري لبني إسرائيل وكان مطاعاً فيهم: إن معكم حلياً من حلي آل فرعون الذي استعتموه منهم لتزنيوا به في العيد، وخرجتم وهو معكم. وقد أغرق الله أهله من القبط فهاتروا، فدفعوها إليه، فاتخذ منها العجل المذكور. قوله: «ألم يروا أنه لا يكلمهم» الاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي ألم يعتبروا بأن هذا الذي اتخذوه إلهاً لا يقدر على تكليمهم، فضلاً عن أن يقدر على جلب نفع لهم، أو دفع ضررٍ منهم «ولا يهديهم سبيلاً» أي: طريقاً واضحة يسلكونها «اتخذوه وكانوا ظالمين» أي: اتخذوه إلهاً «وكانوا ظالمين» لأنفسهم في اتخاذه، أو في كل شيء، ومن جملة ذلك هذا الاتخاذ. قوله: «ولما سقط في أيديهم» أي: ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات؛ يقال للنادم المتحير قد سقط في يده. قال الأخفش: يقال سقط في يده وأسقط، ومن قال سقط في أيديهم على البناء للفاعل، فالمعنى عنده: سقط الندم وأصله أن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعض يده غماً، فتصير يده مسقوطة فيها، لأن فاه قد وقع فيها. وقال الأزهري والزجاج والنحاس وغيرهم: معنى سقط في أيديهم: أي في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكرهه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد، لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد، قال الله تعالى: «ذلك بما قدمت يدك» [الحج: 10] وأيضاً الندم وإن حل القلب فآثره يظهر في البدن، لأن الندم يعض يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال الله تعالى: «فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها» [الكهف: 42] ومنه: «ويوم يعض الظالم على يديه» [الفرقان: 27] أي: من الندم، وأيضاً الندم يضع نذته في يده «وروا أنهم قد ضلوا» معطوف على سقط: أي تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل، وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه «قلوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا» قرأ حمزة والكسائي بالفوقية في الفعلين

جميعاً، وقرأ الباقون بالتحذية، واللام للقسم، وجوابه: «لنكونن من الخاسرين» وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال، وسيأتي في سورة طه إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد. قوله: «ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً» هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، وانتصاب غضبان وأسفاً على الحال، والأسف شديد الغضب. قيل هو منزلة وراء الغضب أشد منه، وهو أسف وأسيف وأسفان وأسوف، قال ابن جرير الطبري: أخبره الله قبل رجوعه بانهم قد فتنوا، فلذلك رجع وهو غضبان أسفاً «قال بنسما خلفتموني من بعدي» هذا ندم من موسى لقومه: أي بشس العمل ما علمتموه من بعدي: أي من بعد غيبتني عنكم، يقال خلفه بخير وخلفه بشر، استنكر عليهم ما فعلوه، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزعاج والإيمان بالله وحده، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلون حالهم واضطراب أفعالهم، ثم قال منكرأ عليهم «أعجلتم أمر ربكم» والعجلة: التقدم بالشئ قبل وقته، يقال عجلت الشئ سبقت، وأعجلت الرجل حملته على العجلة، والمعنى: أعجلتم عن انتظار أمر ربكم: أي ميعاده الذي وعدينه، وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم؛ وقيل معناه: تعجلتم سخط ربكم؛ وقيل معناه: أعجلتم عبادة العجل قبل أن ياتيكم أمر ربكم «واللقى الألواح» أي: طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف حين أشرف على قومه، وهم عاكفون على عبادة العجل. قوله: «واخذ برأس أخيه يجره إليه» أي: أخذ برأس أخيه هارون أو بشعر رأسه حال كونه يجره إليه: فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامري، ولا غيره ما رآه من عبادة بني إسرائيل للعجل، فقال: هارون معتدراً منه «أبني أم إن القوم استضعفوني وكانوا يقتلونني» أي: إني لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين استضعافهم لي، ومقاربتهم لقتلي وإنما قال ابن أم مع كونه أخاه من أبيه وأمه، لأنها كلمة لين وعطف، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة. وقال الزجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه. قرئ «أبني أم» بفتح الميم تشبيهاً له بخمسة عشر، فصار كقولك يا خمسة عشر أقبولوا. وقال الكسائي والفراء وأبو عبيد: إن الفتح على تقدير يابن أما وقال البصريون هذا القول خطأ: لأن الألف خفيفة لا تحذف، ولكن جعل الاسمين اسماً واحداً كخمسة عشر، واختاره الزجاج والنحاس. وأما من قرأ بكسر الميم، فهو على تقدير ابن أمي، ثم حذف الياء وأبقيت الكسرة، لتدل عليها. وقال الأخفش وأبو حاتم: ابن أم بالكسر، كما تقول يا غلام أقبل؛ وهي لغة شاذة والقراءة بها بعيدة، وإنما هذا فيما يكون مضافاً إليك. وقرئ «أبني أمي» بإثبات الياء. قوله: «فلا تشمت بي الأعداء» الشماتة: السرور من الأعداء بما يصيب من يعاونونه مع المصائب، ومنه قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من سوء

وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن مجاهد، أو سعيد بن جببر، قال: لما أقام موسى ذهب التفصيل وبقي الهدى. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال: مع أصحاب العجل.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْبَعْلَ سَيِّئًا هُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَّنُوا بِرَبِّكَ مِن بَعْدِهَا فَغُفِّرَ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَلَكَا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي شَعْبِهَا هَٰذِي وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ ﴿٦٨﴾

الغضب ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب، والذلة هي التي ضربها الله عليهم بقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ [البقرة: 61]، وقيل: هي إخراجهم من ديارهم، وقيل: هي الجزية، وفيه نظر لأنها لم تؤخذ منهم، وإنما أخذت من ذراريهم. والأولى أن يقيد الغضب والذلة بالدنيا؛ لقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإن ذلك مختص بالمتخذين للعجل إليها لا لمن بعدهم من ذراريهم، ومجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم، وبه يصيرون أذلاء، وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم، وبه يصيرون أذلاء، وأما ما نال ذراريهم من الذلة فلا يصح تفسير ما في الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقي، وهو لم يتعذر هنا ﴿وَكُنَّا نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي: مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفتريين، والافتراء الكتب، فمن افترى على الله سيناله من الله غضب وذلة في الحياة الدنيا. وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء، بل المراد ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه، وأن فيه ذلة بأي نوع كان ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: سيئة كانت ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ عنها ﴿مِن بَعْدِهَا﴾ عملها ﴿وَأَمَّنُوا﴾ بالله ﴿إِنْ رَّبُّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد هذه التوبة، أو من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلمها وأمن بالله ﴿لِغُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي: كثير الغفران للذنوب عباده وكثير الرحمة لهم. قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أصل السكوت: السكون والإمساك؛ يقال جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن: أي أمسك عن الجري؛ قيل هذا مثل كان الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، والقي الألواح، وجز برأس أخيك، فترك الإغراء وسكت؛ وقيل: هذا الكلام فيه قلب، والأصل: سكت موسى عن الغضب، كقولهم أدخلت الأصبع الخاتم، والخاتم الأصبع، وأدخلت القلنسوة رأسي ورأسي القلنسوة. وقرأ معاوية بن قرة «ولما سكن عن موسى الغضب» وقرأ سكت وأسكت ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ التي أقامها عند غضبه ﴿وَفِي نَسْخَتِهَا هَدًى وَرَحْمَةً﴾ النسخ نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كان النقل منه نسخة، وللمنقول نسخة

القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء، وهو في الصحيح. ومنه قول الشاعر:

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقي الشامتون كما لقينا
والمعنى: لا تفعل بي ما يكون سبباً للشماتة منهم. وقرأ مجاهد ومالك بن دينار: ﴿فَلَا تَشْمَتْ بِي الْأَعْدَاءُ﴾ بفتح حرف المضارعة وفتح الميم ورفع الأعداء على أن الفعل مسند إليهم: أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي. ودوي عن مجاهد أنه قرأ ﴿تَشْمَتْ﴾ كما تقدّم عنه مع نصب الأعداء. قال ابن جني: والمعنى فلا تشمت بي أنت يا رب، وجاز هذا كما في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15] ونحوه، ثم عاد إلى المراد فاضمر فعلاً نصب به الأعداء، كأنه قال: ولا تشمت يا ربّ بي الأعداء، وما أبعد هذه القراءة عن الصواب، وأبعد تأويلها عن وجوه الإعراب. قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تجعلني بغضبك علي في عداد القوم الظالمين: يعني الذين عبدوا العجل، أو لا تعتقد أنني منهم قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلاَخِي﴾ هذا كلام مستأنف جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا؟ فقيل: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلاَخِي﴾ طلب المغفرة له أولاً، ولأخيه ثانياً ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكانه تذمّم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم، ثم طلب إدخاله وإخالة أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء فهو ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى﴾ الآية، قال: حين دفنوها ألقي عليها السامري قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: استعاروا حلياً من آل فرعون، فجمعه السامري فصاغ منه ﴿عَجَلاً﴾ فجعله ﴿جَسَداً﴾ لحماً ودماً ﴿لَهُ خَوَارُ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: ﴿خَوَارُ﴾ قال: الصوت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاک قال: خار العجل خorde لم يثن ألم تر أن الله قال: ﴿أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿سَقَطَ فِي لَيْبِهِمْ﴾ قال: ندموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق، عن ابن عباس: ﴿سَقَطَ﴾ قال: حزينا. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي الدرداء، قال: الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك. وأخرج عبد بن حميد، عن محمد بن كعب، قال: الأسف الغضب الشديد. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: لما ألقي موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: رفع الله منها ستة أسباعها وبقي سبع.

قوله: ﴿وَلَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلَمِيقَاتِنَا﴾ هذا شروع في بيان ما كان من موسى، ومن القوم الذين اختارهم، وسبعين مفعول اختار، وقومه منصوب بنزع الخافض: أي من قومه على الحذف والإيصال، ومثله قوله الراعي:

اخترتك الناس إذ رثت خلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السؤل
يريد اخترتك من الناس، ومعنى ﴿أَلَمِيقَاتِنَا﴾ للوقت الذي وقتناه له، بعد أن وقع من قومه ما وقع، والميقات الكلام الذي تقدم نكره لأن الله أمره أن يأتي إلى الطول في ناس من بني إسرائيل يعتزرون إليه سبحانه من عبادة العجل كذا قيل؛ والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة، قيل: إنهم زلزلوا حتى ماتوا، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ﴾ قاله عليه السلام تحسراً وتلهفاً، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتَكُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ [البقرة: 55] على ما تقدم في البقرة؛ وقيل: هؤلاء السبعون غير من قالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153] بل أخذتهم الرجفة، بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل؛ وقيل: إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل، ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته، فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم، والمعنى لو شئت إهلاكنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافاً منه عليه السلام بالذنوب، وتلهفاً على ما فرط من قومه، والاستفهام في قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْسَفَهَاءُ مِنْهَا﴾ للجد: أي ليست ممن يفعل ذلك، قاله ثقة منه برحمة الله، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع؛ وقيل: معناه الدعاء والطلب: أي لا تهلكنا، قال المبرد: المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه يقول: وقد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره، ولكنه كقول عيسى: ﴿إِنْ تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 118]؛ وقيل المراد بالسفهاء السبعون، والمعنى: أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم ﴿أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]؛ وقيل المراد بهم: السامري وأصحابه. قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت، وتمتحن بها من أردت، ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه: ﴿إِنَّا قَدْ فِتْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: 85] ﴿تَضِلُّ بِهَا مِنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مِنْ تَشَاءُ﴾ أي: تضل بهذه الفتنة من تشاء من عبائك وتهدي بها من تشاء منهم، ومثله: ﴿لِيَلْبِزَكُمْ آيَاتِي أَعْمَلًا﴾ [هود: 7]، ثم رجع إلا الاستعطاف والدعاء فقال: ﴿أَنْتَ وَلِينَا﴾ أي المتولى لامورنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما آذنبناه ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ للذنوب ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ النُّبْيَا حَسَنَةً﴾ بتوفيقنا للأعمال الصالحة، أو تفضل علينا بأفانضة النعم في هذه الدنيا من العافية، وسعة الرزق ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: واكتب لنا في الآخرة الجنة بما تجازينا به، أو بما تفضل به علينا

أيضاً. قال القشيري. والمعنى ﴿وَفِي نَسْخَتِهَا﴾: أي فيما نسخ من الألواح المتكسرة، ونقل إلى الألواح الجديدة ﴿هَدَى وَرَحْمَةً﴾ وقيل المعنى: وفيما نسخ له منها: أي من اللوح المحفوظ، وقيل المعنى: وفيما كتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، وهذا كما يقال أنسخ ما يقول فلان: أي أثبتته في كتابك والنسخة فعلة، بمعنى مفعولة كالخطبة. والهدى ما يهتدون به من الأحكام؛ والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة، واللام في ﴿لِلَّذِينَ هُمْ﴾ متعلقة بمحذوف: أي كائنة لهم أو لأجلهم، واللام في ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ للتقوية للفعل، لما كان مفعوله متقدماً عليه، فإنه يضعف بذلك بعض الضعف. وقد صرح الكسائي بأنها زائدة. وقال الأخفش: هي لام الأجل، أي لأجل ربهم يرهبون. وقال محمد بن يزيد المبرد: هي متعلقة بمصدر الفعل المنكور، والتقير: للذين هم رهبتهم لربهم يرهبون.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أيوب، قال: تلا أبو قلابة هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنْكَ نَجْزِي الْمَفْقَرِينَ﴾ قال: هو جزاء كل مفتر، يكون إلى يوم القيامة أن يئله الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عيسى، قال: أعطى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد، فيها تبيان لكل شيء وموعظة، ولما جاء فرأى بني إسرائيل عكوفاً على العجل رمى التوراة من يده فتحطمت، وأقبل على هارون فأخذ برأسه، فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نَسْخَتِهَا هَدَى وَرَحْمَةً﴾ قال: فيما بقي منها. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، أو سعيد بن جبير، قال: كانت الألواح من زمرد فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل، وبقي الهدى والرحمة، وقرأ ﴿وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145] وقرأ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نَسْخَتِهَا هَدَى وَرَحْمَةً﴾ قال: ولم ينكر التفصيل هاهنا.

وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلَمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنْهَا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَكَاتَبْتَ لَنَا فِي هَذِهِ النُّبْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِيَّكَ قَالَتْ عَذَابٌ أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَنْشَأٍ وَرَحْمَةٌ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ مَسَاكِنُهَا لِلَّذِينَ لَا يُغْنُونَ عَنْهُمُ أَرْكَؤُهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِكَائِنًا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَرْسَالَ النَّبِيِّ الْأَمْرَ الَّذِي يَحْدِثُهُمْ مَكُونًا عَنْدهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْإِنْجِيلَ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيَحْرِمُهُمْ عَلَيْهِمْ أَلْحَبَّتْ وَيَصْنَعُ عَنْهُمْ إِمْرَهُمْ وَالْأَعْلَلُ أَلَّى كَانَتْ عَلَيْهِمُ الْقَادِرَاتُ أَمْثَلُ بِهِ وَصَرُّوهُ وَتَصَرُّوهُ وَأَتَّبِعُوا النَّبِيَ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْهُ وَلَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥٥﴾

على من يعاديه ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي: اتبعوا القرآن الذي أنزل عليه مع نبوته؛ وقيل المعنى: واتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتباعه بالعمل بسنته، مما يأمر به وينهى عنه، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه، والإشارة بـ ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ الآية. قال كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً فأختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخنتهم الرجفة. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ يقول: إن هي إلا عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عن تشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿لَمِيقَاتِنَا﴾ قال: لتعلم الموعد، وفي قوله: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ قال: ماتوا ثم أحياهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن أبي العالية، في قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ قال: بليتك. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ قال: مشيئتك وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: إن السبعين الذين اختارهم موسى من قومه، إنما أخذتهم الرجفة، لأنهم لم يرضوا بالعمل ولم ينهوا عنه. وأخرج سعيد بن منصور، عنه، في قوله: ﴿وَكَاتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلم يعطها موسى ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: ﴿وَكَاتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال تبنّا إليك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي وجزة السعدي، وكان من أعلم الناس بالعربية قال: لا والله ما أعلمها في كلام العرب هدناً؛ قيل فكيف قال هدناً بكسر الهاء، يقول: ملنا. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن وقتادة، في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ قال: وسعت رحمته في الدنيا البرّ والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. وأخرج مسلم وغيره، عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: «إن الله مائة رحمة فمنا رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها، وآخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». وأخرج نحوه أحمد، وأبو داود، والطبراني، والحاكم، والضياء المقدسي، من حديث جندب بن عبد الله العجلي. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي قال: لما

من النعيم في الآخرة، وجملة ﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾ تحليل لما قبلها من سؤال المغفرة، والرحمة، والحسنة، في الدنيا وفي الآخرة أي: إنا تبنّا إليك ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل. واليهود: التوبة. وقد تقدّم في البقرة، وجملة: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ مستأنفة كنظائرها فيما تقدّم، قيل المراد بالعذاب هنا: الرجفة؛ وقيل: أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم: أي ليس هذا إليك يا موسى، بل ما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن. والظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب، ويدخل فيه عذاب هؤلاء بخلاً أولياً؛ وقيل المراد: من أشاء من المستحقين للعذاب، أو من أشاء أن أضله وأسلمه التوفيق ﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾: من الأشياء من المكلفين وغيرهم، ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة ﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ الذنوب ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصنفون بها ويذعنون لها، ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة، ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل، والأمي: إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب: وهم العرب، أو نسبة إلى الأم. والمعنى أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب؛ وقيل نسبة إلى أم القرى، وهي مكة ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ يعني: اليهود والنصارى: أي يجنون نعتهم ﴿مَكْتُوباً عَنْدهم فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وهما مرجعهم في الدين، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وصف هذا النبي الذي يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف: أي بكل ما تعرفه القلوب، ولا تنكره من الأشياء التي هي من مكارم الأخلاق ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: ما تنكره القلوب ولا تعرفه. وهو ما كان من مساوى الأخلاق؛ قيل: إن قوله: ﴿يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التي وعد بها، نكر معناه الزجاج، وقيل: هو في محل نصب على الحال من النبي، وقيل: هو مفسر لقوله: ﴿مَكْتُوباً﴾. قوله: ﴿يَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي: المستلذات وقيل: يحل لهم ما حرّم عليهم من الأشياء التي حرّمت عليهم بسبب ذنوبهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أي: المستخبثات كالحشرات والخنازير ﴿وَيُضَعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإصر الثقيل: أي يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة. وقد تقدّم بيانه في البقرة ﴿وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم: الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوهُ﴾ فيما جاء به من الشرائع ﴿وَعَزَّوهُ﴾ أي: عظموه ووقروه، قاله الأخفش، وقيل: معناه منعه من عبوه، وأصل العز: المنع، وقرأ الجحدري «وعزروه» بالتخفيف (ونصروه) أي: قاموا بنصره

ظلمونا بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها **«ولكن كانوا انفسهم يظلمون»** أي: كان ظلمهم مختصاً بهم مقصوراً عليهم، لا يجاوزهم إلى غيرهم **«وإذ قيل لهم»** أي: وانكر وقت قيل لهم هذا القول وهو **«اسكنوا هذه القرية»** أي: بيت المقدس أو أريحا، وقيل غير ذلك مما تقدم بيانه **«وكلوا منها»** أي: من المأكولات الموجودة فيها **«حيث شئتم»** أي: في أي مكان شئتم من أمكنتها، لا مانع لكم من الأكل فيه **«وقولوا حطة»** قد تقدم تفسيرها في البقرة **«وانخلوا الباب»** أي: باب القرية المتقدمة حال كونكم **«سجداً»** أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة وبين الدخول ساجدين، فلا يقال كيف قُتِم الأمر بالقول هنا على الدخول وآخره في البقرة؟ وقد تقدم بيان معنى السجود الذي أمروا به **«تغفر لكم خطيئاتكم»** جواب الأمر، وقرئ **«خطيئتكُم»**، ثم وعدهم بقوله: **«سنزيد المحسنين»** أي: سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم، والجملة استئنافية جواب سؤال مقتر كأنه قيل: فماذا لهم بعد المغفرة؟ **«فقبل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم»** قد تقدم بيان ذلك في البقرة **«فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء»** أي: عذاباً كائناً منها **«بما كانوا يظلمون»** أي: بسبب ظلمهم. قوله: **«واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر»** معطوف على عامل إذ المقتر: أي انكر إذ قيل لهم واسألهم، وهذا سؤال تقريع وتوبيخ، والمراد من سؤال القرية: سؤال أهلها: أي أسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به. وفي ضمن هذا السؤال فائدة جلية، وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله ﷺ، وأن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار له من الله سبحانه، فيكون ليلاً على صدقه.

واختلف أهل التفسير في هذه القرية: أي قرية هي؟ فقيل أيلة، وقيل طبرية، وقيل مين، وقيل إيليا، وقيل قرية من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر: أي التي كانت بقرب البحر، يقال كنت بحضرة الدار: أي بقربها. والمعنى: سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة. قرئ «واسألهم» وقرئ «سلهم» **«إذ يعدون»** أي: وقت يعدون، وهو ظرف لمحذوف دل عليه الكلام، لأن السؤال هو عن حالهم وقصتهم وقت يعدون؛ وقيل: إنه ظرف لكانت أو لحاضرة. وقرئ «يعنون» بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال من الإعداد للآلة. وقرأ الجمهور «يعنون» بفتح الياء وسكون العين وضم الدال مخففة: أي يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه، وقرئ «يعنون» بفتح الياء والعين وضم الدال مشددة بمعنى يعدون، أدغمت التاء في الدال. والسبت: هو اليوم المعروف وأصله السكون، يقال سبت: إذا سكن وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم، والجمع أسبت، وسبوت، وأسبات وقرأ ابن السمعاني في «الاسبات» على الجمع **«إذ تأتيهم حيايتهم»**

أَلَتَبْتُ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَوَّيْتُمْ شُرَعَاءَ يَوْمٍ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْهُم بِمَا كَانُوا يَسْعَوْنَ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُنثَىٰ يَنْفَكُ مِنْ يَدَيْكَ وَيَكُنَ اللَّهُ لِمَكْرَمِكُمْ آوْ مَعْزُومٍ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَرْذَاةٌ لِّكَ رَبِّكَرُ وَلَكُمُ الْيَقُونُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا سَوَّيْنَا مِذْبَحَكُمْ بِهٖ أَجَبْنَا الَّذِينَ يَبْهَتُونَ عَنْ أَسْرِهِ وَآخَذْنَا آلَ يَزِيدَ ظَلَمُوا بِمَدَائِبِ يَحْيَىٰ يَمَا كَانُوا يَقْتُلُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا عَوَّا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ فَلَمَّا لَمْ كُونُوا قَرَدَةً خَيْرِ لِمِ ﴿١٥﴾

قوله: **«ومن قوم موسى»** لما قص الله علينا ما وقع من السامري وأصحابه، وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين: قص علينا سبحانه أن قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم، ووصفهم بأنهم **«يهودون بالحق»** أي: يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق **«وبه»** أي: بالحق **«يعملون»** بين الناس في الحكم، وقيل: هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ منهم. قوله: **«وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً»** الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم: لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهتدون بالحق وبه يعملون، والمعنى: صيرناهم قطعاً متفرقة، وميزنا بعضهم من بعض، وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، والمعنى: أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً كل سبط معروف على انفراده لكل سبط نقيب، كما في قوله تعالى: **«وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً»** [المائدة: 12] وقد تقدم، وقوله: **«الاثنتي عشرة»** هو ثاني مفعولي قطعنا لتضمنه معنى التصيير، وأسباطاً تمييز له أو بدل منه، و **«أمماً»** نعت للأسباط أو بدل منه، والأسباط جمع سبط: وهو ولد الولد، صاروا اثنتي عشرة أمة من اثني عشر ولداً، وأراد بالأسباط القبائل، ولهذا أنت العدد، كما في قول الشاعر:

وإن قريشاً كلها عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر
أراد بالبطن القبيلة، وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط في البقرة، وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ **«قطعناهم»** مخففاً، وسماهم أمماً، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد: وكانوا مختلفي الآراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر **«ووأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه»** أي: وقت استسقاءهم له لما أصابهم العطش في التيه **«أن اضرب بعصاك الحجر»** تفسير لفعل الإيحاء **«فانبجست»** عطف على مقتر يدل عليه السياق: أي فاضرب فانبجست، والانبجاس: الانفجار: أي فانفجرت **«منه اثنتا عشرة عيناً»** بعدد الأسباط، لكل سبط عين يشربون منها **«قد علم كل إنسان مشربهم»** أي: كل سبط منهم العين المختصة به التي يشرب منها، وقد تقدم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة **«وظللنا عليهم الغمام»** أي: جعلناه ظلاً عليهم في التيه، يسير بسيرهم ويقيم بإقامتهم **«وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوَى»** أي: الترنجيب والسماني كما تقدم تحقيقه في البقرة **«كلوا من طيبات ما رزقناكم»** أي: وقلنا لهم كلوا من المستلذات التي رزقناكم **«وما**

ظرف ليعدون. والحيثان: جمع حوت، وأضيف إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه، و **﴿يوم سبتهم﴾** ظرف لتأتيتهم. وقرئ **﴿يوم أسباتهم﴾** و **﴿شرعاً﴾** حال، وهو جمع شارع: أي ظاهرة على الماء، وقيل رافعة رؤوسها، وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكبش البيض. قال في الكشف: يقال شرع علينا فلان إذا دنى منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرايته يفعل كذا انتهى **﴿ويوم لا يسبئون لا تأتيتهم﴾** أي: لا يفعلون السبت، وذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيتهم الحيثان، كما كانت تأتيتهم في يوم السبت **﴿كنكك نبلوهم﴾** أي: مثل تلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم والابتلاء الامتحان والاختبار **﴿وإذا قالت أمة﴾** معطوف على إن يعنون معمول لعامله داخل في حكمه، والأمة الجماعة: أي قالت جماعة من صلحاء أهل القرية الآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أبسوا من قبولهم للموعظة، وإقلاهم عن المعصية **﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾** أي: مستأمل لهم بالعقوبة **﴿أو معذبهم عذاباً شديداً﴾** بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية؛ وقيل: إن الجماعة القائلة لم تعظون قوماً؟ هم العصاة الفاعلون للصيد في يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم. والمعنى: إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا **﴿قالوا معذرة إلى ربكم﴾** أي: قال الواعظون للجماعة القائلة لهم لم تعظون، وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول، أو الفاعلين على الوجه الثاني **﴿معذرة إلى ربكم﴾** قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف **﴿معذرة﴾** بالنصب، وهي قراءة حفص عن عاصم، وقرأ الباقون بالرفع. قال الكسائي: ونصبه على وجهين: أحدهما على المصدر، والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة: أي لأجل المعذرة. والرفع على تقدير مبتدأ: أي موعظتنا معذرة إلى الله حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبهما علينا، ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا ويقبلوا عما هم فيه من المعصية.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قال موسى: يا رب أجد أمة أناجيلهم في قلوبهم، قال: تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد، قال: يا رب أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن، قال: تلك أمة تكون بعدك: أمة أحمد، قال: يا رب أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم، فيلكون، قال: تلك بعدك: أمة أحمد، قال: يا رب اجعلني من أمة أحمد، فأنزل الله كهية المرضاة لموسى **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: **﴿ومن قوم موسى أمة﴾** الآية، قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتنوا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هناك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فنلك قوله: **﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليفيا﴾** [الإسراء: 104] ووعد الآخرة عيسى ابن مريم، قال ابن

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت وصالت وكانت نحو سبعين ألفاً، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية **﴿لم تعظون قوماً﴾** يريدون الفرقة العاصية **﴿الله مهلكهم أو معذبهم﴾** قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله ولعلمهم يتقون. ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية، وعاصية لقال: لعلكم تتقون. قوله: **﴿قلما نسوا ما نذكروا به﴾** أي: لما ترك العصاة من أهل القرية ما نذكروهم به الصالحون الناهون عن المنكر، ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الإعراض **﴿فنجينا الذين ينهون عن السوء﴾** أي: الذين فعلوا النهي،

عباس ساروا في السرب سنة ونصفاً.

أقول: ومثل هذا الخبر العجيب والنبأ الغريب محتاج إلى تصحيح النقل.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: افتترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة. وافتترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة، ولتفتقرن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة، فاما اليهود فإن الله يقول: ﴿وَمَنْ قَوْمَ مُوسَى أُمَّة يَهُودُ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ فهذه التي تنجو، وأما النصارى فإن الله يقول: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: 66] فهذه التي تنجو، وأما نحن فيقول: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُودُ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 181] فهذه التي تنجو من هذه الأمة. وقد قَدَّمْنَا أن زيادة كلها في النار لم تصح لا مرفوعة ولا موقوفة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَانْبَجِسَتْ﴾ قال: فأنفجرت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: نخلت على ابن عباس، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: يا عكرمة هل تدري أي قرية هذه؟ قلت لا، قال: هي أيلة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الزهري قال: هي طبرية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذْ يَعْلَمُونَ فِي اللَّسْبِتِ﴾ قال: يظلمون. وأخرج ابن جرير، عنه، في قوله: ﴿شُرْعًا﴾ يقول: من كل مكان. وأخرج ابن جرير، عنه، أيضاً قال: ظاهرة على الماء. وأخرج ابن المنذر، عنه، قال: واردة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها أيلة، فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمكثوا كذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة فلم يزدادوا إلا غياً، فقالت طائفة من النهاية يعلمون أن هؤلاء قوم حق عليهم العذاب ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ وكانوا أشد غضباً من الطائفة الأخرى، وكل قد كانوا ينهاون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا ﴿لَمْ تَعْظُونَ﴾ والذين قالوا: ﴿مُعَذَّرَةٌ إِلَى رَبِّكَ﴾ وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أنهم ثلاث فرق: فرقة العصاة، وفرقة الناهون وفرقة القائلون لم تعظون؛ فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم، فأصبح الذين نهوا ذات غداة في مجالسهم يتفقون الناس لا يرونهم، وقد باتوا من ليلتهم وغلقوا عليهم نورهم، فجعلوا يقولون إن للناس لساناً فانظروا ما شأنهم؟ فاطلعوا في نورهم، فإذا القوم قد مسخوا يعرفون الرجل بعينه، وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم،

والبيهقي في سننه، عن عكرمة، عن ابن عباس، فنذكر القصة، وفي آخرها أنه قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين نكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال عكرمة: فقلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوه. وقالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ قال فامر بي فكسيت ثوبين غليظين، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، أيضاً قال: نجا الناهون وهلك الفاعلون، ولا أدري ما صنع بالساكنتين، وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عنه قال: والله لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا﴾ نجوا مع الذين نهوا عن سوء أحب إلي مما عدل به. وفي لفظ: من حمر النعم، ولكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فما زلت أبصره حتى عرف أنهم قد نجوا فكساني حلة. وأخرج عبد بن حميد، عن ليث بن أبي سليم، قال: مسخوا حجارة الذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿يُعَذِّبُ بَيْسَ﴾ قال: البيم وجيع.

وَلَا تَأْتِيكَ رَبِّكَ يَمِينٌ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَكَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُ فِي الْأَرْضِ امْتًا وَنَهْنَاهُ السَّكَلُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْمَسْنَنِ وَالنَّيَّاتِ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ فَكَلَفَ مِنْ مَّوْجِهِمْ خَلْفٌ وَرَوُّوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيُقُولُونَ سَيَأْخُذُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذَهُمْ يُرَدُّ عَنَّا عَلَيْهِمْ يَشْتَنُ الْكِتَابُ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْأَخْرَجُهُ عَنِ اللَّيْلِ بِتَقْوَى أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ يَسْكُونُوا الْكِتَابَ وَآفَاءُوا الْمَلَائِكَةَ إِنَّا لَا نَنْبِغِ أَنْ نَكْفُرَ بِالْمُصَلِّينَ ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿وَأَنْ تَأْتِيَنَّهُمْ رَيْبٌ﴾ معطوف على ما قبله: أي وأسألهم وقت تأتينا ربك، وتأتين تفعل من الأيدان، وهو الإعلام، قال أبو علي الفارسي: أذن بالمد أعلم، وأذن بالتشديد نادى. وقال قوم: كلاهما بمعنى أعلم، كما يقال أيقن وتيقن، والمعنى في الآية: وأسألهم وقت أن وقع الإعلام لهم من ربك ﴿لِيُبَيِّنَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: وفي هذا الفعل معنى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أوجب بما يجاب به القسم، حيث قال: ﴿لِيُبَيِّنَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ليرسلن عليهم، ويسلطن كقوله: ﴿يُعِينُنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: 5] ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ غاية لسومهم سوء العذاب ممن يبعثه الله عليهم، وقد كانوا أقامهم الله هكذا أذلاء مستضعفين معنيين بأيدي أهل الملل، وهكذا هم في هذه الملة الإسلامية، في كل قطر من أقطار الأرض، في الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار، يسلمون الجزية بحق دمائهم ويمتهنهم المسلمون فيما فيه نلة من الأعمال التي يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار. ومعنى ﴿يُسُومُهُمْ﴾:

ينقيهم، وقد تقدّم بيان أصل معناه، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنْ رِبِكُمْ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء ﴿وإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: كثير الغفران والرحمة ﴿وَوَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فرقناهم في جوانبها، أو شتتنا أمرهم، فلم تجتمع لهم كلمة، و ﴿أَمَمَاءُ﴾ منتصب على الحال أو مفعول ثانٍ لقطعنا على تضيمنه معنى صيرنا، وجملة ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ بدل من «أَمَمَاءُ»، قيل: هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبطل؛ وقيل: هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدّم بيانه قبل هذا ﴿وَمِنْهُمْ بَنُو نُلَكٍّ﴾ أي: بنو هذا الوصف الذي اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح، ومحل ﴿بَنُو نُلَكٍّ﴾ الرفع على أنه خير مبتدأ محذوف، والتقدير: ومنهم أناس بنو نُلَكٍّ، والمراد بهؤلاء هم من لم يؤمن، بل انهمك في المخالفة لما أمره الله به. قال النحاس ﴿بَنُو﴾ منصوب على الظرف ولا نعلم أحداً رفعه ﴿وَبُولَانَا هُمْ بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: امتحناهم بالخير والشر رجاء أن يرجعوا مما هم من الكفر والمعاصي ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ المراد بهم: أولاد الذين قطعهم الله في الأرض. قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجمع سواء. والخلف بفتح اللام البديل ولدًا كان أو غيره. وقال ابن الأعرابي: الخلف بالفتح الصالح، وبالسكون الطالح. قال ليبيد:

ذهب الذين يعيش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
ومنه قيل للبرديء من الكلام خلف بالسكون، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، ومنه قول حسان ابن ثابت:

لنا القدم الأولى إليك و خلفنا لأولنا في طاعة الله تابع
﴿وَوَرَوْا لِكِتَابِ﴾ أي: التوراة من أسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرْضَ هَذَا الْأَنْبَى﴾ أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، والأنبياء مأخوذ من الدنو، وهو القرب: أي يأخذون عرض هذا الشيء الأنبياء، وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء وما هو مجعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة وكنتمهم لما يكتُمونه منها؛ وقيل: إن الأنبياء مأخوذ من اللدناء والسقوط: أي إنهم يأخذون عرض الشيء الدنيء الساقط ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تمايلهم في الضلالة وعدم رجوعهم إلى الحق، وجملة ﴿يَأْخُذُونَ﴾ يحتمل أن تكون مستأنفة لبيان حالهم، أو في محل نصب على الحال، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ معطوفة عليها، والمراد بهذا الكلام: التقرير والتوبيخ لهم، وجملة ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرْضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ في محل نصب على الحال: أي يتعللون بالمغفرة، والحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مباليين بالعقوبة، ولا خائفين من التبعة؛ وقيل: الضمير في ﴿يَأْتِهِمْ﴾ ليهود المدينة: أي وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم في عصر محمد

﴿عَرْضٌ مِثْلُ الْعَرْضِ﴾ الذي كان يأخذه أسلافهم، أخذوه كما أخذ أسلافهم ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والاستهتار للتقريع والتوبيخ، وجملة ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوفة على ﴿يَأْخُذُونَ﴾ على المعنى، وقيل: على الحال بتقدير قد. والأولى: أن تكون في محل نصب على الحال بتقدير قد. والمعنى: أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أن قد درسوا ما في الكتاب، وعلموه، فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشد ذنباً وأعظم جرمًا. وقيل: معنى ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي: محوه بترك العمل به والفهم له، من قولهم درست الريح الآثار: إذا محتها عليها ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله، ويجتنبون معاصيه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعلمون بهذا وتفهمونه، وفي هذا من التوبيخ والتقرير ما لا يقدر قدره، قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرأ الجمهور «يمسكون» بالتشديد من مسك وتمسك: أي استمسك بالكتاب، وهو التوراة. وقرأ أبو العالية، وعاصم، في رواية أبي بكر، بالتخفيف من أمسك يمسك. وروي عن أبي بن كعب أنه قرأ «مسكوا» والمعنى: أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب، ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدّم ذكره، وطائفة يتمسكون بالكتاب: أي التوراة ويعملون بما فيه ويرجعون إليه في أمر بينهم، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله، والموصول مبتدأ، و ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ لِحِرِّ الْمَصْلُوحِينَ﴾ خبره: أي لا نضيع أجر المصلحين منهم، وإنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة؛ لأنها رأس العبادات وأعظمها، فكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر؛ وقيل لأنها تقام في أوقات مخصوصة، والتمسك بالكتاب مستمر فنذكرت لهذا، وفيه نظر. فإن كل عبادة في الغالب تختص بوقت معين، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذي قبله، وهو للذين يتقون، ولكون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ جملة معترضة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال محمد وأمه، إلى يوم القيامة؛ وسوء العذاب: الجزية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الخراج، وفي قوله: ﴿وَوَقَطَعْنَاهُمْ﴾ قال: هم اليهود بسطهم الله في الأرض فليس منها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، في قوله: ﴿يَلْبِيعُنَّ عَلَيْهِمْ﴾ قال: على اليهود والنصارى ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يسومهم سوء العذاب، فبعث الله عليهم أمة محمد ﷺ، يأخذون منهم الجزية وهم صاغرون ﴿وَوَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَمَاءُ﴾ قال: يهود ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ وهم مسلمة

فقيل لهم: **«خذوا ما آتيناكم بقوة»** فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: إني لأعلم لم تسجد اليهود على حرف، قال الله **«وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ»** قال: لتأخَّزنَّ أمري أو لأمرينكم به، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم، وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة **«وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ»** قال: انتزعه الله من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، ثم قال: لتأخَّزنَّ أمري أو لأمرينكم به.

وَلَا اخَذَ رَيْكُ مِنْ بَيْتِ مَادَمٍ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَلَيْسَ بِرَيْكُمُ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
غَافِلِينَ ﴿٧٧﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ
أَتُنْبِئُكُمْ بِمَا كُنَّا فَعَلُوا الْبَاطِلَ ﴿٧٨﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَرْجِعُونَ ﴿٧٩﴾

قوله: ﴿وَإِذْ﴾ منصوب بفعل مقدّر معطوف على ما قبله
كما تقدّم قوله: ﴿مَنْ بَنِي آدَمَ﴾ استدّل بهذا على أن المراد
بالمآخزين هنا: هم ذرية بني آدم، أخرجهم الله من أصلابهم
نسلاً بعد نسل.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين، قالوا: ومعنى: ﴿أشهدهم على أنفسهم﴾ لهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الأشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: 11]، وقيل المعنى: أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه؛ وقيل المراد ببني آدم هنا: آدم نفسه كما وقع في غير هذا الموضع، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه نريته وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم النور، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، ولا المصير إلى غيره، لبئوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على غيره من الصحابة، ولا ملجئ للمصير إلى المجاز، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وسنذكر آخر هذا البحث إن شاء الله بعض ما ورد في ذلك، قوله: ﴿من ظهورهم﴾ هو بدل من بني آدم، بدل بعض من كل، وقيل بدل اشتمال قوله: ﴿ذريتهم﴾، قرأ الكوفيون وابن كثير «ذريتهم» بالتوحيد، وهي تقع على الواحد والجمع، وقرأ الباقون «ذرياتهم» بالجمع ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ أي: أشهد كل واحد منهم ﴿ألست بربكم﴾ أي: قائلًا ألست بربكم، فهو على إرادة القول ﴿قالوا بلى شهدنا﴾ أي: على أنفسنا بأنك ربنا. قوله: ﴿أن تقولوا﴾، قرأ أبو عمرو بالياء التحتية في هذا وفي قوله: ﴿أو يقولوا﴾ على الغيبة كما كان فيما قبله على الغيبة، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب. والمعنى: كراهة أن يقولوا أو لئلا يقولوا أي: فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد كراهة أن يقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ أي: عن

أهل الكتاب ﴿ومنهم من ذلك﴾ قال: اليهود ﴿وبلوناهم بالحسنات﴾ قال: الرخاء والعافية ﴿والسيئات﴾ قال: البلاء والعقوبة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالخصب والجنب، أخرج أبو الشيخ، عنه، أنه سئل عن هذه الآية ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الإنسي﴾ قال: أقوام يقبلون على الدنيا، فياكلونها ويتبعون رخص القرآن ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ قال: النصارى ﴿ياخذون عرض هذا الإنسي﴾ قال: ما أشرف لهم من شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتهونه أخذوه، ويتمنون المغفرة، وإن يجبوا الغد مثله يأخذوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ الآية يقول: ياخذون ما أصابوا ويتركون ما شأوا من حلال أو حرام ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزلون يعودون إليها ولا يتوبون منها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي زيد، في قوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾ قال: علموا ما في الكتاب لم يأتوه بجهالة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ قال: هي لأهل الإيمان منهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ قال: من اليهود والنصارى.

وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾

قوله: ﴿وَإِذْ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله: أي وإسألهم إذ نتقنا الجبل: أي رفعنا الجبل ﴿فَفَوْقَهُمْ﴾ و ﴿كَانَهُ ظِلُّهُ﴾ أي: كأنه لارتفاعه سحابة تظلمهم، والظلة: اسم لكل ما أظّل، وقارئ «ظلة» بالطاء من أَظْلَ عليه إذا أشرف ﴿وَوَضَعْنَا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: ساقط عليهم. قيل: الظنُّ هنا بمعنى العلم، وقيل: هو على بابهِ ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ هو على تقدير القول: أي وقلنا لهم خذوا، والقوّة: الجِدّ والعزيمة: أي أخذًا كأننا بِقُوَّةٍ ﴿وَإِذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأحكام التي شرعها الله لكم، ولا تتسوه ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاء أن تتقوا ما نهيتهم عنه، وتعملوا بما أمرتم به، وقد تقدّم تفسير ما هنا في البقرة مستوفى فلا نعه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمَ الطُّورَ﴾ [النساء: 154] فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ وإلا أرسلته عليكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم،

مماثلاً له في أقبح أوصافه، وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد الإنسان له وتركه، فهو لاهث سواء زجر أو ترك طرد أو لم يطرد شد عليه أو لم يشد عليه، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء، وجملة ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ في محل نصب على الحال: أي مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة، والمعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ، ونكره المذكر، وزجره الزاجر، أو لم يقع شيء من ذلك. قال القتيبي: كل شيء يلهث، فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال المرض، وحال الصحة. وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته؛ فقال: **إِنْ وَعْظْتَهُ ضَلَّ وَإِنْ تَرَكْتَهُ ضَلَّ**، فهو كالكلب إن تركته لهث، وإن طردته لهث، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: 193] واللهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش أو غير ذلك. قال الجوهري: لهث الكلب بالفتح يلهث لهثاً ولهائاً بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش، وكذلك الرجل إذا أعيى قيل معنى الآية: أنك إذا حملت على الكلب نبج وولى هارباً، وإن تركته شدَّ عليك ونبج، فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومبيراً عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان، والإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة. وهو مبتدأ وخبره ﴿مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود، بعد أن علموا بها وعرفوها، فحرفوا وبكروا، وكتبوا صفة رسول الله ﷺ وكذبوا بها ﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ﴾ أي فاقصص عليهم هذا القصص الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات، فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقصص عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ويعلمون فيه أفهامهم، فينزعجون عن الضلال، ويقبلون على الصواب، قوله: ﴿سَاءَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح إلى الغاية؛ يقال ساء الشيء قبح، فهو لازم، وساء يسوءه مساءة: فهو متعد وهو من أفعال الذم؛ كبش، وفاعله ضمير مستتر فيه، ومثلاً تمييز مفسر له، والمخصوص بالذم هو الذين كذبوا بآياتنا، ولا بد من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة أي: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا، وقال الأخفش: جعل المثل القوم مجازاً، والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ التقدير: ساء المثل مثلاً هو مثل القوم، كذا قال. وقدره أبو علي الفارسي: ساء مثلاً مثل القوم كما قمتنا. وقرأ الجحدري والأعمش ﴿وَسَاءَ مِثْلُ الْقَوْمِ﴾، قوله: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ﴾ أي: ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها، والجملة معطوفة على التي قبلها على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ

يَهْدِكُمْ ۖ سَاءَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ۚ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٰ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاطِئُونَ ۚ

قوله: ﴿وَاتْلُ﴾ معطوف على الأفعال المقدرة في القصص السابقة: وإيراد هذه القصة منه سبحانه وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة، وقد اختلف في هذا الذي أوتي الآيات ﴿فَانْسِلْخَ مِنْهَا﴾ فقيل: هو بلعم بن باعوراء، وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة؛ وقيل: كان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة، بعثه الله إلى مدین يدعوهم إلى الإيمان، فأعطوه الأعطية الواسعة، فاتبع دينهم وترك ما بعث به؛ فلما أقبل موسى في بني إسرائيل لقتال الجبارين، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى، فقام ليدعو عليه فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه، فقيل له في ذلك فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، وانلغ لسانه على صدره، فقال قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة وسامكر لكم، وإني أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنا، فإن وقعوا فيه هلكوا، فوقع بنو إسرائيل في الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً؛ وقيل: إن هذا الرجل اسمه باعم، وهو من بني إسرائيل، وقيل المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك، فلما أرسل الله محمداً ﷺ حسده وكفر به؛ وقيل هو أبو عامر بن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية، فكفر بمحمد ﷺ؛ وقيل: نزلت في قريش أتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد ﷺ فكفروا بها؛ وقيل: نزلت في اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به، قوله: ﴿فَانْسِلْخَ مِنْهَا﴾ أي: من هذه الآيات التي أوتيتها كما تنسلخ الشاة عن جلدها، فلم يبق له بها اتصال ﴿فَاتَّبِعْهُ الشَّيْطَانُ﴾ عند انسلخه عن الآيات: أي لحقه فادركه وصار قريباً له، أو فاتبعه خطواته، وقرئ «فاتبعه» بالتشديد بمعنى تبعه ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ المتمكنين في الغواية وهم الكفار. قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ الضمير يعود إلى الذي أوتي الآيات، والمعنى: لو شئنا رفعه: بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها: أي بسببها، ولكن لم نشأ ذلك لانسلخه عنها وتركه للعمل بها؛ وقيل المعنى: ولو شئنا لامتناه قبل أن يعصي فرغناه إلى الجنة بها: أي بالعمل بها ﴿وَلَوْ كُنْهَ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصل الإخلاق: للزوم، يقال أخلد فلان بالمكان إذا قام به ولزمه، والمعنى هنا: أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها وأثرها على الآخرة ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: اتبع ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله، وهو حطام الدنيا؛ وقيل: كان هواه مع الكفار؛ وقيل: اتبع رضا زوجته، وكانت هي التي حملته على الانسلخ من آيات الله. قوله: ﴿فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ﴾ أي: فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة

منها قال: نزع منه العلم، وفي قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ قال: رفعه الله بعلمه. وأخرج مسلم، والنسائي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ في خطبته يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله، ثم يقول: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، أصلى الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشَرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» ثم يقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُنْزَلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا. وقد تقدّم بيان أصل معناه مستوفى، وهذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ أي: للتعذيب بها ﴿كَثِيرًا﴾ أي: خلقاً كثيراً ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: من طائفتي الجن والإنس جعلهم سبحانه للنار بعد له ويعمل أهلها يعملون. وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة، ثم وصف هؤلاء فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ كما يفقه غيرهم بعقولهم، وجملة ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ في محل رفع على أنها صفة لقلوب، وجملة ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ في محل نصب صفة لكثيراً جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم وإرشادهم، غير فاقهة مطلقاً وإن كانت تفقه في غير ما فيه النفع والرشاد فهو كالعدم، وهكذا معنى ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يَبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فإن الذي انتقى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكير والاعتبار، وإن كانت مبصرة في غير ذلك، والذي انتقى من الأذان هو سماع المواعظ النافعة، والشرائع التي استملت عليها الكتب المنزلة. وما جاءت به رسل الله، وإن كانوا يسمعون غير ذلك، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف كالأنعام في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر، ثم حكم عليهم بأنهم أضلّ منها، لأنها تترك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرّها، فينتفع بما ينفع، وتجتنب ما يضر، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضرّ باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذي هو من شأن من له عقل وبصر وسمع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ قال: خلقنا. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن في الآية قال خلقنا لجهنم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن النجار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لما نرا لجهنم من نرا كان ولد الرنزا ممن نرا لجهنم». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ قال: لقد خلقنا لجهنم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ قال: لا يفقهون شيئاً من أمور الآخرة ﴿وَلَهُمْ

فهو للمهتدي﴾ لما أمر به وشرعه لعباده ﴿وَمَنْ يَضِلُّ قَاوِلُكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران، من هداة فلا مضلّ له، ومن أضله فلا هادي له: ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقد أخرج الفريابي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿وَقَاتِلْ عَلَيْهِمُ نَبَا الَّذِي أُتِيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن أبز، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن طرق عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعوراء، وفي لفظ: بلعام بن باعر الذي أوتي الاسم كان في بني إسرائيل، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمُ نَبَا الَّذِي أُتِيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم، تعلم اسم الله الأكبر، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يردّ عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يردّ موسى ومن معه مضت نياي وأخرتي، فلم يزلوا به حتى دعا الله فسلخ ما كان فيه. وفي قوله: ﴿أَنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ قال: إن حمل الحكمة لم يحملها، وإن ترك لم يهتد لخير، كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن يطرد لهث. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في الآية قال: هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدة، قال: فلك واحدة فما الذي تريد؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل؛ فلما علمت أن ليس فيهن مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة، فذهبت دعوتان، فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليه، فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمرو، في الآية: قال: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، وفي لفظ: نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الشعبي في هذه الآية قال: قال ابن عباس هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء، وكانت الأنصار تقول: هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق، وكانت ثقيف تقول: هو أمية بن أبي الصلت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: هو صيفي بن الراهب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿فَانْسَلَخْ

الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البز، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

هكذا أخرج الترمذي هذه الزيادة عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعة وقال: هذا حديث غريب. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا يعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. ورواه ابن حبان في صحيحه، وابن خزيمة، والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق. ورواه ابن ماجه في سننه من طريق أخرى، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعة، فسر الأسماء المتقدمة بزيادة ونقصان. قال ابن كثير في تفسيره والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه. وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم، وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك: أي أنهم جمعوها من القرآن كما روي عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي. قال: ثم ليعلم أن الأسماء الحسنی ليست منحصرة في التسعة والتسعين، بليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده: عن يزيد بن هارون، عن فضيل ابن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك وأمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبلى مكانه فرجاً؛ فقل يا رسول الله ألا تتعلمها؟ فقال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها». وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان في صحيحه بمثل انتهي. وأخرجه البيهقي أيضاً في الأسماء والصفات. قال ابن حزم: جاءت في إحصائها، يعني الأسماء الحسنی أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً. وقد أخرجها بهذا العدد الذي أخرجه الترمذي ابن مردويه، وأبو نعيم، عن ابن عباس، وابن عمر قالوا: قال رسول الله ﷺ فنكرها، ولا أدري كيف إسناده. وأخرج ابن أبي الدنيا، والطبراني كلاهما في الدعاء، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي هريرة: إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة:

أعين لا يبصرون بها، الهدى أولهم أذان لا يسمعون بها، الحق، ثم جعلهم كالانعام، ثم جعلهم شراً من الانعام، فقال: **بطل هم أفضل**، ثم أخبر أنهم الغافلون.

وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسَمَّيَاتُ فَادْعُوهُمْ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١١٠﴾

هذه الآية مشتملة على الأخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، والحسن تأنيت الأحسن: أي التي هي أحسن الأسماء لدلالاتها على أحسن مسمى وأشرف ملول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة، فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة، وقد ثبت في الصحيح: «إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» وسيأتي ويأتي أيضاً بيان عددها آخر البحث إن شاء الله. قوله: **«وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ»** الإلحاد: الميل وترك القصد، يقال لحد الرجل في الدين والحد: إذا مال، ومنه اللحد في القبر لأنه في ناحية، وقرئ «يلحدون» وهما لغتان، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه، إما بالتغيير كما فعله المشركون فلأنهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان؛ أو بالزيادة عليها بأن اخترعوا أسماء من عندهم لم يأن الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض. ومعنى **«وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ»** أتركوهم؛ ولا تحاجوهم، ولا تعرضوا لهم، وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال؛ وقيل معناه الرعيد كقوله تعالى: **«نُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً»** [الم نشر: 11]، وقوله: **«نُرْنِي يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا»** [الحجر: 3] وهذا أولى لقوله: **«سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»** فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعالهم. وقد نكر مقاتل وغيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته يا رحمن يا رحيم، فقال رجل من المشركين ليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ حكى ذلك القرطبي.

وقد أخرج أحمد، والبخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وأبو عوانة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر». وفي لفظ ابن مردويه وأبو نعيم «من دعى بها استجاب الله دعاءه» وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب،

وقد نكر ابن حجر في التلخيص أنه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حُرِّزَها منه تسعة وتسعين ثم سردها فابحثه. ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم، عن ابن عباس، وابن عمر، قالاً: قال رسول الله ﷺ «الله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة، وهي في القرآن». وأخرج البيهقي، عن عائشة أنها قالت: «يا رسول الله علمني اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، قال لها: قومي فتوضي وادخلي المسجد فصلي ركعتين ثم ادعي حتى أسمع، ففعلت؛ فلما جلست للدعاء قال النبي ﷺ: اللهم وفقها، فقالت: اللهم إني أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، وأسألك باسمك العظيم الأعظم الكبير الأكبر، الذي من دعاك به أحبته، ومن سألك به أعطيته، قال النبي ﷺ: أصبتيه أصبتيه».

وقد أطال أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربي في شرح الترمذي تحكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَلْحَقُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: الإلحاد، أن يدعو اللات والعزى في أسماء الله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: الإلحاد التكذيب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في الآية قال: اشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا اللات من الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء في الآية قال: الإلحاد المضاهاة وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش أنه قرأ «يلحدون» من لحد، وقال تفسيرها: يدخلون فيها ما ليس منها. وأخرج عبد الرزاق بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، في الآية قال: يشركون.

وَمَنْ خَلَقْنَا أَنَّهُ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَبْهَتُونَ ﴿١٧١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَمْلِكُونَ ﴿١٧٢﴾ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصْعَقُ بِهِمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي يَدَيْهِ يُعْذَبُونَ ﴿١٧٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ نَبَأُ حَدِيثٍ بَعْدَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادٍ لَهُمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٧٦﴾

قوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ خبر مقدم و﴿أُمَّة﴾ مبتدأ مؤخر و﴿يَهْدُونَ﴾ وما بعده صفة له، ويجوز أن يكون ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ هو المبتدأ كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَهْدُونَ﴾ [البقرة: 8] والمعنى: أن من جملة من خلقه الله أمة يهدون الناس متلبسين بالحق، أو يهدونهم بما عرفوه من الحق ﴿وَمَنْ بِالْحَقِّ﴾ يعللون بينهم قيل: هم من هذه الأمة، وإنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين، كما ورد في الحديث الصحيح، ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والاستدراج: هو الأخذ بالتدرج منزلة بعد منزلة، والدرج: كَفَ الشيء، يقال أدرجته ودرجته، ومنه إدراج الميت في أكفانه؛ وقيل:

أسأل الله الرحمن، الرحيم، الإله، الرب، الملك، القنوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحي، القيوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الغفور، الودود، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، البارئ؛ وفي لفظ: القائم، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العفو، الغفار، الوهاب، الفرد، وفي لفظ: القادر، الأحد الصمد، الوكيل، الكافي، الباقي، المغيب، الدائم، المتعالي، ذا الجلال والإكرام، المولى البصير، الحق، المتين، الوارث، المنير، الباعث، القدير. وفي لفظ: المجيب، المحي المميت الحميد؛ وفي لفظ: الجميل، الصانع، الحفيظ، المحيط، الكبير، القريب، الرقيب، الفتاح، التواب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلام، العلي، العظيم، الغني، الملك، المقدر، الأكرم، الرؤوف، المنير، المالك، القاهر، الهادي، الشاكر، الكريم، الرفيع، الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل، الخالق، الكفيل، الجليل.

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال: سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة؟ فقال: هي في القرآن، ففي الفاتحة خمسة أسماء: يا الله، يا رب، يا رحمن، يا رحيم، يا ملك، وفي البقرة ثلاثون وثلاثون اسماً: يا محيط، يا قدير، يا عليم، يا حكيم، يا علي يا عظيم، يا تواب، يا بصير، يا ولي، يا واسع، يا كافي، يا رؤوف، يا بديع، يا شاكِر، يا واحد، يا سميع، يا قابض، يا باسط، يا حي، يا قيوم، يا غني، يا حميد، يا غفور، يا حلِيم، يا إله، يا قريب يا مجيب، يا عزيز، يا نصير، يا قوي، يا شديد، يا سريع، يا خبير، وفي آل عمران: يا وهاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا متفضل، وفي النساء: يا رقيب، يا حسيب، يا شهيد، يا مقيت، يا وكيل، يا علي، يا كبير، وفي الانعام: يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يا برهان؛ وفي الأعراف: يا محيي، يا مميت؛ وفي الأنفال: يا نعم المولى، يا نعم النصير، وفي هود: يا حفيظ، يا مجيد، يا ودود، يا فعال لما تريد؛ وفي الرعد: يا كبير، يا متعالي؛ وفي إبراهيم: يا منان، يا وارث؛ وفي الحجر: يا خلاق؛ وفي مريم: يا فرد؛ وفي طه: يا غفار؛ وفي قد أقبلح [أي: سورة المؤمنون] يا كريم؛ وفي النور: يا حق، يا مبين؛ وفي الفرقان: يا هادي؛ وفي سبا: يا فتاح؛ وفي الزمر: يا عالم؛ وفي غافر: يا قابل التوب، يا ذا الطول، يا رفيع؛ وفي الذاريات: يا رزاق، يا ذا القوة، يا متين؛ وفي الطور: يا بَرّ؛ وفي اقتربت [أي: سورة القمر] يا مقتدر، يا مليك؛ وفي الرحمن: يا ذا الجلال والإكرام، يا رب المشرقين، يا رب المغربين، يا باقي، يا معين؛ وفي الحديد: يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن؛ وفي الحشر: يا ملك، يا قنوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيز، يا جبار، يا متكبر، يا خالق، يا بارئ، يا مصور؛ وفي البروج: يا مبدئ، يا معيد؛ وفي الفجر: يا وتر؛ وفي الإخلاص: يا أحد، يا صمد. انتهى.

وينتفعون بالتفكر فيه والاعتبار به ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ الضمير يرجع إلى ما تقدم من التفكير والنظر في الأمور المذكورة: أي فبأي حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون؟ وفي هذا الاستفهام من التقرير والتوبيخ ما لا يقدر قدره؛ وقيل الضمير للقرآن، وقيل لمحمد ﷺ، وقيل للأجل المنكور قبله. وجملة ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ مقررة لما قبلها: أي إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله الله، ومن يضلله فلا هادي له: أي فلا يوجد من يهديه إلى الحق، وينزعه عن الضلالة البينة ﴿ويؤيدهم في طغيانهم يعمهون﴾ قرئ بالرفع على الاستئناف، وبالجزم عطفاً على محل الجزاء، وقرئ بالنون؛ ومعنى يعمهون: يتحIRON، وقيل: يترددون وهو في محل نصب على الحال.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ قال: نكر لنا أن النبي ﷺ قال: «هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها» ﴿وَمِمَّنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال: قال رسول الله ﷺ «إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَسَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: سنأخذهم من حيث لا يعلمون، قال: عذاب بدر. وأخرج أبو الشيخ، عن يحيى بن المثنى في الآية قال: كلما أحدثوا نكباً جددنا لهم نعمة، تنسيهم الاستغفار. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن سفيان في الآية قال: نسيغ عليهم النعمة ومنعهم شكرها. وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن ثابت البناني، أنه سئل عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين. وأخرج أبو الشيخ، في قوله: ﴿وَأَمَلِي لَهُمْ﴾ يقول: اكف عنهم ﴿إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ إن مكري شديد، ثم نسخها الله فأنزل ﴿وَأَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كيد الله العذاب والنعمة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: نكر لنا: «أن نبي الله ﷺ قام على الصفا، فدعا قريشاً فخذأ - فخذأ: يا بني فلان يا بني فلان، يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائل إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت حتى أصبح، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّبِينٌ﴾

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَيْهَا بَدَأْتُ رَأْيَ لَا يَجِيئُهَا لُوفُؤًا إِلَّا هُوَ يُفْثَتُ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَالْأَفْسَاسِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَةً يُسْأَلُونَكَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عَلَيْهَا بَدَأْتُ رَأْيَ وَلَكِنَّ الْكُفْرَ أَكْثَرُ أَعْلَىٰ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ قُلْ لَا أَتْلُوهُ بِأَنفُسِي نَعَمَ

هو من الدرجة، فالاستدراج: أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، ومنه درج الصبي: إذا قارب بين خطاه، والدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم: مات بعضهم في أثر بعض؛ والمعنى: سنستدينهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدراج النعم عليهم وإنسانهم شكرها، فينهمكون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة. قوله: ﴿وَأَمَلِي لَهُمْ﴾ معطوف على سنستدرجهم: أي أطيل لهم المدة، وأملهم وأؤخر عنهم العقوبة، وجملة ﴿إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ مقررة لما قبلها من الاستدراج والإملاء، ومؤكدة له، والكيد: المكر، والمتين: الشديد القوي، وأصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب. قال في الكشف: سماء كيداً، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان، والاستفهام في ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ للإنكار عليهم حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله ﷺ، وفيما جاء به وهما في ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ للاستفهام الإنكاري، وهي في محل رفع بالابتداء والخبر بصاحبهم، والجنة مصدر: أي وقع منهم التكذيب، ولم يتفكروا أي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون، فإنهم لو تفكروا لوجوا زعمهم باطلاً، وقولهم زوراً وبهتاناً، وقيل إن «ما» نافية واسمها ﴿مِّنْ جَنَّةٍ﴾ وخبرها بصاحبهم: أي ليس بصاحبهم شيء مما يدعون من الجنون، فيكون هذا رداً لقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 60] ويكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ والوقف عليه من الاوقاف الحسنة، وجملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّبِينٌ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها، ومبينة لحقيقة حال رسول الله ﷺ، والاستفهام في ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ للإنكار والتوبيخ، ولقصد التعجيب من إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالإلهية، والملوك من أبنية المبالغة، ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه؛ والمعنى: إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكير، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتوا بذلك إلى الإيمان به، بل هم سادرون في ضلالتهم خائضون في غوايتهم لا يعملون فكراً ولا يمعنون نظراً. قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، ولا فيما خلق الله من شيء من الأشياء كائن ما كان، فإن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته. قوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ﴾ معطوف على ملكوت، وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى وما بعدها: أي أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فيموتون عن قريب. والمعنى: إنهم إذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به

الساعة كأنك عالم بها، أو كانه مستقص للسؤال عنها ومستكثر منه، والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال أي: يسألونك مشبهاً حالك حال من هو حفي عنها؛ وقيل المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي بهم؛ أي حفي ببرهم وفرح بسؤالهم. والاول: هو معنى النظم القرآني على مقتضى المسلك العربي. قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهُ عِنْدَ رَبِّي﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرر ما لاجب به عليهم سابقاً لتقرير الحكم وتأكيد، وقيل: ليس بتكرير، بل أحدهما معناه الاستثثار بوقوعها، والآخر الاستثثار بكنهها نفسها ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ باستثثار الله بهذا وعدم علم خلقه به، لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل. قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة إيان تكون ومتى تقع، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له، أو دفع ضرر عنه إلا ما شاء الله سبحانه من النفع له والدفع عنه، فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه، وفي هذا من إظهار العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له ﴿لَا مَا فِيهِ أَعْظَمُ زَجَرٍ، وَأَبْلَغُ وَاغْظَ لِمَنْ يَدْعِي لِنَفْسِهِ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا، وَيَنْتَحِلُ عِلْمَ الْغَيْبِ بِالنَّجْمَةِ أَوْ الرَّمْلِ أَوْ الطَّرِيقِ بِالْحَصَا أَوْ الزَّجَرِ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا وَقَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي: لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسي وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني، ولكنني عبد لا أدري ما عند ربي، ولا ما قضاه في قدره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه؛ وقيل المعنى: لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرّفيني لفعلته؛ وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب؛ وقيل: لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه، والأولى حمل الآية على العموم، فتندرج هذه الأمور وغيرها تحتها؛ وقد قيل: إن ﴿وَمَا مَسْنِي السُّوءَ﴾ كلام مستأنف، أي: ليس بي ما تزعمون من الجنون والأولى: أنه متصل بما قبله، والمعنى: لو علمت الغيب ما مسني السوء، ولحذرت عنه كما قدّمنا ذلك. قوله: ﴿إِنَّا إِنَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوماً وأبشر بها آخرين، ولست أعلم بغيث الله سبحانه، واللام في ﴿لِقَوْمٍ﴾ متعلق بكلا الصفتين: أي بشير لقوم، ونذير لقوم، وقيل: هو متعلق ببشير، والمتعلق بنذير محذوف: أي نذير لقوم يكفرون، وبشير لقوم يؤمنون. قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن نكر نعم الله على عباده وعدم مكافئتهم لها، مما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية، وأنه المنفرد بالإلهية. قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة: آدم، وقوله: ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زُجْجًا﴾ معطوف على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أي: هو الذي خلقكم من نفس آدم وجعل من هذه النفس زوجها، وهي حواء، خلقها من ضلع

وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زُجْجًا لِّسَكَنِ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَفَشَّتْهَا حَمَلَتْ حَمَلًا حَنِيئًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهَا لَنْ مَاتَيْنَا ضِلَالًا لَّكُنَّ مِنْ أَشْنَكِرِينَ ﴿١٣٢﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا ضِلَالًا جَمَعَا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣٣﴾ أَشْرَكُوا مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٣٤﴾ وَلَا يَسْطِيعُونَ كُفْرًا نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٣٥﴾

قوله: ﴿يسألونك عن الساعة﴾ السائلون: هم اليهود، وقيل: قريش، والساعة: القيامة وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، وإيان ظرف زمان مبني على الفتح. قال الراجز: إيان تقضي حاجتي إيانا أما ترى لنجحها إوانا ومعناه معنى متى، واشتقاقه من أي: وقيل من أين. وقراء السلمي «إيان» بكسر الهمزة وهو في موضع رفع. وعلى الخبر، و﴿مرسهاها﴾ المبتدأ عند سيوييه، ومرساها بضم الميم: أي وقت إرسائها من أرساها الله: أي أثبها، وبفتح الميم من رست: أي ثبتت، ومنه: ﴿وقدور راسيات﴾ [سبا: 13]، ومنه رسا الجبل، والمعنى: متى يرسياها الله أي يثبتها ويوقعها، وظاهر ﴿يسألونك عن الساعة﴾ أن السؤال عن نفس الساعة، وظاهر ﴿إيان مرسهاها﴾ أن السؤال عن وقتها، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك، ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهُ عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: علمها باعتبار وقوعها عند الله لا يعلمها غيره ولا يهتدي إليها سواء ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْقَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يظهرها لوقتها، ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه، والتجلية: إظهار الشيء، يقال جلى لي فلان الخبر: إذا أظهره وأوضحه، وفي استثثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة، وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها. وهذه الجملة مقررمة لمضمون التي قبلها. قوله: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قيل معنى ذلك: أنه لما خفي علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة، لأن كل ما خفي علمه ثقل على القلوب؛ وقيل المعنى: لا تطيقها السموات والأرض لعظمها، لأن السماء تنشق، والنجوم تتناثر، والبحار تنضب؛ وقيل: عظم وصفها عليهم؛ وقيل: ثقلت المسئلة عنها، وهذه الجملة مقررمة لمضمون ما قبلها أيضاً ﴿لَا تَاتِيَكُمْ إِلَّا بُغْتَةٌ﴾ إلا فجأة على غفلة، والبغته، مصدر في موضع الحال، وهذه الجملة كالتي قبلها في التقرير. قوله: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾. قال ابن فارس: الحفي العالم بالشيء، والحفي المستقصى في السؤال، ومنه قول الأعشى:

فإن تسالي عني فيارب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا
يقال أحفى في المسئلة وفي الطلب فهو محف، وحفي على التكثر مثل مخصب وخصيب. والمعنى: يسألونك عن

ونكرنا أنه خلاف الأولى لأمر منها **﴿وجعل منها زوجها﴾** بأن هذا إنما هو لحواء، ومنها **﴿ادعوا الله ربهما﴾** فإن كل مولود يولد بين الجنسين، لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء. وقد قرأ أهل المدينة وعاصم «شركاً» على التوحيد. وقرأ أبو عمرو، وسائر أهل الكوفة بالجمع. وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى. وأجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف: أي جعل له ذا شرك، أو نوي شرك، والاستفهام في **﴿ليشركون ما لا يخلق شيئاً﴾** للتقريع والتوبيخ أي كيف يجعلون لله شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر على نفع لهم، ولا نفع عنهم. قوله: **﴿وهم يخلقون﴾** عطف على **﴿ما لا يخلق﴾** والضمير راجع إلى الشركاء الذين لا يخلقون شيئاً، أي هؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون، وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلك **﴿ولا يستطيعون لهم﴾** أي: لمن جعلهم شركاء **﴿نصرأ﴾** إن طلبه منهم **﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾** إن حصل عليهم شيء من جهة غيرهم، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره عاجز.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس، قال: قال حمل بن أبي قيس، وشمول بن زيد لرسول الله ﷺ: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فلنا نعلم ما هي؟ فانزل الله **﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي﴾** إلى قوله: **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة **﴿أيان مرساها﴾** أي: متى قيامها؟ **﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾** قال: قالت قريش يا محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة؟ قال: **﴿يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله﴾** ونكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «تهيج الساعة بالناس والرجل يسقي على ماشيته، والرجل يصلح حوضه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يقيم سلعته في السوق قضاء الله لا تاتيكم إلا بغته» وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿أيان مرساها﴾** قال: منتهاها. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة، في الآية قال: هو يجليها لوقتها لا يعلم ذلك إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ثقلت في السموات والأرض﴾** قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **﴿ثقلت في السموات والأرض﴾** قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: **﴿ثقلت في السموات**

من أضلاعه؛ وقيل المعنى **﴿جعل منها﴾** من جنسها، كما في قوله: **﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾** [النحل: 72] والأول: أولى **﴿ليسكن إليها﴾** علة للجعل: أي جعله منها لأجل يسكن إليها يأنس إليها ويطمئن بها، فإن الجنس بجنسه أسكن وإليه أنس، وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار: ثم ابتدا سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما، فقال: **﴿فلما تغشاهما﴾**، والتغشي كناية عن الوقاع: أي فلما جامعها **﴿حملت حملاً خفياً﴾** علفت به بعد الجماع، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقه، وعند كونه مضغة أخف مما بعده، وقيل: إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه، ولم تجد منه ثقلاً كما تجده الحوامل من النساء، لقوله: **﴿فمرت به﴾** أي: استمرت بذلك الحمل تقوم وتقع، وتمضى في حوائجها لا تجد به ثقلاً، والوجه الأول، لقوله: **﴿فلما أثقلت﴾** فإن معناه: فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها، وقرئ «فمرت به» بالتخفيف: أي فجزعت لذلك، وقرئ «فماتت به» من المور، وهو المجيء والذهاب؛ وقيل المعنى: فاستمرت به. وقد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس، ويحيى بن يعمر، ورويت قراءة «فماتت» عن عبد الله بن عمر، وروي عن ابن عباس أنه قرأ «فاستمرت به» قوله: **﴿ادعوا الله ربهما﴾** جواب لما أي: دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما **﴿لئن أتيتنا صالِحاً﴾** أي: ولدأ صالحاً، واللام جواب قسم محذوف، و**﴿لنكونن من الشاكرين﴾** جواب القسم ساد مسد جواب الشرط: أي من الشاكرين لك على هذه النعمة؛ وفي هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث في بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما، وعلماً بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب **﴿فلما أتاهما﴾** ما طلباه من الولد الصالح وأجاب دعاءهما **﴿جعل له شركاء فيما أتاهما﴾** قال كثير من المفسرين: إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها: إن ولدت ولدأ فسميه باسمي فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث ولو سمي لها نفسه لعرفتته، فسمته عبد الحارث، فكان هذا شركاً في التسمية ولم يكن شركاً في العبادة. وإنما قصدا أن الحارث كان سبب نجاة الولد كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه كما قال حاتم الطائي:

وإني لعبد الضيف مادام ثلويأ وما في إلا تلك من شيمة العبد وقال جماعة من المفسرين: إن الجاعل شركاً فيما أتاهما هم جنس بني آدم كما وقع من المشركين منهم، ولم يكن ذلك من آدم وحواء، ويدل على هذا جمع الضمير في قوله: **﴿فتعالى الله عما يشركون﴾** وذهب جماعة من المفسرين إلى أن معنى **﴿من نفس واحدة﴾** من هيئة واحدة وشكل واحد **﴿وجعل منها زوجها﴾** أي: من جنسها **﴿فلما تغشاهما﴾** يعني جنس الذكر جنس الأنثى، وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء نكر في الآية، وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين. وقد قدمنا الإشارة إلى نحو هذا،

والأرض قال: إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم. وكوّرت الشمس، وسيرت الجبال، وما يصيب الأرض، وكان ما قال الله سبحانه فذلك ثقلها فيهما. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **«لا تاتيكم إلا بغتة»** قال: فجأة آمنتين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في البعث، عن مجاهد، في قوله: **«كانك حفي عنها»** قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمتها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **«كانك حفي عنها»** يقول: كانك عالم بها: أي لست تعلمها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عنه **«كانك حفي عنها»** قال: لطيف بها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عنه، أيضاً **«كانك حفي عنها»** يقول: كان بينك وبينهم مودةً كأنك صديق لهم، قال لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: **«إنما علمها عند الله»** استأثر بعلمها، فلم يطلع ملكاً ولا رسولا. وأخرج عبد بن حميد، عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ **«كانك حفي بها»** وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج **«قل لا أملك نفسي نفعا ولا ضررا»** قال: الهدى والضلالة **«ولو كنت أعلم الغيب»** متى أموت **«لاستكثر من الخير»** قال: العمل الصالح. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس، في قوله: **«ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير»** قال: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه فلا أبيع شيئاً لأربح فيه **«وما مسني السوء»** قال: ولا يصيبني الفقر. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد في قوله: **«وما مسني السوء»** قال: لاجتنب ما يكون من الشر قبل أن يكون. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والرويانى، والطبرانى، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن سمرة عن النبي ﷺ قال: **«لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميته عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره»**. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، عن سمرة في قوله: **«فلما أتاهما صالحاً جعلا له شركاء»** قال: سمياه عبد الحارث. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن أبي بن كعب، نحو حديث سمرة المرفوع موقوفاً عليه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: حملت حواء فاتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما، سمياه عبد الحرث، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت فاتاهما أيضاً فقال مثل ذلك، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت فاتاهما فذكر لهما، فانركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: **«جعلا له شركاء فيما**

أتاهما». وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الحسن، في الآية قال: كان هذا في بعض أهل الملل وليس بأدم. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، عن سمرة، في قوله: **«حملت حملاً خفيفاً»** لم يستن **«فمرت به»** لما استبان حملها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **«فمرت به»** قال: فشكت لحملت أم لا. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن أيوب قال: سئل الحسن عن قوله: **«فمرت به»** قال: لو كنت عربياً لعرفت أنها إنما هي استمرت بالحمل. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: **«حملت حملاً خفيفاً»** قال: هي اللطفة **«فمرت به»** يقول: استمرت به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: **«فمرت به»** قال: فاستمرت به. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ميمون بن مهران **«فمرت به»** يقول: استخفته. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي صالح في قوله: **«لئن آتيتنا صالحاً»** فقال: أشفقاً أن يكون بهيمة، فقالا لئن آتيتنا بشراً سوياً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن في الآية قال غلاماً سوياً. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس، في قوله: **«جعلا له شركاء»** قال: كان شريكاً في طاعة ولم يكن شريكاً في عبادة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه، قال: ما أشرك آدم إن أولها شكر، وآخرها مثل ضربه لمن بعده. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: **«فتعالى الله عما يشركون»** هذا فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عن الحسن، في الآية قال: هذا في الكفار يدعون الله فإذا أتاهما صالحاً هوداً أو نصراً، ثم قال: **«إبشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون»** يقول: يطعون ما لا يخلق شيئاً، وهي الشياطين لا تخلق شيئاً وهي تخلق **«ولا يستطيعون لهم نصراً»** يقول لمن يدعوهم.

وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ مِّنْهُمْ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَشْأَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْمِعُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ أَلَمْ أَزُجِّلْ يَمْسُونَ بِمَا أُنْزِلَتْ بِهِمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِمَا أُنْزِلَتْ بِهِمْ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ ءَاذَانُ يَسْمَعُونَ بِمَا قُلْ أَدْمُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كَذِبُونَ فَلَا تُظْهِرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ إِلَهِي إِلَهُ الْكَوْكَبِ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله: **«وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم»** هذا خطاب للمشركين: أي إن وتدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى وارشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوك لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع، ودفع الضرر، والنصر على الأعداء. قال الاخفش معناه وإن

وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ مِّنْهُمْ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَشْأَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْمِعُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ أَلَمْ أَزُجِّلْ يَمْسُونَ بِمَا أُنْزِلَتْ بِهِمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِمَا أُنْزِلَتْ بِهِمْ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ ءَاذَانُ يَسْمَعُونَ بِمَا قُلْ أَدْمُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كَذِبُونَ فَلَا تُظْهِرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ إِلَهِي إِلَهُ الْكَوْكَبِ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله: **«وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم»** هذا خطاب للمشركين: أي إن وتدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى وارشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوك لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع، ودفع الضرر، والنصر على الأعداء. قال الاخفش معناه وإن

ودعوهم: أي الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم؛ وقيل: المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن. وقرأ «لا يتبعوكم» مشدداً ومخففاً وهما لغتان. وقال بعض أهل اللغة أتبعه مخففاً: إذا مضى خلفه ولم يدركه، وأتبعه مشدداً: إذا مضى خلفه فأدركه، وجملة «سواء عليكم ادعوتموهم أم أنتم صامتون» مقررّة لمضمون ما قبلها: أي دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء لا فرق بينهما، لأنهم لا ينفعون ولا يضرّون ولا يسمعون ولا يجيبون، وقال: «أم أنتم صامتون» مكان أصمتم لما في الجملة الاسمية من المبالغة. وقال محمد بن يحيى: إنما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية، يعني لمطابقة «ولا أنفسهم ينصرون» وما قبله. قوله: «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم» أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد الله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء: تنطقون وتمشون، وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره. وفي هذا تقرير لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم، وجملة: «فادعوهم فليستجيبوا لكم» مقررّة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، وأنهم لا يستطيعون شيئاً: أي ادعوا هؤلاء الشركاء، فإن كانوا كما تزعمون «فليستجيبوا لكم إن كنتم صائقين» فيما تدعونه لهم، من قدرتهم على النفع والضّر، والاستفهام في قوله: «لهم أرجل» وما بعده للتقريع والتوبيخ: أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم، فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم: «أرجل يمشون بها» في نفع أنفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم وليس «لهم أيد يبطشون بها» كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس «لهم أعين يبصرون بها» كما تبصرون، وليس «لهم آذان يسمعون بها» كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز، وأم في هذه المواضع هي المنطقة التي بمعنى بل، والهمزة كما نكره أئمة النحو. وقرأ سعيد بن جبيرة: «إن الذين تدعون» بتخفيف إن ونصب عباداً: أي ما الذين تدعون «من دون الله عباداً أمثالكم» على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية، وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره من اختيار الرفع في خبرها، وبأن الكسائي قال: إنها لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى «ما» إلا أن يكون بعدها إيجاب كما في قوله: «إن الكافرون إلا في غرور» [الملك: 20]، والبطش: الأخذ بقوة. وقرأ أبو جعفر «يبطشون» بضم الطاء، وهي لغة، ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وتعارو وجوه النقص والعجز لها من كل باب، أمره الله بأن يقول لهم: ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضّر «ثم كيوني» أنتم وهم جميعاً بما شئتم من

وقد أخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبيرة قال: يجاء بالشمس والقمر حتى يلتقيا بين يدي الله تعالى، ويجاء بمن كان يعبدهما، فيقال: «ادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صائقين». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي، في قوله: «وتراهم ينظرون إليك» قال: هؤلاء المشركون. وأخرج هؤلاء أيضاً عن مجاهد، في قوله: «وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون» ما يدعوهم إليه من الهدى.

حُذِّ اأَمْرُ وَأَمْرٌ بِالْمَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكَلْبَلِ ۖ وَإِنَّمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ إِنَّكَ إِلَهِكَ أَتَقْوَىٰ إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۖ وَلِيَوَافِقَهُمْ يُعْذِرُهُمْ فِي الْفِتْنَةِ لَا يُفْصِرُونَ ۖ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَتْ آيَاتٌ مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ يَأْتِيَنَا الْفُتُورُ ۖ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۖ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْفَتَّانِينَ ۖ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لِمَا يُسْتَجَدُّ ۖ

قوله: «خذ العفو» لما عذّب الله ما عدده من أحوال المشركين وتسفيهه رأيهم وضلال سعيهم: أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاقهم، يقال أخذت حقي عفواً: أي

تدعوهم: أي الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم؛ وقيل: المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن. وقرأ «لا يتبعوكم» مشدداً ومخففاً وهما لغتان. وقال بعض أهل اللغة أتبعه مخففاً: إذا مضى خلفه ولم يدركه، وأتبعه مشدداً: إذا مضى خلفه فأدركه، وجملة «سواء عليكم ادعوتموهم أم أنتم صامتون» مقررّة لمضمون ما قبلها: أي دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء لا فرق بينهما، لأنهم لا ينفعون ولا يضرّون ولا يسمعون ولا يجيبون، وقال: «أم أنتم صامتون» مكان أصمتم لما في الجملة الاسمية من المبالغة. وقال محمد بن يحيى: إنما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية، يعني لمطابقة «ولا أنفسهم ينصرون» وما قبله. قوله: «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم» أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد الله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء: تنطقون وتمشون، وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره. وفي هذا تقرير لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم، وجملة: «فادعوهم فليستجيبوا لكم» مقررّة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، وأنهم لا يستطيعون شيئاً: أي ادعوا هؤلاء الشركاء، فإن كانوا كما تزعمون «فليستجيبوا لكم إن كنتم صائقين» فيما تدعونه لهم، من قدرتهم على النفع والضّر، والاستفهام في قوله: «لهم أرجل» وما بعده للتقريع والتوبيخ: أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم، فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم: «أرجل يمشون بها» في نفع أنفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم وليس «لهم أيد يبطشون بها» كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس «لهم أعين يبصرون بها» كما تبصرون، وليس «لهم آذان يسمعون بها» كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز، وأم في هذه المواضع هي المنطقة التي بمعنى بل، والهمزة كما نكره أئمة النحو. وقرأ سعيد بن جبيرة: «إن الذين تدعون» بتخفيف إن ونصب عباداً: أي ما الذين تدعون «من دون الله عباداً أمثالكم» على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية، وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره من اختيار الرفع في خبرها، وبأن الكسائي قال: إنها لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى «ما» إلا أن يكون بعدها إيجاب كما في قوله: «إن الكافرون إلا في غرور» [الملك: 20]، والبطش: الأخذ بقوة. وقرأ أبو جعفر «يبطشون» بضم الطاء، وهي لغة، ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وتعارو وجوه النقص والعجز لها من كل باب، أمره الله بأن يقول لهم: ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضّر «ثم كيوني» أنتم وهم جميعاً بما شئتم من

الخيال: ﴿وَإِذَا هُمْ مَبْصُرُونَ﴾ بسبب التنكر: أي منتبهون وقيل على بصيرة. وقرأ سعيد بن جبيرة ﴿تَذَكَّرُوا﴾ بتشديد الذال. قال النحاس: ولا وجه له في الغريبة. قوله: ﴿وَإِخْوَانَهُمْ يَمُونُهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ قيل المعنى: وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضلال الإنس، على أن الضمير في إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقاً، والمراد به الجنس، فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه. ﴿يَمُونُهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ أي: تدمهم الشياطين في الغي وتكون مدداً لهم، وسميت الفجار من الإنس إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم؛ وقيل: إن المراد بالإخوان الشياطين، وبالضمير للفجار من الإنس، فيكون الخبر جارياً على من هو له. وقال الزجاج: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴿وَإِخْوَانَهُمْ يَمُونُهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ لأن الكفار إخوان الشياطين، ﴿ثُمَّ لَا يَقْصُرُونَ﴾ الاقتصار: الانتهاء عن الشيء: أي لا تقصر الشياطين في مد الكفار في الغي، قيل: إن في الغي متصلاً بقوله ﴿يَمُونُهُمْ﴾ وقيل: بالإخوان، والغى: الجهل. قرأ نافع ﴿يَمُونُهُمْ﴾ بضم حرف المضارعة وكسر الميم. وقرأ الباقون بفتح حرف المضارعة وضم الميم، وهما لغتان؛ يقال مدّ وأمد. قال مكي: ومدّ أكثر. وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة: فإنمه يقال إذا كثر شيء شيئاً بنفسه مدّه، وإذا كثره بغيره، قيل: أمدّه نحو ﴿يَمْدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران: 125] وقيل: يقال: مددت في الشرّ وأمدت في الخير. وقرأ عاصم الجعدي ﴿يَمُونُهُمْ فِي الْغِيِّ﴾. وقرأ عيسى بن عمر ﴿ثُمَّ لَا يَقْصُرُونَ﴾ بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف. قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه: أي جمعه، أي: هلا اجتمعها افتعلاً لها من عند نفسك؛ وقيل: المعنى اختلقتها، يقال: اجتبيت الكلام: انتحلته واختلقتها واخترته إذا جئت به من عند نفسك، كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحي هذه المقالة، فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا اتَّبِعَ مَا يُوْحِي إِلَيَّ﴾ أي: لست ممن يأتي بالآيات من قبل نفسه كما تزعمون ﴿بَلْ إِنَّمَا اتَّبِعَ مَا يُوْحِي إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾، فما أوحاه إليّ وأنزله عليّ أبليغته إليكم، وبصائر جمع بصيرة: أي هذا القرآن المنزل عليّ هو ﴿بِصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يتبصر بها من قبلها؛ وقيل: البصائر الحجج والبراهين. وقال الزجاج: البصائر الطرق ﴿وَهْدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على بصائر: أي هذا القرآن هو بصائر وهدي يهتدي به المؤمنون ورحمة لهم. قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ أمرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته؛ لينتفعوا به ويتبدروا ما فيه من الحكم والمصالح؛ قيل: هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، ولا يخفك أن اللفظ أوسع من هذا والعام لا يقصر على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة

سهلاً، وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ، كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «يسرّوا ولا تسرّوا وبشروا ولا تنفروا» والمراد بالعفو هنا ضد الجهد، وقيل المراد: خذ العفو من صدقاتهم ولا تشدد عليهم فيها وتأخذ ما يشق عليهم، وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة ﴿وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف. وقرأ عيسى بن عمر «بالعرف» بضمّتين، وهما لغتان، والعرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس، ومنه قول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا، فأعرض عنهم ولا تمارهم ولا تساقفهم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة؛ قيل: وهذه الآية هي من جملة ما نسخ بآية السيف، قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء؛ وقيل هي محكمة، قاله مجاهد وقائدة. قوله: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ: الوسوسة وكذا النزغ والنخس. قال الزجاج: النزغ أننى حركة تكون، ومن الشيطان أننى وسوسة، وأصل النزغ: الفساد، يقال نزغ بيننا: أي أفسد، وقيل النزغ: الإغواء، والمعنى متقارب، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ إذا أدرك من وسوسة الشيطان أن يستعيز بالله؛ وقيل إنه لما نزل قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال النبي ﷺ: «كيف ياربّ بالغضب، فنزلت، وجملة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علة لأمره بالاستعانة أي: استعذ به والتجئ إليه، فإنه يسمع ذلك منك ويعلم به، وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ مقرّرة لمضمون ما قبلها أي: إن شأن الذين يتقون الله، وحالهم هو التنكر لما أمر الله به من الاستعانة به، والالتجاء إليه، عند أن يمسه طائف من الشيطان وإن كان يسيراً. قرأ أهل البصرة ﴿طَيْفٌ﴾ وكذا أهل مكة. وقرأ أهل المدينة والكوفة ﴿طَائِفٌ﴾. وقرأ سعيد بن جبيرة ﴿طَيْفٌ﴾ بالتشديد. قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا طيف بالتخفيف على أنه مصدر من طاف طيف. قال الكسائي: هو مخفف مثل ميت وميت. قال النحاس ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب أو يرى في النوم، وكذا معنى طائف. قال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن طيف فقال: ليس في المصادر فيعل. قال النحاس: ليس هو مصدرًا ولكن يكون بمعنى طائف؛ وقيل: الطيف والطائف معنيان مختلفان، فالأول: التخيل؛ والثاني: الشيطان نفسه. فالأول: من طاف الخيال يطوف طيفاً، ولم يقولوا من هذا طائف. قال السهيلي: لأنه تخيل لا حقيقة له، فاما قوله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ [القلم: 19] فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة. قال الزجاج: طفت عليهم أطوف، فطاف الخيال يطيف. قال حسان:

فدع هذا ولكن من لطيف يؤرقني إذا ذهب العشاء
وسميت الوسوسة طيفاً لأنها لمة من الشيطان تشبه لمة

﴿حَذِّ الْعَفْو﴾ قال: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي، قال: «لما أنزل الله: ﴿حَذِّ الْعَفْو﴾ وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» قال رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: لأتري حتى أسأل العالم، فذهب ثم رجع فقال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك». وأخرج ابن مردويه، عن جابر، نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن قيس بن سعد بن عباد، قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة بن عبد المطلب قال: «والله لأمتلئ بسبعين منهم، فجاء جبريل بهذه الآية». وأخرج ابن مردويه، عن عائشة، في قوله: ﴿حَذِّ الْعَفْو﴾ ما عفا لك من مكارم الأخلاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿حَذِّ الْعَفْو﴾ قال: خذ ما عفا من أموالهم ما أتوك به من شيء فخذ، وهذا قبل أن تنزل براءة بفرأض الصدقة وتفصيلها. وأخرج ابن جرير، والنحاس، في ناسخه، عن السدي في الآية قال: الفضل من المال، نسخته الزكاة. وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، قال: لما نزل ﴿حَذِّ الْعَفْو﴾ الآية. قال رسول الله ﷺ: «كيف بالغضب يارب؟ فنزل ﴿وَمَا يَفْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ فُزَعٌ﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ قال هم المؤمنون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ قال: الغضب. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: الطيف: الغضب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿تَتَكْرَهُوا﴾ قال: إذا زلوا تابوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في الآية قال الطائف: اللمة من الشيطان ﴿تَتَكْرَهُوا﴾ فإذا هم مبصرون. يقول: فإذا هم منتهون عن المعصية، أخذون بأمر الله، عاصون للشيطان ﴿وإخوانهم﴾ قال: إخوان الشياطين: ﴿يَمْتُونَهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ ثم لا يقصرون. قال: لا الإنس يمسون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم و ﴿إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا أحدثتها لولا تلقينها فأنشأتها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه ﴿وإخوانهم يمتنونهم في الغي﴾ قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يَقْصُرُونَ﴾ يقول: لا يسامون ﴿وإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: هلا افتعلتها من تلقاء نفسك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساکر، عن أبي هريرة، في قوله: ﴿وإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ الآية قال: نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن ابن عباس، في الآية قال: يعني في الصلاة المفروضة. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي، عنه قال: صلى النبي ﷺ، فقرأ خلفه قوم فخلطوا،

القرآن في كل حالة، وعلى أي صفة مما يجب على السامع؛ وقيل: هذا خاص بقراءة رسول الله ﷺ للقرآن بون غيره، ولا وجه لذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي: تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه، ثم أمره الله سبحانه أن يذكره في نفسه، فإن الإخفاء أنخل في الإخلاص، وأدعى للقبول؛ قيل: المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن وغيره من الإنكار التي يذكر الله بها. وقال النحاس: لم يختلف في معنى ﴿وَأَنْذِرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أنه الدعاء؛ وقيل هو خاص بالقرآن: أي اقرأ القرآن بتأمل وتدبر و ﴿تَضَرَّعًا وَخِيفَةً﴾ منتصبان على الحال: أي متضرعًا وخائفًا، والخيفة: الخوف، وأصلها خوفا قلبت الواو باء لانكسار ما قبلها. وحكى الفراء أنه يقال في جمع خيفة خيف. وقال الجوهري: والخيفة الخوف والجمع خيف، وأصله الواو: أي خوف ﴿وَيُؤْنِسُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: دون المجهور به من القول، وهو معطوف على ما قبله: أي متضرعًا، وخائفًا، ومتكلم بكلام هو بون الجهر من القول، و ﴿بِالْغَنَى وَالْأَصَالِ﴾ متعلق بانكر أي أوقات الغنوات وأوقات الأصائل، والغنى: جمع غنوة، والأصال: جمع أصيل، قاله الزجاج والأخفش، مثل يمين وإيمان؛ وقيل الأصال جمع أصل، والأصل جمع أصيل، فهو على هذا جمع الجمع، قاله الفراء. قال الجوهري الأصل الوقت من بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أصل وأصال وأصائل كأنه جمع أصيلة. قال الشاعر:

لعمري لانت البيت أكرم أهله
واقعد في أفتائه بالأصائل
ويجمع أيضًا على أصالان مثل بغير وبعران، وقرأ أبو مجلز «الإيصال» وهو مصدر. وخص هذين الوقتين لشرفهما والمراد: بولم النكره ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: عن نكر الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ المراد بهم: الملائكة. قال القرطبي: بالإجماع. قال الزجاج: وقال عند ربك والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده. وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله؛ وقيل: إنهم رسل الله، كما يقال عند الخليفة جيش كثير، وقيل: هذا على جهة التشريف والتكريم لهم، ومعنى: ﴿يَسْبَحُونَهُ﴾ يعظمونه وينزهونه عن كل شين ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يخصونه بعبادة السجود التي هي أشرف عبادة؛ وقيل المراد بالسجود: الخضوع والذلة، وفي نكر الملا الأعلى تعريض لبني آدم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، والنحاس في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن عبد الله بن الزبير، في قوله: ﴿حَذِّ الْعَفْو﴾ الآية قال: ما نزلت هذه الآية إلا في اختلاف الناس، وفي لفظ: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عمر في قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ كُلِّ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَأَسْأَلُوا ذَاتَ
يَسْأَلُكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

الأنفال جمع نفل محرّكاً، وهو الغنيمة، ومنه قول عنترة:
إنا إذا احمرّ الوغى نروي القنا ونعف عند مقاسم الأنفال
أي الغنائم، وأصل النفل: الزيادة، وسميت الغنيمة به لأنها
زيادة فيما أحلّ الله لهذه الأمة مما كان محرّماً على غيرهم،
أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد،
ويطلق النفل على معانٍ أخر منها اليمين، والابتغاء ونبت
معروف. والنافلة التطوّع لكونها زائدة على الواجب، والنافلة:
ولد الولد، لأنه زيادة على الولد، وكان سبب نزول الآية:
اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر، كما سيأتي
بيانه فنزع الله ما غنموه من أيديهم، وجعله لله والرسول،
فقال: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: حكمها مختص بهما
يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه، وليس لكم
حكم في ذلك.

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال
كانت لرسول الله ﷺ خاصة، ليس لأحد فيها شيء حتى
نزل قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ
خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: 41]. ثم أمرهم بالتقوى، وإصلاح ذات
البين، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وترك
الاختلاف الذي وقع بينهم، ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
أي: امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله، وفيه
من التهيب والإلهاب ما لا يخفى، مع كونهم في تلك الحال
على الإيمان فكأنه قال: إن كنتم مستمّرين على الإيمان بالله،
لأن هذه الثلاثة الأمور التي هي تقوى الله، وإصلاح ذات
البين، وطاعة الله والرسول، لا يكمل الإيمان بدونها، بل لا
يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها، فإن من ليس بمتقٍ وليس بمطيع
لله ورسوله ليس بمؤمن.

وقد أخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو
الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن أبي
إمامة، قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا
أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه
أخلاقنا، فانتزع الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ﷺ،
فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء يقول: عن سواء.
وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وأبو الشيخ، وابن
مردويه، والبيهقي في سننه، عن عبادة بن الصامت قال:
خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس
فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون،
واكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدثت
طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا
كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا
الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب،

فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ الآية، فهذه في المكتوبة. قال:
وإن كنا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر. وأخرج
سعيد بن منصور وابن أبي حاتم، والبيهقي عن محمد بن
كعب القرظي نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم،
والبيهقي في سننه، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم،
وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن مغفل
نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
وأبو الشيخ، والبيهقي، عن ابن مسعود، نحوه أيضاً، وقد
روي نحو هذا عن جماعة من السلف، وصرحوا بأن هذه
الآية نزلت في قراءة الصلاة من الإمام، وأخرج ابن أبي
شيبه، عن الحسن، في الآية قال: عند الصلاة المكتوبة، وعند
الذكر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس،
في الآية قال: في الصلاة وحين ينزل الوحي. وأخرج
البيهقي عنه في الآية أنه قال: هذا في الصلاة. وأخرج
عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنْذِرْكَ بِكَ فِي نَفْسِكَ﴾
الآية قال: أمره الله أن ينكره، ونهاه عن الغفلة: أما بالغفوة
فصلاة الصبح، والأصالة بالعشي وأخرج ابن أبي حاتم، عن
أبي صخر. قال: الأصالة ما بين الظهر والعصر. وأخرج ابن
جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في الآية قال: لا تجهز بذاك
﴿بِالْغَدْوِ وَالْأَصَالِ﴾ بالبكر والعشي. وأخرج ابن جرير،
وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿بِالْغَدْوِ﴾ قال: آخر الفجر صلاة
الصبح، والأصالة آخر العشي صلاة العصر، والأحاديث
والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة، وعدد المواضع التي
يسجد فيها، وكيفية السجود، وما يقال فيه مستوفاة في كتب
الحديث والفقه، فلا نطوّل بإيراد ذلك هاهنا.

تفسير سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنّها مدنية ولم يستثنوا منها
شيئاً، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء. وقد
روي مثل هذا عن ابن عباس، أخرجه النحاس في ناسخه،
وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه، قال: سورة الأنفال نزلت
بالمدينة. وأخرجه ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير.
وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن زيد بن ثابت. وأخرج
سعيد بن منصور، والبخاري، وابن المنذر، وأبو الشيخ،
وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: نزلت في بدر. وفي
لفظ تلك سورة بدر. قال القرطبي: قال ابن عباس هي
مدنية إلا سبع آيات من قوله: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
[الأنفال: 30 - 36] إلى آخر سبع آيات، وجملة آيات هذه
السورة ست وسبعون آية، وقد كان النبي ﷺ يقرأ بها في
صلاة المغرب كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي
أيوب وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه كان
يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال.

فنزلت: **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** الآية، فقسم النبي ﷺ الغنائم بينهم بالسوية». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** قال: الأنفال المغنم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه به، فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئاً فأنزل الله: **﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال﴾** لي جعلتها ولسولي ليس لكم فيها شيء **﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾** إلى قوله: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** ثم أنزل الله **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾** [الأنفال: 41] الآية، ثم قسم تلك الخمس لرسول الله ﷺ، ولذي القربى واليتامى، والمساكين، والمهاجرين في سبيل الله، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** قال: هي الغنائم، ثم نسخها **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾** الآية. وأخرج مالك وابن أبي شيبة، وأبو عبيد، وعبد بن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس وأبو الشيخ، وابن مروي عن القسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال: الفرس من النفل، والسلب من النفل، فأعاد المسئلة فقال ابن عباس: هذا مثل ضبيع الذي ضربه عمر؛ وفي لفظ: فقال ما أحوك أن يصنع بك كما صنع عمر بضبيع العراقي، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه، قال: الأنفال المغنم، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها، فيرد القوي على الضعيف. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، عن عطاء، في قوله: **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** قال: هو ما شئ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو دابة أو متاع، فذلك للنبي ﷺ، يصنع به ما شاء، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن محمد بن عمرو، قال: أرسلنا إلى سعيد بن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألوني عن الأنفال، وإنه لا نفل بعد رسول الله ﷺ. وأخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضاً قال: ما كانوا ينفلون إلا من الخمس وروى عبد الرزاق عنه أنه قال: لا نفل في غنائم المسلمين إلا في خمس الخمس. وأخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه، فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الشعبي، في قوله: **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** قال: ما أصابت السرايا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، والنحاس في ناسخه، عن مجاهد، وعكرمة، قال: كانت الأنفال لله والرسول، حتى نسخها آية الخمس **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾** [الأنفال: 41] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، في الألب المفرد، وابن مروي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن

وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحققوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا نحن أحققنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: **﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾** قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربيع، وإذا أقبل راجعاً وكل الناس نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: ليرد قوي المسلمين على ضعيفهم. وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن أبي أيوب الأنصاري قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فنصرها الله وفتح عليها، فكان من أتاه بشيء نفله من الخمس، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلونهم ويأسرون وتركوا الغنائم خلفهم، فلم ينالوا من الغنائم شيئاً، فقالوا: يا رسول الله ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنمية؟ فسكت رسول الله ﷺ ونزل: **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** الآية، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال: «ربوا ما أخذتم واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يامركم بذلك، فقالوا: قد أنفقنا ولكننا، فقال احتسبوا بذلك، وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن سعد بن أبي وقاص، قال قلت: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه، فوضعت، ثم رجعت قلت عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائي إذا رجل يدعوني من ورائي، قلت: قد أنزل الله في شيئاً؟ قال: كنت سألتني هذا السيف وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك» وأنزل الله هذه الآية: **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** وفي لفظ لأحمد أن سعداً قال: لما قتل أخي يوم بدر، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكنيفة فأتيت به رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحو ما تقدم، وقد روي هذا الحديث عن سعد من وجوه آخر. وأخرج ابن جرير وابن مروي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن الناس سألو رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر، فنزلت **﴿يسألونك عن الأنفال﴾**. وأخرج ابن مروي عنه قال: لم ينفل النبي ﷺ بعد إذ نزلت عليه **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** إلا من الخمس فإنه نفل يوم خيبر من الخمس. وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، فاما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداء، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فلختصموا إلى النبي ﷺ،

عند ربهم» خبر ثان «أولئك» أو مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، «ومغفرة» معطوف على درجات أي مغفرة لذنوبهم «ورزق كريم» يكرمهم الله به من واسع فضله، وفائض جوده.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «وجلت قلوبهم» قال: فرقت قلوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، أيضاً في الآية قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من نكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤتون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: «إنما المؤمنون الذين إذا نكر الله وجلت قلوبهم» فأنوا فرائضه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير، وأبو الشيخ، من طريق شهر بن حوشب، عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب، أما تجد قشعريرة؟ قلت بلى، قالت: فادع عندهما فإن الدعاء يستجاب عند ذلك. وأخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي؟ قالوا: ومن أين لك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عينايا، فذلك حين يستجاب لي. وأخرج أيضاً، عن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضربة السعفة، فإذا وجل أحكمك فليدع عند ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهيم بمعصية، فيقال له اتق الله فيبجل قلبه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «زانتهم إيماناً» قال: تصديقاً. وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس في قوله: «زانتهم إيماناً» قال: خشية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» يقول: لا يرجون غيره. وأخرج عنه في قوله: «أولئك هم المؤمنون حقا» قال: برئوا من الكفر. وأخرج أبو الشيخ عنه «حقاً» قال: خالصاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في قوله: «لهم درجات» يعني فضائل ورحمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «لهم درجات» قال: أعمال رفيعة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: «لهم درجات» قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه. ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضل عليه أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: «ومغفرة» قال: بترك الذنوب «ورزق كريم» قال: الأعمال الصالحة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي، قال إذا سمعتم الله يقول: «ورزق كريم» فهي الجنة.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥١﴾ يَجِدُونَكَ فِي الْحَقِّ بَدْمًا بَيْنَ كَانُوا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَحْكُمُونَ

ابن عباس، في قوله: «واصلحوا ذات بينكم» قال: هذا تخريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الأنفال. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مكحول، قال: كان صلاح ذات بينهم أن ربت الغنائم، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ، وبين من قاتل وغنم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء، في قوله: «واطيعوا الله ورسوله» قال: طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَرْجِعْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٤﴾

الوجل الخوف والفرع، والمراد أن حصول الخوف من الله والفرع منه عند نكره هو شأن المؤمنين الكاملين الإيمان المخلصين لله، فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان. قال جماعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ، فيما أمر به من قسمة الغنائم، ولا يخفك أن هذا وإن صح إدراج تحت معنى الآية، من جهة أن وجل القلوب عند النكر وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول، ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة، والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة أو التعبير عن بديع صناعته، وكمال قدرته في آياته التكوينية بنكر خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند نكرها المؤمنون، قيل والمراد بزيادة الإيمان: هو زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات؛ وقيل المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل؛ لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه «وعلى ربهم يتوكلون» لا على غيره، والتوكل على الله: تفويض الأمر إليه في جميع الأمور والموصول في قوله: «الذين يقيمون الصلاة» في محل رفع على أنه وصف للموصول الذي قبله، أو يدل منه، أو بيان له، أو في محل نصب على المدح، وخص إقامة الصلاة والصديقة لكونهما أصل الخير وأساسه، و«من» في «مما» للتبعية والإشارة بقوله: «أولئك» إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة، وهو مبتدأ وخبره «هم المؤمنون» أي: أن هؤلاء هم الكاملون الإيمان البالغون فيه إلى أعلى درجاته، وأقصى غاياته و«حقاً» مصدر مؤكد لمضمون جملة هم المؤمنون: أي حق ذلك حقاً أو صفة مصدر محذوف: أي هم المؤمنون إيماناً حقاً، ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال «لهم درجات» أي: منازل خير وكرامة، وشرف في الجنة كائنة عند ربهم، وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم، وتعظيم وتقدير؛ وجملة «لهم درجات

﴿وَأَن يَمُوتَ﴾ اللَّهُ إِيَّاكَ الْفَائِزِينَ أَنَّهُ لَكُمْ وَوَدَّوْتُ أَن عَيْرَ ذَاتِ الشَّرَكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحْيِيَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيَحْيِيَ الْحَقَّ وَيَبْطُلَ الْبَاطِلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قوله: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ قال الزجاج: الكاف في موضع نصب: أي الانفصال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق: أي مثل إخراج ربك، والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت، وإن كرهوا، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال: بقي أكثر الناس بغير شيء، فموضع الكاف نصب كما ذكرنا، وبه قال الفراء وقال أبو عبيدة: هو قسم: أي والذي أخرجك، فالكاف بمعنى الواو، وما بمعنى الذي. وقال الأخفش سعيد بن مسعدة: المعنى أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك. وقال عكرمة المعنى: أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك؛ وقيل كما أخرجك متعلق بقوله: ﴿لهم درجات﴾ أي: هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الواجب له، فأنجز وعك وظفرك بعدوك وأوفى لك، نكره النحاس واختاره؛ وقيل الكاف في «كما» كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبيده: كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك، وسألت مدداً فأمددتك وقويتك وأزحت علتك، فخذهم الآن فعاقبهم؛ وقيل: إن الكاف في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال كحال إخراجك يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب، نكره صاحب الكشف، وبالحق متعلق بمحذوف، والتقدير: إخراجاً متلبساً بالحق الذي لا شبهة فيه، وجملة ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ في محل نصب على الحال: أي كما أخرجك في حال كراهتهم لذلك، لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين، إما العير أو النفير، رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال كما سيأتي بيانه، وجملة ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين لهم﴾ إما في محل نصب على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين، وفات العير وأمرهم بقتال النفير، ولم يكن معهم كثير أهبة، لذلك شق عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكملنا الأهبة، ومعنى ﴿في الحق﴾ أي: في القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشيء إلا بإذن الله، أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين، وإن العير إذا فانت ظفروا بالنفير، و«بعد» ظرف ليجادلونك وما مصدرية أي: يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم. قوله: ﴿كانما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ الكاف في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿لكارهون﴾ أي: حال كونهم في شدة فزعهم من القتال يشبهون حال من يساق ليقتل، وهو مشاهد لأسباب قتله، ناظر إليها لا يشك فيها. قوله: ﴿وإن يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ الظرف

منصوب بفعل مقدر: أي وانكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين، وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود نكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة، والطائفتان: هما العير والنفير، وإحدى هو: ثاني مفعولي يعد، و﴿أنها لكم﴾ بدل منه بدل اشتغال، ومعناه: أنها مسخرة لكم، وأنكم تغلبونها وتغنون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة، لا يطيقون لكم دفعاً، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضراً ولا نفعاً، وفي هذه الجملة تنكير لهم بنعمة من النعم التي أنعم الله بها عليهم. قوله: ﴿وتوتون﴾ معطوف على ﴿يعيدكم﴾ من جملة الحوادث التي أمروا بنكر وقتها ﴿أن غير ذات الشوكة﴾ من الطائفتين، وهي طائفة العير ﴿تكون لكم﴾ دون ذات الشوكة، وهي طائفة النفير. قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحد. والشوكة: السلاح، والشوكة: النبات الذي له حد. ومنه رجل شائك السلاح: أي حديد السلاح، ثم يقلب فيقال شاكى السلاح؛ فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك، والمعنى: وتوتون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح، وهي طائفة النفير، لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها. قوله: ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ معطوف على ﴿توتون﴾ وهو من جملة ما أمروا بنكر وقته: أي ويريد الله غير ما تريدون، وهو أن يحق الحق بإظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة، وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجلبوا بها عليكم، وراموا دفعكم بها، والمراد بالكلمات: الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، وعذكم منه بالظفر بها ﴿ويقطع دابر للكافرين﴾ الدابر: الآخر، وقطعه عبارة عن الاستئصال. والمعنى: ويستأصلهم جميعاً. قوله: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله: أي أراد ذلك، أو يريد ذلك ليظهر الحق، ويرفعه ﴿ويبطل الباطل﴾ ويضعه، أو اللام متعلقة بمحذوف: أي فعل ذلك ليحق الحق، وقيل متعلق بيقطع، وليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها، لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإراتين، وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، والعلة المقتضية له، والمصلحة المترتبة عليه. وإحقاق الحق إظهاره، وإبطال الباطل إعدامه: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [الأنبياء: 18] ومفعول ﴿ولو كره المجرمون﴾ محذوف: أي ولو كرهوا أن يحق الحق، ويبطل الباطل، والمجرمون هم المشركون من قريش، أو جميع طوائف الكفار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت فقال: «ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا، فخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعاضد، ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر، فأخبرنا النبي ﷺ بعثتنا، فسر بذلك وحمد الله وقال: عذة

المؤمنين لكارهون قال: لطلب المشركين **﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾** أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاک، في قوله: **﴿وتوبون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾** قال: هي غير أبي سفيان، وذو أصحاب محمد عليه السلام أن العير كانت لهم، وأن القتال صرف عنهم. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة **﴿ويقطع دابر الكافرين﴾** أي: شأفتهم. ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتاريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَوْي مُلْكُكُمْ يَأْتِي مِنَ الْمَلَكِ مَرْيُومٌ ﴿١٦﴾ وَمَا جَاءَهُ اللَّهُ إِلَّا بِبُشْرَىٰ وَعِلْمَيْنِ يُؤْتِيهِمَا وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾

قوله: **﴿إذ تستغيثون﴾** الظرف متعلق بمحذوف: أي وانكروا وقت استغاثتكم؛ وقيل بدل من **﴿وإذ يعيدكم الله﴾** [الأنفال: 7] معمول لعامله؛ وقيل: متعلق بقوله: **﴿ليحقق الحق﴾** [الأنفال: 8] والاستغاثة: طلب الغوث؛ يقال: استغاثني فلان فأغثته والاسم الغياث؛ والمعنى: أن المسلمين لما علموا أنه لا بد من قتال الطائفة ذات الشوكة، وهم النفيير كما أمرهم الله بذلك، وأرادهم منهم، ورأوا كثرة عدد النفيير وقلة عددهم، استغاثوا بالله سبحانه، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن عدد المشركين يوم بدر ألف، وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبي ﷺ لما رأى ذلك استقبل القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» الحديث **﴿فاستجاب لكم﴾** عطف على تستغيثون داخل معه في التذكير، وهو وإن كان مستقبلاً فهو بمعنى الماضي، ولهذا عطف عليه استجاب، قوله: **﴿أي ممدكم بألف من الملائكة﴾** أي: باني ممدكم، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المفعول، وقرئ بكسر الهمزة على إرادة القول. أو على أن في استجاب معنى القول. قوله: **﴿مردفين﴾** قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول، وقرأ الباقون بكسرهما اسم فاعل وانتصابه على الحال، والمعنى على القراءة الأولى: أنه جعل بعضهم تابعاً لبعض، وعلى القراءة الثانية: أنهم جعلوا بعضهم تابعاً لبعض؛ وقيل: إن مردفين على القراءتين نعت لألف وقيل: إنه على القراءة الأولى، حال من الضمير المنصوب في ممدكم: أي ممدكم في حال إردافكم بألف من الملائكة؛ وقد قيل: إن ردف وأردف بمعنى واحد، وأنكره أبو عبيدة قال: لقوله تعالى: **﴿تتبعها الرافدة﴾** [النازعات: 7] ولم يقل المردفة، قال سيبويه: وفي الآية قراءة ثالثة وهي «مردفين» بضم الراء وكسر الدال مشددة. وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال. وقرأ جعفر بن محمد، وعاصم الجحدري «بألف» جمع ألف، وهو الموافق لما تقدم في آل عمران، والضمير في «وما

أصحاب طالوت، فقال: ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم، فقلنا: يا رسول الله، لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى **﴿أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾** [المائدة: 24] فأنزل الله: **﴿كما أخرجك ربك﴾** إلى قوله: **﴿وإذ يعيدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾** فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين، إما القوم وإما العير، طابت أنفسنا، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أنشدك وعذك، فقال ابن رواحة: يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك، ورسول الله ﷺ أفضل من أن يشير عليه، إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده، فقال: يا ابن رواحة لأنشدن الله وعده، فإن الله لا يخلف الميعاد، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه القوم فانهزموا، فأنزل الله **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** [الأنفال: 17] فقتلنا وأسروا، فقال عمر: يا رسول الله ما أرى أن يكون لك أسرى فإنما نحن داعون مؤلفون، فقلنا: يا معشر الأنصار إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال: ادعوا لي عمر، فدعي له فقال: إن الله قد أنزل علي **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾** [الأنفال: 67] الآية، وفي إسناده ابن لهيعة، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن مريويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا، ثم خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد، فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن، لنسيرن معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى: **﴿أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾** [المائدة: 24] ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾** إلى قوله: **﴿ويقطع دابر الكافرين﴾** وإنما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبي سفيان، فأحدث الله إليه القتال. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾** قال: كذلك يجادلونك في خروج القتال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾** قال: خروج النبي ﷺ إلى بدر **﴿وإن فريقاً من**

جعله الله، راجع إلى الإمداد المللول عليه بقوله: ﴿إني ممددكم﴾، ﴿إلا بشرى﴾ أي إلا بشاره لكم بنصره، وهو استثناء مفرغ: أي ما جعل إمدادكم لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر، ﴿ولتطمئن به﴾ أي بالإمداد قلوبكم، وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم، وتطمئن قلوبهم وتثبتهما، واللام في لتطمئن متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخراً: أي ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشيء آخر ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند غيره، ليس للملائكة في ذلك أثر، فهو الناصر على الحقيقة، وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التي سببها الله لكم، وأمدكم بها ﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالب ﴿حكيم﴾ في كل أفعاله.

وقد أخرج ابن جرير، عن علي رضي الله عنه، قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ، وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة. وأخرج سنيد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: ما أمد النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التي نكر الله في الأنفال، وما نكر الثلاثة الآلاف، والخمسة الآلاف إلا بشرى. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مردفين﴾ قال: متتابعين. وأخرج ابن جرير، عنه، في قوله: ﴿مردفين﴾ يقول: الممد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً في الآية قال: وراء كل ملك ملك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الشعبي، قال: كان ألف مردفين، وثلاثة آلاف منزلين، فكانوا أربعة آلاف، وهم مدد المسلمين في ثغورهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿مردفين﴾ قال: مجبين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة قال: متتابعين، أمدهم الله بألف ثم بثلاثة، ثم أكملهم خمسة آلاف ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ لكم ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ قال: يعني نزول الملائكة. قال: ونكر لنا أن عمر قال: أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا، وأما بعد ذلك فإله أعلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد ﴿مردفين﴾ قال: بعضهم على أثر بعض.

إِذْ يَبْعَثُكُمْ فِيهِمُ آلِهَتُكُمْ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْسُلُ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ لِيُنْذِرَكُمْ إِيَّاهُ وَيُنْذِرَ عَنكُمْ بِرَحْمَةِ الْبَرِّ لِيَرْسُلَ عَلَيْكُمْ وَبَيِّنَ لَكُمْ الْآيَاتِ الْكَلِيمَ ۚ إِذْ يُوسِىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَزِّلُ إِلَيْهِمْ أَنَا سَائِقٌ فِي قُلُوبِ الْوَيْلِ كَفَرُوا بِالرُّعْبِ فَأَضْرِبُوا قَوْقُ الْاِخْتِنَانِ وَأَضْرِبُوا رِثْمَهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ سَأَلُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَنَسُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَرِهَ اللَّهُ لِيُخَالِفَهُمْ وَلَئِنْ لَمْ يَنْصَرُوا إِلَيْكَ لَخَسِرَ الْأَنْبِيَاءُ وَلَخَسِرَ الْأَنْبِيَاءُ وَلَخَسِرَ الْأَنْبِيَاءُ وَلَخَسِرَ الْأَنْبِيَاءُ وَلَخَسِرَ الْأَنْبِيَاءُ

قوله: ﴿إذ يغشاكم﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر كالذي

قبله، أو بدل ثان من إذ يعدكم، أو منصوب بالنصر المذكور قبله؛ وقيل: غير ذلك مما لا وجه له، و ﴿يغشاكم﴾ هي: قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه، وهذه القراءة هي المطابقة لما قبلها، أعني قوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ ولما بعدها أعني ﴿وينزل عليكم﴾ فيتشاكل الكلام ويتناسب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يغشاكم﴾ على أن الفاعل النعاس، وقرأ الباقرن ﴿يغشاكم﴾ بفتح الغين وتشديد الشين، وهي قراءة نافع وأهل المدينة في إسناد الفعل إلى الله، ونصب النعاس قال مكي: والاختيار ضم الباء والتشديد، ونصب النعاس لأن بعده ﴿أمنة منه﴾ والهاء في منه لله، فهو الذي يغشيه النعاس، ولأن الأكثر عليه، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب أمنة على أنها مفعول له. ولا يحتاج في ذلك إلى تأويل وتكلف، لأن فاعل الفعل المعلن والعلة واحد بخلاف انتصابها على العلة، باعتبار القراءة الثانية، فإنه يحتاج إلى تكلف، وأما على جعل الأمنة مصدرًا فلا إشكال، يقال أمن أمنة، وأمنًا وأمانًا، وهذه الآية تتضمن نكر نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين، وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها، قيل: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد، الثاني: أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم؛ وقيل: إن النوم غشيه في حال التقاء الصنفين، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة آل عمران. قوله: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾ هذا المطر كان بعد النعاس، وقيل: قبل النعاس. وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر، فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فأنزل الله المطر ليلة بدر. والذي في سيرة ابن إسحاق وغيره، أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر، وأنه منع قريشاً من السبق إلى الماء مطر عظيم، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شد لهم دهنس الوادي، وأعانهم على المسير، ومعنى ﴿ليطهركم به﴾: ليرفع عنكم الأحداث ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي: وسوسته لكم بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التي هي منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت ﴿وليربط على قلوبكم﴾ فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن الحرب، والضمير في ﴿به﴾ من قوله: ﴿ويثبت به الأقدام﴾ راجع إلى الماء الذي أنزله الله: أي يثبت بهذا الماء الذي أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم في مواطن القتال؛ وقيل الضمير راجع إلى الربط المللول عليه بالفعل. قوله: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم﴾ الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبي ﷺ؛ لأنه لا يقف على ذلك سواه: أي وانكرا يا محمد وقت إحياء ربك إلى الملائكة؛ وقيل: هو بدل من ﴿إذ يعدكم﴾ كما تقدم، ولكنه يلبى ذلك

قوله: ﴿إذ يغشاكم﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر كالذي

قوله: ﴿إذ يغشاكم﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر كالذي

يزيداً فأضربه غير صحيح؛ لأنه لم يقرّ فيه عليك، بل هو من باب الاشتغال، وجملة ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذي أصيبوا به ويكون ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ إشارة إلى العقاب الآجل.

وقد أخرج أبو يعلى، والبيهقي في الدلائل، عن عليّ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن شهاب في الآية قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت في المؤمنين يوم بدر، فيما أغشاهم الله من النعاس أمة منه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿أَمِنَهُ مِنْهُ﴾ قال: أمناً من الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿أَمِنَهُ مِنْهُ﴾ قال: رحمة منه، أمانة من العدو. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه قال: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. وأخرج عبد بن حميد، عنه، أيضاً قال: كان النعاس أمانة من الله، وكان النعاس نعاسين: نعاس يوم بدر، ونعاس يوم أحد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن المسيب، في قوله: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ قال: طش كان يوم بدر. وأخرج هؤلاء عن مجاهد في الآية قال: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فاطفأ بالمطر الغبار، والتبتت به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن إسحاق، عن عروة بن الزبير، قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ولم يتمتعهم المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: إن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء، فضحى المسلمون وصلوا مجنبيين محدثين، فالتقى الشيطان في قلوبهم الحزن، وقال اتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله، وتصلون مجنبيين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء، فشرب المسلمون وتطهروا، وثبتت أقدامهم، وزهبت وسوسته. وقد قدّمنا أن المشهور في كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء، وهذا المروي عن ابن عباس في إسناده العوفي، وهو ضعيف جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿رَجَزَ الشَّيْطَانُ﴾ قال: وسوسته. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلِيُرِيضَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ قال: بالصبر. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ قال: كان بطن الوادي دهساً، فلما مطروا اشتدت الرملة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ قال: حتى تشتد على الرمل، وهو كهيفة الأرض. وأخرج ابن

أن هذا لا يقف عليه المسلمون، فلا يكون من جملة النعم التي عدها الله عليهم؛ وقيل: العامل فيه يثبت فيكون المعنى: يثبت الأقدام وقت الوحي، وليس لهذا التقييد معنى؛ وقيل العامل فيه: ﴿لِيُرِيضَ﴾ ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإحياء، ومعنى الآية: أني معكم بالنصر والمعونة، فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿يُوحِي﴾ وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول، ومعنى ﴿فَثَبَّتُوا النَّيْنَ أَمْنًا﴾ بشروهم بالنصر، أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم، وتكثير سوادهم، وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها. قوله: ﴿سَالَفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ قد تقدّم بيان معنى إلقاء الرعب في آل عمران، قيل: هذه الجملة تفسير لقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، قوله: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قيل: المراد الأعناق أنفُسها و﴿فَوْقَ﴾ زائدة: قاله الأخفش وغيره. وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ، لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها، ولكن المعنى أنه أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها؛ وقيل المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ وقيل المراد بفوق الأعناق: أعاليها لأنها المفاصل الذي يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع. قيل: وهذا أمر للملائكة وقيل للمؤمنين، وعلى الأول قيل هو تفسير لقوله: ﴿فَثَبَّتُوا النَّيْنَ أَمْنًا﴾. قوله: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء، والبنان مشتق من قولهم أين الرجل بالمكان إذا أقام به، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة؛ وقيل المراد بالبنان هنا: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثياب في الحرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قال عنترة:

وكان في الهيجاء يحمي نمارها ويضرب عند الكرب كل بنان وقال عنترة أيضاً:

وإن السموت طوع يدي إذا ما وطئت بنانها بالهندياني قال ابن فارس: البنان الأصابع، ويقال الأطراف، والإشارة بقوله: ﴿نَلَّكَ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل وبخل في قلوبهم من الرعب، وهو مبتدأ، و﴿بَنَانَهُمْ شَاقُوا﴾ الله ورسوله خبره: أي نلك بسبب مشاققتهم، والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين في شق، وقد تقدّم تحقيق نلك ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ له يعاقبه بسبب، ما وقع منه من الشقاق. قوله: ﴿نَلَّكُمْ فَتَنُوقَهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من العقاب، أو الخطاب هنا للكافرين كما أن الخطاب في قوله: ﴿نَلَّكُمْ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح للخطاب. قال الزجاج: نلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة: أي الأمر أو القصة نلكم فتنوقه. قال: ويجوز أن يضمروا وأعلموا. قال في الكشف: ويجوز أن يكون نصباً على: عليكم نلكم فتنوقه، كقولك زيداً فأضربه. قال أبو حيان: لا يجوز تقدير عليكم لأنه اسم فعل، وأسماء الأفعال لا تضم، وتشبيهه

جدير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن علي قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي تلك الليلة ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد» وأصابهم تلك الليلة مطر شديد، فذلك قوله: **﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾** وأخرج ابن أبي شيبة، عن مجاهد، قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، قال: قال لي أبي: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: **﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾** يقول: الرؤوس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عطية **﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾** قال: لضربوا الأعداء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك **﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾** يقول: لضربوا الرقاب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** قال: يعني بالبنان الأطراف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطية **﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾** قال: كل مفصل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الْكُفْرَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ٧٠
 وَمَنْ يُولِهِمْ يُوزِجْهُمُ فِيهِمْ إِلَّا مُجْرِبًا أَوْ سَجْدًا إِلَىٰ بَيْتِهِ فَقَدْ بَكَةً يُضْطَرُّ إِلَيْكَ اللَّهُ وَمَا أَوْنَتْ لَهُمْ يَدُكَ وَالْمَكِيدُ ٧١
 وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَزَقَهُ وَيُغَيِّرُ الْأُمُورَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٧٢
 مَوْهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ٧٣

الزحف: الدنو قليلاً قليلاً، وأصله الاندفاع على الإلية، ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفاً، والزحاف: التداني والتقارب. تقول زحف إلى العدو زحفاً، وزاحف القوم: أي مشى بعضهم إلى بعض، وانتصاب زحفاً إما على أنه مصدر لفعل محذوف: أي تزحفون زحفاً، أو على أنه حال من المؤمنين: أي حال كونكم زاحفين إلى الكفار، أو حال من الذين كفروا: أي حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين أي متزاحفين **﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾** نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم، وقد لبَّ بعضهم إلى بعض للقتال، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن، وعلى كل حال، إلا حالة التحزف والتحيز. وقد روي عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، وعكرمة، ونافع، والحسن، وقتادة، وزيد بن أبي حبيب، والضحاك: أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر، وإن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، إذ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا لهم فئة إلا النبي ﷺ،

فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض، وبه قال أبو حنيفة، قالوا: ويؤيده قوله: **﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُوزِجْهُمُ فِيهِمْ﴾** فإنه إشارة إلى يوم بدر، وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف. وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة، وأن الفرار من الزحف محرّم، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر. وأجيب عن قول الأولين بأن الإشارة في **﴿يَوْمئِذٍ﴾** إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيد السياق، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف، بل هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف، ولا وجه لما نكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها، فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي ﷺ بالخروج، لأنه ﷺ ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال. ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات، وفيه: والتولي يوم الزحف» ونحوه من الأحاديث، وهذا البحث تطول ثبوته وتتشعب طرقه، وهو مبين في مواضعه. قال ابن عطية: والأبواب جمع بدر، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفارّ والنمّ له. قوله: **﴿إِلَّا مُحْتَزِفًا لِقِتَالٍ﴾**: التحرف: الزوال عن جهة الاستواء. والمراد به هنا التحرف من جانب إلى جانب في المعركة طلباً لمكاند الحرب، وخداعاً للعدو، وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو، فيكرّ عليه ويتمكن منه، ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة. قوله: **﴿أَوْ مُحْتَزِفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾** أي: إلى جماعة من المسلمين، غير الجماعة المقابلة للعدو وانتصاب مُحْتَزِفًا ومُحْتَزِفًا على الاستثناء من المولين: أي ومن يولهم بدره إلا رجلاً منهم مُحْتَزِفًا أو مُحْتَزِفًا، ويجوز انتصابهما على الحال، ويكون حرف الاستثناء لغواً لا عمل له، وجملة **﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾** جزء للشرط. والمعنى: من ينهزم ويفرّ من الزحف، فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المُحْتَزِفَ والمُحْتَزِفَ **﴿وَمَا أَوَاهُ جَهَنَّمَ﴾** أي: المكان الذي يأوي إليه هو النار، فقراره أوقعه إلى ما هو أشدّ بلاء مما فرّ منه وأعظم عقوبة. والمأوى: ما يأوي إليه الإنسان **﴿وَيُثَبِّسُ الْمَصِيرَ﴾** ما صار إليه من عذاب النار. وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفرّ عن الزحف، وفي ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة. قوله: **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾** الفاء جواب شرط مقترن: أي إذا عرفت ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة، وإيقاع الرعب في قلوبهم، فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر. قوله: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾** اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال: فروي عن مالك أن المراد به: ما كان منه ﷺ في يوم حنين، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي، فأصاب كل واحد منهم؛ وقيل المراد به:

الرمية التي رمى رسول الله ﷺ أبي بن خلف بالحربة في عنقه، فانهزم ومات منها؛ وقيل المراد به: السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر، فسار في الهوى حتى أصاب ابن أبي الحقيق، وهو على فراشه، وهذه الأقوال ضعيفة، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر. وأيضاً المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق: أنه وقع على صورة غير هذه الصورة والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره، أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية هو: ما كان منه ﷺ في يوم بدر، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين، فأصاب كل واحد منهم وبخلت في عينيه ومنخره وأنفه، قال ثعلب: المعنى «وما رميت» الفرع والرعب في قلوبهم «إذ رميت» بالحصباء فانهزموا «ولكن الله رمى» أي: أعانك وأظفرك، والعرب تقول: رمى الله لك: أي أعانك وأظفرك وصنع لك. وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز. وقال محمد بن يزيد المبرد: المعنى «وما رميت» بقرتك «إذ رميت» ولكنك بقوة الله رميت؛ وقيل المعنى: إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فثبتت الرمية لرسول الله ﷺ؛ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه، لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكان الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلاً هكذا في الكشف. قوله: «وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً» البلاء ما هنا: النعمة؛ والمعنى: ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً. واللام متعلقة بمحذوف: أي وللإنعام عليهم بنعمة الجميلة فعل ذلك لا لغيره، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها: أي ولكن الله رمى، ليمحق الكافرين، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً «وإن الله سميع عليم» لدعائهم، عليهم بأحوالهم؛ والإشارة بقوله ذلكم إلى البلاء الحسن، وهو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أي الغرض «وللكم وأن الله موهن كيد الكافرين» أي: إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة، إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وقيل المشار إليه القتل والرمي، وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين. وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة، والكيد: المكر. وقد تقدّم بيانه.

وقد أخرج البخاري في تاريخه، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن نافع، أنه سأل ابن عمر قال: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة أمامنا أو عسكرنا؟ فقال لي: الفئة رسول الله ﷺ فقلت: إن الله يقول: «إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأبواب» قال: إنما نزلت هذه الآية في أهل بدر لا قبلها ولا بعدها. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، في قوله:

«ومن يولهم يومئذ نبره» الآية قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب قال: لا تفرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في الآية قال: نزلت في أهل بدر خاصة ما كان لهم أن يهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه. وقد روي اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم، وقد قُدمنا الإشارة إلى ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، في قوله: «إلا متحزفاً لقتال» يعني: مستطرداً يريد الكرة على المشركين «أو متحيزاً إلى فئة» يعني: أو ينجاز إلى أصحابه من غير هزيمة «فقد باء بغضب من الله» يقول: استوجبوا سخطاً من الله «وماواه جهنم وبئس المصير» فهذا يوم بدر خاصة، كان شديداً على المسلمين يومئذ، ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: المتحزف: المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها. والمتحيز: الفأر إلى رسول الله ﷺ، وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره وأصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح، في قوله: «ومن يولهم يومئذ نبره» قال: هذه الآية منسوخة بالآية التي في الأنفال «الآن خفف الله عنكم» [الأنفال: 66] الآية، وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، واللفظ له، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر قال: كنا في غزاة فحاص الناس حيصة، قلنا: كيف تلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف، ويؤنا بالغضب، فأتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: من القوم؟ فقال: نحن الفرارون، فقال: لا، بل أنتم العكارون. فقبلنا يده فقال: أنا فتكتكم وأنا فئة المسلمين، ثم قرأ «إلا متحزفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة» وقد روي في تحريم الفرار من الزحف، وأنه من الكبائر أحاديث، وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر، كما أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس. وأخرجه ابن أبي شيبة، عن ابن عمر. وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: «فلم تقتلوهم» قال لأصحاب محمد ﷺ حين قال: هذا قتلت وهذا قتلت «وما رميت إذ رميت» قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، في قوله: «وما رميت إذ رميت» قال: رماهم يوم بدر بالحصباء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض

خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتكلم الله بهم، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً؛ ومعنى بقية الآية على هذا القول **﴿وإن تفتنوها﴾** عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله **﴿فهو﴾** أي: الانتهاء **﴿خير لكم وإن تعوبوا﴾** إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة **﴿نعد﴾** بتسليط المؤمنين عليكم، ونصرهم كما سلطانهم ونصرناهم في يوم بدر **﴿ولن تغني عنكم فتكم﴾** أي: جماعتكم **﴿شيئاً ولو كثرت﴾** أي: لا تغني عنكم في حال من الأحوال، ولو في حال كثرتها، ثم قال: **﴿وإن الله مع المؤمنين﴾** ومن كان الله معه، فهو: المنصور، ومن كان الله عليه، فهو: المخلول. قرئ بكسر إن وفتحها، فالكسر على الاستئناف، والفتح على تقدير: ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك. وقيل: إن الآية خطاب للمؤمنين، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر، وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم، وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك، فهو خير لكم، وإن تعوبوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم، كما في قوله: **﴿لولا كتاب من الله سبق﴾** [الأنفال: 68] الآية، ولا يخفى أنه يابى هذا القول معنى **﴿ولن تغني عنكم فتكم شيئاً﴾** وبآياه أيضاً **﴿وإن الله مع المؤمنين﴾** وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف وتعسف، وقيل إن الخطاب في **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾** للمؤمنين، وما بعده للكافرين، ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، وابن منده، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب، عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير، أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت **﴿إن تستفتحوا﴾** الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطية، قال: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أهدي الفتنتين، وأفضل الفتنتين، وخير الفتنتين، فنزلت الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿إن تستفتحوا﴾** يعني المشركين: أي إن تستنصروا فقد جاءكم المدد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾** قال: كفار قريش في قولهم: ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه. ففتح بينهم يوم بدر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة، في قوله: **﴿إن تستفتحوا﴾** قال: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء في يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وإن تفتنوها﴾** قال: عن قتال محمد **﴿وإن تعوبوا نعد﴾** قال: إن تستفتحوا الثانية اقتح لمحمد **﴿وإن الله مع المؤمنين﴾** قال: مع محمد

كانه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله **﴿صوت حصاة وقعت في طست﴾**، وشاهد الوجوه، فانهزمنا، فذلك قوله تعالى: **﴿وما رميت إذ رميت﴾** الآية. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن جابر، قال: سمعت صوت حصيات وقعت من السماء يوم بدر، كأنهن وقعت في طست، فلما اصطفت الناس أخذهن رسول الله **﴿فرمى بهن في وجوه المشركين، فانهزموا﴾** فذلك قوله: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾**. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مروي عن ابن عباس، في قوله: **﴿وما رميت إذ رميت﴾** قال: قال رسول الله **﴿لعلني ناولني قبضة من حصاة، فناوله فرمى بها في وجوه القوم، فما بقي أحد من القوم إلا امتلات عيناه من الحصاة، فنزلت هذه الآية﴾** **﴿وما رميت إذ رميت﴾**، وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، قال: لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف يركض فرسه حتى بنا من رسول الله **﴿واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه﴾** فقال لهم رسول الله **﴿استأخروا، فاستأخروا فاخذ رسول الله حربه في يده، فرمى بها أبي بن خلف، وكسر ضلعاً من أضلاعه، فرجع أبي بن خلف إلى أصحابه ثقيلاً، فاحتملوه حين ولوا قافلين، فطفقوا يقولون لا بأس، فقال أبي حين قالوا له ذلك: والله لو كانت بالناس لقتلتهم، ألم يقل إنني أقتلك إن شاء الله، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق، فدفنوه. قال ابن المسيب: وفي ذلك أنزل الله **﴿وما رميت إذ رميت﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، والزهري نحوه، وإسناده صحيح إليهما، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک. قال ابن كثير: وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جداً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها، وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير كما سيأتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن جبير: أن رسول الله **﴿يؤم ابن أبي الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن، فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه، فانزل الله:﴾** **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾**. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: **﴿ولكن الله رمى﴾** أي: لم يكن ذلك برميته لولا الذي جعل الله من نصرك وما ألقى في صدرك عدوك حتى هزمهم **﴿وليليلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾** أي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته.**

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تُعُودُوا نَعُدُّ وَنَحْنُ عَنْكُمْ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ وَكَرَّرْتُ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

الاستفتاح: طلب النصر، وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم؟ فقيل: إنها خطاب للكفار تهكماً بهم، والمعنى: إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر، وقد كانوا عند

عند الله ﴿الآية قال: إن هذه الآية نزلت في فلان وأصحاب له. وأخرج الغريبي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال هم نفر من قريش من بني عبد الدار. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿لِصِّمِّ الْبِكَمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: لا يتبعون الحق. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وقومه، ولعله المكنى عنه بفلان فيما تقدم من قول علي رضي الله عنه. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بالاستنهم، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: قالوا نحن صم عما يدعوننا إليه محمد لا نسمعه، بكم لا نجيبه فيه بتصديق، قتلوا جميعاً باحد، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد.

يَتَأْتِي الْآيَةَ مَأْمُورًا أَسْجِبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ مُّخْتَصِرٌ ﴿١٦﴾
وَأَنفَرُوا مِنَّا فِي تَحِيَّةٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاسِرَةٌ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
شَكِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾

الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الأمر بالطاعة، ووجد الضمير هنا حيث قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ كما وحده في قوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: 20] وقد قدمنا الكلام في وجه ذلك، والاستجابة: الطاعة. قال أبو عبيدة معنى استجيبوا: أجيبوا، وإن كان استجاب يتعدى باللام، وأجاب بنفسه كما في قوله: ﴿يَا قَوْمِ اجْأَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: 31]، وقد يتعدى استجاب بنفسه كما في قول الشاعر:

وداع دعايا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿استجيبوا﴾ أي: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم، ولا مانع من أن تكون متعلقة بدعا: أي إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، فإن العلم حياة، كما أن الجهل موت؛ فالحياة هنا مستعارة للعلم. قال الجمهور من المفسرين: المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية والتعنة السرمدية؛ وقيل المراد بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الجهاد، فإنه سبب الحياة في الظاهر، لأن العدو إذا لم يغز غزا، ويستبدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال. وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان. قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قيل معناه: يبادر إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي

وأصحابه. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نَعْدُ﴾ يقول: نعد لكم بالأسر والقتل.

يَتَأْتِي الْآيَةَ مَأْمُورًا أَسْجِبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ آتَاكُمْ إِلَيْكُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيَوْمَ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٩﴾

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عن التولي عن رسوله، فالضمير في ﴿عَنْهُ﴾ عائد إلى الرسول، لأن طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله [النساء: 80] ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله، كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: 62] وقيل: الضمير راجع إلى الأمر الذي دل عليه أطيعوا، وأصل تولوا: تتولوا، فطرح إحدى التاءين، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين، وبه قال الجمهور، وقيل: إنه خطاب للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بالاستنهم فقط. قال ابن عطية: وهذا وإن كان محتملاً على بعد، فهو ضعيف جداً، لأن الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالإيمان وهو التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء، وأبعد من هذا من قال: الخطاب لبني إسرائيل، فإنه أجنبي من الآية، وجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمعنى: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصم البكم ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء، فإنهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل، فهم كالذي لم يسمع أصلاً، لأنه لم ينتفع بما سمعه. ثم أخبر سبحانه ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي: ما دب على الأرض ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿لِصِّمِّ الْبِكَمِ﴾ أي: الذين لا يسمعون ولا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه النفع لهم فيآتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهم شر الدواب عند الله، لأنها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ أي: في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعاً ينتفعون به، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين. قال الزجاج ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ جواب كل ما سألوا عنه؛ وقيل: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم، لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره؛ ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون، وجملة ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ في محل نصب على الحال.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال: غاضبون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب، في قوله: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ

في الآية: قال هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذلّ. وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد بن المعلى، قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجيء، ثم أتيت فقالت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله تعالى استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم. الحديث. وفيه دليل على ما نكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس، في الآية قال علمه يحول بين المرء وقلبه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن، في الآية قال: في القرب منه. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساكر، عن مطرف، قال: قلت للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه. قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ولم تكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا، حيث وقعت. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: قرأ الزبير ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ قال: البلاء والأمر الذي هو كائن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن، في الآية قال: نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير. وأخرج عبد بن حميد، عن الضحاك قال نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن السدي قال: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابته يوم الجمل فاقتلوا، فكان من المقتولين طلحة والزبير، وهما من أهل بدر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: تصيب الظالم والصالح عامة. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: هي مثل ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حتى يتركه لا يعقل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب، وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر عصمهم الله بعذاب من عنده.

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَعْمِلُونَ فِي الْأَرْضِ تُخَافُونَ أَنَّ يُخْطَلَكُمْ النَّاسُ فَتَذْكُرُوا وَيَذْكُرْكُمْ يَصْرِفُوهُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الْغَنِيِّ لَكُمْ تَشْكُرُونَ

فتبته الله عليكم؛ وقيل معناه: إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبذلهم بعد الخوف؛ أمنا، ويبذلهم عن خوف؛ وقيل هو: من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16] ومعناه: أنه مطلع على ضمائر القلوب، لا تخفى عليه منها خافية. واحتار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئته عز وجل، ولا يخفك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ﴾ معطوف على ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ وأنكم محشورون إليه، وهو مجازيكم بالخير خيرا، وبالشّر شرا. قال الفراء: ولو استأنفت فكسرت همزة ﴿إِنَّهُ﴾ لكان صوابا، ولعل مراده أن مثل هذا جائز في العربية. قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

وقد اختلف النحاة في دخول هذه النون المؤكدة في ﴿تُصِيبُ﴾ فقال الفراء: هو بمنزلة قولك: انزل عن الدابة لا تطرحك، فهو جواب الأمر بلفظ النهي: أي إن تنزل عنها لا تطرحك، ومثله قوله تعالى: ﴿اِخْلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل: 18] أي: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء. وقال المبرد: إنه نهي بعد أمر. والمعنى: النهي للظالمين: أي لا يقربن الظلم، ومثله ما روى عن سيبويه لا أرينك هاهنا. فإن معناه: لا تكن هاهنا، فإن من كان هاهنا رايته. وقال الجرجاني: إن لا تصيبن نهي في موضع وصف لفتنة، وقرأ علي، وزيد بن ثابت، وأبي وابن مسعود ﴿تُصِيبُ﴾ على أن اللام جواب لقسم محذوف، والتقدير: اتقوا فتنة والله لتصيب الذين ظلموا منكم خاصة، فيكون معنى هذه القراءة مخالفا لمعنى قراءة الجماعة، لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة، بخلاف قراءة الجماعة: ﴿وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا ببذنه، ولا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة، والله أعلم، ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب: كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الإصابة المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: للحق. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة

الفردوس، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، في قوله: **﴿وَانكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس﴾** قيل: يا رسول الله ومن الناس؟ قال: أهل فارس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿فأولكم﴾** قال: إلى الأنصار بالمدينة **﴿وإليكم بنصره﴾** قال: يوم بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن جابر بن عبد الله، أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم، فنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾** الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: نزلت هذه الآية **﴿لا تخونوا الله والرسول﴾** في أبي لبابة بن عبد المنذر، سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح فنزلت. قال أبو لبابة: ما زالت قدمي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله. وأخرج سنيد، وابن جرير، عن الزهري نحوه بأطول منه. وأخرج عبد بن حميد، عن الكلبي أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفاً لهم، فأوماً بيده أنه الذبح، فنزلت. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في هذه الآية: أنها نزلت في أبي لبابة، ونسختها الآية التي في براءة **﴿وأخرون اعترفوا بذنوبهم﴾** [التوبة: 102]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿لا تخونوا الله﴾** قال: بترك فرائضه **﴿والرسول﴾** بترك سننه، وارتكاب معصيته **﴿وتخونوا أماناتكم﴾** يقول: لا تنقصوها، والأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد. وأخرج ابن جرير، عن المغيرة بن شعبه، قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، ولعل مراده أن من جملة من يخل تحت عمومها قتل عثمان. وأخرج أبو الشيخ، عن يزيد بن أبي حبيب، في الآية قال: هو الإخلال بالسلاح في المغازي، ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود، قال: ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة، لأن الله يقول: **﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾** فمن استعاذ منكم، فليستعذ بالله من مضلات الفتن. وأخرج هؤلاء عن ابن زيد في الآية قال: فتنة الإختبار اختبرهم، وقرأ **﴿ولنبولنكم بالشر والخير فتنة﴾** [الأنبياء: 35].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنفَوُا اللَّهَ بَعَثَ لَكُمْ تَوَكُّلاً وَيَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ يَتَقَبَّلْكُمْ وَبَرِّكُمْ إِنَّ اللَّهَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣٥﴾

جعل سبحانه التقوى شرطاً في الجعل المذكور، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً، والتقوى: اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في مناهيه، والفرقان: ما يفرق به بين الحق والباطل،

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوْنُوا أَمْوَالَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَأَعْمَلَكُمْ أَنْتُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٥﴾

الخطاب بقوله: **﴿وإنكروا إذا أنتم قليل﴾** للمهاجرين: أي انكروا وقت قتلنكم، و**﴿مستضعفون﴾** خبر ثان للمبتدأ، والأرض: هي أرض مكة، والخطف: الأخذ بسرعة، والمراد بالناس: مشركو قريش؛ وقيل: فارس والروم **﴿فأولكم﴾** يقال: أوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى: انضم إليه، فالمعنى: ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار **﴿وإليكم بنصره﴾** أي: قواكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر، أو قواكم بالملائكة يوم بدر **﴿ورزقكم من الطيبات﴾** التي من جملتها الغنائم **﴿لعلكم تشكرون﴾** أي: إرادة أن تشكروا هذه النعم، التي أنعم بها عليكم، والخون أصله كما في الكشاف: النقص، كما أن الوفاء التمام، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أنخلت عليه النقصان؛ وقيل معناه: الغدر وإخفاء الشيء، ومنه قوله تعالى: **﴿يعلم خائنة الأعين﴾** [غافر: 19] نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمّنهم عليه، أو بترك شيء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئاً من الأمانات التي أوثقوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، وجملة **﴿وأنتم تعلمون﴾** في محل نصب على الحال: أي وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة، فتفعلون الخيانة عن عمد، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل، ثم قال: **﴿وأعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾** لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده، وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما في الآية الأخرى **﴿وإن الله عنده أجر عظيم﴾** فأتوا حقه على أموالكم وأولادكم، ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿وإنكروا إذا أنتم قليل﴾** قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، أشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً، وأبينه ضلالة، من عاش عاش شقياً، ومن مات منهم رذّي في النار يؤكلون ولا ياكلون، لا والله ما نعلم قبلاً من حاضري الأرض يومئذ كان أشدّ منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام، فمكّن به في البلاد، ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيت فاشكروا الله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿يتخطفكم الناس﴾** قال: في الجاهلية بمكة **﴿فأولكم﴾** إلى الإسلام. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب، في قوله: **﴿يتخطفكم الناس﴾** قال: الناس إذا ذاك فارس والروم. وأخرج أبو الشيخ، وأبو نعيم، والديلمي، في مسند

على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم. وسمى ما يقع منه تعالى مكرًا مشكلًا، كما في نظائره ﴿والله خير الماكرين﴾ أي: المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو: يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشد ضررًا عليهم وأعظم بلاء من مكرهم. قوله: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: التي تأتيهم بها، وتتلوها عليهم ﴿قَالُوا﴾ تعنتًا وتمردًا وبعدًا عن الحق ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما تكلوه علينا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الذي تكلوه علينا، قيل: إنهم قالوا هذا توهماً منهم أنهم يقدرون على ذلك، فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه. ثم قال عنادًا وتمردًا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما يستطره الوراقون من أخبار الأولين، وقد تقدم بيانه مستوفى. ﴿وَإِذَا قَالُوا﴾ أي: واذكر إذ قالوا ﴿لَهُمْ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ بنصب الحق على أنه خبر كان، والضمير للفصل، ويجوز الرفع. قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها، ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءة سنة، والمعنى: إن كان القرآن الذي جاءنا به محمد هو الحق، ﴿فَامْطُرْ عَلَيْنَا﴾ قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود والإنكار. قال أبو عبيدة: يقال أمطر في العذاب، ومطر في الرحمة. وقال في الكشف: قد كثر الإمطار في معنى العذاب ﴿أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء، أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ فِيهِمْ﴾ موجود فإنك ما دمت فيهم فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ روي أنهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك: أي: وما كان الله معذبهم في حال كونهم يستغفرونه؛ وقيل المعنى: لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفره لم يعذبهم؛ وقيل إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم: أي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده؛ وقيل المعنى: وما كان الله معذبهم وفي أصلاهم من يستغفر الله.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والخطيب، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأنبئوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فاطلع الله نبيه على ذلك، فبات علي على فراش النبي ﷺ حتى لحق بالغار، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رآه علياً رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري، فاقصروا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابيه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابيه، فمكث فيه ثلاث ليال. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم،

والمعنى: أنه يجعل لهم من ثبات القلوب، وثقوب البصائر، وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس؛ وقيل: الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه، ومنه قول الشاعر:

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطعين رحلوا وبيانوا
ومنه قول الآخر:

وكيف أرجى الخلد والموت طالبي ومالي من كاس المنية فرقان
وقال الفراء: المراد بالفرقان الفتح والنصر. قال ابن إسحاق: الفرقان الفصل بين الحق والباطل، ويمثله قال ابن زيد، وقال السدي: الفرقان النجاة، ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2] وبه قال مجاهد ومالك بن أنس ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: يسترهما حتى تكون غير ظاهرة ﴿وَيُغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما اقترقت من الذنوب؛ وقد قيل إن المراد بالسيئات: الصغائر؛ وبالذنوب التي تغفر: الكبائر؛ وقيل المعنى: أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: هو المخرج. وأخرج ابن جرير عنه، قال: هو: النجاة. وأخرج ابن جرير، عن عكرمة، مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: هو النصر.

وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِيُوكَ وَيَسْتَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا قَالُوا أَلَلَّهُمْ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِمَدَاقٍ أَلَيْسَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظرف معمول لفعل محذوف. أي: وانكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك، أو معطوف على ما تقدم من قوله ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ﴾ ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التي أنعم بها عليه، وهي نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتي بيانه ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يثبتوك بالجرافات، كما قال ثعلب وأبو حاتم، وغيرهما، وعنه قول الشاعر:

فقلت ويحكم ما في صحيفتك قالوا الخليفة أمسى مثبثاً وجعا
وقيل: المعنى ليحبسوك، يقال أثبتته: إذا حبسه؛ وقيل: ليوثقوك، ومنه: ﴿فَشَبَّواْ الْوُثَاقَ﴾ [محمد: 4]. وقرأ الشعبي ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ من البيات. وقرأ: «ليثبتوك» بالتشديد ﴿أَوْ يُجْرِيُوكَ﴾ معطوف على ما قبله: أي يخرجوك من مكة التي هي ببلدك وبلد أهلك، وجملة: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ مستأنفة، والمكر: التدبير في الأمر في خفية، والمعنى: أنهم يخفون ما يعنون لرسول الله ﷺ من المكائد، فيجازيهم الله

في شعب الإيمان، عن أبي هريرة قال: كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر، قال ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، والطبراني وابن مردويه، والحاكم، وابن عساکر، عن أبي موسى الأشعري نحوه أيضاً، والأحاديث عن رسول الله ﷺ في مطلق الاستغفار كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث.

وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِ إِلَّا الضَّالُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٢﴾ إِنْ أُولَآئِكَ كَفَرُوا فَيُفْكَرُوا فَأُولَآئِكَ لَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَيُفْكَرُونَ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَصُدُّونَ ﴿١٠٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُحْرَقُونَ ﴿١٠٤﴾ لَيْسَ لِلَّهِ الْخَبِثُ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلُ الْخَبِثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَجْعَلُ جَمِيعًا جِجْمًا فَيُجْعَلُ فِي جَهَنَّمَ أُولَآئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله: ﴿وما لهم الا يعذبهم الله﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم، ووقوع الاستغفار. ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار، أعني: كفار مكة، مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح. والمعنى: أي شيء لهم يمنع من تعذيبهم؟ قال الأخفش: إن «أن» زائدة. قال النحس: لو كان كما قال لرفع يعذبهم، وجملة: ﴿وهم يصنون عن المسجد الحرام﴾ في محل نصب على الحال: أي وما يمنع من تعذيبهم؟ والحال أنهم يصنون الناس عن المسجد الحرام، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت، وجملة ﴿وما كانوا أولياءه﴾ في محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿يصنون﴾، وهذا كالمردد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاية البيت، وأن أمره مفوض إليهم، ثم قال مبيهاً لمن له ذلك: ﴿إن أوليائه إلا المتقون﴾ أي: ما أوليائه إلا من كان في عداد المتقين للشرك والمعاصي ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعانئون، قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصفيه﴾ المكاء: الصفير من مكاء يكو مكاء، ومنه قول عنترة:

وخليل غانية تركت مجندلاً تمكو فريسته كشدق الأعم
أي: تصوت؛ ومنه مكات است الدابة: إذا نفخت بالريح، قيل للمكاء: هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء. قال الشاعر:

إذا غردت المكاء في غير نوحه فويل لأهل الشاء والحمراء
والتصدية: التصفيق، يقال صدى صدى تصدى تصدياً: إذا صفق، ومنه قول عمر بن الإطابة:

وظلوا جميعاً لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية
أي: بالتصفيق؛ وقيل المكاء: الضرب بالأيدي، والتصدية:

والبهقي، عن ابن عباس، فنكر القصة بأطول مما هنا. وفيها ذكر الشيخ النجدي: أي إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار النوبة للمشاورة في أمر النبي ﷺ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاماً، ويعطوا كل واحد منهم سيفاً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل، فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي، فتفرقوا على ذلك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبيد بن عمير، قال: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني، قال: من حنك بهذا؟ قال: ربي، قال: نعم الرب ربك استوص به خيراً، قال: أنا استوصي به؟ بل هو يستوصي بي. وأخرج ابن جرير من طريق أخرى عنه. وهذا لا يصح، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جرير، في قوله: ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا﴾ قال: قال عكرمة هي مكية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء في قوله: ﴿ليثبتوك﴾ يعني: ليوثقوك. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن سعيد بن جبير، قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبه بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث؛ وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله أسيري، فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية ﴿وإذا قتلى عليهم آياتنا﴾ وهذا مرسل، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي أنها نزلت في النضر بن الحارث. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي، عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل بن هشام ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية فنزلت ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة، أنها نزلت في أبي جهل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، في الآية، أنها نزلت في النضر بن الحارث. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، عن عطاء، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية. قال ابن عباس، كان فيهم أمانان: النبي ﷺ، والاستغفار؛ فذهب النبي ﷺ، وبقي الاستغفار. وأخرج الترمذي وضعفه، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي ﷺ «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي

﴿أولئك﴾ إشارة إلى الذين كفروا. انتهى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ قال: عذابهم فتح مكة. وأخرج ابن إسحاق، وأبو حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير، في قوله: ﴿وهم يصنون عن المسجد الحرام﴾ أي: من آمن بالله وعبدته، أنت ومن اتبعك ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده: أي أنت ومن آمن بك. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ قال: من كانوا حيث كانوا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير، قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويستهنئون ويصفرون ويصفقون، فنزلت: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصفيه﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والضياء عن ابن عباس، قال: كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق، فأنزل الله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصفيه﴾ قال: والمكاء الصفير، إنما شبهوا بصفير الطير، وتصفيه: التصفيق وأنزل الله فيهم: ﴿قل من حرم زينة الله﴾ [الأعراف: 32] الآية. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عنه نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عمر قال: المكاء الصفير، والتصفيه: التصفيق. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: المكاء إدخال أصابعهم في أقواهم، والتصفيه الصفير، يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: قال: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء يكون بأرض الحجاز، والتصفيه: التصفيق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿إلا مكاء﴾ قال: كانوا يشيكون أصابعهم ويصفرون فيها. وتصفيه: ﴿وتصفيه﴾ قال: صدهم الناس. وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة قال: كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال. وهو قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصفيه﴾ فالمكاء مثل نفخ البوق، والتصفيه: طوافهم على الشمال، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك في قوله: ﴿فتوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قال: يعني أهل بدر عذبهم الله بالقتل والأسر. وأخرج ابن

الصياح؛ وقيل المكاء: إدخالهم أصابعهم في أقواهم، والتصفيه: الصفير؛ وقيل التصفيه: صدهم عن البيت؛ قيل: والأصل على هذا تصددة فأبدل من إحدى الدالين ياء. ومعنى الآية: أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة والعبادة، فوضعوا ذلك موضع الصلاة، قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، وقرئ بنصب صلاتهم على أنها خبر كان، وما بعده اسمها. قوله: ﴿فتوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ هذا التفت إلى مخاطبة الكفار تهديداً لهم ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم، والمراد به: عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة. قوله: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصنوا عن سبيل الله﴾ لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة في الطاعات البنية، أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية. والمعنى: أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق، بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش؛ ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال: ﴿فسينفقونها﴾ أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ثم تكون﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم، وكان ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندماً، ﴿ثم﴾ آخر الأمر ﴿يغلبون﴾ كما وعد الله به في مثل قوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 12]. ومعنى ﴿ثم﴾ في الموضعين إما التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المذكور، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المبانية، ثم قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي: استمروا على الكفر، لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقاً من أسلم وحسن إسلامه: أي يساقون إليها لا إلى غيرها، ثم بين العلة التي لأجلها فعل بهم ما فعله فقال: ﴿ليميز الله الخبيث﴾ أي: الفريق الخبيث من الكفار ﴿ومن﴾ الفريق الطيب. وهم المؤمنون ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ أي: يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿فيركبه جميعاً﴾ عبارة عن الجمع والضم: أي يجمع بعضهم إلى بعض، ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازحامهم، يقال ركب الشيء يركبه: إذا جمعه والقي بعضه على بعض، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الفريق الخبيث ﴿هم للخاسرون﴾ أي: الكاملون في الخسران؛ وقيل: الخبيث والطيب: صفة للمال والتقدير يميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون، فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيه في جهنم ويعذبهم بها، كما في قوله تعالى: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ [التوبة: 35]. قال في الكشاف: واللام على هذا متعلقة بقوله: ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾، وعلى الأول بيحشرون، و

وقد طوّلت في الأنفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب ومثله قول الآخر:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم
وأما معنى الغنيمة في الشرع، فحكى القرطبي الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر. قال: ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع. وقد ادّعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1] وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين، وأن قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر على ما تقدّم أوّل السورة، وقيل إنها أعني قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ محكمة غير منسوخة، وأن الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغانمين، وكذلك لمن بعده من الأئمة، حكاه الماوردي عن كثير من المالكية. قالوا: ولالإمام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين وكان أبو عبيدة يقول: افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوة ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً، وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين، وممن حكى ذلك ابن المنذر، وابن عبد البر، والداودي، والمازري، والقاضي عياض، وابن العربي، والأحاديث الواردة في قصة الغنيمة بين الغانمين، وكيفيتها كثيرة جداً. قال القرطبي: ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية ناسخ لقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية، بل قال الجمهور: إن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله. وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها، قال: وأما قصة حنين فقد عوّض الأنصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشاً وتتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه، فقال لهم: أما ترضون أن يرجع الناس بالندبا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم كما في مسلم وغيره، وليس لغيره أن يقول هذا القول، بل ذلك خاص به. قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يشمل كل شيء يصبق عليه اسم الغنيمة و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لما الموصولة، وقد خصّص الإجماع من عموم الآية الأسارى، فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف، وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام: وقيل: كذلك الأرض المغنومة. وردّ بانه لا إجماع على الأرض. قوله: ﴿فَإِنْ شَاءَ خَمْسَةٌ﴾ قرأ النخعي ﴿فَإِنْ شَاءَ﴾ بكسر إن، وقرأ الباقون بفتحها على أن أن وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: فتح أو فواجب أن شاء خمسة.

وقد اختلف العلماء في كيفية قصة الخمس على أقوال ستة: الأوّل قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله، والثاني لرسول الله، والثالث، لذوي القربى، والرابع لليتامى، والخامس للمساكين،

والسادس لابن السبيل. والقول الثاني: قاله أبو العالية والربيع: إنها تقسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد ويقسم أربعة على الغانمين، ثم يضرب يده في السهم الذي عزله، فما قبضه من شيء جعله للكعبة، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده الآية. القول الثالث: روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال: إن الخمس لنا، ف قيل له: إن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فقال: يتامانا ومساكينا وأبناء سبيلنا. القول الرابع قول الشافعي: إن الخمس يقسم على خمسة، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الأخرى على الأربعة الأصناف المذكورة في الآية. القول الخامس قول أبي حنيفة: إنه يقسم الخمس على ثلاثة: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته، كما ارتفع حكم سهمه، قال: ويبدا من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأزراق القضاة والجند. وروي نحو هذا عن الشافعي. القول السادس قول مالك: إنه موكول إلى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه بغير تقدير، ويعطى منه الغزاة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. قال القرطبي، وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا، وعليه يدل قوله ﷺ: «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، فإنه لم يقسمه لأخماساً ولا أثلاثاً، وإنما نكر ما في الآية من نكره على وجه التنبيه عليهم، لأنهم من أهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجاً بهذا القول: قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215] وجائز بلجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك. قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ قيل إعادة اللام في ذي القربى دون من بعدهم، لرفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ.

وقد اختلف العلماء في القربى على أقوال: الأوّل: أنهم قريش كلها، روي ذلك عن بعض السلف، واستدل بما روي عن النبي ﷺ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطنون قريش كلها قائلاً: يا بني فلان يا بني فلان. وقال الشافعي، وأحمد، وأبو ثور، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، ومسلم بن خالد: هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه» وهو في الصحيح وقيل: هم بنو هاشم خاصة، وبه قال مالك، والثوري، والأوزاعي، وغيرهم، وهو مروى عن علي بن الحسين، ومجاهد. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ﴾ قال الزجاج عن فرقة: إن المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله، وقالت فرقة أخرى: إن ﴿إِنْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ قال ابن عطية: وهذا هو الصحيح لأن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلى أن بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ على هذا المعنى: أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله في الغنائم، فيما

الكفر، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها. ولم يكن في حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة، واللام في **﴿ليقضي﴾** متعلقة بمحذوف، والتقدير: جميعهم ليقضي. وجملة: **﴿لئلهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي﴾** بدل من الجملة التي قبلها: أي ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة لئلا يبقى لأحد على الله حجة؛ وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام: أي ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة، ويقين بأنه دين الحق؛ ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالطة شبهة. قرأ نافع، وخلف، وسهل، ويعقوب، والبزي وأبو بكر **﴿من حي﴾** بياءين على الأصل وقرأ الباقون بياء واحدة على الإدغام، وهي اختيار أبي عبيد لأنها كذلك وقعت في المصحف **﴿وان الله لسميع عليم﴾** أي: سميع بكفر الكافرين عليم به، وسميع بليمان المؤمنين عليم به.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: ثم وضع مقاسم الفيء، فقال: **﴿واعلموا انما غنمتم من شيء﴾** بعد الذي كان مضى من بدر **﴿فان الله خمسهم﴾** إلى آخر الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، عن قيس بن مسلم الجدلي قال: سألت الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية عن قول الله: **﴿واعلموا انما غنمتم من شيء فان الله خمسهم﴾** قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة **﴿وللرسول ولذي القربى﴾** فاختلّفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين. قال قائل منهم: سهم ذي القربى لقرباه رسول الله ﷺ. وقال قائل منهم: سهم النبي ﷺ الخليفة من بعده؛ واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله؛ فكان ذلك في خلافة أبي بكر وعمر. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنمية فضرب ذلك في خمسة، ثم قرأ: **﴿واعلموا انما غنمتم﴾** الآية، قال قوله: **﴿فان الله خمسهم﴾** مفتاح كلام، لله ما في السموات وما في الأرض، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً **﴿ولذي القربى﴾** فجعل هذين السهمين قوة في الخيل والسلاح، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم، وجعل الأربعة الأسهم الباقية: للفرس سهماً ولراكبه سهماً، وللراجل سهماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، قال: كانت الغنمية تقسم على خمسة أخماس: فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس. فربح الله وللرسول ولذي القربى، يعني قرباه رسول الله ﷺ، فما كان لله وللرسول فهو لقرباه النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً؛ والرابع الثاني لليتامى، والرابع الثالث

أعلمكم به من حال قسمة الغنمية. وقال في الكشاف: إنه متعلق بمحذوف يدل عليه **﴿واعلموا﴾** بمعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنمية يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطمامكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرد، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله، لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر. انتهى. قوله: **﴿وما أنزلنا على عبينا﴾** معطوف على الاسم الجليل أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا، و**﴿يوم الفرقان﴾** يوم بدر، لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل **﴿والجمعان﴾** الفريقان من المسلمين والكافرين **﴿والله علي كل شيء قدير﴾** ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر. قوله: **﴿إن أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى﴾** قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، بكسر العين في العوة في الموضعين، قرأ الباقون بالضم فيهما. و**﴿إذ﴾** بدل من يوم الفرقان، ويجوز أن يكون العامل محذوفاً: أي وأنكروا إذ أنتم، والعدوة: جانب الوادي، والدنيا: تأنث الألف، والقصوى: تأنث الألف، من دنا يدنو، وقصا يقصو، ويقال القصيا، والأصل الواو، وهي لغة أهل الحجاز، والعدوة الدنيا كانت مما يلي المدينة، والقصوى: كانت مما يلي مكة. والمعنى: وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادي إلى جهة المدينة، وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلي مكة. وجملة: **﴿والركب أسفل منكم﴾** في محل نصب على الحال، وانتصاب **﴿أسفل﴾** على الظرف، ومحلّه الرفع على الخبرية: أي والحال أن الركب في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه، وإجاز الأخفش والكسائي والفراء رفع أسفل على معنى أشدّ سفلاً منكم؛ والركب: جمع راكب، ولا تقول العرب ركب إلى للجماعة الراكبي الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب، وكذا قال ابن فارس، وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة. والمراد بالركب ها هنا ركب أبي سفيان، وهي المراد بالغير، فإنهم كانوا في موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر. قيل: وفائدة ذكر هذه الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته، وذلك لأن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا يابس بها، وأما العدو الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها، وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم، فامتدّ الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه. قوله: **﴿ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد﴾** أي: لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا في هذا الموضع للقتال لخالف بعضكم بعضاً. فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ **﴿ولكن﴾** جمع الله بينكم في هذا الموطن **﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾** أي: حقيقة بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال

إخوانك من بني هاشم لا نكر فضلهم لمكانك منهم، رأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب؟ فقال: إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام. وقد أخرجهم مسلم في صحيحه. وأخرج ابن مريويه، عن زيد بن أرقم قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس: آل علي، وآل العباس، وآل جعفر، وآل عقيل. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مريويه، عن علي قال: قلت يا رسول الله: ألا وليتني ما خصنا الله به من الخمس؟ فولانيه. وأخرج الحاكم وصححه عنه قال: ولاني رسول الله ﷺ خمس الخمس فوضعت مواضعه حياة رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَوْمَ لِلْفِرْقَانِ﴾ قال: هو يوم بدر، وبدر ما بين مكة والمدينة، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَوْمَ لِلْفِرْقَانِ﴾ قال: هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل. وأخرج ابن مريويه، عن علي بن أبي طالب، قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، وأخرجه عنه ابن جرير أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدَّةِ لِلنَّبَا﴾ قال: العدة الدنيا شاطئ الوادي ﴿وَالرَّكِبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾. قال أبو سفيان. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: العدة الدنيا شفير الوادي الأسنى، والعدة القصوى شفير الوادي الأقصى.

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكِ قَلِيلًا وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرًا لَفَازَتْكُمْ وَكَانَ هَذَا فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ إِذَاتُ الْأَشْهُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي التَّقَاتِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا مُنْقَلَبًا وَفِي أَعْيُنِهِمْ يَقِينٌ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ مُرًا كَذَلِكَ مَقُولًا وَإِنَّ اللَّهَ رَجَعَ الْأُمُورَ ﴿١٨﴾

إذ منصوب بفعل مقدر: أي انكر أو هو بدل ثان من يوم الفرقان. والمعنى: أن النبي ﷺ رآهم في منامه قليلاً فقص ذلك على أصحابه، فكان ذلك سبباً لثباتهم، ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا في الأمر، هل يلاقونهم أم لا؟ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله ﷺ في المنام؛ وقيل عني بالنام: محل النوم، وهو العين: أي في موضع منامك وهو عينك، روى ذلك عن الحسن. قال الزجاج: هذا مذهب حسن ولكن الأول أسوغ في العربية لقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّقَاتِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾. فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء، وأن تلك رؤية النوم. قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول: أي وأنكروا وقت

للمساكين؛ والربع الرابع لابن السبيل، وهو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية قال: كان يجاء بالغنيمة فتوضع، فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم، فيعزل سهماً منها، ويقسم أربعة أسهم بين الناس، يعني لمن شهد الواقعة، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة، فهو الذي سمي الله لا تجعلوا لله نصيباً، فإن الله الدنيا والآخرة ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة سهم: سهم للنبي ﷺ، وسهم لذي القربى وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ يجعل سهم الله في السلاح والكرام وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج إليه الكعبة، ويجعل سهم الرسول في الكرام والسلاح ونفقة أهله، وسهم ذي القربى لقربائه، يضعه رسول الله ﷺ فيهم مع سهمهم مع الناس، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله ﷺ فيمن شاء حيث شاء، ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله ﷺ سهم مع سهام الناس. وأخرج ابن أبي حاتم عن حسين المعلم قال: سألت عبد الله بن بريدة عن قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقال: الذي لله لنبيه، والذي للرسول لأزواجه. وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، أن نجدة كتب إليه يسأله عن نوي القربى الذين نكر الله، فكتب إليه إنا كنا نرى أناهم فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا قريش كلها نوي قربى، وزيادة قوله وقالوا قريش كلها تفرد بها أبو معشر، وفيه ضعف وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، من وجه آخر عن ابن عباس: أن نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عن سهم ذي القربى، ويقول لمن تراه؟ فقال ابن عباس: هو لقربى رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم وأبين أن نقبله، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم وأن يقضي عن غارهم، وأن يعطي فقيرهم، وأبى أن يزيدهم على ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأن لكم في خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم». رواه ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن مهدي المصيصي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عنه مرفوعاً. قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم. وقال يحيى بن معين: يأتي بمنالكير. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر، عن جبير بن مطعم: أن النبي ﷺ قسم سهم نوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، قال: قمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا يا رسول الله هؤلاء

إذا حاربتم جماعة من المشركين ﴿فَانْبِئُوا﴾ لهم ولا تجبنوا عنهم، وهذا لا ينافي الرخصة المتقدمة في قوله: ﴿إِلَّا مُحَرَّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُحْتَزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ [الأنفال: 16] فإن الأمر بالثبات هو في حال السعة، والرخصة هي في حال الضرورة. وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف والتحيز ﴿وَانْكُرُوا لِلَّهِ﴾ أي: انكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد؛ وقيل المعنى: اثبتوا قلوبكم وانكروا بالسننكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان؛ قيل وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طلوت: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّثْ أَقْدَامَنَا وَانصِرْنَا عَلَى قَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250]. وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال، حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب، وتزيغ عندها البصائر، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه، ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي، فإن تلك يتسبب عنه الفشل، وهو الجبن في الحرب. والفاء جواب النهي، والفعل منصوب بإضمار أن، ويجوز أن يكون الفعل معطوفاً على تنازعوا مجزوماً بجازمه. قوله: ﴿وَيُحْكِمُ﴾ قرئ بنصب الفعل، وجرمه عطفاً على تفشلوا على الوجهين، والريح: القوة والنصر، كما يقال الريح لفلان إذا كان غالباً في الأمر؛ وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها، ومنه قول الشاعر:

إذ هبت ريحك فاعتنمها فعقبى كل خافقة سكون
وقيل المراد بالريح: ريح الصبا، لأن بها كان ينصر النبي ﷺ، ثم أمرهم بالصبر على شدائد الحرب، وأخبرهم بأنه مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه، وبما حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات، وإن كانت كثيرة، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس، وهم قريش، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت، فلم يرجعوا بل قالوا لا بد لهم من الوصول إلى بدر ليشرىوا الخمر، وتغني لهم القيان، وتسمع العرب بمخرجهم، فكان ذلك منهم بطراً وأشراً وطلباً للثناء من الناس، وللمتدح إليهم، والفخر عندهم، وهو الرياء؛ وقيل والبطر في اللغة: التقوي بنعم الله على معاصيه، وهو مصدر في موضع الحال: أي خرجوا بطرين مرائين؛ وقيل هو مفعول له وكذا رياء: أي خرجوا للبطر والرياء. وقوله: ﴿وَيُصْنُونَ﴾ معطوف على بطراً، والمعنى كما تقدم: أي خرجوا بطرين مرائين صائدين عن سبيل الله، أو للصد عن سبيل الله، والصد: إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية. ويجوز أن يكون يصنون معطوفاً على يخرجون، والمعنى: يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد ﴿وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَظِيمٌ﴾ لا تخفى عليه

إراءتكم إياهم حال كونهم قليلاً، حتى قال القائل من المسلمين لآخر: أتراهم سبعين؟ قال: هم نحو المائة، وقلل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم: إنما هم أكلة جزور، وكان هذا قبل القتال، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين في أعين المشركين، كما قال في آل عمران: ﴿يُرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ فِي الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13]، ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا راوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين، ثم يرونهم كثيراً فيفشلون، وتكون الدائرة عليهم، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه، واللام في ﴿يُلْقِضِي اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريباً، وإنما كرره لاختلاف المعلل به ﴿وَاللَّهُ يَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ كلها يفعل فيها ما يريد ويقضي في شأنها ما يشاء.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِذَا يَرِيكُهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتاً لهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكُمُ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ﴾ يقول: لجبنتم ﴿وَلِتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال: لاختلفتم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَكِنْ اللهُ سَلَّمَ﴾ أي: أتم، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عنه ﴿وَلَكِنْ اللهُ سَلَّمَ﴾ يقول: سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿وَإِذَا يَرِيكُمُوهُمْ﴾ الآية قال: لقد قلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجالاً منهم فسالناهم قال: كنا ألفاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في الآية قال: حضض بعضهم على بعض. قال ابن كثير: إسناده صحيح. وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿يُلْقِضِي اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليلف بينهم الحرب للنعمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا فِئَةً نَّفَسَتْهَا وَتَذَهَبَ رِعَاذًا وَتَسُبُّوا اللَّهَ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَرَسُولُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَصْمُرُونَ حَظِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ زَيْنُ لَهْمُ الْقَيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتَيَاتُ كَفَرْنَ عَنْ عَقِبَتِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَنَا مَالَا تَرَوْنَنِي إِنِّي خَافْتُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٨﴾ إِذْ يَسْأَلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَنْ هَؤُلَاءِ وَيَهُدُّوهُم مِّنْ يَّوْكَالٍ عَلَى اللَّهِ فَأَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ اللقاء الحرب، والفتنة الجماعة: أي

رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾** يقول: لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **﴿وتذهب ريحكم﴾** قال: نصركم وقد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم﴾** الآية، يعني المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف، فانزل الله هذه الآية. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، عن مجاهد، في الآية قال: أبو جهل وأصحابه يوم بدر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بني وفخر، وقد قيل لهم يومئذ أرجعوا فقد انطلقت عبركم وقد ظفرتم فقالوا: لا والله حتى يتحنت أهل الحجاز بمسيرنا وعدنا، ونكر لنا أن نبي الله ﷺ قال يومئذ «اللهم إن قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك»، ونكر لنا أنه قال يومئذ «جاءت من مكة أفلاذها». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، قال: جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان: **﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾** وأقبل جبريل على إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى منبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه إنك جار لنا فقال: **﴿إني أرى ما لا ترون﴾**، وذلك حين رأى الملائكة **﴿إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾** قال: ولما بنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: وما هؤلاء غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: **﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾** وأخرج الطبراني، وأبو نعيم، عن رفاعه بن رافع الأنصاري، قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشيت به الحارث بن هشام، وهو يظن أنه سراقه بن مالك، فوكل في صدر الحارث، فإلقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه فقال: اللهم إني أسألك نظرتك إياي. وأخرج الواقدي وابن مريويه، عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿إني أرى ما لا ترون﴾** قال: نكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، وقال: **﴿إني أخاف الله﴾** وكذب عدو الله ما به

من أعمالهم خافية، فهو: مجازيهم عليها. قوله: **﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾** الظرف متعلق بمحذوف: أي وانكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم، والتزيين: التحسين، وقد روي أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة، وهي: **﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾** أي: مجير لكم من كل عدو أو من بني كنانة، ومعنى الجار هنا: الدافع عن صاحبه أنواع الضرر، كما يدفع الجار عن الجار، وكان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، وهو من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ وقيل المعنى: إنه ألقى في روعهم هذه المقالة، وخيل إليهم أنهم لا يغلِبون ولا يطاقون **﴿فلما تراءت الفئتان﴾** أي: فئة المسلمين والمشركين **﴿نكص على عقبيه﴾** أي: رجع القهقري، ومنه قول الشاعر:

ليس النكوص على الأعقاب مكرومة
إن المكارم إقدام على الأمل

وقول الآخر:

وما نافع المستأخرين نكوصهم
ولا ضرر أهل السابقات التقدّم

وقيل معنى نكص هاهنا: بطل كيده وذهب ما خيله **﴿وقال إني بريء منكم﴾** أي: تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إني أرى ما لا ترون﴾** يعني: الملائكة، ثم علل بعله أخرى فقال: **﴿إني أخاف الله﴾** قيل: خاف أن يصاب بمكره من الملائكة الذين حضروا الوقعة؛ وقيل إن دعوى الخوف كذب منه، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك، وجملته **﴿والله شديد العقاب﴾** يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس، ويحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً من جهة الله سبحانه. قوله: **﴿إذ يقول المنافقون﴾** الظرف معمول لفعل محذوف هو انكر، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزین أو بشديد العقاب؛ قيل: المنافقون هم الذين اظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر **﴿والذين في قلوبهم مرض﴾** هم الشاككون من غير نفاق، بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام، فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه المقالة، أعني: **﴿غُر هؤلاء﴾** أي: المسلمين **﴿بينهم﴾** حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش؛ وقيل: الذين في قلوبهم مرض هم المشركون، ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها، وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة، قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رآهم في قلة من العدد وضعف من العدد، فاجاب الله عليهم بقوله: **﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز﴾** لا يغلبه غالب، ولا يذل من توكل عليه **﴿حكيم﴾** له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿وانكروا الله﴾** قال: افترض الله نكره عند أشغل ما يكونون: عند الضراب بالسيوف. وأخرج الحاكم وصححه، عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا يردان: الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً»، وأخرج الحاكم وصححه، عن أبي موسى أن

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118] قوله: ﴿كُذِّبَ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ لما نكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين، والداب: العادة، والكاف في محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف: أي داب هؤلاء مثل داب آل فرعون ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، والمعنى: أنه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك، فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر، وجملة قوله: ﴿كُفِّرُوا بآيَاتِ اللَّهِ﴾ مفسرة لداب آل فرعون: أي دابهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم، والمراد بنوبهم: معاصيهم المترتبة على كفرهم، فيكون الباء في «بنوبهم» للعلامة: أي فأخذهم متلبسين بنوبهم غير تائبين عنها، وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ إِلَى الْعِقَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِهِمْ، وَهُوَ مَبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ مَا بَعْدَهُ، وَالْجُمْلَةُ جَارِيَةٌ مَجْرَى التَّعْلِيلِ لِمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ ذَلِكَ الْعِقَابَ بِسَبَبِ أَنْ عَادَ اللَّهُ فِي عِبَادِهِ عَدَمَ تَغْيِيرِ نَعْمِهِ الَّتِي يَنْعَمُ بِهَا عَلَيْهِمْ «حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بِنَفْسِهِمْ» مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ بِكَفَرَانِ نَعْمِ اللَّهِ وَغَمَطِ إِحْسَانِهِ وَاهْمَالِ أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَذَلِكَ كَمَا كَانَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَمَنْ قَرِيشٍ وَمَنْ يَمَانِلَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا وَمَنْ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، فَقَابَلُوا هَذِهِ النِّعَمَ بِالْكَفْرِ فَلِاسْتِحْقَاقِ تَغْيِيرِ النِّعَمِ، كَمَا غَيَّرُوا وَمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ سُلُوكُهُ، وَالْعَمَلُ بِهِ مِنْ شُكْرِهَا وَقَبُولِهَا، وَجُمْلَةُ «وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» معطوفة على «بِإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً» داخلة معها في التعليل: أي ذلك بسبب أن الله لم يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً، وبسبب أن الله سميع عليم يسمع ما يقولونه ويعلم ما يفعلونه. وَقَرِئَ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ، ثُمَّ كَرَّرَ مَا تَقَدَّمَ، فَقَالَ «كُذِّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» لِقَصْدِ التَّكْدِيرِ مَعَ زِيَادَةِ أَنَّهُ كَالْبَيَانِ لِلْأَخْذِ بِالذَّنْبِ بِأَنَّهُ كَانَ بِالْإِغْرَاقِ؛ وَقِيلَ: إِنْ الْأَوَّلُ بِاعْتِبَارِ مَا فَعَلَهُ آلُ فِرْعَوْنَ وَمَنْ شَبَّهَ بِهِمْ، وَالثَّانِي: بِاعْتِبَارِ مَا فَعَلَ بِهِمْ؛ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِ كُفْرُهُمْ بِاللَّهِ، وَبِالثَّانِي تَكْذِيبُهُمُ الْآيَاتِ؛ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخْلُو عَنْ تَعَسُّفٍ، وَالْكَلَامُ فِي «أَهْلِكَانَاهُمْ بِنُوبِهِمْ» كَالْكَلَامِ الْمُتَقَدِّمِ فِي فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِنُوبِهِمْ «وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ» معطوف على أهلكناهم، عطف الخاص على العام، لفظاعته وكونه من أشد أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله، وبالظلم لغيرهم، كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: الذين قتلهم الله ببدر من المشركين. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، قال: قال

مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن معمر قال: نكروا أنهم أقبلوا على سراقاة بن مالك بعد ذلك، فأنكر أن يكون قال شيئاً من ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: وهم يومئذ في المسلمين. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الكلبي في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هم قوم كانوا أقربوا بالإسلام، وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا: «غَرَّ هَؤُلَاءُ بَيْنَهُمْ». وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الشعبي نحوه.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ رُءُوسَهُمْ وَأَنْزَعُهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٤﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ فَالْجَبِيدِ ﴿٥٥﴾ كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعَهُمْ قُوَّةٌ وَمَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا غَمَطٌ سَجِيعٌ عَلَيْهِ ﴿٥٧﴾ كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٨﴾

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع. والمعنى: ولو رايت، لأن لو تقلب المضارع ماضياً، و «إِذْ» ظرف لتري، والمفعول محذوف: أي ولو ترى الكافرين وقت توفي الملائكة لهم؛ قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر؛ وقيل: هي فيمن قتل ببدر وجواب لو محذوف تقديره لرايت أمراً عظيماً، وجملة «يَضْرِبُونَ رُءُوسَهُمْ» في محل نصب على الحال، والمراد بأبدايرهم أساتهم، كنى عنها بالأبصار، وقيل ظهورهم؛ قيل هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيدته نكر التوفي، وقيل: هو يوم القيامة حين يسرون بهم إلى النار. قوله: ﴿وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ قاله: الفراء، المعنى: ويقولون نوقوا عذاب الحريق، والجملة معطوفة على يضربون؛ وقيل: إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم، والنوق قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختيار، وأصله من النوق بالضم والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ الضَّرْبِ وَالْعَذَابِ وَالْبَاءِ فِي «بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ» سببية: أي ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي، واقتدرفت من الذنوب. وجملة «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ» في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي والأمر أنه لا يظلمهم، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ وهي: «بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ» أي ذلك العذاب بسبب المعاصي، وبسبب: «أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ» لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين

تدعو قعياً وقد غص الحديد بها غص الثفاف على ضم الأنابيب يقال ثقفته: وجنته، وفلان ثقف: سريع الوجود لما يحاوله، والتشريد: التفريق مع الاضطراب، وقال أبو عبيدة **﴿فشرذ بهم﴾** سمع بهم، وقال الزجاج: افعل بهم فعلاً من القتل تفرق به من خلفهم، يقال شرذت بني فلان: قلعته من مواضعهم وطريقتهم عنها حتى فارقوها، قال الشاعر:

أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشرذمني حكيم
ومنه شرذ البعير: إذا فارق صاحبه، وروي عن ابن

مسعود أنه قرأ **﴿فشرذ بهم﴾** بالذال المعجمة، قال قطرب:

التشريد بالذال المعجمة هو التكيل، وبالمهملة هو التفريق.

وقال المهدي: الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلاً من الدال المهملة لتقاربهما، قال: ولا يعرف فشرذ في اللغة،

وقرئ **﴿من خلفهم﴾** بكسر الميم والفاء، قوله: **﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾** أي: غشاً ونقضاً للعهد من القوم

المعاهدين **﴿فأنذ إليهم﴾** أي: فاطرح إليهم العهد الذي بينك وبينهم **﴿على سواء﴾** على طريق مستوية، والمعنى: أنه

يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض، ولا يناجزهم الحرب بغتة، وقيل معنى: **﴿على سواء﴾** على وجه يستوي

في العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم، أو تستوي اثنتان وهم فيه، قال الكسائي: السواء العدل، وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه

قوله: **﴿في سواء الجحيم﴾** [الصفات: 55]، ومنه قول حسان:

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد
ومن الأول قول الشاعر:

فأضرب وجوه الغر الأعداء حتى يجيبوك إلى سواء
وقيل: معنى **﴿فأنذ إليهم على سواء﴾** على جهر لا

على سر، والظاهر أن هذه الآية عامة في كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه، قال ابن عطية: والذي يظهر من اللفظ

القرآن أن أمر بني قريظة انقضى عند قوله: **﴿فشرذ بهم من خلفهم﴾** ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية يأمره بما

يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة، وجملة **﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾** تعليل لما قبلها، يحتمل أن تكون

تحذيراً لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم

الخيانة، قوله: **﴿ولا تحسبن﴾** قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالمشناة من فوق، فعلى

القراءة الأولى يكون الذين كفروا فاعل الحسبان، ويكون مفعوله الأول محذوفاً، أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم، ومفعوله الثاني سبقوا ومعناه: فاتوا وأفلتوا من أن يظفر

بهم، وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ، ومفعوله الأول الذين كفروا، والثاني سبقوا، وقرئ **﴿إنهم سبقوا﴾** وقرئ «يحسبن» بكسر الياء، وجملة **﴿إنهم لا يعجزون﴾** تعليل لما قبلها، أي إنهم لا يفوتون ولا يجنون

طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وقرأ ابن عامر أنهم بفتح الهمزة، والباقر بكسرهما، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة

رجل يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك قال: ذلك ضرب الملائكة، وهذا مرسـل. وأخرج سعيد بن

منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وأنذارهم﴾** قال: وأستأمرهم، ولكن الله

كريم يكنى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته على قوم حتى**

يغيروا ما بأنفسهم﴾ قال: نعمة الله: محمد ﷺ أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُتُونَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَرْةٍ وَمَنْ لَا يَنْفُتْ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَنَفَّسْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قُوَّةِ يَسَافَةِ فَأَنذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَغْلَبْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ لَّئَلَّ يَرْجِعُونَ بِرِءِ عَذَابِ اللَّهِ وَعَذَابُكُمْ وَلَمْ يَرَوْا دُونَهُمْ لَا يَسْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبُذُّ

إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُلْكَمُونَ ﴿٦٠﴾

قوله: **﴿إن شر الدواب﴾** أي: شر ما يدب على وجه الأرض **﴿عند الله﴾** أي: في حكمه **﴿الذين كفروا﴾** أي:

المصرّون على الكفر المتمسكون في الضلال، ولهذا قال: **﴿فهم لا يؤمنون﴾** أي: إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبداً، ولا

يرجعون عن الفجائية أصلاً، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية، وبخولهم في

جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم، قوله: **﴿الذين عاهدت منهم﴾** بدل من الذين كفروا

أو عطف بيان أو في محل نصب على الذم، والمعنى: أن هؤلاء الكافرين الذين هم شر الدواب عند الله هم هؤلاء

الذين عاهدت منهم: أي أخذت منهم عهدهم **﴿ثم﴾** هم **﴿ينقضون عهدهم﴾** الذي عاهدتم **﴿في كل مرة﴾** من

مرات المعاهدة **﴿و﴾** الحال **﴿أنهم لا يتقون﴾** النقض، ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه؛ وقيل إن **﴿من﴾** في

قوله: **﴿منهم﴾** للتبعيض، ومفعول عاهدت محذوف: أي الذين عاهدتهم، وهم بعض أولئك للكفرة: يعني الأشراف

منهم، وعطف المستقبل وهو ثم ينقضون على الماضي، وهو عاهدت للدلالة على استمرار النقض منهم، هؤلاء هم

قريظة، عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتي، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة

عليهم، فقال: **﴿فإما تنفثنهم في الحرب فشرذ بهم من خلفهم﴾** أي: فإما تصادفهم في ثقاف، وتلقاهم في حالة

تقدر عليهم فيها، وتتمكن من غلبهم **﴿فشرذ بهم من خلفهم﴾** أي: ففرق بقتلهم والتكيل بهم من خلفهم من

المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك، ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء، والثقاف في أصل

اللغة: ما يشد به القناة أو نحوها ومنه قول النابغة:

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله: أي من ثوابها، بل يصير ذلك إليكم وأفياءً وأقرأ كاملاً ﴿وَأَنَّ تَكْ حَسَنَةً يَضَاعَفُهَا وَيُؤْتَى مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40] ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: 195].

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ قال: قريظة يوم الخندق مالمثلوا على رسول الله ﷺ أعداءه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَنَشُدُّهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قال: نكل بهم من بعدهم. وأخرج ابن جرير، عنه، في الآية قال: نكل بهم من رءاهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في الآية قال: انذر بهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: عظ بهم من سواهم من الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: أخفهم بهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْكَرُونَ﴾ يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك. وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم، فأخرج فلان الله قد أذن لك في قريظة، وأنزل فيهم: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَعْجِزُونَ﴾ قال: لا يفوتونا. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: الرمي والسيوف والسلاح. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير، في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: أمرهم بإعداد الخيل. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن عكرمة في الآية قال: القوة ذكور الخيل، والرباط الإنانث. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب في الآية قال: القوة الفرس إلى السهم فما دونه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: القوة الحصون. و﴿مَنْ رِبَاطُ الْخَيْلِ﴾ قال: الإنانث. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ قال: تَخْزُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ. وقد ورد في استحباب الرمي، وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة، وكذلك ورد في استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها، وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها. وقد أقر ذلك جماعة من العلماء بمصنفات.

﴿وَأَنَّ تَكْ حَسَنَةً يَضَاعَفُهَا وَيُؤْتَى مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

تعليلية؛ وقيل المراد بهذه الآية: من أقلت من وقعة بدر من المشركين. والمعنى: أنهم وإن أقلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون، بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة. وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم، أن قراءة من قرأ يحسب بالتحية لحن، لا تحل القراءة بها لأنه لم يأت ليحسب بمفعول، وهو يحتاج إلى مفعولين. قال النحاس: وهذا تحامل شديد، ومعنى هذه القراءة: ولا يحسب من خلفهم الذين كفروا سبقوا، فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين. وقال المهدوي: يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلاً، والمفعول الأول محذوف، والمعنى ولا يحسب الذين كفروا أنفسهم سبقوا. قال مكي: ويجوز أن يضم مع سبقوا «أن» فتسد مسد المفعولين، والتقدير: ولا يحسب الذين كفروا أن سبقوا، فهو مثل: «أحسب الناس أن يتركوا» [العنكبوت: 2] في سد أن مسد المفعولين، ثم أمر سبحانه بإعداد القوة للأعداء، والقوة كل ما يتقوى به في الحرب، ومن ذلك السلاح والقتل. وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ إِلَّا إِنْ الْقُوَّةَ الرَّمِي، قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ». وقيل: هي الحصون، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين. قوله: ﴿وَمَنْ رِبَاطُ الْخَيْلِ﴾ قرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حية «ومن ربط الخيل» بضم الراء والياء ككتب: جمع كتاب. قال أبو حاتم: الرباط من الخيل الخمس فما فوقها، وهي الخيل التي ترتبط بإزاء العدو. ومنه قول الشاعر:

أمر الإل بربطها لعدوه في الحرب إن الله خير موفق
قال في الكشف: والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرباطة. ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال. انتهى. ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام، وجملة «تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» في محل نصب على الحال والترهيب: التخويف، والضمير في به عائذ إلى «ما» في «ما اسْتَطَعْتُمْ» أو إلى المصدر المفهوم من «وَأَعِدُّوا» وهو الإعداد. والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من أهل مكة، وغيرهم من مشركي العرب. قوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم. ومعنى من دونهم: من غيرهم؛ قيل هم اليهود، وقيل فارس والروم، وقيل الجن، ورجحه ابن جرير. وقيل المراد بالآخرين من غيرهم: كل من لا تعرف عداوته قاله السهلي. وقيل: هم بنو قريظة خاصة، وقيل غير ذلك. والأولى: الوقف في تعيينهم لقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾. قوله: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في الجهاد وإن كان يسيراً حقيراً «يُؤَفِّقُ إِلَيْكُمْ» جزاؤه في الآخرة. فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قررناه سابقاً

وَأَن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوا فَرَجَ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ بِصُورِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ بَرَأَتْ قُلُوبُهُمْ لَوِ انْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفَلَتْ بَرَأَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَعَجِبَ اللَّهُ أَفَلْ بَيْنَهُمْ إِنَّمَا عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾

الجنوح: الميل، يقال جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه؛ ومنه قيل للأضالع جوانح لأنها مالت إلى الحنوة، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقها في السير، ومنه قول ذي الرمة: إذا مات فوق الرحل أحبيت روحه بنكرات والعيس المراسيل جنح ومثله قول عنتره:

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان لؤل غالب يعني الطير، والسلام: الصلح. قرأ الأعمش وأبو بكر، وابن محيصن، والمفضل بكسر السين، وقرأ الباقون بفتحها. وقرأ العقيلي ﴿فلجنح﴾ بضم النون، وقرأ الباقون بفتحها. والأولى: لغة قيس، والثانية: لغة تميم. قال ابن جني: ولغة قيس هي القياس، والسلام تؤثنت كما تؤثنت الحرب، أو هي مؤثلة بالخصلة، أو الفعلة.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة؟ فقول هي منسوخة بقوله: ﴿فماقتلوا المشركين﴾ [التوبة: 5] وقيل: ليست بمنسوخة، لأن المراد بها قبول الجزية، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصة بأهل الكتاب؛ وقيل: إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه، وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾ [محمد: 35] وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزة وقوة، لا إذا لم يكونوا كذلك، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهانة قريش، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك، وكلام أهل العلم في هذه المسئلة معروف مقرر في موطنه ﴿وتوكل على الله﴾ في جنوحك للسلم، ولا تخف من مكرهم، ف﴿إنه﴾ سبحانه هو السميع لما يقولون ﴿العليم﴾ بما يفعلون ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ بالصلح، وهم مضمرون الغدر والخدع ﴿فإن حسبك الله﴾ أي: كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر، وجملة ﴿هو الذي ليكن بنصره وبالمؤمنين﴾ تعليلية: أي لا تخف من خدعهم ومكرهم، فإن الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى، وهو يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث، والمراد بالمؤمنين: المهاجرين والأنصار، ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال: ﴿وإلف بين قلوبهم﴾ وظاهره العموم وأن اتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله. وقال جمهور المفسرين: المراد الأوس والخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة، فآلف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ، وقيل: أراد التآليف بين المهاجرين والأنصار، والحمل على العموم أولى، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضاً ولا يحترم ماله ولا دمه، حتى جاء الإسلام فصاروا يداً واحدة، وزهد

ما كان بينهم من العصبية، وجملة ﴿ولو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ مقررلة لمضمون ما قبلها. والمعنى أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتم له ما طلبه من التآليف، لأن أمرهم في ذلك قد تفاقم جداً ﴿ولكن الله ألفت بينهم﴾ بعظيم قدرته ويديع صنعه ﴿إنه عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يستعصي عليه أمر من الأمور ﴿حكيم﴾ في تدبيره ونفوذ نهيه وأمره.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وإن جنحوا للسلم﴾ قال: قريظة. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي في الآية قال: نزلت في بني قريظة نسختها: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾ [محمد: 35] إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: السلم الطاعة. وأخرج أبو الشيخ عنه في الآية قال: إن رضوا فأرض. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في الآية قال: إن أراوا الصلح، فأرده. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، في الآية قال: نسختها هذه الآية ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ [التوبة: 29] إلى قوله: ﴿وهم صاغرون﴾ [التوبة: 29]. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: ثم نسخ ذلك: ﴿فماقتلوا المشركين حيث وجبتهم﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وإن يريدون أن يخدعوك﴾ قال: قريظة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وبالمؤمنين﴾ قال: بالأنصار. وأخرج ابن مريويه، عن النعمان بن بشير نحوه. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس، نحوه أيضاً. وأخرج ابن عساكر، عن أبي هريرة، قال: مكتوب على العرش: لا إله إلا الله، أنا الله وحدي لا شريك لي، ومحمد عبدي ورسولي أيدته بعلمي، وذلك قوله: ﴿هو الذي ليكن بنصره وبالمؤمنين﴾. وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود، أن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله ﴿ولو انفقت ما في الأرض جميعاً﴾ الآية. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان، واللفظ له عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع؛ ومنة المنعم تكفر، ولم نر مثل تقارب القلوب، يقول الله ﴿ولو انفقت ما في الأرض جميعاً﴾ الآية. وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، والبيهقي عنه نحوه. وليس في هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول، ولكن الشأن في قول ابن مسعود رضي الله عنه: إن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله مع أن الواقع قبلها ﴿هو الذي ليكن بنصره وبالمؤمنين﴾ والواقع بعدها ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن

هذا الخبر الواقع في الآية هو في معنى الامر كقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يَرْضَعْنَ﴾ [البقرة: 233] ﴿وَالْمُطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: 228] فالْمُؤْمِنُونَ كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم، ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال: ﴿إِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ إلى آخر الآية، فلو جوب على الواحد أن يثبت لاثنتين من الكفار، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم «ضعفاً» بفتح الضاد، وقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَغْلِبُوا﴾ أي: إن هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم، وأنهم يقاتلون على غير بصيرة، ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب، وقد قيل في نكتة التنصيص على غلب العشرين للمائتين، والمائة للآلاف أن سراياه التي كان يبعثها ﷺ كان لا ينقص عددها عن العشرين ولا يجاوز المائة، وقيل في التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين، والآلاف للآلوفين، على أنه إشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الآلاف، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله، وتيسيره لا بقوتهم وجلاوتهم، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين، وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر، لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه. وقد اختلف أهل العلم، هل هذا التخفيف نسخ أم لا؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة.

وقد أخرج البزار عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: لما أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامراً، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سعيد بن جبيرة، قال: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن الزهري في الآية قال: نزلت في الأنصار، وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حَسْبُكَ اللَّهُ وحسب من اتبعك. وأخرج البخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ فكتب عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة، وأن لا يفرّ عَشْرُونَ من مِائَتَيْنِ، ثم نزلت ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الآية، فكتب أن لا يفرّ مائة من مِائَتَيْنِ قال سفيان وقال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا،

اتبعك من المؤمنين﴾ [الأنفال: 64] ومع كون الضمير في قوله: ﴿مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ قُلُوبِهِمْ﴾ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولا شبهة، وكذلك الضمير في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَاكَ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فإن هذا يدل على أن التاليف المذكور وهو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله ﷺ.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَتَّخِذُ النَّبِيُّ حَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَبِمَا أَنْتَ بِكُمْ حَمَلاً إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس هذا تكريراً لما قبله فإن الأول مفيد بإرادة الخدع ﴿وَلَنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوا فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 62] فبهذه كفاية خاصة، وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ كفاية عامة غير مقيدة: أي حَسْبُكَ اللَّهُ في كل حال، والواو في قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف، والمعنى: حَسْبُكَ اللَّهُ وحسبك المؤمنون: أي كافيك الله وكافيك المؤمنون، ويحتمل أن تكون بمعنى مع كما تقول: حَسْبُكَ وَزَيْدٌ درهم، والمعنى: كافيك وكافي المؤمنين الله، لأن عطف الظاهر على المضمير في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر في علم النحو، وأجازه الكوفيون. قال الفراء: ليس بكثير في كلامهم أن تقول حَسْبُكَ وَأَخِيكَ، بل المستعمل أن يقال: حَسْبُكَ وحسب أخيك بإعادة الجار، فلو كان قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ مجروراً لقليل: حَسْبُكَ اللَّهُ وحسب من اتبعك، واختار النصب على المفعول معه النحاس، وقيل يجوز أن يكون المعنى: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر. قوله: ﴿حَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وحضهم، والتحريض في اللغة: المبالغة في الحث وهو كالتحضيض، مأخوذ من الحرّض، وهو أن ينهك المرض ويتبالم فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه إلى الهلاك لو تخلف عن المأمور به، ثم بشرهم تثبيتاً لقلوبهم وتسكيناً لخواطرهم بأن الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار، فقال: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ثم زاد هذا أيضاً مفيداً لعدم اختلاص هذه البشارة بهذا العدد، بل هي جارية في كل عدد فقال: ﴿وَلَوْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ وفي هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلاً كانوا أو كثيراً لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال، وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك، فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين، بل مثل نصفهم بل مثلهم. وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر؛ وقيل: إن

فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». القول الثالث هو: أنه لا يعذبهم ورسول الله ﷺ فيهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]. القول الرابع: أنه لا يعذب أحداً بنبذ فعله جاهلاً لكونه ذنباً. القول الخامس: أنه ما قضاه الله من محو الصفات باجتناب الكبائر. القول السادس: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك. وذهب ابن جرير الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ، وأنه يعمها ﴿لمسكم﴾ أي: لحل بكم ﴿فيما أخذتم﴾ أي: لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ والفاء في ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ لترتيب ما بعدما عن سبب محذوف: أي قد أبحث لكم الغنائم، فكلوا مما غنمتم ويجوز أن تكون عاطفة على مقدر محذوف: أي اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره؛ وقيل إن ﴿ما﴾ عبارة عن الفداء: أي كلوا من الفداء الذي غنمتم فإنه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم و ﴿حلالاً طيباً﴾ منتصبان على الحال، أو صفة المصدر المحذوف: أي أكلاً حلالاً طيباً ﴿ولتقوا الله﴾ فيما يستقبل، فلا تقدموا على شيء لم يأن الله لكم به ﴿إن الله غفور﴾ لما فرط منكم ﴿رحيم﴾ بكم، فلذلك رخص لكم في أخذ الفداء في مستقبل الزمان.

وقد أخرج أحمد، عن أنس قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال: إن الله قد أمكنكم منهم. فقال عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ. ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم؛ وإنما هم إخوانكم بالأمس، فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ. ثم عاد فقال مثل ذلك فقال أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، فأنزل الله ﴿ولا كتاب من الله سبق﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقتلوك قتلهم فاضرب أعناقهم؛ وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وائياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك، فدخل النبي ﷺ عليهم ولم يرد عليهم شيئاً، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال قوم: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿من تبغني فإنه مني ومن عصاني فإنك

إن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم، وأخرج البخاري والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ الآية قال: فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْزَلَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ وَلَا كَذَّبَ مِنَ اللَّهِ صَبْرٌ لَكُمْ يَمَّا أَهَضْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾ تَكُونُوا مِمَّا عَنِينُمْ حَتَّى لَا يَكُنْ لَكُمْ وَالْفُقَرَاءُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد. ومعنى ﴿ما كان لنبي﴾ ما صح له وما استقام، قرأ أبو عمرو، وسهيل ويعقوب، ويزيد، والمفضل، أن تكون بالفوقية، وقرأ الباقر بالتحنية، وقرأ أيضاً يزيد والمفضل «أسارى» وقرأ الباقر «أسرى» والأسرى جمع أسير، مثل قتلى وقتيل، وجرحى وجريح، ويقال في جمع أسير أيضاً أسارى بضم الهمزة وبفتحة، وهو مأخوذ من الأسر، وهو القيد، لأنهم كانوا يشنون به الأسير، فسمي كل أخيد وإن لم يشد بالقيد أسيراً، قال الأعشى:

وقبدي الشعر في بيته كما قبلت الأسرات الحمرا
وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً. والإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه؛ تقول العرب: اثخن فلان في هذا الأمر: أي بالغ فيه. فالمعنى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبلغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك؛ وقيل معنى الإثخان: التمكن، وقيل: هو القوة. أخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم، وفدائهم؛ ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ [محمد: 4] كما يأتي في سورة القتال إن شاء الله. قوله: ﴿تريدون عرض﴾ الحياة ﴿الدنيا﴾ أي: نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء؛ وسمي عرضاً لأنه سريع الزوال كما تزول الأعراض التي هي مقابل الجواهر ﴿والله يريد الآخرة﴾ أي: يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب في الإثخان بالقتل. وقرئ «يريد الآخرة» بالجر على تقدير مضاف وهو المذكور قبله: أي والله يريد عرض الآخرة ﴿والله عزيز﴾ لا يغالب ﴿حكيم﴾ في كل أفعاله. قوله: ﴿ولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق ما هو؟ على أقوال: الأول ما سبق في علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم. والثاني: أنه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، كما في الحديث الصحيح «إن الله أطلع على أهل بدر

عباس، قال: سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية. وأخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: سبق أن لا يعذب أحداً حتى يبين له ويتقدم إليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لِمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ يَتُوبُ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوَفِّقُكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَعَدَّ مِنْكُمْ وَتَنْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نُجْوَىٰ وَإِنْ يُرِيدُوا نَجَاتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨٨﴾

اختلاف القراء في أسرى^(١) والأسارى هو هنا كما سبق في الآية التي قبل هذه، خاطب الله النبي ﷺ بهذا: أي قل لهؤلاء الأسرى الذين هم في أيديكم أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء **﴿إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾** من حسن إيمان، وصلاح نية، وخلوص طوية **﴿يُوَفِّقُكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَعَدَّ مِنْكُمْ﴾** من الفداء: أي يعوضكم في هذه الدنيا رزقاً خيراً منه، وأنفع لكم، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة **﴿وَيُغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾** والله غفور رحيم، شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم. ولما ذكر ما ذكره من اللغو لمن علم في قلبه خيراً نكر من هو على ضد ذلك منهم فقال: **﴿وَأَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾** بما قالوه لك بالسننهم من أنهم قد آمنوا بك وصنقوك، ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة، بل هو مملوكة ومخادعة، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تغفر بهم، فكفروا به وقتلوا رسوله **﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾** بأن نصرته عليهم في يوم بدر، فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾** بما في ضمائرهم **﴿حَكِيمٌ﴾** في أفعاله بهم.

وقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص، وبعثت فيه بقلادة، فلما رآها رسول الله ﷺ رقى رقعة شديدة وقال: «إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها، وقال العباس: إنني كنت مسلماً يا رسول الله، قال: الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فإله يجزيك، فأفاد نفسك وابني أخوك نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب، وحليفك عتبة بن عمرو، قال: ما ذاك عندي يا رسول الله، قال: فإن المال الذي دفنت أنت وأُم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت فهذا المال لبنني؟ فقال: والله يا رسول الله إن هذا لشئ ما علمه غيري وغيرها، فأحسب لي ما أصبتم مني عشرون أوقية من مال كان معي، قال: لا أفعل، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، ونزلت: **﴿قُلْ لِمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ﴾** الآية، فأعطاني مكان العشرين الأوقية في الإسلام، عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله. وأخرج ابن سعد، والحاكم وصححه، عن أبي موسى أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى رسول الله

غفور رحيم **﴿إِبْرَاهِيمَ﴾** [36]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال: **﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ مِنْهُمْ فَتُؤْذِنَهُمْ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَيُنَافِكُكُمْ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [المائدة: 118]، ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: **﴿وَبِإِذْنِ اللَّهِ يَتْرُكُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾** [نوح: 26]، ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: **﴿وَرَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** [يونس: 88] أنتم عائلة فلا يفتلن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق، فقال عبد الله: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيته في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل الله **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾** الآية. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن علي قال: قال النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعتهم. فكان آخر السبعين ثابت بن قيس أسشهد باليامة». وأخرج عبد الرزاق في مصنفه، وابن أبي شيبة عن عبيدة نحوه. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عمر، قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسره، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أتم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه، فقال له عمر: فأتيتهم؟ قال نعم، فأتى عمر الأنصار فقال: أرسلوا للعباس، فقالوا: لا والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضا، قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضا فخذ، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله إن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيته رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فقال أبو بكر: عشيرتك فارسلمهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿حَتَّى يَفْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾** يقول حتى يظهروا على الأرض، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد، قال: الإثخان هو: القتل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن مجاهد، أيضاً في الآية قال: ثم نزلت الرخصة بعد، إن شئت فمَن، وإن شئت ففاد، وأخرج ابن المنذر عن قتادة **﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾** قال: أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء، ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة **﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾** قال: الخراج. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿لَوْلَا كِتَابُ اللَّهِ﴾** سبق، قال: سبق لهم المغفرة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، قال: ما سبق لأهل بدر من السعادة. وأخرج النسائي، وابن مردويه، وأبو الشيخ، عن ابن

(١) هكذا بالأصل ولعله في الأسارى فقط اهـ. مصحح القرآن.

كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة **﴿وإن استنصروكم﴾** أي: هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا، إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين **﴿فعليكم النصر﴾** أي: فواجب عليكم النصر **﴿إلا﴾** أن يستنصروكم **﴿على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾** فلا تنصروهم ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين أولئك القوم، حتى تنقضي مدته. قال الزجاج: ويجوز فعليكم النصر بالنصب على الإغراء. قوله: **﴿والذين كفروا﴾** مبتدأ خبره **﴿بعضهم أولياء بعض﴾** أي: بعضهم ينصر بعضاً ويتولاه في أموره، أو يرثه إذا مات، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم، قوله: **﴿إلا تفعلوه﴾** الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور، وترك موالاة الكافرين **﴿تكن فتنة في الأرض﴾** أي: تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك **﴿وفساد كبير﴾** أي: مفسدة كبيرة في الدين والنيا، ثم بين سبحانه حكماً آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الانصار، فقال: **﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾** أي: الكاملون في الإيمان، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء، والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة، ثم أخبر سبحانه أن **﴿لهم﴾** منه **﴿مغفرة﴾** لذنوبهم في الآخرة **﴿و﴾** لهم في الدنيا **﴿رزق كريم﴾** خالص عن الكسر طيب مستلذ، ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والانصار فهو من جملتهم: أي من جملة المهاجرين الأولين والانصار في استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة، وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث، والمراد بهم القربات فيتناول كل قرابة؛ وقيل المراد بهم هنا: العصباء، قالوا: ومنه قول العرب: وصلتكم رحم فإنهم لا يريون قرابة الأم. قالوا: ومنه قول قتيلة: ظلت سيف بني أبيه تنوشه الله أرحام هناك تشفق ولا يخفك أنه ليس في هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصباء، وقد استدلل بهذه الآية من أثبت ميراث نوي الأرحام، وهم من ليس بعصبة ولا ذي سهم على حسب اصطلاح أهل علم الموارث، والخلاف في ذلك معروف مقرر في مواضع؛ وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله: **﴿بعضهم أولياء بعض﴾** وما بعده بالتوارث، وأما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القربات **﴿بعضهم أولى ببعض﴾** في كتاب الله **﴿أي﴾** في حكمه، أو في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، ويدخل في هذه الأولوية الميراث بخلاً أولياً لوجود سببه، أعني القرابة **﴿وإن الله بكل شيء عليم﴾** لا يخفى عليه شيء من الأشياء كأنها ما كان، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات.

﴿بما﴾ من البحرين ثمانين ألفاً، فما أتى رسول الله **﴿فجعل رسول الله يعطيهم، وما كان يومئذ عدد ولا وزن، فجاء العباس فقال: يا رسول الله إني أعطيت فداثي، وفداء عقيل يوم بدر، وأعطني من هذا المال، فقال: خذ، فحفا في خميصته ثم ذهب ينصرف فلم يستطع، فرفع رأسه وقال: يا رسول الله ارفع علي، فتبسم رسول الله **﴿وذهب وهو يقول: أما أحد للذين وعد الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى﴾** قل لمن في إبيكم من الأسارى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم﴾** فهذا خير مما أخذ مني ولا أدري ما يصنع في المغفرة. والروايات في هذا الباب كثيرة. وأخرج ابن سعد، وابن عسكرك، عن ابن عباس، في الآية قال: نزلت في الأسارى يوم بدر، منهم العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: **﴿وإن يريوكم خيانتكم﴾** إن كان قولهم كتباً **﴿فقد خانوا الله من قبل﴾** فقد كفروا وقتلوك **﴿فامكن﴾** ك الله **﴿منهم﴾**.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَفَائِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَمَلِئْكُمْ نَصْرًا وَلَا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم رِيشٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧١ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ٧٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّمْ يَفِرُوا رِزْقٍ كَرِيمٌ ٧٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَصْحَابُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧٤

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به، وسمى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم، لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلباً لما عند الله، وإجابة لداعيه **﴿والذين آووا ونصروا﴾** هم الانصار والإشارة بقوله: **﴿أولئك﴾** إشارة إلى الموصول الأول والآخر، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده، ويجوز أن يكون **﴿بعضهم﴾** بدلاً من اسم الإشارة، والخبر **﴿أولياء بعض﴾** أي: بعضهم أولياء بعض في النصرة والمعونة، وقيل المعنى: إن بعضهم أولياء بعض في الميراث. وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه: **﴿وآولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾**. قوله: **﴿والذين آمنوا﴾** مبتدأ، وخبره **﴿ما لكم من ولايتهم من شيء﴾**. قرأ يحيى بن وثاب والاعمش، وحزمة «من ولايتهم» بكسر الواو. وقرأ الباقون بفتحها: أي ما لكم من نصرتهم وإعانتهم، أو من ميراثهم، ولو كانوا من قريباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم **﴿حتى يهاجروا﴾** فيكون لهم ما

مسلمًا، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعُضْمِ أُولِيَاءِ بَعْضٍ﴾ الآية. وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله فينا خاصة معشر قريش ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان. فواخيناهم ووارثناهم فأخونا، فأخى أبو بكر خارجة بن زيد، وأخى عمر فلانًا، وأخى عثمان بن عفان رجلًا من بني زريق بن أسعد الزرقى، قال الزبير: وأخيت أنا كعب بن مالك، ووارثونا ووارثناهم، فلما كان يوم أحد قيل لي: قد قتل أخوك كعب بن مالك، فجئته فانتقلته فوجيت السلاح قد ثقلته فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار فرجعنا إلى موارثنا. وأخرج أبو داود الطيالسي، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

تفسير سورة التوبة

هي مائة وثلاثون آية، وقيل: مائة وسبع وعشرون آية، ولها أسماء: منها سورة التوبة، لأن فيها التوبة على المؤمنين، وتسمى الفاضحة لأنه ما زال ينزل فيها: ومنهم، ومنهم حتى كانت أن لا تدع أحدًا، وتسمى البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين؛ وتسمى المبعثرة، والبعةرة البحث؛ وتسمى أيضاً بأسماء أخر كالمعشقة؛ لكونها تنقش عن النفق: أي تبرئ منه؛ والمخرية، لكونها أخزت المنافقين والمثيرة، لكونها تثير أسرارهم؛ والحافرة، لكونها تحفر عنها؛ والمنكلة، لما فيها من التنكيل لهم؛ والمدممة، لأنها تدمم عليهم.

وهي مدنية. قال القرطبي باتفاق. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: نزلت براءة بعد فتح مكة. وأخرج ابن مردويه عنه قال: نزلت سورة التوبة بالمدينة. وأخرج ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن الضريس، وابن المنذر، والنحاس وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَقْتُونَكَ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكلاله [النساء: 176] وآخر سورة نزلت تامة: براءة.

وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من أولها على أقوال. الأول عن الميرز وغيره: أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد، فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسملة؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركون، بعث بها النبي ﷺ

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ الآية قال: إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل، منهم المؤمن المهاجر المبين لقومه، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا﴾ قال: آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، وشهروا السيوف على من كذب وجحد، فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا﴾ قال: كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية في الدين، وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر، فبِزَّاءِ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ كان حقاً على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذي لا ميثاق لهم، ثم أنزل الله بعد ذلك أن الحق كل ذي رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا﴾ فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيباً مفروضاً، لقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ الآية، وفي رواية لابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قال: يعني في الميراث جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما لكم من ميراثهم من شيء ﴿حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يعني: إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدو لهم، فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فنسخت الآية التي قبلها، وصارت الموارث لنزوي الأرحام. وأخرج أبو عبيد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في هذه الآيات قال: كان المهاجر لا يتولى الأعرابي ولا يرثه وهو مؤمن، ولا يرث الأعرابي المهاجر، فنسختها هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في كتاب الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه، أيضاً قال: قال رجل من المسلمين: لنورثن نزي القريبى منا من المشركين، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعُضْمِ أُولِيَاءِ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة، والطلاق من قريش، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أسماء، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر

الرحيم، لقول من قال هما سورة واحدة، فرضي الفريقان. قاله خارجه وأبو عصمة وغيرهما. وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر، لأنهما جميعاً في القتال، وتعدان جميعاً سابعة السبع الطوال.

بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسْجُرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعِلْمُوا أَكْثَرَ مَعِزِّي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبَسِّمُوا فَهِيَ كَيْفَ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزُّ مُعِزِّي اللَّهِ وَنَزَّيَّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَذَآبِ آيِهِ ﴿٣﴾

قوله: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ برئت من الشيء أبرأ براءة، وأنا منه بريء: إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه، وبراءة مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف: أي هذه براءة، ويجوز أن ترتفع على الابتداء، لأنها نكرة موصوفة، والخبر ﴿إلى الذين عاهدتكم﴾. وقرأ عيسى بن عمر ﴿براءة﴾ بالنصب على تقدير اسمعوا براءة، أو على تقدير التزموا براءة، لأن فيها معنى الإغراء، و «من» في قوله: ﴿من الله﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة: أي واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتكم. وقرأ روح وزيد بنصب رسوله، وقرأ الباقر بالرفع. والعهد: العقد الموثق باليمين. والخطاب في عاهدتكم للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بإن من الله ومن الرسول ﷺ، والمعنى: الإخبار للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض، فصار النبذ إليهم بعهدهم واجباً على المعاهدين من المسلمين، ومعنى براءة الله سبحانه، وقوع الإن من منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم، وفي ذلك من التفخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى. قوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ هذا أمر منه سبحانه بالسياسة بعد الإخبار بتلك البراءة، والسياسة: السير، يقال ساح فلان في الأرض يسبح سياحة وسيوحاً وسيحاناً، ومنه سباح الماء في الأرض وسبح الخيل، ومنه قول طرفة بن العبد:

لو خفت هذا منك ما نلتني حتى ترى خيلاً أمامي تسبح
ومعنى الآية أن الله سبحانه بعد أن أذن بالنبذ إلى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيث يريدون، والاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر، وليس المراد من الأمر بالسياسة تكليفهم بها. قال محمد بن إسحاق وغيره: إن المشركين صنفان: صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر، فأمهل تمام أربعة أشهر، والآخر كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر، ليرتاد لنفسه، وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانقضائه إلى عشر من ربيع الآخر، فاما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك خمسون يوماً: عشرون من ذي

علي بن أبي طالب فقرأها عليهم، ولم يبسم في ذلك على ما جرت به عادة العرب. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس قال: سألت علي بن أبي طالب لم لا تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان. وبراءة نزلت بالسيف. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وصححه، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر، بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؛ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور نوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب بينهما سطر، بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي رجاء قال: سألت الحسن عن الأنفال وبراءة أسورتان أو سورة؟ قال: سورتان. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن حنيفة قال: يسمون هذه السورة سورة التوبة، وهي سورة العذاب. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال: في هذه السورة هي الفاضحة ما زالت تنزل، ومنهم حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا نكر فيها. وأخرج أبو الشيخ عن عمر نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن زيد بن أسلم، أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر سورة التوبة، فقال ابن عمر: وإيتهن سورة التوبة، ثم قال: وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هي؟ ما كنا ندعوها إلا المقشقشة. وأخرج ابن مروي، عن ابن مسعود، قال: يسمونها سورة التوبة، وإنها لسورة عذاب. وأخرج ابن المنذر، عن ابن إسحاق، قال: كانت براءة تسمى في زمن النبي ﷺ وبعده الميعثرة، لما كشفت من سرائر الناس. وأخرج أبو الشيخ، عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: كانت براءة تسمى المنقرة، نقرت عما في قلوب المشركين، وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن أبي عطية الهمداني، قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور. ومن جملة الأقوال في حذف البسملة: أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريباً منها، وأنه لما سقط أولها سقطت البسملة، روي هذا عن مالك بن أنس، وابن عجلان، ومن جملة الأقوال في سقوط البسملة: أنهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم: براءة والأنفال سورة واحدة، وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة، لقول من قال هما سورتان، وتركت، بسم الله الرحمن

وقيل إنه مجرور على الجوار. قوله: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ﴾ أي: من الكفر، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، قيل: وفائدة هذا الالتفات زيادة التهديد، والضمير في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ مما أنتم فيه من الكفر ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة، وبقيتم على الكفر ﴿فَاعْلَمُوا أَنَكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: غير فائزين عليه، بل هو مترككم، فمجازيكم بأعمالكم. قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا تهكم بهم، وفيه من التهديد ما لا يخفى.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومليج، ومن كان له عهد قبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج، ثم قال: إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر وعلياً فطافا في الناس بذئ المجاز، وبأمكنتهم التي كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله، فأذنوا أصحاب العهد أن يأمّنوا أربعة أشهر، وهي الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات عشرون من آخر ذي الحجة إلى عشر تلو من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا. وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل، في زوائد المسند، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن علي قال: لما نزلت عشر آيات من براءة عن النبي ﷺ دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم بعاني فقال لي أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه، فأقرأه على أهل مكة، فلحقته فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر وقال: يا رسول الله نزل في شيء، قال لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت، أو رجل منك. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث أنس نحوه. وأخرج ابن مردويه، من حديث سعد بن أبي وقاص، نحوه أيضاً. وأخرج أحمد، والنسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة، فكنّا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فإن أجله وأمه إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر، فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤننين بعثهم يوم النحر يؤننون بمنى: أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أرفد النبي ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يؤنن ببراءة، فأنن علي في يوم النحر ببراءة: أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء

الحجة وشهر محرم. وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذي أمر الله أن يتّم له عهده بقوله: ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَنْتَهُمْ﴾ [التوبة: 4] ورجح هذا ابن جرير، وغيره. وسياقي في آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب، وفي ذلك ضرب من التهديد، كأنه قيل: افعلوا في هذه المدة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والأنوار، فإنكم لا تفوتون الله وهو مخزيكم: أي مثلكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب، وفي وضع الظاهر موضع المضمّر، إشارة إلى أن سبب هذا الإخزاء هو: الكفر، ويجوز أن يكون المراد: جنس الكافرين، فيدخل فيه المخاطبون دخولاً أولياً. قوله: ﴿وَإِذَا نَزَلَ بِرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ وخبره ما بعده على ما تقدّم في ارتفاع براءة، والجملة هذه معطوفة على جملة ﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقال الزجاج: إن قوله ﴿وَإِذَا نَزَلَ﴾ معطوف على قوله براءة. واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكن أذان مخبر عنه بالخبر الأول، وهو ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وليس ذلك بصحيح. بل الخبر عنه هو ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ والأذان بمعنى الإيذان، وهو الإعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. ومعنى قوله: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ التعميم في هذا: أي أنه إيذان من الله إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة، و﴿يَوْمَ الْحَجِّ﴾ ظرف لقوله: وإذان، ووصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه.

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية، فذهب جمع منهم: علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن أبي أوفى، والمغيرة بن شعبة، ومجاهد، أنه: يوم النحر. ورجحه ابن جرير. وذهب آخرون منهم: عمر، وابن عباس، وطاوس، أنه: يوم عرفة. والأول: أرجح، لأن النبي ﷺ أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر. قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ قرئ بفتح أن على تقدير بأن الله بريء من المشركين. فحذفت الياء تخفيفاً. وقرئ بكسرها، لأن في الإيذان معنى القول، وارتفاع رسول الله ﷺ على أنه معطوف على موضع اسم أن، أو على الضمير في بريء، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: ورسوله بريء منهم. وقرأ الحسن وغيره ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالنصب عطفاً على لفظ اسم أن. وقرئ ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالجرّ على أن الواو للقسم، روى ذلك عن الحسن، وهي قراءة ضعيفة جداً، إذ لا معنى للقسم برسول الله ﷺ هاهنا، مع ما ثبت من النهي عن الحلف بغير الله؛

الناس الحج الأصغر، فنبتذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحجّ عام حجة الوداع التي حجّ فيها رسول الله ﷺ مشرك، وأنزل الله في العام الذي نبتذ فيه أبو بكر إلى المشركين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس﴾ [التوبة: 28] الآية. وأخرج الطبراني، عن سمرة بن جندب، أن رسول الله ﷺ قال زمن الفتح: «إن هذا عام الحج الأكبر، قال: اجتمع حجّ المسلمين وحجّ المشركين في ثلاثة أيام متتابعات، واجتمع النصارى واليهود في ثلاثة أيام متتابعات؛ فاجتمع حجّ المسلمين والمشركين والنصارى واليهود في ستة أيام متتابعات، ولم يجتمع منذ خلق السموات والأرض كذلك قبل العام، ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة». وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال: مالكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حجّ فيه أبو بكر، استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس، واجتمع فيه المسلمون والمشركون، فلذلك سمي الحج الأكبر، ووافق عيد اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب، قال: الحجّ الأكبر: اليوم الثاني من يوم النحر، ألم تر أن الإمام يخطب فيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن المسور بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قال: «يوم عرفة هذا يوم الحجّ الأكبر». وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب، قال: الحج الأكبر يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، عن أبي الصهباء البكري قال: سألت علي بن أبي طالب عن يوم الحج الأكبر فقال: يوم عرفة. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: إن يوم عرفة يوم الحج الأكبر. وأخرج ابن جرير عن الزبير نحوه.

ولا يخفك أن الأحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هي ثابتة في الصحيحين، وغيرهم من طرق، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن الشعبي، أنه سئل: هذا الحج الأكبر، فما الحج الأصغر؟ قال: عمرة في رمضان. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن إسحاق، قال: سألت عبد الله بن شداد عن الحج الأكبر فقال: الحج الأكبر يوم النحر، والحج الأصغر: العمرة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن مجاهد، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن مسعود، قال: سئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون في المكروه فقال: ألم تسمع قوله: ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب اليم﴾.

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِقَابَتِهِمْ إِنَّهُنَّ أُفُوتٌ وَإِلَى اللَّهِ يَرْجِعُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا أَنْشَلْنَا السَّحَابَ فَقَانُوا قُتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْرُجُوهُمْ وَأَقْبِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْسَلٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَإِن أَمَدَّ مِنَ الشُّرِكِينَ اسْتَأْذَنَكَ فَاجِرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقَ الْيَقَةَ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

الكلمات، ثم اتبعه علياً وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجا، فقام علي في أيام التشريق فنادى: إن الله برئ من المشركين، ورسوله، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن؛ فكان علي ينادي، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادي بها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، والنحاس، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن زيد بن تبيع قال: سألت علياً بأي شيء بعثت مع أبي بكر في الحج؟ قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ولا يطوف بالبيت عريان. ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى مثته، ومن لم يكن له عهد، فأجله أربعة أشهر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ الآية قال: حدّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسبحون فيها حيث شاءوا، وحدّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم من يوم النحر؛ إلى انسلاخ المحرم خمسين ليلة. فإذا انسلاخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد، إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ [التوبة: 7] يعني: أهل مكة. وأخرج النحاس، عنه، نحو هذا، وقال: ولم يعاهد رسول الله ﷺ بعد هذا أحداً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس، عن الزهري ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ قال: نزلت في شؤال فهي الأربعة أشهر: شؤال، ونو القعدة، ونو الحجة، والمحرم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وإذا ن من الله ورسوله﴾ قال: هو إعلام من الله ورسوله. وأخرج الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحجّ الأكبر، فقال: يوم النحر. وأخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي، وأبو الشيخ، عنه، من قوله. وأخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه، عن عبد الله بن قرط، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر». وأخرج ابن مريويه، عن ابن أبي أوفى، عن النبي ﷺ أنه قال: «يوم الاضحى هذا يوم الحج الأكبر». وأخرج البخاري تعليقا، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال: هذا يوم الحجّ الأكبر. وأخرج البخاري ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن مريويه، عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى أن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر: يوم النحر، والحج الأكبر: الحجّ؛ وإنما قيل الأكبر: من أجل قول

عهدهم إلى متهمهم» وسميت حراماً لأن الله سبحانه حرم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم: مجاهد، وابن إسحاق، وابن زيد، وعمرو بن شعيب. وقيل: هي الأشهر المذكورة في قوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾. وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة، ورجحه ابن كثير، وحكاه عن مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وسيأتي بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إن شاء الله. ومعنى ﴿حيث وجنتموهم﴾: في أي مكان وجنتموهم من حل أو حرم. ومعنى: ﴿خزنوهم﴾ الأسر، فإن الأخذ هو الأسير. ومعنى الحصر منعهم من التصرف في بلاد المسلمين إلا بإذن منهم، والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو، يقال رصدت فلاناً أرصده: أي أقعدوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها. قال عامر بن الطفيل:

ولقد علمت وما إخالك عالماً أن المنية للفتى بالمرصد
وقال النابغة:

أعادل إن الجهل من لذة الفتى وإن المنيا للنفوس بمرصد
وكل في «كل مرصد» منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج، وقيل هو منتصب بنزع الخافض: أي في كل مرصد، وخطأ أبو علي الفارسي الزجاج في جعله ظرفاً. وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك، لا يخرج عنها إلا من خصته السنة، وهو: المرأة، والصبي، والعاجز الذي لا يقاتل، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم، وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم. وقال الضحاك وعطاء والسدي: هي منسوخة بقوله: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ [محمد: 4]، وأن الأسير لا يقتل صبراً بل يمن عليه أو يفادي. وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة لقوله:

﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾، وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل. وقال ابن زيد: الأيتان محكمتان. قال القرطبي: وهو الصحيح؛ لأن المَنَ والقَتْل والفداء لم تزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب جاء بهم وهو يوم بدر. قوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي: تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل، وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام، وهو إقامة الصلاة، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها، واكتفى بالركن الآخر المالي، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات، لأنه أعظمها ﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي: اتركوهم وشأنهم، فلا تأسروهم، ولا تحبسوهم، ولا تقتلوهم ﴿إن الله غفور﴾ لهم ﴿رحيم﴾ بهم. قوله: ﴿وإن لحد من المشركين استجارك فاجرهم﴾. يقال: استجرت فلاناً: أي طلبت أن يكون جاراً: أي محامياً

الاستثناء بقوله: ﴿إلا الذين عاهدتم﴾. قال الزجاج: إنه يعود إلى قوله: ﴿براءة﴾ والتقدير: براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم. وقال في الكشف: إنه مستثنى من قوله: ﴿فسيحوا﴾ والتقدير: فقولوا لهم: فسيحوا، إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقضوكم، فاتموا إليهم عهدهم. قال: والاستثناء بمعنى الاستدراك، كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين، ولكن الذين لم ينكثوا فاتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم. وقد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه، وهو: ﴿وإذان من الله﴾ إلخ. وأجيب بأن ذلك لا يضر، لأنه ليس بأجنبي، وقيل: إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله، فيكون متصلاً وهو ضعيف. قوله: ﴿ثم لم ينقضوكم شيئاً﴾ أي: لم يقع منهم أي نقص. وإن كان يسيراً، وقرأ عكرمة، وعطاء بن يسار، ﴿ينقضوكم﴾ بالضاد المعجمة: أي لم ينقضوا عهدكم، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعده، ومنهم من ثبت عليه، فأن الله سبحانه لنبيه ﷺ ينقض عهد من نقض، وبالإفاء لمن لم ينقض إلى مَنته ﴿ولم يظاهروا عليكم أحداً﴾ المظاهرة: المعاونة: أي لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فاتموا إليهم عهدهم﴾ أي: اتوا إليهم عهدهم تاماً غير ناقص ﴿إلى متهمهم﴾ التي عاهدتموهم إليها، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضي المدة المذكورة سابقاً، وهي أربعة أشهر أو خمسون يوماً على الخلاف السابق. قوله: ﴿فإذا انسلاخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجنتموهم﴾ انسلاخ الشهر: تكامله جزءاً فجزءاً إلى أن ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده، فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال: سلخت الشهر تسلخه سلخاً وسلخاً بمعنى خرجت منه، ومنه قول الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهملت مثله كفى قاتلاً سلخي للشهور وإهلاي
ويقال سلخت المرأة درعها: نزعتها، وفي التنزيل: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ [يس: 37].

واختلف العلماء في تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا، فقيل: هي الأشهر الحرم المعروفة التي هي: ذو القعدة ونو الحجة، ومحرم، ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد. ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الأشهر الحرم. وقد وقع النداء والنبي إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقي من الأشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة، خمسين يوماً تنقضي بانقضاء شهر المحرم، فامرهم الله بقتل المشركين حيث يوجنون، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر. وروي عن ابن عباس، واختاره ابن جرير، وقيل المراد بها: شهور العهد المشار إليها بقوله: ﴿فاتموا إليهم

فخلوا سبيلهم». وقال: «وإن أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله». وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «وإن أحد من المشركين استجارك فاجره»، يقول: من جاءك واستمع ما تقول، واستمع ما أنزل إليك، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام الله حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: «ثم بلغه مأمنه»، قال: إن لم يوافقه ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه، وهذا ليس بمنسوخ. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة في قوله: «حتى يسمع كلام الله»، أي: كتاب الله. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان الرجل يجيئ إذا سمع كتاب الله، وأقر به، وأسلم، فذاك الذي دعي إليه، وإن أنكر ولم يقر به، رد مأمنه، ثم نسخ ذلك، فقال: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة». [التوبة: 36].

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرُ الْغُيُوبِ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرَوْنَكُم بِالْأَنفُسِ وَأَنْتُمْ لَبِيسٌ مِّنْ دُونِهَا فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَلَا تَتَّقُوا نَارَهُمْ تَتَّقُونَهَا إِنَّا أَنزَلْنَاهَا فِي الْقُرْآنِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨﴾ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَفَعَلُوا بِكُمْ فِي الْإِيمَانِ وَلِتُحَقِّقُوا لَهُمْ

قوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله»، الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للإنكار، وعهد اسم يكون. وفي خبره ثلاثة أوجه: الأول: أنه كيف، وقدم للاستفهام؛ والثاني: للمشركين، وعند على هذين ظرف للعهد، أو ليكون، أو صفة للعهد؛ والثالث: أن الخبر عند الله، وفي الآية إضمار. والمعنى: كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه؛ وقيل معنى الآية: محال أن يثبت لهؤلاء عهد، وهم أضداد لكم مضمرون للغدر، فلا يطمعوا في ذلك ولا يحتثوا به أنفسهم، ثم استدرك، فقال: «إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام»، أي: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم «فاستقيموا لهم». قيل: هم بنو بكر، وقيل: بنو كنانة وبنو ضمرة، وفي «ما» وجهان: أحدهما: أنها مصدرية زمانية، والثاني: أنها شرطية، وفي قوله: «إن الله يحب المتقين»، إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين، فيكون تعليلاً للأمر بالاستقامة. قوله: «كيف وإن يظهروا عليكم»، أعاد الاستفهام التعجيبى للتأكيد والتقرير، والتقدير: كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم «لا يرقبوا»، أي: لا يراعوا فيكم «إلا»: أي عهداً «ولا ذمة».

ومحافظاً من أن يظلمني ظالم، أو يتعرض لي متعرض. وأحد مرتفع بفعل مقدر يفسره المنكور بعده: أي وإن استجارك أحد استجارك، وكرهوا الجمع بين المفسر والمفسر. والمعنى: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فاجره: أي كن جاراً له مؤمناً محامياً «حتى يسمع كلام الله» منك ويتبذره حق تدبيره، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه: «ثم بلغه مأمنه»: أي: إلى الدار التي يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه، ووجوب قتله حيث يوجد، والإشارة بقوله: «ذلك» إلى ما تقدم من الأمر بالإجارة، وما بعده «بأنهم قوم لا يعلمون»: أي: بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال والمآل.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «إلا الذين عاهدتم»، قال: هم قريش. وأخرج أيضاً عن قتادة قال: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبي الله زمن الحديبية، وكان بقي من منتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر، فأمر نبيه أن يوفي بعهدهم هذا إلى منتهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن عباد بن جعفر، في قوله: «إلا الذين عاهدتم»، قال: هم بنو جذيمة بن عامر من بني بكر بن كنانة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: «فاتموا إليهم عهدهم إلى منتهم»، قال: كان بقي لبني منجج وخزاعة عهد، فهو الذي قال الله «فاتموا إليهم عهدهم إلى منتهم». وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: «إلا الذين عاهدتم من المشركين»، قال: هؤلاء بنو ضمرة، وبنو منجج، من بني كنانة كانوا حلفاء للنبي ﷺ في غزوة العشيرة من بطن يثرب «ثم لم ينقصوكم شيئاً» ثم لم ينقصوا عهدكم بغدر «ولم يظاهروا عليكم أحداً»، قال: لم يظاهروا عنوكم عليكم «فاتموا إليهم عهدهم إلى منتهم». يقول: أجلهم الذي شرطتم لهم «إن الله يحب المتقين». يقول: الذين يتقون الله فيما حرم عليهم، فيوفون بالعهد. قال: فلم يعاهد النبي ﷺ بعد هؤلاء الآيات أحداً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: «فإذا انسלخ الأشهر الحرم»، قال: هي الأربعة عشرون من ذي الحجة والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر. قلت: مراد السدي أن هذه الأشهر تسمى حرماً لكون تامين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال، لا أنها الأشهر الحرم المعروفة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاک، في الآية قال: هي عشر من ذي القعدة، وثو الحجة، والمحرم، سبعون ليلة. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد قال: هي الأربعة الأشهر التي قال: «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر». وأخرج ابن المنذر، عن قتادة، نحو قول السدي السابق. وأخرج أبو داود في ناسخه، عن ابن عباس، في قوله: «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجبتهم»، ثم نسخ واستثنى. فقال: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

قال في الصحاح: الإل العهد والقرابة، ومنه قول حسان: لعمرك أن لك من قريش كإل السقب من رثل النعمان قال الزجاج: الإل عندي على ما توجه للغة ينور على معنى الحدة، ومنه الإلة للحربة، ومنه أنن مؤللة: أي محددة. ومنه قوله طرفة بن العبد يصف ناقته بالحدة والانتصاب:

مؤللتان يعرف العنق منهما كسامعتي شاة بحومل مفرد قال أبو عبيدة: الإل العهد، والذمة والنديم. وقال الأزهري: هو اسم لله بالعبرانية، وأصله من الأليل، وهو البريق، يقال أل لونه يولُ: إلا: أي صفا ولمع، والذمة العهد، وجمعها ذمم، فمن فسر الإل بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين. وقال أبو عبيدة: الذمة: التتم. وقال أبو عبيد: الذمة: الأمان، كما في قوله ﷺ: «ويسعى بذمتهم أدناهم» وروي عن أبي عبيدة أيضاً أن الذمة ما يذمم به: أي ما يجتنب فيه الذم. قوله: «يرضونكم بأفواههم» أي: يقولون بالكسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم، طلباً لمرضاتهم وتطبيب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه، وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم، كما يفعله أهل النفاق وذو الوجهين؛ ثم حكم عليهم بالفسق، وهو التمرد والتجري، والخروج عن الحق لنقضهم العهود، وعدم مراعاتهم للعقود، ثم وصفهم بقوله: «اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً» أي: استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمناً قليلاً حقيراً، وهو ما أثروه من حطام الدنيا «فصدوا عن سبيله» أي: فعلوا وأعرضوا عن سبيل الحق، أو صرفوا غيرهم عنه. قوله: «لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة» قال النحاس: ليس هذا تكريراً، ولكن الأول: لجميع المشركين، والثاني: لليهود خاصة، والدليل على هذا «اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً» يعني: اليهود، وقيل: هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، وفي الأول: المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة «وأولئك هم المعتدون» أي: المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد، أو البالغون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى «فإن تابوا» عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام، «فإخوانكم» أي: فهم إخوانكم «في الدين» أي في دين الإسلام «ونفصل الآيات» أي: نبينها ونوضحها «لنقوم يعلمون» بما فيها من الأحكام ويفهمونه، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، والمراد بالآيات ما من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم.

وقد أخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام» قال: قريش. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل قال: كان النبي ﷺ عاهد أناساً من بني ضمرة بني بكر وكانته خاصة، عاهدهم عند المسجد الحرام، وجعل مدينتهم أربعة أشهر، وهم الذين نكر الله «إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم» يقول: ما وفوا لكم بالعهد ففوا لهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي قال: هم بنو جنيمة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: «إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام» قال: هو يوم الحبيبية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: «إلا ولا ذمة» قال: الإل: القرابة، والذمة: العهد. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: الإل الله عز وجل. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: «اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً» قال: أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: «فإن تابوا» الآية يقول: إن تركوا اللات والعزى، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإخوانكم في الدين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: حرمت هذه الآية قتال أو مهاد أهل الصلاة.

وَأَن تَكُونُوا أَيمَنَهُمْ مِن بَدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَتَنِيلُوا أَيْمَةً الْكُفْرُ إِنَّهُمْ لَا أَمِينَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْهَوْنَ ﴿١١﴾ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَكُنُوا يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَقَدْ بَدَّوْكُمْ أَزْكَ مَرَّةً تَحْتَضِرُهُمُ قَالَ أَحَدٌ أَن تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ فَتَنِيلُوهُمْ بِبَيْدِهِمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُسِرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُفْصِدُ قُوَّةَ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَيَذُوبُ عِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيبَهُمْ أَلَّهُ خَيْرٌ بِمَا صَمَلُوا ﴿١٥﴾

قوله: «وإن نكثوا» معطوف على «فإن تابوا» [التوبة: 11] والنكث: النقض، وأصله نقض الخيط بعد إبرامه، ثم استعمل في كل نقض، ومنه نقض الإيمان والعهود على طريق الاستعارة. ومعنى: «من بعد عهدهم» أي: من بعد أن عاهدوكم. والمعنى: أن الكفار إن نكثوا العهود التي عاهدوا بها المسلمين، ووثقوا لهم بها وضموا إلى ذلك الطعن في دين الإسلام، والقدح فيه، فقد وجب على المسلمين قتالهم. وأئمة الكفر: جمع إمام، والمراد صناديد المشركين، وأهل الرئاسة فيهم على العموم. وقرأ حمزة إامة، وأكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن، لأن فيه الجمع بين همزين في كلمة واحدة. وقرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية بين بين: أي بين مخرج الهمزة والياء. وقرأ بإخلاص الياء وهو لحن، كما قال الرمخشري. قوله: «إنهم لا إيمان لهم» هذه الجملة تعليل لما قبلها، والإيمان: جمع يمين في قراءة الجمهور. وقرأ ابن عامر «لا إيمان لهم» بكسر الهمزة. والمعنى على قراءة الجمهور: أن إيمان الكافرين وإن كانت في الصورة يميناً، فهي في الحقيقة ليست بيمين، وعلى القراءة الثانية: أن هؤلاء الناكثين للإيمان الطاعنين في الدين،

المسلمين فوجهه أن النصر والظفر من جهة الله يكون سبباً لخلوص النية والتوبة عن الذنوب. قوله: ﴿إِنَّمَا حَسِبْتُمْ أَنَّ تَتْرَكُوا﴾ أم هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل، والهمزة والاستفهام للتوبيخ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، والمعنى: كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه، وقوله: ﴿إِن تَتْرَكُوا﴾ في موضع مفعولي الحسبان عند سيبويه، وقال المبرد: إنه حذف الثاني، والتقدير: أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق، الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب. وجملة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد من نفي العلم نفي المعلوم، والمعنى كيف تحسبون أنكم تتركون، ولما يبتين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص، وجملة: ﴿وَلَمَّا يَتَخَوُّوا﴾ معطوفة على جاهدوا داخلة معه في حكم النفي واقعة في حيز الصلة، والوليعة من الولوج: وهو الدخول، ولج يلج ولوجاً: إذا نخل، فالوليعة: الخيلة. قال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه، فهو وليعة. قال أبان بن ثعلب. فبئس الوليعة للهاربي. ن والمعنيين وأهل الربيع وقال الفراء: الوليعة البطانة من المشركين، والمعنى واحد: أي كيف تتخذون نخيلة أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم، وتعلمونهم أموركم من دون الله ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع أعمالكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَأَن نَّكْثُوا إِيْمَانَهُمْ﴾ قال: عهدهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، في الآية قال: يقول الله لنبيه وإن نكثوا العهد الذي بينك وبينهم، فقاتلهم إنهم أئمة الكفر. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: أئمة الكفر قال: أبو سفيان بن حرب، وأميرة بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هاشم، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله وهموا بإخراج الرسول من مكة. وأخرج ابن عساکر، عن مالك بن أنس مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿فَقَاتِلُوا أئمة الكفر﴾ قال: رؤوس قریش. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عمر قال: أبو سفيان بن حرب منهم. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن حذيفة أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد، وأخرج ابن مريويه، عن علي بن نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن مريويه، عن حذيفة قال: ما بقي من أهل هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد تخبروننا لا ندري فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسترقون أعلقتنا، قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة. أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده. والأولى: أن الآية عامة في كل رؤساء الكفار من غير تقييد

ليسوا من أهل الإيمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدماهم وأموالهم، فقاتلهم وأجب على المسلمين. قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أي: عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الإسلام. والمعنى: أن قتالهم يكون إلى الغاية هي الانتهاء عن ذلك.

وقد استدل بهذه الآية على أن الذمي إذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد، كما قال أبو حنيفة، لأن الله إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما: نقض العهد، والثاني: الطعن في الدين. وذم مالك والشافعي وغيرهما، إلى أنه إذا طعن في الدين قتل، لأنه ينتقض عهده بذلك، قالوا: وكذلك إذا حصل من الذمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين، فإنه يقتل. قوله: ﴿إِلَّا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا إِيْمَانَهُمْ﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام للتوبيخ، مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحقيقه، والمعنى: أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد وإخراج الرسول من مكة والبدء بالقتال، فهو حقيق بأن لا يترك قتاله، وأن يوبخ من فرط في ذلك، ثم زاد في التوبيخ فقال: ﴿تَتَخَشَّوْنَهُمْ﴾ فإن هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع: أي تخشون أن ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه، فقال: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو أحق بالخشية منكم، فإنه الضار النافع بالحقيقة، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله، فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم، ثم زاد في تأكيد الأمر بالقتال فقال: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ﴾ ورتب على هذا الأمر فوائد: الأولى: تعذيب الله للكفار بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر؛ والثانية: إخراجهم، قيل بالأسر، وقيل: بما نزل بهم من الذل والهوان؛ والثالثة: نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم؛ والرابعة: أن الله يشفي بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره؛ والخامسة: أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وخرج الصدر. فإن قيل شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكراراً. قيل في الجواب: إن القلب أخص من الصدر، وقيل: إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح، ولا ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، وأن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح، وقد وقعت للمؤمنين والله الحمد هذه الأمور كلها، ثم قال: ﴿وَيُتَوَبُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره، كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح، فلإنهم أسلموا وحسن إسلامهم، وهذا على قراءة الرفع في يتوب، وهي قراءة الجمهور. وقرأ بنصب يتوب بإضمار أن، ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى. قرأ بذلك ابن أبي إسحاق، وعيسى الثقفي، والأعرج. فإن قيل: كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة؟ وأجيب بأن القتال قد يكون سبباً لها إذا كانت من جهة الكفار، وأما إذا كانت من جهة

﴿مسجد الله﴾ الأفراد. وقرأ الباقون «مساجد» بالجمع، واختارها أبو عبيدة. قال النحاس: لأنها أعم، والخاص يدخل تحت العام، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة، وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرساً قال: وقد أجمعوا على الجمع في قوله: **﴿إنما يعمر مساجد الله﴾** وروي عن الحسن البصري أنه تعالى إنما قال: **﴿مساجد﴾** والمراد المسجد الحرام، لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد. قال الفراء: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم: فلان كثير الدرهم وبالعكس، كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا ملكاً واحداً، والمراد بالعمارة إما المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي، وهو ملازمته والتعبد فيه، وكلاهما ليس للمشركين، أما الأول: فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثاني: فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيبهم عن قربان المسجد الحرام، ومعنى **﴿ما كان للمشركين﴾** ما صح لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك، و**﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾** حال: أي ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر، بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها، وجعلها آلهة؛ فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا ذلك بالاستنهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين: عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرب إلى الله بعمارة مساجده. وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وقيل: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: إن اليهودي يقول هو يهودي، والنصراني يقول هو نصراني، والصابئي يقول هو صابئي، والمشرک يقول هو مشرك **﴿اولئك حببوا أعمالهم﴾** التي يفتخرون بها، ويظنون أنها من أعمال الخير: أي بطلت ولم يبق لها أثر **﴿وفي النار هم خالدون﴾** وفي هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها. ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال: **﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾** وفعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة **﴿ولم يخش﴾** أحداً **﴿إلا الله﴾** فمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف، فهو الحقيق بعمارة المساجد. لا من كان خالياً منها أو من بعضها، واقتصر على نكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيهاً بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداها مما افترضه الله على عباده، لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، وقد تقدم الكلام في وجه جمع المساجد، وفي بيان ماهية العمارة، ومن جوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما، وفي قوله: **﴿فحسى اولئك أن يكونوا من المهتدين﴾** حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم، فإن الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اعتداؤهم مرجواً فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء

بزمن معين أو بطائفة معينة اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، أنه كان في عهد أبي بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً مجوفة رءوسهم، فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: **﴿فقتلوا ثمة الكفر﴾**. وأخرج أبو الشيخ عن حذيفة لا إيمان لهم قال: لا عهد لهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمار مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿إلا تقاتلون قوماً نكثوا إيمانهم﴾** قال: قتال قريش حلفاء النبي ﷺ ومهمهم بإخراج الرسول. زعموا أن ذلك عام عمرة النبي ﷺ في العام التابع للحديبية، نكثت قريش العهد عهد الحديبية، وجعلوا في أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها؛ فذلك مهمهم بإخراجهم، فلم تتابعهم خزاعة على ذلك فلما خرج النبي ﷺ من مكة، قالت قريش لخزاعة: عميتونا عن إخراجهم، فقاتلهم، وقتلوا منهم رجلاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة قال: نزلت في خزاعة: **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، نحوه أيضاً، وقد ساق القصة ابن إسحاق في سيرته، وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة إلى النبي ﷺ، وأوله:

يا رب إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلا
وأخرج القصة البيهقي في الدلائل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: الوليجة: البطانة من غير دينهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، قال: وليجة أي: خيانة.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَسْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ مُبْهَدِينَ لَهُ أَنْفُسُهُمْ بِالْكَفْرِ
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ
إِلَّا اللَّهَ فَمَسَّ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٨﴾ لَبَسْتُمْ لَفْظًا لِلْمَلَأِ
وَصَارَ السَّجْدَ لِلزَّكَاةِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
يَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَمْوَالُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَغْلَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ
﴿١٥﴾ يُبَيِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَعَلَهُمْ فِيهَا نِسَبَةً مُبَيَّرَةً
﴿١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾

قرأ الجمهور **﴿يعمروا﴾** بفتح حرف المضارعة وضم الميم من عمر يعمر. وقرأ ابن السميع بضم حرف المضارعة من أعمار يعمر: أي يجعلون لها من يعمرها. وقرأ ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن وسهم ويعقوب

من تلك الصفات؛ وقيل: عسى من الله واجبة؛ وقيل: هي بمعنى خليق: أي فخليق أن يكونوا من المهتدين؛ وقيل: إن الرجاء راجع إلى العباد، والاستفهام في ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لِلإِنكار، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحمية، وفي الكلام حذف، والتقدير: أ جعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد، أو أهلهما ﴿كَمَنْ أَمَنَ﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير في الخبر: أي جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كعمل من آمن أو كإيمان من آمن. وقرأ ابن أبي وجرة السعدي، وابن الزبير، وسعيد بن جبيرة، أ جعلتم سقاة الحاج، وعمرة المسجد الحرام، جمع ساق وعامر. وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف. والمعنى: أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة، ويفضلونهما على عمل المسلمين. فأنكر الله عليهم ذلك، ثم صرَّح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العمارة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله، ودلَّ سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة، التي يدعيها المشركون: أي إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، وفي هذا إشارة إلى الفريق المفضل، ثم صرَّح بالفريق الفاضل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخره: أي الجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشتركة المفتخرة بأعمالها المحيطة الباطلة، وفي قوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشريف عظيم للمؤمنين، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بالصفات المذكورة ﴿هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ أي: المختصون بالفوز عند الله، ثم فسر الفوز بقوله: ﴿يُدْخِرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ والتذكير في الرحمة والرضوان والجَنَاتِ للتعظيم؛ والمعنى أنها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين. والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمينها للتعليل: أي أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيم، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

من تلك الصفات؛ وقيل: عسى من الله واجبة؛ وقيل: هي بمعنى خليق: أي فخليق أن يكونوا من المهتدين؛ وقيل: إن الرجاء راجع إلى العباد، والاستفهام في ﴿لَجَعَلْتُمْ سَقَايةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لِلإِنكار، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحمية، وفي الكلام حذف، والتقدير: أ جعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد، أو أهلهما ﴿كَمَنْ أَمَنَ﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير في الخبر: أي جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كعمل من آمن أو كإيمان من آمن. وقرأ ابن أبي وجرة السعدي، وابن الزبير، وسعيد بن جبيرة، أ جعلتم سقاة الحاج، وعمرة المسجد الحرام، جمع ساق وعامر. وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف. والمعنى: أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة، ويفضلونهما على عمل المسلمين. فأنكر الله عليهم ذلك، ثم صرَّح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العمارة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله، ودلَّ سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة، التي يدعيها المشركون: أي إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، وفي هذا إشارة إلى الفريق المفضل، ثم صرَّح بالفريق الفاضل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخره: أي الجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشتركة المفتخرة بأعمالها المحيطة الباطلة، وفي قوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشريف عظيم للمؤمنين، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بالصفات المذكورة ﴿هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ أي: المختصون بالفوز عند الله، ثم فسر الفوز بقوله: ﴿يُدْخِرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ والتذكير في الرحمة والرضوان والجَنَاتِ للتعظيم؛ والمعنى أنها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين. والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمينها للتعليل: أي أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيم، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ

الله بامرهم فيكم، وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم؛ وقيل: المراد بامر الله سبحانه: القتال؛ وقيل فتح مكة وفيه بعد، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح. وفي هذا وعيد شديد، ويؤكد إيهام الأمر وعدم التصريح به، لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات، والله لا يهدي القوم الفاسقين أي الخارجين عن طاعته، النافرين عن امتثال أوامره ونواهي.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبد المطلب: أنا أسقي الحاج. وقال طلحة أخو بني عبد الدار: أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر، فأنزلت ﴿لَا تَتَخَذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل، في هذه الآية قال: هي الهجرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿اقْتَرِفْتُمُوهَا﴾ قال: أصبتموها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿حَتَّى يَلْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال: بالفتح في أمره بالهجرة، هذا كله قبل فتح مكة. وأخرج البيهقي من حديث عبد الله بن شونب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [المجالة: 22] الآية، وهي تؤكد معنى هذه الآية، وقد تقدم بيان حكم الهجرة في سورة النساء.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَوَعَدَ لَكُمْ إِذْ عَصَيْتُمْ كَثُرْتُمْ فَلَمْ تَنُصِرْكُمْ شَيْئًا وَسَاءَ عِلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَكُنْتُمْ مُدْرِكِينَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ يَبُوءُ اللَّهُ بِمَا بَدَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذَرْجُ ﴿٥٣﴾

المواطن جمع موطن، ومواطن الحرب: مقاماتها، والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر، وما بعد من المواطن التي نصر الله المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين، ﴿ويوم حنين﴾ معطوف على مواطن بتقدير مضاف: إما في الأول وتقديره في أيام مواطن، أو في الثاني، وتقديره وموطن يوم حنين، لئلا يعطف الزمان على المكان. ورد بأنه لا استبعاد في عطف الزمان على المكان، فلا يحتاج إلى تقدير؛ وقيل: إن يوم حنين منصوب بفعل مقدر معطوف على ﴿نصركم﴾ أي: ونصركم يوم حنين، ورجح هذا صاحب الكشاف، قال: وموجب ذلك أن قوله: ﴿إِذْ عَصَيْتُمْ﴾ بدل من يوم حنين، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح، لأن كثرت لم تعجبهم في جميع تلك المواطن، ولم يكونوا كثيراً في جميعها. ورد بأن العطف لا يجب فيه تشارك المتعاطفين في جميع ما ثبت للمعطوف، كما تقول: جاءني

الآية، قال: نزلت في علي بن أبي طالب والعباس. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي، قال: تفاخر علي والعباس وشيعة في السقاية والحجابة فأنزل الله: ﴿لَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية، وقد روى معنى هذا من طرق.

يُنَاقِبُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا نَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولَٰئِكَ إِذَا أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٤﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمْ وَجِهَاتُكُمْ فَذُكِّرْتُمْ فَاذْكُرُوا لِلَّهِ يَوْمَ يُخْرِجُ الْأَقْنَمَ فِي سَبِيلِهِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٥٥﴾

الخطاب للمؤمنين كافة، وهو حكم باق إلى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، وقالت طائفة من أهل العلم: إنها نزلت في الحَضِّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب، نهوا بأن يوالوا الآباء والإخوة، فيكونون لهم تبعاً في سكنى البلاد الكفر إن استحبوا: أي أحبوا، كما يقال استجاب بمعنى أجب، وهو في الأصل طلب المحبة، وقد تقدم تحقيق المقام في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 51] ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء والإخوان بالظلم، فدل ذلك على أن تولي من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدّها، ثم أمر الله رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى آخره، والعشيرة: الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد، وعشيرة الرجل قرابته الأنون، وهم الذين يعاشرونه وهي اسم جمع. وقرأ أبو بكر وحمام ﴿عشيرتكم﴾ بالجمع. قال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات، وإنما يجمعونها على عشائر. وقرأ الحسن ﴿عشائركم﴾. وقرأ الباقرين ﴿عشيرتكم﴾ والاقتراف: الاكتساب، وأصله اقتطاع الشيء من مكانه، والتركيب يدور على الذنوب. والكاسب يذني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه، والتجارة الأمتعة التي يشترونها ليربحوا فيها، والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان. ومن غرائب التفسير ما روي عن ابن المبارك أنه قال: إن المراد بالتجارة في هذه الآية البنات والأخوات، إذا كسدن في البيت لا يجدن لهنّ خاطباً، واستشهد لذلك بقول الشاعر:

كسدن من الفقر في قومهن وقد زادهنّ مقامي كسادها
وهذا البيت وإن كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهنّ فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة عليهنّ، والمراد بالمساكن التي يرضونها: المنازل التي تعجبهم وتميل إليها أنفسهم، ويرون الإقامة فيها أحب إليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله، وأحبّ خبر كان: أي كانت هذه الأشياء المذكورة في الآية أحب إليكم من الله ورسوله ومن الجهاد في سبيل الله ﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ﴿حتى ياتي

عمرو الثقفي. وأخرج ابن المنذر، عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا: الآن نقاتل حين اجتماعنا، فكره رسول الله ﷺ ما قالوا، وما أعجبهم من كثرتهم، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول الله ﷺ ينادي أحياء العرب: إليّ، إليّ، فوا الله ما يرجع عليه أحد حتى أعرى موضعه، فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فنادهم: يا أنصار الله وأنصار رسوله، إليّ عباد الله أنا رسول الله، فجهتوا يبيكون وقالوا: يا رسول الله ورب الكعبة إليك والله، فنكسوا رؤوسهم يبيكون وقدموا أسياهم يضربون بين يدي رسول الله ﷺ، حتى فتح الله عليهم. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن الربيع أن رجلاً قال يوم حنين: لن تغلب من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فانزل الله ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ﴾ قال الربيع: وكانوا اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة. وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قمحاً ولم نولهم البر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قمحاً، فقال: ناولني كفاً من تراب، فنأولته فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم تراباً، وولى المشركون أنبارهم، ووقعة حنين منكرة في كتب السير والحديث بطولها وتفصيلها، فلا نطول بذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرْوَاهُمْ﴾ قال: هم الملائكة ﴿وَوَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: قتلهم بالسيف. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، قال: في يوم حنين أمم الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين، ويومئذ سمي الله الأنصار مؤمنين قال: فانزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي عن جبير بن مطعم، قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل النجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملا الوادي، لم أشك أنها الملائكة، ولم تكن إلا هزيمة القوم.

يَكَايَهُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَكَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ إِنَّهُ فَصِيحُؤُكُمْ وَإِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ رِيبَ الْحَيَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُبْطِلُوا الْآيَةَ عَنْ يَدِهِ وَهُمْ مُنْزَوُونَ ﴿١٩﴾

النجس مصدر لا يثنى ولا يجمع، يقال رجل نجس، وامرأة نجس، ورجلان نجس، وامرأتان نجس، ورجال نجس، ونساء نجس؛ ويقال نجس ونجس بكسر الجيم وضمها؛ ويقال نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من

زيد، وعمرو، مع قومه، أو في ثيابه أو على فرسه؛ وقيل إن: ﴿إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ﴾ ليس ببدل من يوم حنين، بل منصوب بفعل مقدر: أي أنكروا إذا أعجبكم كثرتكم، وحنين: واد بين مكة والطائف، وانصرف على أنه اسم للمكان، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة، ومنه قول الشاعر:

نصروا نبيهم وشنوا أزره
بحنين يوم تواكل الأبطال
وإنما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: أحد عشر ألفاً، وقيل: ستة عشر ألفاً؛ فقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة، فوكلوا إلى هذه الكلمة، فلم تغن الكثرة شيئاً عنهم، بل انهزموا وثبت رسول الله ﷺ، وثبت معه طائفة يسيرة منهم عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث، ثم تراجع المسلمون، فكان النصر والظفر. والإغناء: إعطاء ما يدفع الحاجة؛ أي لم تعظم الكثرة شيئاً يدفع حاجتكم، ولم تفنكم، قوله: ﴿بِمَا رَحِبتُ﴾ الرحب بضم الزاء: السعة، والرحب بفتح الزاء: المكان الواسع، والباء بمعنى مع، وما مصبرية، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال. والمعنى: أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حل بهم من الخوف والوجل؛ وقيل إن الباء بمعنى على: أي على رحبها ﴿وَلَمَّا وَلِيتُمْ مَدِيرِينَ﴾ أي: انهزمت حال كونكم مدبرين: أي مولين أنباركم، جاعلين لها إلى جهة عدوكم. قوله: ﴿وَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنزل ما يسكنهم، فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجترار على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين: هم الذين لم يهزموا، وقيل: الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم، لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا. قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرْوَاهُمْ﴾ هم الملائكة.

وقد اختلف في عددهم على أقوال: قيل: خمسة آلاف، وقيل: ثمانية آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً، وقيل: غير ذلك، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة. واختلفوا أيضاً هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا؟ وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر، وأنهم إنما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين، وإدخال الرعب في قلوب المشركين ﴿وَوَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية، والإشارة بقوله: ﴿وَلَوْلِكَ﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذب، وسمي ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لا بد من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيماً له ﴿وَلَمَّا يَتُوبَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن أئنب، فتاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: حنين ما بين مكة والطائف، قاتل نبي الله ﷺ هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عبد ياليل بن

المحرك. قيل: لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس؛ وقيل ذلك أكثرى لا كلي. والمشركون مبتدأ، وخبره المصدر مبالغة في وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة، أو على تقدير مضاف: أي نوو نجس، لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس. وقال قتادة ومعمر وغيرهما: إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يتجنبون النجاسات. وقد استدل بالآية من قال بأن المشرک نجس الذات، كما ذهب إليه بعض الظاهرية والزيديّة. وروي عن الحسن البصري، وهو محكي عن ابن عباس. وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات، لأن الله سبحانه أحل طعامهم، وثبت عن النبي ﷺ في ذلك من فعله، وقوله، ما يفيد عدم نجاسة نواتهم، فأكمل في أنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده. قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ الفاء للتفريع، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرع على نجاستهم. والمراد بالمسجد الحرام: جميع الحرم، روي ذلك عن عطاء، فيمنعون عنده من جميع الحرم، وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه، فلا يمنع المشرک من دخول سائر الحرم.

وقد اختلف أهل العلم في دخول المشرک غير المسجد الحرام من المساجد؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرک عن كل مسجد. وقال الشافعي: الآية عامة في سائر المشرکين خاصة في المسجد الحرام، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد. قال ابن العربي: وهذا جمود منه على الظاهر، لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِلْمُشْرِكِينَ نَجِسٌ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، ويجاب عنه بأن هذا القياس مريدود بربطه ﷺ لثامته بن أثال في مسجده، وإنزال وفد ثقيف فيه. وروي عن أبي حنيفة مثل قول الشافعي، وزاد أنه يجوز دخول الذمي سائر المساجد من غير حاجة، وقيد الشافعي بالحاجة. وقال قتادة: إنه يجوز ذلك للذمي بون المشرک، وروي عن أبي حنيفة أيضاً أنه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد، ونهى المشرکين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى للمسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك، فهو من باب قولهم: لا أرينك هاهنا. قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه سنة تسع، وهي التي حج فيها أبو بكر على الموسم. الثاني: أنه سنة عشر قاله قتادة، قال ابن العربي: وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ، ومن العجب أن يقال إنه سنة تسع، وهو العام الذي وقع فيه الأذان، ولو دخل غلام رجل داره يوماً فقال له مولا: لا تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه. انتهى. ويجاب عنه بأن الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه، فإن الإشارة بقوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة وهو عام النداء، وهكذا في المثال الذي ذكره، المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع فيه الخطاب، والأمر

ظاهر لا يخفى، ولعله أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم ولا شك أنه عام عشر، وأما تفسير العام المشار إليه بهذا، فلا شك ولا ريب أنه عام تسع، وعلى هذا يحمل قول قتادة. وقد استدلل من قال بأنه يجوز للمشرکين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد، أعني قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ قائلًا إن النهي مختص بوقت الحج والعمرة، فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط، لا عن مطلق النحول. ويجاب عنه بأن ظاهر النهي عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كل وقت من الأوقات الكائنة بعده، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص. قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ العيلة: الفقر، يقال عال الرجل يعيل: إذا افتقر، قال الشاعر: وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود «عائلة» وهو مصدر كالقائلة والعافية والعاقبة؛ وقيل معناه: خصلة شاقة، يقال عالني الأمر يعولني: أي شق علي واشتد. وحكى ابن جرير الطبري أنه يقال عال يعول: إذا افتقر. وكان المسلمون لما منعوا المشرکين من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر، وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله. قال الضحاك: ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية. وقال عكرمة: أغناهم بإردار المطر والنبات وخصب الأرض، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به. وقيل أغناهم بالفئ، وفائدة التقيد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به، مما له تعلق بالزمن المستقبل، ولئلا يفترخوا عن الدعاء والتضرع ﴿إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالحوالك ﴿حَكِيمٌ﴾ في إعطائه ومنعه، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن. قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف. قال أبو الوفاء بن عقيل: إن قوله ﴿قَاتِلُوا﴾ أمر بالعقوبة، ثم قال: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فبين الذنب الذي توجب العقوبة، ثم قال: ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فأكّد الذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: ﴿وَلَا يَحْزَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فيه زيادة للذنب في مخالفة الأعمال، ثم قال: ﴿وَلَا يَدِينُونَ بَيْنَ الْحَقِّ﴾ فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعادنة، والانتفاء عن الاستسلام، ثم قال: ﴿مَنْ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يجنبونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ثم قال: ﴿حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة. انتهى. قوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان للموصول مع ما في حيزه وهم أهل التوراة والإنجيل. قوله: ﴿حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ الجزية وزنها فعلة من جزى يجزي: إذا كافأ عما أسدي إليه، فكانهم أعطوها جزءاً عما منحوا من الأمن؛ وقيل: سميت جزية لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه: أي يقضوه،

وهي في الشرع ما يعطيه المعاهد على عهده، و﴿عن يد﴾ في محل نصب على الحال. والمعنى: عن يد مواتية غير ممتنعة، وقيل معناه: يعطونها بأيديهم غير مستنبيين فيها أحداً؛ وقيل معناه: نقد غير نسيئة؛ وقيل عن قهر؛ وقيل معناه: عن إنعام منكم عليهم، لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم؛ وقيل معناه مذمومون. وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعي، وأحمد، أبو حنيفة، وأصحابه والثوري، وأبو ثور، إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب. وقال الأوزاعي ومالك: إن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائناً من كان، ويدخل في أهل الكتاب على القول الأول: المجوس. قال ابن المنذر: لا أعلم خلافاً في أن الجزية تؤخذ منهم.

واختلف أهل العلم في مقدار الجزية. فقال عطاء: لا مقدار لها. وإنما تؤخذ على ما صولحوا عليه، وبه قال يحيى بن آدم، وأبو عبيد، وابن جرير إلا أنه قال: أقلها دينار، وأكثرها لا حد له. وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شيء، وبه قال أبو ثور. قال الشافعي: وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز، وإذا زلوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم. وقال مالك: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق، الغني والفقير سواء، ولو كان مجوسياً لا يزيد ولا ينقص. وقال أبو حنيفة وأصحابه، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل: اثنا عشر، وأربعة وعشرون، وثمانية وأربعون. والكلام في الجزية مقرّر في مواطنه، والحق من هذه الأقوال قد قرّره في شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا. قوله: ﴿وهم صاغرون﴾ في محل نصب على الحال، والصغار: الذال. والمعنى: إن الذمي يعطى الجزية حال كونه صاغراً، قيل: وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم، والمتسلم قاعد. وبالجمله ينبغي للقباض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغراً تلياً.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، في قوله: ﴿إنما للمشركون نجس﴾ الآية قال: إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة. وقد روي مرفوعاً من وجه أخرج أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لا يدخل مسجداً هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم. قال ابن كثير: تفرد به أحمد مرفوعاً. والموقوف: أصح. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت. قال المسلمون: فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل الله ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ قال: فأنزل الله عليهم المطر. وكثر خيبرهم حين ذهب المشركون عنهم. وأخرج ابن مردويه، عنه، قال: فأغناهم الله من فضله، وأمرهم بقتال أهل الكتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن

المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة، في قوله: ﴿وإن خفتم عيلة﴾ قال: الفاقة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر، في قوله: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ قال: بالجزية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن الضحاك مثله. وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿إنما للمشركون نجس﴾ قال: قدر. وأخرج أبو الشيخ عنه، أيضاً قال: من صافحهم فليتوضأ. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صافح مشركاً فليتوضأ أو ليغسل كفيه». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في سننه، عن مجاهد، في قوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ قال: نزلت هذه الآية حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك. وأخرج ابن المنذر، عن ابن شهاب، قال: نزلت في كفار قريش والعرب ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ وأنزلت في أهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ الآية إلى قوله: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾، فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، في قوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ يعني: الذين لا يصلحون بتوحيد الله ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ يعني الخمر والحريز ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ يعني: دين الإسلام ﴿ومن الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ يعني: مثللون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿عن يد﴾ قال: عن قهر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان بن عيينة، في قوله: ﴿عن يد﴾ قال: من يده ولا يبعث بها غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي سنان في قوله: ﴿عن يد﴾ قال: عن قدرة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وهم صاغرون﴾ قال: يمشون بها متلتلين. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: يلكزون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سلمان، في الآية قال: غير محمودين.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَعِفُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ أَنْتَ يُؤْكَلُونَ ﴿٢١﴾ أَفَعَدَّوْا أَخْرَاجَهُمْ وَفَعَلْتُمْ أَرْسَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُرْسُوا إِلَّا لِيُعَذَّبُوا إِلَيْهَا وَجَعَدَ لَأَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سَخَّرْتُمْ عَنْكَ يَشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُزِيدَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين، وعزير مبتدأ وابن الله خبره، وقد قرأ عاصم والكسائي «عزير» بالتثوين، وقرأ الباقون بترك

قوله: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين، وعزير مبتدأ وابن الله خبره، وقد قرأ عاصم والكسائي «عزير» بالتثوين، وقرأ الباقون بترك

ابن الله. قوله: ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم بالهلاك، لأن من قاتله الله هلك، وقيل هو تعجب من شناعة قولهم؛ وقيل معنى قاتلهم الله: لعنهم الله، ومنه قول أبان بن ثعلب: قاتلها الله تلحاني وقد علمت أنني لنفسي إفسادي وإصلاحه وحكى النقاش أن أصل قاتل الله: الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء، وأنشد الأصمعي:

يا قاتل الله ليلي كيف تعجبني وأخبر الناس أنني لا بإليها
﴿أنى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل. قوله: ﴿اتخذوا أحيار ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الأحيار: جمع حبر، وهو الذي يحسن القول، ومنه ثوب محبر؛ وقيل جمع حبر بكسر الحاء. قال يونس: لم أسمعها إلا بكسر الحاء. وقال الفراء: الفتح والكسر لغتان، وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر العالم، والحبر بالفتح العالم. والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة، وهم علماء النصارى كما أن الأحيار علماء اليهود. ومعنى الآية: أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به، ويهونونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً، لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب، قوله: ﴿والله أعلم﴾ ابن مريم معطوف على رهبانهم: أي اتخذهم النصارى ربا معبوداً، وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيز ربا معبوداً، وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاء به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبيأؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحيار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم، وحرموا ما حرموا، وحلوا ما حلوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمر، والماء بالماء، فإيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاده، فعلتم بما جاءوا به من الآراء التي لم تعتمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسنة، تنادي بأبلغ نداء، وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك وبيانيه، فأعرتموها أذاناً صماً، وقلوباً غفلاً، وأقهاراً مريضة، وعقولاً مهیضة، وأذهاناً كليله، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غرت غويت وإن ترشد غزية أرشد
فدعوا أرشدكم الله وإياي كتباً كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله، خالفهم وخالفكم، ومتعبدوهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول:

التنوين لاجتماع العجمة والعلمية فيه. ومن قرأ بالتنوين فقد جعله عربياً؛ وقيل: إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعاً بل لاجتماع الساكنين، ومنه قراءة من قرأ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ [الإخلاص: 1 - 2]. قال أبو علي الفارسي وهو كثير في الشعر، وأنشد ابن جرير الطبري: لتجدني بالأمير برراً وبالقناة لامرام مكرراً إذا غطيت السلمي فرراً

وظاهر قوله: ﴿وقالت اليهود﴾ إن هذه المقالة لجميعهم، وقيل: هو لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم. وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها؛ بل قد انقرضوا؛ وقيل: إنه قال ذلك للنبي ﷺ جماعة منهم، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود، لأن قول بعضهم لازم لجميعهم. قوله: ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب، فكان ذلك سبباً لهذه المقالة، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون في الإنجيل وصفه تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الإنجيل، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة؛ قيل: وهذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لا لكلهم. قوله: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة. ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم. بأن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان، ولا عضده برهان، كان مجرد دعوى، لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتد بها؛ وقيل: إن ذكر الأفواه لقصد التاكيد، كما في كتبت بيدي ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ [البقرة: 79]. وقوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: 38]. وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه لم ينكر قولاً مقروناً بنكر الأفواه والألسن، إلا وكان قولاً زوراً كقوله: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ [آل عمران: 167]، وقوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ [الكهف: 5]، وقوله: ﴿يقولون بالسننهم ما ليس في قلوبهم﴾ [الفتح: 11]. قوله: ﴿يضاهئون قول الذين كفروا﴾ المضاهاة: المشابهة، قيل ومنه قول العرب امرأة ضهية، وهي التي لا تحيض لأنها شابهت الرجال. قال أبو علي الفارسي: من قال: ﴿يضاهئون﴾ مأخوذ من قولهم امرأة ضهية فقله خطأ، لأن الهمزة في ضاهها أصلية، وفي ضهية زائدة كحمراء، وأصله يضاهئون وامرأة ضهية. ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم الأول: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم واللات والعزى ومناة بنات الله. القول الثاني: أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين: إن الملائكة بنات الله، الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيز ابن الله وأن المسيح

محمد بن عبد الله ﷺ.

دعوا كل قول عند قول محمد فما أبى في بينه كمخاطر اللهم هادي الضال، مرشد التائه، موضح السبيل، اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية، قوله: ﴿يُؤْمَرُ أَمْرًا لَا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، والحال: أنهم ما أمروا إلا بعبادة الله وحده، أو ما أمر النبي اتخذوهم أرباباً من الأبحار والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أرباباً. قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية لقوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه عما يشركون. أي: تنزيهاً له عن الإشراك في طاعته وعبادته. قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ﴾ هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق، وهو ما راموه من إبطال الحق بأقوالهم الباطلة، التي هي مجرد كلمات ساذجة، ومجادلات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم في محاولة إبطال دين الحق، ونبوة نبي الصق، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم قد أثارته به الدنيا، وانقضت به الظلمة، ليطفئه ويذهب أضواءه ﴿يُؤْيَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَتَمَّ نُورُهُ﴾ أي: بينه القويم، وقد قيل: كيف نخلت إلا الاستثنائية على يابى، ولا يجوز كرهت أو بغضت إلا زيدا. قال الفراء: إنما نخلت لأن في الكلام طرفاً من الجحد. وقال الزجاج: إن العرب تحذف مع أبى، والتقدير ويأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره. وقال علي بن سليمان: إنما جاز هذا في أبى، لأنها منع أو امتناع فصارعت النفي، قال النحاس: وهذا أحسن كما قال الشاعر:

وهل لي أم غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن أكون لها ابناً
وقال صاحب الكشف: إن أبر قد أجرى مجرى لم يرد: أي ولا يريد إلا أن يتم نوره. قوله: ﴿يُولُو كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ معطوف على جملة قبله مقدر: أي أبى الله إلا أن يتم نوره، ولو لم يكره الكافرون ذلك، ولو كرهوا، ثم أكد هذا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أي: بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات، والأحكام التي شرعها الله لعباده، ﴿يُؤْيَبِي لِلْحَقِّ﴾ وهو: الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: ليظهر رسوله، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين، وقد وقع ذلك وشه الحد ﴿يُولُو كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام في ﴿يُولُو كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ كما قلنا ذلك.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقت تركت قبلتنا وأنت لا تزعم عزير ابن الله؟ فانزل الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عنه، قال: كنّ نساء بني إسرائيل يجتمعن بالليل فيصليهن ويعتزلن وينكرن ما فضل الله به بني إسرائيل وما أعطاهم، ثم سلط عليهم شر خلقه بختنصر،

فحرق التوراة وخرّب بيت المقدس، وعزير يومئذ غلام، فقال عزير: أو كان هذا؟ فلحق بالجمال والوحش، فجعل يتعبد فيها، وجعل لا يخالط الناس، فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهي تبكي، فقال: يا أمه اتقي الله واحتسبي واصبري، أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت؟ فقالت: يا عزير أنتهاني أن أبكي، وأنت قد خلفت بني إسرائيل، ولحققت بالجمال والوحش؟ ثم قالت: إني لست بامرأة ولكني الدنيا، وإنه سينبع في مصلاك عين وتنتب شجرة، فاشرب من ماء العين وكل من ثمر الشجرة، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا؛ فلما كان من الغد نبعت العين ونبتت الشجرة، فشرّب من ماء العين وأكل من ثمرة الشجرة، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فآلهم الله التوراة، فجاء فأملاه على الناس، فعند ذلك قالوا عزير ابن الله، تعالى الله عن ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضاً فنذكر قصة وفيها: أن عزير سأل الله بعد ما أنسى بني إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم، أن يرّد الذي نسخ من صدره، فبينما هو يصلي نزل نور من الله عز وجل فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأنز في قومه فقال: يا قوم قد أتاني الله التوراة ورّدها إلي. وأخرج أبو الشيخ، عن كعب، قال: دعا عزير ربه أن يلقي التوراة كما أنزل على موسى في قلبه، فأنزلها الله عليه، فبعد ذلك قالوا: عزير ابن الله. وأخرج ابن مروي، وابن عساكر، عن ابن عباس، قال: ثلاث أشك فيهن: فلا أدري عزير كان نبياً أم لا؟ ولا أدري ألحق تبع أم لا؟ قال: ونسيت الثالثة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿يُضَاهَوْنَ﴾ قال: يشبهون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال: لعنهم الله، وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن. وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه. وأخرجه أيضاً أحمد وابن جرير. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في سننه، عن أبي البحري قال: سأل رجل حذيفة فقال: رأيت قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك، قال: أحبارهم: قراؤهم، ورهبانهم: علماؤهم. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، قال: الأبحار من اليهود، والرهبان من النصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي مثله. وأخرج أيضاً عن الفضيل بن عياض قال: الأبحار: العلماء، والرهبان: العباد.

تجارة أو لهُوا أنفضوا إليها» [الجمعة: 11] أعاد الضمير إلى التجارة، لأنها الأهم؛ وقيل إن الضمير راجع إلى الذهب والفضة معطوفة عليه، والعرب تؤنث الذهب وتذكره؛ وقيل: إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله: «يكنزون» وقيل: إلى الأموال، وقيل: للزكاة، وقيل: إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى، وهو كثير في كلام العرب، وأنشد سيبويه:

نحن بما عنننا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف
ولم يقل: راضون، ومثله قول الآخر:

رمانى بامركنت منه ووالدي برياً ومن أجل الطوى رمانى
ولم يقل: برين، ومثله قول حسان:

إن شرح الشباب والشعر الأسـ ود ما لم يعاض كان جنونا
ولم يقل: يعاضا، وقيل: إن أفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ، لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة واقية، وعدة كثيرة، ودنانير ودرهم، فهو كقوله: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» [الحجرات: 9] وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء، وغالب ما يكنز وإن كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز، قوله: «فبشرهم بعذاب اليم» هو خبر الموصول، وهو من باب التكم بهم كما في قوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

وقيل: إن البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرية لتأثيره في القلب، سواء كان من الفرح أو من الغم. ومعنى «يوم يحمى عليها في نار جهنم» أن النار توقد عليها وهي ذات حمى وحر شديد. ولو قال يوم تحمي: أي الكنوز لم يعط هذا المعنى، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذف النار وأسند الفعل إلى الجار، كما تقول رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت رفع إلى الأمير، وقرأ ابن أمير «تحمي» بالمشناة الفوقية، وقرأ أبو حيوة «فيكوى» بالتحية. وخص الجباه والجنوب والظهور؛ لكون التآلم بكبها أشد لما في داخلها من الأعضاء الشريفة؛ وقيل: ليكون الكي في الجهات الأربع: من قدام، وخلف، وعن يمين، وعن يسار؛ وقيل: لأن الجمال: في الوجه، والقوة: في الظهر والجنبيين، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوة؛ وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف. قوله: «هذا ما كنزتم لأنفسكم» أي: يقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم: أي كنزتموه لتنتفعوا به، فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ «فدوقوا ما كنتم تكنزون» ما مصدرية أو موصولة: أي دوقوا وباله، وسوء عاقبته، وقبح مغبته، وشؤم فائدته.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: «إن كثيراً من الأحيار والرهبان» يعني: علماء اليهود والنصارى «ليأكلون أموال الناس بالباطل» والباطل: كتب كتبها لم ينزلها الله فاكلوا بها أموال الناس، وذلك قول الله تعالى: «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله» [البقرة: 79]. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في

وأخرج أيضاً عن السدي في قوله: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم» قال: يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم» يقول: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: هم اليهود والنصارى. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى» يعني: بالتوحيد والإسلام والقرآن.

﴿يَتْلُوا آيَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا كَثِيرًا مِّنَ الْخَبَرَ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلْنَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَصَمُوا عَلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتُفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحيار والرهبان المتخذين لهم أرباباً نكر حال المتبوعين فقال: «إن كثيراً من الأحيار» إلى آخره، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة، وأثبت هذا للكثير منهم، لأن فيهم من لم يلتبس بذلك، بل بقي على ما يوجبه دينه من غير تحريف ولا تبديل، ولا ميل إلى حطام الدنيا، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحيار والرهبان من علماء الإسلام من لا يأتي عليه الحصر في كل زمان، فإله المستعان، قوله: «ويصنون عن سبيل الله» أي: عن الطريق إليه وهو دين الإسلام، أو عن ما كان حقاً في شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل. قوله: «والذين يكنزون الذهب والفضة» قيل: هم المتقدم ذكرهم من الأحيار والرهبان، وإنهم كانوا يصنعون هذا الصنع؛ وقيل: هم من يفعل ذلك من المسلمين، والأولى حمل الآية على عموم اللفظ، فهو أوسع من ذلك، وأصل الكنز في اللغة: الضم والجمع، ولا يختص بالذهب والفضة. قال ابن جرير: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها. انتهى. ومنه ناقة كنان: أي مكتنزة اللحم، واكتنز الشيء: اجتمع.

واختلف أهل العلم في المال الذي أثبت زكاته هل يسمى كنزاً أم لا؟ فقال قوم: هو كنز، وقال آخرون: ليس بكنز. ومن القائلين بالقول الأول: أبو زر. وقيده بما فضل عن الحاجة. ومن القائلين بالقول الثاني: عمر بن الخطاب، وابن عمر، وابن عباس، وجابر، وأبو هريرة، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم، وهو الحق لما سيأتي من الالة المصراحة بأن ما أثبت زكاته فليس بكنز. قوله: «ولا ينفقونها في سبيل الله» اختلف في وجه أفراد الضمير مع كون المنكور قبله شبيئين، هما الذهب والفضة، فقال ابن الأنباري: إنه قصد إلى الأعم الأغلب، وهو الفضة قال: ومثله قوله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة» [البقرة: 45] رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم، ومثله قوله: «وإذا راوا

وأما إلى النار.. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن زيد بن وهب، قال: مررت على أبي نذر بالزبدية، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ فقال: كنا بالشام فقرات **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** الآية، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قلت: إنها لفينا وفيهم.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَتَتَّبِعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُ كَمَا فُعِلْتُ لَكُمْ كَأَنَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّكَ إِلَهِهُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْمِلُونَ عَنْهَا وَغَصَصُونَ بِهَا عَمَّا يُوَطِّئُونَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَجْلُؤُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِنَّهُمْ لَكُفْرٌ سَوَاءٌ أَعْمَلُوا بِهِ وَآلَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٧﴾

قوله: **﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾** هذا كلام مبتدأ يتضمن نكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك أن الله سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص، غيروا تلك الأوقات بالنسيء والكبيسة، فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال: **﴿إن عدة الشهور﴾** أي: عدد شهور السنة عند الله في حكمه وقضائه وحكمته: اثنا عشر شهراً. قوله: **﴿في كتاب الله﴾** أي: فيما أثبتته في كتابه. قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن يتعلق في كتاب الله بقوله: عدة الشهور، للفصل بالأجنبي وهو الخبر: أعني اثنا عشر شهراً؛ فقوله: في كتاب الله، وقوله: يوم خلق بدل من قوله من عند الله، والتقدير: إن عدة الشهور عند الله في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض. وفائدة الإبداليين تقرير الكلام في الأذهان؛ لأنه يعلم منه أن تلك العدد واجب عند الله في كتاب الله، وثابت في علمه في أول ما خلق الله العالم. ويجوز أن يكون في كتاب الله صفة اثنا عشر: أي اثنا عشر مثبتة في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ. وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وضع هذه الشهور وسمائها باسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض، وأن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم، والروم، والقبط، من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوماً، وبعضها أكثر، وبعضها أقل. قوله: **﴿منها أربعة حرم﴾** هي: ذي القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد؛ كما ورد بيان ذلك في السنة المطهرة. قوله: **﴿ذلك الدين القيم﴾** أي: كون هذه الشهور كذلك، ومنها أربعة حرم هو: الدين المستقيم، والحساب الصحيح، والعدد المستوفى. قوله: **﴿فلا تغفلوا فيهن أنفسكم﴾** أي في هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والهلك لحرمتها؛ وقيل: إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها الحرم وغيرها، وإن الله نهى عن الظلم فيها، والأول: أولى. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال

قوله: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** قال: هؤلاء الذين لا يؤتون الزكاة من أموالهم، وكل ما لا تؤدي زكاته كان على ظهر الأرض أو في بطنها فهو كنز، وكل مال أثبت زكاته، فليس بكنز، كان على ظهر الأرض أو في بطنها، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، من وجه آخر. وأخرج مالك، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عمر، نحوه. وأخرج ابن مردويه، عنه، نحوه مرفوعاً. وأخرج ابن عدي، والخطيب عن جابر، نحوه مرفوعاً أيضاً. وأخرجه ابن أبي شيبة، عنه، موقوفاً. وأخرج أحمد في الزهد، والبخاري، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عمر، في الآية قال: إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال، ثم قال: ما أبالي لو كان عندي مثل أحد ذهباً أعلم عدده وأزكيه، وأعمل فيه بطاعات الله؟ وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب قال: ليس بكنز ما أدى زكاته. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن أم سلمة، مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، في مسنده، وأبو داود، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** كبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرج عنكم، فانطلق عمر واتبه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم، فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: ألا أخبرك بخير ما يكتز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته. وقد أخرجه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، عن سالم بن أبي الجعد من غير وجه عن ثوبان. وحكى البخاري أن سالم لم يسمعه من ثوبان. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** قال: هم أهل الكتاب، وقال: هي خاصة وعامة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: أربعة آلاف فما بونها نفقة وما فوقها كنز. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، عن أبي أمامة قال: حلية السيوف من الكنوز ما أحذركم إلا ما سمعت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عراك بن مالك، وعمر بن عبد العزيز، أنهما قالوا في قوله: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** إنها نسختها الآية الأخرى: **﴿خذ من أموالهم صدقة﴾** [التوبة: 103] الآية. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا جعل لها يوم القيامة صفائح، ثم أحمر عليها في نار جهنم، ثم يكوى بها جنباه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين الناس فيرى سبيله، إما إلى الجنة،

وفيه يقول قائلهم:

ومنا ناسي الشهر القلمس

وقيل: هو عمرو بن لحي، وقيل: هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة، وسمى الله سبحانه النسيء زيادة في الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر. قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ النَّبِيُّ كُفْرًا﴾ قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر ﴿يُضِلُّ﴾ على البناء للمعلوم. وقرأ الكوفيون على البناء للمجهول. ومعنى القراءة الأولى: أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسيء، ومعنى القراءة الثانية، أن الذي سَنَّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة، وقد اختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء وكسر الضاد على أن فاعله الموصول، ومفعوله محذوف، ويجوز أن يكون فاعله هو الله سبحانه، ومفعوله الموصول. وقرأ بفتح الياء والضاد من ضَلَّ يَضِلُّ، وقرأ ﴿نَضَلُّ﴾ بالنون، قوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ الضمير راجع إلى النسيء: أي يحلون النسيء عامًا ويحرمونه عامًا، أو إلى الشهر الذي يؤخرونه ويقاثلون فيه: أي يحلونه عامًا بإبداله بشهر آخر من شهور الحل، ويحرمون عامًا: أي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال، بل يبقونه على حرمة. قوله: ﴿لِيُؤْطَاوُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: لكي يؤاطوا، والمواطاة: الموافقة، يقال: تواطى القوم على كذا: أي توافقوا عليه واجتمعوا. والمعنى: إنهم لم يحلوا شهرًا إلا حرموا شهرًا لتبقى الأشهر الحرم أربعة، قال قطرب: معناه عمدوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم، وقرنوه بالمحرم في التحريم. وكذا قال الطبري. قوله: ﴿فِيحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: من الأشهر الحرم التي أبدلوا بغيرها ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التي يعملونها، ومن جملتها النسيء. وقرأ على البناء للفاعل ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: المصّرّين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

وقد أخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي بكر أن النبي ﷺ خطب في حجة فقال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وأخرج نحوه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من حديث ابن عمر. وأخرج نحوه ابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث ابن عباس. وأخرج نحوه أيضاً البزار، وابن جرير، وابن مردويه، من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد، وابن مردويه، من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه مرفوعاً مطوّلاً. وأخرج سعيد بن منصور،

في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية، ولقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2] ولقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5] الآية.

وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف. ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما في الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم للأهلة الواردة في تحريم القتال فيه، وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو: ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرتهم في ذي القعدة بل في شوال، والمحرم إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع. قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي جميعاً. وهو مصدر في موضع الحال. قال الزجاج: مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع ﴿كَمَا يَقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي جميعاً، وفيه دليل على وجوب قتال المشركين، وأنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ينصرهم ويثبتهم، ومن كان الله معه فهو الغالب، وله العاقبة والغلبة. قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قرأ نافع في رواية ورش عنه النسيء بياء مشددة بدون همز. وقرأ الباقون بياء بعدها همزة، قال النحاس: ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده، وهو مشتق من نساء وأنساه: إذا أخره، حكى ذلك الكسائي. قال الجوهري: النسيء فاعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشيء فهو منسوء: إذا أخرته، ثم تحوّل منسوء إلى نسيء كما تحوّل مقتول إلى قاتيل، قال ابن جرير: في النسيء بالهمزة معنى الزيادة يقال نسا ينسا: إذا زاد، قال: ولا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]، وردّ على نافع قراءته. وكانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرم، حرموا ببله شهر صفر، وهكذا في غيره. وكان الذي يحلهم على هذا: أن كثيراً منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال، وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرب بهم تواليها وتشدد حاجتهم وتعظم فاقتهم، فيحللون بعضها ويحرمون مكانه بقره من غير الأشهر الحرم: فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه. وقد وقع الخلاف في أول من فعل ذلك، فقيل: هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عتيبة، ويلقب القلمس، وإليه يشير الكميت بقوله:

السنا الناشئين على معدّ شهور الحل نجعلها حراما

وَأَنبِئُكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَلْتُ عَنْهُمْ الشُّعْثَ وَرَغَبْتُ عَنْهُمْ لَوْ اسْتَفْطَيْتُمُوهُمْ لَخَرَجَ مَعَكُمْ بِهَلْ كُنْتُمْ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما شرح معاييب أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين في قتالهم، والاستفهام في ﴿هَلْ لَكُمْ﴾ للإنكار والتوبيخ: أي: أي شيء يمنعكم عن ذلك، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، والنفر: هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان، لأمر يحدث. قوله: ﴿أَنَّا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله تشاقلتم، ادغمت التاء في التاء لقربها منها، وجيء بالفاء الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن، ومثله: أذاركوا، وأطيرتم، وأطيروا، وأنشد الكسائي:

توالى الضجيج إذا ما اشتاقها حضرا عذب المذاق إذا ما اتابع القبل
وقرأ الأعمش ﴿تَشَاقَلْتُمْ﴾ على الأصل، ومعناه تباططام، وعدى بـإلى لتضمنه معنى الميل والإخلاء؛ وقيل معناه: ملتم إلى الإقامة بأرضكم والبقاء فيها وقرئ ﴿أَنَّا قُلْتُمْ﴾ على الاستفهام، ومعناه التوبيخ والعامل في الظرف ما في ﴿مَالِكُمْ﴾ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما يمنعكم، أو ما تمنعون إذا قيل لكم؟ و ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق بتشاقلتم وكما مر. قوله: ﴿وَأَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بنعيمها بدلاً من الآخرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مَتَكُمْ مَلَأَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ﴾ [الزخرف: 60] أي بدلاً منكم، ومثله قول الشاعر:

قلبت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان
أي بدلاً من ماء زمزم، والطهيان: عود ينصب في ناحية الدار للهواء يعلق عليه الماء ليبرد، ومعنى: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة، وفي مقابلها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: إلا متاع حقير لا يعبا به، ويجوز أن يراد بالقليل العدم، إذ لا نسبة للمتناهي الزائل إلى غير المتناهي الباقي، والظاهر: أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطى والتثاقل، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل، وهو كثير شائع، قوله: ﴿إِلَّا تَغْفِرُوا يَعْذِبُكُمْ﴾ هذا تهديد شديد، ووعد موكد لمن ترك التغير مع رسول الله ﷺ ﴿يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: يهلككم بعذاب شديد مؤلم؛ قيل: في الدنيا فقط، وقيل هو أعم من ذلك. قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يجعل لرسله بدلاً منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم.

واختلف في هؤلاء القوم من هم؟ فقيل أهل اليمن، وقيل أهل فارس، ولا وجه للتعيين بدون دليل. قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ معطوف على ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾، والضمير قيل: لله، وقيل: للنبي ﷺ؛ أي ولا تضرُّوا الله بترك امتثال أمره بالنفير شيئاً، أو لا تضرُّوا رسول الله بترك نصره والنفير معه شيئاً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن حملة مقبوراته

وابن مردويه، عن ابن عباس ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ﴾ قال: المحرم، ورجب، ونو القعدة، ونو الحجة. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك قال: إنما سمين حرمًا لثلاث يكون فيهن حرب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ ثَلَاثَ عَشْرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرمًا، وعظم حرمتهن، وجعل الدين فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم ﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: في كلهن ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ يقول جميعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل، في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ قال: نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كانت العرب يحلون عاماً شهراً وعاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل سنة، وعشرين سنة مرة، وهي النسبي الذي ذكره الله في كتابه، فلما كان عام حج أبو بكر بالناس، وافق ذلك العام، فسماه الله الحج الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل، واستقبل الناس الأهلة، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الزَّمانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عمر، قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال: «إِنَّمَا النَّسَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ، يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحِلُّونَهُ عَامًا وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا، فَكَانُوا يَحْرُمُونَ الْمُحْرَمَ عَامًا وَيَسْتَحِلُّونَ صَفَرًا، وَيَحْرُمُونَ صَفَرًا عَامًا وَيَسْتَحِلُّونَ الْمُحْرَمَ، وَهِيَ النَّسَبُ». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: كان جنادة بن عوف الكنانى يوافي الموسم كل عام، وكان يكنى أبا ثمامة، فينادي إلا إن أبا ثمامة لا يخاب ولا يعاب، إلا وإن صفر الأول العام حلال، فيحله للناس، فيحرم صفر عاماً، ويحرم المحرم عاماً. فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسَبُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، في الآية قال: للمحرم كانوا يسمونه صفر، وصفر يقولون صفران الأول والآخر، يحل لهم مرة الأول، ومرة الآخر. وأخرج ابن مردويه، عنه، قال: كانت النساء حي من بني مالك من كنانة من بني فقيم، فكان آخرهم رجلاً يقال له القلمس، وهو الذي أنسا المحرم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَوَسَّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْسِلْهُمْ وَالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٣﴾ إِلَّا تَتَوَسَّلُوا بَعْدَ بَعْثِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾ إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ فَاذِلٌّ لَّكَ سَبِيلَهُ وَكَانَ يُنْجِي مَنْ تَرَوُكَا وَيَجْعَلُ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت. قيل: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ [التوبة: 91]، وقيل الناسخ لها قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ [النور: 122] الآية، وقيل: هي محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج﴾ [النور: 61] وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ [التوبة: 91] من باب التخصص، لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: ﴿خفافاً وثقالاً﴾ والظاهر: عدم دخولهم تحت العموم.

قوله: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم. والجهاد من أكد الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو وينفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض، أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين، والإشارة بقوله: ﴿ذلكم﴾ إلى ما تقدم من الأمر بالنفیر، والأمر بالجهاد ﴿خير لكم﴾ أي: خير عظيم في نفسه، وخير: من السكون والدعة ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ذلك، وتعرفون الأشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة. قوله:

﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾. قال الزجاج: لو كان المدعو إليه فحذف لدلالة ما تقدم عليه، والعرض: ما يعرض من منافع الدنيا. والمعنى: غنيمة قريبة غير بعيدة ﴿وسفراً قاصداً﴾ عطف على ما قبله: أي سفراً متوسطاً بين القرب والبعد، وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد ﴿ولكن بعثت عليهم الشقة﴾ قال أبو عبيدة وغيره: إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال منه شقة شاقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضاً: السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر، والمراد بهذا غزوة تبوك، فلأنها كانت سفرة بعيدة شاقة. وقرأ عيسى بن عمر ﴿بعثت عليهم للشقة﴾ بكسر العين والشين ﴿وسيحلفون بالله﴾ أي: المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونكم قائلين ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي: لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بد منه ﴿لخرجنا معكم﴾ هذه الجملة سادة مسددة جواب القسم والشرط. قوله: ﴿يهلكون أنفسهم﴾ هو بدل من قوله: ﴿سيحلفون﴾ لأن من حلف كاتباً فقد أهلك نفسه أو يكون حالاً أي مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك ﴿والله يعلم أنهم لكانبون﴾ في حلفهم الذي سيحلفون به لكم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا﴾ الآية، قال هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وحين أمرهم بالنفیر في الصيف وحين خرفت النخل وطابت الثمار، واشتبهوا الظلال، وشق عليهم المخرج، فأنزل الله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾

تعنيكم والاستبدال بكم. قوله: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي: إن تركتم نصره فإله متكفل به، فقد نصره في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر، أو فسینصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ﴿ثاني اثنين﴾ أي: أحد اثنين، وهما: رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقرئ بسكون الياء، قال ابن جني: حكاهما أبو عمرو بن العلاء، ووجهها أن تسكن الياء تشبيهاً لها بالالف. قال ابن عطية: فهي كقراءة الحسن ﴿ما بقي من الربا﴾ [البقرة: 278]، وكقول جرير:

هو الخليفة فأرضوا ماضيه لكم ماضي العزيمة ما في حكمه جنف قوله: ﴿إذ هما في الغار﴾ بدل من ﴿إذ لخرجه﴾ بدل بعض، والغار: ثقب في الجبل المسمى ثوراً، وهو: المشهور بغار ثور، وهو: جبل قريب من مكة، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وبخولهما الغار مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث. قوله: ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ بدل ثان: أي وقت قوله لأبي بكر: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ أي: دع الحزن، فإن الله بنصره وعونه وتأييده معنا، ومن كان الله معه فلن يغلب، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن. قوله: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ السكينة: تسكين جائشه وتأمينه حتى ذهب روعه، وحصل له الأمن، على أن الضمير في ﴿عليه﴾ لأبي بكر؛ وقيل: هو للنبي ﷺ، ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له، ويؤيد كون الضمير في ﴿عليه﴾ للنبي ﷺ الضمير في ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ فإنه للنبي ﷺ، لأنه المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة، كما كان في يوم بدر؛ وقيل: إنه لا محذور في رجوع الضمير من ﴿عليه﴾ إلى أبي بكر، ومن ﴿وأيده﴾ إلى النبي ﷺ، فإن ذلك كثير في القرآن، وفي كلام العرب ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي: كلمة الشرك، وهي دعوتهم إليه. وندأؤهم للأصنام ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ قرأ الأعمش، ويعقوب بنصب كلمة حملاً على جعل، وقرأ الباقر برفعها على الاستئناف. وقد ضعف قراءة النصب للفراء، وأبو حاتم، وفي ضمير الفصل، أعني ﴿هي﴾ تأكيد لفضل كلمته في العلو، وأنها المختصة به دون غيرها، وكلمة الله هي كلمة التوحيد، والدعوة إلى الإسلام ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب، ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول ﷺ وضرب له من الأمثال ما نكره عقبه بالأمر الجزم فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي: حال كونكم خفافاً وثقالاً، قيل المراد: منفردين أو مجتمعين، وقيل: نشاطاً وغير نشاط، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: شباباً وشيوخاً، وقيل: رجالاً وفرساناً، وقيل: من لا عيال له ومن له عيال، وقيل: من يسبق إلى الحرب كالطلائع، ومن يتأخر كالجيوش، وقيل: غير ذلك. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني، لأن معنى الآية:

تحقق الريب في قلوبهم، وهو: الشك. قوله: ﴿فَهِم فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: في شكهم الذي حلّ بقلوبهم يتحيرون، والتردد: التحير. والمعنى: فهؤلاء الذين يستأنونك ليسوا بمؤمنين، بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب، ولا يعرفون الحق. قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعْنَوْا لَهُمْ عِدَّةً﴾ أي: لو كانوا صابقين فيما يدعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاج إليه، لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد، كما يستعدّ لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام: أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو. والعدة ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح. قوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: ولكن كره الله خروجهم، فتشبّطوا عن الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا ولكن تشبّطوا، لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تشبّطهم عن الخروج، والانبعاث الخروج: أي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤن لنا في الجلوس، أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين؛ وقيل المعنى: لو أرادوا الخروج لأعناؤا له عدة، ولكن ما أرادوه لكراهة الله له قوله: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِيِّنَ﴾ قيل: القائل لهم هو الشيطان بما يليق به إليهم من الوسوسة، وقيل: قاله بعضهم لبعض. وقيل: قاله رسول الله ﷺ غضباً عليهم، وقيل هو عبارة عن الخذلان: أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاناً لهم. ومعنى: ﴿مَعَ الْقَاعِيِّنَ﴾ أي: مع أولي الضرر من العميان، والمرضى، والنساء، والصبيان، وفيه من الدّم لهم والإزراء عليهم والتقصص بهم ما لا يخفى. قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عن تخلف المنافقين، والخيال: الفساد والنميمة، وإيقاع الاختلاف والأراجيف. قيل هذا الاستثناء منقطع: أي ما زادوكم قوة، ولكن طلبوا الخبال؛ وقيل المعنى: لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأي إلا خبالاً فيكون متصلاً؛ وقيل هو استثناء من أعمّ العام: أي ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً. فيكون الاستثناء من قسم المتصل، لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء. قوله: ﴿وَلَوْ أَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الإيضاع: سرعة السير، ومنه قوله ورقة بن نوفل:

يأليتني فيها جذع أخبّ فيها واضع
يقال أوضع البعير: إذا أسرع السير، وقيل: الإيضاع سير الخب، والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال: أي الفرج التي تكون بين الصفوف. والمعنى: لسعوا بينكم بالإفساد بما يخلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين. قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يقال بغيته كذا: طلبته له، وأبغيته كذا: أعتته على طلبه. والمعنى: يطلبون لكم الفتنة في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد؛ وقيل الفتنة هنا الشرك. وجملة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ في محل نصب على

بِكُتْلٍ أَتَدْنُ لِي وَلَا تَمُقُّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَمَلُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٩١﴾

الاستفهام في ﴿عفا الله عنك لم أنتت لهم﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله ﷺ حيث وقع منه الإذن لما استأنه في القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم في عنده الذي أبداه، ومن هو كاذب فيه. وفي ذكر العفو عنه ﷺ ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه؛ وقيل: إن هذا عتاب له ﷺ في إذنه للمنافقين بالخروج معه، لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج. والأول: أولى، وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَأْنَوْكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْ لَمْ تَشَأْ مِنْهُمْ﴾ [النور: 62] ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات، والله أعلم. وقيل: إن قوله: ﴿عفا الله عنك﴾ هي افتتاح كلام كما تقول: أصلحك الله، وأعزّك ورحمك، كيف فعلت كذا، وكذا حكاة مكي والنحاس، والمهدي، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك، وعلى التأويل الأول: لا يحسن. ولا يخفك أن التفسير الأول هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي. وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه ﷺ، والمسألة مدونة في الأصول، وفيها أيضاً دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة، والاعتراض بظواهر الأمور، و«حتى» في «حتى يتبين لك الذين صدقوا» للغاية، كانه قيل: لم سارعت إلى الإذن لهم؛ وهما تأنيث حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه، وكذب من هو كاذب منهم في ذلك؟ ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأنوا رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد، بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك. فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَجَاهِدُوا﴾ وهذا على أن معنى الآية أن لا يجاهدوا على حذف حرف النفي؛ وقيل المعنى: لا يستأنوك المؤمنون في التخلف كراهة الجهاد؛ وقيل: إن معنى الاستئذان في الشيء الكراهة له، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى: لا يستأنوك المؤمنون في الجهاد، بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم، لوقوع الإذن منك فضلاً عن أن يستأنوك في التخلف. قال الزجاج: أن يجاهدوا في موضع نصب بإضمار في: أي في أن يجاهدوا. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وهم هؤلاء الذين لم يستأنوا ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ، وَالتَّخَلُّفِ عَنْهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهم: المنافقون، وذكر الإيمان بالله أولاً، ثم باليوم الآخر ثانياً في الموضعين، لأنهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله. قوله: ﴿وَأَرْتَابَ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وجاء بالماضي للدلالة على

فقال: **﴿عفا الله عنك لم أنتهت لهم﴾** وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **﴿عفا الله عنك﴾** الآية قال: ناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فلين أنن لكم، فاقعدوا؛ وإن لم يأنن لكم، فاقعدوا. وأخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس في قوله: **﴿عفا الله عنك لم أنتهت لهم﴾** الثلاث الآيات، قال: نسخها: **﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأنن لمن شئت منهم﴾** [النور: 62]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، عنه، في قوله: **﴿لا يستأنك الذين يؤمنون بالله﴾** الآية قال: هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد بغير عذر، وعذر الله المؤمنين فقال: **﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأنن لمن شئت منهم﴾** [النور: 62]. وأخرج أبو عبيدة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عنه، أيضاً في قوله: **﴿لا يستأنك﴾** الآيتين قال: نسختها الآية التي في سورة النور: **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾** إلى **﴿إن الله غفور رحيم﴾** [النور: 62] فجعل الله النبي ﷺ بأعلى النظيرين في ذلك، من غزا غزا في فضيلة، ومن قعد قعد في غير حرج إن شاء الله. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: **﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾** قال: خروجهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فثبطهم﴾** قال: حبسهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: **﴿ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾** قال: هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: **﴿ولا أوضعوا خلالكم﴾** قال: لأسرعوا بينكم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿ولا أوضعوا خلالكم﴾** قال: لأرضوا **﴿يبغونكم للفتنة﴾** يبطئونكم: عبد الله بن نبتل، وعبد الله بن أبي ابن سلول، ورفاعة بن تابوت، وأوس بن قيطي **﴿وفيكم سماعون لهم﴾** محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين، وهم عيون للمنافقين. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن ابن عباس، قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك، قال لجذ بن قيس: يا جذ بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أقتن، فأنن لي ولا تفتني، فأنزل الله: **﴿ومنهم من يقول لئن لي﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن عائشة، نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ولا تفتني﴾** قال: لا تخرجني **﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾** يعني في الخروج. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿ولا تفتني﴾** قال: لا تؤمّني **﴿ألا في الفتنة﴾** ألا في الإثم، وقصة تبوك منكرة في كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها.

الحال: أي والحال أن فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب، فينقله إليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم، والفساد لإخوانكم **﴿والله عليم بالظالمين﴾** وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم، فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم، وكره انبعاثهم معكم؛ ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدم من عتابه على الإنن لهم في التخلف؛ لأنه سارع إلى الإنن لهم، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب ﷺ على تسرعه إلى الإنن لهم قبل أن يتبين له الصائق منهم في عذره من الكائب، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة **﴿فإن رجعتك إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾** [التوبة: 83] الآية، وقال في سورة الفتح: **﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم﴾** إلى قوله **﴿قل لن تتبعون﴾** [الفتح: 15]. قوله: **﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾** أي: لقد طلبوا الإفساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشيت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها. كما وقع من عبد الله بن أبي وغيره **﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾** [التوبة: 32]. قوله: **﴿وقلبوا لك الأمور﴾** أي: صرفوها من أمر إلى أمر، وبدروا لك الحيل والمكائد، ومنه قول العرب «حوّل قلب» إذا كان دائراً حول المكائد والحيل، يدير الرأي فيها ويتبدره. وقري «وقلبوا» بالتخفيف **﴿حتى جاء الحق﴾** أي: إلى غاية هي مجيء الحق، وهو النصر لك والتأييد **﴿وظهر أمر الله﴾** بإعزاز دينه، وإعلاء شرعه، وقهر أعدائه؛ وقيل الحق القرآن **﴿وهو كارهون﴾** أي: والحال أنهم كارهون لمجيء الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم **﴿ومنهم﴾** أي: من المنافقين **﴿من يقول﴾** لرسول الله ﷺ **﴿لئن لي﴾** في التخلف عن الجهاد **﴿ولا تفتني﴾** أي: لا توقعني في الفتنة: أي الإثم، إذا لم تأنن لي فتخلفت بغير إنك؛ وقيل معناه: لا توقعني في الهلكة بالخروج **﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾** أي: في نفس الفتنة سقطوا، وهي فتنة التخلف عن الجهاد، والاعتذار الباطل. والمعنى: أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإنن لهم يقعون في الفتنة، وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة. وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة، ثم توعدهم على ذلك فقال: **﴿وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾** أي: مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصاً، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال.

وقد أخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن جرير عن عمرو بن ميمون، قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فأنزل الله: **﴿عفا الله عنك لم أنتهت لهم﴾** وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عون بن عبد الله، قال: سمعت بمعاينة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة.

أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيداً لفائدة غير فائدة الآخر، والتأسيس خير من التأكيد. ومعنى: ﴿هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيتين: إما النصر أو الشهادة، وكلاهما مما يحسن لدينا، والحسن تأنيت الأحسن، ومعنى الاستفهام: التقرع والتوبيخ ﴿وفحن نتريص بكم﴾ إحدى المساءتين لكم: إما ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ أي: قارعة نازلة من السماء، فيسحقكم بعذابه، ﴿أو﴾ بعباد لكم ﴿بأيدينا﴾ أي: بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والنهب والسبي. والفاء في فتريصوا فصيحة، والأمر للتهديد كما في قوله: ﴿نق إنك أنت العزيز الكريم﴾ [البقرة: 49] أي تربصوا بنا ما نكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم، فستنتظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوؤكم. وقرأ البرزي وابن فليح «هل تربصون» بإظهار اللام وتشديد التاء. وقرأ الكوفيون بإدغام اللام في التاء. وقرأ الباقون بإظهار اللام وتخفيف التاء. قوله: ﴿هل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء، لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم. والتقدير: إن انفقتم طائعين أو مكريين فلن يتقبل منكم؛ وقيل: هو أمر في معنى الخبر: أي انفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم، فهو كقوله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ [التوبة: 80] وفيه الإشعار بتساري الأمرين في عدم القبول، وانتصاب طوعاً أو كرهاً على الحال، فهما مصدران في موقع المشتقين: أي انفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله، أو مكريين بأمر منهما. وسمي الأمر منهما إكراهاً لأنهم منافقون لا يأترون بالأمر. فكانوا بأمرهم الذي لا يأترون كالمكريين على الإنفاق، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكريين منهم، وجملة ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم، والفسق: التمرد والعنق، وقد سبق بيانه لغة وشرعاً؛ ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي: كفرهم بالله ورسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور: الأول: الكفر؛ الثاني: أنهم لا يصلون في حال من الأحوال إلا في جبال الكسل والتثاقل، لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظهيراً بالإسلام الذي يبطنون خلفه؛ والثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون، ولا ينفقونها طوعاً لأنهم يعنون إنفاقها وضعا لها في مضیعة لعدم إيمانهم بما وعده الله ورسوله. قوله: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ الإعجاب بالشيء: أن يسر به سروراً راض به متعجب من حسنه، قيل: مع نوع من الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه؛ والمعنى: لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ بما يحصل معهم من الغم والحزن عند أن يغنمها المسلمون،

إن نصيبك حسنة نسوهم وإن نصيبك مصيبة يقولوا قد أعدنا أمرنا من قبل وكنولوا وهم كبروت ﴿٥٦﴾ قل أن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿٥٧﴾ قل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بمذاب من عنده أو بأيدينا فترصوا إنا معكم مترصون ﴿٥٨﴾ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل بكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿٥٩﴾ وما سنهم أن يقبل منهم فنقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلوة ولا وهم كسالك ولا ينفقون إلا وهم كبرهون ﴿٦٠﴾ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزقق أنفسهم وهم كبرهون ﴿٦١﴾ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم بكم ولكنهم قوم يكرهون ﴿٦٢﴾ لو يحدث ملجأ أو معرب أو مدخل لولوا إليه وهم يبحرون ﴿٦٣﴾

قوله: ﴿إن نصيبك حسنة﴾ أي: حسنة كانت بأي سبب اتفق، كما يفيد وقوعها في حيز الشرط، وكذلك القول في المصيبة، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيد السياق دخولاً أولاً، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة: الغنيمة والظفر. ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة: الخيبة والانهازم، وهذا نكر نوع آخر من خبت ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم، والإخبار بعظيم عدوانهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية، ومعنى ﴿تولوا﴾ رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع، ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين، ومعنى قوله: ﴿قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ أي: احتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة، ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في كتابه المنزل علينا، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن، وأن كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة ﴿هو مولانا﴾ أي: ناصرنا وجاعل العاقبة لنا، ومظهر دينه على جميع الأديان، والتوكل على الله تفويض الأمور إليه؛ والمعنى: أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصاً بالله سبحانه، لا يتوكلون على غيره. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿يصيبنا﴾ بتشديد الياء. وقرأ عيين قاضي الري «يصيبنا» بنون مشددة. وهو لحن لأن الخبر لا يؤكد. ورد بمثل قوله تعالى: ﴿هل يذهب كيد ما يغيظ﴾ [الحج: 15]. وقال الزجاج: معناه لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصر عليكم أو الشهادة. وعلى هذا القول يكون قوله: ﴿هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ تكريراً لفرض التأكيد، والأول:

ويأخذونها قسراً من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة أعينهم، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يحق للتصدق به، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين، فيعذبون بما ينفقون. قوله: **﴿وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾** الزموق: الخروج بصعوبة، والمعنى: أن الله يريد أن تزهد أنفسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتمايبهم في الضلالة، ثم نكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: **﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾** أي: من جملتكم في دين الإسلام، والانقياد لرسول الله ﷺ، ولكتاب الله سبحانه: **﴿وما هم منكم﴾** في ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم **﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾** أي: يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركون من القتل والسبي، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم لا عن حقيقة **﴿لو يجدون ملجأ﴾** يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره **﴿أو مغارات﴾** جمع مغارة من غار يغير. قال الأخفش: ويجوز أن يكون من أغار يغير، والمغارات: الغيران والسرايب، وهي: المواضع التي يستتر فيها، ومنه غار الماء وغارت العين؛ والمعنى: لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هرباً منكم **﴿أو مخابئ﴾** من الدخول: أي مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات. قال النحاس: الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالاً، وقيل أصله متدخل. وقرأ أبي «متخلأ» وروى عنه أنه قرأ «مندخلأ» بالنون. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق، وابن محيصن «أو مبخلاً» بفتح الميم وإسكان الدال. قال الزجاج: ويقرأ «أو مبخلاً» بضم الميم وإسكان الدال. وقرأ الباقون بتشديد الدال مع ضم الميم **﴿لولوا إليه﴾** أي: لالتجئوا إليه وأنخلوا أنفسهم فيه **﴿و﴾** الحال أنهم **﴿يجمعون﴾** أي يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء، من جمع الفرس: إذا لم يردّه اللجام، ومنه قول الشاعر:

سبوح جموح وإحضارها كعمعة السعف الموقد
والمعنى: لو وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المنكورة لولوا إليه مسرعين هرباً من المسلمين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن جابر بن عبد الله، قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهلوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي وأصحابه، فساءهم ذلك فأنزل الله **﴿إن تصيبك حسنة تسؤهم﴾** الآية. وأخرج سنيد، وابن جرير، عن ابن عباس **﴿إن تصيبك حسنة تسؤهم﴾** يقول: إن يصيبك في سفرك هذه الغزوة تبوك حسنة تسؤهم قال: الجد وأصحابه، يعني الجد بن قيس. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي: **﴿قل لن**

يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ قال: إلا ما قضى الله لنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: **﴿هل تريصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾** قال: فتح أو شهادة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جرير، في قوله: **﴿لو بآيينا﴾** قال: القتل بالسيوف. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، قال: قال الجد بن قيس إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالي، قال: ففيه نزلت **﴿قل لتنفقوا طوعاً أو كرها﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿فلا تعجبك أموالهم﴾** قال: هذه من تقايم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: **﴿وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾** قال: تزهد أنفسهم في الحياة الدنيا **﴿وهم كافرون﴾** قال: هذه آية فيها تقديم وتأخير. وأخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك، في قوله: **﴿فلا تعجبك﴾** يقول: لا يغررك **﴿وتزهد﴾** قال: تخرج أنفسهم، قال في الدنيا وهم كافرون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿لو يجدون ملجأ﴾** الآية قال: الملجأ: الحز في الجبال، والمغارات: الغيران، والمخئل: السرب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي **﴿وهم يجمعون﴾** قال: يسرعون.

وَمِنْهُمْ مَّن يَلْتَمِزُ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَظُنُّونَ ﴿٨١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلشَّرْعِ وَالسَّكِينِ وَالْمَسْكِينِ عَلَيْهِ وَالْمَوْلَى لَوْلَاهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالْفَرِيمِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ قَرِيبَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨٣﴾

قوله: **﴿وومنهم من يلمزك﴾** هذا نكر نوع آخر قبائحهم، يقال لمزه يلمزه: إذا عابه. قال الجوهري: اللمز العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، وقد لمزه يلمزه ويلمزه، ورجل لماز، ولمزة: أي عياب. قال الزجاج: لمزت الرجل المزمه والمزمه، بكسر الميم وضمها: إذا عيبته، وكذا همزته. ومعنى الآية: ومن المنافقين من يعيبك في الصدقات: أي في تفريقها وقسمتها. وروى عن مجاهد أنه قال: معنى **﴿يلمزك﴾** يرزؤك ويسالك، والقول عند أهل اللغة هو الأول، كما قال النحاس. وقرأ يلمزك بضم الميم، ويلمزك بكسرهما مع التشديد. وقرأ الجمهور بكسرهما مخففة **﴿فإن أعطوا منها﴾** أي: من الصنقات بقر ما يريدون **﴿رضوا﴾** بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبوه، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، وليسوا من الدين في شيء **﴿وإن لم يعطوا منها﴾** أي: من الصنقات ما يريدونه ويطلبونه **﴿إذا هم يستظنون﴾** أي: وإن لم يعطوا فاجثوا السخط، وفائدة إذا الفجائية أن الشرط

[الكهف: 79] فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر. وربما ساءت جملة من المال، ويؤيده تعوّد النبي ﷺ من الفقر مع قوله: «اللهم أحييني مسكيناً وأمّتي مسكيناً» وإلى هذا ذهب الأصمعي وغيره من أهل اللغة. وحكاها الطحاوي عن الكوفيين، وهو أحد قولي الشافعي وأكثر أصحابه. وقال قوم: إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولي الشافعي، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، وبه قال أبو يوسف. وقال قوم: الفقير المحتاج المتعفف، والمسكين السائل. قاله الأزهري، واختاره ابن شعبان، وهو مروى عن ابن عباس. وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتد بها. والأولى في بيان ماهية المسكين: ما ثبت عن رسول الله ﷺ عند البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس قترده اللقمة واللقمتان والتمرّة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يظن له فيصدق عليه. ولا يسأل الناس شيئاً». قوله: «والعالمين عليها» أي: السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحقيق الزكاة فإنهم يستحقون منها قسطاً.

وقد اختلف في القدر الذي يأخونه منها، ف قيل الثمن. روي ذلك عن مجاهد والشافعي. وقيل: على قدر أعمالهم من الأجرة، روي ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه. وقيل يعطون من بيت المال قدر أجرتهم. روي ذلك عن مالك، ولا وجه لهذا، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيباً من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشمياً أم لا؟ فمنعه قوم، وأجازه آخرون. قالوا: ويعطى من غير الصدقة. قوله: «والمؤلفة قلوبهم» هم قوم كانوا في صدر الإسلام، فقيل: هم الكفار الذين كان النبي ﷺ يتألفهم ليسلموا. وكانوا لا يدخلون في الإسلام بالقهر والسيف، بل بالعطاء؛ وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم يحسن إسلامهم، فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء؛ وقيل: هم من أسلم من اليهود والنصارى؛ وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع أعطاهم النبي ﷺ ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. وقد أعطى النبي ﷺ جماعة ممن أسلم ظاهراً كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك، وأعطى آخرين دونهم.

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا؟ فقال عمر، والحسن، والشعبي: قد انقطع هذا الصنف بركة الإسلام وظهوره، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي: وقد ادعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك. وقال جماعة من العلماء: سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام، وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين. قال يونس: سألت الزهري عنهم فقال: لا أعلم نسخ ذلك، وعلى القول الأول

مفاجئ للجزء وهاجم عليه. وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله» أي: ما فرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات، وجوب لو محذوف: أي لكان خيراً لهم، فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل «وقالوا حسبنا الله سؤدتنا الله من فضله ورسوله» أي: قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله ﷺ ما هو لهم: أي كفانا الله، سيعطينا من فضله، ويعطينا رسوله بعد هذا ما نرجوه ونؤمله «إننا إلى الله راغبون» في أن يعطينا من فضله ما نرجوه. قوله: «إنما الصدقات للفقراء» لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ في قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعا لطعنهم، وقطعاً لشغبهم، و«إنما» من صيغ القصر، وتعريف الصدقات للجنس: أي جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها، بل هي لهم لا لغيرهم.

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة؟ فذهب إلى الأول الشافعي وجماعة من أهل العلم، وذهب إلى الثاني: مالك وأبو حنيفة، وبه قال عمر، وحنيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران. قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم: احتج الأولون بما في الآية من القصر، وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك. وأجاب الآخرون بأن ما في الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف، لا لوجوب استيعاب الأصناف، وبأن في إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف، ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى: «إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم» [البقرة: 271] والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المنبوبة. وصح عنه ﷺ أنه قال: «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأرأها في فقرائكم». وقد ادعى مالك الإجماع على القبول الآخر. قال ابن عبد البر: يريد إجماع الصحابة، فإنه لا يعلم له مخالفاً منهم. قوله: «للفقراء» قدمهم لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم.

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال: فقال يعقوب بن السكيت، والقتبي، ويونس بن حبيب: إن الفقير أحسن حالاً من المسكين، قالوا: لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه. والمسكين الذي لا شيء له، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة، وقال آخرون بالعكس، فجعلوا المسكين أحسن حالاً من الفقير، واحتجوا بقوله تعالى: «إما السفينة فكانت لمساكين»

ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: **«ومنهم من يلمزك»** قال: يرزؤك يسالك. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة قال: يطعن عليك. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود قال: لما قسم النبي ﷺ غنائم حنين، سمعت رجلاً يقول: إن هذه لقسمة ما أريد بها الله، فأتيت النبي ﷺ، ونكرت ذلك له، فقال: «رحمة الله على موسى قد أؤذي بكثرة من هذا فصبر، ونزل **«ومنهم من يلمزك في الصدقات»**». وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: نسخت هذه الآية كل صدقة في القرآن **«إنما الصدقات للفقراء»** الآية. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن حنيفة، في قوله: **«إنما للصدقات للفقراء»** الآية قال: إن شئت جعلتها في صنف واحد من الأصناف الثمانية التي سمى الله أو صنفين أو ثلاثة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي العالية، والحسن، وعطاء، وإبراهيم، وسعيد بن جبيرة، نحوه. وأخرج ابن المنذر، والنحاس، عن ابن عباس، قال: الفقراء فقراء المسلمين. والمساكين: الطوائف. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: الفقير الذي به زمانة، والمسكين: المحتاج الذي ليس به زمانة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عمر، في قوله: **«إنما للصدقات للفقراء»** قال: هم زماني أهل الكتاب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **«والعاملين عليها»** قال: السعاة أصحاب الصدقة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **«والمؤلفة قلوبهم»** قال: هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا، وكان يرخص لهم من الصدقات، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيراً قالوا: هذا دين صالح، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي سعيد، قال: بعث علي بن أبي طالب من اليمن إلى النبي ﷺ بذهبية فيها تربتها، فقسمها بين أربعة من المؤلفة: الأقرع بن حابس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الخيل الطائي؛ فقالت قريش والأنصار: يقسم بين صنابيد أهل نجد ويدعنا؟ فقال النبي ﷺ: إنما اتألفهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الزهري أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال: من أسلم من يهودي أو نصراني، قلت: وإن كان موسراً؟ قال: وإن كان موسراً. وأخرج هؤلاء عن أبي جعفر قال: ليس اليوم مؤلفة قلوبهم. وأخرج هؤلاء أيضاً عن الشعبي مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل، في قوله: **«وفي الرقاب»** قال: هم المكاتبون. وأخرج ابن المنذر، عن النخعي، نحوه. وأخرج أيضاً عن عمر بن عبد الله قال: سهم الرقاب نصفان: نصف لكل مكاتب ممن يدعي الإسلام، والنصف الآخر يشتري به رقاب ممن صلى وصام، وقدم إسلامه من نكر وأثنى، يعتقون الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو عبيد، وابن المنذر، عن ابن عباس، أنه كان لا يرى بأساً

يرجع سهمهم لسائر الأصناف. قوله: **«وفي الرقاب»** أي في فك الرقاب بأن يشتري رقاباً ثم يعتقها. روي ذلك عن ابن عباس، وابن عمر، وبه قال مالك، وأحمد بن حنبل، وإسحاق وأبو عبيد. وقال الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبيرة، والنخعي، والزهري، وابن زيد: إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة، وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي، ورواية عن مالك، والأولى حمل ما في الآية على القولين جميعاً لصق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة. قوله: **«والغارمين»** هم: الذين ركبتهم الدين ولا وفاء عندهم بها، ولا خلاف في ذلك إلا من لزمه دين في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب. وقد أمان النبي ﷺ من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها. قوله: **«وفي سبيل الله»** هم الغزاة والمرابطون، يعطون من الصدقة ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر العلماء. وقال ابن عمر: هم الحجاج والعمار، وروي عن أحمد وإسحاق أنهما جعلاهما الحج من سبيل الله. وقال أبو حنيفة وصاحبه: لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيراً منقطعاً به. قوله: **«ولين السبيل»** هو: المسافر، والسبيل الطريق، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها، والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره، فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده، وإن وجد من يسلفه. وقال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى. قوله: **«فريضة من الله»** صمد مؤكد، لأن قوله: **«إنما للصدقات للفقراء»** معناه: فرض الله الصدقات لهم. والمعنى: أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته **«والله عليم»** بأحوال عباده **«حكيم»** في أفعاله؛ وقيل إن «فريضة» منتصبة بفعل مقتر: أي فرض الله تلك فريضة. قال في الكشاف: فإن قلت لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيذان بأننا أرسخ في استحقاق التصق عليهم ممن سبق نكره؛ وقيل النكته في العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى ينصرفوا به كما شاءوا، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لأجلها استحقوا سهم الزكاة، كذا قيل.

وقد أخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري قال: «بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التيمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويحك، ومن يعدل إذا لم اعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه فقال النبي ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» الحديث حتى قال: وفيهم نزلت: **«ومنهم من يلمزك في الصدقات»**. وأخرج

بين الصحيح والباطل، اغتراراً منهم بحلمه عنهم، وصفحه عن جنائياتهم كرمًا وحلمًا وتغاضيًا، ثم أجاب الله عن قولهم هذا، فقال: ﴿قُلْ أَنَّنْ خَيْر لَكُمْ﴾ بالإضافة على قراءة الجمهور. وقرأ الحسن بالتثنية، وكذا قرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه، كأنه قيل: نعم هو أنن، ولكن نعم الآن هو، لكونه أنن خير لكم، وليس بأنن في غير ذلك. كقولهم رجل صدق، يريدون الجودة والصلاح. والمعنى أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر. وقرأ «أنن» بسكون الذال وضمها، ثم فسر كونه أنن خير بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصنق بالله ويصنق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان. فتكون اللام في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتقوية، كما قال الكوفيون، أو متعلقة بمصدر محذوف، كما قال المبرد. وقرأ الجمهور ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالرفع عطف على أنن. وقرأ حمزة بالخفض عطفًا على خير. والمعنى على القراءة الأولى: هو أنه أنن خير، وأنه هو رحمة للمؤمنين، وعلى القراءة الثانية: أنه أنن خير وأنن رحمة. قال النحاس: وهذا عند أهل العربية بعيد، يعني: قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين، وهذا يقبح في المخفوض. والمعنى: أن النبي ﷺ أنن خير للمنافقين ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم، فكانه قال: هو أنن كما قلت لك أنه أنن خير لكم لا أنن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بظنفته. ومعنى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: الذين أظهروا الإيمان وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بما تقدم من قولهم: هو أنن، ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أنية لرسول الله ﷺ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد الألم. وقرأ ابن أبي عتبة «ورحمة للمؤمنين» بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف: أي ورحمة لكم يأتين لكم. ثم نكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الإيمان الكاذبة، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَبِئْسَ كُفُّوا عَنْكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين. وذلك أن المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين، وعلى النبي ﷺ، فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الإيمان الكاذبة: أن يرضوا رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، فنعى الله ذلك عليهم. وقال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أي: هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالإيمان الكاذبة، فإنهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم، وإفراد الضمير في يرضوه إما للتعظيم للجناب الإلهي بإفراده بالذكر، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله. فأرضاء الله إرضاء لرسوله؛ أو المراد: الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، كما قال سيبويه، ورجحه النحاس: أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد؛ أو الضمير راجع إلى المذكور. وهو يصدق عليهما. وقال الفراء: المعنى ورسوله أحق أن يرضوه. والله افتتاح كلام، كما تقول ما شاء الله وشئت،

أن يعطى الرجل من زكاته في الحج، وأن يعتق منها رقبة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن الزهري، أنه سئل عن الغارمين قال: أصحاب الدين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي جعفر، في قوله: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ قال: هو الذي يسأل في دم أو جائحه تصيبه ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هم المجاهدون ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قال: المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: ابن السبيل هو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها، أو الرجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غار في سبيل الله، أو مسكين تصنق عليه فأهدى منها لغني». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى». وأخرج أحمد، عن رجل من بني هلال، قال: سمعت رسول الله ﷺ، فذكر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي عن عبد الله بن عدي بن الجبار، قال: أخبرني رجلان أنهما أتيا رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو يقسم الصدقة فسالاه منها، فرفع فينا البصر وخفضه فرأنا جليين، فقال: إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَوَلُّوهُ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَفْهَمُونَ رَسُولُ اللَّهِ هُمْ عَبْدُ اللَّهِ ۖ يَتَّبِعُونَ الْأَمْرَ وَاللَّهُ يَرْشُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْا بِهِ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِرُ الَّذِي يُرْسِلُ رُسُلَهُ فَارْتَدَّ كُنَّ جَاهِلًا فَخَلَا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ۖ يَحْذَرُ الْمُتَفَقِّهُونَ أَنْ تُرْكَلَ عَلَيْهِمْ مُرُورُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ أَسْتَشِيرُكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْحِكْمَةِ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَعْمُرُ وَلَكُلْ لَقَدْ أَتَيْنَاهُ بِالْحَقِّ ۖ رُسُلِهِ كُنْتُ تَسْتَشِيرُونَ ۖ لَا تَسْأَلُونَهُمْ فَذَرْهُمْ حَتَّى يَبْهَتَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَنْ يَخْشَوْا رَبَّهُمْ وَلَا يَكْفُرُونَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُذِلٍّ ۖ كَانُوا يَجْعَلُونَ

قوله: ﴿ومِنْهُمْ﴾ هذا نوع آخر بما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ، على وجه الطعن والذم هو أنن. قال الجوهري: يقال رجل أنن: إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع ومرادهم، أقمهم الله، أنهم إذا أدوا النبي وبسطوا فيه السنهم. وبلغه ذلك اعتدروا له، وقبل ذلك منهم، لأنه يسمع كل ما يقال له، فيصدقه، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدق أنه إنن مبالغة، لأنهم سموه بالجراحة التي هي آلة السماع، حتى كأن جملة أنن سامعة، ونظيره قولهم: للربيثة عين، وإيذاؤهم له هو قولهم: ﴿هو أنن﴾ لأنهم نسبوه إلى أنه يصنق كل ما يقال له، ولا يفرق

والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم، ولم يعبا بإنكارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين في الإنكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزاء به، والباء لحرف النفي، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته، ثم قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ نهياً لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة، فإن ذلك غير مقبول منهم. وقد نقل الواحدي عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه، من قولهم اعتذر المنزل: إذا درس، واعتذرت المياه: إذا انقطعت ﴿فَقَدْ كَفَرْتُمْ﴾ أي أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بعد إظهاركم الإيمان، مع كونكم تبطنون الكفر ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ وهم من أخلص الإيمان، وترك النفاق، وتلب عنه. قال الزجاج الطائفة في اللغة الجماعة. قال ابن الأنباري: ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿نَعَذِبُ طَائِفَةً بِهِ﴾ سبب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مجرمين﴾ مصريين على النفاق، لم يتوبوا منه، قرئ⁽¹⁾ نَعَبَ بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: كان نيتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ، فيجلس إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال لهم: إنما محمد أذن، من حديثه بشيء صدقه، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذْنٌ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم: خلاص بن سويد بن صامت، ومخشي بن حمير، ووديعة بن ثابت، فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ، فنهى بعضهم بعضاً وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا، فنزل: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿هُوَ أذْنٌ﴾ يعني: أنه يسمع من كل أحد. قال الله تعالى: ﴿أَذْنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بَالِشَ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: يصنق بالله ويصنق المؤمنين. وأخرج الطبراني، وابن عساكر، وابن مردويه، عن عمير بن سعد، قال: في أنزلت هذه الآية ﴿وَيَقُولُونَ هُمُ أذْنٌ﴾ وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة، فيأتي النبي ﷺ، فيسأله حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد، وكروها مجالسته، وقال: ﴿هُوَ أذْنٌ﴾ فأنزلت فيه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: نكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، ولئن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأن شر من الحمير، فسمع بها الرجل إلى نبي الله ﷺ فأخبره، فأرسل

وهذه الجملة أعني: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ لِحَقِّ أَنْ يَرْضَوْهُ﴾ في محل نصب على الحال، وجواب ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ محذوف: أي إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله. قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ قرأ الحسن، وابن هرمز، ألم تعلموا بالفوقية. وقرأ الباقون بالتحتية: والمحاددة وقوع هذا في حد. وذلك في حد كالمشاققة: يقال حاد فلان فلاناً: أي صار في حد غير حده ﴿فَإِنْ لَه نَارُ جَهَنَّمَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي فحق أن له نار جهنم. وقال الخليل وسيبويه: إن «أن» الثانية مبدلة من الأولى، وزعم المبرد أن هذا القول مربوط، وأن الصحيح ما قال الجرمي أن الثانية مكسرة للتوكيد لما طال الكلام. وقال الأخفش المعنى: فوجب النار له، وإنكره المبرد وقال: هذا خطأ من أجل أن «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخير. وقرئ بكسر الهمزة. قال سيبويه، وهي قراءة جيدة، وأنشد:

وإني إذا ملت ركابي مناخها فإني على حظي من الأمر جامع وانتصاب خالداً على الحال. والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما نكر من العذاب. وهو مبتدأ وخبره ﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الخزي البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ إليها غيره، وهو الذل والهوان. قوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ قيل: هو خبر وليس بأمر. وقال الزجاج: معناه ليحذر. فالمعنى على القول الأول: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم. وعلى الثاني: الأمر لهم بأن يحذروا ذلك، وأن «تنزل» في موضع نصب: أي من أن تنزل، ويجوز على قول سيبويه أن يكون في موضع خفض على تقدير من وإعمالها. ويجوز أن يكون النصب على المفعولية. وقد أجاز سيبويه حذرت زيدا، وأنشد:

حذراً سوراً لا تضير وأمن مالم يس ينجليه من الأقدار ومنع من النصب على المفعولية المبرد. ومعنى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين في شأن المنافقين، على أن الضمير للمؤمنين، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين: أي في شأنهم ﴿تَنْبِئُهُمْ﴾ أي: المنافقين ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مما يسرونه فضلاً عما يظهرونه، وهم وإن كانوا عالمين بما في قلوبهم، فالمراد من إنباء السورة لهم إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ هو أمر تهديد: أي افعلوا الاستهزاء، إن الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون، إما بإزالة سورة، أو بإخبار رسوله بذلك أو نحو ذلك. قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: لأن سألتهم عما قالوه من الطعن في الدين، وتلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك، ويطلعك الله عليه، ليقولنَّ إنما كنا نخوض ونلعب، ولم تكن في شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين. ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ لِيَإِلهِ آيَاتِهِ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ والاستفهام للتقرير

(1) صوابه قرنا بالنون على البناء للفاعل؛ وبالياء التحتية والتاء الفوقية على البناء للمفعول اهـ. مصحح القرآن.

قَبْلَكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلِيِّهِمْ
فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِحُلِيِّكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلِيِّهِمْ وَخُضْتُمْ
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَمَلَتْ أَعْنَاقُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٦﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ
وَتَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالَّذِينَ كُنْتَ أَنْتُمْ مُرْسِلُهُمْ
يَاكِينَتِ قِمَاتُكَ اللَّهُ يُظَاهِمُهُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرًا فَسَمُّهُمْ يُظِلُّونَ ﴿٥٧﴾

قوله: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ نذكر هاهنا جملة أحوال المنافقين، وأن نكروهم في ذلك كإثانهم، وأنهم متناهون في النفاق والبعد عن الإيمان، وفيه إشارة إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين، ورد لقولهم ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ [التوبة: 56]، ثم فصل ذلك المجلل ببيان مضادة حالهم لحال المنافقين فقال: ﴿يأمرؤن بالمنكر﴾ وهو كل قبيح عقلاً أو شرعاً ﴿وينهون عن المعروف﴾ وهو كل حسن عقلاً أو شرعاً قال الزجاج: هذا متصل بقوله ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ [التوبة: 56] أي ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض: أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ﴿ويقيضون أيديهم﴾ أي: يشحون فيما ينبغي إخراجهم من المال في الصدقة، والصلة والجهاد، فالقبض كناية عن الشح، كما أن البسط كناية عن الكرم. والنسيان الترك: أي تركوا ما أمرهم به، فتركهم من رحمته وفضله، لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان، ثم حكم عليهم بالفسق: أي الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون في الفسق. ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأنه ﴿نار جهنم﴾ و﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة: أي مقدرين الخلود؛ وفي هذه الآية دليل على أن وعد يقال في الشر، كما يقال في الخير: ﴿هي حسبهم﴾ أي: كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، ﴿و﴾ مع ذلك فقد ﴿لعنهم الله﴾ أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي: نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم. قوله: ﴿كالذين من قبلكم﴾ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب، والكاف محلها رفع على خبرية مبتدأ محذوف: أي أنتم مثل الذين من قبلكم، أو محلها نصب: أي فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأمم. وقال الزجاج: التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلكم؛ وقيل المعنى: فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فحذف المضاف. ثم وصف حال أولئك الكفار الذين من قبلهم، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي ﷺ ﴿قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا﴾ أي: تمتعوا ﴿بخلافهم﴾ أي: نصيبهم الذي قدره الله لهم من ملاذ الدنيا، ﴿فاستمتعتم﴾ أنتم بخلافكم﴾ أي: نصيبكم

إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذي قلت؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصديق، وكذب الكاذب، فأنزل الله في ذلك: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي مثله، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك ﴿لم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ يقول: يعادي الله ورسوله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يحذر المنافقون﴾ الآية قال: يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا هذا. وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن شريح بن عبيد، أن رجلاً قال لأبي الدرداء: يا معشر القراء ما بالكم أجبين منا وأبخل إذا سئلتكم، وأعظم لقمًا إذا أكلتم؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه بشيء، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب، فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك، فقال بثوبه وخنقه وقاده إلى النبي ﷺ، فقال الرجل: إنما كنا نخوض ونلعب، فأوحى الله نبيه ﷺ: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرأتنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً ولا أكذب أسنة، ولا أجبين عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فإنا رأيت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ، والحجارة تنكبه وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي ﷺ يقول: ﴿إيا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾. وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في الضعفاء، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب، في رواية مالك عن ابن عمر، فقال: رأيت عبد الله بن أبي وهو يشتد قدام النبي ﷺ والأحجار تنكبه وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي ﷺ يقول: ﴿إيا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة: في الآية قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوة إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات، فاطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: احبسوا على هؤلاء الركب، فاتاهم فقال: قلتم كذا، قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون. وقد روي نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إن نفع عن طائفة﴾ قال: الطائفة الرجل والفرد.

الْمُنْفِرُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا مِنْ بَعْضِ الْأَمْوَالِ بِالْمُنْكَرِ وَبِهِمْ
عَنِ الْمَرْغُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمْ
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ عَذَابٌ مُؤِيمٌ ﴿٥٩﴾ كَالَّذِينَ مِنْ

والفاء في ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ للعطف على مقدر يدل عليه الكلام: أي فكذبوهم، فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك؛ لأنه قد بعث إليهم رسلاً فأنذروهم وحذروهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بسبب ما فعلوه من الكفر بالله، وعدم الانقياد لأنبيائه، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَا مَرْوَنَ بِالْمَنْكَرِ﴾ قال: هو التكنيب، قال: وهو أنكر المنكر ﴿وَيُنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما أنزل الله، وهو أعظم المعروف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَيُقْبَضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قال: لا يبسطونها بنفقة في حق. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قال: تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: صنيع الكفار، كالكفار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ إلى قوله: ﴿وَوُضِعَ الْمَنْزِلُ حَاضِرًا﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم، والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ قال: بدینهم. وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال الخلاق: الدين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ قال: بنصيبهم في الدنيا. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَوُضِعَ الْمَنْزِلُ حَاضِرًا﴾ قال: لعبتم كالذي لعبوا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قال: قوم لوط اثتفكت بهم أرضهم، فجعل عليها سافلها.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ رُسُلُ اللَّهِ أُولَئِكَ أَصْلَافٌ طَيِّبَاتٌ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الطَّيِّبِينَ ﴿٧٦﴾ وَأُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَالْمُؤْمِنَاتُ جُنَّتْ خُبْرُهُنَّ مِنَ الْفِتَنِ وَهُنَّ حَالِيَاتٌ يُرَى فِي وَجْهِهِنَّ الْكُفْرُ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْمَطِيُّ ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: قلوبهم متحدة في التوائد، والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الإيمان بالله، ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال: ﴿يَا مَرْوَنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿وَيُنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: عما هو منكر في الدين غير معروف، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات؛ لكونهما الركنتين العظيمين فيما يتعلق بالآبدان

الذي قدره الله لكم ﴿كَمَا اسْتَمْتَعْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: انتفعت به كما انتفعوا به، والغرض من هذا التمثيل نَمَّ هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار، في الاستمتاع بما رزقهم الله. وقد قيل: ما فائدة نكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة، ثم في حق المنافقين ثانياً، ثم تكريره في حق الأولين ثالثاً؛ وأجيب بأنه تعالى ذمَّ الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ، فلما قرَّر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم، فيكون ذلك نهاية في المبالغة. قوله: ﴿وَوُضِعَ الْمَنْزِلُ حَاضِرًا﴾ أي كالخوض الذي خاضوا؛ أو كالخوض الذي خاضوا؛ وقيل: أصله كالذين فحذفت النون، والأولى أن يقال إن الذي اسم موصول مثل من وما، يعبر به عن الواحد والجمع، يقال: خضت الماء: أخوضه خوضاً وخياضاً، والموضع مخاضة، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا، وجمعها المخاض والمخاوض؛ ويقال منه خاض القوم في الحديث، وتخاضوا فيه، أي تفاوضوا فيه. والمعنى: خضتم في أسباب الدنيا، واللغو واللعب؛ وقيل في أمر محمد ﷺ بالتكنيب: أي دخلتم في ذلك، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين، والمشبّه بهم ﴿حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت، والمراد بالأعمال ما عملوه مما هو في صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصي؛ ومعنى ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنها باطلة على كل حال: أما بطلانها في الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقراً، ومن العزَّ ذلاً، ومن القوة ضعفاً؛ وأما في الآخرة فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار، ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الأعمال التي يظنونها طاعة وقربة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّمَا يَأْتِيهِمْ﴾ أي: المنافقين ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه وما فعل بهم، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال في المشبه بهم، نكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم، لأن بلادهم وهي الشام قريبة من بلاد العرب، فالاستفهام للتقرير، وأولهم: قوم نوح، وقد أهلكوا بالإغراق، وثانيهم: قوم عاد، وقد أهلكوا بالريح العقيم، وثالثهم: قوم ثمود، وقد أخذوا بالصيحة، ورابعهم: قوم إبراهيم، وقد سلط الله عليهم البعوض، وخامسهم: أصحاب مدين، وهم قوم شعيب، وقد أخذتهم الرجفة، وساسسهم: أصحاب الموتفكات، وهي قرى قوم لوط، وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة؛ وسميت مؤتفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عليها سافلها، والانتفك الانقلاب ﴿فَتَتَّبِعُهُمُ الْبَلْبِينَا﴾ أي: رسل هذه الطوائف الست؛ وقيل: رسل أصحاب الموتفكات؛ لأن رسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولاً،

وصيفاً ووصيفة، فيعطى المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قال: معدن الرجل الذي يكون فيه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه، قال: معدنهم فيها أبداً. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: إذا أخبروا أن الله عنهم راض، فهو أكبر عندهم من التحف والتسليم. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضىتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

يَأْتِيَا النَّبِيَّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُنَّ جَهَنَّمَ وَرِيشَ الْمَصِيرِ ﴿٧٦﴾ بِطُلُوتٍ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَيْفَ الْكُفَرُ وَكَفَرُوا بِمَدِّ إِسْلَامِهِمْ وَكُفُّوا بِمَا لَمْ يَنْتَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ كَانِ يَتُوبُونَ بَكَ حَزَنًا فَرًّا وَإِنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا تُحَرِّفُ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَوْلٍ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾

الأمر للنبي ﷺ بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم، حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله، وقال الحسن: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، واختاره قتادة. قيل في توجيهه: إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود. قال ابن العربي: إن هذه دعوى لا برهان عليها، وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق دائماً، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً، وأخبار المحذوبين تشهد بسيماقتها أنهم لم يكونوا منافقين. قوله: ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ الغلظ: نقيض الرأفة، وهو شدة القلب وخشونة الجانب؛ قيل: وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح، ثم نكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة، فقال: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾.

وقد اختلف أئمة التفسير في سبب نزول هذه الآية، فقيل نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت، ووبعية بن ثابت، وذلك أنه كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين وذمهم، فقالوا: لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير، فقال له عامر بن قيس: أجل، والله إن محمداً لصديق مصدق، وإنك لشر من الحمير، وأخبر عامر بذلك النبي ﷺ، وجاء الجلاس فحلف بالله أن عامراً لكاتب، وحلف عامر لقد قال، وقال: اللهم أنزل على نبيك شيئاً فنزلت، وقيل: إن الذي سمع ذلك عاصم بن عدي، وقيل حنيفة، وقيل بل سمعه ولد امرأته: أي امرأة الجلاس، واسمه عمير بن سعد، فهم الجلاس بقتله لثلاثي يخبر بخبره. وقيل إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي

والأموال، وقد تقدّم معنى هذا. ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ﴾ في صنع ما أمرهم بفعله أو نهاهم عن تركه، والإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف، والسين في ﴿يسيرهم الله﴾ للمبالغة في إنجاز الوعد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأفعاله، ثم نكر تفصيل ما يدخل تحت الرحمة إجمالاً باعتبار الرحمة في الدار الآخرة، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير؛ ومعنى جري الأنهار من تحت الجنات أنها تجري تحت أشجارها وغرفها، وقد تقدّم تحقيقه في البقرة ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت، و ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ يقال عدن بالمكان: إذا أقام به، ومنه المعدن؛ قيل هي أعلى الجنة، وقيل أوسطها، وقيل: قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبي، أو صديق، أو شهيد. وصف الجنة بأوصاف: الأول: جري الأنهار من تحتها، والثاني: أنهم فيها خالدون، والثالث: طيب مساكنها، والرابع: أنها دار عدن: أي إقامة غير منقطعة، هذا على ما هو معنى عدن لغة؛ وقيل: هو علم، والتذكير في رضوان للتحقير: أي ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ حقير يستر ﴿مَنْ﴾ رضوان ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ من ذلك كله الذي أعطاهم الله إياه، وفيه دليل على أنه لا شيء من النعم، وإن جلت وعظمت، يماثل رضوان الله سبحانه، وأن أدنى رضوان منه لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية، وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللهم ارض عنا، رضا لا يشوبه سخط، ولا يكرهه نكد، يا من بيده الخير كله دقه وجه، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدّم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ دون كل فوز مما يعدّه الناس فوزاً.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن الضحاک، في قوله: ﴿يَا مَرْوَنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله، والنفعات في سبيل الله، وما كان من طاعة الله ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشر والكفر قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قال: إخوانهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية لله، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن قال: سألت عمران بن حصين، وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قال: على الخبير سقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: قصر من لؤلؤة في الجنة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش امرأة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام، في كل بيت سبعون

باسه ما قال ولكن كذب علي عمير، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِأَسْمَاءِ مَا قَالُوا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن أنس بن مالك قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي ﷺ يخطب: إن كان هذا صادقاً لنحن شر من الحمير؛ قال زيد: هو والله صادق، وانت شر من الحمير، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فجحد القائل، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِأَسْمَاءِ مَا قَالُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، وأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِأَسْمَاءِ مَا قَالُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: نكر لنا أن رجلين اقتتلا، أحدهما من جهينة والآخر من غفار، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، فظهر الغفاري على الجهني، فقال عبد الله بن أبي الأس: انصروا أخاكم، والله، ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك ياكلك» والله ﷻ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» [المنافقون: 8] فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِأَسْمَاءِ مَا قَالُوا﴾ الآية، وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية، وفيما ذكرناه كفاية. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنْتَلُوا﴾ قال: هم رجل يقال له الأسود بقتل النبي ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنْتَلُوا﴾ قال: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي بجاج. وأخرج ابن ماجه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس، قال: قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ فجعل بيته اثني عشر ألفاً، وذلك قوله: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنْتَلُوا﴾ أن اغناهم الله ورسوله من فضله. قال: بأخذهم اللية.

وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ كَيْفَ أَتَيْنَا مِنْ قَبْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُفِّرُنَّ مِنْ الْغَنِيِّ ۖ فَلَمَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيَّزُوا بِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ شَرِيعُونَ ۖ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَكُونُوا الْمَطْرُوعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَعْدَاءِ وَالْكَافِرِينَ لَا يَحْدُثُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾

اللام الأولى، وهي ﴿لئن أتانا﴾ الله ﴿من فضله﴾ لام القسم، واللام الثانية، وهي ﴿لنصدقن﴾ لام الجواب للقسم

رأس المنافقين لما قال: ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك ياكلك»، و ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ [المنافقون: 8] فأخبر النبي ﷺ بذلك، فجاء عبد الله بن أبي، فحلف أنه لم يقله. وقيل إنه قول جميع المنافقين، وأن الآية نزلت فيهم، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل، ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف. ثم رد الله على المنافقين وكذبهم وبين أنهم حلفوا كذباً، فقال: ﴿ولقد قالوا كلمة للكفر﴾ وهي ما تقدم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي: كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام، وإن كانوا كفاراً في الباطن. والمعنى: أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم. قوله: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنْتَلُوا﴾ قيل: هو مهمم بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك؛ وقيل هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبي، وقيل: هو هم الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة، فأخبر رسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو إغناء الله لهم من فضله، والاستثناء مفرغ من أعم العام، وهو من باب قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب ومن باب قول الشاعر:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم. وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش، فلما قدم النبي ﷺ المدينة اتسعت معيشتهم، وكثرت أموالهم. قوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكْ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذي فعلوه من التوبة خيراً لهم في الدين والدنيا، وقد تاب الجلاب بن سويد، وحسن إسلامه، وفي ذلك ليل على قبول التوبة من المنافق والكافر.

وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق، فممنع من قبولها مالك وأتباعه، لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو في كل حين يظهر التوبة والإسلام ﴿وَإِنْ يَتُوبُوا﴾ أي: يعرضوا عن التوبة والإيمان ﴿يَعْنِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا لِيَمَّا فِي النَّفْسِ﴾ بالقتل والأسر، ونهب الأموال ﴿وَوَيْ﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ بعذاب النار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يواليهم ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ ينصرهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن كعب بن مالك، قال: لما نزل القرآن فيه نكر المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير، فسمعها عمير بن سعد، فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي أثراً وأعزهم علي أن يدخل عليه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن نكرتها لتفضحك، ولئن سكنت عنها لتهلكني، وإحداهما أشد علي من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال الجلاس، فحلف

والشرط. ومعنى: **«لنصدقن»** لنخرج الصدقة، وهي أعم من المفروضة وغيرها **«ولنكونن من الصالحين»** أي: من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرّماته **«فلما آتاهم من فضله يخلوا به وتولوا وهم معرضون»** أي: لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق يخلوا به: أي بما آتاهم من فضله، فلم يتصدقوا بشيء منه كما حلفوا به **«وتولوا»** أي: عرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله، **«و»** الحال أن **«هم معرضون»** في جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده. قوله: **«فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقىونه»** النفاق هو الله سبحانه: أي فأعقبهم الله بسبب البخل الذي وقع منهم والإعراض، نفاقاً كائناً في قلوبهم، متمكناً منها، مستمراً فيها **«إلى يوم يلقون»** الله عزّ وجلّ، وقيل إن الضمير يرجع إلى البخل: أي فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقاً كائناً في قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم: أي جزاء بخلهم. ومعنى **«فأعقبهم»** أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل، والباء في **«بما أخلفوا الله ما وعده»** للسببية: أي بسبب إخلافهم لما وعده من التصقّ والصلاح، وكذلك الباء في **«وبما كانوا يكتبون»** أي: وبسبب تكتبيهم بما جاء به رسول الله ﷺ، ثم أنكر عليهم فقال **«الم يعلموا»** أي المنافقون، وقرئ بالفوقية خطاباً للمؤمنين **«إن الله يعلم سرهم ونجواهم»** أي: جميع ما يسرونه من النفاق، وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي ﷺ، وعلى أصحابه، وعلى دين الإسلام **«وإن الله علام الغيوب»** فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة كائناً ما كان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين. قوله: **«الذين يلمزون المطّوعين»** الموصول محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجزّ بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم، ومعنى **«يلمزون»** يعيبون. وقد تقدّم تحقيقه، والمطّوعين: أي المتطّوعين، والتطوّع: التبرّع. والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوّعوا بشيء من أموالهم وأخرجوه للصدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى الله عن هذا، ويقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء، ولم يكن لله خالصاً، و **«في الصدقات»** متعلق بيلمزون: أي يعيبونهم في شأنها. قوله: **«والذين لا يجدون إلا جهدهم»** معطوف على المطّوعين: أي يلمزون المتطّوعين، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم؛ وقيل معطوف على المؤمنين: أي يلمزون المتطّوعين من المؤمنين، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم، وقرئ «جهدهم» بفتح الجيم، والجهد بالضم الطاقة، وبالفتح المشقة، وقيل: هما لغتان ومعناهما واحد، وقد تقدّم بيان ذلك. والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم. قوله: **«فيسخرون منهم»** معطوف على يلمزون: أي يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه في

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال، والطبراني، وابن منده، والبارودي، وأبو نعيم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر، عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، ويك يا ثعلبة قليل قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه. قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، ويحك يا ثعلبة: أما تحب أن تكون مثلي، فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه قال ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه. فقال رسول الله ﷺ: اللهم أرزقه مالا؛ قال: فاتخذ غنماً فتمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة، فتنحى بها، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ، ولا يشهد بالليل، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحى بها، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ، ثم نمت كما تنمو الدود فضاق بها مكانه، فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار، وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه، فأخبروه أنه اشترى غنماً، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره، فقال رسول الله ﷺ: ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب؛ ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات، وأنزل: **«خذ من أموالهم صدقة»** [التوبة: 103] الآية، فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجلاً من جبهة ورجلاً من بني سلمة يأخذان الصدقات، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها وجوهها، وأمرهما أن يمرّا على ثعلبة بن حاطب، وبرجل من بني سليم، فخرجا فمرا بثعلبة فسالا الصدقة، فقال: أرياني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزية انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى قدما المدينة، فلما رأهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما: ويح ثعلبة بن حاطب، ودعا للسلمي بالبركة، وأنزل الله: **«ومنها من عاهد الله»** الثلاث الآيات، قال: فسمع بعض أقارب ثعلبة، فأتى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا، قال: فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد منعني أن أقبل منك، فجعل يبكي ويحني التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى؛ ثم أتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر:

وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين، وإن أكره النبي ﷺ من الاستغفار لهم، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً، كما في سائر مفاهيم الأعداء، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول. فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التذكير، والمعنى: أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة، غاية المبالغ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه، ويدل لذلك ما سيأتي عن النبي ﷺ أنه قال: لأزیدن على السبعين. ونذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً فقال: إن السبعة عند شريف، لأنها عند السموات، والأرضين، والبحار، والأقاليم، والنجوم السيارة، والأعضاء، وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة، لأن الحسنه بعشر أمثالها. وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه ﷺ كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة، فكانه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة. وانتصاب سبعين على المصدر كقولهم: ضربته عشرين ضربة. ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي: ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿والله لا يهدي للقوم الفاسقين﴾ أي: المتمردين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحدودها، والمراد هنا: الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق. ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ المخلفون المتروكون، وهم الذين استأنوا رسول الله ﷺ من المنافقين، فأنزلهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم الله وثبطهم، أو الشيطان، أو كسلهم، أو المؤمنون، ومعنى ﴿بمقعدهم﴾ أي: بقعودهم يقال قعد قعوداً ومقعداً: أي جلس، واقعهه غيره، ذكر معناه الجوهري فهو متعلق بفرح: أي فرح المخلفون بقعودهم، وخلاف رسول الله منتصب على أنه ظرف لمقعدهم. قال الأخفش ويونس: الخلاف بمعنى الخلف: أي بعد رسول الله ﷺ، وذلك أن جهة الإمام التي يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف. وقال قطرب والزجاج: معنى خلاف رسول الله: مخالفة الرسول حين سار وأقاموا، فانتصابه على أنه مفعول له: أي قعدوا لأجل المخالفة، أو على الحال مثل وأرسلها العراك: أي مخالفين له، ويؤيد ما قاله الأخفش ويونس قراءة أبي حيوة خلف رسول الله. قوله: ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ سبب ذلك الشغ بـالأموال والأنفس، وعدم وجود باعث الإيمان، وداعي الإخلاص، ووجود الصارف عن ذلك، وهو ما هم فيه من النفاق، وفيه تعريض بالمؤمنين البائنين لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لوجود الداعي معهم، وانتفاء الصارف عنهم ﴿وقالوا لا تنفروا في الحرب﴾ أي: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطاً لهم، وكسراً لنشاطهم، وتواصياً بينهم

إقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها؟ فلم يقبلها أبو بكر؛ ثم ولي عمر بن الخطاب، فاتاه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين إقبل مني صدقتي، قال: ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي ﷺ، فقال عمر: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أقبلها أنا؟ فأبى أن يقبلها؛ ثم ولي عثمان فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه، فهلك في خلافة عثمان، وفيه نزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ قال: وذلك في الصدقة، وهذا الحديث هو مروى من حديث معاذ بن رفاع، عن علي بن زيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾ الآية، وذلك أن رجلاً كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلساً فأشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه، وتصدقّت منه، وجعلت منه للقرابة؛ فابتلاه الله فاتاه من فضله، فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده، فقص الله شأنه في القرآن. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أن رجلاً من الأنصار هو الذي قال هذا، فمات ابن عم له فورث منه مالاً فبخل به، ولم يف بما عاهد الله عليه، فاعقبه بذلك نفاقاً في قلبه إلى أن يلقاه. قال ذلك ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود، قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصنق بشيء كثير، فقالوا: وراء؛ وجاء أبو عقيل بنصف صاع، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية، وفي الباب روايات كثيرة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي: يطعنون على المطّوعين.

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِإِلَهِهِمْ رَسُولُهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٨﴾ فَسِجِّ الْمُنَافِقُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٩﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَسْكُوا كِبَاءَ جَهَنَّمَ إِمَّا كَانُوا لَيَكِيدُونَ ﴿٩٠﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْعَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ نَحْرُوجُوا مَعَ الْعَالِينَ ﴿٩١﴾ يُؤْتُوا مَاعِدًا مِنْكَ وَفَاذْكُرْهُمْ أَنْفُسَهُمْ فَيُخَوِّفُونَ نَفْسَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ كَبِدُ الْحَذَى يُؤْتُوا الْأَمْرَ الْخَافِئَ ﴿٩٢﴾

أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء، وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ، ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتَقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لِنَتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: 53]، ثم قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

فأنزل الله: ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ [المنافقون: 6]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن حبان، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي

دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه، فلما وقف قلت: أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ أعدد أيامه، ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا كثرت قال: يا عمر أخرجني، إني قد خيرت، قد قيل لي: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾. فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له، لزدت عليها، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره، حتى فرغ منه، فعجبت لي ولجرائتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ [التوبة: 84] فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فرح المخلفون﴾ الآية قال: عن غزوة تبوك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفروا في الحر، فقال الله: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ فأمره بالخروج. وأخرج ابن مريويه، عن جابر بن عبد الله، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ قال: هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، يقول الله: فليضحكوا قليلاً في الدنيا، وليبكوا كثيراً في الآخرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فإن رجعت إلى طائفة منهم﴾ قال: نكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، وفيهم قيل ما قيل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ قال: هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو.

وَلَا صَلَّيْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ وَكَانُوا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَجِدُ أُمُومَهُمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَمُذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْأَلْبَابِ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ مَنَاسِكُكُمْ إِلَى اللَّهِ وَجْهَهُمْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذْهَبُوا كَالْهَلَّةِ وَكَانُوا دُونَكَ نَكَرًا فَالْمُعَذِّبِينَ ﴿٨٦﴾ وَشَآءَ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَحَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

قوله: ﴿مات﴾ صفة لأحد، و ﴿أبدًا﴾ ظرف لتأييد النفي. قال الزجاج: معنى قوله: ﴿ولا تقم على قبره﴾ أن رسول

بالمخالفة لأمر الله ورسوله، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ والمعنى: أنكم أيها المنافقون كيف تفرّون من هذا الحرّ اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشد حراً مما فررتُم منه، فإنكم إنما فررتُم من حرّ يسير في زمن قصير، ووقعتم في حرّ كثير في زمن كبير، بل غير متناه أبد الأبدين ودهر الداهرين.

فكنت كالساعي إلى مثعب موائلاً من سبيل الراعد وجواب لو في ﴿لو كانوا يفقهون﴾ مقدر أي: لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا. قوله: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ هذان الأمران معناهما الخبر، والمعنى: فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، وإنما جيء بهما على لفظ الأمر، للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره، وقليلاً كثيراً منصوبان على المصدرية أو الظرفية: أي ضحكاً قليلاً، وبكاءً كثيراً، أو زماناً قليلاً، وزماناً كثيراً ﴿ووجزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي: جزاء بسبب ما كانوا يكسبون من المعاصي، وانتصاب جزاء على المصدرية: أي يجزون جزاء ﴿فإن رجعت إلى طائفة منهم﴾ الرجوع متعدي كالرد، والرجوع: لازم، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وإنما قال ﴿إلى طائفة﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعمار صحيحة، وفيهم من المؤمنين من لا عدو له، ثم عفا عنهم رسول الله ﷺ، وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا، وسيأتي بيان ذلك، وقيل إنما قال: إلى طائفة، لأن منهم من تاب عن النفاق، وندم على التخلف ﴿فاستأنوك للخروج﴾ معك في غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿فقل﴾ لهم: ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عبداً﴾ أي: قل لهم ذلك عقوبة لهم، ولما في استصحابهم من المفاسد، كما تقدم في قوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ [التوبة: 47]، وقرئ بفتح الباء من معي في الموضعين، وقرئ بسكونها فيهما، وجملة: ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾ للتعليل: أي لن تخرجوا معي، ولن تقاتلوا، لأنكم رضيتم بالقعود والتخلف أول مرة، وهي غزوة تبوك، والفاء في ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها، والخالفين جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، والمراد بهم من تخلف عن الخروج، وقيل المعنى: فاقعدوا مع الفاسدين، من قولهم: فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم، من قولك خلف اللبن: أي فسد بطول المكث في السقاء. نكر معناه الأصمعي، وقرئ: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ وقال الفراء: معناه المخالفين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عروة أن عبد الله بن أبي قال: لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله، وهو القائل: ﴿ليخرجن الأعر منهن الأازل﴾ [المنافقون: 8] فأنزل الله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ فقال النبي ﷺ: لأزیدن على السبعين.

عباس، في قوله: ﴿رَضُوا بَأَن يُكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ قال: مع النساء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: الخوالم النساء.

لَيْكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا بِأَمْرِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْحَزَنُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

المقصود من الاستدراك بقوله: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ﴾ إلى آخره: الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما في قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 89]. وقد تقدّم بيان الجهاد بالأموال والأنفس، ثم نكر منافع الجهاد فقال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ وهي: جمع خير، فيشمل منافع الدنيا والدين؛ وقيل المراد به: النساء الحسان كقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ [الرحمن: 70] ومفرده خيرة بالتشديد ثم خففت مثل هيئة وهيئة: وقد تقدّم معنى الفلاح، والمراد به هنا: الفائزون بالمطلوب، وتكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم، والجنات: البساتين. وقد تقدم بيان جري الأنهار من تحتها، وبيان الخلود والفوز، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدّم من الخيرات والفلاح، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة، ووصف الفوز بكونه عظيماً يدلّ على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز. وقد أخرج القرطبي في تفسيره، عن الحسن أنه قال الخيرات: هنّ النساء الحسان.

وَبَلَّغَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ يُوَدِّعَهُمْ وَقَدَّ الْآيِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قرأ الأعرج والضحاك ﴿المعذرون﴾ بالتخفيف، من أعذر، ورواه أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم، ورواه أصحاب القراءات عن ابن عباس. قال في الصحاح: وكان ابن عباس يقرأ ﴿وجاء للمعذرون﴾ مخففة من أنذر، ويقول: والله هكذا أنزلت. قال النحاس: إلا أن مدارها على الكلبي، وهي من أعذر: إذا بالغ في العذر، ومنه: من أنذر فقد أعذره أي: بالغ في العذر. وقرأ الجمهور المعذرون بالتشديد ففيه وجهان أحدهما: أن يكون أصله المعذرون فادغمت التاء في الدال، وهم: الذين لهم عذر، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر
فالمعذرون على هذا: هم المحقون في اعتذارهم. وقد روي هذا عن الفراء، والزجاج، وابن الأنباري؛ وقيل: هو من عذر، وهو الذي يعتذر ولا عذر له، يقال عذر في الأمر: إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر، ذكره الجوهري وصاحب الكشف، فالمعذرون على هذا: هم المبطلون، لأنهم اعتذروا باعذار باطلة لا أصل لها. وروي عن الاخفش، والفراء، وأبي

الله كان إذا دفن الميت وقف على قبره، ودعا له فمنعها هنا منه؛ وقيل معناه: لا تقم بمهمات إصلاح قبره، وجملة: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ تعليل للنهي. وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر، لأن الكافر قد يكون عدلا في دينه، والكنب، والنفاق، والخداع، والجبن، والخبث، مستقبحة في كل دين. ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم. وهو تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه؛ وقيل: إن الآية المنقذة في قوم، وهذه في آخرين؛ وقيل: هذه في اليهود، والأولى: في المنافقين؛ وقيل: غير ذلك. وقد تقدّم في الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه في تفسير هذه الآية، ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ أي: من القرآن، ويجوز أن يراد بعض السورة، وأن يراد تمامها؛ وقيل: هي هذه السورة: أي سورة براءة، و «أن» في ﴿إِن آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ مفسرة لما في الإنزال من معنى القول؛ أو مصدرية حذف منها الجاز: أي: بأن آمنوا، وإنما قدّم الأمر بالإيمان، لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان: ﴿إِسْتَأْذِنُكُمْ لَوْلَا الطُّوَلُ مِنْهُمْ﴾ أي: نوو الفضل والسعة، من طال عليه طولا، كذا قال ابن عباس والحسن، وقال الأصم: الرؤساء والكبراء المنظور إليهم، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم، إذ لا عذر لهم في القعود ﴿وَقَالُوا نَرْنَاهُ﴾ أي اتركنا ﴿نَكُنْ مَعَ الْقَاعِظِينَ﴾ أي: المتخلفين عن الغزو من المعذورين، كالضعفاء والزمنى، والخوالم: النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت، جمع خالفة، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف، وهو من لا خير فيه: ﴿وُطِّعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ هو كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7] وقد مرّ تفسيره ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئا مما فيه نفهم وضرهم، بل هم كالأنعام.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي سلول، أتى ابنه عبد الله رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فاعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه، وقد نهك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: إن ربي خيرني وقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80] وسأزيد على السبعين، فقال: إنه منافق، فصلى عليه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية، فترك الصلاة عليهم. وأخرج ابن ماجه، والبيهقي، وابن جرير، وابن مردويه، عن جابر، قال: مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ، وإن يكفنه في قميصه، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك، فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَوْلَا الطُّوَلُ﴾ قال: أهل الغنى. وأخرج هؤلاء، عن ابن

سبيله، وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد. وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه؛ ونصيحة الرسول ﷺ التصديق بنبوته وبما جاء به، وطاعته في كل ما يأمر به، أو ينهي عنه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، ومحبة وتعظيم سنته، وإحيائها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة. وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة ثلاثاً، قالوا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» وجملة: **﴿ما على المحسنين من سبيل﴾** مقررّة لمضمون ما سبق: أي ليس على المعنورين الناصحين من سبيل: أي طريق عقاب ومؤاخذة. ومن مزيدة للتأكيد، وعلى هذا فيكون لفظ **﴿المحسنين﴾** موضوعاً في موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقاً. أو يكون المراد: ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقاً من جملتهم، فتكون الجملة تعليلية. وجملة: **﴿والله غفور رحيم﴾** تذييلية. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾** [البقرة: 286]. وقوله: **﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾** [النور: 61]، وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعنورين، لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذرهم الله عنه، مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العدو عنه، ومنه حديث أنس عند أبي داود وأحمد، وأصله في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتهم من مسير ولا انفقتهم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه». قالوا: يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال: حبسهم العدو. وأخرجه أحمد، ومسلم، من حديث جابر، ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعنورين من تضمنه قوله: **﴿ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾** والعطف على جملة **﴿ما على المحسنين﴾** أي: ولا على الذين إذا ما اتوك إلى آخره من سبيل. ويجوز أن تكون عطفاً على الضعفاء: أي ولا على إذا ما اتوك إلى آخره حرج. والمعنى: أن من جملة المعنورين هؤلاء الذين اتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو، فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك. قيل: وجملة **﴿لا أجد ما أحملكم عليه﴾** في محل نصب على الحال من الكاف في اتوك بإضمار قد: أي إذا ما اتوك قائلًا لا أجد؛ وقيل: هي بدل من اتوك؛ وقيل: جملة معترضة بين الشرط والجزاء، والأوّل أولى. وقوله: **﴿تولوا﴾** جواب إذا، وجملة: **﴿وواعينهم تفيض من الدمع﴾** في محل نصب على الحال: أي تولوا عنك لما قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه، حال كونهم باكين، و**﴿حزنًا﴾** منصوب على المصدرية، أو على العلية، أو الحالية، و**﴿أن لا يجنوا﴾** مفعول له، وناصبه **﴿حزنًا﴾** وقال الفراء: أن لا بمعنى ليس: أي حزنًا أن ليس يجنوا؛ وقيل المعنى: حزنًا على أن لا يجنوا؛ وقيل المعنى: حزنًا أنهم لا يجنوا ما ينفقون لا عند أنفسهم ولا عنك. ثم نكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال: **﴿إنما السبيل﴾** أي طريق العقوبة

حاتم، وأبي عبيد، أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع. والمعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعداء بحق أو بباطل على كلا التفسيرين؛ لأجل أن يأتين لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن الغزو، وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر، وهم منافقوا الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله، ولم يؤمنوا ولا صلّوا، ثم توعدهم الله سبحانه، فقال: **﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾** أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعداء الباطلة، والذين لم يعتذروا، بل كذبوا بالله ورسوله **﴿عذاب اليم﴾** أي: كثير الألم، فيصق على عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

وقد أخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وجاء المعذرون من الأعراب﴾** أي: أهل العذر منهم. وروى ابن أبي حاتم، عنه، نحو ذلك. وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد عنه أيضاً أنه كان يقول: «لعن الله المعذرين» ويقرأ بالتشديد كان الأمر عنده أن المعذر بالتشديد: هو المظهر للعذر اعتلالاً من غير حقيقة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن إسحاق، في قوله: **﴿ورجاء المعذرون من الأعراب﴾** قال: ذكر لي أنهم نفر من بني غفار، جاءوا فاعتذروا، منهم خفاف بن إيماء؛ وقيل: لهم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيئاً على أهاليها، ومواشيها.

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْغَمِ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَيَجْلَبِهِنَّ فَالْكُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ فَبِئْسَ مِنَ الدَّاعِ حَرْجًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتُنِذِرُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَلَغَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتْلُمُونَ ﴿١٣﴾

لما ذكر سبحانه المعذرون، ذكر بعدهم أهل الأعداء الصحيحة المسقطه للغزو، وبدأ بالعذر في أصل الخلقة. فقال: **﴿ليس على الضعفاء﴾** وهم: أرباب الزمانة، والهرم، والعُمى، والعرج، ونحو ذلك، ثم ذكر العذر العارض، فقال: **﴿ولا على المرضى﴾** والمراد بالمرض: كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعاً؛ وقيل: إنه يدخل في المرضى: الأعمى والأعرج ونحوهما. ثم ذكر العذر الراجع إلى المال، لا إلى البدن فقال: **﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾** أي: ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفي سبحانه عن هؤلاء الحرج، وأبان أن الجهاد مع هذه الأعداء ساقط عنهم غير واجب عليهم، مقيداً بقوله: **﴿إذا نصحو الله ورسوله﴾** وأصل النص: إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النصوح. قال فغطويه نصح الشيء: إذا خلص، ونصح له القول: أي أخلصه له. والنصح لله: الإيمان به، والعمل بشريعته. وترك ما يخالفها كائنًا ما كان، ويدخل تحته دخولاً أولياً نصح عباده. ومحبة المجاهدين في

عمرو المزني. وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة. واختلفوا في البعض، ولا يأتي التطويل في ذلك بكثير فائدة. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، وغيرهم أن رجلاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم: البكاؤون، وهم سبعة نفر من الانصار وغيرهم، ثم ذكروا أسماءهم، وفيه، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة. قال: **«لا أجد ما أحملكم عليه»**. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن الحسن، قال: كان معقل بن يسار من البكائين الذين قال الله: **«ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم»** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس بن مالك، في قوله: **«لا أجد ما أحملكم عليه»** قال: الماء والزاد. وأخرج ابن المنذر، عن علي بن صالح، قال: حدثني مشيخة من جهينة، قالوا: أدركنا الذين سالوا رسول الله ﷺ الحملان، فقالوا: ما سألناه إلا الحملان على النعال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إبراهيم بن آدم، عن حنثه في قوله: **«ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم»** قال: ما سالوه الدواب ما سالوه إلا النعال. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن بن صالح، في الآية قال: استحملوه النعال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: **«إنما للسبيل على الذين يستأنفونك»** قال: هي وما بعدها إلى قوله **«إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين»** [التوبة: 96] في المنافقين.

يَسْتَوُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ لَقَدْ لَمْ تَدْرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُؤْتِيكُمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَتُنْفَكُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾ سَيَلْفُوتُهُمْ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَتَلَقْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيَتَرَضُوا عَنْهُمْ فَاتْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَشَرُّ جَهَنَّمَ جَرَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَتَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٧﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاءً وَأَجْدَرُ أَنْ يَمْلَأُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَرَبُّ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُؤْتَى مَغْرَمًا وَيَنْزِعُ بِكَ الدُّوَابَّ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ السَّوَّةِ وَاللَّهُ سَوَّجٌ عَلَيْهِمْ ﴿٩٩﴾ وَرَبُّ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْتِي بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَّخِذُ مَا يُؤْتَى فُرْقَةً عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّا قَدْ لَمْهُمُ سَبِيلُ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾

قوله: **«يعتذرون إليكم»** إخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل، بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو، وهذا كلام مستأنف، وإنما قال: **«إليهم»** أي: إلى المعتذرين بالباطل، ولم يقل إلى المدينة، لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها، ثم أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يجب به عليهم، فقال: **«قل لا**

والمؤاخذه **«على الذين يستأنفونك»** في التخلف عن الغزو، **«ولا على الذين يستأنفونك»** أي: يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به، وجملة: **«رضوا بان يكونوا مع الخوالب»** مستأنفة كأنه قيل: ما بالهم استأنفوا وهم أغنياء. وقد تقدم تفسير الخوالب قريباً. وجملة: **«وطبع الله على قلوبهم»** معطوفة على **«رضوا»** أي: سبب الاستئذان مع الغنى أمران: أحدهما: الرضا بالصفقة الخاسرة، وهي أن يكونوا مع الخوالب، والثاني: الطبع من الله على قلوبهم **«فهم»** بسبب هذا الطبع **«لا يعلمون»** ما فيه الربح لهم، حتى يختاروه على ما فيه الخسر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والدارقطني في الإفراد، وابن مردويه، عن زيد بن ثابت، قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فنزلت براءة، فكنت أكتب ما أنزل عليه، فإني لو اضع القلم عن أنفي إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: **«ليس على الضعفاء»** الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، قال: أنزلت هذه الآية في عابد بن عمر المزني. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: نزل من عند قوله: **«عفا الله عنك»** [التوبة: 43] إلى قوله: **«ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم»** في المنافقين. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: **«ما على المحسنين من سبيل»** قال: ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطبقوا الجهاد، فعذرهم الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين، ألم تسمع أن الله يقول: **«لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر»** [النساء: 95] فجعل الله للذين عذر من الضعفاء، وأولي الضرر، والذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **«ما على المحسنين من سبيل»** قال: **«والله»** لاهل الإساءة **«غفور رحيم»** وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **«ولا على الذين إذا ما اتوك»** الآية، قال: أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال: والله ما أجد ما أحملكم عليه، فقولوا ولهم بكاء وعزير عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجنون نفقة ولا محملاً، فأنزل الله عزهم **«ولا على الذين إذا ما اتوك»** الآية. وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عبد الله بن مغفل، قال: إني لا أجد الرهط الذين نكر الله **«ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم»** الآية. وأخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب، قال: هم سبعة نفر من بني: عمر بن عوف سالم بن عمير، ومن بني: واقف حرمي بن عمرو، ومن بني: مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى، ومن بني: المعلى سلمان بن صخر، ومن بني: حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبله، ومن بني: سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن

الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» وإذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة، فينبغي لكم أيها المؤمنون أن لا تغفلوا خلاف ذلك، بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتد به، ولا مفيد لهم. والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم، نهي المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن. قوله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة، ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم، لأنهم أقسى قلباً وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً، وأبعد عن سماع كتب الله، وما جاءت به رسله. والأعراب: هم من سكن البوادي بخلاف العرب، فإنه عام لهذا النوع من بني آدم، سواء سكنوا البوادي أو القرى، هكذا قال أهل اللغة، ولهذا قال سيبويه: إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب. قال النيسابوري: قال أهل اللغة: رجل عربي إذا كان نسبه إلى العرب ثابتاً، وجمعه عرب، كالمجوسي والمجوس، واليهودي واليهود؛ فالأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح، وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب، وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربي، ومن نزل البادية فهو أعرابي، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والانصار أعراب، وإنما هم عرب. قال: قيل إنما سمي العرب عرباً لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب، وهي من تهامة فنسبوا إلى بلدهم، وكل من يسكن جزيرة العرب، وينطق بلسانهم فهو منهم؛ وقيل: لأن ألسنتهم معربة، عما في ضمايرهم، ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة. انتهى. ﴿وَلَجَدَرٌ﴾ معطوف على أشد، ومعناه أخلق، يقال: فلان جدير بكذا: أي خليف به، وأنت جدير أن تفعل كذا، والجمع: جدر، أو جديرون، وأصله من جدر الحائط، وهو رفعه بالبناء. والمعنى: أنهم أحق وأخلق به أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع والأحكام، لبعدهم عن مواطن الأنبياء، وديار التنزيل. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم، وهؤلاء منهم: ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر. قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ هذا تنويع لجنس إلى نوعين، الأول: هؤلاء، والثاني: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ والمغرم الغرامة والخسران، وهو ثاني مفعولي يتخذ، لأنه بمعنى الجعل، والمعنى: اعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران، وأصل الغرم والغرامة، ما ينفقه الرجل وليس بلازم له في اعتقاده، ولكنه ينفقه للرباء والتقية؛ وقيل: أصل الغرم اللزوم، كانه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبثق له النفس. ﴿وَالنَّوَائِرُ﴾ جمع دائرة، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية، وأصلها: ما يحيط بالشيء، وبنائر الزمان: توبه وتصاريفه، وبوله، وكأنها لا تستعمل إلا في المكروه، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وجعل ما دعا به عليهم مماثلاً لما

تعتذروا لن تؤمن لكم﴾ فنهاهم أولاً عن الاعتذار بالباطل، ثم علله بقوله: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، كأنهم ادَّعوا أنهم صابقون في اعتذارهم، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار، وجملة: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ﴾ تعليلية للتي قبلها: أي لا يقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحي ما هو مناف لصديق اعتذاركم، وإنما خص الرسول ﷺ بالجواب عليهم، فقال: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين، لأنه ﷺ رأسهم، والمتولي لما يرد عليهم من جهة الغير، ويحتمل أن يكون المراد بالضمير في قوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ هو الرسول ﷺ على التأويل المشهور في مثل هذا. قوله: ﴿وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ﴾ أي: ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تفلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه؟ وقوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ معطوف على الاسم الشريف، ووسط مفعول الرؤية إيذاناً، بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هي التي يدور عليها الإثابة أو العقوبة، وفي جملة: ﴿ثُمَّ تَرْتَدُّونَ إِلَى عَالَمٍ لِّلْغَيْبِ﴾ إلى آخرها تخويف شديد، لما هي مشتملة عليه من التهديد، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمهر، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتُمونه ويتظاهرون به، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه، ثم نكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكِّدون ما جاؤوا به من الاعتذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو، وغرضهم من هذا التأكيد هو: أن يعرض المؤمنون عنهم، فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف، ويظهرون الرضا عنهم، كما يفيد نكر الرضا من بعد، وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه، وهو اعتذارهم الباطل، وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به: تركهم والمهاجرة لهم، لا الرضا عنهم والصفا عن نوبهم، كما تفيد جملة ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض. والمعنى: أنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة، فكانها قد صيرت نواتهم رجساً، أو أنهم نوى رجس: أي نوى أعمال قبيحة، ومثله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28] وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متاهلين لقبول الإرشاد إلى الخير والتحذير من الشر، فليس لهم إلا الترك. وقوله: ﴿وَمَا وَاهِمٌ جَهَنَّمَ﴾ من تمام التعليل؛ فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير، والماوى كل مكان يأوي إليه الشيء، ليلاً أو نهاراً. وقد أوى فلان إلى منزله، يأوي أوى وأيواء. ﴿وَجَزَاءٌ﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية، والباء في ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ للسببية، وجملة ﴿يُحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ بدل مما تقدم. وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوماً مما سبق، والمحلوف عليه لمثل ما تقدم، وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم نكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿فَإِنْ

الترمذي بعد إخراجِه: حسن غريب لا تعرفه إلا من حديث الثوري. وأخرج أبو داود، والبيهقي، من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان اقتتن، وما ازداد أحد من سُلطانِه قُرباً إلا ازداد من الله بعداً». وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: **﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا﴾** قال: يعني بالمغرم أنه لا يرجو له ثواباً عند الله ولا مجازاة، وإنما يعطي من يعطي من الصدقات كرمًا **﴿ويُتربص بكم اللئيم﴾** الهلكات. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في الآية قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا، ويقاتلوا ويروون نفقاتهم مغرمًا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله﴾** قال: هم بنو مقرن من مزينة، وهم الذين قال الله: **﴿ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم﴾** [التوبة: 92] الآية. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن عبد الرحمن بن معقل، قال: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا: **﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله﴾** الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: **﴿وصلوات الرسول﴾** يعني: استغفار النبي ﷺ.

وَالسَّاجِدُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتُهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٥٦﴾ وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَّقِينَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْأَنْفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ عَنْ تَعْلَمُهُمْ سَخَّرَ لَهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ بَرَدَتْ لَكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٧﴾ وَآخَرُونَ أَتَوْا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٨﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ وَقُلِ اصْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرِّدُونِ إِلَى عِزِّ النَّبِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْتَفِكِرَ بِهَا كُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾ وَآخَرُونَ يُرِيدُونَ مِنَ اللَّهِ الْإِيمَانَ بِيَعِزُّهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٢﴾

لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة، وأن منهم التابعين لهم. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ **﴿والأنصار﴾** بالرفع عطفاً على **﴿والسابقون﴾** وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر. قال الأخفش: الخفض في الأنصار الوجه، لأن السابقين منهم يدخلون في قوله: **﴿والسابقون﴾** وفي الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم الذين صلوا القبلتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان. وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي، أو أهل بدر في قول

أرادوه بالمسلمين، والسوء بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملاسة، كقولك رجل صدق. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، بضم السين، وهو المكروه. قال الأخفش: أي: عليهم دائرة الهزيمة والشر. وقال الفراء: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ العذاب والبلاء. قال: والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءاً ومساءة، وبالضم اسم لا مصدر، وهو كقولك: دائرة البلاء والمكروه ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه ﴿عليهم﴾ بما يضمرونه. قوله: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدم: أي: يصنقُ بهما ﴿ويتخذ ما ينفق﴾ أي: يجعل ما ينفقه في سبيل الله ﴿قربات﴾ وهي: جمع قربة، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه، تقول منه قربت لله قرباناً، والجمع: قرب وقربات. والمعنى: أنه يجعل ما ينفقه سبباً لحصول القربات ﴿عند الله﴾ سبباً لـ ﴿صلوات الرسول﴾ أي: لدعوات الرسول لهم، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين، ومنه قوله: ﴿وصلَّ عليهم إن صلواتك سكن لهم﴾ [التوبة: 103]، ومنه قوله ﷺ: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»، ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقريباً إلى الله مقبول واقع على الوجه الذي أرادوه، فقال: ﴿إلا إنها قربة لهم﴾ فآخبر سبحانه بقبولها خبراً مؤكداً باسمية الجملة، وحرفي التنبيه والتحقيق، وفي هذا من التلطيب لخاطرهم والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره، مع ما يتضمنه من النعي على من يتخذ ما ينفق مفرماً، والتوبيخ له بأبلغ وجه، والضمير في إنها راجع إلى «ما» في ما ينفق وتانيته باعتبار الخبر. وقرأ نافع، في رواية عنه «قربة» بضم الراء، وقرأ الباقون: بسكونها تخفيفاً، ثم فسر سبحانه القربة بقوله: ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ والسين لتحقيق الوعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهَ مِنْ أٰخِيَارِكُمْ﴾ قال: أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زلتونا إلا خيلاً، وفي قوله: ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ قال: لما رجع النبي ﷺ، قال للمؤمنين لا تكلموهم ولا تجالسوهم، فاعرضوا عنهم كما أمر الله. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، في قوله: ﴿لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ قال: لتجاوزوا عنهم. وأخرج أبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ قال: من منافقي المدينة ﴿وَلَجِدَنَّ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يعني: الفرائض، وما أمر به من الجهاد. وأخرج أبو الشيخ، عن الكلبي، أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن» وإسناد أحمد هكذا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن أبي موسى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، فنكره. قال في التقریب: وأبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة، وهم من قال إنه إسرائيل بن موسى، وقال

النفاق: أي ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً، ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله ﷺ، فكيف سائر المؤمنين؟ والمراد عدم علمه ﷺ بأعيانهم لا من حيث الجملة، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ، وجملة: ﴿نحن نعلمهم﴾ مقررّة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه، على وجه يخفى على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى، وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر. ثم تواعدهم سبحانه فقال: ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قيل المراد بالمرتين: عذاب الدنيا بالقتل والسبي، وعذاب الآخرة، وقيل: الفضيحة بانكشاف نفاقهم، والعذاب في الآخرة؛ وقيل: المصائب في أموالهم وأولادهم، وعذاب القبر؛ وقيل: غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه، والظاهر أن هذا العذاب المكرّر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب، وأنهم يعذبون مرّة بعد مرّة، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ ومن قال إن العذاب في المرة الثانية هو عذاب الآخرة، قال معنى قوله: ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ أنهم يردون بعد عذابهم في النار، كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها؛ أو أنهم يعذبون في النار عذاباً خاصاً بهم دون سائر الكفار، ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار. ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون في دينهم فقال: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ وهو معطوف على قوله ﴿منافقون﴾: أي ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون، ويجوز أن يكون آخرون مبتدأ، واعترفوا بذنوبهم صفته، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً خبره، والمعنى: أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوّغ للتخلف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنوب، ورجوا أن يتوب الله عليهم. والمراد بالعمل الصالح: ما تقدّم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن. والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة، وقد اتبعوا هذا العمل السيئ عملاً صالحاً، وهو الاعتراف به والتوبة عنه. وأصل الاعتراف الإقرار بالشيء، ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتي بيانه إن شاء الله. ومعنى الخلط: أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء. ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء، كقولك بعت الشاة شاة وردهما: أي بدرهم، وفي قوله: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو أن مقدّمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة، وحرف الترجي وهو عسى، هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين ﴿إن الله غفور رحيم﴾

محمد بن كعب، وعطاء بن يسار، ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها، قال أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون، ثم البديريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية. قوله: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿الذين اتبعوهم﴾ محذوف الواو وصفاً للأنصار على قراءته برفع الأنصار، فراجع في ذلك زيد بن ثابت، فسأل أبي بن كعب فصنّق زيدا، فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مرويّه، ومعنى الذين اتبعوهم بإحسان: الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحاً، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي ﷺ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية، فتكون ﴿من﴾ في قوله: ﴿من المهاجرين﴾ على هذا للتبعيض، وقيل إنها للبيان، فيتناول المدح جميع الصحابة، ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿بإحسان﴾ قيد للتابعين: أي والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان في الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين. قوله: ﴿رضي الله عنهم﴾ خبر للمبتدأ وما عطف عليه، ومعنى رضاه سبحانه عنهم: أنه قبل طاعاتهم وتجاوز عنهم، ولم يسخط عليهم ﴿ورضوا عنه﴾ بما أعطاهم من فضله، ومع رضاه عنهم فقد ﴿أعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ في الدار الآخرة. وقرأ ابن كثير ﴿تجري تحتها الأنهار﴾ بزيادة من. وقرأ الباقون بحذفها والنصب على الظرفية، وقد تقدّم تفسير جري الأنهار من تحت الجنات، وتفسير الخلود والفوز. قوله: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون﴾ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة، ومن يقرب منها من الأعراب. ومن حولكم خبر مقدّم، ومن الأعراب بيان، وهو في محل نصب على الحال، ومنافقون هو المبتدأ؛ وقيل: وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم: جهينة ومزينة، وأشجع، وغفار، وجملة: ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾ معطوفة على الجملة الأولى، عطف جملة على جملة. وقيل: إن من أهل المدينة عطف على الخبر في الجملة الأولى، فعلى الأول: يكون المبتدأ مقدّراً: أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، وعلى الثاني: يكون التقدير: ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا، ولكون جملة مردوا على النفاق مستأنفة لا محل لها، وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة والتجرّد، فكانهم تجرّدوا للنفاق، ومنه غصن أمرد: لا ورق عليه، وفرس أمرد: لا شعر فيه. وغلام أمرد: لا شعر بوجهه، وأرض مرداء: لا نبات فيها، وصرح ممزّد: مجرّد؛ فالمعنى: أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينتشوا عنه. قال ابن زيد: معناه لجوا فيه وآثروا غيره، وجملة: ﴿لا تعلمهم﴾ مبيّنة للجملة الأولى، وهي مردوا على

عملكم لا يخفى على الله، ولا على رسوله ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله عز وجل، وفيه أيضاً ترغيب وتنشيط، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شراً رغب إلى أعمال الخير، وتجنب أعمال الشر، وما أحسن قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر منهم من الأعمال، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال: ﴿وَسْتَرْثَوْنَ إِلَىٰ عَالَمٍ لِّلْغَيْبِ وَلِلشَّهَادَةِ﴾ أي: وسترثون بعد الموت إلى الله سبحانه، الذي يعلم ما تَسْرَوْنَه وما تَعْلَنُونَه، وما تخفونه وما تبدونَه. وفي تقييم الغيب على الشهادة: إشعار بسعة علمه عزَّ وجلَّ، وأنه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كل معلوم. ثم نكر سبحانه ما سيكون عقب رَدِّهم إليه فقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويتفضل على من يشاء من عباده. قوله: ﴿وَأُخْرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ نكر سبحانه ثلاثة أقسام في المتخلفين: الأول: المنافقون الذين مردوا على النفاق، والثاني: التائبون المعترفون بذنوبهم، الثالث: الذين بقي أمرهم موقوفاً في تلك الحال، وهم المرجون لأمر الله، من أرجيته وأرجأته: إذا أخرته. قرأ حمزة والكسائي، ونافع وحفص ﴿مَرْجُونَ﴾ بالواو من غير همز. وقرأ الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم. والمعنى: أنهم مؤخرون في تلك الحال، لا يقطع لهم بالتوبة لاو بعدمها، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه في شأنهم ﴿وَأَمَّا يَعْنِيهِمْ﴾ إن بقوا على ما هم عليه، ولم يتوبوا ﴿وَأَمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصاً تاماً، والجملة في محل نصب على الحال، والتقدير ﴿وَأُخْرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ حال كونهم، إما معذبين، وإما متوباً عليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نعيم في المعرفة، عن أبي موسى، أنه سئل عن قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ فقال: هم الذين صلوا القبليتين جميعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو مرويه، وأبو نعيم، عن سعيد بن المسيب، مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو نعيم، عن الحسن، ومحمد بن سيرين، مثله أيضاً. وأخرج ابن مرويه، عن ابن عباس، قال: هم أبو بكر، وعمر، وعلي، وسلمان، وعمار بن ياسر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو مرويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن الشعبي قال: هم من أترك بيعة الرضوان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبِعُوا مَبَاحِسانَ﴾ قال: التابعون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: هم من بقي من أهل الإسلام، إلى أن تقوم الساعة. وأخرج أبو الشيخ، وابن عساكر، عن أبي صخر حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن

أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده. قوله: ﴿حُذِرْ مِمَّا قَالُوا﴾ أي: حذروا مما قالوا، وهو الصدقة المأمورة بها، فقيل: هي صدقة الفرض، وقيل: هي مخصصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها، لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، و﴿مَنْ﴾ للتبعيض على التفسيرين، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة، والصدقة مأخوذة من الصدق، إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه. قوله: ﴿تَطْهَرُ مِنْهُمْ﴾ أي: تطهروا من ذنوبهم وتزكوا بهم. وقيل: الضمير في الفعلين للنبي ﷺ، أي: تطهروا من ذنوبهم وتزكوا بهم. وقيل: الضمير في الصدقة منهم. وقيل: الضمير في تطهروا للصدقة: أي تطهروا هذه الصدقة المأخوذة منهم، والضمير في تزكيتهم للنبي ﷺ، أي: تزكيتهم يا محمد بالصدقة المأخوذة، والأول: أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين المتعاطفين؛ وعلى الأول: فالفعلان منتصبان على الحال، وعلى الثاني: فالفعل الأول صفة لصدقة، والثاني: حال منه ﷺ. ومعنى التطهير: إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب، ومعنى التزكية: المبالغة في التطهير. قال الزجاج: والأجود أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ: أي: فإنك يا محمد تطهروا من ذنوبهم وتزكوا بهم على القطع والاستثناف، ويجوز الجزم على جواب الأمر. والمعنى: أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهروا بها. وقد قرأ الحسن بجزم تطهروا. وعلى هذه القراءة فيكون ﴿تَزَكُوا مِنْهُمْ﴾ أي: تزكوا من أموالهم، قال النحاس: وحكى أهل اللغة جميعاً فيما علمناه، أن الصلاة في كلام العرب الدعاء، ثم علل سبحانه أمره لرسوله ﷺ بالصلاة على من يأخذ من الصدقة فقال: ﴿إِنْ صَلَّوْا سَكَنَ لَهُمْ﴾ قرأ حفص، وحمزة، والكسائي ﴿صَلَاتُكَ﴾ بالتوحيد. وقرأ الباقون بالجمع، والسكن ما تسكن إليه النفس وتطمئن به. قوله: ﴿لَهُمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ لما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقاً. قال الله: ﴿لَهُمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: غير التائبين، أو التائبين قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صلاتهم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ لاستغنائهم عن طاعة المطيعين، وعدم مبالاته بمعصية العاصين. وقرئ: ﴿لَهُمْ تَعْلَمُوا﴾ بالوقية، وهو إما خطاب للتائبين، أو لجماعة من المؤمنين، ومعنى: ﴿وَيَأْخُذْ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يتقبلها منهم، وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة، ولمن فعلها. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه: أي: أن هذا شأنه سبحانه. وفي صيغة المبالغة في التواب، وفي الرحيم مع توسيط ضمير الفصل. والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى. قوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسِرِّ اللَّهِ﴾ أي: إن

كعب القرظي: أخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما أريد الفتنة، قال: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له: وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال: ألا تقرأ قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه فيهم. قلت: وما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان. يقول: يقتنون بهم في أعمالهم الحسنة، ولا يقتنون بهم في غير ذلك. قال أبو صخر: فوالله لكانني لم أقرأها قبل ذلك، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها عليّ ابن كعب. وأخرج ابن مردويه عن طريق الأزاعي قال: حدثني يحيى بن أبي كثير، والقسم ومكحول، وعبد بن أبي لبابة، وحسان بن عطية، أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي ﷺ يقولون لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَرِضْوَانًا لَهُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: هذا لأمتي كلهم، وليس بعد الرضا سخط. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ الآية، قال: قام رسول الله ﷺ يوم الجمعة خطيباً، فقال: قم يا فلان فأخرج، فلأنك منافق، أخرج يا فلان، فلأنك منافق، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقبهم عمر وهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر، وظنوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد، فإذا الناس لم ينصرفوا، فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم، فهو: العذاب الأول، والعذاب الثاني: عذاب القبر. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: جهينة ومزينة، وأشجع وإسلم وغفار. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ قال: أقاموا عليه، ولم يتوبوا كما تاب آخرون. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج، في الآية قال: ماتوا عليه: عبد الله بن أبي، وأبو عامر الراهب، والجذ بن قيس. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مُّزَيَّنِينَ﴾ قال: بالجوع والقتل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك، قال: بالجوع وعذاب القبر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن قتادة قال: عذاب في القبر، وعذاب في النار. وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين، والظاهر ما قدمنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا بِئْزُورَهُمْ خُلُوعًا عَمَلًا صَالِحًا﴾ قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي ﷺ

إذا رجع عليهم فلما رأهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة، وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعزهم، قال: وأنا أقسم بالله، لا أطلقهم، ولا أعزهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فنزلت: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وعسى من الله واجب، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعزهم، فجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فنصق بها عنا، واستغفر لنا، قال: ما أمرت أن أخذ أموالكم، فانزل الله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: استغفر لهم ﴿إِنْ صَلَوَاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ﴾ يقول: رحمة لهم، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأرجئوا سنة لا يدرون أين يذهبون أو يتأب عليهم؟ فانزل الله عز وجل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [التوبة: 117] إلى قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ إن الله هو التوب الرحيم [التوبة: 118] يعني: إن استقاموا. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، مثله سواء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن مجاهد في قوله: ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ قال: هو أبو لبابة إذ قال لقرظية ما قال، وأشار إلى حلقه بأن محمداً يذبكم إن نزلتم على حكمه، والقصة منكرة في كتب السير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿خُلُوعًا عَمَلًا صَالِحًا﴾ قال: غزوه مع رسول الله ﷺ. ﴿وَأَخْرَجُوا سَيِّئًا﴾ قال: تخلفهم عنه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ قال: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها ﴿إِنْ صَلَوَاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ﴾ قال: رحمة لهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال: «اللهم صل على آل فلان، فاتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿اعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ قال: هذا وعيد من الله عز وجل. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في الشعب، وابن أبي الدنيا، والضياء في المختارة، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحلكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كأنها ما كان». وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة، في قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: هم الثلاثة الذين خلفوا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: هم هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، من الأوس والخزرج. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْنِيهِمْ﴾ يقول: يعينهم على معصية ﴿وَأَمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فأرجأ أمرهم ثم

نسخها فقال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [التوبة: 118].

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالرَّصَادَا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٨﴾ لَا تَقْرَأُ فِيهِ بُدْعًا أَسَسَ عَلَى التَّقْوَى
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَبْطَلُوهَا وَاللَّهُ يَخُبِّرُ
الْمُطَهَّرِينَ ﴿١١٩﴾ أَفَمَنْ أَسَسَ بَلِيكَكُمْ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِشْوَنَ حَيْرَامٍ
مَنْ أَسَسَ بَلِيكَكُمْ عَلَى شَفَا جُرْبٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِهِ فِي تَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رَبِّي لَهُ الْقُلُوبَ إِلَّا
أَنْ تَقَطَّ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢١﴾

أبدأ: أي: في وقت من الأوقات، والنهي عن القيام فيه، يستلزم النهي عن الصلاة فيه. وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال فلان يقوم الليل: أي يصلي، ومنه الحديث الصحيح: «من قام رمضان إيماناً به واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». ثم نكر الله سبحانه علة النهي عن القيام فيه بقوله: ﴿للمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ واللام في ﴿للمسجد﴾ لام القسم، وقيل: لام الابتداء، وفي ذلك تأكيد لمضمون الجملة، وتأسيس البناء: تثبيته ورفع. ومعنى تأسيسه على التقوى: تأسيسه على الخصال التي تنقي بها العقوبة.

اختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قباء، كما روي عن ابن عباس والضحاك، والحسن، والشعبي، وغيرهم. وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي ﷺ. والأول: أرجح لما سيأتي قريباً إن شاء الله، و﴿من أول يوم﴾ متعلق بأسس: أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه، قال بعض النحاة: إن ﴿من﴾ هنا بمعنى منذ: أي منذ أول يوم ابتدئ ببنائه، وقوله: ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ خبر المبتدأ، والمعنى: لو كان القيام في غيره جائزاً لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله، لكونه أسس على التقوى من أول يوم، ولكن ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه ﷺ فيه: أي كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل، فهو أولى من جهة الحال فيه، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد. ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجب؛ وقيل معناه: يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار. والأول: أولى. وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة من الذنوب فحموا جميعاً، وهذا ضعيف جداً. ومعنى محبة الله لهم: الرضا عنهم، والإحسان إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه. ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بوناً بعيداً. فقال: ﴿أفمن أسس بنيانه﴾ والهزمة للإنكار التقريري، والبنين مصدر كالعمران، وأريد به المبنى، والجملة مستأنفة. والمعنى: أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي تقوى الله ورضوانه، خير ممن أسس دينه على ضد ذلك، وهو الباطل والنفاق، والموصول مبتدأ، وخبره خير، وقرئ: «أسس بنيانه» على بناء الفعل للفاعل، ونصب بنيانه، واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وقرئ على البناء للمجهول، وقرئ: «أساس بنيانه» بإضافة أساس إلى بنيانه، وقرئ: «أس بنيانه» والمراد: أصول البناء، وحكى أبو حاتم قراءة أخرى، وهي «أساس بنيانه» على الجمع، ومنه:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس والشفا: الشفير، والجرف: ما يتجرف السيول، وهي: الجوانب التي تنجرف بالماء، والاجتراف: اقتلاع الشيء من أصله، وقرئ بضم الراء من جرف وبإسكانها. والهار:

لما نكر الله أصناف المنافقين، وبين طرائقهم المختلفة، عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم، وهم الذين اتخذوا مسجداً ضاراً، فيكون التقدير: ومنهم الذين اتخذوا على أن الذين مبتدأ، وخبره منهم المحنوف، والجملة معطوفة على ما تقدمها، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على الذم. وقرأ المندنيون وابن عامر: ﴿الذين اتخذوا﴾ بغير واو، فتكون قصة مستقلة، الموصول مبتدأ، وخبره: ﴿لا تقم﴾ قاله الكسائي، وقال النحاس: إن الخبر هو ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا﴾ وقيل الخبر محنوف، والتقدير يعذبون، وسيأتي بيان هؤلاء البنائين لمسجد الضرار، و﴿ضراوا﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية ﴿وكفراً وتفريقاً وإرصاداً﴾ معطوفة على ﴿ضراوا﴾ فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة: الأول: الضرار لغيرهم، وهو المضاررة. الثاني: الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنيانه تقوية أهل النفاق. الثالث: التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء، فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الالفة ما لا يخفى. الرابع: الإرصاد لمن حارب الله ورسوله: أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله. قال الزجاج: الإرصاد الانتظار. وقال ابن قتيبة: الإرصاد الانتظار مع العداوة. وقال الأكثرون: هو الإعداد، والمعنى متقارب؛ يقال أرصدت لكذا: إذا أعدته مرتقباً له به. وقال أبو زيد: يقال رصدته وأرصدته في الخير، وأرصدت له في الشر. وقال ابن الأعرابي: لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقبت، والمراد بمن حارب الله ورسوله: المنافقون، ومنهم أبو عامر الراهب: أي أعلّوه لهؤلاء، وارتقبوا به وصولهم، وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين، وقوله: ﴿من قبل﴾ متعلق باتخذوا: أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار، أو متعلق بحارب: أي لمن وقع منه الحرب لله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار. قوله: ﴿وليحلفن إن أربنا إلا الحسنى﴾ أي: ما أربنا إلا الخصلة الحسنى، وهي الرفق بالمسلمين، فرد الله عليهم بقوله: ﴿والله يشهد إنهم لكانبئون﴾ فيما حلفوا عليه، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، فقال: ﴿لا تقم فيه﴾

عبد الله بن حنيف، وبيعة بن حزام، ومجمع بن جارية الأنصاري، فبنوا مسجد النفاق، فقال رسول الله ﷺ لبجدة: عليك يا بجدة ما أردت إلى ما أرى، فقال: يا رسول الله والله ما أردت إلا الحسنى وهو كاتب، فصنعه رسول الله ﷺ وأراد أن يعذره، فانزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: رجلاً يقال له أبو عامر، كان محارباً لرسول الله ﷺ، وكان قد انطلق إلى هرقل، وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلي فيه، وكان قد خرج من المدينة محارباً لله ولرسوله. وأخرج ابن إسحاق، وابن مروي، عنه، أيضاً قال: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، فقال مالك لعاصم: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرقوه وهدموه، وخرج أهله فتفرقوا عنه، فانزل الله هذه الآية. ولعل في هذه الرواية حذفاً بين قوله ﷺ دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم وبين قوله فقال مالك لعاصم، ويبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق، وابن مروي، عن أبي رهم: كلثوم بن الحصين الغفاري، وكان من الصحابة الذين يبيعوا تحت الشجرة قال: أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان: بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا يا رسول الله: إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة الشاتية، والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تاتينا فتصلي لنا فيه؛ قال: إني على جناح سفر، ولو قدما إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه؛ فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم لخوا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، ولخاء عاصم بن عدي، أحد بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان، وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثني عشر رجلاً، وذكر أسماءهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خذرة، وفي لفظ: تماريت أنا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا المسجد، لمسجد رسول الله ﷺ، وقال في ذلك خير

الساقط، يقال هار البناء: إذا سقط، وأصله هائر، كما قالوا: شاك السلاح، وشائك كذا، قال الزجاج. وقال أبو حاتم: إن أصله هاور. قال في شمس العلوم: الجرف ما جرف السيل أصله، وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهار اه جعل الله سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة، ثم قال: ﴿فَانْهَارْ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وفاعل فانهار، ضمير يعود إلى الجرف: أي فانهار الجرف بالبنين في النار، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى من، وهو الباني. والمعنى: أنه طاع الباطل بالبناء، أو الباني في نار جهنم، وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترشيحاً للمجاز، وسبحان الله ما أبلغ هذا الكلام، وأقوى تراكيبه، وأوقع معناه، وأصح مبناه. ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم، واستمرار ترددهم وشكهم فقال: ﴿لَا يَزَالُ بَنِيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً في قلوبهم ونفاقاً، ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب وقيل معنى الريبة: الحسرة والندامة، لأنهم ندموا على بنيانهم. وقال المبرد: أي حرارة وغيظاً. وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله ﷺ نفاقاً وتصميماً على الكفر، ومقتاً للإسلام، لما أصابهم من الغيظ الشديد، والغضب العظيم بهم، ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة وبوامها، وهو قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: لا يزال هذا إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً، وتتفرق أجزاء: إما بالموت أو بالسيف، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة. وقيل معناه: إلا أن يتوبوا توبة تقطع بها قلوبهم نماً وأسفاً على تفريطهم. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص، ويعقوب، وأبو جعفر، بفتح حرف المضارعة. وقرأ الجمهور بضمها. وروي عن يعقوب أنه قرأ «تقطع» بالتخفيف، والخطاب للنبي ﷺ: أي إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم. وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود: «ولو تقطعت قلوبهم». وقرأ الحسن، ويعقوب، وأبو حاتم: «إلى أن تقطع» على الغاية. أي لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا﴾ قال: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر الراهب: ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ناهب إلى قيصر ملك الروم، فأتني بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه؛ فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فيجب أن تصلي فيه، وتدعو بالبركة، فانزل الله: ﴿لَا تَقِيمُ فِيهِ لِبَدًا﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، عنه، قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدة جد

أخبره ابن خزيمة في صحيحه. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الجارود في المنتقى، والدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن طلحة بن نافع، قال: حدثني أبو أيوب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور، فما طهروكم هذا؟ قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة، قال: فهل مع ذلك غيره؟ قالوا: لا، غير أن أحداً إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجي بالماء، قال: هو ذلك فعليكموه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، والبغوي في معجمه، والطبراني وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن محمد بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، قال: لما أتى رسول الله ﷺ المسجد الذي أسس على التقوى مسجد قباء فقال: إن الله قد أثنى عليكم في الطهور خيراً أفلا تخبروني؟ يعني: قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ والله يحب المطهرين فقالوا: يا رسول الله إنا لنجده مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء، ونحن نفعله اليوم. وإسناد أحمد في هذا الحديث هكذا: حدثنا يحيى بن آدم، حدثني مالك، يعني ابن مغول، سمعت سياراً أبا الحاكم، عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام. وقد روى عن جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الآية نحو هذا. ولا يخفك أن بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله، وبعضها ضعيف، وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، وعلى كل حال: لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ في صحتها وصراحتها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنْ هَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قال: يعني قواعد في نار جهنم. وأخرج مسند في مسنده، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، قال: لقد رأيت اللخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله ﷺ. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَزَالُ بَنِيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال: يعني الشك ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: الموت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن حبيب بن أبي ثابت، في قوله: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال: غيظاً في قلوبهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: إلى أن يموتوا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سفيان، في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: إلا أن يتوبوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ بِكَ النَّفْسَ الْكَافِرَةَ وَأَمَّا لَكَ لَهُمُ الْخِزْيَةُ بِغَيْرِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقَاتِلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي النَّارِ﴾ وَالْإِيمِلُ وَالْفَتْرَةُ وَالْأَوْفَ مَهْوِي. رَبُّكَ اللَّهُ فَاسْتَبِيرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفُرْقَةُ الْمُبْيَنَةُ ﴿الْكَافِرُونَ الْمَكِيدُونَ﴾

كثير، يعني: مسجد قباء. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والزيبر بن بكار في أخبار المدينة، وأبو يعلى، وابن حبان، والطبراني، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، عن سهل بن سعد الساعدي نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب، والضياء في المختارة، عن أبي بن كعب قال: «سألت النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى قال: هو مسجدني هذا». وأخرج الطبراني، والضياء المقدسي في المختارة، عن زيد بن ثابت مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، والطبراني، من طريق عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد النبي ﷺ. قال عروة: مسجد النبي ﷺ خير منه، إنما أنزلت في مسجد قباء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، عن ابن عمر، قال: المسجد الذي أسس على التقوى: مسجد النبي ﷺ. وأخرج المذكوران عن أبي سعيد الخدري مثله. وقد روي عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس، أنه مسجد قباء. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، مثله. ولا يخفك أن النبي ﷺ قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى، وجزم بأنه مسجده ﷺ، كما قلنا من الأحاديث الصحيحة، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم، ولا غيرهم، ولا يصح لإيراده في مقابلة ما قد صح عن النبي ﷺ، ولا فائدة في إيراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى، على أن ما ورد في فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء، بلا شك ولا شبهة تعم. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية، وفي إسناده يونس بن الحارث، وهو ضعيف. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة، فقال: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟ فقالوا: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه، أو قال: مقعته، فقال النبي ﷺ: هو هذا. وأخرج أحمد، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن عويم بن ساعدة الأنصاري، أن النبي ﷺ اتاهم في مسجد قباء فقال: إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجلكم، فما هذا الطهور الذي تتطهرون به؟ قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أبنابهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، رواه أحمد عن حسن بن محمد. حدثنا أبو أويس، حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة، فنكره. وقد

لِّلْمُؤَدِّينَ اَلَّذِيْنَ كَانُوْا يُدْوِرُوْنَ اَلْاَمْوَالَ اَلَّذِيْنَ كَانُوْا يُسْتَقْرَفُ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءِ
عَنِ اَلْمُنْكَرِ اَلَّذِيْنَ كَانُوْا يُدْوِرُوْنَ اَلْاَمْوَالَ اَلَّذِيْنَ كَانُوْا يُسْتَقْرَفُ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءِ

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، ونكر أقسامهم، وفرغ على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه، ونكر الشراء تمثيل، كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى﴾ [البقرة: 16] مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء، وأصل الشراء بين العباد هو: إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه، أو أنفع منه، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدها للمؤمنين أي: بأن يكونوا من جملة أهل الجنة، ومن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم، وهي أنفس الاعلاق، والجود بها غاية الجود:

يجود بالنفس إن ضلَّ الجبان بها - والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وجاد الله عليهم بالجنة، وهي أعظم ما يطلبه العباد، ويتوسلون إليه بالأعمال - والمراد بالأنفس هنا: أنفس المجاهدين، وبالأموال: ما يتفقونه في الجهاد. قوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيان للبيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل يقاتلون في سبيل الله، ثم بين هذه المقاتلة في سبيل الله بقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ وَيُقَاتِلُونَ﴾ والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار في الحرب، ويبذلون أنفسهم في ذلك، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة، وإن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء في الجهاد، والتعرض للموت بالإقدام على الكفار. قرأ الأعمش، والنخعي، وحزمة، والكسائي «وخلف» بتقديم المبني للمفعول على المبني للفاعل. وقرأ الباقون بتقديم المبني للفاعل على المبني للمفعول. وقوله: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ إخبار من الله سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله في التوراة والإنجيل، كما وقع في القرآن، وانتصاب وعداً وحققاً على المصدرية أو الثاني: نعت للأول، وفي التوراة متعلق بمحذوف: أي وعداً ثابتاً فيها. قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بَعْدَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال، ما لا يخفى، فإنه أولاً أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم، وأموالهم، بأن لهم الجنة، وجاء بهذه العبارة الفخيمة، وهي كون الجنة قد صارت ملكاً لهم، ثم أخبر ثانياً بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزل، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق، لا بد من حصول الموعد به، فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سروراً وحبوراً، فقال: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي: أظهروا السرور بذلك، والبشارة هي إظهار السرور، وظهوره يكون في بشرة الوجه، ولذا يقال أسارير الوجه: أي التي يظهر فيها السرور. وقد تقدم إيضاح هذا، وإلقاء لترتيب

الاستبشار على ما قبله. والمعنى: أظهروا السرور بهذا البيع الذي بايعتم به الله عز وجل، فقد ربحتم فيه ربحاً لم يربحه أحد من الناس، إلا من فعل مثل فعلكم، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الجنة، أو إلى نفس البيع الذي ربحوا فيه الجنة، ووصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب بالعظم، يدل على أنه فوز لا فوز مثله. قوله: ﴿التَّائِبُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف: أي هم التائبون، يعني: المؤمنون، والتائب الرجوع: أي هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة. وقال الزجاج: الذي عندي أن قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمرة: أي التائبون، ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً، وإن لم يجاهدوا. قال: وهذا أحسن، إذ لو كانت هذه أوصافاً للمؤمنين المذكورين في قوله: ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لكان الوعد خاصاً بمجاهدين. وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين في الآية الأولى، وأنها على جهة الشرط: أي لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: للتائبين العابدين إلى آخرها - وفيه وجهان: أحدهما: أنها أوصاف للمؤمنين، الثاني: أن النصب على المدح. وقيل: إن ارتفاع هذه الأوصاف على البذل من ضمير يقاتلون، وجوز صاحب الكشاف أن يكون التائبون مبتدأ، وخبره العابدون، وما بعده أخبار، كذلك أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال، وفيه من البعد ما لا يخفى، والعبادون القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص. و ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على السراء والضراء، و ﴿السَّائِحُونَ﴾ قيل: هم الصائمون، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ومنه قوله تعالى: ﴿عَابِدَاتِ سَائِحَاتٍ﴾ [التحریم: 5] وإنما قيل للسائحات، لأنه يترك اللذات، كما يتركها السائح في الأرض، ومنه قول أبي طالب بن عبد المطلب:

وبالسائحين لا ينوقون فطرة - لربهم والراكذات العوامل
وقال آخر:

تراه يصلي ليله ونهاره - يظل كثير الذكر لله سائحا
قال الزجاج: ومذهب الحسن أن السائحين ها هنا هم الذين يصومون الفرض، وقيل: إنهم الذين يديمون الصيام. وقال عطاء: السائحون المجاهدون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: السائحون: المهاجرون. وقال عكرمة: هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم. وقيل: هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته، وما خلق من العبر. والسياحة في اللغة أصلها: الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء، وهي مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكير في مخلوقات الله سبحانه، و ﴿الْراكعون الساجدون﴾ معناه: المصلون، و ﴿الأمرون بالمعروف﴾ القائمون بأمر الناس بما هو معروف في

في شعب الإيمان، من طريق عبيد بن عمير، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن النجار، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، مرفوعاً مثله. وقد روي عن أبي هريرة موقوفاً، وهو أصح من المرفوع من طريقه، وحديث عبيد بن عمير مرسل، وقد أسنده من طريق أبي هريرة في الرواية الثانية. وقد روي من قول جماعة من الصحابة مثل هذا: منهم عائشة عند ابن جرير، وابن المنذر، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، ومنهم ابن مسعود، عند هؤلاء المذكورين قبله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي أمامة أنَّ رجلاً أستاذن رسول الله ﷺ في السباحة فقال: «إن سباحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وصححه عبد الحق. وأخرج أبو الشيخ، عن الربيع، في هذه الآية قال: هذه أعمال قال فيها أصحاب النبي ﷺ: إن الله قضى على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيداً، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله. وأخرج ابن المنذر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة. قال: وقال ابن عباس من مات وفيه تسع، فهو شهيد، وقرأ هذه الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: «**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم**» يعني: بالجنة، ثم قال: «**التائبون**» إلى قوله: «**والحافظون لحدود الله**» يعني: القائمين على طاعة الله، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد، وإذا وفوا له بشرطه وفي لهم بشرطهم.

مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَمْحَدُ الْحَجِيرِ ﴿٥٤﴾ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ لِزَهْرٍ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُ أَلَّهُ عَذَابَهُ وَتَوَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِيَّاهُ لَأَكْزَرُ حَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

لما بيّن الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بين سبحانه هنا ما يزيد تلك تأكيداً، وصرّح بأن ذلك متحتم، ولو كانوا أولي قربى، وأن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها. وقد ذكر أهل التفسير أن «ما كان» في القرآن يأتي على وجهين: الأول: على النفي نحو: «**ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله**» [آل عمران: 145]، والآخر: على معنى النفي نحو: «**ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله**» [الأحزاب: 53] و«**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين**» وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار، وتحريم الاستغفار لهم، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً، ولا ينافي هذا ما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر

الشريعة «**والناهون عن المنكر**» القائمون بالإنكار على من فعل منكراً: أي شيئاً ينكره الشرع «**والحافظون لحدود الله**» القائمون بحفظ شرائعه التي أنزلها في كتبه، وعلى لسان رسله، وإنما أدخل الواو في الوصفين الآخرين، وهما «**والناهون عن المنكر والحافظون**» الخ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه؛ وقيل: إن العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها، كقوله: «**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب**» [غافر: 3]، وقيل: إن الواو زائدة؛ وقيل: هي واو الثمانية المعروفة عند النحاة، كما في قوله تعالى: «**ثيبات وأبكاراً**» [التحريم: 5]، وقوله: «**وفتحت أبوابها**» [الزمر: 73]، وقوله: «**سبعة وثامنهم كلبهم**» [الكهف: 22]، وقد أذكروا والثمانية أبو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه «**وبشّر للمؤمنين**» الموصوفين بالصفات السابقة.

وقد أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، وغيره قالوا: «قال عبد الله بن راحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قال: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: «**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم**» الآية». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، قال: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد «**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم**» فكبر الناس في المسجد، فاقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي رداءه على عاتقه، فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيع لا نقيل ولا نستقيل. وقد أخرج ابن سعد، عن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ اشترط في بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا ينازعوا في الأمر أهله، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، قالوا: نعم؛ قال قائل الأنصار: نعم، هذا لك يا رسول الله، فما لنا؟ قال: الجنة. وأخرجه ابن سعد أيضاً من وجه آخر، وليس في قصة العقبة ما يدل على إنها سبب نزول الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس، قال: من مات على هذه التسع، فهو في سبيل الله: «**التائبون العابدون**» إلى آخر الآية. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن المنذر، عن ابن عباس، قال: الشهيد من كان فيه التسع الخصال المذكورة في هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عنه، أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة الحمائم الذين يحمون الله على السراء والضراء». وأخرج ابن جرير، عن عبيد بن عمير، قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: هم الصائمون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، والبيهقي

استغفر لها، روي ذلك عن أبي أيوب. وقيل: هو الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى. وقيل: إنه المعلم للخير. وقيل: إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله قاله عطاء. والمطابق لمعنى الأَوَاه لغة أن يقال إنه الذي يكثر التَّوَاه من نذوبه، فيقول مثلاً: أه من نذوبي أه، مما أعاقب به بسببها، ونحو ذلك، وبه قال الفراء، وهو مروى عن أبي نر، ومعنى التَّوَاه هو: أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء. قال في الصحاح: وقد أَوَّه الرجل تأوَّيهًا، وتَّوَاه تأوَّاه إذا قال أَوَّه، والاسم منه أَمَةٌ بالمد، قال:

إذا ما قمت أرحلها بليل تـأوَّه أمة الرجل الحزين
وَالْحَلِيم الكثير الحلم، كما تفيد صيغة المبالغة، وهو الذي يصفح عن الذنوب، ويصبر على الأذى؛ وقيل: الذي لا يعاقب أحداً قط إلا الله.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب بخل النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية، فقال النبي ﷺ: أي عم قل لا إله إلا الله حاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، وأبو جهل وعبد الله، يعاندانه بتلك المقالة. فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: لاستغفرن لك ما لم أنه عنك، فنزلت: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾** الآية، وأنزل الله في أبي طالب: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** [القصص: 56]. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء في المختارة، عن عليّ قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبيه وهما مشركان، فقلت تستغفر لأبيك وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فنكرت لك للنبي ﷺ فنزلت: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾** الآية. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر، عن عليّ قال: أخبرني النبي ﷺ بموت أبي طالب، فبكى، فقال: اذهب فغسله وكفنه، ووراة غفر الله له ورحمه، ففعلت، وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له إيماناً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾** الآية. وقد روي كون سبب نزول الآية: استغفار النبي ﷺ لأبي طالب من طرق كثيرة: منها عن محمد بن كعب، عند ابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وهو مرسل. ومنها عن عمرو بن دينار، عند ابن جرير، وهو مرسل أيضاً. ومنها عن سعيد بن المسيب، عند ابن جرير، وهو مرسل أيضاً. ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد، وأبي الشيخ وابن عساکر. ومنها عن الحسن البصري عند ابن عساکر، وهو مرسل. وروي أنها نزلت بسبب زيارة النبي ﷺ لقبر أمه، واستغفاره لها، من طريق ابن عباس عند الطبراني وابن مردويه، ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وعن

المشركون رباعيته وشجوا وجهه: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين، وعلى فرض أنه قد كان بلغه، كما يفيد سبب النزول، فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة، وسيأتي فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عن تقدمه من الأنبياء، كما في صحيح مسلم عن عبد الله، قال: كآني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وفي البخاري، أن النبي ﷺ ذكر نبياً قبله شججه قومه، فجعل النبي ﷺ يخبر عنه بأنه قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. قوله: **﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾** هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار، والمعنى: أن هذا التبيين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، وعدم الاعتماد بالقرابة: لأنهم ماتوا على الشرك. وقد قال سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾** [النساء: 116] فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده. قوله: **﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾** الآية: ذكر الله سبحانه السبب في استغفار إبراهيم لأبيه، أنه كان لأجل وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله، وأنه غير مستحق للاستغفار، وهذا يدل على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار، ومن أعداء الله، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين، أنه كيف خفي ذلك على إبراهيم، فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو الله، فإن ثبوت هذه العداوة تدل على الكفر، وكذلك لم يعلم نبينا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل. وقيل المراد من استغفار إبراهيم لأبيه: دعاؤه إلى الإسلام، وهو ضعيف جداً. وقيل المراد بالاستغفار في هذه الآية: النهي عن الصلاة على جنازة الكفار، فهو كقوله: **﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾** [التوبة: 84] ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم. فقال: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾** وهو كثير التَّوَاه، كما تدل على ذلك صيغة المبالغة.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الأَوَّاه، فقال ابن مسعود، وعبيد بن عمير: إنه الذي يكثر الدعاء. وقال الحسن، وقتادة: إنه الرَّحِيم بعباد الله. وروي عن ابن عباس: أنه المؤمن بلغه الحبشة. وقال الكلبي: إنه الذي يذكر الله في الأرض القفر. وروي مثله: عن ابن المسيب، وقيل: الذي يكثر الذكر لله من غير تقييد، روي ذلك عن عتبة بن عامر. وقيل: هو الذي يكثر التلاوة، حكى ذلك عن ابن عباس. وقيل: إنه الفقيه، قاله مجاهد والنخعي، وقيل: المتضرع الخاضع، روى ذلك عن عبد الله بن شداد بن الهاد. وقيل: هو الذي إذا نكر خطياه

بريدة عند ابن مربيوه، وما في الصحيحين مقدّم على ما لم يكن فيهما، على فرض أنه صحيح، فكيف وهو ضعيف غالبه. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى قوله: ﴿كما ربياني صغيراً﴾ [الإسراء: 23 - 24] قال: ثم استثنى فقال: ﴿ما كان للنبي﴾ إلى قوله: ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله﴾ قال: تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو بكر الشافعي في فوائده، والضياء في المختارة، عن ابن عباس قال: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله، فتنبأ منه. وأخرج ابن مربيوه، عن جابر، أن رجلاً كان يرفع صوته بالذکر، فقال رجل: لو أن هذا خفض صوته؟ فقال رسول الله ﷺ: دعه فإنه أواه. وأخرج الطبراني وابن مربيوه، عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له نو النجادين: إنه أواه، وذلك أنه كان يكثر نكر الله بالقرآن والدعاء. وأخرجه أيضاً أحمد قال: حدثنا موسى بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر، فذكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مربيوه، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: الخاشع المتضرع الدعاء. وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما نكره أهل اللغة في معنى الأواه، وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدثني المثنى، حدثني الحجاج بن منهال، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد، فذكره. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ قال: كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له: هداك الله.

وَمَا كَانَ اللَّهُ يُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّى بَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٦١﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنْ سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَانُوا يَرْجُونَ قُلُوبٌ قَرِيبٌ يُمْسِكُهُمْ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَدُّوهُمُ رَجِعُوا ﴿١٦٢﴾ وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَحَنِّمْهُمْ إِذَا سَأَلَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِمَا رَحِمَتْ مَسَافَتُ عَلَيْهِمْ أَنْشُدُوهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلَاجَأٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى إِلَهِهِمْ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتَوَكَّلُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٤﴾

لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركون، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب نكاح الاستغفار، فأنزل الله سبحانه: ﴿وما كان الله ليضلَّ قوماً﴾ إلخ: أي إن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم إلى الإسلام، والقيام

بشرائعه، ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرم، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك، فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به، ومعنى: ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ مما يحل لعباده، ويحرم عليه، ومن سائر الأشياء التي خلقها، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك مشارك، ولا ينازعه منازع يتصرف في ملكه بما شاء من التصرفات التي من جملتها أنه يحيى من قضت مشيئته بإحيائه، ويميت من قضت مشيئته بإماتته، وما لعباده من دونه من ولي يواليهم، ولا نصير ينصرهم، فلا يستغفروا للمشركون ولو كانوا أولي قربى، فإن القرابة لا تنفع شيئاً ولا تؤثر أثراً بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده. قوله: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ فيما وقع منه ﷺ من الإذن في التخلف، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركون. وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أولاً، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار. وقد تكون التوبة منه تعالى على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى، والأليق، كما في قوله: ﴿عفا الله عنك لم أكن أنت لهم﴾ [التوبة: 43]، ويجوز أن يكون ذكر النبي ﷺ لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب، ويتوبوا عما قد لا يسوه منها، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار، فيما قد اقترفوه من الذنوب. ومن هذا القبيل ما صح عنه ﷺ من قوله: «إن الله أطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبي ﷺ، فلم يتخلفوا عنه، وساعة العسرة هي غزوة تبوك، فإنهم كانوا في عسرة شديدة، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة، ولم يرد ساعة بعينها، والعسرة صعوبة الأمر. قوله: ﴿من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم﴾ في كاد ضمير الشأن، وقلوب مرفوع بتزيغ عند سببويه؛ وقيل: هي مرفوعة بكاد، ويكون التقدير من بعد ما كان قلوب فريق منهم تزيغ. وقرأ الأعمش وحفص «تزيغ» بالتحية. قال أبو حاتم: من قرأ بالياء التحتية، فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد. قال النحاس: والذي لم يجزه جائز عند غيره على تنكير الجمع، ومعنى: ﴿تزيغ﴾ تتلف بالجهد والمشقة والشدة؛ وقيل معناه: تميل عن الحق وتترك المناصرة والممانعة؛ وقيل معناه: تهمل بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة. وفي قراءة ابن مسعود «من بعد ما زأغت» وهم المتخلفون على هذه القراءة. وفي تكرير التوبة عليهم بقوله: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها، هذا إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرر. قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ أي: وتاب على الثلاثة الذين خلفوا: أي أخروا، ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم. قال ابن جرير: معنى خلفوا

حتى قالت السماء، فاهطلت ثم سكبت، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر، فلم نجد ما جاوزت العسكر. وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هي غزوة تبوك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن منده، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساکر، عن جابر بن عبد الله، في قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ قال: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار. وأخرج ابن منده، وابن عساکر، عن ابن عباس، مثله. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن كعب بن مالك قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أكثر منها في الناس وأشهر، ثم ذكر القصة الطويلة المشهولة في كتب الحديث والسير، وهي معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاک، في قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ قال: يعني خلفوا عن التوبة، لم يتب عليهم حين تاب الله على أبي لبابة وأصحابه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن نافع، في قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّائِقِينَ﴾ قال: نزلت في الثلاثة الذين خلفوا، قيل لهم كونوا مع محمد وأصحابه. وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن جبیر، في قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّائِقِينَ﴾ قال: مع أبي بكر وعمر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن الضحاک في الآية قال: مع أبي بكر، وعمر، وأصحابهما. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: مع علي بن أبي طالب. وأخرج ابن عساکر، عن أبي جعفر، قال: مع الثلاثة الذين خلفوا.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ وَأَنَّهُمْ لَا يُبْغِضُهُمْ غُلَامٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَبْطُلُونَ مَوْطِئًا يَرِيضُ الْكَفَّارُ وَلَا يَنَالُوتُ مِنْ عَذَابٍ شَيْئًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلَاحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَا يُفْقِدُونَ نَفْسَهُمْ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا يَفْطُرُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ ﴿١٠٢﴾

في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إلخ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ، وتحريم التخلف عنه: أي ما صح وما استقام لأهل المدينة ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ﴾ أي من حولهم من الأعراب كمزينة وجهينة، وأشجع وأسلم وغفار ﴿إِنَّ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ في غزوة تبوك، وإنما

تركوا، يقال خلفت فلاناً فارقته. وقرأ عكرمة بن خالد «خلفوا» بالتخفيف: أي أقاموا بعد نهوض رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الغزو. وقرأ جعفر بن محمد «خالفوا» وهؤلاء الثلاثة: هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، أو ابن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي ﷺ توبتهم، حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم؛ وقيل معنى خلفوا: فسدوا، مأخوذ من خلوف الفم. قوله: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ معناه: أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وما مصدرية: أي برحبها، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد، لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم. والرحب: الواسع. يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب. وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديباً لهم؛ لينزجروا عن المعاصي. ومعنى ضيق أنفسهم عليهم: أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة، وعبر بالظن في قوله: ﴿وَعَمِلُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ عن العلم: أي علموا أن لا ملجأ ينجون إليه قط، إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار. قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: رجع عليهم بالقبول والرحمة، وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها، ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: الكثير القبول لتوبة التائبين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده. قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّائِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصائقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصنق ما حصل من توبة الله، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم.

وقد أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بننب أننبوه ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ قال: حتى ينههم قبل ذلك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته غامض ما فعلوا أو تركوا. وأخرج ابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، أنه قال لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فاصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر قرنيه، فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه، فلم يرجعهما

وقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمر بن مالك، عن بعض الصحابة قال: لما نزلت ﴿وَمَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ قال هذا حين كان الإسلام قليلاً لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، وإبراهيم بن محمد الفزاري، وعيسى بن يونس السبعي، أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ قالوا: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ قَالَ نَزَلَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَعِذُوا بِكُمْ غِلْفَةً﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾

اختلف المفسرون في معنى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد. لأن سبحانه لما بالغ في الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو، كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سرية من الكفار ينفرون جميعاً ويتركون المدينة خالية، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك: أي ما صَحَّ لهم، ولا استقام أن ينفروا جميعاً، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة، ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة. قالوا: ويكون الضمير في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ عائداً إلى الفرقة الباقية. والمعنى: أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو، ومن بقي من الفرقة يقفون لطلب العلم، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو، أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذي يجدون فيه من يتعلمون منه، ليأخذوا عنه الفقه في الدين، وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم. وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقه في الدين، جعله الله سبحانه متصلاً بما دلَّ على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السفر نوعين: الأول: سفر الجهاد، والثاني: السفر لطلب العلم. ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر. والفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية، وبما يتوصل به إلى العالم بها من لغة ونحو، وصرف وبيان وأصول. ومعنى: ﴿قُلُولًا نَفَرًا﴾ فهنا نفر، والطائفة في اللغة: الجماعة. وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين، وإنذار من لم يتفقه. فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين، فهو طالب لغرض دنيوي لا لغرض ديني، فهو كما قلت:

خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا، فلم ينفروا، بخلاف غيرهم من العرب، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقريهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيشحون بها ويصونونها، ولا يشحون بنفس رسول الله، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، يقال رغبت عن كذا: أي ترفعت عنه، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق. ويبدلوا أنفسهم بون نفسه؛ وفي هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيد إirاده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم، والتقريع الشديد، والتهيج لهم، والإزراء عليهم. والإشارة بقوله: ﴿فَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ أي تلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب، وأصناف الشدائد. والظما: العطش، والنصب: التعب، والمخصة: المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن. وقرأ عبيد بن عمير «ظماء» بالمد. وقرأ غيره بالقصر، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء، و﴿لَا﴾ في هذا المواضع زائدة للتأكيد. ومعنى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله. قوله: ﴿وَلَا يَطِئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار باقدامهم، أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف راحلهم، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار. والموطئ: اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً للغيظ للكفار. وأصله من نلت الشيء أثال: أي أو أسراً أو هزيمة أو غنيمة، وأصله من نلت الشيء أثال: أي أصيب. قال الكسائي: هو من قولهم أمر منيل منه، وليس هو من التناول، إنما التناول من نلته بالعطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، ونلته أناله: أدركته، والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة، والعمل الصالح: الحسنة المقبولة: أي إلا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ لِحَرِّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن، ويصدق على المذكورين هنا صدقاً أولياً. قوله: ﴿وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً﴾ معطوف على ما قبله: أي ولا يقع منهم الإنفاق في الحرب، وإن كان شيئاً صغيراً يسيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَابِئًا﴾ وهو في الأصل كل منفرج بين جبال وأكام يكون منفذاً للسيل، والعرب تقول: واد وادية على غير قياس. قال النحاس: ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعلة ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ أي: كتب لهم ذلك الذي عملوه من النفقة والسفر في الجهاد ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ به ﴿لِحَسَنٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال، ويجوز أن يكون في قوله: ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ ضمير يرجع إلى عمل صالح. وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها، وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122] فإنها تدل على جواز التخلف من البعض، مع القيام بالجهاد من البعض، وسيأتي.

حَسْبُكَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْمَرْشِ
الْمُطِيرِ ﴿١٣٨﴾

قوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ حكاية منه سبحانه لقية فضائح المنافقين: أي إذا ما أنزل الله على رسوله ﷺ سورة من كتابه العزيز، فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لإخوانه منهم ﴿إِيكُم زَانِيتُهُ هَذِهِ﴾ السورة النازلة ﴿إِيمَانًا﴾ يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين، ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام وزهيدهم فيه، وإيكم مرفوع بالابتداء وخبره زانته. وقد تقدم بيان معنى السورة. ثم حكى الله سبحانه بعد مقالاتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيماناً إلى إيمانهم، والحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحي، وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهم: المنافقون ﴿فَزَانَتْهُمْ﴾ السورة المنزلة ﴿رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ أي: خبثاً الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد، وإظهار غير ما يضمرونه، وثبتوا على ذلك واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفاراً منافقين، والمراد بالمرض هنا: الشك والنفاق؛ وقيل المعنى: زادتهم إثمًا إلى إثمهم. قوله: ﴿أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قرأ الجمهور «يرون» بالتحتيّة. وقرأ حمزة ويعقوب بالفوقية خطاباً للمؤمنين. وقرأ الأعمش «أو لم يروا». وقرأ طلحة بن مصرف «أو لا ترى» خطاباً لرسول الله ﷺ، وهي قراءة ابن مسعود. ومعنى: ﴿يَفْتَنُونَ﴾: يختبرون، قاله ابن جرير، وغيره، أو يبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدة، قاله مجاهد. وقال ابن عطية بالأمراض والأوجاع. وقال قتادة، والحسن، بالغزو والجهاد مع النبي ﷺ، ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ بسبب ذلك ﴿وَلَا هُمْ يَنْكُرُونَ﴾ وثم لعطف ما بعدها على يرون، والهمزة في أو لا يرون للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر: أي لا ينظرون ولا يرون، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق، وإهمالهم للنظر والاعتبار، ثم نكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد نكره لما كانوا يقولونه، فقال: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين، لننصرف عن المقام الذي ينزل فيه الوحي، فإنه لا صبر لنا على استماعه، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك؛ وقيل المعنى: وإذا أنزلت سورة نكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم، قال بعض من يحضر مجلس رسول الله ﷺ للبعض الآخر منهم: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم. وحكى ابن جرير، عن بعض أهل العلم، أنه قال: ﴿نَظَرُ﴾ في هذه الآية موضوع موضع قال: أي قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد. قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْصَرِفُوا﴾ أي: عن ذلك المجلس إلى

وطالب الدنيا يعلم الدين أي بائس كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس ومعنى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك، أو فيما يجب تركه فيفعل، ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار، وأن يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدة، والجهاد واجب لكل الكفار، وإن كان الابتداء بمن يلي المجاهدين منهم أهم وأقدم، ثم الأقرب فالأقرب؛ ثم أخبرهم الله بما يقوّي عزائمهم، ويثبت أقدامهم فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالنصرة لهم، وتأييدهم على عدوهم، ومن كان الله معه لم يقم له شيء.

وقد أخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: نسخ هؤلاء الآيات: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41] ﴿وَأَنْ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيكُمْ﴾ [التوبة: 39] قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: لتتفر طائفة، وتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ، فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين، وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، ولعلمهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحجوده. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عنه، نحوه من طريق أخرى بسياق آثم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، أيضاً في هذه الآية قال: ليست هذه الآية في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين، أجذبت بلادهم؛ فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى دخلوا بالمدينة من الجهد، ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين، فردهم إلى عشائرتهم وحذر قومهم أن فعلوا فعلهم، فنزل قوله: ﴿وَلْيَنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وفي الباب روايات عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قال: الأدنى، فالأدنى. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، مثله. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عمر، أنه سئل عن غزو الديلم فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قال: الروم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غُلَظَةً﴾ قال: شدة.

وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَيَنْهَرُ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الْآيَاتُ مَا آتَيْنَاهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَأَمَّا الْآيَاتُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَأْوَاهُمْ كَذِبُونَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٤٠﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤١﴾ إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ

وإبن المنذر، وإبن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وإبن مردويه، عن حنيفة، قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيفضل بها فئام من الناس كثير. وأخرج ابن جرير، وإبن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿نَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قال: هم المنافقون. وأخرج سعيد بن منصور، وإبن أبي شعبة، وإبن جرير، وإبن المنذر، وإبن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، قال: لا تقولوا انصرفنا من الصلاة، فإن قوما انصرفوا، صرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة. وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر، نحوه. وأقول: الانصراف يكون عن الخير، كما يكون عن الشر، وليس في إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك، وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الأمور المتعددة إذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار، لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع من أهل الخير، كالرجوع والذهاب، والخلوع والخروج، والقيام والقعود، واللام باطل بالإجماع، فالملزوم مثله، ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى. وأخرج عبد بن حميد، والحاثر بن أبي أسامة، في مسنده، وإبن المنذر، وإبن مردويه، وأبو نعيم، في دلائل النبوة، وإبن عساکر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولت النبي ﷺ مضريةا وربيعيةا ويمانيتها. وأخرج ابن سعد عنه، في قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: قد ولتتموه يا معشر العرب. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وإبن جرير، وإبن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، وأبو الشيخ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وهذا فيه انقطاع، ولكنه قد وصله الحافظ الراهمزمي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي، فقال: حدثنا أبو أحمد، يوسف بن هرون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي يحيى، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لئن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي». وأخرج ابن مردويه، عن أنس، قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله ما معنى من أنفسكم؟ قال: نسباً وصهرأ وحسباً، ليس في ولا في آبائي من لئن آدم سفاح كلنا نكاح». وأخرج الحاكم، عن ابن عباس، «أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: من أعظمكم قدراً». وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث علي الأول. وأخرج الطبراني عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن سعد، وإبن عساکر، عن عائشة، نحوه. وفي الباب أحاديث بمعناه، ويؤيد ما في صحيح مسلم، وغيره، من حديث وثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل،

منزلهم، أو عن ما يقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والنفاق، ثم دعا الله سبحانه عليهم، فقال: ﴿صَرْفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صرفها عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها؛ وقيل المعنى: أنه خذلهم عن قبول الهداية؛ وقيل: هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه، كقولهم: قاتله الله. ثم نكر سبحانه السبب الذي لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية، أو السبب الذي لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله: ﴿صَرْفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما يسمعون له لعدم تدبرهم وإنصافهم، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكالييف الشاقة، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿رَسُولٌ﴾ أرسله الله إليكم، له شأن عظيم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم في كونه عربياً وإلى كون هذه الآية خطاباً للعرب لجمهور المفسرين. وقال الزجاج: هي خطاب لجميع العالم. والمعنى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ﴾ جنسكم في البشرية ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ما مصيرية. والمعنى: شاق عليه عنتم لكونه من جنسكم، ومبعوثاً لهدايتكم، والعنت: التعب لهم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه، أو بعذاب الآخرة بالنار، أو بمجموعهما ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: شحيح عليكم بأن تدخلوا النار، أو حريص على إيمانكم. والأول: أولى، وبه قال الفراء. والرءوف: الرحيم، قد تقدم بيان معناه: أي هذا الرسول ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم أيها العرب أو للناس ﴿رءوفٌ رحيمٌ﴾ ثم قال مخاطباً لرسله ومسلماً له، ومرشداً له، إلى ما يقوله عند أن يعصى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عنكم ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: كافي الله سبحانه المنفرد بالالوهية ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فوضت جميع أموري ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وصفه بالعظم، لأنه أعظم المخلوقات. وقد قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لعرش. وقرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب. وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير.

وقد أخرج ابن جرير، وإبن أبي حاتم، وإبن مردويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَّانَتْهُمْ إِيْمَانًا﴾ قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيماناً وتصديقاً، وكانوا بها يستبشرون. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وَرَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ قال: شكاً إلى شكهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَوَّلًا يَرُونَ بِأَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ قال: يقتلون. وأخرج ابن أبي شعبة، وإبن جرير، وإبن المنذر، وإبن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، نحوه وقال: بالسنة والجوع. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: بالعدو. وأخرج ابن جرير، وإبن المنذر، وإبن أبي حاتم، عن قتادة، قال: بالغزو في سبيل الله. وأخرج أبو الشيخ، عن بكار بن مالك، قال: يمرضون في كل عام مرة أو مرتين. وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد، قال: كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان. وأخرج ابن جرير،

وقال الحسن: هو محمد ﷺ، وقال الحكيم الترمذي: قدمه ﷺ في المقام المحمود، وقال مقاتل: أعمالاً قَدَّموها واختاره ابن جرير، ومنه قول الواح: **﴿قال الكافرون إن هذا لسحر مبين﴾**. قرأ ابن كثير،

صل لذي العرش واتخذ قوماً ينجيك يوم الخصام والزلل وقيل غير ما تقدم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده. قوله: **﴿قال الكافرون إن هذا لسحر مبين﴾**. قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي، وخلف، والأعمش، وابن محيصن «لساحر» على أنهم أرادوا رسول الله ﷺ باسم الإشارة. وقرأ الباقون «لسحر» على أنهم أرادوا القرآن، وقد تقدم معنى السحر في البقرة، وجملة: **﴿قال الكافرون﴾** مستأنفة كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجب؟ وقال القفال: فيه إضمار، والتقدير: فلما أنزله قال الكافرون ذلك. ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم، فقال: **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾**. أي: من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوُّره، كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلاً للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الأعراف في قوله: **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾** [الأعراف: 54] فلا نعيده هنا، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه فقال: **﴿يدير الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذن﴾**. وترك العاطف، لأن جملة يدبر كالتفسير والتفصيل، لما قبلها، وقيل: هي في محل نصب على الحال من ضمير استوى؛ وقيل: مستأنفة جواب سؤال مقدر، وأصل التدبير النظر في أديار الأمور وعواقبها؛ لتقع على الوجه المقبول. وقال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده، وقيل: يبعث الأمر، وقيل: ينزل الأمر، وقيل: يامر به ويمضيه، والمعنى متقارب، واشتقاقه من الدير، والأمر الشأن، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض، والعرش، وسائر الخلق. قال الزجاج: إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون إن الأصنام شفعاؤنا عند الله، فردَّ الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إئنته، لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب. وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمور في كل شيء سبحانه وتعالى، والإشارة بقوله: **﴿لنلكم﴾** إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير: أي الذي فعل هذه الأشياء العظيمة **﴿الله ربكم﴾**. واسم الإشارة مبتدأ، وخبره: الاسم الشريف، وربكم بدل منه، أو بيان له، أو خبر ثان، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله: **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾**. ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها لئون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره، فكيف يعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر؟ والاستفهام في قوله: **﴿أفلا تذكرون﴾** للإنكار، والتوبيخ، والتقرير؛ لأن من له أدنى تذكر، وأقل اعتبار، يعلم بهذا ولا يخفى عليه، ثم بين لهم ما يكون آخر

مجاهد وقتادة: أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث، وقيل: **﴿تلك﴾** بمعنى هذه: أي هذه آيات الكتاب الحكيم، وهو القرآن، ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة نكر، وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره، و**﴿الحكيم﴾** المحكم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام، قاله أبو عبيدة وغيره؛ وقيل: الحكيم معناه الحاكم، فهو فعيل بمعنى: فاعل، كقوله: **﴿وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾** [البقرة: 213]؛ وقيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه، فهو فعيل بمعنى مفعول: أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان، قاله الحسن وغيره؛ وقيل: الحكيم ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها، والاستفهام في قوله: **﴿أكان للناس عجباً﴾** لإنكار العجب مع ما يفيد من التقرير والتوبيخ، واسم كان **﴿أن أوحينا﴾** وخبرها **﴿عجباً﴾** أي: أكان إيحائنا عجباً للناس. وقرأ ابن مسعود «عجب» على أنه اسم كان، على أن كان تامة، و**﴿أن أوحينا﴾** بدل من عجب. وقرئ بإسكان الجيم من «رجل» في قوله: **﴿إلى رجل منهم﴾** أي: من جنسهم، وليس في هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب، فإنه لا يلبس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه، إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة، أو من الجن، ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال، لأنهم لا يأنسون إليه، ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشكُّله لهم وظهوره، فيما أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم، أو في الشكل الإنساني، فلا بدَّ من إنكارهم لكونه في الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم، وإن كان لكونه يتيماً أو فقيراً، فلنك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره وبالعالم في كمال الصفات إلى حد يقصُر عنه من كان غنياً، أو كان غير يتيماً، وقد كان لرسول الله ﷺ قبل أن يصطفيه الله بإرساله من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس، وأظهر من النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين: قوله: **﴿إن أنذر الناس﴾** في موضع نصب بنزع الخافض: أي بأن أنذر الناس، وقيل هي المفسرة لأن في الإيحاء معنى القول، وقيل: هي المخففة من الثقيلة، قوله: **﴿قدم صدق﴾** أي: منزل صدق، وقال الزجاج: درجة عالية، ومنه قول ذي الرمة:

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحساب العالي طمت على البحر
وقال ابن الأعرابي: القدم المتقدم في الشرف، وقال أبو عبيدة والكسائي: كل سابق من خير أو شر، فهو عند العرب قدم؛ يقال: لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق، وقدم خير، وقدم شر؛ ومنه قول العجاج:

زل بنو العوام عند آل الحكم وتركوا الملك لملك ذي قدم
وقال ثعلب: القدم كل ما قدمت من خير، وقال ابن الأنباري: القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير، ولا إبطاء، وقال قتادة: سلف صدق، وقال الربيع: ثواب صدق،

إليهم﴾ [الأنبياء: 7] الآية، فلما كرّر الله سبحانه عليهم الحج قالوا: وإذا كان بشراً، فغير محمد كان أحق بالرسالة، ﴿ولولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: 31] يقول: أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ [الزخرف: 32] الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول. وأخرج ابن جرير، عنه، أيضاً قال: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن مسعود، قال: القدم هو العمل الذي قموا. قال الله سبحانه: ﴿نكتب ما قدموا وآثارهم﴾ [يس: 12] والآثار ممشاهم. قال: مشى رسول الله ﷺ بين أسطوانتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب. وأخرج ابن مروي، عن أبي سعيد الخدري، في قوله: ﴿قدم صدق﴾ قال: محمد ﷺ يشفع لهم. وأخرج ابن مروي، عن علي بن أبي طالب مثله. وأخرج الحاكم، وصححه، عن أبي بن كعب، قال: سلف صدق. والروايات عن التابعين وغيرهم في هذا كثيرة، وقد قدمنا أكثرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿ينبئ الأمر﴾ قال: يقضيه وحده، وفي قوله: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ قال: يحييه ثم يميتة ثم يحييه.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ النَّفْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَسْمَوْا عَدَدَ النُّجُومِ وَالْحَسَابِ مَا عَلَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ بِقُوَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۚ

نكر ها هنا بعض نعمه على المكلفين، وهي مما يستدل به على وجوده ووحدته، وقدرته وعلمه، وحكمته بإتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام، بعدما ذكر قبل هذا إيداعه للسّموات والأرض، واستواءه على العرش، وغير ذلك. والضياء قيل: جمع ضوء، كالسيّاط والحياض. وقرأ قنبل عن ابن كثير «ضياء» يجعل الياء همزة مع الهمزة، ولا وجه له لأن ياءه كانت واواً مفتوحة، وأصله: «ضواء» فقلبت ياء لكسر ما قبلها. قال المهدوي: ومن قرأ ضياء بالهمزة فهو مقلوب قدّمت الهمزة التي بعد الألف، فصارت قبل الألف، ثم قلبت الياء همزة، والأولى: أن يكون ضياء مصدراً لا جمعا، مثل قام يقوم قياماً، وصام يصوم صياماً، ولا بدّ من تقدير مضاف: أي: جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة، وكأنهما جعلتا نفس الضياء والنور. قيل: الضياء أقوى من النور، وقيل الضياء هو ما كان بالذات، والنور ما كان بالعرض، ومن هنا قال الحكماء: إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس. قوله: ﴿وقدّره منازل﴾ أي: قدر مسيره في منازل، أو قدره ذا منازل، والضمير راجع إلى القمر، ومنازل القمر:

أمرهم بعد الحياة الدنيا، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى، وانتصاب: ﴿وعد الله﴾ على المصدر؛ لأن في قوله: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر، والمراد بالمرجع الرجوع إليه سبحانه: إما بالموت، أو بالبعث، أو بكل واحد منهما، ثم أكد ذلك الوعد بقوله: ﴿حقاً﴾ فهو تأكيد لتأكيد، فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في ذلك. وقرأ ابن أبي عتبة: ﴿وعد الله حق﴾ على الاستئناف، ثم علل سبحانه ما تقدّم بقوله: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي: إن هذا شأنه يبتدئ خلقه من التراب ثم يعيده إلى التراب، أو معنى الإعادة الجزاء يوم القيامة. قال مجاهد: ينشئه ثم يميتة، ثم يحييه للبعث؛ وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال. وقرأ يزيد بن القعقاع: أنه يبدأ الخلق بفتح الهمزة، فتكون الجملة في وضع نصب بما نصب به وعد الله: أي وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق، وأجاز الفراء أن تكون «أن» في موضع رفع، فتكون اسماً. قال أحمد بن يحيى بن ثعلب يكون التقدير حقاً إيدأه الخلق، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال: ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أي: بالعدل الذي لا جور فيه ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب ليم بما كانوا يكفرون﴾. يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفاً على الموصول الأول: أي ليجزي الذين آمنوا، ويجزي الذين كفروا، وتكون جملة: ﴿لهم شراب من حميم﴾ في محل نصب على الحال، هي وما عطف عليها: أي وعذاب اليم، ويكون التقدير هكذا، ويجزي الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب اللّيم هما من الجزاء، ويمكن أن يقال: إن الموصول في ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ وما بعده خبره، فلا يكون معطوفاً على الموصول الأول، والباء في ﴿بما كانوا يكفرون﴾ للسببية: أي بسبب كفرهم، والحميم: الماء الحار، وكل مسخن عند العرب، فهو حميم.

وقد أخرج ابن مروي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الزّ﴾ قال: فواتح أسماء من أسماء الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن النجار في تاريخه، عنه، قال: في قوله: ﴿الزّ﴾ أنا الله أرى. وأخرج ابن المنذر، عن سعيد بن جبير، مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحّاك، مثله أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال: يعني هذه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال: الكتب التي خلت قبل القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن ابن عباس، قال: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله: ﴿إكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى

فيها، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم، بل جعلها لهم دار عمل، وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ قال: لم يجعل الشمس كهية القمر لكي يعرف الليل من النهار، وهو قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: 12]. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، في الآية قال: وجوههما إلى السموات، واقفيتهما إلى الأرض. وأخرج ابن مريويه، عن عبد الله بن عمرو، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن خليفة العبدي، قال: لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فملاً كل شيء وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ أَمْرًا يُبَدِّلُهَا وَلَا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَجْعَلُهُمْ رَبُّهُمْ يَوْمَ لَا يُخَيِّبُهُمْ فِي جَنَّتِ الْغَيْمِ ﴿٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ﴿١٠﴾ فِيهَا سَكَنُكُمْ وَبِأَمْرِ دَعَوْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

شرح الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد، ومن يؤمن به، وقدم الطائفة التي لم تؤمن، لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه، ويهملون النظر والتفكير فيما لا ينبغي إهماله مما هو مشاهد لكل حي طول حياته، فيتسبب عن إهمال النظر، والتفكير الصائق: عدم الإيمان بالمعاد، ومعنى الرجاء هنا الخوف، ومنه قول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل وقيل يرجون: يطمعون، ومنه قول الشاعر:

أترجو بني مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والغلاة وراثيا فالمعنى على الأول: لا يخافون عقاباً، وعلى الثاني: لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته؛ فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى: لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون في رؤيتنا؛ وقيل المراد بالرجاء هنا: التوقع، فيدخل تحته الخوف والطمع، فيكون المعنى: ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعون لقاءنا، فهم لا يخافونه، ولا يطمعون فيه ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ أي: رضوا بها عرضاً عن الآخرة، فعملوا لها ﴿واطمأننوا بها﴾ أي: سكنت أنفسهم إليها، وفرحوا بها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ لا يعتبرون بها، ولا يتفكرون فيها ﴿اولئك ماواهم﴾ أي: مثواهم، ومكان إقامتهم النار، والإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء، وحصول الرضا والاطمئنان، والغفلة ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي: بسبب ما

هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به، وجعلتها ثمانية وعشرون وهي معروفة، ينزل القمر في كل ليلة منها منزلاً لا يتخطاه، فيبدو صغيراً في أول منزله، ثم يكبر قليلاً قليلاً حتى يبدو كاملاً، وإذا كان في آخر منزله رقى واستقوس، ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملاً، أو ليلة إذا كان ناقصاً، والكلام في هذا يطول، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جواباً عن سؤال أورده علينا بعض الأعلام. وقيل: إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وإذا راوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ [الجمعة: 11]، وفي قول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرائي مختلف وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير، والاولى رجوع الضمير إلى القمر وحده، كما في قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ [يس: 39]، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير، فقال: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى، ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه، لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم. والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي: أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف؛ ثم بين سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر، واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب، دون الباطل والعبث، فالإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى المذكور قبله، واستثناء مفرغ من أعم الأحوال، ومعنى تفصيل الآيات تبينها، والمراد بالآيات التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولاً أولاً في ذلك. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب «يفصل» بالتحته. وقرأ ابن السميع «تفصل» بالفوقية على البناء للمفعول. وقرأ الباقون بالنون. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم، القراءة الأولى، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل «ما خلق الله ذلك إلا بالحق» وبعده «وما خلق الله في السموات والأرض» ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وما خلق في السموات والأرض من تلك المخلوقات، فقال: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ أي: الذين يتقون الله سبحانه، ويجتنبون معاصيه، وخصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكير في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه، ونظراً لعاقبة أمرهم، وما يصلحهم في معادهم. قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس

قال: حدثنا الحسن قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فواش إني لأراك عين امرئ صدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة؛ وأما الكافر، فإذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيقول له: ما أنت؟ فواش إني لأراك عين امرئ سوء، فيقول له: أنا عملك، فينتقل به حتى يدخله النار»، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، نحوه. وأخرج ابن مريويه، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قالوا سبحانه اللهم اتهم ما اشتهاوا من الجنة من ربهم» وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي الهذيل، قال: الحمد أول الكلام وآخر الكلام، ثم تلا: ﴿وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

﴿وَلَوْ يَسْمَعُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْرَرَ اسْتَعْمَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَهُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَمَكُورُونَ ١١﴾ وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ مَا لَمْ يَكُن لَّهُ بَالِغًا أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّوهُ مَرَّةً كَانَتْ لَدُنْهُ مِدْئاً إِلَىٰ مَرْءٍ مُّسَمَّرٍ كَذَلِكَ يُزَيِّنُ لِمَنْ يَشَاءُ كَانُوا يَمَكُورُونَ ١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا تَلَوْنَا لَكُمْ ذِكْرَهُمْ فَسَبَّحُوا بِالْحَمْدِ رَبِّهَا وَكَاثِرٌ بِكُمْ كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ كَيْفَ تَتَذَكَّرُونَ ١٤﴾ وَإِذَا ثُلَّ ثَلَاثُ عِلَّتْهُمُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَرْجُونَ نَصْرَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا فِي كِبَرٍ ١٥﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٦﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ تَقْدِيرًا ١٧﴾ فَيَعْلَمُ عَمْرَأُ مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٨﴾

لما نكر الله سبحانه الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد، ذكر أن هذا العذاب من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيا. قال القفال: لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب، فبين الله سبحانه أنه لا مصلحة في إيصال الشر إليهم، فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلاهم من يؤمن، قيل: معنى ﴿ولو يعجل الله للناس لشر استعجالهم بالخير﴾ لو عجل الله للناس العقوبة كما يتعجلون بالثواب والخير ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ أي: ماتوا؛ وقيل للمعنى: لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم؛ وقيل: الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث، وما يترتب عليه. قال في الكشف: وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير، إشعاراً بسرعة إجابته وإسعافه بطلبهم حتى كان استعجالهم بالخير تعجيل له، والمراد أهل مكة وقولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: 32] الآية. قيل والتقدير: ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلاً مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به، فحذف ما حذف لدلالة الباقي عليه. قال أبو علي الفارسي: في الكلام

كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد، وأما حال الذين يؤمنون به، فقد بينه سبحانه بقوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي: فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار، فيما تقدم ذكره من الآيات ﴿وعملوا الصالحات﴾ التي يقتضيها الإيمان، وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين ﴿يهدىهم ربهم بالإيمان﴾ أي: يبرزهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح، فيصلون بذلك إلى الجنة، وجملة: ﴿وتجري من تحتهم الأنهار﴾ مستأنفة، أو خبر ثان، أو في محل نصب على الحال. ومعنى من تحتهم: من تحت بساتينهم، أو من بين أيديهم؛ لأنهم على سرر مرفوعة. وقوله: ﴿في جنات النعيم﴾ متعلق بتجري أو يهدىهم، أو خبر آخر أو حال من الأنهار. قوله: ﴿دعواهم﴾ أي: دعائهم وندائهم، وقيل: الدعاء العبادة، كقوله تعالى: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ [مريم: 48] وقيل معنى دعواهم هنا: الأدعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والإقرار له بالآلية. قال القفال: أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه: طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدعى للشيء مواظب عليه، فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة، وإن لم يكن في قوله: ﴿سبحانك اللهم﴾ دعوى ولا دعاء؛ وقيل معناه: تمنىهم كقوله: ﴿ولهم ما يدعون﴾ [يس: 57] وكان تمنىهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه، وهو مبتدأ وخبره سبحانه اللهم، و﴿فيها﴾ أي: في الجنة. والمعنى على القول الأول: أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه، والمعنى: تسبحك يا الله تسبيحاً. قوله: ﴿وتحتهم فيها سلام﴾ أي: تحية بعضهم لبعض، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، أو تحية الله أو الملائكة لهم، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول. وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء. قوله: ﴿وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أي: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين. قال النحاس: مذهب الخليل أن «أن» هذه مخففة من الثقيلة. والمعنى: أنه الحمد لله. وقال محمد بن يزيد المبرد: ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة. والرفع أقيس، ولم يحك أبو عبيد إلا التخفيف. وقرأ ابن محيصن بتشديد أن ونصب الحمد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ قال: مثل قوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ [هود: 15] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، أيضاً في قوله: ﴿يهدىهم ربهم بالإيمان﴾ قال: يكون لهم نور يمشون به. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿يهدىهم ربهم بالإيمان﴾

حذف، والتقدير: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ تعجيلاً مثل ﴿استعجالهم بالخير﴾ ثم حذف تعجيلاً وأقام صفته مقامه، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال: هذا مذهب الخليل وسيبويه، وهو قول الأخفش والقرّاء، قالوا: وأصله كاستعجالهم، ثم حذف الكاف ونصب. قال القرّاء: كما تقول ضربت زيداً ضربك: أي كضربك، ومعنى ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ لأهلكوا، ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشر فأمهلوا؛ وقيل معناه: أميتوا. وقرأ ابن عامر «لقضي» على البناء للفاعل، وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله: ﴿ولو يعجل الله﴾. قوله: ﴿فنذر النين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ الفاء للعطف على مقدر يدلّ عليه الكلام، لأن قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ يتضمن نفي التعجيل، فكانه قيل: لكن لا يعجل لهم الشر، ولا يقضي إليهم أجلهم، فنذرهم الخ: أي فنتركهم ونمهلهم، والطينان: التناول، وهو العلو والارتفاع، ومعنى ﴿يعمهون﴾ يتحiron: أي نتركهم يتحiron في تناولهم وتكبرهم، وعدم قبولهم للحق استدراجاً لهم منه سبحانه وخذلاناً؛ ثم بين الله سبحانه أنهم كانوا في استعجال الشر، ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع، فقال: ﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ أي: هذا الجنس الصالح على كل ما يحصل الضرر به ﴿دعانا لجنبه﴾ اللام للوقت، كقوله جنّته لشهر كذا، أو في محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعداً أو قائماً عليه، وتكون اللام بمعنى على: أي دعانا مضطجعاً ﴿أو قاعداً أو قائماً﴾ وكأنه قال: دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وخصّ المذكورة بالذكر لأنها الغالب على الإنسان، وما عداها نادر كالركوع والسجود، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود، وقاعداً غير قادر على القيام، وقائماً غير قادر على المشي، والأوّل: أولى. قال الزجاج: إن تعديل أحوال الدعاء أبلغ من تعديل أحوال المضرة، لأنه إذا كان داعياً على الدوام، ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب. قوله: ﴿فلما كشفنا عنه ضره مرّ كان لم يدعنا إلى ضرّ مسه﴾ أي: فلما كشفنا عنه ضره الذي مسه، كما تفيده الفاء، مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسه الضرّ، ونسي حالة الجهد والبلاء، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرّع، لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به، كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضرّ إلى كشف ذلك الضرّ الذي مسه. وقيل معنى ﴿مرّ﴾ استمرّ على كفره، ولم يشكر، ولم يتعظ. قال الأخفش: «أن» في ﴿كان لم يدعنا﴾ هي المخففة من الثقيلة، والمعنى: كأنه انتهى. والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال، وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلّل عند نزول ما يكرهون بهم. فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من

الضرّ، وبغ ما أصابهم من المكروه. وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ الناس، ولفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمك، وأنكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطبق سواه، ولا نقدر على غيره، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه و ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: 7] والإشارة بقوله: ﴿كنك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مرّ غير مرة، أي: مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين علمهم. والمسرف في اللغة: هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، ومحل كذلك النصب على المصدرية. والتزيين هو: إما من جهة الله تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء. والمعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، والغفلة عن الشكر، والاشتغال بالشهوات. ثم نكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر، عما صنعه هؤلاء، فقال: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ يعني: الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي ﷺ أي أهلكناهم من قبل زمانكم؛ وقيل: الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر، و ﴿لما﴾ ظرف لأهلكنا: أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب، والتجاري على الرسل، والتناول في المعاصي من غير تأخير لإهلاكهم، كما أخبرنا إهلاككم، والواو في ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ للحال بإضمار قد: أي وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات: أي بالآيات البينات الواضحات الدلالة على صق الرسل، وقيل الواو للحطف على ﴿ظلموا﴾ والأوّل: أولى؛ وقيل المراد بالظلم هنا: هو الشرك، والواو في ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ للعطف على ظلموا، أو الجملة اعتراضية، واللام لتأكيد النفي: أي وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك، وسلب اللطاف عنهم ﴿كنك نجزي القوم المجرمين﴾ أي: مثل تلك الجزاء نجزي القوم المجرمين، وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار، أو لكفار مكة على الخصوص، ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: ﴿ثم جعلناكم خلائف﴾ أي: استخلفناكم في الأرض بعد تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنتظرون آثارها، والخلائف جمع خليفة، وقد تقدّم الكلام عليه في آخر سورة الأنعام، واللام في ﴿لننظر كيف تعملون﴾ لام كي: أي: لكي ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشر، و ﴿كيف﴾ في محل نصب بالفعل الذي بعده: أي لننظر أيّ عمل تعملونه، أو في محل نصب على الحالية: أي على أيّ حالة تعملون الأعمال الثلاثة بالاستخلاف، ثم حكى الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله، فقال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم، والمراد بالآيات: الآيات التي في الكتاب العزيز: أي وإذا تلا

اللام والهمزة. والمعنى: ولو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم، فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعَل. وقد قرئ «أروكم» بالهمزة فقليل: هي منقلبة عن الألف، لكونهما من واد واحد، ويحتمل أن يكون من دراته إذا نفعته، وأدراته إذا جعلته دارياً. والمعنى: لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرءوني بالجدال وتكذبونني، وقرأ ابن عباس، والحسن **﴿ولا أدراكم به﴾** قال أبو حاتم: أصله ولا أدريتمكم به، فأبدل من الباء ألفاً، قال النحاس: وهذا غلط. والرواية عن الحسن «ولا أدراكم» بالهمزة. قوله: **﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾** تعليل لكون ذلك بمشيئة الله، ولم يكن من النبي ﷺ إلا التبليغ: أي قد أقمت فيما بينكم عمراً من قبله: أي زماناً طويلاً، وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفونني بالصدق والأمانة، لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب **﴿أفلا تعقلون﴾** الهمزة للتقريع والتوبيخ: أي أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبني لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدة الطويلة بالصدق والأمانة، وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند أهلها من العلم، ولا طربي لشيء من هذا الشأن، ولا حرصي عليه، ثم جئتم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿ولو يجعل الله للناس الشر﴾** الآية، قال: هو قولي الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم: اللهم لا تبارك فيه والعنة **﴿لقضي إليهم لجلهم﴾** قال: لأهلك من دعا عليه وأماته. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جببر، في الآية قال: قول الرجل للرجل: اللهم العنه، اللهم اخزه، وهو يحب أن يستجاب له. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في الآية قال: هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له. وحكى القرطبي في تفسيره عن ابن إسحاق، ومقاتل، في الآية قال: هو قول النضر بن الحارث: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾** [الأنفال: 32] فلو عجل لهم هذا لهلكوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج، في قوله: **﴿دعانا لجنبه﴾** قال: مضطجعا. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾** قال: على كل حال. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي الدرداء، قال ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك.

وأقول أنا: أكثر من شكر الله على السراء يدفع عنك الضراء، فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقم: اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم، فإننا نشرك عدد ما شكرنا الشاكرون بكل لسان في كل زمان، ونحمدك عدد ما

التالي عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد، وإبطال الشرك، حال كونها بينات: أي واضحات الدلالة على المطلوب **﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾** وهم المنكرون للمعاد، وقد تقدم تفسيره قريباً: أي قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله ﷺ **﴿أنث بقرآن غير هذا أو ببغله﴾** طلبوا من رسول الله ﷺ لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الأوثان، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته، أو كلها، ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرانتهم ويلائم غرضهم، فأمره الله أن يقول في جوابهم: **﴿ما يكون لي﴾** أي: ما ينبغي لي، ولا يحل لي، أن أبدله من تلقاء نفسي؛ فنفى عن نفسه أحد القسمين، وهو التبديل لأنه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه ولا يقدر عليه. وقيل: إنه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلاً على نفي أصعبهما بالطريق الأولى، وهذا منه ﷺ من باب مجازاة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك. وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة، و**﴿تلقاء﴾** مصدر استعمل ظرفاً، من قبل نفسي. قال الزجاج: سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، وقيل: سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم؛ وقيل: سألوه أن يحول الوعد وعيداً والحرام حلالاً والحلال حراماً، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له، ولا استقام أن يبذله من تلقاء نفسه بقوله: **﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾** أي: ما أتبع شيئاً من الأشياء إلا ما يوحى إلي من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل، ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبي ﷺ بأن القرآن كلامه، وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم: **﴿إني لخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾** فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها، واليوم العظيم هو يوم القيامة: أي **﴿إني لخاف إن عصيت ربي﴾** بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة، ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله، وأنه ﷺ إنما يبلغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك، فقال: **﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾** أي: أن هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وإرادته، ولو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم إياه ما تلوته، فالأمر كله منوط بمشيئة الله، ليس لي في ذلك شيء قوله: **﴿ولا أدراكم به﴾** معطوف على ما تلوته، ولو شاء الله ما أدركم بالقرآن: أي ما أعلمكم به على لساني يقال: دريت الشيء وأدراني الله به. هكذا قرأ الجمهور بالآلف من أدراه يدره أعلمه يعلمه. وقرأ ابن كثير: **﴿ولأدراكم به﴾** بغير ألف بين

ولا تضر من لم يعبدما، فقال: ﴿ويعبدون من دون الله﴾ أي: متجاوزين الله سبحانه إلى عبادة غيره، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ﴿مالا يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي: ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً لمن أطاعه معاقباً لمن عصاه، والواو لعطف هذه الجملة على جملة ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ [يونس: 15] و﴿وما﴾ في ﴿مالا يضرهم﴾ موصولة أو موصوفة، والواو في ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ للعطف على ﴿ويعبدون﴾ زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله، فلا يعذبهم بذنوبهم، وهذا غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال؛ وقيل أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال بنيانهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب عنهم، فقال: ﴿قل اتنبئون السمال العنوي﴾ [تنبئون] بالتخفيف من أنبا ينبئ، وقرأ من عداه بالتشديد من نبا ينبئ. والمعنى: أخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، أو أخبرونه أن لكم شفعا بغير إننه، والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إننه من جميع مخلوقاته الذين هم في سمواته وفي أرضه؛ وهذا الكلام حاصله: عدم وجود من هو كذلك أصلاً، وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى، ثم نزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم جواباً عليهم. قرأ حمزة والكسائي ﴿عما يشركون﴾ بالتحية، وقرأ الباقون بالقوقية، واختار القراءة الأولى أبو عبيد. قوله: ﴿وما كان للناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا﴾ قد تقدم تفسيره في البقرة. والمعنى: أن الناس ما كانوا جميعاً إلا أمة واحدة موحدة لله سبحانه، مؤمنة به، فصار البعض كافراً وبقي البعض الآخر مؤمناً، فخالف بعضهم بعضاً. وقال الزجاج: هم العرب كانوا على الشرك. وقال: كل مولود يولد على الفطرة، فاختلّفوا عند البلوغ، والأول أظهر. وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى، بل المراد كفر البعض وبقي البعض على التوحيد، كما قدمنا: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي: أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ في الدنيا ﴿فيماء﴾ هم ﴿فيه يختلفون﴾ لكنه قد امتنع تلك بالكلمة التي لا تتخلف، وقيل معنى: ﴿لقضى بينهم﴾ بإقامة الساعة عليهم، وقيل لفرغ من هلاكهم، وقيل: الكلمة إن الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا؛ وقيل: الكلمة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة، وهي إرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى رسولا﴾ [الإسراء: 15]؛ وقيل: الكلمة قوله «سبقت رحمتي غضبي». وقرأ عيسى بن عمر «لقضى» بالبناء للفعل. وقرأ من عداه بالبناء للمفعول.

حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض﴾ الآية، قال: نكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا ما جعلنا خلائف في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار، والسر والعلانية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جرير، قال: ﴿خلائف في الأرض﴾ لامة محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿ثالث بقرآن غير هذا لو بئله﴾ قال: هذا قول مشركي أهل مكة للنبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولا أدرككم به﴾. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: ﴿ولا أدرككم به﴾ ولا أشعركم به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ ﴿ولا أفترتكم به﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾ قال: لم أتل عليكم ولم أنكر. وأخرج عنه قال: لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ورأى الرؤيا سنتين، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة، وعشر بالمدينة، وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والترمذي، عن ابن عباس، قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكَ لَا يُنْفَعُ الْمُفْرِيقُونَ ﴿٧٧﴾ وَسَبَّحْتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَعْزِمُ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنْفِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَتَكَلَّمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَكَلَّمَ عَمَّا يَشْرُكُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَا كَانَ الْكَاشِ إِلَّا أَنَّهُ رَجِدَةٌ فَاتَّخَذَ لَهَا وَلَوْ كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فَيَسْأَلُونَ عَمَّا يُنْفِئُونَ ﴿٧٩﴾

قوله: ﴿فمن أظلم﴾ استفهام فيه معنى الجحد، أي لا أحد أظلم ﴿ممن افترى على الله﴾ الكذب، وزيادة ﴿كذباً﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه، فربما يكون الافتراء كذباً في الإسناد فقط، كما إذا أسند نيب زيد إلى عمرو، نكر معنى هذا أبو السعود في تفسيره، قيل: وهذا من جملة رده ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو يبينه، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله، ولا ظلم يماثل ذلك؛ وقيل: المفترى على الله الكذب هم: المشركون، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب ﴿إنه لا يفلح للمجرمون﴾ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته: أي لا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير، والضمير في ﴿إنه﴾ للشان: أي إن الشأن هذا، ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام، وبين أنها لا تنفع من عبدها

نعمته ولا قدرها حق قدرها، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، وطعنوا في آيات الله، واحتالوا في نفعها بكل حيلة، وهو معنى المكر فيها. وإذا الأولى شرطية، وجوابها إذا لهم مكر، وهي فجائية، نكر معنى ذلك الخليل وسيبويه. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أعجل عقوبة، وقد دلّ أفعال التفضيل على أن مكرهم كان سريعاً، ولكن مكر الله أسرع منه. وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة، لأن المعنى أنهم فاجئوا المكر: أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة، وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرًا من باب المشاكلة، كما قرّر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز ﴿إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُمُونَ مَا تَكْمُرُونَ﴾ قرأ يعقوب في رواية، وأبو عمرو في رواية «يمكرون» بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية. والمعنى: أن رسل الله وهم الملائكة يكتُمون مكر الكفار، لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة، كيف يخفى على العليم الخبير؟ وفي هذا وعيد لهم شديد، وهذه الجملة تعليلية للجملة التي قبلها، فإن مكرهم إذا كان ظاهراً لا يخفى، فعقوبة الله كأنه لا محالة، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهي: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ [يونس: 12] وفي هذه زيادة، وهي أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض، بل يطلبون الغوائل آيات الله بما يبرونه من المكر ﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تاماً، ومعنى تسييرهم في البر أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لهم، لينتفعوا بها، ويركبون ما خلقه الله لركوبهم من الدواب، ومعنى تسييرهم في البحر: أنه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجة البحر، ويسر ذلك لهم، ونفع عنهم أسباب الهلاك. وقد قرأ ابن عامر: ﴿هُوَ الَّذِي يَنْشُرُكُمْ فِي الْبَحْرِ﴾ بالنون والشين المعجمة من النشر كما في قوله: ﴿فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: 10] أي ينشرهم سبحانه في البحر، فينجي من يشاء ويفرق من يشاء ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَهُمْ﴾ الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث، وقد تقدّم تحقيقه ﴿وَجَرِينَ﴾ أي السفن بهم: أي بالراكبين عليها، وحتى لانتها الغاية، والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها، فالقيود المعتبرة في الشر ثلاثة: أولها: الكون في الفلك؛ والثاني: جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة؛ والثالث: فرحهم. والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة: الأول: ﴿جَاعَتْهَا﴾ أي: جاءت الفلك ريح عاصف، أو جاءت الريح الطيبة: أي تلقفتها ريح عاصف، والعصوف: شدة هبوب الريح؛ والثاني: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من جميع الجوانب للفلك، والمراد: جاء الراكبين فيها، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر؛ والثالث: ﴿ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا، وجواب إذا في قوله: ﴿إِذَا كُنْتُمْ فِي

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: قال النضر: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ، وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ قال ابن مسعود: كانوا على هدى. وروى أنه قرأ هكذا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: آدم وحده ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ قال: حين قتل أحد ابني آدم أخاه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في الآية قال: كان الناس أهل دين واحد على دين آدم، فكفروا، فلو لا أن ربك أجلمهم إلى يوم القيامة لقضي بينهم.

وَقَالُوا لَا تَنْزِلُ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ بِيَدِ اللَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَرَةٍ مَسَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُمُونَ مَا تَكْمُرُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ الْوَيْلُ لِلَّذِينَ يُبْذَرُونَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَرْجُوا يَدَا جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَرِبَنَّ مِنَ الشَّكِرِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَكْرٍ يَكْبِتُنَّ أَنْفُسًا لَئِنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكُمْ مَنَاقِبُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَنَرَنَّ إِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَنَكْفُرَنَّ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ نكر سبحانه هاهنا نوعاً رابعاً من مخازيهم، وهو معطوف على قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ [يونس: 18] وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه. قيل: والقائلون هم: أهل مكة، كأنهم لم يعتنوا بما قد نزل على رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلاً بيناً ومصنفاً قاطعاً، أي هلا أنزلت عليه آية من الآيات التي نقترحها عليه، ونطلبها منه، كإحياء الأموات، وجعل الجبال ذهباً، ونحو ذلك؟ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: أن نزول الآية غيب، والله هو المختص بعلمه، المستأثر به، لا علم لي ولا لكم، ولا لسائر مخلوقاته ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزول ما اقترحتهم من الآيات ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لنزولها، وقيل المعنى: انتظروا قضاء الله بيني وبينكم بإظهار الحق على الباطل. قوله: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَرٍ مَسَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ لما بين سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عناداً ومكرًا ولجاجاً، وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أنقاهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء، فعلاوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله؛ والمراد بإذاعتهم رحمة سبحانه: أنه وسع عليهم في الأرزاق، وأدر عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار، بعد أن مستهم الضراء بالجذب وضيق المعاش، فما شكروا

البغي وسوء مغيبته. قرأ ابن إسحاق، وحفص، والمفضل بنصب متاع، وقرأ الباقر بالرفع. فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة: أي بغيكم وبال على أنفسكم، فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره، ويكون متاع في موضع المصدر المؤكد، كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويكون المصدر مع الفعل المقدر استثناءً؛ وقيل: إن متاع على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج: أي زمن متاع الحياة الدنيا؛ وقيل: هو مفعول له: أي لأجل متاع الحياة الدنيا؛ وقيل منصوب بنزع الخافض: أي كمتاع؛ وقيل على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول: أي ممتعين، وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب. وأما من قرأ برفع متاع فجعله خبر المبتدأ: أي بغيكم متاع الحياة الدنيا، ويكون على أنفسكم متعلق بالمصدر، والتقدير: إنما بغيكم على أمثالكم، والذين جنسهم جنسكم، متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التي لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه: أبناء جنسهم، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة؛ وقيل: ارتفاع متاع على أنه خبر ثان؛ وقيل: على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أي هو متاع. قال النحاس: على قراءة الرفع يكون بغيكم مرتفعاً بالابتداء، وخبره متاع الحياة الدنيا، وعلى أنفسكم مفعول البغي، ويجوز أن يكون خبره على أنفسكم، ويضمر مبتدأ: أي ذلك متاع الحياة الدنيا، أو هو متاع الحياة الدنيا. انتهى. وقد نوقش أيضاً بعض هذه الوجوه المذكورة في توجيه الرفع، بما يطول به البحث في غير طائل. والحاصل أنه إذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم، فالمعنى: أن ما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغي، باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازة على بغيه، وإن جعل الخبر متاع، فالمراد: أن بغي هذا الجنس الإنساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال، قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا، فإنها ذاهبة عن قرب، متلاشية بسرعة، ليس لذلك كثيرة فائدة ولا عظيم جدوى. ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة، مع وعيد شديد فقال: **﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾** وتقديم الخبر للدلالة على القصر، والمعنى: أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله، فيجازي المسيء بإساءته، والمحسن بإحسانه **﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** في الدنيا: أي فنخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشر، والمراد بذلك: المجازاة، كما تقول لمن أساء: سأخبرك بما صنعت، وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع، في قوله: **﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾** قال: خوفهم عذابه وعقوبته. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿وَإِذَا أَنْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءِ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي أَيْقَانَتِهِ﴾** قال: استهزاء وتكذيب. وأخرج ابن المنذر، عن ابن

الفلك، قوله: **﴿جاءتها﴾** إلى آخره، ويكون قوله: **﴿دعوا الله﴾** بدلاً من ظنوا؛ لكن هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظن الهلاك وهو الباعث عليه، فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه، ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل: ماذا صنعوا؟ فقيل: دعوا الله، وفي قوله: **﴿وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾** التفات من الخطاب إلى الغيبة، جعل الفائدة فيه صاحب الكشاف المبالغة. وقال الرازي: الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام لئلا يقتضيه، كما أن عكس ذلك في قوله: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** [الفاتحة: 5] دليل الرضا والتقريب، وانتصاب مخلصين على الحال: أي لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب، كما جرت عانيتهم في غير هذا الموطن أنهم يشركون أصنامهم في الدعاء، وليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده، بل لأجل أن ينجيهم مما شاربوه من الهلاك، لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى الله سبحانه. وفي هذا دليل على أن الخلق جيلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطرَّ يجاب دعاؤه وإن كان كافراً. وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة، وما يشابهها، فيعجبوا لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات، فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات، ولم يخلصوا الدعاء لله، كما فعله المشركون، كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، وأين وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيف اقتادهم وتسلسل عليهم؟ حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله، ولا في بعضه، من عباد الأوثان، فإننا لله وإنا إليه راجعون، واللام في **﴿لَنْ نَجْعِلَنَّهُ مِنْ هَذِهِ﴾** هي اللام الموطئة للقسم: أي قائلين ذلك، والإشارة بقوله: **﴿مِنْ هَذِهِ﴾** إلى ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك في البحر، واللام في **﴿لَنْ نَكُونَنَّ﴾** جواب القسم: أي لنكونن في كل حال ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا، منها هذه النعمة التي نحن بصدد سؤالك أن نفرجها عنا، وتنجينا منها؛

هذه الجملة مفعول دعوا **﴿فَلَمَّا نَجَاهُمْ﴾** الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها، وإجاب دعاءهم، لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين، وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر. وإذا في **﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾** هي الفجائية: أي فاجئوا البغي في الأرض بغير الحق، والبغي: هو الفساد، من قولهم بغي الجرح: إذا ترمى في الفساد، وزيادة في الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، والبغي وإن كان ينافي أن يكون بحق، بل لا يكون إلا بالباطل، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم، بل تمرداً وعناداً، لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة. قوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغيون في الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة

أُن تملأ الأعين برونقها، وتجتلب النفوس ببهجتها. وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضاً، ويهتكوا حرهم حباً لها، وعشفاً لجمالها الظاهري، وتكالباً على التمتع بها، وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال: ﴿إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى آخر الآية. والمعنى: أن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وببإينه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه، وذهاب بهجته، وسرعة تقضيه، بعد أن كان غصاً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة، وتلايلات أنوار نوره، وحاکت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بل ما يفهم من الكلام، والباء في ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ للسببية: أي فاختلط بسببه نبات الأرض بأن اشتبك بعضه ببعض، حتى بلغ إلى حد الكمال، ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أول بروزه، ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع، فإذا نزل الماء عليه اهتز وربا، حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ من الحبوب والثمار، والكلا والتبن، وأخذت الأرض زخرفها. قال في الصحاح الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموه مزور. انتهى. والمعنى: أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الياقوت، وبعضه للون الزمرد. وأصل أزينت: تزينت أزعمت التاء في الزاي، وجئ بالالف الوصل: لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن، والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب «وتزينت» على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية «وازينت» على وزن أفعلت: أي أزينت بالزينة التي عليها، شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألواناً كثيرة. وقال عوف بن أبي جميلة: قرأ أشياخنا «وازيانت» على وزن اسوانت، وفي رواية المقدسي «وازانت» والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت. وقرأ الشعبي، وقتادة «ازينت»، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا ﴿وَوَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها، والضمير في عليها للأرض، والمراد: النبات الذي هو عليها ﴿آتَاهَا أَمْرًا﴾ جواب إذا، أي: جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: جعلنا زرعها شبيهاً بالمحصول في قطعه من أصوله. قال أبو عبيدة: الحصيد المستاصل ﴿كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كان لم يكن زرعها موجوداً فيها بالأمس مخضراً طرياً، من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح إذا اقام به، والمراد بالأمس الوقت القريب، والمغاني في اللغة المنازل. وقال قتادة: كان لم تنعم، قال ليبيد:

غنيت سنبناً قبل مجرى دلحس لو كان للنفس اللجوج خلود
وقرأ قتادة ﴿كَانَ لَمْ يَغْنِ﴾ بالتحية بإرجاع الضمير

جريح، في قوله: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحْيَطُ بِهِمْ﴾ قال: هلكوا. ولخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن سعد بن أبي وقاص، ما حاصله: أن النبي ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم عكرمة بن أبي جهل، هرب من مكة وركب البحر فاصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: اخلصوا فإن آلهكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر الإخلاص، ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلاجلجته عفواً كريماً، فجاء فأسلم. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم، والخطيب في تاريخه، والديلمي في مسند الفردوس، عن انس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر، والنكت، والبغي، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾» ولا يحق المكر السوء إلا بأهله. [فاطر: 43] «وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» [الحج: 10]. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تكن باغياً، فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾». وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال: ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر، والبغي، والنكت، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾.

أقول أنا: وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على أنها تعود على فاعلها: الخدع، فإن الله يقول: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالنَّيْنَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 9]. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو بغى جبل على جبل لك الباغى منهما». وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله.

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا لَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَّا أَرَّهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَاللَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَاسٍ وَرِيَادَةٍ وَلَا يَرْمَقُ وُجُوهَهُمْ قَهَرٌ وَلَا ذُلٌّ أَتَاهَا أَمْرًا لَّا يَخْلِفُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِسَيِّئَةٍ وَلَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ اللَّهُ مِنْ عَالَمٍ قَدْ أَفْغَيْتَ وُجُوهَهُمْ قَهَرًا لَّا يَأْتِي مُظِلُّمًا أَتَاهَا أَمْرًا لَّا يَخْلِفُونَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَامًا تَمْ قُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّمَا تَصِيدُونَ ﴿١٨﴾ فَكُنْ يَا اللَّهُ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إِنَّ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكَ غَافِلِينَ ﴿١٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا غُلًّا نَقِيرَ مَا أَسْلَفْتُمْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَمَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾

لما نكر الله سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا، جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها، وأنها تعود بعد

غبرة، ولا يظهر فيها هوان؛ وقيل القتر: الكآبة، وقيل: سواد الوجوه، وقيل: هو دخان النار ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة خالدون فيها، المتتمون بأنواع نعيمها ﴿وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ هذا الفريق الثاني من أهل الدعوة، وهو معطوف على ﴿للذين أحسنوا﴾ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أو يقدر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها: أي يجازي سيئة واحدة بسيئة واحدة، لا يزداد عليها، وهذا أولى من الأول، لكونه من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين؛ والمراد بالسيئة: إما الشرك، أو المعاصي التي ليست بشرك، وهي ما يتلبس به العصاة من المعاصي، قال ابن كيسان: الباء زائدة، والمعنى: جزاء سيئة مثلها؛ وقيل: الباء مع ما بعدها الخبر، وهي متعلقة بمحذوف قامت مقامه، والمعنى: جزاء سيئة كائن بمثلها، كقولك إنما أنا بك، ويجوز أن يتعلق بجزاء، والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن، فحذف خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿جزاء﴾ مرفوعاً على تقدير: فلهم جزاء سيئة، فيكون مثل قوله: ﴿فعدّه من أيام آخر﴾ [البقرة: 184] أي: فعليه عذّة، والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف، كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة أو زائدة. قوله: ﴿ترهقهم نلّة﴾ أي يفشاهم هوان وخزي. وقرئ «يرهقهم» بالتحية «مالهم من الله من عاصم» أي: لا يعصمهم أحد كائناً من كان من سخط الله وعذابه، أو مالهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، والأول: أولى، والجملة في محل نصب على الحالية، أو مستأنفة «كانما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً» قطعاً جمع قطعة، وعلى هذا يكون مظلماً منتصباً على الحال من الليل: أي أغشيت وجوههم قطعاً من الليل في حالة ظلمته. وقد قرأ بالجمع جمهور القراء. وقرأ الكسائي وابن كثير «قطعاً» بإسكان الطاء، فيكون مظلماً على هذا صفة لقطعاً، ويجوز أن يكون حالاً من الليل. قال ابن السكيت: القطع طائفة من الليل ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفات الذميمة «أصحاب النار هم فيها خالدون» وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السنة من خروج عصاة الموحدين، قوله: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ الحشر الجمع، وجميعاً منتصب على الحال «ويوم» منصوب بمضمّن: أي أنشروهم يوم نحشرهم، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة. والمعنى: أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ في حالة الحشر، ووقت الجمع تقريباً لهم على رؤس الأشهاد، وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركونهم في العبادة، وحضور معبوداتهم «مكانكم» أي: الزموا مكانكم، واثبتوا فيه، وقفوا في موضعكم «أنتم وشركاؤكم» هذا الضمير تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسد مسد الزموا، وشركاؤكم معطوف عليه. وقرئ بنصب شركاؤكم على أن

إلى الزخرف. وقرأ من عاده «تغن» بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض «كنك» أي: مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نفصل الآيات﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيما اشتملت عليه، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية. قوله: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ لما نذر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق، رغبتهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام، قال الحسن وقتادة: السلام هو: الله تعالى، وداره الجنة. وقال الزجاج: المعنى والله يدعو إلى دار السلامة. ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة. ومنه قول الشاعر:

تحسبى بالسلامة أم بكر وهل لك بعد قومك من سلام
وقيل: أراد دار السلام الذي هو: التحية؛ لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى: التحية، كما في قوله: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ [يونس: 10]؛ وقيل: السلام اسم لأحد الجنان السبع: أحدها: دار السلام، والثانية: دار الجلال، والثالثة: جنة عدن، والرابعة: جنة المأوى، والخامسة: جنة الخلد، والسادسة: جنة الفردوس، والسابعة: جنة النعيم. وقيل المراد: دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة، وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنة، وإنما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام «ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة، والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه، تكميلاً للحجة وإظهاراً للاستغناء عن خلقه، ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين، وبين حال كل طائفة فقال: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: الذين أحسنوا بالقيام بما أوجب الله عليهم من الأعمال، والكف عما نهاهم عنه من المعاصي، والمراد بالحسنى المثوبة الحسنى. قال ابن الأنباري: العرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك ترك موصوفها؛ وقيل المراد بالحسنى: الجنة، وأما الزيادة فقول المراد بها: ما يزيد على المثوبة من التفضل، كقوله: ﴿ليوفيه أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [فاطر: 30] وقيل الزيادة النظر إلى وجهه الكريم؛ وقيل: الزيادة هي: مضاعفة الحسنه إلى عشر أمثالها؛ وقيل الزيادة: غرفة من لؤلؤ، وقيل الزيادة: مغفرة من الله ورضوان؛ وقيل: هي أنه سبحانه يعطيهم في الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه؛ وقيل: غير ذلك، مما لا فائدة في ذكره، وسيأتي بيان ما هو الحق في آخر البحث: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا نلّة﴾ معنى يرهق: يلحق، ومنه قيل: غلام مراهق، إذا لحق بالرجال، وقيل يعلو، وقيل يغشى، والمعنى متقارب؛ والقتر: الغبار، ومنه قول الفرزدق:

متوج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والقترا
وقرأ الحسن «قتر» بإسكان المثناة، والمعنى واحد، قاله النحاس، وولد القتر قترّة، والنلّة: ما يظهر على الوجه من الخضوع والإنكسار والهوان، والمعنى: أنه لا يعلو وجوههم

ويجعلونه إلهاً، ولكن حين لا ينفعهم ذلك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ قال: اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحنطة والشعير، وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار، وما تأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعي. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنْبَتْ﴾ قال: أنبتت وحسنت، وفي قوله: ﴿كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ قال: كان لم تعش، كان لم تنعم. وأخرج ابن جرير، عن أبي بن كعب، وابن عباس، ومروان بن الحكم، أنهم كانوا يقرءون بعد قوله: ﴿وَوُضِعَ أَهْلُهَا لَهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه كان يقرأ: وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن أبي مجلز، قال: كان مكتوب في سورة يونس إلى حيث هذه الآية ﴿حَتَّى إِذَا لَخْتُ الْأَرْضَ زُخْرُفًا﴾ إلى ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، ولو أن لابن آدم وأبيين من مال لتمني أدياً ثالثاً، ولا يتسبغ نفس ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، فمحييت. وأخرج أبو نعيم، والديميطي في معجمه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ يقول: يدعو إلى عمل الجنة. والله: السلام، والجنة: داره. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ﴾ قال: يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت شمسهُ إلا وكل بجنتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمسهُ إلا وكل بجنتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً» ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعَصْرِ﴾ [الليل: 1 - 10]. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل، عن سعيد بن أبي هلال، سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ وتلا: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقال: حدثني جابر قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، وأعقل عقل قلبك، إنما ملكك ومثل أمك مثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مادية، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامة، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من ترك؛ فإله هو الملك، والدار

الواو واو مع. قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا: يقال زيلته فزيل: أي فرقته ففترق، والمزيلة المفارقة، يقال زاليله مزيلة، وزيلاً إذا فارقه، والتزائل التباين. قال الفراء: وقرأ بعضهم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ والمراد بالشركاء هنا الملائكة، وقيل الشياطين، وقيل الأصنام، وإن الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت. وقيل: المسيح، وعزير، والظاهر أنه كل معبود للمشركون كائن ما كان، وجملة: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْْبُونَ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير قد، والمعنى: وقد قال شركائهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه ما كنتم إيانا تعبون، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم، وشياطينكم الذين أغووكم، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركائهم في أموالهم من هذه الحيثية؛ وقيل: لكونهم شركائهم في هذا الخطاب، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفاً لما قد وقع من المشركون من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا، أو رضينا ذلك منكم ﴿وَأَنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾ إن هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والقاتل لهذا الكلام هم: المعبونون. قالوا لمن عبدهم من المشركون: إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين، والمراد بالغفلة هنا: عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم، وفي هذا دليل على أن هؤلاء المعبونين غير الشياطين، لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم، ويمكن أن يكونوا من الشياطين، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم، ولا أكرهوهم عليها ﴿هَٰنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في ذلك المكان وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تنوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل، فمعنى ﴿تَبْلُو﴾ تنوق وتختبر، وقيل: تعلم، وقيل: تتبع، وهذا على قراءة من قرأ «تبلو» بالمشناة الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس؛ وأما على قراءة من قرأ «نبلو» بالنون، فالمعنى: أن الله يتبلى كل نفس ويختبرها، ويكون ما أسلفت بدلاً من كل نفس. والمعنى: أنه يعاملها معاملة من يختبرها ويفقد أحوالها. قوله: ﴿وَوَرِّثُوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ معطوف على ﴿زَيَّلْنَا﴾ والضمير في رثوا عائد إلى الذين أشركوا: أي رثوا إلى جزائه، وما أعد لهم من عقابه، ومولاهم: ربهم، والحق صفة له: أي الصالح الربوبية بون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، وقرئ «الحق» بالنصب على المدح، كقولهم الحمد لله أهل الحمد ﴿وَوُضِّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضاع وبطل ما كانوا يفترون من أن الآلهة التي لهم حقيقة بالعبادة، لتشفع لهم إلى الله وتقربهم إليه. والحاصل أن هؤلاء المشركون يرجعون في ذلك المقام إلى الحق، ويعترفون به، ويقررون ببطلان ما كانوا يعبدونه

وأيوبها من لؤلؤة واحدة. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قال: هو مثل قوله: ﴿وَلَيْسَ مَزِيدٌ﴾ [ق]: [35] يقول يجزيهم بعملهم، ويزيدهم من فضله. وقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]. وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه. وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله ﷺ، فلم يبق حينئذ لقاتل مقال، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتهمة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم، والله المستعان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ قال لا يغشاهم ﴿قُتِرَ﴾ قال: سواد الوجوه. وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في الآية قال: القُتِر: سواد الوجه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في الآية قال: خزي. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه، عن صهيب عن النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قُتِرٌ وَلَا نَلَةٌ﴾ قال: بعد نظرهم إليه عز وجل. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قال: الذين عملوا الكبائر ﴿جَزَاءَ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ قال: النار ﴿كَانَمَا أَغْشَيْتُ وَجُوهَهُمْ قُطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا﴾ القطع: السواد نسختها الآية في البقرة ﴿بَلَىٰ مِنْ كَسْبٍ سَيِّئَةٍ﴾ [البقرة: 81] الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَوَرَّهَقَهُمْ نَلَةٌ﴾ قال: تغشاهم نلة وشدة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، في قوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يقول: من مانع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قال: الحشر الموت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَرَزِيلًا بَيْنَهُمْ﴾ قال: فرّقنا بينهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: تنصب الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فيقول: هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله؟ فيقولون نعم، هؤلاء الذين كنا نعبد، فتقول لهم الآلهة. والله ما كنا نسمع ولا نبصر، ولا نعقل، ولا نعلم، أنكم كنتم تعبدونها، فيقولون: بلى والله لإياكم كنا نعبد، فتقول لهم الآلهة: ﴿فَكُفِّي بَاسَ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾. وأخرج ابن مريويه، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله، فيتبعونهم حتى يؤثروهم النار، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿هَٰنَالِكَ تَبْلُو كُل نَفْسٌ مَا أَسْلَفَتْ﴾» وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿هَٰنَالِكَ تَبْلُو﴾ يقول تتبع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: ﴿تَبْلُو﴾ تختبر. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿تَبْلُو﴾ قال: تعابن ﴿كُل نَفْسٌ مَا أَسْلَفَتْ﴾ ما عملت ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يدعون معه من الأنداد. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَوَرَّوْا

الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» وقد روي معنى هذا من طرق. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ قال: ذكر لنا أن في التوراة مكتوباً: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر ائتق. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، أنه كان إذا قرأ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ قال: لبيك ربنا وسعديك. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وغيرهم، عن صهيب: «أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الرؤية، وابن مريويه، عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أولهم وآخرهم: إن الله وعنكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة للنظر إلى وجه الرحمن. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، والبيهقي في الرؤية، عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ﴾ قال: الزيادة النظر إلى وجه الرحمن. وأخرج هؤلاء والدارقطني، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ﴾ قال: الذين أحسنوا: أهل التوحيد، والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عمر، مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو الشيخ، والدارقطني، وابن مريويه، والخطيب، وابن النجار، عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة، نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والدارقطني، وابن مريويه، والبيهقي، عن أبي بكر الصديق، في الآية قال: الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله. وأخرج ابن مريويه، من طريق الحرث، عن علي بن أبي طالب في الآية مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، عن حذيفة في الآية قال: الزيادة النظر إلى وجه الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، عن أبي موسى نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، واللالكائي عن ابن مسعود، نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن علي قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها

والعقل السليم، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، أي: الله يفعل ذلك، ثم أمره الله سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم: **﴿أَقْلًا تَتَّقُونَ﴾** والاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، أي تعلمون ذلك، أقلاً تتقون وتفتعلون ما يوجب هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الأفعال **﴿فَنَلَكُمُ اللَّهَ وَبِكُمُ اللَّهَ﴾** أي: فذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بانه الحق، لا ما جعلتموهم شركاء له، والاستفهام في قوله: **﴿فَمَازَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾** للتقريع والتوبيخ، إن كانت ما استفهامية، لا إن كانت نافية كما يحتمل الكلام، والمعنى: أي شيء بعد الحق إلا الضلال، فإن ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق بإقرارهم، فكان غيره باطلاً لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحداً في ذاته وصفاته **﴿فَأَنَّى تَصْرَفُونَ﴾** أي: كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر، وتقعون في الضلال إذ لا واسطة بينهما؟ فمن تخطف أحدهما وقع في الآخر، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب **﴿كُنْكَ لَكُمُ الْحَقُّ﴾** حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون، أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، كذلك حقت كلمة ربك: أي حكمه وقضاه على الذين فسقوا: أي خرجوا من الحق إلى الباطل، وتمزقوا في كفرهم عناداً ومكابرة، وجملة **﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** بدل من الكلمة، قاله الزجاج: أي حقت عليهم هذه الكلمة، وهي عدم إيمانهم، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام: أي لأنهم لا يؤمنون، وقال الفراء: إنه يجوز إنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف، وقد قرأ نافع، وابن عامر: **﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾** بالجمع، وقرأ الباقيون بالانفراد. قوله: **﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ عَيْدَهُ﴾** أورد سبحانه في هذا حجة خامسة على المشركين، أمر نبيه ﷺ أن يقولها لهم، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد، لكنه لما كان أمراً ظاهراً بيناً، وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن نفعها عند من أنصف، ولم يكابر، كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا إنكار فيه، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم: **﴿قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ عَيْدَهُ﴾** أي: هو الذي يفعل ذلك لا غيره، وهذا القول الذي قاله النبي ﷺ، عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين في الجواب، إما على طريق التلقين لهم، وتعريفهم كيف يجيبون، وإرشادهم إلى ما يقولون، وإما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم، ومعرفة ما لديه، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب، فراراً منهم عن أن تلزمهم الحجة، أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق - ومعنى: **﴿فَأَنَّى تَوْفَكُونَ﴾** فكيف توفكون: أي تصرفون عن الحق وتتقلبون منه إلى غيره. ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال: **﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾**

إلى الله مولاهم الحق قال: نسخها قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾** [محمد: 11].

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَوْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ سَمِعُوا اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١﴾ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّكُمُ الْغَنِيُّ فَذَلِكُمُ اللَّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ كَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ ذِي نَفْسٍ عَلَى رَبِّكَ سَمِعُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُمِدُّهُمُ اللَّهُ فَسَيَدُّوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُمِدُّهُمُ اللَّهُ فَتَوَفَّكُونَ ﴿٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُبْعَثَ أَمْ لَا يُهْدَىٰ قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُ إِلَّا ظُلْمًا إِنَّ الظَّالِمَ لَا يُفِي مِنْ لَمَحٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٥﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَرَّبِّ فِيهِ مِنْ رُبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَبِيٍّ قُلْ كَاتَرًا يُسْوَءُ نَبِيَّهُ وَأَدْعَايَ اسْتَعْظَمُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ وَلَكِنَّا نَأْتِيهِمْ تَأْوِيلَهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَفْهَمُ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكُمْ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيءُونَ وَمَا أَعْمَلُ بِأُفْرَةٍ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

لما بين فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة، من أحوال الرزق والحواس، والموت والحياة، والابتداء والإعادة، والإرشاد والهدى، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين، ليكون أبلغ في إلزام الحجة وأوقع في النفوس، فقال: **﴿قُلْ﴾** يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقبة التوحيد، وبطلان ما هم عليه من الشرك **﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات والمعادن، فإن اعترفوا حصل المطلوب، وإن لم يعترفوا فلا بد أن يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهما **﴿إِنَّ مِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾** أم هي المنقطعة، وفي هذا انتقال من سؤال إلى سؤال، وخص السمع والبصر بالذكر، لما فيهما من الصنعة العجيبة، والقدرة الباهرة العظيمة أي: من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة، والخلقة الغريبة، حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم، ويحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين، ثم انتقل إلى حجة ثالثة، فقال: **﴿وَمَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾** الإنسان من النطفة، والطير من البياضة، والنبات من الحبة، أو المؤمن من الكافر **﴿يَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾** أي: النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن، والمراد من هذا الاستفهام عمن يحيي ويميت ثم انتقل إلى حجة رابعة، فقال: **﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾** أي: يقدره ويقضيه، وهذا من عطف العام على الخاص، لأنه قد عم ما تقدم وغيره **﴿فَسَمِعُوا اللَّهَ﴾** أي: سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات إن الفاعل لهذه الأمور هو: الله سبحانه، إن أنصفوا وعملوا على ما يوجب الفكر الصحيح

في محل نصب بتحكمون، ثم بيّن سبحانه ما هؤلاء عليه في أمر دينهم، وعلى أي شيء بنوه، وبأي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل، وهو الشرك فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾. وهذا كلام مبتدأ غير داخل في الأوامر السابقة. والمعنى: ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله، وجعلهم له أنداداً إلا مجرد الظن، والتخمين والحس، ولم يكن ذلك عن بصيرة، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقربهم إلى الله، وإنها تشفع لهم، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط، بل مجرد خيال مختل وحس باطل، ولعل تنكير الظن هنا للتحقير: أي إلا ظناً ضعيفاً لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون. وقيل المراد بالآية: إنه ما يتبع أكثرهم في الإيمان بالله والإقرار به إلا ظناً. والأول: أولى. ثم أخبرنا الله سبحانه: بأن مجرد الظن لا يغني من الحق شيئاً، لأن أمر الدين إنما يبني على العلم، وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يدرك به الحق، ولا يغني عن الحق في شيء من الأشياء، يجوز انتصاب شيئاً على المصيرية، أو على أنه مفعول به، ومن الحق حال منه والجمله مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان. قوله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه، شرع في تثبيت أمر النبوة: أي وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة، والبراهين الواضحة، يفترى من الخلق من دُونِ اللَّهِ، وإنما هو من عند الله عز وجل، وكيف يصح أن يكون مفترى، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أقصص العرب لساناً وأنقم أذهاناً ﴿وَلَكِنْ﴾ كان هذا القرآن تصديق للذي بين يديه. من الكتب المنزلة على الأنبياء، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة، لأن أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة، مع أن النبي ﷺ، لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه، ولا اتصل بمن له علم بذلك، وانتصاب تصديق على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن، ويجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف: أي لكن أنزله الله تصديق الذي بين يديه. قال الفراء: ومعنى الآية، وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلُ﴾ [آل عمران: 161] ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122]. وقيل: إن «أن» بمعنى اللام: أي: وما كان هذا القرآن ليفترى؛ وقيل بمعنى لا: أي لا يفترى، قال الكسائي والفراء: إن التقدير في قوله: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ﴾ ولكن كان تصديق، ويجوز عندهما الرفع أي: ولكن هو تصديق؛ وقيل المعنى: ولكن القرآن تصديق ﴿الذي بين يديه﴾ من الكتب: أي أنها قد بشرت به قبل نزوله، فجاء مصدقاً لها؛ قيل المعنى: ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن، وهو محمد ﷺ، لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن. قوله: ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ

والاستفهام ما هنا كالاستفهامات السابقة، والاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقْتَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 78] وقوله: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50] وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: 2، 3] وفعل الهداية يجيء متعدياً باللام وإلى، وهما بمعنى واحد. روي ذلك عن الزجاج. والمعنى: قل لهم يا محمد هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس إلى الحق؟ فإذا قالوا لا، فقل لهم: الله يهدي للحق دون غيره، ولليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وإرساله للرسول، وإنزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام، والأسماع والأبصار، والاستفهام في قوله: ﴿أَقْمِن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾ للتقرير وإلزام الحجة.

وقد اختلف القراء في ﴿لَا يَهْدِي﴾ فقرأ أهل المدينة إلا نافعاً «يهدي» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا في قراءتهم هذه بين ساكنين. قال النحاس: والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به. قال محمد بن يزيد: لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر، وسببويه يسمي هذا اختلاصاً. وقرأ أبو عمرو، وقالون، في رواية بين الفتح والإسكان. وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وورش، وابن محيصن، بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. قال النحاس: هذه القراءة بيّنة في العربية، والأصل فيها يهتدى، ادغمت التاء في الدال وقلبت حركتها إلى الهاء. وقرأ حفص، ويعقوب، والأعمش مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا: لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر، عن عاصم «يهدي» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، وذلك للاتباع. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويحيى بن وثاب «يهدي» بفتح الياء وإسكان الهاء، وتخفيف الدال من هدي يهدي. قال النحاس: وهذه القراءة لها وجهان في العربية، وإن كانت بعيدة: الأول: أن الكسائي والفراء قالوا: إن يهدي بمعنى يهتدي، الثاني: أن أبا العباس قال: إن التقدير أم من لا يهدي غيره، ثم تم الكلام، وقال بعد ذلك ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾ أي: لكنه يحتاج أن يهدي، فهو استثناء منقطع، كما تقول فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع: أي لكنه يحتاج أن يسمع، والمعنى على القراءات المتقدمة: أقمن يهدي الناس إلى الحق، وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدي به، أم الأحق بأن يتبع ويقتدي به من لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره، فضلاً عن أن يهدي غيره؟ والاستثناء على هذا، استثناء مفرغ من أعم الأحوال. قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا تعجب من حالهم باستفهامين متوالين: أي أي شيء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ، وكيف

وتعلمه وجداناً. والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة، والبرهان الواضح، قيل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتسمك بشيء في هذا التكنيب، إلا مجرد كونه جاهلاً لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكنيب منابياً على نفسه بالجهل بأعلى صوت، ومسجلاً بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ معطوف على ﴿لَمْ يَحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ أي: بل كتبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وبما لم يأتهم تأويله، أو هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي كتبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كتبوا به، ولا بلغته عقولهم. والمعنى: أن التكنيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه، وقيل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدمين، والأمم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلية التي أخبر عنها قبل كونها، أو قيل أن يفهموه حق الفهم، وتتعقله عقولهم، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغي، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة بأبلغ دلالة على أنه كلام الله، وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول إليه لمن تدبره من المعاني الرشيدة، واللطائف الانيقية، وكلمة التوقع أظهر في المعنى الأول: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: أي: مثل ذلك التكنيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، وقيل أن يأتيتهم تأويله: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ من الأمم السالفة من سوء العاقبة، بالخسف والمسح ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم، واشتملت عليه كتب الله المنزل عليهم. قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به في نفسه، ويعلم أنه صدق وحق، ولكنه كذب به مكابرة وعناداً. وقيل المراد: ومنهم من يؤمن به في المستقبل، وإن كذب به في الحال، والموصول مبتدأ، وخبره منهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ولا يصنّفه في نفسه، بل كذب به جهلاً كما مرّ تحقيقه، أو لا يؤمن به في المستقبل، بل يبقى على جحوده وإصراره؛ وقيل الضمير في الموضعين للنبي ﷺ. وقد قيل إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة، وقيل: عام في جميع الكفار ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم، والمراد بهم: المفسدون، أو بكلا الطائفتين، وهم الذين يؤمنون به في أنفسهم، ويكذبون به في الظاهر، والذين يكذبون به جهلاً، أو الذين يؤمنون به في المستقبل، والذين لا يؤمنون به. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم إن أصرّوا على تكذيبه واستمرّوا عليه ﴿فَلِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي لي جزء عملي ولكم جزء عملكم، فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، وليس عليّ غير ذلك، ثم أكد هذا بقوله: ﴿إِنَّمَا

يُنَبِّئُكُمْ فِيهِ﴾ فيجاء فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين في تصديق، والتفصيل: التبیین، أي يبين ما في كتب الله المتقدمة، والكتاب للجنس؛ وقيل: أراد ما بين في القرآن من الأحكام، فيكون المراد بالكتاب: القرآن. قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الضمير عائد إلى القرآن، وهو داخل في حكم الاستدراك خبر ثالث، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال من الكتاب، ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لا محل لها، و﴿مَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر رابع: أي كائن من ربّ العالمين، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب؛ أو من ضمير القرآن في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كائناً من ربّ العالمين، ويجوز أن يكون متعلقاً بتصديق وتفصيل، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معترضة. قوله: ﴿لَمْ يَقُولُوا افْتِرَاهُ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم، مع تقرير ثبوت الحجة، ولم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهزة: أي بل يقولون افتراه واختلقه. وقال أبو عبيدة: أم بمعنى الواو: أي ويقولون افتراه؛ وقيل الميم زائدة، والتقدير: يقولون افتراه، والاستفهام للتقرير والتوبيخ. ثم أمره الله سبحانه أن يتحدّاهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال: ﴿قُلْ فَاتُوا بَسُورَةَ مِثْلِهِ﴾ أي: إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمداً افتراه، فاتوا انتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وجودة الصناعة، فانتهم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الالسن وبلاغة الكلام ﴿وَادْعُوا﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿مَنْ لَسْتَطَعْتُمْ﴾ دعاءه والاستعانة به، من قبائل العرب، ومن ألهتكم التي تجعلونهم شركاء لله. وقوله: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ متعلق بادعوا: أي ادعوا من سوى الله من خلقه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم أن هذا القرآن مفترى.

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها، وأظهرها للعقول، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية، قال لهم: هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم، ليس عليكم إلا أن تاتوا، وانتم الجمع الجَمّ، بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، أو من غيرهم من بني آدم، أو من الجنّ، أو من الأصنام، فإن فعلتم هذا بعد التّيا والتي، فانتهم صانعون فيما نسبتموه إليّ والصقتموه بي، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف، والتّنزّل البالغ، بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب، وتشبّثوا بأنيال العناد الباردة، والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحديّ البالغ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ فاضرب عن الكلام الأول، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن، قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه، وما اشتمل عليه، وهكذا صنع من تصلب في التقليد، ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذنوب الإنصاف، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، ويعلم مبناه، كما تراه عياناً

في النظر. وقد انضم إلى فقد البصر، فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهمًا يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم العاقل، قد يتحدث تحسناً يفهمه بعض فائدة، بخلاف من جمع له بين عمي البصر والبصيرة، فقد تعذر عليه الإدراك. وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل، فقد انسد عليه باب الهدى، وجواب لو في الموضوعين محذوف، دلّ عليهما ما قبلهما، والمقصود من هذا الكلام تسليّة رسول الله ﷺ، فإن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً أعرض عنه، واستراح من الاشتغال به. قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ نكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتمام بالاسماع والأبصار، لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل، والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبيعتهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلق بينهم وبين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش نجتي، وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ بتخفيف النون ورفع الناس، وقرأ الباقر بتشديدها ونصب الناس. قال النحاس: زعم جماعة من النحويين منهم الفراء، أن العرب إذا قالت «ولكن» بالواو شدوا النون، وإذا حنفوا الواو خففوها. قيل: والنكته في وضع الظاهر موضع المضمّر زيادة التعيين والتقرير، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة. قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف منصوب بمضمّر: أي وانكر يوم نحشُرهم ﴿كَانَ لَمْ يَلْبَثُوا﴾ أي: كانوا لم يلبثوا، والجملة في محل نصب على الحال: أي شيئاً قليلاً منه، والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا، وقيل: في القبور، استقلوا المدة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا، فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة، أو لطول وقوفهم في المحشر، أو لشدة ما هم فيه من العذاب، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن، ومثل هذا قولهم: ﴿لَبِثْنَا يوماً أو بعض يوم﴾ [الكهف: 19] وجملة: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة. والمعنى: يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول، المذهلة للأفهام. وقيل: إن هذا التعارف، هو: تعارف التوبيخ والتقريع، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني، لا تعارف شفقة ورافة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ [المعارج: 10] وقوله: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَإِنَّ نَسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101] فيجمع

بريئون مما عمل وأنا بريء مما تعملون﴾ أي: لا تؤاخذون بعلمي، ولا تؤاخذ بعملكم، وقد قيل إن هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يقول: سبقت كلمة ربك. وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك، قال: صدقت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿لَمْ مِنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾ قال: الأوثن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَأَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي﴾ الآية، قال: أمره بهذا، ثم نسخه، فأمره بجهاهم.

وَمَنْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَمَنْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَبْصُرُ الْمَوْتَى وَكَأَنَّهُ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُهُمْ كَانُ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهْرِ يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا مَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَ أَيْدِيهِمْ وَلَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٥﴾ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ لَمْ يَلْبَثْ إِذَا جَاءَ لَبْثُهُمْ فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ ﴿١٦﴾

قوله: ﴿وَمَنْ مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ الخ بيّن الله سبحانه في هذا أن في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة إلى هذا الحد، وهي أنهم يستمعون إلى النبي ﷺ إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر، ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة؛ لعدم حصول أثر السماع، وهو حصول القبول والعمل بما يسمعون، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ﴾ يعني: أن هؤلاء وإن استمعوا في الظاهر فهم صمّ، والصمم مانع من سماعهم، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع، وهو: الصمم، فكيف إذا انضم إلى ذلك أنهم لا يعقلون، فإن من كان أصم غير عاقل، لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له. وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من، وأفرده في ﴿وَمَنْ مَّن يَنْظُرُ﴾ حملاً على لفظه. قيل والنكته: كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين، لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر، من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع، والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قوله: ﴿وَمَنْ مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ ومنهم من ينظر، ومنهم من يسمع، ومنهم من يسمع ولا ينظر، والهمزتان في ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ﴾ ﴿أَفَأَنْتَ تَبْصُرُ﴾ للإنكار، والفاء في الموضوعين للعطف على مقتر، كأنه قيل: أستمعون إليك فأنت تسمعهم؟ أينظرون إليك فأنت تهديهم؟ والكلام في ﴿وَمَنْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَبْصُرُ الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ كالكلام في ﴿وَمَنْ مَّن يَسْمَعُونَ﴾ الخ، لأن العمى مانع، فكيف يطمع من صاحبه

[69] وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: 41] والمراد المبالغة في إظهار العدل، والنصفة بين العباد، ثم نكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار، وذلك أن النبي ﷺ، كان كلما هدمهم بنزول العذاب كانوا ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ والاستفهام منهم للإنكار، والاستبعاد، وللقدح في النبوة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاباً منهم للنبي ﷺ، وللمؤمنين، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين أرسلهم الله إليهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة ويقطع اللجاج فقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر على جلب نفع لها، ولا دفع ضرر عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري، وقدم الضرر، لأن السياق لإظهار العجز عن حضور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ منقطع كما نكره أئمة التفسير، أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كان، فكيف أقدر على أن أملك لنفسي ضرراً أو نفعاً، وفي هذه أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيرة المنادة لرسل الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه. فإن هذا مقام رب العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين، وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب لرب الأرباب القادر على كل شيء، الخالق الرائق المعطي المانع؟ وحسبك بما في هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل، يأمره الله بأن يقول لعباده: لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً، فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه، فضلاً عن أن يملكه لغيره، فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؟ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى: لا إله إلا الله، ومثلون: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]؟ وأعجب من هذا: اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء، ولا ينكرون عليهم، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرائق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقرّبين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، ويتأبونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال، وكفكاف من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومظهر شريعته من أوضار الشرك، وأناس الكفر، ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينتجج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة

بأن المراد بالتعارف؛ هو: تعارف التوبيخ، وعليه يحمل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبا: 31]، وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة، فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَتَبُوا بَلَاءَ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران، والجملة في محل النصب على الحال، والمراد ببقاء الله: يوم القيامة عند الحساب والجزاء، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم، وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم، قوله: ﴿وَأَمَّا نَرِيكَ بِعُضٍّ لَدِي نَعْدُهُمْ﴾ أصله: إن نرك، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد، والمعنى: إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذي وعدناهم من إظهار دينك في حياتك بقتلهم وأسرهم، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فتراه، أو فذاك، وجملة: ﴿أَوْ نَتُوفِيكَ﴾ معطوفة على ما قبلها، والمعنى: أو لا نرينك ذلك في حياتك، بل نتوفيك قبل ذلك ﴿فَالْيُسُفُ مَا مَرَجَعَهُمْ﴾ فعند ذلك نعذبهم في الآخرة، فنريك عذابهم فيها، وجواب ﴿أَوْ نَتُوفِيكَ﴾ محذوف أيضاً، والتقدير: أو نتوفيك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة؛ وقيل: إن جواب ﴿أَوْ نَتُوفِيكَ﴾ هو قوله: ﴿فَالْيُسُفُ مَا مَرَجَعَهُمْ﴾ لدلالته على ما هو المراد من إراءة النبي ﷺ تعذيبهم في الآخرة، وقيل: العدول إلى صيغة المستقبل في الموضعين لاستحضار الصورة، والأصل: أريناك أو توفيك، وفيه نظر، فإن إراءته ﷺ لبعض ما وعد الله للمشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالفواة. وحاصل معنى هذه الآية: إن لم تنتقم منهم عاجلاً أنتقمنا منهم عاجلاً. وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم، ونلهم وذهاب عزمهم، وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن، فله الحمد. قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ جاء بتم الدالة على التبعية، مع كون الله سبحانه شهيداً على ما يفعلونه في الدارين؛ للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء، أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم، كما نكره النيسابوري ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية في وقت من الأوقات ﴿رَسُولٌ﴾ يرسله الله إليهم، ويبيّن لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم، وبلغهم ما أرسله الله به فكذبوه جميعاً ﴿قَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأمة ورسولها ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل فنجا الرسول، وهلك المكذبون له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعِثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] ويجوز أن يراد بالضمير في بينهم الأمة على تقدير أنه كذبه بعضهم، وصدقه البعض الآخر، فيهلك المكذبون، وينجو المصدقون ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء، فلا يعذبون بغير ذنب، ولا يؤاخذون بغير حجة، ومنه قوله تعالى: ﴿رُجِيَءٌ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الزمر:

القلوب، وتآبه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له؟
والجملة المصدرة بالاستفهام جواب الشرط بحذف الفاء؛
وقيل: إن الجواب محذوف، والمعنى: تندموا على الاستعجال،
أو تعرفوا الخطأ منكم فيه؛ وقيل: إن الجواب قوله: ﴿إِثْمٌ إِذَا
مَا وَقَعَ﴾ وتكون جملة ﴿هَذَا يَسْتَعْجَلُ مِنْهُ الْمَجْرُمُونَ﴾
اعتراضاً، والمعنى: إن اتاكم عذاباً أمنتكم به بعد وقوعه حين
لا ينفعكم الإيمان. والأول: أولى، وإنما قال: يستعجل منه
المجرمون، ولم يقل: يستعجلون منه؛ للدلالة على ما يوجب
ترك الاستعجال، وهو الإجمار، لأن من حق المجرم أن
يخاف من العذاب بسبب إجرامه، فكيف يستعجله؟ كما يقال
لمن يستوخم أمراً إذا طلبه: ماذا تجني على نفسك. وحكى
النحاس، عن الزجاج، أن الضمير في ﴿مِنْهُ﴾، إن عاد إلى
العذاب كان لك في ﴿هَذَا﴾ تقديران: أحدهما: أن تكون ما في
موضع رفع بالابتداء، وذا بمعنى الذي، وهو خبر ما، والعائد
محذوف. والتقدير الآخر: أن يكون ﴿هَذَا﴾ اسماً واحداً في
موضع رفع بالابتداء، والخبر ما بعده، وإن جعل الضمير في
﴿مِنْهُ﴾ عائداً إلى الله تعالى، كان ﴿هَذَا﴾ شيئاً واحداً في
موضع نصب يستعجل، والمعنى: أي شيء يستعجل منه
المجرمون: أي من الله عز وجل. وبخول الهمزة الاستفهامية
في ﴿إِثْمٌ إِذَا مَا وَقَعَ أَمَنْتُمْ بِهِ﴾ على ثم كسولها على الواو
والفاء، وهي لإنكار إيمانهم، حيث لا ينفع الإيمان، وذلك بعد
نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التحويل عليهم، وتفضيل ما
فعلوه في غير وقته، مع تركهم له في وقته الذي يحصل به
النفع والنفع، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به،
وجيء بكلمة ثم التي للتراخي؛ دلالة على الاستبعاد. وجيء
بإذا مع زيادة ما للتأكيد؛ دلالة على تحقق وقوع الإيمان
منهم في غير وقته، ليكون في ذلك زيادة استعجال لهم،
والمعنى: أبعد ما وقع عذاب الله عليهم، وحل بكم سخطه
وانتقامه أمنتكم، حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئاً، ولا يدفع
عنكم ضرراً؛ وقيل إن هذه الجملة: ليست داخلة تحت القول
المأمور به، وإنما من قول الملائكة استهزاء بهم، وإزاء
عليهم. والأول: أولى. وقيل: إن ثم هاهنا، هي بفتح الشاء،
فتكون ظرفية بمعنى هناك. والأول: أولى. قوله: ﴿الآن وَقَدْ
كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قيل: هو استئناف بتقدير القول، غير
داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: أي
قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن أمنتكم به وقد
كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ: أي بالعذاب تكذيباً منكم واستهزاء، لأن
استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء، ويكون
المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القول: للتوبيخ لهم،
والاستهزاء بهم، والإزراء عليهم، وجملة ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في محل نصب على الحال، وقرئ «الآن»
بحذف الهمزة التي بعد اللام، وإلقاء حركتها على اللام. قوله:
﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا تَقُولُوا نَظَرْنَا عَلَى الْخُلْدِ﴾ معطوف على
الفعل المقتر، قيل الآن، والمراد منه: التقرير والتوبيخ لهم:
أي قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان: إن هذا

المباركة ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنِيعاً﴾ [الكهف: 104] ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156] ثم بين سبحانه أن لكل طائفة حداً محدوداً لا يتجاوزونه، فلا وجه لاستعجال العذاب فقال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ فإذا جاء ذلك الوقت، أنجز وعده وجازى كلأ بما يستحقه، والمعنى: أن لكل أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم، أو بين بعضهم البعض أجلاً معيناً، ووقتاً خاصاً، يحل بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: ذلك الوقت المعين، والضمير راجع إلى كل أمة ﴿فَلَا يَسْتَلْخِثُونَ﴾ عن ذلك الأجل المعين ﴿سَاعَةً﴾ أي: شيئاً قليلاً من الزمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وعليه، جملة: لا يستقدمون معطوفة على جملة لا يستأخرون، ومثله قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: 5] والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في أول الأعراف، فلا نعيده.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلِمَا تَرَيْنَاكَ﴾ الآية. قال: سوء العذاب في حياتك ﴿أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ﴾ قبل ﴿فَلْيَلِغْنَا مَرْجِعَهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال: يوم القيامة.

قُلْ أَزِيدُكُمْ عَذَابًا بَيْنَمَا أَزِيدُكُمْ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ بِهِ الْمُتَمَرِّضُونَ ﴿٥٩﴾
أَنْزِلْ إِذَا مَا وَقَعَ عَذَابُهُمْ وَأَلْقِ وَهْلَهُمْ وَتَدْعُهُمْ بِهٖ سَتَجِدُونَ ﴿٦٠﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا تَقُولُوا عَذَابُ الْفُلْجِ هَلْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ أَلَا بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٢﴾
وَسْتَأْتِيَنَّكَ أُنْجُوتٌ هُوَ قُلُوبٌ أَوْ رِيحٌ أَوْ كَلْبٌ لَمْ يَكُنْ وَمَا أَشْرَ بِمُحْمَرِينَ ﴿٦٣﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَأُ أَتَانَا لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ
وَشِئْنُهُمْ بِبَيْتِهِمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ أَلَا إِنَّ إِلَهًا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ هُوَ يَجِيءُ رُبِّيضًا
وَرِجْلًا رُجُومًا ﴿٦٦﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَعَاكُمْ مَرْعَظَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَشَقَاءٌ لِّمَا
فِي الصُّدُورِ وَهَؤُلَاءِ رُجُومٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ
فَيَغْفِرْ لَكُمْ هُوَ خَبِيرٌ وَمَا يَجْحَدُونَ ﴿٦٨﴾

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ اتَّكَمَ عَذَابُهُ﴾ هذا منه سبحانه تزييف لراي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الأول: أي أخبروني إن اتاكم عذاب الله ﴿بِإِيَّاتِهِ﴾ أي: وقت بيات، والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه، وينامون ويغفلون، عن التحرز، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم، وهو منتصب على الظرفية، وكذلك نهراً: أي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، والضمير في منه راجع إلى العذاب؛ وقيل: راجع إلى الله، والاستفهام في ﴿هَذَا﴾ يستعجل منه المجرمون، للإنكار المتضمن للنهي، كما في قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1] ووجه الإنكار عليهم في استعجالهم: أن العذاب مكروه تنفر منه

الأنفس المذلولة عليها بكل نفس. ومعنى أسروا: أخفوا: أي لم يظهروا الندامة بل أخفوها، لما قد شاهده في ذلك الموطن مما سلب عقولهم، وذهب بتجلدهم، ويمكن أنه بقي فيهم، وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم إلى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا، فأسروا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون؛ وقيل: أسرها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم، خوفاً من توبيخهم لهم؛ لكونهم هم الذين أضلّوهم، وحالوا بينهم وبين الإسلام؛ ووقع هذا منهم كان عند رؤية العذاب، وأما بعد الدخول فيه فهم الذين: ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ [المؤمنون: 106] وقيل معنى أسروا: أظهروا، وقيل: وجنوا ألم الحسرة في قلوبهم، لأن الندامة لا يمكن إظهارها، ومنه قول كثير:

فأسررت الندامة يوم نادى برء جمال عاضرة المنادى
ونكر المبرد في تلك وجهين: الأول: أنها بدت في وجوههم أسرة الندامة، وهي الإنكسار، واحدها: سرار، وجمعها: أسارير، والثاني: ما تقدم؛ وقيل معنى: ﴿أسروا الندامة﴾: أخلصوها، لأن إخفاءها إخلاصها، و﴿لما﴾ في قوله: ﴿لما رأوا العذاب﴾ ظرف بمعنى حين منصوب بأسروا، أو حرف شرط جوابه محذوف للدلالة ما قبله عليه ﴿وقضى بينهم بالقسط﴾ أي: قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين، أو بين الرؤساء والأتباع، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين؛ وقيل: معنى القضاء بينهم: إنزال العقوبة عليهم، والقسط: العدل، وجملة ﴿وهم لا يظلمون﴾ في محل نصب على الحال: أي: لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حل بهم، فإنه بسبب ما كسبوا، وجملة ﴿إلا إن لله ما في السموات والأرض﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته، لأن من ملك ما في السموات والأرض، تصرف به كيف يشاء، وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات. قيل: لما نكر سبحانه افتداء الكفار بما في الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها لله، وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به؛ وقيل: لما أقسم على حقيقة ما جاء به النبي ﷺ، أراد أن يصحب ذلك بلبيل البرهان البين بأن ما في العالم على اختلاف أنواعه ملكه، يتصرف به كيف يشاء، وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغافلين، وإيقاظ للذاهلين، ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿إلا إن وعد الله حق﴾ أي: كائن لا محالة، وهو عالم يندرج فيه ما استعملوه من العذاب اندراجاً أولياً، وتصدير الجملة بحرف التنبيه، كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ﴿ولكن أكثر الناس﴾ أي: الكفار ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه صلاحهم، فيعملون به، وما فيه فسادهم فيجتنبونه ﴿هو يحيى ويميت﴾ يهب الحياة ويسلبها. ﴿والله ترجعون﴾ في الدار الآخرة، فيجازي كل بما يستحقه، ويتفضل على من يشاء من عباده. قوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم﴾ يعني: القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه، والوعظ في الأصل: هو: التنكير بالعواقب سواء كان

الذي تطلبونه ضرر محض، عار عن النفع من كل وجه، والعاقل لا يطلب ذلك، ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم: ذوقوا عذاب الخلد: أي العذاب الدائم الذي لا ينقطع، والقائل لهم هذه المقالة، والتي قبلها، قيل: هم: الملائكة الذين هم: خزنة جهنم. ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص، أو المؤمنون على العموم ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ في الحياة من الكفر والمعاصي. والاستفهام للتقرير، وكأنه يقال لهم هذا القول عن استغاثتهم من العذاب، وحلول النعمة. ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة، والجوابات عن أقوالهم الباطلة: أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب، فقال: ﴿ويستنبئونك أحق هو﴾ أي: يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والإنكار، أحق ما تعدنا به من العذاب في العاجل والأجل، وهذا السؤال منهم جهل محض، وظلمات بعضها فوق بعض، فقد تقدم نكره عنهم مع الجواب عليه، فصنيعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول، ولا ما يقال له؛ وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو: عن حقيقة القرآن، وارتفاع حق على أنه خير مقدم، والمبتدأ هو الضمير الذي بعده، وتقديم الخبر للاهتمام، أو هو مبتدأ، والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر، والجملة في موضع نصب بيستنبئونك، وقرئ: «أحق هو» على أن اللام للجنس، فكانه قيل: أهو الحق لا الباطل. قوله: ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جواباً عن استهزامهم الخارج مخرج الاستهزاء: أي قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء: إي وربي إنه لحق: أي نعم، وربي إن ما أعلّمكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة. وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه: الأول: القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم: الثاني: دخول إن المؤكدة: الثالث: اللام في لحق: الرابع: إسمية الجملة، وذلك يدل على أنهم قد بلغوا في الإنكار والتمرّد إلى الغاية التي ليست وراءها غاية، ثم توعدهم بأشدّ توعد، ورهبهم بأعظم تهريب، فقال: ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي: فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع، والمكابرة التي لا تنفع من قضاء الله شيئاً، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب الله بوجه من الوجوه؛ ثم زاد في التأكيد، فقال: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتنت به﴾ أي: ولو أن لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر بالله وعدم الإيمان به ما في الأرض، من كل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها من الأموال النفيسة، والذخائر الفاخرة لافتنت به: أي جعلته فدية لها من العذاب، ومثله قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحد ملة الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ [آل عمران: 91] وقد تقدم قوله: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ [سبا: 33] الضمير راجع إلى الكفار، الذين سياق الكلام معهم. وقيل: راجع إلى

رجس شفاء، إنما الشفاء في شيء من القرآن والعسل، فهما شفاء لهما في الصدور، وشفاء للناس. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، قال: «إن الله جعل القرآن شفاء لما في الصدور، ولم يجعله شفاء لأمراضكم». وأخرج ابن المنذر، وابن مروي، عن أبي سعيد الخدري، قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني اشتكي صدري، فقال: اقرأ القرآن، يقول الله: شفاء لما في الصدور». وأخرج البيهقي في شعب الإيمان، عن واثلة بن الأسقع، أن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ وجع حلقه، قال: «عليك بقراءة القرآن والعسل»، فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء. وأخرج أبو داود، والحاكم وصححه، وابن مروي، عن أبي قال: أقراني رسول الله ﷺ بالتاء يعني الفوقية، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«قل بفضل الله وبرحمته»** قال: بفضل الله القرآن، وبرحمته أن جعلكم من أهله. وأخرج الطبراني في الأوسط، عن البراء، مثله من قوله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب، عن أبي سعيد الخدري، مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس، في الآية قال: بكتاب الله بالإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عنه قال: فضله الإسلام، ورحمته القرآن. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عنه أيضاً قال: بفضل الله القرآن، وبرحمته حين جعلهم من أهله. وقد روي عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، هو: خير مما يجمعون من الأموال والحرق والانعام.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رُزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَهَلَالًا قُلْ مَالَهُ أَذًى لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْهِيمٌ ﴿١٧٦﴾ وَمَا عَلَّمَهُ الْقُرْآنُ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْآزِمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَسْمَعُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا حَسَبًا عَلَىكُمْ شُهْرًا إِذْ يُنْفِثُونَ فِيهِ وَمَا يَمُرُّبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَنْقَالٍ ذُرِّيَّةُ الْآدَمِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَمْتَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لِلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ ذُنُوبِهِمْ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٩﴾ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٨٠﴾ هَلْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَسْئَلُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨١﴾ هَلْ يَرَوْنَ أَوْ يَسْمَعُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨٢﴾ هَلْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَسْئَلُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨٣﴾ هَلْ يَرَوْنَ أَوْ يَسْمَعُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨٤﴾ هَلْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَسْئَلُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨٥﴾ هَلْ يَرَوْنَ أَوْ يَسْمَعُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨٦﴾ هَلْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَسْئَلُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨٧﴾ هَلْ يَرَوْنَ أَوْ يَسْمَعُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨٨﴾ هَلْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَسْئَلُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٨٩﴾ هَلْ يَرَوْنَ أَوْ يَسْمَعُونَ أَمْ لَمْ يَلْهَوْا بِالْأَلْبَانِ ﴿١٩٠﴾

أشار سبحانه بقوله: **«قل أوليتم ما أنزل الله»** الخ إلى طريق أخرى غير ما تقدم في إثبات النبوة، وتقرير ذلك ما حاصله أنكم تحكمون بتحليل البعض، وتحريم البعض، فإن كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء، مسلمهم وكافرهم، وإن كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم، فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله، ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل

بالتغريب أو الترهيب، والواظ هو كالطبيب ينهي المريض عما يضُرُّه، ومن في **«من ربكم»** متعلقة بالفعل، وهو جاءكم، فتكون ابتدائية، أو متعلقة بمحذوف، فتكون تبعيضية **«وشفاء لما في الصدور»** من الشكوك التي تعترى بعض المرتابين، لوجود ما يستفاد منه في من العقائد الحقّة، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة، والهدى: الإرشاد لمن اتبع القرآن، وتفكر فيه، وتدبر معانيه إلى الطريق الموصلة إلى الجنة، والرحمة: هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الأمور التي يرحم الله بها عباده، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور، ثم أمر رسول الله ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم، فقال: **«قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا»** المراد بالفضل من الله سبحانه: هو تفضله على عباده في الأجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر، والرحمة: رحمته لهم. وروي عن ابن عباس أنه قال فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام. وروي عن الحسن والضحاك، ومجاهد وقتادة، أن فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن. والأولى: حمل الفضل والرحمة على العموم، ويخل في ذلك ما في القرآن منهما بخلاً أو كلاً، وأصل الكلام: قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني في قوله: **«فبذلك فليفرحوا»** عليه، قيل: والفاء في هذا الفعل المحذوف داخلة في جواب شرط مقدر، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح. وتكرير الباء في برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقل في الفرح، والفرح: هو اللذة في القلب بسبب إدراك المطلوب، وقد نَمَّ الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله: **«لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين»** [القصص: 76] وجوّزه في قوله: **«فرحين بما آتاهم الله من فضله»** [آل عمران: 170] وكما في هذه الآية، ويجوز أن تتعلق الباء في «بفضل الله وبرحمته» بقوله: **«جاءتكم»**، والتقدير: جاءكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك: أي فبمجئها، فليفرحوا، وقرأ يزيد بن القعقاع ويعقوب «فلتفرحوا» بالفوقية، وقرأ الجمهور بالتحتيّة، والضمير في «هو خير» راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة، أو إلى المجيء على الوجه الثاني، أو إلى اسم الإشارة في قوله **«فبذلك»** والمعنى: أن هذا خير لهم مما يجمعونه من حظام الدنيا. وقد قرئ بالتاء الفوقية في **«يجمعون»** مطابقة للقراءة بها في **«فلتفرحوا»**. وقد تقرّر في العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا في لغة قليلة، جاءت هذه القراءة عليها، وقرأ الجمهور بالمتناة التحتية في يجمعون، كما قرءوا في فليفرحوا. وروي عن ابن عامر أنه قرأ بالفوقية في يجمعون، والتحتيّة في فلتفرحوا.

وقد أخرج الطبراني، وأبو الشيخ، عن أبي الأحوص، قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فوصف له الخمر، فقال: سبحان الله! ما جعل الله في

سبحلَ بهم من عذاب الله، و«يوم القيامة» منصوب بالظن، ونكر الكذب بعد الافتراء، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لزيادة التأكيد. وقرأ عيسى بن عمر «وما ظن» على أنه فعل: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَنَدُو فَضْلَ عَلَى النَّاسِ﴾** يتفضل عليهم بأنواع النعم في الدنيا والآخرة **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾** الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه في كل وقت من الأوقات، وطرفة من الطرقات. قوله: **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾** الخطاب لرسول الله ﷺ، وما نافية، والشأن: الأمر بمعنى القصد، وأصله الهمز، وجمعه شؤون. قال الأخفش: تقول العرب: ما شأنت شأنه: أي ما عملت عمله: **﴿وَمَا تَقْتُلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾** قال الفراء والزجاج: الضمير في منه يعود على الشأن، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف: أي تلاوة كائنة منه، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه ﷺ، والمعنى: أنه يتلو من أجل الشأن الذي حدّث القرآن، فيعلم كيف حكمه، أو يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشأن. وقال ابن جرير الطبري: الضمير عائذ في منه إلى الكتاب: أي ما يكون من كتاب الله من قرآن، وأعماده تفخيماً له كقوله: **﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾** [طه: 14]، والخطاب في **﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾** لرسول الله ولأمة؛ وقيل: الخطاب لكفار قريش **﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ شُهَدَاءُ﴾** استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين: أي شهوداً عليكم بعمله منكم، والضمير. في فيه من قوله: **﴿تَفِيضُونَ فِيهِ﴾** عائذ على العمل، يقال: أقاض فلان في الحديث والعمل: إذا اندفع فيه. وقال الضحاك: الضمير في فيه عائذ على القرآن؛ والمعنى: إذ تشيعون في القرآن الكذب. قوله: **﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾** قرأ الكسائي «يعزب» بكسر الزاي، وقرأ الباقون بالضم ومما لغتان فصيحتان، ومعنى يعزب: يغيب، وقيل يبعد. وقال ابن كيسان: يذهب، وهذه المعاني متقاربة، ومن في **﴿مِنْ مِثْقَالٍ﴾** زائدة للتأكيد: أي وما يغيب عن ربك وزن ذرة: أي: نملة حمراء، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء، لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما، لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات، وقدم الأرض على السماء؛ لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب، والواو في **﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾** لعطف على لفظ مثقال، وانتصبا لكونهما ممتنعين، ويجوز أن يكون العطف على ذرة؛ وقيل: انتصابهما بلا التي لنفي الجنس، والواو للاستئناف، وليس من متعلقات وما يعزب، وخبر لا **﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾** والمعنى: ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منه إلا وهو في كتاب مبين، فكيف يغيب عنه؛ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال، ومحله الرفع، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله، أو على لفظ ذرة إشكال، وهو أنه يصير تقدير الآية: لا يعزب عنه شيء في الأرض، ولا في السماء إلا في كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في

الذين أرسلهم الله إلى عباده، ومعنى رأيتم: أخبروني، و**﴿مَا﴾** في محل نصب بارأيتم المتضمن لمعنى أخبروني - وقيل: إن «ما» في محل الرفع بالابتداء وخبرها **﴿أَنَّ اللَّهَ أَذُنٌ لَكُمْ﴾** و«قل» في قوله: **﴿قُلْ اللَّهُ أَذُنٌ لَكُمْ﴾** تكرير للتأكيد والرباط محذوف، ومجموع المبتدأ والخبر في محل نصب بارأيتم والمعنى: أخبروني الذي أنزل الله إليكم من رزق، فجعلتم منه حراماً وحلالاً، الله أنن لكم في تحليله وتحريمه **﴿إِنَّمَا عَلَى اللَّهِ تَقْتَرُونَ﴾** وعلى الوجهين، فمن في منه حراماً للتبعيض، والتقدير: فجعلتم بعضه حراماً وجعلتم بعضه حلالاً، وذلك كما كانوا يفعلونه في الانعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في الكتاب العزيز؛ ومعنى إنزال الرزق: كون المطر ينزل من جهة العلو، وكذلك يقضي الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى، لكل شيء فيه. وروى عن الزجاج أن «ما» في موضع نصب بانزل، وأنزل بمعنى خلق، كما قال: **﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَنْوَاجٍ﴾** [الزمر: 6] **﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾** [الحديد: 25] وعلى هذا القول والقول الأول يكون قوله: **﴿قُلْ أَلَّهُ أَذُنٌ لَكُمْ﴾** مستأنفاً قيل: ويجوز أن تكون الهمزة في **﴿أَلَّهُ أَذُنٌ لَكُمْ﴾** للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل اتفترون على الله، وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء. وفي هذه الآية الشريفة ما يصحّ سماع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي. ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلده في دينهم، وجعله شارعاً مستقلاً. ما عمل به من الكتاب والسنة، فهو المعمول به عندهم. وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه، أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتهداه وترجيحه، فهو: في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلده متعبداً بهذه الشريعة، كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها، كما هو محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه وأذى ما عليه، وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع الخطأ، إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة، وبليلاً معمولاً به. وقد أخطئوا في هذا خطأ بيناً، واغلطوا غلطاً فاحشاً. فإن الترخيص للمجتهد في اجتهد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الإسلام المعتد بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليداً له واقتداء به، وما جاء به المقلدة في تقوّم هذا الباطل، فهو من الجهل العاطل، اللهم كما رزقنا من العلم ما نميز به بين الحق والباطل، فارزقنا من الإنصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير. ثم قال: **﴿وَمَا ظَنُّ النَّاسِ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** أي: أي شيء ظنهم في هذا اليوم، وما يصنع بهم فيه، وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلّة تحت القول الذي أمر الله رسوله ﷺ أن يقوله لهم، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما

أي لهم البشرى من الله ما داموا في الحياة بما يوحىه إلى أنبيائه، وينزل في كتبه، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة، وما يتفضل الله به عليهم من إجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة؛ وأما البشرى في الآخرة، فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب. والبشرى مصدر أريد به المبشر به، والظرفان في محل نصب على الحال: أي حال كونهم في الدنيا، وحال كونهم في الآخرة، ومعنى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لأقواله علي العموم، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولاً أولياً، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى المنكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا يقاير قدره، ولا يماثله غيره، والجملتان: أعني ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ و﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ اعتراض في آخر الكلام عند من يجوزّه، وفائتتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، أو الأولى: اعتراضية، والثانية: تنبيئية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ قال: هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحرث، ما شاءوا ويحرمون ما شاءوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿إِذْ تَقِفُضُونَ فِيهِ﴾ قال: إذ تفعلون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، عن مجاهد، مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وَمَا يُعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ قال: لا يغيب عنه وزن نزة ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قال: هو الكتاب الذي عند الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ﴾ قيل: من هم يا رب؟ قال: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون. وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير، قال: هم الذين إذا رؤوا نكروا الله. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، مرفوعاً وموقوفاً قال: هم الذين إذا رؤوا ينكروا الله لرؤيتهم. وأخرج عنه ابن المبارك، والحكيم الترمذي في نواير الأصول، والبيزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه مرفوعاً، مثله. وأخرج ابن المبارك، وابن شعبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن سعيد بن جبير، مرفوعاً وهو مرسل. وروي نحوه من طرق أخرى مرفوعاً وموقوفاً. وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، عن عمرو بن الجموح، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لَا يَحِقُّ الْعَبْدُ حَقَّ صَرِيحِ الْإِيمَانِ حَتَّى يَحِبَّ اللَّهَ وَيَبْغُضَ اللَّهَ، فَإِذَا أَحَبَّ اللَّهَ وَابْغُضَ اللَّهَ فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْوَلَاءَ مِنَ اللَّهِ، وَإِنْ أَوْلِيَانِي مِنْ عِبَادِي وَأَحْبَابِي مِنْ خَلْقِي الَّذِينَ يَنْكُرُونَ بَنَكْرِي وَأَنْكُرَ بَنَكْرَهُمْ». وأخرج أحمد

الكتاب خارجاً عن علم الله وهو: محال. وقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة، كخلق الملائكة والسموات والأرض؛ وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني متباعد في سلسلة العلية عن مرتبة الأول، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده، سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات، والغرض: الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات. وأجيب أيضاً بأن الاستثناء منقطع: أي لكن هو في كتاب مبين. ونكر أبو علي الجرجاني أن إلا بمعنى الواو، على أن الكلام قد تم عند قوله: ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ ثم وقع الابتداء بقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: وهو أيضاً في كتاب مبين. والعرب قد تضع إلا موضع الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدِيَ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النمل: 10 - 11] يعني: ومن ظلم، وقوله: ﴿لَنَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: 150] أي: والذين ظلموا، وقد مر بعد الواو التي جاءت إلا بمعناها، كما في قوله: ﴿وَقُولُوا حُطَّةٌ﴾ [البقرة: 58] أي: هي حطة، ومثله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةَ﴾ [النساء: 171] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَبَاسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]. وقال الزجاج: إن الرفع على الابتداء في قراءة من قرأ بالرفع، وخبره: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ واختاره صاحب الكشاف، واختار في قراءة النصب التي قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التي لنفي الجنس، واستشكل العطف بنحو ما قدمنا. ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء، وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين، وكسر لقلوب العاصين نكر حال المطيعين، فقال: ﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الولي: في اللغة: القريب. والمراد بأولياء الله: خلص المؤمنين كانتهم قريبوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته. وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: يؤمنون بما يجب الإيمان به، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه، والمراد بنفي الخوف عنهم: أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم، وحسن ظن بربهم، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره، فيسلمون للقضاء والقدر، ويرحون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرة وجوارحهم نشطة، وقلوبهم مسرورة؛ ومحل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره لهم البشرى، فيكون غير متصل بما قبله، أو النصب أيضاً على المدح، أو على أنه وصف لأولياء. وقوله: ﴿لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء الله:

ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في الآية قال: «هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له، وفي الآخرة الجنة». وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن منده، من طريق أبي جعفر، عن جابر أن رسول الله ﷺ فسر البشري في الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة، وفي الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت: إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك. وأخرج ابن مردويه، عنه، مرفوعاً مثل حديث جابر. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، مرفوعاً الشطر الأول من حديث جابر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، عن ابن عباس، مثله. وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات، وأنها جزء من أجزاء النبوة، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية. وقد روي أن المراد بالبشري في الآية هي قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 47] أخرج ذلك ابن جرير، وابن المنذر، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، عنه، من طريق مقسم أنها قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: 30]. وأخرج ابن جرير، والحاكم، والبيهقي عن نافع، قال: خطب الحجاج فقال: إن ابن الزبير بذل كتاب الله، فقال ابن عمر: لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير، ﴿ولا تبديل لكلمات الله﴾.

وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ أَسْمِعُ الْمَلِيحُ ۝
 أَلَا إِنَّكَ لَمِنَ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝
 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْكُنُوا فِيهَا وَلَتَهَارَ فِيهَا فَيَرْمِزُوا ۝
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝
 سُبْحَنَهُ هُوَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاءِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ عِندِكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ يَنْذِرُ لِقَوْمِهِمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝
 قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَقُولُونَ ۝
 نَزَّلْنَاهُ الْمَدَابِ الشَّدِيدِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝

قوله: ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ نهي للنبي ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن: للظعن عليه وتكذيبه، والقدر في دينه. والمقصود: التسلية له والتبشير. ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله ﷺ مفعلاً لما ذكره من النهي لرسوله ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: الغلبة والقهر له في مملكته وسلطانه، ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له، فكيف يقدر على حزن حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة، وهم لا يملكون من الغلبة شيئاً. وقرئ «يحزنك» من أحزنه. وقرئ «أن العزة» بفتح الهمزة على معنى، لأن العزة لله، ولا ينافي ما في هذه الآية من جعل العزة لجميعها لله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَالْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8] لأن كل عزة بالله، فهي: كلها لله. ومنه قوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 21] ﴿إنا لننصر رسلنا﴾

عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ: «خيار عباد الله الذين إذا رؤوا نكر الله، وشرار عباده المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون البراءة العنت». وأخرج الحكيم الترمذي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم من نكرتم الله رؤيته، وزاد في علمكم منطق، ورغبكم في الآخرة عمله». وأخرج الحكيم الترمذي، عن ابن عباس، مرفوعاً نحوه. وأخرج الحاكم وصححه، عن ابن عمر، مرفوعاً: «إن الله عبداً ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربيهم ومجلسهم منه، فجئنا أعرابي على ركبته فقال: يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا؟ قال: قوم من أقاء الناس من نزاع القبائل، تصافوا في الله وتحابوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم. يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ فنكر نحوه. قال ابن كثير: وإسناده جيد. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن أبي هريرة، قال: «سئل النبي ﷺ عن قول الله ﴿إِنْ أُولِيَاءَ اللَّهِ﴾ الآية فقال: الذين يتحابون في الله». وأخرج ابن مردويه، عن جابر، مرفوعاً مثله. وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرابون بالآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، والحكيم في نوافر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن معنى قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فقال: ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: ما سألتني عنها أحد غيرك منذ أنزلت علي: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له، فهي بشراه في الحياة الدنيا. وبشراه في الآخرة الجنة. وفي إسناده هذا الرجل المجهول. وأخرج أبو داود الطيالسي، وأحمد، والدارمي، والترمذي، وابن ماجه، والحكيم الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عن عبادة بن الصامت قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له». وأخرج أحمد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فمن رأى ذلك فليخبر بها الحديث. وأخرج

[غافر: 51] **﴿إِلَّا إِنْ شَاءَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾** ومن جعلتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي ﷺ، وإذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله ﷺ بما لا يائن الله به، وغلب العقلاء على غيرهم؛ لكونهم أشرف. وفي الآية نعي على عباد البشر، والملائكة والجمادات؛ لأنهم عبدوا المملوك، وتركوا المالك، وذلك مخالف لما يوجب العقل، ولهذا عقبه بقوله: **﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾** والمعنى: أنهم وإن سموا معبوداتهم شركاء لله، فليست شركاء له على الحقيقة، لأن ذلك محال: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾** [الأنبياء: 22] وما في وما يتبع نافية وشركاء مفعول يتبع، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفاً، والأصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في الحقيقة؛ إنما هي: أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون، وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، ويكون على هذا الوجه شركاء منصوباً بـيدعون، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم، والإزراء عليهم. ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على من في السموات: أي الله من في السموات، ومن في الأرض، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؛ والمعنى: أن الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات ومن في الأرض. ثم زاد سبحانه في تأكيد الرد عليهم، والدفع لأقوالهم، فقال: **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾** أي: ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظناً، والظن لا يغني من الحق شيئاً **﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾** أي: يقدرون أنهم شركاء تقديراً باطلاً، وكتبنا بحتاً، وقد تقدمت هذه الآية في الانعام. ثم نكر سبحانه طرفاً من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه، فقال: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾** أي: جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين: أحدهما: مظلم وهو: الليل؛ لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب، ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب. والآخر: مبصر، لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعتهم، وتوفير معاشهم، ويحصلون ما يحتاجون إليه في وقت مضيء منير، لا يخفى عليهم فيه كبير ولا حقيق، وجعله سبحانه للنهار مبصراً مجاز. والمعنى: أنه مبصر صاحبه كقولهم: نهاره صائم، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ فِي ذَلِكَ إِلَى الْجَعْلِ الْمُنْكَرِ﴾** [آيات] عجيبة كثيرة **﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾** أي: يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه هاهنا منها، ومن غيرها مما لم ينكره، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون، فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان. قوله: **﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾** هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً، فرد ذلك عليهم بقوله:

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا نَسَى اللَّهُ فَعَلَّ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ

لنصرتكم، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر. وقال محمد بن يزيد المبرد: هو معطوف على المعنى، كما قال الشاعر:

يا ليت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً
والرمح لا يتقلد به، لكنه محمول كالسيف. وقال الزجاج: المعنى مع شركائكم، فالواو على هذا واو مع. وأما على قراءة اجمعوا بهمزة وصل فالعطف ظاهر: أي اجمعوا أمركم، واجمعوا شركاءكم. وأما توجيه قراءة الرفع، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع في اجمعوا، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمفصل كما هو المعتبر في ذلك أن الكلام قد طال. قال النحاس وغيره: وهذه القراءة بعيدة؛ لأنه لو كان شركاءكم مرفوعاً لرسم في المصحف بالواو، وليس ذلك موجوداً فيه، قال المهلوي: ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء، والخبر محذوف: أي وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل، لقصد التوبيخ، والتفريع لمن عبدها. وروي عن أبيه أنه قرأ: «وادعوا شركاءكم» بإظهار الفعل. قوله: «ثم لا يكن أمركم عليكم غمة» الغمة: التغطية من قولهم، غم الهلال: إذا استتر أي: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً، قال طرفة:

لعمرك ما أمرني علي بغمة نهاري ولا ليالي علي بسرمد
هكذا قال الزجاج. وقال الهيثم: معناه لا يكن أمركم عليكم مبهماً - وقيل إن الغمة: ضيق الأمر، كذا روي عن أبي عبيدة. والمعنى: لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتني والمجاملة لي ضيقاً شديداً، بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم، وقدرتم عليه، وعلى الوجهين الأولين: يكون المراد بالأمر الثاني هو الأمر الأول، وعلى الثالث: يكون المراد به غيره. قوله: «ثم اقضوا إلي ولا تنظرون» أي ذلك الأمر الذي تريدونه بي، وأصل اقضوا من القضاء، وهو الإحكام، والمعنى: احكموا ذلك الأمر. قال الأخفش والكسائي: هو مثل: «وقضينا إليه ذلك الأمر» [الحجر: 66] أي أنهينا به إليه وأبلغناه إياه، ثم لا تنظرون: أي لا تمهلون، بل عجلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم، وقيل معناه: ثم امضوا إلي ولا تؤخروني، قال النحاس: هذا قول صحيح في اللغة، ومنه قضى الميت: مضى، وحكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ ثم «اقضوا» بالفاء وقطع الهمزة: أي توجهوا، وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه، وعدم ميالاته بما يتوعدة به قومه. ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار، وتبليغ الشريعة عن الله، ليس هو لطمع دنيوي، ولا لغرض خسيس، فقال: «فإن توليتم فما سالتكم من أجر» أي: إن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم، وتذكيري إياكم، فما سالتكم في مقابلة ذلك من أجر تؤبونه إلي حتى تتهموني فيما جئت به، والفاء في «فإن توليتم» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والفاء في «فما سالتكم» جزائية «إن أجري إلا على الله» أي: ما ثوابي في النصح والتذكير إلا على سبحانه، فهو يثيبني آمنتم أو

أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون ﴿٦٧﴾ فإن توليتم فما سالتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من الأسفلين ﴿٦٨﴾ تكذبون فتبينته ومن معه في الفلك جعلناه مكملاً وأمرنا الذين كذبوا بآياتنا أن ينظروا كيف كان عيشة اللذين ﴿٦٩﴾ ثم مبتأنا من بعدهم ربنا لم يكفهم فآأؤهم فآأؤنا فما كادوا يؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع عن قلوب المصنفين ﴿٧٠﴾

لما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبهة المنهارة؛ شرع في نكر قصص الأنبياء، لما في ذلك من التسلية لرسول الله ﷺ، فقال: «واتل عليهم» أي: على الكفار المعاصرين لك، المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة «نبأ نوح» أي: خبره، والنبأ هو الخبر الذي له خطر و شأن، والمراد: ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به، كما فعله كفار قريش وأمثالهم: «إذ قال لقومه» أي: وقت قال لقومه، والظرف منصوب بنياً أو بدل منه بدل اشتمال، واللام في «لقومه» لام التبليغ «يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي» أي: عظم وثقل، والمقام بفتح الميم: الموضع الذي يقام فيه، وبالضم الإقامة. وقد اتفق القراء على الفتح، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلت لمكان فلان: أي لأجله. ومنه: «ولمن خاف مقام ربه» [الرحمن: 46] أي: خاف ربه، ويجوز أن يراد بالمقام: المكث: أي شق عليكم مكثي بين أظهركم، ويجوز أن يراد بالمقام: القيام؛ لأن الواعظ يقوم حال وعظه؛ والمعنى: إن كان كبير عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم، وكبير عليكم تذكيري لكم «بآيات الله» التكوينية والتنزيلية، «ففعلى الله توكلت» هذه الجملة جواب الشرط، والمعنى: إني لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله، فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديماً وحديثاً. ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل، ويجوز أن يكون جواب الشرط «فاجمعوا» وجملة «فعلى الله توكلت» اعتراض، كقولك: إن كنت أنكرت علي شيئاً فإله حسبي. ومعنى: «فاجمعوا أمركم» اعتزموا عليه، من أجمع الأمر: إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء: وروي عن الفراء أنه قال: أجمع الشيء: أعده، وقال مؤرج السدوسي: أجمع الأمر أقصع من أجمع عليه، وأنشد:

يا ليت شعري والمنى لا تنفع هل أغنون يوماً وأمري مجمع
وقال أبو الهيثم: أجمع أمره: جعله جميعاً بعدما كان متفرقاً، وتفرقه أن تقول مرة أفل كذا، ومرة أفل كذا، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه: أي جعله جميعاً، فهذا هو الأصل في الإجماع، ثم صار بمعنى العزم، وقد اتفق جمهور القراء على نصب «شركاءكم» وقطع الهمزة من اجمعوا. وقرأ يعقوب، وعاصم الجحدري بهمزة وصل في اجمعوا، على أنه من جمع يجمع جمعاً. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، ويعقوب «وشركاؤكم» بالرفع. قال النحاس: وفي نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه: الأول: بمعنى وادعوا شركاءكم، قاله: الكسائي والفراء: أي ادعوه

أَقْضُوا ما أنتم قاضون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿ثُمَّ أَقْضُوا﴾** قال: انهضوا **﴿إِلَى وَلَا تَنْتَظِرُونَ﴾** يقول: ولا تؤخرون.

فَرَبَعْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا فَجُورِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالَ أَلْهَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ
﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيَحْيُرْ هَذَا وَلَا يُلْقِ السَّحَرُونَ
﴿٧٧﴾ إِلَّا مَا أُوتُوا عَلَيْهِمْ وَأَنَّا نَأْتِيهِمْ مِنْ أَمَامَتِهِمْ وَاكُونُوا لِكَلِمَةِ الْكَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا تَحْسِبُنَا لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَأَنْتَوْنِي بِعِلِّيٍّ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوْلَ إِنَّمَا أَنْتُمْ مَثْفُوفُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا اتَّفَقُوا قَالَ مُوسَى مَا
يَجْتُمِعُ بِهِ السَّحَرَةُ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَيِّرُ
اللَّهُ الْعَالِيَ الْكَافِرِينَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ لَمَّا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ
قَوْمِهِ عَلَى خَرْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَلِقَائِهِمْ أَنْ يَقْبَلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَئِنْ لَيْسَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقُولُونَ إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنُكُمْ بِاللَّهِ فَقِيلَتْهُ
تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
وَأَخِيهِ أَنْ بَرَّاهُمَا لِغَوَايَاكَ بِمَصْرَ بَرَّاهُمَا وَاجْعَلُوا يَوْمَكُمْ نِسَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [يونس: 74] والضمير في من بعدهم، راجع إلى الرسل المتقدم ذكرهم، وخصّ موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما، وخطر شأنهما جرى بينهما وبين فرعون، والمراد بالملأ: الأشراف، والمراد بالآيات: المعجزات، وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبولها، ولم يتواضعوا لها، ويذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرَمِينَ﴾ أي: كانوا نوي إجرام عظام، وأثم كبيرة، فبسبب ذلك اجترعوا على رذءا، لأنّ الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق، وإبصار الصواب - قيل: وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها. قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: فلما جاء فرعون وملأه الحق من عند الله، وهو: المعجزات، لم يؤمنوا بها بل حملوها على السحر مكابرة منهم، فردّ عليهم موسى قائلاً: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ لِلْحَقِّ﴾ لما جاءكم لسحر هذا﴾ قيل: في الكلام حذف، والتقدير: اتقوا الله للحقّ سحر فلا تقولوا ذلك، ثم استأنف إنكاراً آخر من جهة نفسه فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثاني، والملجئ إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكي ما قالوه يقول: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ بل هم قاطعون بأنه سحر، لأنهم قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فحينئذ لا يكون قوله: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ من قولهم، وقال الأخفش: هو من قولهم، وفيه نظر لما قدّمنا؛ وقيل معنى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ اتعيبون الحقّ وتطعنون فيه، وكان عليكم أن

توليتهم. قرأ أهل المدينة، وأبو عمر، وابن عمر، وحفص، بتحريك الباء من أجري، وقرأ الباقون بالسكون ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المتقايين لحكم الله الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه، لا يأخذون عليها أجراً ولا يطمعون في عاجل. قوله: ﴿فَكَتَبُونَهُ فَتَجَنَّبَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ﴾ أي: استمروا على تكذيبه أصروا على ذلك، وليس مراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن، والمراد بمن معه: من قد أجابه وصار على دينه، والخلافة جمع خليفة، والمعنى: أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التي كانت للمهلكين بالفرق، ويخلفونهم فيها ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من الكفار المعاندين لنوح، الذين لم يؤمنوا به أغرقهم الله بالطوفان ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْضِرِينَ﴾ فيه تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد للمشركين، وتهويل عليهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رِسَالًا﴾ كهود وصالح، وإبراهيم ولوط، وشعيب ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها الله لقوم كل نبي ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: فما أحدثوا الإيمان بل استمروا على الكفر وأصروا عليه، والمعنى: أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل الله إليهم رسله أن يؤمنوا في وقت من الأوقات ﴿بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل إليهم، والمعنى: أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل الله إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه إليهم، لأنهم كانوا غير مؤمنين، بل مكذبين بالبين، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسلاً، وهذا مبني على أن الضمير في ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وفي ﴿بِمَا كَذَبُوا﴾ راجع إلى القوم المذكورين في قوله: ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ وقيل: ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح: أي فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتي هؤلاء الأقوام الذين جاءوا من بعدهم ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وقيل إن الباء في بما كذبوا به من قبل للسببية: أي فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم، وفيه نظر. وقيل المعنى: بما كذبوا به من قبل: أي في عالم النور فإن فيهم من كذب بقلبه، وإن آمنوا ظاهراً. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل: إنه لقوم بأعيانهم ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحد المعهود في الكفر، وقد تقدّم تفسير هذا في غير موضع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الأعرج، في قوله: ﴿فاجمعوا أركانكم وشركاءكم﴾ يقول: فاحكموا أركانكم، وادعوا شركاءكم. وأخرج أيضاً عن الحسن في الآية أي: فليجمعوا أمرهم معكم. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿ثم لا يكن أركانكم عليكم غمة﴾ قال: لا يكبر عليكم أركانكم ﴿ثم

ثم جمعوا بيته وبين هارون في الخطاب في قوله: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وجه ذلك أنهم أسندوا المعجى والصرف عن طريق آبائهم إلى موسى، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين، لأن الكبرياء شامل لهما في زعمهم، ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون، وقد مرّت القصة في الأعراف، قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُؤْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا، لأنه اعتقد أنهما من السحر، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم، هكذا قرأ حمزة والكسائي، وابن وثاب، والأعمش «سحار». وقرأ الباقون: «ساحر» وقد تقدّم الكلام على هذا في الأعراف، والسحار صيغة مبالغة: أي كثير السحر، كثير العلم بعمله وأنواعه ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ في الكلام حذف، والتقدير هكذا: وقال فرعون اتنوني بكل سحار عليم، فاتوا بهم إليه، فلما جاء السحرة، فتكون الفاء للعطف على المقدر المحذوف. قوله: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى ائْتُوا مَا مَلَكُونُ﴾ أي: قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له: إما أن تلقى، وإما أن نكون نحن الملوك: أي اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم ﴿فَلَمَّا لَقُوا﴾ ما ألقوه من ذلك ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ﴾ أي: الذي جئتم به السحر، على أن ما موصولة مبتدأ والخبر السحر؛ والمعنى: أنه سحر، لا أنه آية من آيات الله. وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم، وتكون ما شرطية، والشرط جئتم، والجزاء: ﴿إِنْ اللَّهُ سَيَبْطِلُهُ﴾ على تقدير الفاء: أي فإن الله سيبيطله؛ وقيل: إن السحر منتصب على المصدر: أي ما جئتم به سحراً، ثم دخلت الألف واللام، فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء، واختاره النحاس. وقال: حذف الفاء في المجازة لا يجيزه كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر. وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر «أكسر» على أن الهمزة للاستفهام، والتقدير: أهو السحر، فتكون ما على هذه القراءة استفهامية. وقرأ أبي «ما أتيتم به سحر إن الله سيبيطله» أي: سيمحقه، فيصير باطلاً بما يظهره على يدي من الآيات المعجزة ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَصْلَحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: عمل هذا الجنس، فيشمل كل من يفسد عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أولياً، والواو في ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ للعطف على سيبيطله: أي يبينه ويوضحه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه، لاشتغالها على الحجج والبراهين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ من آل فرعون، أو المجرمون على العموم، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولاً أولياً، والإجرام: الأثام. قوله: ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ظِرَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ الضمير يرجع إلى موسى: أي من قوم موسى، وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل؛ وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون، فيكون الضمير عائداً على فرعون؛ قيل: ومنهم مؤمن آل فرعون وامراته، وماشطة ابنته، وامرأة خازنه؛ وقيل: هم قوم آبائهم

تذعنوا له، ثم قال أسحر هذا، منكراً لما قالوه؛ وقيل إن مفعول ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ محذوف، وهو ما دلَّ عليه قولهم: ﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ﴾ والتقدير: اتَّقُوا ما تقولون، يعني: قولهم إن هذا لسحر مبين، ثم قيل أسحر هذا، وعلى هذا التقدير والتقدير الأوَّل فتكون جملة ﴿أسحر هذا﴾ مستأنفة من جهة موسى عليه السلام، والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال لهم موسى لما قالوا إن هذا لسحر مبين؟ فقيل: قال اتَّقُوا للحق لما جاءكم، على طريقة الاستفهام الإنكاري، والمعنى: اتَّقُوا للحق لما جاءكم إِنَّ هذا لسحر مبين، وهو أبعد شيء من السحر. ثم أنكر عليهم، وقرَّعهم، ووبَّخهم، فقال: ﴿أسحر هذا﴾ فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد إنكار، وتوبيخ بعد توبيخ، وتجهيل بعد تجهيل، وجملة: ﴿وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال: أي اتَّقُوا للحق إنه سحر، والحال: أنه لا يفلح الساحرون. فلا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير، ولا ينجون من مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله، وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة؟ وجملة: ﴿قَالُوا اجِثْنَا لَنُلْقِيَنَا عِندَ رَبِّنَا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؟ وفي هذا ما يدلُّ على أنهم انقطعوا عن الدليل، وعجزوا عن إبراز الحجة، ولم يحضوا ما يجيبون به عما أورد عليهم، بل لجئوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو: الاحتجاج بما كان عليه آبائهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم، وسبب مكابرتهم للحق، وجحودهم للآيات البينة، وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها، وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا، وكم بقي على الباطل، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت، يقال لفته لفتاً: إذا صرفه عن الشيء ولواه عنه، ومنه قول الشاعر:

تلفت نحو الحي حتى رايتين وجعت من الإصغاء ليتاً وأخذنا
أي: تريد أن تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آباءنا،
وهو عبادة الأصنام، والمراد بالكبرياء الملك، قال الزجاج:
سمي الملك كبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا؛ وقيل
سمي بذلك؛ لأن الملك يتكبر.

والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين:
التمسك بالتقليد للأباء، والحرص على الرياسة الدنيوية،
لأنهم إذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه
ولم يبق للملك رئاسة تامة، لأن التدبير للناس بالدين يرفع
تدبير الملوك هم بالسياسات والعادات، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ
لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تصريحاً منهم بالكذب، وقطعاً للطمع في
إيمانهم، وقد أفرد الخطاب لموسى في قولهم: اجئتنا لتفتنا،

والمراد بالقبلة على القول الأول هي: جهة بيت المقدس، وهو: قبلة اليهود إلى اليوم؛ وقيل: جهة الكعبة، وأنها كانت قبلة موسى ومن معه؛ وقيل: المراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبل للقبلة، ليصلوا فيها سرّاً لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة، ومما يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَقِيمُوا لِلصَّلَاةِ﴾ أي: التي أمركم الله بإقامتها، فإنه يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة، إما في المساجد أو في البيوت، لا جعل البيوت متقابله، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَلَجْعَلُوا بِيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا لِلصَّلَاةِ﴾ ثم أقر موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة، لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصاً بموسى، لأنه الأصل في الرسالة، وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيماً للشارة وللمبشر بها؛ وقيل: إن الخطاب في وبشر المؤمنين لنبينا محمد ﷺ، على طريقة الالتفات والاعتراض، والأول: أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿لَتَلَفْتُنَا﴾ قال: لتلوتنا، وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، قال: لتصدنا عن ألهتنا، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: العظمة والملك والسلطان. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَمَا أَمِنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَةً﴾ قال: الذرية القليل. وأخرج هؤلاء، عنه، في قوله: ﴿ذُرِيَةً مِنْ قَوْمِهِ﴾ قال: من بني إسرائيل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آبائهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، قال: كانت الذرية التي أمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، ونعيم بن حماد في الفتن، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا تسلطهم علينا فيفتنونا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال في تفسير الآية: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنونا بنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن أبي قلابة، في الآية قال: سأل ربه أن لا يظهر علينا عدونا، فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنونا بذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مجلز، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وَأُلْهِمْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَاخِيهِ﴾ الآية، قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمر أن يجعلوا مساجدهم

من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، روي هذا عن الفراء ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الضمير لفرعون، وجمع لأنه لما كان جباراً جمعوا ضميره تعظيماً له؛ وقيل: إن قوم فرعون سموا بفرعون مثل ثمود، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار، وقيل: إنه عائد على مضاف محذوف، والتقدير: على خوف من آل فرعون، وروي هذا عن الفراء. ومنع ذلك الخليل، وسيبويه، فلا يجوز عندهما قامت هند وأنت تريد غلامها. وروي عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية، وقواه النحاس: ﴿أَنْ يَفْتَنَهُمْ﴾ أي: يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم، وهو بدل اشتغال. ويجوز أن يكون في موضع نصب بالمصدر ﴿وَأَنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عات متكبر، متقلب على أرض مصر ﴿وَأَنْ لِمَنْ الْمَسْرِفِينَ﴾ المجاوزين للحد في الكفر، وما يفعله من القتل والصلب، وتنويع العقوبات، قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ قيل: إن هذا من باب التكرير للشرط، فشرط في التوكل على الله الإيمان به والإسلام: أي الاستسلام لقضائه وقدره؛ وقيل إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل، والمشروط بالإسلام وجوده؛ والمعنى: أن يسلموا أنفسهم لله: أي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها، لأن التوكل لا يكون مع التخليط. قال في الكشاف: ونظيره في الكلام إن ضربك زيد فاضربه، إن كانت لك به قوة ﴿فَقَالُوا﴾ أي: قوم موسى مجيبين له ﴿عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ثم دعوا الله مخلصين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي: موضع فتنة ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ والمعنى: لا تسلطهم علينا، فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، ولا تجعلنا فتنة لهم، يفتنون بنا غيرنا، فيقولون لهم: لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم، وعلى المعنى الأول: تكون الفتنة بمعنى المفتون. ولما قُتِمَا التضرع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد، أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم، فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم. قوله: ﴿وَأُلْهِمْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَآخِيهِ أَنْ تَبُولُوا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا﴾ أن هي المفسرة لأن في الإحياء معنى القول أن تبوأ: أي: اتخذوا لقومكم بمصر بيوتاً؛ يقال: بُوأت زيداً مكاناً، وبُوأت لزيد مكاناً، والمبوء: المنزل الملزوم، ومنه بُوَاهُ الله منزلاً؛ أي ألزمه إياه، وأسكنه فيه، ومنه الحديث: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». ومنه قول الراجز: نحن بنو عننان ليس شك تبوأ المجدبنا والملك قيل: ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية، وقيل: هي مصر المعروفة، لا الإسكندرية ﴿وَلَجْعَلُوا بِيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: متوجهة إلى جهة القبلة، قيل والمراد بالبيوت هنا: المساجد، وإليه ذهب جماعة من السلف؛ وقيل المراد بالبيوت: التي يسكنون فيها، أمروا بأن يجعلوها منا قبله،

المضاربة: أي يوقعوا الإضلال على غيرهم. وقرأ الباقرن بالفتح: أي يضلون في أنفسهم ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾. قال الزجاج: طمس الشيء إذهابه عن صورته؛ والمعنى: الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم، ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس ﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي: أجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق، ولا تشرح للإيمان. قوله: ﴿فلا يؤمنوا﴾ قال المبرد والزجاج: هو معطوف على ليضلوا، والمعنى: آتيتهم النعم، ليضلوا ولا يؤمنوا، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضاً. وقال الفراء، والكسائي، وأبو عبيدة: هو دعاء بلفظ النهي، والتقدير: اللهم فلا يؤمنوا، ومنه قول الأعشى:

فلا ينسب من بين عينيك ما أنزوى ولا تلقني إلا وإنفك راغم
وقال الأخفش: إنه جواب الأمر: أي اطمس واشدد، فلا يؤمنوا، فيكون منصوباً. وروي هذا عن الفراء أيضاً، ومنه:

ياناق سيرى عنقاً فسيحاً إلى سليمان فنستريحا
﴿حتى يروا العذاب الليم﴾ أي: لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاناة لما يعذبهم الله به، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم. وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء، وقال: إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم. وأجيب بأنه لا يجوز لنبي أن يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه، وإنما يأن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن، قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: 26]. ﴿قال قد لجيت دعوتكما فاستقيما﴾ جعل الدعوة ها هنا مضافة إلى موسى وهارون، وفيما تقدم أضافها إلى موسى وحده، فقيل: إن هارون كان يؤمن على دعاء موسى، فسمي ها هنا داعياً، وإن كان الداعي موسى وحده، ففي أول الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي، وها هنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمن منزلة الداعي، ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أول الكلام لأصالته في الرسالة. قال النحاس: سمعت علي بن سليمان يقول: الدليل على أن الدعاء لهما، قول موسى ربنا ولم يقل رب. وقرأ علي والسلمي «دعائكما» وقرأ ابن السميغ «دعواكما» والاستقامة: الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى الله. قال الفراء وغيره: أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه، على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة، ثم أهلكوا؛ وقيل معنى الاستقامة: ترك الاستعجال ولزوم السكينة، والرضا والتسليم لما يقضي به الله سبحانه. قوله: ﴿ولا تتبعان سبيل النين لا يعلمون﴾ بتشديد النون للتأكيد، وحركت بالكسر لكونه الأصل، وكونهما أشبهت نون التثنية. وقرأ ابن نكوان بتخفيف النون على النفي لا على النهي. وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من تتبعان. والمعنى: النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه

في بيوتهم، وأن يوجهوها نحو القبلة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿أن تبوأ لقومكما بمصر﴾ قال: مصر الإسكندرية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: كانوا لا يصلون إلا في البيع حتى خافوا من آل فرعون، فأمرُوا أن يصلوا في بيوتهم. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، في الآية قال: أمرُوا أن يتخذوا في بيوتهم مساجد. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي سنان، قال: القبلة: الكعبة، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولجعلوا بيوتكم قبلة﴾ قال: يقابل بعضها بعضاً.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا أَخْرِجْ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧٦﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ فَوَاسَتْكُمْ وَلَا
تُبَيِّنَنَّ سَبِيلَ الْكُفْرِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ وَجَوَّزْنَا بِسَبِّهِ الْبَحْرَ
فَأَتَيْنَاهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُودُهُمْ بَعِيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ مَا أَنتَ أَنتُمْ
لَا إِلَهَ إِلَّا الْوَيْلُ مَا أَنتَ بِهِ بَرٌّ لِمَنْ يَشَاءُ وَلَا مِنْ السُّلَيْمِينَ ﴿١٧٨﴾ مَا كُنَّ وَقَدْ
عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧٩﴾ فَأَلْوِمْ نَجْوَىكَ بِذَلِكَ لِنُكْوِتَ
لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَيْدَ الْفَارِسِيِّ عَنِ آيَتِنَا لَنُفْلِتُونَ ﴿١٨٠﴾

لما بالغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات، وإقامة الحجج البينات، ولم يكن لذلك تأثير في من أرسل إليهم، دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر، وتمسكهم بالجحود والعناد، فقال مبيناً للسبب أولاً: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾ قد تقدم أن الملأ هم الأشراف، والزينة: اسم لكل ما يتزين به، من ملبوس ومركوب، وحلية وفراش وسلاح، وغير ذلك، ثم كرر النداء للتأكيد فقال: ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾.

وقد اختلف في هذه اللام الداخلة على الفعل، فقال الخليل وسيبويه: إنها لام العاقبة والصيرورة. والمعنى: أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال، صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتييت؛ وقيل: إنها لام كي: أي أعطيتهم لكي يضلوا. وقال قوم: إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا. فحنفت لا كما قال سبحانه: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176]. قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن، فمؤه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: 176]. وقيل اللام للدعاء عليهم. والمعنى: ابتلهم بالهلاك عن سبيلك، واستدل هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا: اطمس واشدد. وقد أطال صاحب الكشف في تقرير هذا بما لا طائل تحته، والقول الأول هو: الأولى. وقرأ الكوفيون «ليضلوا» بضم حرف

واضلالك لغيرك. قوله: ﴿فاليوم ننجيك ببينك﴾ قرئ «ننجيك» بالتخفيف، والجمهور على التثقيب. وقرأ اليزيدي: «ننجيك» بالحاء المهملة من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود؛ ومعنى ننجيك بالجمع: نلقيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بني إسرائيل لم يصنقوا أن فرعون غرق، وقالوا: هو أعظم شأناً من ذلك، فإلقاه الله على نجوة من الأرض، أي: مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه؛ وقيل المعنى: نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر، ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق، ومعنى ننحك بالمهملة: نطرحك على ناحية من الأرض، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ «بأبدانك».

وقد اختلف المفسرون في معنى ببينك، فقبل معناه: بجسدك بعد سلب الروح منه؛ وقيل معناه: بدرك، والدرك يسمى بدنًا، ومنه قول كعب بن مالك:

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحصينا
أراد بالأبدان الدروع، وقال عمرو بن معدى كرب:

ومضى نسأهم بكل مضاضة جداء سابغة وبالأبدان
أي بدروع سابغة، ودروع قصيرة؛ وهي التي يقال لها أبدان كما قال أبو عبيدة، وقال الأخفش: وأما قول من قال بدرك فليس بشيء، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد. قوله: ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ هذا تعليل لتنجيته ببينه، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى، والمراد بالآية العلامة: أي لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك، وأنت لست كما تدعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق؛ وقيل: المراد ليكون طرحك على الساحل وحك نون المغرقين من قومك آية من آيات الله، يعتبر بها الناس، أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك، حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية، واستمر على ذلك دهرًا طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة. وقرئ «لمن خلفك» على صيغة الفعل الماضي أي: لمن يأتي بعدك من القرون، أو من خلفك في الرياسة أو في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا﴾ التي توجب الاعتبار والتفكير، وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لغافلون﴾ عما توجهه الآيات، وهذه الجملة تنبيلية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ يقول: دمر على أموالهم وأهلكها ﴿واشد على قلوبهم﴾ قال: اطبع ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وهو الفرق. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي، قال: سألني عمر بن عبد العزيز، عن قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وأل فرعون، حتى صارت حجارة، فقال عمر: كما أنت حتى أتيتك، فدعا بكيس مختم ففكه، فإذا

المصالح، تعجلاً وتأجيلاً. قوله: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكان: إذا خلفه وتخطاه، والباء للتعنية: أي جعلناهم مجاوزين البحر، حتى بلغوا الشط، لأن الله سبحانه جعل البحر بيبساً فمرؤا فيه حتى خرجوا منه إلى البر. وقد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿وإذا فرقنا بكم البحر﴾ [البقرة: 50] وقرأ الحسن «وجوزنا» وهما لغتان ﴿فاتبعهم فرعون وجنوده﴾ يقال تبع وأتبع بمعنى واحد: إذا لحقه. وقال الأصمعي: يقال أتبعه بقطع الألف: إذا لحقه وأدركه، وأتبعه بوصل الألف: إذا أتبع أثره أدركه، أو لم يدركه. وكذا قال أبو زيد، وقال أبو عمرو: إن أتبعه بالوصل: اقتدى به، وانتصاب بغياً وعدواً على الحال، والبغي: الظلم، والعدو: الاعتداء، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة: أي للبغي والعدو. وقرأ الحسن «وعنوا» بضم العين والدال وتشديد الواو، مثل علا يعلو علواً، وقيل إن البغي: طلب الاستعلاء في القول بغير حق، والعدو: في الفعل ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ أي: ناله ووصله وأجمعه. وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده، ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر، وتبعهم فرعون، والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون، وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر، انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك ﴿قال آمنتم أنه لا إله إلا الذي آمنتم به بنو إسرائيل﴾ أي: صدقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بانه، فحذفت الباء، والضمير للشأن، وقرئ بكسر إن على الاستئناف، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف: أي آمنتم، فقلت: إنه، ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق كله، كما تقدم في النساء، ولم يقل للعين آمنتم بالله أو برّب العالمين، بل قال آمنتم أنه لا إله إلا الذي آمنتم به بنو إسرائيل، لأنه بقي فيه عرق من دعوى الإلهية. قوله: ﴿وإننا من المسلمين﴾ أي: المستسلمين لأمر الله، المنقادين له، الذين يوحدونه وينفون ما سواه، وهذه الجملة إما في محل نصب على الحال أو معطوفة على آمنتم. قوله: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ هو مقول قول مقدر معطوف على قال آمنتم: أي فقبل له أتؤمن الآن؟

وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل: هي من قول الله سبحانه، وقيل: من قول جبريل، وقيل: من قول ميكائيل، وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه. وجملة وقد عصيت قبل: في محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدر بعد القول المقدر، وهو أتؤمن الآن؛ والمعنى: إنكار الإيمان منه عند أن أجمعه الغرق، والحال أنه قد عصى الله من قبل، والمقصود التقرير والتوبيخ له. وجملة وكنت من المفسدين معطوفة على عصيت داخلة في الحال: أي: كنت من المفسدين في الأرض بضالك عن الحق،

فيه الفضة مقطوعة كأنها حجارة والدنانير والدراهم، وأشباه ذلك من الأموال حجارة كلها. وقد روي أن أموالهم تحولت حجارة من طريق جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قد أجيبت دعوتكما، قال: فاستجاب له، وحال بين فرعون وبين الإيمان. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي هريرة قال: كان موسى إذا دعا أمَّن هارون على دعائه يقول أمين. قال أبو هريرة: وهو اسم من أسماء الله، فذلك قوله: ﴿قَدْ أَجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ﴾. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس، نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، عن محمد بن كعب القرظي، نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وأخرج ابن جرير، عن ابن جرير، مثله. وأخرج الحكيم الترمذي، عن مجاهد، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، فاستقيماً: فامضياً لأمري، وهي الاستقامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: العدو والعنوّ والعلو في كتاب الله: التجبر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: لما خرج آخر أصحاب موسى وبخل آخر أصحاب فرعون، أوحى الله إلى البحر أن انطبق عليهم، فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: فعرفت أن الرب رحيم، وخفت أن تتركه الرحمة، فرمسته بجناحي وقلت: الآن وقد عصيت قبل؟ فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف من قوم فرعون: ما غرق فرعون ولا أصحابه، ولكنه في جزائر البحر يتصيون، فأوحى الله إلى البحر أن اللفظ فرعون عرياناً، فلفظه عرياناً أصلع أخينس قصيراً فهو قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْجِيكَ بَبْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾. لمن قال: إن فرعون لم يغرق، وكان نجاة غيره لم تكن نجاة عافية: ثم أوحى الله إلى البحر أن اللفظ ما فيك، فلفظهم على الساحل، وكان البحر لا يلفظ غريقاً في بطنه حتى ياكله السمك، فليس يقبل البحر غريقاً إلى يوم القيامة. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أغرق الله فرعون فقال: «أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل» قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أخذ من حال البحر فأنسه في فيه مخافة أن تتركه الرحمة، وقد روي هذا الحديث الترمذي من غير وجه، وقال حسن صحيح غريب، وصححه أيضاً الحاكم. وروي عن ابن عباس، مرفوعاً من طرق أخرى. وأخرج الطبراني في الأوسط، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «قال لي جبريل: ما كان على الأرض شيء أبغض إلي من فرعون، فلما آمن جعلت أحشوا فاه حماة وأنا أغطه خشية أن تتركه الرحمة». وأخرج ابن جرير، والبيهقي، من حديث أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عمر، مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي أمامة، مرفوعاً نحوه أيضاً، وفي إسناده

حديث أبي هريرة رجل مجهول، وباقي رجاله ثقات، والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن الرواية من المفسرين، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث رسول الله ﷺ والحكم ببطلان ما صرح منها، ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحث، والقصور الفاضح الذي يضحك منه، كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث، فيا مسكين مالك ولهذا الشأن الذي لست منه في شيء؟ ألا تستر نفسك وترجع على ضلوعك، وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، وتشغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه، وحاصلك الذي ليس لك غيره، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية، ولقد صار صاحب الكشف رحمه الله بسبب ما يتعرض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد، ولا صدر، سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين، فتارة يروي في كتابه الموضوعات، وهو لا يدري أنها موضوعات، وتارة يتعرض لرّد ما صرح، ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله والبهت عليه، وقد يكون في الصحيحين وغيرهما، مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أثمة ثقات أثبات حجج، وأنتي نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه، ولا يدري به أقل دراية، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتراضع عليها طائفة من الناس، ويصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك بعلم السنة الذي هو قسيم كتاب الله، وقائله رسول الله ﷺ، وروايه عنه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عام، لجميع أهل الإسلام. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْجِيكَ بَبْنِكَ﴾ قال: أتجى الله فرعون لبني إسرائيل من البحر فنظروا إليه بعدما غرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية قال: بجسدك، قال: كذب بعض بني إسرائيل بموت فرعون، فالقى على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل: أحمر قصيراً كأنه ثور. وأخرج ابن الأنباري، عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْجِيكَ بَبْنِكَ﴾ قال: بدرعك، وكان درعه من لؤلؤة يلاقي فيها الحروب.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَوْءَا سِدْوَى وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا أَخْلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلَافُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّمَا كُنَّا فِيهِ بِمُتْلِفُونَ ﴿١٠﴾ إِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِّمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ مَا يُوْثَرُ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٤﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَفَعَّمَهَا إِسْنَهَا إِلَّا قَوْمَ يُوْثَرُ لَكَا مَأْمُورًا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعْتَمُّ إِلَيْكَ جِئْنَا وَكُنَّا رَبُّكَ لَأَمِّنَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِئْنَا فَأَنَّا نَكْرِهُ أَتَانَا حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَتْ لَيْتَنِي أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا يَأْذَنَ اللَّهُ وَيَجْعَلُ أَيْمَنَكَ عَلَى الْيَمِينِ لَا يَقُولُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ هذا من جملة ما عدَّه الله سبحانه من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، ومعنى بَوَّأْنَا: أسكننا، يقال بَوَّأت زيدا منزلاً: أسكنته فيه، والمبوء اسم مكان أو مصدر، وإضافته إلى الصديق علي ما جرت عليه قاعدة العرب، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصديق، والمراد به هنا: المنزل المحمود المختار، قيل: هو أرض مصر، وقيل: الأردن وفلسطين، وقيل: الشام ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: المستلذات من الرزق ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم، وتشعبوا فيه شعباً بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: لم يقع منهم الاختلاف في الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقرآتهم التوراة، وعلمهم بأحكامها، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوة محمد ﷺ، وقيل المعنى: أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم، وهو القرآن النازل على نبينا ﷺ، فاختلَفُوا في نعتة وصفته، وأمن به من آمن منهم، وكفر به من كفر، فيكون المراد بالمختلفين على القول الأوَّل هم: اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها، وعلى القول الثاني هم: اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿إِنْ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والمحقَّ بعمله بالحق، والمبطل بعمله بالباطل ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الشك في أصل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، ومنه شك الجواهر في العقد، والشك كانه يضم إلى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه، فيتردَّد ويتحير، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره، كما ورد في القرآن في غير موضع. قال أبو عمر، محمد بن عبد الواحد، الزاهد: سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان: معنى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ﴾ أي: قل يا محمد للكافر فإن كنت في شك ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَاقُرْءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم، ويقرِّون بأنهم أعلم منهم، فأمر الله سبحانه نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقاً، وأن هذا رسوله، وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به، وفي هذا الوجه مع حسنة مخالفة للظاهر. وقال القتيبي: المراد بهذه الآية: من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي ﷺ، ولا بتصديقه، بل كان في شك. وقيل المراد بالخطاب: النبي ﷺ لا غيره. والمعنى: لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزولوا عنك الشك. وقيل: الشك هو ضيق الصدر: أي إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء، فاصبر واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم. وقيل معنى الآية: الفرض والتقدير،

كأنه قال له: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيلاً منه تقديراً، فاسأل الذين يقرءون الكتاب، فإنهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك، ويعترفون بذلك لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضياً للكم عندهم. قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ في هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملة، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشك هو الحق الذي لا يخالطه باطل، ولا تشوبه شبهة، ثم عقبه بالنهي للنبي ﷺ عن الامتراء فيما أنزل الله عليه، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك. ويمكن أن يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره، كما في مواطن من الكتاب العزيز، وهكذا القول في نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله، فإن الظاهر فيه التعريض، ولا سيما بعد تعقيبها بقوله: ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذِّبين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم، لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه، فكيف بمن يمكن منه ذلك. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قد تقدَّم مثله في هذه السورة، والمعنى: أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر، ويموتون عليه لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال، وإن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان، كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب، فهو في حكم العدم ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية، فإن ذلك لا ينفعهم، لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم، وحق منه القول عليهم ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان، وليس بإيمان، ولا يترتب عليه شيء من أحكامه. قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ لولا هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا، كما قال الأخفش والكسائي وغيرهما، ويدل على ذلك ما في مصحف أبي وابن مسعود «فهلأ قرية» والمعنى: فهلأ قرية واحدة من هذه القرى التي أهلكتها آمناً إيماناً معتداً به، وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه، ولم يؤخره كما أخره فرعون، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ منقطع، وهو استثناء من القرى لأن المراد أهلها: والمعنى: لكن قوم يونس ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ إيماناً معتداً به قبل معاينة العذاب، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَضَبَ الْخَزْيِ﴾ وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع: جماعة من الأئمة منهم: الكسائي، والأخفش، والفراء؛ وقيل: يجوز أن يكون متصلاً، والجملة في معنى النفي، كانه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء. وقرئ بالرفع على البدل. وقال الزجاج في توجيه الرفع: يكون المعنى غير قوم يونس، ولكن حملت إلا عليها وتعذر جعل الإعراب عليها، فأعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غيره. قال ابن جرير: خص قوم يونس من بين الأمم بأن: تيب عليهم من

الآية، قال: لم يشك رسول الله ﷺ، ولم يسأل. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، قال: نكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل. وهو مرسل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَسَأَلِ الَّذِينَ يَاقِرُونَ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال: التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمداً من أهل الكتاب وأمنوا به، يقول: سلم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ أَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: حق عليهم سقط الله بما عصوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿فَقُولُوا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ يقول: فما كانت قرية آمنت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: لم يكن هذا في الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، فاستثنى الله قوم يونس. قال: وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بني نوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة، فلبسوا المسوح وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربعين صباحاً، فلما عرف الله الصلح من قلوبهم والتوبة والندامة على ما معنى منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل. وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: إن يونس دعا قومه، فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب، فقال: إنه ياتيكم يوم كذا وكذا، ثم خرج عنهم، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلم العذاب خرجوا، وفرقوا بين المرأة وولدها، وبين السخلة وولدها، وخرجوا يعجون إلى الله، وعلم الله منهم الصلح فتاب عليهم، وصرف عنهم العذاب، وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخير، فمر به رجل فقال: ما فعل قوم يونس؟ فحنثه بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم، وانطلق مغاضباً: يعني مراغماً. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبیر، قال: غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دماً. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، عن ابن عباس، أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل، فلما دعوا كشفه الله عنهم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي الجلاء، قال: لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم. فقالوا له ما ترى؟ قال: قولوا يا حي حين لا حي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوا فكشف عنهم العذاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ قال: السخط. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: الرجس: الشيطان، والرجس العذاب.

قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِ الْأَنْتِ وَأَنْتَ دُونَ قَوْمِكَ لَا

بعد معاينة العذاب. وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين. وقال الزجاج: إنه لم يقع العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان، وهذا أولى من قول ابن جرير. والمراد بعذاب الخزي الذي كشفه الله عنهم، وهو: العذاب الذي كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه، أو الذي قد رأوا علاماته دون عينه ﴿ومتعناهم إلى حين﴾ أي: بعد كشف العذاب عنهم، متعهم الله في الدنيا إلى حين معلوم، قدره لهم، ثم بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره، فقال: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم﴾ بحيث لا يخرج عنهم أحد ﴿جميعاً﴾ مجتمعين على الإيمان، لا يتفرقون فيه ويختلفون، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي أرادها الله سبحانه، وانتصاب جميعاً على الحال كما قال سيبويه. قال الأخفش: جاء بقوله جميعاً بعد كلهم للتأكيد كقوله: ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ [النحل: 51] ولما كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، أخبره الله بأن ذلك لا يكون، لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة، والمصالح الراجحة، لا تقتضي ذلك، فقال: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ فإن ذلك ليس في وسعك يا محمد، ولا داخل تحت قدرتك، وفي هذا تسلية له ﷺ، ونفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل، الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون إلى الفساد أقرب، والله الحكمة البالغة. ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي: ما صح، وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه: أي بتسهيله وتيسيره ومشيئته؛ لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ أي: العذاب، أو الكفر، أو الخذلان الذي هو سبب العذاب. وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل «ويجعل» بالنون. وفي الرجس لغتان: ضم الراء وكسرها، والمراد بالذين لا يعقلون: هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله، ولا يتفكرون في آياته، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساکر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِوَا صُلُقٍ﴾ قال: بَوَّأهم الله الشام وبيت المقدس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك قال: منازل صلق مصر والشام. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَمَا لَخَتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ قال: العلم كتاب الله الذي أنزله، وأمره الذي أمرهم به. وقد ورد في الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصراني اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، وهو في السنن والمسانيد، والكلام فيه يطول. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾

يُنَجِّي إِنْجَاءً، وَنَجَّى يَنْجِي تَنْجِيَةً بِمَعْنَى وَاحِدٍ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معطوف على رسلنا: أي: نجيناهم ونجينا الذين آمنوا، والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلاً لامرأها ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: حق ذلك علينا حقاً، أو إنجاء مثل ذلك الانجاء حقاً ﴿وَنُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من عذابنا للكفار، والمراد بالمؤمنين: الجنس، فيدخل في ذلك الرسل واتباعهم، أو يكون خاصاً بالمؤمنين، وهم أتباع الرسل؛ لأن الرسل داخلون في ذلك بالأولى. قوله: ﴿قُلْ يَا لِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي﴾ أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين، مخاطباً لجميع الناس، أو للكفار منهم، أو لاهل مكة على الخصوص بقوله: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ تَعْلَمُوا بِحَقِيقَتِهِ وَلَا عَرَفْتُمْ صَحَّتَهُ، وَانَّهُ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي لَا دِينَ غَيْرُهُ، فَاعْلَمُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِنْ أَدِيَانِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا ﴿فَلَا تُعْبُدُ الْذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في حال من الأحوال ﴿وَلَكِنْ اعْبُدِ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم﴾ أي: أخصه بالعبادة، لَا تُعْبُدُ غَيْرَهُ مِنْ مَعْبُودَاتِكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، وَخَصَّ صِفَةَ الْمُتَوَفَّى مِنْ بَيْنِ الْبَصَفَاتِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّهْدِيدِ لَهُمْ: أَي: عُبِدِ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم فَيَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَفْعَلُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَلِكُونَهُ يَدُلُّ عَلَى الْخَلْقِ أَوَّلًا، وَعَلَى الْإِعَادَةِ ثَانِيًا، وَلِكُونَهُ أَشَدُّ الْأَحْوَالِ مَهَابَةً فِي الْقُلُوبِ، وَلِكُونَهُ قَدْ تَقَدَّمَ نَكَرُ الْإِهْلَاكِ، وَالْوَقَائِعُ النَّازِلَةُ بِالْكَفَارِ مِنَ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ، فَكَانَهُ قَالَ: أَعْبُدِ اللَّهَ الَّذِي وَعَدَنِي بِإِهْلَاكِكُمْ. وَلَمَّا نَكَرَ أَنَّهُ لَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ، بَيْنَ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالْإِيمَانِ فَقَالَ: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بَأَن أَكُونَ مِنْ جِنْسٍ مِنْ أَمَنِ اللَّهِ، وَأَخْلَصَ لَهُ الدِّينَ، وَجَمَلَهُ ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ كَوْنُ الْمُعْطُوفِ بِصِغَةِ الْأَمْرِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ «أَنْ» الدَّلَالَةُ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَذَلِكَ لَا يَخْتَلِفُ بِالْخَبَرِيَّةِ وَالْإِنْشَائِيَّةِ، أَوْ يَكُونُ الْمُعْطُوفُ عَلَيْهِ فِي مَعْنَى الْإِنْشَاءِ: كَانَهُ قِيلَ: كُنْ مُؤْمِنًا ثُمَّ أَقِمَّ؛ وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَمَرَهُ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي الدِّينِ وَالثَّبَاتِ فِيهِ، وَعَدِمَ التَّحَوُّلَ عَنْهَا. وَحَنِيفًا حَالُ مِنَ الدِّينِ، أَوْ مِنَ الْوَجْهِ: أَيِ مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ مِنَ الْأَيَّانِ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ الْمُتَقَدِّمَ لِلنَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهُوَ مُعْطُوفٌ عَلَى أَقَمَّ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّعْرِيزِ لِفَيْرِهِ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ معطوف على ﴿قُلْ يَا لِيهَا النَّاسُ﴾ غَيْرُ دَاخِلٍ تَحْتَ الْأَمْرِ، وَقِيلَ مُعْطُوفٌ عَلَى «وَلَا تَكُونُوا» أَي: لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ بِشَيْءٍ مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ إِنْ دَعَوْتَهُ، وَدَعَاءُ مَنْ كَانَ هَكَذَا لَا يَجْلِبُ نَفْعًا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ضَرْمِ ضَائِعٍ لَا يَفْعَلُهُ عَاقِلٌ عَلَى تَقْدِيرِ أَنَّهُ لَا يَوْجِدُ مِنْ يَقْدِرُ عَلَى النِّفْعِ وَالضَّرِّ غَيْرَهُ، فَكَيْفَ

يُؤْمِنُونَ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثُمَّ تَنَبَّأَ رُسُلُنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَلِرَبِّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الْقَالِينَ﴾ وَإِنْ يَسْتَسْكِنُ اللَّهُ بِضَرْفٍ فَلَا حَافِيفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَهِ يَرْذَلُ بِخَيْرٍ فَلَا رَاكَ لِقَائِهِ يُجِيبُ بِهِ مَنْ يَسْأَلُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا حَتَمًا يَهْدِي إِلَى تَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ صَدَّ عَنْ ذَلِكَ يَحْدِثْ عَلَيَّ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُرْسِي إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّى يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿

قوله: ﴿قُلْ انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ لما بين سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله، أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، والمراد بالنظر: التفكير والاعتبار: أي قل يا محمد للكفار تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحيته، وكمال قدرته، وماذا مبتدأ، وخبره في السموات والأرض. أو المبتدأ ما، وإذا بمعنى الذي، وفي السموات والأرض صلته، والموصول وصلته خبر المبتدأ: أي: أي شيء الذي في السموات والأرض، وعلى التقديرين فالجملة في محل نصب بالفعل الذي قبلها. ثم نكر سبحانه أن التفكير والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحسنت شقاوته، فقال: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ أي: ما تنفع على أن ما نافية، ويجوز أن تكون استفهامية: أي: أي شيء ينفع، والآيات هي التي عبر عنها بقوله: ﴿ماذا في السموات والأرض﴾ والنذر: جمع نذير، وهم: الرسل أو جمع إنذار، وهو المصدر ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله سبحانه؛ والمعنى: أن من كان هكذا لا يجدى فيه شيء، ولا يدفعه عن الكفر دافع. قوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد ﷺ إِلَّا مِثْلَ وَقَائِعِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ بِالْكَفَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ، فَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ يَتَوَعَّدُونَ كُفْرَ زَمَانِهِمْ بِأَيَّامٍ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَهُمْ يَكْتُمُونَ كُفْرَ زَمَانِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، حَتَّى يَنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابُهُ، وَيَحِلَّ بِهِمْ انتقامه، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَارِ الْمُعَاصِرِينَ لَكَ ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أَي: تَرَبَّصُوا لَوَعْدِ رَبِّكُمْ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ لَوَعْدِ رَبِّي، وَفِي هَذَا تَهْلِيلٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ بِالْغَ بَائِهِ سَيَنْزِلُ بِهِؤُلَاءِ مَا نَزَلَ بِالْأُولَئِكَ مِنَ الْإِهْلَاكِ، وَثَمَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ لِلْعُطْفِ عَلَى مَقْدَرِ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، كَانَهُ قِيلَ أَهْلَكْنَا الْأَمَمَ ثُمَّ نَجَّيْنَا رُسُلَنَا الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ ثَمَّ «نُنَجِّي» مُخَفَّفًا. وَقَرَأَ كَذَلِكَ أَيْضًا فِي ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وَرَوَى كَذَلِكَ عَنِ الْكَسَاثِيِّ وَحَفْصِ بْنِ الثَّانِيَةِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ، وَهِيَ لَفْظَانِ فَصِيحَتَانِ: أَنْجَى

الآية قال: خَوْفُهُمْ عَذَابِهِ وَنَقْمَتِهِ وَعَقُوبَتِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ نَجَى اللَّهُ رُسُلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَإِنْ يَرِكَ بَخِيرٌ﴾ يقول: بعافية. وأخرج البيهقي في الشعب، عن عامر بن قيس، قال: ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهنَّ عن جميع الخلائق: أُولَئِكَ: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، والثانية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمَسُّكَ فَلَا مَرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر: 2]، والثالثة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ قال: هو الحق المذكور في قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، في قوله: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ قال: هذا منسوخ، أمره بجهادهم والغلبة عليهم.

تفسير سورة هود

هي مكية في قول الحسن وعكرمة، وعطاء وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية وهي قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ [هود: 114] وأخرج النحاس في ناسخه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة هود بمكة. وأخرج ابن مردويه، عن عبد الله بن الزبير، مثله. وأخرج الدارمي، وأبو داود في مراسيله، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساکر، والبيهقي في الشعب، عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا هود يوم الجمعة». وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساکر، من طريق مسروق، عن أبي بكر الصديق، قال: «قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب، فقال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وأخرجه البزار، وابن مردويه، من طريق أنس، عنه، مرفوعاً بلفظ: «قلت يا رسول الله عجل إليك الشيب، قال: شيبتني هود وأخواتها، والواقعة، والحاقة، وعمَّ يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية». وأخرجه سعيد بن منصور، وابن مردويه، عن أنس، قال: قال أصحاب رسول الله ﷺ: لقد عجل إليك الشيب، فقال: شيبتني هود وأخواتها من المفصل». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور، من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: «قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت. قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». وأخرج ابن عساکر من طريق عطاء عنه، أن الصحابة قالوا: «يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب، قال: أجل شيبتني هود وأخواتها». قال عطاء: وأخواتها: اقتربت الساعة، والمرسلات، وإذا الشمس كورت. وأخرج البيهقي في الدلائل، عن أبي سعيد الخدري، قال:

إِذَا كَانَ مَوْجُوداً؟ فَإِنَّ الْعَدُولَ عَنْ دَعَاءِ الْقَادِرِ إِلَى دَعَاءِ غَيْرِ الْقَادِرِ أَقْبَحُ وَأَقْبَحُ ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أَي: فَإِنْ دَعَوْتَ، وَلَكِنَّهُ كُنِيَ عَنِ الْقَوْلِ بِالْفِعْلِ ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هَذَا جِزَاءُ الشَّرْطِ: أَيِ فَإِنْ دَعَوْتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنَّكَ فِي عَدَادِ الظَّالِمِينَ لِنَفْسِهِمْ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْخُطَابِ التَّعْرِيزُ بِغَيْرِهِ ﷺ، وَجُمْلَةُ ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إِلَى آخِرِهَا مَقْرُوءَةٌ لِمُضْمُونِ مَا قَبْلَهَا. وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ هُوَ الضَّارُّ النَّافِعُ، فَإِنَّ أَنْزَلَ بَعْدَهُ ضَرًّا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَكْشِفَهُ كَائِثًا مِنْ كَانَ، بَلْ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِكَشْفِهِ كَمَا اخْتَصَّ بِإِنْزَالِهِ ﴿وَإِنْ يَرِكَ بَخِيرٌ﴾ أَي: خَيْرٌ كَانَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَهُ عَنْكَ، وَيَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ كَائِثًا مِنْ كَانَ، وَعَبَّرَ بِالْفَضْلِ مَكَانَ الْخَيْرِ لِلإِشْرَادِ إِلَى أَنَّهُ يُفَضَّلُ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِأَعْمَالِهِمْ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: إِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرِكَ بَخِيرٌ﴾ هُوَ مِنَ الْقَلْبِ، وَأَصْلُهُ وَإِنْ يَرِدُ بِكَ الْخَيْرُ، وَلَكِنْ لَمَّا تَعَلَّقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْآخِرِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَكَانَ الْآخِرِ. قَالَ النِّيسَابُورِيُّ: وَفِي تَخْصِصِ الْإِرَادَةِ بِجَانِبِ الْخَيْرِ، وَالْمَسَّ بِجَانِبِ الشَّرِّ لَبِيلٌ عَلَى أَنْ الْخَيْرَ يَصْدُرُ عَنْهُ سَبْحَانَهُ بِالذَّاتِ، وَالشَّرَّ بِالْعَرَضِ. قُلْتُ: وَفِي هَذَا نَظَرٌ، فَإِنَّ الْمَسَّ هُوَ أَمْرٌ وَرَاءَ الْإِرَادَةِ، فَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لَهَا، وَالضَّمِيرُ فِي يَصِيبُ بِهِ رَاجِعٌ إِلَى فَضْلِهِ: أَيِ يَصِيبُ بِفَضْلِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَجُمْلَةُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تَنْبِيْلِيَّةٌ، ثُمَّ خَتَمَ هَذِهِ السُّورَةَ بِمَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، فَقَالَ: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أَي: مَنْفَعَةُ اهْتِدَائِهِ مَخْتَصَّةٌ بِهِ، وَضَرَرُ كُفْرِهِ مَقْصُورٌ عَلَيْهِ لَا يَتَعَدَّاهُ، وَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا غَرَضٌ يَعُودُ إِلَيْهِ ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَي: بِحَفِيزٍ يَحْفَظُ أُمُورَكُمْ، وَتَوَكَّلْ إِلَيْهِ: إِنَّمَا أَنَا بِشِيرٍ وَنَذِيرٍ. ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي يَشْرَعُهَا اللَّهُ لَهُ، وَلَا مَتَهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ، وَمَا يَلَاقِيهِ مِنْ مَشَاقِّ التَّبْلِيغِ، وَمَا يَعَانِيهِ مِنْ تَلَوْنِ أَخْلَاقِ الْمُشْرِكِينَ وَتَعَجُّرِهِمْ، وَجَعَلَ لَكَ الصَّبْرَ مَمْتَدًّا إِلَى غَايَةِ هِيَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أَي: يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ بِعَذَابِهِمُ بِالنَّارِ، وَهُمْ يَشَاهِدُونَهُ ﷻ هُوَ أُمَتُهُ، الْمُتَبِعُونَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، الْعَامِلُونَ بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، الْمُتَنَبِّهُونَ عَمَّا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ، يَتَقَلَّبُونَ فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَا يَنْفَدُ، وَلَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ، وَلَا يَوْقِفُ عَلَى أُنْتَى مَزَايَاهُ.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن السدي في قوله: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ﴾ يقول: عند قوم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نسخت قوله: ﴿حِكْمَةٌ بِالْغَةِ فَمَا تَغْنِي النَّذْرُ﴾ [القمر: 5]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: وقائع الله في الذين خلوا من قبلهم، قوم نوح، وعاد، وثمود. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الربيع في

مجاهد في قوله: يؤت كل ذي فضل فضله: أي في الآخرة. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن قال: يؤت كل ذي فضل في الإسلام فضل الدرجات في الآخرة. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿وَيُؤْت كل ذي فضل فضله﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب أحاده أعشاره. وأخرج البخاري وغيره، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. قال البخاري، وعن ابن عباس: ﴿يستغشون﴾ يغطون رؤوسهم. وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهما: أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يعلم ما يسرون﴾ من القول ﴿وما يعلنون﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، في قوله: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ قال: كان المنافقون إذا مروا أحدهم بالنبي ﷺ نثى صدره، وتغشى ثوبه، لكيلا يراه، فنزلت. وأخرج ابن جرير، عن الحسن، في قوله: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ قال: في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي رزين في الآية قال: كان أحدهم يحني ظهره ويستغشى بثوبه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: كانوا يخبون صدورهم لكيلا يسمعوهم كتاب الله، قال تعالى: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره، واستغشى بثوبه، وأضمر همه في نفسه، فإن الله لا يخفى عليه ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال في الآية: يكتُمون ما في قلوبهم إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما من دابة﴾ الآية قال: يعني كل دابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وما من دابة﴾ الآية قال: يعني ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً، ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ويعلم مستقرها﴾ قال: حيث تأوى، ومستودعها قال: حيث تموت. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه ﴿ويعلم مستقرها﴾ قال: يأتيها رزقها حيث كانت. وأخرج

ما توجيه قضية الابتلاء، إنكم مبعوثون من بعد الموت، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ليقولان الذين كفروا من الناس إن هذا الذي تقول يا محمد إلا باطل كبطلان السحر، وخدع كخدعه. ويجوز أن تكون الإشارة بهذا إلى القرآن، لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث. وقرأ حمزة والكسائي ﴿إن هذا إلا ساحر﴾ يعنون النبي ﷺ، وكسرت إن من قوله: ﴿إنكم﴾ لأنها بعد القول. وحكى سيبويه الفتح على تضمين قلت معنى نكرت، أو على أن بمعنى عل: أي ولئن قلت لعلكم مبعوثون، على أن الرجاء باعتبار باعتبار حال المخاطبين: أي توقعوا ذلك، ولا تبتوا القول بإنكاره ﴿ولئن لخرنا للعذاب﴾ أي: الذي تقدم نكره في قوله: ﴿عذاب يوم كبير﴾ وقيل: عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل يوم بدر ﴿إلى أمة معبودة﴾ أي: إلى طائفة من الأيام قليلة، لأن ما يحصره العد قليل، والأمة لشتاقها من الأم: وهو القصد، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب: وقيل: هي في الأصل الجماعة من الناس، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه، كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر: أي في ذلك الحين، فالمراد على هذا: إلى حين تنقضى أمة معبودة من الناس ﴿ليقولن ما يحبسها﴾ أي: أي شيء يمنعه من النزول استعجالاً له على جهة الاستهزاء والتكذيب، فأجابهم الله بقوله: ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ أي: ليس محبوباً عنهم، بل واقع بهم لا محالة، ويوم منصوب بمصروفاً ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، ووضع يستهزئون مكان يستعجلون، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، فكانه قد حاق بهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، أنه قرأ: ﴿لن كتاب أحكمت آياته﴾ قال: هي كلها محكمة، يعني سورة هود ﴿ثم فصلت﴾ قال: ثم نكر محمداً ﷺ، فحكم فيها بينه وبين من خالفه، وقرأ مثل الفريقين الآية كلها، ثم نكر قوم نوح ثم هود، فكان هذا تفصيل ذلك، وكان أوله محكماً قال: وكان أبي يقول ذلك، يعني: زيد بن أسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ قال: أحكمت بالامر والنهي، وفصلت بالوعد والوعيد، وأخرج هؤلاء عن مجاهد ﴿فصلت﴾ قال: فسرت. وأخرج هؤلاء أيضاً عن قتادة في الآية قال: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بعلمه، فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته، وفي قوله: ﴿ومن لدن حكيم﴾ يعني من عند حكيم، وفي قوله: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ قال: فأنتم في ذلك المتاع، فخره بطاعة الله ومعرفة حقه، فإن الله منعم يحب الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد من الله، وذلك قضاؤه الذي قضاء: وفي قوله: ﴿إلى لجل مسمى﴾ يعني: الموت، وفي قوله: ﴿يؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي: في الآخرة. وأخرج هؤلاء أيضاً عن

يَحْشُرُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَكَبُلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ كُتُبٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَخْرَابِ فَلَانَارٌ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ مِنْ رَبِّهِ وَتَهُ إِنَّهُ أَخْلَقَ مِنْ زِينَتِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

اللام في ﴿وَلْتُنْزِلْنَاهُ عَلَى النَّاسِ﴾ هي الموطئة للقسم، والإنسان الجنس، فيشمل المؤمن والكافر، ويدل على ذلك الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ وقيل المراد: جنس الكفار، ويؤيده أن لباس والكفران والفرح والفخر، هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام في الغالب؛ وقيل المراد بالإنسان: الوليد بن المغيرة، وقيل: عبد الله بن أمية المخزومي. والمراد بالرحمة هنا: النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُمْ﴾ أن سلبناه إياها ﴿إِنَّهُ لَيُؤَسُّ﴾ أي: آيس من الرحمة، شديد القنوط من عودها، وأمثالها، والكفور: عظيم الكفران، وهو الجحود بها قاله ابن الأعرابي؛ وفي إيراد صيغتي المبالغة في ﴿لَيُؤَسُّ كُفُورًا﴾ ما يدل على أن الإنسان كثير اليأس، وكثير الجحد عند أن يسلبه الله بعض نعمه، فلا يرجو عودها، ولا يشكر ما قد سلف له منها. وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب اننى نعمة ينعم الله بها عليه، لأن الإذابة والذوق: أقل ما يوجد به الطعم، والنعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضرأ ظهور أثر الإضرار على من أصيب به. والمعنى: أنه إن أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة، والغنى بعد أن كان في ضر من فقر أو مرض أو خوف، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه، بل يقول ذهب السيئات: أي المصائب التي ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها، غير شاكر لله، ولا مثن عليه بنعمه ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ أي: كثير الفرح بطراً وأشراً، كثير الفخر على الناس، والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم، وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذابة، فإن كلاهما لأنى ما يطلق عليه اسم الملاقة، كما تقدم ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فإن عانتهم الصبر عند نزول المحن، والشكر عند حصول المعن. قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأول: أي ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتهم النعمة والمحنة. وقال الفراء: هو استثناء من لئن أنقناه: أي من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس: يشمل الكافر والمؤمن، فهو استثناء متصل، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لنزوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ يؤجرون به لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٌ﴾ متناه في الكبر. ثم سلى الله سبحانه رسوله ﷺ فقال: ﴿فَلْعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾

ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود، قال: مستقرها في الأرحام، ومستودعها حيث تموت. ويؤيد هذا التفسير الذي ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذي الحكيم في نوازل الأصول، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: إذا كان أجل لحكم بأرض اتاحت له إليها حاجة، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعني. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس، أنه سئل عن قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. وقد وردت أحاديث كثيرة في صفة العرش، وفي كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في التاريخ، وابن مريويه، عن ابن عمر، قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمَ احْسَنُ عَمَلًا﴾ فقال: ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال: ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً، ثم قال: وأحسنكم عقلاً أودعكم عن محارم الله، وأعملكم بطاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: إنكم أتم عقلاً. وأخرج أيضاً عن سفيان قال: أزهكم في الدنيا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: لما نزلت ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ [الأنبياء: 1] قال ناس: إن الساعة قد اقتربت فتناها، فتنهاى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء، فأنزل الله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1] فقال ناس من أهل الضلال: هذا أمر الله قد أتى، فتنهاى القوم ثم عادوا إلى مكرهم، مكر السوء، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلْتُنْزِلْنَاهُ عَلَى النَّاسِ لِيَدَّبُّوا﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ قال: إلى أجل معدود. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿لِيَقُولُوا مَا يَجْبِسُهُ﴾ يعني أهل النفاق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، في قوله: ﴿وَوَحَّاقٌ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وقع بهم العذاب الذي استهزؤا به.

وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ ﴿١﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبٍ مِّنْهُ لِيَكُونَهُ ذَكًّٰى لِّلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا هُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٣﴾ تِلْكَ نَارُكَ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِيٌّ بِؤْسُ صَدْرِكَ أَنَّ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ ذِكْرٌ لِلَّهِ وَلِلنَّاسِ وَلَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ وَيَرْجُوا مَخْرَجَ مَقَرِّهِمْ وَهُمْ فَلَا يَكْفُرُونَ ﴿٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ رَبُّنَا وَمَنْ آتَانَا مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَنْفَعُنَا اللَّهُ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُنَّ ﴿٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ رَبُّنَا وَمَنْ آتَانَا مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَنْفَعُنَا اللَّهُ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُنَّ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ رَبُّنَا وَمَنْ آتَانَا مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَنْفَعُنَا اللَّهُ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُنَّ ﴿٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ رَبُّنَا وَمَنْ آتَانَا مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَنْفَعُنَا اللَّهُ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُنَّ ﴿٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ رَبُّنَا وَمَنْ آتَانَا مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَنْفَعُنَا اللَّهُ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُنَّ ﴿١٠﴾

أمرهم بالعلم، أمرهم بالثبات عليه؛ لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله، أو المراد بالأمر بالعلم: الأمر بالازدياد منه، إلى حد لا يشوبه شك، ولا تخالطه شبهة، وهو علم اليقين. والأول: أولى. ومعنى: ﴿**إِنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ**﴾ أنه أنزل متلبساً بعلم الله المختص به، الذي لا تطلع على كنهه العقول، ولا تستوضح معناه الأفهام، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر ﴿**وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ أي: وأعلموا أن الله هو المتفرد بالالهوية لا شريك له، ولا يقدره غيره على ما يقدر عليه. ثم ختم الآية بقوله: ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ أي: ثابتون على الإسلام، مخلصون له، مزدادون من الطاعات، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمانينة فوق ما كنتم عليه، وبصيرة زائدة، وإن كنتم مسلمين من قبل - هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمانينة به مطلوب منكم. وقيل: إن الضمير في ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ**﴾ للموصول في من استطعتم، وضمير لكم، للكفار، الذين تحداهم رسول الله ﷺ، وكذلك ضمير فاعلموا - والمعنى: فإن لم يستجب لكم من دعوتهم للمعاوضة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن يعبدونهم، ويزعمون أنهم يضرون وينفعون، فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول، خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذي تتقاصر نون قوّة المخلوقين، وأنه أنزل بعلم الله الذي لا تحيط به العقول، ولا تبلغه الأفهام، وأعلموا أنه المنفرد بالالهوية لا شريك له، فهل أنتم بعد هذا مسلمون؟ أي: داخلون في الإسلام، متبعون لأحكامه، مقتدون بشرائعه. وهذا الوجه أقوى من الوجه الأول من جهة، وأضعف منه من جهة، فاما جهة قوّته. فلا تتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها إلى تأويل، وأما ضعفه، فلما في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى تكلف، وهو أن يقال: إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والأكلة مع حرصهم على نصرهم، ومعاصدتهم، ومبالغتهم في عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر، يقيد حصول العلم لهؤلاء الكفار، بأن هذا القرآن من عند الله، وأن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، وذلك يوجب دخولهم في الإسلام، وأعلم أنه قد اختلف التحذير للكفار بمعارضة القرآن، فتارة وقع بمجموع القرآن، كقوله: ﴿**قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ [الإسراء: 88] وبعشر سور كما في هذه الآية، وذلك لأن العشرة أوّل عقد من العقود، وبسورة منه كما تقدّم، وذلك لأن السورة أقلّ طائفة منه، ثم إن الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها، فقال: ﴿**مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**﴾ قال الفراء: إن كان هذه زائدة، ولهذا جزم الجواب. وقال الزجاج:

أي: فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب، واقتراح الآيات التي يقترونها عليه على حسب هواهم، وتعنتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه، مما يشق عليهم سماعه أو يستشقون العمل به، كسبب ألتهتهم وأمرهم بالإيمان بالله وحده. قيل: وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام: أي هل أنت تارك؟ وقيل: هو في معنى النفي مع الاستبعاد: أي لا يكون منك ذلك، بل تبليغهم جميع ما أنزل الله عليك، أحبوا ذلك أم كرهوه، شاءوا أم أبوا ﴿**وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ**﴾ معطوف على تارك، والضمير في به راجع إلى ما أو إلى بعض، وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿**أَن يَقُولُوا**﴾ أي: كراهة أن يقولوا، أو مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا ﴿**لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُنُزٌ**﴾ أي: هلا أنزل عليه كنز: أي مال مكنوز مخزون ينتفع به ﴿**أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ**﴾ يصدّقه ويبين لنا صحة رسالته؛ ثم بيّن سبحانه أن حاله ﷺ مقصور على النذارة، فقال: ﴿**إِنَّمَا أَنتُ نَذِيرٌ**﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجاد مقترحاتهم ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل. قوله: ﴿**هَٰم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**﴾ أم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة، وأضرب عما تقدّم من تهانونهم بالوحي، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة، وشرع في نكر ارتكابهم لما هو أشدّ من ذلك، وهو افتراءهم عليه بأنه افتراه، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، والضمير المستتر في افتراه للنبي ﷺ، والبارز إلى ما يوحى ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم، فقال: ﴿**قُلْ فَاتُواْ بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ**﴾ أي: مماثلة له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعاني. ووصف السور بما يوصف به المفرد، فقال: مثله، ولم يقل أمثاله، لأن المراد مماثلة كل واحد من السور، أو لقصد الإيحاء إلى وجه الشبه، ومداره المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حدّ الإعجاز، وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية، والإفراد شرط، ثم وصف السور بصفة أخرى، فقال: ﴿**مُفْتَرِيَاتٍ وَّادْعَاؤٍ**﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿**مَنْ اسْتَطْعَمَكُم**﴾ دعاء، وقدرتم على الاستعانة به، من هذا النوع الإنساني، ومن تعبدونه وجعلونه شريكاً لله سبحانه. وقوله: ﴿**مَنْ يَدْعُوا**﴾ متعلق بادعوا: أي ادعوا من استطعتم متجاوزين الله تعالى: ﴿**إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ فيما تزعمون من افتراي له ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ**﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم، وتحذيتهم به من الإتيان بعشر سور مثله، ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم، ويكون الضمير في لكم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، أو للنبي ﷺ وحده، وجمع تعظيماً وتقخيماً ﴿**فَاعْلَمُواْ**﴾ أمر لرسول الله ﷺ وللمؤمنين أو للرسول وحده على التأويل الذي سلف قريباً. ومعنى

وتبائناً بعيداً؛ والمعنى: أقمن كان على بيعة من ربه في اتباع النبي ﷺ، والإيمان بالله، كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؛ وقيل المراد بمن كان على بيعة من ربه: النبي ﷺ؛ أي أقمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل، وقد بشرت به الكتب السالفة، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها. ومعنى البيعة: البرهان الذي يدل على الحق، والضمير في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾ راجع إلى البيعة باعتبار تأويلها بالبرهان، والضمير في منه راجع إلى القرآن، لأن قد تقدم ذكره في قوله: ﴿وَمَا يَقُولُونَ إِفْتِرَاهُ﴾ أو راجع إلى الله تعالى. والمعنى: ويتلو البرهان الذي هو البيعة شاهد يشهد بصحته من القرآن، أو من الله سبحانه. والشاهد: هو الإعجاز الكائن في القرآن، أو المعجزات التي ظهرت لرسول الله ﷺ، فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن. وقال الفراء قال بعضهم: ويتلو شاهد منه: الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق، والهاء في منه لله عز وجل؛ وقيل المراد بمن كان على بيعة من ربه: هم مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأضرابه. قوله: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى﴾ معطوف على شاهد. والتقدير: ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى، فهو وإن كان متقدماً في النزول، فهو يتلو الشاهد في الشهادة، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى، مع كونه متأخراً في الوجود، لكونه وصفاً لازماً غير مفارق، فكان أغرق في الوصفية من كتاب موسى. ومعنى شهادة كتاب موسى، وهو التوراة أنه بشر بمحمد ﷺ، وأخبر بأنه رسول من الله. قال الزجاج: والمعنى ويتلو من قبله كتاب موسى، لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى، يجذونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وحكى أبو حاتم، عن بعضهم، أنه قرأ: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى﴾ بالنصب، وحكاه المهدي، عن الكلبي، فيكون معطوفاً على الهاء في يتلو. والمعنى: ويتلو كتاب موسى جبريل، وانتصاب إماماً ورحمة على الحال. والإمام: هو الذي يؤتم به في الدين ويقتدى به، والرحمة: النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله عليهم، وعلى من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة، وهو الكون على البيعة من الله. واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يصتقون بالنبي ﷺ، أو بالقرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: بالنبي أو بالقرآن. والأحزاب: المتحزبون على رسول الله ﷺ من أهل مكة وغيرهم، أو المتحزبون من أهل الأديان كلها ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي: هو من أهل النار لا محالة، وفي جعل النار موعداً إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من آفانين العذاب، ومثله قول حسان:

أورثتموها حياض الموت صاحبة فالنار موعدها والموت لاقبها
﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: لا تك في شك من القرآن، وفيه تعريض بغيره ﷺ؛ لأنه معصوم عن الشك في القرآن،

«من كان» في موضع جزم بالشرط، وجوابه نون إليهم: أي من يكن يريد.

واختلف أهل التفسير في هذه الآية، فقال الضحاك: نزلت في الكفار، واختاره النحاس لبليلى الآية التي بعدها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾؛ وقيل: الآية وأردت في الناس على العموم، كافرهم ومسلمهم. والمعنى: أن من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك، والمراد بزینتها: ما يزینها ويحسنها من الصحة والأمن، والسعة في الرزق، وارتفاع الحظ، ونفاذ القول، ونحو ذلك. وإنخال «كان» في الآية يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم، لا يكونون يربون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذبون في الآخرة، لأنهم جربوا قصدهم إلى الدنيا، ولم يعملوا للآخرة. وظاهر قوله: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي ولا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمم ينال من الدنيا أمنيته، وإن عمل لها وأرادها، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه. قال القرطبي: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك الآية التي في الشورى ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهُ مِنْهَا﴾ [النساء: 134] قينتها وفسرتها التي في سبحان ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18] قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخَسُونَ﴾ أي: وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها: أي في الدنيا لا يبخسون: أي لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها، وذلك في الغالب، وليس بمطرد، بل إن قضت به مشيئته سبحانه، ورجحته حكمته البالغة. وقال القاضي: معنى الآية: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها، نؤف إليهم أعمالهم وأقية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يتألون من الصحة والكفاف، وسائر اللذات والمنافع، فخص الجزاء بمثل ما ذكره، وهو حاصل لكل عامل للدنيا، ولو كان قليلاً يسيراً. قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ الإشارة إلى المريدين المنكورين، ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها، الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة، أو تكون الآية خاصة بالكفار، كما تقدم ﴿وَحِيطَ مَا صُنْعُوا﴾ أي: ظهر في الدار الآخرة حيوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الآخروي، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم، وعدم الخلو، وإرادة ما عند الله في دار الجزاء، بل قصرُوا ذلك على الدنيا وزينتها؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أنه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح. قوله: ﴿أَقْمِنَ كَانَ عَلَى بَيْعَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بين سبحانه أن بين من كان طالباً للدنيا فقط، ومن كان طالباً للآخرة تفاوتاً عظيماً،

عن ابن عباس، أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه من طرق، عن ابن عباس، قال: جبريل فهو شاهد من الله بالذي يتلوه من كتاب الله الذي أنزل على محمد **﴿ومن قبله كتاب موسى﴾** قال: ومن قبله التوراة على لسان موسى، كما تلا القرآن على لسان محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر، عن الحسن بن علي، في قوله: **﴿ويقتلوه شاهد منه﴾** قال: محمد هو الشاهد من الله. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم **﴿ومن قبله كتاب موسى﴾** قال: ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة **﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾** قال: الكفار أحزاب كلهم على الكفر. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، قال: **﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾** قال: من اليهود والنصارى.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعَذِّبُهُمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوًا وَمِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ كِبْرُورٌ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّيْنَا عَنْهُمْ مَا كَانُوا بِفِتْرَةٍ ﴿٢١﴾ لَا جَزَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْحَىٰ وَالْأَسْمَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالسَّبِيحَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** أي: لا أحد أظلم منهم لأنفسهم، لأنهم افترى على الله كذباً بقوله لم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقولهم: الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره، واللفظ وإن كان لا يقتضي إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيد الاستفهام الإنكاري، فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم. فالمعنى على هذا: لا أحد مثلم في الظلم فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، والإشارة بقوله: أولئك إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ، وهو مبتدأ، وخبره يعرضون على ربهم فيحاسبهم على أعمالهم، أو المراد بعرضهم: عرض أعمالهم **﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كتبوا على ربهم﴾** الأشهاد: هم الملائكة الحفظة، وقيل المرسلون، وقيل: الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه، وقيل جميع الخلائق. والمعنى: أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض: هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كتبوا على ربهم بما نسبوه إليه ولم يصرحوا بما كتبوا به، كأنه كان أمراً معلوماً عند أهل ذلك الموقف. قوله: **﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾** هذا من تمام كلام الأشهاد أي: يقولون هؤلاء الذين كتبوا على ربهم، ويقولون:

أو من الموعد **﴿إنه الحق من ربك﴾** فلا منخل للشك فيه بحال من الأحوال **﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾** بذلك مع وجوب الإيمان به، وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلاً.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿فهل أنتم مسلمون﴾** قال: لأصحاب محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه، عن أنس، في قوله: **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾** قال: نزلت في اليهود والنصارى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن معبد، قال: قام رجل إلى علي فقال: أخبرنا عن هذه الآية **﴿من كان يريد الحياة الدنيا﴾** إلى قوله: **﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾** قال: ويحك، ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة. وأخرج النحاس عن ابن عباس **﴿من كان يريد الحياة الدنيا﴾** أي: ثوابها **﴿وزينتها﴾** مالها **﴿ونوف إليهم﴾** نوفر لهم بالصحة والسرور في الأهل، والمال، والولد **﴿وهم فيها لا يبخسون﴾** لا ينقصون. ثم نسخها **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء﴾** [الإسراء: 18] الآية. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في الآية قال: من عمل صالحاً: التماس الدنيا صوماً أو صلاة، أو تهجداً بالليل، لا يعمل إلا التماس الدنيا، يقول الله أو فيه الذي التمس في الدنيا وحبط عمله الذي كان يعمل، وهو في الآخرة من الخاسرين. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك، قال: نزلت هذه الآية في أهل الشرك. وأخرج أبو الشيخ، عن الحسن، في قوله: **﴿نوف إليهم أعمالهم﴾** قال: طيباتهم. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جرير، نحوه. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾** قال: حبط ما عملوا من خير، وبطل في الآخرة، ليس لهم فيها جزاء. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في الآية، قال: هم أهل الرياء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن علي بن أبي طالب، قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود **﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾** رسول الله ﷺ بينة من ربه، وأنا شاهد منه. وأخرج ابن عساكر، وابن مريويه من وجه آخر، عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾** أنا. ويتلوه شاهد منه: علي. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي العالية، في قوله: **﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾** قال: ذلك محمد ﷺ. وأخرج أبو الشيخ، عن إبراهيم، نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، عن محمد بن علي بن أبي طالب، قال: قلت لأبي: إن الناس يزعمون في قول الله سبحانه **﴿ويتلوه شاهد منه﴾** أنك أنت التالي، قال: وبدت أني أنا هو، ولكنه لسان محمد ﷺ. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة،

«لا جرم» بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة، وبه قال الفراء. وروي عن الخليل والفراء أنها: بمنزلة قولك لا بد ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً. وقال الزجاج: إن جرم بمعنى كسب: أي كسب تلك الفعل لهم الخسران، وفاعل كسب مضمَر، وأن منصوبة بجزم. وقال الأزهري: وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللغة. وقال الكسائي: معنى لا جرم: لا صد ولا منع عن أنهم في الآخرة هم الآخرون. وقال جماعة من النحويين: إن معنى لا جرم لا قطع قاطع «أنهم في الآخرة هم الآخرون» قالوا: والجرم القطع، وقد جرم النخل واجترمه: أي قطعه، وفي هذه الآية بيان أنهم في الخسران قد بلغوا إلى حد يتقاصر عنه غيرهم، ولا يبلغ إليه، وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، وبين من كان على بينة من ربه «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» أي: صدقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله، وغير ذلك من خصال الإيمان «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاخْتَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ» أي: أتوا إليه، وقيل: خشعوا، وقيل: خضعوا، قيل وأصل الإخبات: الاستواء في الخبث: وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان. قال الفراء: إلى ربهم، ولربهم واحد «أُولَٰئِكَ» الموصوفون بتلك الصفات الصالحة «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». قوله: «مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ» وللصمير والسميع ضرب للفریقین مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وتشبيه فريق المؤمنين بالصمير والسميع، على أن كل فريق شبه بشيئين، أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصم، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا تكون الواو في «وَالْأَصْمَىٰ»، وفي «وَالسَّمِيعَ» لعطف الصفة على الصفة، كما قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام

والاستفهام في قوله: «هل يستويان» للإنكار: يعني الفريقين، وهذه الجملة مقررة لما تقدم من قوله: «أَقْمِنَ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» وانتصاب مثلاً على التمييز من فاعل يستويان: أي هل يستويان حالاً وصفة «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» في عدم استوائهما، وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذي لا يخفى على من له تذكر، وعنده تفكر وتأمل، والهزئة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صورته عن المخاطبين.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ» قال: الكافر والمنافق «أُولَٰئِكَ يَعْزُوبُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ» فيسألهم عن أعمالهم «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ» الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كُتِبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ» شهدوا به عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، قال: الأشهاد: الملائكة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة، نحوه، وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَدْنِي الْمُؤْمِنَ حَتَّىٰ يَضَعَ كَنَفَهُ وَيَسْتَرَهُ مِنَ النَّاسِ وَيَقْرَأَهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ:

أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْإِفْتِرَاءِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، قَالَهُ بَعْدَمَا قَالَ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كُتِبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ. وَالْأَشْهَادُ جَمْعُ شَهِيدٍ، وَرَجَّحَهُ أَبُو عَلِيٍّ بِكَثْرَةِ وُرُودِ شَهِيدٍ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: «وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» [البقرة: 143] «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [النساء: 41]، وَقِيلَ: هُوَ جَمْعُ شَاهِدٍ كَأَصْحَابٍ وَصَاحِبٍ، وَالْفَائِدَةُ فِي قَوْلِ الْأَشْهَادِ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمُبَالَغَةُ فِي فَضِيحَةِ الْكَفَّارِ، وَالتَّقْرِيعُ لَهُمْ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، ثُمَّ وَصَفَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ لَعَنُوا بِأَنَّهُمْ «وَالَّذِينَ يَصْنَعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أي: يمنعون من قُبروا على منعه عن دين الله والدخول فيه «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» أي: يصفونها بالاعوجاج تنفيراً لِلنَّاسِ عَنْهَا، أَوْ يَبْغُونَ أَهْلِهَا أَنْ يَكُونُوا مُعْجِجِينَ بِالْخُرُوجِ عَنْهَا إِلَى الْكُفْرِ، يُقَالُ بَغَيْتُ شَرًّا: أَي طَلَبْتُهُ لَكَ «وَوُجِدَ الْحَالُ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْبَاقُونَ» أي: يصفونها بالبعوج، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ بِالْآخِرَةِ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ، فَكَيْفَ يَصْنَعُونَ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ الْبَحْتِ؟ وَتَكَرَّرَ الضَّمِيرُ لِتَاكِيدِ كُفْرِهِمْ وَاخْتِصَاصِهِمْ بِهِ، حَتَّى كَانَ كُفْرُ غَيْرِهِمْ غَيْرَ مُعْتَدٍّ بِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَظِيمِ كُفْرِهِمْ «أُولَٰئِكَ» الْمُوصُوفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ «لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» أي: مَا كَانُوا يَعْجِزُونَ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا إِنْ أَرَادَ عِقَابَهُمْ «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» يَنْفَعُونَ عَنْهُمْ مَا يَرِيدُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ عِقَابَتِهِمْ، وَإِنْزَالِ بَاسِهِ بِهِمْ، وَجُمْلَةُ «يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» مُسْتَنْفَاةٌ لِبَيَانِ أَنَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ وَالتَّرَاخِي عَنْ تَعَجُّلِهِ لَهُمْ، لِيَكُونَ عَذَابًا مُضَاعَفًا. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَيَزِيدٌ وَيَعْقُوبُ «يَضَاعَفُ» مُشْتَدًّا «وَمَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» أي: أَقْرَطُوا فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَبَغْضِهِمْ لَهُ، حَتَّى كَانَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى السَّمْعِ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِبْصَارِ، لَفَرَطِ تَعَامِيهِمْ عَنِ الصَّوَابِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِقَوْلِهِ: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» أَنَّهُمْ جَعَلُوا آلِهَتَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، فَمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءُ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ، فَكَيْفَ يَنْفَعُونَهُمْ فَيَجْلِبُونَ لَهُمْ نَفْعًا أَوْ يَفْعَلُونَ عَنْهُمْ ضَرًّا، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «مَا» هِيَ الْمَنِيَّةُ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَدَّةَ اسْتَطَاعَتِهِمُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ. قَالَ الْفَرَاءُ: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ، لِأَنَّ اللَّهَ أَضْلَمَهُمْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: لِبَغْضِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَعَدَاوَتِهِمْ لَهُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ وَلَا يَفْهَمُوا عَنْهُ. قَالَ النَّحَّاسُ: هَذَا مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، يُقَالُ: فَلَانٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى فَلَانٍ: إِذَا كَانَ ثَقِيلًا عَلَيْهِ «أُولَٰئِكَ» الْمُتَصِفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ. وَالْمَعْنَى: اشْتَرَوْا عِبَادَةَ الْأَلْهَةِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، فَكَانَ خَسْرَانُهُمْ فِي تِجَارَتِهِمْ أَعْظَمَ خَسْرَانٍ «وَوَضِلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أي: ذَهَبَ وَضَاعٌ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ مِنَ الْأَلْهَةِ الَّتِي يَدْعُونَ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ بَأْيِيهِمْ إِلَّا الْخَسْرَانُ. قَوْلُهُ: «لَا جَرَمَ» قَالَ الْخَلِيلُ وَسَيَبُيْه:

القصص على طريقة التفنن في الكلام، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين، والقبول أتم، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنني لكم نذير مبين﴾ [هود: 25] قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بفتح الهمة على تقدير حرف الجر: أي أرسلناه بأنني: أي أرسلناه متلبساً بذلك الكلام، وهو أنني لكم نذير مبين. وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول: أي قائلاً إنني لكم، والواو في ولقد للإبتداء، واللام هي الموطئة للقسم، واقتصروا على النذارة دون البشارة، لأن دعوته كانت لمجرد الإنذار، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به، وجملة ﴿إن لا تعبدوا إلا الله﴾ بدل من إنني لكم نذير مبين: أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا، أو بنذير، أو بمبين، وجملة: ﴿إنني أخاف عليكم عذاب يوم اليم﴾ تعليلية. والمعنى: نهيتكم عن عبادة غير الله لأنني أخاف عليكم، وفيها تحقيق لمعنى الإنذار، واليوم الاليم: هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان؛ ووصفه بالاليم من باب الإسناد المجازي مبالغة. ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه، وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات، فقال: ﴿فقال للملأ الذين كفروا من قومه﴾ والملأ: الأشراف كما تقدم غير مرة، ووصفهم بالكفر نماً لهم، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوته: أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا، والجهة الثانية: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ ولم يتبعك أحد من الأشراف، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك، والأراذل جمع أرذل، وأرذل جمع رذل، مثل الكالب وكلب وكلب؛ وقيل: الأراذل جمع الأرذل، كالأساود جمع أسود، وهم: السفلة. قال النحاس: الأراذل: الفقراء والذين لا حسب لهم، والحسب: الصناعات. قال الزجاج: نسبوهم إلى الحياكة، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة. وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه، قيل له فمن سفلة السفلة؟ قال: الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه. والظاهر من كلام أهل اللغة: أن السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنيا، والرؤية في الموضوعين إن كانت القلبية فبشرها في الأول، واتباع في الثاني هما المفعول الثاني، وإن كانت البصرية فهما منتصبان على الحال، وانتصاب بادي الرأي على الظرفية، والعامل فيه اتبعك. والمعنى: في ظاهر الرأي من غير تعمق، يقال بدا يبدو: إذا ظهر. قال الأزهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي. والوجه الثالث: من جهات قبحهم في نبوته ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ خاطبوه في الوجهين الأولين، منفرداً وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه أي: ما نرى لك وللمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل يتميزون به، وتستحقون ما تدعون، ثم أضربوا عن الثلاثة المطاعن، وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له إلا

أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: رب أعرف، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فيأني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطي كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿الَّذِينَ يَصْنُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هو محمد يعني سبيل الله، صلت قريش عنه الناس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿وَيُغْفِرُونَهَا عُجَابًا﴾ يعني: يرجون بمكة غير الإسلام ديناً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية قال: أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فإنه قال: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وأما في الآخرة فإنه قال ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً﴾ [القلم: 42، 43]. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ قال: ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيراً فيتنقوا به، ولا يبصروا خيراً فيأخذوا به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لَاخِبَتُوا﴾ قال: خافوا. وأخرج ابن جرير، عنه، قال: الإخبات الإنابة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، قال الإخبات: الخشوع والتواضع. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: اطمأنوا. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ﴾ قال: الكافر ﴿وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾ قال: المؤمن.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ ثُمَّ ﴿١٥﴾ لَٰنَ أَنْ تَتُوبُوا إِلَّا
 اللَّهُ إِلَىٰ خَلْقِكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الْآخِرِ ﴿١٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ مَا تَرَدُّكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا تَكُونُ إِلَّا الْبَشَرُ هُمْ أَزْوَاجُ
 بَادِيَ الْأَرَائِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
 يَتَّبِعُونَ آيَاتِي إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتَقُونَ مِن رَّبِّي وَمَا أَمْرِي بِعِبَادِهِ فُعِلْتُ عَلَيْهِمْ
 أَلْمِمْكُمْ وَمَا أَشَدُّ مَا كَرِهْتُمْ ﴿١٨﴾ وَيَتَقَوُّوهُ لََّا تُغْنِيَكُمْ عَنْهُ مَالٌ وَلَا آخِرُ
 إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا لَهُمْ مُلْكُهُمْ وَبِهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰ
 قَوْمًا يُجَاهِلُونَ ﴿١٩﴾ وَيَتَقَوُّوهُ مِنَ الْغُيُوبِ إِنَّ اللَّهَ إِنْ مَثَّرَهُمْ فَلَا يُدْكِرُ ﴿٢٠﴾
 وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِلَىٰ مَلَكٍ وَلَا أَقُولُ
 لِلْبَشَرِ نَزَّلُوا عَلَيْكُمْ كِتَابَ رَبِّكُمْ اللَّهُ خَبِيرُ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ إِذَا
 لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَبْنُوخُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْفَرْتَ جَدَلْنَا فَأَنَّا بِمَا جَدَلْنَا
 إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَشَدُّ
 بِمُحْزِنٍ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا نَجْوَىٰ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
 يُصَوِّبَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس، أكد ذلك بذكر

وكانه قال هذا على وجه الإعظام لهم، ويحتمل أنه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم؛ ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه، والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال: **﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾** كل ما ينبغي أن يعلم، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم، ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله: **﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَيْتُهُمْ﴾** أي: من يمنعني من عذاب الله وانتقامه إن طردتهم؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان والإجابة إلى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم، لا يقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم مالا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس. وقوله: **﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** معطوف على مقدر؛ كأنه قيل: أنتسترون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر، أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكركم وتتذكرون فيه، حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، وما هم عليه من الصواب. قوله: **﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾** بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئاً من أموالهم على تبليغ الرسالة، كذلك لا يدعي أن عنده خزائن الله حتى يستلوا بعدمها على كذبه، كما قالوا: **﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾** والمراد بخزائن الله: خزائن رزقه **﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾** أي: ولا أدعي أنني أعلم بغيب الله، بل لم أقل لكم إلا أنني نذير مبين، إنني أخاف عليكم عذاب يوم اليم **﴿وَلَا أَقُولُ﴾** لكم **﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾** تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلاً. وقد استدلل بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الأنبياء، والأدلة في هذه المسئلة مختلفة، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة، فليست مما كلفنا الله بعلمه **﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾** أي: تحتقر، والازدراء مأخوذ من أزدى عليه: إذا عباه، وزدري عليه: إذا احتقره، وأشد الفراء: يباعده الصديق وتزدريه خليلته وينهره الصغير والمعنى: إنني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبنهم وتحقرنهم **﴿هَلْ يَأْتِيهِمْ اللَّهُ خَيْرًا﴾** بل قد أتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة، ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل، ولا يضرمهم احتقاركم لهم شيئاً **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾** من الإيمان به، والإخلاص له، فمجازيهم على ذلك، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء **﴿إِنِّي إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ﴾** لهم إن فعلت ما تريدونه بهم، أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم، ثم جابووه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه عجزاً عن القيام بالحجة، وقصوراً عن رتبة المناظرة، وانقطاعاً عن المباراة بقولهم: **﴿يَا نُوحُ قَدْ جَاءَلْتَنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾** أي: خاصمتنا بأنواع الخصام، وبفغتنا بكل حجة لها مدخل في المقام، ولم يبق لنا في هذا الباب مجال، فقد ضاقت علينا المسالك، وانسدت أبواب الحيل **﴿فَاتَّانَا بِمَا تَعْنَنَّا﴾** من العذاب الذي تخوفنا منه، وتخافه علينا **﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** فيما تقولوه لنا، فأجاب بأن ذلك ليس

مجرد العصبية، والحسد، واستيقاظ ما هم فيه من الرياسة النبوية، فقالوا: **﴿جِبِلْ نَظَنُكُمْ كَانِبِينَ﴾** فيما تدعون، ويجوز أن يكون هذا خطاباً للأراذل وحدهم، والأول: أولى؛ لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له. ثم نكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم، فقال: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي﴾** أي: أخبروني إن كنت على برهان من ربي في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها، مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة، فإن المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوة، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة، فإنهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم، فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم، ويجوز أن يريد بالبيتة المعجزة **﴿وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾** هي: النبوة، وقيل: الرحمة: المعجزة، والبيتة: النبوة. قيل: ويجوز أن تكون الرحمة هي: البيتة نفسها، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت البيتة، والإفراد في **﴿فَعَمِيتُ﴾** على إرادة كل واحدة منهما، أو على إرادة البيتة، لأنها هي التي تظهر لمن تفكر، وتخفى على من لم يتفكر، ومعنى عميت: خفيت؛ وقيل: الرحمة هي على الخلق، وقيل: هي الهداية إلى معرفة البرهان، وقيل: الإيمان، يقال عميت عن كذا، وعمي علي كذا: إذا لم أتمهم. قيل وهو من باب القلب، لأن البيتة أو الرحمة لا تعمى وإنما يعمى عنها فهو كقولهم: أدخلت القلنسوة رأسي. وقرأ الأعمش، وحزمة، والكسائي، وحفص «فعميت» بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول: أي فعماها الله عليكم، وفي قراءة للإنكار: أي لا يمكنني أن اضطرركم إلى المعرفة بها، والحال أنكم لها كارهون؛ والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي إلا أنها خافية عليكم أيمكننا أن نضطرركم إلى العلم بها، والحال أنكم لها كارهون غير متبشرين فيها، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله عز وجل. وحكي الكسائي والفراء إسكان الميم الأولى في أنلزمكموها تخفيفاً كما في قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمأ من الله ولا واصل
فإن إسكان الباء في أشرب للتخفيف. وقد قرأ أبو عمرو كذلك. قوله: **﴿وَيَا قَوْمِ لَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ لَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾** فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلاً للتهمة، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادعى ما ادعى طلباً للدنيا، والضمير في عليه راجع إلى ما قاله لهم، فيما قبل هذا. وقوله: **﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** كالجواب عما يفهم من قولهم **﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرْتَلُنَا﴾** من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه؛ وقيل: إنهم سألوه طردهم تصریحاً لا تلميحاً، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ﴾** أي: لا أطردهم، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه،

﴿ولا أعلم الغيب﴾ لا أقول: اتبعوني على علمي بالغيب
﴿ولا أقول إني ملك﴾ نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلا
بشر مثلكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد ﴿ولا أقول
للنبيين تردري أعينكم﴾. قال: حقرتهم. وأخرج أبو
الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ قال:
يعني: إيماناً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج،
في قوله: ﴿فافتنا بما تعنف﴾ قال: تكذيباً بالعذاب، وأنه
باطل.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُمْ لَمَعَلَّ إِجْرَائِي وَإِنَّا بِرَبِّهِمْ يَنَاصُونَ ﴿١٧٠﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَهَيِّئْ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧١﴾ وَأَنْصَبَ لِلْكَافِرِينَ وَأَعْيَانًا وَوَحْيًا وَلَا تَخْطِئْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٧٢﴾ رَضَعَ الْفَالَكُ رُكْلًا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿١٧٣﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ ثَقِيلٌ ﴿١٧٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَهْرَآءَهُمْ وَفَارَ التُّنُورُ قُلْنَا اجْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٧٥﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِينَهَا وَتَرْتَمَتِهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٦﴾ وَهُوَ جَرِي يَهْرُ فِي مَجِّ كَالْجِبَالِ وَتَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْبِزِهِ يَنْفَخُ الْفُكَّ وَكَانَ يَنْفَخُ الْفُكَّ وَمَنْ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلِي بَعْضُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٧٨﴾ وَقِيلَ يَكَادُ رَبُّكَ يَمَسُّكُ الْهَلْكَ وَنَسَمَةُ الْفُلْكِ وَفِيضُ الْمَاءِ وَفِيضُ الْأَمْرِ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧٩﴾

قوله: ﴿إمام يقولون افتراه﴾ انكر سبحانه عليهم قولهم:
إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال: ﴿إمام يقولون افتراه﴾
ثم أمره أن يجيب بكلام منصف، فقال: ﴿قل إن افتريته
فعلي إجرامي﴾ بكسر الهمزة على قراءة الجمهور، مصدر
أجرم: أي فعل ما يوجب الإثم، وجرم وأجرم بمعنى قاله
النحاس، والمعنى: فعلي إثم، أو جزءا كسبي. ومن قرأ بفتح
الهمزة، قال: هو جميع جرم ذكره النحاس أيضاً ﴿وإننا
بريء مما تجرمون﴾ أي: من إجرامكم بسبب ما تنسبونه
إلي من الافتراء، قيل: وفي الكلام حذف والتقدير: لكن ما
افتريته، فالإجرام وعقابه ليس إلا عليكم، وإننا بريء منه.

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: إنها حكاية
عن نوح، وما قاله لقومه، وقيل: هي حكاية عن المحاورة
الواقعة بين نبيينا محمد ﷺ وكفار مكة. والاولى: لأن
الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام. قوله: ﴿واوحى
إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ أنه لن
يؤمن في محل رفع على أنه نائب الفاعل الذي لم يسم.
ويجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير الباء: أي بانه،
وفي الكلام تأسيس له من إيمانهم، وأنهم مستمرون على
كفرهم، مصممون عليه، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق
إيمانه ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ البؤس: الحزن، أي

إليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته، وقال إنما ياتيك به الله
إن شاء، فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم،
وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيرها أخره ﴿وما أنتم
بمعجزين﴾ بفائتين عما أراه الله بكم بهرب أو مدافعة
﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ الذي أبذله لكم، وأستكثر منه قياماً
مني بحق النصيحة لله بلإبلاغ رسالته، ولكم بإيضاح الحق
وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿إن أردت أن أنصح لكم﴾
وجواب هذا الشرط محذوف، والتقدير: إن أردت أن أنصح
لكم لا ينفعكم نصحي، كما يدل عليه ما قبله: ﴿إن كان الله
يريد أن يغويكم﴾ أي: إن كان الله يريد إغواكم، فلا ينفعكم
النصح مني، فكان جواب هذا الشرط محذوفاً كالاول،
وتقديره ما نكرنا، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع
من تقدم الجزاء على الشرط، وأما على مذهب من يجيزه،
فجزاء الشرط الاول، ولا ينفعكم نصحي، وجزاء الشرط
الثاني الجملة الشرطية الاولى وجزاؤها. قال ابن جرير:
معنى يغويكم يهلككم بعذابه، وظاهر لغة العرب أن الإغواء
الإضلال، فمعنى الآية: لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن
يضلكم عن سبيل الرشاد، ويضلكم عن طريق الحق. وحكى
عن طي أصبح فلان غاويًا: أي مريضاً، وليس هذا المعنى
هو المراد في الآية. وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك، ومنه
﴿فسوف يلقون غيا﴾ [مريم: 59] وهو غير ما في هذه الآية
﴿هو ربكم﴾ فإليه الإغواء وإليه الهداية ﴿واليه ترجعون﴾
فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في
قوله: ﴿وما ترك لتبعك إلا الذين هم أرلنا بادي الرأي﴾
قال: فيما ظهر لنا. وأخرج أبو الشيخ، عن عطاء، مثله.
وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله:
﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ قال: قد عرفتها وعرفت بها
أمره، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وأتاني رحمة من عنده﴾ قال:
الإسلام الهدى والإيمان، والحكم والنبوة. وأخرج ابن جرير،
وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿أنزلنكموها﴾ قال: أما
والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك
ولم يمكنه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، أنه كان
يقرا «أنزلنكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون»
وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية، قال في قراءة أبي:
«أنزلنكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون». وأخرج
ابن جرير، وابن المنذر، عن أبي بن كعب، أنه قرأ:
«أنزلنكموها من شطر قلوبنا». وأخرج ابن جرير، وأبو
الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وما أنا بطارد الذين
آمنوا﴾ قال: قالوا له يا نوح إن أحببت أن نتبعك فاطردهم،
ولا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأرض سواء، وفي
قوله: ﴿إنهم ملأوا ربه﴾ قال: فيسألهم عن أعمالهم ﴿ولا
أقول لكم عندي خزائن الله التي لا يفنيها شيء، فأكون
إنما دعوتكم لاتباعوني عليها، لا أعطيك بملكه لي عليها

مقيم وهو عذاب النار الدائم، ومعنى يحلّ: يجعل المؤجل حالاً، مأخوذ من حلول الدين المؤجل، ومن موصولة في محل نصب، ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع: أي أينما يأتيه عذاب يخزيه؛ وقيل: في موضع رفع بالابتداء، ويأتيه الخبر، ويخزيه صفة لعذاب. قال الكسائي: إن ناساً من أهل الحجاز يقولون سوف تعلمون؛ قال: ومن قال ستعلمون أسقط الواو والفاء جميعاً، وجوز الكوفيون «سوف تعلمون» ومنعه البصريون، والمراد بعذاب الخزي: العذاب الذي يخزي صاحبه، ويحل عليه العار. قوله: **«حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور»** حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وجعلت غاية لقوله: **«واصنع الفلك بأعيننا»**.

والتنور اختلف في تفسيرها على أقوال: الأول: أنها وجه الأرض، والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً، روي ذلك عن ابن عباس، وعكرمة، والزهري، وابن عيينة. الثاني: أنه تنور الخبز الذي يخبزه فيه، وبه قال مجاهد وعطية وهو الحسن، وروي عن ابن عباس أيضاً. الثالث: أنه موضع اجتماع الماء في السفينة، روي عن الحسن. الرابع: أنه طلوع الفجر، من قولهم تنور الفجر، روي عن علي بن أبي طالب. الخامس: أنه مسجد الكوفة، روي عن علي أيضاً ومجاهد؛ قال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة. السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة، قاله قتادة. السابع: أنه العين التي بالجزيرة المسماة عين الورد، روي ذلك عن عكرمة. الثامن: أنه موضع بالهند؛ قال ابن عباس: كان تنور آدم بالهند. قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمناقضة، لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض، قال: **«فففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيوناً»** [القمر: 11، 12] فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة، هكذا قال، وفيه نظر، فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء، إلا إذا كان المراد مجرد العلامة، كما ذكره آخراً. وقد نكر أهل اللغة أن الفور: الغيان، والتنور: اسم عجمي عربيّ العرب؛ وقيل معنى فار التنور: التمثيل بحضور العذاب كقولهم: حمي الوطيس؛ إذا اشتدّ الحرب، ومنه قول الشاعر:

تركتم قذرکم لا شيء فيها وقد ر القوم حامية تفور يريد: الحرب.

قوله: **«قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين»** أي: قلنا يا نوح احمل في السفينة من كل زوجين مما في الأرض من الحيوانات اثنين نكراً واثنى. وقرأ حفص «من كل» بتثوين كل: أي: من كل شيء زوجين، والزوجان لل اثنين للذين لا يستغني أحدهما عن الآخر، ويطلق على كل واحد منهما زوج، كما يقال للرجال زوج، وللمرأة زوج، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويطلق الزوج على الضرب والصنف، ومثله قوله تعالى: **«وانبئت من كل زوج بهيج»** [الحج: 5]، ومثله قول الأعشى:

وكل ضرب من الديباج يلبسه أبو حذافة مخبوء بذاك معا

فلا تحزن، والبائس: المستكين، فنهأه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين؛ لأن الابتئاس حزن في استكانة. ومنه قول الشاعر:

وكم من خليل أو حميم رزئته فلم أبئتس والرزء فيه جليل ثم إن الله سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون البتة عرفه وجه إهلاكهم، وألهمه الأمر الذي يكون به خلاصه، وخلاص من آمن معه، فقال: **«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا»** أي: اعمل السفينة متلبساً بأعيننا: أي بمرأى منا، والمراد بحراستنا لك وحفظنا لك، وعبر عن ذلك بالأعين لأنها آلهة الرؤية، والرؤية هي: التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب، وجمع الأعين للمتعظيم لا للتكثير؛ وقيل المعنى: **«بأعيننا»** أي: بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك؛ وقيل: **«بأعيننا»** بعلمنا؛ وقيل: بامرنا. ومعنى **«وحينا»** بما أوحينا إليك من كيفية صنعها **«ولا تخاطبني في الذين ظلموا»** أي: لا تطلب إهلاكهم، فقد حان وقت الانتقام منهم، وجملة **«إنهم مغرقون»** للتعليل: أي: لا تطلب منا إهلاكهم، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق، وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه ولا تأخير؛ وقيل: المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم، فإنهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك، لا يتأخر إغراقهم عنه؛ وقيل المراد بالذين ظلموا: امرأته وابنه **«واصنع الفلك»** أي: وطفق يصنع الفلك، أو وأخذ يصنع الفلك؛ وقيل: هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة، وجملة: **«وكلما مَرَّ عليه مَلَأ من قومه سخروا منه»** في محل نصب على الحال: أي استهزؤوا به لعمله السفينة. قال الأخفش والكسائي: يقال سخرت به ومنه. وفي وجه سخريتهم منه قولان: أحدهما: أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة، فيقولون يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً. والثاني: أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك، قالوا: يا نوح ما تصنع بها؟ قال: أمشي بها على الماء فعجبوا من قوله، وسخروا به. ثم أجاب عليهم بقوله: **«إن تسخروا منا فلنا نسخر منكم كما تسخرون»** وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ والمعنى: إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم، فلنا نسخر منكم غداً عند الغرق. ومعنى السخرية هنا: الاستهجال، أي: إن تستجهلونا فلنا نستجهلكم كما تستجهلون، واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافتهم، وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده، والتشبيه في قوله: **«كما تسخرون»** لمجرد التحقق والوقوع، أو التجدد والتكرر، والمعنى: إننا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك، أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك؛ وقيل معناه: نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق، وفيه نظر، فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية، إذ هم في شغل شاغل عنها، ثم هددهم بقوله: **«فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه»** وهو عذاب الغرق في الدنيا **«ويحل عليه عذاب**

باضمار مبتدأ: أي هو مجريها ومرسيها ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني، وعدم استئصاله بالغرق. قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب، والتقدير: فركبوا مسمين، وهي تجري بهم، والموج: جمع موجة، وهي: ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض. قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ هو: كنعان، قيل: وكان كافراً، واستبعد كون نوح ينادي من كان كافراً مع قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَاراً﴾ [نوح: 26]، وأجيب بأنه كان منافقاً، فظن نوح أنه مؤمن؛ وقيل: حملته شفقة الأبوة على ذلك؛ وقيل: إنه كان ابن امرأته، ولم يكن بابنه، ويؤيده ما روي أن علياً قرأ ونادى نوح ابنها؛ وقيل: إنه كان لغير رشدة، وولد على فراش نوح. وردّ بأن قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوة ﴿وَوَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: في مكان عزل فيه نفسه عن قومه، وقرباته بحيث لم يبلغه قول نوح: اركبوا فيها، وقيل: في معزل من دين أبيه، وقيل: من السفينة. قيل: وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان في أوّل فور التنور. قوله: ﴿هِيَ بَنِي أَرْكَبَ مَعْنَاهُ﴾ قرأ عاصم بفتح الياء، والباقون بكسرها، فأما الكسر فلجعله بدلاً من ياء الإضافة، لأن الأصل يا بني، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الالف، ثم حذف الالف وبقيت الفتحة لتدلّ عليه. قال النحاس: وقراءة عاصم مشكلة. وقال أبو حاتم: أصله يا بنياء ثم تحذف، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين، وللکسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأوّل ما ذكرناه، والوجه الثاني: أن تحذف الالف لالتقاء الساكنين. وأما الكسر، فالوجه الأوّل ما ذكرناه، والثاني: أن تحذف لالتقاء الساكنين، كذا حكى عنه النحاس. وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وحفص ﴿أَرْكَبَ مَعْنَاهُ﴾ بادغام الياء في الميم لتقاربهما في المخرج. وقرأ الباقر بن سعدم الإدغام ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ناه عن الكون مع الكافرين: أي خارج السفينة، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم، ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه، فقال: ﴿قَالَ سَأَوْي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: يمتنعني بارتفاعه من وصول الماء إليّ، فأجاب عنه نوح بقوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا مانع، فإنه يوم قد حقّ فيه العذاب وجفّ القلم بما هو كائن فيه، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أوّلياً، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره. والاستثناء قال الزجاج: هو منقطع: أي: لكن من رحمه الله فهو يعصمه، فيكون: ﴿مَنْ رَحِمَ﴾ في موضع نصب، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصم بمعنى معصوم: أي: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا

أراد كل صنف من الديباج ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على زوجين، أو على اثنين على قراءة حفص، وعلى محل كل زوجين، فإنه في محلّ نصب باحمل، أو على اثنين على قراءة الجمهور، والمراد: امرأته وبنوه ونسأؤهم ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: من تقدّم الحكم عليه بأنه من المغرقين، في قوله: ﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ على الاختلاف السابق فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة ﴿لِحَمَلِ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ لَتُنِينَ وَأَهْلَكَ﴾ ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامراته وأعله أمّ كنعان جعل الاستثناء من أهلك، ويكون متصلاً إن أريد بالأهل ما هو أعمّ من المسلم والكافر منهم، ومنقطعاً إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط، قوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ معطوف على أهلك: أي: واحمل في السفينة من آمن من قومك، وأقرّد الأهل منهم لمزيد العناية بهم، أو للاستثناء منهم على القول الآخر. ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به، فقال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل: هم ثمانون إنساناً: منهم ثلاثة من بني، وهو سام، وحام، ويافث، وزوجاتهم، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين، وهي موجودة بناحية الموصل؛ وقيل: كانوا عشرة، وقيل: سبعة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل: غير ذلك. قوله: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا﴾ القائل: نوح، وقيل: الله سبحانه. والأوّل: أولى، لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والركوب: العلوّ على ظهر الشيء حقيقة نحو ركب الدابة، أو مجازاً نحو ركب الدين، وفي الكلام حذف: أي: اركبوا الماء في السفينة، فلا يرد أن ركب يتعدى بنفسه؛ وقيل إن الفائدة في زيادة ﴿فِي﴾ أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها؛ وقيل: إنها زينت لرعاية جانب المحلية في السفينة كما في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ﴾ [العنكبوت: 65]، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ﴾ [الكهف: 71] قيل: ولعلّ نوحاً قال هذه المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله من الأزواج، كانه قيل: فحمل الأزواج وأدخلها في الفلك، وقال للمؤمنين: ويمكن أن يقال إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التغليب. قوله: ﴿يَسْمِ اللَّهُ﴾ متعلق باركبوا، أو حال من فاعله: أي مسمين الله، أو قائلين: ﴿يَسْمِ اللَّهُ مَجْرَاهَا وَمَرَسَاهَا﴾ قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضمّ الميم فيهما إلا من شدّ منهم على أنهما اسما زمان، وهما: في موضع نصب على الظرفية: أي وقت مجراها ومرساها، ويجوز أن يكونا مصدرين: أي: وقت إجرائها وإرسائها. وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص «مجرأها» بفتح الميم، ومرساها بضمها، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما. وقرأ مجاهد، وسليمان بن جندب، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي «مجرئها ومرسيها» على أنهما وصفان لله، ويجوز أن يكونا في موضع رفع

إجرامي» قال علي «وانا بريء مما تجرمون» أي: مما تعملون. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: «وإوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» وذلك حين دعا عليهم نوح قال: «لا تذكر على الأرض من الكافرين ديواراً» [نوح: 26]. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: إن نوحاً لم يدع على قوم حتى نزلت الآية هذه، فانقطع عند ذلك رجاءه منهم، فدعا عليهم. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: «فلا تبتئس» قال: فلا تحزن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عنه، في قوله: «واصنع الفلك باعينا ووحينا» قال: بعين الله ووحيه. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، أيضاً قال: لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمته وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعملها سفينة، ويمرّون فيسألونه، فيقول: عملها سفينة، فيسخرّون منه، ويقولون: يعمل سفينة في البر، وكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التنور، وكثر الماء في السكك خشيته أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت بين يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي»، وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم، وقد روي في صفة السفينة وقدرها أحاديث، وأثار ليس في نكرها هنا كثير فائدة. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: «من يأتيه عذاب يخزيه» قال: هو: الغرق «ويصل عليه عذاب مقيم» قال: هو الخلود في النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عنه، قال: كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلثمائة سنة، وكان فار التنور بالهند وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعاً. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أيضاً قال: التنور العين التي بالجزيرة عين الوردية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، قال: فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة. وقد روي عنه نحو هذا من طرق. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: للتنور: وجه الأرض، قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك. والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن علي «وفار التنور» قال: طلع الفجر، قيل له إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك. وقد روي في تفسير التنور غير هذا، وقد قدّمنا الإشارة إلى ذلك. وروي في صفة القصة، وما حمّله نوح في السفينة، وكيف كان

من رحمه الله: مثل: «ماء دافق» [الطارق: 6] «وعيشة راضية» [الحاقة: 21] ومنه قول الشاعر:
دع المكارم لا تنهض لبغيتنها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
أي: المطعم المكسوّ، واختار هذا الوجه ابن جرير؛ وقيل: العاصم بمعنى ذي العصمة، كلابن وتامر، والتقدير: لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله، وهو السفينة، وحينئذ فلا يرد ما يقال: إن معنى من رحم من رحمه الله، ومن رحمه الله هو معصوم، فكيف يصحّ استثناءه عن العاصم؟ لأن في كل وجه من هذه الوجوه دفعا للإشكال. وقرئ «إلا من رحم» على البناء للمفعول «وحوال بينهما الموج» أي: حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق؛ وقيل: بين ابن نوح، وبين الجبل، والأول: أولى، لأن تفرّع «فكان من للمغرقين» عليه يدل على الأول لا على الثاني، لأن الجبل ليس بعاصم. قوله: «وقيل يا أرض بلعي ماءك» يقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع، وبلغ يبلع، مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائي والفراء؛ والبلع: الشرب، ومنه البالوعة، وهي: الموضع الذي يشرب الماء، والازتراد، يقال: بلع ما في فمه من الطعام إذا ازترده، واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدرج «ويا سماء اقلعي» الإقلاع الإمساك، ياكل: أكل المطر إذا انقطع. والمعنى: أمر السماء بامساك الماء عن الإرسال، وقدّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها «وغيض الماء» أي: نقص، يقال: غاض الماء وغيضته أنا «وقضي الأمر» أي: أحكم وفرغ منه: يعني: أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام «ولاستوت على الجودي» أي: استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي، وهو جبل بقرب الموصل؛ وقيل: إن الجودي اسم لكل جبل، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل:
سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقبلنا سبوح الجودي والجمد
ويقال: إنه من جبال الجنة، فلذا استوت عليه «وقيل بعدا للقوم الظالمين» القائل: هو الله سبحانه، ليناسب صدر الآية؛ وقيل: هو نوح وأصحابه. والمعنى: وقيل هلاكاً للقوم الظالمين، وهو من الكلمات التي تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك، وللإيحاء إلى قوله: «ولا تخاطبني في الذين ظلموا» [هود: 37]. وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف، وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة، الثابتين الأقدام في علم البيان، الراسخين في علم اللغة، المطلعين على ما هو ملوّن من خطب مصاقع خطباء العرب، وأشعار بواق شعرائهم، المتراضين بدقائق علوم العربية وأسرارها. وقد تعرّض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم، فاطالوا وأطابوا، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة.
وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: «فعلي

الغرق، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة، لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قال حين يركبون ويجرون ويرسون. وأخرج ابن جرير، عن الضحاك قال: كان إذا أراد أن ترسي قال بسم الله فارست، وإذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت. وأخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن السني، وابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مروي، عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أمن لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: بسم الله للملك الرحمن، بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، وما قدرها الله حق قدره إلى آخر الآية» وأخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ. وأخرجه أيضاً أبو الشيخ، عنه، مرفوعاً من طريق أخرى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في قوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مِنْ رَحِمِهِ﴾ قال: لا ناج إلا أهل السفينة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن القاسم بن أبي برة، في قوله: ﴿وَحَالٌ بَيْنَهُمَا لَمَجُوجٍ﴾ قال: بين ابن نوح والجبل. وأخرج ابن المنذر، وعن عكرمة في قوله: ﴿يَا أَرْضُ اْبْلَعِي﴾ قال: هو بالحبشية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه، في ابلعي قال بالحبشية: أي ازربيه. وأخرج أبو الشيخ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: معناه اشربي بلغة الهند. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس مثله. أقول: وثبت لفظ ابلع وما يشتق منه في لغة العرب: ظاهر مكشوف، فما لنا وللحبشة والهند.

وَقَادَى نُوحٌ رَجُلًا فَقَالَ رَبِّ إِنْ أَبَى مِنْ أَهْلِي وَإِنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ يَنْتَوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّكَ أَنْتَ أَعْلَمُ أَنَّ تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَفْزِرْ لِي وَتَرْحَمَ أَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٩﴾ يَلِ يَنْجُو أَخِيضَ يَسْكُرُونَ يَنَا وَرَكَتِكَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْرِ وَمَنْ مَمْلَكٌ وَأَمُّ سَنَتِهِمْ ثُمَّ يَشْهَدُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الَّذِينَ هُوَ جَوَّابٌ إِيَّاهُمْ كَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتَ لَا تَقُولُ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصِرٌ إِلَّا نَفْسِي لِيَشْرِيكَ ﴿٢١﴾

معنى: ﴿وقادى نوح ربه﴾ دعاه، والمراد أراد دعاءه بليليل الفاء في ﴿فقال رب إن ابني من أهلي﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ، فلا بد من التقدير المذكور، ومعنى قوله: ﴿إن ابني من أهلي﴾ أنه من أهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك: وأهلك. فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله: ﴿وأهلك﴾ وهو

المستثنى منه، وترك ما يفيد الاستثناء، وهو: ﴿إلا من سبق عليه القول﴾؟ فيجواب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين ﴿وإن وعلك الحق﴾ الذي لا خلف فيه، وهذا منه ﴿وأننت احكم للحاكمين﴾ أي: اتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض، وقيل: أراد بأحكم الحاكمين أعلمهم وأعلهم: أي: أنت أكثر علماً وعدلاً من نوري الحكم؛ وقيل: إن الحكم بمعنى ذي الحكمة كدارع، ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل، وأنه خارج بقيد الاستثناء فـ ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ الذين آمنوا بك، وتابعوك، وإن كان من أهلك باعتبار القرابة؛ ثم صرح بالعلّة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبيّنة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين، لا قرابة النسب، وحده، فقال: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ قرأ الجمهور عمل على لفظ المصنر. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكسائي، ويعقوب، عمل على لفظ الفعل؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة في ذمه، كأنه جعل نفس العمل، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل، كذا قال الزجاج وغيره. ومعنى القراءة الثانية ظاهر: أي إنه عمل عملاً غير صالح، وهو: كفره وتركه لمتابعة أبيه؛ ثم نهاه عن مثل هذا السؤال، فقال: ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله، فرّع على ذلك النهي عن السؤال، وهو وإن كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال، لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أولياً، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع، وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ أي: أحذرك أن تكون من الجاهلين، كقوله: ﴿يعظكم الله أن تعبدوا لملئه أبداً﴾ [النور: 17] وقيل المعنى: أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين، ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع، وأن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه، بادر إلى الاعتراف بالخطأ، وطلب المغفرة والرحمة، فـ ﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسالك ما ليس لي به علم﴾ أي: أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه، ﴿وإن لا تغفر لي﴾ نذب ما دعوت به على غير علم مني ﴿وترحمني﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء، فتقبل توبتي ﴿أكن من الخاسرين﴾ في أعمالي، فلا أربح فيها، القائل: هو الله، أو الملائكة ﴿قيل يا نوح اهبط﴾ أي: انزل من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض، فقد بلغت الأرض ماءها، وجفت ﴿بسلام منا﴾ أي: بسلامة وأمن، وقيل: بتحية ﴿وبركات﴾ أي: نعم ثابتة، مشتق من بركو الجمل، وهو ثبوته، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، وفي هذا الخطاب له ليل على قبول توبته ومغفرة زلته ﴿وعلى أمم ممن معك﴾

معنى: ﴿ونادى نوح ربه﴾ دعاه، والمراد أراد دعاءه بليليل الفاء في ﴿فقال رب إن ابني من أهلي﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ، فلا بد من التقدير المذكور، ومعنى قوله: ﴿إن ابني من أهلي﴾ أنه من أهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك: وأهلك. فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله: ﴿وأهلك﴾ وهو

المستثنى منه، وترك ما يفيد الاستثناء، وهو: ﴿إلا من سبق عليه القول﴾؟ فيجواب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين ﴿وإن وعلك الحق﴾ الذي لا خلف فيه، وهذا منه ﴿وأننت احكم للحاكمين﴾ أي: اتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض، وقيل: أراد بأحكم الحاكمين أعلمهم وأعلهم: أي: أنت أكثر علماً وعدلاً من نوري الحكم؛ وقيل: إن الحكم بمعنى ذي الحكمة كدارع، ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل، وأنه خارج بقيد الاستثناء فـ ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ الذين آمنوا بك، وتابعوك، وإن كان من أهلك باعتبار القرابة؛ ثم صرح بالعلّة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبيّنة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين، لا قرابة النسب، وحده، فقال: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ قرأ الجمهور عمل على لفظ المصنر. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكسائي، ويعقوب، عمل على لفظ الفعل؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة في ذمه، كأنه جعل نفس العمل، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل، كذا قال الزجاج وغيره. ومعنى القراءة الثانية ظاهر: أي إنه عمل عملاً غير صالح، وهو: كفره وتركه لمتابعة أبيه؛ ثم نهاه عن مثل هذا السؤال، فقال: ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله، فرّع على ذلك النهي عن السؤال، وهو وإن كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال، لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أولياً، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع، وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ أي: أحذرك أن تكون من الجاهلين، كقوله: ﴿يعظكم الله أن تعبدوا لملئه أبداً﴾ [النور: 17] وقيل المعنى: أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين، ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع، وأن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه، بادر إلى الاعتراف بالخطأ، وطلب المغفرة والرحمة، فـ ﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسالك ما ليس لي به علم﴾ أي: أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه، ﴿وإن لا تغفر لي﴾ نذب ما دعوت به على غير علم مني ﴿وترحمني﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء، فتقبل توبتي ﴿أكن من الخاسرين﴾ في أعمالي، فلا أربح فيها، القائل: هو الله، أو الملائكة ﴿قيل يا نوح اهبط﴾ أي: انزل من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض، فقد بلغت الأرض ماءها، وجفت ﴿بسلام منا﴾ أي: بسلامة وأمن، وقيل: بتحية ﴿وبركات﴾ أي: نعم ثابتة، مشتق من بركو الجمل، وهو ثبوته، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، وفي هذا الخطاب له ليل على قبول توبته ومغفرة زلته ﴿وعلى أمم ممن معك﴾

أرسلت به إليكم﴾ ليس عليّ إلا ذلك، وقد لزمتمكم الحجة **﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾** جملة مستأنفة لتقريب الوعيد بالهلاك: أي يستخلف في دياركم وأموالكم قوماً آخرين، ويجوز أن يكون عطفاً على فقد أبلغتكم. وروى حفص عن عاصم أنه قرأ **﴿ويستخلف﴾** بالجزم حملاً على موضع فقد أبلغتكم **﴿ولا تضرونه شيئاً﴾** أي: بتوليكم، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير **﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾** أي رقيب مهيم عليه يحفظه من كل شيء، قيل وعلى بمعنى اللام، فيكون المعنى: لكل شيء حفيظ، فهو يحفظني من أن تتألوني بسوء **﴿ولما جاء أمرنا﴾** أي: عذابنا الذي هو إهلاك عاد **﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه﴾** من قومه **﴿برحمة منا﴾** أي: برحمة عظيمة كائنة منا؛ لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله، وقيل هي الإيمان **﴿من عذاب غليظ﴾** أي: شديد قيل: وهو السموم التي كانت تسخر أتوهم **﴿وتلك عاد﴾** مبتدأ وخبر، وأنت الإشارة اعتباراً بالقبيلة. قال الكسائي: إن من العرب من لا يصرف عاد ويجعله أسماء للقبيلة **﴿جحسوا بآيات ربهم﴾** أي: كفروا بها، وكذبوا وأنكروا المعجزات **﴿وعصوا رسله﴾** أي: هوداً وحده، لأنه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا لأن من كتب رسولاً فقد كتب جميع الرسل؛ وقيل: إنهم عصوا هوداً ومن كان قبله من الرسل، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رسلاً متعدين لكذبهم **﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾** الجبار: المتكبر، والعنيد: الطاغى الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له. قال أبو عبيدة: العنيد العنود والعائد والمعان، وهو المعارض بالخلاف منه، ومنه قيل للعرق الذي يتقعر بالدم، عائد. قال الرازي:

إنني كبير لا أطيق العندا

﴿واتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: الحقوها، وهي: الإبعاد من الرحمة والطرد من الخير، والمعنى: أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا في الدنيا **﴿و﴾** اتبعوها **﴿يوم القيامة﴾** فلنعنا هنالك كما لعنوا في الدنيا **﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾** أي: بربهم. وقال الفراء: كفروا نعمة ربهم، يقال كفرته وكفرت به: مثل شكرته وشكرت له **﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾** أي: لا زالوا مبعدين من رحمة الله، والبعد: الهلاك، والبعد: التباعد من الخير، يقال بعد يبعد بعداً، إذا تأخر وتباعد، وبعد يبعد بعداً، إذا هلك، ومنه قول الشاعر:

لا يبعثن قومي الذين هم سم العدة وآفة الجزر
وقال النابغة:

فلا تبعثن إن المنية منهل وكل امرئ يوماً به الحال زائل
ومنه قول الشاعر:

ما كان ينفعني مقال نسائهم وقتلت نون رجالهم لا تبعد
وقد تقدم أن العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة **﴿إلا على الذي فطرني﴾** أي: خلقتني. وأخرج ابن عساکر، عن الضحاک، قال: أمسك الله عن عاد

وهو منصوب على الحال، دَرَّت السماء تدَر، وتدَر، فهي: مدرار، وكان قوم هود أهل بساتين، وزرع، وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن **﴿ويؤذيكم قوة إلى قوتكم﴾** معطوف على يرسل: أي: شدة مضافة إلى شنتكم، أو خصباً إلى خصبكم، أو عزاً إلى عزكم. قال الزجاج: المعنى يؤذيكم قوة في النعم **﴿ولا تتولوا مجرمين﴾** أي: لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر مصرين عليه، والإجرام: الأثام كما تقدم، ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم، وعظيم غباوتهم، ف **﴿قالوا يا يهود ما جئنا ببينة﴾** أي: بحجة واضحة نعمل عليها، ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه، عناداً وبعداً عن الحق **﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾** التي نعبدونها من دون الله، ومعنى: **﴿عن قولك﴾** صادرين عن قولك، فالظرف في محل نصب على الحال **﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾** أي: بمصدقين في شيء مما جئت به **﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾** أي: ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التي تعييبها، وتسفه رأينا في عبادتها بسوء بجنون، حتى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا، وتكرره علينا من التنفير عنها، يقال عراه الأمر واعتراه: إذا ألم به، فاجابهم بما يدل على عدم ميالاتهم بهم، وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه، وأنهم لا يقدرُونَ على شيء مما يريد الكفار به، بل الله سبحانه هو الضار النافع ف **﴿قال إني أشهد الله وأشهدوا﴾** أنتم **﴿إني بريء مما تشركون﴾** به **﴿من دونه﴾** أي: من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطاناً **﴿فكيدوني جميعاً﴾** أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بي، وأنها اعترتني بسوء **﴿ثم لا تنظرون﴾** أي: لا تمهلوني، بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم؛ وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبإصنامهم التي يعبدونها ما يصك مسامعهم، ويوضع عجزهم، وعدم قدرتهم على شيء **﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾** فهو: يعصمني من كينكم، وإن بلغت في تطلب وجوه الإضرار بي كل مبلغ، فمن توكل على الله كفاه. ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم، وأنه مالك للجميع، وأن ناصية كل دابة من نواب الأرض بيده، وفي قبضته وتحت قهره، وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه، والمَنْ عليه جزوا ناصيته، فجعلوا ذلك علامة لقهره. قال الفراء: معنى أخذ بناصيتها: مالكتها والقادر عليها، وقال القتيبي: قاهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته. والناصية قصاص الشعر من مقدم الرأس؛ ثم علل ما تقدم بقوله: **﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾** أي: هو على الحق والعدل، فلا يكاد يسلطكم عليّ **﴿فإن تولوا﴾** أي: تتولوا فنحنث إحدى التاءين، والمعنى: فإن تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر **﴿فقد أبلغتكم ما**

في التائيت باعتبار التأويل بالقبيلة:

غلب المساميح الوليد جماعة وكفى قريش المعضلات وسادها **﴿هو أنشاكم من الأرض﴾** أي: ابتداء خلقكم من الأرض، لأن كل بني آدم من صلب آدم، وهو مخلوق من الأرض **﴿واستعمركم فيها﴾** أي: جعلكم عمارها وسكانها، من قولهم أعمار فلان فلانا داره، فهي له عمرى، فيكون استفعل بمعنى أفعال: مثل استجاب بمعنى أجاب. وقال الضحاك: معناه أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من ثلاثمائة إلى ألف؛ وقيل: معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار **﴿فاستغفروهم﴾** أي: سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام **﴿ثم توبوا إليه﴾** أي: ارجعوا إلى عبادته **﴿إن ربي قريب مجيب﴾** أي: قريب الإجابة لمن دعاه، وقد تقدم القول فيه في البقرة [186] **﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾** أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيداً مطاعاً ننتفع برأيك، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذي أظهرته من أفعالك النبوة، ودعوتك إلى التوحيد؛ وقيل: كان صالح يعيب آلهتهم، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجائنا منك، والاستفهام في قوله: **﴿اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾** للإنكار، أنكروا عليه هذا النبي، وأن نعبد في محل نصب بحذف الجار: أي بأن نعبد، ومعنى ما يعبد آباؤنا: ما كان يعبد آباؤنا، فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة **﴿واننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾** من أربه، فإنا أربه: إذا فعلت به فعلاً يوجب له الريبة، وهي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة، أو من أرب الرجل: إذا كان ذا ريبة، والمعنى: إننا لفي شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان موقع في الريب **﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾** أي: حجة ظاهرة وبرهان صحيح **﴿وأتأني منه﴾** أي: من جهته **﴿رحمة﴾** أي: نبوة، وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع، لكنها صُنرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين، لأنهم في شك من ذلك، كما وصفوه عن أنفسهم **﴿فمن ينصرنى من الله﴾** استفهام معناه النفى: أي لا ناصر لي يمينني من عذاب الله **﴿إن عصيته﴾** في تبليغ الرسالة، وراقبتكم وفترت عما يجب علي من البلاغ **﴿فما تزيدونني﴾** بتثبيطكم إياي **﴿غير تخسير﴾** بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي، والتعرض لعقوبة الله لي. قال الفراء: أي تضليل وإبعاد من الخير؛ وقيل المعنى: فما تزيدونني باحتياجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم. قوله: **﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾** قد مر تفسير هذه الآية في الأعراف، ومعنى لكم آية: معجزة ظاهرة، وهي منتصبه على الحال، ولكم في محل نصب على الحال من آية مقدمة عليها، ولو تأخرت لكانت صفة لها؛ وقيل: إن ناقة الله بدل من هذه، والخبر لكم، والأول: أولى؛ وإنما قال: «ناقة الله» لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم؛ وقيل من صخرة صماء

القطر ثلاث سنين، فقال لهم هود **﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** فابوا إلا تمادياً. وأخرج أبو الشيخ، عن هارون التيمي، في قوله: **﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** قال: المطر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: **﴿ويزيكم قوة إلى قوتكم﴾** قال: شدة إلى شدتكم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة، في قوله: **﴿ويزيكم قوة إلى قوتكم﴾** قال: ولد الولد. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس، في قوله: **﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلنا بسوء﴾** قال: أصابتك بالجنون. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن سعيد قال: ما من أحد يخاف لصاً عابياً، أو سبعاً ضارياً، أو شيطاناً مارداً فيتلو هذه الآية إلا صرفه الله عنه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد **﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾** قال: الحق. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: **﴿عذاب غليظ﴾** قال: شديد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: **﴿كل جبار عنيد﴾** قال: المشرك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي، قال: العنيد المشاق. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي، في قوله: **﴿وتوبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾** قال: لم يبعث نبي بعد عاد إلا لعنت على لسانه. وأخرج ابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: تتابع عليهم لعنتان من الله: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

﴿وَإِلَّا تَتُوبَ أَخَاهُمْ صَاحِبًا قَالَ يَقْتَرِبُ أَهْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَبَوَّأُوا إِلَيْهِ وَإِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١٧﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُخِيبٌ ﴿١٨﴾ قَالَ يَقْتَرِبُ أَهْبُدُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَرَأَيْتُم مِّنْهُ رَحْمَةً فَهِيَ بِكُمْ إِنَّ اللَّهَ إِنَّ عَصِيئَةً قَا تُزِيدُونِي غَيْرَ خَفِيرٍ ﴿١٩﴾ وَيَقْتَرِبُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَاذْكُوا صَاحِبَ قَرْيَةٍ مِّمَّنْ عَمِلُوا فَعَلًا تَمَعُّرًا فِي دَارِكُمْ لَنُنَزِّلَ آيَاتٍ ذَالِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَهْلُهَا بِجَنَّتَا صَاحِبًا وَآلِيَتٍ مَّا تَوَّأ مِمَّنْ رَحِمْتَ رَبَّنَا وَمِنَ الْيَزِيدِ يُؤْمِنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٢١﴾ وَخَذَ الْآلِيَتِ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْحَرُوا فِي دَرَجَتِهِم مِّنْ جَنَّتٍ ﴿٢٢﴾ كَانَ لَمْ يَقْتَرِبُوا إِلََّا أَنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بِمُؤَدَّاتُهُمْ﴾

قوله: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾** معطوف على ما تقدم، والتقدير: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً. والكلام فيه، وفي قوله: **﴿يا قوم اعبدا الله ما لكم من إله غيره﴾** كما تقدم في قصة هود. وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب «وإلى ثمود» بالتثنية في جميع المواضع. واختلف سائر القراء فيه، فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع، فالصرف باعتبار التأويل بالحي، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان، وإنشد سيبويه

جريس، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يقول: ما تزدانون أنتم إلا خساراً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء الخراساني نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَاصْبِحُوا فِي بَيَارِهِمْ جَاهِلِينَ﴾ قال: مبتين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿كَانَ لَمْ يَفْهَمُوا فِيهَا﴾ قال: كان لم يعيخوا فيها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: كان لم يعمروا فيها. وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: كان لم ينعموا فيها.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَدْ لَبِثَ أَنْ
جَاءَهُ بِعِجْلٍ خَيْرٌ (٦١) فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَحِلُّونَ عَلَيْهِمْ نَحْنُكُمْ وَأَرْسَلْنَا
مِنْهُمْ خَبْرَهُ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطَ (٦٢) وَاتَّخَذُوا قَائِمَةً
فَصَحَّحَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ يَسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ يَسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ يَسْحَاقَ (٦٣) قَالَتْ يَوْنٰلِقَ عَلٰى
وَأَنَا عَمْرٌ وَمَكَدًا بَعْلِي شَيْئًا إِنَّ هَذَا لَشَوْءٌ عَجِيبٌ (٦٤) قَالُوا أَتُحِبُّونَ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْآلِيَّةِ إِنَّهُ يَجِدُ يَجِدُ (٦٥) فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَاهِيمَ الزَّوْجَ وَرَحْمَتَهُ مِنَ الْبُشْرَى يَجِدُونَا فِي قَوْمِ لُوطَ (٦٦) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ
أَزْوَ ثِيَابٍ (٦٧) بِإِبْرَاهِيمَ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رُبَّكَ وَأَتَيْنَاهُ مِنْهُمْ
عَذَابٌ عَزِيزٌ (٦٨)

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاط فلسطين. فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط، مزوا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه، وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة، فظنهم أضيافاً، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: كانوا تسعة، وقيل: أحد عشر، والبشرى التي بشروه بها هي بشارته بالولد؛ وقيل: بإهلاك قوم لوط، والأولى: أولى، ﴿فقالوا سلاماً﴾ منسوب بفعل مقدر: أي سلمنا عليك سلاماً ﴿قال سلام﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي أمركم سلام، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: عليكم سلام ﴿فما لبث﴾ أي: إبراهيم ﴿أن جاء بعجل حنيذ﴾ قال أكثر النحويين ﴿أن﴾ هنا بمعنى حتى أي: فما لبث حتى جاء؛ وقيل: إنها في محل نصب بسقوط حرف الجر، والتقدير: فما لبث عن أن جاء، أي ما أبطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل، وما نافية قاله: سيبويه. وقال الفراء: فما لبث مجيئه أي ما أبطأ مجيئه، وقيل: إن ما موصولة وهي: مبتدأ والخبر أن جاء بعجل حنيذ. والتقدير: فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ، والحنيذ: المشوي مطلقاً؛ وقيل: المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار، يقال حنذ الشاة يحنذها: جعلها فوق حجارة محمأة لتنضجها فهي: حنيذ؛ وقيل: معنى حنيذ: سمين؛ وقيل: الحنيذ هو: السميط؛ وقيل: النضيج، وهو فاعل بمعنى مفعول، وإنما جاءهم بعجل، لأن البقر كانت أكثر أمواله ﴿فلما رأى إنيهم لا تصل إليه﴾ أي: لا يملئونني إلى العجل كما يمد يده من يريد الأكل

﴿فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: دعوها تاكل في أرض الله مما فيها من المراعي التي تاكلها الحيوانات. قال أبو إسحاق الزجاج: ويجوز رفع تاكل على الحال والاستثناء، ولعله يعني في الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا في الآية، فالعتمد القراءات المروية على وجه الصحة ﴿وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ﴾ قال الفراء: بعقر، والظاهر أن النبي عما هو أعم من ذلك ﴿فَيَاخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ جواب النبي: أي قريب من عقربها. وذلك ثلاثة أيام ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النبي، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمْتَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: تمتعوا بالعيش في منازلكم ثلاثة أيام، فإن العقاب نازل عليكم بعدها، قيل: إنهم عقروها يوم الأربعاء، فاقاموا الخميس والجمعة والسبت، واتاهم العذاب يوم الأحد، والإشارة بقوله: ﴿وَلَنُكَفِّرَنَّ﴾ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام ﴿وَوَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: غير مكتوب فيه، فحذف الجار اتساعاً، أو من باب المجاز كأن الوعد إذا وفى به صدق ولم يكذب، ويجوز أن يكون مصدراً: أي وعد غير كذب ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا﴾ أي: عذابنا، أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿فَنَجِينَا صَالِحًا وَالنَّيِّنُ أَمْنًا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ قد تقدم تفسير هذا في قصة هود ﴿وَمَنْ خَرَى يَوْمَئِذٍ﴾ أي: ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة، والخزي: الذل والمهانة؛ وقيل من عذاب يوم القيامة، والأول: أولى. وقرأ نافع والكسائي بفتح يوم على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه. وقرأ الباقرن بالكسر ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ لِقَوَى الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ أي: في اليوم الرابع من عقر الناقة، صيح بهم فماتوا، ونكر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد، مع كون التائبين غير حقيقي؛ قيل: صيحة جبريل، وقيل: صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا، وتقدم في الأعراف ﴿فَاخُذْتُمْ الرَّجْفَةَ﴾ [الأعراف: 78] قيل: ولعلها وقعت عقب الصيحة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثَمِينَ﴾ أي: ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم، والجملة في محل نصب على الحال والتقدير: مماثلين لمن لم يوجد ولم يبق في مقام قط ﴿إِلَّا إِنْ ثَمُودًا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ وضع الظاهر موضع المضمحل لزيادة البيان، وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله: ﴿إِلَّا بَعْدَ لُثُودٍ﴾ وقرأ الكسائي بالتثنية. وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما في إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى.

وقد أخرج أبو الشيخ، عن السديّ ﴿هو أنشاكم من الأرض﴾ قال: خلقكم من الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿واستعمركم فيها﴾ قال: أعمركم فيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿واستعمركم فيها﴾ قال: استخلفكم فيها. وأخرج ابن

﴿نكرهم﴾ يقال: نكرته وأنكرته واستنكرته: إذا وجدته على غير ما تعدد، ومنه قول الشاعر:

فأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلما
فجمع بين اللغتين، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي علي سواد
وقيل يقال: أنكرت لما تراه بعينك، ونكرت لما تراه بقلبك،
قيل: وإنما استنكر منهم ذلك، لأن عابتهم أن الضيف إذا نزل
بهم ولم ياكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشر ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾ أي: أحس في نفسه منهم ﴿خيفة﴾ أي: خوفاً
وفزعاً، وقيل معنى أوجس: أضمر في نفسه خيفة، والأول
الصق بالمعنى اللغوي، ومنه قول الشاعر:

جاء البريد بقرطاس يحث به فالجس القلب من قرطاسه فزعا
وكأنه ظن أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره، أو لتعذيب قومه
﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما
يدل على الخوف، بل أوجس ذلك في نفسه، فلعلهم استلوا
على خوفه بآمارات كظهور أثره على وجهه، أو قالوه له
بعيدا قال عقب ما أوجس في نفسه من الخيفة قولاً يدل
على الخوف، كما في قوله في سورة الحجر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ
وَجُلُونَ﴾ [الحجر: 52]، ولم ينكر ذلك ما هنا اكتفاء بما
هناك، ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: أرسلنا إليهم خاصة، ويمكن أن يكون
إبراهيم عليه السلام قد قال قولاً يكون هذا جواباً عنه ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ﴾ قالوا: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ
مَجْرِمِينَ [الحجر: 57، 58]، وجملة ﴿وَأَمْرَاتِهِ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ﴾ في محل نصب على الحال، قيل: كانت قائمة
عند تحاورهم وراء الستر. وقيل: كانت قائمة تخدم الملائكة
وهو جالس، والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون
للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور. وقال مجاهد وعكرمة:

إنه الحيض، ومنه قول الشاعر:
وإني لأتي العرس عند طهورها وأمجرها يوماً إذا نك ضاحكاً
وقال الآخر:

وضحك الأرائب فوق الصفا كمثل دم الخوف يوم اللقاء
والعرب تقول ضحكت الأرنب: إذا حاضت. وقد أنكر
بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى
حاضت ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد
الضحك. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير. والمعنى: فبشرناها
فضحكت سروراً بالولد. وقرأ محمد بن زياد من قراءة مكة
فضحكت بفتح الحاء، وأنكره المهدوي ﴿وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ
يَعْقُوبُ﴾ قرا حمزة، وابن عامر، وحفص بنص يعقوب
على أنه مفعول فعل دل عليه فبشرناها، كأنه قال: ووهبنا
لها من وراء إسحاق يعقوب. وأجاز الكسائي، والأخفش، وأبو
حاتم أن يكون يعقوب في موضع جر. وقال الفراء: لا يجوز
الجر إلا بإعادة حرفه. قال سيبويه: ولو قلت مررت بزيد أول
من أمس، وأمس عمر كان قبيحاً خبيثاً، لأنك فرقت بين

المجور، وما يشركه، كما يفرق بين الجار والمجرور. وقرأ
الباقون برفع يعقوب على أنه مبتدأ وخبره الظرف الذي قبله؛
وقيل الرفع بتقدير فعل محذوف: أي ويحدث لها، أو وثبت
لها. وقد وقع التبشير هنا لها، ووقع لإبراهيم في قوله
تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101] ﴿وَبَشِّرُوهُ
بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: 28]، لأن كل واحد منهما مستحق
للبشارة به لكونه منهما، وجملة: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا﴾ مستأنفة
جواب سؤال مقتر كأنه قيل، فماذا قالت؟ قال الزجاج: أصلها
يا ويلتي، فابدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة،
وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تقع
كثيراً على أقوال النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وأصل
الويل: الخزي، ثم شاع في كل أمر فظيع، والاستفهام في
قولها: ﴿وَلَمَّا عَجُوزٌ﴾ للتعجب: أي: كيف الد وأنا
شيخة قد طعنت في السن، يقال: عجزت تعجز مخففاً ومتفلاً
عجزاً وتعجيراً: أي: طعنت في السن، ويقال: عجز وعجوزة،
وأما عجزت بكسر الجيم: فمعناها عظمت عجيزتها، قيل: كانت
بنت تسع وتسعين، وقيل: بنت تسعين ﴿وَهَذَا بَعْلِي
شَيْخًا﴾ أي: وهذا زوجي إبراهيم شيخاً لا تحبل من مثله
النساء، وشيخاً منتصب على الحال، والعامل فيه معنى
الإشارة، قال النحاس: وفي قراءة أبي وابن مسعود شيخ
بالرفع على أنه خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ
محذوف: وعلى الأول يكون «بعل» بدلاً من اسم الإشارة؛
قيل: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة؛ وقيل: ابن مائة،
وهذه المبشرة هي سارة امرأة إبراهيم. وقد كان ولد
لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل، فتمنت سارة أن يكون لها
ابن، وأيست منه لكبر سننها، فبشرها الله به على لسان
ملائكته ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: ما نكرته الملائكة من
التبشير بحصول الولد، مع كونها في هذه السن العالية التي
لا يولد لمثلها شيء يقضي منه العجب، وجملة ﴿قَالُوا
اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر،
والاستفهام فيها للإنكار: أي كيف تعجبين من قضاء الله
وقدره، وهو لا يستحيل عليه شيء، وإنما أنكروا عليها مع
كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة،
ولا يخفى على مثلاً أن هذا من مقدراته سبحانه، ولهذا
قالوا: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: الرحمة
التي وسعت كل شيء، والبركات وهي: النمو والزيادة، وقيل
الرحمة: النبوة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل لما فيهم
من الأنبياء، وانتصاب أهل البيت على المدح أو الاختصاص،
وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد
التعميم ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ أي: يفعل موجبات حمده من عباده
على سبيل الكثرة ﴿مَجِيدٌ﴾ كثير الإحسان إلى عباده بما
يفيضة عليهم من الخيرات، والجملة تعليل لقوله: ﴿رَحْمَةُ
اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾. قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ
إِبْرَاهِيمَ الرُّوحُ﴾ أي: الخيفة التي أوجسها في نفسه، يقال
ارتاع من كذا: إذا خاف، ومنه قول النابغة:

المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: أوجس إبراهيم في نفسه خيفة حدثه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة، ومما اتاهم من العذاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿فضحكت﴾ قال: فحاضت وهي: بنت ثمان وتسعين سنة. وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿فضحكت﴾ قال: حاضت، وكانت ابنة بضع وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن مائة سنة. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة قال: حاضت. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ قال: هو ولد الولد. وأخرج ابن الأثير في كتاب الوقف والابتداء، عن حسان بن أبيجر قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل من هنيل، فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الورا، فقال ابن عباس ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ قال: ولد الولد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب من طرق، عن ابن عباس أنه كان ينهى عن أن يزداد في جواب التحية على قولهم: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ويتلو هذه الآية ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾. وأخرج البيهقي عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ قال: الفرق ﴿يجانلنا في قوم لوط﴾ قال: يخاصمنا. وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة في تفسير المجادلة قال: إنه قال لهم يومئذ: أرايتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: إن كان فيهم خمسون لم نعتبهم، قال أربعون؟ قالوا وأربعون، قال ثلاثون؟ قالوا وثلاثون حتى بلغوا عشرة، قالوا: إن كان فيهم عشرة لم نعتبهم، قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير؟ قال قتادة: إنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما شاء الله من ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب. وأخرج أبو الشيخ، عن عمر بن ميمون قال: الأراه: الرحيم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: المنيب المقبل إلى طاعة الله. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: المنيب المخلص.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِنْهُمُ وَمَضَىٰ يَوْمَ ذُرَّعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٤﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَرُونَ هَؤُلَاءِ بِمَا يَفْعَلُونَ لَكُمْ أَنْتُمْ وَآلُكُمْ مِنَ اللَّهِ وَلَا تَخْزَوْنَ فِي ضَلَاتِئِ الْبَاسِ مِنْكُمْ رُسُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٥﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا بِبَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٦﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ فِي يَدِي قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَىٰ دُجَىٰ شَدِيدٍ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَكُونُ إِنَّكَ رُسُلُ رَبِّكَ لَا نَعْبُدُكَ أَنْتَ يَا فَاسِقٌ بِالْعَمَلِ يَقْطَعُ مِنَ الْبَنَاتِ وَلَا يَنْفَعُكُمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَرْسَالُ اللَّهِ إِنَّهُ مُبِيتٌ مِمَّا مَسَّاهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ الْأَبْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ

فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوات من خوف ومن حنر

﴿وجاءته البشري﴾ أي: بالولد، أو بقولهم: لا تخف، قوله: **﴿يجادلنا في قوم لوط﴾** قال الأخفش والكسائي: إن يجادلنا في موضع جادلنا، فيكون هو جواب لما، لما تقرّر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل. قال النحاس: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط، وقيل: إن الجواب محذوف، ويجادلنا في موضع نصب على الحال، قاله الفراء. وتقديره: فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشري اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا: أي يجادل رسلنا؛ وقيل إن المعنى: أخذ يجادلنا، ومجادلتهم قيل إنه سمع قولهم: **﴿إننا مهلكوا أهل هذه القرية﴾** [العنكبوت: 31] قال: أرايتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين اتهلكونهم؟ قالوا لا، قال فاربعون؟ قالوا لا، قال فعشرون؟ قالوا لا، ثم قال فعشرة فخمسة؟ قالوا لا. قال فواحد؟ قالوا لا **﴿قال إن فيها لوطاً﴾** قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله **﴿[العنكبوت: 32] الآية﴾** فهذا معنى مجادلته في قوم لوط: أي في شأنهم وأمرهم. ثم أثنا على إبراهيم، أو أثنى الله عليه فقال: **﴿إن إبراهيم لحليم﴾** أي: ليس بعجول في الأمور، ولا بموقع لها على غير ما ينبغي. والأوّل: كثير التآوّه، والمنيب: الراجع إلى الله، وقد تقدّم في براءة الكلام على الأوّل. قوله: **﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾** هذا قول الملائكة له: أي أعرض عن هذا الجدل في أمر قد فرغ منه، وجفّ به القلم، وحقّ به القضاء **﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾** الضمير للشأن، ومعنى مجيء أمر الله: مجيء عذابه الذي قدره عليهم، وسبق به قضاؤه **﴿وإنهم آتيتهم عذاب غير مرئود﴾** أي: لا يرده دعاء ولا جدال، بل هو واقع بهم لا محالة، ونازل بهم على كل حال، ليس بمصروف ولا منقوع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن عثمان بن محصن، في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورافئيل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يُعْجِلُ حَنِيذٌ﴾ قال: نضيج. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: مشوي. وأخرج أبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: سميط. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك قال: الحنيذ الذي أنضج بالحجارة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن يزيد بن أبي يزيد البصري، في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ قال: لم ير لهم أيدياً فنكرهم، وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿نَكَرَهُمْ﴾ قال: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير، وأنه يحدث نفسه بشر، ثم حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته. وأخرج ابن المنذر، عن المغيرة قال: في مصحف ابن مسعود «وامراته قائمة وهو جالس». وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿وامراته قائمة﴾ قال: في خدمة أضياف إبراهيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن

على التفضيل، بل هي مثل «الله أكبر». وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر بنصب أطهر، وقرأ الباقون بالرفع؛ ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ، وخبره بناتي، وهن ضمير فصل، وأطهر حال. وقد منع الخليل، وسيبويه، والآخرش مثل هذا، لأن ضمير الفصل الذي يسمى عماداً إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك **﴿فأتقوا الله ولا تخزون في ضيقي﴾** أي: اتقوا الله بترك ما تريبون من الفاحشة بهم، ولا تنزلوني وتجلبوا علي العار في ضيقي، والضيف يطلق على الواحد والاثنتين والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، ومنه قول الشاعر:

لا تعدمي الدهر شفار الجازر للضيف والضيف لحق زائر
ويجوز فيه التثنية والجمع، والأول: أكثر. يقال خزي الرجل خزاية: أي استحيا أو ذل أو هان، وخزي خزياً: إذا افتضح، ومعنى في ضيقي: في حق ضيقي، فخزي الضيف: خزي للمضيف، ثم وبخهم فقال: **﴿ليس منكم رجل رشيد﴾** يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح، ويمنعكم منه، فاجابوا عليه معرضين عما نصحهم به، وأرشدهم إليه، بقوله: **﴿ما لنا في بناتك من حق﴾** أي: ما لنا فيهم من شهوة ولا حاجة، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق. ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكابرة على إتيان الذكور، وشدة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كانهم لا حاجة لهم إلى النساء؛ ويمكن أن يريدوا: أنه لا حق لنا في نكاحهن، لأنه لا ينكحون ويتزوج بهن إلا مؤمن، ونحن لا نؤمن أبداً؛ وقيل: إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردنهم، وكان من سنتهم أن من خطب فرداً، فلا تحل المخطوبة أبداً **﴿وانك لتعلم ما نريد﴾** من إتيان الذكور، ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة، وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه **﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾** وجواب لو محذوف. والتقدير: لادفعتكم عنهم ومنعتكم منهم، وهذا منه عليه السلام على طريق التمني: أي لو وجدت معيناً وناصراً، فسمي ما يتقوى به قوة **﴿أو أوي إلى ركن شديد﴾** عطف على ما بعد لو لما فيه من معنى الفعل، والتقدير: لو قويت على دفعكم، أو أويت إلى ركن شديد. وقرئ **﴿أو أوي﴾** بالنصب عطفاً على قوة كانه قال: لو أن لي بكم قوة، أو إيواء إلى ركن شديد؛ ومراده بالركن الشديد: العشيبة، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه، وقيل أراد بالقوة: الولد، وبالركن الشديد: من ينصره من غير ولده؛ وقيل: أراد بالقوة: قوته في نفسه. ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة، ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم **﴿قالوا يا لوط إنا نرسل ريك لن يصلوا إليك﴾** أخبروه أولاً أنهم رسل ربه، ثم بشروه بقولهم: **﴿لن يصلوا إليك﴾** وهذه الجملة موضحة لما قبلها، لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوه إليه ولم يقدروا عليه؛ ثم أمره أن يخرج عنهم، فقالوا له: **﴿فأسر باهلك بقطع من الليل﴾** قرأ

﴿لَمَّا جَاءَ أَهْرَآءَنَا جَمَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْرَتْنَا عَلَيْهَا جِبَارَةً مِنْ سَجِيلٍ تَنْصُورُ﴾ **﴿سورة عذرك وما هي من القليلين﴾** يعيد

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ، جاءوا إلى لوط. فلما راهم لوط، وكانوا في صورة غلمان حسان مرد، **﴿سوء بهم﴾** أي: سوء مجيئهم، يقال سوء يسوءه، وأصل سوء بهم سوءي بهم نقلت حركة الواو إلى السين فقلبت الواو ياء، ولما خففت الهمزة القيت حركتها على الياء. وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو عمرو بإشمام السين الضم **﴿وضاق بهم ذرعاً﴾** قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطاعة، وأصله أن البعير يذرع ببده في سيره على قدر سعة خطوه: أي ييسطها، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته، ضاق ذرعه عن ذلك، فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر؛ وقيل هو من ذرعه القيء: إذا غلبه وضاق عن حبسه. والمعنى أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم من قومه، لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط **﴿وقال هذا يوم عصيب﴾** أي: شديد. قال الشاعر:

وانك إن لم ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب
يقال عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير: أي: يوم مكروه يجتمع فيه الشر، ومنه قيل: عصبه وعصابة: أي مجتمعو الكلمة، ورجل معصوب: أي مجتمع الخلق **﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾** أي: جاءوا لوطاً، الجملة في محل نصب على الحال. ومعنى يهرعون إليه: يسرعون إليه. قال الكسائي، والفراء، وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهرع إلا إسراعاً مع رعدة، يقال أهرع الرجل إهرعاً: أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حمى، قال مهلول:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى نهدهم على رغم الأنوف
وقيل يهرعون: يهرولون، وقيل: هو مشي بين الهرولة والعدو. والمعنى: أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا إليه، كأنما يدفعون نفعا لطلب الفاحشة من أضيافه **﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾** أي: ومن قبل مجيء الرسل في هذا الوقت، كانوا يعملون السيئات؛ وقيل: ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات أي: كانت عاداتهم إتيان الرجال، فلما جاءوا إلى لوط، وقصدوا أضيافه لذلك العمل، قام إليهم لوط مدافعاً **﴿وقال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾** أي: تزوجوهن، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة باضيافي، وقد كان له ثلاث بنات، وقيل: اثنتان، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهن بهن، فيمتنع لخبثهم، وكان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما بنتيه؛ وقيل: أراد بقوله: **﴿هؤلاء بناتي﴾** النساء جملة، لأن نبي القوم أب لهم، وقالت طائفة: إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة، ولم يرد الحقيقة. ومعنى: **﴿هن أطهر لكم﴾** أي: أحل وأنزه؛ والتطهر: التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة أظهر دلالة

جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أنماها من السماء ثم قلبها عليهم ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ قيل: إنه يقال أمطرنا في العذاب وأمطرنا في الرحمة؛ وقيل: هما لغتان، يقال مطرت السماء وأمطرت حكى ذلك الهروي؛ والسجيل: الطين المتحجر بطبخ أو غيره؛ وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة؛ وقيل: السجيل الكثير؛ وقيل: إن السجيل لفظة غير عربية، أصله سج وجيل، وهما بالفارسية حجر وطنين عرّبتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً؛ وقيل: هو من لغة العرب. ونكر الهروي: أن السجيل اسم لسماء الدنيا. قال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود؛ وقيل: هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض؛ وقيل: هي جبال في السماء. وقال الزجاج: هو من التسجيل لهم: أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما سجين﴾. كتاب مرقوم [المطففين: 8، 9] وقيل: هو من أسجلته إذا أعطيته، فكانه عذاب أعطوه، ومنه قول الشاعر:

من يساجلني يساجل ماجداً يملأ اللو إلى عقد الكرب
ومعنى «منضود»: أنه نضد بعضه فوق بعض، وقيل: بعضه في أثر بعض، يقال نضدت المتاع: إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونضيد، والمسومة: المعلمة أي التي لها علامة: قيل كان عليها أمثال الخواتيم؛ وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به. وقال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض، فذلك تسويمها؛ ومعنى: «عند ربك» في خزائنه ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي: وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد، أو ما هي من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد، فهم لظلمهم مستحقون لها. وقيل: ﴿وما هي﴾ أي: قرى من الظالمين من كفر بالنبي ﷺ ببعيد، فإنها بين الشام والمدينة. وفي إطار الحجارة قولان: أحدهما: أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. والثاني: أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها، وكان خارجاً عنها. وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر، أو إجراء له على موصوف منكر: أي شيء بعيد، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدرأ كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المنكر والمؤنث.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ قال: ساء ظنا بقومه، وضاق ذرعاً بضايافه. ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ يقول: شديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه، في قوله: ﴿يهرعون إليه﴾ قال: يسرعون ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ قال: يأتون الرجال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: ﴿يهرعون إليه﴾ يستمعون إليه. وأخرج أبو الشيخ، عنه، أيضاً في قوله: ﴿هؤلاء بناتي﴾ قال: ما عرض لوط

نافع وابن كثير بالوصل، وقرأ غيرهما بالقطع، وهما لغتان فصيحتان. قال الله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ [الفجر: 4] وقال: ﴿سبحان الذي أسرى﴾ [الإسراء: 1] وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال:

حي النضير ورية الخدر أسرت عليه ولم تكن تسري
وقيل: إن أسرى للمسير من أول الليل، وسرى للمسير من آخره، والقطع من الليل: الطائفة منه. قال ابن الأعرابي: يقطع من الليل: بساعة منه، وقال الأخفش: ينجح من الليل، وقيل: بظلمة من الليل، وقيل: بعد هتو من الليل، قيل: إن السرى لا يكون إلا في الليل، فما وجه زيادة يقطع من الليل؟ قيل: لو لم يقل يقطع من الليل لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة، وليس ذلك بمراد ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: لا ينظر إلى ما وراءه، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره. قيل: وجه النهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم، وهو ما نزل بهم، فيرحمهم ويرقوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات، فإنه لا بد للملتفت من فترة في سيره ﴿إلا امرأتك﴾ بالنصب على قراءة الجمهور، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير بالرفع على البذل، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله: ﴿فأسر باهلك﴾ أي: أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسر بها، فـ ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ من العذاب، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة؛ وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد وقال: لا يصح ذلك إلا برفع يلتفت ويكون نعتاً، لأن المعنى يصير إذا أبليت وجزمت أن المرأة أبيع لها الالتفات وليس المعنى كذلك. قال النحاس: وهذا العمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحلّه من العربية لا يجب أن يكون، والرفع على البذل له معنى صحيح، وهو أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات: أي لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تلتفت وتهلك؛ وقيل: إن الرفع على البذل من أحد، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف، فكانه قال: ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تتخلف، والملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين، والضمير في ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ للشأن، والجملة خبر إن ﴿إن موعدهم للصبح﴾ هذه الجملة تقليل لما تقدّم من الأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات، والمعنى: أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، والاستفهام في ﴿أليس الصبح بقريب﴾ للإنكار التقريري، والجملة تأكيد للتعليل. وقرأ عيسى بن عمر ﴿أليس الصبح﴾ بضم الباء وهي لغة، ولعل جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن، والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم ﴿فلما جاء امرأتك﴾ أي: الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه، أو المراد بالأمر: نفس العذاب ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ أي: عالي قرى قوم لوط سافلها، والمعنى: أنه قلبها على هذه الهيئة، وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها، وذلك لأن جبريل أدخل

بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً، إنما قال: هؤلاء نسألكم، لأن النبي إذا كان بين ظهراني قوم فهو أبومهم، قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْلَهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] (وهو أبومهم) في قراءة أبي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: لم تكن بناته ولكن كَنَ من أمته، وكل نبي أبو أمته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساکر، عن السدي نحوه. قال: وفي قراءة عبد الله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [وهو أب لهم] وأزواجه أمهاتهم [الأحزاب: 6]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن حنيفة بن اليمان، قال: عرض عليهم بناته تزويجاً، وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَلَا تَخْزُون فِي ضَيْفِي﴾ قال: لا تفضحوني، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك: ﴿ليس منكم رجل رشيد﴾ قال: رجل يامر بالمعروف وينهى عن المنكر. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في الاسماء والصفات، عن ابن عباس: ﴿ليس منكم رجل رشيد﴾ قال: واحد يقول لا إله إلا الله. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿وانك لم تعلم ما نريد﴾ قال: إنما نريد الرجال. ﴿قال﴾ لوط: ﴿لو أن لي بكم قوة لو آوى إلى ركن شديد﴾ يقول: إلى جند شديد لمقاتلتكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أو آوى إلى ركن شديد قال: عشيرة. وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للوط إن كان يآوي إلى ركن شديد» وهو مروى في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: ﴿يقطع من الليل﴾ قال: جوف الليل. وأخرج عنه قال: بسواد الليل. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة، قال: بطائفة من الليل. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا يتخلف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا ينظر وراءه أحد. ﴿إلا امرأتك﴾. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، عن هارون قال: في حرف ابن مسعود «فأمر بأهلك يقطع من الليل إلا امرأتك». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾ قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم، فقلعها من أركانها، ثم أدخل جناحه ثم حملها على خواتي جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها سرانقها، فلم يصب قوماً ما أصابهم، ثم إن الله طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل. وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخلفة، وليس في ذكرها فائدة لا سيما وبين من قال بشيء من ذلك، وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب،

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ قَالُوا يَا أَبْنَاءَ اللَّهِ مَا لَكُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ آلِ هَارُونَ وَلَا تَفْضَحُونَ عَنْهُمْ وَالْكَافُونَ﴾ [الأحزاب: 6]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن حنيفة بن اليمان، قال: عرض عليهم بناته تزويجاً، وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَلَا تَخْزُون فِي ضَيْفِي﴾ قال: لا تفضحوني، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك: ﴿ليس منكم رجل رشيد﴾ قال: رجل يامر بالمعروف وينهى عن المنكر. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في الاسماء والصفات، عن ابن عباس: ﴿ليس منكم رجل رشيد﴾ قال: واحد يقول لا إله إلا الله. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿وانك لم تعلم ما نريد﴾ قال: إنما نريد الرجال. ﴿قال﴾ لوط: ﴿لو أن لي بكم قوة لو آوى إلى ركن شديد﴾ يقول: إلى جند شديد لمقاتلتكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أو آوى إلى ركن شديد قال: عشيرة. وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للوط إن كان يآوي إلى ركن شديد» وهو مروى في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: ﴿يقطع من الليل﴾ قال: جوف الليل. وأخرج عنه قال: بسواد الليل. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة، قال: بطائفة من الليل. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا يتخلف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا ينظر وراءه أحد. ﴿إلا امرأتك﴾. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، عن هارون قال: في حرف ابن مسعود «فأمر بأهلك يقطع من الليل إلا امرأتك». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾ قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم، فقلعها من أركانها، ثم أدخل جناحه ثم حملها على خواتي جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها سرانقها، فلم يصب قوماً ما أصابهم، ثم إن الله طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل. وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخلفة، وليس في ذكرها فائدة لا سيما وبين من قال بشيء من ذلك، وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب،

بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً، إنما قال: هؤلاء نسألكم، لأن النبي إذا كان بين ظهراني قوم فهو أبومهم، قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْلَهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] (وهو أبومهم) في قراءة أبي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: لم تكن بناته ولكن كَنَ من أمته، وكل نبي أبو أمته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساکر، عن السدي نحوه. قال: وفي قراءة عبد الله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [وهو أب لهم] وأزواجه أمهاتهم [الأحزاب: 6]. وأخرج ابن أبي حاتم، عن حنيفة بن اليمان، قال: عرض عليهم بناته تزويجاً، وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في قوله: ﴿وَلَا تَخْزُون فِي ضَيْفِي﴾ قال: لا تفضحوني، وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك: ﴿ليس منكم رجل رشيد﴾ قال: رجل يامر بالمعروف وينهى عن المنكر. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في الاسماء والصفات، عن ابن عباس: ﴿ليس منكم رجل رشيد﴾ قال: واحد يقول لا إله إلا الله. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي: ﴿وانك لم تعلم ما نريد﴾ قال: إنما نريد الرجال. ﴿قال﴾ لوط: ﴿لو أن لي بكم قوة لو آوى إلى ركن شديد﴾ يقول: إلى جند شديد لمقاتلتكم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، أو آوى إلى ركن شديد قال: عشيرة. وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للوط إن كان يآوي إلى ركن شديد» وهو مروى في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: ﴿يقطع من الليل﴾ قال: جوف الليل. وأخرج عنه قال: بسواد الليل. وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة، قال: بطائفة من الليل. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا يتخلف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا ينظر وراءه أحد. ﴿إلا امرأتك﴾. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، عن هارون قال: في حرف ابن مسعود «فأمر بأهلك يقطع من الليل إلا امرأتك». وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾ قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم، فقلعها من أركانها، ثم أدخل جناحه ثم حملها على خواتي جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها سرانقها، فلم يصب قوماً ما أصابهم، ثم إن الله طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل. وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخلفة، وليس في ذكرها فائدة لا سيما وبين من قال بشيء من ذلك، وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب،

ناقص ووزن ناقص؛ وجملة **﴿إني أراكم بخير﴾** تعليل للنهي: أي لا تنقصوا المكيال والميزان لأنني أراكم بخير؛ أي بثروة وسعة في الرزق، فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده، ففي هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها، ثم نكر بعد هذه العلة علة أخرى، فقال: **﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾** فهذه العلة فيها الإنكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإنكار لهم بنعيم الدنيا؛ ووصف اليوم بالإحاطة والمراد العذاب، لأن العذاب واقع في اليوم؛ ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم، أنه لا يشذ منهم أحد عنه، ولا يجنون منه ملجأ ولا مهرباً، واليوم: هو يوم القيامة، وقيل: هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة؛ ثم أكد النبي عن نقص الكيل والوزن بقوله: **﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾** والإيفاء: هو الإتمام، والقسط: العدل، وهو عدم الزيادة والنقص وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير، ولكنها فوق ما يفيد اسم العدل، والنهي عن النقص، وإن كان يستلزم الإيفاء ففي تعاضد الداليتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن، ثم زاد ذلك تأكيداً فقال: **﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾** قد مرّ تفسير هذا في الأعراف، وفيه النهي عن البخس على العموم، والأشياء أعم مما يكال ويوزن، فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولاً أولياً؛ وقيل البخس المكس خاصة، ثم قال: **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** قد مرّ أيضاً تفسيره في البقرة، والعثي في الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس، فيدخل فيه ما في السياق من نقص المكيال والميزان، وقبيده بالحال وهو قوله: **﴿مفسدين﴾** ليخرج ما كان صورته من العثي في الأرض، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر في السفينة **﴿بقيت الله خير لكم﴾** أي: ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيراً وبركة مما يتقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس، والفساد في الأرض، نكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين. وقال مجاهد: بقية الله طاعته. وقال الربيع: وصيته. وقال الفراء: مراقبته، وإنما قيد ذلك بقوله: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر، أو المراد بالمؤمنين هنا: المصنّفون لشعيب **﴿وما لنا عليكم بحفيظ﴾** أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما، أو أحفظ عليكم أعمالكم، وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها، وجملة: **﴿قالوا يا شعيب أصلواتك تمارك أن نترك ما يعبد آبائنا﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل فماذا قالوا لشعيب؟ وقرئ **﴿أصلواتك﴾** بالإنفراد، وأن نترك في موضع نصب. وقال الكسائي: موضعها خفض على إضمار الباء، ومرادهم بما يعبد آبائهم ما كانوا يعبدون من الأوثان، والاستقهار للإنكار عليه والاستهزاء به، لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتلطيف صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصلوة إذا فعل ما لا يناسب الصواب:

أصلقتك أمرتك بهذا، وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة؛ وقيل المراد بها الدين، وقيل المراد بالصلوات اتباعه، ومنه المصلى الذي يتلو السابق؛ وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده، وقولهم: **﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾** جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن، ونهيههم عن نقصهما، وعن بخس الناس، وعن العثي في الأرض، وهذه الجملة معطوفة على «ما» في ما يعبد آبائنا. والمعنى: أصلواتك تمارك أن نترك ما يعبد آبائنا، وتامرك أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء، من الأخذ والإعطاء، والزيادة والنقص. وقرئ **﴿تفعل ما تشاء﴾** بالفوقية فيهما. قال النحاس: فتكون أو على هذه القراءة للمعطف على أن الأولى، والتقدير: أصلواتك تمارك أن تفعل في أموالنا ما تشاء. وقرئ «نفعل» بالنون وما تشاء بالفوقية، ومعناه: أصلواتك تمارك أن نفعل نحن في أموالنا ما تشاءه أنت وتدع ما تشاءه نحن وما يجري به التراضي بيننا؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا: **﴿إنك لانت الحليم الرشيد﴾** على طريقة التهكم به، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما، أو يريدون إنك لانت الحليم الرشيد عند نفسك، وفي اعتقادك، ومعناهم: أن هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده في نفسك من الحلم والرشد؛ وقيل إنهم قالوا لك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك، وإنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم. وقد تقدّم تفسير الحلم والرشد، وجملة: **﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾** مستأنفة كالجمل التي قبلها؛ والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه **﴿ورزقني منه﴾** أي من فضله وخزائنه ملكه **﴿ورزقاً حسناً﴾** أي: كثيراً واسعاً حلالاً طيباً، وقد كان عليه السلام كثير المال؛ وقيل: أراد بالرزق النبوة؛ وقيل: الحكمة؛ وقيل: العلم، وقيل: التوفيق، وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره: أترك أمركم ونهيتكم، أو اتقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أتياكم به﴾** أي: وما أريد بنهيي لكم عن التطفيف والبخس أن أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله بكونكم، يقال: خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مولد عنه، وخالفته عن كذا في عكس ذلك **﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾** أي: ما أريد بالأمر والنهي إلا لإصلاح لكم ورفع الفساد في دينكم ومعاملاتكم **﴿ما استطعت﴾** ما بلغت إليه استطاعتي، وتمكنت منه طاقتي **﴿وما توفيقي إلا بالله﴾** أي: ما صرت موفقاً هادياً نبياً مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه، وإقداري عليه ومنحي إياه **﴿عليه توكلت﴾** في جميع أموري التي منها أمركم ونهيتكم **﴿والله قتيب﴾** أي: أرجع في كل ما نابني من الأمور، وأفوض جميع أموري إلى ما يختاره لي من قضائه وقدره، وقيل معناه: وإليه أرجع في الآخرة؛ وقيل: إن الإنابة الدعاء. ومعناه: وله ادعوا. قوله: **﴿ويا قوم لا**

بالحجارة وقيل معنى لرجمنك لشتمنك، ومنه قول الجعدي:
تراجمنا بمرّ القول حتى نصير كائننا فرسارهان
ويطلق الرجم على اللعن، ومنه الشيطان الرجيم، وجملة:
﴿قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله﴾ مستأنفة، وإنما
قال أعزّ عليكم من الله، ولم يقل أعزّ عليكم مني، لأن نفي
العزّة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف
النفي استهانة به، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عزّ
وجل، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليه من الله،
فاستنكر ذلك عليهم، وتعجب منه والزهم ما لا مخلص لهم
عنه، ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفي هذا من
قوة الحاجة ووضوح المجادلة وإلزام الخصم الحجر ما لا
يخفى، ولأمر ما سمي شعيب خطيب الأنبياء، والضمير في
﴿واتخذتموه﴾ راجع إلى الله سبحانه. والمعنى: واتخذتم الله
عزّ وجل بسبب عدم اعتدائكم بنبيه الذي أرسله إليكم
﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي: منبوذاً وراء الظهر لا تبالون به؛
وقيل المعنى: واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم،
وهو ما جئتمكم به وراء ظهوركم، يقال: جعلت أمره بظهر: إذا
قصرته فيه، و﴿ظهرياً﴾ منسوب إلى الظهر، والكسر لتغيير
النسب ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ لا يخفى عليه شيء
من أقوالكم وأفعالكم. ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني
عامل سوف تعلمون﴾ لما رأى إصرارهم على الكفر
وتصميمهم على دين آبائهم، وعدم تأثير الموعظة فيهم،
توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكثهم ونهاية استطاعتهم،
يقال مكن مكانة: إذا تمكن أبلغ تمكن، وأخبرهم أنه عامل
على حسب ما يمكنه ويقدر الله له؛ ثم بالغ في التهديد
والوعيد بقوله: ﴿سوف تعلمون﴾ أي: عاقبة ما أنتم فيه من
عبادة غير الله والإضرار بعباده، وقد تقدّم مثله في الانعام
﴿ومن يأتيه عذاب يخزيه﴾ من في محل نصب بتعلمون:
أي: سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي
يتأثر عنه الذلّ والفضيحة والعار ﴿ومن هو كاذب﴾
معطوف على من يأتيه؛ والمعنى: ستعلمون من هو المعذب
ومن هو الكاذب؟ وفيه تعريض بكنبهم في قولهم: ﴿لولا
رهطك لرجمنك وما أنت علينا بعزيز﴾؛ وقيل: إن من
مبتدأ، وما بعدها صلتها، والخبر محذوف، والتقدير: من هو
كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره. قال الفراء: إنما جاء
بهو في ﴿من هو كاذب﴾ لأنهم لا يقولون من قائم: إنما
يقولون من قام، ومن يقوم، ومن القائم، فزادوا هو ليكون
جملة تقوم مقام فعل ويفعل. قال النحاس: ويدل على خلاف
هذا قول الشاعر:

من رسولي إلى الثريا فإني ضقت نزعاً بهجرها والكتاب

﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ أي: انتظروا إني معكم
منتظر لما يقضي به الله بيننا ﴿ولما جاء أمرنا نجينا
شعبياً والذين آمنوا معه﴾ أي: لما جاء عذابنا، أو أمرنا
بعذابهم، نجينا شعبياً وأتباعه الذين آمنوا به ﴿برحمة منا﴾
لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم: وهي هدايتهم للإيمان

يجرمنكم شقائي﴾ قال الزجاج: معناه لا يكسبنكم شقائي
إصابة العذاب إياكم، كما أصاب من كان قبلكم؛ وقيل معناه:
لا يحملنكم شقائي، والشقاق العدواة، ومنه قول الأخطل:

الامن مبلغ عني رسولاً فكيف وجنتم طعم الشقاق

و﴿إن يصيبكم﴾ في محل نصب على أنه مفعول ثان
ليجرمنكم ﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾ من الغرق ﴿أو قوم
هود﴾ من الريح ﴿أو قوم صالح﴾ من الصيحة، وقد تقدّم
تفسير يجرمنكم وتفسير الشقاق ﴿وما قوم لوط منكم
ببعيد﴾ يحتمل أن يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم، أو
ليس زمانهم ببعيد من زمانكم، أو ليسوا ببعيد منكم في
السبب الموجب لعقوبتهم، وهو مطلق الكفر، وأقرّد لفظ
﴿ببعيد﴾ لمثل ما سبق في ﴿وما هي من الظالمين
ببعيد﴾ ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة،
فقال: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم
وبود﴾ وقد تقدّم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه
في أوّل السورة، وتقدّم تفسير الرحيم، والمراد هنا أنه عظيم
الرحمة للمتائبين، والودود المحبّ. قال في الصحاح: وددت
الرجل أودّه: إذا أحببته، والودود المحب، والودّ والودّ
والودّ: المحبة؛ والمعنى هنا: أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو
بليغ المودة بمن يودّه من اللطف به، وسوق الخير إليه، وبلغ
الشرّ عنه. وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار
والتوبة، جملة: ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾
مستأنفة كالجملة السابقة، والمعنى: أنك تأتينا بما لا عهد لنا
به من الإخبار بالأمور الغيبية، كالبعث والنشور، ولا نفقه
ذلك: أي نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة، فيكون
نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازاً، وقيل: قالوا ذلك إعراضاً
عن سماعه، واحتقار الكلام مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً
عندهم، فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازاً، يقال فقه يفقه:
إذا فهم فقهاً وفقها، وحكى الكسائي فقهاً، ويقال فقه فقهاً:
إذا صار فقيهاً ﴿وإننا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي: لا قوة لك
تقدر بها على أن تمنع نفسك منا، وتتمكن بها من مخالفتنا؛
وقيل: المراد أنه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى؛ وقيل:
إنه كان مصاباً ببصره. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن
حمير تقول للأعمى ضعيف: أي قد ضعف بذهاب بصره
كما يقال له ضرير: أي قد ضرّ بذهاب بصره؛ وقيل:
الضعيف: المهين، وهو قريب من القول الأوّل ﴿ولولا
رهطك لرجمنك﴾ رهط الرجل عشيرته الذين يستند إليهم،
ويتوقى بهم، ومنه الراهط لاجر اليربوع، لأنه يتوثق به
ويخبا فيه ولده، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، وإنما
جعلوا رهطه مانعاً من إنزال الضرر به مع كونهم في قلة،
والكفار الوف مؤلفة، لأنهم كانوا على دينهم، فتركوه احتراماً
لهم لا خوفاً منهم، ثم اكثروا ما وصفوه به من الضعف
بقولهم: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ حتى تكفّ عنك لأجل
عزّتك عندنا، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، ومعنى
لرجمنك لقتلناك بالرجم، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه

حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ فِرَاقِي. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، قال: شِقَاقِي عداوتي. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي قال: لَا تَحْمِلَنَّكُمْ عداوتي. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، في قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ قال: إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وشمود. وأخرج أبو الشيخ، وابن عساكر، عن سعيد بن جبير ﴿وإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان أعمى، وإنما عمي من بكائه من حبِّ الله عزَّ وجلَّ. وأخرج الواحدي، وابن عساكر، عن شذَّاد بن أوس، قال: قال رسول الله ﷺ: «بكى شعيب عليه السلام من حبِّ الله حتى عمي». وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والخطيب، وابن عساكر من طرق، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان ضرير البصر. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي صالح، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن سفيان في قوله: ﴿وإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان أعمى، وكان يقال له خطيب الأنبياء. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، قال: معناه إنما أنت واحد. وأخرج أبو الشيخ، عن علي بن أبي طالب، أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب ﴿وإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان مكفوفاً، فنبسبه إلى الضعف ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ قال علي: فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربه ما هابوا إلا العشييرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ قال: نبذتم أمره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال في الآية: لَا تَخَافُونَهُ. وأخرج أبو الشيخ عن الضحك قال: تهاونتم به.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِآيَاتِنَا وَمُطَرَّا شُعَيْبًا ۖ إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيْمَةً فَاتَّبَعُوهُ أُمُورًا وَعَزَّوْنَ وَمَا أَمرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۖ يَقْدُومُهُ يَوْمَ الْآخِرَةِ فَاوْرَدَهُمُ الْكَارَ وَيَسَّ الْوَرْدَ الْمَوْرَدُ ۖ وَأَتَمُّوْا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمِ الْآخِرَةِ يَسَّ الْوَرْدَ الْمَوْرَدُ ۖ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِهِ الْفَرْقُ نَقَضُ عَلَيْهِ يَتَا قَائِدَ وَحَصِيْدَ ۖ وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِندَ رَبِّكَ ۖ وَكَذَلِكَ أَفْزَدَ رَبُّكَ إِذَا أَفْزَدَ الْفَرَكُ وَهُوَ ظَلِيْمٌ إِذَا أَفْزَدَ أَيْدِي سَوِيْدٌ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ كَانَ عَدَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ جَمْعِهِمْ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ ۖ وَمَا تَوَجَّهُوا إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ۖ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكُنْ لَكُمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُوءٌ مُّسْتَكْبِرٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ سَفَّوْا فَنَفْسٌ أَلَا لَكُمْ فِيهَا زَكِيَّةٌ وَسُوءٌ ۖ خَلِيلُكُمْ فِيهَا مَا دَاسَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ قَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ سَفَّوْا فَنَفْسٌ أَلَا لَكُمْ فِيهَا زَكِيَّةٌ وَسُوءٌ ۖ خَلِيلُكُمْ فِيهَا مَا دَاسَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَا غَيْرَ مَحْذُورٍ ۖ

المراد بالآيات التوراة، والسلطان المبين: المعجزات؛ وقيل المراد بالآيات هي التسع المنكورة في غير هذا الموضع، والسلطان المبين: العصا، وهي وإن كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها اقربت بالنكر؛ وقيل: المراد بالآيات: ما يفيد

﴿ولخذلت الذين ظلموا﴾ غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه، وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر ﴿الصيحة﴾ التي صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، وفي الأعراف ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ [الأعراف: 78، 91] وكذا في العنكبوت. وقد قمنَّا أن الرجفة الزلزلة، وإنما تكون تابعة للصيحة لتموج الهوى المفضي إليها ﴿فأصبحوا في نيارهم جائمين﴾ أي: ميتين، وقد تقدَّم تفسيره وتفسير ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ قريباً، وكذا تفسير ﴿إلا بعداً لمينين كما بعدت ثمود﴾ وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن السلمي قرأ ﴿كما بعدت ثمود﴾ بضم العين. قال المهدي: من ضم العين من بعدت فهي لغة يستعمل في الخير والشر، وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور يستعمل في الشر خاصة، وهي هنا بمعنى اللعنة.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إني أراكم بخير﴾ قال: رخص السعر ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ قال: غلاء السعر، وأخرج ابن جرير، عنه ﴿بقية الله﴾ قال: رزق الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿بقية الله خير لكم﴾ يقول: حظكم من ربكم خير لكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: طاعة الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الأعمش في قوله: ﴿أصلواتك تأمرك﴾ قال: أقرأتك. وأخرج ابن عساكر، عن الأحنف: أن شعيباً كان أكثر الأنبياء صلاة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في قوله: ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ قال: نهامهم عن قطع هذه النذائير والدراهم فقالوا: إنما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء، إن شئنا قطعناها، وإن شئنا أحرقناها، وإن شئنا طرحناها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن محمد بن كعب نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن سعد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وعبد بن حميد، عن سعيد بن المسيب، نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إني لآنت الحليم الرشيد﴾ قال: يقولون إنك لست بحليم ولا رشيد. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: استبزاء به. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحك، في قوله: ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ قال: الحلال. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أتياكم منه﴾ قال: يقول لم أكن لأنهم عن أمر وأركبه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وليه أنيب﴾ قال: إليه أرجع. وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن علي، قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: قل الله ربي ثم استقم، قلت: ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، قال: ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً، وفي إسناده محمد بن يوسف الكديمي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي

والناس في قسم المنية بينهم كالزروع منه قائم وحصيد
﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بما فعلنا بهم من العذاب **﴿وَلَكِنْ
 ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾** بالكفر والمعاصي **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ
 آلِهَتُهُمْ﴾** أي: فما نفعت عنهم أصنامهم التي يعبدونها من
 دون الله شيئاً من العذاب **﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** أي: لما جاء
 عذابه **﴿وَمَا زَالَهُمْ غَيْرَ تَنْتِيبٍ﴾**: الهلاك والخسران: أي
 ما زالتهم الأصنام التي يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً، وقد
 كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع **﴿وَكَذَلِكَ
 لَخَذَ رَبُّكَ﴾** قرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف «أخذ» على
 أنه فعل. وقرأ غيرهما «أخذ» على المصدر **﴿إِذَا لَخَذَ الْقُرَى
 وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾** أي: أهلها وهم ظالمون **﴿إِنْ لَخَذَهَا﴾** أي:
 عقوبته للكافرين **﴿الْيَمَّ شَدِيدٌ﴾** أي: موجع غليظ **﴿إِنْ فِي
 نَفْسِكَ لَأَيَّةٌ﴾** أي: في أخذ الله سبحانه لأهل القرى، أو في
 القصص الذي قصه على رسوله لعبرة وموعظة **﴿لَمَنْ
 خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾** لأنهم الذين يعتبرون بالعبر، ويتعظون
 بالمواعظ، والإشارة بقوله: **﴿تِلْكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لِهَ النَّاسِ﴾**
 إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه
 الناس للمحاسبة والمجازاة **﴿وَتِلْكَ﴾** أي: يوم القيامة **﴿يَوْمَ
 مَشْهُودٍ﴾** أي: يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيه الخلائق،
 فانتسج في الظرف بإجرائه مجرى المفعول **﴿وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا
 لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ﴾** أي: وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاه أجل
 معدود معلوم بالعدد، قد عيّن الله سبحانه وقوعه الجزاء بعده
﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو، والكسائي بإثبات
 الياء في الدرج، حذفها في الوقف. وقرأ أبي، وابن مسعود
 بإثباتها وصلّاً ووقفاً. وقرأ الأعمش بحذفها فيهما، ووجه
 حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائي أن الفعل السالم
 يوقف عليه كالمجزوم فحذفت الياء كما تحذف الضمة. ووجه
 قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل: أنهم رأوا رسم
 المصحف كذلك. وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول لا
 أنر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر، وأنشد الفراء في حذف
 الياء:

كفك كف ما تليق برهماً جوداً وأخرى تطع بالسيف للما
 قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء، والمعنى: حين
 يأتي يوم القيامة **﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسٍ﴾** أي: لا تتكلم حذف
 إحدى التامين تخفيفاً: أي لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها
 من الكلام؛ وقيل: لا تكلم بحجة ولا شفاعة **﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾**
 سبحانه لها في التكلم بذلك، وقد جمع بين هذا وبين قوله:
﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ولا يؤذن لهم فيعترون **﴿[المرسلات:
 35، 36] باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة. وقد
 تكرّر مثل هذا الجمع في مواضع ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾
 أي: من الأنفس شقي، ومنهم سعيد؛ فالشقي: من كتبت عليه
 الشقاوة، والسعيد: من كتبت له السعادة، وتقديم الشقي على
 السعيد لأن المقام مقام تحنير ﴿فاما الذين شقوا ففي
 النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ أي: فاما الذين سبقت لهم
 الشقاوة، فمستقرون في النار لهم فيها زفير وشهيق. قال**

الظنّ، والسلطان المبين ما يفيد القطع بما جاء به موسى؛
 وقيل: هما جميعاً عبارة عن شيء واحد: أي أرسلناه بما
 يجمع وصف كونه آية، وكونه سلطاناً مبيناً؛ وقيل إن
 السلطان المبين: ما أورده موسى على فرعون في المحاوراة
 بينهما **﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾** أي: أرسلناه بذلك إلى هؤلاء.
 وقد تقدّم أن الملأ أشرف القوم، وإنما خصهم بالذكر دون
 سائر القوم، لأنهم أتباع لهم في الإصدار والإيراد، وخصّ
 هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله: **﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾** أي:
 أمره لهم بالكفر، لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح، إذ
 كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره،
 ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقته، فيعمّ الكفر
 وغيره **﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾** أي: ليس فيه رشد قط،
 بل هو: غي وضلال، والرشيد بمعنى المرشد، والإسناد
 مجازي، أو بمعنى ذي رشد، وفيه تعريض بأن الرشيد في
 أمر موسى **﴿يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** من قدمه بمعنى
 تقدّمه: أي يصير متقدماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى
 عذاب النار، كما كان يتقدّمهم في الدنيا **﴿فَأُورِدَهُمُ النَّارَ﴾**
 أي: إنه لا يزال متقدماً لهم، وهم يتبعونه حتى يوردهم النار،
 وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، ثم نَمَّ الورد الذي
 أوردهم إليه، فقال: **﴿وَيُبْسُ الْوَرْدُ الْمُرْوَدُ﴾** لأن الوارد إلى
 الماء الذي يقول له الورد، إنما يردّه ليطفئ حرّ العطش،
 ويذهب ظمأه، والنار على ضدّ ذلك، ثم نهم بعد نَمَّ المكان
 الذي يردونه، فقال: **﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةٍ﴾** أي: اتبع قوم
 فرعون مطلقاً، أو الملأ خاصة، أو هم وفرعون في هذه الدنيا
 لعنة عظيمة: أي طرداً وإبعاداً **﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** أي: واتبعوا
 لعنة يوم القيامة، يلعنهم أهل المحشر جميعاً، ثم إنه جعل
 اللعنة رُفداً لهم على طريقة التهكم، فقال: **﴿يُبْسُ الْوَرْدُ
 الْمُرْوَدُ﴾**. قال الكسائي وأبو عبيدة: رفنته أرّفده رُفداً: أمّنته
 وأعطيته، واسم العطية الرُفد: أي بئس العطاء، والإعانة ما
 أعطوه إياه، وأعانونهم به، والمخصوص بالذمّ محنوف: أي
 رُفدهم، وهو: اللعنة التي اتبعوها في الدنيا والآخرة، كأنها
 لعنة بعد لعنة تمدّ الأخرى الأولى وتؤيدها. وذكر الماوردي
 حكاية عن الأصمعي أن الرُفد بالفتح: القدح، وبالكسر: ما فيه
 من الشراب فكأنه نَمَّ ما يستقونه في النار، وهذا أنسب
 بالمقام؛ وقيل: إن الرُفد الزيادة: أي بئس ما يرفدون به بعد
 الفرق، وهو الزيادة قاله الكلبي؛ والإشارة بقوله: **﴿تِلْكَ مِنْ
 أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ﴾** أي: ما قصه الله سبحانه في
 هذه السورة من أخبار الأمم السالفة، وما فعلوه مع أنبيائهم:
 أي هو مقصوص عليك خبر بعد خبر، وقد تقدّم تحقيق
 معنى القصص، والضمير في منها عائد إلى القرى: أي من
 القرى قائم، ومنها حصيد، والقائم: ما كان قائماً على
 عروشها، والحصيد: ما لا أثر له؛ وقيل القائم: العامر،
 والحصيد: الخراب؛ وقيل القائم: القرى الخاوية على
 عروشها، والحصيد: المستأصل بمعنى محصود، شبه القرى
 بالزروع القائم على ساقه والمقطوع. قال الشاعر:

قد حصلت جزءاً؛ وقد حكى هذا القول الزجاج أيضاً. السابع: أن المعنى: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبوركم وللحساب، حكاه الزجاج أيضاً. الثامن: أن المعنى: خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم؛ حكاه أيضاً الزجاج، واختاره الحكيم الترمذي. التاسع: أن إلا بمعنى الواو قاله الفراء؛ والمعنى وما شاء ربك من الزيادة؛ قال مكي: وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو. العاشر: أن إلا بمعنى الكاف، والتقدير: كما شاء ربك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَكَبَّوْا مَا نَحْكُم بِأُيُوكُم مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 22] أي: كما قد سلف.

الحادي عشر: أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي ننب إليه الشارع في كل كلام، فهو على حدّ قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾ [الفتح: 27] روى نحو هذا عن أبي عبيد، وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم. وقد نوقش بعضها بمناقشات، ودفعت ببفوعات. وقد أوضحت ذلك في رسالة مستقلة جمعتها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام. **﴿وَمَا الْبَاقُونَ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾** قرأ الأعمش، وحفص، وحزمة، والكسائي «سعدوا» بضم السين، وقرأ الباقر بفتح السين، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم. قال سيبويه: لا يقال سعد فلان، كما لا يقال شقي فلان؛ لكونه مما لا يتعدى، قال النحاس: ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية، وهذا لحن لا يجوز، ومعنى الآية كما مر في قوله: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَّوْا﴾** قوله: **﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾** قد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه **﴿عطاء غير مجذوذ﴾** أي: يعطيهم الله عطاء غير مجذوذ، والمجذوذ: المقطوع، من جذه يجذّه إذا قطعه، والمعنى: أنه ممتد إلى غير نهاية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: **﴿يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** يقول: أضلهم فأوردهم النار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: فرعون يمضي بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: **﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾** قال: الورد: اللؤلؤ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: **﴿بِئْسَ الرَّقْدُ الْمَرْقُودُ﴾** قال: لعنة الدنيا والآخرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه **﴿منها قائم وحصيد﴾** يعني: قرى عامرة وقرى خامة. وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة: منها قائم يرى مكانه، وحصيد لا يرى له أثر. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جريج: منها قائم خاو على عروشه، وحصيد ملصق بالأرض. وأخرج أبو الشيخ، عن أبي عاصم **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾** قال: ما نفعت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عمر،

الزجاج: الزفير من شدة الأنين، وهو المرتفع جداً. قال: وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين: أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحميم، والشهيق: بمنزلة آخره؛ وقيل الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف؛ وقيل الزفير: إخراج النفس، والشهيق: رد النفس؛ وقيل: الزفير من الصدر، والشهيق: من الحلق، وقيل الزفير: ترديد النفس من شدة الخوف، والشهيق: النفس الطويل الممتد، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل ما حالهم فيها؟ أو في محل نصب على الحال **﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾** أي: مدة دوامهما.

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت، لأنه قد علم بالادلة القطعية تأييد عذاب الكفار في النار، وعدم انقطاع عنهم، وثبت أيضاً أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا، فقالت طائفة: إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء، قالوا: هو دائم ما دامت السموات والأرض، ومنه قولهم: لا أتيك ما جنّ ليل، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ونحو ذلك. فيكون معنى الآية: أنهم خالدون فيها أبداً لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له؛ وقيل إن المراد: سموات الآخرة وأرضها، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا، وهي دائمة بدوام دار الآخرة، وأيضاً لا بدّ لهم من موضع يقلمهم وآخر يظلمهم، وهما أرض وسماء. قوله: **﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾** قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال: الأول: أنه من قوله: **﴿ففي النار﴾** كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك. روي هذا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري. الثاني: أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار، وعلى هذا يكون قوله سبحانه: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَّوْا﴾** عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من خالدين، وتكون ما بمعنى من، وبهذا قال قتادة، والضحاك، وأبو سنن، وغيرهم. وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصاً لكل عموم. الثالث: أن الاستثناء من الزفير والشهيق: أي لهم فيها زفير وشهيق **﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾** من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق، قاله ابن الأنباري. الرابع: أن معنى الاستثناء: أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض، لا يموتون إلا ما شاء ربك، فإنه يامر النار فتاكلهم حتى ينفوا، ثم يجدد الله خلقهم؛ روي ذلك عن ابن مسعود. الخامس: أن إلا بمعنى سوى. والمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود، كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له حكاه الزجاج. السادس: ما روي عن الفراء وابن الأنباري وابن قتيبة من أن هذا لا ينافي عدم المشيئة كقولك: والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا لمدة التي شاء الله، فالمشيئة

في قوله: ﴿وَمَا زَانُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: هلكة. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن زيد قال: تخسير. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة معناه. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكُنْذُرْكَ أَتَىٰ رِيكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ لَئِيمٌ شَدِيدٌ﴾». وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، في قوله: ﴿إِنْ فِي نَفْسِكَ لَآيَةٌ لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يقول: إنا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للأنبياء أننا نخلصهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿نَلَّكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لِّه النَّاسِ وَنَلَّكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، مثله. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتُكَ﴾ قال: ذلك اليوم. وأخرج الترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمر بن الخطاب، قال: «لما نزلت ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قلت: يا رسول الله فعلام تعمل على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: بل على شيء قد فرغ منه، وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له». وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: هاتان من المخبات قول الله: ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ و ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَ لَا أَعْلَمُ لَنَا﴾ [المائدة: 109] أما قوله: ﴿فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بنوهم، ثم يأتى في الشفاعة لهم، فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة، فسماهم أشقياء حين عذبهم في النار ﴿وَمَا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ حين أن في الشفاعة لهم وأخرجهم من النار وأنخلهم الجنة وهم هم ﴿وَمَا الَّذِينَ سَعَوْا﴾ يعني بعد الشقاء الذي كانوا فيه ﴿فَقِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني: الذين كانوا في النار. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن قتادة أنه تلا هذه الآية: ﴿فَمَا الَّذِينَ شَقُوا﴾ فقال: حدثنا أنس أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال أهل حروراء: إن من دخلها بقي فيها». وأخرج ابن مردويه، عن جابر، قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا الَّذِينَ شَقُوا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن شاء الله أن يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن خالد بن معدان في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال: إنها في التوحيد من أهل القبلة. وأخرج عبد الرزاق، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله، أو عن أبي سعيد الخدري، أو رجل

من أصحاب النبي ﷺ، في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال: هذه الآية قاضية على القرآن كله، يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تأتي عليه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن أبي نضرة، قال: ينتهي القرآن كله إلى هذه الآية: ﴿إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، نحوه أيضاً. وأخرج البيهقي في البعث والنشور، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال: فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء في النار، وأن يخلد هؤلاء في الجنة. وأخرج ابن جرير، عنه، في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال: استثنى الله من النار أن تاكلهم. وأخرج أبو الشيخ، عن السدي، في الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: 168] إلى آخر الآية، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها، وأوجب لهم خلود الأبد. وقوله: ﴿وَمَا الَّذِينَ سَعَوْا﴾ الآية. قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ [النساء: 57] فأوجب لهم خلود الأبد. وأخرج ابن المنذر، عن الحسن، قال: قال عمر: لو لبث أهل النار في النار كقنبر رمل عالج، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه. وأخرج إسحاق بن راهويه عن أبي هريرة قال: «سألتني على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ ﴿فَمَا لِلَّذِينَ شَقُوا﴾ الآية». وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن إبراهيم، قال: «ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾» قال وقال ابن مسعود: «ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها». وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال: «جهنم أسرع الدارين عمراً وأسرعها خراباً». وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال الله أعلم بتثنيته ما وقعت. وقد روي عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر، وأبو هريرة، وابن مسعود، كلبن عباس، وعبد الله بن عمر، وجابر، وأبي سعيد من الصحابة، وعن أبي مجلز وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما من التابعين. وورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي، وإسناده ضعيف. ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة، وفي السكوت عنه غنى، فقال: ولا يخدعك قول المجبرة إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روي لهم بعض الثوابت عن ابن عمر: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، ثم قال: وأقول: ما كان

إلى كفر عصره ﷺ، وقيل المعنى: لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء؛ وقيل: لا تك في شك من سوء عاقبتهم. ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني، وهذا النهي له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك. فإنه ﷺ لا يشك في ذلك أبداً، ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل، وفي هذا استثناء تعليل للنهي عن الشك. والمعنى: أنهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره، فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك، وجاء بالمضارع في كما يعبد آبائهم لاستحضار الصورة. ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال: ﴿وإنما لموفقهم نصيبهم﴾ من العذاب كما وفينا آبائهم، لا ينقص من ذلك شيء، وانتصاب غير الحال، والتوفية لا تستلزم عدم النقص، فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص، كما يجوز أن يوفى وهو كامل، وقيل: المراد نصيبهم من الرزق، وقيل: ما هو أعم من الخير والشر ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي: التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ أي: في شأنه وتفاصيل أحكامه، فأمن به قوم، وكفر به آخرون، وعمل بأحكامه قوم، وترك العمل ببعضها آخرون، فلا يضيق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم﴾ أي: لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح لقضى بينهم: أي بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فأنشأ المحق وعذب المبطل؛ أو الكلمة هي أن رحمته سبحانه سبقت غضبه، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك؛ وقيل: إن الكلمة هي أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال، وهذا من جملة التسلية له ﷺ، ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال: ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ أي: من القرآن، إن حمل على قوم محمد ﷺ، أو من التوراة، إن حمل على قوم موسى عليه السلام، والمريب: الموضع في الرية. ثم جمع الأولين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم، أو هو والثواب فقال: ﴿وإن كلا لما ليوفيهم ربك أعمالهم﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر «وإن» بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة وعملت في كلا النصب، وقد جوز عملها الخليل وسيبويه، وقد جوز البصريون تخفيف إن مع إعمالها، وأنكر ذلك الكسائي وقال: ما أدري على أي شيء قرئ «وإن كلا»؟ وزعم الفراء أن انتصاب كلا بقوله ليوفيهم، والتقدير وإن ليوفيهم كلا، وأنكر ذلك عليه جميع النحويين. وقرأ الباقر بتشديد «إن» ونصبوا بها كلا. وعلى كلا القراءتين فالتنوين في كلا عوض عن المضاف إليه: أي وإن كل المختلفين. وقرأ عاصم وحزمة وابن عامر «لما» بالتشديد، وخففها الباقر. قال الزجاج: لام لما لام إن، وما زائدة مؤكدة، وقال الفراء: ما بمعنى من كقوله: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ [النساء: 72] أي: وإن كلا لمن ليوفيهم؛ وقيل: ليست بزائدة بل هي اسم دخلت عليها لام التوكيد، والتقدير:

لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. انتهى.

واقول: أما الطعن على من قال بخروج أهل الكباثر من النار، فالجواب بذلك يا مسكين رسول الله ﷺ، كما صح عنه في نواوين الإسلام التي هي لفاتر السنة المطهرة، وكما صح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر؛ فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته، وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة، وأي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة، كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف؛ وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل بافترائهم، فلا مناداة ولا مخالفة، وأي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة، فالاستثناء الأول: يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الأمة من النار، والاستثناء الثاني: يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار؛ وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره، وبه قال ابن عباس حبر الأمة. وأما الطعن على صاحب رسول الله ﷺ، وحافظ سنته، وعابد الصحابة، عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، فإلى أين يا محمود، أتدري ما صنعت، وفي أي واد وقعت، وعلى أي جنب سقطت؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان، وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة، ورجلك العرجاء، أما كان لك في مكسري طلبتك من أهل النحو واللغة ما يريك عن الدخول فيما لا تعرف، والتكلم بما لا تدري، فيأشع العجب ما يفعل القصور في علم الرواية، والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْدُئُ هَؤُلَاءُ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا كَمَا يَبْدُؤُا مَا أَهْلُؤُمُ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفِقُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنُوسٍ ﴿١٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤٩﴾ وَإِن كَلَّلْنَا لَبُؤْيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَمْكُرُونَ خَبِيرٌ ﴿١٥٠﴾ فَاسْتَوْفُوا كُتَابَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَةٍ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿١٥١﴾ وَأَوْرَثَ الْوَلَدُوكَ كَرُونَ الْكُفَّارَ وَزَلَّلْنَا مِن أَلْيَلٍ إِنَّهُ لَمَسْنَبٌ يَدْرِيهِ السَّيَّاتُ ذَلِكَ ذِكْرُ الَّذِينَ لِلذِّكْرِ ﴿١٥٢﴾ وَأَسِيرٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥٣﴾

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة، وبيان حال السعداء والأشقياء، سلى رسوله ﷺ بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهي له عن الامتراء في أن ما يعبونه غير نافع ولا ضار، ولا تأثير له في شيء. وحذف النون في «لا تك» لكثرة الاستعمال، والمرية: الشك، والإشارة بهؤلاء

باب علم يعلم. وقرأ ابن أبي عتبة بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه. قال في الصحاح: ركن إليه يركن بالضم. وحكى أبو زيد: ركن إليه بالكسر، يركن ركوناً فيهما: أي مال إليه وسكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وأما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين. انتهى. وقال في شمس العلوم: الركون: السكون. يقال: ركن إليه ركوناً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ انتهى. وقال في القاموس: ركن إليه، كنصر وعلم، ومنع ركوناً: مال وسكن انتهى، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشف حيث قال: فإن الركون هو الميل اليسير، وهكذا فسره المفسرون، بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقين بما ينقله صاحب الكشف؛ ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيوداً لم يذكرها أئمة اللغة. قال القرطبي في تفسيره: الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به. ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوي. فروى عن قتادة، وعكرمة في تفسير الآية أن معناها: لا تودهم ولا تطيعوهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية: الركون هنا الإدهان، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم: وقال أبو العالية: معناه لا ترضوا أعمالهم.

وقد اختلف أيضاً الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة؟ فقليل خاصة، وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين، وأنهم المرادون بالذين ظلموا، وقد روي ذلك عن ابن عباس؛ وقيل: إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون، لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فإن قلت: وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتاً لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة، بوجوب طاعة الأئمة والسلطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح: «أطيعوا السلطان وإن كان عبداً حبشياً رأسه كالزبيبة». وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة، وما لم يظهر منهم الكفر البواح، وما لم يأمروا بمعصية الله. وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله؛ ومن جملة ما يأمرون به تولى الأعمال لهم، والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله؛ ومن جملة ما يأمرون به: الجهاد، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم، وإقامة الحدود على من وجبت عليه. وبالجمله، فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله، ولا بد في مثل ذلك

وإن كلاً لمن خلق. قيل: وهي مركبة، وأصلها لمن ماء، فقلبت النون ميماً واجتمعت ثلاث ميّات، فحذفت الوسطى حكي ذلك النحاس عن النحويين. وزيف الزجاج هذا وقال: من اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون. وذهب بعض النحويين إلى أن لما هذه بمعنى إلا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4] وقال المازني: الأصل لما المخففة ثم ثقلت. قال الزجاج: وهذا خطأ، إنما يخفف المثل ولا يتقلل المخفف. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: يجوز أن يكون التشديد من قولهم لمت الشيء ألمه: إذا جمعته، ثم بنى منه فعلى كما قرئ ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ [المؤمنون: 44] وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية. وقد روي ذلك عن الخليل، وسيبويه، وجميع البصريين، ووجه الزجاج ويؤيده أن في حرف أبي «وإن» كلاً إلا ليوفينهم» كما حكاه أبو حاتم عنه. وقرئ بالتثنية: أي جميعاً. وقرأ الأعمش «وإن كل لما» بتخفيف إن ورفع كل وتشديد لما، وتكون إن على هذه القراءة نافية ﴿إنه بما يعملون﴾ أيها المختلفون ﴿خبير﴾ لا يخفى عليه منه شيء، والجملة تعليل لما قبلها، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي: كما أمرك الله، فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه، كما أمره بفعل ما تعبه بفعله، وأمرته أنسوته في ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي: رجع من الكفر إلى الإسلام، وشاركك في الإيمان، وهو معطوف على الضمير في فاستقم، لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد: أي: وليستقم من تاب معك، وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة، والنوات المقدسة، ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «شيبنتي هود» كما تقدم ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزة الحد، لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلو في العبادة، والإفراط في الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذي حدّه، والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهي عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلال الذي أنن الله به ورغب فيه، ولهذا يقول الصائق المصدوق فيما صبح عنه: «أما أنا فاصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني». والخطاب للنبي ﷺ ولأمرته تغليظاً لحالهم على حاله، أو النهي عن الطغيان خاص بالأمة ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون، والجملة تعليل لما قبلها. قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قرأ الجمهور بفتح الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف، وقتادة، وغيرهما ﴿تَرْكَنُوا﴾ بضم الكاف. قال الفراء: وهي لغة تميم وقيس، قال أبو عمرو: وقراءة الجمهور هي لغة أهل الحجاز، قال: ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف، وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من

هو الرضا بما عليه الظلمة. أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب؛ فأما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة، فغير داخل في الركون؛ قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿اليس الله بكاف عبده﴾ [الزمر: 36]. انتهى.

قوله: ﴿فتمسك النار﴾ بسبب الركون إليهم، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار، أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار، وجملة: ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ في محل نصب على الحال من قوله: فتمسك النار. والمعنى: أنها تمسك النار حال عدم وجود من ينصركم، وينقذك منها ﴿ثم لا تنصرون﴾ من جهة الله سبحانه، إذ قد سبق في علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذي نهيت عنه، فلم تنتهوا عناداً وتمرداً. قوله: ﴿واقم الصلاة طرفي النهار﴾ لما نكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان، وانتصاب طرفي النهار على الظرفية، والمراد صلاة الغداة والعشي، وهما: الفجر والعصر؛ وقيل: الظهر موضع العصر، وقيل الطرفان الصباح والمغرب، وقيل هما الظهر والعصر. ورجح ابن جرير أنهما الصباح والمغرب، قال: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصباح، فدل على أن الطرف الآخر المغرب ﴿وزلفاً من الليل﴾ أي: في زلف من الليل، والزلف: الساعات القريبة بعضها من بعض، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة، وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما «زلفاً» بضم اللام جمع زليف، ويجوز أن يكون واحده زلفة. وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام. وقرأ مجاهد «زلفي» مثل فعلی. وقرأ الباقر «زلفاً» بفتح اللام كغرفة وغرف. قال ابن الأعرابي: الزلف الساعات واحتبتها زلفة. وقال قوم: الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس. قال الأخفش: معنى زلفاً من الليل: صلاة الليل ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ أي: إن الحسنات على العموم، ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم؛ وقيل المراد بالسيئات: الصفات، ومعنى يذهبن السيئات: يكفرنّها حتى كأنها لم تكن، والإشارة بقوله: ﴿ذلك نذكرى للذاكرين﴾ إلى قوله: ﴿فاستقم﴾ وما بعده؛ وقيل: إلى القرآن نذكرى للذاكرين أي: موعظة للمتغطين ﴿واصبر﴾ على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان، والركون إلى الذين ظلموا؛ وقيل: إن المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه، لأنه لا مشقة في اجتنابه، وفيه نظر، فإن المشقة في اجتناب المنهي عنه كائنة، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر، فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي: يوفيه أجورهم ولا يضيع منها شيئاً فلا يهمله ولا يبخله بنقص.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وإن لموفوهم

من المخالطة لهم والدخول عليهم، ونحو ذلك مما لا بدّ منه، ولا محيص عن هذا الذي نكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المنكورة، لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: 59] بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الأحاديث الصحيحة: «أعطوهم الذي لهم، واسألوا الله الذي لكم» بل ورد الأمر بطاعة السلطان، وبإلغ في ذلك النبي ﷺ حتى قال: «وإن أخذ مالك وضرب ظهرك»، فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون، فمجزّد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون؛ وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطناً فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال إليهم في الظاهر، لأمر يقتضي ذلك شرعاً كالطاعة، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، إذا لم يكن له ميل إليهم في الباطن، ولا محبة، ولا رضا بأفعالهم. قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله، فهي على فرض صلق مسمى الركون عليها، مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قمنا بالإشارة إليها، ولا شك في هذا ولا ريب، فكل من أمره ابتداء أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله، كالمناصب الدينية، ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه، فذلك واجب عليه فضلاً عن أن يقال جائز له. وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الإمارة، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلطين، والأمراء جمعاً بين الأدلة، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، مع كراهة ما هم عليه من الظلم، عدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم، وكراهة المواصله لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة، فعلى فرض صلق مسمى الركون على هذا، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد، والأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، ولا تخفى على الله خافية؛ وبالجمله فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم، فعليه أن يزن أقواله وأفعاله، وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك: «فعلى نفسها براقش تجني» ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته، فهو الأولى له والأليق به.

يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، اجعلنا من عبادك الصالحين الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وقوّنا على ذلك ويسره لنا، وأعنا عليه. قال القرطبي في تفسيره: وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطراب. انتهى. وقال النيسابوري في تفسيره: قال المحققون: الركون المنهي عنه

فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذه؟ قال: هي لمن عمل بها من أمتي. وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقم في حد الله مرة أو مرتين، فأعرض عنه، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ قال: أين الرجل؟ قال: أنا ذا، قال اتهمت الوضوء وصليت معنا أنفأ؟ قال: نعم. قال: فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد، وأنزل الله حينئذ على رسوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ﴾». وفي الباب أحاديث كثيرة بالفاظ مختلفة، ووردت أحاديث أيضاً: «إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن». وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، في قوله: ﴿فَنُكِرَ لِلذَّكْرَيْنِ﴾ قال: هم الذين ينكرون الله في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والعافية والبلاء. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج قال: لما نزع الذي قبل المرأة تنكر، فذلك قوله: ﴿فَنُكِرَ لِلذَّكْرَيْنِ﴾.

قَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَ مَعَهُمْ وَأَتَى الْكَاذِبُ ظُلُمًا مَّا أُرْسِلَ بِهِمْ وَكَانُوا فِي كَيْدٍ ۖ وَكَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَعْلَاهَا لَمُجْرِمُونَ ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أَتَمَّةً وَجَدَّةً وَلَا يَتَّخِذُونَ عُقُبَةً ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ ظَلَّهُمُ وَكَمَتْ كَيْدُهُمْ رَبُّكَ لَا تَأْمَنُ الْيَمَّةُ مِنَ الْيَمَّةِ ۚ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ۚ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْأَرْسِلِ مَا نُنِثِي بِهِ ۖ فَوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ آمِنُوا عَلَىٰ مَكَاتِرِكُمْ إِنَّا عَاكِفُونَ ۚ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ۚ رَبُّهُ غَيْبُ السَّعَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ رُجُوعُ الْأُمُورِ كُلِّهَا عَائِدَةً وَنُكَسِلُ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهي عن الفساد ويامر بالرشاد، فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ﴾ من الرأي والعقل والدين ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ويمنعونهم من ذلك، لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل، وقوة الدين، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى، والبقية في الأصل لما يستبقية الرجل مما يخرج، وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله، فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة، والاستثناء في ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منقطع: أي: لكن قليلاً ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ينهون عن الفساد في الأرض. وقيل هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النفي، فكانه قال: ما كان في القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، ومن في ممن أنجينا بياناً لأنه لم ينج إلا الناهون؛ قيل: هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: 98] وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه الكلام، تقدير: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد؛

نصيبهم غير منقوص﴾ قال: ما قدر لهم من خير أو شر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد، في الآية قال: من العذاب. وأخرجنا عن أبي العالية. قال من الرزق. وأخرجنا أيضاً عن قتادة في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ قال: أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره، ولا يطغى في نعمته، وأخرج أبو الشيخ، عن سفيان، في الآية قال: استقم على القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ قال: شمرُوا شمرُوا فما رؤي ضاحكاً. وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ قال: آمن. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن العلاء بن عبد الله بن بدر، في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ قال: لم يرد أصحاب النبي ﷺ إنما عني الذين يجيئون من بعدهم. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ يقول: لا تظلموا. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، قال: الطغيان. خلاف أمره وارتكاب معصيته. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: يعني الركون إلى الشرك. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر عنه ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ قال: لا تعيلوا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه، أيضاً قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ لا تدهنوا. وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: أن تطيعوهم أو تؤثروهم أو تصطنعوهم. وأخرج ابن جريج، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ﴾ قال: صلاة المغرب والغداة ﴿وَوَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة العتمة. وأخرجنا عن الحسن قال الفجر والعصر ﴿وَوَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: هما زلفتان: صلاة المغرب وصلاة العشاء. قال: وقال رسول الله ﷺ: «هما زلفتا الليل». وأخرج عبد الرزاق، وابن جريج، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في الطرفين قال: صلاة الفجر، وصلاتي العشي؛ يعني الظهر والعصر ﴿وَوَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: المغرب والعشاء. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَوَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال: ساعة بعد ساعة، يعني صلاة العشاء الآخرة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جريج، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء، ويقرأ زلفاً من الليل. وأخرج ابن جريج، ومحمد بن نصر، وابن مروي، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبه، ومحمد بن نصر، وابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس، والباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وأخرج البخاري ومسلم، وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ، فنكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

والذي لا حق غيره، أو إلا من رحم ربك بالقناعة. والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في ﴿إلا من رحم ربك﴾ واضحاً غير محتاج إلى تكلف ﴿ولذلك﴾ أي: لما نكر من الاختلاف ﴿خلقهم﴾ أو ولرحمته خلقهم. وصحّ تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تانيثها غير حقيقي، والضمير في خلقهم راجع إلى الناس، أو إلى من في من رحم ربك؛ وقيل الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله: ﴿عوان بين لك﴾ [البقرة: 68]، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ [الإسراء: 110] ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس: 58]. قوله: ﴿وتعت كلمة ربك﴾ معنى تمت ثبتت، كما قدره في أزلها، وإذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل، وقيل: الكلمة هي قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي: ممن يستحقها من الطائفتين، والتنوين في ﴿وكلاً﴾ للتعويض عن المضاف إليه، وهو منصوب بنقص. والمعنى: وكل نبا من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقص عليك: أي تخبرك به. وقال الأخفش: ﴿كلاً﴾ حال مقدّمة كقولك: كلاً ضربت القوم، والأنباء الأخبار ﴿ما ثبتت به فؤادك﴾ أي: ما نجعل به فؤادك مثبتاً بزيادة يقينه بما قصصناه عليك، ووفور طمأنينته، لأن تكثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم، وجملة: ﴿ما ثبتت﴾ بدل من أنباء الرسل، وهو بيان لكلاً، ويجوز أن يكون ﴿ما ثبتت﴾ مفعولاً لنقص، ويكون [كلاً] مفعولاً مطلقاً، والتقدير: كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقص عليك ما ثبتت به فؤادك ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي: جاءك في هذه السورة، أو في هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد ﴿وموعظة﴾ يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين ﴿ونكري﴾ يتنكر بها من تفكر فيها منهم، وخصّ المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر؛ وقيل المعنى: وجاءك في هذه الدنيا الحق، وهو النبوة؛ وعلى التفسير الأول، يكون تخصص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور، لقصد بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها ﴿وقل للنّاس لا يؤمنون﴾ بهذا الحق، ولا يتعظون، ولا يتنكرون ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم، وقد تقدّم تحقيقه ﴿إنّا عاملون﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق، والاتعاظ، والتذكر، وفي هذا تشديد للوعيد والتهديد لهم، وكذلك قوله: ﴿وانتظروا إنّا منتظرون﴾ فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى. والمعنى: انتظروا عاقبة أمرنا فإنّا منتظرون عاقبة أمركم وما يحلّ بكم من عذاب الله وعقوبته ﴿ووه غيب السموات والأرض﴾ أي: علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما، وخصّ الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود، كما يعلم بما هو مغيب، لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره؛ وقيل: إن غيب السموات والأرض: نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض،

والمعنى: أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما اتفقوا فيه. والمترف: الذي أبطرتة النعمة، يقال صبري مترف: منعم البدن، أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش، ورفاهية الحال وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا أعمارهم في الشهوات النفسانية؛ وقيل المراد بالذين ظلموا: تاركو النهي. وردّ بأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهم أشدّ ظلماً ممن لم يباشروا، وكان ذنبه ترك النهي. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه: «أتابع الذين ظلموا» على البناء المفعول، ومعناه: أتبعوا جزء ما اتفقوا فيه، وجملة: ﴿وكانوا مجرمين﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم، وهي معطوفة على أتفقوا: أي وكان هؤلاء الذين اتبعوا ما اتفقوا فيه مجرمين، والإجرام الآثام. والمعنى: أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات، واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها، ويجوز أن تكون جملة: ﴿وكانوا مجرمين﴾ معطوفة على واتبع الذين ظلموا: أي اتبعوا شهواتهم، وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ أي: ما صحّ ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي الحقوق لا يظلمون الناس شيئاً. والمعنى: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضمّ إليه الفساد في الأرض، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء؛ وقيل إن قوله: ﴿بظلم﴾ حال من الفاعل. والمعنى: وما كان الله ليهلك القرى ظالماً هم حال كونهم مصلحين غير مفسدين في الأرض، ويكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه وتعالى عن صور ذلك منه بلا سبب يوجب، على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه، وإلا فكل أفعاله كائنه ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه، وإن كان على نهاية الصلاح لأن تصرفه في ملكه، دليله قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ [يونس: 44] وقيل المعنى: وما كان ليهلكهم بنزوبهم وهم مصلحون: أي مخلصون في الإيمان، فالظلم المعاصي على هذا ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أي: أهل دين واحد، إما أهل ضلالة، أو أهل هدى؛ وقيل معناه: جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان، ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن، ولهذا قال: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في ذات بينهم على أديان شتى، أو لا يزالون مختلفين في الحق أو دين الإسلام؛ وقيل مختلفين في الرزق: فهذا غني. وهذا فقير ﴿إلا من رحم ربك﴾ بالهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا، أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الإسلام، بهديته إلى الصواب الذي هو حكم الله، وهو الحق

يختلف، وفريقاً لا يرحم يختلف، فنلك قوله: ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ [هود: 105]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جرير، في قوله: ﴿وكلما نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ لتعلم يا محمد ما لقيت الرسل قبلك من أمهم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق، عن ابن عباس، قال: ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ قال: في هذه السورة. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي موسى الأشعري مثله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جببر مثله أيضاً. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة، قال في هذه الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: منازلكم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جرير ﴿وانتظروا إنا منتظرين﴾ قال: يقول انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم، وفي قوله: ﴿والله يرجع الأمر كله﴾ قال: فيقضي بينهم بحكم العدل. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن الصريس في فضائل القرآن، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن كعب قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿والله غيب السموات والأرض﴾ إلى آخر الآية.

تفسير سورة يوسف (١)

وهي مكية كلها، وقيل: نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة. وقال ابن عباس في رواية عنه وقاتدة: إلا أربع آيات. وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة يوسف بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الحاكم وصححه عن رفاعه بن رافع الزرقني: أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، ونكر قصة وفي آخرها أن رسول الله ﷺ علمهما سورة يوسف، و ﴿اقرأ باسم ربك﴾ [العلق: 1]، ثم رجعا. وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس: «أن حبراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ، فؤافقه وهو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا محمد من علمكما؟ قال: الله علمنيها، فعجب الحبر لما سمع منه، فرجع إلى اليهود، فقال لهم: والله إن محمداً ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه، فجعلا سمعهم إلى

والأول: أولى، وبه قال أبو علي الفارسي وغيره، وأضاف الغيب إلى المفعول توسعاً ﴿والله يرجع الأمر كله﴾ أي: يوم القيامة فيجازي كلأ بعمله. وقرأ نافع وحفص «يرجع» على البناء للمفعول. وقرأ الباقر بن علي البناء للفاعل ﴿فعا عبده وتوكل عليه﴾ فإنه كافيك كل ما تكره، ومعطيك كل ما تحب، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة، والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل عالم بجميع ذلك، ومجاز عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالفرقية على الخطاب. وقرأ الباقر بالتحية.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿فولوا﴾ قال: فهلا. وأخرج ابن مردويه، عن أبي بن كعب، قال: قرأني رسول الله ﷺ: ﴿فولوا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية، وأحلام، ينهون عن الفساد في الأرض. وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جرير ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ يستقلهم الله من كل قوم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿ولتبع للذين ظلموا ما تفرغوا فيه﴾ قال: في ملكهم وتجبرهم، وتركهم الحق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ من طريق ابن جرير، قال: قال ابن عباس: اتفرغوا فيه أبطروا فيه، وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن جرير، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يسئل عن تفسير هذه الآية ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ فقال رسول الله ﷺ: وأهلها ينصف بعضهم بعضاً». وأخرجه ابن أبي حاتم، والخراطي في مساوي الأخلاق موقوفاً على جرير. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك ﴿ولو شاء ربك لجعل للناس أمة واحدة﴾ قال: أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ قال: أهل الحق وأهل الباطل ﴿إلا من رحم ربك﴾ قال: أهل الحق ﴿ولنلك خلقهم﴾ قال: للرحمة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عنه ﴿إلا من رحم ربك﴾ قال: إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: لا يزالون مختلفين في الأهواء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ أي: اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية، وهم الذين رحم ربك الحنيفة. وأخرج هؤلاء عن الحسن في الآية قال: الناس مختلفون على آديان شتى إلا من رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف ﴿ولنلك خلقهم﴾ قال: للاختلاف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ قال: أهل الباطل ﴿إلا من رحم ربك﴾ قال: أهل الحق ﴿ولنلك خلقهم﴾ قال: للرحمة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة نحوه. وأخرجنا عن الحسن قال: لا يزالون مختلفين في الرزق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، ولذلك خلقهم قال: خلقهم فريقين فريقاً يرحم فلا

(1) (تنبيه) جرى المفسر رحمه الله في ضبط الفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرضه للقراءات السبع واثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني.

قصصاً أحسن القصص، فيكون بمعنى الاقتصاد، أو هو بمعنى المفعول أي: المقصود، ﴿بما أوحينا إليك﴾ أي: بليحاثنا إليك ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ وانتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الإشارة، أو بدل منه، أو عطف بيان، وإجاز الزجاج الرفع على تقدير مبتدأ، وإجاز الفراء الجر، ولعل وجهه أن يقدر حرف الجر في بما أوحينا داخلاً على اسم الإشارة، فيكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن، ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ إن هي المخففة من الثقلية بدليل اللام الفارقة بينها وبين النافية، والضمير في من قبله عائد على الإيحاء المفهوم من أوحينا، والمعنى: أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة.

واختلف في وجه كون ما في هذه السورة هو أحسن القصص، فقيل: لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها؛ وقيل: لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم، وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأتعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهم ومكرهم؛ وقيل: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما؛ وقيل: إن أحسن هنا بمعنى أعجب؛ وقيل: إن كل من نكر فيها كان ماله السعادة. قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ إذ منصوب على الظرفية بفعل مقدر، أي: أنكر وقت قال يوسف، قرأ الجمهور (يوسف) بضم السين، وقرأ طلحة بن مصرف بكسرها مع الهمز مكان الواو، وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين، وهو غير منصرف للجمعة والعلمية، وقيل: هو عربي. والاول أولى بدليل عدم صرفه، ﴿لأبيه﴾ أي: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿يا أبت﴾ بكسر التاء في قراءة أبي عمرو وعاصم وحمرزة والكسائي ونافع وابن كثير، وهي عند البصريين علامة التانيث، ولحققت في لفظ أب في النداء خاصة بدلاً من الباء وأصله يا أباي، وكسرها للدلالة على أنها عوض عن حرف يناسب الكسر، وقرأ ابن عامر بفتحها، لأن الأصل عنده يا أبتا، ولا يجمع بين العوض والمعوّض، فيقال يا أبتي، وإجاز الفراء يا أبت بضم التاء، ﴿إني رأيت﴾ من الرؤيا النومية لا من الرؤيا البصرية كما يدل عليه ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾. قوله: ﴿أحد عشر كوكباً﴾ قرئ بسكون العين تخفيفاً لتوالي الحركات، وقرأ بفتحها على الأصل ﴿والشمس والقمر﴾ إنما أخرهما عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وقيل: إن الواو بمعنى مع، وجملة ﴿ورأيتهم لي ساجدين﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها، وأجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء، وهو كونها ساجدة، كذا قال الخليل وسيبويه، والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته، ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ الرؤيا

قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه، وأسلموا عند ذلك. وأخرج الثعلبي عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أقاربكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً». وفي إسناده سلام بن سالم، ويقال: ابن سليم المدائني، وهو متروك عن هارون بن كثير. قال أبو حاتم: مجهول، وقد نكر له الحافظ ابن عساكر متابعاً من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير، ومن طريق شبابة عن مجلز بن عبد الواحد البصري، عن علي بن زيد بن جدعان، وعن عطاء بن ميمون، عن نر بن حبيش، عن أبي بن كعب مرفوعاً فذكر نحوه، وهو منكر من جميع طرقه. قال القرطبي: قال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو حدثنا، فنزل قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ [الزمر: 23]. قال: قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكزرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بالفاظ متباعدة على درجات البلاغة. وقد نكر قصة يوسف ولم يكرها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

الرَّؤْيَا، إِنَّكَ الْكَذَّابُ الْبَاطِلُ ﴿١﴾ وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ مَن نَّقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَمَاصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُكَ نَفْسُ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَّبُّكَ بِرَبِّكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِصْرَ عَلَيْهِ رَعْلٌ أَلِ يَمْقُوبَ كَمَا أَتَمَّمَا عَلَى أَبْنَاءِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْجِعَ وَإِنْ رَأَيْتَ عَلَيْهِ حِكْمًا ﴿٦﴾

قوله: ﴿الر﴾ قد تقدم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى آيات السورة، والكتاب المبين السورة، أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهن، والمبين من أبان بمعنى بان، أي: الظاهر أمره في كونه من عند الله وفي إعجازه، أو المبين بمعنى الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه، أو المبين لما فيه من الأحكام، ﴿إنا أنزلناه﴾ أي: الكتاب المبين حال كونه ﴿قرآنًا عربيًّا﴾، فعلى تقدير أن الكتاب السورة تكون تسميتها قرآنًا باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل وعلى البعض، وعلى تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن، فتكون تسميته قرآنًا واضحة، وعربياً صفة قرآن أي: على لغة العرب، ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي: لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ القصص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وقالت لأخته قصيه﴾ [القصص: 11]، أي: تتبعي أثره وهو مصدر، والتقدير: نحن نقص عليك

على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخاليل اليوسفية.

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ قال: بين الله حلاله وحرامه، وأخرج ابن جرير عن معاذ قال: بين الله الحروف التي سقطت عن السن الأعاجم، وهي ستة أحرف، وأخرج الحاكم عن جابر: أن رسول الله ﷺ تلا قرآناً عربياً، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً». وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزل القرآن بلسان قريش، وهو كلامهم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله، وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ قال: من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم، ﴿وإن كنت من قبله﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿للمن الغافلين﴾. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً﴾ قال: رؤيا الأنبياء وحي. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري، وابن يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن حبان في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال: «جاء بستانى اليهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها؟ فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها، فبعت رسول الله ﷺ إلى البستاني اليهودي فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم، قال: خريشان، والطارق، والذئال، ونو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمصباح، والضروح، ونو الفرغ، والضياء، والنور: رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا أمر مشئت يجمعه الله من بعد، فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها، هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور، وأما ابن كثير فجعل قوله: «فلما قص إلخ»، رواية منفردة وقال: تفرد بها الحكم بن ظهيرة الفزاري، وقد ضعفوه وتركه الاكثرون. وقال الجوزجاني: ساقط. وقال ابن الجوزي: هو موضوع. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿أحد عشر كوكباً﴾ قال: إخوته، والشمس قال: أمه، والقمر قال: أبوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وكنك يجتبيك ربك﴾ قال: يصطفيك. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة مثله، وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد

مصدر رأى، في المنام رؤيا على وزن فعلى كالمسقى والبشرى، وألفه للتانيث ولذلك لم يصرف، نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته، لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهمون تأويلها، ويحصل منهم الحسد له، ولهذا قال: ﴿فيكنوا لك كيداً﴾ وهذا جواب النهي وهو منصوب بإضمار أن، أي: فيفعلوا لك، أي: لأجل كيداً مثبتاً راسخاً لا تقدر على التخلص منه، أو كيداً خفياً عن فهمك، وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام أكد من أن يقال: فيكنوا كيداً، وقيل: إنما جاء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدي باللام، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعاً الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمين أن يقدر أحدهما أصلاً والآخر حالاً، وجملة ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ مستأنفة، كان يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم، فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك، لأنه عدو للإنسان مظهر للعداوة مجاهر بها. قوله: ﴿وكنك يجتبيك ربك﴾ أي مثل تلك الاجتباء البديع الذي رأيته في النوم، من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا، فيجعلك نبياً يصطفيك على سائر العباد، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيته في منامك فصارت ساجدة لك. قال النحاس: والاجتباء أصله من جبيت الشيء حصلته، ومنه جبيت الماء في الحوض جمعته، ومعنى الاجتباء: الاصطفاء، وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعدد نعم الله عليه، ومنها ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي: تأويل الرؤيا. قال القرطبي: واجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وقيل المراد: ويعلمك من تأويل أحاديث الأمم والكتب، وقيل المراد به: إحوال إخوته إليه، وقيل: إنجاؤه من كل مكروه، وقيل: إنجاؤه من القتل خاصة، ﴿ويتم نعمته عليك﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله، أو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم، وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين، ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء ﴿كما أتمها على أيوب﴾ أي: إتماماً مثل إتمامها على أيوب، وهي نعمة النبوة عليهما، مع كون إبراهيم اتخذ الله خليلاً، ومع كون إسحاق نجاه الله سبحانه من الذبح وصار لهما الذرية الطيبة: وهم يعقوب، ويوسف، وسائر الأسباط، ومعنى ﴿من قبل﴾ من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه، أو من قبلك، وإبراهيم وإسحق عطف ببيان لأبويك، وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جداً وهو إبراهيم، لأن الجد أب، ﴿إن ربك عليم﴾ بكل شيء ﴿حكيم﴾ في كل أفعاله، والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له، أي: فعل ذلك لأنه عليم حكيم، وكان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه

«ويعلمكم من تاويل الأحاديث» قال: عبارة الرؤيا. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد «ويعلمكم من تاويل الأحاديث» قال: تاويل العلم والحلم، وكان يوسف من أعبر الناس. وأخرج ابن جرير عن عكرمة «كما تلمها على لبيك» قال: فنعمته على إبراهيم: أن نجاه من النار، وعلى إسحاق: أن نجاه من الذبح.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ ۖ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبٌ ۚ إِنَّ أَبَانَا لَنِي سَكِلَ شَيْئٌ ۖ أَتَقُولُوا يُونُسُ أَوْ أَخُوهُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ ۖ لَآتِيُنَا بِهِ بَعْدَ مَا يَنْزِلُ بِهِ السَّيِّدُ ۚ فَيَذَرُ فِي الْبَيْتِ كَبَابًا ۚ ثُمَّ أَتَى الْكَلْبَ فَالْتَمَسَ أَلْفَاكًا ۚ فَأَخْرَجَ الْكَلْبَ فِي الْيَمِينِ ۖ فَذَرَاهُ ۚ وَجَاءَ السَّيِّدُ فَخَرَّبَهُ ۚ فَلْيَنْزِلْ ۚ فَيَذَرُ فِي الْبَيْتِ كَبَابًا ۚ ثُمَّ أَتَى الْكَلْبَ فَالْتَمَسَ أَلْفَاكًا ۚ فَأَخْرَجَ الْكَلْبَ فِي الْيَمِينِ ۖ فَذَرَاهُ ۚ وَجَاءَ السَّيِّدُ فَخَرَّبَهُ ۚ فَلْيَنْزِلْ ۚ فَيَذَرُ فِي الْبَيْتِ كَبَابًا ۚ﴾

أي: «لقد كان» في قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه «للسائلين» من الناس عنها، وقرأ أهل مكة (آية) على التوحيد، وقرأ الباقون على الجمع، واختار قراءة الجمع أبو عبيد. قال النحاس: وآية ها هنا قراءة حسنة؛ وقيل: المعنى لقد كان في يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود، فإنه روي أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا، فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة. وقيل: معنى «آيات للسائلين» عجب لهم، وقيل: بصيرة، وقيل: عبرة. قال القرطبي: وأسماؤهم يعني: إخوة يوسف: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وريالون، ويشجر، وأهم لبيا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة، وهم: دان، ونفثالي، وجاد، وأشر، ثم ماتت لبيا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف، وبنيامين. وقال السهيلي: إن أم يوسف اسمها وقفا، وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف، «إذ قالوا ليوسف وإخوه» أي: وقت قالوا، والظرف متعلق بكان «أحب إلى لبينا منا» والمراد بقوله «وإخوه» هو بنيامين، وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً إخوته، لأنه أخوه لأبويه كما تقدم، ووحد الخبر فقال: أحب مع تعدد المبتدأ، لأن أفعال التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف، واللام في ليوسف هي الموطئة للقسم، وإنما قالوا: هذه لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيد، وجملة «ونحن عصبية» في محل نصب على الحال، والعصبية: الجماعة، قيل: وهي ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر، وقيل: من العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها بل هي كالفرد والرهط، وقد كانوا عشرة، «إن أبانا لفي ضلال مبين» أي: لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وإيثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب إليه، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في بينه في

ضلال مبين، «أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً» أي قالوا: افعلوا به أحد الأمرين: إما القتل، أو الطرح في أرض، أو المشير بالقتل بعضه والمشير بالطرح البعض الآخر، أو كان المتكلم بذلك واحد منهم فوافقه الباقون، فكانوا كالقائل في نسبة هذا المقول إليهم، وانتصاب أرضاً على الظرفية، والتذكير للإيهام: أي أرضاً مجهولة، وجواب الأمر «يخل لكم وجه أبيكم» أي: يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حياً كاملاً «وتكونوا» معطوف على يخل، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن «من بعده» أي: من بعد يوسف، والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه، وقيل: من بعد الذنب الذي اقترفوه في يوسف «قوماً صالحين» في أمور دينكم وطاعة أبيكم، أو صالحين في أمور دنيائكم لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك، وهو الحسد ليوسف وتكثر خواطركم بتأثيره عليكم هو وأخوه، أو المراد بالصالحين: التائبون من الذنب، «قال قائل منهم» أي: من الإخوة، قيل: هو يهوذا، وقيل: روبيل، وقيل: شمعون «لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيايات الجب» قيل وجه الإظهار في لا تقتلوا يوسف استجلاب شفقتهم عليه. قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام (في غيايات الجب) بالإفراد، وقرأ أهل المدينة (في غيايات) بالجمع، واختار أبو عبيد الإفراد وأنكر الجمع، لأن الموضع الذي ألقي فيه واحد. قال النحاس: وهذا تضيق في اللغة، وغيايات على الجمع تجوز، والغياية: كل شيء غيب عنك شيئاً، وقيل للقب: غياية، والمراد به هنا غور البئر الذي لا يقع البصر عليه، أو طاقة فيه. قال الشاعر:

ألا فالبئذ شهرين أو نصف ثالث إلى ذا كما قد غيبتني غيايبا
والجب: البئر التي لم تطو، ويقال لها قبل الطي ركية، فإذا طويت قيل لها: بئر، سميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً، وجمع الجب جبب وجباب وأجباب، وجمع بين الغياية والجب مبالغة في أن يلقيه في مكان من الجب شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين، قيل: وهذه البئر ببית المقدس، وقيل: بالأردن، وجواب الأمر «يلتقطه بعض السيارة» قرأ مجاهد، وأبو رجاء، والحسن، وقتادة (تلتقطه) بالمثناة الفوقية، ووجه أن بعض السيارة سيارة، وحكي عن سيبويه سقطت بعض أصابعه. ومنه قول الشاعر:

أرى من السنين أخذني مني كما أخذ السرار من الهلال
وقرأ الباقون (يلتقطه) بالتحية، والسيارة: الجمع الذي يسيرون في الطريق، والالتقاط: هو أخذ شيء مشرف على الضياع، وكانهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد بحيث يخفي عن أبيه ومن يعرفه، ولا يحتاجون إلى الحركة بانفسهم إلى المكان البعيد، فربما أن والدهم لا يأتون لهم بذلك، ومعنى: «إن كنتم فاعلين» إن كنتم عاملين بما أشرت به عليكم في أمره، كأنه لم يجزم بالأمر، وبإلزامه إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره. وفي هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء، فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم

أي: «لقد كان» في قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه «للسائلين» من الناس عنها، وقرأ أهل مكة (آية) على التوحيد، وقرأ الباقون على الجمع، واختار قراءة الجمع أبو عبيد. قال النحاس: وآية ها هنا قراءة حسنة؛ وقيل: المعنى لقد كان في يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود، فإنه روي أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا، فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة. وقيل: معنى «آيات للسائلين» عجب لهم، وقيل: بصيرة، وقيل: عبرة. قال القرطبي: وأسماؤهم يعني: إخوة يوسف: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وريالون، ويشجر، وأهم لبيا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة، وهم: دان، ونفثالي، وجاد، وأشر، ثم ماتت لبيا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف، وبنيامين. وقال السهيلي: إن أم يوسف اسمها وقفا، وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف، «إذ قالوا ليوسف وإخوه» أي: وقت قالوا، والظرف متعلق بكان «أحب إلى لبينا منا» والمراد بقوله «وإخوه» هو بنيامين، وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً إخوته، لأنه أخوه لأبويه كما تقدم، ووحد الخبر فقال: أحب مع تعدد المبتدأ، لأن أفعال التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف، واللام في ليوسف هي الموطئة للقسم، وإنما قالوا: هذه لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيد، وجملة «ونحن عصبية» في محل نصب على الحال، والعصبية: الجماعة، قيل: وهي ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر، وقيل: من العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها بل هي كالفرد والرهط، وقد كانوا عشرة، «إن أبانا لفي ضلال مبين» أي: لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وإيثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب إليه، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في بينه في

إبانا مالك لا تامنا على يوسف أي: أي شيء لك لا تجعلنا أمنا عليه، وكانهم قد كانوا سالوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى. وقرأ يزيد بن القعقاع، وعمرو بن عبيد، والزهري (لا تامنا) بالإدغام بغير إشمام. وقرأ طلحة بن مصرف (لا تامننا) بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثاب، وأبو رزين، والأعمش (لا تيمنا) وهو لغة تميم كما تقدم. وقرأ سائر القراء بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه ﴿وإنا له لناصحون﴾ في حفظه وحيطته حتى نردّه إليك ﴿أرسله معنا غداً أي: إلى الصحراء التي أرادوا الخروج إليها، وغدا ظرف، والأصل عند سيبويه غوة، قال النضر بن شميل: ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له: غوة، وكذا يقال له بكرة ﴿نرتع ونلعب﴾ هذا جواب الأمر. قرأ أهل البصرة وأهل مكة وأهل الشام بالنون وإسكان العين كما رواه البعض عنهم. وقرأوا أيضاً بالاختلاس. وقرأ الباقر بن النون وكسر العين. والقراءة الأولى مأخوذة من قول العرب: رتع الإنسان أو البعير إذا أكل كيف شاء، أو المعنى: تنسج في الخصب، وكل مخصب راتع. قال الشاعر: فارعى فزارة لا هناك المرتع. ومنه قول الشاعر:

فارعى فزارة لا هناك المرتع

ومنه قول الشاعر:

ترتع مارتعت حتى إذا أكرت فرأى ما هي إقبال وإبصار والقراءة الثانية مأخوذة من رعي الغنم. وقرأ مجاهد وقاتدة (يرتع ويلعب) بالتحية فيهما، ورفع يلعب على الاستئناف، والضمير ليوسف. وقال الفتيبي: معنى نرتع نتحارس ونحافظ ويرعى بعضنا بعضاً، من قولهم: رعاك الله أي: حفظك، ونلعب من اللعب. قيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وقيل: المراد به اللعب المباح من الأنبياء، وهو مجرد الانبساط، وقيل هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقنون به عليه كما في قولهم: ﴿إنا ذهبنا نستبِق﴾ لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا: ونلعب، ومنه قوله ﷺ لجابر: ﴿فها لا بكرة تلاعبها وتلاعبك﴾ فاجابهم يعقوب بقوله: ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي: ذهابكم به، واللام في ﴿ليحزنني﴾ لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال، أخبرهم أنه يحزن لغيبه يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه، ﴿ولخاف أن ياكله الذئب﴾ أي: ومع ذلك أخاف أن ياكله الذئب. قال يعقوب: هذا تخوفاً عليه منهم، فكفى عن ذلك بالذئب، وقيل: إنه خاف أن ياكله الذئب حقيقة، لأن ذلك المكان كان كثير الذئب، ولو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه. قال ثعلب: والذئب مأخوذ من تذابذ الرياح: إذا هاجت من كل وجه. قال: والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه. وقد قرأ ابن كثير ونافع في رواية عنه بالهمز على الأصل، وكذلك أبو عمرو في رواية عنه وابن عامر، وعاصم، وحمزة.

ظلماً وبغيّاً، وقيل: كانوا أنبياء، وكان ذلك منهم زلة قدم وأوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم. وردّ بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكثيرة المتبالغة في الكبر، مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وإفتراء الكذب، وقيل: إنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء، بل صاروا أنبياء من بعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿آيات للمساءلين﴾ قال: عبرة. وأخرج أيضاً عن قتادة في الآية يقول: من سال عن ذلك فهو هكذا ما قصّ الله عليكم وأنبأكم به. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاک نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال: إنما قصّ الله على محمد ﷺ خبر يوسف وبغي إخوته عليه وحسدهم إياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله ﷺ من بغي قومه عليه وحسدهم إياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسى به. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿إذ قالوا ليوسف وإخوه﴾ يعني: بنيامين هو أخوه لأبيه وأمه، وفي قوله ﴿ونحن عصبه﴾ قال: العصبه ما بين العشرة إلى الأربعين. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: العصبه الجماعة، ﴿إن إبانا لفى ضلال مبين﴾ قال: لفى خطأ من رأيه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في قوله ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف﴾ قال: قله كبيرهم الذي تخلف، قال: والجب بئر بالشام ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ قال: للتقطه ناس من الأعراب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿ولفقوه في غيابة الجب﴾ يعني: الركية. وأخرج ابن جرير عن الضحاک قال: الجب البئر. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ قال: هي بئر بيت المقدس، يقول في بعض نواحيها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: الجب بحذاء طبرية بينه وبينها أميال.

قَالُوا يَا هَذَا مَا لَكَ لَا تَأْتِيَا عَلَى يَوْسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا خَدًى يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفَظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَعِزَّنِي أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَيْرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُعْجِلُوهُ فِي عُيُوبِ الْجَبِّ وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ رَبُّهُنَّ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَتْ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا هَذَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَرِنَا فَانْكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَثِيرٍ قَالَتْ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ الْفِتْنَةُ مَرَأً فَصَبِّرْ حَبِيلَ ۖ وَاللَّهِ أَكْثَرُ عِلْمًا عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

لما أجمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب جاءوا إلى أبيهم وخالطوه بلفظ الأبوة استعطافاً له وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للابناء. وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه، واستفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغي أن يكون الواقع على خلافه، ف ﴿قالوا يا

وقرا الباقرن بالتخفيف. ﴿وانتم عنه غافلون﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب، أو لكونهم غير مهتمين بحفظه ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ اللام هي الموطئة للقسم. والمعنى: والله لئن أكله الذئب والحال إن نحن عصبة أي: جماعة كثيرة عشرة ﴿إننا إذا لخاسرون﴾ أي: إنما في ذلك الوقت، وهو أكل الذئب له لخاسرون هالكون ضعفاً وعجزاً، أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا، وانتفاء القدرة على أيسر شيء وأقله، أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار، وقيل: لخاسرون لجاملون حقه، وهذه الجملة جواب القسم المقتر في الجملة التي قبلها ﴿فلما ذهبوا به﴾ من عند يعقوب ﴿واجمعوا﴾ أمرهم ﴿أن يجعلوه في غيبة الجب﴾ قد تقدم تفسير الغيبة والجب قريباً، وجواب لما محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه، والتقدير: فعلوا به ما فعلوا، وقيل: جوابه ﴿قالوا يا إيانا إننا ذهبنا نستيق﴾ وقيل: الجواب المقتر جعلوه فيها، وقيل: الجواب أوحينا والواو مقحمة، ومثله قوله تعالى: ﴿فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه﴾ [الصافات: 103 - 104] أي: ناديناه ﴿واوحينا إليه﴾ أي: إلى يوسف تيسيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال من إخوته، بقلوب غليظة فقد نزعَتْ عنها الرحمة وسلبت منها الرافة، فإن الطبع البشري، دع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير ويفتقره لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنب له، بل كيف بصغير هو أخ وله ولهم أب مثل يعقوب، فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين. وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى الله إلى من كان صغيراً ويعطيه النبوة حينئذ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا، وقد قيل: إنه كان ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال، وهو بعيد جداً، فإن من كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب. ﴿لنتبينهم بامرهم هذا﴾ أي: لتخبرن إخوانك بامرهم هذا الذي فعلوه معك بعد خلوصك مما أراوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر، وجملة ﴿وهم لا يشعرون﴾ في محل نصب على الحال، أي: لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف لا اعتقادهم هلاكك بالقائهم لك في غيبة الجب، ولبعد عهدهم بك، ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك، وسيأتي ما قاله لهم عند نخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر. قوله: ﴿وجاءوا إياهم عشاء ييكون﴾ عشاء منتصب على الظرفية، وهو آخر النهار، وقيل: في الليل، ويبكون في محل نصب على الحال أي: باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة، بل فعلوا فعل من يبكي ترويحاً لكنبهم وتنفيقاً لمكرمهم وغدرهم. فلما وصلوا إلى أبيهم ﴿قالوا يا إيانا إننا ذهبنا نستيق﴾ أي: نتسابق في العدو أو في الرمي؛ وقيل: نتنצל، ويؤيده قراءة ابن مسعود (نتنצל). قال الزجاج: وهو نوع من المسابقة. وقال الأزهري: النضال في السهام،

والرهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما. قال القشيري: نستيق، أي: في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام. والغرض من المسابقة التبرُّب بذلك في القتال ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي: عند ثيابنا ليحرسها ﴿فأكله الذئب﴾ الفاء للتعقيب أي، أكله عقب ذلك. وقد اعتدروا عليه بما خافه سابقاً عليه، وربَّ كلمة تقول لصاحبها دعني ﴿وما انت بمؤمن لنا﴾ بمصنق لنا في هذا العذر الذي أبدينا، والكلمة التي قلناها ﴿ولو كنا﴾ عندك أو في الواقع ﴿صادقين﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له. قال الزجاج: والمعنى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصنق ما صنقنا في هذه القضية لشدة محبتك ليوسف. وكذا نكره ابن جرير وغيره ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ على قميصه في محل نصب على الظرفية: أي جاءوا فوق قميصه بدم، ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو معروف في وصف اسم العين باسم المعنى، وقيل المعنى: بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه. وقرأ الحسن وعائشة (بدم كذب) بالبدال المهمة أي: بدم طري. يقال للدم الطري: كذب. وقال الشعبي: إنه المتغير، والكذب أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين. وقد استدلل يعقوب على كذبهم بصحة القميص، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً ياكل يوسف ولا يخرق القميص؟ ثم نكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال: ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي: زينت وسهلت. قال النيسابوري: التسهيل تقرير في معنى النفس مع الطمع في تمامه، وهو تفعليل من السؤل وهو الأمانة. قال الأزهري: وأصله مهموز غير أن العرب استنقلوا فيه الهمزة ﴿فصبر جميل﴾ قال الزجاج: أي: فشائي أو الذي اعتقده صبر جميل. وقال قطرب: أي: فصبري صبر جميل؛ وقيل: فصبر جميل أولى بي، قيل: والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه. قال الزجاج: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف (فصبراً جميلاً) قال: وكذا في مصحف أنس. قال المبرد: فصبر جميل بالرفع أولى من النصب، لأن المعنى: قال ربَّ عندي صبر جميل، وإنما النصب على المصدر أي: فلأصبرن صبراً جميلاً. قال الشاعر:

شكا إليّ جملي طول السرى صبراً جميلاً فكلنا مبتلى

﴿واش المستعان﴾ أي: المطلوب منه العون ﴿على ما تصفون﴾ أي: على إظهار حال ما تصفون، أو على احتمال ما تصفون، وهذا منه عليه السلام إنشاء لا إخبار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ قال: نسعى وننشط ونلهو. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والسلفي في الطيوريات عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلقوا الناس فيكنبوا، فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب ياكل الناس، فلما لقنهم أبوهم كذبوا، فقالوا: أكله الذئب».

الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ ﴿١١﴾ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آيَاتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

هذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره، وقد تقدم تفسير السيرة، والمراد بها هنا رفقة مارة تسير من الشام إلى مصر، فأخطوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجب، وكان في غرفة بعيدة من العمران. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم، وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن ذعر من العرب العاربة ﴿فأدلى بلوه﴾ أي: أرسله، يقال: أدلى لبلوه إذا أرسلها ليملاها، ودلاها: إذا أخرجها، قاله الأصمعي وغيره، فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج اللؤلؤ من البئر أبصره الوارد ف (قال يا بشراي) هكذا قرأ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة، وأهل الشام بإضافة البشراي إلى الضمير. وقرأ أهل الكوفة (يا بشري) غير مضاف، ومعنى مناداته للبشراي: أنه أراد حضورها في ذلك الوقت، فكانه قال: هذا وقت مجيئك وأوان حضورك؛ وقيل: إنه نادى رجلاً اسمه بشري. والأول أولى. قال النحاس: والمعنى من نداء البشراي التبشير لمن حضر، وهو لوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجباً أي: يا عجب هذا من أيامك فأحضر. قال: وهذا مذهب سيبيويه ﴿وأسروه﴾ أي: أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهره لهم؛ وقيل: إنهم لم يخفوه، بل أخفوا وجدانه لهم في الجب، وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر؛ وقيل: ضمير الفاعل في أسره إخوة يوسف، وضمير المفعول ليوسف، وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته فاتوا الرفقة وقالوا: هذا غلام أبقي منا فاشتروه منهم، وسكت يوسف مخافة أن يأخذه فيقتلوه، والأول أولى. وانتصاب بضاعة على الحال: أي أخفوه حال كونه بضاعة أي: متاعاً للتجارة، والبضاعة: ما يبيع من المال أي: يقطع منه لأنها قطعة من المال الذي يتجر به، قيل: قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركهم فيه، وفي قوله: ﴿والله عليم بما يعملون﴾ وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا ﷺ في وصفه بذلك. قوله: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ يقال: شراه بمعنى اشتراه، وشراه بمعنى باعه. قال الشاعر:

وشريت برداً ليتني من بعد برد كنت هامه
أي: بعته.

وقال آخر:

فلما شراها فاضت العين عبرة

أي اشتراها. والمراد هنا: وباعوه أي: باعه الوارد وأصحابه ﴿بثمن بخس﴾ أي: ناقص أو زائف، وقيل: يعود

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿واوحينا إليه﴾ الآية، قال: أوحى إلى يوسف وهو في الجب لتنبئ إخوتك بما صنعوا وهم لا يشعرون بذلك الوحي. وأخرج هؤلاء عن قتادة قال: أوحى الله إليه وحياً وهو في الجب أن سينبئهم بما صنعوا وهم أي: إخوته لا يشعرون بذلك الوحي. فهو ذلك الوحي عليه ما صنع به. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وهم لا يشعرون﴾ قال: لم يعلموا بوحي الله إليه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: لما نخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيء بالصراع فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف يدينه دونكم، وأنكم انطلقتم به فالتقيتموه في غيابة الجب فاتيتم إياكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره ويخبركم، فقال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا في ذلك لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي بكر بن عياش قال: كان يوسف في الجب ثلاثة أيام، وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ قال: بمصدق لنا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: كان دم سخلة. وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقاً قال: كذبتم لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿بذل سؤلت لكم أنفسكم أمراً﴾ قال: امرتكم أنفسكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿بذل سؤلت لكم أنفسكم أمراً﴾ يقول: بل زينت لكم أنفسكم أمراً ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: على ما تكذبون. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبان بن أبي حيلة قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فصبر جميل﴾ قال: لا شكوى فيه، من بث لم يصبر، وهو من طريق هشيم عن عبد الرحمن، عن حبان بن أبي حيلة، وهو مرسل. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿فصبر جميل﴾ قال: ليس فيه جزع.

وَبَاءَتْ سَيَّارَةً فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَمْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَرَوَّهَ بِمَنْ بَخْسَ دَرْهَمٍ مَّعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِقِينَ ﴿١٤﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِأَخِيكَ أَكْزَرِي مُؤْنَهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَكَ أَوْ يَخْزِيكَ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

أنه كان من أمر يعقوب أن لا يقصّ رؤيا يوسف على إخوته، فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع، وهذا بعيد جداً ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة، وقيل: المراد بالأكثر الجميع لأنه لا يعلم الغيب إلا الله؛ وقيل إن الله سبحانه قد يطلع بعض عبده على بعض غيبه كما في قوله: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ إلا من ارتضى من رسول ﴿[الجن: 26 - 27]﴾. وقيل: المعنى ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله غالب على أمره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر. قوله: ﴿ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً﴾ الأشد: قال سيبويه: جمع واحدة شدة. وقال الكسائي: واحدة شد. وقال أبو عبيد: إنه لا واحد له من لفظه عند العرب، ويردّه قول الشاعر:

عهدي به شد النهار كأنما خضب البنان ورأسه بالعظم والأشد: هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان. قيل: هو ثلاث وثلاثون سنة، وقيل بلوغ الحلم، وقيل: ثاني عشرة سنة، وقيل غير ذلك مما قد قدمنا بيانه في النساء والأنعام. والحكم: هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر، والعلم: هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه؛ وقيل: العقل والفهم والنبوة؛ وقيل: الحكم هو النبوة، والعلم: هو العلم بالدين؛ وقيل: علم الرؤيا. ومن قال: إنه أوتي النبوة صبيّاً قال: المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاه الله هو الزيادة فيهما ﴿وكنكك نجزي المحسنين﴾ أي: ومثل ذلك الجزء العجيب نجزي المحسنين، فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه. وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به. وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولاً. قال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ، يقول الله تعالى كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض. والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما نكره ابن جرير الطبري.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن الضحاک في قوله: ﴿وجاءت سيارة﴾ قال: جاءت سيارة فنزلت على الجبّ ﴿فارسلوا واردهم﴾ فاستسقى الماء فاستخرج يوسف، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه، فزهدوا فيه فباعوه، وكان يبيعه حراماً، وباعوه بدهام معدودة. وأخرج عبد الرزاق، وابن بن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فارسلوا واردهم﴾ يقول: فارسلوا رسولهم ﴿فانلى لوه﴾ فنشب الغلام باللو، فلما خرج ﴿قال يا بشراي هذا غلام﴾ تباشروا به حين استخرجوه، وهي بئر بيت المقدس معلوم مكانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿يا بشراي﴾ قال: كان اسم صاحبه بشرى كما تقول يا زيد، وهذا على ما

إلى إخوة يوسف على القول السابق، وقيل: عائد إلى الرفقة، والمعنى: اشتروه؛ وقيل: بخس ظلم، وقيل: حرام. قيل: باعوه بعشرين درهماً، وقيل: بأربعين، ودهام بدل من ثمن أي: دنائير، ومعدودة وصف لدهام، وفيه إشارة إلى أنها قليلة تعد ولا تؤزن، لأنهم كانوا لا يزنون ما يوزن أوقية وهي أربعون درهماً، ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ يقال: زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرهما. قال سيبويه والكسائي: قال أهل اللغة: يقال: زهد فيه أي رغب عنه، وزهد عنه أي: رغب فيه. والمعنى: أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يباليون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس، وذلك لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، والضمير من كانوا يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه ﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ هو العزيز الذي كان على خزائن مصر، وكان وزيراً لملك مصر، وهو الريان بن الوليد من العمالة، وقيل: إن الملك هو قرون موسى، قيل: اشتراه بعشرين ديناراً، وقيل: تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلى وجواهر، فلما اشتراه العزيز قال: ﴿لامراته﴾ واللام متعلقة باشتراه ﴿أكرمي مثواه﴾ أي: منزله الذي يثوى فيه بالطعام والطيب واللباس الحسن. يقال: ثوى بالمكان أي: أقام به ﴿عسى أن ينفعنا﴾ أي: يكفينا بعض المهمات مما نحتاج إلى مثله فيه ﴿أو نتخذة ولداً﴾ أي: نتبناه فنجعله ولداً لنا. قيل: كان العزيز حصوراً لا يولد له، وقيل: كان لا يأتي النساء، وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة. قوله: ﴿وكنكك مكننا ليوسف﴾ الكاف في محل نصب على أنه نعت مصدر محذوف، والإشارة إلى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجب، وعطف قلب العزيز عليه أي: مثل ذلك التمكين البيع مكننا ليوسف حتى صار متمكناً من الأمر والنهي، يقال: مكنه فيه أي أثبت فيه، ومكن له فيه أي: جعل له فيه مكاناً، ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر. قوله: ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ هو علة لمعلل محذوف كأنه قيل: فعلنا ذلك التمكين لنعلمه من تأويل الأحاديث، أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة، أو معطوف على مقدر، وهو أن يقال: مكننا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ولنعلمه من تأويل الأحاديث؛ ومعنى تأويل الأحاديث: تأويل الرؤيا فإنها كانت من الأسباب التي بلغ بها ما بلغ من التمكين، وقيل: معنى تأويل الأحاديث فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع ﴿والله غالب على أمره﴾ أي: على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء، ولا يغلبه عليه غيره من مخلوقاته ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: 82]. ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ما يتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التي أرادها الله سبحانه في شأنه. وقيل: معنى ﴿والله غالب على أمره﴾

تاويل الأحاديث قال: عبارة الرؤيا. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿ولما بلغ أشده﴾** قال: ثلاثاً وثلاثين سنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: أربعين سنة. وأخرج عن عكرمة قال: خمساً وعشرين سنة. وأخرج عن السدي قال: ثلاثين سنة. وأخرج عن سعيد بن جبيرة قال: ثمانية عشر سنة. وأخرج عن ربيعة قال: الحلم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير عن الضحك قال: عشرين سنة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾** قال: هو الفقه العلم والعقل قبل النبوة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿وَعَزَّكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** قال: المهتدين.

وَرَوَّعْتُهُ أَنِّي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأُتْرُبَ وَكَانَتْ حَبَّتَ لَكَ قَالِ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْفَى وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَنَ رَبِّيَ كَذَلِكَ لِيَصْرَفَ عَنْهُ الشَّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَهْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ جِي رَوَّعْتِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِيهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصُومُ قَدْ مِنْ قُبُلِي فَصَدَقَتْ وَمَوْ مِنْ الْكَذِبِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَانَ قَيْصُومُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا رَأَى قَيْصُومُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٤٢﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٤٣﴾

المراودة: الإرادة والطلب برفق ولين وقيل: هي مأخوذة من الرود أي: الرفق والثاني، يقال أرودتني: أمهلني؛ وقيل: المراودة مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب. كان المعنى: أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع، ومنه الراشد لمن يطلب الماء والكلأ، وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال: راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه؛ إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع، وهي مفاعلة، وأصلها أن تكون من الجانبين، فجعل السبب هنا في أحد الجانبين قائماً مقام المسبب، فكان يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له مراد. وإنما قال: **﴿التي هو في بيتها﴾** ولم يقل: امرأة العزيز، وزليخا قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها **﴿وغلقت الأبواب﴾** قيل: في هذه الصيغة ما يدل على التكثير، فيقال: غلق الأبواب، ولا يقال: غلق الباب، بل يقال: أغلق الباب، وقد يقال: أغلق الأبواب، ومنه قول الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلت أغلق أبواباً وأفتحتها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار قيل: وكانت الأبواب سبعة. قوله: **﴿هيئت لك﴾**. قرأ أبو

فيه من البعد لا يتم إلا على قراءة من قرأ (يا بشرى) بدون إضافة. وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿واسأروه بضاعة﴾** يعني: إخوة يوسف أسأروا شأنه وكتبتوا أن يكون أخاهم، وكتب يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: أسره التجار بعضهم من بعض. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه **﴿واسأروه بضاعة﴾** قال: صاحب الدلو ومن معه، قالوا لأصحابهم: إنا استبضعناه خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا به، واتبعهم إخوته يقولون للملئى وأصحابه: استوثقوا منه لا يأتى حتى وقفوا بمصر، فقال: من يبتاعني ويبيشر، فابتاعه الملك والملك مسلم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد في قوله: **﴿وشأروه﴾** قال: إخوة يوسف باعوه حين أخرجه الملئى لدو. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: بيع بينهم بثمن بخس، قال: حرام لم يحل لهم بيعه، ولا أكل ثمنه. وأخرج ابن جرير عن قتادة **﴿وشأروه بثمن بخس﴾** قال: هم السيارة. وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب أنه قضى في اللقيط أنه حر، وقرأ **﴿وشأروه بثمن بخس﴾**. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: البخس القليل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي مثله. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنما اشتري يوسف بعشرين درهماً، وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلاثمائة وتسعين إنساناً: رجالهم أنبياء، ونسألوهم صنيقات، والله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً. وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بنكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: **﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾** قال: كان اسمه قطفير. وأخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائي: أن اسم امرأة العزيز زليخا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: الذي اشتراه أظفير بن روحب، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعايل. وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: اسم الذي باعه من العزيز مالك بن ذعر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: **﴿أكرمي مثواه﴾** قال: منزلته. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: أقرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامراته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: يا أبت استأجره، وأبو بكر حين استخلف عمر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿ولنعلمه من﴾**

بقوله: ﴿أكرمي مثواه﴾، فكيف أخونه في أهله وأحببك إلى ما تريد من ذلك؟ وقال الزجاج: إن الضمير لله سبحانه أي: إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرّمه، وجملة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها، والفلح: الظفر. والمعنى: أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف. قوله: ﴿ولقد همت به وهمّ بها﴾ يقال: همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه. والمعنى: أنه همّ بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلية الخلقية، ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختياراً كما يفيد ما تقدّم من استعانته بالله، وإن ذلك نوع من الظلم. ولما كان الأنبياء معصومين عن الهمّ بالمعصية والقصد إليها شطح أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف، فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال: كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن، فلما أتيت على ﴿ولقد همت به وهمّ بها﴾ قال: هذا على التقديم والتأخير: كأنه قال: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. وقال أحمد بن يحيى ثعلب: أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة، وهمّ يوسف ولم يوقع ما همّ به، فبين الهمين فرق، ومن هذا قول الشاعر:

هممت بهم من نية لؤلؤ شفت غليات الهوى من فؤادها
فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم، وقيل همّ بها أي: همّ بضربها، وقيل: همّ بها بمعنى تمنى أن يتزوّجها. وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قدّمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي، ويدل على هذا ما سيأتي من قوله: ﴿ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب﴾ [يوسف: 52]، وقوله: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف: 53] ومجرد الهمّ لا ينافي العصمة، فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية، وذلك المطلوب، وجواب لو في ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ محذوف: أي لولا أن رأى برهان ربه لفعل ما همّ به.

واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو؟ فقيل: إن زليخا قامت عند أن همت به وهمّ بها إلى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال: ما تصنعني؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله تعالى. وقيل: إنه رأى في سقف البيت مكتوباً ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ [الإسراء: 32] الآية؛ وقيل: رأى كفاً مكتوباً عليها ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ [الإنفطار: 10] وقيل إن البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده؛ وقيل: نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؛ وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدار عاصاً على أتملته يتوعده، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره. والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما همّ به قوله: ﴿كنك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ الكاف نعت مصدر محذوف، والإشارة بذلك إلى الإراءة المملول عليها

عمرو، وعاصم، والكسائي، وحمزة، والأعمش بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء، وبها قرأ ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وعكرمة. قال ابن مسعود: لا تنطعوا في القراءة، فإنما هو مثل قول أحكم: هلمّ وتعال، وقرأ ابن أبي إسحاق النحوي بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ عبد الرحمن السلمي وابن كثير (هيت) بفتح الهاء وضم التاء، ومنه قول طرفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داع من العشييرة هيت
وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء. وقرأ عليّ وابن عباس في رواية عنه وهشام بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء. وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهزة وفتح التاء. ومعنى «هيت» على جميع القراءات معنى هلمّ وتعال، لأنها من أسماء الأفعال إلا في قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة. فإنها بمعنى: تهيات لك. وإنكر أبو عمرو هذه القراءة. وقال أبو عبيدة: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء والهزة وضم التاء فقال: باطل جعلها بمعنى تهيات اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن، هل تعرف أحداً يقول هكذا؟ وإنكرها أيضاً الكسائي. وقال النحاس: هي جيدة عند البصريين، لأنه يقال: هاء الرجل يهأ ويهيء هينة، ورجح الزجاج القراءة الأولى، وأنشد بيت طرفة المذكور هيتا بالفتح، ومنه قول الشاعر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين أخص العراق إذا أتيتا
إن العراق وأمله سلم إليك فهيت هيتا
وتكون اللام في ﴿لك﴾ على القراءات الأولى التي هي فيها بمعنى اسم الفعل للبيان أي: لك. أقول هذا كما في هلمّ لك. قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث: فالفتح للخفة، والكسر لالتقاء الساكنين، والضم تشبيهاً بحيث، وإذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كاف له أي: لك أقول هذا، وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل، إما خبر أي: تهيات، وإما أمر أي: أقبل. وقال في الصحاح: يقال هوت به وهيت به إذا صاح به ودعا، ومنه قول الشاعر:

يحبس بها كل فتى هيت

وقد روي عن ابن عباس والحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها. قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال. قال أبو عبيدة: فسألت شيخاً عالماً من حوران فنكر أنها لغتهم ﴿قال معاذ الله﴾ أي: أعوذ بالله معاذاً مما دعوتني إليه، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضاف إلى اسم الله سبحانه، وجملة ﴿إنه ربي أحسن مثوأي﴾ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز، والضمير للشأن أي: إن الشأن ربي، يعني: العزيز أي سيدي الذي رباني وأحسن مثوأي حيث أمرت

بقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك أي: مثل تلك الإراءة أريناه، أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ أي: كل ما يسوؤه، والفحشاء كل أمر مفرط القبح، وقيل: السوء الخيانة للعزیز في أهله، والفحشاء: الزنا؛ وقيل: السوء الشهوة، والفحشاء: المباشرة؛ وقيل: السوء الثناء القبيح. والأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولياً، وجملة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لما قبله. قرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو (المخلصين) بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها. والمعنى على القراءة الأولى أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله، وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة، وقد كان عليه السلام مخلصاً مستخلصاً ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي: تسابقا إليه، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل بالمفعول، أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدى بنفسه كابتدرا الباب، وهذا الكلام متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وما بينهما اعتراض، ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه، ووجد الباب هنا وجمعه فيما تقدم، لأن تسابقهما كان إلى الباب الذي يخلص منه إلى خارج الدار ﴿وَوَقَدْتُ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: جذبت قميصه من روائه فانشق إلى أسفله، والقذ: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً، والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضاً، وقع منها ذلك عند أن فر يوسف لما رأى برهان ربه فأرادت أن تمنعه من الخروج بجذبتها لقميصه ﴿وَوَلَفِيَا سَيْدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ أي: وجدا العزیز هنالك، وعني بالسيد: الزوج لأن القطب يسمون الزوج سيداً، وإنما لم يقل: سيدهما، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً فلم يكن سيداً له، وجملة ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب، وما استفهامية، والمراد بالسوء هنا الزنا؛ قالت هذه المقالة طلباً منها للحيلة وللستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف أي: جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا، ثم أجابت عن استفهامها بقولها: ﴿إِلَّا أَنْ يَسْجَنَ﴾ أي: ما جزاؤه إلا أن يسجن، ويحتمل أن تكون ما نافية أي: ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم؛ قيل: والعذاب الأليم هو الضرب بالسياط، والظاهر أنه ما يصلى عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره، وفي الإيهام للعذاب زيادة تهويل، وجملة ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ مستأنفة كالجملة الأولى. وقد تقدم بيان معنى المراودة أي: هي التي طلبت مني ذلك ولم أرد بها سوءاً ﴿وَوَشَّهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: من قرابتها، وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل، قيل: لما التبس الأمر على العزیز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصائق من الكاذب. قيل: كان ابن عم لها واقفاً مع العزیز في الباب، وقيل: ابن خال لها،

وقيل: إنه طفل في المهد تكلم. قال السهيلي: وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ في نكر من تكلم في المهد، ونكر من جملتهم شاهد يوسف؛ وقيل: إنه رجل حكيم كان العزیز يستشيريه في أموره، وكان من قرابة المرأة ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ﴾ أي: فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صديق الصائق منهما وكتب الكاذب بأن قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قبل: أي من جهة القبيل ﴿فَصِدَقْتَ﴾ أي: فقد صدقت بأنه أراد بها سوءاً ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَانِبِينَ﴾ في قوله إنها راودته عن نفسه. وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق (من قبل) بضم اللام. وكذا قرأ (من دبر) قال الزجاج: جعلهما غايتين كقبل وبعد كأنه قيل: من قبله ومن دبره، فلما حذف المضاف إليه: وهو مراد صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية ﴿وَوَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ﴾ أي: من روائه ﴿فَكَذَّبْتَ﴾ في دعواها عليه ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواه عليها، ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما وتالييهما، لا عقلاً ولا عادة، وليس ها هنا إلا مجرد أمارة غير مطردة، إذ من الجائز أن تجذبه إليها وهو مقبل عليها فينقذ القميص من دبر، وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقذ القميص من قبل ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ أي: العزیز ﴿قَمِيصَهُ﴾ أي: قميص يوسف ﴿قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ﴾ أي: هذا الأمر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما، أو أن قولك: ﴿مَا جَزَاءُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ ﴿مَنْ كَيْدُكَ﴾ أي: من جنس كيدك يا معشر النساء ﴿إِنْ كَيْدُكَ عَظِيمٌ﴾ والكيد: المكر والحيلة، ثم خاطب العزیز يوسف عليه السلام بقوله: ﴿يُوسُفُ اعْرَضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: عن هذا الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدث به، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ الذي وقع منك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أي: من جنسهم، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليباً للمنكر على المؤنث كما في قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12] ومعنى من الخاطئين من المتعمدين، يقال: خطئ إذا أذنبت متعمداً، وقيل: إن القائل ليوسف وامرأة العزیز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَرَاوَدْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ قال: هي امرأة العزیز. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: راودته حين بلغ مبلغ الرجال. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك تدعوه إلى نفسها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: هلم لك بالقبطية، وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: هي كلمة بالسريانية أي: عليك. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبیر قال: معناها تعال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: إنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها.

لها كان حكيماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن
الشيخ عن مجاهد قال: إنه ليس بإنسي ولا جنّي هو خلق
من خلق الله. قلت: ولعله لم يستحضر قوله تعالى: ﴿من
أهلها﴾.

﴿ وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرًا تُرِيدُ فَنَهَى عَنْ نَفْسِهِ. قَدْ شَفَعَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوَاتٍ وَآتَتْ كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَظَنَّ أَنَّهُنَّ الْيَهُودُ وَلَئِن كَانَ بِهِنَّ إِيمَانٌ فَرِحْنَ أَنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمْنَعْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ. فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُورٌ لِّنَجْعَلَنَّ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ السَّيِّئُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَمِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنْكَ كَيْدَهُنَّ أَشَبَّ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿

يقال: (نسوة) بضم النون، وهي قراءة الأعمش والفضل وسليمان، ويقال: (نسوة) بكسر النون، وهي قراءة الباقيين، والمراد جماعة من النساء، ويجوز التذكير في الفعل المسند إليهن كما يجوز التانيث. قيل: وهن امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازة، وامرأة صاحب نوابه، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة حاجبه. والفتى في كلام العرب: الشاب، والفتاة: الشابة، والمراد به هنا: غلامها، يقال: فتاي وفتاتي أي: غلامي وجاريتي، وجملة «قد شغفها حباً» في محل رفع على أنها خبر ثانٍ للمبتدأ، أو في محل نصب على الحال، ومعنى شغفها حباً: غلبها حبه، وقيل: نخل حبه في شغافها. قال أبو عبيدة: وشغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه؛ وقيل: هو وسط القلب، وعلى هذا يكون المعنى: نخل حبه إلى شغافها فغلب عليه، وأنشد الأصمعي قول الراجز:

يتبعها وهي له شفاف

وقرأ جعفر بن محمد، وابن محيصن، والحسن (شعفا) بالعين المهملة. قال ابن الأعرابي: معناه أجرى حبه عليها. وقرأ غيرهم بالمعجمة. قال الجوهرى: شعفه الحبُّ أحرَق قلبه. وقال أبو زيد: أمرضه. قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كل مذهب، لأن شعاف الجبال: أعاليها، وقد شغف بذلك شغفاً بإسكان الغين المعجمة: إذا ولع به، وأنشد أبو عبيدة بيت امرئ القيس:

أثقتلني من قد شغفت فؤادها كما شغف المهنة الرجل الطالي
 قال: تشبهت لوعة الحب بذلك. وقرأ الحسن (قد شغفها)
 بضم الغين. قال النحاس: وحكي قد شغفها بكسر الغين، ولا
 يعرف ذلك في كلام العرب إلا شغفها بفتح الغين؛ ويقال: إن
 الشغاف الجلبة للالصقة بالكبد التي لا ترى، وهي الجلبة
 البيضاء، فكأنه لصق حبه بقلبها كلسوق الجلبة بالكبد،
 وجملته «إننا لنراها في ضلال مبين» مقررة لمضمون ما
 قبلها. والمعنى: إننا لنراها أي: نعلمها في فعلها هذا، وهو
 المرادة لفتاها في ضلال عن طريق الرشد والصواب، مبين:
 واضح لا يلتبس على من نظر فيه «فلما سمعت» امرأة

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأ: (هت لك) مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة قال: تهيات لك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إنه ربي﴾ قال: سيدي، قال: يعني زوج المرأة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما همت به تزيت ثم استلقت على فراشها، وهم بها جلس بين رجلها محل ثيابه، فنودي من السماء يا ابن يعقوب لا تكن كطائر نتف ريشه فبقي لا ريش له، فلم يتعظ على النداء شيئاً حتى رأى برهان ربه جبريل في صورة يعقوب عاضاً على أصبعه ففزع فخرجت شهوته من أنامله فوثب إلى الباب فوجده مغلقاً، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأتني فأنفجر له واتبعته فأبركته، فوضعت يديها في قميصه فشقت حتى بلغت عضلة ساقه فألفيا سيدها لدى الباب. وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿همت به وهم بها﴾ قال: طمعت فيه وطمع فيها، وكان فيه من الطمع أن هم أن يحل التكة، فقامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترت بثوب أبيض بينها وبينه، فقال: أي شيء تصنعين؟ فقالت: أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوءة، فقال يوسف: تستحين من صنم لا ياكل ولا يشرب، ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تنالها مني أبداً، وهو البرهان الذي رأى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو أن رأى برهان ربه﴾ قال: مثل له يعقوب، فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقد أطل المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه، واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً. وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال: السيد الزوج، يعني في قوله: ﴿وأنفيا سيدها لدى الباب﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن يسجن أو عذاب ليم﴾ قال: القيد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قال: صبي أنطه الله كان في الدار. وأخرج أحمد، وابن جرير، والبيهقي، في الدلائل عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صفار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قال: كان رجلاً ذا لحية. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وأبو الشيخ عنه قال: كان من خاصة الملك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: هو رجل له فهم وعلم. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: ابن عم

وهنّ في شغل عن ذلك بما دهمهنّ، مما تطيش عنده الأحلام وتضطرب له الأبدان وتزول به العقول ﴿وَوَقَلْنِ حَاشَا﴾ كذا قرأ أبو عمرو بن العلاء بإثبات الألف في حاشا. وقرأ الباقون بحذفها. وقرأ الحسن (حاشا لله) بإسكان الشين. وروي عنه أنه قرأ (حاشا الإله). وقرأ ابن مسعود وأبي (حاشا الله). قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية، تقول كنت في حاشية فلان: أي في ناحيته، فقولك حاشا لزيد من هذا أي: تباعد منه. وقال أبو علي: هو من المحاشاة: وقيل: إن حاشا حرف، وحاشا فعل، وكلام أهل النحو في هذه الكلمة معروف، ومعناها هنا التنزيه كما تقول: أسى القوم حاشا زيداً، فمعنى حاشا لله: براءة لله وتنزيه له. قوله: ﴿هَـمَا هَـذَا بَشَرًا﴾ إعمال (ما) عمل ليس هي لغة أهل الحجاز، وبها نزل القرآن كهذه الآية، وكقوله سبحانه ﴿هَـمَا هُنَّ امْهَاتُهُمْ﴾ [المجادلة: 2]. وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس. وقال الكوفيون: أصله ما هذا ببشر، فلما حذفت الباء انتصب. قال أحمد بن يحيى ثعلب: إذا قلت ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض. وأما الخليل، وسيبويه، وجمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس، وبه قال البصريون والباحث مقرّر في كتب النحو بشواهد وجحجه، وإنما نفين عنه البشرية لانه قد برز في صورة قد لبست من الجمال البديع ما لم يعهد على أحد من البشر، ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع الصور البشرية؛ ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية وإن كن لا يعرفن الملائكة لكنه قد تقرّر في الطبائع أنهم على شكل فوق شكل البشر في الذات والصفات، وأنهم فائقون في كل شيء، كما تقرّر أن الشياطين على العكس من ذلك، ومن هذا قول الشاعر:

فليست لإنسي ولكن لملاك تنزل من جو السماء يصوت
وقرأ الحسن (ما هذا بشراً) على أن الباء حرف جرّ، والشين مكسورة: أي ما هذا بعيد يشترى، وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله: ﴿إِنْ هَـذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وأعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن صور بني آدم، فإنهنّ لم يقلنّه للليل، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهنّ وذلك ممنوع، فإن الله سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]. وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته، فما قاله صاحب الكشف في هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة، على أن هذه المسألة أعني: مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر، فما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف ﴿قَالَتْ فَلْنَدْكُنْ الَّذِي لِمْتَنَنْنِي فِيهِ﴾ الإشارة إلى يوسف، والخطاب للنسوة أي: عبرتني فيه. قالت لهنّ هذا لما رأت افتتانهنّ بيوسف إظهاراً لعذر نفسها؛ ومعنى فيه أي: في حبه؛ وقيل: الإشارة

العزیز ﴿بِمَكْرَهِنَّ﴾ أي: بغيبتهنّ إياها، سميت الغيبة مكرّاً لاشتراكهما في الإخفاء، وقيل: أرشد أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف، فهذا سمي قولهنّ مكرّاً؛ وقيل: إنها أسرت عليهنّ فافشين سرّها فسمي ذلك مكرّاً، ﴿أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: تدعوهنّ إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًا﴾ أي: هيات لهنّ مجالس يتكنن عليها، وأعدت من الاعتداده، وهو كل ما جعلته عدة لشيء. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبیر (متكا) مخففاً غير مهموز، والمتك: هو الأترج بلغة القبط، ومنه قول الشاعر:

نشرب الإثم بالصواع جهاراً وترى المتك بيننا مستعاراً
وقيل: إن ذلك هو لغة أزد شنوءة، وقيل: حكى ذلك عن الأخفش. وقال الفراء: إنه ماء الورد. وقرأ الجمهور (متكا) بالهمز والتشديد، وأصح ما قيل فيه: إنه المجلس، وقيل: هو الطعام، وقيل: المتكا كل ما اتكى عليه عند طعام أو شراب أو حديث، وحكى القتيبي أنه يقال: اتكنا عند فلان أي: أكلنا، ومنه قول الشاعر:

فظللنا بنعمة واتكنا وشربنا الحلال من قلله
ويؤيد هذا قوله: ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾ فإن ذلك إنما يكون لشيء ياكلنه بعد أن يقطعه، والسكين تذكر وتؤنث، قاله الكسائي والفراء. قال الجوهري: والغالب عليه التنكير، والمراد من إعطائها لكل واحدة سكيناً أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة، ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهنّ من تقطيع أيديهنّ ﴿وَوَقَّالَتْ﴾ ليوسف ﴿لَخَرَجَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: في تلك الحالة التي هنّ عليها من الاتكاء والاكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام. قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: عظمته، وقيل: أمنين، ومنه قول الشاعر:

إذا ما راين الفحل من فوق قلة سهلن وأكبرن المنى المقطرا
وقيل: حضن. قال الأزهري: أكبرن بمعنى حضن، والهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة أي: نخلت في الكبر بالحيض، وقع منهنّ ذلك دمهشاً وفزعاً لما شاهدنه من جماله الفائق، وحسنه الرائق، ومن ذلك قول الشاعر:

ناتني النساء على أطهارهنّ ولا ناتني النساء إذا أكبرن إكبارا
وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره قالوا: ليس ذلك في كلام العرب. قال الزجاج: يقال أكبرنه ولا يقال حضنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض. وأجاب الأزهري فقال: يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية. وقد زيف هذا بان هاء الوقف تسقط في الوصل. وقال ابن الأنباري: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل أي: أكبرن إكباراً بمعنى حضن حيضاً ﴿وَوَقَّطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرحنها، وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد، بل المراد به الخدش والحرّ، وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس؛ يقال: قطع يد صاحبه إذا خدشها؛ وقيل: المراد بأيديهنّ هنا أناملهنّ، وقيل: اكمامهنّ. والمعنى: أنه لما خرج يوسف عليهنّ أعظمته ودمهشن وراعهنّ حسنه حتى اضطربت أيديهنّ فوق وقع القطع عليها

والمعنى: أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية، لأنه إذا صرف عنه كيدهم لم يقع شيء مما رمنه منه، ووجه إسناد الكيد قد تقدم، وجملة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه أي: إنه هو السميع لدعوات الداعين له، العليم بأحوال الملتجئين إليه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ قال: غلبها. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه: ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ قال: قتلها حب يوسف، الشغف: الحب القاتل، والشغف: حبّ دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ قال: قد علقها. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال: بحديثهن. وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال: يعملهن، وكل مكر في القرآن فهو عمل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: ﴿وَوَاعَدْتِ لَهُنَّ مَتَكًا﴾ قال: هيات لهن مجلساً، وكان سنتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كل إنسان سكيناً ياكل بها ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ قال: فلما خرج عليهن يوسف ﴿أكبرنه﴾ قال: أعظمته ونظرن إليه، وأقبلن يحزنن أيبيهن بالسكاكين وهن يحسبن أنهن يقطعن الطعام. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس: ﴿وَوَاعَدْتِ لَهُنَّ مَتَكًا﴾ قال: أعطتهن أترنجا، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً، فلما رآين يوسف أكبرنه، وجعلن يقطعن أيبيهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترنج. وأخرج مسدد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عنه: المتكأ الأترنج، وكان يقرؤها خفيفة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد: ﴿مَتَكًا﴾ قال: طعاماً. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر عنه قال: هو الأترنج. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: هو كل شيء يقطع بالسكين. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحّاك مثله. وأخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكميت بن زيد قال: حدثني أبي، عن جدي يقول في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ قال: أمنين. وأنشد:

ولما رآته الخيل من رأس شامق صهلن وأمنين المنى المدفقا
وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ قال: لما خرج عليهن يوسف حزنن من الفرح، ونكر قول الشاعر الذي قدّمنا ذكره:

نأتي النساء لدى أطهارهن... البيت

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿أكبرنه﴾ قال: أعظمته ﴿وَوَقَطْعَنَ لِيَبِيهِنَّ﴾ قال: حرّاً بالسكين حتى القينها ﴿وَوَقَلْنَ حَاشَا لَهِ﴾ قال: معاذ الله. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة

إلى الحب، والضمير له أيضاً، والمعنى: فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب، والأول أولى. ووجه ابن جرير. وأصل اللوم: الوصف بالقبيح. ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهنّ ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه، فاقرّت بذلك وصرّحت بما وقع منها من المراودة له، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَيْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: استعف وامتنع مما أريده طالباً لعصمة نفسه عن ذلك، ثم توعدته إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف فقالت: ﴿وَلَوْ لَنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيْسَجُنَّ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾ أي: لأن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدّم ذكره عند أن غلقت الأبواب وقالت: هيت لك ليسجنن أي: يعتقل في السجن وليكونن من الصاعرين الأذلاء لما يناله من الإهانة، ويسلب عنه من النعمة والعزة في زعمها، قرئ (ليكونن) بالتثنية والتخفيف، قيل: والتخفيف أولى لأن الذنوب كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف. وذلك لا يكون إلا في الخفيفة، وأما ليسجنن فبالثقل لا غير؛ فلما سمع يوسف مقالها هذا، وعرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز قال مناجياً لربه سبحانه: ﴿رَبِّ السَّجْنِ﴾ أي: يا ربّ السجن الذي أوعتني هذه به ﴿وَأَحْبِ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من مؤاتاتها والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخير الدنيا والآخرة. قال الزجاج: أي دخول السجن، فحذف المضاف. وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ (السجن) بفتح السين، وقرأ كذلك ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن الأعرج، ويعقوب، وهو مصدر سجنه سجنًا، وإسناد الدعوة إليهنّ جميعاً، لأن النسوة رغبته في مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها، ثم جرى على هذا في نسبة الكيد إليهن جميعاً، فقال: ﴿وَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة، وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدّم من الترغيب له في المطاوعة والتخويف من المخالفة، وقيل: إنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له: يا يوسف اقض لي حاجتي فانا خير لك من امرأة العزيز، وقيل: إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها، أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض، والكيد: الاحتيال. وجزم ﴿أَحْبِ إِلَيْهِنَّ﴾ على أنه جواب الشرط أي: أمل إليهنّ، من صبا يصبو: إذا مال واشتاق، ومنه قول الشاعر:

إلى هند صبا قلبي وهند حبها يصبي

﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ معطوف على أصب أي: أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه، أو ممن يعمل عمل الجاهل. قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ لما قال: ﴿وَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ تَعَرُّضًا لِلدَّعَاءِ﴾ وكأنه قال: اللهم اصرف عني كيدهنّ، فالاستجابة من الله تعالى له هي بهذا الاعتبار، لأنه لم يتقدّم دعاء صريح منه عليه السلام،

التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف، وإنفاذ ما تقدم منها من الوعيد له بقولها: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره به ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ [يوسف: 32] قيل: وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة، وكتب ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه؛ وقيل: إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه بحمل نفسها عليه على أي صفة كانت؛ ومعنى قوله: ﴿حتى حين﴾ إلى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين، وقيل: إلى انقطاع ما شاع في المدينة. وقال سعيد بن جبير: إلى سبع سنين، وقيل: إلى خمس، وقيل: إلى ستة أشهر، وقد تقدم في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى إلى. قوله: ﴿ويلخل معه السجن فتيان﴾ في الكلام حذف متقدم عليه، والتقدير: وبدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين فسجنوه، وبخل معه السجن فتيان، ومع للمصاحبة، وفتيان تشبیه فتى، وذلك يدل على أنهما عبدان له، ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً، وقد قيل: إن أحدهما خباز الملك، والآخر ساقيه، وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما أهل مصر مالا في مقابلة ذلك، ثم إن الساقى رجع عن ذلك وقال للملك: لا تأكل الطعام فإنه مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشرب فشرِب فلم يضره، وقال للخباز كل فابى، فجرَّب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما، وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف، وقيل: قبله، وقيل: بعده. قال ابن جرير: إنهما سالا يوسف عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا، فسألاه عن رؤيائهما كما قص الله سبحانه ﴿قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً﴾ أي: رأيتني، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة. والمعنى: إني أراني أعصر عنباً، فسماه باسم ما يثول إليه لكونه المقصود من العصر. وفي قراءة ابن مسعود (أعصر عنباً). قال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب، فقال له: ما معك؟ فقال خمر. وقيل: معنى أعصر خمرأى أي: عنب خمر، فهو على حذف المضاف، وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقى، وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال، وكذلك الجملة التي بعدها وهي ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله: ﴿تأكل الطير منه﴾ وهذا الرائي لهذه الرؤيا هو الخباز، ثم قال ليوسف جميعاً بعد أن قصا رؤيائهما عليه ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي: بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرثيين، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا؛ وقيل: إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قص رؤياه عليه، فيكون الضمير راجعاً إلى ما رآه كل واحد منهما؛ وقيل: إن الضمير في بتأويله موضوع موضع اسم الإشارة، والتقدير بتأويل ذلك ﴿إنا نراك من المحسنين﴾

في قوله ﴿إنا هذا إلا ملك كريم﴾ قال: قلن ملك من الملائكة من حسنه. وأخرج أبو الشيخ عن منبه، عن أبيه قال: مات من النسوة التي قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمداً. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن»، وقد وردت روايات عن جماعة من السلف في وصف حسن يوسف؛ والمبالغة في ذلك، ففي بعضها أنه أعطي نصف الحسن، وفي بعضها ثلثه، وفي بعضها ثلثيه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿فاستعصم﴾ قال: امتنع. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة ﴿فاستعصم﴾ قال: فاستعصى. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله: ﴿ولا تصرف عني كيدهن﴾ قال: إن لا تكن منك أنت القوي والمنعة لا تكن مني ولا عندي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ﴿أصب إليهن﴾ قال: اتبعهن. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: أطاوعهن.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَهُمْ فِي سِجْنٍ مَعَهُ السِّجْنُ فَتَنَ إِيَّاهُ أَحَدُهُمَا إِيَّاهُ أُخْرَىٰ ثُمَّ قَالَ الْآخَرُ إِنَّهُ أَبْرَأَ مِنْكَ مِنْ رَأْيِ خَيْرِ النَّاسِ أَتَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنَّا نَبئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَنُوكُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمُ طَعَامٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَّا بِثَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ذَلِكَ مِنْ عَلَيْنَا لِيُفَكِّرَ بَلَّغْ لَهُمْ آيَاتِنَا وَلِيَذَكِّرَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ يَصْحَجِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقَتٌ حَيْثُ أَرَى اللَّهُ الْوَحْدَ الْقَهَّارَ ﴿٣٨﴾ مَا تَسْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَبَّحْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَبَنَاتُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَشْجُرُوا إِلَّا بِإِذْنِ ذَلِكَ إِلَهِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

معنى ﴿بدا لهم﴾ ظهر لهم، والضمير للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه، وأما فاعل ﴿بدا لهم﴾ فقال سيبويه: هو ليسجننه أي: ظهر لهم أن يسجنوه. قال المبرد: وهذا غلط لأن الفاعل لا يكون جملة، ولكن الفاعل ما دل عليه (بدا) وهو المصدر كما قال الشاعر: وحق لمن أبو موسى أبوه يوفقه الذي نصب الجبالا أي وحق الحق فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل: الفاعل المحنوف هو رأي أي: وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل، وهذا الفاعل حذف لدلالته ليسجننه عليه، واللام في ليسجننه جواب قسم محذوف على تقدير القول أي: ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين والله ليسجننه. وقرئ (لتسجننه) بالمشناة الفوقية على الخطاب، إما للعزيز ومن معه، أو له وحده على طريق التعظيم، والآيات قيل: هي القميص وشهادة الشاهد وقطع الأيدي، وقيل: هي البركات

الناس كافة ببعثة الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم وتبيين طرائق الحق لهم ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ الله سبحانه على نعمه التي أنعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحونه ويعملون بما شرعه لهم. قوله: ﴿يا صاحبي السجن﴾ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه، وقيل: المراد يا صاحبي في السجن، لأن السجن ليس بمصاحب بل مصاحب فيه، وأن ذلك من باب يا سارق الليلة. وعلى الأول يكون من باب قوله: ﴿أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ [الأعراف: 44] والاستفهام للإنكار مع التقرير والتوبيخ، ومعنى التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد أي: هل الأرباب المتفرقون في نواتهم المختلفون في صفاتهم المتفاوتون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن أم الله المعبود بحق المتفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك، القهار الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معاند؟ أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام، لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام؛ وقد قيل: إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب، ولهذا قال لكما: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها﴾ أي: إلا أسماء فارغة سميتموها ولا مسميات لها، وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات، وهي الألهة التي تعبدونها، لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا مسميات لها؛ وقيل: المعنى ما تعبدون من دون الله إلا مسميات أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم من تلقاء أنفسكم، وليس لها من الإلهية شيء إلا مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر؛ وإنما قال: ﴿ما تعبدون﴾ على خطاب الجمع وكذلك ما بعده من الضمائر، لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم، ومفعول سميتموها الثاني محذوف أي: سميتموها آلهة من عند أنفسكم ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي: بتلك التسمية ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: ما الحكم إلا الله في العبادة، فهو الذي خلقكم وخلق هذه الأصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان، وجملة ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ مستأنفة، والمعنى: أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بين لهم أن عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال: ﴿ذلك﴾ أي: تخصصه بالعبادة ﴿للدين القيم﴾ أي: المستقيم الثابت ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ذلك هو دين القويم، وصراطه المستقيم، لجهلكم وبعدهم عن الحقائق.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات﴾ فقال: ما سألني عنها أحد قبلك، من الآيات قد القميص وأثرها في جسده، وأثر السكين، وقالت امرأة

أي: من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، وكذا قال الفراء: إن معنى من المحسنين من العالمين الذين أحسنوا العلم. وقال ابن إسحاق: من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فقد روي أنه كان كذلك، وجملة ﴿قال لا ياتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما﴾ بتأويله قبل أن ياتيكما مستأنفة جواب سؤال مقدر، ومعنى ذلك أنه يعلم شيئاً من الغيب، وأنه لا ياتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بماهيته قبل أن ياتيهما، وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه، بل جعله عليه السلام مقامة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعل مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين، فهو كقول عيسى عليه السلام ﴿وأنبئكم بما تاكلون﴾ [آل عمران: 49] وإنما قال يوسف عليه السلام لكما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوها إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر، ومعنى ترزقانه: يجري عليهما من جهة الملك أو غيره، والجملة صفة لطعام، أو يرزقكما الله سبحانه، والاستثناء بقوله: ﴿إلا نباتكما﴾ بتأويله مفرغ من أعم الأحوال: أي: لا ياتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نباتكما أي: بينت لكما ماهيته وكيفيته قبل أن ياتيكما، وسماه تأويلاً بطريق المشكلة، لأن الكلام في تأويل الرؤيا، أو المعنى: إلا نباتكما بما يثول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع، والإشارة بقوله: ﴿ذلكما﴾ إلى التأويل، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿مما علمني ربي﴾ بما أوحاه إليّ والهمني إياه لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ، ثم بين لكما أن ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الأنبياء من آبائه فقال: ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله، والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الأصل، لا أنه قد كان تلبس به، ثم تركه كما يدل عليه قوله: ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله﴾ ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه. فقال: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي: هم مختصون بذلك دون غيرهم لإفراطهم في الكفر بالله. وقوله: ﴿واتبعتم﴾ معطوف على تركت، وسماه آباء جميعاً لأن الأجداد آباء، وقدم الجد الأعلى، ثم الجد الأقرب ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده ثم تلقاها عنه إسحاق ثم يعقوب، وهذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه في الإيمان بالله ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله﴾ أي: ما صح لنا ذلك فضلاً عن وقوعه، والضمير في لنا له وللأنبياء المذكورين، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الإيمان المفهوم من قوله ما كان لنا أن نشرك بالله، و﴿من فضل الله علينا﴾ خبر اسم الإشارة أي: ناشئ من تفضلات الله علينا ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه، ومن فضل الله على

منعم عليه لا يدري، ويا ربّ حامل فقه غير فقيه. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿ءأرباب متفرقون﴾ الآية، قال: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما وإلى نصيبهما من آخرتهما. وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله: ﴿تلك الدين القيم﴾ قال: العدل، فقال:

يَصْنَعِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلُّ
فَتَأْكُلُ التَّلَازِي مِنْ رَأْسِهِ. فَمَيَّ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي بِعَذْرَتِكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ وَكَفَرَ
رَبَّهُ. فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢﴾

هذا هو بيان ما طلباه منه من تعبير رؤياهما. والمراد بقوله: ﴿أما أحدهما﴾ هو الساقى، وإنما أبهمه لكونه مفهوماً أو لكراهة التصريح للخبايا بأنه الذي سيصلب ﴿فيسقي ربه خمرًا﴾ أي: ماله، وهي عهنته التي كان قائماً بها في خدمة الملك، فكانه قال: أما أنت أيها الساقى فستعود إلى ما كنت عليه ويدعو بك الملك ويطلقك من الحبس ﴿وأما الآخر﴾ وهو الخبايا ﴿فيصلب فتاكل الطير من رأسه﴾ تعبيراً لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزاً فتاكل الطير منه ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وهو ما رآياه وقصاه عليه، يقال: استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأل عنه مما أشكل عليه، وهما قد سالاه تعبيراً ما أشكل عليهما من الرؤيا ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما﴾ أي: قال يوسف، والظان هو أيضاً يوسف، والمراد بالظن العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابي وهلاك الخبايا، هكذا قال جمهور المفسرين وقيل: الظاهر على معناه، لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً، والأول أولى وأنسب بحال الأنبياء. ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلع الله على شيء من علم الغيب كما في قوله: ﴿لا ياتيكم طعام ترزقانه﴾ [يوسف: 37] الآية، وجملة ﴿أذكركني عند ربك﴾ هي مقول القول أمره بأن يذكره عند سيده ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والإطلاع على شيء من علم الغيب، وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائداً إلى يوسف، هكذا قال بعض المفسرين ويكون المراد بربه في قوله: ﴿نكر ربه﴾ وهو الله سبحانه أي: إنساء الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما﴾ يذكره عند سيده ليكون ذلك سبباً لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته. وذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان نكر ربه هو الذي نجا من الغلامين، وهو الشرابي، والمعنى: إنساء لشيطان الشرابي نكر سيده أي: نكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف من نكره عند سيده، ويكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به

العزیز: إن أنت لم تسجنه ليصدقته الناس. وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال: من الآيات كلام الصبي. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: الآيات حرّهن أيديهن وقد القميص.

وأقول: إن كان المراد بالآيات: الآيات الدالة على براءته فلا يصح عدّ قطع أيدي النسوة منها، لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن مع ما لبسه الله سبحانه من الجمال الذي تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر وتضعف عند رؤيته قوى التجلّد، وإن كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطي من الحسن ما يسلب عقول المبصرين، ويذهب بإدراك الناظرين، فنعم يصح عدّ قطع الأيدي من جملة الآيات، ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات: أما أوّل مرة فبالحبس لما كان من همّه بها، والثانية لقوله: ﴿أذكركني عند ربك... فلبث في السجن بضع سنين﴾ [يوسف: 42] عوقب بطول الحبس، والثالثة حيث قال: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ [يوسف: 70] فاستقبل في وجهه: ﴿أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ [يوسف: 77]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ويخل معه السجن فتيان قال أحدهما﴾ خازن الملك على طعامه، والآخر ساقيه على شرايه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ قال: عنياً. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿نبئنا بقاويله﴾ قال: عبارته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿إننا نراك من المحسنين﴾ قال: كان إحسانه فيما نكر لنا أنه كان يعزّي حزينهم ويداري مريضهم. ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب عن الضحاك قال: كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان أوسع له، وإذا احتاج جمع له. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن فقال: اللهم لا تعمّ عليهم الأخبار وهون عليهم مرّ الأيام. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: ﴿لا ياتيكم طعام﴾ الآية، قال: كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريحهما أن عنده علماً، وكان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه، فقال يوسف: ﴿لا ياتيكم طعام ترزقانه﴾ إلى قوله: ﴿يشكرون﴾ فلم يدعه صاحباً الرؤية حت يعبر لهما، فكره العبارة فقال: ﴿يا صاحبي السجن﴾ وأرباب متفرقون إلى قوله: ﴿ولكن أكثر للناس لا يعلمون﴾ قال: فلم يدعاه فعبّر لهما. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿تلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ قال: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله، ويشكر ما بالناس من نعم الله، نكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: يا ربّ شاكر نعمة غير

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة فذكر نحوه وهو مرسل أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أنس قال: أوحى إلى يوسف: من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا رب، قال: فمن استنقذك من الجب إذ ألقيت فيه؟ قال: أنت يا رب، قال: فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك؟ قال: أنت يا رب، قال: فما لك نسيتني وذكرت آدمياً؟ قال: جزعاً وكلمة تكلم بها لساني، قال: فوعزتي لأخلدك في السجن بضع سنين، فلبث فيه سبع سنين، وقد اختلف السلف في تقدير مدة لبثه في السجن على حسب ما قدمنا ذكره، فلم نشغلها هنا بذكر من قال بذلك ومن خرجه.

وَقَالَ الْبَلَدِيُّ إِنَّ آيَةَ صَبْرٍ بَقَرَاتٍ يَسَوَانُ بِأَكْلِهِنَّ سَعًى عِبَادٍ وَسَعًى
سُجَّانٍ خَضِرٍ وَأَحْمَرَ يَابِسٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونُ فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُمْ
لِلْأَيَّامِ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا أَشَدُّتْ أَعْلَيْكَ وَمَا عَنَّا بِأَوَّلِ الْأَعْلَامِ يَتْلِينِ
﴿١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ نَجَّاهُمْ وَتَذَكَّرْ بَعْدَ امْنَةٍ أَنَا أَنْتُمْ يَوْمَ تَأْتِيهِمْ فَارِيسُونَ ﴿١٧﴾
يُؤْسِفُ أَهْلُ الْعَرِيقِ أَفْنِيًا فِي سَبْعٍ بَقَرَاتٍ يَسَوَانُ بِأَكْلِهِنَّ سَعًى عِبَادٍ
وَسَبْعٍ سُجَّانٍ خَضِرٍ وَأَحْمَرَ يَابِسٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ
﴿١٨﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ أَمَا مَا حَصَدْتُمْ تَذَرُوهُ فِي سُجْلِهِ إِنْ فَلَيْلَا مَتَا
تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مَتَا
تُحْصَوْنَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَيَتَيْمُ يُصْرَوْنَ ﴿٢١﴾

المراد بالملك هنا: هو الملك الأكبر، وهو الريان بن الوليد الذي كان العزيز وزيراً له، رأى في نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس ﴿سبع بقرات سمان﴾ جمع سمين وسمينة، في إثرهن سبع عجاف: أي: مهزئيل، وقد أقبلت العجاف على السمان فلكتهن. والمعنى: إني رأيت، ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة، وكذلك قوله: ﴿ياكلهن﴾ عبر بالمضارع للاستحضار، والعجاف جمع عجفاء، وقياس جمعه عجف، لأن فعلاء وأفعل لا تجمع على فعال، ولكنه عدل عن القياس حملاً على سمان ﴿وسبع سنبلات﴾ معطوف على سبع بقرات. والمراد بقوله: ﴿خضر﴾ أنه قد انعقد حبها، واليابسات التي قد بلغت حدّ الحصاد. والمعنى: وأرى سبعاً آخر يابسات، وكان قد رأى أن السبع السنبلات اليابسات قد أثمرت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها، ولعل عدم التعرّض للذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما نكر من حال البقرات ﴿يا أيها الملاء﴾ خطاب للأشراف من قومه ﴿افتقوني في رؤيائي﴾ أي: أخبروني بحكم هذه الرؤيا ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ أي: تعلمون عبارة الرؤيا، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عبرت النهر: بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يخبر بما يثول إليه أمرها. قال الزجاج: اللام في للرؤيا للتبيين أي: إن كنتم تعبرون. ثم بين فقال: (لرؤيا) وقيل: هو للتقوية، وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل. وجملة ﴿قالوا أضغاث

يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء. وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني». ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب، فلو كان الذي أنساه الشيطان نكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه، ويؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بضع سنين﴾ ويؤيد رجوعه إلى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي ﴿وقال للذي نجا منهما وائكر بعد أمة﴾ سنة ﴿فَلَبِثُ﴾ أي: يوسف ﴿في السجن﴾ بسبب نك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين، أو بسبب نك الإنشاء ﴿بضع سنين﴾ البضع: ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروي عن العرب. وحكى عن أبي عبيدة أن البضع: ما بين نصف العقد، يعني: ما بين واحد إلى أربعة؛ وقيل: ما بين ثلاث إلى سبع، حكاه قطرب. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس، وقد اختلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف في السجن فقليل سبع سنين، وقيل: ثنتا عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة سنة، وقيل: خمس سنين.

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله: **﴿إِنَّمَا لِحُكْمِكَ**
قَالَ: أَتَاهُ فَقَالَ: رَأَيْتَ فِيمَا يَرَى النَّاسُ أَنِّي غَرَسْتُ حَبْلَةً مِنْ
عَنْبٍ فَنَبَتَتْ، فَخَرَجَ فِيهِ عَنَاقِيدُ فَعَصَرْتَهُنَّ ثُمَّ سَقَيْتَهُنَّ الْمَلِكُ؛
فَقَالَ: تَمَكَّثَ فِي السِّجْنِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ تَخَرَّجَ فَتَسْقِيهِ خَمْرًا.
وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمُنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي
حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَا رَأَى صَاحِبًا
يُوسِفُ شَيْئًا، إِلَّا مَا تَحَالَمًا لِيَجْزِيَا عِلْمَهُ. فَلَمَّا أَوَّلَ رُؤْيَاهُمَا
قَالَا: إِنَّمَا كُنَّا نَلْعَبُ وَلَمْ نَرِ شَيْئًا، فَقَالَ **﴿قَضَى الْأَمْرَ الَّذِي**
فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يَقُولُ: وَقَعَتِ الْعِبَارَةُ فَصَارَ الْأَمْرُ عَلَى مَا
عَبَّرَ يُونُسُ. وَأَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ
أَبِي مَجْلَزٍ قَالَ: كَانَ أَحَدُ الَّذِينَ قَصَا عَلَى يُونُسَ الرَّؤْيَا
كَأَنَّهُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ سَابَاطٍ **﴿وَقَالَ**
لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قَالَ: عِنْدَ مَلِكِ
الْأَرْضِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْعُقُوبَاتِ، وَابْنَ
جَرِيرٍ، وَالطَّبْرَانِيَّ، وَابْنَ مَرْثُومٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ لَمْ يَقُلْ يُونُسُ الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَ مَا لَبِثَ
فِي السِّجْنِ طَوْلَ مَا لَبِثَ حَيْثُ يَبْتَغِي الْفَرْجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ
اللَّهِ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ
عُكْرَمَةَ مَرْفُوعًا نَحْوَهُ، وَهُوَ مَرْسَلٌ، وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذَرِ، وَابْنَ
أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مَرْثُومٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا نَحْوَهُ.
وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي الزَّهْدِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي
حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ الْحَسَنِ مَرْفُوعًا نَحْوَهُ، وَهُوَ مَرْسَلٌ.

(دأباً) بتحريك الهمزة، وكذا روى حفص عن عاصم وهما لغتا قال الفراء: حرك لأن فيه حرفاً من حروف الحلق، وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقله جائز في كلمات معروفة. فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب، والعجاف بسبع سنين فيها جبد وهكذا عبر السبع السنبلات الخضراء والسبع السنبلات اليابسات، واستدل بالسبع السنبلات الخضراء على ما ذكره في التعبير من قوله: ﴿فَمَا حَصَنْتُمْ فَذُرُوهُ فِي سَنِبَلِهِ﴾ أي: ما حصنتم في كل سنة من السنين المخصبة فذرّوا ذلك المحصول في سنبله ولا تفصلوه عنها لئلا ياكله السوس إلا قليلاً مما تاكلون في هذه السنين المخصبة فإنه لا بد لكم من فصله عن سنبله وإخراجه عنها، واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون إليه من البذر الذي يبنونه في أموالهم لأنه قد علم من قوله تزرعون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد السبع السنين المخصبة ﴿سَبْعَ شَدَادٍ﴾ أي: سبع سنين مجبة يصعب أمرها على الناس ﴿يَاكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ من تلك الحبوب المتروكة في سنايلها، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز، والمعنى: ياكل الناس فيهنّ أو ياكل أهلنّ ما قدّمتم لهنّ: أي: ما انخرتم لأجلهنّ فهو من باب: نهارة صائم، ومنه قول الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ أي: مما تحبسون من الحب لتزرعوا به، لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات. وقال أبو عبيدة: معنى تحصنون تحززون، وقيل: تُخْزُون، والمعنى واحد. قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ﴾ وفيه يعصرون ﴿أي: من بعد السنين المجذبات، فالإشارة إليهما، والعام السنة ﴿فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الفوْث، والغيث المطر، وقد غاث الغيث الأرض أي: أصابها، وغاث الله البلاد يغيثها غوثاً: أمطرها، فمعنى يغاث الناس: يمحرون ﴿وفيه يعصرون﴾ أي: يعصرون الأشياء التي تعصر كالعنب والسّمسم والزيتون، وقيل: أراد حلب الألبان؛ وقيل: معنى يعصرون ينجون، مأخوذ من العصرة وهي المنجاة. قال أبو عبيدة: والعصر بالتحريك الملجأ والمنجاة، ومنه قول الشاعر:

صادياً يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود
واعترضت بفلان: التجأت به. وقرأ حمزة والكسائي (تعصرون) بقاء الخطاب. وقرأ (يعصرون) حرف المضارعة وفتح الصاد، ومعناه يمحرون. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَالاً﴾ [النبا: 14].

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قال يوسف للساقى: أنكرني عند ربك أي: الملك الأعظم ومظلمتي وحبسي في غير شيء، فقال: أفعل، فلما خرج الساقى ردّ على ما كان عليه ورضي عنه صاحبه وأنساه الشيطان نكر الملك الذي أمره يوسف أن ينكره له، فلبث يوسف بعد ذلك في السجن بضع سنين، ثم إن الملك

أحلام ﴿مستأنفة جواب سؤال مقدر، والأضغاث جمع ضغث، وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما، والمعنى: أخالط أحلام، والأحلام جمع حلم: وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان، والإضافة بمعنى من، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك إلا رؤيا واحدة مبالغة منهم في وصفها بالبطلان، ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ قال الزجاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا مطلق العلم بالتأويل، وقيل: إنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقاً، ولم يدعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا، وقيل: إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها، ولم يكن ما ذكره من نفي العلم حقيقة ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من الغلامين، وهو الساقى الذي قال له يوسف: ﴿انكرني عند ربك﴾ [يوسف: 42] (وانكر بعد أمة) بالبدال المهملة على قراءة الجمهور، وهي القراءة الفصيحة أي: تذكر الساقى يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا، وقرأ بالمعجمة؛ ومعنى ﴿بعد أمة﴾: بعد حين، ومنه ﴿إلى أمة معدودة﴾ [هود: 8] أي: إلى وقت. قال ابن درستويه: والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال: والله أعلم وانكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة، والأمة: الجماعة الكثيرة من الناس. قال الأخفش: هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع، وكل جنس من الحيوان أمة. وقرأ ابن عباس وعكرمة (بعد أمة) بفتح الهمزة وتخفيف الميم أي: بعد نسيان، ومنه قول الشاعر:

أمنت وكنت لا أنسى حديثاً كذاك الدهر يودي بالعقول
ويقال أمة يامه أمة: إذا نسي. وقرأ الأشهب العقيلي (بعد أمة) بكسر الهمزة أي: بعد نعمة، وهي نعمة النجاة ﴿إِنَّا لَنُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله، وهو يوسف ﴿فَارْسَلُونَا﴾ خاطب الملك بلفظ التعظيم، أو خاطبه ومن كان عنده من الملاء طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقصّ عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك إلى الملك ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ افْتَنَّا﴾ أي: يا يوسف، وفي الكلام حذف، والتقدير: فإرسلوه إلى يوسف فسار إليه، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ إلى آخر الكلام، والمعنى: أخبرنا في رؤيا من رأى سبع بقرات إلخ وترك نكر ذلك اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلك رؤيا، وأن المطلوب منه تعبيرها ﴿لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ﴾ أي: إلى الملك ومن عنده من الملاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا أو يعلمون فضلك ومعرفتك لفنّ التعبير، وجملة ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ إلخ مستأنفة جواب سؤال مقدر كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿سَبْعَ سَنِينَ دَابًّا﴾ أي: متواليّة متتابعة، وهو مصدر، وقيل هو حال أي: دائبين، وقيل: صفة لسبع أي: دأبة. وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ

يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْقَبْرِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا أَتَيْنِي نَفْسٌ إِلَّا نَفْسٌ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَقَالَ أَلَيْكَ أَتُّوَنُ يَوْمَ اسْتَنْصَلْتُمُونِي لَقَدْ كَلَّمُكُمْ قَالِ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٩﴾ قَالَ أَتَمَلَّيْ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴿٦٠﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَتَمَرَ الْمُتَحِيزِينَ ﴿٦١﴾ وَلَنَجْزِيَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾

قوله: ﴿وقال الملك انتوني به﴾ في الكلام حذف قبل هذا، والتقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا، وقال الملك لمن بحضرته انتوني به أي: بيوسف، رغب إلى رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه ﴿فلما جاءه﴾ أي: جاء إلى يوسف ﴿الرسول﴾ واستدعاه إلى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن ﴿قال﴾ يوسف للرسول ﴿ارجع إلى ربك﴾ أي: سيبك ﴿فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن لينيهن﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن، ولم يسارع إلى إجابة الملك، ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه، وأنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلماً بيناً، ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والأنفة ما تضيق الأذهان عن تصوّره، ولهذا ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، يعني: الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك. قال ابن عطية: هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً، وطالباً لبراءة ساحته، وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز، وإنما قال: ﴿فأسأله ما بال النسوة﴾ وسكت عن امرأة العزيز رعاية لئلام الملك العزيز، أو خوفاً منه من كيدها وعظيم شرّها، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي ولم يذكر مروايتها، له، تنزهاً منه عن نسبة ذلك إليهن، ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدّم إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمت بدائها وانسلت. وقد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله: ﴿إن ربي يكييهن عليم﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهو مغنياً عن التصريح، وجملة ﴿قال فما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف؟ والخطب: الشأن العظيم الذي يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة، والمعنى: ما شأنكن إذا راودتن يوسف عن نفسه. وقد تقدّم معنى المراودة، وإنما نسب إليهن المراودة، لأن كل واحدة منهم وقع منها ذلك كما تقدّم، ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز، أو أراد بنسبة ذلك إليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها امرأة وزيره وهو

ريان بن الوليد رأى رؤياه التي أرى فيها فهايته وعرف أنها رؤيا واقعة ولم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله من أهل مملكته ﴿إني أرى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات﴾ فلما سمع من الملك ما سمع منه ومساغته عن تأويلها نكر يوسف ما كان عبر له ولصاحبه وما جاء من ذلك على ما قال فقال: أنا أنبئكم بتأويله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿أضغاث أحلام﴾ يقول: مشتبهة. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير عنه قال: من الأحلام الكاذبة. وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وانكر بعد أمة﴾ قال: بعد حين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وعكرمة وعبد الله بن كثير والسدي مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بعد سنين. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: بعد أمة من الناس. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿افتنا في سبع بقرات﴾ الآية، قال: أما السمان فسنون فيها خصب، وأما العجاف فسنون مجيبة، وسبع سنبلات خضر هي السنون المخاصيب تخرج الأرض نباتها وزرعها وثمارها، وآخر يابسات المحول الجذوب لا تثبت شيئاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشتراط عليهم أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبارتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذرة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ يقول: تخزنون، وفي قوله: ﴿وفيه يعصرون﴾ يقول: الأعناب والدهن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وفيه يغاث الناس﴾ يقول: يصيبهم فيه غيث ﴿وفيه يعصرون﴾ يقول: يعصرون وفيه العنب ويعصرون فيه الزبيب ويعصرون من كل الثمرات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿وفيه يعصرون﴾ قال: يحتلبون. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿ثم ياتي من بعد ذلك عام﴾ قال: أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كأن الله قد علمه إياه فيه يغاث الناس بالمطر، وفيه يعصرون السمسسم دهناً والعنب خمرأ والزيتون زيتاً.

وَقَالَ أَلَيْكَ أَتُّوَنُ يَوْمَ اسْتَنْصَلْتُمُونِي لَقَدْ كَلَّمُكُمْ قَالِ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٩﴾ قَالَ أَتَمَلَّيْ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴿٦٠﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَتَمَرَ الْمُتَحِيزِينَ ﴿٦١﴾ وَلَنَجْزِيَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾

ذلك ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أماراة بالسوء، أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها، وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أماراة بالسوء، وجملة ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها أي: إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم. قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ لِنُتَوْنِي بِهِ لِنَسْتَخْلِصَ لِنَفْسِي﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدّم؛ ومعنى ﴿لِنَسْتَخْلِصَ لِنَفْسِي﴾: أجعله خالصاً لي دون غيري، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز، والاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الشراكة، قال ذلك لما كان يوسف نقيساً، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ﴿فَلَمَّا كَلَمَهُ﴾ في الكلام حذف، وتقديره فاتته به فلما كلمه أي: فلما كلم الملك يوسف ويحتمل أن يكون المعنى: فلما كلم يوسف الملك. قيل: والأول أولى، لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم؛ وقيل: الثاني أولى لقول الملك ﴿قَالَ إِنَّكَ لَيَوْمٌ لَبِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف في مقام الملك جاء بما حبه إلى الملك، وقربه من قلبه، فقال له هذه المقالة، ومعنى مكين: ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريد من الملك ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره، أو على ما يكله إليه من ذلك. قيل: إنه لما وصل إلى الملك جلس على سريره، وقال له: إني أحب أن أسمع منك تعبير رؤيائي، فعبرها له بكامل بيان وأتم عبارة، فلما سمع الملك منه ذلك قال له: ﴿إِنَّكَ لَيَوْمٌ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فلما سمع يوسف منه ذلك ﴿قَالَ لَجْعَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: ولني أمر الأرض التي حفظ خزائن الأرض، وهي أرض مصر، أو لَجْعَلَنِي على حفظ خزائن الأرض، وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ويتوصل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ويهدم ما أمكنه من الباطل طلب ذلك لنفسه ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه، وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه وجعلها منوطة به ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها أو حرص عليها. والخزائن جمع خزانة، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء والحفيظ الذي يحفظ الشيء أي: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ﴾ لما جعلته إليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخرجها، ولا أصرفها في غير مصارفها ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجود جمعها وتفريقها ومخلها ومخرجها ﴿وَكُنْتُ مَكْنًا لِيُوسُفَ﴾ أي: ومثل ذلك التمكين العجيب مكناً ليوسف في الأرض أي: جعلنا له مكاناً، وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه

العزيز، فاجبن عليه بقوله: ﴿قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: من أمر سيء ينسب إليه، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ منزّهة لجانبه مقرّة على نفسها بالمرادة له ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: تبين وظهر، وأصله حصّ، فقليل: حصص كما قيل في كبوا كبكبوا، قاله الزجاج، وأصل الحصّ: استئصال الشيء، يقال: حصّ شعره إذا استأصله، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت: قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاء والمعنى أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه، ومنه: فمن مبلغ عني خدasha فإنه كذب إذا ما حصص الحق ظالم وقيل: هو مشتق من الحصّة. والمعنى: بانت حصّة الباطل، قال الخليل: معناه ظهر الحق بعد خفائه، ثم أوضحت ذلك بقولها: ﴿إِنَّا رَأَوْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ولم تقع منه المرادة لي أصلاً ﴿وَرَأَوْنَهُ لِمَنْ لِلصَّائِقِينَ﴾ فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المرادة إليها، وأرابت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام. قوله: ﴿لَنْكَ لَيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام. قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما إلى ما يليق به، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه، وهي تثبته وتأييده أي: فعلت ذلك ليعلم العزيز أنني لم أخنه في أهله بالغيب؛ والمعنى يظهر الغيب، والجار والمجرور في محل نصب على الحال أي: وهو غائب عني، أو وأنا غائب عنه. قيل: إنه قال ذلك وهو في السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالت النسوة، وما قالت امرأة العزيز، وقيل: إنه قال ذلك وقد صار عند الملك، والأول أولى. وذهب الأقولون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز، والمعنى: ذلك القول الذي قلته في تنزيهه، والإقرار على نفسي بالمرادة ليعلم يوسف أنني لم أخنه فأنسب إليه ما لم يكن منه وهو غائب عني، أو وأنا غائبة عنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لا يثبت ويسدّه، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته ﴿وَمَا لِيُبرئِ نَفْسِي﴾ إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس، وعدم التزكية بها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس، واقرّت به المرأة التي ادّعت عليه الباطل، ونزّهته النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وإن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة، لأنها قد اقرت بالذنب، واعترفت بالمرادة بالافتراء على يوسف. وقد قيل: إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جداً؛ ومعناه: وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف، والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع، وصعوبة قهرها، وكفها عن

وإنا ابن يعقوب نبي الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن شعبة بن نعمة الضبي في قوله: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ يقول: على جميع الطعام. ﴿إني حفيظ﴾ لما استودعني ﴿عليهم﴾ بسني المجاعة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿وكنكلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ قال: ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء. وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرًا، وكان زوجها عنيًا.

وَبَكَةٌ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُكْرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْحُمُ الْأَخَوَاتِ أَتَى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّا تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا بَكْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ فَأُولَئِكَ سَارُوا عَلَيْهِ أَبَاهُ وَأَنذَرُوهُمُ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِيُفَيْدِيهِمْ أَجَلُهُمْ فَبُذِنَتْ لَهُمْ فِي يَوْمِهِمْ أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَ وَإِنَّا لَنَنكِحُهُمْ لَأُمَّهَاتِهِمْ بِرِجْوَتِهِمْ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مِنَّا أَحَدًا نَكْتَلْ وَأَنَا لَمُحْفَظُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ هَلْ مَسَّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٣﴾ وَلَمَّا فَخَّرُوا مُنْعَهُمْ رَجَعُوا بِضَعْفِهِمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ هَؤُلَاءِ بِضَعْفِنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَكَيْفَ أَهْلُنَا وَحَفِظَ أَحَاكَ وَتَزَادَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٤﴾ قَالَ لَن أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا يَرَىٰ أَنَّهُ لَأَتْنِي بِهِ إِلَّا أَن يَحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٥﴾

قوله: ﴿وجاء إخوة يوسف﴾ أي: جاءوا إلى مصر من أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط ﴿فدخلوا﴾ على يوسف ﴿فعرّفهم﴾ لأنه فارقه رجلاً ﴿وهم له منكرون﴾ لأنهم فارقه صبيًا يباع بالنداهم في أيدي السيارة بعد أن أخرجوه من الحب، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه ابهة الملك، وروى الرثاسة، وعنده الخدم والحشم. وقيل: إنهم أنكروه لكونه كان في تلك الحال على هيئة ملك مصر، ولبس تاجه وتطوّق بطوقه، وقيل: كانوا بعيداً منه فلم يعرفوه، وقيل غير ذلك، ﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾ المراد هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافرين. يقال: جهّز القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهازاً للسفر. قال الأزهري: القراء كلهم على فتح الجيم، والكسر لغة جيدة. ﴿قال اتقوني ياخ لكم من أبيكم﴾ قيل: لا بد من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه ياخ لهم من أبيهم. فروي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: ما أنتم وما شأنكم فإني أنكركم؟ فقالوا: نحن قوم من أهل الشام جئنا نمتار ولنا أب شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: عشرة. وقد كنا اثني عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، وكان أحبنا إلى أبينا، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باقى لديه يتسلى به، فقال لهم حينئذٍ: ﴿اتقوني ياخ لكم من أبيكم﴾ يعني: أخاه

﴿يتبوا منها حيث يشاء﴾ أي: ينزل منها حيث أراد ويتخذ مباءة، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدّم، وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها إلى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله. وقرأ ابن كثير بالتون، وقد استدّل بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق. وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفي في قوله سبحانه: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ [هود: 113] ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان إليه والإنعام عليه، وفي الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوب الله منهم أي: لا نضيع ثوابهم فيها، ومجازاتهم عليها ﴿ولا لاجر الآخرة﴾ أي: أجرهم في الآخرة، واضيف الأجر إلى الآخرة للملانة، وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها، وهو الجنة التي لا ينفذ نعيمها ولا تنقضي منتها ﴿خير للذين آمنوا﴾ باله ﴿وكانوا يتقون﴾ الوقوع فيما حرّمه عليهم. والمراد بهم المحسنون المتقدم ذكرهم، وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وما بال النسوة﴾ قال: أراد يوسف العزير قبل أن يخرج من السجن. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب عنه قال: لما قالت امرأة العزيز: إنا راودته، قال يوسف: ﴿ذلك ليعلم أنني لم أكنه بالغيب﴾ فغمره جبريل فقال: ولا حين هممت بها؟ فقال: ﴿وما أبرئ نفسي﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿حصص الحق﴾ قال: تبين. وأخرج ابن جرير عن مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، والسدي مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، عن حكيم بن حزام في قوله: ﴿ذلك ليعلم أنني لم أكنه بالغيب﴾ فقال له جبريل: ولا حين حلت السراويل؟ فقال عند ذلك ﴿وما أبرئ نفسي﴾. وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿وقال الملك لثوني به استخلصه لنفسه﴾ قال: فأتاه الرسول فقال: ألق عنك ثياب السجن واللبس ثياباً جيداً وقم إلى الملك، فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه رأى غلاماً حدثاً، فقال: أيعلم هذا رؤيائي ولا يعلمها السحرة والكهنة؟ وأقعه قدامه وقال: لا تخف، واللبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير، وأعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك، وضرب الطبل بمصر: إن يوسف خليفة الملك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملك ليوسف: إني أحب أن تخالطني في كل شيء إلا في أهلي. وأنا أنف أن تاكل معي، فغضب يوسف وقال: أنا أحق أن أنف، أنا ابن إبراهيم خليل الله، وأنا ابن إسحاق نبيح الله،

بنيامين الذي تقدّم ذكره، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه، فوعده بذلك، فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذي طلبه، فاقترحوا فاصابته القرعة شمعون فخلفوه عنده، ثم قال لهم: ﴿وَالَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ﴾ أي: أتممه، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عاقبته المستمرة، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله، فقال: ﴿وَأَنَا خَيْرَ الْمَنْزِلِينَ﴾ أي: والحال أنني خير المنزلين لمن نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الإنزال. قال الزجاج: قال يوسف: ﴿وَأَنَا خَيْرَ الْمَنْزِلِينَ﴾ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم، ثم توعدهم إذا لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد، وأما في الحال فقد أوفاهم كيلهم، ومعنى لا تقربون: لا تدخلون بلادي فضلاً عن أن أحسن إليكم وقيل: معناه لا أنزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرة، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده، وتقربون مجزوم إما على أن لا ناهية أو على أنها نافية، وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال: فإن لم تأتوني تحرموا ولا تقربوا فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم فـ ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنطلبه منه، ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه، وقيل: معنى المرادة هنا المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه ﴿وَأِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ هذه المرادة غير مقصرين فيها. وقيل: معناه وإننا لقادرون على ذلك، لا نتعاني به ولا نتعاضمه ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر (لفتيته)، واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما، وقرأ سائر الكوفيين (لفتيان)، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وفي مصحف عبد الله بن مسعود كالقراءة الآخرة. قال النحاس: لفتيانته مخالف للسواد الأعظم، ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع وأيضاً فإن فتية أشبه من فتیان، لأن فتية عند العرب لأقل العدد، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه. والجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فاجيب بأنه قال لفتيته. قال الزجاج الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك. وقال الثعلبي: هما لغتان جيتان مثل الصبيان والصبية. والمراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشترروا بها الطعام، وكانت نعلأ وأماً، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم؛ وقيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلهم أنهم لا يقبلون الطعام إلا بتمن قاله الفراء. وقيل: فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام؛ وقيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام، ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ فجعل علة جعل البضاعة في الرحال هي

معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم، وذلك لأنهم لا يعلمون برد البضاعة إليهم إلا عند تقرير الأوعية التي جعلوا فيها الطعام، وهم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم، ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم المبعولة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن، وأن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، ولا سيما مع ما هم فيه من الجذب الشديد والحاجة إلى الطعام وعدم وجوده لديهم، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد، وهو رجوعهم إليه فلا يتم تحليل ردّها بغير ذلك، والرحال جمع رحل، والمراد به هنا ما يستمضيه الرجل معه من الأثاث. قال الواحدي: الرجل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس ورسن انتهى. والمراد هنا الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام. قال ابن الأنباري: يقال: للوعاء رحل وللبيت: رحل ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَنَا الْكَيْلَ﴾ أرادوا بهذا ما تقدّم من قول يوسف لهم: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ أي: منع منا الكيل في المستقبل، وفيه دلالة على أن الامتياز مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه، ولعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ إلى آخره، ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف، فقالوا: ﴿فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ يعنون بنيامين و ﴿نَكْتَلُ﴾ جواب الأمر أي: نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام. قرأ أهل الحرمين، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم (نكتل) بالنون. وقرأ سائر الكوفيون بالياء التحتية. واختار أبو عبيد القراءة الأولى قال: ليكونون كلهم داخلين فيمن يكتال، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للاخ وحده أي: يكتال أخونا بنيامين، واعترضه النحاس مما حاصله أن إسناد الكيل إلى الأخ لا ينافي كونه للجميع، والمعنى: يكتال بنيامين لنا جميعاً. قال الزجاج: أي إن أرسلته اكتبنا وإلا منعنا الكيل ﴿وَأَنَا لَهُ﴾ أي: لأخيهم بنيامين ﴿لِحَافِظُونَ﴾ من أن يصيبه سوء أو مكروه، وجملة ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كما تقدّم في نظائر ذلك في مواضع كثيرة، والمعنى: أنه لا يأمنهم على بنيامين إلا كما آمنهم على أخيه يوسف وقد قالوا له في يوسف: ﴿وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ كما قالوا هنا: ﴿وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ ثم خانوه في يوسف فهو إن آمنهم في بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه في يوسف ﴿فَالْأَخِيرَ خَيْرَ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لعل هنا إضماراً والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم وقال: فالأخير خير حفظاً. قرأ أهل المدينة (حفظاً) وهو منتصب على التمييز، وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وابن عامر. وقرأ سائر الكوفيين (حافظاً)، منتصب على الحال. وقال الزجاج:

اعطوه ما طلبه منهم من اليمين **﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾** أي قال يعقوب: الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم وإعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس في عهده وفجر في الحلف به، أو موكل إليه القيام بما شهد عليه منا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه، فوضعه على يده فجعل ينقره ويطحن، وينقره ويطحن، فقال: إن هذا الجام ليخبرني عنكم خبراً. هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف؟ وكان أبوه يحبه دونكم، وإنكم انطلقتم به فالتقيتموه في الحب وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب؟ قال: فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويعجبون. وأخرج أبو الشيخ عن وهيب قال: لما جعل يوسف ينقر الصواع ويخبرهم قام إليه بعض إخوته فقال: انشدك بالله أن لا تكشف لنا عورة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿التوتوني باخ لكم من أبيكم﴾** قال: يعني بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: **﴿ولنا خير للمنزّلين﴾** قال: خير من يضيف بمصر. وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: **﴿لفتيته﴾** أي: لغلماناه **﴿لجعلوا بضاعتهم﴾** أي: أوراقتهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿ما نبغي هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾** يقولون: ما نبغي وراء هذا **﴿ونزداد كيل بعير﴾** أي: حمل بعير. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد **﴿ونزداد كيل بعير﴾** قال: حمل حمار، قال: وهي لغة، قال أبو عبيد: يعني مجاهداً أن الحمار يقال له: في بعض اللغات بعير. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿إلا أن يحاط بكم﴾** قال: تهلكوا جميعاً. وفي قوله: **﴿فلما أتوه موثقهم﴾** قال: عهدهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿إلا أن يحاط بكم﴾** قال إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك.

وَقَالَ بَنِيُّ لَا تَدْعُوا مِنْ بَابِ رَجُلٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابِ مُتَّقَرَفَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ يَرْكُ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْغَمْتُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُفْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَكُو عَيْلٍ لَنَا عَلَيْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَّسَوْا وَكَانَ أَحْسَنَ مَا قَالَ إِنَّهُ أَنَا حُرُوكَ فَلَا تَنْهَسْ بِمَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَمَعَ الْقَبَايَةَ فِي رَاسِ أَخِيهِ ثُمَّ أَدْنَى مِنْهُنَّ إِتْنَاهَا أَلَمِيرَ إِنَّكُمْ أَسْرِيُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا نَذْنُدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٨٢﴾ قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِتُفْعِلُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٨٣﴾ قَالُوا مَاذَا جِئْتُمْ بِهِ

على البيان يعني: التمييز؛ ومعنى الآية: أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له، لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال في يوسف: **﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾** [يوسف: 13] وقع له من الامتحان ما وقع. **﴿ولما فتحوا متاعهم﴾** أي: أوعية الطعام أو ما هو أعم من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذي فيه طعاماً أو غير طعام **﴿وجذبوا بضاعتهم ربت إليهم﴾** أي: البضاعة التي حملوها إلى مصر ليمتاروا بها، وقد تقدّم بيانها، وجملة **﴿قالبوا يا لبنا﴾** مستأنفة كما تقدّم **﴿ما نبغي﴾** ما استفهامية والمعنى: أي شيء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان بردّ البضاعة والإكرام عند القدوم إليه، وتوفير ما أردناه من الميرة، ويكون الاستفهام للإنكار، وجملة **﴿هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾** مقرّرة لما دل عليه الاستفهام من الإنكار لطلب شيء مع كونها قد رئت إليهم؛ وقيل: إن (ما) في ما نبغي نافية أي: ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وإكرامه لنا، ثم برهنوا على ما لقوه من التزيد في وصف الملك بقولهم **﴿هذه بضاعتنا رئت إلينا﴾** فإن من تفضل عليهم بردّ ذلك حقيق بالثناء عليه منهم، مستحق لما وصفوه به، ومعنى **﴿ونفيمر أهلنا﴾** نجلب إليهم الميرة وهي الطعام، والمائر الذي يأتي بالطعام. وقرأ السلمي بضم النون، وهو معطوف على مقدر يدلّ عليه السياق. والتقدير: هذه بضاعتنا رئت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع ونفيمر أهلنا **﴿ونحفظ لأخانا﴾** بنيامين مما تخافه عليه **﴿ونزداد﴾** بسبب إرساله معنا **﴿كيل بعير﴾** أي: حمل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرة، لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير، ومعنى **﴿ذلك كيل يسير﴾** أن زيادة كيل بعير لأخيها يسهل على الملك، ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاضمه ولا يضايقنا فيه، وقيل إن المعنى: ذلك المكمل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخيها. واختار الزجاج الأول. وقيل: إن هذا من كلام يعقوب جواباً على ما قاله أولاده، **﴿ونزداد كيل بعير﴾** يعني: إن حمل بعير شيء يسير لا يخطر لأجله بالولد وهو ضعيف، لأن جواب يعقوب هو **﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾** أي: حتى تعطوني ما أثق به وأركن إليه من جهة الله سبحانه، وهو الحلف به، واللام في **﴿لتأتني به﴾** جواب القسم، لأن معنى **﴿حتى تؤتون موثقاً من الله﴾**: حتى تحلفوا بالله لتأتني به أي: لتردن بنيامين إلي، والاستثناء بقوله: **﴿إلا أن يحاط بكم﴾** هو من أعم العلم، لأن **﴿لتأتني به﴾** وإن كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي، فكانه قال: لا تمنعون من إتيائي به في حال من الأحوال لعله من اللعل إلا لعله الإحاطة بكم، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو، ومن إحاط به العدو فقد غلب أو هلك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا بونه، فيكون ذلك عنراً لكم عندي **﴿فلما أتوه موثقهم﴾** أي:

لَكَانَ تَفَرَّقَهُمْ كاجتماعهم. وقال آخرون: ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم، ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك في ذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل إيراد وإصدار لا على غيره أي: اعتمدت ووثقت ﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على العموم، ويخل في أولاده بخولاً أولياً ﴿وَلَمَّا نَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ لِيُوهَمَ﴾ أي: من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد. وجواب لما ﴿مَا كَانَ يَغْنِي عَنْهُمْ﴾ ذلك الخول ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ أي: من جهته ﴿مَنْ شَيْءٍ﴾ من الأشياء مما قدره الله عليهم لأن الحذر لا يدفع القدر، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ منقطع، والمعنى: ولكن حاجة كانت في نفس يعقوب، وهي شفقتهم عليهم ومحبتهم لسلامتهم قضاها يعقوب أي: أظهرها لهم ووصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذي يبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم، وقيل: إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة. وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقداً أو خوفاً منهم، فامرهم بالتفرق لهذه العلة. وقد اختار هذا النحس وقال: لا معنى للعين ما هنا، وفيه أن هذا لو كان هو السبب لامرهم بالتفرق ولم يخصّ النبي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد، لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد. وقيل: إن الفاعل في قضاها ضمير يعود إلى الخول لا إلى يعقوب. والمعنى: ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ﴿وَإِنَّهُ لَنَوْ عَلِمَ لَمَّا عَلِمَانَا﴾ أي: وإن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم الله إياه بما أوحاه الله من أن الحذر لا يدفع القدر، وأن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بذلك كما ينبغي، وقيل: لا يعلمون أن الحذر مندوب إليه وإن كان لا يغني عن القدر شيئاً، والسياق يدفعه؛ وقيل: المراد بأكثر الناس المشركون ﴿وَلَمَّا نَخَلُوا عَلَى يَوْسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضمّ إليه أخاه بنيامين، قيل: إنه أمر بإنزال كل اثنين في منزل فبقي أخوه منفرداً فضمه إليه و ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف، قال له ذلك سرّاً، من دون أن يطلع عليه إخوته ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إخوتك من الأعمال الماضية التي عملوها؛ وقيل: إنه لم يخبره بأنه يوسف، بل قال له: إني أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسداً وبغياً؛ وقيل: إنه أخبره بما سيبره معهم من جعل السقاية في رحله، فقال: لا أبالي، وقيل: إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال: لا ترنني إليهم، فقال قد علمت اغتنام أبينا يعقوب فإذا حبستك عندي ازداد غمه، فأتى بنيامين فقال له يوسف: لا يمكن

إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا جَزَاءُ مَنْ رُشِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُكَ كَذَلِكَ يَجْزِي الْغَالِبِينَ ﴿٧٩﴾ بَدَأَ بِأَوْسَطِهِمْ قَبْلَ وَعَاةِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَغْرَبَهَا مِنْ وِعَاةِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَنُفِقْ كُلٌّ فِي عِلْمٍ غَيْبٍ ﴿٨٠﴾

لما تجهز أولاد يعقوب للمسیر إلى مصر خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين لكونهم كانوا نوي جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد، فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد لأن في ذلك مظنة لإصابة العين لهم، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، ولم يكتف بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ عن قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، قيل: وكانت أبواب مصر أربعة.

وقد أنكر بعض المعتزلة كآبي هاشم والبلخي أن للعين تأثيراً، وقالوا: لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقاً به. وليس هذا بمستنكر من هذين واتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وبينهم، وأي مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأصيب بها جماعة في عصر النبوة، ومنهم رسول الله ﷺ. وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل حتى يضم إلى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة والمذاهب الزائفة. وبالجمله فقول هؤلاء منفيج بالأدلة المتكاثرة وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً، وبما هو مشاهد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب.

وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين، فقال قوم: يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته؛ وقيل: ينفي؛ وأبعد من قال إنه يقتل إلا إذا كان يتعمد ذلك وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل. ثم قال يعقوب لأولاده ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا أنفع عنكم ضرراً ولا أجلب إليكم نفعاً بتبيري هذا، بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة. قال الزجاج وابن الأنباري: لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع

الجازم بأنهم ليسوا بمن يتجارأ علي هذا النوع العظيم من أنواع الفساد، ولو لم يكن من ذلك إلا ردهم لبضاعتهم التي وجبوا في رحالهم، والمراد بالأرض هنا أرض مصر، ثم أكدوا هذه الجملة التي أقسموا بالله عليها بقولهم: ﴿وما كنا سارقين﴾ لزيادة التبري مما قرفوهم به والتزهد عن هذه النقيصة الخسيسة والردنية الشنعاء ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ هذه الجملة مستأنفة كما تقدم غير مرة في نظائرها، والقائلون هم أصحاب يوسف، أو المنادي منهم وحده كما مر، والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف أي: فما جزاء سرقة الصواع عندكم، أو الضمير للسارق؛ أي: فما جزاء سارق الصواع عندكم ﴿إن كنتم كاذبين﴾ فيما تدعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة، وذلك بأن يوجد الصواع معكم، فأجاب أخوة يوسف و﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ أي: جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع. وجزاؤه مبتدأ، والجملة الشرطية: وهي من وجد في رحله فهو جزاؤه خبر المبتدأ على إقامة الظاهر مقام الضمير فيها، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو، فيكون الضمير الثاني عائداً إلى المبتدأ، والأول إلى من، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ ومن وجد في رحله، والتقدير: جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد في رحله، وتكون جملة فهو جزاؤه لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها. قال الزجاج: وقوله: ﴿فهو جزاؤه﴾ زيادة في البيان أي: جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير. قال المفسرون: وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة فلذلك استفتوهم في جزائه ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي: مثل تلك الجزاء الكامل نجزي الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف أي: كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرق. ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر، فأقبل يوسف على ذلك ﴿فبدأ به﴾ تفتيش ﴿أوعيتهم﴾ أي: أوعية الإخوة العشرة ﴿قبل وعاء أخيه﴾ أي: قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين نفعاً للتهمة ورفعاً لما بده من الحيلة ﴿ثم استخرجها﴾ أي: السقاية أو الصواع، لأنه ينكر ويؤثت ﴿كذلك كنا ليوسف﴾ أي: مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف يعني: علمناه إياه أوحيناه إليه، والكيد مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية. قال القتيبي: معنى كدنا ببرنا، وقال ابن الأنباري: أرنا، وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً ﴿وما كان ليأخذ أخاه بنيامين في بين الملك﴾ أي: ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين في بين الملك أي: ملك مصر، وفي شريعته التي كان عليها، بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق

حبسك عندي إلا بأن أنسبك إلى ما لا يجمل بك، فقال: لا أبالي، فس الطاع في رحله، وهو المراد بالسقاية وأصلها المشربة التي يشرب بها جعلت صاعاً يكال به، وقيل: كان تسقى بها الدواب ويكال بها الحب، وقيل: كانت من فضة وقيل: كانت من ذهب، وقيل غير ذلك، وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل. والمعنى: أنه جعل السقاية التي هو الصواع في رحل أخيه الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتره من الطعام من مصر ﴿ثم﴾ بعد ذلك ﴿أذن مؤذن﴾ أي: نادى منادٍ قائلاً ﴿أيتها العير﴾ قال الزجاج: معناه يا أصحاب العير. وكل ما أمتير عليه من الإبل والحمير واليغال فهو عير، وقيل: هي قافلة الحمير. وقال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة ﴿إنكم لسارقون﴾ نسبة السرقة إليهم على حقيقتها، لأن المنادي غير عالم بما بده يوسف؛ وقيل: إن المعنى إن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك ﴿قالوا﴾ أي: إخوة يوسف ﴿واقبلوا عليهم﴾ أي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي من أصحاب الملك ﴿ماذا تفقدون﴾ أي: ما الذي فقنتموه، يقال: فقنت الشيء إذا عدته بضياغ أونحوه، فكأنهم قالوا ماذا ضاع عليكم؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة ﴿قالوا﴾ في جوابهم ﴿نفقد صواع للملك﴾. قرأ يحيى بن يعمر (صواغ) بالغيغ المعجمة. وقرأ أبو رجاء (صوع) بضم الصاد المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة. وقرأ أبي (صياغ). وقرأ أبو جعفر صاع، وبها قرأ أبو هريرة. وقرأ الجمهور (صواع) بالصاد والعين المهملتين. قال الزجاج: الصواع هو الصاع بعينه، وهو ينكر ويؤثت، وهو السقاية، ومنه قول الشاعر:

نشرب الخمر بالصواع جهاراً

﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي قالوا: ولمن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير. والبعير الجم، وفي لغة بعض العرب أنه الحمارة، والمراد بالحمل ها هنا ما يحمله البعير من الطعام، ثم قال المنادي ﴿وانا به زعيم﴾ أي: بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية، والزعيم هو الكفيل، ولعل القائل نفقد صواع الملك هو المنادي، وإنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحداً منهم، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادي وحده لأنه القائل بالحقيقة ﴿قالوا تاه لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور، وقيل: من الباء، وقيل: أصل بنفسها، ولا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه، وقد دخلت تائراً على الرب، وعلى الرحمٰن، والكلام على هذا مستوفى في علم الإعراب؛ وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة نيلهم عن التلوث بقدر الفساد في الأرض الذي من أعظم أنواعه السرقة، لأنهم قد شاهدوا منهم في قومهم عليه المرة الأولى، وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم

ونعصى في الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ قال: عرفوا الحكم في حكمهم فقالوا: من وجد في رحله فهو جزاؤه. وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يؤخذ السارق بسرقة عبداً يسترق. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ قال: نكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تائباً مما صنع حتى بقي متاع الغلام قال: ما أظن أن هذا أخذ شيئاً. قالوا: بلى فاستبره. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنَّا لِيُوسُفَ﴾ قال: كذلك صنعنا ليوسف ﴿فَمَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ يقول: في سلطان الملك. قال: كان في دين ملكهم أنه من سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها من ماله فيعطيه المسروق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ يقول: في سلطان الملك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قال: إلا بركة كادها الله ليوسف فاعتل بها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءٍ﴾ قال: يوسف وإخوته أوتوا علماً فرفعنا يوسف في العلم فوقهم درجة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث، فقال رجل عنده: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ فقال ابن عباس: بشئ ما قلت، الله العليم الخبير، وهو فوق كل عالم. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال: سأل رجل علياً عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا، قال علي: أصبت وأخطأت ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عكرمة في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال: علم الله فوق كل عالم.

ط قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَنَا مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَفْنَا يَوْسُفَ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يَدْرُوا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَحْكَمَاتٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا يَتَّخِذُ الْغُرُورَ إِنَّ لَهُ إِلًا يَسْتَعِينُ ﴿١٠١﴾ فَخَذَّ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْضِينَ ﴿١٠٢﴾ قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَنَّاتٍ عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا أَفْلَحْنَا وَكُنَّا نَسْتَفْسِرُ مِنْهُ حَكَمُوا بِحُكْمٍ قَالُوا كَيْفَ نَعْلَمُ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَوْ يَنْكُرَ اللَّهُ لِي وَمَا خَيْرَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٠٣﴾ اتَّخَذُوا إِلًا أَنْبَأَهُمْ فَقَوْلُوا يَتَّخِذُ إِلًا أَنْتُمْ سَرَقْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَمَا كُنَّا لِنَعْلَمَ مَا كُنَّا لِنَعْبُدَ خِلَافَ مَا نَدْعُو وَلَكِنَّ الْغُلُوبَاءَ ﴿١٠٤﴾ وَكَانَ الْغُلُوبَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِمْ يُحِيطُونَ لِيُجِيبُوا رُسُلَهُمْ لَعَلَّ يَأْتُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٠٥﴾ وَكَانَ الْغُلُوبَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِمْ يُحِيطُونَ لِيُجِيبُوا رُسُلَهُمْ لَعَلَّ يَأْتُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٠٦﴾ وَكَانَ الْغُلُوبَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِمْ يُحِيطُونَ لِيُجِيبُوا رُسُلَهُمْ لَعَلَّ يَأْتُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٠٧﴾ وَكَانَ الْغُلُوبَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِمْ يُحِيطُونَ لِيُجِيبُوا رُسُلَهُمْ لَعَلَّ يَأْتُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٠٨﴾ وَكَانَ الْغُلُوبَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِمْ يُحِيطُونَ لِيُجِيبُوا رُسُلَهُمْ لَعَلَّ يَأْتُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٠٩﴾ وَكَانَ الْغُلُوبَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِمْ يُحِيطُونَ لِيُجِيبُوا رُسُلَهُمْ لَعَلَّ يَأْتُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١١٠﴾

قوله: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ أي بنيامين ﴿فقد سرق أخ له

ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعداد سنة كما هو بين يعقوب وشريعته. وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له وببره وأزاده حتى وجد السبيل إليه، وهو ما أجراه على السنن إخوته من قولهم: إن جزاء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتبديره، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له، وهذه الجملة: أعني ما كان ليأخذ أخاه إلخ تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف أو تفسير له ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءٍ﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ ممن رفعه الله بالعلم ﴿عَلِيمٌ﴾ أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه. وقيل: معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَخْلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ قال: رهب يعقوب عليهم العين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: خشي عليهم العين. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن النخعي في قوله: ﴿وَاخْلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: أحب يعقوب أن يلقي يوسف أخاه في خلوة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قال: خيفة العين على بنيه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَوَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ قال: إنه لعامل بما علم، ومن لا يعمل لا يكون عالماً. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: ﴿أَوَى إِلِيهِ أَخَاهُ﴾ قال: ضمه إليه، وفي قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ قال: لا تحزن ولا تيأس، وفي قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ قال: قضى حاجتهم وكال لهم طعامهم، وفي قوله: ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ قال: هو إئاء الملك الذي يشرب منه ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قال: في متاع أخيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس في قوله: ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ قال: هو الصواع، وكل شيء يشرب منه فهو صواع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿أَلَيْسَ لِلْعِبرِ﴾ قال: كانت العبر حميراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَلَمِنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ قال: حمل حمار طعم، وهي لغة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ يقول: كفيل. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة، ومجاهد، وقتادة، والضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَمَا جِئْنَا لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: ما جئنا

من قبل ﴿يعنون يوسف.

يوسف عليهم بقوله: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجبنا متاعنا عنده﴾ أي: نعوذ بالله معاذاً، فهو مصدر منصوب بفعل محذوف، والمستعذ بالله هو المعتصم به، وإن نأخذ منصوب بنزع الخافض، والأصل من أن نأخذ إلا من وجبنا متاعنا عنده، وهو بنيامين لأنه الذي وجد الصواع في رحله فقد حلّ لنا استعباده بفتواكم التي ائتمنونا بقولكم: ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾. ﴿إنا إذا لظالمون﴾ أي: إنا إذا أخذنا غير من وجبنا متاعنا عنده لظالمون في دينكم وما تقتضيه فتواكم ﴿فلما استئسوا منه﴾ أي: يئسوا من يوسف وإسعافهم منه إلى مطلبهم الذي طلبوه، والسين والتاء للمبالغة ﴿خلصوا نجيا﴾ أي: انفردوا حال كونهم متناجين فيما بينهم، وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كما في قوله: ﴿وقربناه نجيا﴾ [مريم: 52]. قال الزجاج: معناه انفردوا وليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهيم ﴿قال كبيرهم﴾، قيل: هو روبيل لأنه الأسنى، وقيل: يهوذا لأنه الأوفر عقلاً، وقيل: شمعون لأنه رئيسهم ﴿الم تعلموا أن لياكم قد أخذ عليكم موثقا من الله﴾ أي: عهداً من الله في حفظ ابنه ورده إليه، ومعنى كونه من الله أنه بإذنه ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ معطوف على ما قبله. والتقدير: ألم تعلموا أن أباكم وتعلموا تفريطكم في يوسف، نكر هذا النحاس وغيره، ومن قبل متعلقة بتعلموا أي: وتعلموا تفريطكم في يوسف من قبل، على أن ما مصدريه، ويجوز أن تكون زائدة، وقيل: ما فرطتم مرفوع المحل على الابتداء، وخبره من قبل؛ وقيل: إن ما موصولة أو موصوفة، وكلاهما في محل النصب أو الرفع، وما ذكرناه هو الأولى، ومعنى فرطتم: قصرتم في شأنه، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ﴿فلن أبرح الأرض﴾. يقال: أبرح برأحاً وبروحاً، أي زال، فإذا سخله النفي صار مثبّتاً أي: لن أبرح من الأرض، بل ألزمها ولا أزال مقيماً فيها ﴿حتى يأتني لي أبي﴾ في مفارقتها والخروج منها، وإنما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي إليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلا أن يحاط بهم كما تقدّم، ﴿أو يحكم الله لي﴾ بمفارقتها والخروج منها، وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بخلاص أخي من الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه، وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأحاربه وأخذ أخي منه، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأن أحكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق، ويطابق الصواب، ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾. قرأ الجمهور (سرق) على البناء للفاعل، وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه. وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين على البناء للمفعول، وروى ذلك النحاس عن الكسائي. قال الزجاج: إن سرق يحتمل معنيين: أحدهما علم منه السرقة، والآخر اتهام بالسرقة ﴿وما شاهدنا إلا بما علمنا﴾ من استخراج

وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها إلى يوسف ما هي؟ فقيل: إنه كان ليوسف عمه هي أكبر من يعقوب، وكانت عندها منطقة إسحاق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنّاً من نكر أو أنثى، وكانت قد حضنت يوسف وأحبته حباً شديداً، فلما ترعرع قال لها يعقوب: سلّمي يوسف إلي فاشفقت من فراقه واحتالت في بقاءه لديها، فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمتها بها، ثم قالت: قد سرقت منطقة إسحاق فأنظروا من سرقتها، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت من آل إبراهيم. وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة، وقيل: إن يوسف أخذ صنماً كان لجده أبي أمه فكسره وألقاه على الطريق تغييراً للمنكر. وحكي عن الزجاج أنه كان صنماً من ذهب. وحكى الواحدي عن الزجاج أنه قال: الله أعلم، أسرق أخ له أم لا؟ وحكى القرطبي في تفسيره عن الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه، قلت: وهذا أولى، فما هذه الكذبة بأول كذباتهم، وقد قئمنا ما يدفع قول من قال: إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم. قوله: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ قال الزجاج وغيره: الضمير في أسرها يعود إلى الكلمة أو الجملة، كأنه قيل: فأسر الجملة في نفسه ﴿ولم يدها لهم﴾ ثم فسرها بقوله: ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ وقد ردّ أبو عليّ الفارسي هذا فقال: إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل؛ وقيل: الضمير عائذ إلى الإجابة أي: أسر يوسف إجابتهم في ذلك الوقت إلى وقت آخر؛ وقيل: أسر في نفسه قولهم: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل. وهذا هو الأولى، ويكون معنى ﴿ولم يدها لهم﴾ أنه لم يبد لهم هذه المقالة التي أسرها في نفسه بأن ينكر لهم صحتها أو بطلانها، وجملة ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ مفسرة على القول الأول، ومستأنفة على القولين الآخرين، كأنه قيل: فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة؟ أي: أنتم شر مكاناً أي: موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو بريء، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الحب والكذب على أبيكم وغير ذلك من أفاعيلكم، ثم قال: ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ من الباطل بنسبة السراق إلى يوسف، وأنه لا حقيقة لذلك، ثم أراونا أن يستطفوه ليطلق له أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم لما تقدّم من أخذه الميثاق عليهم بأن يرثوه إليه، ﴿فقللوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً﴾ أي: إن لبنيامين هذا أبا متصفاً بهذه الصفة، وهي كونه شيخاً كبيراً لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول إليه ﴿فخذ أحدهما فكلنه﴾ يبقى لديك، فإن له منزلة في قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق أحدهما كما لا يتضرر بفراق بنيامين، ثم عللوا ذلك بقوله: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ إلى الناس كافة، وإلينا خاصة، فتم إحسانك إلينا بإجابتنا إلى هذا المطلب، فاجاب

للغيب حافظين قال: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وإرسال القرية﴾** قال: يعنون مصر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة مثله.

قَالَ بَلْ سَوَّكَ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَتَرَأَوْا فَصَبْرًا جَمِيلًا عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْكَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٧﴾ وَيَوَدَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ يَوْسُفَ وَأَيُّوبَ مُتَوَلَّيَيْنِ وَكَانَ تَأْتِيَنَهُمُ الْغَمُّ أَتَوَلَّوْا نَارَهُ تَتَقَبَّضُوا بِأَنفُسِكُمْ يَوْمَئِذٍ إِنَّكُمْ لَذَائِقُونَ ﴿٨٨﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٨٩﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٠﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩١﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٢﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٣﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٤﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٥﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٦﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٧﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٨﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿٩٩﴾ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا بِذِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿١٠٠﴾

قوله: **﴿قال بل سولت لكم انفسكم امرا﴾** اي: زينت، والامر هنا قولهم: **﴿إن ابنك سرق﴾** [يوسف: 81] وما سرق في الحقيقة، وقيل: المراد بالامر إخراجهم بنيامين، والمضي به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالمشورة؛ وقيل: التسويل التخييل أي: خيلت لكم انفسكم امراً لا أصل له؛ وقيل: الأمر الذي سولت لهم انفسهم فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقة، والإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لانفسهم، لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح، والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها. وجملة **﴿فصبر جميل﴾** خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي: فأمرني صبر جميل أو فصبر جميل أجمل بي وأولى لي، والصبر الجميل هو الذي لا يبور صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره إلى الله ويسترجع، وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة **﴿عسى الله أن ياتيني بهم جميعاً﴾** أي: بيوسف وأخيه بنيامين، والآخر الثالث الباقي بمصر، وهو كبيرهم كما تقدم، وإنما قال هكذا لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت، وأنه باقٍ على الحياة وإن غاب عنه خبره **﴿إنه هو العلیم﴾** بحالي **﴿الحكيم﴾** فيما يقضي به **﴿وتولى عنهم﴾** أي: أعرض عنهم، وقطع الكلام معهم **﴿وقال يا أسفا على يوسف﴾**. قال الزجاج: الأصل يا أسفي، فأبدل من الياء ألفاً لخفة الفتحة، والأسف: شدة الجزع؛ وقيل: شدة الحزن، ومنه قول كثير:

فيا أسفا للقلب كيف انصرفا وللنفس لما سليت فتسلت
قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير. وقد روي عن سعيد بن جبیر: أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت

الصواع من وعائه، وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك **﴿وما كنا للغيب حافظين﴾** حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه؟ وقيل: المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرجنا معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنه سيقع منه السرقة الذي افتضحنا به؛ وقيل: الغيب هو الليل، ومرادهم أنه سرق وهم نيام؛ وقيل: مرادهم أنه فعل ذلك وهو غائب عنهم، فخفي عليهم فعله **﴿وإرسال القرية التي كنا فيها﴾** هذا من تمام قول كبيرهم لهم أي: قولوا لأبيكم أسأل القرية التي كنا فيها أي: مصر، والمراد أهلها أي: أسأل أهل القرية؛ وقيل: هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتناروا منها؛ وقيل: المعنى وإرسال القرية نفسها وإن كانت جماداً فإنك نبي الله، والله سبحانه سينطقها فتجيبك. ومما يؤيد هذا أنه قال سبويه: لا يجوز كلم هنذا وأنت تريد غلام هنذا **﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾** أي: وقولوا لأبيكم أسأل العير التي أقبلنا فيها أي: أصحابها وكانوا قوماً معروفين من جيران يعقوب **﴿ولنا لصانقون﴾** فيما قلنا، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد لأن ما قد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: **﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾** قال: يعنون يوسف. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: سرق مكحلة لخالته، يعني: يوسف. وأخرج أبو الشيخ عن عطية قال: سرق في صباه ميلين من ذهب. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «سرق يوسف صنماً لجده أبي أمه من ذهب وقضة فكسره وإلقاه على الطريق فعيّره بذلك إخوته». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبیر مثله غير مرفوع، وقد روى نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فأفسرها يوسف في نفسه﴾** قال: أسر في نفسه قوله: **﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾**. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق في قوله: **﴿فلما استئسوا منه﴾** قال: أيسوا منه، ورأوا شئته في أمره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿خلصوا نجياً﴾** قال: وحدهم. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: **﴿قال كبيرهم﴾** قال شمعون الذي تخلف أكبرهم عقلاً، وأكبر منه في الميلاد روبيل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة **﴿قال كبيرهم﴾** هو روبيل، وهو الذي كان نهاهم عن قتله وكان أكبر القوم. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: **﴿أو يحكم الله لي﴾** قال: أقاتل بسيفي حتى أقتل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن أبي صالح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة **﴿وما كنا**

إني امرؤ لَجَّ بي حب فأحرضني حتى بليت وحتى شغني السقم
ويقال: رجل محرض، ومنه قول الشاعر:

طلبته الخيل يوماً كاملاً ولو الفتة لأضحى محرضاً
قال النحاس: وحكى أهل اللغة أحرضه الهم: إذا أسقمه،
ورجل حارص: أي أحق. وقال الأخفش: الحارص الذاهب.
وقال ابن الأنباري: هو الهالك. والأولى تفسير الحرض هنا
بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة حتى يكون
لقوله: ﴿إِن تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ معنى غير معنى الحرض،
فالتأسيس أولى من التأكيد، ومعنى من الهالكين: من الميتين،
وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه وإن
كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغموه ﴿قَالَ إِنَّمَا
لِشْكُو بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ هذه الجملة مستأنفة، كأنه
قيل: فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا؟ والبت: ما يرد على
الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لا
يقدر على إخفاؤها، كذا قال أهل اللغة، وهو مأخوذ من بثثته
أي: فرقته، فسميت المصيبة بثاً مجازاً، قال ذو الرمة:

وقفت على ربع لمية يا فتى فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
واسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملأه
وقد نكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل
به من المصائب كان ذلك حزناً، وإن لم يقدر على كتمه كان
ذلك بثاً، فالبث على هذا: أعظم الحزن وأصعبه، وقيل: البث
الهم؛ وقيل: هو الحاجة. وعلى هذا القول يكون عطف الحزن
على البث واضح المعنى. وأما على تفسير البث بالحزن
العظيم، فكانه قال: إنما أشكو حزني العظيم وما بونه من
الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس. وقد قرئ (حزني)
بضم الحاء وسكون الزاي (وحزني) بفتحهما ﴿وَأَعْلَمَ مِنْ
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من لطفه وإحسانه وثوابه على
المصيبة ما لا تعلمونه أنتم؛ وقيل: أراد علمه بأن يوسف
حي، وقيل: أراد علمه بأن رؤياه صائفة؛ وقيل: أعلم من
إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا
فَتَحْسَسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التحسس بمهمات: طلب
الشيء بالحواس، مأخوذ من الحس، أو من الإحساس أي:
أذهبوا فتعرفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه، وقرئ بالجيم،
وهو أيضاً التطلب ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ أي: لا
تقنطوا من فرجه وتنقيسه. قال الأصمعي: الروح ما يجده
الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، والتركيب يدل على
الحركة والهزة، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتد به فهو
روح. وحكى الواحدي عن الأصمعي أيضاً أنه قال: الروح
الاستراحة من غم القلب. وقال أبو عمرو: الروح الفرج،
وقيل: الرحمة ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه، وعظيم
صنعه، وخفي لطفه. قوله: ﴿فَلَمَّا بَخِلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على
يوسف، وفي الكلام حذف، والتقدير: فذهبوا كما أمرهم
أبوه إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه، فلما دخلوا
على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي: الملك الممتنع

في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب، ولو كان
عنده ذلك لما قال: يا أسفاً على يوسف. ومعنى المناداة
للأسف طلب حضوره، كأنه قال: تعال يا أسفي وأقبل إلي
﴿وَلَبِضْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي: انقلب سواد عينيه
بباضاً من كثرة البكاء. قيل: إنه زال إدراكه بحاسة البصر
بالمرة، وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً. وقد قيل في توجيه
ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم
المفضي إلى ذهاب بصره كلاً أو بعضاً بأنه إنما وقع منه
ذلك لأنه علم أن يوسف حي، فخاف على بينه مع كونه
بأرض مصر وأهلها حينئذ كفار، وقيل: إن مجرد الحزن ليس
بمحرم، وإنما المحرم ما يفضي منه إلى الوله وشق الثياب
والتكلم بما لا ينبغي، وقد قال النبي ﷺ عند موت ولده
إبراهيم: «تسمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط
الرب، وأنا عليك يا إبراهيم لمحزون». ويؤيد هذا قوله:
﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكظوم، فإن معناه: أنه مملوء من الحزن
ممسك له لا يبيته، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم
المسدود عليه طريق حزنه، من كظم السقاء: إذا سدّه على ما
فيه، والكظم بفتح الظاء: مخرج النفس، يقال: أخذ بكظامه،
وقيل: الكظيم بمعنى الكاظم أي: المشتمل على حزنه الممسك
له، ومنه:

فإن ك كاظما لمصائب ناس فإني اليوم منطلق لسانی
ومنه ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134]. وقال
الزجاج: معنى كظيم: محزون. وروي عن ابن عباس أنه قال:
معناه مغموم مكروب. قال بعض أهل اللغة: الحزن بالضم
والسكون: البكاء، وبفتحتين: ضد الفرج، وقال أكثر أهل اللغة:
هما لغتان بمعنى ﴿قَالُوا تَأْتِ تَفْتَنُوا تَنْكُرُ يَوْسُفَ﴾ أي: لا
تفتنوا، فحذف حرف النفي لعدم اللبس. قال الكسائي: فتأت
وفتئت أفعل كذا أي: مازلت. وقال الفراء: إن لا مضمرة أي:
لا تفتنوا. قال النحاس: والذي قال صحيح. وقد روي عن
الخليل وسيبويه مثل قول الفراء، وأتشد الفراء محتجاً على
ما قاله:

نقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لبيك وأوصالي
ويقال فتى وفتاً لغتان، ومنه قول الشاعر:

فما فتئت حتى كان غبارها سرائق يوم ذي رباح ترفع
﴿حَتَّى تَكُونَ حَرْضاً﴾ الحرض مصدر يستوي فيه
الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة المشبهة، حرض
بكسر الراء كدنف وبنف، وأصل الحرض: الفساد في الجسم
أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم، حكى ذلك عن أبي
عبيدة وغيره، ومنه قول الشاعر:

سرى همي فأمرضني وقد ما زانني مرضاً
كذلك الحب قبل اليرم مما يورث الحرضاً
وقيل: الحرض ما بون الموت، وقيل: الهرم، وقيل:
الحارص: البالي الدائر. وقال الفراء: الحارص: الفاسد الجسم
والعقل، وكذا الحرض. وقال مؤرج: هو الذائب من الهم، ويذل
عليه قول الشاعر:

قال: الميتين. وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿تَفْتَتُوا تَذْكُرْ يَوْسُفَ﴾** قال: لا تزال تذكر يوسف **﴿حتى تكون حرضاً﴾** قال: هرمأ **﴿أو تكون من الهالكين﴾** قال: أو تموت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك **﴿حتى تكون حرضاً﴾** قال: الحرض البالي **﴿أو تكون من الهالكين﴾** قال: من الميتين. وأخرج ابن جرير، وعبد الرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «من بث لم يصبر، ثم قرأ **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾** وأخرج ابن منده في المعرفة عن مسلم بن يسار عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ فنكره. وأخرج ابن مردويه من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعاً مرسلاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾** قال: همي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** قال: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سأسجد له. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله: **﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾** قال: من رحمة الله. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿مَسْنَا وَاهْلُنَا الضَّرَّ﴾** قال: أي الضر في المعيشة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿بِبِضَاعَةٍ﴾** قال: دراهم **﴿مزجاة﴾** قال: كاسدة. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه قال: مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشيء. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً مزجاة قال: الورق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن جرير في قوله: **﴿وَتَصْنَقُ عَلَيْنَا﴾** قال: أريد علينا أختانا.

قَالَ هَلْ عَلِمْتَ مَا فَعَلْتُمُ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا لَا نَكُنَّا نَعْلَمُ يَوْسُفَ قَالَتْ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْبِرِينَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَ لَا تَرْيَبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يُعْمِرُ اللَّهُ لَكُمْ وُجُوهَكُمْ وَالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٩١﴾ أَهْبَأُ بِعِيَمِي هَذَا قَالُوا عَلَى رَجُلٍ أَيْ بَاتٍ بَصِيرًا وَأَنْوَفٍ بِأَمْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ لَوْ أَنَّ أَفْتَدِينَ ﴿٩٣﴾ قَالُوا نَالَهُ إِنَّكَ لَمِنَ سَلَائِلِ الْكَذِبِ ﴿٩٤﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى رُجُومِهِ فَأَرْبَدَ بَصِيرًا قَالَتْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

القابر **﴿مَسْنَا وَاهْلُنَا الضَّرَّ﴾** أي: الجوع والحاجة، وفيه دليل على أنه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب، ما يجده من العلة، وهذه المرة التي نخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيد ما تقدم من سياق الكتاب العزيز **﴿وَجئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾** البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، يقال: أبضعت الشيء واستبضعته: إذا جعلته بضاعة، وفي المثل: «كمستبضع التمر إلى هجر». والإجزاء: السوق بدفع. قال الواحدي: الإجزاء في اللغة السوق والدفع قليلاً قليلاً، ومنه قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا﴾** [النور: 43]، والمعنى: أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار. قال ثعلب: البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة. قال أبو عبيدة: إنما قيل للدراهم الربيثة مزجاة لأنها مربودة مدفوعة غير مقبولة.

واختلف في هذه البضاعة ما هي؟ فقيل: كانت قديداً وحيساً، وقيل: صوف وسمن، وقيل: الحبة الخضراء والصنوبر، وقيل: دراهم رديئة، وقيل: للنعال والأدم. ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل أي: يجعله تاماً لا نقص فيه، وطلبوا منه أن يتصنق عليهم إما بزيادة يزيدا لهم على ما يقابل بضاعتهم، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها، وأن يجعلها كالبيضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها، وبهذا قال أكثر المفسرين؛ وقد قيل: كيف يطلبون التصنق عليهم وهم أنبياء والصنقة محرمة على الأنبياء. وأجيب باختصاص ذلك بنبينا ﷺ، **﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾** بما يجعله لهم من الثواب الأخروي، أو التوسيع عليهم في الدنيا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾** قال: يوسف وأخيه وروبييل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يوسف وأخيه وكبيرهم الذي تخلف، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: **﴿يَا إِسْهَافُ عَلَى يَوْسُفَ﴾** قال: يا حزناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة مثله. وأخرجوا عن مجاهد قال: يا جزعا. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾** قال: حزين. وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة قال: كظم على الحزن فلم يقل إلا خيراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: كظيم مكروب. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك قال: الكظيم الكمد. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: **﴿تَاللَّهِ تَفْتَتُوا تَذْكُرْ يَوْسُفَ﴾** قال: لا تزال تذكر يوسف **﴿حتى تكون حرضاً﴾** قال: دنفا من المرض **﴿أو تكون من الهالكين﴾**

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَفْتِرْنَا دُونَ مَا كُنَّا عَاطِلِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالَ سَوِّفَ اسْتَفْتِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٧٨﴾

ويصبر على المصائب ﴿فإن الله لا يضيع لجر المحسنين﴾ على العموم، فيدخل فيه ما يفيد السباق دخولاً أولياً، وجاء بالظاهر، وكان المقام مقام المضمّر، أي: أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ أي: لقد اختارك وفضلك علينا بما خصك به من صفات الكمال، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء، فإن درج الأنبياء متفاوتة، قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ [البقرة: 253] ﴿وإن كنا لخطائين﴾ أي: وإن الشأن لذلك، قال أبو عبيدة، خطئ وأخطأ بمعنى واحد، وقال الأزهري: المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره، ومنه قولهم: المجتهد يخطئ ويصيب، والخطأ من تعدد ما لا ينبغي. قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلاباً لعفوه واستجداباً لصفحه ﴿قال لا تثريب عليكم﴾ التثريب التعبير والتوبيخ أي: لا تعبير ولا توبيخ، ولا لوم عليكم. قال الأصمعي ثبتت عليه: قبحت عليه فعله. وقال الزجاج: المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكم عندي الصلح والعفو، وأصل التثريب الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز. وقال ابن الأنباري: معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب. قال ثعلب: ثرب فلان على فلان إذا عند عليه ذنوبه، وأصل التثريب من الثرب، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه إزالة التثريب، كما أن التجليد والتقرع إزالة الجلد والقرع، وانتصاب اليوم بالتثريب أي: لا أثرب عليكم أو منتصب بالعامل المقتر في عليكم وهو مستقر أو ثابت أو نحوهما أي: لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم. وقد جوز الأخفش الوقف على عليكم، فيكون اليوم متعلق بالفعل الذي بعده. وقد ذكر مثل هذا ابن الأنباري، ثم دعا لهم بقوله: ﴿يغفر الله لكم﴾ على تقدير الوقف على اليوم، أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ يرحم عباده رحمة لا يترحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم. قوله: ﴿أذهبوا بقميصي هذا﴾ قيل: هذا القميص هو القميص الذي لبسه الله إبراهيم لما ألقي في النار وكساه إبراهيم إسحاق وكساه إسحاق يعقوب. وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قضيبه وعلقه في عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره لأن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي ولا مبتلي إلا عوفي ﴿فألقوه على وجه أبي يات بصيراً﴾ أي: يصير بصيراً على أن «يات» هي التي من أخوات كان. قال الفراء: يرجع بصيراً. وقال السدي: يعد بصيراً. وقيل: معناه يات إلي مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى، ويؤيده قوله: ﴿وأتوني باهلك لجمعين﴾ أي: جميع من شمله لفظ الأهل من النساء والذرائع، قيل: كانوا نحو سبعين، وقيل: ثلاثة وتسعين

الاستفهام في قوله: ﴿هل علمتم﴾ للتوبيخ والتقرع، وقد كانوا عالمين بذلك، ولكنه أراد ما ذكرناه، ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة: ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف وأخيه، وما أقيب ما أقدمتم عليه؟ كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيت؟ والذي فعلوا بيوسف هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة وأما ما فعلوا بأخيه، فقال جماعة من المفسرين: هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف، وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة، ولم يستفهمهم عما فعلوا بابيهم يعقوب مع أنه قد نالهم منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى. قال الواحدي: ولم ينكر أباه يعقوب مع عظم ما أدخل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له ورفعاً من قدره، وعلماً بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده ﴿إذ أقم جاهلون﴾ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل، لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم، وقيل: إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم، فكأنه قال: إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته، وما يترتب عليه، أو أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر، اعتذاراً لهم وبغاً لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كباراً ﴿قالوا إنك لأنت يوسف﴾. قرأ ابن كثير (إنك) على الخبر بدون استفهام. وقرأ الباقون على الاستفهام التقريري، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب، قيل: سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم: ﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخطبهم بمثل هذا إلا هو؛ وقيل: إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه، وقيل: إنه تبسم فعرفوا ثناياه ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه. قال ابن الأنباري: أظهر الاسم فقال: أنا يوسف ولم يقل: أنا هو، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله. فاكتمنى بإظهار الاسم عن هذه المعاني، وقال: وهذا أخي مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه، لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي، ﴿قد من الله علينا﴾ بالخلاص هما ابتلينا به، وقيل: من الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة؛ وقيل: بالجمع بيننا بعد التفرق، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ﴿إنه من يتقى ويصبر﴾. قرأ الجمهور بالجزم على أن من شرطية. وقرأ ابن كثير بإثبات الياء في يتقي، كما في قول الشاعر:

ألم يأتيك والأنباء تنمسي بما لاقت لبون بني زياد
وقيل إنه جعل من موصولة لا شرطية، وهو بعيد. والمعنى: إنه من يفعل التقوى أو يفعل ما يفیه عن الذنوب

من أهله الذين قال لهم: إني لأجد ريح يوسف، ألم أتل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم، ويكون قوله: ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ كلاماً مبتدأ لا يتعلق بالقول، ويجوز أن تكون جملة ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ مقول القول، ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: 86]، ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم، واعترفوا بالذنوب، وفي الكلام حنف، والتقدير: ولما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول، فوعدهم بما طلبوه منه و قال سوف استغفر لكم ربي. قال الزجاج: أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر، لأنه أخلق بإجابة الدعاء، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار، وقيل: أخره إلى ليلة الجمعة، وقيل: أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم. وجملة ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ تحليل لما قبله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿لا تثريب﴾ قال: لا تعيير. وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة التفت إلى الناس فقال: ماذا تقولون وماذا تظنون؟ فقالوا: ابن عم كريم، فقال: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عطاء الخراساني قال: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألم تر إلى قول يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم؟﴾ وقال يعقوب: ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾.

أقول: وفي هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم: لقد أترك الله علينا، فقال: لا تثريب عليكم اليوم، لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم، وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل، وبين المقامين فرق، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلأ عليهم بسؤال الله لهم، ولا سيما إذا صح ما تقدم من أنه أخر ذلك إلى وقت الإجابة. فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول.

وأخرج الحكيم الترمذي، وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال: لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان، كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإننا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء، كان جدِّي إبراهيم خليل الله ألقى في النار في طاعة ربه، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأمر الله جدِّي أن يذبح له أبي ففداه الله بما فداء، وكان لي ابن وكان من أحب الناس إلي ففقدته، فأنهض حزني عليه نور بصري، وكان له أخ من أمه كنت إذا ذكرته ضمته إلى صدري فأنهض عني بعض وجدي، وهو المحبوس عندك

﴿ولما فصلت للعير﴾ أي: خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام. يقال: فصل فصولاً، وفصلته فصلاً، لازم ومتعد، ويقال فصل من البلد فصولاً: إذا انفصل عنه وجاوز حيطانه ﴿قال ليوهم﴾ أي: يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ قيل: إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة، فأخبرهم بما وجد، ثم قال: ﴿لولا أن تفننوا﴾ لولا أن تنسبوني إلى الفند، وهو ذهاب العقل من الهرم، يقال: أقند الرجل إذا خرف وتغير عقله. وقال أبو عبيدة: لولا أن تسفهون، فجعل الفند السفه. وقال الزجاج: لولا أن تجهلون، فجعل الفند الجهل، ويؤيد قول من قال إنه السفه قول النابغة:

إلـسـليـمـان إذ قال المـليـك له قم في البرية فأحدها عن الفند
أي: امنعها عن السفه. وقال أبو عمرو الشيباني: التفنيد التقييب، ومنه قول الشاعر:

يا صاحبي دعا لومي وتفنيد فليس ما فات من امري بمرئود
وقيل: هو الكذب، ومنه قول الشاعر:

هل في افتخار الكريم من أود أم هل لقول الصنيق من فند
وقال ابن الأعرابي ﴿لولا أن تفننوا﴾ لولا أن تضعفوا رأيي، وروي مثله عن أبي عبيدة. وقال الأخفش: التفنيد اللوم وضعف الرأي. وكل هذه المعاني راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي، يقال: فنده تفنيداً: إذا عجزه، وأقند: إذا تكلم بالخطأ، والفند: الخطأ من الكلام، ومما يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر:

يا عائلي دعا الملام وأقصرا طال الهوى وأطلتما التفنيدا
أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبته، وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك:

فإن الصبا ريح إذا ما تنفست على نفس مبهوم تجلت همومها
إذا قلت هذا حين أسلو يهيجني نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر
ولقد تهب لي الصبا من أرضها فيلذ مس هبوبها ويطيب
﴿قالوا تائه إنك لفي ضاللك للقيم﴾ أي: قال الحاضرون عنده من أهله: إنك يا يعقوب لفي ذهابك عن طريق الصواب الذي كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف لا تنساه، ولا تفتر عنه، ولسان حال يعقوب يقول لهم:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها
لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى تكون حشاك في أحشائه

وقيل: المعنى إنك لفي جنونك القديم، وقيل: في محبتك القديمة. قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قنوم البشير ﴿فلما أن جاء البشير﴾ قال المفسرون: البشير هو يهوذا بن يعقوب، قال لإخوته: أنا جئته بالقميص ملطخاً بالدم، فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حي، فأفرجه كما أحزنته ﴿ألقاه على وجهه﴾ أي: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فارتد بصيراً﴾ الارتداد: انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها، والمعنى: عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره ﴿قال ألم أقل لكم﴾ أي: قال يعقوب لمن كان عنده

قال: أخرهم إلى السحر، وكان يصلي بالسحر. وأخرج أبو الشيخ، وابن مريويه عنه قال: أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً قال: قال النبي ﷺ في قصه «هو قول أخي يعقوب لبنيه: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾»، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَأُوتُوا مَصْرًا وَكَانَ يُوسُفُ عَلَىٰ عَرْشِهِ مُعْتَدٍ لَّيَالِي السَّجْدِ وَقَالَ لَهَا بَارِكْتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَدَدْ أَحْسَنَ بَدَلًا إِذْ أَخْرَجْنِي مِنَ الْبَيْتِ وَكَرِهَتُ بِكُمْ مِنَ الْإِدْوَىٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ نُزِعَ الْفُطْرَانِ مِنِّي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رُبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْآثَارِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَنْبَاءِ فَأَلْزَمْتَ الْكَيْدَ وَالْأَرْضَ أَنْتَ وَلِيُّ فِي الْأَدْنَىٰ وَالْآخِرَةِ نَفْسِي سُلَيْمًا وَآلْحَقْنِي بِالْمَنَاجِدِ ﴿١٠١﴾

قوله: ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ لعل في الكلام محنوفاً مقترناً، وهو فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه أي: ضمهما وأنزلهما عنده. قال المفسرون: المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف، لأن أمه قد كانت ماتت في ولايتها لأخيه بنيامين كما تقدم؛ وقيل: أحيا الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ﴿وقال انخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ مما تكرهون، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها إلا بجواز منهم. قيل: والتقيد بالمشيئة عائداً إلى الأمن، ولا مانع من عوده إلى الجميع، لأن لدخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه، كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته؛ وقيل: إن التقيد بالمشيئة راجع إلى قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ [يوسف: 98] وهو بعيد. وظاهر النظم القرآني: أن يوسف قال لهم هذه المقالة أي: ادخلوا مصر قبل لدخولهم، وقد قيل في توجيه ذلك أنه تلقاهم إلى خارج مصر، فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة، فدخلوا عليه فـ ﴿أوى إليه أبويه وقال انخلوا مصر﴾ فلما دخلوا مصر ودخلوا عليه دخولا آخر في المكان الذي له بمصر ﴿رفع أبويه على العرش﴾ أي: أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هو عادة الملوك ﴿وخروا له سجداً﴾ أي: الأبوان والأخوة، والمعنى: أنهم خروا ليوسف سجداً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم منزلاً منزلة التحية؛ وقيل: لم يكن ذلك سجوداً بل هو مجرد إيماء، وكانت تلك تحيتهم، وهو يخالف معنى: وخروا له سجداً، فإن الخور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض؛ وقيل: الضمير في قوله: «له» راجع إلى الله سبحانه، أي: وخروا لله سجداً، وهو بعيد جداً؛ وقيل: إن الضمير ليوسف، واللام للتعليل أي: وخروا لأجله، وفيه أيضاً بعد وقال يوسف: ﴿يا بنت هذا تأويل رؤياي﴾ يعني: التي تقدمت نكرها ﴿من قبل﴾ أي: من قبل هذا الوقت ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ بوقوع تأويلها على ما نلت عليه ﴿وقد أحسن بي إذ

في السرقة، وإنني أخبرك أنني لم أسرق، ولم ألد سارقاً؛ فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح وقال: ﴿انذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يات بصيراً﴾. وأخرج أبو الشيخ عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال في قوله: ﴿انذهبوا بقميصي هذا﴾ أن نمرود لما ألقى إبراهيم في النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنة وطفنفة من الجنة، فالبسه القميص وأقعده على الطنفسة، وقعد معه يتحدث، فأوحى الله إلى النار ﴿كوني برداً وسلاماً﴾ [الأنبياء: 69]. ولولا أنه قال وسلاماً لأذاه البرد. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً: «إن الله كسا إبراهيم ثوباً من الجنة، فكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، فأخذه يعقوب فجعله في قسبة من حديد وعلقه في عنق يوسف، ولو علم إخوته إذ ألقوه في الجب لأخذوه؛ فلما أراد الله أن يرد يوسف على يعقوب كان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل، فوجد يعقوب ريحه فقال: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفننن، فلما ألقاه على وجهه ارتد بصيراً، وليس يقع شيء من الجنة على عامة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بلأن الله». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولما فصلت العير﴾ قال: لما خرجت العير حاجت الريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفننن﴾ تسفهون، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه قال: وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام. وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عنه قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخاً. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أيضاً ﴿لولا أن تفننن﴾ قال: تجهلون. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: قال تكذبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: تهرمون، يقولون: قد ذهب عقلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الربيع قال: لولا أن تحمقون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ يقول: خطئك القديم. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: جنونك القديم. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: حبك القديم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: البشير البريد. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سفيان قال: البشير هو يهوذا بن يعقوب. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: لما أن جاء البشير إلى يعقوب فلقى عليه القميص قال: على أي دين خلقت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ قال: إن يعقوب أخر بنيهِ إلى السحر. وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه عن ابن عباس

عمره عند أن ألقى في الجب سبع عشرة سنة، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدر الذي سيأتي وتوفاه الله. قيل: لم يتم الموت أحد غير يوسف لا نبي ولا غيره. وذهب الجمهور إلى أنه لم يتم الموت بهذا الدعاء، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله.

وقد أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال: نخل يعقوب مصر في ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وعاش في ملكه ثلاثين سنة، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة. قال أبو هريرة: وبلغني أنه كان عمر إبراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿أَوَى إِلِيهِ أَبُوهُ﴾** قال: أبوه وأمه ضمهما. وأخرج عن وهب قال: أبوه وخالته، وكانت توفيت أم يوسف في نفاس أخيه بنيامين. وأخرج أبو الشيخ نحوه عن سفيان بن عيينة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾** قال: السرير. وأخرج ابن أبي حاتم عن عدي بن حاتم في قوله: **﴿وَوَضَعُوا لَهُ سِجْدًا﴾** قال: كانت تحية من كان قبلكم فاعطاكم الله السلام مكانها. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال: تلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم، وليس سجود عبادة. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله: **﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾** قال: لطيف ليوسف وصنع له حين أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على إخوته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ما سأل نبي الوفاة غير يوسف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عنه قال: اشتاق إلى لقاء الله وأحب أن يلحق به وبآبائه، فدعا الله أن يتوفاه، وأن يلحقه بهم. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله: **﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾** قال: يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: يعني أهل الجنة.

ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ نُفِيهَ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿٤٠﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ أَفَأَنْتُمْ أَنْتُمْ تَنْبِئُهُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ عَذَابَ اللَّهِ أَكْبَرُ أَمْ أَنْتُمْ تَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَمْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيٌّ قَدْ يَسْمَعُ الْكَلِمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٢﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ سَبِيلُ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾

الخطاب بقوله: **﴿لَكَ﴾** لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ خبره **﴿من أنباء الغيب﴾**، و **﴿نوحيه إليك﴾** خبر ثان. قال

لخرجني من السجن﴾ الأصل أن يتعدى فعل الإحسان بإلى، وقد يتعدى بالباء كما في قوله تعالى: **﴿وَيَالِ الدِّينِ﴾** [البقرة: 83 - الإسراء: 23]، وقيل: إنه ضمن أحسن معنى لطف أي: لطف بي محسناً، ولم يذكر إخراجاه من الجب، لأن في نكره نوع تثريب للإخوة، وقد قال: لا تثريب عليكم. وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقاءه فيه، وقد قيل: إن وجه عدم نكر إخراجاه من الجب أن المنة كانت في إخراجاه من السجن أكبر من المنة في إخراجاه من الجب، وفيه نظر، **﴿وجاء بكم من البدو﴾** أي: البادية، وهي أرض كنعان بالشام، وكانوا أهل مواش وبرية، وقيل: إن الله لم يبعث نبياً من البادية، وإن المكان الذي كان فيه يعقوب يقال له: بدا، وإياه عني جميل بقوله:

وَأَنْتَ الَّذِي حَبَبْتَ شَعْبًا إِلَى بَدَا إِلَيَّ وَأُوطَانِي بِلَادِ سَوَاهِمَا
وفيه نظر **﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي﴾** أي: أقصد بيننا وحمل بعضنا على بعض، يقال: نزعته إذا نخسه، فاصله من نخس الدابة ليقوى مشيها. وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكراً منه وتأثراً **﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾** اللطيف الرفيق، قال الأزهري: اللطيف من أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده، يقال: لطيف فلان بفلان يلطف: إذا رفق به، وقال عمرو بن أبي عمرو: اللطيف الذي يوصل إليك أريك في لطف. قال الخطابي: اللطيف هو البز بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور، ومعنى لما يشاء: لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب **﴿إنه هو العليم الحكيم﴾** أي: العليم بالأمور الحكيم في أفعاله. ولما أتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه منه من المحن العظيمة وبما خوله من الملك وعلمه من العلم، تأقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع، فقال: **﴿رب قد آتيتني من الملك﴾** من للتبعية أي: بعض الملك، لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكاً خاصاً، وهو ملك مصر في زمن خاص **﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾** أي: بعضها، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا، وقيل: من للجنس كما في قوله: **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾** [الحج: 30] وقيل: زائدة أي: آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث **﴿فاطر السموات والأرض﴾** منتصب على أنه صفة لرب، لكونه منادى مضافاً، ويجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقدر أي: يا فاطر، والفاطر الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع **﴿فانت وليي﴾** أي: ناصرني ومتولي أموري **﴿في الدنيا والآخرة﴾** تتوالاني فيهما **﴿توفني مسلماً والحقني بالصالحين﴾** أي: توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت، والحق بالصالحين من النبيين من آبائي وغيرهم فاطفر بوابهم منك ودرجاتهم عنك. قيل: إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل، وقيل: كان

مزيّنة بالكواكب النيرة السيارة والثواب، وفي الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تلتهم على توحيد الله سبحانه، وأنه الخالق لذلك، الرزاق له المحيي والمميت، ولكن أكثر الناس يَمُرُّون على هذه الآيات غير متأمّلين لها، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالالهوية مع كونهم مشاهدين لها **﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** وإن نظروا إليها باعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحقيقة، وهي التفكير والاعتبار والاستدلال. وقرأ عكرمة وعمرو بن فايد برفع الأرض على أنه مبتدأ، وخبره يَمُرُّونَ عليها، وقرأ السدّي بنصب الأرض بتقدير فعل. وقرأ ابن مسعود (يمشون عليها) **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾** أي: وما يصنّق ويقرّ أكثر الناس بالله من كونه الخالق الرزاق المحيي للميت **﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾** بالله يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم مقرّون بالله سبحانه وبأنه الخالق لهم **﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** [الزخرف: 87]. **﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** [لقمان: 25] لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيَقْرَبُنَا إِلَى اللَّهِ﴾** [الزمر: 3] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله المعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه كما يفعله كثير من عبّاد القبور، ولا يخافي هذا ما قيل من أن الآية نزلت في قوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيد السبب من الاختصاص بمن كان سبباً لنزول الحكم **﴿إِنَّمَا آمَنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾** الاستفهام للإنكار، والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾** [العنكبوت: 55] وقيل: هي الساعة، وقيل: الصواعق والقوارع، ولا مانع من الحمل على العموم **﴿أَوْ تَأْتِيَهُمْ لِسَاعَةٍ بَغْةٌ﴾** أي: فجأة، وانتصاب بغة على الحال. قال المبرد: جاء عن العرب حال بعد نكرة، وهو قولهم وقع أمر بغة، يقال: بغتهم الأمر بغتاً وبغته: إذا فاجأهم **﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** بإتيانه، ويجوز انتصاب بغة على أنها صفة مصدر محذوف **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾** أي: قل يا محمد للمشركين هذه الدعوة التي ادعو إليها والطريقة التي انا عليها سبيلي أي: طريقي وسنتي، فاسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلي، وفسر ذلك بقوله: **﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾** أي: على حجة واضحة، والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل والجملة في محل نصب على الحال **﴿فَإِنَّمَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾** أي: ويدعو إليها من اتبعني واهتدى بهديي. وقال الفراء: والمعنى ومن اتبعني يدعو إلى الله كما ادعو. وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله أي: الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده **﴿وَسُبْحَانَ**

الزجاج: ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي ونوحيه إليك خبره أي: الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك. والمعنى: الإخبار من الله تعالى لرسوله الله ﷺ بأن هذا الذي قصه عليه من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عن رسول الله ﷺ، فأوحاه الله إليه وأعلمه به ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك، وفيه تعريض بكفار قريش، لأنهم كانوا مكذبين له ﷺ بما جاء به جوداً وعناداً وحسداً مع كونهم يعلمون حقيقة الحال **﴿وَمَا كُنْتُ لِيهِمْ﴾** أي: لدي إخوة يوسف **﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾** إجماع الأمر: العزم عليه، أي: وما كنت لدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعاً على إلقائه في البئ **﴿وَهُمْ﴾** في تلك الحالة **﴿يَمَكُرُونَ﴾** به، أي: يبيسون في هذا الفعل الذي فعلوه به ويبغونه الغوائل، وقيل: الضمير ليعقوب أي: يمكرون بيعقوب حين جاءه بقميص يوسف ملطخاً بالدم وقالوا: أكله النّثب. وإذا لم يكن رسول الله ﷺ لديهم عند أن فعلوا ذلك، انتفى علمه بذلك مشاهدة، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به، فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار، قال الله سبحانه ذاكراً لهذا **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** أي: وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد، أو ما أكثر الناس على العموم ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم، يقال: حرص يحرص مثل ضرب يضرب، وفي لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمد، والحرص طلب الشيء باجتهد. قال الزجاج: ومعناه وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم، لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. قال ابن الأنباري: إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته فشرحهما شرحاً شافياً، وهو يؤمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالفوا ظنه، وحزن رسول الله ﷺ لذلك فعزاه الله بقوله: **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾** الآية، **﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ لَاجٍ﴾** أي: على القرآن وما تتلوه عليهم منه، أو على الإيمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحثّهم به من هذا الحديث من أجر من مال يعطونك إياه ويجعلونه لك كما يفعله أحبارهم **﴿إِنْ هُوَ﴾** أي: القرآن أو الحديث الذي حثّتهم به **﴿إِلَّا نَذَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾** أي: ما هو إلا نكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم **﴿وَكَايِنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** قال الخليل وسيبويه، والأكثرون: إن كايّن أصلها أي نخل عليها كاف التشبيه، لكنه انمحق عن الحرفين المعنى الإفرادي، وصار المجموع كاسم واحد بمعنى كم الخبرية، والأكثر إبدال من في مميزه، وهو تمييز عن الكاف لا عن أي كما في مثلك رجلاً. وقد مرّ الكلام على هذا مستوفى في آل عمران. والمعنى: كم من آية تلتهم على توحيد الله كائنة في السموات من كونها منصوبة بغير عمد،

من النساء ولا من الجن، وهذا يرد على من قال: إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم. وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبتة:

أضحت نبينا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الله نكرانا
فلعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿نوحى إليهم﴾ كما نوحى إليك ﴿من أهل القرى﴾ أي:

المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حليماً وأجل فضلاً

﴿أفلم يسبوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ يعني: المشركين المنكرين لنبوّة محمد ﷺ أي:

أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب

﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ أي: لدار الساعة الآخرة، أو لحالة الآخرة على حذف الموصوف. وقال الفراء: إن الدار

هي الآخرة، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلاة الأولى ومسجد الجامع، والكلام في ذلك

مبين في كتب الإعراب، والمراد بهذه الدار: الجنة أي: هي خير للمتقين من دار الدنيا. وقرئ (ولدار الآخرة). وقرأ نافع

وعاصم ويعقوب (أفلا تعقلون) بالياء الفوقية على الخطاب. وقرأ الباقر بالتحتية. ﴿حتى إذا استتاس الرسل﴾ هذه

الغاية المحذوف دل عليه الكلام، وتقديره: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً ولم تعجل أمهم الذين لم يؤمنوا

بما جاءوا بالعقوبة ﴿حتى إذا استتاس الرسل﴾ من النصر بعقوبة قومهم، أو حتى إذ استتاس الرسل من إيمان قومهم

لأنهم لا يملكهم في الكفر ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قرأ ابن عباس، وابن مسعود، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو

جعفر بن القعقاع، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء العطاردي، وعاصم وحزمة والكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش

وخلف (كذبوا) بالتخفيف أي: ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا، وقيل:

المعنى ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من نصرهم، وقيل: المعنى وظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم

حين حشنتهم بأنهم ينصرون عليهم، أو كذبهم رجائهم للنصر. وقرأ الباقر (كذبوا) بالتشديد، والمعنى عليها

واضح أي: ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظن القوم

المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد. وقرأ مجاهد وحמיד (قد كذبوا)

بفتح الكاف والذال مخففتين على معنى: وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا؛ وقد قيل: إن الظن في هذه الآية بمعنى

اليقين، لأن الرسل قد يتقنوا أن قومهم كذبوهم، وليس ذلك مجرد ظن منهم. والذي ينبغي أن يفسر الظن باليقين في

مثل هذه الصورة يفسر بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة ﴿جاءهم نصرنا﴾ أي:

الله وما أنا من المشركين﴾ أي: رقل يا محمد لهم سيحان الله وما أنا من المشركين بالله الذين يتخنون من دونه أنداداً.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿ادعوا إلى الله﴾ ثم ابتداء، فقال: ﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كنت لديهم إذ

أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ قال: هم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة

في الآية يقول: وما كنت لديهم وهم يلقونه في غيابة الجب وهم يمكرون بيوسف. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك

﴿وكاين من آية﴾ قال: كم من آية في السماء يعني: شمسها وقمرها ونجومها وسحابها، وفي الأرض ما فيها من

الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: سلمهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فيقولون الله، فذلك

إيمانهم وهم يعبدون غيره. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عطاء في قوله: ﴿وما

يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: كانوا يعلمون أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم، وكانوا مع ذلك

يشركون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك في الآية قال: كانوا يشركون به في تلبيتهم يقولون: لبيك اللهم

لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في الآية قال: ذلك المنافق يعمل

بالرياء وهو مشرك بعمله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿غاشية

من عذاب الله﴾ قال: وقية تغشاهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿هذه سبيلي﴾ قل: هذه دعوتي.

وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿قل هذه سبيلي﴾ قال: صلاتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال:

أمري ومشيتي ومنهاجي، وأخرجنا عن قتادة في قوله: ﴿على بصيرة﴾ أي: على هدى ﴿أنا ومن اتبعني﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ

الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا يَتَّقُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ

الْقَوْمِ الْمُنْجَرِينَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَقُ وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ

شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ هذا رد على من قال: ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ [الفرقان: 7] أي: لم نبعث

من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالاً لا ملائكة. فكيف ينكرون إرسالنا إياك. وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبياً

وقوم صالح والأمم التي عذب الله. وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه **﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** قال: قلت أكتبوا أم كذبوا؟ يعني: على هذه الكلمة مخففة أم مشددة، فقالت: بل كذبوا تعني بالتشديد. قلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن، قالت: أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك، فقلت: لعلها، وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة، قالت: معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصنقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبهم جاءهم نصر الله عند ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عبد الله بن أبي مليكة: أن ابن عباس قراها عليه (وظنوا أنهم قد كذبوا) مخففة يقول: أخلفوا. وقال ابن عباس: كانوا بشراً، وتلا **﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾** [البقرة: 214] قال ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: والله ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبهم، وكانت تقرؤها مثقلة. وأخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة: أن النبي ﷺ قرأ: (وظنوا أنهم قد كذبوا) مخففة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ (قد كذبوا) مخففة. قال: يش الرسل من قومهم أن يستجيبيوا لهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبهم بما جاءوا به **﴿جاءهم نصرنا﴾** قال: جاء الرسل نصرنا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ عن تميم بن حنبل قال: قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ علي إلا حرفين **﴿كل آتوه داخرين﴾** [النمل: 87] فقال: آتوه مخففة، وقرأت عليه **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** فقال: كذبوا مخففة. قال: استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا. وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الأحوص عنه قال: حفظت عن رسول الله ﷺ في سورة يوسف **﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** خفيفة. وللسلف في هذا كلام يرجع إلى ما نكرناه من الخلاف عن الصحابة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿ففتنجي من نشاء﴾** قال: فتنجي الرسل ومن نشاء **﴿ولا يرذ بأسنا عن القوم للمجرمين﴾** وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم، فأخبرهم أن من أطاع الله نجا ومن عصاه عذب وغوى. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: **﴿جاءهم نصرنا﴾** العذاب. وأخرج أبو الشيخ عن السدي **﴿ولا يرذ بأسنا﴾** قال: عذابه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿لقد كان في قصصهم﴾**

فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأة، أو جاء قوم الرسل الذين كذبهم نصر الله لرسله بإيقاع العذاب على المكذبين **﴿ففتنجي من نشاء﴾**. قرأ عاصم (فنجي) بنون واحدة. وقرأ الباقون (فتنجي) بنونين، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى، لأنها في مصحف عثمان كذلك. وقرأ ابن محيصن (فنجاً) على البناء للفاعل، فتكون من على القراءة الأولى في محل رفع على أنها نائب الفاعل، وتكون على القراءة الثانية في محل نصب على أنها مفعول، وعلى القراءة الثالثة في محل رفع على أنها فاعل، والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم، وهلك المكذبون **﴿ولا يرذ بأسنا عن القوم للمجرمين﴾** عند نزوله بهم، وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين **﴿لقد كان في قصصهم﴾** أي: قصص الرسل ومن بعثوا إليه من الأمم، أو في قصص يوسف وإخوته وأبيه **﴿عبرة لأولى الألباب﴾** والعبرة: الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة، وقيل: هي نوع من الاعتبار، وهي العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، وأولوا الألباب هم نور العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيبدون ما فيه مصالح بينهم، وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حبيثهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأخبارهم **﴿ما كان حديثاً يفترى﴾** أي: ما كان هذا المقصود الذي يدل عليه نكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك حديثاً يفترى **﴿ولكن تصديق الذين بين يديه﴾** أي: ما قبله من الكتب المنزلة كالطورا والإنجيل والزبور. وقرأ برفع (تصديق) على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو تصديق وتفصيل كل شيء من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها، لأن الله سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء؛ وقيل: تفصيل كل شيء من قصة يوسف مع إخوته وأبيه. قيل: وليس المراد به ما يقتضيه من العموم، بل المراد به الأصول والقوانين وما ينول إليها **﴿وهدي﴾** في الدنيا يهتدي به كل من أراد الله هدايته **﴿ورحمته﴾** في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح، ولهذا قال: **﴿لقوم يؤمنون﴾** أي: يصنقون به وبما تضمنه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره، وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى، فلا يستحق ما يستحقونه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾** قال: أي ليسوا من أهل السماء كما قلت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: ما نعلم أن الله أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل المعمور. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: **﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** قال: كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط

قال: يوسف وإخوته. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ **﴿عبرة لأولي الألباب﴾** قال: معروفة لذوي العقول. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة **﴿ما كان حقيقاً يفترى﴾** قال: الفرية الكذب. **﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾** قال: القرآن يصنق الكتب التي كانت قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه كالأنبياء والإنجيل والزبور، ويصنق ذلك كله ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله **﴿وتفصيل كل شيء﴾** فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

إلى الملك القرم وابن الهمام

ويجوز أن يكون محل والذي أنزل إليك الجرّ على تقدير: وآيات الذي أنزل إليك، فيكون الحق على هذا خبراً لمبتدأ محذوف **﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾** بهذا الحق الذي أنزله الله عليك. قال الزجاج: لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال: **﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد﴾** والعمد: الأساطين جمع عماد أي: قائمات بغير عمد تعتمد عليه؛ وقيل لها أعمد ولكن لا نراه. قال الزجاج: العمدة قدرته التي يمسك بها السموات، وهي غير مرئية لنا، وقرئ (عمد) على أنه جمع عمود يعمد به أي: يسند إليه. قال النابغة:

وخبر الجنّ إنني قد أنتت لهم يبنون تضر بالصفاح والعمد

وجملة ترونها مستأنفة استشهد على رؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة للعمد، وقيل في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: رفع السموات ترونها بغير عمد، ولا ملجئ إلى مثل هذا التكلف **﴿ثم استوى على العرش﴾** أي: استولى عليه بالحفظ والتدبير، أو استوى أمره، أو أقبل على خلق العرش، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى، والاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام: **﴿وسخر الشمس والقمر﴾** أي: نزلها لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد **﴿كل يجري إلى لجل مسمى﴾** أي كل من الشمس والقمر يجري إلى وقت معلوم: وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي تكرر عندها الشمس ويخسف القمر وتنكسر النجوم وتنتثر، وقيل: المراد بالأجل المسمى برجائهما ومنازلهما التي تنتهيان إليها لا يجاوزنها، وهي سنة للشمس، وشهر للقمر **﴿يبين الأمر﴾** أي: يصرفه على ما يريد، وهو أمر ملكوته وربوبيته **﴿يفصل الآيات﴾** أي: يبينها وهي الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته، ومنها ما تقدّم من رفع السماء بغير عمد وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى والجملة في محل نصب على الحال أو خبر إن لقوله: **﴿الله الذي رفع﴾** على أن الموصول صفة للمبتدأ، والمراد من هذا تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة، ولذا قال: **﴿لعلكم يلقاء ربكم توفنون﴾** أي: لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توفنون بذلك لا تشكون فيه، ولا تمترتون في صدقه، ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بنكر الدلائل الأرضية فقال: **﴿وهو الذي مد الأرض﴾** قال الفراء: بسطها طولاً وعرضاً. وقال الأصم: إن المدّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، وهذا المدّ الظاهر للبصر لا يتفاني كبريتها في نفسها لتباعد أطرافها **﴿وجعل فيها رواسي﴾** أي:

تفسير سورة الرعد

قد وقع الخلاف هل هي مكية أو مدنية؟ فرؤى النحاس في ناسخه عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وروى أبو الشيخ وابن مردويه عنه أنها نزلت بالمدينة. ومن ذهب إلى أنها مكية سعيد بن جبير، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد. ومن ذهب إلى أنها نزلت بالمدينة ابن الزبير والكلبي ومقاتل. وقول ثالث: إنها مدنية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بمكة، وهما قوله تعالى: **﴿ولو أن قرأنا سيرت به الجبال﴾** [الرعد: 31] وقيل قوله: **﴿لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾** [الرعد: 31] وقد روي هذا عن ابن عباس أيضاً وقتادة. وقد أخرج ابن أبي شيبة والمروزي في الجنائز عن جابر بن زيد قال: كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد فإن ذلك يخفف عن الميت وإنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّءْيَا تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ كُلَّ يَمِينٍ لَيْلٍ لَمْ يَكُنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ يُفَعِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجَافاً وَأَنْهَاراً وَبَيْنَ كُلِّ أَلَمَرَةٍ جَعَلَ فِيهَا رِجَافاً آتَيْنِ الْيَتِيمَ الْأَمْوَالَ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَكَاِبِرٌ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ رِجَتْ مِنْ أَعْتَابِ وَرِجَعٍ وَخَيْلٌ مِثْوَانٌ وَغَيْرُ مِثْوَانٍ يُنْقِضُ بِمَاءٍ وَرِجَعٍ وَيُفَعِّلُ بِمَعْنَاهَا عَلَى بَعْضِ فِي الْأَكْثَرِ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَكَاِبِرٌ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٤﴾

قوله: **﴿القمر﴾** قد تقدّم الكلام في هذه الحروف الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الإعادة، وهو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف. أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده، والتقدير على الأول هذه السورة اسمها هذا، والإشارة بقوله: **﴿تلك﴾** إلى آيات هذه السورة، والمراد بالكتاب السورة أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن، ويكون قوله: **﴿والذي أنزل إليك من ربك الحق﴾** مراداً به القرآن كله أي: هو الحق البالغ في اتصافه بهذه الصفة، أو تكون الإشارة بقوله: **﴿تلك﴾** إلى آيات القرآن

يتفرع فيصير نخيلاً، ثم يحمل، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير. قال ابن الأعرابي: الصنو: المثل، ومنه قوله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه». فمعنى الآية على هذا: أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون. قال في الكشف: والصنوان جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد، وقيل: الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق. النحاس: وهو كذلك في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر: صنوان، والصنو: المثل، ولا فرق بين التثنية والجمع إلا بكسر النون في المثني، وبما يقتضيه الإعراب في الجمع. «يسقي بماء واحد»، قرأ عاصم وابن عامر: (يسقى) بالتحية أي: يسقى ذلك كله. وقرأ الباقرن بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد وأبو عمرو، قال أبو عمرو: للتأنيث أحسن لقوله: «وونفضل بعضها على بعض في الأكل»، ولم يقل: بعضه. وقرأ حمزة والكسائي (يفضل) بالتحية كما في قوله: «يدير الأمر يفصل الآيات» [الرعد: 2] وقرأ الباقرن بالنون على تقدير: ونحن نفضل.

وفي هذا من الدلالة على ببيع صنعه وعظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل، فإن القطع المتجاوزة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الأكل، فيكون طعم بعضها حلواً والآخر حامضاً، وهذا في غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق في حسنه، وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضي لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جلّ سلطانه وتعالى شأنه، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين: إما اختلاف المكان الذي هو المنبت، أو اختلاف الماء الذي تسقى به، فإذا كان المكان متجاوراً، وقطع الأرض متلاصقة، والماء الذي تسقى به واحداً، لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب، ولهذا قال الله سبحانه: «إن في تلك آيات لقوم يعقلون» أي: يعملون على قضية العقل وما يوجب غير مهملين لما يقتضيه من التفكير في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودة.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: «المر» قال: أنا الله أرى. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد «المر» فواتح يفتتح بها كلامه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: «تلك آيات الكتاب» قال: التوراة والإنجيل «والذي أنزل إليك من ربك الحق» قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: «رفع السفوات بغير عمد ترونها» قال: وما يدريك لعلها بعد لا ترونها. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ عنه في الآية قال: يقول لها عمد ولكن لا ترونها يعني: الأعماد. وأخرج ابن جرير عن إيلس بن معاوية في الآية قال: السماء مقببة على الأرض مثل القبة. وأخرج ابن أبي حاتم

جبالاً ثوابت، واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها أي: تثبت، والإرساء: الثبوت. قال عنترة: فصرت عارفةً لذلك حمزة ترسو إذا نفس الجبان تطلع وقال جميل:

لحبها والذي أرسى قواعده حتى إذا ظهرت آياته بطنا «وانهاراً» أي: مباحاً جارية في الأرض فيها منافع الخلق، أو المراد جعل فيها مجاري الماء «ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين» من كل الثمرات متعلق بالفعل الذي بعده أي: جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين، الزوج يطلق على الاثنين، وعلى الواحد المزواج الآخر، والمراد هنا بالزوج الواحد، ولهذا أكد الزوجين الاثنين لنفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين، وقد تقدم تحقيق هذا مستوفي، أي: جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين، إما في اللونية: كالبياض والسود ونحوهما، أو في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما، أو في القدر كالصغير والكبير، أو في الكيفية كالحر والبرد. قال الفراء: يعني بالزوجين هنا الذكر والأنثى. والاول أولى «يغشى الليل للنهار» أي: يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلاماً بعدما كان أبيض منيراً شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتخطية الأشياء الحسية بالآغطية التي تسترها، وقد سبق تفسير هذه في الأعراف «إن في تلك آيات لقوم يتفكرون» أي: فيما نكر من مد الأرض وإثباتها بالجبال، وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة. وتعاقب النور والظلمة آيات بيّنة للمناظرين المتفكرين المعبرين «وفي الأرض قطع متجاورات» هذا كلام مستأنف مشتمل على نكر نوع آخر من أنواع الآيات. قيل وفي الكلام حذف أي: قطع متجاورت، وغير متجاورات كما في قوله: «سراويل تقيكم الحر» [النحل: 81] أي: وتقيكم البرد. قيل: والمتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات: الصحارى وما كان غير عامر، وقيل: المعنى متجاورات متدانيات، ترلها واحد وماؤها واحد، وفيها زرع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضاً، والبعض طيباً والبعض غير طيب، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر «وجنات من أعناب» الجنات: البساتين، قرأ الجمهور برفع جنات على تقدير: وفي الأرض جنات، فهو معطوف على قطع متجاورات، أو على تقدير: وبينها جنات. وقرأ الحسن بالنصب على تقدير: وجعل فيها جنات، ونكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل، لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك، ومثله في قوله سبحانه «جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحققناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً» [الكاف: 32]. «صنوان وغير صنوان»، قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) برفع هذه الأربع عطفاً على جنات. وقرأ الباقرن بالجرّ عطفاً على أعناب. وقرأ مجاهد والسلمي بضم الصاد من صنوان. وقرأ الباقرن بالكسر، وهما لغتان. قال أبو عبيدة: صنوان: جمع صنو، وهو أن يكون الأصل واحداً، ثم

قوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَب فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: إن تعجب أي محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصافيين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب، لأنه تغير النفس بشيء تخفى أسبابه وإنما نكر ذلك ليعجب منه رسوله وأتباعه. قال الزجاج: أي هذا موضوع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث، وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة، وقيل الآية في منكري الصانع أي: إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير، فهو محل التعجب، والأول أولى لقوله: ﴿وَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَلْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهذه الجملة في محل رفع على البلية من قولهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على أنها مقول القول والعجب على الأول كلامهم، وعلى الثاني تكلمهم بذلك، والعامل في «إذا» ما يفيدُه قوله: ﴿أَلْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو نبعث أو نعاد، والاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد، وتقويم الظرف في قوله: ﴿لَفِي خَلْقٍ﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث، وكذلك تكرير الهزمة في قوله: ﴿أَلْنَا﴾. ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمر ثلاثة: الأول ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه، والثاني ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي عَنَاقِهِمْ﴾ الأغلال: جمع غلٍّ، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق أي يغلون بها يوم القيامة، وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق؛ والثالث ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال، وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيْفَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ السيئة العقوبة المهلكة، والحسنة: العافية والسلامة، قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدة تصميمهم وتهالكهم على الكفر، وقيل: معنى الآية أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنة، وهي الإيمان ﴿وَوَدَّ خَلْتُ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمَثَلَاتِ﴾. قرأ الجمهور (مثلات) بفتح الميم وضَمَّ المثلثات جمع مثلة كسمرة، وهي العقوبة. قال ابن الأنباري: المثلثات العقوبة التي تبقى في المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه من قولهم: مثل فلان بفلان إذا شأن خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه. وقرأ الأعمش بفتح الميم وإسكان المثلثات تخفيفاً لثقل الضمة، وفي لغة تميم بضم الميم والمثلثات جميعاً، واحتبتها على لغتهم: مثلة، بضم الميم وسكون المثلثات

وَلَمَّا نَسَبَ مَاجِدَ قَوْمِهِمْ إِذْ كُنَّا نُرِيهِمْ أَهْلَ عِلِّيِّينَ فَذَرَيْنَا لَهُمْ خُزْيُنَ عِلِّيِّينَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْمَلُ فِي أَغْنَاهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَلْوَارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَسْتَمْلِكُكَ بِالْهَيْبَةِ قَبْلَ الْحَسَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ
قَبْلِهِمُ النَّارُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٥١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ

جداً، وما موصولة أي: يعلم الذي تحمله كل أنثى في بطنها من علقه، أو مضغة، أو ذكر، أو أنثى، أو صبيح، أو قبيح، أو سعيد، أو شقي. ويجوز أن تكون استفهامية أي: يعلم أي شيء في بطنها، وعلى أي حال هو. ويجوز أن تكون مصدرية أي: يعلم حملها **﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾** الغيض النقص أي: يعلم الذي تغيضه الأرحام أي: تنقصه، ويعلم ما تزداده. فقيل: المراد نقص خلقه الحمل وزيادته كنقص أصبع أو زيادتها وقيل: إن المراد نقص مدة الحمل على تسعة أشهر، أو زيادتها، وقيل: إذا حاضت المرأة في حال حملها كان ذلك نقصاً في ولدها، وقيل الغيض: ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداده منه، و «ما» في ما تغيض وما تزداد تحتمل الثلاثة الوجوه المتقدمة في ما تحمل كل أنثى **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** أي: كل شيء من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار، والمقدار: القدر الذي قدره الله، وهو معنى قوله سبحانه: **﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾** [القم: 49] أي: كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه، لا يخرج عن ذلك شيء **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** أي: عالم كل غائب عن الحس، وكل مشهود حاضر، أو كل معلوم وموجود ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك **﴿الكبير المتعال﴾** أي: العظيم الذي كل شيء دونه، المتعالي عما يقوله المشركون، أو المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره، ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادره شيء منها، بين أنه عالم بما يسرّونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره، وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال: **﴿سواء منكم﴾** من أسرّ القول ومن جهر به **﴿فهو يعلم ما أسرّ الإنسان كعلمه بما جهر به من خير وشر. وقوله: منكم متعلق بسواء على معنى يستوي منكم من أسرّ ومن جهر، أو سرّ من أسرّ وجهر من جهر ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾** أي: مستتر في الظلمة الكائنة في الليل متوار عن الأعين. يقال: خفي الشيء واستخفى أي: استتر وتوارى **﴿وسارب بالنهار﴾** قال الكسائي: سرب يسرب سرباً وسروباً إذا ذهب. ومنه قول الشاعر:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب أي: ذهب. وقال القتيبي: سارب بالنهار متصرف في حوائجه بسرعة، من قولهم: أسرب الماء. قال الأصمعي حل سربه أي: طريقته. وقال الزجاج: معنى الآية الجاهر بنطقه، والمضمّر في نفسه، والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات علم الله فيهم جميعاً سوى، وهذا الصق بمعنى الآية كما تفيد المقابلة بين المستخفي والسارب فالمستخفي المستتر، والسارب البارز الظاهر **﴿له معقبات﴾** الضمير في «له» راجع إلى من في قوله: من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف أي: لكل من هؤلاء معقبات. والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلاً

مثل غرفة وغرفات. وحكي عن الأعمش في رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم. والمعنى: أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم، وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون بهم ويحذرون من حلول ما حلّ بهم، والجملة في محل نصب على الحال، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾** [الأنفال: 32] الآية. **﴿وإن ربك ل ذو مغفرة﴾** أي: ل ذو تجاوز عظيم **﴿للناس على ظلمهم﴾** أنفسهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي إن تابوا عن ذلك، ورجعوا إلى الله سبحانه، والجارّ والمجرور أي: على ظلمهم في محل نصب على الحال أي: حال كونهم ظالمين، وعلى بمعنى مع أي: مع ظلمهم وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير، لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً، ولهذا قيل: إنها في عصاة الموحدين خاصة، وقيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة. وكما تفيد الجملة المذكورة بعد هذه الآية، وهي **﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾** يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقاباً شديداً على ما تقتضيه مشيئته في الدار الآخرة **﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾** أي: هلا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعقاب. قال الزجاج: طلبوا غير الآيات التي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى، فقال الله تعالى: **﴿إنما أنت منذر﴾** تنذره بالنار، وليس إليك من الآيات شيء. انتهى. وهذا مكابرة من الكفار وعناد، ولأفقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغني البعض منه، وجاء في **﴿إنما أنت منذر﴾** بصيغة الحصر لبيان أنه ﷺ مرسل لإنذار العباد، وبيان ما يحذرون عاقبته، وليس عليه غير ذلك، وقد فعل ما هو عليه، وأنذر أبلغ إنذار، ولم يدع شيئاً مما يحصل به ذلك إلا أتى به وأوضحه وكرره، فجزاه الله عن أمته خيراً **﴿ولكل قوم هاد﴾** أي: نبي يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم. وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها، وآيات الرسل مختلفة هذا يأتي بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعنت إلى مكان عظيم، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية، وذلك لا يختص بفرد منها، ولا بأفراد معينة. وقيل: إن المعنى ولكل قوم هاد، وهو الله عز وجل فإنه القادر على ذلك، وليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾** الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه، وعلمه بالغيب الذي هذه الأمور المذكورة منه، قيل: ويجوز أن يكون الاسم الشريف خبراً لمبتدأ محذوف أي: ولكل قوم هاد وهو الله، وجملة **﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾** تفسير لهاد على الوجه الأخير، وهذا بعيد

يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب وعظام. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ قال: العقوبات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في المثلات قال: وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المثلات ما أصاب القرون الماضية من العذاب. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا لأحد العيش: ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: داع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: المنذر محمد ﷺ، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبي يدعوهم إلى الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: محمد المنذر والهادي الله عز وجل. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: رسول الله ﷺ هو المنذر وهو الهادي. وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبي الضحى نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: «وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: أنا المنذر، وأوما بيده إلى منكب علي فقال: أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي». قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة. وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ فنكر نحوه. وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن عساكر عن علي بن أبي طالب في الآية نحوه أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن الضحاک ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ قال: كل أنثى من خلق الله. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: يعلم نكراً هو أو أنثى ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: هي المرأة ترى الدم في حملها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: خروج الدم ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: استمسكه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ﴾ قال: أن ترى الدم في حملها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: في التسعة أشهر. وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق الضحاک عنه في الآية قال: ما تزداد على تسعة، وما

منه، وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين. قال الزجاج: المعقبات ملائكة ياتي بعضهم يعقب بعض، وإنما قال: معقبات مع كون الملائكة نكوراً لأن الجماعة من الملائكة يقال لها: معقبة، ثم جمع معقبة على معقبات: نكر معناه الفراء؛ وقيل: أنثى لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة. قال الجوهري: والتعقب العود بعد البدء. قال الله تعالى: ﴿وَلِي مَسِيرٌ وَلَمْ يَعْقِبْ﴾ [النمل: 10 - القصص: 31] وقرئ (معاقيب) جمع معقب ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: من بين يدي من له المعقبات. والمراد إن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه، وقيل المراد بالمعقبات الأعمال، ومعنى من بين يديه ومن خلفه: ما تقدم منها وما تأخر ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من أجل أمر الله، وقيل: يحفظونه من بأس الله إذا أذن بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب. قال الفراء: في هذا قولان: أحدهما أنه على التقديم والتأخير، تقديره: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، والثاني أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به. قال الزجاج: المعنى حفظهم إياه من أمر الله أي: مما أمرهم به لا أنهم يقدر أن يدفعوا أمراً. قال ابن الأنباري: وفي هذا قول آخر، وهو أن «من» بمعنى الباء أي: يحفظونه بأمر الله؛ وقيل: إن من بمعنى عن أي: يحفظونه عن أمر الله بمعنى من عند الله. لا من عند أنفسهم، كقوله: ﴿أَطْعِمُهُمْ مِنْ جَوْعٍ﴾ [قريش: 4] أي: عن جوع وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب؛ وقيل: يحفظونه من الجن. واختار ابن جرير أن المعقبات الموكب بين أيدي الأمراء، على معنى أن ذلك لا ينفع عنه القضاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَهُمْ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَانَفْسَهُمْ﴾ من طاعة الله. والمعنى: أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة، أو يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها. قيل: وليس المراد، أنه لا ينزل بأحد من عبادته عقوبة حتى يتقدم له ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث «أنه سال رسول الله ﷺ سائل فقال: أتهلك وفيها الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الخبيث». ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ أي فلا رد له. وقيل: المعنى إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نُونَةٍ مِنْ وَادٍ﴾ يلي أمرهم ويلتجئون إليه، فينبغ عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقاب، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله. والمعنى: أنه لا راد لعذاب الله ولا ناقص لحكمه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن في قوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم، وهم رأوا من قدرة الله وأمره، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ كُنَّا تَرَابًا﴾ أي خلق جديد أو لا

ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط، أو ينزوي في بئر، أو يأكله سبع أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر، وقد ورد في نكر الحفظلة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة منكرة في كتب الحديث.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَرْزَاقَكُمْ حَتَّىٰ تَوَدَّاهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦٠﴾ وَيَسْجُدُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ كُلُّ مَنْ فِي سَمَائِهِ وَيُرْسِلُ الرِّسَالَاتِ تَحِيَّاتٍ بَيْنَ مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُخَيِّدُونَ ﴿١٦١﴾ وَاللَّهُ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ ﴿١٦٢﴾ ثُمَّ دَعَا لِقَوْمٍ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبُشِبْثٍ كَثِيرٍ إِلَىٰ النَّارِ ﴿١٦٣﴾ يُنْفِقُ قَاهُ وَمَا هُوَ بِطَوِيلٍ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٦٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَعِلْمُهُمْ بِالْقَادِرِ وَالْأَسْمَاءِ ﴿١٦٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَأَعَدُّكُمْ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَعًا وَلَا مَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَسَلَفَهُمْ فَسَبِّحْهُ لَمَّا خَلَقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ مِنْهُ فَقَدْ أَشْجَلَ السَّلْبُ زَيْدًا رَأْسًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَيْدٌ يَتْلُمُ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْخَبَرَ وَالتَّجَلَّىٰ لَنَا إِذْ رَدَّدْ بِهِ جَنَّتُهُ وَأَنَا مَا بَعَثُ النَّاسَ نَبِيًّا قُلْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَبْعَثُ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ ﴿١٦٧﴾ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلِذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالذِّكْرُ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمَعْلَمٌ مَعَهُمْ لَأَفْتَدَوْا بِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ سَوَاءٌ الْحِسَابِ وَمَا أَوْفَاهُمْ جَهَنَّمَ رِيسًا لِلْإِهَادِ ﴿١٦٨﴾

لما خوف سبحانه عباده بإنزال ما لا مرد له أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه ويخاف من بعضها، وهي البرق والسحاب والرعد والصاعقة، وقد مر في أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها.

وقد اختلف في وجه انتصاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فقيل: على المصدرية أي: لتخافوا ولتطمعوا طمعاً، وقيل: على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع لثلا يختلف فاعل الفعل المعطل وفاعل المفعول له، أو على الحالية من البرق، أو من المخاطبين بتقدير ذوي خوف، وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه. قيل: والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق، وبالطمع هو الحاصل في المطر، وقال الزجاج: الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر، والطمع للحاضر، لأنه إذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب ﴿وَيَنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ التعريف للجنس والواحدة سحابة، والثقال جمع ثقيلة، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التي ينشئها ثقلاً بما يجعله فيها من الماء ﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: يسبغ الرعد نفسه بحمد الله أي: متلبساً بحمده، وليس هذا بمستبعد، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]. وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد في ذلك، ويكون نكره على الأفراد مع نكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له، وعناية به، وقيل: المراد ويسبغ سامعو

تَنْقُصُ مِنَ التَّسْعَةِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمَنْذَرِ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْهُ أَيْضاً فِي الْآيَةِ ﴿مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قَالَ: السَّقَطُ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ مَا زَانَتْ فِي الْحَمْلِ عَلَى مَا غَاضَتْ حَتَّى وَلَدَتْهُ تَمَاماً، وَنَظَرْنَا أَنْ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَحْمِلُ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَحْمِلُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْقُصُ، فَذَلِكَ الْغِيضُ وَالزِّيَادَةُ الَّتِي نَكَرَ اللَّهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَعْلَمُهُ تَعَالَى. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضاً فِي قَوْلِهِ: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قَالَ: السَّرُّ وَالْعَلَانِيَةُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمَنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ قَالَ: رَاكِبُ رَأْسِهِ فِي الْمَعَاصِي ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ قَالَ: ظَاهِرٌ بِالنَّهَارِ بِالْمَعَاصِي. وَأَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمَنْذَرِ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ قَالَ: الظَّاهِرُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: هُوَ صَاحِبُ رِيْبَةٍ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ، وَإِذَا خَرَجَ بِالنَّهَارِ أَرَى النَّاسَ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْإِثْمِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمَنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَالتَّبْرَانِيَّ فِي الْكَبِيرِ، وَابْنَ مَرْثُومٍ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ طَرِيقِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ الْآيَةِ قُدُومُ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ، وَأُرَيْدُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقِصَّةِ الْمَشْهُورَةِ، وَأَنَّهُ لَمَّا أَصِيبَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ بِالْغَدَّةِ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قَالَ: الْمُعَقَّبَاتُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْفَظُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، ثُمَّ نَكَرَ أُرَيْدُ بْنُ قَيْسٍ وَمَا قَتَلَهُ، فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي يَرِيكُمَ لِلْبَرَقِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحِمَالِ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمَنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَالتَّبْرَانِيَّ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَابْنَ مَرْثُومٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُعَقَّبَاتٌ﴾ الْآيَةُ قَالَ: هَذِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قَالَ: ذَلِكَ الْحِفْظُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بِأَمْرِ اللَّهِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمَنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ أَيْضاً ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ قَالَ: بِإِذْنِ اللَّهِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ مِثْلَهُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: وَلِيَ السُّلْطَانُ يَكُونُ عَلَيْهِ الْحِرَاسُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَقُولُ: يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِي، فَإِنِّي إِذَا أُرِدْتُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمَنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: الْمُلُوكُ يَتَخَذُونَ الْحِرَاسَ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمَامِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْقَتْلِ، أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أَيُّ: إِذَا أَرَادَ سُوءاً لَمْ يَغْنُ الْحِرَاسُ عَنْهُ شَيْئاً. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ فِي الْآيَةِ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ تَعَقُبُ بِاللَّيْلِ تَكْتُبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَالْقُرَيْبِيُّ، وَابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمَنْذَرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: مَلَائِكَةُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ قَدْرُ اللَّهِ خَلَوْا عَنْهُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمَنْذَرِ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ عَلِيٍّ فِي الْآيَةِ قَالَ: لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَمَعَهُ

يبلغ فاه. ولهذا قال: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: الماء ﴿بِالْغَةِ﴾ أي: يبلغ فيه. قال الزجاج: إلا كما يستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، والماء لا يستجيب، أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العُشَّان إلى الماء يدعوهم إلى بلوغ قمه، وما الماء ببالغه. وقيل: المعنى أنه كبسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه. وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد
وقال الآخر:

ومن يامن الدنيا يكن مثل قلبض على الماء خائنه فروج الأصابع
وقال الفراء: إن المراد بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء، ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: يضل عنهم ذلك الدعاء فلا ينجون منه شيئاً، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه بل هو ضائع ذاهب ﴿وَهُوَ يَسْجُدُ مِنْ فِي السُّفُوفِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقي، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل، فنلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن؛ وأما في الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا في حقهم، فلا بد أن يحمل للسجود المذكور في الآية على معنى حق لله السجود ووجب حتى يُنْأَلِ السجود بالفعل وغيره، أو يفسر للسجود بالانقياد. لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله سبحانه فهم متقاربون لأمره، وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى. ويدل على إرادة هذا المعنى قوله: ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ فإن الكفار ينقلبون كرهاً كما ينقاد المؤمنون طوعاً، وهما منتصبان على المصدرية أي: انقياد طوع وانقياد كره، أو على الحال أي: طائعين وكارهين، وقال الفراء: الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعاً، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين، فالآية محمولة على هؤلاء؛ وقيل: الآية في المؤمنين، فمنهم من سجد طوعاً لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة إيماناً بالله وإخلاصاً له ﴿وَوَلَّاهُمُ الْغَنَى وَالْأَصَالَ﴾ وظلالهم جمع ظل، والمراد به ظل الإنسان الذي يتبعه، جعل ساجداً بسجوده حيث صار لازماً له لا ينفك عنه. قال الزجاج: وابن الأنباري: ولا يبعد أن يخلق الله للضلال أفهاماً تسجد بها لله سبحانه كما جعل للرجال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً. وظل الكافر يسجد لله كرهاً وخص الغدو والأصال بالذاكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما، وهما ظرف للسجود المقدر أي: ويسجد ظلّاهم في هذين الوقتين، وقد تقدّم تفسير الغدو والأصال في الأعراف، وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ضَلَالَةً عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّامِلِ سَجْداً لله وهم داخرون﴾

الرعد، أي يقولون: سبحانه الله والحمد لله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: ويسبح الملائكة من خيفة الله سبحانه؛ وقيل: من خيفة الرعد. وقد نكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد. وإن الله سبحانه جعل له أعواناً ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه فيهلكه، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذي سيقت له الآيات التي قبلها، وهي الدلالة على كمال قدرته ﴿وَهُمْ يَجَاحِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى الكفار المخاطبين في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ أي: وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التي أراهم الله يجاحلون في شأن الله سبحانه فينكرون البعث تارة ويستعجلون العذاب أخرى، ويكذبون الرسل ويعصون الله، وهذه الجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: المحال المكر، والمكر من الله: التدبير بالحق. وقال النحاس: المكر من الله إيصال المكره إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وقال الأزهري: المحال القوة والشدة، والميم أصلية، وما حلت فلاناً محالاً لينا أشد. وقال أبو عبيد: المحال العقوبة والمكره. قال الزجاج: يقال ما حلته محالاً: إذا قاوت حتى يتبين أيكأ أشد، والمحل في اللغة: الشدة. وقال ابن قتيبة: أي شديد الكيد، وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان، وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. قال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة بل هي أصلية. وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية مثل مهاد وملاك ومراسي وغير ذلك من الحروف. وقرأ الأعرج (وهو شديد المحال) بفتح الميم. وقد فسرنا هذه القراءة بالحوّل..

وللصحابة والتابعين في تفسير المحال هنا أقوال ثمانية: الأول العدواة، الثاني الحول، الثالث الأخذ، الرابع الحقد، الخامس القوة، السادس الغضب، السابع الهلاك، الثامن الحيلة ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ إضافة الدعوة إلى الحق للملاسة أي: الدعوة الملازمة للحق المختصة به التي لا منخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال: كلمة الحق؛ والمعنى أنها دعوة مجابة واقعة في موقعها، لا كدعوة من نونه. وقيل: الحق هو الله سبحانه، والمعنى: أن الله سبحانه دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب، وقيل: المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة التوحيد والإخلاص، والمعنى: الله من خلقه أن يوحده ويخلصوا له. وقيل: دعوة الحق دعاءه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى: ﴿هُضِلْ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 67]. وقيل: الدعوة العبادة، فإن عبادة الله هي الحق والصدق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي: والآلهة الذين يدعونهم يعني: الكفار من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناتاً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه، لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه، ولا يدري أنه طلب منه أن

جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها، وهي بمعزل عن أن تكون كذلك، ثم أمره الله سبحانه بأن يوضح لهم الحق ويرشداهم إلى الصواب فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كائنًا ما كان ليس لغيره في تلك مشاركة بوجه من الوجوه. قال الزجاج: والمعنى أنه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً، إلا ترى أنه تعالى شيء وهو غير مخلوق ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ أي: المتفرد بالربوبية ﴿الْقَهَّارُ﴾ لما عباده، فكل ما عباده مربوط مقهور مغلوب، ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذو به، وللباطل ومتحليه فقال: ﴿انْزِلْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من جهتها، والتذكير للتكثير أو للتوعية ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ جَمْعَ وَاوٍ، وَهُوَ كُلُّ مَنْفَرَجٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ أَوْ نَحْوَهُمَا. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ: لَا نَعْلَمُ فَاعِلاً جَمَعَ عَلَى أَفْعَلٍ إِلَّا هَذَا، وَكَانَهُ حَمَلٌ عَلَى فَعِيلٍ فَجَمَعَ عَلَى أَفْعَلٍ مِثْلَ جَرِيبٍ وَأَجْرِبَةٍ. كَمَا أَنَّ فَعِلاً حَمَلَ عَلَى فَاعِلٍ، فَجَمَعَ عَلَى أَفْعَالٍ مِثْلَ يَتِيمٍ وَأَيْتَامٍ وَشَرِيفٍ وَأَشْرَافٍ، كَأَصْحَابٍ وَأَنْصَارٍ فِي صَاحِبٍ وَأَنْصَارٍ. قَالَ: وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ تَوْسِعُ أَي: سَالَتْ مَآوِئَهَا، قَالَ: وَمَعْنَى ﴿يَبْقُرُهَا﴾ بِقَدْرِ مَائِهَا، لِأَنَّ الْأَوْدِيَةَ مَا سَالَتْ بِقَدْرِ أَنْفُسِهَا. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: وَالْقَدْرُ مِيلَافُ الشَّيْءِ، وَالْمَعْنَى: بِقَدْرِهَا مِنَ الْمَاءِ، فَإِنَّ صَغَرَ الْوَادِي قَلَّ الْمَاءُ وَإِنْ اتَّسَعَ كَثُرَ، وَقَالَ فِي الْكَشَافِ: بِقَدْرِهَا بِمِقْدَارِهَا الَّتِي يَعْرِفُ اللَّهُ أَنَّهُ نَافِعٌ لِلْمَمْطُورِ عَلَيْهِمْ غَيْرَ ضَائِرٍ. قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: شَبَّهَ نَزُولَ الْقُرْآنِ الْجَامِعَ لِلْهَدَى وَالْبَيَانِ بِنَزُولِ الْمَطَرِ، إِذْ نَفَعَ نَزُولَ الْقُرْآنِ يَعْصِمُ كَعَمُومِ نَفْعِ نَزُولِ الْمَطَرِ، وَشَبَّهَ الْأَوْدِيَةَ بِالْقُلُوبِ: إِذْ الْأَوْدِيَةُ يَسْتَكِنُ فِيهَا الْمَاءُ كَمَا يَسْتَكِنُ الْقُرْآنُ وَالْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ الزَّبَدُ: الْبَيْضُ الْمُرْتَفِعُ الْمُنْتَفِخُ عَلَى وَجْهِ السَّيْلِ، وَيُقَالُ لَهُ: الْغَثَاءُ وَالرَّغْوَةُ، وَالرَّابِي: الْعَالِي الْمُرْتَفِعُ فَوْقَ الْمَاءِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ الطَّافِي فَوْقَ الْمَاءِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ الزَّائِدُ بِسَبَبِ انْتِفَافِهِ، مِنْ رَبَا يَرْبُو إِذَا زَادَ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا تَشْبِيهِ الْكُفْرِ بِالزَّبَدِ الَّذِي يعلو الماء، فَإِنَّهُ يَضْمَحَلُّ وَيَعْلَقُ بِجَنَابِ الْوَادِي وَتَدْفَعُهُ الرِّيحُ. فَكَذَلِكَ يَذْهَبُ الْكُفْرُ وَيَضْمَحَلُّ. وَقَدْ تَمَّ الْمَثَلُ الْأَوَّلُ، ثُمَّ شَرَحَ سَبْحَانَهُ فِي نَكَرِ الْمَثَلِ الثَّانِي فَقَالَ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ مِنْ لَابْتِدَاءِ الْغَايَةِ أَي: وَمِنْهُ يَنْشَأُ زَبَدٌ مِثْلُ زَبَدِ الْمَاءِ، أَوْ لِلتَّبَعِيضِ بِمَعْنَى: وَبَعْضُهُ زَبَدٌ مِثْلُهُ، وَالضَّمِيرُ لِلنَّاسِ، أَضْمَرَ مَعَ عَدَمِ سَبْقِ الذِّكْرِ لظَهْرِهِ. هَذَا عَلَى قِرَاءَةِ (يُوقِدُونَ) بِالتَّحْتِيَّةِ، وَبِهَا قَرَأَ حَمِيدٌ وَابْنُ مَحِيصَنٍ، وَالْأَعْمَشُ، وَحَمَزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، وَحَفْصٌ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْخُطَابِ، وَاخْتَارَ الْقِرَاءَةَ الْأُولَى أَبُو عُبَيْدٍ. وَالْمَعْنَى: وَمِمَّا تَوَقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ فَيَذُوبُ مِنَ الْأَجْسَامِ الْمُنَطَّرَةِ الذَّائِبَةِ ﴿لِيَتَغَايَ حَلِيَّةٌ﴾ أَي: لَطَبُ اتِّخَاذِ حَلِيَّةٍ تَتَزَيَّنُونَ بِهَا وَتَتَجَمَّلُونَ كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴿أَوْ مَتَاعٌ﴾ أَي: أَوْ طَلَبُ مَتَاعٍ تَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنَ الْأَوَانِي وَالْأَلَاتِ الْمَتَّخَذَةِ مِنَ الْحَدِيدِ وَالصُّفْرِ وَالنَّحَاسِ وَالرِّصَاصِ ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ الْمُرَادُ بِالزَّبَدِ هُنَا الْخَبَثُ، فَإِنَّهُ يعلو فَوْقَ مَا أَتَيْبُ مِنْ تِلْكَ الْأَجْسَامِ كَمَا يعلو الزَّبَدُ عَلَى الْمَاءِ فَالضَّمِيرُ فِي مِثْلِهِ يَعُودُ

[النحل: 48] وجاء بمن في من في السموات والأرض تغليياً للعقلاء على غيرهم، ولكون سجود غيرهم تبعاً لسجودهم. ومما يؤيد حمل السجود على الاتقياد ما يفيد تقديم الله على الفعل من الاختصاص، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم، ولا يتقانون لهم كاتقيادهم لله في الأمور التي يقرؤون على أنفسهم بأنهم من الله، كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار من رب السموات والأرض؟ ثم لما كانوا يقرؤون بذلك ويعترفون به كما حكاها الله سبحانه في قوله: ﴿لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 9] وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87] أمر رسوله ﷺ أن يجيب، فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ فكانه حكى جوابهم وما يعتقونه، لأنهم ربما تلعمشوا في الجواب حذراً مما يلزمهم، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويكبتهم فقال: ﴿قُلْ افْتَحْتُمْ مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءَ﴾ والاستفهام للإنكار أي: إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقررون بذلك وتعرفون به كما حكاها سبحانه عنكم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [المؤمنون: 86 - 87] فما بالكم اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء عاجزين ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ شَيْئاً﴾ ينفعونها به ﴿وَلَا ضَرَأٌ﴾ يضرون به غيرهم أو ينفعونهم عن أنفسهم، فكيف ترجون منهم النفع والضرر وهم لا يملكونها لأنفسهم والجملة في محل نصب على الحال، ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي الأعمى في دينه وهو الكافر، والبصير فيه وهو الموحد، فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه، والثاني عالم بذلك. قَرَأَ ابْنُ مَحِيصَنٍ، وَأَبُو بَكْرِ، وَالْأَعْمَشُ، وَحَمَزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ (أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) بِالتَّحْتِيَّةِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْفَوْقِيَّةِ. وَاخْتَارَ الْقِرَاءَةَ الثَّانِيَةَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَالْمُرَادُ بِالظُّلُمَاتِ الْكُفْرَ، وَبِالنُّورِ الْإِيمَانَ، وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ أَي: كَيْفَ يَكُونَانِ مُسْتَوِيَيْنِ وَبَيْنَهُمَا مِنَ التَّفَاوُتِ مَا بَيْنَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ، وَمَا بَيْنَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ، وَوَحْدَ النُّورِ وَجَمْعِ الظُّلْمَةِ، لِأَنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ، وَطَرَائِقُ الْبَاطِلِ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مُحَصَرَةٍ ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ أَمْ هِيَ الْمُنْقَطَعَةُ الَّتِي بِمَعْنَى بِلْ وَالْهَمْزَةُ أَي: بَلْ أَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ، وَالْإِسْتِفْهَامُ لِإِنْكَارِ الْوُقُوعِ. قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: مَعْنَاهُ أَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا مِثْلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فَتَشَابَهَ خَلْقُ الشُّرَكَاءِ بِخَلْقِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا حَتَّى يَشْتَبِهَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ، بَلْ إِذَا فَكَّرُوا بِعَقُولِهِمْ وَجَدُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ، وَسَاءَتْ الشُّرَكَاءُ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً، وَجَمَلَةٌ: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ صِفَةً لِلشُّرَكَاءِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ مُتَصِفِينَ بِأَنَّهُمْ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴿فَتَشَابَهَ﴾ بِهَذَا السَّبَبِ ﴿الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ﴾ حَتَّى يَسْتَحِقُّوا بِذَلِكَ الْعِبَادَةَ مِنْهُمْ، بَلْ إِنَّمَا

الشرطية، وهي ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من أصناف الأموال التي يملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: مثل ما في الأرض جميعاً كائناً معه ومنصمماً إليه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي: بمجموع ما ذكر وهو ما في الأرض ومثله، والمعنى: ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم، ثم بين الله سبحانه ما أعدّه لهم فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: الذين لم يستجيبوا ﴿لَهُمْ سُوءُ الْحَسَابِ﴾ قال الزجاج: لأن كفرهم أحبط أعمالهم، وقال غيره: سوء الحساب المناقشة فيه؛ وقيل: هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء ﴿وَمَوَاهِمُ جَهَنَّمَ﴾ أي: مرجعهم إليها ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: المستقر الذي يستقرون فيه، والمخصوص بالذم محنوف.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال: خوفاً للمسافر يخاف إذاه ومشقته وطمعا للمقيم يطعم في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: خوفاً لأهل البحر وطمعا لأهل البر. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: الخوف ما يخاف من الصواعق والطمع: الغيث. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والخراطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في سننه من طرق عن علي بن أبي طالب قال: البرق مخاريق من نار بايدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب. وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه، ولعلنا قد قدمنا في سورة البقرة شيئاً من ذلك. وأخرج أحمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب فتنتطق أحسن النطق وتضحك أحسن الضحك». قيل: والمراد بنطقها الرعد، وبضحكها البرق. وقد ثبت عند أحمد، والترمذي، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه من حديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك». وأخرج العقيلي وضعفه، وابن مروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء، فلا شيء أحسن من ضحكك، ولا شيء أحسن من نطقك، ومنطقه الرعد وضحك البرق». وأخرج ابن مروي عن جابر بن عبد الله: «أن خزيمة بن ثابت، وليس بالأنصاري، سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال: إن ملكاً موكلاً يلّم القاصية ويلحم الدانية في يده مخراق، فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت، وإذا ضرب صعقت». وأخرج أحمد، والترمذي وصححه. والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: «أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة

إلى زبداً رابياً، وارتفاع زبد على الابتداء وخبره مما يوقدون ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل، ثم شرع في تقسيم المثل فقال: ﴿فَإِذَا الْزَبَدُ فِئْجَفَافٌ﴾ يقال: جفا جفاً الوادي بالهمز جفأ: إذا رمى بالقدر والزبد. قال الفراء: الجفأ الرمي. يقال: جفا الوادي غثاء جفأ: إذا رمى به، والجفأ بمنزلة الغثاء. وكذا قال أبو عمرو بن العلاء، وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤية يقرأ جفلاً. قال أبو عبيدة: يقال: أجفلت القدر إذا قذفت بزبداء. وأجفلت الريح السحاب إذا قطعت، قال أبو حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤية، لأنه كان ياكل الفار. وأعلم أن وجه المماثلة بين الزبد في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المنطوقة، أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوَّقه. وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى ينوب من الأجسام المنطوقة، فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب، فإذا أنببت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ منهما وهو الماء الصافي، والذائب الخالص من الخبث ﴿فَيَمِكْتُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يثبت فيها. أما الماء فإنه يسلك في عروق الأرض فتنتفع الناس به، وأما ما أنيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية وأمتعة. وهذان مثلاًن ضربهما الله سبحانه للحق والباطل. يقول: إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العقوبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل وكخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا عليها فإن الكبر يقفقه ويدفعه، فهذا مثل الباطل؛ وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض، كذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه، وهو مثل الحق. قال الزجاج: فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعاً بها، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفأ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به. وقد حكينا عن ابن الأنباري فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاًن ضربه الله للقرآن ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال في كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم، وهذا تأكيد لقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾، ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عبادته، فقال: فيمن ضرب له مثل الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوا لدعوته إذ دعاهم إلى توحيده وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه، والحسنى صفة موصوف محنوف، أي: المثوبة الحسنى وهي الجنة، وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ لدعوته إلى ما دعاهم إليه، والموصول مبتدأ وخبره الجملة

وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه أيضاً في قوله: **﴿انزل من السماء ماء﴾** الآية قال: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: **﴿فأما الزيد فيذهب جفاء﴾** وهو الشك **﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾** وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً: **﴿فسألت أودية بقدرها﴾** قال: الصغير قدر صغره، والكبير قدر كبره.

❦ **﴿أَنْ يَسْأَلَ أَتَى أَهْلَ إِيك مِنْ رَبِّكَ لَوْ كُنْ هُوَ أَحَقُّ بِمَا يَذْكُرُ أَوْلَى الْأَنْبِيَاءِ﴾** الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَهْدِيَّ اللَّهِ وَلَا يَنْفَعُونَ الْيَقِيْنَ ❦ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ❦ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُسُونَ بِالْمَكْرِ ❦ الْبَقَّةُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ❦ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ بَطْنِهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمُ وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ❦ سَلَّمَ عَلَيْكَ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِمَا عَفَىٰ اللَّهُ عَنْكَ ❦ وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَكْفُرُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ❦

الهزمة في قوله: **﴿أفمن يعلم﴾** للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم أنما أنزله الله سبحانه إلى رسوله ﷺ من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة، وهو القرآن، وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك، فإن الحال بينهما متباعد جداً كالتباعد الذي بين الماء والزبد، وبين الخبث والخالص من تلك الأجسام، ثم بين سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين، وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة، فقال: **﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾** ثم وصفهم بهذه الأوصاف المانحة، فقال: **﴿الذين يوفون بعهد الله﴾** أي: بما عقده من العهود فيما بينهم وبين ربهم، أو فيما بينهم وبين العباد **﴿ولا ينقضون الميثاق﴾** الذي وثقوه على أنفسهم، وأكفوه بالإيمان ونحوها، وهذا تعميم بعد التخصيص، لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجب العبد على نفسه كالنذور ونحوها، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يرد بالعهد جميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبده، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه: **﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾** [الأعراف: 172] الآية: **﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾** ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده، ويدخل تحت تلك صلة الأرحام دخولاً أولاً، وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم، واللفظ أوسع من ذلك **﴿ويخشون ربهم﴾** خشية تحملهم على فعل ما وجب، واجتناب ما لا يحل **﴿ويخافون سوء الحساب﴾**

أشياء، فإن أنباتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنييه إذ قال: الله على ما نقول وكيل، قال هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تنكر؟ قال: يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أنكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت؛ قالوا: أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتهي عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا البان كذا وكذا؛ يعني: الإبل، فحرم لحومها قالوا: صدقت، قالوا أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقت إنما بقيت واحدة، وهي التي تتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبي إلا له ملك ياتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل، قالوا: جبريل ذاك ينزل بالخراب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله: **﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾** [البقرة: 97] إلى آخر الآية. وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي الدنيا في المعتمد، وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحانه الذي سبحت له، وقال: إن الرعد ملك ينطق بالفيت كما ينطق الراعي بغنمه. وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن الرعد صوت الملك، وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر. وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه عن ابن عباس قال: الرعد ملك اسمه الرعد، وصوته هذا تسبيحه، فإذا اشتد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه، وأخرج ابن أبي حاتم، والخرائطي، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي عمران الجوني قال: إن بحوراً من نار دون العرش يكون منها الصواعق. وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال: الصواعق نار. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس **﴿وهو شديد المحال﴾** قال: شديد القوة. وأخرج ابن جرير عن علي قال: شديد الأخذ. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه في قوله: **﴿له دعوة الحق﴾** قال: التوحيد: لا إله إلا الله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق عن ابن عباس في قوله **﴿دعوة الحق﴾** قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير عن علي في قوله: **﴿إلا كياسة كفيه إلى السماء ليبلغ فاه وما هو ببالغ﴾** قال: كان الرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال: هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه. وأخرج أبو الشيخ عنه في قوله: **﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾** قال: المؤمن والكافر. وأخرج ابن جرير،

لدار. جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبي الدار المتقّم نكرها للترغيب والتشويق، ثم اتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء، فقال: **«وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»** وقد مرّ تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير للنقض والقطع، ولم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهما وما بعدهما من الأوصاف المتقدّمة لدخولها في النقض والقطع **«وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ»** بالكفر وارتكاب المعاصي والاضرار بالأنفس والأموال **«أُولَئِكَ»** الموصوفون بهذه الصفات الذميمة **«لَهُمْ»** بسبب ذلك **«اللعنة»**: أي: الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه **«وَلَهُمْ سُوءُ الدَارِ»** أي: سوء عاقبة دار الدنيا، وهي النار أو عذاب النار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى: **«أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ»** قال: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه **«كَمَنْ هُوَ أَعْمَى»** قال: عن الحق فلا يبصره ولا يعقله **«إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ»** فبين من هم، فقال: **«الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ»**. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير **«أُولُوا الْأَلْبَابِ»** قال: من كان له لبّ أي: عقل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة أن الله نكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن. وأخرج الخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْبِرَّ وَالصَّلَاةَ لِيُخَفِّفَانِ سُوءَ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ»**». وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله: **«وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»** يعني: من إيمان بالنبیین وبالكتب كلها **«وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ»** يعني: يخافون من قطيعة ما أمر الله به أن يوصل **«وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ»** يعني: شدة الحساب.

وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، أبو الشيخ عن الضحاك **«وَيُدْرِعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ»** قال: يدفعون بالحسنة السيئة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله: **«جَنَاتُ عَدْنٍ»** قال: بطنان الجنة، يعني: وسطها. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال لعبيد: ما عن؟ قال: هو قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل. وأخرج ابن مردويه عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «جنة عدن قضيب غرسه الله بيده، ثم قال له: كن فكان». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد **«وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ»** قال: من آمن في الدنيا. وأخرج

وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد، فمن نوقش الحساب عذب، ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا **«وَالَّذِينَ صَبَرُوا لِبَتَاءِ وَجْهِ رَبِّهِمْ»** قيل: هو كلام مستأنف، وقيل: معطوف على ما قبله، والتعبير عنه بلفظ المضى للتنبيه على أنه ينبغي تحقيقه، والمراد بالصبر الصبر على الإتيان بما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه؛ وقيل: على الرزايا والمصائب، ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله: أن يكون خالصاً له، لا شائبة فيه لغيره **«وَاتَّقُوا اللَّهَ»** أي: فعلوها في أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في انكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص، والمراد بها الصلوات المفروضة، وقيل أعم من ذلك **«وَاتَّقُوا اللَّهَ»** أي: أنفقوا بعض ما رزقناهم، والمراد بالسّر: صدقة النفل، والعلائية: صدقة الفرض، وقيل: السّر لمن لم يعرف بالمال، أو لا يتهم بترك الزكاة، والعلائية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة **«وَيُدْرِعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ»** أي: يدفعون سيئة من إساء إليهم بالإحسان إليه كما في قوله تعالى: **«ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»** [المؤمنون: 96 - فصلت: 34]، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ، أو يدفعون الشرّ بالخير، أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو، أو الذنب بالتوبة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، والإشارة بقوله: **«أُولَئِكَ»** إلى الموصوفين بالصفات المتقدّمة **«لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ»** العقبى مصدر كالعاقبة؛ والمراد بالدار الدنيا، وعقبها الجنة؛ وقيل: المراد بالدار الدار الآخرة، وعقبها الجنة للمطيعين، والنار للعصاة **«جَنَاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا»** بدل من عقبى الدار أي: لهم جنات عدن، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره يدخلونها، والعدن أصله الإقامة، ثم صار علماً لجنة من الجنان. قال القشيري: وجنات عدن: وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن، ولكن في صحيح البخاري وغيره: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». **«وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ»** يشمل الآباء والأمهات **«وَأَزْوَاجَهُمْ وَذُرِّيَّاتَهُمْ»** معطوف على الضمير في يدخلون، وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه أي: ويدخلها أزواجهم وذرياتهم، وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات أولئك، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج أو الذرية بدون صلاح **«وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ»** أي: من جميع أبواب المنازل التي يسكنونها، أو المراد من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه **«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»** أي: قائلين سلام عليكم أي: سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة **«بِمَا صَبَرْتُمْ»** أي بسبب صبركم وهو متعلق بالسلام أي: إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم، أو بمحنوف أي: هذه الكرامة بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر **«فَنَعْمَ عَقَبَى**

آية تقديم وتأخير، والتقدير: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا، فيكون وفرحوا معطوفاً على يفسدون **﴿وما للحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾** أي: ما هي إلا شيء يستمتع به، وقيل: المتاع واحد الامتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما، وقيل: المعنى شيء قليل ذاهب، من متع النهار: إذا ارتفع فلا بد له من زوال، وقيل: زاد كزاد الراكب يتزود به منها إلى الآخرة **﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾** أي يقول: أولئك المشركون من أهل مكة هلا أنزل على محمد آية من ربه؟ وقد تقدم تفسير هذا قريباً، وتكرر في مواضع **﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾** أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا، وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه، من شاء أن يضل ضل كما ضل هؤلاء القائلون «لولا أنزل عليه آية من ربه»، **﴿ويهدي إليه من أناب﴾** أي: ويهدي إلى الحق، أو إلى الإسلام، أو إلى جنبه عز وجل: **﴿من أناب﴾** أي: من رجع إلى الله بالتوبة والإقلاع عما كان عليه، وأصل الإنابة الدخول في نوبة الخير. كذا قال النيسابوري، ومحل الذين آمنوا النصب على البلية من قوله: **﴿من أناب﴾** أي: أنهم هم الذين هداهم الله وأنابوا إليه، ويجوز أن يكون الذين آمنوا خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح **﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾** أي: تسكن وتستأنس بذكر الله سبحانه بالسنتهم، كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم، وقد سمي سبحانه القرآن نكراً قال: **﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾** [الأنبياء: 50]، وقال: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾** [الحجر: 9]. قال الزجاج: أي إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: **﴿وإذا نكر الله وحده آمنوا به غير شاكين﴾** الذين لا يؤمنون بالآخرة [الزمر: 45] وقيل: تطمئن قلوبهم بتوحيد الله، وقيل: المراد بالذكر هنا الطاعة، وقيل: بوعده الله، وقيل: بالحلف بالله، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه، وقيل: بذكر رحمته، وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده **﴿إلا بذكر الله﴾** وحده دون غيره **﴿تطمئن القلوب﴾** والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وإن كان يفيد طمأنينة في الجملة، لكن ليست كهذه الطمأنينة، وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله، فهذا وجه ما يفيد هذا التركيب من القصر **﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾** الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية، وهي طوبى لهم على التأويل المشهور، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على المدح، وطوبى لهم خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من القلوب على حذف مضاف أي: قلوب الذين آمنوا. قال أبو عبيدة، والزجاج، وأهل اللغة: طوبى فعلى من الطيب. قال ابن الأنباري: وتأويلها الحال المستطابة، وقيل: طوبى شجرة في الجنة، وقيل: هي

عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي عمران الجوني في قوله: **﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾** قال: على دينكم **﴿فنعم عقبي الدار﴾** قال: نعم ما أعقبكم الله من الدنيا في الجنة. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، وصححه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته: اثثوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أقتامرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال الله: إن هؤلاء عبادي كانوا يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب **﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي أمامة: «إن المؤمن ليكون متكثراً على أريكة إذا دخل الجنة وعنده سباطان من خدم وعند طرف السباطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأن، فيقول أقصى الخدم للذي يليه: ملك يستأن، ويقول الذي يليه: ملك يستأن، حتى يبلغ المؤمن، فيقول: اثثو له، فيقول أقربهم إلى المؤمن: اثثو له، ويقول الذي يليه للذي يليه: اثثو له حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له فيدخل ويسلم عليه، ثم ينصرف. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿ولهم سوء الدار﴾** قال: سوء العاقبة.

اللَّهُ يَسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْدِرُ وَرَحْمَةً إِلَيْنَا رَا كَلِمَةُ الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّحٌ ﴿١١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَسُطُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْدِرُ إِلَيْنَا مَنَ أَنْابٌ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَلَمَّحُوا قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَلَمَّحُوا الْقُلُوبُ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَأْوٍ ﴿١٤﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلَمَّحُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَزْجَحًا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَأْوٍ ﴿١٥﴾

لما نكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله: **﴿ولهم سوء الدار﴾** كان لقاتل أن يقول: قد نرى كثيراً منهم قد وفر الله له الرزق وبسط له فيه، فأجاب عن ذلك بقوله: **﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾** فقد يبسط الرزق لمن كان كافراً، ويقتره على من كان مؤمناً ابتلاءً وامتحاناً، ولا يدل البسط على الكرامة ولا القبض على الإهانة، ومعنى يقدر: يضيق، ومنه **﴿من قدر عليه رزقه﴾** [الطلاق: 7] أي ضيق؛ وقيل: معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية، ومعنى الآية: أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره **﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾** أي: مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ما عند الله، وقيل: وفي هذه

الشيخ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين نزلت هذه الآية **«إِذَا بَنِيَ اللَّهُ لِلنَّاسِ مَدِيْنَةً أَلِمْ بِهَا فَإِنَّ كَبَدَهَا كَأَدْخَالِ الْخِيَارِ»** هل تدرون ما معنى ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: من أحب الله ورسوله وأحب أصحابي. وأخرج ابن مردويه عن علي: «أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية: **«إِذَا بَنِيَ اللَّهُ لِلنَّاسِ مَدِيْنَةً أَلِمْ بِهَا فَإِنَّ كَبَدَهَا كَأَدْخَالِ الْخِيَارِ»** قال: «ذاك من أحب الله ورسوله، وأحب أهل بيته صانقاً غير كاتب، وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً، إلا بذكر الله يتحابون». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: **«طُوبَى لَهُمْ»** قال: فرح وقرّة عين. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله: **«طُوبَى لَهُمْ»** قال: نعم ما لهم.

وقد روي عن جماعة من السلف نحو ما قدّمنا ذكره من الأقوال، والأجح تفسير الآية بما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ كما أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي عن عتبة بن عبد قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله في الجنة فاكهة؟ قال: نعم فيها شجرة تدعى طوبى الحديث. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والخطيب في تاريخه عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: طوبى لمن آمن بي ورآني، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني، فقال رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسير مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها، وفي الباب أحاديث وأثر عن السلف. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرءوا إن شئتم **«وِظَلُّ مَدُودٍ»** [الواقعة: 30] وفي بعض الألفاظ «إنها شجرة الخلد». وأخرج أبو الشيخ عن السدي **«وحسن مأب»** قال: حسن منقلب. وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **«وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ»** قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، فقالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم، فقال: لا، ولكن اكتبوا كما يريدون». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في هذه الآية نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد **«وليه متاب»** قال: توبتي.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْآفَكُورِ جَمِيعًا أَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَعَوْا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَنَ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْأَيْمَانَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بَرِئًا مِّن ذَلِكِ فَامْتَسِكُوا لِيَذَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا تَمَّ أَهْلَهُمْ كَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢٢﴾ آمَنَ هُوَ قَائِمٌ

الجنة، وقيل: هي البستان بلغة الهند، وقيل: معنى طوبى لهم: حسنى لهم، وقيل: خير لهم، وقيل: كرامة لهم، وقيل: غبطة لهم، قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة، والأصل طيبى فصارت الياء وأواً لسكونها وضم ما قبلها، واللام في لهم للبيان مثل سقياً لك ورعياً لك، وقرئ (حسن مأب) بالنصب والرفع، من أب إذا رجع أي: وحسن مرجع، وهو الدار الآخرة **«كذلك أرسلناك في أمة خلعت من قبلها أمة»** أي: مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة أرسلناك يا محمد، وقيل: شبه الأنعام على من أرسل إليه محمد ﷺ بالأنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله، ومعنى **«في أمة قد خلعت من قبلها أمة»** في قرن قد مضت من قبله قرون، أو في جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات **«لتقتلوا عليهم الذي أوحينا إليك»** أي: لتقرأ عليهم القرآن، **«و»** الحال أنه **«وهم يكفرون بالرحمن»** أي: بالكثير الرحمة لعباده، ومن رحمته لهم إرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه: **«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»** [الأنبياء: 107] وجملة **«قل هو ربي»** مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا: وما الرحمن؟ فقال سبحانه: **«قل»** يا محمد **«هو ربي»** أي: خالقي **«لا إله إلا هو»** أي: لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه **«عليه توكلت»** في جميع أموري **«وليه»** لا إلى غيره **«متاب»** أي: توبتي، وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع إلى الله والتوبة من الكفر والنحول في الإسلام.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط في قوله: **«وما للحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع»** قال: كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق أو الشيء يشرب عليه اللبن. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله، أو غنمه فيقول لأهله: متعونني فيمتعونه فلقه الخبز أو التمر، فهذا مثل ضربه الله للدنيا. وأخرج الترمذي وصححه عن عبد الله بن مسعود قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقالنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك؟ فقال مالي والمدينة، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن المستورد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع؟ وأشار بالسبابة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: **«وتطمئن قلوبهم بذكر الله»** قال: هشت إليه واستأنست به، وأخرج أبو الشيخ عن السدي في الآية قال: إذا حلف لهم بالله صلحوا **«إلا بذكر الله تطمئن القلوب»** قال: تسكن. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: بمحمد وأصحابه. وأخرج أبو

أي: ألم يعلم، وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تياسوا أني ابن فارس زهدم
أي: ألم تعلموا، فمعنى الآية على هذا: أقلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات، وقيل: إن الإيلاس على معناه الحقيقي أي: أقلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم، لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارَعَةٌ﴾ هذا وعيد للكفار على العموم أو لكفار مكة على الخصوص أي: لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسول قارعة أي: داهية تفجؤهم، يقال: قرعه الأمر إذا أصابه، والجمع قوارع، والأصل في القرع الضرب. قال الشاعر:

أقنى تلاذي وما جمعت من نشب قرع القراقرير أقواه الأباريق
والمعنى: أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر أو جنب أو نحو ذلك من العذاب؛ وقد قيل: إن القارعة النكبة، وقيل: الطلائع والسرائيا، ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك ﴿وَأَوْ تَحُلْ﴾ أي: القارعة ﴿قريباً من دارهم﴾ فيفزعون منها ويشاهدون آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بواشرهم، وقيل: إن الضمير في ﴿تَحُلْ﴾ للنبي ﷺ. والمعنى: أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم محاصراً لهم أخذاً بمخافتهم كما وقع منه ﷺ لأهل الطائف ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو موتهم، أو قيام الساعة عليهم، فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة؛ وقيل: المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار، والأول أولى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ لِمِيعَادِهِ﴾ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التنكير في رسل للتكثير أي: برسل كثيرة، والإملاء: الإهمال، وقد مرَّ تحقيقه في الأعراف ﴿ثُمَّ لَخِّنْتَهُمْ﴾ بالعذاب الذي أنزلته بهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد أي: فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤا بالرسول، فاملت لهم ثم أخننتهم، ثم استفهم سبحانه استفهاماً آخر للتوبيخ والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والإزرار عليهم، فقال: ﴿أَقْمِنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ القائم الحفيظ والمتولي للأمور، وأراد سبحانه نفسه، فإنه المتولي لأمر خلقه المدير لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، والجواب محذوف أي: أقمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر. قال الفراء: كانه في المعنى أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركاثم الذين اتخذوهم من دون الله، والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهما؛ وقيل: المراد بمن هو قائم على كل

عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَوْفَ أَمَّا تَتَذَكَّرُونَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظْهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ رَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٣١﴾ لَمْ عَذَابٌ فِي الْحُوزَةِ الَّذِينَ وَلَكَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١٣٢﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿١٣٣﴾

قوله: ﴿ولو أن قرأنا سيرت به للجبال﴾ قيل: هذا متصل بقوله: ﴿ولو أنزل عليه آية من ربه﴾ [الرعد: 7] وأن جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفس فإنها أرض ضيقة، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصرؤا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم إنزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد. ومعنى سيرت به الجبال أي: بإنزاله وقراءته فسارت عن محل استقرارها ﴿أو قطعت به الأرض﴾ أي: صدعت حتى صارت قطعاً متفرقة ﴿أو كلم به الموتى﴾ أي: صاروا أحياء بقراءته عليهم، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء.

وقد اختلف في جواب لو ماذا هو؟ فقال الفراء: هو محذوف، وتقديره: لكان هذا القرآن، ودوي عنه أنه قال: إن الجواب لكفروا بالرحمن أي: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن؛ وقيل: جوابه لما آمنوا كما سبق في قوله: ﴿وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ [الأنعام: 111] وقيل: الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير أي: وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرأنا إلى آخره، وكثيراً ما تحذف العرب جواب لو إذا دل عليه سياق الكلام، ومنه قول امرئ القيس:

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا
أي: لهان علي ذلك ﴿بل الله الأمر جميعاً﴾ أي: لو أن قرأنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن، ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات، فالإضراب متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر لله سبحانه ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته، ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله: ﴿أقلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾. قال الفراء: قال الكلبي أقلم ييأس بمعنى أقلم يعلم، وهي لغة النخع. قال في الصحاح: وقيل هي لغة هوازن، وبهذا قال جماعة من السلف. قال أبو عبيدة: أقلم يعلموا ويتبينوا. قال الزجاج: وهو مجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لا يكون، نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما، ويؤيده قراءة علي، وابن عباس، وجماعة (أقلم يتبين)، ومن هذا قول رباح بن عدي: ألم ييأس الأقولم أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

ابن قتيبة: المثل الشبه في أصل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته، يقال: مثلت لك كذا أي: صورته ووصفته، فأراد هنا بمثل الجنة وصورتها وصفتها، ثم نكرها، فقال: **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** وهو كالتفسير للمثل. قال سيبويه: وتقريره فيما قصصنا عليك مثل الجنة. وقال الخليل وغيره: إن مثل الجنة مبتدأ والخبر تجري. وقال الزجاج: إنه تمثيل للغائب بالشاهد، ومعناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار؛ وقيل: إن فائدة الخبر ترجع إلى **﴿أكلها دائم﴾** أي: لا ينقطع، ومثله قوله سبحانه: **﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾** [الواقعة: 33] وقال الفراء: المثل مقحم للتأكيد، والمعنى: الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيراً **﴿وظلها﴾** أي: كذلك دائم لا يتقلص ولا تنسخ الشمس، والإشارة بقوله: **﴿تلك﴾** إلى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة، وهو مبتدأ خبره **﴿عقبى الذين اتقوا﴾** أي: عاقبة الذين اتقوا المعاصي، ومنتهى أمرهم **﴿وعقبى للكافرين النار﴾** ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلا ذلك.

وقد أخرج الطبراني، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قالوا للنبي ﷺ: إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم، وأفسح لنا هذه الجبال جبال مكة التي قد ضمتنا، فنزلت: **﴿ولو أن قرأنا سيرت به الجبال﴾** الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مروي عن عطية العوفي قال: قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تنسع فنحرت فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه، فأنزل الله: **﴿ولو أن قرأنا سيرت به الجبال﴾** الآية إلى قوله: **﴿أفلم يئس الذين آمنوا﴾** قال: أفلم يتبين الذين آمنوا، قالوا: هل تروي هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ قال: عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ. وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم قال: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، أخبرنا بشر بن عمارة، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي فذكره. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن طريق العوفي عن ابن عباس نحوه مختصراً. وأخرج أبو يعلى، وأبو نعيم في الدلائل، وابن مروي عن الزبير بن العوام في ذكر سبب نزول الآية نحو ما تقدم مطولاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿يل الله الأمر جميعاً﴾** لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿أفلم يئس﴾** يقول: يعلم. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي العالية **﴿أفلم يئس﴾** قال: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: **﴿تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾** قال: السرايا. وأخرج

نفس الملائكة الموكلون ببني آدم، والأول أولى، وجملة **﴿وجعلوا لله شركاء﴾** معطوفة على الجواب المقتر مبنية له أو حالية بتقدير قد أي: وقد جعلوا، أو معطوفة على **﴿ولقد استهزئ﴾** أي: استهزءوا وجعلوا **﴿قل سموهم﴾** أي: قل يا محمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم؟ وفي هذا تبيكيت لهم وتوبيخ، لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت إليه، فيقال: سمه إن شئت يعني: أنه أحقر من أن يسمى؛ وقيل: إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديداً لهم **﴿لم تنبئونه﴾** أي: بل أتنبئون الله **﴿بما لا يعلم في الأرض﴾** من الشركاء الذين تعبئونهم مع كونه العالم بما في السموات والأرض **﴿لم بظاهر من القول﴾** أي: بل اتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة؛ وقيل: المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم: سموهم، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما، فقل لهم إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض، لأنهم ادّعوا له شريكاً في الأرض؛ وقيل: معنى **﴿لم بظاهر من القول﴾** أم بزاثل من القول باطل، ومنه قول الشاعر:

أعيرتنا البانها ولحومها وتلك عاريا ابن ربيعة ظاهر
أي: زائل باطل، وقيل: يكذب من القول، وقيل: معنى بظاهر من القول بحجة من القول ظاهرة على زعمهم **﴿يل زين للذين كفروا مكرهم﴾** أي: ليس لله شريك، بل زين للذين كفروا مكرهم. وقرأ ابن عباس (زين) على البناء للمفاعل على أن الذي زين لهم ذلك هو مكرهم. وقرأ من عده بالبناء للمفعول، والمزين هو الله سبحانه، أو الشيطان ويجوز أن يسمى المكر كفرة، لأن مكرهم برسول الله ﷺ كان كفرة. وأما معناه الحقيقي فهو الكيد، أو التمويه بالباطل **﴿وصنّوا عن السبيل﴾** قرأ حمزة والكسائي وعاصم (صنّوا) على البناء للمفعول أي: صدهم الله، أو صدهم الشيطان. وقرأ الباقون على البناء للمفاعل أي: صنّوا غيرهم، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الصاد **﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾** أي: يجعله ضالاً وتقتضي مشيئته إضلاله، فما له من هاد يهديه إلى الخير. قرأ الجمهور (هاد) من دون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة. وقرئ بإثباتها على اللغة القليلة، ثم بين سبحانه ما يستحقونه، فقال: **﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾** بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك **﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾** عليهم من عذاب الحياة الدنيا **﴿وما لهم من الله من واق﴾** يقبهم عذابه، ولا عاصم يعصمهم منه، ثم لما نكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الأولى والآخرى، نكر ما أعدّه للمؤمنين، فقال: **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار﴾** أي: صفتها العجيبة الشأن التي هي في الغرابة كالمثل، قال

معه من أهل الكتاب ساءهم قلة نكر الرحمن في القرآن مع كثرة نكره في التوراة، فانزل الله ﴿قُلْ ادعوا آل أو ادعوا الرحمن﴾ [الإسراء: 110] ففرحوا بذلك، ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله ﷺ، وأمره أن يقول لهم ذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ﴾ أي: لا أشرك به بوجه من الوجوه أي قل لهم: يا محمد إلزاماً للحجة وزداً للإنكار إنما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتضية بالرسول، وقد اتفق القراء على نصب ولا أشرك به عطفاً على أعبد. وقرأ أبو خليل بالرفع على الاستئناف، وروى هذه القراءة عن نافع ﴿إِلَيْهِ ادْعُوا﴾ أي: إلى الله لا إلى غيره أو إلى ما أمرت به وهو عبادة الله وحده، والأول أولى لقوله: ﴿وَالِلَّهِ مَأْبُ﴾ فإن الضمير لله سبحانه أي: إليه وحده: لا إلى غيره مرجعي. ثم نكر بعض فضائل القرآن، وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرض لرد ما أنكره من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال: ﴿وَكذلكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكْماً عَرَبِيًّا﴾ أي: مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتتلاً على أصل الشرائع وفروعها؛ وقيل: المعنى: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصاب حكماً على الحال ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ أَهْوَاءُهُمْ﴾ التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الذي علمك الله إياه ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من جنبه ﴿مَنْ وَلِيَ﴾ يلي أمرك وينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من عذابه، والخطاب لرسول الله ﷺ تعرض لأمته، واللام في ولئن اتبعت هي الموطئة للقسم، وما لك ساء مسد جواب القسم والشرط ﴿وَلَمَّا أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ أي: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر لهم أزواج من النساء ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية. وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء أي: أن هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكن لرسول من الرسل أن يأتي بآية من الآيات، ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن الله سبحانه، وفيه رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوا بما سبق نكره ﴿لِكُلِّ لَاجِلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل أمر مما قضاه الله، أو لكل وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم. وقال القراء: فيه تقديم وتأخير. والمعنى: لكل كتاب أجل أي: لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ووقت معلوم كقوله

الطيلاسي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه نحوه، وزاد ﴿أَوْ تَحُلْ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ قال: أنت يا محمد حتى يأتي وعد الله. قال: فتح مكة. وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿قَارِعَةً﴾ قال: نكبة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق العوفي عنه قارعة قال: عذاب من السماء أو تحل قريباً من دارهم: يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله آباهم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿إِنَّمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال: يعني بذلك نفسه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عطاء في الآية قال: الله تعالى قائم بالقسط والعدل على كل نفس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿لَمَّا بَظَاهَرَهُمْ الْقَوْلُ﴾ قال: الظاهر من القول هو الباطل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله: ﴿مِثْلَ الْجَنَّةِ﴾ قال: نعت الجنة، ليس للجنة مثل. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿أَكَلَهَا دَأْبُ﴾ قال: لذاتها دأبة في أفواههم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ كِتَابٌ يَقْرَأُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْآخِرَاتِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ ادْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ وَكَذلكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكْماً عَرَبِيًّا وَلَمَّا تَبَيَّنَ أَهْوَاءُهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَلَرِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ ذَرْوٍ وَلَا وَاقٍ ﴿١٧٧﴾ وَلَمَّا أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ رَحَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿١٧٨﴾ يَمْشُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيَنْتَهِ وَيَعْنَهُمْ وَأَمَّا الْكُتُبُ ﴿١٧٩﴾

اختلف المفسرون في تفسير الكتاب المذكور ف قيل: هو التوراة والإنجيل، والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ هم من أسلم من اليهود والنصارى، وقيل: الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقاً لما في كتبهم مصدقاً له، فعلى الأول يكون المراد بقوله: ﴿وَمِنْ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ﴾ من لم يسلم من اليهود والنصارى، وعلى الثاني يكون المراد به المشركين من أهل مكة ومن يمثلهم، أو يكون المراد به البعض من أهل الكتابين أي: من أحزابهما، فإنهم أنكره لما يشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما في الكتابين، وإنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما، وقيل: المراد بالكتاب القرآن، والمراد بمن يفرح به المسلمون، والمراد بالأحزاب المتحزبون على رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى، والمراد بالبعض الذي أنكره من خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم. واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في نكره، وأجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح والاستبشار، وقال كثير من المفسرين: إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا

كل عبد. وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن التبتل. وقرأ قتادة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سعد بن هشام قال: دخلت على عائشة فقلت: إني أريد أن أتبتل؟ قالت: لا تفعل، أما سمعت الله يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَنْزُلًا وَذُرِيَّةً﴾ وقد ورد في النهي عن التبتل والترغيب في النكاح ما هو معروف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل: ﴿مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعداً لهم ﴿يُمَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئاً، ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿يُمَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ قال: ينزل الله في كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فيبدر أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله. وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً في الآية قال: هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت، وعنده أم الكتاب أي: جملة الكتاب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوت، والدفتان لوحان: لله كل يوم ثلاث وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدثنا محمد بن شهر بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فنكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينزل في ثلاث ساعات يبين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت» الحديث. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه بإسناد. قال السيوطي: ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر». وأخرج ابن جرير عن

سبحانه: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: 67] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم بل على حسب ما يشاءه ويختاره ﴿يُمَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي: يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه. يقال: محوت الكتاب محواً إذا أذهبت أثره. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم (ويثبت) بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد. وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا ﴿لَا يَسَالُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَالُونَ﴾ [الأنبياء: 23] وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأبو وائل، وقتادة، والضحاك، وابن جريج وغيرهم؛ وقيل: الآية خاصة بالسعادة والشقاوة؛ وقيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب، وقيل: يمحو ما يشاء من الرزق، وقيل: يمحو من الأجل، وقيل: يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وقيل: يمحو ما يشاء من الذنوب عباده ويترك ما يشاء؛ وقيل: يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة؛ وقيل: يمحو الآباء ويثبت الأبناء؛ وقيل: يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12] وقيل: يمحو ما يشاء من الأرواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه؛ وقيل: يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها؛ وقيل: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة، وقيل: غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره، والأول أولى كما تفيد ما في قوله: ما يشاء من العموم مع تقدم نكر الكتاب في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ومع قوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «جفَّ القلم»، وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاها الله سبحانه؛ وقيل: إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿يُفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ قال: أولئك أصحاب محمد ﷺ فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصنّفوا به ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب يفرحون بذلك، ومنهم من يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن به ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ﴾ قال: الأحزاب الأمم اليهود والنصارى والمجوس. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿وَالِيهِ مَأْبُ﴾ قال: إليه مصير

القرطبي: وهذا القول بعيد، لأن مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان في أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى، وقيل: المراد من الآية خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وقيل: المراد بالآية هلاك من هلك من الأمم؛ وقيل: المراد نقص ثمرات الأرض؛ وقيل: المراد جور ولايتها حتى تنقص **﴿وَالله يحكم لا معقب لحكمه﴾** أي: يحكم ما يشاء في خلقه، فيرفع هذا ويضع هذا، ويحيي وهذا ويميت هذا، ويغني هذا ويفقر هذا، وقد حكم بعزة الإسلام وعلوه على الأديان، وجملة **﴿لا معقب لحكمه﴾** في محل نصب على الحال، وقيل: معترضة. والمعقب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله، وحقيقته الذي يقفيه بالرد والإبطال. قال الفراء: معناه لا راد لحكمه، قال: والمعقب الذي يتبع الشيء فيستدركه، ولا يستدرك أحد عليه، والمراد من الآية أنه لا يتعقب أحد حكم الله سبحانه بنقص ولا تغيير **﴿وهو سريع الحساب﴾** فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته على السرعة **﴿وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً﴾** أي: قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل فكابوهم وكفروا بهم، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا دين الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم، وأن المكر كله لله، فقال: **﴿فله المكر جميعاً﴾** لا اعتداد بمكر غيره، ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له بون غيره، فقال: **﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾** من خير وشر فيجازيها على ذلك، ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاء ما كان المكر كله له، لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون. وقال الواحدي: إن مكر الماكرين مخلوق فلا يضّر إلا بإرادته؛ وقيل: المعنى فله جزء مكر الماكرين **﴿وسيعلم للكافر لمن عقبي الدار﴾**. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (الكافر) بالإفراء، وقرأ الباقون (الكفار) بالجمع: أي: سيعلم جنس الكافر لمن العقابة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا، أو في الدار الآخرة، أو فيهما؛ وقيل المراد بالكافر، أبو جهل **﴿ويقول الذين كفروا لست مرسل﴾** أي: يقول المشركون أو جميع الكفار: لست يا محمد مرسل إلى الناس من الله، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: **﴿قل يا الله، فامر الله سبحانه بأن يجيب عليهم﴾** فقال: **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾** فهو يعلم صحة رسالتي، وصلى دعواتي، ويعلم كذبكم **﴿ومن عنده علم الكتاب﴾** أي: علم جنس الكتاب كالثورة والإنجيل، فإن أهلها العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول الله ﷺ، وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري ونحوهم، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم، فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك؛ وقيل: المراد بالكتاب القرآن ومن عنده علم منه هم المسلمون؛ وقيل: المراد من عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه،

قيس بن عباد قال: العاشر من رجب وهو يوم يمحو الله فيه ما يشاء. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عنه نحوه بأطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال وهو يطوف بالبيت: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فأجعله سعادة ومغفرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في المدخل عن ابن عباس في قوله: **﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾** قال: يبذل الله ما يشاء من القرآن فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبذله **﴿وعنده أم الكتاب﴾** يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب: الناسخ والمنسوخ، ما يبذل، وما يثبت كل ذلك في كتاب. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿وعنده أم الكتاب﴾** قال: الذكر. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن يسار، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً عن أم الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عالمون، فقال لعلمه: كن كتاباً، فكان كتاباً.

وَأَن مَّا تَدْعِيَهُمْ أَوْ تَرْتَدُّكَ فَإِنَّمَا عَيْتُكَ الْبَلْعُ وَعَيْنَا لِحِسَابٍ ﴿٣٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفَعُهَا نَافِعَاتٍ وَاللَّهُ بِحُكْمِ الْعَمَلِ عَاقِبُهُمْ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمَ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَن عَقِبَ الدَّارِ ﴿٣٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٣٣﴾

﴿وإما نرينكم﴾ ما زائدة وأصله: وإن نرك **﴿بعض الذي نعدهم﴾** من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا: **﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾** [الرعد: 34] ويقولنا: **﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾** [الرعد: 31]، والمراد أريناكم بعض ما نعدهم قبل موتك، أو توفيئك قبل إراءتك لذلك **﴿فإنما عليك البلاغ﴾** أي: فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم **﴿وعلى الحساب﴾** أي: محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وليس ذلك عليك، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به، وليس عليه غيره، وأن من لم يجب دعوته، ويصلق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك **﴿أولم يروا﴾** يعني أهل مكة، والاستفهام للإنكار أي: أولم ينظروا **﴿فإننا نأتي الأرض فنقصها من أطرافها﴾** أي: تأتي أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً. قال الزجاج: أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر، يقول: أولم يروا أننا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم، فكيف لا يعتبرون؟ وقيل: إن معنى الآية: موت العلماء والصالحاء. قال القشيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف، وقد قال ابن الأعرابي: الطرف الرجل الكريم. قال

واختار هذا الزجاج وقال: لأن الاشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره.

عنده علم للكتاب» يقول: ومن عند الله علم الكتاب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه عن سعيد بن جببر أنه سئل عن قوله: «ومن عنده علم للكتاب» أمو عبد الله بن سلام؟ قال: وكيف وهذه السورة مكية؟ وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال: ما نزل في عبد الله بن سلام شيء من القرآن. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر في قوله: «ومن عنده علم للكتاب» قال: جبريل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: هو الله.

تفسير سورة إبراهيم

وهي مكة كما أخرجه ابن مريويه عن ابن عباس، وأخرجه ابن مريويه أيضاً عن الزبير، وحكاه القرطبي عن الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد، وقتادة إلا آيتين منها، وقيل: إلا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسول الله ﷺ وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا إِلَى اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: 28 - 30]. وأخرج للتحفاس في ناسخه عن ابن عباس قال: هي مكة سوى الآيتين منها نزلتا بالمدينة، وهي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ الآيةين نزلتا في قلتي بدر من المشركين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْأَرْكَانَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحْجِبُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْهِنُونَ عَمَّا أُوتُوا لَكُمْ
فِي صَلَاحٍ بِمِيرٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُتَبَيَّنَ
لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَكِنَّ لَكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله: ﴿الر﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذا، وبيان قول من قال إنه متشابه، وبيان قول من قال إنه غير متشابه وهو إما مبتدأ خبره كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، ويكون ﴿كتاب﴾ خبراً لمحذوف مقدر أو خبراً ثانياً لهذا المبتدأ أو يكون ﴿الر﴾ مسروداً على نمط التعديد فلا محل له، و﴿أنزلناه إليك﴾ صفة لكتاب: أي أنزلنا الكتاب إليك يا محمد، ومعنى ﴿لتخرج للناس من الظلمات إلى النور﴾ لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية؛ جعل الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة، واللام في لتخرج للعرض والغاية، والتعريف في الناس للجنس، والمعنى: أنه

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: «**ننقصها من أطرافها**» قال: ذهب العلماء. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ونعيم بن حماد في الفتن، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: «**ننقصها من أطرافها**» قال: موت علمائها وفقهائها وذهب خيار أهلها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن مجاهد في تفسير الآية قال: موت العلماء. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: أولم يروا أننا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال: يعني أن نبي الله ﷺ كان ينتقص له ما حوله من الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون. وقال الله في سورة الأنبياء: «**نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون**» [الأنبياء: 44]. بل نبي الله وأصحابه هم الغالبون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: نقصان أهلها وبركتها. وأخرج ابن المنذر عنه قال: إنما تنقص الأنفس والثمرات وأما الأرض فلا تنقص. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد «**والله يحكم لا معقب لحكمه**» ليس أحد يتعقب حكمه فيردّه كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن فقال رسول الله ﷺ: «هل تجنني في الإنجيل؟ قال: لا، فانزل الله: **«قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»**» يقول عبد الله بن سلام. وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال: جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضائتي باب المسجد، ثم قال: أنشدكم بالله أتعلمون أنني الذي أنزلت في: **«ومن عنده علم الكتاب؟** قالوا: اللهم نعم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس **«ومن عنده علم الكتاب»** قال: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية قال: كان قوم من أهل الكتاب يشهون بالحق ويعرفونه، منهم عبد الله بن سلام، والجارود، وتميم الداري، وسلمان الفارسي. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن مردويه، وابن عدي بسنن ضعيف عن ابن عمر أن النبي ﷺ قرأ: **«ومن عنده علم الكتاب»** قال: ومن عند الله علم الكتاب. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ: **«ومن**

الصفات القبيحة والبعد وإن كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازاً لقصد المبالغة، ثم لما من على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول نكر من كمال تلك النعمة أن تلك المرسل بلسان قومه فقال: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾** أي: متلبساً بلسانهم متكلاً بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول، ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرًا طويلاً ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليهم فهم تلك بعض صعوبة، ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله: **﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾** أي: ليوضح لهم ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة. وقد قيل: في هذه الآية إشكال، لأن النبي ﷺ أرسل إلى الناس جميعاً بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة والسننهم مختلفة، وأجيب بأنه وإن كان ﷺ مرسلًا إلى الثقلين كما مر لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فهمهم إياه، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم، وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحاً لباب التنازع لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وربما كان ذلك أيضاً مفضياً إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون، وجملة **﴿فِيضِلُ اللَّهُ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ﴾** مستأنفة أي: يضل من يشاء وإضلاله ويهدي من يشاء هدايته. قال الفراء: إذا نكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه، فيكون معنى هذه الآية: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها، ومع ذلك فإن المضل والهادي هو الله عز وجل؛ والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله سبحانه واسطة وسبباً، وتقييم الإضلال على الهداية لأنه متقدم عليها، إذ هو إبقاء على الأصل، والهداية إنشاء ما لم يكن **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾** الذي لا يغالبه مغالب **﴿الْحَكِيمُ﴾** الذي يجري أفعاله على مقتضى الحكمة، ثم لما بين أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك، وخص موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية فقال: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾** أي: متلبساً بها، والمراد بالآيات: المعجزات التي لموسى، ومعنى **﴿أَنْ يُخْرِجَ﴾** أي: أخرج، لأن الإرسال فيه معنى القول، ويجوز أن يكون التقدير بأن أخرج، والمراد بقومه بنو إسرائيل بعد ملك فرعون **﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾** من الكفر أو من الجهل الذي قالوا بسببه: **﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾**

يخرج بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور؛ وقيل: إن الظلمة مستعارة للبدعة، والنور مستعار للسنّة؛ وقيل: من الشك إلى اليقين، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور، والباء في **﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** متعلقة بتخرج، وأسند الفعل إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والهادي والمنذر. قال الزجاج: بما أنن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان **﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾** هو بدل من إلى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً أي: لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد، وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها لعباده، وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها؛ ويجوز أن يكون مستأنفاً بتقدير سؤال كأنه قيل: ما هذا النور الذي أخرجهم إليه؟ فقيل: صراط العزيز الحميد، والعزيز هو القادر الغالب، والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد **﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو الله المتصف بملك ما في السموات وما في الأرض. وقرأ الجمهور بالجر على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة، فلا يصح وصف ما قبله به، لأن العلم لا يوصف به؛ وقيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى. وقال أبو عمرو: إن قراءة الجر محمولة على التقديم والتأخير، والتقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد. وكان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع، وإذا وصل خفض. قال ابن الأنباري: من خفض وقف على وما في الأرض. ثم ترد من لا يعترف ببروبيته فقال: **﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾** قد تقدم بيان معنى الويل، وأصله النصب كسائر المضار، ثم رفع للدلالة على الثبات. قال الزجاج: هي كلمة تقال للعذاب والهلكة، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهدية رسول الله ﷺ له بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان و**﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾** متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا فيه، ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله: **﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** أي: يؤثرونها لمحبتهم لها **﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾** الدائمة والنعيم الأبدى، وقيل: إن الموصول في موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين؛ وقيل: الموصول مبتدأ وخبره أولئك، وجملة **﴿وَيَصْنَوْنَ﴾** وكذلك ويبغون معطوفتان على يستحبون، ومعنى الصّد **﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** صرف الناس عنه ومنعهم منه، وسبيل الله دينه الذي شرعه لعباده **﴿وَيَبِغُونَهَا عِوَجًا﴾** أي: يطلبون لها زيفاً وميلاً لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم، والعوج بكسر العين في المعاني ويفتح العين في الأعيان وقد سبق تحقيقه. والأصل يبيغون لها فحذف الحرف وأوصل الفعل إلى الضمير، ولجتماع هذه الخصال نهاية الضلال، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال: **﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾** والإشارة إلى الموصوفين بتلك

لَايَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ قال: نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر، وإذا أعطي شكر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَكْفَرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَقُولُونَ أَنَسْأَلُكُمْ وَنَسْتَمِينُ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ١ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُوكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٢ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَاقٍ حَمِيدٌ ٣ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي آلِهِمْ مَتَكَبِّرِينَ ٤ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَمِنَ الَّذِينَ يَمُنُونَ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ٥ فَآتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ إِلَى اللَّهِ شَلْفَ فَأَطَاعَ السُّوءُونَ وَالْأَرْضَ يَدْعُوهُمْ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّدُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنُشِئَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّوا عَنْمَا كَاتِبَتِ يَدَاؤُنَا فَاتُّوْنَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ٦ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَنْشَأُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِآيَاتِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَعَلْتُمْ كَتْلَ الْغُلَامِوثِ ٧ وَمَا كُنَّا إِلَّا نُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَا بَدَعْتُمْ وَإِلَهُ فَعَلْتُمْ كَتْلَ الْغُلَامِوثِ ٨

قوله: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾** الظرف متعلق بمحذوف هو أنكر أي: أنكر وقت قول موسى و **﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ﴾** متعلق بانكروا أي: انكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه لكم من آل فرعون، أو بالنعمة، أو بمتعلق عليكم أي: مستقرة عليكم وقت إنجائه، وهو بدل اشتغال من النعمة مراداً بها الإنعام أو العطية **﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾** أي: يبغيونكم، يقال سامه ظملاً أي: أولاه ظملاً، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء وسوء العذاب: مصدر ساء يسوء، والمراد حبس العذاب السيء، وهو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة، وعطف **﴿يُنَبِّئُكُمْ بِنِجَاتِكُمْ﴾** على **﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾** وإن كان التذييل من جنس سوء العذاب إخراجاً له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة، ومع طرح الواو كما في الآية الأخرى يكون التذييل تفسيراً لسوء العذاب **﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾** أي: يتركونهن في الحياة لإهانتهم وإذلالهن **﴿وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ﴾** المنكور من أفعالهم **﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** أي: ابتلاء لكم، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة البقرة مستوفى **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾** تأذن بمعنى أنن قاله الفراء، قال في الكشف: ولا بد في فعل من زيادة معنى ليست في أفعال، كأنه قيل: وإذ أنن ربكم إيداناً بليغاً تنتفي عنه الشكوك وتزاح الشبه. والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: **﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾** أو أجرى تأذن مجرى قال، لأنه ضرب من القول. انتهى. وهذا من قول موسى لقومه، وهو معطوف على نعمة الله أي: انكروا نعمة الله عليكم وانكروا حين تأذن ربكم، وقيل: هو معطوف على قوله: **﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ﴾** أي: انكروا نعمة الله

[الأعراف: 138] **﴿إِلَى النُّورِ﴾** إلى الإيمان أو إلى العلم **﴿وَنُكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾** أي: بوقائعه. قال ابن السكيت: العرب تقول الأيام في معنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب أي: بوقائعها. وقال الزجاج: أي نكرهم بنعم الله عليهم وينقم أيام الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود. والمعنى: عظمه بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد **﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾** أي: في التنكير بأيام الله أو في نفس أيام الله **﴿لَايَاتٍ﴾** لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة **﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾** أي: كثير الصبر على المحن والمنح **﴿شَكُورٍ﴾** كثير الشكر للنعم التي أنعم الله بها عليه؛ وقيل: المراد بذلك كل مؤمن، وعبر عنه بالوصفين المذكورين لأنهما ملاك الإيمان، وقدم الصبار على الشكور، لكون الشكر عاقبة الصبر.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾** قال: من الضلالة إلى الهدى. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: **﴿يَسْتَحْيُونَ﴾** قال: يختارون. وأخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: إن الله فضل محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء، قيل: ما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء: **﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَيْسَ بِنَجْوِيهِ جَهَنَّمَ﴾** [الأنبياء: 29] وقال لمحمد: **﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾** [الفتح: 2] فكتب له براءة من النار؛ قيل: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله يقول: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رِسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾** [إبراهيم: 4] وقال لمحمد: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾** [سبأ: 28] فأرسله إلى الإنس والجن. وأخرج ابن مردويه عن عثمان بن عفان **﴿وَالْأَنْبِيَاءُ﴾** قال: نزل القرآن بلسان قريش. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير في قوله: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾** قال: بالآيات التسع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿أَنْ يُخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾** قال: من الضلالة إلى الهدى. وأخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله: **﴿وَنُكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾** قال: بنعم الله وآلائه. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس **﴿وَنُكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾** قال: نعم الله، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿وَنُكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾** قال: وعظمه. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال: بوقائع الله في القرون الأولى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿إِنْ فِي ذَلِكَ**

المقالة، وهي قولهم: ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أي: لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بالسنتنا هذه؛ وقيل: وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجباً كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه؛ وقيل: المعنى رثوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم، فالضمير الأول للرسل والثاني للكفار؛ وقيل: جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردّاً لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار والثاني للرسل؛ وقيل: معناه أومئوا إلى الرسل أن اسكتوا؛ وقيل: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم؛ وقيل: إن الأيدي هنا النعم أي: رثوا نعم الرسل بأفواههم أي: بالنطق والتكذيب، والمراد بالنعم هنا ما جاءهم به من الشرائع. وقال أبو عبيدة: ونعم ما قال: هو ضرب مثل أي: لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردّ يده في فيه. وهكذا قال الأخفش، واعترض ذلك القتيبي فقال: لم يسمع أحد من العرب يقول ردّ يده في فيه: إذا ترك ما أمر به، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حقاً وغيظاً، كقول الشاعر:

يرنّ في فيه غيظ الحسود حتى بعض علي الأكفا
وهذا هو القول الذي قئمناه على جميع هذه الأقوال، ومنه قول الشاعر:

لو أن سلمى أبصرت تجدي عضت من الوجد باطراف اليد
وهو أقرب التفسير للآية إن لم يصح عن العرب ما نكره أبو عبيدة والأخفش، فإن صح ما نكره فتنفسر الآية به أقرب ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أي قال الكفار للرسل: إنا كفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾ أي: في شك عظيم مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿مريب﴾ أي: موجب للريب. يقال: أربته إذا فعلت أمراً أوجب ريبة وشكاً، والريب قلق النفس وعدم سكونها. وقد قيل: كيف صرحوا بالكفر ثم أمرهم على الشك؟ وأجيب بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أننا نشك في صحة نبوتكم، ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم، وجملة ﴿قالت رسلهم في الله شك﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالت لهم الرسل؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: أقي وحدانيته سبحانه شك، وهي في غاية الوضوح والجلالة. ثم إن الرسل نكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه وحدانيته، فقالوا: ﴿فاطر للسفوات والأرض﴾ أي: خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدتهما بعد العدم ﴿يدعوكم﴾ إلى الإيمان به وتوحيده ﴿ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ قال أبو عبيدة: من زائدة، ووجه ذلك قوله في موضع آخر ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: 53] وقال سيبويه: هي للتبعيض، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع؛ وقيل: للتبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لامة

تعالى في هذين الوقتين، فإن هذا التائب أيضاً نعمة وقيل: هو من قول الله سبحانه أي: وانكر يا محمد إذ تائب ربكم. وقرأ ابن مسعود (وإن قال ربكم) والمعنى واحد كما تقدم، واللام في لئن شكرتم هي الموطئة للقسم، وقوله: ﴿لأزيدنكم﴾ ساء مسد جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في ﴿ولئن كفرتم﴾ وقوله: ﴿إن عذابي لشديد﴾ ساء مسد الجوابين أيضاً، والمعنى: لأن شكرتم إنعامي عليكم بما نكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلأ مني، وقيل: لأزيدنكم من طاعتي، وقيل: لأزيدنكم من الثواب، والأول أظهر فالشك سبب المزيد، ولئن كفرتم نلك وجحدتموه إن عذابي لشديد، فلا بد أن يصيبكم منه ما يصيب، وقيل: إن الجواب محذوف أي: ولئن كفرتم لأعذبكم، والمذكور تعليل للجواب المحذوف ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم في الأرض جميعاً﴾ أي: إن تكفروا نعمته تعالى أنتم وجميع الخلق ولم تشكروها ﴿فإن الله﴾ سبحانه ﴿بلغني﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بذلك نقص ﴿حميد﴾ أي: مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه، وإن لم تشكروه، أو يحمد غيركم من الملائكة ﴿ألم ياتكم نبا النبيين من قبلكم﴾ يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه، فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى وتذكيراً لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ومجيء رسل الله إليهم، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته، والنبأ: الخبر، والجمع الأنبياء، ومنه قول الشاعر:

ألم تاتيكم والانباء تنمي بما لاقت لبون بني زياد
و ﴿قوم نوح﴾ بدل من الموصول، أو عطف بيان ﴿وعاد وثمود والنين من بعدهم﴾ أي: من بعد هؤلاء المذكورين ﴿لا يعلمهم إلا الله﴾ أي: لا يحصي عددهم ويحيط بهم علماً إلا الله سبحانه، والموصول مبتداً وخبره لا يعلمهم إلا الله والجملة معترضة، أو يكون الموصول معطوفاً على ما قبله ولا يعلمهم إلا الله اعتراض، وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعاً إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم أي: هذه الأمور لا يعلمها إلا الله ولا يعلمها غيره، أو يكون راجعاً إلى نواتهم أي: لا يعلم نوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه وجملة ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ مستأنفة لبيان النبأ المذكور في ﴿ألم ياتكم نبا النبيين من قبلكم﴾ أي: جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة ﴿فقرئوا أيديهم في أفواههم﴾ أي جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كما في قوله تعالى: ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ [آل عمران: 119] لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم؛ وقيل: إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات أي: اسكتوا واركعوا هذا الذي جئتم به تكذيباً لهم ورداً لقولهم؛ وقيل: المعنى أنهم أشاروا إلى أنفسهم وما يصدر عنها من

عند الله من تلك، ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي. وأخرج أحمد، والبيهقي عن أنس قال: «أتى النبي ﷺ سائل فامر له بتمرة فلم يأخذها، وأتاه آخر فامر له بتمرة فقبلها وقال: ثمرة من رسول الله، فقال للجارية: اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها، وفي إسناد أحمد عمارة بن زاذان، وثقه أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وقال أحمد: روي عنه أحاديث منكورة. وقال أبو داود: ليس بذلك، وضعفه الدارقطني. وقال ابن عدي: لا بأس به. وأخرج البخاري في تاريخه، والضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة، وفيها: ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة». وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأغرّ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أعطيهن لم يمنع من الله أربعاً. وفيها: ومن أعطي الشكر لم يمنع الزيادة؟» ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيد جعل الزيادة جزاء للشكر، فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه، ومن شكر الله على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحة ونحو ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله» ويقول: كذب النسابون. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن عمرو بن ميمون مثله. وأخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب: أنا أنسب الناس، قال: إنك لا تنسب الناس، فقال بلى: فقال له علي: أرايت قوله: «وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً» [الفرقان: 38] قال: أنا أنسب ذلك الكثير، قال: أرايت قوله: «إلم ياتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله» فسكت. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عنان. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «فردوا أيديهم في أقواهم» قال: لما سمعوا كتاب الله عجيباً ورجعوا بأيديهم إلى أقواهم «وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب» يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عدنا فيه شكاً قوياً. وأخرج عبد الرزاق، والقرطبي، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود: فردوا أيديهم في أقواهم قال: عضوا عليها. وفي لفظ: على أناملهم غيظاً على رسولهم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعَذَّبَنَّ

محمد ﷺ غفران جميعها لغيرهم، وبهذه الآية احتج من جوز زيادة من في الإثبات؛ وقيل: من للبدل وليست بزيادة ولا تبعيضية أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب «ويؤخركم إلى أجل مسمى» أي: إلى وقت مسمى عنده سبحانه، وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا «قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا» أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا في الهيئة والصورة، تاكلون وتشربون كما ناكل ونشرب ولستم ملائكة «تريدون أن تصولوا» وصفوهم بالبشر أولاً، ثم بإرادة الصلّ لهم عما كان يعبد آبائهم ثانياً أي: تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها «فتولوا» إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله «بسلطان مبين» أي: بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدّعون، وقد جاؤهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة، ولكن هذا النوع من تعنتاتهم، ولون من تولّواهم «فالتفت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم» أي: ما نحن في الصورة والهيئة إلا بشر مثلكم كما قلتم «ولكن الله يمشي على من يشاء من عباده» أي: يتفضل على من يشاء منهم بالنبوة؛ وقيل: بالتوفيق والهداية «وما كان لنا أن نتاكم بسلطان» أي: ما صح ولا استقام لنا أن نتاكم بحجة من الحجج «إلا بإذن الله» أي: إلا بمشيئته وليس ذلك في قدرتنا. قيل: المراد بالسلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت، وقيل أعم من ذلك، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» أي: عليه وحده، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله نون من عداه، وكأن الرسل فصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أولاً، ولهذا قالوا: «وما لنا ألا نتوكل على الله» أي: وأبى عذر لنا في ألا نتوكل عليه سبحانه «وقد هدانا سبلاً» أي: والحال أنه قد فعل بنا ما يجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه «ولنصبرن» على ما آتيتهمونا بما يقع منكم من التكذيب لنا والافتراءات الباطلة «وعلى الله» وحده نون من عداه «فليتوكل المتوكلون» قيل: المراد بالتوكل الأول استعداده، وبهذا السعي في بقائه وثبوته؛ وقيل: معنى الأول إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا، فإن شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم يظهرها، ومعنى الثاني: إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: «وإذا تاذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم» قال: أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم. وأخرج ابن جرير عن الحسن «لأزيدنكم» قال: من طاعتي. وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن علي بن صالح مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في الآية قال: لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون

للفريقين ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ الجبار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة، والعنيد المعاند للحق والمجانِب له، وهو مأخوذ من العند، وهو الناحية أي: أخذ في ناحية معرضاً. قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلوني وسطاً إني كبير لا أطيق العندا
قال الزجاج: العنيد الذي يعدل عن القصد، وبمثله قال الهروي. وقال أبو عبيد: هو الذي عند وبغي، وقال ابن كيسان: هو الشامخ بأنفه؛ وقيل: المراد به العاصي؛ وقيل: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله؛ ومعنى الآية: أنه خسر وهلك من كان متصفاً بهذه الصفة ﴿من ورثه جهنم﴾ أي: من بعده جهنم، والمراد بعد هلاكه على أن وراءها هنا بمعنى بعد، ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريباً وليس وراء الله للمرء مذهب
أي: ليس بعد الله، ومثله قوله: ﴿وكان من ورثه عذاب غليظ﴾ أي: من بعده. كذا قال الفراء، وقيل: من ورثه أي: من أمامه. قال أبو عبيد: هو من أسماء الأضداد، لأن أحدهما يتقلب إلى الآخر، ومنه قول الشاعر:

ومن ورثك يوم أنت بالفه لا حاضر معجز عنه ولا بادي
وقال آخر:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والغلاة ورثايا
أي: أمامي، ومنه قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف: 79]. أي: أمامهم، ويقول أبي عبيدة هذا قال قطرب. وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورثك أي: سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أي: في طلبه. وقال النحاس: من ورثه أي: من أمامه، وليس من الأضداد، ولكنه من توارى أي: استتر فصارت جهنم من ورثه، لأنها لا ترى، وحكى مثله ابن الأنباري ﴿ويسقي من ماء صديد﴾ معطوف على مقرر جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل: فماذا يكون إن؟ قيل: يلقي فيها ويسقي، والصديد ما يسيل من جلود أهل النار واشتقاقه من الصد، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته، وهو دم مختلط بقيح، والصديد صفة لماء، وقيل: عطف بيان منه ﴿ويتجرعه﴾ في محل جر على أنه صفة لماء، أو في محل نصب على أنه حال؛ وقيل: هو استئناف مبني على سؤال، والتجرع التحسي أي: يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي: يبتله، يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغاً: إذا كان سهلاً، والمعنى: ولا يقارب إساغته، فكيف تكون الإساغة؟ بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة، ويشربه على هذه الحال أخرى؛ وقيل: إنه يسيغه بعد شدة إبطاء، كقوله: ﴿وما كانوا يفعلون﴾ [البقرة: 71] أي: يفعلون بعد إبطاء، كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿يصهر به ما في بطونهم﴾ [الحج: 20] ﴿ويتاتي الموت من كل مكان﴾ أي: تأتيه أسباب الموت من كل جهة من الجهات، أو من كل موضع من مواضع بدنه. وقال الأخفش: المراد بالموت هنا البلى التي تصيب الكافر في النار، سماها

ميتاً فأوحى إليهم أنهم لنهلكن الظالمين ﴿ولنجننكم الأرض من بعدهم﴾ ذلك لمن خاف مقابى وعاف وعيد ﴿واستغفروا وعاب كل جبار عنيد﴾ من ورثه جهنم وشق من مأو صديد ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورثه عذاب غليظ﴾ مثل الذين كفروا برؤسهم أعمالهم كرماء استندت به الريغ في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلل المبعد ﴿

قوله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ هؤلاء القائلون هم طائفة المتمردين عن إجابة الرسل، واللام في «لنخرجنكم» هي الموطئة للقسم أي: والله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا، لم يقتعوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعواهم إليه حتى اجترعوا عليهم بهذا، وخيروهم بين الخروج من أرضهم، أو العود في ملتهم الكفرية، وقد قيل: إن «أو» في «أو لتعودن» بمعنى حتى أو يعني: إلا أن تعودوا كما قاله بعض المفسرين، ورد بأنه لا حاجة إلى ذلك، بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأعراف. قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها؛ وقيل: إن الخطاب للرسل ولعن آمن بهم فقلب على اتباعهم ﴿فأوحى إليهم ربهم﴾ أي: إلى الرسل ﴿لنهلكن الظالمين﴾ أي قال لهم: لنهلكن الظالمين ﴿ولتسكننكم الأرض﴾ أي أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الإخراج أو العود، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ [الأعراف: 137]. وقال: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾ [الأحزاب: 27] وقرئ (ليهلكن) (وليسكننكم) بالتحية في الفعلين اعتباراً بقوله فأوحى، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين في مساكنهم ﴿لمن خاف مقامى﴾ أي: موقفي، وذلك يوم الحساب، فإنه موقف الله سبحانه، والمقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة، وقيل: إن المقام هنا مصدر بمعنى القيام أي: لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي له كقوله تعالى: ﴿أقم من قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: 33]. وقال الأخفش: ذلك لمن خاف مقامى أي: عذابي ﴿ووخاف وعيد﴾ أي: خاف وعيدي بالعذاب، وقيل: بالقرآن وزواجه، وقيل: هو نفس العذاب، والوعيد الاسم من الوعد ﴿واستفتحوا﴾ معطوف على أوحى، والمعنى: أنهم استنصروا بالله على أعدائهم، أو سألوا الله للقضاء بينهم، من الفتحة وهي الحكومة؛ ومن المعنى الأول قوله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ [الأنفال: 19] أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر؛ ومن المعنى الثاني قوله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ [الأعراف: 89] أي: احكم، والضمير في استفتحوا للرسل؛ وقيل: للكفار، وقيل:

أَيُّهُ ۖ وَأَذَلَّ الْكِبَرُ ۖ آمَنُوا وَآمَلُوا الْمَلَائِكَةَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٣١﴾

قوله: ﴿وَالَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا هي القلبية، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لأمته، أو الخطاب لكل من يصلح له. وقرأ حمزة والكسائي (خالق السموات) ومعنى بالحق: بالوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته. ثم بين كمال قدرته سبحانه واستغناءه عن كل واحد من خلقه فقال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فنعيم الموجودين ويوجد المعدومين ويهلك العصاة ويأتي بمن يطيعه من خلقه، والمقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الإنسان، ويحتمل أن يكون من نوع آخر ﴿وَمَا كَانَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، لأنه سبحانه قادر على كل شيء، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه، فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال: ﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرزوا من قبورهم يوم القيامة، والبروز: الظهور، والبراز المكان الواسع لظهوره، ومنه امرأة برزة أي: تظهر للرجال؛ فمعنى يبرزوا ظهوراً من قبورهم. وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني، وإنما قال: ويبرزوا لله مع كونه سبحانه علماً بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يبرزوا أو لم يبرزوا، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدونه ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي قال: الاتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: في الدنيا، فكذبنا الرسل وكفرونا بالله متابعة لكم، والتبع جمع تابع، أو مصدر وصف به للمبالغة أو على تقدير نوي تبع، قال الزجاج: جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة الله: إنا كنا لكم تبعاً جمع تابع مثل خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونٌ﴾ أي: دافعون عنا من عذاب الله من شيء، من الأولى للبيان، والثانية للتوبيخ أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله؛ يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى. وأغناه إذا أوصل إليه النفع ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أي: قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل كيف أجابوا؟ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه؛ وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها؛ وقيل: لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه ﴿سِوَا عَلَيْنَا لَازِعُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: مستو علينا الجزع والصبر، والهزمة وأم لتأكيد التسوية في قوله: ﴿سِوَا عَلَيْهِمْ أَنْزَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْزِرْهُمْ﴾ [البقرة: 6] ﴿وَمَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: من منجاة ومهرب من العذاب، يقال: حاص فلان عن كذا أي: فرّ وزاغ يحيص حيصاً

وحيصاً وحيصاناً، والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار، ويجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين، وإن كان الظاهر أنه كلام المستكبرين ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قَضَى الْأَمْرُ﴾ أي: قال للفريقين هذه المقالة، ومعنى لما قضى الأمر: لما دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار على ما يأتي بيانه في سورة مريم. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَوَعْدَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ﴾ أي: وعدتكم وعداً باطلاً، بأنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك. قال الفراء: وعد الحق هو من إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم: مسجد الجامع. وقال البصريون: وعيدكم وعد اليوم الحق ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُمْ فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي﴾ أي: إلا مجرد دعائي لكم إلى الفوضى والضلال بلا حجة ولا برهان، ودعوته إليهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه، بل الاستثناء منقطع أي: لكن دعوتكم فاستجبتم لي أي: فسارعت إلى إجابتي؛ وقيل: المراد بالسلطان هنا القهر أي: ما كان لي عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتي؛ وقيل هذا الاستثناء هو من باب:

تحية بينهم ضرب وجيع

مبالغة في نفية للسلطان عن نفسه كأنه قال: إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من السلطان، وليس منه قطعاً ﴿فَلَا تُلَومُونِي﴾ بما وقعت فيه بسبب وعدي لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد ﴿وَلَوْ مَوْعِدَ أَنْفُسِكُمْ﴾ باستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة، فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعاوي الزائفة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى، ولمارنه قطع ولا سيما ودعوتي هذه الباطلة وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وعد الحق ودعوته لكم إلى الدار السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس إلا على مخذول. وقريب من هذا من يقتدي بأراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله سبحانه، ولما في سنة رسوله ﷺ ويؤثرها على ما فيهما، فإنه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ولا دل عليه برهان، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتكبرين طريق الحق بسوء اختيارهم. اللهم غفر! ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرَخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي﴾ يقال: صرخ فلان إذا استغاث يصرخ صراخاً وصرخاً، واستصرخ بمعنى صرخ، والمصرخ المغيث، والمستصرخ المستغيث، يقال: استصرخني فأصرخته، والصريخ: صوت المستصرخ، والصريخ أيضاً: الصارخ وهو المغيث والمستغيث، وهو من أسماء الأضداد كما في الصحاح. قال ابن الأعرابي: الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث، ومعنى الآية: ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثي مما أنا فيه، وفيه إرشاد لهم إلى أن

الجمهور (أدخل) على البناء للمفعول، وقرأ الحسن (وأنخل) على الاستقبال والبناء للفاعل أي: وأنا أدخل الذين آمنوا، ثم نكر سبحانه خلودهم في الجنات وعدم انقطاع نعيمهم، ثم نكر أن ذلك بإنان ربهم أي: بتوقيفه ولطفه وهدايته، هذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة الحسن فيكون (بإنان ربهم) متعلقاً بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحية الملائكة في الجنة سلام بإنان ربهم، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة يونس.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قال: بخلق آخر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ قال: الاتباع **لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** قال: للقادة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا﴾ قال زيد بن أسلم: جزعوا مائة سنة، وصبروا مائة سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا الْآيَةُ﴾ قال: «يقول أهل النار: هلموا فلنصبر، فيصبرون خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هلموا فلنجزع، فيكوا خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا لِحْزُنُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِنٍ﴾. والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونَ عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: 47 - 48] وأخرج ابن المبارك في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عن عقبة بن عامر يرفعه، وذكر فيه حديث الشفاعة، ثم قال: «ويقول الكافر عند ذلك: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس فهو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظمهم بجهم، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَيْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾» الآية، وضعف السيوطي إسناده، ولعل سبب ذلك كون في إسناده رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن نجين الحجزى، عن عقبة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي﴾ قال: بناصري **إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ** قال: بطاعتكم إياي في الدنيا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي في هذه الآية قال: خطيبان يقومان يوم القيامة: إبليس، وعيسى، فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول: هذا القول يعني: المذكور في الآية، وأما عيسى فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكَنتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا

الشيطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه، فكيف يطمعون في إغاثة من هو محتاج إلى من يغيثه؟ ومما ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أمية بن أبي الصلت:

فلا تجزعوا إنني لكم غير مصرخ وليس لكم عندي غناء ولا نفر
و (مصرخي) بفتح الياء في قراءة الجمهور. وقرأ الأعمش وحمزة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين. قال الفراء: قراءة حمزة وهم منه، وقل من سلم عن خطأ، وقال الزجاج: هي قراءة ريثة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف يعني: ما نكرناه من أنه كسرهما على الأصل في التقاء الساكنين. وقال قطرب: هذه لغة بني يربوع يزيبون على ياء الإضافة ياء، وأنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر:

قلت لها يا تاء هل لك في قالته ما أنت بالمرضي
﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ لما كشف لهم القناع بأنه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئاً، ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر. صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة، وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكاً، ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أولاً أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعده الحق من الله سبحانه وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها؛ ثم أوضح لهم ثانياً بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، ولا ينفي على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره، ثم أوضح ثالثاً بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم رابعاً ما وقعوا فيه، ونفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل؛ ثم أوضح لهم خامساً بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاً ولا ينفع عنهم ضراً، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة؛ ثم صرح لهم سائساً بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب، وإذا كان جملة **﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** من تنمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذي خاطبهم به، فأنبت لهم الظلم، ثم نكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم، لا على قول من قال: إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن ما مصدرية في «ما أشركتمون» وقيل: يجوز أن تكون موصولة على معنى **إِنِّي كَفَرْتُ بِالَّذِي أَشْرَكْتُمُونِي** وهو الله عز وجل، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم **﴿وَأَدْخَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة. وقرأ

تطلقه حيناً وحيناً تراجع

قال النحاس: وهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت. وقد ورد الحين في بعض المواضع يراد به أكثر كقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: 1]. وقد تقدم بيان أقوال العلماء في الحين في سورة البقرة في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: 36]. وقال الزجاج: الحين الوقت طال أم قصر ﴿وَيُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد. ويدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قد تقدم تفسيرها؛ وقيل: هي الكافر نفسه، والكلمة الطيبة: المؤمن نفسه ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: كمثال شجرة خبيثة. قيل: هي شجرة الحنظل؛ وقيل: هي شجرة الثوم، وقيل: الكمأة؛ وقيل: الطحلبية؛ وقيل: هي الكشوث بالضم وآخره مثلثة، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض. قال الشاعر:

وهي كشوث فلا أصل ولا ثمر

وقرئ (ومثلاً كلمة) بالنصب عطفًا على كلمة طيبة ﴿وَلَجِئْتُ مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أي: استوصلت واقتلعت من أصلها، ومنه قول الشاعر:

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم

قال المؤرخ: أخذت جثتها وهي نفسها، والجثة: شخص الإنسان، يقال: جثه قلعه، واجثته: اقتلعه. ومعنى ﴿مَنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: أنه ليس لها أصل راسخ وعروق متمكنة من الأرض ﴿وَمَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: من استقرار على الأرض؛ وقيل: من ثبات على الأرض، كما أن الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه أصلاً، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل طيب ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ أي: بالحجة الواضحة، وهي الكلمة الطيبة المتقدمة نكرها، وقد ثبت في الصحيح أنها كلمة الشهادة «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وذلك إذا قعد المؤمن في قبره قال النبي ﷺ: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، وقيل: معنى تثبيت الله لهم هو أن يديموا على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

يثبت الله ما أتاكم من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا ومعنى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أنهم يستمرون على القول الثابت في الحياة الدنيا، قال جماعة: المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية القبر لأن الموتى في الدنيا حتى يبعثوا، ومعنى ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وقت الحساب. وقيل: المراد، بالحياة الدنيا وقت المسألة في القبر، وفي الآخرة: وقت المسألة يوم القيامة: والمراد أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا نك بالقول الثابت من دون تلعم ولا تردد ولا جهل، كما يقول: من لم يوفق لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم ولا عند

توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد [المائدة: 117]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا لَنَا بِمَصْرُخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمَصْرُخِي﴾ قال: ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ قال شركه: عبائته. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة ﴿وَمَا لَنَا بِمَصْرُخِكُمْ﴾ قال: ما أنا بمغيثكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿تَحْيِيَّتِهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قال: الملائكة يسلمون عليهم في الجنة.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٥﴾ تُوَفَّقُ أَكْلُهَا كُلَّ جَبِينٍ يَذُنُ رِيحًا وَيَرْيُبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٧﴾ يُمِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَعْمَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

لما نكر سبحانه مثل أعمال الكفار، وإنها كرماد اشتدت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين، وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، وتحية الملائكة لهم نكر تعالى ما هنا مثلاً للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإسلام أي: لا إله إلا الله، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير، وذكر مثلاً للكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر، فقال مخاطباً لرسول الله ﷺ، أو مخاطباً لمن يصلح للخطاب: ﴿وَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: اختار مثلاً وضعه في موضعه اللائق به، وانتصاب مثلاً على أنه مفعول ضرب وكلمة بدل منه، ويجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان لمثلاً، ويجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقرر أي: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وحكم بأنها مثلاً، ومحل كشجرة النصب على أنها صفة للكلمة، أو الرفع على تقدير مبتدأ أي: هي كشجرة، ويجوز أن تكون كلمة أول مفعولي ضرب، وأخرت عن المفعول الثاني، وهو مثلاً لئلا تبعد عن صفتها، والأول أولى، وكلمة وما بعدها تفسير للمثل، ثم وصف الشجرة بقوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: راسخ آمن من الانقلاب بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع في الهواء، ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿تُوَفَّقُ أَكْلُهَا كُلَّ جَبِينٍ﴾ كل وقت ﴿يَذُنُ رِيحًا﴾ بآرائته ومشيئته، قيل: وهي النخلة؛ وقيل غيرها. قيل: والمراد بكونها توّفت أكلها كل حين أي: كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف؛ وقيل: المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين؛ وقيل: كل غداة وعشية، وقيل: كل شهر؛ وقيل: كل ستة أشهر. قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الخبر عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي قول النابغة:

عبيد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الحين هنا سنة. وأخرج البيهقي عنه أيضاً قال: الحين قد يكون غدوة وعشية. وقد روي عن جماعة من السلف في هذا أقوال كثيرة. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». وأخرج ابن أبي شيبه، والبيهقي عن البراء بن عازب في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية قال: التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر فقالا: من ربك؟ فقال: ربي الله، قال: وما بينك؟ قال ديني الإسلام، قال: ومن نبيك؟ قال نبيي محمد ﷺ، فذلك التثبيت في الحياة الدنيا. وأخرج البيهقي عن ابن عباس نحوه. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن أبي سعيد في الآية قال: في الآخرة القبر، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: «قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية قال: هذا في القبر». وأخرج البيهقي من حديثها نحوه. وأخرج البزار عنها أيضاً قالت: «قلت: يا رسول الله تبثلى هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية»، وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره، وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته، وليس هذا موضع بسطها، وهي معروفة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَنَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآثَارِ ۖ فَهُمْ يَصَلُّونَهَا وَيُكْسِرُونَ الْقِرَارَ ۖ وَصَلُّوا وَلَهُ أُنَادَا يُصَلُّوا عَنْ سَيِّئِهِمْ قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِن مَّيْبَرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۖ قُلْ لِّمَا بَدَىٰ إِلَيْكُمْ أَنَا تُؤْتُوا بِقِيَمَةِ السَّالَةِ وَيُؤْتُوا مَنَّا رَزَقْتَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَنْقُلُ أَن يَأْتِي يَوْمَ لَا بَعْ يَبُوءُ وَلَا جَلَلٌ ۚ إِنَّهُ إِلَهُ الْإِنْسَانِ ۚ وَالْأَرْضُ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ ۖ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَسْأَلُوا اللَّهَ لَا تُحْصُوا إِنَّكَ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۚ﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، وهو تعجيب من حال الكفار حيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر أي: بدل شكرها الكفر بها، وذلك بتكذيبهم محمداً ﷺ حين بعثه الله منهم وأنعم عليهم به. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنهم كفار مكة وأن الآية نزلت فيهم، وقيل: نزلت في الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر، وقيل: نزلت في بطنيين من بطون قريش بني مخزوم وبني أمية؛ وقيل: نزلت في منتصرة العرب، وهم جيلة بن الأيهم وأصحابه، وفيه نظر، فإن جيلة وأصحابه لم يسلموا إلا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وقيل: إنها عامة في جميع المشركين؛ وقيل: المراد بتبديل نعمة الله

الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا. قيل: والمراد بالظالمين هنا الكفرة؛ وقيل كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة فإنه لا يثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي إلى الحق، ثم نكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان لا راد لحكمه، ولا يسأل عما يفعل. قال الفراء: أي لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل والإظهار في محل الإضمار في الموضعين لتربية المهابة كما قيل: والله أعلم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿وَأَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله ثابت في قلب المؤمن ﴿وَوُفِّرُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: الكافر ﴿وَلَجِثَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالِهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً. وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم. وأخرج الترمذي، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس قال: «أتى رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال: ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: هي النخلة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿مَالِهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ قال: هي الحنظلة». وروي موقوفاً على أنس، قال الترمذي: الموقوف أصح. وأخرج أحمد وابن مردويه، قال السيوطي بسند جيد عن عمر، عن النبي ﷺ في قوله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: «هي التي لا ينقص ورقها قال: هي النخلة». وأخرج البخاري وغيره من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن، قال: فوقع الناس في شجرة البوادي. ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». وفي لفظ للبخاري قال: «أخبروني عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ولا تؤتي أكلها كل حين»، فذكر نحوه. وفي لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون مات الشجرة الطيبة؟» ثم قال: هي النخلة»، وروي نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: كل ساعة بالليل والنهار والشتاء والصيف، وذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل والنهار والشتاء والصيف. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: يكون أخضر ثم يكون أصفر. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿كُلِّ حِينٍ﴾ قال: جذاذ النخل. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلِّ حِينٍ﴾ قال: تطعم في كل ستة أشهر. وأخرج أبو

على الظرف أي: وقت سرّ وقت علانية. قال الجمهور: السرّ ما خفي. والعلانية ما ظهر. وقيل: السرّ التطوُّع، والعلانية الفرض، وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّلَاتِ فَنَعْمًا مِثْلِي﴾ [البقرة: 271]. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ قال أبو عبيدة: البيع ما هنا الفداء والخلال المخالعة، وهو مصدر. قال الواحدي: هذا قول جميع أهل اللغة، وقال أبو عليّ الفارسي: يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة وبران وعلبة وعلاب، والمعنى: أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفترق المقتصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك، وليس هناك مخالعة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإتفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله ما داموا في الحياة الدنيا قاندين على إتفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة، فإنهم لا يقدرون على ذلك بل لا مال لهم إذ ذاك، فالجملة أعني: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ لتأكيد مضمون الأمر بالإتفاق مما رزقهم الله، ويمكن أن يكون فيها أيضاً تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة، وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون سبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الأخلاء، وقد تقدم في البقرة تفسير البيع والخلال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أبدعهما واخترعهما على غير مثال وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية. والاسم الشريف مبتدأ وما بعده خبره ﴿وَنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد بالسماء هنا جهة العلو، فإنه يخل في ذلك الفلك عند من قال: إن ابتداء المطر منه، ويخل فيه السحاب عند من قال: إن ابتداء المطر منها، وتدخل فيه الأسباب التي تثير السحاب كالرياح. وتذكير الماء هنا للمنوعية أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو ماء المطر ﴿فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي: أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقاً لبني آدم يعيشون به، و«من» في من الثمرات للبيان كقولك: أنفقت من الدرهم، وقيل: للتبويض لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم، ومنها ما ليس برزق لهم، وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ﴾ فجرت على إرائتكم واستعملتموها في مصالحكم. ولذا قال: ﴿لَتَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ كما تريدون وعلى ما تطلبون ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بأمر الله ومشيته، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْإِنْهَارَ﴾ أي: نللهما لكم بالركوب عليها والإجراء لها إلى حيث تريدون ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتتفقوا بهما وتستضيئوا بضوئهما. وانتصاب «دائبين» على الحال. والدُّوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية أي: دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره؛ وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله. والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ولا ينقطع سيرهما ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون إليه من أمور دنياكم. واللَّيْل لتسكنوا كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ رَحِمْتُمْ جَعَلْ

كُفْرًا أَنَّهُمْ لَمَّا كَفَرُوا سَلَبَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ فَصَارُوا مُتَبَكِّلِينَ بِهَا الْكُفْرَ ﴿وَوَلَّحُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي: أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار، وهي جهنم، والبوار الهلاك؛ وقيل هم قادة قريش أحلوا قومهم يوم بدر دار البوار أي: الهلاك وهو القتل الذي أصيبوا به، ومنه قول الشاعر:

فلم أر مثلهم أبطل حرب غداة الحرب إن خيف البوار

والأول أولى لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ فإنه عطف بيان لدار البوار، و﴿يُضِلُّونَهَا﴾ في محل نصب على الحال، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها ﴿وَيُضِلُّسَ لِلْقَارِ﴾ أي: بشس القرار قرارهم فيها، أو بشس المقر جهنم، فالمخصوص بالذم محذوف ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ إِنْهَادًا﴾ معطوف على وأحلوا أي: جعلوا الله شركاء في الربوبية، أو في التسمية وهي الأصنام. قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضلوا) بفتح الياء أي: ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله، وتكون اللام للعاقبة أي: ليتعقب جهلهم الله إنداداً ضلالهم، لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه، وحسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب، والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز. وقرأ الباقر بن بضم الياء ليقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله، فهذا هو الغرض من جعلهم الله إنداداً. ثم هذهم سبحانه، فقال لتبنيهم ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بما أنتم فيه من الشهوات، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مركبكم ومرجعكم إليها ليس إلا، ولما كان هذا حالهم، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهمالهم فيه لا يقلعون عنه، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرة مكان النهي قربانه إيضاحاً لما تكون عليه عاقبتهم، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار فلا بد لهم من تعاطي الأسباب المقتضية لذلك، فجملة ﴿فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ تعليل للأمر بالتمتع، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره، ويجوز أن تكون هذه الجملة جواباً لمحذوف دلّ عليه سياق الكلام، كأنه قيل: فإن دمت على ذلك فإن مصيركم إلى النار، والأول أولى والنظم القرآني عليه أدل، وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان: اصنع ما شئت من المخالفة، فإن مصيرك إلى السيف ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لما أمره بأن يقول للمبتكئين نعمة الله كفرأ الجاعلين له إنداداً ما قاله لهم أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم، وهي طائفة المؤمنين هذا القول، والمقول محذوف دلّ عليه المنكور أي: قل لعبادي اقيموا وأنفقوا ويطعموا وينفقوا، فجزم يقيموا على أنه جواب الأمر المحذوف، وكذلك ينفقوا، ذكر معنى هذا الفراء. وقال الزجاج: إنَّ يقيموا مجزوم بمعنى اللام أي: ليقيموا فأسقطت اللام، ثم ذكر وجهاً آخر للجزم مثل ما ذكره الفراء. وانتصاب سرّاً وعلانية، إما على الحال أي: مسرين ومعلنين، أو على المصدر أي: إتفاق سرّاً وإتفاق علانية، أو

ومعنى تهوي إليهم: تنزع إليهم، يقال: هوى نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوي هويًا فهي هاية: إذا عدت عدوًا شديدًا كأنها تهوي في بئر، ويحتمل أن يكون المعنى: تهيء إليهم أو تسرع إليهم، والمعنى متقارب ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أرزق نريتي الذين أسكنتهم هناك أو هم ومن يسكنهم من الناس من أنواع الثمرات التي تنبت فيه، أو تجلب إليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمك التي أنعمت بها عليهم ﴿وَرَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفَىٰ وَمَا نَعْلَنُ﴾ أي: ما نكتمه وما نظهره، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سياتر. قيل والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن، فالمعنى ما نظهره وما لا نظهره، وقَدَّم ما نخفي على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه. وظاهر النظم القرآني عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك؛ وقيل المراد ما يخفيه إبراهيم من وجهه بإسماعيل وأمه حيث أسكنهما بؤاب غير ذي زرع، وما يعلنه من ذلك؛ وقيل: ما يخفيه إبراهيم من الوجد ويعلمه من البكاء والدعاء، والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، فكان المعنى: أن الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهره. وأما قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فقال جمهور المفسرين: هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد وما يعلنونه، فقال سبحانه: وما يخفي على الله شيء من الأشياء الموجودة كائنًا ما كان، وإنما ذكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد، ولأفعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية. قيل: ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقاً لقوله الأول، وتعميماً بعد التخصيص، ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَىٰ الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي: وهب لي على كبر سني وسنّ أمراتي، قيل: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة، قيل: و «على» هنا بمعنى مع أي: وهو لي مع كبري وبأسي عن الولد ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: لمجيء الدعاء من قولهم سمع كلامه: إذا أجابه واعتد به وعمل بمقتضاه، وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول؛ والمعنى: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك. ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها، ثم قال: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعض نريتي أي: اجعلني واجعل بعض نريتي مقيمين للصلاة، وإنما خص البعض من ذريته، لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغي. قال الزجاج: أي اجعل من ذُرِّيَّتِي من يقيم الصلاة، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أولياً. قيل: والمراد بالدعاء هنا العبادة، فيكون المعنى: وتقبل عبادتي

أي: ذا أمن، وقَدَّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده، لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في البقرة عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: 126] والفرق بين ما هنا وما هناك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد، والمطلوب هناك البلدية والأمن ﴿وَلَجُنُبِيَّ وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، يقال: جنبته كذا وأجنبته وجنبته أي: باعدته عنه، والمعنى: باعدني، وابعِدْ بَنِيَّ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، قيل: أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، وقيل: أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه، وقيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً، والصنم هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبدونه. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر (وأجنبني) بقطع الهمزة على أن أصله أجنب ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل، لأنها سبب لضلالهم فكانها أضلّتهم، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ أي: من تبع ديني من الناس فصار مسلماً موحداً ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني جعل أهل ملته كنفسه مبالغة ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فلم يتتابعني ويدخل في ملتي ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قادر على أن تغفر له، قيل: قال هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به كما وقع منه الاستغفار لآبيه وهو مشرك، كذا قال ابن الأنباري، وقيل: المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك، وقيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك، ثم قال: ﴿وَرَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال الفراء: من للتبعيض أي: بعض ذُرِّيَّتِي. وقال ابن الأنباري: إنها زائدة أي: أسكنت ذُرِّيَّتِي، والأول أولى، لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعض ولده ﴿بُؤَابَ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي: لا زرع فيه، وهو وادي مكة ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي: الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره؛ وقيل: إنه محَرَّم على الجبابرة، وقيل: محرم من أن تنتهك حرمة، أو يستخف به. وقد تقدم في سورة المائدة ما يغني عن الإعادة، ثم قال: ﴿وَرَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام متعلقة بأسكنت أي: أسكنتهم ليقيموا الصلاة فيه، متوجهين إليه، متبركين به، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها، ولعل تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة ﴿فَاجْعَلْ أَفْتَدَىٰ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الأفتدة جمع فؤاد، وهو القلب، عبر به عن جميع البدن، لأنه أشرف عضو فيه. وقيل: هو جمع وفد والأصل أوفدة ففقدت الفاء، وقلبت الواو ياء، فكانت قال: وجعل وفوداً من الناس تهوي إليهم، و «من» في من الناس للتبعيض؛ وقيل: زائدة، ولا يلزم منه أن يحج اليهود والنصارى بدخولهم تحت لفظ الناس، لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم والجلب إليهم لا توجيهها إلى الحج، ولو كان هذا مراداً لقال تهوي إليه، وقيل: من للابتداء كقولك: القلب مني سقيم، يريد قلبي،

عليه فارس والروم. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحكم قال: سألت عكرمة وطاساً وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية: ﴿فاجعل أئمة من الناس تهوي إليهم﴾ فقالوا البيت تهوي إليه قلوبهم يأتونه، وفي لفظ قالوا: هوامهم إلى مكة أن يحجوا. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿تهوي إليهم﴾ قال: تنزع إليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم الطائفي: أن إبراهيم لما دعا للحرم ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ نقل الله الطائف من فلسطين. وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري قال: إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في شعب الإيمان قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس قالوا: لو كان إبراهيم عليه السلام قال فاجعل أئمة من الناس تهوي إليهم لحج اليهود والنصارى والناس كلهم، ولكنه قال أئمة من الناس فخص به المؤمنين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وما نخفي وما نعلن﴾ قال: من الحزن. وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي﴾ قال: من حب إسماعيل وأمه ﴿وما نعلن﴾ قال: ما نظهر لسائر من الجفاء لهما. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ قال: هذا بعد ذلك حين. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: بشر إبراهيم بعد سبع عشرة سنة ومائة سنة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا تَعْمَلُ الْفَالِغُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأُمُورُ ﴿١٤﴾ مُطِيعَتِ مَنِيِّ رُؤُسِهِمْ لَا يَزِيدُ الْإِنَّمَاءَ لِرُؤُسِهِمْ وَأَعْدَدَهُمْ هَوَاءَ ﴿١٥﴾ وَأَذِيرُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ يُأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ أَجْلِ قَبْرِ جِبْرِ دَعْوَتِكَ وَتَسْجِ الْأَرْضِ أَوَّلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿١٦﴾ وَكُنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿ولا تحسبن﴾ خطاب للنبي ﷺ. وهو تعريض لأمته، فكأنه قال: ولا تحسب أمك يا محمد، ويجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له من المكلفين، وإن كان الخطاب للنبي ﷺ من غير تعريض لأمته فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ [الأنعام: 14] ونحوه، وقيل: المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم؛ أو يكون المراد بالنهي عن الحسبان الإيذان بأنه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله سبحانه في إمهال العصاة ﴿إنما

التي أعيدك بها، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه مما يستحق أن يغفره الله وإن لم يكن كبيراً لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه. وقد قيل: إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه كما في قوله سبحانه: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ [التوبة: 114]. وقيل: كانت أمه مسلمة، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء. وقرأ سعيد بن جبيرة (ولوالدي) بالتوحيد على إرادة الأب وحده. وقرأ إبراهيم النخعي (ولولدي) يعني: إسماعيل وإسحاق. وكذا قرأ يحيى بن يعمر، ثم استغفر للمؤمنين. وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم، وقيل: أراد المؤمنين من ذريته فقط ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي: يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر، استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقته في قيام الرجل للدلالة على أنه في غاية الاستقامة؛ وقيل: إن المعنى يوم يقوم الناس للحساب، والأول أولى.

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وإذا قال إبراهيم﴾ الآية قال: فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، واستجاب الله له، وجعل هذا البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وتقبل دعاءه فأراه مناسكه وتاب عليه. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن عقيل بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ لما أتاه الستة نفر من الأنصار جلس إليهم عند جمره العقبة، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والمواظرة على دينه، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحى إليه، فقرأ من سورة إبراهيم: ﴿وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ إلى آخر السورة، ففرق القوم واختبوا حين سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه». وأخرج الواقدي، وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال: كانت سارة تحت إبراهيم، فمكثت تحته دهرأ لا ترزق منه ولداً، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية، فولدت له إسماعيل، فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أطراف، فقال لها إبراهيم: هل لك أن تبري يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: انقبي أنثيين واخفضيهما، والخفض: هو الختان، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في أنثيين قريتين فازدادت بهما حسناً، فقالت سارة: أراني إنما زنتها جمالاً فلم تقارّه على كونه معها ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً، فنقلها إلى مكة فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إني أسكنت من ذريتي﴾ قال: أسكن إسماعيل وأمه مكة. وأخرج ابن المنذر عنه قال: إن إبراهيم حين قال: ﴿فاجعل أئمة من الناس تهوي إليهم﴾ لو قال أئمة الناس تهوي إليهم لازدحمت

العذاب، وإنما اقتصر على نكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب، لأن المقام مقام تهديد؛ وقيل: المراد به يوم موتهم، فإنه أول أوقات إتيان العذاب؛ وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، وانتصاب يوم على أنه مفعول ثانٍ لأنذر **﴿فيقول الذين ظلّموا ربنا لخربنا إلى أجل قريب﴾** المراد بالذين ظلّموا ها هنا هم الناس أي: فيقولون، والعدول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار. وعلى تقدير كون المراد بهم من يعمّ المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلّموا منهم وهم الكفار ربنا أخرنا أمهلنا إلى أجل قريب إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد **﴿نجب دعوتك﴾** أي: دعوتك لعبالك على السن أنبيائك إلى توحيدك **﴿ونتبع الرسل﴾** المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، ونتدارك ما فرط منا من الإهمال، وإنما جمع الرسل، لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة، فاتّباع واحد منهم اتّباع لجميعهم، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة **﴿ولو ربّوا لعبادوا لما نهوا عنه﴾** [الأنعام: 28] ثم حكي سبحانه ما يجب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة، فقال: **﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾** أي: فيقال لهم هذا القول توبيخاً وتقريباً أي: أولم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم مالكم من زوال من دار الدنيا؛ وقيل: إنه لا قسم منهم حقيقة، وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات وإخلاصهم إلى الحياة الدنيا؛ وقيل: قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله: **﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾** [النحل: 38]، وجواب القسم **﴿مالكم من زوال﴾** وإنما جاء بلفظ الخطاب في مالكم من زوال لمراعاة أقسمتم ولولا ذلك لقال: مالنا من زوال **﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلّموا أنفسهم﴾** أي: استقررتهم. يقال: سكن الدار وسكن فيها، وهي بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلّموا أنفسهم بالكفر بالله والعصيان له **﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾** قرأ عبد الرحمن السلمي (نبيين) بالنون والفعل المضارع. وقرأ من عداه بالتاء الفوقية والفعل الماضي أي: تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب، وفاعل تبين ما دلت عليه الجملة المذكورة بعده أي: تبين لكم فعلنا العجيب بهم **﴿ووضينا لكم الأمثال﴾** في كتب الله وعلى السن رسله إيضاحاً لكم وتقريراً وتكميلاً للحجة عليكم **﴿وقد مكروا مكرمهم﴾** الجملة في محل نصب على الحال أي: فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في ردّ الحق وإثبات الباطل مكرمهم العظيم، الذي استغفروا فيه وسعهم **﴿وعند الله مكرمهم﴾** أي: وعند الله جزاء مكرمهم، أو وعند الله مكتوب مكرمهم فهو مجازيهم، أو وعند الله مكرمهم الذي يمكّهم به على أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول؛ قيل: والمراد بهم قوم محمد ﷺ مكروا بالنبي ﷺ حين هموا بقتله أو نفيه، وقيل: المراد ما

يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: يؤخر جزاءهم ولا يؤأخذهم بظلمهم. وهذه الجملة تعليل للنهي السابق. وقرأ الحسن والسلمي وهو رواية عن أبي عمرو بالنون في نؤخرهم. وقرأ الباقون بالتحية. واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: **﴿ولا تحسبن الله﴾** ومعنى **﴿ليوم تشخص فيه الأبصار﴾** أي: ترفع فيه أبصار أهل الموقف، ولا تخمض من هول ما تراه في ذلك اليوم، هكذا قال الفراء. يقال: شخص الرجل بصره وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى، والمراد أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة **﴿مهطعين﴾** أي: مسرعين من أطمع يهطع إهمطاعاً: إذا أسرع؛ وقيل: المهطع الذي ينظر في ذلّ وخشوع. ومنه:

بسجلة دارهم ولقد أراهم بسجلة مهطعين إلى السماء وقيل: المهطع الذي يديم النظر. قال أبو عبيدة: قد يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر؛ وقيل: المهطع الذي لا يرفع رأسه. وقال ثعلب: المهطع الذي ينظر في ذلّ وخشوع؛ وقيل: هو الساكث. قال النحاس: والمعروف في اللغة أطمع: إذا أسرع **﴿مقنعي رؤوسهم﴾** أي: رافعي رؤوسهم، وإقناع الرأس: رفعه، وأقنع صوته: إذا رفعه، والمعنى: أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع وذلل ولا ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: إن إقناع الرأس نكسه؛ وقيل: يقال أقنع: إذا رفع رأسه، وأقنع: إذا طأطأ نلّة وخضوعاً، والآية محتملة للوجهين. قال المبرد: والقول الأول أعرف في اللغة. قال الشاعر:

أنفخ نحوي رأسه وأقنعا كأنما أبصر شيئاً أطمعا
﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم، وأصل الطرف: تحريك الأجفان، وسميت العين طرفاً لأنه يكون بها، ومن إطلاق الطرف على العين قول عنتر:

وأغض طرفي ما ببت لي جازتي حتى ثواري جازتي ما واهما
﴿واقئنهم هواء﴾ الهواء في اللغة: المجرف الخالي الذي لم تشغله الأجرام. والمعنى: أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوى مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء أي: لا رأي فيه ولا قوة؛ وقيل: معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر؛ وقيل: المعنى إن اقئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير؛ وقيل: المعنى واقئنهم ذات هواء. ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: **﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾** [القصص: 10]، أي: خالياً من كل شيء إلا من هم موسى **﴿وانذر الناس﴾** هذا رجوع إلى خطاب رسول الله ﷺ، وأمره الله سبحانه بأن ينذر الناس، والمراد الناس على العموم؛ وقيل: المراد كفار مكة؛ وقيل: الكفار على العموم. والأول أولى لأن الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضاً للمسلم. ومنه قوله تعالى: **﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾** [يس: 11]. ومعنى **﴿يوم يأتهم العذاب﴾** يوم القيامة أي: خوفهم هذا اليوم، وهو يوم إتيان

قوله: ﴿مَالِكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ قال: بعث بعد الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن في قوله: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قال: عملتم بمثل أعمالهم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ﴾ يقول: ما كان مكرهم ﴿لِتَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ﴾ يقول: شكرهم كقوله: ﴿تَكَادَ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدَأً﴾ [مريم: 90]. وأخرج عبد بن حميد، ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري عن علي بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ ثم فسرها فقال: إن جباراً من الجبابرة قال: لا أنتهي حتى أنظر إلى ما في السماء، فامر بفراخ النسر لتغلف اللحم حتى شبت وغلظت، وأمر بتابوت فنجر يسع رجلين، ثم جعل في وسطه خشبة، ثم ربط أرجلهم بأوتاد، ثم جوعهم، ثم جعل على رأس الخشبة لحماً، ثم دخل هو وصاحبه في التابوت، ثم ربطهم إلى قوائم التابوت، ثم خلى عنهم يردن اللحم، فذهبن به ما شاء الله، ثم قال لصاحبه: افتح فانظر ماذا ترى، ففتح فقال: انظر إلى الجبال كأنها الذباب، قال: أغلق فأغلق، فطرن به ما شاء الله، ثم قال: افتح ففتح، فقال: انظر ماذا ترى، فقال: ما أرى إلا السماء وما أراها تزداد إلا بعداً، قال: صوب الخشبة فصوبها فانقضت تريد اللحم، فسمع الجبال هتفتها فكانت تنزل عن مراتبها. وقد روي نحو هذه القصة لبيختنصر وللمنموذ من طرق ذكرها في الدر المنثور.

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدَهُ. رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٧﴾ يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ عَرْضَ الْأَرْضِ وَأَكْسَحُوتَ وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ الرَّزِيقَ الْقَهَّارِ ﴿٨﴾ وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ ظُنُرَانِ وَيَتَسَوَّىٰ وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿١٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ. وَلَعَلَّهُمْ أَنَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ ﴿١٢﴾

﴿مخلف﴾ منتصب على أنه مفعول تحسبن، وانتصاب رسله على أنه مفعول وعده، قيل: وذلك على الاتساع، والمعنى: مخلف رسله وعده، قال القتيبي: هو من المقدم الذي يوضحه التأخير. والمؤخر الذي يوضحه التقديم وسواء في ذلك مخلف وعده رسله ومخلف رسله وعده، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

ترى الثور فيها مغلّ ظلّ رأسه وسائر بهاد إلى الشمس أجمع
وقال الزمخشري: قدّم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 9 - الرعد: 31]. ثم قال رسله ليؤنن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً، وليس من شأنه إخلاف المواعيد، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته. والمراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51] و ﴿كُتِبَ اللَّهُ

وقع من النمروذ حيث حاول الصعود إلى السماء، فاتخذ لنفسه تابوتاً وربط قوائمها بأربعة نسور ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ قرأ عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي (وإن كاد مكرهم) بالدال المهملة مكان النون. وقرأ غيرهم من القراء (وإن كان) بالنون. وقرأ ابن محيص، وابن جريج، والكسائي (لتنزل) بفتح اللام على أنها لام الابتداء. وقرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود. قال ابن جرير: الاختيار هذه القراءة، يعني: قراءة الجمهور لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة، فعلى قراءة الكسائي ومن معه تكون إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشنته، أي: وإن الشأن كان مكرهم معداً لذلك. قال الزجاج: وإن كان مكرهم يبلغ في الكيد إلى إزالة الجبال، فإن الله ينصر دينه؛ وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين: أحدهما أن تكون إن هي المخففة من الثقيلة، والمعنى كما مر. والثاني أن تكون نافية واللام المكسورة لتأكيد النفي كقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143] والمعنى: ومحال أن تنزل الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر، فالجملة على هذا حال من الضمير في مكروا لا من قوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ﴾ أي: والحال أن مكرهم لم يكن لتنزل منه الجبال.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي في مساري الأخلاق عن ميمون بن مهران في قوله: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ قال: شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتد إليهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال: يعني بالإمطاع النظر من غير أن يطرف ﴿مَقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ﴾ قال: الإقناع رفع رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ قال: شاخته أبصارهم ﴿وَوَافِقْتُهُمْ هَوَاءً﴾ ليس فيها شيء من الخير، فهي كالخربة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد مهطعين قال: ميممي النظر. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة مهطعين قال: مسرعين. وأخرج هؤلاء عن قتادة في قوله: ﴿وَوَافِقْتُهُمْ هَوَاءً﴾ قال: ليس فيها شيء، خرجت من صدورهم فنشبت في حلوهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مرة ووافقتهم هواء قال: منخرقة لا تعي شيئاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَنُنَادِرُ النَّاسِ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يقول: أنذرهم في الدنيا من قبل أن يأتيهم العذاب. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ هو يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿مَالِكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ قال: عما أنتم فيه إلى ما تقولون. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في

نصب على الحال **﴿وتغشى وجوههم النار﴾** أي: تعلق وجوههم وتضر بها؛ وخص الوجوه لأنها أشرف ما في البدن، وفيها الحواس المدركة، والجملة في محل نصب على الحال أيضاً، و **﴿ليجزى الله﴾** متعلق بمحذوف أي: يفعل ذلك بهم ليجزي **﴿كل نفس ما كسبت﴾** من المعاصي أي: جزاء موافقاً لما كسبت من خير أو شر **﴿إن الله سريع الحساب﴾** لا يشغله عنه شيء. وقد تقدم تفسيره **﴿هذا بلاغ﴾** أي: هذا الذي أنزل إليك بلاغ أي: تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير. قيل إن الإشارة إلى ما ذكره سبحانه هنا من قوله: **﴿ولا تحسبن الله غافلاً﴾** إلى **﴿سريع الحساب﴾** [إبراهيم: 42 - 51] أي: هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة وقيل: الإشارة إلى جميع السورة، وقيل: إلى القرآن، ومعنى **﴿للناس﴾** للكفار، أو لجميع الناس على ما قيل في قوله: **﴿وانذر الناس﴾** [إبراهيم: 44]، **﴿ولينذروا به﴾** معطوف على محذوف أي: لينصحووا ولينذروا به، والمعنى: وليخوفوا به، وقرئ (ولينذروا) بفتح الياء التحتية والذال المعجمة، يقال: نذرت بالشيء أنذر: إذا علمت به فاستعدت له **﴿وليعلموا إنما هو إله واحد﴾** أي: ليعلموا بالآلة التوكينية المذكورة سابقاً وحدانية الله سبحانه، وأنه لا شريك له **﴿ولينذكر أولوا الألباب﴾** أي: وليتعض أصحاب العقول، وهذه الالامات متعلقة بمحذوف، والتقدير: وكذلك أنزلنا، أو متعلقة بالبلاغ المذكور أي: كفاية لهم في أن ينصحووا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه وأنه لا شريك له، وليتعض بذلك أصحاب العقول التي تعقل وتذكر.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿إن الله عزيز ذو انتقام﴾** قال: عزيز والله في أمره، يملئ وكيدته متين، ثم إذا انتقم انتقم بقدرته. وأخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال: «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: في الظلمة دون الجسر». وأخرج مسلم أيضاً وغيره من حديث عائشة، قالت: «أنا أول من سال رسول الله ﷺ عن هذه الآية **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قلت: أين الناس يومئذ؟ قال: على الصراط». وأخرج البزار، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «في قول الله **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال: «أرض بيضاء، كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام، ولم يعمل بها خطيئة». وأخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شعبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عنه موقوفاً نحوه، قال البيهقي: الموقوف أصح. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: «أتى اليهود النبي ﷺ فقال: جاءوني يسألونني وسأخبرهم قبل أن يسألوني **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال:

لأغلبن أنا ورسلي» [المجالة: 21]. وقرئ (مخلف وعده رسله) بجرّ رسله ونصب وعده. قال الزمخشري: وهذه القراءة في الضعف كمن قرأ: قتل أولادهم شركائهم **﴿إن الله عزيز﴾** غالب لا يغالبه أحد **﴿ذو انتقام﴾** ينتقم من أعدائه لأولياته والجملة تعليل للنهي، وقد مرّ تفسيره في أول آل عمران **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾** قال الزجاج: انتصاب يوم على البديل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام. انتهى. ويجوز أن ينتصب بمقدّر يدل عليه الكلام أي: وانكروا أو ارتقبوا، والتبديل قد يكون في الذات كما في بئلت الدراهم بدنانير، وقد يكون في الصفات كما في بئلت الحلقة خاتماً، والآية تحتمل الأمرين، وقد قيل: المراد تغير صفاتها، وبه قال الأكثر، وقيل تغير ذاتها، ومعنى **﴿والسفوات﴾** أي: وتبدل السموات غير السموات على الاختلاف الذي مرّ **﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾** أي: برزوا للعباد الله أو الظالمون كما يفيد السياق أي: ظهروا من قبورهم، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتُمونه، والتعبير على المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله: **﴿ونفخ في الصور﴾** [الكهف: 99 - يس: 51] والواحد القهار المتفرد بالآلوهية الكثير القهر لمن عانده **﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد﴾** معطوف على برزوا أو على تبدل، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة، والمجرمون هم المشركون، ويومئذ يعني: يوم القيامة، و **﴿مقرنين﴾** أي: مشدودين إما بجعل بعضهم مقروناً مع بعض، أو قرنوا مع الشياطين كما في قوله: **﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾** [الزخرف: 36] أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم، والأصفاد: الأغلال، والقيود، والجار والمجرور متعلق بمقرنين أو حال من ضميره، يقال: صفنته صفداً أي: قيدته، والاسم الصفد، فإذا أريت الكثير قلت صفنته. قال عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهب وبالسبيل
وقال حسان بن ثابت:

من بين مأسور يشدّ صفاده
ويقال: صفنته وأصفنته إذا أعطيته، ومنه قول النابغة:

ولم أعرض أبيت للعن بالصفد

﴿سراييلهم من قطران﴾ السراييل: القمص، وأحدها سربال، ومنه قول كعب بن مالك:

تلغكم عصب حول النبيّ لهم
من نسج داود في الهيجا سراييل
والقطران: هو قطران الإبل الذي تهنا به أي: قمصانهم من قطران تطلّى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسراييل؛ وخصّ القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته. وقال جماعة هو النحاس أي: قمصانهم من نحاس. وقرأ عيسى بن عمر (من قطران) بفتح القاف وتسكين الطاء. وقرئ بكسر القاف وسكون الطاء، وقرئ بفتح القاف والطاء، رويت هذه القراءة عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ويعقوب، وهذه الجملة في محل

سُحِّحَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنْتَهِمُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٩﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُحُقَاتُ أُبْحُرٍ لَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿الرَّحْمَةُ﴾ قد تقدم الكلام في محله مستوفي، والإشارة بقوله: ﴿تلك﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات والتعريف في الكتاب. قيل: هو للجنس، والمراد جنس الكتب المتقدمة؛ وقيل: المراد به القرآن، ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب، فقد قيل: إنه جمع له بين الإسمين، وقيل: المراد بالكتاب هذه السورة، وتنكير القرآن للتفخيم أي: القرآن الكامل ﴿ربما يؤذ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ قرأ نافع وعاصم بتخفيف البناء من ربما. وقرأ الباقون بتشديدها، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهل الحجاز يخفون، ومنه قول الشاعر:

ربما ضربت سيف صقيل بين بصرى وطعنة نجلاء
وتميم وربيعا يثقلونها. وقد تزايد التاء فوقية، وأصلها أن تستعمل في القليل. وقد تستعمل في الكثير. قال الكوفيون: أي يؤذ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين. ومنه قول الشاعر:

رب رفد هرقته ذلك السيوف وأسرى من معشر أقيال
وقيل: هي هنا للتقليل لأنهم ودوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب. قيل: وما هنا لحقت رب لتتهيئتها للدخول على الفعل؛ وقيل: هي نكرة بمعنى شيء، وإنما نخلت رب هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضي، لأن المترقب في أخباره سبحانه كالواقع المتحقق، فكانه قيل: ربما وذ الذين كفروا لو كانوا مسلمين أي: متقابين لحكمه مدعين له من جملة أهله. وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة. والمراد أنه لما انكشف لهم الأمر واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا بين غيره حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت في جنب الله، وقيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين؛ وقيل: عند خروج عصاة الموحدين من النار، والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم ﴿ذرهم ياكلوا ويتمتعوا﴾ هذا تهديد لهم أي: دعهم عما أنت بصده من الأمر لهم والنهي، فهم لا يراعون أبداً ولا يخرجون من باطل ولا يدخلون في حق، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالاكل والتمتع بزهرة الدنيا، فإنهم كالانعام التي لا تهتم إلا بذلك ولا تشتغل بغيره، والمعنى: اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالاكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم. وفي هذا من التهديد والزجر

أرض بيضاء كالفضة، فسألهم فقالوا: أرض بيضاء كالنقي. وأخرج ابن مردويه مرفوعاً عن علي بن أبي طالب عن ابن مسعود. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن أنس موقوفاً نحوه، وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة، وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي». وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده» الحديث. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مقرنين في الأصفا﴾ قال: الكبول. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة ﴿في الأصفا﴾ قال: القيود والأغلال. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: في السلاسل. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿في الأصفا﴾ يقول: في وثاق. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿سربليهم﴾ قال: قمصهم. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿من قطران﴾ قال: قطران الإبل. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال: هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو النحاس المذاب. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة أنه قرأ ﴿من قطران﴾ فقال: القطر الصفر. والآن: الحار. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة نحوه. وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿هَذَا بِلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ قال: القرآن ﴿وليدنروا به﴾ قال القرآن.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية بالاتفاق كما قال القرطبي. وأخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجرة بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَةُ الْيُسْرَى وَالْحَبَابُ وَالْمُحِبُّونَ ﴿١﴾ وَمَا يَنْتَهِمُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿٥﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُحُقَاتُ أُبْحُرٍ لَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٦﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْمَلَكِ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِلَّا فِي مُنْظَرٍ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي

بالحق ﴿قرئ﴾ (ما ننزل) بالنون مبنياً للفاعل، وهو الله سبحانه فهو على هذا من التنزيل، والمعنى على هذه القراءة: قال الله سبحانه مجيباً على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهم ما ننزل نحن ﴿الملائكة إلا بالحق﴾ أي: تنزيلاً متلبساً بالحق الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية وليس هذا الذي اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة، وقرئ (ننزل) مخففاً من الإنزال أي: ما ننزل نحن الملائكة إلا بالحق، وقرئ (ما ننزل) بالمثناة من فرق مضارعاً مثقلاً مبنياً للفاعل من التنزيل بحذف إحدى التاءين أي: تننزل، وقرئ أيضاً بالفوقية مضارعاً مبنياً للمفعول، وقيل: معنى إلا بالحق إلا بالقرآن، وقيل: بالرسالة، وقيل: بالعذاب ﴿وما كانوا إذا منظرين﴾ في الكلام حذف، والتقدير: ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة وما كانوا إذا منظرين، فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة، ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ فقال سبحانه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ أي: نحن نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه ونسبوك بسببه إلى الجنون ﴿وإنا له لحافظون﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك، وفيه وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله ﷺ؛ وقيل: الضمير في له لرسول الله ﷺ، والأول أولى بالمقام. ثم ذكر سبحانه أنه عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلياً لرسول الله ﷺ، فقال ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ أي: رسلاً، وحذف لدلالة الإرسال عليه أي: رسلاً كائنة من قبلك ﴿في شيع الأولين﴾ في أممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم. قال الفراء: الشيع الأمة التابعة بعضهم بعضاً فيما يجتمعون عليه، وأصله من شاعه إذا تبعه، وإضافته إلى الأولين من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم ﴿وما ياتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ أي: ما يأتي رسول من الرسل شيعته إلا كانوا به يستهزئون كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد ﷺ، وجملة ﴿إلا كانوا به يستهزئون﴾ في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها صفة رسول، أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾ أي: مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسولهم ﴿نسلكه﴾ أي: الذكر ﴿في قلوب المجرمين﴾، فالإشارة إلى ما دل عليه الكلام السابق من إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء، والسلك إنخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط. قاله الزجاج قال: والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤا نسلك الضلال في قلوب المجرمين، وجملة ﴿لا يؤمنون به﴾ في محل نصب على الحال من ضمير نسلكه أي: لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها، وقيل إن الضمير في نسلكه للاستهزاء، وفي:

ما لا يقدر قدره، يقال: إلهاء كذا أي: شغله، وإلهى هو عن الشيء إلهى أي: شغلهم الأمل عن اتباع الحق، وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذي عينين وانكشف الأمر ورأوا العذاب يوم القيامة، فعند ذلك ينزفون وببال ما صنعوا. والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر، وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ أي: وما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب ﴿إلا ولها﴾ أي: لتلك القرية ﴿كتاب﴾ أي أجل مقدر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ﴿معلوم﴾ غير مجهول ولا منسي فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه، وجملة ﴿لها كتاب﴾ في محل نصب على الحال من قرية وإن كانت نكرة لأنها قد صارت بما فيها من العموم في حكم الموصوفة، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالاً، أو صفة فإنها تعيينها للحالية كقولك حالي رجل على كتفه سيف، وقيل: إن الجملة صفة لقرية. والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف ﴿وما تسبق من أمة أجلها﴾ أي: ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها المكتوب في اللوح المحفوظ، والمعنى: أنه لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها ﴿وما يستأخرون﴾ أي: وما يتأخرون عنه. فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له، وإيراد الفعل على صيغة جمع المنكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل، ولذلك حذف الجار والمجرور، والجملة مبنية لما قبلها، فكانه قيل: إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العقلاء، فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر. وقد تقدم تفسير الأجل في أول سورة الانعام. ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان عتوهم في الكفر، وتمايهم في الغي مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب، فقال ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي قال: كفار مكة مخاطبين لرسول الله ﷺ ومتهمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه مع إنكارهم لذلك في الواقع أشد إنكار ونفيهم له أبغ نفي، أو أرادوا: بيا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه، وعلى وفق ما يدعيه ﴿إنك لمجنون﴾ أي: إنك بسبب هذه الدعوى التي تدعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون، فإنه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء: 27] ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ لو ما حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتعني ومن ما المزيدة، ففاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هي عليه؛ والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صنفك ﴿إن كنت من الصائقين﴾. قال الفراء: الميم في لو ما بدل من اللام في لولا. وقال الكسائي: لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام. قال النحاس: لوما ولولا وهلا واحد؛ وقيل: المعنى لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك ﴿وما ننزل الملائكة إلا﴾

من النار. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد بن السري في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس قال: ما يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول: من كان مسلماً فليدخل الجنة، فذلك قوله: ﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس وأنس أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فقالا: هذا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المسلمين والمشركون في النار، فيقول المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضلهم ورحمته. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مروي بسند، قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أمتي يعذبون بنزويهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعم، فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله من النار، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم في السنة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً نحوه. وأخرج إسحاق بن راهويه، وابن حبان، والطبراني، وابن مروي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه أيضاً. وأخرج هناد بن السري، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً. وفي الباب أحاديث في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿ذُرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ الآية قال: هؤلاء الكفرة. وأخرج أيضاً عن أبي مالك في قوله: ﴿ذُرْهُمْ﴾ قال: خلّ عنهم. وأخرج ابن جرير عن الزهري في قوله: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ لَاجِلْهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ قال: نرى أنه إذا حضره أجله، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدم، وأما ما لم يحضر أجله فإن الله يؤخر ما شاء ويقدم ما شاء. قلت: وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه. وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال: بالرسالة والعذاب. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مَخْطَرِينَ﴾ قال: وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي حاتم في قوله: ﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: أمم الأولين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال: الشرك نسله في قلوب المشركون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

لا يؤمنون به للذكر، وهو بعيد، والأولى أن الضميرين للذكر ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مضت طريقته التي سنها الله في إهلاكهم، حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء. وقال الزجاج: وقد مضت سنة الله في الأولين بأن سلك الكفر والضلال في قلوبهم. ثم حكى الله سبحانه إصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء، فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ﴾ أي: على هؤلاء المعاندين لمحمد ﷺ المكذبين له المستهزئين به ﴿بَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من أبوابها المعهودة ومكانهم من الصعود إليه ﴿فَفُتِلُوا فِيهِ﴾ أي: في ذلك الباب ﴿يَعْرِجُونَ﴾ يصعدون بألة أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجدها جاحد ولا يعاند عند مشاهدتها معاند؛ وقيل: الضمير في فتلوا للملائكة أي: فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب، والكفار يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب ﴿لَقَالُوا﴾ أي: الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم ﴿إِنَّمَا سَكِرْتُ أَبْصَارُنَا﴾ قرأ ابن كثير (سكرت) بالتخفيف، وقرأ الباقر بالتشديد، وهو من سكر الشراب، أو من السكر، وهو سدها عن الإحساس، يقال: سكر النهر إذا سده وحبسه عن الجري. ورجح الثاني بقراءة التخفيف، وقال أبو عمرو بن العلاء: سكرت غشيت وغطيت، ومنه قول الشاعر:

وطلعت شمس عليها مغفر وجعلت عين الجزور تسكر

وبه قال أبو عبيد، وأبو عبيدة، وروي عن أبي عمرو أيضاً أنه من سكر الشراب أي: غشيتهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله، وقيل: معنى سكرت حبست كما تقدم، ومنه قول أوس بن حجر:

فصرت على ليلة سافره فليست بطلق ولا ساكره

قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة ﴿يَلِ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أضربوا عن قولهم سكرت أبصارنا، ثم ادعوا أنهم مسحورون أي: سحرهم محمد ﷺ، وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناتاً ما كان، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقي لعارض السكر، أو أن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح، ومن بلغ في التعتن إلى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة، ولا يهتدي بآية.

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: التوراة والإنجيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن ﴿وَقُرْآنَ مِيقِينَ﴾ قال: مبين والله هداه ورشده وخيره. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: وذ المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية قال: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون

وزيناها راجع إلى السماء أي: وزينا السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج للناظرين إليها، أو للمتفكرين المعبرين المستبشرين إذا كان من النظر، وهو الاستدلال **﴿وحفظناها﴾** أي: السماء **﴿من كل شيطان رجيم﴾** قال أبو عبيدة: الرجيم المرجوم بالنجوم، كما في قوله: **﴿رجوماً للشياطين﴾** [الملك: 5] والرجم في اللغة هو الرمي بالحجارة، ثم قيل: للعن والطرده والإبعاد رجم، لأن الرامي بالحجارة يوجب هذه المعاني **﴿إلا من استرق السمع﴾** استثناء متصل أي: إلا ممن استرق السمع، ويجوز أن يكون منقطعاً أي: ولكن من استرق السمع **﴿فاتبعه شهاب مبيّن﴾** والمعنى: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله، ومعنى فاتبعه: تبعه ولحقه أو أدركه. والشهاب: الكوكب أو النار المشتعلة الساطعة كما في قوله: **﴿بشهاب قيس﴾** [النمل: 7] قال ذو الرمة:

كانه كوكب في إثر عفرية

وسمي الكوكب شهاباً لبريقه شبه النار، والمبين: الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم. قال القرطبي: واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل، وقال الحسن وطائفة: يقتل. فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان: أحدهما أنهم يقتلون قبل إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة. والثاني أنهم يقتلون بعد إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن، قال نكره الماوردي، ثم قال: والقول الأوّل أصح. قال: واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث؟ فقال الاكثرون: نعم، وقيل: لا وإنما ذلك بعد المبعث. قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبي ﷺ مما حدث بعد مولده لأن الشعراء في القديم لم ينكروه في أشعارهم. قال كثير من أهل العلم: نحن نرى انقضاء الكواكب، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى، ثم يصير ناراً إذا أدرك الشيطان، ويجوز أن يقال: يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل إليناء أنه نجم يسري **﴿والأرض مددناها﴾** أي: بسطانها وفرشناها كما في قوله: **﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾** [النازعات: 30]، وفي قوله: **﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾** [الذاريات: 48] وفيه رد على من زعم أنها كالكرة **﴿والقينا فيها رواسي﴾** أي: جبال ثابتة لئلا تحرك بأهلها، وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد. **﴿وانبتنا فيها من كل شيء موزون﴾** أي: أنبتنا في الأرض من كل شيء مقتر معلوم، فعبر عن ذلك بالوزن لأنه مقدار تعرف به الأشياء ومنه قول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذامرة عندي لكل مخاصم ميزانه
وقيل: معنى موزون مقسوم؛ وقيل: معلود، والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد؛ وقيل: الضمير راجع إلى الجبال أي: أنبتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب

وابن أبي حاتم عن قتادة مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن مثله أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿وقد خلقت سفة الأولين﴾** قال: وقائع الله فيمن خلا من الأمم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: **﴿فضلوا فيه يعرجون﴾** قال ابن جريج: قال ابن عباس: فضلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم لقالوا: **﴿إنما سكروا أبصارنا﴾** قال: قرئش تقوله. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية عن ابن عباس أيضاً يقول: ولو فتحنا عليهم باباً من أبواب السماء فضلت الملائكة تعرج فيه يختلفون فيه ذاهبين وجائين لقال أهل الشرك: إنما أخذ أبصارنا وشبه علينا، وإنما سحرنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد سكروا أبصارنا قال: سكت، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه قال: ومن قرأ (سكروا) مخففة، فإنه يعني: سحرت.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٧﴾ وَحَظَّنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ رَجِيمٍ ﴿١٨﴾ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ قَائِمُ فِيهَا جِثٌّ ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعْيَشَ وَمَنْ أَسْنَمَ لَمْ يَرْزُقْهُ ﴿٢١﴾ وَإِنْ مِنْ مَعْنَاهُ إِلَّا عِندَ خَزَائِنِهِ وَمَا نُزِّلُوهُ إِلَّا يَنْزِلُ مَقْلُوبٍ ﴿٢٢﴾ وَأَوْسَلْنَا الْيَمَّاعَ لِرُفُوعِ قَارُونَا مِنَ السَّمَاءِ مَا هَاسِتُكُمْ وَمَا أَسْنَمَ لَمْ يَحْزَنْهُمْ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَبَيْنَ أَلْوَانِ الْوُثُونِ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا لِسِتْرَيْنِ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا لِسِتْرَيْنِ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ رَيْتَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَمِيمٌ ﴿٢٦﴾

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم، ذكر قدرته الباهرة وخلق البديع ليستدل بذلك على وحدانيته، فقال: **﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾** الجعل إن كان بمعنى الخلق، ففي السماء متعلق به، وإن كان بمعنى التصيير ففي السماء خبره، والبروج في اللغة: القصور والمنازل، والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة، وهي الاثنا عشر المشهورة كما تدل على ذلك التجربة، والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم، ويستعملون بها على الطرقات والأوقات والخشب والجنب، وقالوا: الفلك اثنا عشر برجاً، وأسماء هذه البروج: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت. كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة المشتغلين بهذا العلم، ويسمون الحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. وأصل البروج الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها. وقال الحسن وقاتدة: البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها؛ وقيل: السبعة السيارة منها قاله أبو صالح؛ وقيل: هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس، والضمير في

سبحانه: ﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ [الأعراف: 57] أي: حملت. وناقاة لاقح: إذا حملت الجنين في بطنها، وبه قال الفراء وابن قتيبة؛ وقيل: لواقح بمعنى ملقحة. قال ابن الأنباري: تقول العرب: أبقل النبت فهو باقل أي: مبقل؛ والمعنى: أنها تلقح الشجر أي: بقوتها؛ وقيل: معنى لواقح نوات لقح. قال الزجاج: معناه وذات لقحة، لأنها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة؛ يقال: رامح أي: ذو رمح، ولابن أي: ذو لبن، وتامر أي: ذو تمر. قال أبو عبيدة: لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنها جمع ملقحة. وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل، ولقاح الشجر بلقاح الحمل ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ أي: من الحساب وكل ما علاك فاطلك فهو سماء؛ وقيل: من جهة السماء، والمراد بالماء هنا ماء المطر ﴿فأسقيناكموه﴾ أي: جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم. قال أبو علي: يقال سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي؛ وأسقيته نهراً أي: جعلته شرباً له، وعلى هذا فأسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه؛ وقيل: سقى وأسقى بمعنى واحد ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أي ليست خزائنه عنكم، بل خزائنه عندنا، ونحن الخازنون له، فنفى عنهم سبحانه ما أثبتة لنفسه في قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ وقيل المعنى: إن ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم؛ أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه ﴿وإننا لنحن نحيي ونميت﴾ أي نوجد الحياة في المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا، والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته عز وجل، وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته، ولهذا قال: ﴿ونحن لآورثون﴾ أي للارض ومن عليها، لأنه سبحانه الباقي بعد فناء خلقه، الحي الذي لا يموت، الدائم الذي لا ينقطع وجوده ﴿والله ميراث السموات والارض﴾ [آل عمران: 180] ﴿ولقد علمنا المستقيمين منكم﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، وهكذا اللام في ﴿ولقد علمنا المستأخرين﴾، والمراد من تقدّم ولادة وموتاً، ومن تأخر فيهما؛ وقيل من تقدّم طاعة ومن تأخر فيها؛ وقيل من تقدّم في صف القتال ومن تأخر؛ وقيل المراد بالمستقدمين الاموات، وبالمستأخرين الأحياء؛ وقيل المستقدمين هم الامم المتقدمون على أمة محمد، والمستأخرون هم أمة محمد؛ وقيل المستقدمون من قتل في الجهاد، والمستأخرون من لم يقتل ﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾ أي هو المتولى لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيد ضمير الفصل من الحصر. وفيه أنه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لأنه الأمر المقصود من الحشر ﴿إنه حكيم﴾ يجري الأمور على ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿عليم﴾ أحاط علمه بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء منها، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيء مما وسعه علمه،

والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك؛ وقيل: موزون بميزان الحكمة، ومقدر بقدر الحاجة، وقيل: الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون، أي: حسن ﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة، وقيل: هي الملابس؛ وقيل: هي التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة. قال الماوردي: وهو الظاهر. قلت: بل القول الأول أظهر، ومنه قول جرير:

تكلفني معيشة آل زيد
ومن لي بالمرق والضباب
﴿ومن لستم له برازقين﴾ معطوف على معاش أي: وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين، وهم المماليك والخدم والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله، وإن ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب، ويجوز أن يكون معطوفاً على محل لكم أي: جعلنا لكم فيها معاش وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معاش، وهم من تقدّم ذكره، وينخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها، ولا يجوز العطف على الضمير المجرور في لكم لأنه لا يجوز عند الأكثر إلا بإعادة الجاز؛ وقيل: أراد الوحش ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ إن هي النافية ومن مزيدة للتأكيد، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من، ومع لفظ شيء المتناول لكل الموجودات الصاق على كل فرد منها، فافاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء، والخزائن جمع خزانة: وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الأمور، وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور؛ والمعنى: أن كل الممكنات مقدورة ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود بمقدار كيف شاء. وقال جمهور المفسرين: إن المراد بما في هذه الآية هو المطر، لأنه سبب الأرزاق والمعاش؛ وقيل: الخزائن المفاتيح أي: ما من شيء إلا عندنا في السماء مفاتيحه، والأولى ما نكرناه من العموم لكل موجود، بل قد يصدق الشيء على المعلوم على الخلاف المعروف في ذلك ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ أي ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم، والقدر المقدار؛ والمعنى: أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه كما قال سبحانه: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ [الشورى: 27]. وقد فسر الإنزال بالإعطاء، وفسر بالإنشاء، وفسر بالإيجاد، والمعنى متقارب، وجملة وما ننزله معطوفة على مقرر أي: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ننزله وما ننزله، أو في محل نصب على الحال ﴿وأنزلنا الرياح لواقح﴾ معطوف على ﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ وما بينهما اعتراض. قرأ حمزة (الريح) بالتوحيد، وقرأ من عده (الرياح) بالجمع، وعلى قراءة حمزة فتكون اللام في الريح للجنس. قال الأزهري: وجعل الرياح لواقح لأنها تحمل السحاب: أي تقله وتصرفه، ثم تمرّ به فتنزله. قال الله

وجرى فيه حكمه سبحانه لا إله إلا هو.

وأخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن النساء، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لثلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فانزل الله **﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾**». وهذا الحديث هو من رواية أبي الجوزاء عن ابن عباس. وقد رواه عبد الرزاق، وابن المنذر من قول أبي الجوزاء قال الترمذي: وهذا أشبه أن يكون أصح. وقال ابن كثير: في هذا الحديث نكارة شديدة. وأخرج الحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: المستقدمين الصفوف المقدمة، والمستأخرين: الصفوف المؤخرة. وقد وردت أحاديث كثيرة في أن خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ومقاتل بن حبان أن الآية في صفوف القتال. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: المستقدمين في طاعة الله، والمستأخرين في معصية الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: يعني بالمستقدمين من مات، وبالمستأخرين من هو حي لم يموت. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً قال: المستقدمين آدم ومن مضى من نريته، والمستأخرين في أصلاب الرجال. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة نحوه.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ يَنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿١٩﴾ لَقَدْ خَلَقْنَاهُ مِنْ نَّحْلٍ أَمْزُجٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ نَسْكَاً يَنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ ﴿٢٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَعْجَمُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ يَنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَخَرَّجْنَاهُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الْآزِينِ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٢﴾ إِلَّا سِبْكَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِنَّ صِدْقَى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٦﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٣٧﴾

المراد بالإنسان في قوله: **﴿بلقد خلقنا الإنسان﴾** هو آدم لأنه أصل هذا النوع، والصلصال قال أبو عبيدة: هو الطين المخلوط بالرمال الذي يتصلصل إذا حرك، فإذا طبخ في النار فهو الفخار. وهذا قول أكثر المفسرين. وقال الكسائي: هو الطين المنتن، مأخوذ من قول العرب صل

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: **﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا﴾** قال: كواكب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: الكواكب العظام. وأخرج أيضاً عن عطية قال: قصوراً في السماء فيها الحرس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال الرحيم: الملعون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿إلا من استرق السمع﴾** أراد أن يخطف السمع كقوله: **﴿إلا من خطف الخطفة﴾** [الصفات: 10]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: كان ابن عباس يقول: إن الشهب لا تقتل، ولكن تحرق وتخبل وتجرح من غير أن تقتل. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في قوله: **﴿وانتبتنا فيها من كل شيء موزون﴾** قال: معلوم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿ومن كل شيء موزون﴾** قال: بقدر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال الأشياء التي توزن. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: ما أنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿ومن لستم له برازقين﴾** قال: الدواب والأنعام. وأخرج هؤلاء عن منصور قال: الوحش. وأخرج البزار، وابن مردويه، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن فكان». وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله: **﴿إلا عنينا خزائنه﴾** قال: المطر خاصة. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «ما نقص المطر منذ أنزل الله، ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى ثم قرأ: **﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: «ما من عام بالمطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ **﴿وان من شيء إلا عنينا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**». وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: **﴿ووارسلنا الرياح لواقح﴾** قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدثر كما تدثر اللقحة ثم تمطر. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال: يبعث الله المبعثرة فتقوم الأرض قمأ، ثم يبعث المثرية فتثير السحاب فتجعله كسفا ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركماً، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي بسنن ضعيف عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه».

والتكريم، مثل ناقة الله، وبيت الله. قال القرطبي: والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع تلك الجسم. وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، قال: ومثله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: 171]. وقد تقدّم في النساء ﴿فَفَقَعُوا لَهُ سَلْجِينِينَ﴾ الفاء تدلّ على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفع من غير تراخ، وهو أمر بالوقوع من وقع يقع. وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود لا مجرد الانحناء كما قيل، وهذا السجود هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، والله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء؛ وقيل: كان السجود لله تعالى وكان آدم قبله لهم ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرد: قوله ﴿كُلُّهُمْ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، وقوله أجمعون تأكيد بعد تأكيد، ورجح هذا الزجاج. قال النيسابوري: وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً ولو صرح أن يكون حالاً لكان منتصباً، ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ قيل: هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ولكنه أبى ذلك استكباراً واستعظاماً لنفسه وحسداً لآدم فحقت عليه كلمة الله؛ وقيل: إنه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً؛ وقيل: إن الاستثناء منفصل بناءً على عدم كونه منهم، وعدم تغليبهم عليه أي: ولكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة البقرة، وجملة ﴿إِنِّي أَنْتَبِهُنَّ﴾ مع الساجدين استئناف مبين لكيفية ما فيهم من الاستثناء من عدم السجود، لأن عدم السجود قد يكون مع التردد، فبين سبحانه أنه كان على وجه الإياء، وجملة ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسَ مَا لَكَ أَنْ لَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ مستأنفة أيضاً جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال الله سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود؟ وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم، بل للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أي غرض لك في الامتناع؟ وأي سبب حملك عليه على أن لا تكون مع الساجدين لآدم مع الملائكة وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها، وجملة ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ مستأنفة كالتي قبلها، جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً من صلصال من حمأ مسنون زعماً منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم، وفيه إشارة إجمالية في كونه خيراً منه. وقد صرح بذلك في موضع آخر، فقال: ﴿إِنَّا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 76]. وقال في موضع آخر: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: 61]. واللام في لأسجد لتأكيد النفي أي: لا يصح ذلك مني، فأجاب الله سبحانه عليه بقوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا

اللحم وأصل: إذا أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً، قال الحطّية: ذاك فتى يبذل ذا قدرة لا يفسد اللحم لديه الصلصال والحمأ الطين الأسود المتغير. أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. قال ابن السكيت: تقول منه حمأت البثر حمأ بالتسكين: إذا نزعحت حماتها، وحمئت البثر حمأ بالتحريك: كثرت حماتها، وأحميتها إحماء: القيت فيها الحمأة. قال أبو عبيدة: الحمأة بسكون الميم مثل الحمأة يعني بالتحريك، والجمع حمم مثل تمره وتمر، والحمأ المصدر مثل الهلع والجزع، ثم سمي به. والمسنون قال الفراء: هو المتغير، وأصله من سننت الحجر على الحجر: إذا حككته، وما يخرج بين الحجرين يقال له: السنانة والسنين، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثم حاصرته إلى القبة الحمرا تمشي في ممر وسنون أي: محكوك، ويقال: أسن الماء إذا تغير، ومنه قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّه﴾ [البقرة: 259]. وقوله: ﴿هَاءٌ غَيْرُ أَسْنٍ﴾ [محمد: 15] وكلا الاشتقاقين يدل على التغير، لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا متناً. وقال أبو عبيدة: المسنون المصوب، وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه: إذا صببته، والسنن الصب. وقال سيبويه: المسنون المصوب، مأخوذ من سنة الوجه، وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب وقال الاخفش: المسنون المنصوب القائم، من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول. والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بل صار طيناً، فلما أنتن صار حمأ مسنوناً، فلما يش صار صلصالاً. فاصل الصلصال: هو الحمأ المسنون، ولهذا وصف بهما ﴿وَالْجَانَّ خَلْقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْفَخَ فِيهِمُ السُّمُومَ﴾ الجانّ أبو الجرّ عند جمهور المفسرين. وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل: هو إبليس. وسمي جاناً لتأريه عن الأعين. يقال: جن الشيء إذا ستره. فالجانّ يستر نفسه عن أعين بني آدم، ومعنى من قبل: من قبل خلق آدم، والسموم: الريح الحادة النافذة في المسام، تكون بالنهار وقد تكون بالليل، كذا قال أبو عبيدة، ونكر خلق الإنسان والجانّ في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلهية، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدّر أي: انكسر، بين سبحانه بعد ذكره لخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له، وقد تقدّم تفسير ذلك في البقرة، والبشر مأخوذ من البشرة، وهي ظاهر الجلد، وقد تقدّم تفسير الصلصال والحمأ المسنون قريباً مستوفى ﴿فَإِذَا سُوِّيْتَهُ﴾ أي: سويت خلقه وعدلت صورته الإنسانية وكملت أجزائه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي﴾ النفخ: إجراء الريح في تجاويف جسم آخر؛ فمن قال: إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر، ومن قال: إنه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز. فمعنى النفخ عنده تهية البدن لتعلق النفس الناطقة به. قال النيسابوري: ولا خلاف في أن الإضافة في روعي للتشريف

وقتادة، والحسن، وقيس بن عباد، وأبو رجاء، وحמיד، ويعقوب (هذا صراط علي) على أنه صفة مشبهة، ومعناه رفيع **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾** المراد بالعباد هنا هم المخلصون، والمراد أنه لا تسلط له عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون منه، فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما، فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه **﴿إِلَّا مَنْ تَبِعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** استثنى سبحانه من عباده هؤلاء. وهم المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحق الواقعين في الضلال، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله: **﴿لَا غَوِيَّتَهُمْ لْجَمْعِينَ إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ﴾**، ويمكن أن يقال: إن بين الكلامين فرقاً فكلام الله سبحانه فيه نفى سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس من الغاوين؛ وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلا المخلصين، فيخل فيه من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً. والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصاً ولا غاوية تابعة لإبليس؛ وقد قيل: إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾** [النحل: 100]، ثم قال الله سبحانه متوعداً لاتباع إبليس **﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ لْجَمْعِينَ﴾** أي: موعد المتبعين الغاوين، وأجمعين تأكيد للضمير أو حال **﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾** يدخل أهل النار منها وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها **﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾** أي: من الاتباع الغواة **﴿جِزءٌ مَقْسُومٌ﴾** أي: قدر معلوم متميز عن غيره؛ وقيل: المراد بالأبواب الطباق طبق فوق طبق، وهي جهنم، ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير، ثم سقر ثم الجحيم، ثم الهاوية؛ فاعلاها للموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين، فجهنم أعلى الطباق، ثم ما بعدها تحتها، ثم كذلك، كذا قيل.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: خلق الإنسان من ثلاث من طين لازب وصلصال وحماً مسنون، فالطين اللازب: اللازم الجيد، والصلصال: الملتصق الذي يصنع منه الفخار، والحماً المسنون: الطين الذي فيه الحماة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه قال: الصلصال الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال هو التراب اليابس الذي يبل بعد ييسه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال طين خلط برمل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال الذي إذا ضربته صلصل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الصلصال الطين تعصر بيديك فيخرج الماء من بين أصابعك. وأخرج ابن جرير، وابن

فإنك رجيم **﴿والضمير في منها، قيل عائذ إلى الجنة، وقيل: إلى السماء، وقيل: إلى زمرة الملائكة أي: فأخرج من زمرة الملائكة فإنك رجيم أي: مرجوم بالشبه؛ وقيل معنى رجيم ملعون أي: مطرود لأن من يطرد يرجم بالحجارة﴾** **﴿وَأَنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾** أي: عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمراً عليك لازماً لك إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت، لأن المراد دوامها من غير انقطاع، وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى: **﴿مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ﴾** [هود: 107] أو أن المراد أنه في يوم الدين وما بعده يعذب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب، فكانه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسه العذاب **﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾** أي: أخرني وأمهلني ولا تمنني إلى يوم يبعثون أي: آمم ونريته. طلب أن يبقى حياً إلى هذا اليوم لما سمع ذلك علم أن الله قد أخر عذابه إلى الدار الآخرة وكأنه طلب أن لا يموت أبداً، لأنه إذا أخر موته إلى ذلك اليوم فهو يوم لا موت فيه؛ وقيل: إنه لم يطلب أن لا يموت، بل طلب أن يؤخر عذابه إلى يوم القيامة ولا يعذب في الدنيا **﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾** لما سال الإنظار أجابه الله سبحانه إلى ما طلبه وأخبره بأنه من جملة من أنظره ممن أخر آجالهم من مخلوقاته، أو من جملة من أخر عقوبتهم بما اقترفوا، ثم بين سبحانه الغاية التي أمهل إليها، فقال: **﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾** وهو يوم القيامة فإن يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم كلها عبارات عن يوم القيامة؛ وقيل: المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث، فعند ذلك يموت. **﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** الباء للقسمة، وما صدريه، وجواب القسم لأزينن لهم أي: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم في الأرض أي: ما داموا في الدنيا، والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وإيقاعهم فيها، أو يشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون إلى غيرها. وإقسامه ها هنا بإغواء الله له لا ينافي إقسامه في موضع آخر بعهدة الله التي هي سلطانه وقهره، لأن الإغراء له هو من جملة ما تصلق عليه العزة **﴿وَلَا غَوِيَنَّهُمْ لْجَمْعِينَ﴾** أي: لأضلنهم عن طريق الهدى وأوقعهم في طريق الغواية وأحملهم عليها **﴿إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ﴾** قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام أي: الذين استخلصتهم من العباد. وقرأ الباقون بكسر اللام أي: الذين أخلصوا لك العبادة فم يقصدوا بها غيرك **﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾** أي: حق علي أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك على عبادي سلطان. قال الكسائي: هذا على الوعيد والتهديد، كقولك لمن تهدي: طريقك علي ومصيرك إلي، وكقوله: **﴿إِنَّ رَبِّكَ لِلْمُرْصَادِ﴾** [الفجر: 14] فكان معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلا بعمله، وقيل: على هنا بمعنى إلى؛ وقيل: المعنى على أن الصراط المستقيم بالبيان والحجة؛ وقيل: بالتوفيق والهداية. وقرأ ابن سيرين،

مَنْذَرًا إِنَّهَا لَمِنَ النَّارِ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ مَا لُوحِ الْأَنْبِیَاءُ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَا جُنَّتْكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَنْتَ بِالْكَفْرِ وَالْإِنْفَادِ لَمَذْمُومٌ ﴿١٩﴾ فَأَسْرِ بِأَمْرِكَ بِقُلُوبِ مَنْ أَلَيْلَ وَانْجِعْ أَنْفُسَهُمْ وَلَا يَلْبُثُوا إِلَّا بِمُكْرٍ مُّكْتَرَمٍ وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَاخِرَ مَقْرَرِكَ مَفْطُوحٌ مُّصَيَّرُونَ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: المتقين للشرك بالله كما قاله جمهور الصحابة والتابعين، وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصي في جنات وهي البساتين، وعيون وهي الأنهار. قرئ بضم العين من عيون على الأصل، وبالكسر مراعاة للياء، والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون، أو لكل واحد منهم جنات وعيون، أو لكل واحد منهم جنة وعين ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول أي قيل لهم: ادخلوها. وقرأ الحسن وأبو العالية، وروي عن يعقوب بضم الهمزة مقطوعة، وفتح الخاء على أنه فعل مبني للمفعول أي: ادخلهم الله إياها. وقد قيل: إنهم إذا كانوا في جنات وعيون، فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور؟ فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها، وأجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا في الجنات، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها: ادخلوها، ومعنى ﴿بِإِسْلَامٍ أَمْنَيْنِ﴾ بسلامة من الآفات، وأمن من المخافات، أو مسلمين على بعضهم بعضاً، أو مسلماً عليهم من الملائكة، أو من الله عز وجل: ﴿وَنُزَعْنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ الغل: الحقد والعداوة، وقد مر تفسيره في الاعراف، وانتصاب ﴿إِلْخَوَانًا﴾ على الحال أي: إخوة في الدين والتعاطف ﴿عَلَى سِرِّ مَقَابِلَيْنِ﴾ أي: حال كونهم على سرر، وعلى صورة مخصوصة وهي التقابل، ينظر بعضهم إلى وجه بعض، والسرر جمع سرير، وقيل: هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور، ومنه قولهم: سرر الوادي لأفضل موضع منه ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة، لأنها نعيم خالص، ولذة محضة تحصل لهم بسهولة، وتوافيق مطالبهم يحصل تلك الشيء عندهم صفوا عفوا ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبداً، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم، فإن علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتلغص نعيمه وتذكر لذته. ثم قال سبحانه بعد أن قص علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم والأجر الجزيل ﴿هَبْنِي عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أنني أنا الكثير المغفرة للنوابغ، الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسي: «إن رحمتي سبقت غضبي»، اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة، وادخلتهم تحت واسع الرحمة. ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة

المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَنْ حَمَا مَسْنُونٌ﴾ قال: من طين رطب. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿مَنْ حَمَا مَسْنُونٌ﴾ قال: من طين منتن. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الجان مسيح الجن كالقردة والخنازير مسيح الإنس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: الجان: هو إبليس خلق من قبل آدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مَنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ قال: من أحسن النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: نار السموم الحارة التي تقتل. وأخرج الطيالسي، والفريابي، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: السموم: التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، ثم قرأ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مَنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ قال: أراد إبليس لا ينوق الموت فقيل: إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن سيرين ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: رفيع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ بعدد أطباق جهنم كما قلنا. وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث من طرق عن علي قال: أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملا الأول، ثم الثاني، ثم الثالث حتى. تملأ كلها، وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي، وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بجهنم سبعة أبواب، باب منها لمن سل سيف على أمته». وقد ورد في صفة النار لحديث وآثار. وأخرج ابن مردويه، والخطيب في تاريخه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ قال: «جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله».

إِنَّكَ التَّائِبِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿٢٢﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ﴿٢٣﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِنْ عِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٢٤﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٢٥﴾ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٦﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَكَادِبُ الْأَلِيمُ ﴿٢٧﴾ رَنِّبْهُمْ عَنْ ضَرْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٨﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَهْلُونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا لَا تَوَجَّهْ بِنَا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِقُلُوبِ عَلِيٍّ ﴿٣٠﴾ قَالَ أَتَسْتَمْتَعُونَ عَلَيَّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكَفْرُ فِيهِ تَبَشِّرُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ التَّزَلُّيَةِ ﴿٣٢﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٤﴾ قَالُوا إِنَّا أَتَيْنَاكَ قَوْمٌ مُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ إِلَّا مَا لُوحِ لَنَا لَمَجْرُومُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا أَمْرًا

وردى ذلك عن أبي عمرو أي: من الآيسين من ذلك الذي بشرناك به **﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾** قرئ بفتح النون من يقنط وبكسرهما وهما لغتان. وحكي فيه ضم النون، والضالون المكذبون، أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب أي: إنما استبعدت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي؛ ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه ف **﴿قال فما خطبكم ليها المرسلون﴾** الخطب: الأمر الخطير والشأن العظيم أي: فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به، وكأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا **﴿قلوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾** أي: إلى قوم لهم إجرام، فبدخل تحت ذلك الشرك وما هو بونه، وهؤلاء القوم: هم قوم لوط، ثم استثنى منهم من ليسوا مجرمين فقال: **﴿إلا آل لوط﴾** وهو استثناء متصل، لأنه من الضمير في مجرمين، ولو كان من قوم لكان منقطعاً لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين، وليس آل لوط مجرمين. ثم نكر ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في إجرامهم فقال: **﴿إنا لمنجوههم لجمعين﴾** أي: آل لوط، وهم أتباعه وأهل بيته، وهذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلاً كأنه قيل: ماذا يكون حال آل لوط؟ فقال: إنا لمنجوههم أجمعين، وأما على تقدير كون الاستثناء منقطعاً فهي خبر أي: لكن آل لوط ناجون من عذابنا. وقرأ حمزة والكسائي (لمنجوههم) بالتخفيف من أنجا. وقرأ الباقون بالتشديد من نجى. واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيدة وأبو حاتم، والتنجية والإنجاء التخليص مما وقع فيه غيرهم **﴿إلا امرأته﴾** هذا الاستثناء من الضمير في منجوههم إخراجاً لها من التنجية أي: إلا امرأته فليست ممن ننجيه بل ممن نهلك؛ وقيل: إن الاستثناء من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية، والمعنى: قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم إلا آل لوط إنا لمنجوههم إلا إمرأته فإنها من الهالكين، ومعنى **﴿قدرنا أنها لمن الغابرين﴾** قضينا وحكمنا أنها من الباقين في العذاب مع الكفرة، والغابر الباقي، قال الشاعر: لا تكسح الشول بأغبارها إنك لا تدري من السناج والإغبار: بقايا اللين. قال الزجاج: معنى قدرنا دبنا وهو قريب من معنى قضينا وأصل التقدير: جعل الشيء على مقدار الكفاية. وقرأ عاصم من رواية أبي بكر والمفضل (قدرنا) بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد. قال الهروي: هما بمعنى، وإنما أسند التقدير إلى الملائكة من كونه مع فعل الله سبحانه لما لهم من القرب عند الله **﴿فلما جاء آل لوط للمرسلون﴾** هذه الجملة مستأنفة لبيان وإهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من يستحق النجاة **﴿قال إنكم قوم منكرون﴾** أي قال لوط مخاطباً لهم: إنكم قوم منكرون أي: لا أعرفكم بل أنكركم **﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾** أي: بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه، فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره؛ كأنهم قالوا: ما جئناك بما خطر

العظيمة، أمره بأن ينكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: **﴿وان عذابي هو للعذاب الأليم﴾** أي: الكثير الإيلام، وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطاً بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الانس والهيبة، وجملة **﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾** معطوفة على جملة نبئ عبادي أي: أخبرهم بما جرى على إبراهيم من الأمر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف، والتبشير الذي خالطه نوع من الوجع ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله سبحانه في عباده، وأيضاً لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين كان في ذلك تقريراً لكونه الغفور الرحيم وأن عذابه هو العذاب الأليم، وقد مر تفسير هذه القصة في سورة هود، وانتصاب **﴿إذ دخلوا عليه﴾** بفعل مضمر معطوف على **﴿نبئ عبادي﴾** أي: وأنكر لهم دخولهم عليه، أو في محل نصب على الحال. والضيف في الأصل مصدر، ولذلك وحد وإن كانوا جماعة، وسمي ضيفاً لإضافته إلى المضيف **﴿فقالوا سلاماً﴾** أي: سلمنا سلاماً **﴿قال إنا منكم وجلون﴾** أي: فزعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرب إليهم العجل فأرأهم لا يكلون منه كما تقدم في سورة هود **﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾** [هود: 70] وقيل: أنكر السلام منهم لأنه لم يكن في بلادهم، وقيل: أنكر دخولهم عليه بغير استئذان **﴿قالوا لا توجل﴾** أي قالت: الملائكة لا تخف. وقرئ (لا تاجل) ولا توجل من أوجلته أي: أخافه، وجملة **﴿إنا نبشرك بغلام عليكم﴾** مستأنفة لتعليل النهي عن الوجع، والعليم: كثير العلم، وقيل: هو الحليم كما وقع في موضع آخر من القرآن، وهذا الغلام: هو إسحاق كما تقدم في هود، ولم يسمه هنا ولا نكر التبشير ببعقوب اكتفاء بما سلف **﴿قال ابشروني﴾** قرأ الجمهور بالف الاستفهام. وقرأ الأعمش (بشروني) بغير الالف **﴿على أن مسني الكبير﴾** في محل نصب على الحال أي: مع حالة الكبير والهرم **﴿فبم تبشرون﴾** استفهام تعجب، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذي جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ إليه، والمعنى: فباي شيء تبشرون، فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح. وقرأ نافع (تبشرون) بكسر النون والتخفيف وإبقاء الكسرة لتدل على الياء المحذوفة. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بكسر النون مشددة على إدغام النون في النون، وأصله تبشرونني. وقرأ الباقون (تبشرون) بفتح النون **﴿قالوا بشرناك بالحق﴾** أي: باليقين الذي لا خلف فيه، فإن ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ولا يستحيل عليه شيء، فإنه القادر على كل شيء **﴿فلا تكن من القانطين﴾** هكذا قرأ الجمهور بإثبات الالف. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب (من القنطين) بغير الف،

وابن مريويه عن علي قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. وأخرج ابن مريويه، وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس في هذه الآية قال: نزلت في عشرة: أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، وطلحة والزبير، وسعد وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود. وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح موقوفاً عليه. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿عَلَى سِرِّرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال: لا يرى بعضهم قفا بعض. وأخرجه ابن المنذر، وابن مريويه عن مجاهد، عن ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو القاسم البغوي، وابن مريويه، وابن عساكر عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: «﴿إِخْوَانًا عَلَى سِرِّرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾» قال: المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ قال: المشقة والأذى. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه فقال: ألا أراكم تضحكون؟ ثم أدير حتى إذا كان عند الحجر رجع القهقري فقال: إني لما خرجت جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله عز وجل يقول: لم تقنط عبادي؟ ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وإن عذابي هو العذاب الأليم». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال: «مر النبي ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال: انكروا الجنة وانكروا النار». فنزلت: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وأخرج الطبراني، والبزار، وابن مريويه عن عبد الله بن الزبير قال: مر النبي ﷺ فذكر نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كل الذي عند الله من رحمته لم يئأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار». وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿مَنْ الْقَانِطِينَ﴾ قال: الآيسين. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿إِنِّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ يعني: الباقين في عذاب الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَنَّكُونَ﴾ قال: أنكرهم لوط، وفي قوله: ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: بعذاب قوم لوط. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: يشكون. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿وَاتَّبَعَ أَبَارَهُمْ﴾ قال: أمر أن يكون خلف أهله يتبع أبارهم في آخرهم إذا مشوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿وَوَاضُوا حَيْثُ

ببالك من المكروه، بل جئناك بما فيه سرورك، وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكنزونك ﴿وَوَاتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردد، وهو العذاب النازل بهم لا محالة ﴿وَأَنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك. وقد تقدم تفسير قوله: ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ في سورة هود ﴿وَاتَّبَعَ أَبَارَهُمْ﴾ أي: كن من ورائهم تنوهم لئلا يختلف منهم أحد فيناله العذاب ﴿وَلَا يَلْتَفَتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا تلتفت أنت ولا يلفت أحد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب، فيشتغل بالنظر في ذلك ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين؛ وقيل: معنى لا يلفت لا يتخلف ﴿وَوَاضُوا حَيْثُ تُمْرُونَ﴾ أي: إلى الجهة التي أمركم الله سبحانه بالمضي إليها، وهي جهة الشام، وقيل: مصر؛ وقيل: قرية من قرى لوط؛ وقيل: أرض الخليل ﴿وَوَضِينَا إِلَيْهِ﴾ أي: أوحينا إلى لوط ﴿تِلْكَ الْأُمُورُ﴾ وهو إهلاك قومه، ثم فسرهم بقوله: ﴿أَن دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ قال الزجاج: موضع أن نصب، وهو بدل من ذلك الأمر، والدابر هو الآخر أي: أن آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح، وانتصاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ على الحال أي: حال كونهم داخلين في وقت الصبح، ومثله ﴿فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: 45].

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿أَمْنِينَ﴾ قال: أمنوا الموت فلا يموتون ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرفون ولا يجوعون. وأخرج ابن جرير عن علي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قال: العداوة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عن الحسن البصري قال: قال علي بن أبي طالب: فينا والله أهل الجنة نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ إخواناً على سرر متقابلين. وأخرج ابن عساكر، وابن مريويه عنه في الآية قال: نزلت في ثلاثة أحياء من العرب: في بني هاشم، وبني تميم، وبني عدي، في بني بكر وعمر. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساكر عن كثير النواء، قال: قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قال: والله إنها لفيههم أنزلت؛ وفيمن تنزل إلا فيهم؟ قلت: وأي غل هو؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصة، فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مريويه عن علي من طرق أنه قال لابن طلحة: إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ الآية، فقال رجل من همدان: الله أعلم من ذلك، فصاح علي عليه صيحة تداعى لها القصر وقال: فيمن إن إن لم تكن نحن أولئك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والطبراني،

أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن العربي: ما الذي يمتنع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد ﷺ لأنه أكرم على الله منه أو لا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم، وأعطى ذلك لمحمد ﷺ؟ فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد أرفع. قال القرطبي: ما قاله حسن فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوط فإن قيل: قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين، ونحو ذلك فما فيهما من فضل. وأجيب بأنه ما من شيء أقسم الله به إلا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه، ونكر صاحب الكشف وأتباعه أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول أي: قالت الملائكة للوط: لعمرك، ثم قال: وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له. انتهى. وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه، وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله فليس لعباده أن يقسموا بغيره، وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾** [الأنبياء: 23]. وقيل: الإقسام منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين والنجم والضحى والشمس والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به أي: وخالق التين وكذلك ما بعده، وفي قوله: **﴿لعمرك﴾** أي: وخالق عمرك، ومعنى **﴿إنهم لفى سكرتهم يعمهون﴾**: لفى غوايتهم يتحيرون، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة والضمير لقريش على أن القسم بمحمد ﷺ، أو القوم لوط على أن القسم للرسول عليه السلام **﴿فأخذتهم للصيحة﴾** العظيمة أو صيحة جبريل حال كونهم **﴿مشركين﴾** أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: أشرقت الشمس أي: أضاءت وشرقت إذا طلعت، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد. وأشرق القوم إذا دخلوا في وقت شروق الشمس؛ وقيل: أراد شروق الفجر؛ وقيل: أول العذاب كان عند شروق الفجر وامتد إلى طلوع الشمس. والصيحة العذاب **﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾** أي: عالي المدينة سافلها **﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾** من طين متحجر، وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود **﴿إن في ذلك﴾** أي: في المذكور من قصتهم وبيان ما أصابهم **﴿آيات﴾** لعلامات يستدل بها **﴿للمتوسمين﴾** للمتفكرين الناظرين في الأمر ومنه قول زهير:

وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم
وقال الآخر:

أو كلما ورت عكاظ قبيلة بعثوا إلي عريفهم يتوسم
وقال أبو عبيدة: للمتبصرين، وقال ثعلب: الواسم الناظر إليك من قرنك إلى قدمك، والمعنى متقارب، وأصل التوسم التثبت والتفكر، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في

تؤمرون قال: أخرجهم الله إلى الشام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد **﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾** قال: أوحيناه إليه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾** يعني: استئصال هلاكهم.

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٧٧﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٧٨﴾ قَالُوا أَرْكَمْ نَنهَكَ عَنِ الْكَلْبِيكَ ﴿٧٩﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٨٠﴾ لَعَنَكَ اللَّهُ يَا سَكْرَتِي بِمَهْوَنٍ ﴿٨١﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُرْفِقِينَ ﴿٨٢﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٨٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَذَكِّرِينَ ﴿٨٤﴾ وَلَئِنْ لَيْسَ لِي سَبِيلٌ مُّغِيرٍ ﴿٨٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾

ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال: **﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾** أي: أهل مدينة قوم لوط، وهي سلوم كما سبق، وجملة يستبشرون في محل نصب على الحال أي: مستبشرون بأضياف لوط طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم فـ **﴿قال﴾** لهم لوط **﴿إن هؤلاء ضيقي﴾** وحد الضيف لأنه مصدر كما تقدم، والمراد أضيافي، وسماهم ضيفاً لأنه رآهم على هيئة الأضياف، وقومه راوهم مرداً حسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيهم **﴿فلا تفضحون﴾** يقال: فضحه يفضحه فضيحة وفضحاً إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بظهاره، والمعنى: لا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون أنني عاجز عن حماية من نزل بي، أو لا تفضحون بفضيحة ضيقي، فإن من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف **﴿واتقوا الله﴾** في أمرهم **﴿ولا تحزنوا﴾** يجوز أن تكون من الخزي: وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخزية وهي الحياء والخجل، وقد تقدم تفسير ذلك في هود **﴿قالوا﴾** أي: قوم لوط مجيبين له **﴿أولم ننهك عن العالمين﴾** الاستفهام للإنكار، والواو للعطف على مقدر أي: ألم نتقدم إليك وننهيك عن أن تكلمنا في شأن أحد من الناس إذا قصدها بالفاحشة؟ وقيل: نهوه عن ضيافة الناس، ويجوز حمل ما في الآية على ما هو أعم من هذين الأمرين **﴿قال﴾** هؤلاء بناتي فتزوجوهن **﴿إن كنتم فاعلين﴾** ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيقي فهؤلاء بناتي تزوجوهن حلالاً ولا تركبوا الحرام؛ وقيل أراد ببناته نساء قومه، لكون النبي بمنزلة الأب لقومه، وقد تقدم تفسير هذا في هود **﴿لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون﴾** العمر والعمر بالفتح والضم واحد، لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على السنتهم، نكر ذلك الزجاج. قال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال: قال المفسرون بإجمعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله سبحانه بحياة

وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لطريق واضح.

وَأَنَّ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَائِفِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَأَرْسَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْهَا
مُتْرَضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَحْنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا يُرِيدُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ
مُصِيبِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِآلْحَقٍّ ذَاتِ السَّاعَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصْحَبَ الْحِجْلُ ﴿٨٥﴾ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ الْغَالِقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

قوله: ﴿وَأَنَّ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ إن هي المخففة من
الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف أي: وإن الشأن كان
أصحاب الأيكة. والأيكة الغيضة، وهي جماع الشجر، والجمع
الأيك. ويروى أن شجرهم كان دوماً، وهو المقول، فالمعنى:
وإن كان أصحاب الشجر المجتمع؛ وقيل: الأيكة اسم القرية
التي كانوا فيها. قال أبو عبيدة: الأيكة وليكة مدينتهم كمكة
وبكة، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب، وقد تقدم خبرهم،
واقصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم، وقد فصل
ذلك الظلم فيما سبق، والضمير في ﴿وَأَنَّ هُمْ لِبِإِمَامٍ مَبِينٍ﴾
يرجع إلى مدينة قوم لوط، ومكان أصحاب الأيكة أي: وإن
المتكئين لطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به، ومن جملة
ذلك الطريق التي تسلك. قال الفراء والزجاج: سمي الطريق
إماماً لأنه يؤتم ويتبع. وقال ابن قتيبة: لأن المسافر ياتم به
حتى يصل إلى الموضع الذي يريده، وقيل: الضمير للأيكة
ومدين لأن شعباً كان ينسب إليهما. ثم إن الله سبحانه ختم
القصص بقصة ثمود فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ
لِلْمُرْسِلِينَ﴾ الحجر اسم لدير ثمود، قاله الأزهري. وهي ما
بين مكة وتبوك. وقال ابن جرير: هي أرض بين الحجاز
والشام. وقال: المرسلين، ولم يرسل إليهم إلا صالح، لأن من
كذب واحداً من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في
الدعوة إلى الله؛ وقيل: كذبوا صالحاً ومن تقدمه من الأنبياء،
وقيل: كذبوا صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَأَتَيْنَاهُم
آيَاتِنَا﴾ أي الآيات المنزلة على نبيهم، ومن جعلتها الناقة
فإن فيها آيات جملة كخروجها من الصخرة ودنو نتائجها عند
خروجها وعظمها وكثرة لبنها ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾
أي: غير معتبرين، ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما أمرهم به
نبيهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ النحت في
كلام العرب: البري والنجر، نحتة ينحته بالكسر نحتاً أي:
براه، وفي التنزيل ﴿اتَّعْبِدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: 95].
أي: تنجرون، وكانوا يتخذون لأنفسهم من الجبال بيوتاً أي:
يخرقونها في الجبال، وانتصاب ﴿أَمْنِينَ﴾ على الحال. قال
الفراء: أمنين من أن يقع عليهم، وقيل: أمنين من الموت،
وقيل: من العذاب ركناً منهم على قوتها ووثاقها
﴿فَاخْتَنَمَ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في وقت
الصبح، وقد تقدم ذكر الصيحة في الاعراف وفي هود،
وتقدم أيضاً قريباً ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
أي: لم ينفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يكسبون من

جلد البعير ﴿وَأَنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مَقِيمٍ﴾ يعني: قرى قوم لوط أو
مدينتهم على طريق ثابت، وهي الطريق من المدينة إلى
الشام، فإن السالك في هذه الطريق يمر بتلك القرى ﴿إِنْ فِي
ذَلِكَ﴾ المذكور من المدينة أو القرى ﴿لَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾
يعتبرون بها فإن المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما
يشاهدونه من الآثار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله:
﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قال: استبشروا
بأضياف نبي الله لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم
من المنكر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُنْهَكْ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾
قال: يقولون: أولم ننهك أن تضيف أحداً أو تؤويه، ﴿قَالَ
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أمرهم لوط بتزويج النساء
وأراد أن يبقى أضيافه ببنايته. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو
يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه،
وأبو نعيم عن ابن عباس قال: ما خلق الله وما ذراً وما براً
نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة
أحد غيره قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾
يقول: وحياتك يا محمد وعمرك وبقاتك في الدنيا. وأخرج ابن
جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قال: لعيشك.
وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: ما حلف الله بحياة
أحد إلا بحياة محمد قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير
عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل
لعمرى يروونه كقوله وحياتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي
حاتم عن قتادة ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: في
ضلالهم يلعبون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن
الاعمش في الآية لفي غفلتهم يتردنون. وأخرج ابن المنذر
عن ابن جريج فأخنتهم الصيحة مثل الصاعقة، وكل شيء
أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة. وأخرج ابن جرير عنه
﴿مُشْرِقِينَ﴾ قال: حين أشرقت الشمس. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس في
قوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ قال: علامة أما ترى الرجل يرسل
خاتمه إلى أهله، فيقول: هاتوا كذا وكذا، فإذا راوه عرفوا أنه
حق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه
﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: للمتأخرين. وأخرج عبد الرزاق، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة
عن قتادة قال: للمعتبرين. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر عن
مجاهد قال: للمتفرسين، وأخرج البخاري في التاريخ،
والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن السني، وأبو
نعيم، وابن مردويه، والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال:
قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور
الله، ثم قرأ: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾». وأخرج ابن
أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مَقِيمٍ﴾ يقول:
لبهالك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم عن مجاهد قال: لطريق مقيم. وأخرج ابن جرير،

البيهقي في الشعب عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد قال: هذه الآية قبل القتال. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله.

وَلَقَدْ مَآيَنَكَ سَمَاءَ يَنْ الْمَنَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٧٧﴾ لَا تَدْعُ عَيْدَكَ إِلَى مَا مَنَّا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقُلْ إِنَّا أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٧٩﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٨٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٨١﴾ فَوَرَّيْكَ لَنَشُدَّ عَنْكَ آجِمِينَ ﴿٨٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾ فَاصْنَعْ إِنَّمَا تُؤْمَرُ وَاعْصِ عَنِ الشُّرَكِيزِ ﴿٨٤﴾ إِنَّا كُنْهَكَ الشَّهْرَبِينَ ﴿٨٥﴾ أَلَّذِينَ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفُوا وَمَوْ يَكْمُلُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ مَكَرَ أَنتَ بِمِيقَاتِكَ مَذَكَّةً إِنَّمَا يَقُولُونَ ﴿٨٧﴾ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٨٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٨٩﴾

اختلف أهل العلم في السبع المثاني ماذا هي؟ فقال جمهور المفسرين: إنها الفاتحة. قال الواحدي وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب، وهو قول عمر، وعلي، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والربيع، والكلبي. وزاد القرطبي أبا هريرة وأبا العالية، وزاد النيسابوري الضحاک وسعيد بن جبیر. وقد روي ذلك من قول رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه. وقيل: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة الأنفال والتوبة، لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية، روي هذا القول عن ابن عباس. وقيل: المراد بالمثاني السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف، والمثاني جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية. وقال الزجاج: تثني بما يقرأ بعدها معها، فعلى القول الأوّل يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني أنها تثني أي: تكرر في كل صلاة، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية إن العبر والأحكام والحدود كررت فيها، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاک، وطولس، وأبو مالك، وهو رواية عن ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: 23] وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن وهي: الأمر، والنهي، والتبشير، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعريف النعم، وأنباء قرون ماضية. قاله زياد بن أبي مريم، ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا تستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم، وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية، فلا يقدح في ذلك صلق وصف المثاني على غيرها **﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾** معطوف على سبعة من المثاني، ويكون من عطف العام على الخاص لأن الفاتحة بعض من القرآن، وكذلك إن أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنها بعض من القرآن، وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر، كما قيل في قول الشاعر:

الأموال والحصون في الجبال **﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾** أي: متلبسة بالحق، وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح، وقيل: المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما في قوله سبحانه: **﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾** [النجم: 31]. وقيل: المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل **﴿وإن الساعة لأتية﴾** وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب، ويحسن إلى من يستحق الإحسان، وفيه وعيد للعصاة وتهديد، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يصفح عن قومه، فقال: **﴿فاصفح للصفح الجميل﴾** أي: تجاوز عنهم واعف عفوا حسنا؛ وقيل: فاعرض عنهم إعراضاً جميلاً ولا تعجل عليهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف **﴿إن ربك هو الخالق للعليم﴾** أي: الخالق للخلق جميعاً العليم بأحوالهم وبالصالح والظالم منهم.

وقد أخرج ابن مريويه، وابن عساكر عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿إن مدين وأصحاب الآية أمتان بعث الله إليهما شعبياً﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: أصحاب الآية هم قوم شعيب، والآية ذات أجام وشجر كانوا فيها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الآية الغيضة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: أصحاب الآية أهل مدين، والآية الملتفة من الشجر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الآية مجمع الشيء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال في قوله: **﴿وإنهما لبإمام مبين﴾** طريق ظاهر. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في أصحاب الحجر قال: أصحاب الوادي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: كان أصحاب الحجر ثمود وقوم صالح. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر: **﴿لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم﴾**. وأخرج ابن مريويه عنه قال: **﴿نزل رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القنور باللحم، فأمرهم بإهراق القنور، وعلفوا العجيين الإبل، ثم ارتحل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال: إني أخشى أن يصيبكم مثل الذي أصابهم فلا تدخلوا عليهم﴾**. وأخرج ابن مريويه عن سبرة بن معبد أن النبي ﷺ قال بالحجر لأصحابه: **﴿من عمل من هذا الماء شيئاً فليلقه﴾**، قال: ومنهم من عجن العجيين، ومنهم من حاس الحيس. وأخرج ابن مريويه، وابن النجار عن علي في قوله: **﴿فاصفح للصفح الجميل﴾** قال: الرضا بغير عتاب. وأخرج

إلى الملك القرم وابن الهمام

ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية، وأكثر السبع الطوال مدنية، وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه، وظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ أنه قد تقدم إيتاء السبع على نزول هذه الآية، و«من» في من المثاني للتبعيض أو البيان على اختلاف الأقوال، ذكر معنى تلك الزجاج فقال: هي للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الإشباع. ثم لما بين لرسوله الله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره عن اللذات العاجلة الزائلة فقال: ﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أُزُولًا مِنْهُمْ﴾ أي: لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمنّ لها، والأزواج الأصناف، قاله ابن قتيبة. وقال الجوهري: الأزواج القراء. قال الواحدي: إنما يكون ماداً عينيه إلى الشيء إذا دام النظر نحوه، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه. وقال بعضهم: معنى الآية لا تحسّن أحداً على ما أوتي من الدنيا، وردّ بأن الحسد منهى عنه مطلقاً، وإنما قال في هذه السورة لا تمدنّ بغير واو، لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه، ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعته نهاه عن الالتفات إليهم فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد؛ وقيل: المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فلك الآخرة. والأول أولى، ثم لما نهاه عن أن يمد عينيه إلى أموال الكفار ولا يحزن عليهم. وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم أمره أن يتواضع للمؤمنين، فقال: ﴿وَلْخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَاخْضَعْ لَهَا جَنَاحَ الذِّكْرِ﴾ [الإسراء: 24]، وقول الكميّ:

خفضت لهم مني جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ فجعل ذلك وصفاً لتواضع الإنسان لاتباعه؛ ويقال: فلان خافض الجناح أي: وقور ساكن، والجناحان من ابن آدم جانبيه، ومنه ﴿وَاضْمِ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: 22] ومنه قول الشاعر:

وحسبك فتنة لزعيم قوم يمدّ على أخي سقم جناحا

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي: المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل: المفعول محذوف أي: مفعول أنزلنا، والتقدير: كما أنزلنا على المقتسمين عذاباً، فيكون المعنى: إني أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم كقوله تعالى: ﴿أَنْزَرْتَكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13]؛ وقيل: إن الكاف زائدة، والتقدير: إني أنا النذير المبين أنزرتكم ما أنزلنا على المقتسمين من العذاب؛ وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون، والأولى أن يتعلق بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ لأنه في قوة الأمر بالإنذار.

وقد اختلف في المقتسمين من هم؟ فقال الفراء: هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاققسموا أنقاب مكة وفجأها يقولون لمن دخلها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون، وربما قالوا: ساحر وربما قالوا: شاعر وربما قالوا: كاهن، فقبل لهم: مقتسمين لأنهم اقتصموا هذه الطرق؛ وقيل: إنهم قوم من قريش اقتصموا كتاب الله، فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحرًا، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، قاله قتادة. وقيل: هم أهل الكتاب، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء، فيقول بعضهم: هذه السورة لي وهذه لك، روي هذا عن ابن عباس؛ وقيل: إنهم قسموا كتبهم وفرّقوه وبثّوه وحرّفوه، وقيل: المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: 49]؛ وقيل: تقاسموا إيماناً تحالفوا عليها، قاله الأخفش؛ وقيل: إنهم العاص بن وائل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمّية بن خلف، ومنبه بن الحجاج نكره الماوردي ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ جمع عضة، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أجزاء، فيكون المعنى على هذا: الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة، بعضه شعر، وبعضه سحر، وبعضه كهانة ونحو ذلك؛ وقيل: هو مأخوذ من عضته إذا بهته، فالمحذوف منه الهاء لا الواو، وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها من الحنف فجعلوا ذلك عوضاً عما لحقها من الحنف؛ وقيل: معنى عشرين إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، ومما يؤيد، أن معنى عشرين التفريق، قول رؤية:

وليس دين الله بالعشرين

أي: بالمفرق، وقيل: العضة والعشرين في لغة قريش السحر، وهم يقولون: للساحر عاضه، وللساحرة عاضهة، ومنه قول الشاعر:

أعوذ بربي من السناقشات في عقد العاضهة والعضه
وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لعن العاضهة والمستعضهة، وفسر بالساحرة والمستسحرة، والمعنى: أنهم أكثروا البهت على القرآن، وسموه سحرًا وكذبًا وأساطير الأولين، ونظير عضة في النقصان شفة، والأصل شفهة، وكذلك سنّة، والأصل سنهة. قال الكسائي: العضة الكذب والبهتان، وجمعها عضون. وقال الفراء: إنه مأخوذ من العضاء، وهي شجر يؤذي ويجرح كالشوك، ويجوز أن يراد بالقرآن التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ، ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى أي: جعلوهما أجزاء متفرقة، وهو أحد الأقوال المتقدمة ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْفَقْنَهُمْ لْجَمْعِينَ﴾ أي: لنسأل هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا من الأعمال التي يحاسبون عليها ويسألون عنها؛ وقيل: إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد، والعموم في عما كانوا يعملون، يفيد ما هو أوسع من ذلك؛ وقيل: إن المسؤولين ها هنا هم جميع المؤمنين والعصاة

غاية هي قوله **«حتى يأتيك اليقين»** أي: الموت. قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: يعني الموت لأنه موثق به. قال الزجاج: المعنى اعبد ربك أبداً، لأنه لو قيل: اعبد ربك بغير توقيت لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعاً، فإذا قال: حتى يأتيك اليقين، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عمر في قوله: **«ولقد آتيناك سبعاً من المثاني»** قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب. وأخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن علي بن فضال، وأخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود مثله وزاد: والقرآن العظيم سائر القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال: فاتحة الكتاب استثناها الله لامة محمد، فرفعها في أم الكتاب فانخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحد قبل؛ قيل: فإين الآية السابعة؟ قال: **«بسم الله الرحمن الرحيم»**. وروي عنه نحو هذا من طرق. وأخرج ابن الضريس، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: السبع المثاني فاتحة الكتاب. وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب قال: السبع المثاني **«الحمد لله رب العالمين»**. وروي نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه قال له النبي ﷺ: **«ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت؛ فقال: «الحمد لله رب العالمين» [الفاتحة: 1] هي السبع المثاني والقرآن العظيم»**. وأخرج البخاري أيضاً من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»**، فوجب بهذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الكتاب، ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدمنا. وأخرج ابن مردويه عن عمر قال في الآية: هي السبع الطوال. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله. وأخرج الفريابي، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال في الآية: هي السبع الطوال. وأخرج الدارمي، وابن مردويه عن أبي بن كعب مثله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هي فاتحة الكتاب والسبع الطوال. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: ما أني من القرآن، ألم تسمع لقول الله: **«الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني»** [الزمر: 23]. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: المثاني القرآن يذكر الله القصة الواحدة مراراً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن زياد بن أبي مريم في الآية قال: أعطيتك سبعة أجزاء: مر، وأنه، وبشر، وأنذر، واضرب

والكفار، ويدل عليه قوله: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** [التكاثر: 8]، وقوله: **«وقوفهم إنهم مسؤولون»** [الصفافات: 24]، وقوله: **«إن إلينا إيابهم»** * ثم إن علينا حسابهم [الغاشية: 25 - 26]. ويمكن أن يقال: إن قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف العموم إليهم لا ينافي سؤال غيرهم **«فاصدع بما تؤمر»** قال الزجاج: يقول أظهر ما تؤمر به، أخذ من الصديق وهو الصبح انتهى. وأصل الصدع الفرق والشق، يقال: صدعته فانصدع أي: انشق، وتصدع القوم أي: تفرقوا، ومنه **«يومئذ يصدعون»** [الروم: 43] أي: يتفرقون. قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر أي: أظهر دينك فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر، وقال ابن الأعرابي: معنى اصدع بما تؤمر أي: اقصد؛ وقيل: فاصدع بما تؤمر أي: فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون، والأولى أن الصدع الإظهار، كما قاله الزجاج والفراء وغيرهم. قال النحويون: المعنى بما تؤمر به من الشرائع، وجوزوا أن تكون مصدرية أي: بأمرك وشأنك. قال الواحدي: قال المفسرون: أي أجهز بالأمر أي: بأمرك بعد إظهار الدعوة، وما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات إلى المشركين، فقال: **«واعرض عن المشركين»** أي: لا تبال بهم ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة، ثم أكد هذا الأمر وثبت قلب رسوله بقوله: **«إننا كفيناك المستهزئين»** مع كونهم كانوا من أكابر الكفار، وأهل الشوكة فيهم فإذا كفاه الله أمرهم بجمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى، وهؤلاء المستهزون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن الحارث بن زمة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلائع، كذا قال القرطبي ووافقه غيره من المفسرين. وقد أهلكهم الله جميعاً وكفاهم أمرهم في يوم واحد، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال: **«الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر»** فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء، بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه، ثم توعدهم فقال: **«فسوف يعلمون»** كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه، ثم ذكر تسليية أخرى لرسول الله ﷺ بعد التسليية الأولى بكفايته شرهم ودفعه لمكرهم فقال: **«ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون»** من الأقوال الكفرية المتضمنة للظعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكنب. وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الإنساني، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال: **«فسبح بحمد ربك»** أي: متلبساً بحمده أي: افعل التسبيح المتلبس بالحمد **«وكن من الساجدين»** أي: المصلين فإنك إذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك، ثم أمره بعبادة ربه أي: بالدوام عليها إلى

الخلواني قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوحى إلي أن أجمع المال ولكن من التجارين، ولكن أوحى إلي أن «سبح بحمد ربك وكن من الساجدين». وأعبد ربك حتى ياتيك اليقين». وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مردويه، والديلمي عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه. وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق من طريق عبيد الله بن أبان بن عثمان بن حنيفة بن أس الطائفي قال: حدثني أبان بن عثمان عن أبيه، عن جده يرفعه مثل حديث أبي مسلم الخلواني. وأخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن عبد الله بن عمر «حتى ياتيك اليقين» قال: الموت. وأخرج ابن المبارك عن الحسن مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله.

تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ورواه ابن مردويه عن ابن عباس وعن أبي الزبير. وأخرج النحاس من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منحصر رسول الله ﷺ من أحد، قيل وهي قوله: «وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» [النحل: 126] الآية. وقوله: «واصبر وما صبرك إلا بالله» [النحل: 127] في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد. وقوله: «ثم إن ربك للذين هاجروا» [النحل: 110]. الآية؛ وقيل: الثالثة «ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً» إلى قوله: «بأحسن ما كانوا يعملون» [النحل: 95 - 96].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَن أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْجُدُوا سَجْدَةً وَفَعَلَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ بِرَبِّكَ الْمَلَكَةَ بِالرَّيحِ مِنْ أَمْرِ. عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أُنْزِلُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُفَلُّجٍ فَإِنَّا هُوَ حَصِيْدٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنَّمُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ رَجَعْتُمْ وَنَحْنُ أَنْتَا كُنتُمْ لَكُمْ بَرَكَةٌ تَكُونُوا بِبَيْنِهِ إِلَّا يَشُقُّ الْأَنْشُرُ إِنَّكُمْ لَرِجُوفُ رَجِيمٌ ﴿٦﴾ وَالْحَيَلُ وَالْإِنْفَالُ وَالْحَمِيرُ لَرَكَبِكُمْ وَأَرْبَعَةٌ وَمِثْلُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨﴾

قوله: «أتى امر الله» أي: عقابه للمشركين، وقال جماعة من المفسرين: القيامة. قال الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه؛ وقيل: إن المراد بامر الله حكمه بذلك، وقد وقع وأتى، فاما المحكوم به فإنه لم يقع، لانه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين، فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود؛ وقيل: إن المراد بآتيانه إتيان

الأمثال، وأعد النعم، وأتل نبأ القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: «لَا تَعْبُدُوا عَيْنِيكَ» قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله: «وَأَزْوَاجاً مِنْهُمْ» قال: الأغنياء الأمثال والأشباه. وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال: من أعطي القرآن فمد عينه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألم يسمع إلى قوله: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي»، وإلى قوله: «وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرَ وَابْقَى» [طه: 131] وقد فسر ابن عيينة أيضاً الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، فقال: إن المعنى يستغنى به. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ» قال: اخضع. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: «كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ» الآية قال: هم أهل الكتاب جزؤهم أجزاء فأمروا ببعضه وكفروا ببعضه. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال: عضين فرقاً. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس أنها نزلت في نفر من قريش كانوا يصنون الناس عن رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة. وأخرج الترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي ﷺ في قوله: «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» قال: عن قول لا إله إلا الله. وأخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «فاصدع بما تؤمر» فامضه، وفي علي بن أبي طلحة مقال معروف. وأخرج ابن جرير عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل «فاصدع بما تؤمر» فخرج هو وأصحابه. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هذا أمر من الله لنبيه بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل إليه. وأخرج ابن المنذر عنه «فاصدع بما تؤمر» قال: أعلن بما تؤمر. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم عن ابن عباس «واعرض عن المشركين» قال: نسخه قوله تعالى: «فَاتَّقُوا الْمَشْرِكِينَ» [التوبة: 5]. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وأبو نعيم، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» قال: المستهزئون الوليد بن المغيرة، والأسود بن قوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل، وذكر قصة هلاكهم. وقد روي هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في التاريخ، وابن مردويه، والديلمي عن أبي مسلم

يشركون» أي: ترفع وتقدس عن إشراكهم أو عن شركة الذي يجعلونه شريكا له، ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدمه وخصه بالذكر فقال: ﴿خلق الإنسان﴾ وهو اسم لجنس هذا النوع ﴿من نقطة﴾ من جماد يخرج من حيوان، وهو المني فنقله أطواراً إلى أن كملت صورته، ونفخ فيه الروح وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها ﴿فإذا هو﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿خصيم﴾ أي: كثير الخصومة والمجادلة، والمعنى: أنه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته، ومعنى ﴿مبين﴾ ظاهر الخصومة وأضحها، وقيل: يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل، والمبين هو المفصح عما في ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [يس: 77]. ثم عقب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع، فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها، فقال: ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نعم وأنعام للإبل، ويقال للمجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ومنه قول حسان:

وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء
فعطف الشاء على النعم، وهي هنا الإبل خاصة. قال الجوهري: والنعم واحد الأنعام، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم فقال: ﴿فيها نفع﴾ الدفء: السخانة، وهو ما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، والجملة في محل النصب على الحال ﴿ومنافع﴾ معطوف على نفع، وهي دُرّها وركوبها ونتاجها والحراثة بها ونحو ذلك، وقد قيل: إن الدفء النتاج واللبن، قال في الصحاح: الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها، ثم قال: والدفء أيضاً السخونة، وعلى هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأول فلا بد من حمل المنافع على ما عدها مما ينتفع به منها، وإن حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحاً؛ وقيل: المراد بالمنافع النتاج خاصة؛ وقيل: الركوب ﴿ومنها تاكلون﴾ أي: من لحومها وشحومها؛ وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها؛ وقيل: خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التي فيها، وتقديم الظرف المؤن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل، وغيره نادر ﴿ولكم فيها جمال﴾ أي: لكم فيها مع ما تقدم ذكره جمال، والجمال: ما يتجمل به ويتزين، والجمال: الحسن، والمعنى هنا: لكم فيها تجميل وتزين عند الناظرين إليها ﴿حين تريحون وحين تسرحون﴾ أي: في هذين الوقتين، وهما وقت ردّها من مراعيها، ووقت تسريحها إليها، فالرواح رجوعها بالعشي من المراعي، والسراح مسيرها إلى مراعيها بالغداة، يقال: سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروحاً: إذا غدت بها إلى المرعى، وقدم الراحة على التسريح لأن منظرها عند الراحة أجمل، ونواتها أحسن

مباييه ومقدماته ﴿فلا تستعجلوه﴾ نهاهم عن استعجاله أي: فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت، وقد كان المشركون يستعجلون عذاب الله كما قال النضر بن الحارث ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ [الأنفال: 32]، الآية. والمعنى: قرب أمر الله فلا تستعجلوه، وقد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة، وفي نهيمهم عن الاستعجال تهكم بهم ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تنزه وترفع عن إشراكهم، أو عن أن يكون له شريك، وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب، أو قيام الساعة استهزاء وتكذيباً، فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك، وأنه عاجز عنه والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق، فكان ذلك شركاً ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ قرأ المفضل عن عاصم (تنزل الملائكة)، والأصل تنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الأعشى (تنزل) على البناء للمفعول، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم (تنزل) بالنون، والفاعل هو الله سبحانه. وقرأ الباقر (ينزل الملائكة) بالياء التحتية إلا أن ابن كثير وأبا عمرو يسكتان النون، والفاعل هو الله سبحانه؛ وجه اتصال هذه الجملة بما قبلها أنه ﷺ لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره ونهاهم عن الاستعجال ترونا في الطريق التي علم بها رسول الله ﷺ بذلك، فأخبر أنه علم بها بالوحي على لسان رسل الله سبحانه من ملائكته، والروح: الوحي، ومثله ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [غافر: 15]. وسمي الوحي روحاً لأنه يحيي قلوب المؤمنين، فإن من جملة الوحي القرآن، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد؛ وقيل: المراد أرواح الخلائق؛ وقيل: الروح الرحمة، وقيل: الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح. قال الزجاج: الروح ما كان فيه من الله حياة بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيد: الروح هنا جبريل، وتكون الباء على هذا بمعنى مع، «ومن» في ﴿من أمره﴾ بيانية أي: بأشياء أو مبتدأ من أمره أو صفة للروح، أو متعلق بينزل، ومعنى ﴿على من يشاء من عباده﴾ على من اختصه بذلك، وهم الأنبياء ﴿أن أنذروا﴾. قال الزجاج: ﴿أن أنذروا﴾ بدل من الروح أي: ينزلهم بأن أنذروا، وأن إما مفسرة لأن تنزل الوحي فيه معنى القول، وإما مخففة من الثقيلة وضمير الشأن مقدر أي: بأن الشأن أقول لكم أنذروا أي: أعلموا الناس ﴿فإنه لا إله إلا أنا﴾ أي: مروهم بتوحيدي وأعلموهم ذلك مع تخفيفهم، لأن في الإنذار تخويفاً وتهديداً والضمير في أنه للشأن ﴿فاتقون﴾ الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات، وهو تحذير لهم من الشرك بالله، ثم إن الله سبحانه لما أرشدهم إلى توحيد نكر دلائل التوحيد فقال: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي: أوجدهما على هذه الصفة التي هما عليهما بالحق أي: للدلالة على قدرته ووحديته؛ وقيل: المراد بالحق هنا الفناء والزوال ﴿تعالى﴾ الله ﴿عما

لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب، فعظمت بطونها وانتفخت ضروعها، وخصّ هنين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها لأنها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد، وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجمعة كل واحد منها يرمى في جانب ﴿وتحمل أثقالكم﴾ الأثقال جمع ثقل، وهو متاع المسافرين من طعام وغيره، وسمي ثقلًا لأنه يثقل الإنسان حمله، وقيل: المراد أبدانهم ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس﴾ أي: لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلا بشقّ الأنفس لبعده عنكم، وعدم وجود ما يحمل ما لا بدّ لكم منه في السفر، وظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين؛ وقيل: المراد بالبلد مكة، وقيل: اليمن ومصر والشام لأنها متاجر العرب، وشقّ الأنفس: مشقتها. قرأ الجمهور بكسر الشين، وقرأ أبو جعفر بفتحها. قال الجوهري: والشقّ المشقة، ومنه قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس﴾ وحكى أبو عبيدة بفتح الشين، وهما بمعنى؛ ويجوز أن يكون المفتوح مصدرًا من شققت عليه أشق شقًا، والمكسور بمعنى النصف، يقال: أخذت شق الشاة وشقة الشاة، ويكون المعنى على هذا في الآية: لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب، وقد امتنّ الله سبحانه على عباده بخلق الانعام على العموم، ثم خصّ الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم، والاستثناء من أعمّ العام أي: لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشقّ الأنفس ﴿والخيل والبغال والحمير﴾ بالنصب عطفًا على الانعام أي: وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف، وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع فيها كلها؛ وسميت الخيل خيلًا لاختيالها في مشيها، وواحد الخيل خائل كضائن واحد الضان، وقيل: لا واحد له. ثم علل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله: ﴿لتركبوا﴾ وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعتها لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم كالتحميل عليها ﴿و﴾ عطف ﴿زينة﴾ على محل «لتركبوا» لأنه في محل نصب على أنه علة لخلقها، ولم يقل: لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوا، لأن الركوب فعل المخاطبين، والزينة فعل الزائن وهو الخالق، والتحقق فيه أن الركوب هو المعتبر في المقصود، بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية لأنه يورث العجب، فكانه سبحانه قال: خلقتها لتركبوا فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات. وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب يدلّ على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها، قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الانعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل. قالوا: ولو كان أكل الخيل جائزًا لكان نكره، والامتنان به أولى من نكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه، وقد ذهب إلى هذا مالك وأبو حنيفة، وأصحابهما والأوزاعي،

ومجاهد وأبو عبيدة وغيرهم. وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم إلى حلّ لحوم الخيل، ولا حجة لأهل القول الأوّل في التعليل بقوله: ﴿لتركبوا﴾ لأن نكر ما هو الأغلب من منافعتها لا ينافي غيره، ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى ينكر ويكون نكره أقدم من نكر الركوب. وأيضًا لو كانت هذه الآية تدلّ على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية، وحينئذٍ لا يكون ثم حاجة لتحديد التحريم لها عام خبير، وقد قُدمنا أن هذه السورة مكية، والحاصل أن الأئمة الصحيحة قد دلت على حلّ أكل لحوم الخيل، فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكًا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال، وقد أوضحنا هذه المسألة في مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ أي: يخلق ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدّه ها هنا؛ وقيل: المراد من أنواع الحشرات والهوامّ في أسافل الأرض، وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به؛ وقيل: هو ما أعدّ الله لعباده في الجنة وفي النار مما لم تره عين، ولم تسمع به آذن، ولا خطر على قلب بشر؛ وقيل: هو خلق السوس في النبات والدود في الفواكه؛ وقيل: عين تحت العرش؛ وقيل نهر من النور؛ وقيل: أرض بيضاء، ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع، بل المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به، والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة، لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل، فالمعنى وعلى الله قاصد السبيل أي: هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع؛ وقيل: هو على حذف مضاف، والتقدير: وعلى الله بيان قصد السبيل، والسبيل: الإسلام، وبيانه بإرسال الرسل وإقامة الحجج والبراهين، والقصد في السبيل هو كونه موصلاً إلى المطلوب، فالمعنى: وعلى الله بيان الطريق الموصول إلى المطلوب ﴿ومنها جائر﴾ الضمير في «منها» راجع إلى السبيل بمعنى الطريق، لأنها تذكر وتؤنث، وقيل: راجع إليها بتقدير مضاف أي: ومن جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل عنه، فلا يهتدي به، ومنه قول امرئ القيس:

ومن الطريقة جائر وهدي قصد السبيل ومنه نودخل
وقيل: إن الطريق كناية عن صاحبها، والمعنى: ومنهم جائر عن سبيل الحق أي عادل عنه، فلا يهتدي إليه، قيل: وهم أهل الأهواء المختلفة، وقيل: أهل الملل الكثرية، وفي مصحف عبد الله (ومنكم جائر)، وكذا قرأ علي، ﴿ولو شاء لهداكم لجمعين﴾ أي: ولو شاء أن يهديكم جميعاً إلى الطريق الصحيح، والمنهج الحق لفعل ذلك، ولكنه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق والدلالة عليها ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: 10]. وأما الإيصال إليها بالفعل

لحوم الحمر الاهلية وأثنى في الخيل». وأما ما أخرجه أبو عبيد، وأبو داود، والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير»، ففي إسناداه صالح بن يحيى بن أبي المقدام وفيه مقال. ولو فرضنا أن الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحلّ على أنه يكون أن هذا الحديث المصرّح بالتحريم متقدّم على يوم خيبر فيكون منسوخاً. وأخرج الخطيب وابن عساكر قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيُخْلَقَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: «البرائين». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما خلق الله أرضاً من لؤلؤة بيضاء». ثم ساق من أوصافها ما يدلّ على أن الحديث موضوع، ثم قال في آخره: «فذلك قوله ويخلق ما لا تعلمون». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ يقول: على الله أن يبين الهدى والضلالة ﴿ومنها جائر﴾ قال السبيل المتفرقة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ قال: على الله بيان حاله، وحرامه، وطاعته، ومعصيته ﴿ومنها جائر﴾ قال: من السبل ناكب عن الحق، قال: وفي قراءة ابن مسعود (ومنكم جائر). وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن عليّ أنه كان يقرأ هذه الآية (ومنكم جائر).

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
ثُجُبٌ ۖ يُخْبِتُ لَكُمْ بِهِ الرِّزْقَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَلَدَ
الْقَهَّارَ وَالنَّحْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ خَضِيقًا زَوَالَةً إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا
مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلَبَسًا وَتَمْرًا فَالْآنَ
مَرَاخِرُ فِيهِ وَلِتَسْتَخْرِجُوا مِنْ قَبْلِهِ وَلَكُمْ فِي شُجُرِهِ ﴿١٤﴾ وَأَقْنَى فِي
الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تُبِيدَ بِكُمْ وَاتَّقُوا وَبَسْبُلًا لَكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾
وَعَلَمَاسٍ وَبِالتَّجَمُّمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ
﴿١٧﴾ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهُ لَا تُخَصِّمُوا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ ﴿١٩﴾

لما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال: ﴿هو الذي أنزل من السماء﴾ أي: من جهة السماء، وهي السحاب ﴿ماء﴾ أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو المطر ﴿لكم منه شراب﴾ يجوز أن يتعلق لكم بانزال أو هو خير مقدم، وشراب مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لما ﴿ومنه﴾ في محل نصب على الحال، والشراب اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم، والمعنى:

فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافر، ولا من يستحق النار من المسلمين، وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمناً والبعض كافراً كما نطق بذلك القرآن في غير موضع.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: «لما نزل ﴿اتى امر الله﴾ ذكر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿فلا تستعجلوه﴾ فسكنوا». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص قال: لما نزلت ﴿اتى امر الله﴾ قاموا، فنزلت ﴿فلا تستعجلوه﴾. وأخرج ابن مريويه عن طريق الضحك عن ابن عباس ﴿اتى امر الله﴾ قال: خروج محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿اتى امر الله﴾ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن أمر الله أتى، فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنتظروا ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء، فنزلت ﴿اقرب للناس حسابهم﴾ [الأنبياء: 1] فقالوا: إن هذا يزعم مثلها أيضاً، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء، فنزلت ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ [هود: 8].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿اتى امر الله﴾ قال: الأحكام والحدود والفرائض. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله: ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ قال: بالوحي. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، والبيهقي عنه قال: الروح أمر من أمر الله وخلق من خلق الله، وصورهم على صورة بني آدم، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح، ثم تلا ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ [النبأ: 38]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لكم فيها نفا﴾ قال: الثياب ﴿ومنافع﴾ قال: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: نسل كل دابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وتحمل الثقالكم إلى بلد﴾ يعني: مكة ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ قال: لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد.

وقد ورد في حلّ أكل لحوم الخيل أحاديث منها في الصحيحين وغيرهما، من حديث أسماء قالت: نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلفناه. وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن جابر قال: أطعمنّا رسول الله ﷺ لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية. وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضاً، وهما على شرط مسلم. وثبت أيضاً في الصحيحين من حديث جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن

التسخير ﴿لآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعملون عقولهم في هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرّده وعدم وجود شريك له، وذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، وجمعها ليطابق قوله مسخرات؛ وقيل: إن وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها بخلاف ما تقدّم من الإنبات فإنه آية واحدة، ولا يخلو كل هذا عن تكلف، والاولى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التي أقرّد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار والإفراد باعتبار، فلم يجزها على طريقة واحدة افتناناً وتنبهاً على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلق يقال: ذرأ الله الخلق ينزّوهم ذرأه؛ خلقهم، فهو ذارئ، ومنه الذرية، وهي نسل الثقلين، وقد تقدّم تحقيق هذا، وهو معطوف على النجوم رفعاً ونصباً أي: وسخر لكم ما ذرأ في الأرض، فالمعنى: أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية، وانتصاب مختلفاً الوانه على الحال، والوانه: هيئاته ومناظره، فإن ذرأ هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرّده ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ التسخير لهذه الأمور ﴿لآيَةً﴾ واضحة ﴿لِقَوْمٍ يَنْكُرُونَ﴾ فإن من تذكر اعتبر، ومن اعتبر استدل على المطلوب، قيل: وإنما خصّ المقام الأوّل بالتفكير لإمكان إيراد الشبهة المذكورة؛ وخصّ المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إمطة الشبهة وإراحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له؛ وخصّ المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة، فمن شك بعد ذلك فلا حسّ له، وفي هذا من التكلف ما لا يخفى. والاولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدّم في أفراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر، وبيانه أن كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكير ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية، فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ امتنّ الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيد وجواهر، لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الربّ سبحانه وكمال قدرته، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوّعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال، ومناطات البرهان، ومواضع النظر والاعتبار، ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ المراد به السمك، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة ﴿وَتُسَخَّرُوا مِنْهُ حَلِيَةً﴾

أن الماء النازل من السماء قسمان: قسم يشربه الناس، ومن جملة ماء الآبار والعيون، فإنه من المطر لقوله: ﴿فَسَلَكْهُ يَنْبَاعٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: 21] وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشي. قال الزجاج: كل ما ينبت من الأرض فهو شجر، لأن التركيب يدل على الاختلاط، ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم ببعض، ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ وفيما له ساق. وقال ابن قتيبة: المراد من الشجر في الآية الكلأ، وقيل: الشجر كل ماله ساق كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6]. والعطف يقتضي التغاير، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ماله ساق، وأجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز ﴿فِيهِ تَسْمُونُ﴾ أي: في الشجر ترعون مواشيك، يقال: سامت السائمة تسوم سوماً رعت فهي سائمة، وأسماها أي: أخرجتها إلى الرعي فانا مسيم وهي مسامة وسائمة، وأصل السوم الإبعاد في المرعى. قال الزجاج: أخذ من السومة وهي العلامة، لأنها تؤثر في الأرض علامات برعيها ﴿يَنْبِتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم (نبت) بالنون، وقرأ الباقون بالياء التحتية أي: ينبت الله لكم بذلك الماء الذي أنزله من السماء، وقدّم الزرع لأنه أصل الأغذية التي يعيش بها الناس، وأتبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه وإداما من وجه لكثرة ما فيه من الدهن، وهو جمع زيتونة، ويقال للشجرة نفسها: زيتونة؛ ثم ذكر النخيل لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب أشرف الفواكه، وجمع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المختلفة، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كما أجمال الحيوانات التي لم ينكرها فيما سبق بقوله: ﴿وَيُخَلِّقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8] وقرأ أبي بن كعب (ينبت لكم به الزرع) يرفع الزرع وما بعده ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: الإنزال والإنبات ﴿لآيَةً﴾ عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرّد بالربوبية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في مخلوقات الله ولا يهتمون النظر في مصنوعات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعي حاجاتهم، يتعاقبان دائماً كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به ولا يخرج عن إرادته ولا يهمل السعي في نفعه، وكذا الكلام في تسخير الشمس والقمر والنجوم، فإنها تجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات، ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان؛ ومعنى مسخرات منللات. وقرأ ابن عامر وأهل الشام (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) بالرفع على الابتداء والخبر. وقرأ الباقون بالنصب عطفاً على الليل والنهار، وقرأ حفص عن عاصم برفع النجوم على أنه مبتدأ وخبره مسخرات ﴿بِمَآرِهِ﴾ وعلى قراءة النصب في مسخرات يكون حالاً مؤكدة، لأن التسخير قد فهم من قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾؛ وقرأ حفص في رواية برفع مسخرات مع نصب ما قبله على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي مسخرات ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾

به في سفرهم ليلاً. وقرأ ابن وثاب (وبالنجم) بضم النون والجيم، ومراده النجوم فقصره، أو هو جمع نحو كسقف وسقف؛ وقيل: المراد بالنجم هنا الجدي والفرقدان قاله الفراء؛ وقيل: الشريا، وقيل: العلامات الجبال، وقيل: هي النجوم، لأن من النجوم ما يهتدى به، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها، وذهب الجمهور إلى أن المراد في الآية الاهتداء في الأسفار؛ وقيل: هو الاهتداء إلى القبلة، ولا مانع من حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك. قال الأخفش: ثم الكلام عند قوله ﴿وعلامات﴾ وقوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ كلام منفصل عن الأول؛ ثم لما عند الآيات الدالة على الصانع ووحديته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: ﴿أفمن يخلق﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة ﴿كممن لا يخلق﴾ شيئاً منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها، وهو هذه الأصنام التي تعبدها وتجلونها شركاء لله سبحانه، وأطلق عليها لفظ «من» إجراء لها مجرى أولى العلم جرياً على زعمهم بأنها آلهة، أو مشاكلة لقوله: ﴿أفمن يخلق﴾ لوقوعها في صحبته، وفي هذا الاستفهام من التقرير بالتوبيخ للكفار ما لا يخفى، وما أحقهم بذلك، فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكاً لخالقه: ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ [الأعراف: 190]. ﴿أفلا تذكرون﴾ مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرد به بالربوبية وبديع صنعه فتستدلون بها على ذلك، فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها؛ ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة إلى المكلفين نعم قال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ وقد مر تفسير هذا في سورة إبراهيم، قال العقلاء: إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنقص النعم على الإنسان، وتمنى أن ينقذ الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه ينير بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطبق حصر بعض نعم الله عليه أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر أبنائها؟

يا ربنا هذه نواصينا بيبك خاضعة لعظيم نعمك معترفة بالعجز عن بادية الشكر لشيء منها، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنا واغفر لنا وأسبل نيل سترك على عوارتنا فإنك إن لا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك، فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتهاز عن مناهيك، وما أحسن ما قال من قال:

العفو يرجي من بني آدم فكيف لا يرجي من الرب
فقلت مثيلاً لهذا البيت الذي هو قصر مشيد:

فإنه أرفب بي منهم حسبي به حسبي به حسبي
وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيراً إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال: ﴿إن الله

تلبسونها﴾ أي: لؤلؤاً ومرجاناً كما في قوله سبحانه: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: 22] وظاهر قوله: ﴿تلبسونها﴾ أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي: يجعلونه حلية لهم كما يجوز للنساء، ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله: ﴿تلبسونها﴾ بقوله تلبسه نسائهم، لأنهن من جملتهم، أو لكونهن يلبسها لأجلهم، وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع من جهة كونه تشبيهاً بهن، وقد ورد الشرع بمعنه لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان ﴿وترى للفلك مولخ فيه﴾ أي: ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها. ومخر السفينة: شقها الماء بصدرها. قال الجوهري: مخر السابح: إذا شق الماء بصدره، ومخر الأرض: شقها للزراعة، وقيل: مواخر جوارى، وقيل: معترضة، وقيل: تذهب وتجيء، وقيل: ملجأة. قال ابن جرير: المخر في اللغة: صوت هبوب الريح، ولم يقيد بكونه في ماء ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ معطوف على تستخرجوا، وما بينهما اعتراض، أو على علة محنوفة تقديره لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا، أو على تقدير فعل ذلك لتبتغوا أي: لتتجروا فيه فيحصل لكم الريح من فضل الله سبحانه: ﴿ولعلمكم تشكرون﴾ أي: إذا وجدتم فضله عليكم وإحسانه إليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والأركان. قيل: ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزولة أسباب السفر، بل من غير حركة أصلاً مع أنها في تضاعيف المهالك، ويمكن أن يضم إلى ما نكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له، ثم أرفب هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى فقال: ﴿والقى في الأرض رواسي﴾ أي: جبلاً ثابتة، يقال: رسا يرسو إذا ثبت وأقام، قال الشاعر:

فصبرت عارفة لئلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع
﴿أن تميد بكم﴾ أي: كرامة أن تميد بكم على ما قاله البصريون، أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون، والميد: الاضطراب يميناً وشمالاً، ماد الشيء يميد ميلاً تحرك، ومادت الأغصان تمايلت، وماد الرجل تبحر ﴿وأنهاراً﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً، لأن الإلقاء هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله: ﴿والقيت عليك محبة مني﴾ [طه: 39]. ﴿وسبلاً﴾ أي: وجعل فيها سبلاً وأظهرها وبيتها لأجل تهتدون بها في أسفاركم إلى مقاصدكم. والسبل: الطرق. ﴿وعلامات﴾ أي: وجعل فيها علامات وهي معالم الطرق والمعنى: أنه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ المراد بالنجم الجنس أي: يهتدون

والخطيب عن قتادة ﴿وسبلاً﴾ قال: طرقاتاً ﴿وعلامات﴾ قال: هي النجوم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: علامات النهار الجبال. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن الكلبي ﴿وعلامات﴾ قال: الجبال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس ﴿وعلامات﴾ يعني: معالم الطرق بالنهار ﴿وبالنجم﴾ هم يهتدون ﴿يعني بالليل﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿افمن يخلق كمن لا يخلق﴾ قال: الله هو الخالق الرازق، وهذه الأوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئاً ولا تملك لأهلها ضرراً ولا نفعاً.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنُونُ ﴿١٧﴾ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ كَانُوا يَدْرُسُونَ ﴿٢٠﴾ وَالْآخِرَةُ خُلُوبُهُمْ شُرَكَاءُ لَهُمْ شُكْرُوكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَصيبٌ مِّنْ فَضْلِهِمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ حُرُوفًا أَلْفَبِيَّةً ﴿٢١﴾ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُعْتَبَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تُخْرَجُونَ مِنْ هَاهُنَا قَالُوا اتَّقِ اللَّهَ فَإِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ وَلَئِنَّهُمْ إِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ لَيُنَاسُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ لَيُنَاسُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ لَيُنَاسُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ لَيُنَاسُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ لَيُنَاسُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ لَيُنَاسُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ لَيُنَاسُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا أُنذِرُوا بِآيَةِ اللَّهِ لَيُنَاسُونَ ﴿٣٠﴾

شرح سبحانه في تحقيق كون الأصنام التي أشار إليها بقوله: ﴿كمن لا يخلق﴾ عاجزة على أن يصدر منها خلق شيء فلا تستحق عبادة فقال: ﴿والذين تدعون من دون الله﴾ أي: الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة، وهي أنهم ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ من المخلوقات أصلاً لا كبيراً ولا صغيراً ولا جليلاً ولا حقيراً ﴿وهم يخلقون﴾ أي: وصفتهم أنهم يخلقون، فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره؟ ففي هذه الآية زيادة بيان لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال، بخلاف قوله: ﴿افمن يخلق كمن لا يخلق﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال. وقراءة الجمهور (والذين تدعون) بالمشناة الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله، وروى أبو بكر عن عاصم، وروى هبيرة عن حفص (يدعون) بالتحية، وهي قراءة يعقوب؛ ثم نكر صفة أخرى من صفاتهم فقال: ﴿أموات غير أحياء﴾ يعني: أن هذه الأصنام أجسادها ميتة لا حياة بها أصلاً، فزيادة «غير أحياء» لبيان أنها ليست كبعض الأجساد التي تموت بعد ثبوت الحياة لها بل لا حياة لهذه أصلاً، فكيف يعبدونها وهم أفضل منها؟ لأنهم أحياء ﴿وما يشعرون إيان يبعثون﴾ الضمير في يشعرون للآلهة، وفي يبعثون للكفار الذين يعبدون الأصنام، والمعنى: ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام إيان يبعث عبدهم من الكفار، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من

لغفور رحيم﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه، والقصور عن إحصائها، والعجز عن القيام بأبنائها، ومن رحمته إدامتها عليكم وإبرارها في كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها. اللهم إني أشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان وعهد ما سيسكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان، فقد خصصتني بنعم لم أرها على كثير من خلقك، وإن رأيت منها شيئاً على بعض خلقك لم أر عليه بقيتها، فإني أطيق شكر وكيف أستطيع بآية أدنى شكر أبنائها فكيف أستطيع أعلاها؟ فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها؟ ثم بين لعباده بأنه عالم بجميع ما يصدر منهم لا تخفى عليه منه خافية فقال: ﴿والله يعلم ما تسرون﴾ أي: تضمرونه من الأمور ﴿وما تعلنون﴾ أي: تظهرونه منها، وفيه وعيد وتوعيد وتوبيخ، وتنبيه على أن الإله يجب أن يكون عالماً بالسر والعلانية لا كالأصنام التي يعبدونها، فإنها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر فضلاً عن السرائر فكيف يعبدونها؟

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وما ذرا لكم في الأرض﴾ قال: ما خلق لكم في الأرض مختلفاً من الدواب، والشجر والثمار نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ يعني: حيتان البحر ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ قال: هذا اللؤلؤ. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وهو الذي سخر للبحر لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ قال: هو السمك وما فيه من الدواب. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي جعفر قال: ليس في الحلى زكاة، ثم قرأ ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾. أقول: وفي هذا الاستدلال نظر. والذي ينبغي التعميل عليه أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم، وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف، ولم يرد في الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدل على وجوب الزكاة فيها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿مولخر﴾ قال: جوارى. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿مولخر﴾ قال: تشق الماء بصدرها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿مولخر﴾ قال: السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومبيرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ قال: هي التجارة. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿رواسي﴾ قال: الجبال ﴿أن تميد بكم﴾ قال: حتى لا تميد بكم، كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقر، فأصبحوا صباحاً وقد جعل الله الجبال، وهي الرواسي أوتاداً في الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وسبلاً﴾ قال: السبل هي الطرق بين الجبال. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

كاملة أي قالوا: هذه المقالة لكي يحملوا أوزارهم كاملة. لم يكفر منها شيء لعدم إسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب، وقيل: إن اللام هي لام العقابة، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به كقوله: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: 8]. وقيل: هي لام الأمر **﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾** أي: يحملون بعض أوزار الذين أضلوهم لأن من سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها؛ وقيل: من للجنس لا للتبعية أي: يحملون كل أوزار الذين يضلونهم، ومحل **﴿بغير علم﴾** النصب على الحال من فاعل «يضلونهم» أي: يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه، ولا عارفين بما يلزمهم من الأثام؛ وقيل: إنه حال من المفعول أي: يضلون من لا علم له، ومثل هذه الآية: **﴿وليحملن أثقالهن وثقلاً﴾** مع **﴿الثقل﴾** [العنكبوت: 13]. وقد تقدّم في الأنعام الكلام على قوله: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** [الأنعام: 164] **﴿ألا ساء ما يزرّون﴾** أي: بشئ شيئاً يزرّونه ذلك. ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدمين فقال: **﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾** ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمرود بن كنعان حيث بنى بناءً عظيماً ببابل، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فاهب الله الريح، فخرّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا، والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين من المتقدمين الذين يحاولون إلحاق الضرر بالمحقين؛ ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأن مكربهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم **﴿فاتى الله بنيانهم﴾** أي: أتى أمر الله، وهو الريح التي أخربت بنيانهم. قال المفسرون: أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي **﴿ومن للقواعد﴾** قال الزجاج: من الأساطين، والمعنى: أنه أتاهم أمر الله من جهة قواعد ما فزعزعها **﴿فخرّ عليهم السقف من فوقهم﴾** قرأ ابن أبي هريرة، وابن محيصن (السقف) بضم السين والقاف جميعاً، وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف، وقرأ الباقر (السقف) بفتح السين وسكون القاف، والمعنى: أنه سقط عليهم السقف، لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها. قال ابن الأعرابي، وإنما قال من فوقهم ليعلمك أنهم كانوا حاليين تحته، والعرب تقول خرّ علينا سقف، ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: **﴿من فوقهم﴾** ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: **﴿من فوقهم﴾** أي: عليهم وقع، وكانوا تحته فهلكوا، وما اقلنوا؛ وقيل: إن المراد بالسقف السماء أي: أتاهم العذاب من السماء التي فوقهم؛ وقيل: إن هذه الآية تمثيل لهلاكهم؛ والمعنى: اهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه.

وقد اختلف في هؤلاء الذين خرّ عليهم السقف، فقيل: هو نمرود كما تقدّم، وقيل: إنه بختنصر وأصحابه، وقيل هم

الأمور الظاهرة فضلاً عن الأمور التي لا يعلمها إلا الله سبحانه، وقيل: يجوز أن يكون الضمير في يبعثون للآلئة أي: وما تشعر هذه لأصنام أيان تبعث، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار، ويدل على هذا قوله: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾** [الأنبياء: 98]. وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله: **﴿وهم يخلقون﴾** ثم ابتداء فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون، فيكون الضميران على هذا للكفار، وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جرياً على اعتقاد من يعبدونها بأنها تعقل. وقرأ السلمي (إيان) بكسر الهمزة، وهما لغتان، وهو في محل نصب بالفعل الذي قبله **﴿إلهكم إله واحد﴾** لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان صرح بما هو الحق في نفس الأمر، وهو وحدانيته سبحانه، ثم ذكر ما لأجله أصرّ الكفار على شركهم فقال: **﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾** للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ ولا ينجم فيها تنكير **﴿وهم مستكبرون﴾** عن قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد **﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** قال الخليل: لا جرم كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً أي: حقاً أن الله يعلم ما يسرون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك، وقد مرّ تحقيق الكلام في لا جرم **﴿إنه لا يحبّ للمستكبرون﴾** أي: لا يحبّ هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه، والجملة تعليل لما تضمنته الكلام المتقدم **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾** أي: وإذا قال هؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل ماذا أنزل ربكم؟ أي: أي شيء أنزل ربكم؟ أو ماذا الذي أنزل؟ قيل: القائل النضر بن الحارث والآية نزلت فيه؛ فيكون هذا القول منه على طريق التهكم؛ وقيل: القائل هو من يفد عليه؛ وقيل: القائل المسلمون، فاجاب المشركون المنكرون المستكبرون ف**﴿قالوا أساطير الأولين﴾** بالرفع أي: ما تدعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأولين، أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا: المنزل عليكم أساطير الأولين. وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جواباً من المشركين، وإلا لكان المعنى الذي أنزله ربنا أساطير الأولين والكفار لا يقرّون بالإنزال، ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه؛ وقيل: هو كلام مستأنف أي: ليس ما تدعون إنزاله أيها المسلمون منزلاً بل هو أساطير الأولين؛ وقد جوّز على مقتضى علم النحو نصب أساطير وإن لم تقع القراءة به، ولا بدّ في النصب من التأويل الذي نكرنا أي: أنزل على دعوكم أساطير الأولين، أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية. والأساطير: الأباطيل والتزهات التي يتحدث الناس بها عن القرون الأولى. وليس من كلام الله في شيء ولا مما أنزله الله أصلاً في زعمهم **﴿ليحملوا أوزارهم**

وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فَاتَىٰ اللَّهُ بَنِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ قال: أتاهم أمر الله من أصلها ﴿فَخَزَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنَ فَوْقِهِمْ﴾ والسقف: أعالي البيوت فانتكفت بهم بيوتهم، فاهلكهم الله ودمرهم ﴿وَاتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿تَشَاقُقُونَ فِيهِمْ﴾ قال: تخالفوني.

قَالَ الَّذِينَ أَرَوْا آيَاتِنَا إِلَى الْخِزْيِ الَّذِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا نَارَهُمَا كَبَأَ مَعْلُومٍ مِنْ سَوْءِ بَلَاءِ اللَّهِ عَلَيْهِمَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾ فَأَدْخَلُوا أَكْثَرَ جَهَنَّمَ خَلِيلِيكَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى لِلشَّكَّيِّينَ ﴿١٥١﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّذِيكَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِذِي الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ وَلَيْسَ دَارَ الْمَوْفِقِينَ ﴿١٥٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٥٣﴾ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوتَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٤﴾

قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾ قيل: هم العلماء قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون إلى وعظهم، وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة؛ وقيل: هم الأنبياء، وقيل: الملائكة، والظاهر الأول لأن نكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وإن كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم، بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف ينكرون به هو أشرف من هذا الوصف، وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة، ولا يقدح في هذا جواز الإطلاق، لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط ﴿وَالْخِزْيُ الْيَوْمَ﴾ أي: الذل والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿وَالنِّسَاءُ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ مختص بهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قد تقدم تفسيره، والموصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين، أو بدل منه، أو في محل نصب على الاختصاص، أو في محل رفع على تقدير مبتدأ أي: هم الذين تتوفاهم، وانتصاب ظالمي أنفسهم على الحال ﴿فَالْقَوَاعِدُ السَّلْمُ﴾ معطوف على ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ وما بينهما اعتراض أي: أقرؤا بالربوبية، وانقادوا عند الموت، ومعناه الاستسلام قاله قطرب، وقيل: معناه المسالمة أي: سالموا وتركوا المشاقة قاله الأخفش؛ وقيل: معناه الإسلام أي: أقرؤا بالإسلام وتركوا ما كانوا فيه من الكفر، وجملة ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ يجوز أن تكون تفسيراً للمسلم على أن يكون المراد بالسلام الكلام الدال عليه، ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك، ويكون هذا القول منهم على وجه الجحد والكذب، ومن لم يجوز الكذب على أهل القيامة حملة على أنهم أرادوا أنهم لم يعملوا سوءاً في اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم، ومثله قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم: ﴿يَبْلَىٰ إِنْ اللَّهَ عَلِيمٌ

الْمُقْسِمُونَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ نَكَرَهُمْ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ ﴿وَاتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: الهلاك ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به، بل من حيث أنهم في أمان، ثم بين سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا. فقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ﴾ بإذلالهم النار، ويفضحهم بذلك ويهينهم، وهو معطوف على مقدر أي هذا عذابهم في الدنيا، ثم يوم القيامة يخزيهم ﴿وَيَقُولُ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ تَوْبِيخاً وَتَقْرِيباً﴾ [أَيْنَ شُرَكَائِي] كما تزعمون وتدعون، قرأ ابن كثير من رواية البيهقي (شركاي) من دون همز، وقرأ الباقر باللهمز، ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشَاقُقُونَ فِيهِمْ﴾ قرأ نافع بكسر النون على الإضافة، وقرأ الباقر بفتحها أي: تخاصمونني فيهم والمؤمنين فيهم، وعلى قراءة نافع تخاصمونني فيهم وتعالونني، ادعوهم فلينبهوا عنكم هذا العذاب النازل بكم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا جُرمَ﴾ يقول: بلى. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿لَا جُرمَ﴾ قال: يعني الحق. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: لا كذب. وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبير بطر الحق وغمص الناس». وفي ذم الكبير ومدح التواضع أحاديث كثيرة، وكذلك في إخراج محبة حسن الثوب وحسن النعل، ونحو ذلك من الكبير أحاديث كثيرة. والحاصل أن النبي ﷺ قد بين ماهية الكبير أنه بطر الحق وغمص الناس، فهذا هو الكبير المذموم. وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية: أعني قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها، بل المقام مقام ذكر ماله علاقة بتفسير الكتاب العزيز. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أن ناساً من مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبي الله ﷺ، فإذا مرؤا سالوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبي ﷺ فقالوا: إنما هو أساطير الأولين. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيُحْمَلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ الآية يقول يحملون مع تنويعهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه، وزاد ولا يخفف ذلك عن أطاعهم من العذاب شيئاً. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: نمرود بن كنعان حين بنى الصرح. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمرود أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير،

ومعناه يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون السلام إنذاراً لهم بالوفاة. الثاني أن يكون تبشيراً لهم بالجنة لأن السلام أمان. وقيل: إن الملائكة يقولون: السلام عليك ولي الله إن الله يقرأ عليك السلام **«ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون»** أي: بسبب عملكم. قيل: يحتمل هذا وجهين: الأول أن يكون تبشيراً بدخول الجنة عند الموت، الثاني أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. ولا ينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح: «سندوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمطني الله برحمته». وقد قُمنّا البحث عن هذا.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **«وقيل للذين اتقوا»** قال: هؤلاء المؤمنون، يقال لهم: **«ماذا أنزل ربكم»** فيقولون: **«خيراً للذين أحسنوا»** أي: آمنوا بالله وكتبه وأمروا بطاعته وحثوا عباد الله على الخير ودعوههم إليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«الذين تتوفاهم الملائكة طيبين»** قال: أحياء وأموات قُتروا لهم ذلك.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَأَمَّا لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ شَاةَ اللَّهِ مَا عِدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ قَوْمٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ قَوْمٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَبَدَّلَ عَلَى الْأَرْضِ الْيَمِينِ ﴿١٣٨﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَيَهْتَمُّ مَنْ مَدَى اللَّهُ وَنَهَمُ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَيُؤْذِنُ فِي الْأَرْضِ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ تَحْسَبْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٤٠﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَعَدَ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤١﴾ لِيُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ الْوَحْيَ وَإِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٤٢﴾

قوله: **«هل ينظرون»** الآية هذا جواب شبهة أخرى لمنكري النبوة، فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال: هل ينظرون في تصديق نبوتك **«إلا أن تأتيهم الملائكة»** شاهدين بذلك، ويحتمل أن يقال: إنهم لما طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين أو عدهم الله بقوله: **«هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة»** لقبض ارواحهم **«أو يأتي أمر ربك»** أي: عذابه في الدنيا المستأصل لهم، أو المراد بأمر الله القيامة. وقرأ الأعمش، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (إلا أن يأتيهم الملائكة) بالياء التحتية وقرأ الباقر بالميمنة الفوقية؛ والمراد بكونهم ينظرون أي: ينتظرون إتيان الملائكة

بما كنتم تعملون» أي: بلى كنتم تعملون السوء. إن الله عليم بالذي كنتم تعملونه فجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب شيئاً **«فادخلوا أبواب جهنم»** أي: يقال لهم ذلك عند الموت. وقد تقدّم نكر أبواب جهنم وأن جهنم درجات بعضها فوق بعض، **«والخالدين فيها»** حال مقدرة لأن خلودهم مستقبل **«فلبئس مثوى المتكبرين»** المخصوص بالذم محذوف، والتقدير، لبئس مثوى المتكبرين جهنم، والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الإيمان والعبادة كما في قوله: **«إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون»** [الصفافات: 35]. ثم اتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء، فقال: **«وقيل للذين اتقوا»** وهم المؤمنون **«ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً»** أي: أنزل خيراً. قال الثعلبي: فإن قيل: لم ارتفع الجواب في قوله: **«أساطير الأولين»** وانتصب في قوله: **«خيراً»** فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكانهم قالوا الذي يقولونه محمد هو أساطير الأولين، والمؤمنون آمنوا بالنزول، فقال: أنزل خيراً **«للذين أحسنوا»** في هذه الدنيا حسنة، قيل: هذا من كلام الله عز وجل، وقيل: هو حكاية لكلام الذين اتقوا، فيكون على هذا بدلاً من خيراً، وعلى الأول يكون كلاماً مستأنفاً مسوقاً للمدح للمتقين، والمعنى: للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا حسنة أي: مثوبة حسنة **«ولدار الآخرة»** أي: مثوبتها **«خيراً»** مما أوتوا في الدنيا **«ولنعلم دار المتقين»** دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه، وارتفاع **«جنان عدن»** على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، أو خبر مبتدأ محذوف، وقيل: يجوز أن تكون هي المخصوص بالمدح **«يدخلونها»** هو إما خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، وعلى تقدير تنكير عدن تكون صفة لجنان، وكذلك **«تجري من تحتها الأنهار»** وقيل: يجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ عدن علم، وقد تقدّم معنى جري الأنهار من تحت الجنات **«لهم فيها ما يشاءون»** أي: لهم في الجنات ما تقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرد ذلك **«كذلك يجزي الله المتقين»** أي: مثل ذلك الجزاء يجزيهم، والمراد بالمتقين كل من يتقي الشرك وما يوجب النار من المعاصي. والموصول في قوله: **«الذين تتوفاهم الملائكة طيبين»** في محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله، قرأ الأعمش وحمزة (تتوفاهم) في هذا الموضع، وفي الموضع الأول بالياء التحتية، وقرأ الباقر بالميمنة الفوقية. واختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلاً بما روي عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشاً زعموا أن الملائكة إناث فنكروهم أنتم. وطيبين فيه أقوال: طاهرين من الشرك، أو الصالحين، أو زاكاة أفعالهم وأقوالهم، أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله، أو طيبين الوفاة أي: هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها، وجملة **«يقولون سلام عليكم»** في محل نصب على الحال من الملائكة أي: قائلين سلام عليكم؛

إلى الضلال ﴿فمنهم﴾ أي: من هذه الأمم التي بعث الله إليها رسوله ﴿ومن هدى الله﴾ أي: أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أي: وجبت وثبتت لإصراره على الكفر والعناد. قال الزجاج: أعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة وهو من وراء الإضلال والهداية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ [الأعراف: 30]. وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان وكل ما يدعو إلى الضلال، وأنهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى ومنهم من حقت عليه الضلالة، فكان في ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر الكل بالإيمان، ولا يريد الهداية إلا للبعث، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا. ﴿فسيروا في الأرض﴾ سير معتبرين ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ من الأمم السابقة عند مشاهدتهم لأثارهم كعاد وثمود أي: كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب ثم خصص الخطاب برسوله ﷺ مؤكداً لما تقدم فقال: ﴿إن تحرص على هداهم﴾ أي: تطلب بجهنك ذلك ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ قرأ ابن مسعود وأهل الكوفة (لا يهدي) بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى الله سبحانه أي: فإن الله لا يرشد من أضله، و «من» في موضع نصب على المفعولية. وقرأ الباقون (لا يهدي) بضم حرف المضارعة على أنه مبني للمجهول، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم على معنى أنه لا يهديه هاك كائنات من كان، «ومن» في موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله في الآية الأخرى ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ [الأعراف: 186]. والعائد على القراءتين محذوف أي: من يضل. وروى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى أن معنى ﴿لا يهدي﴾ لا يهتدي كقوله تعالى: ﴿ومن لا يهدي﴾ إلا أن يهدي [يونس: 35]. بمعنى يهتدي. قال أبو عبيد: ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء وليس بمتهم فيما يحكيه. قال النحاس: حكى عن محمد بن يزيد المبرد، كان معنى ﴿لا يهدي من يضل﴾ من علم ذلك منه وسبق له عنده ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله أو ينصرونهم بنفع العذاب عنهم، ثم نكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال: ﴿واقسموا بالله جهد إيمانهم﴾ مصدر في موضع الحال أي: جاهدين ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ من عباده، زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿بلى وعدا عليه حقاً﴾ هذا إثبات لما بعد النفي أي: بلى يبعثهم، و «وعدا» مصدر مؤكد لما دل عليه بلى وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله وعد عباده به، والتقدير وعد البعث وعداً عليه حقاً لا خلف فيه، و «حقاً» صفة لوعد، وكذا عليه فإنه صفة لوعد أي: كائناتاً عليه، أو نصب حقاً على المصدرية: أي حق حقاً ﴿ولكن أكثر الناس

أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر أنهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب وصار منتظراً له، وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة، فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يصنفونه ﴿كنك فعل الذين من قبلهم﴾ أي: مثل فعل هؤلاء من الإصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار فاتاهم أمر الله فهلكوا ﴿وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم بالعذاب فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بما ارتكبه من القبائح، وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما إليه يؤول، وجملة ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ معطوفة على فعل الذين من قبلهم، وما بينهما اعتراض. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله، والمعنى: فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، أو جزاء أعمالهم السيئة ﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل بهم على وجه الإحاطة ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: العذاب الذي كانوا به يستهزئون أو عقاب استهزائهم ﴿وقال الذين أشركوا﴾ هذا نوع آخر من كفرهم الذي حكاه الله عنهم، والمراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة ﴿ولو شاء الله ما عبدا من دونه من شيء﴾ أي: لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره ما عبدا ذلك ﴿نحن ولا آبائنا﴾ الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من دين الكفر والشرك بالله. قال الزجاج: إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة الأنعام ﴿ولا حزمنا من دونه من شيء﴾ من السوائب والبيحائر ونحوهما، ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة الطعن في الرسالة أي: لو كان ما قاله الرسول حقاً من المنع من عبادة غير الله، والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حكايًا ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراه منا فإنه قد شاء ذلك وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه كان ذلك ليلياً على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته، مع أنهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرّون به لكنهم قصدوا ما نكرنا من الطعن على الرسل ﴿كنك فعل الذين من قبلهم﴾ من طوائف الكفر فإنهم أشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه وجادلوا رسله بالباطل واستهزؤوا بهم، ثم قال: ﴿فهل على الرسل﴾ الذين يرسلهم الله إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التي رأسها توحيده، وترك الشرك به ﴿إلا البلاغ﴾ إلى من أرسلوا إليهم بما أمروا بتبليغه بلاغاً واضحاً يفهم المرسل إليهم ولا يلتبس عليهم، ثم إنه سبحانه أكد هذا وزاده إيضاحاً فقال: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ كما بعثنا في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: 15] و«أن» في قوله: ﴿إن أعبدوا الله﴾ إما مصدرية أي: بعثنا بأن أعبدوا الله، أو مفسرة لأن في البعث معنى القول: ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ أي: اتركوا كل معبود نون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال الله تعالى سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، أما تكذبيه إياي فقال: وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت، وقلت: بلى وعداً عليه حقاً. وأما سبه إياي، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ﴾ [المائدة: 73]، وقلت: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1 - 4]، هكذا ذكره أبو هريرة موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ يقول: للناس عامة.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤَنَّهُمْ فِي الْأَنْبِيَاءِ حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَوَكَّلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَعَلَّمُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ الْحَقَّ لِتُنَبِّئَ النَّاسَ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْبِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَسَأَلَهُمْ بِمَعْجَنِزٍ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِنْ مَا عَلَنَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فَلِلَّهِ عَنِ الْبَيْتِ وَالْأَسْمَاقِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَرِيرُونَ ﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾

قد تقدم تحقيق معنى الهجرة في سورة النساء، وهي ترك الأهل والأوطان، ومعنى ﴿هاجروا في الله﴾ في شأن الله سبحانه وفي رضاه؛ وقيل: ﴿في الله﴾ في دين الله، وقيل: في بمعنى اللام أي: الله ﴿من بعد ما ظلموا﴾ أي: عذبوا وأهينوا فإن أهل مكة عذبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم، فلما تركوهم هاجروا. وقد اختلف في سبب نزول الآية، فقيل: نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار. واعترض بأن السورة مكية، وذلك يخالف قوله: ﴿والذين هاجروا﴾. وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدمنا في عنوانها، وقيل: نزلت في أبي جندل بن سهيل، وقيل: نزلت في أصحاب محمد ﷺ لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبيشة.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اختلف في معنى هذا على أقوال؛ فقيل: المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس، والحسن، والشعبي، وقتادة؛ وقيل: المراد الرزق الحسن قاله مجاهد؛ وقيل: النصر على عتوهم قاله الضحاك؛ وقيل: ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات؛ وقيل: ما بقي لهم فيها من الثناء وصار لأولادهم من الشرف. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور؛

لا يعلمون﴾ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير. وقوله ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: ليظهر لهم، وهو غاية لما دل عليه بلى من البعث، والضمير في ﴿لهم﴾ راجع إلى من يموت، والموصول في قوله: ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ في محل نصب على أنه مفعول ليبين أي: الأمر الذي وقع الخلاف بينهم فيه، وبيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل، ونزلت عليهم فيه كتب الله؛ وقيل: إن ليبين متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ دِينَهُمْ وَأَنْتَهُمْ يَكْفُرُوا﴾ بالله سبحانه وأنكروا البعث ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَانِثِينَ﴾ في جدالهم وإنكارهم البعث بقولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، وجملة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَيْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء والإعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه. قال الزجاج: أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان، وهذا كقوله: ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. وقرأ ابن عامر، والكسائي (فيكون) بالنصب عطفاً على أن نقول. قال الزجاج: يجوز أن يكون نصباً على جواب كن. وقرأ الباقر بالرفع على معنى: فهو يكون. قال ابن الأنباري: أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد وجد وشهد. وقال الزجاج: إن معنى «لشيء» لأجل شيء فجعل اللام سببية؛ وقيل: هي لام التبليغ، كما في قوله: قلت له قم فقام، و ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ مبتدأ ﴿وَأَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ خبره، وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى: أنه لا يمتنع عليه شيء، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمورية عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال: إنه يلزم منه أحد محالين إما خطاب المعلوم، أو تحصيل لحاصل. وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال: بالموت، وقال في آية أخرى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]، وهو ملك الموت، وله رسل ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وذاك يوم القيامة. وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ قال: من يضل الله لا يهديه أحد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فاتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا، فقال له المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت، فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ الآية. وأخرج ابن العنيلي، وابن مردويه عن علي في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ قال: نزلت في.

يذكر بعلم، والبينات: الحجج والبراهين، والزبر: الكتب. وقد تقدم الكلام على هذا في آل عمران ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ النُّكْرَ﴾ أي القرآن، ثم بين الغاية المطلوبة من الإنزال فقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ جميعاً ﴿مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا النكر من الأحكام الشرعية والوعد والوعيد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إرادة أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم فيتعظروا ﴿أَفَأَمِنَ النَّاسُ مَكْرًا لِّلسَّيِّئَاتِ﴾ يحتمل أن تكون السيئات صفة مصدر محذوف أي: مكروا المكرات السيئات، وإن تكون مفعولة للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أي: عملوا السيئات، أو صفة لمفعول مقدر أي: أفأمن الماكرون العقوبات السيئات، أو على حذف حرف الجر أي: مكروا بالسيئات ﴿أَن يَخْشَفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ هو مفعول آمن، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف، وإن السيئات صفة للمحذوف، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، ومكر السيئات: وسعيهم في إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء أصحابه على وجه الخفية، واحتياهم في إبطال الإسلام، وكيد أهله ﴿أَن يَخْشَفَ اللَّهُ بِهِمُ﴾ كما خسف بقارون، يقال: خسف المكان يخسف خسفاً: ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسفاً أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصاص: 81] وخسف هو في الأرض وخسف به ﴿أَو يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به في حال غفلتهم عنه كما فعل بقوم لوط وغيرهم، وقيل: يريد يوم بدر فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ولم يكن في حسابناهم ﴿أَو يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾.

نكر المفسرون فيه وجوهاً، فقيل: المراد في أسفارهم ومتاجرهم فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض، ويعدمهم عن الأوطان؛ وقيل: المراد في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجود الحيل، فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم؛ وقيل: في حال تقلبهم في الليل على فرشهم، وقيل: في حال إقبالهم وإبصارهم، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار، والقلب بالمعنى الأول مأخوذ من قوله: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: 196]. وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله: ﴿وَقَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ [التوبة: 48]. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ولا ممتنعين ﴿أَو يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: حال تخوف وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه، فهو خلاف ما تقدم من قوله: ﴿أَو يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقيل: معنى ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ على تنقص. قال ابن الأعرابي: أي على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم. قال الواحدي: قال عامة المفسرين: على تخوف قال: تنقص إما بقتل أو بموت، يعني: بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الأول فالأول حتى يأتي الأخذ على جميعهم. قال: والتخوف التنقص، يقال: هو يتخوف المال أي: يتنقصه، ويأخذ من أطرافه، انتهى.

ومعنى ﴿لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي النَّبَاِ حَسَنَةً﴾ لنبيئناهم مباءة حسنة أو تبوئة حسنة، فصنة صفة مصدر محذوف ﴿وَلَا جُرَ الْآخِرَةِ﴾ أي: جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿الْكَبِيرِ﴾ من أن يعلمه أحد من خلق الله قبل أن يشاهده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمَلَكاً كَبِيراً﴾ [الإنسان: 20]. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك، وقيل إن الضمير في «يعلمون» راجع إلى المؤمنين أي: لو رأوا ثواب الآخرة وعابنوه لعلوا أنه أكبر من حسنة الدنيا ﴿النَّاسِ صَبْرًا﴾ الموصول في محل نصب على المدح، أو الرفع على تقدير مبتدأ، أو هو بدل من الموصول الأول، أو من الضمير في «لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ»، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: على ربهم خاصة يتوكلون في جميع أمورهم معرضين عما سواه، والجملة معطوفة على الصلة أو في محل نصب على الحال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾. قرا حفص عن عاصم (نوحى) بالنون، وقرا الباقون (يوحى) بالياء التحتية، وهذه الآية رد على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجل من أن يرسل رسولا من البشر، فرد الله عليهم بأن هذه عادته وسنته أن لا يرسل إلا رجلاً من البشر يوحي إليهم. وزعم أبو علي الجبائي أن معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحى إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة. ويرد عليه بأن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ على صور مختلفة، ولما كان كفار مكة مقرين بأن اليهود والنصارى هم أهل لعلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل صرف الخطاب إليهم وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب، فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فاسألوا أيها المشركون مؤمن أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون فإنهم سيخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً، أو أسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنهم كما يفيد ظاهر فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتُمونه؛ وقيل: المعنى فاسألوا أهل القرآن، و﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ﴾ يتعلق بأرسلنا، فيكون داخلاً في حكم الاستثناء مع رجلاً، وأنكر الفراء ذلك، وقال: إن صفة ما قبل إلا لا تتأخر إلا ما بعدها، لأن المستثنى عنه هو مجموع ما قبل: إلا مع صلتها، كما لو قيل أرسلنا إلا رجلاً بالبينات، فلما لم يصر هذا المجموع منكوراً بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجلاً؛ وقيل: يتعلق بمحذوف دل عليه المذكور أي: أرسلناهم بالبينات والزبر، ويكون جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل: لماذا أرسلهم؟ فقال: أرسلناهم بالبينات والزبر؛ وقيل: متعلق بالبينات والزبر؛ وقيل: متعلق بالبينات والزبر؛ وقيل: متعلق بالبينات والزبر؛ وقيل: بنوحى أي: نوحى إليهم بالبينات والزبر؛ وقيل: منصوب بتقدير أعني، والباء زائدة، وأهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدم. وقال الزجاج: أسألوا كل من

سجداً لله. قال الزجاج: يعني أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة، وقال أيضاً: سجود الجسم انقياده وما يرى من أثر الصنعة ﴿وهم داخرون﴾ في محل نصب على الحال أي: خاضعون صاغرون، والبخور: الصغار والذل، يقال: نخر الرجل فهو داخر وأخره الله، قال الشاعر:

فلم يبق إلا داخر في مخيس ومتحجر في غير أرضك في حجر ومخيس: اسم سجن كان بالعراق ﴿ووه يسجد ما في السفوات وما في الأرض من دابة﴾ أي: له وحده يخضع وينقاد لا لغيره ما في السموات جميعاً، وما في الأرض من دابة تدب على الأرض، والمراد به كل دابة. قال الأخفش: هو كقولك ما أتاني من رجل مثله، وما أتاني من الرجال مثله. وقد نخل في عموم ما في السموات وما في الأرض جميع الأشياء الموجودة فيها، وإنما خصّ الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله: ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ انقياد الجمادات، وعطف الملائكة على ما قبلهم تشريفاً لهم، وتعظيماً لخولهم في المعطوف عليه ﴿وهم لا يستكبرون﴾ أي: والحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم، والمراد الملائكة؛ ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة. وفي هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل يسجد، وما عطف عليه أي: يسجد لله ما في السموات وما في الأرض والملائكة وهم جميعاً لا يستكبرون عن السجود ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم، أو جملة مستأنفة لبيان نفي استكبارهم، ومن آثار الخوف عدم الاستكبار، ومن فوقهم متعلق يخافون على حذف مضاف أي: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، أو يكون حالاً من الرب أي: يخافون ربهم حال كونه من فوقهم، وقيل: معنى ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف: أي يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة إليه، وإنما اقتضى مثل هذه التاويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت في الأذهان، وتقرّرت في القلوب، قيل: وهذه المخافة هي مخافة الإجلال، واختاره الزجاج فقال: ﴿يخافون ربهم﴾ خوف مجلين، ويدل على صحة هذا المعنى قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام: 61]. وقوله إخباراً عن فرعون ﴿وانا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: 127]. ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي: ما يؤمرون به من طاعة الله يعني: للملائكة، أو جميع من تقدّم ذكره، وحمل هذه الجملة على الملائكة أولى، لأن في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته، ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به، كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وإبليس وجنوده.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولنولين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾ قال: هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظلمهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي

يقال: تخوّفه الدهر وتخونه بالفناء والنون: تنقصه، قال نو الرّمة:
لا بل هو الشوق من دار تخوّفها مراسحاب ومرابارح ترب وقال لبيد:

تخوّفها نزولي وارتحالي

أي: تنقص لحمها وشحمها قال الهيثم بن عدي: للتخوّف بالفاء التّقصّ لغة لأزد شنودة، وأشد:

تخوف عبوهم مالي وأمدي سلاسل في الحلق لها صليل وقيل: على تخوّف على عجل قاله الليث بن سعد، وقيل: على تقريب بما قُصّوه من نذوبهم، روي ذلك عن ابن عباس، وقيل: على تخوّف أن يعاقب ويتجاوز قاله قتادة: ﴿فإن ريكم لرعوف رحيم﴾ لا يعاجل، بل يمهّل راقّة بكم ورحمة لكم مع استحقاقهم للعقوبة ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ لما خوّف سبحانه الماكريين بما خوّف أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي ومكانهما، والاستفهام في ﴿أولم يروا﴾ للإنكار، وما مبهم مفسرة بقوله: «من شيء»، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويحيى بن وثاب، والأعمش (تروا) بالمثناة الفوقية على أنه خطاب لجميع الناس؛ وقرأ الباقون بالتحّية بإرجاع الضمير إلى الذين مكروا السيئات، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (تتفئوا ظلاله) بالمثناة الفوقية، وقرأ الباقون بالتحّية، واختارها أبو عبيد: أي يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلص، ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى. قال الأزهري: تفئق الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفئق لا يكون إلا بالعشي وما انصرف عنه الشمس والقمر، والذي يكون بالغداة هو الظل. وقال ثعلب: أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤية قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو في، وما لم تكن عليه للشمس فهو ظل، ومعنى ﴿من شيء﴾ من شيء له ظل، وهي الأجسام، فهو عام أريد به الخاص، وظلاله جمع ظل، وهو مضاف إلى مفرد لأنه واحد يراد به الكثرة ﴿عن اليمين والשמائل﴾ أي: عن جهة أيمانها وشمائلها أي: عن جانبي كل واحد منها. قال الفراء: وحد اليمين، لأنه أراد واحداً من نوات الأظلال، وجمع الشمائل لأنه أراد كلها، لأن ما خلق الله لفظه مفرد ومعناه جمع. وقال الواحدي: وحد اليمين والمراد به الجميع إيجازاً في اللفظ كقوله: ﴿ويولون الدين﴾ [القمر: 45]، وملت الشمائل على أن المراد به الجمع؛ وقيل: إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ [الأنعام: 1]، و ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ [البقرة: 7]، وقيل: المراد باليمين النقطة التي هي مشرق الشمس، وأنها واحدة. والشمائل عبارة عن الانحراف في فلك الإظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة، وإنما عبر عن المشرق باليمين لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه، ومنه تظهر الحركة القوية ﴿يسجداً لله﴾ منتصب على الحال أي: حال كون الظلال

حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلَوْ يَسْجُدُ﴾ الآية قال: لم يدع شيئاً من خلقه إلا عبده له طائفاً أو كارهاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: يسجد من في السموات طوعاً ومن في الأرض طوعاً وكرهاً.

[illegible]

لما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقاد له، خاضعة لجلاله، اتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾^{٤١} فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد وهو الله سبحانه؛ وقد قيل: إن التثنية في إلهين قد دلت على الاتينية، والإفراد في إله قد دلّ على الوحدة، فما وجه وصف إلهين باثنين، ووصف إله واحد؟ فقيل في الجواب: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله، وقيل: إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك، وقيل: إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدّد لا إلى الجنسية، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية بون الواحدية، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها، وإنما خلاف المشركين في الواحدية. ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة التهريب، فقال: ﴿فإياي فارهبون﴾ أي: إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون لا غيري، وقد مرّ مثل هذا في أول البقرة. ثم لما قرّر سبحانه وحدانيته، وأنه الذي يجب أن يخصّ بالرهبة منه والرغبة إليه، نكر أن الكلّ في ملكه وتحت تصرّفه فقال: ﴿وله ما في السموات والأرض﴾ وهذه الجملة مقررة لمن تقدّم في قوله: ﴿وإله يسجد ما في السموات وما في الأرض﴾ [النحل: 49] إلى آخره، وتقديم الخبر لإفادة الاختصاص ﴿وله الدين وأصاب﴾ أي: ثابتاً واجباً دائماً لا يزول، والدين هو الطاعة والإخلاص. قال القراء ﴿وأصاب﴾ معناه دائماً، ومنه قول النولّي:

في ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ لام كي أي: لكي يكفروا بما آتيناكم من نعمة كشف الضر، حتى كان هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم، وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية؛ وقيل: اللام للعاقبة يعني: ما كانت عاقبة تلك التضمرات إلا هذا الكفر. ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَتَمْتَمُوا﴾ بما أنتم فيه من ذلك ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون إليه في الدار الآخرة. ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجوار إلى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به، ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيباً مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه، وقيل: المعنى أنهم أي الكفار يجعلون للأصنام وهم لا يعلمون شيئاً لكونهم جمادات، ففاعل يعلمون على هذا هي الأصنام وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالواو والنون جرياً على اعتقاد الكفار فيها، وحاصل المعنى: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئاً نصيباً من أموالهم التي رزقهم الله إياها ﴿تَنَاسَلُ لِمَا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، وهذا السؤال سؤال توبيخ وتوبيخ ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ تختلقونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلْبَنَاتِ﴾ هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم، وقد كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله ﴿سَبْحَانَهُ﴾ نزه سبحانه نفسه عما نسب إليه هؤلاء الجفافة الذين لا عقول لهم صحيحة ولا أفعالهم مستقيمة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: 44] وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين على أن «ما» في محل نصب بالفعل المقدر، ويجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء. وأنكر النصب الزجاج قال: لأن العرب لا يقولون: جعل له كذا وهو يعني نفسه، وإنما يقولون: جعل لنفسه كذا، فلو كان منصوباً لقال: ولأنفسهم ما يشتهون. وقد أجاز النصب الفراء. ثم ذكر سبحانه كراهتهم للإناث التي جعلوها لله سبحانه فقال: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَى﴾ أي: إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له ﴿فَظَلَّ وَجْهَهُ مَسْوُوداً﴾ أي: متغيراً، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحزناً قاله الزجاج. وقال المارودي: بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: وهو قول الجمهور، والأول أولى، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي، وجملة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في محل نصب

لا ابتغي الحمد القليل بقاؤه بزم يكون الدهر لجمع واصبا أي: دائماً. ودوي عن الفراء أيضاً أنه قال: الواصب الخالص، والأول أولى، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصفافات: 9] أي دائم. وقال الزجاج: أي طاعته واجبة أبداً. ففسر الواصب بالواجب. وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب: أي ليس أحد يطاع إلا انقطع ذلك بزوال أو بهلكة غير الله تعالى فإن الطاعة تدوم له، ففسر الواصب بالدائم، وإذا دام الشيء دوماً لا ينقطع فقد وجب وثبت، يقال: وصب الشيء يصب وصوباً فهو واصب: إذا دام، ووصب الرجل على الأمر: إذا واطب عليه؛ وقيل: الوصب التبع والإعياء أي: يجب طاعة الله سبحانه وإن تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية، والاستفهام في قوله: ﴿أَتَغْيِرُ اللَّهَ تَتَقَوَّنَ﴾ للتقريع والتوبيخ، وهو معطوف على مقدر كما في نظائره، والمعنى: إذا كان الدين: أي الطاعة واجباً له دائماً لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم إيقاعها لغيره. ثم امتن سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقبلون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ﴾ أي: ما يلبسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله أي: فهي منه، فتكون ما شرطية، ويجوز أن تكون موصولة متضمنة معنى الشرط، وبكم صلتها، ومن نعمة حال من الضمير في الجار والمجرور، أو بيان لما. وقوله: ﴿فَمَنْ اللَّهُ﴾ الخبر، وعلى كون ما شرطية يكون فعل الشرط محذوفاً أي: ما يكن، والنعمة إما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإما دنيوية نفسانية، أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية وغيرها، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، والكل من الله سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه، ثم بين تلون الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ أي: إذا مسكم الضر أي مس إلهي الله سبحانه لا إلى غيره تتضرعون في كشفه فلا كاشف له إلا هو، يقال جار يجار في لسان العرب جواراً: إذا رفع صوته في تضرع. قال الأعشى يصف بقرة: فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة وكان للكير أن تطيف وتجارا والضر المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الإنسان ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر «إذا فريق» أي: جماعة منكم بربهم الذين رفع الضر عنهم يشركون فيجعلون معه إلهاً آخر من صنم أو نحوه، والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الإشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له، وهذا المعنى قد تقدم في الأنعام ويونس، ويأتي في سبحان. قال الزجاج: هذا خاص بمكر وكفر، وقابل كشف الضر عنه بالاجود والكفر، وعلى هذا فتكون من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعاً، والفريق هم الكفرة وإن كان الخطاب موجهاً إلى الكفار فمن للبيان، واللام

غيرهم فيشؤم ظلم الظالمين، والله الحكمة البالغة ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، ومثل هذا قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: 25]. وفي معنى هذا أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم يعثوا على نياتهم»، وكذلك حديث الجيش «الذين يخسف بهم في البيداء، وفي آخره: أنهم يبعثون على نياتهم» وقد قَدَّمنا عند تفسير قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ [الأنفال: 25] الآية تحقيقاً حقيقياً بالمرجعة له ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرْهُمْ إِلَى لَاجِلٍ مُسْمًى﴾ معلوم عنده وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم، وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها الإغذار إليهم وإرخاء العنان معهم، ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم ﴿فَإِذَا جَاءَ لِجِلْمِهِمُ﴾ الذي سماه لهم حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك الوقت من دون تقدُّم عليه ولا تأخر عنه، والساعة المدة القليلة، وقد تقدَّم تفسيرها هذا وتحقيقه، ثم نكر نوعاً آخر من جهلهم وحمقهم فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَهِمَّ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات، وهو تكرير لما قد تقدَّم لقصد التأكيد والتقرير، ولزيادة التوبيخ والتقريع ﴿وَتُصَفُّ السِّنْتُهُمُ الْكُذْبُ﴾ هذا من النوع الآخر الذي نكره سبحانه من قبائحهم وهو أي: هذا الذي تصفه السنتهم من الكذب هو قولهم: ﴿أَنْ لَهِمُ الْحَسَنَى﴾ أي: الخصلة الحسنى، أو العاقبة الحسنى. قال الزجاج: يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزء الحسن. قال الزجاج أيضاً والفراء: أبطل من قوله وتصف السنتهم الكذب قوله أن لهم الحسنى، والكذب منصوب على أنه مفعول نصف. وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وابن محيصن (الكذب) برفع الكاف والذال والباء على أنه صفة لللسان وهو جمع كذب، فيكون المفعول على هذا هو أن لهم الحسنى. ثم ردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿لَا جُرمَ أَنْ لَهِمُ النَّارُ﴾ أي: حقاً أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار، وقد تقدَّم تحقيق هذا ﴿وَأَنَّهُمْ مَفْرُطُونَ﴾ قال ابن الأعرابي وأبو عبيدة: أي متروكون منسيون في النار، وبه قال الكسائي والفراء، فيكون مشتقاً من أفرطت فلاناً خلفي: إذا خلفته ونسيته. وقال قتادة والحسن: معجلون إليها مقدمون في دخولها من أفرطته أي: قَدَّمته في طلب الماء، والفراط هو الذي يتقدَّم إلى الماء، والفراط المتقدمون في طلب الماء، والوراد المتأخرون، ومنه قوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»، أي: متقدمكم، قال القطامي:

فاستعجلونا وكانوا من صاحبنا كما تعجل نرطاً لوراد
وقرأ نافع في رواية ورش (مفراطون) بكسر الراء وتخفيفها، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس؛ ومعناه: مسرفون في الذنوب والمعاصي؛ يقال: أفرط فلان على فلان: إذا أربى عليه وقال له أكثر مما قال من الشر. وقرأ أبو

على الحال أي: ممتلئ من الغم غيظاً وحنقاً. قال الأخفش: هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره، وقيل: إنه المغموم الذي يطبق فاه من الغم، مأخوذ من الكلامة وهو سدُّ فم البئر قاله علي بن عيسى، وقد تقدَّم في سورة يوسف ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يتغيب ويختفي ﴿مَنْ سَوءَ مَا بَشَرُ بِهِ﴾ أي: من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له ﴿إِيسْكَه عَلَى هُونٍ﴾ أي: لا يزال متردداً بين الأمرين: وهو إمساك البنت التي بشر بها، أو دفنها في التراب ﴿عَلَى هُونٍ﴾ أي: هوان، وكذا قرأ عيسى الثقفي. قال اليزيدي: والهون الهوان بلغة قريش، وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائي، وحكي عن الكسائي أنه البلاء والمشقة، قالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفوس
س يوم الكريهة أبقي لها
وقال الفراء: الهون القليل بلغة تميم. وحكى النحاس عن الأعمش أنه قرأ (إيسكه على سوء أم يسه في التراب) أي: يخفيه في التراب بالواد كما كانت تفعله العرب، فلا يزال الذي بشر بحدوث الأنثى متردداً بين هذين الأمرين، والتذكير في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ. وقرأ الجحدري (أم يدسها في التراب) ويلزمه أن يقرأ إيسكها، وقيل: نسها إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمدسوس لإخفائه عن الأبصار ﴿الْأَسَاءُ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث أضافوا البنات التي يكرهونها إلى الله سبحانه وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى انفسهم ومثل هذا قوله تعالى: ﴿الْكَمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْإِنثَى * تِلْكَ إِذَا قَسَمَ ضِيزَى﴾ [النجم: 21 - 22]. ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السَّوَةِ﴾ أي: لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبايح الفظيعة مثل السوء أي: صفة السوء من الجهل والكفر بالله؛ وقيل: هو وصفهم الله سبحانه بالصاحبة والولد؛ وقيل: هو حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم وواد البنات لنفع العار وخشية الإملاق؛ وقيل: العذاب والنار ﴿وَاللَّهُ لَمِثْلُ الْأَعْلَى﴾ وهو أصداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجدد الشامل والعلم الواسع، أو التوحيد وإخلاص العبادة، أو أنه خالق رازق قادر مجاز؛ وقيل: شهادة أن لا إله إلا الله وقيل: ﴿اللَّهُ نَورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ [النور: 35]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب فلا يضُرُّه نسبتهم إليه ما لا يليق به ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله. ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ولم يؤاخذهم بظلمهم، فقال: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ والمراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الأرض وإن لم يذكر فقد دلَّ عليها ذكر الناس وذكر الدابة، فإن الجميع مستقرُّون على الأرض، والمراد بالدابة الكافر، وقيل: كل ما دبَّ؛ وقد قيل على هذا كيف يعمُّ بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له؛ وأجيب بإهلاك الظالم انتقاماً منه، وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره، وإن كان من

الشعب عنه قال: كاد الجعل أن يعذب في جحره بنذب ابن آدم. ثم قرأ ﴿وَلَوْ يُولَخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾. وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا عن أنس نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال أبو هريرة: بلى والله إن الحباري لتموت هزلاً في وكراها من ظلم الظالم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿وَيَجْعَلُونَ لَكَ مَا يُكْرَهُونَ﴾ قال: يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لأنفسهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَتُوصَفُ لِمَنْتَهُمْ لِلْكَذِبِ أَنْ لَمْ يَكُنْ الْحَسَنُ﴾ قال: قول كفار قريش لنا البنون وله البنات. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿وَلَهُمْ مَفْرُطُونَ﴾ قال: منسوبون. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة قال: معجلون. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه.

ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَرَثَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامِ وَلَمَنْ مَضَىٰ إِلَيْنَا ﴿١٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ إِلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأَ بِهِ الْأَرْضَ بِمُدَّتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّ لَكُم فِي الْأَنْهَارِ لَآيَةً تُنْفِكُ بِهَا فِي مَطَرِهِ. بَيْنَ يَدَيْ قُرْبَىٰ وَدَرٍ بَيْنَا خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّيْطَانِ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ تَوَلَّىٰ الشَّيْطَانَ وَالْأَعْيُنَ لِنَجْدِهِ مِنْهُ سَكْرًا وَزُفْرًا حَسْبًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَأَنزَلْنَا رَبَّكَ إِلَى الْهَلِيِّ أَوْ الْهَلِيِّ مِنْ الْجِبَالِ مِيْرًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُكًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا ذَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ سَفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

بَيْنَ سَبْحَانَهُ أَنْ مِثْلَ صَنِيعِ قَرِيشٍ قَدْ وَقَعَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، فَقَالَ: مَسْلِيًّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿قَاتِلُوا لَكُمْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: رسلاً ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَهُمْ وَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قريشهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده، فيكون للحال الآتية، ويكون الولي بمعنى الناصر، والمراد نفى الناصر عنهم على إبلغ الوجوه، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة، وإذا كان الناصر منحصرًا فيه لزم أن لا نصرة من غيره، ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين: الأول أن يراد البعض الذي قد مضى، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية. الثاني أن يراد البعض الحاضر، وهو وقت نزول

جعفر القاري (مفرطون) بكسر الراء وتشديد هاء أي: مضيعون أمر الله، فهو من التفريط في الواجب. وقرأ الباقر (مفرطون) بفتح الراء مخففاً، ومعناه: مقدمون إلى النار.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَهُ لِلدِّينِ وَأَصْبَابُ﴾ قال: الدين الإخلاص، وواصباً دائماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح ﴿وَلَهُ لِلدِّينِ وَأَصْبَابُ﴾ قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَصْبَابُ﴾ قال: دائماً. وأخرج الفريابي، وابن جرير عنه: قال: واجباً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿تَجَارُونَ﴾ قال: تتضرعون دعاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: تصيحون بالدعاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ فسوف تعلمون. قال: وعيد. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَكَ مَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية: قال: يعلمون أن الله خلقهم ويضرمهم وينفهمهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم ﴿نُصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية: قال: هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزءوا من أموالهم جزءاً فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية: قال: هو قولهم هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَكَ لِبَنَاتٍ﴾ الآية، يقول: يجعلون لي البنات يرتضونهن لي ولا يرتضونهن لأنفسهم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو نسها في التراب وهي حية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال: يعني به البنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جرير ﴿وَأَمَّ يَسَّه فِي التَّرَابِ﴾ قال: يند ابنته. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ قال: يئس ما حكما، يقول: شيء لا يرضونه لأنفسهم فكيف يرضونه لي. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قال: يقول ليس كمثلته شيء. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿وَمَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ قال: ما سقامه المطر. وأخرج أيضاً عن السدي نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في الآية: قال: قد فعل ذلك في زمن نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلا ما حمل في سفينته. وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود قال: نذوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره، ثم قال: أي والله زمن غرق قوم نوح. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في

مما في بطون ما نكرنا فهو على هذا عائد إلى المنكور. قال الفراء: وهو صواب. وقال المبرد: هذا فاش في القرآن كثير مثل قوله للشمس ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 78] يعني: هذا الشيء الطالع، وكذلك ﴿وَإِنِّي مرسلة إليهم بهدية﴾ [النمل: 35]، ثم قال: ﴿فلما جاء سليمان﴾ [النمل: 36]، ولم يقل: جاءت لأن المعنى جاء الشيء الذي نكرنا انتهى، ومن ذلك قوله: ﴿كَلَّا إِنهَا تَنكُرُهُ * فَمَن شَاءَ نَكَرْهُ﴾ [عبس: 11 - 12] ومثله قول الشاعر:

مثل الفراخ نيفت حواصله

ولم يقل: حواصلها وقول الآخر:

وطاب إلقاح اللبان ويرد

ولم يقل: ويرت وحكي عن الكسائي أن المعنى مما في بطون بعضه وهي الإناث، لأن النكور لا البان لها، وبه قال أبو عبيدة: وحكي عن الفراء أنه قال: النعم والأنعام واحد ينكر ويؤنث، ولهذا تقول العرب: هذه نعم وارد، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام، وهو كقول الزجاج ورجحه ابن العربي فقال: إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع، والتانيث إلى معنى الجماعة، فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة ﴿مَن بَيْنَ فَوْثٍ وَدِمٍّ﴾ الفرث: الزبل الذي ينزل إلى الكرش، فإذا خرج منه لم يسم فرثاً يقال: أقرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها. والمعنى: أن الشيء الذي تاكله يكون منه ما في الكرش، وهو الفرث ويكون منه الدم، فيكون أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه ﴿لَبَنًا﴾ فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع، ويبقى الفرث كما هو ﴿خَالِصًا﴾ يعني: من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحد ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: لنيداً هنيئاً لا يغص به من شربه: يقال: ساغ الشراب يسوغ سوغاً أي: سهل منخله في الحلق ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ قال ابن جرير: التقدير، ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخون، فحنف ما يدل على حنفه قوله: منه. وقيل: هو معطوف على الأنعام، والتقدير: وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة، ويجوز أن يكون معطوفاً على مما في بطونه أي: نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل، ويجوز أن يتعلق بمحنوف دل عليه ما قبله، تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل، ويكون على هذا ﴿تَتَخَنُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾ بياناً للإسقاء وكشفاً عن حقيقة، ويجوز أن يتعلق بتخون، تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخون منه سكرًا، ويكون تكرير الظرف، وهو قوله منه للتأكيد كقولك زيد في الدار فيها، وإنما نكر الضمير في منه لأنه يعود إلى المنكور، أو إلى المضاف المحنوف، وهو العصير، كأنه قيل: ومن عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخون منه، والسكر ما يسكر من الخمر، والرزق الحسن جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والدبس والزبيب والخل، وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر؛ وقيل: إن السكر الخل بلغة الحبشة، والرزق

الآية. والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير في «وليهم» لكفار قريش: أي فهو ولي هؤلاء اليوم، أو على حذف مضاف: أي: فهو ولي أمثال أولئك الأمم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة وهو عذاب النار. ثم نكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة عليهم وإزاحة العلة منهم فقال: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وهذا خطاب لرسول الله ﷺ والمراد بالكتاب القرآن، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال ولا لعل من اللعل إلا لعلة التبیین لهم أي: للناس الذي اختلفوا فيه من التوحيد وأحوال البعث وسائر الأحكام الشرعية، ﴿وَوَهَبْنَا لِمَن يَشَاءُ مِنْهُمْ رِزْقًا﴾ على أنها مفعول لهما معطوفان على محل لتبين، ولا حاجة إلى اللام، لأنهما فعلاً فاعل الفعل المعلن، بخلاف التبيين فإنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ﴿لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله سبحانه ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب. ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده وتفريده بالإلهية بذكر آياته العظام فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب، أو من جهة العلو كما مر أي: نوعاً من أنواع الماء ﴿فَلَحَّا بِيَهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أحيأها بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَإِنزَالٍ وَإِحْيَاءٍ﴾ الآية أي: علامة دالة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم ﴿لَقَوْمٌ يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله ويفهمون ما يتضمنه من العبر، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴿وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾ الأنعام هي الإبل والبقر والغنم وينخل في الغنم المعز، والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة، ومنه ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]. وقال أبو بكر الوارق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، والظاهر أن العبرة هي قوله: ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة. قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (نسقيكم) بفتح النون من سقى يسقي. وقرأ الباقر وحفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقي، قيل: هما لغتان. قال لبيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال
وقرئ بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الأنعام، وقرئ بالتحية على إرجاع الضمير إلى الله سبحانه، وهما ضعيفتان، وجميع القراء على القراءتين الأوليين، والفتح لغة قريش، والضم لغة حمير؛ وقيل: إن بين سقى وأسقى فرقاً، فإذا كان الشراب من يد الساقى إلى فم المسقى فيقال: سقىته، وإن كان بمجرد عرضه عليه وتهيته له قيل: أسقاها. والضمير في قوله: ﴿مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ راجع إلى الأنعام. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. وقال الزجاج: لما كان لفظ الجمع ينكر ويؤنث، فيقال: هو الأنعام، وهي الأنعام جاز عود الضمير بالتذكير. وقال الكسائي معناها

الرزق في الجبال وخلال الشجر، أو اسلكي ما أكلت في سبل ربك أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور عسلاً، أو إذا أكلت الثمار في الامكنة البعيدة فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها، وا نتصاب **﴿ثلاثاً﴾** على الحال من السبل، وهي جمع ثلول أي: من ذللة غير متوعدة، واختار هذا الزجاج وابن جرير؛ وقيل: حال من النحل يعني: مطيعة للتسخير وإخراج العسل من بطونها، واختار هذا ابن قتيبة، وجملة **﴿يخرج من بطونها﴾** مستأنفة عدل به عن خطاب النحل، تعديداً للنعم، وتعجيباً لكل سامع، وتنبيهاً على الغير، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب، والمراد بالـ **﴿شراب﴾** في الآية هو العسل، ومعنى **﴿مختلف ألوانه﴾** أن بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أزرق وبعضه أصفر باختلاف نوات النحل وألوانها وماكولاتها. وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل؛ وقيل: من أسفلها؛ وقيل: لا يدري من أين يخرج منها، والضمير في قوله: **﴿فيه شفاء للناس﴾** راجع إلى الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل، وإلى هذا ذهب الجمهور. وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من السلف: إن الضمير راجع إلى القرآن، ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس، ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين.

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض؟ فقالت طائفة: هو على العموم، وقالت طائفة: إن ذلك خاص ببعض الأمراض، ويدل على هذا أن العسل نكرة في سياق الإثبات فلا يكون عاماً، وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاءً عظيماً لمرض أو أمراض، لا لكل مرض، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم، والظاهر المستفاد من التجربة ومن قوانين علم الطب، أنه إذا استعمل منفرداً كان نواء لأمراض خاصة وإن خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به نواء لكثير من الأمراض. وبالجمله فهو من أعظم الأغذية وأنفع الأدوية، وقليل ما يجتمع هذان الأمران في غيره **﴿إن في ذلك﴾** المذكور من أمر النحل **﴿لاية لقوم يتفكرون﴾** أي: يعملون أفكارهم عند النظر في صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فإن أمر النحل من أعجيبها وأغربها وأنقها وأحكمها.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، وابن مروي عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: **﴿تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا﴾** قال: السكر ما حرم من ثمرتهما، والرزق الحسن ما حل. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، وابن مروي عنه قال: السكر الحرام، والرزق الحسن زبيبته وخله وعنبه ومنافعه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن

الحسن الطعام من الشجرتين؛ وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. والقول الأول أولى وعليه الجمهور، وقد صرح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر، ولم يخالف في ذلك إلا أبو عبيدة فإنه قال: السكر الطعم، ومما يدل على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر:

بش الصحاب وبش الشرب شربهم إذا جرى فيهم الهذي والسكر ومما يدل على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده:

جعلت عيب الأكرمين سكرًا

أي: جعلت ذمهم طعمًا، ورجح هذا ابن جرير فقال: إن السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل **﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾** [يوسف: 86]. قال الزجاج: قول أبي عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه ولا حجة في البيت الذي أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس، وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنذبة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ، قالوا: وإنما يمتن الله على عباده بما أحله لهم لا بما حرّمه عليهم، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر. **﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾** أي لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر في الآيات التكوينية **﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾** قد تقدّم الكلام في الوحي وأنه يكون بمعنى الإلهام، وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، ومنه قوله سبحانه: **﴿ونفس وما سواها﴾** فاللهما فجورها وتقواها **﴿[الشمس: 7 - 8]﴾**. ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها، وقرأ يحيى بن وثاب (إلى النحل) بفتح الحاء. قال الزجاج: وسمي نحلًا لأن الله سبحانه نحل العسل الذي يخرج منه. قال الجوهري: والنحل والنحلة البير يقع على الذكر والأنثى **﴿وان اتخذ من الجبال بيوتًا﴾** أي: بأن اتخذ على أن «أن» هي المصدرية، ويجوز أن تكون تفسيرية لأن في الإيحاء معنى القول، وأنت الضمير في اتخذ لكونه أحد الجائزين كما تقدّم، أو للحمل على المعنى أو لكون النحل جمعاً، وأهل الحجاز يؤنثون النحل «ومن» في من الجبال بيوتاً **﴿و﴾** كذا في **﴿من الشجر و﴾** كذا في **﴿مما يعرشون﴾** للتبعض أي: مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال وتجويف الشجر، وفي العروش التي يعرشها بنو آدم من الأجناح والحيطان وغيرها، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب، يقال: عرش يعرش بكسر الراء وضمها. وبالضم قرأ ابن عامر وشعبة، وقرأ الباقون بالكسر. وقرئ أيضاً بيوتاً بكسر الياء وضمها **﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾** من للتبعض لأنها تاكل النور من الأشجار فإذا أكلتها **﴿فاسلكي سبل ربك﴾** أي: الطرق التي فهمك الله وعلمك، وأضافها إلى الرب لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها أي: انخلي طرق ربك لطلب

المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: السكر النبيذ، والرزق الحسن الزبيب. فنسختها هذه الآية ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: 90]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه أيضاً في الآية قال: فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لانه منه، ثم قال: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك، فأقره الله وجعله حلالاً للمسلمين. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر، فقال: الخمر بعينها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود قال: السكر خمر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ قال: ألهمها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿فَاسْأَلْكَ سَبِيلَ رَبِّكَ ثَلَاثًا﴾ قال: طرقاً لا يتوعد عليها مكان سلكته. وأخرج عبد الرازق، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة ثلثاً قال: مطيعة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: ثلثية. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شُرَابًا﴾ قال: العسل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: هو العسل فيه الشفاء وفي القرآن. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن ابن مسعود قال: إن العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: عليكم بالشفاءين العسل والقرآن. وأخرج ابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وابن السني، وأبو نعيم، والخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن». وقد وردت أحاديث في كون العسل شفاء: منها ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنا أنهي أمتي عن الكي». وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد: «أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أخي استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلاً فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً، قال إذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: صلق الله وكنب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فبرأ».

لما نكر سبحانه بعض أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، وخصائص القدرة القاهرة، أتبعه بعجائب خلق الإنسان وما فيه من العبر فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمَرِ﴾ يقال: رذل يردل رذلة، والأردل والرذالة أردأ الشيء وأوضع. قال النيسابوري: وأعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع: أولها سنُّ النشوء، وثانيها سنُّ الوقوف، وهو سنُّ الشباب، وثالثها سنُّ الانحطاط اليسير، وهو سنُّ الكهولة، ورابعها سنُّ الانحطاط الظاهر، وهو سنُّ الشيخوخة؛ قيل: وأردل العمر هو عند أن يصير الإنسان إلى الخرف، وهو أن يصير بمنزلة الصبي الذي لا عقل له؛ وقيل: خمس وسبعون سنة، وقيل: تسعون سنة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثم رددناه أسفل سافلين ﴿[اليتين: 4 - 5]﴾ ثم علل سبحانه ردُّ من يرد به إلى أردل العمر بقوله: ﴿لَكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كان قد حصل له ﴿شَيْئًا﴾ من العلم لا كثيراً ولا قليلاً أو شيئاً من المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم، وقيل: المراد بالعلم هنا العقل، وقيل: المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك. ثم لما بين سبحانه خلق الإنسان وتقلبه في أطوار العمر ذكر طرفاً من أحواله لعله يتذكر عند ذلك فقال: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعلكم متفاوتين فيه فوسع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفاً مؤلفة من بني آدم، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم وقوة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الأحوال، وقيل: معنى الآية: أن الله سبحانه أعطى الموالى أفضل مما أعطى ممالكهم بليل قوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَازِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم برأدي رزقهم الذي رزقهم الله إياه على ما ملكت أيماهم من الممالك ﴿فَهُمْ﴾ أي: المالكون والمماليك ﴿فِيهِ﴾ أي: في الرزق ﴿سَوَاءٌ﴾ أي: لا يرونه عليهم بحيث يساؤونهم، فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوي مترتب على الترادى أي: لا يرونه عليهم رداً مستتبعاً للتساوي، وإنما يرون عليهم منه شيئاً يسيراً، وهذا مثل ضربه الله سبحانه بعبدة الأصنام أي: إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء والحال أن عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية، فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم، فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه، أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة، نكر معنى هذا ابن جرير،

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمَرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيرٌ ﴿٩١﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَتَعْبُدُونَ اللَّهَ بِمَعْدُونٍ ﴿٩٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْزُلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِهِمْ يَبْنَينَ وَحَدَّثَكُمْ رِزْقَكُمْ مِنَ الْأَنْبَتِ أَفَبِالْأَنْبَتِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْسَوْنَ اللَّهَ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٩٣﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ أَنْشَأَتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَخِيرُونَ ﴿٩٤﴾ فَلَا تَعْبُدُوا إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ يَمْلِكُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

بنين، ومن البنين حفدة ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي تستطيعونها وتستلونها ومن للتعبيض لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا في الجنة، ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿أَقْبِلْ عَلَى الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ والاستفهام للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على مقتر أي: يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل، وفي تقدم «الباطل» على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به، والباطل هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع؛ وقيل: الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما. قرأ الجمهور (يؤمنون) بالتحية، وقرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب ﴿وَيُؤْنِمْهُمُ اللَّهُ هُم يَكْفُرُونَ﴾ أي: ما انعم به عليهم مما لا يحيط به حصر، وفي تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك لا يتجارزه لقصد المبالغة والتأكيد ﴿وَيُعْبِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هو معطوف على يكفرون داخل تحت الإنكار التوبيخي إنكاراً منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام، وهي لا تنفع ولا تضر، ولهذا قال ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ قال الأخفش: إن شيئاً بدل من الرزق، وقال الفراء: هو منصوب بإيقاع الرزق عليه، فجعل رزقاً مصدراً عاملاً في شيئاً، والأخفش جعله اسماً للرزق؛ وقيل: يجوز أن يكون تأكيداً لقوله: «لا يملك» أي: لا يملك شيئاً من الملك، والمعنى: أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقاً أي رزق، ومن السموات والأرض صفة لرزق أي: كائناً منهما، والضمير في ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ راجع إلى ما، وجمع جمع العقلاء بناءً على زعمهم الباطل، والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً باستطاعة التملك بطريق من الطرق، فبين سبحانه أنها لا تملك ولا تستطيع؛ وقيل: يجوز أن يكون الضمير في يستطيعون للكفار أي: لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرفين، فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرف؟ ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه، فقال: ﴿فَلَا تُضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فإن ضارب المثل يشبه حالاً بحال وقصة بقصة. قال الزجاج: لا تجعلوا لله مثلاً لأنه واحد لا مثل له، وكانوا يقولون: إن إله العالم أجل من أن يعيده الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدعون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدعون الملك فنهوا عن ذلك، وعلل النهي بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِعِلْمٍ﴾ ما عليكم من العبادة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما في عبادتها من سوء العاقبة، والتعرض لعذاب الله سبحانه، أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك، وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخاطر باطل وخيال مختل، ويجوز أن يراد فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك.

وقد أخرج ابن جرير عن علي في قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعَمَرِ﴾ قال: خمس وسبعون سنة. وأخرج ابن

ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ضَرْبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم؟ [الروم: 28] وقيل: إن الفاء في «فهم فيه سواء» بمعنى حتى ﴿أَقْبِلْ عَلَى الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك، والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك. وقد قرئ (يجحدون) بالتحية والفوقية. قال أبو عبيدة، وأبو حاتم: وقراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه، ولأنه لو كان خطاباً لكان ظاهره للمسلمين، والاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقتر أي: يشركون به فيجحدون نعمته، ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برأي رزقهم على ممالئكم، بل أنا الذي أرزقهم وإياهم فلا يظنون أنهم يعطونهم شيئاً، وإنما هو رزقي أجريه على أيديهم وهم جميعاً في ذلك سواء لا مزية لهم على ممالئكم، فيكون المعطوف عليه المقتر فعلاً يناسب هذا المعنى، كان يقال: لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله، ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال: ﴿وَوَاللَّهِ جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قال المفسرون: يعني النساء فإنه خلق جؤء من ضلع آدم. أو المعنى: خلق لكم من جنسكم أزواجاً لتستأنسوا بها، لأن الجنس يأنس إلى جنسه ويستوحش من غير جنسه، وبسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذي هو المقصود بالزواج، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ الحفدة جمع حافد، يقال: حفد يحفد حفداً وحفوداً: إذا أسرع، فكل من أسرع في الخدمة فهو حافد، قال أبو عبيدة: الحفد العمل والخدمة. قال الخليل بن أحمد: الحفدة عند العرب الخدم، ومن ذلك قول الشاعر وهو الأعشى:

كلفت مجهولنا نوقاً يمانية إذ الحداة على أكتافها حفدا
أي: الخدم والأعوان. وقال الأزهري: قيل الحفدة أولاد الأولاد، وروي عن ابن عباس، وقيل: الاختان. قاله ابن مسعود، وعلقمة، وأبو الضحى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومنه قول الشاعر:

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت لها حفداً مما تعد كثير
ولكنها نفس علي أبية عيوف لأصهار اللثام قنود

وقيل: الحفدة الأصهار. قال الأصمعي: الختن من كان من قبل المرأة كابنها وأخيها وما أشبههما، والأصهار منهما جميعاً، يقال: أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر؛ وقيل: هم أولاد امرأة الرجل من غيره، وقيل: الأولاد الذين يخدمونه؛ وقيل: البنات الخاديات لأبيهن. ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد، لأنه سبحانه امتن على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة، فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين، وإن كان يجوز أن يكون المعنى: جعل لكم من أزواجكم بنين وجعل لكم حفدة، ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم، وبالحفدة من يخدم الأب منهم، أو يراد بالحفدة البنات فقط، ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية: وجعل لكم من أزواجكم

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ أَفْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أَنْهَانِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَكُمْ ثَمَرَاتُ فَمَا تَشْكُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْكَبِيرِ مُسْحَرَاتٍ فِي جُودِ السَّمَاءِ مَا يُبْسِكُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٨﴾

قوله: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ لما قال سبحانه إن الله يعلم أي: بالمعلومات التي من جملتها كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون؟ علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال فقال: ضرب الله مثلاً أي: ذكر شيئاً يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، وبين ما جعله شريكاً له من الأصنام، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿عبداً مملوكاً﴾ والمثل في الحقيقة هي حالة للعبد عارضة له، وهي المملوكية والعجز عن التصرف، فقوله: ﴿عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ تفسير للمثل وبدل منه، ووصفه بكونه مملوكاً لأن العبد والحرَّ مشتركان في كون كل واحد منهما عبد الله سبحانه، ووصفه بكونه لا يقدر على شيء لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات. فهذا الوصف لتمييزه عنهما ﴿ومن رزقناه﴾ من هي الموصولة، وهي معطوفة على عبد أي: والذي رزقناه ﴿مناً﴾ أي: من جهتنا ﴿ورزقاً حسناً﴾ من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاءوا، والمراد بكون الرزق حسناً أنه مما يحسن في عيون الناس، لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها. والفاء في قوله: ﴿فهو ينفق منه﴾ لترتيب الإنفاق على الرزق أي: ينفق منه في وجوه الخير ويصرف منه إلى أنواع البرِّ والمعروف، وانتصاب ﴿سراً وجهرًا﴾ على الحال أي: ينفق منه في حال السرِّ وحال الجهر؛ والمراد ببيان عموم الإنفاق للآوقات، وتقديم السرِّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه، وإن الثواب فيه أكثر؛ وقيل: إن «من» في ﴿ومن رزقناه﴾ موصوفة كانه قيل: وحرّاً رزقناه ليطابق عبداً ﴿هل يستوون﴾ أي: الحرَّ والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة، وجمع الضمير لمكان من، لأنه اسم مبهم يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمنكر والمؤنث؛ وقيل: إنه أريد بالعبد والموصول الذي هو عبارة عن الحرِّ الجنس؛ أي من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين، والاستفهام للإنكار أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر، ومن المعلوم أنهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه؟ وحاصل المعنى: أنه كما لا يستوي عنكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حرّ قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه، كذلك لا يستوي الربُّ الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع؛ وقيل: المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته، والآخر

أبي حاتم عن السدي قال: هو الخرف. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئاً﴾. وأخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال: العالم لا يخرف. وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح وغيره أنه كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ قال: لم يكونوا ليشاركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشاركون عبيدي معي في سلطاني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: هذا مثل لآلهة الباطل مع الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ قال: خلق آدم، ثم خلق زوجته منه. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿بنيين وحفدة﴾ قال: الحفدة الأختان. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الحفدة الأصهار، وأخرج عنه قال: الحفدة الولد وولد الولد. وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً قال: الحفدة بنو البنيين. وأخرج ابن جرير، عن أبي جمرة قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿بنيين وحفدة﴾ قال: من أعانك فقد حفدك، أما سمعت الشاعر يقول:

حفد الولاد حولهنّ وأسلمت باكفنهنّ أزمة الأجمال
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحفدة بنو امرأة الرجل ليسوا منه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أقبل الباطل يؤمنون﴾ قال: الشرك. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: هو الشيطان ﴿وبنعمة الله﴾ قال: محمد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ويعبدون من نون الله﴾ الآية قال: هذه الأوثان التي تعبد من نون الله لا تملك لمن يعبدها ﴿ورزقاً من السفوات والأرض﴾ ولا خيراً ولا حياة ولا نشوراً ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله سبحانه: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ يعني: اتخاذهم الأصنام، يقول: لا تجعلوا معي إلهاً غيري، فإنه لا إله غيري.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ فَمَا يَرْزُقُ حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْكَافِرُ الَّذِي يَلْ أَعْيُنُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَوْجَيْنِ لَمَّا دَعَاهُمَا أَبَاسُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَهُوَ عَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ الْعَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ

هذين المذكورين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكاً له. ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلين مدح نفسه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يختص ذلك به لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به، والمراد علم ما غاب عن العباد فيهما، أو أراد بغيبيهما يوم القيامة لأن علمه غائب عن العباد، ومعنى الإضافة إليهما التعلق بهما. والمعنى: التوبيخ للمشركين والتقريع لهم أي: أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلاً عاجزاً لا يضر ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ التي هي أعظم ما وقعت فيه الممارة من الغيوب المختصة به سبحانه ﴿إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصَرِ﴾ للمح النظر بسرعة، ولا بد فيه من زمان تتقلب فيه الحدة نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزئة، ولذا قال: ﴿أَوْ هُوَ﴾ أي: أمرهما ﴿أَقْرَبُ﴾ وليس هذا من قبيل المبالغة، بل هو كلام في غاية الصدق، لأن مدة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية، ومنها إلى الأبد غير متناه، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي؛ أو يقال: إن الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها، لأنه يقول للشيء كن فيكون، وقيل: المعنى هي عند الله كذلك وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة، ومثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَهُمْ إِلَهُ الْقُرْبَى﴾ [المعارج: 6 - 7]. ولغظ أو في «أو هو أقرب» ليس للشك بل للتمثيل؛ وقيل: دخلت لشك المخاطب، وقيل: هي بمنزلة بل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدراته. ثم إنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته ونهاية راقته فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أَمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ وهذا معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ منتظم معه في سلك أدلة التوحيد أي: أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء، وجملة لا تعلمون شيئاً في محل نصب على الحال، وقيل: المراد لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق، وقيل: لا تعلمون شيئاً مما قضى به عليكم من السعادة والشقاة، وقيل: لا تعلمون شيئاً من منافعكم والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتباراً بعموم اللفظ، فإن شيئاً نكرة واقعة في سياق النفي. وقرأ الأعمش، وابن وثاب، وحزمة (أمهاتكم) بكسر الهمزة والميم هنا، وفي النور والزمر والنجم، وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. وقرأ الباقرين بضم الهمزة وفتح الميم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: ركب فيكم هذه الأشياء، وهو معطوف على أخرجكم، وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الإخراج لما أن ملول الواو هو مطلق الجمع. والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوباً عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم وتعلموا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه،

هو المؤمن؛ والغرض أنهما لا يستويان في الرتبة والشرف، وقيل: العبد هو الصنم، والثاني عابد الصنم، والمراد أنهما لا يستويان في القدرة والتصرف، لأن الأول جماد، والثاني إنسان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الحمد لله كله، لأنه المنعم لا يستحق غيره من العباد شيئاً منه، فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً ولا نعمة منها أصلاً لا بالأصالة ولا بالتوسط؛ وقيل: أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد؛ وقيل: أراد قل الحمد لله، والخطاب إما لمحمد ﷺ أو لمن رزقه الله رزقاً حسناً، وقيل: إنه لما ذكر مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال: الحمد لله أي: على قوة هذه الحجة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة، ونفي العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم، أو هم يتركون الحق عناداً مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له، وخص الأكثر بنفي العلم؛ إما لكونه يريد الخلق جميعاً، وأكثرهم المشركون، أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل، أو المراد أكثر المشركين، لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم. ثم ذكر سبحانه مثلاً ثانياً ضربه لنفسه، ولما يفيض على عباده من النعم البنية والنزوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع فقال: ﴿وَضُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: مثلاً آخر أوضح مما قبله وأظهر منه، و ﴿رَجُلَيْنِ﴾ بدل من مثل وتفسير له، والأبكم العيي المفحم؛ وقيل: هو الأقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه الذي لا يسمع ولا يبصر، ثم وصف الأبكم فقال: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق، ومعنى ﴿كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ ثقيل على وليه وقرباته وعيال على من يلي أمره ويعوله ووبال على إخوانه، وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله، ومنه قول الشاعر:

أَكْرَبُ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَابِهِ إِذَا كَانَ عَظُمَ الْكَلُّ غَيْرَ شَدِيدٍ
وفي هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقاً، ثم وصفه بصفة رابعة فقال: ﴿إِنَّمَا يُوْجِهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: إذا وجهه إلى أي جهة لا يأت بخير قط. لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول. وقرأ يحيى بن وثاب (إنما يوجه) على البناء للمجهول، وقرأ ابن مسعود (إنما توجه) على صيغة الماضي ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: يأمر الناس بالعدل مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم. ويقدر على التصرف في الأشياء ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط، قابل لأوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للأخر، لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشيء، وحاصل وصفه هذا أنه مستحق أكمل استحقاق، والمقصود الاستدلال بعدم تساوي

ورجلين ﴿الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر، وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام، وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة، وكان الآخر ينهيه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه، والبخاري في تاريخه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً في قوله: ﴿ومن يامر بالعدل﴾ قال: عثمان بن عفان. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿كل﴾ قال: الكل العيال، كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بعير للول، وجعلوا معه نفرًا يسكنونه خشية أن يسقط عليهم، فهو عناء وعذاب وغيال عليهم ﴿هل يستوي هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ يعني: نفسه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾ هو أن يقول: كن فهو كلمح البصر ﴿أو هو أقرب﴾ فالساعة كلمح البصر أو هي أقرب. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿والله لخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ قال: من الرحم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وفي جوف السماء﴾ أي: في كبد السماء.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ اقْبَاسِكُمْ وَأُولَٰئِكَ رِزْقُهَا وَأَشْعَارُهَا أَتَانَا وَمَنْ لَّا يَمِينُ ۖ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَبِيَّكُمْ وَالْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَبِيَّكُمْ بِأَنكُمْ كَذَٰلِكَ يُدْرِكُهُ يَوْمَ تَمُوتُ عَلَيْكُمْ لَقَدْ كُنتُمْ تَسْلُبُونَ ۖ فَإِنَّ تَوْلَا فَاِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْكَلِيمُ ۖ يَمْوَنُونَ يَمْنَتُ اللَّهُ ثُمَّ يَكْفُرُونَ ۖ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٧٧﴾

قوله: ﴿والله جعل لكم﴾ معطوف على ما قبله وهذا المذكور من جملة أحوال الإنسان، ومن تعيد نعم الله عليه، والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع، وهو بمعنى مسكون أي: تسكنون فيها وتهنأ جوارحكم من الحركة. وهذه نعمة، فإن الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطرباً دائماً كالافلاك، ولو شاء لخلقه ساكناً أبداً كالأرض ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ لما ذكر سبحانه بيوت المدن، وهي التي للإقامة الطويلة عقيباً بذكر بيوت البادية والرحلة أي: جعل لكم من جلود الأنعام، وهي الانطاع والأنم بيوتاً كالخيام والقباب ﴿تستخفونها﴾ أي: يخف عليكم حملها في الأسفار وغيرها، ولهذا قال: ﴿يوم ظعنكم﴾ والظعن بفتح العين وسكونها، وقرئ بهما: سير أهل البادية للانتجاع والتحول من موضع إلى موضع، ومنه قول عنترة:

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى ببيتهم الغراب الأبقع والظعن الهودج أيضاً ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً﴾ معطوف على «جعل» أي: وجعل لكم من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها، والأنعام تعم الإبل والبقرة والغنم كما تقدم. والأصواف للغنم، والأوبار للإبل،

والأفئدة جمع فؤاد، وهو وسط القلب منزل منه بمنزلة القلب من الصدر، وقد قدمنا الوجه في إفراء السمع وجمع الأبصار والأفئدة، وهو أن إفراء السمع لكونه مصدراً في الأصل يتناول القليل والكثير ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي: لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له، فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه، أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر. ثم ذكر سبحانه قليلاً آخر على كمال قدرته، فقال: ﴿الم يروا إلى الطير مسخرات﴾ أي: ألم ينظروا إليها حال كونها مسخرات أي: مثللات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة وسائر الأسباب المواتية لذلك كرقعة قوام الهواء وإلهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء ﴿وفي جوف السماء﴾ أي: في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو، وإضافته إلى السماء لكونه في جانبها ﴿ما يمسكن﴾ في الجوف ﴿إلا الله﴾ سبحانه بقدرته الباهرة، فإن ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها، لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها ولا اعتصمت على شيء تحتها. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وابن عامر، وحزمة، ويعقوب (الم تروا) بالفوقية على الخطاب، واختار هذه القراءة أبو عبيد. وقرأ الباقون بالتحتية ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي: إن في ذلك التسخير على تلك الصفة آيات ظاهرات تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿للقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً﴾ الآية قال: يعني الكافر أنه لا يستطيع أن ينفق نفقة في سبيل الله ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ الآية قال: يعني المؤمن وهذا المثل في النفقة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم نحوه باطول منه. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية، وفي قوله: ﴿مثلاً رجلين أحدهما أبكم﴾ قال: كل هذا مثل إله الحق وما تدعون من بونه الباطل. وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: في المثل الأول يعني بذلك الأكله التي لا تملك ضرراً ولا نفعاً ولا تقدر على شيء ينفعها ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً﴾ قال: علانية الذي ينفق سرّاً وجهراً لله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وابن مردويه، وابن عساكر عنه قال: نزلت هذه الآية ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً﴾ في رجل من قريش وعبد بن هشام بن عمرو، وهو الذي ينفق سرّاً وجهراً، وفي عبدة أبي الجوزاء الذي كان ينهيه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم﴾ الآية قال: يعني بالأبكم الذي هو كل على مولاه الكافر ﴿ومن يامر بالعدل﴾ المؤمن، وهذا المثل في الأعمال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عنه أيضاً قال: نزلت هذه الآية ﴿وضرب الله مثلاً

الجراح، وقيل: الخطاب لأهل مكة أي: لعلمكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية، والأولى الحمل على العموم، وإفراد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر ﴿فإن تولوا فإنما عليك لبلاغ للمبين﴾ أي: إن تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئت به فقد تمهد عنك، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم المبين أي: الواضح، وليس عليك غير ذلك، وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلياً له، وجملة ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ استئناف لبيان توليهم أي: هم يعرفون نعمة الله التي عدها، ويعترفون بانها من عند الله سبحانه ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبقاؤهم الباطلة، حيث يقولون: هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام، وحيث يقولون: إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، وأيضاً كونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه، وفي وجوه الخير التي أمرهم الله بصرفها فيها؛ وقيل: نعمة الله نبوة محمد ﷺ كانوا يعرفونه ثم ينكرون نبوته ﴿واكفرهم الكافرون﴾ أي: الجاحدون لنعم الله أو الكافرون بالله، وعبر هنا بالأكثر عن الكل، أو أراد بالأكثر العقلاء نون الأطفال ونحوهم، أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهل، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ووجهوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ [النمل: 14].

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد سكننا قال: تسكنون فيها، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه قال: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ وهي خيام العرب ﴿تستخفونها﴾ يقول: في الحمل ﴿ومتاعاً﴾ يقول بلاغاً ﴿إلى حين﴾ قال: إلى الموت. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿تستخفونها يوم ظعنكم﴾ قال: بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة، وفي قوله: ﴿ووليبارها﴾ قال: الإبل ﴿وولشعارها﴾ قال: الغنم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ثالثاً﴾ قال: الأثاث المتاع. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الأثاث المال ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ يقول: تنتفعون به إلى حين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ قال: من الشجر ومن غيرها ﴿وجعل لكم من الجبال اكثاناً﴾ قال: غارات يسكن فيها ﴿وجعل لكم سرباب تقيكم الحر﴾ قال: من القطن والكتان والصوف ﴿وسرابيل تقيكم باسكم﴾ من الحديد ﴿كنكك يثم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ قال: يعني الثياب، ﴿وسرابيل تقيكم باسكم﴾ قال: يعني الدروع والسلاح ﴿كنكك يثم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ يعني: من الجراحات، وكان

والأشعار للمعز، وهي من جملة الغنم، فيكون نكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها لواحد من الثلاثة، أعني: الإبل، ونوعي الغنم، والأثاث متاع البيت، وأصله الكثرة والاجتماع، ومنه شعر أثيث أي: كثير مجتمع، قال الشاعر: وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنقن النخلة المتعطل قال الخليل أثاث أي: منضمماً بعضه إلى بعض، من أث إذا أكثر، قال الفراء: لا واحد له، والمتاع: ما يتمتع به بأنواع التمتع، وعلى قول أبي زيد الأنصاري: إن الأثاث المال أجمع: الإبل والغنم والعبيد والمتاع، يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام، وقيل: إن الأثاث ما يكتسبه به الإنسان ويستعمله من الغطاء والوطاء، والمتاع ما يفرش في المنازل ويترين به، ومعنى ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا أوطاركم منه، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى الموت، أو إلى القيامة، ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو ابنية يستظل بها لفقر، أو لعارض آخر فيحتاج إلى أن يستظل بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك نبه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وجعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ أي: أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة، والحاصل أن الظلال تعم الأشياء التي تظل؛ ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوي إليه في نزوله، وإلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد، نبه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وجعل لكم من الجبال اكثاناً﴾ وهي جمع كن: وهو ما يستكن به من المطر، وهي هنا الغيران في الجبال، جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها ﴿وجعل لكم سرباب﴾ جمع سربال، وهي القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها، قال الزجاج: كل ما لبسته فهو سربال. ومعنى ﴿تقيكم الحر﴾ تنفع عنكم ضرر الحر، وخص الحر ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر، لأن ما وقى من الحر وقى من البرد. ووجه تخصيص الحر بالذكر أن الوقاية منه كانت أهم عندهم من الوقاية من البرد لغلبة الحر في بلادهم ﴿وسرابيل تقيكم باسكم﴾ وهي الدروع والجواشن يتقون بها الطعن والضرب والرمي. والمعنى: أنها تقيهم لباس الذي يصل من بعضهم إلى بعض في الحرب ﴿كنكك يثم نعمته عليكم﴾ أي: مثل ذلك الإتمام البالغ يثم نعمته عليكم، فإنه سبحانه قد من على عباده بصنوف النعم المذكورة ها هنا وبغيرها، وهو بفضلته وإحسانه سيم لهم نعمة الدين والدنيا ﴿لعلكم تسلمون﴾ إرادة أن تسلموا، فإن من أمعن النظر في هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام والانقياد للحق. وقرأ ابن محيصن، وحמיד (تم نعمته) بتاءين فوقيتين على أن فاعله نعمته، وقرأ الباقر بالتحية على أن الفاعل هو الله سبحانه. وقرأ ابن عباس، وعكرمة (تسلمون) بفتح التاء واللام من السلامة من الجراح، وقرأ الباقر بضم التاء وكسر اللام من الإسلام. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من

ابن عباس يقرؤها تسلمون كما قلنا، وإسناده ضعيف.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّا رَمَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا رَمَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ قَالَتْ لَهُمْ أَلْقُوا إِلَهُهْمُ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٣٩﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَٰةَ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٤١﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِ الْغَيْبِ وَالْأَخْسَنِ إِلَيْنَا ۖ ذِي الشُّرُفِ وَيَتَنَبَّأُ عَنِ الْغَيْبِ وَالشُّكْرِ وَالْبَيِّنَاتِ يَبْطِغُكُمْ لَمَلَكُكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

لما بين سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ثم انكروها، وإن أكثرهم كفارون أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وشهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق، وعليهم بالكفر والجحد والتكذيب ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار، إذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 36] أو في كثرة الكلام، أو في الرجوع إلى دار الدنيا، وإيراد ثم ها هنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الإقنات الكلي أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لأن العتاب إنما يطلب لأجل العود إلى الرضا، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب. والمعنى: أنهم لا يسترضون أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون، وأصل الكلمة من العتب وهو الموجد، يقال: عتب عليه يعتب إذا وجد عليه، فإذا أفاض عليه ما عتب فيه عليه قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرته قيل: أعتبه، والاسم العتبي، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب قاله الهروي، ومنه قول النابغة:

فإن كنت مظلوماً فعبداً ظلمت
وإن كنت ذا عتبي فمثلك يعتب
﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي: وإذا رأى الذين أشركوا العذاب الذي يستحقونه بشركهم، وهو عذاب جهنم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾ ذلك العذاب ﴿عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا هم يمهلون ليتوبوا إذ لا توبة هنالك ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها، لما تقرّر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم من كان يعبد شيئاً فليتبعه، كما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ أي: الذين كنا نعبدهم من دونك. قال أبو مسلم الأصفهاني: مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام

تعللاً بذلك واسترواحاً مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه ﴿فَالْقُوا إِلَهُمُ الْقَوْل﴾ أي: ألقى أولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم إلى المشركين القول ﴿وَإِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي قالوا لهم: إنكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذي هو مقصوبكم من هذا القول. فإن قيل: إن المشركين أشاروا إلى الأصنام ونحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك، وقد كانوا صادقين في ذلك، فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها؟ فالجواب بأن مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا، هؤلاء شركاء الله في المعبودية، فكذبتهم الأصنام في دعوى هذه الشراكة، والأصنام والأوثان وإن كانت لا تقدر على النطق فإن الله سبحانه ينطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم، وهذا كما قالت الملائكة ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبا: 41]. يعنون أن الجِنَّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم ثم ﴿وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي: ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذابه والخضوع لعزته، وقيل: استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم ﴿وَوُضِّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضاع وبطل ما كانوا يفترونه من أن الله سبحانه شركاء وما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم، وإن عبادتهم لهم تقربهم إلى الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم ﴿وَوُضِّلَ عَنْهُمْ﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن طريق الحق، وهي طريق الإسلام والإيمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر؛ وقيل: المراد بالصد عن سبيل الله: الصد عن المسجد الحرام، والأولى العموم. ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله: ﴿وَنُفِثَ عَنْهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي: زادهم الله عذاباً لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذي استحقوه لأجل ضلالهم؛ وقيل: المعنى زينا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم أي: أشد منه؛ وقيل: إن هذه الزيادة هي إخراجهم من النار إلى الزمهرير، وقيل غير ذلك ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾ أي: نبياً يشهد عليهم ﴿مَنْ أَنْفَسَهُمْ﴾ من جنسهم، إتماماً للحجة وقطعاً للمعذرة، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ أي: تشهد على هذه الأمم وتشهد لهم؛ وقيل: على أمتك، وقد تقدّم مثل هذا في البقرة والنساء ﴿وَنُزِّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، والجملة مستأنفة أو في محل نصب على الحال بتقدير قد ﴿تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بياناً له، والتاء للمبالغة، ونظيره من المصادر التلقاء، ولم يأت غيرهما. ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿مَا فُرِطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]. ومعنى كونه تبيناً لكل شيء أن فيه البيان لكثير من الأحكام، والإحالة فيما بقي منها على السنة، وأمرهم باتباع رسوله ﷺ فيما يأتي به من الأحكام، وطاعته كما في الآيات القرآنية الدالة على ذلك، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «إني أوتيت القرآن ومثله معه»، ﴿وَهُدًى﴾ للعباد ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم

أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال: شهيداً نبياً على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا بَكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ قال: نكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فَالْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ قال: حثوهم. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج: ﴿وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ قال: استسلموا. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن ابن مسعود في قوله: ﴿زَيْنَاهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زينوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال. وأخرج ابن مريويه والخطيب عن البراء: «أن النبي ﷺ سئل عن قول الله تعالى: ﴿زَيْنَاهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾، فقال: عقارب أمثال النخل الطوال ينهشونهم في جهنم». وأخرج أبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿زَيْنَاهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل، وبعضها بالنهار، وقد روى ابن مريويه من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «الزيادة خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤس أهل النار: ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار النهار» فلذلك قوله: ﴿زَيْنَاهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إن الله أنزل في هذا الكتاب تبياناً لكل شيء، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن، ثم قرأ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الضريس في فضائل القرآن، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين. وأخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: «كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية». وفي إسناده شهر بن حوشب. وقال ابن كثير في تفسيره: إسناده لا بأس به. وقد أخرجه مطولاً أحمد، والبخاري في الأبواب، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه من حديث ابن عباس. وحسن ابن كثير إسناده. وأخرج الباوردي، وابن السكن، وابن منده، وأبو نعيم في معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير أن هذه الآية لما بلغت أكتف بن صيفي حكيم العرب قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها، ثم قال لقومه: كونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أنبأ، وكونوا فيه أولاً ولا تكونوا فيه آخراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن

﴿وبشرى للمسلمين﴾ خاصة دون غيرهم، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم، لأنهم المنتفعون بذلك. ثم لما ذكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء نكر عقبة آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان؛ فقيل: العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض، وقيل: العدل الفرض، والإحسان النافلة، وقيل: العدل استواء العلانية والسريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية، وقيل: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل، والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإقراط والتفريط؛ فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة؛ ليست بمائلة إلى جانب الإقراط وهو الغلو المذموم في الدين، ولا إلى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو من الدين؛ وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوع، ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها، وقد صرح عن النبي ﷺ أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه، فقال في حديث ابن عمر الثابت في الصحيحين: «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا هو معنى الإحسان شرعاً ﴿وَأَيُّهَا ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم، وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب وترغيب في التصديق عليهم، وهو من باب عطف الخاص على العام إن كان إعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل والإحسان؛ وقيل: من باب عطف المندوب على الواجب، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَأَتَاكَ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: 26]. وإنما خص نبي القربى لأن حقهم أكد، فإن الرحم قد اشتق اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلاته وقطيعتها من قطيعته ﴿وَيُنْهِى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ هي الخصلة المتزايدة في القبح من قول أو فعل، وقيل: هي الزنا؛ وقيل: البخل ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَبْغِي﴾ فقيل هو الكبر، وقيل: الظلم، وقيل: الحقد، وقيل: التعدي، وحقيقته تجاوز الحد فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، وإنما خص بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره ووبال عاقبته، وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْئِكَمُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: 23]، وهذه الآية هي من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿يُعْظَمُ لَكُمْ تَنْكَرُونَ﴾ أي: يعظم بما نكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه، فإنها كافية في باب الوعظ والتذكير، لعلكم تذكرون إرادة أن تتذكروا ما ينبغي تذكركم فتنظروا بما وعظكم الله به.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن

عباس في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض ﴿وَالِاتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ قال: إعطاء ذوي الأرحام الحق الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ قال: الزنا ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: الشرك ﴿وَالْبَغْيِ﴾ قال: الكبر والظلم ﴿وَيُعِظْكُمْ﴾ قال: يوصيكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأب، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: أعظم آية في كتاب الله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]. واجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآيات التي في النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب [الطلاق: 2 - 3]. وأشد آية في كتاب الله رجاء ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أُسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53] الآية. وأخرج البيهقي في الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى آخرها ثم قال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه. وأخرج البخاري في تاريخه من طريق الكلبي عن أبيه قال: مر علي بن أبي طالب بقوم يتحدثون فقال: فيم أنتم؟ قالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فالعدل الإنصاف، والإحسان التفضل، فما بقي بعد هذا؟

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَكْفِلُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلُهُ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيِّمَانًا لَكُمْ مَا تَكُونُونَ أَن تَكُونُوا أَتْمَةً إِنْ أَرَادَ مِنْ أَمْرٍ إِنْكَارٌ بِإِلَهِكُمْ اللَّهُ يَوْمَ وَيَكْفِيَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَوْنَا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَشْهَدَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْضِكُمْ بِبُيُوتِهِمْ وَتَذَرُوا الشُّوَّاهَ مَا سَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

خص سبحانه من جملة المأمورات التي تضمنها قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الوفاء بالعهد فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وظاهره العموم في كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره، وخص هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي ﷺ على الإسلام وهو خلاف ما يفيد العهد

المضاف إلى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله، ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجباً لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفسره بعضهم باليمين، وهو مدفوع بنكر الوفاء بالآيمان بعده حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها، وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالآيمان المؤكدة، لا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذي في نقض ما لم يؤكد منها، يقال: وكذا أكد توكيداً وتأكيداً، وهما لغتان. وقال الزجاج: الأصل الوار والهمزة بدل منها، وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ فقال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، حتى بالغ في ذلك ﷺ فقال: «والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني». وهذه الألفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما، ويخص أيضاً من هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 225 - المائدة: 89] ويمكن أن يكون التقيد بالتوكيد هنا لإخراج إيمان اللغو، وقد تقدم بسط الكلام على الآيمان في البقرة ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي: شهيداً؛ وقيل: حافظاً؛ وقيل: ضامناً؛ وقيل: قريباً لأن الكفيل يراعي حال المكفول به، وقيل: إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مراراً. وحكى القرطبي عن ابن عمر أن التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه ترغيب وترهيب. ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمْ﴾ أي لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتي نقضت غزلها أي: ما غزلته ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد إبرام الغزل وإحكامه، وهو متعلق بنقضت ﴿أَنْكَانًا﴾ جمع نكت بكسر النون ما ينكت فتله. قال الزجاج: انتصب أنكناً على المصدر، لأن معنى نقضت نكتت؛ ورد بأن أنكناً ليس بمصدر، وإنما هو جمع كما ذكرنا. وقال الواحدي: هو منصوب على أنه مفعول ثانٍ كما تقول كسرتة أقطاعاً وأجزاء؛ أي: جعلته أقطاعاً وأجزاء، ويحتمل أن يكون حالاً. قال ابن قتيبة: هذه الآية متعلقة بما قبلها، والتقدير: وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الآيمان، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكناً، وجملة ﴿تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ في محل نصب على الحال. قال الجوهري: والدخل المكر والخديعة، وقال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل، وقيل: الدخل ما أدخل في الشيء على فساده. وقال الزجاج: غشاً وغلاً ﴿إِنْ تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: بأن تكون جماعة هي

أكثر من غيرها في قوة أو عدد، فإن الله يعلم ما تعملون ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيِّمَانًا لَكُمْ مَا تَكُونُونَ أَن تَكُونُوا أَتْمَةً إِنْ أَرَادَ مِنْ أَمْرٍ إِنْكَارٌ بِإِلَهِكُمْ اللَّهُ يَوْمَ وَيَكْفِيَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَكَوْنَا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَشْهَدَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْضِكُمْ بِبُيُوتِهِمْ وَتَذَرُوا الشُّوَّاهَ مَا سَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

خص سبحانه من جملة المأمورات التي تضمنها قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الوفاء بالعهد فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وظاهره العموم في كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره، وخص هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي ﷺ على الإسلام وهو خلاف ما يفيد العهد

أربى من جماعة أي: أكثر عدداً منها وأوفر مالاً. يقال: ربا الشيء يربو إذا كثر. قال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلنتهم وكثرتكم أو لقلنتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالآيمان. قيل: وقد كانت قريش إذا رأوا شركة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم، وقيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي ﷺ ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي: يختبركم بكونكم أكثر وأوفر لينظر هل تتمسكون بخبل الوفاء أم تنقضون اغتراراً بالكثرة؟ فالضمير في به راجع إلى مضمون جملة: أن تكون أمة هي أربى من أمة أي: إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون، أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم ﴿وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم، ويبين الباطل والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه، وفي هذا إنذار وتحذير من مخالفة الحق والركون إلى الباطل، أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار. ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الإيمان فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً مَّفْقَدةً عَلَى الْحَقِّ وَلَكُنْ﴾ بحكم الإلهية ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بخذلاته إياهم عدلاً منه فيهم ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بتوفيقه إياهم فضلاً منه عليهم ﴿لَا يَسَّالُ عَمَّا فَعَلَ﴾ بتوفيقه إياهم عدلاً منه عليهم ﴿لَا يَسَّالُ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال في الدنيا، واللام في وليبينن لكم، وفي ولتسألن هما الموطئتان للقسام. ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الإيمان نهاهم عن نقض آيمان مخصوصة فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا إِيمَانَكُمْ خُلَافاً بَيْنَكُمْ﴾ وهي آيمان البيعة. قال الواحدي: قال المفسرون: وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين، واستلوا على هذا التخصيص بما في قوله: ﴿فَتَزَلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ من المبالغة، وبما في قوله: ﴿وَتَنُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ﴾ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ صَنَعُوا غيرهم عن النحول في الإسلام. وعلى تسليم أن هذه الآيمان مع رسول الله ﷺ هي سبب نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقال جماعة من المفسرين: إن هذا تكرير لما قبله لقصد التأكيد والتقرير، ومعنى ﴿فَتَزَلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزل قدم من اتخذ يمينه خلاً عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها، قيل: وأقر القدم للإيذان بأن زلزل قدم واحد أي قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، ويقال لمن أخطأ في شيء: زلت به قدمه، ومنه قول الشاعر:

تداركتما عبساً وقد ثلَّ عرشها ونبيان قد زلت بأقدامها النعل
﴿وَتَنُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ﴾ أي: تنوقوا العذاب

وقد لخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مزينة بن جابر في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ قال: أنزلت هذه الآية في بيعة رسول الله ﷺ، كأن من أسلم بايع على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الآية، فلا يحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن

وقيل: بالتوفيق إلى الطاعة، قاله الضحاك. وقيل: الحياة الطيبة هي حياة الجنة، روي عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكي عن الحسن أنه قال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة، وقيل: الحياة الطيبة هي السعادة، روي ذلك عن ابن عباس. وقيل: هي المعرفة بالله، حكي ذلك عن جعفر الصادق. وقال أبو بكر الوراق: هي حلاوة الطاعة. وقال سهل بن عبد الله التستري: هي أن ينزع عن العبد تبخير نفسه ويردّ تبديره إلى الحق، وقيل: هي الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق، وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة، لأن حياة الآخرة قد نكرت بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد قَدَّمنا قريباً تفسير الجزء بالأحسن، ووجد الضمير في لنحيينه وجمعه في ولنجزينهم حملاً على لفظ من، وعلى معناه. ثم لما نكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعانة التي تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوسواس الشيطانية فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والفاء لترتيب الاستعانة على العمل الصالح، وقيل: هذه الآية متصلة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]. والتقدير: فإذا أخذت في قراءته فاستعذ قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة: معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن، ومثله: إذا أكلت فقل: بسم الله. قال الواحدي: وهذا إجماع الفقهاء أن الاستعانة قبل القراءة، إلا ما روي عن أبي هريرة، وابن سيرين، ودأود، ومالك، وحزمة من القراء فإنهم قالوا: الاستعانة بعد القراءة، ذهبوا إلى ظاهر الآية، ومعنى فاستعذ بالله: أسأله سبحانه أن يعينك من الشيطان الرجيم أي: من وسأسه، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعانة عند إراتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إراتها أهم، لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى، كذا قيل. وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعانة، لأنه إذا أمر بها لنفع وسأوس الشيطان مع عصمته، فكيف بسائر أمته؟ وقد ذهب الجمهور إلى أن الأمر في الآية للتنبيه. وروي عن عطاء الجوب أخذاً بظاهر الأمر. وقد تقدّم الكلام في الاستعانة مستوفى في أول هذا التفسير، والضمير في ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ للشان أو للشيطان أي: ليس له تسلط ﴿وَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِسْرَءِيلَ﴾ السنين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وحكى الواحدي عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة، وقالوا: المعنى ليس له حجة على المؤمنين في إغرائهم ودعائهم إلى الضلالة، ومعنى ﴿وَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ يَتُوكَلُونَ﴾ يفوضون أموره إلى في كل قول وفعل، فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، وإن وسوس لأحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته، وهذه

أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بِعَدِّ تَوَكُّدِهَا﴾ يقول: بعد تغليظها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن مريويه عن طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشعر والليف، فنزلت فيها هذه الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضُوا غَزَلَهُمْ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص مثله، وفي الروايتين جميعاً أنها كانت مجنونة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي في سبب نزول الآية قال: كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء كانت تغزل فإذا أبرمت غزلها نقضته. وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير معناه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَكُونُ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال: ناس أكثر من ناس. وأخرجوا عن مجاهد في الآية قال: كانوا يحالفون الحلفاء فيجبون أكثر منهم وأعداء، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء الذين هم أعداء فنهوا عن ذلك.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا يَنْ دَكَّرَ أَوْ أُنْزِلَ رُوحٌ مُّؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بَدَأْنَا بِآيَةٍ مُّكَاتٍ ؕ آيَةً ؕ وَاللَّهُ أَهْلُهُ بِمَا يَفْرَكُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَتِّرٌ بَلْ أَكْذَرُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَاتٍ آلِيٍّ لِّيُفْسِدُوا إِلَيْهِمْ فَجَعَلْنَا إِسْرَءِيلَ عَصَىٰ ثِيَابٍ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أَلْفٌ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَالَّذِينَ هُمْ بِالْكَذِبِ

هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح، وتعميم للوعد؛ ومعنى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من عمل عملاً صالحاً أي: عمل كان، وزيادة التمييز بنكر أو أنثى مع كون لفظ «من» شاملاً لهما لقصد التأكيد والمبالغة في تقرير الوعد؛ وقيل: إن لفظ «من» ظاهر في الذكور، فكان في التخصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للوعدين، وجملة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في محل نصب على الحال، جعل سبحانه الإيمان قيداً في الجزء المنكسر لأن عمل الكافر لا اعتداه به لقوله سبحانه: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23]. ثم نكر سبحانه الجزء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: ﴿فَلَنَحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون؟ فقيل: بالرزق الحلال، روي ذلك عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك؛ وقيل: بالقناعة، قاله الحسن البصري، وزيد بن وهب، وهب بن منبه. وروي أيضاً عن عليّ وابن عباس؛

اسمه يعيش، عبد لبني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، وقيل: غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل: هما غلامان: اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتاباً لهم؛ وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل، وقيل: عنوا سلمان الفارسي؛ وقيل: عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام، وكان يقرأ التوراة؛ وقيل: عنوا رجلاً نصرانياً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عداس. قال النحاس: وهذه الأقوال غير متناقضة، لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه، ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال إنه سلمان، لأن هذه الآية مكية، وهو إنما أتى إلى النبي ﷺ بالمدينة. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: **﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾** الإلحاد: الميل، يقال: لحد وألحد أي: مال عن القصد. وقد تقدّم في الأعراف. وقرأ حمزة والكسائي (يلحدون) بفتح اللام والحاء. وقرأ من عداهما بضم اللام وكسر الحاء أي: لسان الذين يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمك أعجمي، يقال: رجل أعجم وامرأة عجماء أي: لا يفصحان، والعجمة الإخفاء، وهي ضدّ البيان، والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً. قال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي: هو العجمي الذي أصله من العجم. وقال أبو علي الفارسي: العجمي المنسوب إلى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم، وكذلك الأعجم، والأعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً **﴿وهذا لسان عربي مبين﴾** الإشارة إلى القرآن، وسماه لساناً لأن العرب تقول للقصيد البيت: لساناً، ومنه قول الشاعر:

لسان الشر تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا
أو أراد باللسان البلاغة فكانه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح، فكيف تزعمون أن بشراً يعلمه من العجم؟ وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه، وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة، وهاتان الجملتان مستانفتان سيقتا لإبطال طعنهم ودفع كذبهم. ولما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم وهدهم فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ﴾** أي: لا يصدقون بها **﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾** إلى الحق الذي هو سبيل النجاة هداية موصلة إلى المطلوب لما علم من شقاوتهم **﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله. ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى رسول الله ﷺ ردّ عليهم بقوله: **﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ﴾** فكيف يقع الافتراء من رسول الله ﷺ، وهو رأس المؤمنين بها، والداعين إلى الإيمان بها، وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها، فهم المفترون للكذب. قال الزجاج: المعنى إنما يفتري الكذب الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة، ثم سماهم الكاذبين. فقال: **﴿وَأُولَٰئِكَ﴾** أي: المتصفون بذلك **﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾** أي: إن

الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة، وهؤلاء الجامعون بين الإيمان والتوكل هم الذين قال فيهم إبليس: **﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** [الحجر: 40] وقال الله فيهم: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** [الحجر: 42] ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان، فقال: **﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾** أي: تسلطه على الإغواء **﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾** أي: يتخذونه ولياً ويطيعونه في وسوسه **﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾** الضمير في به يرجع إلى الله تعالى أي: الذين هم بالله مشركون؛ وقيل: يرجع إلى الشيطان؛ والمعنى: والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله **﴿وَأِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾** هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبه كفرية ودفعها. ومعنى التبديل: رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها، وهو نسخها بآية سواها، وقد تقدّم الكلام في النسخ في البقرة **﴿قَالُوا﴾** أي: كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ **﴿إِنَّمَا أَنْتَ بِأَيِّ مُحَمَّدٍ مَّفْتَرٍ﴾** أي: كاتب مختلق على الله متقول عليه بما لم يقل حيث تزعم أنه أمرك بشيء. ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فردّ الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال: **﴿يَبْلُغُ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** شيئاً من العلم أصلاً، أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ، فإنه مبني على المصالح التي يعلمها الله سبحانه، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره، ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف. ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله، وأن رسوله ﷺ افتراه فقال: **﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾** أي: القرآن المملول عليه بذكر الآية. **﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾** أي: جبريل، والقدس: للتطهير؛ والمعنى: نزله الروح المطهر من أدناس البشرية، فهو من إضافة موصوف إلى الصفة **﴿مِنْ رَبِّكَ﴾** أي: ابتداء تنزيله من عنده سبحانه، و **﴿بِالْحَقِّ﴾** في محل نصب على الحال أي: متلبساً بكونه حقاً ثابتاً لحكمة بالغة **﴿لِيُثَبِّتَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** على الإيمان، فيقولون: كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا، ولأنهم أيضاً إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الإيمان ورسخت عقائدهم. وقرئ (ليثبت) من الإثبات **﴿وَهُدًى وَبَشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾** وهما معطوفان على محل لثبيت أي: تثبيتاً لهم وهداية وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم. ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾** اللام هي الموطئة أي: ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون: إنما يعلم محمداً القرآن بشر من بني آدم غير ملك. وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا، فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة، واسمه جبر، وكان نصرانياً فاسلم، وكان كفار قريش إذا سمعوا من النبي ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أمياً، قالوا: إنما يعلمه جبر، وقيل:

السيوف بمكة، وكانا يقرآن الإنجيل، فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرآن فيقف ويستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، فنزلت هذه الآية.

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعِثَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ أَنصَرَهُمْ وَأَوَّلَيْكَ هُمْ الْفَافِلُونَ ﴿١٩﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَرْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَصَبَّوْا إِيَّاكَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَوْرٌ رَجِيمٌ ﴿٢١﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدُّلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ قد اختلف أهل العلم في إعرابه، فذهب الأكثرون على أنه بدل إما من ﴿إِنْ﴾ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴿[النمل: 104]﴾ وما بينهما اعتراض، والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر، واستثنى منهم المكره فلا يدخل تحت حكم الافتراء. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مِنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: اعتقده وطابت به نفسه واطمان إليه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ وإما من المبتدأ الذي هو ﴿أُولَئِكَ﴾ [النحل: 105] أو من الخبر الذي هو ﴿الكَافِرُونَ﴾ [النحل: 105]، وذهب الزجاج إلى الأول. وقال الأخفش: إن «من» مبتدأ وخبره محذوف اكتفي منه بخبر من الثانية كقولك: من يأتنا منك نكره؛ وقيل: هو أي: «من» في «من كفر» منصوب على الندم؛ وقيل: إن من شرطية والجواب محذوف لأن جواب «من شرح» دال عليه، وهو كقول الأخفش، وإنما خالفه في إطلاق لفظ الشرط على من والجواب على خبرها، فكانه قيل على هذا من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب، وإنما صح استثناء المكره من الكافر مع أنه ليس بكافر لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلا من الكافر لولا الإكراه. قال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر. وحكي عن محمد بن الحسن أنه إذا أظهر الكفر كان مرتداً في الظاهر، وفيما بينه وبين الله على الإسلام، وتبين منه أمراته ولا يصلى عليه إن مات ولا يرث أباه إن مات مسلماً، وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة، وذهب الحسن البصري، والأوزاعي، والشافعي، وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة في هذه الآية إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة، مثل أن يكره على السجود لغير الله ويدفعه ظاهر الآية، فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل، ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول، وخصوص السبب لا

الكذب نعت لازم لهم وعادة من عانتهم فهم الكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الحياة الطيبة المذكورة في الآية فقال: الحياة الطيبة الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا، وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الكسب الطيب والعمل الصالح. وأخرج العسكري في الأمثال عن علي في الآية قال: القناعة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال: القنوع، قال: «وكان رسول الله ﷺ يدعو اللهم قنعتني بما رزقتني وبارك لي فيه، واخلف علي كل غائبة لي بخير». وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه». وأخرج الترمذي، والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به». وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر عن عطاء قال: الاستعانة واجبة لكل قراءة في الصلاة وغيرها من أجل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. وقد ورد في مشروعية الاستعانة عند التلاوة ما لعنا قد قَدَّمْنَا ذكره. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يقول: سلطان الشيطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن مريويه، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةٍ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنْ رِبْكَ لِلثَّانِي هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّاوُكَ﴾ قال: عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ فإزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان رسول الله ﷺ فأجاره. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةٍ﴾ قال: هو كقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسُهَا﴾ [البقرة: 106]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم بمكة قينا اسمه بلعام، وكان أعجمياً، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الآية. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عنه في الآية، قال: قالوا إنما يعلم محمداً عبد بن الحضرمي وهو صاحب الكتب، فأنزل الله هذه الآية. وأخرج آدم بن أبي إياس، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: يسار والآخر جبر، وكان يصنعان

رحيم به، والضمير في بعدها يرجع إلى الفتنة أو إلى المهاجرة والجهاد والصبر، أو إلى الجميع ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ قال الزجاج: يوم تأتي منتصب بقوله: رحيم، أو بإضمار أنكر، أو نكرهم، أو أنزهم، وقد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس، ولا بد من التغيرات بين المضاف والمضاف إليه، وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى جملة بدن الإنسان، وبالنفس الثانية الذات؛ فكان قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهيمه غيرها، ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها، فهو مجادل ومخاصم عن نفسه لا يتفرغ لغيرها يوم القيامة.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: «تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليتناخر إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي، فاصبح بلال المؤمن، وخباب، وعمار، وجارية من قريش كانت أسلمت، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر فابى، فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا لبسوها إياه قال: أحد أحد، وأما خباب فجعلوا يجزونه في الشوك، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، وأما الجارية فوعد لها أبو جهل أربع أوتاد، ثم مدها فادخل الحربة في قلبها حتى قتلها، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتد على عمار الذي كان تكلم به. فقال له رسول الله ﷺ: كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشراحاً بالذي قلت أم لا؟ قال لا، فأنزل الله ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساکر من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ ونكر آلهتهم بخير فتركوه، فلما أتى النبي ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شر ما تركت حتى نلت منك ونكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان. قال: إن عاناو فعد. فنزلت ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾. قال: ذاك عمار بن ياسر. ولكن من شرح بالكفر صدراً؟ عبد الله بن أبي سرح. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن عساکر عن أبي مالك في قوله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ قال: نزلت في عمار بن ياسر، وفي الباب روايات مصرحة بأننا نزلت في عمار بن ياسر. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال: نزلت هذه الآية ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ في عياش بن أبي ربيعة. وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: في سورة النحل ﴿فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا

اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر في علم الأصول، وجملة ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ في محل نصب على الحال من المستثنى أي: إلا من كفر بإكراه، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته، وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الكفر بعد الإيمان، أو إلى الوعيد بالغضب والعذاب، والباء في ﴿بأنهم استحبوا للحياة الدنيا﴾ للسببية أي: ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا ﴿على الآخرة وإن الله لا يهدي للقوم الكافرين﴾ معطوف على ﴿أنهم استحبوا﴾ أي: ذلك بأنهم استحبوا، وبأن الله لا يهدي للقوم الكافرين إلى الإيمان به، ثم وصفهم بقوله: ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة ﴿الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وبصائرهم﴾ فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها، ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق، وقد سبق تحقيق الطبع في أول البقرة، ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة فقال: ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ عما يراد بهم، وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون في الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه ﴿لا جرم لهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي: الكاملون في الخسران البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية، وقد تقدم تحقيق الكلام في معنى ﴿لا جرم﴾ في مواضع منها ما هو في هذه السورة ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام، وخبر إن محذوف، والتقدير لغفور رحيم، وإنما حذف دلالة خبر إن ربك المتأخرة عليه؛ وقيل: الخبر هو للذين هاجروا أي: إن ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم، وفيه بعد؛ وقيل: إن خبرها هو قوله ﴿لغفور رحيم﴾، وإن ربك الثانية تأكيد للوولى. قال في الكشاف: «ثم» ما هنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء، يعني: الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، ويدل على ذلك ما روي أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح، وسيأتي بيان ذلك ﴿من بعد ما فتنوا﴾ أي: فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر، وقرئ (فتنوا) على البناء للفاعل أي: الذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الإسلام ﴿ثم جاهلوا﴾ في سبيل الله وصبروا على ما أصابهم من الكفار، وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف ﴿لغفور رحيم﴾ أي: كثير الغفران والرحمة لهم، ومعنى الآية على قراءة من قرأ (فتنوا) على البناء للفاعل واضح ظاهر أي: إن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ثم جاهلوا وصبروا لغفور رحيم، ولما على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور، فالمعنى: أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشحة للكفر إذا صلحت أعمالهم وجاهلوا في الله وصبروا على المكاره لغفور لهم رحيم بهم؛ وأما إذا كان سبب الآية هذه هو عبد الله بن أبي سرح الذي ارتد عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام، فالمعنى: أن هذا المفتون في دينه بالردة إذا أسلم وجاهد وصبر فإله غفور له

يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البلي سحلاً أولياً، وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلاً، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها، ثم وصف القرية بأنها **«كانت آمنة»** غير خائفة **«مطمئنة»** غير منزعة أي: لا يخاف أهلها ولا ينزعجون **«ياتيها رزقها»** أي: ما يرتزق به أهلها **«رغداً»** واسعاً **«من كل مكان»** من الأمكنة التي يجلب ما فيها إليها **«فكفرت»** أي: كفر أهلها **«بأنعم الله»** التي أنعم بها عليهم، والأنعم جمع نعمة كالأشد جمع شدة، وقيل: جمع نعمى مثل يؤسى وأبؤس. وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله **«فأذاقها الله»** أي: أذاق أهلها **«لباس الجوع والخوف»** سمي ذلك لباساً لأنه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس، فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاعة، وأصلها الذوق بالغم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنباتها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإبراكين: إبراك اللبس، والذوق. روي أن ابن الراوندي الزننيق قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب: هل يذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابي: لا بأس إليها النسئناس، هب أن محمداً ما كان نبياً أما كان عربياً؟ كنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال: فكساها الله لباس الجوع أو فأذاقها الله طعم الجوع، فرد عليه ابن الأعرابي: وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما غشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللباس، ثم نكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف، لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان اليؤس والضر وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجردة. ولو قال فكساها كانت مرشحة. قيل: وترشيح الاستعارة وإن كان مستحسنًا من جهة المبالغة إلا أن للتجريد ترجيحاً من حيث إنه روعي جانب المستعار له فأزاد الكلام وضوحاً؛ وقيل: إن أصل الذوق بالغم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختبار، ومن ذلك قول الشاعر:

ومن ينق الدنيا فإني طعمتها وسبق إلينا عذبتها وعذابها
وقرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث بنصب (الخوف) عطفًا على لباس، وقرأ الباقر بن الضم عطفًا على الجوع، قال الفراء: كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله: **«يصنعون»** تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها **«ولقد جاءهم»** يعني: أهل مكة **«رسول منهم»** من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه، فأمرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضرهم **«فكذبوه»** فيما جاء به **«فأخذهم للعذاب»** النازل بهم من الله سبحانه، والحال أنهم في حال أخذ العذاب لهم **«ظالمون»** لأنفسهم ببقاها في العذاب الأبدي ولغيرهم بالإضرار بهم وصدّهم عن سبيل الله، وهذا

من بعد ما فتنوا الآية قال: وهو عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأزله الشيطان فلحق بالكفار. فأمر به النبي ﷺ أن يقتل يوم فتح مكة، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبي ﷺ، وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن مثله. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية **«ثم إن ربك للثنين هاجروا من بعد ما فتنوا»** فيمن كان يفتي من أصحاب النبي ﷺ. وأخرج ابن مردويه عنه قال: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فنزلت فيهم **«ثم إن ربك للثنين هاجروا»** الآية، فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجاً فأخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم فنجوا من نجا، وقتل من قتل، وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن أن عيوناً لمسيمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أنني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه فقال: إني أصم، فأمر به فقتل؛ وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أنني رسول الله؟ قال: نعم، فأرسله فأتى النبي ﷺ فقال له: أما صاحبك فمضى على إيمانه، وأما أنت فأخذت بالرخصة، وهو مرسل.

وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ مَطْمَئِنَةً بِأَنْبِيَاءِ يَرْفَعُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْمَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٨﴾ فَكَلِمًا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَلًا مَلَبَسَ بِكُمْ وَانْكَبُوا بِعَمَتِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْبَيْسَةَ وَاللَّحْمَ الْأَخْزِيرَ وَمَا أُمِلَ إِلَيْهِ لِيُفْرِيَ اللَّهُ بِهِ، فَمَنْ أَضَلَّ عَنْ بَيْعَ وَلَا عَاكِ فَرَكِ اللَّهُ عَقْرَ رَجِيمٍ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبُ الْيَتِيمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُورُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٢١﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَمِمَّا عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَامًا مَا فَضَعْنَا عَلَىكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَدِيدٍ الْغُفُورِ رَحِيمٍ ﴿٢٤﴾

قوله: **«ووضرب الله مثلاً قرية»** قد قلنا أن ضرب مضمن معنى جعل حتى تكون قرية المفعول الأول ومثلاً المفعول الثاني، وإنما تأخرت قرية لثلاث يقع الفصل بينها وبين صفاتها. وقد قلنا أيضاً أنه يجوز أن يكون ضرب على بابه غير مضمن ويكون مثلاً مفعوله الأول وقرية بدلاً منه. وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطلتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «اللهم أشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، فابتلوا بالحق حتى أكلوا العظام، والثاني أرجح لأن تنكير قرية

﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ بقولنا: ﴿حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفَرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا﴾ [الأنعام: 146]، الآية، ﴿مَنْ قَبِيلٍ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرّمنا ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا أسباب ذلك فحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم، ثم بيّن سبحانه أن الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعه من التوبة وحصول المغفرة فقال: ﴿ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي: متلبسين بجهالة، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة النساء ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد علمهم للسوء، وفيه تأكيد فإن ثم قد نلت على البعية فأكدها بزيادة نكر البعية ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم التي كان فيها فساد بالسوء الذي عملوه، ثم كرّر ذلك تأكيداً وتقريباً فقال: ﴿إِنْ رَبُّكَ بَعْدَهَا﴾ أي: من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثير الغفران واسع الرحمة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَضُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ قال: يعني مكة. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية في الآية مثله وزاد فقال: ألا ترى أنه قال ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكُنْتُمْ لَهُ كَافِرِينَ﴾ وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال: القرية التي قال الله ﴿كَانَتْ أَمْنَةً مَطْمَئِنَّةً﴾ هي يثرب. قلت: ولا أدري أي دليل له على هذا التعيين، ولا أي قرية قامت له على ذلك، ومتى كُفِرَتْ دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله، وأتى وقت أنقاه الله لباس الجوع والخوف، وهي التي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صَحَّ ذلك عن الصادق المصنوق. وصَحَّ عنه أيضاً أنه قال: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتَكَمُ الْكَذِبَ﴾ الآية، قال: في البهيرة والسائبة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتَكَمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ إلى آخر الآية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا. قلت: صدق رحمه الله، فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ، كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأي المقلد له على الرواية، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة، وإنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم ويمنعوا من جهالاتهم، فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا وأضلوا، فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل:

كبهيمة عمياء قادماً زمامها أعمى على عوج الطريق الجائر

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: عسى رجل أن يقول: إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول الله عز وجل: له كذبت، أو يقول: إن الله حرّم كذا أو أحلّ كذا، فيقول الله

الكلام من تمام المثل المضروب، وقيل: إن المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم، وقيل: للقتل يوم بدر، ثم لما وعظّم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المنكورة أمرهم أن ياكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها، وجاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر. والمعنى: أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فاكلوا الحلال الطيب وهو الغنمة واتركوا الخبائث وهو الميتة والدم ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم واعرفوا حقها ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ولا تعبدون غيره، أو إن صَحَّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة التي زعمتم عبادة الله تعالى، وقيل: إن الفاء في فكلوا داخلة على الأمر بالشكر، وإنما انخلت على الأمر بالاكل لأن الأكل نزيعة إلى الشكر ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَازِنِ وَمَا أَمَرَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ كرّر سبحانه نكر هذه المحرمات في البقرة والمائدة والأنعام وفي هذه السورة قطعاً للأعذار وإزالة للشبهة، ثم ذكر الرخصة في تناول شيء مما نكر فقال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد تقدّم الكلام على جميع ما هو منكر هنا مستوفى. ثم زيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه المحرمات كالبهيرة والسائبة وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدّم فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتَكَمُ الْكَذِبَ﴾ قال الكسائي، والزجاج: ما هنا مصدرية وانتصاب الكذب بلا تقولوا أي: لا تقولوا الكذب لأجل وصف السنتكم، ومعناه: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به السنتكم من غير حجة، ويجوز أن تكون ما موصولة والكذب منتصب بتصف أي: لا تقولوا للذي تصف السنتكم الكذب فيه ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ فحذف لفظة فيه لكونه معلوماً، فيكون قوله هذا حلال وهذا حرام بدلاً من الكذب، ويجوز أن يكون في الكلام حذف بتقدير القول: أي ولا تقولوا لما تصف السنتكم فتقول: هذا حلال وهذا حرام، أو قائله: هذا حلال وهذا حرام، ويجوز أن ينتصب الكذب أيضاً بتصف وتكون ما مصدرية أي: لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف السنتكم الكذب، وقرئ (الكذب) بضم الكاف والذال والباء على أنه نعت لللسنة، وقرأ الحسن بفتح الكاف وكسر الذال والباء نعتاً لما. وقيل: على البذل من ما أي: ولا تقولوا الكذب الذي تصفه السنتكم هذا حلال وهذا حرام، واللام في ﴿لَتَفْتُرُوهُ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ هي لام العاقبة لا لام العرض أي: فيتعقب ذلك افتراءكم على الله الكذب بالتحليل والتحريم وإسناد ذلك إليه من غير أن يكون منه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي افتراء كان ﴿لَا يَفْلَحُونَ﴾ بنوع من أنواع الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، وارتفاع ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الزجاج: أي متاعهم متاع قليل، أو هو مبتدأ خبره محذوف أي: لهم متاع قليل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يردّون إليه في الآخرة. ثم خصّ محرمات اليهود بالذكر فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا﴾ أي: حرّمنا عليهم خاصة دون غيرهم

إبراهيم ﴿ وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبي من أنبيائه؛ وقيل: والمراد هنا اتباع النبي ﷺ لملة إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه. وقال ابن جرير: في التبرّي من الأوثان والتدين بدين الإسلام؛ وقيل: في مناسك الحج، وقيل: في الأصول لكون الفروع، وقيل: في جميع شريعته إلا ما نسخ منها، وهذا هو الظاهر، وقد أمر النبي ﷺ بالاعتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم، فقال تعالى: ﴿فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: 90]، وانتصاب ﴿حنيفاً﴾ على الحال من إبراهيم، وجاز مجيء الحال منه، لأن الملة كالجزم منه. وقد تقرّر في علم النحو أن الحال من المضاف إليه أو جائز إذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف إليه أو كان جزءاً منه أو كالجزم ﴿وما كان من المشركين﴾ وهو تكرير لما سبق للنكته التي ذكرناها ﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه﴾ أي: إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه، أو إنما جعل فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه لا على غيرهم من الأمم.

وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت، فقالت طائفة: إن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم وأخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه وقالوا: إن السبت أفضل، فقال الله له: دعهم وما اختاروا لأنفسهم. وقيل: إن الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم في الأسبوع، فاختلف اجتهداهم فيه، فعينت اليهود السبت لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق، وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق، فالزم الله كلا منهم ما أدى إليه اجتهداه، وعيّن لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلمهم إلى اجتهداهم فضلاً منه ونعمة. ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع إبراهيم، فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على إبراهيم ولا على غيره ﴿وإن ربك ليحكم بينهم﴾ أي: بين المختلفين فيه ﴿يوم للقيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيجازي كلا فيه بما يستحقه ثواباً وعقاباً، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لأخرى، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال ﴿ادع إلى سبيل ربك﴾ وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة، وسبيل الله هو الإسلام ﴿بالحكمة﴾ أي: بالمقالة المحكمة الصحيحة، قيل: وهي الحجج القطعية المفيدة لليقين ﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها. قيل: وهي الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة؛ قيل: وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم اللد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه: ﴿وجادلهم بالتّي هي أحسن﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما

له: كذبت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك﴾ قال: في سورة الأنعام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله، وقال حيث يقول: ﴿وعلى الذين هادوا﴾ إلى قوله: ﴿وإننا لصابقون﴾ [الأنعام: 146].

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٠﴾ شَاحِكًا لِأُتْمِهِ أَوْجَنَةً وَهَذِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦١﴾ وَمَا تَنبَأَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا تَنبَأُهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ائْتَمَلُوا فِيهِ وَلَئِنْ رَبَّكَ لَبَاحِكُمْ بِبَنِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ مَنَعَهُ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِيْنَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَأَسِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِّمَّنْ بِتَعْمُرُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٦٨﴾

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم، وكان إبراهيم عليه السلام من الموحدين وهو قوة كثير من النبيين ذكره الله في آخر هذه السورة فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم أمة، والأمة الرجل الجامع للخير. قال الواحدي: قال أكثر أهل التفسير: أي معلماً للخير، وعلى هذا بمعنى كون إبراهيم كان أمة أنه كان معلماً للخير أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه الله من الشرائع؛ وقيل: أمة بمعنى مأموم أي: يؤمه الناس لياخذوا منه الخير كما قال سبحانه: ﴿إنني جاعلك للناس إماماً﴾ [البقرة: 124] والقانت المطيع، وقد تقدّم بيان معاني القنوت في البقرة، والحنيف المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وقد تقدّم بيانه في الأنعام. ﴿ولم يك من المشركين﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل ﴿شاكراً لأنعمه﴾ التي أنعم الله بها عليه وإن كانت قليلة كما يدل عليه جمع القلة فهو شاكر لما كثر منها بالأولى ﴿لجنته﴾ أي: اختاره للنبوة واختصه بها ﴿وهده إلى صراط مستقيم﴾ وهو ملة الإسلام وبين الحق ﴿وأتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي: خصلة حسنة أو حالة حسنة؛ وقيل هي الولد الصالح؛ وقيل: الثناء الحسن؛ وقيل: النبوة؛ وقيل: الصلاة منا عليه في التشهد؛ وقيل: هي أنه يتولاه جميع أهل الأديان، ولا مانع أن يكون ما أتاه الله شاملاً لذلك كله ولما عدها من خصال الخير ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ حسبما وقع منهم السؤال لربه حيث قال: ﴿والحقتني بالصالحين﴾ * ولجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم [الشعراء: 83 - 85]. ﴿ثم أوحينا إليك﴾ يا محمد مع علوّ درجتك وسموّ منزلتك وكونك سيد ولد آدم ﴿أن اتبع ملة

والقيام بما أمروا بها منها؛ وقيل: المعنى إن الله مع الذين اتقوا الزيادة في العقوبة، والذين هم محسنون في أصل الانتقام فيكون الأول إشارة إلى قوله: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ والثاني إشارة إلى قوله: ﴿وَلَنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، وقيل: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إشارة إلى الشفقة على عباد الله تعالى.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد، بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن مسعود: أنه سئل عن الأمة ما هي؟ فقال: الذي يعلم الناس الخير، قالوا: فما القانت؟ قال: الذي يطيع الله ورسوله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ قال: كان على الإسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إماماً في الخير ﴿قَانِتًا﴾ قال: مطيعاً. وأخرج ابن مروي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد تشهد له أمة إلا قيل الله شهانتهم. والأمة: الرجل فما فوقه، إن الله يقول ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ والأمة الرجل فما فوقه». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عمر قال: صلى جبريل بإبراهيم الظهر والعصر بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس نفع به، ثم صلى المغرب والعشاء بجمع ثم صلى الفجر به كاسرع ما يصلي أحكم من المسلمين ثم وقف به حتى إذا كان كابطاً ما يصلي أحد من المسلمين نفع به. ثم رمى الجمرة ثم نبح ثم حلق ثم أقاض به إلى البيت فطاف به، فقال الله لنبيه: ﴿ثُمَّ لَوْحِينَا لِيَكْ أَنْ تَتَّبِعَ مَلَأَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيئًا﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ لَخْتُفُوا فِيهِ﴾ قال: أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في الآية قال: باستحلالهم إياه، رأى موسى رجلاً يحمل حطباً يوم السبت فضرب عنقه، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم. ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يعني: الجمعة، فاختلوا فيه فهدانا الله له فالناس فيه لنا تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد». وأخرج مسلم وغيره من حديث حنيفة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَابِلُهُم بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: أعرض عن أذاهم إياك. وأخرج الترمذي وحسنه، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة في الفوائد، وابن

أمر سبحانه بالمجاملة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين أن الرشد والهداية ليس إلى النبي ﷺ وإنما ذلك إليه تعالى فقال: ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: هو العالم بمن يضل ومن يهتدي ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت، وإنما شرع لك الدعوة وأمرك بها قطعاً للمعذرة وتتميماً للحجة وإزاحة للشبهة، وليس عليك غير ذلك، ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع إلى الحق فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعي بأن يعدل في العقوبة فقال: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ﴾ أي: أردتم المعاقبة ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك. قال ابن جرير: أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداها إلى غيرها، وهذا صواب، لأن الآية وإن قيل إن لها سبباً خاصاً كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ، وعمومه يؤدّي هذا المعنى الذي نكره، وسمى سبحانه الفعل الأول الذي هو فعل البدأ بالشر عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثاني وهو المجازي للمشكلة. وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز. ثم حث سبحانه على العفو فقال: ﴿وَلَنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أي: لأن صبرتم عن المعاقبة بالمثل فالصبر خير لكم من الانتصاف، ووضع الصابرين موضع الضمير، ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم، وقيل: هي منسوخة بآيات القتال، ولا وجه لذلك. ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه وتشييته، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي: وما صبرك مصحوباً بشيء من الأشياء إلا بتوفيقه لك، وفيه تسليّة للنبي ﷺ. ثم نهاه عن الحزن فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الكافرين في إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فإنهم قد أقضوا إلى رحمة الله. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الضاد، يعني: المفتوح والمكسور. وقال الفراء: الضيق بالفتح ما ضاق عنه صررك، والضيق بالكسر ما يكون في الذي يتسع مثل الدار والثوب، وكذا قال الأخفش، وهو من الكلام المقلوب، لأن الضيق وصف للإنسان يكون فيه ولا يكون الإنسان فيه، وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشيء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه، ومعنى مما يَمْكُرُونَ: من مكروهم لك فيما يستقبل من الزمان. ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: اتقوا المعاصي على اختلاف أنواعها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ بتأدية الطاعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾
وَمَا كُنَّا مُؤْتَى الْكِتَابِ وَحَدَّثَ هُنَا لَيْلَى إِنْ كُنَّا تُنذِرُونَ مِنْ دُونِ وَكِيلٍ ﴿٢﴾ ذَرِيَّةً مِنْ حَمَلٍ نَاسٍ نَحْنُ نَحْنُ كَانَتْ عَبْدًا شَاكِرًا ﴿٣﴾

قوله: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ هو مصدر سبح، يقال: سبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً، مثل كفر اليمين تكفيراً وكفراناً، ومعناه التنزيه والبراءة لله من كل نقص. وقال سيدي: العامل فيه فعل لا من لفظه، والتقدير أنزه الله تنزيهاً، فوقع سبحان مكان تنزيهاً، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء؛ وقيل: هو علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح الله سبحان، ثم نزل منزلة الفعل وسد مسدده، وقد قُدمنا في قوله: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ [البقرة: 32]. طرغاً من الكلام المتعلق بسبحان. والإسراء قيل: هو سير الليل، يقال: سرى وأسرى، كسقى وأسقى لغتان، وقد جمع بينهما الشاعر في قوله:

حي النضير وردة الخدر أسرت إلي ولم تكن تسري
وقيل هو سير أول الليل خاصة، وإذا كان الإسراء لا يكون إلا في الليل فلا بد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة، فقيل: أراد بقوله ليلاً تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة. ووجه دلالة ليلاً على تقليل المدة ما فيه من التنكير الدال على البعضية، بخلاف ما إذا قلت: سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً. وقد استدل صاحب الكشاف على إفادة ليلاً للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة (من الليل)، وقال الزجاج: معنى أسرى بعبده ليلاً سير عبده يعني: محمداً ليلاً، وعلى هذا فيكون معنى أسرى معنى سير فيكون للتقيد بالليل فائدة، وقال: بعبده ولم يقل: بنبه أو رسوله أو بمحمد تشريفاً له. قال أهل العلم: لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية:

لا تدعني لإبياع عبدها فإنه أشرف أسمائي
ادعاء باسماء نبي في قبائلها كان اسماء أضحت بعض أسمائي
﴿من للمسجد الحرام﴾ قال الحسن وقتادة: يعني المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن، وقال عامة المفسرين: أسرى برسول الله ﷺ من دار أم هانئ، فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام، أو لأن الحرم كله مسجد. ثم نكر سبحانه الغاية التي أسرى برسوله ﷺ إليها فقال: ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ وهو بيت المقدس، وسمى الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام ولم يكن حينئذ وراءه مسجد، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين، فقد بارك الله سبحانه حول

حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الانصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمكثوا بهم، فقالت الانصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى: ﴿وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب، كفوا عن القوم إلا أربعة». وأخرج ابن سعد، والبخاري، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ وقف على حمزة حيث استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه، ونظر إليه قد مثل به، فقال: رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمت وصلاً للرحم فعولاً للخير، ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتراك حتى يحشرك الله من أرواح شتى، أما والله لا مثلاً بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وإن عاقبتكم الآية﴾ فكفر النبي ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر». وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن عاقبتكم الآية﴾ قال: هذا حين أمر الله نبيه أن يقتل من قتله، ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم فهذا منسوخ. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ قال: اتقوا فيما حرم عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم.

تفسير سورة الإسراء

قوله عز وجل: ﴿وإن كانوا يستفتونك﴾ [الإسراء: 76] نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وقد ثقیف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء، وقوله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾ [الإسراء: 80] وقوله: ﴿إن ربك أخطر بالانس﴾ [الإسراء: 60] وزاد مقاتل قوله: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ [الإسراء: 107]. وأخرج النحاس، وابن مروي عن ابن عباس قال: نزلت سورة بني إسرائيل بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مروي عن ابن مسعود قال: في بني إسرائيل والكهف ومريم، إنهن من العتاق الأول وهن من تلاميذ. وأخرج أحمد، والترمذي، وحسنه، والنسائي، والحاكم، وابن مروي، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي عمرو الشيباني قال: صلى بنا عبد الله الفجر فقرأ السورتين الأخيرة منهما بنو إسرائيل.

بأربع، ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء. وقد استدل بهذا ابن عبد البر على ذلك، وقد اختلفت الرواية عن الزهري. ومن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهري في رواية عنه، وكذلك الحربي فإنه قال: أسري بالنبي ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. وقال ابن القاسم في تاريخه: كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال ابن عبد البر: لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا. وروي عن الزهري أنه أسري به قبل مبعثه بسبعة أعوام، وروي عنه أنه قال: كان قبل مبعثه بخمس سنين. وروى يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت: توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة، قيل: والمعنى كَرَّمْنَا محمداً بالمعراج وأكرمنا موسى بالكتاب ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: ذلك الكتاب؛ وقيل: موسى ﴿هَذِي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يهتدون به ﴿أَنْ لَا تَتَخَذُوا﴾. قرأ أبو عمر بالباء التحتية، وقرأ الباقون بالفوقية أي: لئلا يتخذوا. والمعنى: أتيناه الكتاب لهداية بني إسرائيل لئلا يتخذوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ قال الفراء: أي كفيلاً بأمورهم، وروي عنه أنه قال: كافياً؛ وقيل: أي متوكلون عليه في أمورهم، وقيل: شريكاً، ومعنى الوكيل في اللغة من توكل إليه الأمر ﴿ذَرِيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء، نكرم سبحانه إنعامه عليهم في ضمن إنجاء آبائهم من الغرق، ويجوز أن يكون المفعول الأول لقوله ﴿أَنْ لَا تَتَخَذُوا﴾ أي: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من نوني وكيلاً كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: 80]. وقرئ بالرفع على أنه خير مبتدأ محذوف أو بدل من فاعل تتخذوا، وقرأ مجاهد بفتح الذال، وقرأ زيد بن ثابت بكسرها، والمراد بالذرية هنا جميع من في الأرض لأنهم من ذرية من كان في السفينة؛ وقيل: موسى وقومه من بني إسرائيل وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص، والرفع على البدل وعلى الخبر فإنها كلها راجعة إلى بني إسرائيل المذكورين، وأما على جعل النصب على أن ذرية هي المفعول الأول لقوله ﴿لَا تَتَخَذُوا﴾، فالأولى تفسير الذرية بجميع من في الأرض من بني آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي: نوحاً، وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبله إذ أننا نكون الشكر من أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات حثاً لنزيته على شكر الله سبحانه.

وقد أخرج ابن مريويه عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: أسري بالنبي ﷺ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وأخرج البيهقي عن عروة مثله. وأخرج البيهقي أيضاً عن السدي قال: أسري برسول الله ﷺ قبل مهاجره بستة عشر شهراً. وأخرج ابن أبي

المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة، وفي باركانا بعد قوله أسرى التفات من الغيبة إلى التكلم. ثم نكر العلة التي أسرى به لأجلها فقال: ﴿لَنُزِيهِه مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ بكل مسموع، ومن جملة ذلك قول رسوله ﷺ ﴿الْبَصِيرُ﴾ بكل مبصر، ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله.

وقد اختلف أهل العلم هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه أو بروحه فقط؟ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول، وذهب إلى الثاني طائفة من أهل العلم منهم عائشة، ومعاوية، والحسن، وابن إسحاق، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان، وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا: كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، واستلبوا على هذا التفصيل بقوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾، فجعله غاية للإسراء بذاته ﷺ، فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء وقع بذاته لنكره، والذي يلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس، ثم إلى السموات، ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يمثله من الفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شيء، ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط، وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي ﷺ عند إخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالإيمان صدراً، فإن الإنسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد، بل ما هو محال ولا ينكر ذلك أحد؛ وأما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: 60] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا هو هذا الإسراء فال تصريح الواقع هنا بقوله: ﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ والتصريح في الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقتصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية بروية العين، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا، وكيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي ﷺ ركب البراق؛ وكيف يصح وصف الروح بالركوب؟ وهكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسرى به بين النائم واليقظان.

وقد اختلف أيضاً في تاريخ الإسراء، فروي أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة. وروي أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام. ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبي ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بثلاث؛ وقيل:

لهم في التوراة، والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس؛ وقيل: أرض مصر، واللام في لتفسدن جواب قسم محذوف. قال النيسابوري: أو أجري القضاء المبتوت مجرى القسم كانه قيل: وأقسمنا لتفسدن. وانتصاب ﴿مرتين﴾ على أنه صفة مصدر محذوف، أو على أنه في نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه، والمرة الأولى قتل شعيا أو حبس أرميا أو مخالفة أحكام التوراة، والثانية قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى ﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾ هذه اللام كاللام التي قبلها أي: لتستكبرن عن طاعة الله ولتستعلن على الناس بالظلم والبغي مجاوزين للمحد في ذلك ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين المذكورتين ﴿بجعنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: قوة في الحروب وبطش عند اللقاء. قيل: هو يختصم وجنوده؛ وقيل: جالوت؛ وقيل: جند من فارس؛ وقيل: جند من بابل ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي: عاثوا وتردوا، يقال: جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى، نكروا ابن غريب والقتيبي. قال الزجاج: معناه طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه؟ قال: والجوس طلب الشيء باستقصاء. قال الجوهري: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار أي: تخللوا كما يجوس الرجل للأخبار أي: يطلبها، وكذا قال أبو عبيدة. وقال: ابن جرير: معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين. وقال الفراء: معناه قتلوهم بين بيوتهم وأنشد لحيان:

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فجاس به الأعداء عرض العساكر
وقال قطرب: معناه نزلوا. وأنشد قول الشاعر:

فجسنا ليارهم عنوة وأبنا بساداتهم موثقينا

وقرأ ابن عباس (فجاسوا) بالحاء المهملة. قال أبو زيد: الحوس والجوس والعوس والهوس: الطوف بالليل، وقيل: الطوف بالليل هو الجوسان محرراً، كذا قال أبو عبيدة. وقرأ (خلل الديار) ومعناه معنى خلال وهو وسط الديار ﴿وكان﴾ ذلك ﴿وعداً مفعولاً﴾ أي: كائناً لا محالة ﴿ثم ردنا لكم الكرة عليهم﴾ أي: الدولة والغلبة والرجعة وذلك عند توبتهم. قيل: وذلك حين قتل داود جالوت، وقيل: حين قتل بختنصر ﴿وأمدينكم باموال وبين﴾ بعد نهب أموالكم وسيب إبنائكم حتى عاد أمركم كما كان ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ قال أبو عبيدة: النفير العدد من الرجال؛ فالمعنى: أكثر رجالاً من علكم، والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته، يقال: نفير ونافر مثل قدير وقدر، ويجوز أن يكون النفير جمع نفر ﴿إن أحسنتم﴾ أي: أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ﴿أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن ثواب تلك عائد إليكم ﴿وإن أساتم﴾ أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم ﴿فلهما﴾ أي: فعلهما. ومثله قول الشاعر:

فخر صريعاً للبيدين وللفم

أي: على البيدين وعلى الفم. قال ابن جرير: اللام بمعنى

حاتم عن السدي في قوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ قال: أنبتنا حوله الشجر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ قال: جعله الله هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور وجعله رحمة لهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿الآن اتخذوا من دوني وكيلاً﴾ قال: شريكاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿نزية من حملنا مع نوح﴾ قال: هو على النداء يا نزية من حملنا مع نوح. وأخرج ابن مريويه عن عبد الله بن زيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿نزية من حملنا مع نوح، ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد: حام، وسام، ويافث، وكوش، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق﴾. وأعلم أنه قد اطل أكثر من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضوع بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها، وليس في ذلك كثير فائدة، فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث، وهكذا اطلوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وهو مبحث آخر، والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز، وذكر أسباب النزول، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية، وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة.

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١﴾ إِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٢﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيكِ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٣﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَبُوعَهُمْ وَلِيَطَافُوا السَّجْدَ كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٤﴾ عَنِ رَبِّكَ أَنْ يَحْضُرَ وَإِنْ عُدَّتْ عِدَّتُهُ وَبَعَثْنَا لِلْكَافِرِينَ هَٰجِرًا ﴿٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يُدْرِي إِلَٰهِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٦﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَفْتَدَاكُمْ عِدَاكُمْ أَلَيْسَ ﴿٧﴾ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالنَّارِ دَعَاةٌ وَقَالُوا لَوْلَا نُنَزِّلُ الْإِنْسَانَ جُلُودًا

قوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ أي: أعلمنا وأخبرنا، أو حكمنا واتممنا، وأصل القضاء: الإحكام للشيء والفراغ منه؛ وقيل: أوحينا، ويدل عليه قوله: ﴿إلى بني إسرائيل﴾، ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال قضينا بني إسرائيل، ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بني إسرائيل، ولو كان بمعنى أتممنا لقال لبني إسرائيل، والمراد بالكتاب: التوراة، ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه؛ وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ. وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير (في الكتب). وقرأ عيسى الثقفى (لتفسدن في الأرض) بفتح المثناة، ومعنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا في نفوسهم، والمراد بالفساد مخالفة ما شرعه الله

للمؤمنين ﴿قرأ حمزة والكسائي (يبشر) بفتح الياء وضم الشين. وقرأ الباقر بن بضم الياء وكسر الشين من التبشير أي: يبشر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير أجلاً وعاجلاً للمؤمنين ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ التي أرشد إلى عملها القرآن ﴿أَن لَّهم أَجراً كبيراً﴾ أي: بَأَن لَّهم ﴿وَأَن للذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وأحكامها المبينة في القرآن ﴿اعتنينا لهم عذاباً قليماً﴾ وهو عذاب النار، وهذه الجملة معطوفة على جملة يبشر بتقدير يخبر أي: ويخبر بَأَن الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ وقيل: معطوفة على قوله: ﴿أَن لَّهم أَجراً كبيراً﴾، ويراد بالتبشير مطلق الإخبار، أو يكون المراد منه معناه الحقيقي، ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين ببشارتين: الأولى ما لهم من الثواب، والثانية ما لأعدائهم من العقاب ﴿ويدع الإنسان بالشئ﴾ المراد بالإنسان هنا الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض أقرانه، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له ﴿دعاه بالخير﴾ أي: مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما، فلو استجاب الله دعاه على نفسه بالشئ هلك، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة، ومثل ذلك ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾ [يونس: 11]. وقد تقدم؛ وقيل: المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشر، وهو استعجال العذاب دعاه بالخير كقول القائل: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: 32]. وقيل: هو أن يدعو في طلب المحذور كدعائه في طلب المباح، وحذفت الواو من ويدع الإنسان في رسم المصحف لعدم التلغظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله: ﴿سندع الزبانية﴾ [العلق: 18]. ﴿ويمع الله الباطل﴾ [الشورى: 146] ﴿وسوف يؤث الله المؤمنين﴾ [النساء: 24] ونحو ذلك. ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ أي: مطبوعاً على العجلة، ومن عجلته أنه يسأل الشر كما يسأل الخير؛ وقيل: إشارته إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح، والمناسب للسياق هو الأول.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ قال: أعلمناهم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: أخبرناهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿قضينا إلى بني إسرائيل﴾ قضينا عليهم. وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن علي في قوله: ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ قال: الأولى قتل زكريا، والآخرة قتل يحيى. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية قال: كان أول الفساد قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، ثم إن بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم، فنلك قوله: ﴿فردنا لكم الكرة عليهم﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث الله عليهم في الأولى جالوت، وبعث عليهم في

إلى أي: فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [الزلزلة: 5] أي: إليها؛ وقيل: المعنى فلها الجزء أو العقاب. وقال الحسين بن الفضل: فلها رب يغفر الإساءة، وهذا الخطاب قيل هو لبني إسرائيل الملائكة لما نكر في هذه الآيات، وقيل: لبني إسرائيل الكائنين في زمن محمد ﷺ، ومعناه: إعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك، وقيل: هو خطاب لمشركي قريش ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة، والمرة الآخرة هي قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق، وقصة قتله مستوفاة في الإنجيل واسمه فيه يوحنا، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله، واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة. وقال ابن جرير: هيردوس، وجواب إذا محذوف تقديره بعثناهم لدلالة جواب إذا الأولى عليه، ﴿وليسعوا وجوهكم﴾ متعلق بهذا الجواب المحذوف أي: ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة وتبين في وجوهكم الكآبة، وقيل: المراد بالوجوه السادة منهم. وقرأ الكسائي (لنسوء) بالنون على أن الضمير لله سبحانه. وقرأ أبي (لنسون) بنون التأكيد، وقرأ أبو بكر، والأعمش، وابن وثاب، وحمزة، وابن عامر ليسوء بالتحية والإفراد، قال الزجاج: كل شيء كسرتة وفتته فقد تبرته، والضمير لله أو الوعد ﴿وليدخلوا المسجد﴾ معطوف على ليسعوا ﴿كما دخلوه أول مرة وليتبروا﴾ أي: يدمروا ويهلكوا، وقال قطرب: يهدموا، ومنه قول الشاعر:

فما الناس إلا عاملان فعامل يتبر ما يبني وآخر رافع
وقرأ الباقر بالتحية وضم الهمزة وثابت واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا ﴿ما علوا﴾ أي: ما غلبوا عليه من بلادكم أو مدة علوهم ﴿تتبرأ﴾ أي: تنميراً، نكر المصدر إزالة للشك وتحقيقاً للخبر ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ يا بني إسرائيل بعد انتقامه منكم في المرة الثانية ﴿وإن عنكم للثالثة ععنا﴾ إلى عقوبتكم، قال أهل السير: ثم إنهم علوا إلى ما لا ينبغي وهو تكذيب محمد ﷺ وكتمان ما ورد من بعثه في التوراة والإنجيل فعاد الله إلى عقوبتهم على أيدي العرب، فجرى على بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والإجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم، وضرب النلة والمسكنة ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ وهو المحبس فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول. والمعنى: أنهم محبوبسون في جهنم لا يتخلصون عنها أبداً. قال الجوهرى: حصره يحصره حصراً: ضيق عليه ولحاط به؛ وقيل: فراشاً ومهاداً، وأراد على هذا بالحصير الحصير الذي يفرشه الناس ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ يعني: القرآن يهدي الناس الطريقة التي هي أقوم من غيرها من الطرق وهي ملة الإسلام، فالتى هي أقوم صفة لموصوف محذوف وهي الطريق. وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله، وكذا قال الفراء. ﴿ويبشر

﴿فمَحُونَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: طمسنا نورها، وقد كان القمر كالشمس في الإنارة والضوء. قيل: ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر، وقيل المراد بمحوها أنه سبحانه خلقها محووة الضوء مطموسة، وليس المراد أنه محاهها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُورَةً﴾ أي: جعل سبحانه شمس مضيئة تبصر فيها الأشياء. قال أبو عمرو بن العلاء والكسائي: هو من قول العرب: أبصر النهار إذا صار بحالة يبصر بها؛ وقيل: مبصرة للناس من قوله أبصره فبصر. فالأول وصف لها بحال أهلها، والثاني وصف لها بحال نفسها، وإضافة آية إلى الليل والنهار بيانية أي: فمَحُونَا الآيَةَ التي هي الليل والآية التي هي النهار كقولهم نفس الشيء وذاته ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في وجوه المعاش، واللام متعلق بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُورَةً﴾ أي: جعلناها لتبتغوا فضلاً من ربكم أي: رزقاً، إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار، ولم يذكر هنا السكون في الليل لكتفاء بما قاله في موضع آخر ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرة﴾ [يونس: 67]. ثم ذكر مصلحة أخرى في ذلك الجعل فقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ وهذا متعلق بالفعليين جميعاً أعني: محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط كالأول. إذ لا يكون علم عدد السنين والحساب، إلا باختلاف الجديدين ومعرفة الأيام والشهور والسنين. والفرق بين العدد والحساب أن العدد إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء، والحساب إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص؛ فالسنة مثلاً إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها فنلك هو العدد، وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر. قد يحصل كل شهر من عدة أيام، قد يحصل كل يوم من عدة ساعات، قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق، فنلك هو الحساب ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلاً﴾ أي: كل ما تفتقرون إليه في أمر دينكم ودنياكم بيناه تبييناً واضحاً لا يلتبس. وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الأعذار ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42]. ولهذا قال: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَازِمًا لِمَآثِرِهِ عَنِ عَنِقَةِ﴾ قال أبو عبيدة: الطائر عند العرب الحظ. ويقال له البخت: فالطائر ما وقع للشخص في الأزل بما هو نصيبه من العقل والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة، كان طائراً يطير إليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب طياراً لا نهاية له ولا غاية إلى أن انتهى إلى ذلك الشخص في وقته المقدر من غير خلاص ولا مناص. وقال الأزهري: الأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من نريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى سعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً فطار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه؛ وذلك قوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَازِمًا لِمَآثِرِهِ طَائِرَهُ فِي

المرّة الأخرى بختنصر، فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَجَاسُوا﴾ قال: فمشوا. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: ﴿تَتَبَّرُوا﴾ تدميراً. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحك في قوله: ﴿عَسَى رَبِّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ قال: كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد ﷺ. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ عِنْتُمْ عِنَانٌ﴾ قال: فعادوا فبعث الله سبحانه عليهم محمداً ﷺ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وأعلم أنها قد اختلفت الروايات في تعيين الواقع منهم في المرتين، وفي تعيين من سلطه الله عليهم، وفي كيفية الانتقام منهم، ولا يتعلق بذلك كثير فائدة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ قال: سجننا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه، قال: معنى حصيراً: جعل الله ماوهم فيها. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿حَصِيرًا﴾ قال: فراشاً ومهاداً. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَلْقُرْآنِ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال: للتي هي أصوب. وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيراً ﴿إِنْ هَذَا لَلْقُرْآنِ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ﴾ بالتحفيف. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَدَّعَ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ يعني قول الإنسان: اللهم العنه واغضب عليه. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ قال: ضجراً لا صبر له على سراء ولا ضراء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن سلمان الفارسي قال: أول ما خلق الله من آدم رأسه، فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه، فلما كان بعد العصر قال: يا رب أعجل قبل الليل، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

وَحَمَلْنَا آيَاتُ النَّهَارِ مَا يَبَيِّنُ فَهَوْنَا آيَةَ الْبَلِّ وَحَمَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبِيرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلاً ﴿١٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَازِمًا لِمَآثِرِهِ عَنِ عَنِقَةِ ﴿١٨﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٩﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٢٠﴾ مَنْ أَحَدَثَ فَر_اسًا يَتَذَكَّرُ فِي نَفْسِهِ وَمَنْ سَلَ قَرَنًا يَضِلَّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كَأْمُ مَعْذِرِينَ حَتَّىٰ تَبُوءَ رَسُولًا ﴿٢١﴾ وَلَئِنْ أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرِكِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿٢٢﴾ وَكَفَىٰ أَمَلَكُنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَدْرٍ نَوْجٌ وَكَفَىٰ رَبِّكَ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَعِيرًا ﴿٢٣﴾

لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد اكدها ببليد آخر من عجائب صنعه وبيدائع خلقه فقال: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَتَيْنِ﴾ وذلك لما فيهما من الإظلام والإنارة مع تعلقيهما وسائر ما اشتتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأفهام، ومعنى كونهما آيتين أنهما يدلان على وجود الصانع وقدرته، وقسم الليل على النهار لكونه الأصل

يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل، وبه قالت طائفة من أهل العلم. وذهب الجمهور إلى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا﴾** اختلف المفسرون في معنى أمرنا على قولين: الأول أن المراد به الأمر الذي هو نقيض النهي، وعلى هذا اختلفوا في المأمور به، فالأكثر على أنه الطاعة والخير. وقال في الكشف: معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا، وأطال الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير، وما ذكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل أمرته فعصاني، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية، لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق، لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه. القول الثاني أن معنى **﴿أمرنا مترفياً﴾** أكثرنا فساقها. قال الواحدي: تقول العرب أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا أكثرهم. وقد قرأ أبو عثمان النهدي، وأبو رجاء، وأبو العالية، والربيع، ومجاهد، والحسن (أمرنا) بتشديد الميم أي: جعلناهم أمراء مسلمين. وقرأ الحسن أيضاً، وقتادة، وأبو حيوة الشامي، ويعقوب، وخارجة عن نافع وحماة بن سلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس (أمرنا) بالمد والتخفيف أي: أكثرنا جبابرتها وأمراءها قاله الكسائي. وقال أبو عبيدة: أمرته بالمد وأمرته لغتان بمعنى كثرت، ومنه الحديث: «خير المال مهرة مأمورة» أي: كثيرة النجاج والنسل، وكذا قال ابن عزيز. وقرأ الحسن أيضاً، ويحيى بن يعمر (أمرنا) بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا. وحكي نحوه أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد. قال في الصحاح: وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر أي: كثر، وأمر القوم أي: كثروا، ومنه قول لبيد: إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا يوماً يكن للهلك والفند وقرأ الجمهور (أمرنا) من الأمر، ومعناه ما قدمنا في القول الأول، ومعنى **﴿مترفياً﴾** المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون في تفسير المترفين: إنهم الجبارون المتسلطون والملوك الجاثرون، قالوا: وإنما خصوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم، ومعنى فسقوا فيها: خرجوا عن الطاعة وتمرضوا في كفرهم لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أقبح **﴿فحق عليها القول﴾** أي ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم **﴿فدمرناها تدميراً﴾** أي: تدميراً عظيماً لا يوقف على كنهه لشدة وعظم موقعه، وقد قيل في تأويل أمرنا بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق، وهو إبرار النعم عليهم، وقيل أيضاً: إن المراد بأمرنا أن نهلك قرية أنه قرب إهلاك قرية، وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه. ثم نكر سبحانه أن هذه عاداته الجارية مع القرون الخالية فقال: **﴿وكم أهلكنا من القرون﴾**

عنقه أي: ما طار له في علم الله، وفي عنقه عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس. قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق **﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾**. قرأ ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن محيصن، وأبو جعفر، ويعقوب (ويخرج) بالمثناة التحتية المفتوحة وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر. «وكتاباً» منصوب على الحال، ويجوز أن يكون المعنى: يخرج لها الطائر فيصير كتاباً. وقرأ يحيى بن وثاب (يخرج) بضم الياء وكسر الراء: أي يخرج الله. وقرأ شيبه ومحمد بن السميع. وروي أيضاً عن أبي جعفر (يخرج) بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول أي: ويخرج له الطائر كتاباً. وقرأ الباقر (ونخرج) بالنون على أن المخرج هو الله سبحانه وكتاباً مفعول به، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى **﴿الزمناء﴾**. وقرأ أبو جعفر، والحسن، وابن عامر (يلقاه) بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وقرأ الباقر بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف. وإنما قال سبحانه: **﴿يلقاه منشوراً﴾** تعجيلاً للبشرى بالحسنة وللتوبيخ على السيئة **﴿اقرأ كتابك﴾** أي نقول له: اقرأ كتابك، أو قائلين له، قيل: يقرأ نك الكتاب من كان قارئاً، ومن لم يكن قارئاً **﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾** الباء في بنفسك زائدة وحسيباً تمييز أي: حاسباً. قال سيبويه: ضريب القادح بمعنى ضاربها، وصريم بمعنى صارم، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى الكافي، ثم وضع موضع الشهيد فعُدِّي بعلى، والنفس بمعنى الشخص، ويجوز أن يكون الحسيب بمعنى المحاسب كالشريك والجليس **﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾** بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعدان منه إلى غيره، فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه، **﴿ومن ضل﴾** عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به، ولم يترك ما نهى عنه **﴿فإنما يضل عليها﴾** أي: فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها، فكل أحد محاسب عن نفسه مجزئ بطاعته معاقب بمعصيته، ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** والوزر الإثم، يقال: وزر يزر وزراً ووزرة، أي: إثمًا، والجمع أوزار، والوزر الثقل. ومنه **﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾** [الأنعام: 31] أي: أثقال دنوبهم ومعنى الآية: لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها وتتخذ به الأولى، وقد تقدم مثل هذا في الأنعام. قال الزجاج في تفسير هذه الآية: إن الأثم والمنذب لا يؤخذ بمنذب غيره **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً﴾** لما نكر سبحانه اختصاص المهتدي بهدأته والضال بضلاله، وعدم مؤاخذه الإنسان بجناية غيره، نكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم، والظاهر أنه لا

فقال: «هم من آبائهم، ثم سألته بعد ذلك فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فزلت **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** فقال: هم على الفطرة. أو قال: في الجنة». قال السيوطي: وسنده ضعيف. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما: «أن النبي ﷺ سئل فقيل له: يا رسول الله إنا نصيب في البيات من ذراري المشركين، قال: هم منهم». وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل. وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين، ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة فليرجع إليه. وأخرج إسحاق بن راهويه، وأحمد، وابن حبان، وأبو نعيم في المعرفة، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، ثم قال: فيأخذ الله موافقهم ليطيعنه ويرسل إليهم رسولاً أن أدخلوا النار، قال: فولاذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها»، وإسناده عند أحمد، هكذا حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي عن أبي قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع، وأخرج نحوه إسحاق بن راهويه، وأحمد، وابن مردويه عن أبي هريرة، وهو عند أحمد بالإسناد المذكور عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة. وأخرج قاسم بن أصبغ، والبزار، وأبو يعلى، وابن عبد البر في التمهيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ فنكر نحوه. وجعل مكان الأحق المعنوه. وأخرج الحكيم الترمذي في نوافر الأصول، والطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى يوم القيامة بالمسحوق عقلاً وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيراً فنكر معناه مطولاً». وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: **﴿أمرنا مترفياً﴾** قال: بطاعة الله فقصوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال: سمعت ابن عباس يقول في الآية: **﴿أمرنا مترفياً﴾** بحق فخالفوه، فحق عليهم بذلك التتمير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه في الآية قال: سلطنا شرارنا فقصوا فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وهو كقولهم: **﴿وكننك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾** [الأنعام: 123]. وأخرج البخاري، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقول للحبي إذا كثروا في الجاهلية قد أمر بنو فلان.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَآجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِئِنْ تُرِيدَ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٨﴾ كُلًّا نُّبَيِّنُ لَكَ آيَاتِنَا وَلِتُنَظِّرَ بَيْنَ عَمَلِهِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَمَلُهُ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴿١٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

أي: كثيراً ما أهلكنا منهم، فكم مفعول أهلكنا، ومن القرون بيان لكم وتمييز له؛ أي: كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد وثمود، فحل بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب؛ وفيه تخويف لكفار مكة. ثم خاطب رسوله بما هو رددع للناس كافة فقال: **﴿وكفى بربك بننوب عباده خبيراً بصيراً﴾** قال الفراء: إنما يجوز إخال الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم به، كقولك: كفاك، واكرم به رجلاً، وطاب بطعامك طعاماً، ولا يقال: قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك. وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة وتخويف شديد لأهل المعصية، لأن العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة تقتضي إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك، والمراد بكونه سبحانه خبيراً بصيراً أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً لا تخفى عليه منها خافية.

وقد أخرج البيهقي في دلائل النبوة، وابن عساكر عن سعيد المقبري: «أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ عن السواد الذي في القمر، فقال: كانا شمسين، قال الله **﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل﴾** فالسواد الذي رأيت هو المحو». وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ معنى هذا بأطول منه. قال السيوطي: وإسناده وإ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن علي في قوله: **﴿فمحونا آية الليل﴾** قال: هو السواد الذي في القمر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾** قال: منيرة **﴿لنبتغوا فضلاً من ربك﴾** قال: جعل لكم سباحاً طويلاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فصلناه﴾** قال: بيناه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير بسند حسن عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طائر كل إنسان في عنقه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿الزمناء طائره في عنقه﴾** قال: سعائته وشقاوته وما قدر الله له وعليه فهو لازمه أين كان. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن أنس في قوله: **﴿طائره﴾** قال: كتابه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: عمله. **﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾** قال: هو عمله الذي أحصى عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقراه منشوراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿اقرأ كتابك﴾** قال: سيقراً يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا. وأخرج ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة في قوله: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** قال: سألت خديجة^(١) عن أولاد المشركين

(1) يعني: رسول الله ﷺ.

الإتيان به على القانون الشرعي من دون ابتداء ولا هوى ﴿وهو مؤمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: 27]، والجملة في محل نصب على الحال، والإشارة بقوله: ﴿فأولئك﴾ إلى المريدin للأخرة الساعين لها سعيها وخبره ﴿كان سعيهم مشكوراً﴾ عند الله أي: مقبولا غير مرئود، وقيل: مضاعفاً إلى أضعاف كثيرة، فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكوراً أموراً ثلاثة: الأول إرادة الآخرة، الثاني أن يسعى لها السعي الذي يحق لها، والثالث أن يكون مؤمناً، ثم بين سبحانه كمال راقته وشمول رحمته فقال: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ التثنيون في «كلاً» عوض عن المضاف إليه، والتقدير كل واحد من الفريقين نمد أي: نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع، نرزق المؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية، لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه وما به الإمداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا، وما أنعم به في الأولى والأخرى على من يريد الآخرة، وفي قوله: ﴿من عطاء ربك﴾ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بنمذ ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي: ممنوعاً، يقال: حظره يحظره حظراً منعه، وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك، ومن «هؤلاء» بدل من «كلاً» وهؤلاء معطوف على البدل، قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أنه يعطي المسلم الكافر وأنه يرزقهما جميعاً الفريقين فقال: ﴿هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾، «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض» الخطاب لمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر والاعتبار، وهذه الجملة مقررّة لما مر من الإمداد وموضحة له، والمعنى: انظر كيف فضلنا في العطايا العاجلة بعض العباد على بعض، فمن غني وفقير، وقوي وضعيف، وصحيح ومريض وعاقل وأحمق وذلك لحكمة بالغة تقتصر العقول عن إدراكها «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً»، وذلك لأن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، وليس للدنيا بالنسبة إلى الآخرة مقدار، فلها كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، وقيل: المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين، وحصل المعنى أن التفاضل في الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما، ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر في قوله: ﴿وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ أخذ في تفصيل ذلك مبيناً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته تهيباً وإلهاباً، أو لكل متأمل له صالح لتوجيهه إليه، وقيل: هو على إضمار القول، والتقدير: قل لكل مكلف لا تجعل، وانتصاب تقعد على جواب النهي، والتقدير: لا يكون منك جعل ففقد؛

وَلَا آخِرَةَ أَكْبَرَ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرَ تَفْضِيلًا ﴿٢٠﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرَ تَتَمَدَّدُ مَدْمُومًا مَحْدُولًا ﴿٢١﴾ وَرَضِّنْكَ إِلَا تَمِيدًا إِلَا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّا يَتْلُونَ عِنْدَكَ الْكُتُبَ آمَهُمَا أَوْ كَلَامًا فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَوْا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٢﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿من كان يريد العاجلة﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة كل إنسان الزمناء، ومن جملة من اهتمدى، والمراد بالعاجلة: المنفعة العاجلة أو الدار العاجلة، والمعنى: من كان يريد بأعمال البر أو بأعمال الآخرة ذلك، فيبخل تحته الكفرة والفسقة والمراؤون والمنافقون ﴿عجلنا له﴾ أي: عجلنا لذلك المريد ﴿فيها﴾ أي: في تلك العاجلة، ثم قيد المعجل بقتيين: الأول: قوله: ﴿ما نشاء﴾ أي: ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها، لا ما يشاؤه ذلك المريد، ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدin للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ويتمنون ما لا يصلون إليه، والقيد الثاني قوله: ﴿لمن نريد﴾ أي: لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا، وجملة لمن نريد بدل من الضمير في له بإعادة الجار بدل البعض من الكل. لأن الضمير يرجع إلى من وهو للعموم، وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه: ﴿من كان يريد حرت الدنيا نؤته منها﴾ [الشورى: 20]. وقوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ [هود: 15]. وقد قيل: إنه قرئ (ما يشاء) بالياء التحتية، ولا ندري من قرأ بذلك من أهل الشواذ، وعلى هذه القراءة فقول: الضمير لله سبحانه أي: ما يشاؤه الله فيكون معناها معنى القراءة بالنون، وفيه بعد لمخالفتها لما قبله، وهو عجلنا وما بعده وهو لمن نريد؛ وقيل: الضمير راجع إلى «من» في قوله: ﴿من كان يريد﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله لمن «نريد»: أي: عجلنا له ما يشاؤه، لكن بحسب إرادتنا فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلا إذا أراد الله له ذلك، ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها إلا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم، ولهذا قال: ﴿ثم جعلنا له جهنم﴾ أي: جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه ﴿بصلاها﴾ في محل نصب على الحال أي: يدخلها «مدموماً ملحوراً» أي: مطروداً من رحمة الله مبعداً عنها، فهذه عقوبته في الآخرة مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه له، فإين حال هذا الشقي من حال المؤمن التقي؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدره الله له وأزاده بلا هلع منه ولا جرح، مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه، وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه، وهو الجنة، ولهذا قال: ﴿ومن أراد الآخرة﴾ أي: أراد بأعماله الدار الآخرة «وسعى لها سعيها» أي: السعي الحقيقي بها اللائق بطالبها، وهو الإتيان بما أمر به وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب، وكان

الاجتماع فقط، وفي أف لغات: ضم الهمزة مع الحركات الثلاث في الفاء، وبالتنوين وعنمه، وبكسر الهمز والفاء بلا تنوين، وأقي ممالاً، وأفة بالهاء. قال الفراء: تقول العرب: فلان يتأفف من ريح وجدها أي: يقول أف أف. وقال الأصمعي: الأف وسخ الأنثى، والثف وسخ الأطفال، يقال لك: عند استقذار الشيء ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتأفون به. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي أن الأف الضجر، وقال القتيبي: أصله أنه إذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله، فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل أف، ثم توسعوا فنكروه عند كل مكروه يصل إليهم. وقال الزجاج: معناه النتن. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأف وسخ بين الأطفال والثف قلامتها. والحاصل أنه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستثقال، أو صوت ينبئ عن ذلك، فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما، وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيها بفحوى الخطاب أو يلحقه كما هو متقرر في الأصول ﴿ولا تنهرهما﴾ النهر: الزجر والغلظة، يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره. قال الزجاج: معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجههما ﴿وقل لهما﴾ بدل التأنيف والنهر ﴿قولا كريماً﴾ أي: ليناً لطيفاً أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التائب والحياء والاحتشام ﴿ولخفض لها جناح الذل من الرحمة﴾ نكر النفي في معنى خفض الجناح وجهين: الأول أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية خفض لها جناحه، فلها صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صفرك. والثاني أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد النزول خفض جناحه، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع؛ وفي إضافة الجناح إلى الذل وجهان: الأول أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك حاتم الجود، فالأصل فيه الجناح الذليل، والثاني سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً. وقرأ الجمهور (الذل) بضم الذال من ذل يذل ذلاً وئلاً ومثلاً فهو ذليل. وقرأ سعيد بن جبير، وعروة بن الزبير بكسر الذال، وروي ذلك عن ابن عباس وعاصم، من قولهم دابة تلول بنية الذل أي: متقادة سهلة لا صعوبة فيها، ومن الرحمة فيه معنى التعليل أي: من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أقر خلق الله إليهما بالأمس، ثم كأنه قال له سبحانه: ولا تكثف برحمتك التي لا نوام لها ﴿و﴾ لكن ﴿قل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ والكاف في محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أي: رحمة مثل تربيتيها لي أو مثل رحمتيها لي، وقيل: ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانها في

ومعنى تقعد تصير، من قولهم: شخذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة، وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام؛ وقيل: هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات، فإن السعي فيه إنما يتأتى بالقيام، والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب؛ وقيل: إن من شأن المذموم المخنول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه، فالقعود على هذا حقيقة، وانتصاب ﴿مذموماً مخنولاً﴾ على خبرية تقعد أو على الحال: أي فتصير جامعاً بين الأمرين الذم لك من الله ومن ملائكته، ومن صالح عباد، والخذلان لك منه سبحانه، أو حال كونك جامعاً بين الأمرين. ثم لما ذكر ما هو الركن الأعظم وهو التوحيد اتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال: ﴿وقضى ربك﴾ أي: أمر أمراً جزماً، وحكماً قطعاً، وحثماً مبرماً ﴿إن لا تعبدوا﴾ أي: بأن لا تعبدوا فتكون «أن» ناصبة، ويجوز أن تكون مفسرة ولا نهى. وقرئ ﴿وقضى ربك﴾ أي: وصى عباده بعبادته وحده، ثم أرفقه بالأمر ببرّ الوالدين فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: وقضى بأن تحسنا بالوالدين إحساناً، أو أحسنوا بهما إحساناً، ولا يجوز أن يتعلق بالوالدين بإحساناً، لأن المصدر لا يتقدم عليه ما هو متعلق به. قيل: وجه نكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه أنهما السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما، وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى، وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال: ﴿إن أشكر لي ولوالديك﴾ [لقمان: 14]. ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونها إلى البر من الولد أوج من غيرها فقال: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ إما مركبة من إن الشرطية وما الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ثم انحلت نون التوكيد في الفعل لزيادة التقرير كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سيقع البتة عادة. قال النحويون: إن الشرط يشبه النهي من حيث الجزم وعدم الثبوت، فلهاذا صح دخول النون المؤكدة عليه. وقرأ حمزة والكسائي (يبلفان). قال الفراء: ثنى لأن الوالدين قد نكرا قبله فصار الفعل على عدهما، ثم قال: ﴿أحدهما أو كلاهما﴾ على الاستثناف، وأما على قراءة (يبلفن) فأحدهما فاعل بالاستقلال وقوله: ﴿أو كلاهما﴾ فاعل أيضاً لكن لا بالاستقلال بل بتبعية العطف، والأولى أن يكون أحدهما على قراءة (يبلفان) بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين في الفعل ويكون «كلاهما» عطفاً على البدل، ولا يصح جعل كلاهما تأكيداً للضمير لاستلزام العطف المشاركة، ومعنى عندك في كنفك وكفالتك، وتوحيد الضمير في عندك ولا تقل وما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهى بما فيه النهي، ومأمور بما فيه الأمر، ومعنى ﴿فلا تقل لهما أف﴾ لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد، وليس المراد حالة

﴿وقضى ربك﴾ قال: أمر. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: عهد ربك. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ يقول: برأ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فلا تقل لهما أقب﴾ لما تميط عنهما من الأذى: الخلاء والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطنان عنك من الخلاء والبول. وأخرج الديلمي عن الحسين بن علي مرفوعاً: «لو علم الله شيئاً من العقوق أنى من أف لحرمه». وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ قال: إذا دعواك فقل: لبيكما وسعديكما. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: قولاً لنا سهلاً. وأخرج البخاري في الأب، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عروة في قوله: ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ قال: يلين لهما حتى لا يمتنع من شيء أحباه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال: اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد لفظ الغليظ. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وقل رب ارحمهما﴾ ثم أنزل الله بعد هذا ﴿وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾ [التوبة: 113]. وأخرج البخاري في الأب المفرد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه نحوه، وقد ورد في برّ الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما، وهي معروفة في كتب الحديث.

رَبُّكَ أَغْنَىٰ بِمَا فِي نَفْسِكَ إِنَّ تَكُونُ مِّنْ عَابِدِينَ فَإِنَّكَ كَانَ لِّأَرْبَابٍ
عُتُورًا ﴿١٥﴾ وَمَاذَا لِّلْأَرْبَابِ حَقٌّ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا حَقٌّ وَلَا يَبْزُغُ بَيْزًا ﴿١٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِمْ كُفُورًا ﴿١٧﴾ وَإِنَّمَا
تَعْرِضُ عَنْهُمْ عَرِيضَةَ النَّفْسِ الَّتِي حَفَّتْ لِّلْغَىِّ وَلَهُمْ قَوْلٌ مَّا يَسْمُورُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ
بَيْنَكَ مَثَلَهُ وَبَيْنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لَعَلَّكَ تُبْسِطُ لَهُمْ غِلَظَ تَبَتُّغٍ ﴿١٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّىٰ يَمْلَأُوا عَنَاقُكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِنَّا لَنَافِلُهُمْ كَانَ خَطَاكُمْ كَبِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ الَّتِي كَانَتْ فَاحِشَةً وَرَسَاءَ سَيِّلًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا
يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُصْرَبًا ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ أي: بما في ضمائرهم من الإخلاص وعدمه في كل الطاعات، ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم أو الإصرار عليه، ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس من البرّ والعقوق اندراجاً أولياً؛ وقيل: إن الآية خاصة بما يجب للأبوين من البرّ، ويحرم على الأولاد من العقوق، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ، فلا تخصصه دلالة السياق ولا تنقيده ﴿إن تكونوا صالحين﴾ قاصدين الصلاح، والتوبة من الذنب والإخلاص للطاعة فلا يضرركم ما وقع من الذنب الذي تبتتم عنه ﴿فإنه كان

الوجود فلتقع هذه كما وقعت تلك. والتربية التنمية، ويجوز أن يكون الكاف للتعليل أي: لأجل تربيتكما لي كقولك: ﴿وانكروه كما هداكم﴾ [البقرة: 198]. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک في قوله: ﴿من كان يريد العاجلة﴾ قال: من كان يريد بعمله الدنيا ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ ذاك به. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن الحسن في قوله: ﴿علا نمذ﴾ الآية قال: كل يرزق الله في الدنيا البرّ والفاجر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: يرزق الله من أراد الدنيا ويرزق من أراد الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک قال: ﴿محظوراً﴾ ممنوعاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد مثله. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع بها إلا وضعه الله في الآخرة درجة أكبر منها وأطول، ثم قرأ ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾»، وهو من رواية زاذان عن سلمان. وثبت في الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر في أفق السماء». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ممنوما﴾ يقول: ملوماً. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ: (ووصى ربك)، مكان وقضى، وقال: التزقت الوالو والصاد وأنتم تقرأونها (وقضى ربك). وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاک عنه مثله. وأخرج أبو عبيد، وابن منيع، وابن المنذر، وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه أيضاً مثله وزاد ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد. وأقول: إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر، وهو وإن كان أحد معاني مطلق القضاء، كما في قوله: ﴿قضى الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: 41]. وقوله: ﴿فإنذا قضيت مناسككم﴾ [البقرة: 200]. ﴿فإنذا قضيت الصلاة﴾ [النساء: 103]. ولكنه ها هنا بمعنى الأمر، وهو أحد معاني القضاء والأمر لا يستلزم ذلك، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه، ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين، ومن معاني مطلق القضاء معاني أخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق، ومنه ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ [فصلت: 12]. وبمعنى الإرادة كقوله: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [آل عمران: 47 - مريم: 35]. وبمعنى العهد كقوله: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ [القصص: 44]. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله:

وابن السبيل لأمر اضطررك إلى ذلك الإعراض ﴿ابتغاء رحمة من ربك﴾ أي لفقد رزق من ربك ولكنه أقام السبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق لأن فاقد الرزق مبتغ له، والمعنى: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي: قولاً سهلاً ليناً كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول. قال الكسائي: يسرت له القول أي: لينته. قال الفراء: معنى الآية إن تعرض عن السائل إضافة وإعساراً فقل لهم: قولاً ميسوراً عدهم عدة حسنة ويجوز أن يكون المعنى: وإن تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولاً ميسوراً، وليس المراد هنا الإعراض بالوجه. وفي هذه الآية تأنيب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون؟ ربما يرتنون، ولقد أحسن من قال:

إن لا يكن رزق يوماً أجود بها للسائلين فيأني لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقي إما نزال وإما حسن مرود
لما نكر سبحانه أدب المنع بعد النهي عن التبذير بين
أدب الإنفاق فقال: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ وهذا النهي يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبي ﷺ تعريضاً لأمره وتعليماً لهم أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين. والمراد النهي للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفاً، فهو نهى عن جانبي الإفراط والتفريط. ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط، وهو يدل الذي ننب الله إليه:

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور نميم
وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها، ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة. ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهي عنهما فقال: ﴿فتتعد ملوماً﴾ عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح ﴿محسوراً﴾ بسبب ما فعلته من الإسراف أي: منقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر، والمحسور في الأصل: المنقطع عن السير، من حصره السفر إذا بلغ منه، والبعير الحسير هو الذي ذهب قوته فلا انبعاث به، ومنه قوله تعالى: ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك: 4]. أي: كليل منقطع؛ وقيل: معناه نادماً على ما سلف، فجعله هذا القائل من الحسرة التي هي الندامة، وفيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران. ولا يقال محسور إلا للملوم. ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضافة ليس لهوانهم على الله سبحانه، ولكن لمشيئة الخالق الرائق فقال: ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي: يوسع على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة لا تكون من وسع له رزقه مكرماً عنده، ومن

للأوليين غفوراً﴾ أي: الرجاعين عن الذنوب إلى التوبة، وعن عدم الإخلاص إلى محض الإخلاص غفوراً لما فرط منهم من قول أو فعل أو اعتقاد، فمن تاب تاب الله عليه، ومن رجع إلى الله رجع الله إليه. ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهيباً وإلهاباً لغيره من الأمة، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله: ﴿وقضى ربك﴾ [الإسراء: 23] والمراد بذى القربى ذو القرابة، وحقهم هو صلة الرحم التي أمر الله بها، كرر التوصية فيها. والخلاف بين أهل العلم في وجوب النفقة للقرابة، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد. والأولاد على الوالدين معروف، والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة وحسبما يقتضيه الحال ﴿والمسكين﴾ معطوف على ذا القربى، وفي هذا العطف دليل على أن المراد بالحق الحق المالي ﴿وابن السبيل﴾ معطوف على المسكين، والمعنى: وأت من اتصف بالمسكنة، أو يكونه من أبناء السبيل حقه. وقد تقدم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل في البقرة، وفي التوبة، والمراد في هذه الآية التصق عليهم بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل، أو مما فرضه الله لهما من صدقة الفرض، فإنيهما من الأصناف الثمانية التي هي مصرف الزكاة. ثم لما أمر سبحانه بما أمر به ها هنا نهى عن التبذير فقال: ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ التبذير تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه، وهو الإسراف المذموم لمجاورته للحد المستحسن شرعاً في الإنفاق، أو هو الإنفاق في غير الحق، وإن كان يسيراً. قال الشافعي: التبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. قال القرطبي بعد حكايته القول الشافعي هذا: وهذا قول الجمهور. قال أشهب عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضعه في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام لقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة المماثلة التامة، وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب، فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان، فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ أي: كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شراً، ولا يأمر إلا بعمل الشر، ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه. وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور، فاقتضى ذلك أن المنذر مماثل للشيطان، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان، وكل شيطان كفور، فالمبذر كفور ﴿وما تعرضن عنهم﴾ قد تقدم قريباً أن أصل «إما» هذه مركب من إن الشرطية وما الإبهامية، وأن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهة للنهي: أي: إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين

تبيحاً متبالغاً في القبح مجازاً للحدِّ ﴿وساء سبيلاً﴾ أي: بئس طريقاً طريقه، وذلك لأنه يؤدي إلى النار، ولا خلاف في كونه من كباثر الذنوب. وقد ورد في تبيحه والتنفير عنه من الألة ما هو معلوم، ولما فرغ من ذكر النهي عن القتل لخصوص الأولاد وعن النهي عن الزنا الذي يفضي إلى ما يفضي إليه قتل الأولاد من اختلاط الأنساب وعدم استقرارها نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ والمراد بالتي حرم الله التي جعلها معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد. والمراد بالحق الذي استثناه هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة في الأصل، وذلك كالردة والزنا من المحصن، وكالقصاص من القاتل عمداً عنواناً وما يلتحق بذلك والاستثناء مفرغ أي: لا تقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبس بالحق أو إلّا متلبسين بالحق، وقد تقدّم الكلام في هذا في الأنعام. ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال: ﴿ومن قتل مظلوماً﴾ أي: لا يسبب من الأسباب المسوّغة لقتله شرعاً ﴿فقد جعلنا لوليّه سلطاناً﴾ أي: لمن يلي أمره من ورثته إن كانوا موجوبين، أو ممن له سلطان إن لم يكونوا موجوبين، والسلطان التسلسل على القاتل إن شاء قتل وإن شاء عفا وإن شاء أخذ الدية، ثم لما بين إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول، أو ما هو عوض عن القصاص نهى عن مجازة الحدّ فقال: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ أي: لا يجاوز ما أباحه الله له فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة، أو يمثل بالقاتل أو يعذبه. قرأ الجمهور (لا يسرف) بالياء التحتية أي: الولي، وقرأ حمزة والكسائي (تسرف) بالياء الفوقية، وهو خطاب للقاتل الأول، ونهي له عن القتل أي: فلا تسرف أيها القاتل بالقتل فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته. وقال ابن جرير: الخطاب للنبي ﷺ وللأئمة من بعده أي: لا تقتل يا محمد غير القاتل ولا يفعل تلك الأئمة بعكك. وفي قراءة أبي (لا تسرفوا) ثم علل النهي عن السرف فقال: ﴿إنه كان منصوراً﴾ أي: مؤيداً معاناً يعني: الولي، فإن الله سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج، وأوضحه من الأدلة، وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه، ويجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى المقتول أي: إن الله نصره بوليّه، قيل: وهذه الآية من أول ما نزل من القرآن في شأن القتل لأنها مكية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إن تكونوا صالحين﴾ قال: تكون الباهرة من الولد إلى الولد، فقال الله: ﴿إن تكونوا صالحين﴾ إن تكن النية صادقة ﴿فإنه كان للأوليين غفوراً﴾ للبادرة التي بدت منه، وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب عنه في قوله: ﴿إنه كان للأوليين غفوراً﴾ قال: الرجاعين إلى الخير. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن الضحك في

ضيقه عليه هائناً لديه. قيل ويجوز أن يراد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي لا تفنى خزائنه. فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا. ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي: يعلم ما يسترون وما يعلنون، لا يخفى عليه من ذلك خافية، فهو الخبير بأحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم، وفي هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده، فلذلك قال بعدهما: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ أملق الرجل لم يبق له إلا الملقات: وهي الحجارة العظام الملس، قال الهنلي يصف صائداً:

أتيح لها أتيد نو خشيف إذا سامت على الملقات ساما
الأتيد تصغير الأتد: وهو الرجل القصير، والخشيف من الثياب الخلق، وسامت مرّت، ويقال: أملق إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده. قال أوس:

وأملق ما عندي خطوب تنبل

نهامهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، وقد كانوا يفعلون ذلك، ثم بين لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له، فإن الله سبحانه هو الرزاق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع، وقد مرّ مثل هذه الآية في الأنعام ثم علل سبحانه النهي عن قتل الأولاد لذلك بقوله: ﴿إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾ قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وباليهمز المقصور. وقرأ ابن عامر (خطأ) بفتح الخاء والطاء والقصر في الهمز، يقال: خطئ في بينه خطأ: إذا أثم، وأخطأ: إذا سلك سبيلاً خطأً عامداً أو غير عامد. قال الأزهري، خطئ يخطئ خطأً مثل أثم يآثم إثماً: إذا تعمد الخطأ، وأخطأ: إذا لم يتعمد، أخطأ وخطأ، قال الشاعر:

دعيني إنما خطاء وصدا عليّ وإنما أهلكت مالي

والخطأ الاسم يقوم مقام الأخطاء، وفيه لغتان القصر، وهو الجيد، والمد وهو قليل. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمز⁽¹⁾. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. وقرأ الحسن (خطأ) بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز. ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل ذكر النهي عن الزنا المفضي إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراماً كان المتوسل إليه حراماً بفحوى الخطاب، والزنى فيه لغتان: المد، والقصر. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم
ثم علل النهي عن الزنا بقوله: ﴿إنه كان فاحشة﴾ أي:

(1) (وقوله ومد الهمز) صوابه: وحدها للهمز. اهـ.

منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ قال: التبذير إنفاق المال في غير حقه. وأخرج ابن جرير عنه قال: كنا أصحاب محمد نتحدث أن التبذير النفقة في غير حقه. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأنب، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ﴾ قال: هم الذين ينفقون المال في غير حقه. وأخرج البيهقي في الشعب عن علي قال: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّيسُورًا﴾ قال: العدة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سيار أبي الحكم قال: أتى رسول الله ﷺ برّ من العراق، وكان معطاء كريماً فقسّمه بين الناس، فبلغ ذلك قوماً من العرب، فقالوا: إنا نأتي النبي ﷺ نسأله، فوجنوه وقد فرغ منه، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: محبوسة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك الناس ﴿مَحْسُورًا﴾ ليس بيك شيء. أقول: ولا أدري كيف هذا؟ فالآية مكية، ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله ﷺ ولا يحمل إليه شيء من العراق ولا مما هو أقرب منه، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته ﷺ. وأخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو: «بعثت امرأة إلى النبي ﷺ بابنها فقالت: قل له: اكسني ثوباً، فقال: ما عندي شيء»، فقالت: ارجع إليه فقل له: اكسني قميصك، فرجع إليه فنزع قميصه فأعطاهما إياه، فنزلت ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه. وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة وضرب بيده: «أنفقي ما على ظهر كفي، قالت: إن لا يبقى شيء». قال ذلك ثلاث مرات، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية، ويقدر في ذلك أنه ﷺ لم يتزوَّج بعائشة إلا بعد الهجرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ قال: يعني بذلك البخل. وأخرج عنه في الآية قال: هذا في النفقة يقول: لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير، ولا تبسطها كل البسط، يعني: التبذير ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾، يلوم نفسه على ما فاتته من ماله ﴿مَحْسُورًا﴾ ذهب ماله كله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيراً له أغناه، وإن كان الفقر خيراً له أفقره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَشْيَةَ إِبْلَاقٍ﴾ قال: مخافة الفقر والفاقة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿خَطَا﴾ قال: خطيئة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ قال: يوم نزلت هذه

الآية قال: الرجاعين من الذنب إلى التوبة، ومن السيئات إلى الحسنات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿هَلَّاؤُلَٰئِينَ﴾ قال: للمطيعين المحسنين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عنه قال: للتوابين. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَأَتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال: أمره بأحقّ الحقوق، وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده، وكيف يصنع إذا لم يكن عنده؟ فقال: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضُ عَنْهُمْ لَيْتَعَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمَا﴾ قال: إذا سالوك وليس عندك شيء انتظرت رزقاً من الله ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّيسُورًا﴾ يكون إن شاء الله يكون شبه العدة. قال سفيان: والعدة من النبي ﷺ دين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: هو أن تصل ذا القرابة وتطعم المسكين وتحسن إلى ابن السبيل. وأخرج ابن جرير عن علي بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فما قرأت في بني إسرائيل ﴿وَأَتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال: وإنكم للقرابة التي أمر الله أن يؤتي حقهم؟ قال: نعم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية، قال: والقرابي قريب بني عبد المطلب.

وأقول: ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص، ولا دل على ذلك دليل، ومعنى النظم القرآني واضح إن كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة، لأن معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التي أمر الله بها. وإن كان الخطاب للنبي ﷺ، فإن كان على وجه التعريض لأمرته فالأمر فيه كالأول، وإن كان خطاباً له من دون تعريض، فأمرته أسوته، فالأمر له ﷺ بإيتاء ذي القربى حقه أمر لكل فرد من أفراد أمته، والظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبي ﷺ بليل ما قبل هذه الآية، وهي قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّي أَلَّا تَعْبُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وما بعدها، وهي قوله: ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾.

وفي معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة. وأخرج أحمد، والحاكم وصححه عن أنس: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني نو مال كثير ونو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ قال: تخرج الزكاة المفروضة، فإنها طهرة تطهرك وتصل أقرارك وتعرف حق السائل والجار والمسكين، فقال: يا رسول الله أقتل لي؟ قال: فأت ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً. قال: حسبي يا رسول الله. وأخرج البزار، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاهم فلك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أقطع رسول الله ﷺ فاطمة فلك. قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبي سعيد هذا ما لفظه: وهذا الحديث مشكل لو صح إسناداه، لأن الآية مكية، وفلك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتزم هذا مع هذا، انتهى. وأخرج الفريابي، وسعيد بن

يصلحه، وذلك يستلزم مباشرته، فقال: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال، وهي حفظه وطلب الربح فيه والسعي فيما يريد به. ثم ذكر الغاية التي للنهي عن قربان مال اليتيم فقال: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: لا تقربوه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ اليتيم أشده، فإذا بلغ أشده كان لكم أن تدفعوه إليه، أو تتصرفوا فيه بإذنه، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى في الأنعام ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع. قال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد، فيدخل في ذلك ما بين العبد وربّه، وما بين العباد بعضهم البعض. والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي، إلا إذا دلّ دليل خاص على جواز النقص وإن العهد كان مسؤولاً أي: مسؤولاً عنه، فالمسؤول هنا هو صاحبه، وقيل: إن العهد يسأل تبيكاً لنقضه ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ﴾ أي: أتموا الكيل ولا تخسروه وقت كيلكم للناس ﴿وَوُزَنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. قال الزجاج: هو ميزان العدل أي: ميزان كان من موازين الدراهم وغيرها، وفيه لغتان: ضم القاف، وكسرها، وقيل هو القبان المسمى بالقرسطون؛ وقيل هو العدل نفسه، وهي لغة الروم، وقيل: لغة سريانية. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (القسطاس) بضم القاف، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى إيفاء الكيل والوزن، وهو مبتدأ وخبره ﴿خَيْرٌ﴾ أي: خير لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن النكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، من آل إذا رجع. ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع ما لا تعلم، من قولك: قفوت فلاناً إذا اتبعت أثره، ومنه قافية الشعر لأنها تقفوت كل بيت، ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس. وحكى ابن جرير عن فرقة أنها قالت: قفا وقاف مثل عثا وعثا. قال منذر بن سعيد البلوطي: قفال وقاف، مثل جذب وجذب. وحكى الكسائي عن بعض القراء أنه قرأ (تقف) بضم القاف وسكون الفاء. وقرأ الفراء بفتح القاف وهي لغة لبعض العرب، وإنكرها أبو حاتم وغيره. ومعنى الآية: النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، وهذه قضية كلية، وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور: فقيل: لا تنم لحداً بما ليس لك به علم؛ وقيل: هي في شهادة الزور؛ وقيل: هي في القنف. وقال القتيبي: معنى الآية: لا تتبع الحدس والظنون، وهذا صواب، فإن ما عدا ذلك هو العلم؛ وقيل: المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعي كان أو ظنياً. قال أبو السعود في تفسيره: واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه. وأقول: إن هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل

الآية لم يكن حدود، فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور. وأخرج أبو يعلى، وابن مريويه عن أبي بن كعب أنه قرأ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيمًا. فذكر لعمر فاتاه فسأله، فقال: أخذتها من في رسول الله وليس لك عمل إلا الصفق بالبقيع. وقد ورد في الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاک في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية قال: هذا بمكة ونبي الله ﷺ بها، وهو أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله: من قتلتم من المشركين، فلا يحملكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أباً أو أماً أو واحداً من عشيرته وإن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم، وهذا قبل أن تنزل براءة، وقيل أن يؤمر بقتل المشركين فنلك قوله: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّه كَانَ مَنْصُورًا﴾ يقول: لا تقتل غير قاتلك، وهي اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم. وأخرج البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم أن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً إذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيره، فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ قال: بينة من الله أنزلها يطلبها وليّ المقتول القود أو العقل، وذلك السلطان. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عنه ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قال: لا يكثر في القتل. وأخرج ابن المنذر من طريق أبي صالح عنه أيضاً: لا يقاتل إلا قاتل رحمه.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿١٥٨﴾ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿١٥٩﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿١٦٠﴾ وَلَا تَنسَ فِي الْأَرْضِ مَرًّا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ لِيْلَالِ طُولًا ﴿١٦١﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿١٦٢﴾ ذَلِكَ وَمَا أَرْحَمُ إِلَهَكَ رَبُّكَ لِنَبْلُغَ إِلَهُ إِلَهُ مَا خَرَّ فَنَقُصُّ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْمُومًا ﴿١٦٣﴾ أَفَأَمْسَكْتُمْ رُكْبَمَ الْإِنِّينَ وَأَعْتَدْتُمُ الْمُلْكُوتَ إِنشَاءً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿١٦٤﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٦٥﴾

لما نكر سبحانه النهي عن إتلاف النفوس أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾. والنهي عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة له وإتلافه، ثم بين سبحانه أن النهي عن قربانه، ليس المراد منه النهي عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده بل يجوز لوليّ اليتيم أن يفعل في مال اليتيم ما

وقيل: التكبر في المشي؛ وقيل: تجاوز الإنسان قدره؛ وقيل: الخيلاء في المشي؛ وقيل: البطر والأشر؛ وقيل: النشاط. والظاهر أن المراد به هنا الخيلاء والفخر، قال الزجاج في تفسير الآية: لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً، وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريباً، ولقد أحسن من قال:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفع
ولن كنت في عز وحز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمنع
والمرح مصدر وقع حالاً أي: ذا مرح. وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد. وقرأ الجمهور (مرحاً) بفتح الراء على المصدر. وحكى يعقوب عن جماعة كسرهما على أنه اسم فاعل، ثم علل سبحانه هذا النهي فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ يقال: خرق الثوب أي: شقه، وخرق الأرض قطعها، والخرق الواسع من الأرض، والمعنى: أنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً، وفيه تهكم بالمختال المتكبر ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ أي: ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال، فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها، ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال، فما الحامل لك على ما أنت فيه؟ وطولاً مصدر في موضع الحال أو تمييز أو مفعول له؛ وقيل: المراد بخرق الأرض نقيبها لا قطعها بالمسافة. وقال الأزهري: خرقها قطعها، قال النحاس: وهذا أبين كأنه مأخوذ من الخرق، وهو الفتح الواسع، ويقال: فلان أخرج من فلان: أي أكثر سفراً، والإشارة بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ إِلَىٰ مَوْلَايَ مُارِئَةٌ وَمَنْ يَرْجُ الْآخِرَ لَا يَفْطِنْ﴾ إلى جميع ما تقدم نكره من الأوامر والنواهي، أو إلى ما نهى عنه فقط من قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ «ولا تمش» قرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، ومسروق (سيئته) على إضافة سيء إلى الضمير، ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ فإن السيء هو المكروه. ويؤيدها أيضاً قراءة أبي: (كان سيئاته)، واختار هذه القراءة أبو عبيد. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (سيئته) على أنها واحدة السيئات، وانتصابها على خبرية كان، ويكون مكروهاً صفة لسيئة على المعنى، فإنها بمعنى سيئاً، أو هو بدل من سيئة؛ وقيل: هو خبر ثانٍ لكان حملاً على لفظ كل، ورجع أبو علي الفارسي البذل، وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى. قال الزجاج: والإضافة أحسن، لأن ما تقدم من الآيات فيها سيء وحسن، فسيئته المكروه ويقوي ذلك التذكير في المكروه، قال: ومن قرأ بالتونين جعل «كل ذلك» إحاطة بالمنهي عنه نون الحسن. المعنى: كل ما نهى الله عنه كان سيئةً وكان مكروهاً. قال: والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة وليس بنعت، والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه، لا أنه غير مراد مطلقاً، لقيام الالة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه، وذكر مطلق الكراهة مع أن في الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر إشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع

بالعالم وبخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك، فلا تخرج من عمومها ومن عموم ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَىٰ﴾ [يونس: 36]. إلا ما قام دليل جواز العمل به، فالعمل بالرأي في مسائل الشرع إن كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة، فقد رخص فيه النبي ﷺ كما في قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه قاضياً: «بم تقضي؟» قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد، قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد، قال: اجتهد رأيي». وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك في بحث مفرد. وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة، ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي سخولاً أولياً، لأنه محض رأي في شرع الله، وبالناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ ولم تدع إليه حاجة، على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به، ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع، وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك اكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفرعية ليست من الشرع في شيء، والعامل بها على شفا جرف هار، فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم، والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده «ظلمات بعضها فوق بعض» [النور: 40]. وقد قيل: إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً. ثم علل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة، وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها. وقال الزجاج: إن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد ابن جرير مستدلاً على جواز هذا قول الشاعر:

ثم المنازل بعد منزلة اللوى والمعيش بعد أولئك الأيام
واعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام، وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف. والضمير في كان من قوله: ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ يرجع إلى كل، وكذا الضمير في عنه، وقيل: الضمير في كان يعود إلى القافي المملول عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾. وقوله: «عنه» في محل رفع لإسناد مسئولاً إليه، ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً أو مجروراً. قيل: والاولى أن يقال: إنه فاعل مسئولاً المحذوف، والمذكور مفسر له. ومعنى سؤال هذه الجوارح أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات، والمستعمل لها هو الروح الإنساني، فإن استعملها في الخير استحق الثواب، وإن استعملها في الشر استحق العقاب؛ وقيل: إن الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ المرح قيل: هو شدة الفرح،

ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية.

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ قال: كانوا لا يخالطونهم في مال ولا مكل ولا مركب حتى نزلت ﴿وَلَا تَخَالُطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: 220]. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِنْ لِّلْعَهْدِ كَانَ مَسْئُولًا﴾ قال: يسأل الله ناقض العهد عن نقضه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يسأل عهده من أعطاه إياه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ يعني: لغيركم ﴿وَوَزَنُوا بِالْقُسْطَاسِ﴾ يعني: الميزان، وبلغه الروم الميزان للقسطاس ﴿وَلَكُمْ خَيْرٌ﴾ يعني: وفاء الكيل والميزان خير من النقصان ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة. وأخرج ابن أبي شيبة، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: القسطاس العدل بالرومية. وأخرج ابن المنذر عن الضحك قال: القسطاس القبان. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: الحديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ قال: لا تقل. وأخرج ابن جرير عنه قال: لا ترم أحدا بما ليس لك به علم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن الحنفية في الآية قال: شهادة الزور. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ يقول: سمعه وبصره وفؤاده تشهد عليه. وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ قال: يوم القيامة أكذلك كان أم لا؟ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قال: لا تمش فخرا وكبرا، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ولا أن تحرق الأرض بفخر وكبرك. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن التوراة في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْحُورًا﴾ قال: مطرودا.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَمْنُورًا إِلَى دِي الْأَرْضِ سَبِيلًا ﴿١٦٦﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٦٧﴾ شَيْخٌ لَهُ الْكَوْنُوتُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَنَزَلَ مِنْ رَبِّهِ نُورٌ وَإِلَى سَبْعِ مَجَازٍ وَلَكِنْ لَا تَقْفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّمَا كَانَ حِصًّا عَمُورًا ﴿١٦٨﴾ وَلَئِنْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ سَمِعْنَا نَبِيَّكَ وَبَيْنَ أَلَدَيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ جَهَنَّا مُسْتَوْرًا ﴿١٦٩﴾ وَهَلَّا عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي كَلَامِهِمْ وَفَا إِذَا دُكِّرَتْ رَكْعَةً فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثُوا وَلَوْ أَنَّ آذَنَهُمْ قَوْلًا ﴿١٧٠﴾ مِّنْ أَمْرٍ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ بِحَرْجٍ إِذْ يَقُولُ الْغُلَامُونَ إِن تَسْمِعُونَ إِلَّا رَمَلًا مَّسْحُورًا ﴿١٧١﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ مَرُّوْا لَكَ الْأَمْثَالُ فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَمِعُونَ سَبِيلًا ﴿١٧٢﴾

قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾. قرأ ابن كثير، وحفص (يقولون) بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقاتلين بأن مع الله آلهة أخرى، وإن جواب

واجتنابه لذلك. والحاصل أن في الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به، وما هو مكروه وهو المنهي عنه، فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلى جميع الخصال حسنها ومكروها، ثم الإخبار بأن ما هو سيئ من هذه الأشياء وهو المنهي عنه مكروه عند الله، وعلى قراءة الأفراد من نون إضافة تكون الإشارة إلى المنهيات، ثم الإخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند الله ﴿وَلَكُمْ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ الإشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ إلى هذه الغاية وترتقي إلى خمسة وعشرين تكليفا، ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبِّكَ﴾ أي: من جنسه أو بعض منه، وسمي حكمة لأنه كلام محكم، وهو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التي لا ينطرق إليها الفساد، وعند الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته، و«من الحكمة» متعلق بمحذوف وقع حالا أي: كائنا من الحكمة، أو بدل من الموصول بإعادة الجار، أو متعلق بأوحى. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ كبر سبحانه النبي عن الشرك تأكيداً وتقريباً وتبييناً عن أنه رأس خصال الدين وعمدته. قيل: وقد رأى سبحانه في هذا التأكيد بيقية فرتب على الأول كونه مضموماً مخفولاً، وذلك إشارة إلى حال الشرك في الدنيا، ورتب على الثاني أنه يلقي ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّحْجُورًا﴾ وذلك إشارة إلى حاله في الآخرة، وفي القعود هناك، والإلقاء هنا إشارة إلى أن للإنسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة، وقد تقدم تفسير العلوم والمحذور ﴿فَاِصْصَاكُم بِرَبِّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخِذْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَائًا﴾ قال أبو عبيدة: اصفاكم خصكم، وقال الفضل: اخلصكم، وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفيه توبيخ شديد وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل، والفاء للعطف على مقتر كنظائره مما قد كررناه. ﴿إِنكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ يعني: للقائلين بأن لهم الذكر والله الإنك ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بالغا في العظم والجرأة على الله إلى مكان لا يقادر قدره ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: بينا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها، أو كررنا فيه؛ وقيل: «في» زائدة، والتقدير ولقد صرَّفنا هذا القرآن. والتصريف في الأصل صرف الشيء من جهة إلى جهة؛ وقيل: معنى التصريف المغايرة أي: غايرنا بين المواعظ ليتذكروا ويعتبروا، وقراءة الجمهور (صرَّفنا) بالتشديد، وقرأ الحسن بالتخفيف، ثم علل تعالى ذلك فقال: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ أي: ليتعظوا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه. قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي (ليتذكروا) مخففاً، والباقيون بالتشديد، واختارها أبو عبيد لما تفيد من معنى التذكير، وجملة ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن هذا التصريف والتذكير ما يزيدهم إلا تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر في الصواب لأنهم قد اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر، وهم لا

كانوا يسمعون تسبيح الطعام، وهم ياكلون مع رسول الله ﷺ، وهكذا حديث حنين الجذع، وحديث أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي ﷺ، وكلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصى في كفه ﷺ، ومداغمة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعدادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده، ومعنى ﴿إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ﴾ إلا يسبح متلبساً بحمده ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. قرأ الحسن، وأبو عمرو، ويعقوب، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف (تسبح) بالمشناة الفوقية على الخطاب، وقرأ الباقرن بالتحنية، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فمن حلمه الإمهال لكم وعدم إنزال عقوبته عليكم، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم. ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع في نكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ جعلنا بينك يا محمد وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً أي: إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرّون بك ولا يرونك، ذكر معناه الزجاج وغيره، ومعنى مستوراً ساتر. قال الأخفش: أراد ساتراً، والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول: إنك لمشووم وميمون، وإنما هو شائم ويامن؛ وقيل: معنى مستوراً ذا ستر، كقولهم: سيل مفعم: أي: ذو إفعام، وقيل: هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها، وقيل: حجاب من بونه حجاب فهو مستور بغيره، وقيل: المراد بالحجاب المستور الطبع والختم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الكنة: جمع كنان. وقد تقدّم تفسيره في الأنعام، وقيل: هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88] ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: 5]. و﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول لأجله أي: كراهة أن يفقهوه، أو لئلا يفقهوه أي: يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً وثقلًا، وفي الكلام حذف، والتقدير: إن يسمعه. ومن قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن ينكر آلهتهم كما ينكر الله سبحانه فإذا سمعوا نكر الله بون نكر آلهتهم نفروا عن المجلس، ولهذا قال الله: ﴿وَإِذَا نَكَرْتُ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي: واحداً غير مشفوع بنكر آلهتهم، فهو مصدر وقع موقع الحال ﴿وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَنْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾ هو مصدر، والتقدير: هربوا نفوراً، أو نفروا نفوراً؛ وقيل: جمع نافر كقاعد وقعود. والأول أولى. ويكون المصدر في موضع الحال أي: ولوا نافرين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمْعُونَ بِهِ﴾ أي: يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقرآن واللغو في نكرك لربك وحده، وقيل: الباء زائدة والظرف في ﴿إِذْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ﴾ متعلق بأعلم أي: نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به، وفيه تأكيد للوعيد، وقوله: ﴿وَإِذَا هُمْ نَجْوَى﴾ متعلق بأعلم أيضاً أي: ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم، وقد

عن مقاتلهم الباطلة وجزاء للو ﴿لَا يَتَّبِعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ﴾ وهو الله سبحانه ﴿سَبِيحًا﴾ طريقاً للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصالوة؛ وقيل: معناه إن لا يتبغت الأكلة إلى الله القرية والزلفة عنده، لأنهم بونه، والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقرّبهم إلى الله. والظاهر المعنى الأول، ومثل معناه قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]. ثم نزه تعالى نفسه، فقال: ﴿سَبْحَانَهُ﴾ والتسبيح التنزيه، وقد تقدّم ﴿وَتَعَالَى﴾ متباعد ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿عَلَوًا﴾ أي: تعالياً، ولكنه وضع العلو موضع التعالي كقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17]. ثم وصف العلو بالكبر مبالغة في النزاهة، وتنبهها على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته، وبين الغني المطلق، والفقر المطلق مباينة لا تعقل الزيادة عليها. ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمته سلطانه فقال: ﴿يَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قرئ بالمشناة التحنية في (يسبح)، وبالفوقية، وقال: «فيهن» بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنّها تسبحه، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والإنس والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل، ثم زاد ذلك تعميماً وتأكيداً فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ﴾ فشمّل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان، وقيل: إنه يحمل قوله: ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ على الملائكة والثقلين، ويحمل ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات.

وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا؟ فقالت طائفة: ليس بمخصوص، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدلّ غيره بأن الله خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره. والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذي معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد، وأجيب بأن المراد بقوله ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار. وقالت طائفة: إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين بون الجمادات، وقيل: خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات، كما روي هذا القول عن عكرمة والحسن وخصاً تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها. وقد استدللّ لذلك بحديث: «أن النبي ﷺ مرّ على قبرين، وفيه ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنتين، وقال: إنه يخفف عنهما ما لم يبسأ. ويؤيد حمل الآية على العموم قوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يَسْبِحنَ بالعشي والإشراق﴾ [ص: 18]. وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 74]. وقوله: ﴿وَتَخَرَّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ [مريم: 90]، ونحو ذلك من الآيات. وثبت في الصحيح أنهم

قال ابن كثير إسناده فيه ضعف. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح». وأخرج النسائي، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عمرو قال: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال: نقيقتها تسبح». وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الزرع يسبح وأجره لصاحبه والثوب يسبح ويقول الوسخ إن كنت مؤمناً فاغسلني إنني. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: كل شيء يسبح إلا الكلب والحمار. وأخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال: أتى أبو بكر بغراب وأفر الجناحين، فجعل ينشر جناحيه ويقول: ما صيد من صيد ولا عضد من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح. وأخرجه أحمد في الزهد، وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال: أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع. وأخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن مردويه من حديث أبي هريرة بنحوه. وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه. وأخرج أبو الشيخ من حديث أبي الدرداء بمعناه. وأخرج ابن عساکر من حديث أبي رهم نحوه. وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: هذه الآية في التوراة كقدر ألف آية ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: في التوراة تسبح له الجبال ويسبح له الشجر، ويسبح له كذا ويسبح له كذا. وأخرج أحمد، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: صلى داود ليلة حتى أصبح، فلما أصبح وجد في نفسه سروراً فنادته ضفدعة يا داود كنت آداب منك قد أغفيت إغفاء. وأخرج البيهقي في الشعب عن صدقة بن يسار قال: كان داود في محرابه فابصر بودة صغيرة ففكر في خلقها وقال: ما يعبا الله بخلق هذه، فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك، لانا على قدر ما آتاني الله أنكره وأشكر له منك على ما آتاك الله، قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾ وفي الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أسماء بنت أبي بكر قال: «لما نزلت ﴿تَبْتَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: 1] أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول:

مذمماً أبينا وبينه قلينا
وأمره عصينا

ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: إنها لن تراني، وقرأ قرأناً اعتصم به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا ورب هذا

كانوا يتناجون بينهم بالكذب والاستهزاء، يقول بدل من «إذ هم نجوى». ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي: يقول كل منهم للآخرين عند تناجيتهم: ما تتبعون إلا رجلاً مسح فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال. قال ابن الأعرابي: المسحور الذاهب العقل الذي أقسد من قولهم: طعام مسحور إذا أقسد عمله، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فافسدها؛ وقيل: المسحور المخدوع، لأن السحر حيلة وخديعة، وذلك لأنهم زعموا أن محمداً ﷺ كان يتعلم من بعض الناس، وكانوا يخدعون بذلك التعليم. وقال أبو عبيدة: معنى مسحوراً أن له سحراً أي: رثة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم، وتقول العرب للجبان: قد انتفخ سحره، وكل من كان يأكل من آدمي أو غيره مسحور، ومنه قول امرئ القيس:

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
أي: نخذي ونعلل. قال ابن قتيبة: لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي قالوا: تارة إنك كاهن وتارة ساحر، وتارة شاعر، وتارة مجنون ﴿فَضْلُوا﴾ عن طريق الصواب في جميع ذلك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ إلى الهدى أو إلى الطعن الذي تقبله العقول ويقع التصديق له لا أصل الطعن، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه؛ وقيل: لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم: ساحر مجنون.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿إِذَا لَبِثْغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ قال: على أن يزيلوا ملكه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط: «أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: سمعت تسبيحاً من السموات العلى مع تسبيح كثيراً سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى». وأخرج ابن مردويه عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هذه فقال: أطلت السماء ويحق لها أن تئط، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً قال لابنه: يا بني أمر أن تقول: سبحان الله، فإنها صلاة الخلاق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق» قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾. وأخرج أحمد، وابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: ما من عبد سبَّ تسبيحة إلا سبَّ ما خلق الله من شيء، قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾

ثم نكر ما فضل به داود، فقال: **﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُوبَرَ﴾** أي: كتاباً مزبوراً. قال الزجاج: أي فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطاه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَرَفِئْنَا﴾** قال: غباراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿وَرَفِئْنَا﴾** قال: تراباً، وفي قوله: **﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَبِيبًا﴾** قال: ما شئتم فكونوا، فسيعيبكم الله كما كنتم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله: **﴿وَإِذَا خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُورِكُمْ﴾** قال: الموت، لو كنتم موتاً لأحييتكم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، والحكم عن ابن عباس مثله. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن مثله أيضاً. وأخرج عبد الله بن أحمد، وابن جرير، وابن المنذر عن سعيد بن جبيرة نحوه، وزاد قال: فكونوا الموت إن استطعتم فإن الموت سيموت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فَسَيَفْغَضُونَ إِلَيْكَ رِعْوسَهُمْ﴾** قال: سيحركونها استهزاءً. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾** قال: الإعادة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾** قال: بأمره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في الآية قال: يخرجون من قبورهم وهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾** قال: بمعرفته وطاعته **﴿وَتُظَنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾** أي: في الدنيا تحاقرت الدنيا في أنفسهم، وقلت حين عاينوا يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين في قوله: **﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** قال: لا إله إلا الله. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يغفو عن السيئة. وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: يقول له يرحمك الله يغفر الله لك. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: نزع الشيطان تحريشه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُوبَرَ﴾** قال: كنا نحث أنه دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: الزبور ثناء على الله ودعاء وتسبيح. قلت: الأمر كما قاله قتادة والربيع فإننا وقفنا على الزبور فوجدناه خطباً يخطبها داود عليه السلام ويخاطب بها ربه سبحانه عند دخوله الكنيسة، وجملة مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزموراً بفتح الميم الأولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية: وآخره راء، ففي بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم، وفي بعضها يحمد الله ويمجده ويثني عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم والغلبة لهم، وكان عند

سبحانك وبحمك؛ وقيل: المراد بالدعاء هنا البعث وبالإستجابة أنهم يبعثون، فالمعنى: يوم يبعثكم فتبعثون متقادين **﴿وَتُظَنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾** أي: تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم في قبوركم إلا زمناً قليلاً، وقيل: بين النفختين، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين، وذلك أربعون عاماً ينامون فيها، فلذلك **﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾** [يس: 52]، وقيل: إن الدنيا تحقرت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة، فقالوا هذه المقالة. **﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** أي قل: يا محمد لعبادي المؤمنين: إنهم يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمة التي هي أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله سبحانه: **﴿وَلَا تَجَانِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [العنكبوت: 46]. وقوله: **﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾** [طه: 44] لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدي إلى ما قال سبحانه: **﴿وَلَا تَسِبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** [الأنعام: 108]. وهذا كان قبل نزول آية السيف، وقيل: المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله وينهوا عما نهى عنه، وقيل: هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة، والأول أولى كما يشهد به السبب الذي سنذكره إن شاء الله **﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾** أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغراء. قال الزبيدي: يقال نزغ بيننا أي: أقسد. وقال غيره: النزغ الإغراء **﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾** أي: متظاهراً بالعداوة مكاشفاً بها، وهو تعليل لما قبله، وقد تقدم مثل هذا في البقرة **﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾** قيل: هذا خطاب للمشركين، والمعنى: إن يَشَأْ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميّتكم عن الشرك فيعذبكم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين أي: إن يَشَأْ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار أو إن يَشَأْ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ وقيل: إن هذا تفسير للكلمة التي هي أحسن **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا﴾** أي: ما وكذلك في منعهم من الكفر، وقسرهم على الإيمان؛ وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم، ومنه قول الشاعر:

نكرت أبا روى فبئت كأنني بردُ الأمور الماضية وكيل
أي: كفيل. **﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**
أعلم بهم ذاتاً وحالاً واستحقاقاً، وهو أعم من قوله: **﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾** لأن هذا يشمل كل ما في السموات والأرض من مخلوقاته، وذلك خاص ببني آدم أو ببعضهم، وهذا كالتوطئة لقوله: **﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾** أي: أن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن لونه، وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفوائده. وقد تقدم هذا في البقرة. وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وجعل عيسى كلمته وروحه، وجعل لسليمان ملكاً عظيماً، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وجعله سيد ولد آدم. وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل،

عذابه ﴿ كما يخافه غيرهم ﴾ [إن عذاب ربك كان محذوراً] لتعليل لقوله يخافون عذابه أي: إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم. ثم بين سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال: ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ [إن نافية، ومن للاستغراق أي: ما من قرية، أي قرية كانت من قرى الكفار. قال الزجاج: أي ما من أهل قرية إلا سيهلكون إما بموت وإما بعذاب يستأصلهم، فالمراد بالقرية أهلها، وإنما قيل: قبل يوم القيامة لأن الإهلاك يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة، بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا؛ وقيل: الإهلاك المصالحة والتعذيب للطلاحة، والأول أولى لقوله: ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ [القصص: 59]. ﴿ كان ذلك ﴾ المذكور من الإهلاك، والتعذيب ﴿ في الكتاب ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿ مسطوراً ﴾ أي: مكتوباً، والسطر الخط وهو في الأصل مصدر، والسطر بالتحريك مثله. قال جرير:

من شاء بليعته مالي وخلفته ما تكمل التيم في ديوانها سطورا
والخلفة بضم الخاء خيار المال، والسطر جمع أسطر، وجمع السطر بالسكون أسطر ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ولا أن نكذب بها الأولون ﴾ قال المفسرون: إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سألت قومك، ولكنهم إن لم يؤمنوا بها يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم، فأنزل الله هذه الآية. والمعنى: وما معنا من إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده، فالمنع مستعار بترك، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي: ما تركنا إرسالها لشيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لا شراكهم في الكفر والعناد حل بهم ما حل بهم، و «أن» الأولى في محل نصب بإيقاع المنع عليها، و «أن» الثانية في محل رفع، والباء في الآيات زائدة. والحاصل أن المانع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للإهلاك الكلي وهو الاستئصال، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة؛ وقيل معنى الآية: إن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لأبائهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن أولئك، فيكون إرسال الآيات ضائعاً، ثم إنه سبحانه استشهد على ما نكر بقصة صالح ونافته، فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التي قد بينت في محل آخر وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب، وإنما خص قوم صالح بالاستشهاد، لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال: ﴿ وأتينا نمرود الناقة مبصرة ﴾ أي: ذات إِبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله: ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ [الإسراء: 12] أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازاً، أو

الخطبة يضرب بالقيثارة، وهي آلة من آلات الملاهي. وقد نكر السيوطي في الدر المنثور ما هنا روايات عن جماعة من السلف ينكرون الفاظاً وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواظ والزواجر.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا غَرْبًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ حَذْرُكَ ﴿٥٢﴾ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُهَا قِيلَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا الْآثَانَ مُبِشِّرًا فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٤﴾ وَإِلَّا قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَدٌ وَإِنَّا لَنَدْنِي وَمَا جَعَلْنَا آيَاتِنَا إِلَّا لِقَوْمٍ يُفَسِّهُنَّ لِقَائِ الْآيَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ وَتَعْرِفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ هذا رد على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه؛ وقيل: أراد بالذين زعمتم نفرًا من الجن عندهم ناس من العرب، وإنما خصصت الآية بمن نكرنا لقوله: ﴿ يبتغون إلى ربهم للوسيلة ﴾، فإن هذا لا يليق بالجمادات ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي: لا يستطيعون ذلك، والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر، وعلى تحويله من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان، فوجب القطع بأن هذه التي تزعمنها آلهة ليست بآلهة، ثم إنه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله في جلب المنافع ونبذ المضار، فقال: ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم للوسيلة ﴾ فالولك مبتدا والذين يدعون صفته، وضمير الصلة محذوف أي: يدعونهم، وخبر المبتدا يبتغون إلى ربهم الوسيلة، ويجوز أن يكون الذين يدعون خبر المبتدا أي: الذين يدعون عباده إلى عبادتهم، ويكون يبتغون في محل نصب على الحال. وقرأ ابن مسعود (تدعون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحية على الخبر؛ ولا خلاف في يبتغون أنه بالتحية. والوسيلة القرية بالطاعة والعبادة أي: يتضرعون إلى الله في طلب ما يقربهم إلى ربهم، والضمير في ربهم يعود إلى العابدين أو المعبودين ﴿ إليهم اقرب ﴾ مبتدا وخبر. قال الزجاج: المعنى أيهم اقرب بالوسيلة إلى الله أي: يتقرب إليه بالعمل الصالح، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير في يبتغون أي: يبتغي من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة، فكيف بمن دونه؟ وقيل: إن يبتغون مضمن معنى يحرصون أي: يحرصون أيهم اقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ﴿ ويرجون رحمته ﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ ويخافون

حصل من المساء لرسول الله ﷺ، أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا، وقيل: إن الله سبحانه أراه في المنام مصارع قريش حتى قال: والله لكانني أنظر إلى مصارع القوم وهو يومئ إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ عطف على الرؤيا، قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. قال جمهور المفسرين: وهي شجرة الزقوم، والمراد بلعننا لعن أكلها كما قال سبحانه: ﴿إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم﴾ [الدخان: 43 - 44]. وقال الزجاج: إن العرب تقول: لك طعام مكروه ملعون، ومعنى الفتنة فيها أن أبا جهل وغيره قالوا: زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول: ينبت فيها الشجر، فأنزل الله هذه الآية. وروي أن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمرًا وزبدًا وقال لأصحابه: تزقمو. وقال ابن الزبيري: كثر الله من الزقوم في داركم فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن، وقيل: إن الشجرة الملعونة هي الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتلها، وهي شجرة الكشوث؛ وقيل: هي الشيطان؛ وقيل: اليهود؛ وقيل: بنو أمية ﴿ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ أي: نخوفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغياناً متجاوزاً للحد متمادياً غاية التمادي فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال ولكننا قد قضينا بتأخير العقوبة.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود في قوله: ﴿قل ادعوا الذين رُغمتم من نونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم نفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ كلاهما، يعني: الفلطين بالياء التحتية، وروي نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في الآية قال: كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزير. وروي عنه من وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعزير. وروي عنه أيضاً من وجه آخر بلفظ هم: عيسى وعزير، والشمس والقمر. وأخرج الترمذي، وابن مريويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، قالوا وما الوسيلة؟ قال القرب من الله، ثم قرأ ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة إيهام أقرب﴾». وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ قال: في اللوح المحفوظ. وأخرج أحمد، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني،

أنها جعلتهم ذوي إبصار، من أبصره جعله بصيراً. وقرأ على صيغة المفعول. وقرأ بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال. وقرأ برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف، والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام أي: فكتبوها وآتيناهم ثمود الناقة، ومعنى ﴿فظلموا بها﴾ فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا أي: فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ اختلف في تفسير الآيات على وجه: الأول أن المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين؛ الثاني أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي؛ الثالث تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى شيب ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره؛ الرابع آيات القرآن، الخامس الموت الذريع والمناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة أي: لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم. والجملة مستأنفة لا محل لها، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها أي: فظلموا بها ولم يخافوا، والحال أن ما نرسل بالآيات التي هي من جعلتها إلا تخويفاً. قال ابن قتبية: وما نرسل بالآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب العاجل. ولما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للصارف المنكور قوي قلبه بوعد النصر والغلبة فقال: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك لحاط بالناس﴾ الظرف متعلق بمحذوف أي: أذكر إذ قلنا لك أي: أنهم في قبضته وتحت قدرته، فلا سبيل لهم إلى الخروج مما يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه وقدرته، وقيل: المراد بالناس أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم أي: إن الله سيهلكهم، وغير بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح، وقيل: المراد أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ضم إليه ذكر آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة، وسماها رؤيا لأنها وقعت بالليل، أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا، وقد قدمنا في صدر السورة وجهاً آخر في تفسير هذه الرؤيا، وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺ أنه أسري به، وقيل: كانت رؤيا نوم، وإن النبي ﷺ رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ [الفتح: 27] وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية، والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة، وقيل: إن هذه الرؤيا المذكورة في هذه الآية هي أنه رأى بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساء ذلك، فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها فسري عنه، وفيه ضعف، فإنه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول الله ﷺ وحده، ويراد بالفتنة ما

عن الحسين بن علي نحوه مرفوعاً وهو مرسل. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه وهو مرسل. وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجنك: «إنكم الشجرة الملعونة في القرآن» وفي هذا نكارة لقولها: يقول لأبيك وجنك ولعل جد مروان لم يدرك زمن النبوة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إن رسول الله ﷺ أري أنه دخل مكة هو وأصحابه، وهو يومئذ بالمدينة فصار إلى مكة قبل الأجل فردّه المشركون، فقال ناس: قد ردّه، وقد كان حدثنا أنه سينخلها، فكانت رجعت ففتنتهم وقد تعارضت هذه الأسباب، ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير إلى الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الإسراء فيتعين ذلك. وقد حكى ابن كثير إجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك في الرؤيا، وفي تفسير الشجرة وأنها شجرة الزقوم، فلا اعتبار بغيرهم معهم. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لما نكر رسول الله ﷺ شجرة الزقوم تخويفاً لهم: يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا لا قال: عجوة يشرب بالزبد، والله لئن استمكننا منها لنزقمناها ترقماً. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ * طَعَامُ الْإِثْمِ﴾ [البخا: 43 - 44]، وأنزل ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾ قال: ملعونة لأنه قال: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ [الصافات: 65]. والشياطين ملعونون.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَتُفَعَّلُ لِمَنْ خَلَقْتُ لَيْسَ ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْآخِرَةِ لَأَسْخِيَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قَالَ أَأَذْهَبُ مَن يَكُم مِّنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّقْفُورًا ۖ وَأَسْفَرْنَا مَن اسْتَطَعَتْ يَدُهُمْ بِصُوتِكَ وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ رَجُلٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَوَّلُ رِجَالُهُمْ وَمَا يَدْرَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُوفًا ۖ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝١٥

لما نكر سبحانه أن الرسول ﷺ كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة، أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك، حتى أن هذه عادة قديمة سنّها إبليس اللعين، وأيضاً لما نكر أن الذين يدعون ببيتعون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه نكرها هنا ما يحقق ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه في سبعة مواضع: في البقرة، والاعراف، والحجر، وهذه السورة، والكهف، وطه، وص، وقد تقدّم تفسيرها مبسوطاً فلنقتصر هنا على تفسير ما لم يتقدّم نكره من الألفاظ، فقولهم: ﴿طِيناً﴾ منتصب بنزع

والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستاني بهم وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم من الأمم، قال: لا بل أستاذني بهم، فأنزل الله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الآية. وأخرج أحمد، والبيهقي من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال: قال الناس لرسول الله ﷺ لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبیون؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم، فإن عصيتم هلكتم، فقالوا: لا نريدها». وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ قال: الموت. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن قال: هو الموت الذريع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قال: عصمك من الناس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: فهم في قبضته. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلرُّؤْيَا﴾ الآية قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، وليست برؤيا منام ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم. وأخرج أبو سعيد، وأبو يعلى، وابن عساكر عن أم هانئ: أن رسول الله ﷺ لما أسري به أصبح يحدث نفرًا من قريش وهم يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس، وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله إليه ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القردة فسأه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات. فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾. قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده: وهذا السند ضعيف جداً. وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زبّان وهو متروك وشيخه عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو أن النبي ﷺ قال: «رايت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، والشجرة الملعونة» يعني: الحكم وولده. وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رايت بني أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتم رسول الله ﷺ لذلك، فأنزل الله الآية». وأخرج ابن مردويه

والرجل كناية عن جميع مكاييد الشيطان، أو المراد كل راكب وراجل في معصية الله ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ أما المشاركة في الأموال، فهي كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذاً من غير حق، أو وضعاً في غير حق كالغصب والسرقة والربا، ومن نكح تبتيك آذان الانعام وجعلها بحيرة وسائبة، والمشاركة في الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي، وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات وعبد العزى، والإساءة في تربيتهم على وجه يالفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويخل في ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق، وواد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التي هم عليها، ومن نكح مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسم، ثم قال: ﴿وعدهم﴾ قال الفراء: قل لهم لا جنة ولا نار. وقال الزجاج: وعدهم بأنهم لا يبعثون ﴿وما يعدم للشيطان إلا غروراً﴾ أي: باطلاً، وأصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب؛ وقيل معناه: وعدهم النصر على من خالفهم، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد، وقيل: هي على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ يعني: عبادهم المؤمنين كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها المؤمنون لما في الإضافة من التشريف، وقيل: المراد جميع العباد بلبيل الاستثناء بقوله في غير هذا الموضع ﴿إلا من أتبعك من الغاوين﴾ [الحجر: 42] والمراد بالسلطان التسلسل ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾ يتكلمون عليه، فهو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال إبليس إن آدم خلق من تراب من طين خلق ضعيفاً وإنني خلقت من نار، والنار تحرق كل شيء ﴿لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ فصق طنه عليهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿لأحتنكن ذريته﴾ قال: لاستولي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد ﴿لأحتنكن ذريته﴾ قال: لأحتويهم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: لأضلهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿موفوراً﴾ قال: وافراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وولجبتهم بصوتك﴾ قال: صوت كل داع دعا إلى معصية الله ﴿ولجبتهم بصوتك﴾ قال: كل راكب في معصية الله ﴿وولجبتهم بصوتك﴾ قال: كل راكب في معصية الله ﴿وشاركهم في الأموال﴾ قال: كل مال في معصية الله ﴿والأولاد﴾ قال: كل ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم الحرام. وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية قال: كل خيل تسير في معصية الله، وكل مال أخذ بغير حقه، وكل ولد زنا. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: ﴿الأموال﴾ ما كانوا يحرمون من انعامهم ﴿والأولاد﴾ أولاد

الخافض أي: من طين، أو على الحال. قال الزجاج: المعنى لمن خلقته طيناً، وهو منصوب على الحال ﴿أرأيتك﴾ أي: أخبرني عن هذا الذي فضله علي لم فضله؟ وقد ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف: 12] فحذف هذا للعلم به ﴿لأحتنكن ذريته﴾ أي: لاستولي عليهم بالإغواء والإضلال قال الواحدي: أصله من احتنك الجراد للزرع، وهو أن تستأصله بأحنكها وتفسده، هذا هو الأصل، ثم سمي الاستيلاء على الشيء وأخذته كله احتنكاً؛ وقيل معناه: لاستوليهم حيث شئت وأقويهم حيث أريت، من قولهم حنكت الفرس أحنكه حنكاً: إذا جعلت في فيه الرسن، والمعنى الأول أنسب بمعنى هذه الآية، ومنه قول الشاعر: أشكو إليك سنة قد أجهفت بهذا إلى جهد بنا وأصعقت واحتنكت أموالنا واختلفت

أي: استأصلت أموالنا، واللام في ﴿لئن لخرتن﴾ هي الموطئة، وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما نكره لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه، أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيدته في بني آدم، وأنه يجري منهم في مجاري الدم، وأنهم بحيث يروج عندهم كيدته وتنفق لديهم وسوسته إلا من عصم الله، وهم المرادون بقوله: ﴿إلا قليلاً﴾ وفي معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ويؤيد ما نكرناه قوله تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ [سبا: 20]. فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظن، وقيل: إنه استنبط ذلك من قول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ [البقرة: 30]، وقيل: علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات، أو ظن ذلك لانه وسوس لأدم، فقبل منه ذلك ولم يجد له عزماً، كما روي عن الحسن ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم﴾ أي: أطاعك ﴿فإن جهنم جزاؤكم﴾ أي: إبليس ومن أطاعه ﴿جزاء موفوراً﴾ أي: وافراً مكملًا، يقال: وفرت أفره وفراً، ووفر المال بنفسه يفر وفوراً، فهو وافر، فهو مصدر، ومنه قول زهير:

ومن يجعل المعروف من لونه عرضه يفره ومن لا يتقي الشتم يشتم
ثم كرر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال: ﴿ولستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ أي: استزعج واستخف من استطعت من بني آدم، يقال: أقره واستفزه أي: أزعجه واستخفه، والمعنى: استخفهم بصوتك داعياً لهم إلى معصية الله، وقيل: هو الغناء واللهو واللعب والمزامير ﴿ولجلب عليهم بخلك﴾ قال الفراء وأبو عبيدة: لجلب من الجلبة والصياح أي: صيح عليهم. وقال الزجاج أي: أجمع عليهم كل ما تقدر من مكاييدك، فالإجلب الجمع. والباء في «بخلك» زائدة. وقال ابن السكيت: الإجلاب الإغاة، والخيل تقع على الفرسان كقوله ﴿يا خيل الله اركبي﴾، وتقع على الأفراس، والرجل يسكون الجيم: جمع رجل كتاجر وتجر، وصاحب وصاحب. وقرأ حفص بكسر الجيم على أنه صفة. قال أبو زيد: يقال رجل ورجل، بمعنى راجل، فالخيل

أنهم أصلها، وعين خاسف أي: غائرة حقيقتها في الرأس، وخسفت عين الماء: إذا غار ماؤها، وخسفت الشمس: إذا غابت عن الأرض وجانب البر ناحية الأرض، وسماء جانباً، لأنه يصير بعد الخسف جانباً، وأيضاً فإن البحر جانب من الأرض والبر جانب، وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر فكانوا فيه أمنين من مخاوف البحر، فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر **﴿أو يرسل عليكم حاصباً﴾** قال أبو عبيدة والفتيبي: الحصب الرمي أي: ريحاً شديدة حاصبة، وهي التي ترمي بالحصى الصغار. وقال الزجاج: الحاصب التراب الذي فيه حصباء، فالحاصب نو الحصباء كاللاين، والتامر: وقيل: الحاصب حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط، ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد حاصب، ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين جبال الشام تضربنا بحاصب كنيف القطن منثور
﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلة﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله **﴿أم امنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى﴾** أي: في البحر مرة أخرى بأن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه، وجاء بفي ولم يقل إلى البحر للدلالة على استقرارهم فيه **﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾** القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة، من قصف الشيء يقصفه أي: كسره بشدة، والقصف: الكسر، أو هو الريح التي لها قصف أي: صوت شديد من قولهم رعد قاصف أي: شديد الصوت **﴿فيفرقكم﴾** قرأ أبو جعفر، وشيبة، ورويس، ومجاهد (فتفرقكم) بالياء الفوقية على أن فاعله الريح. وقرأ الحسن وقتادة، وابن وردان (فيفرقكم) بالتحية والتشديد في الراء. وقرأ أبو جعفر أيضاً (الرياح). وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون في جميع هذه الأفعال. وقرأ الباقون بالياء التحتية في جميعها أيضاً، والباء في بما كفرتم للسببية أي: بسبب كفركم **﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾** أي: ثأراً يطالبنا بما فعلنا. قال الزجاج: لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم. قال النحاس: وهو من الثأر، وكذا يقال لكل من طلب بثار أو غيره تببع وتابع. **﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾** هذا إجمال للذكر النعمة التي أنعم الله بها على بني آدم أي: كرمناهم جميعاً، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله. وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم ياكلون بأيديهم، وسائر الحيوانات تاكل بالفم، وكذا حكاة النحاس. وقيل: ميزهم بالنطق والعقل والتميز، وقيل: أكرمهم الرجال باللحي والنساء بالنواثب. وقال ابن جرير: أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم، وقيل: بالكلام والخط والفهم، ولا مانع من حمل التكريم المذكور في الآية على جميع هذه الأشياء. وأعظم خصال التكريم العقل، فإن به تسلطوا على سائر

الزنا. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: **﴿الأموال﴾** البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله **﴿والأولاد﴾** سموا عبد الحارث وعبد شمس.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْغُلُوكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَزَّلَ مِنْ فَوْقِهِ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحِيماً﴾ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون ألا إننا فلان نجعلكم في البحر أمّراً وكان الإنسان كفوراً **﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البحر أو يرسل عليكم حاصباً فم لا تجدوا لكم وكيلة﴾** أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فربيل عليكم قاصفاً من الريح فيفرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من حيث يشاءون ونصّلناهم﴾**

قوله: **﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر﴾** الإزجاء: السوق والإجراء والتسيير، ومنه قوله سبحانه **﴿الم تر أن الله يزجي سحاباً﴾** [النور: 43]. وقول الشاعر:
يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصور
وقول الآخر:

عودنا تزجي خلفها أطفالها

والمعنى: أن الله سبحانه يسيّر الفلك في البحر بالريح والفلك هنا جمع، وقد تقدّم، والبحر هو الماء الكثير عذبا كان أو مالحة، وقد غلب هذا الاسم على المشهور **﴿لتتبعوا من فضله﴾** أي: من رزقه الذي تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة، ومن زائدة أو للتبعيض، وفي هذه الآية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعينوا غيره ولا يشركوا به أحداً، وجملة **﴿إنه كان بكم رحيماً﴾** تعليل لما تقدّم أي: كان بكم رحيماً فهداكم إلى مصالح دنياكم **﴿وإذا مسكم الضر﴾** يعني: خوف الغرق **﴿في البحر ضل من تدعون﴾** من الأكلة وذهب عن خواطركم، ولم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم، أو جن، أو ملك، أو بشر **﴿إلا إياه﴾** وحده فإنكم تعتقدون رجاءكم برحمته وإغاثته، والاستثناء منقطع، ومعنى الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة، فاما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علماً لا يقدر على مدافعة أن الأصنام ونحوها لا فعل لها **﴿فلما تجاكنم إلى البر أعرضتم﴾** عن الإخلاص لله وتوحيده ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها **﴿وكان الإنسان كفوراً﴾** أي: كثير الكفران لنعمة الله، وهو تعليل لما تقدّمه، والمعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله، وفي الرخاء يعرضون عنه، ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلاً: **﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾** الهزيمة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتهم فامتنم فحملكم ذلك على الإعراض، فبين لهم أنه قادر على هلاكهم في البر وإن سلموا من البحر. والخسف أن تنهار الأرض بالشيء، يقال: بثر خسيف إذا

وأخرجه البيهقي من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفاً قال: وهو الصحيح. وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: المؤمن أكرم على الله من ملائكته. وأخرج الطبراني عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا رب أعطيت بني آدم الدنيا ياكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمك ولا ناكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان». وأخرجه عبد الرزاق، وابن جرير عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة. وإسناده الطبراني هكذا: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ فنكره. وأخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم قال: حدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ، فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة. وأخرج نحوه البيهقي أيضاً في الأسماء والصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ فنكره. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ قال: جعلناهم ياكلون بأيديهم وسائر الخلق ياكلون بأقوامهم. وأخرج الحاكم في التاريخ، والديلمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الكرامة الاكل بالأصابع».

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِ فَمَنْ أُوْرَىٰ كِتَابَهُ يَسْبَحُ. فَأُولَٰئِكَ يَفْرَحُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَكْلُمُونَ فِيهِ كَلِمَةً وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدْيِهِ أَمْرٌ نَهَىٰ فِي الْآخِرَةِ أَمْرٌ وَأَمَلٌ سَيِّئاً ۖ وَلَٰكِنْ كَادُوا لَيَتَنَبَّهْنَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَيُنْفِرَنَّ عَلَيْنَا عَنِّي إِذَا أَنُودِيَكَ عَلَيْهِ ۖ وَلَٰكِنْ أَن تَنْتَنِكَ لَقَدْ كَرِهْتَ تَرْكُوكَ إِلَيْنَا شَيْئاً قَلِيلاً ۖ إِذَا لَأَدْفَنَّاكَ فِي مَغْفِ الْحَيَوةِ وَضَعَفَ أَلَمَاتٍ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ۖ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجَنَّ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَجِدُونَ خَلْفَكَ إِلَّا نَسِياً ۖ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ۖ

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِ﴾ قال الزجاج: يعني يوم القيامة، وهو منصوب على معنى أنكر يوم ندعوا. وقرئ (يدعو) بالياء التحتية على البناء للفاعل و (يدعى) على البناء للمفعول، والباء في بإسمهم للإلصاق كما تقول: أدعوك باسمك، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال، والتقدير: ندعو كل أناس متلبسين بإسمهم أي: يدعون وإسمهم فيهم نحو ركب بجنوده، والأول أولى. والإمام في اللغة كل ما يؤتم به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب.

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي تدعى كل أناس به، فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك إنه كتاب كل إنسان الذي فيه عمله أي: يدعى كل إنسان بكتاب

الحيوانات، ويميزوا بين الحسن والقبيح، وتوسعوا في المطاعم والمشارب، وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم مما يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحر والبرد، وقيل تكريمهم: هو أن جعل محمداً ﷺ منهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم، حملهم سبحانه في البر على اللواب، وفي البحر على السفن، وقيل: حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم ﴿وَوَرَزْنَاهُمْ مِنَ اللَّطِيبَاتِ﴾ أي: لننذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه ويستغفون به ﴿وَوَفَضْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلاً﴾ أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك أن بني آدم فضلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته. وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع وهو تعسف لا حاجة إليه.

وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية، ولا دالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبينه، وللتعصب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة، وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء. ولا دالة بها على ذلك، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بني آدم، بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضلاً عليه. فيحتمل أن يكون مساوياً للإنسان، ويحتمل أن يكون أفضل منه، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال، والتأكيد بقوله: ﴿تَفْضِيلاً﴾ يدل على عظم هذا التفضيل وأنه بمكان مكين، فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يُزْجَىٰ﴾ قال: يجري، وأخرجوا عن قتادة قال: يسيرها في البحر. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿حَاصِباً﴾ قال: مطر الحجارة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: حجارة من السماء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿قَاصِصاً مِنَ الرِّيحِ﴾ قال: التي تغرق. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن عبد الله بن عمرو قال: القاصف والعاصف في البحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿قَاصِصاً﴾ قال: عاصفاً، وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِبُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ قال: نصيراً. وأخرج الطبراني، والبيهقي في الشعب، والخطيب في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم قيل: يا رسول الله ولا الملائكة؟ قال: ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر»،

عمله، ويؤيد هذا قوله: ﴿فأما من أوتي كتابه﴾ [الحاقة: 19].
الآية، وقال ابن زيد: الإمام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى

أهل التوراة بالتوراة، وأهل الإنجيل بالإنجيل، وأهل القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل يا أهل القرآن. وقال مجاهد وقتادة: إمامهم نبيهم فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم، هاتوا متبعي موسى، هاتوا متبعي عيسى، هاتوا متبعي محمد، وبه قال الزجاج. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بالإمام إمام عصرهم، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا ياتَمرون بأمره وينتهون بنهيهِ. وقال الحسن وأبو العالية: المراد بإمامهم أعمالهم، فيقال مثلاً: أين المجاهدون، أين الصابرون، أين الصائمون، أين المصلون؟ ونحو ذلك. وروي عن ابن عباس وأبي هريرة. وقال أبو عبيدة، المراد بإمامهم صاحب مذهبهم، فيقال مثلاً: أين التابعون للعالم فلان بن فلان، وهذا من البعد بمكان. وقال محمد بن كعب: بإمامهم بأمراتهم، على أن إمام جمع أم كخف وخفاف، وهذا بعيد جداً. وقيل: الإمام هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة، أو قبيح كاضدادها، فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام ذكر معناه الرازي في تفسيره ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ من أولئك المدعوين، وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير ﴿فأولئك﴾ الإشارة إلى من باعتبار معناه. قيل: ووجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل، أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد ﴿يقرءون كتابهم﴾ الذي أوتوه ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي: لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل، وهو القشرة التي في شق النواة، أو هو عبارة عن أقل شيء، ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً، ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال: ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي: من كان من المدعوين في هذه الدنيا أعمى أي: فاقِد البصيرة. قال النيسابوري: لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب، وأما قوله: ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً [طه: 124 - 125] وفي هذا زيادة العقوبة، ويحتمل أن يراد عمى القلب؛ وقيل: المراد بالآخرة عمل الآخرة أي: فهو في عمل، أو في أمر الآخرة أعمى؛ وقيل: المراد من عمى عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى؛ وقيل: من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى؛ وقيل: من كان في الدنيا أعمى عن حُجج الله فهو في الآخرة أعمى، وقد قيل: إن قوله: ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ أقبل تفضيل أي: أشد عمى وهذا مبني على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك في عمى العين. قال الخليل وسبويه: لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل، فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه. وقال الأخفش: لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من أحرف. وقد حكى

الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول: ما أسود شعره، ومن ذلك قول الشاعر:
لما الملوك فانت اليوم الأمهم لؤما وأبيضهم سربال طباح
والبحث مستوفي في النحو. وقرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي، وخلف (أعمى) بالإمالة في الموضعين. وقرأهما أبو عمرو ويعقوب والباقون بغير إمالة، وأما أبو عبيد الأول دون الثاني ﴿وأضل سبيلاً﴾ يعني: أن هذا أضل سبيلاً من الأعمى لكونه لا يجد طريقاً إلى الهداية، بخلاف الأعمى فقد يهتدي في بعض الأحوال. ثم لما عدد سبحانه في الآيات المتقدمة أقسام النعم على بني آدم أرغفه بما يجري مجرى التحذير من الغرار بوساوس الأشقياء فقال: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك﴾ إن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى: وإن الشأن قاربوا أن يخدعوك فانتين، وأصل الفتنة الاختبار، ومنه فتن الصائغ الذهب، ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حذّه وجهته، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن واقتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعد وغير ذلك ﴿عن الذي أوحينا إليك﴾ من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد ﴿لنتقري علينا غيره﴾ لنتقول علينا غير الذي أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش ﴿وإذا لاتخذوك خليلاً﴾ أي: لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلاً لهم أي: والوك وصافوك، مأخوذ من الخلّة بفتح الخاء ﴿ولولا أن ثبتنك﴾ على الحق وعصمتك عن موافقتهم ﴿لقد كنت تركن إليهم﴾ لقاربت أن تميل إليهم أننى ميل، والركون هو الميل اليسير، ولهذا قال: ﴿شيئاً قليلاً﴾ لكن أركنك ﷻ العصمة فمنعته من أن يقرب من أننى مراتب الركون إليهم، فضلاً عن نفس الركون، وهذا دليل على أنه ﷻ ما هم بإجابتهم، ذكر معناه التثبيري وغيره، وقيل: المعنى وإن كانوا ليخبرونك أنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل: كنت تقتل نفسك أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت، ذكر معناه المهدي. ثم توعده سبحانه في ذلك أشد الوعيد فقال: ﴿إذا لأنقنك ضعف الحياة وضعف للممات﴾ أي: لو قاربت أن تركن إليهم، أي: مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين، والمعنى: عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات أي: مضاعفاً، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت، وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفلاحة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب: 30]. وضعف الشيء مثلاً، وقد يكون الضعف النصيب كقوله: ﴿لكل ضعف﴾ [الأعراف: 38] أي: نصيب. قال الرازي: حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة ﴿ثم لا تجد لك علينا

بهذا وبارك لنا في هذا، حتى يأتيتهم فيقول: ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستين نراعاً على صورة آدم، ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيتهم فيقولون: اللهم أخزه، فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا، قال البزار بعد إخراج: لا يروى إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ يقول: من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والنواب واشباه هذا ﴿فهو﴾ عما وصفت له ﴿في الآخرة﴾ ولم يره ﴿أعمى واضل سبيلاً﴾ يقول: أبعد حجة. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً يقول: من عمي عن قدرة الله في الدنيا فهو في الآخرة أعمى. وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً قال: «إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجلاً من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: تعال فتمسح ألهتنا وندخل معك في دينك، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه فراق قومه ويجب إسلامهم فرق لهم، فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾». وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن ياذان، عن جابر بن عبد الله مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: «كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر، فقالوا لا ندعك تستلمه حتى تستلم بألهتنا، فقال رسول الله ﷺ: وما علي لو فعلت والله يعلم مني خلافة؟ فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ الآية». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن جبيرة بن نفير: «أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين أتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك، فركن إليهم، فأوحى الله إليه ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ الآية». وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: 1]. فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم: 19]. فالتقى عليه الشيطان: تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهم لترتجى، فقرأ النبي ﷺ ما بقي من السورة وسجد، فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية، فما زال مهموماً مغموماً حتى أنزل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج: 52]. الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس: «أن ثقيفاً قالوا للنبي ﷺ: أجلنا سنة حتى يهدي ألهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدي للألهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الألهة فهم أن يؤجلهم، فنزلت ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ الآية». وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿ضَعْفُ الْحَيَاةِ وَضَعْفُ الْمَمَاتِ﴾ يعني: ضعف عذاب الدنيا والآخرة. وأخرج البيهقي عن الحسن في الآية قال: هو عذاب القبر.

نصيراً﴾ ينصرف فيبفع عنك هذا العذاب. قال النيسابوري: اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها، والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، فلا يلزم من الآية طعن في العصمة ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ الكلام في هذا كالكلام في ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ﴾ أي: وإن الشأن أنهم قاربوا أن يزعموك من أرض مكة لتخرج عنها، ولكنه لم يقع ذلك منهم، بل منعهم الله منه حتى هاجر بامر ربه بعد أن هموا به، وقيل: إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزاً ﴿وَإِنَّا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوف على ليستفتونك أي: لا يبقون بعد إخراجك إلا زمناً قليلاً، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعاً. وقرأ عطاء بن أبي رباح (لا يلبثوا) بتشديد الباء الموحدة. وقرأ (لا يلبثوا) بالنصب على إعمال إن على أن الجملة معطوف على جملة ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ لا على الخبر فقط. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو بكر، وأبو عمرو (خلفك) ومعناه بعك. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي (خلافك) ومعناه أيضاً بعك. وقال ابن الأنباري: خلافك بمعنى مخالفتك، واختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله: ﴿فَرَحَ الْمُخْلَفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 81] ومما يدل على أن خلاف بمعنى بعد قول الشاعر:

عفت الديار خلفها فكانما بسط الشواطئ بينهن حصيرا
يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شققته لتعمل منه الحصير. قال أبو عبيدة: ثم تلقى الشاطئة إلى المثقبة ﴿سَنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ سَنَّةً منتصبة على المصدورية أي: سن الله سَنَةً. وقال القراء: أي يعذبون كسَنَةِ من قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل. وقيل المعنى: سَنَتْنَا سَنَةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا. قال الزجاج: يقول إن سَنَتْنَا هذه السَنَةِ فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿وَلَا تَجِدْ لِسَنَتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ قال: إمام هدى وإمام ضلالة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخطيب في تاريخه عن أنس في الآية قال: نبيهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: يكتب أعمالهم. وأخرج ابن مردويه عن علي في الآية قال: يدعى كل قوم بإمام زمانهم، وكتاب ربهم وسنة نبيهم. وأخرج الترمذي وحسنه، والبزار، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين نراعاً ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلأل، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون: اللهم اثنتا

قولين: أحدهما أنه زوال الشمس عن كبد السماء، قاله عمر وابنه، وأبو هريرة، وأبو برزة، وابن عباس، والحسن، والشعبي، وعطاء، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وأبو جعفر الباقري، واختاره ابن جرير. والقول الثاني: أنه غروب الشمس، قاله علي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وروي عن ابن عباس. قال الفراء: ليلوك الشمس: من ليل زوالها إلى غروبها. قال الأزهري: معنى اللوك في كلام العرب الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وقيل لها إذا أفلت: دالكة، لأنها في الحالتين زائلة. قال: والقول عندي أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، والمعنى: أقم الصلاة من وقت ليلوك الشمس ﴿إلى غسق الليل﴾ فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتاً غسق الليل، وهما العشاءان، ثم قال: ﴿وقرآن الفجر﴾ هذه خمس صلوات. وقال أبو عبيد: ليلوكها غروبها، وليكت براح يعني: الشمس أي: غابت، وأشد قطرب على هذا قول الشاعر:

هذا مقام قدمي رباح ببت حتى دلكت براح
اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام، ومن ذلك قول ذي الرمة:

مصاييح ليست بالواتي تقودها نجوم ولا بالآلات الدوالك
أي: الغوارب، وغسق الليل اجتماع الظلمة. قال الفراء والزجاج: يقال غسق الليل وأغسق: إذا أقبل بظلامه، قال أبو عبيد: الغسق سواد الليل. قال قيس بن الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا واستكننت الهم والأرقا
وقيل: غسق الليل مغيب الشفق، ومنه قول زهير:

طلت تجود يداها وهي لاهية حتى إذا جعجع الإظام والغسق
وأصل الكلمة من السيلان يقال: غسقت إذا سالت. وحكى الفراء غسق الليل وأغسق، وظلم وأظلم، ودجى وأدجى وغبش وأغبش، وقد استدل بهذه الغاية أعني قوله: ﴿إلى غسق الليل﴾ من قال إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب، روي ذلك عن الأوزاعي، وأبي حنيفة وجوزة مالك والشافعي في حال الضرورة، وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ في تعيين أوقات الصلوات، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك. قوله: ﴿وقرآن الفجر﴾ انتصاب قرآن لكونه معطوفاً على الصلاة أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفراء. وقال الزجاج والبصريون: انتصابه على الإغراء: أي فعليك قرآن الفجر. قال المفسرون: المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح. قال الزجاج: وفي هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآناً، وقد ثبت الأحاديث الصحيحة على أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، وفي بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن وقرآن معها، وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة، وقد حررت في مؤلفاتي تحريراً مجزئاً، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك في الحديث الصحيح،

وأخرج أيضاً عن عطاء مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر قال: قال المشركون للنبي ﷺ كانت الأنبياء تسكن الشام، فما لك والمدينة؟ فهم أن يشخص، فأنزل الله ﴿وإن كانوا ليستفتوكم من الأرض﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن حضرمي أنه بلغه أن بعض اليهود ففكر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، وابن عسك عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن كنت نبياً فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصلى النبي ﷺ ما قالوا فتحرى غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة ﴿وإن كانوا ليستفتوكم﴾ إلى قوله: ﴿تحويلاً﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة، وقال فيها محياك وفيها ممالك ومنها تبعث، وقال له جبريل: سل ربك فإن لكل نبي مسألة فقال: ما تأمرني أن أسأل؟ قال: ﴿قل رب انخليني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من ليلتك سلطاناً نصيراً﴾ فهؤلاء نزلن عليه في رجعتهم من تبوك. قال ابن كثير: وفي هذا الإسناد نظر، والظاهر أنه ليس بصحيح فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله: ﴿قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار﴾ [التوبة: 123]. وغزاها ليقصص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وإن كانوا ليستفتوكم من الأرض﴾ قال: هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة وقد فعلوا بعد ذلك، فاهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتى أهلكهم الله يوم بدر، وكذلك كانت سنة الله في الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن لا يلبثون خلفك إلا قليلاً﴾ قال: يعني بالقليل يوم أخذهم ببدر، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده.

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ إِذَا كُنَّ سَوَاسٍ إِلَىٰ عَسَىٰ لَّيْلٌ وَفَرَأَيْتُمُ الْفَجْرَ إِذَا فَرَأَىٰ الْفَجْرَ
كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَاجَدُوا لَهُ غَفْلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ
مَعًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ
لِي مِنَ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوًّا ﴿٨١﴾ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَافٍ وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُ لَدُنَّ عَلَافِينَ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَقْبَسْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثُمَّ كَانَ
يُؤَمِّرُ ﴿٨٣﴾ عَلَىٰ كُلِّ مَقْعَدٍ تَرْجَافٌ وَرَاجَافٌ وَرَاجَافٌ وَرَاجَافٌ وَرَاجَافٌ وَرَاجَافٌ
وَنُفُوفٌ عَلَىٰ الْأَرْوَاحِ قُلِ الْوَيْلُ مِنِّي وَالْوَيْلُ مِنِّي وَالْوَيْلُ مِنِّي وَالْوَيْلُ مِنِّي

لما ذكر سبحانه الإلهيات والمعاد والجزاء أوردناها بذكر اشرف الطاعات، وهي الصلاة، فقال: ﴿أقم الصلاة لليلوك الشمس﴾. وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها الصلوات المفروضة.

وقد اختلف العلماء في اللوك المذكور في هذه الآية على

وذلك قال جمهور المفسرين ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ من للتبويض، وانتصابه على الظرفية بمضمّر أي: قم بعض الليل فتهجد به، والضمير المجرور راجع إلى القرآن وما قيل من أنه منتصب على الإغراء، والتقدير عليك بعض الليل فبعبء جداً، والتهجد مأخوذ من الهجود. قال أبو عبيدة وابن الأعرابي: هو من الأضداد، لأنه يقال: هجد الرجل إذا نام، وهجد إذا سهر فمن استعمله في السهر قول الشاعر:

الأزارت وأهل منى هجود فليت خيالها بمنى يعود

يعني: منتبهين، ومن استعمله في النوم قول الآخر:

الاطرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلات النوال تجود

يعني: نياماً. وقال الأزهري: الهجود في الأصل هو النوم بالليل، ولكن جاء الفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتحرّج أي: تجنب الإثم والحرج، فالتهجد من تجنب الهجود، فقام بالليل. وروي عن الأزهري أيضاً أنه قال: المتهدّد القائم إلى الصلاة من النوم هكذا حكى عنه الواحدي، فقيد التهجد بالقيام من النوم، وهكذا قال مجاهد، وعلمة، والأسود فقالوا: التهجد بعد النوم. قال الليث: تهجد إذا استيقظ للصلاة ﴿نافلة لك﴾ معنى النافلة في اللغة الزيادة على الأصل، فالمعنى أنها للنبي ﷺ نافلة زائدة على الفرائض، والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قريبة صارفة للأمر، وقيل: المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه ﷺ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة، وقيل: كانت صلاة الليل فريضة في حقه ﷺ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً، وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة، ولامتة تطوع. قال الواحدي: إن صلاة الليل كانت زيادة للنبي ﷺ خاصة لرفع الدرجات، لا للكفارات، لأنه غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها، قال: وهو قول جميع المفسرين. والحاصل أن الخطاب في هذه الآية وإن كان خاصاً بالنبي ﷺ في قوله ﴿اقم الصلاة﴾، فالأمر له أمر لامتة، فهو شرع عام، ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل، فإنه يعم جميع الأمة، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب، فالتهدّد من الليل مندوب إليه ومشروع لكل مكلف. ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والتوافل فقال: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾. قد ذكرنا في مواضع أن عسى من الكريم إطماع واجب الوقوع، وانتصاب «مقاماً» على الظرفية بإضمار فعل، أو بتضمين البعث معنى الإقامة، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال أي: يبعثك ذا مقام محمود، ومعنى كون المقام محموداً: أنه يحمد كل من علم به. وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال: الأول أنه المقام الذي يقومه النبي ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هو فيه، وهذا القول هو الذي دلت عليه الأئمة الصحيحة في تفسير الآية، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل، قال الواحدي: وإجماع المفسرين على أن المقام

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، فقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة واختاره ابن جرير، وقيل: المعنى أمتي إماتة صدق وأبعثني يوم القيامة مبعث صدق، وقيل: المعنى أدخلني فيما أمرتني به، وأخرجني مما نهيتني عنه، وقيل: إدخاله موضع الأمن وإخراجه من بين المشركين، وهو كالقول الأول، وقيل: المراد إدخال عز وإخراج نصر، وقيل: المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق، وأخرجني منه إذا أمتني مخرج صدق، وقيل: أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق، وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق، وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق. وقيل: الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء، ومعناها ربّ أصلح لي ودي في كل الأمور وصدري عنها ﴿ولجعل لي

المحمود هو مقام الشفاعة. القول الثاني: أن المقام المحمود إعطاء النبي ﷺ لواء الحمد يوم القيامة. ويمكن أن يقال إن هذا لا يتنافى القول الأول، إذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد. القول الثالث: أن المقام المحمود هو أن الله سبحانه يجلس محمداً ﷺ معه على كرسيه، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد، وقد ورد في ذلك حديث. وحكى النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا منهم ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث. قال ابن عبد البر: مجاهد وإن كان أحد الأئمة بالتأويل، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثاني في تأويل ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ * إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: 22 - 23]. قال: معناه تنتظر الثواب، وليس من النظر. انتهى. وعلى كل حال فهذا القول غير منافٍ للقول الأول لإمكان أن يقعد الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة. القول الرابع: أنه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات، ذكره صاحب الكشف والمقتدون به في التفسير، ويجب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصير إليها متعين، وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعنى قوله وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد أنه عام في كل ما هو كذلك، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق، كما ذكره في ذبح البقرة، ولهذا قال هنا. وقيل: المراد الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناوله يعني لفظ المقام، والفرق بين العموم البدلي والعموم الشمولي معروف، فلا نطيل بنكره ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾. قرأ الجمهور (مدخل صدق ومخرج صدق) بضم الميمين. وقرأ الحسن، وأبو العالية، ونصر بن عاصم بفتحهما، وهما مصدران بمعنى الإدخال والإخراج، والإضافة إلى الصق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود أي: إدخالاً يستأهل أن يسمى إدخالاً، ولا يرى فيه ما يكره. قال الواحدي: وإضافتهما إلى الصق مدح لهما، وكل شيء أضفته إلى الصق فهو مدح.

والارتياح موضع اليقين والاطمئنان ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكاً، لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرداً وعناداً، فعند ذلك يهلكون؛ وقيل: الخسار النقص كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125]. ثم نبه سبحانه على فتح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبايع المذمومة فقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي: على هذا الجنس بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والغنى ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿وَنَآىٰ بِجَانِبِهِ﴾ النأي البعد والياء للتعدية أو للمصاحبة، وهو تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء هو أن يولييه عرض وجهه أي: ناحيته، والنأي بالجانب أن يولي عنه عطفه ويولي ظهره، ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا الإعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به، ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم. وقرأ ابن عامر في رواية ابن زكوان وأبو جعفر (نام) مثل باع بتأخير الهمزة على القلب، وقرأ حمزة (نأى) بلام الفتحين ووافقه الكسائي، وأمال شعبة والسوسي الهمزة فقط. وقرأ الباقون بالفتح فيهما ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من مرض أو فقر ﴿كَانَ يَفُوسًا﴾ شديد اليأس من رحمة الله، والمعنى: أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا يناقي ما في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَ دَعَا عَرِيضًا﴾ [فصلت: 51]. ونظائره، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية، ولا يبعد أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ الشاكلة قال الفراء: الطريقة، وقيل: الناحية، وقيل: الطبيعة، وقيل: الدين، وقيل: النية، وقيل: الجيلة، وهي مأخوذة من الشكل، يقال: لست على شكلي ولا على شاكلي، والشكل: هو المثل والنظير. والمعنى: أن كل إنسان يعمل على ما يشكل أخلاقه التي ألفها، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن ﴿قُرَيْبِكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ لأنه الخالق لكم، العالم بما جبلتم عليه من الطبايع وما تباينت فيه من الطرائق، فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة، وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم. ثم لما انجز الكلام إلى ذكر الإنسان وما جبل عليه، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المبدى للبدن الذي تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين. قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحداً من خلقه، ولم يعط علمه أحداً من عباده فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: إنكم لا تعلمونه، وقيل: الروح المسؤول عنه جبريل، وقيل: عيسى، وقيل:

من لئلك سلطاناً نصيراً﴾ أي: حجة ظاهرة قاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفني، وقيل: اجعل لي من لئلك ملكاً وعزاً قوياً وكأنه ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسل سلطاناً نصيراً. وبه قال الحسن وقادة واختاره ابن جرير. قال ابن كثير: وهو الأرجح لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: 25] وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع. انتهى. ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ المراد بالحق الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: الجهاد ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائناً ما كان، والمراد بالباطل الشرك، وقيل: الشيطان ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل. ومعنى زهق بطل واضمح، ومنه زهوق النفس وهو بطلانها ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: إن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت، والحق ثابت دائماً ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الجمهور (ننزل) بالنون⁽¹⁾. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف. وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف، ورواه المروزي عن حفص، ومن ابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس. وقيل: للتبويض واتكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه، ورده ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله.

واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على القولين: الأول أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه. القول الثاني أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنويه. ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتمة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: 44]. ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عاداهم من المضرة عليهم فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: ولا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذي وضعوا التكذيب موضع التصديق، والشك

(1) (قوله بالنون) صوابه بالنون والتشديد. اهـ مصحح القرآن.

الفيء. وأخرج ابن جرير عن أبي مسعود وعقبة بن عمرو قالاً: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل للدوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر». وأخرج ابن جرير عن أبي برزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا ﴿هَاقُم لِلصَّلَاةِ لِلدُّوْكَ الشَّمْسِ﴾. وأخرج ابن مردويه عن حديث أنس نحوه. ومما يستشهد به على أن الدلوك للزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال: «دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه يطعمون عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: أخرج يا أبا بكر فهذا حين نلكت الشمس»، وفي إسناده رجل مجهول ولكنه أخرجه عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكار، عن أبي عوانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنبري، عن جابر فنذكر نحوه مرفوعاً. وأخرج الطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ قال: إلى العشاء الآخرة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ اجتماع الليل وظلمته. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ بؤ الليل. وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: نلوك الشمس إذا زالت الشمس عن بطن السماء وغسق الليل غروب الشمس. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ قال: صلاة الصبح. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ إن قرآن الفجر كان مشهوداً. قال: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها، وهو في الصحيحين عنه مرفوعاً بلفظ تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ إن قرآن الفجر كان مشهوداً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود موقوفاً نحوه. وأخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنْ قرآنَ الْفَجْرِ﴾ كان مشهوداً». قال: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ يعني خاصة للنبي ﷺ، أمر بقيام الليل وكتب عليه. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في سننه عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هن علي فرائض وهن لكم سنة: الوتر والسواك، وقيام الليل». وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي امامة في قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ قال: كانت للنبي ﷺ نافلة ولكم فضيلة، وفي لفظ: إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبِّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ وسئل عنه، قال: هو المقام المحمود الذي أشفع فيه لامتي. وأخرج أحمد،

القرآن، وقيل: ملك من الملائكة عظيم الخلق، وقيل: خلق كخلق بني آدم، وقيل: غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة في إيراده، والظاهر القول الأول، وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح، لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله، ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال: ﴿قُلْ لِلرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من بيانية، والأمر الشأن والإضافة للاختصاص، أي: هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده، وقيل: معنى ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من وحيه وكلامه لا من كلام البشر، وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع، وقد أطلوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا.

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر مائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أنن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلاً عن أمهم المقتدين بهم، فيالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أن الله بالكلام فيه، ولم يستأثر بعلمه. ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: أن علمكم الذي علمكم الله، ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإن أوتي حظاً من العلم وافرأ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر، كما في حديث موسى والخضر عليهم السلام.

وقد أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: ﴿نلوك الشمس﴾ غروبها، تقول العرب إذا غربت الشمس: نلكت الشمس. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي قال: نلوكها غروبها. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس، قال: ﴿نلوك الشمس﴾ لزوال الشمس. وأخرج البزار، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «نلوك الشمس زوالها». وضعف السيوطي إسناده. وأخرجه مالك في الموطأ، وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر من قوله. وأخرج عبد الرزاق عنه قال: «نلوك الشمس زياعها بعد نصف النهار». وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن ابن عباس قال: نلوكها زوالها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿نلوك الشمس﴾ قال: إذا فاء

متكئاً على العسيب فظننت أنه يوحى إليه، فقال: **«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»**. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل، قالوا: سلوه عن الروح، فنزلت **«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»** قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فانزل الله **«قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ أَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا»** [الكهف: 109]. وفي الباب أحاديث وأثر.

وَلَمَّا شَفَعْنَا لَنُدْهِبَ بِالَّذِينَ أَرْجَاكَ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُكَ بِهِ عَيْنًا وَكَيْلًا ﴿٨١﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَتْلَهُمْ كَانَ فِي لَيْكٍ كَبِيرًا ﴿٨٢﴾ قُلْ لِمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَنِ أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ مِنْ الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ يُعْصِي أَمْرًا مِنْ رَبِّكَ لَآتَوْا بِهِ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَمْرِ رَبِّكَ أَنْ تَنْفَعَهُمْ أَوْ تَضُرَّهُمْ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٣﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ بُيُوتًا ﴿٨٤﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَنَحْنُ نَقْتَرِفُ الْأَنْهَارَ جَلَلَهَا نَقْتَرِفُهَا ﴿٨٥﴾ أَوْ تُسَوِّطَ السَّمَاءَ كَمَا رَقَعْتَ عَيْنًا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ﴿٨٦﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَيْنًا لَكِنَّا نَفْهَمُ قُلُوبَنَا وَمَنْ نَنْزِلُ إِلَّا بِزَكَاةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴿٨٧﴾

لما بين سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل، فقال: **«وَلَوْ شَاءَ لَنُدْهِبَ بِالَّذِينَ أَرْجَاكَ إِلَيْكَ»** واللام هي الموطئة، ولنذهبن جواب القسم ساء مسد جواب الشرط. قال الزجاج: معناه لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر. انتهى. وعبر عن القرآن بالموصول تفخيماً لشأنه **«ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ»** أي: بالقرآن **«عَلَيْنَا وَكَيْلًا»** أي: لا تجد من يتوكل علينا في رد شيء منه بعد أن ذهبنا به، والاستثناء بقوله: **«إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»** إن كان متصلاً فمعناه إلا أن يرحمك ربك فلا نذهب به، وإن كان منقطعاً فمعناه لكن لا يشأ ذلك رحمة من ربك، أو لكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به **«إِنْ فَضَّلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا»** حيث جعلك رسولا وأنزل عليك الكتاب وصيرك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه. ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال: **«قُلْ لِمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ»** المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ **«لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ»** أظهر في مقام الإضمار، ولم يكتف بأن يقول: لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المذكور، لدفع توهم أن

وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة فلكن أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فنلك المقام المحمود». وأخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال: إن كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فنلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. وأخرج عنه نحوه مرفوعاً، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بنكرها، ومن رام الاستيفاء نظر في أحاديث الشفاعة في الأمهات وغيرها، وأخرج الطبراني في قوله: **«عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً»** قال: يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لامته، فنلك المقام المحمود. وأخرج الدليمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً، قال: يجلسني معه على السرير». وينبغي الكشف عن إسناد هذين الحديثين. وأخرج أحمد، والترمذي، وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فانزل الله **«وَقُلْ رَبِّ انْخُلْنِي مِنْ حَيْثُ يَخْرُجُ الصُّدُوقُ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا»**. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن قتادة في قوله: **«وَقُلْ رَبِّ انْخُلْنِي»** الآية قال: أخرجه الله من مكة مخرج صدق، وادخله المدينة منخل صدق. قال: وعلم نبي الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسال سلطاناً نصيراً لكتاب الله وحجوده وفرائضه وإقامة كتاب الله، فإن السلطان عزة من الله جعلها بين أظهر عباده، ولولا ذلك لا غار بعضهم على بعض، وكل شديد هم ضعيفهم. وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال: والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنونها يعود في يده ويقول: **«جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»** **«جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»** [سبأ: 49]». وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«وَنَوَى بِجَانِبِهِ»** قال: تباعد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«كَانَ يَتُوسَّأُ»** قال: قنوطاً، وفي قوله: **«يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ»** قال: على ناحيته. وأخرج هناد، وابن المنذر عن الحسن قال: على شاكِلته: على نيته. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب، فمرّ بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: أسألوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال

القطعة من الشيء، يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كسف وكسف، ويقال: الكسف والكسفة واحد، وانتصاب كسفاً على الحال، والكاف في كما زعمت في محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف أي: إسقاطاً مماثلاً لما زعمت، يعنون بذلك قول الله سبحانه ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقُطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: 9]. قال أبو علي: الكسف بالسكون، الشيء المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه على ما قال أبو زيد من كسفت الثوب كسفاً إذا قطعته. وقال الزجاج: من كسفت الشيء إذا غطيته كأنه قيل: أو تسقطها طبقاً علينا ﴿أَوْ تَأْتِي بَاسًا وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾.

اختلف المفسرون في معنى ﴿قَبِيلًا﴾ فقيل: معناه معاينة، قاله قتادة وابن جريج، واختاره أبو علي الفارسي فقال: إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدراً كالنكير والنكير. وقيل: معناه كفيلاً قاله الضحاک، وقيل: شهيداً قاله مقاتل، وقيل هو جمع القبيلة أي: تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء، وقيل: ضمناً، وقيل: مقابلاً كالعشير والمعاشر ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ﴾ أي: من ذهب، وبه قرأ ابن مسعود، وأصله الزينة، والمزخرف المزين، وزخارف الماء طرائقه، وقال الزجاج: هو الزينة فرجع إلى الأصل معنى الزخرف، وهو بعيد لأنه يصير المعنى: أو يكون لك بيت من زينة ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد في معارجها يقال: رقيت في السلم إذا صعدت وارتقيت مثله ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرَقِيكَ﴾ أي: لأجل رقيك، وهو مصدر نحو مضى يمضي مضياً وهوى يهوى هويًا ﴿حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ أي: حتى تنزل علينا من السماء كتاباً يصونك ويدل على نبوتك نقروه جميعاً، أو يقرؤه كل واحد منا، وقيل معناه: كتاباً من الله إلى كل واحد منا كما في قوله: ﴿بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صَحْفًا مَّنشُورًا﴾ [المنثر: 52] فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يأتي بما يفيد التعجب من قولهم، والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ﴾ أي: تنزيهاً لله عن أن يعجز عن شيء. وقرأ أهل مكة والشام (قال سبحان ربي) يعني النبي ﷺ ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ من البشر لا ملكاً حتى أضعف السماء ﴿رَسُولًا﴾ مأموراً من الله سبحانه بإبلاغكم، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشراً قدر على شيء منها؟ وإن أردتم أني أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدي، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك، لأنها بها يتبين صدقه، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على ربي بما ليس بضروري، ولا دعت إليه حاجة، ولو لزممتي الإجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند في كل وقت اقتراحات، وطلب لنفسه إظهار آيات، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتنزه عن تعنتاتهم، وتقدس عن اقتراحاتهم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم

يكون له مثل معين، وللإشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطئة، وسأد مسدّ جواب الشرط، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدي لها كل واحد منهم على الانفراد، أو كان المتصدر بها المجموع بالمظاهرة فقال: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: عوناً ونصيراً، وجواب لو محذوف، والتقدير: ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يأتون بمثله، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال، وقد تقدّم وجه إعجاز القرآن في أوائل سورة البقرة في هذه الآية ردّ لما قاله الكفار ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مَثَلًا هَذَا﴾ وكذباً لهم، ثم بين سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: ردنا القول فيه بكلّ مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يعني: من أهل مكة، فإنهم جحدوا وانكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم، واقترحوا من الآيات ما ليس لهم، وأظهر في مقام الإضمار حيث قال: فأبى أكثر الناس توكيداً أو توضيحاً، ولما كان «أبى» مؤولاً بالنفي أي: ما قبل أو لم يرض صرح الاستثناء منه قوله: ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ وقالوا لن تؤمن لك. أي قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحارث، ثم علقوا نفي إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا: ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾. قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم (حتى تفجر) مخففاً مثل تقتل. وقرأ الباقون بالتشديد، ولم يختلفوا في (فتفجر الأنهار) أنها مشددة، ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع. وأجيب عنه بأن ينبوع وإن كان واحداً في اللفظ فالمراد به الجمع، فإن ينبوع العين التي لا تنضب. ويردّ بأن ينبوع عين الماء والجمع الينابيع، وإنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها ينبوع من غير انقطاع والياء زائدة كيعبوب من عبّ الماء ﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان تستر أشجاره أرضه. والمعنى هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: تجريها بقوة ﴿خَالَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: وسطها تفجيراً كثيراً ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ مجاهد (أو تسقط) مسنداً إلى السماء. وقرأ من عداه (أو تسقط) على الخطاب أي: أو تسقط أنت يا محمد السماء. والكسف بفتح السين جمع كسفة. وهي قراءة نافع وابن عامر، وعاصم، والكسفة القطعة. وقرأ الباقون «كسفاً» بإسكان السين. قال الأخفش: من قرأ بإسكان السين جعله واحداً ومن قرأ بفتحها جعله جمعاً. قال المهدي: ويجوز أن يكون على قراءة الكون جمع كسفة، ويجوز أن يكون مصدراً. قال الجوهري: الكسفة

جنس الملائكة أمرين: الأول كون سكان الأرض ملائكة، والثاني كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران باجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة، وانتصاب بشراً وملكاً على أنهما مفعولان للمفعولين، ورسولاً في الموضعين وصف لهما. وجوز صاحب الكشف أن يكونا حالين في الموضعين من رسولا فيهما وقواه صاحب الكشف، ولعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية في الموضع الأول، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك، ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد، فقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي قل لهم: يا محمد من جهتك كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به من أمور الرسالة، وقال: بيني وبينكم ولم يقل: بيننا تحقيقاً للمفارقة الكلية، وقيل: إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله له على الصيق، ثم علل كونه سبحانه شهيداً كافياً بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: عالمًا بجميع أحوالهم محيطاً بظواهرها وبواطنها بصيراً بما كان منها وما يكون، ثم بين سبحانه أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته فقال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدْيِهِ﴾ أي: من يرد الله هدايته فهو المهتدي إلى الحق أو إلى كل مطلوب ﴿وَمَنْ يَضِلَّ﴾ أي: يرد إضلاله ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الله سبحانه، ويهدونهم إلى الحق الذي أضلهم الله عنه أو إلى طريق النجاة، وقوله: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ حملاً على لفظ «من»، وقوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ﴾ حملاً على المعنى، والخطاب في قوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ﴾ إما للنبي ﷺ أو لكل من يصلح له ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين: الأول أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، من قول العرب: قد مرَّ القوم على وجوههم: إذا أسرعوا. الثاني أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانتة وتعذيبه، وهذا هو الصحيح، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [المقر: 48]. ولما صح في السنة كما سيأتي، وحل على وجوههم النصب على الحال من ضمير المفعول ﴿وَعَمِيَاءَ﴾ منتصب على الحال ﴿وَبِكَمَا وَصَمَاءَ﴾ معطوفان عليه، والأبكم: الذي لا ينطق، والأصم: الذي لا يسمع، وهذه هيئة يعثون عليها في أقبح صورة، وأشنع منظر، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم، ثم من وراء ذلك ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: المكان الذي يأوون إليه، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة لا محل لها ﴿كَلِمًا خَبِثَ زِينَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: كلما سكن لهبها، يقال: خبت النار تخبو خبوا: إذا خمدت وسكن لهبها. قال ابن قتيبة: ومعنى زيناهاً سعيراً تسعراً، وهو التلهب. وقد قيل: إن في

خبو النار تخفيفاً لعذاب أهلها، فكيف يجمع بينه وبين قوله: ﴿لَا يَخْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ [البقرة: 162]؟ وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبو والتسعر، وقيل: إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها ﴿تِلْكَ﴾ أي: العذاب ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ الذي أوجبه الله لهم واستحققه عنده، والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ للسببية أي: بسبب كفرهم بها فلم يصنفوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا في الآيات التكوينية، واسم الإشارة مبتدأ وخبره جزاؤهم، و ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ خبر آخر، ويجوز أن يكون جزاؤهم مبتدأ ثانياً، وخبره ما بعده، والجملة خبر المبتدأ الأول. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا﴾ الهمزة للإنكار، وقد تقدم تفسير الآية في هذه السورة، وخلقاً في قوله: ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ مصدر من غير لفظه أو حال أي: مخلوقين، فجاء سبحانه بحجة تفهمهم عن الإنكار وتردُّهم عن الجحود. فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: من هو قادر على خلق هذا، فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر، وقيل: المراد أنه قادر على إقنائهم وإيجاد غيرهم، وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الإعادة، وعلى هذا القول هو على حقيقته، وجملة ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ لَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ عطف على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، والمعنى: قد علموا ببليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم، لأنهم ليسوا بأشدَّ خلقاً منه، كما قال: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾ [النازعات: 27] ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ لَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموت أو القيامة، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض وجعل لهم لَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ قادر على أن يخلق مثلبهم ﴿فَلْيَبْئُتِ الْظَالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: أبى المشركون إلا جحوداً، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد، ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معاشهم، بين الله سبحانه أنهم لا يقنعون، بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ «أنتم» مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده أي: لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل وهو الواو، وخزائن رحمته سبحانه: هي خزائن الأرزاق. قال الزجاج: أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحاً وبخلًا، وهو خشية الإنفاق أي: خشية أن ينفقوا فيفتقروا، في حنف الفعل الذي ارتفع به أنتم، وإيراد الكلام في صورة المبتدأ والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشح. قال أهل اللغة: أنفق وأصرم وأعدم واقتَر: بمعنى قلَّ ماله، فيكون المعنى: لأمسكتُم خشية قلَّ المال ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً مضيقاً عليه. يقال: قتر على عياله يقتَر ويقتَر قتراً وقْتُوراً: ضيق عليهم في النفقة، ويجوز أن يراد وكان

بها. قال أكثر المفسرين: الآيات التسع: هي الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات. وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل. وقال محمد بن كعب القرظي: هي الخمس التي في الأعراف، والبحر، والعصا، والحجر، والطمس على أموالهم. وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى، وسيأتي حديث صفوان بن عسال في تعداد هذه الآيات التسع ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قرأ ابن عباس وابن تهيك (فسأل) على الخبر أي: سأل موسى فرعون أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه، وقرأ الآخرون (فأسأل) على الأمر أي: سلهم يا محمد حين ﴿جاءهم﴾ موسى، والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان، لأن الأيلة إذا تضافرت كان ذلك أقوى والمسؤولون مؤمنو بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورٌ﴾ الفاء هي الفصيحة أي: فأظهر موسى عند فرعون ما أتينا به من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون، والمسحور: الذي سحر فخلوط عقله. وقال أبو عبيدة والفراء: هو بمعنى الساحر، فوضع المفعول موضع الفاعل، ف ﴿فَقَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: الآيات التي أظهرها، وأنزل بمعنى أوجد ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ أي: دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته، وانتصاب بصائر على الحال. قرأ الكسائي بضم التاء من علمت على أنها لموسى، وروي ذلك عن علي، وقرأ الباقر بفتحها على الخطاب لفرعون، ووجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك، وإنما علمه موسى. ووجه قراءة الجمهور أن فرعون كان عالماً بذلك كما قال تعالى: ﴿وَجَدْنَاهَا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَاهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]. قال أبو عبيد: المأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى، لأن موسى لا يقول: علمت أنا وهو الداعي، وروي نحو هذا عن الزجاج. ﴿وَأَنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورٌ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين، والثبور الهلاك والخسران. قال الكمي:

ورأت قضاة في الأيا من رأى مَثْبُور وشابر
أي: مخسور وخاسر، وقيل: المَثْبُور الملعون، ومنه قول الشاعر:

يا قومنا لا ترموا حزينا سفهاً إن السفاه وإن البغي مَثْبُور
أي: ملعون، وقيل: المَثْبُور ناقص العقل، وقيل: هو الممنوع من الخير، يقال: ما شبرك عن كذا: ما منعك منه، حكاه أهل اللغة، وقيل: المسحور ﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج بني إسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض، يعني: أرض مصر ببلعدهم عنها، وقيل: أراد أن يقتلهم وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض، وقد تقدم قريباً معنى الاستفزاز ﴿فَاغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق، ولم يبق منهم أحداً ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾

الإنسان قنوراً أي: قليل المال، والظاهر أن المراد المبالغة في وصفه بالشح، لأن الإنسان ليس بقليل المال على العموم. بل بعضهم كثير المال، إلا أن يراد أن جميع النوع الإنساني قليل المال بالنسبة إلى خزائن الله وما عنده. وقد اختلف في هذه الآية على قولين: أحدهما أنها نزلت في المشركين خاصة، وبه قال الحسن، والثاني أنها عامة وهو قول الجمهور حكاه الماوردي.

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: «قيل يا رسول الله: كيف يحشر الناس على وجوههم قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم». وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركباناً، وصنف على وجوههم»، ثم نكر نحو حديث أنس. وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ قال: يعني أنهم وقودها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه في قوله: ﴿كَلِمًا خَبِيثًا﴾ قال: سكنت. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في الآية قال: كلما أحرقهم سرعتهم حطياً، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شيء صارت جمرًا تتروج فذلك خبوها، فإذا بنكوا خلقاً جديداً عاودتهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله: ﴿خِزَانَتِن رَحْمَةً رَّبِّي﴾ قال: الرزق. وأخرج أيضاً عن عكرمة في قوله: ﴿إِذَا لَامَسَكُمْ خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ﴾ قال: إذا ما أطعمتم أحداً شيئاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ﴾ قال: الفقر ﴿وَوَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ قال: بخيلاً. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ﴾ قال: خشية الفاقة ﴿وَوَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ قال: بخيلاً ممسكاً.

وَلَقَدْ مَآئِنَا مُوسَىٰ تَسْعَ مَآئِنٍ يَنْتَظِرُ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورٌ ﴿١٦١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكْفُرُونَ مَثْبُورًا ﴿١٦٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٦٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَوِيعًا ﴿١٦٤﴾ وَيَأْتِيكَ أَنْزَلُهُ وَيَأْتِيكَ زُلْزُلُهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٦٥﴾ وَوَرَّكَاهُ فَقَرْنَهُ يُقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْرٍ وَزَلَّاهُ نَزِيلًا ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا مَسُوا مَاءَ لَآذَنَ أَنْ يَلْبَسُوا أَلْبَامًا مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسَلَّىٰ عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلْآذَانِ سَحَابًا ﴿١٦٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدَ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦٨﴾ وَيَجْرُونَ لِلْآذَانِ يَكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ﴾ أي: علامات دالة على نبوته، قيل: ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كانت مساوية لتلك الأمور التي اقترحها كفار قريش، بل أقوى منها، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلا لعدم المصلحة في استئصالهم إن لم يؤمنوا

نوفل، وعبد الله بن سلام **﴿إِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾** أي: القرآن **﴿يَخْرُجُونَ لِلْأَنْقَانِ سَجْدًا﴾** أي: يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه، وإنما قيد الخور، وهو السقوط بكونه للأنقان أي: عليها، لأن النقن، وهو مجتمع للحيين أول ما يحاذي الأرض. قال الزجاج: لأن النقن مجتمع للحيين، وكما يبتدئ الإنسان بالخور للسجود، فأول ما يحاذي الأرض به من وجهه النقن، وقيل: المراد تعفير اللحية في التراب، فإن ذلك غاية الخضوع، وإيثار اللام في الأنقان على الدلالة على الاختصاص، فكانهم خصوا أنقانهم بالخور، أو خصوا الخور بأنقانهم، وقيل: الضمير في قوله **﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾** راجع إلى النبي ﷺ، والأولى ما نكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ. وحاصلها أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بآبائهم، فلا تبال بذلك، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرجون على أنقانهم سجداً لله **﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾** أي: يقولون في سجودهم تنزيهاً لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيهاً له عن خلف وعده **﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾** إن هذه هي المخفة من الثقيلة، واللام هي الفارقة. ثم ذكر أنهم خروا لأنقانهم باكين فقال: **﴿وَيُخِرُونَ لِلْأَنْقَانِ يَبْكُونَ﴾** وكرر ذكر الخور للأنقان لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه، والثاني للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم، ولهذا قال: **﴿وَيُزِيدُهُمْ﴾** أي: سماع القرآن، أو القرآن بسماعهم له **﴿خُشُوعًا﴾** أي: لين قلب ورطوبة عين.

وقد أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿تَسْعَ آيَاتٍ﴾** فذكر ما نكرناه عن أكثر المفسرين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: يده، وعصاه ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وأخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن قانع، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي، وابن مروي عن صفوان بن عسال: «أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله، فأتياه فسألاه عن قول الله **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾** فقال: لا تشركو بالله شيئاً، ولا تزئوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تشموا ببريء إلى سلطان فيقتله، ولا تاكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، أو قال: لا تفروا من الزحف، شك شعبة، وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت، فقبلاً بيديه ورجليه وقال: نشهد أنك نبي الله، قال: فما يمنعكما أن تسلما؟ قالاً: إن داود دعا الله أن يزال في نزيته نبي، وإنا نخاف أن أسلمنا أن يقتلنا اليهود».

أي: من بعد إغراقه ومن معه، والمراد بالأرض هنا: أرض مصر التي أراد أن يستفزه منها **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾** أي الدار الآخرة وهو القيامة، أو الكثرة الآخرة، أو الساعة الآخرة **﴿جَعَلْنَا بَكْمَ لَفِيفًا﴾** قال الجوهرى: اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، يقال: جاء القوم بلففهم ولفيفهم أي: باخلاطهم، فالمراد هنا جعلنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر. قال الأصمعي: اللفيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجمع **﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾** الضمير يرجع إلى القرآن، ومعنى **﴿بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾** أوحيناه متلبساً بالحق، ومعنى **﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾** أنه نزل وفيه الحق، وقيل: الباقي، وبالحق الأول بمعنى مع أي: مع الحق أنزلناه كقولهم: ركب الأمير بسيفه أي: مع سيفه، وبالحق نزل أي: بمحمد كما تقول نزلت يزيد. وقال أبو علي الفارسي: الباء في الموضعين بمعنى مع، وقيل: يجوز أن يكون المعنى: وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخليط الشياطين، والتقديم في الموضعين للتخصيص. **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مِبْشِرًا وَنَذِيرًا﴾** أي: مبشراً لمن أطاع بالجنة ونذيراً مخوفاً لمن عصى بالنار **﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ﴾** انتصاب قرأناً بفعل مضمر يفسره ما بعده، قرأ علي، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وقتادة، وأبو رجاء، والشعبي (فرقناه) بالتشديد أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة. وقرأ الجمهور (فرقناه) بالتخفيف أي: بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل. وقال الزجاج: فرقه في التنزيل ليفهمه الناس. قال أبو عبيد: التخفيف أعجب إلي، لأن تفسيره بيناه، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً. ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: فرقت مخففاً بين الكلام، وفرقت مشدداً بين الأجسام، ثم نكر سبحانه العلة لقوله: **﴿فَرَقْنَاهُ﴾**، فقال: **﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ﴾** أي: على تطاول في المدة شيئاً بعد شيء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، وسورة سورة. ومعناه على القراءة الثانية على مكث أي: على ترسل وتمهل في التلاوة، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ. وقد اتفق القراء على ضم الميم في (مكث) إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم **﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾** التأكيد بالمصدر للمبالغة، والمعنى: أنزلناه منجماً مفرقاً لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطبقوا **﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾** أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات: آمنوا به أو لا تؤمنوا، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيد ذلك ولا ينقصه. وفي هذا وعيد شديد لأمره ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾** أي: أن العلماء الذين قرءوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال: مخالفاً، وقال: الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس «مَثْبُورًا» قال: ملعوناً. وأخرج الشيرازي في الألقاب، وابن مردويه عنه قال: قليل العقل. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً «لَقِيفًا» قال: جميعاً. وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ: (وَقَرَأْنَا فِرْعَانَ) مثقلاً قال: نزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث لهم جواباً، ففرقه الله في عشرين سنة. وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً «فِرْقَنَاهُ» قال: فصلناه على مكث بامد «يَخْرُونَ لِلْأَنْقَانِ» يقول: للوجوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد «إِذَا يَقْتُلَى عَلَيْهِمْ» قال: كتابهم.

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ فَهُوَ السَّمَاءُ الْمُسَوَّمَةُ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَٰهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٧﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١٨﴾

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ ومعناه: اتبعوا مستويين في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما، ولهذا قال: ﴿لَيَأْتِيَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التثني في آيا عوض عن المضاف إليه، وما مزيدة لتوكيد الإبهام في آيا، والضمير في له راجع إلى المسمى، وكان أصل الكلام: آيا ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة، وللدلالة على أنها إذا حسنت أسماءه كلها حسن هذان الإسمان، ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والإكرام، نكر معنى هذا النيسابوري وتبعه أبو السعود. قال الزجاج: أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد، وسيأتي نكر سبب نزول الآية، وبه يتضح المراد منها، ثم نكر كيفية أخرى للدعاء فقال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَٰهَا﴾ أي: بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت، لا من نعوت أفعال الصلاة، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء، يقال: خفت صوته خوفاً: إذا انقطع كلامه وضعف وسكن، وخفت الزرع إذا نبل، وخافت الرجل بقراءة: إذا لم يرفع بها صوته، وقيل معناه: لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، والأول أولى ﴿وَلْيَتْلُغْ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: الجهر والمخافتة المداول عليها بالفعليين «سَبِيلًا» أي: طريقاً متوسطاً بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتاً بها، وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها، والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها، والأمر بجعل البعض منها مجهوراً به، وهو صلاة الليل والمخافتة

بصلاة النهار، وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55] ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبه على كيفية الحمد له فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما تقول اليهود والنصارى، ومن قال من المشركين: إن الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ أي: مشارك له في ملكه وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي: لم يحتج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير. قال الزجاج: أي لم يحتج أن ينتصر بغيره، وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيدان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات، لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم لكون الولد مجببة ومبخله، ولأنه أيضاً يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام، والشركة في الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلاً عن تمام ما هو له، فضلاً عن نظام ما هو عليه، وأيضاً الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه ومؤنية إلى الفساد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]. والمحتاج إلى ولي يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه ﴿وَكَبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه تعظيماً وصفه بأنه أعظم من كل شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فقال في دعائه: يا الله يا رحمن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو إلهين، فأنزل الله ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمن، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن، فنزلت الآية. وهو مرسل. وأخرج ابن جرير عن مكحول: «أن النبي ﷺ كان يتهدد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم، فسمعه رجل من المشركين فلما أصبح قال لأصحابه: إن ابن أبي كبشة يدعو لليلة الرحمن الذي باليمن، وكان رجل باليمن يقال له: رحمن، فنزلت. وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق نeshل بن سعيد عن الضحاک، عن ابن عباس قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا﴾ إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: هو أمان من السرقة». وإن رجلاً من المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ تلاها حيث أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق فجعل ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً، فوضع الكارة، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار ثم قال: إني حصنت بيتي. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن

«نكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية: ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ إلى آخرها الصغير من أهله والكبير». وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال: «كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ إلى آخر السورة». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف من طريق عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب فنكره. وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

تفسير سورة الكهف

قال القرطبي: وهي مكية في قول جميع المفسرين. وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جبراً﴾ والأول أصح انتهى. ومن القائلين إنها مكية جميعها ابن عباس، أخرجه عنه النحاس وابن مروييه ومنهم ابن الزبير، أخرجه عنه ابن مروييه. وقد ورد في فضلها أحاديث: منها ما أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وغيرهم، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن حبان، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة النجال». وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء قال: «قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضيابة أو سحابة قد غشيته، فنكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: اقرأ فلان، فإن السكينة نزلت للقرآن»، وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بيّنه الطبراني. وأخرج الترمذي وصححه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة النجال». وفي قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث. وأخرج ابن مروييه والضياء في المختارة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، فإن خرج اللجال عصم منه». وأخرج الطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، وابن مروييه، والبيهقي، والضياء، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف كانت له نوراً من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج اللجال لم يضربه». وأخرج الحاكم وصححه من حديث أبي سعيد، أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين». وأخرجه البيهقي أيضاً في السنن من هذا الوجه ومن وجه آخر. وأخرج ابن مروييه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين». وأخرج ابن مروييه عن

عباس في قوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ الآية قال: نزلت رسول الله ﷺ متوا، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله لنبيه: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخونه عنك ﴿والبغ بينك وبينك سبيلاً﴾ يقول: بين الجهر والمخافة. وأخرج ابن مروييه عنه قال كان نبي الله ﷺ يجهر بالقراءة بمكة فيؤذي، فأنزل الله ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾. وأخرج ابن أبي شيبة عنه أيضاً نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه عنه نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مروييه عنه أيضاً قال: كان مسيلة الكذاب قد سمي الرحمن، فكان النبي ﷺ إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قال المشركون: ينكر إله اليمامة، فأنزل الله ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن محمد بن سيرين قال: ثبت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفص، وكان عمر إذا قرأ جهر، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أنا أناجي ربي، وقد عرف حاجتي، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوجدان، فلما نزل ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر اخفض شيئاً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت: إنما نزلت هذه الآية ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ في الدعاء. وأخرج ابن جرير، والحاكم عنها قالت: نزلت في التشهد. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن مروييه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأولى. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لنزل. فأنزل الله هذه الآية ﴿قل الحمد لله﴾ إلى آخرها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ولم يكن له ولي من الدن﴾ قال: لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد. وأخرج أحمد، والطبراني عن معاذ بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «آية العز ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾، الآية كلها. وأخرج أبو يعلى وابن السني عن أبي هريرة قال: «خرجت أنا رسول الله ﷺ ويده في يدي، فأتى علي رجل رث الهيئة فقال: أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السقم والضرب، قال: ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرب؟ توكلت على الحي الذي لا يموت، ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ إلى آخر الآية، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله فقال: مهيم؟ قال: لم أزل أقول الكلمات التي علمتني». وفي لفظ أن النبي ﷺ علم ذلك أبا هريرة. قال ابن كثير: وإسناده ضعيف وفي متنه نكارة. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال:

والتقدير: أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله في قوله قيماً فقال: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم، والمعنى لينذر الكافرين، والبأس العذاب، ومعنى ﴿مَنْ لَعَنَهُ﴾ صابراً من لئنه نازلاً من عنده. روى أبو بكر، عن عاصم: أنه قرأ من لئنه بإشمام الدال الضمة، وبكسر النون والهاء، وهي لغة الكلابيين. وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾، قرئ يبيش بالتشديد والتخفيف، وأجرى الموصول على موصوفه المنكور، لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان ﴿أَنْ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ وهو الجنة حال كونهم ﴿مُؤْمِنِينَ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الأجر ﴿أَبْدأ﴾ أي: مكثاً دائماً لا انقطاع له، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار ثم كرر الإنذار ونكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به، وهو البأس الشديد، لتقدم نكره فقال: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً﴾ وهم: اليهود والنصارى وبعض كفار قريش، القائلون بأن الملائكة بنات الله، فنكر سبحانه أولاً قضية كلية، وهي إنذار عموم الكفار، ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية، تنبيهاً على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية. فافاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد، أو اتخاذ الله إياه، ومن مزيدة لتأكيد النفي، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة، والمعنى: ما لهم بذلك علم أصلاً ﴿وَلَا لِأَبَائِهِمْ﴾ علم، بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة، وقلدهم أبناؤهم فضلو جميعاً ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ انتصاب كلمة على التمييز، وقرئ بالرفع على الفاعلية. قال الفراء: كبرت تلك الكلمة كلمة. وقال الزجاج: كبرت مقالتهم كلمة، والمراد بهذه الكلمة هي: قولهم اتخذ الله ولداً. ثم وصف الكلمة بقوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترأهم على التفوه بها، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى، لكن لما كانت الحروف والأصوات كفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل. ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كُنْياً﴾ أي: ما يقولون إلا كنياً لا مجال للصق فيه بحال. ثم سلى رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ قال الأخفش والفراء: البخع الجهد. وقال الكسائي: بخت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحرثة، وبخع الرجل نفسه إذا نهكها وقال أبو عبيدة: معناه: مهلك نفسك، ومنه قول ذي الرمة:

ألا إيهما ذا الباخع الوجد نفسه

فيكون المعنى على هذه الأقوال لهلك مجهود نفسك أو مضعفاً أو مهلكها ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَبِيثِ﴾ أي: القرآن وجواب للشرط محذوف دل عليه ما قبله. وقرئ بفتح

عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بسورة ملا عظمتها ما بين السماء والأرض ولكاتبها من الأجر مثل ذلك من قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أي الليل شاء؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: سورة أصحاب الكهف». وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة». وفي الباب أحاديث وآثار وفيما أوردها كفاية مغنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجاً ۖ فَيَمَنَّا يُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً لِمَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ۚ ﴿١﴾ مَنكِبِينَ فِيهِ أَبْداً ۚ ﴿٢﴾ وَنَذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كُذُوباً ۚ ﴿٣﴾ فَلَمَّا بَلَغَ نَجْمُكَ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَبِيثِ أَسَفاً ۚ ﴿٤﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَعَ الْآرِضِ زِينَةً ۖ فَمَا لِإِسْبَاطِهِمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۚ ﴿٥﴾ وَإِنَّا لَجَوَّالُونَ مَاعَنَيا صَعِيداً جُرُا ۚ ﴿٦﴾

علم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم، ووصفه بالموصول يشعر بعلة ما في حيز الصلة لما قبله ووجه كون إنزال الكتاب، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ كونه أطلع بواسطته على أسرار التوحيد، وأحوال الملائكة والأنبياء، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبد الله وتعبد أمته بها، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما نكرناه في النبي: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ أي: شيئاً من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى، والعوج بالكسر في المعاني، وبالفتح في الأعيان كذا قيل، ويرد عليه قوله سبحانه: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾ [طه: 107]، يعني: الجبال، وهي من الأعيان. قال الزجاج: المعنى في الآية لم يجعل فيها اختلافاً كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ [النساء: 82]. والقيم المستقيم الذي لا ميل فيه، أو القيم بمصالح العباد الدينية والنيوية، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمناً عليها، وعلى الأول يكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج، فرب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أني عوج في الحقيقة، وانتصاب قيماً بمضمر: أي جعله قيماً، ومنع صاحب الكشاف أن يكون حالاً من الكتاب، لأن قوله ولم يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة، فجعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة. وقال الأصفهاني: هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثاني مفرد، وهذا صواب لأن قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ﴾ لم يكن معطوفاً على ما قبله بل الواو للحال، فلا فصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وقيل: إن قيماً حال من ضمير لم يجعل له، وقيل في الكلام تقديم وتأخير،

قوله: ﴿إِمْ حَسِبْتُمْ﴾ أم: هي المنقطعة المقترنة ببل والهمزة عند الجمهور، وبيل وحدها عند بعضهم والتقدير: بل إْحَسِبْتُمْ، أو بل حَسِبْتُمْ، ومعناها: الانتقال من حديث إلى حديث آخر، لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معنى بل في الأصل. والمعنى: أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان، قال سبحانه: بل أظننت يا محمد أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط؟ لا تحسب ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادراً على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء، ثم جعل ما عليها صعيداً جرزاً كان لم تغن بالامس، لا تستبعد قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة، وإن كانت قصتهم خارقة للعادة، فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك.

من أصحاب الكهف المختلفين في مدة لبثهم. ومعنى أحصى: أضيف. وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه، وما في ﴿لَمَّا لَبِثُوا﴾ مصدرية أي: أحصى للبهتهم؛ وقيل: اللام زائدة، وما بمعنى الذي، و﴿أَمَدًا﴾ تمييز، والامد الغاية، وقيل: إن أحصى أفعال تفضيل. ورد بأنه خلاف ما تقرر في علم الإعراب، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم: أفلس من ابن المذلق، وأعدى من الجرب. وأجيب بأن أفعال التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيويوه وابن عصفور، وقيل: إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا، وقيل: إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب. وقال الفراء: إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَاهِمَ بِالْحَقِّ﴾ هذا شروع في تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أي: نحن نخبرك بخبرهم بالحق أي: قصصناه بالحق، أو متلبساً بالحق ﴿إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ﴾ أي: أحداث شبان، و﴿أَمَّنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ صفة لفتية والجملة مستأنفة بتقدير سؤال، والفتية جمع قلة، و﴿زَيْنَاهُمْ هَدَى﴾ بالتثنية والتوفيق، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَوَرِيطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان، وفراق الخلان والأخدان ﴿إِذْ قَامُوا﴾ الظرف منصوب بربطنا. واختلف أهل التفسير في هذا القيام على أقوال فقيل: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعة، فقال رجل منهم هو أكبر القوم: إني لأجد في نفسي شيئاً، إن ربي رب السموات والأرض، فقالوا: ونحن أيضاً كذلك نجد في أنفسنا، فقاموا جميعاً ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قاله مجاهد. وقال أكثر المفسرين: إنه كان لهم ملك جبار يقال له: نقيانوس، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال عطاء ومقاتل: إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي: لن نعبد معبوداً آخر غير الله لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا﴾ أي: قولاً ذا شطط، أو قولاً هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر، واللام هي: الموطئة للقسمة، والشطط: الغلو ومجاوزة الحد. قال أعشى بن قيس:

أنتهون ولن ينهى نوي شطط كاطعن يذهب فيه الزيت والفتل
﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ هَؤُلَاءِ مبتدأ وخبره اتخذوا، وقومنا عطف بيان، وفي هذا الإخبار معنى للإنكار، وفي الإشارة إليهم تحقير لهم ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ﴾ أي: هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كِتَابًا﴾ فزعم أن له شريكاً في العبادة أي: لا أحد أظلم منه ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ أَي: فارقتمهم وتنحيتهم عنهم جانباً أي: عن العابدين للأصنام، وقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ معطوف على

﴿عَجَبًا﴾ منتصبة على أنه خبر كان أي: ذات عجب، أو موصوفة بالعجب مبالغة، ومن آياتنا في محل نصب على الحال، و﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ ظرف لحسبت أو لفعل مقدر، وهو أنكر أي: صاروا إليه وجعلوه ماوهم، والفتية: هم أصحاب الكهف، والكهف هو الغار الواسع في الجبل، فإن كان صغيراً سمي غاراً، والرقيم قال كعب والسدّي: إنه اسم القرية التي خرج منها أصحاب الكهف. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماءهم جعل على باب الكهف. قال الفراء: ويروي أنه إنما سمي رقيماً لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه. والرقم الكتابة. وروي مثل ذلك عن ابن عباس. ومنه قول العجاج في أرجوزة له:

ومستقري المصحف الرقيم

وقيل: إن الرقيم اسم كلبهم، وقيل: هو اسم الوادي الذي كانوا فيه، وقيل: اسم الجبل الذي فيه الغار. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجبية من آيات الله، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: من عندك، ومن ابتدائية متعلقة بآياتنا، أو لمحذوف وقع حالاً، والتثنية في رحمة: إما للتعظيم أو للتثنية، وتقديم من لدنك للاختصاص أي: رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك، وهي: المغفرة في الآخرة والأمن من الأعداء، والرزق في الدنيا ﴿وَهَيَّيْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: اصلح لنا، من قولك هيات الأمر فتهيأ، والمراد بأمرهم: الأمر الذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار، والرشد نقيض الضلال، ومن للابتداء، ويجوز أن تكون للتجريد كما في قولك: رايت منك رشداً. وتقدم المجبورين للاهتمام بهما ﴿فَضْرِبْنَا عَلَى أَذَانِهِمْ﴾ قال المفسرون: أنماهم. والمعنى: سدنا أذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، والمفعول محذوف أي: ضربنا على أذانهم الحجاب تشبيهاً للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الأذان بضرب الحجاب عليها، و﴿فِي الْكَهْفِ﴾ ظرف لضربنا، وانتصاب ﴿سَنِينَ﴾ على الظرفية، و﴿عِدَدًا﴾ صفة لسنين أي: ذوات عدد على أنه مصدر أو بمعنى معدودة على أنه لمعنى المفعول، ويستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة. قال الزجاج: إن الشيء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد، وإن كثر احتاج إلى أن يعد وقيل: يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله ﴿وَلِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَالْفَسْفَسَةِ﴾ [الحج: 47] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا﴾ أي: ليظنهم من تلك النومة ﴿لَنُعَلِّمَهُمُ﴾ أي: ليظهر معلوماتنا، وقرئ بالتحية مبنياً للفعل على طريقة الالتفات، و﴿إِنِّي الْحَزِينُ﴾ مبتدأ معلق عنه العلم لما في أي من الاستفهام، وخبره ﴿أَحْصَى﴾ وهو فعل ماض، قيل: والمراد بالعلم الذي جعل علة للبحث هو: الاختبار مجازاً فيكون المعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم، والأولى ما نكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده، والمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين والكافرين

يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هي في مصحف ابن مسعود، وما يعبدون من نون الله، فهذا تفسيرها.

﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَذَرَ الْفَاهُونَ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِهِمْ لَوْحًا مُنِيرًا ﴿١٧﴾ وَنَحْصِبُهُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ رُفُودًا وَيَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِسَاءَ أَلْوَانٍ يَبِينُ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ إِذْ قَالَوا إِنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَاسْتَفْتَا أَهْلَكُم بِرَبِّكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْزِرْ آيَةً أَذْكَى طَسَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعْدِلُكُمْ فِي بَلْعَمٍ مِنْهُمْ وَلَنْ تُقْلِبَهُمْ إِذَا بَلَغُوا ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿وترى الشمس إذا طلعت﴾ شرع سبحانه في بيان حالهم، بعد ما أوا إلى الكهف ﴿تزاور﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل، وقرأ ابن عامر (تزور) قال الأخفش: لا يوضع الزورار في هذا المعنى، إنما يقال هو مزور عني أي: منقبض. وقرأ الباقر بتشديد الزاي وإدغام تاء التفاعل فيه بعد تسكينها، وتزاور مأخوذ من الزور بفتح الواو، وهو الميل، ومنه زاره إذا مال إليه، والزور الميل، فمعنى الآية أن الشمس إذا طلعت تميل وتتحنى ﴿عن كهفهم﴾ قال الرازي الكلبى:

جاء المنذر عن موانا أوزر

أي: مائل ﴿ذات اليمين﴾ أي: ناحية اليمين، وهي الجهة المسماة باليمين، وانتصاب ذات على الظرف، ﴿وإذا غربت تقرضهم﴾ القرض: القطع. قال الكسائي والأخفش والزجاج وأبو عبيدة: تعدل عنهم وتتركهم، قرضت المكان: عدلت عنه، تقول لصاحبك: هل وردت مكان كذا؟ فيقول: إنما قرضته إذا مر به وتجاوز عنه، والمعنى: أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين أي: يمين الكهف، وإذا غربت تمر ﴿ذات الشمال﴾ أي شمال الكهف لا تصيبه، بل تعدل عن سمتة إلى الجهتين، والفجوة المكان المتسع، وجملة ﴿وهم في فجوة منه﴾ في محل نصب على الحال، وللمفسرين في تفسير هذه الجملة قولان: الأول أنهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحاً واسعاً في ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها، لأن الله سبحانه حجبها عنهم. والثاني أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن يساره، ويؤيد القول الأول قوله: ﴿ذلك من آيات الله﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى كونها آية، ويؤيده أيضاً

الضمير المنصوب، وما موصولة أو مصدرية أي: وإذا اعتزلتموهم واعتزلتم معبودهم أو الذي يعبدونه، وقوله: ﴿إلا الله﴾ استثناء منقطع على تقدير أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام، أو متصل على تقدير أنهم شركوها في العبادة مع الله سبحانه وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله سبحانه عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله فتكون ما على هذا نافية ﴿فاووا إلى الكهف﴾ أي: صيروا إليه واجعلوه مأواكم. قال الفراء: هو جواب إذ، ومعناه: اذهبوا إليه واجعلوه مأواكم، وقيل: هو ليليل على جوابه، أي إذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً، فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانياً، وإذا أريتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته﴾ أي: يبسط ويوسع ﴿ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي يسهل وييسر لكم من أمركم الذي أنتم بصدده ﴿مرفقاً﴾ المرفق بفتح الميم وكسرهما لغتان قرئ بهما، مأخوذ من الاتفاق وهو الانتفاع، وقيل: فتح الميم أقيس، وكسرهما أكثر. قال الفراء: وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن مرفق الإنسان، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان، وكان الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر، والمرفق من الإنسان. وقال الكسائي: الكسر في مرفق اليد، وقيل: المرفق بالكسر ما ارتفعت به، والمرفق بالفتح الأمر الرافق، والمراد هنا ما يرتفعون به وينتفعون بحصوله، والتقديم في الموضعين يفيد الاختصاص.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: الرقيم الكتاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عنه قال: الرقيم وإو نون فلسطين قريب من أيلة. والروايان عن ابن عباس ضعيفان. وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه أيضاً قال: هو الجبل الذي فيه الكهف. وأخرج ابن المنذر عنه، قال: والله ما أدري ما الرقيم الكتاب أم بنيان؟ وفي رواية عنه من طريق أخرى قال: وسألت كعباً فقال: اسم القرية التي خرجوا منها. وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال: الرقيم الكلب. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كانوا من آياتنا عجبا﴾ يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿فغضبنا على آذانهم﴾ يقول: أرقدناهم ﴿ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين﴾ من قوم الفتية، أهل الهدى، وأهل الضلالة ﴿أحصى لما لبثوا﴾، وذلك أنهم كتبوا اليوم الذي خرجوا فيه والشهر والسنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ووزعناهم هدى﴾ قال: إخلاصاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ قال: بالإيمان وفي قوله: ﴿لقد قلنا إذا شططا﴾ قال: كذباً. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: جوراً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني في قوله: ﴿وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله﴾ قال: كان قوم الفتية

الاستدلال، أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه أي: أنكم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿فابعدوا﴾ أحكم بوركهم هذه إلى المدينة﴾ أعرضوا عن التحاور في مدة اللبث، وأخذوا في شيء آخر، كأنه قال القائل منهم: اتركوا ما أنتم فيه من المحاوراة، وخذوا في شيء آخر مما يهكم، والفاء للسببية، والورق: الفضة مضمروية أو غير مضمروية. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم بكسر الراء، وقرأ أبو عمرو وحزمة، وأبو بكر عن عاصم بسكونها، وقرأ بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف. وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء. وفي حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافي التوكل على الله، والمدينة دقوس، وهي مدينتهم التي كانوا فيها، ويقال لها اليوم: طرسوس، كذا قال الواحدي ﴿فليُنظر إليها إزكي طعاماً﴾ أي: ينظر أي أهلها أطيب طعاماً، وأحل مكسباً، أو أرخص سعراً، وقيل: يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها في المقام كما يقال: زيد طبت أبا علي أن الأب هو زيد، وفيه بعد. واستدل بالآية على حل نباح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفاراً، وفيهم قوم يخفون إيمانهم، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿وليتلطف﴾ أي: يقق النظر حتى لا يعرف أو لا يغبن، والأول أولى، ويؤيده ﴿ولا يشعرون بكم أحداً﴾ أي: لا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور ويتسبب له، فهذا النهي يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف. ثم علل ما سبق من الأمر والنهي فقال: ﴿إنهم إن يظهروا عليكم﴾ أي: يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم، يعني: أهل المدينة ﴿يرجموكم﴾ يقتلوكم بالرجم، وهذه القتل هي أخبث قتلة. وكان ذلك كان عادة لهم، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي: يرؤوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهيبكم الله، أو المراد بالعود هنا: الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار ﴿ولن تفلحوا إذا أبدا﴾ في إن معنى الشرط. كأنه قال: إن رجعت إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدا، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿تزاو﴾ قال: تميل، وفي قوله: ﴿تقرضهم﴾ قال: تزهم، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿تقرضهم﴾ قال: تتركهم ﴿وهم في فجوة منه﴾ قال: المكان الداخل. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر، قال: الفجوة: الخلوة من الأرض، ويعني بالخلوة: الناحية من الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ونقلبهم﴾ الآية قال: ستة أشهر على ذي الجنب اليمين، وستة أشهر على ذي الجنب الشمال. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جبیر في الآية قال: كي لا تاكل الأرض

إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:
أبست قومك مخزاةً ومنقصةً حتى أبجوا وخلوا فجوة الدار
ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله: ﴿من يهد الله﴾ أي: إلى الحق ﴿فهو المهتد﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي: ناصرأ يهديه إلى الحق كدقيانوس وأصحابه. ثم حكى سبحانه طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال: ﴿وتحسبهم ليقاظاً﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿وهم رقود﴾ أي: نيام، وهو جمع راقد كقعود في قاعد. قيل: وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام. وقال الزجاج: لكثرة تقلبهم ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ أي: نقلبهم في رقدتهم إلى الجهتين لئلا تاكل الأرض أجسادهم ﴿وكلبهم باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى الماضي كما تقرر في علم النحو. قال أكثر المفسرين: هربوا من ملكهم ليلاً، فمروا براح معه كلب فتبعهم. والوصيد، قال أبو عبيد وأبو عبيدة هو فناء الباب، وكذا قال المفسرون، وقيل: العتبة، ورد بان الكهف لا يكون له عتبة ولا باب، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ﴿ولو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً﴾ قال الزجاج: فراراً منصوب على المصدرية بمعنى: التولية، والفرار: الهرب ﴿ولملمت﴾ قرئ بتشديد اللام وتخفيفها ﴿منهم رعباً﴾ قرئ بسكون العين وضمها أي: خوفاً يملأ الصدر، وانتصاب رعباً على التمييز، أو على أنه مفعول ثانٍ، وسبب الرعب الهيبة التي البسهم الله إياها، وقيل: طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم، ويدفعه قوله تعالى: ﴿لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئاً، ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة ﴿وكنكك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ الإشارة إلى المنكوك قبله أي: وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم، وفيه تنكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعاً، ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال: ليتساءلوا بينهم أي: ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها، وإنما أفرد لاستتباعه لسائر الآثار، وجملة ﴿قال قائل منهم كم لبثتم﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل أي: كم مدة لبثكم في النوم؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعنون في العادة ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي: قال بعضهم جواباً عن سؤال من سأل منهم، قال المفسرون: إنهم بخلوا الكهف غداة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا يوماً، فلما رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم، وكان قد بقيت بقية من النهار، وقد مر مثل هذا الجواب في قصة عزيز في البقرة ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أي: قال البعض الآخر هذا القول إما على طريق

سبحانه: حاكياً لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم، وفي مدة لبثهم، وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم ﴿ربهم أعلم بهم﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم، قالوا: ذلك تفويضاً للعلم إلى الله سبحانه، وقيل: هو من كلام الله سبحانه، رداً لقول المتنازعين فيهم أي: دعوا ما أنتم فيه من التنازع، فإنني أعلم بهم منكم، وقيل: إن الظرف في ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾ متعلق بمحنوف هو أنكر، ويؤيده أن الإعراب ليس في زمن التنازع بل قبله، ويمكن أن يقال: إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرناً بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعراب، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوباً على باب الغار، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ نكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون، وقيل: هم أهل السلطان، والملك من القوم المنكوريين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم، والأول أولى. قال الزجاج: هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور. لأن المساجد للمؤمنين ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة، هم المتنازعون في عددهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين، وقيل: هم أهل الكتاب خاصة، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعاً قالوا جميع ذلك، بل قال بعضهم بكذا، وبعضهم بكذا، وبعضهم بكذا ثلاثة رابعهم كلبهم أي: هم ثلاثة أشخاص، وجملة رابعهم كلبهم في محل نصب على الحال أي: حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله، وانتصاب ﴿رَجُماً بِالْغَيْبِ﴾ على الحال أي: راجمين أو على المصدر أي: يرجمون رجماً، والرجم بالغيب هو القول بالظن والحدس من غير يقين، والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة، والقائلين بأنهم خمسة ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ كان قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إنخالهم في سلك الراجمين بالغيب. قيل: وإظهار الواو في هذه الجملة يدل على أنها مرادة في الجملتين الأولىين. قال أبو علي الفارسي: قوله رابعهم كلبهم، وسادسهم كلبهم جملتان استغني عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من نكر الجملة الأولى وهي قوله ثلاثة، والتقدير: هم ثلاثة، هكذا حكاها الواحدي عن أبي علي، ثم قال: وهذا معنى قول الزجاج في دخول الواو في وثامنهم وإخراجها من الأول، وقيل: هي مزيدة للتوكيد، وقيل: إنها واو الثمانية، وإن ذكره متداول على ألسن العرب إذا وصلوا إلى الثمانية كما في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: 73] وقوله: ﴿ثِيَابَ وَابِكَاراً﴾ [التحريم: 5]، ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المختلفين في عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَثَتِهِمْ﴾ منكم أيها المختلفون ثم أثبت علم ذلك

لحومهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم: قطمورا. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: اسمه قطمير. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ قال: بالفناء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: بالياب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿أَزْكَىٰ طَعَاماً﴾ قال: أحل نبيحة، وكانوا يذبحون للطواغيت. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿أَزْكَىٰ طَعَاماً﴾ يعني: أطهر، لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت.

وَكَذَلِكَ أَثَرُنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ۚ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجُماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَثَتِهِمْ مَا يَلْفَهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظُهُورًا وَلَا تَنَفَّتْ فِيهِمْ نِيْهُهُمْ أَحْمَكُ ۚ وَلَا تَوَلَّوْا لِبَشَائِرِ إِلَىٰ فَاغِلْ ذَٰلِكَ عَذَابُ ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبُّكَ إِذَا تَبَيَّنَتْ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَٰذَا رَدُّكَ ۚ وَلِيُثْبِتْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ وَائِثَرٍ سِتْرَتٍ وَأَزَادُوا قِيَمًا ۚ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثْبِتُوا لَمْ يَغِبْ أَسْمَاؤُهُمْ وَالْأَرْضُ أَبْصَرَ بِهِمْ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۚ

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَثَرُنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: وكما اتفهمناهم وبعثناهم، أعرنا عليهم أي: أطلعنا الناس عليهم وسمي الإعلام إعراراً، لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه، فكان الإعراب سبباً لحصول العلم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليعلم الذين أعرناهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق. قيل: وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث، فأراه الله هذه الآية. قيل: وسبب الإعراب عليهم أن نكح الرجل الذي بعثه بالورق، وكانت من ضربة نقيانوس إلى السوق، لما أطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقال له: من أين وجدت هذه الدراهم؟ قال: بعث بها أمس شيئاً من التمر، فعرف الملك صدقه، ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا إلى الكهف ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وليعلموا أن القيامة لا شك في حصولها، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ الظرف متعلق بأعرنا أي: أعرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعرناهم الله في أمر البعث، وقيل: في أمر أصحاب الكهف في قدر مكثهم، وفي عددهم، وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ لئلا يتطرق الناس إليهم، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية، فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنياناً يستترهم عن أعين الناس، ثم قال

أي: عسى أن يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسي، وأقرب منه رشداً وأدنى منه خيراً ومنفعة، والأول أولى **﴿وَلْيَتْلُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنِينَ وَأَزْدَادُوا تَسْعًا﴾** قرأ الجمهور بتسعين مائة ونصب سنين، فيكون سنين على هذه القراءة بدلاً أو عطف بيان. وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائي: فيه تقييد وتأخير، والتقدير سنين ثلثمائة، ورجح الأول أبو علي الفارسي. وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين، وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزاً على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله تعالى: **﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾** [الكهف: 103] قال الفراء: ومن العرب من يضع سنين موضع سنة. قال أبو علي الفارسي: هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الأحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع وفي مصحف⁽¹⁾ عبد الله (ثلثمائة سنة). وقال الأخفش: لا تكاد العرب تقول مائة سنين. وقرأ الضحاك (ثلثمائة سنون) بالواو. وقرأ الجمهور (تسعا) بكسر التاء. وقرأ أبو عمرو بفتحها، وهذا إخبار من الله سبحانه بمدة لبثهم. قال ابن جرير: إن بني إسرائيل اختلّفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعتار عليهم، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله نبيه ﷺ أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمر الله أن يرد علم ذلك إليه، فقال: **﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾** قال ابن عطية: فقله على هذا: لبثوا الأول يريد في يوم الكهف، ولبثوا الثاني يريد بعد الإعتار عليهم إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنه لما قال: **﴿وَأَزْدَادُوا تَسْعًا﴾** لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام؟ واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمّة. والأول أولى، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام، ببليلى أن العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات. وعن الزجاج أن المراد: ثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قمرية، وهذا إنما يكون من الزّجاج على جهة التقريب. ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله: **﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: ما خفي فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء، ثم زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال: **﴿أَبْصِرْ بِهِ وَاسْمِعْ﴾** فافاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين، وأنه يستوي في علمه الغائب والحاضر، والخفي والظاهر، والصغير والكبير، واللطيف والكثيف، وكان أصله ما أبصره وما أسمع، ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، والباء زائدة عند

لقليل من الناس فقال: **﴿مَا يَعْلَمُهُمْ﴾** أي: يعلم ذواتهم فضلاً عن عددهم، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف **﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾** من الناس، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الجدال مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف فقال: **﴿فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ﴾** المراء في اللغة: الجدال يقال: ماري يماري مماراة ومراء أي: جادل، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهراً واضحاً فقال: **﴿إِلَّا مَرَّةً ظَاهِرًا﴾** أي: غير متعمق فيه وهو أن يقصّ عليهم ما أوحى الله إليه فحسب. وقال الرازي: هو أن لا يكنّبهم في تعيين ذلك العدد، بل يقول: هذا التعيين لا دليل عليه، فوجب التوقف، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال: **﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾** أي: لا تستفت في شأنهم من الخائضين فيهم أحداً منهم، لأن المفتي يجب أن يكون أعلم من المستفتي، وها هنا الأمر بالعكس، ولا سيما في واقعة أهل الكهف، وفيما قصّ الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له **﴿وَلَا تَقُولُوا لشيءٍ إني فاعلٌ لك غداً﴾** أي: لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبّر عنه بالغد، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولاً أولياً. قال الواحدي: قال المفسرون: لما سألت اليهود النبي ﷺ عن خبر الفتية فقال: أخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه حتى شقّ عليه، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول: إذا قلت لشيء: إني فاعلٌ لك غداً، فقل: إن شاء الله. وقال الأخفش والمبرد والكسائي والفراء: لا تقولن لشيء إني فاعلٌ لك غداً إلا أن تقول إن شاء الله، فأضمر القول ولما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال، قيل: وهذا الاستثناء مفرغ أي: لا تقولن ذلك في حال من الأحوال، إلا حال ملايسته لمشيئة الله وهو أن تقول إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقاً، وقيل: الاستثناء جار مجرى التأييد كأنه قيل: لا تقولنه أبداً كقوله: **﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾** [الأعراف: 89]. لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله **﴿وَأَنْتُمْ رَبُّكُمْ إِذَا نَسِيتُمْ﴾** الاستثناء بمشيئة الله أي: فقل إن شاء الله، سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة.

وقد اختلف أهل العلم في المدة التي يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة في مواضعها وقيل: المعنى **﴿وَأَنْتُمْ رَبُّكُمْ﴾** بالاستغفار **﴿إِذَا نَسِيتُمْ﴾** وقيل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً المشار إليه بقوله من هذا هو نبا أصحاب الكهف أي: قل يا محمد عسى أن يوفّقني ربي لشيء أقرب من هذا النبا من الآيات والدلائل الدالة على نبوّتي. قال الزجاج: عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف، وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، وقيل: الإشارة إلى قوله: **﴿وَأَنْتُمْ رَبُّكُمْ إِذَا نَسِيتُمْ﴾**

(1) لم تثبت هذه القراءة في كتب القراءات، أفاد ذلك العلامة سيدنا

حسين هادي القاري، عافاه الله.

فقال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف فلم يلد منهم إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لم يحث، وكان بركاً لحاجته». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن عكرمة **﴿إِذَا نَسِيتَ﴾** قال: إذا غضبت. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الحسن **﴿إِذَا نَسِيتَ﴾** قال: إذا لم تقل إن شاء الله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس قال: إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهيأ أبعد ما بين السماء والأرض، ثم تلا **﴿وَلْيَبْثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾** الآية، ثم قال: كم لبث القوم؟ قالوا: ثلثمائة وتسع سنين، قال: لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله **﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾** ولكنه حكى مقالة القوم فقال: **﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾** إلى قوله: **﴿رَجَعْنَا بِالْغَيْبِ﴾** فأخبر أنهم لا يعلمون، ثم قال: سيقولون **﴿وَلْيَبْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾** وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في حرف ابن مسعود، وقالوا: **﴿وَلْيَبْثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾** الآية يعني: إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال: **﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾**. وأخرج ابن مروي عن الضحاك عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: **﴿وَلْيَبْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾** قيل: يا رسول الله أياماً أم أشهراً أم سنين؟ فأنزل الله **﴿سَنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾**». وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك بدون ذكر ابن عباس. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿بَصُرَ بِهِ وَاَسْمَعُ﴾** قال: الله يقول.

وَأَقْلَمَ مَا أَرَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّلاً ﴿١٧٧﴾ وَأَمِيرَ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْغَيْبِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَدْرِي مَا يَكُونُ مِنْهُ رُبُّهُ زَيْدُ الْحَبَشَةِ الْأَذْيَلُ وَلَا تُلْقِ مَنْ أَغْنَىٰ قَلْبَهُ عَنْ دِرْهَمٍ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿١٧٨﴾ وَقُلِ الْغَوْ عَنْ دِرْهِمٍ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْقَائِلِينَ نَارًا أَسَاطِيرَ مِنْهُنَّ سُورِقُهَا وَلَنْ يَسْتَفِيدُوا بِهَا مِنْ شَيْءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الْوَارِثُ ﴿١٧٩﴾ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٨٠﴾ إِنَّ الْآلِيزَةَ أَسْمَاءُ وَعَمِلُوا الْعَمَلِيعَاتِ إِنَّا لَا نَنْصِفُ أَعْرَ مِنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿١٨١﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَجْعَلْ عَذَابَ نَجْمٍ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْتُمْ يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِيرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَاسْتَرْقَوْ مُنْكِيَيْنَ فِيهَا عَلَى الْأَرْوَاحِ بِسْمِ الْوَرَبِ رَحِمَتُ مُرْتَفَقًا ﴿١٨٢﴾

قوله: **﴿وَأَقْلَمَ مَا أَرَى إِلَيْكَ﴾** أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه، قيل: ويحتمل أن يكون معنى قوله: (واتل) واتبع، أمراً من التلو، لا من التلاوة، و **﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾** بيان للذي أوحى إليه **﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾** أي: لا قادر على تبديلها وتغييرها، وإنما يقدر على ذلك هو وحده. قال الزجاج أي: ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدل له، وعلى هذا يكون التقدير: لا مبدل لحكم كلماته **﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّلاً﴾** الملتحد: الملتجأ، وأصل اللحد: الميل، قال الزجاج: لن تجد مبدلاً عن أمره ونهيه،

سيبويه وخالفه الأخفش، والبحث مقرر في علم النحو **﴿لَمْ يَجِدْ مِنْ دُونِهِ مَنْ وَلِيَّ﴾** الضمير لأهل السموات والأرض، وقيل: لأهل الكهف، وقيل: لمعاصري محمد ﷺ من الكفار أي: ما لهم من موالٍ يوليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم، وفي هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره **﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ﴾** قرأ الجمهور برفع الكاف على الخبر عن الله سبحانه. وقرأ ابن عباس والحسن وأبو رجاء وقاتدة بالتاء الفوقية وإسكان الكاف على أنه نهى للنبي ﷺ أن يجعل لله شريكاً في حكمه، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر. وقرأ مجاهد بالتحية والجزم. قال يعقوب: لا أعرف وجهها، والمراد بحكم الله: ما يقضيه، أو علم الغيب. والأول أولى. ويدخل علم الغيب في ذلك دخولاً أولياً، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَكُنْكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾** قال: اطلعنا. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾** قال: الأمراء، أو قال: السلاطين. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: **﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾** قال: اليهود **﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾** قال: النصارى. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿رَجَعْنَا بِالْغَيْبِ﴾** قال: قنفاً بالظن. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: **﴿لَمْ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾** قال: أنا من القليل كانوا سبعة. وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح في قوله: **﴿لَمْ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾** قال: أنا من أولئك القليل كانوا سبعة، ثم ذكر أسماءهم. وحكاه ابن كثير عن ابن عباس في رواية قتادة وعطاء وعكرمة، ثم قال: فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ﴾** يقول: حسبك ما قصصت عليك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن طرق عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ﴾** قال: اليهود. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا تَقُولُوا لشيءٍ﴾** الآية قال: إذا نسيت أن تقول لشيءٍ إنني أفعله فنسيت أن تقول إن شاء الله، فقل إذا ذكرت: إن شاء الله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مروي عنه أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة، ثم قرأ: **﴿وَأَنْتَ رُبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عنه أيضاً في الآية قال: هي خاصة لرسول الله ﷺ وليس لأحد أن يستثني إلا في صلة يمين. وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال: كل استثناء موصول فلا حث على صاحبه، وإذا كان غير موصول فهو حائث. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لا طوفن الليلة على سبعين امرأة وفي رواية: تسعين تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله،

والمعنى: أنك إن لم تتبع القرآن وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه. وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف. ثم شرح سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ قد تقدّم في الأنعام نهية ﴿عَنْ طَرْدِ فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: 52] وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم، فصبر النفس هو حبسها، وذكر الغداة والعشي كتابة عن الاستمرار على الدعاء في جميع الأوقات، وقيل: في طرفي النهار، وقيل المراد: صلاة العصر والفجر. وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر (بالغدوة) بالواو، واحتجوا بأنها في المصحف كذلك مكتوبة بالواو. قال النحاس: وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول: الغدوة، ومعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: أنهم يريدون بدعائهم رضى الله سبحانه، والجملة في محل نصب على الحال، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تتجاوز عينك إلى غيرهم. قال الفراء: معناه لا تصرف عينك عنهم، وقال الزجاج: لا تصرف بصرك إلى غيرهم من نوري الهيئات والزينة، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبوة، من عدوته عن الأمر أي: صرفته منه، وقيل: معناه لا تحتقرهم عينك ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: مجالسة أهل الشرف والغنى، والجملة في محل نصب على الحال أي: حال كونك مريداً لذلك، هذا إذا كان فاعل تريد هو النبي ﷺ، وإن كان الفاعل ضميراً يعود إلى العينين، فالتقدير: مريدة زينة الحياة الدنيا، وإسناد الإرادة إلى العينين مجاز، وتوحيد الضمير للتلازم كقول الشاعر:

لَمَنْ زَحْلَوْتَهُ زَلَّ بِهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ
﴿وَلَا تَطْعُ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: جعلناه غافلاً بالختم عليه، نهى رسول الله ﷺ عن طاعة من جعل الله قلبه غافلاً عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وآثره على الحق فاختر الشرك على التوحيد ﴿وَوَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ أي: متجاوزاً عن جد الاعتدال، من قولهم: فرس فرط إذا كان متقدماً للخيل فهو على هذا من الإفراط وقيل هو: من التفريط، وهو التقصير والتضييع. قال الزجاج: ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه، ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ ما يقوله لأولئك الغافلين، فقال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قل لهم: إن ما أوحى إليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير، وقيل: المراد بالحق الصبر مع الفقراء. قال الزجاج: أي الذين اتيتكم به ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: لم آتكم به من قبل نفسي إنما آتيتكم به من الله ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ قيل: هو

ياحكم بن المنذر بن جارود سراق المجد عليك ممدود وقال الشاعر:

هو المخل النعمان بيتاً سماؤه صور الفيول بعد بيت مسروق
يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة. وقال ابن الأعرابي: سراقها سورها. وقال القتبي: السراق الحجرة التي تكون حول الفسطاط. والمعنى: أنه أحاط بالكفار سراق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسراق المحيط بمن فيه ﴿وَأَنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من حر النار ﴿يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمِهلِ﴾ وهو: الحديد المذاب. قال الزجاج: إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر، وقيل: هو دردي الزيت. وقال أبو عبيدة والأخفش: هو كل ما أتيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس. وقيل: هو ضرب من القطران. ثم وصف هذا الماء الذي يغاثون به بأنه ﴿يَشْوِي الْوُجُوهُ﴾ إذا قُتِمَ إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ شرابهم هذا ﴿وَأَسَاءَتِ النَّارُ مَرْتَفَقًا﴾ متكأ، يقال: ارتفعت أي: اتكأت، وأصل الارتفاق نصب المرفق، ويقال: ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه، وقال القتبي: هو المجلس، وقيل، المجتمع. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا شروع في وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين، والمعنى: إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحى إليك وعملوا الصالحات من الأعمال ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ لَجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ هذا خبر إن الذين آمنوا، والعائد محذوف أي: من أحسن منهم عملاً، وجملة ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ استثناء لبيان الأجر، والإشارة إلى من تقدّم ذكره، وقيل: يجوز أن يكون أولئك خبر إن الذين آمنوا، وتكون جملة ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾ اعتراضاً، ويجوز أن يكون أولئك خبراً بعد خبر، وقد تقدّم الكلام في جنات عدن، وفي كيفية جري الأنهار من تحتها ﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ قال الزجاج: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك، قيل: يحلى كل واحد منهم ثلاثة أسورة. واحد من فضة واحد من لؤلؤ واحد من ذهب، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب، ويمكن أن يكون

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده في قوله: **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ»** الآية قال: نزلت في صلاة الصبح وصلاة العصر. وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: **«وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا»** قال: نزلت في أمية بن خلف، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صنائيد أهل مكة، فأنزل الله هذه الآية، يعني: من ختمنا على قلبه يعني: التوحيد **«وَاتَّبِعْ هَوَاهُ»** يعني الشرك **«وَوَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا»** يعني: فرطاً في أمر الله وجهالة بالله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ في يوم حار، وعنده سلمان عليه جبة صوف، فصار منه ريح العرق في الصوف، فقال عيينة: يا محمد إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباه من عنك لا يؤذينا، فإذا خرجنا فانت وهم أعلم، فأنزل الله: **«وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ»** الآية. وقد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية، وهي قوله تعالى: **«وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ»** [الأنعام: 52]، عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: **«اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا»** قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت أسمهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحَثَّ نفسه، فأنزل الله **«وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»** [الأنعام: 52] الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«وَوَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا»** قال: ضياعاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة **«وَوَقَلَ الْحَقُّ»** قال: هو القرآن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **«فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ»** يقول: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر، وهو قوله: **«وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»** [التكوير: 29]. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال في الآية: هذا تهديد ووعيد. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: **«أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا»** قال: حائط من نار. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: **«لسرارق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة»**. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن البحر هو من جهنم، ثم تلا «نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا»**. وأخرج أحمد، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله:

قول القائل هذا جمعاً بين الآيات لقوله سبحانه في آية أخرى: **«أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ»** [الإنسان: 21]، ولقوله في آية أخرى: **«وَلَوْلُؤَا»** [الحج: 23]. وهـ من في قوله: **«مَنْ أَسَاوِرَ»** للابتداء، وفي من ذهب للبيان. وحكى الفراء يحلون بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام، يقال: حليت المرأة تحلى فهي حالية إذا لبست الحلي **«وَوِيلِبَسُونَ ثِيَاباً خَضِرًا مِنْ سَنَدِسٍ وَأَسْتَبْرَقَ»** قال الكسائي: السندس الرقيق واحده سندسة، والإستبرق ما ثخن وكذا قال المفسرون، وقيل: الإستبرق هو اللبياج كما قال الشاعر:

وإستبرق اللبياج طوراً لباسها

وقيل: هو المنسوج بالذهب. قال القتيبي: هو فارسي معرب. قال الجوهري: وتصغيره أبيرق، وخَصَّ الأخضر لأنه الموافق للبصر ولكونه أحسن الألوان **«مَتَكْتَلِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ»** قال الزجاج: الأرائك جمع أريكة، وهي السرر في الحجال، وقيل: هي أسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت، وأصل اتكا أوتكا، وأصل متكتلين موتكتلين، والاتكاء: التحامل على الشيء **«نَعَمِ الثَّوَابُ»** ذلك الذي ثابهم الله به **«وَوَحْسَنَتْ»** تلك الأرائك **«مَرْتَفَقًا»** أي متكاً وقد تقدم قريباً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **«مَلْتَحَدًا»** قال: ملتجأ. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن سلمان قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم: عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس قالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم، يعنون: سلمان وأبا نر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف، جالسناك وحائثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله **«وَوَاتِلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ»** إلى قوله: **«إِنَّا أَعْتَيْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا»**، زاد أبو الشيخ عن سلمان: «أن رسول الله ﷺ قام يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرهم الله تعالى فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا والممات». وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: «نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ»** فخرج يلتمسهم فوجد قومًا يذكرهم الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وذو الثوب الخلق، فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم». وأخرج البزار عن أبي سعيد وأبي هريرة قال: «جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت، فقال رسول الله ﷺ: هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم»، وفي الباب روايات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن نافع قال: أخبرني عبد الله بن عمر في هذه الآية: **«وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»** أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس.

قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزّز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدّران أو محققان؟ فقال بالأول: بعض المفسرين. وقال بالآخر: بعض آخر. واختلفوا في تعيينهما، فقيل: هما أخوان من بني إسرائيل، وقيل: هما أخوان مخزوميان من أهل مكة: أحدهما مؤمن، والآخر كافر، وقيل: هما المذكوران في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: 51]. وانتصاب مثلاً ورجلين على أنهما مفعولان أضرب، قيل: والأول هو الثاني والثاني هو الأول ﴿وجعلنا لأحدهما جنتين﴾ هو الكافر، و﴿من أعناب﴾ بيان لما في الجنتين أي: من كروم متنوعة ﴿ووحققناهما بنخل﴾ الحف الإحاطة، ومنه ﴿حافين من حول العرش﴾ [الزمر: 75] ويقال: حف القوم بفلان يحفون حفاً أي: أطافوا به، فمعنى الآية: وجعلنا النخل مطيافاً بالجنتين من جميع جوانبهما ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾ أي: بين الجنتين، وهو وسطهما، ليكون كل واحد منهما جامعاً للآفات والفاكهة، ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدي حملها وما فيها، فقال: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ أخبر عن كلتا بآتت، لأن لفظه مفرد، فأرعى جانب اللفظ. وقد ذهب البصريون إلى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثني. وقال الفراء: هو مثني. وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيتت الألف للتثنية. وقال سيبويه: ألف كلتا للتانيث، والتاء بدل من لام الفعل، وهي واو، والأصل كلوا. وقال أبو عمرو: التاء ملحقة وكلهما هو: ثمرهما، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحاً للأكّل. وقرأ عبد الله بن مسعود (كل الجنتين آتت أكله) ﴿وولم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها شيئاً، يقال: ظلمه حقه أي: نقصه، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد في سائر البساتين فإنها في الغالب تكثر في عام، وتقل في عام ﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾ أي: أجرنا وشققنا وسط الجنتين نهراً ليسقيهما دائماً من غير انقطاع، وقرئ (فجرنا) بالتشديد للمبالغة، وبالتخفيف على الأصل ﴿وكان له﴾ أي: لصاحب الجنتين ﴿ثمر﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق (ثمر) بفتح التاء والميم. وكذلك قرءوا في قوله: ﴿أحيط بثمره﴾ وقرأ أبو عمرو بضم التاء وإسكان الميم فيهما. وقرأ الباقر بضمهما جميعاً في الموضعين. قال الجوهري: الثمرة واحدة الثمر، وجمع الثمر ثمار مثل جبل وحيال. قال الفراء: وجمع الثمار ثمر، مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار، مثل عنق وأعناق، وقيل: الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك، وقيل: هو الذهب والفضة خالصة ﴿فقال لصاحبه﴾ أي: قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن ﴿وهو يحاوره﴾ أي: والكافر يحاور المؤمن، والمعنى: يراجعه الكلام ويجاوبه، والمحاورة المراجعة، والتحاوير التجاوب

﴿بماء كالمهل﴾ قال: «عكر الزيت، فإذا قرّب إليه سقطت فروة وجهه فيه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كالمهل﴾ قال: أسود كعكر الزيت. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطية قال: سئل ابن عباس عن المهل فقال: ماء غليظ كدردي الزيت. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود: أنه سئل عن المهل، فذهب بذهب وفضة فأنابه، فلما ذاب قال: هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار ولونه لون السماء، غير أن شراب أهل النار أشدّ حرّاً من هذا. وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: هل تدرون ما المهل؟ المهل سهل الزيت، يعني: آخره. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وساءت مرتفعاً﴾ قال: مجتمعاً. وأخرج البخاري، ومسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». وأخرج البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال: في الجنة شجرة تثبت السنس منه يكون ثياب أهل الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن عكرمة قال: الإستبرق الديباج الغليظ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائفي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول منه ولا يمله، يأتيه ما اشتتهت نفسه ولذت عينه». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأراك السرر في جوف الحجال عليها الفرش منضود في السماء فرسخ. وأخرج البيهقي في البعث عنه قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة، أنه سئل عن الأراك فقال: هي الحجال على السرر.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبْعًا﴾ ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ ﴿وَكَانَ لَمْ يَكُنْ فَقَالَ لِمُحَاوَرِهِ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يُبَدِّلَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَمُوَّحَاوَرُهُ أَكْثَرَتْ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثٍ ثُمَّ سَوَّكَ رِيًّا﴾ ﴿لَيْكُنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرَكَ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿فَمَنْ رَبِّيَ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَبِيبًا رَافِقًا﴾ ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاءً مَازْهًا غَرًّا فَإِنْ تَسْتَطِيعُ لَمْ نَطْلُبْكَ﴾ ﴿وَأَحِيطَ بِخَبْرِهِ فَأَصْبَحَ يَبْلُغُ كَفِّهِ عَنْ مَا أَتَقَىٰ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرْوَتِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِرَبِّ شَرِّكَ رَبِّي لِمَا﴾ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فَنَدَّ بِعَمْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿هَٰذَاكَ الْوَلِيُّ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عَقَبًا﴾

لأنها قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضاً، قال: وفي قراءة أبيي (لكن أنا هو الله ربي) وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع، وورش عن يعقوب (لكننا) في حال الوصل والوقف معاً بإثبات الألف، ومثله قول الشاعر:

لنا سيف العشيبة فاعرفوني فإني قد تدربت السنما

ومنه قول الأعشى:

فكيف أنا والحن القوافي وبعد الشيب يكفي ذاك عارا

ولا خلاف في إثباتها في الوقف، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبو العالية، وروي عن الكسائي (لكن هو الله ربي) ثم نفى عن نفسه الشرك بالله، فقال: ﴿ولا يشرك بربي أحداً﴾ وفيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركاً، ثم أقبل عليه يلومه فقال: ﴿ولولا إذ بخلت جنتك قلت ما شاء الله﴾ لولا للتحضيض أي: هلاً قلت عندما بخلتها هذا القول. قال الفراء والزجاج: ما في موضع رفع على معنى الأمر ما شاء الله أي: هلاً قلت حين بخلتها الأمر بمشيئة الله، وما شاء الله كان، ويجوز أن تكون ما مبتدأ والخبر مقرر أي: ما شاء الله كائن، ويجوز أن تكون ما شرطية والجواب محذوف أي: أي شيء شاء الله كان ﴿لا قوة إلا بالله﴾ أي: هلاً قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، تحضيضاً له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله، إن شاء أبياها وإن شاء أفناها، وعلى الاعتراف بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته. قال الزجاج: لا يقوى أحد على ما في يده من ملك ونعمة إلا بالله، ولا يكون إلا ما شاء الله. ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿إن ترني أنا أقل منك مالا وولداً﴾ المفعول الأول ياء الضمير، وأنا ضمير فصل، وأقل المفعول الثاني للرؤية إن كانت علمية، وإن جعلت بصرية كان انتصاب أقل على الحال، ويجوز أن يكون أنا تأكيد لياء الضمير، وانتصاب مالا وولداً على التمييز ﴿فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾ هذا جواب الشرط أي: إن ترني أفقر منك، فانا أرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة خيراً من جنتك في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿ويرسل عليها حساباً﴾ أي: ويرسل على جنتك حساباً، والحسبان مصدر، بمعنى الحساب كالغفران أي: مقدراً قتره الله عليها، ووقع في حسابه سبحانه، وهو الحكم بتخريبها. قال الزجاج: الحسبان من الحساب أي: يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما كسبت يداك. وقال الأخفش: حساباً أي: مرامي ﴿ومن السماء﴾ واحداً حسباناً، وكذا قال أبو عبيدة والقتيبي. وقال ابن الأعرابي: الحسبان السحابة، والحسبانة الوسادة، والحسبانة الصاعقة، وقال النضر بن شميل: الحسبان سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تنزع في قوس، ثم يرمي بعشرين منها دفعة، والمعنى: يرسل عليها مرامي من عذابه إما برد، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب. ومنه قول أبي زياد الكلبي:

﴿إنا أكثر منك مالا وأعز نفراً﴾ النفر الرهط، وهو ما دون العشرة، وأراد ما هنا الاتباع والخدم والأولاد ﴿ويخل جنته﴾ أي: يدخل الكافر جنة نفسه. قال المفسرون: أخذ بيد أخيه المسلم، فأنخله جنته يطوف به فيها، ويريه عجائبها، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة، أو لأنه أدخله في واحدة، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بنكرهما. وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف: أنه وجد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنين، وجملة ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ في محل نصب على الحال أي: وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه ﴿قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ أي: قال الكافر لفرط غفلته وطول أملة: ما أظن أن تفنى هذه الجنة التي تشاهدها ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته. قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ اللام هي الموطنة للقسم، والمعنى: أنه إن يرد إلى ربه فرضاً وتقديراً كما زعم صاحبه، واللام في ﴿لأجدن﴾ جواب القسم، والشرط أي: لأجدن يومئذ خيراً من هذه الجنة، في مصاحف مكة والمدينة والشام (خيراً منهما) وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة (خيراً منها) على الأفراد، و﴿منقلباً﴾ منتصب على التمييز أي: مرجعاً وعاقبة قال هذا قياساً للغائب على الحاضر، وأنه لما كان غنياً في الدنيا، سيكون غنياً في الأخرى، اغتراراً منه بما صار فيه من الغنى الذي هو استدراج له من الله ﴿قال له صاحبه﴾ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرأ عليه ما قاله ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾ بقولك ﴿ما أظن الساعة قائمة﴾ وقال خلقك: من تراب أي: جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه، وهو أصلك، وأصل البشر فلكل فرد حظ من ذلك، وقيل: يحتمل أنه كان كافراً بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ﴿ثم من نقطة﴾ وهي المادة القريبة ﴿ثم سواك رجلاً﴾ أي: صيرك إنساناً نكراً وعدل أعضائك وكملك، وفي هذا تلويح بالدليل على البعث، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، وانتصاب رجلاً على الحال أو التمييز ﴿لكننا هو الله ربي﴾ كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكن المشددة، وأصله لكن أنا حذفت الهمزة والقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وأدغمت الثانية، وضمير هو للشان، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا، والراجع ياء الضمير، وتقدير الكلام: لكن أنا الشان الله ربي. قال أهل العربية: إثبات ألف أنا في الوصل ضعيف. قال النحاس: مذهب الكسائي والفراء والمازني أن الأصل لكن أنا، ونكر نحو ما قدمنا. وروي عن الكسائي أن الأصل لكن الله هو ربي أنا. قال الزجاج: إثبات الألف في لكننا في الإدراج جيد

أصاب الأرض حَسْبَان

أي: جراد ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ أي: فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسباناً صعيداً أي: أرضاً لا نبات بها وقد تقدّم تحقيقه، زلقاً أي: تنزل فيها الأقدام لملاستها، يقال: مكان زلق بالتحريك أي: نحض، وهو في الأصل مصدر قولك زلقت رجله تنزلق زلقاً وإزلقها غيره، والمزلقة الموضع الذي لا يثبت عليه قدم، وكذا الزلاقة، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة، أو أريد به المفعول، وجملة ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها والغور: الغائر. وصف الماء بالمصدر مبالغة، والمعنى: أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائماً، ويحيي الغور بمعنى: الغروب، ومنه قول أبي نؤيب:

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيرها

﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي: لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل، وقيل: المعنى فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه. ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه تلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال: ﴿واحيط بثمره﴾ قد قلّمنا اختلاف القراء في هذا الحرف وتفسيره، وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدّم في قوله: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ [يوسف: 66]، وهي عبارة عن إهلاكه وإفناؤه، وهو معطوف على مقدّر كانه قيل: فوقع ما توقعه المؤمن واحيط بثمره ﴿فأصبح يقلب كفيه﴾ أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى وهو كناية عن الندم، كانه قيل: فأصبح يندم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي: في عمارتها وإصلاحها من الأموال، وقيل: المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم في يده مال، وهو بعيد جداً، وجملة ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمهم التي تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض، مأخوذ من خوت النجوم تخوى إذا سقطت ولم تمطر في نوتها، ومنه قوله تعالى: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ [النمل: 52] قيل: وتخصيص ماله عروش بالذكر لون النخل والزرع لأنه الأصل، وأيضاً إهلاكها مغن عن نكر إهلاك الباقي، وجملة ﴿ويقول يا ليتني لم اشرك بربي أحداً﴾ معطوفة على يقلب كفيه، أو حال من ضميره أي: وهو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك، أو كان هذا القول منه على حقيقته، لا لما فاتته من الغرض الدنيوي، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾ فئة اسم كان وله خبرها، وينصرونه صفة لفئة أي: فئة ناصرة، ويجوز أن تكون ينصرونه الخبر، ورجح الأول سيبويه ورجح الثاني المبرز، واحتج بقوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص: 4] والمعنى: أنه لم تكن له فرقة

وجماعة يلتجئ إليها وينتصر بها، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ﴿وما كان﴾ في نفسه ﴿منتصراً﴾ أي: ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله لجنته، وانتقامه منه ﴿هنالك للولاية لله الحق﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي الحق بالرفع نعتاً للولاية، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمة الحق بالجر نعتاً لله سبحانه. قال الزجاج: ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقاً. وقرأ الأعمش وحمة والكسائي الولاية بكسر الواو، وقرأ الباقر بفتحها، وهما لغتان بمعنى، والمعنى هنالك أي: في ذلك المقام النصرة لله وحده لا يقدر عليها غيره، وقيل: هو على التقديم والتأخير أي: الولاية لله الحق هنالك ﴿هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: هو سبحانه خير ثواباً لأوليائه في الدنيا والآخرة ﴿وخير عقاباً﴾ أي: عاقبة، قرأ الأعمش وعاصم وحمة (عقياً) بسكون القاف، وقرأ الباقر بضمها، وهما بمعنى واحد أي: هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به، يقال: هذا عاقبة أمر فلان، وعقابه: أي أخراه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿جعلنا لأحدهما جنتين﴾ قال: الجنة هي البستان، فكان له بستان واحد وجدار واحد، وكان بينهما نهر، فلذلك كانا جنتين، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذي عليها. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: نهر أبي قرطس نهر الجنتين. قال ابن أبي حاتم: وهو نهر مشهور بالرملة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ قال: لم تنقص، كل شجر الجنة أطمع. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه ﴿وكان له ثمر﴾ يقول: مال. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، قال: قرأه ابن عباس ﴿وكان له ثمر﴾ بالضم، وقال: هي أنواع المال. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وكان له ثمر﴾ قال: ذهب وفضة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ يقول: كفور لنعمة ربه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب: «الله الله ربي لا أشرك به شيئاً». وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفي عن ذكره قال: «طلب موسى من ربه حاجة فابطأت عليه فقال: ما شاء الله، فإذا حاجته بين يديه، فقال: يا رب إنني أطلب حاجتي منذ كذا وكذا أعطيتها الآن، فأوحى الله إليه: يا موسى، أما علمت أن قولك ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج». وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أتم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتية منيته، وقرأ: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾»، وفي إسناد عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس. قال أبو الفتح الأزدي:

كانوا يفتخرون بالمال والغنى والابناء فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يترزين به في الدنيا لا مما ينفع في الآخرة، كما قال في الآية الأخرى ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [التغابن: 15]. وقال: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ [التغابن: 14]. ولهذا عقب هذه الزينة النبوية بقوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي: أعمال الخير، وهي ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿خير عند ربك ثواباً﴾ أي: أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثواباً، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿وخير أملاً﴾ أي أفضل أملاً، يعني: أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين، لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا، وليس في زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ [الفرقان: 24]. والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث بما سيأتي لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: ﴿الصلح والبنون﴾ حرث الدين والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد جمعها الله لأقوام. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال: سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هن؟ يا رسول الله؟ قال: التكبير والتلهيل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله»، وأخرج الطبراني وابن شاهين وابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هن الباقيات الصالحات». وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الصغير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً: «خلوا جنتكم، قيل: يا رسول الله من أي عدو قد حضر؟ قال: بل جنتكم من النار قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فأنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات، وهي الباقيات الصالحات». وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وابن مردويه عن النعمان بن بشير، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله الباقيات الصالحات». وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعاً، وزاد التكبير وسماهن الباقيات الصالحات. وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبي

عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس لا يصح حديثه. وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن أنس نحوه موقوفاً. وأخرج البيهقي في الشعب عنه نحوه مرفوعاً. وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال لي نبي الله ﷺ: «ألا انك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قلت: نعم، قال: أن تقول لا قوة إلا بالله». وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى، أن النبي ﷺ قال له: «ألا انك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»، وقد وردت أحاديث وأثار عن السلف في فضل هذه الكلمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ قال: مثل الجرز. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿حسباناً من السماء﴾ قال: عذاباً فتصبح صعيداً زلقاً أي: قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي: ذاهباً قد غار في الأرض ﴿وأحيط بثمره﴾ فاصبح يقلب كفيه قال: يصفق ﴿على ما أنفق فيها﴾ متلفهاً على ما فات.

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاغْنُطِلْ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ فَاصْبَحْ هَيْمًا تَذَرُهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿١٥﴾ السَّالُّ
وَالنُّبُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
أَمَلًا ﴿١٦﴾

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر لجبابرة قريش فقال: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ أي: انكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في حسننها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا إليها، وقد تقدّم هذا المثل في سورة يونس، ثم بيّن سبحانه هذا المثل فقال: ﴿كماء أنزلناه من السماء﴾ ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثاني لقوله اضرب على جعله بمعنى: صير ﴿فاختلط به نبات الأرض﴾ أي: اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى؛ وقيل: المعنى إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر، فتكون الباء في به سببية ﴿فاصبح﴾ النبات ﴿هشيماً﴾ الهشيم الكسير، وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت، ورجل هشيم ضعيف البين، وتهشم عليه فلان إذا تعطف. واهتشم ما في ضرع لئاقة إذا احتلبه، وهشم الثريد كسره وثرده، ومنه قول ابن الزبير:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
﴿تذروه الرياح﴾ تفرقه. قال أبو عبيدة وابن قتيبة:
تذروه تنسفه. وقال ابن كيسان: تذهب به وتجيء، والمعنى
مقتارب. وقرأ طلحة بن مصرف (تذريه الريح) قال الكسائي:
وفي قراءة عبد الله (تذريه) يقال: نذرت الريح تذروه، وأنزته
تذريه. وحكى الفراء: أنزيت الرجل عن فرسه أي: قلبته
﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ أي: على كل شيء من
الاشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء **﴿المال
والبنون زينة الحياة الدنيا﴾** هذا رد على الرؤساء الذين

لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للرؤية، ومعنى بروزها: ظهورها وزوال ما يستترها من الجبال والشجر والبنيان، وقيل المعنى ببروزها: بروز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشقاق: 4]، وقال: ﴿وَأَخْرَجْتَ الْأَرْضَ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2]، فيكون المعنى: وترى الأرض بارزة ما في جوفها ﴿وَوَحْشَرْنَاهُمْ﴾ أي: الخلائق، ومعنى الحشر الجمع أي: جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلم نترك منهم أحداً، يقال: غادره وأغدره إذا تركه، قال عنتره:

غادرته متغفراً أوصاله والقوم بين مجرح ومجندل
أي: تركته، ومنه الغدر، لأن الغادر ترك الوفاء للمغذور، قالوا: وإنما سمي الغدير غديراً، لأن الماء ذهب وتركه، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ انتصاب صفّاً على الحال أي: مصفوفين كل أمة وزمرة صف، وقيل: عرضوا صفّاً واحداً كما في قوله: ﴿ثُمَّ اثْنُوا صَفًّا﴾ [طه: 64] أي جميعاً، وقيل: قياماً، وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هو على إضمار القول أي: قلنا لهم لقد جئتمونا، والكاف في كما خلقناكم نعت مصدر محذوف أي: مجيئاً كأننا كجئناكم عند أن خلقناكم أول مرة، أو كائنين كما خلقناكم أول مرة أي: حفاة عراة غرلاً، كما ورد ذلك في الحديث. قال الزجاج أي: بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم، لأن قوله لقد جئتمونا معناه: بعثناكم ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا﴾ هذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتقريع والتوبيخ، وهو خطاب لمنكري البعث أي: زعمت في الدنيا أن لن تبعثوا، وإن لن نجعل لكم موعداً نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعيناكم به من البعث والعذاب، وجملة ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ﴾ معطوفة على عرضوا، والمراد بالكتاب: صحائف الأعمال، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس، والوضع إما حسي بأن يوضع صحيفة كل واحد في يده: السعيد في يمينه، والشقي في شماله، أو في الميزان. وإما عقلي أي: أظهر عمل كل واحد من خير وشر بالحساب الكائن في ذلك اليوم ﴿فَتَرَى الْمَجْرَمِينَ مَشْفُقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع. والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم في الهلاك، ومعنى هذا النداء قد تقدّم تحقيقه في المائدة ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: أي شيء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها واثبتها ﴿وَوَجَّهُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾ مكتوباً مثبتاً ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: لا يعاقب أحداً من عباده بغير نيب، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه، ثم إنه سبحانه عاد إلى الردّ على أرباب الخيلاء من

هريرة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعاً نحوه: وزالت: «ولا حول ولا قوة إلا بالله»، وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من حديث علي مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً فنذكر نحوه بون الحوقلة. وأخرج الطبراني عن سعد بن جنادة مرفوعاً نحوه. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه. وكل هذه الأحاديث مصرية بأنها الباقيات الصالحات، وأما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة في الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة في ذكرها هنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كل شيء من طاعة الله، فهو من الباقيات الصالحات.

وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ ثُمَّ نُفِثُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٦٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا ﴿٦٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرَمِينَ مَشْفُقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَمْ يَزَلْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا يَمُودُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٦٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدِي لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَتَتَّخِذُهُ وَدَّيَّةً وَأُولَئِكَ مِنْ دُونِ رَحْمَتِي عَدُوٌّ يُحْسِنُ لِلظَّالِمِينَ بِذَلِكَ ﴿٧٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُخَيِّدًا الْمُضِلِّينَ عَصَا ﴿٧١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٧٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٧٣﴾

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ﴾ قرأ الحسن وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول، ورفع الجبال على النيابة عن الفاعل. وقرأ ابن محيصن ومجاهد (تسير) بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل. وقرأ الباقون (نسير) بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سِيرَتْ﴾ [التكوير: 3]، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى: ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ [الطور: 10]، واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله: ﴿وَوَحْشَرْنَاهُمْ﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال، وقيل: العامل في الظرف فعل محذوف، والتقدير: وإنكر يوم نسير الجبال، ومعنى تسير الجبال: إزالتها من أماكنها وتسجيرها كما تسير السحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وهي تمرّ من السحاب﴾ [النمل: 88]، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال: ﴿وبست الجبال بساً﴾ فكانت هباءً منبثاً [الواقعة: 5 - 6]. والخطاب في قوله: ﴿وترى الأرض بارزة﴾ [الكهف: 47]

﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ [القصص: 35] أي: سنعينك ونقويك به، ويقال: أعضدت بفلان إذا استعنت به، ونكر العضد على جهة المثل، وخصّ المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ. والمعنى: ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعواناً، ووجد العضد لموافقة الفواصل، وقرأ أبو جعفر الجحدري (وما كنت) بفتح التاء على أن الخطاب للنبي ﷺ أي: وما كنت يا محمد متخذاً لهم عضداً ولا صح لك ذلك، وقرأ الباقر بن بضم التاء. وفي عضد لغات ثمان أقصحتها فتح العين وضمّ الضاد، وبها قرأ الجمهور. وقرأ الحسن «عضد» بضم العين والضاد. وقرأ عكرمة بضم العين وإسكان الضاد، وقرأ الضحّاك بكسر العين وفتح الضاد، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد. ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال: ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر نقول بالنون، وقرأ الباقر بالباء التحتية أي: انكر يوم يقول الله عز وجل للكفار توبيخاً لهم وتقريعاً نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جرياً على ما يعتقده المشركون، تعالى الله عن ذلك ﴿فدعوههم﴾ أي: فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ إذ ذاك أي: لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم، فضلاً عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ أي: جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقاً، نكر جماعة من المفسرين أنه اسم واو عميق فرق الله به تعالى بينهم، وعلى هذا فهو اسم مكان. قال ابن الأعرابي: كل حاجز بين شيئين فهو موبق. وقال الفراء: الموبق المهلك. والمعنى: جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة، يقال: يبق يوبق فهو بيق. هكذا ذكره الفراء في المصادر. وحكى الكسائي وبق يبق وبقاً فهو وابق، والمراد بالمهلك على هذا: هو عذاب النار يشتركون فيه. والأول أولى، لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء لله الملائكة وعزير والمسيح، فالموبق هو المكان الحائل بينهم. وقال أبو عبيدة: الموبق هنا الموعد للهلاك، وقد ثبت في اللغة أوبقه بمعنى: أهلكه، ومنه قول زهير:

ومن يشتري حسن الثناء بماله يصن عرضه عن كل شغاء موبق
ولكن المناسب لمعنى الآية: هو المعنى الأول ﴿وراء المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ المجرمون موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به، والظن هنا بمعنى اليقين. والموقعة المخالطة بالوقوع فيها، وقيل: إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظناً ﴿ولم يحسبوا أنها مصراً﴾ أي: معدلاً يفعلون إليه، أو انصرافاً، لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب. قال الواحدي: المصرف الموضع الذي ينصرف إليه. وقال القتيبي: أي معدلاً ينصرفون إليه،

قريش، فنكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي: وانكر وقت قولنا لهم اسجدوا سجود تحية وتكريم، كما مرّ تحقيقه ﴿فسجدوا﴾ طاعة لأمر الله وامثالاً لطلبه السجود ﴿إلا إبليس﴾ فإنه أبى واستكبر ولم يسجد، وجملة ﴿كان من الجن﴾ مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى. ومعنى ﴿ففسق عن أمر ربه﴾: أنه خرج عن طاعة ربه. قال الفراء: العرب تقول فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه. قال النحاس: اختلف في معنى ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ على قولين: الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه، كما تقول: أطعته عن جوع. والقول الآخر قول قطرب: أن المعنى على حذف المضاف أي: فسق عن ترك أمره. ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس في الكفر والمعاصي وخالف أمر الله فقال: ﴿افتخؤنه وذريته أولياء﴾ كأنه قال: أعقب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخؤنه وتتخون ذريته أي: أولاده؛ وقيل: أتباعه مجازاً أولياء ﴿من دوني﴾ فتطيعونهم بدل طاعتي وتستبدلونهم بي، والحال أنهم أي: إبليس وذريته ﴿لهم عدو﴾ أي: أعداء وأفرده لكونه اسم جنس، أو لتشبيهه بالمصائر كما في قوله: ﴿فإنهم عدو لي﴾ [الشعراء: 77]. وقوله: ﴿هم العدو﴾ [المنافقون: 4] أي: كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط، بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم في كل وقت ﴿يبئس للظالمين بدلاً﴾ أي: الواضعين للشيء في غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان، فبئس ذلك البديل الذي استبدلوه بدلاً عن الله سبحانه ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ قال أكثر المفسرون: إن الضمير للشركاء، والمعنى: أنهم لو كانوا شركاء لي في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لي فيه، ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لي بشركاء. وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوي على انتفاء اللازم، وقيل: الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين، والمراد: أنهم ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بليل أني ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ وما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق، وقيل: المعنى أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الأزل، لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله، والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم في الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور، وقرأ أبو جعفر (ما أشهدناهم) وقرأ الباقر (ما أشهدتهم) ويؤيده ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ والعضد يستعمل كثيراً في معنى العون، وذلك أن العضد قوام اليد، ومنه قوله:

وقيل: ملجأ يلجأون إليه. والمعنى متقارب في الجميع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال: ليس عليها بناء ولا شجر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك. وزاد ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عنه قال: الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة القهقهة بذلك. وأقول: صغيرة وكبيرة نكرتان في سياق النفي، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بصغر، وكل ذنب يتصف بالكبر، فلا يبقى من الذنوب شيء إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبساً بين كونه صغيراً أو كبيراً، فذلك إنما هو بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى الله سبحانه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة يقال لهم: الجن فكان إبليس منهم، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض، فعصى فسخط الله عليه فمسخه الله شيطاناً رجيماً. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: كان خازن الجنان، فسمي بالجن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: قاتل الله اقواماً زعموا أن إبليس كان من الملائكة، والله يقول: كان من الجن. وأخرج ابن جرير، وابن الأنباري عنه أنه قال: ما كان من الملائكة طرفة عين، إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: يقول: ما أشهدت الشياطين الذين اتخذتم معي هذا ﴿وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال: الشياطين عضداً، قال: ولا اتخذتهم عضداً على شيء عضوني عليه فاعانوني. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ يقول: مهلكاً. وأخرج ابن أبي شيبه وابن المنذر عن مجاهد مثله. وأخرج أبو عبيد، وهناد، وابن المنذر عنه قال: وإي في جهنم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن أنس في الآية قال: وإي في جهنم من قبيح ودم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عمرو قال: هو وإي عميق في النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة، وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿فَقُضُوا أَنَّهُمْ مَوَاقِعُهَا﴾ قال: علموا.

وَلَقَدْ مَرْفَعًا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَلٍّ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شُؤْمًا جَدَلًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ مَتَّعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٣٢﴾ وَمَا يُرِيدُ الْفَرَسِيُّ

إِلَّا مَبْتَرِينَ وَمُتَنَبِّهِينَ وَمُعَدِّلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ يُدْخِلُهُمْ فِي النَّارِ وَأَخَذُوا عَابَتِي وَمَا أُتْرُوا هَرًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ تَنْفَعَهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِنْ أَرَادُوا ﴿٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُزِلُّهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَمَجَلْ لَكُمْ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْعَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٣٣﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَنْتُمْ لَهَا ظَالِمُونَ وَجَعَلْنَا لِلْمَلَكِ مَوْعِدًا ﴿٣٤﴾

لما نكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائهم، وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة، حكى بعض أموال الآخرة فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا أَيَّ كَرَرْنَا وَرَبَّنَا﴾ ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ أي لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من الأمثال التي من جملتها الأمثال المذكورة في هذه السورة، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة بني إسرائيل، وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدل بالباطل، ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ قال الزجاج: المراد بالإنسان الكافر، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وقيل المراد به في الآية: النضر بن الحارث، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل جدلاً، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي: «أن النبي ﷺ طرده فاطمة ليلاً، فقال: ألا تصلين؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفستنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته يضرب فخذة ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، وانتصاب جدلاً على التمييز. ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ قد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة بني إسرائيل، ونكرنا أن (أن) الأولى في محل نصب، والثانية في محل رفع، والهدى: القرآن ومحمد ﷺ، والناس هنا هم أهل مكة، والمعنى على حذف مضاف أي: ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأولين، أو انتظار إتيان سنة الأولين، وزاد الاستغفار في هذه السورة لأنه قد نكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التي من جملتها جدالهم بالباطل، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال. قال الزجاج: سنّتهم هو قولهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: 32] الآية ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ قال الفراء: إن قبلاً جمع قبيل أي: متفرقاً يتلو بعضه بعضاً، وقيل: عياناً، وقيل: فجأة. ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبي جعفر وعاصم والاعمش وحمره والكسائي ويحيى بن وثاب وخلف ﴿قُبُلًا﴾ بضمين فإنه جمع قبيل، نحو سبيل وسبل، والمراد: أصناف العذاب، ويناسب التفسير الثاني أي: عياناً،

﴿وجعلنا لمهلكم موعداً﴾ أي: وقتاً معيناً، وقرأ عاصم⁽¹⁾ مهلكهم بفتح الميم واللام، وهو مصدر هلك، وأجاز الكسائي والغراء كسر اللام وفتح الميم، وبذلك قرأ حفص، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام. وقال الزجاج مهلك: اسم للزمان، والتقدير: لوقت مهلكهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ قال: عقوبة الأولين. وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله: ﴿قبلاً﴾ قال: جهاراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: فجأة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ قال: نسي ما سلف من الذنوب الكثيرة. وأخرج أيضاً عن ابن عباس ﴿بما كسبوا﴾ يقول: بما عملوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿بل لهم موعد﴾ قال: الموعد يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿موثلاً﴾ قال: ملجأ. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿موثلاً﴾ قال: محرراً.

وإذ قال موسى لفته لا أتبع حتى أتبع مجمع آل عمران أو أمضى حقاً ﴿١٥﴾ قلنا بلنا بجمع بينهما حوثهما فأخذ سبيله في البحر ﴿١٦﴾ قلنا جاوراً قال لفته إنا عذابة لقد لبينا من سرتنا هذا نصبا ﴿١٧﴾ قال أريت إذ أوتيت إلى الصخرة فإني سببت الموت وما أئسنيته إلا الشيطان أن أذكر وأخذ سبيله في البحر ﴿١٨﴾ قال ذلك ما كنا نبغ فارتداً على آثارهما فصفا ﴿١٩﴾ فوجدنا عبدنا من عبادنا إنا لله رحمة من عبادنا وعلمته من لدنا علماً ﴿٢٠﴾ قال لم موسى هل أتيتك على أن تعلمن مما عنت رعدنا ﴿٢١﴾ قال إنك أن سميع معي صبرا ﴿٢٢﴾ وكيف نصبر على ما لم نحط به صبرا ﴿٢٣﴾ قال سجدت إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴿٢٤﴾ قال فإن أتبعني فلا تتلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴿٢٥﴾

الطرف في قوله: ﴿وإذ قال﴾ متعلق بفعل محذوف هو أنكر. قيل: وجه نكر هذه القصة في هذه السورة: أن اليهود لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا: إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا. ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيهاً على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القصص والأخبار. وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبي المرسل إلى فرعون، وقالت فرقة: لا التفت إلى ما تقوله منهم نوف البكالي: إنه ليس ابن عمران، وإنما هو موسى بن ميثى بن يوسف بن يعقوب، وكان نبياً قبل موسى بن عمران، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما في صحيح البخاري وغيره، والمراد بفتاه هنا هو: يوشع بن نون. قال الواحدي:

(1) (قوله عاصم) صوابه: أبو بكر عن عاصم، اهـ. مصحح القرآن.

قراءة الباقيين بكسر القاف وفتح الباء أي: مقابلة ومعينة، وقرئ بفتحتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلاً، وانتصابه على الحال. فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستاصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معابنته ﴿وما ترسل المرسلين﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿إلا﴾ حال كونهم ﴿مبشرين﴾ للمؤمنين ﴿ومنذرين﴾ للكافرين. فالاستثناء مفرغ من أعم العام، وقد تقدم تفسير هذا ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليلحضوا به الحق﴾ أي: ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلوا وأصل الحضر الزلق يقال: لحضت رجله أي: زلقت تحض تحضاً، وبحضت الشمس عن كبد السماء زالت، وبحضت حجة بحوضاً بطلت، ومن ذلك قول طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبت
وحنت كما حاد البعير عن الحضر
ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسول ﴿ما أنتم إلا بشر مثلهنا﴾ [يس: 15]. ونحو ذلك ﴿ولتخذوا آياتي﴾ أي: القرآن ﴿وما أنذروا﴾ به من الوعيد والتهديد ﴿هزوا﴾ أي: لعباً وباطلاً، وقد تقدم هذا في البقرة ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها﴾ أي: لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها، ولم يتبهرها حق التدبر ويتفكر فيها حق التفكير ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي، فلم يتب عنها. قيل: والنسيان هنا بمعنى الترك، وقيل: هو على حقيقته ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ أي: أغطيه، والأكنة جمع كنان، والجملة تحليل لإعراضهم ونسيانهم. قال الزجاج: أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿وفي آذانهم وقرأ﴾ أي: وجعلنا في آذانهم ثقلاً يمنع من استماعه، وقد تقدم تفسير هذا في الأنعام ﴿وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا﴾ لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾ أي: كثير المغفرة، وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿ولو يؤاخذهم بما كسبوا﴾ أي: بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض ﴿لجعل لهم للعذاب﴾ لاستحقاقهم لذلك ﴿بل﴾ جعل ﴿لهم موعد﴾ أي: أجل مقدر لعذابهم، قيل: هو عذاب الآخرة، وقيل: يوم بدر ﴿لن يجنوا من نونه ميثلاً﴾ أي: ملجأ يلجئون إليه. وقال أبو عبيدة: منجأ، وقيل: محيصاً، ومنه قول الشاعر:

لا وألت نفسك خليتها للعامريين ولم تكلم

وقال الأعشى:

وقد خال السرب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يثل

أي ما ينجو ﴿وتلك القرى﴾ أي: قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿أهلكناهم﴾ هذا خبر اسم الإشارة والقرى صفته، والكلام على حذف مضاف أي: أهل القرى أهلكناهم ﴿لما ظلموا﴾ أي: وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي

بالسرب الذي هو الكوة المحفورة في الأرض. قال الفراء: لما وقع في الماء جمد مذهبه في البحر فكان كالسرب، فلما جاوزا ذلك المكان الذي كانت عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا، فأصابهما ما يصيب المسافرين من النصب والكلال، ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذي فيه الخضر، ولهذا قال سبحانه: ﴿فلما جاوزا﴾ أي: مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقاة ﴿قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ وهو ما يؤكل بالغداة، وأراد موسى أن يأتيه بالحوث الذي حملاه معهما ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً﴾ أي: تعباً وإعياء، قال المفسرون: الإشارة بقوله سفرنا هذا إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور، فإنهما لم يجدا النصب إلا في ذلك دون ما قبله ﴿قال أرايت إذ أويينا إلى الصخرة﴾ أي: قال فتى موسى لموسى، ومعنى الاستفهام تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسى، لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة، ومفعول أرايت محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه، والتقدير: أرايت ما دهاني، أو نابني في ذلك الوقت والمكان. وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذي هو الموعد، وإنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان، لاحتمال أن يكون المجمع مكاناً متسعاً يتناول مكان الصخرة وغيره، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذي تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذي جعله زاداً لهما، وإمارة لوجدان مطلوبهما. ثم ذكر ما يجري مجرى السبب في وقوع ذلك النسيان فقال: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ بما يقع منه من الوسوسة، و﴿إن أنكره﴾ بدل اشتغال من الضمير في أنسانيه، وفي مصحف عبد الله: وما أنسانيه أن أنكره إلا الشيطان ﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ انتصاب عجباً على أنه المفعول الثاني كما مر في سربه، والظرف في محل نصب على الحال، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجباً للناس، وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه، ثم يثب إلى البحر ويبقي أثر جريته في الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت، فيكون ما بين الكلامين اعتراضاً ﴿قال ذلك ما كنا نبغي﴾ أي: قال موسى لفتاه: ذلك الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع هو الذي كنا نطلبه، فإن الرجل الذي نريده هو هناك ﴿فارتداً على آثارهما قصصاً﴾ أي: رجعا على الطريق التي جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما، وانتصاب قصصاً على أنه مصدر لفعل محذوف، أو على الحال أي: قاصين أو مقتصين، والقصص في اللغة اتباع الأثر ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا﴾ هو الخضر في قول جمهور المفسرين، وعلى ذلك نلت الأحاديث الصحيحة، وخالف في ذلك من لا يعتد بقوله، فقال: ليس هو الخضر بل عالم آخر؛ قيل: سمي الخضر لأنه

أجمعوا على أنه يوشع بن نون، وقد مضى نكره في المائدة، وفي آخر سورة يوسف، ومن قال: إن موسى هو ابن ميثى قال: إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون. قال الفراء: وإنما سمي فتى موسى لأنه كان ملازماً له يأخذ عنه العلم ويخدمه، ومعنى ﴿لا أبرح﴾ لا أزال، ومنه قوله: ﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ [طه: 91]. ومنه قول الشاعر:

وأبرح ما أدام الله قومي بحمد الله منتطقاً مجيداً
ويبرح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة، وخبره هنا محذوف اعتماداً على دلالة ما بعده وهو ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ قال الزجاج: لا أبرح بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه، ولأن قوله: ﴿حتى أبلغ﴾ غاية مضروبة، فلا بد لها من ذي غاية، فالمعنى: لا أزال أسير إلى أن أبلغ، ويجوز أن يراد لا يبرح مسيري حتى أبلغ، وقيل: معنى لا أبرح لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين، وقيل: يجوز أن يكون من برح التام، بمعنى: زال يزال، ومجمع البحرين ملتقاهما. قيل: المراد بالبحرين بحر فارس والروم؛ وقيل: بحر الأردن وبحر القلزم، وقيل: مجمع البحرين عند طنجة، وقيل: بإفريقية. وقالت طائفة: المراد بالبحرين موسى والخضر، وهو من الضعف بمكان. وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح ﴿أو امضي حقيلاً﴾ أي: أسير زماناً طويلاً. قال الجوهري: الحقب بالضم ثمانون سنة. وقال النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود، كما أن رهطاً وقوماً منهم غير محدود، وجمعه أحقاب. وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روي أنه سئل موسى من أعلم الناس؟ فقال: أنا، فأوحى الله إليه: إن أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين ﴿فلما بلغا﴾ أي: موسى وفتاه ﴿مجمع بينهما﴾ أي: بين البحرين، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعاً وقيل: البين: بمعنى الافتراق أي: البحران المفترقان يجتمعان هناك، وقيل: الضمير لموسى والخضر أي: وصلا الموضع الذي فيه اجتماع شملهما، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل، لأنه من الأضداد، والأول أولى ﴿نسيا حوتهما﴾ قال المفسرون: إنهما تزودا حوتاً ملحاً في زنبيل، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام، وكان قد جعل الله فقده أمانة لهما على وجدان المطلوب. والمعنى: أنهما نسيا بفقد أمره، وقيل: الذي نسي إنما هو فتى موسى، لأنه وكل أمر الحوت إليه، وأمره أن يخبره إذا فقده، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذي فيه الحوت فأحياه الله، فتحرك واضطرب في المكتل، ثم انسرب في البحر، ولهذا قال: ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ انتصاب سرباً على أنه المفعول الثاني لاتخذ، أي اتخذ سبيلاً سرباً، والسرب التفق الذي يكون في الأرض للضب ونحوه من الحيوانات، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه

السؤال عنها مما قبلها.

وقد أخرج الدارقطني في الأفراد، وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحك، عن ابن عباس قال: الخضر ابن آدم لصلبه ونسيه له في أجله حتى يكذب الدجال. وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». وأخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن مجاهد: إنما سمي الخضر لأنه إذا صلى أخضر ما حوله. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿لَا يَبْرَحُ حَتَّىٰ يُلَاقِيَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قال: حتى أنتهي. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ﴾ قال: بحر فارس والروم، وهما نحو المشرق والمغرب. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب قال: ﴿مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ﴾ إفريقية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب قال: طنجة. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِمْضِ حَقَبًا﴾ قال: سبعين خريفاً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: دهر. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿نَسِيتُ حَوْتَهُمَا﴾ قال: كان مملوفاً مشقوق البطن. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ قال: أثره يابس في البحر كأنه في حجر. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: عودهما على بئسهما. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ قال: أعطيناه الهدى والنبوة.

واعلم أنها قد رويت في قصة الخضر مع موسى المذكورة في الكتاب العزيز أحاديث كثيرة، وأتمها وأكملها ما روي عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الألفاظ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبيرة عنه، وبعضها في الصحيحين وغيرهما، وبعضها في أحدهما، وبعضها خارج عنهما. وقد رويت من طريق العوفي عنه كما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، ومن طريق هارون بن عنترة، عن أبيه، عنه عند ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخطيب، وابن عساكر، فلنقتصر على الرواية التي هي أتم الروايات الثابتة في الصحيحين، ففي ذلك ما يغني عن غيره، وهي: قال سعيد بن جبيرة: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال:

كان إذا صلى أخضر ما حوله، قيل واسمه بلياً بن ملكان. ثم وصفه الله سبحانه فقال: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ قيل: الرحمة هي النبوة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو ما علمه الله سبحانه من علم الغيب الذي استأثر به، وفي قوله من لَّدُنَّا تفخيم لشأن ذلك العلم، وتعظيم له. قال الزجاج: وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم، والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وإن يتواضع لمن هو أعلم منه. ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبَعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا﴾ في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في حسن الالتماس، لأنه استأذنه أن يكون تابعاً له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم. والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ لتعلمني أي: علماً ذا رشد أرشد به، وقرئ رشداً بفتحين، وهما لغتان كالبلخل والبلخل. وفي الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختلفت أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: قال الخضر لموسى: إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي، لأن الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك، ثم أكد ذلك مشيراً إلى علة عدم الاستطاعة، فقال: ﴿كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ أي: كيف تصبر على علم ظاهره منكرو، وأنت لا تعلم، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه، وخبراً منتصب على التمييز أي: لم تحط به خبرك والخبر: العلم بالشيء، والخبر بالأمور هو العالم بخفاياها، وبما يحتاج إلى الاختبار منها ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: قال موسى للخضر: ستجدين صابراً معك، ملتزماً طاعتك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ جملة ولا أعصي معطوفة على صابراً، فيكون التقيد بقوله: إن شاء الله شاملاً للصبر ونفي المعصية، وقيل: إن التقيد بالمشيئة مختص بالصبر، لأنه أمر مستقبل لا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه في الحال، ويجب عنه بأن الصبر، ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزوم عليه في الحال، وفي كون كل واحد منهما لا يدري كيف حاله فيه في المستقبل. ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ مما تشاهده من أفعالي المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذي بعثك الله به ﴿حَتَّىٰ أَتَاكَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره، وبيان وجهه وما يؤول إليه، وهذه الجملة المعنونة بقال وقال مستأنفة، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ

﴿قَالَ﴾ موسى: قوم آتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيئونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ إِجْرًا﴾ * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَانِيكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ﴾: ودنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما. قال سعيد بن جبیر: وكان ابن عباس يقرأ ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وكان يقرأ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ﴾ وبقية روايات سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب هي موافقة لهذه الرواية في المعنى وإن تفاوتت اللفاظ في بعضها فلا فائدة في الإطالة بذكرها، وكذلك روايات غير سعيد عنه.

فَاتَّخَذَ حَوْثٌ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقًا قَالَ أَفَرَّقَهَا لِيُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَلِّمُنِي بِمَا كُنْتُ لَا تَهْتِنُ مِنْ أَمْرِ عَسْرٍ ﴿٧٣﴾ فَاتَّخَذَ حَوْثٌ إِذَا لَبِيا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَفَتَكُلُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا تُكْرَهُ ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَصَبِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ﴿٧٦﴾ فَاتَّخَذَ حَوْثٌ إِذَا أَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَلْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَانِيكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلَّةُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَأَخْبَيْنَا أَنْ يَرْهَبَهَا فَلَعْنَتُنَا كُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رِجْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسَيِّرَا كَرَهِمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا تَعْلَمُ عَنْ أَمْرِ ذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

قوله: ﴿فَاتَّخَذَ﴾ أي: موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة، فمرت بهم سفينة فكلوهم أن يحملوهم فحملوهم ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ قيل: قلع لوحاً من ألواحها، وقيل: لوحين مما يلي الماء، وقيل: خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِخْرَقْتُهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: لقد أتيت أمراً عظيماً، يقال: أمر الأمر إذا كبر، والأمر الاسم منه. وقال أبو عبيدة: الأمر الداهية العظيمة وأنشد:

قد لقي الأقران مني نكراً داهية داهياً وأمر إمرأ
وقال القتيبي: الأمر العجب. وقال الأخفش: أمر أمره يأمر إذا اشتد، والاسم الأمر. قرأ حمزة والكسائي ﴿لِيُفَرِّقَ أَهْلَهَا﴾ بالياء التحتية المفتوحة، ورفع أهلها على أنه فاعل، وقرأ الباقرن بالفوقية المضمومة ونصب أهلها على المفعولية ﴿قَالَ﴾ أي: الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أنكره ما تقدم من قوله له سابقاً ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ف ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿لَا تُؤَلِّمُنِي

تأخذ معك حوثاً فتجعله في مكنل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوثاً فجعله في مكنل. ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رهوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكنل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليتهما، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه: ﴿أَتَنَا غَدَاةٌ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْفِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ لِلْحَوْتِ وَمَا لِنَاسِنَاهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَنْكَرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَاذْهَبْ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال سفيان: يزعم ناس أن تلك الصخرة عندهما عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتاً إلا عاش، قال: وكان الحوت قد أكل منه. فلما قطر عليه الماء عاش، قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأني بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى. قال: موسى نبي إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، يا موسى إني على علم من الله علمني لا تعلمه أنت، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه، قال موسى: ستجديني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، فقال له الخضر: ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلوهم أن يحملوهم، فعفروا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجا إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقنود، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً، قال: لا تؤلِّمُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرَهِّقْنِي مِنْ أَمْرِ عَسْرٍ. قال: وقال رسول الله ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذي وقع على حرف السفينة من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على السطح إذ ابصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتله بيده فقتله، فقال موسى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا تُكْرَهُ﴾ * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: وهذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا﴾ * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيئوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فاقامه، قال: مائل، فقال الخضر بيده هكذا فاقامه، ف

حتى إذا أتيا أهل قرية ﴿قيل: هي أيلة؛ وقيل: أنطاكية؛ وقيل: برقة؛ وقيل: قرية من قرى أثربيجان؛ وقيل: قرية من قرى الروم﴾ استطعما أهلها ﴿هذه الجملة في محل الجر على أنها صفة لقرية، ووضع الظاهر موضع المضمرة لزيادة التأكيد، أو لكرامة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿قلبو أن يضيفوهما﴾ أي: أبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكنية فقد أخطأ خطأ بيناً، ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس:

فإن ربت فما في الرد منقصة علي قدره موسى قبل والخضر وقد ثبت في السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ﴿فوجدوا فيها﴾ أي: في القرية ﴿جداراً يريد أن ينقض﴾ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز. قال الزجاج: الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المرئيين القاصدين فوصف بالإرادة، ومنه قول الزاعي:

في مهمه فقلت به هاماتها فلق الفؤوس إذا اردن نصولا ومعنى الانقضاض: السقوط بسرعة، يقال: انقضض الحائط إذا وقع، وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شيء، ومعنى فاقامه: فسواه، لأنه وجده مثلاً فردّه كما كان؛ وقيل: نقضه وبناء؛ وقيل: أقامه بعمود. وقد تقدّم في الحديث الصحيح أنه مسح بيده ﴿قال﴾ موسى ﴿لو شئت لاتخذت عليه لجراً﴾ أي: على إقامته وإصلاحه، تحريضاً من موسى للخضر على أخذ الجار. قال الفراء: معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الجار، قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وابن كثير، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن (لتخذت) يقال: تخذ فلان يتخذ تخذاً مثل اتخذ. وقرأ الباقرن لاتخذت ﴿قال﴾ الخضر ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ على إضافة فراق إلى الظرف اتساعاً أي: هذا الكلام والإنكار منك على ترك الجار هو المفرق بيننا. قال الزجاج: المعنى هذا فراق بيننا أي: هذا فراق اتصالنا، وكرّر بين تأكيداً، ولما قال الخضر لموسى بهذا أخذ في بيان الوجه الذي فعل بسببه تلك الأفعال التي أنكرها موسى فقال: ﴿سانئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ والتأويل: رجوع الشيء إلى ماله. ثم شرع في البيان له فقال: ﴿أما السفينة﴾ يعني: التي خرقها ﴿فكانت لمساكين﴾ لضعفاء لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم ﴿يعملون في البحر﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة، وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أي: أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿وكان وراهم ملك﴾ قال المفسرون: يعني امامهم، ووراء يكون بمعنى أمام، وقد مرّ الكلام على هذا في قوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ [إبراهيم: 17]. وقيل: أراد خلفهم، وكان طريقهم في الرجوع

بما نسيت ﴿يحتمل أن تكون ما مصدرية، أي: لا تؤاخذني بنسياني أو موصولة أي: لا تؤاخذني بالذي نسيت، وهو قول الخضر﴾ فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴿فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسي ذلك، أو بمعنى: الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له، ولكنه ترك العمل به﴾ ولا ترهقني من أمري عسراً ﴿قال أبو زيد: ارهقته عسراً إذا كلفته ذلك والمعنى: عاملني باليسر لا بالعسر. وقرأ عسراً بضمّتين﴾ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴿أي: الخضر، ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير، قيل: كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقتل الخضر رأسه﴾ قال ﴿موسى﴾ فاقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴿قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأويس بالف بعد الزاي وتخفيف الياء اسم فاعل. وقرأ الباقرن بتشديد الياء من نون ألف، الزاكية: البريئة من الذنوب. قال أبو عمرو: الزاكية التي لم تذب، والزكية التي أنذبت ثم تابت. وقال الكسائي: الزاكية والزكية لغتان. وقال الفراء: الزاكية والزكية مثل القاسية والقسية، ومعنى ﴿بغير نفس﴾: بغير قتل نفس محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصاً ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي: فظيلاً منكراً لا يعرف في الشرع. قيل: معناه أنكروا الأمر الأوّل لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، وقيل: النكر أقل من الأمر، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. قيل: استبعد موسى أن يقتل نفساً بغير نفس، ولم يتأول للخضر بأنه يحلّ القتل بأسباب أخر ﴿قال﴾ الخضر ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ زاد هنا لفظ لك، لأن سبب العتاب أكثر، وموجبه أقوى، وقيل: زاد لفظ لك لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه: لك أقول وإياك أعني ﴿قال﴾ موسى ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾ أي: بعد هذه المرة، أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي: لا تجعلني صاحباً لك، نهاه عن مصاحبتة مع حرصه على التعلم لظهور عنده، ولذا قال: ﴿قد بلغت من لحي عذراً﴾ يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرّات، وهذا كلام نادم شديد الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف. قرأ الأعرج (تصحبني) بفتح التاء والباء وتشديد النون. وقرأ الجمهور (تصاحبني) وقرأ يعقوب (تصحبني) بضم التاء وكسر الحاء ورواهما سهل عن أبي عمرو. قال الكسائي: معناه لا تتركني أصحابك. وقرأ الجمهور (للني) بضم الدال إلا أن نافعاً وعاصماً خففا النون، وشدها الباقرن. وقرأ أبو بكر عن عاصم (للني) بضم اللام وسكون الدال. قال ابن مجاهد: وهي غلط. قال أبو علي: هذا التغليب لعله من جهة الرواية، فأما على قياس العربية فصحيحة. وقرأ الجمهور (عذراً) بسكون الدال. وقرأ عيسى بن عمر بضم الدال. وحكى الداني أن أبيّاً روى عن النبي ﷺ بكسر الراء وياء بعدها بإضافة العذر إلى نفسه ﴿فانطلقا

﴿وكان ليهما صالحاً﴾ فكان صلاحه مقتضياً لرعاية ولديه وحفظ مالههما، قيل: هو الذي دفنه؛ وقيل: هو الأب السابع من عند الدافن له، وقيل: العاشر ﴿فأراد ربك﴾ أي: مالك ومدير أمرك، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفاً له ﴿أن يبلغا أشدهما﴾ أي: كمالهما وتمام نموهما ﴿ويستخرجا كنزهما﴾ من ذلك الموضع الذي عليه الجدار، ولو انقضى لخرج الكنز من تحته ﴿رحمة من ربك﴾ لهما، وهو مصدر في موضع الحال أي: مرحومين من الله سبحانه ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي: عن اجتهادي ورأيي، وهو تأكيد لما قبله، فقد علم بقوله فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ﴿نلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي: نلك المذكور من تلك البيانات التي بينتها لك وأوضحت وجوها تأويل ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه، ومعنى التأويل هنا: هو المال الذي آلت إليه تلك الأمور، وهو اتضاح ما كان مشتبهاً على موسى وظهور وجهه، وحذف التاء من تسطع تخفيفاً.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾ يقول: نكراً. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿إمراً﴾ قال: عجباً. وأخرج ابن جرير، عن أبي بن كعب في قوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾ قال: لم ينس، ولكنها من معاريض الكلام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: كان الخضر عبداً لا تراه الأعين، إلا من أراد الله أن يريه إياه، فلم يره من القوم إلا موسى، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام. وأقول: ينبغي أن ينظر من أين له هذا؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله: ﴿ولو رآه القوم إلخ، فليس نلك بموجب لما نكره، أما أولاً: فإن من الجائز أن يفعل نلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام، لا لكونه لا تراه الأعين، بل لكونه فعل نلك من غير اطلاعهم. وأما ثانياً: فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه وعرفوا أنه لا يفعل نلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء، فسلموا لأمر الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿نفساً زاكية﴾ قال: مسلمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جببر، قال: لم تبلغ الخطايا. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الحسن نحوه. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿شيئاً نكراً﴾ قال: النكر أنكروا من العجب. وأخرج أحمد، عن عطاء قال: كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان، فكتب إليه: إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم. وزاد ابن أبي شيبة من طريق أخرى عنه: ﴿ولكنك لا تعلم، قد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزلهم﴾. وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن مروي، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي

عليه، وما كان عندهم خبر بأنه «يأخذ كل سفينة غصباً» أي: كل سفينة صالحة لا معيبة، وقد قرئ بزيادة صالحة روي نلك عن أبي وابن عباس. وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين، واختلف في معناها، فقيل: هم ملاحو السفينة، وذلك أن المساك هو الذي يمسك السفينة، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف ﴿وإما الغلام﴾ يعني: الذي قتله ﴿فكان ليهما مؤمنين﴾ أي: ولم يكن هو كذلك ﴿فخشينا أن يرهقهما﴾ أي: يرهق الغلام أبويه، يقال رهقه أي: غشيه، وأرهقه أغشاه. قال المفسرون: معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه في دينه، وهو الكفر، و ﴿طغياناً﴾ مفعول يرهقهما ﴿وكفراً﴾ معطوف عليه، وقيل: المعنى فخشينا أن يرهق الوالدين طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما بعقوبته. قيل: ويجوز أن يكون فخشينا من كلام الله، ويكون المعنى: كرهنا كراهة من خشية سوء عاقبة أمره فغيره، وهذا ضعيف جداً، فالكلام كلام الخضر. وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة، فقيل: إنه كان بالغاً وقد استحق نلك بكفره؛ وقيل: كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك، ويكون معنى فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا في المعصية، وقد يؤدي نلك إلى الكفر والارتداد. والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغاً كافراً أو قاطعاً للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له نلك، وأما إذا كان الغلام صبياً غير بالغ، فقيل: إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغاً لكان كافراً يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية بإباه، فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل في الشريعة المحمدية، ولكنه حل في شريعة أخرى، فلا إشكال. وقد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبياً ﴿فأرسلنا أن ينزلهما ربهما خيراً منه﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال. وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال، والمعنى: أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولدأ خيراً منه ﴿زكاة﴾ أي: ديناً وصلاحاً وطهارة من الذنوب ﴿وأقرب رحماً﴾ قرأ ابن عباس، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر (رحماً) بضم الحاء. وقرأ الباقر بسكونها، ومعنى الرحم: الرحمة، يقال: رحمه الله رحمة ورحمى، والالف للتأنيث ﴿وإما الجدار﴾ يعني: الذي أصلحه ﴿فكان للغلامين يتييمين في المدينة﴾ هي القرية المذكورة سابقاً، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ قيل: كان مالا جسيماً كما يفيد اسم الكنز، إذ هو المال المجموع. قال الزجاج: المعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد فمعناه: المال المدفون، فإذا لم يكن مالا قيل: كنز علم وكنز فهم؛ وقيل: لوح من ذهب، وقيل: صحف مكتوبة

قتله الخضر طبع يوم طبع كافرًا، ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا». وأخرج أبو داود، والترمذي، وعبد الله بن أحمد والبخاري، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، عن أبي: «أن النبي ﷺ قرأ ﴿مَنْ لَبِنِي عَذْرَاءٌ﴾ مثقلة». وأخرج ابن مريويه عن أبي: «أن النبي ﷺ قرأ ﴿أَنْ يَضِيفُوهُمَا﴾ مشددة». وأخرج ابن الأنباري في المصاحف، وابن مريويه عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: «أنه قرأ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ فهمه، ثم قعد بينيه». قلت: ورواية الصحيحين التي قدمناها أنه مسح بيده أولى. وأخرج الفريابي في معجمه، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن أبي: «أن النبي ﷺ قرأ ﴿لَوْ شِئْتُ لَتَخَذْتُ عَلَيْهِ لَجْرًا﴾ مخففة». وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مريويه، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى. لو صبر لقض الله علينا من خبره، ولكن ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾». وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان يقرأ ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا﴾». وأخرج ابن الأنباري، عن أبي بن كعب أنه قرأها كذلك. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن أبي الزاهرية قال: كتب عثمان (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا). وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين). وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: هي في مصحف عبد الله (فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا وكفرا). وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةٌ» قال: ديناً ﴿وَأَقْرَبَ رَحْمَةً﴾ قال: مؤدة، فأبدلا جارية ولدت نبياً. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: كان الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلّت لنا، فلا يعجب الرجل، فيقول: فما شأن الكنز، أحلّ لمن قبلنا وحرّم علينا؟ فإن الله يحلّ من أمره ما يشاء ويحرّم ما يشاء، وهي السنن والفرائض، يحلّ لأمة ويحرّم على أخرى. وأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: «﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: ذهب وفضة». وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء في قوله: «﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: أحلت لهم الكنوز وحرّمت عليهم الغنائم، وأحلّت لنا الغنائم وحرّمت علينا الكنوز. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي ذر رفعه قال: «إن الكنز الذي نكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب، وعجبت

لمن نكر النار ثم ضحك، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل، لا إله إلا الله محمد رسول الله». وفي نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، والحميدي في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال: حفظاً بصلاح أبيهما. وأخرج ابن مريويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل بويرته وأهل بويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في بويرته، والبويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية. وأخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمار عن أبيه قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال ابن عباس: قال فيما يذكر من حديث الفتى: إنه شرب من الماء فخلد، فأخذ العالم فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه. قال ابن كثير: إسناد ضعيف، الحسن متروك وأبوه غير معروف.

وَسَمِعْتَنِي عَنْ أَبِي الْقَرَنِيِّ قُلْ سَأَلْتُ عَنْكَ مِنْهُ وَكَرَّ (٨٧) إِذَا مَكَانًا لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَنَافِثَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَّ (٨٨) فَأَتَى سَبَّ (٨٩) حَقَّ إِذَا بَلَغَ مَرْبَ الْأَشْيِ وَجَعَهَا تَقَرُّبُ فِي عَرَبٍ حَمَوَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلَّا يَدَا الْقَرَنِيِّ إِذَا أَنْ تَمْدَبَ وَلَمَّا أَنْ تَنَجَّدَ فِيهِمْ حَسَنًا (٩٠) قَالَ أَمَا مَنْ طَلَعَ فَسَوْفَ تَعْلَمُهُمْ ثُمَّ يَرُدُّ إِلَى رَوْيِهِ فَعَدَّ لَهُمْ عَدَا لَكُمَا (٩١) وَأَمَّا مَنْ وَجَلَ صِلَاحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنِ وَسَقُولُ لَمْ يَنْ أَمْرًا شَرًّا (٩٢) ثُمَّ أَتَى سَبَّ (٩٣) حَقَّ إِذَا بَلَغَ مَقْلَعِ الْأَشْيِ وَجَعَهَا تَقْلَعُ عَلَى قَوْمٍ ثُمَّ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٤) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩٥)

لما اجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود، وانتهى الكلام إلى حيث انتهى شرع سبحانه في السؤال الثالث والجواب عنه، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود.

واختلفوا في ذي القرنين اختلافاً كثيراً، فقيل: هو الإسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا بأسرها اليوناني باني الإسكندرية. وقال ابن إسحاق: هو رجل من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني، من ولد يونان بن يافت بن نوح؛ وقيل: هو ملك اسمه هرمس؛ وقيل: ملك اسمه هرميس؛ وقيل: شاب من الروم، وقيل: كان نبياً، وقيل: كان عبداً صالحاً وقيل: اسمه عبد الله بن الضحاك؛ وقيل: مصعب بن عبد الله، من أولاد كهلان بن سبأ. وحكى القرطبي عن السهيلي أنه قال: إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان: أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام. والآخر كان قريباً من عيسى عليه السلام؛ وقيل: هو أبو كرب الحميري؛ وقيل هو ملك من الملائكة، ورجح الرازي القول الأول، قال: لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليوناني كما

القرنين خيراً. وذلك بطريق الوحي المتلوه. ثم شرع سبحانه في بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه نكراً فقال: ﴿إنا مكننا له في الأرض﴾ أي: أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب، فجعلنا له مكتنة وقدرة على التصرف فيها، وسهل عليه المسير في مواضعها، وذلك له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء في الإضاءة ﴿وَأَتَمَفَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يتعلق بمطلوبه ﴿سَبِيلاً﴾ أي: طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلاً﴾ من تلك الأسباب. قال المفسرون: والمعنى طريقاً تؤديه إلى مغرب الشمس. قال الزجاج: فاتبع سبباً من الأسباب التي أوتي، وذلك أنه أوتي من كل شيء سبباً فاتبع من تلك الأسباب التي أوتي سبباً في المسير إلى المغرب، وقيل: اتبع من كل شيء علماً يتسبب به إلى ما يريد؛ وقيل: بلاغاً إلى حيث أراد؛ وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق؛ وقيل: من كل شيء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء. وأصل السبب الحيل فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شيء. قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة، وعاصم، وحزمة، والكسائي (فاتبع) بقطع الهمزة، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها. قال الأخفش: تبعته وأتبعته بمعنى. مثل رفته وأرذفته، ومنه قوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ شُهَابٌ ثاقِبٌ﴾ [الصفات: 10]. قال النحاس: واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال: لأنها من السير. وحكى هو والأصمعي أنه يقال: تبعته وأتبعته إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه. قال أبو عبيدة: ومثله ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: 60]. قال النحاس: وهذا من الفرق وإن كان الأصمعي قد حكاه فلا يقبل إلا بعلم أو لبيل، وقوله عز وجل: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: 60] ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه في البحر انطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تبع وأتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهو بمعنى: السير ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي: نهاية الأرض من جهة المغرب، لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط، وهو لا يمكن المضى فيه ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي حامية: أي: حارة. وقرأ الباقر (حمئة) أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء، تقول: حمئت البئر حمأً بالتسكين إذا نزع حماتها، وحمات البئر حماتها بالتحريك كثرت حماتها، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة، فخففت الهمزة وقلبت ياء، وقد يجمع بين القراءتين فيقال: كانت حارة وذات حمأة. قيل: ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رأها كذلك في نظره، ولا يبعد أن يقال: لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التي تغرب فيها الشمس، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس، ومكن له في الأرض والبحر من جملةتها، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل

تشهد به كتب التاريخ؛ قال: فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر، قال: وفيه إشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم، وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصديق، وذلك مما لا سبيل إليه. قال النيسابوري: قلت: ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلاً فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم. ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي أنهما اثنان كما قدمنا ذلك، وبين أن الأول طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به وأتبعه وكان وزيره الخضر. وأما الثاني فهو الإسكندر المقدوني اليوناني، وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس، وكان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة. فاما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل، هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره رأياً له عن الأزرقي وغيره؛ ثم قال: وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في إخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية. وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال: وإنما بينا هذا يعني: أنهما اثنان، لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير، كيف لا، والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً، وملاً عادلاً، ووزيره الخضر، وقد قيل: إنه كان نبياً، وأما الثاني فقد كان كافراً، ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة، فإين هذا من ذاك؟ انتهى. قلت: لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه، والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازي وأدعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ، وقد وقع الخلاف هل هو نبي أم لا؟ وسيأتي ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله.

وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين، فقال الزجاج والأزهري: إنما سمي ذا القرنين، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها، وقرن الشمس من مغربها؛ وقيل: إنه كان له ضفيرتان من شعر، والصفائر تسمى قروناً، ومنه قول الشاعر:

فلثمت فاما أخذاً بقرونها شرب للزيف ببرد ماء الحشرج
والحشرج ماء من مياه العرب؛ وقيل: إنه رأى في أول ملكه كائنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك، وقيل: كان له قرنان تحت عمامته؛ وقيل: إنه دعا إلى الله فشجعه قومه على قرنه، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر، وقيل: إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه، وقيل: لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي، وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً، وقيل: لأنه أعطي علم الظاهر والباطن، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنه ملك فارس والروم، وقيل: لأنه ملك الروم والترك، وقيل: لأنه كان لتاجه قرنان. قوله: ﴿قُلْ سَاتِلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ نَكَراً﴾ أي: ساتلو عليكم أيها السائلون من ذي

المانع شرعاً ولا عقلاً من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ يستترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة. قيل: لأنهم بارض لا يمكن أن يستقر عليها البناء ﴿كذلك﴾ وقد أحطنا بما لديه خبراً أي: كذلك أمر ذي القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به؛ وقيل: المعنى لم نجعل لهم ستراً مثل ذلك الست الذي جعلنا لكم من الأبنية والثياب، وقيل: المعنى كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها، وقيل: المعنى كذلك تطلع على قوم مثل تلك القبيل الذي تغرب عليهم، فقضي في هؤلاء كما قضي في أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين، ويكون تأويل الإحاطة بما لديه في هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا في الوجه الأول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: «قالت اليهود للنبي ﷺ: يا محمد إنك تنكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين، إنك سمعت نكرهم منا، فأخبرنا عن نبي لم ينكره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شيء، فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾». وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري أتبع كان نبياً أم لا؟ وما أدري أنو القرنين كان نبياً أم لا؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟»، وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل علي عن ذي القرنين أنبي هو؟ قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «هو عبد ناصح لله فنصحه»، وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن أبي عاصم في السنة، وابن مردويه من طريق أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً؟ قال: لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه الله، ونصح لله فنصحه الله، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، ثم أحياه الله لجهادهم، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات، فأحياه الله لجهادهم، فلذلك سمي ذا القرنين، وإن فيكم مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عمرو قال: نو القرنين نبي. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأخرص بن حكيم، عن أبيه، أن النبي ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال: «هو ملك مسح الأرض بالأسباب». وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن خالد بن معدان الكلاعي مرفوعاً مثله. وأخرج ابن عبد الحكم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، وأبو الشيخ عن عمر بن

القرآن على خلاف ظاهره ﴿ووجد عندها قوماً﴾ الضمير في عندها إما للعين أو للشمس. قيل: هم قوم لباسهم جلود الوحش، وكانوا كفاراً، فخيرهم الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم، فقال: ﴿إما أن تعذب، وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ أي: إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حسن أو أمراً حسناً مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر، والمراد: دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع. ﴿قال﴾ ذو القرنين مختاراً للدعوة التي هي الشق الأخير من الترييد ﴿إما من ظلم﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي ﴿فسوف نعذب﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ثم يرد إلى ربه﴾ في الآخرة ﴿فيعننه﴾ فيها ﴿عذاباً نكراً﴾ أي: منكرأ فظيماً. قال الزجاج: خيرهم الله بين الأمرين. قال النحاس: ورد علي بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل ﴿ثم يرد إلى ربه﴾ وكيف يقول: ﴿فسوف نعذب﴾ فيخاطبه بالنون، قال: والتقدير قلنا: يا محمد قالوا: يا ذا القرنين. قال النحاس: وهذا الذي نكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته، وكان ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما نكره. ويمكن أن يكون مخاطباً للنبي الذي خاطبه الله على لسانه، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع. قال ثعلب: إن في قوله: ﴿إما أن تعذب وإما أن تتخذ﴾ في موضع نصب، ولو رفعت لكان صواباً بمعنى فاما هو كقول الشاعر:

فسيروا فإما حاجة تقضيانها وإما مقبل صالح وصديق
﴿وإما من آمن﴾ بالله وصنق دعوتي ﴿وعمل﴾ عملاً صالحاً، مما يقتضيه الإيمان ﴿فله جزاء الحسن﴾ قرا أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر (فله جزاء) بالرفع على الابتداء أي: جزاء الخصلة الحسنى عند الله، أو الفعلة الحسنى وهي الجنة قاله الفراء، وإضافة الجزاء إلى الحسنى التي هي الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذي القرنين أي: أعطيه وأفضل عليه، وقرا سائر الكوفيين (فله جزاء الحسنى) بنصب جزاء وتنوينه. قال الفراء: انتصابه على التمييز. وقال الزجاج: هو مصدر في موضع الحال أي مجزياً بها جزاء. وقرا ابن عباس ومسروق بنصب (جزاء) من غير تنوين. قال أبو حاتم: هي على حذف التنوين الالتقاء الساكنين. قال النحاس: وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين الالتقاء الساكنين. وقرئ برفع (جزاء) منوئاً على أنه مبتدأ، والحسنى بدل منه والخبر الجاز والمجور ﴿وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ أي: مما نامر به قولاً ذا يسر ليس بالصعب الشاق، أو أطلق عليه المصدر مبالغة ﴿ثم تتبع سبباً﴾ أي: طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾ أي: الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمور الأرض، أو مكان طلوعها لعدم

الترمذي، وأبو داود الطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ «كان يقرأ ﴿في عين حمئة﴾». وأخرج الطبراني، والحاكم، وابن مروي عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

ثُمَّ اتَّخَذَ سَبِيلًا ﴿١٦﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّيِّئَيْنِ رَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿١٧﴾ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقُرْنَيْنِ إِنْ يَأْتِيَهُمْ مَأْجُوعٌ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِمَّا نَحْنُ بِتِلْكَ بِتِلْكَ سَاءَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿١٨﴾ ءَأُتَوَى زَيْرٌ لِحُودَيْدٍ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّنَائِعِ قَالَ أَسْخَرُوا حَتَّى إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالُوا نَارُ اللَّهِ أَوْتَوْهُ فَأَرْغَى عَلَيْهِمْ فَصَدَاكُمَا أَتَسْتَعِينُونَ أَنْ يَظْهَرُوا وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُمْ نَصْرًا ﴿١٩﴾ قَالَ هَذَا رَجْمٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَذْرِي جَعَلَهُ دَكَّةً وَكَانَ وَعَذْرِي حَقًّا ﴿٢٠﴾

ثم حكى سبحانه سفر ذي القرنين إلى ناحية أخرى، وهي ناحية القطر الشمالي بعد تهيئة أسبابه فقال: ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّيِّئَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، وابن محيصن، ويحيى اليزيدي، وأبو زيد، عن المفضل بفتح السين. وقرأ الباقون بضمها. قال أبو عبيدة وابن الأنباري وأبو عمرو بن العلاء: السد إن كان بخلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول أي: هو مما فعله الله وخلقته، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثاً. وقال ابن الأعرابي: كل ما قابلك فسد ما وراءه فهو سدٌ وسد نحو الضعف والضعف، والفقر والفقر، والسدان هما جبلان من قبل أرمينية وأنربيجان، وانتصاب بين على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية في قوله: ﴿لَقَدْ قَطَعْتَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94]. وقيل: موضع بين السَّيِّئَيْنِ هو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق لا جبلاً أرمينية وأنربيجان. وحكى ابن جرير في تاريخه أن صاحب أنربيجان أيام فتحها وجه إنساناً من ناحية الجزر فشاهده، ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع، و ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما مجازاً عنهما، وقيل: أمامهما ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي (يفقهون) بضم الياء وكسر القاف من ألقه إذا أبان أي: لا يبينون لغيرهم كلاماً، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف أي: لا يفهمون كلام غيرهم، والقراءتان صحيحتان، ومعناهما: لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم ﴿قَالُوا﴾ أي: هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولاً، قيل: إن فهم ذي القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله، وقيل: إنهم قالوا ذلك لترجمانهم، فقال لذي القرنين بما قالوا له ﴿يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ اسمان عجميان بليل منع صرفهما، وبه قال الأكثر. وقيل: مشتقان من أَجَّ العظيم في مشبه إذا هرول، وتآججت النار إذا تلهبت، قراهما الجمهور بغير همز، وقرأ عاصم بالهمز. قال ابن الأنباري:

الخطاب: أنه سمع رجلاً ينادي بمنى يا ذا القرنين، فقال عمر: ها أنتم قد سمعتم باسماء الأنبياء فما بالكُم وأسماء الملائكة؟ وفي الباب غير ما نكرناه مما يغني عنه ما قد أورده. وقد أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني حديثاً يتضمن: «أن نقرأ من اليهود سالوا النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء، وكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك في السماء، وذهب به إلى السدة، وإسناده ضعيف، وفي متنه نكارة، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل، نكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموي في مغازيه، ثم قال بعد ذلك: والعجب أن أبا زرعة الداري مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، انتهى. وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور، وساق أيضاً خبراً طويلاً عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والشيرازي في الألقاب، وأبي الشيخ، وفيه أشياء منكردة جداً، وكذلك نكر خبراً طويلاً عن محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾ قال: علماء. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال: أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرية، قال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاصر، أن ابن عباس ذكر له: أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف ﴿تَغْرِبُ فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ﴾ قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: ما نقرأها إلا (حمئة) فسأل معاوية عبد بن عمرو كيف تقرأها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن، فأرسل إلى كعب، فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فلاني أجد في التوراة في ماء وطن، وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن أبي حاصر: لو أنني عند كما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة في حمئة. قال ابن عباس: وما هو؟ قلت: فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتباعه إياه:

فدكان ذو القرنين عمر مسلماً ملكاً نزل له الملوك وتحشد فأتى المشرق والمغرب يبتغي أسباب ملك من حكيم مرشد فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثا طخرمد فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم، قال: فما الثا طخرمد؟ قلت: الحماة. قال: فما الخرمد؟ قلت: الأسود، فدعا ابن عباس غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل. وأخرج

يقال: ردمت الثلثة أردمها بالكسر ردماً أي: سدتها، والردم أيضاً الاسم، وهو السد، وقيل: الردم أبلغ من السد، إذ السد كل ما يسد به، والردم: وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من تلك حجاب منيع، ومنه ردم ثوبه: إذا رقعته بربقاع متكاثفة بعضها فوق بعض، ومنه قول عنترة:

هل غابر الشعراء من متردٍم

أي: من قول يركب بعضه على بعض ﴿أتوني زير الحديد﴾ أي: أعطوني ونالوني، وزير الحديد جمع زبرة، وهي القطعة، قال الخليل: الزبرة من الحديد القطعة الضخمة. قال الفراء: معنى ﴿أتوني زير الحديد﴾ أتوني بها فلما ألقيت الياء زيدت ألفاً، وعلى هذا فانتصاب زير بنزع الخافض ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ والصدفان: جانبا الجبل. قال الأزهري: يقال لجانبي الجبل صدفان إذا تحاذيا لتصادفهما أي: تلاقيهما، وكذا قال أبو عبيدة والهروري. قال الشاعر:

كلا الصدفين ينفذه سناما توعد مثل مصباح الظلام
وقد يقال: لكل بناء عظيم مرتفع صدف، قاله أبو عبيدة. قرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وحفص الصدفين بفتح الصاد والدال. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب، واليزيدي، وابن محيصن بضم الصاد والدال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بضم الصاد وسكون الدال. وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال، واختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات. ومعنى الآية: أنهم أعطوه زير الحديد، فجعل بيني بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿قال انفخوا﴾ أي قال للعملة: انفخوا على هذه الزبر بالكيران ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ أي: جعل تلك المنفوخ فيه، وهو الزبر ناراً أي: كالنار في حرها وإسناد الجبل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الأمر بالنفخ. قيل: كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة، وهو معنى قوله: ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾ قال أهل اللغة: القطر النحاس الذائب، والإنراغ: الصب، وكذا قال أكثر المفسرين. وقالت طائفة: القطر الحديد المذاب. وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنباري: هو الرصاص المذاب ﴿فما استطاعوا﴾ أصله استطاعوا، فلما اجتمع المتقاربان، وهما التاء والطاء خففوا بالحنف. قال ابن السكيت: يقال: ما أستطيع، وما أستطيع، وما أستطيع. وبالتخفيف قرأ الجمهور، وقرأ حمزة وحده (فما استطاعوا) بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فادغم التاء في الطاء وهي قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو علي الفارسي: هي غير جائزة. وقرأ الأعمش (فما استطاعوا) على الأصل، ومعنى ﴿أن يظهره﴾ أن يعلوه أي: فما استطاع ياجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ يقال نقبت الحائط: إذا خرقت فيه خرقاً

وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حرفاً لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم: كباث وراثت واستشاث الريح. قال أبو علي: يجوز أن يكونا عربيين، فمن همز فهو على وزن يفعل مثل يربوع، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقبلها ألفاً مثل راس. وأما مأجوج، فهو مفعول من أج، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق. قال: وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة.

واختلف في نسبهم؛ فقيل: هم من ولد يافث بن نوح، وقيل: ياجوج من الترك ومأجوج من الجبل والديلم. وقال كعب الأحبار: احتلم آدم فاختلف مأوه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء. قال القرطبي: وهذا فيه نظر، لأن الأنبياء لا يحتلمون، وإنما هم من ولد يافث، كذلك قال مقاتل وغيره.

وقد وقع الخلاف في صفتهم؛ فمن الناس: من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة، ومنهم: من يقول: لهم مخالب كمخالب السباع، وإن منهم: صنفاً يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى، ولاهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم.

واختلف في إفسادهم في الأرض؛ فقيل: هو أكل بني آدم؛ وقيل: هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد؛ وقيل: كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذي القرنين في أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ﴿فهل نجعل لك خراجاً﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذي القرنين. وقرئ (خراجاً). قال الأزهري: الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية وعلى الفلّة. والخراج أيضاً اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال، والخرج المصدر. وقال قطرب: الخرج الجزية والخراج في الأرض، وقيل: الخرج ما يخرج كل أحد من ماله، والخراج ما يجبيه السلطان؛ وقيل: هما بمعنى واحد ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي: ردماً حاجزاً بيننا وبينهم. وقرئ سداً بفتح السين. قال الخليل وسيبويه: الضم هو الاسم، والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضم لغتان بمعنى واحد، وقد سبق قريباً ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء، وأبي عبيدة، وابن الأنباري من الفرق بينهما. وقال ابن أبي إسحاق: ما رآته عينك فهو سد بالضم، وما لا ترى فهو سد بالفتح، وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم في السدين ﴿قال ما مكني فيه ربي﴾ أي قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله لي من القدرة والملك ﴿خير﴾ من خرجكم، ثم طلب منهم المعاونة له فقال: ﴿فاعينوني بقوة﴾ أي: برجال منكم يعملون بأيديهم، أو أعينوني بآلات البناء، أو بمجموعهما. قال الزجاج: يعمل تعملونه معي. قرأ ابن كثير وحده (ما مكنتي) بنونين، وقرأ الباقر بنون واحدة ﴿لجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ هذا جواب الأمر، والردم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل. قال الهروي:

فيستقون المياه. ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسراً وعلواً، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقبانهم فيهلكون، قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً من لحومهم». وقد ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت: «استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق، قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث». وأخرجنا نحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهَلْ نجعل لك خراجاً﴾ قال: أجرة عظيماً، وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ورمأ﴾ قال: هو كاشد الحجاب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿زبر الحديد﴾ قال: قطع الحديد. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿بين الصديقين﴾ قال: الجبلين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: رؤوس الجبلين. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله: ﴿قطر﴾ قال: النحاس وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿فما استطاعوا أن يظهروه﴾ قال: أن يرتقوه. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: أن يعلوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿جعله نكاء﴾ قال: لا أدري الجبلين يعني به أم بينهما.

وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لَنُحْشَرَنَّهُمْ جَمْعًا ۖ وَرَعَصْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرِيسًا ۚ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۚ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَخَذُوا مِنَّا بِدِفْعَةٍ ۖ أَوَلَيْسَ إِذَا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِّلْكَافِرِينَ نَرَاهَا ۖ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۚ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِلَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَكَاذَبُوا بآيَاتِي وَرَسُولِي هَٰؤُلَاءِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۚ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغَوْنَ عَنْهَا جَزَاءً ۚ

قوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذي القرنين، والضمير في بعضهم ليأجوج ومأجوج أي: تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجيء الوعد، أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم، يقال ماج الناس: إذا نخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء، والمعنى: أنهم يضطربون ويختلطون، وقيل: الضمير في بعضهم للمخلوق، واليوم يوم القيامة أي: جعلنا بعض الخلق من الجن والإنس يموج في بعض، وقيل: المعنى وتركنا يأجوج ومأجوج يوم

فخلص إلى ما وراءه. قال الزجاج: ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه وانملاسه، وما استطاعوا أن يتقبوه من أسفله لشدة وصلابته ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي: قال ذو القرنين مشيراً إلى السد: هذا السد رحمة من ربي أي: أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرفتهم لو لم يكن ذلك السد؛ وقيل: الإشارة إلى التمكين من بئانه ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي: أجل ربي أن يخرجوا منه، وقيل هو مصدر بمعنى المفعول، وهو يوم القيامة ﴿جعله نكاء﴾ أي: مستويّاً بالأرض ومنه قوله: ﴿حتى إذا نكت الأرض نكاً﴾ [الفجر: 21]. قال الترمذي: أي مستويّاً، يقال ناقة نكاء: إذا ذهب سنامها. وقال القتيبي: أي جعله منكوكاً ملصقاً بالأرض. وقال الحلبي: قطعاً منكسراً. قال الشاعر:

هل غير غار لك غاراً فانهدم

قال الأزهري: نكته أي: بقفته. ومن قرأ نكاء بالمد وهو عاصم وحزمة والكسائي أراد التشبيه بالناقة النكاء، وهي التي لا سنام لها أي: مثل نكاء، لأن السد مذكور فلا يوصف بنكاء. وقرأ الباقر (نكاً) بالتثنية على أنه مصدر، ومعناه ما تقدم، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الحال أي: منكوكاً ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي: وعده بالثواب والعقاب، أو الوعد المعمود حقاً ثابتاً لا يتخلف. وهذا آخر قول ذي القرنين.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿حتى إذا بلغ بين السنين﴾ قال: الجبلين أرمينية وأنذربيجان. أخرج أيضاً عن ابن جريج ﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾ قال: الترك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم صححه، وابن مروي عن ابن عباس قال: يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار؛ وهم من ولد آدم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر والطبراني وابن مروي، والبيهقي في البعث، وابن عساکر عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورثهم ثلاث أمم: تاوليل، وتاريس، ومنسك». وأخرج النسائي من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعاً: «إنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض يحفرون السد كل يوم، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستفتحونه غداً، فيعوبون إليه أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستفتحونه غداً إن شاء الله، ويستثنى فيعوبون إليه وهو كهينته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ويجوز أن يكون في محل جرّ على أنه نعت للأخسرين أو بدل منه، ويكون الجواب أيضاً هو أولئك وما بعده، وأول هذه الوجوه هو أولها، وجملة ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ضلّ أي: والحال أنهم يظنون أنهم محسنون في ذلك منتفعون بآثاره، وتكون جملة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه، هذا على الوجه الأول الراجح لا على الوجوه الأخرى، فإنها هي الجواب كما قدّمنا، ومعنى كفرهم بآيات ربهم: كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية، ومعنى كفرهم بلفظه: كفرهم بالبعث وما بعده من أمور الآخرة، ثم رتب على ذلك قوله: ﴿فَحَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: التي عملوها مما يظنونهم حسناً، وهو خسران وضلال، ثم حكم عليهم بقوله: ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم، وقيل: لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين، وهؤلاء لا حسنات لهم. قال ابن الأعرابي: العرب تقول ما لفلان عندنا وزن أي: قدر لخسته، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته، وسرعة طيشه، وقلة تثبته. والمعنى على هذا أنهم لا يعتدّ بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة، وقرأ مجاهد (يقيم) بالياء التحتية أي: فلا يقيم الله، وقرأ الباقون بالنون. ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء وما يثول إليه أمرهم فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي نكرناه من أنواع الوعيد جزأؤهم، ويكون قوله: جهنم عطف بيان للجزاء، أو جملة جزأؤهم جهنم مبتداً وخبر والجملة خبر ذلك، والسبب في ذلك أنهم ضموا إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزواً، فالباء في ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ للسببية، ومعنى كونهم هزواً: أنهم مهزوء بهم. وقد اختلف السلف في تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالاً، فقيل: اليهود والنصارى، وقيل: كفار مكة، وقيل: الخوارج، وقيل: الرهبان أصحاب الصوامع، والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة، ثم نكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ قال ابن الأنباري: كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب. واختار الزجاج ما قاله مجاهد: إن الفردوس البستان باللغة الرومية، وقد تقدّم بيان النزول، وانتصابه على أنه خبر كان. والمعنى: كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلاً معداً لهم مبالغاً في إكرامهم، وانتصاب ﴿خَالِينَ فِيهَا﴾ على الحال، وكذلك جملة ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ في محل نصب على الحال، والحول مصدر أي: لا يطلبون تحوّلًا عنها إذ هي أعزّ من أن يطلبوا غيرها، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها. قال ابن الأعرابي وابن قتيبة

كمال السدّ وتمايم عمارته بعضهم يموج في بعض، وقد تقدّم تفسير ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ في الأنعام، قيل: هي النفخة الثانية لبليلى قوله بعد: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ فإن الفاء تشعر بذلك، ولم يذكر النفخة الأولى لأن المقصود هنا نكر أحوال القيامة.

والمعنى: جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها تراباً جمعاً تاماً على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ المراد بالعرض هنا الإظهار أي: أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم، وفي ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفرع والروعة ثم وصف الكافرين المنكوبين بقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: كانت أعينهم في الدنيا في غطاء وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب عن ذكري عن سبب ذكري وهو الآيات التي يشاهدها من له تفكر واعتبار، فينكر الله بالتوحيد والتمجيد، فاطلق المسبب على السبب، أو عن القرآن العظيم، وتامل معانيه وتبّر قوائمه. ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله، وهذا أبلغ مما لو قال: وكانوا صمّاً، لأن الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صبح به، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية، وفي نكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السمع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالابصار وإعراضهم عن الآلة السمعية ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الحسبان هنا بمعنى الظنّ. والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقترن كتنظيره. والمعنى: أظنوا أنهم ينتفعون بما عبيده مع إعراضهم عن تبّر آيات الله وتمرّدهم عن قبول الحق، ومعنى ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي﴾ أي: يتخذوهم من دون الله، وهم الملائكة والمسيح والشياطين ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: معبودين، قال الزجاج: المعنى: أبحسبون أن ينفعهم ذلك؟ وقرئ (أفحسب) بسكون السين، ومعناه، أكافيههم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتداً وخبر، يريد أن تلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: هيئاتها لهم نزلاً يتمتعون به عند ورودهم. قال الزجاج: للنزل المأوى والمنزل، وقيل: إنه الذي يعدّ للضيف، فيكون تهكماً بهم كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]. والمعنى: إن جهنم معدّة لهم عندنا كما يعدّ النزل للضيف ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ انتصاب أعمالاً على التمييز والجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها، ومحل الموصول وهو ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الرفع على أنه خبر مبتداً محذوف، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: هم الذين ضلّ سعيهم، والمراد بضلال السعي: بطلانه وضياعه، ويجوز أن يكون في محل نصب على النّم، ويكون الجواب

الصامت، أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها يكون العرش، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألكم الله فاسألوه الفردوس». والأحاديث بهذا المعنى كثيرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: الفردوس بستان بالرومية. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: هو الكرم بالنبطية. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناك، وابن المنذر، عن عبد الله بن الحارث: أن ابن عباس سأل كعباً عن الفردوس قال: هي جنات الاعناب بالسرانية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ قال: متحولاً.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثًّا يُبْتَلَوُا بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَقِّلٌ بِرُوحِي إِلَىٰ أَشْأَ إِلَهُكُمْ إِنَّهُ يُرِيدُ فَنَ كَانُ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ فَلْيَسْمَعْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُفَرِّقُوا بَيْنَ دِينِهِ لَمَّا هُوَ

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قال ابن الأنباري: سمي المداد مداداً لإمداده للكاتب، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء، ويقال للزيت الذي يوقد به السراج: مداد، والمراد بالبحر هنا: الجنس. والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته، وفرض أن جنس البحر مداداً لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات، ولو جثنا بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً، وقيل في بيان المعنى: لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب ﴿لِنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ جِثًّا بِمِثْلِهِ مَدَادٌ﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله: (قل لو كان). وفيه زيادة مبالغة وتأكيد، والواو لعطف ما بعده على جملة مقترنة مدلول عليها بما قبلها أي: لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات لو لم يجرى بمثله مداد ولو جثنا بمثله مداداً، والمند الزيادة، وقيل: عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى، وهو وإن كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع، قال الأعشى:

وجه نقي اللون صاف يزينة مع الجيدليات لها ومعاصم
فعبّر بالليات عن اللبة. قال الجبائي: إن قوله ﴿قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ يدل على أن كلماته قد تنفد في الجملة، وما ثبت عنده امتنع قيمه. وأجيب بأن المراد: الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية، وقيل في الجواب: إن نفاذ شيء قبل نفاذ شيء آخر لا يدل على نفاذ الشيء الآخر، ولا على عدم نفاذه، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر، أما أنها متناهية، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك في الآية. والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته، وهي غير متناهية، فالكلمات غير متناهية. وقرأ مجاهد وابن محيصن وحמיד (ولو جثنا بمثله مداداً) وهي كذلك في مصحف أبي، وقرأ الباقر (مداداً) وقرأ حمزة

والأزهري: الحول اسم بمعنى التحول يقوم مقام المصدر، وقال أبو عبيدة والفراء: إن الحول للتحويل.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ الآية قال: الجن والإنس ﴿يُمُوجٌ﴾ بعضهم ﴿فِي بَعْضٍ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ قال: لا يعقلون سمعاً. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر عن علي: أنه قرأ ﴿فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو عبيد: بجزم السنين وضم الباء. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة: أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد الرزاق، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه عن طريق مصعب بن سعد قال: سألت أبي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أمم الحرورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: 27]. وكان سعد يسميهم: الفاسقين. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن مصعب قال: قلت لأبي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الحرورية هم؟ قال: لا ولكنهم أصحاب الصوامع، والحرورية قوم: زاغوا فازاغ الله قلوبهم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي حميصة عبد الله بن قيس قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: في هذه الآية ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السوراي. وأخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: سمعت علي بن أبي طالب وسأله ابن الكوا فقال: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ قال: فجرة قريش. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن طريقين عن علي: أنه سئل عن هذه الآية ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ قال: لا أظن إلا أن الخوارج منهم، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله الفردوس، فإنها سرّة الجنة، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيح العرش». وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألكم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأحمد، والترمذي، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي، وابن مردويه عن عبادة بن

أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا؟ فقال: لا أجر له، فاعظم الناس تلك، فعاد الرجل فقال: لا أجر له». وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن جرير في تهذيبه، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن شذاد بن أوس قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر. وأخرج الطيالسي، وأحمد، وابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن شذاد بن أوس أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك»، ثم قرأ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية. وأخرج الطيالسي، وأحمد، وابن مردويه، وأبو نعيم عن شذاد أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه أنا عنه غني». وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، وابن جرير في تهذيبه، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي لمكان رجل». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي عن شذاد بن أوس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية، قلت: اتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراعون الناس بأعمالهم، قلت: يا رسول الله ما الشهوة الخفية؟ قال: يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته». وأخرج أحمد، ومسلم، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فانا بريء منه، وهو للذي أشرك»، وفي لفظ: «فمن أشرك بي أحداً فهو له كله». وفي الباب أحاديث كثيرة في التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر، وأن الله لا يقبله، وقد استوفاهما صاحب الدر المنثور في هذا الموضع فليرجع إليه، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية، بل الشرك الجلي يدخل تحتها دخلاً أولياً، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما قدمنا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في علم الأصول.

وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه عن أبي حكيم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتمهم». وأخرج ابن راهويه، والبزار، والحاكم وصححه، والشيخرازي في الألقاب، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة». قال ابن كثير بعد إخراجها: غريب جداً.

والكسائي (قبل أن ينفذ) بالتحفية، وقرأ الباقون بالفوقية، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسلك مسلك التواضع، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: إن حالي مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية، ومن كان هكذا فهو لا يدعي الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه فقال: ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقاً بينه وبين سائر أنواع البشر، ثم بين أن الذي أوحى إليه هو قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له في ألوهيته، وفي هذا إرشاد إلى التوحيد، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الرجاء توقع وصول الخير في المستقبل، والمعنى: من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما دلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ من خلقه سواء كان صالحاً، أو طالحاً، حيواناً أو جماداً، قال الماوردي: قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية: إن المعنى لا يرائي بعمله أحداً. وأقول: إن دخول الشرك الجلي الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء، ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿الْكَلِمَاتُ رَبِّي﴾ يقول: علم ربي. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: يقول: ينفذ ماء البحر قبل أن ينفذ كلام الله وحكمته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية قال: أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وليست هذه في المؤمنين. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس قال: «قال رجل: يا نبي الله إني أقف المواقف أبتغي وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يردّ عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾». وأخرج ابن منده، وأبو نعيم في الصحابة، وابن عساكر من طريق السدي الصغير عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق ففكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله، فنزل في ذلك ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: «قال رجل: يا رسول الله اعتق وأحب أن يرى، وأتصدق وأحب أن يرى، فنزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية، وهو مرسل. وأخرجه هناك في الزهد عنه أيضاً. وأخرج ابن سعد، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله الله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن

الحسن جماعة. وقيل في تأويلها: أنه كان يشمّ الرفع فقط. وأظهر الدال من هجاء ضاد نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وعاصم، ويعقوب، وهو اختيار أبي عبيد وأدغمها الباقيون. وقد قيل في توجيه هذه القراءة: أن التفخيم هو الأصل، والإمالة فرع عنه، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر فقد عمل بالأمريين، وقد تقدم الكلام في هذه الحروف الواقعة في فواتح السورة مستوفي في أوائل سورة البقرة، ومحل هذه الفاتحة إن جعلت اسماً للسورة على ما عليه الأكثر الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، قاله الفراء. واعترضه الزجاج فقال: هذا محال لأن كَهَيْعَصَ ليس هو مما أنبأنا الله عزّ وجلّ به عن زكرياء، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عنه وعما بشر به، وليس كَهَيْعَصَ من قصته، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف، وإن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فقلوه: ﴿ذَكَرَ رَحِمْتَ رَبِّكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: هذا نكر رحمة ربك؛ وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف أي: فيما يتلى عليك نكر رحمة ربك. قال الزجاج: نكر مرتفع بالمضمر، والمعنى: هذا الذي نتلوه عليك نكر رحمة ربك ﴿عَبْدَهُ زَكْرِيَاءَ﴾ يعني: إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد، وانتصاب عبده على أنه مفعول للرحمة قاله الأخفش، وقيل: للذكر. ومعنى نكر الرحمة بلوغها وإصابتها، كما يقال: نكرني معروف فلان أي: بلغني، وقرأ يحيى بن يعمر (نكر) بالنصب، وقرأ أبو العالية عبده بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول، وفاعل النكر هو عبده، وزكرياء على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه، وقرأ الكلبي (نكر) على صيغة الفعل الماضي مشدداً ومخففاً على أن الفاعل عبده، وقرأ ابن معمر على الأمر، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكرياء، لأن كل نبي رحمة لأمته ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ خَفِيًّا﴾ العامل في الظرف رحمة، وقيل: نكر، وقيل: هو بدل اشتمال من زكرياء. واختلف في وجه كون ندائه هذا خفياً؛ فقيل: لأنه أبعد عن الرياء، وقيل: أخفاه، لئلا يلام على طلبه للولد في غير وقته، ولكونه من أمور الدنيا، وقيل: أخفاه مخافة من قومه؛ وقيل: كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفاً هرمأ لا يقدر على الجهر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله: نادى ربه، يقال: وهن يهن وهناً إذا ضعف فهو وهن، وقرئ بالحركات الثلاث. أراد أن عظامه فترت وضعفت قوته، وذكر العظم، لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأن أشد ما في الإنسان صلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووجد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّاسُ شَيْبًا﴾ قرأ أبو عمرو بإدغام السين في الشين، والباقيون بعدهم، والاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية، بأن

وأخرج ابن الضريس عن أبي الدرداء قال: من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن معاوية بن أبي سفيان أنه تلا هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن. قال ابن كثير: وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية هي آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبهت ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه.

تفسير سورة مريم

أخرج النحاس، وابن مروي عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة سورة ﴿كَهَيْعَصَ﴾. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج ابن مروي عن عائشة مثله. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن أم سلمة أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب: هل معك مما جاء به يعني: رسول الله ﷺ عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه صدراً من ﴿كَهَيْعَصَ﴾ فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. وقد نكر ابن إسحاق القصة بطولها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ وَذَكَرَ رَحِمْتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاهُ خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شُعِيًّا ﴿٤﴾ إِنِّي خِفْتُ الْمَوْتُ مِن وَدَّيْكَ وَكَانَتِ أُمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرْبِّيْ وَيَرْبِّيْ مِن نَّالٍ يَّعْقُوبُ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ نَزَكَةً إِنَّا نَبِيُّكَ يُعَلِّمُ اِسْمُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ أَسْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بِكُرَةِ وَعِيدِ ﴿١١﴾

قوله: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة، ووصلها الباقيون، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الباء، وعكس ذلك ابن عامر وحزمة، وأمالهما جميعاً الكسائي وأبو بكر وخلف، وقراما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقيون. وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف، وحكي عن غيره أنه كان يضم ها. وقال أبو حاتم: لا يجوز ضم الكاف ولا الهاء ولا الياء. قال النحاس: قراءة أهل المدينة من أحسن ما في هذا، والإمالة جائزة في ها وفي يا وقد اعترض على قراءة

قال ابن جرير: وكان اسم امرأته أشاع بنت فاقود بن ميل، وهي أخت حنة، وحنة هي أم مريم. وقال القتيبي: هي أشاع بنت عمران، فعلى القول يكون يحيى بن زكرياء ابن خالة أم عيسى، وعلى القول الثاني يكونان ابني خالة كما ورد في الحديث الصحيح **«فهب لي من لبدك ولياً»** أي: أعطني من فضلك ولياً، ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته في حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما. وقد قيل: إنه كان ابن بضع وتسعين سنة، وقيل: بل أراد بالولي الذي طلبه هو الولد، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة، فإن الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم **«يرثني ويرث من آل يعقوب»** قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحزمة وابن محيصن واليزيدي ويحيى بن المبارك⁽¹⁾ بالرفع في الفعلين جميعاً على أنهما صفتان للولي وليس بجواب للدعاء. وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما على أنهما جواب للدعاء. ورجح القراءة الأولى أبو عبيد وقال: هي أصوب في المعنى، لأنه طلب ولياً هذه صفة فقال: هب لي الذي يكون وارثي. ورجح ذلك النحاس وقال: لأن جواب الأمر عند التحويلين فيه معنى الشرط والمجازاة، تقول: أطع الله يدخلك الجنة أي: إن تطعه يدخلك الجنة، وكيف يخبر الله سبحانه بهذا، أعني كونه أن يهب له ولياً يرثه، وهو أعلم بذلك، والورثة هنا هي ورثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف. وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان، وبه قال الكلبي ومقاتل، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقرابة أو الصلبة أو الموافقة في الدين، وقد كان فيهم أنبياء وملوك، وقرئ يرثني وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثني. وقرئ (وارث آل يعقوب) أي: أنا. وقرئ (أو يرث آل يعقوب) بلفظ التصغير على أن هذا المصغر فاعل يرثني، وهذه القراءات في غاية الشذوذ لفظاً ومعنى **«واجعله ربّ رضيعاً»** أي مرضياً في أخلاقه وأفعاله؛ وقيل: راضياً بقضائك وقدرك؛ وقيل: رجلاً صالحاً ترضى عنه؛ وقيل: نبياً كما جعلت آباءه أنبياء **«يا زكرياء إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى»** قال جمهور المفسرين: إن هذا النداء من الله سبحانه، وقيل: إنه من جهة الملائكة لقوله في آل عمران **«فنبأته الملائكة»** [آل عمران: 39]، وفي الكلام حذف أي: فاستجاب له دعاءه، فقال: يا زكرياء، وقد تقدّم في آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكرياء. قال الزجاج: سمي يحيى لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيها **«لم نجعل له من قبل**

حذف المشبه به وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها. قال الزجاج: يقال للشيب إذا كثّر جداً: قد اشتعل رأس فلان، وأنشد للبيد:

فإن ترى رأسي أمسى واضحاً
سلط الشيب عليه فاشتعل
وانتصاب شيباً على التمييز قاله الزجاج. وقال الأخفش: انتصابه على المصدر، لأن معنى اشتعل: شاب. قال النحاس: قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك، وكان الأصل اشتعل شيب رأسي، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول **«ولم أكن بدعائك رب شقياً»** أي: لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من الأوقات، بل كلما دعوتك استجبت لي.

قال العلماء: يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع، وذكر نعم الله عليه كما فعل زكرياء ها هنا، فإن في قوله: **«وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً»** غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه، وبلوغ مأربه، وفي قوله: **«ولم أكن بدعائك ربّ شقياً»** ذكر ما عوّده الله من الإنعام عليه بإجابة أدعيته، يقال شقي بكذا أي: تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه **«وإني خفت الموالى من ورائي»** قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن علي بن الحسين وأبوه علي ويحيى بن يعمر (خفت) بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله **«الموالى»** أي: قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدي، أو انقطعوا بالموت، مأخوذاً من خفت القوم إذا ارتحلوا، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب. وقرأ الباقر (خفت) بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكرياء، ومفعوله الموالى، ومن ورائي متعلق بمحذوف لا بخفت، وتقديره: خفت فعل الموالى من بعدي. قرأ الجمهور (ورائي) بالهمز والمدّ وسكون الباء، وقرأ ابن كثير بالهمز والمدّ وفتح الباء. وروي عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الباء، مثل عصاي، والموالى هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصابات من بني العمّ ونحوهم، والعرب تسمي هؤلاء موالى، قال الشاعر:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا
لا تنشروا بيننا ما كان مدفوناً
قيل: الموالى الناصرون له. واختلفوا في وجه المخافة من زكرياء لمواليه من بعده، فقيل: خاف أن يرثوا ماله، وأراد أن يرثه ولده، فطلب من الله سبحانه أن يرثه ولداً، وقال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين، فخاف أن يضيع الدين بموته، فطلب ولياً يقوم به بعد موته، وهذا القول أرجح من الأوّل لأن الأنبياء لا يورثون وهم أجل من أن يعتنوا بأمر الدنيا، فليس المراد هنا وراثة المال، بل المراد: وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين. وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» **«وكانت امرأتي عاقراً»** العاقرة: هي التي لا تلد لكبر سنّها، والتي لا تلد أيضاً لغير كبر وهي المرادة هنا، ويقال: للرجل الذي لا يلد عاقراً أيضاً، ومنه قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً

(1) (قوله واليزيدي ويحيى بن المبارك). الصواب ويحيى بن المبارك اليزيدي اهـ. مصصح القرآن.

قبل) وقرا سائر الكوفيين (وقد خلقناك من قبل) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة تدلني على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت الإشارة مطلقة عن تعيينه. قال ابن الأنباري: وجه ذلك أن نفسه تافت إلى سرعة الأمر، فسأل الله آية يستدل بها على قرب ما من به عليه، وقيل: طلب آية تدله على أن البشرى من الله سبحانه لا من الشيطان، لأن إبليس أوهمه بذلك، كذا قال الضحاک والسدي وهو بعيد جداً ﴿قَالَ آيَتِكَ أَلَّا تَكَلَّمَ لِلنَّاسِ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ قد تقدم تفسير هذا في آل عمران مستوفى، وانتصاب سويًّا على الحال، والمعنى: آيتك أن لا تقدر على الكلام والحال أنك سوي الخلق ليس بك آفة تمنعك منه، وقد دل بذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران أن المراد ثلاثة أيام ولياليهن ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ وهو مصلاه، واشتقاقه من الحرب، كأن ملازمه يحارب الشيطان، وقيل: من الحرب محرماً، كان ملازمه يلقي حرباً وتعباً ونصباً ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قيل معنى أوحى: أوماً بدليل قوله في آل عمران ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: 41]؛ وقيل: كتب لهم في الأرض وبالأول قال الكلبي، والقرطبي، وقتادة، وابن منبه، وبالثاني قال مجاهد، وقد يطلق الوحي على الكتابة ومنه قول ذي الرمة:

سوى الأربع الدم اللواتي كانتها بقية وحي في بطون الصحائف وقال عنتره:

كوحى صحائف من عهد كسرى فامداها لأعجم طمطمى
و «أن» في قوله: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ مصدرية أو مفسرة، والمعنى: فأوحى إليهم بأن صلوا أو أي: صلوا، وانتصاب بكرة وعشيًّا على الظرفية. قال الفراء: العشي يؤنث، ويجوز تنكيره إذا أبهم. قال: وقد يقال العشي جمع عشية، قيل: والمراد صلاة النحر والعصر، وقيل: المراد بالتسبيح هو قولهم سبحان الله في الوقتين أي: نزها ربكم طرفي النهار. وقد أخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات والضيء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿كَهَيَّصَ﴾ كبير هاد أمين عزيز صادق، وفي لفظ كاف بدل كبير. وأخرج عبد الرزاق، وأدم بن أبي إياس، وعثمان بن سعيد الدارمي في التوحيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس ﴿كَهَيَّصَ﴾ قال: كاف من كريم، وهاء من هاد، وياء من حكيم، وعين من عليم، وصاد من صادق. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة ﴿كَهَيَّصَ﴾ هو الهجاء المقطع، الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصور. وأخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿كَهَيَّصَ﴾ فحدث عن أبي صالح، عن أم هانئ، عن

سميًّا قال أكثر المفسرين: معناه لم نسم أحداً قبله يحيى. وقال مجاهد وجماعة: معنى ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السمو، ورد هذا بأنه يقتضي تفضيله على إبراهيم وموسى، وقيل: معناه لم تلد عاقر مثله، والأول أولى. وفي إخباره سبحانه بأنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين: الأولى أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به، ولم يكلها إلى الأبوين. والجهة الثانية أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي: كيف أو من أين يكون لي غلام؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة الله وبديع صنعه، حيث يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في آل عمران ﴿وَوَدَّ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا﴾ يقال: عتا الشيخ يعتو عتياً إذا انتهى سنه وكبر، وشيخ عات إذا صار إلى حال اللبس والجفاف، والأصل عتوا لأنه من نوات الواو فابلوه ياء لكونها أخف، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

إنما يعذر الوليد ولا يعد نر من كان في الزمان عتياً
وقرأ يحيى بن وثاب وحمة والكسائي وحفص والأعمش (عتياً) بكسر العين، وقرأ الباقر بنضم العين وهما لغتان، ومحل جملة ﴿وَوَدَّ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا﴾ النصيب على الحال من ضمير المتكلم، ومحل جملة ﴿وَوَدَّ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا﴾ النصيب أيضاً على الحال، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي: كيف يحصل بيننا ولد الآن، وقد كانت امرأتي عاقرًا لم تلد في شبابها وشبابي وهي الآن عجوز، وأنا شيخ هرم؟ ثم أجاب الله سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله: ﴿قَالَ كُنْ لَكَ رِبْكَ﴾ الكاف في محل رفع أي: الأمر كذلك، والإشارة إلى ما سبق من قول زكريا، ثم ابتدأ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّكَ﴾ ويحتمل أن يكون محله النصيب على المصدرية أي: قال قولاً مثل ذلك، والإشارة بذلك إلى مبهم يفسره قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيْنٌ﴾ وأما على الاحتمال الأول فتكون جملة ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيْنٌ﴾ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره أي: قال هو مع بعده عنك عليّ هين، وهو فيعمل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد. قال الفراء: أي خلقه عليّ هين ﴿وَوَدَّ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها، قال الزجاج: أي فخلق الولد لك كخلقك، والمعنى: أن الله سبحانه خلقه ابتداءً وأوجده من العدم المحض، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه، وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول: وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئاً، للدلالة على أن كل فرد من أقرار البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم. قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر (وقد خلقتك من

اليهم قال: كتب لهم كتاباً. وأخرج ابن أبي الدنيا، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ قال: أمرهم بالصلاة ﴿بكرة وعشيا﴾

يَتَجَنَّبُ عَنْ الْحَبَثِ يَغُورُ وَيَأْتِنَهُ إِلَهُكُمُ صَبِيحًا ﴿١٦﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٧﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٨﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ دَلَّى وَيَوْمَ نُمُوتُ يَوْمَ يَعْبُثُ حَيًّا ﴿١٩﴾

قوله: ﴿يا يحيى﴾ ها هنا حذف، وتقديره: وقال الله للمولود: يا يحيى، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذي يجوز أن يخاطب فيه، فقلنا له: يا يحيى. وقال الزجاج: المعنى فوهبنا له وقلنا له: يا يحيى. والمراد بالكتاب: التوراة لأنه المعهود حينئذ، ويحتمل أن يكون كتاباً مختصاً به وإن كنا لا نعرفه الآن، والمراد بالأخذ: إما الأخذ الحسي أو الأخذ من حيث المعنى، وهو القيام بما فيه كما ينبغي، وذلك بتحصيل ملكة تقتضي سهولة الإقدام على الأمور به، والإحجام عن المنهي عنه، ثم أكده بقوله: ﴿قوة﴾ أي: بجهد وعزيمة واجتهاد ﴿وأتيناه للحكم صبيها﴾ المراد بالحكم: الحكمة، وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية، وقيل: هي العلم وحفظه والعمل به؛ وقيل: النبوة؛ وقيل: العقل، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحاً لحمله على جميع ما نكر. قيل: كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين، وقيل: ابن ثلاث ﴿وحناناً من لينا﴾ معطوف على الحكم. قال جمهور المفسرين: الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة، وأصله توفان النفس، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها. قال أبو عبيدة: تقول حنانك يا ربّ وحنانك يا ربّ بمعنى واحد، يريد رحمتك، قال طرفة:

أبا منذر أفتيت فاستبق بعضنا حنانك بعض الشر أهون من بعض
وقال امرؤ القيس:

ويمنحها بنوسلخ بن بكر معيّزهم حنانك ذا الحنان
قال ابن الأعرابي: الحنان مشدداً من صفات الله عز وجل، والحنان مخففاً: العطف والرحمة، والحنان الرزق والبركة. قال ابن عطية: والحنان: في كلام العرب أيضاً: ما عظم من الأمور في ذات الله، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل: والله لئن قتلتم هذا العبد لاتخذن قبره حناناً، يعني: بلالاً، لما مرّ به، وهو يعنّب، وقيل: إن القائل لذلك هو ورقة بن نوفل. قال الأزهري: معنى ذلك لاترحمنّ عليه، ولاتعطفنّ عليه لأنه من أهل الجنة، ومثله قول الحطية:

تحنن عليّ هداك المليك فلن لكل مقام مقال
ومعنى ﴿من لينا﴾ من جانبنا، قيل: ويجوز أن يكون المعنى: أعطيناه رحمة من لنا كائنة في قلبه يتحنن بها على الناس، ومنهم أبواه وقرباته حتى يخلصهم من الكفر ﴿وزكاة﴾ معطوف على ما قبله، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبرّ أي: جعلناه مباركاً للناس يهديهم إلى الخير؛ وقيل: زكياته بحسن الثناء عليه كتركيزية الشهود، وقيل: صدقة تصدقنا به على أبويه قاله ابن قتيبة ﴿وكان تقياً﴾

رسول الله ﷺ قال: «كاف هاد عالم صانع». وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي، وابن ماجه، وابن جرير عن فاطمة ابنة عليّ قالت: كان عليّ يقول: يا كهيعص اغفر لي. وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في ﴿كهيعص﴾ قال: الكاف الكافي، والهاء الهادي، والعين العالم، والصاد الصانع. وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن السديّ قال: كان ابن عباس يقول في كهيعص وحّم ويّس وأشباه هذا: هو اسم الله الأعظم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله.

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة وقع بين من بعدهم ولم يصح مرفوعاً في ذلك شيء، ومن روي عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روى عن غيره ما يخالفه، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح فلا يقوم شيء من ذلك حجة، بل الحق الوقف، ورد العلم في مثله إلى الله سبحانه، وقد قدّمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً». وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن أزر بن مسلم من ذرية يعقوب دعا ربه سرّاً ﴿قال ربّ إني وهن العظم مني﴾ إلى قوله: ﴿خفت الموالى﴾ قال: وهم العصبة ﴿يرثني﴾ يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب، فنانته الملائكة، وهو جبريل: إن الله يبشرك ﴿بغلام اسمه يحيى﴾ فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس من الله إنما هو من الشيطان سخر بك، فشك وقال: ﴿إني يكون لي غلام﴾ يقول: من أين يكون وقد بلغني الكبر وامراتي عاقر، قال الله: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾ قال: الورثة وهم عصبة الرجل. وأخرج الفريابي عنه قال: كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: ﴿ربّ هب لي من ليناك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿لن نجعل له من قبل سمياً﴾ قال: مثلاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه قال: لا أدري كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف عتياً أو عسياً. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله: ﴿عتياً﴾ قال: لبث زماناً في الكبر. وأخرج أيضاً عن السديّ قال: هرمأ. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً﴾ قال: اعتقل لسانه من غير مرض، وفي لفظ من غير خرس، أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فأوحى﴾

عَلَيْهَا رَكْعَتَا ۝ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَدًى وَلَنَجْجِلكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً ۝ وَمِمَّا وَكَلَتْ أُمُّرًا مَّقْصِيًّا ۝ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَالْجَاهُ مَا الْخَاسُ إِلَى جَنَّةِ النَّارِ قَالَتْ بَلَّتْنِي وَشَقَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا ۝ مَنِيًّا ۝ فَادْبَحْنِي مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحِيَّكَ سَرِيًّا ۝ وَهَزَنَ إِلَيْكِ جِنُّهُنَّ فَتَوَقَّطَ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۝ فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ إِلَّا قَفُورًا ۝ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ سُرْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝

قوله: ﴿وانكر في الكتاب مريم﴾ هذا شروع في ابتداء خلق عيسى، والمراد بالكتاب: هذه السورة أي: انكر يا محمد للناس في هذه السورة قصة مريم، ويجوز أن يراد بالكتاب جنس القرآن، وهذه السورة منه، ولما كان الذكر لا يتعلق بالاعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلق به الذكر، وهو قصة مريم، أو خبر مريم ﴿إذ انتبذت﴾ العامل في الظرف هو ذلك المضاف المقترن، ويجوز أن يجعل بدل اشتغال من مريم، لأن الزمان مشتملة على ما فيها، ويكون المراد بمريم: خبرها، وفي هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه، والنبد الطرح والرمي. قال الله سبحانه ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ [آل عمران: 187]. والمعنى: أنها تحت وتباعدت. وقال ابن قتيبة: اعتزلت وقيل: انفردت، والمعاني متقاربة. واختلفوا في سبب انتبذها فقيل: لأجل أن تعبد الله سبحانه؛ وقيل لتطهر من حيضها، و ﴿من أهلها﴾ متعلق بانتبذت، وانتصاب ﴿مكناً شريعياً﴾ على المفعولية للفعل المذكور أي: مكاناً من جانب الشرق، والشرق يسكن الرءاء: المكان الذي تشرق فيه الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير.

وقد اختلف الناس في نبوة مريم، فقيل: إنها نبية بمجرّد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك؛ وقيل: لم تكن نبية، لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر. وقد تقدّم الكلام في هذا في آل عمران ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي: اتخذت من دون أهلها حجاباً يستترها عنهم لئلا يروها حال العيادة. أو حال التطهر من الحيض، والحجاب الستر والحاجز ﴿فارسلنا إليها روحنا﴾ هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو روح عيسى، لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد، والأول أولى لقوله: ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي: تمثل جبريل لها بشراً مستوي مستوى الخلق لم يفقد من نعوت بني آدم شيئاً. قيل: وجه تمثل الملك لها بشراً أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته، فلما رآته في صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريد بها بسوء، فاستعانت بالله منه و ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي: ممن يتقي الله ويخافه، وقيل: إن تقياً اسم رجل صالح فتعوت منه تعجباً، وقيل:

أي: متجنباً لمعاصي الله مطيعاً له. وقد روي أنه لم يعمل محصية قط ﴿وبرأ بولديه﴾ معطوف على تقياً، البر هنا بمعنى: البار، فعل بمعنى فاعل، والمعنى: لطيفاً بهما محسناً إليهما ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي: لم يكن متكبراً ولا عاصياً لوالديه أو لربه، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح ﴿وسلام عليه﴾ قال ابن جرير وغيره: معناه أمان عليه من الله. قال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان، لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه، وهو أقل درجاته، وإنما الشرف في أن يسلم الله عليه، ومعنى ﴿يوم ولد﴾ أنه آمن من الشيطان وغيره في ذلك اليوم، أو أن الله حياه في ذلك اليوم، وهكذا معنى ﴿يوم يموت﴾ وهكذا معنى ﴿يوم يبعث حياً﴾ قيل: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن: يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً لم يكن قد عرفهم وأحكاماً ليس له بها عهد، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة. فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿يحيى﴾ خذ الكتاب بقوة قال: بجذ ﴿وأتيناها للحكم صبياً﴾ قال: الفهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: يقول: اعمل بما فيه من فرائض. وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال: اللب. وأخرج أبو نعيم، والديلمي، وابن مردويه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وأتيناها للحكم صبياً﴾ قال: أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عن قتادة: بئلة وهو ابن ثلاث سنين. وأخرج الحاكم في تاريخه من طريق نهشل بن سعد، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الغلمان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال يحيى: ما للعب خلقنا، اذهبوا نصلي فهو قول الله ﴿وأتيناها للحكم صبياً﴾». وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبياً». وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً. وأخرج عبد الرزاق، والغريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الاسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وحناناً﴾ قال: لا أدري ما هو إلا أني أظنه يعطف الله على عبده بالرحمة، وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وزكاة﴾ قال: بركة، وفي قوله: ﴿وكان تقياً﴾ قال: طهر فلم يعمل بذنوب.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ قَوِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ

عن عاصم، وقرأ الحسن بغير همز، وفي مصحف أبي (فلما أجاهها) قال في الكشاف: إن أجاهها منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء، وفيه بعد، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع موضع مستقل، والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضاً ومخاضاً إذا لنا ولادها. وقرأ الجمهور بفتح الميم، وقرأ ابن كثير بكسرهما، والجذع ساق النخلة اليابسة، كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشيء مما تجده عندها، والتعريف إما للجنس أو للعهد **﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا﴾** أي: قبل هذا الوقت، تمت الموت لأنها خافت أن يظن بها السوء في دينها، أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان **﴿وكننت نسياً﴾** النسى في كلاب العرب: الشئ الحقيق الذي من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتكلم لفقده كالوليد والحبل، ومنه قول الكمي:

أجعلنا خسرأ لكلب قضاة - ولسنا بنسي في معد ولا نخل
وقال الفراء: النسى ما تلقى المرأة من خرق اعتلالها، فتقول مريم **﴿نسياً منسياً﴾** أي: حيضة ملقاة، وقد قرئ بفتح النون وكسرهما، وهما لغتان مثل الحجر والحجر، والوتر والوتر. وقرأ محمد بن كعب القرظي (نساء) بالهمز مع كسر النون. وقرأ نواف البكالي بالهمز مع فتح النون. وقرأ بكر بن حبيب (نسياً) بفتح النون وتشديد الياء بدون همز، والمنسي المتروك الذي لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس **﴿فناداها من تحتها﴾** أي: جبريل لما سمع قولها، وكان أسفل منها تحت الاكمة، وقيل: تحت النخلة، وقيل المنادي هو عيسى. وقد قرئ بفتح الميم من (من) وكسرهما. وقوله: **﴿الا تحزني﴾** تفسير للداء أي: لا تحزني أو المعنى يان لا تحزني على أنها المصدرية **﴿قد جعل ربك تحتك سريباً﴾** قال جمهور المفسرين: السريّ النهر الصغير، والمعنى: قد جعل ربك تحت قدمك نهراً. قيل: كان نهراً قد انقطع عنه الماء، فأرسل الله فيه الماء لمريم، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذي اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر، وقيل: المراد بالسريّ هنا عيسى، والسريّ: العظيم من الرجال، ومنه قولهم فلان سريّ أي: عظيم، ومن قوم سراة أي: عظام **﴿وهزّي إليك بجذع النخلة﴾** الهزّ التحريك، يقال: هزه فاهتز، والباء في بجذع النخلة مزيدة للتوكيد. وقال الفراء: العرب تقول هزه وهز به، والجذع هو أسفل الشجرة. قال قطرب: كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع، ومعنى إليك: إلى جهتك، وأصل تساقط تتساقط فادغم التاء في السين. وقرأ حمزة والأعشى (تساقط) مخففاً. وقرأ عاصم في رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف. وقرئ (تتساقط) بإظهار التاءين. وقرئ بالتحتيّة مع تشديد السين. وقرئ (تسقط، ويسقط). وقرأ الباقر بإدغام التاء في السين. فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة، ومن قرأ بالتحتيّة جعل الضمير للجذع، وانتصاب **﴿رطباً﴾** على بعض هذه القراءات للتمييز، وعلى

إنه اسم رجل فاجر معروف في تلك الوقت، والأوّل أولى. وجواب الشرط محذوف أي: فلا تتعرض لي **﴿قال إنما أنا رسول ربك﴾** أي: قال لها جبريل: إنما أنا رسول ربك الذي استعنت به، ولست ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء **﴿أذهب لك غلاماً زكياً﴾** جعل الهمزة من قبله لكونه سبباً فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته، أو من جهة كون النفخ قام به في الظاهر. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب، وورش، عن نافع (ليهب) على معنى أرسلني ليهب لك، وقرأ الباقر بالهمز. والزكيّ الطاهر من الذنوب الذي ينمو على النزاهة والعفة، وقيل: المراد بالزكيّ النبي **﴿قلت اني يكون لي غلام ولم يمسسني بشر﴾** أي: لم يقرّبني زوج ولا غيره **﴿ولم اك بغياً﴾** البغي هي الزانية التي تبغي للرجال. قال المبرد: أصله بغوي على فعول قلبت اللوا ياء ثم ادغمت في الياء وكسرت الغين للمناسبة. وقال ابن جني: إنه فعيل، وزيادة نكر كونها لم تك بغياً مع كون قولها لم يمسسني بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيهاً لجانبها من الفحشاء؛ وقيل: ما استبعدت من قدرة الله شيئاً، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تنزّجه في المستقبل أم يخلقه الله سبحانه ابتداءً؛ وقيل: إن المس عيارة عن النكاح الحلال، وعلى هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها: ولم اك بغياً، وما نكرناه من شموله أولى باستعمالات أهل اللغة، وما يوجد في محاوراتهم مما يطول تعداده **هـ. ﴿ولنجعله آية للناس﴾** أي: ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة، وهو علة لمعلل محذوف، والتقدير خلقناه لنجعله، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه: **﴿وهو عليّ هين﴾** وجملة **﴿قال كذلك قال ربك هو عليّ هين﴾** مستأنفة، والقائل هو الملك، والكلام فيها كالكلام فيما تقدّم من قول زكرياء. وقوله: **﴿ورحمة منا﴾** معطوف على آية أي: ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير، لأن كل نبي رحمة لأمته **﴿وكان أمراً مقضياً﴾** أي: وكان ذلك المنكر أمراً مقدراً قد قدره الله سبحانه وجف به القلم **﴿فحملته﴾** ها هنا كلام مطوي، والتقدير: فاطمانت إلى قوله فبنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته، وقيل: كانت النفخة في ذيلها، وقيل: في فمها. قيل: إن وضعها كان متصلاً بهذا الحمل من غير مضي مدة للحمل، ويدل على ذلك قوله: **﴿فانبتذت به مكاناً قصياً﴾** أي: تحت واعتزلت إلى مكان بعيد، والقصي هو البعيد. قيل: كان هذا المكان وراء الجبل؛ وقيل: أبعد مكان في تلك الدار، وقيل: أقصى الوادي، وقيل: إنها حملت به ستة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: سبعة **﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾** أي: أجاها واضطرها، ومنه قول زهير:

أجاءته المخافة والرجاء

وقرأ شبيل (فأجاءها) من المفاجأة، ورويت هذه القراءة

البعض الآخر على المفعولية لتساقط. قال المبرد والأخفش: يجوز انتصاب رطباً بهزّي أي: هزّي إليك رطباً ﴿جنيّاً﴾ بجذع النخلة أي: على جذعها، وضعفه الزمخشري، والجني المأخوذ طرياً، وقيل: هو ما طلب وصلح للاجتناء، وهو فاعل بمعنى مفعول. قال الفراء: الجني والمجني واحد، وقيل: هو فاعل بمعنى فاعل أي: رطباً طرياً طيباً ﴿فكلي واشربي﴾ أي: من ذلك الرطب وذلك الماء، أو من الرطب وعصيره، وقدم الأكل مع أن نكر النهر مقدّم على الرطب، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء، ثم قال: ﴿وقرّي عينا﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف، وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرهما، قال: وهي لغة نجد. والمعنى: طيبي نفساً وارفضي عنك الحزن، وهو مأخوذ من القرّ والقرّة وهما البرد، والمسروور بارد القلب ساكن الجوارح، وقيل: المعنى وقرّي عينا برؤية الولد الموهوب لك. وقال الشيباني: معناه نامي. قال أبو عمرو: قرأ الله عينه أي: أنام عينه وأذهب سهره ﴿فإما ترين من البشر أحدا﴾ أصله ترعين، مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وباء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن زيد:

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أنيال الدجى وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة (ترين) بسكون الياء وفتح النون مخففة. قال أبو الفتح: وهي شاذة، وجواب الشرط ﴿فقلولي إني نذرت للرحمن صوما﴾ أي قولي إن طلب منك الكلام أحد من الناس إني نذرت للرحمن صوماً أي: صمتاً؛ وقيل: المراد به الصوم الشرعي، وهو الإمساك عن المفطرات، والأوّل أولى. وفي قراءة أبي (إني نذرت للرحمن صوماً صمتاً) بالجمع بين اللفظين، وكذا روي عن أنس، وروي عنه أنه قرأ «صوماً وصمتاً» بالواو، والذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت، ويدل عليه ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ ومعنى الصوم في اللغة: أوسع من المعنيين. قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم. وقراءة أبي تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت، لأنه تفسير للصوم. وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيد الواو. ومعنى ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أنها لا تكلم أحداً من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر، بل إنما تكلم الملائكة وتناجي ربها؛ وقيل: إنها لم تخبرهم هنا باللفظ، بل بالإشارة المفيدة للنذر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿اننذبت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ قال: مكاناً أظلمها الشمس أن يراها أحد منهم. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: إنما اتخذت النصراري المشرق قبلة، لأن مريم اتخذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذوا ميلاده قبلة، وإنما سجدت اليهود على حرف حين تنق فوقهم الجبل، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه، يتخفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة رضيها الله،

فاتخذوها سنة. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن عساكر من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس. وعن مرة عن ابن مسعود قال: خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها، فلما طهرت إذا هي برجل معها ﴿فتمثل لها بشراً﴾ ففزعت و﴿قالت إني أعود بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ فخرجت وعليها جلبابها، فأخذ بكما فنفع في جنب درعها، وكان مشقوقاً من قدامها، فدخلت النفخة صدرها فحملت، فأتتها أختها امرأة زكرياء ليلة تزورها، فلما فتحت لها الباب التزمتها، فقالت امرأة زكرياء: يا مريم أشعرت أني حبلى، قالت مريم: أشعرت أني حبلى، فقالت امرأة زكرياء: فلأني وجدت ما في بطني سجد للذي في بطنك، فذلك قوله تعالى: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ [آل عمران: 39]. فولدت امرأة زكرياء يحيى، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب ﴿ففاجأها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا﴾ الآية ﴿فناداها﴾ جبريل ﴿من تحتها ألا تحزني﴾ فلما ولدته ذهب الشيطان، فأخبر بني إسرائيل أن مريم ولدت، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم فـ ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب﴾ الآيات، ولما ولد لم يبق في الأرض صنم إلا خر لوجهه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في مريم قال: حين حملت وضعت. وأخرج ابن عساكر عنه قال: وضعت لثمانية أشهر. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿فارسلنا إليها روحنا﴾ قال: جبريل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطاء نحوه أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن عساكر عن أبي بن كعب في الآية قال: تمثل لها روح عيسى في صورة بشر فحملته، قال: حملت الذي خاطبها نخل في فيها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿مكاناً قصياً﴾ قال: نائياً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿إلى جذع النخلة﴾ قال: كان جذعاً يابساً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وكنتم نسياً منسياً﴾ قال: لم أخلق ولم أك شيئاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿وكنتم نسياً منسياً﴾ قال: حيضة ملقاة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد، عن نوف البكالي، والضحاك مثله. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله: ﴿فناداها من تحتها﴾ قال: الذي ناداها جبريل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: الذي ناداها من تحتها جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وقد اختلفت الروايات عن السلف، هل هذا المنادي هو جبريل أو عيسى. وأخرج عبد بن حميد، عن أبي بكر بن عياش قال: قرأ عاصم بن أبي النجود ﴿فناداها من تحتها﴾ بالنصب، قال: وقال عاصم: من قرأ

وقيل: كان لها أخ من أبيها اسمه هارون؛ وقيل: هارون هذا رجل صالح في ذلك الوقت؛ وقيل: بل كان في ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون، فنسبوه إليه على وجه التعبير والتوبيخ، حكاه ابن جرير ولم يسم قائله وهو ضعيف **﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾** هذا فيه تقريره لما تقدم من التعبير والتوبيخ، وتنبيه على أن الفاحشة من نزية الصالحين مما لا ينبغي أن تكون **﴿فأشارت إليه﴾** أي إلى عيسى، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام كما تقدم، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك في أيام نذرها، وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها، فيمكن أن يقال: إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وإن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة **﴿قالوا كيف تكلم من كان في المهد صيباً﴾** هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم. قال أبو عبيدة: في الكلام حشو زائد. والمعنى: كيف تكلم صيباً في المهد كقول الشاعر:

وجيران لنا كانوا كرام

وقال الزجاج: الأجود أن تكون من في معنى الشرط والجزاء. والمعنى: من يكون في المهد صيباً فكيف نكله. ورجحه ابن الأنباري وقال: لا يجوز أن يقال إن كان زائدة وقد نصبت صيباً، ويوجب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل، وهو نكل كما سبق تقديره، وقيل: إن كان هنا هي التامة التي بمعنى حدوث الوجود. ورد بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر، والمهد هو شيء معروف يتخذ لتتوهم الصبي. والمعنى: كيف نكل من سبيله أن ينوم في المهد لصغره، وقيل: هو هنا حجر الأم، وقيل: سرير كالمهد، فلما سمع عيسى كلامهم **﴿قال إني عبد الله﴾** فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية لله **﴿أتأني الكتاب﴾** أي: الإنجيل أي: حكم لي بليتاني الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن قد نزل عليه في تلك الحال ولا قد صار نبياً؛ وقيل: إنه أتاه الكتاب وجعله نبياً في تلك الحال، وهو بعيد **﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾** أي: حيثما كنت، والبركة أصلها من برك البعير، والمعنى: جعلني ثابتاً في دين الله، وقيل: البركة هي الزيادة والعلو، فكأنه قال: جعلني في جميع الأشياء زائداً عالياً منجهاً، وقيل: معنى المبارك النفاذ للعباد، وقيل: المعلم للخير، وقيل: الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر **﴿واوصاني بالصلاة﴾** أي: أمرني بها **﴿والزكاة﴾** زكاة المال، أو تطهير النفس **﴿ما دمت حياً﴾** أي: مدة دوام حياتي، وهذه الأفعال الماضية هي من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه لكونه قد سبق في القضاء المبرم **﴿وبيراً بوالتي﴾** معطوف على مباركاً، واقتصر على البر بوالدته لأنه قد علم في تلك الحال أنه لم يكن له أب، وقرئ (وبراً) بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة **﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾** الجبار المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والشقي العاصي لربه،

بالنصب فهو عيسى، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وابن النجار عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **﴿إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿جعل ريك تحتك سرياً﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه﴾**. وفي إسناده أيوب بن نهيك الجبلي قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو فتح الأزدي: متروك الحديث، وقال الطبراني بعد إخراج هذا الحديث: إنه غريب جداً. وأخرج الطبراني في الصغير، وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ في قوله: **﴿جعل ريك تحتك سرياً﴾** قال: النهر. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، والحاكم، وابن مردويه عن البراء قال في الآية: هو الجدول، وهو النهر الصغير، فظهر بهذا أن الموقوف أصح. وقد روي عن جماعة من التابعين أن السري هو عيسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿رطباً جنبياً﴾** قال: طرياً. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه في قوله: **﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾** قال: صمتاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري عنه أنه قرأ (صوماً صمتاً).

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَدَّ جِثَّتْ شَيْئاً فَرِيًّا ۖ يَتَأَخَتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوهُ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تَكْلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَنَّانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها **﴿أنت به﴾** أي: بعيسى، وجملة **﴿تحمله﴾** في محل نصب على الحال، وكان إتيانها إليهم من المكان القصي التي انتبذت فيه، فلما راوا الولد معها حزنوا، وكانوا أهل بيت صالحين **﴿فقالوا﴾** منكرين لذلك **﴿يا مريم لقد جئت﴾** أي: فعلت **﴿شيئاً فرياً﴾** قال أبو عبيدة: الفري العجيب النادر، وكذا قال الأخفش. والفري القطع، كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع بكونه عجيباً نادراً. وقال قطرب: الفري الجديد من الأسقية أي: جئت بأمر بليغ جديد لم تسبقني إليه. وقال سعيد بن مسعدة: الفري المختلق المفتعل، يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد، والولد من الزنا كالشيء المفتري، قال تعالى: **﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾** [المتحنة: 12] وقال مجاهد: الفري العظيم **﴿يا أخت هارون﴾**.

قد وقع الخلاف في معنى هذه الأخوة، وفي هارون المذكور من هو؟ فقيل: هو هارون أخو موسى، والمعنى: إن من كانت نظنها مثل هارون في العبادة كيف تأتي بمثل هذا؛ وقيل: كانت مريم من ولد هارون أخي موسى، فقيل: لها يا أخت هارون، كما يقال لمن كان من العرب: يا أخت العرب؛

الحق، قاله الكسائي. وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله، والحق هو الله عز وجل. وقال أبو حاتم: المعنى هو قول الحق، وقيل التقدير: هذا لكلام قول الحق، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل حق اليقين، وقيل: الإضافة للبيان، وقرئ (قول الحق) وروي ذلك عن ابن مسعود، وقرأ الحسن (قول الحق) بضم القاف، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد، و «الذي فيه يمترون» صفة لعيسى أي: ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون قول الحق، ومعنى يمترون: يختلفون على أنه من المماراة، أو يشكو على أنه من المرية. وقد وقع الاختلاف في عيسى؛ فقالت اليهود هو ساحر، وقالت النصارى: هو ابن الله «ما كان الله أن يتخذ من ولد» أي: ما صح ولا استقام ذلك، فإن في محل رفع على أنها اسم كان. قال الزجاج: من في «من ولد» مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة، ثم نزه سبحانه نفسه فقال: «سبحانه» أي: تنزهه وتنزه عن مقالاتهم هذه، ثم صرح سبحانه بما هو شأنه تعالى سلطانه فقال: «إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» أي: إذا قضى أمراً من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير. وقد سبق الكلام على هذا مستوفى في البقرة، وفي إirاده في هذا الموضع تبكيك عظيم للنصارى أي: من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ «وإن الله ربي وربكم فاعبدوه» قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح أن. وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها، وهو من تمام كلام عيسى، وقرأ أبي (إن الله) بغير واو، قال الخليل وسيبويه: في توجيه قراءة النصب بأن المعنى: ولأن الله ربي وربكم، وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض عطفاً على الصلاة، وجوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على أمراً «هذا صراط مستقيم» أي: هذا الذي نكرته لكم من أنه ربي وربكم، هو الطريق القيم الذي لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه «فاختلف الأحزاب من بينهم» من زائد للتوكيد، والأحزاب اليهود والنصارى أي: فاختلقت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى، فاليهود قالوا إنه ساحر كما تقدم، وقالوا إنه ابن يوسف النجار، والنصارى اختلفت فرقه في عيسى، فقالت النسطورية منهم: هو ابن الله، وقالت الملكية: هو ثالث ثلاثة، وقالت اليعقوبية: هو الله تعالى فافترطت النصارى وغلطت، وفترطت اليهود وقصرت «فويل للذين كفروا» وهم المختلفون في أمره «من مشهد يوم عظيم» أي: من شهود يوم القيامة وما يجري فيه من الحساب والعقاب، أو من مكان الشهود فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وقيل: المعنى فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور «اسمع بهم وأبصر» قال أبو العباس: العرب تقول هذا في موضع التعجب، فيقولون: اسمع تريد وأبصر به أي: ما أسمع وأبصره، فعجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم «يوم ياتوننا» أي: للحساب والجزاء «لكن الظالمون اليوم» أي: في الدنيا «في ضلال مبين» أي: واضح ظاهر ولكنهم

وقيل الخائب، وقيل العاق «والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً» قال المفسرون: السلام هنا بمعنى السلامة أي: السلامة علي يوم ولدت، فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت ولا أغواني عند الموت ولا عند البعث؛ وقيل: المراد به التحية. قيل: والسلام للجنس، وقيل: للعهد أي: وذلك السلام الموجه إلى يحيى في هذه المواطن الثلاثة موجه إلي. قيل: إنه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التي تتكلم فيها الصبيان في العادة.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن عساكر، عن ابن عباس في قوله: «فأنت به قومها تحمله» قال: بعد أربعين يوماً بعد ما تعالت من نفاسها، وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: أرايت ما تقرءون «يا لخت هارون» وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعت فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟» وهذا التفسير النبوي يغني عن سائر ما روي عن السلف في ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها في بطن أمه، فنلك قوله: «إني عبد الله أتاني الكتاب». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: «أتاني الكتاب» الآية، قال: قضى أن أكون كذلك. وأخرج الإسماعيلي في معجمه، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، وابن النجار عن أبي هريرة قال: «قال النبي ﷺ في قول عيسى: «وجعلني مباركاً أين ما كنت» قال: جعلني نفاعاً للناس أينما أتجهت». وأخرج ابن عدي، وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: «وجعلني مباركاً» قال: معلماً ومؤنباً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «ولم يجعلني جباراً شقياً» يقول: عصياً.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٩﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ يَخْذٌ مِنْ أَمْرِ سِحْنَةٍ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُ اللَّهُ رِيبٌ رَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢١﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلَ لَازِلِينَ كَرِهُوا مِنْ مُشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٢﴾ أَمَّ يَوْمَ أَتَيْنَا نَبِيَّكَ لِكُنْ أَظْلَمُ لِمَنِ الْيَوْمُ فِي سَكَلِ مِيزَانٍ ﴿٢٣﴾ وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْقِسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَمَنْ فِي عَقْلٍ وَمَنْ لَا يُوْثِقُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾

الإشارة بقوله: «ذلك» إلى المتصف بالأوصاف السابقة. قال الزجاج: ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى ابن مريم، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وأنه إله. وقرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب «قول الحق» بالنصب. وقرأ الباقر بالرفع. فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح، أو على أنه مصدر مؤكد لقال: إني عبد الله قاله الزجاج. ووجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى أي: ذلك عيسى ابن مريم قول

هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيؤمر به فينبح ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ الآية، وأشار بيده قال: أهل الدنيا في غفلة، وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: يوم الحسرة هو من أسماء يوم القيامة، وقرأ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فُرِطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 56]. وعلي هذا ضعيف، والآية التي استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَافِيًا نَبِيًّا ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَبْنَوتُ لِي مَعْبَدٌ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُفْقِئُ عَنْكَ شَيْئًا ۖ يَبْنَوتُ إِلَيَّ فَدَعَانِي مِنْ أَلْوَيْ مَا لَمْ يَأْتِكِ فَاتَّبَعْتَنِي أَهْلَكَ مِرْطًا سَوِيًّا ۖ يَبْنَوتُ لِي لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَصِيًّا ۖ يَبْنَوتُ إِلَيَّ أَخَافُ أَن يَبْسُكَ عَذَابِي مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ أَن تَعْبُدَ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَ لَأَكُونَنَّ لِلْكَافِرِينَ مِنْ أَكْثَرِ مِمَّنْ يَدْعُونَكَ سَاسْتَفِزُّكَ لَكَ رَحْمَةٌ ۖ إِنَّهُ كَانَتْ بِي حَقِيًّا ۖ وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَيْئًا ۖ فَلَمَّا آتَتْكُمْ مَوَدَّةَ رَبِّكُمْ وَمَا بِدُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جُفَاءً لِّبَنِي ۖ وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيَّ ۖ

قوله: ﴿وَأَنكَرُ﴾ معطوف على وأنذر، والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله: ﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: 69]. وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ صَافِيًا نَبِيًّا﴾ تعليل لما تقدم من الأمر لرسول الله ﷺ بأن ينكره، وهي معترضة ما بين البذل والمبدل منه، والصديق كثير الصدق، وانتصاب نبياً على أنه خبر آخر لكان أي: أذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين، و ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم، وتعليق الذكر الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، وأبو إبراهيم هو آزر على ما تقدم تقريره، التاء في يا أبت عوض عن الباء، ولهذا لا يجتمعان، والاستفهام في ﴿لَمْ تَعْبُدْ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له ﴿وَلَا يَبْصُرُ﴾ ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التي تفعلها مريداً بها الثواب، يجوز أن يحمل نفي السمع والبصير على ما هو أعم من ذلك أي: لا يسمع شيئاً من المسموعات، ولا يبصر شيئاً من المبصرات ﴿وَلَا يَغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ من الأشياء، فلا يجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضرراً، وهي الأصنام التي كان يعبد آزر. أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح، وصدر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه، وامتنالاً لأمر ربه، ثم كرر دعوته إلى الحق فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق ويقتدر

أغفلوا التفكير. والاعتبار والنظر في الآثار ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: يوم يتحسرون جميعاً، فالمتسي يتحسر على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ﴿إِذْ قَضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغ من الحساب وطويت الصحف، وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وجملة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ في محل نصب على الحال أي: غافلين عما يعمل بهم، وكذلك جملة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل نصب على الحال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات، فكانه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعاً ﴿وَالَّذِينَ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يردون إلينا يوم القيامة فنجازي كلا بعمله، وقد تقدم مثل هذا في سورة الحجر.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قال: الله الحق عز وجل. وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض وأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية؛ فقالت الثلاثة: كذبت، ثم قال اثنين منهم للثالث: قل فيه، فقال: هو ابن الله، وهم النسطورية؛ فقال اثنين كذبت؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، الله إله، وعيسى إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية، وهم ملوك النصارى، فقال الرابع: كذبت، هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته، وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا، فظهروا على المسلمين، فذلك قول الله سبحانه: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 21]. قال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً، فاختصم القوم، فقال المرء المسلم: أنشدكم بالله هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن الله لا يطعم؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن الله لا ينام؟ قالوا: اللهم نعم، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم، فنذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون، فأنزل الله ﴿قَوْلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ﴾ يقول الكفار يومئذ: أسمع شيء وأبصره، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قال: ذلك يوم القيامة. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون إليه فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادى يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون فيقولون: نعم

بإسماعيل هنا: هو إسماعيل بن إبراهيم، ولم يخالف في ذلك إلا من لا يعتد به فقال: هو إسماعيل بن حزقييل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيرته الله فيما شاء من عذابهم، فاستغفاه ورضي بثوابه، وقد استدل بقوله تعالى في إسماعيل ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته، وقيل: إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرمهم ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ قيل: المراد بأهله هو إسماعيل، وقيل: جرمهم، وقيل: عشيرته كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] والمراد بالصلاة والزكاة هنا، هما العبادتان الشرعيتان، ويجوز أن يراد معناهما اللغوي ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي رضى زاكياً صالحاً. قال الكسائي والفراء: من قال مرضي بنى على رضى، قالوا: وأهل الحجاز يقولون: مرضو ﴿وَأَنْزَلَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ اسم إدریس أخنوخ، قيل: هو جد نوح، فإن نوحاً هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وعلى هذا فيكون جد أبي نوح نكره الشعبى وغيره، وقد قيل: إن هذا خطأ، وامتناع إدریس للعجمة والعلمية. وهو أول من خط بالقلم ونظر في النجوم والحساب، وأول من خاط الثياب. قيل وهو أول من أعطي النبوة من بني آدم. وقد اختلف في معنى قوله: ﴿وَوَفَّعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فقيل: إن الله رفعه إلى السماء الرابعة، وقيل: إلى السادسة، وقيل: إلى الثانية. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث الإسراء فيه: ومنهم إدریس في الثانية، وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر. والصحيح أنه في السماء الرابعة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ، وقيل: إن المراد برفعه مكاناً علياً: ما أعطيه من شرف النبوة، وقيل: إنه رفع إلى الجنة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا، والموصول صفته، ومن النبيين بيان للموصول، و﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ بدل منه بإعادة الخافض، وقيل: إن من في من ذرية آدم للتبويض ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدریس، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿وَمِمَّنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم الباقون ﴿وِإِسْرَائِيلَ﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى، وقيل: إنه أراد بقوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ إدریس وحده، وأراد بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إبراهيم وحده، وأراد بقوله: ﴿وَمِمَّنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وأراد بقوله: ﴿وَمِمَّنْ ذُرِّيَةِ إِسْرَائِيلَ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أي: من جملة من هدينا إلى الإسلام ﴿وَوَلَّجْنَاهُمَا﴾ بالإيمان ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وهذا خبر لأولئك، ويجوز أن يكون الخبر هو الذين أنعم الله عليهم. وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه. وقد تقدم في سبحان بيان

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٢٨﴾ وَكَانَ يُأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٢٩﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ: إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَوَفَّعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٣١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَةَ ابْنَةَ إِدْرِيسَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَابْتَلَيْنَا إِنْ أَنْتَ نَظُنُّ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٣٢﴾ خَلَقَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوءَ بَقَاؤُهُمْ عَسَىٰ ﴿٣٣﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُلَاقُونَ فِيهَا بَأْسًا وَلَا يَكُونُ فِيهَا حَرٌّ وَلَا يَمْرُؤٌ ﴿٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ وَدَّعًا مَدِينًا ﴿٣٥﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا سُلْهًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ بَرٌّ وَعِيشٌ ﴿٣٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَكَنُفٌ آتِي تَوْرُثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ نَبِيًّا ﴿٣٧﴾

قفى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلوّه في الشرف. وقدمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه وبين نكر يعقوب أي: وأقرأ عليهم من القرآن قصة موسى ﴿إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصًا﴾ قرأ أهل الكوفة بفتح اللام أي: جعلناه مختاراً وأخلصناه، وقرأ الباقون بكسرهما أي: أخلص العبادة والتوحيد لله غير مرأى للعباد ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي: أرسله الله إلى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التي شرعها لهم، فهذا وجه ذكر النبي بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوة، فكانه أراد بالرسول معناه اللغوي لا الشرعي، والله أعلم. وقال النيسابوري: الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبي الذي ينبئ عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب، وكان المناسب نكر الأعم قبل الأخص، إلا أن رعية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله في طه: ﴿جِئْتُ بِهَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: 70]. انتهى ﴿وَوَنَانِيَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: كلمناه من جانب الطور، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير، ومعنى الأيمن: أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى، فإن الشجرة كانت في ذلك الجانب والنداء وقع منها، وليس المراد يمين الجبل نفسه. فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال؛ وقيل: معنى الأيمن الميمون، ومعنى النداء: أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب ﴿وَوَفَّيْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي: أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه، والنجي بمعنى المناجي كالجليس والنديم، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام، مثل حاله بحال من قرّبه الملك لمناجاته. قال الزجاج: قرّبه منه في المنزلة حتى سمع مناجاته؛ وقيل: إن الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم. روي هذا عن بعض السلف ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي: من نعمتنا، وقيل: من أجل رحمتنا، و﴿هَارُونَ﴾ عطف بيان، و﴿نَبِيًّا﴾ حال منه، وذلك حين سأل ربه قال: ﴿وَجَاعِلٌ لِي زَوْجًا مِنْ أَهْلِي﴾ هارون أخي [طه: 29 - 30]. ووصف الله سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كونه جميع الأنبياء كذلك، لأنه كان مشهوراً بذلك مبالغاً فيه، وناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوقى بذلك، وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالي، حتى قيل: إنه انتظر لبعض من وعده حولاً. والمراد

متلبسين بالغيب، وقرئ بصرف عدن، ومنعها على أنها علم
لمعنى العدن وهو الإقامة، أو علم لأرض الجنة **﴿إِنَّهُ كَانَ
وَعْدَهُ مَاتِيًّا﴾** أي: موعوده على العموم، فتدخل فيه الجنات
بخولاً أولياً. قال الفراء: لم يقل آتياً، لأن كل ما أتاك فقد
آتيته، وكذا قال الزجاج **﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾** هو الهمز
من الكلام الذي يلغى ولا طائل تحته، وهو كناية عن عدم
صدور اللغو منهم؛ وقيل: اللغو كل ما لم يكن فيه نكر الله
﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ هو استثناء منقطع أي: سلام بعضهم على
بعض، أو سلام الملائكة عليهم. وقال الزجاج: السلام اسم
جامع للخير، لأنه يتضمن السلامة، والمعنى: أن أهل الجنة
لا يسمعون ما يؤلمهم وإنما يسمعون ما يسلمهم **﴿وَلَهُمْ
رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾** قال المفسرون: ليس في الجنة
بكرة ولا عشية، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون
من الغذاء والعشاء **﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ
كَانَ تَقِيًّا﴾** أي: هذه الجنة التي وصفنا أحوالها نورثها من
كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه. قرأ
يعقوب (نورث) بفتح الواو وتشديد الراء، وقرأ الباكون
بالتخفيف، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: نورث
من كان تقياً من عبادنا.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم
عن مجاهد في قوله: **﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾** قال: النبي الذي
يكلم وينزل عليه ولا يرسل، ولفظ ابن أبي حاتم: الأنبياء
الذين ليسوا يرسل يوحى إلى أحدهم ولا يرسل إلى أحد.
والرسل: الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون. وأخرج
عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله:
﴿جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ قال: جانب الجبل الأيمن **﴿وَوُفِّيْنَاهُ
نَجِيًّا﴾** قال: نجا بصدقه. وأخرج عبد بن حميد عن أبي
العالية قال: قربه حتى سمع صريف القلم، وروي نحو هذا
عن جماعة من التابعين. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة،
وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
والحاكم وصححه عن ابن عباس في الآية قال: حتى سمع
صريف القلم يكتب في اللوح. وأخرجه الديلمي عنه مرفوعاً.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:
﴿وَوُفِّيْنَاهُ لَهْ مِنْ رَحْمَتِنَا لُحَاهُ هَرُونَ﴾ قال: كان هارون
أكبر من موسى، ولكن إنما وهب له نبوته. وأخرج ابن أبي
حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَوُفِّيْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾** قال:
كان إدريس خياطاً، وكان لا يغرز غرزة إلا قال: سبحان الله،
وكان يمسي حين يمسي وليس على الأرض أفضل عملاً
منه، فاستأن ملك من الملائكة ربه فقال: يا ربّ أئذن لي
فأهبط إلى إدريس، فأذن له فأتى إدريس فقال: إني جئتكَ
لأخدمك، قال: كيف تخدمني وأنت ملك وأنا إنسان؟ ثم قال
إدريس: هل بينك وبين ملك الموت شيء؟ قال الملك: ذاك
أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفعي؟ قال: أما
يؤخر شيئاً أو يقدمه فلا، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند
الموت، فقال: اركب بين جناحي، فركب إدريس فصعد إلى

معنى خروا سجداً يقال: بكى يبكي بكاءً وبكياً. قال الخليل:
إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أي: ليس معه صوت، ومنه
قول الشاعر:

بكت عيني وحق لها بكاءها وما يغني البكاء ولا العويل
وسجدا منصوب على الحال. قال الزجاج: قد بين الله أن
الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا، وقد استدل
بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة، ولما مدح هؤلاء
الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيباً لغيرهم في الاقتداء بهم
وسلوك طريقتهم ذكر أصدادهم تنفيراً للناس عن طريقتهم
فقال: **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾** أي: عقب سوء. قال أهل
اللغة: يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام، ولعقب الشر خلف
بسكون اللام، وقد قذمنا الكلام على هذا في آخر الأعراف
﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ قال الأكثر: معنى ذلك أنهم أخرجوها عن
وقتها؛ وقيل: أضاعوا الوقت وقيل: كفروا بها وجحدوا
وجوبها؛ وقيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع. والظاهر
أن من آخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو
شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها، ويدخل
تحت الإضاعة من تركها بالمرّة أو جحدها بخولاً أولياً.

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية؟ فقيل: في اليهود؛ وقيل:
في النصارى؛ وقيل: في قوم من أمة محمد ﷺ يأتون في
آخر الزمان، ومعنى **﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾** أي: فعلوا ما
تشتهي أنفسهم وترغب إليه من المحرمات كشرب الخمر
والزنا **﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾** الغي هو الشر عند أهل اللغة
كما أن الخير هو الرشاد، والمعنى: أنهم سيلقون شرّاً لا
خيراً؛ وقيل: الغي الضلال، وقيل: الخيبة، وقيل: هو اسم وإد
في جهنم؛ وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: سيلقون جزاء
الغي كذا قال الزجاج، ومثله قوله سبحانه: **﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾**
[الفرقان: 68]، أي: جزاء أثام **﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا﴾** أي: تاب مما فرط منه من تضبيب الصلوات و
اتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله وآمن به وعمل عملاً
صالحاً، وفي هذا الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة لا
في المسلمين **﴿قَالُوا لَيْتَ نَحْنُ الْيَهُودُ﴾** قرأ أبو جعفر
وشيبة، وابن كثير، وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو
بكر (يدخلون) بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الباكون بفتح
الياء وضم الخاء **﴿وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾** أي: لا ينقص من
أجورهم شيء وإن كان قليلاً، فإن الله سبحانه يوفي إليهم
أجورهم، وانتصاب **﴿جَنَاتِ عَدْنٍ﴾** على البدل من الجنة،
بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة. قال الزجاج:
ويجوز جنات عدن بالرفع على الابتداء، وقرئ كذلك. قال أبو
حاتم: ولولا الخط لكان جنة عدن يعني: بالإفراد مكان الجمع
وليس هذا بشيء، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التي هي
بمنزلة الأنواع للجنس. وقرئ ينصب الجنات على المدح،
وقد قرئ جنة بالإفراد **﴿الَّتِي وَعَدَ لِلرَّحْمَنِ عِبَادَهُ
بِالْغَيْبِ﴾** هذه الجملة صفة لجنات عدن، وبالغيب في محل
نصب على الحال من الجنات، أو من عباده أي: متلبسة، أو

على أبلغ وجه وأكمله ﴿ويقول الإنسان أئذا ما متّ لسوف أخرج حياً﴾ قرأ الجمهور على الاستفهام، وقرأ ابن نكوان إذا ما متّ على الخبر، والمراد بالإنسان ها هنا: الكافر، لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث؛ وقيل: اللام في الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا البعض، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم، والمراد بقوله أخرج أي: من القبر، والعامل في الظرف فعل دل عليه أخرج، لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها ﴿أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي، والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها، والمراد بالذكر هنا إعمال الفكر أي: ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه فيستدلّ بالابتداء على الإعادة، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداءً واختراعاً، لم يتقدّم عليه ما يكون كالمثال له، وأما النشأة الآخرة فقد تقدّم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها، ومعنى ﴿من قبل﴾ قبل الحالة التي هو عليها الآن، وجملة «ولم يك شيئاً» في محل نصب على الحال أي: والحال أنه لم يكن حينئذ شيئاً من الأشياء أصلاً، فإعادته بعد أن كان شيئاً موجوداً أسهل وأيسر. قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل الكوفة إلا عاصماً (أو لا يذكر) بالتشديد، وأصله يتنكر. وقرأ شيبه ونافع وعاصم وابن عامر (ينكر) بالتخفيف، وفي قراءة أبي (أو لا يتنكر). ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التي أجمع العقلاء على أنه لم يكن في حجج البعث حجة أقوى منها، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافاً إلى رسوله تشريفاً له وتعظيماً، فقال: ﴿فأوربك لنحشرنهم﴾ ومعنى لنحشرنهم: لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، والواو في قوله: ﴿والشياطين﴾ للعطف على المنصوب، أو بمعنى مع. والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشرونهم الله مع شياطينهم الذين أغروهم وأضلوهم، وهذا ظاهر على جعل اللام في الإنسان للعهد، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فكونه قد وجد في الجنس من يحشر مع شيطانه ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ الجثي جمع جث، من قولهم جثاً على ركبتيه يجثو جثواً، وهو منتصب على الحال أي: جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، أو لكون الجثي على الركب شأن أهل الموقف كما في قوله سبحانه: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ [الجاثية: 28]. وقيل: المراد بقوله جثياً جماعات، وأصله جمع جثوة، والجثوة هي المجموع من التراب أو الحجارة. قال طرفة:

أرى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ الشيعة الفرقة التي تبعت ديناً من الأديان، وخصص ذلك الزمخشري فقال: هي الطائفة التي شاعت أي: تبعت غاوباً من الغواة قال الله تعالى: ﴿إن

بأمر الله. قيل: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ أربعين يوماً؛ وقيل: خمسة عشر؛ وقيل: اثني عشر؛ وقيل: ثلاثة أيام؛ وقيل: إن هذا حكاية عن أهل الجنة، وأنهم يقولون عند دخولها: وما نتنزل هذه الجنان ﴿إلا بأمر ربك﴾ والأول أولى بدلالة ما قبله، ومعناه يحتمل وجهين: الأول وما نتنزل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل. والثاني وما نتنزل عليك إلا بأمر ربك الذي يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك، والتنزل: النزول على مهل، وقد يطلق على مطلق النزول. ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي ﷺ فقال: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين تلك﴾ أي: من الجهات والأماكن، أو من الأزمنة الماضية والمستقبلية، وما بينهما من الزمان أو المكان الذي نحن فيه، فلا نقدر على أن نتنزل من جهة إلى جهة، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيتته، وقيل: المعنى له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك، وهو ما بين النختين؛ وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض، وقيل: ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التي نحن فيها. وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى: أن الله سبحانه هو المحيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فلا تقدم على أمر إلا بإذنه. وقال: وما بين ذلك، ولم يقل وما بين ذلك لأن المراد: وما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه: ﴿عوان بين ذلك﴾ [البقرة: 68]. ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي: لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي، وقيل: المعنى إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئاً؛ وقيل: المعنى وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذي يرسل فيه رسله ﴿ربّ السفوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالقهما وخالق ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه. ثم أمر الله نبيه ﷺ بعبادته والصبر عليها فقال: ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ والفاء للسببية لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد، وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿هل تعلم له سمياً﴾ الاستفهام للإنكار. والمعنى: أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه، فلما انتفى المشاركة استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبني على أن المراد بالسمي هو الشريك في المسمى؛ وقيل: المراد به الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل: المعنى إنه لم يسم شيء من الأصنام ولا غيرها بالله قط، يعني: بعد دخول الألف واللام التي عوضت عن الهمزة ولزمت، وقيل: المراد هل تعلم أحداً أسمه الرحمن غيره؟ قال الزجاج: تأويله وإنه أعلم: هل تعلم له سمياً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون، وعلى هذا لا سمي لله في جميع أسمائه، لأن غيره وإن سمي بشيء من أسمائه، قلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا: نفي المعلوم

[القصص: 23]. فإن المراد أشرف عليه لا أنه دخل فيه، ومنه قول زهير:

فلما وردن الماء زرقا حمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم
ولا يخفى أن القول بأن الورد هو المرور على الصراط، أو الورد على جهنم وهي خامدة فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورد على دخول النار مع كون الدالخل من المؤمنين مبعداً من عذابهما، أو بحمله على المضى فوق الجسر المنسوب عليها، وهو الصراط ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ أي: كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة، وقد استدلّت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرّق الخلف إليه ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ أي: اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر بالله ومعاصيه، وترك ما شرعه، وأوجب العمل به. قرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة (ننجي) بالتخفيف من أنجي، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائي، وقرأ الباقر بالتشديد، وقرأ ابن أبي ليلى ﴿ثم نذر﴾ بفتح الناء من ثم، والمراد بالظالمين: الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض، والجني جمع جاثٍ، وقد تقدّم قريباً تفسير الجني وأعرابه.

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾ إلى آخر الآية». وزاد ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وكان ذلك الجواب لمحمد. وأخرج ابن مردويه من حديث أنس قال: «سئل رسول الله ﷺ أي البقاع أحب إلى الله، وأبها أبغض إلى الله؟ قال: ما أدري حتى أسأل، فنزل جبريل، وكان قد أبطأ عليه، فقال: لقد أبطأت عليّ حتى ظننت أن بربي عليّ موحدة، فقال: ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «أبطا جبريل على النبي ﷺ أربعين يوماً ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: ما نزلت حتى اشتقت إليك، فقال له جبريل: أنا كنت إليك أشوق، ولكني مأمور، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾». وهو مرسل. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: «ما حبسك عني؟ قال: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم ولا تأخذون شواربكم ولا تستلكون؟ وقرأ ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾». وهو مرسل أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿له ما بين يميننا﴾ قال: من أمر الآخرة ﴿وما خلفنا﴾ قال: من أمر الدنيا ﴿وما بين ذلك﴾ قال: ما بين الدنيا والآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وما بين ذلك﴾ قال: ما

الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً [الأنعام: 159]. ومعنى ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ من كان أعصى لله وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف النقي والفساد أعصاهم واعتامهم، فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم. والعتي ها هنا مصدر كالعتوّ، وهو التمرّد في العصيان، وقيل: المعنى لننزع من أهل كلّ دين قانتهم ورؤساهم في الشر. وقد اتفق القراء على قراءة أيهم بالضم إلا هارون الغازي فإنه قرأها بالفتح. قال الزجاج: في رفع أيهم ثلاثة أقوال: الأول قول الخليل بن أحمد إنه مرفوع على الحكاية. والمعنى: ثم لننزع من كل شعبة الذين يقال لهم أيهم أشد، وأنشد الخليل في ذلك قول الشاعر:

وقد أبيت من الفتاة بمنزل فابيت لا حرج ولا محروم
أي: فابيت بمنزلة الذي يقال له هو لا حرج ولا محروم. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يعني: الزجاج يختار هذا القول ويستحسنه. القول الثاني قول يونس: وهو أن لننزع بمنزلة الأفعال التي تلتقى وتعلق، فهذا الفعل عنده معلق عن العمل في أي، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليل بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه. القول الثالث قول سيبويه: إن أيهم ها هنا مبني على الضم، لأنه خالف أخواته في الحذف، وقد غلط سيبويه في قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج: ما تبين لي أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما، وللنحويين في إعراب أيهم هذه في هذا الموضع كلام طويل ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ يقال: صلى بصلّي صلياً مثل مضى الشيء يمضي مضياً، قال الجوهري: يقال صليت الرجل نأراً إذا أسلخته النار وجعلته يصلها، فإن القية إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت: أصلية بالالف وصلية تصلية ومنه ﴿ويصلي سعيماً﴾ [الأنشاق: 12]. ومن خفف فهو من قولهم: صلي فلان النار بالكسر يصلي صلياً احترق، قال الله تعالى: ﴿الذين هم أولى بها صلياً﴾ قال العجاج:

والله لولا النار أن تصلها

ومعنى الآية: أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتياً هم أولى بصليتها أو صليهم أولى بالنار ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ الخطاب للناس من غير التفات، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتاً أي: ما منكم من أحد إلا واردها أي: واصلها.

وقد اختلف الناس في هذا الورد، فقيل: الورد الدخول ويكون على المؤمنين برأ وسلاماً كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورد هو المرور على الصراط؛ وقيل: ليس الورد الدخول إنما هو كما يقول: وردت البصرة ولم أدخلها، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورد، وحمله على ظاهره لقوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ [الأنبياء: 101]. قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، ومما يدل على أن الورد لا يستلزم الدخول قوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾

الصراط. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي، وابن الأنباري، وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليبرد الناس كلهم النار، ثم يصعدون عنها بأعمالهم، فأولهم كلعج البرق، ثم كالريح، ثم كحضرة الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشدة الرجل، ثم كمشيته». وقد روي نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، يقول: مجتاز فيها. وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد شهد براءاً والحبيبية. قالت حفصة: اليس الله يقول: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قالت: ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾». وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم»، ثم قرأ سفيان ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾. وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم، فإن الله يقول: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾». والاحاديث في تفسير هذه الآية كثيرة جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿حَتَّمَا مَقْضِيًّا﴾ قال: قضاء من الله. وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن عكرمة حتماً مقضياً قال: قسماً واجباً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَذِرَ لِلظَّالِمِينَ فِيهَا جَنَّتِي﴾ قال: باقين فيها.

وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مِّمَّا وَآخَسَ نُونًا ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ جَاءَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ أَحْسَنُ آيَاتُنَا وَإِنَّهُمْ قُلُومٌ مِّنْ كَانِ فِي الْغُلَّةِ فَلَمَّا دَلَّ الْأَرْحَمُونَ مَدًّا حَقًّا إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ مَسْجُومُونَ مِنْ هُوَ مَرُّ نَكَاةٍ وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٧﴾ وَبَزِيدَ اللَّهُ الْيَرِيكَ أَهْتَدُوا هَذِي وَالْبَيِّنَاتُ الْفَلِاحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نُورًا وَسَخِرَ مَرَدًا ﴿٧٨﴾ أَفَرَأَيْتَ الْأَرَى كَرَّرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَاؤُرِثُكَ مَا لَاؤُرِثُكَ ﴿٧٩﴾ أَمَلَعَ الْيَتِيمَ أَرَأَيْتَ عِنْدَ الْأَرْحَمِينَ عَهْدًا ﴿٨٠﴾ كَلَّا سَكَتُوبُ مَا يَقُولُ وَسُمَدُّ لَمَّ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٨١﴾ وَزُرُّهُمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٢﴾

الضمير في ﴿عليهم﴾ راجع إلى الكفار الذين سبق نكرهم في قوله: ﴿إنذا ما مت لسوف أخرج حيا﴾ [مريم: 66] أي: هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعذبوا بالدنيا، وقالوا: لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حاكمكم في الدنيا أطيوب من حالنا. ولم يكن بالعكس، لأن الحكيم لا يليق به أن يبين أوليائه ويعز أعداءه، ومعنى البيئات: الواضحات التي لا تلتبس معانيها؛ وقيل: ظاهرات الإعجاز، وقيل: إنها حجج وبراهين، والأول أولى. وهي حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة، ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله:

بين النفختين. وأخرج ابن المنذر عن أبي العالية مثله. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني، والبيهقي، والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رفع الحديث قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عاقبة». فاقبلوا من الله عاقبته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، ثم تلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾. وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال: هل تعرف للرب شيئاً أو مثلاً؟ وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عنه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟﴾ قال: ليس أحد يسمى الرحمن غيره، وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ قال: العاص بن وائل، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جَنَّتِي﴾ قال: قعوداً، وفي قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ قال: معصية. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ قال: عصياً. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُنزَعَنَّ﴾ قال: لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم في الشر. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: نحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، ثم قرأ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَتِيًّا﴾. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُنْحِنِّي أَعْلَمَ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صُلًيًا﴾ قال: يقول إنهم أولى بالخلود في جهنم. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضهم: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً ﴿ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فلقيت جابر بن عبد الله فنكرت له، فقال وأهوى بأصبعه إلى أذنيه صمتم: إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برءاً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردها ﴿ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرَ لِلظَّالِمِينَ فِيهَا جَنَّتِي﴾». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق وابن عباس، فقال ابن عباس: الورود للدخول، وقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ [الأنبياء: 98]. وقال: وردوا أم لا؟ وقرأ ﴿يقيم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ [هود: 98]. أوردا أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا؟. وأخرج الحاكم عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: وإن منكم إلا داخلها. وأخرج هناد، والطبراني عنه في الآية قال: ورودها

﴿قال الذين كفروا﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم، وقيل: المراد بالذين كفروا هنا هم المتمردون المصرون منهم، ومعنى قالوا ﴿الذين آمنوا﴾ قالوا: لأجلهم، وقيل: هذه اللام هي لام التبليغ كما في قوله: ﴿وقال لهم نبيهم﴾ [البقرة: 247 و248] أي: خاطبهم بذلك وبلغوا القول إليهم ﴿أي الفريقين خير مقاماً﴾ المراد بالفريقين: المؤمنون والكافرون، كأنهم قالوا: أقرقنا خير أم فريقكم؟ قرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד، وشبل بن عباد مقاماً بضم الميم وهو موضع الإقامة، ويجوز أن يكون مصدرأ بمعنى: الإقامة، وقرأ الباقرين بالفتح أي: منزلاً ومسكناً وقيل: المقام الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة والمعنى: أي الفريقين أكبر جاهاً وأكثر انصاراً وأعواناً، والندى والنادي: مجلس القوم ومجتمعهم، ومنه قوله تعالى: ﴿تأتون في ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت: 29]. وناداه جالسه في النادي، ومنه دار الندوة، لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم، ومنه أيضاً قول الشاعر:

انادي به آل الوليد جعفرأ

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ القرن: الأمة والجماعة ﴿هم أحسن أثاثاً ورثاً﴾ الأثاث المال أجمع: الإبل والغنم والبقر والعييد والمتاع وقيل: هو متاع البيت خاصة، وقيل: هو الجديد من الفرش؛ وقيل: اللباس خاصة. واختلفت القراءات في (ورثاً) فقرأ أهل المدينة وابن نكوان (ورثاً) بياء مشددة، وفي ذلك وجهان: أحدهما أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فابدل منها ياء وأدغمت الياء في الياء، والمعنى على هذه القراءة: هم أحسن منظراً وبه قول جمهور المفسرين، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس؛ أو حسن الأبدان وتنعمهم، أو مجموع الأمرين. وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير (ورثاً) بالهمز، وحكاها ورش عن نافع، وهشام عن ابن عامر، ومعناها معنى القراءة الأولى. قال الجوهري: من همز جعله من المنظر من رأيت، وهو ما رآته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي:

أشافتك الظعائن يوم بانوا بذى الرثى الجميل من الأثاث

ومن لم يهزم: إما أن يكون من تخفيف الهمزة، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم ريثاً أي: امتلات وحسنت. وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدي. وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة، فقيل: إن هذه القراءة غلط، وجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين، وروي عن ابن عباس أنه قرأ بالزاي مكان الراء، وروي مثل ذلك عن أبي بن كعب، وسعيد بن جبير، والأعصم المكي واليزيدي، والزي الهيثم والحسن. قيل: ويجوز أن يكون من زويت أي: جمعت، فيكون أصلها زوياً فقلبت الواو ياء، والزي محاسن مجموعة ﴿قل من كان في الضلالة﴾ أمر الله سبحانه رسوله الله ﷺ أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية أي:

من كان مستقراً في الضلالة ﴿فليمد له الرحمن مداً﴾ هذا وإن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإهمال منه سبحانه للعصاة، وأن ذلك كائن لا محالة لتقطع معانير أهل الضلال، ويقال لهم يوم القيامة ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ [فاطر: 37]. أو للاستدراج كقوله سبحانه: ﴿إنما نملئ لهم ليزدادوا إثماً﴾ [آل عمران: 178]. وقيل: المراد بالآية الدعاء بالمد والتنفيس. قال الزجاج: تأويله أن الله جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمدّه فيها، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كان المتكلم يقول: أفعل ذلك وأمر به نفسي ﴿حتى إذا راوا ما يوعدون﴾ يعني: الذين مذ لهم في الضلالة، وجاء بضمير الجماعة اعتباراً بمعنى من، كما أن قوله: ﴿كان في الضلالة فليمد له﴾ اعتبار بلفظها، وهذه غاية للمد، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد ﴿إما العذاب وإما الساعة﴾ هذا تفصيل لقوله ما يوعدون أي: هذا الذي ترعدون هو أحد أمرين إما العذاب في الدنيا بالقتل والأسر، وإما يوم القيامة وما يحلّ بهم حينئذٍ من العذاب الآخري ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ هذا جواب الشرط، وهو جواب على المفتخرين أي: هؤلاء القائلون: أي الفريقين خير مقاماً، إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوي بأيدي المؤمنين، أو الآخري، فسيعلمون عند ذلك من هو شر مكاناً من الفريقين، وأضعف جنداً منهما: أي أنصاراً وأعواناً. والمعنى: أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شر مكاناً لا خير مكاناً، وأضعف جنداً لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين، وليس المراد أن للمفتخرين هناك جنداً ضعفاء، بل لا جند لهم أصلاً كما في قوله سبحانه: ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرأ﴾ [الكهف: 43] ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ وذلك أن بعض الهدى يجزئ إلى البعض الآخر، والخير يدعو إلى الخير؛ وقيل: المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين، والواو في «ويزيد» للاستئناف، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين؛ وقيل: الواو للعطف على فليمد؛ وقيل: للعطف على جملة من كان في الضلالة. قال الزجاج: المعنى أن الله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقيناً كما جعل جزاء الكافرين أن يمدهم في ضلالتهم ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً﴾ هي الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، ومعنى كونها خيراً عند الله ثواباً: أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية ﴿وخير مردأ﴾ المرء ها هنا مصدر كالرء، والمعنى: وخير مردأ للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التي خسروا فيها، والمرد المرجع والعاقبة والتفضل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً. ثم أرف سببانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال: ﴿أفرايت الذي كفر بأياتنا﴾ أي: أخبرني بقصة هذا الكافر وأذكر حديثه عقب

حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرَ مَقَامًا﴾ قال: المنازل
 ﴿وَلِحَسَنَ نِّدَاءٍ﴾ قال: المجالس، وفي قوله: ﴿أَحْسَنَ اثْنَانًا﴾
 قال: المتاع والمال ﴿وَرِثِيًّا﴾ قال: المنظر. وأخرج ابن أبي
 شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
 مجاهد في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ
 الرَّحْمَنُ مَذَلًّا﴾ فليدعه الله في طغيانه؛ وأخرج ابن أبي شيبة،
 وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبيب بن أبي ثابت قال في
 حرف أبي: «قل من كان في الضلالة فإنه يزيد الله ضلاله».
 وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي
 كَفَرَ﴾ من حديث خباب بن الارت قال: كنت رجلاً قيناً وكان
 لي على العاص بن وائل دين، فأتيته انتقاضه فقال: لا والله
 لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: والله لا أكفر بمحمد
 حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا مت ثم بعثت جثتي ولي
 ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله فيه هذه الآية. وأخرج ابن
 أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَمَّا اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ
 عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله يرجو بها. وأخرج ابن المنذر، وابن
 أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ماله وولده.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ
 بِبِعَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَوْرَثُهُمْ أَمْ لَهُمْ عَلِيمٌ لِمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٣﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَوَكِّلِينَ
 إِلَى الْآخِرِينَ فَقَدْ أَسْرَفُوا الْمَرْبِيعَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًّا ﴿٨٤﴾ لَا يَبْلُغُونَ
 الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَتَى عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٦﴾
 لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِثًّا ﴿٨٧﴾ تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعُنَّ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ
 وَتَجْرُ لِبَالًا هَذَا ﴿٨٨﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٨٩﴾ وَمَا يَبْغَى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ
 وَلَدًا ﴿٩٠﴾ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عِندًا ﴿٩١﴾ لَقَدْ
 أَحْصَيْنَا عَذَابَهُمْ عَذَابًا ﴿٩٢﴾ وَكُلُّهُمْ مَائِيَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرَدًا ﴿٩٣﴾

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا
 يستحقونه، وتكلموا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من
 دون الله لأجل يتعززون بذلك. قال الهروي: معنى ﴿لِيَكُونُوا
 لَهُمْ عِزًّا﴾ ليكونوا لهم أعواناً. قال الفراء: معناه ليكونوا لهم
 شفعاء في الآخرة، وقيل: معناه ليتعززوا بهم من عذاب الله
 ويمتنعوا بها ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادِهِمْ﴾ أي: ليس الأمر
 كما ظنوا وتوهموا، والضمير في الفعل إما للآلهة أي:
 ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله
 سبحانه، لأنها عند أن عبيدها جمادات لا تعقل ذلك، وإما
 للمشركين أي: سيجحد المشركون أنهم عبيدوا الأصنام،
 ويدل على الوجه الأول قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾
 [القصص: 63]. وقوله: ﴿فَالْقُلُوبُ إِلَيْهِمْ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾
 [النحل: 86]. ويدل على الوجه الثاني قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا
 مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] وقرأ ابن أبي نهيك (كلا)
 بالتثنية، وروي عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها فعلى الضم
 هي بمعنى جميعاً وانتصابها بفعل مضمر كأنه قال:
 سيكفرون كلا سيكفرون بعبادهم، وعلى الفتح يكون مصدرًا

حديث أولئك، وإنما استعملوا رأيت بمعنى أخبر، لأن رؤية
 الشيء من أسباب صحة الخبر عنه، والآيات تعم كل آية
 ومن جعلتها آية البعث، والفاء للعطف على مقدر يدل عليه
 المقام أي: أنظرت فرأيت، واللام في ﴿لَاؤْتَيْنِ مَا لَا وُلْدًا﴾
 هي الموطئة للقسم، كأنه قال: والله لاؤتين في الآخرة ما لا
 وُلْدًا أي: أنظر إلى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتاليه
 على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته. ثم أجاب سبحانه عن
 قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، فقال: ﴿أَطْلِعْ﴾ على
 ﴿الْغَيْبِ﴾ أي: أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه في الجنة
 ﴿وَأَمَّا اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ بذلك، فإنه لا يتوصل إلى
 العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين؛ وقيل: المعنى أنظر في
 اللوح المحفوظ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهداً؛ وقيل: معنى أم
 اتخذ عند الرحمن عهداً؟ أم قال: لا إله إلا الله فأرحمه بها؛
 وقيل: المعنى أم قدّم عملاً صالحاً فهو يرجوه، وأطلع مأخوذ
 من قولهم: أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. وقرأ حمزة،
 والكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش (وُلْدًا) بضم الواو،
 والباقيون بفتحها، فقيل: هما لغتان معناهما واحد، يقال: ولد
 وولد كما يقال: عدم وعدم، قال الحارث بن حِزَظَةَ:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا قَدِ امْتَرَوْا مَا لَا وُلْدًا
 وقال آخر:

فليت فلاناً كان في بطن أمه وليت فلاناً كان ولد حمار

وقيل: الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد. وقد ذهب
 الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله: لاؤتين ما لا وُلْدًا
 أنه يؤتى ذلك في الدنيا. وقال جماعة: في الجنة، وقيل:
 المعنى إن أقمت على دين آبائي لاؤتين؛ وقيل: المعنى لو
 كنت على باطل لما أوتيت ما لا وُلْدًا ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا
 يَقُولُ﴾ كلا حرف ردع وزجر أي: ليس الأمر على ما قال
 هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد سيكتب ما يقول أي:
 سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه في الآخرة، أو سنظهر ما
 يقول، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿وَنُعَذِّبُ
 لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذَلًّا﴾ أي: نزيد عذاباً فوق عذابه مكان ما
 يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أو نطوّل له من
 العذاب ما يستحقه وهو عذاب من جمع بين الكفر
 والاستهزاء ﴿وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نميته فنرثه المال
 والولد الذي يقول إنه يؤثاه. والمعنى: مسمى ما يقول
 ومصادقه، وقيل: المعنى نحرمة ما تمناه ونعطيه غيره
 ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: يوم القيامة لا مال له ولا ولد، بل
 نسلبه ذلك، فكيف يطمع في أن تؤثيه؛ وقيل: المراد بما
 يقول نفس القول لا مسماه، والمعنى: إنما يقول هذا القول
 ما دام حياً، فإذا امتناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا
 رافضاً له منفرداً عنه، والأول أولى.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
 مجاهد في قوله: ﴿إِنِّي الْفَرِيقَيْنِ خَيْرَ مَقَامًا﴾ قال: قريش
 تقوله لها ولأصحاب محمد. وأخرج الفريابي، وسعيد بن
 منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

الجماعة التي ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك. والورد الماء الذي يورد، وجملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ مستأنفة لبيان بعض ما يكون في ذلك اليوم من الأمور، والضمير في يملكون راجع إلى الفريقين؛ وقيل: للمتقين خاصة؛ وقيل: للمجرمين خاصة، والأول أولى. ومعنى لا يملكون الشفاعة: أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم؛ وقيل: لا يملك غيرهم أن يشفع لهم، والأول أولى ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول أي: لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمناً متقياً، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله؛ وقيل: معنى اتخاذ العهد أن الله أمره بذلك كقولهم: عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به؛ وقيل: معنى اتخاذ العهد شهادة أن لا إله إلا الله؛ وقيل: غير ذلك. وعلى الاتصال في هذا الاستثناء يكون محل من في من اتخذ الرفع على البذل، أو النصب على أصل الاستثناء. وأما على الوجه الثاني فالاستثناء منقطع لأن التقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وهم المسلمون؛ وقيل: هو متصل على هذا الوجه أيضاً، والتقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلماً ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وحمة، والكسائي (ولداً) بضم الواو وإسكان اللام. وقرأ الباقر في الأربعة المواضع المذكورة في هذه السورة بفتح الواو واللام، وقد قدمنا الفرق بين القراءتين، والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، وفي قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء، والإد كما قال الجوهري: الداهية والأمر الفظيع، وكذلك الآفة، وجمع الآفة أدد. يقال: أنت فلاناً الداهية تؤده أءاء بالفتح. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (أدأ) بفتح الهمزة، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ ابن عباس وأبو العالية (أدأ) مثل مادأ، وهي مأخوذة من الثقل، يقال: أدّه الحمل يؤده: إذا أثقله. قال الواحدي ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أي: عظيماً في قول الجميع، ومعنى الآية: قلتم قولاً عظيماً؛ وقيل: الإدّ العجب، والإدّة الشدة، والمعنى متقارب والتكرير يدور على الشدة والثقل ﴿يَكِيدُ السُّفُوفَاتِ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ قرأ نافع، والكسائي، وحفص، ويحيى بن وثاب (يكاد) بالتحية، وقرأ الباقر بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير وحفص⁽¹⁾ (يتفطرن) بالتاء الفوقية، وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل (يتفطرن) بالتحية من الانفتار، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾ [الانفطار: 1]. وقوله: ﴿السَّمَاءُ مَنفُطَرٌ بِهِ﴾ [الزمل: 18]. وقرأ ابن مسعود (يتصدعن) والانفطار

(1) (قوله وحفص) صوابه والكسائي وحفص، اهـ مصصح القرآن.

لفاعل محذوف تقديره: كل هذا الرأي كلا، وقراءة الجمهور هي الصواب، وهي حرف ردع وزجر ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: تكون هذه الأكلة التي ظنوها عزاً لهم ضدّاً عليهم أي: ضدّاً للعزّ وضدّاً للذلّ هذا على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني فيكون المشركون للأكلة ضدّاً وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين: أحدهما أن معناه خليتنا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم منهم ولم نعدهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: 65]. الوجه الثاني أنهم أرسلوا عليهم وقبضوا لهم بكفرهم قال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا﴾ [الزخرف: 36]. فمعنى الإرسال ها هنا: التسليط ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس ﴿وَاسْتَفْزِزْ مِنْ اسْتَضَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: 64]. ويؤيد الوجه الثاني تمام الآية، وهو ﴿تَوَّزَّعْ أَرْبَاةً﴾ فإن الأرباع والاستفزاز معناها: التحريك والتهيج والإزعاج، فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغويهم، وذلك هو التسليط لها عليهم، وقيل: معنى الأرباع الاستعجال، وهو مقارب لما ذكرنا لأن الاستعجال تحريك وتهيج واستفزاز وإزعاج، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول الله ﷺ من حالهم وللتنبية له على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم، وجملة: تَوَّزَّعْ أَرْبَاةً في محل نصب على الحال، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام؛ كأنه قيل: ماذا تفعل الشياطين بهم؟ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق وتمردهم عن داعي الله سبحانه، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ يعني: نعد الأيام والليالي والشهور والسنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم؛ وقيل: نعد أنفاسهم؛ وقيل خطواتهم؛ وقيل: لحظاتهم؛ وقيل: الساعات. وقال قطرب: نعد أعمالهم؛ وقيل: المعنى لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدانوا إثماً. ثم لما قرّر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكره أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ، فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ الظرف منصوب بفعل مقتر أي: انكر يا محمد يوم الحشر؛ وقيل: منصوب بالفعل الذي بعده، ومعنى حشرهم إلى الرحمن: حشرهم إلى جنته ودار كرامته، كقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصفافات: 99] والوفد جمع وافد كالركب جمع راكب وصحب جمع صاحب، يقال: وفد وفد وفداً إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهري ﴿وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا﴾ السوق: الحث على السير، والورد: العطاش قاله الأخفش وغيره. وقال الفراء وابن الأعرابي: هم المشاة، وقال الأزهرى: هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء؛ وقيل وردا أي: للورد، كقولك جئتكم إكراماً أي: للإكرام، وقيل: أقراداً. قيل: ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشاً أقراداً، وأصل الورد

هذا الباب كثيرة جداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس **﴿وردك﴾** قال: عطاشاً. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾** قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وتبرأ من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله. وأخرج ابن مردويه عنه في الآية قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ **﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾** قال: إن الله يقول يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم، فلا يقوم إلا من قال هذا في الدنيا، قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في الحياة الدنيا أنك إن تكلمني إلى عملي تقربني من الشر وتباعني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لي عندك عهداً تؤديه إلي يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرتني، ومن سرتني فقد اتخذ عند الرحمن عهداً، ومن اتخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار، إن الله لا يخلف الميعاد». وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءنا بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه، ومن جاء قد انتقص منهم شيئاً فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿بل قد جئتم شيئاً إداً﴾** قال: قولاً عظيماً، وفي قوله: **﴿يكاد السموات﴾** قال: إن الشرك فرغت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكانت تزول منه لعظمة الله سبحانه، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك يرجو أن يغفر الله لنوب الموحدين، وفي قوله: **﴿وتخز الجبال﴾** قال: هدماً. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والطبراني، والبيهقي في الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه، يا فلان هل مر بك اليوم أحد ذكر الله؟ فإذا قال نعم استبشر. قال عون: أفيسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير؟ هن للخير أسمع، وقرأوا **﴿واتخذ الرحمن ولداً﴾** الآيات.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ
فَأَنَّمَا يُرِيتَهُ لِيُغْنِيَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ وَتُذَرَّ بِهِ، قَوْلًا لِّدَا ۖ وَكَمَ
أَهْلَكَا قَبْلَهُمْ مِّن قَوْمٍ هَلْ يُحْسِنُ بِهِمْ مِّنْ أَمَرٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْرًا ۖ

نكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد نكره لقبائح الكافرين فقال: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا**

والفطر التشفق **﴿وتنشق الأرض﴾** أي: وتكاد أن تنشق الأرض، وكرر الفعل للتأكيد لأن تنفطر وتنشق معناهما واحد **﴿وتخز الجبال﴾** أي: تسقط وتنهدم، وانتصاب **﴿هذا﴾** على أنه مصدر مؤكد لأن الخور في معناه، أو هو مصدر لفعل مقدر أي: وتنهد هذا، أو على الحال أي: مهددة، أو على أنه مفعول له أي: لأنها تنهد. قال الهروي: يقال هدني الأمر وهذا ركني أي: كسرتني وبلغ مني. قال الجوهري: هذا البناء يهده هذا كسره وضعضعه، وهنته المصيبة أو هنت ركنه، وإنهد الجبل أي: انكسر والهدئة صوت وقع الحائط، كما قال ابن الأعرابي، ومحل **﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾** الجر بدلاً من الضمير في منه. وقال القراء: في محل نصب بمعنى لأن دعوا. وقال الكسائي: هو في محل خفض بتقدير الخافض، وقيل: في محل رفع على أنه فاعل هذا. والدعاء بمعنى التسمية أي: سمو للرحمن ولداً، أو بمعنى النسبة أي: نسبوا له ولداً **﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾** أي: لا يصلح له ولا يليق به لاستحالة ذلك عليه لأن الولد يقتضي الجنسية والحدث، والجملة في محل نصب على الحال أي: قالوا اتخذ الرحمن ولداً، أو أن دعوا للرحمن ولداً، والحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك **﴿إن كل من في السموات والأرض﴾** أي: ما كل من في السموات والأرض **﴿إلا﴾** وهو **﴿آتي﴾** الله يوم القيامة مقرراً بالعبودية خاضعاً نليلاً كما قال: **﴿وكل أتوه داخرين﴾** [النمل: 87] أي: صاغرين. والمعنى: أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولداً له؟ وقرئ (آت) على الأصل **﴿بل قد أحصاهم﴾** أي: حصرهم وعلم عددهم **﴿وعندهم عذاب﴾** أي: عذاب أشخاصهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهم **﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾** أي: كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فرداً لا ناصر له ولا مال معه كما قال سبحانه **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾** [الشعراء: 88].

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ويكونون عليهم ضداً﴾** قال: أعواناً. وأخرج عبد بن حميد عنه **﴿ضداً﴾** قال: حصرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: **﴿تؤزهم أذاً﴾** تغويهم إغواء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿تؤزهم أذاً﴾** قال: تحرض المشركين على محمد وأصحابه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس **﴿وفداً﴾** قال: ركبناً. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن أبي هريرة **﴿وفداً﴾** قال: على الإبل. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق: راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا». والأحاديث في

وأخرج الحكيم الترمذي، وابن مردويه عن علي قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ما هو؟ قال: المحبة الصائقة في صدور المؤمنين». وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض فنلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في أهل السماء، ثم ينزل له البغضاء في الأرض». والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَنْزِيلُ يَوْمَئِذٍ﴾ قال: فجراً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: صماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿هَلْ تَحَسُّهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ قال: هل ترى منهم من أحد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿رُكُوزًا﴾ قال: صوتاً.

تفسير سورة طه

قال القرطبي: مكية في قول الجميع. وأخرج النحاس، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: نزلت سورة طه بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الدارمي، وابن خزيمة في التوحيد، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني في الأوسط، وابن عدي، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بالفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لامة ينزل عليها هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لالسنة تكلمت بهذا». قال ابن خزيمة بعد إخراجها: حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما، يعني: إبراهيم بن مهاجر بن سمار وشيخه عمر بن حفص بن نكوان وهما من رجال إسناده. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأول، وأعطيت سورة طه والطواشين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة». وأخرج ابن مردويه، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «كل قرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرءون منه شيئاً إلا سورة طه ويس، فإنهم يقرءون بهما في الجنة». وأخرج الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك، فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقرأتهما طه، وكان ذلك بسبب إسلام عمر، والقصة مشهورة في كتب السير.

للصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا أي: حباً في قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب، والسين في سيجعل للدلالة على أن نلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية. وقرئ (وداً) بكسر الواو، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم. ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصاً هذه السورة لاشتغالها على التوحيد والنبوة، وبيان حال المعاندين فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: يسرنا القرآن بإنزالنا له على لفتك، وفصلناه وسهلناه، والباء بمعنى على، والفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل: بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر ﴿فَإِنَّمَا يَسِرْنَاهُ﴾ الآية. ثم علل ما ذكره من التيسير فقال: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المتلبسين بالتقوى، المتصفين بها ﴿وَتَنْزِيلُ يَوْمَئِذٍ﴾ لنداء اللد جمع الألد، وهو الشئيد الخصومة. ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْخَصَامُ﴾ [البقرة: 204]. قال الشاعر:

أبيت نجياً للهموم كانني
أخاصم أقواماً نوي جدلاً لداً
وقال أبو عبيدة: اللد الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل؛ وقيل: اللد الصم؛ وقيل: الظلمة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: من أمة وجماعة من الناس، وفي هذا وعد لرسول الله ﷺ بهلاك الكافرين وعوید لهم ﴿هَلْ تَحَسُّهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ هذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها أي: هل تشعر بأحد منهم أو تراه ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رُكُوزًا﴾ الركن الصوت الخفي، ومنه ركن الرمح إذا غيب طرفه في الأرض. قال طرفة:

وصادفتها سمع التوجس للسرى
لركن خفي أو لصوت مفند
وقال نو الرمة:

إذا توجس ركزاً مقفّر نرس
بنيابة الصوت ما في سمعه كذب
أي: في استماعه كذب بل هو صائق الاستماع، والنس الحاذق، والنيابة الصوت الخفي. وقال اليزيدي وأبو عبيد:

الركن ما لا يفهم من صوت أو حركة.
وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عبد الرحمن بن عوف أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم: شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميه بن خلف، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية، قال ابن كثير: وهو خطأ، فإن السورة مكية بكما لا لم ينزل شيء منها بعد الهجرة، ولم يصح سند نلك. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة في قلوب المؤمنين. وأخرج ابن مردويه، والدليمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «قل اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي عندك وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة، فأنزل الله الآية في علي». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس ﴿وُدًّا﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢﴾ تَزِيلًا
مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ ۚ أَتَلْوَىٰ ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٤﴾ لَّهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْتَهِمَا وَاعْتَدَ النَّارَ ﴿٥﴾ وَإِن مَّجْهَرًا لَّيَقُولُ فَإِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ
أَنبَاءَهُ ۚ وَخَفَىٰ ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٧﴾ وَهَلْ أَتَاكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٨﴾ إِذْ هُوَ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا مَّالِكًا لِّيَ بَيْنَكُمْ مِنهَا
بَقِيصٌ أَوْ أُنَادِي عَلَى النَّارِ هَذِي ﴿٩﴾ تَلَمَّ أَنهَا نُورٌ يُبْصِرُ ﴿١٠﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ
فَاتَّقِ نَعْلِيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَوَّلِ الْفُتُورِ ﴿١١﴾ وَأَنَا أَفْتَرِكُ فَمَا تَسْمَعُ لِمَا يُرْوَى ﴿١٢﴾
إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٣﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
أَكَادُ أَخْفِيهَا يُخَزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْأَلُ ﴿١٤﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ
هُوَ ۚ فَذَرِكُنَّ ﴿١٥﴾

قوله: ﴿طه﴾ قرأ بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن
أبي إسحاق، وأمالهما جميعاً أبو بكر وحزمه، والكسائي،
والأعمش، وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين،
واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ الباقر بالتفخيم، قال
الثعلبي: وهي كلها لغات صحيحة فصيحة، وقال النحاس: لا
وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين: الأولى أنه ليس ها
هنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة، والعلة الثانية أن الطاء
من موانع الإمالة.

وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الكلمة على أقوال:
الأول أنها من المتشابه الذي لا يفهم المراد به، والثاني أنها
بمعنى: يا رجل في لغة عك، وفي لغة عك، قال الكلبي: لو
قلت لرجل من عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه، وأنشد
ابن جرير في ذلك:

دعوت بطة في القتال فلم يجب فخفت عليه إن يكون موثلاً
ويروى مزايلاً؛ وقيل: إنها في لغة عك بمعنى يا حبيبي.
وقال قطرب: هي كذلك في لغة طي أي: بمعنى يا رجل،
وكذلك قال الحسن وعكرمة؛ وقيل: هي كذلك في اللغة
السريانية، حكاه المهدوي. وحكى ابن جرير أنها كذلك في
اللغة النبطية، وبه قال السدي وسعيد بن جبيرة. وحكى
الثعلبي عن عكرمة أنها كذلك في لغة الحبشة، ورواه عن
عكرمة، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك
المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل. القول الثالث: أنها
اسم من أسماء الله سبحانه. والقول الرابع: أنها اسم للنبي
ﷺ. القول الخامس: أنها اسم للسورة. القول السادس: أنها
حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى. ثم اختلفوا في
هذه المعاني التي تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها
متكلفة متعسفة. القول السابع: أن معناها طوبى لمن اهتدى.
القول الثامن: أن معناها: طم الأرض يا محمد. قال ابن
الانباري: وذلك أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة
حتى كانت قدماه تتورم ويحتاج إلى الترويح، فقيل له: طم
الأرض أي: لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح. وحكى القاضي
عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ

إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله ﴿طه﴾
يعني: طم الأرض يا محمد، وحكى عن الحسن البصري أنه
قرأ طه على وزن دع أمر بالوطء، والأصل طاف فقلبت الهمزة
هاء. وقد حكى الواحدي عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة
معناها: يا رجل، يريد النبي ﷺ قال: وهو قول الحسن،
وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، وقتادة، ومجاهد وابن
عباس في رواية عطاء والكلبي غير أن بعضهم يقول: هي
بلسان الحبشة والنبطية والسريانية، ويقول الكلبي: هي بلغة
عك. قال ابن الأنباري: ولغة قريش وأفقت تلك اللغة في هذا
المعنى، لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش
انتهى. وإذا تقرر أنها لهذا المعنى في لغة من لغات العرب
كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور
التي قدمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة،
وهكذا إذا كانت لهذا المعنى في لغة من لغات العجم
واستعملتها العرب في كلامها في تلك المعنى كسائر الكلمات
العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز،
فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب، وجملة ﴿ما
أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية
رسول الله ﷺ عما كان يعتريه من جهة المشركين من
التعب، والشقاء يجيء في معنى التعب. قال ابن كيسان:
وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب، ومنه قول الشاعر:

نو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفطر تأسفك عليهم
وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا، فهو كقوله سبحانه:
﴿فلعلك باخع نفسك﴾ [الكهف: 6]. قال النحاس: بعض
التحويين يقول: هذه اللام في «لتشقى» لام النفي، وبعضهم
يقول: لام الجحود. وقال ابن كيسان: هي لام الخفض، وهذا
التفسير للآية هو على قول من قال: إن طه كسائر فواتح
السور التي ذكرت تعديداً لأسماء الحروف، وإن جعلت اسماً
للسورة كان قوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ خبراً
عنها، وهي في موضع المبتدأ، وأما على قول من قال: إن
معناها يا رجل، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون الجملة
مستأنفة لصرفه ﷺ عما كان عليه من المبالغة في العبادة،
وانتصاب ﴿إلا تذكرة﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا كقولك: ما
ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً عليك. وقال الزجاج: هو بدل من
لتشقى أي: ما أنزلناه إلا تذكرة. وأنكره أبو علي الفارسي
من جهة أن التذكرة ليست بشقاء، قال: وإنما هو منصوب
على المصدرية أي: أنزلناه لتذكر به تذكرة، أو على المفعول
من أجله أي: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا
للتذكرة، وانتصاب ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات
العلاء﴾ على المصدرية أي: أنزلناه تنزيلًا؛ وقيل: بدل من
قوله تذكرة؛ وقيل: هو منصوب على المدح، وقيل: منصوب
بيخشى أي: يخشى تنزيلًا من الله على أنه مفعول به، وقيل:
منصوب على الحال بتأوله باسم الفاعل. وقرأ أبو حيوة
الشامي (تنزيل) بالرفع على معنى هذا تنزيل؛ وممن خلق

وقد تقدم بيانها في قوله سبحانه: ﴿وَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 180] من سورة الأعراف، الحسنى تأنث الأحسن، والأسماء مبتدأ وخبرها الحسنى، ويجوز أن يكون الله مبتدأ وخبره الجملة التي بعده، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير في يعلم. ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة، والخبر الغريب، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ الاستفهام للتقرير، ومعناه: أليس قد أتاك حديث موسى، وقيل: معناه قد أتاك حديث موسى، وقال الكلبي: لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذلك، وفي سياق هذه القصة تسليّة للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها، وأن تلك شأن الأنبياء قبله. والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى. و﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ ظرف للحديث؛ وقيل: العامل فيه مقتر أي: أنكر؛ وقيل: يقدر مؤخراً أي: حين رأى ناراً كان كيت وكيت، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة لما خرج مسافراً إلى أمه بعد استنذانه لشعيب ﴿فَإِذَا رَأَاهُ﴾ لما رآه ﴿قَالَ لَاهِلِهِ امْكُثُوا﴾ والمراد بالأهل هنا: امرأته، والجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم؛ وقيل: المراد بهم المرأة والولد والخادم، ومعنى امكثوا: اقيموا مكانكم، وعبر بالمكان دون الإقامة، لأن الإقامة تقتضي الدوام، والمكث ليس كذلك. وقرأ حمزة (لاهل) بضم الهاء، وكذا في القصص. قال النحاس: وهذا على لغة من قال: مررت بهو يا رجل فجاء به على الأصل وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت، يقال: آنست الصوت سمعته، وأنست الرجل أبصرته؛ وقيل: الإنسان الإبصار البين؛ وقيل: الإنسان مختص بإبصار ما يؤنس، والجملة تعليل للأمر بالمكث، ولما كان الإتيان بالقبس، ووجود الهدى متوقعين بني الأمر على الرجاء فقال: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: آجيئكم من النار بقبس، والقبس شعلة من النار، وكذا المقباس، يقال: قبست منه ناراً أقبس قبساً فأقبسني أي: أعطاني وكذا أقتبست. قال اليزيدي: أقبست الرجل علماً وقبسته ناراً، فإن كنت طلبتها له قلت: أقبسته. وقال الكسائي: أقبسته ناراً وعلماً سواء، قال: وقبسته أيضاً فيهما ﴿أَوْ لَجِدَ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: هادياً يهديني إلى الطريق ويبدلني عليها. قال الفراء: أراد هادياً، فنكره بلفظ المصدر، أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف أي: ذا هدى، وكلمة أو: في الموضعين لمنع الخلط بين الجمع، وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ أي: فلما أتى النار التي أنسها ﴿نُودِيَ﴾ من الشجرة، كما هو مصرح بذلك في سورة القصص أي: من جهتها، ومن ناحيتها ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: نودي، فقيل: يا موسى. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وأبو جعفر، وابن محيصن، وحמיד، واليزيدي (إني) بفتح الهمزة. وقرأ الباقون بكسرها أي: ياني ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره الله

متعلق بتنزيلاً؛ أو محذوف هو صفة له، وتخصيص خلق الأرض والسموات لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عز وجل، والعلی: جمع العليا أي: المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر. ومعنى الآية إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله، وارتفاع ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش، ويجوز أن يكون مرتفعاً على المدح أو على الابتداء. وقرئ بالجر، قال الزجاج: على البدل ممن، وجوز النحاس أن يكون مرتفعاً على البدل من المضممر في خلق، وجملة ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ. قال أحمد بن يحيى: قال ثعلب: الاستواء الإقبال على الشيء، وكذا قال الزجاج والفراء، وقيل: هو كناية عن الملك والسلطان، والبحث في تحقيق هذا يطول، وقد تقدم البحث عنه في الأعراف. والذي ذهب إليه أبو الحسن الأشعري أنه سبحانه مستوي على عرشه بغير حد ولا كيف، وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذي يروون لصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنه مالك كل شيء ومديره ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ الثرى في اللغة: التراب الندي أي: ما تحت التراب من شيء. قال الواحدي: والمفسرون يقولون: إنه سبحانه أراد الثرى الذي تحت الصخرة التي عليها الثور الذي تحت الأرض ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه ﴿وَأَنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ الجهر بالقول هو رفع الصوت به والسر ما حث به الإنسان غيره وأسرّه إليه، والأخفى من السر هو ما حث به الإنسان نفسه وأخفاه بباله. والمعنى: إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن ذلك، فإنه يعلم السر وما هو أخفى من السر، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول، وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه: ﴿وَأَنْتَ رَبُّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: 205]. وقيل: لسر ما أسر الإنسان في نفسه، والأخفى منه هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه، وقيل: السر ما أضمره الإنسان في نفسه، والأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد، وقيل: السر سر الخلاق، والأخفى منه سر الله عز وجل، وأنكر ذلك ابن جرير وقال: إن الأخفى ما ليس في سر الإنسان وسيكون في نفسه. ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فانه خبر مبتدأ محذوف أي: الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله، وجملة لا إله إلا هو مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه أي: لا إله في الوجود إلا هو، وهكذا جملة له الأسماء الحسنى مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح.

القرطبي: وكذا رواه ابن الأنباري في كتاب الرد قال: حدثني أبي، حدثنا محمد بن الجهم، حدثنا الفراء، حدثنا الكسائي فنكره. قال النحاس: وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان، عن الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة أنه قرأ (أخفيها) بضم الهمزة. قال ابن الأنباري: قال الفراء: ومعنى قراءة الفتح أكاد أظهرها، من خفيت الشيء إذا أظهرته أخفيه. قال القرطبي: وقد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون أخفيها بضم الالف معناه أظهرها، لأنه يقال: خفيت الشيء وأخفيته من حروف الأضداد يقع على السתר والإظهار. قال أبو عبيدة: خفيت وأخفيت بمعنى واحد. قال النحاس: وهذا حسن، وقد أنشد الفراء وسيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهر، وذلك قول امرئ القيس:

فإن تكتموا الداء لا تخف وإن تبعثوا الحرب لا نعد
أي: وإن تكتموا الداء لا نظهره. وقد حكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنه بضم النون من نخفه، وقال: امرؤ القيس:

خفاهن من أنفاقهن كانما خطاهن ورق من غشي مخلب
أي: أظهرهن. وقد زيف النحاس هذا القول وقال: ليس المعنى على أظهرها، ولا سيما وأخفيها قراءة شاذة، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة. وقال ابن الأنباري: في الآية تفسير آخر، وهو أن الكلام ينقطع على أكاد، وبعده مضمّر أي: أكاد أتى بها، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزئ كل نفس بما تسعى، ومثله قول عمير بن ضائب البرجمي:

هممت ولم أفعل وكنت وليتني تركت على عثمان تبكي حلالته
أي: وكنت أفعل، واختار هذا النحاس. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب السلب وليس من الأضداد، ومعنى أخفيها: أزيل عنها خفاءها، وهو سترها، ومن هذا قولهم أشكيت أي: أزلت شكواه. وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن أكاد زائدة للتأكيد، قال: ومثله «إذا أخرج يده لم يكد يراها» [النور: 40]. ومثله قول الشاعر:

سريع إلى الهجاء شك سلاحه فما إن يكاد قرنه يتنفس
قال: والمعنى أكاد أخفيها أي: أقارب ذلك، لأنك إذا قلت: كاد زيد يقوم جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم، ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا، وقوله: «لتجزئ كل نفس بما تسعى» متعلق بآتية، أو بأخفيها، وما مصدرية أي: لتجزئ كل نفس بسعيها، والسعي وإن كان ظاهراً في الأفعال، فهو هنا يعم الأفعال والتروك، للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به «فلا يصنئك عنها» أي: لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، والتصديق بها، أو عن نكرها ومراقبتها «من لا يؤمن بها» من الكفرة، وهذا النهي وإن كان للكافر بحسب الظاهر، فهو في الحقيقة نهي له ﷺ عن الانصداد، أو عن إظهار اللين للكافرين فهو من باب: لا أرينك ها هنا، كما هو معروف، وقيل: للضمير في عنها للصلاة وهو بعيد، وقوله: «ولتبع هواه» معطوف على ما قبله أي: من لا يؤمن، ومن اتبع هواه أي: هوى نفسه بالانتهام في اللذات الحسية الفانية

سبحانه بخلع نعليه، لأن ذلك أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب؛ وقيل: إنها كانا من جلد حمار غير مدبوغ، وقيل: معنى الخلع للنعلين: تفريغ القلب من الأهل والمال، وهو من بدع التفاسير. ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال: «إنيك بالواد المقدس طوى» المقس: المطهر، والقدس: الطهارة، والأرض المقدسة: المطهرة، سميت بذلك لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين، وطوى اسم للوادي. قال الجوهري: وطوى اسم موضع بالشام يكسر طؤه ويضم، يصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة، وبقعة وجعله معرفة، وقرأ عكرمة (طوى) بكسر الطاء، وقرأ الباقون بضمها؛ وقيل: إن طوى كثني من الطي مصدر لنودي، أو للمقدس أي: نودي نداءين، أو قدس مرة بعد أخرى «وإننا اخترتك» قرأ أهل المدينة، وأهل مكة، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والكسائي (وإننا اخترتك) بالإنفراد، وقرأ حمزة (وإننا اخترتك) بالجمع. قال النحاس: والقراءة الأولى أولى من جهتين: إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام لقوله: «يا موسى إني أنا ربك»، ومعنى اخترتك: اصطفيك للنبوة والرسالة، والفاء في قوله: «فاستمع لما يوحى» لترتيب ما بعدها على ما قبلها وما موصولة أو مصدرية أي: فاستمع للذي يوحى إليك، أو للوحي، وجملة «إني أنا الله» بدل من ما في لما يوحى. ثم أمره سبحانه بالعبادة فقال: «فأعبدني» والفاء هنا كالفاء التي قبلها لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة «وأقم الصلاة لذكرى» خص الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة، لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة، وعلل الأمر بإقامة الصلاة بقوله لذكرى أي: لتذكرني فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة، أو المعنى: لتذكرني فيهما لاشتغالهما على الأذكار، أو المعنى: أقم الصلاة متى نكرت أن عليك صلاة، وقيل: المعنى لأنذك بالمدح في عليين، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول، وجملة «إن الساعة آتية» تعليل لما قبلها من الأمر أي: إن الساعة التي هي وقت الحساب والعقاب آتية، فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة.

ومعنى «أكاد أخفيها» مختلف فيه. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: أخفيها من نفسي، وهو قول سعيد بن جبيرة، ومجاهد، وقتادة، وقال المبرد وقطرب: هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء كتمته حتى من نفسي أي: لم أطلع عليه أحداً؛ ومعنى الآية: أن الله بالغ في إخفاء الساعة، فنكره بأبلغ ما تعرفه العرب. وقد روي عن سعيد بن جبيرة أنه قرأ (أخفيها) بفتح الهمزة ومعناه أظهرها، وكذا روى أبو عبيد، عن الكسائي، عن محمد بن سهل، عن وفاء بن إياس، عن سعيد بن جبيرة. قال النحاس: وليس لهذه الرواية طريق غير هذا. قال

مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة وهو كقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسًا وَاحِدَةً﴾ [لقمان: 28]. وأخرج الحاكم وصححه عنه في الآية قال: السر ما علمته أنت، وأخفى ما كلف الله في قلبك مما لم تعلمه. وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي بلفظ يعلم ما تسر في نفسك ويعلم ما تعمل غداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوْجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ يقول: من يدل على الطريق. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن علي في قوله: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال: كانتا من جلد حمار ميت فقيل له: اخلعهما. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ قال المبارك: طوى قال اسم الوادي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ يعني: الأرض المقدسة، وذلك أنه مر بوابها ليلاً فطوى يقال: طويت وادي كذا وكذا. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿طَوًى﴾ قال: طبا الوادي. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث انس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا نكرها، فإن الله قال: ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لَنُكَرِي﴾». وأخرج الترمذي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاة فليصلها إذا نكرها، فإن الله قال: ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لَنُكَرِي﴾». وكان ابن شهاب يقرؤها (لنكري). وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَخْفَاهَا﴾ قال: لا أظهر عليها أحداً غيري. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَخْفَاهَا﴾ من نفسي.

وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَمْوُسَى ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ۚ قَالَ أَلَيْسَ يَمْوُسَى ۖ أَفَلَقَدْهَا فَإِنَّا هِيَ حَيَّةٌ سَتَتْ ۖ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَ سَتُودَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۖ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى حَنَاجِكَ تَخْرُجُ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ؕ أَلَيْسَ لَكَ مِنْ ءَائِيَةِ الْكِبَرِ ۖ أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرٌ ۖ قَالَ رَبِّ أَسْرِجْ لِي مَدْرَى ۖ وَابْنُ رَافِعٍ أَمْرِي ۖ وَأَعْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لَبَنٍ ۖ وَبَقَعْتُ قَوْلِي ۖ وَأَجْعَلُ لِي وَبَرًا مِنْ أَهْلِ ۖ هَرُونَ أَخِي ۖ أَتَدْعُوهُ أَتَدْعُوهُ ۖ وَأَنْفَرَكُ فِي أَمْرِي ۖ كَيْ نَسْجَلَ كَيْسًا ۖ وَتَذَكَّرَكَ كَيْسًا ۖ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ

قوله: ﴿وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قال الزجاج والفراء: إن تلك اسم ناقص وصلت بيمينك أي: ما التي بيمينك؟ وروي عن الفراء أنه قال: تلك بمعنى هذه، ولو قال ما تلك لجاز أي: ما تلك الشيء؟ وبالأول قال الكوفيون. قال الزجاج: ومعنى سؤال موسى عما في يده من العصا: التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها. قال الفراء: ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى: هي

﴿فتردى﴾ أي: فتهلك لأن انصدأك عنها بصد الكفارين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر عن ابن عباس، أن النبي ﷺ: «أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كَانَ يَقُومُ عَلَى صَدْرِ قَدَمِيهِ إِذَا صَلَّى، فَنَزَلَ اللَّهُ ﴿طَه﴾ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾». وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه قال: قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه، فانزل الله هذه الآية. وأخرج ابن عساكر عنه أيضاً قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لثلا ينام، فانزل الله هذه الآية». وأخرج البزار عن علي قال: «كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾» وحسن السيوطي إسناده. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً بأطول منه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ ربما قرأ القرآن إذا صلى، فقام على رجل واحدة، فانزل الله ﴿طَه﴾. وبرجليك فما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿طَه﴾ قال: يا رجل. وأخرج الحارث بن أبي أسامة، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿طَه﴾ بالنبطية. أي: طأ يا رجل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو كقولك أقعد. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال: ﴿طَه﴾ بالنبطية يا رجل. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿طَه﴾ يا رجل بالسريانية. وأخرج الحاكم عنه أيضاً قال: ﴿طَه﴾ هو كقولك يا محمد بلسان الحبش. وفي هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف وتدافع. وأخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي عند ربي عشرة أسماء، قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد، وأحمد، وأبو القاسم، والفتاح، والخاتم، والمحيي، والعاقب، والحاشر». وزعم سيف أن أبا جعفر قال له الاسمان الباقيان: طه ويس. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿طَه﴾ * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ قال: يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، وكان يقوم الليل على رجله فهي لغة لعك إن قلت لعكي: يا رجل لم يلتفت، وإذا قلت طه: التفت إليك. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿طَه﴾ قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ قال: الثرى كل شيء ميتل. وأخرج أبو يعلى عن جابر: «أن النبي ﷺ سئل ما تحت هذه الأرض؟ قال: الماء، قيل: فما تحت الماء؟ قال: ظلمة، قيل: فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء، قيل: فما تحت الهواء؟ قال: الثرى، قيل: فما تحت الثرى؟ قال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق». وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ قال: السر ما أسرّه ابن آدم في نفسه وأخفى ما خفي عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمل، فإنه يعلم تلك كله فيما

عصاي لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل، ومحل «ما» الرفع على الابتداء، وتلك خبره، وبيمينك في محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ، وإن كانت اسماً موصولاً كان بيمينك صلة للموصول ﴿قال هي عصاي﴾ قرأ ابن أبي إسحاق (عصى) على لغة هنيل. وقرأ الحسن ﴿عصاي﴾ بكسر الباء للقاء الساكنين ﴿توتوا عليها﴾ أي: اتحامل عليها في المشي واعتمدها عند الإعياء والوقوف ومنه الالتكاء ﴿واهش بها على غنمي﴾ هش بالعصا يهش هشاً: إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق. قال الشاعر:

أهش بالعصا على أغنامي من ناعم الأوراك والسنام

وقرأ النخعي أهش بالسين المهمة، وهو زجر الغنم، وكذا قرأ عكرمة، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ أي: حوائج وأحدها مأربة ومأربة ومأربة مثلث الراء، كذا قال ابن الأعرابي وقطرب، ذكر تفصيل منافع العصا، ثم عقبه بالإجمال.

وقد تعرض قوم لتعداد منافع العصا فنذكروا من ذلك أشياء: منها قول بعض العرب: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي، ليتسع خطوي، وأثب بها النهر، وتؤمّني العثر، وألقي عليها كسائي، فتقيني الحرّ، وتدفيني من القرّ، وتدني إليّ ما بعد مني، وهي تحمل سفرتي، وعلاقة إداوتي، أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأقي بها عقور الكلاب، وتنب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي وأورثها بعدي بني، انتهى.

وقد وقفت على مصنف في مجلد لطيف في منافع العصا لبعض المتأخرين، وذكر فيه أخباراً وأشعاراً وفوائد لطيفة ونكتاً رشيقة. وقد جمع الله سبحانه لموسى في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسم ما آمن به من كيد السحرة ومعزة المعاندين، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعزّزته، وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب ﴿قال لقها يا موسى﴾ هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿فالقها﴾ موسى على الأرض ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى أي: تمشي بسرعة وخفة، قيل: كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فما وباقيها جسم حية تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفضاعة منظرها، فلما رآها كذلك خاف وفرز وولى مديراً ولم يعقب، فعند ذلك ﴿قال﴾ سبحانه ﴿خذها ولا تخف سنعدها سيرتها الأولى﴾ قال الأخفش والزجاج: التقدير إلى سيرتها، مثل ﴿واختار موسى

قومه﴾ [الأعراف: 155]. قال: ويجوز أن يكون مصدرًا، لأن معنى سنعدها سنسبها، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل أي: سائرة، أو بمعنى اسم المفعول أي: مسيرة. والمعنى: سنعدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي هي العسوية. قيل: إنه لما قيل له: لا تخف بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحيتها ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ قال الفراء والزجاج: جناح الإنسان عضده، وقال قطرب: جناح الإنسان جنبه. وعبر عن الجنب بالجناح لأنه في محل الجناح؛ وقيل: إلى بمعنى مع، أي: مع جناحك، وجواب الأمر ﴿تخرج بيضاء﴾ أي: تخرج يدك حال كونها بيضاء، ومحل ﴿من غير سوء﴾ النصب على الحال أي: كائنة من غير سوء، والسوء العيب، كني به عن البرص أي: تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار كضوء الشمس من غير برص، وانتصاب ﴿آية أخرى﴾ على الحال أيضاً أي: معجزة أخرى غير العصا. وقال الأخفش: إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء. قال النحاس: وهو قول حسن. وقال الزجاج: المعنى آيتك أو نؤتيك آية أخرى لأنه لما قال: ﴿تخرج بيضاء﴾ دل على أنه قد آتاه آية أخرى، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ قيل والتقدير: فعلنا ذلك لنريك، ومن آياتنا متعلق بمحذوف وقع حالاً، والكبرى معناها العظمى، وهو صفة لموصوف محذوف، والتقدير: لنريك من آياتنا الآية الكبرى أي: لنريك بهاتين الآيتين يعني: اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى، فلا يلزم أن تكون اليد هي الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا، فيرد على ذلك أنه لم يكن في اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا، فإن فيها مع تغير اللون الزيادة في الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة. ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات فقال: ﴿أذهب إلى فرعون﴾ وخصه بالذكر لأن قومه تبع له، ثم علل ذلك بقوله ﴿إنه طغي﴾ أي: عصى وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحد، وجملة ﴿قال رب اشرح لي صدري﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا قال؟ ومعنى شرح الصدر: توسيعه، تضرّع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه بقوله: ﴿ويضيّق صدري ولا ينطق لساني﴾ [الشعراء: 13]، ومعنى تيسير الأمر: تسهيله ﴿واحلل عقدة من لساني﴾ يعني: العجمة التي كانت فيه من الجمرة التي ألقاها في فيه وهو طفل أي: أطلق عن لساني العقدة التي فيه، قيل: أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بليل قوله: ﴿قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾ [طه: 36]. وقيل: لم تذهب كلها لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل سأل حل عقدة تمنع الإفهام بليل قوله: ﴿من لساني﴾ أي: كائنة من عقد لساني، ويؤيد ذلك قوله: ﴿هو أقصح مني لساناً﴾ [القصص: 34]. وقوله حكاية عن فرعون: ﴿ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: 52]، وجواب الأمر قوله: ﴿يفقهوا قولي﴾ أي: يفهموا كلامي، والفقه في كلام العرب الفهم، ثم خص به علم

وأخرجنا عنه أيضاً **﴿من غير سوء﴾** قال: من غير برص. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿ولجعل لي وزيراً من أهلي﴾** هارون أخيه. قال: كان أكبر من موسى. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿وأشركه في أمري﴾** قال: نبي هارون ساعته حين نبئ موسى.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سؤْلَكَ يَمْوُتِي ۖ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۖ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ۚ أَنْ أَقْبِرْ فِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْبِرْ فِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَقْرِ الْيَمِّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ ۚ وَالْقَبْرُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِنِّي وَلَضَعُ عَلَى عَيْنِي ۖ إِذْ تَنَحَّى لَمَنَّا فَتَقُولُ هَلْ أَتَاكَ عَلَنٌ مِّنْ يَكْفُلُكَ فَرَجَعْتُكَ إِلَيْكَ أَيْكَ كَيْ نَقَرَّ عَيْنًا وَلَا نَحْزَنَ ۚ وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَنَحَكَ مِنَ الْعَمْرِ وَفَنَّاكَ فَنُورًا فَلَيْتَ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ حَشَّ عَلَى قَدْرِ يَمْوُتِي ۖ ۝ رَأَيْتُكَ لَيْسَ ۖ أَذْهَبَ أَتَتْ وَأُحْكُ بِتَابِعِي وَلَا تَبَايَا فِي ذِكْرِي ۖ أَذْهَبَا إِلَيْنِ فَرَعُونَ لَيْتَ طَعْنٍ ۖ فَقَوْلَا لَمْ قَوْلَا لَنَا لَمْ يَذْكُرْ أَوْ يَحْشَى ۖ

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره وييسر له أمره ويحل عقدته من لسانه ويجعل له وزيراً من أهله أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب تلك الدعاء، فقال: **﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾** أي: أعطيت ما سألت، والسؤال المسؤول أي: المطلوب كقولك: خبر بمعنى مخبور، وزيادة قوله يا موسى لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل، وجملة **﴿ولقد مَنَّا عليك مرة أخرى﴾** كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه، والمَنْ: الإحسان والإفضال، والمعنى: ولقد أحسننا إليك مرة أخرى قبل هذه المرة، وهي حفظ الله سبحانه له من شر الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا، وأخرى تانيث آخر بمعنى غير **﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾** أي: مننا تلك الوقت وهو وقت الإحياء فإذا ظرف للإحياء، والمراد بالإحياء إليها: إما مجرد الإلهام لها أو في النوم بأن أراها تلك أو على لسان نبي أو على لسان ملك، لا على طريق النبوة كالوحي إلى مريم أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر إليها، والمراد بما يوحى: ما سيأتي من الأمر لها، أبهم أولاً وفسره ثانياً تفخيماً لشانه، وجملة **﴿أن أقفنيه في التابوت﴾** مفسرة لأن الوحي فيه معنى القول، أو مصدرية على تقدير بأن أقفنيه، والقذف ها هنا الطرح أي: طرحه في التابوت وقد مر تفسير التابوت في البقرة في قصة طالوت **﴿فأقفنيه في اليم﴾** أي: طرحه في البحر، واليم: البحر أو النهر الكبير. قال الفراء: هذا أمر وفيه المجازاة أي: أقفنيه يلقه اليم بالساحل والأمر للبحر مبني على تنزيله منزلة من يفهم ويميز، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع، والساحل هو شط البحر، سمي ساحلاً لأن الماء سحله قاله ابن دريد، والمراد هنا: ما يلي الساحل من البحر لا نفس الساحل، والضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت، وإن كان قد ألقى معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له، وجملة **﴿ياخذنه عدو لي وعدو له﴾** جواب الأمر بالإلقاء، والمراد بالعدو:

الشرية والعالم به فقيه، قاله الجوهري **﴿ولجعل لي وزيراً من أهلي﴾** هارون أخيه. الوزير: الموارز كالأكيل المواكل لأنه يحمل عن السلطان وزره أي: ثقله. قال الزجاج: واشتقاقه في اللغة من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى من الهلكة، والوزير الذي يعتمد الملك على رايه في الأمور ويلتجئ إليه. وقال الأصمعي: هو مشتق من الموازنة، وهي المعاونة، وانتصاب وزيراً وهارون على انهما مفعولا أجعل؛ وقيل مفعولاه: لي وزيراً، ويكون هارون عطف بيان للوزير، والأول أظهر، ويكون لي متعلقاً بمحذوف أي: كأننا لي، ومن أهلي صفة لوزيراً، وأخي بدل من هارون. قرأ الجمهور (اشدد) بهمزة وصل، و (أشركه) بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء أي: يا رب أحكم به قوتي واجعله شريكاً في أمر الرسالة، والأزر القوة، يقال: أزره أي: قواه، وقيل: الظهر أي: اشدد به ظهري. وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحارث، وأبو حيوة، والحسن، وعبد الله بن أبي إسحاق (اشدد) بهمزة قطع (وأشركه) بضم الهمزة أي: أشدد لنا به أزمي وأشركه أنا في أمري. قال النحاس: جعلوا الفعلين في موضع جزم جواباً لقوله أجعل لي وزيراً، وقرأ بفتح الياء من أخي ابن كثير وأبو عمرو **﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾** هذا التسبيح والذكر هما الغاية من الدعاء المتقدم، والمراد: التسبيح هنا باللسان، وقيل: المراد به الصلاة، وانتصاب كثيراً في الموضعين على أنه نعت مصدر محذوف، أو لزمان محذوف **﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾** البصير المبصر والبصير العالم بخفيات الأمور، وهو المراد هنا أي: إنك كنت بنا عالماً في صغرنا فأحسنست إلينا فأحسن إلينا أيضاً كذلك الآن.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في عصا موسى قال: أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى منين فكانت تضئ له بالليل، ويضرب بها الأرض فتخرج له النبات، ويهش بها على غنمه ورق الشجر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: **﴿واهش بها على غنمي﴾** قال: أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي، وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: **﴿ولي فيها مآرب﴾** قال: حواش. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه، وأخرج أيضاً عن قتادة قال: كانت تضئ له بالليل، وكانت عصا آدم عليه السلام. وأخرج أيضاً عن ابن عباس في قوله: **﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾** قال: ولم تكن قبل تلك حية فمرت بشجرة فاكلتها، ومرت بصخرة فابتلعته، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مدبراً فنودي أن يا موسى خذها، فلم يأخذها، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف، فقبل له في الثالثة: إنك من الأمنين فأخذها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾** قال: حالتها الأولى.

فرعون، فإن أم موسى لما ألقت في البحر وهو النذل المعروف، وكان يخرج منه نهر إلى دار فرعون فساقه الله في نلك النهر إلى داره، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه؛ وقيل: إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه، وقيل: وجدته ابنة فرعون، والأول أولى **﴿والقيت عليك محبة مني﴾** أي: ألقى الله على موسى محبة كائنة منه تعالى في قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه؛ وقيل: جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه. وقال ابن جرير: المعنى وألقيت عليك رحمتي؛ وقيل: كلمة **﴿من﴾** متعلقة بالقيت، فيكون المعنى: ألقى مني عليك محبة أي: أحببتك، ومن أحبه الله أحبه الناس **﴿ولتصنع على عيني﴾** أي: ولتربي وتغذي بمرأى مني، يقال صنع الرجل جاريته: إذا رباه، وصنع فرسه: إذا داوم على علفه والقيام عليه، وتفسير **﴿على عيني﴾** بمرأى مني صحيح. قال النحاس: وذلك معروف في اللغة، ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى، فإن جميع الأشياء بمرأى من الله. وقال أبو عبيدة وابن الأنباري: إن المعنى لتغذي على محبتي وإرانتني، تقول: اتخذ الأشياء على عيني أي: على محبتي. قال ابن الأنباري: العين في هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة والاختيار، من قول العرب: غدا فلان على عيني أي: على المحبة مني. قيل: واللام متعلقة بمحذوف أي: فعلت ذلك لتصنع؛ وقيل: متعلقة بالقيت، وقيل: متعلقة بما بعده أي: لتصنع على عيني قدرنا مشي أختك. وقرأ ابن القعقاع (ولتصنع) بإسكان اللام على الأمر، وقرأ أبو نهيك بفتح التاء. والمعنى: ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي، وعلى عين مني **﴿إذا تمشي لختك﴾** ظرف لألقيت، أو لتصنع، ويجوز أن يكون بدلاً من **﴿إذا أوحينا﴾** وأخته اسمها مريم **﴿فتقول هل ألكم على من يكفله﴾** وذلك أنها خرجت متعرفة لخبيره فوجدت فرعون وأمراته أسية يطلبان له مرضعة، فقالت لهما هذا القول أي: هل ألكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه، فقالا لها: ومن هو؟ قالت: أمي، فقالا: هل لها لبن؟ قالت نعم لبن أخي هارون، وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل: بأكثر، فجاءت الأم فقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدي مرضعة غيرها، وهذا هو معنى **﴿فرجعناك إلى أمك﴾** وفي مصحف أبي (فرددناك)، والفاء فصيحة **﴿كي تقر عينها﴾** قرأ ابن عامر في رواية عبد الحميد عنه (كي تقر) بكسر القاف، وقرأ الباقر بفتحها. قال الجوهري: قررت به عينا قرّة وقرورا، ورجل قرير العين، وقد قرّت عينه تقرّ وتقرّ، نقيض سخنت، والمراد بقرّة العين: السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته في البحر وعظم عليها فراقه **﴿ولا تحزن﴾** أي: لا يحصل لها ما يكثر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب، ولو أراد الحزن بالسبب الذي قرّت عينها بزواله لقدم نفي الحزن على قرّة العين، فيحمل هذا النفي للحزن على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك، ويمكن أن يقال: إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين،

وقيل: المعنى ولا تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها، وهو تعسف **﴿وقللت نفساً﴾** المراد بالنفس هنا: نفس القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه، وكان قتله له خطاً **﴿فنجيناك من الغم﴾** أي: الغم الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعاً؛ وقيل: الغم هو القتل بلغة قريش، وما أبعد هذا **﴿وفتنك فتونا﴾** الفتنة تكون بمعنى المحنة، وبمعنى الأمر الشاق، وكل ما يبتل به الإنسان، والفتون يجوز أن يكون مصدرًا كالشور والشكور والكفور أي: ابتليتك ابتلاء، واختبرناك اختباراً، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بآء التانيث كحجور في حجرة ويدور في بدرة أي: خلصناك مرّة بعد مرّة مما وقعت فيه من المحن التي سبق ذكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته، ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغم الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له وتقوية قلبه عند ملاقة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبني إسرائيل **﴿فلبثت سنين في أهل مدين﴾** قال الفراء: تقدير الكلام وفتنك فتونا، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين ومثل هذا الحذف كثير في التنزيل، وكذا في كلام العرب فإنهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً، ومدين هي بلد شعيب، وكانت على ثماني مراحل من مصر، هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين، وهي أتم الأجلين، وقيل: أقام عند شعيب ثمان وعشرين سنة منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب، ومنها ثماني عشرة سنة بقي فيها عنده حتى ولد له، والفاء في **﴿فلبثت﴾** تدل على أن المراد بالمحن المذكورة هي ما كان قبل لبثه في أهل مدين **﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾** أي: في وقت سبق في قضائي وقدري أن ألكم وأجعلك نبياً، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به. قال الشاعر:

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
وكلمة ثم المفيدة للتراخي للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدة، وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرق غمته ونحو ذلك **﴿واصطنعتك لنفسي﴾** الاصطناع: اتخاذ الصنعة، وهي الخير تسديده إلى إنسان، والمعنى: اصطنعتك لوحبي ورسالتي لتتصرف على إرانتني. قال الزجاج: تأويله اخترتك لإقامة حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي، وصرت بالتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتجبت عليهم. قيل: وهو تمثيل لما حوّل الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه **﴿أذهب أنت ولخوك﴾** أي: وليذهب أخوك، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ومعنى **﴿بآياتي﴾** بمعجزاتي التي جعلتها لك آية، وهي التسع الآيات **﴿ولا تنيا في نكري﴾** أي: لا تضعفا ولا تقترأ، يقال: ونى بني ونيا: إذا ضعف. قال الشاعر:

فما ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر

وقال امرؤ القيس:

يسيح إذا ما السباحات على الونى اثرن غباراً بالكديد الموكل

قال الفراء: في نكري وعن نكري سواء، والمعنى: لا تقصرا عن نكري بالإحسان إليكما، والإنعام عليكما ونكر النعمة شكرها. وقيل: معنى «لا تنيا» لا تبطلنا في تبليغ الرسالة، وفي قراءة ابن مسعود «لا تهنا في نكري» «أذهب إلى فرعون إنه طغي» هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب، وموسى حاضر وهارون غائب تغليياً لموسى، لأنه الأصل في أداء الرسالة، وعلل الأمر بالذهاب بقوله: «إنه طغي» أي: جاوز الحد في الكفر والتعدي، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم، وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده، وتأكيداً للأمر بالذهاب بالتكرير؛ وقيل: إن في هذا دليلاً على أنه لا يكفي ذهاب أحدهما، وقيل الأول: أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس، والثاني: أمر لهما بالذهاب إلى فرعون. ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما في ذلك من التأثير في الإجابة، فإن التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر، والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه، يقال: لأن الشيء يلين لينا، والمراد تركهما للتعنيف كقولهما: «هل لك إلى أن تركي» [النازعات: 18]. وقيل: القول اللين هو الكنية له، وقيل: أن يعدها بنعيم الدنيا إن أجاب، ثم علل الأمر بإلانة القول له بقوله: «لعله يتذكر أو يخشى» أي: باشرا ذلك مباشرة من يرجو ويطمع، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين: سيبويه وغيره. وقد تقدم تحقيقه في غير موضع قال الزجاج: «لعل» لفظة طمع وترج، فخطابهم بما يعقلون. وقيل: لعل ها هنا بمعنى الاستفهام، والمعنى: فانظروا هل يتذكر أو يخشى؛ وقيل: بمعنى كي. والتذكر: النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة، والخشية هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما، وكلمة أو لمنع الخلق دون الجمع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: «فأقذفيه في اليم» قال: هو النيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «والقيت عليك محبة مني» قال: كان كل من رآه القيت عليه منه محبته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سلمة بن كهيل قال: حبيبك إلى عبادي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني في قوله: «ولتصنع على عيني» قال: تربى بعين الله. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: لتغذى على عيني. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: يقول أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت، ثم في البحر، وإذ تمشي أختك. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والخطيب عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ يقول الله سبحانه: «وقتل نفساً فنجيناك من الغم» قال: من قتل النفس «وفتنك فتونا» قال: أخلصناك

إخلاصاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «وفتنك فتونا» قال: ابتليتك ابتلاءً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: اختبرتكم اختباراً. وقد أخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس أثراً طويلاً في تفسير الآية، فمن أحب استيفاء ذلك فلينظره في كتاب التفسير من سنن النسائي. وأخرج ابن جريج عن ابن عباس في قوله: «ثم جئت على قدر» قال: لميقات. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد وقاتدة «على قدر» قال: موعد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس «ولا تنيا» قال: لا تبطلنا. وأخرج ابن أبي حاتم عن علي في قوله: «قولاً لينا» قال: كنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: كناية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «لعله يتذكر أو يخشى» قال: هل يتذكر.

قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَفَخْنَا أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ۖ (١٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْعَى وَرَأَيْتُ أَنَّيَا فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (١٦) إِنَّا قَدْ أُرِئُوا إِنَّا أَنْ الْمَدَابِ عَلَيْنَا مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٧) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوِئُ (١٨) قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْزَمَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَذَى (١٩) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٢٠) قَالَ عَلِمْنَا مِنْ دُونِي أَنْ يَحْسَبَ لَا يَحْسَبُ رَبِّي وَلَا يَسَى (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ بَنَاتِ شَجَرٍ ۖ كُلًّا وَعَرَوْا أَنْتُمْ كُنْتُمْ أَنْ ذَلِكَ لَا يَنْبَغُ لِأُولَى النَّاسِ (٢٢) بَنَى خَلْقَكُمْ وَبَنَى نُحُودَكُمْ وَبَنَى عَرَجَكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٢٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كُتُبًا فَكُذِّبُوا وَإِنَّا لَأَجْمَعُنَّ لِشَجَرِكُمْ مِنْ أَرْضِنَا بِسَجَرِكُمْ يَمْوِئُ (٢٤) فَلَمَّا أَنْتُمْ بِسَجَرِكُمْ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مَوْعِدًا وَلَا تَغْلِبْهُمْ عَنْ وَلَا أَنْتُمْ سَكَا سَوَى (٢٥) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٢٦)

قرأ الجمهور أن يفرط بفتح الياء وضم الراء، ومعنى ذلك: أننا نخاف أن يعجل ويبادر بعقوبتنا، يقال: فرط منه أمر أي: بدر، ومنه الفارط، وهو الذي يتقدم القوم إلى الماء أي: يعذبنا عذاب الفارط في الذنب، وهو المتقدم فيه، كذا قال المبرد، وقال أيضاً: فرط منه أمر وأفرط: أسرف، وفرط: ترك. وقرأ ابن محيصن (يفرط) بضم الياء وفتح الراء أي: يحمله حامل على التسرع إلينا، وقرأت طائفة بضم الياء وكسر الراء، ومنهم ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة من الإفراط أي: يشتط في أنيتنا، قال الرازي:

قد أفرط العالج علينا وعجل

ومعنى «أو أن يطغى» قد تقدم قريباً. وجملة «قال لا تخافا» مستأنفة جواب سؤال مقدر، نهى لهما عن الخوف الذي حصل معهما من فرعون. ثم علل ذلك بقوله: «إنني معكما» أي: بالنصر لهما، والمعونة على فرعون، ومعنى

شيء فيما خلق له، وأما على القراءة الآخرة، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه أي: أعطى كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل شيء خلقه ما يحتاج إليه، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى **﴿قال فما بال القرون الأولى﴾** لما سمع فرعون ما احتج به موسى في ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف، ولا بدّ لهما من خالق وهادٍ، وذلك الخالق والهادي هو الله سبحانه لا ربّ غيره. قال فرعون: فما بال القرون الأولى فإنها لم تقرّ بالرّبّ الذي تدعو إليه يا موسى بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات، ومعنى البال: الحال والشان أي: ما حالهم وما شأنهم؟ وقيل: إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة أي: ما حال القرون الماضية، وماذا جرى عليهم من الحوادث؟ فأجابه موسى، فـ **﴿قال علمها عند ربي﴾** أي: إن هذا الذي سألت عنه ليس مما نحن بصدد، بل هو من علم الغيب الذي استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا. وعلى التفسير الأوّل يكون معنى **﴿علمها عند ربي﴾** أن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله في كتابه سيجازيهم عليها، ومعنى كونها في كتاب أنها مثبتة في اللوح المحفوظ. قال الزجاج: المعنى أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها، والتقدير: علم أعمالها عند ربي في كتاب.

وقد اختلف في معنى **﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾** على أقوال الأوّل: أنه ابتداء كلام تنزيهه الله تعالى عن هاتين الصفتين. وقد تمّ الكلام عند قوله في كتاب كذا قال الزجاج. قال: ومعنى **﴿لا يضل﴾** لا يهلك من قوله: **﴿إنذا ضللتنا في الأرض﴾** [السجدة: 10]. **﴿ولا ينسى﴾** شيئاً من الأشياء، فقد نزهه عن الهلاك والنسيان. القول الثاني: أن معنى **﴿لا يضل﴾** لا يخطئ. القول الثالث: أن معناه لا يغيب. قال ابن الأعرابي: أصل الضلال الغيبوبة. القول الرابع: أن المعنى لا يحتاج إلى كتاب، ولا يضلّ عنه علم شيء من الأشياء، ولا ينسى ما علمه منها، حكى هذا عن الزجاج أيضاً. قال النحاس: وهو أشبهها بالمعنى. ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابي. القول الخامس: أن هاتين الجملتين صفة للكتاب، والمعنى: أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له **﴿الذي جعل لكم الأرض مهاداً﴾** الموصول في محل رفع على أنه صفة لرّبي متضمنة لزيادة البيان، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال. قرأ الكوفيون (مهداً) على أنه مصدر لفعل مقرر أي: مهدها مهداً، أو على تقدير مضاف محذوف: أي ذات مهده، وهو اسم لما يمهده كالفرش لما يفرشه. وقرأ الباقون (مهاداً) واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لا لاتفاقهم على قراءة **﴿الم نجعل الأرض مهاداً﴾** [النبا: 6]. قال النحاس: والجمع أولى من المصدر، لأن هذا الموضع ليس موضع المصدر إلا على

﴿أسمع وأرى﴾ إدراك ما يجري بينهما وبينه بحيث لا يخفى عليه سبحانه منه خافية، وليس بغافل عنهما، ثم أمرهما بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرر **﴿فقولاً إنا رسولا ربك﴾** أرسلنا إليك **﴿فارسل معنا بني إسرائيل﴾** أي: خلّ عنهم وأطلقهم من الأسر **﴿ولا تعذبهم﴾** بالبقاء على ما كانوا عليه، وقد كانوا عند فرعون في عذاب شديد: ينبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه، ثم أمرهما سبحانه أن يقولوا لفرعون **﴿قد جئناك بآية من ربك﴾** قيل: هي العصا واليد؛ وقيل إن فرعون قال لهما: وما هي؟ فأدخل موسى يده في جيب قميصه، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس، فعجب فرعون من ذلك، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة **﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾** أي: السلامة. قال الزجاج: أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عزّ وجلّ ومن عذابه، وليس بتحية. قال: والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب. قال الفراء: السلام على من اتبع الهدى، ولمن اتبع الهدى سواء **﴿إننا قد أوحى إلينا﴾** من جهة الله سبحانه **﴿أن العذاب على من كذب وتولى﴾** المراد بالعذاب: الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في النار، والمراد بالتكذيب: التكذيب بآيات الله وبرسله، والتولي: الإعراض عن قبولها والإيمان بها **﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾** أي: قال فرعون لهما: فمن ربكما؟ فأضاف الرّبّ إليهما ولم يصفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما ولجده للربوبية، وخص موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة؛ وقيل: لمطابقة رؤوس الآي **﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه﴾** أي: قال موسى مجيباً له، وربنا مبتدأ، وخبره **﴿الذي أعطى كل شيء خلقه﴾**، ويجوز أن يكون ربنا خبر مبتدأ محذوف، وما بعده صفته، قرأ الجمهور (خلقه) بسكون اللام، وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ خلقه بفتح اللام على أنه فعل، وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها نصير عن الكسائي. فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثاني مفعولي أعطى. والمعنى: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش، والرجل للمشي واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، كذا قال الضحّاك وغيره. وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه وهدها لما يصلحه. وقال مجاهد: المعنى لم يخلق خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً، ومنه قول الشاعر:

وله في كل شيء خلقه وكذاك الله ما شاء فعل
وقال الفراء: المعنى خلق للرجل المرأة، ولكل ذكر ما يوافق من الإناث، ويجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى أي: أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه، ويرتفقون به، ومعنى **﴿ثم هدى﴾** أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل

موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وأن موسى قد كان عرّفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء، والأوّل أولى، وقيل: المراد بالآيات حجج الله سبحانه الدالة على توحّده **﴿فَكُذِّبَ وَابَى﴾** أي: كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد لأنه رأى الآيات وكذب بها كما في قوله: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾** [النمل: 14]. وجملة **﴿قَالَ لَجِفْتُنَا لِخُرُوجِنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسُحْرِكَ يَا مُوسَى﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال فرعون بعد هذا؟ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات أي: جئت يا موسى لتروهم الناس بأنك نبي يجب عليهم اتباعك، والإيمان بما جئت به، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذي هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها. وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض لتغيير قومه عن إجابة موسى، فإنه إذا وقع في آذنانهم وتقرّر في أفعالهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين في معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير **﴿فَلَنَلْقَيْنَكَ بِسُحْرِ مِثْلِهِ﴾** الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام هي الموطئة للقسم أي: والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، حتى يتبين للناس أن الذي جئت به سحر يقدر على مثله الساحر **﴿فَلَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾** هو مصدر أي: وعداً؛ وقيل: اسم مكان أي: لجعل لنا يوماً معلوماً، أو مكاناً معلوماً لا نخلفه. قال القشيري: والأظهر أنه مصدر، ولهذا قال: **﴿لَا نَخْلِفُ﴾** أي: لا نخلف ذلك الوعد، والإخلاف أن تعد شيئاً ولا تنجزه. قال الجوهري: الميعاد المواعدة والوقت والموضع، وكذلك الموعد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج **﴿لَا نَخْلِفُ﴾** بالجزم على أنه جواب لقوله لجعل. وقرأ الباقر بالرفع على أنه صفة لموعداً أي: لا نخلف ذلك الوعد **﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾** وفوّض تعيين الموعد إلى موسى إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى، وانتصاب **﴿مَكَانًا سَوًى﴾** بفعل مقدر يدل عليه المصدر، أو على أنه بدل من موعداً. قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة (سوى) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرهما وهما لغتان. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة؛ والمراد: مكاناً مستوياً، وقيل: مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك. قال سيبويه: يقال سَوًى وسَوًى أي: عدل، يعني: عدلاً بين المكانين. قال زهير:

أرونا خطة لا ضيم فيها يسوينا بيننا فيها السواء
قال أبو عبيدة والقتبي: معناه مكاناً وسطاً بين الفريقين، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وإن أباننا كان حلّ ببلدة سوي بين قيس قيس غيلان والفز
والفز سعد بن زيد مناة. ثم وعده موسى بوقت معلوم ف**﴿قال موعداكم يوم الزينة﴾** قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي: كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه، وقال سعيد بن جبير: كان ذلك يوم عاشوراء، وقال الضحاك: يوم السبت؛

حذف المضاف. قيل: يجوز أن يكون مهداً مفرداً كالفراش، ويجوز أن يكون جمعا، ومعنى الهاد: الفرّاش فالمهاده جمع المهده أي: جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم **﴿ووسلك لكم فيها سبلاً﴾** السلك: إدخال الشيء في الشيء. والمعنى: أدخل في الأرض لاجلهم طرقاً تسلكونها وسهلاً لكم. وفي الآية الأخرى **﴿الذي جعل لكم الأرض مهذاً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾** [الزخرف: 10]. ثم قال سبحانه ممتناً على عباده **﴿وانزل من السماء ماء﴾** هو ماء المطر، قيل: إلى هنا انتهى كلام موسى، وما بعده هو **﴿فأخرجنا به أنزولاً﴾** من نبات شتى من كلام الله سبحانه؛ وقيل: هو من الكلام المحكي عن موسى معطوف على أنزل، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه إلى ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة. ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه قوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم، ويجب عنه بأن الكلام كله محكي عن واحد هو موسى، والحاكي للجميع هو الله سبحانه والمعنى: فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة أزواجاً أي: ضروباً وأشجاراً من أصناف النبات المختلفة وقوله من نبات صفة لأزواجاً، أو بيان له، وكذا شتى صفة أخرى له، أي: متفرقة جمع شتيت. وقال الأخفش: التقدير أزواجاً شتى من نبات. قال: وقد يكون النبات شتى، فيجوز أن يكون شتى نعتاً لأزواجاً، ويجوز أن يكون نعتاً للنبات، يقال أمر شت أي: متفرق، وشت الأمر شتاً وشتاتاً تفرق واشتت مثله، والشتيت المتفرق، قال رؤبة:

جاءت معاً وأطرفت شتيتاً

وجملة **﴿كلوا وارعوا﴾** في محل نصب على الحال بتقدير القول أي: قائلين لهم ذلك، والأمر للإباحة، يقال: رعت الماشية الكلاً ورعاها صاحبها رعية أي: أسامها وسرحها يجيء لازماً ومتعدياً، والإشارة بقوله: **﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾** إلى ما تقدم ذكره في هذه الآيات، والنهي العقول جمع نهية، وخص نوي النهى لأنهم الذين ينتهي إلى رأيهم؛ وقيل: لأنهم ينهون النفس عن القبائح، وهذا كله من موسى احتجاجاً على فرعون في إثبات المصانع جواباً لقوله: **﴿قمن ريكما يا موسى﴾** والضمير في **﴿منها خلقناكم﴾** وما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقاً. قال الزجاج وغيره: يعني أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه؛ وقيل: المعنى أن كل نطفة مخلوقة من التراب في ضمن خلق آدم، لأن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه **﴿وفيها﴾** أي: في الأرض **﴿نعيدكم﴾** بعد الموت فتدفنون فيها وتتفرق أجزاءكم حتى تصير من جنس الأرض، وجاء بفي نون إلى للدلالة على الاستقرار **﴿ومنها﴾** أي: من الأرض **﴿نخرجكم تارة أخرى﴾** أي: بالبعث والنشور وتاليف الأجسام وردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت، والتارة كالمرة **﴿ولقد آريناه آياتنا كلها﴾** أي: آرينا فرعون وعرفناه آياتنا كلها، والمراد بالآيات هي: الآيات التسع المذكورة في قوله: **﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات﴾** [الإسراء: 101]. على أن الإضافة للمعهد؛ وقيل المراد جميع الآيات التي جاء بها

ونك قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. وأخرج أحمد، والحاكم عن أبي أمامة قال: لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ في القبر قال رسول الله ﷺ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، «بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله». وفي حديث في السنن: «أنه أخذ قبضة من التراب فالفقاها في القبر وقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، ثم أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، ثم أخرى وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ قال: يوم عاشوراء. وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه.

فَقَوْلُ فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿١٥﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَنْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُصَدِّقُكُمْ يَدْخُلُ يَوْمَ الْقَابِ قَافًا مَنِ أَفْرَأَى ﴿١٦﴾ فَتَنَزَّلُوا أَمْرَهُمْ بِبَيْنِهِمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمُ الْغُلَّ ﴿١٨﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿١٩﴾ قَالُوا يُبْرَأُ يَمَّا أَن نَّاتِي وَلَئِن لَّا تَكُونُوا آلَ مَنَ آتَى ﴿٢٠﴾ قَالَ بَلْ أَتَوْا قَادًا جَاهِلًا وَصِيبُهُمْ جَبَلٌ أُتِيَهُ مِن سَحَابٍ مِّمَّا تَتَنَصَّلَى ﴿٢١﴾ فَأَوَّحَى فِي بُيُوتِهِمْ خُفَيْةً مُّوسَى ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ نَافَاكَ أَتَى الْأَعْلَى ﴿٢٣﴾ وَأَتَى مَا فِي بَيْتِكَ لَقُفَّ مَا صَنَعُوا وَإِنَّمَا صُنِعُوا كَيْدٌ سَوِيٌّ وَلَا يَقْلِبُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٢٤﴾ فَأَتَى السَّرْحَ نَجْدًا قَالُوا مَأْمَنَّا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ وَمُؤْتَى ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿فَقَوْلَى فِرْعَوْنَ﴾ أي: انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعدا عليه؛ وقيل: معنى تولى أعرض عن الحق، والأوّل أولى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: جمع ما يكيد به من سحره وحيلته، والمراد أنه جمع السحرة، قيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل: أربعمائة؛ وقيل: اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعة عشر ألفاً، وقال ابن المنذر: كانوا ثمانين ألفاً ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي: أتى الموعد الذي تواعدا إليه مع جمعه الذي جمعه، وجملة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ﴿وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ دعا عليهم بالويل، ونهاهم عن افتراء الكذب. قال الزجاج: هو منصوب بمحذوف، والتقدير ألزمهم الله ويلاً. قال: ويجوز أن يكون نداء كقولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: 52]. ﴿فَيُصَدِّقُكُمْ بِعَذَابٍ﴾ السحت الاستئصال، يقال: سحتت شعبة (فيسحتكم) بضم حرف المضارعة من أسحت، وهي لغة بني تميم، وقرأ الباقون بفتح من سحت، وهي لغة الحجاز وانتصابه على أنه جواب للنهي ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْتَرَى﴾ أي: خسر وهلك، والمعنى: قد خسر من افترى على الله أي: كذب كان ﴿فَتَنَزَّلُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: السحرة لما سمعوا كلام موسى تناظروا وتشاوروا وتجادوا أطراف الكلام في ذلك ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى﴾ أي: من موسى، وكانت نجواهم هي قولهم: ﴿إِن هَٰؤُلَاءِ لَسَاحِرَانِ﴾ وقيل: إنهم

وقيل: يوم النبروز؛ وقيل: يوم كسر الخليج. وقرأ الحسن والأعمش، وعيسى الثقفي، والسلمي، وهبيرة عن حفص (يوم الزينة) بالنصب، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو أي: في يوم الزينة إنجاز موعداً. وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر موعديكم، وإنما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى، لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم، أو على تقدير مضاف محذوف أي: موعديكم مكان يوم الزينة ﴿وَأَن يَحْشُرَ النَّاسَ ضَحَى﴾ معطوف على يوم الزينة فيكون في محل رفع، أو على الزينة فيكون في محل جر، يعني: ضحى ذلك اليوم، والمراد بالناس: أهل مصر. والمعنى: يحشرون إلى العيد وقت الضحى، وينظرون في أمر موسى وفرعون. قال الغراء: المعنى إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد. قال: وجرت عانيتهم بحشر الناس في ذلك اليوم. والضحى قال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى، وهو حين تشرق الشمس، وخص الضحى لأنه أول النهار، فإذا امتد الأمر بينهما كان في النهار متسع. وقرأ ابن مسعود والجحدري (وأن يحشر) على البناء للفاعل أي: وأن يحشر الله الناس ضحى. وروي عن الجحدري أنه قرأ (وأن نحشر) بالنون وقرأ بعض القراء بالتاء الفوقية أي: وأن تحشر أنت يا فرعون، وقرأ الباقون بالتحية على البناء للمفعول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَن يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ قال: يعجل ﴿أَوْ أَن يَطْفَى﴾ قال: يعتدي. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿أَسْمِعْ وَارِ﴾ قال: أسمع ما يقول وارى ما يجاوبكما به، فأروحي إليكما فتجاوبانه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لما بعث الله موسى إلى فرعون قال: رب أي شيء أقول؟ قال: قل أهيا شراهما. قال الأعشى: تفسير ذلك الحي قبل كل شيء، والحي بعد كل شيء. وجوّد السيوطي إسناده، وسبقه إلى تجويد إسناده ابن كثير في تفسيره. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿عَلَىٰ مِنْ كَذِبٍ وَتَوَلَّى﴾ قال: كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قال: خلق لكل شيء زوجة ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال: هداة لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ قال: لا يخطئ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مِنْ نَّبَاتِ شَتَّى﴾ قال: مختلف. وفي قوله: ﴿لَاوَلِيَّ النَّهْيِ﴾ قال: لأولي التقى. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿لَاوَلِيَّ النَّهْيِ﴾ قال: لأولي الحجا والعقل. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فينثره على النطفة، فيخلق من التراب ومن النطفة،

وكانت التثنية لا تغير الواحد أجريت التثنية مجرى الواحد فثبت الألف في الرفع والنصب والجر، فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة توجه تصح به وتخرج به عن الخطأ، وبذلك يندفع ما روي عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكتب للمصحف **﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم﴾** وهي أرض مصر **﴿بسحرهما﴾** الذي أظهره **﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾** قال الكسائي: بطريقتكم بسنتكم، والمثلى نعت كقولك: امرأة كبرى، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم. قال الفراء: العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم، والمثلى تأنيث الأمثل، وهو الأفضل، يقال: فلان أمثل قومه أي: أفضلهم، وهم الأمثل. والمعنى: أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم، أو يذهبا بمذهبكم الي هو أمثل المذاهب **﴿فاجمعوا كينكم﴾** الإجماع الإحكام، والعزم على الشيء قاله الفراء، تقول: أجمعت على الخروج مثل أزمعت. وقال الزجاج: معناه ليكن عزمكم كلم كالكيدهم مجعاً عليه، وقد اتفق القراء على قطع الهمزة في أجمعوا إلا أبا عمرو، فإنه قرأ بوصلها وفتح الميم من الجمع. قال النحاس: وفيما حكى لي عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة، وهي القراءة التي عليها أكثر الناس **﴿ثم اثتوا صفا﴾** أي: مصطفىين مجتمعين ليكون أنظم لأمورهم وأشد لهيبتهم، وهذا قول جمهور المفسرين. وقال أبو عبيدة: الصف موضع المجمع ويسمى المصلى الصف. قال الزجاج: وعلى هذا معناه: ثم اثتوا الموضوع الذي تجتمعون فيه لعبيدكم وصلاتكم، يقال: آتيت الصف بمعني آتيت المصلى، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب صفاً على الحال، وعلى تفسير أبي عبيدة يكون انتصابه على المفعولية. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ثم اثتوا والناس مصطفىون، فيكون على هذا مصدراً في موضع الحال، ولذلك لم يجمع، وقرئ بكسر الهمزة بعدها ياء، ومن ترك الهمزة أبدل منها ألفاً **﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾** أي: من غلب، يقال: استعلى عليه إذا غلبه، وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض: وقيل: من قول فرعون لهم، وجملة **﴿قالوا: يا موسى إما أن تلقى﴾** مستأنفة جواباً لسؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا يا موسى إما أن تلقى، وإن مع ما في حيزها في محل نصب بفعل مضمّر أي: اختر اللقاء أولاً أو الإلقاء، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر الإلقاء، أو الإقائنا، ومفعول تلقي محذوف، والتقدير: إما أن تلقى ما تلقيه أولاً **﴿وما أن نكون﴾** نحن **﴿أول من القى﴾** ما يليقه، أو أول من يفعل الإلقاء، والمراد: إلقاء العصي على الأرض، وكانت السحرة معهم عصي، وكان موسى قد القى عصاه يوم دخل على فرعون، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول، **﴿قال﴾** لهم موسى **﴿بيل القوا﴾** أمرهم بالإلقاء أولاً

تناجوا فيما بينهم فقالوا: إن كان ما جاء به موسى سحراً فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر؛ وقيل: الذي أسروه أنه إذا غلبهم اتبعوه قاله الفراء والزجاج؛ وقيل: الذي أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى وليكم لا تفتروا على الله، قالوا: ما هذا بقول ساحر. والنجوى المناجاة يكون اسماً ومصدراً.

قرأ أبو عمرو **﴿إن هذين لساحران﴾** بتشديد الحرف الداخل على الجملة وبالياء في اسم الإشارة على إعمال إن عملها المعروف، وهو نصب الاسم ورفع الخبر، ورويت هذه القراءة عن عثمان، وعائشة وغيرهما من الصحابة، وبها قرأ الحسن، وسعيد بن جبير، والنخعي وغيرهم من التابعين، وبها قرأ عاصم الجحدري، وعيسى بن عمر كما حكاه النحاس، وهذه القراءة موافقة للإعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالالف. وقرأ الزهري، والخليل بن أحمد، والمفضل، وأبان، وابن محيصن، وابن كثير، وعاصم في رواية حفص عنه (إن هذان) بتخفيف إن على أنها نافية، وهذه القراءة موافقة لرسم المصحف وللإعراب، وقرأ ابن كثير مثل قراءتهم إلا أنه يشدد النون من هذان. وقرأ المدنيون والكوفيون وابن عامر (إن هذان) بتشديد إن وبالألف، فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر. وقد تكلم جماعة من أهل العلم في توجيه قراءة المدنيين والكوفيين وابن عامر، وقد استوفى نكر ذلك ابن الأنباري والنحاس، فقيل إنها لغة بني الحارث بن كعب، وختعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالالف، ومنه قول الشاعر:

فأطرق إطرارق الشجاع ولو يرى مساعاً لناباه الشجاع لصعما
وقول الآخر:

تزود منابين أنناه ضربة

وقول الآخر:

إن إباءاً وإباءاً قد بلغا في المجد غاياتها
ومما يؤيد هذا تصريح سيبويه، والأخفش، وأبي زيد، والكسائي، والفراء إن هذه القراءة على لغة بني الحارث بن كعب، وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنها لغة بني كنانة، وحكى غيره أنها لغة خثعم، وقيل: إن إن بمعنى نعم ها هنا كما حكاه الكسائي عن عاصم، وكذا حكاه سيبويه. قال النحاس: رأيت الزجاج والأخفش يذهبان إليه، فيكون التقدير: نعم هذان لساحران، ومنه قول الشاعر:

ليت شعري هل للمحب شفاء من جوى حبهن إن اللقاء
أي: نعم اللقاء. قال الزجاج: والمعنى في الآية: أن هذا لهما ساحران، ثم حذف المبتدأ وهو هما، وأنكره أبو علي الفارسي وأبو الفتح بن جني؛ وقيل: إن الألف في هذا مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير؛ وقيل: إن الهاء مقدرة أي: إنه هذان لساحران حكاه الزجاج عن قدامة النحويين، وكذا حكاه ابن الأنباري. وقال ابن كيسان: إنه لما كان يقال هذا بالألف في الرفع والنصب والجر على حال واحدة،

ألا من لنفس لا تموت فينقضي شقاها ولا تحيا حياة لها طعم وهذه الآية من جملة ما حكاها الله سبحانه من قول السحرة؛ وقيل: هو ابتداء كلام، والضمير في إنه على هذا الوجه للشأن ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن يات ربه مصنفًا به قد عمل الصالحات أي: الطاعات، والموصوف محنوف، والتقدير الأعمال الصالحات، وجملة قد عمل في محل نصب على الحال وهكذا مؤمنًا منتصب على الحال، والإشارة بـ ﴿هَؤُلَاءِكَ﴾ إلى من باعتبار معناه ﴿لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي: المنازل الرفيعة التي قصرت دونها الصفات ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بيان للدرجات أو بدل منها، والعن الإقامة وقد تقدم بيانه، وجملة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال من الجنات، لأنها مضافة إلى عدن، وعدن علم للإقامة كما سبق، وانتصاب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على الحال من ضمير الجماعة في لهم أي: ماكثين دائمين، ﴿وَالْإِشَارَةُ بِهِنَّ﴾ إلى ما تقدم لهم من الأجر، وهو مبتدأ، و ﴿جَزَاءُ مِنْ تَزَكَّى﴾ خبره أي: جزاء من تطهر من الكفر والمعاصي الموجبة للنار.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالقُرْمَا⁽¹⁾، قال: علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بـ موسى، وهم الذين قالوا آمناً بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ قال: خير منك إن أطيع وأبقى منك عذاباً إن عصى. وأخرج أحمد، ومسلم، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنْ لَمْ يَجْهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له: الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت الغناء في حميل السيل». وأخرج أبو داود، وابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرّي في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعماء، وفي الصحيحين بلفظ: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء».

وَلَقَدْ أَحْيَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَآتَتْهُمْ لَهْمَ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا غَشًى ۚ فَأَنبَغَهُمْ رُغْوَنَ يَحْمُورٍ ۚ فَعَسَيْتُمْ مِنْ آيَاتِنَا مَا غَشِيْتُمْ ۚ وَأَضَلَّ رُغْوَنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۚ يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَغْنَيْتُكَ مِنْ مَدُونٍ ۚ وَعَلَيْتُكَ جَبَّيْطُ الطُّورِ الْآثِمِينَ ۚ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَاطِينَ ۚ كَلَّا مِنْ

بكم ذلك، والتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومن للابتداء ﴿وَلَا صُلَيْبُكُمْ فِي جَنُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جنوعها كقوله: ﴿إِنَّمَا لَهُمْ سَلَمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: 38]. أي: عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

هم صلبوا العبد في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا وإنما أثر كلمة ﴿فِي﴾ للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف في الظرف ﴿وَوَلْتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أراد لتعلمن هل أنا أشد عذاباً لكم أم موسى؟ ومعنى أبقي: أوم، وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى، لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء، ويمكن أن يريد العذاب الذي توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا، وقيل: أراد بموسى رب موسى على حذف المضاف ﴿قَالُوا لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله سبحانه كاليد والعصا، وقيل: إنهم أرادوا بالبينات ما رواه في سجودهم من المنازل المعدة لهم في الجنة ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ معطوف على ما جاءنا أي: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات وعلى الذي فطرنا أي: خلقنا، وقيل هو قسم أي: والله الذي فطرنا لن نوْثِرَكَ، أو لا نوْثِرَكَ، وهذان الوجهان في تفسير الآية نكرهما الفراء والزجاج ﴿فَأَقْضُ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم لا قطعن إلخ، والمعنى: فاصنع ما أنت صانع، واحكم ما أنت حاكم، والتقدير: ما أنت صانعه ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما سلطانتك علينا ونفوذك أمرنا في هذه الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها، فاسم الإشارة في محل نصب على الظرفية أو على المفعولية وما كافة، وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذي أي: أن الذي تقضيه هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر في ذلك ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ التي سلفت منا من الكفر وغيره ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ معطوف على خطايانا أي: ويغفر لنا الذي أكرهتنا عليه من عمل السحر في معارضة موسى فما في محل نصب على المفعولية؛ وقيل: هي نافية، قال النحاس: والأول أولى. قيل: ويجوز أن يكون في محل رفع بالابتداء والخبر مقتر أي: وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنا ﴿وَأَنْتَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: خير منك ثواباً وأبقى منك عقاباً، وهذا جواب قوله: ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنْ لَمْ يَجْهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ المجرم هو المتلبس بالكفر والمعاصي، ومعنى لا يموت فيها ولا يحيى أنه لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفقه. قال المبرد: لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة متمتع، فهو يالم كما يالم الحي ويبلغ به حال الموت في المكروه إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، والعرب تقول: فلان لا حي ولا ميت إذا كان غير منتفع بحياته، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا:

(1) قرما: مدينة بقرب مصر - لسان العرب (ج 12 ص 453).

بعضه. فهذه العبارة للدلالة على أن الذي غرقهم بعض الماء، والأول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم. وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم أي: غطاهم ما غطاهم ﴿وَأُضِلُّوا فَرَعُونَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ أي: أضلهم عن الرشد، وما هداهم إلى طريق النجاة لأنه قدر أن موسى ومن معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون في طريق يابسة، وبين أيديهم البحر، وفي قوله: ﴿وَمَا هَدَى﴾ تأكيد لإضلاله، لأن المضل قد يرشد من يضلّه في بعض الأمور ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ ذكر سبحانه ما أنعم به على بني إسرائيل بعد إنجائهم، والتقدير قلنا لهم بعد إنجائهم: يا بني إسرائيل، ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنبيينا ﷺ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء، والمراد بعدوهم هنا: فرعون وجنوده، وذلك بإغراقه وإغراق قومه في البحر بمرأى من بني إسرائيل ﴿وَوَاعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ انتصاب جانب على أنه مفعول به، لا على الظرفية لأنه مكان معين غير مبهم، وإنما تنتصب الأمكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة. قال مكي: وهذا أصل لا خلاف فيه. قال النحاس: والمعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام، وقيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور، فالوعد كان لموسى، وإنما خاطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم. وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (ووعدناكم) بغير ألف، واختاره أبو عبيدة، لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة والمواعدة لا تكون إلا من اثنين، وقد قدمنا في البقرة هذا المعنى، والأيمن منصوب على أنه صفة للجانب، والمراد: يمين الشخص، لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال، فإذا قيل: خذ من يمين الجبل بمعناه: عن يمينك من الجبل. وقرئ بجزر الأيمن على أنه صفة للمضاف إليه ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْلَمْنَ وَالسَّلْوَ﴾ قد تقدم تفسير اللمن بالترنجيبين والسلوى بالسماوي وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه، وإنزال ذلك عليهم كان في آتية ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: وقلنا لهم كلوا والمراد بالطيبات: المستلذات؛ وقيل: الحلال على الخلاف المشهور في ذلك. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش: قد أنجيتكم من عدوكم ووعدتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقناكم بقاء المتكلم في الثلاثة. وقرأ الباقون بنون العظمة فيها ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ الطغيان التجاوز أي: لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز؛ وقيل: المعنى لا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين؛ وقيل: لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكرها، وقيل: لا تعصوا المنعم أي: لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية، ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعاني فإن كل واحد منها يصدر عنه عليه أنه طغيان ﴿فَيُحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ هذا جواب النهي أي: يلزكم غضبي وينزل بكم، وهو مأخوذ من حلول الدين أي: حضور وقت أدائه ﴿وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي (فيحل)

طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكَ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿١٩﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَكَرِهَ صِلَاتَهُمُ أَهَدَى ﴿٢٠﴾ وَمَا أَجْعَلُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْشُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَىٰ عَلَيَّ أَتْرَىٰ وَجَعَلْتُ لَكَ رَبًّا لِّزَمَنِ ﴿٢٢﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمْنَا السَّامِرِيُّ ﴿٢٣﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لِمَ يَبْعَثُ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ مَوْعِدِي ﴿٢٤﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْثَارًا مِنْ رَبِّنَا أَلَقَوْا فَعَدَّتْهَا فَعَدَّتْكَ أَلَيْكَ السَّامِرِيُّ ﴿٢٥﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٢٦﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سَرِيرٌ وَلَا نَقَرٌ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُولُوا لِمَنَّا فَنُشْرِبَ بِهِ وَيَوْمَ تَرْجَعُ الرُّوحُ قَالُوا وَيَوْمَئِذٍ أَتَىٰ لَمَّا قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٢٨﴾

هذا شروع في إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم، وقد تقدم في البقرة، وفي الأعراف، وفي يونس، واللام في لقد هي الموطئة للقسم، وفي ذلك من التأكيد ما لا يخفى، و ﴿أَنْ﴾ في أن أسر بعبادي، إما المفسرة لأن في الوحي معنى القول، أو مصدرية أي: بأن أسر أي: أسر بهم من مصر. وقد تقدم هذا مستوفى ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: اجعل لهم طريقاً، ومعنى يبسا: يابساً وصف به الفاعل مبالغة، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين. وقرئ (يبسا) بسكون الباء على أنه مخفف من يبسا المحرك، أو وجمع يابس كصحب في صاحب، وجملة ﴿لَا تَخَافْ دُرُكًا﴾ في محل نصب على الحال أي: أماناً من أن يدرككم العدو، أو صفة أخرى لطريق، والدرك اللحاق بهم من فرعون وجنوده. وقرأ حمزة (لا تخف) على أنه جواب الأمر، والتقدير: إن تضرب لا تخف، ولا تخشى على هذه القراءة مستأنف أي: ولا أنت تخشى من فرعون أو من البحر. وقرأ الجمهور (لا تخاف) وهي أرجح لعدم الجزم في تخشى، ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق أي: لا تخاف منه ولا تخشى منه ﴿فَاتَّبِعْهُمْ فَرَعُونَ بَجْنُودَهُ﴾ اتبع هنا مطاوع تبع، يقال: اتبعتهم إذا تبعتهم، وذلك إذا سبقوك فلحقتهم، فالمعنى: تبعهم فرعون ومعه جنوده، وقيل: الباء زائدة والأصل اتبعهم جنوده أي: أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه، وقرئ (فاتبعهم) بالتشديد أي: لحقهم بجنوده وهو معهم كما يقال: ركب الأمير بسيفه أي: معه سيفه، ومحل بجنوده النصب على الحال أي: سابقاً بجنوده معه ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: علام وأصابهم ما علام وأصابهم، والتكرير للتعظيم والتهويل كما في قوله: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: 1-2]. وقيل: غشيهما ما سمعت قصته. وقال ابن الأنباري: غشيهما البعض الذي غشيهما، لأنه لم يغشهما كل ماء البحر، بل الذي غشيهما

أسفاً قيل: وكان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوماً: ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، والأسف الشديد الغضب؛ وقيل: الحزين، وقد مضى في الأعراف بيان هذا مستوفى **﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾** الاستفهام للإنكار التوبيخي، والوعد الحسن وعدمه بالجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أن يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها، فيستحقوا ثواب عملهم، وقيل: وعدمه النصر والظفر؛ وقيل هو قوله: **﴿وإني لغفار لمن تاب﴾** الآية، **﴿اقطال عليكم العهد﴾** الفاء للعطف على مقدر أي: أوعدكم ذلك، فطال عليكم الزمان فنسيتم **﴿أم أريتكم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم﴾** أي: يلزمكم وينزل بكم، والغضب: العقوبة والنقمة، والمعنى: أم أريتكم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم **﴿فأخلفتم موعدى﴾** أي: موعدكم إياي، فالمصدر مضاف إلى المفعول، لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عزّ وجلّ إلى أن يرجع إليهم من الطور، وقيل: وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات، فتوقفوا فأجابوه، و **﴿قالوا ما أخلفنا موعدك﴾** الذي وعدناك **﴿بملكنا﴾** بفتح الميم، وهي قراءة نافع وأبي جعفر، وعاصم، ويعيسى بن عمر، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لأنها على اللغة العالية الفصيحة، وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف أي: بملكنا أمورنا، أو بملكنا الصواب، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا وكنا مضطرين إلى الخطأ، وقرأ حمزة والكسائي (بملكنا) بضمّ الميم، والمعنى بسلطاننا أي: لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك؛ وقيل: إنّ الفتح والكسر والضم في بملكنا كلها لغات في مصدر ملكت الشيء **﴿ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم﴾** قرأنا نافع وابن كثير، وابن عامر، وحفص وأبو جعفر ورويس (حملنا) بضم الحاء وتشديد الميم، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم، وما حملوها كرهاً، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة، وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قنّفهم البحر إلى الساحل، وسميت أوزاراً أي: أثاماً، لأنه لا يحلّ لهم أخذها، ولا تحلّ لهم الغنائم في شريعتهم والأوزار في الأصل: الأثقال كما صرح به أهل اللغة، والمراد بالزينة هنا: الحلي **﴿ففقدناها﴾** أي: طرحناها في النار طلباً للخلاص من إثمها، وقيل: المعنى طرحناها إلى السامريّ لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه **﴿فكنّك القى السامريّ﴾** أي: فمثل ذلك القنّف ألقاها السامريّ، قيل: إن السامريّ قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى: إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحليّ، فجمعوه وبغوه إليه، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل، فصار **﴿عجلاً جسداً**

بضم الحاء وكذلك قرءوا يحلل بضم اللام الأولى، وقرأ الباقون بالكسر فيهما وهما لغتان. قال الفراء: والكسر أحب إليّ من الضم لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع، ويحل بالكسر يجب، وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع، ونكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره. ومعنى **﴿فقد هوى﴾** فقد هلك. قال الزجاج **﴿فقد هوى﴾** أي: صار إلى الهلوك، وهي قعر النار من هوى يهوى هوىً أي: سقط من علو إلى سفلى، وهوى فلان أي: مات **﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾** أي: لمن تاب من الذنوب التي أعظمها الشرك بالله، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعمل عملاً صالحاً مما ندب إليه الشرع وحسنه **﴿ثم اهتدى﴾** أي: استقام على ذلك حتى يموت كذا قال الزجاج وغيره؛ وقيل: لم يشك في إيمانه، وقيل: أقام على السنّة والجماعة، وقيل: تعلم العلم ليهتدي به؛ وقيل: علم أن لذلك ثواباً وعلى تركه عقاباً، والأول أرجح مما بعده **﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾** هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه وبين موسى عند موافاته الميقات. قال المفسرون: وكانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه، فसार موسى بهم، ثم عجل من بينهم شوقاً إلى ربه، فقال الله له: ما أعجلك؟ أي: ما الذي حملك على العجلة، حتى تركت قومك وخرجت من بينهم، فأجاب موسى عن ذلك **﴿قال هم أولاء على أثري﴾** أي: هم بالقرب مني، تابعون لأثري واصلون بعدي؛ وقيل: لم يرد أنهم يسرون خلفه، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم، ثم قال مصرحاً بسبب ما سأل الله عنه فقال: **﴿وعجلت إليك ربّ لترضى﴾** أي: لترضى عني بمسارعتي إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عني بذلك. قال أبو حاتم: قال عيسى بن عمر: بنو تميم يقولون: (أولاء) مقصورة، وأهل الحجاز يقولون (أولاء) مملوذة. وقرأ ابن أبي إسحاق، ونصر، ورويس عن يعقوب (على إثري) بكسر الهمزة وإسكان الشاء، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان. ومعنى عجلت إليك: عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني، يقال: رجل عجل وعجول وعجلان: بين العجلة، والعجلة خلاف البطء، وجملة **﴿قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل فماذا قال الله له؟ فقيل: قال: إنا قد فتنا قومك من بعدك أي: ابتليانهم واختبرناهم والقيانهم في فتنة ومحنة. قال ابن الأنباري: صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم، وهم الذين خلفهم مع هارون **﴿واضلهم للسامري﴾** أي: دعاهم إلى الضلالة، وكان من قوم يعبدون البقر، فلخل في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر، وكان من قبيلة تعرف بالسامرة، وقال لمن معه من بني إسرائيل: إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه لما صار معكم من الحليّ، وهي حرام عليكم وأمرهم بإلقائها في النار، فكان من أمر العجل ما كان **﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان**

له خوار. أي: يخور كما يخور الحي من العجول، والخوار صوت البقر، وقيل: خواره كان بالريح، لأنه كان عمل فيه خروفاً. فإذا دخلت الريح في جوفه خار ولم يكن فيه حياة، **﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُكُمْ مُوسَى﴾** أي: قال السامري ومن وافقه هذه المقالة **﴿فَنَسِيَ﴾** أي: فضل موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا، وذهب يطلبه في الطور، وقيل: المعنى فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم، وقيل: الناسي هو السامري أي: ترك السامري ما أمر به موسى من الإيمان وضل، كذا قال ابن الأعرابي **﴿أَفَلَا يَرُونَ إِلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾** أي: أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولا أي: لا يرد عليهم جواباً، ولا يكلمهم إذا كلموه، فكيف يتوهمون أنه إله وهو عاجز عن المكالمة، فإن في «لا يرجع» هي المخففة من الثقيلة، وفيها ضمير مقرر يرجع إلى العجل، ولهذا ارتفع الفعل بعدها، ومنه قول الشاعر:

في فتية من سيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى وينتمل
أي: أنه هالك. وقرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة، وجملة **﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾** معطوفة على جملة لا يرجع أي: أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً ولا يجلب إليهم نفعاً **﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾** اللام هي الموطئة للقسم والجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التي قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ لهم أي: ولقد قال لهم هارون من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم **﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾** أي: وقعتم في الفتنة بسبب العجل وابتليتم به وضللتم عن طريق الحق لأجله، قيل: ومعنى القصر المستفاد من إنما هو أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم وليس معناه أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره **﴿وَأَنَّ رِبْكَمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾** أي: ربيكم الرحمن لا العجل، فاتبعوني في أمري لكم بعبادة الله، ولا تتبعوا السامري في أمره لكم بعبادة العجل، وأطيعوا أمري لا أمره **﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾** أجابوا هارون عن قوله المتقدم بهذا الجواب المتضمن لعصيان، وعدم قبول ما دعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشر أي: لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل، حتى يرجع إلينا موسى، فينظر هل يقرنا على عبادته أو ينهانا عنها، فعند ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامري.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: **﴿يَبْسَا﴾** قال: يابساً ليس فيه ماء ولا طين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿وَلَا تَخَافُ دُرُكًا﴾** من آل فرعون **﴿وَلَا تَخْشَى﴾** من البحر غرقاً. وأخرج عنه أيضاً في قوله: **﴿فَقَدْ هَوَى﴾** شقي. وأخرج عنه أيضاً **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ﴾** قال: من الشرك **﴿وَأَمَّنَ﴾** قال: وحد الله **﴿وَعَمِلَ**

قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ سَلَوْا ۖ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۚ قَالَ يَبَتْ يَبْئَتْ لَا تَأْخُذُ بَلِيَّتِي وَلَا يَأْتِيَنَّ إِلَىٰ حَشِيَّتِ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ۚ قَالَ ۖ قَالَ فَمَا خُلْبُكَ ۚ نَسِيَئْتُ ۖ قَالَ بَعَثْتُ يَمَانًا يَمِينًا يَوْمَ فَفَضَّضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۚ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّكَ لَكِ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا يَسَاسُ وَإِنَّكَ لَمَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَعُ وَأَنْظُرَ إِلَيْنِ إِلَهُكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنَحْرِفَ فَمَنْ لَّنَتَتَّبِعُ فِي الْآلَةِ سَفَا ۚ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: **﴿يَبْسَا﴾** قال: يابساً ليس فيه ماء ولا طين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس **﴿وَلَا تَخَافُ دُرُكًا﴾** من آل فرعون **﴿وَلَا تَخْشَى﴾** من البحر غرقاً. وأخرج عنه أيضاً في قوله: **﴿فَقَدْ هَوَى﴾** شقي. وأخرج عنه أيضاً **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ﴾** قال: من الشرك **﴿وَأَمَّنَ﴾** قال: وحد الله **﴿وَعَمِلَ**

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٤١﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٤٢﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٤٣﴾ خَلِيلَيْنِ يَتُوسَّعُ لَمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَمَلًا ﴿١٤٤﴾

جملة: ﴿قال يا هارون﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، والمعنى: أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبلحيته وقال: ﴿ما منعك﴾ من اتباعي والحق بي عند أن وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة، وقيل: معنى ﴿ما منعك أن لا تتبعني﴾ ما منعك من اتباعي في الإنكار عليهم؛ وقيل: معناه هلا قاتلتهم إذ قد علمت أنني لو كنت بينهم لقاتلتهم؛ وقيل: معناه هلا فارقتهم، ولا في ﴿أن لا تتبعني﴾ زائدة، وهو في محل نصب على أنه مفعول ثانٍ لمنع أي: أي شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي، والاستفهام في ﴿افحصيت أمري﴾ للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كظناؤه، والمعنى: كيف خالفت أمري لك بالقيام لله ومنايضة من خالف بينه وأقامت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهًا، وقيل: المراد بقوله أمري هو قوله الذي حكى الله عنه: ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ [الأعراف: 142]. فلما أقام معهم ولم يبالغ في الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ﴿قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا براسي﴾ قرئ بالفتح والكسر للميم، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة الأعراف، ونسبه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور استعطافاً له وترقيقاً لقلبه، ومعنى ﴿ولا براسي﴾ ولا بشعر راسي أي: لا تفعل هذا بي عقوبة منك لي، فإن لي عنراً هو ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ أي: خشيت أن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول إني فرقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم وتخلف مع السامري عند العجل آخرون، وربما أقضى ذلك إلى القتال بينهم، ومعنى ﴿ولم ترقب قلبي﴾ ولم تعمل بوصيتي لك فيهم، إني خشيت أن تقول فرقت بينهم وتقول لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها، ومراده بوصية موسى له هو قوله: ﴿اخلفني في قومي وأصلح﴾ [الأعراف: 142]. قال أبو عبيد: معنى ﴿ولم ترقب قلبي﴾ ولم تنتظر عهدي وقدمي لأنك أمرتني أن أكون معهم، فاعتذر هارون إلى موسى ما هنا بهذا، واعتذر إليه في الأعراف بما حكاها الله عنه هنالك حيث قال: ﴿إن القوم استضعفوني وكانوا يقتلونني﴾ [الأعراف: 150]. ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخطب السامري فـ ﴿قال فما خطبك يا سامري﴾ أي ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ أي قال السامري مجيباً على موسى: رأيت ما لم يروا أو علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له، وأراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة فالتقى في ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار

حياً. وقرأ حمزة، والكسائي، والاعمش، وخلف (ما لم تبصروا به) بالمشناة من فوق على الخطاب، وقرأ الباقون بالتحية، وهي أولى، لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعي لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى، وقرئ بضم الصاد فيهما وبكسرها في الأول وفتحها في الثاني، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، والحسن، وقتادة (فقبضت قبضة) بالصاد المهملة فيهما، وقرأ الباقون بالضاد المعجمة فيهما، والفرق بينهما أن القبض بالمعجمة هو الأخذ بجميع الكف، وبالمهملة بأطراف الأصابع، والقبضة بضم القاف: القدر المقبوض. قال الجوهري: هي ما قبضت عليه من شيء، قال: وربما جاء بالفتح، وقد قرئ (قبضة) بضم القاف وفتحها، ومعنى الفتح: المرة من القبض، ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف، ومعنى ﴿من أثر الرسول﴾ من المحل الذي وقع عليه حافر فرس جبريل، ومعنى ﴿فنبذنها﴾ فطرحتها في الحلي المذابة المسبوكة على صورة العجل ﴿وكنكك سؤلت لي نفسي﴾ قال الأخفش أي: زينت أي: ومثل ذلك التسويل سؤلت لي نفسي، وقيل: معنى سؤلت لي نفسي: حذتني نفسي، فلما سمع موسى منه ذلك ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: فاذهب من بيننا وأخرج عنا فإن لك في الحياة أي: ما دمت حياً، وأطول حياتك أن تقول لا مساس، المساس مأخوذ من المماساة أي: لا يمسك أحد ولا تمس أحدًا، لكن لا بحسب الاختيار منك، بل بموجب الاضطرار الملجئ إلى ذلك، لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفي السامري عن قومه، وأمر بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قيل: إنه لما قال له موسى ذلك هرب، فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش لا يجد لحدًا من الناس يمسحه حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس وبعد الناس عنه، كما قال الشاعر:

حمال رايت بها قناعاسا حتى تقول الأزد لا مساسا
قال سيبويه: وهو مبني على الكسر. قال الزجاج: كسرت السين لأن الكسرة من علامة التانيث. قال الجوهري في الصحاح: وأما قول العرب لا مساس مثل قطام فإنما بني على الكسر لأنه معدول عن المصدر، وهو المس. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول: إذا اعتل الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبني، وإذا اعتل من جهتين وجب أن لا ينصرف، لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء، فمساس دراك اعتل من ثلاث جهات: منها أنه معدول، ومنها أنه مؤنث، ومنها أنه معرفة، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين. وقد رأيت أبا إسحاق يعني: الزجاج ذهب إلى أن هذا القول خطأ والرزم أبا العباس إذا سميت امرأة بفرعون أن يبنيه وهذا لا يقوله أحد. وقد قرأ بفتح الميم أبو حيوة والباقون بكسرها. وحاصل ما قيل في معنى لا مساس ثلاثة أوجه: الأول: أنه حرّم عليه مماسة الناس،

وكان إذا ماسه أحد حمّ الماس والممسوس، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً لا مساس. والثاني: أن المراد منع الناس من مخالطته، واعترض بأن الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو لا مساس، وإنما يقال له، وأجيب بأن المراد الحكاية أي: أجعلك يا سامري بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت لا مساس. والقول الثالث: أن المراد انقطاع نسله، وأن يخبر بأنه لا يتمكن من مماسة المرأة قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً. ثم ذكر حاله في الآخرة فقال: ﴿وَأَنْ لَّكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفُهُ﴾ أي: لن يخلفك الله ذلك الموعد، وهو يوم القيامة، والموعد مصدر أي: إن لك وعداً لعذابك، وهو كائن لا محالة، قال الزجاج أي: يكافئك الله على ما فعلت في القيامة وإن لا يخلف الميعاد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو، ويعقوب، وابن محيصن، واليزيدي، والحسن لن تخلفه بكسر اللام، وله على هذه القراءة معنيان: أحدهما ستأتيه ولن تجده مخلفاً كما تقول أحمتته أي: وجنته محموداً. والثاني على التهديد أي: لا بد لك من أن تصير إليه. وقرأ ابن مسعود (لن تخلفه) بالنون أي: لن يخلفه الله. وقرأ الباقر بفتح اللام، وبالفوقية مبنياً للمفعول، معناه ما قدّمناه ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ ظلت أصله ظلت فحذفت اللام الأولى تخفيفاً، والعرب تفعل ذلك كثيراً. وقرأ الأعمش بلامين على الأصل. وفي قراءة ابن مسعود (ظلت) بكسر الظاء. والمعنى: انظر إلى إلهك الذي بمت وأقمت على عبادته، والعاكف الملازم ﴿لَنُحْرِقَنَّهُ﴾ قرأ الجمهور بضم النون وتشديد الراء من حرّقه يحرقه. وقرأ الحسن بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء من أحرّقه يحرقه. وقرأ علي، وابن عباس، وأبو جعفر، وابن محيصن، وأشهب، والعقيلي (لنحرقنه) بفتح النون وضم الراء مخففة من حرقت الشيء أحرّقه حرّقا إذا برنته وحككت بعضه ببعض أي: لنبرنته بالمبارد، ويقال للمبرد: المحرق. والقراءة الأولى أولى، ومعناها الإحراق بالنار، وكذا معنى القراءة الثانية، وقد جمع بين هذه الثلاث القراءات بأنه أحرّق، ثم برد بالمبرد، وفي قراءة ابن مسعود (لنذبحنه) ثم لنحرقنه، واللام هي الموطئة للقسم ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ النسف نفذ الشيء ليذهب به الريح. قرأ أبو رجاء (لننفسنه) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرهما، وهما لغتان. والمنسف ما ينسف به الطعام، وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع، والنسافة ما يسقط منه ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا هذا العجل الذي فتنتم به السامري ﴿وَوَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ قرأ الجمهور وسع بكسر السين مخففة. وهو متعد إلى مفعول واحد، وهو كل شيء، وانتصاب علماً على التمييز المحوّل عن الفاعل أي: وسع علمه كل شيء. وقرأ مجاهد وقتادة وسع بتشديد السين وفتحها فيتعدى إلى مفعولين، ويكون انتصاب علماً على أنه المفعول الأول وإن كان متاخراً، لأنه في الأصل فاعل، والتقدير: وسع علمه كل شيء، وقد مرّ نحو هذا في الأعراف ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الكاف في محل نصب على

أنها نعت لمصدر محذوف أي: كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقص عليك ﴿مَنْ أَنْبَأَ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسلية لك ودلالة على صلفك، ومن للتبعيض أي: بعض أخبار ذلك ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ المراد بالذكر: القرآن، وسمي تذكراً لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار، وقيل: المراد بالذكر الشرف كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]. ثم توعد سبحانه المعرضين على هذا الذكر فقال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي: أعرض عنه فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه؛ وقيل: أعرض عن الله سبحانه، فإن المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزراً أي: إثماً عظيماً وعقوبة ثقيلة بسبب إعراضه ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في الوزر، والمعنى: أنهم يقيمون في جزائه، وانتصاب خالدين على الحال ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أي: بشس الحمل يوم القيامة، والمخصوص بالذم محذوف أي: ساء لهم حملاً وزرهم، واللام للبيان كما في ميت لك.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ قال: أمره موسى أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين. فكان من إصلاحه أن ينكر العجل. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ قال: لم تنتظر قولِي ما أنا صانع، وقال ابن عباس: لم ترقب لم تحفظ قولِي. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنْ لَّكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفُهُ﴾ قال: لن تخيب عنه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ قال: أتمت ﴿لَنُحْرِقَنَّهُ﴾ قال: بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ﴾ قال: لنذيرته في البحر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿لَنُحْرِقَنَّهُ﴾ خفيفة ويقول: إن الذهب والفضة لا تحرق بالنار، بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رماداً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: ﴿الْيَمِّ﴾ البحر. وأخرج أيضاً عن عليّ قال: ﴿الْيَمِّ﴾ النهر. وأخرج أيضاً عن قتادة في قوله: ﴿وَوَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ قال: ملا. وأخرج أيضاً عن ابن زيد في قوله: ﴿مَنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ قال: القرآن. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَوَزْرًا﴾ قال: إثماً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يقول: بشس ما حملوا.

يَوْمَ يَخْرُجُ فِي الصُّورِ وَنَحْنُ الْمُجْرِبِينَ يَوْمَيزُورُكَ ﴿١٦١﴾ يَخْلَعُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٦٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٦٣﴾ وَتَسْأَلُكَ عَنِ الْبَلَاءِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٦٤﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦٥﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا غِصَا وَلَا شَمَاطٌ ﴿١٦٦﴾ يَوْمَيزُورُكَ الْبَلَاءُ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٦٧﴾ يَوْمَيزُورُكَ لَا تَسْمَعُ

﴿فَقُلْ يَنْسِفْهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ قال ابن الأعرابي وغيره: يقلعها قلعاً من أصولها، ثم يصيرها رملاً يسيل سبلاً، ثم يسيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا، ثم كالهباء المنثور. والفاء في قوله: ﴿فَقُلْ﴾ الجواب شرط مقدّر، والتقدير: إن سالوك فقل، أو للمسارة إلى إلزام السائلين، والضمير في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها أي: فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ قال ابن الأعرابي: القاع الصفصف الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء، وقال الفراء: القاع مستنقع الماء، والصفصف القرعاء الملساء التي لا نبات فيها. وقال الجوهري: القاع المستوي من الأرض، والجمع أقوع وأقواع وقيعان. والظاهر من لغة العرب أن القاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوي الأملس، وأنشد سيبويه:

وكم لون بيتك من صفصف وبكذلك رمل وأعقادهما
وانتصاب قاعاً على أنه مفعول ثانٍ ليزر على تضمينه معنى التصيير، أو على الحال، والصفصف صفة له، ومحل ﴿لا ترى فيها عوجاً﴾ النصب على أنه صفة ثانية لقاعاً، والضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار، والعوج بكسر العين التعوُّج، قاله ابن الأعرابي. والامت التلال الصغار، والامت في اللغة المكان المرتفع، وقيل: العوج الميل والامت الأثر مثل الشراك، وقيل: العوج الوادي، والامت الرابية، وقيل: هما الارتفاع، وقيل: العوج الصدوع، والامت الأكمة؛ وقيل: الامت الشقوق في الأرض؛ وقيل: الامت أن يغلف في مكان ويبدى في مكان. ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين في العين ها هنا ينفخ ما يقال: إن العوج بكسر العين في المعاني وبفتحتها في الأعيان، وقد تكلف لذلك صاحب الكشف في هذا الموضع بما عنه غني، وفي غيره سعة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عَوَجَ لَهُ﴾ أي: يوم نسف الجبال يتبع الناس داعي الله إلى المحشر. وقال الفراء: يعني صوت الحشر؛ وقيل: الداعي هو إسرافيل إذا نفخ في الصور لا عوج له أي: لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه، أو ينحرفوا منه بل يسرعون إليه كذا قال أكثر المفسرين؛ وقيل لا عوج لدعائه ﴿وُخْشِعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: خضعت لهيبته؛ وقيل ذلت؛ وقيل: سكنت، ومنه قول الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع
﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الهمس الصوت الخفي. قال أكثر المفسرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر، ومنه قول الشاعر:

وهنّ يمشين بنا هميسا

يعني صوت أخفاف الإبل.

وقال رؤبة يصف نفسه:

ليث يبق الأسد الهموسا ولا يهاب الفيل والجاموسا
يقال للأسد الهموس، لأنه يهمس في الظلمة أي: يطأ وطئاً خفياً. والظاهر أن المراد هنا كل صوت خفي سواء كان

النَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿يَلْمِزُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَغَتَّ أَرْجُؤُهُ لِلْعَاقِبَةِ إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ الصَّلَاحِ وَهُوَ مُؤَيَّدٌ فَلَا يُخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ﴾ متعلق بمقدّر هو انكر؛ وقيل: هو بدل من يوم القيامة، والأول أولى. قرأ الجمهور (ينفخ) بضم الياء التحتية مبنياً للمفعول، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بالنون مبنياً للفاعل، واستدل أبو عمرو على قراءته هذه بقوله: (ونحشر) فإنه بالنون. وقرأ ابن هرمز (ينفخ) بالتحية مبنياً للفاعل على أن الفاعل هو الله سبحانه أو إسرافيل، وقرأ أبو عياض (في الصور) بفتح الواو جمع صورة، وقرأ الباقون بسكون الواو. وقرأ طلحة بن مصرف والحسن ﴿ينحشر﴾ بالياء التحتية مبنياً للمفعول ورفع (المجرمين) وهو خلاف رسم المصحف وقرأ الباقون بالنون، وقد سبق تفسير هذا في الانعام، والمراد بالمجرمين المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم، والمراد بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم النفخ في الصور، وانتصاب زرقاً على الحال من المجرمين أي: زرق العين، والزرقاة الخضرة في العين كعين السنور والعرب تتشامم بزرقاة العين، وقال الفراء: زرقاً أي: عمية. وقال الأزهري: عطاشاً، وهو قول الزجاج لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقاة، وقيل إنه كني بقوله زرقاً عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة؛ وقيل: هو كناية عن شحوص البصر من شدة الحوص، ومنه قول الشاعر:

لقد زرقت عينك يا بن معكبر كما كل شبيبي من اللؤم أزرق
والقول الأول أولى، والجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾ [الإسراء: 97]. ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم، وجملة ﴿يتخافتون بينهم﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه في ذلك اليوم، والخفت في اللغة السكون، ثم قيل لمن خفض صوته: خفته. والمعنى يتساررون أي: يقول بعضهم لبعض سراً ﴿إِنْ لِبِئْسَ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: ما لبئس في الدنيا إلا عشر ليالٍ؛ وقيل: في القبور، وقيل: بين النفختين. والمعنى: أنهم يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا، أو في القبور، أو بين النفختين لشدة ما يرون من أهوال القيامة؛ وقد: المراد بالعشر عشر ساعات، ثم لما قالوا هذا القول قال الله سبحانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴿أَيُّ أَعْلَهُمْ قَوْلًا وَلِكُلِّهِمْ رَأْيًا وَأَعْلَمُهُمْ عِنْدَ نَفْسِهِ﴾ ﴿إِنْ لِبِئْسَ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: ما لبئس إلا يوماً واحداً، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، لكونه أدل على شدة الهول، لا لكونه أقرب إلى الصديق ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: عن حال الجبال يوم القيامة، وقد كانوا سألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال:

بالقدم، أو من الفم، أو غير ذلك، ويؤيده قراءة أبي بن كعب (فلا ينطقون إلا همساً) **﴿يَوْمئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾** أي: يوم يقع ما نكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائنًا من كان **﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾** أي: إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له **﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾** أي: رضي قوله في الشفاعة أو رضي لأجله قول الشافع. والمعنى: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضي، ومثل هذه الآية قوله: **﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾** [الأنبياء: 28]. وقوله: **﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾** [مريم: 87]. وقوله: **﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾** [المنثر: 48]. **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾** أي: ما بين أيديهم من أمر الساعة، وما خلفهم من أمر الدنيا، والمراد هنا: جميع الخلق؛ وقيل: المراد بهم الذين يتبعون الداعي، وقال ابن جرير: الضمير يرجع إلى الملائكة، أعلم الله من يعبدونها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها **﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾** أي: بالله سبحانه، لا تحيط علومهم بذاته، ولا بصفاته، ولا بمعلوماته؛ وقيل: الضمير راجع إلى ما في الموضعين فإنهم لا يعلمون جميع ذلك **﴿وَعَنَتِ لَوُجُوهٌ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾** أي: نلت وخضعت، قاله ابن الأعرابي. قال الزجاج: معنى عنت في اللغة: خضعت، يقال: عنى يعنوا إذا خضع. ومنه قيل للأسير: عان، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

ملك على عرش السماء مهيمن
لعزته تعنوا الوجوه وتسجد

وقيل: هو من العناء، بمعنى التعب **﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ حَمَلِ ظُلْمًا﴾** أي: خسر من حمل شيئاً من الظلم؛ وقيل: هو الشرك **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾** أي: الأعمال الصالحة **﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾** بالله، لأن العمل لا يقبل من غير إيمان، بل هو شرط في القبول **﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾** يصاب به من نقص ثواب في الآخرة **﴿وَلَا هُضْمًا﴾** الهضم النقص والكسر يقال هضمتم لك من حقي أي: حططته وتركته، وهذا يهضم الطعام أي: ينقص ثقله، وامرأة هضم الكشح أي: ضامرة البطن، وقرأ ابن كثير ومجاهد لا يخف بالجزم جواباً لقوله: (ومن يعمل من الصالحات) وقرأ الباقر (يخاف) على الخبر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلاً أتاه، فقال: رأيت قوله: **﴿وَنُحْشَرُ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾** وأخرى عمياً قال: إن يوم القيامة فيه حالات يكونون في حال زرقاً، وفي حال عمياً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾** قال: يتساررون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله: **﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾** قال: أرفاهم عقلاً، وفي لفظ قال: أعلمهم في نفسه. وأخرج ابن المنذر، وابن جرير قال: قالت قریش: كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾** الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعْلَىٰ أَنَّهُ أَلَمَكَ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۖ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَيْسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ۖ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ۖ إِنَّهُ قَالَ يَا أَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَا مِنْ هَٰذَا الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۖ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا

وَلَا تَصْحَى ﴿١٦٦﴾ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَذْنُكَ عَلَى شَجَرَةِ
الْخَلْدِ وَمَنْ لَكَ لَا يَبْلُ ﴿١٦٧﴾ فَأَكْثَرَ مِمَّا فِدَّتْ لَهَا سَوْءَ نَهْمَا وَطَفَعَا بِخَبِيرَتَيْنِ
عَلَيْهَا مِنْ وَرَقٍ الْخَلْدُ وَعَصَى آدَمَ رَبُّهُ فَنَوَى ﴿١٦٨﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ قَنَابَ عَلَيْهِ
وَمَكَثَ ﴿١٦٩﴾

قوله: ﴿وَكُنْتُ أَنْزَلْنَاهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿كُنْتُ﴾. نقص عليك ﴿طه: 99﴾ أي: مثل تلك الإنزال أنزلناه أي: القرآن حال كونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب ليفهموه ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ بينا فيه ضرورياً من الوعيد تخويفاً وتهديداً أو كررنا فيه بعضاً منه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: كي يخافوا الله فيتجنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿وَإِذْ يَحْدُثُ لَهُمْ نَكْرًا﴾ أي: اعتباراً واعتاظاً، وقيل: ورعاً؛ وقيل: شرفاً، وقيل: طاعة وعبادة، لأن الذكر يطلق عليها. وقرأ الحسن (أو تحدث) بالنون ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ لما بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء أي: جلَّ الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون في صفاته فإنه الملك البهي بيده الثواب والعقاب وأنه الحق أي: ذو الحق ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: يتم إليك وحيه. قال المفسرون: كان النبي ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً منه على ما كان ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك، ومثله قوله: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16]. على ما يأتي إن شاء الله؛ وقيل: المعنى ولا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله، وقرأ ابن مسعود، ويعقوب، والحسن، والأعمش (من قبل أن نقضي) بالنون ونصب وحيه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: سل ربك زيادة العلم بكتابه ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ الْإِلَامِ هِيَ الْمَوَاطِنُ لِلْقَسَمِ، وَالْجُمْلَةُ مُسْتَنْفَذَةٌ لِمَا قَبْلَهَا مِنْ تَصْرِيفِ الْوَعِيدِ أَي: لَقَدْ أَمَرْنَاهُ وَوَعَيْنَاهُ، وَالْمَعْهُودُ مُحْنُوفٌ، وَهُوَ مَا سَيَأْتِي مِنْ نَهْيِهِ عَنِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَمَعْنَى ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ هَذَا الزَّمَانِ ﴿فَنَسِيَ﴾ قَرَأَ الْأَعْمَشُ بِإِسْكَانِ الْيَاءِ، وَالْمُرَادُ بِالنَّسْيَانِ هُنَا: تَرَكَ الْعَمَلَ بِمَا وَقَعَ بِهِ الْعَهْدُ إِلَيْهِ فِيهِ، وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسُرِينَ؛ وَقِيلَ: النَّسْيَانُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّهُ نَسِيَ مَا عَاهَدَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَنْتَهِي عَنْهُ، وَكَانَ آدَمُ مَأْخُذًا بِالنَّسْيَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَإِنْ كَانَ النَّسْيَانُ مَرْفُوعًا عَنْ هَذِهِ الْأَمَةِ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَي: أَنْ طَاعَةَ بَنِي آدَمَ لِلشَّيْطَانِ أَمْرٌ قَدِيمٌ، وَأَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعَاصِرِينَ لَنْ يَنْقُضُوا عَهْدَ فَقْدِ نَقْضِ آبَائِهِمْ، كَذَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْقَشِيرِيُّ، وَاعْتَرَضَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ قَائِلًا بِأَنْ كُونَ آدَمُ مِمَّاثِلًا لِلْكَافَرِ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَقَرَأَ (فَنَسِيَ) بِضَمِّ النُّونِ وَتَشْدِيدِ السِّينِ مَكْسُورَةً مَبْنِيًا لِلْمَفْعُولِ أَي: فَنَسَاهُ إِبْلِيسُ ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ العزم في اللغة توطين النفس على الفعل والتصميم عليه، والمضْي على المعتقد في أي شيء كان، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على أن لا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك، فلما

وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر؛ وقيل: العزم الصبر أي: لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة. قال النحاس: وهو كذلك في اللغة، يقال لفلان عزم أي: صبر وثبات على التحفظ عن المعاصي حتى يسلم منها، ومنه ﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ [الأحقاف: 35]. وقيل المعنى ولم نجد له عزمًا على الذنب، وبه قال ابن كيسان، وقيل: ولم نجد له رأياً معزوماً عليه، وبه قال ابن قتيبة. ثم شرع سبحانه في كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه، والعامل في إذ مقتر أي: ﴿وَوَكَّنَا﴾ أنكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود نكر ما فيه من الحوادث للمبالغة، لأنه إذا وقع الأمر بنكر الوقت كان نكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق الأولى وقد تقدم تفسير هذه القصة في البقرة مستوفى، ومعنى ﴿فَتَشَقَّى﴾ فتتعب في تحصيل ما لا بد منه في المعاش كالحرث والزرع، ولم يقل فتشقى، لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده، ثم علل ما يوجب ذلك النهي بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام فقال: ﴿إِنْ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ أي: في الجنة. والمعنى: أن لك فيها تمتعاً بأنواع المعاش وتتعمأ بأصناف النعم من المأكَل الشهية والملابس البهية، فإنه لما نفى عنه الجوع والعري أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له، وهكذا قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَا تَظْلَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ فإن نفي الظما يستلزم حصول الرِّي ووجود المسكن الذي ينفع عنه مشقة الضحى يقال: ضحى الرجل يضحي ضحواً: إذا برز للشمس فأصابه حرُّها، فنكر سبحانه ما هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمير المعاش وتعب الكد في تحصيله، ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا هي تحصيل الشبع والرِّي والكسوة والكنز، وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها، وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله، وإن ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من الجنة إلى الدنيا فيحل به التعب والنصب بما يدفع الجوع والعري والظما والضحو، فالمراد بالشقاء: شقاء الدنيا كما قاله كثير من المفسرين لا شقاء الأخرى. قال الفراء: هو أن يأكل من كد يديه، وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصماً (وإنك لتظلم) بفتح أن، وقرأ الباقون بكسرهما على العطف على إن لك ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ قد تقدّم تفسيره في الأعراف في قوله: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20] أي: أنهى إليه وسوسته، وجملة ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ إلى آخره إما بدل من وسوس أو مستأنفة بتفسير سؤال كانه قيل: فماذا قال له في وسوسته؟ و﴿شَجَرَةُ الْخَلْدِ﴾ هي الشجرة التي من أكل منها لم يموت أصلاً ﴿وَمَلِكٌ لَا يَبْلَى﴾ أي: لا يزول ولا ينقضي ﴿فَأَكْثَرَ مِمَّا فِدَّتْ لَهَا سَوَاتِيمُهَا﴾ قد تقدّم تفسير هذا وما بعده في الأعراف. قال الفراء: ومعنى طفا في العربية: أقبلا، وقيل: جعلاً يلصقان عليهما من ورق التين ﴿وَعَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أي: عصاه بالأكل من الشجرة

وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، وهي شجرة الخلد»**. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«حاج أم موسى قال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بنذرك وأشقيتهم بمعصيتك، قال أم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسائله وبكلامه، أتولمني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قتره عليّ قبل أن يخلقني، قال رسول الله ﷺ: فحج أم موسى»**.

قَالَ أَمِيحًا مِنْهَا جِيئًا بِبَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ عَذَابٌ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُنَا فَمِنْ تَنْحَ هُنَا فَمَا يَصِلُ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣١﴾ وَمِنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي حَزَنَتَنِي أَعْمَى وَفَدَّ كُنْتُ بِصِيرًا ﴿١٣٣﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٣٤﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِنَا رَبِّيُ وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْغَى ﴿١٣٥﴾

قوله: **﴿قال اهبطا﴾** قد مر تفسيره في البقرة أي: انزلا من الجنة إلى الأرض، خصهما الله سبحانه بالهبوط لأنهما أصل البشر، ثم عمم الخطاب لهما ولنزيتهما فقال: **﴿بعضكم لبعض عدو﴾** والجملة في محل نصب على الحال ويجوز أن يقال: خاطبهما في هذا وما بعده خطاب الجمع، لأنهما منشأ الأولاد. ومعنى **﴿بعضكم لبعض عدو﴾** تعاليهم في أمر المعاش ونحوه، فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام **﴿فإما يأتينكم مني هدي﴾** بإرسال الرسل وإنزال الكتب **﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾** أي: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة **﴿ومن أعرض عن ذكرى﴾** أي: عن نبئي، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه، ولم يتبع هداي **﴿فإن له معيشة ضنكا﴾** أي: فإن له في هذه الدنيا معيشة ضنكا أي: عيشاً ضيقاً. يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، مصدر يستوي فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث، قال عنتره:

إن المنيّة لو تمثّل مثلث مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
وقرئ **﴿ضنكى﴾** بضم الضاد على فعلى. ومعنى الآية: أن الله عز وجل جعل لمن اتبع هداي وتمسك بدينه أن يعيش في الدنيا عيشاً هنيئاً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه كما قال سبحانه: **﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾** [النحل: 97]. وجعل لمن لم يتبع هداي وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ضيقاً وفي تعب ونصب، ومع ما يصيبه في هذه الدنيا من المتاعب، فهو في الآخرة أشدّ تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً، وذلك معنى **﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾** أي: مسلوب البصر، وقيل: المراد العمى عن الحجة، وقيل: أعمى عن جهات الخير لا يهتدي إلى شيء منها، وقد قيل: إن المراد بالمعيشة الضنكى عذاب القبر، وسيأتي ما يرجح هذا ويقول **﴿قال ربي لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾**

فغوى فضل عن الصواب أو عن مطلوبه، وهو الخلود بكل تلك الشجرة؛ وقيل: فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا وقيل: جهل موضع رشده؛ وقيل: يشم من كثرة الأكل. قال ابن قتيبة: أكل أم من الشجرة التي نهى عنها باستزال إبليس وخداعه إياه، والقسم له باش إنه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ولم يكن نذبه عن اعتقاد متقدّم ونية صحيحة، فنحن نقول: عصى أم ربه فغوى. انتهى. قال القاضي أبو بكر بن العربي: لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن أم. قلت: لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله في كتابه بأنه عصاه، وكما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومما قلته في هذا المعنى:

عصى أبو العالم وهو الذي من طينة صوره الله
واسجد الأملاك من أجله وصير الجنة ملواه
أغواه إبليس فمن ذا أنا المسد كين إن إبليس أغواه

﴿ثم اجتباه ربه﴾ أي: اصطفاه وقربه. قال ابن فورك: كانت المعصية من أم قبل النبوة لبليل ما في هذه الآية، فإنه ذكر الاجتباه والهداية بعد ذكر المعصية، وإذا كانت المعصية قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً **﴿فتاب عليه وهدي﴾** أي: تاب عليه من معصيته، وهداه إلى الثبات على التوبة. قيل: وكانت توبة الله عليه قبل أن يتوب هو وحواء بقولهما: **﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾** [الأعراف: 23]. وقد مر وجه تخصيص أم بالذكر نون حواء.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **﴿أو يحدث لهم﴾** أي: القرآن **﴿نكراً﴾** قال: جداً وورعاً. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿ولا تعجل بالقرآن﴾** يقول: لا تعجل حتى نبينه لك. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن الحسن قال: لطم رجل امرأته، فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب قصاصاً، فجعل النبي ﷺ بينهما القصاص، فأنزل الله **﴿ولا تعجل بالقرآن﴾** الآية، فوقف النبي ﷺ حتى نزلت **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** [النساء: 34] الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿ولا تعجل﴾** الآية قال: لا تتله على أحد حتى تتم له. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن منده في التوحيد، والطبراني في الصغير وصححه، عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فَنسي. وأخرج عبد الغني، وابن سعد عن ابن عباس **﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾** أن لا تقرب الشجرة **﴿فَنسي﴾** فترك عهدي **﴿ولم نجد له عزماً﴾** قال: حفظاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿فَنسي﴾** فترك **﴿ولم نجد له عزماً﴾** يقول: لم نجعل له عزماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿إنك لا تظلم فيها ولا تضحى﴾** قال: لا يصيبك فيها عطش ولا حر. وأخرج أحمد،

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال: عمي عليه كل شيء إلا جهنم، وفي لفظ: لا يبصر إلا النار. وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله: ﴿وَكُنْكَ نَجْزِي مِنْ أَسْرَفٍ﴾ قال: من أشرك بالله.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّعْيَى ﴿١٧٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامِ وَاعِلٍ مُّسَمًّى ﴿١٧٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٨٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ حِزْرًا وَمَنْ يَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكَ كُنُوزُكَ وَلَا تُنْصِتُ إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّهُ قَائِمٌ عَلَيْكَ ﴿١٨١﴾ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَتَىكَ لَا تَتَوَلَّى الْخِيفَةَ لِلشُّرَكَاةِ أَفَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ رَجُلٌ يَحْكُمُ مَا يُخْلَعُ ﴿١٨٢﴾ وَأَوَّلُ آيَاتِنَا أَنْ بَدَّلْنَاهُ مِنْ دُونِ آلِهَتِكَ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْكُتُبُ ﴿١٨٣﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَكُنْهُم بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَعَالَمُوا رَبًّا لَوْلَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّئُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ الْوَحْيَ ﴿١٨٤﴾ فَلَا كُلَّ مُتْرَعٍ فَتْرِيضُوا فَتَمْلِكُونَ مِنَ الصَّحَابِ الْقَرِيبِ وَالْأَسْرَى وَمَنْ أَمْتَنَّا ﴿١٨٥﴾

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر، كما مر غير مرة، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وفاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها، والمفعول محذوف، وإنكر البصريون مثل هذا لأن الجمل لا تقع فاعلاً، وجوزّه غيرهم. قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم. قال النحاس: وهذا خطأ لأن كم استفهام، فلا يعمل فيها ما قبلها. وقال الزجاج: المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه، وحقيقته تدل على الهدى، فالفاعل هو الهدى، وقال: ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بأهلكنا وقيل: إن فاعل يهد ضمير لله أو للرسول، والجملة بعده تفسره، ومعنى الآية على ما هو الظاهر: أفلم يتبين لأهل مكة خير من ﴿أهلكنا قبلهم من القرون﴾ حال كون القرون ﴿يمشون في مساكنهم﴾ ويتقلبون في ديارهم، أو حال كون هؤلاء يمشون من مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود وقرى قوم لوط فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم لثلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك، وقرأ ابن عباس والسلمي (نهج) بالنون، والمعنى على هذه القراءة واضح، وجملة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ آيَاتٍ لِّأُولِي النُّعْيَى﴾ تعليل للإنكار وتقدير للهداية، والإشارة بقوله ذلك إلى مضمون كم أهلكنا إلى آخره. والنهي: جمع نهية، وهي العقل أي: لنوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ولولا الكلمة السابقة، وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة ﴿لَكُنْ﴾ عقاب تنوهم إلزاماً أي: لازماً لهم، لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر. وقوله: ﴿وَأَوَّلُ مُسَمًّى﴾ معطوف على كلمة، قاله الزجاج وغيره، والأجل المسمى هو: يوم القيامة، أو يوم بدر، وللزام مصدر لازم، قيل: ويجوز عطف وأجل مسمى على الضمير المستتر في

في الدنيا ﴿قَالَ كُنْ﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسرهُ بقوله: ﴿وَأَوَّلُ آيَاتِنَا فَنَسِيَتْهَا﴾ أي: أعرضت عنها، وتركتها، ولم تنظر فيها ﴿وَكُنْكَ الْيَوْمَ تَنْسَى﴾ أي: مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا تنسى أي: تترك في العمى والعذاب في النار، قال الفراء: يقال إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى في حشره ﴿وَكُنْكَ نَجْزِي مِنْ أَسْرَفٍ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزيه والإسراف: الانهماك في الشهوات، وقيل: الشرك ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل كذب بها ﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ أي: أقطع من المعيشة الضنكى ﴿وَوَائِقِي﴾ أي: أوم واثبت لأنه لا ينقطع.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة»، وذلك أن الله يقول: ﴿فَمَنْ لَتَبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ وأخرج القرطبي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال: أجاز الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة، ثم قرأ ﴿فَمَنْ لَتَبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ قال: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، ومسدد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ قال: عذاب القبر. ولفظ عبد الرزاق قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه. ولفظ ابن أبي حاتم قال: ضمة القبر. وفي إسناده ابن لهيعة، وفيه مقال معروف. وقد روي موقوفاً، قال ابن كثير: الموقوف أصح. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً﴾ قال: المعيشة الضنكى أن يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة. وأخرج ابن أبي الدنيا، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه بأطول منه. قال ابن كثير: رفعه منكر جداً. وأخرج ابن أبي شيبة، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً﴾ قال: عذاب القبر. قال ابن كثير بعد إخرجه: إسناده جيد. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكاً﴾ قال: عذاب القبر. ومجموع ما نكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن ابن مسعود أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله:

الرزق الأخروي لا الدنيوي، وإن كان حلالاً طيباً ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96]. ﴿وَأَمْرٌ أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أمره الله سبحانه بأن يأمُر أهله بالصلاة، والمراد بهم: أهل بيته، وقيل: جميع أمته ولم يذكرها هنا الأمر من الله له بالصلاة، بل قصر الأمر على أهله، إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً، أو لكون أمره بها قد تقدّم في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له، ولهذا قال: ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: اصبر على الصلاة، ولا تشغل عنها بشيء من أمور الدنيا ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾ أي: لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، وتشغل بذلك عن الصلاة ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: العاقبة المحمودة، وهي الجنة لأهل التقوى على حذف المضاف كما قال الأخفش، وفيه دليل على أن التقوى هي ملك الأمر وعليها تدور دوائر الخير ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بَآيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي قال كفار مكة: هلا يأتينا محمد بآية من آيات ربه كما كان يأتي بها من قبله من الأنبياء؟ وذلك كالناقة والعصا، أو هلا يأتينا بآية من الآيات التي قد اقترحناها عليه؟ فاجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصَّحْفِ الْأُولَى﴾ يريد بالصحف الأولى: التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به، وذلك يكفي، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصحتها وصحتها، وفيها ما ينفع إنكارهم لنبوته، ويبطل تمنياتهم وتعسفاتهم، وقيل: المعنى أو لم يأتهم إهلاكنا للأمة الذين كفروا واقترحوا الآيات، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم، وقيل: المراد أو لم تأتكم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني: القرآن، فإنه برهان لما في سائر الكتب المنزلة. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن أبي إسحاق، وحفص (أو لم تأتكم) بالتاء الفوقية وقرأ الباقون بالتحية لأن معنى البينة البيان والبرهان، فذكروا الفعل اعتباراً بمعنى البينة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. قال الكسائي: ويجوز بنية بالتنوين. قال النحاس: إذا نُوئت بنية ورفعت جعلت ما بدلاً منها، وإذا نصبت فعلى الحال. والمعنى: أو لم يأتهم ما في الصحف الأولى مبيناً، وهذا على ما يقتضيه الجواز النحوي وإن لم تقع القراءة به ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُنَا بِمَعْزَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل بعثة محمد ﷺ أو من قبل إتيان البينة لنزول القرآن ﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة ﴿رَبِّنَا لَوْلَا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولٌ﴾ أي: هلا أرسلت إلينا رسولاً إلى الدنيا ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتَكَ﴾ التي يأتي بها الرسول ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ نَذَلَّ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿وَنُخْزَى﴾ بدخول النار، وقرئ (نذل ونخزى) على البناء للمفعول، وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم ولهذا حكى الله عنهم أنهم ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: 9]، ﴿قُلْ كُلٌّ مَتْرَبٌ

كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد أي: لكن الأخذ العاجل ﴿وَلَجَلْ مَسْمًى﴾ لازمين لهم كما كانا لازميين لعاد وثمود، وفيه تعسف ظاهر. ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من أنك ساحر كذاب، ونحو ذلك أن مطاعنهم الباطلة، والمعنى: لا تحتفل بهم، فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدم ولا يتأخر؛ وقيل: هذا منسوخ بآية القتال ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: متلبساً بحمده، قال أكثر المفسرين: والمراد الصلوات الخمس كما يفيد قوله: ﴿قَبْلُ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر ﴿وَقَبْلُ غُرُوبِهَا﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر ﴿وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ﴾ العتمة، والمراد بالأناء: الساعات، وهي جمع إنني بالكسر والقصر، وهو الساعة، ومعنى ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصلِّ ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ أي: المغرب والظهر لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر؛ وقيل: إن الإشارة إلى صلاة الظهر هي بقوله: ﴿وَقَبْلُ غُرُوبِهَا﴾ لأنها هي وصلاة العصر قبل غروب الشمس؛ وقيل: المراد بالآية صلاة التطوع، ولو قيل ليس في الآية إشارة إلى الصلاة بل المراد التسبيح في هذه الأوقات أي: قول القائل سبحان الله، لم يكن ذلك بعيداً من الصواب، والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة ولكنه مجاز، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازي، وجملة ﴿عَلَيْكَ تَرْضَى﴾ متعلقة بقوله فسبح أي: سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك، هذا على قراءة الجمهور، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم (ترضى) بضم التاء مبنياً للمفعول أي: يرتضيك ربك ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ قد تقدّم تفسير هذه الآية في الحجر. والمعنى: لا تطل نظر عينيك، وأزواجاً مفعول متعنا، وزهرة منصوبة على الحال، أو بفعل محذوف أي: جعلنا أو أعطينا، نكر معنى هذا الزجاج؛ وقيل: هي بدل من الهاء في به باعتبار محله، وهو النصب لا باعتبار لفظه، فإنه مجرور كما تقول مررت به أخاك. ورجح الفراء النصب على الحال، يجوز أن تكون بدلاً، ويجوز أن تكون منتصبة على المصدر مثل صبغة الله ووعد الله ﴿وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زينتها وبهجتها بالنبات وغيره. وقرأ عيسى بن عمر (زهرة) بفتح الهاء، وهي نور النبات، واللام في ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ فيه متعلق بمتعنا أي: لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة، ابتلاء منا لهم كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: 7]، وقيل: لنعذبهم؛ وقيل: لنشدد عليهم في التكليف ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَبَاقِي﴾ أي: ثواب الله، وما أخر لصالح عباده في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا على كل حال، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع، وهذا ينقطع، وهو معنى وأبقى، وقيل: المراد بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها. والأول أولى لأن الخيرية المحققة والدوام الذي لا ينقطع إنما يتحققان في

الجديد، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿ولا تمضن عينيكم﴾. «كانه يعزبه عن الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض»، وأخرج ابن مريويه، وابن عساكر، وابن النجار، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿وامرأهك بالصلاة﴾ كان النبي ﷺ يجيء إلى باب علي صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: الصلاة رحمكم الله ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: 33]. وأخرج ابن مريويه عن أبي الحمراء نحوه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ثابت، قال: «كان النبي ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله: يا أهلاه صلوا صلوا»، قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة. وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب بإسناد. قال السيوطي صحيح عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وقرأ ﴿وامرأهك بالصلاة﴾ الآية.

تفسير سورة الأنبياء

وأخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء هم من العتاق الأول، وهم من تلادي. وأخرج ابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله ﷺ وأبياً ما في العرب وإن أفضل منه، وقد أريت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطعك، نزلت اليوم سورة أنزلتنا عن الدنيا ﴿اقترِبْ لِلنَّاسِ حَسَابِهِمْ وَهُمْ فِي غَفلةٍ معرضون﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلشَّائِسِ جِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَؤُهُمْ بِهِمْ وَلَعَلَّوْنَ ﴿٢﴾ لَا يَهْدِي قُلُوبُهُمْ وَاسْمُرُوا الصُّجُورَ الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّيْحَرَ وَأَنْتُمْ تَعْبَهُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضَلُّنَا أَهْلِيكَ بَلَى أَفَقَدْ بَلَاهُمْ هَؤُلَاءِ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِأَبَائِهِمْ كَمَا أُرْسِلُوا ﴿٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَوْمٍ أَعْلَمَ كُنْهَآ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوْا أَلَّا الذِّكْرَ إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَسَدْتُهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نُّشَاهٍ وَأَعْلَمَآتِ السَّمْرِفِينَ ﴿٩﴾

فتربصوا: أي: قل لهم يا محمد كل واحد منا ومنكم
 متربص أي: منتظر لما يقول إليه الأمر فتربصوا أنتم
 ﴿فستعلمون﴾ عن قريب ﴿من أصحاب الصراط
 السوي﴾ أي: فستعلمون بالنصر والعاقبة من هو من
 أصحاب الصراط المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة
 ونزع عن الغواية، ومن في الموضوعين في محل رفع
 بالابتداء، قال النحاس: والفراء يذهب إلى أن معنى ﴿من
 أصحاب الصراط السوي﴾ من لم يضل، وإلى أن معنى
 ﴿من اهتدى﴾ من ضل ثم اهتدى؛ وقيل: من في
 الموضوعين في محل نصب، وكذا قال الفراء. وحكي عن
 الزجاج أنه قال: هذا خطأ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما
 قبله. وقرأ أبو رافع (فسوف تعلمون) وقرأ يحيى بن
 يعمر، وعاصم الجحري (السوي) على فعلى، ورتت هذه
 القراءة بأن تانيث الصراط شاذ؛ وقيل: هي بمعنى الوسط
 والعدل اهـ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ألم نبين لهم ﴿هُكْمَ أَهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ﴾ لنفكرون يمشون في مسالكهم﴾ نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم وفي قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ نَزْأً وَأَجَلَ مَسْمً﴾ يقول: هذا من مقانيم الكلام، يقول: لولا كلمة وأجل مسمى لكان نزأً. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: الأجل المسمى الكلمة التي سبقت من ربك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿لَكَانَ لَزْأً﴾ قال موتاً: وأخرج الفريابي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الآية قال: هي الصلاة المكتوبة. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، وابن عساکر عن جرير عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، وقرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾». وفي صحيح مسلم، وسنن أبي داود، والنسائي عن عمارة بن رؤية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن راهويه، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والخراطي، وأبو نعيم عن أبي رافع قال: «أضاف النبي ﷺ ضيفاً. ولم يكن عند النبي ﷺ ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن بعنا أو سلفنا دقيقاً إلى هلال رجب، فقال: لا إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض، ولئن أسلفني وباعني لأتيت إليه، أذهب بدرعي

(لاهية) بالرفع كما قرئ محدث بالرفع ﴿وَأَسْرَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ النجوى اسم من التناجي، والتناجي لا يكون إلا سرّاً، فمعنى إسرار النجوى: المبالغة في الإخفاء. وقد اختلف في محل الموصول على أقوال: فقيل إنه في محل رفع بدل من الواو في أسروا، قاله المبرد وغيره؛ وقيل: هو في محل رفع على الذم، وقيل: هو فاعل لفعل محذوف، والتقدير: يقول الذين ظلموا، واختار هذا النحاس، وقيل: في محل نصب بتقدير أعني وقيل: في محل خفض على أنه بدل من الناس نكر ذلك المبرد؛ وقيل: هو في محل رفع على أنه فاعل أسروا على لغة من يجوز الجمع بين فاعلين كقولهم: اكلوني البراغيث، نكر ذلك الأخفش، ومثله ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 71]. ومنه قول الشاعر:

فامتلئين البغال للأغراض

وقول الآخر:

ولكن نأبى أبوه وأمه بحوران يعصرن السليط أثاره
وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير أي: والذين ظلموا أسروا النجوى. قال أبو عبيدة: أسروا هنا من الأضداد: يحتمل أن يكون بمعنى أخفوا كلامهم، ويحتمل أن يكون بمعنى أظهروه وأعلنوه ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ هذه الجملة بتقدير القول قبلها أي: قالوا هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء؟ ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلاً من النجوى، وهل بمعنى النفي أي: وأسروا هذا الحديث، والهمزة في ﴿افْتَلَتُونَ السَّحَرِ﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدّر كظنائه، وجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال. والمعنى: إذا كان بشراً مثلكم، وكان الذي جاء به سحراً، فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه، فاطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال: ﴿قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما، وفي مصاحف أهل الكوفة (قال ربي) أي: قال محمد ربي يعلم القول، فهو عالم بما تناجيتم به. قيل: القراءة الأولى أولى، لأنهم أسروا هذا القول، فاطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا. قال النحاس: والقراءتان صحيحتان، وهما بمنزلة آيتين ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل ما يسمع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم، فيدخل في ذلك ما أسروا دخولاً أولاً ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ قال الزجاج: أي قالوا الذي تأتي به أضغاث أحلام. قال القتيبي: أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة. وقال اليزيدي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول، ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم: أضغاث أحلام، قال: ﴿بَلْ افْتَرَاهُ﴾ أي: بل قالوا افتراه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل. ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به من جنس الشعر، وفي هذا الاضطراب منهم، والتلون والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة

يقال: قرب الشيء واقترب وقد اقترب الحساب أي: قرب الوقت الذي يحاسبون فيه. قال الزجاج: المعنى ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ وقت ﴿حِسَابِهِمْ﴾ أي: القيامة كما في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]. واللام في للناس متعلقة بالفعل، وتقديرها في ومجربها على الفاعل لإسخال الروعة، ومعنى اقتراب وقت الحساب: نذوه منهم، لأنه في كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التي قبلها؛ وقيل: لأن كل ما هو أقرب قريب، وموت كل إنسان قيام ساعته، والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى. والمراد بالناس: العموم؛ وقيل: المشركون مطلقاً؛ وقيل: كفار مكة، وعلى هذا الوجه قيل: المراد بالحساب: عذابهم يوم بدر، وجملة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: هم في غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله، والقيام بفرائضه، والانزجار عن مناهيه ﴿وَمَا يَلْتَمِيزُ مِنْ نَكَرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ من لا ابتداء الغاية، وقد استدل بوصف النكر لكونه محدثاً على أن القرآن محدث، لأن النكر هنا هو القرآن. وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد في النزول. فالمعنى محدث تنزيه، وإنما النزاع في الكلام النفسي، وهذه المسئلة أعني: قدم القرآن وحدثه قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل، وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي، وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده، والقصة أشهر من أن تنكر، ومن أحب الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبي. ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال لفظي بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسئلة شيء من الكلام، ولا نقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه. وقوله: ﴿إِلَّا اسْتَمْعَوْهُ﴾ استثناء مفرغ في محل نصب على الحال، وجملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ في محل نصب على الحال أيضاً من فاعل استمعوه، و﴿لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ﴾ حال أيضاً والمعنى: ما يأتينهم من نكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب، وقرئ

جعلناهم جسداً لا ياكلون الطعام ﴿أي: أن الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة ياكلون كما ياكلون ويشربون كما يشربون، والجسد جسم الإنسان. قال الزجاج: هو واحد، يعني: الجسد ينبئ عن جماعة أي: وما جعلناهم نوي أجساد لا ياكلون الطعام فجعله لا ياكلون الطعام صفة لجسداً أي: وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل، بل هو محتاج إلى ذلك ﴿وما كانوا خالين﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون، فأجاب الله عليهم بهذا، وجعله ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ معطوفة على جملة يدل عليها السياق، والتقدير: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم الوعد أي: أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كذبهم، ولهذا قال سبحانه ﴿فلنجيناهم ومن نشاء﴾ من عبادنا المؤمنين، والمراد: إنجائهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوي، والمراد بـ ﴿المسرفين﴾ المجاوزون للحد في الكفر والمعاصي، وهم المشركون.

وقد أخرج النسائي عن أبي سعيد النبي ﷺ في قوله: ﴿وهم في غفلة معرضون﴾ قال: في الدنيا. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في الآية قال: من أمر الدنيا. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام﴾ أي: فعل الأحلام إنما هي رؤيا رأها ﴿بل افتراه بل هو شاعر﴾ كل هذا قد كان منه ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسل ﴿وما أمنت قبلهم من قرية أهلكناها﴾ أي: أن الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إذا كان ما تقوله حقاً ويسرك أن تؤمن فحول لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان الذي سالك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك، قال: بل استأنيت بقومي، فأنزل الله ﴿وما أمنت قبلهم﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما جعلناهم جسداً لا ياكلون الطعام﴾ يقول: لم نجعلهم جسداً ليس ياكلون الطعام، إنما جعلناهم جسداً ياكلون الطعام.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كَتَبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كُتُبَ طَائِفَةٍ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَحْسَنُوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا بِرُكُوعٍ ﴿١٧﴾ لَا تَرْكَعُوا وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ مَا تَرْتَعُونَ فِيهِ وَرُسُلُنَا لَكُمُ سَتُورٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا يَبْنَؤُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَمَا زَالَتْ إِلَهُكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حُمَيمًا خَبِيرِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا خَلَقْنَا النِّسَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِنَرِّيَنَّهُمْ لَوْ أَرَادُوا أَن تَخِذُوا لَآخِذَةً مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿٢١﴾ بَلْ نَقْذِرُ الْبَلَّ عَلَى الْبَاطِلِ فَإِذَا هُوَ رَاقٍ وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا نَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿٢٣﴾ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٤﴾ أَرَأَيْتُمْ أَزْوَاجَهُمْ

ما جاء به، لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه؟ أو كانوا قد علموا أنه حق، وأنه من عند الله، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان. ثم بعد هذا كله، قالوا: ﴿فليأتنا بآية﴾ وهذا جواب شرط محذوف أي: إن لم يكن كما قلنا: فليأتنا بآية ﴿كما أرسل الأولون﴾ أي: كما أرسل موسى بالعصا وغيرها، وصالح بالناقاة، ومحل الكاف الجر صفة لآية، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، وكان سؤالهم هذا سؤال تمنع، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك، كما قال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: 23]. قال الزجاج: اقترحوا الآيات التي لا يقع معها إهمال، فقال الله مجيباً لهم ﴿وما أمنت قبلهم من قرية﴾ أي: قبل مشركي مكة ومعنى من قرية: من أهل قرية، ووصف القرية بقوله: ﴿أهلكناها﴾ أي: أهلكنا أهلها، أو أهلكناها بإهلاك أهلها، وفيه بيان أن سنة الله في الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، ومن في من قرية مزيدة للتأكيد. والمعنى: ما أمنت قرية من القرى التي أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء، فكيف نعطيهم ما يقترحون، وهم أسوة من قبلهم، والهمزة في ﴿أفهم يؤمنون﴾ للتقريع والتوبيخ، والمعنى: إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا، ثم أجاب سبحانه عن قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحي إليهم﴾ أي: لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالاً من البشر، ولم نرسل إليهم ملائكة كما قال سبحانه: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ [الإسراء: 95]. وجعله يوحي إليهم مستأنفة لبيان كيفية الإرسال، ويجوز أن تكون صفة لرجالاً أي: متصفين بصفة الإيحاء إليهم. قرأ حفص، وحمزة، والكسائي (نوحى) بالنون، وقرأ الباقون بالياء التحتية. ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وأهل الذكر هم أهل الكتابين: اليهود والنصارى، ومعنى إن كنتم لا تعلمون: إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر، كذا قال أكثر المفسرين. وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه، وتقدير الكلام: إن كنتم لا تعلمون ما نكر فاسألوا أهل الذكر. وقد استدلل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة، لا عن الرأي البحت، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجة. وقد أوضحنا هذا في رسالة بسيطة: سميناها «القول المفيد في حكم التقليد» ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال: ﴿وما

نزول العذاب بكم. قال المفسرون وأهل الأخبار: إن المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبياً اسمه شعيب بن مهدم، وقبره بجبل من جبال اليمن يقال: له ضين وبينه وبين حضور نحو بريد، قالوا: وليس هو شعيباً صاحب مدين. قلت: وأثار القبر بجبل ضين موجودة، والعامّة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم **﴿قَالُوا يَا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾** أي قالوا: لما قالت لهم الملائكة لا تركضوا يا ويلنا أي: بإهلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قَدّمنا، فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب **﴿فَمَا زالت تلك دعوَاهم﴾** أي: ما زالت هذه الكلمة دعوَاهم أي: دعوتهم، والكلمة هي قولهم يا ويلنا أي: يدعون بها ويرثونها **﴿حتى جعلناهم حصيداً﴾** أي: بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل، والحصيد هنا بمعنى المحصود، ومعنى **﴿خامسين﴾** أنهم ميتون، من خمنت النار إذا طفئت، فشبّه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات قد طفئ **﴿وما خلقنا للسماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾** أي: لم نخلقهما عبثاً ولا باطلاً، بل للتنبيه على أن لهما خالفاً قادراً يجب امتثال أمره، وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها **﴿ولو أرينا أن نتخذ لهُوَاهُ﴾** اللهو ما يتلهى به، قيل: اللهو الزوجة والولد؛ وقيل: الزوجة فقط؛ وقيل: الولد فقط. قال الجوهري: قد يكتنى باللهو عن الجماع، ويدل على ما قاله قول امرئ القيس:

الازعمت بسباسة اليوم أنني كبرت ولا يحسن اللهو أمثالي
ومنه قول الآخر:

وفيهن ملهى للصادق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها، وجواب لو قوله: **﴿لاتخذنّه من لهُنّا﴾** أي من عننّا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم. قال المفسرون: أي من الحور العين، وفي هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وقيل: أراد الردّ على من قال: الأصنام أو الملائكة بنات الله. وقال ابن قتيبة: الآية ردّ على النصاري **﴿إن كنا فاعلين﴾** قال الواحدي قال المفسرون: ما كنا فاعلين. قال الفراء والمبرد، والزجاج: يجوز أن تكون إن للنفي كما ذكره المفسرون أي: ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولداً؛ ويجوز أن تكون للشرط أي: إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لنا. قال الفراء: وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية **﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾** هذا إضراب عن اتخاذ اللهو أي: دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل، بل شأننا أن نرمي بالحق على الباطل **﴿فيمدغه﴾** أي: يقهره، وأصل المدغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه الدامغة. قال الزجاج: المعنى نذهبه ذهاب الصغار والإذلال، وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب. قيل أراد بالحق

الأرض هم يُبشرون ﴿١١﴾ لو كانَ نِيماً إِلَهِةً إِلَّا أَنَّهُ لَسَدًا فَبَحَنَ اللَّهُ رِيَّ الْأَرْضِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهِةً قُلْ مَا لَهُمْ بِرُحْنِكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ يَنْقُذُ مَنْ قَبْلِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله: **﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً﴾** يعني: القرآن **﴿فيه نكرمكم﴾** صفة لكتاباً، والمراد بالذكر هنا الشرف أي: فيه شرفكم كقوله: **﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾** [الزخرف: 44]. وقيل: فيه نكرمكم أي: نكرم أمر دينكم، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب، وقيل: فيه حبيبتكم. قاله مجاهد؛ وقيل: مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم؛ وقيل: فيه العمل بما فيه حياتكم، قاله سهل بن عبد الله، وقيل: فيه موعظتكم، والاستفهام في **﴿أفلا تعقلون﴾** للتوبيخ والتفريع أي: أفلا تعقلون أن الأمر كذلك، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر، ثم أودعهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة، فقال: **﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة﴾** كم في محل نصب على أنها مفعول قصصنا، وهي الخبرية المفيدة للتكثير، والقصص كسر الشيء وبقه، يقال: قصصت ظهر فلان إذا كسرته، واقتصمت سنه إذا انكسرت. والمعنى هنا: الإهلاك والعذاب، وأما الفصل بالفاء فهو الصدع في الشيء من غير بينونة، وجملة **﴿كانت ظالمة﴾** في محل جر صفة لقرية، وفي الكلام مضاف محذوف أي: وكم قصصنا من أهل قرية كانوا ظالمين أي: كافرين بالله مكذبين بأياته، والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه، وهم وضعوا الكفر في موضع الإيمان **﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾** أي: أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قوماً ليسوا منهم **﴿فلما أحسوا بأسنا﴾** أي: أدركوا أو رأوا عذابنا، وقال الأخفش: خافوا وتوقعوا، أو لباس العذاب الشديد **﴿إذا هم منها يركضون﴾** الركض الفرار والهرب والانهزام، وأصله من ركض الرجل الدابة برجليه، يقال: ركض الفرس إذا كده بساقيه، ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا، ومنه **﴿اركض برجلك﴾** [ص: 42] والمعنى: أنهم يهربون منها راكضين نوابهم، فقيل لهم: **﴿لا تركضوا﴾** أي: لا تهربوا. قيل: إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم، وقيل: إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم **﴿وارجعوا إلى ما أترفتكم فيه﴾** أي: إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم، والمترف المنعم، يقال: أترف فلان أي: وسع عليه في معاشه **﴿ومساكنكم﴾** أي: وارجعوا إلى مساكنكم التي كنتم تسكنونها وتفتخرون بها **﴿لعلكم تسألون﴾** أي: تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم؛ وقيل: المعنى لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به؛ وقيل: لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل

تعدُّ الألهة، فقال: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ أي: لو كان في السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لفسدتا أي: لبطلتا، يعني: السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات. قال الكسائي، وسيبويه، والأخفش، والزجاج، وجمهور النحاة: إن إلا هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لألهة، ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها وظهر فيه إعراب غير التي جاءت إلا بمعناها، ومنه قول الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

وقال الفراء: إن إلا هنا بمعنى سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا، ووجه الفساد أن كون مع الله إلهاً آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد. هـ. ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوجدانية بالبرهان: أي تنزهه عن وجل عما لا يليق به من ثبوت الشريك له، وفيه إرشاد للعباد أن ينزهوا الرب سبحانه عما لا يليق به ﴿ولا يسأل عما يفعل﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره ﴿وهم﴾ أي: العباد ﴿يسألون﴾ عما يفعلون أي: يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده، وقيل: إن المعنى أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون. قيل والمراد بذلك أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالنبي والملائكة لا يصلح لأن يكون إلهاً ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ أي: بل اتخذوا، وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم، ولهذا قال: ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ على دعوى أنها آلهة، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله، ولا سبيل لهم إلى شيء من ذلك، لا من عقل ولا نقل، لأن دليل العقل قد مر بيانه، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾ أي: هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع نكر أمتي وذكر الأمم السالفة وقد أقمت عليكم وأوضحته لكم، فاقيموا أنتم برهانكم، وقيل: المعنى هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبلي فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه. قال الزجاج: قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبا أمته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلا توحيد الله؟ وقيل: معنى الكلام الوعيد والتهديد أي: افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء. وحكى أبو حاتم: أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرأ: هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بالتثنية وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه لهذه القراءة. وقال الزجاج في توجيه هذه القراءة: إن المعنى هذا ذكر مما أنزل إليّ ومما هو معي وذكر من قبلي، وقيل نكر كائن من قبلي أي: جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي. ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع

الحجة أ. هـ. وبالباطل شبههم، وقيل: الحق المواعظ، والباطل المعاصي، وقيل: الباطل الشيطان، وقيل: كذبهم. ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي: زائل ناهب؛ وقيل: هالك تالف، والمعنى متقارب، وإذا هي الفجائية ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ أي: العذاب في الآخرة بسبب وصفكم لله بما لا يجوز عليه؛ وقيل: الويل وإي في جهنم، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذي لأولئك، ومن هي التعليلية ﴿وله من في السموات والأرض﴾ عبيداً وملكا، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكاً يعبد كما يعبد، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ﴿ومن عنده﴾ يعني: للملائكة، وفيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفي التعبير عنهم بكونهم عنده إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك، ثم وصفهم بقوله: ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي: لا يتعاضمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتثلل له ﴿ولا يستحسرون﴾ أي: لا يعيرون، مأخوذ من الحسير، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب، يقال: حسر البعير يحسر حسوراً أعياء وكل، واستحسر وتحسر مثله وحسرت أنا حسراً، يتعدى ولا يتعدى. قال أبو زيد: لا يكون، وقال ابن الأعرابي: لا يفشلون. قال الزجاج: معنى الآية أن هؤلاء الذين نكرتم أنهم أولاد الله عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها كقوله: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ [الأعراف: 206]. وقيل: المعنى لا ينقطعون عن عبادته وهذه المعاني متقاربة ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي: ينزهون الله سبحانه دائماً لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون؛ وقيل: يصلون الليل والنهار. قال الزجاج: مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء، فكذلك تسبيحهم دائم، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدر، أو في محل نصب على الحال ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض﴾ قال المفضل: مقصود هذا الاستفهام الجحد أي: لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء، وأم هي المنقطعة، والهمزة لإنكار الوقوع. قال المبرد: إن أم هنا بمعنى هل أي: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، ولا تكون أم هنا بمعنى بل، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر أم مع الاستفهام، فتكون أم المنقطعة، فيصح المعنى، ومن الأرض متعلق باتخذوا، أو بمحذوف هو صفة لألهة، ومعنى ﴿هم ينشرون﴾ هم يبعثون الموتى، والجملة صفة لألهة، وهذه الجملة هي التي يدور عليها الإنكار والتجهيل، لا نفس اتخاذها، فإنه واقع منهم لا محالة. والمعنى: بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى، وليس الأمر كذلك، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك. قرأ الجمهور (ينشرون) بضم الياء وكسر الشين من أنشره أي: أحياء، وقرأ الحسن بفتح الياء أي: يحيون ولا يموتون، ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان

قال الله ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَامِسِينَ﴾ قلت: وقرئ حضور معروفة الآن بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد في جهة الغرب منها. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿حَصِيداً خَامِسِينَ﴾ قال: كخمود النار إذا طفت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿هَلُو أَرِينَا أَنْ نَتَخَذَ لَهَا﴾ قال: الله الولد. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿هَلُو أَرِينَا أَنْ نَتَخَذَ لَهَا﴾ قال: النساء. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يقول: لا يرجعون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ قال: بعباده ﴿وَهُمْ يَسْأَلُونَ﴾ قال: عن أعمالهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن ابن عباس قال: ما في الأرض قوم أبغض إلي من القدرة، وما ذاك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله، قال الله: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

وَقَالُوا أَتُخَذُ الْمَلَائِكَةُ رِجَالًا سُبْحَانَكَ بَلْ عِصَادٌ مُكْرَمَةٌ ﴿١٦١﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْمَعُونَ ﴿١٦٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْعُورُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَمِنْ خَتَمِيهِ مُشِفُونَ ﴿١٦٣﴾ وَمَنْ يُقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهُ مِثْلُ دُونِهِ فَلَنْ يَكْفُرَهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا كَرَّمُوا نَارَ الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا رُفْعًا فَنَفَقْنَاهَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَرْجِعُونَ ﴿١٦٥﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جِبَالًا سُبُلًا لَكُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦٦﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٦٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّارَ وَالنَّارَ وَالْهَرَقَ وَالْقَمَرُ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١٦٨﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِنَرْى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْخَلْقَ أَفَأَنْ يَرَى هُمْ لَمْ يَلِدُوا ﴿١٦٩﴾ كُلٌّ نَفْسٌ ذَا بَقَاءٍ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْمَاءِ وَالْخَبَرِ فَتَنَّا وَتِلْكَ أَرْوَاحُهُمْ ﴿١٧٠﴾

قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ هؤلاء القائلون هم خزاعة، فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله، وقيل: هم اليهود، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولدا. وقد قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله. وقالت طائفة من العرب: الملائكة بنات الله. ثم نزه عز وجل نفسه، فقال: ﴿سُبْحَانَكَ أَي: تنزيهاً له عن ذلك، وهو مقول على السنة العباد. ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال: ﴿هَلْ عِبَادُ مَكْرَمُونَ﴾ أَي: ليسوا كما قالوا، بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم، مقربون عنده. وقرئ (مكرمون) بالتشديد، وأجاز الزجاج والفراء نصب عباد على معنى: بل اتخذ عباداً، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أَي: لا يقولون شيئاً حتى يقوله أو يأمرهم به. كذا قال ابن قتيبة وغيره، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم. وقرئ (لا يسبقونه) بضم الباء من سبقته أسبقه ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أَي: هم العاملون بما

الحق فقال: ﴿هَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ وهذا إضراب من جهته سبحانه وانتقال من توكيهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان، لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل. وقرأ ابن محيصة، والحسن (الحق) بالرفع على معنى هذا الحق، أو هو الحق، وجملة ﴿فَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ تحليل لما قبله من كون أكثرهم يعلمون أي: فهم لأجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمزون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول، فلا يتأملون حجة، ولا يتدبرون في برهان، ولا يتفكرون في دليل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ﴾ قرا حفص، وحزمة، والكسائي (نوحى) بالنون، وقرأ الباقون بالياء أي: نوحى إليه ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وفي هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدم من قوله: ﴿هَذَا نَكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾ وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل، ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال: شرفكم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: فيه حديثكم. وفي رواية عنه قال: فيه دينكم. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: بعث الله نبياً من حمير يقال له: شعيب، فوثب إليه عبد فضربه بعضاً، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء، وفيهم أنزل الله ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ إلى قوله: ﴿خَامِسِينَ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الكلبي في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ قال: هي حضور بني أزد، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ﴾ قال: ارجعوا إلى نوركم وأموالكم. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَا زِلْتَ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ قال: هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم، فأرسل الله عليهم بختنصر فقتلهم، وفي قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِسِينَ﴾ قال: بالسيف ضرب الملائكة وجوهرهم حتى رجعوا إلى مساكنهم. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن وهب، قال: حدثني رجل من الجزيريين قال: كان اليمى قريتان، يقال لإحدهما حضور وللأخرى قلابة، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلون لبوابهم، فلما أترفوا بعث الله إليهم نبياً فدعاهم فقتلهم، فالقى الله في قلب بختنصر أن يغزوهم، فجهاز لهم جيشاً، فقاتلهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه، فجهاز إليهم جيشاً آخر أكثف من الأول، فهزمهم أيضاً، فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه، فقاتلهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون، فسمعوا منادياً يقول: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنَكُمْ﴾ فرجعوا، فسمعوا صوتاً منادياً يقول: يا لثارات النبي فقتلوا بالسيف، فهي التي

الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج و «سبلا» تفسير للفجاج، لأن الفج قد لا يكون طريقاً نافذاً مسلوكة «لعلهم يهتدون» إلى مصالح معاشهم، وما تدعو إليه حاجاتهم «وجعلنا السماء سقفا محفوظاً» عن أن يقع ويسقط على الأرض كقوله: «ويمسك السماء أن تقع على الأرض» [الحج: 65]. وقال الفراء: محفوظاً بالنجوم من الشيطان كقوله: «وحفظناها من كل شيطان رجيم» [الحجر: 17]. وقيل: محفوظاً لا يحتاج إلى عماد؛ وقيل: المراد بالمحفوظ هنا المرفوع؛ وقيل: محفوظاً عن الشرك والمعاصي؛ وقيل: محفوظاً عن الهمم والنقص «وهم عن آياتها معرضون» أضاف الآيات إلى السماء، لأنها مجعولة فيها، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما، ومعنى الإعراض أنهم لا يتدبرون فيها، ولا يتفكرون فيما توجبه من الإيمان «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر» هذا تنكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه في معاشهم، وخلق الشمس والقمر أي: جعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه في سبحان «كل في فلك يسبحون» أي: كل واحد من الشمس والقمر والنجوم في فلك يسبحون أي: يجرون في وسط الفلك، ويسرون بسرعة كالسباح في الماء، والجمع في الفعل باعتبار المطالع، قال سيبويه: إنه لما أخبر عنهم بفعل من يعقل، وجعلهم في الطاعة بمنزلة من يعقل، جعل الضمير عنهم ضمير العقلاء، ولم يقل يسبحون أو تسبح، وكذا قال الفراء. وقال الكسائي: إنما قال يسبحون لأنه رأس آية، والفلك واحد أفلak النجوم، وأصل الكلمة من الدوران، ومنه فلك المغزل لاستدارتها «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد» أي: نوام البقاء في الدنيا «أفأنت مت» بأجلك المحتوم «فهم للخالدون» أي: أقهم الخالدون. قال الفراء: جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت. قال: ويجوز حذف الفاء وإضمارها، والمعنى: إن مت فهم يموتون أيضاً، فلا شماتة في الموت. وقرئ (مت) بكسر الميم وضمتها لغتان؛ وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم: «إم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون» [الطور: 30] «كل نفس ذائقة الموت» أي: زائقة مفارقة جسدها، فلا يبقى أحد من نوات الأنفس المخلوقة كائناً ما كان «وننبئكم بالشئ والخير فتنة» أي: نخبركم بالشدة والرخاء، لننظر كيف شكركم وصبركم. والمراد: أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم، وفتنة مصدر لنبلوكم من غير لفظه «والينا ترجعون» لا إلى غيرنا فتجاذبكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: قالت اليهود إن الله عز وجل صاهر الجن فكانت بنينهم الملائكة، فقال الله تكليماً لهم «بل عباد مكرمون» أي: الملائكة ليس كما قالوا، بل عباد أكرمهم بعبادته «لا يسبقونه بالقول»

يأمرهم الله به، التابعون له المطيعون لربهم «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» هذه الجملة تعليل لما قبلها أي: يعلم ما عملوا وما هم عاملون، أو يعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة، وما خلفهم وهو الدنيا، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدموا وأخروا، لم يعملوا عملاً ولم يقولوا قولاً إلا بأمره «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» أي: يشفع الشافعون له، وهو من رضي عنه؛ وقيل: هم أهل لا إله إلا الله، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة «وهم من خشيته مشفقون» أي: من خشيتهم منه، فالمصدر مضاف إلى المفعول، والخشية الخوف مع التعظيم، والإشفاق الخوف مع التوقع والحنز أي: لا يأمنون مكر الله «ومن يقل منهم إني إله من دونه» أي: من يقل من الملائكة إني إله من دون الله. قال المفسرون: عني بهذا إبليس، لأنه لم يقل أحد من الملائكة إني إله إلا إبليس؛ وقيل: الإشارة إلى جميع الأنبياء «فذلك نجزيه جهنم» أي: فذلك القائل على سبيل الفرض والتقدير: نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذي قاله، كما نجزي غيره من المجرمين «كذلك نجزي الظالمين» أي: مثل تلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم، فكذلك نجزي الظالمين الواضعين للإلهية والعبادة في غير موضعها، والمراد بالظالمين: المشركون «لو لم ير لذين كفروا» الهزمة للإنكار، والواو للعطف على مقدر، والرؤية هي القلبية أي: ألم يتفكروا أو لم يعلموا «إن السموات والأرض كانتا رتقاً» قال الاخفش: إنما قال كانتا، لأنهما صنفان أي: جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه: «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا» [فاطر: 41] وقال الزجاج: إنما قال كانتا لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد، لأن السموات كانت سماء واحدة، وكذلك الأرضون، والرتق، السد ضد الفتح، يقال: رتقت الفتق أرتقه فارتقت أي: التأم، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج يعني: إنهما كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما، وقال رتقاً ولم يقل رتقين لأنه مصدر، والتقدير: كانتا نواتي رتق، ومعنى «ففتقناهما» ففصلناهما أي: فصلنا بعضهما من بعض، فرفعنا السماء، وأبقينا الأرض مكانها «وجعلنا من الماء كل شيء حي» أي: أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء، فيشمل الحيوان والنبات، والمعنى: أن الماء سبب حياة كل شيء؛ وقيل: المراد بالماء هنا النطفة، وبه قال أكثر المفسرين، وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه، وقد تقدم تفسير هذه الآية، والهزمة في «أفلا يؤمنون» للإنكار عليهم، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية «وجعلنا في الأرض روسي» أي: جبلاً ثوابت «أن تميد بهم» الميد التحرك والدوران أي: «لئلا تتحرك وتدور بهم، أو كراهة ذلك، وقد تقدم تفسير ذلك في النحل مستوفى «وجعلنا فيها» أي: في الرواسي، أو في الأرض «فجاجاً» قال أبو عبيدة: هي المسالك. وقال

مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا بِصَحْبٍ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: المستهزئين من المشركين ﴿إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزْؤًا﴾ أي: ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك، والهزؤ السخرية، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: 95] والمعنى: ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزواً ﴿وَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ هو على تقدير القول أي: يقولون هذا الذي، فعلى هذا هو جواب إذا، ويكون قوله: ﴿إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزْؤًا﴾ اعتراضاً بين الشرط وجوابه، ومعنى ينكرها: يعيبها. قال الزجاج: يقال فلان يذكر الناس أي: يفتابهم، وينكرهم بالعيوب، وفلان يذكر الله أي: يصفه بالتعظيم ويثني عليه، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر في كلام العرب العيب، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء، قيل: ومن هذا قول عنترة:

لا تنكري مهري وما اطعمته فيكون جلك مثل جلد الأجر
أي: لا تعيبي مهري، وجملة ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُم كَافِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: وهم بالكفران كافرون، أو هم بذكر الرحمن الذي خلقهم كافرون، والمعنى: أنهم يعيبون على النبي ﷺ أن يذكر آلِهَتَهُم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد، أو القرآن كافرون، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم، فالضمير الأول مبتدأ خبره كافرون، ويذكر متعلق بالخبر، والضمير الثاني تأكيد ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل. قال الفراء: كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة. وقال الزجاج: خوطبت العرب بما تعجل، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء خلقت منه كما تقول: أنت من لعب، وخلقت من لعب، تريد المبالغة في وصفه بذلك. ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11]. والمراد بالإنسان: الجنس، وقيل: المراد بالإنسان آدم، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح في رأسه، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوقه؛ فقيل: خلق الإنسان من عجل، كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير، والسدي، والكلبي، ومجاهد، وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني: العجل الطين بلغة حمير. وأنشدوا:

والنخل تنبت بين الماء والعجل

وقيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، وهو القاتل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال: 32]. وقيل: نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب. وقال الأخفش: معنى خلق الإنسان من عجل أنه قيل له كن فكان؛ وقيل: إن هذه الآية من المقلوب أي: خلق العجل من الإنسان وقد حكى هذا عن أبي عبيدة والنحاس، والقول الأول

يثني عليهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ قال: لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: لاهل التوحيد. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: لاهل التوحيد لمن رضي عنه. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في الآية قال: قول لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في الآية قال: الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن جابر أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ قال: إن شفاعتي لاهل الكبائر من أمتي. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ قال: فتقت السماء بالغيث، وفتقت الأرض بالنبات. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ قال: لا يخرج منهما شيء، وذكر مثل ما تقدم. وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضاً من طريق أخرى. وأخرج ابن جرير عنه ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ قال: ملتصقتين. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عن أبي العالية في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ قال: نطفة الرجل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وعن ابن عباس ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فُجْجًا سُبُلًا﴾ قال: بين الجبال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ قال: دوران ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال: يجرون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ قال: فلك كفلكة المغزل ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال: يدورون في أبواب السماء. كما تدور الفلكة في المغزل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو فلك السماء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن عائشة قالت: نخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد مات فقبله وقال: وأنبياء وأخيلاه وأصفياه، ثم تلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ قال: نبئليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلالة.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزْؤًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعِظُونَ ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُ عَنْ وُجُوهِهِمْ أَنَارٌ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُعْمَرُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعًا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَفْزَفَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَاتَىٰ بِالَّذِينَ سَجَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ

﴿ساوركم آياتي﴾ أي: سأريكم نعماتي منكم بعذاب النار ﴿فلا تستعجلون﴾ أي: لا تستعجلوني بالإتيان به، فإنه نازل بكم لا محالة، وقيل: المراد بالآيات ما دل على صديق محمد ﷺ من المعجزات وما جعله الله له من العقابة المحمودة، والأول أولى، ويدل عليه قولهم: ﴿مضى هذا الوعد إن كنتم صابقين﴾ أي: متى حصل هذا الوعد، الذي تعنا به من العذاب، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية؛ وقيل: المراد بالوعد هنا القيامة، ومعنى ﴿إن كنتم صابقين﴾ إن كنتم يا معشر المسلمين صابقين في وعيدكم، والخطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب، وجملة ﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ وما بعدها مقررّة لما قبلها أي: لو عرفوا ذلك الوقت، وجواب لو محذوف، والتقدير: لو علموا الوقت الذي لا يكفون عن وجوههم للنار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون. لما استعجلوا الوعد. وقال الزجاج: في تقدير الجواب لعلموا صديق الوعد؛ وقيل: لو علموه ما أقاموا على الكفر. وقال الكسائي: هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة أي: لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية، ويدل عليه قوله: ﴿بل تلتقيهم بغتة﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب الجوانب في استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم، ومحل حين لا يكفون النصب على أنه مفعول العلم، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه، ومعنى ولا هم ينصرون: ولا ينصرون أحد من العباد فيبفع ذلك عنهم، وجملة بل تأتيهم بغتة معطوفة على يكفون أي: لا يكفونها بل تأتيهم بغتة أو النار أو الساعة بغتة أي: فجأة ﴿فتبتهتهم﴾ قال الجوهري: بهته بهتاً أخذ بهتاً، وقال الفراء فتبتهتهم أي: تحيرهم؛ وقيل: فتفجؤهم ﴿فلا يستطيعون ردّها﴾ أي: صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم فالضمير راجع إلى النار؛ وقيل: راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة؛ وقيل: راجع إلى الحين بتأويله بالساعة ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار، وجملة ﴿ولقد استهزئ برسك من قبلك﴾ مسوقة لتسليّة رسول الله ﷺ وتعزيته، كأنه قال: إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم ﴿فحاق بالذين سخروا منهم﴾ أي: أحاط ودار بسبب تلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزئوا بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ ما موصولة، أو مصدرية أي: فاحاط بهم الأمر الذي كانوا يستهزئون به، أو فاحاط بهم استهزأؤهم أي: جزأؤهم على وضع السبب موضع المسبب، أو نفس الاستهزاء، إن أريد به العذاب الآخري ﴿قل من يكلوكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي: يحرسكم ويحفظكم والكلاءة الحراسة والحفظ، يقال: كلاءه الله كلاءة بالكسر أي: حفظه وحرسه. قال ابن هرمة:

إن سليماً والله يكلوها ضنت بشيء ما كان يرزوها
أي: قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقرير والتوبيخ: من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذي تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم؟ وقال الزجاج: معناه من يحفظكم من بأس الرحمن. وقال الفراء: المعنى من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة. وحكى الكسائي والفراء: من يكلوكم بفتح اللام وإسكان الواو ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي: عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه ولا يخطرونه ببالهم، بل يعرضون عنه، أو عن القرآن، أو عن مواعظ الله، أو عن معرفته ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من توفنا﴾ أم هي المنقطعة التي بمعنى بل، والهزمة للإضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريرهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه، والدفع عنها. والمعنى: بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا؛ وقيل: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: أم لهم آلهة من توفنا تمنعهم، ثم وصف آلهتهم هذه التي زعموا أنها تنصرون بما يدل على الضعف والعجز فقال: ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا أصحابون﴾ أي: هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ولا هم منا أصحابون أي: ولا هم يجارون من عذابنا. قال ابن قتيبة: أي لا يجيرهم منا أحد، لأن المجير صاحب الجار، والعرب تقول: صاحبك الله أي: حفظك وأجارك، ومنه قول الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعزداً ليصحب منا والرماح يواني
تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان أي: مجير منه. قال المازني: هو من أصحبت الرجل إذا منعت.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: «مر النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف، فغضب أبو سفيان فقال: ما تذكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي ﷺ، فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه وقال: ما أراك منتهاياً حتى يصيبك ما أصاب عمك، وقال لأبي سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية، فنزلت هذه الآية ﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾. قلت: ينظر من الذي روى عنه السدي. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة قال: لما نفخ في آسم الروح صار في رأسه فعطس فقال: الحمد لله، فقالت الملائكة: يرحمك الله، فذهب لينهض قبل أن تمور في رجله فوقع، فقال الله: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾. وقد أخرج نحو هذا ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر. وأخرج نحوه أيضاً ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد، وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿قل من يكلوكم﴾ قال: يحرسكم، وفي

زعم أنه لم يقف على ليليل يخالفها، إما لقصور منه أو لتقصير في البحث فوجد تلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار:

كأنه علم في رأسه نار

وقال: هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله، وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر
فقلوا كما قال الأول:

ما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
وقد أحسن من قال:

يا بلى الفتى لا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح
ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل **﴿قالوا لجننا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾** أي: أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مزاح قال: مضرِباً عما بنوا عليه مقالاتهم من التقليد **﴿بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾** أي: خلقهن وأبدعهن **﴿وانا على نلكم﴾** الذي ذكرته لكم من كون ربكم هو رب السموات والأرض دون ما عداه **﴿من الشاهسين﴾** أي: العالمين به المبرهنين عليه، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالماً به مبرهنًا عليه مبيناً له.

وقد أخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير في تهذيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن عائشة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكتوبونني ويخونونني ويعصونني وأضر بهم وأشتهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون نوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا عليك ولا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصر لهم منك الفضل، فجعل الرجل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ كتاب الله **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾** فقال له الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهم خيراً من مفارقتهم أشبهك أنهم أحرار». رواه أحمد هكذا: حدثنا أبو نوح الأقراد، أخبرنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة فنكره، وفي معناه أحاديث. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ: **﴿ولقد أتينا موسى وهارون للفرقان وضياء﴾**. وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح **﴿ولقد أتينا موسى وهارون للفرقان﴾** قال: التوراة. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: **﴿الفرقان﴾** الحق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿وهذا نكر مبارك﴾** أي: القرآن. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: **﴿ولقد أتينا إبراهيم رشده﴾** قال: هديناه صغيراً، وفي قوله: **﴿ما هذه التماثيل﴾** قال: الأصنام. **﴿واتلوا لآكيداً استنكر بعد أن تلووا مبرين﴾** **﴿فجاءهم جنداً إلا**

﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى. ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من المتقين أو بيانا له، ومحل بالغيب النصب على الحال أي: يخشون عذابه وهو غائب عنهم، أو هم غائبون عنه لأنهم في الدنيا والعذاب في الآخرة. وقرأ ابن عباس وعكرمة (ضياء) بغير واو. قال الفراء: حذف الواو والمجيء بها واحد، واعترضه الزجاج بأن الواو تجيء لمعنى فلا تزداد **﴿وهم من الساعة مشفقون﴾** أي: وهم من القيامة خائفون وجلون، والإشارة بقوله: **﴿وهذا نكر مبارك﴾** إلى القرآن. قال الزجاج: المعنى وهذا القرآن نكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به. والمبارك كثير البركة والخير. وقوله: **﴿الزلزلاء﴾** صفة ثانية للذكر، أو خبر بعد خبر، والاستفهام في قوله: **﴿أفانتم له منكرون﴾** للإنكار لما وقع منهم من الإنكار أي: كيف تنكرون كونه منزلاً من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده **﴿ولقد أتينا إبراهيم رشده﴾** أي: الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل، ومعنى **﴿من قبل﴾** أنه أعطى رشده قبل إتياء موسى وفرون التوراة. وقال الفراء: المعنى أعطيناه هداية من قبل النبوة أي: وفقناه للنظر والاستدلال لما جنَّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم، وعلى هذا أكثر المفسرين، وبالأول قال أقلمهم **﴿وكننا به عالمين﴾** أنه موضع لإتياء الرشد، وأنه يصلح لذلك، والظرف في قوله: **﴿إذ قال لأبيه﴾** متعلق بآتيناه أو بمحذوف أي: أنكر حين قال، وأبوه هو أزر **﴿وقومه﴾** نمرود ومن اتبعه، والتمائيل الأصنام، وأصل التمثال الشيء المصنوع مشابهاً لشيء من مخلوقات الله سبحانه، يقال مثلث الشيء بالشيء: إذا جعلته مشابهاً له، واسم ذلك الممثل تمثال، أنكر عليهم عبادتها بقوله: **﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾** والعكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء، واللام في لها للاختصاص، ولو كانت للتعبية لجيء بكلمة على أي: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟ وقيل: إن العكوف مضمن معنى العبادة **﴿قالوا وجئنا آبائنا لها عابدين﴾** أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء أي: وجئنا آبائنا يعيبنونها فعينناهم اقتداء بهم ومشياً على طريقتهم، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية، وإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأي المدفوع بالدليل قالوا هذا قد قال به إمامنا الذي وجئنا آبائنا له مقلدين وبرايه آخذين، وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ما هنا **﴿قال لقد كنتم أنتم ولآباؤكم في ضلال مبين﴾** أي: في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوي هذا الخسران خسران، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استقبلوا بكتاب الله ويسنة رسوله كتاباً قد نوتت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام

للمستغفمين لهم، وهذا القائل هو الذي سمع إبراهيم يقول: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ ومعنى ﴿يُنْكِرُهُمْ﴾ يعيبهم، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة، وجملة ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ صفة ثانية لفتى. قال الزجاج: وارتفع إبراهيم على معنى: يقال له هو إبراهيم، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف، وقيل: ارتفاعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، وقيل: مرتفع على النداء.

ومن غرائب التديقات النحوية، وعجائب التوجيهات الإعرابية، أن الأعلام الشنتمري الأشبيلي قال: إنه مرتفع على الإهمال، قال ابن عطية: ذهب إلى رفعه بغير شيء. والفتى: هو الشاب، والفتاة الشابة ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ﴾ القائلون هم السائلون، أمروا بعضهم أن يأتي به ظاهراً بمرأى من الناس. قيل: إنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه كرهوا أن يأخضروه بغير بينة، فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به، ومعنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به في مثل هذا؛ وقيل: لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم، وجملة ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، وفي الكلام حذف تقديره: فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستغفمهم هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي: قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم مكتباً لهم، بل فعله كبيرهم هذا مشيراً إلى الصنم الذي تركه ولم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطُقُونَ﴾ أي: إن كانوا ممن يمكنه للنطق ويقدر على الكلام ويهيم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله. فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة، لأنهم إذا قالوا إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرتة؛ وقيل: أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه إرشاداً لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتفقد ولا تدفع لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم، والأول أولى. وقرأ ابن السميع بل فعله بتشديد اللام على معنى بل فعل الفاعل كبيرهم ﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقالة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرة عن

كبيرهم لم يفعلهم إليه يرجعون ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَكَلَّمُوا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ فَقَالُوا لَكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴿ثُمَّ تَكَبَّرَ عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطُقُونَ﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فَلَمَّا يَنْتَازِ كُوفِي بَرَكاً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

قوله: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه، والكيد المكر يقال: كاده يكديه كيداً ومكيدة، والمراد هنا الاجتهاد. في كسر الأصنام قيل: إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرّاً؛ وقيل: سمعه رجل منهم ﴿بَعْدَ أَنْ قَالُوا مَدْبِرِينَ﴾ أي: بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين. قال المفسرون: كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عينا أعجبك ديننا، فقال إبراهيم هذه المقالة. والفاء في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جَذَازًا﴾ فصيحة أي: قولوا، فجعلهم جذاذاً الجذ: القطع والكسر، يقال: جذنت الشيء قطعته وكسرت، الواحد جذادة، والجذاد والجذاذ ما كسر منه. قال الجوهري: قال الكسائي: ويقال لحجارة الذهب الجذاذ لأنها تكسر. قرأ الكسائي، والأعمش، وابن محيصن (جذاذاً) بكسر الجيم أي: كسراً وقطعاً، جمع جذيد: وهو الهشيم، مثل خفيف وخفاف، وظريف وظراف. قال الشاعر:

جذذ الأصنام في محرابها ذك في الله العلي المقتر
وقرأ الباقر بالضم، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم أي: الحطام والرقاق، فعال بمعنى مفعول، وهذا هو الكيد الذي وعدهم به. وقرأ ابن عباس وأبو السماك (جذاذاً) بفتح الجيم ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أي: للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيحاجهم بما سيأتي فيحجهم؛ وقيل: لعلهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه في المهمات، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبراً، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، ولا تعلم بخير ولا شر، ولا تخبر عن الذي ينوبها من الأمر، وقيل: لعلهم إلى الله يرجعون، وهو بعيد جداً ﴿قَالُوا مِنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم قالوا هذه المقالة، والاستفهام للتوبيخ، وقيل: إن من ليست استفهامية، بل هي مبتدأ وخبرها إنه لم الظالمين أي: فاعل هذا ظالم، والأول أولى لقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ إلخ، فإنه قال بهذا بعضهم محبباً

الذين سمعوا إبراهيم يقول: ﴿تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَنْكُرُهُمْ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جِدَادًا﴾ قال: حطاماً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: فتاتاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ قال: عظيم آلهتهم. وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ولم يكن سقيماً، وقوله لسارة أختي، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾». وهذا الحديث هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة بأطول من هذا. وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبي سعيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما جمع لإبراهيم ما جمع، وألقي في النار جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فارسله؟ فكان أمر الله أسرع، قال الله ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فلم يبق في الأرض نار إلا طفت. وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار، غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمر رسول الله ﷺ بقتله». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر عن ابن عمر، قال: أول كلمة قالها إبراهيم حين ألقى في النار «حسبنا الله ونعم الوكيل». وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ قال: كان جبريل هو الذي ناداه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن نوح. وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه قال: جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى في النار. فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن كعب قال: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرني أن إبراهيم ألقى في النار، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنت أياماً وليالي قط أطيع عيشاً إذ كنت فيها، وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها.

وَبَيَّنَّتْهُ لَوْمًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَعَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكَلَّا جَعَلْنَا صُلَيْحِينَ ﴿٧٢﴾ وَهَارُونَ إِيمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ مَا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَيَّنَّتْهُ مِنْ أَقْرَبٍ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَسْكَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْعَيْنَاهُ فِي رَحْمَةٍ إِنَّهُ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ كَبَلٍ

نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام، يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة، ولهذا ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات، وليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم: إنه لمن الظالمين ﴿ثُمَّ نَكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه؛ وقيل المعنى: أنهم طأطأوا رؤوسهم خجلة من إبراهيم، وهو ضعيف لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير، بل قال: نكسوا على رؤوسهم، وقرأ نكسوا بالتشديد، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي: قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام، ﴿قَالَ﴾ إبراهيم مبكثاً لهم ومزرياً عليهم ﴿اِقْتَعِبُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ من النفع ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ بنوع من أنواع الضرر، ثم تضجر عليه السلام منهم، فقال: ﴿إِن لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم، واللام في لكم لبيان المتأفف به أي: لكم ولآلهتكم، والتأفف صوت يدل على التضجر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ليس لكم عقول تتفكرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتوه ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ أي: قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة في نفع إبراهيم، وعجزوا عن مجادلته، وضائق عليهم مسالك المناظرة: حرقوا إبراهيم انصرافاً منهم إلى طريق الظلم والغش، وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأي وجه كان، وعلى أي أمر اتفق، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: انصروها بالانتقام من هذا الذي فعل بها ما فعل إن كنتم فاعلين للنصر وقيل: هذا القائل هو نمرود، وقيل: رجل من الأكراد ﴿فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلٌ نَادَى أَهْلَهُ وَسَلَّمَ﴾ في الكلام حذف تقديره فأضرموا النار، وذهبوا بإبراهيم إليها، فعند ذلك قلنا: يا نار كوني ذات برود وسلام، وقيل: إن انتصاب سلاماً على أنه مصبر لفعل محذوف أي: وسلمنا سلاماً عليه ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أي: مكرًا ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: أخسر من كل خاسر، وردنا مكرهم عليهم، فجعلنا لهم عاقبة السوء، كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس، قال: ﴿تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَبْرُورِينَ﴾ فسمعه أناس منهم، فلما خرجوا انطلق إلى أهله، فأخذ طعاماً ثم انطلق إلى آلهتهم فحرقه بهم، فقال: ألا تاكلون؟ فكسرهما إلا كبيرهم. ثم ربط في يده الذي كسر به آلهتهم، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت، وإذا كبيرهم في يده الذي كسر الأصنام، قالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ فقال

ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمنه هذا الحديث. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه، وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعاً في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء، وأنخلوا فسادها في عموم قول النبي ﷺ: «جرح العجماء جبار»، قياساً لجميع أفعالها على جرحها. ويجب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار، لأنه في مقابلة النص، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار. ويجب عنه بحديث البراء ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحى من الله سبحانه لا باجتهاد. قوله: «وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا» فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين، وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التي حكاهما الله سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم، وهو ما وقع من كل واحد منهما في هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه، ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهم، من عدم كون حكم داود حكماً شرعياً أي: وكل واحد منهما أعطيناه حكماً وعلماً كثيراً، لا سليمان وحده. ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك، نكر ما يختص بكل واحد منهما، فبدأ داود فقال: «وسخرنا مع داود للجبّال يسبحن» التسبيح إما حقيقة أو مجاز، وقد قال بالأول جماعة وهو الظاهر. وذلك أن داود كان إذا سبح سبحت الجبال معه؛ وقيل: إنها كانت تصلي معه إذا صلى، وهو معنى التسبيح. وقال بالمجاز جماعة آخرون، وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجباً من عظيم خلقها وقدره خالقها، وقيل: كانت الجبال تسير مع داود، فكان من رآها سائرة معه سبح «والطير» معطوف على الجبال، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف أي: والطير مسخرات، ولا يصح العطف على الضمير في يسبحن لعدم التأكيد والفصل «وكنا فاعلين» يعني: ما نكر من التفهم، وإيتاء الحكم والتسخير «وعلمناه صنعة لبوس لكم» اللبوس عند العرب: السلاح كله درعاً كان أو جوشناً، أو سيفاً، أو رمحاً. قال الهذلي:

وعندي لبوس في اللباس كانه

إلخ، والمراد في الآية: الدروع خاصة، وهو بمعنى الملبوس، كالركوب والحلوب، والجار والمجورور أعني لكم متعلق بعلما «ليحصنكم من بأسكم» قرأ الحسن، وأبو جعفر، وابن عامر، وحفص، وروح (لتحصنكم) بالتاء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع. وقرأ شيبه، وأبو بكر، والمفضل، وابن أبي إسحاق (لتحصنكم) بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه. وقرأ الباقرن بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس، أو إلى داود، أو إلى الله سبحانه. ومعنى «من بأسكم» من حريك، أو من وقع السلاح فيكم «فهل أنتم شاكرون» لهذه النعمة التي

المراد الحاكمان والمحكوم عليه. ومعنى شاهدين: حاضرين، والجملة اعتراضية، وجملة «ففهمناها سليمان» معطوفة على إذ يحكمان، لأنه في حكم الماضي، والضمير في فهمناها يعود إلى القضية المفهومة من الكلام، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم. قال المفسرون: دخل رجلان على داود، وعنده ابنه سليمان: أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقع في حرثي فلم تبق منه شيئاً، فقال: لك رقاب الغنم، فقال سليمان: أو غير ذلك، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كليلية نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم، فقال داود: القضاء ما قضيت، وحكم بذلك. قال النحاس: إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريباً منه، وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء. قال جماعة من العلماء: إن داود حكم بوحى، وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود، فيكون التفهم على هذا بطريق الوحي. وقال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد، وكلام أهل العلم في حكم اجتهاد الأنبياء معروف، وهكذا ما ذكره أهل العلم في اختلاف المجتهدين، وهل كل مجتهد مصيب، أو الحق مع واحد؟ وقد استدلل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب، ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً، فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر، فسماه النبي ﷺ مخطئاً، فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له، فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين، وإلا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين، واللازم باطل فالملزوم مثله. وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحل والحرمة حلالاً حراماً في حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد في تلك الحادثة، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله. وقد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه في المؤلف الذي سميناه «القول المفيد في حكم التقليد» وفي «أب الطلب ومنتهى الأرب» فمن أحب الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما. فإن قلت: فما حكم هذه الحادثة التي حكم فيها داود وسليمان في هذه الشريعة المحمدية، والملة الإسلامية؟ قلت: قد ثبت عن النبي ﷺ من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل مضمون على أهلها، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عيناً أو قيمة. وقد

وانختلف في مدة إقامته على البلاء فقيل: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال؛ وقيل: ثلاثين سنة، وقيل: ثماني عشرة سنة. **﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل﴾** أي: وانكر هؤلاء، وإدريس هو أخنوخ، وذا الكفل إلياس؛ وقيل: يوشع بن نون؛ وقيل: زكريا. والصحيح أنه رجل من بني إسرائيل كان لا يتوزع عن شيء من المعاصي، فتاب فغفر الله له، وقيل: إن اليسع لما كبر قال: من يتكفل لي بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه؟ فقال رجل: أنا، فاستخلفه وسمي ذا الكفل، وقيل: كان رجلاً يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع في شيء من المهمات، وقيل غير ذلك. وقد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبي. وقال جماعة: هو نبي. ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال: **﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** أي: كل واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلفهم الله به: **﴿وإبراهيم لما أتاه بالنبوة﴾** أي: في الجنة، أو في النبوة، أو في الخير على عمومه، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** أي: الكاملين في الصلاح **﴿وَذَا النُّونِ﴾** أي: وانكر ذا النون، وهو يونس بن متى، ولقب ذا النون لابتلاع الحوت له، فإن النون من أسماء الحوت، وقيل: سمي ذا النون لأنه رأى صيباً مليحاً فقال: دسموا نونته، لثلا تصيبه العين. وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي أن نونة الصبي هي الثقب التي تكون في نقر الصبي الصغير، ومعنى دسموا سؤدوا **﴿إِذْ ذُهِبَ مِغَاضِباً﴾** أي: انكر ذا النون وقت ذهابه مغاضباً: أي: مراغماً. قال الحسن، والشعبي، وسعيد بن جبير: ذهب مغاضباً لربه، واختاره ابن جرير والقتبي والمهدوي. وحكى عن ابن مسعود: قال النحاس: وربما انكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح. والمعنى: مغاضباً من أجل ربه، كما تقول غضبت لك أي: من أجلك. وقال الضحاك: ذهب مغاضباً لقومه. وحكى عن ابن عباس: وقالت فرقة منهم الأخفش: إنما خرج مغاضباً للملك الذي كان في وقته واسمه حزقيا؛ وقيل: لم يغضب ربه ولا قومه ولا الملك، ولكنه مأخوذ من غضب إذا انف، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا انف من ذلك فخرج عنهم، ومن استعمال الغضب في هذا المعنى قول الشاعر:

واغضب أن تهجى تميم بعامر

أي انف **﴿فَظَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾** قرأ الجمهور (نقدر) بفتح النون وكسر الدال.

واختلف في معنى الآية على هذه القراءة، فقيل: معناها أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته. وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير، وهو قول مروي، فإن هذا الظن بالله كفر؛ ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذهب جمهور العلماء أن معناها: فظن أن لن نصيق عليه، كقوله: **﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** [الرعد: 26]، أي: يضيق، ومنه قوله: **﴿وَمَنْ قَدَرُ**

انعمنا بها عليكم، والاستفهام في معنى الأمر. ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان. فقال: **﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾** أي: وسخرنا له الريح **﴿عَاصِفَةً﴾** أي: شديدة الهبوب. يقال: عصفت الريح أي: اشتدت، فهي ريح عاصف وعصوف، وانتصاب الريح على الحال. وقرأ عبد الرحمن الأعرج، والسلمي، وأبو بكر (وسليمان الريح) برفع الريح على القطع مما قبله، ويكون مبتدأ وخبره تجري. وأما على قراءة النصب فيكون محل **﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾** النصب أيضاً على الحالية، أو على البدلية **﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾** وهي أرض الشام كما تقدم **﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالَمِينَ﴾** أي: بتدبير كل شيء **﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾** أي: وسخرنا من الشياطين **﴿مَنْ يَغْوِصُونَ لَهُ﴾** في البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم؛ وقيل: إن من مبتدأ وخبره ما قبله، والغوص النزول تحت الماء، يقال: غاص في الماء، والغواص: الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ **﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا بُونًا﴾** قال الفراء: أي سوى ذلك؛ وقيل: يراد بذلك المحارب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه **﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾** أي: لأعمالهم. وقال الفراء: حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. قال الزجاج: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار **﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾** معطوف على ما قبله، والعامل فيه: إما المذكور أو المقتر كما مر، والعامل في الظرف وهو إذ نادى ربه هو العامل في أيوب **﴿إِنِّي مُسْنِي للضَّرِّ﴾** أي: بأنني مسني الضر. وقرأ بكسر (إني).

واختلف في الضر الذي نزل به ماذا هو؟ فقيل: إنه قام ليصلي فلم يقدر على النهوض، وقيل: إنه أقر بالعجز، فلا يكون ذلك منافياً للصبر، وقيل: انقطع الوحي عنه أربعين يوماً، وقيل: إن بودة سقطت من لحمه، فأخذها وردّها في موضعها فأكلت منه، فصاح مسني الضر؛ وقيل: كان البود تناول ببنه فيصبر حتى تناولت بودة قلبه، وقيل: إن ضره قول إبليس لزوجه اسجدي لي، فخاف ذهاب إيمانها، وقيل إنه تقدّر قومه؛ وقيل: أراد بالضّرّ الشّمانة، وقيل: غير ذلك. ولما نادى ربه متضرعاً إليه وصفه بغاية الرحمة فقال: **﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه، فقال: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكُشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾** أي: شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه، ولهذا قال سبحانه: **﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾** قيل: تركهم الله عز وجل له، وأعطاه مثلهم في الدنيا. قال النحاس: والإسناد بذلك صحيح، وقد كان مات أهله جميعاً إلا امرأته، فأحياهم الله في أقل من طرف البصر، وأتاه مثلهم معهم؛ وقيل: كان ذلك بأن ولد له ضعف النّين أماتهم الله، فيكون معنى الآية على هذا: أتيناها مثل أهله ومثلهم معهم، وانتصاب **﴿رَحْمَةً مِنْ عَنَانٍ﴾** على العلة أي: أتيناها لك لرحمتنا له **﴿وَنُكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾** أي: وتنكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر.

واعترضه النحاس فقال: هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين ليعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا يدغم فيها، ثم قال النحاس: لم أسمع في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان الأخفش قال: الأصل ننجي، فحنف إحدى النونين لاجتماعهما كما يحنف إحدى التاءين لاجتماعهما نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَقُوا﴾ [آل عمران: 103]. والأصل: وَلَا تَفْرَقُوا. قلت: وكذا الواحدي عن أبي علي الفارسي أنه قال: إن النون الثانية تخفى مع الجيم، ولا يجوز تبينها، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام، فظن أنه إدغام، ويدل على هذا إسكانه الياء من نجي ونصب المؤمنين، ولو كان على ما لم يسم فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين. قلت: ولا نسلم قوله إنه لا يجوز تبينها فقد بينت في قراءة الجمهور، وقرأ محمد بن السميع وأبو العالية (وكذلك نجي المؤمنين) على البناء للفاعل أي: نجى الله المؤمنين.

وقد أخرج ابن جرير عن مرة في قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ قال: كان الحرث نبثاً فنفتشت فيه ليلاً فاختموا فيه إلى داود، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث. فمروا على سليمان فذكروا ذلك له. فقال: لا، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم، فإذا كان كما كان رثوا عليهم فنزلت ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. وقد روي هذا عن مرة عن ابن مسعود. وأخرج ابن جرير، والحاكم وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَوَدَّاعِدُ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ قال: كرم قد أثبتت عناقيده فاقسدت الغنم، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله قال: وما ذاك؟ قال: يلغع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان نفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مسروق نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، ولكنه لم يذكر الكرم. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿نَفَثْتُ﴾ قال: رعت. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن حرام بن محيصة: أن ناقه للبراء بن عازب بخلت حائطاً فاقسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما اقسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها. وقد علل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح المنتقى. وأخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه، وزاد في آخره، ثم تلا هذه الآية ﴿وَوَدَّاعِدُ سُلَيْمَانَ﴾ الآية. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنتان جاء الذئب فأخذ

عليه رزقه» [الطلاق: 7]. يقال: قدر وقدر وقتر وقتر أي: ضيق، وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم أي: فظن أن لن نقضي عليه العقوبة، قاله قتادة ومجاهد، واختاره الفراء والزجاج، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة. قال أحمد بن يحيى ثعلب: هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه: قُدر الله لك الخير يقدره قِدرًا، وأنشد ثعلب:

فليست عشيات اللوى بروجع لنا أبداً ما أبرم السلم النضر
ولا عائد ذلك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر مع ذلك الشكر
أي: ما تقدره وتقضي به، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري (فظن أن لن نقدر) بضم النون وتشديد الدال من التقدير. وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس، ويؤيد ذلك أيضاً قراءة عبيد بن عمير وقاتدة والأعرج (أن لن يقدر) بضم الياء وتشديد ميمها للمفعول، وقرأ يعقوب، وعبد الله بن أبي إسحاق، والحسن (يقدر) بضم الياء وفتح الدال مخففاً ميمها للمفعول.

وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لاهله أن يحرقوه إذا مات، ثم قال: فوالله لئن قدر الله علي الحديث كما اختلفوا في تأويل هذه الآية، والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا ما هنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره، والغاء في قوله: ﴿فَفَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فصيحة أي: كان ما كان من التقام الحوت له، فنادى في الظلمات، والمراد بالظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وكان نداؤه: هو قوله: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بأن لا إله إلا الله، ومعنى سبحانك: تنزيهاً لك من أن يعجزك شيء، إني كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم، قال الحسن وقاتدة: هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبه من خطيئته، قال ذلك وهو في بطن الحوت. ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاء الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب على اللطف وجه ﴿وَوَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل ﴿وَوَكَّلْنَا نَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نخلصهم من مهمهم بما سبق من عملهم وما أعدناه لهم من الرحمة، وهذا هو معنى الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ للبت في بطنه إلى يوم يبعثون [الصفافات: 143 - 144] قرأ الجمهور (ننجي) بنونين، وقرأ ابن عامر نجي بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضي وإضمار المصدر، وكذلك نجي النجاة المؤمنين كما تقول ضرب زيداً أي: ضرب الضرب زيداً، ومنه قول الشاعر:

ولو ولدت فقيرة جروك لكب لسبب بثلك الجرو الكلاب
هكذا قال في توجيه هذه القراءة الفراء وأبو عبيد وثعلب، وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا: هي لحن لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله، وإنما يقال: نجي المؤمنين. ولأبي عبيدة قول آخر، وهو أنه أدغم النون في الجيم وبه قال القتيبي.

حاتم، والرويانى، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يقفوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ننبأ ما أئذبه أحد، قال: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى نكر له ذلك، فقال أيوب: لا أدري ما يقول غير أن الله يعلم أنني أمر بالرجلين يتنازعا أن ينكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كرامة أن ينكر الله إلا في حق وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب» [ص: 42]، فاستبطلته فتلقتة وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله المبتلي، والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً؟ قال: فإني أنا هو، قال: وكان له أندران: اندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله صاحبتي، فلما كانت إحداها على اندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض. وأفرغت الأخرى في اندر الشعير الورق حتى فاض. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: «وذا الكفل» قال: رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل قاضٍ فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامى على أن لا يغضب؟ فقال رجل: أنا، فسمي ذا الكفل، فكان ليله جميعاً يصلي، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس، ونكر قصة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: ما كان ذو الكفل نبياً، ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة فتوفي، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سعد مولى طلحة، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتوزع من ذنب عمله فاتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعنت وبكت، فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلته أذهبي فيني لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابهِ: إن الله قد غفر للكفل». وأخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم، وابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة.

أحد الاثنين، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاها سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: رحمك الله، هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى، وهذا الحديث وإن لم يكن داخلاً فيما حكته الآية من حكمهما لكنه من جملة ما وقع لهما. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله: «وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير» قال: يصلين مع داود إذا صلى «وعلمناه صنعة لبوس لكم» قال: كانت صفائح، فأول من سردها وحلقها داود عليه السلام. وأخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسي، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الإنس ثم يدعو الطير فتظلمهم، ثم يدعو الريح فتحملهم تسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة. وأخرج ابن عساکر، والديلمي، وابن النجار عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لأيوب: تدري ما جرمك علي حتى ابتليتك؟ قال: لا يا رب، قال: لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين». وأخرج ابن عساکر عن ابن عباس قال: إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه، ولم يامر بالمعروف، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله، وفي إسناده جوير. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: «كان لأيوب أخوان جاء يوماً فلم يستطيعا أن يبنوا منه من ريعه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان علم الله من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله، فقال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شعبان، وأنا أعلم مكان جائع فصنقني فصنق من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم ألبس قميصاً قط وأنا أعلم مكان عار فصنقني، فصنق من السماء وهما يسمعان ثم خر ساجداً وقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه». وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: «وأتيناها أهله ومثلهم معهم» قال: قيل: له يا أيوب إن أهلك في الجنة، فإن شئت أتيناك لهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم، قال: لا، بل أتركهم لي في الجنة، قال: فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن الضحاك قال: بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية: «وأتيناها أهله ومثلهم معهم» قال: أوتي أهلاً غير أهله، فقال ابن مسعود: بل أوتي أهله بأعيانهم ومثلهم معهم. وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي

حسبي إن لم ترزقني ولداً فإنني أعلم أنك لا تضيع دينك وأنه سيقوم بذلك من عباك من تختاره له وترضيه للتبليغ **﴿فاستجبنا له﴾** دعاءه **﴿ووهبنا له يحيى﴾** وقد تقدّم مستوفى في سورة مريم **﴿وأوصلنا له زوجة﴾** قال أكثر المفسرين: إنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً، فهذا هو المراد بإصلاح زوجة، وقيل: كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها، فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية، وجملة **﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾** للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أتبيائه عليهم الصلاة والسلام، فالضمير المذكور راجع إليهم، وقيل: هو راجع إلى زكريا وامراته ويحيى. ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعون **﴿ربّنا﴾** أي: يتضرعون إليه في حال الرّخاء وحال الشدّة؛ وقيل: الرغبة رفع بطون الألف إلى السماء، والرّغبة رفع ظهورها، وانتصاب رغباً ورهباً على المصدرية أي: يرغبون رغباً ويرهبون رهباً، أو على العلة أي: للرّغب والرّهب، أو على الحال أي: راغبين وراهبين. وقرأ طلحة بن مصرف (ريدعوناً) بنون واحدة، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما ما بعده، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، وقرأ الباقر بفتح الراء وفتح ما بعده فيهما **﴿وكانوا لنا خاشعين﴾** أي: متواضعين متضرعين **﴿والتي أحصنت فرجها﴾** أي: وانكر خبرها، وهي مريم، فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر، وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى، وما في ذكر قصتها من الآية الباهرة **﴿ففنفخنا فيها من روحنا﴾** أضاف سبحانه الروح إليه، وهو للملك تشريفاً وتعظيماً، وهو يريد روح عيسى **﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾** قال الزجاج: الآية فيهما واحدة لأنها ولبته من غير فعل، وقيل: إن التقدير على مذهب سيويي: وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه: **﴿وإله ورسوله أحق أن يرضوه﴾** [التوبة: 62]. والمعنى: أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكرار آيات كل واحد منهما، وقيل: أراد بالآية الجنس الشامل، لما لكل واحد منهما من الآيات، ومعنى أحصنت: عفت فامتنت من الفاحشة وغيرها، وقيل: المراد بالفرج جيب القميص أي: أنها طاهرة الاثواب، وقد مضى بيان مثل هذا في سورة النساء ومريم. ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال: **﴿إن هذه أممكم أمة واحدة﴾** والامة اللّين كما قال ابن قتيبة، ومنه **﴿إننا وجدنا آبائنا على أمة﴾** [الزخرف: 22]، أي: على دين، كأنه قال: إن هذا بينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة في التوحيد، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله، وقيل: المعنى إن هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة، وقيل: المعنى إن هذه ملتكم ملة واحدة، وهي

وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمرو قال فيه: ذو الكفل. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: **﴿وإذا النون إذ ذهب مغاضياً﴾** يقول: غضب على قومه **﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾** يقول: أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره، قال: وعقوبته أخذ النون إياه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: **﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾** قال: ظن أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود **﴿فنادى في الظلمات﴾** قال: ظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر. وأخرج أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم الترمذي في نوار الأصول، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص سمعت رسول الله ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له». وأخرج ابن جرير عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى، قلت: يا رسول الله، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به، ألم تسمع قول الله: **﴿وكنك نجي المؤمنين﴾** فهو شرط من الله لمن دعاه». وأخرج الحاكم من حديثه أيضاً نحوه، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». وروي أيضاً في الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود، وروي أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

وَرَكِبْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ ثُمَّ زَوَّجْنَاهُ إِثْمَهُمْ صَكَوْا بِسُورَتٍ فِي الْخَزَائِرِ وَيَدْعُونَ رَبَّهُمَا وَرَبَّهُمَا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾** **﴿وَأَلْفَى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** **﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾** **﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعٌ﴾** **﴿فَمَنْ يَمْلِكْ مِنَ الصَّلَاحِ وَهُوَ مُؤَيَّنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُمْ كَاشِعُونَ﴾** **﴿وَحَرِّمْنَا عَلَى قُرْبَى أَهْلَكْنَاهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾** **﴿حَتَّى إِذَا فُجِّعَتْ فَأَجْحُ وَمَأْجُوجُ وَمِنْ كُلِّ صَبَّاحٍ بِنِيلُونِ﴾** **﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ لَإِنَّا مِنْ شَخْصَةٍ أَصْنَعُ الْوَرْدِ كَفَرُوا بِوَيْسَاقَدَ كُنَّا فِي عَقْلَةٍ مِّنْ مَّذَابِلَ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾**

قوله: **﴿وزكريا﴾** أي: وانكر خبر زكريا وقت نداءه لربه قال: **﴿رب لا تذرني فرداً﴾** أي: منفرداً وحيداً لا ولد لي. وقد تقدّم الكلام على هذه الآية في آل عمران **﴿وإنت خير الوارثين﴾** أي: خير من يبقى بعد كل من يموت، فانت

الفارسي: إن في الكلام إضماراً، أي: وحرام على قرية حكماً باستئصالها، أو بالختم على قلوب أهلها، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون ﴿حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج﴾ حتى هذه هي التي يحكى بعدها الكلام، ويأجوج وماجوج قبيلتان من الإنس، والمراد بفتح ياجوج وماجوج: فتح السد الذي عليهم، على حذف المضاف، وقيل: إن حتى هذه هي التي للغاية. والمعنى: أن هؤلاء المنكودين سابقاً مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة، وهي يوم فتح سدّ ياجوج وماجوج ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾ الضمير ليأجوج وماجوج والحذب كل أكمة من الأرض مرتفعة والجمع أحداً، مأخوذ من حدة الأرض، ومعنى ﴿ينسلون﴾ يسرعون، وقيل: يخرجون. قال الزجاج: والنسلان مشية النّثب إذا أسرع. يقال: نسل فلان في العدو ينسل بالكسر والضم نسلًا ونسولًا ونسلانًا أي: أن ياجوج وماجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون المشي ويتفرقون في الأرض، وقيل: الضمير في قوله وهم: لجميع الخلق، والمعنى: أنهم يحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كل مرتفع من الأرض. وقرئ يضم السين. حكى ذلك المهبوي عن ابن مسعود. وحكى هذه القراءة أيضاً الثعلبي، عن مجاهد، وأبي الصهباء ﴿واقترب الوعد﴾ عطف على فتحت، والمراد: ما بعد الفتح من الحساب. وقال الفراء والكسائي وغيرهما: المراد بالوعد الحق: القيامة والوعد زائدة؛ والمعنى: حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة، فاقترب جواب إذا، وأنشد الفراء:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

أي: انتحى، ومنه قوله تعالى: ﴿وقل للجبين * ونابينا﴾ [الصفافات: 103 - 104]. وأجاز الفراء أن يكون جواب إذا ﴿فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ وقال البصريون: الجواب محذوف، والتقدير: قالوا يا ويلنا. وبه قال الزجاج، والضمير في ﴿فإذا هي﴾ للقصة، أو مبهم يفسره ما بعده، وإذا للمفاجأة؛ وقيل: إن الكلام تمّ عند قوله هي، والتقدير: فإذا هي، يعني: القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة، ثم ابتداء فقال: شاخصة أبصار الذين كفروا على تقديم الخبر على المبتدأ أي: أبصار الذين كفروا شاخصة، و﴿يا ويلنا﴾ على تقدير القول: ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ أي: من هذا الذي دهمنا من العيب والحساب ﴿بل كنا ظالمين﴾ أضربوا عن وصف انفسهم بالغفلة أي: لم نكن غافلين بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسول.

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿واصلحنا له زوجة﴾ قال: كان في لسان امرأة زكريا طول فاصلحه الله. وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: وهبنا له ولداً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً وهب له منها يحيى، وفي قوله: ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ قال: أذلاء.

ملة الإسلام. وانتصاب أمة واحدة على الحال أي: متفقة غير مختلفة، وقرئ (إن هذه أمتكم) بنصب أمتكم على البذل من اسم إن والخبر أمة واحدة. وقرئ برفع (أمتكم) ورفع (أمة) على أنهما خبران؛ وقيل: على إضمار مبتدأ أي: هي أمة واحدة. وقرأ الجمهور برفع (أمتكم) على أنه الخبر ونصب (أمة) على الحال كما قدّمنا. وقال الفراء والزجاج: على القطع بسبب مجيء النكرة بعد تمام الكلام ﴿وانا ربكم فاعبدون﴾ خاصة لا تعبدوا غيري كائنًا ما كان ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرّقوا فرقاً في الدين حتى صار كالقطع المتفرقة. وقال الأخفش: اختلفوا فيه، وهو كالقول الأول. قال الأزهرى: أي تفرّقوا في أمرهم، فنصب أمرهم بحذف في، والمقصود بالآية المشركون، منهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله؛ وقيل: المراد جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم في آديانهم قطعاً وتقسيمه بينهم، فهذا موحد، وهذا يهودي، وهذا نصراني، وهذا مجوسي، وهذا عابد وثن. ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال: ﴿كل إلينا راجعون﴾ أي: كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث، لا إلى غيرنا ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: من يعمل بعض الأعمال الصالحة، لا كلها، إذ لا يطبق ذلك أحد ﴿وهو مؤمن﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أي: لا جحود لعمله، ولا تضییع لجزائه، والكفر ضد الإيمان، والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضدّ الشكر، يقال: كفر كفوراً وكفراناً، وفي قراءة ابن مسعود (فلا كفر لسعيه) ﴿وانا له كاتبون﴾ أي: لسعيه حافظون، ومثله قوله سبحانه: ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ [آل عمران: 195].

﴿وحرام على قرية أهلكناها﴾، قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة (وحرام) وقرأ أهل الكوفة (وحرم) وقد اختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم، ورويت القراءة الثانية عن عليّ وابن مسعود وابن عباس: وهما لغتان مثل حلّ وحلال. وقرأ سعيد بن جبیر (وحرم) بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم. وقرأ عكرمة وأبو العالية (حرم) بضم الراء وفتح الحاء والميم، ومعنى ﴿أهلكناها﴾ قدرنا إهلاكها، وجملة ﴿إنهم لا يرجعون﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ وخبره حرام، أو على أنه فاعل له ساد مسدّ خبره. والمعنى: وممتنع ألبيّة عدم رجوعهم إلينا للجزاء، وقيل: إن «لا» في لا يرجعون زائدة أي: حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا، واختار هذا أبو عبيدة؛ وقيل: إن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب أي: واجب على قرية، ومنه قول الخنساء: وإن حراماً لا أرى الدهر بأكيا على شجوه إلا بكيت على صخر وقيل: حرام أي: ممتنع رجوعهم إلى التوبة، على أن لا زائدة. قال النحاس: والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجلّه ما رواه ابن عيينة، وابن علية، وهشيم، وابن إريس، ومحمد بن فضل، وسليم بن حبان، ومعلّى، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في معنى الآية قال: واجب أنهم لا يرجعون أي: لا يتوبون. قال الزجاج وأبو علي

وَأَن أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعِدُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ الْمَهْمَلُ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٥﴾ وَأَن أَدْرِي لَعَلَّكُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَسَبَّحَ إِلَى جَنِّهِ ﴿١٦﴾ قُلْ رَبِّ أَسْكِرْ بِلَيْتِي وَرَبِّمَا الرَّحْمَنُ أَلْهَمَنَّا عَلَى مَا نَصِفُونَ ﴿١٧﴾

بَيَّنَّ سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وهذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة، والمراد بقوله وما تعبدون: الأصنام التي كانوا يعبدون. قرأ الجمهور (حصب) بالصاد المهملة أي: وقود جهنم وحطبها، وكل ما أوقدت به النار أو هيبتها به فهو حصب، كذا قال الجوهري. قال أبو عبيدة: كل ما قذفته في النار فقد حصبته به، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]. وقرأ علي بن أبي طالب، وعائشة (حطب جهنم) بالطاء، وقرأ ابن عباس (حضب) بالضاد المعجمة. قال الفراء: نكر لنا أن الحضب في لغة أهل اليمن الحطب، ووجه إلقاء الأصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحس به: التبكيك لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم، وقيل: إنها تحمي فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم، وجملة ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إما مستأنفة أو بدل من حصب جهنم، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا، واللام في لها للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل، وقيل: هي بمعنى على، والمراد بالورود هنا: الدخول. قال كثير من أهل العلم: ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة، لأن «ماء» لمن لا يعقل، ولو أراد العموم لقال: ومن يعبدون. قال الزجاج: ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة نون غيرهم ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلِهَةً مَا وَدَّوهُمْ﴾ أي: لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ما ودَّوهم أي: ما ورد العابدون هم والمعبدون النار، وقيل: ما ورد العابدون فقط، لكنهم ودَّوهم فلم يكونوا آلهة، وفي هذا تبكيك لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: كل العابدون والمعبدون في النار خالدون لا يخرجون منها ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهؤلاء الذين وردوا النار، والزفير صوت نفس المغمو، والمراد هنا الأئين والتنفس الشديد، وقد تقدَّم بيان هذا في هود ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول؛ وقيل: لا يسمعون شيئا؛ لأنهم يحشرون صما كما قال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمَاءٌ وَبِكَمَا وَصَّمَا﴾ [الإسراء: 97] وإنما سلبوا السماع، لأن فيه بعض ترويح وتانس، وقيل: لا يسمعون ما يسرهم، بل يسمعون ما يسوءهم، ثم لما بيَّن سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أي: الخصلة الحسنة التي هي أحسن الخصال وهي السعادة؛ وقيل: التوفيق، أو التبشير بالجنة، أو نفس الجنة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعْدُونُ﴾ إشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن جهنم ﴿مُعْدُونُ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة ﴿لَا يَسْمَعُونَ

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: ﴿يُدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال: رغباً في رحمة الله ورهباً من عذاب الله. وأخرج ابن مريويه عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: ﴿يُدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال: رغباً هكذا ورهباً هكذا وبسط كفيه، يعني: جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عكيم قال: خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثبتوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرغبة، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: إن هذا بينكم بينا واحداً. وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ قال: تقطعوا اختلغوا في الدين. وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ قال: وجب إهلاكها ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال: لا يتوبون. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قال: وجب على قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ كما قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 31]. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد بن جبيرة مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ كُلِّ حَبِيبٍ﴾ قال: شرف ﴿يُنْسَلُونَ﴾ قال: يقبلون، وقد ورد في صفة ياجوج وماجوج وفي وقت خروجهم أحاديث كثيرة لا يتعلق بذكرها ما هنا كثير فائدة.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلِهَةً مَا وَدَّوهُمْ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَةُ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعْدُونُ ﴿١٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعِدُونَ ﴿١٩﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَنَافٍ مَّنِجَلٍ لِّلْكُفْرِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ثُمَّ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ رِزْقُنَا يُعَاذُ الْمُضْلِمُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاءً لِّقَوْمٍ عَصِيْبٍ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنَّمَا يَبُحِّ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ مَا أَنْتُمْ عَنْ سَوَاءٍ

الإخفاء والتعمية والمحو، لأن الله سبحانه يححو ويطمس رسوماً ويكثر نجومها؛ وقيل: السجل اسم ملك، وهو الذي يطوي كتب بني آدم، وقيل: هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ، والأول أولى. قرأ الأعمش، وجفص، وحمره، والكسائي، ويحيى، وخلف (للكتب) جمعاً، وقرأ الباقر (للكتاب) وهو متعلق بمحذوف حال من السجل أي: كطي السجل كائناً للكتب أو صفة له أي: الكائن للكتب، فإن الكتب عبارة عن الصفائف وما كتب فيها، فسجلها بعض أجزاءها، وبه يتعلق الطي حقيقة. وأما على القراءة الثانية فالكتاب مصدر، واللام للتعليل أي: كما يطوي الطومار للكتابة أي: ليكتب فيه، أو لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وهذا على تقدير أن المراد بالطي المعنى الأول، وهو ضد النشر ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ أي: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة، فأول خلق مفعول نعيد مقترناً يفسره نعيده المذكور، أو مفعول لبدأنا، وما كافة أو موصولة، والكاف متعلقة بمحذوف أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده، وعلى هذا الوجه يكون أول ظرف لبدأنا، أو حال، وإنما خص أول الخلق بالذكر تصويراً للإيجاد عن العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتي لهما، وقيل معنى الآية: نهلك كل نفس كما كان أول مرة، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله: ﴿يوم نطوي السماء﴾ وقيل: المعنى نغير السماء، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها، والأول أولى، وهو مثل قوله: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ [الأنعام: 94]. ثم قال سبحانه: ﴿وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ انتصاب وعداً على أنه مصدر أي: وعدنا وعداً علينا إنجازه والوفاء به. وهو البعث والإعادة، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله: ﴿إنا كنا فاعلين﴾. قال الزجاج: معنى إنا كنا فاعلين: إنا كنا قادرين على ما نشاء، وقيل: إنا كنا فاعلين ما وعدناكم، ومثله قوله: ﴿كان وعده مفعولاً﴾ [المزمل: 18]. ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ الزبور في الأصل الكتب، يقال: زبرت أي: كتبت، وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور، وقيل: المراد به هنا كتاب داود، ومعنى ﴿من بعد للذكر﴾ أي: اللوح المحفوظ، وقيل: هو التوراة أي: والله لقد كتبنا في كتاب داود من بعد ما كتبنا في التوراة أو من بعد ما كتبنا في اللوح المحفوظ ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾. قال الزجاج: الزبور جميع الكتب: التوراة والإنجيل والقرآن، لأن الزبور والكتاب في معنى واحد، يقال زبرت وكتبت، ويؤيد ما قاله قراءة حمزة في الزبور بضم الزاي، فإنه جمع زبر. وقد اختلف في معنى ﴿يرثها عبادي الصالحون﴾ فقيل: المراد أرض الجنة، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ [الزمر: 74]. وقيل: هي الأرض المقدسة؛ وقيل: هي أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمتة بفتحها؛ وقيل:

حسبها﴾ الحسن والحسب الصوت تسمعه من الشيء يمر قريباً منك. والمعنى: لا يسمعون حركة النار وحركة أهلها، وهذه الجملة بدل من مبعدون، أو حال من ضميره ﴿وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون﴾ أي: دائمون، وفي الجنة ما تشتهيhe النفس وتلذ به الأعين كما قال سبحانه: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾ [فصلت: 31]. ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قرأ أبو جعفر، وابن محيصن (لا يحزنهم) بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ الباقر (لا يحزنهم) بفتح الياء وضم الزاي. قال الليزدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم، والفزع الأكبر: أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ﴿وتلقاهم الملائكة﴾ أي: تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي: توعدون به في الدنيا وتبشرون بما فيه، هكذا قال جماعة من المفسرين إن المراد بقوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسن﴾ إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح، لا المسيح وعزير والملائكة، وقال أكثر المفسرين: إنه لما نزل ﴿إنكم وما تعبدون﴾ الآية، أتى ابن الزبيري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد الست تزعم أن عزيراً رجلاً صالحاً، وأن عيسى رجلاً صالحاً، وأن مريم امرأة صالحة؟ قال: بلى، فقال: فإن الملائكة، وعيسى وعزيراً ومريم يعبدون من دون الله، فهؤلاء في النار، فأنزل الله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسن﴾ وسياأتي بيان من أخرج هذا قريباً إن شاء الله ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة، والأعرج، والزهري (نطوي) بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء، وقرأ مجاهد (يطوي) بالتحية المفتوحة مبنياً للفاعل على معنى يطوي الله السماء وقرأ الباقر (نطوي) بنون العظمة وانتصاب يوم بقوله: ﴿نعيده﴾ أي: نعيده يوم نطوي السماء؛ وقيل: هو بدل من الضمير المحذوف في توعدون، والتقدير: الذي كنتم توعدونه يوم نطوي، وقيل: بقوله لا يحزنهم الفزع؛ وقيل: بقوله تلقاهم، وقيل: متعلق بمحذوف، وهو أنكر، وهذا أظهر وأوضح، والطي ضد النشر؛ وقيل: المحو، والمراد بالسماء الجنس، والسجل الصحيفة أي: طياً كطي الطومار؛ وقيل: السجل الصك، وهو مشتق من المساجلة وهي المكاتبة، وأصلها من السجل، وهو اللؤلؤ، يقال: ساجلت الرجل إذا نزعته لؤلؤاً ونزع لؤلؤاً، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب: من يساجلني يساجل ماجداً يملأ اللؤلؤ إلى عقد الكرب وقرأ أبو زرعة بن عمرو وابن جرير ﴿السجل﴾ بضم السين والجيم وتشديد اللام، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام، والطي في هذه الآية يحتمل معنيين أحدهما: الطي الذي هو ضد النشر، ومنه قوله: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: 67]. والثاني:

إلى حين﴾ أي: وتمتيع إلى وقت مقدر تقتضيه حكمته. ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بقوله: ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي: احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوض الأمر إليه سبحانه، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وابن محيصن (رب) بضم الباء. قال النحاس: وهذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم رجل أقبل حتى يقول يا رجل. وقرأ الضحاك، وطلحة، ويعقوب (احكم) بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم أي: قال محمد ربي احكم بالحق من كل حاكم. وقرأ الجحدري (احكم) بصيغة الماضي أي: احكم الأمور بالحق. وقرأ قل بصيغة الأمر أي: قل يا محمد. قال أبو عبيدة: الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف، والتقدير: رب احكم بحكمك الحق، ورب في موضع نصب، لأنه منادى مضاف إلى الضمير، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه ﷺ فعذبهم ببدر، ثم جعل العقوبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله رب العالمين. ثم قال سبحانه متمماً لتلك الحكاية ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ من الكفر والتكذيب، فربنا مبتدا وخبره الرحمن أي: هو كثير الرحمة لعباده، والمستعان خبر آخر أي: المستعان به في الأمور التي من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم، ومن قولكم: ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ [الأنبياء: 3] وقولكم: ﴿اتخذ الرحمن ولدًا﴾ [الأنبياء: 26 - مريم: 88] وكثيراً ما يستعمل الوصف في كتاب الله بمعنى الكذب كقوله: ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ [الأنبياء: 18]، وقوله: ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ [الأنعام: 139] وقرأ المفضل، والسلمي (على ما يصفون) بالياء التحتية. وقرأ الباقر بالفوقية على الخطاب.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروييه من طرق عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وارثون﴾ قال المشركون: فالملائكة، وعيسى، وعزير يعبدون من دون الله، فنزلت ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ عيسى، وعزير، والملائكة. وأخرج ابن مروييه، والضياء في المختارة عنه قال: جاء عبد الله بن الزبيري إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وارثون﴾ قال ابن الزبيري: قد عبت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا، فنزلت: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ [الزخرف: 57 - 58]. ثم نزلت: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، والطبراني من وجه آخر عنه أيضاً نحوه بأطول منه. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إن

المراد بذلك بنو إسرائيل بلبيل قوله سبحانه: ﴿ووارثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ [الأعراف: 137] والظاهر أن هذا تبشير لامة محمد ﷺ بوراثه أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين. وقرأ حمزة (عبادي) بتسكين الباء، وقرأ الباقر بتحريكها ﴿إن في هذا للبلاغ﴾ أي: فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبية لبلاغاً لكفاية، يقال: في هذا الشيء بلاغ وبلغه وتبلغ أي: كفاية؛ وقيل: الإشارة بقوله: ﴿إن في هذا﴾ إلى القرآن ﴿لقوم عابدين﴾ أي: مشغولين بعبادة الله مهتمين بها، والعبادة هي الخضوع والتذل، وهم أمة محمد ﷺ، ورأس العبادة الصلاة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ أي: وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والعلل أي: ما أرسلناك لعل من العلل إلا لرحمتنا الواسعة، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. قيل: ومعنى كونه رحمة للكفار: أنهم آمنوا به من الخسف والخسف والمسح والاستئصال، وقيل: المراد بالعالمين المؤمنون خاصة، والأول أولى بلبيل قوله سبحانه: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: 33]. ثم بين سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال: ﴿قل إنما يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد﴾ إن كانت «ما» موصولة فالمعنى: أن الذي يوحى إلي هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها، وإن كانت «ما» كافة فالمعنى: أن الوحي إلي مقصور على استئثار الله بالوحدة، ووجه ذلك أن القصر أبداً يكون لما يلي إنما، فإنما الأولى لقصر الوصف على الشيء كقولك إنما يقوم زيد أي: ما يقوم إلا زيد، والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك إنما زيد قائم أي: ليس به إلا صفة القيام ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ متقاون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه ﴿فإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام ﴿فقل لهم﴾ ﴿أننكم على سواء﴾ أي: أعلمتكم أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء في الإعلام لم أخص به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه: ﴿وما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ [الأنفال: 58] أي: أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً سوياً بينهم فيه. وقال الزجاج: المعنى أعلمتكم ما يوحى إلي على استواء في العلم به، ولا أظهر لأحد شيئاً كتمته على غيره ﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي: ما أدري أما توعدون به قريب حصوله أم بعيد، وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله؛ وقيل: المراد بما توعدون القيامة؛ وقيل: أننكم بالحرب ولكن لا أدري ما يؤن لي في محاربتكم ﴿إنه يعلم الجهر من اللقول ويعلم ما تكتُمون﴾ أي: يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتُمونه من ذلك وتخفونه ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم﴾ أي: ما أدري لعل الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم ﴿ومتاع

جعفر ابن جرير للإنكار على هذا الحديث وردّه أتمّ ردّه، وقال: ولا تعرف في الصحابة أحداً اسمه سَجَلٌ، وكتاب النبي ﷺ كانوا معروفين، وليس فيهم أحد اسمه السجل وصدق رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. وأما من نكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم. قال: والصحيح عن ابن عباس: أن السجل هو الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعمري عنه. ونصّ على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب أي: على الكتاب، يعني: المكتوب كقولهم: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ [الصافات: 103]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة والله أعلم. قلت: أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا، فإن علي بن أبي طلحة والعمري ضعيفان، فالأولى التعويل على المعنى اللغوي والمصير إليه. وقد أخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: ﴿السجل﴾ هو الرجل، زاد ابن مردويه بلغة الحبشة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في تفسير الآية قال: كطي الصحيفة على الكتاب. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ يقول: نهلك كل شيء كما كان أول مرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ قال: القرآن ﴿أن الأرض﴾ قال: أرض الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ قال: الكتب ﴿من بعد الذكر﴾ قال: التوراة وفي إسناده العمري. وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضاً قال: الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، والذكر: الأصل الذي نسخت منه هذه الكتب الذي في السماء والأرض: أرض الجنة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال: أرض الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض، ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون، وفي قوله: ﴿لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: عالمين، وفي إسناده علي بن أبي طلحة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن أبي هريرة ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: الصلوات الخمس. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم، والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ ﴿في قول الله ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿لبلاغاً لقوم عابدين﴾ قال: هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال: من آمن

الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿حصب جهنم﴾ قال: شجر جهنم، وفي إسناده العمري. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه من وجه آخر أن ﴿حصب جهنم﴾ وقودها. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو حطب جهنم بالزنجية. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ قال: حيات على الصراط تقول حس حس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عثمان النهدي في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهن قالوا: حس حس. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن محمد بن حاطب قال: سئل علي عن هذه الآية ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال: هو عثمان وأصحابه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزل منزلهم من الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قال: النفخة الأخيرة، وفي إسناده العمري. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة على كثران المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة: رجل أمّ قوماً وهم له راضون، ورجل كان يؤمن في كل يوم وليلة. وعبد أدى حق الله وحق مواليه». وأخرج عبد بن حميد، عن علي في قوله: ﴿كطي السجل﴾ قال: ملك. وأخرج عبد بن حميد، عن عطية مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: السجل ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبوها نوراً. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساکر، عن أبي جعفر الباقر قال: السجل ملك. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده في المعرفة، وابن مردويه، والبيهقي في سننه وصححه، عن ابن عباس قال: السجل كاتب للنبي ﷺ. وأخرج ابن المنذر، وابن عدي، وابن عساکر، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى السجل، وهو قوله: ﴿يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب﴾ قال: كما يطوي السجل الكتاب كذلك تطوي السماء. وأخرج ابن منده، وأبو نعيم في المعرفة، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساکر عن ابن عمر قال: كان للنبي ﷺ كاتب يقال له السجل، فأنزل الله ﴿يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب﴾ قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا الحديث: وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلاً. قال: وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، وقد أقررت بهذا الحديث جزءاً له على حدة، والله الحمد. قال: وقد تصدّى الإمام أبو

الحجّ على القرآن بسجنتين». وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والإسماعيلي، وابن مريويه، والبيهقي عن عمر: أنه كان يسجد سجنتين في الحجّ وقال: إن هذه السورة فضّلت على سائر القرآن بسجنتين. وقد روي عن كثير من الصحابة أن فيها سجنتين، وبه يقول ابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق. وقال بعضهم: إن فيها سجدة واحدة، وهو قول سفيان الثوري، وأخرجه ابن أبي شيبة، عن ابن عباس، وإبراهيم النخعي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ مِنْكُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرْوُهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ سُكَرَىٰ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَنَ الْآنَ مِنَ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَسَبِّحَ كُلُّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ﴿٣﴾ كَذَّبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِهِ فَآلَهُ يُسَلِّمُ لَهُ وَيُرِيدُ إِلَهُ عَذَابَ السَّاعَةِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْآيَاتِ فَاذْكُرُوا مَا خَلَقْتُمْ مِنْ قَبْلُ ثُمَّ مِنْ طَفَعْتُمْ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئِكُمْ وَلِنُفِثَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ تُسَمَّى ثُمَّ نَحْنُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَفِّكُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُزِيلُ إِنَّكَ أَزْدَى الْأُمُورِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ كَامِدَةً فَاذْكُرُوا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ فَانْبَثَتْ وَرَبَّتْ وَانْبَثَتْ مِنْ كُلِّ رَجْعٍ بِهَيْجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَوَكِّلُ وَأَنَّ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَاقِفٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

لما انجز الكلام في خاتمة السورة المتقدمة إلى نكر الإعادة وما قبلها وما بعدها، بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهلها حثاً على التقوى التي هي أنفع زاد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات، ولغظ الناس يشمل جميع المكلفين من المومنين ومن سيوجد على ما تقرر في موضعه، وقد قدمنا طرفاً من تحقيق ذلك في سورة البقرة، وجملة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى، والزلزلة شدة الحركة، وأصلها من زلّ عن الموضع أي: زال عنه وتحرك، وزلزل الله قمه أي: حركها، وتكرير الحرف يدل على تأكيد المعنى، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، وهي على هذا الزلزلة التي هي أحد أشراف الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة، هذا قول الجمهور؛ وقيل: إنها تكون في النصف من شهر رمضان، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها، وقيل: إن المصدر هنا مضاف إلى الظرف، وهو الساعة إجراء له مجرى المفعول، أو بتقدير في كما في قوله: ﴿هَلْ مَكَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: 33]. وهي المذكورة في قوله: ﴿إِذَا زَلْزَلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1]. وقيل: وفي التعبير عنها بالشئ إيدان بأن العقول قاصرة عن إدراك كونها ﴿يَوْمَ تَرْوُهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾

تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: «قيل: يا رسول الله ادع الله على المشركين، قال: إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة». وأخرج الطيالسي، وأحمد، والطبراني، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين». وأخرج أحمد، والطبراني، عن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «أما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة». وأخرج البيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة». وقد روي معنى هذا من طرق. وأخرج ابن أبي خيثمة، وابن عساكر، عن الربيع بن أنس قال: لما أسري بالنبي ﷺ رأى فلاناً، وهو بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهِ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول: هذا الملك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهِ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ يقول: ما أخبركم به من العذاب والساعة، لعل تأخير ذلك عنكم فتنه لكم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿قُلْ رَبِّ لِحَكْمِ بِالْحَقِّ﴾ قال: لا يحكم الله إلا بالحق، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه.

تفسير سورة الحج

اختلف أهل العلم، هل هي مكية أو مدنية؟ فأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجّ بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن عبد الله بن الزبير مثله. وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن الحجّ غير أربع آيات مكيات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾، وحكى القرطبي عن ابن عباس أنها مكية سوى ثلاث آيات؛ وقيل: أربع آيات إلى قوله: ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، وحكى عن النقاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات. قال القرطبي وقال الجمهور: إن السورة مختلطة، منها مكّي، ومنها مدني. قال: وهذا هو الصحيح. قال العريزي: وهي من أعاجيب السور نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكياً ومدنيّاً، سلمياً وحريباً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، وقد ورد في فضلها ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن عتبة بن عامر قال: «قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجنتين؟ قال: نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما». قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقوي. وأخرج أبو داود في المراسيل، والبيهقي عن خالد بن معدان، أن رسول الله ﷺ قال: «فضّلت سورة

الشیطان بوصفین: الأول أنه مريد، والثاني ما افاده جملة كتب عليه الخ، وجملة ﴿ويهيئ له عذاب السعير﴾ معطوفة على جملة يضلّه أي: يحمله على مباشرة ما يصير به في عذاب السعير. ثم نكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدّمة، فقال: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ قرأ الحسن (البعث) بفتح العين وهي لغة، وقرأ الجمهور بالسكون، وشكهم يحتمل أن يكون في وقوعه أو في إمكانه. والمعنى: إن كنتم في شك من الإعادة فانظروا في مبدأ خلقكم أي: خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ويرتفع الشك وتدحض الشبهة الباطلة ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم ﴿ثم﴾ خلقناكم ﴿من نطفة﴾ أي: من مني، سمي نطفة لقلته، والنطفة: القليل من الماء. وقد يقع على الكثير منه، والنطفة: القطرة، يقال: نطف ينطف أي: قطر، وليلة نطوف أي: دائمة القطر ﴿ثم من علققة﴾ والعلققة: الدم الجامد، والعلق: الدم العبيط أي: الطري أو المتجمد؛ وقيل: التشديد الحمره والمراد: الدم الجامد المتكوّن من المعني ﴿ثم من مضغة﴾ وهي القطعة من اللحم قدر ما يبيض الماضغ تتكوّن من العلققة ﴿مخلقة﴾ بالجرّ صفة لمضغة أي: مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿وغير مخلقة﴾ أي: لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها، قال ابن الأعرابي: مخلقة يزيد قد بدا خلقه، وغير مخلقة لم تصوّر. قال الأكثر: ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتام، وما سقط كان غير مخلقة أي: غير حيّ بكمال خلقته بالروح. قال الفراء: مخلقة تامّ الخلق، وغير مخلقة: السقط، ومنه قول الشاعر:

أني غير المخلقة البكاء فأين الحزم ويحك والحياة
واللام في ﴿لنبيين لكم﴾ متعلق بخلقنا أي: خلقناكم على هذا النمط البديع لنبيين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم ﴿ونقرّ في الأرحام ما نشاء﴾ روى أبو حاتم، عن أبي زيد، عن المفضل، عن عاصم أنه قرأ بنصب نقرّ عطفاً على نبين، وقرأ للجمهور (نقر) بالرفع على الاستئناف أي: ونحن نقرّ. قال الزجاج: نقرّ بالرفع لا غير، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقرّ في الأرحام ما نشاء، ومعنى الآية: وثبت في الأرحام ما نشاء فلا يكون سقطاً ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت الولادة، وقال ما نشاء ولم يقل من نشاء، لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح، وقرئ (اليبين - ويقرّ - و - يخرجكم) بالتحتيّة في الأفعال الثلاثة، وقرأ ابن أبي وثاب (ما نشاء) بكسر النون ﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾ أي: نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً أي: أطفالاً، وإنما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد. قال الزجاج: طفلاً في معنى أطفالاً، ودلّ عليه نكر الجماعة يعني: في نخرجكم، والعرب كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة، ومنه قول الشاعر:

يلحنني من حبها ويلمنني إن العوائل لسن لي بأمير

انتصاب الظرف بما بعده، والضمير يرجع إلى الزلزلة أي: وقت رؤيتكم لها تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها وتغفل عنه. قال قطرب: تذهل تشتغل، وأنشد قول الشاعر:

ضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
وقيل: تنسى، وقيل: تلهو؛ وقيل: تسلو، وهذه معانيها متقاربة. قال المبرّد: إن «ما» فيما أرضعت بمعنى المصدر أي: تذهل عن الإرضاع، قال: وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع، إلا أن يقال: من ماتت حاملاً فتضع حملها للهول، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، ويقال: هذا مثل كما يقال: ﴿يوماً يجعل ولدان شيباً﴾ [المزمل: 17]. وقيل: يكون مع النفخة الأولى، قال: ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة، كما في قوله: ﴿مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ [البقرة: 214]. ومعنى ﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ أنها تلقي جنينها لغير تمام من شدّة الهول، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿وترى الناس سكارى﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاب لكل واحد أي: يراهم الرائي كأنهم سكارى ﴿وما هم بسكارى﴾ حقيقة، قرأ حمزة، والكسائي (سكرى) بغير ألف، وقرأ الباقون بإثباتها وهما لغتان يجمع بهما سكران، مثل كسلى وكسالى، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذي لأجله شابهوا السكارى فقال: ﴿ولكنّ عذاب الله شديد﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم، واضطربت أفعالهم فصاروا كالسكارى، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك وقرئ (وترى) بضم التاء وفتح الراء مسنداً إلى المخاطب من أرايتك أي: تظنهم سكارى. قال الفراء: ولهذه القراءة وجه جيد في العربية، ثم لما أراد سبحانه أن يحتجّ على منكري البعث قدّم قبل ذلك مقدّمة تشمل أهل الجدل كلهم فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ وقد تقدّم إعراب مثل هذا التركيب في قوله: ﴿ومن الناس من يقول﴾ [البقرة: 8]. ومعنى ﴿في الله﴾ في شأن الله وقدرته، ومحل ﴿بغير علم﴾ النصب على الحال. والمعنى: أنه يخاصم في قدرة الله فيزعم أنه غير قاهر على البعث بغير علم يعلمه، ولا حجة يدلي بها ﴿ويستع﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتجّ به ويجادل عنه ﴿كل شيطان مريد﴾ أي: متمرد على الله وهو العاتي، سمي بذلك لخلّوه عن كل خير، والمراد: إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياهم إلى الكفر. وقال الواحدي: قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث وكان كثير الجدل، وكان ينكر أن الله يقدر على إحياء الأموات؛ وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ﴿كتب عليه أنه من تولاه﴾ أي: كتب على الشيطان، وفاعل كتب أنه من تولاه، والضمير للشان أي: من اتخذه ولياً ﴿فأنه يضلّه﴾ أي: فشان الشيطان أن يضلّه عن طريق الحقّ، فقوله أنه يضلّه جواب الشرط إن جعلت من شرطية أو خبر الموصول إن جعلت موصولة، فقد وصف

الحق، وأنه المتفرد بإحياء الموتى، وأنه قادر على كل شيء من الأشياء. والمعنى: أنه المتفرد بهذه الأمور وأنها من شأنه لا يدعي غيره أنه يقدر على شيء منها، فدل سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقي الغني المطلق، وأن وجود كل موجود مستفاد منه، والحق هو الموجود الذي لا يتغير ولا يزول، وقيل ذو الحق على عباده، وقيل: الحق في أفعاله، قال الزجاج: ذلك في موضع رفع أي: الأمر ما وصفه لكم وبين بأن الله هو الحق. قال: ويجوز أن يكون ذلك نصباً، ثم أخبر سبحانه بأن **﴿الساعة آتية﴾** أي: في مستقبل الزمان، قيل: لا بد من إضمار فعل أي: ولتعلموا أن الساعة آتية **﴿لا ريب فيها﴾** أي: لا شك فيها ولا تردد، وجملة **﴿لا ريب فيها﴾** خبر ثانٍ للساعة، أو في محل نصب على الحال. ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال: **﴿وإن الله يبعث من في القبور﴾** فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإن ذلك كائن لا محالة.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال: «لما نزلت **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾** إن زلزلة الساعة شيء عظيم» إلى قوله **﴿ولكن عذاب الله شديد﴾** أنزلت عليه هذه وهو في سفر، فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله لأدم أبعث بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحداً إلى الجنة، فأنشأ المسلمون يبيكون، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا وأبشروا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتنخذ العدة من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والامم إلا كمثل الرقعة في نزار الدابة، أو كالشامة في جنب البعير، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا، قال: ولا أدري قال الثلاثين أم لا. وأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر عن عمران بن حصين مرفوعاً نحوه، وقال في آخره: «اعملوا وأبشروا فولذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج، ومن مات من بني آدم ومن بني إيليس، فسري عن القوم بعض الذي يجدون قال: عملوا وأبشروا، فولذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقعة في نزار الدابة». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً، وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي

وقال المبرد: هو اسم يستعمل مصدرًا كالرضاء، والعدل فيقع على الواحد والجمع، قال الله سبحانه: **﴿أو الطفل الذين لم يظهروا﴾** [النور: 31]. قال ابن جرير: هو منصوب على التمييز كقوله: **﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً﴾** [النساء: 4]. وفيه بعد، والظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المنكور، والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ **﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾** قيل: هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له، كانه قيل: نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا إلى الأشد، وقيل: إن ثم زائدة، والتقدير: لتبلغوا؛ وقيل: إنه معطوف على نبين، والأشد هو كمال العقل وكمال القوة والتمييز، قيل: وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين. وقد تقدم الكلام في هذا مستوفى في الأنعام **﴿وومنكم من يتوفى﴾** يعني: قبل بلوغ الأشد، وقرئ: يتوفى مبنياً للفاعل. وقرأ الجمهور (يتوفى) مبنياً للمفعول **﴿وومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾** أي: أخسه وأدونه، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل، ولهذا قال سبحانه: **﴿فكلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾** أي شيئاً من الأشياء، أو شيئاً من العلم، والمعنى: أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها، لا علم له ولا فهم، ومثله قوله: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾** ثم رددناه أسفل سافلين [التين: 4 - 5]. وقوله: **﴿ومن نعمة ننكسه في الخلق﴾** [يس: 68]. **﴿وترى الأرض هامدة﴾** هذه حجة أخرى على البعث، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات، والهامدة اليابسة التي لا تنبت شيئاً، قال ابن قتيبة: أي ميتة يابسة كالنار إذا طفت؛ وقيل: دارسة، والهمود الدروس، ومنه قول الأعشى:

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً وارى ثيابك بالبيات هموداً وقيل: هي التي ذهب عنها الندى؛ وقيل: هالكة، ومعاني هذه الأقوال متقاربة **﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾** المراد بالماء هنا: المطر، ومعنى: اهتزت تحركت، والاهتزاز شدة الحركة، يقال هزأت الشيء فاهتزت أي: حركته فتحرك والمعنى: تحركت بالنبات، لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقة، فسماه اهتزازاً مجازاً. وقال المبرد: المعنى اهتزت نباتاتها فحنفت المضاف، واهتزازة شدة حركته، والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض، ومعنى ربت ارتفعت، وقيل: انتفخت. والمعنى واحد، وأصله الزيادة، يقال: ربا الشيء يربو ربواً إذا زاد ومنه الربا والربوة. وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس (وربات) أي: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية، وهو الذي يحفظ القوم على مكان مشرف يقال له رابى ورباة وربيفة **﴿وانبتت﴾** أي: أخرجت **﴿من كل زوج بهيج﴾** أي: من كل صنف حسن ولون مستحسن، والبهجة الحسن، وجملة **﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾** مستأنفة، لما نكر افتقار الموجودات إليه سبحانه وتسخيرها على وفق إرادته وإقتداره. قال بعد ذلك هذه المقالات، وهي إثبات أنه سبحانه

في الله، فيدخل في ذلك كل مجادل في ذات الله، أو صفاته أو شرائعه الواضحة، و﴿بغير علم﴾ في محل نصب على الحال أي: كائناتاً بغير علم. قيل: والمراد بالعلم هو العلم الضروري، وباللهي هو العلم النظري الاستدلالي. والأولى حمل العلم على العموم، وحمل الهدى على معناه اللغوي، وهو الإرشاد. والمراد بالكتاب المنير هو: القرآن، والمنير: النير البين الحجة الواضح البرهان، وهو وإن دخل تحت قوله: ﴿بغير علم﴾ فأفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر بعد ذكر الملائكة، وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم. وأما من حمل العلم على الضروري والهدى على الاستدلالي، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعي، فتكون الآية متضمنة لنفي الدليل العقلي ضرورياً كان أو استدلالياً، ومتضمنة لنفي الدليل النقلي باقتسامه، وما ذكرناه أولى. قيل: والمراد بهذا المجادل في هذه الآية هو المجادل في الآية الأولى. أعني قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ [الحج: 3] وبذلك قال كثير من المفسرين، والتكرير للمبالغة في الذم كما تقول للرجل تنم وتوبخه أنت فعلت هذا أنت فعلت هذا؟ ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه في كل آية بزيادة على ما وصفه به في الآية الأخرى، فكانه قال: ومن الناس من يجادل في الله ويتبع كل شيطان مريد بغير علم ﴿ولا هدى ولا كتاب منير﴾ ليضل عن سبيل الله اهـ. وقيل: الآية الأولى في المقلدين اسم فاعل. والثانية في المقلدين اسم مفعول. ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال: إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم، والثانية عامة في كل إضلال وجدال، وانتصاب ﴿ثاني عطفه﴾ على الحال من فاعل يجادل، والعطف الجانب، وعطفا الرجل جانباه من يمين وشمال، وفي تفسيره وجهان: الأول أن المراد به من يلوي عنقه مرحاً وتكبراً، ذكر معناه الزجاج. قال: وهذا يوصف به المتكبر. والمعنى: ومن الناس من يجادل في الله متكبراً. قال المبرد: العطف ما انتفى من العنق والوجه الثاني أن المراد بقوله: ﴿ثاني عطفه﴾ الإعراض أي: معرضاً عن الذكر، كذا قال الفراء والمفضل وغيرهما كقوله تعالى: ﴿ولي مستكبراً﴾ كان لم يسمعها [لقمان: 7]. وقوله: ﴿لووا رؤوسهم﴾ [الأنعام: 45]. وقوله: ﴿أعرض نأى بجانبه﴾ [الأنعام: 83]. واللام في ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ متعلق بتجادل أي: إن غرضه هو الإضلال عن السبيل وإن لم يعترف بذلك. وقرئ ليضل بفتح الباء على أن تكون اللام هي لام العاقبة كانه جعل ضلاله غاية لجذاله، وجملة ﴿له في الدنيا خزي﴾ مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جذاله من العقوبة. والخزي الذل، وذلك بما يناله من العقوبة في الدنيا من العذاب المعجل وسوء الذكر على ألسن الناس؛ وقيل: الخزي الدنيوي هو القتل كما وقع في يوم بدر ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ أي: عذاب النار المحرقة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من العذاب الدنيوي

فذكر نحوه، وفي آخره فقال: «من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد، وهل أنتم في الأمم إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿كتب عليه﴾ قال: كتب على الشيطان. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله ﴿أنه من تولاه﴾ قال: اتبعه. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن وغيرهم، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصابق المصدق: «إن أحكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحكم لعمله بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحكم لعمله بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». والاحاديث في هذا الباب كثيرة جداً. وأخرج ابن أبي حاتم وصححه، عن ابن عباس في قوله: ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ قال: المخلقة ما كان حياً، وغير المخلقة ما كان سقطاً. وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن كل زوج بهيج﴾ قال: حسن. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله عز وجل حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور لخل الجنة.

وَمَنْ آتَايَ مَنْ يَجِدُ فِي اللَّهِ بَعْدَ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ وَتُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْخُلُقِ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي بَطْلَانَ لِلْعَيْدِ ﴿٢٠﴾ مَنْ آتَايَ مَنْ يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ طُمَأْنَنَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبْ عَنْ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ لُتْمُ الرَّاغِبِ ﴿٢١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٢٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ لَيْسَ الْمَوْلَى وَليُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٤﴾ مَنْ كَانَتْ يَدَاكَ تُبْذَرُ أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَفْطَحْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْرِيهِ كَيْدٌ مَّا يَبْعُثُ ﴿٢٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿٢٦﴾

قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله﴾ أي: في شان الله، كقول من قال: إن الملائكة بنات الله، والمسيح ابن الله، وعزير ابن الله. قيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ وقيل: في أبي جهل؛ وقيل: هي عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم، وعلى كل حال فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ وإن كان السبب خاصاً. ومعنى اللفظ: ومن الناس فريق يجادل

والأخروي، وهو مبتدأ خبره ﴿بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ﴾. والباء للسمبية أي: تلك العذاب النازل بك بسبب ما قَدَّمْت يَدَاكَ من الكفر والمعاصي، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصي تكون بها في الغالب، ومحل أن وما بعدها في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير ذنب. وقد مرَّ الكلام على هذه الآية في آخر آل عمران فلا نعيده ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: الحرف الشك، وأصله من حرف الشيء وهو طرفه، مثل حرف الجبل والحائط، فإن القائم عليه غير مستقر والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه، فقليل للشك في دينه: إنه يعبد الله على حرف، لأنه على غير يقين من وعده ووعيده، بخلاف المؤمن لأنه يعبد الله على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف، وقيل: الحرف الشرط أي: ومن الناس من يعبد الله على شرط، والشرط هو قوله: ﴿فَإِنْ أَصْلَبَهُ خَيْرَ أَطْمَآنٍ بِهِ﴾ أي: خير دنوي من رخاء وعافية وخصب وكثرة مال، ومعنى اطمأن به: ثبت على دينه واستمرَّ على عبادته، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه ﴿وَأِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ﴾ أي: شيء يفتن به من مكروه يصيبه في أهله أو ماله أو نفسه ﴿فَانْقَلِبْ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتدَّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، ثم بيَّن حاله بعد انقلابه على وجهه فقال: ﴿خُسْرٌ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: ذهب منه وفقدهما، فلا حظ له في الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن، ولا في الآخرة من الأجر وما أعدَّه الله للصالحين من عبادته. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس، والأعرج، والزهرى، وابن أبي إسحاق (خاسراً الدنيا والآخرة) على صيغة اسم الفاعل منصوباً على الحال. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى خسران الدنيا والآخرة وهو مبتدأ وخبره ﴿وَهُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: الواضح الظاهر الذي لا خسران مثله ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ﴾ أي: هذا الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر يدعو من دون الله أي: يعبد متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام ما لا يضرُّه إن ترك عبادته، ولا ينفعه إن عبده لكون تلك المعبود جماداً لا يقدر على ضرِّ ولا نفع، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى الدعاء المفهوم من الفعل وهو يدعو، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: عن الحق والرشد مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيداً عنها. قال الفراء: البعيد الطويل ﴿يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يدعو بمعنى: يقول، والجملة مقررّة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالاً بعيداً. والأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال بل هي ضرر بحت لمن يعبدها، لأنه دخل النار بسبب عبادتها، وإيراد صيغة التفضيل مع عدم

النفع بالمرة للمبالغة في تنبيه حال ذلك الداعي، أو ذلك من باب ﴿وَأَنَا أَوْ إِيَّاكَ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: 24] واللام هي الموطئة للقسم، ومن موصولة أو موصوفة، وضرُّه مبتدأ خبره أقرب، والجملة صلة الموصول. وجملة ﴿لِبَيْتِ الْمَوْلَى وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ﴾ جواب القسم، والمعنى: أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده الذي ضرُّه أقرب من نفعه: لبَيْتِ الْمَوْلَى أنت لبَيْتِ الْعَشِيرِ، والمولى الناصر، والعشير الصاحب، ومثل ما في هذه الآية قول عنترة: يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بشر في لبان الأدهم وقال الزجاج: يجوز أن يكون يدعو في موضع الحال، وفيه هاء محذوفة أي: ذلك هو الضلال البعيد يدعو، وعلى هذا يوقف على يدعو، ويكون قوله: ﴿لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ كلاماً مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، وخبره لبَيْتِ الْمَوْلَى. قال: وهذا لأن اللام للميم والتوكيد فجعلها أول الكلام. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن يكون يدعو مكررة على ما قبلها على جهة تكثر هذا الفعل الذي هو الدعاء أي: يدعو ما لا يضرُّه ولا ينفعه يدعو مثل ضربت زيداً ضربت. وقال الفراء، والكسائي، والزجاج: معنى الكلام القسم، واللام مقمّة على موضعها، والتقدير: يدعو من لضرُّه أقرب من نفعه، فمن في موضع نصب يدعو، واللام جواب القسم وضرُّه مبتدأ، وأقرب خبره، ومن التصرف في اللام بالتقييم والتأخير قول الشاعر:

خالي لانت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا
أي: لخالي أنت. قال النحاس: وحكى لنا علي بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذف، والمعنى: يدعو لمن ضرُّه أقرب من نفعه إلهاً. قال النحاس: وأحسب هذا القول غلطاً عن محمد بن يزيد، ولعل وجهه أن ما قبل اللام هذه لا يعمل فيما بعدها. وقال الفراء أيضاً: والقول اللام صلة أي: زائدة، والمعنى: يدعو من ضرُّه أقرب من نفعه أي: يعبد، وهكذا في قراءة عبد الله بن مسعود بحذف اللام، وتكون اللام في (لبَيْتِ الْمَوْلَى) وفي (لبَيْتِ الْعَشِيرِ) على هذا موطئة للقسم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما فرغ من نكر حال المشركين، ومن يعبد الله على حرف نكر حال المؤمنين في الآخرة، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة، وقد تقدّم الكلام في جري الأنهار من تحت الجنات، وبيّن أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها، فجرى الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أي: من تحت أشجارها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها أي: يفعل ما يريد من الأفعال ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]. فيتشبه من يشاء ويعذب من يشاء ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال النحاس: من أحسن ما قيل في هذه الآية أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ وأنه يتهاى له أن يقطع النصر الذي

والفضة، فنزلت ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾. وأخرج القرطبي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ﴾ قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ قال: فليربط بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال: إلى سماء بيته السقف ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ قال: ثم يقطع به حتى يموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه قال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ﴾ يقول: أن لن يرزقه الله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ فليأخذ حبلًا فليربطه في سماء بيته فليقطع به ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ قال: فليظن هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَسْجُونَةَ وَالنَّصَارَى
أَشْرَكَارَ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّجَرُ
وَالنَّجْمُ وَالْجِبَالُ وَالْهَرَمُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ
عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن شُكْرٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُنَالُهُ ﴿١٨﴾
﴿١٩﴾ هَذَانِ حَصَنَاكَ أَعْمَسُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا فُتِنَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ
نَّارٍ يَصُبُّ مِن قَوْفٍ رُّؤُسِهِمْ لَعَلَّيْهِمْ ﴿٢٠﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجَبُودُ
﴿٢١﴾ وَلَكُم مَّقْصِيَةٌ مِّنْ حَيْبٍ ﴿٢٢﴾ كَلِمَاتُ آرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنهَا مِّنْ عَمَرٍ
أَعْبَدُوا فِيهَا وَذَوُّوا عَذَابَ الْخَرِيبِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِن
أَشْوَارٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَهُمْ فِيهَا
مِنَ الْأَعْلَى وَهُمْ فِيهَا فِي سُرُرٍ مُّتَنِيعَةٍ

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله وبرسوله، أو بما ذكر من الآيات البينات ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ قوم يعبدون النجوم؛ وقيل: هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء ﴿وَالنَّصَارَى﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم الذين يعبدون النار، ويقولون: إن للعالم أصليين: النور والظلمة؛ وقيل: هم قوم يعبدون الشمس والقمر؛ وقيل: هم قوم يستعملون النجاسات؛ وقيل: هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح؛ وقيل: إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الذين يعبدون الأصنام، وقد مضى تحقيق هذا في البقرة، ولكنه سبحانه قدّم هناك النصارى على الصابئين، وأخرهم عنهم هنا. فقيل: وجه تقديم النصارى هناك: أنهم أهل كتاب دون الصابئين، ووجه تقديم الصابئين هنا: أن زمنهم متقدم على زمن النصارى، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في محل رفع على أنها خبر لأن المتقدمة، ومعنى الفصل: أنه سبحانه يقضي بينهم فيدخل المؤمنين منهم

أوتيه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليقطع النصر إن تهيأ له ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ﴾ وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ﴾ من نصر النبي ﷺ؛ وقيل: المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظاً، ثم فسر به بقوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليشد حبلًا في سقف بيته ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً، والمعنى: فليقطع غيظاً حتى يموت، فإن الله ناصره ومظهره، ولا ينفعه غيظه؛ ومعنى فليظن هل يذهب كيدته أي: صنيعه وحيلته ما يغيظ أي: غيظه، وما مصدريه؛ وقيل: إن الضمير في ينصره يعود إلى من، والمعنى: من كان يظن أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه، وبه قال أبو عبيدة؛ وقيل: إن الضمير يعود إلى الدين أي: من كان يظن أن لن ينصر الله دينه. وقرأ الكوفيون بإسكان اللام في (ثم ليقطع) قال النحاس: وهذه القراءة بعيدة من العربية ﴿وَكُلُّكَ انزِلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مثل تلك الإنزال البينع انزلناه آيات واضحة ظاهرة الدلالة على مبلولاتها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَرِيدُ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهدياً من قبل.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: لاري عطفه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والسدي، وابن يزيد، وابن جرير: أنه المعروض. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: أنزلت في النصر بن الحارث. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: هو رجل من بني عبد الدار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال: مستكبراً في نفسه. وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً وأنجبت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه بسند صحيح قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ يسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا: إن بيننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جلب وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في بيننا هذا خير، فأنزل الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً نحوه، وفي إسناده العوفي. وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريقه أيضاً عن أبي سعيد قال: «أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاهم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: اقلني اقلني، قال: إن الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي، فقال: يا يهودي الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب

لعقوبته؛ وقيل: المراد بالخصمين هم: الذين برزوا يوم بدر، فمن المؤمنين حمزة وعلي وعبيدة، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة. وقد كان أبو نر رضي الله عنه يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيح، وقال بمثل هذا: جماعة من الصحابة، وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول. وقد ثبت في الصحيح أيضاً عن علي أنه قال: فينا نزلت هذه الآية. وقرأ ابن كثير ﴿هَذَانِ﴾ بتشديد النون، وقال سبحانه: ﴿لِخْتَصِمَا﴾ ولم يقل اختصما. قال الفراء: لأنهم جمع، ولو قال اختصما لجاز، ومعنى ﴿فِي رِبِهِمْ﴾ في شأن ربهم أي: في دينه، أو في ذاته، أو في صفاته، أو في شريعته لعباده، أو في جميع ذلك. ثم فصل سبحانه ما أجمله في قوله: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ فقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ قال الأزهرى: أي سويت وجعلت لبوساً لهم، شبهت النار بالثياب لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب، وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه؛ وقيل: إن هذه الثياب من نحاس قد أنيب فصار كالنار، وهي السراويل المذكورة في آية أخرى؛ وقيل: المعنى في الآية: أحاطت النار بهم. وقرأ ﴿قُطِعَتْ﴾ بالتخفيف ثم قال سبحانه ﴿يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ لِلْحَمِيمِ﴾ والحميم هو الماء الحار المغلي بنار جهنم، والجملة مستأنفة أو هي خبر ثانٍ للموصول ﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ الصهر الإذابة، والصهارة ما ذاب منه، يقال: صهرت الشيء فانصهر أي: أثبت فذاب فهو صهير، والمعنى: أنه يذاب بذلك الحميم ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء ﴿وَالْجُلُودُ﴾ معطوفة على ما أي: ويصهر به الجلود، والجملة في محل نصب على الحال؛ وقيل: إن الجلود لا تذاب، بل تحرق، فيحترق فعل يناسب ذلك، ويقال: وتحرق به الجلود كما في قول الشاعر:

علفتها تبناً وماءً بارداً

أي: وسقيتها ماء، ولا يخفى أنه لا ملجئ لهذا، فإن الحميم إذا كان يذيب ما في البطن فيذابته للجلد الظاهر بالأولى ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حديدٍ﴾ المقامع جمع مقمعة ومقمع قمعته ضربته بالمقمعة، وهي قطعة من حديد. والمعنى: لهم مقامع من حديد يضربون بها أي: للكفرة، وسميت المقامع مقامع لأنها تقمع المضروب أي: تذله. قال ابن السكيت: أقمت الرجل عني إقماعاً: إذا طلع عليك فردته عنك ﴿كَلِمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿أَعْبَدُوا فِيهَا﴾ أي: في النار بالضرب بالمقامع، و ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بدل من الضمير في منها بإعادة الجاز أو مفعول له أي: لأجل غم شديد من غموم النار ﴿وَنُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هو بتقدير القول أي: أعيدوا فيها؛ وقيل لهم نوقوا عذاب الحريق أي: العذاب المحرق، وأصل الحريق الاسم من الاحتراق، تحرق الشيء بالنار واحترق حرقاً واحتراقاً، والنوق ماسية يحصل معها إدراك الطعم، وهو هنا توسع، والمراد به: إدراك الألم. قال الزجاج: وهذا لأحد الخصمين

الجنة والكافرين منهم النار؛ وقيل: الفصل هو أن يميز المحق من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما، وجملة ﴿إِنْ أَلِهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تحليل لما قبلها أي: أنه سبحانه على كل شيء من أفعال خلقه وأقوالهم شهيد لا يعزب عنه شيء منها، وأنكر الفراء أن تكون جملة ﴿إِنْ أَلِهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ خبراً لأن المتقدمة. وقال لا يجوز في الكلام: إن زيدا إن أخاه منطلق، وردّ الزجاج ما قاله الفراء، وأنكره وأنكر ما جعله ماثلاً للآية، ولا شك في جواز قولك: إن زيدا إن الخير عنده، وإن زيدا إنه منطلق، ونحو ذلك ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الرؤية هنا هي القلبية لا البصرية أي: ألم تعلم، والخطاب لكل من يصلح له، وهو من تتأتى منه الرؤية، والمراد بالسجود هنا هو: الانقياد الكامل، لا سجد الطاعة الخاصة بالعقلاء، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء، أو عامة لهم ولغيرهم، ولهذا عطف ﴿الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْجِبَالِ وَالشَّجَرِ وَالتَّوَابِ﴾ على من، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء، وإنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعداً في العادة، وارتفاع ﴿كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ﴾ بفعل مضمّر يدل عليه المذكور أي: ويسجد له كثير من الناس؛ وقيل: مرتفع على الابتداء وخبره محذوف وتقديره: وكثير من الناس يستحق الثواب، والأول أظهر. وإنما لم يرتفع بالعطف على من، لأن سجد هؤلاء الكثير من الناس هو سجد الطاعة الخاصة بالعقلاء، والمراد بالسجود المتقدم هو: الانقياد، فلو ارتفع بالعطف على من لكان في ذلك جمع بين معنيين مختلفين في لفظ واحد. وأنت خير بانه لا ملجئ، إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجد كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص، فارتفاعه على العطف لا بأس به، وإن أبى ذلك صاحب الكشف ومتابعوه، وأما قوله: ﴿وَكثيرٌ حقٌ عليه العذاب﴾ فقال الكسائي والفراء: إنه مرتفع بالابتداء وخبره ما بعده؛ وقيل: هو معطوف على كثير الأول ويكون المعنى: وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك، وقيل: المعنى وكثير من الناس في الجنة، وكثير حق عليه العذاب هكذا حكاه ابن الأنباري ﴿وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ﴾ أي: من أهانه الله بأن جعله كافرًا شقيًا، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيداً عزيزاً. وحكى الاخفش والكسائي والفراء أن المعنى: ومن يهين الله فما له من مكرم أي: إكرام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما تقدم نكره من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ﴾ الخصمان أحدهما أنجس الفرق: اليهود، والنصارى، والصابئون، والمجوس والذين أشركوا، والخصم الآخر: المسلمون، فهما فريقان مختصمان. قاله الفراء وغيره؛ وقيل: المراد بالخصمين الجنة والنار. قالت الجنة: خلقتني لرحمتي، وقالت النار: خلقتني

نَزَّ أَنَّهُ كَانَ يَقْسِمُ قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هَٰذَا خَصْمَانُ﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الثَّلَاثَةِ وَالثَّلَاثَةِ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرَ: وَهُمْ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَبِيدَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعَتْبَةُ، وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عَتْبَةَ، قَالَ عَلِيٌّ: وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ جِثُّوا فِي الْخُصُومَةِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْثُومٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِنَحْوِهِ، وَهَكَذَا رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَطَعْتَ لَهُمْ ثِيَابَ مِنْ ثَارٍ﴾ قَالَ: مِنْ نَحَاسٍ، وَلَيْسَ مِنَ الْآيَةِ شَيْءٌ إِذَا حُمِيَ أَشَدُّ حَرًّا مِنْهُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ قَالَ: النَّحَاسُ يَذَابُ عَلَى رُءُوسِهِمْ، وَقَوْلِهِ: ﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ قَالَ: تَسِيلُ أَمْعَاؤُهُمْ ﴿وَالْجُلُودُ﴾ قَالَ: تَتَنَازَرُ جُلُودُهُمْ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي زَوَائِدِ الزُّهْدِ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ، وَابْنُ مَرْثُومٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَمِيمَ لِيَصْبُ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفِذُ الْجَمْعَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ الصَّهَرُ، ثُمَّ يَعَادُ كَمَا كَانَ». وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ قَالَ: يَمْشُونَ وَأَمْعَاؤُهُمْ تَتَسَاقَطُ وَجُلُودُهُمْ. وَفِي قَوْلِهِ ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قَالَ: يَضْرِبُونَ بِهَا، فَيَقَعُ كُلُّ غُصْنٍ عَلَى حَيَالِهِ فَيَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالتَّيُّورِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ: يَسْقُونَ مَاءً إِذَا دَخَلَ فِي بُطُونِهِمْ أَذَابَهَا وَالْجُلُودُ مَعَ الْبُطُونِ. وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَأَبُو يَعْلَى، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْثُومٍ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي الْبَيْعَةِ وَالنَّشُورِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ مَقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وَضَعَ فِي الْأَرْضِ فَاجْتَمَعَ الثَّقَلَانُ مَا أَقْلَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَوْ ضَرَبَ الْجَبَلَ بِمَقْمَعٍ مِنْ حَدِيدٍ لَتَفَقَّتْ ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ». وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُبَارَكِ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَهَنَادٌ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: النَّارُ سُودَاءُ مَظْلَمَةٌ لَا يُضِيءُ لَهَا بَلْبَاءٌ وَلَا جَمْرُهَا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مَنْ غَمَّ أَعْيَدُوا فِيهَا﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْ فِي الْآخِرَةِ». وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قَالَ: أَلْهِمُوا. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: هَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْخُصُومَةِ إِذْ قَالُوا: اللَّهُ مُوَلَانَا وَلَا مُوَلَى لَكُمْ. وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ فِي الْآيَةِ قَالَ: الْقُرْآنُ ﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ قَالَ: الْإِسْلَامُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي

وَقَالَ فِي الْخَصْمِ الْآخَرِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْلُصُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فَيَبِّينُ سَبْحَانَهُ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ بَيَانِهِ لِحَالِ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بَعْضَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ بَعْدَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ فَقَالَ: ﴿يَحْلُونَ فِيهَا﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ (يَحْلُونَ) بِالتَّشْدِيدِ وَالبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَقُرِئَ مَخْفَفًا أَيَّ: يَحْلِيهِمْ اللَّهُ أَوْ الْمَلَأَتْهُ بِأَمْرِهِ. وَمَنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَسَاوِرُ﴾ لِلتَّبَعِيضِ أَيَّ: يَحْلُونَ بَعْضُ أَسَاوِرَ، أَوْ لِلْبَيَانِ، أَوْ زَائِدَةٌ، وَمَنْ فِي ﴿مَنْ ذَهَبُ﴾ لِلْبَيَانِ، وَالْأَسَاوِرُ جَمْعُ أَسُورَةٍ وَالْأَسُورَةُ جَمْعُ سَوَارٍ، وَفِي السَّوَارِ لُغَتَانِ: كَسَرُ السَّيْنِ وَضَمُّهَا، وَفِيهِ لُغَةٌ ثَالِثَةٌ، وَهِيَ أَسَاوِرُ. قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَعَاصِمٌ، وَشَيْبَةُ (وَلَوْلُؤُا) بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ أَسَاوِرَ أَيَّ: وَيَحْلُونَ لَوْلُؤُا، أَوْ بِفَعْلٍ مَقْتَرٍ يَنْصَبُهُ، وَهَكَذَا قَرَأَ بِالنَّصْبِ يَعْقُوبُ، وَالجَحْدَرِيُّ، وَعِيسَى بْنُ عَمْرِو، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ هِيَ الْمَوَافَقَةُ لِرِسْمِ الْمُصْحَفِ فَإِنَّ هَذَا الْحَرْفَ مَكْتُوبٌ فِيهِ بِالْأَلْفِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْجَزِّ عَطْفًا عَلَى أَسَاوِرَ أَيَّ: يَحْلُونَ مِنْ أَسَاوِرَ وَمِنْ لَوْلُؤُا، وَالدُّوَالُ مَا يَسْتَخْرِجُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْ جَوْفِ الصَّنِيفِ. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: وَالْمُرَادُ تَرْصِيعُ السَّوَارِ بِاللَّوْلُؤِ، وَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ فِي الْجَنَّةِ سَوَارٍ مِنْ لَوْلُؤٍ مَصْمُتٌ كَمَا أَنَّ فِيهَا أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أَيَّ: جَمِيعٌ مَا يَلْبَسُونَهُ حَرِيرٌ كَمَا تَفِيدُهُ هَذِهِ الْإِضَافَةُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ: أَنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْمَلْبُوسِ الَّذِي كَانَ مَحْرَمًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا حَلَالٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ مَا يَلْبَسُونَهُ فِيهَا، فَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُعْطَى مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ وَيُنَالُ مَا يَرِيدُهُ ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَيَّ: أَرشَدُوا إِلَيْهِ، قِيلَ: هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقِيلَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَقِيلَ: الْقُرْآنُ، وَقِيلَ: هُوَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مِنَ الْبَشَارَاتِ. وَقَدْ رَدَّ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْمَجْمَلِ هُنَا، وَهُوَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ [الزمر: 74]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: 34]، وَمَعْنَى ﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أَنَّهُمْ أَرشَدُوا إِلَى الصِّرَاطِ الْمَحْمُودِ وَهُوَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ، أَوْ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ بَيْنَهُ الْقَوِيمُ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ.

وَقَدْ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَيَصْلُونَ الْقِبْلَةَ، وَيَقْرَأُونَ الزُّبُورَ ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ عِبَادَةُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّيِّرَانِ، ﴿وَالَّذِينَ اشْرَكُوا﴾ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ قَالَ: الْأَدْيَانُ سِتَّةٌ، فَخَمْسَةٌ لِلشَّيْطَانِ، وَدِينُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ فِي الْآيَةِ قَالَ: فَصَلَ قَضَاءُ بَيْنَهُمْ فَجَعَلَ الْخَمْسَةَ مُشْتَرَكَةً وَجَعَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَاحِدَةً. وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْثُومٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الَّذِينَ هَادُوا: الْيَهُودُ، وَالصَّابِغُونَ: لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ، وَالْمَجُوسُ: أَصْحَابُ الْأَصْنَامِ، وَالْمُشْرِكُونَ: نَصَارَى الْعَرَبِ. وَأَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي

عمرو في الوقف، وحذفها نافع في الوصل والوقف. قال القرطبي: وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام نفسه.

واختلفوا في مكة فذهب مجاهد، ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطائر. وذهب عمر بن الخطاب، وابن عباس، وجماعة إلى أن للقدام أن ينزل حيث وجد، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أم أبى. وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام، ولاهله منع الطائر من النزول فيها. والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصليين: الأصل الأول ما في هذه الآية هل المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه، أو جميع الحرم، أو مكة على الخصوص؟ والثاني هل كان فتح مكة صلحا أو عنوة؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرها النبي ﷺ في يد أهلها على الخصوص؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم؟ وقد أوضحنا هذا في شرحنا على المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾** مفعول يرد محذوف لقصد التعميم، والتقدير: ومن يرد فيه مراداً أي: مراد بإلحاد أي: يعول عن القصد، والإلحاد في اللغة الميل إلا أنه سبحانه بين هذا أنه الميل بظلم.

وقد اختلف في هذا الظلم ماذا هو؟ فقيل: هو الشرك؛ وقيل: الشرك والقتل؛ وقيل: صيد حيواناته وقطع أشجاره، وقيل: هو الحلف فيه بالآيمان الفاجرة، وقيل: المراد المعاصي فيه على العموم، وقيل: المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في تلك المكان. وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود، وابن عمر، والضحاك، وابن زيد وغيرهم حتى قالوا: لو هم الرجل في الحرم يقتل رجل بعدن لعنَّه الله. والحاصل أن هذه الآية نلت على أن من كان في البيت الحرام مأخوذاً بمجرد الإرادة للظلم، فهي مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها إلا أن يقال إن الإرادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس، وبالجمله فالبحث عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الإشكال يطول جداً، ومثل هذه الآية حديث: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالحقتل والمقتول في النار»، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه، فدخل النار هنا بسبب مجرد حرصه على قتل صاحبه. وقد أفرنا هذا البحث برسالة مستقلة، والباء في قوله: **﴿بإلحاد﴾** إن كان مفعول يرد محذوفاً كما ذكرنا فليست بزيادة؛ وقيل: إنها زائدة هنا كقول الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج
أي: نرجو الفرج، ومثله:

ألم يأتيك والأنبياء تسمى بما لاقت لبون بني زياد
أي: ما لاقت، ومن القائلين بأنها زائدة الأخفش، والمعنى عنده: ومن يرد فيه إلحاداً بظلم. وقال الكوفيون: دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، والباء مع أن تدخل وتحذف، ويجوز

حاتم عن الضحاك في الآية قال: الإسلام. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله الذي قال: **﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾** [فاطر: 10].

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْعَاكِفِ يُظْلَمُ نَذْرَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٥﴾ وَذُو نُوَيْكَا لِإِذْ يَسِرَّ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُنْزِلَ فِيهِ شَيْئًا وَظَهَرَ بَيْنَ الْمَلَكَيْنِ وَالْعَامِينَ وَالرَّكْعِ الشُّجُورِ ﴿١٦﴾ وَأَذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيكُ مِنْ كُلِّ صَبَاحٍ عِينٍ ﴿١٧﴾ لِيُشْهِدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِيهِ آيَاتٌ تَتْلُوهُنَّ عَلَى مَا نَزَّلْنَاهُمْ مِنْ بَحْمَةِ الْأَنْفُسِ فَكُفَرُوا بِهَا وَلَطِمُوا النَّاسِ الْفَاقِرَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُتُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيُطَوُّوا بِالْبَيْتِ الْكَرِيمِ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله﴾** عطف المضارع على الماضي، لأن المراد بالمضارع: ما مضى من الصد، ومثل هذا قوله: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾** [محمد: 1 - النحل: 88]، أو المراد بالصد ما هنا الاستمرار لا مجرد الاستقبال، فصح بذلك عطفه على الماضي، ويجوز أن تكون الواو في ويصدون واو الحال أي: كفروا والحال أنهم يصدون؛ وقيل: الواو زائدة والمضارع خبر إن الأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله: **﴿والباد﴾** وذلك نحو خسروا أو هلكوا. وقال الزجاج: إن الخبر نذقه من عذاب أليم. ورد بأنه لو كان خبراً لأن لم يجزم أيضاً لو كان خبراً لأن لبقى للشرط وهو **﴿ومن يرد﴾** بغير جواب فالأولى أنه محذوف كما ذكرنا والمراد بالصد: المنع وبسبيل الله دينه أي: يمنعون من أراد النحول في دين الله والمسجد الحرام، معطوف على سبيل الله قيل: المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني، وقيل: الحرم كله، لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه يوم الحديبية؛ وقيل: المراد به: مكة ببليق قوله: **﴿الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾** أي: جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستويين فيه العاكف، وهو المقيم فيه الملازم له والباد أي الواصل من البادية، والمراد به: الطائر عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم وانتصاب سواء على أنه المفعول الثاني لجعلناه، وهو بمعنى مستويين، والعاكف مرتفع به، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصائين عنه، ويحتمل أن يكون انتصاب **﴿سواء﴾** على الحال. وهذا على قراءة النصب، وبها قرأ حفص عن عاصم، وهي قراءة الأعمش، وقرأ الجمهور برفع (سواء) على أنه مبتدأ وخبره (العاكف) أو على أنه خبر مقدم، والمبتدأ (العاكف) أي: العاكف فيه والبادي سواء، وقرئ بنصب (سواء) وجز (العاكف) على أنه صفة للناس أي: جعلناه للناس العاكف والبادي سواء، وثابت الباء في البادي ابن كثير وصلا ووقفاً، وحذفها أبو

وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرها ﴿يأتوك رجالاً﴾ هذا جواب الأمر، وعده الله إجابة الناس له إلى حج البيت ما بين راجل وراكب، فمعنى رجالاً: مشاة جمع راجل؛ وقيل: جمع رجل. وقرأ ابن أبي إسحاق (رجالاً) بضم الراء وتخفيف الجيم، وقرأ مجاهد (رجالي) على وزن فعالي مثل كسالي، وقدم الرجال على الركبان في الذكر لزيادة تعبه في المشي، وقال: يأتوك وإن كانوا يأتون البيت، لأن من أتى الكعبة حاجاً فقد أتى إبراهيم، لأنه أجاب نداءه ﴿وعلى كل ضامر﴾ عطف على رجالا أي: وركباناً على كل بعيد، والضامر البعير المهزول الذي أتبعه السفر، يقال: ضمر يضمّر ضموراً، ووصف الضامر بقوله: ﴿يأتين﴾ باعتبار المعنى، لأن ضامر في معنى ضوامر، وقرأ أصحاب ابن مسعود، وابن أبي عبيدة، والضحاك (يأتون) على أنه صفة لرجالاً. والفج الطريق الواسع الجمع فجاج، والعميق البعيد، واللام في ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ متعلقة بقوله يأتوك؛ وقيل: بقوله وآئن، والشهود الحضور، والمنافع هي تعم منافع الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بها المناسك، وقيل: المغفرة؛ وقيل: التجارة كما في قوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تنبغوا فضلاً من ربكم﴾ [البقرة: 198]. ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ أي: يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله؛ وقيل: إن هذا الذكر كناية عن الذبح لأنه لا ينفك عنه. والأيام المعلومات هي أيام النحر كما يفيد ذلك قوله: ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وقيل: عشر ذي الحجة. وقد تقدم الكلام في الأيام المعلومات والمعدودات في البقرة فلا نعيده، والكلام في وقت ذبح الأضحية معروف في كتب الفقه وشروح الحديث، ومعنى: على ما رزقهم: على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، وبهيمة الأنعام هي الأنعام فالإضافة في هذا كالإضافة في قولهم: مسجد الجامع وصلاة الأولى ﴿فكلوا منها﴾ الأمر هنا للنذير عند الجمهور، وذبحت طائفة إلى أن الأمر للوجوب، وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿واظلموا البائس الفقير﴾ البائس ذو اليأس وهو شدة الفقر فنذكر الفقير بعده لمزيد الإيضاح، والأمر هنا للوجوب؛ وقيل: للنذير ﴿ثم ليقتضوا ثقلهم﴾ المراد بالقضاء هنا هو الثانية أي: ليؤدوا إزالة وسخهم، لأن الثقت هو الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار، وقد أجمع المفسرون كما حكاه النيسابوري على هذا. قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعرفون الثقت. وقال أبو عبيدة: لم يأت في الشعر ما يحتج به في معنى الثقت. وقال المبرّد: أصل الثقت في اللغة كل قانورة تلحق الإنسان، وقيل: قضاؤه آدمائه لأن الحاج مغير شعث لم يدهن ولم يستحد، فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه خلق شعره وليس ثيابه، فهذا هو قضاء الثقت. قال الزجاج: كأنه خروج من الإحرام إلى الإحلال ﴿وليوفوا بنورهم﴾ أي: ما يتنورون به من البر في حجهم، والأمر للوجوب، وقيل: المراد بالنور هنا: أعمال الحج ﴿وليطوفوا بالبيت

أن يكون التقدير: ومن يرد الناس بإلحاد؛ وقيل: إن يرد مضمن معنى بهم، والمعنى: ومن بهم فيه بإلحاد. وأما الباء في قوله يظلم فهي للسببية، والمعنى: ومن يرد فيه بإلحاد بسبب الظلم، ويجوز أن يكون يظلم بدلاً من بإلحاد بإعادة الجاز ويجوز أن يكونا حالين مترادفين ﴿وإذا بؤنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي: وانكر وقت ذلك، يقال بؤاته منزلاً وبؤات له كما يقال مكنتك ومكنت لك. قال الزجاج: معناه جعلنا مكان البيت مبراً لإبراهيم، ومعنى بؤنا: بينا له مكان البيت، ومثله قول الشاعر:

كم من أخ لي ماجد بؤاته بيدي لحداً

وقال الفراء: إن اللام زائدة ومكان ظرف أي: أنزلناه فيه ﴿ألا تشرك بي شيئاً﴾ قيل: إن هذه هي مفسرة لبؤنا لتضمنه معنى تعبتنا، لأن التبوئة هي للعبادة. وقال أبو حاتم: هي مصدرية أي: لأن لا تشرك بي؛ وقيل: هي المخففة من الثقيلة، وقيل: هي زائدة؛ وقيل: معنى الآية: وأوحينا إليه أن لا تعبد غيري. قال المبرّد: كأنه قيل له وحني في هذا البيت، لأن معنى لا تشرك بي وحني ﴿وطهر بيتي﴾ من الشرك وعبادة الأوثان. وفي الآية طعن على ما أشرك من قطان البيت أي: هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم فلم تفوا بل أشركتم. وقالت فرقة: الخطاب بقوله: ﴿ألا تشرك﴾ لمحمد ﷺ وهذا ضعيف جداً. ومعنى ﴿وطهر بيتي﴾ تطهيره من الكفر والأوثان والدماء وسائر النجاسات، وقيل: عني به التطهير عن الأوثان فقط، وذلك أن جرمها والعمالة كانت لهم أصنام في محل البيت، وقد مر في سورة براءة ما فيه كفاية في هذا المعنى، والمراد بالقائمين هنا: هم المصلون ﴿وذكر الركن والسجود﴾ بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة، وقرن الطواف بالصلاة لأنها لا يشرعان إلا في البيت، فالطواف عنده والصلاة إليه ﴿وآئن في الناس بالحج﴾ قرأ الحسن وابن محيصن (وآئن) بتخفيف الذال والمد. وقرأ الباقر بتشديد الذال، والأذان الإعلام، وقد تقدم في براءة.

قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاءه جبريل فأمره أن يؤئن في الناس بالحج، فقال: يا رب من يبلغ صوتي؟ فقال الله سبحانه: آئن وعليّ البلاغ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال، فادخل أصبعيه في آئنيه وأقبل بوجهه يمناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وقال: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت فاجيبوا ربكم، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك؛ وقيل: إن الخطاب لنبيينا محمد ﷺ والمعنى: أعلمهم يا محمد بوجوب الحج عليهم، وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله: ﴿والركن والسجود﴾ وقيل: إن خطابه انقضى عند قوله: ﴿وإذا بؤنا لإبراهيم مكان البيت﴾ وإن قوله: ﴿أن لا تشرك بي﴾ وما بعده خطاب لنبيينا محمد ﷺ، وقرأ الجمهور (بالحج) بفتح الحاء،

الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة، فنزلت فيه **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** يعني: من لجأ إلى الحرم بإلحاد، يعني: بميل عن الإسلام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** قال: بشرك. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن يعلى بن أمية، عن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه». وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: بيع الطعام بمكة إلحاد. وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «احتكار الطعام بمكة إلحاد». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، عن علي قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر. فلما قدم مكة رأى على رابية في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلمه فقال: يا إبراهيم ابن علي ظلي أو على قدري ولا تزد ولا تنقص، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر، وذلك حين يقول الله: **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾** الآية. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطاء **﴿والقائمين﴾** قال: المصلين عنده. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة معناه. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: رب قد فرغت، فقال: **﴿أذن في الناس بالحج﴾** قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال أذن وعليّ البلاغ، قال: رب كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فسمعه من في السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون. وفي الباب آثار عن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿ليشبهوا منافع لهم﴾** قال: أسواقاً كانت لهم، ما نكر الله منافع إلا الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة، فاما منافع الآخرة ففرضوا لله، وأما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البiden في ذلك اليوم والذبائح والتجارات. وأخرج أبو بكر المروزي في كتاب العيدين عنه أيضاً قال: الأيام المعلومات: أيام العشر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: أيام التشريق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً في الأيام المعلومات قال: قبل يوم التروية بيوم، ويوم التروية ويوم عرفة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: البائس الزمن. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عمر

العتيق **﴿هذا الطواف هو طواف الإفاضة﴾** قال ابن جرير: لا خلاف في ذلك بين المتأولين، والعتيق القديم كما يفيد قوله سبحانه: **﴿إن أول بيت وضع للناس﴾** [آل عمران: 96] الآية، وقد سمي العتيق لأن الله اعتقه من أن يتسلط عليه جبار؛ وقيل: لأن الله يعتق فيه رقاب المنزبين من العذاب؛ وقيل: لأنه اعتق من غرق الطوفان؛ وقيل: العتيق الكريم.

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: **﴿والمسجد الحرام﴾** قال: الحرم كله، وهو المسجد الحرام **﴿سواء العاكف فيه والباد﴾** قال: خلق الله فيه سواء. وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: هم في منازل مكة سواء، فينبغي لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم. وقال البادي وأهل مكة سواء، يعني: في المنزل والحرم. وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال: من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل في بطونه ناراً. وأخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً قال له عند المروة: يا أمير المؤمنين أقطعني مكاناً لي ولعقبتي، فأعرض عنه عمر وقال: هو حرم الله سواء العاكف فيه والباد. وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال: كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاج في عرصات الدور. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه قال السيوطي بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله الله: **﴿سواء العاكف فيه والباد﴾** قال: سواء المقيم والذي يدخل». وأخرج ابن مريويه عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: «مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن ماجه، عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السواثب، من احتاح سكن ومن استغنى أسكن. رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد بن أبي حفرة، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة فنكره. وأخرج الدارقطني عن ابن عمر مرفوعاً: «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً». وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن مسعود رفعه في قوله: **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** قال: لو أن رجلاً هم فيه بإلحاد وهو بعدن أبين لأذقه الله عذاباً أليماً. قال ابن كثير: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، ولهذا صمم شعبة على وقفه. وأخرج سعيد بن منصور، والطبراني عن ابن مسعود في الآية قال: من هم بخطيئة فلم يعملها في سوى البيت لم تكتب عليه حتى يعملها، ومن هم بخطيئة في البيت لم يمته الله من الدنيا حتى ينفيه من عذاب اليم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس: أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من

تزول النجاسة الحسية إلا بالماء. قال الزجاج: من هنا لتخليص جنس من أجناس أي: فاجتنبوا الرجز الذي هو وثن ﴿وَلَجْتَنبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ الذي هو الباطل، وسمى زوراً لأنه مائل عن الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: 17]. وقولهم مدينة زوراء أي: مائلة، والمراد هنا: قول الزور على العموم، وأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان. وقال الزجاج: المراد بقول الزور ها هنا: تحليلهم بعض الانعام وتحريمهم بعضها، وقولهم: ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: 116]؛ وقيل: المراد به شهادة الزور، وانتصاب ﴿حَنَفَاءُ﴾ على الحال أي: مستقيمين على الحق، أو مائلين إلى الحق. ولفظ حنفاء من الأضداد يقع على الاستقامة، ويقع على الميل؛ وقيل: معناه حجاجاً، ولا وجه لهذا ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ هو حال كالأول أي: غير مشركين به شيئاً من الأشياء كما يفيد الحذف من العموم، وجمله ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَانَ مَخْرُجاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب، ومعنى خَرَّ من السماء: سقط إلى الأرض أي: انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿فَتَخْطِفُهُ الطَّيْرُ﴾، يقال: خطفه يخطفه إذا سلبه، ومنه قوله: ﴿يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: 20]. أي: تخطف لحمة وتقطعه بمخالبها. قرأ أبو جعفر ونافع بتشديد الطاء وفتح الخاء، وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أي: تقذفه وترمي به ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد، يقال: سحى يسحق سحقاً فهو سحيق إذا بعد، قال الزجاج: أعلم الله أن بعد من أشرك به من الحق كبعد ما خَرَّ من السماء، فتذهب به الطير أو هوت به الريح في مكان بعيد ﴿وَمَنْ يَعِظْ شُعَائِرَ اللَّهِ﴾ الكلام في هذه الإشارة قد تقدّم قريباً والشعائر جمع الشعيرة، وهي كل شيء فيه الله تعالى شعار، ومنه شعار القوم في الحرب، وهو علامتهم التي يتعارفون بها، ومنه إشعار البدن، وهو الطعن في جانبها الأيمن، فشعائر الله أعلام بينه، وتدخل الهدايا في الحجّ نخولاً أو لياً، والضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب أي: من أفعال القلوب التي هي من التقوى، فإن هذا التعظيم ناشئ من التقوى ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: في الشعائر على العموم، أو على الخصوص، وهي البدن كما يدل عليه السياق. ومن منافعها الركوب والنزل والنسل والصوف وغير ذلك ﴿إِلَى لُجْلٍ مُسَمًّى﴾ وهو وقت نحرها ﴿فَإِنَّ مَحَلَّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي: حيث يحل نحرها، والمعنى: أنها تنتهي إلى البيت وما يليه من الحرم، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة إلى وقت نحرها، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية، وقيل: إن محلها ها هنا مأخوذ من إحلال الحرم، والمعنى: أن شعائر الحجّ كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي تنتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت، فالبيت على هذا مراد بنفسه ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مَنَسَكٌ﴾ المنسك

قال: التفت المناسك كلها. وأخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: التفت حلق الرأس، والأخذ من العارضين، وفتف الإبط، وحلق العانة، والوقوف بعرفة، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، وقص الأظفار، وقص الشارب والذبح. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه ﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هو طواف الزيارة يوم النحر، وورد في وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، وورد في فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع نذكرها.

وَالَّذِ كَمَنْ يُعْظِمُ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ حَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُجِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُشَلُّ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿١١٦﴾ حَفَاةً يَلَوُ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَانَ مَخْرُجاً مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطِفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١١٧﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعْرَهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿١١٨﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِنَّكُمُ أَهْلٌ مُسَمًّى لَهَا فَالْتَبِتُوا إِلَيْهَا إِنَّ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ﴿١١٩﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَمَلًا مَنَسَكًا يُذَكِّرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحْدٌ فَلَهُ أُسْلُبُوا وَيَشْرُ الْمُحْشِينَ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ رَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالْعَصْدِيقِينَ عَلَى مَا أُصَابَهُمْ وَالْمُقَرَّبِينَ السَّلَوةَ وَمَا رَزَقَهُمْ يَفْخَرُونَ ﴿١٢١﴾

محل ﴿وَالَّذِ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك، أو مبتدأ خبره محذوف أو في محل نصب بفعل محذوف أي: افعلوا ذلك، والمشار إليه هو ما سبق من أعمال الحج، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفي كلام واحد، والحرمان جمع حرمة. قال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرمة التفريط فيه، وهي في هذه الآية ما نهى عنها ومنع من الوقوع فيها. والظاهر من الآية عموم كل حرمة في الحج وغيره كما يفيد اللفظ وإن كان السبب خاصاً، وتعظيمها ترك ملابستها ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ أي: فالتعظيم خير له ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يعني: في الآخرة من التهاون بشيء منها؛ وقيل: إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناها الحقيقي، بل المراد: أن ذلك التعظيم خير ينتفع به، فهي عدة بخير ﴿وَأُجِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الكتاب العزيز من المحرمات، وهي الميتة وما ذكر معها في سورة المائدة؛ وقيل في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ غير محلي الصيد وأنتم حرم [المائدة: 1]. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ الرجز: القنر، والوثن: التمثال، وأصله من وثن الشيء أي: أقام في مقامه، وسمى الصليب وثناً لأنه ينصب ويركز في مقامه، فلا يبرح عنه والمراد اجتناب عبادة الأوثان، وسماها رجساً لأنها سبب الرجز وهو العذاب؛ وقيل: جعلها سبباً رجساً حكماً، والرجس النجس، وليست النجاسة وصفاً ذاتياً لها ولكنها وصف شرعي، فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا

معاصيه كلها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾** يقول: اجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان **﴿ولاجتنبوا قول الزور﴾** يعني: الافتراء على الله والتكذيب به. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن أيمن بن حريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور شركاً بالله ثلاثاً، ثم قرأ **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾**». قال أحمد: غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن حريم سماعاً من النبي ﷺ. وقد أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الشعب من حديث حريم. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً، فجلس فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿حففاء لله غير مشركين به﴾** قال: حجاجاً لله غير مشركين به، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام، قال الله للمسلمين: حجوا الآن غير مشركين بالله. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصديق نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ومن يعظم شعائر الله﴾** قال: البدن. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿ومن يعظم شعائر الله﴾** قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام، وفي قوله: **﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾** قال: إلى أن تسمى بدناً. وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه، وفيه قال: ولكم فيها منافع إلى أجل مسمى، في ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها إلى أن تسمى هدياً، فإذا سميت هدياً ذهبت المنافع **﴿ثم محلها﴾** يقول: حين تسمى **﴿إلى البيت للعقيق﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة قال: إذا نخلت الحرم فقد بلغت محلها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾** قال: عيداً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: إهراق الدماء. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: نبحاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية قال: مكة لم يجعل الله لامة قط منسكاً غيرها، وقد وردت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع نكرها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿وبشّر المحبتين﴾** قال: المطمئنتين. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم الغضب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن

ها هنا المصدر من نسك إذا نبح القربان، والنبيحة نسيسة، وجمعها نسك. وقال الأزهري: إن المراد بالمنسك في الآية: موضع النحر، ويقال: منسك بكسر السين وفتحها لغتان قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصماً وقرأ الباقون بالفتح. وقال الفراء: المنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد في خير أو شر. وقال ابن عرفة: **﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾** أي: مذهباً من طاعة الله. وروي عن الفراء أن المنسك العيد؛ وقيل: الحج، والأول أولى لقوله: **﴿لينكروا اسم الله﴾** إلى آخره، والامة: الجماعة المجتمعة على مذهب واحد، والمعنى: وجعلنا لكل أهل دين من الأنبياء نبياً يذبحونه وبما يريقونه، أو متعبداً أو طاعة أو عيداً أو حجاً يحجون، لينكروا اسم الله وحده ويجعلوا نسكهم خاصاً به **﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾** أي: على نبح ما رزقهم منها، وفيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام بون غيرها، وفي الآية دليل على أن المقصود من الذبح المنكور هو نكر اسم الله عليه. ثم أخبرهم سبحانه بتفرده بالإلهية وأنه لا شريك له، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ثم أمرهم بالإسلام له، والانقياد لطاعته وعبادته، وتقديم الجار والمجرور على الفعل لل قصر، والفاء هنا كالفاء التي قبلها، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يبشّر **﴿المحبتين﴾** من عباده أي: المتواضعين الخاشعين المخلصين، وهو مأخوذ من الخبيت، وهو المنخفض من الأرض، والمعنى: بشرهم يا محمد بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجيل عطائه؛ وقيل: إن المحبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا، ثم وصف سبحانه هؤلاء المحبتين بقوله: **﴿الذين إذا نكروا الله وجلت قلوبهم﴾** أي: خافت وحذرت مخالفته، وحصول الوجع منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة إيمانهم، وصفهم بالصبر **﴿على ما أصابهم﴾** من البلاء والمحن في طاعة الله ثم وصفهم بإقامة **﴿الصلاة﴾** أي: الإتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال. قرأ الجمهور والمقيمي الصلاة بالجرّ على ما هو للظاهر، وقرأ أبو عمرو بالنصب على توهم بقاء النون، وأنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر:

الحافظ عورة العشيرة

البيت بنصب عورة، وقيل: لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو، وقرأ ابن محيصن (والمقيمين) بإثبات النون على الأصل، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود، ثم وصفهم سبحانه بقوله: **﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾** أي: يتصدقون به وينفقونه في وجوه البر، ويضعونه في مواضع الخير، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا نكروا الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾** [الأنفال: 2].

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: **﴿حرمات الله﴾** قال: الحرمة مكة والحجّ والعمرة وما نهى الله عنه من

المسألة. وبالأول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن، وروي عن ابن عباس. وبالثاني قال غزمية وقتادة. وأما المعتز، فقال محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وإبراهيم، والكلبي، والحسن: أنه الذي يتعرض من غير سؤال؛ وقيل: هو الذي يعتريك ويسالك. وقال مالك: أحسن ما سمعت أن القانع: الفقير، والمعتز: الزائر. وروي عن ابن عباس: أن كلاهما الذي لا يسأل، ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل، والمعتري الذي يتعرض لك ولا يسالك. وقرأ الحسن والمعتري ومعناه كمعنى المعتز، ومنه قول زهير:

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السملحة والبذل

يقال: اعتزّه واعتراه وعزّه وعراه: إذا تعرض لما عنده أو طلبه، نكره النحاس «كنك سخرناها لكم» أي: مثل ذلك التسخير اليبيع سخرناها لكم، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها فتنحرونها وتتنفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها والحلب لها ونحو ذلك «لعلكم تشكرون» هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها» أي: لن يصعد إليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التي تتصدقون بها ولا دماؤها التي تنصب عند نحرها من حيث إنها لحوم ودماء «ولكن يناله» أي: يبلغ إليه تقوى قلوبكم، ويصل إليه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه؛ وقيل: المراد أصحاب اللحوم والدماء أي: لن يرضى المضحون والمقتربون إلى ربهم باللحوم والدماء ولكن بالتقوى. قال الزجاج: أعلم الله أن الذي يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به، وحقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول، وذلك أن ما يقبله الإنسان يقال قد ناله ووصل إليه، فخطب الله الخلق كما لبثهم في مخاطبتهم «كنك سخرها لكم» كَرَر هذا للتذكير، ومعنى «لتكبروا الله على ما هداكم» هو قول الناحر: الله أكبر عند النحر، فنكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها، ونكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير، وقيل: المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدل على الكبرياء، ومعنى «على ما هداكم» على ما أُرشدكم إليه من علمكم بكيفية التقرب بها، وما مصدريه، أو موصولة «وبشر المحسنين» قيل: المراد بهم المخلصون؛ وقيل: الموحسون. والظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عبد الله بن عمر قال: لا تعلم البدين إلا من الإبل والبقر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: البدين ذات الجوف. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: ليس البدين إلا من الإبل، وأخرجوا عن الحكم نحوه، وأخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر. وأخرج ابن أبي شيبة عن، سعيد بن المسيب نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه

عمرو بن أوس قال: المخبتون في الآية الذين لا يظلمون الناس، وإذا ظلما لم ينتصروا.

وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعِيرٍ اللَّهُ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا رَجَعْتَ جُوفُهَا تَكُونُ مِنَّا وَآلِمْوُا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُم مِّمَّا تَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾ لَّن يَنَالَهُ اللَّهُ لِحُومُهَا وَلَا دَمُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقَفَرُ يَسْكُمُ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُم لِتُكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَيَتَرَّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾

قرأ ابن أبي إسحاق «والبدن» بضم الباء والدال، وقرأ الباقر بإسكان الدال وهما لغتان، وهذا الاسم خاص بالإبل، وسميت بدنة لأنها تدب، والبدانة: السمن. وقال أبو حنيفة ومالك: إنه يطلق على غير الإبل، والأول أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الإبل، ولما تنفذه كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل. وقال ابن كثير في تفسيره: واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث «جعلناها لكم» وهي ما تقدم بيانه قريباً «لكن فيها خير» أي: منافع دينية ودنيوية كما تقدم «فانكروا اسم الله عليها» أي: على نحرها ومعنى «صوافف» أنها قائمة قد صفت قوائمها، لأنها تنحرف قائمة معقولة، وأصل هذا الوصف في الخيل يقال: صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثني الرابعة. وقرأ الحسن، والأعرج، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وأبو موسى الأشعري (صوافي) أي: خواص الله لا تشركون به في التسمية على نحرها أحداً، وواحد صوافف صاففة، وهي قراءة الجمهور. وواحد صوافي صافية، وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وأبو جعفر، ومحمد بن علي (صوافن) بالنون جمع صافنة، والصافنة هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لثلاً تضطرب، ومنه قوله تعالى: «الصافنات الجياد» [ص: 31]. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا

وقال الآخر:

الف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسير

«فإذا وجبت جنوبها» الوجوب السقوط أي: فإذا سقطت بعد نحرها، وذلك عند خروج روحها «فكلوا منها» ذهب الجمهور أن هذا الأمر للذئب «واطعموا القانع والمعتز» هذا الأمر قيل: هو للذئب كالأول، وبه قال مجاهد، والنخعي، وابن جرير، وابن سريج، وقال الشافعي وجماعة: هو للوجوب.

واختلف في القانع من هو؟ فقيل: هو السائل، يقال: قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرهما إذا سأل، ومنه قول الشماخ: لمال المرء يصلحه فيغني مفاقره أصف من القنوع أي السؤال؛ وقيل: هو المتعفف عن السؤال المستغني ببلغة، نكر معناه الخليل. قال ابن السكيت: من العرب من نكر القنوع بمعنى القناعة، وهي الرضا والتعفف وترك

قرأ أبو عمرو وابن كثير (ينفع) وقرأ الباقون يدافع وصيغة المفاعلة هنا مجردة عن معناها الأصلي، وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدل عليه القراءة الأخرى. وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الأصلي كثيراً مثل عاقبت اللص ونحو ذلك، وقد قدمنا تحقيقه، وقيل: إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة؛ وقيل: للدلالة على تكرار الواقع والمعنى: يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين، وقيل: يعلي حجتهم؛ وقيل: يوفقههم والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من رب العالمين، وأنه المتولي للمدافعة عنهم، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ مقررة لضمون الجملة الأولى، فإن المدافعة من الله لهم عن عبادة المؤمنين مشعرة أتم إشعار بأنهم مبغضون إلى الله غير محبوبين له. قال الزجاج: من نكر غير اسم الله وتقرب إلى الأصنام بذبيحته فهو خَوَّانٌ كَفُورٌ، وإيراد صيغتي المبالغة للدلالة على أنهم كذلك في الواقع لا لإخراج من خان دون خيانتهم، أو كفر دون كفرهم ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلْمَؤُا قَرِئٌ﴾ (آئن) مبنياً للفعل ومبنياً للمفعول وكذلك يقاتلون، قرئ مبنياً للفعل ومبنياً للمفعول، وعلى كلا القراءتين فالآئن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال، أو قاتلهم المشركون قاتلهم. قال المفسر: كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالسنتهم وأيديهم، فيشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيقول لهم: «اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر»، فأنزل الله سبحانه هذه الآية بالمدينة، وهي أول آية نزلت في القتال. وهذه الآية مقررة أيضاً لضمون قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ﴾ فإن إباحة القتال لهم هي من جملة نفع الله عنهم، والباء في ﴿بَأْنَهُمْ ظُلْمَؤُا﴾ للسببية أي: بسبب أنهم ظلموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرده، ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين، فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وفيه تأكيد لما مر من المدافعة أيضاً، ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ بِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ويجوز أن يكون بدلاً من الذين يقاتلون، أو في محل نصب على المدح، أو محل رفع بإضمار مبتدأ، والمراد بالبيار: مكة ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ قال سيبويه: هو استثناء منقطع أي: لكن لقولهم ربنا الله أي: أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم ربنا الله. وقال الفراء والزجاج: هو استثناء متصل، والتقدير الذين أخرجوا من بيارهم بلا حق إلا بأن يقولوا ربنا الله، فيكون مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَتَقَمُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَمْنَاهُ﴾ [الأعراف: 126] وقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكناشب

﴿ولو لا دفاع الله الناس﴾ قرأ نافع (ولو لا دفاع) وقرأ الباقون (ولو لا دفع) والمعنى: لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك، وذهبت مواضع العبادة من الأرض، ومعنى ﴿لهدمت﴾ لخربت

أيضاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن يعقوب الرباحي عن أبيه قال: أوصى إلي رجل، وأوصى ببينة، فاتيت ابن عباس فقلت له: إن رجلاً أوصى إلي وأوصى ببينة، فهل تجزئ عني بقرة؟ قال: نعم، ثم قال: ممن صاحبكم؟ فقلت: من بني رباح، فقال: ومتى اقتنى بنو رباح البقر إلى الإبل؟ وهم صاحبكم، إنما البقر للأسد وعبد القيس. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الأضاحي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن أبي ظبيان قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿فَانْزِلُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ قال: إذا أردت أن تنحر البينة فاقمها على ثلاث قوائم معقولة، ثم قل بسم الله والله أكبر. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿صَوَافٍ﴾ قال: قياماً معقولة، وفي الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلاً قد أتيخ ببنته وهو ينحرها، فقال: أبعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ. وأخرج أبو عبيدة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال: في قراءة ابن مسعود (صوافن) يعني: قياماً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فَإِذَا وَجِيتِ﴾ قال: سقطت على جنبها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: نحرته. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿القانع﴾ المتعفف ﴿وَالْمَعْتَرُ﴾ السائل. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: القانع الذي يقنع بما أتيته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: القانع الذي يقنع بما أوتي، والمعتَرُ الذي يعترض. وأخرج عنه أيضاً قال: القانع الذي يجلس في بيته. وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي في سننه عنه أنه سئل عن هذه الآية، فقال: أما القانع فالقانع بما أرسلت إليه في بيته، والمعتَرُ الذي يعترض. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: القنع الذي يسأل، والمعتَرُ الذي يعترض، ولا يسأل. وقد روي عن التابعين في تفسير هذه الآية أقوال مختلفة، والمرجع المعنى اللغوي لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم في تفسير ذلك. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس قال: كان المشركون إذا نبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها نحو الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فأنزل الله ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَافُهَا﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج نحوه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾
﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلْمَؤُا وَلَنْ عَلَّ تَصْرِهِمْ لَقْدِيرٌ﴾
﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُوسَتْ سَوَافٍ وَبِيعَ صَلَواتٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرُوا الضَّلَوةَ وَأَتَوُا الزَّكْوةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِيقَةُ الْأُمُورِ﴾

البئر المذكورة في إيحاشه بعد الأنس، وإقفاره بعد العمران، وإن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال، لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك، وانتظام الأهل كالسلك فيبادوا وما عادوا، فنكرهم الله سبحانه في هذه الآية موعظة وعبرة. قال: وقيل: إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدم في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: 11]. فتعطلت بثرهم وخربت قصورهم انتهت. ثم أنكر سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلاً: ﴿أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثاً لهم على السفر ليرى مصارع تلك الأمم فيعتبروا، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا، فلماذا أنكر عليهم، كما في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لَمُرُومٍ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ وبالليل أقلما تعقلون [الصفافات: 137 - 138]. ومعنى ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه وأسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل، كما أن الأذان محل السمع، وقيل: إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك، فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجاً عنه.

وقد اختلف علماء المعقول في محل العقل وماهيته اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: ما يجب أن يسمعه مما تلاه عليهم أنبيأؤهم من كلام الله، وما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة ﴿فَإِنْهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفراء: الهاء عماد يجوز أن يقال: فإنه، وهي قراءة عبد الله بن مسعود، والمعنى واحد، التذكير على الخبر، والتأنيث على الأبصار أو القصة أي: فإن الأبصار لا تعمي، أو فإن القصة لا تعمي الأبصار أي: أبصار العيون ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ فِي الْصُّدُورِ﴾ أي: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم أي: لا تترك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار. قال الفراء والزجاج: إن قوله التي في الصدور من التوكيد الذي تزيده العرب في الكلام كقوله: ﴿عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 196]، ﴿وَيَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: 167]، و﴿يُطِيرُ بِجَنَاحِهِ﴾ [الأنعام: 38]. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشد إنكار، فاستعجلهم له هو على طريقة الاستهزاء والسخرية، وكانهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقول الأنبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عز وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ قال الفراء: في هذه الآية وعيد لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة. ونكر الزجاج وجهاً آخر فقال: أعلم أن الله لا يفوته شيء، وإن يوماً عنده ألف سنة في قدرته واحد، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره في القدرة، إلا أن الله تفضل بالإمهال انتهى. ومحل جملة: ولن يخلف الله وعده

﴿ثُمَّ لَنُخْتَلِمَهُمْ﴾ أي: أخذت كل فريق من المكذبين بالعذاب بعد انقضاء مدة الإمهال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ هذا الاستفهام للتقرير أي: فانظر كيف كان إنكاري عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم، والنكير اسم من المنكر. قال الزجاج: أي ثم أخذتهم فانكرت أبلغ إنكار. قال الجوهري: النكير والإنكار تغيير المنكر. ثم نكر سبحانه كيف عذب أهل القرى المكذبة فقال: ﴿وَوَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: أهلكنا أهلها، وقد تقدم الكلام على هذا التركيب في آل عمران، وقرئ أهلكتها، وجملة ﴿وَوَهْيَ ظَالِمَةٍ﴾ حالية، وجملة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ عطف على أهلكناها، لا على ظالمة لأنها حالية، والعذاب ليس في حال الظلم، والمراد بنسبة الظلم إليها: نسبتها إلى أهلها والخواء بمعنى: السقوط أي: فهي ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: على سقوفها، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها، وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة ﴿وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ﴾ معطوف على قرية، والمعنى: وكمن من أهل قرية، ومن أهل بئر معطلة هكذا قال الزجاج. وقال الفراء: إنه معطوف على عروشها، والمراد بالمعطلة: المتروكة، وقيل: الخالية عن أهلها لهلاكهم، وقيل: الفائرة، وقيل معطلة من الدلاء والأرشية، والقصر المشيد هو المرفوع البنيان كذا قال قتادة والضحاك، ويدل عليه قول عدي بن زيد:

شاده مرمراً وجلله كلسا فللطير في نراه وكور شاده أي: رفعه. وقال سعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد: المراد بالمشيد: المجصص، مأخوذ من الشيد، وهو الجص، ومنه قول الرازي:

لا تحسبني وإن كنت أمراً غمراً كحبة الماء بين الطين والشيد وقيل: المشيد الحصين قاله الكلبي. قال الجوهري: المشيد المعمول بالمشيد، والشيد بالكسر كل شيء طليت به الحائط من جص أو بلاط، وبالفصح المصدر، تقول: شاده يشيده جصصه، والمشيد بالتشديد المطول. قال الكسائي: للواحد من قوله تعالى: ﴿فِي بَرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: 78]. والمعنى المعنى: وكمن من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة؟ ومعنى التعطيل في القصر هو: أنه معطل من أهله، أو من آلاته، أو نحو ذلك. قال القرطبي في تفسيره: ويقال: إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال، والبئر في سفحه لا تفرّ الرياح شيئاً سقط فيها إلا أخرجه، وأصحاب القصر ملوك الحضرم، وأصحاب البئر ملوك البنو. حكى الثعلبي وغيره: أن البئر كان يعدن من اليمن في بلد يقال: لها حضوراء، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصلاح ونجوا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح، فسمي المكان حضر موت، لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً، ثم ذكر قصة طويلة، وقال بعد ذلك: وأما القصر المشيد فقصر بناء شدك بن عاد بن إرم، لم يبق في الأرض مثله فيما ذكروا وزعموا، وحاله أيضاً كحال هذه

يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة، فقد مضى منها ستة آلاف. وأخرج ابن عدي والبيهقي عن أنس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **«معاجزين»** قال: مراغمين. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: مشاقين.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُمَكِّنُ اللَّهُ لَأَيْتِيهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٧٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْمَقِيُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧١﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رِجْزٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ ﴿٧٢﴾ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ لَّيْسَ بِكَ بِمُؤْمِنٍ لِلَّهِ بِحَكْمٍ بَيْنَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَفَلُوا مَصْرَفًا فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٧٤﴾

قوله: **«من رسول ولا نبي»** قيل: الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عياناً ومحاوَرته شفاهاً، والنبي الذي يكون إلهاماً أو مناماً. وقيل: الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه، والنبي: من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، ولم ينزل عليه كتاب، ولا بدّ لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة **«إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته»** معنى تمنى: تشهى وهيا في نفسه ما يهواه. قال الواحدي: وقال المفسرون: معنى تمنى تلا. قال جماعة المفسرين في سبب نزول هذه الآية: أنه ﷺ لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء يفرهم عنه لحرصه على إيمانهم، فكان ذات يوم جالساً في ناء من أنبيئهم وقد نزل عليه سورة **«والنجم إذا هوى»** [النجم: 1]. فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله: **«أفرأيتم اللات والعزى»** ومنورة الثالثة الأخرى: [النجم: 19 - 20]. وكان ذلك التمني في نفسه، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتها لترجى»، فلما سمعت قریش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ في قراءته حتى ختم السورة، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي من المسلمين والمشركين، فتفرقت قریش مسرورين بذلك وقالوا: قد نكر محمد آلهتنا بأحسن النكر، فاتاه جبريل فقال: ما صنعت؟ تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله، فحزن رسول الله ﷺ وخاف خوفاً شديداً، فانزل الله هذه الآية، هكذا قالوا.

ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، قال الله: **«ولو تقول علينا بعض الأقاويل»** * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * [الحاقة: 44 - 46].

النصب على الحال أي: والحال أنه لا يخلف وعده أبداً، وقد سبق الوعد فلا بدّ من مجيئه حتماً، أو هي اعتراضية مبينة لما قبلها، وعلى الأول تكون جملة **«وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون»** مستأنفة، وعلى الثاني تكون معطوفة على الجملة التي قبلها مسوقة لبيان حالهم في الاستعجال، وخطبهم في ذلك ببيان كمال حلمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما في قوله: **«إنهم يرونه بعيداً»** * ونراه قريباً * [المعارج: 6 - 7]. قال الفراء: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة أي: يوم من أيام عذابهم في الآخرة كالف سنة، وقيل: المعنى وإن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة كالف سنة من سني الدنيا فيها خوف وشدة، وكذلك يوم النعيم قياساً. قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي (مما يعدون) بالتحية، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: **«ويستعجلونك»** وقرأ الباقر بالفوقية على الخطاب، واختارها أبو حاتم **«وكاين من قرية امليت لها وهي ظالمة ثم لخصتها وإلي المصير»** هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوماً بعد الإملاء والتأخير. قيل: وتكرير هذا مع نكره قبله للتأكيد، وليس بتكرار في الحقيقة، لأن الأول سبق لبيان الإهلاك مناسباً لقوله: **«فكيف كان تكثير»** ولهذا عطف بالفاء بدلاً عن ذلك، والثاني سبق لبيان الإملاء مناسباً لقوله: **«وإن يَخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كالف سنة»** فكانه قيل: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد امليتهم حيناً، ثم أخذتهم بالعذاب ومرجع الكل إلى حكمي. فجملة: **«وإلي المصير»** تذييل لتقرير ما قبلها، ثم أمره الله سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدي الساعة مبين لهم ما نزل إليهم، فمن آمن وعمل صالحاً فاز بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة، ومن كان على خلاف ذلك فهو في النار وهم الذين سعوا في آيات الله معاجزين، يقال: عاجزه سابقه، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر، فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه، قاله الأخفش؛ وقيل: معنى معاجزين: ظانين ومقترنين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم، قاله الزجاج؛ وقيل: معاندين، قاله الفراء.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: **«فهي خاوية على عروشها»** قال: خربة ليس فيها أحد **«ويوشر معطلة»** عطّلها أهلها وتركوها **«وقصر مشيد»** قال: شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس **«ويوشر معطلة»** قال: التي تركت لا أهل لها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه **«وقصر مشيد»** قال: هو المجصص. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن عطاء نحوه أيضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون»** قال: من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة، قال في الآية: هو

وقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: 3]. وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 74]. فنفي المقاربة للركون فضلاً عن الركون. قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم أن رواية هذه القصة مطعون فيها. وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة. قال القاضي عياض في الشفاء: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً. قال ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين ما هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، وإذا تقرر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿تَمْنَى﴾ قرأ وتلا كما قلّمنا من حكاية الولحد لذلك عن المفسرين. وكذا قال البيهقي: إن أكثر المفسرين قالوا معنى ﴿تَمْنَى﴾ تلا وقرأ كتاب الله، ومعنى ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في تلاوته وقراءته. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، ويؤيد هذا ما تقدم في تفسير قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: 78]. وقيل: معنى ﴿تَمْنَى﴾ حدث، ومعنى ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ في حديثه، روي هذا عن ابن عباس، وقيل: معنى ﴿تَمْنَى﴾ قال: فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من نون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ أي: لا يهولك ذلك ولا يحزنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء، وعلى تقدير أن معنى تمنى حدث نفسه كما حكاها الفراء والكسائي فإنهما قالاً: تمنى إذا حدث نفسه، فالمعنى: أنه إذا حدث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من نون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه. قال ابن عطية: لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة. وقد قيل في تأويل الآية: إن المراد بالغرانيق الملائكة، ويرد بقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يبطله، وشفاعة الملائكة غير باطلة، وقيل: إن ذلك جرى على لسانه ﷺ سهواً ونسياناً وهما مجوزان على الأنبياء، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرّر في مواطنه، ثم لما سلاه الله سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبت ولا يستمر تغيير الشيطان به فقال: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يبطله ويجعله ذاهباً غير ثابت ﴿ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي: يثبتها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كثير العلم والحكمة في كل أقواله وأفعاله، وجملة ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ للتعليل أي: ذلك الإلقاء الذي يلقيه الشيطان فتنة أي: ضلالة ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي:

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا مُحَذِّثٍ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله،

ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ الْبَيْتَ فِي الْبَيْتِ وَيُؤَلِّجُ الْبَيْتَ فِي الْبَيْتِ وَأَنَّ
 اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَنْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
 أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخَسَّبُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ فَتُحْيِي بِهِ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ
 ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَرْضَ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَنْهَارَ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَاحَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
 وَيَسْمَكُ الْكَمَلَةَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ
 ﴿٢٢﴾ وَمَا أَزَلَّتْ أَعْيُنُكُمْ عَنْ الْأَرْضِ ثُمَّ يُبْدِيكُمْ فِيهَا لَكُمْ أَنَّكُمْ
 كُفَرَاءُ ﴿٢٣﴾

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصاً لهم بمزيد الشرف، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعض المفسرين: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. وقال بعضهم: الذين هاجروا من الأوطان في سرية أو عسكر، ولا يبعد حمل ذلك على الأمريين، والكَلَّ من سبيل الله ﴿وَلَمْ يَزَلْ يَكُونُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: في حال المهجرة، واللام في ﴿لَمْ يَزَلْ يَكُونُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ جواب قسم محذوف، والجملة خبر الموصول بتقدير القول، وانتصاب رزقاً على أنه مفعول ثانٍ أي: مرزوقاً حسناً، أو على أنه مصدر مؤكدة، والرزق الحسن هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع؛ وقيل هو الغنيمة لأنه حلال؛ وقيل: هو العلم والفهم كقول شعيب: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: 88]. قرأ ابن عامر وأهل الشام (ثم قتلوا) بالتشديد على التثنية، وقرأ الباقون بالتخفيف ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُو خَيْرُ الرَّاغِبِينَ﴾ فإنه سبحانه يرزق بغير حساب، وكل رزق يجري على يد العباد لبعضهم البعض، فهو منه سبحانه، لا رازق سواه ولا معطي غيره، والجملة تبيان مقررة لما قبلها، وجملة ﴿لَمْ يَزَلْ يَكُونُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ مستأنفة، أو بدل من جملة ليرزقهم الله، قرأ أهل المدينة (مدخلاً) بفتح الميم، وقرأ الباقون بضمها، وهو اسم مكان أريد به الجنة، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المذكور، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة سبحان. وفي هذا من الامتتان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفى لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم، على أنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن تفریط المفرطين منهم لا يعاجلهم بالعقوبة، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم، قال الزجاج: أي الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قتلوا أو ماتوا، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف، ومعنى ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، وسمي الابتداء باسم الجزاء مشكلة كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى

وزاد فنسخت محنت، قال: والمحدثون: صاحب يس، ولقمان، ومؤمن آل فرعون، وصاحب موسى. وأخرج البزار، والطبراني، وابن مريويه، والضياء في المختارة. قال السيوطي بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «إن رسول الله ﷺ قرأ ﴿أَقْرَأْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ ومنوة الثالثة الأخرى﴾ [النجم: 19 - 20] تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى. ففرح المشركون بذلك وقالوا: قد نكر ألهتنا، فجاءه جبريل فقال: اقرأ علي ما جئت به، فقرأ: ﴿أَقْرَأْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ * ومنوة الثالثة الأخرى﴾ [النجم: 19 - 20] تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فقال: ما أتيتك بهذا، هذا من الشيطان، فانزل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، قال السيوطي بسند صحيح عن سعيد بن جبير، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فنكر نحوه، ولم ينكر ابن عباس، وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العلية، والسدي، عن سعيد مرسلًا. ورواه عبد بن حميد، عن السدي، عن أبي صالح مرسلًا. ورواه ابن أبي حاتم عن ابن شهاب مرسلًا. وأخرج ابن جرير، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلًا أيضاً. والحاصل أن جميع الروايات في هذا الباب إما مرسل أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها. وقد أسلفنا عن الحفاظ في أول هذا البحث ما فيه كفاية، وفي الباب روايات من أحب الوقوف على جميعها فلينظرها في الدر المنثور للسيوطي، ولا يأتي التطويل بنكرها هنا بفائدة، فقد عرفت أنها جميعها لا تقوم بها الحجة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿حَتَّى إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، قال: يعني بالتمني التلاوة والقراءة، ألقى الشيطان في أمنيته: في تلاوته ﴿فَيَنْسُخُ اللَّهُ﴾ ينسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ قال: تكلم ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قال: كلامه. وأخرج ابن مريويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس في قوله: ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ قال: يوم بدر. وأخرج ابن مريويه عن أبي بن كعب نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير: عذاب يوم عقيم، قال: يوم بدر. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن الضحاك مثله. وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ سَاقُوا لِيُرْزَقَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٢٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الْكَارِثِينَ ﴿٢٥﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ فِي الْغَنَى ﴿٢٦﴾ وَلَئِنْ اللَّهُ لَكَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُصْرَعَهُ اللَّهُ إِنَّهُ لَمَعُوفٌ عَفُوفٌ ﴿٢٨﴾

في الكلام: إن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة أي: ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة أي: نوات بقل وسباع، وهو عبارة عن استعمالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة، وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل، والرفع هنا متعين لأنه لو نصب لانتكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفي الاخضرار، والمقصود إثباته. قال ابن عطية: هذا لا يكون يعني: الاخضرار في صباح ليلة المطر إلا بمكة وتهامة. والظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض في نفسها لا باعتبار النبات فيها كما في قوله: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ [أفصلت: 39]. والمراد بقوله: ﴿إن الله لطيف﴾ أنه يصل علمه إلى كل نقيق وجليل، وقيل: لطيف بأرزاق عباده؛ وقيل: لطيف باستخراج النبات، ومعنى ﴿خبير﴾ أنه ذو خبرة بتدبير عباده وما يصلح لهم، وقيل: خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر؛ وقيل: خبير بما حاجتهم وفاقتهم ﴿له ما في السفوات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿وإن الله لهو الغني﴾ فلا يحتاج إلى شيء ﴿الحميد﴾ المستوجب للحمد في كل حال ﴿الم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ هذه نعمة أخرى نكرها الله سبحانه، فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وجعله لمنافعهم ﴿والفلك﴾ عطف على ما، أو على اسم أن أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها في البحر، وقرأ عبد الرحمن الأعرج ﴿والفلك﴾ بالرفع على الابتداء وما بعده خبره، وقرأ الباقر بالنصب. ومعنى ﴿تجري في البحر بأمرة﴾ أي: بتقديره، والجملة في محل نصب على الحال على قراءة الجمهور ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أي: كرامة أن تقع، وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمسك، والجملة معطوفة على تجري ﴿الآبائنه﴾ أي: بإرثته ومشيتته، وذلك يوم القيامة ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهياً لهم أسباب المعاش، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلاً منه على عباده وإنعاماً عليهم. ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال: ﴿وهو الذي أحياكم﴾ بعد أن كنتم جماداً ﴿ثم يميتكم﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ثم يحييكم﴾ عند البعث للحساب والعقاب ﴿وإن الإنسان لكفور﴾ أي: كثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة، ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد، لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أقراده مبالغة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن سلمان الفارسي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل تلك الأجر، وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتنين، واقرأوا إن شئتم ﴿والذين هاجروا في سبيل الله

عليكم﴾ [البقرة: 194]. والعقوبة في الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه، والمراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذي ظلم به ولم يزد عليه، ومعنى ﴿ثم بغى عليه﴾ أن الظالم له في الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى، قيل: المراد بهذا البغي: هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وأنوا من أمن به، واللام في ﴿لينصرنه الله﴾ جواب قسم محنوف أي: لينصرن الله المبغى عليه على الباغي ﴿إن الله لعفو غفور﴾ أي: كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب؛ وقيل: العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو؛ وقيل: إن معنى ﴿ثم بغى عليه﴾ أي: ثم كان المجازي ميغياً عليه أي: مظلوماً، ومعنى ثم تغافرت الرتبة، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل في أمثال العرب: البادي أظلم؛ وقيل: إن هذه الآية مدنية، وهي في القصاص والجراحات، والإشارة بقوله: ﴿ذلك بأن الله يولي الجليل في النهار﴾ إلى ما تقدم من نصر الله سبحانه للمبغى عليه، وهو مبتدأ وخبره جملة بأن الله يولي، والباء للسببية أي: ذلك بسبب أنه سبحانه قادر، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وعبر عن الزيادة بالإيلاج، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر، والمراد تحصيل أحد العرضين في محل الآخر. وقد مضى في آل عمران معنى هذا الإيلاج ﴿وإن الله سميع﴾ يسمع كل مسموع ﴿بصير﴾ يبصر كل مبصر، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ إلى ما تقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام أي: هو سبحانه ذو الحق، فنيته حق، وعبادته حق ونصره لأوليائه على أعدائه حق، ووعدته حق، فهو عز وجل في نفسه وأفعاله وصفاته حق ﴿وإن ما تدعون من بونه هو الباطل﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة تدعون بالفوقية على الخطاب للمشركين، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ الباقر بالتحية على الخبر، واختار هذه القراءة أبو عبيدة. والمعنى: إن الذين تدعونهم إلهاً، وهي الأصنام هو الباطل الذي لا ثبوت له ولا لكونه إلهاً ﴿وإن الله هو العلي﴾ أي: العالي على كل شيء بقدرته المتقدس على الأشياء والأنداد المتنزه عما يقول الظالمون من الصفات ﴿الكبير﴾ أي: ذو الكبرياء، وهي عبارة عن كمال ذاته وتفرده بالإلهية، ثم نكر سبحانه ليلياً بيناً على كمال قدرته، فقال: ﴿الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ الاستقهام للتقرير، والفاء للعطف على أنزل، وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه. قال الخليل: المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا، كما قال الشاعر:

الم تسأل الربيع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم ببيداء سملق معناه: قد سألته فنطق. قال الفراء: ألم تر خبر كما تقول

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكليف مع الزجر لمعاصري رسول الله ﷺ من أهل الأديان عن منازعته فقال: ﴿لِكُلِّ أمة جعلنا منسكاً﴾ أي: لكل قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، وجملة ﴿وهم ناسكوه﴾ صفة لمنسكاً، والضمير لكل أمة أي: تلك الأمة هي العاملة به لا غيرها، فكانت التوراة منسك الأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى، والإنجيل منسك الأمة التي من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ، والقرآن منسك المسلمين. والمنسك مصدر لا اسم مكان كما يدل عليه هم ناسكوه، ولم يقل ناسكون فيه؛ وقيل: المنسك موضع أداء الطاعة، وقيل: هو الذباح، ولا وجه للتخصيص، ولا اعتبار بخصوص السبب، والفاء في قوله: ﴿فلا يفاضنك في الأمر﴾ لترتيب النهي على ما قبله، والضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم أي: قد عينا لكل أمة شريعة، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية، وذلك موجب لعدم منازعة من بقي منهم لرسول الله ﷺ ومستلزم لطاعتهم إياه في أمر الدين، والنهي إما على حقيقته، أو كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعهم له. قال الزجاج: إنه نهى له ﷺ عن منازعتهم أي: لا تنازعهم أنت كما تقول لا يخاصمك فلان أي: لا تخصمه، وكما تقول لا يضاربك فلان أي: لا تضاربه، وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمناً، ولا يجوز لا يضربك فلان وأنت تريد لا تضربه. وحكي عن الزجاج أنه قال في معنى الآية: فلا يفاضنك أي: فلا يجادلنك. قال: يدل على هذا ﴿وإن جادلوك﴾ وقرأ أبو مجلز (فلا يفاضنك في الأمر) أي: لا يستخفك ولا يغلبك على دينك. وقرأ الباقون (يفاضنك) من المنازعة ﴿وادع إلى ربك﴾ أي: وادع هؤلاء المنازعين أو ادع الناس على العموم إلى دين الله وتوحيده والإيمان به ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي: طريق مستقيم لا عوجاج فيه ﴿وإن جادلوك﴾ أي: وإن أبوا إلا الجدل بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم ﴿فقل الله أعلم بما تعملون﴾ أي: فكل أمرهم إلى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿الله يحكم بينكم﴾ أي: بين المسلمين والكافرين ﴿يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل، وفي هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغي لهم أن يجيبوا به من أراد الجدل بالباطل، وقيل: إنها منسوخة بآية السيف، وجملة ﴿هم تعلم﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، والاستفهام للتقرير أي: قد علمت يا محمد وتيقنت ﴿إن الله يعلم ما في السموات والأرض﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم فيه تختلفون ﴿إن ذلك الذي في السماء والأرض من معلوماته﴾ ﴿في كتاب﴾ أي: مكتوب عنده في أم الكتاب ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي: إن الحكم منه سبحانه بين عباديه فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير، أو إن إحاطة علمه بما في السماء والأرض يسير عليه ﴿ويعبدون من نون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾

ثم قتلوا أو ماتوا﴾ إلى قوله: ﴿حليم﴾. وإسناد ابن أبي حاتم هكذا: حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن عبد الكريم بن الحارث عن أبي عقبة، يعني: أبا عبيدة بن عقبة قال: قال شرحبيل بن السمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بارض الروم، فمروا بي سلمان يعني: الفارسي قال: سمعت رسول الله ﷺ فذكره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي أنه كان برويس، فمروا بجنارتين أحدهما قاتل والآخر متوفى، فقال الناس عن القاتل، فقال فضالة: مالي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القاتل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله ﴿والذين هلجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا﴾ الآية. وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا: حدثنا أبو زرعة عن زيد بن بشر، أخبرني ضمام أنه سمع أبا قبيل وربيعه بن سيف المغافري يقولان: كنا برويس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فذكره. قلت: ويؤيد هذا قول الله سبحانه: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ [النساء: 100]. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله: ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ قال: إن النبي ﷺ بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، وإن أصحاب محمد ناشدوهم ونكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام إلا من يادأهم، وإن المشركين بدعوا فقاتلوهم، فاستحل أصحاب قتالهم عند ذلك فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم. وهو مرسل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ومن عاقب﴾ الآية قال: تعاون المشركون على النبي ﷺ وأصحابه فأخرجوه، فوعد الله أن ينصره، وهو في القصص أيضاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وإن ما تدعون من نونه هو للباطل﴾ قال: الشيطان. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إن الإنسان لَكفور﴾ قال: يعد المصيبات وينسى النعم.

لِكُلِّ أمة جعلنا منسكاً ثم ناسكوه فلا يتزعجك في الأمر وأدع إلى ربك إنك لمن هدى مستقيم ﴿١﴾ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴿٢﴾ الله يحكم بينكم يوم القيمة فيما كنتم فيه تختلفون ﴿٣﴾ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴿٤﴾ ويعبدون من دونه ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير ﴿٥﴾ وإذا نزل عليهم آياتنا بينات تتروى في وجوه الذين كفروا التمسك بكادوك بسطون بالذين يتلوت عليهم آياتنا قل آتائكم بشر من ذلكم أنار وعدما الله الذين كفروا وبش الأمير ﴿٦﴾

قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب، قال: ما اكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة، فذلك قوله للنبي ﷺ ﴿وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: ما في السموات السبع والأرضين السبع ﴿إِنَّ لَكَ﴾ العلم ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأرضين ﴿إِنَّ لَكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: هين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿يَكُونُونَ يَسْطُونُ﴾ يبطشون.

يَتَأَيَّهَا أَنَا نَاسٌ مُرَبِّ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لِلَّهِ إِنَّكَ الْذِّبُ تَعْمُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ شَيْئًا فَالْمَلَأُوا وَالطَّلُوبُ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ أَلَمِيكَ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٩﴾ يَتَأَيَّهَا الْذِّبُ مَا سَأَلُوا أَرْكَبُوا وَاسْتَجَدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٨٠﴾ وَجَنِّدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْيَمِينِ مِنْ حَرَجٍ لَوْلَا إِلَهُكُمْ لَفُتِنَ هُوَ سَنُكِمُ السُّلَيْمِينَ مِنْ قَبْلِ وَلِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٨١﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ﴾ هذا متصل بقوله: ﴿وَيُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ما لم ينزل به سلطاناً [الحج: 71] قال الأخفش: ليس ثم مثل، وإنما المعنى: ضربوا لي مثلاً ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ قولهم، يعني: أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره، فكانه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه. وقال القتيبي: إن المعنى يا أيها الناس مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق نبياً، وإن سلبها شيئاً لم تستطع أن تستنقذه منه. قال النحاس: المعنى ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلاً. قال: وهذا من أحسن ما قيل فيه أي: بين الله لكم شبيهاً ولمعبولكم. وأصل المثل جملة من الكلام متلقة بالرضا والقبول مسيرة في الناس مستغربة عندهم، وجعلوا مضربها مثلاً لموردها، ثم قد يستعبرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة كهذه القصة المذكورة، في هذه الآية. والمراد بما يدعونه من دونه الله: الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها؛ وقيل: المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحل والعقد فيهم؛ وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله، والأول أوفق بالمقام وظهر في التمثيل، والذباب اسم للواحد يطلق على الذكر والأنثى، وجمع القلة

هذا حكاية لبعض فضائحهم أي: إنهم يعبدون أصناماً لم يتمسكوا في عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من ليل عقل يدل على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ تَصْوِيرٍ﴾ ينصروهم وينفع عنهم عذاب الله، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران، وجملة ﴿وَإِذَا تَقَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ معطوفة على يعبدون، وانتصاب بينات على الحال أي: حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة ﴿تَعْرِفُ فِي وَجْهِهِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِّلْمُنْكَرِ﴾ أي: الأمر الذي ينكر، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها، أو المراد بالمنكر الإنكار أي: تعرف في وجوههم إنكارها، وقيل: هو التجبر والترفع، وجملة ﴿يَكُونُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما ذلك المنكر الذي يعرف في وجوههم؟ فقيل: يكاون يسطون أي: يبطشون، والسطوة شدة البطش، يقال: سطا به يسطو إذا بطش به بضرب، أو شتم، أو أخذ باليد، وأصل السطو القهر.

وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنة الصحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركون، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف، والله ناصر الحق ومظهر الدين وداحض الباطل ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس ما نزل إليهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ثم أمر رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفَرْتُمْ﴾ أي: أخبركم ﴿بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ﴾ الذي فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب عليهم، وهو النار التي أعدّها الله لكم، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، والجملة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما هذا الأمر الذي هو شر مما تكابده ونناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا؟ فقال: هو ﴿النَّارُ وَعِدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقيل: إن النار مبتدأ وخبره جملة وعدّها الله الذين كفروا، وقيل: المعنى أفأخبركم بشر مما يلحق تالي القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والثوب عليهم، وقرئ النار بالنصب على تقدير أعني، وقرئ بالجر بدلاً من شر ﴿وَيُؤَيِّسُ الْمَصِيرَ﴾ أي: الموضع الذي تصيرون إليه، وهو النار.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿هَمَّ نَاسِكُوهُ﴾ قال: يعني هم ذابحوه ﴿فَلَا يَنَازَعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني: في أمر الذبح. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه أيضاً. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: ﴿فَلَا يَنَازَعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ قول أهل الشرك: لما ما نبح الله بيمينه فلا تاكلوه، وأما ما نبحتم بأيديكم فهو حلال. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام، وقال للقم

فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح. وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعي ومن وافقه، لا عند أبي حنيفة ومن قال بقوله، وقد تقدّم أن هذه السورة فضلت بسجنتين، وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية. ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله، فقال: **﴿وجاهدوا في الله﴾** أي: في ذاته ومن أجله، والمراد به الجهاد الأكبر، وهو الغزو للكفار ومدافعهم إذا غزوا بلاد المسلمين، وقيل: المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم الله به في الآية المتقدمة، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم، ومعنى **﴿حق جهاده﴾** المبالغة في الأمر بهذا الجهاد، لأنه أضاف الحق إلى الجهاد، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق أي: جهاداً خالصاً لله، فمكس ذلك لقصد المبالغة، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعاً، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ومن أجله؛ وقيل: المراد بحق جهاده هو أن لا تخافوا في الله لومة لائم؛ وقيل: المراد به استفراف ما في وسعهم في إحياء دين الله. وقال مقاتل والكلبي: إن الآية منسوخة بقوله تعالى: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** [التغابن: 16]. كما أن قوله: **﴿اتقوا الله حق تقاته﴾** [آل عمران: 102] منسوخ بذلك، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ، ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله: **﴿هو اجتباكم﴾** أي: اختاركم لدينه، وفيه تشريف لهم عظيم. ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** أي: من ضيق وشدة.

وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله فقليل: هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين؛ وقيل: المراد قصر الصلاة، والإقطار للمسافر، والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض، واغتفار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة، وكذا في الفطر والأضحية؛ وقيل: المعنى أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه، ورفع عنهم التكليف التي فيها حرج، فلم يتعبدوا بها كما تعبد بها بني إسرائيل؛ وقيل: المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرض، أو القصاص في الجنایات، ورد المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه. والظاهر أن الآية أعم من هذا كله، فقط حطّ سبحانه ما فيه مشقة من التكليف على عباده: إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم، أو بالتخفيف وتجويز العنول إلى بدل لا مشقة فيه، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله، وما أنفع هذه الآية وأجل موقعها وأعظم فائدتها، ومثلها قوله سبحانه: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** [التغابن:

أذية، والكثرة نiban مثل غراب وأغربة وغربان. وقال الجوهري: الذباب معروف الواحد ذبابة. والمعنى: لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات، وجملة **﴿ولو اجتمعوا له﴾** معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة أي: لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ولو اجتمعوا له، والجواب محذوف والتقدير لن يخلقوه وهما في محل نصب على الحال أي: لن يخلقوه على كل حال. ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال: **﴿وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾** أي: إذا أخذ منهم الذباب شيئاً من الأشياء لا يقدرّون على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم، والاستنقاذ والإنقاذ التخلص، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف، وعن استنقاذ ما أخذ عليهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً وأشدّ منه قوّة أعجز وأضعف، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب، فقال: **﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾** فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه، والمطلوب الذباب؛ وقيل: الطالب عابد الصنم، والمطلوب الصنم، وقيل: الطالب الذباب والمطلوب الأكلة. ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية في العجز ما عرفوا الله حق معرفته فقال: **﴿ما قدروا الله حق قدره﴾** أي: ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال، وقد تقدّم في الأنعام **﴿إن الله لقوي﴾** على خلق كل شيء **﴿عزيز﴾** غالب لا يغالبه أحد، بخلاف آلهة المشركين، فإنها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضر ولا تقدر على شيء. ثم أراد سبحانه أن يردّ عليهم ما يعتقدونه في النبوات والإلهيات فقال: **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً﴾** كجبريل، وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل **﴿و﴾** يصطفي أيضاً رسلاً **﴿من الناس﴾** وهم الأنبياء، فيرسل الملك إلى النبي، والنبي إلى الناس، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته، أو لتحصيل ما ينفعكم، أو لإنزال العذاب عليهم **﴿إن الله سميع﴾** لأقوال عباده **﴿بصير﴾** بمن يختاره من خلقه **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** أي: ما قدّموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشرّ كقوله تعالى: **﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾** [يس: 12]. **﴿والى الله ترجع الأمور﴾** لا إلى غيره، ولما تضمن ما ذكره من أن الأمور ترجع إليه الزجر لعباده عن معاصيه، والحضّ لهم على طاعته صرح بالمقصود فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾** أي: صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم، وخصّ الصلاة لكونها أشرف العبادات. ثم عمّم فقال: **﴿واعبدوا ربكم﴾** أي: افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها **﴿وافعلوا الخير﴾** أي: ما هو خير، وهو أعم من الطاعة الواجبة والمنوبة، وقيل: المراد بالخير هنا المنوبات. ثم علل ذلك بقوله: **﴿لعلكم تفلحون﴾** أي: إذا

بنو أمية الامراء، وبنو المغيرة الوزراء. وأخرجه البيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فنكره. وأخرج الترمذي وصححه، وابن حبان، وابن مردويه والعسكري في الامثال عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله». وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عائشة: أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** قال: الضيق. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد قال: قال أبو هريرة لابن عباس: أما علينا في الدين من حرج في أن نسرق أو نزنّي؟ قال: بلى، قال: فما جعل عليكم في الدين من حرج، قال: الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن شهاب، أن ابن عباس كان يقول: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** توسعة الإسلام، ما جعل الله من التوبة والكفارات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس **﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** قال: هذا في هلال رمضان إذا شك فيه الناس، وفي الحج إذا شكوا في الأضحية، وفي الفطر وأشباهه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير: أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ادع لي رجلاً من هذيل، فجاءه فقال: ما الحرج فيكم؟ قال: للحرّة من الشجر التي ليس فيها مخرج، فقال ابن عباس: الذي ليس له مخرج. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طريق عبيد الله بن أبي يزيد، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ها هنا أحد من هذيل؟ قال رجل: أنا، فقال: ما تغفون الحرّة فيكم؟ قال: الشيء الضيق، قال: هو ذاك. وأخرج البيهقي في سننه عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال: قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** ثم قال لي: ادع لي رجلاً من بني مدلج، قال عمر: ما الحرج فيكم؟ قال: الضيق. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: **﴿ملة أتيكم﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عن ابن عباس في قوله: **﴿سماكم المسلمين من﴾** قال الله عز وجل: سماكم. وروي نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج الطيالسي، وأحمد والبخاري في تاريخه، والترمذي وصححه، والنسائي، وأبو يعلى، وابن خزيمة، وابن حبان، والبيهقي، والبارودي، وابن قانع، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثي جهنم، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: نعم، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله».

[16] وقوله: **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** [البقرة: 185]. وقوله: **﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾** [البقرة: 286]. وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال: قد فعلت كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية، والأحاديث في هذا كثيرة، وانتصاب ملة في **﴿ملة أتيكم إبراهيم﴾** على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله أي: وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم. وقال الزجاج: المعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم. وقال الفراء: انتصب على تقدير حذف الكاف أي: ملة، وقيل: التقدير وافعلوا الخير كفعل أتيكم إبراهيم، فأقام الملة مقام الفعل، وقيل: على الإغراء، وقيل على الاختصاص، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من نريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا لنبيهم ﷺ **﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾** أي: في الكتب المتقدمة **﴿وفي هذا﴾** أي: القرآن، والضمير لله سبحانه، وقيل: راجع إلى إبراهيم. والمعنى هو أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل النبي ﷺ، وفي هذا أي: في حكمه أن من اتبع محمداً فهو مسلم. قال النحاس: وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة. ثم علل سبحانه ذلك بقوله: **﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾** أي: بتبليغه إليكم **﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾** أن رسلهم قد بلغتهم، وقد تقدّم ببيان معنى هذه الآية في البقرة. ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال: **﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما **﴿واعتصموا بآله﴾** أي: اجعلوه عصمة لكم مما تحزنون، والتجئوا إليه في جميع أموركم، ولا تطلبوا ذلك إلا منه **﴿هو مولاكم﴾** أي: ناصركم ومتولي أموركم نقيتها وجليلها **﴿فنعم للمولى ونعم النصير﴾** أي: لا مماثل له في الولاية لأمورك والنصرة على أعدائك؛ وقيل: المراد بقوله: **﴿واعتصموا بآله﴾** تمسكوا بدين الله؛ وقيل: تقوا به تعالى.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾** قال: نزلت في صنم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه **﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾** قال: الطالب ألتهم، والمطلوب الذباب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: **﴿لا يستقنوه منه﴾** قال: لا تستنقذ الأصنام ذلك الشيء من الذباب. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلعة». وأخرج أيضاً عن أنس وصححه أن النبي ﷺ قال: «موسى بن عمران صفي الله». وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لي عمر: السنا كنا نقرأ فيما نقرأ: وجاهدوا في الله جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله؟ قلت: بلى فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت

تفسير سورة المؤمنون

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال: صلى النبي ﷺ بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنون، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى أخذته سعدة فركع. وأخرج البيهقي من حديث أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون». وأخرجه أيضاً ابن عدي والحاكم. وأخرج الطبراني في السنة، وابن مردويه من حديث ابن عباس مثله. وقد ورد في فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتي قريباً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِفُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُرْضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَى زَوَاةَ ذَلِكَ فَاُذْنَبَتْ هُمْ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَاهُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُزَكَّوْنَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرْتَوُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

قوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ قال الفراء: قد ما هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال، لأن قد تقرب الماضي من الحال حتى تحققه بحكمه، ألا تراهم يقولون: قد قامت الصلاة قبل حال قيامها، ويكون المعنى في الآية: أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال، والفلاح الظفر بالمراد والنجاة من المكروه؛ وقيل: البقاء في الخير، وأفلح إذا نحل في الفلاح، ويقال: أفلحه إذا أصاره إلى الفلاح، وقد تقدم بيان معنى الفلاح في أول البقرة. وقرأ طلحة بن مصرف (قد أفلح) بضم الهمزة وبناء الفعل للمفعول. وروي عنه أنه قرأ (أفلحوا المؤمنون) على الإبهام والتفسير، أو على لغة أكلوني البراغيث. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله ﴿والذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ وما عطف عليه، والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث، وهو في اللغة السكون والتواضع والخوف والتخلل.

وقد اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها؟ على قولين: قيل: الصحيح الأول، وقيل: الثاني. وأدعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حكاه النيسابوري في تفسيره. قال: ومما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ [النساء: 82]. والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى، وكذا قوله: ﴿أقم الصلاة

لنكري﴾ [طه: 14]. والغفلة تضاد الذكر، ولهذا قال: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ [الأعراف: 205]. وقوله: ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ [النساء: 43]. نهى للسكران والمستغرق في هموم الدنيا بمنزلة. واللغو، قال الزجاج: هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل، وقد تقدم تفسيره في البقرة. وقال الضحاك: إن اللغو هنا الشرك. وقال الحسن: إنه المعاصي كلها. ومعنى إعراضهم عنه: تجنبهم له وعدم التفاتهم إليه، وظاهره اتصافهم بصفة الإعراض عن اللغو في كل الأوقات، فيدخل وقت الصلاة في ذلك دخولاً أولاً كما تفيد الجملة الإسمية، وبناء الحكم على الضمير، ومعنى فعلهم للزكاة: تأتيتهم لها، فعبّر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل، والمراد بالزكاة هنا: المصدر لأنه الصادر عن الفاعل، وقيل: يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف أي: ﴿والذين هم﴾ لتأدية ﴿الزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون﴾ الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة، ومعنى حفظهم لها: أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحل لهم. قيل: والمراد هنا الرجال خاصة دون النساء بدليل قوله ﴿إلا على أزواجهن أو ما ملكت أيمانهم﴾ للإجماع على أنه لا يحل للمرأة أن يطأها من تملكه. قال الفراء: إن على في قوله: ﴿إلا على أزواجهن﴾ بمعنى: من. وقال الزجاج: المعنى أنهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم فامروا بحفظه إلا على أزواجهن ودل على المحذوف ذكر اللوم في آخر الآية، والجملة في محل نصب على الحال، وقيل: إن الاستثناء من نفي الإرسال المفهوم من الحفظ أي: لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهن؛ وقيل: المعنى إلا والين على أزواجهن وقوامين عليهم، من قولهم كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان. والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم، وجملة ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ في محل جر عطفاً على أزواجهن، وما مصدرية، والمراد بذلك الإماء، وعبّر عنهن بما التي لغير العقلاء، لأنه اجتمع فيهن الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهن كسائر السلع، فلجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء، وجملة ﴿فإنهم غير ملومين﴾ تعليل لما تقدم مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ الإشارة إلى الزوجات وملك اليمين، ومعنى العادون: المجاوزون إلى ما لا يحل لهم، قسمي سبحانه من نكح ما لا يحل عائياً، ووراء هنا بمعنى: سوى وهو مفعول ابتغى. قال الزجاج: أي فمن ابتغى ما بعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف، ووراء ظرف.

وقد نلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة، واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناة لأنه من الوراء لما ذكر، وقد جمعنا في تلك رسالة سمينانها (بلوغ المني في حكم الاستمناة)، ونكرنا فيها آلة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما ﴿والذين هم لاماناتهم وعهدهم

راعون ﴿قرأ الجمهور (لاماناتهم) بالجمع. وقرأ ابن كثير بالإفراد. والامانة ما يؤتمنون عليه، والعهد ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه أو جهة عباده، وقد جمع العهد والامانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين والدنيا، والامانة أعم من العهد، فكل عهد أمانة، ومعنى راعون: حافظون ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قرأ الجمهور (صلواتهم) بالجمع. وقرأ حمزة والكسائي (صلاتهم) بالإفراد، ومن قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس وهو في معنى الجمع والمحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها في أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقرآتها والمشروع من أنكارها. ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال: ﴿اولئك هم الوارثون﴾ أي: الأحقاء بأن يسموا بهذا الاسم دون غيرهم. ثم بين الموروث بقوله: ﴿الذين يرثون الفريوس﴾ وهو أوسط الجنة، كما صرح تفسيره بذلك عن رسول الله ﷺ. والمعنى: أن من عمل بما نكر في هذه الآيات فهو الوارث الذي يرث من الجنة ذلك المكان، وفيه استعارة لاستحقاقهم الفريوس بأعمالهم؛ وقيل: المعنى أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم، لأنه سبحانه خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. ولغف الفريوس لغة رومية معربة، وقيل: فارسية؛ وقيل: حبشية؛ وقيل: هي عربية؛ وجملة ﴿هم فيها خالدون﴾ في محل نصب على الحال المقترنة، أو مستأنفة لا محل لها، ومعنى الخلود: أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، وتأنيت الضمير مع أنه راجع إلى الفريوس لأنه بمعنى الجنة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والعقيلي، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال: «كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كنبوي النحل، فأنزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة، فسرني عنه فاستقبل القبلة فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر». وفي إسناده يونس بن سليم الإيلي. قال النسائي: لا نعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه. وأخرج البخاري في الأدب المفرد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنين؟ فقرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال: ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في

صلاتهم خاشعون﴾. وأخرجه عبد الرزاق عنه، وزاد: فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده. وأخرجه عنه أيضاً عبد بن حميد، وأبو داود في المراسيل، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن بلفظ: كان إذا قام في الصلاة نظر هكذا، وهكذا، يميناً وشمالاً، فنزلت ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ فحنى رأسه. وروي عنه من طرق مرسلًا هكذا. وأخرجه الحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه عنه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ فطأ رأسه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن سيرين بلفظ: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون رؤوسهم وأبصارهم إلى السماء في الصلاة يلتفتون يميناً وشمالاً، فانزل الله ﴿قد افلح المؤمنون﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون، فمالوا برؤوسهم فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة، ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن علي: أنه سئل عن قوله: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال: الخشوع في القلب وأن تلتين كتفك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال: خائفون ساكنون. وقد ورد في مشروعية الخشوع في الصلاة والنهي عن الالتفات وعن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة في كتب الحديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ قال: الباطل. وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود في ناسخه عن القاسم بن محمد: أنه سئل عن المتعة فقال: إني لأرى تحريمها في القرآن، ثم تلا ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبراني عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر نكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم على صلاتهم داثمون﴾ [المعارج: 23]. ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قال: ذلك على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على تركها، قال: تركها كفر. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه عن أبي هريرة في قوله: ﴿اولئك هم الوارثون﴾ قال: يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التي أعلنت لهم لو أطاعوا الله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿اولئك هم الوارثون﴾». وأخرج عبد بن حميد، والترمذي

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، والعقيلي، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال: «كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كنبوي النحل، فأنزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة، فسرني عنه فاستقبل القبلة فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر». وفي إسناده يونس بن سليم الإيلي. قال النسائي: لا نعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه. وأخرج البخاري في الأدب المفرد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنين؟ فقرأ ﴿قد افلح المؤمنون﴾ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال: ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت ﴿الذين هم في

عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغة، ومعنى ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقه حمراء ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: قطعة لحم غير مخلقة ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ أي: جعلها الله سبحانه متصلة لتكون عموداً للبدن على أشكال مخصوصة ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أي: أنبت الله سبحانه على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: نفخنا فيه الروح بعد أن كان جماداً؛ وقيل: أخرجناه إلى الدنيا؛ وقيل: هو نبات الشعر؛ وقيل: خروج الأسنان؛ وقيل: تكميل القوى المخلوقة فيه، ولا مانع من إرادة الجميع، والمعنى: بتم لكامل التفاوت بين الخليقين ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: استحق التعظيم والثناء؛ وقيل: مأخوذ من البركة أي: كثر خيره وبركته: والخلق في اللغة التقدير، يقال: خلقت الأديم: إذا قسته لتقطع منه شيئاً، فمعنى أحسن الخالقين: اتقن الصانعين المقدرين، ومنه قول الشاعر:

ولانت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الأمور المتقدمة أي: ثم إنكم بعد تلك الأمور لميتون صائرون إلى الموت لا محالة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ من قبوركم إلى المحشر للحساب والعقاب. واللام في ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ جواب لقسم محذوف، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم، والطرائق هي السموات. قال الخليلي والفراء والزجاج، سميت طرائق لأنه لا يورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل. قال أبو عبيدة: طارقت الشيء جعلت بعضها فوق بعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة؛ وقيل: لأنها طرائق الملائكة؛ وقيل: لأنها طرائق الكواكب ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ المراد بالخلق هنا المخلوق أي: وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين. وقال أكثر المفسرين: المراد الخلق كلهم بغافلين بل حفظنا السموات عن أن تسقط، وحفظنا من في الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم، ويجوز أن يراد نفي الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشون به، ونفي الغفلة عن حفظهم ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذا من جملة ما امتن الله سبحانه به على خلقه، والمراد: بالماء ماء المطر، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء والعيون، والآبار المستخرجة من الأرض، فإن أصلها من ماء السماء؛ وقيل: أراد سبحانه في هذه الآية الأنهار الأربعة: سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل، ولا وجه لهذا التخصيص؛ وقيل: المراد به الماء العذب، ولا وجه لذلك أيضاً فليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء، ومعنى ﴿يُقَدَّرُ﴾ بتقدير منا أو بمقدار يكون به

وقال: حسن صحيح غريب عن أنس، فنذكر قصة، وفيها أن النبي ﷺ قال: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، ويدل على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63]. وقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]. ويشهد لحديث أبي هريرة هذا ما في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى». وفي لفظ له قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقول: هذا فكلك من النار».

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلْسَلَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْكَافِلِينَ ﴿٣﴾ ثُمَّ إِنَّا رَكَّبْنَا بَدَنًا لَئِيْلًا ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنَّا رَكَّبْنَا بَدَنًا لَئِيْلًا ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنَّا رَكَّبْنَا بَدَنًا لَئِيْلًا ﴿٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا فِي الْأَرْضِ وَقَالُوا عَلَى نَعْيِهِمْ لَقَدِيرَةٌ ﴿٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبْ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٩﴾ وَمِنْهَا يَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتٌ بِاللَّهُدِيِّ رَمِيمٌ لِلْأَكَلِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْهَامِ لَمَعَةٌ شَفِيفَةٌ وَمِنْهَا يَنْبُتُ لَكُمْ فِيهَا سَبْعُ كُوفَةٍ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿١٢﴾

لما حث سبحانه عباده على العبادة ووعدهم الفردوس على فعلها، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ إلى آخره، واللام جواب قسم محذوف، والجملة مبتدأة، وقيل: معطوفة على ما قبلها، والمراد بالإنسان: الجنس لأنهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم؛ وقيل: المراد به آدم. والسلالة فعالة من السل، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سللت الشجرة من العجين، والسيف من الغمد فانسَل، فالنطفة سلالة، والولد سليل، وسلالة أيضاً، ومنه قول الشاعر:

فجاءت به غضب الأليم غضنفاً سلالة فرج كان غير حصين
وقول الآخر:

وهل هند إلا مهرة عربية سلالة أفراس تحللها بغل
و ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ سَلْسَلَةٍ﴾ ابتدائية متعلقة بخلقنا، وفي ﴿مِنْ طِينٍ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف، وقع صفة لسلالة أي: كائنة من طين، والمعنى: أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أولاً من طين، لأن الأصل آدم، وهو من طين خالص وأولاده من طين ومنى؛ وقيل: السلالة الطين إذا عصرته انسَل من بين أصابعك؛ فالذي يخرج هو السلالة، قاله الكلبي ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الجنس باعتبار أفراده الذين هم بنو آدم، أو جعلنا نسله على حذف مضاف إن أريد بالإنسان آدم ﴿نُطْفَةً﴾ وقد تقدّم تفسير النطفة في سورة الحج، وكذلك تفسير العلقه والمضغة. والمراد بالقرار المكين: الرحم، وعبر

الباء الموحدة. والمعنى على القراءة الأولى: أنها تنبت في نفسها متلبسة بالدهن، وعلى القراءة الثانية: الباء بمعنى مع، فهي للمصاحبة. قال أبو علي الفارسي: التقدير: تنبت جناحها ومعه الدهن، وقيل: الباء زائدة. قاله أبو عبيدة، ومثله قول الشاعر:

هَنَ الحرائر لا ربات لَحْمرة سود المحاجر لا يقرآن بالسور
وقال آخر:

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقال الفراء والزجاج: إن نبت وأنبت بمعنى، والأصمعي ينكر أنبت، ويرد عليه قول زهير:

رايت نوي الحلجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أثبت البقل
أي: نبت. وقرأ الزهري، والحسن، والأعرج (تنبت) بضم المثناة وفتح الموحدة. قال الزجاج وابن جني أي: تنبت ومعها الدهن، وقرأ ابن مسعود (تخرج) بالدهن، وقرأ زَرَّ بن حبيش (تنبت الدهن) بحذف حرف الجر. وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب بالدهان ﴿وصبغ للأكلين﴾ معطوف على الدهن أي: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنًا يدخن به. وكونه صبغًا يؤتم به. قرأ الجمهور (صبغ) وقرأ قوم (صباغ) مثل لبس ولباس، وكل إدام يؤتم به فهو صبغ وصباغ، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب، وشبه الإدام به لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ هذه من جملة النعم التي امتنَّ الله بها عليهم، وقد تقدم تفسير الأنعام في سورة النحل. قال النيسابوري في تفسيره: ولعلَّ القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة لأنها هي المحمول عليها في العادة، ولأنه قرنها بالفلك وهي سفائن البر، كما أن الفلك سفائن البحر. وبين سبحانه أنها عبرة، لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظيم القدرة الإلهية، ثم فصل سبحانه ما في هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال: ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ يعني سبحانه: اللبن المتكوّن في بطونها المنصبّ إلى ضروعها، فإن في انعقاد ما تأكله من العلف واستحالتة إلى هذا الغذاء اللذيذ، والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين، وأكبر موعظة للمتعتبين. قرئ (نسقيكم) بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه، وقرئ بالياء الفوقية على أن الفاعل هو الأنعام، ثم ذكر ما فيها من المنافع إجمالاً فقال: ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ يعني: في ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها، ثم ذكر منفعة خاصة فقال: ﴿ومنها تاكلون﴾ لما في الأكل من عظيم الانتفاع لهم، وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال: ﴿وعليها وعلى الفلك تحمّلون﴾ أي: وعلى الأنعام، فإن أريد بالأنعام الإبل والبقر والغنم، فالمراد وعلى بعض الأنعام، وهي الإبل خاصة، وإن أريد بالأنعام الإبل خاصة، فالمرنى واضح. ثم لما كانت الأنعام هي غالب ما يكون الركوب عليه في

صلاح الزرائع والثمار، فإنه لوكثر لكان به هلاك ذلك، ومثله قوله سبحانه: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ [الحجر: 21] ومعنى ﴿فلسكناه في الأرض﴾ جعلناه مستقرّاً فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذي يبقى في المستنقعات والغدران ونحوها ﴿وإننا على ذهاب به لقادرون﴾ أي: كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرين على أن نذهب به بوجه من الوجوه، ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى، وفي هذا تهديد شديد لما يدلُّ عليه من قدرته سبحانه على إذهابه وتغييره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم، ومثله قوله: ﴿قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن ياتيك بماء معين﴾ [الملك: 30] ثم بين سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء فقال: ﴿فانشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أي: أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين ﴿لكم فيها﴾ أي: في هذه الجنات ﴿فواكه كثيرة﴾ تتفكّهون بها وتتطعمون منها، وقيل: المعنى ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم كقوله: فلان ياكل من حرفة كذا، وهو بعيد، واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب، لأنها الموجودة بالطائف والمدينة وما يتصل بذلك. كذا قال ابن جري، وقيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعمًا ولذة. قيل: المعنى بقوله: ﴿لكم فيها فواكه﴾ أن لكم في هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل؛ وقيل: المعنى لكم في هذين النوعين خاصة فواكه، لأن فيهما أنواعاً مختلفة متفاوتة في الطعم واللون.

وقد اختلف أهل الفقه في لفظ الفاكهة على ماذا يطلق؟ اختلافاً كثيراً، وأحسن ما قيل: إنها تطلق على الثمرات التي ياكلها الناس، وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام، واختلف في البقول هل تدخل في الفاكهة أم لا؟ وانتصاب شجرة على العطف على جنات، وأجاز الفراء الرفع على تقدير: وثم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء وخبرها محذوف مقتر قبلها، وهو الظرف المذكور. قال الواحدي: والمفسرون كلهم يقولون: إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون، وخصت بالذكر لأنه لا يتغاضها أحد بالسقي، وهي التي يخرج الدهن منها، فنكرها الله سبحانه امتناناً منه على عباده بها، ولأنها أكرم الشجر وأعمها نفعاً وأكثرها بركة، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها ﴿تخرج من طور سيناء﴾ وهو جبل ببني المقدس، والطور الجبل في كلام العرب؛ وقيل: هو مما عذب من كلام العجم. واختلف في معنى سيناء، فقيل: هو الحسن؛ وقيل: هو المبارك، وذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول جبل أحد؛ وقيل: سيناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده، وقيل: هو كل جبل يحمل الثمار. وقرأ الكوفيون (سيناء) بفتح السين، وقرأ الباقون بكسر السين، ولم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة، وزعم الأخفش أنه أعجمي. وقرأ الجمهور (تنبت بالدهن) بفتح المثناة وضَمَّ الباء الموحدة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمَّ المثناة وكسر

المعنى أي: واسلك أهلك **﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾** أي: القول بإهلاكهم منهم **﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾** بالدعاء لهم بإنجائهم، وجملة **﴿إنهم مغرقون﴾** تعليل للنهي عن المخاطبة أي: إنهم مقضي عليهم بالإغراق لظلمهم، ومن كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له **﴿فإذا استويت﴾** أي: علوت **﴿أنت ومن معك﴾** من أهلك وأتباعك **﴿على الفلك﴾** راكبين عليه **﴿فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾** أي: حال بيننا وبينهم، وخلصنا منهم، كقوله: **﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾** [الأنعام: 45]. وقد تقدم تفسير هذه القصة في سورة هود على التمام والكمال، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزاءً، لأنه قد سبق في علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة، وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب. ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتم فائدة فقال: **﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾** أي: أنزلني في السفينة. قرأ الجمهور منزلاً بضم الميم وفتح الزاي على أنه مصدر. وقرأ زر بن حبیش، وأبو بكر، عن عاصم، والمفضل بفتح الميم وكسر الزاي على أنه اسم مكان. فعلى القراءة الأولى: أنزلني إنزالاً مباركاً، وعلى القراءة الثانية: أنزلني مكاناً مباركاً. قال الجوهري: والمنزل بفتح الميم والزاي النزول، وهو الحلول، تقول: نزلت نزولاً ومنزلاً. قال الشاعر:

إن نكرتك الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل
بنصب منزلها، لأنه مصدر، قيل: أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة؛ وقيل: عند خروجه منها، والآية تعليم من الله لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول: **﴿وأنزل خير المنزلين﴾** هذا ثناء منه على الله عز وجل إثر دعائه له. قال الواحدي: قال المفسرون: إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك: الحمد لله، وعند نزوله منها: رب أنزلني منزلاً مباركاً، والإشارة بقوله: **﴿إن في ذلك﴾** إلى ما تقدم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام: والآيات الدلالات على كمال قدرته سبحانه، والعلامات التي يستدل بها على عظيم شأنه **﴿وإن كنا لمبقتلين﴾** أي: لمختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم، ليظهر المطيع والعاصي للناس أو للملائكة. وقيل: المعنى إنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم، تارة بالإرسال، وتارة بالعذاب **﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾** أي: من بعد إهلاكهم. قال أكثر المفسرين: إن هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم هم عاد قوم هود، لمجيء قصتهم على إثر قصة نوح في غير هذا الموضع، ولقوله في الأعراف **﴿وأنكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾** [الأعراف: 69]. وقيل: هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة. وقد قال سبحانه في هذه القصة: **﴿فأخذتهم الصيحة﴾** [الحجر: 73 و83]. وقيل: هم أصحاب مدین قوم شعيب لأنهم ممن أهلك بالصيحة **﴿فأرسلنا فيهم رسولاً﴾** عدى فعل الإرسال بفي مع أنه يتعدى بإلى، للدلالة

لكونه وصفاً لإله على المحل، لأنه مبتدأ خبره لكم أي: ما لكم في الوجود إله غيره سبحانه، وقرئ بالجر اعتباراً بلفظ إله **﴿أفلا تتقون﴾** أي: أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذي لا يستحق العبادة غيره، وليس لكم إله سواه؛ وقيل: المعنى أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خولكم من النعم ويسلبها عنكم، وقيل: المعنى أفلا تقون أنفسكم عذابه الذي تقتضيه نوبكم **﴿فقال الملا الذين كفروا من قومه﴾** أي: قال أشراف قومه الذين كفروا به **﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾** أي: من جنسكم في البشرية، لا فرق بينكم وبينه **﴿يريد أن يتفضل عليكم﴾** أي: يطلب الفضل عليكم بأن يسودكم حتى تكونوا تابعين له متقاعين لأمره، ثم صرحوا بأن البشر لا يكون رسولاً فقالوا: **﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾** أي: لو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة، وإنما عبر بالإنزال عن الإرسال لأن إرسالهم إلى العباد يستلزم نزولهم إليهم **﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾** أي: بمثل دعوى هذا المدعى للنبوّة من البشر، أو بمثل كلامه، وهو الأمر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدعي هذه الدعوى في آبائنا الأولين أي: في الأمم الماضية قبل هذا؛ وقيل: الباء في بهذا زائدة أي: ما سمعنا هذا كائنًا في الماضين، قالوا: هذا اعتماداً منهم على التقليد واعتصاماً بحبله، ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا إليه الكذب البحت، والبهت الصراح فقالوا: **﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾** أي: جنون لا يدري ما يقول: **﴿فتربصوا به حتى حين﴾** أي: انتظروا به حتى يستبين أمره، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى، أو حتى يموت فتستريحوا منه. قال الفراء: ليس يريد بالحين هنا وقتاً بعينه إنما هو كقولهم: دعه إلى يوم ما، فلما سمع عليه الصلاة والسلام كلامهم وعرف تمايلهم على الكفر وإصرارهم عليه **﴿قال رب أنصرني﴾** عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد، والباء في **﴿بما كنون﴾** للسببية أي: بسبب تكذيبهم إياي **﴿فأوحينا إليه﴾** عند ذلك أي: أرسلنا إليه رسولاً من السماء **﴿أن اصنع الفلك﴾** وأن هي مفسرة لما في الوحي من معنى القول **﴿بإعينا﴾** أي: متلبساً بحفظنا وكلاءتنا، وقد تقدم بيان هذا في هود. ومعنى **﴿ووحينا﴾** أمرنا لك وتعليمنا إياك لكيفية صنعها، والفاء في قوله: **﴿فإذا جاء أمرنا﴾** لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك، والمراد بالأمر: العذاب **﴿وفار التنور﴾** معطوف على الجملة التي قبله عطف النسق؛ وقيل: عطف البيان أي: إن مجيء الأمر هو فور التنور أي: تنور آدم الصائر إلى نوح أي: إذا وقع ذلك **﴿فأسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾** أي: أدخل فيها، يقال: أسلكه في كذا أدخله، وأسلكته أدخلته. قرأ حفص (من كل) بالتنوين، وقرأ الباقون بالإضافة، ومعنى القراءة الأولى: من كل أمة زوجين، ومعنى الثانية من كل زوجين، وهما أمة النكر والأنثى اثنين، وانتصاب **﴿أهلك﴾** بفعل معطوف على فاسلك، لا بالعطف على زوجين، أو على اثنين على القراءتين لادائه إلى اختلاف

حياتنا الدنيا﴾ أي: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، لا الحياة الآخرة التي تعذبنا بها، وجملة ﴿نموت ونحيا﴾ مفسرة لما أدعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا. ثم صرحوا بنفي البعث، وإن الوعد به منه افتراء على الله فقالوا: ﴿وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذاباً﴾ أي: ما هو فيما يدعيه إلا مفتر للكذب على الله ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ أي: بمصلقين له فيما يقوله: ﴿قال رب أنصرني﴾ أي: قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصنقونه البتة: رب أنصرني عليهم وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إياي ﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾ أي: قال الله سبحانه مجيباً لدعائه وأعداً له بالقبول لما دعا به: عما قليل من الزمان ليصبحن نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر، و «ما» في عما قليل مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد لقلة الزمان كما في قوله: ﴿فيما رحمة من الله﴾ [آل عمران: 159]، ثم أخبر سبحانه بأنها ﴿اختلفن للصيحة﴾ وحق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه. قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التي أهلكهم الله بها فماتوا جميعاً؛ وقيل: الصيحة هي نفس العذاب الذي نزل بهم، ومنه قول الشاعر:

صاح الزمان بالبرمك صيحة خروا الشئتها على الأنقان
والبلاء في بالحق متعلق بالأخذ، ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم فقال: ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي: كغثاء السيل الذي يحمل الغثاء: ما يحمل السيل من بالي الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء. والمعنى: صيرهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء ﴿فبعداً للقوم للظالمين﴾ انتصاب بعداً على المصدرية وهو من المصادر التي لا يذكر فعلها معها أي: بعنوا بعداً، واللام لبيان من قيل له ذلك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فأسلك فيها﴾ يقول: أجعل معك في السفينة ﴿من كل زوجين اثنين﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وقال رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾ قال لنوح حين أنزل من السفينة. وأخرج هؤلاء عن قتادة في الآية قال: يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم، وكيف تقولون إذا نزلتم. أما عند الركوب ﴿فسبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ * وإنا إلى ربنا لمنقلبون [الزخرف: 13 - 14]. و ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ ابن ربي لغفور رحيم [هود: 41]. وعند النزل ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿قرناً﴾ قال: أمة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿هيهات هيهات﴾ قال: بعيد. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿فجعلناهم غثاء﴾ قال: جعلوا كالشيء الميت البالي من الشجر.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا مَّتَّعْنَاهُمْ مَا نَشِئُ مِنْ أَمْرِ أَهْلِهِمْ وَنَا

على أن هذا الرسول المرسل إليهم نشأ فيهم بين أظهرهم، يعرفون مكانه ومولده، ليكون سكوتهم إلى قوله أكثر من سكوتهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم، وقيل: وجه التعدية للفعل المذكور بفي أنه ضمن معنى القول أي: قلنا لهم على لسان الرسول ﴿اعبدوا الله﴾ ولهذا جيء بأن المفسرة. والأول أولى لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفي، وجملة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ تعليل للأمر بالعبادة ﴿أفلا تتقون﴾ عذابه الذي يقتضيه شرككم ﴿وقال الملا من قومه﴾ أي: أشراقتهم وقامتهم. ثم وصف الملا بالكفر والتكذيب فقال: ﴿الذين كفروا وكنوا بلقاء الآخرة﴾ أي: كنوا بما في الآخرة من الحساب والعقاب، أو كنوا بالبعث ﴿واترفناهم﴾ أي: وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه ﴿في الحياة الدنيا﴾ من كثرة الأموال ورفاهة العيش ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: قال الملا لقومهم هذا القول، وصفوه بمساواتهم في البشرية، وفي الأكل ﴿مما تاكلون منه﴾ والشرب مما تشربون منه، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم. قال الفراء: إن معنى ﴿ويشرب مما تشربون﴾ على حذف منه أي: مما تشربون منه وقيل: إن ما مصدرية، فلا تحتاج إلى عائذ ﴿ولئن اطعمتم بشرًا مثلكم﴾ فيما ذكر من الأوصاف ﴿إنكم إذن لخاسرون﴾ أي: مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم، والاستفهام في قوله: ﴿أيعلمكم أنكم إذا متم﴾ للإنكار، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له. قرئ بكسر الميم من متم، من مات يمات كخاف يخاف. وقرئ بضمها من مات يموت: كقال يقول: ﴿وكنتم تراباً وعظاماً﴾ أي: كان بعض أجزاءكم تراباً، وبعضها عظماً نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها، قيل: وتقديم التراب لكونه أبعد في عقولهم؛ وقيل: للمعنى كان متقدمكم تراباً ومتأخروكم عظماً ﴿أنكم مخرجون﴾ أي: من قبوركم أحياء كما كنتم، قال سيبويه: أن الأولى في موضع نصب بوقوع أيعلمكم عليها، وأن الثانية بدل منها. وقال الفراء والجزمي والمبرد: إن أن الثانية مكررة للتوكيد، وحسن تكريرها لطول الكلام، ويمثله قال الزجاج. وقال الأخفش: أن الثانية في محل رفع بفعل مضمر أي: يحدث إخراجكم كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يحدث القتال ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي: بعد ما توعدون، أو بعيد ما توعدون، والتكرير للتأكيد. قال ابن الأنباري: وفي هيهات عشر لغات ثم سردها، وهي مبنية في علم النحو. وقد قرئ ببعضها، واللام في لما توعدون لبيان المستبعد كما في قوله: ﴿هيت لك﴾ [يوسف: 23]، لكنه قيل: لماذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لما توعدون. والمعنى: بعد إخراجكم للوعد الذي توعدون، هذا على أن هيهات اسم فعل، وقال الزجاج: هو في تقدير المصدر أي: البعد لما توعدون، أو بعد لما توعدون على قراءة من نون فتكون على هذا مبتدأ خبره لما توعدون. ثم بين سبحانه إترافهم بأنهم قالوا: ﴿إن هي إلا

ومنه قول ابن زيد في مقصوده:

ولنما المرء حديث بعده فكان حديثاً حسناً لمن روى
﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ وصفهم هنا بعدم الإيمان،
 وفيما سبق قريباً بالظلم لكون كل من الوصفين صادراً عن
 كل طائفة من الطائفتين، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا
 مجرد عدم التصديق، وأولئك ضموإ إليه تلك الأقوال الشنيعة
 التي هي من أشد الظلم واقطعه. ثم حكى سبحانه ما وقع
 من فرعون وقومه عند إرسال موسى وهارون إليهم فقال:
﴿ثم أرسلنا موسى وإخاه هارون بآياتنا﴾ هي التسع
 المتقدم نكرها غير مرة، ولا يصح عد قلق البحر منها هنا.
 لأن المراد: الآيات التي كذبوا بها واستكبروا عنها. والمراد
 بالسلطان المبين: الحجة الواضحة البينة. قيل: هي الآيات
 التسع نفسها والعطف من باب

إلى الملك القرم وابن الهمام

وقيل: أراد العصي لأنها أم الآيات، فيكون من باب عطف
 جبريل على الملائكة؛ وقيل: المراد بالآيات: التي كانت لهما،
 وبالسُّلطان الدلائل المبين: التسع الآيات، والمراد بالملا في
 قوله: **﴿إلى فرعون وملائه﴾** هم الأشراف منهم كما سبق
 بيانه غير مرة **﴿فاستكبروا﴾** أي: طلبوا الكبر وتكلفوه فلم
 ينقلوا للحق **﴿وكانوا قوماً عالين﴾** قاهرين للناس بالبغي
 والظلم، مستعلين عليهم، متطاولين كبراً وعناداً وتمرداً،
 وجملته **﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا﴾** معطوفة على جملة
﴿استكبروا﴾ وما بينهما اعتراض، والاستفهام للإنكار أي:
 كيف نصق من كان مثلنا في البشرية، والبشر يطلق على
 الواحد كقوله: **﴿بشراً سوياً﴾** [مريم: 17]. كما يطلق على
 الجمع كما في قوله: **﴿فإنما ترى من البشر أحداً﴾** [مريم:
 26]. فتثنيته هنا هي باعتبار المعنى الأول، وأفرد المثل لأنه
 في حكم المصدر، ومعنى **﴿وقومهما لنا عابدون﴾** أنهم
 مطيعون لهم متقانون لما يأمرونهم به كاتقياء العبيد. قال
 المبرد: العابد المطيع الخاضع. قال أبو عبيدة: العرب تسمي
 كل من دان لملك عابداً له، وقيل: يحتمل أنه كان يدعي
 الإلهية فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه، واللام في **﴿لنا﴾**
 متعلقة بعابدون، قدمت عليه لرعاية الفواصل، والجملة حالية
﴿فكذبوهما﴾ أي: فأصروا على تكذيبهما **﴿فكانوا من
 المهلكين﴾** بالفرق في البحر. ثم حكى سبحانه ما جرى
 على قوم موسى بعد إهلاك عدوهم فقال: **﴿ولقد آتينا
 موسى الكتاب﴾** يعني: التوراة، وخصّ موسى بالذكر لأن
 التوراة أنزلت عليه في الطور، وكان هارون خليفته في قومه
﴿لعلهم يهتدون﴾ أي: لعل قوم موسى يهتدون بها إلى
 الحق، ويعملون بما فيها من الشرائع، فجعل سبحانه إيتاء
 موسى إياها إيتاء لقومه، لأنها وإن كانت منزلة على موسى
 فهي لإرشاد قومه. وقيل: إن ثم مضافاً محذوفاً أقيم
 المضاف إليه مقامه أي: آتينا قوم موسى الكتاب؛ وقيل: إن
 الضمير في **﴿لعلهم﴾** يرجع إلى فرعون وملائه، وهو وهم
 لأن موسى لم يؤت التوراة إلا بعد إهلاك فرعون وقومه كما

يَسْتَخِرُونَ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ذَرَّ كُلَّ مَا جَاءَهُ أَمْوَالُهُ لَكَوْنًا فَزَعَّاهُمْ بِمِثْلِهِ
 بَعْضًا وَحَمَلَتْهُمْ سَخِرَاتٌ فَبِعَلَّاهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
 هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
 عَالِينَ ﴿٣٧﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبَدُونَ ﴿٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا
 مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٠﴾ وَحَمَلْنَا آيَاتِ
 رَبِّهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ رِجْوَاهُ فَذَرَوْهُم مُّذْ قَرَّبُوا وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِّقَالُوا
 مِنَ الْغَافِقِينَ ﴿٤١﴾ وَأَعْمَلُوا صِلَةً إِنِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ هَدَيْنَاهُ لَأُنْشِرُ
 نَحْمَدُكَ وَأَنَا مِنْكُمْ فَاتَّقُوا ﴿٤٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَسْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حَبِيبٌ مَّا لَكُمُ
 فِرْعَوْنُ ﴿٤٤﴾ فَذَرْنُوهُ فِي عَذْرِهِمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ﴿٤٥﴾ يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ بِين نَالٍ
 وَبَيْنَ ﴿٤٦﴾ شَارِعَ لَمْ يَكُنْ فِي الْغَيْبِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٧﴾

قوله: **﴿ثم أنشأنا من بعدهم﴾** أي: من بعد إهلاكهم
﴿قروناً آخرين﴾ قيل: هم قوم صالح ولوط وشعيب كما
 وردت قصتهم على هذا الترتيب في الأعراف وهود، وقيل:
 هم بنو إسرائيل. والقرون الأمم، ولعل وجه الجمع هنا
 للقرون والأفراد فيما سبق قريباً أنه أراد ما هنا أمماً متعدداً
 وهناك أمة واحدة. ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته في
 شأن عباده فقال: **﴿ما تسبق من أمة لجلها وما
 يستأخرون﴾** أي: ما تتقدم كل طائفة مجتمعة في قرن
 أجالها المكتوبة لها في الهلاك ولا تتأخر عنها، ومثل ذلك
 قوله تعالى: **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
 يستقدمون﴾** [الأعراف: 34]. ثم بين سبحانه أن رسله كانوا
 بعد هذه القرون متواترين، وأن شأن أهمهم كان واحداً في
 التكنيب لهم فقال: **﴿ثم أرسلنا رسلنا تترأف﴾** والجملة
 معطوفة على الجملة التي قبلها بمعنى أن إرسال كل رسول
 متأخر عن إنشاء القرن الذي أرسل إليه، لا على معنى أن
 إرسال الرسل جميعاً متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعاً،
 ومعنى **﴿تترأف﴾** تتواتر واحداً بعد واحد ويتبع بعضهم
 بعضاً، من الوتر وهو الفرد. قال الأصمعي: واترت ككتبي
 عليه: أتبع بعضها بعضاً إلا أن بين كل واحد منها وبين
 الآخر مهلة. وقال غيره: المتواترة المتتابعة بغير مهلة. قرأ
 ابن كثير، وابن عمرو (تتري) بالتثنية على أنه مصدر. قال
 النحاس: وعلى هذا يجوز تتري بكسر التاء الأولى. لأن
 معنى ثم أرسلنا: واترنا، ويجوز أن يكون في موضع الحال
 أي: متواترين **﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾** هذه الجملة
 مستأنفة مبينة لمجيء كل رسول لأمته على أن المراد
 بالمجيء: التبليغ **﴿فاتبعنا بعضهم بعضاً﴾** أي: في الهلاك
 بما نزل بهم من العذاب **﴿وجعلناهم أحاديث﴾** الأحاديث
 جمع أحسنه، وهي ما يتحدث به الناس كالأعاجيب جمع
 أعجوبة، وهي ما يتعجب الناس منه. قال الأخفش: إنما يقال
 جعلناهم أحاديث في الشر ولا يقال في الخير، كما يقال:
 صار فلان حديثاً أي: عبرة، وكما قال سبحانه في آية أخرى
﴿وجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ [سبا: 19]. قلت:
 وهذه الكلية غير مسلمة فقد يقال: صار فلان حديثاً حسناً،

ربكم المختص بالربوبية أي: لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم مني بأن تشركوا بي غيري، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه. ثم نكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ والفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى، والضمير يرجع إلى ما يدل عليه لفظ الأمة، والمعنى: أنهم جعلوا بينهم مع اتحادهم قطعاً متفرقة مختلفة. قال المبرد: زبراً فرقاً وقطعاً مختلفة، واحداً زبور، وهي الفرقة والطائفة، ومثله الزبرة وجمعها زبر، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا، فاتبعت فرقة التوراة، وفرقة الزبور، وفرقة الإنجيل ثم حرفوا وبذلوا، وفرقة مشركة تبعوا ما رسمه لهم آبائهم من الضلال. قرئ (زبراً) بضم الباء جمع زبور، وقرئ بفتحها أي: قطعاً كقطع الحديد ﴿كُلَّ حَزْبٍ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ فَرْحُونٌ﴾ أي: كل فريق من هؤلاء المختلفين بما لديهم أي: بما عندهم من الدين فرحون أي: معجبون به ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: اتركهم في جهلهم، فليسوا باهل للهداية، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكل شيء وقت، شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذي يغمر من بخل فيه، والغمرة في الأصل ما يغمرك ويعلوك، وأصله الستر، والغمر: الماء الكثير لأنه يغطي الأرض، وغمر الرداء هو الذي يشمل الناس بالغطاء، ويقال للحقد: الغمر، والمراد هنا: الحيرة والغفلة والضلالة، والآية خارجة مخرج التهديد لهم، لا مخرج الأمر له ﷺ بالكف عنهم، ومعنى ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، أو حتى يموتوا على الكفر فيعذبون في النار ﴿أَيُّحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: أيحسبون أنما نعطيهم في هذه الدنيا من الأموال والبنين ﴿نَسَارِعُ﴾ به ﴿لَهُمْ﴾ فيما فيه خيرهم وإكرامهم، والهمزة للإنكار، والجواب عن هذا مقترن يدل عليه قوله: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنه عطف على مقترن ينسحب إليه الكلام أي: كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل، فإن ما حوّلناهم من النعم وأمدناهم به من الخيرات إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثماً كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. قال الزجاج: المعنى نسارع لهم به في الخيرات، فحذفت به، و (ما) في إنما موصولة، والرباط هو هذا المحذوف، وقال الكسائي: إن إنما هنا حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير رابط. قيل: يجوز الوقف على بنين؛ وقيل: لا يحسن لأن يحسبون يحتاج إلى مفعولين، فتمام المفعولين في الخيرات. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ لأن ما كفاة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الرحمن بن أبي بكرة (يسارع) بالياء التحتية على أن فاعله ما يدل عليه أمدنا، وهو الإمداد، ويجوز أن يكون المعنى: يسارع الله لهم، وقرأ الباقون (نسارع) بالنون. قال الثعلبي: وهذه القراءة هي الصواب لقوله نمدّم. وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: 43]. ثم أشار سبحانه إلى قصة عيسى إجمالاً فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَامَهُ آيَةً﴾ أي: علامة تدل على عظيم قدرتنا، وبديع صنعنا، وقد تقدّم الكلام على هذا في آخر سورة الأنبياء في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابِنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91]. ومعنى قوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ﴾ إلى مكان مرتفع أي: جعلناهما يأويان إليها. قيل: هي أرض دمشق، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب، ومقاتل، وقيل: بيت المقدس، قاله قتادة وكعب؛ وقيل: أرض فلسطين، قاله السديّ ﴿ذَاتَ قَرَارٍ﴾ أي: ذات مستقر يستقرّ عليه ساكنوه ﴿وَمُعِينٍ﴾ أي: وماء معين. قال الزجاج: هو الماء الجاري في العين، فالميم على هذا زائدة كزيادتها في منبع؛ وقيل: هو فاعيل بمعنى مفعول. قال علي بن سليمان الأفش: معن الماء: إذا جرى فهو معين وممعون وكذا قال ابن الأعرابي: وقيل: هو مأخوذ من الماعون، وهو النفع، ويمثل ما قال الزجاج قال الفراء: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال الزجاج: هذه مخاطبة لرسول الله ﷺ ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا؛ وقيل: إن هذه المقالة خوطب بها كل نبي، لأن هذه طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، فيكون المعنى: وقلنا يا أيها الرسل خطاباً لكل واحد على انفراده، لاختلاف أزمنتهم. وقال ابن جرير: إن الخطاب لعيسى. وقال الفراء: هو كما تقول للرجل الواحد كفوا عنا، والطيبات: ما يستطاب ويستلذ، وقيل: هي الحلال، وقيل: هي ما جمع الوصفين المذكورين. ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً وهو ما كان موافقاً للشرع، ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى علي شيء منه، وإني مجازيك على حسب أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَإِنْ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء، والمعنى: أن هذه ملتكم وبشريعتكم أيها الرسل ملّة واحدة، وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقيل: المعنى إن هذا الذي تقدّم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه على أن المراد بالأمة هنا: الدين كما في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]. ومنه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريباً وهل يائمن نوأمة وهو طائفة
قرئ بكسر (إن) على الاستئناف المقرّر لما تقدّمه، وقرئ بفتحها وتشديدها. قال الخليل: هي في موضع نصب لما زال الخافض أي: أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به. وقال الفراء: إن متعلقة بفعل مضمر، وتقديره: واعلموا أن هذه أمتكم. وقال سيبويه: هي متعلقة باتقون، والتقدير: فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة، والفاء في ﴿فَاتَّقُونَ﴾ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه

فَدَكَانَتْ مَائِي تَتَلَّ عَلَيَّكُمْ كَثُرَتْ عَلَيَّ أَغْيَابُكُمْ نَزَكُوهُمْ ﴿١٧﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِرًّا تَهْجُرُونَ ﴿١٨﴾

لما نفي سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين اتبع ذلك بنكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وأجلاً فوصفهم بصفات أربع: الأولى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الإشفاق: الخوف، تقول أنا مشفق من هذا الأمر أي: خائف. قيل: الإشفاق هو الخشية، فظاهر ما في الآية التكرار. وأجيب بحمل الخشية على العذاب أي: من عذاب ربهم خائفون، وبه قال الكلبي ومقاتل. وأجيب أيضاً بحمل الإشفاق على ما هو أثر له: وهو الدوام على الطاعة أي: الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته. وأجيب أيضاً بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار؛ وقيل: هو تكرار للتأكيد. والصفة الثانية قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ قيل: المراد بالآيات هي التنزيلية؛ وقيل: هي التكوينية؛ وقيل: مجموعهما، قيل: وليس المراد بالإيمان بها هو التصديق بوجودها فقط. فإن ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح، بل المراد: التصديق بكونها دلائل وأن ملولها حق. والصفة الثالثة قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً. والصفة الرابعة قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: يعطون ما أعطوا وقلوبهم خائفة من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله، وجملة ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف. قال الزجاج: قلوبهم خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون، وسبب الوجع هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب، لا مجرد رجوعهم إليه سبحانه، وقيل: المعنى أن من اعتقد الرجوع إلى الجزء والحساب وعلم أن المجازي والمحاسب هو الرب الذي لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل. قرأت عائشة، وابن عباس، والنخعي ﴿يَأْتُونَ مَا آتَوْا﴾ مقصوداً من الإتيان. قال الفراء: ولو صحت هذه القراءة لخالف قراءة الجماعة لأن من العرب من يلزم في الهمز الألف في كل الحالات. قال النحاس: ومعنى هذه القراءة يعملون ما عملوا والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات، ومعنى ﴿يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون بها. قال الفراء والزجاج: ينافسون فيها، وقيل: يسابقون، وقرئ (يسرعون) ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ اللام للتقوية، والمعنى: هم سابقون إياها، وقيل: اللام بمعنى إلى كما في قوله: ﴿بِأَن رَّبَّكَ أَوْحَى إِلَيْهَا﴾ [الزلزلة: 5]. أي: أوحى إليها، وأنشد سيبويه قول الشاعر:

تجانف عن أهل اليمامة يا فتى وما قصدت من أهلها لسوانكا
أي: إلى سوانكا، وقيل: المفعول محذوف، والتقدير: وهم سابقون الناس لأجلها. ثم لما انجر الكلام إلى نكر أعمال المكلفين نكر لهما حكيمين: الأول قوله: ﴿وَلَا تَكُلِفْ نَفْسًا إِلَّا

عِيسَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمِ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاءً﴾ قال: يتبع بعضهم بعضاً. وفي لفظ قال: بعضهم على إثر بعض. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿وَجَعَلْنَا لِبَنِّ مَرْيَمَ آيَةً﴾ قال: ولدته من غير أب. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس آية قال: عبرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قال: الربوة المستوية، والمعين: الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ رَبِّكَ حِجَابًا﴾ [مريم: 24]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قال: هي المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذَاتِ قُرَارٍ﴾ ذات خصب، والمعين: الماء الظاهر. وأخرج وكيع، والفريابي وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وتمام الرازي، وابن عساكر. قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قال: أنبئنا أنها دمشق. وأخرج ابن عساكر، عن عبد الله بن سلام مثله. وكذا أخرجه ابن أبي حاتم عنه. وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة مرفوعاً نحوه، وإسناده ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وابن عساكر عن مرة النهدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الربوة الرملة». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن عساكر عن أبي هريرة قال: هي الرملة من فلسطين. وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعاً. وأخرج الطبراني، وابن السكن، وابن منده، وأبو نعيم، وابن عساكر عن الأقرب بن شفي العكي مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]. ثم نكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، فأنى يستجاب لذلك». وأخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزاري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: ذلك عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه. وأخرجه عبيد بن في الصالحة عن حفص مرفوعاً، وهو مرسل لأن حفصاً تابعي.

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٤٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

الشقاوة لا محيص لهم عن ذلك. ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ حتى هذه هي التي يبدأ بعدها الكلام، والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة، وهذه الجملة مبنية لما قبلها، والضمير في مترفيهم راجع إلى من تقدم ذكره من الكفار، والمراد بالمترفين: المتنعمين منهم، وهم الذين أمدهم الله بما تقدم ذكره من المال والبنتين، أو المراد بهم: الرؤساء منهم. والمراد بالعذاب هو: عذابهم بالسيف يوم بدر، أو بالجوع بدعاء النبي ﷺ عليهم حيث قال: اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف؛ وقيل المراد بالعذاب: عذاب الآخرة، ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجوار إنما يكون عند عذاب الآخرة، لأنه الاستغاثة بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا في سني الجوع. ويجب عنه بأن الجوار في اللغة الصراخ والصياح. قال الجوهري: الجوار مثل الخوار، يقال: جأر الثور يجأر أي: صاح. وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عند أن عذبوا بالسيف يوم بدر، وبالجوع في سني الجوع، وليس الجوار ما هنا مقيد بالجوار الذي هو التضرع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل، وجملة ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ جواب الشرط، وإذا هي الفجائية، والمعنى: حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجئوا بالصراخ، ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذٍ على جهة التبكيت ﴿لَا تَجَارُوا لِيَوْمٍ﴾ فالقول مضمر، والجملة مسوقة لتبكيهم وإقناطهم وقطع أطماعهم، وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعاً واقع على مترفيهم وغير مترفيهم لبيان أنهم بعد النعمة التي كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها وتباينها، فانتقلوا من النعيم التام إلى الشقاء الخالص، وخصّ اليوم بالذكر للتوبيخ، وجملة ﴿إِنَّكُمْ مَنَا لَا تَنْصُرُونَ﴾ تعليل للنهي عن الجوار، والمعنى: إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم؛ وقيل: المعنى إنكم لا يلحقكم من جهننا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب. ثم عند سبحانه عليهم قبائحهم توبيخاً لهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَقْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الدنيا، وهي آيات القرآن ﴿فَكَنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ﴾ أي: ترجعون وراءكم، وأصل النكوص أن يرجع القهقري، ومنه قول الشاعر:

زعموا أنهم على سبيل الحق وإننا نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق، وقرأ علي بن أبي طالب (على أibarكم) بدل ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ﴾ بضم الكاف، وعلى أعقابكم متعلق بتنكصون، أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل تنكصون ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ الضمير في به راجع إلى البيت العتيق؛ وقيل: للحر، والذي سوغ الإضمار قبل الذكر اشتغالهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأننا أهل الحرم وخدامه. وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين، وقيل: الضمير عائد إلى القرآن. والمعنى: أن سماعه يحدث لهم كبراً وطغياناً فلا يؤمنون به. قال ابن عطية: وهذا قول جيد.

وسعها﴾ الوسع هو الطاقة، وقد تقدم بيان هذا في آخر سورة البقرة. وفي تفسير الوسع قولان: الأول أنه الطاقة كما فسره بذلك أهل اللغة. الثاني أنه بون الطاقة، وبه قال مقاتل والضحاك والكلبي. والمعتزلة قالوا: لأن الوسع إنما سمي وسعاً لأنه يتسع على فاعله فعله ولا يضيق عليه، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء، ومن لم يستطع الصوم فليفطر. وهذه الجملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الكرامات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، وأن ذلك عادة الله سبحانه في تكليف عباده، وجملة ﴿وَلِيُنْظِلَ الْيَوْمَ﴾ من تمام ما قبلها من نفي التكليف بما فوق الوسع والمراد بالكتاب: صحائف الأعمال أي: عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هي عليه، ومعنى ﴿يُنْظِلُ بِالْحَقِّ﴾ يظهر به الحق المطابق للواقع من دون زيادة ولا نقص، ومثله قوله سبحانه: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْظِلُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29]. وفي هذا تهديد للعصاة وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم، وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، فإنه قد كتب فيه كل شيء، وقيل: المراد بالكتاب: القرآن، والأول أولى. وفي هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه، فإن الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، يتعلق بينطق، أو بمحذوف هو حال من فاعله أي: ينطق ملتبساً بالحق، وجملة ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ مبنية لما قبلها من تفضله وعمله في جزاء عباده أي: لا يظلمون بنقص ثواب أو بزيادة عقاب، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]، ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال: ﴿يَبِلُ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا﴾ والضمير للكفار أي: بل قلوب الكفار في غمرة غامرة لها عن هذا الكتاب الذي ينطق بالحق، أو عن الأمر الذي عليه المؤمنون، يقال غمره الماء: إذا غطاه، ونهر غمر: يغطي من دخله، والمراد بها هنا: الغطاء والغفلة أو الحيرة والعمى، وقد تقدم الكلام على الغمرة قريباً ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ﴾ قال قتادة ومجاهد أي: لهم خطايا لا بد أن يعملوها من بون الحق. وقال الحسن وابن زيد: المعنى ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من بون ما هم عليه لا بد أن يعملوها فيدخلون بها النار، فالإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إما إلى أعمال المؤمنين، أو إلى أعمال الكفار أي: لهم أعمال من بون أعمال المؤمنين التي نكروها الله، أو من بون أعمال الكفار التي تقدم ذكرها من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما نكرو، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي من طعنهم في القرآن. قال الواحدي: إجماع المفسرين وأصحاب المعاني على أن هذا إخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة التي كتبت عليهم لا بد لهم أن يعملوها، وجملة ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ مقررّة لما قبلها أي: واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي شيبه، وابن الأنباري في المصاحف، والدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عبيد بن عمير. أنه سأل عائشة كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾؟ قالت: أيتها أحب إليك؟ قلت: والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إلي من الدنيا وما فيها جميعاً، قالت: أيهما؟ قلت: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كان يقرأها كذلك، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف. وفي إسناده إسماعيل بن علي وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ قال: سبقت لهم السعادة من الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ في غمرة من هذا، يعني بالغمرة: الكفر والشك. ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ يقول: أعمال سيئة دون الشرك. ﴿وَهُمْ لَهَا عاملون﴾ قال: لا بد لهم أن يعملوها. وأخرج النسائي عنه: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ قال: هم أهل بدر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ قال: يستغيثون، وفي قوله: ﴿فَكَنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ﴾ قال: تدبرون، وفي قوله: ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال: تسمرون حول البيت وتقولون هجراً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ قال: بحرم الله أنه لا يظهر عليهم فيه أحد. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال: كانت قريش يتحلقون حلقاتاً يتحدثون حول البيت. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال: كان المشركون يهجون برسول الله ﷺ في القول في سمرهم. وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

أَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٥﴾ أَمْ لَهُمْ بَرْهَةٌ رَوْهُمْ هُمْ لَمْ يُكْرَبُوا ﴿٧٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ بَدِئَهُمُ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَحَىٰ كُرْهُنَ ﴿٧٧﴾ وَلَوْ أَسْمِعَ أَلْحَىٰ أَهْلَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَبَيْنَهُمَا بَلْ أَيْسَّرَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَجًا مَخْرَجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَئِنْ لَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ مَرْيَلٍ مُّشْتَرِكٍ ﴿٨٠﴾ وَلَئِنْ لَئِنْ لَا يُؤْمِنُوا بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُنَكِّتَنَّ ﴿٨١﴾ وَلَوْ رَعَيْنَهُمْ وَكَفَنَّا مَا بِهِمْ بَيْنَ شَرِّ لَلْحَرَىٰ فِي طُعْنِهِمْ بِمَعْمُونٍ ﴿٨٢﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُونَهُ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ﴿٨٤﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ

وقال النحاس: القول الأول أولى وبينه بما ذكرنا. فعلى القول الأول يكون به متعلقاً بمستكبرين، وعلى الثاني يكون متعلقاً بـ ﴿سَامِرًا﴾ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم نكر القرآن والطعن فيه، والسامر كالحاضر في الإطلاق على الجمع. قال الواحدي: السامر الجماعة يسمرون بالليل أي: يتحدثون، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿بِهِ﴾ بقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ والهجر بالفتح الهذيان أي: تهنون في شأن القرآن، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم وهو الفحش. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبو حنيفة (سمرًا) بضم السين وفتح الميم مشددة، وقرأ زيد بن علي وأبو رجاء (سمارًا) ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وانتصاب سماراً على الحال إما من فاعل تنكصون، أو من الضمير في مستكبرين؛ وقيل: هو مصدر جاء على لفظ الفاعل، يقال: قوم سامر، ومنه قول الشاعر:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
قال الراغب: ويقال: سامر وسمار، وسمر وسامرون. قرأ الجمهور (تهجرون) بفتح التاء العثناة من فوق وضم الجيم. وقرأ نافع، وابن محيصن بضم التاء وكسر الجيم من أمجر أي: أفضح في منطقة. وقرأ زيد بن علي، وابن محيصن، وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشددة مضارع هجر بالتشديد. وقرأ ابن أبي عاصم كالجمهور إلا أنه بالياء التحتية، وفيه اللغات.

وقد أخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، قول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أم الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: لا، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف، وابن جرير، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قالت عائشة: يا رسول الله، فنكر نحوه. وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قال: يعطون ما أعطوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وقلوبهم وجلَةٌ﴾ قال: يعملون خائفين. وأخرج الفريابي، وابن جرير عن ابن عمر ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قال: الزكاة. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عائشة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قالت: هم الذين يخشون الله ويطيعونه. وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحب إلي من حمر النعم، فقال لها ابن عباس: ما هي؟ قالت: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ وقد قمنا نكر قراءتها ومعناها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه عنها، عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ مقصوداً من المجيء.

تقدم تحقيقه ﴿والله تحشرون﴾ أي: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ على جهة الانفرد والاستقلال، وفي هذا تأكيد لنعمة الحياة، وبيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ قال الفراء: هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض، وقيل: اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر؛ وقيل: تكررها يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة ﴿أفلا تعقلون﴾ كنه قدرته وتفكرون في ذلك، ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبني على مجرد الاستبعاد فقال: ﴿بئس قالوا مثل ما قال الأولون﴾ أي: أبأؤهم والموافقون لهم في دينهم، ثم بين ما قاله الأولون فقال: ﴿قالوا أئذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ فهذا مجرد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبهة، ثم كملوا ذلك القول بقولهم: ﴿ولقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل﴾ أي: وعدنا هذا البعث ووعده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصنقه كما لم يصنقه من قبلنا، ثم صرحوا بالكذب وقرؤا إلى مجرد الزعم الباطل فقالوا: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين التي سطورها في الكتب جمع أسطورة كاحدثة، والأساطير الأباطيل والثرهات والكنب.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله: ﴿إم لم يعرفوا رسولهم﴾ قال: عرفوه ولكنهم حسدوه. وفي قوله: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم﴾ قال: الحق الله عز وجل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بئس آئتناهم بنكرهم﴾ قال: بينا لهم. وأخرجوا عنه في قوله: ﴿عن الصراط لناكبون﴾ قال: عن الحق لناكبون. وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أنشك الله والرحم فقد أكلنا العلله يعني: الوير بالدم، فأنزل الله ﴿ولقد آخضناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ وأصل الحديث في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف» الحديث. وأخرج ابن جرير، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس: أن ابن أثال الحنفي لما أتى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليامة. فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليامة حتى أكلت قريش العلله فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: اليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى. قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله ﴿ولقد آخضناهم بالعذاب﴾ الآية. وأخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ قال: أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا،

ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفى عنه أضداد ذلك قال: ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ أي: إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة، والصراط في اللغة الطريق، فسمي الدين طريقاً لأنها تؤدي إليه. ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك فقال: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ يقال: نكب عن الطريق ينكب نكوباً، إذا عدل عنه ومال إلى غيره، والنكوب والنكب العنول والميل، ومنه النكباء للريح بين ريحين، سميت بذلك لعنولها عن المهاب، وعن الصراط متعلق يناكبون، والمعنى: أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط أو جنس الصراط لعادلون عنه. ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر﴾ أي: من قحط وجذب ﴿للجوا في طغيانهم﴾ أي: لتماموا في طغيانهم وضلالهم ﴿يعمهمون﴾ يترنسون ويتنذبون ويخبطون، وأصل اللجاج التمادي في العناد، ومنه اللجة بالفتح لتردد الصوت، ولجة البحر تردد أمواجه، ولجة الليل تردد ظلامه، وقيل: المعنى لو ربناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحانهم للجوا في طغيانهم ﴿ولقد آخضناهم بالعذاب﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. والعذاب قيل: هو الجوع الذي أصابهم في سني القحط؛ وقيل: المرض، وقيل: القتل يوم بدر، واختاره الزجاج؛ وقيل: الموت، وقيل: المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي: ما خضعوا ولا تنلوا، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرّد على الله والانهمك في معاصيه ﴿وما يتضرعون﴾ أي: وما يخضعون لله في الشدائد عند إصابتها لهم، ولا يدعوهم لرفع ذلك ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد﴾ قيل: هو عذاب الآخرة؛ وقيل: قتلهم يوم بدر بالسيف؛ وقيل: القحط الذي أصابهم؛ وقيل: فتح مكة ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ أي: متحيرين، لا يدرون ما يصنعون، والإبلاس التحير والإياس من كل خير. وقرأ السلمي (مبلسون) بفتح اللام من أبلسه أي: أدخله في الإبلاس، وقد تقدم في الأنعام ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ امتنّ عليهم ببعض النعم التي أعطاهم، وهي نعمة السمع والبصر ﴿والأفئدة﴾ فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالأفئدة فلم ينتفعوا بشيء من ذلك لإصرارهم على الكفر وبعدهم عن الحق، ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي: شكراً قليلاً حقيراً غير معتد به باعتبار تلك النعم الجليلة، وقيل: المعنى أنهم لا يشكرون البتة، لا أن لهم شكراً قليلاً. كما يقال لجاحد النعمة: ما أقلّ شكره أي: لا يشكر، ومثل هذه الآية قوله: ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾ [الحاقاف: 26]. ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي: بثكم فيها كما تبث الحبوب لتنبث وقد

أحدًا من عذاب الله ولا يقدر على نصره وإغاثته، يقال: أجزت فلانًا: إذا استغاث بك فحميته، وأجزت عليه: إذا حميت عنه **﴿قل فأنى تسحرون﴾** قال الفراء والزجاج أي: تصرفون عن الحق وتخضعون، والمعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلاً والصحيح فاسداً، والخادع لهم هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما. ثم بين سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم فقال: **﴿بل اتيناهم بالحق﴾** أي: الأمر الواضح الذي يحق اتباعه **﴿وإنهم لكانبون﴾** فيما ينسبونوه إلى الله سبحانه من الولد والشريك، ثم نفاهما عن نفسه فقال: **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾** من في الموضوعين زائدة لتأكيد النفي. ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يذم الكفار من إثبات الشريك، فقال: **﴿إذا لذهب كل إله بما خلق﴾** وفي الكلام حذف تقديره لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخر، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب **﴿ولعلنا بعضهم على بعض﴾** أي: غلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم، وحينئذ فلذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهاً، وإذا تقرّر عدم إمكان المشاركة في ذلك، وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه، وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فإنه يدل على نفي الولد، لأن الولد ينازع أباه في ملكه. ثم نزه سبحانه نفسه فقال: **﴿سبحان الله عما يصفون﴾** أي: من الشريك والولد وإثبات ذلك لله عز وجل **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** أي: هو مختص بعلم الغيب والشهادة، وأما غيره فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب. قرأ نافع، وأبو بكر، وحزمة، والكسائي (عالم) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو عالم. وقرأ الباقون بالجر على أنه صفة لله أو بدل منه. وروي عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل ويرفع إذا ابتدأ **﴿فتعالى﴾** الله **﴿عما يشركون﴾** معطوف على معنى ما تقدّم كانه قال: علم الغيب فتعالى، كقولك: زيد شجاع فعظمت منزلته أي: شجع فعظمت، أو يكون على إضمار القول أي: أقول فتعالى الله، والمعنى: أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك في الملك **﴿قل رب إما تريني ما يوعدون﴾** أي: إن كان ولا بد أن تريني ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم **﴿ربّ فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾** أي: قل يا ربّ فلا تجعلني. قال الزجاج: أي إن أنزلت بهم العقوبة يا ربّ فأجعلني خارجاً عنهم، ومعنى كلامه هذا: أن النداء معترض، و «ما» في إما زائدة أي: قل ربّ إن تريني، والجواب فلا تجعلني، ونكر الربّ مرتين: مرة قبل الشرط ومرة بعده مبالغة في التضرع. وأمره الله أن يسأله أن لا يجعله في القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون مع القوم الظالمين أبداً، تعليمًا له ﷺ من ربه كيف يتواضع؟ وقيل: يهضم نفسه، أو لكون شرم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله: **﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا**

ولو خضعوا لله لاستجاب لهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: **﴿حتى إذا فتحتنا عليهم باباً ذا عذاب شديد﴾** قال: قد مضى، كان يوم بدر.

﴿قل لبي الأرض ومن فيها﴾ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لَبَّيْ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٩﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّعْيِ رَبُّ الْأَعْلَى الْعَظِيمِ ﴿٩٠﴾ سَيَقُولُونَ لَبَّيْ قُلْ أَفَلَا تَنْفَعُونَ ﴿٩١﴾ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُعْزِزُ وَلَا يُعْزِزُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٢﴾ سَيَقُولُونَ لَبَّيْ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩٣﴾ بَلْ أَنشَأْنَاهُم بَالِغِي وَلِهَافٍ لِّلْكَذِبِ قُلْ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِن لِّلَّهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ إِذَا نَدَّعَبَ كُلُّ إِلَهِ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَسَحْنَاهُمْ عَلَى بَصِيرَةٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩٤﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَمَنَ لَّ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٥﴾ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رِزْقِي مَآءُ بَعْدَرٍ قُلْ أَفَلَا تَحْسَبُونِي فِي أَفْئِدَةِ الْقَالِيلِينَ ﴿٩٦﴾ وَإِنَّا عَلَمْنَا أَنَّ رَبَّكَ مَا نَدَّعَاهُمْ لَقَدْ يَرَوْنَ ﴿٩٧﴾ أَدْفَعَ بِأَلْيِ يَمِينِ أَحْسَنَ السَّنَةِ بَعْنِ أَعْلَمَ بِمَا يُصِفُونَ ﴿٩٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِن هَمَزَاتِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٩﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿١٠٠﴾

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم فقال: **﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾** أي: قل يا محمد لأهل مكة هذه المقالة، والمراد بمن في الأرض: الخلق جميعاً، وعبر عنهم بمن تغليباً للعقلاء **﴿إن كنتم تعلمون﴾** شيئاً من العلم، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم تعلمون فاجبروني، وفي هذا تلويح بجعلهم وفرط غباوتهم **﴿سيقولون﴾** الله **﴿أي: لا بد لهم أن يقولوا ذلك، لأنه معلوم ببديهة العقل، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم **﴿أفلا تذكرون﴾** ترغيباً لهم في التدبر وإمعان النظر والفكر، فإن ذلك مما يقودهم إلى اتباع الحق وترك الباطل، لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى **﴿قل من رب السموات ورب العرش العظيم﴾** سيقولون الله جاء سبحانه باللام نظراً إلى معنى السؤال، فإن قولك: من ربه، ولمن هو في معنى واحد، كقولك: من ربّ هذه الدار؟ فيقال: زيد، ويقال: لزيد. وقرأ أبو عمرو، وأهل العراق (سيقولون الله) بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقيين باللام، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة في جميع المصاحف باللام بدون الف، وهكذا قرأ الجمهور في قوله: (قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون) * سيقولون الله باللام نظراً إلى معنى السؤال كما سلف. وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال، ومثل هذا قول الشاعر:**

إذا قيل من ربّ المزالف والقرى وربّ الجياد الجرد قيل لخالد أي: لمن المزالف، والملوكات الملك، وزيادة التاء للمبالغة، نحو جبروت وريهوت، ومعنى **﴿وهو يجير﴾** أنه يغيث غيره إذا شاء ويمنعه **﴿ولا يجار عليه﴾** أي: لا يمنع أحد

من غضبه وعقابه وشرّ عبادِه، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»، قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه، وفي إسناده محمد بن إسحاق، وفيه مقال معروف، وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال: «يا رسول الله إني أجد وحشة، قال: إذا أخذت مضجعتك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشرّ عبادِه، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنه لا يحضرَك»، وبالحري لا يضرَك.

حَوَّ إِذَا جَاءَ أَمَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَآيِهِمُ بَرَّخُ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ ﴿١٩١﴾ فَإِذَا نَسَخَ فِي الْأَنْبِيَاءِ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا تَسْتَلُونَ ﴿١٩٢﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَوَلَّيُونَ ﴿١٩٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٩٤﴾ تَلْعَقُ دُجْرُهُمْ وَأَنَارُ وُجْهِهَا كَالْحَيَوَاتِ ﴿١٩٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ يَا بَنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذِبُونَ ﴿١٩٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَيْنَا مَقْرُونَةٌ ﴿١٩٧﴾ تَلْعَقُ دُجْرُهُمْ وَأَنَارُ وُجْهِهَا كَالْحَيَوَاتِ ﴿١٩٨﴾ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاجِعِينَ ﴿١٩٩﴾ فَأَعَدُّوهُمْ بَيْتْرًا حَتَّى أَتَوْكُم بِذِكْرٍ كَثِيرٍ مِّنْهُمْ فَتُحْكَتُمُوهُمْ إِلَى جَنَّتِهِمْ يَوْمَ يَكُونُ لِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْكَاسِرُونَ ﴿٢٠٠﴾ قُلْ كَمْ لِيَشْفِي الْأَرْضَ عَذْرَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالُوا لَيْتَنَّا نُؤْتِيهِ بِأَوْ بَعْضِ يَوْمٍ فَتَشْفِي الْأَرْضَ ﴿٢٠١﴾ قُلْ إِنْ لَيْتَنَّا نُؤْتِيهِ بِأَوْ بَعْضِ يَوْمٍ فَتَشْفِي الْأَرْضَ ﴿٢٠٢﴾ عَسَا وَأَنْتُمْ لَا تُرْجِعُونَ ﴿٢٠٣﴾ تَتَنَادَى الْمَلَائِكَةُ لَوْلَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿٢٠٤﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٠٥﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاجِعِينَ ﴿٢٠٦﴾

﴿حتى﴾ هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية، وهي مع تلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله لكاذبون وقيل: بيصفون، والمراد بمجيء الموت: مجيء علاماته ﴿قال رب﴾ أرجعون ﴿أي﴾ قال ذلك الأحد الذي حضره الموت تحسراً وتحزناً على ما فرط منه رب أرجعون أي: ردوني إلى الدنيا، وإنما قال: أرجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب، وقيل: هو على معنى تكرير الفعل أي: أرجعني أرجعني أرجعني، ومثله قوله: ﴿القياء في جهنم﴾ [ق: 24]، قال المازني: معناه ألق ألق، وهكذا قيل في قول امرئ القيس:

ففا نيك من نكرى حبيب ومنزل

ومنه قول الحجاج:

يا حرسى اضربا عنقه

ومنه قول الشاعر:

ولو شئت حرمت النساء سواكم

وقول الآخر:

ألا فارحموني يا إله محمد

وقيل: إنهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم رب، ثم رجع إلى

منكم خاصة ﴿[الأنفال: 25]﴾، ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب، ويسخرون من النبي ﷺ إذا ذكر لهم ذلك أكد سبحانه وقوعه بقوله: ﴿وإننا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ أي: أن الله سبحانه قادر على أن يري رسوله عذابهم، ولكنه يؤخره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن، أو لكون الله سبحانه لا يعذبهم والرسول فيهم، وقيل: قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة، ثم أمره سبحانه بالصبر إلى أن ينقضي الأجل المضروب للعذاب فقال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن من غيرها، وهي الصفح والإعراض عما يفعله الكفار من الخصلة السيئة وهي الشرك. قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: هي محكمة في حق هذه الأمة فيما بينهم، منسوخة في حق الكفار ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي: ما يصفونك به مما أنت على خلافه، أو بما يصفون من الشرك والتكذيب، وفي هذا وعيد لهم بالعقوبة. ثم علمه سبحانه ما يقويه على ما أرشده إليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ الهمزات جمع همزة، وهي في اللغة النفخة باليد أو غيرها، وهمزات الشياطين نزغاتهم وسواسهم كما قاله المفسرون، يقال: همزه ولمزه ونخسه أي: نفعه، وقيل: الهمز كلام من وراء اللقا، واللمز المواجهة، وفيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوذ من الشيطان، ومن همزات الشياطين سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أمره سبحانه أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوذ من همزاتهم، والمعنى: وأعوذ بك أن يكونوا معي في حال من الأحوال، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة والإغراء على الشر والصرف عن الخير. وفي قراءة أبي (وقل رب عائذاً بك من همزات الشياطين * وعائذاً بك رب أن يحضرون).

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ قال: خزائن كل شيء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه ﴿ادفع بالتي هي أحسن للسيئة﴾ يقول: أعرض عن أذاهم إياك. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ قال: بالسلام. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية عن أنس في قوله: ﴿ادفع بالتي هي أحسن للسيئة﴾ قال: قول الرجل لأخيه ما ليس فيه، فيقول إن كنت كاتباً فانا أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنت صادقاً فانا أسأل الله أن يغفر لي. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع: بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة

الجملة في محل نصب على الحال، والكالم: الذي قد تشمرت شفاته وبنت أسنانه، قاله الزجاج. ودهر كالم أي: شديد. قال أهل اللغة: الكروح تكنيز في عبوس، وجملة ﴿لَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتَلَّى عَلَيْكُمْ﴾ هي على إضمار القول أي: يقال لهم ذلك توبيخاً وتقريراً أي: ألم تكن آياتي تتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تَكْتُبُونَ﴾ وجملة ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر أي: غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا، فسمي ذلك شقوة، لأنه يؤول إلى الشقاء. قرأ أهل المدينة⁽¹⁾ وأبو عمرو، وعاصم (شقوتنا) وقرأ الباقون (شقوتنا) وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن (شقاوتنا) وجملة ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: بسبب ذلك فإنهم ضلوا عن الحق بتلك الشقوة. ثم طلبوا ما لا يجابون إليه فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أي: فإن عدنا إلى ما كنا عليه من الكفر وعدم الإيمان فإننا ظالمون لأنفسنا بالعود إلى ذلك، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿قَالَ لَخِثُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ أي: اسكنوا في جهنم. قال المبرد: الخسء إبعاد بمكرهه، وقال الزجاج: تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا بعد الكلب. فالمعنى على هذا: أبعدوا في جهنم، كما يقال للكلب اخسأ أي: أبعد، خسأت الكلب خساً طرته، ولا تكلمون في إخراجكم من النار ورجوعكم إلى الدنيا، أو في رفع العذاب عنكم، وقيل: المعنى لا تكلمون رأساً. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ وهم المؤمنون وقيل: الصحابة، يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ قرأ الجمهور (إنه كان فريق) بكسر إن استئنفاً تعليلياً، وقرأ أبي بفتحها ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ قرأ نافع، وحزمة، والكسائي بضم السين. وقرأ الباقون بكسرهما. وفرق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزئ، والضم من جهة السخرية. قال النحاس: ولا يعرف هذا الفرق الخليل، ولا سيبويه، ولا الكسائي، ولا الفراء، وحكى الثعلبي عن الكسائي: أن الكسر بمعنى الاستهزاء والسخرية بالقول، والضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل ﴿حَتَّى لِنُسُوكُمْ نُكْرِي﴾ أي: اتخذتموهم سُخْرِيًّا إلى هذه الغاية فإنهم نسوا نكر الله لشدة اشتغالهم بالاستهزاء ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا، والمعنى: حتى نسيتم نكري باشتغالكم بالسخرية والضحك، فنسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب، وجملة ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ مستأنفة لتقرير ما سبق، والباء في بما صبروا للسببية ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح أي: لأنهم الفائزون، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه المفعول الثاني للفعل ﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدِدَ سِنِينَ﴾ القائل هو: الله عز وجل وتلكيراً لهم كم لبثوا؟ لما سألوهم الرجوع إلى

مخاطبة الملائكة فقال: ﴿ارْجِعُونَ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ أي: اعمل عملاً صالحاً في الدنيا إذا رجعت إليها من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير، ولما تمنى أن يرجع ليعمل رد الله عليه ذلك بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ فجاء بكلمة الردع والزجر، والضمير في إنها يرجع إلى قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُون﴾ أي: إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة، وليس الأمر على ما يظنه من أنه يجب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه لو أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء كما في قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوا لَمَا نَهَوْنَا عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]. وقيل: إن الضمير في قائلها يرجع إلى الله أي: لا خلف في خبره، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ﴿وَمَنْ وَرِثَهُمْ يَرِثْهُ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم والبرزخ هو: الحاجز بين الشيتين. قاله الجوهري.

واختلف في معنى الآية، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد: حاجز بين الموت والبعث. وقال الكلبي: هو الأجل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة. وقال السدي: هو الأجل، و﴿إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾ هو يوم القيامة ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ﴾ قيل: هذه هي النفخة الأولى؛ وقيل: الثانية، وهذا أولى، وهي النفخة التي تقع بين البعث والنشور؛ وقيل: المعنى فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، على أن الصور جمع صورة، لا القرن ويدل على هذا قراءة ابن عباس، والحسن (الصور) بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة. وقرأ أبو رزين بفتح الصاد والواو. وقرأ الباقون بضم الصاد وسكون الواو، وهو القرن الذي ينفخ فيه ﴿فَلَا لِنَسَابٍ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: لا يتفاخرون بالنسب ويتكبرونها لما هم فيه من الحيرة والدمشة ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً، فإن لهم إذ ذاك شغلاً شاعلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: 34 - 36]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: 10]. ولا ينافي هذا ما في الآية الأخرى من قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفافات: 27]. فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة، فالإثبات باعتبار بعضها، والنفي باعتبار بعض آخر كما قررناه في نظائر هذا، مما أثبت تارة ونفي أخرى ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: موزناته من أعماله الصالحة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بمطالبهم المحبوبة، الناجون من الأمور التي يخافونها ﴿وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وهي أعماله الصالحة ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: ضيعوها وتركوا ما ينفعها ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ هذا بدل من صلة الموصول، أو خبر ثانٍ لاسم الإشارة، وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده، وجملة ﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ مستأنفة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال، أو تكون خبراً آخر لأولئك، واللفح الإحراق، يقال: لفتحته النار، إذا أحرقته، ولفحته بالسيف: إذا ضربته، وخص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ هذه

(1) قوله: أهل المدينة: صوابه أهل الحجاز اهـ مصحح القرآن.

عن جميع ذلك، وهو **«الملك»** الذي يحق له الملك على الإطلاق **«الحق»** في جميع أفعاله وأقواله **«لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم»** فكيف لا يكون إلهاً ورباً، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات، ووصف العرش بالكريم لنزول الرحمة والخير منه، أو باعتبار من استوى عليه، كما يقال: بيت كريم: إذا كان ساكنوه كراماً. قرأ أبو جعفر، وابن محيصن، وإسماعيل، وأبان بن ثعلب (الكريم) بالرفع على أنه نعت لربّ، وقرأ الباقر بالجرّ على أنه نعت للعرش، ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخاً لهم وتقريعاً فقال: **«ومن يدع مع الله إلهاً آخر»** يعبد مع الله أو يعبد وحده، وجملة **«لا برهان له به»** في محل نصب صفة لقوله إلهاً، وهي صفة لازمة جئ بها للتأكيد، كقوله: **«يطير بجناحيه»** [الأنعام: 38] والبرهان: الحجة الواضحة والليل الواضح، وجواب الشرط قوله: **«فإنما حسابه عند ربه»** وجملة لا برهان له به معترضة بين الشرط والجزاء، كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان، فإله مثيبه؛ وقيل: إن جواب الشرط قوله: لا برهان له به على حذف فاء الجزاء كقول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

«إنه لا يفلق الكافرون» قرأ الحسن وقتادة بفتح (أن) على التعليل، وقرأ الباقر بالكسر على الاستئناف، وقرأ الحسن (لا يفلق) بفتح الياء واللام مضارع فلق بمعنى أفلح. ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله ﷺ أن يدعو بالمغفرة والرحمة فقال: **«وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين»** أمره سبحانه بالاستغفار لتقدي به أمته؛ وقيل: أمره بالاستغفار لامته. وقد تقدّم بيان كونه أرحم الراحمين، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع إليه والاتجاه إلى غفرانه ورحمته.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في نكر الموت، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: إذا أدخل الكافر في قبره فيرى مقعده من النار **«قال ربّ أرجعون»** اتوب أعمل صالحاً، فيقال له: قد عمرت ما كنت معمراً، فيضيق عليه قبره، فهو كالمنهوش ينازع ويفزع تهوي إليه حيات الأرض وعقاربها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة: إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم والأحزان، بل قدما إلى الله، وأما الكافر فيقولون له: نرجعك، فيقول: ربّ أرجعون **«لعلي أعمل صالحاً فيما تركت»** وهو مرسل. وأخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحقّ فيجعل بين عينيه. فعند ذلك يقول: ربّ أرجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت». وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة، عن ابن عباس في قوله: **«أعمل صالحاً»** قال: أقول لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة

الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلك غير كائن كما في قوله: اخسئوا فيها، والمراد بالأرض: هي الأرض التي طلبوا الرجوع إليها، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه في الحياة وفي القبر، وقيل: هو سؤال عن مدة لبثهم في القبر لقوله: في الأرض، ولم يقل على الأرض، وردّ بمثل قوله تعالى: **«ولا تفسدوا في الأرض»** [الأعراف: 56 و85]. وانتصاب عند سنين على التمييز، لما في كم من الإبهام، وسنين بفتح النون على أنها نون الجمع، ومن العرب من يخفضها وينزونها **«قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم»** استقصروا مدة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد، وقيل: إن العذاب رفع عنهم بين النفتين، ففسدوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم، وقيل: أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية. ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا: **«فاسأل العائنين»** أي: المتمكنين من معرفة العدد، وهم الملائكة، لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم؛ وقيل: المعنى فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس. وقرأ ابن كثير، وحمرزة، والكسائي (قل كم لبثتم في الأرض) على الأمر، والمعنى: قل يا محمد للكفار، أو يكون أمراً للملك بسؤالهم، أو التقدير: قولوا كم لبثتم، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد، والمراد: الجماعة. وقرأ الباقر (قال كم لبثتم) على أن القائل هو الله عزّ وجلّ أو الملك **«قال إن لبثتم إلا قليلاً»** قرأ حمزة والكسائي (قل إن لبثتم) كما في الآية الأولى، وقرأ الباقر قال على الخبر، وقد تقدّم توجيه القراءة في: ما لبثتم في الأرض إلا لبثاً قليلاً **«لو أنكم كنتم تعلمون»** شيئاً من العلم، والجواب محذوف أي: لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلة لبثكم في الأرض أو في القبر أو فيهما، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم. ثم زاد سبحانه في توبيخهم فقال: **«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً»** الهمة للتوبيخ والتقدير، والفاء للعطف على مقدّر كما تقدّم بيانه في مواضع أي: ألم تعلموا شيئاً فحسبتم، وانتصاب عبثاً على الحال أي: عابثين، أو على العلة أي: للعبث. قال بالأول سيبيويه وقطرب، وبالثاني أبو عبيدة. وقال أيضاً: يجوز أن يكون منتصباً على المصدرية، وجملة **«وأنكم إلينا لا ترجعون»** معطوفة على أنما خلقناكم عبثاً، والعبث في اللغة: اللعب، يقال: عبث لعبت عبثاً فهو عابث أي: لاعب، وأصله من قولهم عبثت الأقط أي: خلطتها، والمعنى: أفحسبتم أن خلقنا لكم للإهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب، وأنكم إلينا لا ترجعون بالبيع والنشور فنجازيكم بأعمالكم، قرأ حمزة والكسائي (ترجعون) بفتح الفوقية وكسر الجيم مبنياً للفاعل، وقرأ الباقر على البناء للمفعول؛ وقيل: إنه يجوز عطف وأنكم إلينا لا ترجعون على عبثاً على معنى: أنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع. ثم نزه سبحانه نفسه فقال: **«فتعالى الله»** أي: تنزه عن الأولاد والشركاء أو عن أن يخلق شيئاً عبثاً، أو

وقيل: هو إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعاً محرّم شرعاً، والزانية هي المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المكروهة، وكذلك الزاني، وبخول الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش، وأما على مذهب سيبويه فالخبر محذوف، والتقدير: فيما يتلى عليكم حكم الزانية، ثم بين ذلك بقوله ﴿فاجلدوا﴾، والجلد الضرب، يقال: جلده إذا ضرب جلده، مثل بطنه إذا ضرب بطنه، ورأسه إذا ضرب رأسه، وقوله ﴿مائة جلدة﴾ هو حدّ الزاني الحر البالغ البكر، وكذلك الزانية، وثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد، وهي: تغريب عام، وأما المملوك، والمملوكة، فجلد كلّ واحد منهما خمسون جلدة لقوله سبحانه: ﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ [النساء: 25] وهذا نص في الإماء، والحق بهنّ العبيد لعدم الفارق، وأما من كان محصناً من الأحرار، فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة، وبإجماع أهل العلم بل وبالقرآن المنسوخ لفظه الباقي حكمه وهو ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا * فارجموهما قربة﴾. وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة، وقد أوضحنا ما هو الحق في ذلك في شرحنا للمنتقى، وقد مضى الكلام في حدّ الزنا مستوفى، وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء. وقرأ عيسى بن عمر الثقفي، ويحيى بن يعمر، وأبو جعفر، وأبو شيبه (الزانية والزاني) بالنصب، قيل: وهو القياس عند سيبويه؛ لأنه عنده كقولك: زيداً أضرب. وأما الفراء، والمبرد، والزجاج، فالرفع عندهم أوجه وبه قرأ الجمهور. ووجه تقديم الزانية على الزاني هاهنا أن الزنا في ذلك الزمان كان في النساء أكثر حتى كان لهنّ رايات تنصب على أبوابهنّ ليعرفهنّ من أراد الفاحشة منهنّ. وقيل: وجه التقديم أن المرأة هي الأصل في الفعل، وقيل: لأن الشهوة فيها أكثر، وعليها أغلب، وقيل: لأن العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجة، والصيانة، فقدم ذكر الزانية تغليظاً، واهتماماً. والخطاب في هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم، وقيل: للمسلمين أجمعين، لأن إقامة الحدود واجبة عليهم جميعاً، والإمام ينوب عنهم، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود ﴿ولا تلتزمكم بهما رافة في دين الله﴾ يقال: راف رافة على وزن فعلة، ورافة على وزن فعالة، مثل النشأة، والنشأة وكلاهما بمعنى: الرقة، والرحمة، وقيل: هي أرق الرحمة. وقرأ الجمهور (رافة) بسكون الهمزة، وقرأ ابن كثير بفتحها، وقرأ ابن جريج (رافة) بالمد كفعالة، ومعنى: (في دين الله) في طاعته، وحكمه، كما في قوله: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ [يوسف: 76]، ثم قال: مثبتاً للمأمورين ومهيّجاً لهم ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ كما تقول للرجل تحضه على أمر: إن كنت رجلاً فافعل كذا أي: إن كنتم تصنفون بالتوحيد، والبعث الذي فيه جزاء الأعمال فلا تعطوا الحدود ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ أي: ليحضره زيادة في التنكيل بهما،

السورة في اللغة اسم للمنزلة الشريفة، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة، ومنه قول زهير: لم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك نونها يتذنب أي: منزلة. قرأ الجمهور (سورة) بالرفع وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أي: هذه سورة، ووجه الزجاج، والفراء، والمبرد، قالوا: لأنها نكرة، ولا يبدأ بالنكرة في كل موضع. والوجه الثاني أن يكون مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة كونها موصوفة بقوله ﴿انزلناها﴾ والخبر ﴿الزانية والزاني﴾ ويكون المعنى: السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختتم، وهذا معنى صحيح، ولا وجه لما قاله الأولون من تعليل المنع من الابتداء بها كونها نكرة فهي نكرة مخصصة بالصفة، وهو مجمع على جواز الابتداء بها. وقيل: هي مبتدأ محذوف الخبر على تقدير: فيما أوحينا إليك سورة، وردّ بأن مقتضى المقام ببيان شأن هذه السورة الكريمة، لا ببيان أن في جملة ما أوحى إلى النبي ﷺ سورة شأنها كذا وكذا. وقرأ الحسن بن عبد العزيز، وعيسى الثقفي، وعيسى الكوفي، ومجاهد، وأبو حيوة، وطلحة بن مصرف بالنصب، وفيه أوجه: الأول أنها منصوبة بفعل مقتر غير مفسر بما بعده، تقديره اتل سورة، أو اقرأ سورة. والثاني أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره ما بعده على ما قيل في باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره أي: أنزلنا سورة أنزلناها، فلا محل لأنزلناها هاهنا؛ لأنها جملة مفسرة، بخلاف الوجه الذي قبله، فإنها في محل نصب على أنها صفة لسورة. الوجه الثالث أنها منصوبة على الإغراء أي: نونك سورة، قاله صاحب الكشاف. ورده أبو حيان بأنه لا يجوز حذف أداة الإغراء. الرابع أنها منصوبة على الحال من ضمير أنزلناها، قال الفراء: هي حال من لها، والألف، والحال من المكنى يجوز أن تتقدم عليه، وعلى هذا فالضمير في أنزلناها ليس عائداً على سورة، بل على الأحكام، كأنه قيل: أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو (وفرّضناها) بالتشديد، وقرأ الباقر بالتخفيف. قال أبو عمرو: فرّضناها بالتشديد أي: قطعناها في الإنزال نجماً نجماً، والفرض القطع، ويجوز أن يكون التشديد للتكثير، أو للمبالغة، ومعنى التخفيف: أوجبناها، وجعلناها مقطوعاً بها، وقيل: الرزنامك العمل بها، وقيل: قرّنا ما فيها من الحدود، والفرض التقدير، ومنه ﴿إنّ الذي فرض عليك القرآن﴾ [القصص: 85] ﴿وانزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أنزلنا في غضونها وتضاعفها، ومعنى كونها بينات: أنها واضحة الدلالة على ملولها، وتكرير أنزلنا لكمال العناية بإنزال هذه السورة، لما اشتملت عليه من الأحكام ﴿الزانية والزاني﴾ هذا شروع في تفصيل ما أجمل من الآيات البينات، والارتفاع على الابتداء، والخبر ﴿فاجلدوا كل واحد منهما﴾، أو على الخبرية لسورة كما تقدم، والزنا هو وطء الرجل للمرأة في فرجها من غير نكاح، ولا شبهة نكاح.

حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابس عمر زنت فضرب رجلها وظهرها، فقلت: **«ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله»** قال: يا بني رأيته أخذتني بها رافة؟ إن الله لم يامرني أن أقتلها، ولا أن أجلد رأسها، وقد أوجعت حيث ضربت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. عن ابن عباس **«وليشهد عذلبهما طائفة من المؤمنين»** قال: الطائفة الرجل فما فوقه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، والضياء المقدسي في المختارة من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في قوله **«الزاني لا ينكح»** قال: ليس هذا بالنكاح، ولكن الجماع، لا يزني بها حين يزني إلا زان، أو مشرك **«وحرم ذلك على المؤمنين»** يعني: الزنا. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن مجاهد في قوله **«الزاني لا ينكح إلا زانية»** قال: كن نساء في الجاهلية بغيات، فكانت منهن امرأة جميلة تدعى أم جميل، فكان الرجل من المسلمين يتزوج إحداهن لتتفق عليه من كسبها، فنهى الله سبحانه أن يتزوجهن أحد من المسلمين، وهو مرسل. وأخرج عبد بن حميد، عن سليمان بن يسار نحوه مختصراً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عطاء، عن ابن عباس قال: كانت بغايا في الجاهلية بغايا آل فلان، وبغايا آل فلان، فقال الله **«الزاني لا ينكح إلا زانية»** الآية، فأحكم الله ذلك في أمر الجاهلية، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن الضحاك في الآية قال: إنما عني بذلك الزنا، ولم يعن به التزويج. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبيرة نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: الزاني من أهل القبلة لا يزني إلا بزانية مثله من أهل القبلة، أو مشركة من غير أهل القبلة، والزانية من أهل القبلة لا تزني إلا بزاني مثله من أهل القبلة، أو مشرك من غير أهل القبلة، وحرم الزنا على المؤمنين. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: أم مهزول، وكانت تسافح، وتشتري أن تنفق عليه، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله **«الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك»**. وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغية بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وذكر

وشيوخ العار عليهما، وإشهار فضيحتهما، والطائفة الفرقة التي تكون حافة حول الشيء، من الطوف، وأقل الطائفة ثلاثة، وقيل: اثنان، وقيل: واحد، وقيل: أربعة، وقيل: عشرة.

ثم نكر سبحانه شيئاً يختص بالزاني، والزانية، فقال **«الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة»**.

قد اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية على أقوال: الأول: أن المقصود منها تشنيع الزنا، وتشنيع أهله، وأنه محرم على المؤمنين، ويكون معنى الزاني لا ينكح: الوطء لا العقد أي: الزاني لا يزني إلا بزانية، والزانية لا تزني إلا بزاني، وزاد نكر المشركة والمشرک لكون الشرك أعم في المعاصي من الزنا. ورد هذا الزواج وقال: لا يعرف النكاح في كتاب الله إلا بمعنى التزويج، ويرد هذا الرد بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت في كتاب الله سبحانه، ومنه قوله: **«حتى تنكح زوجاً غيره»** [البقرة: 230] فقد بينه النبي ﷺ، بأن المراد به الوطء، ومن جملة القائلين بأن معنى الزاني لا ينكح إلا زانية: الزاني لا يزني إلا بزانية، سعيد بن جبيرة، وابن عباس، وعكرمة، كما حكاه ابن جرير عنهم، وحكاها الخطابي عن ابن عباس. القول الثاني: أن الآية هذه نزلت في امرأة خاصة كما سيأتي بيانه فتكون خاصة بها كما قاله الخطابي. القول الثالث: أنها نزلت في رجل من المسلمين، فتكون خاصة به قاله مجاهد. الرابع: أنها نزلت في أهل الصفة، فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح. الخامس: أن المراد بالزاني والزانية المحدودان حكاه الزجاج، وغيره عن الحسن قال: وهذا حكم من الله، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة. وروي نحوه عن إبراهيم النخعي، وبه قال بعض أصحاب الشافعي. قال ابن العربي: وهذا معنى لا يصح نظراً كما لم يثبت نقلاً. السادس: أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه: **«وأنكحوا الأيامي منكم»** [النور: 32] قال النحاس: وهذا القول عليه أكثر العلماء. القول السابع: أن هذا الحكم مؤسس على الغالب، والمعنى: أن غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله، وغالب الزواني لا يرغب إلا في الزواج بزاني مثله، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا، وهذا أرجح الأقوال، وسبب النزول يشهد له كما سيأتي.

وقد اختلف في جواز تزويج الرجل بامرأة قد زنى هو بها، فقال الشافعي، وأبو حنيفة: بجواز ذلك. وروي عن ابن عباس، وروي عن عمر، وابن مسعود، وجابر: أنه لا يجوز. قال ابن مسعود: إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبداً، وبه قال مالك، ومعنى **«وحرم ذلك على المؤمنين»** أي: نكاح الزواني، لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للثمة، والظلم في النسب. وقيل: هو مكروه فقط، وعبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة في الزجر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله **«سورة أنزلناها وفرضناها»** قال: بينهاها. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن

والأنفس المحصنات، ويؤيد هذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 24] فإن البيان بكونهن من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء، وإلا لم يكن للبيان كثير معنى، وقيل: أراد بالمحصنات الفروج كما قال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: 91] فتتناول الآية الرجال والنساء. وقيل: إن لفظ المحصنات، وإن كان للنساء لكنه هاهنا يشمل النساء والرجال تغليباً، وفيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف في لغة العرب، والمراد بالمحصنات هنا العفاف، وقد مضى في سورة النساء ذكر الإحصان، وما يحتمله من المعاني. وللعلماء في الشروط المعتمدة في المقنوف والقاذف أبحاث مطوّلة مستوفاة في كتب الفقه، منها ما هو مأخوذ من دليل، ومنها ما هو مجرد رأي بحث. قرأ الجمهور (والمحصنات) بفتح الصاد، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرهما، وذهب الجمهور من العلماء: أنه لا حدّ على من قذف كافر أو كافرة. وقال الزهري، وسعيد بن المسيب، وابن أبي ليلى: إنه يجب عليه الحدّ. وذهب الجمهور أيضاً: أن العبد يجلد أربعين جلدة. وقال ابن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، وقبيصة: يجلد ثمانين. قال القرطبي: وأجمع العلماء على: أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترض عليه لتبائن مرتبتهما، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ: أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قاله. ثم نكر سبحانه شرطاً لإقامة الحدّ على من قذف المحصنات فقال ﴿فَمَنْ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: يشهدون عليها بوقوع الزنا منهم، ولفظ «ثم» يدلّ على: أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود في غير مجلس القذف، وبه قال الجمهور، وخالف في ذلك مالك. وظاهر الآية: أنه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين ومفترقين، وخالف في ذلك الحسن، ومالك، وإذا لم تكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحلّون حدّ القذف. وقال الحسن، والشعبي: إنه لا حدّ على الشهود، ولا على المشهود عليه، وبه قال أحمد، وأبو حنيفة، ومحمد بن الحسن. ويردّ ذلك ما وقع في خلافة عمر رضي الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا، ولم يخالف في ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنه. قرأ الجمهور (بأربعة شهداء) بإضافة أربعة إلى شهداء، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار، وأبو زرعة بن عمرو بتثوين أربعة.

وقد اختلف في إعراب شهداء على هذه القراءة، فقيل: هو تمييز. وردّ بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كما هو مقرر في علم النحو. وقيل: إنه في محل نصب على الحال. وردّ بأن الحال لا يجيء من النكرة التي لم تخصص. وقيل: إن شهداء في محل جرّ نعتاً لأربعة، ولما كان فيه ألف التانيث لم ينصرف. وقال النحاس: يجوز أن يكون شهداء في موضع نصب على المفعولية أي: ثم لم يحضروا أربعة شهداء، وقد قوى ابن جني هذه القراءة، ويدفع ذلك قول سيبويه: إن تثوين العدد، وترك إضافته إنما يجوز في الشعر.

قصة وفيها: «فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ أو مشركة والزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ لَكُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تنكحها» وأخرج ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو في الآية قال: كنّ نساء معلومات، فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهم ليتفق عليه، فنهاهم الله عن ذلك. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس: أنها نزلت في بغايا معلّات كنّ في الجاهلية وكنّ زواني مشركات، فحرّم الله نكاحهنّ على المؤمنين. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مرويّه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال: كنت مع ابن عباس، فأتاه رجل، فقال: إني كنت أتبع امرأة، فاصبت منها ما حرّم الله عليّ، وقد رزقني الله منها توبة، فارتأت أن أتزوجها، فقال الناس: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كنّ نساء بغايا متعلّات يجعلنّ على أبوابهنّ رايات يأتيهنّ الناس يعرفنّ بذلك، فأنزل الله هذه الآية، تزوّجها فما كان فيها من إثم فعليّ. وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مرويّه، والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب: أن رجلاً تزوّج امرأة، ثم إنه زنى فأقيم عليه الحدّ، فجاءوا به إلى عليّ ففرق بينه وبين امرأته، وقال: لا تتزوّج إلا مجلودة مثلك.

وَالَّذِينَ يَزْنُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ جُنْدَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَزْنُونَ ① وَلَا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا ② إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ③ وَالَّذِينَ يَزْنُونَ أَرْوَاهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحْمَدٍ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ وَأَمَّا إِثْمُ لَيْلٍ الصَّافِي ④ وَالْمَرْيُومَةُ ⑤ أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ⑥ وَيُرَدُّ عَنْهُ الْعَلَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ وَاللَّهُ إِثْمُ لَيْلٍ الْكَذِبِينَ ⑦ وَالْمَرْيُومَةُ ⑧ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّافِي ⑨ وَلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ رَحِمَهُ وَاللَّهُ تَوَكَّلَ حَكِيمٌ ⑩

قوله ﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ﴾ استعار الرمي للشتم بفاحشة الزنا لكونه جنابة بالقول كما قال النابغة:

وجرح اللسان كجرح اليد

وقال آخر:

رمانى بامرئ كنت عنه ووالدي برياً ومن أجل الطوى رمانى ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفاً، والمراد بالمحصنات النساء، وخصهنّ بالذكر لأن قذفهنّ أشنع، والعار فيهنّ أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة، وقد جمعنا في ذلك رسالة ردنا بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادي عشر لما نازع في ذلك. وقيل: إن الآية تعمّ الرجال، والنساء، والتقدير:

بضم الكاف. قال الفراء: وهو وجه جيد، لأن العرب تقول: فلان تولى عظيم كذا وكذا أي: أكبره، وقرأ الباقون بكسرهما. قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالضم معظم الإفك، وبالكسر البداة به، وقيل: هو بالكسر الإثم. فالمعنى: إن الذي تولى معظم الإفك من العصبية له عذاب عظيم في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما.

واختلف في هذا الذي تولى كبره من عصبية الإفك من هو منهم؟ فقيل: هو عبد الله بن أبي، وقيل: هو حسان، والأول هو الصحيح. وقد روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة، وهم مسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش. وقيل: جلد عبد الله بن أبي، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، ولم يجلد مسطحاً، لأنه لم يصرح بالقذف، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح. وقيل: لم يجلد أحداً منهم. قال القرطبي: المشهور من الأخبار، والمعروف عند العلماء: أن الذين حنوا: حسان، ومسطح، وحمنة. ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي، ويؤيد هذا ما في سنن أبي داود عن عائشة، قالت: لما نزل عذري، قام النبي ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم، وسماهم: حسان، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش.

واختلفوا في وجه تركه ﷺ لجلد عبد الله بن أبي، فقيل: لتوفير العذاب العظيم له في الآخرة، وحدّ من عداه ليكون ذلك تكفيراً لذنوبهم كما ثبت عنه ﷺ في الحدود أنه قال: «إنها كفارة لمن أقيمت عليه». وقيل: ترك حدّه تألفاً لقومه، واحتراماً لابنه، فإنه كان من صالحى المؤمنين، وإطفاءً لنافثة الفتنة، فقد كانت ظهرت مبانيها من سعد بن عبادة ومن معه كما في صحيح مسلم. ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال «ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» «ولولا» هذه هي التحضيضية تأكيداً للتوبيخ، والتقريع، ومبالغة في معاتبتهم أي: كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فهو: في أم المؤمنين أبعد. قال الحسن: معنى بأنفسهم بأهل دينهم، لأن المؤمنين كنفس واحدة لا ترى إلى قوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» [النساء: 29]. قال الزجاج: ولذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضاً: إنهم يقتلون أنفسهم. قال المبرد: ومثله قوله سبحانه «فاقتلوا أنفسكم» [البقرة: 54] قال النحاس: بأنفسهم بإخوانهم، فالجواب الله سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقتل أحداً، ويكرهه بقيق لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه. قال العلماء: إن في الآية ليلياً على أن درجة الإيمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وإن شاع «وقالوا هذا إفك مبين» أي: قال المؤمنون عند سماع الإفك: هذا إفك ظاهر مكشوف، وجملة «ولولا جاءوا عليه بأربعة شهداء» من تمام ما يقوله المؤمنون أي وقالوا: هلا

هم الكذابين ﴿٣٩﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمتكز في ما أقضت فيه عذاب عظيم ﴿٤٠﴾ إذ تلقونهم بالبينات وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه نبياً وهو عند الله عظيم ﴿٤١﴾ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سمعنا هذا بينت عظيم ﴿٤٢﴾ يبطئكم الله أن تمردوا ليضلوا أبداً إن كنتم مؤمنين ﴿٤٣﴾ وبين الله لكم الآيات لعلكم تحذرون ﴿٤٤﴾ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب عظيم ﴿٤٥﴾ في الدنيا والآخرة والله يعلم ما تعلمون ﴿٤٦﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴿٤٧﴾ تأتينا الذين آمنوا لا تنبئوا خاطرات الأنبياء ومن ينفع خاطرات الأنبياء يأتيهم بالمشاء والمكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما كنتم منكرين آمدين أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله صميع عليم ﴿٤٨﴾

خبر إن من قوله «إن الذين جاءوا بالإفك» هو: «عصبية»، و«منكم» صفة لعصبية، وقيل: هو «لا تحسبوه شراً لكم»، ويكون عصبية بدلا من فاعل جاءوا. قال ابن عطية: وهذا أنسق في المعنى، وأكثر فائدة من أن يكون الخبر عصبية، وجملة لا تحسبوه، وإن كانت طلبية، فجعلها خبراً يصح بتقدير كما في نظائر ذلك، والإفك أسوأ الكذب وأقبحه، وهو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه. فالإفك هو: الحديث المقلوب، وقيل: هو البهتان وأجمع المسلمون على أن المراد بما في الآية ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين، وإنما وصفه الله بأنه إفك، لأن المعروف من حالها رضي الله عنها خلاف ذلك، قال الواحدي: ومعنى القلب في هذا الحديث الذي جاء به أولئك النفر: أن عائشة رضي الله عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة، وشرف النسب والسبب لا القذف، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه، فهو إفك قبيح، وكذب ظاهر، والعصبية: هم الجماعة من العشرة إلى الأبعين، والمراد بهم هنا عبد الله بن أبي رأس المنافقين، زيد بن رفاع، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش، ومن ساعدهم. وقيل: العصبية من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وأصلها في اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض، وجملة «لا تحسبوه شراً لكم» إن كانت خبراً لإِنْ فظاهر، وإن كان الخبر عصبية كما تقدم، فهي مستأنفة، خوطب بها النبي ﷺ، وعائشة، وصفوان بن المعطل الذي قذف مع أم المؤمنين، وتسلياً لهم، والشر ما زاد ضره على نفعه، والخير ما زاد نفعه على ضره، وأما الخير الذي لا شر فيه فهو: الجنة، والشر الذي لا خير فيه فهو: النار، ووجه كونه خيراً لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين، وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاماً «لأن كل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم» أي: بسبب تكلمه بالإفك «والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم» قرأ الحسن، والزهرى، وأبو رجاء، وحמיד الأعرج، ويعقوب، وابن أبي عمير، ومجاهد، وعمرة بنت عبد الرحمن

راجع إلى الحديث الذي وقع الخوض فيه والإذاعة له **﴿وتحسبونه هيناً﴾** أي: شيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم، وجملة **﴿وهو عند الله عظيم﴾** في محل نصب على الحال أي: عظيم نذبه وعقابه **﴿ولولا﴾** إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا **﴿هذا عتاب لجميع المؤمنين﴾** أي: هلا إذا سمعتم حديث الإفك قلتم تكتيباً للخائضين فيهم المفتريين له ما ينبغي لنا، ولا يمكننا أن نتكلم بهذا الحديث، ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه، ومعنى قوله **﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾** التعجب من أولئك الذين جاءوا بالإفك، وأصله التنزيه لله سبحانه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، والبهتان هو: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه أي: هذا كذب عظيم لكونه قيل في أم المؤمنين رضي الله عنها، وصورته مستحيل شرعاً من مثله. ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال **﴿يعظكم الله أن تعوبوا لمثله ابداً﴾** أي: ينصحكم الله، أو يحرم عليكم، أو ينهاكم كرامة أن تعوبوا، أو من أن تعوبوا، أو في أن تعوبوا لمثل هذا القذف مدة حياتكم **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** فإن الإيمان يقتضي عدم الوقوع في مثله ما لمتهم، وفيه تهيب عظيم وتقريع بالغ **﴿ويبين الله لكم الآيات﴾** في الأمر والنهي لتعملوا بذلك، وتتأبوا بأدب الله، وتنزجروا عن الوقوع في محارمه **﴿والله عليم﴾** بما تبونه وتخفونه **﴿حكيم﴾** في تدبيراته لخلقه. ثم هذ سبحانه القاذفين، ومن أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين، ونذوبهم فقال: **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾** أي: يحبون أن تفشو الفاحشة وتنتشر، من قولهم: شاع الشيء يشيع شيوعاً، وشيعاً، وشيعاناً: إذا ظهر وانتشر، والمراد بالذين آمنوا المحصنون العفيفون، أو كل من اتصف بصفة الإيمان، والفاحشة هي: فاحشة الزنا، أو القول السيء **﴿لهم عذاب ليم في الدنيا﴾** بإقامة الحد عليهم **﴿والآخرة﴾** بعذاب النار **﴿والله يعلم﴾** جميع المعلومات **﴿وانتم لا تعلمون﴾** إلا ما علمكم به وكشفه لكم، ومن جملة ما يعلمه الله عظم ذنب القذف، وعقوبة فاعله **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾** هو: تكرير لما تقدم تذكيراً للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعالجة لهم **﴿وان الله رءوف رحيم﴾** ومن راقته بعباده أن لا يعاجلهم بنذوبهم، ومن رحمته لهم أن يتقدم إليهم بمثل هذا الإعذار، والإنذار، وجملة: **﴿وان الله رءوف رحيم﴾** معطوفة على فضل الله، وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: لعاجلكم بالعقوبة **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** الخطوات جمع خطوة، وهي: ما بين القدمين، والخطوة بالفتح المصدر أي: لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه، ولا تسلكوا طرائقه التي يدعوكم إليها. قرأ الجمهور (خطوات) بضم الخاء، والطاء، وقرأ عاصم، والاعمش بضم الخاء، وإسكان الطاء. **﴿من يتبع خطوات الشيطان فإنه يامر بالفحشاء والمنكر﴾** قيل: جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له، كأنه قيل: فقد ارتكب

جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا **﴿فإذا﴾** لم يأتوا بالشهداء فاولئك أي: الخائضون في الإفك **﴿عند الله هم الكاذبون﴾** أي: في حكم الله تعالى هم الكاذبون الكاملون في الكذب **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾** هذا خطاب للسامعين، وفيه زجر عظيم **﴿ولولا﴾** هذه هي لامتناع الشيء لوجود غيره **﴿لمسكم فيما أفضتم فيه﴾** أي: بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، يقال أفاض في الحديث، وانفغ وخاض. والمعنى: لولا أنني قضيت عليكم بالفضل في الدنيا بالنعم التي من جملتها الإمهال، والرحمة في الآخرة بالعفو، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. وقيل: المعنى لولا فضل الله عليكم لمسكم العذاب في الدنيا والآخرة معاً، ولكن برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً **﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾** الظرف منصوب بمسكم، أو بافضتم، قرأ الجمهور: **﴿إذ تلقونه﴾** من التلقي، والأصل تتلقونه، فحذف إحدى التاءين. قال مقاتل، ومجاهد: المعنى يرويه بعضكم عن بعض. قال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقي الرجل فيقول: بلغني كذا، وكذا، ويتلقونه تلقياً. قال الزجاج: معناه يلقيه بعضكم إلى بعض. وقرأ محمد بن السميع بضم التاء، وسكون اللام، وضم القاف، من الإلقاء، ومعنى هذه القراءة واضح. وقرأ أبي، وابن مسعود (تتلقونه) من التلقي، وهي كقراءة الجمهور. وقرأ ابن عباس، وعائشة، وعيسى بن عمر، ويحيى بن يعمر، وزيد بن علي بفتح التاء، وكسر اللام، وضم القاف، وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب، ولقي يلقى ولقاءً: إذا كذب. قال ابن سيده: جاءوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي. قال ابن عطية: وعندي أنه أراد يلقون فيه، فحذف حرف الجر، فاتصل الضمير. قال الخليل، وأبو عمرو: أصل الولى الإسراع، يقال: جاءت الإبل تلق أي: تسرع، ومنه قول الشاعر:

لما راوا جيشاً عليهم قد طرق
جاءوا بأسراب من الشام ولق
وقال الآخر:

جاءت به عيس من الشام تلق

قال أبو البقاء: أي: يسرعون فيه. قال ابن جرير: وهذه اللفظة أي: تلقونه على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولق، وهو: الإسراع بالشيء بعد الشيء كعد في إثر عد، وكلام في إثر كلام. وقرأ زيد بن أسلم، وأبو جعفر (تلقونه) بفتح التاء، وهمزة ساكنة، ولام مكسورة، وقاف مضمومة من اللق، وهو: الكذب، وقرأ يعقوب (تليقونه) بكسر التاء من فوق بعدها ياء تحتية ساكنة، ولام مفتوحة، وقاف مضمومة، وهو: مضارع ولق بكسر اللام، ومعنى: **﴿وتقولون﴾** باقواهم ما ليس لكم به علم، أن قولهم هذا مختص بالافواه من غير أن يكون واقعاً في الخارج معتقداً في القلوب. وقيل: إن نكر الافواه للتأكيد كما في قوله: **﴿يطير بجناحيه﴾** [الأنعام: 38]، ونحوه، والضمير في تحسبونه

عبد الله بن أبي، قال: فقال لي: فما كان جرمه؟ قلت: حدثني شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول: كان مسيئاً في أمري. وقال يعقوب بن شعبة في مسنده: حدثنا الحسن بن علي الحلواني، حدثنا الشافعي، حدثنا عمي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان الذي تولى كبره من هو؟ قال: عبد الله بن أبي. قال: كذبت هو علي. قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهري فقال: يا ابن شهاب من الذي تولى كبره؟ فقال: ابن أبي. قال: كذبت هو علي. قال: أنا أكذب؟ لا أبا لك، والله لو نادى مناد من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت، حدثني عروة، وسعيد، وعبد الله، وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبه وقال:

حصان رزان ما تترن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
قالت: لكنك لست كذلك، قلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك،
وقد أنزل الله ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾
فقلت: وأي عذاب أشد من العمى؟ وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، وابن عساکر عن بعض الأنصار: أن امرأة أبي أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك، وأطيب، إنما هذا كذب وإفك باطل، فلما نزل القرآن نكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك. ثم قال: ﴿ولو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ أي: كما قال أبو أيوب، وصاحبته. وأخرج الواقدي، والحاكم، وابن عساکر عن أفلح مولى أبي أيوب: أن أم أيوب، فنكر نحوه. وأخرج ابن أبي شعبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس ﴿يعظكم الله أن تعبدوا لمثله أيداً﴾ قال: يحرّج الله عليكم. وأخرج البخاري في الآلب، والبيهقي في شعب الإيمان، عن علي بن أبي طالب قال: القائل الفاحشة، والذي شيع بها في الإثم سواء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ قال: ما اهتدى أحد من الخلاق لشيء من الخير.

أَوَّلَا يَأْتِي أَوْلَا الْفَضْلِ يَنْكُرُ وَالسَّعَى أَنْ يَزُولُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْكَسْبَيْنِ
وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَيَعْمَرُوا وَلَيَسْتَعْمَرُوا أَلَا تَجِدُونَ أَنَّ يَفْعَرُ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَمُنْذَرٌ فِي
الْأَنْبِيَاءِ وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٩﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ الْبُيُوتُ اللَّهُ وَبَيْنَهُمْ الْحَقُّ وَنُفِخَ عَنْ
هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ لَكِنَّتَ لِلْجَافِرِينَ وَالْخَبِيثِينَ لِلْجَعِيلِ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّائِفَاتِ

الفحشاء والمنكر لأن دأبه أن يستمرّ أمراً لغيره بهما، والفحشاء ما أقرط قبحه، والمنكر ما ينكره الشرع، وضمير إنه للشيطان، وقيل: للشان، والأولى أن يكون عائداً إلى من يتبع خطوات الشيطان، لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً به في الأمر بالفحشاء والمنكر ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته﴾ قد تقدّم بيانه، وجواب لولا هو قوله ﴿ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: لولا التفضيل، والرحمة من الله ما طهر أحد منكم نفسه من نفسها ما دام حياً. قرأ الجمهور (زكى) بالتخفيف، وقرأ الأعمش، وابن محيصن، وأبو جعفر بالتشديد أي: ما طهره الله. وقال مقاتل: أي: ما صلح. والأولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير، وهو: الذي نكره ابن قتبية. قال الكسائي: إن قوله ﴿ما زكى﴾ لا تتبعوا خطوات الشيطان، معترض، وقوله ﴿ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ جواب لقوله: أولاً، وثانياً، ولولا فضل الله. وقراءة التخفيف أرجح لقوله ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ أي: من عباده بالتفضل عليهم، والرحمة لهم ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه ﴿عليهم﴾ بجميع المعلومات، وفيه حدّ بالغ على الإخلاص، وتهيب عظيم لعباده الثابتين، ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان، ويحب أن تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين، ولا يزجر نفسه بزواج الله سبحانه.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم حديث عائشة الطويل في سبب نزول هذه الآيات بالفاظ متعددة، وطرق مختلفة. حاصله: أن سبب النزول هو: ما وقع من أهل الإفك الذين تقدّم نكرهم في شأن عائشة رضي الله عنها، وذلك أنها خرجت من هوبجها تلتمس عقداً لها انقطع من جزع، فرحلوا، وهم يظنون أنها في هوبجها، فرجعت، وقد ارتحل الجيش، والهوج معهم، فاقامت في ذلك المكان، ومزّ بها صفوان بن المعطل، وكان متأخراً عن الجيش، فأتاها راحلته، وحملها عليها؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا، فبرأها الله مما قالوه. هذا حاصل القصة مع طولها، وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأهل السنن الأربع، وابن المنذر، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: لما نزل عنزي قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل امر برجلين وامرأة فضربوا حذم. قال الترمذي: هذا حديث حسن. ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبي ابن سلول، ومسطح، وحسان، وحمنة بنت جحش. وأخرج البخاري، وابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولى كبره منهم علي، فقلت لا، حدثني سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كلهم سمع عائشة تقول: الذي تولى كبره منهم

لِّلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِّلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مَبْرُورٌ مِّمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾

قوله **«ولا يا قاتل»** أي: يحلف، وزنه يفتعل من الالية، وهي اليمين، ومنه قول الشاعر:

تألى ابن أوس حلفة ليرنني إلى نسوة كأنهن مفايد
وقول الآخر:

قليل الاياحافظ ليمينه وإن بشرت منه الالية بزت
يقال: ائتلى ياتلي إذا حلف. ومنه قوله سبحانه: ﴿لَلَّذِينَ
يُؤْلُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ﴾ [البقرة: 226] وقالت فرقة: هو: من ألوت
في كذا إذا قصرت، ومنه لم آل جهداً: أي: لم أقصر، وكذا
منه قوله: ﴿لَا يَلُونَكُمْ خِيَالًا﴾ [آل عمران: 118] ومنه قول
الشاعر:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بـمـرـك أطراف الخطوب ولا آل والأول أولى بليل سبب النزول، وهو ما سيأتي، والمراد بالفضل الغنى والسعة في المال ﴿إِنْ يَأْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: على أن لا يؤتوا. قال الزجاج: أن لا يؤتوا فحذف لا، ومنه قول الشاعر:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي ليدك وأوصالي

وقال أبو عبيدة: لا حاجة إلى إضمار لا، والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان الجامعين لتلك الأوصاف، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى: لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحنة للذنب اقترفوه، وقرأ أبو حيوه (إن تؤتوا) بقاء الخطاب على الالتفات. ثم علمهم سبحانه أنبا آخر، فقال: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ عن ذنبهم الذي أنذبه عليهم، وجناباتهم التي اقترفوها، من عفا الربع: أي: درس، والمراد موجو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإغضاء عن الجاني، والإغضاء عن جنابته، وقرئ بالفوقية في الفعلين جميعاً. ثم ذكر سبحانه ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح، فقال ﴿أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين إليهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ قد مرَّ تفسير المحصنات، وذكرنا الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حدِّ القذف.

وقد اختلف في هذه الآية هل هي خاصة أو عامة؟ فقال سعيد بن جببر: هي خاصة فيمن رمى عائشة رضي الله عنها. وقال مقاتل: هي خاصة بعبد الله بن أبي رأس المنافقين. وقال الضحاک، والكلبي: هذه الآية هي في عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ، بون سائر المؤمنين والمؤمنات، فمن قذف إحدى أزواج النبي ﷺ، فهو من أهل هذه الآية. قال الضحاک: ومن أحكام هذه الآية: أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ، ومن قذف غيره فقد جعل الله له التوبة كما تقدم في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: 5]. وقيل: إن

هذه الآية خاصة بمن أصرَّ على الكفِّف ولم يتب، وقيل: إنها تعم كلَّ قائف ومقنوف من المحصنات والمحصنين، واختاره النحاس، وهو: الموافق لما قرَّره أهل الأصول من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: إنها خاصة بمشركي مكة، لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة: إنما خرجت لتفجر. قال أهل العلم: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنون من الكفنة، فالمراد باللعنة الإبعاد، ضرب الحد، وهجر سائر المؤمنين لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، والبعد عن الثناء الحسن على السنة المؤمنين، وإن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور في جانب عبد الله بن أبي راس المنافقين، وإن كانت في مشركي مكة فإنهم ملعونون ﴿في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾، والمراد بالغفلات اللاتي غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر بالهن، ولا يخطر لها، وفي ذلك من الدلالة على كمال النزاهة وطهارة الجيب ما لم يكن في المحصنات، وقيل: هنَّ السليمات الصدور النقيات القلوب ﴿يوم تشهد عليهم السنتهم﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها مبينة لوقت حلول ذلك العذاب بهم، وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذي لا يحيط به وصف. وقرأ الجمهور (يوم تشهد) بالفوقية، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف بالتحتي، واختار هذه القراءة أبو عبيد، لأن الجارَّ والمجرور قد حال بين الاسم والفعل. والمعنى: تشهد السنة بعضهم على بعض في ذلك اليوم، وقيل: تشهد عليهم السنتهم في ذلك اليوم بما تكلموا به ﴿وولييهم وأرجلهم﴾ بما عملوا بها في الدنيا، وإن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم، والمشهود محنوف، وهو: ذنوبهم التي اقترفوها أي: تشهد هذه عليهم بذنوبهم التي اقترفوها، ومعاصيهم التي عملوها ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ أي: يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موفراً، فالمراد بالذنين هاهنا الجزء، وبالحق الثابت الذي لا شك في ثبوته. قرأ زيد بن علي (يوفيهم) مخففاً من أوفى، وقرأ من عده بالتشديد من وفى. وقرأ أبو حيوة، ومجاهد (الحق) بالرفع على أنه نعت لله، وروي ذلك عن ابن مسعود. وقرأ الباقر بالنصب على أنه نعت لدينهم. قال أبو عبيدة: ولولا كرامة خلاف الناس لكان الوجه الرفع؛ ليكون نعتاً لله عزَّ وجلَّ، ولتكون موافقة لقراءة أبي، وذلك أن جرير بن حازم قال: رأيت في مصحف أبي (يوفيهم الله الحق دينهم). قال النحاس: وهذا الكلام من أبي عبيدة غير مرضي؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم، ولا حجة أيضاً فيه؛ لأنه لو صحَّ أنه في مصحف أبي كذلك جاز أن يكون دينهم بدلا من الحق ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ أي: ويعلمون عند معاينتهم لذلك، ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز: أن الله هو: الحق الثابت في ذاته، وصفاته، وأفعاله، المبين المظهر للأشياء كما هي في أنفسها، وإنما سمي سبحانه

الحق؛ لأن عبادته هي الحق بون عبادة غيره. وقيل: سمي بالحق أي: الموجود لأن نقيضه الباطل، وهو المعلوم. ثم ختم سبحانه الآيات الواردة في أهل الإفاك بكلمة جامعة فقال **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾** أي: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال أي: مختصة بهم لا تتجاوزهم، وكذا الخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزونهن، وهكذا قوله **﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾** قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وأكثر المفسرين: المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل. قال الزجاج: ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبيث، ومدح للذين برؤواها. وقيل: إن هذه الآية مبنية على قوله: **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾** [النور: 3] فالخبيثات الزواني، والطيبات العفاف، وكذا الخبيثون، والطيبون، والإشارة بقوله: **﴿أُولَئِكَ مِزْعُونٌ مِمَّا يَقُولُونَ﴾** إلى الطيبين، والطيبات أي: هم مِزْعُونٌ مما يقوله الخبيثون، والخبيثات، وقيل: الإشارة إلى أزواج النبي ﷺ، وقيل: إلى رسول الله ﷺ، وعائشة، وصفوان بن المعطل، وقيل: عائشة، وصفوان فقط. قال الفراء: وجمع كما قال: **﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾** [النساء: 11]، والمراد أخوان **﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾** أي: هؤلاء المِزْعُونُ لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلوا عنه البشر من الذنوب **﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾**، وهو رزق الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَا يَاقُلُ﴾** الآية، يقول: لا يقسموا أن لا ينفعوا أحداً. وأخرج ابن المنذر، عن عائشة قالت: كان مسطح بن أثانة ممن تولى كبره من أهل الإفك، وكان قريباً لأبي بكر، وكان في عياله، فحلف أبو بكر: أن لا ينيله خيراً أبداً، فأنزل الله **﴿وَلَا يَاقُلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾** الآية، قالت: فاعاده أبو بكر إلى عياله، وقال: لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا تحللته، وأتيت الذي هو خير. وقد روي هذا من طرق عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن مروي، عن ابن عباس في الآية قال: كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبیح وأقشوا ذلك، وتكلموا فيها، فاقسم ناس من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو بكر: أن لا يتصنّفوا على رجل تكلم بشيء من هذا، ولا يصلوه، فقال: لا يقسم أولوا الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم، وأن يعطوهم من أموالهم كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك، فأمر الله: أن يغفر لهم، وأن يعفى عنهم. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي عنه في قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾** الآية، قال: نزلت في عائشة خاصة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، وابن مروي عنه أيضاً في الآية قال: هذه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا رَسُلُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَمَلَكُمْ تَذَكُّرُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ قِيلَ لَكُمْ أَرَبِعُوا فَأَجِبُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٣٩﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف شرع في ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين، وأيضاً إن الإنسان يكون في بيته، ومكان خلوته

﴿هو أذكى لكم﴾ أي: أفضل ﴿وطاهر﴾ من التدنس بالمشاحة على الدخول لما في ذلك من سلامة الصدر، والبعد من الريبة، والفرار من الدناءة ﴿والله بما تعملون عليم﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ أي: لا جناح عليكم في الدخول بغير استئذان إلى البيوت التي ليست بمسكونة.

وقد اختلف الناس في المراد بهذه البيوت، فقال محمد بن الحنفية، وقتادة، ومجاهد: هي الفنايق التي في الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل يأوي إليها. وقال ابن زيد، والشعبي: هي حوانيت القيساريات، قال الشعبي: لأنهم جاءوا ببيوتهم، فجعلوها فيها، وقالوا: للناس هلم. وقال عطاء: المراد بها الخرب التي يخلها الناس للبول، والغائط، ففي هذا أيضاً متاع. وقيل: هي بيوت مكة. روي ذلك عن محمد بن الحنفية أيضاً، وهو موافق لقول من قال: إن الناس شركاء فيها، ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة. والمتاع: المنفعة عند أهل اللغة، فيكون معنى الآية: فيها منفعة لكم، ومنه قوله: ﴿ومتعوهن﴾ [البقرة: 236] وقولهم: أمتع الله بك، وقد فسر الشعبي المتاع في كلامه المتقدم بالاعيان التي تباع. قال جابر بن زيد: وليس المراد بالمتاع الجهاز، ولكن ما سواه من الحاجة. قال النحاس: وهو حسن موافق للغة ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ أي: ما تظهرون وما تخفون، وفيه وعيد لمن لم يتأذب بأداب الله في دخول بيوت الغير.

وقد أخرج الفريابي، وابن جرير من طريق عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: قالت امرأة: يا رسول الله إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أحب أن يراني عليها أحد، ولد ولا والد، فيأتيني الأب فيدخل علي، فكيف أصنع؟ ولفظ ابن جرير: وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي، وأنا على تلك الحالة، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ الآية. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن منده في غرائب شعبة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾ قال: أخطأ الكاتب حتى تستأنسوا ﴿وتسلموا على أهلها﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن إبراهيم النخعي قال في مصحف عبد الله (حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا). وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: الاستئناس: الاستئذان. وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله أرايت قول الله تعالى ﴿حتى تستأنسوا﴾

على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية، هي قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾، والاستئناس: الاستعلام، والاستخبار أي: حتى تستعلموا من في البيت، والمعنى: حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم، وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم، فإذا علمتم ذلك دخلتم، ومنه قوله: ﴿فإن أنستم منهم رشداً﴾ [النساء: 6] أي: علمتم. قال الخليل: الاستئناس الاستكشاف، من أنس الشيء إذا أبصره كقوله: ﴿إني أنست ناراً﴾ [طه: 10، النمل: 7] أي: أبصرت. وقال ابن جرير: إنه بمعنى وتؤنسوا أنفسكم. قال ابن عطية: وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس. ومعنى كلام ابن جرير هذا: أنه من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش، لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش حتى يؤذن له، فإذا أذن له استأنس، فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للدخل. وقيل: هو من الإنس، وهو: أن يتعرف هل ثم إنسان أم لا؟ وقيل: معنى الاستئناس: الاستئذان أي: لا تدخلوها حتى تستأنسوا. قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: حتى تستأنسوا، ويؤيده ما حكاه القرطبي عن ابن عباس، وأبي، وسعيد بن جبير: أنهم قرءوا (حتى تستأنسوا). قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب: الاستئناس فيما يرى، والله أعلم الاستئذان، وقوله ﴿وتسلموا على أهلها﴾ قد بينه النبي ﷺ كما سيأتي بأن يقول: «السلام عليكم أئحل؟» مرة، أو ثلاثاً كما سيأتي.

واختلفوا هل يقدم الاستئذان على السلام، أو العكس، فقيل: يقدم الاستئذان، فيقول: أسأل سلام عليكم، لتقويم الاستئناس في الآية على السلام. وقال الآخرون: إنه يقدم السلام على الاستئذان فيقول: السلام عليكم أئحل، وهو الحق، لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا. وقيل: إن وقع بصره على إنسان قدم السلام، ولأقدم الاستئذان ﴿تلكم خير لكم﴾ الإشارة إلى الاستئناس، والتسليم أي: بدخولكم مع الاستئذان، والسلام خير لكم من الدخول بغيره ﴿لعلكم تذكرون﴾ أن الاستئذان خير لكم، وهذه الجملة متعلقة بمقتضى أي: أمرتم بالاستئذان، والمراد بالذكر الاتعاظ، والعمل بما أمروا به ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾ أي: إن لم تجدوا في البيوت التي لغيركم أحداً ممن يستأن على فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن. وحكى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: معنى الآية فإن لم تجدوا فيها أحداً أي: لم يكن لكم فيها متاع، وضعفه، وهو حقيق بالضعف، فإن المراد بالأحد المذكور أهل البيوت الذين يأتون للغير بدخولها، لا متاع الداخلين إليها ﴿وإن قيل لكم أرجعوا فارجعوا﴾ أي: إن قال لكم أهل البيت: ارجعوا، فارجعوا، ولا تعاونوهم بالاستئذان مرة أخرى، ولا تنتظروا بعد ذلك أن يأتوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع. ثم بين سبحانه: أن الرجوع أفضل من الإلحاح، وتكرار الاستئذان، والقعود على الباب فقال:

تتكشف نحوهم، وقلائدهم، فأمروا: أن يضرين مقانعهن على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدو، وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء الذي هو: الإلصاق. قرأ الجمهور (بخمرهن) بتحريك الميم، وقرأ طلحة بن مصرف بسكونها. وقرأ الجمهور (جيوبهن) بضم الجيم، وقرأ ابن كثير، وبعض الكوفيين بكسرها، وكثير من متقدمي النحويين لا يجوزون هذه القراءة. وقال الزجاج: يجوز: أن يبدل من الضمة كسرة، فاما ما روي عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء، وقد فسر الجمهور الجيوب بما قدّمنا، وهو: المعنى الحقيقي، وقال مقاتل: إن معنى على جيوبهن: على صدورهن، فيكون في الآية مضاف محذوف أي: على مواضع جيوبهن، ثم كرر سبحانه النهي عن إبداء الزينة لأجل ما سينكره من الاستثناء، فقال ﴿وَلَا يَبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ البعل هو: الزوج، والسيد في كلام العرب، وقدم البعولة لأنهم المقصوبون بالزينة، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين [المؤمنون: 5 - 6]، ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء نوري المحارم، فقال ﴿أَوْ آبَائَهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ فجوز للنساء أن يبدين الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة، وعدم خشية الفتنة لما في الطباع من النفرة عن القرائب. وقد روي عن الحسن والحسين رضي الله عنهما: أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين ذهاباً منهما إلى أن أبناء البعولة لم ينكروا في الآية التي في أزواج النبي ﷺ وهي قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾، [الأحزاب: 55] والمراد بأبناء بعولتهن نكح أولاد الأزواج، ويخل في قوله ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أولاد الأولاد، وإن سفلوا، وأولاد بناتهن، وإن سفلوا، وكذا آباء البعولة، وآباء الآباء، وآباء الأمهات، وإن علوا، وكذلك أبناء البعولة، وإن سفلوا، وكذلك أبناء الإخوة، والأخوات. وذهب الجمهور إلى أن العم والخال كسائر المحارم في جواز النظر إلى ما يجوز لهم، وليس في الآية ذكر الرضاع، وهو كالنسب. وقال الشعبي، وعكرمة: ليس العم والخال من المحارم، ومعنى ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ هن: المختصات بهنّ الملابسات لهنّ بالخيمة، أو الصحبة، ويخل في تلك الإماء، ويخرج من تلك نساء الكفار من أهل الذمة، وغيرهم، فلا يحل لهنّ أن يبدين زينتتهنّ لهنّ لأنهن لا يتحرّجن عن وصفهنّ للرجال. وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، وإضافة النساء إليهنّ تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد، والإماء من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين، وبه قال جماعة من أهل العلم، وإليه ذهب عائشة، وأمّ سلمة، وابن عباس، ومالك، وقال سعيد بن المسيب: لا تفرّقكم هذه الآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ إنما عني بها الإماء، ولم يعن بها العبيد. وكان الشعبي يكره أن ينظر

الخطاب على طريق التأكيد لدخولهنّ تحت خطاب المؤمنين تغليبا كما في سائر الخطابات القرآنية، وظهر التضعيف في يغمضن، ولم يظهر في يغمضوا، لأن لام الفعل من الأول متحرّكة، ومن الثاني ساكنة، وهما في موضع جزم جواباً للأمر، وبدأ سبحانه بالغض في الموضعين قبل حفظ الفرج، لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج، والوسيلة مقدّمة على المتوسل إليه، ومعنى: يغمضن من أبصارهنّ كمعنى: يغمضوا من أبصارهم، فيستدلّ به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهنّ، وكذلك يجب عليهنّ حفظ فروجهنّ على الوجه الذي تقدّم في حفظ الرجال لفروجهم ﴿وَلَا يَبْدِيْنَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: ما يترتّب به من الحلية، وغيرها، وفي النهي عن إبداء الزينة نهى عن إبداء مواضعها من أبدانهنّ بالأولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهي، فقال ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

واختلف الناس في ظاهر الزينة ما هو؟ فقال ابن مسعود، وسعيد بن جبير: ظاهر الزينة هو الثياب، وزاد سعيد بن جبير: الوجه. وقال عطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان. وقال ابن عباس، وقتادة، والمسور بن مخزومة: ظاهر الزينة هو: الكحل، والسواك، والخضاب إلى نصف الساق، ونحو ذلك، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه. وقال ابن عطية: إن المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة، وتخفي كل شيء من زينتها، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة. ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآني النهي عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب، والخمار، ونحوهما مما على الكف، والقدمين من الحلية، ونحوها، وإن كان المراد بالزينة مواضعها كان الاستثناء راجعاً إلى ما يشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين، ونحو ذلك. وهكذا إذا كان النهي عن إظهار الزينة يستلزم النهي عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب، فإنه يحمل الاستثناء على ما نكرناه في الموضعين؛ وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة، وما تترتب به النساء فالأمر واضح، والاستثناء يكون من الجميع. قال القرطبي في تفسيره: الزينة على قسمين: خلقية، ومكتسبة؛ فالخلقية: وجهها فإنه أصل الزينة، والزينة المكتسبة ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها كالثياب، والحلى، والكحل، والخضاب، ومنه قوله تعالى ﴿خَلُّوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: 31] وقول الشاعر:

ياخذن زينتتهنّ أحسن ما ترى وإذا عططن فهنّ خير عواطل
﴿وليضرين بخمرهنّ على جيوبهنّ﴾ قرأ الجمهور بإسكان اللام التي للأمر. وقرأ أبو عمرو بكسرها على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس. والخمر جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، ومنه اختمرت المرأة، وتخمرت. والجيوب: جمع جيب، وهو: موضع القطع من الدرع، والقميص، مأخوذ من الجوب، وهو: القطع. قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كنّ يسلمن خمرهنّ من خلفهنّ، وكانت جيوبهنّ من قدام واسعة، فكان

يسمعه من الرجال، فيعلمون أنها ذات خلخال. قال الزجاج: وسماع هذه الزينة أشدّ تحريكاً للشهوة من إبدائها. ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصي، فقال سبحانه ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه الأمر بالتوبة، ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها، وأنها فرض من فرائض الدين، وقد تقدّم الكلام على التوبة في سورة النساء. ثم نكر ما يرغبهم في التوبة، فقال ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: تفوزون بسعادة الدنيا، والآخرة، وقيل: إن المراد بالتوبة هنا هي عما كانوا يعملونه في الجاهلية، والأول أولى لما تقرر في السنة أن الإسلام يجب ما قبله.

وقد أخرج ابن مريويه عن علي بن أبي طالب قال: «مرّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة، ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان: أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط، وهو ينظر إليها، إذ استقبله الحائط، فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ، هذا فأعلمه أمري، فاتاه، فقصّ عليه قصته، فقال النبي ﷺ: هذا عقوبة نذبتك، وأنزل الله ﷻ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ قال: يعني من شهوراتهم مما يكره الله. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، والبيهقي في سننه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن الأولى لك وليست لك الأخرى». وفي مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، عن جرير البجلي قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري»، وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، فقال: إن أبيتم فاعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: غضّ البصر، وكف الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر». وأخرج البخاري، وأهل السنن، وغيرهم عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: «قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها، وما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك، قلت: يا نبي الله إذا كان القوم بعضهم في بعض، قال: إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها، قلت: إذا كان أحداً خالياً، قال: فإله أحق أن يستحيا منه من الناس». وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظرة، وزنا اللسان الخط، وزنا الأندين السماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطو، والنفس تتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». وأخرج الحاكم وصححه عن حنيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

المملوك إلى شعر مولاته، وهو قول عطاء، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وروي عن ابن مسعود، وبه قال أبو حنيفة، وابن جرير ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ قرأ الجمهور (غير) بالجر. وقرأ أبو بكر، وابن عامر بالنصب على الاستثناء، وقيل: على القطع، والمراد بالتابعين: هم الذين يتبعون القوم فيصيبون من طعامهم لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، قاله مجاهد، وعكرمة، والشعبي، ومن الرجال في محل نصب على الحال. وأصل الإربة، والإرب، والماربة: الحاجة، والجمع: مأرب: أي: حوائج، ومنه قوله سبحانه ﴿ولي فيها مأرب أخرى﴾ [طه: 18] ومنه قول طرفة:

إذا المرء قال الجهل والحب والخنا تقدم يوماً ثم ضاعت مأربه
وقيل: المراد بغير أولي الإربة من الرجال الحمقى الذين لا حاجة لهم في النساء، وقيل: البله، وقيل: للعنين، وقيل: الخصي، وقيل: المخنث، وقيل: الشيخ الكبير، ولا وجه لهذا التخصيص، بل المراد بالآية ظاهرها، وهم: من يتبع أهل البيت، ولا حاجة له في النساء، ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال، فيبخل من هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عداه ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ الطفل يطلق على المفرد، والمثنى، والمجموع، أو المراد به هنا الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع، وفي مصحف أبي (أو الأطفال) على الجمع، يقال للإنسان طفل: ما لم يراهق الحلم، ومعنى ﴿لم يظهروا﴾: لم يطلعوا، من الظهور بمعنى الإطلاع، قاله ابن قتيبة. وقيل معناه: لم يبلغوا حدّ الشهوة، قاله الفراء، والزجاج، يقال: ظهرت على كذا: إذا غلبته، وقهرته. والمعنى: لم يطلعوا على عورات النساء ويكشفوا عنها للجماع، أو لم يبلغوا حدّ الشهوة للجماع. قراءة الجمهور (عورات) بسكون الواو تخفيفاً، وهي لغة جمهور العرب. وقرأ ابن عامر في رواية بفتحها. وقرأ بذلك ابن أبي إسحاق، والأعمش. ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وهي لغة هذيل بن مدركة، ومنه قول الشاعر الذي أنشده الفراء:

أخو بيضات رائح متأوب رفيق لمسح المنكبين سبوح
واختلف العلماء في وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين من الأطفال، فقيل: لا يلزم لأنه لا تكليف عليه، وهو الصحيح؛ وقيل: يلزم لأنها قد تشتهي المرأة. وهكذا اختلف في عورة الشيخ الكبير الذي قد سقطت شهوته، والأولى بقاء الحرمة كما كانت، فلا يحل النظر إلى عورته، ولا يحل له أن يكشفها.

وقد اختلف العلماء في حدّ العورة، قال القرطبي: أجمع المسلمون على أن السوءتين عورة من الرجل، والمرأة، وأن المرأة كلها عورة إلا وجهها، ويديها على خلاف في ذلك. وقال الأكثر: إن عورة الرجل من سرتة إلى ركبته ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ أي: لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لسمع صوت خلخالها من

قال ﴿ولا يبين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن﴾ الآية، والزينة التي تبديها لهؤلاء قرطها، وقلانتها، وسوارها، فأما خلخالها، ومعصدها، ونحرها، وشعرها، فإنها لا تبديها إلا لزوجها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الكلبى، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﴿أو نسائهن﴾ قال: هن: المسلمات لا تبديهن اليهودية ولا نصرانية، وهو النحر، والقرط، والوشاح، وما يحرم أن يراه إلا محرم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عمر بن الخطاب: أنه كتب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فإنه من قبلك عن ذلك، فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: لا بأس أن يرى العبد شعر سيئته. وأخرج أبو داود، وابن مردويه، والبيهقي عن أنس: أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبء قد وهب لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك، وإسناده في سنن أبي داود هكذا، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس فكره. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان له ما يؤدي، فلتحتجب منه»، وإسناده أحمد هكذا: حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن ثبهان: أن أم سلمة، فكره. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿أو للتابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ قال: هذا الذي لا تستحي منه النساء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال: هذا الرجل يتبع القوم، وهو مغفل في عقله، لا يكثر للنساء، ولا يشتهي النساء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في الآية قال: كان الرجل يتبع الرجل في الزمان الأول لا يغار عليه، ولا تهرب المرأة أن تضع خمارها عنده، وهو الأحق الذي لا حاجة له في النساء. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: هو المخنث الذي لا يقوم زيه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، فكانوا يدعونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أنبرت أنبرت بثمان، قال النبي ﷺ: ألا أرى هذا يعرف ما ها هنا لا يدخلن عليكم، فحجبه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿ولا يضرين بارجلهن﴾ وهو: أن تفرق الخلخال بالآخر عند الرجال، أو يكون في رجلها

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا، والله أعلم: أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت يزيد كانت في نخل لها لبني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزوات فيبدو ما في أرجلهن، يعني: الخلخال، وتبدو صدورهن ونوايهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فأنزل الله ذلك ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية، وفيه مع كونه مرسلًا مقاتل. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله ﴿ولا يبين زينتهن﴾ قال: الزينة السوار، واللمج، والخلخال، والقرط، والقلادة، ﴿إلا ما ظهر منها﴾ قال: الثياب والجلباب. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: الزينة زينتان زينة ظاهرة، وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج، فأما الزينة الظاهرة، فالثياب، وأما الزينة الباطنة، فالكحل، والسوار، والخاتم. ولطف ابن جرير: فالظاهرة منها الثياب، وما خفي الخلخالان، والقرطان، والسواران. وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله ﴿إلا ما ظهر منها﴾ قال: الكحل والخاتم. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس ﴿ولا يبين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ قال: الكحل، والخاتم، والقرط، والقلادة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عنه قال: هو خضاب الكف، والخاتم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن ابن عمر قال: الزينة الظاهرة الوجه والكفان. وأخرج ابن عباس قال: ﴿إلا ما ظهر منها﴾ وجهها، وكفها، والخاتم، وأخرج أيضاً عنه قال: رقة الوجه وباطن الكف. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن عائشة: أنها سئلت عن الزينة الظاهرة قالت: القلب، والفتحة، وضمت طرف كمها. وأخرج أبو داود، وابن مردويه، والبيهقي عن عائشة: «أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفه». قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي، هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة، ولم يسمع منها. وأخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عائشة: قالت: رحم الله نساء المهاجرات الأولات لما أنزل الله ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ فشققن أكثف مروطهن، فاخترمن به. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنها بلفظ: أخذ النساء أزهرن، فشققن ما قبل الخواشي، فاخترمن بها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ولا يبين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾، والزينة الظاهرة الوجه، وكحل العينين، وخضاب الكف، والخاتم، فهذا تظهره في بيتها لمن نخل عليها، ثم

يكره عبده وأمته على النكاح. وقال مالك: لا يجوز. ثم رجع سبحانه إلى الكلام في الأحرار، فقال ﴿إِنْ يَكُونُوا فَقَرَاءَ يَغْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة، أو أحدهما، فإنهم إن يكونوا فقراء يغنهم الله سبحانه، ويتفضل عليهم بذلك. قال الزجاج: حث الله على النكاح، وأعلم أنه سبب لنفي الفقر، ولا يلزم أن يكون هذا حاصلًا لكل فقير إذا تزوج، فإن ذلك مقيد بالمشيئة. وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوجوا. وقيل: المعنى إنه يغنيه بغنى النفس، وقيل: المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا، والوجه الأول أولى، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَلِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يَغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: 28]، فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك، وجملة ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ مؤكدة لما قبلها، ومقررة لها، والمراد: إنه سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده عليم بمصالح خلقه، يغني من يشاء، ويفقر من يشاء. ثم نكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز نكاحهم إرشادًا لهم إلى ما هو الأولى، فقال ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ استعفف طلب أن يكون عفيفاً أي: ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد نكاحاً أي: سبب نكاح، وهو المال. وقيل: النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة كالحاف اسم لما يلتحف به، واللباس اسم لما يلبس، وقيد سبحانه هذا النهي بتلك الغاية، وهي ﴿وَحَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يرزقهم رزقاً يستغنون به، ويتمكنون بسببه من النكاح، وفي هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى. وهي: أن يكونوا فقراء يغنهم الله بالمشيئة كما نكرنا، فإنه لو كان وعداً حتماً لا محالة في حصوله لكان الغنى والزواج متلازمين، وحينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة، فإنه سيفنى عند تزوجه لا محالة، فيكون في تزوجه مع فقره تحصيل للغنى، إلا أن يقال: إن هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادئ النكاح، ولا ينافي ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح، فإنه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحاً إذا كان غير واجد لأسبابه التي يتحصل بها، وأعظمها المال. ثم لما رغب سبحانه في تزويج الصالحين من العبيد والإماء، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار، فقال ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الموصول في محل رفع على الابتداء، ويجوز أن يكون في محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده أي: وكتابوا الذين يبتغون الكتاب، والكتاب مصدر كاتب كالمكتبة، يقال: كاتب، يكتب، كتاباً، ومكتبة، كما يقال: قاتل، يقاتل، قتلاً، ومقاتلة. وقيل: الكتاب ها هنا اسم عين للكتاب الذي يكتب فيه الشيء، وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه، وعلى أنفسهم بذلك كتاباً، فيكون المعنى الذين يطلبون كتاب المكتبة. ومعنى المكتبة في الشرع: أن يكتب الرجل

خلاخل فتحرکہن عند الرجال، فنهى الله عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان.

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُواهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَبَيْعَتُكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا لِنَبْتِغِيَ عَنْكُمْ عَرْضَ الْحَرِّ الْأَدْنَى وَمَنْ يَكْرَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَابَتَ مُبِينَتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ بَلَدِكُمْ وَمَرْغَطَةً لِّلنَّاسِ ﴿٣١﴾

لما أمر سبحانه بغض الأبصار، وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك إلى ما يحل للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة، وسكون نواحي الزنا، ويسهل بعده غض البصر عن المحرمات، وحفظ الفرج عما لا يحل، فقال ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَاءَ مِنْكُمْ﴾ الأيم التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً، والجمع أيماء، والأصل أيايم، والأيم بتشديد الياء، ويشمل الرجل والمرأة. قال أبو عمرو، والكسائي: اتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل هي: المرأة التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً. قال أبو عبيد: يقال رجل أيم، وامرأة أيم، وأكثر ما يكون في النساء، وهو كالمستعار في الرجال، ومنه قول أمية ابن أبي الصلت:

لله نرَبني علي أيم منهم ونكح

ومنه أيضاً قول الآخر:

لقد إمت حتى لامني كل صاحب رجاء سليمي أن تأيم كما إمت والخطاب في الآية للأولياء، وقيل: للزوج، والأول أرجح، وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها، وقد خالف في ذلك أبو حنيفة.

واختلف أهل العلم في النكاح هل مباح، أو مستحب، أو واجب؛ فذهب إلى الأول الشافعي، وغيره، وإلى الثاني مالك، وأبو حنيفة، وإلى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم في ذلك، فقالوا: إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية وجب عليه، وإلا فلا. والظاهر أن القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع تلك الخشية، وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح بعد ترغيبه في النكاح: «ومن رغب عن سننني فليس مني». ولكن مع القدرة عليه، وعلى مؤنه كما سيأتي قريباً، والمراد بالأيماء هنا الأحرار، والحرائر، وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ قرأ الجمهور (عبادكم)، وقرأ الحسن (عبيدكم). قال الفراء: ويجوز (وإماءكم) بالنصب برده على الصالحين، والصلاح هو الإيمان، ونكر سبحانه الصلاح في المماليك دون الأحرار لأن الغالب في الأحرار الصلاح بخلاف المماليك، وفيه دليل على أن المملوك لا يزوج نفسه، وإنما يزوجه ماله. وقد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن

عبدته على مال يؤديه منجماً، فإذا أداه فهو حرّ، وظاهر قوله ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾: أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكتبه بالشروط المذكور بعده، وهو ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، والخير هو: القدرة على أداء ما كُتِبَ عليه، وإن لم يكن له مال، وقيل: هو المال فقط، كما ذهب إليه مجاهد، والحسن، وعطاء، والضحاك، وطائوس، ومقاتل. وذهب إلى الأول ابن عمر، وابن زيد، واختاره مالك، والشافعي، والفرّاء، والزجاج. قال الفرّاء: يقول إن رجوتهم عندهم وفاء وتأييداً للمال. وقال الزجاج: لما قال «فيهم» كان الأظهر الاكتساب، والوفاء، وأداء الأمانة، وقال النخعي: إن الخير الدين والأمانة. وروي مثل هذا عن الحسن. وقال عبيدة السلماني: إقامة الصلاة. قال الطحاوي: وقول من قال: إنه المال لا يصح عندينا، لأن العبد مال لمولاه، فكيف يكون له مال؟ قال: والمعنى عندينا: إن علمتم فيهم الدين والصنق. قال أبو عمر بن عبد البرّ: من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر أن يقال: إن علمتم فيهم مالا، وإنما يقال: علمت فيه الخير، والصلاح، والأمانة، ولا يقال: علمت فيه المال. هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم في الخير المذكور في هذه الآية. وإذا تقرّر لك هذا، فاعلم: أنه قد ذهب ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور في الآية من الوجوب. عكرمة، وعطاء، ومسروق، وعمر بن دينار، والضحاك، وأهل الظاهر، فقالوا: يجب على السيد أن يكتب مملوكه إذا طلب منه ذلك، وعلم فيه خيراً. وقال الجمهور من أهل العلم: لا يجب ذلك، وتمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده، أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك، ولم يجبر عليه، فكذا الكتابة لأنها معاوضة.

ولا يخفك أن هذه حجة واهية، وشبهة داحضة، والحق ما قاله الأولون، وبه قال عمر بن الخطاب، وابن عباس واختاره ابن جرير. ثم أمر سبحانه الموالى بالإحسان إلى المكاتبين، فقال ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ففي هذه الآية: الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة، إما بأن يعطوهم شيئاً من المال، أو بأن يحطوا عنهم مما كُتِبوا عليه، وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار، وقيل: الثلث، وقيل: الربع، وقيل: العشر، ولعل وجه تخصيص الموالى بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم، وسياق الكلام معهم فإنهم المأمورون بالكتابة. وقال الحسن، والنخعي، وبريدة: إن الخطاب بقوله: وآتوهم لجميع الناس. وقال زيد بن أسلم: إن الخطاب للولادة: بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما في قوله سبحانه: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: 177، التوبة: 60]، وللمكاتب أحكام معروفة إذا وفى ببعض مال الكتابة. ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالى إلى نكاح الصالحين من المماليك، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إماءهم على الزنا، فقال ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ والمراد بالفتيات هنا الإماء، وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار في مواضع آخر. والبغاء: الزنا،

مصدر بغت المرأة تبغي بغاء إذا زنت، وهذا مختص بزنا النساء، فلا يقال للرجل إذا زنا: إنه بغى، وشرط الله سبحانه هذا النهي بقوله ﴿إِنْ أُرِدْنَ تَحَصُّنًا﴾: لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادتهم للتحصن، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها: مكروهة على الزنا، والمراد بالتحصن هنا: التعفف، والتزوج. وقيل: إن هذا القيد راجع إلى الأيامي. قال الزجاج، والحسن بن الفضل: في الكلام تقديم وتأخير أي: وإنكحوا الأيامي، والصالحين من عباكم، وإماءكم إن أردن تحصناً. وقيل: هذا الشرط ملغى. وقيل: إن هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه، فإنهم كانوا يكرهونهن، وهن يرثن التعفف، وليس لتخصص النهي بصورة إرادتهن التعفف. وقيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب: لأن الغالب: أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه، فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال، ولا للحرام كما فيمن لا رغبة لها في النكاح، والصغيرة، فتوصف بأنها مكروهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن، فلا يتم ما قيل: من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن، إلا أن يقال: إن المراد بالتحصن هنا مجرد التعفف، وأنه لا يصح على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن، وهو بعيد، فقد قال الحبر ابن عباس: إن المراد بالتحصن التعفف، والتزوج، وتابعه على ذلك غيره، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وهو: ما تكسبه الأمة بفرجها، وهذا التعليل أيضاً خارج مخرج الغالب، والمعنى: إن هذا العرض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب، لأن إكراه الرجل لأمه على البغاء لا لفائدة له أصلاً لا يصدر مثله عن العقلاء، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها، إذا لم يكن مبتغياً بإكراهها عرض الحياة الدنيا. وقيل: إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عانتهم كانت كذلك، لا أنه مدار للنهي عن الإكراه لهن، وهذا يلاقي المعنى الأول، ولا يخالفه. ﴿وَمَنْ يَكْرَهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا مقرر لما قبله، ومؤكد له، والمعنى: أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات، كما تدل عليه قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبد الله، وسعيد بن جبيرة: (فإن الله غفور رحيم لهن). قيل: وفي هذا التفسير بعد، لأن المكروهة على الزنا غير أئمة. وأجيب: بأنها، وإن كانت مكروهة، فربما لا تخلو في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إما بحكم الجيلة البشرية، أو يكون الإكراه قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار. وقيل: إن المعنى: فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهم، إما مطلقاً، أو بشرط التوبة. ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام، شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث: الأولى: أنه ﴿آيَاتٌ مُبِينَاتٌ﴾ أي: واضحات في أنفسهم، أو موضحات، فتدخل الآيات المذكورة في هذه الصورة دخولاً أولياً. والصفة الثانية: كونه ﴿مَثَلًا﴾ من الذين خلوا من قبل هؤلاء أي: مثلاً

حرفة، ولا ترسلوهم كلاً على الناس». وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس **﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾** قال: المال. وأخرج ابن مردويه عن علي مثله. وأخرج البيهقي، عن ابن عباس في الآية قال: أمانة ووفاء. وأخرج عنه أيضاً قال: إن علمت مكاتبك يقضيك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه في الآية قال: إن علمت لهم حيلة، ولا تلقوا مؤنتهم على المسلمين **﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾** يعني: ضعوا عنهم من مكاتبهم. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن نافع قال: كان ابن عمر يكره أن يكتب عبده إذا لم تكن له حرفة، ويقول: يطعمني من أوساخ الناس. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس في قوله **﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ﴾** الآية: أمر المؤمنين أن يعينوا في الرقاب. وقال علي بن أبي طالب: أمر الله السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه. وهذا تعليم من الله ليس بفريضة، ولكن فيه أجر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والرويان في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة، عن بريدة في الآية قال: حث الناس عليه أن يعطوه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، ومسلم، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي من طريق أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، وكانت كارهة، فأنزل الله (ولا تক্রهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم) هكذا كان يقرؤها، ونكر مسلم في صحيحه عن جابر: أن جارية لعبد الله بن أبي: يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يريد هما على الزنا، فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله **﴿وَلَا تক্রهوا فتياتكم﴾** الآية. وأخرج البخاري، وابن مردويه، عن أنس نحو حديث جابر الأول. وأخرج ابن مردويه، عن علي بن أبي طالب في الآية قال: كان أهل الجاهلية يبيعن إماءهم، فنهوا عن ذلك في الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا، يأخون أجورهن، فنزلت الآية. وقد ورد النهي منه ﷺ عن مهر البغي، وكسب الحجام، وحلوان الكاهن.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي كَمِشْكَاةٍ تَأْجُجُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَنَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ فِي يَوْمٍ إِذْ قَالَ اللَّهُ لَنْ تُرْفَعُ وَتُكْرَمُ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَمُّهُ لَمْ فِيهَا يَأْتِدُونَ وَالْأَصْحَابُ يَجْأَلُ لَا تُلْهِمُهُمْ بُحْرَةً وَلَا يَعْنِ ذِكْرُ اللَّهِ وَلِقَاءُ أَلْسِنَتِهِمْ وَلِيَالَهُ الْكَوْكُوتُ يَخْلَوْنَ يَوْمًا نَخْلَعُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٦﴾﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا

كائنًا من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة، فإن العجب من قصة عائشة رضي الله عنها، هو كالعجب من قصة يوسف ومريم، وما اتهما به، ثم تبين بطلانه، وبراءتهما سلام الله عليهما. والصفة الثالثة: كونه **﴿مَوْعِظَةً﴾** ينتفع بها المقتنون خاصة، فيقتنون بما فيه من الأوامر، وينزجرون عما فيه من النواهي. وأما غير المتقين، فإن الله قد ختم على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ، والاعتبار بقصص الذين خلوا، وفهم ما تشتمل عليه الآيات البينات.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿وَأَنكحوا الإيامي﴾** الآية، قال: أمر الله سبحانه بالنكاح، ورغبهم فيه، وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم، وعبيدهم، ووعدهم في ذلك الغنى، فقال **﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي بكر الصديق قال: أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى **﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾**. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: نكر لنا: أن عمر بن الخطاب قال: ما رأيت كرجل لم يلتبس الغنى في الباء، وقد وعد الله فيها ما وعد، فقال **﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾**. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، عنه نحوه من طريق أخرى. وأخرج ابن جرير، عن ابن مسعود نحوه. وأخرج البخاري، والدارقطني في العلل، والحاكم، وابن مردويه، والديلمي من طريق عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **﴿وَأَنكحوا النساء، فإنهن يأتينكم بالمال﴾**. وأخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود في مراسيله، عن عروة مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ولم ينكر عائشة، وهو مرسل. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في السنن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْإِنَّاكُحُ يَرِيدُ الْعَفَافُ، وَالْمَكَاتِبُ يَرِيدُ الْإِدَاءُ، وَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾**، وقد ورد في الترغيب في مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع نكرها. وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾** قال: ليتزوج من لا يجد فإن الله سيغنيه، وأخرج ابن السكن في معرفة الصحابة، عن عبد الله بن صبيح، عن أبيه قال: كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى، فسألت الكتاب، فابى، فنزلت **﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾** الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن أنس بن مالك قال: سألتني سيرين المكاتب، فابيت عليه، فأتى عمر بن الخطاب، فاقبل علي بالدرة، وقال: كاتبه، وتلا **﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾**، فكاتبته. قال ابن كثير: إن إسناده صحيح. وأخرج أبو داود في المراسيل، والبيهقي في سننه، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾** قال: إن علمت فيهم

عَلِمُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٧٦﴾

لما بيّن سبحانه من الأحكام ما بين أرف ذلك بكونه سبحانه في غاية الكمال، فقال ﴿الله نور السموات والأرض﴾، وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، والاسم الشريف مبتدأ، ونور السموات والأرض خبره، إما على حذف مضاف: أي: نو نور السموات، والأرض، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله، وظهور عدله، وبسطه أحكامه، كما يقال: فلان نور البلد، وقمر الزمن، وشمس العصر، ومنه قول النابغة:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ظهرت لم يبق نبيهن كوكب
وقول الآخر:

هلا قصدت من البلاد لمفضل قمر القبايل خالد بن يزيد
ومن ذلك قول الشاعر:

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها
وقول الآخر:

نسب كان عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً
ومعنى النور في اللغة: الضياء، وهو: الذي يبين الأشياء، ويرى الأبصار حقيقة ما تراه، فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه على طريقة المدح، ولكونه أوجد الأشياء المنورة، وأوجد أنوارها، ونورها، ويدل على هذا المعنى قراءة زيد بن علي، وأبي جعفر، وعبد العزيز المكي ﴿الله نور للسموات والأرض﴾ على صيغة الفعل الماضي، وفاعله ضمير يرجع إلى الله، والسموات مفعول؛ فمعنى ﴿الله نور السموات والأرض﴾ إنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلها، وكمال تبديره عز وجل لمن فيهما، كما يقال: الملك نور البلد، هكذا قال الحسن، ومجاهد، والأزهري، والضحاك، والقرظي، وابن عرفة، وابن جرير، وغيرهم، ومثله قول الشاعر:

وأنت لنا نور وغيث وعصمة ونبت لمن يرجو نذاك وريف
وقال هشام الجواليقي، وطائفة من المجسمة: إنه سبحانه نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام، وقوله ﴿مثل نوره﴾ مبتدأ، وخبره ﴿كمشكاة﴾ أي: صفة نوره الفاضل عنه، للظاهر على الأشياء كمشكاة، والمشكاة الكوة في الحائط غير النافذة، كذا حكاه الواحدي عن جميع المفسرين، وحكاه القرطبي عن جمهورهم. ووجه تخصيص المشكاة: أنها أجمع للضوء الذي يكون فيه من مصباح، أو غيره، وأصل المشكاة الوعاء يجعل فيه الشيء، وقيل: المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل. والأول أولى، ومنه قول الشاعر:

كان عينيه مشكاتان في جحر

ثم قال ﴿فيها مصباح﴾ وهو السراج ﴿المصباح في زجاجة﴾ قال الزجاج: النور في الزجاج، وضوء النار أبين منه في كل شيء، وضوءه يزيد في الزجاج، ووجه ذلك: أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور. ثم وصف الزجاج، فقال ﴿الزجاجة كانها كوكب دري﴾ أي: منسوب

إلى الدرّ لكون فيه من الصفاء والحسن ما يشابه الدرّ. وقال الضحاك: الكوكب الدرّ الزهرة. قرأ أبو عمرو (درّ) بكسر الدال. قال أبو عمرو: لم أسمع أعرابياً يقول: إلا كأنه كوكب درّ بكسر الدال، أخنوه من درأت النجوم تدراً إذا انبغعت. وقرأ حمزة بضم الدال مهموزاً، وأنكره الفراء، والزجاج، والمبرد. وقال أبو عبيد: إن ضمنت الدال وجب أن لا تهمز، لأنه ليس في كلام العرب. والدرّاري هي المشهورة من الكوكب كالمشتري، والأزهري، والمريخ، وما يضاهاها من الثوابت. ثم وصف المصباح بقوله ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ ومنه هذه هي الابتدائية: أي: ابتداء إيقاد المصباح منها، وقيل: هو على تقدير مضاف أي: يوقد من زيت شجرة مباركة، والمباركة: الكثيرة المنافع. وقيل المنماة، والزيتون من أعظم الثمار نماء، ومنه قول أبي طالب، يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس:

ليت شعري مسافر بن أبي عمرو وليت يقولها المحزون
بورك الميت الغريب كما بورك نبع الرمان والزيتون
قيل: ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها، وهي إدام، ودهان، وبباغ، ووقود، وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة، ثم وصفها بأنها ﴿لا شرقية ولا غربية﴾.

وقد اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف، فقال عكرمة، وقتادة، وغيرهم: إن الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا شرقت، ولا تصيبها إذا غربت. والغربية هي التي تصيبها إذا غربت، ولا تصيبها إذا شرقت. وهذه الزيتون هي في صحراء بحيث لا يسترها عن الشمس شيء لا في حال شروقها، ولا في حال غروبها، وما كانت من الزيتون هكذا، فثمرها أجود. وقيل: إن المعنى: إنها شجرة في نوبة قد أحاطت بها، فهي غير منكشفة من جهة الشرق، ولا من جهة الغرب، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس. قال ابن عطية: وهذا لا يصح عن ابن عباس، لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهد في الوجود. ورجح القول الأول الفراء، والزجاج. وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية. قال الثعلبي: قد أقصص القرآن بأنها من شجر الدنيا، لأن قوله: ﴿زيتونة﴾ بدل من قوله: ﴿شجرة﴾. قال ابن زيد: إنها من شجر الشام، فإن الشام لا شرقي، ولا غربي، والشام هي الأرض المباركة. وقد قرئ (توقد) بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاج نون المصباح، وبها قرأ الكوفيون. وقرأ شيبه، ونافع، وأيوب، وسلام، وابن عامر، وأهل الشام، وحفص: (يوقد) بالتحية مضمومة، وتخفيف القاف، وضم الدال. وقرأ الحسن، والسلمي، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو جعفر (توقد) بالفوقية مفتوحة، وفتح الواو، وتشديد القاف، وفتح الدال على أنه فعل ماض من توقد يتوقد، والضمير في هاتين القراءتين راجع إلى المصباح. قال النحاس: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جميعاً للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف

الكعبة، ومسجد قباء، ومسجد المدينة، ومسجد بيت المقدس، قاله ابن زيد. والقول الأول أظهر لقوله ﴿يسبح له فيها بالغدق والآصال﴾، والباء من بيوت تضم، وتكسر كل ذلك ثابت في اللغة، ومعنى ﴿أذن الله أن ترفع﴾: أمر وقضى، ومعنى ﴿ترفع﴾: تبنى، قاله مجاهد، وعكرمة، وغيرهما، ومنه قوله سبحانه: ﴿وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ [البقرة: 127]، وقال الحسن البصري، وغيره: معنى ترفع تعظم، ويرفع شأنها، وتطهر من الانجاس، والأقدار، ورجحه الزجاج وقيل: المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين، ومعنى ﴿يذكر فيها اسمه﴾: كل ذكر لله عز وجل، وقيل: هو التوحيد، وقيل: المراد تلاوة القرآن، والأول أولى ﴿يسبح له فيها بالغدق والآصال﴾ رجال: ﴿قرأ ابن عامر، وأبو بكر (يسبح) بفتح الباء الموحدة مبنياً للمفعول، وقرأ الباقر بكسرها مبنياً للفاعل إلا ابن وثاب، وأبا حية، فإنهما قرأا بالتاء الفوقية، وكسر الموحدة، فعلى القراءة الأولى يكون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة، ويكون رجال مرفوع على أحد وجهين: إما بفعل مقدر، وكأنه جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: من يسبحه؟ فقيل يسبحه رجال. الثاني: أن رجال مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وعلى القراءة الثانية يكون رجال فاعل يسبح، وعلى القراءة الثالثة يكون الفاعل أيضاً رجال، وإنما أنث الفعل لكون جمع التفسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال.

واختلف في هذا التسبيح ما هو؟ فالأكثر حملوه على الصلاة المفروضة، قالوا: الغدق صلاة الصبح، والآصال صلاة الظهر، والعصر، والعشاءين، لأن اسم الآصال يشملها، ومعنى بالغدق والآصال: بالغداة والعشي، وقيل: صلاة الصبح، والعصر، وقيل: المراد صلاة الضحى، وقيل: المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي، وهو: تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة بعده، وهذا أرجح مما قبله، لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأولون، وهو ما ذكرناه ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ هذه الجملة صفة لرجال أي: لا تشغلهم التجارة والبيع عن الذكر؛ وخص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الذكر. وقال الفراء: التجارة لأهل الجلب، والبيع ما باعه الرجل على بدنه، وخص قوم التجارة هاهنا بالشراء لذكر البيع بعدها، وبمثل قول الفراء. قال الواقي: فقال: التجار هم: الجلب المسافرون، والبيعة هم المقيمون، ومعنى ﴿عن ذكر الله﴾: هو ما تقدم في قوله ﴿ويذكر فيها اسمه﴾، وقيل: المراد الأذان، وقيل: عن ذكره باسمائه الحسنى أي: يوحونه، ويمجبنه. وقيل: المراد عن الصلاة، ويرد ذكر الصلاة بعد الذكر هنا. والمراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها من غير تأخير، وحذفت التاء؛ لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله:

لأنه الذي ينير، ويضيء، وإنما الزجاجاة وعاء له. وقرأ نصر بن عاصم كقراءة أبي عمرو ومن معه إلا أنه ضم الدال على أنه فعل مضارع، وأصله تتوقد. ثم وصف الزيتونة بوصف آخر، فقال: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ قرأ الجمهور (تمسسه) بالفوقية، لأن النار مؤنثة. قال أبو عبيد: إنه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم: أن السدي روى عن أبي مالك، عن ابن عباس: أنه قرأ «يمسسه» بالتحتيه لكون تانيث النار غير حقيقي. والمعنى: أن هذا الزيت في صفائه وإنارته يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلاً، وارتفاع «نور» على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو نور، و«على نور» متعلق بمحذوف، هو صفة لنور مؤكدة له، والمعنى: هو نور كائن على نور. قال مجاهد: والمراد النار على الزيت. وقال الكلبي: المصباح نور، والزجاجاة نور. وقال السدي: نور الإيمان، ونور القرآن ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ من عباده أي: هداية خاصة موصلة إلى المطلوب، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ أي: يبين الأشياء بأشبابها، ونظائرهما تقريباً لها إلى الأفهام وتسهيلاً لإدراكها، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس، وتصويره بصورته يزيد به وضوحاً وبياناً ﴿والله بكل شيء عليم﴾ لا يغيب عنه شيء من الأشياء معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً، أو باطناً. واختلف في قوله ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ بما هو متعلق؛ فقيل: متعلق بما قبله أي: كمشكاة في بعض بيوت الله، وهي المساجد، كأنه قيل: مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، وقيل: متعلق بمصباح. وقال ابن الأنباري: سمعت أبا العباس يقول: هو حال للمصباح، والزجاجاة، والكوكب، كأنه قيل: وهي في بيوت، وقيل: متعلق بتوقد أي: توقد في بيوت، وقد قيل: متعلق بما بعده، وهو يسبح أي: يسبح له رجال في بيوت، وعلى هذا يكون قوله ﴿فيها﴾ تكريراً كقولك، زيد في الدار جالس فيها. وقيل: إنه منفصل عما قبله، كأنه قال: الله في بيوت أذن الله أن ترفع. قال الحكيم الترمذي: وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس في المسجد وإنما يجالس ربه. وقد قيل: على تقدير تعلقه بمشكاة، أو بمصباح، أو بتوقد ما الوجه في توحيد المصباح، والمشكاة، وجمع البيوت؟ ولا تكون المشكاة الواحدة، ولا المصباح الواحد إلا في بيت واحد. وأجيب: بأن هذا من الخطاب الذي يفتح أوله بالتوحيد، ويختم بالجمع كقوله سبحانه: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: 1]، ونحوه. وقيل معنى في بيوت: في كل واحد من البيوت، فكأنه قال: في كل بيت، أو في كل واحد من البيوت. واختلف الناس في البيوت، على أقوال: الأول: أنها المساجد، وهو قول مجاهد، والحسن، وغيرهما. الثاني: أن المراد بها بيوت بيت المقدس، روي ذلك عن الحسن. الثالث: أنها بيوت النبي ﷺ، روي عن مجاهد. الرابع: هي البيوت كلها، قاله عكرمة. الخامس: أنها المساجد الأربعة

غربية ﴿إنها التي في سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت﴾ **﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾** فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن الشعبي قال: في قراءة أبي بن كعب (مثل نور المؤمن كمشكاة). وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس في الآية قال: يقول مثل نور من آمن بالله كمشكاة، وهي الكوة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿مثل نوره﴾** قال: هي خطا من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة، قال: مثل نور المؤمن كمشكاة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه أيضاً **﴿الله نور السموات والأرض﴾** قال: هادي أمل السموات والأرض **﴿مثل نوره﴾** مثل هذه في قلب المؤمن **﴿كمشكاة﴾** يقول: موضع الفتيلة كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوءه، كذلك يكون قلب المؤمن بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى، ونوراً على نور، وفي إسناده علي بن أبي طلحة، وفيه مقال. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، عن أبي بن كعب **﴿الله نور السموات والأرض﴾** مثل نوره قال: هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله، فقال **﴿نور السموات والأرض مثل نوره﴾** فبدأ بنور نفسه، ثم نكر نور المؤمن، فقال: مثل نور من آمن به، فكان أبي بن كعب يقرؤها (مثل نور من آمن به) فهو: المؤمن، جعل الإيمان والقرآن في صدره **﴿كمشكاة﴾** قال: فصدر المؤمن المشكاة **﴿فيها مصباح للمصباح﴾** النور، وهو القرآن والإيمان الذي جعل في صدره **﴿في زجاجة﴾** و**﴿الزجاجة﴾** قلبه **﴿كانها كوكب دري﴾** يقول كوكب مضيء **﴿يوقد من شجرة مباركة﴾**، والشجرة المباركة: أصل المبارك الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له **﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾** قال: فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، فكذلك هذا المؤمن قد أجبر من أن يضل شي من الفتن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، عن ابن عباس: أن اليهود قالوا لمحمد: كيف يخلص نور الله من دون السماء، فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال **﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة﴾** المشكاة كوة البيت فيها مصباح، وهو: السراج يكون في الزجاجة، وهو: مثل ضربه الله لطاعته، فسمى طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى **﴿لا شرقية ولا غربية﴾** قال: وهي: وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت، ولا إذا غربت، وذلك أجود الزيت **﴿يكاد زيتها يضيء﴾** بغير نار **﴿نور على نور﴾** يعني بذلك: إيمان العبد وعلمه **﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾** وهو مثل

ثلاثة تحذف تلتها مضافة عند جمع النحاة وهي إذا شئت أبو عزرها وليت شعري وإقام الصلاة وأنشد الفراء في الاستشهاد للحنف المذكور في هذه الآية قول الشاعر:

إن الخليط أجداً البين وأنجدوا وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا أي: عدة الأمر، وفي هذا البيت دليل على أن الحنف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع. قال الزجاج: وإنما حذفت الهاء لأنه يقال: أقمت الصلاة إقامة، وكان الأصل إقواماً، ولكن قلبت الواو ألفاً، فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي أقمت الصلاة إقامة، فأنخلت الهاء عوضاً من المحذوف، وقامت الإضافة هاهنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة، وهذا إجماع من النحويين. انتهى. وقد احتاج من حمل نكر الله على الصلاة المفروضة: أن يحمل إقام الصلاة على تأنيتها في أوقاتها فراراً من التكرار، ولا ملجئ إلى ذلك، بل يحمل الذكر على معناه الحقيقي كما قدمنا. والمراد بالزكاة المذكورة هي: المفروضة، وقيل: المراد بالزكاة طاعة الله، والإخلاص، إذ ليس لكل مؤمن مال **﴿يخافون يوماً﴾** أي: يوم القيامة، وانتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرف له، ثم وصف هذا اليوم بقوله **﴿تتقلب فيه للقلوب والأبصار﴾** أي: تضطرب، وتتحوّل، قيل: المراد بتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها، ولا تخرج، والمراد بتقلب الأبصار هو: أن تصير عمية بعد أن كانت مبصرة. وقيل: المراد بتقلب القلوب أنها تكون متقلبة بين الطمع في النجاة، والخوف من الهلاك، وإما تقلب الأبصار فهو: نظرها من أي ناحية يؤخون، وإلى أي ناحية يصيرون. وقيل: المراد تحوّل قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين، ومثله قوله: **﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾** [ق: 22] فما كان يراه في الدنيا غياً يراه في الآخرة رشداً. وقيل: المراد التقلب على جمر جهنم، وقيل: غير ذلك: **﴿ليجزئهم الله لحسن ما عملوا﴾** متعلق بمحذوف أي: يفعلون ما يفعلون من التسبيح، والذكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة: ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أي: أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله، وإلى سبعمئة ضعف، وقيل: المراد بما في هذه الآية ما يتفضل سبحانه به عليهم زيادة على ما يستحقونه، والأول أولى لقوله **﴿ويزيدهم من فضله﴾** فإن المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به **﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** أي: من غير أن يحاسبه على ما أعطاه، أو أن عطاءه سبحانه لا نهاية له، والجملة مقررّة لما سبقها من الوعد بالزيادة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله **﴿الله نور السموات والأرض﴾** قال: يدبر الأمر فيهما نجمهما، وشمسهما، وقمرهما. وأخرج الفريابي عنه في قوله **﴿الله نور السموات والأرض﴾** مثل نوره الذي أعطاه المؤمن **﴿كمشكاة﴾**، وقال في تفسير **﴿زيتونة لا شرقية ولا**

يذكرهما، وينكر بهما عباده. وقد ورد في تعظيم المساجد، وتنزيهها عن القذر، وتنظيفها، وتطيبها أحاديث ليس هذا موضع نكرها. وأخرج، ابن أبي شيبة، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: إن صلاة الضحى لفي القرآن، وما يغوص عليها إلى غواص في قوله ﴿فِي بَيْوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله. وأخرج ابن مردويه، والدليمي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في قوله ﴿لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هم الذين يبتغون من فضل الله. وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس في الآية، قال: كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون، فإذا سمعوا النداء بالصلاة أقبلوا ما في أيديهم، وقاموا إلى المسجد، فصلوا. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في الشعب، عنه في الآية، قال: ضرب الله هذا المثل قوله ﴿كَمْشَاكَةً﴾ لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله، وكانوا أترج الناس، وأبيعهم، ولكن لم تكن تلهيهم تجارتهم، ولا بيعهم عن ذكر الله. وأخرج، عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: عن شهود الصلاة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أنه كان في السوق، فاقبضت الصلاة فأغلغوا حوانيتهم، ثم دخلوا المسجد، فقال ابن عمر فيهم: نزلت ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود: أنه رأى ناساً من أهل السوق سمعوا الأذان، فتركوا أمعتهم، فقال: هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وأخرج هناد بن السري في الزهد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، ومحمد بن نصر في الصلاة، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعون داعي، وينفذهم البصر، فيقوم مناو، فينادي: أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء؟ فيقومون، وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادي: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادي: ليقيم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يقوم سائر الناس، فيحاسبون». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن عتبة بن عامر مرفوعاً نحوه.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ كُفْرٍ يَتَّبِعُونَ بَيْتَهُ الَّذِي تَمَّ مَاءٌ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ لَوْ يَجِدُهُ شَيْئًا رَجَعُوا إِلَيْهِ عِنْدَ نَفْسِهِمْ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٦﴾ أَوْ كَلَّمَتِ فِي بَحْرِ لَيْلَى بَشَنَّهُ مَوْجٌ مِّنْ قَوِيٍّ مَّجَّ مِّنْ قَوِيٍّ مَّجَّ

المؤمن. وأخرج الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه، وابن عساكر، عن ابن عمر في قوله ﴿كَمْشَاكَةً فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ قال: المشكاة جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي في قلبه. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَّبَارَكَةٍ﴾ الشجرة إبراهيم ﴿زَيْنُونَةَ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ لا يهودية ولا نصرانية، ثم قرأ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن شمر بن عطية قال: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار، فقال: حدثني عن قول الله ﷻ ﴿اللَّهُ نُورٌ لِّلْسَمَواتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ قال: مثل نور محمد ﷺ كمشكاة قال: المشكاة الكوة ضربها الله مثلاً لقمة فيها مصباح، والمصباح قلبه ﴿لِّلْمَصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ﴾، والزجاجة صدره ﴿كَانَهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ شبه صدر محمد ﷺ بالكوكب الدرّي، ثم رجع المصباح إلى قلبه، فقال: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَّبَارَكَةٍ - يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس، ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد الزيت أن يضيء، ولو لم تمسسه نار.

وأقول: إن تفسير النظم القرآني بهذا ونحوه مما تقدّم عن أبي بن كعب، وابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم ليس على تقتضيه لغة العرب، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ ما يجوز العدول عن المعنى العربي إلى هذه المعاني التي هي شبيهة بالألفاظ والتعمية، ولكن هؤلاء الصحابة، ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة، ولهذا قال ابن عباس: هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة كما قُدمنا عنه، ولا وجه لهذا الاستبعاد. فإننا قد قُدمنا في أول البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه، وأبلغ أسلوب، وعلى ما تقتضيه لغة العرب، ويفيده كلام الفصحاء، فلا وجه للعدول عن الظاهر، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا من لغة. وأما ما حكى عن كعب الأحبار في هذا كما قُدمنا، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر في تفسير الآية، فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به في مثل هذا. وقد نهينا فيما سبق: أن تفسير الصحابي إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيراً، فلا تقوم به الحجة، ولا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربي، نعم إن صحت قراءة أبي بن كعب، كانت هي المستند لهذه التفاسير المخالفة للظاهر، وتكون كالزيادة المبينة للمراد، وإن لم تصح، فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة، وغيرهم ممن قبلهم، وممن بعدهم هو المتعين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿فِي بَيْوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ قال: هي المساجد تكرم، وينهى عن اللغو فيها، وينكر فيها اسم الله، يتلى فيها كتابه ﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ صلاة الغداة، وصلاة العصر، وهما أول ما فرض الله من الصلاة فأحب أن

وقيل: وجد وعد الله بالجزاء على عمله، وقيل: وجد امر الله عند حشره، وقيل: وجد حكمه، وقضاه عند المجيء، وقيل: عند العمل، والمعنى متقارب. وقرأ مسلمة بن محارب (بقيعه) بهاء منورة كما يقال رجل عزهاه. وروى عنه: أنه قرأ (بقيعات) بقاء مبسوطة. قيل: يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأول، وجمع قبة على الثاني. وروى عن نافع، وأبي جعفر، وشيبة: أنهم قرءوا (الظلمان) بغير همز، والمشهور عنهم الهمز ﴿أو كظلمات﴾ معطوف على كسراب، ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار كما أنه تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات، فهي أيضاً تشبه الظلمات. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد، فمثلها كمثل السراب، وإن مثلت بما يرى، فهي كهذه الظلمات التي وصف. قال أيضاً: إن شئت مثل بالسراب، وإن شئت مثل بهذه الظلمات، فإلّا للإباجة حسبما تقدم من القول في ﴿أو كصيب﴾ [البقرة: 19]. قال الجرجاني: الآية الأولى في نكر أعمال الكفار، والثانية في نكر كفرهم، ونسق الكفر على أعمالهم لأنه أيضاً من أعمالهم. قال القشيري: فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار، وعند الجرجاني لكفر الكفار ﴿في بحر لجي﴾ اللجة معظم الماء، والجمع لجج، وهو: الذي لا يترك لعقمه. ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى، فقال ﴿يغشاه موج﴾ أي: يعلو هذا البحر موج، فيستره ويغطيه بالكلية، ثم وصف هذا الموج بقوله ﴿من فوقه موج﴾ أي من فوق هذا الموج موج، ثم وصف الموج الثاني، فقال ﴿من فوقه سحب﴾ أي: من فوق ذلك الموج الثاني سحب، فيجتمع حينئذٍ عليهم خوف البحر وأمواجه، والسحاب المرتفعة فوقه. وقيل: إن المعنى: يغشاه موج من بعده موج، فيكون الموج يتبع بعضه بعضاً حتى كأن بعضه فوق بعض، والبحر أخوف ما يكون إذا توالى أمواجه، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه زاد الخوف شدة، لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها من في البحر، ثم إذا أمطرت تلك السحاب، وهبت الريح المعتادة في الغالب عند نزول المطر تكاثفت الهموم، وترافقت الغيوم، وبلغ الأمر إلى الغاية التي ليس وراءها غاية، ولهذا قال سبحانه: ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ أي: هي ظلمات، أو هذه ظلمات متكاثفة مترافقة، ففي هذه الجملة بيان لشدة الأمر وتعاطفه، وقرأ ابن محيصن، والبزي (سحاب ظلمات) بإضافة سحب إلى ظلمات، ووجه الإضافة: أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات، فاضيف إليها لهذه الملابس. وقرأ الباقون بالقطع، والتنوين.

ومن غرائب التفاسير: أنه سبحانه أراد بالظلمات: أعمال الكافر، وبالبحر اللجي: قلبه، وبالموج فوق الموج: ما يغشى قلبه من الجهل، والشك، والحيرة. والسحاب الرين، والختم، والطبع على قلبه، وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد. ثم بالغ سبحانه في هذه الظلمات المذكورة بقوله ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ وفاعل أخرج ضمير يعود على

ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يعلم الله لم يدر فما لم ينزل من نور ﴿ألم تر أن الله يسبحكم من في السموات والأرض والطير صبحت كل قد علم صلاتهم وتسبيحهم والله عليهم بما يعملون﴾ ﴿والله ملك السموات والأرض والى الله المصير﴾ ﴿ألم تر أن الله ينزل من السماء ماء فنزلت منه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برق فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل الليل والنهار إن في ذلك لآية لآلئ الأبصار﴾ ﴿والله خلق كل دابة من ماء فيهم من يشاء على بطيه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ ﴿ألم تر أنزلنا عابثاً منبتاً والله يهوي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾

لما نكر سبحانه حال المؤمنين، وما يقول إليه أمرهم نكر مثلاً للكافرين، فقال ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ المراد بالأعمال هنا هي الأعمال التي من أعمال الخير كالصدقة، والصلة، وفك العاني، وعمارة البيت، وسقاية الحاج، والسراب: ما يرى في المفاز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء في ظل من يراه، وسمي سراباً لأنه يسرب أي: يجري كالماء؛ يقال: سرب الفحل أي: مضى، وسار في الأرض، ويسمى الآل أيضاً. وقيل: الآل هو الذي يكون ضحى كالماء، إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كانه بين السماء والأرض، قال امرؤ القيس:

الم انض المطي بكل خرق طويل الطول لماع السراب
وقال آخر:

فلما كفنا الحرب كانت عهودهم كلمع سراب بالفلا متالحق
والقيعة جمع قاع: وهو الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء، مثل جيرة، وجار، قاله الهروي. وقال أبو عبيد: قبة، وقاع واحد. قال الجوهري: القاع المستوي من الأرض، والجمع: أقوع، وأقواع، وقيعان، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها، والقيعة مثل القاع. قال: وبعضهم يقول: هو جمع يحسبه للظلمان ماء. هذه صفة ثانية لسراب، والظلمان: العطشان، وتخصيص الحسبان بالظمان مع كون الزيان يراه كذلك، لتحقيق التشبيه المبني على الطمع ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ أي: إذا جاء العطشان ذلك الذي حسبه ماء لم يجده شيئاً مما قدره وحسبه، ولا من غيره، والمعنى: أن الكفار يعولون على أعمالهم التي يظنونها من الخير، ويطمعون في ثوابها، فإذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا منها شيئاً، لأن الكفر أحبطها، ومحا أثرها، والمراد بقوله ﴿حتى إذا جاءه﴾ مع أنه ليس بشيء أنه جاء الموضع الذي كان يحسبه فيه. ثم نكر سبحانه ما يدل على زيادة حسرة الكفرة، وأنه لم يكن قصارى أمرهم مجرد الخيبة كصاحب السراب، فقال ﴿ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ أي: وجد الله بالمرصاد، فوفاه حسابه أي: جزاء عمله، كما قال امرؤ القيس:

فولى مديراً يهوى حديثاً وإيقن أنه لاقى الحسابا

واحد مما نكر، والضمير في علم يرجع إلى كل، والمعنى: إن كل واحد من هذه المسبحات لله قد علم صلاة المصلي، وتسبيح المسيح. وقيل: المعنى أن كل مصلي، ومسبح قد علم صلاة نفسه، وتسبيح نفسه. قيل: والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكُرِّرَ للتأكيد، والصلاة قد تسمى تسبيحاً. وقيل: المراد بالصلاة هنا الدعاء أي: كل واحد قد علم دعاءه، وتسبيحه. وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك، والهمها إليه، لا أن صوره منها على طريقة الإتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بيع صنع الله سبحانه، وعظيم شأنه، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هذه الجملة مقررّة لما قبلها أي: لا تخفى عليه طاعتهم، ولا تسبيحهم، ويجوز أن يكون الضمير في «علم» الله سبحانه أي: كل واحد من هذه المسبحة قد علم الله صلاته له، وتسبيحه إياه، والأول أرجح لاتفاق القراء على رفع كل، ولو كان الضمير في علم الله لكان نصب كل أولى. ونكر بعض المفسرين: أنها قراءة طائفة من القراء علم على البناء للمفعول، ثم بين سبحانه: أن المبدأ منه، والمعاد إليه، فقال ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له لا لغيره ﴿وَاللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ لا إلى غيره، والمصير: الرجوع بعد الموت. وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في غير موضع. ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر من الآثار العلوية، فقال ﴿وَاللَّهُ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا﴾ الإجزاء: السوق قليلاً قليلاً، ومنه قول النابغة:

إني أتيتك من أهلي ومن وطني أَرْجِي حشاشة نفس ما بها رمق وقوله أيضاً:

أسرت عليه من الجوزاء سارية يَرْجِي السَّمَاءَ عَلَيْهِ جَامِدُ الْبَرْدِ والمعنى: أنه سبحانه يسوق السحاب سوقاً رقيقاً إلى حيث يشاء ﴿وَاللَّهُ يُولِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي: بين أجزائه، فيضم بعضه إلى بعض، ويجمعه بعد تفرقه ليقوى، ويتصل، ويكتف، والأصل في التأليف الهمز. وقرأ ورش، وقالون عن نافع (يولف) بالواو تخفيفاً، والسحاب واحد في اللفظ، ولكن معناه جمع، ولهذا دخلت «بين» عليه لأن أجزائه في حكم المفردات له. قال الفراء: إن الضمير في بينه راجع إلى جملة السحاب، كما تقول: الشجر قد جلست بينه، لأنه جمع، وأفرد الضمير باعتبار اللفظ ﴿وَاللَّهُ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ أي: متراكماً يركب بعضه بعضاً. والركم: جمع الشيء، يقال: ركم الشيء يركمه ركاماً أي: جمعه، وألقى بعضه على بعض وارتكم الشيء، وتركم إذا اجتمع، والركمة: الطين المجموع، والركام: الرمل للمترابك ﴿وَقَتَرَى الْوَيْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ الويقي: المطر عند جمهور المفسرين، ومنه قول الشاعر:

فلا مزنة وبقت بدقها ولا أرض أبقل إقبالها وقال امرؤ القيس:

فدفعهما وبق وسح وديمة وسكب وتوكاف وتنهملان يقال: وبقت السحاب فهي: وابقة، وبق المطر يلق أي:

مقدّر دلّ عليه المقام أي: إذا أخرج الحاضر في هذه الظلمات أو من ابتلى بها. قال الزجاج، وأبو عبيدة: المعنى لم يرها، ولم يك. وقال الفراء: إن كاد زائدة. والمعنى: إذا أخرج يده لم يرها، كما تقول ما كنت أعرفه. وقال المبرد: يعني: لم يرها إلا من بعد الجهد. قال النحاس: أصح الأقوال في هذا أن المعنى: لم يقارب رؤيتها، فإن لم يرها رؤية بعيدة، ولا قريبة، وجملة ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ مقررّة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة، والمعنى: ومن لم يجعل الله له هداية، فما له من هداية. قال الزجاج: ذلك في الدنيا، والمعنى: من لم يهده الله لم يهتد، وقيل: المعنى: من لم يجعل له نوراً يمشي به يوم القيامة، فما له من نور يهتدي به إلى الجنة ﴿وَاللَّهُ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان، والخطاب لكل من له أهلية النظر، أو للرسل ﷺ، وقد علمه من جهة الاستدلال؛ ومعنى ﴿وَاللَّهُ تَرَى﴾: ألم تعلم، والهمزة للتقرير أي: قد علمت علماً يقينياً شبيهاً بالمشاهدة، والتسبيح التنزيه في ذاته، وأفعاله، وصفاته عن كل ما لا يليق به، ومعنى ﴿وَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: من هو مستقرّ فيهما من العقلاء، وغيرهم، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها، ويشاهد من أثر الصنعة البينة فيها. وقيل: إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء، والتنزيه من غيرهم. وقد قيل: إن هذه الآية تشمل الحيوانات، والجمادات، وأن آثار الصنعة الإلهية في الجمادات ناطق، ومخبر بانصافه سبحانه بصفات الجلال، والكمال، وتنزّهه عن صفات النقص، وفي ذلك تقرير للكفار، وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادة عزّ وجلّ. وبالجملة، فإنه ينبغي حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز. قرأ الجمهور (والطير صافات) بالرفع للطير، والنصب لصافات على أن الطير معطوفة على من، وصفات منتصب على الحال. وقرأ الأعرج (والطير) بالنصب على المفعول معه، وصفات حال أيضاً. قال الزجاج: وهي أجود من الرفع. وقرأ الحسن، وخارجه عن نافع (والطير صافات) برفعهما على الابتداء، والخبر، ومفعول صافات محذوف أي: أجنحتها، وخصّ الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السموات، والأرض لعدم استمرار استقرارها في الأرض، وكثرة لبثها في الهواء، وهو ليس من السماء، ولا من الأرض، ولما فيها من الصنعة البديعة التي تقدر بها تارة على الطيران، وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات، ونكر حالة من حالات الطير، وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها؛ لأن هذه الحالة هي أغرب أحوالها، فإن استقرارها في الهواء مسبحة من نون تحريك لأجنحتها، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي أتقن كل شيء. ثم زاد في البيان فقال ﴿وَاللَّهُ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ أي: كل

وقال امرؤ القيس:

يضيء سناه أو مصابيح راهب أمان السليط في النبال المفتل
فالسنا بالقصر ضوء البرق، وبالمذ الرفعة، كذا قال
المبرد، وغيره. وقرأ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب
(سناه برقه) بالمذ على المبالغة في شدة الضوء، والصفاء،
فاطلق عليه اسم: الرفعة، والشرف. وقرأ طلحة، ويحيى أيضاً
بضم الباء من برقه، وفتح الراء. قال أحمد بن يحيى ثعلب:
وهي على هذه القراءة جمع برق. وقال النحاس: البرقة
المقدار من البرق، والبرمة الواحدة. وقرأ الجحدري، وابن
القعقاع (يذهب) بضم الباء، وكسر الهاء من الإذهب. وقرأ
الباقون (سنا) بالقصر (وبرقه) بفتح الباء، وسكون الراء،
(ويذهب) بفتح الباء والهاء من الذهاب، وخطأ قراءة
الجحدري، وابن القعقاع الأخفش، وأبو حاتم. ومعنى ذهب
البرق بالأبصار: خطفه إياها من شدة الإضاءة، وزيادة
البريق، والباء في الأبصار على قراءة الجمهور للإصاق،
وعلى قراءة غيرهم زائدة. «يقلب الله الليل والنهار» أي:
يعاقب بينهما، وقيل يزيد في أحدهما، وينقص الآخر، وقيل:
يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشر، ونفع وضرر،
وقيل: بالحر والبرد، وقيل: المراد بذلك تغيير النهار بظلمة
السحاب مرة، وبضوء الشمس أخرى، وتغيير الليل بظلمة
السحاب تارة، وبضوء القمر أخرى، والإشارة بقوله «إن في
ذلك لعبرة لأولي الأبصار» إلى ما تقدم، ومعنى العبرة:
الدلالة الواضحة التي يكون بها الاعتبار، والمراد بأولي
الأبصار كل من له بصر يبصر به. ثم نكر سبحانه دليلاً
ثالثاً من عجائب خلق الحيوان، وبديع صنعته، فقال «والله
خلق كل دابة من ماء» قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش،
وحمزة، والكسائي (والله خالق كل دابة)، وقرأ الباقر
(خلق)، والمعنيان صحيحان، والدابة: كل ما دب على الأرض
من الحيوان، يقال: دب يذب، فهو: داب، والهاء للمبالغة،
ومعنى «من ماء»: من نطفة، وهي المنى، كذا قال الجمهور.
وقال جماعة: إن المراد الماء المعروف، لأن آدم خلق من
الماء، والطين. وقيل: في الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على
القول الأول، لأن في الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة، ويخرج
من هذا العموم الملائكة، فإنهم خلقوا من نور، والجآن، فإنهم
خلقوا من نار. ثم فصل سبحانه أحوال كل دابة، فقال
«فمنهم من يمشي على بطنه»، وهي الحيات، والحوث،
والدود، ونحو ذلك «ومنهم من يمشي على رجلين»
الإنسان، والطير «ومنهم من يمشي على أربع» سائر
الحيوانات، ولم يتعرض لما يمشي على أكثر من أربع لقلته،
وقيل: لأن المشي على أربع فقط، وإن كانت القوائم كثيرة،
وقيل: لعدم الاعتماد بما يمشي على أكثر من أربع، ولا وجه
لهذا، فإن المراد التنبيه على بديع الصنع، وكمال القدرة،
فكيف يقال: لعدم الاعتماد بما يمشي على أكثر من أربع؟
وقيل: ليس في القرآن ما يدل على عدم المشي على أكثر من
أربع، لأنه لم ينف ذلك، ولا جاء بما يقتضي الحصر، وفي

قطر يقطر، وقيل: إن الودق البرق، ومنه قول الشاعر:

أثرن عجاجة وخرجن منها خروج الودق من خلل السحاب
والأول أولى. ومعنى «من خلاله»: من فتوقه التي هي
مخارج القطر، وجملة «يخرج من خلاله» في محل
نصب على الحال، لأن الرؤية هنا هي البصرية. وقرأ ابن
عباس، وابن مسعود، والضحاك، وأبو العالية (من خلله)
على الإفراد. وقد وقع الخلاف في خلال، هل هو مفرد
كحجاب أو جمع كجبال؟ «وينزل من السماء من جبال
فيها من برد» المراد بقوله: من سماء: من عال، لأن
السماء قد تطلق على جهة العلو، ومعنى من جبال: من
قطع عظام تشبه الجبال، ولفظ «فيها» في محل نصب على
الحال، و«من» في من برد للتبويض، وهو مفعول ينزل.
وقيل: إن المفعول محذوف، والتقدير: ينزل من جبال فيها
من برد برداً. وقيل: إن «من» في من برد زائدة، والتقدير:
ينزل من السماء من جبال فيها برد. وقيل: إن في الكلام
مضافاً محذوفاً أي: ينزل من السماء قدر جبال، أو مثل
جبال من برد إلى الأرض. قال الأخفش: إن «من» في من
جبال، وفي من برد زائدة في الموضعين، والجبال، والبرد
في موضع نصب أي: ينزل من السماء برداً يكون كالجبال.
والحاصل: أن «من» في من السماء لابتداء الغاية بلا
خلاف، و«من» في من جبال فيها ثلاثة أوجه: الأول لابتداء
الغاية، فتكون هي ومجرورها بدلاً من الأولى بإعادة
الخافض بدل اشتغال. الثاني: أنها للتبويض فتكون على هذا
هي ومجرورها في محل نصب على أنها مفعول الإنزال،
كأنه قال: وينزل بعض جبال. الثالث: أنها زائدة أي: ينزل
من السماء جبالاً. وأما «من» في من برد، ففيها أربعة
أوجه: الثلاثة المتقدمة. والرابع: أنها لبيان الجنس، فيكون
التقدير على هذا الوجه: وينزل من السماء بعض جبال التي
هي البرد. قال الزجاج: معنى الآية: وينزل من السماء من
جبال برد فيها كما تقول: هذا خاتم في يدي من حديد أي:
خاتم حديد في يدي، لأنك إذا قلت: هذا خاتم من حديد،
وخاتم حديد كان المعنى واحداً. انتهى. وعلى هذا يكون من
برد في موضع جر صفة لجبال كما كان من حديد صفة
لخاتم، ويكون مفعول ينزل من جبال، ويلزم من كون
الجبال برداً: أن يكون المنزل برداً. وذكر أبو البقاء: أن
التقدير: شيئاً من جبال، فحذف الموصوف، واكتفى بالصفة
«فيصيب به من يشاء» أي: يصيب بما ينزل من البرد
من يشاء أن يصيبه من عباده «ويصرفه عن يشاء»
منهم، أو يصيب به مال من يشاء، ويصرفه عن مال من
يشاء. وقد تقدم الكلام عن مثل هذا في البقرة «يكاد سنا
برقه يذهب بالأبصار» السنا الضوء أي: يكاد ضوء
البرق الذي في السحاب يذهب بالأبصار من شدة بريقه،
وزيادة لمعانه، وهو كقوله: «يكاد البرق يخطف أبصارهم»
[البقرة: 20] قال الشماخ:

وما كادت إذا رفعت سناها ليبصر ضوءها إلا البصير

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٦١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ رَبَّهُ فَقَالَتْ لَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٦٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُرْمَهُمْ بِخَيْبَةٍ قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآئِدُ الْحَيَاةِ دَارَ الْحَيَاةِ فَإِن تُطِيعُوا فَإِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ عَنْهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٤﴾ وَتَعَدُّوا مَا عَمِلْتُمْ كَتَبَهُ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِيَسْخَرُوا لَهُمُ الْخَالِصَاتِ بِأَن يَتَصَلَّوْنَ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُسْخَرُوا لَهُنَّ فِي الْحَيَاةِ وَيَحْكُمَ بَيْنَهُمُ الْكُلُّ أَرْضًا لَهُمْ وَلِكُلٍّ أَمْثَلُ مَا يَعْبُدُونَ لَا يَشْكُرُونَ فِي شَيْءٍ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَا تَحْزَنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَعْزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَآئِدَهُمْ آتَارَ وَلِكُلِّ أَلَمٍ نَّصِيرٌ ﴿٦٧﴾

شرح سبحانه في بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم، فقال **﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا﴾**، وهؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ويقولون بأقوالهم ما ليس في قلوبهم، فإنهم كما حكى الله عنهم هاهنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله، وبالرسل والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح، ولهذا قال **﴿ثم يقول فريق منهم﴾** أي: من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة **﴿من بعد ذلك﴾** أي: من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان، والطاعة، ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان، فقال **﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾** أي: ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة، فيشمل الحكم بنفي الإيمان لجميع القائلين، ويندرج تحتهم من تولى اندراجاً أولياً، وقيل: إن الإشارة بقوله **﴿أولئك﴾** راجع إلى من تولى، والأول أولى. والكلام مشتمل على حكمين: الحكم الأول على بعضهم بالتولي، والحكم الثاني على جميعهم بعدم الإيمان. وقيل: أراد بمن تولى: من تولى عن قبول حكمه **﴿فريق﴾**، وقيل: أراد بذلك رؤساء المنافقين، وقيل: أراد بتولي هذا الفريق رجوعهم إلى الباقين، ولا ينافي ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص، كما سيأتي بيانه. ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقاً منهم يعرضون عن إجابة الدعوى إلى الله، وإلى رسوله في خصوماتهم، فقال **﴿وإذا دعا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾** أي: ليحكم الرسول بينهم، فالضمير راجع إليه؛ لأنه المباشر للحكم، وإن كان الحكم في الحقيقة لله سبحانه، ومثل ذلك قوله تعالى: **﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾** [التوبة: 62]. وإذا، في قوله **﴿إذا فريق منهم معرضون﴾** هي الفجائية أي: فجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى الله، والرسول، ثم ذكر سبحانه: أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحق عليهم، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول الله **﴿صلى الله عليه وسلم﴾** لا يحكم إلا بالحق، فقال **﴿وإن يكن لهم**

مصحف أبي (ومنهم من يمشي على أكثر)، فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع، كالسرطان، والعنكب، وكثير من خشاش الأرض **﴿يخلق الله ما يشاء﴾** مما نكره هاهنا، ومما لم ينكره، كالجمادات مركبها وبسيطها، ناميها وغير ناميها **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** لا يعجزه شيء بل الكل من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه **﴿لقد أنزلنا آيات مبينات﴾** أي: القرآن، فإنه قد اشتمل على بيان كل شيء، وما فرطنا في الكتاب من شيء، وقد تقدم بيان مثل هذا في غير موضع **﴿والله يهدي من يشاء﴾** بتوفيقه للنظر الصحيح، وإرشاده إلى التامل الصائب **﴿إلى صراط مستقيم﴾** إلى طريق مستوي لا عوج فيه، فيتوصل بذلك إلى الخير التام، وهو نعيم الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب﴾** قال: هو مثل ضربه الله كرجل عطش، فاشتد عطشه، فرأى سراباً، فحسبه ماء، فطلبه، فظن أنه قدر عليه حتى أتى، فلما أتاه لم يجده شيئاً، وقبض عند ذلك. يقول: الكافر كذلك السراب إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغني عنه شيئاً، ولا ينفعه إلا كما نفع السراب العطشان **﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾** قال: يعني بالظلمات: الأعمال، وبالبحر اللجي قلب الإنسان **﴿يغشاها موج﴾** يعني بذلك: الغشاوة التي على القلب، والسمع، والبصر. وأخرج ابن جرير عنه **﴿بقيعة﴾**: بارض مستوية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق السدي، عن أبيه، عن أصحاب النبي **﴿صلى الله عليه وسلم﴾** قال: «إن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطشاً، فيقولون: أين الماء؟ فيتمثل لهم السراب، فيحسبونه ماء، فينطلقون إليه، فيجدون الله عنده، فيوفيههم حساب، والله سريع الحساب»، وفي إسناده السدي عن أبيه، وفيه مقال معروف. وأخرج ابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة في قوله **﴿كل قد علم صلاته وتيسيره﴾** قال: الصلاة للإنسان، والتيسير لما سوى ذلك من خلقه. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه في قوله **﴿والطير صافات﴾** قال: بسط أجنحتهن. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله **﴿يكاد سنا برفقه﴾** يقول: ضوء برفقه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: كل شيء يمشي على أربع إلا الإنسان. وأقول: هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشي على رجلين، وهكذا غيرها، كالنعام، فإنها تمشي على رجلين، وليست من الطير، فهذه الكلية المروية عنه رضي الله عنه لا تصح.

وَقَوْلُهُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِأَنَّ رَسُولَهُ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَئِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لَقَى يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْبِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنْ قُلُوبُهُمْ مُرْسُورَةٌ أَرَأَيْتُمْ أَتُمْ يَخْفَؤْنَ أَنْ يَحِفَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٩﴾

الاقطار الإسلامية، فليرجع إليهما. ثم لما نكر ما كان عليه أهل النفاق أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله، ورسوله، فقال ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قرأ الجمهور بنصب (قول) على أنه خبر كان، واسمها أن يقولوا. وقرأ علي، والحسن، وابن أبي إسحاق برفع (قول) على أنه الاسم، وأن المصدرية، وما في حيزها الخبر، وقد رجحت القراءة الأولى بما تقرّر عند النحاة من: أنه إذا اجتمع معرفتان، وكانت إحداها أعرف جعلت التي هي أعرف اسماً. وأما سيبويه فقد خير بين كل معرفتين، ولم يفرق هذه التفرقة، وقد قمنا الكلام على الدعوة إلى الله، ورسوله للحكم بين المتخاصمين، ونكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة، ومن لا تجب ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: أن يقولوا هذا القول لا قولاً آخر، وهذا، وإن كان على طريقة الخبر، فليس المراد به ذلك، بل المراد به تعليم الألب الشرعي عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر. والمعنى أنه ينبغي للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابله بالطاعة، والإذعان. قال مقاتل، وغيره: يقولون سمعنا قول النبي ﷺ، وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه، ويضرهم، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿هُمْ الْمَفْلُحُونَ﴾ أي: الفائزون بخير الدنيا، والآخرة، ثم أرفق الثناء عليهم بثناء آخر، فقال ﴿وَمَنْ يَطْعَمْهُ﴾ ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون، وهذه الجملة مقررة لما قبلها من حسن حال المؤمنين، وترغيب من عداهم إلى الدخول في عدادهم، والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله، والخشية من الله عز وجل، والتقوى له. قرأ حفص (ويتقه) بإسكان القاف على نية الجزم. وقرأ الباقر بكسرهما، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره، وأسكن الهاء أبو عمرو، وأبو بكر، واختلس الكسرة يعقوب، وقالون عن نافع، والمثنى عن أبي عمرو، وحفص، وأشبع كسرة الهاء الباقر. قال ابن الأنباري: وقراءة حفص هي على لغة من قال: لم أر زيدا، ولم أشتري طعاماً يسقطون الياء للجزم، ثم يسكنون الحرف الذي قبلها، ومنه قول الشاعر:

قال سليمان اشتري لنا دقيقاً

وقول الآخر:

عجبت لمولود وليس له أب وذئب ولد لم يلد له إبن
وأصله يلد بكسر اللام، وسكون الدال للجزم، فلما سكن اللام التقى ساكنان، فلو حرك الأول: لرجع إلى ما وقع الفرار منه، فحرك ثانيهما، وهو: الدال. ويمكن أن يقال: إنه حرك الأول على أصل التقاء الساكنين، وبقي السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة، ولا يضر الرجوع إلى ما وقع الفرار منه، فهذه الحركة غير تلك الحركة، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ إلى الموصوفين بما نكر من الطاعة، والخشية، والتقوى أي: هم الفائزون بالنعيم الدنيوي،

الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ قال الزجاج: الإذعان الإسراع مع الطاعة، يقال: أذعن لي بحقي أي: طوعني لما كنت أتمس منه، وصار يسرع إليه، وبه قال مجاهد. وقال الأخفش، وابن الأعرابي: مذعنين مقرّين. وقال النقاش: مذعنين: خاضعين. ثم قسم الأمر في إعراضهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم، فقال ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾، وهذه الهمة للتوبيخ، والتقريع لهم، والمرض النفاق أي: لكان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن في قلوبهم ﴿أَمْ ارْتَابُوا﴾، وشكوا في أمر نبوته ﷺ، وعله في الحكم ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾، والحييف الميل في الحكم؛ يقال: خاف في قضيتي أي: جاز فيما حكم به، ثم أضرب عن هذه الأمور التي صرّحها بالاستفهام الإنكاري، فقال ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك لشيء مما ذكر، بل لظلمهم، وعنادهم؛ فإنه لو كان الإعراض لشيء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحقّ لهم، وفي هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب، والسنة، العادلين في القضاء. هو: حكم بحكم الله، وحكم رسوله، فالداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله، وإلى رسوله أي: إلى حكمهما. قال ابن خزيمة مناد: واجب على كل من دعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق. قال القرطبي: في هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم، لأن الله سبحانه نذّر من دعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم، فقال ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ الآية. انتهى. فإن كان القاضي مقصراً لا يعلم بأحكام الكتاب، والسنة، ولا يعقل حجج الله، ومعاني كلامه، وكلام رسوله، بل كان جاهلاً جهلاً بسيطاً، وهو من لا علم له بشيء من ذلك، أو جهلاً مركباً، وهو: من لا علم عنده بما نكرنا، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين، وأطلع على شيء من علم الرأي، فهذا في الحقيقة جاهل، وإن اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم، فاعتقاده باطل؛ فمن كان من القضاة هكذا، فلا تجب الإجابة إليه؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه، بل هو من قضاة الطاغوت، وحكام الباطل، فإنّ ما عرفه من علم الرأي إنما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب، والسنة، ولم يخصص فيه لغيره ممن يأتي بعده. وإذا تقرّر لديك هذا، وفهمته حق فهمه علمت: أن التقليد، والإنساب إلى عالم من العلماء دون غيره، والتقليد بجميع ما جاء به من رواية، ورأي، وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة، والفواقر الموحشة، فلنا لله ولنا إليه راجعون. وقد أوضحنا هذا في مؤلفنا الذي سميناه: [القول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا الذي سميناه: [أب الطلب ومنتهى الأرب]، فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت

المبين: التبليغ الواضح، أو الموضح. قيل: يجوز أن يكون قوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ماضياً، وتكون الواو لضمير الغائبين، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول الله ﷺ أن يقول لهم، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، والأول أرجح. ويؤيده الخطاب في قوله ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾، وفي قوله ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾، ويؤيده أيضاً قراءة البزي (فإن تولوا) بتشديد التاء، وإن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهديتهم، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله، وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهو وعد يعم جميع الأمة. وقيل: هو خاص بالصحاب، ولا وجه لذلك، فإن الإيمان، وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله، وسنة رسوله، فقد أطاع الله ورسوله، واللام في ﴿لِيَسْتَخْلَفْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جواب لقسم محذوف، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم، لأنه ناجز لا محالة، ومعنى ﴿لِيَسْتَخْلَفْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم، وقد أبعد من قال: إنها مختصة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وظاهر قوله ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كل من استخلفه الله في أرضه، فلا يخص ذلك ببني إسرائيل، ولا أمة من الأمم دون غيرها. قرأ الجمهور ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ بفتح الفوقية على البناء للفاعل. وقرأ عيسى بن عمر، وأبو بكر، والمفضل، عن عاصم بضمها على البناء للمفعول، ومحل الكاف نصب على المصدرية أي: استخلفاً كما استخلف، وجملة ﴿وَلِيَمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب، والمراد بالتمكين هنا: التثبيت، والتقرير أي: يجعله الله ثابتاً مقرراً، ويوسع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان، والمراد بالدين هنا: الإسلام، كما في قوله: ﴿وَرَضِيَ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولاً، وهو جعلهم ملوكاً، وذكر التمكين ثانياً، فافاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض، والطوبى، بل على وجه الاستقرار، والثبات، بحيث يكون الملك لهم، ولعقبهم من بعدهم، وجملة ﴿وَلِيُبَيِّنَ لَهُمْ مِنْ بَعْدُ خَوْفَهُمْ مِنْكُمْ﴾ معطوفة على التي قبلها. قرأ ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب، وأبو بكر (ليبينلنهم) بالتخفيف من أبذل، وهي قراءة الحسن، واختارها أبو حاتم. وقرأ الباقون بالتشديد من بذل، واختارها أبو عبيد، وهما لغتان. وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف. قال النحاس: وزعم أحمد بن

والأخروي لا من عداهم. ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزى لخرجوا، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ﴾ أي: لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن، وجهد أيمانهم منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له أي: أقسموا بالله يجهدون أيمانهم جهداً. ومعنى ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: طاقة ما قدروا أن يحلفوا، مأخوذ من قولهم جهد نفسه: إذا بلغ طاقتها، واقتضى وسعها. وقيل: هو منتصب على الحال والتقدير: مجتهدين في أيمانهم، كقولهم: أفعال ذلك جهك، وطاقتك، وقد خلط الرخخشري الوجهين، فجعلهما واحداً. وجواب القسم قوله ﴿لَيَخْرُجْنَ﴾، ولما كانت مقاتلتهم هذه كاذبة، وأيمانهم فاجرة رد الله عليهم، فقال ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا﴾ أي: رد عليهم زاجراً لهم، وقيل لهم: لا تقسموا أي: لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة، والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به، وهاتان تَمَّ الكلام. ثم ابتدأ، فقال ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾، وارتفاع طاعة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد، ويجوز أن تكون طاعة مبتدأ، لأنها قد خصصت بالصفة، ويكون الخبر مقراً أي: طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم، ويجوز أن ترتفع بفعل محذوف أي: لتكن منكم طاعة، أو لتوجد، وفي هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدم ما يشعر به. وقرأ زيد بن علي، والترمذي (طاعة) بالنصب على المصدر لفعل محذوف أي: أطيعوا طاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال، وما تضمنونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم، وهذه الجملة تحليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق. ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله، فقال ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ طاعة ظاهرة، وباطنة بخلوص اعتقاد، وصحة نية، وهذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم، فإن قوله ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةً﴾ في حكم الأمر بالطاعة، وقيل: إنها مختلفان، فالأول نهي بطريق الرد، والتوبيخ، والثاني أمر بطريق التكليف لهم، والإيجاب عليهم ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ خطاب للمأمورين، وأصله، فإن تتولوا، فحذف إحدى التامين تخفيفاً، وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله ﷺ إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم، والمبالغة في العناية بهديتهم إلى الطاعة، والانتقيد، وجواب الشرط قوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾ أي: فاعلموا أنما على النبي ﷺ ما حمل مما أمر به من التبليغ، وقد فعل، وعليكم ما حملتم أي: ما أمرتم به من الطاعة، وهو وعيد لهم، كأنه قال لهم: فإن توليتم، فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق، وترشدوا إلى الخير، وتفوزوا بالأجر، وجملة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ مقررة لما قبلها، واللام إما للعهد، فإيراد بالرسول نبينا ﷺ، وإما للجنس، فإيراد كل رسول، والبلاغ

وبين الرجل خصومة، أو منازعة على عهد رسول الله ﷺ، فإذا دعي إلى النبي ﷺ، وهو محقّ أذن، وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: أنطلق إلى فلان، فأنزل الله سبحانه ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله ﴿هُمْ الظالمون﴾، فقال رسول الله ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء، فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين، فلم يجب، فهو ظالم لا حق له». قال ابن كثير بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه: وهذا حديث غريب، وهو مرسل. وقال ابن العربي: هذا حديث باطل، فأما قوله: فهو ظالم، فكلام صحيح. وأما قوله: فلا حق له، فلا يصح. ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق. انتهى. وأقول: أما كون الحديث مرسلًا، فظاهر. وأما دعوى كونه باطلًا، فمحتاجة إلى برهان، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما نكرنا، ويبعد كل البعد أن ينفي عليهم ما هو باطل، وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا مبارك، حدثنا الحسن، فنكره. وليس في هؤلاء كذاب، ولا وضاع. ويشهد له ما أخرجه الطبراني، عن الحسن، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعي إلى سلطان، فلم يجب، فهو ظالم لا حق له». انتهى. ولا يخفك أن قضاة العدل، وحكام الشرع الذين هم على الصفة التي قمتنا لك قريباً هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب، والسنة، المبينون للناس ما نزل إليهم. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس قال: أتى قوم النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا، فأنزل الله ﴿وَلَا تَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال: ذلك في شأن الجهاد، قال: يأمرهم أن لا يحلفوا على شيء ﴿طاعة معروفة﴾ قال: أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبي ﷺ من غير أن يقسموا. وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد ﴿طاعة معروفة﴾ يقول: قد عرفت طاعتهم أي: إنكم تكذبون به. وأخرج مسلم، والترمذي، وغيرهما، عن علقمة بن وائل الحضرمي، عن أبيه قال: «قدم زيد بن أسلم على رسول الله ﷺ، فقال: أرايت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق، ولا يعطونا؟ قال: فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم». وأخرج ابن جرير، وابن قانع، والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي، عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: قلت: يا رسول الله، فذكر نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن الزبير، عن جابر أنه سئل: إن كان علي إمام فاجر، فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا؟ قال: قاتل أهل الضلالة أينما وجبتهم، وعلى الإمام ما حمل، وعليكم ما حملتم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن البراء في قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ الآية. قال: فينا نزلت، ونحن في خوف شديد. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية قال: «كان النبي ﷺ، وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين

يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتثقيف فرقاً، وأنه يقال: بذكرته أي: غيرته، وأبيلته: أزلته، وجعلت غيره. قال النحاس، وهذا القول صحيح. والمعنى: أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمناً، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه، ولا يرجون غيره. وقد كان المسلمون قبل الهجرة، وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلا في السلاح، ولا يمسون ويصحبون إلا على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار، ثم صاروا في غاية الأمن، والدعة، وأذل الله لهم شياطين المشركين، وفتح عليهم البلاد، ومهد لهم في الأرض، ومكنهم منها، فله الحمد، وجملة ﴿يَعْبُدُونِي﴾ في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم، وجملة ﴿لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يعبدونني أي: يعبدونني، غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء، وقيل: معناه لا يراءون لعبادتي أحداً، وقيل: معناه لا يخافون غيري، وقيل: معناه لا يحبون غيري ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من استمر على الكفر، أو من كفر بعد إيمان، فأولئك الكافرون، هم الفاسقون؛ أي: الكاملون في الفسق. وهو الخروج عن الطاعة، والطغيان في الكفر، وجملة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوفة على مقدر يدل عليه ما تقدم، كأنه قيل لهم: فآمنوا، واعملوا صالحاً، وأقيموا الصلاة، وقيل: معطوف على ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾، وقيل التقدير: فلا تكفروا، وأقيموا الصلاة. وقد تقدم الكلام على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكَرَّرَ الأمر بطاعة الرسول للتأكيد، وخصه بالطاعة، لأن طاعته طاعة لله، ولم ينكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرر في علم المعاني من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي: افعلوا ما نكر من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول راجين أن يرحمكم الله سبحانه ﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجَازِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو حية (لا يحسبون) بالتحية بمعنى: لا تحسبون الذين كفروا، وقرأ الباقر بالفوقية أي: لا تحسبون يا محمد، والموصول المفعول الأول، ومعجزين الثاني، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين، قاله الزجاج، والفراء، وأبو علي. وأما على القراءة الأولى، فيكون المفعول الأول محذوفاً أي: لا يحسبون الذين كفروا أنفسهم. قال النحاس: وما علمت أحداً بصرياً، ولا كوفياً، إلا وهو يخطئ قراءة حمزة، ومعجزين معناه: فائتين. وقد تقدم تفسيره، وتفسير ما بعده.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ الآية قال: أناس من المنافقين أظهروا الإيمان، وهم في ذلك يصنون عن سبيل الله وطاعته، وجهاد مع رسوله ﷺ. وأخرجوا أيضاً عن الحسن قال: إن الرجل كان يكون بينه،

تَأْكُلُوا جِيسًا أَوْ أَشْيَاءَ فَإِذَا دَعَلْتُمْ يُبُوءًا فَسَلُّوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ حِجَّةً
مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر ما نكره من دلائل التوحيد
رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان، فنكره هاهنا على وجه
اخص، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين، وتدخل المؤمنات فيه تغليبا
كما في غيره من الخطابات. قال العلماء: هذه الآية خاصة
ببعض الأوقات. واختلفوا في المراد بقوله ﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ﴾
على أقوال: الأول: أنها منسوخة، قاله سعيد بن المسيب.
وقال سعيد بن جبير: إن الأمر فيها للذنوب لا للوجوب. وقيل:
كان تلك واجبا حيث كانوا لا أبواب لهم، ولو عاد الحال لعاد
الوجوب، حكاه المهدوي عن ابن عباس. وقيل: إن الأمر
هاهنا للوجوب، وإن الآية محكمة غير منسوخة، وأن حكمها
ثابت على الرجال والنساء؛ قال القرطبي: وهو قول أكثر أهل
العلم. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: إنها خاصة بالنساء.
وقال ابن عمر: هي خاصة بالرجال دون النساء. والمرا بقوله
﴿مَلَكَتْ أَيْمَانَكُمْ﴾ العبيد، والإماء، والمراد بالذين لم يبلغوا
الحلم الصبيان منكم أي: من الأحرار، ومعنى ﴿ثَلَاثَ
مَرَّاتٍ﴾: ثلاثة أوقات في اليوم والليلة، وعبر بالمرات عن
الأوقات لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك
الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات،
وانتصاب ثلاث مرات على الظرفية الزمانية أي: ثلاثة أوقات،
ثم فسر تلك الأوقات بقوله ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ إلخ، أو
منصوب على المصدرية أي: ثلاث استئذانات؛ ورجح هذا أبو
حيان، فقال: والظاهر من قوله ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ ثلاث
استئذانات، لأنك إذا قلت ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا
ثلاث ضربات. ويرد: بأن الظاهر هنا متروك للقريظة
المنكورة، وهو التفسير بالثلاثة الأوقات. قرأ الحسن، وأبو
عمرو في رواية (الحلم) يسكن اللام، وقرأ الباقر بضمها.
قال الأخفش: الحلم من حلم الرجل بفتح اللام، ومن الحلم
حلم بضم اللام يحلم بكسر اللام، ثم فسر سبحانه الثلاث
المرات، فقال ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾، وذلك لأنه وقت
القيام عن المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب البيظة،
وربما بيت عريانا، أو على حال لا يحب أن يراه غيره فيها،
ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث، ويجوز أن يكون في
محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي من قبل،
وقوله ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ معطوف
على محل ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾، و«من» في ﴿مِنْ
الظَّهِيرَةِ﴾ للبيان، أو بمعنى: في، أو بمعنى: اللام. والمعنى:
حين تضعون ثيابكم التي تلبسونها في النهار من شدة حر
الظهيرة، وذلك عند انتصاف النهار، فإنهم قد يتجردون عن
الثياب لأجل القيلولة. ثم نكر سبحانه الوقت الثالث، فقال
﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾، وذلك لأنه وقت التجرد عن

يدعون إلى الله وحده، وعبادته وحده لا شريك له سراً، وهم
خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة،
فقدموا المدينة، فأمرهم الله بالقتال، وكانوا بها خائفين
يمسسون في السلاح، ويصبون في السلاح، فغبروا بذلك ما
شاء الله، ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله ﷺ أريد
الدهر نحن خائفون هكذا؟ ما يأتي علينا يوم نأمن فيه،
ونضع فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: لن تغبروا إلا
يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبياً
ليست فيهم حديدة، فأنزل الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر
الآية، فظهر الله نبيه ﷺ على جزيرة العرب، فأمّنوا،
ووضعوا السلاح. ثم إن الله قبض نبيه، فكانوا كذلك آمنين
في إمارة أبي بكر، وعمر، وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا،
وكفروا النعمة، فأنزل الله عليهم الخوف الذي كان رفع
عنهم، وأخذوا الحجر، والشرط، وغيروا، فغير ما بهم.
وأخرج ابن المنذر، والطبراني في الأوسط، والحاكم
وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في
المختارة عن أبي بن كعب. قال: لما قدم رسول الله ﷺ
المدينة، وأوتهم الانصار رمتهم العرب عن قوس واحد،
فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه،
فقالوا: اترونا نأمن نعيش حتى نبني آمين مطمئنين لا نخاف
إلا الله، فنزلت ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس
﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ قال: لا يخافون أحداً
غيري. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد،
وابن المنذر عن مجاهد مثله، قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ
قَوْلُكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ العاصون. وأخرج عبد بن حميد عن
أبي العالية قال: كفر بهذه النعمة، ليس الكفر بالله. وأخرج
عبد بن حميد عن قتادة ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال:
سابقين في الأرض.

يَتَأْتِيهَا الْآيَاتُ آمَنُوا لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ أَوْ بَدَّلُوا أَلْهَامُ
مِنْكُمْ تِلْكَ مَرْئِي مَنِ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ
صَلَاةِ الْعِشَاءِ تِلْكَ عَوَازِي لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ
طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾ لَقَدْ بَلَغَ الْأَقْلُدُ مِنْكُمْ الْقُلُوبَ فَاسْتَفْتَوْا كَمَا اسْتَفْتَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٣﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ
يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ غَيْرَ لَهُنَّ وَاللَّهُ
سَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْمَرْيِضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ إِهْنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ
مَا مَلَكَتُمْ مِنْكُمْ مَفَاحِشُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ

عليكم، وفي بعضكم لاختلاف العاملين. ومعنى طوافون عليكم أي: يطوفون عليكم، ومنه الحديث في الهزة: «إنما هي من الطوافين عليكم، أو الطوافات» أي: هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن، ومعنى **﴿بعضكم على بعض﴾**: بعضكم يطوف، أو طائف على بعض، وهذه الجملة بدل مما قبلها، أو مؤكدة لها. والمعنى: أن كلا منكم يطوف على صاحبه العبيد على الموالي، والموالي على العبيد، ومنه قول الشاعر:

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
وقرأ ابن أبي عتبة (طوافين) بالنصب على الحال كما تقدم عن الفراء، وإنما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان، لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها، والإشارة بقوله **﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾** إلى مصدر الفعل الذي بعده، كما في سائر المواضع في الكتاب العزيز أي: مثل تلك التبيين يبين الله لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام **﴿والله عليم حكيم﴾** كثير العلم بالمعلومات، وكثير الحكمة في أفعاله **﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾** بين سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، فقال **﴿فليستأنوا﴾** يعني: الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم **﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾**، والكاف نعت مصدر محذوف أي: استأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم، والموصول عبارة عن الذين قيل لهم: **﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾** [النور: 27] الآية. والمعنى: أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون في جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء، ثم كرر ما تقدم للتأكيد، فقال **﴿كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾** وقرأ الحسن (الحلم)، فحذف الضمة لثقلها. قال عطاء: وأجب على الناس أن يستأنوا إذا احتلوا أحراراً كانوا أو عبيداً. وقال الزهري: يستأذن الرجل على أمه، وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية، والمراد بالقواعد من النساء: العجائز التي قعدن عن الحيض، والولد من الكبر، ولحديثها قاعد بلا هاء ليدلّ حذفها على أنه يعود الكبر، كما قالوا: امرأة حامل ليدلّ بحذف الهاء على أنه حمل حبل، ويقال: قاعدة في بيتها، وحاملة على ظهرها. قال الزجاج: هن اللاتي قعدن عن التزويج، وهو معنى قوله **﴿اللّاتي لا يرجون نكاحاً﴾** أي: لا يطمعن فيه لكبرهن. وقال أبو عبيدة: اللاتي قعدن عن الولد، وليس هذا بمستقيم، لأن المرأة تقعد عن الولد، وفيها مستمتع. ثم نكر سبحانه حكم القواعد، فقال **﴿فليس عليهم جناح أن يضعن ثيابهن﴾** أي: الثياب التي تكون على ظاهر البدن كالجلباب ونحوه، لا الثياب التي على العورة الخاصة، وإنما جاز لهنّ ذلك لانصراف الانفس عنهنّ إذ لا رغبة للرجال فيهنّ، فباح

الثياب، والخلو بالاهل، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل، فقال **﴿ثلاث عورات لكم﴾** قرأ الجمهور (ثلاث عورات) برفع ثلاث، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البذل من ثلاث مرات. قال ابن عطية: إنما يصح البذل بتقدير أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ويحتمل: أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة؛ ويجوز أن يكون ثلاث عورات بدلاً من الأوقات المذكورة أي: من قبل صلاة الفجر إلخ؛ ويجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل أي: أعني، ونحوه، وأما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هنّ ثلاث. قال أبو حاتم: النصب ضعيف مربود. وقال الفراء: الرفع أحبّ إليّ، قال: وإنما اخترت الرفع لأن المعنى هذه الخصال ثلاث عورات. وقال الكسائي: إن ثلاث عورات مرتفعة بالإبتداء، والخبر ما بعدها. قال: والعورات الساعات التي تكون فيها العورة. قال الزجاج: للمعنى: ليستأننكم أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وعورات جمع عورة، والعورة في الأصل الخلل، ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهّم حفظه، ويتعين ستره أي: هي ثلاث أوقات يختل فيها الستر. وقرأ الأعمش (عورات) بفتح الواو، وهي لغة هذيل، وتميم، فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واولاً، أو ياء، ومنه:

أخو بيضات رايح متأوب رفيق بمسح المنكبين سبوح وقوله:

أبو بيضات رايح أو مبعد عجلان إذا زاد وغير مزود
و«لكم» متعلق بمحذوف، هو صفة لثلاث عورات أي: كائنة لكم، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان **﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾** أي: ليس على المماليك، ولا على الصبيان جناح أي: إثم في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجب من مخالفة الأمر، والإطلاع على العورات. ومعنى بعدهنّ: بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث، وهي الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها، وهذه الجملة مستأنفة مقررة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة، ويجوز أن تكون في محل رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها. قال أبو البقاء: **﴿بعدهن﴾** أي: بعد استئذانهم فيهنّ، ثم حذف حرف الجرّ والمجرور فبقي بعد استئذانهم، ثم حذف المصدر، وهو الاستئذان، والضمير المتصل به. ورد: بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير الذي ذكره، بل المعنى: ليس عليكم جناح، ولا عليهم أي: العبيد، والإماء، والصبيان جناح في عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة، وارتفاع **﴿طوافون﴾** على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم طوافون عليكم، والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص في ترك الاستئذان. قال الفراء: هذا كقولك في الكلام هم خدمكم، وطوافون عليكم، وأجاز أيضاً نصب طوافين لأنه نكرة، والمضمر في **﴿عليكم﴾** معرفة، ولا يجيز البصريون أن تكون حالا من المضمرين اللذين في

الله سبحانه له ما لم يبيحه لغيره، ثم استثنى حالة من حالاتهن، فقال ﴿غَيْرِ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مظهرات للزينة التي أمرن بإخفائها في قوله ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: 31]، والمعنى: من غير أن يردن بوضع الجلايبب إظهار زينتتهن، ولا متبرجات بالزينتين لينظر إليهن الرجال. والتبرج التكشف، والظهور للعيون، ومنه ﴿بروج مشيدة﴾ [النساء: 78] وبروج السماء، ومنه قولهم: سفينة بارجة أي: لا غطاء عليها ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرَ لِهِنَّ﴾ أي: وأن يتركن وضع الثياب فهو خير لهن من وضعها. وقرأ عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس: (أن يضعن من ثيابهن) بزيادة من، وقرأ ابن مسعود (وأن يعففن) بغير سين ﴿وَالله سميع عليم﴾ كثير السماع والعلم، أو بليغهما ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ قال بالأول جماعة من العلماء، وبالثاني جماعة. قيل: إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمنامهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون لهم: قد أحلنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا: لا ندخلها، وهم غيب، فنزلت هذه الآية رخصة لهم: فمعنى الآية: نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيوت أقاربهم، أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو. قال النحاس: وهذا القول من أجل ما روي في الآية لما فيه من الصحابة، والتابعين من التوقيف. وقيل: إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذاراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تانيبهم بأفعالهم، فنزلت. وقيل: إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به القدرة الكاملة على المشي على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه، وقيل: المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو العرج في الغزو أي: لا حرج على هؤلاء في تأخيرهم عن الغزو. وقيل: كان الرجل إذا أدخل أحداً من هؤلاء الزمنى إلى بيته، فلم يجد فيه شيئاً يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته، فيتخرج الزمنى من ذلك، فنزلت. ومعنى قوله ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ عليكم، وعلى من يماثلكم من المؤمنين ﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ أنتم، ومن معكم، وهذا ابتداء كلام أي: ولا عليكم أيها الناس. والحاصل: أن رفع الحرج عن الأعمى، والأعرج، والمريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء، أو دخول بيوتهم، فيكون ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ متصلاً بما قبله، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكليف التي يشترط فيها وجود البصر، وعدم العرج، وعدم المرض، فقله ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ابتداء كلام غير متصل بما قبله. ومعنى ﴿مَنْ بِيُوتِكُمْ﴾ البيوت التي فيها متاعهم، وأهلهم، فيدخل بيوت الأولاد، كذا قال المفسرون، لأنها داخلة في بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد، وذكر بيوت الآباء،

وبيوت الأمهات، ومن بعدهم. قال النحاس: وعارض بعضهم هذا، فقال: هذا تحكم على كتاب الله سبحانه بل الأولى في الظاهر أن يكون الابن مخالفاً لهؤلاء. ويجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد، بل للآباء مزيد خصوصية في أموال الأولاد لحديث: «أنت، ومالك لأبيك»، وحديث: «ولد الرجل من كسبه»، ثم قد نكر الله سبحانه هاهنا بيوت الإخوة، والأخوات، بل بيوت الأعمام، والعلمات، بل بيوت الأخوال، والخالات، فكيف ينفي سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء، ولا ينفي عن بيوت الأولاد؟ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم. وقال آخرون: لا يشترط الإذن. قيل: وهذا إذا كان الطعام مبنولاً، فإن كان محرراً نوتهم لم يجز لهم أكله. ثم قال سبحانه ﴿لَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها، وذلك كالوكلاء، والعبيد، والخزائن، فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته، وإعطائهم مفاتيحه. وقيل: المراد بها بيوت الممالك. قرأ الجمهور (ملكتم) بفتح الميم، وتخفيف اللام. وقرأ سعيد بن جبيرة بضم الميم، وكسر اللام مع تشديدها. وقرأ أيضاً (مفاتيحه) بياء بين التاء، والحاء. وقرأ قتادة (مفاتيحه) على الإفراد، والمفاتيح جمع مفتاح، والمفاتيح جمع مفتاح ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم، وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة، فإن الصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك، وتطيب به نفسه، والصديق يطلق على الواحد، والجمع، ومنه قول جرير:

دعون الهوى ثم أرتمين قلوبنا بأسهم أعداء وهن صديق ومثله العدو، والخليط، والقطين، والعشير، ثم قال سبحانه ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا﴾ من بيوتكم ﴿جَمِيعاً أَوْ اشْتِاقاً﴾ انتصاب جميعاً واشتاتاً على الحال. والاشتات جمع شت، والشت المصدر بمعنى: التفرق، يقال: شت القوم أي: تفرقوا، وهذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله أي: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم مجتمعين، أو متفرقين، وقد كان بعض العرب يتحرج أن يأكل وحده حتى يجد له أكياً يؤأكله، فيأكل معه، وبعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف، ومنه قول حاتم:

إذا ما صنعت الزاد فالتسلي له أكياً فإني لست أكله وحدي

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ هذا شروع في بيان أن آخر آتٍ به عبادته أي: إذا دخلتم بيوتاً غير البيوت التي تقدم ذكرها ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم. وقيل: المراد البيوت المذكورة سابقاً. وعلى القول الأول، فقال الحسن، والنخعي: هي المساجد، والمراد سلموا على من فيها من صنفكم، فإن لم يكن في المساجد أحد، فقل يقول: السلام على رسول الله، وقيل يقول: السلام عليكم مريداً للملائكة، وقيل يقول: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين. وقال بالقول الثاني: أعني: أنها البيوت

يدخل عليه صبي، ولا خادم إلا بإذنه حتى يصلي الغداة، وإذا خلا بأهله عند الظهر، فمثل ذلك، ورخص لهم في الدخول فيما بين تلك بغير إذن، وهو قوله ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾، فأما من بلغ الحلم، فإنه لا يدخل على الرجل، وأهله إلا بإذن على كل حال، وهو قوله ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾. وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في السنن بسند صحيح من طريق عكرمة عنه أيضاً: أن رجلاً سأل عن الاستئذان في الثلاث العورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: وإن الله ستير يحب السترة، وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجاب في بيوتهم، فربما فجا الرجل خادمه، أو ولده، أو يتيم في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله بعد بالاستور، فيسقط عليهم في الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجاب، قرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عمر في قوله ﴿ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم﴾ قال: هي على الذكور نون الإنث، ولا وجه لهذا التخصيص، فالإطلاع على العورات في هذه الأوقات كما يكره الإنسان من الذكور يكره من الإناث. وأخرج ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن بعض أزواج النبي ﷺ في الآية قالت: نزلت في النساء أن يستأذن علينا. وأخرج الحاكم وصححه عن علي في الآية قال: النساء، فإن الرجال يستأذنون. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن السلمي في هذه الآية قال: هي في النساء خاصة، الرجال يستأذنون على كل حال بالليل، والنهار. وأخرج الفريابي، عن موسى بن أبي عائشة قال: سألت الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي؟ قال: لا. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عطاء: أنه سأل ابن عباس: أأستأذن على أختي؟ قال: نعم، قلت: إنها في حجري، وإنني أتفق عليها، وإنها معي في البيت أأستأذن عليها؟ قال: نعم، إن الله يقول ﴿ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم ولذين لم يبلغوا الحلم منكم﴾ الآية، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا في هؤلاء العورات الثلاث، قال: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾. فالإذن واجب على كل خلق الله أجمعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال: عليكم إذن على أمهاتكم. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب عنه قال: يستأذن الرجل على أبيه، وأمه، وأخيه، وأخته. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، عن جابر نحوه. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في السنن عن عطاء بن يسار: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أأستأذن على

المنكورة سابقاً جماعة من الصحابة، والتابعين، وقيل: المراد بالبيوت هنا هي كل البيوت المسكونة، وغيرها، فيسلم على أهل المسكونة، وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه. قال ابن العربي: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، وانتصاب ﴿تحية﴾ على المصدرية، لأن قوله: ﴿فيسلموا﴾ معناه: فحيوا أي: تحية ثابتة ﴿من عند الله﴾ أي: إن الله يحاكم بها. وقال الفراء: أي: إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له، ثم وصف هذه التحية، فقال ﴿مباركة﴾ أي: كثيرة البركة والخير دائمتها ﴿طيبة﴾ أي: تطيب بها نفس المستمع، وقيل: حسنة جميلة. وقال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب، ثم كرر سبحانه، فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ تأكيداً لما سبق. وقد قدمنا: أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل ﴿لعلكم تعقلون﴾ تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أن رجلاً من الأنصار، وأمراته أسماء بنت مرشدة صنعاً للنبي ﷺ طعاماً، فقالت أسماء: يا رسول الله ما أتبع هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها، وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن، فأنزل الله في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم﴾ يعني: العبيد والإماء ﴿والذين لم يبلغوا الحلم منكم﴾ قال: من أحراركم من الرجال والنساء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في هذه الآية قال: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا، ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين، والعلمان: أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن. وأخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظي، عن عبد الله بن سويد قال: «سألت رسول الله ﷺ عن العورات الثلاث، فقال: إذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة لم يلج علي أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم، ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن، وإذا وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء، ومن قبل صلاة الصبح». وأخرجه عبد بن حميد، والبخاري في الأدب، عن عبد الله بن سويد من قوله. وأخرج نحوه أيضاً ابن سعد عن سويد بن النعمان. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: إنه لم يؤمن بها أكثر الناس يعني: آية الإذن، وإنني لأمر جاريتي هذه، لجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأذن علي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهن ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم﴾ والآية التي في سورة النساء ﴿وإذا حضر القسمة﴾ [النساء: 8] الآية، والآية التي في الحجرات ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ [الحجرات: 13]. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال: إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا

بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن ياكل عند أحد، فكفّ الناس عن ذلك، فانزل الله ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ إلى قوله ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾، وهو: الرجل يوكل الرجل بضيئته، والذي رخص الله أن ياكل من ذلك الطعام، والتمر، ويشرب اللبن، وكانوا أيضاً يتحرجون أن ياكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم فقال ﴿ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعاً أو ائشقاتاً﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى، ولا مريض، ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، والبيهقي، عن الزهري: أنه سئل عن قوله ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ ما بال الأعمى، والأعرج، والمريض نكروا هنا؟ فقال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله: أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمنام، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون: قد أحللنا لكم أن تاكلوا مما في بيوتنا، وكانوا يتحرجون من ذلك يقولون: لا ندخلها، وهم غيب، فانزل الله هذه الآية رخصة لهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان هذا الحَيّ من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن ياكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل يسوق الزود الحفل، وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فانزل الله ﴿ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعاً أو ائشقاتاً﴾، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة، وأبي صالح قال: كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا ياكلون حتى ياكل الضيف معهم، فنزلت رخصة لهم. وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في الآية، قال: خرج الحارث غازياً مع رسول الله ﷺ، وخلف على أهله خالد بن يزيد، فحرج أن ياكل من طعامه، وكان مجهوداً، فنزلت. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿أو صديقكم﴾ قال: إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرتة، ثم أكلت من طعامه بغير إذن لم يكن بذلك باس. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله ﴿أو صديقكم﴾ قال: هذا شيء قد انقطع، إنما كان هذا في أوله، ولم يكن لهم أبواب، وكانت الستور مرخاة، فربما نخل الرجل البيت، وليس فيه أحد، فربما وجد الطعام، وهو جائع فسوّغه الله أن ياكله. وقال: ذهب تلك اليوم البيوت فيها أهلها، فإذا خرجوا أغلقوا، فقد ذهب ذلك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم﴾ يقول: إذا دخلتم بيوتكم، فسلموا على أنفسكم ﴿تحية من عند الله﴾، وهو السلام، لأنه اسم الله، وهو: تحية أهل الجنة. وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند

أمي؟ قال: نعم، قال: إني معها في البيت، قال: استأذن عليها، قال: إني خادمها فاستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها، وهو مرسل. وأخرج ابن أبي شيبة نحوه عن زيد بن أسلم: أن رجلاً سأل النبي ﷺ، وهو أيضاً مرسل. وأخرج أبو داود، والبيهقي في السنن، عن ابن عباس ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ [النور: 31] الآية، فنسخ، واستثنى من ذلك ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عنه قال: هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار، وتضع عليها الجلباب ما لم تتبرج بما يكرهه الله، وهو قوله ﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الأنباري في المصاحف، والبيهقي عن ابن عباس: أنه كان يقرأ ﴿أن يضعن من ثيابهن﴾ ويقول: هو: الجلباب. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن عمر في الآية قال: تضع الجلباب. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود ﴿أن يضعن ثيابهن﴾ قال: الجلباب، والرداء. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جببر قال: لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ [النساء: 29] قالت الأنصار: ما بالمدينة مال أعز من الطعام كلوا يتحرجون أن ياكلوا مع الأعمى يقولون: إنه لا يبصر موضع الطعام، وكانوا يتحرجون الأكل مع الأعرج يقولون: الصحيح يسبقه إلى المكان، ولا يستطيع أن يزاحم، ويتحرجون الأكل مع المريض يقولون: لا يستطيع أن ياكل مثل الصحيح، وكانوا يتحرجون أن ياكلوا في بيوت أقاربهم، فنزلت ﴿ليس على الأعمى﴾ يعني: في الأكل مع الأعمى. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مقسم نحوه. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد قال: كان الرجل يذهب بالأعمى، أو الأعرج، أو المريض إلى بيت أبيه، أو بيت أخيه، أو بيت عمه، أو بيت عمته، أو بيت خاله، أو بيت خالته، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن النجار، عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون في النغير مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمثائهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تاكلوا مما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن ناكل إنهم آثنوا لنا من غير طيب نفس، وإنما نحن زمنى، فانزل الله ﴿ولا على أنفسكم أن تاكلوا﴾ إلى قوله ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ [النساء: 29] قال المسلمون: إن الله قد تهانا أن ناكل أموالنا

عقبة بن عامر قال: رايت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور، وهو جاعل على أصبعيه تحت عينيه يقول: بكل شيء بصير.

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية كلها في قول الجمهور، وكذا أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس. وأخرجه ابن مريويه، عن ابن الزبير. قال القرطبي: وقال ابن عباس، وقتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: 68، 69، 70] الآيات. وأخرج مالك، والشافعي، والبخاري، ومسلم، وابن حبان، والبيهقي في سننه، عن عمر بن الخطاب قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكنت أسأله في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلبثته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرانيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرانيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم يقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، أقرئنا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، ثم قال: أقرئنا عمر، فقرأت القراءة التي أقراني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ مَلَأَ عَبْدَهُ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَمْ يَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَلَمْ يَنْجُدْ وَلَكَا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَنَلَكَ كُلُّ شَيْءٍ مُقَدَّرًا نَدِيرًا ﴿٢﴾ وَأَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ سَرًّا وَلَا نَجْوًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُوا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَاخْرُؤْ فَقَدْ تَبَوَّأُوا عِلَاقًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلَاتِ أَكْتَثَبَهَا ذِي شُلٍّ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَسِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَسْمَعُ الْسِرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَمَلًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم وأهم، ثم في النبوة لأنها الوساطة، ثم في المعاد لأنه الخاتمة. وأصل تبارك مأخوذ من البركة، وهي: النماء والزيادة، حسية كانت أو عقلية. قال الزجاج: تبارك تفاعل، من البركة. قال: ومعنى البركة: الكثرة من كل ذي خير، وقال الفراء: إن تبارك وتقدس في العربية واحد، ومعناها: العظمة. وقيل: المعنى تبارك عطاؤه أي: زاده، وكثر، وقيل: المعنى دام

قال أبو عبيدة، والأخفش: «عن» في هذا الموضع زائدة. وقال الخليل، وسبويه: ليست بزائدة، بل هي بمعنى بعد، كقوله: «ففسق عن أمر ربه» [الكهف: 5] أي: بعد أمر ربه، والأولى ما نكرناه من التضمين ﴿إِلَّا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من المخلوقات بأسرها، فهي ملكه ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها العباد من الأحوال التي أنتم عليها، فيجازيكم بحسب ذلك، ويعلم ما هنا بمعنى علم ﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ما أنتم عليه أي: يعلم ما أنتم عليه، ويعلم يوم يرجعون إليه، فيجازيكم فيه بما عملتم، وتعليق علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجوعهم لزيادة تحقيق علمه، لأن العمل بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما عملوا من الأعمال التي من جملتها مخالفة الأمر، والظاهر من السياق: أن هذا الوعيد للمنافقين ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن عروة، ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما أقبلت قریش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة، قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمة إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخير، فضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه المسلمون، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورُونَ بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ، ولا إن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نأته النائبة من الحاجة التي لا بد منها ينكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأنه في اللحوق لحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك ﴿إِنَّمَا لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في الآية قال: هي في الجهاد، والجمعة، والعيدين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ قال: من طاعة الله عام. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم في الدلائل، عنه في قوله ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرَّسُولِ﴾ الآية قال: يعني: كدعاء أحبك إذا دعا أخاه باسمه، ولكن وقروه، وقولوا له: يا رسول الله يا نبي الله. وأخرج عبد الغني بن سعيد في تفسيره، وأبو نعيم في الدلائل عنه أيضاً في الآية قال: لا تصيحوا به من بعيد: يا أبا القاسم، ولكن كما قال الله في الحجرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 3]. وأخرج أبو داود في مراسيله، عن مقاتل، قال: كان لا يخرج أحد لرعايف، أو أحداث حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن النبي ﷺ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة، والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج. فأنزل الله ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ﴾ الآية. وأخرج أبو عبيد في فضائله، والطبراني، قال: السيوطي بسند حسن، عن

لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً أي: لا يقدرُونَ على أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعوا عنها ضرراً، وقدم نكر الضرر، لأن نفعه أهم من جلب النفع، وإذا كانوا بحيث لا يقدرُونَ على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم؟ ثم زاد في بيان عجزهم، فنخصص على هذه الأمور، فقال ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ أي: لا يقدرُونَ على إماتة الأحياء، ولا إحياء الموتى، ولا بعثهم من القبور، لأن النشور الإحياء بعد الموت، يقال: أنشَر الله الموتى، فنشروا، ومنه قول الأعشى:

حتى يقول الناس مآراً يا عجباً للميت الناشر
ولما فرغ من بيان التوحيد، وتزييف مذاهب المشركين شرع في نكر شبه منكري النبوة، فالشبهة الأولى ما حكاه عنهم بقوله ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك﴾ أي: كذب ﴿افتراه﴾ أي: اختلقه محمد ﷺ، والإشارة بقوله ﴿هذا﴾ إلى القرآن ﴿وواعنه عليه﴾ أي: على الاختلاق ﴿قوم آخرون﴾ يعنون: من اليهود. قيل: وهم: أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى، وجبر مولى ابن عامر، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود، وقد مرَّ الكلام على مثل هذا في النحل. ثم ردَّ الله سبحانه عليهم، فقال ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ أي: فقد قالوا ظلماً هاتلاً عظيماً، وكذباً ظاهراً، وانتصاب ظلماً بجاءوا، فإن جاء قد يستعمل استعمال آتى، ويعبى تعديته. وقال الزجاج: إنه منصوب بنزع الخافض، والأصل جاءوا بظلم. وقيل: هو منتصب على الحال، وإنما كان ذلك منهم ظلماً، لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، وهذا هو الظلم، وأما كون ذلك منهم زوراً، فظاهر لأنهم قد كذبوا في هذه المقالة. ثم نكر الشبهة الثانية، فقال ﴿وقالوا أساطير الأولين﴾ أي: أحاديث الأولين، وما سطره من الأخبار، قال الزجاج: واحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحذوثة، وقال غيره: أساطير جمع أساطير مثل أقاويل وأقوال ﴿اكتتبها﴾ أي: استكتبها، أو كتبها لنفسه، ومحل اكتتبها النصب على أنه حال من أساطير، أو محله الرفع على أنه خير ثانٍ، لأن أساطير مرتفع على أنه خير مبتدأ محذوف أي: هذه أساطير الأولين اكتتبها، ويجوز أن يكون أساطير مبتدأ، واكتتبها خبره، ويجوز أن يكون معنى (اكتتبها): جمعها من الكتب، وهو: الجمع، لا من الكتابة بالقلم، والأول أولى. وقرأ طلحة (اكتتبها) مبتدأ للمفعول، والمعنى: اكتتبها له كاتب، لأنه كان آمياً لا يكتب، ثم حذفت اللام، فافضى الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه، فانقلب مرفوعاً مستترأ بعد أن كان منصوباً بارزاً، كذا قال في الكشف، واعترضه أبو حيان ﴿فهي تملى عليه﴾ أي: تلقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها، ليحفظها من أقواه من يملئها عليه من ذلك المكتتب لكونه آمياً لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه، ويجوز: أن يكون المعنى، اكتتبها: أراد اكتتبها ﴿فهي تملى عليه﴾ لأنه يقال: أمليت عليه، فهو يكتب ﴿بكرة

وثبت. قال النحاس: وهذا أولها في اللغة، والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت، ومنه برك الجمل، أي: دام، وثبت. واعترض ما قاله الفراء: بأن التقديس إنما هو من الطهارة، وليس من ذا في شيء. قال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي، والفرقان القرآن، وسمي فرقاناً: لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه، أو بين المحق والمبطل، والمراد بعبده: نبينا ﷺ. ثم علل التنزيل ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ فإن النذارة هي الغرض المقصود من الإنزال، والمراد محمد ﷺ، أو الفرقان، والمراد بالعالمين هنا الإنس والجن، لأن النبي ﷺ مرسل إليهما، ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلأ إلى الثقلين، والنذير: المنذر أي: ليكون محمد مننراً، أو ليكون إنزال القرآن مننراً، ويجوز: أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة أي: ليكون إنزاله إنذاراً، أو ليكون محمد إنذاراً، وجعل الضمير للنبي ﷺ أولى، لأن صدور الإنذار منه حقيقة، ومن القرآن مجاز، والحمل على الحقيقة أولى، ولكونه أقرب مذكور. وقيل: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: 9]، ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع: الأولى ﴿له ملك للسموات والأرض﴾ دون غيره، فهو المتصرف فيهما، ويحتمل: أن يكون الموصول الآخر بدلاً، أو بياناً للموصول الأول، والوصف أولى، وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه في الوجود، وتوابعه من البقاء، وغيره، والصفة الثانية ﴿ولم يتخذ ولداً﴾، وفيه ردُّ على النصارى، واليهود. والصفة الثالثة ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾، وفيه ردُّ على طوائف المشركين من الوثنية، والثنية، وأهل الشرك الخفي. والصفة الرابعة ﴿وخلق كل شيء﴾ من الموجودات ﴿فقدَّره﴾ تقديره أي: قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، وهياه لما يصلح له. قال الواحدي: قال المفسرون: قدر له تقديرأ من الأجل والرزق، فجرت المقايير على ما خلق. وقيل: أريد بالخلق هنا مجرَّد الإحداث، والإيجاد مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير، وإن لم يخل عنه في نفس الأمر، فيكون المعنى: أوجد كل شيء، فقدَّره لئلا يلزم التكرار، ثم صرح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان، فقال ﴿واتخذوا من دونه آلهة﴾، والضمير في اتخذوا للمشركين، وإن لم يتقدم لهم ذكر، لدلالة نفي الشريك عليهم أي: اتخذ المشركون لأنفسهم متجاوزين الله آلهة ﴿ولا يخلقون شيئاً﴾، والجملة في محل نصب صفة لآلهة أي: لا يقدرُونَ على خلق شيء من الأشياء، وغلب العقلاء على غيرهم، لأن في معبودات الكفار الملائكة، وعزير، والمسيح ﴿وهم يخلقون﴾ أي: يخلقهم الله سبحانه. وقيل: عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع. وقيل: معنى ﴿وهم يخلقون﴾: أن عبديهم يصورونهم. ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ، فقال ﴿ولا يملكون

كَانَ عَلَى رَيْكَ وَعَدَا مَسْئُوكَا ﴿٣١﴾

لما فرغ سبحانه من نكر ما طعنوا به على القرآن ذكر ما طعنوا به على رسول الله ﷺ، فقال ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ﴾ وفي الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه، وهو رسول الله ﷺ، وسموه: رسولا استهزاء وسخرية ﴿يَا كَلَّ الطَّعَامِ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: ما باله ياكل الطعام كما ناكل، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد، وزعموا أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الطعام والكسب، وما الاستغماية في محل رفع على الابتداء، والاستفهام للاستنكار، أو خبر المبتدأ لهذا الرسول، وجملة ﴿يَا كَلَّ﴾ في محل نصب على الحال، وبها تتم فائدة الإخبار كقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّنْكِرَةِ معرضين﴾ [المذثر: 49]، والإنكار متوجه إلى السبب مع تحقق المسبب، وهو: الأكل والمشى، ولكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم تهكماً واستهزاء، والمعنى: أنه إن صَحَّ ما يدَّعيه من النبوة، فما باله لم يخالف حاله حالنا ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ طلبوا: أن يكون النبي ﷺ مصحوباً بملك يعضده ويساعده، تنزلوا عن اقتراح أن يكون الرسول ﷺ ملكاً مستغنياً عن الأكل والكسب، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصنِّفه، ويشهد له بالرسالة، قرأ الجمهور: (فيكون) بالنصب على كونه جواب التحضيض. وقرئ (فيكون) بالرفع على أنه معطوف على أنزل، وجاز عطفه على الماضي، لأن المراد به المستقبل ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ معطوف على أنزل، ولا يجوز عطفه على فيكون، والمعنى: أو هلا يلقي إليه كنز، تنزلوا من مرتبة نزول الملك معه، إلى اقتراح أن يكون معه كنز يلقي إليه من السماء: ليستغني به عن طلب الرزق ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ قرأ الجمهور (تكون) بالمشناة الفوقية، وقرأ الأعمش، وقتادة: (يكون) بالتحتي، لأن تأنيث الجنة غير حقيقي. وقرأ (تاكل) بالنون حمزة، وعلي، وخلف، وقرأ الباقر (ياكل) بالمشناة التحتية أي: بستان تاكل نحن من ثماره، أو ياكل هو وحده منه: ليكون له بذلك مزية علينا حيث يكون أكله من جنته. قال النحاس: والقراءتان حسنتان، وإن كانت القراءة بالياء أبين، لأنه قد تقدّم ذكر النبي ﷺ وحده، فعود الضمير إليه بين ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ المراد بالظالمون هنا: هم القائلون بالمقالات الأولى، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به أي: ما تتبعون إلا رجلاً مغلوباً على عقله بالسحر، وقيل: إذا سحر، وهي الرثة أي: بشراً له رثة لا ملكاً، وقد تقدّم بيان مثل هذا في سبحانه ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ ليتوصلوا بها إلى تكذيبك، والأمثال هي الأقوال النادرة، والاقتراحات الغريبة، وهي ما نكروه ما هنا ﴿فَضْلُوا﴾ عن الصواب فلا يجدون طريقاً إليه، ولا وصلوا إلى شيء منه، بل جاءوا بهذه المقالات الزائفة التي لا تصدر عن أنبيء العقلاء، وأقلهم تمييزاً، ولهذا قال ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يجدون

وأصيلاً غبوة، وعشياً: كأنهم قالوا: إن هؤلاء يعلمون محمداً طرفي النهار، وقيل: معنى بكرة وأصيلاً: دائماً في جميع الأوقات، فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم، وكتابة آخرين من الأحاديث الملققة، وأخبار الأولين، بل هو أمر سماوي أنزله الذي يعلم كل شيء لا يغيب عنه شيء من الأشياء، فلماذا عجزتم عن معارضته، ولم تأتوا بسورة منه، وخصّ السرّ للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بيعة لا تبلغ إليها عقول البشر، والسرّ الغيب أي: يعلم الغيب الكائن فيهما، وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ تعليل لتأخير العقوبة أي: إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله، والظلم له، فإنه لا يعجل عليكم بذلك، لأنه كثير المغفرة والرحمة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ قال: يهود ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ قال: كذباً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ هو: القرآن فيه حلاله، وحرامه، وشرائعه، ودينه، وفرق الله بين الحق، والباطل ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ قال: بعث الله محمداً ﷺ نذيراً من الله، لينذر الناس بأس الله، ووقائعه بمن خلا قبلكم ﴿وَوُحِّلَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ تَقْدِيرًا﴾ قال: بين لكل شيء من خلقه صلاحه، وجعل ذلك بقدر معلوم ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: هي الأوثان التي تعبد من دُون الله ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهو الله الخالق الرائق، وهذه الأوثان تخلق ولا تخلق شيئاً، ولا تضر ولا تنفع، ولا تملك موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً يعني: بعثاً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا قول مشركي العرب ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ﴾ هو الكذب ﴿افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: على حديثه هذا، وأمره ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ * أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كذب الأولين، وأحاديثهم.

وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُكَذِّبُ الْأَعْلَمَاءَ وَيَتَّبِعُ رِيسَ الْآسَافِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٣٢﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٣٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ تَبَارَكَ الَّذِي أَنْشَأَ جَمَلٌ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ جَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَسَّدَ لَكَ قُصُورًا ﴿٣٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿٣٦﴾ إِذَا رَأَوْهُمُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَعِيرًا هُمْ تَتَّبِعُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا أُنْفِثُوا مِنْهَا مَكَانًا سَبِيحًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَا لَكَ ثُبُورًا ﴿٣٨﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجَدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَتَذْكُرُ خَيْرَ أَمْ جَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ هُمْ جَزَاءً وَمَجِيرًا ﴿٤٠﴾ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ

أي: قرن كل واحد منهم إلى شيطانه، وقد تقدّم الكلام على مثل هذا في سورة إبراهيم ﴿دعوا ههنا﴾ أي: في ذلك المكان الضيق ﴿ثبورا﴾ أي: هلاكاً. قال الزجاج: وانتصابه على المصدرية أي: ثبّرنا ثبوراً، وقيل: منتصب على أنه مفعول له، والمعنى: أنهم يتمنون هناك الهلاك، وينابونه لما حلّ بهم من البلاء، فأجيب عليهم بقوله ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً﴾ أي: فيقال لهم هذه المقالة، والقائل لهم هم الملائكة أي: اتركوا دعاء ثبور واحد، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك، وأعظم، كذا قال الزجاج ﴿وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ والثبور مصدر يقع على القليل والكثير، فلهذا لم يجمع، ومثله ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلاً، فالكثره هنا هي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به، لا بحسب كثرت في نفسه، فإنه شيء واحد، والمعنى: لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحداً، وادعوه أدعية كثيرة، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشدّ من ذلك لطول مدّته، وعدم تناهيه، وقيل: هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول، وقيل: إن المعنى: إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً بل هو ثبور كثير، لأن العذاب أنواع، والأولى أن المراد بهذا الجواب عليهم الدلالة على خلود عذابهم، وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجي لهم مما هم فيه. ثم وبّخهم الله سبحانه توبيخاً بالغا على لسان رسوله، فقال ﴿قل ألك خير أم جنة الخلد التي وعد للمتقون﴾ والإشارة بقوله ذلك إلى السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة أي: اتلك السعير خير أم جنة الخلد، وفي إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها، وعدم انقطاعه، ومعنى ﴿التي وعد للمتقون﴾: التي وعدا المتقون، والمجيء بلفظ خير هنا مع أنه لا خير في النار أصلاً، لأن العرب قد تقول ذلك، ومنه ما حكاه سيبويه عنهم، أنهم يقولون: السعادة أحب إليك أم الشقاوة؟ وقيل: ليس هذا من باب التفضيل، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس: وهذا قول حسن كما قال:

اتّجهوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
ثم قال سبحانه ﴿كانت لهم جزاء ومصير﴾ أي: كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم، ومصيراً يصيرون إليه ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي: ما يشاءونه من النعيم، وضروب الملاذ كما في قوله: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾ [فصلت: 31]، وانتصاب خالدين على الحال، وقد تقدم تحقيق معنى الخلود. ﴿كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ أي: كان ما يشاءونه، وقيل: كان الخلود، وقيل: كان الوعد الملل عليه بقوله ﴿وعد للمتقون﴾ ومعنى الوعد المسؤول: الوعد المحقق بأن يسأل ويطلب كما في قوله: ﴿ربنا وآتانا وعدتنا على رسلك﴾ [آل عمران: 194]، وقيل: إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقولك: ﴿وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ [غافر: 8]، وقيل: المراد به الوعد الواجب، وإن لم يسأل.

إلى القدح في نبوة هذا النبي طريقاً من الطرق ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ أي: تكاثر خير الذي إن شاء جعل لك في الدنيا معجلاً خيراً من ذلك الذي اقترحوه. ثم فسر الخير، فقال ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، فجنات بدل من خيراً ﴿ويجعل لك قصوراً﴾ معطوف على موضع جعل، وهو الجزم، وبالجزم قرأ الجمهور. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر برفع (يجعل) على أنه مستأنف، وقد تقرّر في علم الإعراب: أن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع، فجاز أن يكون جعل ها هنا في محل جزم ورفع، فيجوز فيما عطف عليه أن يجرم ويرفع. وقرئ بالنصب، وقرئ بإدغام لام لك في لام يجعل لاجتماع المثليين. وقرئ بترك الإدغام؛ لأن الكلمتين منفصلتان، والقصر البيت من الحجارة؛ لأن الساكن به مقصور عن أن يوصل إليه، وقيل: هو بيت الطين، وبيوت الصوف والشعر. ثم أضرب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء، فقال ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي: بل أتوا بأعجب من ذلك كله. وهو تكذيبهم بالساعة، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل، ولا يتأملون فيها. ثم نكر سبحانه ما أعدّه لمن كذب بالساعة، فقال ﴿واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ أي: ناراً مشتعلة متسعة، والجملة في محل نصب على الحال أي: بل كذبوا بالساعة، والحال أنا اعتدنا. قال أبو مسلم: اعتدنا أي: جعلناه عتيداً، ومعداً لهم ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ هذه الجملة الشرطية في محل نصب صفة لسعيراً لأنه مؤنث بمعنى: النار، قيل: معنى إذا رأتهم: إذا ظهرت لهم، فكانت بمرأى الناظر في البعد، وقيل: المعنى: إذا رأتهم خزنتها، وقيل: إن الرؤية منها حقيقية، وكذلك التغيظ والزفير، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك، ومعنى ﴿من مكان بعيد﴾: أنها رأتهم، وهي بعيدة عنهم، قيل: بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام، ومعنى التغيظ: أن لها صوتاً يدل على التغيظ على الكفار، أو لغيلانها صوتاً يشبه صوت المغتاض. والزفير: هو الصوت الذي يسمع من الجوف، قال الزجاج: المراد: سماع ما يدل على الغيظ، وهو الصوت أي: سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ. وقال قطرب: أراد علموا لها تغيظاً، وسمعوا زفيراً كما قال الشاعر:

مقلداً سيفاً ورمحاً

أي: وحملاً رمحاً، وقيل: المعنى: سمعوا فيها تغيظاً وزفيراً للمعذبين كما قال: ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ [هود: 106]، وفي اللام متقاربان، تقول: افعل هذا في الله وشهيقاً إذا القوا منها مكاناً ضيقاً، وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدة، وتنامي البلاء عليهم، وانتصاب ﴿مقرنين﴾ على الحال أي: إذا القوا منها مكاناً ضيقاً حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد، وقيل: مكتفين، وقيل: قرنوا مع الشياطين

إليس في تفسيره عن ابن عباس في قوله ﴿إِذَا رَأَوْهُمُ
مَكَانَ بَعِيدٍ﴾ قال: من مسيرة مائة عام، وذلك إذا أتى جهنم
تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو
تركت لأتت على كل برّ وفاجر ﴿وَسَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا
وَزَفِيرًا﴾ تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا أتت، ثم
تزفر الثانية، فتقطع القلوب من أماكنها، وتبلغ القلوب
الحناجر. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد: أن
رسول الله ﷺ سئل عن قول الله ﴿وَإِذَا لَقُوا مِنْهَا مَكَانًا
ضيقًا مَقْرِنِينَ﴾ قال: والذي نفسي بيده إنهم ليستكروهم
في النار كما يستكروه التودد في الحائط. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَدَعُوا هُنَاكَ
ثُبُورًا﴾ قال: ويلًا ﴿لَا تَدْعُوا لِيَوْمٍ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ يقول: لا
تدعوا اليوم ويلًا واحدًا. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد،
وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم، وابن مروي، والبيهقي في البعث. قال السيوطي بسند
صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا
يَكْسِي حِلَّتَهُ مِنَ النَّارِ إِبْلِيسَ، فَيَضَعُهَا عَلَى حَاجِبِيهِ،
وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ، وَزَيْتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ يَنَادِي يَا ثُبُورَاهُ،
وَيَقُولُونَ يَا ثُبُورَهُمْ حَتَّى يَقِفَ عَلَى النَّاسِ، فَيَقُولُ: يَا ثُبُورَاهُ،
وَيَقُولُونَ: يَا ثُبُورَهُمْ، فَيَقَالُ لَهُمْ ﴿لَا تَدْعُوا لِيَوْمٍ ثُبُورًا
وَاحِدًا وَادْعُوا لِيَوْمٍ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾. وإسناد أحمد هكذا: حَدَّثَنَا
عَفَانُ عَنْ حَمِيدِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَنَظَرَهُ. وَفِي عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ بَنِ جَدْعَانَ مَقَالَ
مَعْرُوفٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مُسْوُوًّا﴾ يقول: سلوا الذي وعدتكم
تتجزوه.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَسْتَبِشِرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنُتُمْ أَضَلَلْتُمْ
عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِسُنَا لَمَّا أَنْ
نُخْرِجَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَهَمَّ لَهُمْ حَتَّى نَسُوا الْآذَانَ
وَكَانُوا قَوْمًا مُرًّا ﴿٧٨﴾ فَتَذَكَّرْتُمْ بِمَا تَفْلُتُونَ فَمَا تَسْتَغِيثُونَ ضَرًّا وَلَا
نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٧٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْتَونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَظُنُّ أَنَّهُ ضَالٌّ غَلِيظٌ وَكَانَ رَبُّكَ بِصِيرِكُمْ ﴿٨٠﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْآتُكَّةُ أَوْ رَأَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي
أَفْسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٨١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ جَبْرًا مُعْجَبًا ﴿٨٢﴾ وَقِيلَ مَا مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَعَمَلُهُمْ هَبْءًا
مُنْثَرًا ﴿٨٣﴾ أَصَحَّبَ الْجَنَّةَ يَوْمَئِذٍ حَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٨٤﴾

قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف منصوب بفعل مضمر
أي: وانكر، وتعليق التنكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما
فيه للمبالغة والتأكيد كما مر مرارًا. قرأ ابن محيصن، وحמיד،
وابن كثير، وحفص، ويعقوب، وأبو عمرو في رواية الدوري
(يَحْشُرُهُم) بالياء التحتية، واختارها أبو عبيد، وأبو حاتم
لقوله في أول الكلام ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان: 16]،

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن
عباس: أن عتبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن
الحرث، وأبا البحتري، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن
الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد
الله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل،
ونبيه بن الحجاج، ومنبه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضهم
لبعض: ابعثوا إلى محمد، وكلموه، وخلصوه حتى تعذروا
منه، فبعثوا إليه إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك؛ ليكلموك،
قال: فجاءهم رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك؛
لنعذر منك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا
جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب به الشرف، فنحن
نسؤلك، وإن كنت تريد به ملكا مملكتك، فقال رسول الله ﷺ:
«ما بي مما تقولون، ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم،
ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم
رسولًا، وأنزل علي كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا،
فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما
جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي
أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا: يا محمد،
فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضنا عليك، أو قالوا: فإذا
لم تفعل هذا، فسل لنفسك، وسل ربك: أن يبعث معك ملكًا
يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله أن يجعل لك جنات،
وقصورًا من ذهب، وفضة تغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم
بالأسواق، وتلتبس المعاش كما نلتسمه، حتى نعرف فضلك،
ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم، فقال لهم رسول
الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت
إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا، ونذيرًا، فأنزل الله في ذلك
﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان:
20] أي: جعلت بعضكم لبعض بلاء؛ لتصبروا، ولو شئت أن
أجعل الدنيا مع رسلي، فلا يخالفون لفعلت. وأخرج الفريابي،
وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن خزيمة قال:
قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيتك من خزائن الأرض،
ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك، ولا نعطها أحدًا بعدك، ولا
ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئًا، وإن شئت جمعتها لك في
الآخرة، فقال: اجمعوها لي في الآخرة، فأنزل الله سبحانه
﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾. وأخرج
نحوه عنه ابن مروي عن طريق أخرى. وأخرج عبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن طريق
خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال: قال النبي ﷺ:
«مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، أَوْ ادْعِي إِلَى غَيْرِ وَالِدِي، أَوْ انْتَمِي
إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَلْيَتَّبِعُوا بَيْنَ عَيْنِي جَهَنَّمَ مَقْعَدًا، قِيلَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ: وَهَلْ لَهَا مِنْ عَيْنَيْنِ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتُمْ اللَّهَ
يَقُولُ ﴿إِذَا رَأَوْهُمُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾». وأخرج آدم بن أبي

ووسعت عليهم الرزق، وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن نكرهم، ونسوا موعظتك، والتدبر لكتائبك، والنظر في عجائب صنعك، وغرائب مخلوقاتك. وقرأ أبو عيسى الأسود القارئ (ينبغي) مبنياً للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة، وقيل: المراد بنسيان النكر هنا هو ترك الشكر ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي: وكان هؤلاء النثرين أشركوا بك، وعبدوا غيرك في قضائك الأزلي قوماً بوراً أي: هلكى، مأخوذ من البوار، وهو الهلاك. يقال: رجل باثر، وقوم بور، يستوي فيه الواحد والجماعة، لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير، ويجوز أن يكون جمع باثر. وقيل: البوار الفساد. يقال: بارت بضاعته أي: فسدت، وأمر باثر أي: فاسد، وهي لغة الأزد. وقيل: المعنى: لا خير فيهم، مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع، فلا يكون فيها خير، وقيل: إن البوار الكساد، ومنه بارت السلعة إذا كسدت ﴿فقد كنوبكم بما تقولون﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فقال الله عند تبري المعبوين مخاطباً للمشركين العابدين لغير الله فقد كنوبكم أي: فقد كنوبكم المعبوين بما تقولون أي: في قولكم إنهم آلهة ﴿فما يستطيعون﴾ أي: الآلهة ﴿صرفاً﴾ أي: دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه، وقيل: حيلة ﴿ولا نصرأ﴾ أي: ولا يستطيعون نصركم، وقيل: المعنى: فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كنوبهم المعبوين صرفاً للعذاب الذي عندهم الله به، ولا نصرأ من الله، وهذا الوجه مستقيم على قراءة من قرأ (تستطيعون) بالفوقية، وهي قراءة حفص، وقرأ الباقر بالتحتية، وقال ابن زيد: المعنى: فقد كنوبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ﷺ، وعلى هذا، فمعنى بما تقولون: ما تقولونه من الحق، وقال أبو عبيد: المعنى: فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه، ولا نصرأ لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم. وقرأ الجمهور (بما تقولون) بالتاء الفوقية على الخطاب. وحكى الفراء: أنه يجوز أن يقرأ (فقد كنوبكم) مخففاً بما يقولون، أي: كنوبكم في قولهم، وكذا قرأ بالياء التحتية مجاهد، والبزي ﴿ومن يظلم منكم نكفه عذاباً كبيراً﴾ هذا وعيد لكل ظالم، ويدخل تحت الذين فيهم السياق دخولاً أولياً، والعذاب الكبير عذاب النار، وقرئ (ينكفه) بالتحية، وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة، ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحاً لبطلان ما تقدم من قوله: ﴿يكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان: 7] فقال ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ قال الزجاج: الجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف محنوف، والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا أكليين وماشين، وإنما حذف الموصوف؛ لأن في قوله: ﴿من المرسلين﴾ نليلاً عليه، نظيره ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: 164] أي: وما منا أحد. وقال الفراء: لا محل لها من الإعراب، وإنما هي صلة لموصول محنوف هو المفعول، والتقدير: إلا من أنهم فالضمير في أنهم وما

والباقرن بالنون على التعظيم ما عدا الأعرج، فإنه قرأ (نحشرهم) بكسر الشين في جميع القرآن. قال ابن عطية: هي قليلة في الاستعمال قوية في القياس، لأن يفعل بكسر العين في المتعدي أقيس من يفعل بضمها، ورده أبو حبان باستواء المضموم والمكسور إلا أن يشتهر أحدهما، اتبع ﴿وما يعبدون من دون الله﴾ معطوف على مفعول نحشر، وغلب غير العقلاء من الأصنام والأوثان، ونحوها على العقلاء من الملائكة، والجن، والمسيح تنبيهاً على أنها جميعاً مشتركة في كونها غير صالحة لكونها آلهة، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر ممن يعبد من يعقل منها، فغلبت اعتباراً بكثرة من يعبد، وقال مجاهد، وابن جريج: المراد: الملائكة، والإنس، والجن، والمسيح، وعزير بليل خطابهم وجوابهم فيما بعد. وقال الضحاك، وعكرمة، والكلي: المراد: الأصنام خاصة، وإنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم، فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة، ﴿فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قرأ ابن عامر، وأبو حيوة، وابن كثير، وحفص⁽¹⁾، (فنقول) بالنون، وقرأ الباقر بالياء التحتية، واختارها أبو عبيد كما اختار القراءة بها في نحشرهم، وكذا أبو حاتم. والاستفهام في قوله: ﴿أأنتم أضللتم﴾ للتوبيخ والتقريع، والمعنى: أكان ضلالهم بسببكم وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم، أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكير فيما يستدل به على الحق، والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب، وجملة ﴿قالوا سبحانه﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر، ومعنى ﴿سبحانك﴾: التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة، أو أنبياء معصومين، أو جمادات لا تعقل أي: تنزيهاً لك. ﴿ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء﴾ أي: ما صح، ولا استقام لنا أن نتخذ من دونك أولياء، فنعبدكم، فكيف ندعو عبانك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك، والولي يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور (نتخذ) مبنياً للفاعل. وقرأ الحسن، وأبو جعفر (نتخذ) مبنياً للمفعول أي: ما كان ينبغي لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك. قال أبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر: لا تجوز هذه القراءة، ولو كانت صحيحة لحذفت من الثانية، قال أبو عبيدة: لا تجوز هذه القراءة لأن الله سبحانه ذكر «من» مرتين، ولو كان كما قرأ لقال: أن نتخذ من دونك أولياء. وقيل: إن «من» الثانية زائدة، ثم حكى عنهم سبحانه: بأنهم بعد هذا الجواب نكروا سبب ترك المشركين للإيمان، فقال ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا للذكر﴾ وفي هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل، ولم يضلهم غيرهم، والمعنى: ما أضللناهم، ولكنك يا رب متعتهم، ومتعت آباءهم بالنعيم،

(1) (قوله وابن كثير وحفص) المشهور عنهما قراءتها بالياء التحتية

أي: لا أبالي، وقيل: المعنى: لا يخافون لقاء ربهم كقول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل
أي: لم يخف، وهي لغة تهامة. قال الفراء وضع الرجاء موضع الخوف، وقيل: لا يأمون، ومنه قول الشاعر:

أترجوا ما قتلت حسينا شفاعة جدّه يوم الحساب
والحمل على المعنى الحقيقي أولى، فالمعنى: لا يأمون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب، ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: هلا أنزلوا علينا، فيخبرونا أن محمداً صادق، أو هلا أنزلوا علينا رسلاً يرسلهم الله ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ عياناً، فيخبرنا بأن محمداً رسول، ثم أجاب سبحانه عن شبهتهم هذه، فقال ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا كِبِيرًا﴾ أي: أضمرنا الاستكبار عن الحق والعناد في قلوبهم كما في قوله: ﴿إِنْ فِي صُورِهِمْ إِلَّا كَبْرٌ مَا هُمْ بِيَالِغِيهِ﴾ [غافر: 56]، والعَتَوْا مجاوزة الحد في الطغيان، والبلوغ إلى أقصى غاياته، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر والعظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم، بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه، ورؤيته في الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان، ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغاً هي أحقر، وأقل، وأرذل من أن تكون من أهله، أو تعدّ من المستعنيين له، وهكذا من جهل قدر نفسه، ولم يقف عند حدّه، ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى، وانتصاب ﴿يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ بفعل محذوف أي:

وانكروا يوم يرون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذي طلبوه، والصورة التي اقترحوها، بل على وجه آخر، وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت، أو عند الحشر، ويجوز أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدلّ عليه قوله ﴿لَا بَشَرِي يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يمنعون البشري يوم يرون، أو لا توجد لهم بشري فيه، فاعلم سبحانه بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة، وهو وقت الموت، أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشري. قال الزجاج: المجرمون في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ أي: ويقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة، حجراً محجوراً، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو، وهجوم نازلة يضعونها موضع الاستعانة، يقال للرجل: اتفعل كذا، فيقول: حجراً محجوراً أي: حراماً عليك التعرّض لي. وقيل: إن هذا من قول الملائكة أي: يقولون للكفار: حراماً محرماً أن يدخل أحلكم الجنة، ومن ذلك قول الشاعر:

ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً وأصبحت من أننى حموتها حماء
أي: أصبحت أسماء حراماً محرماً، وقال آخر:

حتت إلى النخلة للقصى فقلت لها حجر حرام إلا تلك الدهاريس
وقد نكر سيبويه في باب: المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها هذه الكلمة، وجعلها من جملتها ﴿وَقَدِمْنَا

بعده راجع إلى من المقنّرة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71] أي: إلا من يردّها، وبه قرأ الكسائي، قال الزجاج: هذا خطأ؛ لأنّ من الموصولة لا يجوز حذفها. وقال ابن الأنباري: إنها في محل نصب على الحال، والتقدير: إلا وأنهم، فالمحذوف عنده الواو، قرأ الجمهور (إلا أنهم) بكسر إن لوجود اللام في خبرها كما تقرر في علم النحو، وهو مجمع عليه عندهم. قال النحاس: إلا أن عليّ بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرد: أنه قال: يجوز في إن هذه الفتح، وإن كان بعدها اللام، وأحسبه وهماً، وقرأ الجمهور (يمشون) بفتح الياء، وسكون الميم، وتخفيف الشين. وقرأ عليّ، وابن عوف، وابن مسعود بضم الياء، وفتح الميم، وضم الشين المشدّدة، وهي بمعنى القراءة الأولى، قال الشاعر:

أمشي باعطان المياه واتقي قلائص منها صعبة وركوب
وقال كعب بن زهير:

منه تظل سباع الحي ضامرة ولا تمشي بواويه الأراجيل
﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ هذا الخطاب عامّ للناس، وقد جعل سبحانه بعض عباده فتنة لبعض، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، وقيل: المراد بالبعث الأول كفار الأمم، وبالبعث الثاني الرسل. ومعنى الفتنة: الابتلاء والمحنة. والأول أولى، فإن البعض من الناس ممّتحن بالبعض مبتلى به؛ فالمرضى يقول: لم لم أجعل كالصحيح؟ وكذا كل صاحب آفة، والصحيح مبتلى بالمرضى، فلا يضجر منه، ولا يحقره، والغني مبتلى بالفقير يواسيه، والفقير مبتلى بالغني يحسده، ونحو هذا مثله، وقيل: المراد بالآية: أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم، ورأى الوضع قد أسلم قبله أنف، وقال: لا أسلم بعده، فيكون له علي السابقة والفضل، فيقيم على كفره، فذلك افتتان بعضهم لبعض، واختار هذا الفراء، والزجاج. ولا وجه لقصر الآية على هذا، فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة ﴿اتَّصِبِرُونَ﴾ هذا الاستفهام للتقريع، وفي الكلام حذف تقديره، أم لا تصبرون أي: اتصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة، والابتلاء العظيم. قيل: موقع هذه الجملة الاستفهامية ها هنا موقع قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في قوله ﴿لِيَلْبِزَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]، ثم وعد الصابرين بقوله ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بِصِيرًا﴾ أي: بكل من يصبر ومن لا يصبر، فيجازي كلا منهما بما يستحقه. وقيل: معنى اتصبرون: اصبروا مثل قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَنِهُونَ﴾ [المائدة: 91] أي: انتهوا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التي قدحوا بها في النبوة، والجملة معطوفة على ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ [الفرقان: 7] أي: وقال المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله كما في قول الشاعر:

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

شدة الكفر. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ قال: يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عطية العوفي نحوه. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قال: عودًا معاذًا، الملائكة تقول. وفي لفظ قال: حراماً محرماً أن تكون البشرية في اليوم إلا للمؤمنين. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري في قوله ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قال: حراماً محرماً أن نبشركم بما نبشر به المتقين. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن، وقتادة ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ قالوا: هي كلمة كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا نزلت به شدة قال: حَجَرًا مَحْجُورًا حراماً محرماً. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ قال: عمدنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه في الدنيا. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿هَبَاءٌ مَنثورًا﴾ قال: الهباء شعاع الشمس الذي يخرج من الكوة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب قال: الهباء وهي الغبار يسطع، ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء، فجعل الله أعمالهم كذلك. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الهباء الذي يطير من النار إذا اضطربت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: هو ما تسفي الرياح وتبثه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو الماء المهورق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: في الغرف من الجنة. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وَيَوْمَ تَشْقَى الْأُنثَىٰ ۖ وَأَلْقَمَ رَزْزَلُ الْمَلَائِكَةِ تَزْيِيلًا ﴿٦٥﴾ أَلَيْسَ لِرَبِّهِمُ الْحَقُّ ۚ لَزَيْنَ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٦٦﴾ وَيَوْمَ يَبْصُرُ الْأَطْلَامُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَكَلِّفُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٦٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخُذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٦٨﴾ لَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْزَكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَدُولًا ﴿٦٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٧٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٧١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُلَّةً ۖ وَجَدَ كَذَلِكَ لَيْتَنِي بَدَأْتُ فَعَلْتُكَ تَزْيِيلًا ﴿٧٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِبَشَرٍ إِلَّا جَعَلْنَاكَ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ تَقِيرًا ﴿٧٣﴾ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ

إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ هذا وعيد آخر، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير: من صلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وإطعام الطعام، وأمثالها، ولم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذي هم عليه، فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ما معهم من المتاع، فأفسده، ولم يترك منها شيئاً، وإلا فلا قدوم لها هنا. قال الواحدي: معنى قدمنا: عمدنا وقصدنا، يقال: قدم فلان إلى أمر كذا إذا قصده، أو عمده، ومنه قول الشاعر:

وقدم الخوارج الضلال إلى عباد ربهم فقالوا
إن يساء لكم لنا حلال

وقيل: هو قدوم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى، والهباء واحد هباءة، والجمع أهباء. قال النضر بن شميل: الهباء التراب الذي تطيره الريح كأنه دخان. وقال الزجاج: هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، وكذا قال الأزهري: والمنثور المفرق، والمعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، لم يتكف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد؛ وقيل: إن الهباء ما أذرت الرياح من يابس أوراق الشجر، وقيل: هو الماء المهورق، وقيل: الرماد. والأول هو الذي ثبت في لغة العرب، ونقله العارفون بها. ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار، فقال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ أي: أفضل منزلاً في الجنة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: موضع قائلة، وانتصاب مستقراً على التمييز. قال الأزهري: القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن مع ذلك يوم. قال النحاس: والكوفيون يجيزون: العسل أحلى من الخل.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الآية قال: عيسى، وعزير، والملائكة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ قال: هلكى. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن في قوله ﴿وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ﴾ قال: هو: الشرك. وأخرج ابن جرير عن ابن جرير قال: يشرك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ يقول: إن الرسل قبل محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال: بلاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن الحسن ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال: يقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان، ويقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان. وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿وَعَتُوا عَتَوْا كَبِيرًا﴾ قال:

مَكَانًا وَأَصْلًا سَبِيلًا ﴿٢٥﴾

كل ظالم يرد تلك المكان، وينزل تلك المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ «يقول» في محل نصب على الحال، ومقول القول هو: يا ليتني، إلخ، والماندى محذوف أي: يا قوم ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً طريقاً، وهو طريق الحق، ومشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة، والمراد: اتباع النبي ﷺ فيما جاء به ﴿يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾ دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخالطة الكافر الذي أضله في الدنيا، وفلان كناية عن الأعلام. قال النيسابوري: زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصح إلا حكاية، لا يقال: جاءني فلان. ولكن يقال: قال زيد: جاءني فلان، لأنه اسم اللفظ الذي هو علم الاسم، وكذلك جاء في كلام الله. وقيل: فلان كناية عن علم نكور من يعقل، وفلانة عن علم إناثهم. وقيل: كناية عن نكرة من يعقل من الذكور. وفلانة عمن يعقل من الإناث، وأما الفلان والفلانة فكناية عن غير العقلاء، وفل يختص بالنداء إلا في ضرورة كقول الشاعر:

في لجة أمسك فلاناً عن فل

وقوله:

حذائني عن فلان وفل

وليس فل مرخماً من فلان خلافاً للفراء. وزعم أبو حيان أن ابن عصفور، وابن مالك، وهما في جعل فلان كناية علم من يعقل. وقرأ الحسن (يا ويلتي) بالياء الصريحة، وقرأ الدوري بالإمالة. قال أبو علي: وترك الإمالة أحسن، لأن أصل هذه اللفظة الياء، فأبليت الكسرة فتحة، والياء التاء فقرأ من الياء، فمن أمال رجع إلى الذي فر منه ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ أي: والله لقد أضلني هذا الذي اتخذته خليلاً عن القرآن، أو عن الموعظة، أو كلمة الشهادة، أو مجموع ذلك. بعد إذ جاءني، وتمكنت منه، وقدرت عليه ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ الخذل ترك الإغاثة، ومنه خذلان إبليس للمشركين حيث يوالونه، ثم يتركهم عند استغاثتهم به، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، أو من تمام كلام الظالم، وأنه سمى خليله شيطاناً بعد أن جعله مضلاً. أو أراد بالشيطان إبليس لكونه الذي حمله على مخالطة المضلين ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ معطوف على ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ [الفرقان: 21]، والمعنى: إن قومي اتخذوا هذا القرآن الذي جئت به إليهم، وأمرتني بإبلاغه، وأرسلتني به مهجوراً متروكاً لم يؤمنوا به، ولا قبلوه بوجه من الوجوه، وقيل: هو من هجر إذا هذى. والمعنى: أنهم اتخذوه هجراً، وهنيئاً. وقيل: معنى ﴿مهجوراً﴾: مهجوراً فيه، ثم حذف الجار، وهجرهم فيه قولهم: إنه سحر، وشعر، وأساطير الأولين، وهذا القول يقوله الرسول ﷺ يوم القيامة؛ وقيل: إنه حكاية لقوله ﷺ في الدنيا ﴿وكنكك جعلنا لكل نبي عدواً من

قوله ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ وصف سبحانه ما هنا بعض حوادث يوم القيامة، وتشقق التفتح، قرأ عاصم، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو (تشقق) بتخفيف الشين، وأصله تشقق، وقرأ الباقر بتشديد الشين على الإدغام. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، واختار الثانية أبو حاتم، ومعنى تشققها بالغمام: أنها تشقق عن الغمام. قال أبو علي الفارسي: تشقق السماء، وعليها غمام كما تقول: ركب الأمير بسلاحه أي: وعليه سلاحه، وخرج ثيابه أي: وعليه ثيابه. ووجه ما قاله: أن الباء وعن يتعاقبان كما تقول: رميت بالقوس. وعن القوس، وروي أن السماء تشقق عن سحب رقيق أبيض، وقيل: إن السماء تشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس. والمعنى: أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء، وقيل: إنها تشقق لنزول الملائكة، كما قال سبحانه بعد هذا ﴿ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ وقيل: إن الباء في بالغمام سببية أي: بسبب الغمام، يعني: بسبب طلوعه منها كأنه الذي تشقق به السماء، وقيل: إن الباء متعلقة بمحذوف أي: ملتبسة بالغمام. قرأ ابن كثير (ونزل الملائكة) مخففاً من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة، (وزاي) مخففة بكسرة مضارع أنزل، والملائكة منصوبة على المفعولية. وقرأ الباقر من السبعة (ونزل) بضم النون، وكسر الزاي المشددة ماضياً مبنياً للمفعول، وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء (نزل) بالتشديد ماضياً مبنياً للمفاعل، وفاعله الله سبحانه، وقرأ أبي بن كعب (انزل الملائكة)، وروي عنه: أنه قرأ (تنزلت الملائكة)، وقد قرئ في الشواذ بغير هذه، وتأكيد هذا الفعل بقوله ﴿تنزيلاً﴾ يدل على أن هذا التنزيل على نوع غريب، ونمط عجيب. قال أهل العلم: إن هذا تنزيل رضا ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ الملك مبتدأ، والحق صفة له وللرحمن. الخبر كذا قال الزجاج: أي: الملك الثابت الذي لا يزول للرحمن يومئذ، لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك في الحقيقة، وفائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة في هذا اليوم. وأما فيما عداه من أيام الدنيا، فلغيره ملك في الصورة، وإن لم يكن حقيقاً. وقيل: إن خبر المبتدأ هو الظرف، والحق نعت للملك. والمعنى: الملك الثابت للرحمن خاص في هذا اليوم ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي: وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده شديداً على الكفار لما يصابون به فيه، وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب، وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير، لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ الظرف منصوب بمحذوف أي: وانكر، كما انتصب بهذا المحذوف الظرف الأول، أعني: يوم تشقق، ويوم يعض الظالم على يديه، الظاهر أن العض هنا حقيقة، ولا مانع من ذلك، ولا موجب لتأويله. وقيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم

نريعته، ويبطل شبهته، ويحسم مآلته. ومعنى ﴿أحسن تفسيراً﴾: جئتكم بأحسن تفسير، فأحسن تفسيراً معطوف على الحق، والاستثناء بقوله ﴿إلا جئتكم﴾ مفرغ، والجملة في محل نصب على الحال أي: لا يأتونكم بمثل إلا في حال إيتائنا إياكم ذلك. ثم أورد هؤلاء الجبهة، ونهمهم، فقال ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أي: يحشرون كائنين على وجوههم، والموصول مبتدأ، وخبره: أولئك، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين، ويجوز نصبه على الذم. ومعنى ﴿يحشرون على وجوههم﴾ يسحبون عليها إلى جهنم ﴿أولئك شر مكاناً﴾ أي: منزلاً ومصيراً ﴿واضل سبيلاً﴾، وأخطأ طريقاً، وذلك لأنهم قد صاروا في النار. وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان، وقد قيل: إن هذا متصل بقوله: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ [الفرقان: 24].

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس في قوله ﴿يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تزيلاً﴾ قال: يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد: الجن، والإنس، والبهائم، والسباع، والطير، وجميع الخلق، فتتشقق السماء الدنيا، فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن، والإنس، وجميع الخلق، فيحيطون بالجن، والإنس، وجميع الخلق، فيقول أهل الأرض: أفيكم ربنا، فيقولون: لا، ثم تنشق السماء الثانية، ونكر مثل ذلك، ثم كذلك في كل سماء إلى السماء السابعة، وفي كل سماء أكثر من السماء التي قبلها، ثم ينزل ربنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون، وهم أكثر من أهل السموات السبع، والإنس، والجن، وجميع الخلق لهم قرون ككعوب القثاء، وهم تحت العرش، لهم زجل بالتسبيح، والتلهيل، والتقديس لله تعالى، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، ومن ركبته إلى فخذيه مسيرة خمسمائة عام، ومن فخذيه إلى رقبته مسيرة خمسمائة عام، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام. وإسناده عند ابن جرير هكذا قال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج بن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران: أنه سمع ابن عباس، فنكره، وأخرجه ابن أبي حاتم بإسناد هكذا: قال: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث مأمول، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد به، وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل بسند، قال السيوطي: صحيح من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آثروه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبا أبو معيط، وقدم خليله من الشام ليلاً، فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد ما كان أمراً، فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبا، فبات بليلة سوء، فلما أصبح آتاه أبو معيط، فحياه، فلم يرد عليه

للمجرمين. هذا تسليية من الله سبحانه لرسوله ﷺ، والمعنى: أن الله سبحانه جعل لكل نبي من الأنبياء الداعين إلى الله عدواً يعايبه من مجرمي قومه، فلا تجزع يا محمد، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك، وأصبر كما صبروا ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ قال المفسرون: الباء زائدة أي: كفى ربك، وانتصاب نصيراً وهادياً على الحال، أو التمييز أي: يهدي عباده إلى مصالح الدين، والدنيا، وينصرهم على الأعداء ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم أي: هلا نزل الله علينا هذا القرآن دفعة واحدة غير منجم. واختلف في قائل هذه المقالة؛ فقيل: كفار قريش، وقيل: اليهود، قالوا: هلا آتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة، والإنجيل، والزبور، وهذا زعم باطل، ودعوى داحضة، فإن هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن، ولكنهم معانئون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه، ثم رد الله سبحانه عليهم، فقال ﴿كنكك لنثبت به فؤادك﴾ أي: نزلنا القرآن كنكك مفرقاً، والكاف في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف، وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أي: مثل ذلك التنزيل المفروق الذي قدحوا فيه، واقترحوا خلافه: نزلناه لنقوي بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤادك، فإن إنزاله مفرقاً منجماً على حسب الحوائث أقرب إلى حفظك له، وفهمك لمعانيه، وذلك من أعظم أسباب التثبيت، واللام متعلقة بالفعل المحذوف الذي قدرناه. وقال أبو حاتم: إن الأخفش قال: إنها جواب قسم محذوف. قال: وهذا قول مرجوح. وقرأ عبد الله (ليثبت) بالتحتيه أي: الله سبحانه، وقيل: إن هذه الكلمة أعني: كنكك، هي من تمام كلام المشركين، والمعنى كنكك أي: كالتوراة، والإنجيل، والزبور، فيوقف على قوله ﴿كنكك﴾، ثم يبتدأ بقوله: ﴿لنثبت به فؤادك﴾ على معنى: أنزلناه عليك متفرقاً لهذا الغرض. قال ابن الأنباري: وهذا أجود وأحسن. قال النحاس: وكان ذلك أي: إنزال القرآن منجماً من أعلام النبوة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأثبتتهم. ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ هذا معطوف على الفعل المقدر أي: كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلاً، ومعنى الترتيل: أن يكون آية بعد آية، قاله النخعي، والحسن، وقتادة. وقيل: إن المعنى بيناه تبييناً، حكى هذا عن ابن عباس. وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض. وقال السدي: فصلناه تفصيلاً. قال ابن الأعرابي: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين. ثم نكر سبحانه أنهم محجوجون في كل أوان مدفوع قولهم بكل وجه، وعلى كل حالة، فقال ﴿ولا يأتونكم بمثل إلا جئتكم بالحق ولحسن تفسيراً﴾ أي: لا يأتونكم يا محمد المشركون بمثل من أمثالهم التي من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئتكم في مقابلة مثلهم بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاءوا به من المثل ويدمغه وينفعه. فالمراد بالمثل هنا السؤال، والإقتراح، و«بالحق» جوابه الذي يقطع

وهو الحجارة أي: هلكت بالحجارة التي أمطروا بها، وانتصاب مطر على المصدرية، أو على أنه مفعول ثانٍ: إذ المعنى: أعطيتها، وأوليتها مطر السوء، أو على أنه نعت مصدر محذوف أي: إمطاراً مثل مطر السوء، وقرأ أبو السمال (السوء) بضم السين، وقد تقدّم تفسير السوء في براءة ﴿فلم يكونوا يرونها﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي: يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة، إنهم يمزون بها، والفاء للعطف على مقرر أي: لم يكونوا ينظرون إليها، فلم يكونوا يرونها ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لذلك الآثار إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجائهم للجزاء، ويجوز أن يكون معنى يرجون: يخافون ﴿وإذا راوكم يتخونكم إلا هزوا﴾ أي: ما يتخونكم إلا هزوا أي: مهزواً بك، قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزواً، فجواب «إذا» هو ﴿إن يتخونكم﴾ وقيل: الجواب محذوف، وهو قالوا ﴿أهذا الذي﴾ وعلى هذا، فتكون جملة ﴿إن يتخونكم إلا هزوا﴾ معترضة، والأول أولى. وتكون جملة ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول: أي: قائلين أهذا؟ إلخ، وفي اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به، والعائد محذوف أي: بعثه الله، وانتصاب رسولا على الحال أي: رسلاً، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره الموصول، وصلته ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا﴾ أي: قالوا: إن كاد هذا الرسول ليضلنا؛ ليصرفنا عن آلهتنا، فنترك عبادتها، وإن هنا هي المخففة، وضمير الشأن محذوف أي: إنه كاد أن يصرفنا عنها ﴿ولو أن صبرنا عليها﴾ أي: حبسنا أنفسنا على عبادتها، ثم إنه سبحانه أجاب عليهم، فقال ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ أي: حين يرون عذاب يوم القيامة الذي يستحقونه ويستوجبونه بسبب كفرهم من هو أضل سبيلاً أي: أبعد طريقاً عن الحق والهدى، أهم أم المؤمنون؟ ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع الهوى، فقال معجباً لرسول الله ﷺ ﴿أرايت من اتخذ إلهه هواه﴾ قَمَ المفعول الثاني للعناية كما تقول: علمت منطلقاً زيداً أي: أطاع هواه طاعة كطاعة الإله أي: انظر إليه يا محمد، وتعجب منه. قال الحسن: معنى الآية: لا يهوى شيئاً إلا أتبعه ﴿أفأنت تكون عليه كفيلاً﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد أي: أفأنت تكون عليه حفيظاً وكفيلاً حتى تردّه إلى الإيمان، وتخرجه من الكفر، ولست تقدر على ذلك ولا تطبيقه، فليست الهداية والضلالة موكلتين إلى مشيئتك، وإنما عليك البلاغ. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال. ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر، فقال ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ أي: أتَحَسِب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن، ويؤمن المواعظ، أو يعقلون معاني ذلك، ويفهمونه حتى تعتني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم، وليسوا كذلك، بل هم بمنزلة

للناس آية أي: عبرة لكل الناس على العموم يتعظ بها كل مشاهد لها، وسمع لخبرها ﴿واعتننا للظالمين﴾ المراد بالظالمين قوم نوح على الخصوص. ويجوز أن يكون المراد كل من سلك مسلكهم في التكذيب والعذاب الأليم: هو عذاب الآخرة، وانتصاب ﴿عاداً﴾ بالعطف على قوم نوح، وقيل: على محل الظالمين، وقيل: على مفعول جعلناهم ﴿وئثموذ﴾ معطوف على عاداً، وقصة عاد وئثموذ قد ذكرت فيما سبق ﴿وأصحاب الرس﴾ الرس في كلام العرب: البئر التي تكون غير مطوية، والجمع رساس كذا قال أبو عبيدة، ومنه قول الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم تنابلة يحفرون الرُساسا
قال السدي: هي بئر بإنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار،
فنسبوا إليها، وهو صاحب يس الذي ﴿قال يا قوم اتبعوا
المرسلين﴾ [يس: 20] وكذا قال مقاتل، وعكرمة، وغيرهما.
وقيل: هم قوم بآزربيجان قتلوا أنبياءهم، فجفت أشجارهم
وزروعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً. وقيل: كانوا يعبدون الشجر،
وقيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً،
فكذبوه، وأكذوه. وقيل: هم قوم أرسل الله إليهم نبياً، فاكلوه،
وقيل: هم أصحاب الأخدود. وقيل: إن الرسّ هي البئر
المعطلة التي تقدّم ذكرها، وأصحابها أهلها. وقال في
الصباح: والرسّ اسم بئر كانت لبقية ثمود، وقيل: الرسّ ماء
ونخل لبني أسد، وقيل: الثلج المتراكم في الجبال. والرسّ:
اسم واد، ومنه قول زهير:

بكون بكوراً واستحزن بسحرة - فهن لولاي الرس كاليدي للقم
والرس أيضاً: الإصلاح بين الناس، والإفساد بينهم، فهو:
من الأضداد. وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان، وهم
الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف بالعنقاء ﴿وَقَرُونَا بَيْنَ
تِلْكَ كَثِيرًا﴾ معطوف على ما قبله، والقرون جمع قرن أي:
أهل قرون، والقرن مائة سنة. وقيل: مائة وعشرون. وقيل:
القرن أربعون سنة، والإشارة بقوله ﴿بَيْنَ تِلْكَ﴾ إلى ما
تقدم ذكره من الأمم. وقد ينكر الذاكر أشياء مختلفة، ثم
يشير إليها بذلك ﴿وَكَلَّا ضَرْبًا لَهُ الْأَمْثَالُ﴾ قال الزجاج:
أي: وأنذرتنا كلا ضربنا لهم الأمثال، وبيننا لهم الحجة، ولم
نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة، فجعله
منصوباً بفعل مضممر يفسره ما بعده، لأن حزننا، ونكرنا،
وأنذرتنا في معنى: ضربنا، ويجوز أن يكون معطوفاً على ما
قبله، والتثنية عوض عن المضاف إليه المحذوف، وهو الأمم
أي: كل الأمم ضربنا لهم الأمثال ﴿وَوَ﴾ أما ﴿كَلَّا﴾ الأخرى:
فهي منصوبة بالفعل الذي بعدها، والتثنية: الإهلاك بالعذاب.
قال الزجاج: كل شيء كسرتَه وفتتَه فقد تبرته. وقال
المؤرج، والأخفش: معنى ﴿تَبَرَّنَا تَبْهِيرًا﴾: امرنا تدميراً
أبطلت التاء والباء من الدال والميم ﴿وَلَقَدْ آتَوَا عَلَى الْقَرْيَةِ
الَّتِي آمَطَرْتَ مَطَرَ السَّوءِ﴾ هذه جملة مستأنفة مبينة
لمشاهدتهم لأثار هلاك بعض الأمم. والمعنى: ولقد آتوا أي:
مشركو مكة على قرية قوم لوط التي أمطرت مطر السوء،

بعد ذلك، إن ذلك الأسود لَأَوَّل من يدخل الجنة». قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراجهم: وفيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدرأجاً. انتهى. الحديث أيضاً مرسل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن زرارة بن أوفى قال: القرن مائة وعشرون عاماً. وأخرج هؤلاء عن قتادة قال: القرن سبعون سنة، وأخرج ابن مريويه عن أبي سلمة قال: القرن مائة سنة. وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ: أنه قال: القرن مائة سنة، وقال: القرن خمسون سنة، وقال: القرن أربعون سنة. وما أظنه يصح شيء من ذلك، وقد سمي الجماعة من الناس قرناً كما في الحديث الصحيح: «خير القرون قرني». وأخرج الحاكم في الكنى عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا انتهى إلى معدن بن عذنان أمسك، ثم يقول: «كذب النسايون». قال ابن مريويه: «وقروناً بين ذلك كثيراً». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس «ولقد أتوا على القرية» قال: هي سدوم قرية لوط. «التي أمطرت مطر السوء» قال: الحجارة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله «وارثت من اتخذ إلهه هواه» قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه رمى به، وعبد الآخر، فأنزل الله الآية. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية قال: ذلك الكافر لا يهوى شيئاً إلا اتبعه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٥٠﴾ ثُمَّ قَبَضَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّهَارَ حِمًيًا وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ أَظْلُمًا وَالنُّجُومَ أَضْيَافًا وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيْحَ بُرْزَخَاتٍ بَيْنَ يَدَيْ رَعْمَانٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥٢﴾ لِنَشْجِي بِهِ بَلَدًا مَيِّتًا وَنُخْرِجَ مِنْهَا حَلَقًا أَثْمَارًا وَأَنَّا بِنِعْمَةِ رَبِّنَا وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَمَسْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٤﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَنَهَضَهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي مَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُم نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٧﴾

لما فرغ سبحانه من نكر جهالة الجاهليين وضلالتهم اتبعه بنكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام، فأولها الاستدلال بأحوال الظل، فقال «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل» هذه الرؤية إما بصرية، والمراد بها: ألم تبصر إلى صنع ربك، أو ألم تبصر إلى الظل كيف مده ربك، وإما قلبية بمعنى: العلم، فإن الظل متغير، وكل متغير حادث، ولكل حادث موجد. قال الزجاج «ألم تر» ألم تعلم، وهذا من رؤية القلب. قال: وهذا الكلام على القلب، والتقدير: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك؟ يعني: الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس، وهو ظل لا شمس معه، وبه قال الحسن، وقتادة. وقيل: هو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها.

من لا يسمع ولا يعقل. ثم بين سبحانه حالهم، وقطع مائة الطمع فيهم، فقال «إن هم إلا كالإنعام» أي: ما هم في الإنتفاع بما يسمعونهم إلا كالبهائم التي هي مسلوية الفهم والعقل، فلا تطمع فيهم، فإن فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم، ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له. ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم بأنهم كالإنعام إلى ما هو فوق ذلك، فقال «بطل هم أضل سبيلاً» أي: أضل من الأنعام طريقاً. قال مقاتل: البهائم تعرف ربها، وتهتدي إلى مراعيها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء لا يتقانون، ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم. وقيل: إنما كانوا أضل من الأنعام، لأنه لا حساب عليها، ولا عقاب لها، وقيل: إنما كانوا أضل؛ لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنوبة لم تعتقد بطلان ذلك، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا بطلان عناداً، ومكابرة، وتعصياً، وغمطاً للحق.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله «وجعلنا معه نخاءه هرون وزيراً» قال: عوناً وعضداً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله «فقدمناهم تدميراً» قال: أهلكناهم بالعذاب. وأخرج ابن جرير عنه قال: الرس قرية من ثمود. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الرس بئر بانربيجان، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس: أنه سأل كعباً عن أصحاب الرس قال: صاحب يس الذي «قال يا قوم اتبعوا المرسلين» [يس: 20] فرسه قومه في بئر بالأحجار. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله بعث نبياً إلى أهل قرية، فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا ذلك الأسود، ثم إن أهل القرية غدوا على النبي، فحفروا له بئراً، فآلقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخمة، فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه، فيبيعه، فيشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، فيعيثه الله عليها، فيبلي طعامه وشرابه، ثم يردّها كما كانت، فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع، فجعل حطبه، وحزم حزمته، وفرغ منها، فلما أراد أن يحملها وجد سنة، فاضطجع، فنام، فضرب على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنه ذهب فتمطى، فتحول لشقه الآخر، فاضطجع، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى، ثم إنه ذهب، فاحتمل حزمته، ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلى القرية، فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع، ثم ذهب إلى الحفرة في موضعها الذي كانت فيه، فالتمسّه، فلم يجده، وقد كان بدا لقومه فيه بد، فاستخرجوه، فأمنوا به، وصبقوه، وكان النبي يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل، فيقولون: ما ندري حتى قبض ذلك النبي، فأهبط الله الأسود من نومه

أي: نقضته، وأرسلته، ورجل مسبوت أي: ممدود الخلقه. وقيل: للنوم ثبات، لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت القطع، فالنوم انقطاع عن الاشتغال، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال. قال الزجاج: السبات النوم، وهو أن ينقطع عن الحركة، والروح في بدنه أي: جعلنا نومكم راحة لكم. وقال الخليل: السبات نوم ثقيل أي: جعلنا نومكم ثقیلاً ليكمل الإجمام والراحة ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ أي: زمان بعث من تلك السبات، شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات التشبيه بالممات. وقال في الكشف: إن السبات الموت، واستدل على ذلك بكون النشور في مقابلته ﴿وهو الذي أرسل الرياح نشرأ بين يدي رحمته﴾ قرئ (الريح)، وقرئ (بشرأ) بالباء الموحدة، وبالنون. وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في الأعراف ﴿ونزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ أي: يطهر به كما يقال: وضوء للماء الذي يتوضأ به. قال الأزهرى: الطهور في اللغة الطاهر المطهر، والطهور ما يطهر به. قال ابن الأنباري: الطهور بفتح الطاء الاسم، وكذلك الوضوء، والوقود، وبالضم المصدر، هذا هو المعروف في اللغة؛ وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر، ويؤيد ذلك كونه بناءً مبالغة. وروي عن أبي حنيفة أنه قال: الطهور هو الطاهر، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ [الإنسان: 21] يعني: طاهراً، ومنه قول الشاعر:

خيلني هل في نظرة بعد توبة أدوي بها قلبي علي فجور
إلى رجح الأكفال غيد من الظبي عذاب الشنايا ريقهن طهور
فوصف الريق بأنه طهور، وليس بمطهر، ورجح القول الأول تلعب، وهو راجح لما تقدم من حكاية الأزهرى لذلك عن أهل اللغة. وأما وصف الشاعر للريق بأنه طهور، فهو على طريق المبالغة، وعلى كل حال، فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر في مظهر نفسه مطهر لغیره، قال الله تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾ [الأنفال: 11] وقال النبي ﷺ: «خلق الماء طهوراً»، ثم ذكر سبحانه علة الإنزال، فقال: ﴿لنحيي به﴾ أي: بالماء المنزل من السماء «بلدة ميتة» وصف البلدة بميتة، وهي صفة للمنكر؛ لأنها بمعنى البلد. وقال الزجاج: أراد بالبلد المكان، والمراد بالإحياء هنا إخراج النبات من المكان الذي لا نبات فيه «ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وإناسي كثيراً» أي: نسقي ذلك الماء، قرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية عنهما، وأبو حيان، وابن أبي عتبة بفتح النون من (نسقيه)، وقرأ الباقر بن ضمه، ومنه في «مما خلقنا» للإبتداء، وهي متعلقة بنسقيه، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال، والأنعام قد تقدم الكلام عليها، والأناسي جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه. وقال الفراء، والمبرد، والزجاج: إنه جمع إنسي، وللغراء قول آخر: إنه جمع إنسان، والأصل أناسين مثل سرحان، وسراحين، وبستان، وبساتين، فجعلوا الباء عوضاً من النون «ولقد صرفناه بينهم لينكروا» ضمير صرفناه

قال أبو عبيدة: الظل بالغداة، والفء بالعشي، لأنه يرجع بعد زوال الشمس، سمي فيثاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب. قال حميد بن ثور يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة:

فلا الظل من برد الضحى تستطيع ولا الفء من برد العشي تنوق
وقال ابن السكيت: الظل ما نسخته الشمس، والفء ما نسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤية قال: كل ما كانت عليه الشمس، فزالت عنه، فهو فء وظل، وما لم تكن عليه الشمس، فهو ظل. انتهى. وحقيقة الظل أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهذا المتوسط هو أعدل من الطرفين، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع، وينفر عنها الحس، والضوء الكامل لقوته يبههر الحس البصري، ويؤذي بالتسخين، ولذلك وصفت الجنة به بقوله: ﴿وظل معنود﴾ [الواقعة: 30]. وجملة ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه أي: لو شاء الله سبحانه سكونه لجعله ساكناً ثابتاً دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس. وقيل: المعنى: لو شاء لمنع الشمس الطلوع، والأول أولى. والتعبير بالسكون عن الإقامة، والاستقرار سائغ، ومنه قولهم: سكن فلان بلد كذا: إذا أقام به، واستقر فيه. وقوله ﴿ثم جعلنا الشمس عليه ليلاً﴾ معطوف على قوله ﴿ممد للظل﴾ داخل في حكمه أي: جعلناها علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص، وقوله ﴿ثم قبضناه﴾ معطوف أيضاً على ﴿ممد﴾ داخل في حكمه. والمعنى: ثم قبضنا تلك الظل الممدود، ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهى ذلك الإطلال إلى العدم والإضمحلال. وقيل: المراد في الآية قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام النيرة، والأول أولى. والمعنى: أن الظل يبقى في هذا الجوّ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً، وخلفه في هذا الجوّ شعاع الشمس، فأشرقت على الأرض، وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت، فليس هناك ظل، إنما فيه بقية نور النهار وقال قوم: قبضه بغروب الشمس، لأنها إذا لم تغرب، فالظل فيه بقية، وإنما يتم زواله بمجيء الليل، وبخول الظلمة عليه. وقيل: المعنى: ثم قبضنا ضياء الشمس بالفء «قبضاً يسيراً»، ومعنى «إيناء»: أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حلوته منه قبضاً يسيراً أي: على تدريج قليلاً قليلاً بقدر ارتفاع الشمس، وقيل: يسيراً سريعاً، وقيل: المعنى يسيراً علينا أي: يسيراً قبضه علينا ليس بعسير ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. قال ابن جرير: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث أنه يستر الأشياء، ويغشاهما، واللام متعلقة بجعل ﴿والنوم سباتاً﴾ أي: وجعل النوم سباتاً أي: راحة لكم، لأنكم تنقطعون عن الاشتغال، وأصل السبات التمدد، يقال: سبت المرأة شعرها

واضطرب، ومنه قوله: ﴿فِي أَمْرِ مَرْجٍ﴾ [ق: 5] وقال الأزهري: ﴿مَرْجُ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلى بينهما، يقال: مرجت الدابة: إذا خليتها ترعى. وقال ثعلب: المَرْجُ الإجراء، فقوله ﴿مَرْجُ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أجرامهما. قال الأخفش: ويقول قوم: أَمْرُجُ الْبَحْرَيْنِ مِثْلُ مَرْجٍ، فعل وأفعل بمعنى: ﴿هَذَا عَذَبُ فِرَاتٍ﴾ الْفِرَاتُ الْبَلِيغُ الْعَنُوبَةُ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقتر، كأنه قيل: كيف مرجهما؟ فقيل: هذا عذب، وهذا ملح، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال. قيل: سمي الماء الحلو فِرَاتًا، لأنه يفرغ العطش أي: يقطعه، ويكسره ﴿وَهَذَا مِلْحٌ لِنَاجٍ﴾ أي: بليغ الملوحة، هذا معنى الأجاج، وقيل: الأجاج البليغ في الحرارة، وقيل: البليغ في المرارة، وقرأ طلحة (ملح) بفتح الميم، وكسر اللام ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ الْبَرْزَخُ الْحَاجِزُ، وَالْحَائِلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا مِنْ قُدْرَتِهِ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا، وَيَمْنَعُهُمَا التَّمَارُجُ، وَمَعْنَى ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾: سِتْرًا مَسْتُورًا يَمْنَعُ أَحَدَهُمَا مِنَ الْإِخْتِلَاطِ بِالْآخَرِ، فَالْبَرْزَخُ الْحَاجِزُ، وَالْحِجْرُ الْمَانِعُ. وقيل: معنى ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾: هو ما تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَلِمَةٌ يَقُولُهَا الْمُتَعَوِّذُ، كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ يَتَعَوَّذُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ هَذَا الْقَوْلُ، وَقِيلَ: حَدًّا مَحْذُورًا. وقيل: المراد من البحر العذب الأنهار العظام كالنيل، والفرات، ويجحون، ومن البحر الأجاج البحار المشهورة، والبرزخ بينهما الحائل من الأرض. وقيل: معنى ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾: حَرَامًا مُحَرَّمًا أَنْ يَعْذِبَ هَذَا الْمَالِحُ بِالْعَذْبِ، أَوْ يَمْلَحَ هَذَا الْعَذْبُ بِالْمَالِحِ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ: ﴿مَرْجُ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرَّحْمَنُ: 19، 20] ثُمَّ نَكَرَ سَبَّحَانَهُ حَالَةً مِنْ أَحْوَالِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْمَاءِ، فَقَالَ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، وَالْمُرَادُ بِالْمَاءِ هُنَا مَاءُ النُّطْفَةِ أَي: خَلَقَ مِنْ مَاءِ النُّطْفَةِ إِنْسَانًا، فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمَاءِ الْمَاءُ الْمَطْلُوقُ الَّذِي يَرَادُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: 30]، وَالْمُرَادُ بِالنَّسَبِ هُوَ الَّذِي لَا يَحِلُّ نِكَاحُهُ. قَالَ الْفَرَاءُ، وَالزَّجَّاجُ: وَاشْتِقَاقُ الصَّهْرِ مِنْ صَهَرَتِ الشَّيْءُ: إِذَا خَلَطَتْهُ، وَاسْمُ الْمَنَاحِكِ صَهْرًا لِاخْتِلَاطِ النَّاسِ بِهَا. وَقِيلَ: الصَّهْرُ قَرَابَةُ النِّكَاحِ؛ فَقَرَابَةُ الزَّوْجَةِ هُمُ الْاِخْتَانُ، وَقَرَابَةُ الزَّوْجِ هُمُ الْأَحْمَاءُ، وَالْأَصْهَارُ تَعْمَهُمَا، قَالَهُ الْأَصْمَعِيُّ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ الْمُفْسِّرُونَ: لِلنَّسَبِ سَبْعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ الْقَرَابَةِ يَجْمَعُهَا قَوْلُهُ: ﴿حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: 23] وَمِنْ هُنَا إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْاِخْتَيْنِ﴾ [النِّسَاءُ: 23] تَحْرِيمِ بِالصَّهْرِ، وَهُوَ الْخُلْطَةُ الَّتِي تُشَبِّهُ الْقَرَابَةَ، حَرَّمَ اللَّهُ سَبْعَةَ أَصْنَافٍ مِنَ النَّسَبِ، وَسَبْعَةً مِنْ جِهَةِ الصَّهْرِ، قَدْ اشْتَمَلَتِ الْآيَةُ الْمَنْكُورَةُ عَلَى سِتَّةٍ مِنْهَا، وَالسَّابِعَةُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النِّسَاءُ: 22]، وَقَدْ جَعَلَ ابْنُ عَطِيَّةٍ، وَالزَّجَّاجُ، وَغَيْرُهُمَا الرِّضَاعَ مِنْ جَمَلَةِ النَّسَبِ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ ﷺ: «يَحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرَمُ مِنَ النَّسَبِ». «وَكَانَ رِيكَ قَدِيرًا» أَي: بَلِيغُ الْقُدْرَةِ عَظِيمُهَا، وَمِنْ

ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى مَا نَكَرَ مِنَ الدَّلَائِلِ أَي: كَرَّرْنَا أَحْوَالَ الْإِظْلَالِ، وَنَكَرَ إِثْنَاءَ السَّحَابِ، وَإِنْزَالَ الْمَطَرِ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاءِيَّةِ، لِيَتَفَكَّرُوا وَيَعْتَبِرُوا ﴿فَابْيَأِ كَثْرًا﴾ هُمُ الْكَافِرَانِ النِّعْمَةُ وَجَدَّهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى اقْتِرَابِ الْمُنْكَورَاتِ، وَهُوَ الْمَطَرُ أَي: صَرَفْنَا الْمَطَرَ بَيْنَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَتَزِيدُ مِنْهُ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ، وَتَنْقُصُ فِي بَعْضٍ آخَرَ مِنْهَا، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الْقُرْآنِ، وَقَدْ جَرَى ذِكْرُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ حَيْثُ قَالَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الْفُرْقَانُ: 1]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الْفُرْقَانُ: 29]، وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الْفُرْقَانُ: 30] وَالْمَعْنَى: وَلَقَدْ كَرَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ بِإِنْزَالِ آيَاتِهِ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِيَنْكُرُوا بِهِ، وَيَعْتَبِرُوا بِمَا فِيهِ، فَابْيَأِ كَثْرَهُمْ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ بِهِ، وَقِيلَ: هُوَ رَاجِعٌ إِلَى الرِّيحِ، وَعَلَى رَجُوعِ الضَّمِيرِ إِلَى الْمَطَرِ؛ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَاهُ، فَقِيلَ: مَا ذَكَرْنَاهُ. وَقِيلَ: صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ وَابِلًا وَطَشًا وَطَلًا وَرِذَاذًا، وَقِيلَ: تَصْرِيفُهُ تَنْوِيعَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ فِي الشَّرْبِ، وَالسَّقْيِ، وَالزَّرْعَاتِ بِهِ، وَالطَّهَارَاتِ. قَالَ عِكْرَمَةُ: إِنْ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ ﴿فَابْيَأِ كَثْرًا النَّاسَ إِلَّا كُفُورًا﴾ هُوَ قَوْلُهُمْ: فِي الْأَنْوَاءِ مَطَرُنَا بَنُوهُ كَذَا. قَالَ النَّحَّاسُ: وَلَا تَعْلَمُ بَيْنَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ اخْتِلَافًا أَنَّ الْكُفْرَ هُنَا قَوْلُهُمْ: مَطَرُنَا بَنُوهُ كَذَا. وَقَرَأَ عِكْرَمَةُ (صَرَفْنَاهُ) مُخَفَّفًا، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّثْقِيلِ. وَقَرَأَ حَمْزَةً، وَالْكَسَاثِي (لِيَنْكُرُوا) مُخَفَّفَةً الذَّالَ مِنَ الذِّكْرِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّثْقِيلِ مِنَ التَّنْكِيرِ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أَي: رَسُولًا يَنْذِرُهُمْ كَمَا قَسَمْنَا الْمَطَرَ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنَّا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ بَلْ جَعَلْنَا نَذِيرًا وَاحِدًا، وَهُوَ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَابِلْ ذَلِكَ بِشُكْرِ النِّعْمَةِ ﴿فَلَا تَطْعُ لِكَافِرِينَ﴾ فِيمَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ مِنْ اتِّبَاعِ آلِهِتِهِمْ، بَلْ اجْتَهِدْ فِي الدَّعْوَةِ، وَاتَّبِعْ فِيهَا، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ رَاجِعٌ إِلَى الْقُرْآنِ أَي: جَاهِدْهُمْ بِالْقُرْآنِ، وَاتْلُ عَلَيْهِمْ مَا فِيهِ مِنَ الْقَوَارِعِ، وَالزَّوْاجِرِ، وَالْأَوَامِرِ، وَالنَّوَاحِي. وَقِيلَ: الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقِيلَ: بِالسَّيْفِ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وَهَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَالْأَمْرُ بِالْقِتَالِ إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ. وَقِيلَ: الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى تَرْكِ الطَّاعَةِ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿فَلَا تَطْعُ لِكَافِرِينَ﴾ وَقِيلَ: الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾؛ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَوْ بَعَثَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا لَمْ يَكُنْ عَلَى كُلِّ نَذِيرٍ إِلَّا مُجَاهِدَةُ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُرْسِلَ إِلَيْهَا، وَحِينَ اقْتَصَرَ عَلَى نَذِيرٍ وَاحِدٍ لِكُلِّ الْقَرْيَةِ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَلَا جَرَمَ اجْتِمَاعِ عَلَيْهِ كُلِّ الْمُجَاهِدَاتِ، فَكَبَّرَ جِهَادَهُ وَعَظَمَ، وَصَارَ جَامِعًا لِكُلِّ مُجَاهَدَةٍ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ مِنَ الْبَعْدِ. ثُمَّ نَكَرَ سَبَّحَانَهُ دَلِيلًا رَابِعًا عَلَى التَّوْحِيدِ، فَقَالَ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ مَرْجٌ خَلَى، وَخُلْطٌ، وَأُرْسِلَ، يُقَالُ: مَرَجْتَ الدَّابَّةَ، وَأَمَرَجْتُهَا: إِذَا أُرْسَلَتْهَا فِي الْمَرعى، وَخَلَيْتَهَا تَذَهَبُ حَيْثُ تَشَاءُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: أُرْسَلَهُمَا، وَأَقَاضَ أَحَدَهُمَا إِلَى الْآخَرِ. وَقَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: خَلَطَهُمَا، فَهَمَا يَلْتَقِيَانِ، يُقَالُ: مَرَجْتُهُ: إِذَا خَلَطْتُهُ، وَمَرْجُ الدِّينِ وَالْأَمْرِ: اخْتَلَطَ

يُسْرُوا وَلَمْ يَقْتُلُوا وَكَانَ بَيْنَهُمْ ذُلٌّ فَأَمَّا

لما نكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى نكر قبائح الكفار، وفضائح سيرتهم، فقال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبوده ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ الظهير المظاهر أي: المعاون على ربه بالشرك والعداوة، والمظاهرة على الرب هي المظاهرة على رسوله، أو على دينه. قال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان، ويعاونه على معصية الله، لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان. وقال أبو عبيدة: المعنى: وكان الكافر على ربه هيناً قليلاً، من قول العرب ظهرت به أي: جعلته خلف ظهره لم تلتفت إليه، ومنه قوله: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ [هود: 92] أي: هيناً، ومنه أيضاً قول الفرزدق:

تميم بن بئر لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيا علي جوابها وقيل: إن المعنى: وكان الكافر على ربه الذي يعبده، وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء، لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع، ويجوز أن يكون الظهير جمعاً كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4]، والمعنى: أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله، أو على دين، والمراد بالكافر هنا الجنس، ولا ينافيه كون سبب النزول هو كافر معين كما قيل: إنه أبو جهل. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للكافرين بالنار ﴿قُلْ مَا لَسَالِكُمْ عَلَيْهِ مِنْ لَجْرٍ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ما أسألكم على القرآن من أجر، أو على تبليغ الرسالة المنلول عليه بالإرسال، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ أن يتخذ إلى ربه سبيلاً منقطع أي: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل، وقيل: هو متصل. والمعنى: إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة، وصور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الحصول. ولما بين سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله، وأمره أن لا يطلب منهم أجراً البتة، أمره أن يتوكل عليه في دفع المضار، وجلب المنافع، فقال ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وخص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة على النوم إلا الله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم، والتوكل: اعتماد العبد على الله في كل الأمور ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: نزهه عن صفات النقصان، وقيل: معنى سبح: صل، والصلاة تسمى تسبيحاً ﴿وَوَكُفِّيْ بِهِ يَنْبُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أي: حسبك، وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك: كفى بالله ربا، والخبير المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شيء، ثم زاد في المبالغة، فقال ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد تقدم تفسير هذا في الأعراف، والموصول في محل جر على أنه صفة للحي، وقال: بينهما، ولم يقل: بينهما؛ لأنه أراد النوعين، كما قال القطامي:

الم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد ثلباتنا انقطاعاً

جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان، وتقسيمه إلى القسمين المنكودين.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿وَالَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قال: بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس. وأخرج ابن أبي حاتم عنه بلفظ: ﴿وَالَمْ تَر﴾: أنك إذا صليت الفجر كان بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً؟ ثم بعث الله عليه الشمس قليلاً، فقبض الظل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: مد الظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ قال: دائماً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ نَلِيلًا﴾ يقول: طلوع الشمس ﴿ثُمَّ قَبْضُنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قال: سريعاً. وأخرج أهل السنن، وأحمد، وغيرهم من حديث أبي سعيد قال: «قيل: يا رسول الله انتوضا من بئر بضاعة؟» وهي بئر يلقي فيها الحيز، ولحوم الكلاب، والنتن، فقال: إن الماء طهور لا ينجسه شيء.». وفي إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفيناه في شرحنا على المنتقى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: ما من عام باقل مطراً من عام، ولكن الله يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في قوله ﴿وَوَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ قال: بالقرآن. وأخرج ابن جرير عنه ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني: خلط أحدهما على الآخر، فليس يفسد العنب المالح، وليس يفسد المالح العنب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿وَوَجَّهْنَا مَجْجُورًا﴾ يقول: حجر أحدهما عن الآخر بأمرة وقضائه. وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن المغيرة قال: سئل عمر بن الخطاب عن ﴿نَسِيبًا وَصَبْرًا﴾، فقال: ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب، وأما الصبر: فالأختان، والصباحة.

وَيَسْتَدِينُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِ لَا يَمُوتْ وَسِعَ يَحْيِيهِ وَيَكْفِي بِهِ يَذُنُّ لِبَاوَدٍ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِرَبِّهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا زَوِجًا قَرَرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَيَسَاءَ الَّذِي الْيَزِيقُ الْيَشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَؤُلَاءِ وَإِذَا حَابَهُمْ الْحَبُورُونَ قَالُوا لَنَنْصُرَهُم بَلِيشْرُونَ رَبِّهِمْ سَجْدًا وَفَيْنَا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٤﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ

أولى. ثم نكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن، فقال ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ المراد بالبروج بروج النجوم أي: منازلها الإثنا عشر، وقيل: هي النجوم الكبار، والأول أولى. وسميت بروجاً، وهي القصور العالية؛ لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها، واشتقاق البرج من التبرج، وهو الظهور. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سُرَاجًا﴾ أي: شمساً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سُرَاجًا﴾ [نوح: 16] قرأ الجمهور (سراجاً) بالإنفراد. وقرأ حمزة، والكسائي (سرجاً) بالجمع أي: النجوم العظام الواقعة، ورجح القراءة الأولى أبو عبيد. قال الزجاج: في تأويل قراءة حمزة، والكسائي أراد الشمس والكواكب ﴿وَقَمَرًا مَنِيرًا﴾ أي: ينير الأرض إذا طلع، وقرأ الأعمش (قمرأ) بضم القاف، وإسكان الميم، وهي قراءة ضعيفة شاذة ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال أبو عبيد: الخلفة كل شيء بعد شيء: الليل خلفه للنهار، والنهار خلفه لليل، لأن أحدهما يخلف الآخر، ويأتي بعده؛ ومنه خلفه النبات، وهو: ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

بها العين والأرام يمشين خلفاً واطلاؤها ينهضن من كل مجثم
قال الفراء في تفسير الآية: يقول: يذهب هذا، ويحيى هذا، وقال مجاهد: خلفه من الخلاف، هذا أبيض، وهذا أسود. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظلام، والزيادة والنقصان. وقيل: هو من باب حذف المضاف أي: جعل الليل، والنهار نوي خلفه أي: اختلاف ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَكِرَ﴾ قرأ حمزة مخففاً، وقرأ الجمهور بالثشديد، فالقراءة الأولى من النكر لله، والقراءة الثانية من التذکر له. وقرأ أبي بن كعب (ينتكر)، ومعنى الآية: أن المنتكر المعتبر إذا نظر في اختلاف الليل والنهار علم أنه لا بد في انتقالهما من حال إلى حال من ناقل ﴿وَإِذَا أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: أراد أن يشكر الله على ما أودعه في الليل والنهار من النعم العظيمة، والالطاف الكثيرة. قال الفراء: وينكر ويتنكر يأتیان بمعنى واحد. قال الله تعالى: ﴿وَانْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: 63]، وفي حرف عبد الله (وينكروا ما فيه) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحى عباد الله سبحانه، وعباد الرحمن مبتدأ، وخبره الموصول مع صلته، والهون مصدر، وهو السكينة والوقار. وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بيمشون أي: يمشون على الأرض مشياً هوناً. قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشييه، وأما أن يكون المراد صفة المشيء وحده، فباطل، لأنه رب ماش هوناً رويداً، وهو نذب أطلس، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفا في مشيه كأنما يمشي في صيب ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ نكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه، فلا يجهلون مع من يجهل، ولا

فإن قيل: يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات، والأرض كما تفيد، ثم، فيقال: إن كلمة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات، والأرض، ﴿وَالرَّحْمَنُ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو صفة أخرى للحي، وقد قرأه الجمهور بالرفع، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً من الضمير في استوى، أو يكون مبتدأ وخبره الجملة أي: فاسأل على رأي الأخفش، كما في قول الشاعر:

وقائلة خلوان فأنكح فتاتهم

وقرأ زيد بن علي (الرحمن) بالجر على أنه نعت للحي، أو للموصول ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ الضمير في «به» يعود إلى ما نكر من خلق السموات والأرض، والاستواء على العرش. والمعنى: فاسأل بتفاصيل ما نكر إجمالاً من هذه الأمور. وقال الزجاج، والأخفش: الباء بمعنى عن أي: فاسأل عنه، كقوله ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1] وقول امرئ القيس:

هلا سالت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلم
وقال امرئ القيس:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب
والمراد بالخبير الله سبحانه؛ لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو، ومن هذا قول العرب: لو لقيت فلاناً للفتك به الأسد أي: للفتك بلفائك إياه الأسد، فخبيراً منتصب على المفعولية، أو على الحال المؤكدة، واستضعف الحالية أبو البقاء، فقال: يضعف أن يكون خبيراً حالاً من فاعل أسأل، لأن الخبير لا يسأل إلا على جهة التوكيد، كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: 91، فاطر: 31] قال: ويجوز أن يكون حالاً من الرحمن إذا رفعته باستوى. وقال ابن جرير: يجوز أن تكون الباء في به زائدة. والمعنى: فاسأله حال كونه خبيراً. وقيل: قوله: به يجري مجرى القسم كقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [النساء: 1]، والوجه الأول أقرب هذه الوجوه، ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا لِلرَّحْمَنِ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: إِنَّهُمْ قَالُوا مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ، يَعْنُونَ مَسِيلَةً. قَالَ الزَّجَّاجُ: الرَّحْمَنُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، فَلَمَّا سَمِعُوهُ انْكُرُوا، فَقَالُوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ فَانْسَجَدَ لِمَا تَأْمُرُنَا، وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلنَّكَارِ أَي: لَا نَسْجُدُ لِلرَّحْمَنِ الَّذِي تَأْمُرُنَا بِالسُّجُودِ لَهُ، وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّحْتِيةِ، فَالْمَعْنَى: انْسَجَدَ لِمَا يَأْمُرُنَا مُحَمَّدٌ بِالسُّجُودِ لَهُ. وَقَدْ قَرَأَ الْمُنْذِرُونَ، وَالْبَصْرِيُّونَ ﴿لَمَّا تَأْمُرُنَا﴾ بِالْفَوْقِيةِ، وَاخْتَارَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ أَبُو عُبَيْدٍ، وَأَبُو حَاتِمٍ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ، وَحَمْزَةً، وَالْكَسَائِيُّ بِالتَّحْتِيةِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يَعْنُونَ الرَّحْمَنَ. قَالَ النُّحَاسُ: وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَتَأَوَّلَ عَلَى الْكَوْفِيِّينَ فِي قِرَاءَتِهِمْ هَذَا التَّأْوِيلَ الْبَعِيدَ، وَلَكِنْ الْأَوَّلَى: أَنْ يَكُونَ التَّأْوِيلُ لَهُمْ اسْجُدُوا لِمَا يَأْمُرُنَا النَّبِيُّ ﷺ، فَتَصِحَّ الْقِرَاءَةُ عَلَى هَذَا، وَلَنْ كَانَتْ الْأَوَّلَى أَبِين. ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادهم الأمر بالسجود نفوراً عن الدين، وبعداً عنه، وقيل: زادهم نكر الرحمن تبعاً من الإيمان، كذا قال مقاتل، والأول

فإنهم يخرجون، والمقام للكفار، فإنهم يخلدون، وساعات من أفعال الذم كبشست، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم. ثم وصفهم سبحانه بالتوسط في الإنفاق، فقال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ قرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، وعاصم، ويحيى بن وثاب (يقترؤا) بفتح التحتية، وضم الفوقية، من قتر يقر، كقعد يقعد، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير بفتح التحتية، وكسر التاء الفوقية، وهي لغة معروفة حسنة، وقرأ أهل المدينة، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم بضم التحتية، وكسر الفوقية. قال أبو عبيدة: يقال: قتر الرجل على عياله يقر، ويقر قترًا، وأقر يقر إقرارًا، ومعنى الجميع: التضيق في الإنفاق. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معنى الآية: أن من أنفق في غير طاعة الله، فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله، فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله، فهو القوام. وقال إبراهيم النخعي: هو الذي لا يجيع ولا يعرى، ولا ينفق نفقة، يقول الناس قد أسرف. وقال يزيد بن أبي حبيب: أولئك أصحاب محمد كانوا لا ياكلون طعاماً للثمن واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع، ويقيهم على عبادة الله، ومن اللباس ما يستر عورتهم، ويقيهم الحر والبرد. وقال أبو عبيدة: لم يزيوا على المعروف، ولم يبخلوا كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الأنعام: 29] قرأ حسان بن عبد الرحمن (وكان بين ذلك قواماً) بكسر القاف، وقرأ الباقر بفتحها، فقيل: هما بمعنى، وقيل: القول بالكسر: ما يومم عليه الشيء ويستقر، وبالفتح: العدل، والاستقامة، قاله ثعلب. وقيل: بالفتح: العدل بين الشئيين، وبالكسر: ما يقام به الشيء لا يفضل عنه ولا ينقص. وقيل: بالكسر: السداد، والمبلغ، واسم كان مقتر فيها أي: كان إنفاقهم بين ذلك قواماً، وخبرها قواماً، قاله الفراء. وروي عن الفراء قول آخر: وهو أن اسم كان بين ذلك، وتبنى «بين» على الفتح؛ لأنها من الظروف المفتوحة. وقال النحاس: ما أدري ما وجه هذا، لأن «بين» إذا كانت في موضع رفع رفعت.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾ يعني: أبا الحكم الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قال: قل لهم يا محمد: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر، يقول عرض من عرض الدنيا. وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عنه أيضاً في قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قال: هي هذه الإثنا عشر برجاً أولها: الحمل، ثم الثور، ثم الجوزاء، ثم السرطان، ثم الأسد، ثم السنبلة، ثم الميزان، ثم العقرب، ثم القوس، ثم الجدي، ثم الدلو، ثم الحوت. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خُلْفَةً﴾ قال: أبيض وأسود. وأخرج ابن جرير،

يسافهون أهل السفه. قال النحاس: ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم، تقول العرب: سلاماً أي: تسلماً منك أي: براءة منك، منصوب على أحد أمرين: إما على أنه مصدر لفعل محنوف أي: قالوا: سلماً سلاماً، وهذا على قول سيبويه، أو على أنه مفعول به أي: قالوا: هذا اللفظ، ورجحه ابن عطية. وقال مجاهد: معنى سلاماً: سداداً أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على قوله تسليماً منكم، ولا خير، ولا شر بيننا وبينكم، قال المبرد: كان ينبغي أن يقال: لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم، ثم أمروا بحربهم. وقال محمد بن يزيد: أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة. قال النحاس: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ، والمنسوخ إلا في هذه الآية، لأنه قال في آخر كلامه: فنسختها آية السيف. وأقول: هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم في غير علمه، ومشى في غير طريقته، ولم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين، ولا نهوا عنه. بل أمروا بالصفتح، والهجر الجميل، فلا حاجة إلى دعوى النسخ. قال النضر بن شميل: حدثني الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت. فإذا هو على سطح، فسلمنا، فرد علينا السلام، وقال لنا: استنوا، فبقينا متحيرين، ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابي إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 29] قال: فصعدنا إليه، فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير؟ فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاماً، فلم ندر ما قال، فقال الأعرابي: إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر. قال الخليل: هو من قول الله ﴿وَإِذَا خَاطَبْتُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً البيوتة: هي أن يدرك الليل نمت أو لم تنم. قال الزجاج: من أدركه الليل، فقد بات، نام أو لم ينم، كما يقال: بات فلان قلاً، والمعنى يبيتون لربهم سجداً على وجوههم، وقياماً على أقدامهم، ومنه قول امرئ القيس:

فبتنا قياماً عند رأس جواننا يزاولنا عن نفسه ونزاوله
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: هم مع طاعتهم مشفقون وجلون خائفون من عذابها، والغرام اللازم الدائم، ومنه سمي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مغرم بكذا أي: ملازم له مولع به، هذا معناه في كلام العرب، كما نكره ابن الأعرابي، وابن عرفة، وغيرهما، ومنه قول الأعشى:

إن يعاتب يكن غراماً وإن يعط جزيلاً فإنه لا يبالي
وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال أبو عبيدة: هو الهلاك. وقال ابن زيد: الشر، وجملة ﴿إِنَّهَا سَاعَتٌ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ تعليل لما قبلها، والمخصوص محنوف: أي: هي، وانتصاب مستقراً على الحال، أو التمييز، وكذا مقاماً، قيل: هما مترادفان، وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما، وقيل: بل هما مختلفان معنى: فالمستقر للعصاة،

جزائه. وقرأ الحسن (يلق أياماً) جمع يوم يعني: شدايد، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام، وما أظن هذه القراءة تصح عنه ﴿يضاعف له العذاب﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي (يضاعف ويخلد) بالجزم، وقرأ ابن كثير (يضعف) بتشديد العين، وطرح الألف، والجزم، وقرأ طلحة بن سليمان (نضعف) بضم النون، وكسر العين المشددة، والجزم، وهي: قراءة أبي جعفر، وشيبة. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بالرفع في الفعلين على الإستئناف. وقرأ طلحة بن سليمان (وتخلد) بالفوقية خطاباً للكافر. وروي عن أبي عمرو أنه قرأ (ويخلد) بضم الياء التحتية، وفتح اللام. قال أبو علي الفارسي: وهي غلط من جهة الرواية، ووجه الجزم في يضاعف: أنه بدل من يلقي لاتحادهما في المعنى، ومثله قول الشاعر:

إن علي الله أن تباعياً تؤخذ كرهاً أو تجيء طائعاً
والضمير في قوله ﴿ويخلد فيه﴾ راجع إلى العذاب المضاعف أي: يخلد في العذاب المضاعف ﴿مهاناً﴾ نليلاً حقيراً ﴿إلا من تاب وأمن وعمل عملاً صالحاً﴾ قيل: هو استثناء متصل، وقيل: منقطع. قال أبو حيان: لا يظهر الإتصال؛ لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب، فيصير التقدير: إلا من تاب، وأمن، وعمل عملاً صالحاً، فلا يضاعف له العذاب، ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف. قال: والأولى عندي: أن تكون منقطعة أي: لكن من تاب. قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل من المسلمين. وقد تقدم بيانه في النساء والمائدة، والإشارة بقوله ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ إلى المذكورين سابقاً، ومعنى: تبديل السيئات حسنات: أنه يمحو عنهم المعاصي، ويثبت لهم مكانها طاعات. قال النحاس: من أحسن ما قيل في ذلك: أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاص مطيع. قال الحسن: قوم يقولون التبديل في الآخرة، وليس كذلك إنما التبديل في الدنيا يبدل الله لهم إيماناً مكان الشرك، وإخلاصاً من الشك، وإحصاناً من الفجور. قال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. وقيل: إن السيئات تبدل بحسنات، وبه قال جماعة من الصحابة، ومن بعدهم. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران أي: يغفر الله لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات. وقيل: المراد بالتبديل: أن يوفقه لأضداد ما سلف منه ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ هذه الجملة مقررّة لما قبلها من التبديل ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: من تاب عما اقترف، وعمل عملاً صالحاً بعد ذلك، فإنه يتوب بذلك إلى الله متاباً أي: يرجع إليه رجوعاً صحيحاً قوياً. قال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال ﴿إلا من تاب وأمن﴾، ثم عطف عليه من تاب من المسلمين، واتبع توبته عملاً صالحاً، فله حكم التائبين أيضاً. وقيل: أي:

وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمل أدركه بالنهار: ومن النهار أدركه بالليل. وأخرج الطيالسي، وابن أبي حاتم، عن الحسن: أن عمر أطل صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: إنه بقي علي من وردي شيء، فأحببت أن أتمه، أو قال: أقضيه، وتلا هذه الآية ﴿وهو الذي جعل للليل والنهار خلفه﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ووعباد الرحمن﴾ قال: هم: المؤمنون ﴿الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ قال: بالطاعة، والعفاف، والتواضع. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال ﴿هوناً﴾ علماً وحلماً. وأخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ قال: الدائم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ قال: هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٥١﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٥٢﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٣﴾ وَمَنْ تَابَ وَصَلَّى صَلَاتًا فَإِنَّهُ يُتَوَّبُ إِلَى اللَّهِ مُتَابًا ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ زَيْهَرًا وَلَا فُزْرًا بِالْقُرْآنِ مَرْأًا كَرَامًا ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُؤْمَرُوا عَلَيْهَا مَضَّاهُمْ وَهُمْ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَدْرَاجِنَا ذُرِّيَّتًا ثَوْرًا عَمِيرًا وَاجْعَلْنَا لِلْمُفْسِدِينَ إِمَامًا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا كَسَبُوا وَيُفْتَنُ فِيهَا خَبِيرٌ وَسَلَامًا ﴿٥٨﴾ خَلِيلِكَ فِيهَا حَسَنٌ مُسْتَفَرٌّ وَمَتَابًا ﴿٥٩﴾ قُلْ مَا يَسْبُو بِكَ مِنْ فِئَةٍ لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ لَفَدَّ كَذِبَتْ سَمَوَاتٌ يَكْفُرُنَ لِزَانًا ﴿٦٠﴾

قوله ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي، فقال: والذي لا يدعون مع الله سبحانه رباً من الأرباب. والمعنى: لا يشركون به شيئاً، بل يوحون، ويخلصون له العبادة والدعوة ﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ أي: حرم قتلها ﴿إلا بالحق﴾ أي: بحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس ﴿ولا يزنون﴾ أي: يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح، ولا ملك يمين ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: شيئاً مما ذكر ﴿يلق﴾ في الآخرة ﴿أثاماً﴾، والأثام في كلام العرب: العقاب. قال الفراء: أثمه الله يؤثمه أثاماً، وأثاماً أي: جزاءه جزاء الإثم. وقال عكرمة، ومجاهد: إن أثاماً وإل في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة. وقال السدي: جبل فيها. وقرئ (يلق) بضم الياء، وتشديد القاف. قال أبو مسلم: والأثام والإثم واحد، والمراد هنا جزاء الأثام، فاطلق اسم الشيء على

عينك أي: صاف فؤادك ما يحبه، وقال المفضل: في قرّة العين ثلاثة أقوال: أحدهما برد دمعها، لأنه دليل السرور والضحك، كما أن حرّه دليل الحزن والغم. والثاني نومها، لأنه يكون مع فراغ خاطر، وذهاب الحزن، والثالث حصول الرضا **﴿ولجعلنا للمتقين إماماً﴾** أي: قدوة يقتدى بنا في الخير، وإنما قال: إماماً، ولم يقل: أئمة، لأنه أريد به الجنس كقوله: **﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾** [الحج: 5] قال الفراء: قال: إماماً، ولم يقل: أئمة، كما قال للإثنين **﴿إننا رسول رب العالمين﴾** [الشعراء: 16] يعني: أنه من الواحد الذي أريد به الجمع. وقال الأخفش: الإمام جمع أم من أم يأم، جمع على فعال، نحو صاحب وصحاب، وقائم وقيام. وقيل: إن إماماً مصدر، يقال: أم فلان فلاناً إماماً، مثل الصيام والقيام. وقيل: أرادوا جعل كل واحد منا إماماً، وقيل: أرادوا جعلنا إماماً واحداً لاتحاد كلمتنا، وقيل: إنه من الكلام المقلوب، وإن المعنى: واجعل المتقين لنا إماماً، وبه قال مجاهد. وقيل: إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الإنفراد، وإن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء: واجعلني للمتقين إماماً، ولكنها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز كقوله: **﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾** [المؤمنون: 51]، وفي هذا إبقاء إماماً على حاله، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

يا عاذلاتي لا تزني ملامتي إن العواذل ليس لي بأمين
أي: أمناء. قال القفال: وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كانه قيل: جعلنا حجة للمتقين، ومثله البيهقي: يقال: هؤلاء بيته فلان. قال النيسابوري: قيل: في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب، ويرغب فيها، والاقرب: أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم، ويقتدى بهم، والإشارة بقوله **﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾** إلى المتصفين بتلك الصفات، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجمل مستأنفة. وقيل: إن «أولئك»، وما بعده خبر لقوله: **﴿وعباد الرحمن﴾** [الفرقان: 63] كذا قال الزجاج، والغرفة: الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها، وهي في الأصل لكل بناء مرتفع، والجمع غرف. وقال الضحاك: الغرفة الجنة، والباء في **﴿بما صبروا﴾** سببية، وما مصدرية أي: يجزون الغرفة بسبب صبرهم على مشاق التكليف **﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾** قرأ أبو بكر، والمفضل، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (يلقون) بفتح الياء، وسكون اللام، وتخفيف القاف، واختار هذه القراءة الفراء، قال: لأن العرب تقول: فلان يلقي بالسلام، والتحية، والخير وقل ما يقولون: يلقي. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام، وتشديد القاف، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: **﴿ولقامهم نضرة وسروراً﴾** [الإنسان: 11]، والمعنى: أنه يحيي بعضهم بعضاً، ويرسل إليهم الرب سبحانه بالسلام، قيل: التحية البقاء الدائم، والملك العظيم، وقيل: هي

من تاب بلسانه، ولم يحقق التوبة بفعله، فليست تلك التوبة نافعة، بل من تاب وعمل صالحاً، فحقق توبته بالأعمال الصالحة، فهو الذي تاب إلى الله متاباً أي: تاب حق التوبة، وهي النصوح، ولذلك أكد بالمصدر، ومعنى الآية: من أراد التوبة، وعزم عليها، فليتب إلى الله، فالخبر في معنى الأمر كذا قيل لثلاث يتحد الشرط والجزاء، فإنه لا يقال: من تاب، فإنه يتوب، ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات، فقال **﴿والذين لا يشهدون الزور﴾** أي: لا يشهدون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون الزور، والزور: هو الكذب والباطل، ولا يشاهدونه، وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين. قال الزجاج: الزور في اللغة الكذب، ولا كذب فوق الشرك بالله. قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الزور ما هنا بمعنى الشرك. والحاصل أن يشهدون إن كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف أي: لا يشهدون شهادة الزور، وإن كان من الشهود والحضور، كما ذهب إليه الجمهور، فقد اختلفوا في معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد ابن الحنفية لا يحضرون اللهو والغناء، وقال ابن جريج: الكذب. وروي عن مجاهد أيضاً والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائناً ما كان **﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾** أي: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، واللغو كل ساقط من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو المعاصي كلها، وقيل: المراد مروا بنوي اللغو، يقال: فلان يكرم عما يشينه أي: يتنزه، ويكرم نفسه عن النخول في اللغو، والإختلاط بأماله **﴿والذين إذا نكروا بإيات ربهم﴾** أي: بالقرآن، أو بما فيه موعظة وعبرة **﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾** أي: لم يقعوا عليها حال كونهم صماً وعمياناً، ولكنهم أكبوا عليها سامعين مبصرين، وانتفعوا بها. قال ابن قتيبة: المعنى: لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها. قال ابن جرير: ليس ثم خور، بل كما يقال: تعد يبكي، وإن كان غير قاعد. قال ابن عطية: كان المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خوراً، وهو السقوط على غير نظام. قيل: المعنى: إذا تلبت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم، فخروا سجداً وبكياً، ولم يخروا عليها صماً وعمياناً. قال الفراء: أي: لم يقعوا على حالهم الأول كان لم يسمعوا. قال في الكشف: ليس بنفي للخور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، وأراد أن النفي متوجه إلى القيد لا إلى المقيد **﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين﴾** من ابتدائية، أو بيانية. قرأ نافع، وابن كثير، وابن عباس، والحسن (وذرياتنا) بالجمع، وقرأ أبو عمرو وحمزة، والكسائي، وطلحة، وعيسى (وذرياتنا) بالإفراد، والذرية تقع على الجمع، كما في قوله: **﴿ذرية ضعافاً﴾** [النساء: 9]، وتقع على الفرد كما في قوله: **﴿ذرية طيبة﴾** [آل عمران: 38]، وانتصاب قرّة أعين على المفعولية، يقال: قرّت عينه قرّة. قال الزجاج: يقال: أقر الله

بعضكم ببعض، كقول أبي نؤب:

فنفاجاه بعباسية لزام كما يتفجر الحوض اللفيف
يعني: باللزام الذي يتبع بعضه بعضاً، وباللفيف
المتساقط من الحجارة المنهزمة. وحكى أبو حاتم عن أبي
زيد قال: سمعت أبا السماك يقرأ (لزاماً) بفتح اللام. قال أبو
جعفر: يكون مصدر لزم، والكسر أولى.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود
قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل الله
نداً، وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن
يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك، فأنزل
الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾». وأخرجنا، وغيرهما أيضاً عن ابن عباس: أن ناساً من أهل
الشرك قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ،
فقالوا: إن الذي تقول، وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما
عملنا كفارة، فنزلت ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ الآية، ونزلت
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53]
الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
عبد الله بن عمرو في قوله ﴿يُلْقِ أَمْثَالُ﴾ قال: وإي في
جهنم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية اشتد ذلك على
المسلمين، فقالوا: ما منا أحد إلا أشرك، وقتل، وزنى، فأنزل
الله ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، يقول
لهؤلاء الذين أصابوا هذا في الشرك، ثم نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا
مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، فأبى الله بالكفر الإسلام، وبالمعصية
الطاعة، وبالإلحاد المعرفة، وبالجحالة العلم. وأخرج ابن
المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قرأناها
على عهد رسول الله ﷺ سنين ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَفْعَلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا
يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، ثم نزلت ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ
وَأَمَّنَ﴾، فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيء قط فرحه بها،
وفرحه بـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: 1]، وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿فَأُولَئِكَ
يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون كانوا من
قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم
إلى الحسنات، فأبى الله مكان السيئات الحسنات. وأخرج
أحمد، وهناد، والترمذي، وابن جرير، والبيهقي في الأسماء
والصفات عن أبي نؤب قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى
بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه،
فيرض عليه صغارها، وينحى عنه كبارها، فيقال: عملت
يوم كذا كذا، وهو يقر، ليس ينكر، وهو مشفق من الكبائر أن
تجيء، فيقال: أعطوه بكل سيئة عملها حسنة»، والأحاديث
في تكفير السيئات، وتبديلها بالحسنات كثيرة. وأخرج ابن
مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ

بمعنى السلام، وقيل: إن الملائكة تحييهم وتسلم عليهم،
والظاهر: أن هذه التحية والسلام هي من الله سبحانه لهم،
ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾
[الأحزاب: 44]، وقيل: معنى التحية: الدعاء لهم بطول الحياة.
ومعنى السلام: الدعاء لهم بالسلامة من الآفات، وانتصاب
﴿وَالَّذِينَ فِيهَا﴾ على الحال أي: مقيمين فيها من غير موت
﴿حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حسنت الغرفة مستقرًّا
يستقرّون فيه، ومقاماً يقيمون به، وهذا في مقابل ما تقدّم
من قوله ﴿سَاعَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 66] ﴿قُلْ مَا
يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾ بين سبحانه أنه غني عن
طاعة الكل، وإنما كلهم لينتفعوا بالتكليف، يقال: ما عبأت
بفلان: أي: ما باليت به، ولا له عندي قدر، وأصل يعبا من
العبء، وهو الثقل. قال الخليل: ما عبأ بفلان أي: ما أصنع
به كأنه يستقله ويستحقّره، ويدّعي أن وجوده وعدمه سواء،
وكذا قال أبو عبيدة. قال الزجاج: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ يريد:
أي وزن يكون لكم عنده. والعبء: الثقل، وما استفهامية، أو
نافية، وصرح الفراء: بأنها استفهامية. قال ابن الشجري:
وحقيقة القول عندي: أن موضع «ما» نصب، والتقدير: أي
عبء يعبا بكم أي: أي مبالاة يبالي بكم ﴿لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾:
أي: لولا دعاؤكم إياه، لتعبده، وعلى هذا، فالمصدر الذي هو
الدعاء مضاف إلى مفعوله، وهو اختيار الفراء، وفاعله
محذوف، وجواب لولا محذوف: تقديره لولا دعاؤكم لم يعبا
بكم، ويؤيد هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، والخطاب لجميع الناس، ثم خصّ
الكفار منهم، فقال ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾. وقرأ ابن الزبير (فقد كذب
الكافرون)، وفي هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب
لجميع الناس. وقيل: إن المصدر مضاف إلى الفاعل أي: لولا
استغاثتكم إليه في الشدائد. وقيل: المعنى: ما يعبا بكم أي:
بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الألهة معه. وحكى ابن جني: أن
ابن عباس قرأ كقراءة ابن الزبير. وحكى الزمخراوي،
والنحاس: أن ابن مسعود قرأ كقراءتهما، ومن قال: بأن
الدعاء مضاف إلى الفاعل القتيبي، والفارسي قال: والأصل
لولا دعاؤكم آلهة من دونه، وجواب لولا محذوف تقديره على
هذا الوجه: لولا دعاؤكم لم يعذبكم، ويكون معنى ﴿فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ﴾ على الوجه الأول: فقد كذبت بما دعيتم إليه، وعلى
الوجه الثاني: فقد كذبت بالتوحيد. ثم قال سبحانه ﴿فَسَوْفَ
يَكُونُ لَكُمْ لَزَامٌ﴾ أي: فسوف يكون جزاء التكذيب لازماً لكم،
وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا: ما لزم
المشركين يوم بدر، وقالت طائفة: هو عذاب الآخرة. قال أبو
عبيدة: لزماً فيصلاً أي: فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين
المؤمنين. قال الزجاج: فسوف يكون تكذيبكم لازماً بليزكم،
فلا تعطون التوبة، وجمهور القراء على كسر اللام من لزماً،
وأشدد أبو عبيدة لصخر:

فإما ينجر من خسف أرض فقد لقياً حتوفهما لزماً
قال ابن جرير لزماً: عذاباً دائماً، وهلاكاً مفنياً يلحق

يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ أَوْفَى عَنْهُ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُرْصِنِينَ ﴿١٠﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ
 ائْتِيَتْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَرَجَةٍ
 كَرِيمٍ ﴿١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾ وَلَئِنْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا
 يَنْقُوتُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٧﴾ وَيَصِفُوا صَدْرِي وَلَا يَبْلُغُنِي
 لِسَانِي فَأَرْسِلْ لِي الْهَرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَمْ يَلَمْسْ عَلَى دُخَانٍ فَكَيْفَ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٩﴾ قَالَ كَلَّا
 فَإِنِّي أَنَا رَبُّكَ إِنِّي بِمَا تَصِفُونَ أَمِيرٌ ﴿٢٠﴾ فَأَيُّ فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَايِيَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نَارًا وَبَدَأْتُ
 فِرْعَوْنَ مِنْ عُرْقِي يَنِينٌ ﴿٢٣﴾ وَفَعَلْتُ فَعَلْتُكَ الْآيَةَ فَقُلْتُ وَاتَّيْتُ مِنَ الْكُتُبِ
 الْكُتُبِ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٥﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي
 حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُتَرَسِّعِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُ مَا عَلَّمَ ابْنَهُ إِذْ رَدَّهُ بِحَبْلٍ مُنْجٍ ﴿٢٧﴾

قوله ﴿طس﴾ قرأ الاعمش، ويحيى بن وثاب، وأبو بكر، والمفضل، وحمزة، والكسائي، وخلف بإمالة الطاء، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وشيبة، والزهري بين اللفظين، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ الباقر بالفتح مشبعا. وقرأ المنينيون، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي بإدغام النون من «طسن» في الميم، وقرأ الاعمش، وحمزة بإظهارها. قال الثعلبي: الإدغام اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم. قال النحاس: وحكى الزجاجة في كتابه فيما يجري وما لا يجري: أنه يجوز أن يقال: (طاسين ميم) بفتح النون، وضم الميم كما يقال: هذا معدى كرب. وقرأ عيسى، ويروى عن نافع بكسر الميم على البناء. وفي مصحف عبد الله بن مسعود (ط س م) هكذا حروفاً مقطعة، فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها عن غيره، وكذلك قرأ أبو جعفر، ومحلها الرفع على الابتداء إن كان اسماً للسورة كما ذهب إليه الأكثر، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون في محل نصب بتقدير: انكسر، أو اقرأ. وأما إذا كان مسروداً على نمط التعديد كما تقدم في غير موضع من هذا التفسير، فلا محل له من الإعراب. وقد قيل: إنه اسم من أسماء الله سبحانه، وقيل: اسم من أسماء القرآن، والإشارة بقوله ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ إلى السورة، ومحلها الرفع على أنها وما بعدها خبر للمبتدأ إن جعلنا طسم مبتدأ، وإن جعلناه خبراً لمبتدأ محذوف، فمحلها الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من طسم، والمراد بالكتاب هنا: القرآن، والمبين المبين المظهر، أو البين الظاهر إن كان من أبان بمعنى بان ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي: قاتل نفسك ومهلكها ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي: لعدم إيمانهم بما جئت به والبخع في الأصل: أن يبلغ بالبخع النخاع بالنون قاموس، وهو عرق في القفا، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الكهف، وقرأ قتادة (باخع نفسك) بالإضافة، وقرأ الباقر بالقطع قال: الفراء أن في قوله ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ في موضع نصب: لأنها جزءا قال النحاس: وإنما يقال: إن مكسورة لأنها جزء هكذا التعارف، والقول في هذا ما قاله

للزور: قال: إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا مروا به مروا كراماً لا ينظرون إليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ قال: يعنون: من يعمل بالطاعة، فتقر به أعيننا في الدنيا، والآخرة ﴿ولجعلنا للمتقين إماماً﴾ قال: أئمة هدى يهتدى بنا، ولا تجعلنا أئمة ضلالة، لأنه قال لأهل السعادة: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرائنا﴾ [الأنبياء: 73]، ولأهل الشقاوة: ﴿وجعلناهم أئمة يبدعون إلى النار﴾ [القصص: 41]. وأخرج الحكيم الترمذي عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ في قوله ﴿اولئك يجزون الغرفة﴾ قال: الغرفة من يقرئة حمراء، أو زبرجدة خضراء، أو نرة بيضاء. ليس فيها فصم ولا وصم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ يقول: لولا إيمانكم، فأخبر الله أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ قال: موتاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري عنه: أنه كان يقرأ ﴿فقد كذب الكافرون فسوف يكون لزاماً﴾ وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن الزبير أنه قرأها كذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مروي عن ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ قال: القتل يوم بدر، وفي الصحيحين عنه قال: «خمس قد مضين: الدخان، والقمر، واللزوم، والبطشة، واللزام».

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور. وكذا أخرج ابن مروي عن ابن عباس، وابن الزبير. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: سورة الشعراء أنزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ [الشعراء: 224] إلى آخرها. وأخرج القرطبي في تفسيره عن البراء: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزبور، وفضلني بالحواميم، والمفصل ما قرأه نبي قبلي». وأخرج أيضاً عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «أعطيت السورة التي تنكر فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيت فواتح القرآن، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة». قال ابن كثير في تفسيره: وقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها بسورة الجمعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْغَيْثِ ﴿٢﴾ تِلْكَ نَجْمُكَ آلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنَّ كُنَّا نَرَاكَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَسْمَاءِ مَا ظَنَنْتُمْ لَهَا خَبِيرِينَ ﴿٤﴾ وَمَا

هذا وعيد شديد، وقد مرّ تفسير مثل هذا في سورة الانعام. ثم نكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته من الأمور الحسية التي يحصل بها للمتأمل فيها، والناظر إليها، والمستدلّ بها اعظم دليل، وأوضح برهان، فقال ﴿اولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ الهمزة للتوبيخ، والواو للعطف على مقدّر كما في نظائره، فنبتّه سبحانه على عظمته وقدرته، وأن هؤلاء المكذّبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد، والمراد بالزوج هنا الصنف، وقال الفراء: هو اللون، وقال الزجاج: معنى زوج نوع، وكريم، محمود، والمعنى: من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته إلا ربّ العالمين، والكريم في الأصل: الحسن الشريف، يقال: نخلة كريمة: أي كثيرة الثمرة، ورجل كريم: شريف فاضل، وكتاب كريم: والنبت الكريم هو المرضي منفعه، قال الشعبي: الناس مثل نبات الأرض، فمن صار منهم إلى الجنة، فهو كريم، ومن صار منهم إلى النار، فهو لثيم، والإشارة بقوله ﴿إن في ذلك لآية﴾ إلى المذكور قبله أي: إن فيما نكر من الإنبات في الأرض لدلالة بينة، وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه، وبيع صنعته، ثم أخبر سبحانه: بأن أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلّالته مصمم على جحوده، وتكذيبه، واستهزائه، فقال ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي: سبق علمي فيهم أنهم سيكونون هكذا، وقال سيّوبه: إن «كان» هنا صلة ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي: الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم مع كونه كثير الرحمة، ولذلك أمهلهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة، أو المعنى: أنه منتقم من أعدائه رحيم بأوليائه. وجملة ﴿وإن نادى ربك موسى﴾ إلخ، مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض، والتكذيب، والاستهزاء، والعامل في الظرف محنوف تقديره: وأتت نادى، أو النكر، والنداء: الدعاء، و «أن» في قوله ﴿إن أنت القوم الظالمين﴾ يجوز أن تكون مفسرة، وأن تكون مصدرية، ووصفهم بالظلم؛ لأنهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم، وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم كاستعباد بني إسرائيل، ونبح أبنائهم، وانتصاب ﴿قوم فرعون﴾ على أنه بدل، أو عطف بيان من القوم الظالمين، ومعنى ﴿الأتقون﴾: ألا يخافون عقاب الله سبحانه، فيصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته، وقيل المعنى: قل لهم: ألا تتقون، وجاء بالياء التحتية؛ لأنهم غيب وقت الخطاب، وقرأ عبيد بن عمير، وأبو حازم (ألا تتقون) بالفوقية: أي: قل لهم ذلك، ومثله ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ [آل عمران: 12] بالتحية والفوقية، ﴿قال ربّ إنني أخاف أن يكذبون﴾ أي: قال موسى هذه المقالة، والمعنى: أخاف أن يكذبوني في الرسالة ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ معطوفان على أخاف أي: يضيق صدري لتكذيبهم إياي، ولا ينطلق لساني بتأدية الرسالة، قرأ الجمهور برفع ﴿يضيق﴾، (ولا ينطلق) بالعطف على أخاف

الزجاج في كتابه في القرآن إنها في موضع نصب مفعول لأجله، والمعنى: لعلك قاتل نفسك لتركه الإيمان، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم، وجملة ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية، والمعنى: إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان، ولكن قد سبق القضاء بأن لا ننزل ذلك، ومعنى ﴿فغظت أعناقهم لها خاضعين﴾: أنهم صاروا متقادين لها أي: فتغلّ أعناقهم إلخ، قيل: وأصله، فظلوا لها خاضعين، فاقحمت الأعناق لزيادة التقرير والتصوير، لأن الأعناق موضع الخضوع، وقيل: إنها لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجازهم، ووصفت بما يوصفون به. قال عيسى بن عمر: خاضعين، وخاضعة هنا سواء، واختاره المبرر، والمعنى: أنها إذا نلت رقابهم ذلوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها، ويسوغ في كلام العرب: أن يترك الخبر عن الأوّل، ويخبر عن الثاني، ومنه قول الراجز: طول الليالي أسرعت في نقضي طوين طوللي وطوين عرضي فأخبر عن الليالي، وترك الطول، ومنه قول جرير:

أرى مرّ السننين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال
وقال أبو عبيد، والكسائي: إن المعنى: خاضعياً هم، وضعفه النحاس، وقال مجاهد: أعناقهم كبراًؤهم، قال النحاس: وهذا معروف في اللغة، يقال: جاءني عنق من الناس أي: رؤساء منهم. وقال أبو زيد، والأخفش: أعناقهم جماعاتهم، يقال: جاءني عنق من الناس أي: جماعة ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ بيّن سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان يأتيهم بالقرآن حالاً بعد حال، وأن لا يجند لهم موعظة وتذكيراً إلا جنّوا ما هو نقيض المقصود، وهو الإعراض، والتكذيب، والاستهزاء، و «من» في ﴿من ذكر﴾ مزيدة لتأكيد العموم، ومن في ﴿من ربهم﴾ لابتداء الغاية، والاستثناء مفرغ من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم، وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة الأنبياء ﴿فقد كذبوا﴾ أي: بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً صريحاً، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض، وقيل: إن الإعراض بمعنى التكذيب، لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله، فقد كذّب، وعلى هذا، فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح والأول أولى، فالإعراض عن الشيء عدم الالتفات إليه. ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشد منه، وهو التصريح بالتكذيب، ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشد منه، وهو الاستهزاء كما يدلّ عليه قوله ﴿فسياتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون﴾، والأنباء هي ما يستحقونه من العقوبة أجلاً وعاجلاً، وسمّيت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن، وقال ﴿ما كانوا به يستهزءون﴾، ولم يقل: ما كانوا عنه معرضين، أو ما كانوا به يكذبون، لأن الاستهزاء أشدّ منهما، ومستلزم لهما، وفي

لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ﴿قال ألم نريك فينا وليداً﴾ أي: قال فرعون لموسى بعد أن أتياه، وقال له ما أمرهما الله به، ومعنى «فينا»: أي: في حجرنا ومنازلنا، أراد بذلك المنّ عليه، والاحتقار له أي: ربناك لدينا صغيراً، ولم تقتلك فيمن قتلنا من الأطفال ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾، فمتى كان هذا الذي تدّعيه؟ قيل: لبث فيهم ثماني عشرة سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وقيل: أربعين سنة، ثم قرّر بقتل القبطي، فقال ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ الفعل بفتح الفاء: المرّة من الفعل، وقرأ الشعبي (فعلتك) بكسر الفاء، والفتح أولى؛ لأنها للمرّة الواحدة لا للنوع، والمعنى: أنه لما عدّد عليه النعم نكر له نوبه، وأراد بالفعل قتل القبطي، ثم قال ﴿وانت من الكافرين﴾ أي: من الكافرين للنعمة حيث قتلت رجلاً من أصحابي، وقيل: المعنى: من الكافرين بأن فرعون إله، وقيل: من الكافرين بالله في زعمه؛ لأنه كان معهم على دينهم، والجملة في محل نصب على الحال ﴿قال فعلتها إذن وأنا من الضالين﴾ أي: قال موسى مجيباً لفرعون: فعلت هذه الفعلة التي نكرت، وهي قتل القبطي، وأنا إذ ذاك من الضالين أي: الجاهلين. نفى عليه السلام عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله، وقيل: المعنى: من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل، وقال أبو عبيدة: من الناسين ﴿ففقرت منكم لما خفتكم﴾ أي: خرجت من بينكم إلى مدين كما في سورة القصص، ﴿فوهب لي ربي حكماً﴾ أي: نبوة، أو علماً وفهماً. وقال الزجاج: المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله ﴿وجعلني من المرسلين﴾ * وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل. قيل: هذا الكلام من موسى على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه قال: نعم تلك التربية نعمة تمنّ بها علي، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي، وبهذا قال الفراء، وابن جرير. وقيل: هو من موسى على جهة الإنكار: أي: أتمنّ علي بأن ربيّتي وليداً، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم، وهم قومي؟ قال الزجاج: المفسرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار: بأن يكون ما نكر فرعون نعمة على موسى، واللفظ لفظ خبر، وفيه تبيك للمخاطب على معنى: أنك لو كنت لا تقتل أبناء بني إسرائيل لكنت أمة مستغنية عن قذفي في اليوم، فكأنك تمنّ علي ما كان بلاؤك سبباً له، ونكر نحوه الأزهري بأبسط منه، وقال المبرد: يقول التربية كانت بالسبب الذي نكرت من التعبد أي: تربيتك إياي كانت لأجل التملك، والقهر لقومي، وقيل: إن في الكلام تقدير الاستفهام أي: أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش، وأنكره النحاس. قال الفراء: ومن قال: إن الكلام إنكار قال معناه: أو تلك نعمة؟ ومعنى ﴿أن عبدت بني إسرائيل﴾: أن اتخذتهم عبداً، يقال: عبيته وأعبيته بمعنى، كذا قال الفراء، ومحلّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة، والجر بإضمار الباء، والنصب بحذفها.

كما نكرنا، أو على الاستئناف، وقرأ يعقوب، وعيسى بن عمر، وأبو حيوة بنصبهما عطفاً على يكتبون، قال الفراء: كلا القراءتين له وجه، قال النحاس الوجه: الرفع، لأن النصب عطف على يكتبون، وهذا بعيد ﴿فأرسل إلى هرون﴾ أي: أرسل إليه جبريل بالوحي؛ ليكون معي رسولا موازراً مظاهراً معاوناً، ولم يذكر الموازنة هنا، لأنها معلومة من غير هذا الموضع كقوله في طه: ﴿واجعل لي وزيراً﴾ [طه: 29]، وفي القصص ﴿أرسله معي ردهاً يصنّفني﴾ [القصص: 34]. وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه، لا من باب الاستعفاء من الرسالة، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال ﴿ولهم عليّ نذير فلخاف أن يقتلون﴾ الذنب هو قتله للقبطي، وسماه نذيراً بحسب زعمهم: فخاف موسى أن يقتلوه به، وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء، ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع، وطرف من الزجر ﴿قال كلا فإذهباً بأياتنا﴾، وفي ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما كأنه قال: ارتدع يا موسى عن ذلك، وأذهب أنت ومن استدعيت، ولا تخف من القبط ﴿إننا معكم مستمعون﴾، وفي هذا تعليل للردع عن الخوف، وهو كقوله سبحانه: ﴿إنني معكم أسمع وأرى﴾ [طه: 46]، وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما، وأنه متول لحفظهما، وكلاهما، وأجراهما مجرى الجمع فقال: ﴿معكم﴾ لكون الاثنين أقلّ الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة، أو لكونه أراد موسى وهرون ومن أرسلأ إليه، ويجوز أن يكون المراد هما مع بني إسرائيل، ومعكم، ومستمعون خبران، لأنّ، أو الخبر مستمعون، ومعكم متعلق به، ولا يخفى ما في المعية من المجاز: لأن المصاحبة من صفات الأجسام، فالمراد معية النصرة والمعونة ﴿فتقيا فرعون فقولا إنا رسول ربّ العالمين﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ووحد الرسول هنا، ولم يثنه كما في قوله: ﴿إنا رسولا ربك﴾ [طه: 47]؛ لأنه مصدر بمعنى: رسالة، والمصدر يوحد، وأما إذا كان بمعنى المرسل، فإنه يثنى مع المثنى، ويجمع مع الجمع، قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة، والتقدير على هذا: إنا نوا رسالة ربّ العالمين، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ أبا عمرو رسولا فإني عن فتاحتكم غنى أي: رسالة. وقال العباس بن مرداس:

ألا من مبلغ عني خفافاً رسولا بيت أهلك منتهاها أي: رسالة. قال أبو عبيدة أيضاً: ويجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووكملي، وهذا: رسولي ووكملي، وهؤلاء: رسولي ووكملي، ومنه قوله تعالى: ﴿فإنهم عدو لي﴾ [الشعراء: 77]، وقيل معناه: إن كل واحد منا رسول رب العالمين، وقيل: إنهما لما كانا متعاضدين متساندين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد، و «أن» في قوله ﴿إن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ مفسرة

من ضعف المقالة كانه قال: اتسمعون، وتعجبون، وهذا من اللعين مغالطة، لما لم يجد جواباً عن الحجة التي أوردها عليه موسى، فلما سمع موسى ما قال فرعون، أورد عليه حجة أخرى هي مندرجة تحت الحجة الأولى، ولكنها أقرب إلى فهم السامعين له فـ ﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾، فأوضح لهم أن فرعون مريبوب لا رب كما يدّعيه، والمعنى: أن هذا الرب الذي ادعوكم إليه هو الذي خلق آبائكم الأولين، وخلقكم، فكيف تعبدون من هو واحد منكم مخلوق كخلقكم، وله آباء قد فنوا كآبائكم، فلم يجبه فرعون عند ذلك بشيء يعتد به، بل جاء بما يشكك قومه، ويخيل إليهم أن هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء، فـ ﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ قاصداً بذلك المغالطة، وإيقاعهم في الحيرة، مظهراً أنه مستخف بما قاله موسى مستهزئ به، فلجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأول، فـ ﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾، ولم يشغل موسى برفع ما نسب إليه من الجنون، بل بين لفرعون شمول ربوبية الله سبحانه للمشرق والمغرب، وما بينهما، وإن كان ذلك داخلاً تحت ربوبيته سبحانه للسّموات والأرض، وما بينهما، لكن فيه تصريح بإسناد حركات السموات وما فيها، وتغيير أحوالها وأوضاعها، تارة بالنور، وتارة بالظلمة إلى الله سبحانه، وتثنية الضمير في ﴿وما بينهما﴾ الأول لجنسي السموات والأرض كما في قول الشاعر:

تنقلت في أشرف التنقل بين رماحي نهشل ومالك
﴿إن كنتم تعقلون﴾ أي: شيئاً من الأشياء، أو إن كنتم من أهل العقل أي: إن كنت يا فرعون، ومن معك من العقلاء عرفت، وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك. ثم إن اللعين لما انقطع عن الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب، فـ ﴿قال لنن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ أي: لأجعلنك من أهل السجن، وكان سجن فرعون أشد من القتل لأنه إذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت، فلما سمع موسى عليه السلام ذلك لاطفه طمعاً في إجابته، وإرخاء لعنان المناظرة معه، مريداً لقهره بالحجة المعتمدة في باب النبوة، وهي إظهار المعجزة، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة فـ ﴿قال أولو جنتك بشيء مبين﴾ أي: اتعجلني من المسجونين، ولو جنتك بشيء يتبين به صدقي، ويظهر عنده صحة دعواي، والهمزة هنا للاستفهام، والواو للعطف على مقدر كما مرّ مراراً، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى فـ ﴿قال فات به إن كنت من الصابقين﴾ في دعواك، وهذا الشرط جوابه محذوف، لأنه قد تقدّم ما يدل عليه، فعند ذلك أبرز موسى المعجزة ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾، وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده في سورة الأعراف، واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء في الأرض، فانتعّب أي: فجرته، فأنفجر، وقد عبّر سبحانه في موضع آخر مكان الثعبان بالحية بقوله: ﴿فإذا

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ففظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ قال: نليلين. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ولهم علي نذب﴾ قال: قتل النفس. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين﴾ قال: للنعمة، إن فرعون لم يكن ليعلم ما الكفر؟ وفي قوله ﴿فعلتها إذن وأنا من الضالين﴾ قال: من الجاهلين. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿أن عبدي بني إسرائيل﴾ قال: قهرتهم، واستعملتهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَسْكُونَاتِ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ آلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ الْآلَاءِ﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لُوطُومًا﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ لَهَا غَيْرَ لُجْجَتِكَ﴾ ﴿وَمِنَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتَنِي بِآيَةٍ﴾ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَرَجَعَ يَدُهُ إِذَا هِيَ بِيْضَةٌ لِلنَّظِيرِ﴾ ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنَزِّلَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَحَابٍ مِّنْ ثَمَرٍ﴾ ﴿قَالُوا أَرَجَمْهُ وَاعْلَاقَهُ وَاجْعَلْ فِي الدُّنْيَا حَسْرَتَهُ﴾ ﴿يَا أَوْلَدُ يَكُنْ لِّسَعَادَةِ عَالَمٍ﴾ ﴿فَمَجِئَ السَّحَابُ لِيَقْدِفَ يَوْمَ تَقُولُ﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَبِعُونَ﴾ ﴿لَعَلَّآ نَجْعُ السَّحَابِ إِنْ كَانُوا أَفْقِدِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَابُ قَالُوا إِنَّ فِرْعَوْنَ أَهْلٌ لَّا تَأْخُذُ بِكُمْ الْغَلَبَةُ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَلَكِنْ إِنْ لَأَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لَهُمْ مُّوسَى الْقَوْمَ مَا أَنْتُمْ تُلْقُونَ﴾ ﴿قَالُوا جَاهِلْمُ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعَرَّةٍ فِرْعَوْنَ إِنْ كُنَّا لَنَعْنُ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَأَلْقَى مُّوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَاثُ حَنَاقٍ﴾ ﴿قَالُوا السَّحَابُ سَاجِدٌ لِّئِذَا هُمُومٌ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿قَالَ آمَسْتُ لَمْ يَبْقَ أَنْ مَادَدَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَسَوْفَ نَقُولُ أَأَطِيعُونَ أَمْ يُؤْتِكُمْ وَأَكْمُرُكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأُصْلِيكُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا مِنْ رَبِّنَا شَيْئٌ﴾ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغَيِّرَ لَنَا رَبُّنَا خَطْبُنَا إِنَّ كُنَّا أَهْلَ الْاُؤْمِنِينَ﴾

لما سمع فرعون قول موسى وهرون ﴿إنا رسول رب العالمين﴾ [الشعراء: 16] قال مستفسراً لهما عن ذلك عازماً على الاعتراض لما قالاه، فقال ﴿وما رب العالمين﴾ أي: أي شيء هو؟ جاء في الاستفهام بما التي يستفهم بها عن المجهول، ويطلب بها تعيين الجنس، فلما قال فرعون ذلك ﴿قال﴾ موسى ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾، فعين له ما أراد بالعالمين، وترك جواب ما سأل عنه فرعون؛ لأنه سأل عن جنس رب العالمين، ولا جنس له، فاجابه موسى بما يدل على عظيم القدرة الإلهية التي تتضح لكل سامع أنه سبحانه الرب، ولا رب غيره ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء، فهذا أولى بالإيقان ﴿قال﴾ فرعون ﴿لمن حوله ألا تستمعون﴾ أي: لمن حوله من الأشراف ألا تستمعون ما قاله، يعني: موسى معجياً لهم

﴿فالتقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يافكون﴾ قد تقدم تفسير هذا مستوفى. والمعنى: أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك بإخراج الشيء عن صورته الحقيقية ﴿فالتقى للسرعة ساجدين﴾ أي: لما شاهدوا ذلك، وعلموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر، ولا من تمويه السحرة، آمنوا بالله، وسجدوا له، وأجابوا دعوة موسى، وقبلوا نبوته، وقد تقدم بيان معنى التقى، ومن فاعله لوقوع التصريح به، وعند سجودهم ﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ رب موسى عطف بيان لرب العالمين، وأضافوه سبحانه إليهما؛ لأنهما القاتنان بالدعوة في تلك الحال. وفيه تبيكت لفرعون بأنه ليس برب، وأن الرب في الحقيقة هو هذا، فلما سمع فرعون ذلك منهم، ورأى سجودهم لله ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ أي: بغير إذن مني، ثم قال مغالطاً للسرعة الذين آمنوا، وموهماً للناس: أن فعل موسى سحر من جنس تلك السحر ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم للسحر﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحب الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى، لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاءوا به السحرة، فآراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة، فهو فعل كبيرهم، ومن هو أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر، وأنه من فعل الرب الذي يدعو إليه موسى، ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله، فقال ﴿فلسوف تعلمون﴾ أجمل التهديد أولاً للتهويل، ثم فصله، فقال ﴿لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصليبنكم لجمعين﴾، فلما سمعوا ذلك من قوله ﴿قلوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون﴾ أي: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا، فإن ذلك يزول، ونقلب بعده إلى ربنا، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحده، ولا يوصف. قال الهروي: لا ضير، ولا ضرر، ولا ضرر بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة:

فإنك لا يضررك بعد حول أظبي كان أمك أم حمار
قال الجوهري: ضاره يضوره، ويضيره ضيراً، وضوراً
أي: ضره. قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول: لا ينفعني ذلك ولا يضرني ﴿إننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطيانا﴾، ثم عللوا هذا بقولهم ﴿أن كنا أول للمؤمنين﴾ ينصب أن أي: لأن كنا أول المؤمنين. وأجاز الفراء، والكسائي كسرهما على أن يكون مجازاة، ومعنى ﴿أول للمؤمنين﴾: أنهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية. وقال الفراء: أول مؤمن زمانهم، وإنكره الزجاج، وقال: قد روي أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وهم الشرزمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله: ﴿إن هؤلاء لشرزمة قليلون﴾ [الشعراء: 54].

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿فالتقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ يقول: مبين له خلق حية

هي حية تسعى [طه: 21]، وفي موضع بالجان، فقال: ﴿كانها جان﴾ [القصص: 31، النمل: 10]، والجان هو المائل إلى الصغر، والثعبان هو المائل إلى الكبر، والحية جنس يشمل الكبير والصغير، ومعنى ﴿فماذا تمارون﴾: ما رأيكم فيه، وما مشورتكم في مثله؟ فآظهر لهم الميل إلى ما يقولونه تالفاً لهم، واستجلاباً لموتهم، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال، وقارب ما كان يغزو به عليهم الاضمحلال، وإلا، فهو اكبرتها، وأعظم كبراً من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم، وواحد منهم، مع كونه قبل هذا الوقت يدعى أنه إلههم، ويذعنون له بذلك، ويصلقونه في دعواه، ومعنى ﴿أرجه ولخاه﴾: آخر أمرهما، من أرجائه إذا أخرته، وقيل: للمعنى: احبسهما ﴿ولبعث في الممائن حاشرين﴾، وهم للشرط الذين يحشرون الناس أي: يجمعونهم ﴿ياتوك بكل سحار عليهم﴾ هذا ما أشاروا به عليه، والمراد بالسحار العليم: الفائق في معرفة السحر وصنعتة ﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ هو يوم الزينة كما في قوله: ﴿قال موعنكم يوم الزينة﴾ [طه: 59] ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ حثاً لهم على الاجتماع: ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة، ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وطلباً أن يكون بجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده، لأنه يعلم أن حجة الله هي الغلبة، وحجة الكافرين هي الداحضة، وفي ظهور حجة الله بجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحققين، والانتقار للمبطلين، ومعنى ﴿لعلنا نتبع السحرة﴾: نتبعهم في دينهم ﴿إن كانوا هم الغالبين﴾، والمراد باتباع السحرة في دينهم هو البقاء على ما كانوا عليه، لأنه دين السحرة إذ ذاك، والمقصود المخالفة لما دعاهم إليه موسى، فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزء على ما سيفعلونه فـ ﴿قالوا لفرعون لئن لنا لأجر﴾ أي: لجزاء تجزيها به من مال، أو جاه، وقيل: أرادوا إن لنا ثواباً عظيماً، ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى، فقالوا ﴿إن كنا نحن الغالبين﴾، فوافقهم فرعون على ذلك، و ﴿قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين﴾ أي: نعم لكم ذلك عندي مع زيادة عليه، وهي كونكم من المقربين لدي ﴿قال لهم موسى اتقوا ما أنتم ملقون﴾، وفي آية أخرى ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما نكون نحن الملقين﴾ [الأعراف: 115]، فيحمل ما هنا على أنه قال لهم: اتقوا بعد أن قالوا هذا القول، ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر، بل أراد أن يقهرهم بالحجة، ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به ﴿فالتقوا حبالهم وعصيهم وقالوا﴾ عند الإلقاء ﴿بعزة فرعون إننا لنحن الغالبون﴾ يحتمل قولهم بعزة فرعون، وجهين: الأول أنه قسم، وجوابه إننا لنحن الغالبون، والثاني متعلق بمخوف، والباء للسببية أي: تغلب بسبب عزته، والمراد بالعزة العظمة

ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا ستمائة ألف. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثني عشر سبطاً، فكان في كل طريق اثنا عشر ألفاً كلهم ولد يعقوب». وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً بسند. قال السيوطي: واه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فرعون عدو الله حيث أغرقه الله هو وأصحابه في سبعين قائداً مع كل قائد سبعون ألفاً، وكان موسى مع سبعين ألفاً حيث عبروا البحر». وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: كان ثلاث فرعون الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد إلا على بهيم.

وأقول: هذه الروايات المضطربة قد روي عن كثير من السلف ما يماثلها في الاضطراب والاختلاف، ولا يصح منها شيء عن النبي ﷺ. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس «ومقام كريم» قال: المنابر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله «كالطود» قال: كالجبل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود مثله، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس «وأنزلنا» قال: قربنا. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: أيكم يدري أين قبره؟ فقالوا: ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبني إسرائيل، فأرسل إليها موسى، فقال: نلينا على قبر يوسف؟ فقالت: لا والله حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أن أكون معك في الجنة، فكانه ثقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها، فأعطها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء، فقالت لهم: انضبوا عنها الماء، ففعلوا، قالت: احفروا، حفروا، فاستخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار».

وَأَتَتْ عَلَيْهِمْ بَنَاتُ إِيزَاقَ (٧٠) إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوِيهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧١) قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْتَقِلُ لَهَا عَنكِيبَ (٧٢) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ (٧٣) أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَعْنُونَ (٧٤) قَالُوا بَلْ وَبَدَا ءَالَهُمَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٥) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٦) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ (٧٧) وَلَهُمْ عَذَابٌ لَّا يَأْتِيَنَّ النَّاصِيَنَ (٧٨) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ رَبِّي (٧٩) وَالَّذِي هُوَ يُطَوِّمُ وَيَقْصِي (٨٠) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (٨١) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِيَنِي (٨٢) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٣) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٤) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٥) وَاجْعَلْ لِي مِنْ دُونِ جَنَّةِ النَّارِ (٨٦) وَغَيْرَ لَآئِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٧) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٨) يَوْمَ لَا يُنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٩) إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ يَتَّبِعُ سَبِيلَ (٩٠) وَأَرْزُقْ لِقَائِهِ (٩١) وَبَرِّكَتِ الْبَرَكَاتِ (٩٢) وَقِيلَ لَهُمْ أَنِمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَمْشِي بِكُمُ أَوْ يَنْصُرُونَ (٩٤) فَكَبِّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَائِلُونَ (٩٥) وَرَحُّهُ

زجراً لهم وردعاً، والمعنى: أنهم لا يدركونكم، ونكرهم وعد الله بالهداية والظفر، والمعنى: إن معي ربي بالنصر والهداية، سيهدين أي: يبلني على طريق النجاة، فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم به، وأمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه، وذلك قوله «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر» لما قال موسى «إن معي ربي سيهدين» بين الله سبحانه له طريق الهداية، فأمره بضرب البحر، وبه نجا بنو إسرائيل، وهلك عدوهم، والغاء في «فانفلق» فصيحة: أي: فضرب، فانفلق، فصار اثني عشر فلماً بعدد الأسباط، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم، وهو معنى قوله «فكان كل فرق كالطود العظيم»، والفرق القطعة من البحر، وقرئ: (فلق) بلام بدل الراء، والطود الجبل قال امرؤ القيس: فبينما المرء في الأحياء طود رماه الناس عن كذب فمالاً وقال الأسود بن يعفر:

حلوا بانقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد
«وأنزلنا ثم الآخرين» أي: قربناهم إلى البحر يعني: فرعون وقومه. قال الشاعر:

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت فيها النفوس إلى الأجل
قال أبو عبيدة: أنزلنا جمعنا، ومنه قيل لليلة المزلفة: ليلة جمع، و «ثم» ظرف مكان للبعيد. وقيل: إن المعنى: وأنزلنا قربنا من النجاة، والمراد بالآخرين موسى وأصحابه، والأول أولى، وقرأ الحسن، وأبو حيوة، (وأنزلنا) ثلاثياً، وقرأ أبي، وابن عباس، وعبد الله بن الحارث (وأنزلنا) بالقاف أي: أنزلنا، وأهلكنا من قولهم: أنزلت الفرس إذا ألقت ولدها «وأنجينا موسى ومن معه لجمعين» بمردهم في البحر بعد أن جعله الله طرقات يمشون فيها «ثم أغرقنا الآخرين» يعني: فرعون وقومه أغرقهم الله باطباق البحر عليهم بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى وقومه، والإشارة بقوله «إن في ذلك لآية» إلى ما تقدم ذكره مما صدر بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية، ففي ذلك آية عظيمة وقدرة باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه، وعظيم سلطانه «وما كان أكثرهم مؤمنين» أي: ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون مؤمنين، فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل كحزقييل، وابنته، وأسية امرأة فرعون، والعجوز التي لبت على قبر يوسف، وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى، فإنهم هلكوا في البحر جميعاً بل المراد من كان معه من الأصل، ومن كان متابعاً له، ومنتسباً إليه، هذا غاية ما يمكن أن يقال، وقال سيدي وغيره: إن «كان» زائدة، وإن المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة «وإن ربك ليهو العزيز الرحيم»، أي: المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله «إن هؤلاء لشرنمة قليلون» قال: ستمائة ألف وسبعون ألفاً. وأخرج

إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا وَمَنْ فِيهَا يُخَصِّصُونَ ﴿٦٠﴾ تَأَلَّفُوا بَيْنَ كُنْأَىٰ صِلَٰئِلٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ إِذْ نَسِيَكُمْ رَبُّكَ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ وَمَا أَهْلَكَا إِلَّا الْمَثِيرُونَ ﴿٦٣﴾ فَكُنَا مِنْ شَرِيفِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَا صَبِيحَ حِمِيمٍ ﴿٦٥﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْذَوِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَلَئِنْ رَيْكَ هُوَ الْمُعْزِزُ الْأَجْمَرُ ﴿٦٨﴾

قوله ﴿واتل عليهم﴾ معطوف على العامل في قوله: ﴿وإذا نادى ربك موسى﴾ [الشعراء: 10]، وقد تقدّم، والمراد بنبا إبراهيم خبره أي: اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم وحديثه، و ﴿إذ قال﴾ منصوب بنبا إبراهيم أي: وقت قوله ﴿لابيه وقومه ما تعبدون﴾، وقيل: إذ بدل من نبا بدل اشتمال، فيكون العامل فيه اتل، والأول أولى. ومعنى ﴿ما تعبدون﴾: أي شيء تعبدون؟ وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام، ولكنه أراد إلزامهم الحجة ﴿قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين﴾ أي: فنقيم على عبادتها مستمرا لا في وقت معين، يقال: ظلّ يفعل كذا: إذا فعله نهائرا، وبات يفعل كذا: إذا فعله ليلا، فظاهره: أنهم يستمرون على عبادتها نهائرا لا ليلا، والمراد من العكوف لها الإقامة على عبادتها، وإنما قال لها لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها، فلما قالوا هذه المقالة قال إبراهيم منبهاً على فساد مذهبهم ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ قال الاخفش: فيه حذف، والمعنى: هل يسمعون منكم، أو هل يسمعون دعاءكم. وقرأ قتادة (هل يسمعونكم) بضم الباء أي: هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم ﴿أو ينفعونكم﴾ بوجه من وجه النفع ﴿أو يضرون﴾ أي: يضرونكم إذا تركتم عبادتهم، وهذا الاستقهام للتقرير، فإنها إذا كانت لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضر، فلا وجه لعبادتها، فإذا قالوا: نعم هي كذلك، أقروا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جواباً إلا رجوعهم إلى التقليد البحت، وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون أي: يفعلون لهذه العبادة لهذه الأصنام مع كونها بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضرر عنها، وهذا الجواب هو العصي التي يتوكأ عليها كل عاجز، ويمشي بها كل أعرج، ويغتر بها كل مغرور، وينخدع لها كل مخدوع؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الأرض بطولها، والعرض، وقلت لهم: ما الحجة لهم على تقليد فرد من أفراد العلماء، والأخذ بكل ما يقوله في الدين، ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب، ولا فاهوا بسواه، وأخذوا يعدّون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم، واقتداء بأقواله وأفعاله، وهم قد ملئوا صدورهم هيبة، وضائق أذهانهم عن تصوّرهم، وظنوا أنهم خير أهل الأرض، وأعلمهم، وأبرعهم، فلم يسمعوا لناصح نصحاء، ولا لداع إلى الحق دعاء، ولو فطنوا لوجدوا أنفسهم في غرور عظيم، وجهل شنيع، وإنهم كالبهيمة العمياء، وأولئك الأسلاف كالعمي الذين يقوون البهائم العمي، كما قال الشاعر:

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر
فعلبك أيها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب
والتعسف: أن تورّد عليهم حجج الله، وتقيم عليهم براهينه، فإنه ربما انتقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه، وأما من قد استحكم في قلبه هذا الداء، فلو أوردت عليه كلّ حجة، وأقمت عليه كلّ برهان لما أعارك إلا أننا صماء، وعينا عمياء، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبته عليك القرآن، والهداية بيد الخلاق العليم ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: 56]. ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة ﴿قال﴾ الخليل ﴿أفرايتم ما كنتم تعبدون * أنتم وأبائكم الأقدمون﴾ أي: فهل أبصرتم، وتفكرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التي لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضرّ حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة، ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التي يعبدونها. فقال ﴿فإنهم عدو لي﴾، ومعنى كونهم عدواً له مع كونهم جماداً: أنه إن عذبهم كانوا له عدواً يوم القيامة. قال الفراء: هذا من المقلوب أي: فلإني عدو لهم؛ لأن من عاديته عاداك، والعدو كالصديق يطلق على الواحد، والمثنى، والجماعة، والمذكر، والمؤنث، كذا قال الفراء. قال علي بن سليمان: من قال: عدوة الله، فأثبت الهاء، قال: هي بمعنى المعادية، ومن قال: عدو، للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. وقيل: المراد بقوله ﴿فإنهم عدو لي﴾ أبائهم الأقدمون لأجل عبادتهم الأصنام، وردّ بيان الكلام مسوق فيما عبيده لا في العابدين، والاستثناء في قوله ﴿إلا رب العالمين﴾ منقطع أي: لكن ربّ العالمين ليس كذلك، بل هو وليي في الدنيا والآخرة. قال الزجاج: قال النحويون: هو استثناء ليس من الأوّل، وأجاز الزجاج أيضاً أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عزّ وجلّ، ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله. قال الجرجاني: تقديره: أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وأبائكم الأقدمون إلا ربّ العالمين، فإنهم عدو لي، فجعله من باب التقديم والتأخير، وجعل إلا بمعنى دون وسوى كقوله: ﴿لا ينوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ [الدخان: 56] أي: دون الموتة الأولى. وقال الحسن بن الفضل: إن المعنى: إلا من عبد ربّ العالمين، ثم وصف ربّ العالمين بقوله ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ أي: فهو يرشدني إلى مصالح الدين والدنيا. وقيل: إن الموصول مبتدأ، وما بعده خبره، والأوّل أولى. ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من ربّ، وإن يكون عطف بيان له، وإن يكون منصوباً على المدح بتقدير أعني، أو مدح، وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله، فإن الخلق، والهداية، والرزق يدل عليه قوله ﴿والذي هو يطعمني ويسقيني﴾، ودفع ضرّ المرض، وجلب نفع الشفاء، والإماتة، والإحياء، والمغفرة للذنّب، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها، وأولاها العبادة، وبخول هذه الضمائر في صدور هذه الجم

تبين له أنه عوّ الله تبراً منه، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة التوبة، وسورة مريم، ومعنى **﴿من الضالين﴾**: من المشركين الضالين عن طريق الهداية، وكان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدّم في غير موضع **﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾** أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد بمعابتي، أو لا تعذبني يوم القيامة، أو لا تخزني بتعذيب أبي، أو ببعثه في جملة الضالين، والإخزاء يطلق على الخزي، وهو الهوان، وعلى الخزية، وهي الحياء، و**﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾** بدل من يبعثون أي: يوم لا ينفع فيه المال والبنون أحداً من الناس، والابن هو أخصّ القرابة، وأولاهم بالحماية والدفع، والنفع، فإذا لم ينفع، فغيره من القرابة، والأعوان بالأولى. وقال ابن عطية: إن هذا وما بعده من كلام الله، وهو ضعيف، والاستثناء بقوله **﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾** قيل: هو منقطع أي: لكن من أتى الله بقلب سليم. قال في الكشف: إلا حال من أتى الله بقلب سليم، فقدّر مضافاً محذوفاً. قال أبو حيان: ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. وقيل: إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف، أو مستثنى منه، إذ التقدير لا ينفع مال، ولا بنون أحداً من الناس إلا من كانت هذه صفته، ويحتمل أن يكون بدلاً من فاعل ينفع، فيكون مرفوعاً. قال أبو البقاء: فيكون التقدير: إلا مال من أو بنو من، فإنه ينفع.

واختلف في معنى القلب السليم، فقيل: السليم من الشرك، فأما الذنوب، فليس يسلم منها أحد، قاله أكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض، وقيل: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة، وقيل: السالم من آفة المال والبنين. وقال الضحاك: السليم الخالص. وقال الجنيد: السليم في اللغة اللين، فمعناه: أنه قلب كاللينغ من خوف الله تعالى، وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن. قال الرازي: أصح الأقوال: أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة **﴿وأنزلت الجنة للمتقين﴾** أي: قريب، وأنبت لهم؛ لينخلوها. وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها، ونظرهم إليها **﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾** أي: جعلت بارزة لهم، والمراد بالغاوين: الكافرون، والمعنى: أنها أظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون، ليشدّ حزن الكافرين، ويكثر سرور المؤمنين **﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون﴾** من دون الله، من الأصنام والأنداد **﴿هل ينصرونكم﴾** فينبغون عنكم العذاب **﴿لو ينصرون﴾** بنبغه عن أنفسهم. وهذا كله توبيخ وتقريع لهم، وقرأ مالك بن دينار (وبرزت) بفتح الباء، والراء مبنياً للفاعل **﴿فككبوا فيها هم والغاوين﴾** أي: ألجوا في جهنم هم يعني: المعبدون، والغاوين يعني: العابدين لهم. وقيل: معنى ككبوا: قلبوا على رؤوسهم. وقيل: ألقي بعضهم على بعض، وقيل: جمعوا، مأخذوا من الكيكة، وهي الجماعة قاله الهروي. وقال النحاس: هو مشتق من كركب الشيء أي: معظمه، والجماعة

للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره، وأسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية للألب مع الرب، وإلا فالمرض، وغيره من الله سبحانه، ومراده بقوله **﴿ثم يحين﴾** البعث، وحذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآي. وقرأ ابن أبي إسحاق هذه الأفعال كلها بإثبات الياء، وإنما قال عليه الصلاة والسلام: **﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾** هضماً لنفسه، وقيل: إن أطمع هنا بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق سواه. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق (خطيائي) قالوا: ليست خطيئته واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى خطايا في كلام العرب. قال مجاهد: يعني بخطيئته: قوله: **﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾** [الأنبياء: 63]، وقوله: **﴿إني سقيم﴾** [الصافات: 89]، وقوله إن سارة أخته، زاد الحسن: وقوله للكوكب: **﴿هذا ربي﴾** [الأنعام: 77 - 78]، وحكى الواحدي عن المفسرين: أنهم فسروا الخطايا بما فسرهما به مجاهد. قال الزجاج: الأنبياء بشر، ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلا أنهم لا تكون منهم الكبيرة؛ لأنهم معصومون، والمراد بيوم الدين: يوم الجزاء للعباد بأعمالهم، ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد، ومن معه ضعيف، فإن تلك معاريض، وهي أيضاً إنما صدرت عنه بعد هذه المقابلة الجارية بينه وبين قومه. ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه، والاعتراف بنعمه عقبه بالدعاء؛ ليقترني به غيره في ذلك. فقال: **﴿رب هب لي حكماً﴾**، والمراد بالحكم العلم والفهم، وقيل: النبوة والرسالة، وقيل: المعرفة بحدود الله، وأحكامه إلى آخره **﴿والحقني بالصالحين﴾** يعني: بلنبيين من قبلي، وقيل: بأهل الجنة **﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾** أي: اجعل لي ثناء حسناً في الآخرين الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة. قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون به، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة، ومنه قول الأعشى:

إني أتنتني لسان لا أسر بها

وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله **﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾** [الصافات: 108] فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه. وقال مكي: قيل: معنى سؤاله: أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق، فأجيب دعوته في محمد ﷺ، ولا وجه لهذا التخصيص. وقال القشيري: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة، ولا وجه لهذا أيضاً، فإن لسان الصديق أعم من ذلك **﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾** من ورثة يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً، وأن يكون صفة لمحذوف هو المفعول الثاني أي: وارثاً من ورثة جنة النعيم، لما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة، وهي جنة النعيم، وجعلها مما يورث تشبيهاً لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا، وقد تقدّم تفسير معنى الوراثة في سورة مريم **﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾** كان أبوه قد وعده أنه يؤمن به، فاستغفر له، فلما

معه في الفلك المشحون» أي: السفينة المملوءة، والشحن ملء السفينة بالناس، والدواب، والمتاع «ثم أغرقنا بعد الباقين» أي: ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه «إن في ذلك لآية» أي: علامة وعبرة عظيمة «وما كان أكثرهم مؤمنين» كان زائدة عند سيبويه، وغيره على ما تقدم تحقيقه «وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم» أي: القاهر لأعدائه، الرحيم بأوليائه. «كنبت عاد للمرسلين» إنث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة، لأن عاداً اسم أبيهم الأعلى. ومعنى تكنيبيهم المرسلين مع كونهم لم يكنوا إلا رسولاً واحداً قد تقدم وجهه في قصة نوح قريباً «إذا قال لهم نخوهم هود ألا تتقون» الكلام فيه كالكلام في قول نوح المتقدم قريباً، وكذا قوله «إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن لجرى إلا على رب العالمين» الكلام فيه كالذي قبله سواء «اتبنون بكل ريع آية تعبثون» الريع المكان المرتفع من الأرض جمع رعية، يقال: كم ريع أرضك؟ أي: كم ارتفاعها. قال أبو عبيدة: الريع الارتفاع جمع رعية. وقال قتادة، والضحاك، والكلبي: الريع الطريق، وبه قال مقاتل، والسدي. وإطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة، ومنه قول ذي الرمة:

طراق الخوافي مشرف فوق رعية بذي ليلة في ريشه يترقرق
وقيل: الريع الجبل، واحده رعية، والجمع أرياع. وقال مجاهد: هو الفج بين الجبلين، وروي عنه أنه الثنية الصغيرة، وروي عنه: أيضاً أنه المنظرة. ومعنى الآية: أنكم تبثون بكل مكان مرتفع علماً تعبثون بينيناه، وتلعبون بالمارة، وتسخرون منهم، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق، فتؤذون المارة، وتسخرون منهم. وقال الكلبي: إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم حكاه الماوردي. قال ابن الأعرابي: الريع الصومعة، والريع البرج يكون في الصحراء، والريع التل العالي، وفي الريع لغتان كسر الراء، وفتحتها «وتتخذون مصانع» المصانع: هي الأبنية التي يتخذها الناس منازل. قال أبو عبيدة: كل بناء مصنعة منه، وبه قال الكلبي، وغيره، ومنه قول الشاعر:

تركن ليارهم منهم قفارا وهذا من المصانع والبروجا
وقيل: هي الحصون المشيدة، قاله مجاهد، وغيره، وقال الزجاج: إنها مصانع الماء التي تجعل تحت الأرض وأحدها مصنعة، ومصنع، ومنه قول لبيد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعننا والمصانع
وليس في هذا البيت ما يدل صريحاً على ما قاله الزجاج، ولكنه قال الجوهري: المصنعة بضم النون الحوض يجمع فيه ماء المطر، والمصانع الحصون. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية. ومعنى «لعلكم تخلصون» راجع إلى أن تخلصوا، وقيل: إن لعل هنا للاستفهام التوبيخي أي: هل تخلصون، كقولهم: لعلك تشمتني أي: هل

وأطيعون فيما أمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك، والقيام بفرائض الدين «وما أسألكم عليه من أجر» أي: ما أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، ولا أطمع في ذلك منكم «إن أجرى» الذي أطلبه وأريده «إلا على رب العالمين» أي: على ما أجرى إلا عليه، وكرر قوله «فاتقوا الله وأطيعون» للتأكيد والتقرير في النفوس مع كونه علق كل واحد منهم بسبب، وهو الأمانة في الأول، وقطع الطمع في الثاني، ونظيره قولك: ألا تتقي الله في عقوقي، وقد رببتك صغيراً، ألا تتقي الله في عقوقي، وقد علمتك كبيراً، وقم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته، لأن تقوى الله علة لطاعته «قالوا أنؤمن لك ولتبعك الأرذلون» الاستفهام للإنكار أي: كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرذلون، وهم جمع أرذل، وجمع التكسير أرذل، والأنثى رذلى، وهم الأقلون جاهاً ومالاً، والرذالة الخسة والنذلة، استرذلوهم لقلّة أموالهم وجاههم، أو لاتضاع انسابهم. وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في هود. وقرأ ابن مسعود، والضحاك، ويعقوب الحضرمي: «واتبعك الأرذلون» قال النحاس: وهي قراءة حسنة، لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيراً، واتباع جمع تابع، فأجابهم نوح بقوله «وما علمي بما كانوا يعملون» كان زائدة، والمعنى: وما علمي بعملهم أي: لم أكلف العلم بأعمالهم. إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والإعتبار به، لا بالحرف، والصنائع، والفقر، والغنى، وكأنهم أشاروا بقولهم «ولتبعك الأرذلون» إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح، فأجابهم بهذا. وقيل: المعنى: إني لم أعلم أن الله سيهديهم ويضلّكم «إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون» أي: ما حسابهم، والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم إلا على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم، قرأ الجمهور (تشعرون) بالفوقية، وقرأ ابن أبي عبيدة، وابن السميع، والأعرج، وأبو زرعة بالتحية، كأنه ترك الخطاب للكفار، والتفت إلى الإخبار عنهم. قال الزجاج: والصناعات لا تضر في باب الديانات، وما أحسن ما قال «وما لنا بطارد للمؤمنين» هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم «إن لنا إلا نذير مبين» أي: ما لنا إلا نذير موضح لما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إليكم، وهذه الجملة كالعلة لما قبلها «قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين» أي: إن لم تترك عبث ديننا، وسب آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة، وقيل: من المشتومين، وقيل: من المقتولين، فعلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا «قال رب إن قومي كذبون» أي: أصروا على تكذبي، ولم يسمعوا قولتي، ولا أجابوا دعائي «فافتح بيني وبينهم فتحاً» الفتح الحكم أي: احكم بيني وبينهم حكماً، وقد تقدم تحقيق معنى الفتح «ونجني ومن معي من المؤمنين» فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له، فقال «فانجيناها ومن

النخل. قال زهير:

كان عيني في غربي مقبلة من النواضع تسقي جنة سحقا
وسحقا جمع سحق، ولا يوصف به إلا النخل. وقيل:
المراد بالجنان غير النخل من الشجر، والأول أولى. وحكى
الموردي في معنى هضم اثني عشر قولاً أحسنها وأوفقها
للغة ما ذكرناه «وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين»
النحت: النجر، والبري، نحتة ينحت بالكسر براه، والنحاتة
البراية، وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم،
وتهم بنائهم من المدر. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن
نكوان⁽¹⁾ (فرهين) بغير ألف. وقرأ الباقر (فارهم) بالألف.
قال أبو عبيدة، وغيره: وهما بمعنى واحد. والفرة: النشاط،
وفرَّق بينهما أبو عبيد، وغيره، فقالوا: (فارهم) حائقين
بنحتها، وقيل: متجبرين، (وفرهم) بطرين أشرين، وبه قال
مجاهد، وغيره. وقيل: شرهم. وقال الضحاك: كيسين. وقال:
قتادة: معجبين ناعمين آمنين، وبه قال الحسن. وقيل:
فرحين، قاله الأخفش. وقال ابن زيد: أقوياء «فاتقوا الله
واطيعون * ولا تطيعوا أمر للمسرفين» أي: المشركين،
وقيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله
«الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون» أي: تلك
دأبهم يفعلون الفساد في الأرض، ولا يصدر منهم الصلاح
البتة «قالوا إنما أنت من المسحرين» أي: الذين أصيبوا
بالمسح قاله مجاهد، وقَتادة. وقيل: المسحر هو المعلل
بالطعام والشراب قاله الكلبي، وغيره، فيكون المسحر الذي
له سحر، وهو الرنة، فكانهم قالوا: إنما أنت بشر مثلنا تاكل
وتشرب. قال الفراء: أي: إنك تاكل تاكل الطعام والشراب،
وتسحر به، ومنه قول امرئ القيس، أو لبيد:

فإن تسالينا فيم نحن فإنا عصفير من هذا الأنام المسحر
وقال امرؤ القيس أيضاً:

أرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
قال المؤرج: المسحر المخلوق بلغة ربيعة «ما أنت إلا
بشر مثلنا فات بآية إن كنت من الصائقين» في قولك،
ودعوا «قال هذه ناقة» الله «لها شرب ولكم شرب يوم
معلوم» أي: لها نصيب من الماء، ولكم نصيب منه معلوم
ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها، ولا هي
تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم. قال الفراء: الشرب الحظ
من الماء. قال النحاس: فاما المصدر، فيقال: فيه شرب شرباً،
وشرباً، وأكثرها المضموم، والشرب بفتح الشين جمع
شارب، والمراد هنا الشرب بالكسر، وبه قرأ الجمهور فيها،
وقرأ ابن أبي عبيدة بالضم فيها «ولا تمسوها بسوء
فياخذكم عذاب يوم عظيم» أي: لا تمسوها بعقر، أو
ضرب، أو شيء مما يسوؤها، وجواب النهي، فياخذكم

«فقعروها فاصبحوا ناعمين» على عقرها، لما عرفوا أن
العذاب نازل بهم، وذلك أنه انظرهم ثلاثاً، فظهرت عليهم
العلامة في كل يوم، وندموا حيث لا ينفع الندم، لأن ذلك
لا يجدي عند معاينة العذاب، وظهر آثاره «فأخذهم
العذاب» الذي وعدهم به. وقد تقدم تفسير قوله «إن في
تلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو
العزيز الرحيم» في هذه السورة، وتقدم أيضاً تفسير قصة
صالح وقومه في غير هذه السورة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
عباس «ونخل طلعتها هضيم» قال: معشب. وأخرج ابن
جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: أبيع وبلغ. وأخرج ابن أبي
حاتم عنه أيضاً قال: أرطب، واسترخى. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله «فرهين»
قال: حائقين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال
«فرهين» أشرين. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: شرهم.
وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والخطيب،
وابن عسكرك من طرق عن ابن عباس في قوله «إنما أنت
من المسحرين» قال: من المخلوقين، وأنشد قول لبيد بن
ربيعة:

فإن تسالينا فيم نحن..... البيت
وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً في قوله «لها شرب»
قال: إذا كان يوماً أصدر لها لبناً ما شاموا.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهِ^(١) إِذْ قَالَ لَهُمُ نُوحٌ لَوْ أَنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ مِنْ رَبِّ^(٢) الْمَلَكِ اللَّهُ وَالْمَلَكُوتُ^(٣) وَكَأَنَّكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أُجْرَى
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَكِوتِ^(٤) أَتَأْتُونَ الذُّكُرَ مِنَ الْمَلَكِوتِ^(٥) تَقْدُرُونَ مَا خَلَقَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُعْقِلُونَ^(٦) قَالُوا لَنْ نَبْنِيَهُ بَلْأَنْفُسُكَ كُنْتُمْ
مِنَ الْغَاثِ^(٧) قَالَ إِنِّي لَمَلَكٌ مِنَ الْمَلَكِوتِ^(٨) رَبِّ بَنِي وَأَهْلِي بِمَا يَصْمَلُونَ^(٩)
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ^(١٠) إِلَّا عَجُوزًا مِنَ الْغَاثِ^(١١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ^(١٢)
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ^(١٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ^(١٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ الرَّجِيءُ^(١٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ
الْمُرْسَلِينَ^(١٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ^(١٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ^(١٨) فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَآلَيْسُوا^(١٩) وَكَأَنَّكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أُجْرَى^(٢٠) إِنْ أُجْرَى^(٢١) إِنْ أُجْرَى^(٢٢) إِنْ أُجْرَى^(٢٣)
أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ^(٢٤) وَزُوا بِالْفَسْطَانِ اسْتَغْنَمُوا
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُبِينِينَ^(٢٥) وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ^(٢٦) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ^(٢٧) وَمَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِقُكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ^(٢٨) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(٢٩) قَالَ رَبِّ أَعْلَمْ بِمَا تَصْمَلُونَ^(٣٠) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ
عَذَابٌ يَوْمَ الثَّلَاثَةِ^(٣١) إِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ عَظِيمٌ^(٣٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ^(٣٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ الرَّجِيمُ^(٣٤)

نكر سبحانه القصة السادسة من قصص الأنبياء مع

(1) قوله وابن نكوان: الصواب ذكر نافع بدلاً عنه كما هو المشهور

اه. مصحح القرآن.

تخفيفاً أَلْقَيْتَ حَرَكَتَهَا عَلَى اللّام. قال الخليل: الآية غيضة تنبئ السر، والأراك، ونحوهما من ناعم الشجر ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ اإِذْ تَقُولُونَ﴾ لم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله؛ لأنه لم يكن من أصحاب الآية في النسب، فلما نكر مدين قال أخاهم شعيباً؛ لأنه كان منهم، وقد مضى تحقيق نسبة في الأعراف، وقد تقدم تفسير قوله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هذه السورة. قوله ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: أتموا الكيل لمن أراد، وعامل به، ولا تكونوا من المخسرين: الناقصين للكيل والوزن، يقال: أخسرت الكيل والوزن؛ أي: نقصته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنَهُمْ يَخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 3]، ثم زاد سبحانه في البيان، فقال ﴿وَوَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: أعطوا الحق بالميزان السوي؛ وقد مر بيان تفسير هذا في سورة سبحان، وقد قرئ (بالقسطاس) مضموماً، ومكسوراً ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ البخس النقص، يقال: بخسه حقه؛ إذا نقصه أي: لا تنقصوا الناس حقوقهم التي لهم، وهذا تعميم بعد التخصيص، وقد تقدم تفسيره في سورة هود، وتقدم أيضاً تفسير ﴿وَلَا تَعْلَوْا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ فيها، وفي غيرها ﴿وَتَقْوُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبْلَةَ الْأُولَى﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام، وقرأ أبو حصين، والأعمش، والحسن، والأعرج، وشيبة بضمهما، وتشديد اللام، وقرأ السلمي بفتح الجيم مع سكن الباء، والجبلبة الخليفة قاله مجاهد، وغيره يعني: الأمم المتقدمة، يقال: جبل فلان على كذا أي: خلق. قال النحاس: الخلق يقال له: جبل بكسر الحرفين الأولين، وبضمهما مع تشديد اللام فيهما، وبضم الجيم، وسكن الباء، وضمه وفتحها، قال الهروي: الجبلبة، والجبلبة، والجبل، والجبل لغات، وهو: الجمع ذو العدد الكثير من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿جَبَلًا كَثِيرًا﴾ [يس: 62] أي: خلقاً كثيراً، ومن ذلك قول الشاعر:

والمرت اعظم حاثث فيما يمر على الجبلية
﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ وما أنت إلا بشر مثلاً، قد تقدم تفسيره مستوفى في هذه السورة ﴿وَإِنْ تَظُنُّكَ لِمَنِ الْكَائِبِينَ﴾ إن هي المخفة من الثقيلة عملت في ضمير شأن مقدر، واللام هي الفارقة أي: فيما تدعيه علينا من الرسالة، وقيل: هي النافية، واللام بمعنى إلا أي: ما تظنك إلا من الكائنين، والأول أولى ﴿فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ كان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فقالوا له هذا القول نعتاً، واستبعاداً، وتعجيزاً، والكسف: القطعة. قال أبو عبيدة: الكسف جمع كسفة مثل سدر، وسدرة. قال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء، يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كسف، وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان ﴿إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك، والمعاصي، فهو مجازيكم

قومهم، وهي قصة لوط. وقد تقدم تفسير قوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هذه السورة، وتقدم أيضاً تفسير قصة لوط مستوفى في الأعراف، قوله ﴿تَتَتَوْنَ الْزَكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الزَكَرَانَ جمع النكر ضد الأنثى، ومعنى تَتَوْنَ: تتكون الزَكَرَانَ من العالمين، وهم بنو آدم، أو كل حيوان، وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم في الأعراف ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِبْكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أي: وتركون ما خلقه الله لأجل استمتاعكم به من النساء، وأراد بالازواج جنس الإنثى ﴿بَلْ لَأَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: مجاوزون للحد في جميع المعاصي، ومن جعلتها هذه المعصية التي ترتكبوها من الزَكَرَانَ ﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ﴾ عن الإنكار علينا، وتبحيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ﴾ من بلدنا المنفيين عنها ﴿قَالَ إِنِّي لَعَمْرُكُمُ﴾ وهو ما أنتم فيه من إتيان الزَكَرَانَ ﴿مِنْ الْقَالِينَ﴾ المبغضين له، والقلبي البغض، قليته أقلية قلا، وقلاء، ومنه قول الشاعر:

فلمست بمقلبي الخلال ولا قالي

وقال الآخر:

ومالك عندي إن نأيت قلاء

ثم رغب عليه الصلاة والسلام عن محاورتهم، وطلب من الله عز وجل أن ينجيه، فقال ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عملهم الخبيث، أو من عقوبته التي ستصيبهم، فأجاب الله سبحانه دعاءه، وقال ﴿فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ لَجْمَعِينَ﴾ أي: أهل بيته، ومن تابعه على يمينه، وأجاب دعوته ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ هي: امرأة لوط، ومعنى ﴿مِنْ الْغَابِرِينَ﴾: من الباقيين في العذاب. وقال أبو عبيدة: من الباقيين في الهرم أي: بقيت حتى هرمت. قال النحاس: يقال للذهاب غابر، وللباقي غابر. قال الشاعر:

لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تدري من الناتج
والأغبار بقية الألبان، وتقول العرب: ما مضى، وما غير أي: ما مضى، وما بقي ﴿ثُمَّ بَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ أي: أهلكناهم بالخسف، والحصب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المخصوص بالذم محذوف، والتقدير مطرهم، وقد تقدم تفسير ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم. في هذه السورة ﴿كَذَبَ أَصْحَابُ الْآيَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (ليكة) بلام واحدة، وفتح التاء جعلوه اسماً غير معرّف بال مضافاً إليه أصحاب، وقرأ الباقر (الايكة) معرّفاً، والايكة الشجر الملتف، وهي الغيضة، وليكة اسم للقرية، وقيل: هما بمعنى واحد اسم للغیضة. قال القرطبي: فاما ما حكاه أبو عبيد من: أن ليكة اسم القرية التي كانوا فيها، وأن الآية اسم البلد كله، فشيء لا يثبت، ولا يعرف من قاله، ولو عرف لكان فيه نظر، لأن أهل العلم جميعاً على خلافه. قال أبو علي الفارسي: الآية تعريف آيكة، فإذا حذفت الهمزة

كالسحابة السوداء، فلما راوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعاً أطبقت عليهم، فهلكوا، ونجى الله شعبياً والذين آمنوا معه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال **﴿الجبل الأولين﴾** الخلق الأولين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه أيضاً أنه سئل عن قوله **﴿فاخذهم عذاب يوم للظلة﴾** قال: بعث الله عليهم حرّاً شديداً، فأخذ بانفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت، فدخل عليهم أجوافها، فأخذ بانفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة، فاطلقتهم من الشمس، فوجئوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً، فذلك عذاب يوم الظلة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه أيضاً قال: من حنك من العلماء عذاب يوم الظلة، فكذب. أقول: فما نقول له رضي الله عنه فيما حدثنا به من ذلك مما نقلناه عنه ها هنا، ويمكن أن يقال: إنه لما كان هو البحر الذي علمه الله تاويل كتابه بدعوة نبيه ﷺ كان مختصاً بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم، فمن حنك بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدثنا به، فقد وصانا بتكذيبه، لأنه قد علمه، ولم يعلمه غيره.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَاتَّبِعْهُ وَذَكَرْ لَكَ الْآيَاتِ ۚ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٥٦﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٥٧﴾ بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّمَا لَكَ ذِكْرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥٩﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمُ عُلَمُوا بَوَاقٍ إِيَّاهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٠﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْصَمِينَ ﴿١٦١﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٢﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُخَلَّبِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَشْيَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ فَاتَّبِعْنَاهُ بِقَنَةٍ وَعَمَّا لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦٥﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿١٦٦﴾ أَعْمَدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٦٧﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ تَسَمَّنْهُمْ سَيِّئٌ ﴿١٦٨﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦٩﴾ مَا أَفْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَا أَفْكَارُكُمْ إِلَّا مَا تُزِيدُونَ ﴿١٧١﴾ وَكَرِهَىٰ وَمَا كُنَّا نَدْعُوهُمْ إِلَى الشَّيْطَانِ ﴿١٧٢﴾ وَمَا يَبْنِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٣﴾ إِذْ هُمْ عَنِ النَّاسِ كَالْحَسَنِ لَمْ يَرْوُوا ﴿١٧٤﴾ فَلَا تَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهِهَا مَا خَرَفْتُمْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُعَدِّينَ ﴿١٧٥﴾ وَأَنْذَرْتُكُمْ عَذَابَ الْآخِرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَلَكِنْ فَضَّلْنَا لَكَ لِيْنِ أَنْتَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٧٧﴾ فَإِنْ عَصَيْتَ فَقَدْ لِي بَرَاءٌ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٧٩﴾ الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨٠﴾ وَتَقْبَلُكَ فِي السَّجْدِ ﴿١٨١﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٨٢﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنَازِلَ الشَّيْطَانِ ﴿١٨٣﴾ نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ أَقْلٍ أُتِيرَ ﴿١٨٤﴾ يَلْقَوْنَ السَّعَةَ وَأَكْثَرَهُمْ كَذِبُونَ ﴿١٨٥﴾ وَالشَّعْرَةُ بَيْنَهُمُ الْغَارُونَ ﴿١٨٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٨٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرٍ وَأَنْتَصَرُوا بِرُبِّهِمْ مَا ظَلَمُوا وَرَبُّهُمْ الظَّالِمُونَ ﴿١٨٩﴾

قوله: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾** الضمير يرجع إلى ما نزل عليه من الأخبار أي: وإن هذه الأخبار، أو وإن القرآن، وإن لم يجر له نكر للعلم به، قيل: وهو على تقدير مضاف محذوف أي: نو تنزيل، وأما إذا كان تنزيل بمعنى

على ذلك إن شاء، وفي هذا تهديد شديد **﴿فكذبوه﴾**، فاستمروا على تكذيبه، وأصروا على ذلك **﴿فاخذهم عذاب يوم للظلة﴾**، والظلة السحاب، أقامها الله فوق رؤوسهم، فأمطرت عليهم ناراً، فهلكوا، وقد أصابهم الله بما اقترحوا، لأنهم إن أرادوا بالكشف القطعة من السحاب، فظاهر، وإن أرادوا بها القطعة من السماء، فقد نزل عليهم العذاب من جهتها، وأضاف العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيهاً على أن لهم في ذلك اليوم عذاباً غير عذاب الظلة، كذا قيل. ثم وصف سبحانه هذا العذاب الذي أصابهم بقوله **﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾** لما فيه من الشدة عليهم التي لا يقدر قدرها، وقد تقدم تفسير قوله **﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** وإن ربك لهو العزيز الرحيم. في هذه السورة مستوفى، فلا نعيده، وفي هذا التكرير لهذه الكلمات في آخر هذه القصص من التهديد، والزجر، والتقرير، والتأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام، ويعرف أساليبه.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله **﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾** قال: تركتم أقبال النساء إلى أقبال الرجال، وأبواب النساء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة نحوه. وأخرج أيضاً عن قتادة **﴿الآ عجوزاً في الغابرين﴾** قال: هي: امرأة لوط غبرت في عذاب الله. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد (ليكة) قال: هي الأيكة. وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساکر عن ابن عباس في قوله **﴿كذب أصحاب الأيكة للمرسلين﴾** قال: كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر إلى مدين **﴿إذ قال لهم شعيب﴾**، ولم يقل أخوهم شعيب. لأنه لم يكن من جنسهم **﴿الآ تتقون﴾** كيف لا تتقون، وقد علمت أني رسول أمين لا تعتبرون من هلاك مدين، وقد اهلكوا فيما يأتون، وكان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرك استنوا بسنة أصحاب مدين، فقال لهم شعيب **﴿إني لكم رسول أمين﴾** فأتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم على ما ادعوك إليه **﴿من لجر﴾** في العاجل من أموالكم **﴿إن لجرى إلا على رب العالمين﴾** **﴿واتقوا الذي خلقكم والجبل الأولين﴾** يعني: القرن الأولين الذي اهلكوا بالمعاصي، ولا تهلكوا مثلهم **﴿قالوا إنما أنت من المسحورين﴾** يعني من المخلوقين **﴿وما أنت إلا بشر مثلبنا وإن نظلنك لمن لكابدين﴾** فأسقط علينا كسفاً من السماء. يعني: قطعاً من السماء **﴿فاخذهم عذاب يوم الظلة﴾** أرسل الله إليهم سموماً من جهنم، فاطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر، فحميت بيوتهم، وغلت مياههم في الآباء، والعيون، فخرجوا من منازلهم، ومحلثهم هاربين، والسموم معهم، فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم، فغشيتهم حتى تقلقت فيها جماجمهم، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشأت لهم ظلة

منزل، فلا حاجة إلى تقدير مضاف، قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم ﴿نزل﴾ مخففاً، وقرأه الباقون مشدداً، و ﴿والروح الأمين﴾ على القراءة الثانية منصوب على أنه مفعول به، وقد اختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، والروح الأمين جبريل، كما في قوله: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ [البقرة: 97]، ومعنى ﴿على قلبك﴾: أنه تلاه على قلبه، ووجه تخصيص القلب، لأنه أول مبرك من الحواس الباطنة. قال أبو حيان: إن على قلبك، ولتكون متعلقان بنزل، وقيل: يجوز أن يتعلقا بتنزيل، والأول أولى، وقرئ (نزل) مشدداً مبنياً للمفعول، والفاعل هو الله تعالى، ويكون الروح على هذه القراءة مرفوعاً على النيابة ﴿لتكون من المُنذرين﴾ علة للإنزال أي: أنزله، لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات، والإنذارات، والعقوبات ﴿بللسان عربي مبين﴾ متعلق بالْمُنذرين أي: لتكون من المُنذرين بهذا اللسان، وجوز أبو البقاء أن يكون بدلاً من «به»، وقيل: متعلق بنزل، وإنما أخر للاعتناء بذكر الإنذار، وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربياً بلسان الرسول العربي لئلا يقول مشركو العرب: لسانا نفهم ما نقوله بغير لساننا، فقطع بذلك حجتهم، وأزاح علتهم، وبفع معذرتهم ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: إن هذا القرآن باعتماد أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع في كتب الأولين من الأنبياء، والزبر الكتب، الواحد زبور، وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا. وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، وقيل: المراد بكون القرآن في زبر الأولين أنه مذكور فيها هو نفسه، لا ما اشتمل عليه من الأحكام، والأول أولى ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر كما تقدم مراراً، والآية العلامة والدلالة أي: ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق، وأنه تنزيل رب العالمين. وأنه في زبر الأولين، أن يعلمه علماء بني إسرائيل على العموم، أو من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون إليهم، ويصدقونهم. قرأ ابن عامر (تكن) بالفوقية، وآية بالرفع على أنها اسم كان، وخبرها أن يعلمه الخ، ويجوز أن تكون تامة، وقرأ الباقون (يكن) بالتحية، وآية بالنصب على أنها خبر يكن، واسمها أن يعلمه الخ، قال الزجاج: أن يعلمه اسم يكن، وآية خبره. والمعنى: أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمداً نبي حق علامة ودلالة على نبوته، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود نكره في كتبهم، وكذا قال الفراء، ووجها قراءة الرفع بما نكرنا. وفي قراءة ابن عامر نظر، لأن جعل النكرة اسماً، والمعرفة خبراً غير سائغ، وإن ورد شاذاً في مثل قول الشاعر:

فلا يك موقف منك الوداعا

وقول الآخر:

وكان مزاجها عسل وماء

ولا وجه لما قيل: إن النكرة قد تخصصت بقولهم ﴿لهم﴾؛ لأنه في محل نصب على الحال، والحال صفة في المعنى؛ فأحسن ما يقال في التوجيه: ما قلنا ذكره من أن يكن تامة ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ أي: لو نزلنا القرآن على الصفة التي هو عليها على رجل من الأعجمين الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية ﴿فقرأه عليهم﴾ قراءة صحيحة ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجمي للكلام العربي إلى إعجاز القرآن. وقيل: المعنى: ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم، فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به، وقالوا: ما نفقه هذا، ولا نفهمه، ومثل هذا قوله: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته﴾ [فصلت: 44] يقال: رجل أعجم، وأعجمي إذا كان غير فصيح اللسان، وإن كان عربياً، ورجل عجمي إذا كان أصله من العجم، وإن كان فصيحاً، إلا أن الفراء أجاز أن يقال: رجل عجمي بمعنى أعجمي، وقرأ الحسن (على بعض الأعجميين)، وكذلك قرأ الجحدري. قال أبو الفتح بن جني: أصل الأعجميين: الأعجميين، ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون بليلاً عليها ﴿كذلك سلكتنا في قلوب المجرمين﴾ أي: مثل تلك السلك سلكتنا أي: أسخنا في قلوبهم يعني: القرآن حتى فهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه معجز. وقال الحسن، وغيره: سلكتنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين، وقال عكرمة: سلكتنا القسوة، والأول أولى، لأن السياق في القرآن، وجملة ﴿لا يؤمنون﴾ تحتل وجهين: الأول الاستئناف على جهة البيان والإيضاح لما قبلها، والثاني: أنها في محل نصب على الحال من الضمير في سلكتنا، ويجوز أن يكون حالاً من المجرمين. وأجاز الفراء الجزم في لا يؤمنون، لأن فيه معنى الشرط، والمجازاة، وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كيلاً مثل هذا ربما جزمت ما بعدها، وربما رفعت، فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع، والجزم؛ لأن معناه: إن لم أربطه ينفلت، وأنشد لبعض بني عقيل:

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا مساكنا لا يقرب الشر قارب بالرفع، ومن الجزم قول الآخر:

لطال ما حللتها ما لا ترد فخلياها والسخال تبترد قال النحاس: وهذا كله في لا يؤمنون خطأ عند

البصريين، ولا يجوز الجزم بلا جازم ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي: لا يؤمنون إلى هذه الغاية، وهي مشاهدتهم للعذاب الأليم ﴿فيأتيهم﴾ العذاب ﴿بغتة﴾ أي: فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانه، وقرأ الحسن، (فتأتيهم) بالفوقية: أي: الساعة، وإن لم يتقدم لها نكر، لكنه قد دل العذاب عليها ﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ أي: مؤخرون، وممهلون، قالوا هذا تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنيا للرجعة إلى الدنيا، لاستدراك ما فرط منهم. وقيل: إن المراد بقولهم: ﴿هل نحن منظرون﴾ الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله ﴿أفبعذابنا

فغلط. قال الفراء: غلط الشيخ يعني: الحسن، فقيل: نلك للنضر بن شميل، فقال: إن جاز أن يحتج بقول رؤبة، والعجاج، ونويعهما، جاز أن يحتج بقول الحسن، وصاحبه يعني: محمد بن السميع مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ بذلك إلا، وقد سمعا فيه شيئاً. وقال المؤرج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. قال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول: نخلنا بساتين من ورائها بساتون. ثم لما قرّر سبحانه حقية القرآن، وأنه منزل من عنده أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده، فقال **﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعنيين﴾**، وخطاب النبي ﷺ بهذا مع كونه منزهاً عنه معصوماً منه لحث العباد على التوحيد، ونهيهم عن شوائب الشرك، وكأنه قال: أنت أكرم الخلق علي، وأعزهم عندي، ولو اتخذت معي إلهاً لعنبتك، فكيف بغيرك من العباد **﴿وانذر عشيرتک الأقربين﴾**، خص الأقربين؛ لأن الاهتمام بشأنهم أولى، وهدايتهم إلى الحق أقدم، قيل: هم قريش، وقيل: بنو عبد مناف، وقيل: بنو هاشم. وقد ثبت في الصحيح: أن هذه الآية لما نزلت دعا النبي ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعم، وخص، فنلك منه ﷺ بيان للعشيرة الأقربين، وسياتي بيان نلك **﴿ولخفّض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾**، يقال: خفّض جناحه إذا ألانه، وفيه استعارة حسنة. والمعنى: ألن جناحك، وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين، وأظهر لهم المحبة، والكرامة، وتجاوز عنهم **﴿فإن عصوك﴾** أي: خالفوا أمرك، ولم يتبعوك **﴿فقل إنني بريء مما تعملون﴾** أي: من عملكم، أو من الذي تعملونه، وهذا يدل على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان المصنفون باللسان، لأن المؤمنين الخالص لا يعصونه، ولا يخالفونه، ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له، فقال **﴿فتوكل على العزيز الرحيم﴾** أي: فوَضْ آمورك إليه، فإنه القادر على قهر الأعداء، وهو: الرحيم للأولياء، قرأ نافع، وابن عامر (فتوكل) بالفاء، وقرأ الباقون (وتوكل) بالواو، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجاء مما قبلها مترتباً عليه، وعلى القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفاً على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب **﴿الذي يراك حين تقوم﴾** أي: حين تقوم إلى الصلاة وحك في قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد: حين تقوم حيثما كنت **﴿وتقلبك في الساجدين﴾** أي: ويراك إن صليت في الجماعة ركاعاً، وساجداً، وقائماً، كذا قال أكثر المفسرين. وقيل: يراك في الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة. وقيل: المراد بقوله **﴿يراك﴾** حين تقوم قيامه إلى التهجد، وقوله **﴿وتقلبك في الساجدين﴾** يريد ترتبك في تصفح أحوال المجتهدين في العبادة، وتقلب بصرك فيهم، كذا قال مجاهد **﴿إنه هو السميع﴾** لما تقوله **﴿العليم﴾** به. ثم أكد سبحانه معنى قوله **﴿وما تنزلت به الشياطين﴾**، وبينه، فقال **﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾** أي: على من تنزل، فحنف إحدى التاءين، وفيه بيان استحالة تنزل

يستعجلون، ولا يخفى ما في هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر، فإن معنى **﴿هل نحن منظرون﴾**: طلب النظرة، والإمهال، وأما قوله **﴿اقبضنا يستعجلون﴾**، فالمراد به الرد عليهم، والإنكار لما وقع منهم من قولهم: **﴿أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم﴾** [الأنفال: 32]، وقولهم: **﴿فاتنا بما تعدنا﴾** [الأعراف: 70، هود: 32، الأحقاف: 22] **﴿فرايت إن متعناهم سنين﴾** الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام كما مر في غير موضع، ومعنى أرايت: أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له أي: أخبرني إن متعناهم سنين في الدنيا متطاوله، وطولنا لهم الأعمار **﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾** من العذاب، والهلاك **﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾** ما هي الاستفهامية، والمعنى: أي شيء أغنى عنهم كونهم ممتعين نلك التمتع الطويل، و «ما» في **﴿ما كانوا يمتعون﴾** يجوز أن تكون المصدرية، ويجوز أن تكون الموصولة، والاستفهام للإنكار التقريري، ويجوز أن تكون الأولى نافية، والمفعول محذوف أي: لم يغن عنهم تمتيعهم شيئاً، وقرئ (يمتعون) بإسكان الميم، وتخفيف التاء من أمتع الله زيداً بكذا **﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾** من مزيدة للتأكيد أي: وما أهلكنا قرية من القرى إلا لها منذرون. وجملة **﴿إلا لها منذرون﴾** يجوز أن تكون صفة لقرية، ويجوز أن تكون حالاً منها، وسوّغ نلك سيق النفي، والمعنى: ما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار إليهم، والإعذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وقوله **﴿نذكرى﴾** بمعنى تنكرة، وهي في محل نصب على العلة، أو المصدرية. وقال الكسائي: نكرى في موضع نصب على المصدرية أي: الفراء، والزجاج: إنها في موضع نصب على المصدرية أي: يذكر نكرى. قال النحاس: وهذا قول صحيح، لأن معنى **﴿إلا لها منذرون﴾**: إلا لها منكرون. قال الزجاج: ويجوز أن يكون نكرى في موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: إنذارنا نكرى، أو نلك نكرى. قال ابن الأنباري: المعنى: هي نكرى، أو يذكرهم نكرى، وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف **﴿وما كنا ظالمين﴾** في تعذيبهم، فقد قدمنا الحجة إليهم، وأنذرناهم، وأعذرنا إليهم **﴿وما تنزلت به الشياطين﴾** أي: بالقرآن، وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن أنه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة **﴿وما ينغي لهم﴾** نلك، ولا يصح منهم **﴿وما يستطيعون﴾** ما نسب الكفار إليهم أصلاً **﴿إنهم عن السمع﴾** للقرآن، أو لكلام الملائكة **﴿لمعزولون﴾** محجوبون مرجومون بالشبه. وقرأ الحسن، وابن السميع، والأعمش (وما تنزلت به الشياطين) بالواو، والنون إجراء له مجرى جمع السلامة. قال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين. قال: وسمعت علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا من غلط العلماء، وإنما يكون بشبهة لما رأى الحسن في آخره، ياء، ونوناً، وهو في موضع رفع اشتبه عليه بالجمع السالم،

والشياطين على رسول الله ﷺ ﴿تَنْزِلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، والأفَّاك الكثير الإفك، والأثيم كثير الإثم، والمراد بهم كل من كان كاهناً، فإن الشياطين كانت تسترقق السمع، ثم يأتون إليهم، فيلقونه إليهم، وهو معنى قوله ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ أي: ما يسمعون مما يسترققونه، فتكون جملة ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ على هذا راجعة إلى الشياطين في محل نصب على الحال أي: حال كون الشياطين ملقنين السمع أي: ما يسمعون من الملائكة إلى الكهان. ويجوز أن يكون المعنى: إن الشياطين يلقون السمع أي: ينصتون إلى الملائكة الأعلى؛ ليسترققوا منهم شيئاً، ويكون المراد بالسمع على الوجه الأول المسموع، وعلى الوجه الثاني نفس حاسة السمع. ويجوز أن تكون جملة ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ راجعة إلى كل أفَّاك أثيم على أنها صفة، أو مستأنفة، ومعنى الإلقاء: أنهم يسمعون ما تلقى إليهم الشياطين من الكلمات التي تصبغ الواحدة منها، وتكذب المائة الكلمة كما ورد في الحديث، وجملة ﴿وَكَثَرَهُمْ كَانِبُونَ﴾ راجعة إلى كل أفَّاك أثيم أي: وأكثر هؤلاء الكهنة كانبون فيما يلقونه من الشياطين، لأنهم يضمنون إلى ما يسمعون كثيراً من أكانبيهم المختلفة، أو أكثرهم كانبون فيما يلقونه من السمع أي: المسموع من الشياطين إلى الناس، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَكَثَرَهُمْ كَانِبُونَ﴾ راجعة إلى الشياطين أي: وأكثر الشياطين كانبون فيما يلقونه إلى الكهنة مما يسمعون، فإنهم يضمنون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيراً من الكذب، وقد قيل: كيف يصح على الوجه الأول وصف الأفَّاكين بأن أكثرهم كانبون بعد ما وصفوا جميعاً بالإفك. ولجيب: بأن المراد بالأفَّاك الذي يكثر الكذب لا الذي لا ينطق إلا بالكذب، فالمراد بقوله ﴿وَكَثَرَهُمْ كَانِبُونَ﴾ أنه قل من يصنع منهم فيما يحكي عن الشياطين، والغرض الذي سيق لأجله هذا الكلام رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي ﷺ من جملة من يلقي إليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب، ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصدق، فكيف يكون كما زعموا، ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين، وهذا النبي المرسل من عند الله برسالاته إلى الناس يذمهم، ويلعنهم، ويأمر بالتعوذ منهم. ثم لما كان قد قال قاتل من المشركين: إن النبي ﷺ شاعر، بين سبحانه حال الشعراء، ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبي ﷺ، فقال ﷺ ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ والمعنى: أن الشعراء يتبعهم أي: يجاريهم، ويسلك مسلكهم، ويكون من جملتهم، الغاؤون أي: الضالون عن الحق، والشعراء جمع شاعر، والغاؤون جمع غاو، وهم ضلال الجن والإنس، وقيل: الزائلون عن الحق، وقيل: الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء، وما لا يجوز، وقيل: المراد شعراء الكفار خاصة، قرأ الجمهور (والشعراء) بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره ما بعده، وقرأ عيسى بن عمر (الشعراء) بالنصب على الاشتغال، وقرأ نافع، وشيبة، والحسن، والسلمي (يتبعهم) بالتخفيف،

وقرأ الباقر بالتشديد. ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل، فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، والجملة مقررة لما قبلها، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، يقال: هام يهيم هيماً، وهيماناً إذا ذهب على وجهه أي: ألم تر أنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون، وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون، فتارة يمزقون الأعراس بالهجاء، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجج السمع، ويستقبحه العقل، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة، ويذمون الحق، ويمنحون الباطل، ويرغبون في فعل المحرمات، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر، والزنا، واللواط، ونحو هذه الرذائل الملعونة، ثم قال سبحانه ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يقولون فعلنا، وفعلنا، وهم كذبة في ذلك، فقد يبلون بكلامهم على الكرم، والخير، ولا يفعلونه، وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة، والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات، وأنهم فعلوا بهن كذا، وكذا، وذلك كذب محض، واقتراء بحت... ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحري الحق والصدق، فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: دخلوا في حزب المؤمنين، وعملوا بأعمالهم الصالحة، ﴿وَنُكِرُوا لِلَّهِ كَثِيرًا﴾ في أشعارهم ﴿وَأَن تَصْخَرُوا مِنْهُمْ لَعَلَّ كُنْتُمْ أَصْفَاءَ﴾ أي: لا ينبغي أن يهجو منهم من هجاء، أو ينتصر لعالم، أو فاضل كما كان يقع من شعراء النبي ﷺ، فإنهم كانوا يهجون من يهجو، ويحسون عنه، وينذرون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين، وينافحونهم، ويبخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة، وكافح أهل البدعة، وزيف ما يقوله شعراؤهم من مدح بدعتهم، وهجو السنة المطهرة، كما يقع ذلك كثيراً من شعراء الرافضة، ونحوهم، فإن الانتصار للحق بالشعر، وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدينه القائمين بما أمر الله بالقيام به.

واعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام، وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب، وقد وردت أحاديث في ذم، وذم الاستكثار منه، ووردت أحاديث أخر في إباحته، وتجويزه، والكلام في تحقيق ذلك يطول، وسنذكر في آخر البحث ما ورد في ذلك من الأحاديث. ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله، فقال ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، فإن في قوله ﴿سَيَعْلَمُ﴾ تهويلاً عظيماً، وتهديداً شديداً، وكذا في إطلاق الذين ظلموا، وإيهام أي منقلب ينقلبون، وخصص هذه الآية بعضهم بالشعراء، ولا وجه لذلك، فإن الاعتبار بعموم اللفظ، وقوله ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ صفة لمصدر محذوف أي: ينقلبون منقلباً أي منقلب، وقدم لتضمنه معنى الاستفهام، ولا يعمل فيه سيعلم، لأن

ها هنا؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم، ولا ركوعكم، وإنني لأراكم من وراء ظهري». وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده، والبخاري، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله **﴿وتقلبك في الساجدين﴾** قال: من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجت نبيا وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم عنه في الآية نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت:

«سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان قال: إنهم ليسوا بشيء»، قالوا: يا رسول الله إنهم يحثّون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ قال: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنّي، فيقذفها في آذن وليه، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة». وفي لفظ للبخاري «فيزيئون معها مائة كذبة». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما: من الانصار، والآخر من قوم آخرين، وكان مع كلّ واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فأنزل الله **﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾** الآيات. وأخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن عسكرك عن عروة قال: لما نزلت **﴿والشعراء﴾** إلى قوله **﴿ما لا يفعلون﴾** قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله قد علم الله أنّي منهم، فأنزل الله **﴿إلا الذين آمنوا﴾** إلى قوله **﴿ينقلبون﴾**، ودوي نحو هذا من طرق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس **﴿يتبعهم الغاؤون﴾** قال: هم الكفار يتبعون ضلال الجنّ، والإنس **﴿في كلّ وادٍ يهيمون﴾** قال: في كلّ لغو يخوضون **﴿وانهم يقولون ما لا يفعلون﴾** أكثر قولهم يكذبون، ثم استثنى منهم، فقال **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ونكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾** قال: ردوا على الكفار كانوا يهجون المؤمنين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً **﴿والشعراء﴾** قال: المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبي ﷺ **﴿يتبعهم الغاؤون﴾** قال: قال غواة الجنّ في كلّ وادٍ يهيمون في كلّ فنّ من الكلام يأخذون. ثم استثنى، فقال **﴿إلا الذين آمنوا﴾** الآية، يعني حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك كانوا يذنبون عن النبي ﷺ، وأصحابه بهجاء المشركين. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه **﴿الغاؤون﴾** قال: هم الرواة. وأخرج ابن مردويه، وابن عسكرك عنه أيضاً **﴿إلا الذين آمنوا﴾** الآية قال: أبو بكر، وعمر، وعليّ، وعبد الله بن رواحة. وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن مردويه عن كعب بن مالك: «أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فكيف ترى فيه؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه، ولسانه، والذي نفسي بيده لكانّ ما ترمونهم به نضح النبل». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد عن أبي سعيد قال: «بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذا عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ: لأنّ

الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، بل هو معلق عن العمل فيه. وقرأ ابن عباس، والحسن (أي منفلت ينفلتون) بالفاء مكان القاف، والتاء مكان الباء من الانفلات بالنون، والفاء الفوقية، وقرأ الباقر بالقاف، والباء من الانقلاب بالنون، والقاف، والموحدة، والمعنى على قراءة ابن عباس، والحسن: أن الظالمين يطعمون في الانفلات من عذاب الله، والانفكاك منه، ولا يقدرّون على ذلك.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿وانه لتنزّل ربّ العالمين﴾** قال: هذا القرآن **﴿نزل به الروح الأمين﴾** قال: جبريل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿نزل به الروح الأمين﴾** قال: جبريل. وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عنه، عن النبي ﷺ في قوله **﴿الروح الأمين﴾** قال: الروح الأمين جبريل، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس. وأخرج ابن النجار في تاريخه عن ابن عباس في قوله **﴿بلسان عربيّ مبين﴾** قال: بلسان قريش، ولو كان غير عربيّ ما فهموه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن بريدة في قوله **﴿بلسان عربيّ مبين﴾** قال: بلسان جرهم. وأخرج مثله أيضاً عنه ابن المنذر، وابن أبي حاتم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن سلام من علماء بني إسرائيل، وكان من خيارهم، فأمن بكتاب محمد، فقال لهم الله **﴿اولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾**. وأخرج البخاري، مسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: «لما نزلت هذه الآية **﴿وانذر عشيرتک الاقربين﴾** دعا رسول الله ﷺ قريشاً، وعم، وخص، فقال: يا معشر قريش اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرّاً، ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤي اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرّاً، ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤي اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرّاً، ولا نفعاً، يا معشر بني قصي اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرّاً، ولا نفعاً، يا معشر بني عبد المطلب اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم ضرّاً، ولا نفعاً، يا فاطمة بنت محمد اتقوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لك ضرّاً، ولا نفعاً إلا أن لكم رحماً، وسابليها ببلالها، وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿الذي يراك حين تقوم﴾** قال: للصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه **﴿الذي يراك حين تقوم﴾** **﴿وتقلبك في الساجدين﴾** يقول: قيامك، وركوعك، وسجودك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً **﴿وتقلبك في الساجدين﴾** قال: يراك، وأنت مع الساجدين تقوم، وتقعّد معهم، وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله **﴿وتقلبك في الساجدين﴾** قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه. ومنه الحديث في الصحيحين، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «هل ترون قبليتي

الكلام». قال القرطبي: رواه إسماعيل عن عبد الله بن عون الشامى، وحديثه عن أهل الشام صحيح، فيما قال يحيى بن معين، وغيره. قال: روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبح الكلام». وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟ قلت: نعم. قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه حتى أنشدته مائة بيت». وأخرج ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد في قوله «وسيعلم الذين ظلموا أني منقلب ينتقلبون» قال: هؤلاء الذين يخربون البيت.

تفسير سورة النمل

قال القرطبي: وهي مكية كلها في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة النمل بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ بِكَ الَّذِيزَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ① هَذَى وَفُتْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ ②
الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا
يُؤْتُونَ بِالْآخِرَةِ زَكَاةً هُمْ أَصْلُهُمْ هُمْ يَمْمَهُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَلْكَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ⑤ وَلِلَّهِ كُلُّ الْآزَاكَةِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ
عَلِيمٍ ⑥ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ إِنِّي أَنَا نَذِيرٌ لِّمَا يَحْذَرُ وَأَوْ مَائِكُمْ يَسْتَأْذِنُ
فَبَسَّ لَمُكْرٍ تَصَلَّوْتَ ⑦ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَنَّ حَوْلَهَا
وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ⑧ يَسُودُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑨ وَأَنَّى صَالٍ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَيَّرَ كَانَهَا جَاءَ وَلَمْ يَدْرِ وَأَرَى مَعَهُ يَتَوَسَّلُ لِي لَا يَخَافُ لَدُنْ
الْمُرْسَلُونَ ⑩ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسْبًا بَعْدَ سُوءِ فَإِنِّي عُفُوٌّ رَحِيمٌ ⑪ وَأَدْجَلْ
يَدُكَ فِي جَيْدِكَ تَخْرُجُ يَعْصَلَةً مِنْ عَيْرِ سُوءٍ فِي شَيْءٍ مَائِنٍ إِنْ رَعَوْنَ وَفُؤِمَةً إِنَّمَا كَاوُ
فَوَا فَيَقِينُ ⑫ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَنَا نَبَأُ مُجَرَّبٌ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑬ وَحَمَدُوا
بِهِ وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ فَلَمَّا وَاعَلُوا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ⑭

قوله ﴿طَسَّ﴾ قد مرَّ الكلام مفصلاً في فواتح السور، وهذه الحروف إن كانت اسماً للسورة، فمحلها الرفع على الابتداء، وما بعده خبره، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هذا اسم هذه السورة، وإن لم تكن هذه الحروف اسماً للسورة، بل مسرودة على نمط التعنيد، فلا محل لها، والإشارة بقوله ﴿تلك﴾ إلى نفس السورة، لأنها قد ذكرت إجمالاً بذكر اسمها، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿آيات القرآن﴾، والجملة خبر المبتدأ الأول على تقدير أنه مرتفع بالإبتداء ﴿وكتاب مبين﴾ قرأ الجمهور بجزء كتاب عطفاً على القرآن أي: تلك آيات القرآن، وآيات كتاب مبين، ويحتمل

يتملى جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يتملى شعراً. وأخرج الديلمي عن ابن مسعود مرفوعاً الشعراء الذين يموتون في الإسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل، والثبور في النار. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة» قال: وأتاه قريظة بن كعب، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، فقالوا: إنا نقول الشعر، وقد نزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأوا، فقرءوا ﴿والشعراء﴾ إلى قوله ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فقال: أنتم هم ﴿وأنكروا الله كثيراً﴾، فقال: أنتم هم. ﴿وأنكروا من بعد ما ظلموا﴾ فقال: أنتم هم، وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: لحسان بن ثابت: «أهج المشركين، فإن جبريل معك». وأخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال: «قيل: يا رسول الله إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوكم، فقام ابن رواحة فقال: يا رسول الله أئذن لي فيه، فقال: أنت الذي تقول ثبت الله؟ فقال: نعم يا رسول الله، قلت: ثبت الله ما أعطاك من حسن تثبيت موسى ونصراً مثل ما نصراً قال: وأنت، ففعل الله بك مثل ذلك، ثم وثب كعب فقال: يا رسول الله أئذن لي فيه؟ فقال: أنت الذي تقول همت؟ قال: نعم يا رسول الله، قلت:

همت سخينة أن تغالب ربهما فلتغلبن مغالب الغلاب فقال: أما إن الله لم ينس ذلك لك، ثم قام حسان، فقال: يا رسول الله أئذن لي فيه، وأخرج لساناً له أسود، فقال: يا رسول الله لو شئت لفريت به المراد، أئذن لي فيه، فقال: اذهب إلى أبي بكر، فليحدثك حديث القوم، وإياهم، وأحسابهم، وأهجم، وجبريل معك. وأخرج أحمد، وابن سعد عن أبي هريرة قال: مرَّ عمر بحسان، وهو ينشد في المسجد، فلحق إليه، فنظر إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، فسكت، ثم التفت حسان إلى أبي هريرة فقال: أنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس؟» قال: نعم. وأخرج ابن سعد من حديث جابر مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حكماً». وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: «إن من الشعر حكماً، ومن البيان سحراً». وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يتملى جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يتملى شعراً». وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يتملى جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يتملى شعراً». قال في الصحاح: وروى القيق جوفه يريه، ورياً: إذا أكله، قال القرطبي: روى إسماعيل بن عباس عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حسن الشعر كحسن الكلام، وقبيح الشعر كقبيح

والإشارة بقوله ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى المنكرين قبله، وهو مبتدأ خبره ﴿لَهُمْ سَوْءُ الْعَذَابِ﴾ قيل: في الدنيا كالقتل والأسر، ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ﴾ أي: هم أشد الناس خساراً، وأعظمهم خيبة، ثم مهد سبحانه مقامة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: يلقي عليك، فتلقاه، وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم، قيل: إن لدن هاهنا بمعنى: عند. وفيها لغات كما تقدم في سورة الكهف ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِهِ﴾ الظرف منصوب بمضمر، وهو أنكر. قال الزجاج: موضع «إذ» نصب، المعنى: أنكر إذ قال موسى أي: أنكر قصته إذ قال لأهله، والمراد بأهله: امرأته في مسيره من مدين إلى مصر، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شبيب، فكنى عنها بلفظ الأهل الدال على الكثرة، ومثله قوله: ﴿مَكْتُوبًا﴾ [طه: 10، القصص: 29]، ومعنى ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾: أبصرتها ﴿وَأَتَيْتُكُمْ بِشَهَابٍ مِّنْ قَبَسٍ﴾ قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بتنوين شهاب، وقرأ الباقر بإضافته إلى قبس، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلاً من شهاب، أو صفة له؛ لأنه بمعنى مقبوس، وعلى القراءة الثانية الإضافة للبيان، والمعنى على القراءتين: أتيتكم بشعلة نار مقبوسة أي: مأخوذة من أصلها. قال الزجاج: من نَوَّنَ جعل قبس من صفة شهاب، وقال الفراء: هذه الإضافة كالإضافة في قولهم: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، أضاف الشيء إلى نفسه لاختلاف أسمائه. وقال النحاس: هي إضافة النوع إلى الجنس كما تقول: ثوب خز، وخاتم حديد، قال: ويجوز في غير القرآن بشهاب قبساً على أنه مصدر، أو بيان، أو حال ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: رجاء أن تستغفروا بها، أو لكي تستغفروا بها من البرء، يقال: صلي بالنار، واصطلى بها إذا استغف بها. قال الزجاج: كل أبيض ذي نور، فهو: شهاب. وقال أبو عبيدة: الشهاب النار، ومنه قول أبي النجم:

كانما كان شهاباً وأقداً أضاء ضوءاً ثم صار خامداً
وقال ثعلب: أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة، والآخر لا نار فيه، والشهاب الشعاع المضيء، وقيل: للكوكب شهاب، ومنه قول الشاعر:

في كفه صعدة مثقفة فيها سنان كشعلة القيس
﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: جاء النار موسى ﴿فَنُودِيَ أَن بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا﴾ أن هي المفسرة لما في النداء من معنى القول، أو هي المصدرية أي: بأن بورك، وقيل: هي المخففة من الثقيلة. قال الزجاج: أن في موضع نصب أي: بأن قال، ويجوز أن يكون في موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله. والأولى أن النائب ضمير يعود إلى موسى. وقرأ أبي، وابن عباس، ومجاهد (أن بوركت النار ومن حولها) حكى ذلك أبو حاتم. وحكى الكسائي عن العرب: بارك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، وكذلك حكى هذا الفراء. قال

أن يكون المراد بقوله ﴿وَكُتَابٍ﴾ القرآن نفسه، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض مع اتحاد الملل، وإن يكون المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، أو نفس السورة، وقرأ ابن أبي عيلة (وكتاب مبين) برفعهما عطفاً على آيات. وقيل: هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف، وإقامة المضاف إليه مقامه أي: وآيات كتاب مبين، فقد وصف الآيات بالوصفين: القرآنية الدالة على كونه مقروءاً مع الإشارة إلى كونه قرآنًا عربياً معجزاً، والكتابية الدالة على كونه مكتوباً مع الإشارة إلى كونه متصفاً بصفة الكتب المنزلة، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة على صفة مع اتحاد الملل، ثم ضم إلى الوصفين وصفاً ثالثاً، وهي: الإبانة لمعانيه لمن يقرؤه، أو هو: من أبان بمعنى: بان، معناه: واتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة. وقدم وصف القرآنية هنا نظراً إلى تقدم حال القرآنية على حال الكتابة، وأخره في سورة الحجر، فقال: ﴿لَآ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مَّبِينٍ﴾ [الحجر: 1] نظراً إلى حالته التي قد صار عليها، فإنه مكتوب، والكتابة سبب القراءة، والله أعلم. وأما تعريف القرآن هنا، وتنكير الكتاب، وتعريف الكتاب في سورة الحجر، وتنكير القرآن، فلصلاحيه كل واحد منهما للتعريف، والتنكير «هذه» ويشري للمؤمنين» في موضع نصب على الحال من الآيات، أو من الكتاب أي: تلك آيات هانية ومبشرة، ويجوز أن يكون في محل رفع على الإبتداء أي: هو هدى، أو هما خبران آخران لتلك، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقتر أي: يهدي هدى، ويبشر بشري. ثم وصف المؤمنين الذي لهم الهدى والبشرى، فقال ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، والموصول في محل جز، أو يكون بدلاً، أو بياناً، أو منصوباً على المدح، أو مرفوعاً على تقدير مبتدأ. والمراد بالصلاة الصلوات الخمس، والمراد بالزكاة الزكاة المفروضة، وجملة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ في محل نصب على الحال، وكثر الضمير للدلالة على الحصر أي: لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، وجعل الخبر مضارعاً للدلالة على التجديد في كل وقت، وعدم الإنقطاع. ثم لما نكر سبحانه أهل السعادة نكر بعدهم أهل الشقاوة، فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، وهم الكفار أي: لا يصدقون بالبعث ﴿زَيْنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ قيل: المراد زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى راوها حسنة. وقيل: المراد أن الله زين لهم الأعمال الحسنة، ونكر لهم ما فيها من خيري الدنيا، والآخرة، فلم يقبلوا ذلك. قال الزجاج: معنى الآية: أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيننا لهم ما هم فيه ﴿فَهُمْ يَعْصُونَ﴾ أي: يترددون فيها متحيرين على الإستمرار لا يهتدون إلى طريقة، ولا يقفون على حقيقة. وقيل: معنى يعصون: يتمنون. وقال قتادة: يلعبون، وفي معنى التحير. قال الشاعر:

ومهم أطرافه في مهمه أعمى الهدى الحائر في العمه

﴿وَأَنْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ المراد بالجيب هو المعروف، وفي القصص ﴿اسلك يدك في جيبك﴾ [القصص: 32]، وفي أنخل من المبالغة ما لم يكن في اسلك ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي: من غير برص، أو نحوه من الآفات، فهو احتراس. وقوله: ﴿تخرج﴾ جواب أنخل يدك. وقيل: في الكلام حذف تقديره: أنخل يدك تدخل، وأخرجها تخرج، ولا حاجة لهذا الحذف، ولا ملجئ إليه. قال المفسرون: كانت على موسى مدرعة من صوف لا كم لها ولا إزار، فأدخل يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي تبرق كالبرق، وقوله ﴿ففي تسع آيات﴾ قال أبو البقاء: هو في محل نصب على الحال من فاعل تخرج، وفيه بعد. وقيل: متعلق بمحذوف أي: اذهب في تسع آيات. وقيل: متعلق بقوله: ﴿اللق عصاك﴾، وأنخل يدك في جملة تسع آيات، أو مع تسع آيات. وقيل: المعنى: فهما آيتان من تسع يعني: العصا واليد، فتكون الآيات إحدى عشرة: هاتان، والفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجذب في بوابيهم، والنقصان في مزارعهم. قال النحاس: أحسن ما قيل فيه أن هذه الآية يعني: اليد داخلة في تسع آيات، وكذا قال المهدي، والقشيري. قال القشيري: تقول خرجت في عشرة نفر، وأنت أحدهم أي: خرجت عاشر عشرة، ففي بمعنى: من لقربها منها، كما تقول: خذ لي عشرة من الإبل فيها فحلان أي: منها. قال الأصمعي في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال
في بمعنى من، وقيل: في بمعنى مع ﴿إلى فرعون وقومه﴾ قال الفراء: في الكلام إضمار أي: إنك مبعوث، أو مرسل إلى فرعون وقومه، وكذا قال الزجاج. ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ الجملة تعليل لما قبلها ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي: جاءتهم آياتنا التي على يد موسى حال كونها مبصرة أي: واضحة بينة كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله: ﴿وآتيناهم الناقة مبصرة﴾ [الإسراء: 59] قال الأخفش: ويجوز أن تكون بمعنى مبصرة على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا. وقرأ علي بن الحسين، وقتادة (مبصرة) بفتح الميم، والصاد أي: مكاناً يكثر فيه التبصر، كما يقال: الولد مجبنة ومبحلة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ أي: لما جاءتهم قالوا هذا القول أي: سحر واضح. ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ أي: كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها، قالوا للحال، وانتصاب ﴿ظلموا وعلوا﴾ على الحال أي: ظالمين عالين، ويجوز أن ينتصبا على العلة أي: الحامل لهم على ذلك الظلم والعلو. ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف أي: ﴿جحدوا بها﴾ جحدوا ظلماً وعلواً. قال أبو عبيدة: والباء في (وجحدوا بها) زائدة أي: وجحدوها. قال الزجاج: التقدير: وجحدوا بها ظلماً وعلواً: شركاً، وتكبيراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، وهم يعلمون أنها من عند الله ﴿فانظروا﴾ يا محمد ﴿كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي: تفكر في ذلك، فإن فيه معتبراً

ابن جرير: قال: بورك من في النار، ولم يقل: بورك على النار، على لغة من يقول: باركك الله أي: بورك على من في النار، وهو: موسى، أو على من في قرب النار لا أنه كان في وسطها. وقال السدي: كان في النار ملائكة، والنار هنا هي مجرد نور، ولكنه ظن موسى أنها نار، فلما وصل إليها وجدها نوراً. وحكي عن الحسن، وسعيد بن جبير: أن المراد بمن في النار هو الله سبحانه أي: نوره. وقيل: بورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذي جعلها على تلك الصفة. قال الواحدي: ومذهب المفسرين: أن المراد بالنار النور، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾، وفيه تعجيب لموسى من ذلك ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ الضمير للشان، أنا الله العزيز الغالب القاهر الحكيم في أمره وفعله. وقيل: إن موسى قال: يا رب من الذي ناداني؟ فأجابه الله سبحانه بقوله: إنه أنا الله، ثم أمره سبحانه: بأن يلقي عصاه؛ ليعرف ما أجراه الله سبحانه على يده من المعجزة الخارقة، وجملة ﴿واللق عصاك﴾ معطوفة على بورك، وفي الكلام حذف، والتقدير: فإلقاها من يده، فصارت حية ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ قال الزجاج: صارت العصا تتحرك كما يتحرك الجان، وهي الحية البيضاء، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها، وجمع الجان جنان، وفي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم. وقال الكبي: لا صغيرة ولا كبيرة ﴿ولى مبشراً﴾ من الخوف ﴿ولم يعقب﴾ أي: لم يرجع. يقال: عقب فلان إذا رجع، وكل راجع معقب، وقيل: لم يقف، ولم يلتفت. والأول أولى، لأن التعقيب هو: الكر بعد الفر، فلما وقع منه ذلك قال الله سبحانه ﴿يا موسى لا تخف﴾ أي: من الحية وضررها ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي: لا يخاف عندي من أرسلته برسائلي، فلا تخف أنت. قيل: وبقي الخوف عن المرسلين ليس في جميع الأوقات، بل في وقت الخطاب لهم؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون. ثم استثنى استثناء منقطعاً، فقال ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ أي: لكن من آتى في ظلم نفسه بالمعصية ﴿ثم بدل حسناً﴾ أي: توبة وندماً ﴿بعد سوء﴾ أي: بعد عمل سوء ﴿فإني غفور رحيم﴾، وقيل: الاستثناء من مقدر محذوف أي: لا يخاف لدي المرسلون، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلا من ظلم ثم بدل إلخ، كذا قال الفراء. قال النحاس: الاستثناء من محذوف محال، لأنه استثناء من شيء لم يذكر. وروي عن الفراء أنه قال: إلا بمعنى الواو. وقيل: إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف. والمعنى: إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد، واختار هذا النحاس، وقال: علم من عصى منهم، فاستثناه فقال: إلا من ظلم، وإن كنت قد غفرت له كآثم، وداود، وإخوة يوسف، وموسى بقتله القبطي. ولا مانع من الخوف بعد المغفرة، فإن نبينا ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كان يقول: «وددت أني شجرة تعضد»

للمعتبرين. وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم في البحر على تلك الصفة الهائلة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ﴾ يعني: تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين في الشجرة ﴿وَمِنْ حَوْلِهَا﴾ يعني: الملائكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: كان الله في النور نودي من النور ﴿وَمِنْ حَوْلِهَا﴾ قال: الملائكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً قال: ناداه الله، وهو في النور. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ﴾ قال: بوركت النار. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: في مصحف أبي بن كعب: (بوركت النار ومن حولها)، أما النار، فيزعمون: أنها نور رب العالمين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ قال: قس. وأخرج عبد بن حميد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الاسماء والصفات من طريق أبي عبيدة، عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لا ينعام، ولا ينبغي له أن ينعام. يخفض القسط، ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجاب النور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره. ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. والحديث أصله مخرَج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرقبيه، فقال له: أدخل يدك في جيبك، فأنخلها. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله ﴿وَأَسْتَقْبَلَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظِلْمًا وَعُلُوًّا﴾ قال: تكبراً، وقد استيقنتها أنفسهم، وهذا من التقديم والتأخير.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْكَلِمَةُ إِلَهُ الْإِلَهِ لَصَلَّاهُ عَنْ كَبِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأْتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مِنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٦٦﴾ وَخَيْرٌ مِنْهُ جُودُهُ مِنْ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٦٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْمِلُنَّكُمْ شَيْئًا وَهُمْ عَلَى شِرْكٍ وَأَنْ يَتَذَكَّرُوا ﴿٦٨﴾ تَبَسَّرَ سَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَرْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى رَحْمَتِكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذِلَّةً عَلَى رَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْكَاسِبِينَ ﴿٦٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْإِنْسِيَّةِ ﴿٧٠﴾ لَأَلْبِسَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأْتِيَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنِ ثُبِينٍ ﴿٧١﴾ نَمَكْتُ غَيْرَ بَصِيرٍ فَقَالَ أَمَلْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ. وَجِئْتُكَ مِنْ سَنٍّ بَكَرٍ بَعِينٍ ﴿٧٢﴾ إِنْ رَيْدَتْ أَمْرًا تَبْلُغْهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشَ عَزِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْيُنَهُمْ فَضَلَّوْهُ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٧٤﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ التَّيْنِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُحْفُونَ وَمَا تُمْنُونَ ﴿٧٥﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع في قصة داود، وابنه سليمان، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هي كالبيان، والتقرير لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6]، والتأني في ﴿عَلِيمًا﴾ إما للنوع أي: طائفة من العلم، أو للتعظيم أي: علماً كثيراً، والواو في قوله ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للعطف على محذوف، لأن هذا المقام مقام الفاء؛ فالتقدير: ولقد آتيناهما علماً، فعلماً به، وقالوا: الحمد لله، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبقاً بعمل القلب، وهو العزم على فعل الطاعة، وترك المعصية ﴿لِذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فضلنا بالعلم، والنبوة، وتسخير الطير، والجن، والإنس، ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعاً منهم. وفي الآية دليل على شرف العلم، وارتفاع محله، وأن نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده، وإن من أوتيها فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومنح شرفاً جليلاً ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي: ورثه العلم والنبوة. قال قتادة، والكلبي: كان لداود تسعة عشر ولداً نكراً، فورث سليمان من بينهم نبوته، ولو كان المراد وراثته المال لم يخص سليمان بالذكر؛ لأن جميع أولاده في ذلك سواء، وكذا قال جمهور المفسرين، فهذه الوراثة هي وراثة مجازية كما في قوله ﷺ: «العلماء وراثتنا الأنبياء»، ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ قال سليمان: هذه المقالة مخاطباً للناس تحثاً بما أنعم الله به عليه، وشكر النعمة التي خصه بها، وقدم منطق الطير، لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره. قال الفراء: منطق الطير كلام الطير، فجعل كمنطق الرجل، وأنشد قول حميد بن ثور:

عجيب لها أن يكون غناؤها فصيحاً ولم يغفر بمنطقها فماً
ومعنى الآية: فهمنا ما يقول الطير. قال جماعة من المفسرين: إنه علم منطق جميع الحيوانات، وإنما ذكر الطير؛ لأنه كان جنساً من جنده يسير معه لتظليله من الشمس. وقال قتادة، والشعبي: إنما علم منطق الطير خاصة، ولا يعترض ذلك بالنملة، فإنها من جملة الطير، وكثيراً ما تخرج لها أجنحة، فتطير، وكذلك كانت هذه النملة التي سمع كلامها، وفهمه، ومعنى ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾: كل شيء تدعو إليه الحاجة: كالعلم، والنبوة، والحكمة، والمال، وتسخير الجن، والإنس، والطير، والرياح، والحوش، والنواب، وكل ما بين السماء والأرض. وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد نفسه بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا بخالف، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه، والإشارة بقوله ﴿إِنْ هَذَا﴾ إلى ما تقدم نكره من التعليم، والإيتاء ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر الواضح الذي لا يخفى على أحد، أو المظهر لفضيلتنا

ويحتمل أن يكون جواباً للامر. قال أبو حيان: أما تخريجه على جواب الامر، فلا يكون إلا على قراءة الأعمش، فإنه قرأ (لا يحطكم) بالجزم بدون نون التوكيد، وأما مع وجود نون التوكيد، فلا يجوز ذلك إلا في الشعر. قال سيبويه: وهو قليل في الشعر، شبهوه بالنهي حيث كان مجزوماً. وقرأ أبي (ادخلوا مساكنكم)، وقرأ شهر بن حوشب (مساكنكم) وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وقتادة وعيسى الهمداني (لا يحطمنكم) بضم اللام، وفتح الحاء، وتشديد الطاء، وقرأ ابن أبي إسحاق، ويعقوب، وأبو عمرو في رواية بسكون نون التوكيد، وجملة **﴿وهم لا يشعرون﴾** في محل نصب على الحال من فاعل يحطمنكم أي: لا يشعرون بحطكم، ولا يعلمون بمكانكم، وقيل: إن المعنى: والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقاتلتها، وهو بعيد **﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾** قرأ ابن السميع (ضحكاً)، وعلى قراءة الجمهور يكون ضاحكاً حالاً مؤكدة؛ لأنه قد فهم الضحك من التبسم، وقيل: هي حال مقفزة؛ لأن التبسم أول الضحك، وقيل: لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبيناً له، وقيل: إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير، وعلى قراءة ابن السميع يكون ضحكاً مصدراً منصوباً بفعل محذوف، أو في موضع الحال، وكان ضحك سليمان تعجباً من قولها، وفهمها، واهتدائها إلى تحذير النمل **﴿وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** قد تقدم بيان معنى أوزعني قريباً في قوله: **﴿فهم يوزعون﴾** [النمل: 17، فصلت: 19] قال في الكشف: وحقيقة أوزعني: أجعلني أزع شكر نعمتك عندي، وكفه، وأرتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكراً لك. انتهى. قال الواحدي: أوزعني أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي، يقال: فلان موزع بكذا أي: مولع به. انتهى. قال القرطبي: وأصله من وزع، فكانه قال: كفني عما يسخطك. انتهى. والمفعول الثاني لأوزعني هو: أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وقال الزجاج: إن معنى أوزعني: أمتني أن أكفر نعمتك، وهو تفسير باللازم، ومعنى **﴿وعلى والدي﴾**: الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه، وذلك يستوجب الشكر منه لله سبحانه، ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه إلى سوابقها، ولا سيما النعم الدينية، فقال **﴿وإن أعمل صالحاً ترضاه﴾** أي: عملاً صالحاً ترضاه مني، ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلًا في زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق الطلب بها، فقال **﴿وأنخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾**، والمعنى: أنخلني في جملتهم، وأثبت اسمي في أسمائهم، واحشروني في زمرةهم إلى دار الصالحين، وهي الجنة، اللهم وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبي الكريم، فتقبل ذلك مني، وتفضل علي به، فأني وإن كنت مقصراً في العمل، ففضلك هو سبب الفوز بالخير، فهذه الآية منادية بأعلى صوت، وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المؤمنين

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير﴾ الحشر الجمع أي: جمع له جنوده من هذه الأجناس. وقد أطل المفسرون في نكر مقدار جنده، وبالف كثير منهم مبالغة تستبعد العقل، ولا تصح من جهة النقل، ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر **﴿فهم يوزعون﴾** أي: لكل طائفة منهم وزعة تروء، أولهم على آخرهم، فيقفون على مراتبهم، يقال: وزعه يزعه وزعاً: كفه، والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم أي: يرده، ومنه قول النابغة:

على حين عابت المشيب على الصبا
وقلت لأمأ أصح والشيب وازع
وقول الآخر:

ومن لم يزع له لبه وحيأؤه
فليس له من شيب فؤديه وازع
وقول الآخر:

ولا يزع النفس للجوج عن الهوى
من الناس إلا وافر العقل كامله
وقيل: من التوزيع بمعنى التفريق، يقال: القوم أوزاع أي: طوائف **﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾** حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام، ويكون غاية لما قبلها، والمعنى: فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية، وهو إتيانهم على واد النمل أي: فهم يسيرون ممنوعاً بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ، وعلى واد النمل، متعلق باتوا، وعدي بعلى: لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون. والمعنى: أنهم قطعوا الوادي، وبلغوا آخره، ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعاً للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله: **﴿الذين جابوا الصخر بالواد﴾** [الفجر: 9] إلا الكسائي، فإنه وقف بالياء، قال: لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل. قال كعب: واد النمل بالطائف. وقال قتادة، ومقاتل: هو بالشام **﴿قالت نملة﴾** هذا جواب إذا، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت، ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة **﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾** جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب، والمساكن هي الأمكنة التي يسكن النمل فيها.

قيل: وهذه النملة التي سمعها سليمان هي أنثى ببليد تأنث الفعل المسند إليها. ورد هذا أبو حيان، فقال: لحاق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة، بل يصح أن يقال في المنكر: قالت، لأن نملة، وإن كانت بالتاء، فهي مما لا يتميز فيه المنكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتانيته، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه نكر، أو أنثى، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة، ولا بالتعرض لاسم النملة، ولما نكر من القصص الموضوع، والأحاديث المكنوية. وقرأ الحسن، وطلحة، ومعمربن سليمان «نملة»، والنمل بضم الميم، وفتح النون بزنة رجل وسمرة. وقرأ سليمان التيمي بضميتين فيهما. **﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾** الحطم للكسر، يقال: حطمته حطماً أي: كسرتة كسراً، وتحطم تكسر، وهذا النهي هو في الظاهر للنمل، وفي الحقيقة لسليمان، فهو من باب: لا أرينك هاهنا، ويجوز أن يكون بدلاً من الامر،

مكوثاً كقعد يقعد قعوداً. وقيل: إن الضمير في مكث لسليمان. والمعنى: بقي سليمان بعد التقفد والتوعد زماناً غير طويل، والأول أولى **﴿فقال لحطت بما لم تحط به﴾** أي: علمت ما لم تعلمه من الأمر، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته، ولعل في الكلام حنفاً، والتقدير: فمكث الهدهد غير بعيد، فجاء، فعوتب على مغيبه، فقال معتذراً عن ذلك: **﴿لحطت بما لم تحط به﴾**. قال الفراء: ويجوز إدغام التاء في الطاء، فيقال: لحط، وإدغام الطاء في التاء، فيقال: أحت **﴿وجئتك من سبأ بنباً يقين﴾** قرأ الجمهور (من سبأ) بالصرف على أنه اسم رجل، نسب إليه قوم، ومنه قول الشاعر:

الواربون وتيم في نرى سبأ قد غض أعناقهم جلد الجواميس
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح الهمزة، وترك الصرف على أنه اسم مدينة، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل، وقال: سبأ اسم مدينة تعرف بمارب اليمن بينهما وبين صنعاء ثلاثة أيام. وقيل: هو اسم امرأة سميت بها المدينة. قال القرطبي: والصحيح أنه اسم رجل كما في كتاب الترمذي من حديث فروة بن مسيك المرادي، قال ابن عطية: وخفي هذا على الزجاج، فخطب خطب عشواء. وزعم الفراء: أن الرؤاسي سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ، فقال: ما أدري ما هو؟ قال النحاس: وأبو عمرو أجل من أن يقول هذا، قال: والقول في سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل، فإن صرفته، فلأنه قد صار اسماً للحى، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف. انتهى.

وأقول: لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس، وهو أيضاً اسم رجل من قحطان، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، ولكن المراد هنا أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه في مدينة سبأ مما وصفه، وسيأتي في آخر هذا البحث من الماثور ما يوضح هذا، ويؤيده، ومعنى الآية: أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين، والنبا هو الخبر الخطير الشأن، فلما قال الهدهد لسليمان ما قال، قال له سليمان: وما ذاك؟ فقال **﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾**، وهي بلقيس بنت شرحبيل، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ، والجملة هذه كالبیان، والتفسير للجملة التي قبلها أي: تلك النبا يقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء **﴿وأوتيت من كل شيء﴾** فيه مبالغة، والمراد: أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التي تحتاجها، وقيل: المعنى: أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً، فحنف شيئاً؛ لأن الكلام قد دل عليه **﴿ولها عرش عظيم﴾** أي: سرير عظيم، ووصفه بالعظم؛ لأنه كما قيل: كان من ذهب طوله ثمانون نراعاً، وعرضه أربعون نراعاً، وارتفاعه في السماء ثلاثون نراعاً مكلل بالدر، والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر. وقيل: المراد بالعرش هنا الملك، والأول أولى لقوله **﴿إليك ياتيني بعرشها﴾** قال ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن ذات ملك

بالتفضل منك لا بالعمل منهم كما قال رسولك الصانق المصدق فيما ثبت عنه في الصحيح: «سَدُوا، وقاربوا، واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمني الله برحمته»، فإذا لم يكن إلا تفضلك الواسع، فترك طلبه منك عجز، والتفريط في التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع. ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس، وما جرى بينها وبين سليمان، وذلك بدلالة الهدهد، فقال **﴿وتفقد الطير﴾** التفقد تطلب ما غاب عنك، وتعزف أحواله، والطير اسم جنس لكل ما يطير، والمعنى أنه تطلب ما فقد من الطير، وتعزف حال ما غاب منها، وكانت الطير تصحبه في سفره، وتظله بأجنحتها **﴿فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾** أي: ما للهدهد لا أراه؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذي تستعمله العرب كثيراً، وقيل: لا حاجة إلى ادعاء القلب، بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد، كأنه قال: مالي لا أراه هل ذلك لسائر يستره عني، أو لشيء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب، فقال: أم كان من الغائبين، وأبو محيصن، وهشام، وأيوب (مالي) بفتح الياء، وكذلك قرؤوا في يس **﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾** [يس: 22] بفتح الياء، وقرأ بإسكانها في الموضعين حمزة، والكسائي، ويعقوب، وقرأ الباقون بفتح التي في يس، وإسكان التي هنا. قال أبو عمرو: لأن هذه التي هنا استفهام، والتي في يس نفى، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد الإسكان **﴿لأعذبته عذاباً شديداً أو لأبجته﴾**.

اختلفوا في هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال مجاهد، وابن جريج: هو أن ينتف ريشه جميعاً. وقال يزيد بن رومان: هو أن ينتف ريش جناحيه، وقيل: هو أن يحبس مع أضداده، وقيل: أن يمنعه من خدمته، وفي هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد. وقوله: **﴿عذاباً﴾** اسم مصدر، أو مصدر على حذف الزوائد كقوله: **﴿أنتبكم من الأرض نباتاً﴾** [نوح: 17]. **﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾** قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشددة بعدها نون الوقاية، وقرأ الباقون بنون مشددة فقط، وهي نون التوكيد، وقرأ عيسى بن عمر بنون مشددة مفتوحة غير موصولة بالياء، والسلطان المبين هو الحجة البينة في غيبته **﴿فمكث غير بعيد﴾** أي: الهدهد مكث زماناً غير بعيد. قرأ الجمهور (مكث) بضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها، ومعناه في القراءتين: أقام زماناً غير بعيد. قال سيبويه: مكث يمكث

(1) (قوله قرأ ابن كثير إلخ) فيه مخالفة للمشهور، وهو أن ابن كثير وابن محيصن وهشام وأيوب وعاصم والكسائي يقرؤون بفتح الياء في الموضعين، وحمزة ويعقوب واليزار يقرؤون بإسكانها فيهما، والباقيون بفتح التي في يس وإسكان التي هنا، فليعلم اهـ مصحح القرآن.

عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار ﴿وجئتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه، قيل: كانوا مجوساً، وقيل: زنادقة ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي يعملونها، وهي عبادة الشمس، وسائر أعمال الكفر ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ أي: صدّهم الشيطان بسبب تلك التزيين عن الطريق الواضح، وهو الإيمان بالله وتوحيده ﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى ذلك ﴿الآ يسجدوا﴾ قرأ الجمهور بتشديد (الآ). قال ابن الأنباري: الوقف على فهم لا يهتدون غير تامّ عند من شدّد الآ لأن المعنى: وزين لهم الشيطان الآ يسجدوا. قال النحاس: هي أن دخلت عليها لا، وهي في موضع نصب. قال الأخفش: أي: زين لهم أن لا يسجدوا لله بمعنى لئلا يسجدوا لله. وقال الكسائي: هي في موضع نصب بصدّهم أي: فصدّهم الآ يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا، فهو على الوجهين مفعول له. وقال اليزيدي: إنه بدل من أعمالهم في موضع نصب. وقال أبو عمرو: في موضع خفض على البديل من السبيل. وقيل: العامل فيها لا يهتدون أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، وتكون لا على هذا زائدة كقوله: ﴿وما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: 12]، وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة، لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود: إما بالتزيين، أو بالصدّ، أو بمنع الاهتداء، وقد رجح كونه علة للصدّ الزجاج، ورجع الفراء كونه علة لزين، قال: زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، ثم حذف اللام. وقرأ الزهري، والكسائي بتخفيف (الآ). قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياء يقرؤونها إلا بالتخفيف على نية الأمر، فتكون «الآ» على هذه القراءة حرف، تنبيه واستفتاح، وما بعدها حرف نداء، وأسجدوا فعل أمر، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ألا يا أسجدوا، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا الألف من يا، وهمزة الوصل من أسجدوا خطأ، ووصلوا الياء بسين أسجدوا، فصارت صورة الخط ألا يسجدوا، والمندادى محذوف، وتقديره: ألا يا هؤلاء أسجدوا، وقد حذفت العرب المندادى كثيراً في كلامها، ومنه قول الشاعر:

ألا يا أسلمي يا دارمي على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر
وقول الآخر:

ألا يا أسلمي تمت أسلمي تمت أسلمي ثلاث تحيات وإن لم تكلم
وقول الآخر أيضاً:

ألا يا أسلمي يا هند هند بني بكر

وهو كثير في أشعارهم. قال الزجاج: وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود نون قراءة التشديد، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد قراءة التشديد. قال الزجاج: ولقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم الرجوع بعد ذلك إلى نكرهم. والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه، وكذا قال النحاس، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿الآ يسجدوا﴾ معترضة من كلام

الهدد، أو من كلام سليمان، أو من كلام الله سبحانه. وفي قراءة عبد الله بن مسعود (هل لا تسجدوا) بالفوقية، وفي قراءة أبي ﴿الآ تسجدوا﴾ بالفوقية أيضاً ﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ أي: يظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما، يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأ، والخبء ما خبأته. قال الزجاج: جاء في التفسير أن الخبء هاهنا بمعنى: القطر من السماء، والنبات من الأرض. وقيل: خبء الأرض كنوزها، ونباتها. وقال قتادة: الخبء السرّ. قال النحاس: أي: ما غاب في السموات والأرض. وقرأ أبي، وعيسى بن عمر (الخب) بفتح الباء من غير همز تخفيفاً، وقرأ عبد الله، وعكرمة، ومالك بن دينار (الخبأ) بالالف. قال أبو حاتم: وهذا لا يجوز في العربية. وردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب: أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن. وفي قراءة عبد الله «يخرج الخب من السموات والأرض». قال الفراء: ومن وفي يتعاقبان، والموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً لله سبحانه، أو بدلاً منه، أو بياناً له، ويجوز أن يكون في محل نصب على المدح، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجملة ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ معطوفة على يخرج، قرأ الجمهور بالتحتيّة في الفعلين، وقرأ الجحري، وعيسى بن عمر، وحفص، والكسائي بالفوقية للخطاب، أما القراءة الأولى فليكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة، وأما القراءة الثانية فليكون قراءة الزهري، والكسائي فيها الأمر بالسجود، والخطاب لهم بذلك، فهذا عندهم من تمام تلك الخطاب. والمعنى: أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الإنساني من الخفاء يعلمه له كما يخرج ما خفي في السموات والأرض. ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته، وجليل سلطانه، ووجوب توحّده، وتخصّيصه بالعبادة، قال ﴿الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم﴾ قرأ الجمهور (العظيم) بالجرّ نعتاً للعرش، وقرأ ابن محيصن بالرفع نعتاً للربّ، وخَصّ العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك في المرفوع إلى رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب إن الله لم ينعم على عبد نعمة، فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل. قال الله عزّ وجلّ ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وإي نعمة أفضل مما أعطى داود وسليمان.

أقول: ليس في الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه الله، والذي تدلّ عليه أنهما حمداً الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿وورث سليمان داود﴾ قال: ورثه نبوّته، وملكه، وعلمه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: «خرج سليمان بن داود

شبية، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿أُولَئِكَ يَتَنَبَّأُونَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ قال: خبر الحق الصديق البين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس كل سلطان في القرآن حجة، ونكر هذه الآية، ثم قال: وأي سلطان كان للهدد؟ يعني: أن المراد بالسلطان الحجة لا السلطان الذي هو الملك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿أَحْطَطَ بِمَا لَمْ تَحْطُ بِهِ﴾ قال: اطلعت على ما لم تطلع عليه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَجَفَّتْكَ مِنْ سِيبٍ﴾ قال: سباً بارض اليمن، يقال لها: مارب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ ﴿بَيْنَا يَقِينُ﴾ قال: بخبر حق. وأخرج ابن أبي شعبة، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿إِنِّي وَجِئْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ قال: كان اسمها بلقيس بنت نزي شيرة، وكانت صلباء شعراء. وروي عن الحسن، وقتادة، وزهير بن محمد: أنها بلقيس بنت شراحيل، وعن ابن جريج بنت نزي شرح. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، وابن عساكر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إحدى أبوي بلقيس كان جنياً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ قال: سرير كريم من ذهب، وقوامه من جوهر ولؤلؤ، حسن الصنعة غالي الثمن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾ قال: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿أَذْهَبَ بِكَتْنِي كَذَا﴾ ﴿فَالَيْهِ لَرْيَمٌ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَهِي لَخَبِيرٌ بِكَيْدِكُمْ﴾ ﴿إِنَّهُمْ مِنْ شَيْئَانِ وَإِلَهُهُمُ اللَّهُ الْأَرْحَمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَمْ تَقُولُوا أَنَّا نَأْتِيكُمْ بِبُرْهَانٍ﴾ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْءٍ وَالَّذِي نَأْتِيكُمْ بِهِ نَصِينٌ﴾ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَسَّكُوا قَرْيَةً أَسَدُّوها وَجَعَلُوا آيَةً أَهْلِهَا أُولَئِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَإِلَى مَرْجَلِهِمُ إِلَهُهُمْ يَهْدِيهِمْ قَاطِرٌ يَوْمَ يَرْجِعُ الْفُرْسُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَا آتَيْنِي اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فِرْعَوْنُ﴾ ﴿أَتَيْعَ إِلَهُهُمْ فَلَنَّا يَنْتَهِمُ يَحْضُرُ لَا يَفْلَحُ لَهُمْ يَوْمَ يَأْتُونُ سُلَيْمَانَ﴾ ﴿قَالَ عِفْيَةُ بْنُ لُحْيَانَ أَيْكَ يَوْمَ قُلْنَا مِنْ تَقَالِيدِ وَلِي عَلَيْهِ لَقَوُّ أَيْمَنَ﴾ ﴿قَالَ الْإِسْلَامُ عِنْدَ مَوْلَى مِنَ الْكُتُبِ أَنَا أَيْكَ يَوْمَ قُلْنَا أَنْ رَدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ سُلَيْمَانُ عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ قَبْلِ رَبِّي يَلِكُوفِي مَا تَكُرُّ أَمْ أَكْفَرُ وَمَنْ شَكَرَ فَلَمَّا يَشْكُرُ لِقَبِيهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ﴾

جملة ﴿قال سننظر﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر أي: قال سليمان للهدد: سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة ﴿أصدقت﴾ فيما قلت ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ هذه الجملة الاستفهامية في محل نصب على أنها مفعول سننظر، وأم هي: المتصلة، وقوله ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ أبلغ من قوله أم كذبت، لأن المعنى: من الذين اتصفوا بالكذب، وصار خلقاً

يستسقي بالناس، فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك، فلما أن تسقيننا، وإما أن تهلكنا، فقال سليمان للناس: ارجعوا، فقد سقيتم بدعوة غيركم. وأخرج الحاكم في المستدرک عن جعفر بن محمد قال: أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن، والإنس، والدواب، والطيور، والسباع، وأعطى كل شيء، ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة، حتى إذا أراد الله أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يستودع علم الله وحكمته أخاه، وولد داود كانوا أربعمائة وثمانين رجلاً أنبياء بلا رسالة. قال الذهبي: هذا باطل، وقد رويت قصص في عظم ملك سليمان لا تطيب النفس بذكر شيء منها، فالإمسك عن ذكرها أولى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿فَهُمْ يَوْمُوعُونَ﴾ قال: يدفعون. وأخرج ابن جرير عنه في قوله ﴿فَهُمْ يَوْمُوعُونَ﴾ قال: جعل لكل صنف وزعة ترد أولاه على آخرها لئلا تتقدم في السير كما تصنع الملوك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿أَوْزَعْنِي﴾ قال: ألهمني. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. وأخرج ابن أبي شعبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس أنه سئل كيف تفقد سليمان الهدد من بين الطير؟ قال: إن سليمان نزل منزلاً، فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدد يدل سليمان على الماء، فأراد أن يسأله عنه، ففقد، قيل: كيف ذاك والهدد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب، ويضع له الصبي الحبال، فيغييبها، فيصيده؟ فقال: إذا جاء القضاء ذهب البصر. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿لَا عَيْنُهُ عَذِيباً شَدِيداً﴾ قال: انتف ريشه كله، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين، وروي ابن أبي حاتم عن الحسن قال: كان اسم هدد سليمان غير.

وأقول: من أين جاء علم هذا للحسن رحمه الله، وهكذا ما رواه عنه ابن عساكر: أن اسم النملة حرس، وإنها من قبيلة يقال لها: بنو الشيصان، وإنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب، وهو رحمه الله أروع الناس عن نقل الكذب، ونحن نعلم أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء، ونعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان، أو بإحد من أصحابه، فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب، وقد أمرنا: أن لا نصنقهم، ولا نكذبهم، فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روى: ﴿حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج﴾، فليس ذلك فيما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم. وقد كررنا التنبيه على مثل هذا عند عروض نكر التفاسير الغريبة. وأخرج ابن أبي

لهم. والنظر هو التأمل والتصفح، وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار، والكشف عن الحقائق، وعدم قبول خبر المخبرين تقليداً لهم، واعتماداً عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه. ثم بين سليمان هذا النظر الذي وعد به، فقال: ﴿أذهب بكتابي هذا فالقه إليهم﴾ أي: إلى أهل سبأ. قال الزجاج: في آله خمسة أوجه: إثبات الياء في اللفظ، وحذفها، وإثبات الكسرة للدلالة عليها، وبضم الهاء وإثبات الواو، وبحذف الواو وإثبات الضمة للدلالة عليها، وبإسكان الهاء. وقرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو، وحمره، وأبو بكر. وقرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء. وروي عن هشام وجهان: إثبات الياء لفظاً، وحذفها مع كسر الهاء. وقرأ الباقون بإثبات الياء في اللفظ. وقوله ﴿بكتابي هذا﴾ يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب، وأن يكون بدلاً منه، وأن يكون بياناً له، وخَصَّ الهدد بإرساله بالكتاب؛ لأنه المخبر بالقصة، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة ﴿ثم تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: تَنَحَّ عنهم، أمره بذلك ليكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسول الملوك، والمراد بالتنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع، وقيل: معنى التولي: الرجوع إليه، والأول أولى لقوله ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ أي: تأمل، وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وما يتراجعونه بينهم من الكلام ﴿قالت﴾ أي: بلقيس ﴿يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فذهب الهدد، فالقاه إليهم، فسمعها تقول: يا أيها الملأ إلخ، ووصفت الكتاب بالكريم لكونه من عند عظيم في نفسها، فعظمته إجلالاً لسليمان، وقيل: وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن، وقيل: وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوماً بخاتم سليمان، وكرامة الكتاب ختمه كما روي ذلك مرفوعاً، ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب، فقالت ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أي: وإن ما اشتمل عليه من الكلام، وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية، وبعد التسمية ﴿أن لا تعلوا علي﴾ أي: لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك، وأن هي المفسرة، وقيل: مصدريه، ولا ناهية، وقيل: نافية، ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو أن لا تعلوا. قرأ الجمهور (إنه من سليمان وإنه) بكسرهما على الاستثنا، وقرأ عكرمة، وابن أبي عيلة بفتحهما على إسقاط حرف الجر، وقرأ أبي (إن من سليمان وإن بسم الله) بحذف الضميرين، وإسكان النونين على أنهما مفسرتان، وقرأ عبد الله بن مسعود (وإنه من سليمان) بزيادة الواو، وروي ذلك أيضاً عن أبي، وقرأ أشهب العقيلي، وابن السميع (أن لا تغلوا) بالغين المعجمة من الغل، وهو تجاوز الحد في الكبر ﴿وأتوني مسلمين﴾ أي: منقادين للدين مؤمنين بما جئت به ﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري﴾ الملأ أشرف القوم، والمعنى: يا أيها الأشرف أشيروا علي، وبيّنوا

لي الصواب في هذا الأمر، وأجيبوني بما يقتضيه الحزم، وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون في ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها، وفي الكلام حذف، والتقدير: فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشرف قومها، وقالت لهم: يا أيها الملأ إني ألقي إلي، يا أيها الملأ أفتوني، وكَرَّرَ «قالت» لمزيد العناية بما قالت لهم، ثم زادت في التأني، واستجلاب خواطرهم، ليمحضوها النصيح، ويشيروا عليها بالصواب، فقالت ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ أي: ما كنت مبرمة أمراً من الأمور حتى تحضروا عندي، وتشيروا علي. فـ ﴿قالوا﴾ مجيبين لها ﴿نحن أولوا قوة﴾ في العدد والعدة ﴿وولوا بأس شديداً﴾ عند الحرب، واللقاء لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا، وبلدنا، ومملكتنا، ثم فَوَضُوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها، وقوة عقلها، فقالوا ﴿والأمر إليك﴾ أي: موكل إلى رأيك ونظرك ﴿فانظري ماذا تأمرين﴾ أي: تأملي ماذا تأمرينا به، فنحن سامعون لأمرك مطيعون له، فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسسوها﴾ أي: إذا دخلوا قرية من القرى خربوا مبانيها، وغيروا معانيها، وأتلفوا أموالها، وفرقوا شمل أهلها ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي: أهانوا أشرفها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أذلة، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك، وتستحكم لهم الوطأة، وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة. قال الزجاج: أي: إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة، والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم، وقد صدقها الله سبحانه فيما قالت، فقال سبحانه ﴿وكنك يفعلون﴾ أي: مثل ذلك الفعل يفعلون. قال ابن الأنباري: الوقف على قوله ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ وقف تام، فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها ﴿وكنك يفعلون﴾، وقيل: هذه الجملة من تمام كلامها، فتكون من جملة مقول قولها، وعلى القول الأول تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ثم لما قدّمت لهم هذه المقدمة، وبيّنت لهم ما في دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة، أوضحت لهم وجه الرأي عندها، وصرحت لهم بصوابه، فقالت ﴿وإني مرسله إليهم بهدية﴾ أي: إني لجرب هذا الرجل بإرسال رسلي إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال، فإن كان ملكاً أرضيناه بذلك، وكفينا أمره، وإن كان نبياً لم يرضه ذلك، لأن غاية مطلبه، ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين، فلا ينجينا منه إلا إجابته، ومتابعته، والتدين بدينه، وسلوك طريقته، ولهذا قالت ﴿فانظرة بم يرجع المرسلون﴾ الفاء للعطف على مرسله، وبم متعلق بيرجع، والمعنى: إني ناظرة فيما يرجع به رسلي المرسلون بالهدية من قبول أو ردّ فعاملة بما يقتضيه ذلك، وقد طوّل المفسرون في نكر هذه الهدية، وسيأتي في آخر البحث بيان ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب، والصحة ﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان، والمراد بهذا المضمهر الجنس، فلا ينافي كونهم

إياها، وبعثه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأولين. وقيل: استدعاء العرش قبل وصولها؛ ليربها القدرة التي هي من عند الله، ويجعله ليلًا على نبوته، وقيل: أراد أن يختبر عقلها، ولهذا **﴿قال نكروا لها عرشها﴾** إلخ، وقيل: أراد أن يختبر صق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم، والقول الأول هو الذي عليه الأكثر **﴿قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾** قرأ الجمهور بكسر العين، وسكون الفاء، وكسر الراء، وسكون المثناة التحتية، وبالتاء، وقرأ أبو رجاء، وعيسى الثقفي، وابن السميع، وأبو السمال (عفريه) بفتح التحتية بعدها تاء تانيث منقلبة هاء، رويت هذه القراءة عن أبي بكر الصديق، وقرأ أبو حيان بفتح العين، والعفريت المارد الغليظ الشديد. قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء: عفر، وعفريه، وعفريت، وقال قتادة: هو الداهية، وقيل: هو رئيس الجن، قال ابن عطية: وقرأت فرقة (عفر) بكسر العين جمعه على عفار، ومما ورد من أشعار العرب مطابقاً لقراءة الجمهور ما أنشده الكسائي:

فقال شيطان لهم عفريت ما لكم مكث ولا تبسيت
ومما ورد على القراءة الثانية قول ذي الرمة:
كانه كوكب في إثر عفريه مصوب في سواد الليل منقضب
ومعنى قول العفريت: أنه سيأتي بالعرش إلى سليمان قبل أن يقوم من مجلسه الذي يجلس فيه للحكومة بين الناس **﴿واني عليه لقوي أمين﴾** إني لقوي على حمله أمين على ما فيه. قيل: اسم هذا العفريت كودن نكره النحاس عن وهب بن منبه، وقال السهيلي: نكوان، وقيل: اسمه دعوان، وقيل: صخر. وقوله **﴿أتيك﴾** فعل مضارع، وأصله أتيك بهمزتين، فأبليت الثانية ألفاً، وقيل: هو اسم فاعل **﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾** قال أكثر المفسرين: اسم هذا الذي عنده علم من الكتاب أصف بن برخيا، وهو من بني إسرائيل، وكان وزيراً لسليمان، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. قال ابن عطية، وقالت فرقة: هو سليمان نفسه، ويكون الخطاب على هذا للعفريت: كان سليمان استبطاً ما قاله العفريت، فقال له تحقيراً له **﴿أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾**، وقيل: هو جبريل، وقيل: الخضر، والأول أولى. وقد قيل غير ذلك بما لا أصل له. والمراد بالطرف تحريك الأجفان، وفتحها للنظر، وارتداده انضمامها. وقيل: هو بمعنى المطروف أي: الشيء الذي ينظره، وقيل: هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك: أفعل ذلك في لحظة. قاله مجاهد. وقال سعيد بن جبير: إنه قال لسليمان: انظر إلى السماء، فما طرف حتى جاء به، فوضعه بين يديه، والمعنى: حتى يعود إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء، والأول أولى هذه الأقوال. ثم الثالث **﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾** قيل: في الآية حذف، والتقدير: فأنذ له سليمان، فدعا الله، فأتى به، فلما رآه

جماعة كما يدل عليه قولها: «بم يرجع المرسلون»، وقرأ عبد الله (فلما جاءوا سليمان) أي: الرسل، وجملة **﴿قال تمودون بمال﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر، والاستفهام للاستنكار أي: قال: منكرًا لإمدادهم له بالمال مع علو سلطانه وكثرة ماله. وقرأ حمزة بإدغام نون الإعراب في نون الوقاية، والباقيون بنونين من غير إدغام، وأما الياء، فإن نافعاً، وأبا عمرو، وحمزة يثبتونها وصلًا، ويحذفونها وقفًا، وابن كثير يثبتها في الحالين، والباقيون يحذفونها في الحالين. وروي عن نافع: أنه يقرأ بنون واحدة **﴿فما أتاني الله خير مما أتاكم﴾** أي: ما أتاني من النبوة، والملك العظيم، والأموال الكثيرة خير مما أتاكم من المال الذي هذه الهدية من جملته. قرأ أبو عمرو، ونافع، وحفص (أتاني الله) بياء مفتوحة، وقرأ يعقوب بإثباتها في الوقف، وحذفها في الوصل، وقرأ الباقيون بغير ياء في الوصل والوقف. ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدم، فقال **﴿بل أنتم بهيتكم تفرحون﴾** توبيخاً لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء، وأما أنا فلا أفرح بها، وليست الدنيا من حاجتي، لأن الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحدًا من العالمين، ومع ذلك أكرمني بالنبوة. والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإضرار بهم، والخط عليهم **﴿ارجع إليهم فلبثاتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾** أي: قال سليمان للرسول: ارجع إليهم أي: إلى بلقيس وقومها، وخطب المفرد ها هنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل، إما لأن الذي سيرجع هو الرسول فقط، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا، وخطابهم معه فيما سبق افتتاناً في الكلام. وقرأ عبد الله بن عباس (ارجعوا)، وقيل: إن الضمير يرجع إلى الهدهد، واللام في لثاتينهم جواب قسم محذوف. قال النحاس: وسمعت ابن كيسان يقول: هي لام توكيد ولام أمر ولام خفض، وهذا قول الحذاق من النحويين لأنهم يرتبون الشيء إلى أصله، وهذا لا يتهيأ إلا لمن رتب في العربية، ومعنى **﴿لا قبل لهم﴾**: لا طاقة لهم بها، والجملة في محل جر صفة لجنود **﴿ولنخرجنهم﴾** معطوف على جواب القسم أي: لنخرجنهم من أرضهم التي هم فيها **﴿أنلة﴾** أي: حال كونهم أنلة بعد ما كانوا أمرة، وجملة **﴿وهم صاغرون﴾** في محل نصب على الحال، قيل: وهي حال مؤكدة؛ لأن الصغار هو الأنلة، وقيل: إن المراد بالصغار هنا الأسر، والاستعباد، وقيل: إن الصغار الإهانة التي تسبب عنها الأنلة. ولما رجع الرسول إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان، وأخبر جبريل سليمان بذلك، ف**﴿قال﴾** سليمان **﴿يا أيها الملأ أئكم ياتيني بعرشها﴾** أي: عرش بلقيس الذي تقدم وصفه بالعظم **﴿قبل أن ياتوني مسلمين﴾** أي: قبل أن تاتيني هي وقومها مسلمين. قيل: إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه، ويسلموا، لأنها إذا أسلمت، وأسلم قومها لم يحل أخذ أموالهم بغير رضاهم. قال ابن عطية: وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هي بعد مجيء هديتها، وردّه

شبية في المصنف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿وإني مرسله إليهم بهدية﴾** قال: أرسلت بلبنة من ذهب، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله **﴿اتقونن بمال﴾** الآية. وقال ثابت البناني: أهدت له صفائح الذهب في أربعة الديباج. وقال مجاهد: جوارى لباسهن لباس الغلمان، وغلمان لباسهم لباس الجوارى. وقال عكرمة: أهدت مائتي فرس على كل فرس غلام وجارية، وعلى كل فرس لون ليس على الآخر. وقال سعيد بن جبير: كانت الهدية جواهر، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره. وأخرج ابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله **﴿قيل أن ياتوني مسلمين﴾** قال: طائعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: اسم العفريت صخر. وأخرج ابن أبي شعبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿قيل أن تقوم من مقامك﴾** قال: من مجلسك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿قال للذي عنده علم من الكتاب﴾** قال: هو أصف بن برخيا، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم. وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: في قراءة ابن مسعود (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أنظر في كتاب ربي ثم أتيت به قبل أن يرتد إليك طرفك) قال: فتكلم ذلك العالم بكلام نخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله **﴿قيل أن يرتد إليك طرفك﴾** قال: قال لسليمان: انظر إلى السماء، قال: فما أطرف حتى جاءه به، فوضعه بين يديه. وأخرج ابن أبي شعبة، وابن المنذر، وابن عساكر عن ابن عباس قال: لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء، ولكن انشقت به الأرض، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان.

قَالَ تَكْرُرًا لِمَا عَرَفْنَا نَظَرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عُرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا إِلَهَ رَيْنَ قِيلَ وَكَأَيِّ سَيِّئٍ ﴿١١﴾ وَصَدَقَ مَا كَانَتْ تُبَدِّلُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوِي كَذِبٍ ﴿١٢﴾ قِيلَ لِمَا أَذْهَلُ أَلْصَحَّ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبِطَتْ لُجَّةٌ وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَتْ إِنَّهُ مَرْجٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٣﴾

قوله: **﴿نكروا لها عرشها﴾** التذكير التغيير، يقول: غيروا سيربها إلى حال تنكره إذا رآته. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وقيل: غير بزيادة ونقصان. قال الفراء، وغيره: إنما أمر بتكريره؛ لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً، فأراد أن يمتحنها، وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان، فيولد له منها ولد فييقون مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار، وقوله **﴿تنظرون﴾** بالجزم على أنه جواب الأمر، وبالجزم قرأ الجمهور، وقرأ أبو حيان بالرفع على الاستثناف **﴿اتهددي﴾** إلى معرفته، أو إلى الإيمان بالله **﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾** إلى ذلك **﴿فلما جاءت﴾** أي: بلقيس إلى سليمان

سليمان مستقراً عنده أي: رأى العرش حاضراً لديه **﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾** الإشارة بقوله **﴿هذا﴾** إلى حضور العرش، ليبلوني أي: ليختبرني أشكره بذلك، وأعترف أنه من فضله من غير حول مني ولا قوة، أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به. قال الأخفش: المعنى: لينظر أشكر أم أكفر، وقال غيره: معنى **﴿ليبلوني﴾**: ليتعبدني، وهو مجاز، والأصل في الابتلاء الاختبار **﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾**؛ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها، والمعنى: أنه لا يرجع نفع ذلك إلا إلى الشاكر **﴿ومن كفر﴾** بترك الشكر **﴿فإن ربي غني﴾** عن شكره **﴿كريم﴾** في ترك المعالجة بالعقوبة بنزع نعمه عنه، وسلبه ما أعطاه منها، وأم في **﴿أم أكفر﴾** هي المتصلة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿أذهب بكتابي هذا فإلقه إليهم ثم تول عنهم﴾** يقول: كن قريباً منهم **﴿فانظر ماذا يرجعون﴾** فانطلق بالكتاب حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها، فقرأ عليها، فإذا فيه **﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾**، وأخرج ابن مردويه عنه **﴿كتاب كريم﴾** قال: مختوم، وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران: أن النبي ﷺ كان يكتب: «باسمك اللهم» حتى نزلت **﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾**. وأخرج أبو داود في مراسيله عن أبي مالك مرفوعاً مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿اتقوني في أمري﴾** قال: جمعت رؤوس مملكتها فشاورتهم في رأيها، فأجمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت: أرسل إليهم بهدية، فإن قبلها، فهو ملك أقاتله، وإن ردّها تابعت، فهو: نبي، فلما بنت رسلها من سليمان علم خبرهم، فأمر الشياطين، فمؤهوا ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا، وقصوره ذهب وفضة، فلما دخلوا عليه بهديتها **﴿قال لتموتن بمال﴾**، ثم قال سليمان: **﴿إيكم ياتيني بعرشها قبل أن ياتوني مسلمين﴾** فقال كاتب سليمان: أرفع بصرك، فرفع بصره، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسريير **﴿قال نكروا لها عرشها﴾** فنزع منه فصوصه، ومرافقه، وما كان عليه من شيء فـ **﴿قيل﴾** لها **﴿أهكذا عرشك؟﴾** قالت كأنه هو. **﴿النمل: 42﴾** وأمر الشياطين فجعلوا لها صرحاً ممرّداً من قوارير، وجعل فيها تماثيل السمك، فـ **﴿قيل لها اسخلي الصرح﴾** **﴿النمل: 44﴾** فكشفت عن ساقها فإذا فيها شعر، فعند ذلك أمر بصنعة النورة فصنعت، فقيل لها **﴿إنه صرح ممرّد من قوارير قالت ربّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** **﴿النمل: 44﴾**. وأخرج ابن أبي شعبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله **﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسسوها﴾** قال: إذا أخذوها عنوة أخربوها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: يقول الربّ تبارك وتعالى: **﴿وكنكذ يفعلون﴾**. وأخرج ابن أبي

سليمان، لأنها توهمت أنه أراد تغريقها في اللجة، والأول أولى **﴿وأسلمت مع سليمان﴾** متابعة له داخله في دينه **﴿الله رب العالمين﴾** التفتت من الخطاب إلى الغيبة، قيل: لإظهار معرفتها بالله، والأولى أنها التفتت لما في هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء، ولكونه علماً للذات.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله **﴿نكروا لها عرشها﴾** قال: زيد فيه، ونقص لـ **﴿ينظر تهتدي﴾** قال: للنظر إلى عقلها فوجبت ثابتة العقل. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله **﴿وأتينا العلم من قبلها﴾** قال: من قول سليمان. وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد نحوه. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله **﴿فلما رآته حسبته لجة﴾** قال: بحراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في أثر طويل أن سليمان تزوجها بعد ذلك. قال أبو بكر بن أبي شيبة: ما أحسنه من حديث. قال ابن كثير في تفسيره بعد حكايته لقول أبي بكر بن أبي شيبة: بل هو منكر جداً، ولعله من أوهم عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم.

والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب بما يوجد في صحفهم كروايات كعب، وهوب سامحهما الله فيما نقلنا إلى هذه الأمة من بني إسرائيل من الأوابد، والغرائب، والعجائب مما كان، ومما لم يكن، ومما حُرف، وبذل، ونسخ، انتهى. وكلامه هذا هو شعبة مما قد كثرنا في هذا التفسير، ونبهنا عليه في عدة مواضع، وكنت أظن أنه لم ينبّه على ذلك غيري. فالحمد لله على الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف. وأخرج البخاري في تاريخه، والعقيلي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من صنعت له الحمامات سليمان»، وروي عنه مرفوعاً من طريق أخرى رواها الطبراني، وابن عدي في الكامل، والبيهقي في الشعب بلفظ «أول من دخل الحمام سليمان فلما وجد حرّه قال: أوه من عذاب الله».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِئْرَانٍ يَبْعَثُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِأَسْتَفْزِفُونَ بِالْأَلْفِ نِسَاءً فَلَا تُحْسِنُونَ إِلَهُكُمْ ثُمَّ هُوَ يَرْجِيهِمْ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَكُفِّرْنَا بَك وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ مَلِكُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ فَتَنُونَ ﴿١٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَنُو إِسْمَاعِيلَ يُعَادِبُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُجِلِّدُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا قَاتِلُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُمْ مُنَافِقُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَقَوْا رَبَّهُمْ مَا شَهِدْنَا مَهْلَكَ آلِهِمْ وَلَئِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٢٠﴾ وَذَكَرُوا مَعَكَ وَكَرَرُوا مَعَكَ وَهُمْ لَا يُخِفُونَ ﴿٢١﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا قَاتِلُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُمْ مُنَافِقُونَ ﴿٢٣﴾ وَذَكَرُوا مَعَكَ وَكَرَرُوا مَعَكَ وَهُمْ لَا يُخِفُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله **﴿ولقد أرسلنا﴾** معطوف على قوله: **﴿ولقد أتينا داود﴾** [الزمل: 15] واللام هي الموطنة للقسم، وهذه

﴿قيل﴾ لها، والقاتل: هو سليمان، أو غيره بأمره **﴿هكذا عرشك﴾** لم يقل: هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقيناً لها فلا يتم الاختبار لعقلها **﴿قالت كأنه هو﴾** قال مجاهد: جعلت تعرف، وتذكر، وتعجب من حضوره عند سليمان، فقالت: كأنه هو. وقال مقاتل: عرفته، ولكنه شبهت عليهم كما شبهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم. وقال عكرمة: كانت حكيمة، قالت: إن قلت: هو هو خشيت أن أكذب، وإن قلت: لا خشيت أن أكذب، فقالت: كأنه هو، وقيل: أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له **﴿وأتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾** قيل: هو من كلام بلقيس: أي: أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش **﴿وكنا مسلمين﴾** منقابين لأمره. وقيل: هو من قول سليمان أي: أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس، وقيل: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة من قبلها أي: من قبل مجيئها، وقيل: هو من كلام قوم سليمان. والقول الثاني أرجح من سائر الأقوال **﴿ووصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾** هذا من كلام الله سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما أدعته من الإسلام، ففاعل صدّ هو ما كانت تعبد أي: منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبد، وهي الشمس، قال النحاس: أي: صدّها عبادتها من دون الله، وقيل: فاعل صدّ هو الله أي: منعها الله ما كانت تعبد من دونه فتكون «ما» في محل نصب، وقيل: الفاعل سليمان أي: ومنعها سليمان ما كانت تعبد، والأول أولى، والجملة مستأنفة للبيان كما ذكرنا، وجملة **﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾** تعليل للجملة الأولى أي: سبب تأخرها عن عبادة الله، ومنع ما كانت تعبد عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر. قرأ الجمهور (إنها) بالكسر. وقرأ أبو حيان بالفتح. وفي هذه القراءة وجهان: أحدهما: أن الجملة بدل مما كانت تعبد. والثاني أن التقدير: لأنها كانت تعبد، فسقط حرف التعليل **﴿قيل لها انخلي الصرح﴾** قال أبو عبيدة: الصرح للقصر. وقال الزجاج: الصرح الصحن. يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها. قال ابن قتيبة: الصرح بلاط اتخذ لها من قوارير، وجعل تحته ماء وسمك. وحكى أبو عبيد في الغريب أن الصرح كل بناء عال مرتفع، وأن الممرّد الطويل **﴿فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها﴾** أي: فلما رأت الصرح بين يديها حسبته أنه لجة، واللجة معظم الماء، فلذلك كشفت عن ساقها؛ لتخوض الماء، فلما فعلت ذلك **﴿قال﴾** سليمان **﴿إنه صرح ممرّد من قوارير﴾** الممرّد المحكوك للملس، ومنه الامرد، وممرّد الرجل إذا لم تخرج لحيته، قاله الفراء. ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق لها. والممرّد أيضاً المطول، ومنه قيل: للحصن ما رد، ومنه قول الشاعر:

غوت صباحاً باكراً فوجنتهم قبيل الضحى في السابري الممرّد أي: الدروع الواسعة الطويلة، فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت، واستسلمت، و **﴿قالت ربّ إني ظلمت نفسي﴾** أي: بما كنت عليه من عبادة غيرك، وقيل: بالظن الذي توهمت في

القصة من جملة بيان قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6] و ﴿صَالِحًا﴾ عطف ببيان، و ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تفسير للرسل، وإن هي المفسرة، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بأن أعبدا الله، وإذا في ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ هي الفجائية أي: ففاجئوا التفرق، والاختصاص، والمراد بالفريقان المؤمنون منهم، والكافرون، ومعنى الاختصاص: أن كل فريق يخاصم على ما هو فيه، ويزعم أن الحق معه، وقيل: إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا؟ وقيل: أحد الفريقين صالح، والفريق الآخر جميع قومه، وهو ضعيف ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: قال صالح للفريق الكافر منهم منكراً عليهم: لم تستعجلون بالسَّيِّئَةِ قبل الحسنة؟ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة. والمعنى: لم تؤخروا الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون: اثنتا يا صالح بالعذاب ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ هلا تستغفرون الله، وتتوبون إليه من الشرك ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ رجاء أن ترحموا، أو كي ترحموا فلا تعذبوا، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازاً، إما لأن العقاب من لوازمه، أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح، والكلام للذين أنهم ﴿قَالُوا طَئِيرُنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أصله طيرنا، وقد قرئ بذلك، والتطير التشاؤم: أي: تشاءمنا منك، وبمن معك ممن أجابك، ودخل في دينك، وذلك لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة، واشقاقهم بها، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً من الأمور نفروا طائراً من وكره فإن طار يمنة ساروا، وفعلوا ما عزموا عليه، وإن طار يسرة تركوا ذلك فلما قالوا ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ليس ذلك بسبب الطير الذي تتشاءمون به، بل سبب ذلك عند الله، وهو ما يقدره عليكم، والمعنى: أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَىٰ مِنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا يَطَّيَّرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 131]، ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان، فقال: ﴿يَلِ لَكُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ﴾ أي: تمتحنون، وتختبرون وقيل: تعذبون بذنوبكم، وقيل: يفتنكم غيركم، وقيل: يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة، أو بما لأجله تطيرون، فأضرب عن نكر الطائر إلى ما هو السبب الداعي إليه ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح، وهو الحجر ﴿تِسْعَةَ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة رجال من أبناء الأشراف، والرهط اسم للجماعة، فكانهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة، والجمع أرهط، وأراهط، وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار عاقر الناقة، ثم وصف هؤلاء بقوله ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ أي

شأنهم، وعملهم الفساد في الأرض الذي لا يخالطه صلاح، وقد اختلف في أسماء هؤلاء التسعة اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التويل بنكره ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا بالله، هذا على أن تقاسموا فعل أمر، ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً مفسراً لقالوا: كأنه قيل: ما قالوا؟ فقال: تقاسموا، أو يكون حالاً على إضمار قد أي: قالوا ذلك متقاسمين، وقرأ ابن مسعود (يفسدون في الأرض ولا يصلحون * تقاسموا بالله) وليس فيها قالوا، واللام في ﴿لَنَنْبِيئَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ جواب القسم أي: لنأتيه بغتة في وقت البيات، فنقتله وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيهِ﴾ قرأ الجمهور بالنون للمتكلم في لنبيئته، وفي لنقولن، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ حمزة، والكسائي بالفوقية فيهما على خطاب بعضهم لبعضهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ مجاهد، وحמיד بالتحذية فيهما، والمراد بولي صالح رهطه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي: ما حضرنا قتلهم، ولا ندري من قتله، وقتل أهله، ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى، وقيل: إن المهلك بمعنى الإهلاك، وقرأ حفص⁽¹⁾، والسلمي مهلك بفتح الميم، واللام، وقرأ أبو بكر، والمفضل بفتح الميم، وكسر اللام ﴿وَإِنَّا لَصَائِقُونَ﴾ فيما قلناه. قال الزجاج: وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك، ولا رأوه، وكان هذا مكرأ منهم، ولهذا قال الله سبحانه ﴿وَمَكْرُؤُهُمْ﴾ أي: بهذه المحالفة ﴿وَمَكْرُؤُهُمْ﴾ جازيناهم بفعلهم، فأهلكناهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكر الله بهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾ أي: انظر ما انتهى إليه أمرهم الذي بنوه على المكر، وما أصابهم بسببه ﴿إِنَّا لَمُرْنَاهُمْ وَقَوْمُهُمْ لَجَمْعَيْنِ﴾ قرأ الجمهور بكسر همزة أنا، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعاصم بفتحها، فمن كسر جعله استثناءً، قال الفراء، والزجاج: من كسر استأنف، وهو يفسر به ما كان قبله، كأنه جعله تابعاً للعاقبة، كأنه قال: العاقبة إنا لمرناهم، وعلى قراءة الفتح يكون التقدير بأننا لمرناهم، أو لانا لمرناهم، وكان تامة، وعاقبة فاعل لها، أو يكون بدلاً من عاقبة، أو يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هي أنا لمرناهم، ويجوز أن تكون كان ناقصة، وكيف خبرها، ويجوز أن يكون خبرها أنا لمرنا. قال أبو حاتم: وفي حرف أبي (أن لمرناهم). والمعنى في الآية: أن الله نمر التسعة الرهط المذكورين، ودمر

(1) (قوله وقرأ حفص إلخ) في العبارة قلب إذ المشهور أن حفصاً والسلمي قرأ بفتح الميم وكسر اللام وأباً بكر والمفضل بفتحهما ولعله سهو اهـ مصحح القرآن.

قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك، ومعنى التأكيد بأجمعين: أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم، وجملة ﴿فَتَلَكَ بَيْوتَهُمْ خَاوِيَةً﴾ مقررة لما قبلها. قرأ الجمهور (خاوية) بالنصب على الحال. قال الزجاج: المعنى: فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية، وكذا قال الفراء، والنحاس: أي: خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن. وقال الكسائي وأبو عبيدة: نصب خاوية على القطع، والأصل فتلك بيوتهم الخاوية، فلما قطع منها الألف، واللام نصبت كقوله: ﴿وَلَهُ الْبُيُوتُ وَاصِبًا﴾ [النحل: 52]. وقرأ عاصم بن عمر، ونصر بن عاصم، والجحدري، وعيسى بن عمر برفع (خاوية) على أنه خبر اسم الإشارة، وبيوتهم بدل، أو عطف بيان، أو خبر لاسم الإشارة، وخاوية خبر آخر، والباء في ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ للسببية أي: بسبب ظلمهم ﴿إِنْ فِي لَدُنْكَ التَّدْمِيرُ، وَالْإِهْلَاكُ لَايَةً﴾ عظيمة ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يتصفون بالعلم بالأشياء ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم صالح، ومن آمن به ﴿وَكُنَّا يَتَقُونَ﴾ الله، ويخافون عذابه.

وَلَوْ مَا إِذْ كُنَّا يَتَوَفَّيهِمْ أَنفَادُ الْمَلَائِكَةِ وَأَنْتُمْ تُبْعِدُونَ ﴿١٤٠﴾
 أَتُنْكُم تَأْتُونَ الْبَاقِيَ وَسَوْفَ يُنَادِي الْمَلَائِكَةُ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مَّجْهُولُونَ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٢﴾ مَا
 كُنَّا جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ لَّوِ لَوْ قَرَّبْتُمْ إِلَهُكُمْ
 أَنَّهُمْ يَطْلُبُهُمْ ﴿١٤٣﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَعْلَلْنَاهُ إِلَّا أَمْرًا نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى الْفَعْلِ
 ﴿١٤٤﴾ وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٤٥﴾ قُلِ الْمُنْذَرُ الَّذِي كَانَ عَلَى
 عِبَادِ اللَّهِ اضْطُرًّا اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُتْرَكُونَ ﴿١٤٦﴾ أَنَّنِي خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْتُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتُ بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا
 كُنَّا لَنَكُونُ أَنْ تُلْهِمُوا شَجَرَةً أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١٤٧﴾ أَمَّنْ
 جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ
 الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٨﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ
 الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيُخَفِّفُ الْعُسْرَ وَيَجْعَلُهُمْ خُلَافَةَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ
 فَلَيْسَ مَا تَدَّكُرُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ
 الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٥٠﴾
 أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْفَعُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلِ
 مَا شَاءَ رَبُّنَا إِنَّ كُتُبَ مَسِيدِيكَ ﴿١٥١﴾ قُلِ لَا يَمْلِكُ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 الْقَبْرُ إِلَّا إِلَّا رَأَى يَوْمَهُ الْيَاقِينَ يَعْلَمُوكَ ﴿١٥٢﴾ بَلْ أَذْرَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ بَلْ
 هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ تَنْهَاهَا عَنْهُمْ ﴿١٥٣﴾

(1) (قوله وقرا عاصم) وقرا أبو بكر عن عاصم اهـ مصحح القرآن.

عظيم قدرته خير أما يشركون به من الأصنام، وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي. بل هي كقول الشاعر:

اتهجوه ولسنت له بكفء فشركمما الخيركمما الفداء

فيكون ما في الآية من باب التهكم بهم، إذ لا خير فيهم أصلاً. وقد حكى سيبويه أن العرب تقول: السعادة أحب إليك أم الشقاوة، ولا خير في الشقاوة أصلاً. وقيل: المعنى: أثواب الله خير، أم عقاب ما تشركون به؟ وقيل: قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً. وقيل: المراد من هذا الاستفهام الخبر. قرأ الجمهور (تشركون) بالفوقية على الخطاب، وهي اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب (يشركون) بالتحية، و«ام» في «أما يشركون» هي المتصلة، وأما في قوله «أمن خلق السموات والأرض» فهي المنقطعة. وقال أبو حاتم: تقديره «ألهمتكم خير أم من خلق السموات والأرض، وقد رآه خلقه؟» وقيل: المعنى: أعبادة ما تعبدون من أولئكم خير، أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ فتكون أم على هذا متصلة، وفيها معنى التوبيخ، والتهكم كما في الجملة الأولى. وقرأ الأعشى (أمن) بتخفيف الميم «وأنزل لكم من السماء ماء» أي: نوعاً من الماء، وهو المطر «فأنابتنا به حدائق» جمع حديقة. قال الفراء: الحديقة البستان الذي عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط، فهو البستان، وليس بحديقة. وقال قتادة، وعكرمة: الحدائق النخل «ذات بهجة» أي: ذات حسن، ورونق. والبهجة: هي الحسن الذي يتبهج به من رآه، ولم يقل: نوات بهجة على الجمع، لأن المعنى: جماعة حدائق «وما كان لكم أن تنبتوا شجرها» أي: ما صنع لكم أن تغفلوا ذلك، ومعنى هذا النفي: الحظر، والمنع من فعل هذا أي: ما كان للبشر، ولا يتهاى لهم ذلك، ولا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود. ثم قال سبحانه موبخاً لهم، ومقرعاً «إله مع الله» أي: هل معبود مع الله الذي تقدم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به، ويجعل شريكاً له في العبادة، وقرئ (إلهاً مع الله) بالنصب على تقدير: أتدعون إلهاً. ثم اضرب عن قريعتهم وتوبيخهم بما تقدم، وانتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، فقال «بئس هم قوم يعبدون» أي: يعبدون بالله غيره، أو يعبدون عن الحق إلى الباطل، ثم شرع في الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها، فقال «أمن جعل الأرض قراراً» القرار المستقر أي: لحامها، وسواها بحيث يمكن الإستقرار عليها. وقيل: هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله: «أمن خلق السموات والأرض»، ولا ملجئ لذلك، بل هي وما بعدها إضراب وانتقال من التوبيخ والتقرير بما قبلها إلى التوبيخ والتقرير بشيء آخر «وجعل خلالها أنهاراً» الخلال: الوسط. وقد تقدم تحقيقه في قوله: «وفجرنا خلالها نهراً» [الكهف: 33] «وجعل لها رواسي» أي: جبلاً ثوابت تمسكها، وتمنعها من الحركة «وجعل بين

البحرين حاجزاً» الحاجز: المانع أي: جعل بين البحرين من قدرته حاجزاً. والبحران هما العذب والمالح، فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك، ولا ذاك يدخل في هذا، وقد مر بيانه في سورة الفرقان «إله مع الله» أي: إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا الله فهل إله في الوجود يصنع صنعه، ويخلق خلقه؟ فكيف يشركون به ما لا يضُر ولا ينفع «بئس أكثرهم لا يعلمون» توحيد ربهم، وسلطان قدرته «أمن يجيب المضطر إذا دعاه» هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم، والمضطر اسم مفعول من الاضطرار: وهو المكروب المجهد الذي لا حول له ولا قوة. وقيل: هو المذنّب، وقيل: هو الذي عراه ضرٌّ من فقر، أو مرض، فالجاء إلى التضرع إلى الله. واللام في المضطر لجنس لا للاستغراق، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه، وألّا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والوجه في إجابة دعاء المضطر أن تلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص، وقطع النظر عما سوى الله، وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين، وإن كانوا كافرين، فقال: «حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعاوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه النكوت من الشاكركين» [يونس: 22] وقال: «فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون» [العنكبوت: 65] فاجابهم عند ضرورتهم، وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم «ويكشف السوء» أي: الذي يسوء العبد من غير تعيين، وقيل: هو الضر، وقيل: هو الجور «ويجعلكم خلفاء الأرض» أي: يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله بعد انقراضهم، والمعنى: يهلك قرناً، وينشئ آخرين، وقيل: يجعل أولئكم خلفاً منكم، وقيل: يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم، ويأمرهم «إله مع الله» الذي يوليكم هذه النعم الجسام «قليلاً ما تذكرون» أي: تنكروا قليلاً ما تنكرون. قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب. وقرأ أبو عمرو، وهشام، ويعقوب بالتحية على الخبر رداً على قوله: «بئس أكثرهم لا يعلمون» واختار هذه القراءة أبو حاتم «أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر» أي: يرشدكم في الليالي المظلمات إذا سافرتهم في البر، أو البحر. وقيل: المراد: مفاوز البر التي لا أعلام لها، ولجج البحار، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها «ومن يرسل الرياح نشرأ بين يدي رحمته» والمراد بالرحمة هنا المطر أي: يرسل الرياح بين يدي المطر، وقبل نزوله «إله مع الله» يفعل ذلك، ويوجده «تعالى الله عما يشركون» أي: تنزه، وتقس عن وجود ما يجعلونه شريكاً له «أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده» كانوا يقرّون بأن الله سبحانه هو الخالق، فالزمهم الإعادة أي: إذا قدر على الابتداء

منها» أي: بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة، ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشد منه، فقال ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ فلا يدركون شيئاً من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك، وعمون جمع عم: وهو من كان أعمى القلب، والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شيء مما يوصل إلى العلم بها، فمن قال: إن معنى الآية الأولى أعني ﴿بَلْ أَدَارِكْ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: إنه كمل علمهم، وتم مع المعاينة فلا بد من حمل قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ على ما كانوا عليه في الدنيا، ومن قال: إن معنى الآية الأولى: الاستهزاء بهم، والتبكيك لهم لم يحتاج إلى تقييد قوله ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ بما كانوا عليه في الدنيا. وبهذا يتضح معنى هذه الآيات، ويظهر ظهوراً بيّناً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾: قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه، وروي مثله عن سفيان الثوري. والأولى ما قدمناه من التعميم، فيدخل في ذلك أصحاب نبينا ﷺ سخولاً أولاً. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، والطبراني عن رجل من بلجهم قال: «قلت: يا رسول الله إلى ما تدعو؟ قال: ادعوا الله وحده الذي إن مسك ضر، فدعوته كشفه عنك»، هذا طرف من حديث طويل. وقد رواه أحمد من وجه آخر فبين اسم الصحابي فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا يونس، حدثنا عبيد بن عبيدة الهجيمي عن أبيه، عن أبي تيمية الهجيمي، عن جابر بن سليم الهجيمي. ولهذا الحديث طرق عند أبي داود، والنسائي. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث عائشة قالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهم، فقد أعظم على الله الفرية» وقالت في آخره: «ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿بَلْ أَدَارِكْ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ قال: حين لا ينفع العلم. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه: أنه قرأ (بل أدرك علمهم في الآخرة) قال: لم يدرك علمهم. قال أبو عبيد: يعني: أنه قرأها بالاستفهام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بَلْ أَدَارِكْ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يقول: غاب علمهم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَلَمْ كُنَّا نُرَبِّهِمْ أَفَلَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا مَنَّانًا مِن قَبْلُ إِن كُنَّا نُرَبِّهِمْ إِلَّا أَطِيعُوا الْوَيْلَ ﴿٧٨﴾ قُلْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ لَوَدَّ إِذْ يُنَادِي النَّاسَ أَنِ اسْمِعُوا لَكُمْ قَوْلِي لَئِنْ كُنْتُمْ مُدْرِكِينَ ﴿٨١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدٌّ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

قدر على الإعادة ﴿وَمَن يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر، والنبات أي: هو خير أم ما تجعلونه شريكاً له مما لا يقدر على شيء من ذلك ﴿وَعَالِهِ مَعَ اللَّهِ﴾ حتى تجعلونه شريكاً ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: حجتكم على أن الله سبحانه شريكاً، أو هاتوا حجتكم أن ثم صانعاً يصنع كصنعه، وفي هذا تبكيك لهم، وتهكم بهم ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة في السموات، والأرض الغيب الذي استأثر الله بعلمه، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ منقطع أي: لكن الله يعلم ذلك، ورفع ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعاً هو على اللغة التيمية كما في قولهم: إلا السعافير وإلا العيس

وقيل: إن فاعل يعلم هو ما بعد إلا، ومن في السموات مفعوله، والغيب بدل من أي: لا يعلم غيب من في السموات، والأرض إلا الله، وقيل: هو استثناء متصل من «من». وقال الزجاج: إلا الله بدل من «من». قال الفراء: وإنما رفع ما بعد إلا لأن ما بعدها خبر كقولهم: ما ذهب أحد إلا أبوك، وهو كقول الزجاج. قال الزجاج: ومن نصب نصب على الاستثناء ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يشعرون متى ينشرون من القبور، وأيان مركبة من أي، وإن. وقد تقدم تحقيقه، والضمير للكفرة. وقرأ السلمي (أيان) بكسر الهمزة، وهي لغة بني سليم، وهي منصوبة بيبعثون، ومعلقة ليشعرون، فتكون هي وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض أي: وما يشعرون بوقت بعثهم، ومعنى ﴿أَيَّانَ﴾: معنى متى ﴿بَلْ أَدَارِكْ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾. قرأ الجمهور (أدرك)، وأصل أدرك تدارك أدغمت التاء في الدال، وجيء بهمة الوصل ليتمكن الإبتداء بالسكان. وقرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمر، وحמיד (بل أدرك) من الإدراك. وقرأ عطاء بن يسار، وسليمان بن يسار، والأعمش (بل أدرك) بفتح لام بل، وتشديد الدال. وقرأ ابن محيصن (بل أدرك) على الاستفهام. وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء وشيبة، والأعمش، والأعرج (بلى أدرك) بِلَاءُ ثبات الباء في بل، وبهمة قطع وتشديد الدال. وقرأ أبي (بل تدارك)، ومعنى الآية: بل تكامل علمهم في الآخرة؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به، وعابنوه. وقيل: معناه: تتابع علمهم في الآخرة، والقراءة الثانية معناها: كمل علمهم في الآخرة مع المعاينة، وذلك حين لا ينفعهم العلم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين. وقال الزجاج: إنه على معنى الإنكار، واستدل على ذلك بقوله فيما بعد ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لم يدرك علمهم علم الآخرة، وقيل: المعنى: بل ضل، وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم، ومعنى القراءة الثالثة كمعنى القراءة الأولى، فافتعل، وتفاعل قد يجيئان لمعنى، والقراءة الرابعة هي بمعنى الإنكار. قال الفراء: وهو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم، وفي الآية قراءات أخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ

التي تعذبا به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ﴾ يقال: ردف الرجل، وأردفته إذا ركبت خلفه، ورفه إذا أتبعه، وجاء في أثره، والمعنى: قل: يا محمد لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعكم، ولحقكم، فتكون اللام زائدة للتأكيد، أو بمعنى اقترب لكم، ودنا لكم، فتكون غير زائدة. قال ابن شجرة: معنى ردف لكم: تبعكم، قال: ومنه ردف المرأة؛ لأنه تبع لها من خلفها، ومنه قول أبي ذؤيب:

عاد السواد بياضاً في مفارقة لا مرحباً ببياض الشيب إذ ردفنا
قال الجوهري: وأردفه لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى. قال خزيمة بن مالك بن نهد:

إذا الجوزاء أُرِفَت الشربا ظننت بآل فاطمة الظنونا
قال الفراء: ردف لكم: دنا لكم، ولهذا قيل: لكم، وقرأ الأعرج (ردف لكم) بفتح الدال، وهي لغة، والكسر أشهر. وقرأ ابن عباس (أزف لكم)، وارتفاع ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ أي: على أنه فاعل ردف، والمراد بعض الذي تستعجلونه من العذاب أي: عسى أن يكون قد قرب، ودنا، وأزف بعض ذلك، قيل: هو عذابهم بالقتل يوم بدر، وقيل: هو عذاب القبر. ثم نكر سبحانه فضله في تأخير العذاب، فقال ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ في تأخير العقوبة، والأولى أن تحمل الآية على العموم، ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ فضله، وإنعامه، ولا يعرفون حق إحسانه، ثم بين أنه مطلع على ما في صدورهم، فقال ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم﴾ أي: ما تخفيه. قرأ الجمهور (تكن) بضم التاء من أكن. وقرأ ابن محيصن، وابن السميع، وحמיד بفتح التاء، وضم الكاف، يقال: كنته بمعنى سترته، وخفيت أثره ﴿وما يعلنون﴾ وما يظهرون من أقوالهم وأفعالهم ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ قال المفسرون: ما من شيء غائب، وأمر يغيب عن الخلق في السماء، والأرض إلا في كتاب مبين إلا هو مبين في اللوح المحفوظ، وغائبة هي من الصفات الغائبة، والتاء للمبالغة. قال الحسن: الغائبة هنا هي: القيامة. وقال مقاتل: علم ما يستعجلون من العذاب هو مبين عند الله، وإن غاب عن الخلق. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه، وغيبه عنهم مبين في أم الكتاب، فكيف يخفى عليه شيء من ذلك، ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب فإنه موقت بوقت، ومؤجل بأجل علمه عند الله فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له؟ ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ وذلك لأن أهل الكتاب تفرقوا فرقاً، وتحزبوا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض، فنزل القرآن مبيناً لما اختلفوا فيه من الحق، فلو اختلفوا به لوجوا فيه ما يرفع اختلافهم ويبلغ تفرقهم ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ أي: وإن القرآن لهدى، ورحمة لمن آمن بالله، وتابع رسوله،

وَمَا يُؤْمِنُونَ ﴿وَمَا يَنْ عَلَيْنَا فِي الْمَسَاءِ وَالْأُصْبَحِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ بِهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿وَلَهُمْ هُكَدَى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِنَّ رَدْفَكَ بَعْضُ يَتَّبِعُ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْقَرِيزُ الْغَلِيظُ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ وَلَا تَسْمِعُ الْقَوْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِينًا ﴿وَمَا آتَى يَدَيَّ الْكُفْرَ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَلَئِنْ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿وَلَمَّا نَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ فِي شَكٍّ مِنَ الْبَعْثِ، وَانْهَمَ عَمُونَ عَنِ النَّظَرِ فِي دَلَالَتِهِ أَرَادَ أَنْ يَبِينُ غَايَةَ شَبْهِهِمْ، وَهِيَ مَجْرَدُ اسْتِبْعَادِ أَحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ بَعْدَ صَيُورِهِمْ تَرَابًا، فَقَالَ

﴿وقال الذين كفروا ائذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون﴾. والعامل في إذا محذوف دل عليه مخرجون تقديره أنبعث، أو نخرج إذا كنا، وإنما لم يعمل فيه مخرجون لتوسط همزة الاستفهام، وإن ولام الإبتداء بينهما. قرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة. وقرأ عاصم، وحمزة باستفهامين، إلا أنهما حققا الهمزتين. وقرأ نافع بهمزة. وقرأ ابن عامر، وورش⁽¹⁾، ويعقوب (إذا) بهمزتين (وإننا) بنونين على الخبر، ورجح أبو عبيد قراءة نافع، ورد على من جمع بين استفهامين؛ ومعنى الآية: أذم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً، ثم أكدوا ذلك الإستبعاد بما هو تكذيب للبعث، فقالوا: ﴿لقد وعدنا هذا﴾ يعنون: البعث ﴿نحن وأبأؤنا من قبل﴾ أي: من قبل وعد محمد لنا، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدرة بالقسم لزيادة التقرير ﴿إن هذا﴾ الوعد بالبعث ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة، وقد تقدم تحقيق معنى الأساطير في سورة المؤمنين، ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث. فأمرهم بالنظر في أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء، وما عوقبوا به، وكيف كانت عاقبتهم، فقال ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، ومعنى النظر هو مشاهدة آثارهم بالبصر فإن في المشاهدة زيادة اعتبار. وقيل: المعنى: فانظروا بقلوبكم، وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسولهم، والأول أولى لأمرهم بالسير في الأرض ﴿ولا تحزن عليهم﴾ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر ﴿ولا تكن في ضيق﴾ الضيق: الحرج، يقال: ضاق الشيء ضيقاً بالفتح، وضيقاً بالكسر قرئ بهما، وهما لغتان. قال ابن السكيت: يقال: في صدر فلان ضيق، وضيق، وهو ما تضيق عنه الصدور. وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ أي: بالعباد

(1) (قوله وورش) صوابه والكسائي اهـ مصحح القرآن.

والمعاني متقاربة. وقيل: المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجيء الساعة وما فيها من فنون الأحوال التي كانوا يستعملونها، وقيل: وقع القول بموت العلماء، وذهب العلم، وقيل: إذا لم يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر. والحاصل أن المراد بوقع وجب، والمراد بالقول مضمونه، أو أطلق المصدر على المفعول أي: المقول، وجواب الشرط ﴿لخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾.

واختلف في هذه الدابة على أقوال، فقيل: إنها فصيلة ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة، ويكون من أشراط الساعة. وقيل: هي دابة ذات شعر، وقوائم طوال يقال لها: الجساسة. وقيل: هي دابة على خلقة بني آدم، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض. وقيل: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن إيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعاً. وقيل: هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة، والمراد أنها هي التي تخرج في آخر الزمان، وقيل: هي دابة ما لها ذنب، ولها لحية، وقيل: هي إنسان ناطق متكلم ينظر أهل البدع، ويراجع الكفار، وقيل: غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره، وقد رجح القول الأول القرطبي في تفسيره.

واختلف من أي موضع تخرج؟ فقيل: من جبل الصفا بمكة، وقيل: تخرج من جبل أبي قبيس. وقيل: لها ثلاث خرجات: خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس، وتكثر الدماء، ثم تكمن، وتخرج في القرى، ثم تخرج من أعظم المساجد، وأكرمها، وأشرفها، وقيل: تخرج من بين الركن والمقام، وقيل: تخرج في تهامة، وقيل: من مسجد الكوفة من حيث فار التنور، وقيل من أرض الطائف، وقيل: من صخرة من شعب أجياد، وقيل: من صدع في الكعبة.

واختلف في معنى قوله: «تكلمهم» فقيل: تكلمهم ببطان الأديان سوى دين الإسلام، وقيل: تكلمهم بما يسوؤهم، وقيل: تكلمهم بقوله تعالى ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي: بخروجها؛ لأن خروجها من الآيات. قرأ الجمهور «تكلمهم» من التكليم، ويدل على قراءة أبي (تنبههم)، وقرأ ابن عباس، وأبو زرعة، وأبو رجاء، والحسن: (تكلمهم) بفتح الفوقية، وسكون الكاف من الكلم، وهو الجرح. قال عكرمة: أي: تسمهم وسماءً، وقيل: تجرحهم، وقيل: إن قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم بفتح الكاف، وسكون اللام، وهو الجرح، والتشديد للتكثير، قاله أبو حاتم. قرأ الجمهور: (إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) بكسر إن على الاستئناف، وقرأ الكوفيون، وابن أبي إسحاق بفتح «أن». قال الأخفش: المعنى على قراءة الفتح (بأن الناس)، وكذا قرأ ابن مسعود (بأن الناس) بالياء. وقال أبو عبيد: موضعها نصب بوقوع الفعل عليها أي: تخبرهم أن الناس، وعلى هذه

وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل ﴿إن ربك يقضي بينهم بحكمه﴾ أي: يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بما يحكم به من الحق، فيجازي المحق، ويعاقب المبطل، وقيل: يقضي بينهم في الدنيا، فيظهر ما حرقوه. قرأ الجمهور (بحكمه) بضم الحاء، وسكون الكاف. وقرأ جناح بكسرهما، وفتح الكاف جمع حكمة ﴿وهو العزيز العليم﴾ العزيز الذي لا يغالب، والعليم بما يحكم به، أو الكثير العلم، ثم أمره سبحانه بالتوكل، وقلة المبالاة، فقال ﴿فتوكل على الله﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما تقدم ذكره، والمعنى: فوُضَّ إليه أمرك، واعتمد عليه فإنه ناصر. ثم علل ذلك بعلمين: الأول قوله ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي: الظاهر، وقيل: المظهر. والعللة الثانية قوله ﴿إنك لا تسمع للموتى﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع، أو كحال الصم الذين لا يسمعون، ولا يفهمون، ولا يهتدون صار ذلك سبباً قوياً في عدم الاعتداد بهم، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم، ولا عقل، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ، ولا يجيبون الدعاء إلى الله. ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه، وتأكيد، فقال ﴿إذا ولوا مبشرين﴾ أي: إذا أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً، فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مديراً. وظاهر نفي إسماع الموتى العموم، فلا يخص منه إلا ما ورد ببليل كما ثبت في الصحيح: أنه ﷺ خاطب القتلى في قلب بدر، فقيل له: يا رسول الله إنما تكلم أجساداً لا أرواح لها، وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا. وقرأ ابن محيصة، وحמיד، وابن كثير، وابن أبي إسحاق (لا يسمع) بالتحنية مفتوحة، وفتح الميم، وفاعله الصم. وقرأ الباقون (تسمع) بضم الفوقية، وكسر الميم من أسمع. قال قتادة: الأصم إذا ولي مديراً، ثم ناديت لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان. ثم ضرب العمى مثلاً لهم، فقال ﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم﴾ أي: ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق إرشاداً يوصله إلى المطلوب منه، وهو: الإيمان، وليس في وسعك ذلك، ومثله قوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ [القصص: 56] قرأ الجمهور بإضافة هادي إلى العمى. وقرأ يحيى بن الحارث، وأبو حيان (بهاد العمى) بتثوين هاد. وقرأ حمزة (تهدي) فعلاً مضارعاً، وفي حرف عبد الله (وما أنت تهدي العمى) ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا﴾ أي: ما تسمع إلا من يؤمن لا من يكفر، والمراد بمن يؤمن بالآيات من يصدق القرآن، وجملة ﴿فهم مسلمون﴾ تعليل للإيمان: أي: فهم منقايون مخلصون. ثم هدد العباد بذكر طرف من أشراط الساعة وأحوالها، فقال ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾.

واختلف في معنى وقوع القول عليهم، فقال قتادة: وجب الغضب عليهم. وقال مجاهد: حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقيل: حق العذاب عليهم، وقيل: وجب السخط،

للمعاش، والنهار مبصراً، ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي لا بد له منهم، ووصف النهار بالإبصار، وهو وصف للناس مبالغة في إضاءته كأنه يبصر ما فيه. قيل: في الكلام حنف، والتقدير: وجعلنا الليل مظلاً ليسكنوا، وحذف مظلاً لدلالة مبصراً عليه، وقد تقدم تحقيقه في الإسراء وفي يونس ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿آيَاتٌ﴾ أي: علامات ودلالات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله سبحانه. ثم نكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ هو معطوف على ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ منصوب بنصبه المتقدم. قال الفراء: إن المعنى: ونلكم يوم ينفخ في الصور، والأول أولى. والصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل، وقد تقدم في الأنعام استيفاء الكلام عليه. والنفخات في الصور ثلاث: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث. وقيل: إنها نفختان، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق، أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيري، والقرطبي، وغيرهما. وقال الماوردي: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور ﴿فَفَزَعَنَا﴾ من في السموات ومن في الأرض. أي: خافوا، وانزعجوا لشدة ما سمعوا، وقيل: المراد بالفزع هنا: الإسراع، والإجابة إلى النداء من قولهم: فزعت إليك في كذا: إذا أسرعت إلى إجابتك، والأول أولى بمعنى الآية. وإنما عبر بالماضي مع كونه معطوفاً على مضارع للدلالة على تحقق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان. وقال الفراء: هو محمول على المعنى: لأن المعنى إذا نفخ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا من شاء الله أن لا يفزع عند تلك النفخة.

واختلف في تعيين من وقع الاستثناء له، فقيل: هم الشهداء، والأنبياء، وقيل: الملائكة، وقيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وقيل: الحور العين، وقيل: هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمَنُونَ﴾، ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك ﴿وَكُلُّهُمْ دَٰخِرِينَ﴾ قرأ الجمهور (آتوه) على صيغة اسم الفاعل مضافاً إلى الضمير الراجع إلى الله سبحانه. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحزمة، وحفص عن عاصم (آتوه) فعلاً ماضياً، وكذا قرأ ابن مسعود. وقرأ قتادة (وكل آتاه). قال الزجاج: إن من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل، ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه، وهو غلط ظاهر، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيها، بل التوحيد في قراءة قتادة فقط، ومعنى ﴿دَٰخِرِينَ﴾: صاغرين ذليلين، وهو منصوب على الحال، قرأ الجمهور (داخريين)، وقرأ الأعرج (نخريين) بغير ألف، وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل ﴿وَوَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً﴾ معطوف على ﴿يَنْفَخُ﴾. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح للرؤية، ﴿وَتَحْسِبُهَا جَامِدَةً﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ترى، أو من مفعوله، لأن الرؤية بصرية. وقيل: هي بدل من

بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق، ومن لابتداء الغاية، والفوج: الجماعة كالزمرة، و«من» في ﴿مَنْ يَكْتُبُ بَآيَاتِنَا﴾ بيانية ﴿فَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يحبس أولهم على آخره، وقد تقدم تحقيقه في هذه السورة مستوفى، وقيل معناه: ينفعون، ومنه قول الشماخ:

وسمه وزعنا من خميس جحفل

ومعنى الآية: وانكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكّبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم، أو ينفعون أي: انكر لهم هذا، أو بينه تحذيراً لهم، وترهيباً ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ إلى موقف الحساب قال الله لهم توبيحاً، وتقريعاً ﴿اَكْتَبْتُمْ بَآيَاتِي﴾ التي أنزلتها على رسلي، وأمرتهم بإبلاغها إليكم ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ يَحِيطُونَ﴾ بل كُتِبَتْ بها بادئ بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها، ولا مستدلين على صحتها، أو بطلانها تمرّداً، وعناداً، وجرأة على الله وعلى رسله، وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ، لأن من كتب بشيء، ولم يحط به علماً فقد كذب في تكذيبه، ونادى على نفسه بالجهل، وعدم الإنصاف، وسوء الفهم، وقصور الإدراك، ومن هذا القبيل من تصدّى لثمّ علم من العلوم الشرعية، أو لثمّ علم هو مقنعة من مقنماتها، ووسيلة يتوسل بها إليها، ويفيد زيادة بصيرة في معرفتها، وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها، وهي اثنا عشر علماً، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن ألبتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية، وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله، وسنة رسوله، فإنه قد نادى على نفسه بارتفاع صوت بانه جاهل مجادل بالباطل طاعن على العلوم الشرعية، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله، وضلاله، وطعنه على ما لا يعرفه، ولا يعلم به، ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول، وركاك الأدبيان، ورعاع المتلبسين بالعلم زوراً، وكذباً، ولم في قوله ﴿إِنَّمَا مَا دَٰخِرْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي المنقطعة، والمعنى: لم أي شيء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها، والتفكير في معانيها، وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم ﴿وَوَقَعَ لِقَوْلِهِمْ عَلَيْهِمُ﴾ قد تقدم تفسيره قريباً، والباء في ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ للسببية أي: وجب القول عليهم بسبب الظلم الذي أعظم أنواعه الشرك بالله ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ عند وقوع القول عليهم أي: ليس لهم عذر ينطقون به، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم. وقال أكثر المفسرين: يختم على أقوامهم فلا ينطقون، ثم بعد أن خوفهم بأحوال القيامة نكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد، وعلى الحشر، وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد، وإبلاء للمعذرة، فقال ﴿إِنَّمَا يَرَوْنَ أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مَبْصَرًا﴾ أي: جعلنا الليل للسكون، والاستقرار، والنوم، وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه

خزنة جهنم أي: ما تجزون إلا جزءا عملكم ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ، والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة أي: قل يا محمد: إنما أمرت أن أخص الله بالعبادة، وحده لا شريك له، والمراد بالبلدة: مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون فيها بيت الله الحرام، ولكونها أحب البلاد إلى رسوله، والموصول صفة للرب، وهكذا قرأ الجمهور. وقرأ ابن عباس، وابن مسعود التي حرّمها على أن الموصول صفة للبلدة، ومعنى ﴿حرّمها﴾: جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصطاد صيدها، ولا يختلى خلاها ﴿وله كل شيء﴾ من الأشياء خلقاً، وملكاً، وتصرفاً أي: وله كل شيء ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي: المتقنين لأمر الله المستسلمين له بالطاعة، وامتنال أمره، واجتناب نهيه، والمراد بقوله: ﴿أن أكون﴾ أن أثبت على ما أنا عليه ﴿وأن اتلوا القرآن﴾ أي: أداوم تلاوته، وأواظب على ذلك. قيل: وليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة إلى الإيمان، والأول أولى ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه أي: فمن اهتدى على العموم، أو فمن اهتدى بما اتلوه عليه، فعمل بما فيه من الإيمان بالله، والعمل بشرائعه. قرأ الجمهور (وأن اتلوا) بـثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة، وهي القراءة، أو من التلّو، وهو الاتباع. وقرأ عبد الله (وأن اتل) بحذف الواو أمراً له ﷺ كذا وجهه الفراء. قال النحاس: ولا تعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف ﴿ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين﴾ أي: ومن ضلّ بالكفر، وأعرض عن الهداية، فقل له: إنما أنا من المنذرين، وقد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم، وليس عليّ غير ذلك. وقيل: الجواب محذوف أي: فويل لضلاله عليه، وأقيم إنما أنا من المنذرين مقامه لكونه كالعلة له ﴿وقل الحمد لله﴾ على نعمه التي أنعم بها عليّ من النبوة والعلم، وغير ذلك، وقوله ﴿يسيركم آياته﴾ هو من جملة ما أمر به النبي ﷺ أن يقوله أي: سيركم آياته في أنفسكم، وفي غيركم ﴿فتعرفونها﴾ أي: تعرفون آياته، ودلائل قدرته، ووحدانيته، وهذه المعرفة لا تنفع الكفار؛ لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان، وذلك عند حضور الموت. ثم ختم السورة بقوله: ﴿وما ريك بغافل عما تعملون﴾، وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذي أمر النبي ﷺ أن يقوله، وفيه ترهيب شديد، وتهديد عظيم، قرأ أهل المدينة، والشام، وحفص عن عاصم (تعملون) بالفوقية على الخطاب، وقرأ الباقون بالتحية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿دلخزين﴾ قال: صاغرين. وأخرج هؤلاء عنه في قوله ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ قال: قائمة ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ قال: أحكم. وأخرج ابن أبي جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ قال: أحسن كل شيء خلقه، وأوثقه.

الجملة الأولى، وفيه ضعف، وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة، ومعنى (تحسبها جامدة): أي: قائمة ساكنة، وجملة ﴿وهي تمرّ من السحاب﴾ في محل نصب على الحال: أي: وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيرها الرياح. قال القتبي: وذلك أن الجبال تجمع، وتسير، وهي في رؤية العين كالقائمة، وهي تسير. قال القشيري: وهذا يوم القيامة، ومثله قوله تعالى: ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ [النبأ: 20] قرأ أهل الكوفة (تحسبها) بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ انتصاب صنع على المصدرية عند الخليل، وسيبويه، وغيرهما أي: صنع الله ذلك صنعا، وقيل: هو مصدر مؤكد لقوله: ﴿ويوم ينفخ في الصور﴾، وقيل: منصوب على الإغراء أي: انظروا صنع الله، ومعنى ﴿الذي اتقن كل شيء﴾ الذي أحكمه، يقال: رجل تقن أي: حاذق بالأشياء، وجملة ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع، واتقن كل شيء، والخبير: المطلع على الظواهر، والضمائر. قرأ الجمهور بالتاء الفوقية على الخطاب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وهشام بالتحية على الخبر ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ الألف، واللام للجنس أي: من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند الله خير منها أي: أفضل منها، وأكثر، وقيل: خير حاصل من جهتها، والأول أولى. وقيل: المراد بالحسنة هنا: لا إله إلا الله، وقيل: هي الإخلاص، وقيل: أداء الفرائض، والتعميم أولى، ولا وجه للتخصيص، وإن قال به بعض السلف. قيل: وهذه الجملة بيان لقوله ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾، وقيل: بيان لقوله ﴿وكل اتوه دلخزين﴾. قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي (وهم من فزع) بالتثنية، وفتح ميم (يومئذ). وقرأ نافع بفتحها من غير تنوين، وقرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذ. قال أبو عبيد: وهذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين؛ لأن معناه: الأمن من فزع جميع ذلك اليوم، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع. وقيل: إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيع بما نكر، فتكون القراءة ثان بمعنى واحد. وقيل: المراد بالفزع ها هنا هو الفزع الأكبر المذكور في قوله: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ [الأنبياء: 103]، وجهه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية لكون الإعراب فيه غير متمكن، ولما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بني، وقد تقدّم في سورة هود كلام في هذا مستوفى ﴿ومن جاء بالسيسة فكبت وجوههم في النار﴾. قال جماعة من الصحابة، ومن بعدهم حتى قيل: إنه مجمع عليه بين أهل التأويل: إن المراد بالسيسة هنا الشرك، وجه التخصيص قوله ﴿فكبت وجوههم في النار﴾، فهذا الجزء لا يكون إلا بمثل سيسة الشرك، ومعنى ﴿فكبت وجوههم في النار﴾: أنهم كبوا فيها على وجوههم، وألقوا فيها، وطرحوا عليها، يقال: كببت الرجل: إذا أقيته لوجهه، فانكب، واكب، وجملة ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ بتقدير القول أي: يقال ذلك، والقاتل

رسول الله ﷺ يقرأه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ① تَكَ مَايَتُ الْكِتَابِ الْبَيْنِ ② نَتَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَا مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مَلِكَهُ يَنْتَهِي إِلَيْهِمْ شَأْنُهُمْ وَيَسْتَجِئُ بِشَأْنِهِمْ إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُكَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَةً
فِرْعَوْنَ وَنُكَيِّنَ بِرُحُونِهِمْ مَنْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ⑥ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
أَبْنِ مُوسَى أَنْ أَرِضْهُمْ فَإِذَا خَفْتُ عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ فِي الْبَرِّ وَلَا تَخَافُ وَلَا تَحْزَنُ
إِنَّا رَأَوْنَا إِلَيْكَ وَالْجِبِلَّ مِنَ الْمَرْسَلِينَ ⑦ فَالْقَلْبَةُ مَالُ فِرْعَوْنَ
يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَنُكَيِّنَ بِرُحُونِهِمْ مَنْ كَانُوا
خَاطِبِينَ ⑧ وَقَالَتْ أُمَمَاتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقُولُونَ سَقَى
بَنَفْعًا أَوْ تَخَذَلُمْ وَلَكُمْ وَهَمَّ لَا يُشْعِرُونَ ⑨ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أِبْنِ مُوسَى
قَرِينًا إِنْ كَادَتْ تُبْدِي يَدَهُ لَوْلَا أَنْ رَيْتُكَ عَلَى قَلْبِهِمَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
⑩ وَقَالَتْ لِأَخِيهِ فَصِيحَةً فَصَرَّتْ يَدَهُ عَنْ جُوبِ وَهَمَّ لَا يُشْعِرُونَ ⑪
وَمَرَعْنَا عَلَيْهِ الْمُزَاحِمِينَ مِنْ قَبْلِ فَكَلَّمْتُ هَلْ أَدْرَكَ عَلَى أَهْلِ يَدَيْهِ يَكْتَلُمُونَ
لَكُمْ وَهَمَّ لَمْ تَعْمُرُونَ ⑫ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أَبِيهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ رَقْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَسْلُمُونَ ⑬

الكلام في فاتحة هذه السورة قد مر في فاتحة الشعراء وغيرها، فلا نعيد، وكذلك مر الكلام على قوله ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ فاسم الإشارة مبتدا خبره ما بعده، أو خبر مبتدا محذوف، وآيات بدل من اسم الإشارة، ويجوز أن يكون «تلك» في موضع نصب بنتلو، والمبين المشتمل على بيان الحق من الباطل. قال الزجاج: مبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وهو من أبان بمعنى أظهر ﴿نقلوا عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ أي: نوحى إليك من خبرهما ملتبسا بالحق، وخص المؤمنين؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن، وقيل: إن مفعول نتلو محذوف، والتقدير: نتلو عليك شيئا من نبيهما، ويجوز أن تكون من مزيدة على رأي الأخفش أي: نتلو عليك نبا موسى وفرعون، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما نكر، أو للتبويض، ولا ملجئ للحكم بزياتها، والحق الصبق، وجملة ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ وما بعدها مستأنفة مسوقة لبیان ما أجمله من النبا. قال المفسرون: معنى علا: تكبر، وتجبر بسلطانه، والمراد بالأرض أرض مصر. وقيل: معنى علا: ادعى الربوبية، وقيل: علا عن عبادة ربه ﴿وجعل أهله شيعا﴾ أي: فرقا، وأصنافا في خدمته يشايعونه على ما يريد، ويطيعونه، وجملة ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ مستأنفة مسوقة لبیان حال الأهل الذين جعلهم فرقا وأصنافا، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من فاعل جعل أي: جعلهم شيعا حال كونهم مستضعفا طائفة

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ قال: هي: لا إله إلا الله، ﴿ومن جاء بالسيسة فكبت وجوههم في النار﴾ قال: هي: الشرك، وإذا صح هذا عن رسول الله ﷺ فالمصير إليه في تفسير كلام الله سبحانه متعين، ويحمل على أن المراد قال: لا إله إلا الله بحقها، وما يجب لها، فيدخل تحت ذلك كل طاعة، ويشهد له ما أخرجه الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة: جاء الإيمان والشرك يجتوان بين يدي الله سبحانه، فيقول الله للإيمان: انطلق أنت واهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت واهلك إلى النار، ثم تلا رسولا الله ﷺ ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ يعني: قول: لا إله إلا الله، ﴿ومن جاء بالسيسة﴾ يعني: الشرك ﴿فكبت وجوههم في النار﴾». وأخرج ابن مروي عن أبي هريرة، وأنس نحوه مرفوعا. وأخرج أبو الشيخ، وابن مروي، والديلمي عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ: «﴿من جاء بالحسنة﴾» يعني: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿فله خير منها﴾ يعني: بالخير الجنة ﴿ومن جاء بالسيسة﴾ يعني: الشرك ﴿فكبت وجوههم في النار﴾». وقال: هذه تنجي، وهذه تردى. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الاسماء والصفات، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود ﴿من جاء بالحسنة﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿من جاء بالسيسة﴾ قال: بالشرك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم ﴿فله خير منها﴾ قال: له منها خير، يعني: من جهتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا ﴿فله خير منها﴾ قال: ثواب. وأخرج أيضا عنه أيضا قال: البلدة مكة.

تفسير سورة القصص

وأخرج ابن الضريس، وابن النجار، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة القصص بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثل ذلك: قال القرطبي، قال ابن عباس، وقتادة: إنها نزلت بين مكة والمدينة. وقال ابن سلام: بالجحفة وقت هجرة رسول الله ﷺ، وهي قوله عز وجل: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرائك إلى معار﴾ [القصص: 85] وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿الذين أتيناهم الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: 52 - 55]. وأخرج أحمد، والطبراني، وابن مروي: قال السيوطي: سنده جيد عن معد يكره قال: أتينا عبد الله بن مسعود، فسألناه أن يقرأ علينا طسم المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الارت، فأتيت خبابا، فقلت: كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ طسم أو طس؟ فقال: كل كان

والأبرص، والأعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين، وغيرهما، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث الثابت في الصحيح، فلم يكن بذلك نبياً، وأن في ﴿وَأَن أَرْضِعِيهِ﴾ هي المفسرة، لأن في الوحي معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بأن أرضعيه، وقرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن، ووصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿فَإِذَا خَفْتُ عَلَيْهِ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿فَالْقِيَّةِ فِي الْيَمِّ﴾، وهو بحر النيل، وقد تقدّم بيان الكيفية التي ألقته في اليَمِّ عليها في سورة طه ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ أي: لا تخافي عليه الغرق، أو الضيعة، ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَأَوْهُ إِلَيْكُ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد، والفاء في قوله ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ هي الفصيحة، والالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب، والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر، وفي الكلام حذف، والتقدير: فالقته في اليَمِّ بعد ما جعلته في التابوت، فالتقطه من وجده من آل فرعون، واللام في ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لام العقابية، ووجه ذلك أنهم إنما أخذوه؛ ليكون لهم ولداً، وقرة عين لا ليكون عدوًّا فكان عاقبة ذلك إنه كان لهم عدوًّا وحزناً، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعالهم، وثمرة له شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، ومن هذا قول الشاعر:

لنوا للمموت وابنوا للخراب

قول الآخر:

وللمنايا تربى كل مرضعة وبورنا الخراب الدهر ننبئها
قرأ الجمهور (وحزناً) بفتح الحاء، والزاي، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمة، والكسائي، وخلف (وحزناً) بضم الحاء، وسكون الزاي، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة، وأبو حاتم، وهما لغتان كالعدم، والعدم، والرشد، والرشد، والسقم، والسقم، وجملة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ لتعليل ما قبلها، أو للاعتراض لقصد التأكيد؛ ومعنى ﴿خَاطِئِينَ﴾: عاصين آثمين في كل أفعالهم، وأقوالهم، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب، وقرئ (خاطين) بياء من دون همزة، فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور، ولكنها خففت بحذف الهمزة، ويحتمل أن تكون من خطأ يخطو: أي: تجاوز الصواب ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قَرَتْ عَيْنِي لِئَلَّا يَكُونَ لِي وَلَدٌ﴾ أي: قالت امرأة فرعون لفرعون، وارتفاع قرّة على أنه خبر مبتدأ محذوف، قاله الكسائي، وغيره، وقيل: على أنه مبتدأ، وخبره ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ قاله الزجاج، والأول أولى. وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها، وأخرجته من التابوت، وخاطبت بقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فرعون، ومن عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له. وقرأ عبد الله بن مسعود (وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لي ولك)،

منهم، ويجوز أن تكون صفة لطائفة، والطائفة هم بنو إسرائيل، وجملة ﴿يَنْبَغُ لِإِبْنَاءِهِمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ بدل من الجملة الأولى، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان، أو حالاً، أو صفة كالتى قبلها على تقدير عدم كونها بدلاً منها، وإنما كان فرعون ينبغ إبناءهم، ويترك النساء، لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل. قال الزجاج: والعجب من حمق فرعون، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل، وإن كان كاذباً فلا معنى للقتل ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَفْسُودِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي والتجبر، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية، واستحضار صورتها أي: نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم، والمراد بهؤلاء بنو إسرائيل، والواو في ﴿وَنُرِيدُ﴾ للعطف على جملة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾، وإن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية، لأن بينهما تناسباً من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير والبيان، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل يستضعف بتقدير مبتدأ أي: ونحن نريد أن نمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض كما في قول الشاعر:

نجرت وأرهنتم مالكا

والأولى ﴿وَنَجْعَلُهُمُ أَئِمَّةً﴾ أي: قادة في الخير، ودعاة إليه، وولاء على الناس، وملوكاً فيهم ﴿وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لملك فرعون، ومساكن للقطب، وأملأهم، فيكون ملك فرعون فيهم، ويسكنون في مساكنه، ومساكن قومه، وينتفعون بأملكه، وأملأهم ﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: نجعلهم مقتدرين عليها، وعلى أهلها مسططين على ذلك يتصرفون به كيف شاءوا. قرأ الجمهور (نمكّن) بدون لام، وقرأ الأعمش (لنمكّن) بلام العلة ﴿وَنُورِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قرأ الجمهور (نري) بنون مضمومة، وكسر الراء على أن الفاعل هو الله سبحانه. وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمة، والكسائي وخلف (ويري) بفتح الياء التحتية، والراء، والفاعل فرعون. والقراءة الأولى الصق بالسياق؛ لأن قبلها نريد، ونجعل، ونمكّن بالنون. ولجاز الفراء (ويري فرعون) بضم الياء التحتية، وكسر الراء أي: ويرى الله فرعون، ومعنى ﴿مِنْهُمْ﴾: من أولئك المستضعفين ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ الموصول هو المفعول الثاني على القراءة الأولى، والمفعول الأول على القراءة الثانية، والمعنى: أن الله يريهم، أو يرون هم الذي كانوا يحذرون منه، ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد المولود من بني إسرائيل المستضعفين ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ لِّمُوسَىٰ أَن أَرْضِعِيهِ﴾ أي: ألهمناها، وقذفنا في قلبها، وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى إلى الرسل، وقيل: كان ذلك رؤيا في منامها، وقيل: كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك.

وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع،

الربط على القلب: إلهام الصبر، وتقويته، وجواب لولا محنوف أي: لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت، واللام في و «لتكون من المؤمنين» متعلق بربطنا، والمعنى: ربطنا على قلبها؛ لتكون من المصنفين بوعد الله، وهو قوله «إنا رأتوه إليك» قيل: والباء في «لتبدي به» زائدة للتأكيد، والمعنى: لتبدي كما تقول: أخذت الحبل، وبالحبل. وقيل: المعنى: لتبدي القول به «وقالت لأخته قصيه» أي: قالت أم موسى لأخت موسى، وهي مريم قصيه أي: تتبعي أثره، وأعرفي خبره، وانظري أين وقع، وإلى من صار؟ يقال: قصصت الشيء: إذا اتبعت أثره متعرفاً لحاله «فقصرت به عن جنب» أي: أبصرته عن بعد، وأصله عن مكان جنب، ومنه الأجنبي، قال الشاعر:

فلا تحرميني نائلاً عن جنبية فإنني امرؤ وسط الديار غريب
وقيل: المراد بقوله «عن جنب» عن جانب، والمعنى: أنها أبصرت إليه متجانباً مختلة، ويؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم (عن جانب)، ومحلّ عن جنب النصب على الحال إما من الفاعل أي: بصرت به مستخفية كائنة عن جنب، وإما من المجرور أي: بعيداً منها. قرأ الجمهور: (بصرت) به بفتح الباء، وضم الصاد، وقرأ قتادة بفتح الصاد، وقرأ عيسى بن عمر بكسرهما. قال المبرد: أبصرته، وبصرت به بمعنى، وقرأ الجمهور (عن جنب) بضمين، وقرأ قتادة، والحسن، والأعرج، وزيد بن علي بفتح الجيم، وسكون النون، وروي عن قتادة أيضاً: أنه قرأ بفتحهما. وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضم الجيم، وسكون النون، وقال أبو عمرو بن العلاء: إن معنى «عن جنب»: عن شوق. قال: وهي لغة جذام يقولون: جنبت إليك أي: اشتقت إليك «وهم لا يشعرون» أنها تقصه، وتتبع خبره، وأنها أخته «وحرّمنا عليه الأمراض» الأمراض جمع مرضع أي: منعناه أن يرضع من المرضعات. وقيل: الأمراض جمع مرضع بفتح الضاد، وهو الرضاع، أو موضعه، وهو الثدي، ومعنى «من قبل»: من قبل أن نرّده إلى أمه، أو من قبل أن تأتيه أمه، أو من قبل قصها لأثره، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعه، فلم يرضع من واحدة منهم «ف» عند ذلك «قالت» أي: أخته لما رأت امتناعه من الرضاع «هل أنلكم على أهل بيت يكفلونه لكم» أي: يضمّنون لكم القيام به، وإرضاعه «وهم له ناصحون» أي: مشفقون عليه لا يقصرون في إرضاعه، وتربيته، وفي الكلام حنف، والتقدير: فقالوا لها: من هم؟ فقالت: أمي، فقيل لها: وهل لأمك لبن؟ قالت: نعم لبن أخي هارون: فلبثتم على أم موسى، فدفعوه إليها، فقبل ثديها، ورضع منه، وذلك معنى قوله سبحانه «فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها» بولدها «ولا تحزن» على فراقه «ولتعلم أن وعد الله» أي: جميع وعده، ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله: «إنا رأتوه إليك»، «حق» لا خلف فيه واقع لا محالة «ولكن أكثرهم لا يعلمون» أي: أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك، بل كانوا

ويجوز نصب قرّة بقوله «لا تقتلوه» على الاشتغال. وقيل: إنها قالت: لا تقتلوه فإن الله أتى به من أرض بعيدة، وليس من بني إسرائيل، ثم علقت ما قالت بالترجي منها لحصول النفع منه لهم، أو النبي له، فقالت: «عسى أن ينفعنا» فنصيب منه خيراً «أو نتخذة ولدًا» وكانت لا تلد، فاستوهبته من فرعون، فوهبه لها، وجملة «وهم لا يشعرون» في محل نصب على الحال أي: وهم لا يشعرون أنهم على خطأ في التقاطه، ولا يشعرون أن هلاكهم على يده؛ فتكون حالاً من آل فرعون، وهي من كلام الله سبحانه. وقيل: هي من كلام المرأة أي: وبني إسرائيل لا يدرون أنا التقطنا، وهم لا يشعرون، قال الكلبي، وهو بعيد جداً. وقد حكى الفراء عن السدي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أن قوله «لا تقتلوه» من كلام فرعون، واعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ، ويكفي في رده ضعف إسناده «وأصبح فرّاد أم موسى فارغاً» قال المفسرون: معنى ذلك: أنه فارغ من كل شيء إلا من أمر موسى كأنها لم تهتم بشيء سواه. قال أبو عبيدة: خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى، وقال الحسن، وابن إسحاق، وابن زيد: فارغاً مما أوحى إليها من قوله «ولا تخافي ولا تحزني»، وذلك لما سؤل الشيطان لها من غرقه، وهلاكه. وقال الأخفش: فارغاً من الخوف، والغم، لعلمها أنه لم يفرق بسبب ما تقدّم من الوحي إليها، وروي مثله عن أبي عبيدة أيضاً. وقال الكسائي: ناسياً ذاهلاً، وقال العلاء بن زياد: نافراً. وقال سعيد بن جبير: والها كانت تقول: والبناء من شدة الجزع، وقال مقاتل: كانت تصيح شفقة عليه من الغرق، وقيل: المعنى: أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع، والدهش، قال النحاس: وأصحّ هذه الأقوال الأولى، والذين قالوه أعلم بكتاب الله، فإذا كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي، وقول من قال: فارغاً من الغم غلط قبيح؛ لأن بعده «إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها» وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري، ومحمد بن السميّغ، وأبو العالية، وابن محيصن (فرّعا) بالفاء، والزاي، والعين المهملة من الفرع أي: خائفاً وجلّلاً، وقرأ ابن عباس (قرعا) بالقاف المفتوحة، والراء المهملة المكسورة، والعين المهملة من قرع رأسه: إذا انحسر شعره، ومعنى «وأصبح» : وصار، كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء في أمر رشيد وأصبحت المدينة للوليد
«إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها» أن هي: المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محنوف أي: إنها كانت لتظهر أمر موسى، وأنه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش، والخوف، والحزن، من بدا يبدو: إذا ظهر، وأبدى يبدي: إذا أظهر، وقيل: الضمير في به عائذ إلى الوحي الذي أوحى إليها، والأول أولى. وقال الفراء: إن كانت لتبدي باسمه لضيق صدرها لولا أن ربطنا على قلبها. قال الزجاج: ومعنى

يَمَّا أُنْمِتَ عَلَى فَلَانٍ أَكُونُ ظَهْرًا لِّلْمُتَمِرِينَ ﴿٦٧﴾ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ حَتَّى يَأْتِيَكَ بِرَقَبٍ فَإِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَى اسْتَبْرَءَ بِالْأَنْسِ بِسَبْعِينَ مِائَةً أَلْفَ نَفْسٍ إِنَّكَ لَنَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ بَرَأَيْتُكَ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَنْسِ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا أَن أَكُونَ جَزَاً فِي الْأَرْضِ وَمَا أُرِيدُ أَن أَكُونَ مِنَ النَّاصِيحِينَ ﴿٦٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْتَأْذِنُ قَالَ يَمْشُونَ لَكَ الْمَلَأَ بِأَتِيرُونَ بِكَ لَيَقْتُلَنَّكَ فَخَرَجَ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِيحِينَ ﴿٧٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧١﴾ وَلَمَّا نَزَحَ نَفْسًا مِّنْكَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُرُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا شَيْءَ حَتَّى يُصْورَ الرِّجَالُ رَجُلًا وَابُوكَا شَيْخَ كَبِيرٍ ﴿٧٢﴾ فَسَمَّى لَهُمَا شَرَّ تَوَكَّلَ عَلَى الْغُلَّيْلِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ إِلَى مَن خَيْرٍ فَعَيَّرَ ﴿٧٣﴾

قوله ﴿ولما بلغ أشده﴾ قد تقدم الكلام في بلوغ الأشد في الانعام، وقد قال ربعية، ومالك: هو الحلم لقوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا﴾ [النساء: 6] الآية، واقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد، وسفيان الثوري، وغيرهما. وقيل: الأشد ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين، والاستواء من الثلاثين إلى الأربعين، وقيل: الاستواء هو بلوغ الأربعين، وقيل: الاستواء إشارة إلى كمال الخلقة، وقيل: هو بمعنى واحد، وهو ضعيف؛ لأن العطف يشعر بالمغايرة ﴿أتيناه حكماً وعلماً﴾ الحكم الحكمة على العموم، وقيل: النبوة، وقيل: الفقه في الدين، والعلم الفهم قاله السدي. وقال مجاهد: الفقه. وقال ابن إسحاق: العلم بدينه، ودين آبائه، وقيل: كان هذا قبل النبوة، وقد تقدم بيان معنى ذلك في البقرة ﴿وكنك نجزي للمحسنين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الذي جزينا ثم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدقت بوعده الله نجزي المحسنين على إحسانهم، والمراد العموم ﴿ويدخل المدينة﴾ أي: ودخل موسى مدينة مصر الكبرى، وقيل: مدينة غيرها من مدائن مصر، ومحل قوله ﴿على حين غفلة من أهلها﴾ النصب على الحال إما من الفاعل أي: مستخفياً، وإما من المفعول. قيل: لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون، وفشا ذلك منه، فآخافوه، فخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفياً. قيل: كان دخوله بين العشاء والعمّة، وقيل: وقت القائلة. قال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخل على حين علم منهم، فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته﴾ أي: ممن شايعه على دينه، وهم بنو إسرائيل ﴿وهذا من عدوه﴾ أي: من المعادين له على دينه، وهم قوم فرعون ﴿فاستغاثه الذي من شيعته﴾ أي: طلب منه أن ينصره، ويعينه على خصمه ﴿على الذي من عدوه﴾ فآغاثه؛ لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل. قيل: أراد القبطي أن يسخر الإسرائيلي؛ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون، فابى عليه، واستغاث بموسى ﴿فوكزه موسى﴾

في غفلة عن القدر، وسرّ القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك، أو لا يعلمون أن الله وعدما بأن يرده إليها.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ قال: فرق بينهم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ قال: يستعيد طائفة منهم، ويدع طائفة، ويقتل طائفة، ويستحي طائفة. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة﴾ قال: يوسف وولده. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ قال: هم: بنو إسرائيل ﴿ونجعلهم أئمة﴾ أي: ولادة الأمر ﴿ونجعلهم الوارثين﴾ أي: الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ﴿وفرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ قال: ما كان القوم يحذروه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ولوحيانا إلى أم موسى﴾ أي: الهمناها الذي صنعت بموسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال: قال ابن عباس في قوله ﴿فإذا خفت عليه﴾ قال: أن يسمع جيرارك صوته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله ﴿واصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ قال: فرغ من ذكر كل شيء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿واصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ قال: خالياً من كل شيء غير ذكر موسى. وفي قوله ﴿إن كادت لتبدي به﴾ قال: تقول: يا ابنه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله ﴿وقالت لأخته قصيه﴾ أي: اتبعي أثره ﴿فبصرت به عن جنب﴾ قال: عن جانب. وأخرج الطبراني، وابن عسكرك عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: أما شعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران، وكبشوم أخت موسى، وامرأة فرعون؟ قالت: هنيئاً لك يا رسول الله، وأخرجه ابن عسكرك عن ابن أبي رواد مرفوعاً بأطول من هذا، وفي آخره: أنها قالت: بالرفاء، والبنين. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ قال: لا يؤتى بمرضع فيقبلها.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نُجَيِّزُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَةِ ۖ وَهَٰذَا مِّنْ مَّوَدَّةِ ۚ فَاسْتَفْتَاهُ فِيهِمَا وَخَرَجَ بِهِمَا إِلَىٰ مَن أَرَادَ ۖ فَكَرِهَ مُوسَىٰ نَفْسَهُ عَلَيْهِ قَالَهُ هَٰذَا مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ﴿٧٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَفَخْتُ نَفْسِي فَأَغْرَيْتُ لِي فَعَفَّرَ لَمْ يَكُفْهُمُ الْغَمْرُ الرَّجِيمُ ﴿٧٦﴾ قَالَ رَبِّ

انعم به عليه: هو ما آتاه من الحكم، والعلم، أو بالمغفرة، أو بالجميع، وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون، والانتظام في جملة في ظاهر الأمر، أو مظاهرة على ما فيه إثم. قال الكسائي، والفراء: ليس قوله **﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾** خبراً بل هو دعاء أي: فلا تجعلني يا رب ظهيراً لهم. قال الكسائي، وفي قراءة عبد الله (فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين) وقال الفراء: المعنى: اللهم فلن أكون ظهيراً للمجرمين. وقال النحاس: إن جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام **﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾** أي: نخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي، وخائفاً خبر أصبح، ويجوز أن يكون حالاً، والخبر في المدينة، ويتربح يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً ثانية، وأن يكون بدلاً من خائفاً، ومفعول يترقب محذوف، والمعنى: يترقب المكروه، أو يترقب الفرح **﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾** «إذا» هي الفجائية، والموصول مبتدأ، وخبره يستصرخه أي: فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي استغاث بالأمس يقاتل قبطياً آخر، أراد أن يسخره ويظلمه كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالأمس، والاستصرخ الاستغاثة، وهو من الصراخ، وذلك أن المستغيث يصوت، ويصرخ في طلب الغوث، ومنه قول

شاعر:

كنا إذا ما اتنا صارخ فزع كان الجواب له قرع الظنابيب
﴿قال له موسى إنك لغوي مبين﴾ أي: بين الغواية، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته، ولا تطيقه، وقيل: إنما قال له هذه المقالة؛ لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر **﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما﴾** أي: يبطش بالقبطي الذي هو عدو لموسى، وللإسرائيلي حيث لم يكن على بينهما، وقد تقدم معنى يبطش، واختلاف القراءة فيه **﴿قال يا موسى لتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** القائل هو الإسرائيلي لما سمع موسى يقول له **﴿إنك لغوي مبين﴾** ورأه يريد أن يبطش بالقبطي ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسى **﴿اتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** فلما سمع القبطي ذلك أفساه، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفضى عليه الإسرائيلي، هكذا قال جمهور المفسرين. وقيل: إن القائل **﴿اتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** هو القبطي، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي، وهذا هو الظاهر، وقد سبق ذكر القبطي قبل هذا بلا فصل؛ لأنه هو المراد بقوله **﴿عدو لهما﴾**، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرة الأولى، والمرة الأخرى هو الذي أفضى عليه، وأيضاً إن قوله **﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾** لا يليق صوره مثله إلا من كافر، وإن في قوله **﴿إن تريد﴾** هي النافية أي: ما تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض، قال الزجاج: الجبار في اللغة

الوكز الضرب بجمع الكف، وهكذا للكن، واللهز. وقيل: للكنز على اللحي، والوكز على القلب. وقيل: ضربه بعصاه. وقرأ ابن مسعود (فلكنه)، وحكى الثعلبي: أن في مصحف عثمان (فنكنه) بالنون، قال الأصمعي: نكنه بالنون: ضربه، وبغعه. قال الجوهري: للكنز الضرب على الصدر. وقال أبو زيد: في جميع الجسد يعني: أنه يقال له: كنز، واللهز الضرب بجميع اليدين في الصدر، ومثله عن أبي عبيدة **﴿فقضى عليه﴾** أي: قتله، وكل شيء أتيت عليه، وفرغت منه: فقد قضيت عليه، ومنه قول الشاعر:

قد عضه فقضى عليه الأشجع

قيل: لم يقصد موسى قتل القبطي، وإنما قصد دفعه، فاتى ذلك على نفسه، ولهذا قال **﴿هذا من عمل الشيطان﴾** وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل؛ لأنه لم يكن إذ ذاك مأموراً بقتل الكفار. وقيل: إن تلك الحالة حالة كف عن القتال لكونه مأموراً عندهم، فلم يكن له أن يقتلهم. ثم وصف الشيطان بقوله **﴿إنه عدو مضل مبين﴾** أي: عدو للإنسان يسعى في إضلاله، ظاهر العداوة والإضلال. وقيل: إن الإشارة بقوله **﴿هذا﴾** إلى عمل المقتول لكونه كافراً مخالفاً لما يريده الله. وقيل: إنه إشارة إلى المقتول نفسه يعني: أنه من جند الشيطان وحزبه. ثم طلب من الله سبحانه: أن يغفر له ما وقع منه **﴿قال رب إني ظلمت نفسي فأغفر لي فغفر﴾** الله **﴿له﴾** ذلك **﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾** ووجه استغفاره أنه لم يكن لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وقيل: إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين، أو أراد إني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر، لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به، ومعنى **﴿فأغفر لي﴾**: فاستر ذلك علي لا تطلع عليه فرعون، وهذا خلاف الظاهر فإن موسى عليه السلام ما زال ناماً على ذلك خائفاً من العقوبة بسببه: حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول: إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح، وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة، وقيل: كان ذلك قبل بلوغه سن التكليف، وإنه كان إذ ذاك في اثنتي عشرة سنة، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، ولا شك أنهم معصومون من الكبائر، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة، لأن الوكزة في الغالب لا تقتل. ثم لما أجاب الله سؤاله، وغفر له ما طلب منه مغفرته **﴿قال رب بما أنعمت علي﴾** هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم، والجواب مقدر أي: أقسم بإنعامك علي لاتوبتي، وتكون جملة **﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾** كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظهر مجرماً. ويجوز أن تكون هذه الباء هي باء السببية متعلقة بمحذوف أي: أعصمني بسبب ما أنعمت به علي، ويكون قوله **﴿فلن أكون ظهيراً﴾** مترتباً عليه، ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى، وتوصل إلى إنعامه بإنعامه، و«ما» في قوله **﴿بما أنعمت﴾** إما موصولة، أو مصدرية، والمراد بما

أي: أحبس، وأمنع، وورد الذود بمعنى الطرد، ومنه قول الشاعر:

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأي عصي تذود

أي: تطرد ﴿قال ما خطبكما﴾ أي: قال موسى للمراتين: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟ والخطب الشان، قيل: وإنما يقال: ما خطبك لمصاب، أو مضطهد؛ أو لمن يأتي بمنكر ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ أي: إن عادتنا الثاني حتى يصدر الناس عن الماء، وينصرفوا منه حذراً من مخالطتهم، أو عجزاً عن السقي معهم. قرأ الجمهور (يصدر) بضم الياء، وكسر الدال مضارع أصدر المتعدّي بالهمزة. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، وأبو جعفر بفتح الياء، وضم الدال من صدر يصدر لازماً، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف أي: يرجعون مواشيهم، والرعاء جمع راع. قرأ الجمهور (الرعاء) بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها. قال أبو الفضل: هو مصدر أقيم مقام الصفة، فلذلك استوى فيه الواحد، والجمع. وقرأ (الرعاء) بالضم اسم جمع. وقرأ طلحة بن مصرف (نسقى) بضم النون من أسقى ﴿وولونا شيخ كبير﴾ عالي السن، وهذا من تمام كلامهما أي: لا يقرر أن يسقي ماشيته من الكبر، فلذلك احتجنا، ونحن امرأتان ضعيفتان أن نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك فلما سمع موسى كلامهما سقى لهما رحمة لهما أي: سقى أغنامهما لأجلهما، ثم لما فرغ من السقي لهما ﴿تولى إلى الظل﴾ أي: انصرف إليه، فجلس فيه، قيل: كان هذا الظل ظل سمرة هناك. ثم قال لما أصابه من الجهد، والتعب منابياً لربه ﴿إني لما أنزلت إلي من خير﴾ أي: خير كان ﴿فقير﴾ أي: محتاج إلى ذلك، قيل: أراد بذلك الطعام، واللام في ﴿لما أنزلت﴾ معناها: إلى. قال الأخفش: يقال: هو فقير له، وإليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والمحاملي في أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله ﴿ولما بلغ أشده﴾ قال: ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿واستوى﴾ قال: أربعين سنة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المعمرين من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه قال: الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين، والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله ﴿يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ قال: نصف النهار. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراساني، عنه أيضاً في الآية قال: ما بين المغرب والعشاء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ قال: إسرائيلي ﴿وهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ قال: قبطي ﴿فاستغاثه الذي من شِيعَتِهِ﴾ الإسرائيلي ﴿على الذي من عَدُوِّهِ﴾ القبطي ﴿فوكَّهَ موسى فقصى عليه﴾ قال: فمات. قال: فكبر ذلك على موسى. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه

الذي لا يتواضع لأمر الله، والقاتل بغير حق جبار. وقيل: الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب، والقتل، ولا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي: الذين يصلحون بين الناس ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾ قيل: المراد بهذا الرجل حزقيل، وهو مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم موسى، وقيل: اسمه شمعون، وقيل: طالوت، وقيل: شمعان. والمراد بأقصى المدينة: آخرها وأبعدها، ويسمى يجوز أن يكون في محل رفع صفة لرجل، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال، لأن لفظ رجل، وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله ﴿من أقصى المدينة﴾، ﴿قال يا موسى إن للملايتمرن بك ليقتلوك﴾ أي: يتشاورون في قتلك، ويتآمرون بسببك. قال الزجاج: يامر بعضهم بعضاً بقتلك، وقال أبو عبيد: يتشاورون فيك: ليقتلوك، يعني: اشراف قوم فرعون. قال الأزهري: ائتمر القوم، وتآمروا أي: أمر بعضهم بعضاً، نظيره قوله: ﴿واثمروا بينكم بمعروف﴾ [الطلاق: 6] قال النمر بن تولب:

أرى الناس قد أحثوا شيمة وفي كل حائشة يؤتمر
﴿فأخرج إني لك من الناصحين﴾ في الأمر بالخروج، واللام للبيان؛ لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به، وإدراكهم له، ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلاً ﴿رب نجني من القوم الظالمين﴾ أي: خلصني من القوم الكافرين، وانفهم عني، وحل بيني وبينهم ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي: نحو مدين قاصداً لها. قال الزجاج: أي: سلك في الطريق الذي تلقاء مدين فيها. انتهى. يقال: داره تلقاء دار فلان، وأصله من اللقاء، ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون، ولهذا خرج إليها ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي: يرشدني نحو الطريق المستوية إلى مدين ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أي: وصل إليه، وهو الماء الذي يستقون منه ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي: وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول في المورد، وقد يطلق على البلوغ إليه، وإن لم يدخل فيه، وهو المراد هنا، ومنه قول زهير:

فلما وردنا الماء زرقا حمامه

وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله: ﴿وإن منكم إلا وأرداه﴾ [مريم: 71] وقيل: مدين اسم للقبيلة لا للقرية، وهي غير منصرفة على كلا التفسيرين ﴿ووجد من دونهم﴾ أي: من نون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التي جاء منها، وقيل: معناها: في موضع أسفل منهم ﴿لمراتين تنودان﴾ أي: تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس، ويخلو بينهما وبين الماء، ومعنى الذود: الدافع، والحبس، ومنه قول الشاعر:

أبيت على باب القوافي كأنما أنود بها سرباً من الوحش نزعاً

فتصف لي جسدك، فلما انتهى إلى أبيها قص عليه، فقالت إحداهما: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، قال: يا بنية ما علمك بأمانته، وقوته؟ قالت: أما قوته فرفعه الحجر، ولا يطيقه إلا عشرة رجال، وأما أمانته، فقال: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك، فتصف لي جسدك، فزاده نك رغبة فيه، فـ ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ إلى قوله: ﴿ستجديني إن شاء الله من الصالحين﴾ [القصص: 27] أي: في حسن الصفة، والوفاء بما قلت ﴿قال﴾ موسى: ﴿ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي﴾ [القصص: 28] قال: نعم قال: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ [القصص: 28] فزوجه، وأقام معه يكفيه، ويعمل في رعاية غنمه، وما يحتاج إليه، وزوجه صفورا، وأختها شرفا، وهما اللتان كانتا تذودان. قال ابن كثير بعد إخراجها لطرق من هذا الحديث: إن إسناده صحيح. والسلف من النساء الجريئة السليطة. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ قال: ورد الماء حيث ورد، ولأنه لتراءى خضرة البقل في بطنه من الهزال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: خرج موسى من مصر إلى مدين، وبينه وبينها ثمان ليال، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، وخرج حافيا، فما وصل إليها حتى وقع خف قدمه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضا قال ﴿تذودان﴾ تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس، ويخلو لهما البئر. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والضياء في المختارة عنه أيضا قال: لقد قال موسى: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير، وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمر، ولقد لصق بطنه بظهوره من شدة الجوع. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضا قال: ما سال إلا الطعام. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عنه أيضا قال: سال فلقا من الخبز يشد بها صلبه من الجوع.

فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ: هُوَ صَاحِبُ مُوسَى الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنَ الْمُنْذِرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ هُوَ الَّذِي اسْتَصْرِخَهُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: مِنْ قَتَلَ رَجُلَيْنِ فَهُوَ جِبَارٌ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ آيَةَ ﴿إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جِبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾، وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: لَا يَكُونُ الرَّجُلُ جِبَارًا حَتَّى يَقْتُلَ نَفْسَيْنِ. وَأَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَرَجَ مُوسَى خَائِفًا يَتَرَقَّبُ جَانِعًا لَيْسَ مَعَهُ زَادٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَاءٍ مَدِينٍ، ﴿وَعَلَيْهِ أَمَةٌ مِنَ النَّاسِ يَقْسُونَ﴾، وَامْرَأَتَانِ جَالِسَتَانِ بِشِيَاهُمَا، فَسَالَهُمَا ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ وَابُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ قَالَ: فَهَلْ قَرَبَكُمَا مَاءٌ؟ قَالَتَا: لَا، إِلَّا بَثْرٌ عَلَيْهَا صَخْرَةٌ قَدْ غَطِيَتْ بِهَا لَا يَطِيقُهَا نَفَرٌ، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ، فَارْيَانِيهَا، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَقَالَ بِالصَّخْرَةِ بِيَدِهِ، فَنَحَاها، ثُمَّ اسْتَقَى لَهُمْ سَجْلًا وَاحِدًا فَسَقَى الْغَنَمَ، ثُمَّ أَعَادَ الصَّخْرَةَ إِلَى مَكَانِهَا ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظَّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، فَسَمِعَتَا، قَالَ: فَرَجَعْنَا إِلَى ابْنَيْهِمَا، فَاسْتَنْكَرَ سُرْعَةَ مَجِيئِهِمَا، فَسَالَهُمَا، فَخَبَرَتَاهُ، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: انْطَلِقِي، فَادْعِيهِ، فَاتَتْ. فَهَكَذَا قَالَ ابْنُ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا، [القصص: 25] فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، فَإِنِّي أَمُرُّ مِنْ عُنْصُرِ إِبْرَاهِيمَ لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَرَى مِنْكَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيَّ، وَارْشِدِينِي الطَّرِيقَ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ۖ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنْ خَيْرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ ۖ [القصص: 25 - 26] قَالَ لَهَا: أَبُوهَا: مَا رَأَيْتَ مِنْ قُوَّتِهِ، وَأَمَانَتِهِ؟ فَخَبَرْتَهُ بِالْأَمْرِ الَّذِي كَانَ، قَالَتْ: أَمَا قُوَّتُهُ، فَإِنَّهُ قَلَبَ الْحَجَرَ وَحْدَهُ، وَكَانَ لَا يَقْلِبُهُ إِلَّا النَّفَرُ. وَأَمَّا أَمَانَتُهُ، فَقَالَ: امْشِي خَلْفِي، وَارْشِدِينِي الطَّرِيقَ؛ لِأَنِّي أَمُرُّ مِنْ عُنْصُرِ إِبْرَاهِيمَ لَا يَحِلُّ لِي مِنْكَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ. قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ الْأَجْلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: ابْنُهِمَا، وَأَوْفَاهُمَا. وَأَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمَصْنُفِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: إِنْ مُوسَى لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أَمَةٌ مِنَ النَّاسِ يَقْسُونَ، فَلَمَّا فَرَّغُوا أَغْلَوْا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبَثْرِ، وَلَا يَطِيقُ رَفْعُهَا إِلَّا عَشْرَةُ رِجَالٍ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَتَيْنِ، قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتْهُ، فَاتَى الْحَجَرَ، فَرَفَعَهُ وَحْدَهُ، ثُمَّ اسْتَقَى، فَلَمْ يَسْتَقِ إِلَّا نَوْبًا وَاحِدًا حَتَّى رَوَيْتَ الْغَنَمَ، فَرَجَعْتَ الْمَرَاتَانِ إِلَى ابْنَيْهِمَا، فَحَدَّثَتْهُ، وَتَوَلَّى مُوسَى إِلَى الظِّلِّ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. قَالَ: ﴿فَنَجَّاهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: 25] وَاضْعَةً ثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ مِنَ النِّسَاءِ خَرَّاجَةٌ وَلَا جَـ ﴿قَالَتْ إِنْ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25] فَقَامَ مَعَهَا مُوسَى، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَانْعَتِي لِي الطَّرِيقَ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَصِيبَ الرِّيحَ ثِيَابَكَ

فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ: هُوَ صَاحِبُ مُوسَى الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنَ الْمُنْذِرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ هُوَ الَّذِي اسْتَصْرِخَهُ. وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: مِنْ قَتَلَ رَجُلَيْنِ فَهُوَ جِبَارٌ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ آيَةَ ﴿إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جِبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾، وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: لَا يَكُونُ الرَّجُلُ جِبَارًا حَتَّى يَقْتُلَ نَفْسَيْنِ. وَأَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَرَجَ مُوسَى خَائِفًا يَتَرَقَّبُ جَانِعًا لَيْسَ مَعَهُ زَادٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَاءٍ مَدِينٍ، ﴿وَعَلَيْهِ أَمَةٌ مِنَ النَّاسِ يَقْسُونَ﴾، وَامْرَأَتَانِ جَالِسَتَانِ بِشِيَاهُمَا، فَسَالَهُمَا ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ وَابُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ قَالَ: فَهَلْ قَرَبَكُمَا مَاءٌ؟ قَالَتَا: لَا، إِلَّا بَثْرٌ عَلَيْهَا صَخْرَةٌ قَدْ غَطِيَتْ بِهَا لَا يَطِيقُهَا نَفَرٌ، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ، فَارْيَانِيهَا، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَقَالَ بِالصَّخْرَةِ بِيَدِهِ، فَنَحَاها، ثُمَّ اسْتَقَى لَهُمْ سَجْلًا وَاحِدًا فَسَقَى الْغَنَمَ، ثُمَّ أَعَادَ الصَّخْرَةَ إِلَى مَكَانِهَا ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، فَسَمِعَتَا، قَالَ: فَرَجَعْنَا إِلَى ابْنَيْهِمَا، فَاسْتَنْكَرَ سُرْعَةَ مَجِيئِهِمَا، فَسَالَهُمَا، فَخَبَرَتَاهُ، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: انْطَلِقِي، فَادْعِيهِ، فَاتَتْ. فَهَكَذَا قَالَ ابْنُ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا، [القصص: 25] فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، فَإِنِّي أَمُرُّ مِنْ عُنْصُرِ إِبْرَاهِيمَ لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَرَى مِنْكَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيَّ، وَارْشِدِينِي الطَّرِيقَ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ۖ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنْ خَيْرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ ۖ [القصص: 25 - 26] قَالَ لَهَا: أَبُوهَا: مَا رَأَيْتَ مِنْ قُوَّتِهِ، وَأَمَانَتِهِ؟ فَخَبَرْتَهُ بِالْأَمْرِ الَّذِي كَانَ، قَالَتْ: أَمَا قُوَّتُهُ، فَإِنَّهُ قَلَبَ الْحَجَرَ وَحْدَهُ، وَكَانَ لَا يَقْلِبُهُ إِلَّا النَّفَرُ. وَأَمَّا أَمَانَتُهُ، فَقَالَ: امْشِي خَلْفِي، وَارْشِدِينِي الطَّرِيقَ؛ لِأَنِّي أَمُرُّ مِنْ عُنْصُرِ إِبْرَاهِيمَ لَا يَحِلُّ لِي مِنْكَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ. قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ الْأَجْلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: ابْنُهِمَا، وَأَوْفَاهُمَا. وَأَخْرَجَ الْفَرِيَابِيُّ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمَصْنُفِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: إِنْ مُوسَى لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أَمَةٌ مِنَ النَّاسِ يَقْسُونَ، فَلَمَّا فَرَّغُوا أَغْلَوْا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبَثْرِ، وَلَا يَطِيقُ رَفْعُهَا إِلَّا عَشْرَةُ رِجَالٍ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَتَيْنِ، قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتْهُ، فَاتَى الْحَجَرَ، فَرَفَعَهُ وَحْدَهُ، ثُمَّ اسْتَقَى، فَلَمْ يَسْتَقِ إِلَّا نَوْبًا وَاحِدًا حَتَّى رَوَيْتَ الْغَنَمَ، فَرَجَعْتَ الْمَرَاتَانِ إِلَى ابْنَيْهِمَا، فَحَدَّثَتْهُ، وَتَوَلَّى مُوسَى إِلَى الظِّلِّ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. قَالَ: ﴿فَنَجَّاهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: 25] وَاضْعَةً ثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ مِنَ النِّسَاءِ خَرَّاجَةٌ وَلَا جَـ ﴿قَالَتْ إِنْ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25] فَقَامَ مَعَهَا مُوسَى، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَانْعَتِي لِي الطَّرِيقَ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَصِيبَ الرِّيحَ ثِيَابَكَ

تجعل ثوابي أن ترعى غنمي ثمانين سنين، ومحل ﴿على أن تلجرنني﴾ النصب على الحال، وهو مضارع أجرته، ومفعوله الثاني محذوف أي نفسك ﴿ثمانين حجج﴾ ظرف. قال المبرد: يقال: أجرت داري ومملوكي غير ممدود وممدوداً، والأول أكثر ﴿فإن لقمتم عشرين فمّن عندك﴾ أي: إن أتممت ما استلجركت عليه من الرعي عشر سنين فمّن عندك أي: تفضلاً منك لا إلزاماً مني لك، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام، موكولاً إلى المروءة. ومحل ﴿فمّن عندك﴾ الرفع على تقدير مبتدأ أي: فهي من عندك ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ بالإلزام إتمام العشرة الأعوام، واشتقاق المشقة من الشق أي: شق ظنه نصفين، فتارة يقول: أطيق، وتارة يقول: لا أطيق. ثم رغبه في قبول الإجارة، فقال ﴿ستجني إن شاء الله من الصالحين﴾ في حسن الصحبة والوفاء، وقيل: أراد الصلاح على العموم، فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجارة تحت الآية دخولاً أولياً، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضاً للأمر إلى توفيق الله ومعونته. ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى ﴿قال ذلك بيني وبينك﴾ واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ما بعده، والإشارة إلى ما تعاقدا عليه، وجملة ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ شرطية، وجوابها ﴿فلا عدوان عليّ﴾، والمراد بالأجلين: الثمانية الأعوام، والعشرة الأعوام، ومعنى ﴿قضيت﴾: وفيت به، وأتممت، والأجلين مخفوض بإضافة أي إليه، وما زائدة. وقال ابن كيسان: «ما» في موضع خفض بإضافة أي إليها، وهما الأجلين بدل منها، وقرأ الحسن (أيما) بسكون الياء، وقرأ ابن مسعود (أي الأجلين ما قضيت)، ومعنى ﴿فلا عدوان عليّ﴾: فلا ظلم عليّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين أي: كما لا أطلب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطلب بالنقصان على العشرة. وقيل: المعنى كما لا أطلب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطلب بالزيادة على الثمانية الأعوام، وهذا أظهر. وأصل العنوان تجاوز الحد في غير ما يجب. قال المبرد: وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما، ولكنه جمعهما؛ ليجعل الأول كالأتم في الوفاء. قرأ الجمهور (عدوان) بضم العين. وقرأ أبو حيوة بكسرها ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أي: على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا شاهد وحفيظ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شيء من ذلك. قيل: هو من قول موسى، وقيل: من قول شعيب، والأول أولى لوقوعه في جملة كلام موسى ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ هو أكملهما، وأوفاهما، وهو العشرة الأعوام، كما سيأتي آخر البحث، والفاء فصيحة ﴿وسار بأهله﴾ إلى مصر، وفيه ليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ﴿أنس من جانب الطور نارا﴾ أي: أبصر من الجهة التي تلي الطور نارا، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة طه مستوفى ﴿قال لأهله امكثوا إني أنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر﴾ وهذا تقدّم تفسيره أيضاً في سورة طه، وفي سورة النمل

أَقِيلَ وَلَا تَحْفَ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٢٨﴾ أَسْأَلُكَ بِكَ فِي حَبِيبِكَ نَحْجَ بَصَاءَ مِنْ غَيْرِ سَمٍ وَأَسْأَلُكَ بِكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّحْمَةِ فَذَلِكَ بَرْهَانُ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٩﴾

قوله ﴿فجاعته إحداهما تمشي على استحياء﴾ في الكلام حذف يدل عليه السياق. قال الزجاج: تقديره، فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عانتها الإبطاء في السقي، فحلّثناه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل: الصغرى أن تدعوه له، فجاعته. وذهب أكثر المفسرين إلى أنهما ابنتا شعيب، وقيل: هما ابنتا أخي شعيب، وإن شعيباً كان قد مات. والأول أرجح، وهو ظاهر القرآن. ومحل ﴿تمشي﴾ النصب على الحال من فاعل جاءت، ﴿وعلى استحياء﴾ حال أخرى أي: كائنة على استحياء حالتي المشي والمجيء فقط، وجملة ﴿قالت إن أبي يدعوك﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالت له لما جاءته ﴿ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي: جزاء سقيك لنا ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ القصص مصدر سمي به المفعول أي: المقصود يعني: أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطي إلى عند وصوله إلى ماء مدين ﴿قال﴾ شعيب ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي: فرعون، وأصحابه، لأن فرعون لا سلطان له على مدين، وللرازي في هذا الموضع إشكالات باردة جداً لا تستحق أن تذكر في تفسير كلام الله عز وجل، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلاً عن الكامل، وأشف ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقي. ويجاب عنه بأنه اتبع سنة الله في إجابة دعوة نبي من أنبياء الله، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل، ولهذا ورد أنه لما قدم إليه الطعام قال: إنا أهل بيت لا نبيع بيننا بملء الأرض ذهباً ﴿قالت إحداهما يا ليت استلجرك﴾ القائلة هي التي جاءت أي: استلجرك ليرعى لنا الغنم، وفيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة. وقد اتفق على جوازها، ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصم، وجملة ﴿إن خير من استلجرت للقي الامين﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى أي: إنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعاً بين خصلتي القوة، والأمانة. وقد تقدّم في المروي عن ابن عباس، وعمر: أن أباهما سألها عن وصفها له بالقوة، والأمانة، فأجابته بما تقدّم قريباً ﴿قال إني أريد أن أتكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ فيه مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر، وعثمان، والقصة معروفة، وغير ذلك مما وقع في أيام الصحابة أيام النبوة، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ ﴿على أن تلجرنني ثمانين حجج﴾ أي: على أن تكون أجيراً لي ثمانين سنين. قال الفراء: يقول: على أن

أراد بالجنح عصاه، وقال بعض أهل المعاني: الرهب الكم بلغة حمير، وبني حنيفة. قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول لأخر: أعطني ما في رهبك، فسألته عن الرهب، فقال: الكم. فعلى هذا يكون اضمم إليك يدك، وأخرجها من الكم ﴿فَذَانِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿يَهْرَهُنَّ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: حجتان نيرتان، ودليان واضحان، قرأ الجمهور (فَذَانِكَ) بتخفيف النون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتشديدها، قيل: والتشديد لغة قريش. وقرأ ابن مسعود، وعيسى بن عمر، وشبل، وأبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة، والياء بدل من من إحدى النونين، وهي لغة هنيل، وقيل: لغة تميم، وقوله ﴿مَنْ رَبِّكَ﴾ متعلق بمحذوف أي: كائن من، وكذلك قوله ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ متعلق بمحذوف أي: مرسلان، أو واصلان إليهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ متجاوزين الحد في الظلم خارجين عن الطاعة أبلغ خروج، والجملة تليل لما قبلها.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ قال: جاءت مستترة بكم درعها على وجهها. وأخرج ابن المنذر عن أبي الهذيل موقوفاً عليه. وأخرج ابن عساکر عن أبي حاتم قال: لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء، فقال له شعيب: كل، قال موسى: أعوذ بالله، قال: ولم؟ ألسنت بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً عما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، قال: لا والله، ولكنها عادتي، وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى، فاكل. وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس: أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه القصص. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: كان صاحب موسى أثرون بن أخي شعيب النبي. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى يثرب صاحب مدين. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عنه قال: كان اسم ختن موسى يثربي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: يقول أناس: إنه شعيب، وليس بشعيب، ولكنه سيد الماء يومئذ. وأخرج ابن ماجه، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عن عتبة بن المنذر السلمي قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فقرأ سورة طسّم حتى إذا بلغ قصة موسى قال: إن موسى أجر نفسه ثمانين سنين، أو عشرأ على عفة فرجه وطعام بطنه، فلما وفي الأجل قيل: يا رسول الله أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما، وأوفاهما، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته: أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت غنمه، الحديث بطوله. وفي إسناده مسلمة بن علي الحسني الدمشقي البلاطي، ضعفه الأئمة. وقد روي من وجه آخر، وفيه نظر. وإسناده عند ابن أبي

﴿أَوْ جَنُودٍ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم، وقرأ حمزة، ويحيى بن وثاب بضمها، وقرأ عاصم، والسلمي، ونز بن حبش بفتحها. قال الجوهري: الجنوة والجنوة، والجنوة الجمرة، والجمع جذى، وجذي، وجذى. قال مجاهد: في الآية أن الجنوة قطعة من الجمر في لغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة: هي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها ناراً، ولم يكن، ومما يؤيد أن الجنوة الجمرة قول السلمي:

وبللت بعد المسك والبان شقوة بخان الجذا في رأس أشمط شاحب

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بالنار ﴿فَلَمَّا تَخَاهَى﴾ أي: أتى النار التي أبصرها، وقيل: أتى الشجرة، والاولى لعدم تقدّم الذكر للشجرة ﴿فَنُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ من لابتداء الغاية، والأيمن صفة للشاطئ، وهو من اليمين، وهو البركة، أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى أي: الذي يلي يمينه نون يساره، وشاطئ الوادي طرفه، وكذا شطه. قال الراغب: وجمع الشاطئ أشطاء، وقوله ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ متعلق بنودي، أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ، ﴿وَمَنْ لِلشَّجَرَةِ﴾ بدل اشتغال من شاطئ الواد، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ. وقال الجوهري: يقول: شاطئ الأودية، ولا يجمع. قرأ الجمهور (في البقعة) بضم الباء، وقرأ أبو سلمة، والأشهب العقيلي بفتحها، وهي لغة حكاها أبو زيد ﴿إِنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ أن هي المفسرة، ويجوز أن تكون هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة النداء مفسرة له، والاولى أولى. قرأ الجمهور بكسر همزة (إني) على إضمار القول، أو على تضمين النداء معناه. وقرئ بالفتح، وهي قراءة ضعيفة، وقوله ﴿وَأَنْ لِّقِ عَصَاكَ﴾ معطوف على ﴿إِنْ يَا مُوسَى﴾ وقد تقدّم تفسير هذا، وما بعده في طه، والنمل، وفي الكلام حذف، والتقدير: فإلقاها، فصارت ثعباناً، فامتزت ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ في سرعة حركتها مع عظم جسمها ﴿وَأُولَىٰ مَبْرَأٍ﴾ أي: منهزماً، وانتصاب مبرأً على الحال وقوله: ﴿وَلَمْ يَعْقِبْ﴾ في محل نصب أيضاً على الحال: أي: لم يرجع ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ قد تقدّم تفسير جميع ما نكر هنا مستوفى فلا نعيده، وكذلك قوله ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ وَأَضْمِمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ جناح الإنسان عضده، ويقال لليد كلها: جناح أي: اضمم إليك يديك المبسوطتين؛ لتتقي بهما الحية كالخائف الفزع، وقد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات: الأولى اسلك يدك في جيبك، والثانية: اضمم إليك جناحك، والثالثة: أدخل يدك في جيبك. ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعباناً، ومعنى ﴿مَنْ لِلرَّهْبِ﴾: من أجل الرهب، وهو الخوف، قرأ الجمهور (الرهب) بفتح الراء والهاء، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ حفص، والسلمي، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بفتح الراء، وإسكان الهاء. وقرأ ابن عامر، والكوفيون إلا حفصاً بضم الراء، وإسكان الهاء. وقال الفراء:

جائع، فأخذ منها ملآن فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيفه، فلفظه، فصليت على النبي، وسلمت، ثم انصرفت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله **﴿واضمم إليك جناحك﴾** قال: يلك.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَعَاذُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٣١﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣٢﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأُخْرِكَ وَيَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ أَتْبَعَكُمَا الْفٰلِغُونَ ﴿١٣٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمَرٌ وَمَا سِعَمٰنَا بِهِذِهِ إِلَّا مَا يَكْفِيُنَا الْآلِزِينَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّيْٓ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ إِنَّهُ يُدْعِيَنَّكَ إِلَىٰ ذِكْرِكَ عَلَىٰ الصُّلٰحِ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ الْعَقِيلُ ﴿١٣٥﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُتِدْتُ لِمَنْ كَفَرَ مِنِّي بِآيَاتِنَا وَقَاتِلُ الَّذِينَ يَبْغِيُونَ إِلٰهِيْهُمْ فَذٰلِكُمْ فَسَادُهُمْ فِي الْوَيٰدِ فَقَاتِلْهُمْ حَتَّىٰ تَبْغِيَهُ الْقُلُوبُ لِمَنِ كَبُرَتْ ذِكْرُهُمْ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٦﴾ فَاتَّخَذَتْهُمْ دَابَّةٌ لَّهُمْ فَيَتَوَلَّوْنَ الْكَافِرَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ لَا يَضُرُّونَ ﴿١٣٧﴾ وَاتَّبَعَتْنَهُمْ فِيْ هٰذِهِ الدُّنْيَا لَقَنَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ هُمْ فِي الْمَتَابِيِّينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتٰبَ مِنْ بَعْدِ مَا عَلَّمْنَا الْاٰلِهَةَ الْقُرْاٰنَ اَوَّلُ بَصٰاِئِرَ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ ﴿١٣٩﴾

لما سمع موسى قول الله سبحانه **﴿فإذانك برهانان إلى فرعون﴾** [القصص: 32] طلب منه سبحانه أن يقوّي قلبه، ف**﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾** يعني: القبطي الذي وكّره، فقصّى عليه **﴿فأخاف أن يقتلون﴾** بها **﴿ولخي هرون هو أفصح مني لساناً﴾** لأنه كان في لسان موسى حبة كما تقدّم بيانه، والفصاحة لغة الخلوص، يقال: فصّح البن، وأفصح فهو: فصيح أي: خلص من الرغوة، ومنه فصّح الرجل: جانت لفته، وأفصح: تكلم بالعربية. وقيل: الفصيح الذي ينطق، والأعجم الذي لا ينطق. وأما في اصطلاح أهل البيان فالفصاحة: خلوص الكلمة عن تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، وفصاحة الكلام: خلوصه من ضعف التأليف، والتعقيد. وانتصاب **﴿ورده﴾** على الحال، والردء المعين، من أرداته أي: أعنته، يقال: فلان رده فلان: إذا كان ينصره، ويشدّ ظهره، ومنه قول الشاعر:

لم تر أن أصرم كان رنثي وخير الناس في قل وما
وحذفت الهمزة تخفيفاً في قراءة نافع، وأبي جعفر، ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أردى على المائة: إذا زاد عليها، فكان المعنى: أرسله معي زيادة في تصديقي، ومنه قول الشاعر:

واسمر خطياً كان كعوبه نوى القسب قد أرى ذراعاً على العشر
وروي البيت في الصحاح بلفظ قد أرى، والقسب الصلب، وهو الثمر اليابس الذي يتفتت في الفم، وهو صلب النواة **﴿يصدقني﴾** قرأ عاصم، وحزمة (يصدقني) بالرفع

حاتم هكذا: حدثنا أبو زرعة عن يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله ﷺ فنكره. وابن لهيعة ضعيف، وينظر في بقية رجال السند. وأخرج ابن جرير عن أنس طرفاً منه موقوفاً عليه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس: أنه سئل: أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقال: قضى أكثرهما، وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وأخرج البزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه نحوه، وقوله: إن رسول الله إذا قال فعل فيه نظر، فإن موسى لم يقل إنه سيفضي أكثر الأجلين بل قال: أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ. وقد روى عن رسول الله ﷺ: أن موسى قضى أتمّ الأجلين من طرق. وأخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما، وأبرهما، وإن سئلت أي المراتين تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: يا أبت استأجره». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد إن سالك اليهود أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سالوك أيهما تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما». وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي ذر: «أن النبي ﷺ سئل: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما، وأوفاهما، قال: وإن سئلت أيّ المراتين تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما، قال البزار: لا نعلم يروي عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد، وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران، وهو ضعيف، وأما روايات أنه قضى أتمّ الأجلين فلها طرق يقوّي بعضها بعضاً. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي قال: قال ابن عباس: لما قضى موسى الأجل سار بأهله، فضل الطريق، وكان في الشتاء فرفعت له نار، فلما رآها ظنّ أنها نار، وكانت من نور الله **﴿فقال لأهله امكنوا إني أنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر﴾** فإن لم أجد خبراً آتيكم بشهاب قبس **﴿لعلكم تصطلون﴾** من البرد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿لعلّي آتيكم منها بخبر﴾** لعلّي أجد من يبلني على الطريق، وكانوا قد ضلوا الطريق. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿لو جنوة﴾** قال: شهاب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله **﴿نودي من شاطئ الواد﴾** قال: كان النداء من السماء الدنيا، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضي الله عنه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال: ذكرت لي الشجرة التي أوى إليها موسى، فسرت إليها يومي وليلتي حتى صبحتها، فإذا هي سمرة خضراء ترف، فصليت على النبي ﷺ، وسلمت، فاهوى إليها بعيري وهو

واحد، يقال: طلع الجبل، واطلع **﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾** المراد بالأرض أرض مصر، والاستكبار التعظم بغير استحقاق، بل بالدوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات **﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾** أي: فرعون، وجنوده، والمراد بالرجوع البعث، والمعاد، قرأ نافع، وشيبة، وابن محيصن، وحמיד، ويعقوب، وحزمة، والكسائي **﴿لا يرجعون﴾** بفتح الباء، وكسر الجيم مبنياً للفاعل. وقرأ الباقون بضم الباء، وفتح الجيم مبنياً للمفعول، واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عبيد **﴿فلننناه وجنوده﴾** بعد أن عتوا في الكفر، وجاوزوا الحد فيه **﴿فنبننهم في اليوم﴾** أي: طرحناهم في البحر، وقد تقدم بيان الكلام في هذا **﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾** الخطاب لبنيينا محمد **﴿آي: انظر يا محمد كيف كان أمر الكافرين حين صاروا إلى الهلاك﴾** وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار **﴿آي: صيرناهم رؤساء متبعين مطاعين في الكافرين فكانهم بإصرارهم على الكفر، والتماذي فيه يدعون أتباعهم إلى النار؛ لأنهم اقتتوا، وسلخوا طريقتهم تقليداً لهم. وقيل: المعنى: إنه ياتم بهم أي: يعتبر بهم من جاء بعدهم، ويتعظ بما أصيبوا به، والأول أولى ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾** لا ينصرهم أحد، ولا يمنهم مانع من عذاب الله **﴿واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾** أي: طرداً وإبعاداً، أو امرنا العباد لعنتهم، فكل من نكرهم لعنتهم، والأول أولى **﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾** المقبوح المطرود المبعد. وقال أبو عبيدة، وابن كيسان: معناه من المهلكين الممقوتين. وقال أبو زيد: قبح الله فلاناً قبحاً، وقبوحاً أبعد من كل خير. قال أبو عمرو: قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالشديد، ومثله قول الشاعر: لا تبع الله البراجم كلها - وقبح يريوعاً وقبح دارما وقيل: المقبوح المشوه الخلقة، والعامل في يوم محذوف يفسره من المقبوحين، والتقدير: وقبحوا يوم القيامة، أو هو معطوف على موضع في هذه الدنيا أي: واتبعناهم لعنة يوم القيامة، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف أي: ولعنة يوم القيامة **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾** يعني: التوراة **﴿ومن بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾** أي: قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، وقيل: من بعد ما أهلكنا فرعون، وقومه، وخسفنا بقارون، وانتصاب **﴿بصائر الناس﴾** على أنه مفعول له، أو حال أي: آتينا الكتاب لأجل يتبصر به الناس، أو حال كونه بصائر الناس يبصرون به الحق، ويهتدون إليه، وينقون أنفسهم به من الضلالة بالإهداء به **﴿ورحمة﴾** لهم من الله رحمهم بها **﴿لعلهم يتذكرون﴾** هذه النعم، فيشكرون الله، ويؤمنون به، ويجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿ردءاً يصدقني﴾** كي يصدقني.

على الاستئفاف، أو الصفة لردء، أو الحال من مفعول أرسله، وقرأ الباقون بالجزم على جواب الأمر، وقرأ أبي، وزيد بن علي (يصدقون) أي: فرعون وملؤه **﴿إني لأخاف أن يكتبوني﴾** إذا لم يكن معي هرون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة **﴿قال سنشد عضدك بأخيك﴾** أي: تقويك به، فشد العضد كناية عن التقوية، ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وفي ضده: فت الله في عضدك. قرأ الجمهور (عضدك) بفتح العين. وقرأ الحسين، وزيد بن علي بضمها. وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضمة وسكون. وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما **﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾** أي: حجة، وبرهاناً، أو تسلطاً عليه، وعلى قومه **﴿فلا يصلون إليكما﴾** بالأنزى، ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة، **﴿بآياتنا﴾** متعلق بمحذوف أي: تمتنعان منهم بآياتنا، أو اذهبا بآياتنا. وقيل: الباء للقسم، وجوابه يصلون، وما أضعف هذا القول. وقال الأخفش، وابن جرير: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير **﴿انتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** بآياتنا، وأزل هذه الوجوه أولها، وفي **﴿انتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** تبشير لهما، وتقوية لقلوبهما **﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾** البينات الواضحات الدالة، وقد تقدم وجه إطلاق الآيات، وهي جمع على العصا، واليد في سورة طه **﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾** أي: مخلق مكنوب اختلقته من قبل نفسك **﴿وما سمعنا بهذا﴾** الذي جئت به من دعوى النبوة، أو ما سمعنا بهذا السحر **﴿في لبائنا الأولين﴾** أي: كائناتنا، أو واقعاً في آبائنا الأولين **﴿وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾** يريد نفسه، وإنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة، والله أعلم. قرأ الجمهور (وقال موسى) بالواو، وقرأ مجاهد، وابن كثير، وابن محيصن (قال موسى) بلا واو، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً (ومن يكون عاقبة الدار) بالتحته على أن اسم يكون عاقبة الدار. والتذكير لوقوع الفصل، ولأنه تانيث مجازي، وقرأ الباقون (تكون) بالفوقية، وهي أوضح من القراءة الأولى، والمراد بالدار هنا الدنيا، وعاقبتها هي الدار الآخرة، والمعنى: لمن تكون له العاقبة المحمودة، والضمير في **﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾** للشأن أي: إن الشأن أنه لا يفلح الظالمون أي: لا يفوزون بمطلب خير، ويجوز أن يكون المراد بعاقبة الدار خاتمة الخير، وقال فرعون: **﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾** تمسك اللعين بمجرد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه، وقد كان يعلم أنه ربه الله عز وجل، ثم رجع إلى تكبره، وتجبره، وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال **﴿فاوقد لي يا هامان على الطين﴾** أي: اطبخ لي الطين حتى يصير أجراً **﴿فاجعل لي صرحاً﴾** أي: اجعل لي من هذا الطين الذي توقد عليه حتى يصير أجراً صرحاً أي: قصرأ عالياً **﴿لعلي أطلع إلى إله موسى﴾** أي: أصدد إليه **﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾** والطلوع، والإطلاع

من حنف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه، واختاره الزجاج.
وقال الكلبي: بجانب الوادي الغربي أي: حيث تاجى موسى ربه
﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أي: عهدنا إليه، وأحكمنا الأمر
معه بالرسالة إلى فرعون، وقومهم ﴿وما كنت من الشاهدين﴾
لذلك حتى تقف على حقيقته، وتحكيه من جهة نفسك. وإذا تقرّر
أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون
بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ، والمشاهدة لها منه،
وانتفى بالآلة الصحيحة أنه لم يتلق ذلك من غيره من
البشر، ولا علمه معلم منهم كما قدّمنا تقريره تبين أنه من
عند الله سبحانه بوحى منه إلى رسوله بواسطة الملك النازل
بذلك، فهذا الكلام هو على طريقة ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون
أقلامهم إيهيم يكفل مريم﴾ [آل عمران: 44] وقيل: معنى ﴿إذ
قضينا إلى موسى الأمر﴾: إذ كلفناه، والزمناء، وقيل:
لخبرناه أن أمة محمد خير الأمم، ولا يستلزم نفي كونه
بجانب الغربي نفي كونه من الشاهدين، لأنه يجوز أن
يحضر، ولا يشهد. قيل: المراد بالشاهدين السبعون الذين
اختارهم موسى للميقات ﴿ولكننا أنشأنا قرونًا﴾ أي: خلقنا
أما بين زمانك يا محمد، وزمان موسى ﴿فقطاول عليهم
العمر﴾ طالت عليهم المهلة، وتمادى عليهم الأمد، فتغيرت
الشرائع، والأحكام، وتنوسيت الأبيان فتركوا أمر الله، ونسوا
عهده، ومثله قوله سبحانه: ﴿فطال عليهم الأمد فقصت
قلوبهم﴾ [الحديد: 16]، وقد استدل بهذا الكلام على أن الله
سبحانه قد عهد إلى موسى عهداً في محمد ﷺ وفي
الإيمان به، فلما طال عليهم العمر، ومضت القرون بعد
القرون نسوا تلك العهود، وتركوا الوفاء بها ﴿وما كنت
ثاوياً في أهل مدين﴾ أي: مقيماً بينهم كما أقام موسى
حتى تقرا على أهل مكة خبرهم، وتقص عليهم من جهة
نفسك يقال: ثوى يثوي ثواء، وثواي فهو ثاوي، قال نو الرمة:
لقد كان في حول ثواء ثويته تقضي لبيانات ويسام سائم

وقال العجاج:

فبكت حيث يدخل الشوي

يعني: الضيف المقيم، وقال آخر:

طال الثواء على رسول المنزل

﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾ أي: تقرا على أهل مدين آياتنا،
وتتعلّم منهم، وقيل: تذكرهم بالوعد، والوعيد، والجملة في
محل نصب على الحال، أو خبر ثان، ويجوز أن تكون هذه
الجملة هي الخبر، وثانياً حال. وجعلها الفراء مستأنفة كأنه
قيل: وما أنت تتلو على أمتك ﴿ولكننا كنا موسىين﴾ أي:
أرسلناك إلى أهل مكة، وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك
لما علمتها. قال الزجاج: المعنى: أنك لم تشاهد قصص
الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكننا أوحيناها إليك، وقصصناها
عليك ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ أي: وما كنت يا
محمد بجانب الجبل المسمى بالطور إذ نادينا موسى لما أتى
إلى الميقات مع السبعين. وقيل: المنادي هو أمة محمد ﷺ.
قال وهب: وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد، وأمه

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: لما قال فرعون ﴿يا أيها
الملك ما علمت لكم من إله غيري﴾ قال جبريل: يا رب
طغى عبدك، فأنذني لي في ملكه، فقال: يا جبريل هو عبيدي،
ولن يسبقني، له لجل يجيء ذلك الأجل، فلما قال ﴿إنا ربكم
الاعلى﴾ قال الله: يا جبريل سبقت دعوتك في عبيدي، وقد
جاء أوان هلاكه. وأخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول الله
ﷺ: «كلمتان قالهما فرعون ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾
وقوله ﴿إنا ربكم الاعلى﴾ قال: كان بينهما أربعون عاماً
﴿فأخذ الله نكال الآخرة والأولى﴾ [النازعات: 25]. وأخرج
عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن
قتادة قال: بلغني أن فرعون أوّل من طبخ الأجر. وأخرجه
ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج البزار، وابن المنذر،
والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال
رسول الله ﷺ: «ما أهلك الله قوماً، ولا قرناً، ولا أمة، ولا
أهل قرية بعدذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه
الأرض غير القرية التي مسخت قردة، ألم تر إلى قوله
﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون
الأولى﴾. وأخرجه البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم من
وجه آخر عن أبي سعيد موقوفاً.

وَمَا كُنْتَ بِصَاحِبِ السَّيْفِ إِذْ فَتَنَّاكَ إِلَىٰ مَوْسىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الظَّاهِدِينَ
﴿١﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَحَلَاوهُ فَنَكَلَّاهُمُ الْمَاءَ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيهِمْ أَهْلَ
مَدْيَنَ فَتَلَاوَهُمْ عَلَيْهِمْ عَاصِرًا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٢﴾ وَمَا كُنْتَ بِصَاحِبِ
الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنَّا وَلَئِكَ لَئِيْذٌ قُرُونًا أَنَّهُمْ يُنْفِرُونَ
مِن قِبَلِكَ لَمَّا هُم بَازِلُونَ ﴿٣﴾ وَلَوْ أَن شِيبَهُمْ مُّصِيبَةً يَوْمَ فَلَمَتْ
أَبْرِهِمْ لَبَدَّلْنَا رَبَّنَا وَلَوْ أَن أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا فَقَدِ احْتَمَرَّتْ
مِنَ الْكُفُورِيِّينَ ﴿٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالَ أُولَئِكَ أَطُوعُوا
أُولَئِكَ مَوْسَىٰ أُولَئِكَ يَكْفُرُوا وَمَا أُولَئِكَ مَوْسَىٰ مِنْ قَدِّ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا
وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ لَكَادِرُونَ ﴿٥﴾ فَلَمَّا قَالُوا يُكَذِّبُ مِن عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
أَتَيْتُهُمْ مِنْ كُنُوزٍ مَّصْنُونَةٍ ﴿٦﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُجِيبُونَ
أَهْوَاهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِخَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَمِنَ الْخَالِقِينَ
يَهْدِي اللَّهُ الْغَالِطِينَ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ رَسَلْنَا لَكُمْ لُطْغَمًا لَمَّا هُم بَازِلُونَ ﴿٨﴾
الَّذِينَ كَانَتْهُمْ الْكُتُبُ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْفَكُونَ ﴿٩﴾ وَلَمَّا نَالَ عَلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا
بِهِ إِلهٌ الْحَقُّ مِن رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَعْرَضَ مَرَّتَيْنِ
يَوْمَ صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١١﴾ وَإِنَّا
سَكِّرْنَا الْأَنْهَارَ عَنْهُمْ وَأَقْرَبْنَا لَنَا أَمْعَانًا وَلَكُمْ أَمْعَانُ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا
يَبْنِي السَّيْلِيلِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣﴾ وَقَالُوا إِن تُلَاحِظْ مَعَكَ تَتَغَلَّبُ مِنَّا أَرْضُنَا أَوْلَمْ
تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا مَّا إِنَّا بِمُحِبِّ إِلَيْهِ نَسْرَتْ كُلِّ قَوْمٍ وَرَقْنَا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

قوله ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ هذا شروع في بيان
إنزال القرآن أي: وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي، فيكون

قال: يا رب أرنيهم، فقال الله: إنك لن تدركهم، وإن شئت ناديتهم فاسمعتك صوتهم، قال: بلى يا رب، فقال الله: يا أمة محمد، فأجابوا من أصلاب آبائهم، فيكون معنى الآية على هذا: ما كنت يا محمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى، فنادينا أمتك، وسيأتي ما يدل على هذا، ويقويه، ويرجح في آخر البحث إن شاء الله **﴿ولكن رحمة من ربك﴾** أي: ولكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم، وقيل: ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم، وقيل: علمناكم، وقيل: عرفناكم، قال الأخفش: هو منصوب يعني: رحمة على المصدر أي: ولكن رحمناك رحمة. وقال الزجاج: هو مفعول من أجله رأي: فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة. قال النحاس: أي: لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكن بعثناك، وأوحيناها إليك للرحمة. وقال الكسائي: هو خبر لكان مقترنة أي: ولكن كان ذلك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر، وأبو حيو (رحمة) بالرفع على تقدير: ولكن أنت رحمة. وقال الكسائي: الرفع على أنها اسم كان المقترنة، وهو بعيد إلا على تقدير أنها تامة، واللام في **﴿لننذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك﴾** متعلق بالفعل المقدر على الاختلاف في تقديره، والقوم هم أهل مكة، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله **﴿وما اتاهم﴾** عطف إلخ، صفة لقوماً **﴿لعلهم يتذكرون﴾** أي: يتعظون بئذارك **﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾** لولا هذه هي الامتناعية، وإن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء، وجوابها محذوف. قال الزجاج: وتقديره ما أرسلنا إليهم رسلاً: يعني: أن الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عنهم، فهو كقوله سبحانه: **﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** [النساء: 165] وقدره ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة، ووافقه على هذا للتقدير الواحدي فقال: والمعنى: لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، وقوله **﴿فيقولوا﴾** عطف على تصيبهم، ومن جملة ما هو في حيز لولا أي: فيقولوا **﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسلاً﴾** ولولا هذه الثانية هي التحضيضية أي: هلا أرسلت إلينا رسلاً من عندك، وجوابها هو **﴿فنتبّع آياتك﴾** وهو منصوب بإضمار أن لكونه جواباً للتحضيض، والمراد بالآيات: الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة، وإنما عطف القول على تصيبهم لكونه هو السبب للإرسال، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها هي السبب لإرسال الرسل بواسطة القول **﴿ونكون من المؤمنين﴾** بهذه الآيات، ومعنى الآية: أنا لو عذبناهم لقالوا: طال العهد بالرسل، ولم يرسل الله إلينا رسلاً، ويظنون أن ذلك عذر لهم، ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل، ولكننا أكملنا الحجة، وأزحنا العلة، وأتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم **﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾** أي: فلما جاء أهل مكة الحق من عند الله، وهو محمد **﴿وما أنزل عليه من القرآن قالوا تعنتاً منهم وجداً بالباطل﴾** هلا أوتي

هذا الرسول مثل ما أوتي موسى من الآيات التي من جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة، فأجاب الله عليهم بقوله **﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾** أي: من قبل هذا القول، أو من قبل ظهور محمد؛ والمعنى: أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد، وجملة **﴿قلوا سحران تظاهرا﴾** مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم، وعنادهم، والمراد بقولهم **﴿سحران﴾**: موسى، ومحمد، والتظاهر التعاون أي: تعاونوا على السحر، والضمير في قوله: **﴿أولم يكفروا﴾** لكفار قريش، وقيل: هو لليهود، والأول أولى، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم، إلا أن يراد من أنكر نبوة موسى كفرعون وقومه، فإنهم وصفوا موسى وهرون بالسحر. ولكنهم ليسوا من اليهود. ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى، ومن كفر بمحمد، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر، والذين كفروا بمحمد وصفوه أيضاً بالسحر. وقيل: المعنى: أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد. قرأ الجمهور (سحران)، وقرأ الكوفيون (سحران) يعنون: التوراة، والقرآن، وقيل: الإنجيل، والقرآن. قال بالأول الفراء. وقال بالثاني أبو زيد. وقيل: إن الضمير في **﴿أولم يكفروا﴾** لليهود، وأنهم عنوا بقولهم: «سحران، عيسى، ومحمد» أو من موسى، وهرون، أو من موسى، وعيسى على اختلاف الأقوال، وهذا على قراءة الجمهور، وأما على القراءة الثانية فالمراد التوراة، والقرآن، أو الإنجيل، والقرآن. وفي هذه الجملة تقرير لما تقدمها من وصف النبيين بالسحر. أو من وصف الكتابين به، وتأكيد لذلك. ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولاً يظهر به عجزهم، فقال **﴿قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما تتبعه﴾** أي: قل لهم يا محمد: فاتوا بكتاب هو أهدى من التوراة، والقرآن، وأتبعه جواب الأمر، وقد جزمه جمهور القراء لذلك. وقرأ زيد بن علي برفع **﴿تبعه﴾** على الاستئناف أي: فانا أتبعه. قال الفراء: إنه على هذه القراءة صفة للكتاب، وفي هذا الكلام تهكم به. وفيه أيضاً دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور؛ لأنه رجع الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين، ومعنى **﴿إن كنتم صانقين﴾**: إن كنتم فيما وصفتهم به الرسولين، أو الكتابين صانقين **﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾** أي: لم يفعلوا ما كلفتم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين، وجواب الشرط **﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾** أي: آراءهم الزائفة، واستحساناتهم الزائفة بلا حجة، ولا برهان، وقيل: المعنى: فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به، وتعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين **﴿ومن أفضل ممن تتبع هواه بغير هدى من الله﴾** أي: لا أحد أضل منه، بل هو الفرد الكامل في الضلال **﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** لأنفسهم بالكفر، وتكذيب الأنبياء، والإعراض عن آيات الله **﴿ولقد وصلنا لهم**

الجهل والسفه. وقال الكلبي: لا نحَبُ دينكم الذي أنتم عليه **﴿إِنَّكَ لَا تَهْتَدِي مِنْ أُحْبِبْتَ﴾** من الناس، وليس ذلك إليك **﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** هدايته **﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** أي: القابلين للهداية المستعدين لها، وهذه الآية نزلت في أبي طالب كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما، وقد تقدّم نك في براءة. قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب، وقد تقرّر في الأصول: أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فينزل في ذلك أبو طالب دخولا أولياً **﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطُ مِنْ أَرْضِنَا﴾** أي: قال مشركو قريش، ومن تابعهم: إن ندخل في دينك يا محمد نتخطف من أرضنا أي: يتخطفنا العرب من أرضنا يعنون: مكة، ولا طاعة لنا بهم، وهذا من جملة أعارهم الباطلة، وتعلاتهم العاطلة، والتخطف في الأصل هو الانتزاع بسرعة. قرأ الجمهور (نتخطف) بالجزم جواباً للشرط، وقرأ المنقري بالرفع على الاستثنا. ثم ردّ الله ذلك عليهم ردّاً مصدراً باستفهام التوبيخ، والتقرّيع، فقال **﴿أَوَلَمْ نَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾** أي: ألم نجعل لهم حرماً ذا أمن. قال أبو البقاء: عداه بنفسه؛ لأنه بمعنى جعل كما صرح بذلك في قوله: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾** [العنكبوت: 67]، ثم وصف هذا الحرم بقوله **﴿يَجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** أي: تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة، وتحمل إليه. قرأ الجمهور (يجبي) بالتحية اعتباراً بتذكير كل شيء، ووجود الحائل بين الفعل، وبين ثمرات، وإيضاً ليس تانيث ثمرات بحقيقي، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرناه، وقرأ نافع بالفوقية اعتباراً بثمرات. وقرأ الجمهور أيضاً (ثمرات) بفتحين، وقرأ (إبان) بضمّتين، جمع ثمر بضمّتين، وقرأ بفتح اللام، وسكون الميم **﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾** منتصب على المصدرية؛ لأن معنى **﴿يَجِبِي﴾**: نرزقهم، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف أي: نسوقه إليهم رزقاً من لدنا، ويجوز أن ينتصب على الحال أي: رازقين **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** لفرط جهلهم، ومزيد غفلتهم، وعدم تفكيرهم في أمر معادهم ورشادهم، لكونهم ممن طبع الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة.

وقد أخرج الفريابي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة في قوله **﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾** قال: نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً، وأخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر عنه من وجه آخر بنحوه. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، وأبو نصر السجزي في الإبانة، والديلمي عن عمرو بن عبسة قال: «سألت النبي ﷺ عن قوله **﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾** ما كان النداء، وما كانت الرحمة؟ قال: كتبه الله قبل

﴿الْقَوْلِ﴾ قرأ الجمهور (وصلنا) بتشديد الصاد، وقرأ الحسن بتخفيفها، ومعنى الآية: أتبعنا بعضه بعضاً، وبعثنا رسولا بعد رسول. وقال أبو عبيدة، والأخفش: معناه: أتممنا. وقال ابن عيينة، والسدي، بينا. وقال ابن زيد: وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عابنوا الآخرة في الدنيا، والأولى أولى، وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض، ومنه قول الشاعر:

قل لبني مروان ما بال نمتي بحبل ضعيف لا تزال توصل
وقال امرؤ القيس:

يقلب كفيه بخيط موصل

والضمير في «لهم» عائذ إلى قريش، وقيل: إلى اليهود، وقيل: للجميع **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** فيكون التذكّر سبباً لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾** أي: من قبل القرآن، والموصول مبتدأ، وخبره **﴿هُمْ بِهِ يَوْمَنُونَ﴾** أخبر سبحانه أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد الله بن سلام، وسائر من أسلم من أهل الكتاب، وقيل: الضمير في «من قبله» يرجع إلى محمد ﷺ والأول أولى. والضمير في «به» راجع إلى القرآن على القول الأول، وإلى محمد على القول الثاني **﴿وَإِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾** أي: وإذا يتلى القرآن عليهم قالوا: صدقنا به **﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾** أي: الحق الذي نعرفه المنزل من ربنا **﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾** أي: مخلصين لله بالتوحيد، أو مؤمنين بمحمد، وبما جاء به لما نعلمه من نكره في التوراة، والإنجيل من التبشير به، وأنه سيبيح آخر الزمان، وينزل عليه القرآن، والإشارة بقوله: **﴿أَوَلَمْ يَكُنْ يُؤْتُونَ لِحَرَمِهِمْ مَزِينًا﴾** إلى الموصوفين بتلك الصفات، والباء في **﴿بِمَا صَبَرُوا﴾** للسببية أي: بسبب صبرهم، وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وبالنبي الأول، والنبي الآخر **﴿وَيُودِعُونَ بِالْحَسَنَةِ لَلْسِينَةِ﴾** اللدء اللدغ أي: يدفعون بالاحتمال، والكلام الحسن ما يلاقونه من الأدنى. وقيل: يدفعون بالطاعة المعصية، وقيل: بالتوبة، والاستغفار من الذنوب، وقيل: بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك **﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾** أي: ينفقون أموالهم في الطاعات، وفيما أمر به الشرع. ثم منحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو، فقال: **﴿وَإِذَا سَمِعُوا لِلْغَوِ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾** تَكْرَماً، وتَنَزَّهاً، وتَأْتِباً بأداب الشرع، ومثله قوله سبحانه: **﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللِّغْوِ مَرَّو كِرَامًا﴾** [الفرقان: 172]، واللغو هنا هو ما يسمعون من المشركين من الشتم لهم ولدينهم، والاستهزاء بهم **﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾** لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء، ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء **﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾** ليس المراد بهذا السلام سلام التحية، ولكن المراد به سلام التاركة، ومعناه: أمانة لكم منا، وسلامة لا نجاريكم، ولا نجوابكم فيما أنتم فيه. قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال **﴿لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾** أي: لا تطلب أصحابهم. وقال مقاتل: لا تريد أن تكون من أهل

إِلَّا وَأَهْلُهَا ظُلُمٌ ﴿١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ نَبِيٍّ فَفَتَحَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيذٌ كُنَّ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ فَمَا يَوْمِيهِمْ لَأَنَّهُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوْفَ أُنْزِلُ إِلَيْكَ مِنَ الْمُنْزِلِ ﴿٢٦﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَسْلَى عَنْ مَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٧﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٩﴾

قوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية كانوا في خفض عيش، ودعة، ورخاء، فوقع منهم البطر، فاهلكوا. قال الزجاج: البطر الطغيان عند النعمة. قال عطاء: عاشوا في البطر فلكلوا رزق الله، وعبدوا الأصنام. قال الزجاج، والمازني: معنى ﴿بَطَرْتُ مَعِيشَتَهَا﴾ بطرت في معيشتها، فلما حلفت «في» تعدى الفعل كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: 155] وقال الفراء: هو منصوب على التفسير كما تقول: أبطرك مالك، وبطرت، ونظيره عنده قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130] ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين، لأن معنى التفسير: أن تكون النكرة دالة على الجنس. وقيل: إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت ﴿فَتَلَكَّ مَسَاكِنَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمنًا قليلًا، كالذي يمر بها مسافرًا فإنه يلبث فيها يومًا أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها فيها إلا أيامًا قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم. وقيل: إن الاستثناء يرجع إلى المساكين أي: لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلًا من المساكين، وأكثرها خراب، كذا قال الفراء، وهو قول ضعيف ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم لأنهم لم يتركوا وراثًا يرث منازلهم، وأموالهم، ومحل جملة ﴿لَمْ تَسْكَنْ﴾ الرفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال ﴿وَمَا كَانَ رَيْكَ مَهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: وما صح، ولا استقام أن يكون الله مهلك القرى الكافرة: أي: الكافر أهلها حتى يبعث في أمها رسولًا ينذرهم، ويتلوا عليهم آيات الله الناطقة بما أوجبه الله عليهم، وما أعدّه من الثواب للمطيع، والعقاب للعاصي، ومعنى ﴿أُمِّهَا﴾: أكبرها، وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها، لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم، والرأي، وفيها الملوك والأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كلام لما حولها من القرى. وقال الحسن: أم القرى أولها. وقيل: المراد بأم القرى هنا مكة، كما في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ

أُنْشِئَ لِلنَّاسِ لَدُنَّا هَؤُلَاءِ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي الْوَادِعِ الْأَوَّلِ﴾ [آل عمران: 96] ثم نادى: يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبدي ورسولي صادقًا، أدخلته الجنة. وأخرج الخثلي في الديباج عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مريويه، وأبو نعيم عن حذيفة في قوله ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَاكَ﴾ مرفوعاً، قال: «نودوا يا أمة محمد ما دعوتونا إذ استجبنا لكم، ولا سألتمونا إذ أعطيناكم». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس مرفوعاً: «إن الله نادى: يا أمة محمد أجيئوا ربكم، قال: فاجابوا وهم في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة، فقالوا: لبيك أنت ربنا حقاً، ونحن عبيدك حقاً، قال: صلفتم أنا ربكم، وأنتم عبيدي حقاً، قد عفوت عنكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله نخل الجنة». وأخرج ابن مريويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «والهالك في الفترة يقول: رب لم يأتني كتاب، ولا رسول، ثم قرأ هذه الآية ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿قَالُوا سَحَرَانِ تَظَاهَرَا﴾ إلخ. قال: هم أهل الكتاب ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ يعني: بالكتابين: التوراة، والإنجيل. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو القاسم البغوي، والباوردي، وابن قانع الثلاثة في معارج الصحابة، والطبراني، وابن مريويه بسند جيد عن رفاعة القرظي قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ لِلْقَوْلِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُوْثِقُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ في عشرة رهط أنا أحدهم. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الكتاب من قبله هم به يؤمنون. قال: يعني: من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول، والآخر، ورجل كانت له أمة، فأنبأها، فأحسن تأديبها، ثم اعتقها، وتزوجها، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه، ونصح لسيدته». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث المسيب، ومسلم، وغيره من حديث أبي هريرة: أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نزلت في أبي طالب لما امتنع من الإسلام. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس: أن ناساً من قريش قالوا للنبي ﷺ: إن نتبعك يتخطفنا الناس، فنزلت ﴿وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ الآية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: ﴿يَجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: ثمرات الأرض.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكَأَنَّ الْوَارِثِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مَهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مَهْلِكِ الْقُرَى

القول أي: حقت عليهم كلمة العذاب، وهم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله، كذا قال الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين **«ربنا هؤلاء الذين أغوينا»** أي: دعوناهم إلى الغواية يعنون: الاتباع **«أغويناهم كما غوينا»** أي: أضللناهم كما ضللنا **«تبرأنا إليك»** منهم، والمعنى: أن رؤساء الضلال، أو الشياطين تبرؤوا ممن أطاعهم. قال الزجاج: برئ بعضهم من بعض، وصاروا أعداء كما قال الله تعالى: **«الآخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو»** [الزخرف: 67] وهؤلاء مبتدأ، والذين أغوينا صفته، والعائد محذوف أي: أغويناهم، والخبر أغويناهم، وكما أغوينا نعت مصدر محذوف. وقيل: إن خبر هؤلاء هو الذين أغوينا، وأما أغويناهم كما غوينا فكلام مستأنف لتقرير ما قبله، ورجح هذا أبو علي الفارسي، واعترض الوجه الأول، ورد اعتراضه أبو البقاء **«ما كانوا إيانا يعبدون»** وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، وقيل: إن «ما» في ما كانوا مصدرية أي: تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا، والأول أولى **«وقيل ادعوا شركاءكم»** أي: قيل للكفار من بني آدم هذا القول، والمعنى: استغيثوا باللهتمكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا؛ لينصروكم، ويبلغوا عنكم **«فدعوهم»** عند ذلك **«فلم يستجيبوا لهم»** ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع **«ورأوا العذاب»** أي: التابع، والمتبوع قد غشيه **«لو أنهم كانوا يهتدون»** قال الزجاج: جواب لو محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك، ولم يروا العذاب، وقيل: المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم، وقيل: المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا أن العذاب حق. وقيل: المعنى: لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب. وقيل: قد أن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون، وقيل: غير ذلك. والأول أولى، ويوم في قوله **«ويوم يناديهم فيقول ماذا لجئتم المرسلين»** معطوف على ما قبله أي: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي **«فعميت عليهم الأنبياء يومئذ»** أي: خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون، والأصل فعموا عن الأنبياء، ولكنه عكس الكلام للمبالغة، والأنبياء الأخبار، وإنما سمي حججهم أخباراً؛ لأنها لم تكن من الحجج في شيء، وإنما هي أقاصيص، وحكايات **«فهم لا يتساءلون»** لا يسأل بعضهم بعضاً، ولا ينطقون بحجة، ولا يدرون بما يجيبون، لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر، ولا حجة يوم القيامة. قرأ الجمهور (عميت) بفتح العين، وتخفيف الميم. وقرأ الأعمش، وجناح بن حبيش بضم العين وتشديد الميم **«فاما من تاب وأمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفّلحين»** أن تاب من الشرك، وصنّق بما جاء به الرسل، وأدى الفرائض، واجتنب المعاصي فعسى أن يكون من المفّلحين أي: الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، وعسى وإن كانت في الأصل للرجاء فهو من الله واجب على ما هو عادة الكرام. وقيل: إن الترجي هو من التائب المذكور لا من

وضع للناس **«آل عمران: 96»** الآية، وقد تقدّم بيان ما تضمنته هذه الآية في آخر سورة يوسف، وجملة **«يتلوا عليهم آياتنا»** في محل نصب على الحال أي: تالياً عليهم، ومخبراً لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا **«وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون»** هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإغذار إليهم، وتأكيد الحجة عليهم كما في قوله سبحانه: **«وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»** [هود: 117]، ثم قال سبحانه **«وما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها»** الخطاب لكفار مكة أي: وما أعطيتهم من شيء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدة حياتكم، أو بعض حياتكم، ثم تزولون عنه، أو يزول عنكم، وعلى كل حال فنلك إلى فناء، وانقضاء **«وما عند الله»** من ثوابه، وجزائه **«خير»** من تلك الزائل الفاني؛ لأنه لذّة خالصة عن شوب الكدر **«وابقى»** لأنه يوم أبداً، وهذا ينقضي بسرعة **«أفلا تعقلون»** أن الباقي أفضل من الفاني، وما فيه لذّة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البين، والقلب، وقرئ ينصب (متاع) على المصدرية أي: فتمتعون متاع الحياة، قرأ أبو عمرو (يعقلون) بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، وقراءتهم أرجح لقوله **«وما أوتيتهم»**. **«أقمن وعيناه وعداً حسناً فهو لآقيه»** أي: وعيناه بالجنة، وما فيها من النعم التي لا تحصى فهو لآقيه أي: مدركه لا محالة فإن الله لا يخلف الميعاد **«كمّن متعناه متاع الحياة الدنيا»** فاعطي منها بعض ما أراد مع سرعة زواله، وتنغيصه **«ثم هو يوم القيامة من المحضرين»** هذا معطوف على قوله: **«فمتعناه»** داخل معه في حيز الصلة مؤكداً لإنكار التشابه، ومقرّر له، والمعنى: ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار، وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاء المقام، والاستفهام للإنكار أي: ليس حالهما سواء، فإن الموعود بالجنة لا بد أن يظفر بما وعد به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن. وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرد التمتع بشيء من الدنيا يستوي فيه هو والمؤمن، وينال كل واحد منهما حظه منه، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان؟ قرأ الجمهور (ثم هو) بضم الهاء، وقرأ الكسائي، وقالون بسكون الهاء إجراء لثم مجرى الواو، والفاء، وانتصاب «يوم» في قوله **«ويوم يناديهم»** بالعطف على يوم القيامة، أو بإضمار انكر أي: يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين **«فيقول»** لهم **«إين شركائي الذين كنتم تزعمون»** أنهم ينصرونكم، ويشفعون لكم، ومفعولاً يزعمون محذوفان أي: تزعمونهم شركائي لدلالة الكلام عليهما **«قال الذين حقّ عليهم**

المتابعة، فالميم زائدة، ومنه قول طرفة:

لعمرك ما امرئ عليك بغمة نهاري ولا ليلي عليك بسرمد
وقيل: إن ميمه أصلية، ووزنه فعل لا فعل، وهو الظاهر،
يَبِّنْ لهم سبحانه أنه مهَّد لهم أسباب المعيشة؛ ليقوموا
بشكر النعمة، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً
إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه، وطلب ما لا بدَّ
لهم منه مما يقوم به العيش من الطعام، والمشارب،
والملابس، ثم امتنَّ عليهم، فقال ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ
بضياء﴾ أي: هل لكم إله من الآلهة التي تعبونها يقدر على
أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء أي: بنور تطلبون
فيه المعيشة، وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه، وتصلح به
ثماركم، وتنمو عنده زرائعكم، وتعيش فيه دوابكم ﴿أَفَلَا
تسمعون﴾ هذا الكلام سماع فهم وقبول، وتدبر وتفكر. ثم
لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار امتنَّ عليهم بوجود
الليل، فقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمِداً
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه
نهاراً إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ
تسكنون فيه﴾ أي: تستقرون فيه من النصب، والتعب،
وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش، والكسب ﴿أَفَلَا
تبصرون﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ حتى
تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله، وإذا أقروا بأنه لا
يقدر على ذلك إلا الله عزَّ وجلَّ فقد لزمتهم الحجة، وبطل ما
يتمسكون به من الشبه الساقطة، وإنما قرن سبحانه بالضياء
قوله ﴿أَفَلَا تسمعون﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدرك البصر
من درك منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل قوله ﴿أَفَلَا
تبصرون﴾ لأن البصر يدرك ما لا يدرك السمع من ذلك
﴿ومَنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي:
في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالسعي
في المكاسب ﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولكي تشكروا نعمة
الله عليكم، وهذه الآية من باب اللف، والنشر، كما في قول
امرئ القيس:

كأنَّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً، وطلب الرزق
في الليل ممكناً، وذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند
الاستضاءة بشيء بما له نور كالسراج، لكن ذلك قليل نادر
مخالف لما يألوه العباد فلا اعتبار به ﴿وَيَوْمَ يَنابِهِيهِمْ فَيَقُولُ
إِنَّ شِرْكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كرَّر سبحانه هذا
لاختلاف الحالتين؛ لأنهم ينابون مرة، فيدعون الأصنام،
وينابون أخرى، فيسكتون، وفي هذا التكرير أيضاً تقريع بعد
تقريع، وتوبيخ بعد توبيخ، وقوله ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيداً﴾ عطف على ينادي، وجاء بصيغة الماضي للدلالة
على التحقق، والمعنى: وأخرجنا من كل أمة من الأمم شهيداً
يشهد عليهم. قال مجاهد: هم الأنبياء، وقيل: عدول كل أمة،
والأول أولى. ومثله قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: 41] ثم

بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله ﴿فَقُلْنَا
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم، وليلكم بأن معي شركاء،
فعند ذلك اعترفوا، وخرسوا عن إقامة البرهان، ولذا قال
﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهية، وأنه وحده لا شريك له
﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم وبطل،
وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب في الدنيا بأنَّ الله شركاء
يستحقون العبادة. ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال
بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة، وعجيب
الصنع، فقال ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ قارون
على وزن فاعول اسم أعجمي ممتنع للجمجمة، والعلمية،
وليس بعربي مشتق من قرنت. قال الزجاج: لو كان قارون
من قرنت الشيء لانصرف. قال النخعي، وقتادة، وغيرهما:
كان ابن عم موسى، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن
لاوي بن يعقوب، وموسى هو ابن عمران بن قاهث. وقال
ابن إسحاق: كان عم موسى لآب وأم، فجعله أخاً لعمران،
وهما ابنا قاهث. وقيل: هو ابن خالة موسى، ولم يكن في
بني إسرائيل اقرباً للتوراة منه، فنافق كما نافق السامري،
وخرج عن طاعة موسى، وهو معنى قوله: ﴿فَفِغْغَى عَلَيْهِمْ﴾
أي: جاوز الحد في التجبر والتكبر عليهم، وخرج عن طاعة
موسى، وكفر بالله. قال الضحاك: بغيه على بني إسرائيل
استخفافه بهم لكثرة ماله، وولده. وقال قتادة: بغيه بنسبته
ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه، وحيلته. وقيل: كان
عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فتعدَّى عليهم، وظلمهم،
وقيل: كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية
﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ جمع كنز، وهو المال المدخر. قال
عطاء: أصاب كنزاً من كنوز يوسف. وقيل: كان يعمل
الكيمياء، وهما في حيزها، ولهذا كسرت. ونقل الأخفش الصغير عن
الكوفيين منع جعل المكسورة، وما في حيزها صلة الذي،
واستقبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا
الموضع، والمفتاح جمع مفتاح بالكسر، وهو ما يفتح به،
وقيل: المراد بالمفتاح: الخزائن، فيكون واحدها مفتاح يفتح
الميم. قال الواحدي: إن المفاتيح الخزائن في قول أكثر
المفسرين كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59] قال:
وهو اختيار الزجاج، فإنه قال: الأشبه في التفسير أن مفاتيحه
خزائن ماله. وقال آخرون: هي جمع مفتاح، وهو ما يفتح به
الباب، وهذا قول قتادة، ومجاهد ﴿لَتَقْنُوا بِالْعَصْبَةِ أُولَى
لِلْقُوَّةِ﴾ هذه الجملة خبر إن، وهي واسمها، وخبرها صلة ما
الموصولة، يقال: ناء بحمله، إذا نهض به مثقالاً، ويقال: ناء
بي الحمل: إذا أثقلني، والمعنى: يثقلهم حمل المفاتيح. قال أبو
عبيدة: هذا من المقلوب، والمعنى: لتنوء بها العصبة أي:
تنهض بها. قال أبو زيد: نؤت بالحمل: إذا نهضت به. قال
الشاعر:

إننا وجدنا خلفاً بئس الخلف عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف
وقال الفراء: معنى تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها كما يقال:

معرفة الكنوز، والدفائن، وقيل: علم الكيمياء، وقيل: المعنى: إن الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل علمه مني. واختار هذا الزجاج، وأنكر ما عداه. ثم ردَّ الله عليه قوله هذا، فقال ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوَّةً وأكثر جمعاً﴾ المراد بالقرون الأمم الخالية، ومعنى أكثر جمعاً: أكثر منه جمعاً للمال، ولو كان المال، أو القوَّة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله. وقيل: القوَّة الآلات، والجمع الأعوان. وهذا الكلام خارج مخرج التقرُّيع والتوبيخ لقارون، لأنه قد قرأ التوراة، وعلم علم القرون الأولى، وإهلاك الله سبحانه لهم ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي: لا يسألون سؤال استعتاب كما في قوله: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ [النحل: 84، الروم: 57] ﴿وما هم من المعتبين﴾ [فصلت: 24] وإنما يسألون سؤال تقرُّيع وتوبيخ، كما في قوله: ﴿فؤربك لنسألهم أجمعين﴾ [الحجر: 92] وقال مجاهد: لا تسأل الملائكة غداً عن المجرمين؛ لأنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العين. وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها، وكثرتها، بل يدخلون النار. وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ الفاء للعطف على «قال»، وما بينهما اعتراض، وفي زينته متعلق بخرج، أو محذوف هو حال من فاعل خرج. وقد ذكر المفسرون في هذه الزينة التي خرج فيها روايات مختلفة، والمراد أنه خرج في زينة أنبهر لها من رآها، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ أي: نصيب وافر من الدنيا. واختلف في هؤلاء القائلين بهذه المقالة، فقول: هم من مؤمني ذلك الوقت، وقيل: هم قوم من الكفار ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ وهم: أحبار بني إسرائيل قالوا للذين تمنوا ﴿ويلكم ثواب الله خير﴾ أي: ثواب الله في الآخرة خير مما تمنونه ﴿لمن آمن وعمل صالحاً﴾ فلا تمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا ينوم ﴿ولا يلقاها﴾ أي: هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار، وقيل: الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة، وقيل: إلى الجنة ﴿إلا الصابرون﴾ على طاعة الله، والمصابرون أنفسهم عن الشهوات ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ يقال: خسف المكان يخسف خسفاً: ذهب في الأرض. وخسف به الأرض خسفاً: أي: غاب به فيها، والمعنى: أن الله سبحانه غيبه، وغيب داره في الأرض ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي: ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿وما كان﴾ هو في نفسه ﴿من المنتصرين﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي: منذ زمان قريب ﴿يقولون ويكان الله ييسر للرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي: يقول كل واحد منهم متندماً على ما

يذهب بالبؤس، ويذهب بالبؤس، وذهبت به، وأذهبت، وجئت به، وأجأت، ونؤت به، وإناته، واختار هذا النحاس، وبه قال كثير من السلف. وقيل: هو مأخوذ من النأي، وهو البعد، وهو بعيد. وقرأ بديل بن ميسرة (لبنوء) بالياء أي: لبنوء الواحد منها، أو المذكور، فحمل على المعنى، والمراد بالعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض. قيل: هي من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من العشرة إلى الخمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى العشرين، وقيل: من الخمسة إلى العشرة، وقيل: أربعون، وقيل: سبعون، وقيل: غير ذلك ﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ الظرف منصوب بتنوء، وقيل: بآتيانه، وقيل: ببغى. ووردهما أبو حبان بأن الإيتاء، والبغى لم يكونا ذلك الوقت. وقال ابن جرير: هو متعلق بمحذوف، وهو أنكر، والمراد بقومه هنا: هم المؤمنون من بني إسرائيل. وقال الفراء: هو موسى، وهو جمع أريد به الواحد، ومعنى لا تفرح: لا تبطر، ولا تأسر ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. قال الزجاج: المعنى: لا تفرح بالمال، فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه، وقيل: المعنى: لا تقصد كقول الشاعر:

إذا نلت لم تبرح تؤدي أمانة وتحمل أخرى أقرحتك الودائع
أي: أفسدتك. قال الزجاج: الفرحين، والفارحين سواء. وقال الفراء: معنى الفرحين: الذين هم في حال الفرح، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل. وقال مجاهد: معنى لا تفرح: لا تبغ إن الله لا يحب الفرحين الباغيين. وقيل: معناه: لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين ﴿ولتبغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي: وأطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة، فأنفقه فيما يرضاه الله لا في التجير، والبغى. وقرئ (واتبع). ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾. قال جمهور المفسرين: وهو أن يعمل في دنياه لأخرته، ونصيب الإنسان عمره، وعمله الصالح. قال الزجاج: معناه: لا تنس أن تعمل لأخرك، لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لأخرته. وقال الحسن، وقتادة: معناه: لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال، وطلبك إياه، وهذا الصق بمعنى النظم القرآني ﴿ولحسن كما لحسن الله إليك﴾ أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا، وقيل: أطع الله، وأعبده كما أنعم عليك، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: «أن جبريل سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ في الأرض ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال قارون هذه المقالة رداً على من نصحه بما تقدَّم أي: إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمي، فقوله: ﴿على علم﴾ في محل نصب على الحال، وعندي إما ظرف لأوتيته، وإما صلة للعلم، وهذا العلم الذي جعله سبباً لما ناله من الدنيا. قيل: هو علم التوراة، وقيل: علمه بوجوه المكاسب، والتجارات، وقيل:

ضلال، والمراد من جاء بالهدى هو النبي ﷺ، ومن هو في ضلال مبين المشركين، والأولى حمل الآية على العموم، وأن الله سبحانه يعلم حال كل طائفة من هاتين الطائفتين، ويجازيها بما تستحقه من خير وشر ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: ما كنت ترجو أن نرسلك إلى العباد، وننزل عليك القرآن. وقيل: ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بربك إلى معادك، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ منقطع أي: لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك، ويجوز أن يكون متصلاً حملاً على المعنى، كأنه قيل: وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك. والأول أولى، وبه جزم الكسائي والقراء ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: عوناً لهم، وفيه تعريض بغيره من الأمة. وقيل: المراد لا تكونن ظهيراً لهم بمداراتهم ﴿وَلَا يَصْنَعُكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: لا يصنعك يا محمد الكافرون، وأقوالهم، وكذبهم، وأذاهم عن تلاوة آيات الله، والعمل بها بعد إذ أنزلها الله إليك، وفرضت عليك. قرأ الجمهور بفتح الياء، وضم الصاد من صده يصده. وقرأ عاصم⁽¹⁾ بضم الياء، وكسر الصاد، من اصده بمعنى صده ﴿وَوَادِعَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: ادع الناس إلى الله، وإلى توحيده، والعمل بفرائضه، واجتباب معاصيه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بغيره كما تقدم، لأنه لا يكون من المشركين بحال من الأحوال، وكذلك قوله ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ فإنه تعريض لغيره. ثم وحد سبحانه نفسه، ووصفها بالبقاء والديموم، فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ذاته. قال الزجاج: وجهه منصوب على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان مرفوعاً بمعنى كل شيء غير وجهه هالك، كما قال الشاعر:

وكل أخ مفارقه لخصه لعمرابيك إلا لفرقدان
والمعنى كل أخ غير الفرقتين مفارقه أخوه ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: القضاء النافذ يقضي بما شاء، ويحكم بما أراد ﴿وَوَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ عند البعث؛ ليجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا إله غيره سبحانه وتعالى.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿سَرْمَدٌ﴾ قال: دائماً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال: يكتبون في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه أيضاً ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ قال: كان ابن عمه، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى، وحسده، فقال له موسى: إن الله أمرني أن أخذ الزكاة، فأبى، فقال: إن موسى يريد أن ياكل أموالكم

فرط منه من التمني. قال النحاس: أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل، وسيبويه، ويونس، والكسائي: أن القوم تنبهوا، فقالوا: وي. والمتنم من العرب يقول في خلال ندمه: وي. قال الجوهري: وي كلمة تعجب، ويقال: ويك، وقد تدخل وي على كان المخففة، والمشيّدة ويكان الله. قال الخليل: هي مفصولة تقول: وي، ثم تبدئ، فيقول كان. وقال القراء: هي كلمة تقرير كقولك: أما ترى صنع الله، وإحسانه، وقيل: هي كلمة تنبيه بمنزلة إلا. وقال قطرب: إنما هو ويك، فأسقط لامة، ومنه قول عنترة:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قول للفوارس ويك عنتر أقدم
وقال ابن الأعرابي: معنى ﴿وَيُكَانُ اللَّهُ﴾: أعلم أن الله. وقال القتيبي: معناها بلغة حمير: رحمة، وقيل: هي بمعنى ألم تر. وروي عن الكسائي أنه قال: هي كلمة تفجع ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ برحمته، وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر، والبغي، ولم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمني ﴿لَخَسَفَ بَنَاءُ﴾ كما خسف به. قرأ حفص (لخسف) مبنيّاً للفاعل، وقرأ الباقون مبنيّاً للمفعول ﴿وَيُكَانُهُ لَا يَفْلَحُ لِلْكَافِرُونَ﴾ أي: لا يفوزون بمطلب من مطالبهم ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: الجنة، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها، والتفخيم لسانها كأنه قال: تلك التي سمعت بخبرها، وبلغك شأنها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: رفعة، وتكبراً على المؤمنين ﴿وَلَا فساداً﴾ أي: عملاً بمعاصي الله سبحانه فيها، وذكر العلو، والفساد منكرين في حيز النفي يدل على شمولهما لكل ما يطلق عليه أنه علو، وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان. وأما العلو فالمنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير، والتطاول على الناس، وليس منه طلب العلو في الحق، والرئاسة في الدين، ولا محبة اللباس الحسن، والمركوب الحسن، والمنزل الحسن ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ وهو أن الله يجازيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا مثل ما كانوا يعملون، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في سورة النمل ﴿إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ قال المفسرون: أي: أنزل عليك القرآن. وقال الزجاج: فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن، وتقدير الكلام: فرض عليك أحكام القرآن، وفرائضه ﴿لِرَأْثِكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال جمهور المفسرين: أي: إلى مكة. وقال مجاهد، وعكرمة، والزهري، والحسن: إنَّ المعنى: لرأثك إلى يوم القيامة، وهو اختيار الزجاج، يقال: بيني وبينك المعاد أي: يوم القيامة، لأن الناس يعبدون فيه أحياء. وقال أبو مالك، وأبو صالح: لرأثك إلى معاد إلى الجنة. وبه قال أبو سعيد الخدري، وروي عن مجاهد. وقيل: ﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى الموت ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ: إنك في

(1) قوله (وقرأ عاصم إلخ) أي غير المشهور عنه اهـ مصحح القرآن.

الارض قال: خسف به إلى الارض السفلى. وأخرج المحاملي، والبيلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يرمون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ قال: التجبر في الأرض، والأخذ بغير الحق. وروي نحوه عن مسلم البطين، وابن جريج، وعكرمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿لا يرمون علواً في الأرض﴾ قال: بغياً في الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: هو الشرف والعلو عند نبي سلطانهم. وأقول: إن كان ذلك للثقوي به على الحق، فهو من خصال الخير لا من خصال الشر. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: إن الرجل ليحب أن يكون شمس نعله أفضل من شمس نعل صاحبه، فيدخل في هذه الآية ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يرمون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ قال ابن كثير في تفسيره بعد نكر هذه الرواية عن علي رضي الله عنه: وهذا محمول على من أحب ذلك لا لمجرد التجميل، فهذا لا بأس به. فقد ثبت: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسناً، ونعلي حسنة. أقمن الكبر نلك؟ قال: لا، إن الله جميل يحب الجمال». وأخرج ابن مردويه، وابن عساکر عن علي بن أبي طالب: أنه قال: نزلت هذه الآية، يعني ﴿تلك الدار الآخرة﴾: إلخ في أهل العدل والتواضع من الولاة، وأهل القدرة من سائر الناس. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال: لما دخل علي النبي ﷺ ألقى إليه وسادة، فجلس على الأرض، فقال: أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض، ولا فساداً فأسلم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاک. وأخرج أيضاً ابن مردويه عن علي بن الحسين بن واقد: أن قوله تعالى ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ الآية أنزلت على رسول الله ﷺ بالجحفة حين خرج النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ولراك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة، زاد ابن مردويه كما أخرجك منها. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري ﴿ولراك إلى معاد﴾ قال الآخرة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله ﴿ولراك إلى معاد﴾ قال: معاد الجنة. وفي لفظ معاده آخرته. وأخرج الحاكم في التاريخ، والبيلمي عن علي بن أبي طالب قال: ﴿ولراك إلى معاد﴾ الجنة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه قال: لما نزلت ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: 26] قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فلما نزلت ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [آل عمران: 185] قالت الملائكة: هلك كل نفس، فلما نزلت ﴿كل شيء

جاءكم بالصلاة، وجاءكم بأشياء، فاحتلمتموها، فتحتملون أن تعطوه أموالكم؟ فقالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغيا بني إسرائيل، فنرسلها إليه، فترمي به بأنه أرادها على نفسها، فأرسلوا إليها، فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك، قالت: نعم، فجاء قارون إلى موسى فقال: أجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك، قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: ما أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصلوا الرحم وكذا، وأمرني إذا زنا، وقد أحصن أن يرجم، قالوا: وإن كنت أنت. قال: نعم، قالوا: فإنك قد زנית. قال: أنا؟ فأرسلوا للمرأة، فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى: انشدك بالله إلا ما صدقت، قالت: أما إذا نشدتنني بالله فإنهم دعوني، وجعلوا لي جعلاً على أن أقفك بنفسي، وأنا أشهد أنك بريء، وأنتك رسول الله، فخر موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطتك على الأرض، فمرها فتطيعك، فرفع رأسه، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذنيهم، فأخذتهم، فغشيتهم، فأوحى الله: يا موسى سالك عبادي، وتضرعوا إليك، فلم تجبهم، وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم. قال ابن عباس: وذلك قوله ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ خسف به إلى الأرض السفلى. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن خيثمة قال: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كل مفتاح على خزانة على حدة، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغر محجل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه قال: وجبت في الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة لا يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز. قلت: لم أجد في الإنجيل هذا الذي نكره خيثمة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿فلقنوا بالعصبة﴾ قال: تنقل. وأخرج ابن المنذر عنه قال: لا يرفعها العصبة من الرجال أولو القوة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: العصبة أربعون رجلاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿إن الله لا يحب للفرحين﴾ قال: المرحين، وفي قوله ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال: أن تعمل فيها لأخرتك. وأخرج ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفي، عن النبي ﷺ في قوله ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ في أربعة آلاف بغل. وقد روي عن جماعة من التابعين أقوال في بيان ما خرج به على قومه من الزينة، ولا يصح منها شيء مرفوعاً، بل هي من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرة، ولا أدري كيف إسناد هذا الحديث الذي رفعه ابن مردويه، فمن ظفر بكتابه، فلينظر فيه. وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله ﴿فخسفنا به وبداره

معناه: **الامل** ﴿فإن لجل الله لآت﴾ أي: الأجل المضروب للبعث أت لا محالة. قال مقاتل: يعني: يوم القيامة، والمعنى: فليعمل لذلك اليوم كما في قوله: ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ [الكهف: 110] ومن في الآية التي هنا يجوز أن تكون شرطية. والجزء فإن أجل الله لآت، ويجوز: أن تكون موصولة، وبخلت الفاء في جوابها تشبيهاً لها بالشرطية. وفي الآية من الوعد، والوعيد، والترهيب، والترغيب ما لا يخفى ﴿وهو السميع﴾ لأقوال عباده **العليم** بما يسرونه، وما يعلنونه ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾ أي: من جاهد الكفار، وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات، فإنما يجاهد لنفسه: أي: ثواب ذلك له لا لغيره، ولا يرجع إلى الله سبحانه من نفع ذلك شيء ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾ فلا يحتاج إلى طاعتهم كما لا تضره معاصيهم. وقيل: المعنى: ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله، فليس له حاجة بجهاده، والأول أولى **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم﴾** أي: لنغطينها عنهم بالمغفرة بسبب ما عملوا من الصالحات **ولنجزينهم لحسن الذي كانوا يعملون﴾** أي: بأحسن جزاء أعمالهم، وقيل: جزاء أحسن أعمالهم، والمراد بأحسن مجزئ الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتاً عنه، وقيل: يعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما في قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: 160] **ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾** انتصاب حسناً على أنه نعت مصدر محذوف: أي: إيصاء حسناً على المبالغة، أو على حذف المضاف: أي: ذا حسن. هذا مذهب البصريين، وقال الكوفيون: تقديره. ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً، فهو مفعول لفعل محذوف، ومنه قول الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكونا ومن أبى دهماء إذ يوصينا
خيراً بها كأنما خافونا

أي: يوصينا أن نفعل بها خيراً، ومثله قول الحطيئة:

وصيت من بزة قلباً حراً بالكلب خيراً والحماة شراً

قال الزجاج: معناه: ووصينا الإنسان: أن يفعل بوالديه ما يحسن، وقيل: هو صفة لموصوف محذوف: أي: ووصيناها أمراً ذا حسن، وقيل: هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين أي: الزمناه حسناً، وقيل: منصوب بنزع الخافض: أي: ووصيناها بحسن، وقيل: هو مصدر لفعل محذوف: أي: يحسن حسناً، ومعنى الآية: التوصية للإنسان بوالديه بالبر بهما، والعطف عليهما. قرأ الجمهور (حسناً) بضم الحاء، وإسكان السين، وقرأ أبو رجاء، وأبو العالية، والضحاك بفتحهما، وقرأ الجحدري (إحساناً) وكذا في مصحف أبي **﴿وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾** أي: طلباً منك، والزمك أن تشرك بي إلهاً ليس لك به علم بكونه إلهاً، فلا تطعهما، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعبر بنفي العلم عن نفي الإله؛ لأن ما لا

يعلم صحته لا يجوز اتباعه، فكيف بما علم بطلانه؟ وإذا لم تجز طاعة الأيوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرد الطلب بلون مجاهدة منهما أولى، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله كما صحَّ ذلك عن رسول الله **﴿إني مرجعكم فانيحكم بما كنتم تعملون﴾** أي: أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها، فأجازي كلًا منكم بما يستحقه، والموصول في قوله: **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** في محل رفع على الإبتداء، وخبره **﴿لننخلنهم في الصالحين﴾** أي: في زمرة الراشدين في الصلاح، ويجوز أن يكون في محل نصب على الإشتغال، ويجوز أن يكون المعنى: لننخلنهم في مixel الصالحين، وهو: الجنة كذا قيل، والأول أولى **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله﴾** أي: في شأن الله، ولاجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله، والعمل بما أمر به **﴿جعل فتنة الناس﴾** التي هي ما يوقعونه عليه من الأذى **﴿كعذاب الله﴾** أي: جزع من آذاهم، فلم يصبر عليه، وجعله في الشدة، والعظم كعذاب الله، فاطاع الناس كما يطيع الله، وقيل: هو المنافق إذا أؤذي في الله رجع عن الدين، فكفر. قال الزجاج: ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذية في الله **﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾** أي: نصر من الله للمؤمنين، وفتح، وغلبة للأعداء، وغنمة يغنونها منهم **﴿ليقولن إنا كنا معكم﴾** أي: داخلون معكم في بينكم، ومعاونون لكم على عدوكم، فكذبهم الله. وقال: **﴿أو ليس الله باعلم بما في صدور العالمين﴾** أي: هو سبحانه أعلم بما في صدورهم منهم من خير، وشر، فكيف يدعون هذه الدعوى الكاذبة. وهؤلاء هم قوم ممن كان في إيمانهم ضعف، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم. وإذا ظهرت قوة الإسلام، ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن **﴿قلوا إنا كنا معكم﴾** وقيل: المراد بهذا، وما قبله المنافقون. قال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بالسننهم. فإذا أصابهم بلاء من الله، أو مصيبة افتتوا. وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون. فإذا أؤذوا رجعوا إلى الشرك، والظاهر أن هذا النظم من قوله: **﴿ومن الناس من يقول﴾** إلى قوله: **﴿وقال الذين كفروا﴾** نازل في المنافقين لما يظهر من السياق، ولقوله: **﴿وليعلنن الله الذي آمنوا وليعلنن المنافقين﴾** فإنها لتقرير ما قبلها وتأكيد: أي: ليميزن الله بين الطائفتين، ويظهر إخلاص المخلصين، ونفاق المنافقين، فالمخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى، ويصبر في الله حق الصبر، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله. والمنافق الذي يميل هكذا، وهكذا، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم، وتابعهم، وكفر بالله عز وجل، وإن خفقت ريح الإسلام؛ وطلع نصره، ولاح فتحه رجع إلى الإسلام، وزعم أنه من المسلمين **﴿وقال**

الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا» اللام في «للذين آمنوا» هي: لام التبليغ: أي: قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه في غير موضع: أي: قالوا لهم: اسلكوا طريقتنا، واسخلوا في ديننا ﴿وَلَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ﴾ أي: إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث، والنشور كما تقولون، فلنحمل ذلك عنكم، فنؤاخذ به بونكم، واللام في لنحمل لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. وقال الفراء والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط، والجزاء: أي: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطايكم، ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأولى بيانية، والثانية مزيدة للاستغراق: أي: وما هم بحاملين شيئاً من خطيئاتهم التي التزموا بها، وضمنوا لهم حملها، ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل، فقال: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما ضمنوا به من حمل خطايهم. قال المهدي: هذا التكنيب لهم من الله عز وجل حمل على المعنى، لأن المعنى: إن اتبعت سبيلنا حملنا خطايكم، فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر أوقع عليه التكنيب كما يوقع على الخبر ﴿وَلِيَحْمِلُوا ثِقَالَهُمْ﴾ أي: أوزارهم التي عملوها، والتعبير عنها بالاثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة ﴿وَوَثِقَالاً مَعَ ثِقَالِهِمْ﴾ أي: أوزاراً مع أوزارهم. وهي: أوزار من أضلوه، وأخرجوهم عن الهدى إلى الضلالة، ومثله قوله سبحانه: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: 25] ومثله قوله ﷺ: «من سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها» كما في حديث أبي هريرة الثابت في صحيح مسلم، وغيره ﴿وَلِيَسْأَلَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تقريراً، وتوبيخاً ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يخترقونه من الأكاذيب التي كانوا ياتون بها في الدنيا. وقال مقاتل: يعني: قولهم: نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿وَالَمْ أَحْسِبِ للنَّاسِ أَنْ يَتْرَكُوا﴾ الآية قال: أنزلت في ناس كانوا بمكة قد أقرؤا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما أنزلت آية الهجرة: أنه لا يقبل منكم إقرار، ولا إسلام حتى تهاجروا، قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة، فاتبعهم المشركون، فردوهم، فنزلت فيهم هذه الآية. فكتبوا إليهم: أنه قد أنزل فيكم كذا، وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه، فخرجوا، فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم، فممنهم من قتل، وممنهم من نجا، فأنزل الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّا ثُمَّ جَاءُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 110]. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة نحوه بأخصر منه. وأخرج ابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال: نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله ﴿وَالَمْ أَحْسِبِ للنَّاسِ أَنْ يَتْرَكُوا﴾ الآية. وأخرج ابن ماجه، وابن مريويه عن ابن مسعود قال: أول من أظهر الله إسلامه سبعة: رسول الله

ﷺ، وأبو بكر، وسمية أم عمار، وعمار، وصهيب، وبلال، والمقداد. فاما رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمه أبي طالب، واما أبو بكر، فمنعه الله بقومه، واما سائرهم، فأخذهم المشركون، فلبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد. وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إِنْ يَسْبِقُونَا﴾ قال: أن يعجزونا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت أمي: لا أكل طعاماً، ولا أشرب شرباً حتى تكفر بمحمد، فامتنت من الطعام، والشرب حتى جعلوا يشجرون فاما بالعصا، فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ وأخرجه أيضاً الترمذي من حديثه، وقال: نزلت في أربع آيات، ونكر نحو هذه القصة، وقال: حسن صحيح. وقد أخرج هذا الحديث أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضاً. وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن حبان، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أوتيت في الله، وما يؤذي أحد، ولقد أخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثالثة، ومالي ولبلال طعام ياكله نو كبد إلا ما وارى إبط بلال». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال: يرتد عن دين الله إذا أودي في الله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَلَبَّىٰ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَسِبَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ وَلِإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْفِرُوا مِنْكُمْ خِزْلًا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ إِنَّمَا تَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْكُلِيَّةُ ﴿٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُهُ الثَّلَاثَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ تَتَابَعُونَ ﴿٨﴾ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابَعُونَ اللَّهَ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ فَمَا كُنَّا بِجَوَابِ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ

وَلَمَّا بَلَغَ مَعْصُكُم مِّصْرًا وَمَا أَوْثَقُكُمْ أَتَاكُمْ مِنْ تَحْتِهَا نَجُورٌ ۚ فَآمَنَ لِمَ لَوْ لَوْ قَالَ إِنِّي فَاجِرٌ إِلَّا رَيْبٌ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَبَ وَالْأَيَّاتِ
أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِيُنْذِرَ الْفَاسِقِينَ ۝

أجمل سبحانه قصة نوح تصديقاً لقوله في أول السورة: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ [العنكبوت: 3] وفيه تثبيت للنبي ﷺ، كانه قيل له: إن نوحاً لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه، ولم يؤمن منهم إلا قليل، فانت أولى بالصبر لقلّة مدة لبثك، وكثرة عدد أمك. قيل: وقع في النظم إلا خمسين عاماً، ولم يقل: تسعمائة سنة وخمسين، لأن في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني، فقد يطلق على ما يقرب منه. وقد اختلف في مقدار عمر نوح، وسيأتي آخر البحث، وليس في الآية إلا أنه لبث فيهم هذه المدة، وهي لا تدل على أنها جميع عمره. فقد تلبث في غيرهم قبل اللبث فيهم، وقد تلبث في الأرض بعد هلاكهم بالطوفان. والفاء في ﴿فأخذهم الطوفان﴾ للتعقيب: أي: أخذهم عقب تمام المدة المذكورة، والطوفان يقال: لكل شيء كثير مطيف بجمع محيط بهم من مطر، أو قتل، أو موت قاله النحاس، وقال سعيد بن جببر، وقتادة، والسدي: هو: المطر، وقال الضحاك: الغرق، وقيل: الموت، ومنه قول الشاعر:

أفناهم طوفان موت جارف

وجملة ﴿وهم ظالمون﴾ في محل نصب على الحال: أي: مستمرون على الظلم، ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح، وذكرهم هذه المدة بطولها ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي: أنجيناً نوحاً، وأنجيناً من معه في السفينة من أولاده، وأتباعه. واختلف في عددهم على أقوال ﴿وجعلناها﴾ أي: السفينة ﴿آية للعالمين﴾ أي: عبرة عظيمة لهم، وفي كونها آية وجوه: أحدها: أنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة. وثانيها: أن الله سلم السفينة من الرياح المزعجة. وثالثها: أن الماء غيض قبل نفاذ الزاد. وهذا غير مناسب لوصف السفينة بأن الله جعلها آية، وقيل: إن الضمير راجع في جعلناها إلى الواقعة، أو إلى النجاة، أو إلى العقوبة بالغرق. ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه﴾ انتصاب إبراهيم بالعطف على ﴿نوحاً﴾. وقال النسائي: هو معطوف على البهاء في جعلناها، وقيل: منصوب بمقتّر: أي: وانكر إبراهيم. وإذ قال منصوب على الظرفية: أي: وأرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه: اعبوا الله، أو جعلنا إبراهيم آية وقت قوله هذا: أو وانكر إبراهيم وقت قوله. على أن الظرف بدل اشتغال من إبراهيم ﴿اعبوا الله وتقوه﴾ أي: أفروه بالعبادة، وخصوه بها، واتقوه أن تشركوا به شيئاً ﴿فإنكم خير لكم﴾ أي: عبادة الله وتقواه خير لكم من الشرك، ولا خير في الشرك أبداً، ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ شيئاً من العلم، أو تعلمون علماً تميزون به بين ما هو خير، وما هو شرّ. قرأ الجمهور ﴿وإبراهيم﴾ بالنصب. وجهه ما قدّمنا.

وقرأ النخعي، وأبو جعفر، وأبو حنيفة بالرفع على الابتداء، والخبر مقدر: أي: ومن المرسلين إبراهيم ﴿إنما تعبدون من دون الله لوثاناً﴾ بين لهم إبراهيم أنهم يعبدون ما لا ينفع، ولا يضرّ، ولا يسمع، ولا يبصر، والوثان هي: الأصنام. وقال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب، أو فضة، أو نحاس، والوثن ما يتخذ من جصّ أو حجارة، وقال الجوهري: الوثن الصنم، والجمع لوثان ﴿وتخلقون إفكاً﴾، أي: وتكتبون كذباً على أن معنى تخلقون: تكتبون، ويجوز أن يكون معناه: تعملون، وتحتون: أي: تعملونها، وتحتونها للإفك. قال الحسن: معنى تخلقون: تحتون: أي: إنما تعبدون لوثاناً، وأنتم تصنعونها. قرأ الجمهور (تخلقون) بفتح الفوقية، وسكون الخاء، وضم اللام مضارع خلق، وإفكاً بكسر الهمزة، وسكون الفاء. وقرأ عليّ بن أبي طالب، وزيد بن عليّ، والسلمي، وقتادة بفتح الخاء، واللام مشددة، والأصل تتخلقون. وروي عن زيد بن عليّ: أنه قرأ بضم التاء، وتشديد اللام مكسورة. وقرأ ابن الزبير، وفضيل بن ورقان (أفكاً) بفتح الهمزة، وكسر الفاء، وهو مصدر كالكتب، أو صفة لمصدر محذوف: أي: خلقاً أفكاً ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ أي: لا يقدرون على أن يرزقوك شيئاً من الرزق ﴿فابغوا عند الله الرزق﴾ أي: اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله، فهو الذي عنده الرزق كله، فاسألوه من فضله، ووحده دون غيره ﴿واشكروا له﴾ أي: على نعمائه، فإن الشكر موجب لبقائها، وسبب للمزيد عليها، يقال: شكرته، وشكرت له ﴿إليه ترجعون﴾ بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره ﴿وإن تكتبوا فقد كذب أئم من قبلكم﴾ قيل: هذا من قول إبراهيم: أي: وإن تكتبوني، فقد وقع لك لغيري ممن قبلكم، وقيل: هو من قول الله سبحانه: أي: وإن تكتبوا محمداً، فنلك عادة الكفار مع من سلف ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ لقومه الذي أرسل إليهم، وليس عليه هدايتهم، وليس نلك في وسعه ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده﴾ قرأ الجمهور «أولم يروا» بالتحية على الخبر، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، قال أبو عبيد: كانه قال: أولم ير الاسم. وقرأ أبو بكر، والأعمش، وابن وثاب، وحَمْزَة، والكسائي بالفوقية على الخطاب من إبراهيم لقومه، وقيل: هو خطاب من الله لقريش. قرأ الجمهور (كيف يبدئ) بضم التحتية من أبدأ يبدئ، وقرأ الزبيري، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بفتحها من بدأ يبدئ. وقرأ الزهري «كيف بدأ» والمعنى: ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم ينفخ فيه الروح، ثم يخرج به إلى الدنيا، ثم يتوفاه بعد ذلك، وكذلك سائر الحيوانات، وسائر النباتات، فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء، والإيجاد، فهو القادر على الإعادة، والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم، والواو للعطف على مقدر ﴿إن نلك على الله يسير﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون. ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يأمر قومه بالمسير في الأرض،

بما تقم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال: إن قوله: قل: سيروا في الأرض خطاب لمحمد ﷺ، وأما على قول من قال: إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام، فالكلام في سياقه سابقاً، ولاحقاً: أي: قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم: افعلوا بإبراهيم أحد الامرين المذكورين، ثم اتفقوا على تحريقه ﴿فانجاه الله من النار﴾ وجعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إن في ذلك﴾ أي: في إنجاء الله لإبراهيم ﴿آيات﴾ بيّنة: أي: دلالات واضحة، وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه: حيث أضرّموا تلك النار العظيمة، وألقوه فيها، ولم تحرقه، ولا أثرت فيه أثراً، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة، والإحراق، وإنما خصّ المؤمنين، لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه، وأما من عداهم، فهم عن ذلك غافلون. قرأ الجمهور بنصب «جواب قومه، على أنه خبر كان، وما بعده اسمها. وقرأ سالم الأنطس، وعمرو بن دينار، والحسن برفعه على أنه اسم كان، وما بعده في محل نصب على الخبر ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله اوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي: قال إبراهيم لقومه: أي: للتوابع بينكم، والتواصل لاجتماعكم على عبادتها، وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم إن تركتم عبادتها. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي «مودة بينكم» برفع مودة غير منوثة، وإضافتها إلى بينكم. وقرأ الأعمش، وابن وثاب «مودة» برفعها منوثة. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر بنصب «مودة» منوثة، ونصب بينكم على الظرفية. وقرأ حمزة وحفص بنصب «مودة» مضافة إلى بينكم. فاما قراءة الرفع، فذكر الزجاج لها وجهين: الأول: أنها ارتفعت على خبر إن في ﴿إنما اتخذتم﴾، وجعل ما موصولة. والتقدير: إن الذي اتخذتموه من دون الله اوثاناً مودة بينكم. والوجه الثاني: أن تكون على إضمار مبتدأ: أي: هي مودة، أو تلك مودة. والمعنى: أن المودة هي التي جمعتمكم على عبادة الاوثان، واتخاذها. قيل: ويجوز أن تكون مودة مرتفعة بالابتداء، وخبرها في الحياة الدنيا. ومن قرأ برفع مودة منوثة، فتوجيهه كالقراءة الأولى، ونصب بينكم على الظرفية. ومن قرأ بنصب مودة، ولم يثونها جعلها مفعول اتخذتم، وجعل إنما حرفاً واحداً للحصر، وهكذا من نصبها، وثونها. ويجوز أن يكون النصب في هاتين القراءةين على أن المودة علة، فهي مفعول لأجله، وعلى قراءة الرفع يكون مفعول اتخذتم الثاني محذوفاً: أي: اوثاناً آلهة، وعلى تقدير أن ما في قوله: ﴿إنما اتخذتم﴾ موصولة يكون المفعول الأول ضميرها: أي: اتخذتموه، والمفعول الثاني اوثاناً ﴿ثم يوم للقيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ أي: يكفر بعض هؤلاء المتخذين للوثان العابدين لها بالبعث الآخر منهم، فيتبرأ القادة من الاتباع، والاتباع من القادة، وقيل: المعنى: يتبرأ العابدين للوثان من الاوثان، وتبترأ الاوثان من العابدين لها ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي: يلعن كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿وماواكم النار﴾ أي:

ليتفكروا، ويعتبروا، فقال: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ على كثرتهم، واختلاف ألوانهم، وطبائعهم، وأسنتهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية، والأمم الخالية، وآثارهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله. وقيل: إن المعنى: قل لهم يا محمد سيروا، ومعنى قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ أن الله الذي بدأ النشأة الأولى، وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث، والجملة عطف على جملة سيروا في الأرض داخلة معها في حيز القول، وجملة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ تعليل لما قبلها. قرأ الجمهور بـ (النشأة) بالقصر، وسكون الشين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالمد، وفتح الشين، وهما لغتان كالرقاة، والرافة. وهي منتصبه على المصدرية بحذف الزوائد، والاصل الإنشاء ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي: هو سبحانه بعد النشأة الآخرة يعذب من يشاء تمزييه، وهم الكفار، والعصاة، ويرحم من يشاء رحمته، وهم المؤمنون به المصنقون لرسله العاملون بأوامره، ونواهيهم ﴿والله يلقبون﴾ أي: ترجعون، وتردّون لا إلى غيره ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ قال الفراء: ولا من في السماء بمعجزين الله فيها. قال: وهو كما في قول حسان:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمسحه وينصره سواء
أي: ومن يمدحه، وينصره سواء. ومثله قوله تعالى: ﴿وما مناً إلا له مقام معلوم﴾ [الصفات: 164] أي: إلا من له مقام معلوم، والمعنى: أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض، ولا أهل السماء في السماء إن عصوه. وقال قطرب: إن معنى الآية: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتني فلان ها هنا، ولا بالبصرة. يعني: ولا بالبصرة لو صار إليها. وقال المبرد: المعنى: ولا من في السماء. على أن من ليست موصولة بل نكرة، وفي السماء صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف، وردّ ذلك علي بن سليمان وقال: لا يجوز، ورجح ما قاله قطرب ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ من مزيدة للتأكيد: أي: ليس لكم، ولي يوالىكم، ولا نصير ينصركم، ويدفع عنكم عذاب الله ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ المراد بالآيات الآيات التنزيلية، أو التكوينية، أو جميعهما، وكفروا ببقاء الله: أي: أنكروا البعث، وما بعده، ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل الله سبحانه، والإشارة بقوله: ﴿اولئك﴾ إلى الكافرين بالآيات، واللقاء، وهو مبتدأ، وخبره ﴿يئسوا من رحمتي﴾ أي: إنهم في الدنيا آيسون من رحمة الله لم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله، ولا ما أخبرتهم به رسله. وقيل: المعنى: أنهم يياسون يوم القيامة من رحمة الله، وهي الجنة. والمعنى: أنهم أويسوا من الرحمة ﴿اولئك لهم عذاب ليم﴾ كَرَّر سبحانه الإشارة للتأكيد، ووصف العذاب بكونه اليماً للدلالة على أنه في غاية الشدة ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوهم لو حرّقوه﴾ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض

الكفار، وقيل: يدخل في ذلك الأوثان: أي: هي منزلكم الذي تأبون إليه ﴿وما لكم من ناصرين﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم ﴿فأمن له لوط﴾ أي: آمن لإبراهيم لوط، فصنقه في جميع ما جاء به، وقيل: إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه، وكان لوط ابن أخي إبراهيم ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ قال النخعي، وقتادة: الذي قال: إني مهاجر إلى ربي هو: إبراهيم قال قتادة: هاجر من كوثى، وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران، ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط، وامراته سارة. والمعنى: إني مهاجر عن دار قومي إلى حيث أعبد ربي ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي: الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة، وقيل: إن القائل: إني مهاجر إلى ربي هو: لوط، والأول أولى لرجوع الضمير في قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ إلى إبراهيم. وكذا في قوله: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾، وكذا في قوله: ﴿وأتيناها لجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف: أي: من الله عليه بالأولاد، فوهب له إسحاق ولدًا له، ويعقوب ولدًا لولده إسحاق، وجعل في ذريته النبوة، والكتاب، فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا من صلبه، ووجد الكتاب؛ لأن الألف، واللام فيه للجنس الشامل للكتب، والمراد التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، ومعنى ﴿وأتيناها لجره في الدنيا﴾: أنه أعطي في الدنيا الأولاد، وأخبره الله باستمرار النبوة فيهم، وذلك مما تقر به عينه، ويزداد به سروره، وقيل: أجره في الدنيا أن أهل الملل كلها تدعيه، وتقول: هم منهم. وقيل: أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً، وعاقبة حسنة، وإنه في الآخرة لمن الصالحين: أي: الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة، وكثرة العطاء من الرب سبحانه. وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن عباس قال: بعث الله نوحاً، وهو ابن أربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس، وفشوا. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى قومه، وبعد ما بعث ألفاً وسبعمائة سنة. وأخرج ابن جرير عن عوف بن أبي شاذ قال: إن الله أرسل نوحاً إلى قومه، وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب نوح، فقال: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا، ولنتها؟ قال: كرجل دخل بيتاً له بابان، فقال في وسط البيت هنيئة، ثم خرج من الباب الآخر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وجعلنا آية للعالمين﴾ قال: أبقاما الله آية، فهي على الجودي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن

ابن عباس في قوله: ﴿وتخلقون إفكاً﴾ قال: تقولون كذباً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿النشأة الآخرة﴾ قال: هي: الحياة بعد الموت، وهو النشور. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿فأمن له لوط﴾ قال: صدق لوط إبراهيم. وأخرج أبو يعلى، وابن مريويه عن أنس قال: «أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان، فقال النبي ﷺ: صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط». وأخرج ابن منده، وابن عساكر عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «هاجر عثمان إلى الحبشة، فقال النبي ﷺ: إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط». وأخرج ابن عساكر، والطبراني، والحاكم في الكنى عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان بين عثمان، وبين رقية، وبين لوط مهاجر». وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: أول من هاجر إلى رسول الله ﷺ عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ قال: هما ولدا إبراهيم، وفي قوله: ﴿وأتيناها لجره في الدنيا﴾ قال: إن الله وصى أهل الأديان بيته، فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم، ويرضون به. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله: ﴿وأتيناها لجره في الدنيا﴾ قال: الذكر الحسن. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الولد الصالح، والثناء، وقول ابن عباس: هما ولدا إبراهيم لعله يريد ولده، وولد ولده، لأن ولد الولد بمنزلة الولد، ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس، فهو حبر الأمة، وهذه الرواية عنه هي من رواية العوفي، وفي الصحيحين «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَرَجُ مَا سَفَعَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَكَيْنِ ﴿٧٨﴾ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَرَجُ وَتَقَطُّونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الشُّكْرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِمَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٨١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْ فِيهَا لَنَجِيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَّاهُمْ بِهِمْ ذِكْرًا وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تُحْنِ إِنَّكَ مُجْرِمٌ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٣﴾ إِنَّا مِرْلُوكٌ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجُلًا مِنْ آلِ سَمَاءٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَقَدْ رَفَعْنَا بِهَا آيَةً يَكُنْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِلَّا مَذَرْنَا أَسْمَاءَ شَعْبًا فَقَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَخَذَّهْمُ الرَّحْمَةُ فَأَسْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُنُودًا ﴿٨٧﴾ وَكَأَدَا وَتَشَوَّدَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَزَكَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَذُرِّيَّتٌ وَمَرْعَاتٌ وَنِسَاءٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُرْسَى بِالْيَمِينِ فَاسْتَكْرَأُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَبِيحِينَ ﴿٢٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُلِّيهِ فَوَنَّمْهُم مِّنْ أَرْضِنَا عَلَيْهِ حَاسِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّتَّ حَسَفَتَا بِهِنَّ الْأَرْضُ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله: ﴿وَلَوْطًا﴾ منصوب بالعطف على نوحاً، أو علي إبراهيم، أو بتقدير انكر. قال الكسائي: المعنى: وإنجينا لوطاً، أو وارسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ظرف للعامل في لوط ﴿إِنكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر «أنكم» بالاستفهام. وقرأ الباقون بلا استفهام، والفاحشة الخلصة المتناهية في القبح، وجلمة ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ مقررّة لكمال قبح هذه الخلصة، وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم. ثم بين سبحانه هذه الفاحشة، فقال: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ﴾ أي: تلوطون بهم ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ قيل: إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء: كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث، وقيل: أنوا يقطعون الطريق على المارة يقتلهم، ونهبهم. والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص، وقيل: إن معنى قطع الطريق: قطع النسل بالعمول عن النساء إلى الرجال ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَائِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ النادى، والندى، والمنتدى مجلس القوم، ومتحدثهم.

واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه؛ فقيل: كانوا يحذفون الناس بالحصباء، ويستخفون بالغريب، وقيل: كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقيل: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم، وبعضهم يرى بعضاً، وقيل: كانوا يلعبون بالحمام، وقيل: كانوا يخضبون أصابعهم بالحناء، وقيل: كانوا يناقرون بين النيكّة، ويناطحون بين الكباش، وقيل: يلعبون بالنرد، والشطرنج، ويلبسون المصبغات، ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات. قال الزجاج: وفي هذا إعلام أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المنكر، وأن لا يجتمعوا على الهزل، والمناهي. ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فما أجابوا بشيء إلا بهذا القول رجوعاً منهم إلى التكنيب، واللجاج، والعناد، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية، وقد تقدّم في سورة النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: 56] وتقدّم في سورة الأعراف: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: 82] وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد، ومكرراً للنهي لهم، والوعيد عليهم، فقالوا له أولاً: ائتنا بعذاب الله كما

في هذه الآية، فلما كثر منه ذلك، ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوهم كما في الأعراف، والنمل، وقيل: إنهم قالوا أولاً: أخرجوهم من قريبتكم، ثم قالوا ثانياً: ائتنا بعذاب الله. ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه فـ﴿قال رب أنصرني على القوم المفسدين﴾. بإنزال عذابك عليهم، وإفسادهم هو بما سبق من إتيان الرجال، وعمل المنكر في نائبيهم، فاستجاب الله سبحانه، وبعث لعذابهم ملائكته، وأمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ أي: بالبشارة بالولد، وهو: إسحاق، وبولد الولد، وهو: يعقوب ﴿قَالُوا إِنَّا مَهْلُكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: قالوا لإبراهيم هذه المقالة، والقريّة هي: قرية سدوم التي كان فيها قوم لوط، وجلمة ﴿إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك: أي: إهلاكنا لهم بهذا السبب ﴿قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا﴾ أي: قال لهم إبراهيم: إن في هذه القرية التي أنتم مهلكوها لوطاً فكيف تهلكونها؟ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ من الأخيار، والأشرار، ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ من العذاب. قرأ الأعمش، وحمزة، ويعقوب، والكسائي «لننجينه» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد ﴿إِلَّا أَمْرَاتِهِ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقيين في العذاب، وهو لفظ مشترك بين الماضي، والباقي، وقد تقدّم تحقيقه، وقيل: المعنى: من الباقيين في القرية التي سينزل بها العذاب، فتعذب من جملتهم، ولا تنجو فيمن نجا ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيئًا بِهِمْ﴾ أي: لما جاءت الرسل لوطاً بعد مفارقتهم إبراهيم سيئاً بهم: أي: جاءه ما ساءه، وخاف منه، لأنه ظنهم من البشر، فخاف عليهم من قومه لكونهم في أحسن صورة من الصور البشرية، و«أن» في أن جاءت زائدة للتأكيد ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ أي: عجز عن تدبيرهم، وحزن، وضاق صدره، وضيق الذراع كناية عن العجز، كما يقال: في الكناية عن الفقر: ضاقت يده، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة هود. ولما شاهدت الملائكة ما حلّ به من الحزن، والتضجر ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: لا تخف علينا من قومك، ولا تحزن، فإنهم لا يقدرّون علينا ﴿إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلِكَ﴾ من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم ﴿إِلَّا أَمْرَاتِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أخبروا لوطاً بما جاءوا به من إهلاك قومه، وتنجيته، وأهله إلا أَمْرَاتِهِ كما أخبروا بذلك إبراهيم، قرأ حمزة، والكسائي، وشعبة، ويعقوب، والأعمش «منجوك» بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، قال المبرد: الكاف في منجوك مخفوض، ولم يجز عطف الظاهر على المضمّر المخفوض، فحمل الثاني على المعنى، وصار التقدير: وننجي أهلك ﴿إِنَّا مُزِلُّونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله، والرجز العذاب أي: عذاباً من السماء، وهو: الرمي بالحجارة، وقيل: إحراقهم بنار نازلة من السماء، وقيل: هو الخسف، والحصب كما في غير

قوله: ﴿وَلَوْطًا﴾ منصوب بالعطف على نوحاً، أو علي إبراهيم، أو بتقدير انكر. قال الكسائي: المعنى: وإنجينا لوطاً، أو وارسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ظرف للعامل في لوط ﴿إِنكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر «أنكم» بالاستفهام. وقرأ الباقون بلا استفهام، والفاحشة الخلصة المتناهية في القبح، وجلمة ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ مقررّة لكمال قبح هذه الخلصة، وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم. ثم بين سبحانه هذه الفاحشة، فقال: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ﴾ أي: تلوطون بهم ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ قيل: إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء: كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث، وقيل: أنوا يقطعون الطريق على المارة يقتلهم، ونهبهم. والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص، وقيل: إن معنى قطع الطريق: قطع النسل بالعمول عن النساء إلى الرجال ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَائِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ النادى، والندى، والمنتدى مجلس القوم، ومتحدثهم.

واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه؛ فقيل: كانوا يحذفون الناس بالحصباء، ويستخفون بالغريب، وقيل: كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقيل: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم، وبعضهم يرى بعضاً، وقيل: كانوا يلعبون بالحمام، وقيل: كانوا يخضبون أصابعهم بالحناء، وقيل: كانوا يناقرون بين النيكّة، ويناطحون بين الكباش، وقيل: يلعبون بالنرد، والشطرنج، ويلبسون المصبغات، ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات. قال الزجاج: وفي هذا إعلام أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المنكر، وأن لا يجتمعوا على الهزل، والمناهي. ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فما أجابوا بشيء إلا بهذا القول رجوعاً منهم إلى التكنيب، واللجاج، والعناد، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية، وقد تقدّم في سورة النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: 56] وتقدّم في سورة الأعراف: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: 82] وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد، ومكرراً للنهي لهم، والوعيد عليهم، فقالوا له أولاً: ائتنا بعذاب الله كما

﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: ريحاً تأتي بالحصباء، وهي الحصى الصغار فترجمهم بها، وهم قوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود وأهل مدين ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهم قوم نوح وقوم فرعون ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ بما فعل بهم، لأنه قد أرسل إليهم رسلاً وأنزل عليهم كتبه ﴿ولكن كانوا أنفُسهم يظلمون﴾ باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصي الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَاتُون فِي نَائِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾ قال: مجلسكم. وأخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: ﴿وَتَاتُون فِي نَائِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾ قال: كانوا يجلسون بالطريق، فيحذون أبناء السبيل، ويسخرون منهم». قال الترمذي: بعد إخراجهم، وتحسينه: ولا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سمك. وأخرج ابن مردويه عن جابر: أن النبي ﷺ نهى عن الحذف، وهو قول الله سبحانه: ﴿وَتَاتُون فِي نَائِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال: هو الحذف. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عائشة في الآية قالت: الضراط. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ﴾ قال: الصيحة، وفي قوله: ﴿وَوَكُنَّا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قال: في الضلالة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ قال: قوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ قال: ثمود ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ قال: قارون ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ قال: قوم نوح.

هذا الموضع، ومعنى كون الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء. قرأ ابن عامر «منزّلون» بالتشديد. وبها قرأ ابن عباس. وقرأ الباقون بالتخفيف، والباء في ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ للسببية: أي: لسبب فسقهم ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: أبقينا من القرية علامة، ودلالة بينة، وهي الآثار التي بها من الحجارة رجما بها، وخراب الديار. وقال مجاهد: هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر، وخص من يعقل، لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها ﴿وَالَّذِينَ لَخِطَبٌ شَعِيباً﴾ أي: وأرسلناه إليهم، وقد تقدّم ذكره، وذكر نسبه، وذكر قومه في سورة الأعراف، وسورة هود ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أقربوه بالعبادة، وخصوه بها ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: توقعوه، وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم. قال يونس النحوي: معناه: اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الغث، والغليظ أشد الفساد. وقد تقدّم تفسيره ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ﴾ أي: الزلزلة، وتقدّم في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: 67] أي: صيحة جبريل، وهي سبب الرجفة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِشِينَ﴾ أي: أصبحوا في بلدهم، أو منازلهم جائشين على الركب ميتين ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجع إلى أول السورة: أي: ولقد فتننا الذين من قبلهم، وفتنا عاداً، وثمود، قال: وأحب إلي أن يكون على ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ﴾ أي: وأخذت عاداً، وثمود. وقال الزجاج: التقدير، وأهلكنا عاداً، وثمود، وقيل: المعنى: وأذكر عاداً، وثموداً إذ أرسلنا إليهم هوداً، وصالحاً ﴿وَوَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: وقد ظهر لكم يا معاشر الكفار من مساكنهم بالحجر، والأحاف آيات بينات تتعطلون بها، وتنفكرون فيها، ففاعل تبين محذوف ﴿وَوُزِنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ التي يعملونها من الكفر، ومعاصي الله ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ بهذا التزيين ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الطريق الواضح الموصل إلى الحق ﴿وَوَكُنَّا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم، وقيل: المعنى: كانوا مستبصرين في كفرهم، وضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدى، ويرون أن أمرهم حق، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ قال الكسائي: إن شئت كان محمولاً على «عاداً»، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على «فصدّهم عن السبيل» أي: وصّد قارون وفرعون وهامان. وقيل التقدير: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عن عبادة الله ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي: فائزين، يقال: سبق طالبة: إذا فاتته: وقيل: وما كانوا سابقين في الكفر، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة، ﴿فَكَلَّا لَأَخْنُذُنَّ بَنِيهِ﴾ أي عاقبنا بكفره وتكذيبه. قال الكسائي ﴿فَكَلَّا لَأَخْنُذُنَّ﴾ أي فآخذنا كلا بننبه

مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَذَلِكِ الْمَكْرُورِ
أَخَذَتْ يَتًا وَلَيْزَ أَوَّلَهُمْ الْبُيُوتُ بَيَّتَ الْمَكْرُورُ لَوْ كَانُوا يَلْمُوكَ
﴿لَإِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
﴿وَلَقَدْ أَلْمَزْنَا ذُرِّيَّتَهُمَا لِلْأَنْبِيَاءِ وَمَا يَعْلَمُكُمَا إِلَّا الْمَلَكُوتُ﴾
﴿حَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْقَى فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾
﴿مَا أَرْسَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكُتُبِ وَأَفْرِهِ الْمَكْرُورُ إِلَّا الْمَكْرُورَ تَنْهَى عَنْ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾
﴿مُجْدِلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِي مِنْ أَحْسَنَ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَفُتِلُوا
مَأْمَنًا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَفَعَلْنَا لَهُمْ
مُسْلِمُونَ﴾

قوله: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾^١ يوالونهم، ويتكلمون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجماء، أو الحيوان، ومن الأحياء، أو من الأموات ﴿كَمِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾^٢ فإن بيتها لا يغني عنها شيئاً لا في حرٍّ، ولا قرٍّ، ولا مطر، كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع، ولا يغني عنهم شيئاً. قال الفراء: هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه، ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقبها حرّاً، ولا برداً. قال: ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقبها من شيء شبهت الآلهة التي لا تنفع، ولا تضر به، وقد جوز الوقف على العنكبوت الاخفش، وغلطه ابن الأنباري قال: لأن اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال: كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول، والعنكبوت تقع على الواحد، والجمع، والمنكر، والمؤنث، وتجمع على عناكب، وعنكبوتات، وهي: النويبة الصغيرة التي تنسج نسجاً رقيقاً. وقد يقال لها: عنكب، ومنه قول الشاعر:

كانما يسقط من لغامها بيت عنكب على زمامها

﴿وَإِنْ أُوْهِنَ الْبُيُوتُ لِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ﴾^٣ لا بيت أضعف منه مما يتخذ الهوام بيتاً، ولا يدانيه في الوهي، والوهن شيء من ذلك ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^٤ أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم لعلمو بهذا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^٥ ما استفهامية، أو نافية، أو موصولة، ومن للتبعيض، أو مزيدة للتوكيد. وقيل: إن هذه الجملة على إضمار القول: أي: قل للكافرين: إن الله يعلم أي شيء يدعون من دونه. وحرم أبو علي الفارسي بأنها استفهامية، وعلى تقدير النفي كأنه قيل: إن الله يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شيء: يعني: ما تدعونه ليس بشيء، وعلى تقدير الموصولة: إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه، ويجوز أن تكون ما مصدرية، ومن شيء عبارة عن المصدر. قرأ عاصم، وأبو عمرو، ويعقوب (يدعون) بالتحية. واختار هذه القراءة أبو عبيد لنكر الأمم قبل هذه الآية. وقرأ الباقرن بالفوقية على الخطاب ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٦ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام، والإتقان ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾^٧ أي: هذا المثل، وغيره من الأمثال التي في القرآن نضربها للناس تنبيهاً لهم، وتقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾^٨ أي: يفهمها، ويتعلل الأمر الذي ضربناها لأجله ﴿إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾^٩ باله الراسخون في العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم، وما يشاهدونه ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾^{١٠} أي: بالعدل، والقسط مراعيًا في خلقها مصالح عباده. وقيل: المراد بالحق كلامه، وقدرته، ومحل بالحق النصب على الحال ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^{١١} أي: لدلالة عظيمة، وعلامة ظاهرة على قدرته، وتقديره بالإلهية، وخص المؤمنين؛ لأنهم الذين ينتفعون بذلك ﴿قَاتِلْ مَا أُوْحِيَ

إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾^{١٢} أي: القرآن، وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن، والمحافظة على قراءته مع التدبر لآياته، والتفكير في معانيه ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^{١٣} أي: دم على إقامتها، واستمر على أدائها كما أمرت بذلك، وجملة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^{١٤} تعليل لما قبلها، والفحشاء ما قبح من العمل، والمنكر ما لا يعرف في الشريعة: أي: تمنعه عن معاصي الله، وتبعده منها، ومعنى نهيا عن ذلك: أن فعلها يكون سبباً للانتهاك، والمراد هنا الصلوات المفروضة ﴿وَلَنُذَكِّرَ اللَّهُ أَكْبَرَ﴾^{١٥} أي: أكبر من كل شيء: أي: أفضل من العبادات كلها بغير ذكر. قال ابن عطية: وعندي أن المعنى: ولنذكر الله أكبر على الإطلاق: أي: هو الذي ينهي عن الفحشاء، والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة؛ لأن الإنتهاء لا يكون إلا من ذكر الله مراقب له. وقيل ذكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء، والمنكر مع المدلومة عليه. قال الفراء، وابن قتيبة: المراد بالذكر في الآية التسبيح، والتلهيل، يقول: هو أكبر، وأخرى بأن ينهي عن الفحشاء، والمنكر. وقيل: المراد بالذكر هنا الصلاة: أي: وللصلاة أكبر من سائر الطاعات، وعبر عنها بالذكر كما في قوله: ﴿فَاسْعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^{١٦} [الجمعة: 9] للدلالة على أن ما فيها من الذكر هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات، وقيل: المعنى: ولنذكر الله لكم بالثواب، والثناء عليكم منه أكبر من نكركم له في عبادتكم، وصلواتكم، واختار هذا ابن جرير، ويؤيده حديث: «من نكرني في نفسه نكرته في نفسي، ومن نكرني في ماله نكرته في ماله خير منهم» ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^{١٧} لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشر شراً ﴿وَلَا تَجَالُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^{١٨} أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبية لهم على حجه، وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ، والمخاشنة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^{١٩} بأن أفرطوا في المجادلة، ولم يتأنبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشيش في مجادلهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب اليهود، والنصارى. وقيل: معنى الآية: لا تجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن: يعني: بالموافقة فيما حثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم الباقرن على كفرهم. وقيل: هي الآية منسوخة بآيات القتال، وبذلك قال قتادة، ومقاتل. قال النحاس: من قال: هذه منسوخة احتج بأن الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. قال سعيد بن جبير، ومجاهد: إن المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين، فجدالهم بالسيف حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾^{٢٠} من القرآن

المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن ربيعة قال: سألني ابن عباس عن قول الله: **﴿وَلَنُكَرِّهَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ فِي الدُّعَاءِ مِمَّنْ يَدْعُونَ بِهِمْ أَعْنَاءَهُنَّ وَمَنْ يَدْعُ بِدُعَائِهِمْ يُكْفَرْ﴾** فقلت: ذكر الله بالتسبيح، والتلهيل، والتكبير قال: لنكر الله إليكم أكبر من نكركم إياه، ثم قال: انكروني أنكركم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير عن ابن مسعود **﴿وَلَنُكَرِّهَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ فِي الدُّعَاءِ مِمَّنْ يَدْعُونَ بِهِمْ أَعْنَاءَهُنَّ وَمَنْ يَدْعُ بِدُعَائِهِمْ يُكْفَرْ﴾** قال: ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله. وأخرج ابن السني، وابن مريويه، والديلمي عن ابن عمر نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: لها وجهان: نكر الله أكبر مما سواه، وفي لفظ: نكر الله عند ما حرّمه، ونكر الله إليكم أعظم من نكركم إياه. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال: ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من نكر الله، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا أن يضرب بسيفه حتى يقطع، لأن الله يقول في كتابه العزيز: **﴿وَلَنُكَرِّهَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ فِي الدُّعَاءِ مِمَّنْ يَدْعُونَ بِهِمْ أَعْنَاءَهُنَّ وَمَنْ يَدْعُ بِدُعَائِهِمْ يُكْفَرْ﴾**. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن عنترة قال: قلت لابن عباس: أيّ العمل أفضل؟ قال: نكر الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: **﴿وَلَا تَجَالُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** قال: بلا إله إلا الله. وأخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا، وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون». وأخرج البيهقي في الشعب، والديلمي، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهتدوا، وقد ضلوا، إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني». وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن ابن مسعود قال: لا تسألوا أهل الكتاب، ونكر نحو حديث جابر، ثم قال: فإن كنتم سائلهم لا محالة، فانظروا ما وأطا كتاب الله، فخذوه، وما خالف كتاب الله، فدوه.

وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ وَالَّذِينَ أَلَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُ بِمِيسِرِهَا إِذَا لَازَمْتَ الَّذِينَ هَلَاكُوا بِآيَاتِنَا يَتَسَنَّوْنَ فِي سُدُورِ الَّذِينَ أَوْفُوا أَلْعَلَّ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَكَرَمٌ لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ كُونُوا بِاللَّهِ بَنِينَ وَيَتَّخِذْكُمْ مُبَدَّأً يَمْشِي مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

﴿وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ مِنَ التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ: أَيْ: آمَنَّا بَأَنَّهُمَا مَنْزِلَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمَا شَرِيعَةٌ ثَابِتَةٌ إِلَى قِيَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا حَرَّفُوهُ، وَبَنَوْهُ ﴿وَالِهِنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا ضِدَّ، وَلَا نَدٌّ ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أَيْ: وَنَحْنُ مُعَاشِرُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مُطِيعُونَ لَهُ خَاصَّةً، لَمْ نَقُلْ: عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ، وَلَا الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَلَا اتَّخَذْنَا أَحْبَارَنَا، وَرَهْبَانَنَا أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ، وَنَحْنُ جَمِيعاً مُتَقَالُونَ لَهُ، وَلَا يَقْدَحُ فِي هَذَا الْوَجْهِ كَوْنُ انْقِيَادِ الْمُسْلِمِينَ أَتَمَّ مِنْ انْقِيَادِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَطَاعَتِهِمْ أَبْلَغُ مِنْ طَاعَتِهِمْ.﴾

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿مِثْلُ النَّبِيِّ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾** الآية قال: ذاك مثل ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت. وأخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد قال: قال رسول الله ﷺ: «العنكبوت شيطان مسخها الله، فمن وجدها، فليقتلها». وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن ميسرة قال: العنكبوت شيطان. وأخرج الخطيب عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أنا، وأبو بكر الغار، فاجتمعت العنكبوت، فنسجت بالباب، فلا تقتلوها». وروى القرطبي في تفسيره عن عليّ أيضاً أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيت يورث الفقر. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني قال: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود، والثانية على النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** قال: في الصلاة منتهى ومزجر عن المعاصي. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عمران بن حصين قال: «سئل النبي ﷺ عن قول الله: **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** فقال: من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعداً». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وفي لفظ: «لم يزد بها من الله إلا بعداً». وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعاً نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مريويه عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه. قال السيوطي: وسنده ضعيف. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الشعب عنه نحوه موقوفاً. قال ابن كثير في تفسيره: والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأعمش، وغيرهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وَلَنُكَرِّهَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ فِي الدُّعَاءِ مِمَّنْ يَدْعُونَ بِهِمْ أَعْنَاءَهُنَّ وَمَنْ يَدْعُ بِدُعَائِهِمْ يُكْفَرْ﴾** قال: نكرهم إياه. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن

آيات من ربه أي: قال المشركون هذا القول، والمعنى: هلا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء، وذلك كآيات موسى، وناقة صالح، وإحياء المسيح للموتى، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم، فقال: **﴿قل إنما الآيات عند الله﴾** ينزلها على من يشاء من عباده، ولا قدرة لأحد على ذلك **﴿وإنما أنا نذير مبين﴾** أنذركم كما أمرت، وأبين لكم كما ينبغي، ليس في قدرتي غير ذلك. قرأ ابن كثير، وأبو بكر، وحمرزة، والكسائي (لولا أنزل عليه آية) بالإفراد. وقرأ الباقون بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: (قل إنما الآيات) **﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾** هذه الجملة مستأنفة للرد على اقتراحهم، وبيان بطلانه: أي: أو لم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحييتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه، فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى، وآيات غيره من الأنبياء لما آمنوا، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان، ومكان **﴿إن في ذلك﴾** الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما نكر **﴿لرحمة﴾** عظيمة في الدنيا، والآخرة **﴿وونكرى﴾** في الدنيا يتذكرون بها، وترشدكم إلى الحق **﴿لقوم يؤمنون﴾** أي: لقوم يصنفون بما جئت به من عند الله، فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك **﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾** أي: قل للمكذبين: كفى الله شهيداً بما وقع بيني وبينكم **﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾** لا تخفى عليه من ذلك خافية، ومن جملة ما صدر بينكم، وبين رسوله **﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾** أي: آمنوا بما يعبدونه من دون الله، وكفروا بالحق، وهو: الله سبحانه، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا، والآخرة **﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾** استهزاء، وتكبيراً منهم بذلك كقولهم: **﴿أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم﴾** [الأنفال: 32] **﴿ولولا لجل مسمى﴾** قد جعله الله لعذابهم، وعينه، وهو القيامة، وقال الضحاك: الأجل مدة أعمارهم؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب **﴿لجاءهم العذاب﴾** أي: لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى، وقيل: الوقت الذي قدره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل، والأسر يوم بدر. والحاصل أن لكل عذاب أجلاً لا يتقدم عليه، ولا يتأخر عنه كما في قوله سبحانه: **﴿لكل نبي مستقر﴾** [الأنعام: 67] وجملة **﴿وليأتينهم بغتة﴾** مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها، ومعنى بغتة: فجأة، وجملة **﴿وهم لا يشعرون﴾** في محل نصب على الحال: أي: حال كونهم لا يعلمون بآيانه، ثم نكر سبحانه أن موعد عذابهم النار، فقال: **﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾** أي: يطلبون منك تعجيل عذابهم، والحال أن مكان العذاب محيط بهم: أي: سيحيط بهم عن قرب، فلما ما هو آت قريب، والمراد بالكافرين جنسهم، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولاً أولياً، فقول:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ **﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ جَاءَهُمْ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** **﴿يَوْمَ يَفْسَدُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ دُوْعُوا مَا كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾**

قوله: **﴿وكنك أنزلنا إليك الكتاب﴾** هذا خطاب لرسول الله ﷺ، والإشارة إلى مصدر الفعل كما بيناه في مواضع كثيرة: أي: ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب، وهو: القرآن، وقيل: المعنى: كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن **﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾** يعني: مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وخصهم بآياتهم الكتاب لكونهم العاملين به، وكان غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه، وجاهدهم لصفات رسول الله ﷺ المذكورة فيه **﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾** الإشارة إلى أهل مكة، والمراد أن منهم، وهو من قد أسلم من يؤمن به: أي: بالقرآن، وقيل: الإشارة إلى جميع العرب **﴿وما يجحد بآياتنا﴾** أي: آيات القرآن **﴿إلا الكافرون﴾** المصممون على كفرهم من المشركين، وأهل الكتاب **﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب﴾** الضمير في قبله راجع إلى القرآن؛ لأنه المراد بقوله: أنزلنا إليك الكتاب: أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتاباً، ولا تقدر على ذلك؛ لأنك أمي لا تقرأ، ولا تكتب **﴿ولا تخطه يمينك﴾** أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجنون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط، ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية. قال النحاس: وذلك دليل على نبوته؛ لأنه لا يكتب، ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء، والامم **﴿إذا لارتاب المبطلون﴾** أي: لو كنت ممن يقدر على التلاوة، والخط لقالوا: لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة، أو من الكتب المدونة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ، ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة، ولا محل للشك أبداً، بل إنكار من أنكروا، وكفر من كفر مجرد عناد، وجحود بلا شبهة، وسماهم مبطلين؛ لأن ارتيابهم على تقدير أنه ﷺ يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته، ووضوح معجزاته **﴿بل هو آيات بينات﴾** يعني: القرآن **﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾** يعني: المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهد ﷺ، وحفظوه بعده، وقال قتادة، ومقاتل: إن الضمير يرجع إلى النبي ﷺ: أي: بل محمد آيات بينات: أي: نو آيات. وقرأ ابن مسعود (بل هي آيات بينات) قال الفراء: معنى هذه القراءة: بل آيات القرآن آيات بينات.. واختار ابن جرير ما قاله قتادة، ومقاتل، وقد استدلل لما قاله بقراءة ابن السميع (بل هذا آيات بينات) ولا دليل في هذه القراءة على ذلك، لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن كما جاز أن تكون إلى النبي ﷺ، بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، والتقدير **﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾** أي: المجاوزون للحد في الظلم **﴿وقالوا لولا أنزل عليه﴾**

أما ترى وجه رسول الله ﷺ، فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فسرّ عن رسول الله ﷺ، وقال: لو نزل موسى فاتبعتموه، وتركتموني لضللتكم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم». وأخرج نحوه عبد الرزاق، والبيهقي من طريق أبي قلابة عن عمر. وأخرج البيهقي، وصححه عن عمر بن الخطاب قال: «سألت رسول الله ﷺ عن تعلم التوراة، فقال: لا تتعلمها، وأمن بها، وتعلموا ما أنزل إليكم، وأمنوا به». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكاثرين﴾ قال: جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه، وتكون فيه الشمس، والقمر، ثم يستوقد، فيكون هو: جهنم، وفي هذا نكارة شديدة، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة.

يَبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى أَرْضٍ وَبَعَّةٍ يَكُونُونَ ﴿١٠١﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿١٠٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِمَا كَسَبَتْ أَيْمَانُهُمْ أَلَيْسَ فِي ذَلِكَ لَكُمْ عَلِيمًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ سَبَّوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا يَحِمْلُ زَوْجَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِنْ أَرَادَ إِلَّا بِقَوْلٍ لَوْ أَنَّهُ بَشَرٌ لَبُذِيَ عَنْهَا لَوْلَا رَبُّهُ إِذْ هِيَ كَالْغَائِيَةِ ﴿١٠٥﴾ وَلَيْسَ سَأَلُهُمْ مَنْ تَخَلَّوْا بِهِ مِنَ الشَّجَرِ الْأَوَّلِ أَنَّ اللَّهَ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَلَيْسَ سَأَلُهُمْ مَنْ تَزَلَّ بِهِ مِنَ السَّلَاطَةِ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَيْسَ بِالْآثَارِ الْآخِرَةِ لِمَنِ الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنَّا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَاؤُا أَنَّا نَحْمِلُهُنَّ لَهُ الَّذِينَ قَالُوا جَنَاحُ طَائِرٍ إِلَى الْآبِئِ إِنَّا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٠٩﴾ يَكْفُرُوا بِمَا آمَنَتْهُمْ وَلَسْتُمُوهَا مَوْتٌ يَلْمُوهَا ﴿١١٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَأْمُورًا وَحَفَفْنَا النَّفْسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَنَّا لَنَنْظُرَ يُوقِنُونَ ﴿١١١﴾ وَيَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١١٣﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٤﴾

لما نكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب، ومن المشركين، وجمعهم في الإنذار، وجعلهم من أهل النار اشتدّ عنادهم، وزاد فسادهم، وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه، فقال الله سبحانه: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفاً، وتكريماً، والذين آمنوا صفة موضحة، أو مميزة ﴿إِنِ أَرْضِي وَأَسْعَى﴾ إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان، وفي مكيدة للكفار، فأخرجوا منها؛ لتيسر لكم عبادتي وحدي، وتسهل عليكم. قال الزجاج: أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يجب على من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي، ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهدى له أن يعبد الله حق عبادته. وقال

﴿يُستعجلونك بالعذاب﴾ إخبار عنهم، وقوله ثانياً: ﴿يُستعجلونك بالعذاب﴾ تعجب منهم، وقيل: التكرير للتاكيد. ثم نكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم، فقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: من جميع جهاتهم، فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة، فقد أحاطت بهم جهنم ﴿وَنَقُولُ نُوَقِّعْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ القائل: هو الله سبحانه، أو بعض ملائكته يأمره، أي: نوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر، والمعاصي. قرأ أهل المدينة^(١)، والكوفة (نقول) بالنون. وقرأ الباقر بالتحية، واختار القراءة الأخيرة أبو عبيد لقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عتبة (ويقال نوقوا).

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والإسماعيلي في معجمه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من قبله من كتاب ولا تخطئه بيمينك قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب كان أمياً، وفي قوله: ﴿وَجِبِلٌ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال: كان الله أنزل شأن محمد في التوراة، والإنجيل لاهل العلم، وعلمه لهم، وجعله لهم آية، فقال لهم: إن آية نبوته أن يخرج حين يخرج، ولا يعلم كتاباً، ولا يخطه بيمينه، وهي الآيات البينات التي قال الله تعالى. وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من قبله من كتاب الآية قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ، ولا يكتب. وأخرج الفريابي، والدارمي، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم حقاً، أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الآية. وأخرجه الإسماعيلي في معجمه، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة، فنكره بمعناه. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والبيهقي في الشعب عن الزهري: «أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف، فجعلت تقرؤه، والنبي ﷺ يتلون وجهه، فقال: والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف، وأنا نبيكم فاتبعتموه، وتركتموني لضللتكم». وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن الضريس، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال: «دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر:

(١) (قوله قرأ أهل المدينة إلخ) هكذا بالأصل ولعله سهو أو سبق قام، والصواب أن أهل المدينة والكوفة يقرءون ويقولون بلأية التحية والباقر بالنون اهـ ع.

ومطرف بن الشخير: المعنى: إن رحمتي واسعة، ورزقي لكم واسع، فابتغوه في الأرض. وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة، فاعبدون حتى أورثكموها. وانتصاب إياي بفعل مضمر: أي: فاعبدوا إياي. ثم خوفهم سبحانه بالموت؛ ليهون عليهم أمر الهجرة، فقال: ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان، والخلان، ثم إلى الله المرجع بالموت، والبعث لا إلى غيره، فكل حي في سفر إلى دار القرار، وإن طال لبثه في هذه الدار ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ في هذا الترغيب إلى الهجرة، وإن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة، ومعنى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾: لننزلنهم غرف الجنة، وهي علاليها: فانتصاب غرفاً على أنه المفعول الثاني على تضمين نبوتهم معنى: ننزلنهم، أو على الظرفية مع عدم التضمين، لأن نبوتهم لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، وإما منصوب بنزع الخافض اتساعاً: أي: في غرف الجنة، وهو مأخوذ من المباءة، وهي: الإنزال. قرأ أبو عمرو، ويعقوب، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، والأعمش، وحزمة، والكسائي، وخلف (يا عبادي) بإسكان الياء، وفتحها الباقون. وقرأ ابن عامر (إن أرضي) بفتح الياء، وسكنها الباقون. وقرأ السلمي، وأبو بكر عن عاصم (يرجعون) بالتحية، وقرأ الباقون بالفوقية. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، ويحيى بن وثاب وحزمة، والكسائي (لننويينهم) بالياء المثلثة مكان الياء الموحدة، وقرأ الباقون بالياء الموحدة، ومعنى لننويينهم بالمثلثة: لنعطينهم غرفاً يثرون فيها من الثوى، وهو: الإقامة. قال الزجاج، يقال: ثوى الرجل: إذا أقام، وأثويته: إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه. قال الأخفش: لا تعجبني هذه القراءة، لأنك لا تقول: لثويته الدار، بل تقول: في الدار، وليس في الآية حرف جرّ في المفعول الثاني. قال أبو علي الفارسي: هو على إرادة حرف الجرّ، ثم حذف كما تقول: أمرتك الخير: أي: بالخير. ثم وصف سبحانه تلك الغرف، فقال: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت الغرف ﴿خَالِينَ فِيهَا﴾ أي: في الغرف لا يموتون أبداً، أو في الجنة، والأول أولى ﴿نَعْمَ لَاجِرِ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف: أي: نعم أجر العاملين أجراً، والمعنى: العاملين للأعمال الصالحة. ثم وصف هؤلاء العاملين، فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مشاق التكليف، وعلى آثية المشركين لهم، ويجوز أن يكون منصوباً على المدح ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يفوضون أمورهم إليه في كل إقدام، وإحجام، ثم نكر سبحانه ما يعين على الصبر، والتوكل، وهو النظر في حال الدواب، فقال: ﴿وَكَايِنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ قد تقدّم الكلام في كايين، وإن أصلها أي: دخلت عليه كاف التشبيه،

وصار فيها معنى: كم كما صرح به الخليل، وسببويه، وتقديرها عندهما كشيء كثير من العدد من دابة. وقيل: المعنى: وكم من دابة. ومعنى «لا تحمل رزقها» لا تطيق حمل رزقها لضعفها، ولا تدخره، وإنما يرزقها الله من فضله، ويرزقكم، فكيف لا يتوكلون على الله مع قوتهم، وقدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها، وعجزها. قال الحسن: تاكل لوقتها، لا تدخر شيئاً. قال مجاهد: يعني: الطير، والبهائم تاكل بأفواهها، ولا تحمل شيئاً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ الذي يسمع كل مسموع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم. ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة، وغيرهم، وعجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم، ورازقهم، ولا يوحدونه، ويتركون عبادة غيره، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: خلقها، لا يقدرون على إنكار ذلك، ولا يتمكنون من جحوده ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن الإقرار بتفردّه بالإلهية، وأنه وحده لا شريك له، والاستفهام للإنكار، والاستبعاد. ولما قال المشركون لبعض المؤمنين: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: التوسيع في الرزق، والتقدير له هو من الله الباسط القابض يبسطه لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته، وما يليق بحال عباده من القبض، والبسط، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده، وفسادهم ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاحِيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: نزلّه، وأحيا به الأرض الله، يعترفون بذلك لا يجدون إلى إنكاره سبيلاً. ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف في هذه الآيات، وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك، وعدم أفراد الله سبحانه بالعبادة، أمر رسوله ﷺ: أن يحمد الله على إقرارهم، وعدم جحودهم مع تصليهم في العناد، وتشددهم في ردّ كل ما جاء به رسول الله من التوحيد، فقال: ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أحمد الله على أن جعل الحق معك، وأظهر حجرك عليهم، ثم ذمهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأشياء التي يتعقلها العقلاء. فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هم عليه عند كل عاقل، ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا، وأنها من جنس اللعب، واللهو: وأن الدار على الحقيقة هي: دار الآخرة، فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ من جنس ما يلهو به الصبيان، ويلعبون به ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. قال ابن قتيبة، وأبو عبيدة: إن الحيوان الحياة. قال الواحدي: وهو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أن معنى الحيوان هنا: الحياة، وأنه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنزوان، والغليان، ويكون التقدير: وإن الدار الآخرة

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: جاهدوا في شأن الله لطلب مرضاته، ورجاء ما عنده من الخير؛ لنهدينهم سبلنا: أي: الطريق الموصل إلينا. قال ابن عطية: هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عالم في دين الله، وطلب مرضاته، وقيل: الآية هذه نزلت في العباد. وقال إبراهيم بن آدم: هي في الذين يعملون بما يعلمون ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر، والعون، ومن كان معه لم يخذل، وبخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسماً، أو على أنها حرف، وبخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول: إن زيداً لفي الدار، والبحث مقرر في علم النحو.

قد أخرج ابن مريويه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]؛ قلت: يا ربِّ أيموت الخلائق كلهم، ويبقى الأنبياء؟ فنزلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 57]». وينظر كيف صحة هذا، فإن النبي ﷺ بعد أن يسمع قول الله سبحانه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ يعلم أنه ميت، وقد علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا، وأنه خاتم الأنبياء، فكيف ينشأ عن هذه الآية ما سأل عنه علي رضي الله عنه من قوله: «أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء»، فلعل هذه الرواية لا تصح مرفوعة، ولا موقوفة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي، وابن عساكر، قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط التمر، ويأكل، فقال لي: مالك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهي يا رسول الله، قال: لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم أتنا طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي، فاعطاني مثل ملك كسرى، وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سنتهم، ويضعف اليقين. قال: فوالله ما برحنا، ولا رمانا حتى نزلت ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رَزْقَهَا﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، ألا وإني لا أكنز ديناراً، ولا درهماً، ولا أخبأ رزقاً لغيري». وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ، فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتمدة. وفي إسناده أبو العطف الجوزي، وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ قال: باقية. وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عجباً كل العجب للمصنق بدار الحيوان، وهو يسعى لدار الغرور»، وهو مرسل.

لهي دار الحيوان، أو ذات الحيوان: أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول، ولا ينفصها موت، ولا مرض، ولا هم، ولا غم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم لما آثروا عليها الدار الفانية المنغصة. ثم بين سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرد تأثير الحياة، فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَا اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: إذا انقطع رجائهم من الحياة، وخافوا الفراق رجعوا إلى الفطرة، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه ﴿فَلَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجتأوا المعاودة إلى الشرك، ودعوا غير الله سبحانه. والركوب هو: الاستعلاء، وهو متعدي بنفسه، وإنما عدّي بكلمة في للإشعار بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة، واللام في ﴿لِيُكْفِرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيُتِمَّمَتَعُوا﴾ للتعليل: أي: فاجتأوا الشرك بالله؛ ليكفروا بنعمة الله، وليتمتعوا بهما، فهما في الفعلين لام كي، وقيل: هما لاما الأمر تهديداً، ووعيداً: أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة، وتمتعوا، ويدل على هذه القراءة قراءة أبي (وتمتعوا) وهذا الاحتمال للآمرين إنما هو على قراءة أبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وورش بكسر اللام، وأما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، وفي قوله: ﴿فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد غظيم لهم: أي: فسيعلمون عاقبة ذلك، وما فيه من الويل عليهم ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَأْمُورًا﴾ أي: ألم ينظروا: يعني: كفار قريش أنا جعلنا حرمهم هذا حرمًا آمناً يأمن فيه ساكنه من الغارة، والقتل، والسبي، والنهب، فصاروا في سلامة، وعافية مما صار فيه غيره من العرب، فإنهم في كل حين تطرقهم الغارات، وتحتاج أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود، وتستبيح حرمهم، وأموالهم شطار العرب، وشياطينها، وجملة ﴿وَيُتَخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ في محل نصب على الحال: أي: يختلسون من حولهم بالقتل والسبي، والنهب، والخطف: الأخذ بسرعة، وقد مضى تحقيق معناه في سورة القصص ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾، وهو: الشرك بعد ظهور حجة الله عليهم، وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿وَيُنْعِمُهُ اللَّهُ بِكَرَمٍ﴾ يجعلون كفرها مكان شكرها، وفي هذا الاستفهام من التقرير، والتوبيخ ما لا يقادر قدره ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كُتُبًا﴾ أي: لا أحد أظلم منه، وهو من زعم أن الله شريكاً ﴿أَوْ كَذَبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: كذب بالرسول الذي أرسل إليه، والكتاب الذي أنزله على رسوله. وقال السدي: كذب بالتوحيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق. ثم هذ المكذبين، وتوعدهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي مكان يستقرّون فيه والاستفهام للتقرير، والمعنى: أليس يستحقون الاستقرار فيها، وقد فعلوا ما فعلوا. ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم الله أرفده بحال عباده الصالحين، فقال:

يظلمون بالكفر، والتكذيب **﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا﴾** أي: عملوا السيئات من الشرك والمعاصي **﴿للسوأي﴾** هي فعلی من السوء ثانیة الأسوأ، وهو: الأقبح: أي: كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، وقيل: هي اسم لجهنم كما أن الحسنی اسم للجنة، ويجوز أن تكون مصدرًا كالبحر، والذكرى، وصفت به العقوبة مبالغة. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاقبة بالرفع على أنها اسم كان، وتكثير الفعل لكون ثانيها مجازيًا. والخبر السوأي: أي: الفعلة، أو الخصلة، أو العقوبة السوأي، أو الخبر **﴿أن كنوا﴾** أي: كان آخر أمرهم التكذيب، وقرأ الباقون «عاقبة» بالنصب على خير كان، والاسم السوأي، أو أن كنوا، ويكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا، والسوأي مصدر أساءوا، أو صفة لمحنوف. وقال الكسائي: إن قوله: **﴿أن كنوا﴾** في محل نصب على العلة: أي: لأن كنوا بآيات الله التي أنزلها على رسله، أو بأن كنوا، ومن القائلين بأن السوأي: جهنم، الفراء، والزجاج، وابن قتيبة، وأكثر المفسرين، وسميت: سوأي لكونها تسوء صاحبها. قال الزجاج: المعنى: ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات الله، واستهزأهم، وجملة **﴿وكانوا بها يستهزءون﴾** عطف على كنوا داخلة معه في حكم العلية على أحد القولين، أو في حكم الاسم لكان، أو الخبرية لها على القول الآخر.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: **﴿الْم * غلبت الروم﴾** قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم كانوا أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أصحاب كتاب، فذكروهم لأبي بكر، فنكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون»، فنكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فنكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال: ألا جعلته أراه قال: دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك، فنلك قوله: **﴿الْم * غلبت الروم﴾** غلبت، ثم غلبت بعد بقول الله: **﴿الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله﴾** قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عن البراء بن عازب نحوه، وزاد: أنه لما مضى الأجل، ولم تغلب الروم فارساً، ساء النبي ما جعله أبو بكر من المدة، وكرهه وقال: ما دعاك إلى هذا؟ قال: تصديقاً لله ولرسوله، فقال: تعرض لهم، وأعظم الخطة، واجعله إلى بضع سنين، فاتاهم أبو بكر فقال: هل لكم في العود، فإن العود أحمد؟ قالوا: نعم، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارساً، وربطوا

وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية، وقيل: هو ما تلقية الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع، وقيل: الظاهر الباطل **﴿وهم عن الآخرة﴾** التي هي النعمة الدائمة، واللذة الخالصة **﴿هم غافلون﴾** لا يلتفتون إليها، ولا يعدون لها ما يحتاج إليه، أو غافلون عن الإيمان بها، والتصديق بمجيئها **﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما﴾** الهمة للإنكار عليهم، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، وفي أنفسهم ظرف للتفكر، وليس مفعولاً للتفكر، والمعنى: أن أسباب التفكر حاصلة لهم، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانية الله، وصدق أنبيائه، وقيل: إنها مفعول للتفكر. والمعنى: أو لم يتفكروا في خلق الله إياهم، ولم يكونوا شيئاً، **﴿وما﴾** في **﴿ما خلق الله﴾** نافية: أي: لم يخلقها إلا بالحق الثابت الذي يحق ثبوته، أو هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض: أي: مما خلق الله، والعامل فيها إما العلم الذي يؤدي إليه التفكر، وقال الزجاج في الكلام حذف: أي: فيعلموا، فجعل ما معمولة للفعل المقدر لا للعلم المنلول عليه، والباء في **﴿إلا بالحق﴾** إما للسببية، أو هي ومجرورها في محل نصب على الحال: أي: ملتبسة بالحق. قال الفراء: معناه: إلا للحق: أي: للثواب، والعقاب، وقيل: بالحق بالعدل، وقيل: بالحكمة، وقيل: بالحق: أي: أنه هو الحق، ولحق خلقها **﴿ولجل مسمى﴾** معطوف على الحق: أي: وبجل مسمى للسموات، والأرض، وما بينهما تنتهي إليه، وهو: يوم القيامة، وفي هذا تنبيه على الغناء، وأن لكل مخلوق أجلاً لا يجاوزه. وقيل: معنى **﴿ولجل مسمى﴾**: أنه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشيء **﴿وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾** أي: لكافرون بالبعث بعد الموت، واللام هي: المؤكدة، والمراد بهؤلاء الكفار على الإطلاق، أو كفار مكة **﴿أو لم يسيروا في الأرض﴾** الاستفهام للتقريع، والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار، وتأملهم لمواقع الاعتبار، والفاء في **﴿فينظروا﴾** للعطف على يسيروا داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع، والتوبيخ، والمعنى: أنهم قد ساروا وشاهدوا **﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** من طوائف الكفار الذين أملاكهم الله بسبب كفرهم بالله، وجحودهم للحق، وتكذيبهم للرسول، وجملة **﴿كانوا أشد منهم قوة﴾** مبنية للكيفية التي كانوا عليها، وأنهم أقدر من كفار مكة، ومن تابعهم على الأمور الدنيوية، ومعنى **﴿واشاروا الأرض﴾**: حرثوها، وقلبوها للزراعة، وزاولوا أسباب ذلك، ولم يكن أهل مكة أهل حرث **﴿وعمروها أكثر مما عمروها﴾** أي: عمروها عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء، لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً، وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش، فعمرها الأرض بالآبنية، والزراعة، والغرس **﴿وجاءتهم رسلهم﴾** بالبينات أي: المعجزات، وقيل: بالأحكام الشرعية **﴿فما كان الله ليظلمهم﴾** بتعذيبهم على غير ذنب **﴿ولكن كانوا أنفسهم**

خويلهم بالمداثن، وبنوا رومية، فقمرو أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا السحت تصدق به. وأخرج الترمذي وصححه، والدارقطني في الأفراد، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم في الدلائل، والبيهقي في الشعب عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ﴾ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل الكتاب، وفي ذلك يقول الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بنصر الله، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب، ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ﴾ في أننى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون * في بضع سنين، فقال ناس من قريش لأبي بكر: ذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك: أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أقلا نراهمك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتعن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، فمضت الست قبل أن يظهروا، فاخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما نخلت السنة السابعة ظهرت الروم، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين؛ لأن الله قال: ﴿فِي بضع سنين﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «لا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع». وأخرج البخاري عنه في تاريخه نحوه. وأخرج الغريابي، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين، فنزلت ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ﴾ قراها بالنصب: يعني: للذين على البناء للفاعل إلى قوله: ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بنصر الله. قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس، وهذه الرواية مفسرة لقراءة أبي سعيد ومن معه. وأخرج الحاكم وصححه عن أبي الدرداء قال: سيجيء أقوام يقرءون ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ﴾ يعني: بفتح الغين، وإنما هي غلبت: يعني: بضمها، وفي الباب: روايات، وما نكرناه يغني عما سواه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: معاشهم متى يفرسون، ومتى يزددون، ومتى يحصلون، وأخرج ابن مريويه عن ابن عمر في قوله: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قال: كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قَهْرًا فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١١﴾ فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السُّكُوتِ وَالْأَرْضِ وَحِينَ تَضَاهُونَ ﴿١٣﴾ حُجَّجَ الْكَلْبَ مِنَ النَّبِيِّ وَخُجَّجَ الْكَلْبَ مِنَ النَّبِيِّ وَالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٤﴾ وَنَ الْكَلْبَ مِنَ النَّبِيِّ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ قَرَابِ ثُمَّ إِذَا أَشْرَ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿١٥﴾ وَنَ الْكَلْبَ أَنَّ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْبَاءً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَنَعْمَلْ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَنَ الْكَلْبَ خَلَقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْفُسَ وَالْأَنْفُسَ وَالْأَنْفُسَ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ وَنَ الْكَلْبَ مَتَاكُم بِالْبَلِّ وَالْهَارِ وَإِنِّي أَكْرَمُ مِنْ تَبْلِيهِ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٨﴾ وَنَ الْكَلْبَ يُرِيدُ الْكَلْبَ حَقًّا وَنَعْمًا وَيُرِيدُ مِنَ السَّمَاءِ مَا هِيَ. بِدَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَنَ الْكَلْبَ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِي ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَشْرَ تُخْرَجُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَنَّ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِئُونَ ﴿٢١﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَاتُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَكْبَرُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾

قوله: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي: يخلقهم أولاً، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ثم إليه ترجعون﴾ إلى موقف الحساب، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيئ بإساءته، وأقر الضمير في يعيده باعتبار لفظ الخلق، وجمعه في ترجعون باعتبار معناه. قرأ أبو بكر، وأبو عمرو (يرجعون) بالتحية. وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، والاتفات المؤذن بالمبالغة ﴿ويوم تقوم الساعة يلبس المجرمون﴾ قرأ الجمهور «يلبس» على البناء للفاعل. وقرأ السلمي على البناء للمفعول، يقال: ألبس الرجل: إذا سكت، وانقطعت حجتة. قال الفراء والزجاج: اليبس الساكت المنقطع في حجة الذي أيس أن يهتدي إليها، ومنه قول المعراج:

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً قال نعم اعرفه وإبلسا وقال الكلبي: أي: يئس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب، وقد قُمتا تفسير الإبلاس عند قوله: ﴿فإذا هم مبلسون﴾ [الأنعام: 44] ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي: لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبدوهم من نون الله شفعاء يجيرونهم من عذاب الله ﴿وكانوا﴾ في ذلك الوقت ﴿بشركائهم﴾ أي: باللهتهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿كافرين﴾ أي: جاحدين لكونهم أكه: لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون، ولا يضررون، وقيل: إن معنى الآية: كانوا في الدنيا كافرين بسبب عيانتهم، والأول أولى ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ أي: يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله: ﴿الله يبدأ الخلق﴾ والمراد بالتفرق أن كل طائفة تنفرد، فالؤمنون يصيرون إلى الجنة، والكافرون إلى النار، وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر، ومثله قوله تعالى:

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١١﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا يُشْرِكُوهُمْ كُفْرَهُمْ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا

تصبحون»، والمعنى: حينئذ تمسون فيه، وحينئذ تصبحون فيه، والعشي من صلاة المغرب إلى العتمة. قاله الجوهري، وقال قوم: هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، ومنه قول الشاعر:

غوبنا غوبة سحرًا بليل عشيًا بعد ما انتصف النهار
وقوله: ﴿عشيًا﴾ معطوف على حين، وفي السموات متعلق بنفس الحمد: أي: الحمد له يكون في السموات، والأرض ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة، والطير من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالنطفة، والبيضة من الحيوان. وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران. قيل: ووجه تعلق هذه الآية بالتالي قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت، وهو: النوم إلى شبه الوجود، وهو: اليقظة، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس، وهو شبهه بإخراج الحي من الميت ﴿وَكُنْكَ تَخْرُجُونَ﴾ أي: ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم. قرأ الجمهور: (تخرجون) على البناء للمفعول. وقرأ حمزة، والكسائي على البناء للفاعل، فأسند الخروج إليهم كقوله: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [المعارج: 43] ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم: أي: خلق أباكم آدم من تراب، وخلقكم في ضمن خلقه، لأن الفرع مستمد من الأصل، ومأخوذ منه، وقد مضى تفسير هذا في الأنعام، وأن في موضع رفع بالابتداء، ومن آياته خبره ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ إذا هي الفجائية: أي: ثم فاجأتكم بعد ذلك وقت كونكم بشرًا تنتشرون في الأرض، وإذا الفجائية، وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان كما حكاه الله في مواضع: من كونه نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظامًا مكسوة لحمًا فاجأ البشرية، والانتشار، ومعنى تنتشرون: تنصرفون فيما هو قوام معاشكم ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ومن علاماته، ودلالاته الدالة على البعث أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا: أي: من جنسكم في البشرية، والإنسانية، وقيل: المراد حواء، فإنه خلقها من ضلع آدم ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي: تألفوها، وتميلوا إليها، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر، ولا يميل قلبه إليه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: وادأ وتراحماً بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل تلك معرفة فضلاً عن مودة ورحمة. وقال مجاهد: المودة الجماع، والرحمة الولد، وبه قال الحسن. وقال السدي: المودة المحبة، والرحمة الشفقة. وقيل: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء. وقوله: «أَنْ خَلَقَ لَكُمْ» في موضع رفع على الابتداء، ومن آياته خبره ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لِلْمَذْكُورِ سَابِقًا﴾ [آيات] عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث، والنشور ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، لأنهم الذين يقتدرون

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7] وذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبداً. ثم بين سبحانه كيفية تفرقهم، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: معنى «أما»: دع ما كنا فيه، وخذ في غيره، وكذا قال سيبويه: إن معناها: مهما يكن من شيء، فخذ في غير ما كنا فيه، والروضة كل أرض ذات نبات. قال المفسرون: والمراد بها هنا الجنة، ومعنى يحبرون: يسرون، والحبور، والحبرة السرور: أي: فهم في رياض الجنة ينعمون، قال أبو عبيد: الروضة ما كان في سفلى، فإذا كان مرتفعاً فهو: ترعة، وقال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في مكان مرتفع، ومنه قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل مطل
وقيل: معنى «يحبرون»: يكرمون. قال النحاس: حكى الكسائي خبرته: أي: أكرمه، ونعمته، والأولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربي، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام، والنعيم، وفي السرور زيادة على ذلك. وقيل: التحبير التحسين، فمعنى يحبرون: يحسن إليهم، وقيل: هو السماع الذي يسمعون في الجنة، وقيل: غير ذلك، والوجه ما ذكرناه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باه ﴿وَكُنْهُمْ بِلَايَاتِنَا﴾ و﴿كُنْهُمْ بِلَايَاتِنَا﴾ أي: البعث، والجنة والنار، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات، وهو مبتدأ، وخبره ﴿فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مقيمون فيه، وقيل: مجموعون، وقيل: نازلون، وقيل: معذبون، والمعاني متقاربة، والمراد دوام عذابهم. ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين، وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر، والخير العام، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: فإذا علمتم ذلك، فسبحوا الله: أي: زهوه عما لا يليق به في وقت الصباح، والمساء، وفي العشي، وفي وقت الظهيرة. وقيل: المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس، فقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب، والعشاء، وقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، وقوله: ﴿وَعِشْيَا﴾ صلاة العصر، وقوله: ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ صلاة الظهر، كذا قال الضحاك، وسعيد بن جبير، وغيرهما. قال الواحدي: قال المفسرون: إن معنى «فَسُبْحَانَ اللَّهِ»: فصلوا لله. قال النحاس: أهل التفسير على أن هذه الآية في الصلوات قال: وسمعت محمد بن يزيد يقول: حقيقته عندي، فسبحوا الله في الصلوات، لأن التسبيح يكون في الصلاة، وجملة ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد، والإيدان بمشروعية الجمع بينه، وبين التسبيح كما في قوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: 98]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ نَسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: 30] وقيل: معنى، وله الحمد: أي: الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد، والأول أولى. وقرأ عكرمة «حينئذ تمسون وحينئذ

للمسافر، وطمعاً للمقيم. وقال الضحّاك: خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث، وقال يحيى بن سلام: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع، وطمعاً في المطر أن يحيي الزرع. وقال ابن بحر: خوفاً أن يكون البرق برقاً خلباً لا يمطر، وطمعاً أن يكون ممطراً، وأنشد:

لا يكن برقك برقاً خلباً إن خير البرق ما الغيث معه
وانتصاب خوفاً، وطمعاً على العلة **﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾** أي: قيامهما، واستمسакهما بإرادته سبحانه، وقدرته بلا عمد بعمدهما، ولا مستقرّ يستقران عليه. قال الفراء: يقول: أن تدوما قائمتين بأمره **﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾** أي: ثم بعد موتكم، ومصيركم في القبور إذا دعاكم دعوة واحدة فاجأتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث، ولا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع. ومن الأرض متعلق بدعا: أي: دعاكم من الأرض التي أنتم فيها، كما يقال: دعوته من أسفل الوادي، فطلع إليّ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة، أو متعلق بمحذوف يدلّ عليه تخرون: أي: خرجتم من الأرض، ولا يجوز أن يتعلّق بتخرجون، لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها، وهذه الدعوة هي نفخة إسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدّم بيانه، وقد أجمع الفراء على فتح التاء في «تخرجون» هنا، وغلط من قال: إنه قرئ هنا بضمها على البناء للمفعول، وإنما قرئ بضمها في الأعراف **﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾** من جميع المخلوقات ملكاً، وتصرفاً، وخلقاً، ليس لغيره في ذلك شيء **﴿كُلٌّ لَهُ فَائِتُونَ﴾** أي: مطيعون طاعة انقياد، وقيل: مقرّون بالعبودية، وقيل: مصلون، وقيل: قائمون يوم القيامة كقوله: **﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [المطففين: 6] أي: للحساب، وقيل: بالشهادة أنهم عباده، وقيل: مخلصون **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾** بعد الموت، فيحييه الحياة الدائمة **﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾** أي: هين عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرته، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض، وإلا فلا شيء في قدرته بعضه أهون من بعض، بل كل الأشياء مستوية بوجدها بقوله: كن فتكون. قال أبو عبيد: من جعل أهون عبارة عن تفضيل شيء على شيء، فقلوه مردود بقوله: **﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾** [النساء: 169]، وبقوله: **﴿وَلَا يُؤْودُهُ حِفْظُهُمَا﴾** [البقرة: 255]، والعرب تحمل أفعال على فاعل كثيراً كما في قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزّ وأطول
أي: عزيزة طويلة، وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك: تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

على الاستدلال لكون التفكير مادة له يتحصل عنه، وأما الغافلون عن التفكير فما هم إلا كالأنعام **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّفُوتِ وَالْأَرْضِ﴾** فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة التي هي أجرام السموات، والأرض، وجعلها باقية ما دامت هذه الدار، وخلق فيها من عجائب الصنع، وغرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين قاصر على أن يخلقكم بعد موتكم، وينشركم من قبوركم **﴿وَلِخْتَلَاَفِ السِّنِّكُمْ﴾** أي: لغاتكم من عرب، وعجم، وترك، وروم، وغير ذلك من اللغات **﴿وَالْوَالِدَيْنِ﴾** من البياض، والسواد، والحمرة، والصفرة، والزرقة، والخضرة مع كونكم أولاد رجل واحد، وأم واحدة، ويجمعكم نوع واحد، وهو الإنسانية، وفصل واحد، وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أقرانكم ما يميزه عن غيره من الأقران، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يفهمه إلا المتفكرون **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾** الذين هم من جنس هذا العالم من غير فرق بين برّ وفاجر، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين، وقرأ حفص وحده بكسرها. قال الفراء: وله وجه جيد؛ لأنه قد قال: **﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [الرعد: 4] **﴿لآيَاتٍ لَّوَلِي الْأَلْبَابِ﴾** [آل عمران: 190] **﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾** [العنكبوت: 43] **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** قيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: ومن آياته منامكم بالليل، وابتغائكم من فضله بالنهار. وقيل: المعنى صحيح من نون تقديم، وتأخير: أي: ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة، وابتغائكم من فضله فيهما، فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك، وإن كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر. والأوّل هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى، والآخر هو المناسب للنظم القرآني ها هنا. ووجه ذكر النوم، والابتغاء ها هنا، وجعلهما من جملة الأدلة على البعث أن النوم شبيه بالموت، والتصرّف في الحاجات، والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾** أي: يسمعون الآيات والمواعظ سماع متفكر متدبر، فيستدلون بذلك على البعث **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يَرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾** المعنى: أن يريكم، فحذف أن لدلالة الكلام عليه كما قال طرفة:

إلا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وإن أشهد للذات هل أنت مخلدي
والتقدير: أن أحضر، فلما حذف الحرف في الآية، والبيت بطل عمله، ومنه المثل المشهور «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، وقيل: هو على التقديم، والتأخير: أي: ويريك البرق من آياته، فيكون من عطف جملة فعلية على جملة اسمية، ويجوز أن يكون **﴿يَرِيكُمْ﴾** صفة لموصوف محذوف: أي: ومن آياته آية يريكم بها، وفيها البرق، وقيل: التقدير، ومن آياته البرق خوفاً وطمعاً من آياته. قال الزجاج: فيكون من عطف جملة على جملة. قال قتادة: خوفاً

أي: لست بواحد، ومثله قول الآخر:

لعمرك إن الزريقان لبازل لمعروفه عند السنين وأفضل
أي: وفاضل، وقرأ عبد الله بن مسعود (وهو عليه هين)،
وقال مجاهد، وعكرمة، والضحاك: إن الإعادة أهون عليه: أي:
على الله من البداية: أي: أيسر، وإن كان جميعه هيناً. وقيل:
المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية، وقيل:
الضمير في عليه للخلق: أي: وهو أهون على الخلق؛ لأنه
يصاح بهم صيحة واحدة، فيقومون، ويقال لهم: كونوا
فيكونون، فلذلك أهون عليهم من أن يكونوا نقطة، ثم علقه،
ثم مضى إلى آخر النشأة ﴿وله المثل الأعلى﴾ قال
الخليل: المثل الصفة: أي: وله الوصف الأعلى ﴿في
السموات والأرض﴾ كما قال: ﴿مثل الجنة التي وعد
المؤمنين﴾ [الرعد: 35، ومحمد: 15] أي: صفتها. وقال مجاهد:
المثل الأعلى قول: لا إله إلا الله، وبه قال قتادة. وقال الزجاج:
﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾ أي قوله:
«وهو أهون عليه» قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل.
وقيل: المثل الأعلى هو أنه ليس كمثله شيء، وقيل: هو أن
ما أراده كان بقول: كن، وفي السموات والأرض متعلق
بمضمون الجملة المتقدمة، والمعنى: أنه سبحانه عرف
بالمثل الأعلى، ووصف به في السموات والأرض، ويجوز أن
يتعلق بمحذوف على أنه حال من الأعلى، أو من المثل، أو
من الضمير في الأعلى ﴿وهو العزيز﴾ في ملكه القادر
الذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في أقواله، وأفعاله.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:
﴿يبلس﴾ قال: يبتس. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم ﴿يبلس﴾ قال: يكتسب، وعنه الإبلان:
الفضيحة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس في
قوله: ﴿يحبرون﴾ قال: يكرمون. وأخرج الدليمي عن جابر
قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة قال الله: أين
الذين كانوا ينزّهون أسماعهم، وأبصارهم عن مزامير
الشيطان ميزوهم، فيميزون في كتب المسك، والعنبر؛ ثم
يقول للملائكة: أسمعوه من تسبيحي، وتحمدي، وتهليلي،
قال: فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلاً قط». وأخرج
الدينوري في المجالسة عن مجاهد قال: ينادي مناد
يوم القيامة فذكر نحوه، ولم يسم من رواه له عن رسول الله.
وأخرج ابن أبي الدنيا في نزهة الملاهي، والأصبهاني في
الترغيب عن محمد بن المنكدر نحوه. وأخرج ابن أبي
الدنيا، والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة، قال
السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: «في الجنة
شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة
عام، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف، وغيرهم، فيتحدثون في
ظلها، فيشتهي بعضهم، ويذكر لهم الدنيا، فيرسل الله ريحاً
من الجنة، فتحرك تلك الشجرة بكل لهم كان في الدنيا». وأخرج
الحكيم الترمذي في نوارد الأصول عن أبي هريرة
مرفوعاً نحوه. وأخرج الفريابي، وابن مردويه عن ابن عباس

قال: «كل تسبيح في القرآن، فهو صلاة». وأخرج
عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن أبي رزين قال: جاء
نافع بن الأزرق إلى ابن عباس، فقال: هل تجد الصلوات
الخمس في القرآن؟ قال: نعم، فقرا ﴿فسبحان الله حين
تمسون﴾ صلاة المغرب ﴿وحين تصبحون﴾ صلاة
الصبح ﴿وعشيا﴾ صلاة العصر ﴿وحين تظهرون﴾ صلاة
صلاة الظهر، وقرأ ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾ [النور: 58].
وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال:
جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة، ﴿فسبحان الله حين
تمسون﴾ قال: المغرب والعشاء ﴿وحين تصبحون﴾ الفجر
﴿وعشيا﴾ العصر ﴿وحين تظهرون﴾ الظهر. وأخرج
أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السني
في عمل يوم وليلة، والطبراني، وابن مردويه والبيهقي في
الدعوات عن معاذ بن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «ألا
أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله الذي وقى؟ لأنه كان
يقول كلما أصبح، وأمسى: سبحان الله حين تمسون، وحين
تصبحون، وله الحمد في السموات، والأرض، وعشيا، وحين
تظهرون» وفي إسناده ابن لهيعة. وأخرج أبو داود،
والطبراني، وابن السني، وابن مردويه عن ابن عباس، عن
رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿سبحان الله
حين تمسون وحين تصبحون﴾ * وله الحمد في
السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون * يخرج
الحَيَّ من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض
بعد موتها وكذلك تخرجون» أدرك ما فات في يومه، ومن
قالها حين يمسي أدرك ما فات في ليلته، وإسناده ضعيف.
وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿كل له
قانتون﴾ يقول مطيعون: يعني: الحياة، والنشور، والموت،
وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. وأخرج ابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:
﴿وهو أهون عليه﴾ قال: أيسر. وأخرج ابن الأنباري عنه
أيضاً في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ قال: الإعادة أهون على
المخلوق، لأنه يقول له يوم القيامة: كن فيكون، وابتدأ الخلق
من نقطة، ثم من علقه، ثم من مضى. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وله المثل
الأعلى﴾ يقول: ليس كمثله شيء.

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن مَّثَلَةٍ
فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَتَىٰ فِيهِ سَوَاءٌ مَّا فَوَّقَهُمْ كَيْفَ كَانَ أَنفُسُكُمْ كَذَلِكَ
نَقُولُ الَّذِينَ يَلْعَنُونَ ﴿١٧٠﴾ كُلِّ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ
عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِيهِمْ مِّنْ أَمَلٍ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿١٧١﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ لِيَوْمٍ
جَئِئًا يَفُتِّرُ اللَّهُ الْفِتْرَةَ النَّاسَ مَلَكًا لَا يَبْدِلُ إِلَهُهُ ذَلِكَ الَّذِينَ
الَّذِينَ وَلَكَوْا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾ مُبِينٌ لِّئِي وَانْقَرُ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴿١٧٣﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شُعْبًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿١٧٤﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ شُرُوعًا

لا أحد يقدر على هدايته، لأن الرشاد، والهداية بتقدير الله وإرادته ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي: ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم، ويحولون بينهم، وبين عذاب الله سبحانه. ثم أمر رسوله ﷺ بتوجيه وعبادته كما أمره، فقال: ﴿فاقم وجهك للدين حنيفاً﴾ شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه، وإقباله عليه، وانتصاب حنيفاً على الحال من فاعل اقم، أو من مفعوله: أي: مائلاً إليه مستقيماً عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾ الفطرة في الأصل: الخلق، والمراد بها هنا الملة: وهي: الإسلام، والتوحيد. قال الواحدي: هذا قول المفسرين في فطرة الله، والمراد بالناس هنا: الذين فطرهم الله على الإسلام، لأن المشرك لم يطر على الإسلام، وهذا الخطاب، وإن كان خاصاً برسول الله، فأمته داخلة معه فيه. قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل: والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم، وكافرهم، وأنهم جميعاً مقلدون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم، فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ، «ما من مولود إلا يولد على الفطرة». وفي رواية «على هذه الملة، ولكن أبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾. وفي رواية «حتى تكونوا أنتم تجدونها». وسياقي في آخر البحث ما ورد معاضداً لحديث أبي هريرة هذا، فكل فرد من أفراد الناس مقلود: أي مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان، والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيين، وهذا قول جماعة من الصحابة، ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين، وهو: الحق. والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف. وقال آخرون: هي البداية التي ابتدأهم الله عليها، فإنه ابتدأهم للحياة، والموت، والسعادة، والشقاوة. والفاطر في كلام العرب هو: المبتدئ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة، وإهمال معناها شرعاً. والمعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع، ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب أو السنة في بعض المواضع مراداً بها المعنى اللغوي كقوله تعالى: ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ [فاطر: 1] أي: خالقهما، ومبتديهما، وكقوله: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ [يس: 22] إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة، وهو ما ذكره الأولون كما بيناه، وانتصاب فطرة على أنها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها. وقال الزجاج: فطرة منصوب بمعنى: اتبع فطرة الله، قال: لأن معنى ﴿فاقم وجهك للدين﴾: اتبع الدين، واتبع فطرة الله. وقال ابن جرير: هي مصدر من معنى، ﴿فاقم وجهك﴾، لأن معنى ذلك: فطرة الله الناس على الدين، وقيل:

رَبِّهِمْ مُبِينٍ إِيَّاهُ إِذَا أَذَاهُ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِحَ بِهِمْ مِنْهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾ يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا وَسَوَّيْتُمْ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَسْكُرُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ قد تقدم تحقيق معنى المثل، ومن في ﴿من أنفسكم﴾ لابتداء الغاية، وهي ومجروها في محل نصب صفة لمثلاً: أي: مثلاً منتزعا، وماخوذاً من أنفسكم، فإنها أقرب شيء منكم، وأبين من غيرها عنكم، فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة، وأعظم وضوحاً. ثم بين المثل المذكور، فقال: ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم﴾ «من» في «مما» ملكت، للتبعيض، وفي ﴿من شركاء﴾ زائدة للتأكيد، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم كأنتم من النوع الذي ملكت أيمانكم، وهم: العبيد، والإماء، والاستفهام للإنكار، وجملة ﴿فأنتم فيه سواء﴾ جواب للاستفهام الذي بمعنى: النفي، ومحققه لمعنى الشراكة بينهم، وبين العبيد، والإماء المملوكين لهم في أموالهم: أي: هل ترضون لأنفسكم، والحال أن عبيدكم، وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الأموال، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ الكاف نعت مصدر محذوف: أي: تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم: أي: كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية، وملك الأموال، وجواز التصرف، والمقصود نفي الأشياء الثلاثة الشراكة بينهم، وبين المملوكين، والاستواء معهم، وخوفهم إياهم. وليس المراد ثبوت الشراكة، ونفي الاستواء، والخوف كما قيل في قولهم: ما تاتينا، فتحثنا. والمراد: إقامة الحجة على المشركين، فإنهم لا بد أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزّهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم، وهم أمثالكم في البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟ فإذا بطلت الشراكة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة، بطلت الشراكة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلا أنه الرب وحده لا شريك له. قرأ الجمهور (أنفسكم) بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، وقرأ ابن أبي عبيدة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿كنكلكم﴾ تفصيل الآيات تفصيلاً واضحاً، وبياناً جلياً ﴿لقوم يعقلون﴾: لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها، والتفكير فيها. ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين، وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل، فقال: ﴿هل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ أي: لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائفة، وآراءهم الفاسدة الزائفة، ومحل «بغير علم» النصب على الحال: أي: جاهلين بأنهم على ضلالة ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي:

إذا نكحهم منه رحمة ﴿بإجابة دعائهم﴾ ورفع تلك الشدائد عنهم ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ إذا هي: الفجائية وقعت جواب الشرط؛ لأنها كالفاء في إفادة التعقيب: أي: فلجأ فريق منهم إلى شركاء، وهم الذين دعوه، فخلصهم مما كانوا فيه. وهذا الكلام مسوق للتعجب من أحوالهم، وما صاروا عليه من الاعتراف بوحداية الله سبحانه عند نزول الشدائد، والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم، واللام في ﴿ليكفروا بما آتيناكم﴾ هي: لام كي، وقيل: لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد، وقيل: هي لام العاقبة، ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع، فقال: ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم. قرأ الجمهور «فتمتعوا» على الخطاب. وقرأ أبو العالية بالتحية على البناء للمفعول، وفي مصحف ابن مسعود «فليتمتعوا» ثم أنزلنا عليهم سلطاناً أم هي: المنقطعة، والاستفهام للإنكار، والسلطان الحجة الظاهرة ﴿فهو يتكلم﴾ أي: يدل كما في قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ [الجاثية: 29] قال الفراء: إن العرب تؤنث السلطان، يقولون: قضت به عليك السلطان، فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز؛ لأنه بمعنى: الحجة، وقيل: المراد بالسلطان هنا الملك ﴿بما كانوا به يشركون﴾ أي: ينطق بإشراكهم بالله سبحانه، ويجوز أن تكون الباء سببية: أي: بالامر الذي بسببه يشركون ﴿وإذا أنقنا للناس رحمة﴾ أي: خصياً، ونعمة، وسعة، وعافية ﴿فرحوا بها﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح شكر بها، وابتهاج بوصولها إليهم ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس: 58] ثم قال سبحانه: ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ شدة على أي صفة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أي: بسبب ذنوبهم ﴿إذا هم يقنطون﴾ القنوط الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور. وقال الحسن: القنوط ترك فرائض الله سبحانه، قرأ الجمهور (يقنطون) بضم النون، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب بكسرها ﴿ولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده، ويوسع له ﴿ويقدر﴾ أي: يضيق على من يشاء لمصلحة في التوسيع لمن وسع له، وفي التضيق على من ضيق عليه ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيستلزون على الحق لدلالاتها على كمال القدرة، وبيع الصنع، وغريب الخلق.

وقد أخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك. ليبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه، وما ملك، فأنزل الله ﴿هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال هي في الأكلة، وفيه يقول: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ قال: دين الله ﴿ذلك الدين القيم﴾ قال: القضاء القيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مروي عن

هي منصوبة على الإغراء: أي: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، ورد هذا الوجه أبو حيان، وقال: إن كلمة الإغراء لا تضمر إذ هي عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض، والمعوّض عنه وهو إجحاف. وأجيب بأن هذا رأي البصريين، وأما الكسائي، وأتباعه، فيجيزون ذلك وجملة ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة: أي: هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه. وقيل: هو نفي معناه: النهي، أي: لا تبنيوا خلق الله. قال مجاهد، وإبراهيم النخعي: معناه: لا تبديل لدين الله. قال قتادة، وابن جبير، والضحاك، وابن زيد: هذا في المعتقدات. وقال عكرمة: إن المعنى: لا تغيير لخلق في البهائم بأن تخصي، فحولها ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي: ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم، أو لزوم الفطرة هو: الدين القيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك حتى يفعلوه، ويعملوا به ﴿منيبين إليه﴾ أي: راجعين إليه بالتوبة، والإخلاص، ومطيعين له في أوامره، ونواهيه. ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

فإن تابوا فإن بني سليم وقومهم هوازن قد تابوا
قال الجوهري: أناب إلى الله: أقبل، وتاب، وانتصابه على الحال من فاعل أقم. قال المبرد: لأن معنى أقم وجهك: أقيموا وجوهكم. قال الفراء: للمعنى: فاقم وجهك، ومن معك منيبين، وكذا قال الزجاج، وقال تقديره: فاقم وجهك وأمتك، فالحال من الجميع. وجاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه. وقيل: هو منصوب على القطع، وقيل: على أنه خبر لكان محذوفة: أي: وكونوا منيبين إليه لدلالة ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ على ذلك، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإجابة، فقال: ﴿واتقوه﴾ أي: باجتناب معاصيه، وهو معطوف على الفعل المقدر ناصباً لمنيبين ﴿واقموا الصلاة﴾ التي أمرتم بها ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ بالله. وقوله: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ هو بدل مما قبله بإعادة الجار، والشيع الفرق: أي: لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقاً في الدين يشايح بعضهم بعضاً من أهل البدع، والأهواء. وقيل: المراد بالذين فرقوا دينهم شيعاً اليهود والنصارى. وقرأ حمزة، والكسائي (فارقوا دينهم)، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب: أي: فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو: التوحيد. وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الانعام ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي: كل فريق بما لديهم من الدين الميني على غير الصواب مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق، وليس بأيديهم منه شيء، وقال الفراء: يجوز أن يكون قوله: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ مستأنفاً كما يجوز أن يكون متصلاً بما قبله ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ أي: قحط وشدة ﴿دعوا ربهم﴾ أن يرفع ذلك عنهم، واستغاثوا به ﴿منيبين إليه﴾ أي: راجعين إليه ملتجئين به لا يعولون على غيره، وقيل مقبلين عليه بكل قلوبهم ﴿ثم إذا

حق المسكين أن يتصدق عليه، وحق ابن السبيل الضيافة. وقيل: المراد بالقربى قرابة النبي ﷺ. قال القرطبي: والأول أصح، فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسَهُ لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ [الأنفال: 41] وقال الحسن: إن الأمر في إيتاء ذي القربى للندب ﴿نلك خير للذين يريدون وجهه الله﴾ أي: ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرب إلى الله سبحانه ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي: الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالاً لأمره ﴿وما آتيتكم من ربا﴾ قرأ الجمهور (آتيتم) بالمد بمعنى: أعطيتكم، وقرأ مجاهد، وحמיד، وابن كثير بالقصر بمعنى: ما فعلتم، واجمعوا على القراءة بالمد في قوله: ﴿وما آتيتكم من زكاة﴾، وأصل الربي الزيادة، وقراءة القصر تثول إلى قراءة المد، لأن معناها: ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: آتيت خطأ، وآتيت صواباً، والمعنى في الآية: ما أعطيتكم من زيادة خالية عن العوض ﴿ليربوا في أموال الناس﴾ أي: ليزيد، ويزكو في أموالهم ﴿فلا يربوا عند الله﴾ أي: لا يبارك الله فيه. قال السدي: الربا في هذا الموضع الهداية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة، لأن ذلك لا يربو عند الله لا يجر عليه صاحبه، ولا إثم عليه، وهكذا قال قتادة، والضحاك. قال الواحدي: وهذا قول جماعة المفسرين. قال الزجاج: يعني: دفع الإنسان الشيء؛ ليعوض أكثر منه، وذلك ليس بحرام، ولكنه لا ثواب فيه، لأن الذي يهبه يستدعي ما هو أكثر منه. وقال الشعبي: معنى الآية: أن ما خدم به الإنسان أحداً، لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: هذا كان حراماً على النبي ﷺ على الخصوص لقوله سبحانه: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ [الم نشر: 6] ومعناها: أن تعطي، فتأخذ أكثر منه عوضاً عنه. وقيل: إن هذه الآية نزلت في هبة الثواب. قال ابن عطية: وما يجري مجراه مما يصنعه الإنسان؛ ليجازي عليه. قال عكرمة: الربا ربوان: قريباً لحلال، ورباً حرام. فأما الربا الحلال، فهو: الذي يهدي يلمس ما هو أفضل منه: يعني كما في هذه الآية. وقيل: إن هذا الذي في هذه الآية هو الربا المحرم، فمعنى لا يربو عند الله على القول: لا يحكم به، بل هو المأخوذ منه.

قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب، فقال مالك: ينظر فيه، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك، مثل هبة الفقير للغني، وهبة الخادم للمخدوم، وهبة الرجل لأميره، وهو أحد قولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط، وهو قول الشافعي الآخر. قرأ الجمهور (ليربوا) بالتحية على أن الفعل مسند إلى ضمير الربا. وقرأ نافع، ويعقوب بالفوقية مضمومة خطاباً للجماعة بمعنى: لتكونوا نوي زيادات. وقرأ أبو مالك (لتربوا) ومعنى الآية: أنه لا يزكو عند الله، ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصاً له ﴿وما آتيتكم من زكاة تريدون وجهه الله﴾ أي:

الأسود بن سريع، «إن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خيبر، فقاتلوا المشركين، فانتهى القتل إلى الذرية، فلما جاءوا قال النبي ﷺ: ما حملكم على قتل الذرية؟ قالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين، قال: وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفسي بيده، ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها». وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً» رواه أحمد عن الربيع بن أنس، عن الحسن، عن جابر. وقال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حماد: «أن رسول الله ﷺ خطب يوماً، فقال في خطبته حاكياً عن الله سبحانه: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم اتهم الشياطين، فاضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحلت لهم» الحديث.

فَاتَّيَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّهَا لَبِئْسَ فِي أَهْلِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَفَعَكُمْ ثُمَّ يُسَبِّحُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّمُكُمْ هَذِهِ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ سُبِّحْتَهُ وَمَنْ يَشْرِكْ بِهِ فَهُوَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٠﴾ وَالْبَحْرُ بَيْنَ كَسْبَتِ آيَةِ النَّاسِ يُدْخِلُهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا لَمْ يَلْمَهُمْ رَجُوعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَائِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَ يُنْفِخُ بَسْمُوعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ بِهِمْ هَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَنْ آيَنَبَهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبْرِتِنَ وَيُزِيدَكَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفَلَاحَ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّقُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِكُلِّ شَاكِرٍ ﴿٤٦﴾

لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغي من مواساة القرابة، وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه، فقال: ﴿فَاتَّيَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾، والخطاب للنبي ﷺ، وأمه أسوته، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه، وقدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها، والمراد الإحسان إليهم بالصدقة، والصلة، والبر ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ أي: وآت المسكين، وابن السبيل حقهما الذي يستحقانه. ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجباً لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته، وكفاية من يعول.

وقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ قيل: هي منسوخة بآية الموارث. وقيل: محكمة، ولل قريب في مال قريبه الغني حق واجب، وبه قال مجاهد، وقتادة. قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد، ورحمه محتاج. قال مقاتل:

يتصل بالمرء من مزارعها، ومراعيها، والباء في بما كسبت للسببية، وما إما موصولة أو مصدرية ﴿لِيُنْزِقَهُمْ بِعُضْ لِّلَّذِي عَمِلُوا﴾ اللام متعلقة بظهر، وهي: لام العلة: أي: لينزقهم عقاب بعض عملهم، أو جزءا بعض عملهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم فيه من المعاصي، ويتوبون إلى الله ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدي المشركين، والعصاة بيّن لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأوّل، وأمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم، ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية، وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد، وثمود، ونحوهم من طوائف الكفار. وجملة ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي كانوا عليها، وإيضاح السبب الذي صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه ﴿فَاقْمْ وْجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَیْمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ، وأمه أسوته فيه، كان المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم، فاقم وجهك يا محمد إلخ. قال الزجاج: اجعل وجهك اتباع الدين القيم، وهو: الإسلام المستقيم ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا مَرَدَ لَهُ﴾ لا يقدر أحد على رده، والمرد مصدر ردة، وقيل: المعنى: أوضح الحق، وبالغ في الأعداء، و﴿مَنْ اللَّهِ﴾ يتعلق بيأتي، أو بمحذوف يدل عليه المصدر: أي: لا يردّه من الله أحد، وقيل: يجوز أن يكون المعنى: لا يردّه الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، وفيه من الضعف، وسوء الالئب مع الله ما لا يخفى ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْذَعُونَ﴾ أصله يتصدعون، والتصدع التفرق، يقال: تصدع القوم إذا تفرقوا، ومنه قول الشاعر:

وكنا كنديمانى جنيمة برمة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
والمراد بتفرقهم هاما أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: جزاء كفره، وهو: النار ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح، والمهاد الفراش، وقد مهنت الفراش مهداً: إذا بسطته، ووطأته، فجعل الأعمال الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها. وقيل: المعنى: فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم في المشفق: أمّ فرشت، فانامت، وقديم الظرف في الموضوعين للدلالة على الاختصاص. وقال مجاهد: ﴿فَلَا نَفْسَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ في القبر، واللام في ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعلقة بيصّدعون، أو يمهّدون: أي: يتفرقون؛ ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه ﴿مَنْ قُضِلَهُ﴾ أو يمهّدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة؛ ليجزيهم، وقيل: يتعلق بمحذوف، قال ابن عطية: تقديره ذلك ليجزي، وتكون الإشارة إلى ما تقدّم من قوله: من عمل، ومن كفر. وجعل أبو حيان قسيم قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ محذوفاً لدلالة قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ لِلْكَافِرِينَ﴾ عليه، لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه،

وما أعطيتهم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿فَقَاوِلُكُمْ هُمْ الْمَضْعَفُونَ﴾ المضعف لون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الفراء: هو نحو قولهم: مسمن، ومعطش، ومضعف إذا كانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة. وقرأ أبي (المضعفون) بفتح العين اسم مفعول ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين، وأنه الخالق الرازق المميت المحيي، ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك، فتقوم عليهم الحجة، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: نزهوه تنزيهاً، وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك، وقوله: ﴿مَنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ خبر مقدم، ومن للتبعيض، والمبتدأ هو الموصول: أعني: من يفعل، ومن لَكُمْ متعلق بمحذوف؛ لأنه حال من شيء المنكوب بعده، ومن في ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مزيدة للتوكيد، وأضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم كانوا يسمونهم آلهة، ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بيّن سبحانه: أن الشرك، والمعاصي سبب لظهور الفساد في العالم.

واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط، وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف ونحو ذلك، وقال مجاهد، وعكرمة: فساد البرّ قتل ابن آدم لخاص: يعني: قتل قابيل لهابيل، وفي البحر الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً.

وليت شعري أي دليل لهما على هذا التخصيص البعيد، والتعيين الغريب، فإن الآية نزلت على محمد ﷺ، والتعريف في الفساد يدل على الجنس، فيعم كل فساد واقع في حيزي البرّ والبحر. وقال السدي: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد. ويمكن أن يقال: إن الشرك، وإن كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه. وقيل: الفساد كساد الأسعار، وقلة المعاش، وقيل: الفساد قطع السبل والظلم، وقيل: غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه. والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقتراضهم السيئات، وتقاطعهم، وتظالمهم، وتقاتلهم. أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط، وكثرة الخوف، والموتان، ونقصان الزرائع، ونقصان الثمار، والبرّ، والبحر هما المعروفان المشهوران وقيل: البرّ الفيافي، والبحر القرى التي على ماء قاله عكرمة، والعرب تسمى الأمصار البحار. قال مجاهد: البرّ ما كان من المدن، والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر. والأوّل أولى. ويكون معنى البرّ: مدن البرّ، ومعنى البحر: مدن البحر، وما

أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْبَرْقَ لِنُبَيِّنَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَرَاءِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَرَاءِ
وَالْكَافِرِينَ كَثُرُوا لَا يُحْصَوْنَ ﴿٥٦﴾ قِيَوْمَ لَا يُنْفَعُ الذُّلُوفُ عَنْهُمْ وَلَا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ
جَحَنَهُمْ بِآيَاتِنَا لِيَتَوَلَّوْنَ الْآلِينَ كَفَرُوا لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ
يُطِيعُ اللَّهُ عَنْ قُلُوبِ الذُّلُوفِ لَا يَمْلِكُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا
يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كما
أرسلناك إلى قومك ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات،
والحجج النيرات، فانقمنا منهم: أي: فكفروا ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْ
الَّذِينَ لَجَرُوا﴾ أي: فعلوا الإجمار، وهي: الأثام ﴿وَوَكَانَ حَقًّا
عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه بأن
نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو صادق الوعد لا
يخلف الميعاد، وفيه تشريف للمؤمنين، ومزيد تكريم لعباده
الصالحين، ووقف بعض القراء على حقاً، وجعل اسم كان
ضميراً فيها، وخبرها حقاً: أي: وكان الانتقام حقاً. قال ابن
عطية: وهذا ضعيف، والصحيح أن نصر المؤمنين لسمها،
وحقاً خبرها، وعليها متعلق بحقاً، أو محذوف هو صفة له
﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وابن
كثير، وابن محيصن يرسل (الريح) بالإفراد. وقرأ الباقون
«الرياح» قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة، فهو
جمع، وما كان بمعنى العذاب، فهو موحد، وهذه الجملة
مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون
على هذا جملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَوَكَانَ حَقًّا
عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معترضة ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي:
تزعجه من حيث هو ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾
تارة سائراً، وتارة واقفاً، وتارة مطبقاً، وتارة غير مطبق،
وتارة إلى مسافة بعيدة، وتارة إلى مسافة قريبة، وقد تقدم
تفسير هذه الآية في سورة البقرة، وفي سورة النور
﴿وَيَجْعَلُهُ كَسُفًا﴾ تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعاً
متفرقة، والكسف جمع كسفة، والكسفة القطعة من السحاب.
وقد تقدم تفسيره، واختلاف القراءة فيه ﴿فَتَقَرَّى لَوُوقَ
يُخْرِجُ مِنْ خَلَالِهِ﴾ الودق المطر، ومن خلاله من وسطه.
وقرأ أبو العالية، والضحاك (يخرج من خله) ﴿فَإِذَا أَصَابَ
بِهِ﴾ أي: بالمطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: ببلادهم
وأرضهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إذا هي: الفجائية: أي:
فاجئوا الاستبشار بمجيء المطر، والاستبشار الفرح ﴿وَإِنْ
كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من قبل أن ينزل
عليهم المطر، وإن هي: المخففة، وفيها ضمير شأن مقدر هو
اسمها: أي: وإن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم، وقوله:
﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ تكرير للتأكيد، قاله الاخفش، وأكثر النحويين
كما حكاه عنهم النحاس.. وقال قطرب: إن الضمير في قبله
راجع إلى المطر: أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل
المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل
الزروع والمطر، وقيل: من قبل أن ينزل عليهم من قبل

وغضبه يستتبع عقوبته ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ
مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي: ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح
مبشرات بالمطر؛ لأنها تنقذه كما في قوله سبحانه: ﴿بَشِيرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: 57] قرأ الجمهور (الرياح)،
وقرأ الأعمش (الريح) بالإفراد على قصد الجنس لأجل قوله:
﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾، واللام في قوله: ﴿وَلِيُنذِرَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾
متعلقة بيرسل: أي: يرسل الرياح مبشرات، ويرسلها لينذركم
من رحمته: يعني: الغيث، والخصب، وقيل: هو متعلق
بمحذوف: أي: ولينذركم أرسلها، وقيل: لئلا يزيد على رأي
من يجوز ذلك، فتتعلق اللام بيرسل ﴿وَلِيُتَجَرَّى لَكَ الْفَلَكُ
بِأَمْرِهِ﴾ معطوف على لينذركم من رحمته: أي: يرسل الرياح؛
لتجري الفلك في البحر عند هبوبها، ولما أسند الجري إلى
الفلك عقبه بقوله: بأمره: ﴿وَلِيُتَبَقَّوْا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: تبتغوا
الرزق بالتجارة التي تحملها السفن ﴿وَلِيُعْلَمَ تَشْكُرُونَ﴾
هذه النعم، فتفقدون الله بالعبادة، وتستكثرون من الطاعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا
أَتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ﴾ الآية قال: الربا ربوان: ربا لا بأس به، وربا
لا يصلح. فأما الربا الذي لا بأس به، فهنية الرجل إلى
الرجل يريد فضله، وأضعافها. وأخرج البيهقي عنه قال: هذا
هو الربا الحلال أن يهدي يريد أكثر منه، وليس له أجر، ولا
وزن، ونهى النبي ﷺ خاصة فقال: ﴿وَلَا تَمُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾
[المشر: 6]. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم
عنه أيضاً ﴿وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ قال: هي: الصدقة. وأخرج
ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ﴾ قال: البر البرية التي ليس عندها نهر، والبحر ما
كان من المدائن، والقرى على شط نهر. وأخرج ابن المنذر،
وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: نقصان البركة
بأعمال العباد كي يتوبوا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً
﴿لِيُعْلَمَ يَرْجِعُونَ﴾ قال: من الذنوب. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿يُضْذَعُونَ﴾ قال:
يتفرقون.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآتَيْنَاهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْفَقْنَا مِنْ الَّذِينَ
أَنزَلْنَا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ
سَحَابًا يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كَسُفًا فَفَرَى الْوَدَقُ يَخْرُجُ مِنْ
بَيْنَ يَدَيْهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَكِنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِكٍ ﴿٥٨﴾ فَانظُرْ إِلَى مَا تُكْفِرُ اللَّهُ
كَفَّ يَمْنِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَلَمِ الْأَوَّلِينَ وَمَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ
قَدِيرٍ ﴿٥٩﴾ وَلَكِنْ أَرْسَلْنَا رَحْمَةً لِقَوْمِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمُبْسِكٌ ﴿٦٠﴾ وَلَكِنْ
لَا تَسْمَعُ الْأَوَّلُ وَلَا تَسْمَعُ الْآخِرَةُ إِذَا رُلُّوا مِنْ دُونِ ﴿٦١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ
أَلْمَنِي مَنْ ضَلَّاهُمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
ضَعْفًا وَشَبَّهَ بِخَلْقِهِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٦٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا نَبَشَّرُوا بِهِ سَاعَتَهُمْ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْكَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ

من ضعف: من نطفة. قال الواحدي: قال المفسرون: من نطفة، والمعنى: من ذي ضعف. وقيل: المراد حال الطفولية، والصغر **﴿لَمْ جَعَلَ مِنْ بَعْدُ ضَعْفَ قُوَّةٍ﴾**، وهي قُوَّة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القُوَّة، وتشتدُّ الخَلقة إلى بلوغ النهاية **﴿لَمْ جَعَلَ مِنْ بَعْدُ قُوَّةً ضَعْفًا﴾** أي: عند الكبر، والهرم **﴿وَشَبِيهًا﴾** الشبيهة هي: تمام الضعف، ونهاية الكبر. قرأ الجمهور «ضعف» بضم الضاد في هذه المواضع. وقرأ عاصم، وحزمة بفتحها. وقرأ الجحدري بالفتح في الأولين، والضم في الثالث. قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال الجوهري: الضعف، والضعف خلاف القُوَّة، وقيل: هو بالفتح في الرأي، وبالضم في الجسم **﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾** يعني: من جميع الأشياء، ومن جعلتها القُوَّة، والضعف في بني آدم **﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾** بتدبيره **﴿الْقَبِيرُ﴾** على خلق ما يريد، وأجاز الكوفيون من ضعف بفتح الضاد والعين **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾** أي: القيامة، وسميت ساعة؛ لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا **﴿يُقَسِّمُ الْمَجْرُمُونَ مَا لَبِثُوا فِيهَا﴾** أي: يحلفون ما لبثوا في الدنيا، أو في قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم، واستقرَّ ذلك في أذهانهم، فحلفوا عليه، وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. وقال ابن قتيبة: إنهم كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكتبون من قبل، وهذا هو الظاهر، لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا، فقد علم كل واحد منهم مقداره، وإن أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة إن كانوا لا يعرفون الأوقات في البرزخ **﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾** يقال: أفك الرجل: إذا صرف عن الصدق، فالمعنى: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون. وقيل: المراد يصرفون عن الحق، وقيل: عن الخير، والأوَّل أولى، وهو دليل على أن حلفهم كذب **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾** اختلف في تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: علماء الأمم، وقيل: مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع. ومعنى في كتاب الله: في علمه، وقضائه. قال الزجاج: في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ. قال الواحدي: والمفسرون حملوا هذا على التقديم، والتأخير على تقدير: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله، وكان ردُّ الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبههم على طريقة التبيكيت بأن **﴿هَذَا﴾** الوقت الذي صاروا فيه هو **﴿يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكُنْكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** أنه حق، بل كنتم تستعجلونه تكذيباً، واستهزاء **﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا تُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذرتَهُمْ﴾** أي: لا ينفعهم الاعتذار يومئذ، ولا يفيدهم علمهم بالقيامة. وقيل: لما ردَّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا، واعتزوا، فلم يعذروا. قرأ الجمهور «لا تنفع» بالفوقية، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بالتحية **﴿وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾** يقال: استعبتته، فأعتبتني: أي: استرضيته، فأرضاني، وذلك إذا كنت جانباً

السحاب: أي: من قبل رؤيته، واختار هذا النحاس. وقيل: الضمير عائد إلى الكسف، وقيل: إلى الإرسال، وقيل: إلى الاستبشار. والراجح الوجه الأول، وما بعده من هذه الوجوه كلها، ففي غاية التكلف، والتعسف، وخبر كان **﴿لَمُبْلِسِينَ﴾** أي: أبسين أو بائسين. وقد تقدَّم تحقيق الكلام في هذا **﴿فَانْظُرْ إِلَى ثَرِّ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾** الناشئة عن إنزال المطر من النبات، والثمار، والزرائع التي بها يكون الخصب، ورخاء العيش: أي: انظر نظر اعتبار، واستبصار؛ لتستدلَّ بذلك على توحيد الله، وتفرد هذا الصنع العجيب. قرأ الجمهور «أثر» بالتحديد. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي آثار بالجمع **﴿كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه، وقيل: ضمير يعود إلى الأثر، وهذه الجملة في محل نصب بانظر: أي: انظر إلى كيفية هذا الإحياء البنيع للأرض. وقرأ الجحدري، وأبو حيوة (تحية) بالفوقية على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة، أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ تِلْكَ﴾** إلى الله سبحانه: أي: إن الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة **﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾** أي: لقادر على إحيائهم في الآخرة، وبعثهم، ومجازاتهم كما أحيا الأرض الميتة بالمطر **﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** أي: عظيم القدرة كثيرها **﴿وَلِئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾** الضمير في فرأوه يرجع إلى الزرع، والنبات الذي كان من أثر رحمة الله: أي: فرأوه مصفراً من البرد الناشئ عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضرارها. وقيل: راجع إلى الريح، وهو يجوز تنكيره، وتانيثه. وقيل: راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. وقيل: راجع إلى السحاب؛ لأنه إذا كان مصفراً لم يطر، والأول أولى. واللام هي: الموطئة، وجواب القسم **﴿ظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾**، وهو يسدُّ مسد جواب الشرط. والمعنى: ولئن أرسلنا ريحاً حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله، ويجحدون نعمه، وفي هذا دليل على سرعة قلبهم، وعدم صبرهم، وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان. ثم شبههم بالموتى، وبالصم، فقال: **﴿فَبِأَنِّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾** إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق، ومعرفتهم للصواب **﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ﴾** إذا دعوتهم إلى الحق، ووعظتهم بمواعظ الله، وذكرتهم الآخرة، وما فيها، وقوله: **﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾** بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صمَّ الأذنان، قد تقدَّم تفسير هذا في سورة النمل. ثم وصفهم بالعمى، فقال: **﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ لِلْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾** لفقدهم للانتفاع بالابصار كما ينبغي، أو لفقدهم للبصائر **﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾** أي: ما تسمع إلا هؤلاء لكونهم أهل التفكير، والتدبر، والاستدلال بالآثار على المؤثر **﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾** أي: منقادون للحق متبعون له **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾** ذكر سبحانه استدلالاً آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، ومعنى

تفسير سورة لقمان

وهي مكية إلا ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ [لقمان: 27 - 29] إلى تمام الآيات الثلاث. قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عنه: أنها مكية، ولم يستثن، وحكى القرطبي عن قتادة: أنها مكية إلا آيتين. وأخرج النسائي، وابن ماجه عن البراء قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان، والذاريات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۱۰۱. اِنَّكَ اَنْتَ الْكَاتِبُ الْحَكِيمُ ۝ ۱۰۲. هٰذِي وَحَمَّةٌ لِلشَّحِيحِينَ ۝ ۱۰۳. الَّذِينَ يُصِيبُونَ الْمَنَاسِكَ وَتُوقُونَ الزُّكُوفَ وَمَنْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقُونَ ۝ ۱۰۴. اُولَٰئِكَ عَلَىٰ
 هٰذِهِ مِنْ رَّبِّهِمْ ۚ وَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ۱۰۵. وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُشْرِي لِهَرَمِ
 الْحَرِيِّ بِشَيْءٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِتَرِيٍّ عَلَيْهِ وَيَخَذَهَا هَرَمًا ۚ اُولَٰئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
 مِهْنٌ ۝ ۱۰۶. وَلَٰذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ ۚ اَيْنَمَا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَاَنَّ فِي اُذُنَيْهِ
 وَقَرَأَ بَشِيرَةً بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ۝ ۱۰۷. لَئِنْ اُولَٰئِكَ اَسْمَرُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَكُنْ
 عَلَيْهِمْ ۝ ۱۰۸. خَلِيلِينَ فِيهَا ۚ وَفَدَّ اللَّهُ حَقًّا ۚ وَهُوَ الَّذِي الْمَسْكُومُ ۝ ۱۰۹. خَلَقَ
 السَّكُوبَ بِتَرِيٍّ حَمَرٍ تَرَوْنَهَا ۚ وَالَّذِي فِي الْاُخْرَىٰ رَوَيْسٌ اَنْ يَجِدَ يَكْمَ وَتَ فِيهَا مِنْ كُلِّ
 مَاجَرٍ ۚ وَارْتَلَا مِنَ السَّكَاةِ مَا هَاجَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَجْعٍ كَرِيمٍ ۝ ۱۱۰. هٰذَا عَلَيَّ
 اللَّهُ قَاتَرُفٍ مَاكَ خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ عَلِي الطَّالِبُونَ فِي سَكَاةٍ شَبِيهِ ۝ ۱۱۱.

قوله: ﴿لَمْ تَكْ أَيْاتِ الْكِتَابِ﴾ قد تقدم الكلام على أمثال وفاتحة هذه السورة، ومحلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده، وبيان مرجع الإشارة أيضاً، و﴿الْحَكِيمِ﴾ إما أن يكون بمعنى: مفعول، أو بمعنى: فاعل، أو بمعنى: ذي الحكمة، أو الحكيم قائله، و﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ منصوبان على الحال على قراءة الجمهور. قال الزجاج: المعنى تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة، وقرأ حمزة (ورحمة) بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف: أي: هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكونا خبر تلك، والمحسن العامل للحسنات، أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان: فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، ثم بين عمل المحسنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقِیْمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، والموصول في محل جر على الوصف للمحسنين، أو في محل رفع، أو نصب على المدح، أو القطع، وخص هذه العبادات الثلاث؛ لأنها عمدة العبادات ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قد تقدم تفسير هذا في أوائل سورة البقرة، والمعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان وفعل تلك الطاعات التي هي أمهات العبادات هم على طريقة الهدى، وهم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيري الدارين ﴿وَمَنْ

عليه، وحقيقة أعتبته أزلت عتبه، والمعنى: أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبه من التوبة، والطاعة كما دعوا إلى ذلك في الدنيا **﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾** أي: من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله، وصلى رسله، واحتجنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك **﴿ولئن جئتهم بآية﴾** من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جئتهم بآية كالعصا، واليد **﴿ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾** أي: ما أنت يا محمد، وأصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر، وما هو مشاكل له في البطلان **﴿كنك تطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾** أي: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاققين للعلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق، وينجون به من الباطل، ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر معللاً لذلك بحقيقة وعد الله، وعدم الخلف فيه، فقال: **﴿فاصبر﴾** على ما تسمعه منهم من الأذى، وتظنره من الأفعال الكفرية فإن الله قد وعك بالنصر عليهم، وإعلاء حجتك، وإظهار دعوتك، وعده حق لا خلف فيه **﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾** أي: لا يحملنك على الخفة، ويستفزكن عن دينك، وما أنت عليه الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدقون أنبياءه، ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبي ﷺ، يقال: استخف فلان فلاناً أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي: قرأ الجمهور «يستخفنك» بالخاء المعجمة، والفاء، وقرأ يعقوب، وابن أبي إسحاق بخاء مهمله وقاف من الاستحقاق، والنهي في الآية من باب: لا أرينك هاهنا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مامن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة، ثم تلا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾»، وهو من طريق شهر بن حوشب عن أبي الدرداء عن، أبي الدرداء. وأخرج أبو يعلى، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَيَجْعَلْهُ كَسْفًا﴾ قال: قطعاً بعضها فوق بعض ﴿فَقَتَرَى الْوَلُوقَ﴾ قال: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ﴾ قال: من بينه. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ﴾ في دعاء النبي ﷺ لأهل بدر، والإسناد ضعيف. والمشهور في الصحيحين، وغيرهما: أن عائشة استندت بهذه الآية على ردِّ رواية من روى من الصحابة: أن النبي ﷺ نادى أهل قليب بدر، وهو من الاستدلال بالعام على ردِّ الخاص، فقد قال النبي ﷺ لما قيل له: إنك تنادي أجساداً بالية «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، وفي مسلم من حديث أنس: «أن عمر بن الخطاب لما سمع النبي ﷺ يناديهم، فقال: يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث، وهل يسمعون؟ يقول الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يطبقون أن يجيبوا».

من وقع عليه مهبناً **﴿وَإِذَا تَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾** أي: وإذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزئ **﴿وَلِيَّ مُسْتَكْبِرًا﴾** أي: أعرض عنها حال كونه مبالغاً في التكبر، وجملة **﴿كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾** في محل نصب على الحال: أي: كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع، وجملة **﴿كَانَ فِي أَنْفِهِ وَقْرًا﴾** حال ثانية، أو بدل من التي قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، ويجوز أن تكون مستأنفة، والوقر الثقل، وقد تقدم بيانه، وفيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض **﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** أي: أخبره بأن له العذاب البليغ في الألم، ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها، فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** أي: آمنوا بالله، وبآياته، ولم يعرضوا عنها بل قبلوها، وعملوا بها **﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾** أي: نعيم الجنات، فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المهين، وانتصاب **﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾** على الحال، وقرأ زيد بن علي (خالدون فيها) على أنه خبر ثان؛ لأن **﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾** هما مصدران الأول مؤكد لنفسه: أي: وعد الله وعداً، والثاني مؤكد لغيره، وهو مضمون الجملة الأولى، وتقديره حق ذلك حقاً. والمعنى: أن وعده كائن لا محالة، ولا خلف فيه **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾** الذي لا يغلِبُه غالب **﴿الْحَكِيمُ﴾** في كل أفعاله، وأقوله، ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله: **﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا﴾** العمد جمع عماد، وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد، وترونها في محل جر صفة لعمد، فيمكن أن تكون ثم عمده، ولكن لا ترى. ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال: أي: ولا عمد البتة. قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفاً: أي: ولا عمد ثم **﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾** أي: جبلاً ثوابت **﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾** في محل نصب على العلة: أي: كرامة أن تميد بكم، والكوفيون يقدرونه لثلاً تميد، والمعنى: أنها خلقها، وجعلها مستقرة ثابتة لا تتحرك بجبال جعلها عليها، وأرساها على ظهرها **﴿وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾** أي: من كل نوع من أنواع الدواب، وقد تقدم بيان معنى البث **﴿وَوَافَرْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَانْتَبَثْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ﴾** أي: أنزلنا من السماء مطراً، فانتبتنا فيها بسبب إنزاله من كل زوج: أي: من كل صنف، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه، وكثرة منافعه. وقيل: إن المراد بذلك الناس، فالكريم منهم من يصير إلى الجنة، واللثيم من يصير إلى النار. قاله الشعبي، وغيره، والأوّل أولى. والإشارة بقوله: **﴿هَذَا﴾** إلى ما نكر في خلق السموات والأرض، وهو: مبتدأ، وخبره **﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾** أي: مخلوقه **﴿فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ لِلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾** من آلهتهم التي تعبدونها، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: فاروني أي شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله، أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز، والتبكيث. ثم اضرب عن تبكيثهم بما نكر إلى الحكم عليهم بالضلال

الناس من يشتري لهو الحديث محل **﴿ومن الناس﴾** الرفع على الابتداء كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وخبره **﴿من يشتري لهو الحديث﴾**، ومن إما موصولة، أو موصوفة، ولهو الحديث كل ما يلهي عن الخير، من الغناء، والملاهي، والأحاديث المكتوبة، وكل ما هو منكر، والإضافة بيانية. وقيل: المراد شراء القينات المغنيات والمغنين، فيكون التقدير: ومن يشتري أهل لهو الحديث. قال الحسن: لهو الحديث المعازف والغناء، وروي عنه أنه قال: هو الكفر والشرك. قال القرطبي: إن أولى ما قيل في هذا الباب: هو تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة، والتابعين. واللام في **﴿ليضلل عن سبيل الله﴾** للتعليل قرأ الجمهور بضم الياء من «ليضلل» أي: ليضل غيره عن طريق الهدى، ومنهج الحق، وإذا أضل غيره، فقد ضل في نفسه. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، وحמיד، وورش، وابن أبي إسحاق بفتح الياء: أي: ليضل هو في نفسه. قال الزجاج: من قرأ بضم الياء، فمعناه: ليضل غيره، فإذا أضل غيره، فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء، فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشتري للضلالة، فإنه يصير أمره إلى ذلك، فافاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، ويؤيد هذا سبب نزول الآية، وسيأتي. قال الطبري: قد أجمع علماء الأصناف على كراهة الغناء والمنع منه، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد، وعبد الله العنبري. قال القاضي أبو بكر بن العربي: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريتيه إذ ليس شيء منها عليه حرام لا من ظاهرها، ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها؟

قلت: قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم في الغناء، وما استدلل به المحللون له، والمحرمون له، وحققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها، وتدبر معانيها إلى النظر في غيرها، وسميتها: [إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مطلق السماع] فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغي، فليرجع إليها.

ومحل قوله: **﴿بغير علم﴾** النصب على الحال: أي: حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة، وما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض **﴿وَيَتَّخِذُهَا هُزْؤًا﴾** قرأ الجمهور برفع (يتخذها) عطفاً على يشتري فهو من جملة الصلة، وقيل: الرفع على الاستئناف، والضمير المنصوب في يتخذها يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول أولى. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش «ويتخذها» بالنصب عطفاً على يضل، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم، والمعنى: أنه يشتري لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله، واتخاذ السبيل هُزْؤًا: أي: مهزوءاً به، والسبيل ينكر ويؤنث، والإشارة بقوله: **﴿وَلَوْلَا لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** إلى من، والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد في الفعلين باعتبار لفظها، والعذاب المهين: هو الشديدي الذي يصير به

الظاهر، فقال: ﴿بِإِذْنِ الظَّالِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ فقرّر ظلمهم أولاً، وضلالهم ثانياً، ووصف ضلالهم بالوضوح، والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة، ولا يهتدي إلى الحق.

وقد أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْتَرِي لَهُو الْحَدِيثِ﴾ يعني: باطل الحديث، وهو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم، وصنيعهم في دهرهم. وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام، ويكتب بالقرآن. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مريويه عنه في الآية قال: باطل الحديث، وهو: الغناء ونحوه ﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: قراءة القرآن، وذكر الله، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال: هو الغناء وأشباهه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عنه أيضاً في الآية قال: الجوّاري الضاريات. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي الصهباء قال: سألت عبد الله بن مسعود عن قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْتَرِي لَهُو الْحَدِيثِ﴾ قال: هو والله الغناء. ولفظ ابن جرير: هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يردّها ثلاث مرات. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد،

والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبعوا القينات، ولا تشتروهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام» في مثل هذا أنزلت هذه الآية ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْتَرِي لَهُو الْحَدِيثِ﴾ الآية، وفي إسناده عبيد بن زحر عن علي بن زيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، وفيهم ضعف. وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاح، وابن مريويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرّم القينة، وبيعها، وثمنها، وتعليمها، والاستماع إليها، ثم قرأ ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْتَرِي لَهُو الْحَدِيثِ﴾». وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» ورواه عنه موقوفاً. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن مريويه عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسا». وفي الباب أحاديث في كل حديث منها مقال. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْتَرِي لَهُو الْحَدِيثِ﴾ قال: الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً. وأخرج ابن مريويه، عن عبد الله بن عمر: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَشْتَرِي لَهُو الْحَدِيثِ﴾: إنما ذلك شراء الرجل للعب والباطل». وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق، فسمع

زماره، فوضع أصبعيه في أنفيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع أسمع؟ قلت: لا، فأخرج أصبعيه من أنفيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع. وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف: أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمس وجوه، وشق جبوب، ورنه شيطان».

وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ إِذْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَنَ وَنَ يَنْكُرُ فَإِنَّمَا يَتَكَبَّرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَسِيدٌ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَقْمَنُ لِبَنِيهِ: وَهُوَ يَطْلُمُ يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الْفَرَكُ لَطَلُّ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً أُمَّهُمَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصْلُهُ فِي عَامِنَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَعِيرِ ﴿٧٩﴾ وَإِنْ جَهَنَّمَكَ عَلَا أَنْ تَشْرِكَ بِِي مَا يَسْ لَكَ بِهِ، عِلْمٌ فَلَا تُطْمَهُنَّ وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ آتَابَ إِلَكَ ثُمَّ إِلَى مَرْجَمِكَ فَأَتَيْنَاكَ بِمَا كُنْتَ تَعْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ يَبْنِي إِلَهُهَا إِنْ تَكُ وَتَقَالَ حَبْرٌ مِنْ خَدَلٍ فَتَكُنْ فِي سَخَرَةٍ أَوْ فِي السُّنُورَةِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِذْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٨١﴾ يَبْنِي أَيْرُ الْفَكْلَةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الشُّكْرِ وَأَمْرٌ عَلَا مَا أَصَابَكَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ عَرَمِ الْأُمُورِ ﴿٨٢﴾ وَلَا تَصْعِقْ خَلْقَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَنْسِفْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿٨٣﴾ وَأَقْبِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَمْوَاتُ لَصُوتَ الْمُفِيرِ ﴿٨٤﴾

اختلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي؟ مشتق من اللقم، فمن قال: إنه عجمي منعه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنه عربي منعه للتعريف، ولزيادة الألف، والنون. واختلفوا أيضاً هو نبي أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي. وحكى الواحدي عن عكرمة، والسدي، والشعبي: أنه كان نبياً، والأول أرجح لما سيأتي في آخر البحث. وقيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط، مع أن الراوي لذلك عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جداً. وهو: لقمان بن باعورا ابن ناحور بن تارح، وهو: أزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان بن عتقا بن مرون. وكان نوبياً من أهل أيلة نكرة السهيلي. قال وهب: هو: ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: هو: ابن خالته، عاش ألف سنة، وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له؟ فقال: ألا اكتفي إذ كفيته. قال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل، والحكمة التي أتاه الله هي: الفقه، والعقل، والإصابة في القول، وفسر الحكمة من قال: بنبوته بالنبوة ﴿إِنْ أَشْكُرَ لِي﴾ أن: هي المفسرة، لأن في إيتاء الحكمة معنى: القول، وقيل: التقدير قلنا له: أن أشكر لي. وقال الزجاج: المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة؛ لأن أشكر لي. وقيل: بأن أشكر لي، فشكر فكان حكيماً بشكره، والشكر لله الثناء عليه في مقابلة النعمة، وطاعته فيما أمر به. ثم بين سبحانه: أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال: ﴿وَمَنْ يَشْكُرُ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، لأن نفع ذلك راجع إليه، وفائدته حاصلة له، إذ به تستبقى النعمة، وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ

وقتاده، وأبو رجا، والحسن، ويعقوب (وفصله)، وهما لغتان، يقال: انفصل عن كذا: أي: تميز، وبه سمي الفصل. وقد قُتِمْنَا أن «أن» في قوله: ﴿إِنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ هي: المفسرة، وقال الزجاج: هي: مصدرية. والمعنى: بأن اشكر لي. قال النحاس: وأجود منه أن تكون أن مفسرة، وجملة ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر: أي: الرجوع إلى لا إلى غيري ﴿وَأَنْ جَاهِدَكَ عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما لا علم لك بشركته ﴿فَلَا تَطْعَمْهُمَا﴾ في ذلك. وقد قُتِمْنَا تفسير الآية، وسبب نزولها في سورة العنكبوت، وانتصاب ﴿مَعْرُوفًا﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: وصاحبهما صاحباً معروفاً، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض، والتقدير بمعروف ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ﴾ أي: اتبع سبيل من رجع إلي من عبادي الصالحين بالتوبة، والإخلاص ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعاً لا إلى غيري ﴿فَلَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير، وشرٍّ، فأجازي كلَّ عامل بعمله. وقد قيل: إن هذا السياق من قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ إلى هنا من كلام لقمان فلا يكون اعتراضاً، وفيه بعد. ثم شرع سبحانه في حكاية بقية كلام لقمان في وعظه لابنه، فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْمَاعِيلَ إِنِّي كُنْتُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ الضمير في إنها عائذ إلى الخطيئة لما روي: أن ابن لقمان قال لآبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد هل يعلمها الله؟ فقال: إنها: الخطيئة، والجملة الشرطية مفسرة للضمير: أي: إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل. قال الزجاج: التقدير: إن التي سألتني عنها إن تك مثقال حبة من خردل، وعبر بالخردلة: لأنها أصغر الحبوب، ولا يدرك بالحس ثقلها، ولا ترجح ميزاناً. وقيل: إن الضمير في «إنها» راجع إلى الخصلة من الإساءة، والإحسان: أي: إن الخصلة من الإساءة، والإحسان إن تك مثقال حبة إلخ، ثم زاد في بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ فإن كونها في الصخرة قد صارت في أخفى مكان، وأحرزه ﴿أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أو حيث كانت من بقاع السموات، أو من بقاع الأرض ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ﴾ أي: يحضرها، ويحاسب فاعلها عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، بل يصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ بكل شيء لا يغيب عنه شيء. قرأ الجمهور (إن تك) بالفوقية على معنى: إن تك الخطيئة، أو المسئلة، أو الخصلة، أو القصة. وقرأوا (مثقال) بالنصب على أنه خبر كان، واسمها هو أحد تلك المقدرات. وقرأ نافع برفع مثقال على أنه اسم كان، وهي تامة. وأنت الفعل في هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث. وقرأ الجمهور (فتكن) بضم الكاف. وقرأ الجحدري بكسرهما، وتشديد النون. من الكَن الذي هو الشيء المغطى. قال السدي: هذه الصخرة هي صخرة ليست في السموات، ولا في الأرض. ثم حكى سبحانه عن لقمان: أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن

الله غني حميد. أي: من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن الله غني عن شكره غير محتاج إليه حميد مستحق للحمد من خلقه لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها، ولا يحصر عددها، وإن لم يحمد أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال. قال يحيى بن سلام: غني عن خلقه حميد في فعله ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ قال السهيلي: اسم ابنه ثاران في قول ابن جرير، والقتبي. وقال الكلبي: مشك. وقال النقاش: أنعم. وقيل: ماتان. قال القشيري: كان ابنه، وامراته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما، وهذه الجملة معطوفة على ما تقدم، والتقدير: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره. قال الزجاج: إذ في موضع نصب بآتيناه. والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال. قال النحاس: وأحسبه غلطاً؛ لأن في الكلام وأو، وهي تمنع من ذلك، ومعنى ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾: يخاطبه بالمواعظ التي ترغبه في التوحيد، وتصدّه عن الشرك ﴿يَا بَنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قرأ الجمهور بكسر الياء. وقرأ ابن كثير بإسكانها. وقرأ حفص بفتحها، ونهيه عن الشرك يدل على أنه كان كافراً كما تقدم، وجملة ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لِلظُّلْمِ عَظِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها، وبدأ في وعظه بنهيه عن الشرك؛ لأنه أهم من غيره.

وقد اختلف في هذه الجملة، فقيل: هي من كلام لقمان، وقيل: هي من كلام الله، فتكون منقطعة عما قبلها، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح: أنها لما نزلت ﴿يَوْمَ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82] شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أبنا لم يظلم نفسه. فأنزل الله ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لِلظُّلْمِ عَظِيمٌ﴾ فطابت أنفسهم ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هذه التوصية بالوالدين، وما بعدها إلى قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اعتراض بين كلام لقمان لقصد التأكيد لما فيها من النهي عن الشرك بالله، وتفسير التوصية هي: قوله: ﴿إِنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، وما بينهما اعتراض بين المفسر، والمفسر، وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرهما، وأشدّها وجوباً، ومعنى ﴿حَمَلْتُهُ أُمَهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾: أنها حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، وانتصاب، وهناً على المصدر. وقال النحاس على أنه مفعول ثان بإسقاط الحرف: أي: حملته بضعف على ضعف، وقال الزجاج: المعنى: لزمها بحملها إياه أن تضعف، مرة بعد مرة، وقيل: انتصابه على الحال من أمه، وعلى وهن، صفة لو هُنا أي: وهناً كائناً على وهن، قرأ الجمهور بسكون الهاء في الموضعين. وقرأ عيسى الثقفي، وهي رواية عن أبي عمرو بفتحهما، وهما لغتان. قال قعنب:

هل للعوال من ناه فيزجرها إن العوال فيها الأين والوهن ﴿وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ الفصل الفطام، وهو أن يفصل الولد عن الأم، وهو: مبتدأ، وخبره الظرف. وقرأ الجحدري،

على الكثرة، وهو مصدر صات يصوت صوتاً، فهو صائت.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أندرون ما كان لقمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: كان حبشياً». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وأخرج الطبراني، وابن حبان في الضعفاء، وابن عساكر عنه: قال رسول الله ﷺ: «أتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن». قال الطبراني: أراد الحبشة. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله: «ولقد آتينا لقمان الحكمة» يعني: العقل، والفهم، والفتنة في غير نبوة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن عكرمة: أنه كان نبياً، وقد قَدَّمنا أن الراوي عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جداً. وأخرج أحمد، والحكيم، والترمذي، والحاكم في الكنى، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه، وقد نكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء، ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقله. وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع، وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في نكره إلا شغلة للحيز، وقطعية للوقت، ولم يكن نبياً حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صحَّ إسناد ما روي عنه من الكلمات حتى يكون نكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التي هي ضالة المؤمن. وأخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي: أن سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت في هذه الآية «وإن جاهدك على أن تشرك بي»، وقد تقدَّم نكر هذا. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «وهنا على وهن» قال: شدة بعد شدة، وخلقاً بعد خلق. وأخرج الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري: أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: «ولا تصغر خنك للناس»، فقال: لي الشنق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «ولا تصغر خنك للناس» قال: لا تتكبر، فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم إذا كلموك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه كالمنكبر.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبْنِئُ مَا وَصَّيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الْأَشْطَنُ بِدَعْوِهِمْ إِلَى عِلَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

المنكر، والصبر على المصيبة، ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات، وعماد الخير كله، والإشارة بقوله: «إن ذلك» إلى الطاعات المذكورة، وخبر أن قوله: «من عزم الأمور» أي: مما جعله الله عزيمة، وأوجبه على عباده. وقيل: المعنى: من حق الأمور التي أمر الله بها. والعزم يجوز أن يكون بمعنى: المعزوم: أي: من معزومات الأمور، أو بمعنى: العازم كقوله: «فيإذا عزم الأمر» [محمد: 21] قال المبرد: إن العين تبدل حاء. فيقال: عزم، وحزم. قال ابن جرير: ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، وصوب هذا القرطبي «ولا تصاعر خنك للناس» قرأ الجمهور (تصغر)، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم (تصاعر) والمعنى متقارب، والصعر الميل، يقال: صعر خذه، وصاعر خذه: إذا أمال وجهه، وأعرض تكبراً. والمعنى: لا تعرض عن الناس تكبراً عليهم. ومنه قول الشاعر:

وكننا إذا الجبار صعر خذه مشينا إليه بالسيف نعاتبه ورواه ابن جرير هكذا:

وكننا إذا الجبار صعر خذه أقمنا له من ميله فتقوما قال الهروي «ولا تصاعر خنك للناس» أي: لا تعرض عنهم تكبراً، يقال: أصاب البعير صعر: إذا أصابه داء يلوي عنقه؛ وقيل: المعنى: ولا تلو شديقك إذا نكر الرجل عندك كأنك تحتقره. وقال ابن خوزيم منداد: كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة، ولعله فهم من التصغير التثقل «ولا تمس في الأرض مرحاً» أي: خيلاً، وفرحاً، والمعنى: النهي عن التكبر، والتجبر. والمختار يمرح في مشيه، وهو مصدر في موضع الحال، وقد تقدَّم تحقيقه، وجملة «إن الله لا يحب كل مختال فخور» تعليل للنهي؛ لأن الاختيال هو المرح، والفخور هو الذي يفتخر على الناس بما له من المال، أو الشرف، أو القوة، أو غير ذلك، وليس منه التحدث بنعم الله، فإن الله يقول: «وأما بنعمة ربك فحدث» [الضحى: 11] «واقصد في مشيك» أي: توسط فيه، والقصود ما بين الإسراع، والبطء. يقال: قصد فلان في مشيته: إذا مشى مستوياً لا يلبِّ دبيب المتماوتين، ولا يثب وثوب الشياطين. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا مشى أسرع، فلا بد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة. وقال مقاتل: معناه: لا تختل في مشيتك. وقال عطاء: امش بالوقار، والسكينة، كقوله: «يمشون على الأرض هوناً» [الفرقان: 63] «واغضض من صوتك» أي: انقص منه، واخفضه، ولا تتكلف رفعه، فإن الجهر بالكثرة من الحاجة يؤذي السامع، وجملة «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» تعليل للأمر بالغض من الصوت: أي: أوحشها، واقبحها. قال قتادة: اقبح الأصوات صوت الحمير أوله زفير، وآخره شهيق. قال المبرد: تأويله إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل في باب الصوت المنكر. واللام في لصوت للتأكيد، ووجد الصوت مع كونه مضاعفاً إلى الجمع؛ لأنه مصدر، وهو يدل

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، ونمشي في الطريق التي كانوا يمشون بها في دينهم، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيك ﴿أَوَلَوْ كَانَ لِلشَّيْطَانِ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم في دينهم: أي: يتبعونهم في الشرك، ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك، ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الاتباع إلى عذاب السعير، لأنه زين لهم اتباع آبائهم، والتدين بدينهم، ويجوز أن يراد أنه يدعو جميع التابعين، والمتبعين إلى العذاب. فدعاؤه للمتبعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم، وجواب لو محذوف أي: يدعوهم، فيتبعونهم، ومحل الجملة النصب على الحال. وما أقبح التقليد، وأكثر ضرره على صاحبه، وأوخم عاقبته، وأشام عائته على من وقع فيه. فإن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق، فتأبى ذلك، وتتهافت في نار الحريق، وعذاب السعير ﴿وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يفوض إليه أمره، ويخلص له عبادته، ويقبل عليه بكيته ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله، لأن العبادة من غير إحسان لها، ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها لا تقع بالموقع الذي تقع به عبادة المحسنين. وقد صح عن الصادق المصدوق لما سأل جبريل عن الإحسان أنه قال له: «إن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: اعتصم بالمعبد الأوثق، وتعلق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاطئ جبل فتمسك بأوثق عرى جبل متدل منه ﴿وَالِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها إليه لا إلى غيره. وقرأ علي بن أبي طالب، والسلمي، وعبد الله بن مسلم بن يسار (ومن يسلم) بالتشديد قال النحاس: والتخفيف في هذا أعرف كما قال عز وجل: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20] ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ أي: لا تحزن لذلك، فإن كفره لا يضر، بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: نخبرهم بقبائح أعمالهم، ونجازيهم عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تسره صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. فالسرّ عنده كالعلانية ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم. وانتصاب قليلاً على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: تمتيعاً قليلاً ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ أي: نلجئهم إلى عذاب النار. فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه، وأصيب به، فلهاذا استعير له الغلط ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: يعترفون بالله خالق تلك لوضوح الأمر فيه عندهم. وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد، ويطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: الحمد

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ إِيَّاكَ مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَلِيمُ ﴿لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَكَلَتْهُ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعُمَا أُتْبَحِرَ مَا يَفِدَتْ كُنُتْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْمِكُمْ إِلَّا كَفَرْتُمْ وَجَدْتُمْ أَنَّهُ اللَّهُ يَسِيعُ بَصِيرٌ ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَلِيمُ﴾

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع إلى توبيخ المشركين، وتبكيهم، وإقامة الحجج عليهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: معنى تسخيرها للأكميين: الانتفاع بها انتهى، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبني آدم: أي: التي ينتفعون بها الشمس، والقمر، والنجوم، ونحو ذلك. ومن جملة تلك الملائكة فإنهم حفظة لبني آدم بأمر الله سبحانه، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبني آدم الأحجار، والتراب، والزرع، والشجر، والثمر، والحيوانات التي ينتفعون بها، والعشب الذي يرعون فيه نوابيهم، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتسخير جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان منقاداً له، ودخلاً تحت تصرفه أم لا ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: أتم، وأكمل عليكم نعمه، يقال: سبغت النعمة إذا تمت وكملت. قرأ الجمهور «أسبغ» بالسين، وقرأ ابن عباس، ويحيى بن عمار (أصبغ) بالصاد مكان السين. والنعم جمع نعمة على قراءة نافع، وأبي عمرو، وحفص، وقرأ الباقر (نعمة) بسكون العين على الإفراد، والتثنية اسم جنس يراد به الجمع، ويدل به على الكثرة، كقوله: ﴿وَأَنْ تَعْلَمُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34] وهي قراءة ابن عباس. والمراد بالنعم الظاهرة ما يدرك بالعقل، أو الحس، ويعرفه من يعرفه، وبالباطنة ما لا يدرك للناس، ويخفى عليهم. وقيل: الظاهرة: الصحة، وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة، والعقل. وقيل: الظاهرة: ما يرى بالابصار من المال، والجاه، والجمال، وفعل الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله، وحسن اليقين، وما يدفعه الله عن البعد من الآفات. وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة. وقيل: الظاهرة: الإسلام، والجمال، والباطنة: ما ستره الله على العبد من الأعمال السنية ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: في شأن الله سبحانه في توحيده، وصفاته مكابرة، وعناداً بعد ظهور الحق له، وقيام الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿بَغْيِيرِ عِلْمٍ﴾ من عقل ولا نقل ﴿وَلَا هُدًى﴾ يهتدي به إلى طريق الصواب ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أنزله الله سبحانه، بل مجرد تعنت، ومحض عناد، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَبَّحُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المجانلين، والجمع باعتبار معنى: من، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت،

إنها لما نزلت ﴿وَمَا أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: 85] في اليهود، قالوا: كيف، وقد أوتينا التوراة فيها كلام الله، وأحكامه، فنزلت. قال أبو عبيدة: المراد بالبحر هنا الماء العذب الذي ينبت الأقاليم، وأما الماء المالح، فلا ينبت الأقاليم. قلت: ما أسقط هذا الكلام، وأقل جدواه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: غالب لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن حكمته، وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته ﴿وَمَا خَلَقَكُمْ وَلَا نَعْتَكُمْ إِلَّا أَنْفُسًا وَاحِدَةً﴾ أي: إلا كخلق نفس واحدة، وبعثها. قال النحاس: كذا قدره النحويون كخلق نفس مثل قوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقُرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]. قال الزجاج: أي: قدرة الله على بعث الخلق كلهم، وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل ما يسمع ﴿بَصِيرٌ﴾ بكل ما يبصر. وقد أخرج البيهقي في الشعب عن عطاء قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، قال: هذه من كنوز علمي سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «أما الظاهرة فما سوى من خلقك، وأما الباطنة فما ستر من عورتك، ولو أبداها لفلان أهلك فمن سواهم». وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والبيهقي، وابن النجار عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فقال: أما الظاهرة فالإسلام، وما سوى من خلقك، وما أسبغ عليك من رزقه، وأما الباطنة فما ستر من مساوي عملك». وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: النعمة الظاهرة الإسلام، والنعمة الباطنة كل ما يستر عليكم من الذنوب، والعيوب، والحدود. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: أنه قال في تفسير الآية. هي: لا إله إلا الله. وأخرج ابن أبي إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن بِلَدٍ مِّثْلُ مَدْيَنَ﴾ يا محمد أرايت قولك: ﴿وَمَا أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: 85] إيانا تريد أم قومك؟ فقال: كلا، فقالوا: ألسنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة، وفيها تبين كل شيء؟ فقال: إنها في علم الله قليل، وأنزل الله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن بِلَدٍ مِّثْلُ مَدْيَنَ﴾. وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن مسعود نحوه.

له على اعترافكم، فكيف تعبدون غيره، وتجعلونه شريكاً له؟ أو المعنى: فقل: الحمد لله على ما هداك له من دينه، ولا⁽¹⁾ حمد لغيره⁽²⁾، ثم أضرب عن ذلك، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا ينتظرون، ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة بغير غيره ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً، وخلقاً فلا يستحق العبادة غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن غيره ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي: المستحق للحمد، أو المحمود من عباده بلسان المقال، أو بلسان الحال. ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السموات والأرض أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد، ولا يحصر بحد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي: لو أن جميع ما في الأرض من الشجرة أقلام. ووحد الشجرة لما تقرّر في علم المعاني أن استغراق المفرد أشمل، فكانه قال: كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد برئت أقلاماً، وجمع الأقلام لقصد التكثر: أي: لو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاماً. قال أبو حيان: وهو من وقوع المفرد موقع الجمع، والندرة موقع المعرفة كقوله: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: 106]، ثم قال سبحانه: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: يمدّه من بعد نفاده سبعة أبحر. قرأ الجمهور «والبحر» بالرفع على أنه مبتدأ، ويمدّه خبره. والجملة في محل الحال: أي: والحال أن البحر المحيط مع سعته يمدّه السبعة الأبحر مدّاً لا ينقطع، كذا قال سيبويه. وقال المبرد: إن البحر مرتفع بفعل مقرر تقديره ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر، وقيل: هو مرتفع بالعطف على أن، وما في حيزها. وقرأ أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، والبحر بالنصب عطفاً على اسم أن، أو بفعل مضمّر يفسره يمدّه. وقرأ ابن هرمز، والحسن «يمدّه» بضم حرف المضارعة، وكسر الميم، من أمّد. وقرأ جعفر بن محمد، والبحر (مداده)، وجواب لو ﴿وَمَا نَغَدَّتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي: كلماته التي هي عبارة عن معلوماته. قال أبو علي الفارسي: المراد بالكلمات، والله أعلم ما في المقبور بون ما خرج منه إلى الوجود، ووافقه القفال، فقال: المعنى: أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته، ووحدانيته لم تتفد تلك العجائب. قال القشيري: ردّ القفال معنى الكلمات إلى المقدورات. وحمل الآية على الكلام القديم أولى. قال النحاس: قد تبين أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم، وحقائق الأشياء، لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلها، وما فيها من شعرة، وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق. وقيل: إن قريشاً قالت: ما أكثر كلام محمد، فنزلت قاله السدي، وقيل:

(1 - 1) هكذا في الأصل ولعلها: ولا حمد لغيره.

أَرَرْنَا أَنَّ اللَّهَ يُلْجِئُ آلِيكَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي آلِيكَ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَيْكَ لَجْعِلَ مِن شَيْءٍ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٩﴾
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَلَمْ يَأْتِهِ مِن دُونِهِ الْبُذِيلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَافِي
الْكَبِيرُ ﴿٢٠﴾ أَرَرْنَا أَنَّ اللَّهَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ
آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا غَشِيَكَ مَوجٌ
كَافُكُلٍ دَعَا اللَّهَ غَلِيظِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّأَ تَجَنَّبَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصٌ وَمَا
يَحْمَدُ بِعَيْنَيْنَا إِلَّا كُلَّ خَسَّارٍ كَثُورٍ ﴿٢٢﴾ يَأْتِيهِ النَّاسُ أَتْفَارًا رَبِّكُمْ وَلَاحِظًا
يَوْمًا لَا يَجْرَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغْوِغْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَمُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ ﴿٢٣﴾ إِنَّ

يعولون على غيره في خلاصهم؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضر، ولا ينفع سواه، ولكنه تغلب على طبائعهم العادات، وتقليد الاموات، فإذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحداية الله، واخصوا بينهم له طلباً للخلاص، والسلامة مما وقعوا فيه **﴿فلما نجاهم إلى البر﴾** صاروا على قسمين: قسم **﴿مقتصد﴾** أي: موف بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر، وأخرجه إلى البر سالماً. قال الحسن: معنى مقتصد: مؤمن متمسك بالتوحيد، والطاعة. وقال مجاهد: مقتصد في القول مضمهر للكفر، والأولى ما ذكرناه، ويكون في الكلام حذف، والتقدير فممنهم مقتصد، ومنهم كافر، ويدل على هذا المحذوف قوله: **﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾** الختر: أسوأ الغر، وأقبحه، ومنه قول الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير ختار
قال الجوهري: الختر الغدر، يقال: ختره، فهو: ختار. قال الماوردي: وهذا قول الجمهور. وقال ابن عطية: إنه الجاحد، وجحد الآيات: إنكارها، والكفور: عظيم الكفر بنعم الله سبحانه **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم ولخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده﴾** أي: لا يغني الوالد عن ولده شيئاً، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه. وقد تقدم بيان معناه في البقرة **﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾** نكر سبحانه فردين من القربات، وهو الوالد والولد، وهما للغاية في الحنو والشفقة على بعضهم البعض، فما عدهما من القربات لا يجزي بالأولى فكيف بالأجانب. اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك، ولا يعول على غيرك **﴿إن وعد الله حق﴾** لا يتخلف فما وعد به من الخير، وأوعد به من الشر، فهو كائن لا محالة **﴿فلا تغرّبكم الحياة الدنيا﴾** وزخارفها فإنها زائلة ذاهبة **﴿ولا يغرّبكم باله الغرور﴾** قرأ الجمهور «الغرور» بفتح الغين المعجمة، والغرور هو: الشيطان، لأن من شأنه أن يغرّ الخلق، ويمنيهم بالأماني الباطلة، ويلهيهم عن الآخرة، ويصدّمهم عن طريق الحق. وقرأ سماك بن حرب، وأبو حيوة، وابن السميّغ بضم الغين مصدر غرّ يغرّ غروراً، ويجوز أن يكون مصدراً واقعاً وصفاً للشيطان على المبالغة **﴿إن الله عنده علم الساعة﴾** أي: علم وقتها الذي تقوم فيه. قال الفراء: إن معنى هذا الكلام: النفي: أي: ما يعلم أحد إلا الله عز وجل. قال النحاس: وإنما صار فيه معنى: النفي لما ورد عن النبي ﷺ أنه قال في قوله: **﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾** [الأنعام: 59] إنها هذه **﴿ويُنزل الغيث﴾** في الأوقات التي جعلها معينة لإنزاله، ولا يعلم ذلك غيره **﴿ويُعلم ما في الأرحام﴾** من الذكور، والإناث، والصالح، والفساد **﴿وما تدري نفس﴾** من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة، والأنبياء، والجن، والإنس **﴿ماذا تكسب غدا﴾** من كسب دين، أو كسب دنيا **﴿وما تدري نفس بأيّ أرض تموت﴾** أي: بأيّ مكان يقضي الله عليها بالموت. قرأ الجمهور «وينزل

الله عنده علم الساعة وينزل الغيث وما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت» **﴿إن الله عليه خير﴾** الخطاب بقوله: **﴿لم تر﴾** لكل أحد يصلح لذلك، أو للرسل **﴿إن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾** أي: يدخل كل واحد منهما في الآخر، وقد تقدّم تفسيره في سورة الحج والأنعام **﴿وسخّر للشمس والقمر﴾** أي: نللهما، وجعلهما متقادين بالطلوع والأفول تقديرًا للأجل، وتنميًا للمنافع، والجملة معطوفة على ما قبلها مع اختلافهما **﴿كل يجري إلى لجل مستقى﴾** اختلف في الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل: هو يوم القيامة، وقيل: وقت الطلوع، ووقت الأفول، والأول أولى، وجملة **﴿وإن الله بما تعملون خبير﴾** معطوفة على أن الله يولج: أي: خبير بما تعملونه من الأعمال لا تخفى عليه منها خافية؛ لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما تعملونه بالأولى. قرأ الجمهور (تعملون) بالفوقية، وقرأ السلمي، ونصر بن عامر، والنوري عن أبي عمرو بالتحتية على الخبر، والإشارة بقوله: **﴿ذلك﴾** إلى ما تقدم ذكره، والباء في **﴿بأن الله﴾** للسببية: أي: ذلك بسبب أنه سبحانه **﴿هو الحق﴾** وغيره الباطل، أو متعلقة بمحذوف أي: فعل ذلك ليعلموا أنه الحق **﴿وإن ما يدعون من بونه الباطل﴾** قال مجاهد: الذي يدعون من بونه هو الشيطان، وقيل: ما أشركوا به من صنم، أو غيره، وهذا أولى **﴿وإن الله هو العليّ الكبير﴾** معطوفة على جملة **﴿أن الله هو الحق﴾** والمعنى: أن ذلك الصنع البديع الذي وصفه في الآيات المتقدمة للاستدلال به على حقية الله، وبطلان ما سواه، وعلوه، وكبريائه: هو العليّ في مكانته، نو الكبرياء في ربوبيته، وسلطانه. ثم ذكر من عجيب صنعه، وبديع قدرته نوعاً آخر، فقال: **﴿لم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله﴾** أي: بلطفه بكم، ورحمته لكم، وذلك من أعظم نعمه عليكم؛ لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم في البحر لطلب الرزق، وقرأ ابن هرمز (بنعمات الله) جمع نعمة **﴿ليريك من آياته﴾** من للتبويض: أي: ليريك بعض آياته. قال يحيى بن سلام: وهو جري السفن في البحر بالريح. وقال ابن شجرة: المراد بقوله: من آياته ما يشاهدونه من قدرة الله. وقال النقاش: ما يرزقهم الله في البحر **﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾** هذه الجملة تعليل لما قبلها: أي: إن فيما نكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ، وشكر كثير يصبر عن معاصي الله، ويشكر نعمه **﴿وإذا غشيهم موج كظلال﴾** شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، وإنما شبه الموج، وهو واحد بالظلل. وهي جمع، لأن الموت يأتي شيئاً بعد شيء، ويركب بعضه بعضاً. وقيل: إن الموج في معنى الجمع؛ لأنه مصدر، وأصل الموج الحركة، والازدحام، ومنه يقال: ماج البحر، وماج الناس. وقرأ محمد بن الحنفية «موج كالظلال» جمع ظل **﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾** أي: دعوا الله وحده لا

الله أحد» [الإخلاص: 1] وفي الركعتين الآخرين «تبارك الذي بيده الملك» [الملك: 1] و «آلَمْ تَنْزِيلُ» [السجدة: 1] السجدة كتبت له كأربع ركعات من ليلة القدر. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ تبارك الذي بيده الملك، وآلَمْ تَنْزِيلُ السجدة بين المغرب، والعشاء الآخرة فكانما قام ليلة القدر». وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة آلم تنزيل السجدة، ويس» «واقتربت الساعة» [القمر: 1]، وتبارك الذي بيده الملك كن له نوراً وحزراً من الشيطان، ورفع في الدرجات إلى يوم القيامة». وأخرج ابن الضريس عن المسيب بن رافع: أن النبي ﷺ قال: «آلَمْ تَنْزِيلُ تجيء لها جناحات يوم القيامة تظل صاحبها وتقول: لا سبيل عليه لا سبيل عليه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ ﴿١﴾ أَرْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْتُمْ بَلْ هُوَ الْخَوَّفُ مِنْ رَبِّكَ لَشِدَّةِ قُوَّامَا أَتَدْرِكُونَ مِنْ تَحَرُّبِ الْمَلَكَيْنِ ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيحٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنْ كَمَالِهِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ بِوَجْهِكَ كَانَ بِمِقْدَارِهِ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ الَّذِي أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٦﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُكُلَةٍ مِنْ مَلَأٍ مِهْنٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٨﴾ وَقَالُوا أَوَآدَا صَلَافًا فِي الْأَرْضِ إِنَّا لَنِ حَلِيٍّ جَلِيلٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿٩﴾ قُلْ يَتُوبُ لَكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُقِلَ إِلَيْكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾

قوله: «آلَمْ» قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة، وعلى محلها من الإعراب في سورة البقرة، وفي مواضع كثيرة من فواتح السور، وارتفاع «تنزيل» على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر على تقدير أن آلم في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر لقوله: آلم على تقدير أنه اسم للسورة، و «لا ريب فيه» في محل نصب على الحال، ويجوز أن يكون ارتفاع تنزيل على أنه مبتدأ، وخبره لا ريب فيه، ومن رب العالمين في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون هذه كلها أخباراً للمبتدأ المقدر قبل تنزيل، أو لقوله: آلم على تقدير أنه مبتدأ لا على تقدير أنه حروف مسرودة على نمط التعديد. قال مكي: وأحسن الوجوه أن تكون «لا ريب فيه» في موضع الحال، و «من رب العالمين» الخبر، والمعنى على هذه الوجوه: أن تنزيل الكتاب المتلو لا ريب فيه، ولا شك، وأنه منزل من رب العالمين، وأنه ليس بكتب، ولا سحر، ولا كهانة، ولا أساطير الأولين، و «أم» في «أم يقولون افتراه» هي: المنقطعة التي بمعنى: بل، والهمزة: أي: بل يقولون هو مفتري،

الغيث» مشدداً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي مخففاً. وقرأ الجمهور «بأي أرض»، وقرأ أبي بن كعب، وموسى الأهوازي (بأية)، وجوز ذلك الفراء، وهي لغة ضعيفة. قال الأخفش: يجوز أن يقال: مررت بجارية أي جارية. قال الزجاج: من ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «خَتَارٌ» قال: جحاد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «ولا يغرنكم بالله الغرور» قال: هو الشيطان. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: «جاء رجل من أهل البادية، فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا مجدية، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية». وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه وزاد: وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وزاد أيضاً أنه سأل عن قيام الساعة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا متى تقوم الساعة إلا الله، ولا ما في الأرحام إلا الله، ولا متى ينزل الغيث إلا الله، وما تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله»، وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي هريرة في حديث سؤاله عن الساعة، وجوابه بأشراطها، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا هذه الآية» وفي الباب أحاديث.

تفسير سورة السجدة

وهي مكية كما رواه ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، ورواه ابن مردويه عن ابن الزبير. وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: هي مكية سوى ثلاث آيات «أفمن كان مؤمناً» إلى تمام الآيات الثلاث [السجدة: 18 - 20]. وكذا قال الكلبي، ومقاتل، وقيل: إلا خمس آيات من قوله: «تتجافى جنوبهم» إلى قوله: «الذي كنتم به تكذبون» [السجدة: 16 - 20] وقد ثبت عند مسلم، وأهل السنن من حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بآلم تنزيل السجدة» «وهل أتى على الإنسان» [الدهر: 1]. وأخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديثه أيضاً. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن جابر قال: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ آلم تنزيل السجدة» «تبارك الذي بيده الملك» [الملك: 1]. وأخرج أبو نصر، والطبراني، والبيهقي في سننه عن ابن عباس يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «من صلى أربع ركعات خلف العشاء الآخرة قرأ في الركعتين الأوليين «قل يا أيها الكافرون» [الكافرون: 1] (د) «قل هو

مما تعنون» أي: ثم يرجع ذلك الأمر، ويعود ذلك التدبير إليه سبحانه في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء والطلوع من الأرض كما قدمنا. وقيل: إن المراد أنه يعرج إليه في يوم القيامة الذي مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها. وقيل: هي أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة، والمعنى: أنه يثبت ذلك عنده، ويكتب في صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض في كل وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها، وقيل: معنى يعرج إليه: يثبت في علمه موجوداً بالفعل في برهة من الزمان هي مقدار ألف سنة، والمراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدثها من الزمان. وقيل: يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها في اللوح المحفوظ، فتتزل بها الملائكة، ثم تعرج إليه في زمان هو كالف سنة من أيام الدنيا. وقيل: يقضي قضاء ألف سنة، فتتزل به الملائكة، ثم يعرج بعد الألف لآلاف آخر. وقيل: المراد أن الأعمال التي هي طاعات يدبرها الله سبحانه، وينزل بها ملائكته ثم لا يعرج إليها منها إلا الخالص بعد مدة متطاولة لقلّة المخلصين من عباده. وقيل الضمير في يعرج يعود إلى الملك وإن لم يجز له ذكر لأنه مفهوم من السياق. وقد جاء صريحاً في قوله: «تعرج الملائكة والروح إليه» [المعارج: 4] والضمير في إليه يرجع إلى السماء على لغة من يذكرها، أو إلى مكان الملك الذي يرجع إليه، وهو الذي أقره الله فيه. وقيل: المعنى: يدبر أمر الشمس في طلوعها، وغروبها، ورجوعها إلى موضعها من الطلوع في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة، وقيل: المعنى: أن الملك يعرج إلى الله في يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة، لأن ما بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض، والرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام، وقد رجّح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير. وقيل: مسافة النزول ألف سنة، ومسافة الطلوع ألف سنة، روي ذلك عن الضحك، وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، وليس المراد به مسمى اليوم الذي هو مدة النهار بين ليلتين، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر:

يومان يوم مقامات وأنسية ويوم سير إلى الأعداء تأيب
فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم، قرأ الجمهور «يعرج» على البناء للفاعل. وقرأ ابن أبي عبلة على البناء للمفعول، والأصل يعرج به، ثم حذف حرف الجار، فاستتر الضمير. وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه: «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» [المعارج: 4] فقيل: في الجواب إن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، ولكنه باعتبار صعوبته، وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة، والعرب تصف كثيراً يوم المكروه بالطول كما تصف

فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع، والتوبيخ، ومعنى «افتراه»: افعله، واختلقه، ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب، فقال: «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء، ثم بين العلة التي كان التنزيل لأجلها، فقال: «لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» وهم العرب، وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول، وقيل: قريش خاصة، والمفعول الثاني لتنذر محذوف: أي: لتنذر قوماً العقاب، وجملة ما أتاهم من نذير في محل نصب على الحال، ومن قبلك صفة للنذير، وجوز أبو حيان أن تكون ما موصولة، والتقدير: لتنذر قوماً العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك، وهو ضعيف جداً، فإن المراد تعليل الإنزال بالإنذار لقوم لم يأتهم نذير قبله، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذروا بما أنذروهم به، وقيل: المراد بالقوم أهل الفتنة ما بين عيسى، ومحمد ﷺ «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» رجاء أن يهتدوا، أو كي يهتدوا «إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» قد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، والمراد من نكرها هنا تعريفهم كمال قدرته، وعظيم صنعته؛ ليسمعوا القرآن، ويتأملوه، ومعنى خلق: أوجد، وأبدع. قال الحسن: الأيام هنا هي من أيام الدنيا، وقيل: مقدار اليوم، ألف سنة من سني الدنيا، قاله الضحك، فعلى هذا المراد بالأيام هنا هي من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا، وليست ثم للترتيب في قوله: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ»، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى «مَّا لَكُمْ مِنْ بُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ» أي: ليس لكم من بون الله، أو من بون عذابه من وليٍّ يواليكم ويردّ عنكم عذابه، ولا شفيع يشفع لكم عنده «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» تنكر تدبر، وتفكر، وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم، ويعقل حتى تنتفعوا بها «يُنْزِلُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» لما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما بين تدبيره لأمرها أي: يحكم الأمر بقضائه وقدره من السماء إلى الأرض، والمعنى: ينزل أمره من أعلا السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ» [الطلاق: 12] ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التي تحتها نزولاً وطلوعاً ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: المراد بالأمور المأمور به من الأعمال: أي: ينزله مديراً من السماء إلى الأرض. وقيل: يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها إلى الأرض. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل. وقيل: العرش موضع التدبير كما أن ما بون العرش موضع التفصيل كما في قوله: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ... يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْآيَاتِ» [الرعد: 2] وما بون السموات موضع التصرف، قال الله: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا» [الفرقان: 50] ثم لما نكر سبحانه تدبير الأمر قال: «ثُمَّ يَعْرَجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ

يوم السرور بالقصر كما قال الشاعر:

ويوم كظل الرمح قصر طوله لم الزق عنا واصطفاف المزامر
وقول الآخر:

ويوم كإبهام القطاة قطعتة

وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام، فمنها ما مقداره ألف سنة، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة. وقيل: هي أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة، ثم ينقل إلى نوع آخر، فيعذب به خمسين ألف سنة. وقيل: مواقف القيامة خمسون موقفاً كل موقف ألف سنة، فيكون معنى **﴿يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة﴾**: أنه يعرج إليه في وقت من تلك الأوقات، أو موقف من تلك المواقف. وحكى الثعلبي عن مجاهد، وقتادة، والضحاك: أنه أراد سبحانه في قوله: **﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾** [المعارج: 4] المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل، والمراد أنه يسير جبريل، ومن معه من الملائكة في ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا، وأراد بقوله: **﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾** المسافة التي بين الأرض، وبين سماء الدنيا هبوطاً، وصعوداً فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين، وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة، فقلوه: **﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾** يعني: يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة. فكم يكون الشهر منه؟ وكما تكون السنة منه؟ وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة، وبين خمسين ألف سنة. وقيل: غير ذلك. وقد وقف حبر الأمة ابن عباس لما سئل عن الآيتين كما سيأتي في آخر البحث إن شاء الله، قرأ الجمهور (مما تعنون) بالفوقية على الخطاب، وقرأ الحسن، والسلمي، وابن وثاب، والأعمش بالتحية على الغيبة، والإشارة بقوله: **﴿ذلك﴾** إلى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف، وهو مبتدأ وخبره **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** أي: العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم. وفي هذا معنى التهديد؛ لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر، فهو مجاز لكل عامل يعمل، أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته **﴿العزیز﴾** القاهر الغالب **﴿الرحيم﴾** بعباده، وهذه أخبار لذلك المبتدأ، وكذلك قوله: **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾** هو خبر آخر، قرأ الجمهور خلقه، بفتح اللام، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإسكانها، فعلى القراءة الأولى هو فعل ماضٍ نعتاً لشيء، فهو في محل جر. وقد اختار قراءة الجمهور أبو عبيدة، وأبو حاتم، ويجوز أن تكون صفة للمضاف، فيكون في محل نصب. وأما على القراءة الثانية ففي نصبه أوجه: الأول أن يكون بدلاً من كل شيء بدل اشتغال، والضمير عائد إلى كل شيء، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة، الثاني أنه بدل كل من كل، والضمير

راجع إلى الله سبحانه؛ ومعنى أحسن: حسن، لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة، الثالث أن يكون كل شيء هو المفعول الأول، وخلق هو المفعول الثاني على تضمين أحسن معنى: أعطى، والمعنى: أعطى كل شيء خلقه الذي خصه به، وقيل: على تضمينه معنى: ألهم، قال الفراء: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه، الرابع أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أي: خلقه خلقاً كقوله: **﴿صنع الله﴾** [النمل: 88] وهذا قول سيبويه، والضمير يعود إلى الله سبحانه. والخامس أنه منصوب بنزع الخافض، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه، ومعنى الآية: أنه اتقن، وأحكم خلق مخلوقاته، فبعض المخلوقات، وإن لم تكن حسنة في نفسها، فهي متقنة محكمة، فتكون هذه الآية معناها معنى **﴿أعطى كل شيء خلقه﴾** أي: لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، وخلق لا البهيمة على خلق الإنسان، وقيل: هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى أي: أحسن خلق كل شيء حسن **﴿وبدا خلق الإنسان من طين﴾** يعني: أتم خلقه من طين، فصار على صورة بنية، وشكل حسن **﴿جعل نسله﴾** أي: نريته **﴿من سلالة﴾** سميت النرية سلالة؛ لأنها تسلسل من الأصل، وتتفصل عنه، وقد تقدم تفسيرها في سورة المؤمنين؛ ومعنى **﴿من ماء مهين﴾** من ماء مهين لا خطر له عند الناس، وهو المني. وقال الزجاج: من ماء ضعيف **﴿ثم سواه﴾** أي: الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وهو: آدم، أو جميع النوع، والمراد أنه عدل خلقه، وسوّى شكله، وناسب بين أعضائه **﴿ونفخ فيه من روحه﴾** الإضافة للتشريف، والتكريم. وهذه الإضافة تقوّي أن الكلام في آدم لا في نريته، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع، ثم خاطب جميع النوع، فقال: **﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾** أي: خلق لكم هذه الأشياء تكميلاً لنعمته عليكم، وتنميماً لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم، فتسمعون كل مسموع، وتبصرون كل مبصر، وتتعلقون كل متعلق، وتفهمون كل ما يفهم، وأفرد السمع لكونه مصدراً يشمل القليل، والكثير، وخص السمع بذكر المصدر نون البصر، والفؤاد، فذكرهما بالاسم ولهذا جمعاً، لأن السمع قوة واحدة، ولها محل واحد، وهو: الأذن، ولا اختيار لها فيه، فإن الصوت يصل إليها، ولا تقدر على رده. ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات نون بعض، بخلاف الأبصار، فمحلها العين، وله فيه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب المرئي نون غيره، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء؛ وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه، فيتعلق هذا نون هذا، ويفهم هذا نون هذا، قرأ الجمهور: **﴿وبدا﴾** بالهمز، والزهرى بألف خالصة بدون همز، وانتصاب **﴿قليلاً ما تشكرون﴾** على أنه صفة مصدر محذوف: أي: شكراً قليلاً، أو صفة زمان محذوف: أي: زماناً قليلاً، وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله،

أيا عباس، قوله: ﴿يُبَيِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فكان ابن عباس اتهمه فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: إنما سألتك؛ لتخبرني، فقال ابن عباس: هما يومان نكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب، فسأله عنهما إنسان، فلم يخبره، ولم يدركه، فقلت: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس؟ قال: بلى، فأخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها، وهو أعلم مني. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: لا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم حتى يقضي بين العباد، فينزل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ولو كان إلى غيره لم يفرغ في خمسين ألف سنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿ثُمَّ يَعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيامكم هذه، ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام. وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس: أنه كان يقرأ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قال: أما رأيت القردة ليست بحسنة، ولكنه أحكم خلقها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية: أنه قال: أما إن است القردة ليست بحسنة، ولكنه أحكم خلقها، وقال: ﴿خَلَقَهُ﴾ صورته. وقال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ القبيح، والحسن، والعقارب، والحيات، وكل شيء مما خلق، وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك. وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لقينا عمرو بن زرة الانصاري في حلة قد أسبل، فأخذ النبي ﷺ بتاحية ثوبه، فقال: يا رسول الله إني أحسن السائقين، فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو بن زرة إن الله عز وجل قد أحسن كل شيء خلقه، يا عمرو بن زرة إن الله لا يحب المسبلين». وأخرج أحمد، والطبراني عن الشريد بن سويد قال: «أبصر النبي ﷺ رجلاً قد أسبل إزاره، فقال: ارفع إزارك، فقال: يا رسول الله إني أحسن تصطك ركبتي، فقال: «ارفع إزارك كل خلق الله حسن».

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِسْنَا صُلَحًا إِنَّا مُنْكَرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ فَذُوقُوا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ تَتَجَافَىٰ جُوفُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢١﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيتُ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٢٣﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَقَوْا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴿٢٥﴾ كَمَا

وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال ﴿وَقَالُوا لَئِنَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد تقدم اختلاف القراء في هذه الهمزة، وفي الهمزة التي بعدها، والضلال الغيبوبة، يقال: ضل الميت في التراب إذا غاب وبطل، والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيره حتى خفي أثره قد ضل، ومنه قول الأخلط:

كنت القذى في موج أكثر مزبد قنف الآتي بها فضل ضللا
قال قطرب: معنى ضللنا في الأرض: غيبنا في الأرض. قرأ الجمهور «ضللنا» بفتح ضاد معجمة، ولام مفتوحة بمعنى: ذهبنا وضعنا، وصرنا تراباً، وغيبنا عن الأعين، وقرأ يحيى بن يعمر، وابن محيصن، وأبو رجاء (ضللنا) بكسر اللام، وهي لغة العالية من نجد، قال الجوهري: وأهل العالية يقولون: ضللت بالكسر، قال: وأضله: أي: أضاعه، وأهلكه، يقال: ضل الميت إذا نفن. وقرأ علي بن أبي طالب، والحسن، والأعمش، وأبان بن سعيد (صللنا) بصاد مهملة، ولام مفتوحة: أي: أئتنا. قال النحاس: ولا يعرف في اللغة صللنا، ولكن يقال: صل اللحم إذا أئنت. قال الجوهري: صل اللحم يصل بالكسر صلواً إذا أئنت، مطبوخاً كان، أو نيئاً، ومنه قول الحطية:

ذاك فتى يبذل ذا قدرة لا يفسد اللحم لديه للصلول
﴿وإنا لفي خلق جديد﴾ أي: نبعث، ونصير أحياء، والاستفهام للاستنكار، وهذا قول منكري البعث من الكفار، فأضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبغ منه، وهو كفرهم ببقاء الله، فقال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون له مكابرة، وعناداً، فإن اعترافهم بأنه المبتدئ للخلق يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يبين لهم الحق، ويرد عليهم ما زعموه من الباطل، فقال: ﴿قُلْ يَتُوفَّاكُم مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ يقال: توفاه الله، واستوفى روحه إذا قبضه إليه، وملك الموت هو: عزرائيل، ومعنى وكل بكم: وكل بقبض أرواحكم عند حضور أجالكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تصيرون إليه أحياء بالبعث والنشور لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يُبَيِّرُ الْأَمْرَ﴾ الآية قال: هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم مقداره ألف سنة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة قال: دخلت على عبد الله بن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان، فقال له ابن فيروز: يا

لمجرد سبق القول المتقدم، بل بذاك وهذا.

واختلف في النسيان المذكور هنا، فقيل: هو النسيان الحقيقي، وهو الذي يزول عنده الذكر؛ وقيل: هو الترك، والمعنى على الأول: أنهم لم يعملوا لذلك اليوم، فكانوا كالناسين له الذين لا ينكرونه. وعلى الثاني لا بد من تقدير مضاف قبل لقاء: أي: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، ورجح الثاني المبرد وأشد:

كانه خارج من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفئد أي: تركوه، وكذا قال الضحاك، ويحيى بن سلام: إن النسيان هنا بمعنى: الترك، قال يحيى بن سلام: والمعنى: بما تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم تركناكم من الخير، وكذا قال السدي، وقال مجاهد: تركناكم في العذاب، وقال مقاتل: إذا دخلوا النار، قالت لهم الخزنة: ذوقوا العذاب بما نسيتم، واستعار الذوق للإحساس، ومنه قول طفيل:

فذوقوا كما نقتنا غداة محجة من الغيظ في أكبادنا والتحوب وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير لقصد التأكيد أي: ذوقوا العذاب الدائم الذي لا ينقطع أبداً بما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي. قال الرازي في تفسيره: إن اسم الإشارة في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء، وأن يكون إشارة إلى اليوم، وأن يكون إشارة إلى العذاب، وجملة ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ مستأنفة لبيان ما يستحق الهداية إلى الإيمان، ومن لا يستحقها؛ والمعنى: إنما يصدق بآياتنا، وينتفع بها ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ لا غيرهم ممن يذكر بها أي: يوعظ بها، ولا يتذكر، ولا يؤمن بها، ومعنى ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾: سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لآيات الله، وخوفاً من سطوته، وعذابه ﴿وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: زهوه عن كل ما لا يليق به ملتبسين بحمده على نعمه التي أجلها، واكملها الهداية إلى الإيمان، والمعنى: قالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، أو سبحان ربي الأعلى وبحمده. وقال سفيان: المعنى: صلوا حمداً لربهم، وجملة ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال: أي: حال كونهم خاضعين لله، متذللين له غير مستكبرين عليه ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع، وتنبو يقال: جفى الشيء عن الشيء، وتجافى عنه: إذا لم يلزمه، ونبا عنه، والمضاجع جمع المضجع، وهو الموضع الذي يضطجع فيه. قال الزجاج، والرماني: التجافى، والتجفى إلى جهة فوق، وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سب ونحوه، والجنوب جمع جنب، والجملة في محل نصب على الحال أي: متجافية جنوبهم عن مضاجعهم، وهم المتهجلون في الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش، وبه قال الحسن، ومجاهد، وعطاء، والجمهور، والمراد بالصلاة صلاة التنفل بالليل من غير تقييد. وقال قتادة، وعكرمة: هو التنفل

أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٣٠﴾

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمَجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ المراد بالمجرمين هم القائلون أنذا ضللنا، والخطاب هنا لكل من يصلح له، أو لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولاً أولياً، ومعنى ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾: مطأطؤها حياءً، وندماً على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله، والعصيان له، ومعنى عند ربهم: عند محاسبته لهم. قال الزجاج: والمخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمته، فالمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب ﴿رَبُّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: يقولون: ربنا أبصرنا الآن ما كنا نكذب به، وسمعنا ما كنا ننكره، وقيل: أبصرنا صلق وعيك، وسمعنا تصديق رسلك، فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع ﴿فَارْجِعْنَا إِلَى الدُّنْيَا نَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ كما أمرتنا ﴿إِنَّا مَوْقِنُونَ﴾ أي: مصدقون، وقيل: مصدقون بالذي جاء به محمد ﷺ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعاً فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا، وإنى لهم تلك فقد حقت عليهم كلمة الله فإنهم ﴿لَوْ رَبُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبُونَ﴾ [الأنعام: 28] وقيل: معنى ﴿إِنَّا مَوْقِنُونَ﴾: أنها قد زالت عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا لما رأوا ما رأوا، وسمعوا ما سمعوا، ويجوز أن يكون معنى ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾: صرنا ممن يسمع ويبصر فلا يحتاج إلى تقدير مفعول، ويجوز أن يكون صالحاً مفعولاً لنعمل كما يجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، وجواب لو محذوف: أي: لرأيت أمراً فظيماً، وهؤلاء هائلاً ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا﴾ هذا ردٌ عليهم لما طلبوا الرجعة: أي: لو شئنا لآتينا كل نفس هداها، فهينا الناس جميعاً فلم يكفر منهم أحد. قال النحاس: في معنى هذا قولان: أحدهما: أنه في الدنيا، والآخر أنه في الآخرة: أي: ولو شئنا لرددناهم إلى الدنيا ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وجملة ولو شئنا مقترنة بقول معطوف على المقتر قبل قبوله: «أبصرنا» أي: ونقول لو شئنا، ومعنى ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: نفذ قضائي وقدري، وسبقت كلمتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هذا هو القول الذي وجب من الله، وحق على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطي كل نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا، لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى، والفاء في قوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ لترتيب الأمر بالنوق على ما قبله، والباء في «بما نسيتم» للسببية، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس

يصيرون إليه، ويستقرون فيه هو: النار ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ أي: إذا أرادوا الخروج منها رُبُّوا إليها راغمين مكرهين، وقيل: إذ دفعهم اللهب إلى أعلاها رُبُّوا إلى مواضعهم ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾، والقاتل لهم هذه المقالة هو: خزنة جهنم من الملائكة، أو القاتل لهم هو: الله عز وجل، وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الإغاطة ما لا يخفى ﴿ولننقيقنهم من العذاب الأبدى﴾، وهو عذاب النيا، قال الحسن وأبو العالية، والضحاك، والنخعي: هو مصائب النيا، وأسقامها، وقيل: الحدود، وقيل: القتل بالسيف يوم بدر، وقيل: سنين الجوع بمكة، وقيل: عذاب القبر، ولا مانع من الحمل على الجميع ﴿وبن العذاب الأكبر﴾، وهو عذاب الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ مما هم فيه من الشرك، والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة، ويتوبون عما كانوا فيه، وفي هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال: إن العذاب الأبدى هو عذاب القبر ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾ أي: لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة، فجعل الإعراض مكان ذلك، والمجيء بثم الدلالة على استبعاد ذلك، وأنه مما ينبغي أن لا يكون ﴿إننا من المجرمين منتقمون﴾ أي: من أهل الإجماع على العموم، فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولاً أولياً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عيسى بن جهم في قوله: ﴿إننا نسيناكم﴾ قال: تركناكم. وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال: نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً﴾ أي: أتوها ﴿وسبحوا﴾ أي: صلوا بأمر ربهم ﴿وهم لا يستكبرون﴾ عن إتيان الصلاة في الجماعات. وأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك: أن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن مريويه عنه قال: نزلت في صلاة العشاء، وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه أيضاً في الآية قال: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء، وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال: كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن مريويه عنه أيضاً قال: ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قط قبل العشاء، ولا متحناً بعدها، فإن هذه الآية نزلت في ذلك ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء، فأنشئ عليهم، فلما نكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير، ويكسل الكبير.

بين المغرب والعشاء، وقيل: صلاة العشاء فقط، وهو رواية عن الحسن، وعطاء، وقال الضحاك: صلاة العشاء، والصبح في جماعة، وقيل: هم الذين يقومون لنكر الله سواء كان في صلاة أو غيرها ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أيضاً من الضمير الذي في جنوبهم فهي حال بعد حال، ويجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعتهم، والمعنى: تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفاً من عذابه، وطمعاً في رحمته ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: من الذي رزقناهم، أو من رزقهم، وذلك الصدقة الواجبة، وقيل: صدقة النفل، والأولى الحمل على العموم، وانتصاب خوفاً، وطمعاً على العلة، ويجوز أن يكونا مصدرين منتصبين بمقتضى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم أي: لا تعلم نفس من النفوس أي نفس كانت ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين تقدم ذكرهم مما تقر به أعينهم. قرأ الجمهور قرة بالإفراد، وقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو الدرداء (من قرأت) بالجمع، وقرأ حمزة ما أخفى بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى الله سبحانه، وقرأ الباقر بفتحها فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، وقرأ ابن مسعود (ما أخفى) بالنون مضمومة، وقرأ الأعمش (يخفي) بالتحته مضمومة. قال الزجاج في معنى قراءة حمزة: أي: منه ما أخفى الله لهم، وهي قراءة محمد بن كعب، و «ما» في موضع نصب، ثم بين سبحانه: أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة، فقال: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي: لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه في النيا، أو جوزوا جزاء بذلك ﴿أفمن كان مؤمناً كالفاسق، فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، ولهذا قال: ﴿لا يستوون﴾ فيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام. قال الزجاج: جعل الاثنين جماعة حيث قال: ﴿لا يستوون﴾ لأجل معنى: من، وقيل: لكون الاثنين أقل الجمع، وسيأتي بيان سبب نزولها آخر البحث. ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين، وبدأ بالمؤمنين، فقال: ﴿لذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى﴾ قرأ الجمهور «جنات» بالجمع، وقرأ طلحة بن مصرف (جنة المأوى) بالإفراد، والمأوى هو: الذي يأوون إليه، وأضاف الجنات إليه لكونه المأوى الحقيقي، وقيل: المأوى جنة من الجنات، وقد تقدم الكلام على هذا، ومعنى ﴿نزل﴾ أنها معدة لهم عند نزولهم، وهو في الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب كما بيناه في آل عمران، وانتصابه على الحال، وقرأ أبو حيوة «نزل» بسكون الزاي، والباء في ﴿بما كانوا يعملون﴾ للسببية: أي: بسبب ما كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم، ثم ذكر الفريق الآخر، فقال: ﴿ولما اللذين فسقوا﴾ أي: خرجوا عن طاعة الله، وتمردوا عليه، وعلى رسله ﴿فمأواهم النار﴾ أي: منزلهم الذي

وأخرج ابن مريويه عن بلال قال: كنا نجلس في المسجد، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب العشاء تتجافى جنوبهم عن المضاجع. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن عدي، وابن مريويه عن أنس نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، ومحمد بن نصر، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن أنس في قوله: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» قال: كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن مريويه عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ في قوله: «تتجافى جنوبهم» قال: قيام العبد من الليل، وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن نصر في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ، وذكر حديثاً، وأرشد فيه إلى أنواع من الطاعات، وقال فيه: «وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ «تتجافى جنوبهم عن المضاجع»». وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث قال فيه: «وصلاة المرء في جوف الليل، ثم تلا هذه الآية». وأخرج ابن مريويه عن أنس في الآية قال: كان لا تمر عليهم ليلة إلا أخذوا منها. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد من طريق أبي عبد الله الجنلي عن عبادة بن الصامت، عن كعب قال: «إذا حشر الناس نادى مناد: هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع» الحديث. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية يقول: تتجافى لنكر الله كلما استيقظوا نكروا الله، إما في الصلاة، وإما في القيام، أو قعود، أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: كان عرش الله على الماء، فاتخذ جنة لنفسه، ثم اتخذ دونها أخرى، ثم أطبقهما بللوة واحدة، ثم قال: «ومن بونهما جنتان» [الرحمن: 62] لم يعلم الخلق ما فيهما، وهي التي قال الله «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» تأتيهم منها كل يوم تحفة. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب في التوراة: لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع آذن، ولم يخطر على قلب بشر، ولا يعلم ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإنه لفي القرآن «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: «أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا آذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال أبو هريرة: واقروا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين»». وفي الباب أحاديث عن جماعة من

الصحاب، وهي معروفة فلا نطول بذكرها. وأخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني، والواحدي، وابن عدي، وابن مريويه، والخطيب، وابن عساکر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب: أنا أجد منك سناناً، وأنشط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت «أفمن كان مؤمناً كان فاسقاً لا يستوون» يعني بالمؤمن: علياً، وبالفاسق: الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وأخرج ابن مريويه، والخطيب، وابن عساکر عنه في الآية نحوه، وروي نحو هذا عن عطاء بن يسار، والسدي، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. وأخرج الفريابي، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود في قوله: «ولنذيقنهم من العذاب الأنشئ» قال: يوم بدر «دون العذاب الأكبر» قال: يوم القيامة «لعلهم يرجعون» قال: لعل من بقي منهم أن يتوب، فيرجع. وأخرج ابن أبي شيبة، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن مسعود في الآية قال: العذاب الأنشئ سنون أصابتهم «لعلهم يرجعون» قال: يتوبون. وأخرج مسلم، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وأبو عوانة في صحيحه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي بن كعب في قوله: «ولنذيقنهم من العذاب الأنشئ» قال: مصائب الدنيا، والروم، والبطشة، والدخان. وأخرج ابن جرير عنه قال: يوم بدر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس «من العذاب الأنشئ» قال: الحدود «لعلهم يرجعون» قال: يتوبون. وأخرج ابن منيع، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه. قال السيوطي بسند ضعيف عن معاذ بن جبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم، من عقد لواء في غير حق، أو عقى والديه، أو مشى مع ظالم؛ لينصره، فقد أجرم» يقول الله: «إنما من المجرمين منتقمون»، قال ابن كثير بعد إخراجها: هذا حديث غريب.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَبَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٦٦﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ إِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُفَصِّلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَمَّا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٨﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَسْتَأْذِنُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ ﴿١٦٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ فَخَرَجُوا مِنْهَا زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧٠﴾ وَتَوَلَّوْا مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧١﴾ قُلْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِسْنَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٧٢﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرِينَ ﴿١٧٣﴾

قوله: «ولقد آتينا موسى الكتاب» أي: التوراة «فلا تكن» يا محمد «في مرية» أي: شك، وريبة «من

النقاش ﴿وَلَمْ يَهْد لَّهُمْ﴾ أي: أو لم يبين لهم، والهمزة للإنكار، والفاعل ما دل عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم. قال الفراء: كم في موضع رفع بهيد. وقال المبرد: إن الفاعل الهدى الملول عليه بهيد: أي: أو لم يهد لهم الهدى. وقال الزجاج: كم في موضع نصب بأهلكنا، قرأ الجمهور «أو لم يهد» بالتحية، وقرأ السلمي، وقتادة، وأبو زيد عن يعقوب بالنون، وهذه القراءة واضحة. قال النحاس: والقراءة بالياء التحتية فيها إشكال؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل فاين الفاعل ليهد؟ ويجاب عنه بأن الفاعل هو ما قدمنا نكره، والمراد بالقرن: عاد، وثمود، ونحوهم، وجملة ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير لهم: أي: والحال أنهم يمشون في مساكن المهلكين، ويشاهدونها، وينظرون ما فيها من العبر، وآثار العذاب، ولا يعتبرون بذلك، وقيل: يعود إلى المهلكين، والمعنى: أهلكناهم حال كونهم ماشين في مساكنهم، والأول أولى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ الْمَذْكُورِ آيَاتٌ عَظِيمَاتٌ﴾ أي: إفلا يسمعونها، ويتعظون بها ﴿وَأَوَّلُ مَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ أي: أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التي لا تنبت إلا بسوق الماء إليها، وقيل: هي اليابسة، وأصله من الجرز، وهو القطع أي: التي قطع نباتها لعدم الماء، ولا يقال: للتي لا تنبت أصلاً كالسباح جزر لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا﴾ قيل: هي أرض اليمن، وقيل: أرض عدن. وقال الضحاک: هي الأرض العطشى. وقال الفراء: هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي: هي الأرض التي لا تنبت شيئاً. قال المبرد: يبعد أن تكون لأرض بعينها للدخول الآلف واللام، وقيل: هي مشتقة من قولهم رجل جروز: إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله، ومنه قول الرازي:

خب جروز وإذا جاع بكى ويأكل التمر ولا يلقي النوى وكذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كل شيء تجده. وقال مجاهد: إنها أرض النيل، لأن الماء إنما يأتيها في كل عام ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ أي: من الزرع كالتبن، والورق، ونحوهما مما لا يأكله الناس ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ أي: يأكلون الحبوب الخارجة في الزرع مما يقتاتونه، وجملة ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ في محل نصب على الحال ﴿إفلا يبصرون﴾ هذه النعم، ويشكرون المنعم، ويوحّدونه لكونه المنفرد بخلق ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ القائلون هم الكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص أي: متى الفتح الذي تعدّونا به، يعنون بالفتح: القضاء، والفصل بين العباد، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده، قاله مجاهد وغيره. وقال الفراء، والقتبي: هو فتح مكة. قال قتادة: قال أصحاب النبي ﷺ للكفار: إن لنا يوماً ننعّم فيه ونستريح، ويحكم الله بيننا وبينكم يعنون: يوم القيامة، فقال الكفار: متى هذا الفتح؟ وقال السدي: هو يوم بدر، لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا

لقائه ﴿قال الواحدي: قال المفسرون: وعد رسول الله ﷺ أنه سيلقى موسى قبل أن يموت، ثم لقيه في السماء، أو في بيت المقدس حين أسري به. وهذا قول مجاهد، والكلبي، والسدي، وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب قاله الزجاج. وقال الحسن: إن معناه: ولقد أتينا موسى الكتاب، فكُتِبَ، وأوذي، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب، والأذى، فيكون الضمير في لقائه على هذا عائداً على محذوف، والمعنى: من لقاء ما لاقى موسى. قال النحاس: وهذا قول غريب. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: قل: يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم، فلا تكن في مرية من لقائه، فجاء معترضاً بين ﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، وبين ﴿وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقيل: الضمير راجع إلى الكتاب الذي هو الفرقان كقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ﴾ [النمل: 6] والمعنى: أنا أتينا موسى مثل ما أتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله، ونظيره، وما أبعد هذا، ولعلّ الحامل لقائه عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فإن الضمير راجع إلى الكتاب، وقيل: إن الضمير في لقائه عائذ إلى الرجوع المفهوم من قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 11] أي: لا تكن في مرية من لقاء الرجوع، وهذا بعيد أيضاً.

واختلف في الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾، فقيل: هو راجع إلى الكتاب: أي: جعلنا التوراة هدى لبني إسرائيل، قاله الحسن، وغيره. وقال قتادة: إنه راجع إلى موسى: أي: جعلنا موسى هدى لبني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: قادة يقتدون به في دينهم، وقرأ الكوفيون «أئمة» قال النحاس: وهو لحن عند جميع النحويين، لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة، ومعنى ﴿يَهْدُون بَأْمُرَنَا﴾ أي: يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليه من أحكام التوراة، ومواعظها بأمرنا: أي: بأمرنا لهم بذلك، أو لأجل أمرنا. وقال قتادة: المراد بالأئمة الأنبياء منهم. وقيل: العلماء ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قرأ الجمهور «لما» بفتح اللام، وتشديد الميم: أي: حين صبروا، والضمير للأئمة، وفي لما معنى: الجزاء، والتقدير: لما صبروا جعلناهم أئمة. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وورش عن يعقوب، ويحيى بن وثاب بكسر اللام، وتخفيف الميم: أي: جعلناهم أئمة لصبرهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد مستدلاً بقراءة ابن مسعود «بما صبروا» بالباء، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف، والهداية للناس، وقيل: صبروا عن الدنيا ﴿وَكُنُوا بِآيَاتِنَا﴾ التنزيلية ﴿يُوقِنُونَ﴾ أي: يصدقونها، ويعلمون أنها حق، وأنها من عند الله لمزيد تفكرهم، وكثرة تبرهم ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي بينهم، ويحكم بين المؤمنين، والكفار ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقيل: يقضي بين الأنبياء، وأمهم، حكاه

تفسير سورة الأحزاب

أخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأحزاب بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والطيالسي، وسعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن منيع، والنسائي، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن زر قال: قال لي أبي بن كعب: كأي تقرأ سورة الأحزاب، أو كأيين تعدّها، قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: أقط لقد رأيتها، وإنها لتعادل سورة البقرة، أو أكثر من سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها ﴿الشيخ حكيم﴾ فرفع فيما رفع. قال ابن كثير: وإسناده حسن. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب قام، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها، ووعيناها ﴿الشيخ والضياء في المختارة﴾، ورجعنا بعده، فأخشي أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. وقد روي عنه هذا من طرق. وأخرج ابن مردويه عن حنيفة قال: قال لي عمر بن الخطاب: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قلت: ثنتين، أو ثلاثاً وسبعين؛ قال: إن كانت لتقارب سورة البقرة، وإن كان فيها آية الرجم. وأخرج البخاري في تاريخه عن حنيفة قال: قرأت سورة الأحزاب على رسول الله ﷺ، فنسيت منها سبعين آية ما وجبتها. وأخرج أبو عبيد في الفضائل، وابن الأنباري، وابن مردويه عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي ﷺ مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقرر منها إلا على ما هو الآن.

سُورَةُ الْحَزْبِ الرَّجْمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَأَتَّبِعْ مَا يَوْحَىٰ لِإِنَّا بِكَ مِنْ رَبِّهِ لَإِن كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ لِلْعَبْدِ ۝ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنَ قُلُوبِهِ فِي جَوَازٍ ۝ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلْفَىٰ تُظَاهَرُونَ مِنْهُمْ أَهْمُكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلَمُّوقَتَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَكِنَّ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ أَلَيْسَ أَوَّلَىٰ

يقولون للكفار: إن الله ناصرنا، ومظهرنا عليكم، ومتى في قوله: ﴿متى هذا الفتح﴾ في موضع رفع، أو في موضع نصب على الظرفية. ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾ وفي هذا ليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة، لأن يوم فتح مكة، ويوم بدر هما مما ينفع فيه الإيمان، وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح، وقبل ذلك منهم النبي ﷺ، ومعنى ﴿ولا هم ينظرون﴾: لا يمهلون، ولا يؤخرون، ويوم في ﴿يوم الفتح﴾ منصوب على الظرفية، وإجاز الفراء الرفع ﴿فأعرض عنهم﴾ أي: عن سفهم، وتكذيبهم، ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿ولننظر إنهم منتظرون﴾ أي: وانتظر يوم الفتح، وهو: يوم القيامة، أو يوم إهلاكهم بالقتل إنهم منتظرون بك حوادث الزمان من موت، أو قتل، أو غلبة كقوله: ﴿فتربصوا إننا معكم متربصون﴾ [التوبة: 52] ويجوز أن يراد إنهم منتظرون لإهلاكهم، والآية منسوخة بآية السيف، وقيل: غير منسوخة، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال. وقرأ ابن السميع (إنهم منتظرون) بفتح الظاء مبنياً للمفعول، ورويت هذه القراءة عن مجاهد، وابن محيصن. قال الفراء: لا يصح هذا إلا بإضمار: أي: إنهم منتظر بهم. قال أبو حاتم: الصحيح الكسر: أي: انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة، والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن جهنم، والدجال في آيات أراه الله إياه» قال: ﴿فلا تكن في مرية من لقاءه﴾ فكان قتادة يفسرها: أن النبي ﷺ قد لقي موسى ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة بسند قال السيوطي: صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ ﴿فلا تكن في مرية من لقاءه﴾ قال: من لقاء موسى، قيل: أو لقي موسى؟ قال: نعم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وأسال من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ [الزخرف: 45]. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أو لم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ قال: الجرذ التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿إلى الأرض الجرز﴾ قال: أرض باليمن. قال القرطبي في تفسيره: وإسناده عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين﴾ قال: يوم بدر فتح للنبي ﷺ، فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت.

الف محضة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنها لغة قريش التي أمر الناس أن يقرءوا بها، وقرأ قنبل، وورش⁽¹⁾ بهمزة مكسورة بنون ياء. قرأ عاصم (تظاهرون) بضم الفوقية، وكسر الهاء بعد ألف مضارع ظاهر، وقرأ ابن عامر بفتح الفوقية، والهاء، وتشديد الظاء مضارع تظاهر، والأصل تتظاهرون⁽²⁾، وقرأ الباقر (تظهرون) بفتح الفوقية، وتشديد الظاء بنون ألف، والأصل تتظهرون، والظهار مشتق من الظهر، وأصله أن يقول الرجل لامراته: أنت علي كظهر أمي، والمعنى: وما جعل الله نساءكم اللاتي تقولن لهنّ هذا القول كماهاتكم في التحريم، ولكنه منكر من القول، وزور ﴿و﴾ كذلك ﴿ما جعل﴾ الأدياء الذين تدعون أنهم ﴿أبناءكم﴾ أبناء لكم، والأدياء جمع دعي، وهو الذي يدعي ابناً لغير أبيه، وسيأتي الكلام في الظهار في سورة المجادلة، والإشارة بقوله: ﴿نلكم﴾ إلى ما تقدم من ذكر الظهار، والأدياء، وهو مبتدأ، وخبره ﴿قولكم بأفواهكم﴾ أي: ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه، ولا تأثير له، فلا تصير المرأة به أمّاً، ولا ابن الغير به ابناً، ولا يترتب على ذلك شيء من أحكام الأمانة، والبنوة، وقيل: الإشارة راجعة إلى الأدياء أي: ادعائكم أن أبناء الغير أبناءكم لا حقيقة له، بل هو مجرد قول بالغف ﴿والله يقول الحق﴾ الذي يحقّ اتباعه لكونه حقاً في نفسه لا باطلاً، فينخل تحته دعاء الأبناء لأبائهم ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي: يدلّ على الطريق الموصلة إلى الحق، وفي هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق، وترك قول الباطل والزور. ثم صرح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الأبناء للأباء، فقال: ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ للصلب، وانسبهم إليهم، ولا تدعوهم إلى غيرهم، وجملة ﴿هو أقسط عند الله﴾ تعليل للأمر بدعاء الأبناء للأباء، والضمير راجع إلى مصدر ادعوهم، ومعنى أقسط: أعدل: أي: أعدل كلّ كلام يتعلق بذلك، فترك الإضافة للعموم كقوله: الله أكبر، وقد يكون المضاف إليه مقترناً خاصاً: أي: أعدل من قولكم: هو ابن فلان، ولم يكن ابنه لصلبه. ثم تمّ سبحانه الإرشاد للعباد، فقال: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وهم مواليتكم، فقولوا: أخي، وموالي، ولا تقولوا: ابن فلان، حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة. قال الزجاج: ويجوز: أن يكون مواليتكم أولياءكم في الدين. وقيل: المعنى: فإن كانوا محررين، ولم يكونوا أحراراً، فقولوا: موالى فلان ﴿وليس عليكم جناح

بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه، أنفسهم وأزواجه، بعضهم أولئك بعضهم في كتب الله من المؤمنين والمؤمنات، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كانت ذلك في الكتب مسطوراً ﴿١﴾

قوله: ﴿يا أيها النبي لتق الله﴾ أي: دم على ذلك، وازدد منه ﴿ولا تطع الكافرين﴾ من أهل مكة، ومن هو على مثل كفرهم ﴿والمنافقين﴾ أي: الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر. قال الواحدي: إنه أراد سبحانه بالكافرين أبا سفيان، وعكرمة، وأبا الأعور السلمي، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: أرفض نكر آلهتنا، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها. قال: والمنافقين عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح. وسيأتي آخر البحث بيان سبب نزول الآية ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي: كثير العلم، والحكمة بليغهما، قال النحاس: يدلّ بقوله: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ على أنه كان يميل إليهم: يعني: النبي ﷺ استدعاء لهم إلى الإسلام، والمعنى: أن الله عزّ وجلّ لو علم أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنهم؛ لأنه حكيم، ولا يخفى بعد هذه الدلالة التي زعمها، ولكن هذه الجملة تعليل لجملة الأمر بالتقوى، والنهي عن طاعة الكافرين، والمنافقين، والمعنى: أنه لا يأمرك أو ينهاك إلا بما علم فيه صلاحاً أو فساداً، لكثرة علمه وسعة حكمته ﴿ولتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ من القرآن: أي: اتبع الوحي في كل أمورك، ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين، والمنافقين، ولا من الرأي البحث، فإن فيما أوحى إليك ما يغنيك عن ذلك، وجملة ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ تعليل لأمره باتباع ما أوحى إليك، والأمر له ﷺ أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه، ولهذا جاء بخطابه، وخطابهم في قوله: ﴿يما تعملون﴾ على قراءة الجمهور بالفوقية للخطاب، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ أبو عمرو، والسلمي، وابن أبي إسحاق بالتحية ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: اعتمد عليه، وفوّض أمورك إليه، وكفى به حافظاً يحفظ من توكل عليه. ثم ذكر سبحانه مثلاً توطئة وتمهيداً لما يتعقبه من الأحكام القرآنية التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾.

وقد اختلف في سبب نزول هذه الآية كما سيأتي، وقيل: هي مثل ضربه الله للمظاهر أي: كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمّان، وكذلك لا يكون الدعي ابناً لرجلين. وقيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرنى بكذا، وقلب بكذا، فنزلت الآية لردّ النفاق، وبيان أنه لا يجتمع مع الإسلام كما لا يجتمع قلبان، والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله، وجعلها محلاً للعلم ﴿وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهنّ أمهاتكم﴾، وقرأ الكوفيون، وابن عامر (اللّاتي) بياء ساكنة بعد همزة، وقرأ أبو عمرو، والبزري بياء ساكنة بعد

(1) قوله: وقرأ قنبل وورش (الخ) فيه مخالفة للمشهور، وبيانه أن قنبلا وقالوا بقرآن بهمزة مكسورة بنون ياء، وأما ورش فقراءته بهمزة مكسورة مسهلة كالياء بنون ياء بعدها اه. مصحح القرآن.

(2) هنا سقط ولطه: وقرأ حمزة والكسائي كذلك لكن مع تخفيف الهاء اه. مصحح القرآن.

قال غيره. وقيل: إن هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف، والمؤاخاة في الدين، وفي كتاب الله: يجوز: أن يتعلق بأفعل التفضيل في قوله: ﴿أولى ببعض﴾؛ لأنه يعمل في الظرف، ويجوز: أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير: أي: كائناً في كتاب الله، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو آية الموارث، وقوله: ﴿من المؤمنين﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولوا الأرحام، والمعنى: أن نوري القربات من المؤمنين ﴿والمهاجرين﴾ بعضهم أولى ببعض، ويجوز أن يتعلق بأولى أي: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين، والمهاجرين الذين هم أجانب، وقيل: إن معنى الآية: وأولوا الأرحام ببعضهم أولى ببعض، إلا ما يجوز لأزواج النبي ﷺ من كونهم كالأهبات في تحريم النكاح، وفي هذا من الضعف ما لا يخفى ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعم العام، والتقدير: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كل شيء من الإرث، وغيره إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً من صدقة، أو وصية فإن ذلك جائز. قاله قتادة، والحسن، وعطاء، ومحمد ابن الحنفية. قال محمد ابن الحنفية: نزلت في إجازة الرصية لليهودي، والنصراني، فالكافر ولي في النسب لا في الدين، فتجوز الرصية له، ويجوز أن يكون منقطعاً، والمعنى: لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به، ومعنى الآية: أن الله سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصى لهم. وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة، وحفظ الحرمة بحق الإيمان، والهجرة، والإشارة بقوله: ﴿كان ذلك﴾ إلى ما تقدم ذكره أي: كان نسخ الميراث بالهجرة، والمخالفة، والمعاقدة، ورده إلى نوري الأرحام من القربات ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في القرآن مكتوباً.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ يوماً يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم، وقلباً معهم؟ فنزل ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾. وأخرج ابن مردويه عنه من طريق أخرى بلفظ صلى الله النبي ﷺ صلاة، فسها فيها، فخطرت منه كلمة، فسمعها المنافقون، فقالوا: إن له قلبين، فنزلت. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً قال: كان رجل من قريش يسمى من دهائذ القليبين، فأنزل الله هذا في شأنه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ الآية، فقال رسول الله: أنت زيد بن حارثة بن شراحيل. وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا، وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾

فيما أخطأتم به﴾ أي: لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد، ﴿ولكن﴾ الإثم فيه ﴿ما تعمدت قلوبكم﴾ وهو ما قلتموه على طريقة العمد من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك. قال قتادة: لو دعوت رجلاً لغير أبيه، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر للمخطئ، ويرحمه، ويتجاوز عنه، أو غفوراً للذنوب رحيماً بالعباد، ومن جملة من يغفر له، ويرحمه من دعا رجلاً لغير أبيه خطأ. أو قبل النهي عن ذلك. ثم نكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة، وخصوصية جليلة لا يشاركه فيها أحد من العباد، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أي: هو أحق بهم في كل أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروا بما أراده من أموالهم، وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحيوه زيادة على حبهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمه لأنفسهم. وبالجملة فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء، ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، وتطلبه خواطرهم. وقيل: المراد بأنفسهم في الآية بعضهم، فيكون المعنى: أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض. وقيل: هي خاصة بالقضاء أي: هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم. وقيل: أولى بهم في الجهاد بين يديه، وبذل النفس ونونه، والأول أولى ﴿وآزواجه أمهاتهم﴾ أي: مثل أمهاتهم في الحكم بالتحريم، ومنزلات منزلتهن في استحقاق التعظيم، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن كما لا يحل له أن يتزوج بأمه، فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن، وبالتعظيم لجنابهن، وتخصيص المؤمنين يدل على أنهن لسن أمهات نساء المؤمنين، ولا بناتهن أخوات المؤمنين، ولا أخوتهن أخوال المؤمنين. وقال القرطبي: الذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيماً لحقهن على الرجال، والنساء كما يدل عليه قوله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة. قال: ثم إن في مصحف أبي بن كعب (وآزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم)، وقرأ ابن عباس (أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب وآزواجه أمهاتهم)، ثم بين سبحانه: أن القرابة أولى ببعضهم البعض، فقال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ المراد بأولى الأرحام القربات: أي: هم أحق ببعضهم البعض في الميراث، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنفال، وهي ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة، والموالة. قال قتادة: لما نزل قوله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ [الأنفال: 72]، فتوارث المسلمون بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، وكذا

بعضهم بعضاً. وقال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن ينصحو لقومهم. والميثاق هو: اليمين، وقيل: هو: الإقرار بالله، والأول أولى، وقد سبق تحقيقه، ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم، ولغيرهم، فقال: ﴿وَمِنْكُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، ومن أولي العزم من الرسل، وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له، والتعظيم ما لا يخفى. قال الزجاج: وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالنذر. ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره، ووصفه بالغلظ، فقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا، وما أخذه الله عليهم، ويجوز: أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين، فأخذ عليهم في المرة الأولى مجرد الميثاق بنون تغليظ، ولا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانياً مغلظاً مشدداً، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81]، واللام في قوله: ﴿لَيَسَّالَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ﴾ يجوز أن تكون لام كي: أي: لكي يسأل الصادقين من النبيين عن صدقهم في تبليغ الرسالة إلى قومهم، وفي هذا وعيد لغيرهم، لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك، فكيف غيرهم. وقيل: ليسال الأنبياء عما أجابهم به قومهم كما في قوله: ﴿فَلْيَسَّالِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْيَسَّالِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6] ويجوز أن تتعلق بمحذوف أي: فعل ذلك ليسال ﴿وَوَاعَدُ الْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ معطوف على ما دل عليه ﴿لَيَسَّالَ الصَّادِقِينَ﴾ إذ التقدير: أثاب الصادقين، وأعد للكافرين، ويجوز أن يكون معطوفاً على أخذنا، لأن المعنى: أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه، ليثيب المؤمنين، وأعد للكافرين. وقيل: إنه قد حذف من الثاني ما أثبت مقابله في الأول، ومن الأول ما أثبت مقابله في الثاني، والتقدير: ليسال الصادقين عن صدقهم، فاثابهم، ويسال الكافرين عما أجابوا به رسلهم، وأعد لهم عذاباً أليماً. وقيل: إنه معطوف على المقتر عاملاً في ليسال كما نكرنا، ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿لَيَسَّالَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ﴾، وتكون جملة ﴿وَوَاعَدُ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مستأنفة لبيان ما أعده للكفار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معها خوف من أحد، وقوله «عليكم» متعلق بالنعمة إن كانت مصدرها، أو بمحذوف هو حال: أي: كائنة عليكم، ومعنى ﴿وَإِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾: حين جاءكم جنود، وهو ظرف للنعمة، أو للمقتر عاملاً في عليكم، أو لمحذوف هو انكر، والمراد بالجنود: جنود الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وغزوه إلى المدينة، وهي الغزوة المسماة «غزوة الخندق»، وهم: أبو سفيان بن حرب

فأبما مؤمن ترك مالا، فلترة عصبته من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني، فانا مولاه. وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن مريويه من حديث جابر نحوه. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي عن بريدة قال: «غزوت مع علي إلى اليمن، فرأيت منه جفوة، فلما قلمت على رسول الله ﷺ نكرت علياً، فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير، وقال: يا بريدة ألت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه» وقد ثبت في الصحيح: أنه ﷺ قال: «الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وماله، وولده، والناس أجمعين». وأخرج ابن سعد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن عائشة: أن امرأة قالت لها: يا أمه، فقالت: أنا أم رجالكم، ولست أم نسائكم. وأخرج ابن سعد عن أم سلمة قالت: أنا أم الرجال منكم، والنساء. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وإسحاق بن راهويه، وابن المنذر، والبيهقي في دلائله عن بجاله قال: مر عمر بن الخطاب بغلام، وهو يقرأ في المصحف (النبي) أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم، فقال: يا غلام حكها، فقال: هذا مصحف أبي، فذهب إليه، فسأله، فقال: إنه كان يلهيني القرآن، ويلهيك الصفاق في الأسواق. وأخرج الفريابي، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: أنه كان يقرأ (النبي) أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَيَسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١﴾ لَيَسَّالَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ أَنْشَأُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا أَلْمَ تَرَوُهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٣﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَهِنْ أَصْفَدَ مِنْكُمْ وَإِذْ رَاغَبَ الْأَبْهَرُ وَلَقَبَ الْقُلُوبَ الْحَسَّائِرَ وَتَطْلُوتُ بِاللَّهِ أَطْلُوتُهَا ﴿٤﴾ هَذَا الَّذِي أَيْسَّرَ اللَّهُ لَكُمْ أَلْيَسَ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا لَا نَرْجُو إِلَّا اللَّهَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَيَسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَتْ عَالِيقَةُ مِنْهُمْ يَتَأَهَّلُ رَبِّي لَأَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَفِيزُ سَبِيحٌ مِنْهُمْ الَّذِي يَقُولُونَ إِنْ يَوْتُنَا غُرَّةً وَمَا هِيَ بِغُرَّةٍ إِنْ يُرِيدُوا إِلَّا إِرَاكًا ﴿٦﴾ وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْئَادِهِمْ ثُمَّ سَلَّمُوا الْفَيْسَةَ لَأَنزَعُوا وَمَا تَلَفُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿٧﴾ وَلَقَدْ كَاثَرُوا عَهْدَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا كَذِبًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْكُوكًا ﴿٨﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تَسْمَعُونَ إِلَّا نَجِيلًا ﴿٩﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَشِئُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَبِئَا وَلَا يَصِيرُ ﴿١٠﴾

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ العامل في الظرف محذوف: أي: وانكر، كأنه قال: يا أيها النبي اتق الله، وانكر أن الله أخذ ميثاق النبيين. قال قتادة: أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً أن يصدق بعضهم بعضاً، ويتبع

الحجارة، ولهذا يقال للجبان: انتفخ سحره ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللِّظُنُونِ﴾ أي: الظنون المختلفة، فبعضهم ظنَّ النصر ورجا الظفر، وبعضهم ظنَّ خلاف ذلك. وقال الحسن: ظنَّ المنافقون: أنه يستأصل محمد وأصحابه، وظنَّ المؤمنون أنه ينصر. وقيل: الآية خطاب للمنافقين، والأولى ما قاله الحسن. فيكون الخطاب لمن أظهر الإسلام على الإطلاق أعْمَ من أن يكون مؤمناً في الواقع أو منافقاً.

واختلف القراء في هذه الالف في ﴿الظُّنُونِ﴾ فأتبتهما وصلاً ووقفاً نافع، وابن عامر، وأبو بكر، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، والكسائي، وتمسكوا بخط المصحف العثماني، وجميع المصاحف في جميع البلدان، فإن الالف فيها كلها ثابتة، واختار هذه القراءة أبو عبيد إلا أنه قال: لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن بل يقف عليهن، وتمسكوا أيضاً بما في أشعار العرب من مثل هذا. وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والجحدري، ويعقوب بحذفها في الوصل والوقف معاً، وقالوا: هي من زيادات الخط، فكتبت كذلك، ولا ينبغي النطق بها. وأما في الشعر، فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره. وقرأ ابن كثير، والكسائي، وابن محيصن بإثباتها وقفاً، وحذفها وصلاً، وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية، وهذه الالف هي التي تسميها النحاة ألف الإطلاق، والكلام فيها معروف في علم النحو، وهكذا اختلف القراء في الالف التي في قوله: «الرسول، والسبيل» كما سيأتي آخر هذه السورة ﴿هَٰذَا لِكَيْ لَا تُغْنِيَ عَنْكَ الْغَنَاءُ وَتُظَنَّنَ﴾ وقيل: بتظنون، واستضعفه ابن عطية، وهو ظرف مكان يقال: للمكان البعيد هناك كما يقال: للمكان القريب هنا، وللمتوسط هناك. وقد يكون ظرف زمان أي: عند ذلك الوقت ابتلي المؤمنون، ومنه قول الشاعر:

وإذا الأمور تعاضمت وتشاكلت فهناك يعترفون أين المفزع
أي: في ذلك الوقت، والمعنى: أن في ذلك المكان، أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف، والقتال، والجوع، والحصار، والنزال؛ ليتبين المؤمن من المنافق ﴿وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ قرأ الجمهور (زلزلوا) بضم الزاي الأولى، وكسر الثانية على ما هو الأصل في المبني للمفعول، وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ بكسر الأولى، وروى الزمخشري عنه أنه قرأ بإشمامها كسراً، وقرأ الجمهور (زلزالاً) بكسر الزاي الأولى، وقرأ عاصم، والجحدري، وعيسى بن عمر بفتحها. قال الزجاج: كل مصدر من المضاعف على فعال يجوز فيه الكسر والفتح: نحو قلقته قلقلاً، وزلزلوا زلزلاً، والكسر أجود. قال ابن سلام: معنى زلزلوا: حركوا بالخوف تحريكاً شديداً، وقال الضحاك: هو إزاحتهم عن أملكهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق، وقيل: المعنى: أنهم اضطربوا اضطراباً مختلفاً، فمنهم من اضطرب في نفسه، ومنهم من اضطرب في دينه ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ معطوف على «إذ زأغت الأبصار»، والمرض

بقریش، ومن معهم من الالفاف، وعيينة بن حصن الفزاري، ومن معه من قومه غطفان، وبنو قريظة، والنضير، فضائقوا المسلمين مضايقة شديدة كما وصف الله سبحانه في هذه الآيات، وكانت هذه الغزوة في شوال سنة خمس من الهجرة. قاله ابن إسحاق. وقال ابن وهب، وابن القاسم عن مالك: كانت في سنة أربع. وقد بسط أهل السير في هذه الواقعة ما هو معروف، فلا تطيل بنكرها ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا﴾ معطوف على جاءتكم، قال مجاهد: هي: الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألفت قلوبهم، ونزعت فساطيطهم، ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالديور»، والمراد بقوله: ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكة. قال المفسرون: بعث الله عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطنان الفساطيط، وأطاف النيران، وكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه: يا بني فلان هلم إلي، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ قرأ الجمهور (تعملون) بالفوقية أي: بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الحرب، وحفر الخندق، واستنصاركم به، وتوكلكم عليه، وقرأ أبو عمرو بالتحية أي: بما يعمل الكفار من العناد لله، ولرسوله، والتحزب على المسلمين، واجتماعهم عليهم من كل جهة ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ إذ هذه، وما بعدها يدل من إذ الأولى، والعامل في هذه هو العامل في تلك، وقيل: منصوبة بمحذوف هو انكر، ومعنى ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾: من أعلى الوادي، وهو من جهة المشرق، والذين جاءوا من هذه الجهة هم غطفان، وسيدهم عيينة بن حصن، وهوازن، وسيدهم عوف بن مالك، وأهل نجد، وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدي، وانضم إليهم عوف بن مالك، وبنو النضير، ومعنى ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾: من أسفل الوادي من جهة المغرب من ناحية مكة، وهم قريش، ومن معهم من الأحابيش، وسيدهم أبو سفيان بن حرب، وجاء أبو الأعور السلمي، ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق، ومعهم عامر بن الطفيل، وجملة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ معطوفة على ما قبلها أي: مالت عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب، وقيل: شخصت دهشاً من فرط الهول والحيرة ﴿وَبُلْغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ جمع حنجرة، وهي جوف الحلقوم أي: ارتفعت القلوب عن مكانها، ووصلت من الفرع والخوف إلى الحناجر، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها، وهو الذي نهايته الحنجرة لخرجت، كذا قال قتادة. وقيل: هو على طريق المبالغة المعهودة في كلام العرب، وإن لم ترتفع القلوب إلى ذلك المكان، ولا خرجت عن موضعها، ولكنه مثل في اضطرابها، وجبنها. قال الفراء: والمعنى: أنهم جبنوا، وجزع أكثرهم، وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رثته، فإذا انتفخت الرثة ارتفع القلب إلى

يعني: بيوتهم، أو المدينة، والأقطار: النواحي جمع قطر، وهو الجانب، والناحية، والمعنى: لو دخلت عليهم بيوتهم، أو المدينة من جوانبها جميعاً لا من بعضها، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة، واستبيحت ديارهم، وهتكت حرمهم، ومنازلهم ﴿ثُمَّ سَلُّوا الْفِتْنَةَ﴾ من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم ﴿لَا تُوهَا﴾ أي: لجأوها، أو أعطوها، ومعنى الفتنة هنا: إما القتال في العصبية كما قال الضحك، أو الشرك بالله، والرجعة إلى الكفر الذي يبطنونه، ويظهرون خلافه كما قال الحسن، قرأ الجمهور (لَا تُوهَا) بالمد أي: لأعطوها من أنفسهم، وقرأ نافع، وابن كثير بالقصر أي: لجأوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بيسيراً﴾ أي: بالمدينة بعد أن أتوا الفتنة إلا تلبثوا يسيراً حتى يهلكوا، كذا قال الحسن، والسدي، والفراء، والقتيبي. وقال أكثر المفسرين: إن المعنى: وما احتسبوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً، بل هم مسرعون إليها راغبون فيها لا يقفون عنها إلا مجرد وقوع السؤال لهم، ولا يتعللون عن الإجابة بأن بيوتهم في هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة كما تعللوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة، ولم تكن إذ ذاك عورة. ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة لله ورسوله بالثبات في الحرب، وعدم الفرار عنه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتِيَ الْإِسْلَامَ أَنْ يَغْلِبَهُمْ﴾ أي: من قبل غزوة الخندق، ومن بعد بدر قال قتادة: وذلك أنهم غلبوا عن بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتلاً لنقاتلن، وهم: بنو حارثة، وبنو سلمة ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ أي: مسؤولاً عنه، ومطلوباً صاحبه بالوفاء به، ومجازي على ترك الوفاء به ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فإن من حضر أجله مات أو قتل فر أو لم يفر ﴿وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً بعد فرارهم إلى أن تنقضي آجالهم، وكل ما هو آت، فهو قريب قرأ الجمهور (تمتعون) بالفوقية، وقرأ يعقوب الحضرمي في رواية الساجي عنه بالتحية. وفي بعض الروايات «لا تمتعوا» بحذف النون إعمالاً لإذن، وعلى قراءة الجمهور هي ملغاة ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ أي: هلاكاً أو نقصاً في الأموال، وجلباً، ومرضاً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ يرحمكم بها من خصب، ونصر، وعافية ﴿وَلَا يَجْنُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً﴾ يوالِيهم، وينفع عنهم ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ ينصرهم من عذاب الله.

وقد أخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي مريم الغساني: أن أعرابياً قال: يا رسول الله أي شيء كان أول نبوتك؟ قال: أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم، ثم تلا ﴿وَإِذَا لَخِّنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَلَخِّنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾، ودعوة إبراهيم قال: ﴿وَابْعَثْ

فِي الْقُلُوبِ هُوَ: الشك والريبة، والمراد بالمنافقون: عبد الله بن أبي، وأصحابه، وبالذين في قلوبهم مرض: أهل الشك، والاضطراب ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من النصر، والظفر ﴿إِلَّا غُرُوراً﴾ أي: باطلاً من القول، وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلاً من أهل النفاق، والشك، وهذا القول المحكي عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة أي: كان ظن هؤلاء هذا الظن، كما كان ظن المؤمنين بالنصر، وإعلاء كلمة الله ﴿وَإِذَا قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين. قال مقاتل: هم بنو سالم من المنافقين. وقال السدي: هم عبد الله بن أبي وأصحابه، وقيل: هم أوس بن قبطي وأصحابه، والطائفة تقع على الواحد فما فوقه، والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا موضع إقامة لكم، أو لا إقامة لكم ها هنا في العسكر. قال أبو عبيد: يثرب اسم الأرض، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها، قال السهيلي: وسميت يثرب، لأن الذي نزلها من العمالة اسمه يثرب بن عميل، قرأ الجمهور (لا مقام لكم) بفتح الميم، وقرأ حفص، والسلمي، والجحدري، وأبو حيوة بضمها، على أنه مصدر من أقام يقيم، وعلى القراءة الأولى هو اسم مكان ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلى منازلكم، أمروهم بالهرب من عسكر النبي ﷺ، وذلك أن رسول الله ﷺ والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، والخندق بينهم وبين القوم، فقال هؤلاء المنافقون: ليس ها هنا موضع إقامة، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة، ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ معطوف على ﴿قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: يستأذنون في الرجوع إلى منازلهم، وهم: بنو حارثة، وبنو سلمة، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من قوله: «يستأذن»، أو حال، أو استئناف جواباً لسؤال مقدر، والقول الذي قالوه هو قولهم: ﴿إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ضائعة سائبة ليست بحصينة، ولا ممتنة من العدو. قال الزجاج: يقال: عور المكان يعور عوراً، وعورة، وبيوت عورة، وعورة، وهي مصدر. قال مجاهد، ومقاتل، والحسن: قالوا: بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي العدو، ولا نأمن على أهلنا. قال الهروي: كل مكان ليس بممنوع، ولا مستور، فهو عورة، والعورة في الأصل: الخلل، فأطلقت على المختل، والمراد: ذات عورة، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو رجاء العطاردي عورة بكسر الواو أي: قصيرة الجدران. قال الجوهري: العورة كل حال يتخوف منه في ثغر، أو حرب. قال النحاس: يقال: أعور المكان: إذا تبينت فيه عورة، وأعور الفارس: إذا تبين منه موضع الخلل، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ فكذبهم الله سبحانه فيما نكروه، والجملة في محل نصب على الحال، ثم بين سبب استئذانهم، وما يريدونه به، فقال: ﴿إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾ أي: ما يريدون إلا الهرب من القتال، وقيل: المراد: ما يريدون إلا الفرار من الدين ﴿وَلَوْ بَخِلْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقِطَارِهَا﴾

ان الله كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم اني تركتهم يترحلون، وأنزل الله ﷻ ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ﴾ قال: كان يوم أبي سفيان يوم الأحزاب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لما كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال إلى الجنوب، فقالت: انطلقى، فانصرى الله ورسوله، فقالت الجنوب: إن الحرّة لا تسري بالليل، فغضب الله عليها، وجعلها عقيماً، فارسل عليهم الصبا، فاطفأت نيرانهم، وقطعت أطناهم، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالبور»، فذلك قوله: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالبور». وأخرج البخاري، وغيره عن عائشة في قوله: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الآية قالت: كان ذلك يوم الخندق، وفي الباب: أحاديث في وصف هذه الغزوة، وما وقع فيها، وقد اشتملت عليها كتب الغزوات، والسير. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بقرية تاكل القرى يقولون: يثرب، وهي: المدينة تنفي لباس كما ينفي الكير خبث الحديد». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمي المدينة يثرب، فليستغفر الله، هي: طابة هي: طابة هي: طابة» ولفظ أحمد «إنما هي: طابة» وإسناده ضعيف. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ قال: هم بنو حارثة قالوا: ﴿يَبِيتُونَا عَوْرَةً﴾ أي: مختلة نخشى عليها السرقة. وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة ﴿وَلَوْ بَخِلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَلَّوْا لَلْفِتْنَةِ لِأَتَوْهَا﴾ قال: لاعطوها: يعني: إسخال بني حارثة أهل الشام على المدينة.

﴿قَدْ بَعَثَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِشْرَاقًا لِلْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ مَلَأَ لَيْلًا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٧) أَيَحْثَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْكُوفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ فَإِذَا دَهَبَ الْكُوفُ سَفَرَكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَيَحْثَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِسُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٨) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَرُوكَ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَأْذِنُ عَنْ أَسْلَاحِهِمْ وَكَوْكَاسُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (١٩) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

فيهم رسولا منهم [البقرة: 129]، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها: انه خرج من بين رجلها سراج أضاءت له قصور الشام. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «قيل: يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: وأدم بين الروح والجسد». وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عنه قال: «قيل: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: وأدم بين الروح والجسد». وفي الباب أحاديث قد صحح بعضها. وأخرج الحسن بن سفيان، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والديلمي، وابن عسكرك من طريق قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ الآية قال: كنت أول النبيين في الخلق، وأخرهم في البعث، فبدأ به قبلهم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ عهدهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ قال: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عسكرك من طرق عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان، ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقرينة اليهود أسفل منا؛ نخافهم على نزارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحاً، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه، فجعل المنافقون يستأنون رسول الله ﷺ، ويقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأن أحد منهم إلا أن له، فيتسللون، ونحن ثلثمائة، أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً حتى مر علي، وما علي جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامراتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني، وأنا جاث على ركبتي، فقال: من هذا؟ فقلت: حنيفة، قال: حنيفة، فتقاصرت إلى الأرض، فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم، قال: قم، فقممت، فقال: إنه كان في القوم خبر، فأتني بخبر القوم، قال: وأنا من أشد القوم فزعاً، وأشدهم قرأ، فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته؛ قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرأ في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد منه شيئاً؛ فلما وليت قال: يا حنيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني، فخرجت حتى إذا نوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ثم دخلت العسكر، فإذا أنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبراً، فوالله إني لاسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم، ثم خرجت نحو النبي ﷺ، فلما انتصفت في الطريق، أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك

قال قتادة: معنى الآية: بسطوا السننهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطنا فإننا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم. قال النحاس: وهذا قول حسن، وانتصاب **﴿أشحة على الخير﴾** على الحالية من فاعل سلقوكم، ويجوز أن يكون نصبه على الذم. وقرأ ابن أبي عتبة برفع أشحة، والمراد هنا أنهم أشحة على الغنيمة يشاحون المسلمين عند القسمة، قاله يحيى بن سلام، وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله. قاله السدي. ويمكن أن يقال معناه: أنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه، والإشارة بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى الموصوفين بتلك الصفات **﴿لم يؤمنوا﴾** إيماناً خالصاً بل هم منافقون: يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر **﴿فاحبط الله أعمالهم﴾** أي: أبطلها بمعنى: أظهر بطلانها، لأنها لم تكن لهم أعمال تقتضي الثواب حتى يبطلها الله. قال مقاتل: أبطل جهادهم؛ لأنه لم يكن في إيمان **﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾** أي: وكان ذلك الإحباط لأعمالهم، أو كان نفاقهم على الله هيناً **﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾** أي: يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم، وذلك لما نزل بهم من الفشل والروع **﴿وإن يات الأحزاب﴾** مرة أخرى بعد هذه المرة **﴿يوتوا لو أنهم بانوا في الأعراب﴾** أي: يتمنون أنهم في بادية الأعراب لما حل بهم من الرهبة، والبادي خلاف الحاضر، يقال: بدا يبدو بداوة إذا خرج إلى البادية **﴿يسألون عن أنبيائكم﴾** أي: عن أخباركم، وما جرى لكم، كل قادم عليهم من جهنكم، أو يسأل بعضهم بعضاً عن الأخبار التي بلغته من أخبار الأحزاب، ورسول الله ﷺ والمعنى: أنهم يتمنون أنهم بعيد عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم، وضعف نياتهم **﴿ولو كانوا فيكم ما قتلوا إلا قليلاً﴾** أي: لو كانوا معكم في هذه الغزوة مشاهدين للقتال ما قاتلوا معكم إلا قتلاً قليلاً خوفاً من العار، وحماية على الديار **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾** أي: قوة صالحة، يقال: لي في فلانة أسوة أي: لي به، والأسوة من الاقتداء، كالقدوة من الاقتداء: اسم يوضع موضع المصدر. قال الجوهري: والأسوة، والإسوة بالضم، والكسر، والجمع أسى، وأسى. قرأ الجمهور (أسوة) بالضم للهمزة، وقرأ عاصم بكسرها، وهما لغتان كما قال الفراء، وغيره.

وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله ﷺ أي: لقد كان لكم في رسول الله حيث بذل نفسه للقتال، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة، وهذه الآية، وإن كان سببها خاصاً، فهي عامة في كل شيء، ومثلها **﴿ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** [الحشر: 7]، وقوله: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾** [آل عمران: 31]، واللام في **﴿ولمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾** متعلق بحسنة، أو بمحذوف هو صفة لحسنة أي:

وَعَدَاَ اللَّهُ رَسُولَهُمْ وَصَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُمْ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَسُلِيمًا ﴿١١﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴿١٢﴾ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ لَمَّا بَاءُوا عَهْدًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيمًا ﴿١٤﴾

قوله: **﴿قد يعلم الله للمعوقين منكم﴾** يقال: عاقه، واعتاقه، وعوقه: إذا صرفه عن الوجه الذي يريده. قال الواحدي قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ، وذلك أنهم قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحما لانتقمهم أبو سفيان، وحزبه، فخلوهم، وتعالوا إلينا، وقيل: إن القائل هذه المقالة اليهود قالوا: **﴿إخوانهم﴾** من المنافقين **﴿هلم ليناً﴾**، ومعنى هلم: أقبل، وأحضر، وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد، والجماعة، والمذكر، والمؤنث، وغيرهم من العرب يقولون: هلم للواحد الذكر، وهلمي للمؤنث، وهلما للثنتين، وهلموا للجماعة، وقد مر الكلام على هذا في سورة الأنعام **﴿ولا يأتون البأس﴾** أي: الحرب **﴿إلا قليلاً﴾** خوفاً من الموت، وقيل: المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة من غير احتساب **﴿أشحة عليكم﴾** أي: بخلاء عليكم لا يعاونوكم بحفر الخندق، ولا بالنفقة في سبيل الله، قاله مجاهد، وقاتدة. وقيل: أشحة بالقتال معكم وقيل: بالنفقة على فقرائكم، ومساكينكم، وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها. قاله السدي، وانتصابه على الحال من فاعل يأتون، أو من المعوقين. وقال الفراء: يجوز في نصبه أربعة أوجه: منها النصب على الذم، ومنها بتقدير فعل محذوف أي: يأتونه أشحة. قال النحاس: ولا يجوز أن يكون العامل فيه للمعوقين، ولا القائلين لئلا يفرق بين الصلة، والموصول **﴿فيذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تور أعينهم﴾** أي: تدور يميناً، وشمالاً، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه **﴿كالذي يغشى عليه من الموت﴾** أي: كعين الذي يغشى عليه من الموت، وهو الذي نزل به الموت، وغشيت أسبابه، فيذهل، ويذهب عقله، ويشخص بصره، فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه، والكاف نعت مصدر محذوف **﴿فيذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد﴾** يقال: سلق فلان فلاناً بلسانه: إذا أغلظ له في القول مجاهراً. قال الفراء: أي: أتوهم بالكلام في الأمن بالسنة سليطة نربة، ويقال: خطيب مسلأ، ومصلاق إذا كان بليفاً، ومنه قول الأعشى:

فيهم المجد والسماحة والنجد
ددة فيهم والخطاب السلاق
قال القتيبي: المعنى أتوكم بالكلام الشديد، والسلق الأذى، ومنه قول الشاعر:

ولقد سلفت موازنا
بنواهل حتى انحنيانا

الإنسان، واعتقد الوفاء به، ومنه قول الشاعر:

عشية فرّ الحارثيون بعد ما قضى نحبه في ملقى القوم هوبز
وقال الآخر:

بطخفة جالدا الملوك وخيلنا عشية بسطام جرين على نحب
أي: على أمر عظيم، والنحب يطلق على النذر، والقتل،
والموت. قال ابن قتيبة: قضى نحبه أي: قتل، وأصل النحب
النذر. كانوا يوم بدر نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتى
يقتلوا، أو يفتح الله لهم، فقتلوا، فقيل: فلان قضى نحبه أي:
قتل، والنحب أيضاً الحاجة، وإدراك الأمانة، يقول قائلهم:

مالي عندهم نحب، والنحب العهد، ومنه قول الشاعر:
لقد نحببت كلب على الناس أنهم أحقّ بتاج الماجد المتكرم
وقال آخر:

قد نحب المجد علينا نحبا

ومن ورود النحب في الحاجة وإدراك الأمانة قول الشاعر:

أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

ومعنى الآية: أن من المؤمنين رجالاً أدركوا أمانيتهم،
وقضوا حاجتهم، ووفوا بذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، وذلك
يوم أحد كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر
﴿ومنه من ينتظر﴾ قضاء نحبه حتى يحضر أجله
كعثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وأمثالهم فإنهم مستمرّون
على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله
ﷺ، والقتال لعنوه، ومنتظرون لقضاء حاجتهم، وحصول
أمانيتهم بالقتل، وإدراك فضل الشهادة، وجملة ﴿وما بذلوا
تبديلاً﴾ معطوفة على صدقوا أي: ما غيروا عهدهم الذي
عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم، بل
ثبّوا عليه ثبوتاً مستمراً، أما الذين قضوا نحبه، فظاهر،
وأما الذين ينتظرون قضاء نحبه، فقد استمروا على ذلك
حتى فارقوا الدنيا، ولم يغيروا، ولا بذلوا، واللام في قوله:
﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم﴾ يجوز أن يتعلق
بصدقوا، أو بزادهم، أو بما بذلوا، أو بمحذوف، كأنه قيل:
وقع جميع ما وقع: ليجزي الله الصادقين بصدقهم
﴿ويعذب المنافقين إن شاء﴾ بما صدر عنهم من التغيير،
والتبديل، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء،
وأرأوها بسبب تبديلهم، وتغييرهم كما قصد الصادقون
عاقبة الصلح بوفائهم، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبته
من الثواب، والعقاب، فكأنهما استويا في طلبها، والسعي
لتحصيلها، ومفعول «إن شاء»، وجوابها محذوفان، أي: إن
شاء تعذيبهم عذبهم، وذلك إذا أقاموا على النفاق، ولم
يتروكوه، ويتوبوا عنه ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: لمن
تاب منهم، وأقلع عما كان عليه من النفاق. ثم رجع سبحانه
إلى حكاية بقية القصة، وما امتنّ به على رسوله والمؤمنين
من النعمة، فقال: ﴿وردّ الله الذين كفروا﴾، وهم: الأحزاب،
والجملة معطوفة على ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً﴾ [الأحزاب:
9]، أو على المقدّر عاملاً في ليجزي الله الصادقين بصدقهم،
كأنه قيل: وقع ما وقع من الحوادث، وردّ الله الذين كفروا،

كائنة لمن يرجو الله. وقيل: إن الجملة بدل من الكاف في لكم،
وردّه أبو حيان، وقال: إنه لا يبدل من ضمير المخاطب
بإعادة الجار. ويجاب عنه بأنه قد أجاز ذلك الكوفيون،
والأخفش، وإن منعه البصريون، والمراد بمن كان يرجو الله:
المؤمنون، فإنهم الذين يرجون الله، ويخافون عذابه، ومعنى
يرجون الله: يرجون ثوابه، أو لقاءه، ومعنى يرجون اليوم
الآخر: أنهم يرجون رحمة الله فيه، أو يصدقون بحصوله،
وأنه كائن لا محالة، وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم
بالجملة الأولى ﴿ونكر الله كثيراً﴾ معطوف على كان أي:
ولمن نكر الله في جميع أحواله نكراً كثيراً، وجمع بين
الرجاء لله، والذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة
برسول الله ﷺ. ثم بيّن سبحانه ما وقع من المؤمنين
المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب، ومشاهدتهم لتلك الجيوش
التي أحاطت بهم كالبحر العباب، فقال: ﴿ولما رأى
المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾
الإشارة بقوله: «هذا» إلى ما رآه من الجيوش، أو إلى
الخطب الذي نزل، والبلاء الذي دهم، وهذا القول منهم قالوه
استبشاراً بحصول ما وعدهم الله ورسوله من مجيء هذه
الجنود، وإنه يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من
عند الله، و﴿وما﴾ في ﴿وما وعدنا الله﴾ هي: الموصولة، أو
المصدرية، ثم أردفوا ما قالوه بقولهم: ﴿وصدق الله
ورسوله﴾ أي: ظهر صدق خبر الله، ورسوله ﴿وما زادهم
إلا إيماناً وتسليماً﴾ أي: ما زادهم ما رآه إلا إيماناً بالله،
وتسليماً لأمره. قال الفراء: ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا
إيماناً وتسليماً. قال علي بن سليمان: ﴿رأى﴾ يدل على
الرؤية، وتأنيت الرؤية غير حقيقي، والمعنى: ما زادهم الرؤية
إلا إيماناً للرب، وتسليماً للقضاء، ولو قال: ما زادتكم لجاز
﴿ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ أي:
من المؤمنين المخلصين رجال صدقوا أتوا بالصدق، من
صدقني إذا قال الصدق، ومحل ﴿ما عاهدوا الله عليه﴾
النصب بنزع الخافض، والمعنى: أنهم وفوا بما عاهدوا عليه
رسول الله ﷺ ليلة العقبة من الثبات معه، والمقاتلة لمن
قاتله، بخلاف من كذب في عهده، وخان الله ورسوله، وهم:
المنافقون، وقيل: هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع
رسول الله ﷺ ثبّوا له ولم يغيروا، ووجه إظهار الاسم
الشريف، والرسول في قوله: ﴿صدق الله ورسوله﴾ بعد
قوله: ﴿وما وعدنا الله ورسوله﴾ هو قصد التعظيم كما في
قول الشاعر:

أرى الموت لا يسبق الموت شيء

وايضاً لو أضمرهما، لجمع بين ضمير الله وضمير
رسوله في لفظ واحد. وقال: صدقنا، وقد ورد النهي عن
جمعهما كما في حديث «بئس خطيب القوم أنت» لمن قال:
ومن يعصهما، فقد غوى. ثم فصل سبحانه حال الصادقين
بما وعدوا الله ورسوله، وقسمهم إلى قسمين، فقال: ﴿فمنهم
من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾ النحب: ما التزمه

فاتوهم، وزورهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا رثوا عليه»، وقد تعقب الحاكم في تصحيحه الذهبي كما نكر ذلك السيوطي، ولكنه قد أخرج الحاكم حديثاً آخر، وصححه. وأخرجه أيضاً البيهقي في الدلائل عن أبي نر قال: «لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد من علي مصعب بن عمير مقتولاً على طريقه، فقرا ﴿مَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية». وأخرج ابن مريويه من حديث خباب مثله، وهما يشهدان لحديث أبي هريرة. وأخرج الترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه عن طلحة: «أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسأله يوقرونه، ويهابونه، فسأله الأعرابي، فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم إنني اطلعت من باب المسجد، فقال: أين السائل عن قضى نحبه؟ قال الأعرابي: أنا، قال: هذا ممن قضى نحبه». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه من حديثه نحوه. وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه». وأخرج سعيد بن منصور، وأبو يعلى، وأبو نعيم، وابن المنذر، وابن مريويه عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحبه، فلينظر إلى طلحة». وأخرج ابن مريويه من حديث جابر مثله. وأخرج ابن منده، وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه. وأخرج أبو الشيخ، وابن عساكر عن علي: أن هذه الآية نزلت في طلحة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس ﴿فَمَنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ قال: الموت على ما عاهدوا الله عليه، ومنهم من ينتظر الموت على ذلك. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن مريويه عن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله: ﴿فَمَنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ قال: مات على ما هو عليه من التصديق، والإيمان ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ ذلك ﴿وَمَا بَكَلُوا تَبِيلاً﴾ لم يغيروا كما غير المنافقون.

[illegible]

قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ عِصْيَا آلِهِمْ وَغَوَوْهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾، وهم بنو قريظة، فإنهم عاونوا الأحزاب، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وصاروا يداً واحدة مع الأحزاب. والصياصي جمع صيصية: وهي الحصون، وكل شيء يتحصن به يقال له: صيصية، ومنه صيصية الديك، وهي الشوكة التي في رجليه، وصياصي البقر قرونها؛ لأنها تمتنع

ومحل «بغضهم» النصب على الحال، والباء للمصاحبة أي: حال كونهم متلبسين بغضهم، ومصابين له، ويجوز أن تكون للسببية، وجملة «لم ينالوا خيراً» في محل نصب على الحال أيضاً من الموصول، أو من الحال الأولى على التعاقب، أو التداخل. والمعنى: أن الله ردهم بغضهم لم يشف صدورهم، ولا نالوا خيراً في اعتقادهم، وهو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيراً أي خيراً، بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلا عناء السفر، وغرم النفقة «وكفى الله المؤمنين القتال» بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة «وكان الله قوياً عزيزاً» على كل ما يريده إذا قال له كن، عزيزاً غالباً قاهراً لا يغال به أحد من خلقه، ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿سَلَوَكُمْ﴾ قال: استقبلوكم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ قال: هيناً. وأخرج ابن مريويه، والخطيب، وابن عساكر، وابن النجار عن عمر في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: في جُورِ رسول الله، وقد استدلَّ بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة، وهي خارجة عما نحن بصده. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ إلى آخر الآية قال: إن الله قال لهم في سورة البقرة: ﴿لَمَّا حَسِبْتُمْ أَنْ تَتَخَلَّوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ النَّبِيِّنْ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَآمِ﴾ [البقرة: 214] فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فتأول المسلمون ذلك، فلم يزدحم ﴿إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾. وأخرج البخاري، وغيره عن أنس قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وأخرج ابن سعد، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والبخاري في معجمه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر، فشق عليه، وقال: أوَّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرينَّ الله ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو وأين؟ قال: وأما لريح الجنة أجدها بون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة، وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه. وقد روي عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذي، وصححه، والنسائي، وغيرهما. وأخرج الحاكم، وصححه، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية، ثم قال: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله،

بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيمهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من آدم، فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاء جبريل، وإن على ثنياه لوقع الغبار، فقال: أوقد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح: أخرج إلى بني قريظة، فقاتلهم، فلبس رسول الله ﷺ لأمته، وأثن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم، واشتد البلاء عليهم، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فأتي به على حمار، فقال رسول الله ﷺ: احكم فيهم، قال: فلاني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال: لقد حكمت فيهم بحكم الله، وحكم رسوله.

يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّدْنَهَا فَهَٰذَا بَيْنَكُمُ الْمِيزَانُ ۖ وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْبُيُوتِ ۖ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ النَّبِيِّ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْغَافِلُونَ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنْ أَمْرِ النَّاسِ ۚ وَلَٰكِن يَّحْسِبُ الْغَافِلُونَ ۚ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ سَبِّحَكَ شَيْئًا يَصْنَعُ لَهَا أَكْثَابُ ضَعْفَيْنِ ۚ كَانَ عَلَى اللَّهِ بِسِيرًا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ مِثْلَ مَا يَصْنَعُ ۚ وَتَمَلَّ صَلَاحًا لِّأَزْوَاجِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَعْدَانَهُمْ رَفَقًا ۚ كَرِيمًا ۚ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ لَسَأَلْتُكَ عَنْ نِّسَاءٍ ۖ إِنَّ أَتَمَّ شَيْءٍ فَلَا تَحْصُرَنَّ الْقَوْلَ فَطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْ قَوْلًا مَّرُوفًا ۚ وَفَرَنْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَخْرُجَنَّ تَرْجُ الْعِجَابَةِ الْأُولَى ۚ وَأَمَّا الْعِجَابَةُ ۖ وَأَمَّا الْكُفْرَةُ ۖ وَأَمَّا الْكُفْرَةُ ۖ وَأَمَّا الْكُفْرَةُ ۖ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَكْثَرَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۚ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُثَلَّ فِي بُيُوتِكُمْ ۖ مِنْ ءَابَتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۚ

قوله: **يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ** قيل: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من المنع من إيذاء النبي ﷺ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات. قال الواحدي: قال المفسرون: إن أزواج النبي ﷺ سألته شيئا من عرض الدنيا، وطلب من الزيادة في النفقة، وأذنيه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهن شهرا، وأنزل الله آية التخيير هذه، وكان يومئذ تسعا: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم حبيبة، وسودة هؤلاء من نساء قريش، وصفية الخيرية، وميمونة الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية. ومعنى **«الحياة الدنيا وزينتها»** سعتها، ونضارتها، ورفاهيتها، والتنعيم فيها **«فتعالين»** أي: أقبلن إلي **«لمتعكن»** بالجزم جوابا للأمر أي: أعطكن المتعة **«و»** كذا **«أسرحكن»** بالجزم أي: أطلقكن **«وبالجزم في الفعلين** قرأ الجمهور، وقرأ حميد الخزاز بالرفع في الفعلين على الاستئناف، والمراد بالسراح الجميل: هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة. وقيل: إن جزم الفعلين على أنهما جواب الشرط، وعلى هذا يكون قوله: **«فتعالين»** اعتراضا بين الشرط، والجزاء **«وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار**

بها، ويقال: لشوكة الحائك التي يسوي بها السداة واللحمة صيصية، ومنه قول بريد بن الصمة: فجنث إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممد ومن إطلاقها على الحصون قول الشاعر:

فاصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يبتنن الصياصيا **«وقف في قلوبهم الرعب»** أي: الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتل، وأولادهم ونساءهم للسبي، وهي معنى قوله: **«فريقا تقتلون وتأسرون فريقا»** فالفريق الأول هم: الرجال، والفريق الثاني هم: النساء والذرية، وهذه الجملة مبينة، ومقررة لأقذف الرعب في قلوبهم. قرأ الجمهور (تقتلون) بالفوقية على الخطاب، وكذلك قرءوا (تأسرون)، وقرأ ابن نكوان في رواية عنه بالتحية فيهما، وقرأ اليماني بالفوقية في الأول، والتحتية في الثاني، وقرأ أبو حيوة (تأسرون) بضم السين، وقد حكى الفراء كسر السين، وضمها، فهما لغتان، ووجه تقديم مفعول الفعل الأول، وتأخير مفعول الفعل الثاني أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة، وكان الوارد عليهم أشد الأمرين، وهو: القتل، كان الاهتمام بتقديم نكرهم أنسب بالمقام.

وقد اختلف في عدد المقتولين، والمأسورين، ف قيل: كان المقتولون من ستمائة إلى سبعمائة، وقيل: ستمائة، وقيل: سبعمائة، وقيل: ثمانمائة، وقيل: تسعمائة. وكان المأسورون سبعمائة، وقيل: سبعمائة وخمسين، وقيل: تسعمائة **«وأورثكم أرضهم وبيارهم وأموالهم»** المراد بالأرض العقار، والنخيل، والبيدار المنازل، والحصون، وبالأموال الحلي، والأثاث، والمواشي، والسلاح، والدراهم، والنانير **«وأرضاً لهم تطووها»** أي: وأورثكم أرضاً لم تطووها، وجملة لم تطووها صفة لأرضاً. قرأ الجمهور (لم تطووها) بهمزة مضمومة، ثم واو ساكنة، وقرأ زيد بن علي (تطوها) بفتح الطاء، وواو ساكنة.

واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المنكورة، فقال يزيد بن رومان وابن زيد، ومقاتل: إنها خيبر، ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها، فوعدهم الله بها. وقال قتادة: كنا نتحدث أنها مكة. وقال الحسن: فارس، والروم. وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة **«وكان الله على كل شيء قديرا»** أي: هو سبحانه قدير على كل ما أراده من خير، وشر، ونعمة، ونقمة، وعلى إنجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«ومن صياصيمهم»** قال: حصونهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن مريويه عن عائشة قالت: «مخرجت يوم الخندق أئقو الناس، فإذا أنا بسعد بن معاذ، ورماء رجل من قريش يقال له: ابن الفرقة بسهم، فأصاب أكله فقطعه، فدعا الله سعدا، فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من قريظة، فبعث الله الريح على المشركين **«وكفى الله المؤمنين القتال»**، ولحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه

يعرفها أحد من أهل اللغة، والمعنى في يضاعف ويضعف واحد أي: يجعل ضعفين، وهكذا ضعف ما قاله ابن جرير ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ لا يتعاطفه، ولا يصعب عليه ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً﴾ قرأ الجمهور (يقنت) بالتحتي، وكذا قرءوا: (يات منكن) حملاً على لفظ من في الموضعين، وقرأ الجحدري، ويعقوب، وابن عامر في رواية، وأبو جعفر بالفوقية حملاً على المعنى، ومعنى «من يقنت»: من يطع، وكذا اختلف القراء في «مبينة»، فعنهم من قرأها بالكسر، ومنهم من قرأها بفتح الياء كما تقدم في النساء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر (نضعف) بالنون، ونصب العذاب، وقرئ (نضاعف) بكسر العين على البناء للفاعل ﴿نوئتها لجرها مرتين﴾ قرأ حمزة، والكسائي بالتحتي، وكذا قرأ (يعمل) بالتحتي، وقرأ الباقر (تعمل) بالفوقية، ونؤت بالنون، ومعنى إتيانهن الأجر مرتين: أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلاً ما يستحقه غيرهن من النساء إذا فعلن تلك الطاعة، وفي هذا دليل قوي على أن معنى «يضاعف لها العذاب ضعفين»: أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثاً، لأن المراد إظهار شرفهن، ومزيتهن في الطاعة والمعصية بكون حسنتهن كحسنتين، وسيئتهن كسيئتين، ولو كانت سيئتهن كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين، فإن الله أعلم من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن ﴿واعتدنا لها﴾ زيادة على الأجر مرتين ﴿ورزقاً كريماً﴾. قال المفسرون: الرزق الكريم هو نعيم الجنة، حكى ذلك عنهم النحاس. ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحاً، فقال: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ قال الزجاج: لم يقل: كواحدة من النساء، لأن أحد نفي عام للمنكر، والمؤنث، والواحد، والجماعة. وقد يقال: على ما ليس بآدمي كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة، ولا بعير. والمعنى: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف. ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد، فقال: ﴿إن اتقيتن﴾ فبين سبحانه: أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهن للتقوى، لا لمجرد اتصالهن بالنبي ﷺ. وقد وقعت منهن لله الحمد التقوى البينة، والإيمان الخالص، والمشي على طريقة رسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن اتقيتن، فلستن كأحد من النساء. وقيل: إن جوابه ﴿فلا تخضعن﴾ والاول أولى. ومعنى ﴿فلا تخضعن بالقول﴾: لا تلتن القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة، وهي قوله: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي: فجور، وشك، ونفاق، وانتصاب يطمع لكونه جواب النهي. كذا قرأ الجمهور. وحكى أبو حاتم: أن الأعرج قرأ (فيطمع) بفتح الياء، وكسر الميم. قال النحاس: أحسب هذا غلطاً، ورويت هذه القراءة عن أبي السمال، وعيسى بن عمر، وابن محيصن، وروي عنهم: أنهم قرءوا

الآخرة: أي: الجنة، ونعيمها ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن﴾ أي: اللاتي عملن عملاً صالحاً ﴿لجراً عظيماً﴾ لا يمكن وصفه، ولا يقادر قدره، وذلك بسبب إحسانهن، وبمقابلة صالح عملهن.

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه على قولين: القول الأول: أنه خيرهن بإذن الله في البقاء على الزوجية، أو الطلاق، فاخترن البقاء، وبهذا قالت عائشة، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والزهري، وربيعه. والقول الثاني: أنه إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكنهن، ولم يخيرهن في الطلاق، وبهذا قال علي، والحسن، وقتادة، والراجح الأول. واختلفوا أيضاً في المخيرة إذا اختارت زوجها هل يحسب مجرد ذلك التخيير على الزوج طلاقاً أم لا؟ فذهب الجمهور من السلف، والخلف إلى أنه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقاً لا واحدة، ولا أكثر. وقال علي، وزيد بن ثابت: إن اختارت زوجها، فواحدة بائنة، وبه قال الحسن، والليث، وحكاه الخطابي، والنقاش عن مالك. والراجح الأول لحديث عائشة الثابت في الصحيحين قالت: «خيرنا رسول الله ﷺ، فاخترناه، فلم يعد طلاقاً، ولا وجه لجعل مجرد التخيير طلاقاً، ودعوى أنه كناية من كنايات الطلاق منقوعة بأن المخير لم يرد الفرقة لمجرد التخيير، بل أراد تفويض المرأة، وجعل أمرها بيدها، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية، وإن اختارت الفرقة صارت مطلقة.

واختلفوا في اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلاقاً رجعية، أو بائنة. فقال بالأول عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي ليلى، والثوري، والشافعي، وقال بالثاني علي، وأبو حنيفة، وأصحابه، وروي عن مالك. والراجح الأول، لأنه يبعد كل البعد أن يطلق رسول الله ﷺ نساءه على خلاف ما أمره الله به، وقد أمره بقوله: ﴿إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعلتهن﴾ [الطلاق: 1]، وروي عن زيد بن ثابت: أنها إذا اختارت نفسها، فثلاث طلاقات، وليس لهذا القول وجه. وقد روي عن علي: أنها إذا اختارت نفسها، فليس بشيء، وإذا اختارت زوجها، فواحدة رجعية. ثم لما اختار نساء رسول الله ﷺ رسول الله أنزل فيهن هذه الآيات تكرمة لهن، وتعظيماً لحقهن، فقال: ﴿يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة﴾ أي: ظاهرة القبح واضحة الفحش، وقد عصمهن الله عن ذلك، وبرأهن، وطهرهن ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ أي: يعذبهن مثلي عذاب غيرهن من النساء إذا اتين بمثل تلك الفاحشة، وذلك لشرفهن، وعلو درجتهن، وارتفاع منزلتهن. وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع أن تضاعف الشرف، وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات. وقر أبو عمرو (يضعف) على البناء للمفعول، وفرق هو، وأبو عبيد بين يضاعف، ويضعف، فقالا: يكون يضاعف ثلاثة عذابات، ويضعف عذابين. قال النحاس: هذه التفرقة التي جاء بها لا

بالجزم عطفاً على محل فعل النهي «وقلن قولاً معروفاً» عند الناس بعيداً من الريبة على سنن الشرع، لا ينكر منه سامعه شيئاً، ولا يطمع فيهنّ أهل الفسق، والفجور بسببه «وقرن في بيوتكن» قرأ الجمهور (وقرن) بكسر القاف من وقر يقر وقرأ أي: سكن، والأمر منه قر بكسر القاف، وللنساء قرن مثل عدن وزن. وقال المبرد: هو من القرار، لا من الوقاء، تقول: قررت بالمكان بفتح الراء، والأصل اقررن بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً كما قالوا في: ظلت ظلت، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف. وقال أبو علي الفارسي: أبملت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف كما أبملت في قيراط، ودينار، وصار للياء حركة الحرف الذي أبملت منه، والتقدير اقررن، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين، وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها، فيصير قرن. وقرأ نافع، وعاصم بفتح القاف وأصله قررت بالمكان: إذا أقمت فيه بكسر الراء، أقر بفتح القاف كحمد يحمد، وهي: لغة أهل الحجاز، نكر ذلك أبو عبيد عن الكسائي، ونكرها الزجاج، وغيره. قال الفراء: هو كما تقول هل حسنت صاحبك أي: هل أحسسته؟ قال أبو عبيد: كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف، وذلك لأن قررت بالمكان أقر لا يجوز كثير من أهل العربية. والصحيح قررت أقر بالكسر، ومعناه: الأمر لهنّ بالتوقر والسكون في بيوتهنّ، وأن لا يخرجن، وهذا يخالف ما ذكرناه هنا عنه عن الكسائي، وهو من أجل مشايخه. وقد وافقه على الإنكار لهذه القراءة أبو حاتم، فقال: إن قرن بفتح القاف لا مذهب له في كلام العرب. قال النحاس: قد خولف أبو حاتم في قوله: إنه لا مذهب له في كلام العرب بل فيه مذهبان: أحدهما: حكاه الكسائي، والآخر عن علي بن سليمان، فأما المذهب الذي حكاه الكسائي، فهو ما قدمناه من رواية أبي عبيد عنه، وأما المذهب الذي حكاه علي بن سليمان، فقال: إنه من قررت به عينا أقر. والمعنى: واقررن به عينا في بيوتكن. قال النحاس: وهو وجه حسن.

وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية، فقال ابن عباس، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، ومقاتل، وسعيد بن جبیر: إن أهل البيت المذكورين في الآية هنّ: زوجات النبي ﷺ خاصة. قالوا: والمراد بالبيت بيت النبي ﷺ، ومسكن زوجاته لقوله: «وانكرن ما يتلى في بيوتكن». وأيضاً السياق في الزوجات من قوله: «يا أيها النبي قل لأزواجك» إلى قوله: «وانكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً». وقال أبو سعيد الخدري، ومجاهد، وقتادة، وروي عن الكلبي: أن أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي، وفاطمة، والحسن، والحسين خاصة، ومن حججهما الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، وهو قوله: «عنكم وليطهركم»، ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن، ويطهركن. وأجاب الأولون عن هذا أن التنكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه:

وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى، فقيل: ما بين آدم ونوح، وقيل: ما بين نوح وإدريس، وقيل: ما بين نوح وإبراهيم، وقيل: ما بين موسى وعيسى، وقيل: ما بين عيسى ومحمد. وقال المبرد: الجاهلية الأولى كما تقول

واقول: ليس بحسن، ولا هو معنى الآية، فإن المراد بها أمرهنّ بالسكون والاستقرار في بيوتهنّ، وليس من قرّة العين. وقرأ ابن أبي عبيدة (واقررن) باللف وصل وراءين الأولى مكسورة على الأصل «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» التبرج: أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل. وقد تقدم معنى التبرج في سورة النور. قال المبرد: هو مأخوذ من السعة، يقال: في أسنانه برج: إذا كانت متفرقة. وقيل: التبرج هو: التبخر في المشي، وهذا ضعيف جداً.

وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى، فقيل: ما بين آدم ونوح، وقيل: ما بين نوح وإدريس، وقيل: ما بين نوح وإبراهيم، وقيل: ما بين موسى وعيسى، وقيل: ما بين عيسى ومحمد. وقال المبرد: الجاهلية الأولى كما تقول

جاء علي، فأنخله معه، ثم قال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن واثلة بن الأسقع قال: «جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة، ومعه علي، وحسن، وحسين حتى دخل، فأنزلني علياً وفاطمة، وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه، وأنا مستدبرهم، ثم تلا هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قلت: يا رسول الله، وأنا من أهلك؟ قال: وأنت من أهلي». قال واثلة: إنه لأرجأ ما أرجوه. وله طرق في مسند أحمد. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أنس: «أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت ويطهركم تطهيراً». وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ قال: «أتذكركم الله في أهل بيتي» فقيل لزيد: ومن أهل بيته؟ ليس نسأله من أهل بيته؟ قال: نسأله من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصنعة بعده: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. وأخرج الحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله: ﴿وأصحاب اليمين﴾ [الواقعة: 7]». وأصحاب الشمال: [الواقعة: 41] فانا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين اثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلاثاً، فذلك قوله: ﴿وأصحاب الميمنة﴾ [الواقعة: 8]، ﴿وأصحاب المشأمة﴾ [الواقعة: 9]، ﴿والسابقون السابقون﴾ [الواقعة: 10] فانا من السابقين، وأنا خير السابقين. ثم جعل الثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ [أنكروا: 10] فانا من قبائل آل أبي بكر، وأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله، ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً، فذلك قوله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾. فانا، وأهل بيتي مطهرون من الذنوب. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن أبي الحمراء قال: رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله، قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي، وفاطمة، فقال: الصلاة للصلاة ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾». وفي إسناده أبو داود الأعمى، وهو رضاء كذاب. وفي الباب أحاديث، وآثار، وقد ذكرنا ههنا ما يصلح للتمسك به نون ما لا يصلح.

وقد توسط طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية

﴿أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ [هود: 73] وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته، أو زوجته، فيقول: هم بخير.

ولنذكر ههنا ما تمسك به كل فريق: أما الأولون، فتمسكوا بالسياق، فإنه في الزوجات. كما ذكرنا، وبما أخرجه ابن أبي حاتم، وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة. وقال عكرمة: من شاء باهله أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ. وأخرج نحوه ابن مروي عن طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن عكرمة نحوه. وأخرج ابن سعد عن عروة نحوه.

وأما ما تمسك به الآخرون، فأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت: في بيتي نزلت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ وفي البيت فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين، فجعلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عن أم سلمة أيضاً: أن النبي ﷺ كان في بيتها على منامة له عليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فقال رسول الله ﷺ: «ادعي زوجك، وابنيك حسناً، وحسيناً، فدعتهن، فبينما هم ياكلون إذ نزلت على النبي ﷺ ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾، فأخذ النبي ﷺ بفضلته كسائه، فغشاهم إياها، ثم أخرج يده من الكساء، والوى بها إلى السماء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرات. قالت أم سلمة: فأنخلت رأسي في السترة، فقلت: يا رسول الله، وأنا معكم؟ فقال: إنك إلى خير مرتين. وأخرجه أيضاً أحمد من حديثها قال: حدثنا عبد الله بن نمير. حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر: أن النبي ﷺ، فذكره. وفي إسناده مجهول، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات. وقد أخرجه الطبراني عنها من طريقين بنحوه. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لحديث أم سلمة طرقاً كثيرة في مسند أحمد، وغيره. وأخرج ابن مروي، والخطيب من حديث أبي سعيد الخدري نحوه. وأخرج الترمذي وابن جرير، والطبراني، وابن مروي عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾، ونكر نحو حديث أم سلمة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عن عائشة قالت: «خرج النبي ﷺ غداة، وعليه مرط مطبق من شعر أسود، فجاء الحسن والحسين، فأنخلهما معه، ثم جاءت فاطمة، فأنخلها معه، ثم

اخترت إلا أخبرتها. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة: «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخبر أزواجه قالت: فبدأ بي، فقال: إني ذاك لك أمراً، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك، وقد علم أن أبوي لم يكونا يامراني بفراقه، فقال: إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ هُنَّ أَعْزَمُ عَلَيْكُمْ سَبَبُ النَّزُولِ﴾ إلى تمام الآية، فقلت له: ففي أي هذا استأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ فِي دِينِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً﴾ قال: يقول: من يطع الله منكراً، وتعمل منكراً لله ورسوله بطاعته. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال: يقول: لا ترخصن بالقول، ولا تخضعن بالكلام. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال: مقارنة الرجال في القول حتى يطمع الذي في قلبه مرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن محمد بن سيرين قال: نبئت: أنه قيل لسودة زوج النبي ﷺ: مالك لا تحجين، ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت، واعتمرت، وأمرني الله أن أقر في بيتي، فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت؛ قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر عن مسروق قال: كانت عائشة إذا قرأت ﴿وَقُرْآنَ فِي بَيْتِوتِكُنَّ﴾ بكت حتى تبلى خمارها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب قال: كانت الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب سأل، فقال: أرايت قول الله لأزواج النبي ﷺ ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبَرَّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ هل كانت جاهلية غير واحدة، فقال ابن عباس: ما سمعت بأولى إلا ولها آخرة، فقال له عمر: فأتيني من كتاب الله ما يصلق ذلك، فقال: إن الله يقول: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: 78] أول مرة فقال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟ قال: مخزوم، وعبد شمس. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضاً في الآية قال: تكون جاهلية أخرى. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة: أنها تلت هذه الآية فقالت: الجاهلية الأولى كانت على عهد إبراهيم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الجاهلية الأولى ما بين عيسى ومحمد. وقد قُتِمْنَا ذكر الآثار الواردة في سبب نزول قوله: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنْكُرُنَ مَا يَتْلَى فِي بَيْتِوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: القرآن والسنة يمتن بذلك عليهن. وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة عن سهل في قوله: ﴿وَأَنْكُرُنَ مَا يَتْلَى فِي بَيْتِوتِكُنَّ﴾ الآية قال: كان رسول الله

شاملة للزوجات، ولعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، أما الزوجات، فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قُتِمْنَا، ولكونهن السالكات في بيوته ﷺ النازلات في منزله، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس، وغيره. وأما دخول علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، فلكونهن قرباته، وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصروفة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين، فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهم ما لا يجوز إهماله. وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي، وابن كثير، وغيرهما. وقال جماعة: هم بنو هاشم، واستدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس، ويقول زيد بن أرقم المتقدم حيث قال: ولكن آله من حرم الصدقة بعده: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب. قوله: ﴿وَأَنْكُرُنَ مَا يَتْلَى فِي بَيْتِوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: انكرن موضع النعمة إذ صيركن الله في بيوت يتلى فيها آيات الله، والحكمة، أو انكرنها، وتفكرن فيها؛ لتتعتن بمواعظ الله، أو انكرنها للناس؛ ليتعتلوا بها، ويهتدوا بهداها، أو انكرنها بالتلاوة لها؛ لحفظنها، ولا تترك الاستكثار من التلاوة. قال القرطبي: قال أهل التأويل: آيات الله هي: القرآن، والحكمة السنة. وقال مقاتل: المراد بالآيات، والحكمة أمره، ونهيه في القرآن. وقيل: إن القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد، وصلى النبوة، وبين كونه حكمه مشتملة على فنون من العلوم، والشرائع ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبيراً﴾ أي: لطيفاً بأوليائه خبيراً بجميع خلقه، وجميع ما يصدر منهم من خير، وشر، وطاعة، ومعصية، فهو يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه عن طريق أبي الزبير عن جابر قال: «أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فلم يؤذن له، ثم أتى لابي بكر وعمر، فدخلوا، والنبي ﷺ جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألت النفقة آنفاً فوجأت في عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: هن حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن نساؤه والله لا تسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأنزل الله الخيار، فنادى بعائشة، فقال: إني ذاك لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك، قالت: ما هو؟ فتلا عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ هُنَّ أَعْزَمُ عَلَيْكُمْ سَبَبُ النَّزُولِ﴾ الآية، قالت عائشة: أفبك استأمر أبوي، بل أختار الله رسوله، وأسالك أن لا تذكر لنسائك ما اخترت، فقال: إن الله لن يبعثني متعتاً، ولكن بعثني معلماً مبشراً، لا تسألني امرأة منهن عما

❦ يصلي في بيوت أزواجه النوافل بالليل والنهار.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِمِينَ وَالْقَائِمَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالشُّعْبَةَ الْأَمَشِيَّةَ وَالشُّعْبَةَ الْأَمَشِيَّةَ
وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ
اللَّهُ كَبِيرٌ وَالذِّكْرُ أَغْدُ اللَّهُ هُمْ مَقْفَرَةٌ وَأَمْرًا عَظِيمًا ﴿٧٥﴾ وَمَا كَانَ
لِإِنْسَانٍ أَنْ يَقُولَ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُنْ لَهُ الْخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ
بَعَثَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٧٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ بدأ سبحانه بذكر الإسلام الذي هو مجرد الدخول في الدين، والانقياد له مع العمل، كما ثبت في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإسلام قال: «هو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، ثم عطف على المسلمين ﴿وَالْمُسْلِمَاتُ﴾ تشريفاً لهنّ بالذكر، وهكذا فيما بعد، وإن كنّ داخلات في لفظ المسلمين، والمؤمنين، ونحو ذلك، والتذكير إنما هو لتغليب الذكور على الإناث كما في جميع ما ورد في الكتاب العزيز من ذلك، ثم نكر ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ وهم من يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول الله ﷺ، والقانت العابد المطيع، وكذا القانت، وقيل: المداومين على العبادة، والطاعة، والصائق والصائقة هما: من يتكلم بالصق، ويتجنب الكذب، ويقي بما عوده عليه، والصابر والصابرة هما: من يصبر عن الشهوات، وعلى مشاق التكليف، والخاشع والخاشعة هما: المتواضعان لله الخائفان منه الخاضعان في عبادتهم لله، والمتصقّ والمتصدقة هما: من تصقّ من ماله بما أوجبه الله عليه. وقيل: ذلك أعمّ من صدقة الفرض، والنفل، وكذلك الصائم والصائمة، قيل: ذلك مختصّ بالفرض، وقيل: هو أعمّ، والحافظ، والحافظة لفرجيهما عن الحرام بالتعفف، والتتّره، والاقتصار على الحلال، والذاكر والذاكرة هما: من يذكر الله على أحواله، وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر الله سبحانه بالقلب واللسان، واكتفى في الحافظات بما تقدّم في الحافظين من ذكر الفروج، والتقدير: والحافظين فروجهن، والحافظات فروجهن، وكذا في الذاكرات، والتقدير: والذاكرين الله كثيراً والذاكرات الله كثيراً، والخبر لجميع ما تقدّم هو قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ لَهُمْ مغفرةً وِاجراً عظيماً﴾ أي: مغفرة لنزوبهم التي أنبئوها، وأجرأ عظيماً على طاعاتهم التي فعلوها من الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، والعفاف، والذكر، ووصف الأجر بالعظم للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ، ولا شيء أعظم من أجر هو الجنة ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع، ولا ينفد، اللهم اغفر ذنوبنا، وأعظم أجورنا ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ما صحّ، ولا استقام لرجل، ولا امرأة من المؤمنين، ولفظ ما كان، وما ينبغي، ونحوهما

معناها: المنع، والحظر من الشيء والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعاً، وقد يكون لما يمتنع عقلاً كقوله: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ [النمل: 60] ومعنى الآية: أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمراً أن يختار من أمر نفسه ما شاء، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء، ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه واختاره له، وجمع الضميرين في قوله: لهم، ومن أمرهم؛ لأن مؤمن ومؤمنة وقعا في سياق النفي فهما يعمان كل مؤمن، ومؤمنة. قرأ الكوفيون (أن يكون) بالتحية، واختار هذه القراءة أبو عبيد؛ لأنه قد فرّق بين الفعل، وفاعله المأمُوث بقوله: لهم مع كون التانيث غير حقيقي، وقرأ الباقرن بالوقية لكونه مسنداً إلى الخيرة، وهي مؤنثة لفظاً، والخيرة مصدر بمعنى: الاختيار. وقرأ ابن السمينف (الخيرة) بسكون التحية، والباقرن بتحريكها، ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره، فقال: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ في أمر من الأمور، ومن ذلك عدم الرضا بالقضاء ﴿فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ أي: ضلّ عن طريق الحق ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى.

وقد أخرج أحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال، فلم يرعني منه إلا ذات يوم إلا نداؤه على المنبر، وهو يقول: إن الله يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخر الآية. وروي نحو هذا عنها من طريق أخرى أخرجه الفريابي، وابن سعد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، والطبراني، وابن مردويه عن أم عماره الأنصارية: أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه بإسناد. قال السيوطي: حسن، عن ابن عباس قال: قالت النساء: يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين، ولا يذكر المؤمنات؟ فنزلت ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاة زید بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية، فخطبها، قالت: لست بذاك، قال: بلى فانكحيه، قالت: يا رسول الله أوامر نفسي، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، قالت: قد رضيت لي يا رسول الله منكحا، قال: نعم، قالت: وإن لا أعصي رسول الله قد أنكحته نفسي. وأخرج نحوه عنه ابن جرير من طريق أخرى. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ لزینب: «إنني أريد أن أزوجه زيد بن حارثة، فإنني قد رضيت لك»، قالت: يا رسول الله لكني لا أرأاه لنفسی، وأنا أيم قومی، وبنت عمك، فلم أكن

الوطر في اللغة: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، يقال: قضى وطرا منه: إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

أيها الرائح المجد ابتكارا قد قضى من تهامة الأوطار
أي: فرغ من أعمال الحج، وبلغ ما أراد منه، والمراد هنا: أنه قضى وطره منها بנקاحها، والنخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وقيل: المراد به الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة، وقال المبرد: الوطر الشهوة، والمحبة، وأنشد:

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر
وقال أبو عبيدة: الوطر: الأرب، والحاجة، وأنشد قول الفراري:

وَعِنَّا قَبْلَ أَنْ نَرْدَعَهُ لِمَا قَضَى مِنْ شَبَابِنَا وَطَرَا
قرأ الجمهور ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وقرأ علي وابناه الحسن والحسين ﴿زَوَّجْتُكَهَا﴾ فلما أعلمه الله بذلك نخل عليها بغير إذن، ولا عقد، ولا تقدير صدق، ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أمته. وقيل: المراد به الأمر له بأن يتزوجها، والأول أولى، وبه جاءت الأخبار الصحيحة. ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لَنْ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ الزَّوْجِ﴾ ومشفة ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ أي: في التزوج بأزواج من يجعلونه أبناء كما كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون، وكان النبي ﷺ قد تبني زيد بن حارثة، فكان يقال: زيد بن محمد حتى نزل قوله سبحانه ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5] وكانت العرب تعتقد أنه يحرم عليه نساء من تبنيوه كما تحرم عليه نساء أبنائهم حقيقة. والأدعياء جمع دعى، وهو الذي يدعي ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة، فأخبرهم الله أن نساء الأدعياء حلال لهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ بخلاف ابن الصلب، فإن امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كان قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاء ماضياً مفعولاً لا محالة. ثم بين سبحانه: أنه لم يكن على رسول الله ﷺ حرج في هذا النكاح، فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحل الله له وقدره وقضاه، يقال: فرض له كذا: أي: قدر له ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إن هذا هو السنن الأقدم في الأنبياء، والأمم الماضية إن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح، وغيره ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: قضاء مقضياً. قال مقاتل: أخبر الله أن أمر زينب كان من حكم الله، وقدره، وانتصاب سنة على المصدر، أي: سنَّ الله سنة الله، أو اسم وضع موضع المصدر، أو منصوب بجعل، أو بالإغراء. وردَّ أبو حبان بأن عامل الإغراء لا يحذف، ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين، وأثنى عليهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ﴾، والموصول في محل جر صفة للذين خلوا، أو منصوب على المدح، مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده، وخشيته في كل فعل وقول،

لأفعل، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يعني: زيداً ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: زينب ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ يعني: النكاح في هذا الموضع ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يقول: ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ قالت: قد أطعته، فاصنع ما شئت، فزوجه زيداً، وبخل عليها، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت أول امرأة هاجرت، فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فزوجه زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجه عبيده.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَزْوَاجِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٧﴾ مَا كَانَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ وَلَا يَخْشَوْنَ لِمَا إِلَّا اللَّهُ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿١٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٠﴾

لما زوج رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بزينب بنت جحش كما مر في تفسير الآية التي قبل هذه أنزل الله سبحانه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: وانكر إذ تقول للذي أنعم الله عليه، وهو: زيد بن حارثة، أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأن اعتقه من الرق، وكان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية، واعتقه، وتبناه، وسيتاتي في بيان سبب نزول الآية في آخر البحث ما يوضح المراد منها. قال القرطبي: وقد اختلف في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبري وغيره إلى أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد، فبیتزوجها هو، ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول، وعصيان أمر، وأذى باللسان، وتعظماً بالشرف قال له: اتق الله فيما تقول عنها، وأمسك عليك زوجك، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف انتهى. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زينب ﴿وَإِذَا تَقَالَى فِي أَمْرِهَا﴾ ولا تعجل بطلاقها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهو: نكاحها إن طلقها زيد، وقيل: حبها ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾ أي: تستحييهم، أو تخاف من تعبيرهم بأن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته، ثم تزوجه ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ في كل حال، وتخاف منه، وتستحييه والوالو للحال أي: تخفي في نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ قضاء

وأتبعته، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن، ويقولون: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فأنطلق حتى نخل البيت، فذهبت أدخل معه، فالتقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: 53] الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن عائشة قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ يعني: بالعق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ وإن رسول الله ﷺ لما تزوّجها قالوا: تزوّج حليّة ابنه، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلاً يقال له: زيد بن محمد، فأنزل الله ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: 5] يعني: أعدل عند الله. وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿هَسَنَةُ اللَّهِ فِي الْغُثِّينَ خُلُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: يعني: يتزوّج من النساء ما شاء هذا فريضة، وكان من قبل من الأنبياء هذا سنتهم، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة، وكان لداود مائة امرأة. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، عن ابن جريج في قوله: ﴿هَسَنَةُ اللَّهِ فِي الْغُثِّينَ خُلُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال داود: والمرأة التي نكح، وزوجها، واسمها اليسية، فذلك سنة في محمد وزينب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ كذلك من سنته في داود، والمرأة، والنبي، وزينب. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ قال: نزلت في زيد بن حارثة. وأخرج أحمد، ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل النبيين كمثّل رجل بنى داراً، فأنتهى إلّا لبنة واحدة، فجئت أنا، فأتّمت تلك اللبنة، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي، ومثل الأنبياء كمثّل رجل ابنتى داراً، فأكملها وأحسنها إلّا موضع لبنة، فكان من نخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلّا موضع اللبنة، فأنّا موضع اللبنة حتى ختم بي الأنبياء». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه من حديث أبي بن كعب نحوه أيضاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَىكُمْ وَلَهُ يَكُونُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٣﴾ يَوْمَ يَقُوتُهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٦﴾ وَيُنْذِرُ الْفَاسِقِينَ يٰٓأَنَّهُمْ قَضَلُوا كَبِيرًا ﴿٧﴾ وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَنَعَّ أَدْنَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨﴾

ولا يخشون سواه، ولا يباليون بقول الناس، ولا بتعييرهم، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ حاضرًا في كل مكان يكفي عباده كل ما يخافونه، أو محاسبًا لهم في كل شيء، ولما تزوّج ﷺ زينب قال الناس: تزوّج امرأة ابنه، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أي: ليس باب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته، ولا هو أب لأحد لم يلد، وقد ولد له الواحدي: قال المفسرون: لم يكن أباً أحد لم يلد، وقد ولد له من النكور إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهر. قال القرطبي: ولكن لم يعيش له ابن حتى يصير رجلاً، قال: وأما الحسن، والحسين، فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرين له ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال الأخفش، والفراء: ولكن كان رسول الله، وأجازا الرفع. وكذا قرأ ابن أبي عبيدة بالرفع في رسول وفي خاتم على معنى: ولكن هو رسول الله وخاتم النبيين، وقرأ الجمهور بتخفيف لكن، ونصب رسول وخاتم، ووجه النصب على خبرية كان المقطرة كما تقدّم، ويجوز أن يكون بالعطف على أباً أحد. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بتشديد لكن ونصب رسول على أنه اسمها، وخبرها محذوف: أي: ولكن رسول الله هو. وقرأ الجمهور (خاتم) بكسر التاء. وقرأ عاصم بفتحها. ومعنى القراءة الأولى: أنه ختمهم: أي: جاء آخرهم. ومعنى القراءة الثانية: أنه صار كالخاتم لهم الذي يتختمون به، ويتزيّنون بكونه منهم. وقيل: كسر التاء، وفتحها لغتان. قال أبو عبيد: الوجه الكسر: لأن التأويل: أنه ختمهم، فهو: خاتمهم، وأنه قال: «أنا خاتم النبيين»، وختم الشيء آخره، ومنه قولهم: خاتمة المسك. وقال الحسن: الخاتم هو: الذي ختم به ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ قد أحاط علمه بكل شيء، ومن جملة معلوماته هذه الأحكام المذكورة هنا.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، وغيرهم عن انس قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: اتق الله، وأمسك عليك زوجك، فنزلت ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾» قال انس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتّم هذه الآية، فتزوّجها رسول الله ﷺ فما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها، نبح شاة ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ فكانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: تَزَوَّجْتُ أَهْلِيكَ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ. وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وغيرهم عن انس قال: لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: «أذهب، فأنكرها علي، فأنطلق، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، فقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ ينكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدّها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، ودخل عليها بغير إن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ اطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس، وبقي رجال يتحنّون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ

إلى ملك الموت، وهو الذي يحييهم كما ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه. وقال مقاتل: هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الرب كما في قوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم﴾ [الرعد: 23 - 24] **﴿وَأَعِذْ لَهُمْ لَجْراً كَرِيماً﴾** أي: أعد لهم في الجنة رزقاً حسناً ما تشتهيهم أنفسهم، وتلذه أعينهم. ثم نكر سبحانه صفات رسول الله ﷺ التي أرسله لها، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾** أي: على أمته يشهد لمن صدقه وأمن به، وعلى من كذبه وكفر به. قال مجاهد: شأهاً على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم **﴿ومبشراً﴾** للمؤمنين برحمة الله، وبما أعد لهم من جزيل الثواب، وعظيم الأجر **﴿ونذيراً﴾** للكافرين والعصاة بالنار، وبما أعد الله لهم من عظيم العقاب **﴿وداعياً إلى الله﴾** يدعو عباد الله إلى التوحيد والإيمان بما جاء به، والعمل بما شرعه لهم، ومعنى **﴿بإذنه﴾**: بأمره له بذلك وتقديره، وقيل: بتبشيرهم **﴿وسرلاً مبشراً﴾**، أي: يستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة. قال الزجاج: **﴿وسرلاً﴾** أي: ذا سراج منير أي: كتاب نير، وانتصاب شأهاً، وما بعده على الحال **﴿وببشر المؤمنين﴾** عطف على مقتر يقضي المقام كأنه قال: فاشهد، وبشر، أو فبشر أحوال الناس **﴿وببشر المؤمنين﴾** أو هو من عطف جملة على جملة، وهي: المذكورة سابقاً، ولا يمنع من ذلك الاختلاف بين الجملتين بالإخبار، والإنشاء. أمره سبحانه بأن يبشرهم بأن لهم من الله فضلاً كبيراً على سائر الأمم، وقد بين ذلك سبحانه بقوله: **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾** [الشورى: 22] ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين، فقال: **﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾** أي: لا تطعهم فيما يشيرون عليك به من المداينة في الدين، وفي الآية تعريض لغيره من أمته، لأنه معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه، ويشيرون به عليه، وقد تقدم تفسير هذه الآية في أول السورة **﴿ودع أذاهم﴾** أي: لا تبال بما يصدر منهم إليك من الأذى بسبب يصيبك في دين الله، وشئت على أعدائه، أو دع أن تؤذيهم مجازاة لهم على ما يفعلونه من الأذى لك، فالمصدر على الأول مضاف إلى الفاعل، وعلى الثاني مضاف إلى المفعول، وهي منسوخة بآية السيف **﴿وتوكل على الله﴾** في كل شؤنك **﴿وكفى بالله وكيلاً﴾** توكل إليه الأمور، وتفوض إليه الشؤون، فمن فوض إليه أموره كفاه، ومن وكل إليه أحواله لم يحتج فيها إلى سواه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿انكروا الله نكراً كثيراً﴾** يقول: لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها أجلاً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، فقال:

قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انكروا الله نكراً كثيراً﴾** أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من نكره بالتهليل، والتحميد، والتسبيح، والتكبير، وكل ما هو نكر لله تعالى. قال مجاهد: هو أن لا ينساه أبداً، وقال الكلبي: ويقال: نكراً كثيراً بالصلوات الخمس، وقال مقاتل: هو التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير على كل حال **﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾** أي: نزهوه عما لا يليق به في وقت البكرة، ووقت الأصيل، وهما أول النهار، وآخره، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما، وخصّ التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله: **﴿انكروا الله﴾** تنبيهاً على مزيد شرفه، وإنافة ثوابه على غيره من الإنكار. وقيل: المراد بالتسبيح بكرة صلاة الفجر، وبالتسبيح أصيلاً صلاة المغرب. وقال قتادة، وابن جرير: والمراد صلاة الغداة، وصلاة العصر. وقال الكلبي: أما بكرة فصلاة الفجر، وأما أصيلاً فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء. قال المبرّد: والأصيل العشي، وجمعه أصائل **﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾** والصلاة من الله على العباد رحمة لهم وبركة عليهم، ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار كما قال: **﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾** [غافر: 7] قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: المعنى: ويأمر ملائكته بالاستغفار لكم، والجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح. وقيل: الصلاة من الله على العبد هي: إشاعة الذكر الجميل له في عباده، وقيل: الثناء عليه، وعطف ملائكته على الضمير المستكن في يصلي لوقوع الفصل بقوله: **﴿عليكم﴾** فأغنى ذلك عن التأكيد بالضمير المنفصل. والمراد بالصلاة هنا معنى مجازي يعم صلاة الله بمعنى: الرحمة، وصلاة الملائكة بمعنى: الدعاء لئلا يجمع بين حقيقة ومجاز في كلمة واحدة، واللام في **﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾** متعلق بيصلي: أي: يعتني بأمورك هو ملائكته: ليخرجكم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهدى، ومعنى الآية: تثبيت المؤمنين على الهداية، وبوامهم عليها؛ لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية. ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيساً لهم، وتثبيتاً فقال: **﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾** وفي هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدمها. ثم بين سبحانه: أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب بل هي عامة لهم، ولمن بعدهم، وفي الدار الآخرة، فقال: **﴿تحتيتهم يوم يلقونه سلام﴾** أي: تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة هي: التسليم عليهم منه عز وجل. وقيل: المراد تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم سلام، وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيماً فلما شملتهم رحمته، وأمنوا من عقابه حيا بعضهم بعضاً سروراً، واستبشاراً. والمعنى: سلامة لنا من عذاب النار. قال الزجاج: المعنى: فيسلمهم الله من الآفات، ويبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه. وقيل: الضمير في **﴿يلقونه﴾** راجع

امر علياً ومعاذاً أن يسيرا إلى اليمن، فقال: انطلقا فبشرا، ولا تنفرا ويسرا، ولا تعسرا، فإنها قد انزلت علي **«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً»** قال: شاهداً على أمتك، ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله **«بإبائه وسرلاً منيراً»** بالقرآن. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفة في القرآن **«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للاميين، أنت عبيدي ورسولي، سميتك: المتوكل. ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تعفو، وتصفح»** زاد أحمد **«ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعياناً عمياء، وأذنأناً صماء، وقلوباً غلفاء»**. وقد نكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث، فقال: وقال سعيد عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام، ولم يقل: عبد الله بن عمرو، وهذا أولى، فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسأل عن التوراة، فيخبر بما فيها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوْرَهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَنْدُوْنَهُنَّ فَتَمُوْرُهُنَّ وَسِرْجُوْرُهُنَّ سَرَكَأَ جِيْرًا ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطْلَقْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي مَاتَتْ أَجُورُهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِيْنُكُمْ وَمِمَّا آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَتَنَازَلَ عَلَيْكَ وَتَنَازَلَ عَنْتِكَ وَتَنَازَلَ خَلْدُكَ الَّتِي جَاءَتْ مَعَكَ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَجَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّسَاءِ إِنْ أَرَادَ النَّسَاءُ أَنْ يَسْتَحْكِمَ خَالِسَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُوْنُ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيْمًا ﴿٣١﴾ رَبُّنَا مِنْ نَشَأِهِمْ وَتَوْفِيقِهِ إِلَيْكَ مِنْ فَتْنَةٍ وَمَنْ أَنْفَيْتَ وَمَنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَرَضَتْ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوْبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ﴿٣٢﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِيْنُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴿٣٣﴾

لما نكر سبحانه قصة زيد، وطلاقه لزينا، وكان قد دخل بها، وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها كما تقدم خاطب المؤمنين مبيناً لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل البخل، فقال: **«يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات»** أي: عقدتم بهن عقد النكاح، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى: العقد كما قاله صاحب الكشاف، والقرطبي، وغيرهما.

وقد اختلف في لفظ النكاح هل هو حقيقة في الوطء، أو في العقد، أو فيهما على طريقة الاشتراك، وكلام صاحب الكشاف في هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة في الوطء، فإنه

انكروا الله قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبكم، بالليل والنهار، في البرِّ والبحر، في السفر والحضر، في الغنى والفقر، في الصحة والسقم، في السرِّ والعلانية، وعلى كل حال، وقال: **«وَسَبِّحُوْهُ بِكُرَّةٍ وَأَصِيْلًا»** إذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو، وملائكته قال الله: **«هو الذي يصلي عليكم وملائكته»**.

وقد ورد في فضل النكر، والاستكثار منه لحديث كثيرة، وقد صنّف في الإنكار المتعلقة بالليل والنهار، جماعة من الأئمة كالنسائي، والنوي، والجزري، وغيرهم، وقد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذاكرين، وفضيلة النكر **«ولنكر الله أكبر»** [العنكبوت: 45] وقد ورد أنه أفضل من الجهاد كما في حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد، والترمذي، والبيهقي: **«أن رسول الله ﷺ سئل: أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً، قلت: يا رسول الله ومن الغازی في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشرکین حتى ينکسر ويختضب دماً لکان الذاکرون أفضل منه درجة»** وأخرج أحمد عن أبي البرداء قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أتبشکم بخیر أعمالکم، وأزکامها عند ملیککم، وأرفعها فی درجاتکم، وخیر لکم من إعطاء الذهب والورق، وخیر لکم من أن تلقوا أعداءکم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقکم؟ قالوا: وما هو یا رسول الله؟ قال: نکر الله عزَّ وجلَّ»**. وأخرجه أيضاً الترمذي، وابن ماجه. وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«سبق المفردون، قالوا: وما المفردون یا رسول الله؟ قال: الذاکرون الله كثيراً»** وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: **«اكثرُوا نکر الله حتى يقولوا: مجنون»**. وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«انكروا الله حتى يقول المنافقون: إنكم مراؤون»**.

ورود في فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة في الصحيحين، وغيرهما، فمن ذلك حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده حطت خطاياها، ولو كانت مثل زبد البحر»**. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال: **«كنا مع رسول الله ﷺ، فقال لنا: أيعجز أحدكم أن يكتسب في اليوم ألف حسنة؟ فقال رجل: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: يسبح الله مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، ويحط عنه ألف خطيئة»**. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في نكر الموت، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن البراء بن عازب في قوله: **«تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ»** قال: يوم يلقون ملك الموت ليس من مؤمن يقبض روحه إلا سلم عليه. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس قال: لما نزلت **«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً»** وقد كان

الجمهور أنه قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمَنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقب الطلاق بالنكاح بلفظ، ثم المشعرة بالترتيب، والمهلة ﴿وَسَوْحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ أي: أخرجوهن من منازلكن: إذ ليس لكم عليهنَّ عدة، والسراح الجميل الذي لا ضرار فيه، وقيل: السراح الجميل أن لا يطالبها بما كان قد أعطاه، وقيل: السراح الجميل هنا كناية عن الطلاق، وهو بعيد لأنه قد تقدّم ذكر الطلاق، ورتب عليه التمتع، وعطف عليه السراح الجميل، فلا بد أن يراد به معنى غير الطلاق ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ ذكر سبحانه في هذه الآية أنواع الأنكحة التي أحلها لرسوله، وبدأ بأزواجه اللاتي قد أعطاهنَّ أجورهنَّ: أي: مهورهنَّ، فإن المهور أجور الأيضاع، وإيتاؤها: إما تسليمها معجلة، أو تسميتها في العقد.

واختلف في معنى قوله: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ فقال ابن زيد، والضحاك: إن الله أحلَّ له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا نوات المحارم. وقال الجمهور: المراد أحلنا لك أزواج الكائنات عنك؛ لأنهنَّ قد اخترتك على الدنيا، وزينتها، وهذا هو الظاهر، لأن قوله: أحلنا، وآتيت ماضيان، وتقيد الإحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحل عليه، لأنه يصح العقد بلا تسمية، ويجب مهر المثل مع الوطاء والمتعة مع عدمه، فكأنه لقصد الإرشاد إلى ما هو أفضل ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: السراري اللاتي دخلن في ملكه بالغنيمة. ومعنى ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ مما رده الله عليك من الكفار بالغنيمة لنسائهم المأخوذات على وجه القهر، والغلبة، وليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة، فإنها حلَّ له السرية المشتركة، والموهوبة، ونحوهما، ولكنه إشارة إلى ما هو أفضل كالقيد الأوَّل المصرح بإيتاء الأجور، وهكذا قيد المهاجرة في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فإنه للإشارة إلى ما هو أفضل، وللايدان بشرف الهجرة، وشرف من هاجر، والمراد بالمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها. وقيل: إن هذا القيد: أعني: المهاجرة معتبر، وأنها لا تحلَّ له من لم تهاجر من هؤلاء كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: 72] ويؤيد هذا حديث أم هانئ، وسيأتي آخر البحث هذا إن شاء الله تعالى، ووجه إفراغ العم والخال، وجمع العممة والخالة ما ذكره القرطبي: أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر، والراجز، وليس كذلك العممة والخالة. قال: وهذا عرف لغوي، فجاء الكلام عليه بغاية البيان. وحكاه عن ابن العربي. وقال ابن كثير: إنه وُحِدَ لفظ الذكر لشرفه، وجمع الأنثى كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: 48] وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257] ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] وله نظائر كثيرة. انتهى. وقال النيسابوري، وإنما لم يجمع

قال: النكاح الوطاء، وتسمية العقد نكاحاً لملايسته له من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسمية الخمر إثماً؛ لأنها سبب في اقتراف الإثم، ومعنى ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ من قبل أن تجامعوهُنَّ، فكُنِيَ عن ذلك بلفظ المس ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ وهذا مجمع عليه كما حكى ذلك القرطبي، وابن كثير، ومعنى تعتدونها: تستوفون عددها، من عدت الدراهم، فأننا اعتدناها. وإسناد ذلك إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق لهم كما يفيدُه ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَّةٍ﴾ قرا الجمهور (تعتدونها) بتشديد الدال، وقرا ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بتخفيفها. وفي هذه القراءة وجهان: أحدهما: أن تكون بمعنى الأولى، مأخوذة من الاعتدال: أي: تستوفون عددها، ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف. قال الرازي: ولو كان من الاعتداء الذي هو الظلم لضعف، لأن الاعتداء يتعدى بعلى. وقيل: يجوز أن يكون من الاعتداء بحذف حرف الجر: أي: تعتدون عليها: أي: على العدة مجازاً، ومثله قوله:

تَحَنَّنْ فِتْبَدِي مَا بَهَا مِنْ صِبَابَةٍ وَأَخْفِي الَّذِي لَوْلَا الْأَسَى لِقَضَائِي
أي: لقصي عليّ. والوجه الثاني: أن يكون المعنى: تعتدون فيها، والمراد بالاعتداء هذا هو ما في قوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهُنَّ﴾ ضراراً لتعتدوا. [البقرة: 231] فيكون معنى الآية على القراءة الأخيرة: فما لكم عليهنَّ من عدة تعتدون عليهنَّ فيها بالمضارة. وقد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير وقال: إن البزِّي غلط عليه، وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] وبقوله: ﴿وَاللَّائِي يَئْسَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ رُبِمَ فَعَلَيْتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: 4] والمتعة المذكورة هنا قد تقدّم الكلام فيها في البقرة. وقال سعيد بن جبير: هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التي في البقرة، وهي قوله: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وقد فرضتم لهنَّ فريضة نصف ما فرضتم. [البقرة: 237] وقيل: المتعة هنا هي أعم من أن تكون نصف الصداق، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمي لها، فمع التسمية للصداق تستحق نصف المسمى عملاً بقوله: ﴿فَنُصِّفَ مَا فَرَضْتُمْ﴾ لهنَّ، ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملاً بهذه الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لهنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ﴾ [البقرة: 236] وهذا الجمع لا بد منه، وهو مقدّم على الترجيح، وعلى دعوى النسخ، وتخصص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها، فإنه إذا مات بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها كان الموت كالدخول، فتعتد أربعة أشهر وعشراً. قال ابن كثير بالإجماع، فيكون المخصص هو: الإجماع وقد استدلل بهذه الآية القائلون بأنه لا طلاق قبل النكاح، وهم الجمهور، وذهب مالك، وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح إذا قال: إن تزوّجت فلانة، فهي طالق، فتطلق إذا تزوّجها، ووجه الاستدلال بالآية لما قاله

يجوز سببه، وحربه، لا من كان لا يجوز سببه، أو كان له عهد من المسلمين **«لكيلا يكون عليك حرج»** قال المفسرون: هذا يرجع إلى أول الآية: أي: أحللتنا لك أزواجك، وما ملكت يمينك، والموهوبة لكيلا يكون عليك حرج، فتكون اللام متعلقة بأحللتنا، وقيل: هي متعلقة بخالصة، والأول أولى، والحرج الضيق: أي: وسعنا عليك في التحليل لك لثلا يضيق صدرك، ففتظن أنك قد أثمت في بعض المنكوحات **«وكان الله غفوراً رحيماً»** يغفر الذنوب، ويرحم العباد، ولذلك وسع الأمر، ولم يضيقه **«ترجي من تشاء منهم»** قرئ «ترجي» مهموزاً، وغير مهموز، وهما لغتان، والإجراء التأخير، يقال: أرجأت الأمر، وأرجيته: إذا أخرته **«وتؤوي إليك من تشاء»** أي: تضم إليك، يقال: آواه إليه بالمد: ضمه إليه، وأوى مقصوراً: أي: ضم إليه، والمعنى: أن الله وسع على رسوله، وجعل الخيار إليه في نسائه، فيؤخر من شاء منهم؛ ويؤخر نوبتها، ويتركها، ولا يأتيها من غير طلاق، ويضم إليه من شاء منهم؛ ويضاجعها، ويبيت عندها، وقد كان القسم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية، فارتفع الوجوب، وصار الخيار إليه، وكان ممن أوى إليه عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، ومن أرجاه سودة، وجويرية، وأم حبيبة، وميمونة، وصفية، فكان **«يسوي بين من آواه في القسم»** وكان يقسم لمن أرجاه ما شاء. هذا قول جمهور المفسرين في معنى الآية، وهو الذي نلت عليه الأدلة الثابتة في الصحيح، وغيره. وقيل: هذه الآية في الواهبات أنفسهن، لا في غيرهن من الزوجات، قاله الشعبي وغيره. وقيل: معنى الآية في الطلاق: أي: تطلق من تشاء منهم، وتمسك من تشاء. وقال الحسن: إن المعنى: تنكح من شئت من نساء أمتك، وتترك نكاح من شئت منهم. وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: **«لا يحل لك النساء من بعد»** وسيأتي بيان ذلك **«ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك»** الابتغاء الطلب، والعزل الإزالة، والمعنى: أنه إن أراد أن يؤوي إليه امرأة ممن قد عزلهن من القسمة، ويضمها إليه، فلا حرج عليه في ذلك، والحاصل أن الله سبحانه فوّض الأمر إلى رسوله يصنع في زواجه ما شاء من تقديم، وتأخير، وعزل، وإمساك، وضم من أرجأ، وإرجاء من ضم إليه، وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه، ونفياً للحرج عنه. وأصل الجناح الميل، يقال: جنحت السفينة: إذا مالت، والمعنى: لا ميل عليك بلوم، ولا عتب فيما فعلت، والإشارة بقوله: **«ذلك»** إلى ما تقدم من التفويض إلى مشيئته، وهو مبتدأ، وخبره **«أن تقر أعينهن»** أي: ذلك التفويض الذي فوّضناك أقرب إلى رضاهن؛ لأنه حكم الله سبحانه. قال قتادة: أي: ذلك التخيير الذي خيرتك في صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا، لأنهن إذا علمن أنه من الله قرّت أعينهن. قرأ الجمهور (تقر) على البناء للفاعل مسنداً إلى أعينهن، وقرأ ابن محيصن «تقر» بضم التاء من أقر، وفاعله ضمير المخاطب، ونصب أعينهن على المفعولية، وقرئ على البناء للمفعول.

العم والخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد، ولم يحسن هذا الاختصار في العم والخالة لإمكان سبق الوهم إلى أن التاء فيهما للوحدة. انتهى. وكل وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض، والمعارضة، وأحسنها تعليل جمع العم والخالة بسبق الوهم إلى أن التاء للوحدة، وليس في العم والخال ما يسبق الوهم إليه بأنه أريد به الوحدة إلا مجرد صيغة الإفراد، وهي لا تقتضي ذلك بعد إضافتها لما تقر من عموم أسماء الأجناس المضافة، على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عن شوب المناقشة **«وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي»** هو مطوف على مفعول أحللتنا: أي: وأحللتنا لك امرأة مصدقة بالتحديد إن وهبت نفسها منك بغير صداق، وأما من لم تكن مؤمنة، فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك، ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك، بل مقيداً بإرائك، ولهذا قال: **«إن أراء النبي أن يستنكحها»** أي: يصيرها منكحة له، ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر. وقد قيل: إنه لم ينكح النبي **«من الواهبات أنفسهن»** أحداً، ولم يكن عنده منهن شيء. وقيل: كان عنده منهن خولة بنت حكيم كما في صحيح البخاري عن عائشة. وقال قتادة: هي: ميمونة بنت الحارث. وقال الشعبي: هي: زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين. وقال علي بن الحسين، والضحاك، ومقاتل: هي: أم شريك بنت جابر الأسدية. وقال عروة بن الزبير: هي أم حكيم بنت الأوقص السلمية. ثم بين سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله **«لا يحل لغيره من أمته»** فقال: **«خالصة لك من نون المؤمنين»** أي: هذا الإحلال الخالص هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين. ولفظ خالصة إما حال من امرأة، قاله الزجاج: أو مصدر مؤكد كوعد الله: أي: خالص لك خلوصاً. قرأ الجمهور (وامرأة) بالنصب. وقرأ أبو حيوة بالرفع على الابتداء. وقرأ الجمهور (إن وهبت) بكسر إن. وقرأ أبي، والحسن، وعيسى بن عمر بفتحها على أنه بدل من امرأة بدل اشتمال. أو على حذف لام العلة: أي: لأن وهبت. وقرأ الجمهور (خالصة) بالنصب، وقرئ بالرفع على أنها صفة لامرأة على قراءة من قرأ امرأة بالرفع، وقد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبي **«ﷺ»**، وأنه لا يجوز لغيره، ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلا ما روي عن أبي حنيفة، وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت، وأشهد هو على نفسه بمهر. وأما بدون مهر فلا خلاف في أن ذلك خاص بالنبي **«ﷺ»**، ولهذا قال: **«قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم»** أي: ما فرضه الله سبحانه على المؤمنين في حق أزواجهم من شرائط العقد، وحقوقه، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحل لهم الإخلال به، ولا الاقتداء برسول الله **«ﷺ»** فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريماً له، فلا يتزوجوا إلا أربعاً بمهر وبينة وولي **«وما ملكت إيمانهم»** أي: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت إيمانهم من كونهم ممن

وقد تقدّم بيان معنى قرّة العين في سورة مريم، ﴿و﴾ معنى ﴿لا يحزن﴾: لا يحصل معه حزن بتأثيرك بعضهنّ نون بعض ﴿ويرضين بما آتيتهنّ كلهن﴾ أي: يرضين جميعاً بما أعطيتهنّ من تقريب، وإرجاء، وعزل، وإيواء. قرأ الجمهور (كلهنّ) بالرفع تأكيداً لفاعل يرضين. وقرأ أبو إياس بالنصب تأكيداً لضمير المفعول في آتيتهنّ ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ من كل ما تضرعونه، ومن ذلك ما تضرعونه من أمور النساء ﴿وكان الله عليماً﴾ بكل شيء لا تخفى عليه خافية ﴿حليماً﴾ لا يعاجل العصاة بالعقوبة ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ قرأ الجمهور ﴿لا يحل﴾ بالتحية للفصل بين الفعل، وفاعله المؤنث، وقرأ ابن كثير بالفوقية.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال: الأوّل أنها محكمة، وأنه حرّم على رسول الله ﷺ أن يتزوّد على نسائه مكافأة لهنّ بما فعلن من اختيار الله، ورسوله، والدار الآخرة لما خيرهنّ رسول الله ﷺ بأمر الله له بذلك، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والحسن، وابن سيرين، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وابن زيد، وابن جرير. وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرّم الله عليهنّ أن يتزوجن من بعده حرّم عليه أن يتزوّد غيرهن. وقال أبي بن كعب، وعكرمة، وأبو رزيق: إن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله. قال القرطبي: وهو: اختيار ابن جرير. وقيل: لا يحل لك اليهوديات، ولا النصرانيات؛ لأنهنّ لا يصح أن يتصفن بأنهنّ أمهات المؤمنين. وهذا القول فيه بعد؛ لأنه يكون التفسير: لا يحل لك النساء من بعد المسلمات، ولم يجر للمسلمات ذكر. وقيل: هذه الآية منسوخة بالسنة، ويقول سبّاحه: ﴿ترجي من تشاء منهنّ وتؤوي إليك من تشاء﴾ وبهذا قالت عائشة، وأم سلمة، وعلي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وغيرهم، وهذا هو الأرجح، وسيأتي في آخر البحث ما يدل عليه من الأدلة ﴿ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج﴾ أي: تتبدّل، فحذفت إحدى التاءين: أي: ليس لك أن تطلق واحدة منهنّ، أو أكثر، وتتزوّد بدل من طلقت منهنّ، ومن: في قوله: ﴿من أزواج﴾ مزيدة للتأكيد. وقال ابن زيد: هذا شيء كانت العرب تفعله يقول: خذ زوجتي، وأعطني زوجتك، وقد أنكر النحاس، وابن جرير ما نكره ابن زيد. قال ابن جرير: ما فعلت العرب هذا قط. ويدفع هذا الإنكار منهما ما أخرجه الدارقطني عن أبي هريرة قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ولا أن تبدّل بهنّ﴾، وأخرجه أيضاً عنه البزار، وابن مردويه، وجملة ﴿ولو أعجبك حسنهنّ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تبدّل، والمعنى: أنه لا يحل التبدّل بازواجك، ولو أعجبك حسن غيرهنّ ممن أرت أن تجعلها بدلاً من إحداهنّ، وهذا التبدّل أيضاً من جملة ما نسخ الله في حق رسوله على القول الأرجح، وقوله: ﴿إلا ما ملكت يميناك﴾ استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الحرائر والإماء.

وقد اختلف العلماء في تحليل الأمة الكافرة. القول الأوّل: أنها تحلّ للنبي ﷺ لعموم هذه الآية، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحكم. القول الثاني: أنها لا تحلّ له تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة. ويترجح القول الأوّل بعموم هذه الآية، وتحليل المنع بالتنزّه ضعيف، فلا تنزّه عما أحله الله سبحانه، فإن ما أحله، فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح، لا باعتبار غير ذلك، فالمشركون نجس بنص القرآن. ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله سبحانه: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ [الممتحنة: 10] فإنه نهي عام ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ أي: مراقباً حافظاً مهيمناً لا يخفى عليه شيء، ولا يفوته شيء.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات﴾ قال: هذا في الرجل يتزوّد المرأة ثم يطلقها من قبل أن يمسه، فإذا طلقها واحدة بانت منه، ولا عدّة عليها تتزوّد من شاءت، ثم قال: ﴿فمتموهنّ وسرحوهنّ سراحاً جميلاً﴾ يقول: إن كان سمي لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقاً متعها على قدر عسرته ويسره، وهو: السراح الجميل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنّ﴾ منسوخة نسختها التي في البقرة: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ [البقرة: 237]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن سعيد بن المسيب نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن وأبي العالية قال: ليست بمنسوخة، لها نصف الصداق، ولها المتاع. وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول: إن طلق ما لم ينكح، فهو جائز، فقال ابن عباس: أخطأ في هذا، إن الله يقول: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ﴾، ولم يقل: إذا طلقتم المؤمنات، ثم نكحتموهنّ. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس: أنه تلا هذه الآية، وقال: لا يكون طلاق حتى يكون نكاح. وقد وردت أحاديث منها أنه «لا طلاق إلا بعد نكاح»، وهي معروفة. وأخرج ابن سعد، وابن راهويه، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب. قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه، فعذرني، فأنزل الله ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿هاجرن معك﴾ قالت: فلم أكن أحلّ له، لأنني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: نزلت في هذه الآية ﴿وبينات عمك وبينات عماتك... اللاتي هاجرن معك﴾ أراد النبي أن يتزوّدني، فنهني عني إذ لم أهاجر. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿خالصة لك﴾ قال: حرّم الله عليه سوى ذلك من النساء. وكان قبل ذلك ينكح في أيّ النساء شاء لم يحرم ذلك عليه، وكان نسائه يجدن

من ذلك وجدأ شديداً أن ينكح في أي النساء أحب، فلما أنزل
إني حرمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب
ذلك نساءه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي
في السنن عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ
خولة بنت حكيم. وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي
شيبه، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، والبيهقي، وابن مردويه عن عروة: أن خولة
بنت حكيم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ.
وأخرج ابن أبي شيبه، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب،
وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله
ﷺ ثلاث عشرة امرأة: ست من قريش: خديجة، وعائشة،
وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وثلاث من بني
عامر بن صعصعة، وامراتين من بني هلال بن عامر:
ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ،
وزينب أم المساكين، والعامرية وهي التي اختارت للنبي،
وامرأة من بني الجون، وهي التي استعانت منه، وزينب بنت
جحش الأسدية، والسبيتين: صفية بنت حيي، وجويرية بنت
الحارث الخزاعية. وأخرج البخاري، وابن مردويه عن أنس
قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله هل لك
بي حاجة؟ فقالت ابنة أنس: ما كان أقل حياءها، فقال: هي
خير منك رغبت في النبي ﷺ، فعرضت نفسها عليه.
وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سهل بن سعد
الساعدي: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فوهبت نفسها له،
فصمت، الحديث بطوله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في
قوله: «قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم» قال:
فرض الله عليهم أنه لا نكاح إلا بولي، وشاهدين. وأخرج ابن
مردويه عن ابن عباس مثله، وزاد: ومهر. وأخرج ابن أبي
شيبه عن علي قال: نهى رسول الله ﷺ أن توطأ الحامل
حتى تضع، والحائل حتى تستبرأ بحيضة. وأخرج ابن جرير
عن ابن عباس «ترجي من تشاء منهم» قال: تؤخر.
وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه في قوله: «ترجي من
تشاء منهم» يقول: من شئت خلعت سبيله منهم، ومن
أحببت أمسكت منهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن
عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله
ﷺ، وأقول: تهب المرأة نفسها، فلما أنزل الله «ترجي من
تشاء منهم» الآية قلت: ما أرى ريبك إلا يسارع في هوك.
وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين قال: هم
رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رآين ذلك أتيتهن،
فقلن: لا تخلص سبيلنا، وأنت في حل فيما بيننا وبينك، افرض
لنا من نفسك ومالك ما شئت، فأنزل الله «ترجي من تشاء
منهم» يقول: تعزل من تشاء، فأرجا منهن نسوة، وأوى
نسوة، وكان ممن أرجى ميمونة، وجويرية، وأم حبيبة،
وصفية، وسودة، وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء،
وكان ممن أوى عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، فكانت

قسمته من نفسه وماله بينهن سواء. وأخرج البخاري،
ومسلم، وغيرهما عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان
يستأنن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية «ترجي
من تشاء منهم» فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت
أقول: إن كان ذلك إلي فإني لا أريد أن أوثر عليك أحداً.
وأخرج الروياني، والدارمي، وابن سعد، وعبد الله بن أحمد
في زوائد المسند، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
وابن مردويه، والضياء في المختارة عن زياد رجل من
الأنصار قال: قلت لأبي بن كعب: أرايت لو أن أزواج النبي
ﷺ متن أما كان يحل له أن يتزوج؟ قال: وما يمنع من
ذلك؟ قلت: قوله «لا يحل لك النساء من بعد» قال: إنما
أحل له ضرباً من النساء، ووصف له صفة، فقال: «يا أيها
النبي إنا أحلنا لك أزواجك» إلى قوله: «وامرأة مؤمنة»
ثم قال: لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة. وأخرج
عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، والطبراني،
وابن مردويه عن ابن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن
أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات قال: «لا
يحل لك للنساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو
أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك» فأحل له الفتيات
المؤمنات «وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي» وحرّم
كل ذات دين غير الإسلام، وقال: «يا أيها النبي إنا أحلنا
لك أزواجك» إلى قوله: «خالصة لك من دون المؤمنين»
وحرّم ما سوى ذلك من أصناف النساء. وأخرج ابن مردويه
عنه قال: «نهى النبي ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً».
وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: حبسه الله عليهن
كما حبسهن عليه. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن مردويه،
والبيهقي في سننه عن أنس قال: لما خيرهن، فاخترن الله
ورسوله قصره عليهن، فقال: «لا يحل لك النساء من
بعد». وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت:
لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من
النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله: «ترجي من
تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء». وأخرج عبد الرزاق،
وسعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو
داود في ناسخه، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير،
وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي من
طريق عطاء عن عائشة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى
أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم لقوله:
«ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء». وأخرج
ابن سعد عن ابن عباس مثله. وأخرج سعيد بن منصور،
وابن سعد، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين «لا يحل لك
النساء من بعد» قال: من المشركات إلا ما سبيت، فملك
يمينك. وأخرج البزار، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: كان
البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك،
وابالك امرأتي: أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن

بعد الطعام، وهو: التفريق، والمراد الإلزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل **﴿ولا مستأنسين لحديث﴾** عطف على قوله **﴿غير ناظرين﴾**، أو على مقترن: أي: ولا تدخلوا، ولا تمكثوا مستأنسين. والمعنى: النهي لهم عن أن يجلسوا بعد الطعام يتحدثون مستأنسين بالحديث. قال الرازي في قوله: **﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام﴾** إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره: ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير، فيكون الإن من مشروطاً بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام، فلا يجوز الدخول، فلو أن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لاكل طعام، فلا يجوز، فنقول المراد هو الثاني؛ ليعم النهي عن الدخول. وأما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى طعام فلما هو مذكور في سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام، ويدخلون من غير إذن، فمنعوا من الدخول في وقتهم بغير إذن. وقال ابن عادل: الأولى أن يقال: المراد هو: الثاني، لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل، وقوله: **﴿إلى طعام﴾** من باب التخصيص بالذكر، فلا يدل على نفي ما عداه، لا سيما إذا علم مثله، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام. انتهى. والأولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال: قد دلت الآية على جواز دخول بيوته **﴿بأنه لغير الطعام﴾** وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأننون عليه لغير الطعام، فيأذن لهم، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزلت فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي **﴿ﷺ﴾**، فيدخلون، ويقعون منتظرين لإدراكه، وأمثالهم، فلا تدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام، واللازم باطل، فالملزوم مثله. قال ابن عطية: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة، أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي **﴿ﷺ﴾**، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أدب الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل لا قبله لانتظار نضج الطعام، والإشارة بقوله: **﴿إن نلکم﴾** إلى الانتظار، والاستئناس للحديث، وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما في قوله: **﴿عوان بين ذلك﴾** [البقرة: 68] أي: إن ذلك المذكور من الأمرين **﴿كان يؤذي النبي﴾**؛ لأنهم كانوا يضيّقون المنزل عليه وعلى أهله، ويتحدّثون بما لا يريده. قال الزجاج: كان النبي **﴿ﷺ﴾** يحتمل إطالهم كراماً منه، فيصبر على الأذى في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدب صار أدباً لهم ولمن بعدهم **﴿فيستحيي منكم﴾** أي: يستحيي أن يقول لكم قوماً، أو أخرجوا **﴿وإلا لا يستحيي﴾**

أمراتي، فأنزل الله **﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾** قال: فدخل عبيدة بن حصن الفزاري إلى النبي **﴿ﷺ﴾** وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله **﴿ﷺ﴾**: «أين الاستئذان؟ قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أشرت، ثم قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله: هذه عائشة أم المؤمنين، قال: أفلا أنزل لك عن أحسن خلق الله؟ قال: يا عبيدة إن الله حرم ذلك، فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: أحرق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه».

يَتَأْتِيكَ الْيَتِيمَ أََمْ نُوَلِّهِمْ أََمْ نُوَلِّهِمْ إِلَّا أَنْ تُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِلَيْهِ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طُلِمْتُمْ فَأَنْتَبِهُوا وَلَا تُسْتَسْتَسْئِلِينَ خِيَرَتٍ إِنْ دَلَّكُمْ كَانَ يُؤْذِي الْيَتِيمَ فَسْتَجِيبْ لَهُمْ بِمَا نَفْسُكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي. مِنْ الْخَيْرِ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُمْ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُمْ مِنْ وَرَثَةِ رِجَالٍ ذَلِكَكُمْ أَطْلَعُ لِقَائِكُمْ وَفُقَرَاءَهُمْ وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِبُوا أَوْجُهَكُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ دَلَّكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝٢٥ إِنْ بُدِّئُوا بِشَيْءٍ أَوْ تُحْفَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكْلِفُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ۝٢٦ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَلَا أَنْبَاءِهِمْ وَلَا إِخْرَجَهُمْ وَلَا أَهْلَهُمْ إِخْرَجَهُمْ وَلَا إِسَاءَتِهِمْ وَلَا مَا كَانَتْ يَمِينُهُمْ وَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِرُحْمَةٍ وَأَنْ يَسْكَنُوا عَلَيْهِمْ ۝٢٧

قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾** هذا نهى عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله **﴿ﷺ﴾** إلا بإذن منه. وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة في وليمة زينب، وسيأتي بيان ذلك آخر البحث إن شاء الله. وقوله: **﴿إلا أن يؤذن لكم﴾** استثناء مفرغ من أعم الأحوال: أي: لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال كونكم مانوئاً لكم، وهو في موضع نصب على الحال: أي: إلا مصحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض: أي: إلا بأن يؤذن لكم، أو منصوب على الظرفية: أي: إلا وقت أن يؤذن لكم، وقوله: **﴿إلى طعام﴾** متعلق بيؤذن على تضمينه معنى: الدعاء: أي: إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى طعام، وانتصاب **﴿غير ناظرين﴾** إناؤه على الحال، والعامل فيه يؤذن، أو مقترن: أي: ادخلوا غير ناظرين، ومعنى ناظرين: منتظرين، وإناءه: نضجه، وإدراكه، يقال: أنى يأتي أنى: إذا حان، وأثرك. قرأ الجمهور (غير ناظرين) بالنصب. وقرأ ابن أبي عبيدة (غير) بالجر صفة لطعام، وضعف النحاة هذه القراءة لعدم بروز الضمير لكونه جارياً على غير من هو له، فكان حقه أن يقال: **﴿غير ناظرين﴾** إناؤه أنتم، ثم بين لهم سبحانه ما ينبغي في ذلك، فقال: **﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا﴾**، وفيه تأكيد للمنع، وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول، وهو عند الإذن. قال ابن العربي: وتقدير الكلام: ولكن إذا دعيتم، وأنتم لكم، فادخلوا، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إنناً كافياً في الدخول، وقيل: إن فيه دلالة بيّنة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه **﴿فإذا طعمتم فانتشروا﴾** أمرهم سبحانه بالانتشار

والأولى أن يقال: أنه سبحانه اقتصر ههنا على بعض ما نكره من المحارم في سورة النور اكتفاء بما تقدم ﴿ولا نسائهن﴾ هذه الإضافة تقتضي أن يكون المراد بالنساء المؤمنات، لأن الكافرات غير مأمونات على العورات، والنساء كلهن عورة ﴿ولا ما ملكت أيمانهن﴾ من العبيد، والإماء، وقيل: الإماء خاصة، ومن لم يبلغ من العبيد، والخلاف في ذلك معروف. وقد تقدم في سورة النور ما فيه كفاية. ثم أمرهن سبحانه بالتقوى التي هي ملاك الأمر كله، ﴿ووهب المعنى: ﴿التقين﴾ الله في كل الأمور التي من جملتها ما هو منكر هنا ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ لم يغب عنه شيء من الأشياء كائن ما كان، فهو مجاز للمحسن بإحسانه، وللمسيء بإساءته.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البرء، والفاجر، فلو حببتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وفي لفظ: أنه قال عمر: يا رسول الله يدخل عليك البرء، والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كانه يتهيا للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فأنطلقت، فجلست، فآخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فلقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن عائشة: أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناسع، وهو صعيد أقيع، وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله الحجاب قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن أنس قال: نزل الحجاب مبتنى رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش، وذلك سنة خمس من الهجرة، وحجب نساءه من يومئذ، وأنا ابن خمس عشرة سنة. وكذا أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان، وقال: نزل الحجاب على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، وبه قال قتادة، والواقدي. وزعم أبو عبيدة، وخليفة بن خياط: أن ذلك كان في سنة ثلاث. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده. قال سفيان: ونكروا أنها عائشة. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أئحبتنا محمد عن بنات عمناء. ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لأن حدث به حدث لنتزوج نساءه من بعده، فنزلت هذه الآية. وأخرج

من الحق﴾ أي: لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق، ولا يمتنع من بيانه وإظهاره؛ والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشكلة. قرا الجمهور (يستحيي) بياءين، وروي عن ابن كثير: أنه قرا بياء واحدة، وهي لغة تميم يقولون: استحي يستحي مثل استقى يستقي، ثم نكر سبحانه أبياً آخر متعلقاً بنساء النبي ﷺ، فقال: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً﴾ أي: شيئاً يتمتع به، من الماعون وغيره ﴿فأسألوهن من وراء حجاب﴾ أي: من وراء ستر بينكم وبينهن. والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به، فلا وجه لما قيل من أن المراد به العارية، أو الفتوى، أو المصحف، والإشارة بقوله: ﴿لكنكم﴾ إلى سؤال المتاع من وراء حجاب، وقيل: الإشارة إلى جميع ما نكر من عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤال المتاع، والأول أولى، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿أظهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ أي: أكثر تطهيراً لها من الريبة، وخواطير السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال. وفي هذا أنب لكل مؤمن، وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، والمكاملة من دون حجاب لمن تحرم عليه ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ أي: ما صح لكم، ولا استقام أن تؤذوه بشيء من الأشياء كائن ما كان، ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه، واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده، وتكليم نساؤه من دون حجاب ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ أي: ولا كان لكم بعد وفاته؛ لأنهن أمهات المؤمنين، ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات، والإشارة بقوله: ﴿إن لكم﴾ إلى نكاح أزواجه من بعده ﴿كان عند الله عظيماً﴾ أي: ننبأ عظيم، وخطباً هائلاً شديداً. وكان سبب نزول الآية أنه قال قائل: لو قد مات محمد لتزوجنا نساءه، وسيأتي بيان ذلك ﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ يعلم كل شيء من الأشياء، ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله، وما تكتومونه في صوركهم. وفي هذا وعيد شديد، لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها، وشرها. ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه، فقال: ﴿لا جناح عليهن في لباسهن ولا لبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء إخوانهن﴾ فهو لا يجب على نساء رسول الله ﷺ، ولا غيرهن من النساء الاحتجاب منهم، ولم ينكر العم والخال؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقال الزجاج: العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية، وهذا ضعيف جداً، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليها، لا سيما أبناء الإخوة، وأبناء الأخوات، واللازم باطل، فالملزوم مثله، وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبية أن ينظرن إليها؛ لأنهن يصفنهن، واللازم باطل فالملزوم مثله. وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي، وعكرمة من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها،

أنه ليس لأحد أن يجمع نكر الله سبحانه مع غيره في ضمير واحد، وهذا الحديث ثابت في الصحيح. وثبت أيضاً في الصحيح: أن رسول الله ﷺ أمر منادياً ينادي يوم خيبر: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية. ولأهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع نكرها، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله، ولما لاكتته واحداً، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله ﷺ، ويحمل النعم لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه ﷺ فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه، وبين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك، وهذا أحسن ما قيل في الجمع. وقالت طائفة: في هذه حنف، والتقدير: إن الله يصلي، وملائكته يصلون، وعلى هذا القول، فلا تكون الآية مما جمع فيه بين نكر الله، ونكر غيره في ضمير واحد، ولا يرد أيضاً ما قيل: إن الصلاة من الله الرحمة، ومن ملائكته الدعاء، فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ يصلون، ويقال: على القول الأول: أنه أريد يصلون معنى مجازي يعم المعنيين، وذلك بأن يراد بقوله: يصلون يهتمون بإظهار شرفه، أو يعظمون شأنه، أو يعتنون بأمره. وحكى البخاري عن أبي العالية: أن صلاة الله سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة الدعاء. وروى الترمذي في سننه عن سفيان الثوري، وغير واحد من أهل العلم: أنهم قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار. وحكى الواحدي عن مقاتل: أنه قال: أما صلاة الرب، فالمغفرة، وأما صلاة الملائكة، فالاستغفار. وقال عطاء بن أبي رباح: صلاته تبارك وتعالى: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند ملائكته، وأن الملائكة تصلي عليه، وأمر عباده بأن يقتنوا بذلك، ويصلوا عليه.

وقد اختلف أهل العلم في الصلاة على النبي ﷺ هل هي واجبة أم مستحبة؟ بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة. وقد حكى هذا الإجماع القرطبي في تفسيره، فقال قوم من أهل العلم: إنها واجبة عند نكره، وقال قوم: تجب في كل مجلس مرة. وقد وردت أحاديث مصرحة بذلك من سمع نكر النبي ﷺ، فلم يصل عليه.

واختلف العلماء في الصلاة على النبي ﷺ في تشهد الصلاة المفترضة هل هي واجبة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة. قال ابن المنذر: يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله ﷺ، فإن ترك ذلك تارك، فصلاته مجزئة في مذهب مالك، وأهل المدينة، وسفيان الثوري، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي، وغيرهم، وهو قول جمهور أهل العلم. قال: وشذ الشافعي، فأوجب على تاركها الإعادة مع تعدد تركها دون النسيان، وهذا القول عن الشافعي لم يروه عنه إلا حرملة بن يحيى، ولا يوجد عن الشافعي إلا من روايته. قال الطحاوي: لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعي. وقال الخطابي، وهو من

عبد الرزاق، وعبد بن عبيد، وابن المنذر عن قتادة قال: قال طلحة بن عبيد الله: لو قبض النبي ﷺ لتزوجت عائشة. فنزلت. وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة؛ لأنه قال: إذا توفي النبي ﷺ تزوجت عائشة. قال ابن عطية: وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله. قال القرطبي: قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة، وحاشاهم عن مثله، وإنما الكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجاهل. وأخرج البيهقي في السنن عن ابن عباس قال: قال رجل من أصحاب النبي ﷺ: لو قد مات رسول الله ﷺ تزوجت عائشة، أو أم سلمة، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عنه: «أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ، فكلمها، وهو: ابن عمها، فقال النبي ﷺ: لا تقوم هذا المقام بعد يومك هذا، فقال: يا رسول الله إنها ابنة عمي، والله ما قلت لها منكراً، ولا قالت لي، قال النبي ﷺ: قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغير من الله، وإنه ليس أحد أغير مني، فمضى، ثم قال: يمعني من كلام ابنة عمي، لا تزوجها من بعده، فأنزل الله هذه الآية، فاعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعة في سبيل الله، حج ماشياً توبة من كلمته. وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت: خطبني علي، فبلغ ذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أسماء متزوجة علياً، فقال لها النبي ﷺ: ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله. وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف في قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئاً أَوْ تَخَفَوْهُ﴾ قال: أن تكلموا به، فتقولون: تتزوج فلانة لبعض أزواج النبي ﷺ، أو تخفوا ذلك في أنفسكم، فلا تنطقوا به يعلمه الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر الآية قال: أنزلت هذه في نساء النبي ﷺ خاصة، وقوله: نساء النبي يعني: نساء المسلمين ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المماليك، والإماء، ورخص لهن: أن يروهن بعد ما ضرب الحجاب عليهن.

إِنَّ اللَّهَ وَبَلَغَكُمُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِمِرْيَا أَوْ كَسْبٍ فَقَدْ خَسِرُوا هَمَّتْ هُنَّ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي

قرأ الجمهور ﴿وملائكته﴾ بنصب الملائكة عطفاً على لفظ اسم إن. وقرأ ابن عباس ﴿وملائكته﴾ بالرفع عطفاً على محل اسم إن، والضمير في قوله: ﴿يصلون﴾ راجع إلى الله، وإلى الملائكة، وفيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم والله سبحانه واحداً، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه ﷺ لما سمع قول الخطيب يقول: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال: بشس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله، ووجه ذلك:

الشافعية: إنها ليست بواجبة في الصلاة. قال: وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي، ولا أعلم له في ذلك قوة. انتهى. وقد قال بقول الشافعي: جماعة من أهل العلم منهم الشعبي، والباقر، ومقاتل بن حيان، وإليه ذهب أحمد بن حنبل أخيراً، كما حكاه أبو زرعة الدمشقي، وبه قال ابن راهويه، وابن الموزان من المالكية.

وقد جمعت في هذه المسألة رسالة مستقلة ذكرت فيها ما احتج به الموجبون لها، وما أجاب به الجمهور، وأشف ما يستدل به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ «إن الله أمرنا أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك في صلاتنا، فقال: قولوا» الحديث. فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب. وأما على بطلان الصلاة بالترك، ووجوب الإعادة لها، فلا، لأن الواجبات لا يستلزم عدمها العدم كما يستلزم ذلك الشروط والأركان.

واعلم أنه قد ورد في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة لو جمعت لجاءت في مصنف مستقل، ولو لم يكن منها إلا الأحاديث الثابتة في الصحيح من قوله ﷺ: «من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً»، فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة، والمكرمة النبيلة. وأما صفة الصلاة عليه ﷺ، فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما، منها ما هو مقيد بصفة الصلاة عليه في الصلاة، ومنها ما هو مطلق، وهي معروفة في كتب الحديث، فلا نطيل بذكرها. والذي يحصل به الامتثال لمطلق الأمر في هذه الآية هو: أن يقول القائل: اللهم صل، وسلم على رسولك، أو على محمد، أو على النبي، أو اللهم صل على محمد وسلم. ومن أراد أن يصلي عليه ويسلم عليه بصفة من الصفات التي ورد التعليم بها، والإرشاد إليها، فذلك أكمل، وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة، وسيأتي بعضها آخر البحث، وسيأتي الكلام في الصلاة على الآل. وكان ظاهر هذا الأمر بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل: صليت عليه وسلمت عليه، أو الصلاة عليه والسلام عليه، أو عليه الصلاة والتسليم؛ لأن الله سبحانه أمرنا بإيقاع الصلاة عليه والتسليم منا، فالامتثال هو: أن يكون ذلك على ما ذكرنا، فكيف كان الامتثال لأمر الله لنا بذلك أن نقول: اللهم صلّ عليه وسلم، بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بأن يصلي عليه، ويسلم عليه. وقد أجيّب عن هذا بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانتا شعاراً عظيماً للنبي ﷺ وتشريفاً كريماً، وكلنا ذلك إلى الله عزّ وجلّ، وأرجعناه إليه، وهذا الجواب ضعيف جداً. وأحسن ما يجب به: أن يقال: إن الصلاة والتسليم للمأمور بهما في الآية هما: أن نقول: اللهم صلّ عليه وسلم، أو نحو ذلك مما يؤدّي معناه كما بينه رسول الله ﷺ لنا، فافتضى ذلك البيان في الأحاديث الكثيرة: أن هذه هي الصلاة الشرعية.

واعلم أن هذه الصلاة من الله على رسوله، وإن كان معناها: الرحمة، فقد صارت شعاراً له يختصّ به دون غيره،

فلا يجوز لنا أن نصلي على غيره من أمته كما يجوز لنا أن نقول: اللهم ارحم فلاناً، أو رحم الله فلاناً، وبهذا قال جمهور العلماء مع اختلافهم هل هو محرّم، أو مكروه كراهة شديدة، أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال. وقد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبي شيبه، والبيهقي في الشعب: لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار. وقال قوم: إن ذلك جائز لقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: 103]، ولقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 157]، ولقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: 43]،

ولحديث عبد الله بن أبي، أوفى الثابت في الصحيحين، وغيرهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صلّ عليهم، فاتاه أبي بصدقته، فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى»، ويجب عن هذا بأن هذا الشعار الثابت لرسول الله ﷺ له أن يخص به من شاء، وليس لنا أن نطلقه على غيره. وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَصْلِي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: 43]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 157]، فهذا ليس فيه إلا أن الله سبحانه يصلي على طوائف من عباده كما يصلي على من صلى لنا، ولا شرعه الله في حقنا، بل لم يشرع لنا إلا الصلاة والتسليم على رسوله. وكما أن لفظ الصلاة على رسول الله شعار له، فكذا لفظ السلام عليه. وقد جرت عادة جمهور هذه الأمة، والسواد الأعظم من سلفها وخلفها على الترضي عن الصحابة، والترحم على من بعدهم، والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أرشدنا إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: 10]، ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من

التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قيل: المراد بالآذى هنا هو: فعل ما يكرهه الله من المعاصي لاستحالة التآذي منه سبحانه. قال الواحدي: قال المفسرون هم: المشركون، واليهود، والنصارى وصفوا الله بالولد، فقالوا: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، والملائكة بنات الله، وكنبوا رسول الله، وشجوا وجهه، وكسروا رباعيته، وقالوا: مجنون شاعر كذاب ساحر. قال القرطبي: وبهذا قال جمهور العلماء. وقال عكرمة: الآية لله سبحانه بالتصوير، والتعريض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور، وغيرها. وقال جماعة: إن الآية على حذف مضاف، والتقدير: إن الذين يؤذون أولياء الله. وأما آية رسوله، فهي: كل ما يؤذيه من الأقوال، والأفعال. ومعنى اللعنة: الطرد، والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا، والآخرة: لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك اللعن ﴿عَذَاباً مَهِيْنًا﴾

واعلم أن هذه الصلاة من الله على رسوله، وإن كان معناها: الرحمة، فقد صارت شعاراً له يختصّ به دون غيره،

بعضها على آل إبراهيم فقط، وفي بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة هذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي حميد الساعدي: أنهم قالوا: يا رسول الله «كيف نصلي عليك؟» فقال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صل على محمد، وأزواجه، ونزريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وأزواجه، ونزريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، وفي بعضها التقييد بالصلاة كما في حديث أبي مسعود عند ابن خزيمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه: أن رجلاً قال: يا رسول الله أما السلام عليك، فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا؟ الحديث، وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله. وجميع التعليمات الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث، فينبغي للمصلي عليه: أن يضم آله إليه في صلاته عليه، وقد قال بذلك جماعة، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي كما رواه عنهما ابن كثير في تفسيره، ولا حاجة إلى التمسك بقول قائل في مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به، ولا وجه لقول من قال: إن هذه التعليمات الواردة عنه ﷺ في صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة في الصلاة حملاً لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد، لما في حديث كعب بن عجرة وغيره أن ذلك السؤال لرسول الله ﷺ كان عند نزول الآية. وأخرج عبد الرزاق، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله، ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني» وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية قال: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي، وروي عنه: أنها نزلت في الذين قذفوا عائشة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوْجِكَ وَمَلَائِكَتِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِذِيكَ عَيْنٌ مِّنْ جَلِيلٍ ذَلِكَ أَدْعَاكَ أَنْ يُؤْذِنَ وَلَا يُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠﴾ لِّئِنْ لَّرُيِّنَ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِرُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١﴾ تَلْعَوْنَ مِنْهُ آتِنَا مُغْفِرًا ﴿١٢﴾ أُخِذُوا وَقُتِلُوا فِي تَبْيِئِكُمْ ﴿١٣﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ فِي الْأَيْدِي حَلَاوٌ مِّنْ قَبْلُ وَلَئِنْ جِدَّ لِسُنُّهُ اللَّهُ تَبْيِئَكُمْ ﴿١٤﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّا السَّاعَةُ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٦﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا أُولَىٰ لَا يَحْدُونَ وَيَكُونُ لَكُمْ وَيَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَكُنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَطَعْنَا أَرْسُولًا ﴿١٧﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهْنَا فَأُضِلُّونَا السَّبِيلَ ﴿١٨﴾ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ أَغْلَابِ الْغَالِبِينَ ﴿١٩﴾

لما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسوله، والمؤمنين، والمؤمنات من عباده أمر رسوله ﷺ: بأن يامر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه، فقال:

يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة لما يفيد معنى الإعداد من كونه في الدار الآخرة. ثم لما فرغ من الذم لمن أذى الله ورسوله ذكر الأذية لصالح عباده، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بوجه من وجوه الأذى من قول، أو فعل، ومعنى «بغير ما اكتسبوا»: أنه لم يكن ذلك لسبب فعلوه يوجب عليهم الأذية، ويستحقونها به، فأما الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حدًا، أو تعزيرًا، أو نحوهما، فذلك حق أثبته الشرع، وأمرنا الله به، وتنبأنا إليه، وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن، أو مؤمنة، أو ضرب، فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرمة على أي وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه الله. ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين، والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقال: ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِتَانًا وَإِلْمًا مَّبِينًا﴾ أي: ظاهراً واضحاً لا شك في كونه من البهتان والإثم، وقد تقدم بيان حقيقة البهتان، وحقيقة الإثم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس «يصلون على النبي» ببركوت. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هل يصلي ربك؟ فناده ربه: يا موسى سأوك: هل يصلي ربك؟ فقل: نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله على نبيه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه عنه قال: إن صلاة الله على النبي هي: المغفرة، إن الله لا يصلي، ولكن يغفر، وأما صلاة الناس على النبي، فهي: الاستغفار له. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قرأ «صلوا عليه كما صلى الله عليه، وسلموا تسليماً». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية، قلنا: يا رسول الله قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وأخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديثه بلفظ: قال رجل: يا رسول الله: أما السلام عليك فقد علمناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأحمد، والنسائي من حديث طلحة بن عبيد الله قال: قلت: يا رسول الله كيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد. وفي الأحاديث اختلاف، ففي بعضها على إبراهيم فقط، وفي

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُبَنِّينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيْبِهِنَّ﴾ من للتبعيض، والجلابيب جمع جلباب، وهو: ثوب أكبر من الخمار. قال الجوهري: الجلباب الملحقة، وقيل: القناع، وقيل: هو ثوب يستتر جميع بدن المرأة، كما ثبت في الصحيح من حديث لم عطية أنها قالت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، فقال: لتلبسها أختها من جلبابها، قال الواحدي: قال المفسرون: يغطين وجوههن، رؤوسهن إلا عيناً واحدة، فيعلم: أنهن حرائر، فلا يعرض لهن بأذى. وقال الحسن: تغطي نصف وجهها. وقال قتادة: تلويه فوق الجبين، وتشده، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عينها لكنه يستتر الصدر، ومعظم الوجه، والإشارة بقوله: ﴿نَلِكُ﴾ إلى إنشاء الجلابيب، وهو مبتدأ، وخبره ﴿أَنَّنِي أَنْ يَعْرِفَنَ﴾ أي: أقرب أن يعرفن، فيتميزن عن الإماء، ويظهر للناس أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْنِنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن مراقبة لهن، ولأهلن، وليس المراد بقوله: ﴿نَلِكُ أَنَّنِي أَنْ يَعْرِفَنَ﴾ أن تعرف الواحدة منهن من هي، بل المراد: أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء؛ لأنهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من ترك إنشاء الجلابيب ﴿رَحِيمًا﴾ بهن، أو غفوراً للذنوب المذنبين رحيماً بهم، فيدخلن في ذلك دخولاً أولياً. ثم توعد سبحانه أهل النفاق، والإرجاف، فقال: ﴿لَنُنْزِلَنَّ لَهُنَّ مِنَ الْمَنَافِقُونَ﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك وريبة عما هم عليه من الاضطراب ﴿وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين، وظهور المشركين عليهم. قال القرطبي: أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، والمعنى: أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق، ومرض القلوب، والإرجاف على المسلمين، فهو على هذا من باب قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزمحم
أي: إلى الملك القرم بن الهمام ليث الكتبية. وقال عكرمة، وشهر بن حوشب: الذين في قلوبهم مرض هم: الزناة. والإرجاف في اللغة: إشاعة الكذب، والباطل، يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت، من الرجفة، وهي: الزلزلة. يقال: رجفت الأرض: أي: تحركت، وتزلزلت ترجف رجفاً، والرجفان: الاضطراب الشديد، وسمي البحر: رجافاً لاضطرابه، ومنه قول الشاعر:
المطعمون اللحم كل عشية حتى تغيب الشمس في الرجاف
والإرجاف واحد الأرجاف، وأرجفوا في الشيء خاضوا فيه، ومنه قول شاعر:

فإننا وإن غيرتمونا بقله ولرجف بالإسلام باغ وحاسد
وقول الآخر:

أبألأرجاف يابن اللوم توعدني وفي الأرجاف خلت اللؤم والخور
ونلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا، وتارة بأنهم قتلوا، وتارة بأنهم

غلبوا، ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار، فتوعدهم الله سبحانه بقوله: ﴿لَنُغْفِرَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لنسلطنك عليهم، فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك. قال المبرد: قد أغراه الله بهم في قوله بعد هذه الآية ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا لُخُوتًا وَقَتْلُوا تَقْتِيلًا﴾ فهذا فيه معنى: الأمر بقتلهم، وأخذهم: أي: هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق، والإرجاف. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية. وأقول ليس هذا بحسن، ولا أحسن، فإن قوله: ملعونين إلخ، إنما هو لمجرد الدعاء عليهم لا أنه أمر لرسول الله ﷺ بقتالهم، ولا تسليط لهم عليهم، وقد قيل: إنهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الإرجاف، فلم يفره الله بهم، وجملة ﴿لَنُغْفِرَنَّ لَهُمْ﴾ جواب القسم، وجملة ﴿لَمْ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوفة على جملة جواب القسم: أي: لا يجاورونك فيها إلا جواراً قليلاً حتى يهلكوا، وانتصاب ﴿مَلْعُونِينَ﴾ على الحال كما قال المبرد، وغيره، والمعنى: مطروين ﴿أَيْنَمَا﴾ وجدوا، وأركوا ﴿لُخُوتًا وَقَتْلُوا﴾ دعاء عليهم بأن يؤخروا ويقتلوا ﴿تَقْتِيلًا﴾ وقيل: إن هذا هو الحكم فيهم، وليس بدعاء عليهم، والأول أولى. وقيل: معنى الآية: أنهم إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطروون ﴿سَنَسْأَلُ اللَّهَ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: سنسأل الله ذلك في الأمم الماضية، وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم، وكذا حكم المرجفين، وهو منتصب على المصدر. قال الزجاج: بين الله في الذين ينافقون الأنبياء، ويرجعون بهم: أن يقتلوا حيثما ثقفوا ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْيِيلًا﴾ أي: تحويلاً، وتغييراً، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف ﴿يَسْأَلُ النَّاسَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي: عن وقت قيامها، وحصولها: قيل: السائلون عن الساعة هم: أولئك المنافقون، والمرجعون لما توعدوا بالعذاب سالوا عن الساعة استبعاداً، وتكديباً ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ يا محمد: أي: ما يعلمك، ويخبرك ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: في زمان قريب، وانتصاب قريباً على الظرفية والتذكير لكون الساعة في معنى: اليوم، أو الوقت مع كون تأنيث الساعة ليس بحقيقي، والخطاب لرسول الله ﷺ لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها، وهو: رسول الله، فكيف بغيره من الناس، وفي هذا تهديد لهم عظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته ﴿وَوَاعَدَهُمْ﴾ في الآخرة مع ذلك اللعن منه لهن في الدنيا ﴿سَعِيرًا﴾ أي: ناراً شديدة التسعر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ بلا انقطاع ﴿وَلَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يواليهم، ويحفظهم من عذابها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم، ويخلصهم منها، ويوم في قوله: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبَ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ظرف لقوله: لا يجدون، وقيل: لخالد، وقيل: لنصير، وقيل: لفعل مقدر، وهو: انكر. قرأ الجمهور (تقلب) بضم التاء، وفتح اللام على البناء للمفعول. وقرأ عيسى الهمداني، وابن أبي إسحاق (نقلب) بالنون، وكسر اللام على البناء للفاعل، وهو: الله سبحانه. وقرأ

وكان ناس من المنافقين يتعرّضون لهم، فيؤنّين، ف قيل: ذلك للمنافقين، فقالوا: إنما نفعله بالإماء، فنزلت هذه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُمُ الْآيَةَ﴾. وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: كان رجل من المنافقين يتعرّض لنساء المؤمنين يؤنّين، فإذا قيل له قال: كنت أحسبها أمة، فأمرهن الله أن يخالفن زِيَّ الإماء، ويندين عليهن من جلابيبهن تخمر وجهها إلا إحدى عينيها ﴿فَإِنَّكَ إِنَّمَا يَعْرِفَن﴾ يقول: ذلك أحرى أن يعرفن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في هذه الآية قال: أمر الله نساء المؤمنات إذا خرجن من بيوتهن في حاجة: أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يُنَدِّينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كان رؤوسهن الغريان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها، هكذا في الزوائد بلطف من السكينة، وليس لها معنى، فإن المراد تشبيه الأكسية السود بالغريان، لا أن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال: كان على رؤوسهم الطير. وأخرج ابن مروي عن عائشة قالت: رحم الله نساء الأنصار لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُمُ الْآيَةَ﴾ شققن مروطهن، فاعتجنن بها، وصلين خلف رسول الله ﷺ كأنما على رؤوسهن الغريان. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في الآية قال: كانت الحرّة تلبس لباس الأمة، فأمر الله نساء المؤمنين: أن يدين عليهن من جلابيبهن، وإناء الجلاب: أن تقنع، وتشده على جبينها. وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب في قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ يعني: المنافقين بأعيانهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك: يعني: المنافقين أيضاً. وأخرج ابن سعد أيضاً عن عبيد بن جبير قال: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم: المنافقون جميعاً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال: لنسلطنك عليهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ وَمَا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١٢﴾ يَصْلَحْ لَكُمْ أَمْرُكُمْ وَيَعْرِفْ لَكُمْ دُونَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿١٤﴾ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُفْسِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةَ وَتَوْبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥﴾

قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ هو قولهم: إن به أذرة، أو برصاً، أو عيباً، وسيأتي بيان ذلك آخر البحث، وفيه تأنيب للمؤمنين، وزجر لهم عن أن يدخلوا في شيء من الأمور التي تؤدي رسول الله. قال مقاتل: وعظ الله

عيسى أيضاً بضم التاء، وكسر اللام على معنى: تقلب السعير وجوهمهم. وقرأ أبو حيوة، وأبو جعفر، وشيبة بفتح التاء واللام على معنى: تتقلب، ومعنى هذا التقلب المنكور في الآية: هو: تقلبها تارة على جهة منها، وتارة على جهة أخرى ظهراً لبطن، أو تغير ألوانهم بلفح النار، فتسود تارة، وتخضر أخرى، أو تبديل جلودهم بجلود أخرى، فحينئذ ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا اطعنا الله واطعنا للرسول﴾ والجملة مستأنفة كأنه قيل: فما حالهم؟ ف قيل: يقولون، ويجوز: أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوهمهم في النار يا لَيْتَنَّا إلخ. تمنوا: أنهم أطاعوا الله والرسول، وأمنوا بما جاء به؛ لينجوا مما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون، وهذه الآلاف في الرسول، والآلاف التي ستأتي في السبيلاء هي: الآلاف التي تقع في الفواصل، ويسمونها النخاعة ألف الإطلاق، وقد سبق بيان هذا في أول هذه السورة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى، والمراد بالسادة والكبراء هم: الرؤساء والقادة الذين كانوا يمثلون أمرهم في الدنيا، ويقتنون بهم، وفي هذا زجر عن التقليد شديد، وكلم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله، ويقتدي به، وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم، ومزيد البلادة، وشدة التعصب. وقرأ الحسن، وابن عامر (ساداتنا) بكسر التاء جمع سادة، فهو: جمع الجمع. وقال مقاتل: هم: المطعمون في غزوة بدر، والأول أولى، ولا وجه للخصيص بطائفة معينة ﴿فَافْضَلُونَا السَّبِيلَاءُ﴾ أي: عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله، ورسوله، والسبيل هو: التوحيد، ثم دعوا عليهم في ذلك الموقف، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَتَهُمُ ضَعُفَيْنَ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: مثل عذابنا مرتين. وقال قتادة: عذاب الدنيا، والآخرة، وقيل: عذاب الكفر، وعذاب الإضلال ﴿وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ الجمهور (كثيراً) بالمثلثة: أي: لعناً كثير العدد عظيم القدر شديد الموقع، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، والنحاس، وقرأ ابن مسعود، وأصحابه، ويحيى بن وثاب، وعاصم بالباء الموحدة: أي: كبيراً في نفسه شديداً عليهم ثقل الموقع.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قال: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فأراها عمر، فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فأنظري كيف تخرجين؟ قال: فإنكفات راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عرق، فدخلت، وقالت: يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا، فأوجي إليه، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد آن لك: أن تخرجن لحاجتك، وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: كان نساء النبي ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن،

المؤمنين: أن لا يؤذوا محمداً ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى. وقد وقع الخلاف فيما أؤذي به نبينا محمد ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فحكى النقاش: أن أنيتهم محمداً قولهم: زيد بن محمد. وقال أبو وائل: إنه ﷺ قسم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، وقيل: نزلت في قصة زيد بن ثابت، وزينب بنت جحش، وما سمع فيها من قالة الناس، ومعنى **﴿وكان عند الله وجيهاً﴾**: وكان عند الله عظيماً ذا وجاهة، الوجيه عند الله العظيم القبر الرفيع المنزلة، وقيل: في تفسير الوجاهة: إنه كلمه تكليماً. قرأ الجمهور (وكان عند الله) بالنون على الظرفية المجازية، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وأبو حيوة عبد الله بالباء الموحدة من العبودية، وما في قوله: **﴿فبئزاه الله مما قالوا﴾** هي: الموصولة، أو المصدرية: أي: من الذي قالوه، أو من قولهم: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾** أي: في كل أمر من الأمور **﴿وقولوا قولاً سديداً﴾** أي: قولاً صواباً، وحقاً. قال قتادة، ومقاتل: يعني: قولوا قولاً سديداً في شأن زيد، وزينب، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل. وقال عكرمة: إن القول السديد: لا إله إلا الله. وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه، وقيل: هو ما أريد به وجه الله دون غيره، وقيل: هو الإصلاح بين الناس. والسديد مأخوذ من تسديد السهم: ليصا به الغرض، والظاهر من الآية: أنه أمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً في جميع ما يأتونه، ويذرونه، فلا يخص ذلك نوعاً دون نوع، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي العموم، فالمقام يفيد هذا المعنى، لأنه أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولاً يخالف قول أهل الأذى. ثم نكر ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى، والقول السديد من الأجر، فقال: **﴿يصلح لكم أعمالكم﴾** أي: يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهتبههم إليه، ويوقفهم فيه **﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾** أي: يجعلها مكفرة مغفورة **﴿ومن يطع الله ورسوله﴾** في فعل ما هو طاعة، واجتتاب ما هو معصية **﴿فقد فاز فوزاً عظيماً﴾** أي: ظفر بالخير ظفراً عظيماً، ونال خير الدنيا والآخرة، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما سبقها. ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكليف الشرعية، وصعوبة أمرها، فقال: **﴿إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾**.

واختلف في تفسير هذه الأمانة المذكورة هنا، فقال الواحدي: معنى الأمانة ههنا في قول جميع المفسرين: الطاعة، والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب، وبتضييعها العقاب. قال القرطبي: والأمانة تعم جميع وصائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور.

وقد اختلف في تفاصيل بعضها، فقال ابن مسعود: هي في أمانة الأموال كالودائع، وغيرها، وروي عنه: أنها في كل الفرائض، وأشدّها أمانة المال. وقال أبي بن كعب: من

والجبال، وقد كلفه الإنسان، وهو ظلوم جهول لو عقل، وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جِبَلٍ﴾ [الحشر: 21] وقيل: إن عرضنا بمعنى عارضنا: أي: عارضنا الأمانة بالسموات والأرض، والجبال، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلها عليها. وقيل: إن عرض الأمانة على السموات والأرض، والجبال إنما كان من آدم عليه السلام، وأن الله أمره أن يعرض ذلك عليها، وهذا أيضاً تحريف لا تفسير، ومعنى ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: أي: التزم بحملها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه، أو جهول لقدر ما دخل فيه كما قال سعيد بن جبیر، أو جهول بربه كما قال الحسن. وقال الزجاج: معنى حملها: خان فيها، وجعل الآية في الكفار، والفاسق، والعصاة، وقيل: معنى حملها: كلفها، وألزمها، أو صار مستعداً لها بالفطرة، أو حملها عند عرضها عليه في عالم النثر عند خروج نرية آدم من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم، واللام في ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقَاتِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ متعلق بحملها أي: حملها الإنسان؛ ليعذب الله العصاة، ويثيب المطيع، وعلى هذا فجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ معترضة بين الجملة، وغايتها للإيدان بعدم وفائه بما تحمله. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حبان: ليعذبهم بما خانوا من الأمانة، وكتبوا من الرسل، ونقضوا من الميثاق الذي أقروا به حين أخرجوا من ظهر آدم. وقال الحسن، وقتادة: هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها، وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أتوها. وقال ابن قتيبة: أي: عرضنا ذلك؛ ليظهر نفاق المنافق، وشرك المشرك، فيعذبهما الله، ويظهر إيمان المؤمن، فيتوب الله عليه: أي: يعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات، ولذلك نكر بلفظ التوبة، فدل على أن المؤمن العصاة خارج من العذاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا في شيء مما يجب عليهم. وقد قيل: إن المراد بالأمانة العقل، والراجح ما قلنا عن الجمهور، وما عداه، فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربي، ولا انطباقه على ما يقتضيه الشرع، ولا موافقته لما يقتضيه تعريف الأمانة.

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئ موسى مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئ موسى مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر

في الآخرة، فإنه متعلق بمتعلق عام هو: الاستقرار، أو نحوه، والمعنى: أن له سبحانه على الاختصاص حمد عباده الذين يحمونه في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة كما في قوله: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صلقنا وعده﴾ [الزمر: 74] وقوله: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف: 43] وقوله: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ [فاطر: 34] وقوله: الحمد لله ﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ [فاطر: 35]، وقوله: ﴿وأخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ [يونس: 10]، فهو سبحانه المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا، وهو: المالك للآخرة كما أنه المالك للدنيا وهو الحكيم الذي أحكم أمر الدارين ﴿الخير﴾ بأمر خلقه فيهما، قيل: والفرق بين الحمين: أن الحمد في الدنيا عبادة، وفي الآخرة تلذذ، وإبتهاج، لأنه قد انقطع التكليف فيها، ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات، والارض، فقال: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: ما يدخل فيها من مطر، أو كنز، أو نفين ﴿وما يخرج منها﴾ من زرع، ونبات، وحيوان ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأمطار، والثلوج، والبرد، والصواعق، والبركات، ومن ذلك ما ينزل منها من ملائكته، وكتبه إلى أنبيائه ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة، وأعمال العباد. قرأ الجمهور «ينزل» بفتح الياء، وتخفيف الزاي مسنداً إلى «ما»، وقرأ علي بن أبي طالب، والسلمي بضم الياء وتشديد الزاي مسنداً إلى الله سبحانه ﴿وهو الرحيم﴾ بعباده «الغفور» لذنوبهم ﴿وقال للنين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ المراد بهؤلاء القائلين جنس الكفرة على الإطلاق، أو كفار مكة على الخصوص، ومعنى لا تأتينا الساعة: أنها لا تأتي بحال من الأحوال، إنكاراً منهم لوجودها لا لمجرد إتيانها في حال تكلمهم، أو في حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد، فرد الله عليهم، وأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿قل بلى وربى لتأتينكم﴾، وهذا القسم لتأكيد الإتيان، قرأ الجمهور «لتأتينكم» بالوقفية: أي الساعة، وقرأ طلق المعلم بالتحية على تأويل الساعة باليوم، أو الوقت. قال طلق: سمعت أشيخنا يقرعون بالياء: يعني: التحية على المعنى، كأنه قال: لتأتينكم البعث، أو أمره كما قال: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ [النحل: 33] قرأ نافع، وابن عامر (عالم الغيب) بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره لا يعزب، أو على تقدير مبتدأ، وقرأ عاصم، وابن كثير، وأبو عمرو بالجر على أنه نعت لربي، وقرأ حمزة، والكسائي (علام) بالجر مع صيغة المبالغة، ومعنى «لا يعزب»: لا يغيب عنه، ولا يستتر عليه، ولا يبعد «عنه» مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك المتقال ﴿ولا أكبر﴾ منه «إلا في كتاب مبين»، وهو: اللوح المحفوظ. والمعنى: إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه، فهو مؤكد لنفي العزوب. قرأ الجمهور (يعزب) بضم الزاي، وقرأ يحيى بن

فيها، فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب النتب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً من طريق أخرى نحوه.

تفسير سورة سبا

وهي مكية. قال القرطبي في قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ [سبا: 6]، فقالت فرقة: هي: مكية، وقالت فرقة: هي: مدنية، وسيأتي الخلاف في معنى هذه الآية إن شاء الله، وفيمن نزلت، وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة سبا بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْآتِيَةِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ يَجْزِيكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَزْوَاجَكَ لَمْ تَغْنَبْهُمْ وَرَبُّكَ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُجْرِمِينَ أُولَئِكَ هُمْ عَذَابُ بْنُ رَجَزٍ أَبَدٌ ﴿٥﴾ وَرَبِّي الَّذِينَ أَوْفُوا أَوَّلَ مَا أَلَمَّ اللَّهُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رِزْقِكَ هُوَ الْخَبَرُ وَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْمُرِيدِ الْحَكِيمِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَنْلِكُ عَلَى رِجْلِ مَبِيتِكُمْ إِذَا مَرُفْتُمْ كُلَّ مَرْجَفٍ إِنَّا كُنَّا لَبِىَّ حَكِيمٍ ﴿٧﴾ أَفَدَعَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَرَأَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّعَةِ وَالْأَرْضِ إِنْ لَشَأْ غَضِبَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ شَقِطَ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾

قوله: ﴿الحمد لله﴾ تعريف الحمد مع لام الاختصاص مشعران باختصاص جميع أفراد الحمد بالله سبحانه على ما تقدم تحقيقه في فاتحة الكتاب، والموصول في محل جر على النعت، أو البدل، أو النصب على الاختصاص، أو الرفع على تقدير مبتدأ، ومعنى ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: أن جميع ما هو فيها في ملكه، وتحت تصرفه يفعل به ما يشاء، ويحكم فيه بما يريد، وكل نعمة واصله إلى العبد، فهي مما خلقه له، ومن به عليه، فحمده على ما في السموات والأرض هو: حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم. ولما بين: أن الحمد اللبني من عباده الحامدين له مختص به بين أن الحمد الأخرى مختص به كذلك، فقال: ﴿وله الحمد في الآخرة﴾، وقوله: «له» متعلق بنفس الحمد، أو بما تعلق به خبر الحمد أعني:

ويقبضن ﴿الملك: 19﴾ أي: وقابضات كأنه قيل: وهابياً، وقيل: إنه مستأنف، وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل، وهو: القرآن. والصراط الطريق: أي: ويهدي إلى طريق ﴿العزیز﴾ في ملكه ﴿الحميد﴾ عند خلقه، والمراد: أنه يهدي إلى دين الله، وهو: التوحيد. ثم نكر سبحانه نوعاً آخر من كلام منكري البعث، فقال: ﴿وقال النين كفروا﴾ أي: قال بعض لبعض: ﴿هل نلکم على رجل﴾. يعنون: محمداً ﷺ أي: هل نرشدکم إلى رجل ﴿ينبئکم﴾ أي: يخبرکم بأمر عجيب، ونبا غريب هو: أنکم ﴿إذا مرقتم کل مرق﴾ أي: فرقتم کل تفريق، وقطعتم کل تقطيع، وصرتم بعد موتکم رفاتاً وتراباً ﴿إنکم لفي خلق جديد﴾ أي: تخلقون خلقاً جديداً، وتبعثون من قبورکم أحياء، وتعودون إلى الصور التي كنتم علیها، قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث، وأخرجوا الكلام مخرج التلهي به، والتضاحك مما يقوله من ذلك، «وإذا» في موضع نصب بقوله: ﴿مرقتم﴾. قال النحاس: ولا يجوز: أن يكون العامل فيها ينبئکم، لأنه ليس يخبرهم تلك الوقت. ولا يجوز: أن يكون العامل فيها ما بعد إن؛ لأنه لا يعمل فيما قبلها. وأجاز الزجاج: أن يكون العامل فيها محذوفاً، والتقدير: إذا مرقتم کل مرق تبعثتم، أو نبثتم بأنکم تبعثون إذا مرقتم، وقال المهدوي: لا يجوز أن يعمل فيه مرقتم؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. وأصل المرق خرق الأشياء، يقال: ثوب مزيق، ومزق، ومتمزق، وممزق. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار: أنهم ردوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين، فقالوا: ﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة﴾ أي: أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله، والهمزة في أفترى هي: همزة الاستفهام، وحذفت لاجلها همزة الوصل كما تقدم في قوله: ﴿أطلع الغيب﴾ [مريم: 78]، ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه في رسوله، فقال: ﴿بل النين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، بل هم الذين ضلوا عن الفهم، وإبرك الحقائق، فكفروا بالآخرة، ولم يؤمنوا بما جاءهم به، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدائم في الآخرة، وهم اليوم في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد. ثم وبخهم سبحانه بما اجتريء عليه من التكذيب مبيناً لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكير، والتدبر في خلق السماء والأرض، وأن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك، ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات، ومعنى ﴿إلى ما بين أيديهم وما خلفهم﴾: أنهم إذا نظروا رأوا السماء خلفهم، وقدامهم، وكذلك إذا نظروا في الأرض رأوها خلفهم، وقدامهم، فالسما والأرض محيطتان بهم، فهو: القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم، وتكذيبهم لرسوله، وإنكارهم للبعث، فهذه الآية اشتملت على أمرين: أحدهما: أن هذا الخلق الذي خلقه الله

وثاب بكسرهما. قال الفراء: والكسر أحب إلي، وهما لغتان، يقال: عذب يعذب بالضم، ويعذب بالكسر إذا بعد، وغاب. وقرأ الجمهور «ولا أصغر، ولا أكبر» بالرفع على الابتداء، والخبر إلا في كتاب، أو على العطف على مثقال، وقرأ قتادة، والأعمش بنصبهما عطفاً على نزة، أو على أن لا هي لا التبرئة التي يبني اسمها على الفتح، واللام في ﴿ليجزى النين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ للتعليل لقوله: ﴿لتاتينكم﴾ أي: إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب، والكافرين بالعقاب، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الموصول: أي: أولئك الذين آمنوا، وعملوا الصالحات ﴿لهم مغفرة﴾ لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾، وهو الجنة بسبب إيمانهم، وعملهم الصالح مع التفضل عليهم من الله سبحانه. ثم نكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة، فقال: ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي: سعوا في إبطال آياتنا المنزلة على الرسل، وقبحوا فيها، وصنوا الناس عنها، ومعنى ﴿معاجزين﴾: مسابقين يحسبون: أنهم يفوتونها، ولا يدركون، وذلك باعتقادهم: أنهم لا يبعثون، يقال: عاجزه، وأعجزه، إذا غلبه، وسبقه. قرأ الجمهور (معاجزين)، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד، ومجاهد، وأبو عمرو «معجزين» أي: مثبطين للناس عن الإيمان بالآيات ﴿أولئك﴾ أي: الذين سعوا ﴿لهم عذاب من رجز﴾ الرجز هو: العذاب، فمن للبيان، وقيل: الرجز هو: أسوأ العذاب، وأشدّه، والأول أولى. ومن ذلك قوله: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء﴾ [البقرة: 59] قرأ الجمهور (اليم) بالجر صفة لرجز. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم بالرفع صفة لعذاب، والأليم الشديد الألم ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ لما نكر الذين سعوا في إبطال آيات الله نكر الذين يؤمنون بها، ومعنى ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ أي: يعلمون، وهم الصحابة. وقال مقاتل: هم: مؤمنو أهل الكتاب، وقيل: جميع المسلمين، والموصول هو المفعول الأول ليرى، والمفعول الثاني الحق، والضمير هو: ضمير الفصل. وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ ابن أبي عتبة بالرفع على أنه خير الضمير، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني، وهي لغة تميم، فإنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، وزعم الفراء: أن الاختيار الرفع، وخالفه غيره، وقالوا: النصب أكثر، قيل: وقوله: ﴿يرى﴾ معطوف على ليجزي، وبه قال الزجاج، والفراء، واعترض عليهما بأن قوله: ﴿ليجزى﴾ متعلق بقوله ﴿لتاتينكم﴾ ولا يقال: لتاتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق، والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا في الآيات: أي: إن ذلك السعي منهم يدل على جهلهم؛ لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم في شأن القرآن ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ معطوف على الحق عطف فعل على اسم، لأنه في تأويله كما في قوله: ﴿صافات

وَلِيُخَبِّرَنَّ الرِّبَّعَ عُدُوَّهُا شَهْرَ وَرَوَّاحَهَا شَهْرَ وَأَمْسَنَا لَمْ يَنْزِلَ عَنْ الْقَطْرِ وَمَنْ
الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْذِنُ رَبِّيَ وَمَنْ مَرَّعَ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرٍ لَمْ يَفُقهُ مِنْ
عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٧﴾ يَعْلَمُونَ لَمْ يَأْتِ شَيْءٌ مِنْ تَحْزِينٍ وَتَنْشِيلٍ وَرَحْمَانٍ
كَأَلْبَابٍ وَقَدِيرٍ رَأْسِي سَبَّ أَعْلَمُوا عَالِ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ لَهُ عِبَادِيَ الشُّكْرُ
﴿٨﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنْسَلَّتْ فَلَمَّا حَرَّتْ زَنْبَبُ الْجِنِّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْقَبِيبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
الْأَلِيمِ ﴿٩﴾

ثم نذكر سبحانه من عبادته المنيبين إليه داود، وسليمان كما قال في داود: ﴿فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] وقال في سليمان: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، فقال: ﴿وَوَلَدْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [أي: آتَيْنَاهُ بِسَبَبٍ إِنَابَتِهِ فَضْلًا مِنَّا عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ. واختلف في هذا الفضل على أقوال: فقيل: النبوة، وقيل: الزبور، وقيل: العلم، وقيل: القوة كما في قوله: ﴿وَوَانَكِرَ عِبْنَا دَاوُدَ الْإِيدَ﴾ [ص: ١٧] وقيل: تسخير الجبال كما في قوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ﴾ وقيل: التوبة، وقيل: الحكم بالعدل كما في قوله: ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] وقيل: هو: إلاتة الحديد كما في قوله: ﴿وَوَلَّانَاهُ الْحَدِيدَ﴾، وقيل: حسن الصوت، والأولى أن يقال: إن هذا الفضل المنكور هو ما نكره الله بعده من قوله: ﴿يَا جِبَالُ﴾ إلى آخر الآية، وجملة ﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ﴾ مفترقة بالقول: أي: قلنا يا جبال، والتأويل: التسبيح كما في قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ﴾ [ص: ١٨]. قال أبو ميسرة: هو: التسبيح بلسان الحبشة. وكان إذا سبح داود سبحت معه، ومعنى تسبيح الجبال: أن الله يجعلها قادرة على ذلك، أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود، وقيل: معنى أوبي: سيرري معه، من التأويل الذي هو سير النهار أجع، ومنه قول ابن مقبل:

لحقنا بحيّ أوّبو السّير بعد ما نفغنا شعاع الشمس والطرف منجن
 قرأ الجمهور (أوّبي) بفتح الهمزة، وتشديد الواو على
 صيغة الأمر، من التّأويب: وهو: التّرجيع، أو التّسبيح، أو
 السّير، أو النّوح. وقرأ ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن أبي
 إسحاق «أوّبي» بضم الهمزة أمراً من أب يثوب إذا رجّع: أي:
 أرجعي معه. قرأ الجمهور (والطير) بالنّصب عطفاً على
 (فضلاً) على معنئ؛ وسخرنا له الطير، لأن إيتاءه إياها
 تسخيرها له، أو عطفاً على محل ﴿يا جبال﴾؛ لأنّه منصوب
 تقديره، إذ المعنئ: نائينا الجبال، والطير. وقال سيبويه، وأبو
 عمرو بن العلاء: انتصابه بفعل مضمّر على معنئ؛ وسخرنا
 له الطير. وقال الزجاج، والنّحاس: يجوز أن يكون مفعولاً
 معه كما تقول: استوى الماء، والخشبة. وقال الكسائي: إنّهُ
 معطوف على فضلاً لكن على تقدير مضاف محذوف أي:
 آتيناها فضلاً، وتسبيح الطير. وقرأ السّلمي، والأعرج،
 ويعقوب، وأبو نوفل، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم،
 وابن هرمز، ومسلمة بن عبد الملك بالرفع عطفاً على لفظ

من السماء، والأرض يدل على كمال القدرة على ما هو لونه من البعث كما في قوله: ﴿وَأَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يَس: 81]. والأمر الآخر: التهديد لهم بأن من خلق السماء، والأرض على هذه الهيئة التي قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العذاب لهم ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿وَأَوْ نَسْقُطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا﴾ أي: قطعاً ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ كما أسقطها على أصحاب الأيكة، فكيف يأمنون ذلك. قرأ الجمهور (لَنْ نَشَأْ) بنون العظمة، وكذا (نُخَسِفْ)، (ونَسْقُطْ). وقرأ حمزة، والكسائي بالياء التحتية في الأفعال الثلاثة: أي: إِنْ يَشَأْ الله. وقرأ الكسائي وحده بإدغام الفاء في الباء في «نُخَسِفْ بِهِمْ». قال أبو علي الفارسي: وذلك غير جائز؛ لأن الفاء من باطن الشفة السفلى، وأطراف الثنايا العليا بخلاف الباء، وقرأ الجمهور (كِسْفًا) بسكون السين. وقرأ حفص، والسلمي بفتحها ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من خلق السماء والأرض ﴿لَايَةً﴾ واضحة دلالة بينة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي: راجع إلى ربه بالتوبة، والإخلاص، وخصّ المنيب؛ لأنه المنتفع بالتفكير.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾
يلج في الأرض﴾ قال: من المطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ قال:
من النبات ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: من الملائكة ﴿وَمَا
يَعْرَجُ فِيهَا﴾ قال: الملائكة، وأخرج عبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿مَنْ
رَجَزَ الْيَمَ﴾ قال: الرجز هو: العذاب الأليم الموجع، وفي
قوله: ﴿وَيُرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾ قال: أصحاب محمد.
وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال: يعني:
المؤمنين من أهل الكتاب. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في
قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنلِّكُم عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ قال: قال
ذلك مشركو قريش ﴿إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مَشْرُقٍ﴾ يقول: إذا
أكلتكم الأرض، وصرتم رفاتا وعظاماً، وتقطعتم السباع،
والطير ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إنكم ستحيون، وتبعثون،
قالوا ذلك تكديباً به ﴿فَاتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كُتُباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾
قال: قالوا: إما أن يكون يكذب على الله، وإما أن يكون مجنوناً
﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ﴾ قالوا: إنك إن نظرت عن يمينك، وعن شمالك، ومن
بين يديك، ومن خلفك رأيت السماء والأرض ﴿إِنْ نَشَأْ
نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا بمن كان قبلهم ﴿أَوْ
نَنْسُقَ عَلَيْهِمْ كَسُفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: قطعاً من السماء إن
يشأ أن يعذب بسمائهم فعل، وإن يشأ أن يعذب بأرضه فعل،
وكل خلقه له جند ﴿إِنْ فِي نَزْلِكَ آيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ قال:
ثابت مقبل إلى الله.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آيَاتِي مَعَهُ وَالْكَلِيمَ وَالنَّالَةَ الْحَمِيدَ ﴿١٥﴾ أَنْ أَعْمَلْ سَبِيحَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّعَةِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

الحسن: كان يغزو من دمشق، فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصطخر، فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر **﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾** القطر: النحاس الذائب. قال الواحدي: قال المفسرون: أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء، وإنما يعمل الناس اليوم بما أعطي سليمان، والمعنى: أسلنا له عين النحاس كما أسلنا الحديد لدادود، وقال قتادة: أسأل الله له عيناً يستعملها فيما يريد **﴿وَمَنْ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾** من مبتدأ، ويعمل خبره، ومن الجن متعلق به، أو بمحذوف على أنه حال، أو من يعمل معطوف على الريح، ومن الجن حال، والمعنى: وسخرنا له من يعمل بين يديه حال كونه من الجن بإذن ربه: أي: بأمره. والإذن مصدر مضاف إلى فاعله، والجار والمجرور في محل نصب على الحال: أي: مسخراً أو ميسراً بامر ربه **﴿وَمَنْ يَزِغْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾** أي: ومن يعدل من الجن عن أمرنا الذي أمرناه به: وهو: طاعة سليمان **﴿نَذَقَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾** قال أكثر المفسرين: وذلك في الآخرة، وقيل: في الدنيا. قال السدي: وكل الله بالجن ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاع عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة فتحرقه. ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجن لسليمان، فقال: **﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾**، و«من» في قوله: **﴿مَنْ مَحَارِبٍ﴾** للبيان، والمحارب في اللغة كل موضع مرتفع، وهي: الأبنية الرفيعة، والقصور العالية. قال المبرد: لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج، ومنه قيل: للذي يصلح فيه محراب؛ لأنه يرفع ويعظم. وقال مجاهد: المحارب نون القصور. وقال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار، ومنه قول الشاعر:

وماذا علي إن ذكرت لوانسا كفزلان رمل في محارب أقيال
وقال الضحاك: المراد بالمحارب هنا المساجد، والتماثيل جمع تماثيل، وهو كل شيء مثله بشيء: أي: صورته بصورته من نحاس، أو زجاج، أو رخام، أو غير ذلك. قيل: كانت هذه التماثيل صور الأنبياء، والملائكة، والعلماء، والصالحاء، وكانوا يصورونها في المساجد؛ ليرأها الناس، فيزدادوا عبادة واجتهاداً. وقيل: هي تماثيل أشياء ليست من الحيوان. وقد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحاً في شرع سليمان، ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ. والجفان جمع جفنة، وهي: القصعة الكبيرة. والجواب جمع جابية، وهي: حفيرة كالحوض، وقيل: هي الحوض الكبير يجبي الماء: أي: يجمعه. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: قصاعاً في العظم كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل ياكلون منها. قال النحاس: الأولى إثبات الباء في الجوابي، ومن حذف الباء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على التكرة فلا تغيرها عن حالها، فلما كان يقال جواب، وبخلت الألف واللام أقر على حاله، فحذف الباء. قال الكسائي: يقال: جبوت الماء، وجببته في الحوض: أي: جمعته، والجابية الحوض الذي يجبي فيه الماء للإبل. وقال النحاس:

الجبال، أو على المضممر في أوبي لوقوع الفصل بين المعطوف، والمعطوف عليه **﴿وَأَلْغَا لَهُ الْحَبِيدَ﴾** معطوف على آتيناه: أي: جعلناه لنا؛ ليعمل به ما شاء. قال الحسن: صار الحديد كالشمع يعمل من غير نار. وقال السدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول، والعجين، والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار، ولا ضرب بمطرقة، وكذا قال مقاتل، وكان يفرغ من عمل الدرع في بعض يوم **﴿إِنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ﴾** في أن هذه وجهان: أحدهما: أنها مصدرية على حذف حرف الجر: أي: بأن يعمل، والثاني: أنها المفسرة لقوله: **﴿وَأَلْغَا﴾**، وفيه نظر؛ لأنها لا تكون إلا بعد القول، أو ما هو في معناه. وقتر بعضهم فعلاً فيه معنى القول، فقال التقدير: وأمرناه أن نعمل. وقوله: **﴿سَابِغَاتٍ﴾** صفة لموصوف محذوف: أي: دروعاً سابغات، والسابغات الكوامل الواسعات، يقال: سبغ الدرع، والثوب، وغيرهما: إذا غطي كل ما هو عليه، وفضل منه فضلة **﴿وَوَقَّرَ فِي السَّرْدِ﴾** السرد نسج الدروع، ويقال: السرد والزرذ كما يقال: السرد، والزراد لصانع الدروع، والسرد أيضاً الخرز، يقال: سرد يسرد: إذا خرز، ومنه سرد الكلام: إذا جاء به متوالياً، ومنه حديث عائشة: لم يكن النبي ﷺ يسرد الحديث كسرديكم. قال سيبويه: ومنه سرید: أي: جري، ومعنى سرد الدروع: إحكامها، وأن يكون نظم حلقها ولواء غير مختلف، ومنه قول لبيد:

سرد الدروع مضاعفاً أسراده لينال طول العيش غير مروح
وقول أبي نؤيب الهذلي:

وعليهما مسروبتان قضاهما داود إذ صنع السوابغ تبع
قال قتادة: كانت الدروع قبل داود ثقلاً، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة: أي: قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه، فلا تقصد الحصانة فيثقل، ولا الخفة فيزيل المنعة، وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة: أي: لا تعملها صغيرة فتضعف ولا يقوى الدرع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها. وقيل: إن التقدير هو في المسمار: أي: لا تجعل مسمار الدرع دقيقاً فيثقل، ولا غليظاً فيفصم الحلق. ثم خاطب داود، وأهله، فقال: **﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾** أي: غملاً صالحاً كما في قوله: **﴿وَأَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾** ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله: **﴿إِنِّي يَمَا تَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾** أي: لا يخفى علي شيء من ذلك **﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾** قرأ الجمهور (الريح) بالنصب على تقدير: وسخرنا لسليمان الريح كما قال الزجاج، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بالرفع على الابتداء، والخبر: أي: ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ثابتة أو مسخرة، وقرأ الجمهور (الريح)، وقرأ الحسن، وأبو حيوة، وخالد بن إلياس (الرياح) بالجمع **﴿غَنَوْهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا﴾** أي: تسير بالغداة مسيرة شهر، وتسير بالعشي كذلك، والجملة إما مستأنفة لبيان تسخير الريح، أو في محل نصب على الحال، والمعنى: أنها كانت تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين. قال

ويجوز: أن يكون تبينت الجن من تبين الشيء، لا من تبين الشيء: أي: ظهر، وتجلي، وأن وما في حيزها بدل اشتغال من الجن مع تقدير محذوف: أي: ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، أو ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب إلخ. قرأ الجمهور (تبينت) على البناء للمفعول مسنداً إلى الجن. وقرأ ابن عباس ويعقوب (تبينت) على البناء للمفعول، ومعنى القراءتين يعرف مما قُتْنَا.

وقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأُوبِي مَعَهُ﴾ قال: سبّحي معه، وروي مثله عن أبي ميسرة، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وابن زيد. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَلَّيْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ قال: كالعجين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قال: حلق الحديد. وأخرج عبد الرزاق، والحاكم عنه أيضاً ﴿وَوَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قال: لا تنق المسامير، وتوسع الحلق، فتسلس، ولا تغلظ المسامير، وتضيق الحلق، فتقصر، واجعله قدراً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوَاسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ﴾ قال النحاس. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: القطر النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان، وإنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطي سليمان. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: القطر الصفر. وأخرج الحكيم الترمذي في نوار الأصول عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَتَمَثَّلَ﴾ قال: اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال: يا رب انفخ فيها الروح، فإنها أقوى على الخدمة، فنفخ الله فيها الروح، فكانت تخدمه، وكان اسفنديار من بقاياهم، فقيل لداود وسليمان: ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿كَالْجَوَابِ﴾ قال: كالجوبة من الأرض ﴿وَوَقَدَّرَ رَاسِيَاتِ﴾ قال: أثافيها منها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَوَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ يقول: قليل من عبادي الموحدين توحيدهم. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً قال: لبث سليمان على عصاه حولاً بعد ما مات، ثم خرّ على رأس الحول، فأخذت الجن عصي مثل عصاه، ودابة مثل دابته، فأرسلوها عليها، فكلتها في سنة، وكان ابن عباس يقرأ ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ الآية، قال سفيان: وفي قراءة ابن مسعود «وهم يدابون له حولاً». وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن السني، وابن مروي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال «كان سليمان إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا، وكذا، فيقول: لما أنت؟ فتقول: لكذا، وكذا، فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت»، وصلى ذات يوم، فإذا شجرة نابتة بين يديه، فقال لها: ما

والجارية القدر العظيمة، والحوض العظيم الكبير الذي يجبي فيه الشيء: أي: يجمع، ومنه جببت الخراج، وجببت الجراد: جمعته في الكساء ﴿وَوَقَدَّرَ رَاسِيَاتِ﴾ قال قتادة: هي: قدور النحاس تكون بفارس، وقال الضحاك: هي: قدور تنحت من الجبال الصم عملتها له الشياطين. ومعنى راسيات: ثابتات لا تحمل، ولا تحرك أعظمها. ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم: أي: سليمان وأمله، فقال: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي: وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم، أو اعملوا عملاً شاكراً على أنه صفة مصدر محذوف، أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له، أو حال: أي: شاكرين، أو مفعول به، وسميت الطاعة شكراً لأنها من جملة أنواعه، أو منصوب على المصدرية بفعل مقدر من جنسه: أي: اشكروا شكراً. ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عبادهم ليسوا بالكثير، فقال: ﴿وَوَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ يعني: للشكور أي: العامل بطاعتي الشاكر لنعمتي قليل. وارتفاع قليل على أنه خبر مقدم، ومن عبادي صفة له، والشكور مبتدأ ﴿فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ لَمُوتِ﴾ أي: حكمنا عليه به، والزمان إياه ﴿فَلَمَّا نَلِهْمُ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةَ الْأَرْضِ﴾ يعني: الأرض. وقرئ (الأرض) بفتح الراء: أي: الأكل، يقال: أرضت الخشبة أرضاً: إذا أكلتها الأرض. ومعنى تاكل منسلته: تاكل عصاه التي كان متكئاً عليها، والمنسأة: العصا بلغة الحبشة، أو هي مأخوذة من نسات الغنم: أي: زجرتها. قال الزجاج: المنسأة التي ينسا بها: أي: يطرد. قرأ الجمهور (منسأته) بهمزة مفتوحة. وقرأ ابن نكوان بهمزة ساكنة. وقرأ نافع، وأبو عمرو بالغ محضة. قال المبرد: بعض العرب يبذل من همزتها ألفاً، وأنشد:

إذا دببت على المنسأة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل
ومثل قراءة الجمهور قول الشاعر:
ضربنا بمنسأة وجهه فصار بذاك مهيناً نليلاً
ومثله:

أمن أجل جبل لا أبك ضربته بمنسأة قد جرّ حبلك أحبلاً
ومما يدل على قراءة ابن نكوان قول طرفة:

أمون كالأواح الأران نساتها على لاحب كائنه ظهر برجد
﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ أي: ظهر لهم، من تبينت الشيء إذا علمته: أي: علمت الجن: ﴿وَأَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: لو صح ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب لعلوا بموته، ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة في العذاب المهين في العمل الذي أمرهم به، والطاعة له، وهو إذ ذاك ميت. قال مقاتل: العذاب المهين: الشقاء، والنصب في العمل. قال الواحدي: قال المفسرون: كانت الناس في زمان سليمان يقولون: إن الجن تعلم الغيب، فلما مكث سليمان قائماً على عصاه حولاً ميتاً، والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة التي كانت تعمل في حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرض عصاه، فخرّ ميتاً، فعملوا بموته، وعلم الناس: أن الجن لا تعلم الغيب،

اسم مكان، وأريد به معنى: الجمع، وهذه المساكن التي كانت لهم هي: التي يقال لها الآن: مارب، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال، ومعنى قوله: ﴿آيَةً﴾ أي: علامة دالة على كمال قدرة الله، ويبيع صنعاء، ثم بين هذه الآية، فقال: ﴿جَنَّاتٍ﴾، وارتفاعهما على البدل من آية قاله الفراء، أو على أنهما خبر مبتدأ محذوف قاله الزجاج، أو على أنهما مبتدأ، وخبره ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، واختار هذا الوجه ابن عطية، وفيه أنه لا يجوز الابتداء بالنعرة من غير مسوِّغ، وقرأ ابن أبي عبيدة «جنتين» بالنصب على أنهما خبر ثان، واسمها: آية، وهاتان الجنتان كانتا عن يمين وأبهم وشماله، قد أحاطتا به من جهتيه، وكانت مساكنهم في الوادي، والآية هي: الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما، وعلى رأسها المكنل، فيمتلئ من أنواع الفواكه التي تتساقط من غير أن تمسها بيدها. وقال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التي كانت لاهل سبا في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة، ولا نذاباً، ولا برغوثاً، ولا قملة، ولا عقرباً، ولا حية، ولا غير ذلك من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم. قال القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة في كل جهة بستين كثيرة ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم ذلك، ولم يكن ثم أمر، ولكن المراد تمكينهم من تلك النعم، وقيل: إنها قالت لهم الملائكة، والمراد بالرزق هو: ثمار الجنتين، وقيل: إنهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على ما رزقكم من هذه النعم، واعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه، وجملة ﴿بِلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ﴾ مستأنفة لبيان موجب الشكر. والمعنى: هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها، وطيب ثمارها. وقيل: معنى كونها طيبة: أنها غير سيخة، وقيل: ليس فيها هوم. وقال مجاهد: هي: صنعاء. ومعنى ﴿وَرَبِّ غَفُورٍ﴾: أن المنعم عليهم رب غفور لذنوبهم. قال مقاتل: المعنى: وربكم إن شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب. وقيل: إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. وقرأ ورش ⁽¹⁾ بنصب بلدة، ورب على المدح، أو على تقدير اسكنوا بلدة، واشكروا رباً. ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿فَاعْرِضُوا﴾ عن الشكر، وكفروا بالله، وكتبوا نبياً، فكذبوه، وكذا قال وهب، ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نعمة سلب بها ما أنعم به عليهم، فقال: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرَمِ﴾، وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبا من أودية اليمن، فدموا رملًا بين جبلين، وحبسوا الماء. وجعلوا في ذلك الرمل ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، وكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الباب الثاني، ثم من الثالث، فاخصبوا،

(1) قوله: وقرأ ورش، يعني: في غير المشهور عنه الآن اهـ ع.

اسمك؟ قالت: الخروب؟ قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان: اللهم عمّ عن الجنّ موتي حتى يعلم الإنسان أن الجنّ لا يعلمون الغيب، فهياً عصاً، فتوكل عليها، وقبضه الله، وهو متكئ عليها، فمكث حولاً ميتاً، والجنّ تعمل، فاكلتها الأرض، فسقطت، فعملوا عند ذلك بموته، فتبينت للإنس ﴿أَنَّ﴾ الجنّ ﴿هَلْوَ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، وكان ابن عباس يقرؤها كذلك، فشكرت الجنّ للأرض، فإينما كانت يأتونها بالماء. وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفاً، وأخرج البيهقي عن زيد بن أرقم مرفوعاً يقول الله عز وجل «إني تفضلت على عبادي بثلاث: ألقيت الدابة على الحبة، ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكتزون الذهب، والفضة، وألقيت النتن على الجسد، ولولا ذلك لم ينفن حبيب حبيبه، واستلبت الحزن، ولولا ذلك لذهب النسل».

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١﴾ فَاَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَثَرٍ وَتَوَّانٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٢﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ وَهَلْ تَجْزِي إِلَّا الْكُفْرُ ﴿٣﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْآفْرِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ طَيِّبَةٍ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِدْرًا فِيهَا لَبَاقٍ وَأَيَّامًا ءَامِينَ ﴿٤﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقَأٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ لَيْسَ لَكُمْ فَتَحَهُمْ إِلَّا فَرَقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي حَقٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿٧﴾

لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال بعض الجاحدين لها، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ المراد بسبا القبيلة التي هي من أولاد سبا، وهو: سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود. قرأ الجمهور (لسبا) بالجر والتثنية على أنه اسم حي: أي: الحي الذين هم: أولاد سبا، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لسبا) ممنوع الصرف بتأويل القبيلة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، ويقوي القراءة الأولى قوله: ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾، ولو كان على تأويل القبيلة لقال: في مساكنها، فما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر:

الواربون وتيم في نرى سبا قد عض أعناقها جلد الجواميس
ومما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر:

من سبا الحاضرين مارب إذ يبنون من لون مسيله العرما
وقرأ قنبل، وأبو حيوة، والجحدري (لبسا) بإسكان الهزمة، وقرأ بقلبيها ألفاً. وقرأ الجمهور ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ على الجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، ووجه الاختيار: أنها كانت لهم منازل كثيرة، ومساكن متعدّدة. وقرأ حمزة، وحفص بالإفراد مع فتح الكاف. وقرأ الكسائي بالإفراد مع كسرهما، وبهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، ووجه الإفراد: أنه مصدر يشمل القليل، والكثير، أو

وكثر أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً، ففتقت ذلك الرمد حتى انتقض، فدخل الماء جنتهم، فغرقها، ودفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم، وهو جمع عرمة وهي: السكر⁽¹⁾ التي تحبس الماء، وكذا قال قتادة، وغيره. وقال السدي: العرم اسم للسد. والمعنى: أرسلنا عليهم سيل السد العرم. وقال عطاء: العرم اسم الوادي. وقال الزجاج: العرم اسم الجرذ الذي نقب السد عليهم، وهو الذي يقال له: الخلد: فنسب السيل إليه لكونه سبب جريانه. قال ابن الأعرابي: العرم من أسماء الفار. وقال مجاهد، وابن أبي نجیح: العرم ماء أحمر أرسله الله في السد، فشقه، وهدمه. وقيل: إن العرم اسم المطر الشديد، وقيل: اسم للسيل الشديد، والعرامة في الأصل: الشدة، والشراسة، والصعوبة. يقال: عرم فلان: إذا تشدد، وتصعب، وروي عن ابن الأعرابي أنه قال: العرم السيل الذي لا يطاق. وقال المبرد: العرم كل شيء حاجز بين شيئين **﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾** أي: أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة، والأنواع الحسنة، وأعطيناهم بدلها جنتين لا خير فيهما، ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما، ولهذا قال: **﴿ثَوَّلْتُ أكل خُمُطٍ﴾** قرأ الجمهور بتونين (أكل)، وعدم إضافته إلى (خُمُط)، وقرأ أبو عمرو بالإضافة: قال الخليل: الخُمُط الأراك، وكذا قال كثير من المفسرين. وقال أبو عبيدة: الخُمُط كل شجرة مرة ذات شوك. وقال الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله. وقال المبرد: كل شيء تغير إلى ما لا يشتهي يقال له: خُمُط، ومنه اللبن إذا تغير، وقرأ الجمهور أولى من قراءة أبي عمرو. والخُمُط نعت لأكل، أو بدل منه، لأن الأكل هو: الخُمُط بعينه. وقال الأخفش: الإضافة أحسن في كلام العرب: مثل ثوب خَز، ودار آجَر، والأولى تفسير الخُمُط بما ذكره الخليل ومن معه. قال الجوهري: الخُمُط ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وتسمية البديل جنتين للمشكلة، أو التهمك بهم، والأثل هو: الشجر المعروف بالشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء وغيره قال: إلا أنه أعظم من الطرفاء طولاً، الواحدة أثلة، والجمع أثلاث. وقال الحسن: الأثل الخشب. وقال أبو عبيدة: هو: شجر النطار، والأوّل أولى، ولا ثمر للأثل. والسدر شجر معروف. قال الفراء: هو: السمر. قال الأزهري: السدر من الشجر سدران: برّي لا ينتفع به، ولا يصلح للغسل، وله ثمر غصص لا يؤكل، وهو الذي يسمى: الضال. والثاني سدر ينبت على الماء، وثمره النبق، وورقه غسول يشبه شجر العناب، قيل: ووصف السدر بالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله، وهو النوع الثاني الذي ذكره الأزهري. قال قتادة: بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره الله من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت بدلها الأراك، والطرفاء والسدر. ويحتمل: أن يرجع قوله: **﴿قَلِيلٌ﴾** إلى

(1) السكر بالسكون: سدّ النهر اهـ قاموس.

أحايث، وذلك أن الله سبحانه لما أغرق مكانهم، وأذهب جنتهم، تفرّقوا في البلاد، فصارت العرب تضرب بهم الأمثال. فتقول: تفرّقوا أيدي سبا. قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، والأزد بعمان، وخزاعة بتهامة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: فيما ذكر من قصتهم، وما فعل الله بهم آيات بينات، ودلالات واضحة ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكل من هو كثير الصبر، والشكر، وخَصَّ الصبار الشكور، لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ الجمهور صدق بالتخفيف، ورفع إبليس، ونصب ظنه. قال الزجاج: وهو على المصدر: أي: صدق عليهم ظناً ظنه، أو صدق في ظنه، أو على الظرف. والمعنى: أنه ظنّ بهم: أنه إذا اغواهم اتبعوه، فوجدهم كذلك، ويجوز: أن يكون منتصباً على المفعولية، أو بإسقاط الخافض. وقرأ حمزة، والكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وعاصم (صدق) بالتشديد، وظنه بالنصب على أنه مفعول به. قال أبو علي الفارسي: أي: صدّق الظنّ الذي ظنه. قال مجاهد: ظنّ ظناً، فصدّق ظنه، فكان كما ظنّ، وقرأ أبو جعفر، وأبو الجهماء، والزّهرى، وزيد بن علي (صدق) بالتخفيف، و (إبليس) بالنصب (وظنه) بالرفع، قال أبو حاتم: لا وجه لهذه القراءة عندي، وقد أجاز هذه القراءة القراء، وذكرها الزجاج، وجعل الظنّ فاعل صدّق، وإبليس مفعوله. والمعنى: أن إبليس سَوَّلَ له ظنه شيئاً فيهم، فصدّق ظنه، فكانه قال: ولقد صدّق عليهم ظنّ إبليس. وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ برفعهما مع تخفيف صدق على أن يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس. قيل: وهذه الآية خاصة بأهل سبا. والمعنى: أنهم غيروا، وبكّلوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسّلم، وقيل: هي عامة: أي: صدّق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله. قاله مجاهد، والحسن. قال الكلبي: إنه ظنّ: أنه إن اغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه، فصدّق ظنه ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: ما ضربه بصوت، ولا بعصيّ، وإنما ظنّ ظناً، فكان كما ظنّ بوسوسته، وانتصاب ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على الاستثناء، وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيراً من المؤمنين يذنب، وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، ولم يسلم منه إلا فريق، وهم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42 والإسراء: 65] وقيل: المراد بفريقاً من المؤمنين: المؤمنون كلهم على أن تكون من بيانية ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان له تسلط عليهم: أي: لم يقهرهم على الكفر، وإنما كان منه الدعاء، والوسوسة، والتزيين، وقيل: السلطان القوّة، وقيل: الحجة، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ مِنْ يَوْمِنَ بِالْآخِرَةِ مَنَ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ منقطع، والمعنى: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم. وقيل: هو متصل مفرّغ من أعم العام: أي: ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال، ولا لعل من العلل إلا ليمتيز من يؤمن، ومن لا يؤمن، لأنه

الظرفية، وانتصاب آمنين على الحال. قال قتادة: كانوا يسرون غير خائفين، ولا جياح، ولا ظمأ، كانوا يسرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لم يحركه. ثم ذكر سبحانه: أنهم لم يشكروا النعمة، بل طلبوا التعب والكد ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وكان هذا القول منهم بطراً وطغياناً لما سثموا النعمة، ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى: أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء، والشجر، والأمن، والمفاوز، والقفار، والبراري المتباعدة الاقطار، فأجابهم الله إلى ذلك، وخزّب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير، والماء، والشجر، فكانت دعوتهم هذه كدعوة بني إسرائيل حيث قالوا: ﴿ادع لنا ربك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها﴾ [البقرة: 61] الآية مكان المَن والسلوى، وكقول النضر بن الحارث ﴿اللهم إن كان لهذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: 32] الآية. قرأ الجمهور (ربنا) بالنصب على أنه منادى مضاف، وقرءوا أيضاً (باعد) وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، وهشام عن ابن عامر (بعد) بتشديد العين، وقرأ ابن السميع بضم العين فعلاً ماضياً، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى من بعد الأسفار، وقرأ أبو صالح، ومحمد بن الحنفية، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، ويعقوب (ربنا) بالرفع (باعد) بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء، والخبر. والمعنى: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، واختارها أبو حاتم، قال: لأنهم ما طلبوا التباعد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطراً، وإشراً، وكفراً للنعمة. وقرأ يحيى بن يعمر، وعيسى بن عمر (ربنا) بالرفع (بعد) بفتح العين مشددة، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى بأن ربهم بعد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى، والشجر، والماء، فيكون هذا من جملة بطرهم، وقرأ أخو الحسن البصري كقراءة ابن السميع السابقة مع رفع بين على أنه الفاعل كما قيل: في قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، وروى الفراء، والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين على أنه ظرف، والتقدير: بعد سيرنا بين أسفارنا. قال النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال: إحداهما أجود من الأخرى كما لا يقال ذلك في أخبار الأحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن أخبر عنهم: أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم، فلما فعل ذلك بهم شكوا، وتضرّروا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَوَظَّلِمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث كفروا بالله، ويطروا نعمته، وتعرّضوا لنقمته ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحْيَايِثُ﴾ يتحدّث الناس بأخبارهم. والمعنى: جعلناهم نوي أحايث يتحدّث بها من بعدهم تعجباً من فعلهم، واعتباراً بحالهم، وعاقبتهم ﴿وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ أي: فرّقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق، وهذه الجملة مبينة لجعلهم

يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهْبَأْتُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِينَ أَنْتُمْ مَشْرُكُوا ۚ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ ﴿١٠١﴾

قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هذا امر للنبي ﷺ بأن يقول لكفار قريش، أو للكفار على الإطلاق هذا القول، ومفعولا زعمتهم محذوفان: أي: زعمتوهم آلهة لدلالة السياق عليهما. قال مقاتل: يقول: ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سنين الجوع. ثم أجاب سبحانه عنهم، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مَقَالَ ذُرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليس لهم قدرة على خير، ولا شر، ولا على جلب نفع، ولا دفع ضرر في أمر من الأمور، وذكر السموات والأرض لقصد التعميم لكونهما ظرفاً للموجودات الخارجية ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكَ﴾ أي: ليس للآلهة في السموات والأرض مشاركة لا بالخلق، ولا بالملك، ولا بالتصرف ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض ومن فيهما ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾ أي: شفاعة من يشفع عنده من الملائكة، وغيرهم، وقوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذْنُ لَهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال: أي: لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة، والنبیین، ونحوهم من أهل العلم، والعمل، ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين، ويجوز: أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له: أي: لأجله، وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم، لا من عداهم من غير المستحقين لها، واللام في ﴿لِمَنْ﴾ يجوز: أن تتعلق بنفس الشفاعة. قال أبو البقاء: كما تقول: شفعت له، ويجوز: أن تتعلق بتنفع، والأولى أنها متعلقة بالمحذوف كما ذكرنا. قيل: والمراد بقوله: ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أنها لا توجد أصلاً إلا لمن أذن له، وإنما علق النبي بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها. قرأ الجمهور (أذن) بفتح الهمزة: أي: أذن له الله سبحانه، لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي بضمها على البناء للمفعول، والأذن هو: الله سبحانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]، ثم أخبر سبحانه عن خوف هؤلاء للشفعاء، والمشفوع لهم، فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ الجمهور (فزع) مبنياً للمفعول، والفاعل هو: الله، والقائم مقام الفاعل هو: الجار والمجرور، وقرأ ابن عامر (فزع) مبنياً للفاعل، وفاعله ضمير يرجع إلى الله سبحانه، وكلا القراءتين بتشديد الزاي، وفعل معناه: السلب، فالتفريع إزالة الفزع. وقرأ الحسن مثل قراءة الجمهور إلا أنه خفف الزاي. قال قطرب: معنى فزع عن قلوبهم: أخرج ما فيها من الفزع، وهو: الخوف. وقال مجاهد: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة. والمعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء

سبحانه قد علم ذلك علماً أزلياً. وقال الفراء: المعنى: إلا لأنعلم ذلك عنكم، وقيل: إلا لتعلموا أنتم، وقيل: ليعلم أوليائنا، والملائكة. وقرأ الزهري (إلا ليعلم) على البناء للمفعول، والأولى حمل العلم هنا على التمييز، والإظهار كما ذكرنا ﴿وَوَيْلٌ لَكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: محافظ عليه. قال مقاتل: علم كل شيء من الإيمان والشك.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وغيرهم عن فروة بن مسيك المرادي قال: «أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألا أقاتل من أئبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأنن لي في قتالهم، وأمرني، فلما خرجت من عنده أرسل في أثري فرثني، فقال: ادع للقوم، فمن أسلم منهم، فاقبل منه، ومن لم يسلم، فلا تعجل حتى أبحث إليك، وأنزل في سبأ ما أنزل، فقال رجل يا رسول الله، وما سبأ: أرض أم امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشام منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة؛ وأما الذين تيامنوا، فالأزد، والأشعرين، وحمير، وكندة، ومنجج، وأنمار، فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: الذي منهم خثعم، وبجيلة». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن عدي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿سَبِيلَ الْعَرَمِ﴾ قال: الشيد. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿سَبِيلَ الْعَرَمِ﴾ واد كان باليمن كان يسيل إلى مكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِكْلَ خُمُطٍ﴾ قال: الأراك. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ قال: تلك المناقشة. وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر عنه أيضاً في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يعني: بين مساكنهم ﴿وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الأرض المقدسة ﴿قُرَىٰ ظَاهِرَةٍ﴾ يعني: عامرة مخصبة ﴿وَوَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ يعني: فيما بين مساكنهم وبين أرض الشام ﴿هَسِيرُوا فِيهَا﴾ إذا ضلعوا من منازلهم إلى أرض الشام المقدسة. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَنَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قال إيليس: إن آدم خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون خلقاً ضعيفاً، وإنني خلقت من نار، والنار تحرق كل شيء لأحتنكن ذريته إلا قليلاً. قال: فصنق ظنه عليهم ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: هم المؤمنون كلهم.

قُلْ أَتَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مَقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكَ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنُ لَهُ ۚ إِنَّا فُزِعْنَا عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْفَعُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَلَئِنَّا أَوْ إِنَّا كُنَّا لَمَنْ هُنَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْتَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ قُلْ

هذا الكلام: معنى قول المتبصر في الحجة لصالحه: أحداً كاتب، وقد عرف: أنه الصابق المصيب، وصاحبه الكاتب المخطئ. قال: وأو عند البصريين على بابها، وليست للشك، لكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين، وهو عالم بالمعنى. وقال أبو عبيدة، والفراء: هي بمعنى: الواو، وتقديره: وإنا على هدى، وإياكم لفي ضلال مبين، ومنه قول جرير:

أشعلبة الفوارس أوريحاً عقلت بهم طهية والربابا أي: ثعلبة، وريحاً، وكذا قول الآخر:

فلما اشتد بأس الحرب فينا تاملنا رباحاً أوزاماً أي: ورزماً، وقوله: أو إياكم معطوف على اسم إن، وخبرها هو المنكور، وحذف خبر الثاني للدلالة عليه: أي: إنا لعللى هدى، أو في ضلال مبين، وإنكم لعللى هدى، أو في ضلال مبين، ويجوز العكس: وهو كون المنكور خبر الثاني، وخبر الأول محذوفاً كما تقدم في قوله: «وإنا برسوله أحق أن يرضوه» [التوبة: 62]، ثم أرفف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه في الإنصاف، وأبعد من الجدل، والمشغبة، فقال: «قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون» أي: إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم، ونفع، ولا ينالني من كفركم، وترككم لإجابتي ضرر، وهذا كقوله سبحانه: «لكم دينكم ولي دين» [الكافرون: 6]، وفي إسناد الجرم إلى المسلمين، ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين، مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص، والطاعة المحضة، وأعمال الكفار من المعصية البينة، والإثم الواضح من الإنصاف ما لا يقاير قدره. والمقصود: المهانة، والمشاركة، وقد نسخت هذه الآية، وأمثالها بأية السيف. ثم أمره سبحانه بأن يهتدهم بعذاب الآخرة، لكن على وجه لا تصريح فيه، فقال: «قل يجمع بيننا ربنا» أي: يوم القيامة «ثم يفتح بيننا بالحق» أي: يحكم، ويقضي بيننا الحق، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي «وهو الفتح» أي: الحاكم بالحق القاضي بالصواب «العليم» بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح. وهذه أيضاً منسوخة بأية السيف. ثم أمره سبحانه: أن يورد عليهم حجة أخرى يظهر بها ما هم عليه من الخطأ، فقال: «قل أروني الذين أحقتم به شركاء» أي: أروني الذين أحقتموهم بالله شركاء له، وهذه الرؤية هي: القلبية، فيكون شركاء هو: المفعول الثالث، لأن الفعل تعذى بالهمزة إلى ثلاثة. الأول الياء في أروني، والثاني الموصول، والثالث شركاء، وعائد الموصول محذوف: أي: أحقتموهم، ويجوز: أن تكون هي البصرية، وتعذى الفعل بالهمزة إلى اثنين: الأول الياء، والثاني الموصول، ويكون شركاء منتصباً على الحال. ثم رد عليهم ما يدعون من الشركاء، وأبطل ذلك، فقال: «كلا بل هو الله العزيز الحكيم» أي: ارتدعوا عن دعوى المشاركة، بل المنفرد بالإلهية، هو: الله العزيز بالقهر والغلبة، الحكيم بالحكمة الباهرة.

المعبودين من دون الله من الملائكة، والأنبياء والأصنام، إلا أن الله سبحانه يأنث للملائكة والأنبياء، ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى: «وهم من خشيته مشفقون» [الأنبياء: 28]، فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقتزن بتلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدث شيء من أقدار الله، فإذا سري عليهم «قالوا» للملائكة فوقهم، وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإن «ماذا قال ربكم» أي: ماذا أمر به، فيقولون لهم: قال: القول «الحق»، وهو: قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم «وهو العلي الكبير» فله أن يحكم في عبادته بما يشاء، ويفعل ما يريد، وقيل: هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يامر به الرب. والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون لله، دون الجمادات، والشياطين، وقيل: إن الذين يقولون: ماذا قال ربكم هم: المشفوع لهم، والذين أجابوهم: هم: الشفعاء من الملائكة، والأنبياء. وقال الحسن، وابن زيد، ومجاهد: معنى الآية: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة. قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار. وقرأ ابن عمر، وقتادة: (فرغ) بالراء المهملة، والغين المعجمة من الفراغ. والمعنى: فرغ الله قلوبهم: أي: كشف عنها الخوف. وقرأ ابن مسعود (أفرقع) بعد الفاء راء مهملة، ثم نون، ثم قاف، ثم عين مهملة من الأفريقاق، وهو: التفريق. ثم أمر الله سبحانه رسوله: أن يبيك المشركين، ويوبخهم، فقال: «قل من يرزقكم من السموات والأرض» أي: من ينعم عليكم بهذه الرزاق التي تتمتعون بها، فإن ألهتكم لا يملكون مثقال ذرة، والرزق من السماء هو: المطر، وما ينتفع به منها من الشمس، والقمر، والنجوم، والرزق من الأرض هو: النبات، والمعادن، ونحو ذلك، ولما كان الكفار لا يقدر على جواب هذا الاستفهام، ولم تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق إلى ألهتهم، وربما يتوقفون في نسبته إلى الله مخافة أن تقوم عليهم الحجة، فأمر الله رسوله: بأن يجيب عن ذلك، فقال: «قل الله» أي: هو الذي يرزقكم من السموات والأرض، ثم أمره سبحانه: أن يخبرهم بأنهم على ضلالة، لكن على وجه الإنصاف في الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى، ومن هو على الضلالة، فقال: «وإنا أو إياكم لعللى هدى أو في ضلال مبين» والمعنى: أن أحد الفريقين من الذين يوحنون الله الخالق الرزاق، ويخصونه بالعبادة، والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق، ولا رزق، ولا نفع، ولا ضرر لعللى أحد الأمرين من الهدى، والضلالة، ومعلوم لكل عاقل أن من عبد الذي يخلق، ويرزق، وينفع، ويضر هو: الذي على الهدى، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق، ولا رزق، ولا نفع، ولا ضرر هو: الذي على الضلالة، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى، وهم: المسلمون، وفريق الضلالة، وهم: المشركون على وجه أبلغ من التصريح. قال المبرد: ومعنى

الكفر، ومنه الكف؛ لأنها تمنع من خروج ما فيه. وقيل: إنه منتصب على المصدرية، والهاء للمبالغة كالعاقبة، والعاقبة، والمراد: أنها صفة مصدر محذوف: أي: إلا رسالة كافة. وقيل: إنه حال من الناس، والتقدير: وما أرسلناك إلا للناس كافة. ورد بأنه لا يتقدم الحال من المجرور عليه كما هو مقرر في علم الإعراب. ويجاب عنه بأنه قد جوز ذلك أبو علي الفارسي، وابن كيسان، وابن برهان، ومنه قول الشاعر:

إذا المرء أعيت السيادة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير

وقول الآخر:

تسليت طراً عنكم بعد بينكم بنكرامكم حتى كأنكم عندي

وقول الآخر:

غافلاً تعرض المنية للمرء فيدعى ولات حين إباء
وممن رجع كونها حالاً من المجرور بعدها ابن عطية، وقال: قيمت للاهتمام، والتقوي. وقيل: المعنى: إلا ذا كافة: أي: ذا منع، فحذف المضاف. قيل: واللام في «لنناس» بمعنى إلى: أي: وما أرسلناك إلى الناس إلا جامعاً لهم بالإنذار، والإبلاغ، أو مانعاً لهم من الكفر، والمعاصي، وانتصاب «بشيراً ونذيراً» على الحال: أي مبشراً لهم بالجنة، ومنذراً لهم من النار «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» ما عند الله، وما لهم من النفع في إرسال الرسل «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صابقين» أي: متى يكون هذا الوعد الذي تعدونا به، وهو: قيام الساعة أخبرونا به إن كنتم صابقين، قالوا: هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله ﷺ، ومن معه من المؤمنين، فأمر الله رسوله ﷺ أن يجيب عنهم، فقال: «قل لكم ميعاد يوم» أي: ميقات يوم، وهو: يوم البعث. وقيل: وقت حضور الموت، وقيل: أراد يوم بدر؛ لأنه كان يوم عذابهم في الدنيا، وعلى كل تقدير، فهذه الإضافة للبيان، ويجوز في ميعاد: أن يكون مصدراً مراداً به الوعد، وأن يكون اسم زمان. قال أبو عبيدة: الوعد، والوعيد، والميعاد بمعنى. وقرأ ابن أبي عبيدة بتونين (ميعاد) ورفع، ونصب (يوم) على أن يكون ميعاد مبتدأ، ويوما ظرف، والخبر لكم. وقرأ عيسى بن عمر برفع (ميعاد) منوناً، ونصب (يوم) مضافاً إلى الجملة بعده، وأجاز النحويين (ميعاد يوم) برفعها متونين على أن ميعاد مبتدأ، ويوم بدل منه، وجملة «لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون» صفة لميعاد: أي: هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه، ولا تتقدمون عليه، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قد قدر الله وقوعه فيه. ثم نكر سبحانه طرفاً من قبائح الكفار، ونوعاً من أتباع كفرهم، فقال: «وقال الذين كفروا لنؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه» وهي الكتب للقيمة، كالنوراة، والإنجيل، والرسل المتقدمون. وقيل: المراد بالذي بين يديه الدار الآخرة. ثم أخبر سبحانه عن حالهم في الآخرة، فقال: «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» الخطاب لمحمد ﷺ، أو لكل من يصلح له، ومعنى موقوفون عند ربهم: محبوسون في موقف الحساب

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «فزرع عن قلوبهم» قال: جلى. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مربي عنه قال: لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة: ليبعته بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم سالوا عما قال الله، فقالوا: الحق، وعلموا: أن الله لا يقول إلا حقاً. قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا، فلما سمعوا خرواً سجداً، فلما رفعوا رؤوسهم «قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير». وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ينزل الأمر إلى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة على الصخرة، فيفزع له جميع أهل السموات، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ ثم يرجعون إلى أنفسهم، فيقولون: الحق وهو العلي الكبير. وأخرج البخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله: كانه سلسلة على صفوان ينغذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، الحديث، وفي معناه أحاديث. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: «وإننا أو ليناكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» قال: نحن على هدى، وإنكم لفي ضلال مبين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس قال: «الفتاح» القاضي.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَكَلَامَةِ الْفَائِسِ بِشِيرًا وَكَزَيْرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِضُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكَرُّوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكَرُّوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا اقْنَعُوا مَعَكُمْ وَلَا تُعَارِزْهُ عَنِ الْكُفْرِ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُخْرَجِينَ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكَرُّوا بَلْ مَكْرٌ أَتَيْلُ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

في انتصاب «كافة» وجوه، فقيل: إنه منتصب على الحال من الكاف في «أرسلناك» قال الزجاج: أي: وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار، والإبلاغ، والكافة بمعنى: الجامع، والهاء فيه للمبالغة كعلامة. قال أبو حيان: أما قول الزجاج: إن كافة بمعنى: جامعاً، والهاء فيه للمبالغة، فإن اللغة لا تساعد عليه؛ لأن كف ليس معناه: جمع، بل معناه: منع. يقال: كف يكف: أي: منع يمنع. والمعنى: إلا مانعاً لهم من

من الكفر، وأخفوها عن غيرهم، أو أخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة. وقيل: المراد بأسرؤا هنا أظهروا؛ لأنه من الأضداد يكون، تارة بمعنى: الإخفاء، وتارة بمعنى: الإظهار، ومنه قول امرئ القيس:

تجاوزت أحراساً وأموال معشر علي حراس لو يسرون مقتلي
وقيل: معنى أسروا الندامة: تبينت الندامة في أسرة وجوهمهم ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأغلال جمل غل، يقال: في رقبته غل من حديد: أي جعلت الأغلال من الحديد في أعناق هؤلاء في النار، والمراد بالذين كفروا: هم المنكوبون سابقاً، والإظهار لمزيد الذم، أو للتكفار على العموم، فيدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً ﴿هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا جزء ما كانوا يعملونه من الشرك بالله، أو إلا بما كانوا يعملون على حذف الخافض.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: إلى الناس جميعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: أرسل الله محمداً إلى العرب، والعجم، فأكرمهم على الله أطوعهم له. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ قال: هذا قول مشركي العرب كفروا بالقرآن، وبإلذي بين يديه من الكتب، والأنبياء.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١﴾ وَقَالُوا مَن أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢﴾ قُلْ إِنَّا رَبِّي سَبَّحْتَ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُرْعًا إِلَّا مَن مَّانَ وَعَیْلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَمَّا جَزَاةٌ أُفْتِخَ بِمَا عَمِلُوا وَمَن يَكْفُرْ بَعْدَ ذَٰلِكَ يَكْفُرْ ﴿٤﴾ وَلَٰكِن يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَجْرِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّا رَبِّي سَبَّحْتَ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَمَّا أَفْتَقَشَ بَنُو نُوَافِلٍ فَهُوَ يُجْلِسُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٦﴾ وَنَوْمٌ يَحْضَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَكُمْ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ يَوْمَ تَوَفَّوهُمْ قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ سَهْواً وَلَا ضَرًّا وَقُلْ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٧﴾

لما قص سبحانه حال من تقدم من الكفار اتبعه بما فيه التسلية لرسوله، وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمر في الأعصر الأول، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ ينذرهم، ويحذرهم عقاب الله ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: رؤسائهم، وأغنيائهم، وجبابرتها، وقادة الشر لرسولهم ﴿إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: بما أرسلتم به من التوحيد، والإيمان، وجملة ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ في محل نصب على الحال. ثم نكر ما افتخروا به من الأموال، والأولاد، وقاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل، فقال: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا

﴿يَرْجِعْ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلِ﴾ أي: يترجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب، بعد أن كانوا في الدنيا متعارضين متناصرين متحابين. ثم بين سبحانه تلك المراجعة، فقال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾، وهم: الاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، وهم: الرؤساء المتبوعون ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ صَدَقْتُمَا﴾ عن الإيمان بالله، والاتباع لرسوله ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالله مصنفين لرسوله، وكتابه ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه: ﴿أَنَحْنُ صَدَقْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَى﴾ أي: منعناكم عن الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ الهدى، قالوا هذا منكروين لما أدعوه عليهم من الصدق لهم، وجاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك، ثم بينوا لهم: أنهم الصائون لأنفسهم، الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم، فقالوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ مجرمين﴾ أي: مصرين على الكفر، كثيري الإصرار، عظيمي الأثام ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ رداً لما لجابوا به عليهم، ودفعاً لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أصل المكر في كلام العرب: الخديعة، والحيلة، يقال: مكر به إذا خدعه، واحتال عليه. والمعنى: بل مكرم بنا الليل والنهار، فحذف المضاف إليه، وأقيم الظرف مقامه اتساعاً. وقال الأخفش: هو على تقدير هذا مكر الليل، والنهار. قال النحاس: المعنى والله أعلم، بل مكرم في الليل، والنهار، ودعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذي حملنا على هذا. وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار، ويجوز: أن يجعل الليل، والنهار ماكرين على الإسناد المجازي كما تقدّر في علم المعاني. قال المبرد كما تقول العرب: نهاره صائم، وليله قائم، وأنشد قول جرير:

لقد لمتنا يا م غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بناثم
وأنشد سيبويه:

قيام ليلى وتجلي همي

وقرأ قتادة، ويحيى بن يعمر برفع (مكر) منوَّناً، ونصب الليل والنهار، والتقدير: بل مكر كلثن في الليل والنهار. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو رزين بفتح الكاف، وتشديد الراء مضافاً بمعنى: الكور، من كر يكز إذا جاء، وذهب، وارتفاع مكر على هذه القراءات على أنه مبتدأ، وخبره محذوف: أي: مكر الليل والنهار صنداً، أو على أنه فاعل لفعل محذوف: أي: صندنا مكر الليل والنهار، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف كما تقدم عن الأخفش. وقرأ طلحة بن راشد كما قرأ سعيد بن جبير، ولكنه نصب مكر على المصدرية: أي: بل تكرين الإغواء مكرًا دائماً لا تفترون عنه، وانتصاب ﴿إِذْ تَامَرُونَا﴾ على أنه ظرف للمكر: أي: بل مكركم بنا وقت أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفَرَ بِاللهِ وَنَجْعَلْ لَهُ انِّدَادًا﴾ أي: أشباهاً، وأمثالاً. قال المبرد: يقال نذ فلان فلان: أي: مثله، وأنشد:

أتيما تجعلون إلي نذاً وما تيم بذى حسب نسيدي
والضمير في قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ لما راوا للعذاب راجع إلى الفريقين: أي: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا

الضعف جزء: أي: حال كونه جزءاً. وقرأ الجمهور (في الغرفات) بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿لَتَبَوَّثْنَهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: 58]، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، وخلف (في الغرفة) بالإفراد لقوله: ﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: 75] ولما نكر سبحانه حال المؤمنين نكر حال الكافرين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آلِهَتِنَا﴾ بالرد لها، والطعن فيها حال كونهم ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم، أو معاندين لنا بكفرهم ﴿وَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: في عذاب جهنم تحضرهم الزبانية إليها لا يجنون عنها محيصاً. ثم كرر سبحانه ما تقدم لقصد التأكيد للحجة، والدفع لما قاله الكفرة، فقال: ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ لَهُ﴾ أي: يوسع له يمشاء، ويضيقة على من يشاء، وليس في ذلك دلالة على سعادة، ولا شقاوة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: يخلفه عليكم، يقال: أخلف له، وأخلف عليه: إذا أعطاه عوضه، وبه، وذلك البذل إما في الدنيا، وإما في الآخرة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير الله، وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز، كما يقال: في الرجل إنه يرزق عياله، وفي الأمير إنه يرزق جنده، والرازيق للأمير، والمامور، والكبير، والصغير هو: الخالق لهم، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً مما رزقه الله، فهو إنما تصرف في رزق الله له، فاستحق بما خرج منه الثواب عليه المضاعف لامتناله لأمر الله، وإنفاقه فيما أمره الله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر نحو أنكّر، أو هو متصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبا: 31] أي: ولو تراه أيضاً يوم نحشرهم جميعاً للحساب العابد، والمعبود، والمستكبر، والمستضعف، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَأِكَةِ أَهْلُاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريراً للمشركين، وتوبيخاً لمن عبد غير الله عز وجل كما في قوله لعيسى: ﴿هَآأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين، والأصنام؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين. قال النحاس: والمعنى: أن الملائكة إذا اكتنبتهم كان في ذلك تبيك للمشركين، وجملة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْتْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقتر: أي: تنزيهاً لك أنت الذي نتولاه، ونطيعه، ونعبده من دونه، ما اتخناهم عابدين، ولا توليناهم، وليس لنا غيرك ولياً، ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه، فقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، وهم: إبليس، وجنوده، ويزعمون: أنهم يرونهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وقيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام، ويخاطبونهم منها ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: أكثر المشركين بالجنّ مؤمنون بهم مصدقون لهم، قيل: والأكثر في معنى: الكل ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ والمعنى: أن الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد في الدنيا، وذلك يدل على: أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا، ورضاه عنا، فامر الله نبيه ﷺ بأن يجب عنهم، وقال: ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يبسطه له ﴿وَيُقَدِّرُ﴾ أي: يضيقة على من يشاء أن يضيقة عليه، فهو سبحانه قد يرزق الكافر، والعاصي استدراجاً له، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيراً لاجره، وليس مجرد بسط الرزق لمن بسطه له يدل على أنه قد رضي عنه، ورضي عمله، ولا قبضه عن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه، ولا رضي عمله، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين، أو المغالطة الواضحة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا، ومن جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى، ثم زاد هذا الجواب تأييداً، وتأكيداً ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ أي: ليسوا بالخصلة التي تقرّبكم عندي قريباً. قال مجاهد: الزلفى القريبى، والزلفة القرية. قال الأخفش: زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقرّبكم عندي تقريباً، فتكون زلفى منصوبة المحل. قال الفراء: إن التي تكون للأموال والأولاد جميعاً. وقال الزجاج: إن المعنى: وما أموالكم بالتي تقرّبكم عندي زلفى، ولا أولادكم بالشيء يقربكم عندي زلفى، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه، وإنشد:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرائى مختلف
ويجوز في غير القرآن باللتين، واللاتي، وباللواتي، وبالنزاد خاصة: أي: لا تزيبكم الأموال عندي درجة ورفعة، ولا تقرّبكم تقريباً ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هو استثناء منقطع، فيكون محله النصب: أي: لكن من آمن، وعمل صالحاً، أو في محل جرّ بدلاً من الضمير في تقرّبكم، كذا قال الزجاج. قال النحاس: وهذا القول غلط، لأن الكاف والميم للمخاطب، فلا يجوز البذل، ولو جاز هذا لجاز رأيك زيداً. ويجاب عنه بأن الأخفش والكوفيين يجوّزون ذلك، وقد قال بمثل قول الزجاج الفراء، وأجاز الفراء: أن يكون في موضع رفع بمعنى: ما هو إلا من آمن، والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ أي: جزاء الزيادة، وهي المرادة بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول: أي: جزاء التضعيف للحسنات، وقيل: لهم جزاء الإضعاف؛ لأن الضعف في معنى الجمع، والباء في ﴿بِمَا عَمَلُوا﴾ للسببية ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ من جميع ما يكرهون، والمراد غرفات الجنة، قرأ الجمهور (جزاء الضعف) بالإضافة، وقرأ الزهري، ويعقوب، ونصر بن عاصم، وقتادة برفعها على أن الضعف بدل من جزاء. وروي عن يعقوب: أنه قرأ (جزاء) بالنصب منوناً، و (الضعف) بالرفع على تقدير: فأولئك لهم

المعونة تنزل من السماء على قدر المئونة.

وَلَمَّا تَخَلَّ عَنْهُمْ لَيْسَ يَنْتَهِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَسْخَرَكُمَا عَنْ كَانِ سَيْدَ آبَائِكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِلَهٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِنَبِيِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُشْتَرِكٌ ﴿١١﴾ وَمَا إِلَهُنَّ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ بَلَاغٌ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٢﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا وَمَسَارَ مَا إِلَهُنَّهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولَ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفًى وَقُرْدَى ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا يَصَاحِكُ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١٤﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِرُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ ﴿١٦﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنْ مَلَكَتْ فَلَمَّا أَصْبَحُ عَلَى نَفْسِي وَلِيْنِ أَمَدَيْتِ فَمَا يُرْوَى إِلَى رَبِّكَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿١٨﴾

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من أنواع كفرهم، فقال: ﴿وَإِذَا تَحَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: الآيات القرآنية حال كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ووضحت الدلالات ظاهرات المعاني ﴿قَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون: التالي لها، وهو النبي ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يَرِيدُ أَنْ يَصْنَعَكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾ أي: أسلافكم من الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿وَقَالُوا﴾ ثانياً ﴿مَا هَذَا﴾ يعنون: القرآن الكريم ﴿إِلَّا إِلَهٌ مُفْتَرًى﴾ أي: كذب مختلق ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثالثاً ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: لآمر الدين الذي جاءهم به رسول الله ﷺ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وهذا الإنكار منهم خاص بالتوحيد، وأما إنكار القرآن، والمعجزة، فكان متفقاً عليه بين أهل الكتاب، والمشركون، وقيل: أريد بالأول، وهو قولهم: ﴿إِلَّا إِلَهٌ مُفْتَرًى﴾ معناه، وبالثاني، وهو قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ نظمه المعجز. وقيل: إن طائفة منهم قالوا: إنه إفك، وطائفة قالوا: إنه سحر، وقيل: إنهم جميعاً قالوا: تارة إنه إفك، وتارة إنه سحر، والأول أولى ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أنزلنا على العرب كتباً سماوية يدرسون فيها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعوهم إلى الحق، وينذره بالعباد، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه، ولا شبهة يتشبثون بها. قال قتادة: ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ. قال الغزالي: أي: من أين كذبوك، ولم يأتهم كتاب، ولا نذير بهذا الذي فعلوه. ثم خوفهم سيحانه، وأخبر عن عاقبتهم، وعاقبة من كان قبلهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من القرون الخالية ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعِشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ما بلغ أهل مكة من مشركي قريش، وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم من القوة، وكثرة المال، وطول العمر، فاهلكهم الله، كعاد، وثمود، وأمثالهم. والمعشار: هو: العشر. قال الجوهري: معشار الشيء عشره. وقيل المعشار: عشر العشر، والأول أولى. وقيل: إن المعنى: ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى. وقيل: ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم، وقيل: ما أعطى الله من قبلهم معشار ما

نفعاً ولا ضرراً، يعني: العابدين، والمعبودين لا يملك بعضهم، وهم: المعبدون لبعض، وهم: العابدون ﴿نَفْعاً﴾ أي: شفاعاً، ونجاة ﴿وَلَا ضَرَّ﴾ أي: عذاباً، وهلاكاً، وإنما قيل لهم: هذا القول إظهاراً لعجزهم، وقصورهم، وتبكيته لعايديهم، وقولهم: ﴿وَلَا ضَرَّ﴾ هو على حذف مضاف: أي: لا يملكون لهم دفع ضرر، وقوله: ﴿وَنُقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على قوله: ﴿وَنُقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي: للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله ﴿وَنُقُولُ عَذَابَ النَّارِ﴾ التي كنتم بها تكذبون في الدنيا.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكين، خرج أحدهما إلى الساحل، وبقي الآخر، فلما بعث الله النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته، ثم أتى صاحبه، فقال: بلني عليه، وكان يقرأ الكتب، فأتى النبي ﷺ، فقال: إلى ما تدعو؟ قال: إلى كذا، وكذا، قال: أشهد أنك رسول الله، قال: وما علمك بذلك؟ قال: إنه لم يبعث نبي إلا أتبعه رذالة الناس، ومساكينهم، فنزلت هذه الآيات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ الآيات، فأرسل إليه النبي ﷺ: إن الله قد أنزل تصديق ما قلت. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿جَزَاءَ الضَّعْفِ﴾ قال: تضعيف الحسنة. وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأصول، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال: إذا كان الرجل غنياً تقياً أتاه الله أجره مرتين، وتلا هذه الآية ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ قال: تضعيف الحسنة. وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب المفرد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ﴾ قال: في غير إسراف، ولا تقتير، وعن مجاهد مثله. وعن الحسن مثله. وأخرج الدارقطني، والبيهقي في الشعب عن جابر، عن النبي ﷺ قال: كلما أنفق العبد من نفقة، فعلى الله خلفها ضامناً إلا نفقة في بيان، أو معصية. وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل، والبيهقي من وجه آخر عنه مرفوعاً بأطول منه. وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق يا ابن آدم أنفق عليك» وثبت في الصحيح من حديثه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً». وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل يوم نحساً، فانفكوا نحس ذلك اليوم بالصلوة» ثم قال: اقرءوا مواضع الخلف، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وما أنفقتم من شيء، فهو يخلفه» إذا لم تنفقوا كيف يخلف. وأخرج الحكيم الترمذي في نوابر الأصول عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن

وقيل: القرآن؛ لأنه يجمع المواعظ كلها، والأولى ما ذكرناه أولاً. وقال الزجاج: إن «أن» في قوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾ في موضع نصب بمعنى: لأن تقوموا. وقال السدي: معنى مثني وفردى: منفرداً براه، ومشاوراً لغيره. وقال القتيبي: مناظراً مع عشيرته، ومفكراً في نفسه. وقيل: المثني عمل النهار، والفردى عمل الليل، قاله الماوردي. وما أبرد هذا القول، وأقل جدواه. واختار أبو حاتم، وابن الأنباري الوقف على قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، وعلى هذا تكون جملة ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ مستأنفة كما قدمنا، وقيل: ليس بوقف، لأن المعنى: ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذباً، أو رأيتم منه جنة، أو في أحواله من فساد. ثم أمر سبحانه أن يخبرهم: أنه لم يكن له غرض في الدنيا، ولا رغبة فيها حتى تنقطع عندهم الشكوك، ويرتفع الريب، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ لَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لي مقابل الرسالة، فهو لكم إن سألتكموه، والمراد نفي السؤال بالكلية، كما يقول القائل: ما أملكه في هذا، فقد وهبته لك، يريد أنه لا ملك له فيه أصلاً، ومثل هذه الآية قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: 23]، وقوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ لَجَرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 57]. ثم بين لهم: أن أجره عند الله سبحانه، فقال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ما أجري إلا على الله لا على غيره ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: مطلع لا يغيب عنه منه شيء ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ القذف الرمي بالسهم، والحصى، والكلام. قال الكلبي: يرمي على معنى: يأتي به، وقال مقاتل: يتكلم بالحق، وهو: القرآن، والوحي: أي: يلقيه إلى أنبيائه. وقال قتادة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي، والمعنى: أنه يبين الحجة، ويظهرها للناس على ألسن رسله، وقيل: يرمي الباطل بالحق، فيدمغه ﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ قرأ الجمهور برفع «علام» على أنه خبر ثانٍ لأن، أو خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من الضمير في يقذف، أو معطوف على محل اسم إن. قال الزجاج: الرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل. وقرأ زيد بن علي، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بالنصب نعتاً لاسم إن، أو بدلاً منه، أو على المدح. قال الفراء: والرفع في مثل هذا أكثر كقوله: ﴿إِنَّ نَازِلَهُمْ فِي النَّارِ﴾ [ص: 64]، وقرأ الغيوب بالحركات الثلاث في الغين، وهو: جمع غيب، والغيب هو: الأمر الذي غاب وخفي جداً ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: الإسلام، والتوحيد. وقال قتادة: القرآن. وقال النحاس: التقدير صاحب الحق: أي: الكتاب الذي فيه البراهين، والحجج.

وأقول: لا وجه لتقدير المضاف، فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه ﴿وَمَا يَبْدئُ الْبَاطِلَ وَمَا يَعْبُدُ﴾ أي: ذهب الباطل ذهاباً لم يبق منه إقبال، ولا إبداء، ولا إعادة. قال قتادة: الباطل هو: الشيطان: أي: ما يخلق لشيطان ابتداء، ولا يبعث، وبه قال مقاتل، والكلبي. وقيل: يجوز أن

اعطاهم من العلم، والبيان، والحجة، والبرهان، والأول أولى. وقيل: المعشار عشر العشير، والعشير عشر العشر، فيكون جزءاً من ألف جزء. قال الماوردي: وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة في التقليل، قلت: مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربي، وقوله: ﴿فَكُنُّوا رُسُلِي﴾ عطف على ﴿كُذِّبَ النَّبِيُّ مِنَ قَبْلِهِمْ﴾ على طريقة التفسير، كقوله: ﴿كُذِّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكُنُّوا عَبِيدًا﴾ [القمر: 9] الآية، والأولى: أن يكون من عطف الخاص على العام، لأن التكنيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكنيب أقاد العموم، فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة، والرسائل المرسله، والمعجزات الواضحة، وتكنيب الرسل أخص منه، وإن كان مستلزماً له، فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الالتزامية ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ أي: فكيف كان إنكاري لهم بالعذاب، والعقوبة، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك، قيل: وفي الكلام حذف. والتقدير: فاهلكناهم، فكيف كان نكير، والنكير اسم بمعنى: الإنكار. ثم أمر سبحانه رسوله: أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: أحذركم، وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، وأوصيكم بخصلة واحدة، وهي: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَالِكُمْ﴾ هذا تفسير للخصلة الواحدة، أو بدل منها: أي: هي قيامكم وتשמيركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، لأن الاجتماع يشوش الفكر. وليس المراد القيام على الرجلين، بل المراد القيام بطلب الحق، وإصداق الفكر فيه، كما يقال: قام فلان بأمر كذا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر النبي، وما جاء به من الكتاب، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾، وذلك؛ لأنهم كانوا يقولون: إن محمداً مجنون، فقال الله سبحانه: قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة، وهي: أن تقوموا لله، وفي ذاته مجتمعين، فيقول الرجل لصاحبه: هلم، فلنتصاق، هل رأينا بهذا الرجل من جنة: أي: جنون، أو جربنا عليه كذباً، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه، فيتفكر، وينظر، فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق، وأنه رسول من عند الله، وأنه ليس بكاتب، ولا ساحر، ولا مجنون، وهو معنى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ما هو إلا نذير لكم بين يدي الساعة، وقيل: إن جملة ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر العظيم، والدعوى الكبيرة لا يغرض نفسه له إلا مجنون لا يبالي بما يقال فيه، وما ينسب إليه من الكذب، وقد علموا: أنه أرجح الناس عقلاً، فوجب: أن يصنفوه في دعواه، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة، وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفترى الكذب، ولا قد جربوا عليه كذباً مدة عمره، وعمرهم. وقيل: يجوز أن تكون «ما» في ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ استفهامية: أي: ثم تتفكروا أي شيء به من آثار الجنون، وقيل: المراد بقوله: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ هي: «لا إله إلا الله» كذا قال مجاهد، والسدي.

هو الفزع الذي بمعنى: الإجابة، يقال: فزع الرجل: إذا أجاب الصارخ الذي يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر **﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾** أي: بمحمد، قاله قتادة، أو بالقرآن. وقال مجاهد: بالله عز وجل. وقال الحسن: بالبعث **﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾** التناوش التناول، وهو تفاعل من التناوش الذي هو: التناول، والمعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد، يعني: في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا، وهو معنى **﴿مَنْ مَكَانٌ بَعِيدٌ﴾** وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد ما فات عنهم، قال ابن السكيت: يقال: للرجل إذا تناول رجلاً لياخذ برأسه، أو بلحيته ناشه ينوشه نوشاً، وأنشد:

ففي تنوش الحوض نوشاً من علا نوشاً به تقطع إحواز الفلا
أي: تناول ماء الحوض من فوق، ومنه المناوشة في القتال، وقيل: التناوش الرجعة: أي: وإنى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا، ومنه قول الشاعر:

تمنى أن تشوب إليّ مي وليس إلى تناوشها سبيل
وجملة: **﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾** في محل نصب على الحال: أي: والحال أن قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت، وذلك حال كونهم في الدنيا. قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والأعمش (التناوش) بالهمز، وقرأ الباقرن بالواو، واستبعد أبو عبيد، والنحاس القراءة الأولى، ولا وجه للاستبعاد، فقد ثبت ذلك في لغة العرب، وأشعارها، ومنه قول الشاعر:

قعدت زماناً عن طلابك للعلا وجئت نثيشاً بعد ما فاتك الخير
أي: وجئت أخيراً. قال الفراء: الهمز، وترك الهمز متقارب **﴿وَيَقْنَفُونَ بِالْغَيْبِ﴾** أي: يرمون بالظن، فيقولون: لا بعث، ولا نشور، ولاجنة، ولا نار **﴿مَنْ مَكَانٌ بَعِيدٌ﴾** أي: من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل. وقيل: المعنى: يقولون في القرآن أقوال باطلة؛ إنه سحر، وشعر، وأساطير الأولين. وقيل: يقولون في محمد إنه ساحر شاعر كاهن مجنون. وقرأ أبو حيوة، ومجاهد، ومحجوب عن أبي عمرو (يقنفون) مبنيًا للمفعول: أي: يرجمون بما يسوؤهم من جراء أعمالهم من حيث لا يحتسبون، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه، والجملة إما معطوفة على: وقد كفروا به على أنها حكاية للحال الماضية، واستحضار لصورتها، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم **﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾** من النجاة من العذاب، ومنعوا من ذلك، وقيل: حيل بينهم، وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم، وأهلهم، أو حيل بينهم، وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا **﴿كَمَا فَعَلْ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾** أي: بأمالهم، ونظرائهم من كفر الأمم الماضية، والأشياء جمع شيع، وشيع جمع شيع، وجملة **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾** تحليل لما قبلها: أي: في شك موقع في الريبة، أو ذي ريبة من أمر الرسل، والبعث، والجنة، والنار، أو في التوحيد، وما جاءتهم به الرسل من الدين، يقال: أراب الرجل إذا صار ذا ريبة، فهو مرِيب، وقيل: هو من

تكون ما استفهامية: أي: أي شيء يبديه، وأي شيء يعيده؟ والأول أولى **﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾** عن الطريق الحق الواضحة **﴿فإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾** أي: إثم ضلالتني يكون على نفسي، وذلك أن الكفار قالوا له: تركت بين آبائك، فضلت، فأمره الله: أن يقول لهم هذا القول **﴿وإِنْ اهْتَبَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾** من الحكمة، والموعظة، والبيان بالقرآن **﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾** مني ومنكم يعلم الهدى والضلالة، قرأ الجمهور (ضللت) بفتح اللام، وقرأ الحسن، ويحيى بن وثاب بكسر اللام، وهي لغة أهل العالية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾** يقول: من القوة في الدنيا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال: يقوم الرجل مع الرجل، أو وحده، فيفكر ما بصاحبه من جنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة **﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾** يقول: إنه ليس بمجنون. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله: **﴿وَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ لَجرٍ﴾** أي: من جعل، فهو لكم، يقول: لم أسألكم على الإسلام جعلاً، وفي قوله: **﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾** قال: بالوحي، وفي قوله: **﴿وَمَا يَبْدئُ الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾** قال: الشيطان لا يبدئ ولا يعيد إذا هلك. وأخرج هؤلاء عنه في قوله: **﴿وَمَا يَبْدئُ الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾** قال: ما يخلق إبليس شيئاً، ولا يبعثه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عمر بن سعد في قوله: **﴿إِنْ ضَلَلْتُ فإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾** قال: إنما أؤخذ بجنايتي.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُتِحُوا فَلَا قُوَّةَ وَنُذِرُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ
وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَتَذَكَّرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ
وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ

ثم نكر سبحانه حالاً من أحوال الكفار، فقال: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُتِحُوا﴾**، والخطاب لرسول الله، أو لكل من يصلح له، قيل: المراد فزعهم عند نزول الموت بهم. وقال الحسن: هو: فزعهم في القبور من الصيحة، وقال قتادة: هو: فزعهم إذا خرجوا من قبورهم. وقال السدي: هو: فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيف الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة. وقال ابن مغفل: هو: فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة. وقال سعيد بن جبيرة: هو: الخسف الذي يخسف بهم في البدياء، فيبقى رجل منهم، فيخبر الناس بما لقي أصحابه، فيفزعون. وجواب لو محذوف: أي: لرأيت أمراً هائلاً، ومعنى **﴿فلا قوت﴾**: فلا يفوتني أحد منهم، ولا ينجو منهم ناج. قال مجاهد: فلا مهرب **﴿وَلَوْ خُذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾** من ظهر الأرض، أو من القبور، أو من موقف الحساب وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريب لا يبعدون عنه، ولا يفوتونه. قيل: ويجوز أن يكون هذا الفزع

فهو قاهر على الإعادة. قرأ الجمهور (فاطر) على صيغة اسم الفاعل، وقرأ الزهري، والضحاك (فطر) على صيغة الفعل الماضي، فعلى القراءة الأولى هو نعت لله؛ لأن إضافته محضة لكونه بمعنى: الماضي، وإن كانت غير محضة كان بدلاً، ومثله ﴿جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يجوز فيه الوجهان، وانتصاب رسلاً بفعل مضمر على الوجه الأول، لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى: الماضي لا يعمل، وجوز الكسائي عمله. وأما على الوجه الثاني، فهو منصوب بجاعل، والرسول من الملائكة هم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل. وقرأ الحسن (جاعل) بالرفع، وقرأ خليل بن نشيط، ويحيى بن يعمر (جعل) على صيغة الماضي. وقرأ الحسن، وحמיד (رسلاً) بسكون السين، وهي لغة تميم ﴿أُولَى لُجْنَةٍ﴾ صفة لرسلاً، والألجنة جمع جناح ﴿مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرِبَاعٍ﴾ صفة لألجنة، وقد تقدم الكلام في مثنى، وثلاث، ورباع في النساء. قال قتادة: بعضهم له جناح، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء. قال يحيى بن سلام: يرسلهم الله إلى الأنبياء. وقال السدي: إلى العباد بنعمه، أو نعمة، وجملة ﴿يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة، والمعنى: أنه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء، وهو: قول أكثر المفسرين، واختاره الفراء، والزجاج. وقيل: إن هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة، فقال الزهري، وابن جريج: إنها حسن الصوت. وقال قتادة: الملاحة في العينين، والحسن في الأنف، والحلاوة في الفم، وقيل: الوجه الحسن، وقيل: الخط الحسن، وقيل: الشعر الجعد، وقيل: العقل والتمييز، وقيل: العلوم، والصنائع، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبلها من أنه يزيد في الخلق ما يشاء ﴿وَمَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: ما ياتيهم الله به من مطر ودرق لا يقدر أحد أن يمسكه ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ من ذلك لا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه، وقيل: المعنى: إن الرسل بعثوا رحمة للناس، فلا يقدر على إرسالهم غير الله، وقيل: هو الدعاء، وقيل: التوبة، وقيل: التوفيق، والهداية. ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى: كل ما يفتح الله للناس من خلائق رحمته، فيشمل كل نعمة ينعم الله بها على خلقه، وهكذا الإمساك يتناول كل شيء يمنعه الله من نعمه، فهو سبحانه المعطي المانع القابض الباسط لا معطي سواه، ولا منعم غيره. ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعد ولا تحصى ﴿وَلَنْ تَعْلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، ومعنى هذا الأمر لهم بالذكر: هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها، وطلب المزيد منها ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ من زائدة، وخالق مبتدأ، وغير الله صفة له. قال الزجاج: ورفع غير على معنى هل خالق غير الله؛ لأن «من» زيادة مؤكدة، ومن خفض غير

الريب الذي هو الشك، فهو كما يقال عجب عجب، وشعر شاعر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَا فُوتَ﴾ قال: فلا نجاة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فُزِعُوا فَلَا فُوتَ وَلِخْذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: هو جيش السفيناني، قيل: من أين لخذوا؟ قال: من تحت أقدامهم. وقد ثبت في الصحيح: أنه يخسف بجيش في البدياء من حديث حفصة، وعائشة، وخارج الصحيح من حديث أم سلمة، وصفية، وأبي هريرة، وابن مسعود، وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية، ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حنيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة، وقال في آخرها: فلنك قوله عز وجل في سورة سبأ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فُزِعُوا فَلَا فُوتَ﴾ الآية. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فُزِعُوا فَلَا فُوتَ﴾ قال: كيف لهم الرد؟ ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: يسألون الرد، وليس بحين رد. وأخرج ابن المنذر عن قتبي قال: أتيت ابن عباس قلت: ما التناوش؟ قال: تناول الشيء، وليس بحين ذاك.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مربي، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة فاطر بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ يَلَنَّا فاطرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَمٍ مَنَنْ وَكَلَّمَ رَبُّكَ بِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرِيلَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ يَأْتِيَا النَّاسَ أَذْكَرًا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يُرْسِلُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤَفَّكُونَ ﴿٣﴾ وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ رَجْعُ الْأُمُورِ ﴿٤﴾ يَأْتِيَا النَّاسَ مِنْ وَرْدِ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَرْجِعُكُمُ الْحَيَوةُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا يَرْجِعُكُمُ اللَّهُ إِلَى الْأُمُورِ ﴿٥﴾ إِنَّ الْكَافِرِينَ لَكُوفٌ عَدُوٌّ فَاعْبُدُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَحِلَّوْا الْعِلَاقَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَمَنْ زَيْنٌ لَمْ يَسْأَلْهُ عَلَيْهِ فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

الفطر: الشق عن الشيء، يقال: فطرته فانفطر، ومنه فطر ناب البعير إذا طلع، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء تشقق، والفطر الابتداء والاختراع، وهو: المراد هنا، والمعنى: ﴿الحمد لله﴾ مبدع ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ومخترعهما، والمقصود من هذا أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم،

يكونوا، أو النصب على البذل من حزيه، أو النعت له، أو إضمار فعل يدل على الذم، والجر على البذل من أصحاب، أو النعت له. والرفع على الابتداء أقوى هذه الوجوه، لأنه سبحانه بعد نكر عداوة الشيطان ودعائه لحزيه، ذكر حال الفريقين من المطيعين له، والعاصين عليه، فالفريق الأول قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، والفريق الآخر قال فيه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَلَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، ويعطيهم أجراً كبيراً، وهو: الجنة ﴿أَقَمْنِ زَيْنَ لَهُ سَوْءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من نكر التفاوت بين الفريقين، و «من» في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف. قال الكسائي: والتقدير ذهبت نفسك عليهم حسرات. قال: ويدل عليه قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ قال: وهذا كلام عربي ظريف لا يعرفه إلا القليل. وقال الزجاج: تقديره كمن هداه، وقتره غيرهما كمن لم يزين له، وهذا أولى لموافقته لفظاً، ومعنى، وقد وهم صاحب الكشف، فحكي عن الزجاج ما قاله الكسائي. قال النحاس: والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف، والمعنى: أن الله عز وجل نهى نبيه ﷺ عن شدة الاغتمام بهم، والحنن عليهم كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ﴾ [الكهف: 6] وجملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ مقررّة لما قبلها: أي يضلُّ من يشاء أن يضل، ويهدي من يشاء أن يهدي ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية، والهاء مسنداً إلى النفس، فتكون من باب: لا أرىك ها هنا. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وابن محيصن، والأشهب بضم التاء، وكسر الهاء، ونصب «نفسك»، وانتصاب «حسرات» على أنه علة: أي: للحسرات، ويجوز: أن ينتصب على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روي عن سيبويه. وقال المبرد: إنها تمييز. والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفي عليه من أفعاله وأقوالهم خافية، والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد.

وقد أخرج أبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: ابتدأتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال: ﴿فاطر السموات﴾ بديع السموات. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ قال: الصوت الحسن. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ الآية قال: ما يفتح الله للناس من باب توبة ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ هم يتوبون إن شاءوا وإن أبوا، وما أمسك من باب توبة ﴿فَلَا مَرْسَلٌ لَهُ مِنْ يَمِينِهِ﴾، وهم لا يتوبون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية قال:

جعلها صفة على اللفظ. قرأ الجمهور برفع (غير)، وقرأ حمزة، والكسائي بخفضها، وقرأ الفضل بن إبراهيم بنصبها على الاستثناء، وجملة ﴿يُزِيدُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر المبتدأ، أو جملة مستأنفة، أو صفة أخرى لخالق، وخبره محذوف، والرزق من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، وغير ذلك، وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مستأنفة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ من الأفك بالفتح، وهو الصرف، يقال: ما أفكك عن كذا: أي: ما صرفك: أي: كيف تصرفون. وقيل: هو مأخوذ من الإفك بالكسر، وهو الكذب؛ لأنه مصروف عن الصدق. قال الزجاج: أي: من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله، والبحث، وأنتم مقرّون بأن الله خلقكم ورزقكم. ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَإِنْ يَكْفُرْكَ فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولَ مَنْ قَبْلِكَ﴾ ليتأسى بمن قبله من الأنبياء، ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ﴿وَاللَّهِ أَشَدُّ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كل ما يستحقه. قرأ الحسن، والأعرج، ويعقوب، وابن عامر، وأبو حيوة، وابن محيصن، وحميد، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي، وخلف (ترجع) بفتح الفوقية على البناء للفاعل، وقرأ الباقون بضمها على البناء للمفعول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعده بالبعث، والنشور، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، كما أشير إليه بقوله: ﴿وَاللَّهِ أَشَدُّ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزخرفها، ونعيمها. قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها، ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَنَمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24] ﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بَآئِلُ الْغُرُورِ﴾ قرأ الجمهور بفتح الغين: أي: المبالغ في الغرور، وهو: الشيطان. قال ابن السكيت، وأبو حاتم: الغرور الشيطان، ويجوز: أن يكون مصدرًا، واستبعده الزجاج، لأن غرر به متعدي، ومصدر المتعدي إنما هو على فعل نحو ضربته ضرباً، إلا في أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها، ومعنى الآية: لا يغرنكم الشيطان بالله، فيقول لكم: إن الله يتجاوز عنكم، ويغفر لكم لفضلكم، أو لسعة رحمته لكم. وقرأ أبو حيوة، وأبو سمك، ومحمد بن السميع بضم الغين، وهو: الباطل. قال ابن السكيت: والغرور بالضم ما يغر من متاع الدنيا. وقال الزجاج: يجوز: أن يكون الغرور جمع غار، مثل قاعد، وقعود، قيل: ويجوز أن يكون مصدر غرّه كاللزم، والنهوك، وفيه ما تقدّم عن الزجاج من الاستبعاد. ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان، فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فعادوه بطاعة الله، ولا تطيعوه في معاصي الله. ثم بين لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: إنما يدعو أشياعه، وأتباعه، والمطيعين له إلى معاصي الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار، ومحل الموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الرفع على الابتداء، ولهم عذاب شديد خبره، أو الرفع على البذل من فاعل

وقال قتادة: من كان يريد العزة، فليتعز ببطاعة الله، فجعل معنى فله العزة: الدعاء إلى طاعة من له العزة، كما يقال: من أراد المال، فالمال لفلان: أي: فليطلبه من عنده. وقال الزجاج: تقديره من كان يريد بعبادة الله العزة، والعزة له سبحانه، فإن الله عز وجل يعزّه في الدنيا والآخرة. وقيل: المراد بقوله: «من كان يريد للعزة» المشركون، فإنهم كانوا يتعزّزون بعبادة الأصنام: كقوله: «وأتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً» [مريم: 81] وقيل المراد: الذين كانوا يتعزّزون بهم من الذين آمنوا بالسنتهم «الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفخون عندهم العزة» [النساء: 139] الآية «فله العزة جميعاً» أي: فليطلبها منه لا من غيره، والظاهر في معنى الآية: أن من كان يريد العزة، ويطلبها، فليطلبها من الله عز وجل: فله العزة جميعاً، ليس لغيره منها شيء، فتشمل الآية كل من طلب العزة، ويكون المقصود بها التنبيه لنوعي الأقدار، والهمم من أين تنال العزة، ومن أي جهة تطلب؟ «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» أي: إلى الله يصعد لا إلى غيره، ومعنى صعوده إليه: قبوله له، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، وخصّ الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من نكره، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد، والتمجيد. وقيل: المراد بصعوده صعوده إلى سماء الدنيا. وقيل: المراد بصعوده علم الله به، ومعنى «والعمل الصالح يرفعه» أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، كما قال الحسن، وشهر بن حوشب، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقاتدة، وأبو العالية، والضحاك، ووجهه: أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. وقيل: إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب، ومفعوله العمل الصالح، ووجهه: أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد، والإيمان. وقيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عز وجل. والمعنى: أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب، لأن العمل يحقق الكلام. وقيل: والعمل الصالح يرفع صاحبه، وهو الذي أراد العزة. وقال قتادة: المعنى: أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه: أي: يقبله، فيكون قوله: «والعمل للصالح» على هذا مبتدأ خبره يرفعه، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه. قرأ الجمهور (يصعد) من صعد الثلاثي. (الكلم الطيب) بالرفع على الفاعلية. وقرأ علي، وابن مسعود (يصعد) بضم حرف المضارعة من أصد، (والكلم الطيب) بالنصب على المفعولية، وقرأ الضحاك على البناء للمفعول، وقرأ الجمهور (الكلم)، وقرأ أبو عبد الرحمن (الكلام)، وقرأ الجمهور (والعمل الصالح) بالرفع على العطف، أو على الابتداء. وقرأ ابن أبي عبيدة، وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال «والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد» انتصاب السيئات على أنها صفة لمصدر محذوف: أي: يمكرون المكرات السيئات، وذلك لأن «مكر»

يقول: ليس لك من الأمر شيء. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: «لهم مغفرة ولجر كبير» قال: كل شيء في القرآن لهم مغفرة، وأجر كبير، ووزن كريم، فهو: الجنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جريج، وابن أبي حاتم عن قتادة، والحسن في قوله: «أقمّن زين له سوء عمله» قال: الشيطان زين لهم هي والله الضلالات «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» أي: لا تحزن عليهم.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفْرِجُ مَخَابَ مُنْتَهَى إِلَى بَلَدٍ نَحْنُ فَأَمِينًا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّرُورُ ① مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ النَّيكَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَوْمُ ② وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوفٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ③ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَالِحٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَلْحَاقُ مِنَ كُلِّ نَكَالٍ لَوْ لَحَمًا طَرِيًّا وَنَسْتَخْرِجُونَ عِلْمَهُ تَبَشُّرًا وَنَارَ الْفَلَاحِ فِيهِ مَوْلَاهُ لِنَبَاتٍ مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ فَتَكْرُونَ ④ يُؤْتِيكَ الْيَدُ فِي الْفَتْحِ وَالْكَفَّارِ وَالْهَارِ فِي الْيَلِّ وَسَعَرَ النَّفْسِ وَالْقَمَرِ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ شَيْءٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ⑤ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَهُمْ كَمَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ يَمْكُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِنْهُ فَيُخَوِّفُ ⑥

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه، وعظيم قدرته، ليتفكروا في ذلك، وليعتبروا به، فقال: «والله الذي أرسل الرياح» قرأ الجمهور: «الرياح»، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي (الريح) بالإنفراد «فتثير سحاباً» جاء بالمضارع بعد الماضي استحضاراً للصورة، لأن ذلك أدخل في اعتبار الاعتبارين، ومعنى كونها: تثير السحاب أنها تزججه من حيث هو «فسقناه إلى بلد ميت» قال أبو عبيدة: سبيله، فتسوقه، لأنه قال: فتثير سحاباً. قيل: النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع: الدلالة على التحقق. قال المبرد: ميت وميت واحد، وقال: هذا قول البصريين، وأنشد:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
«فلاحيينا به الأرض» أي: أحيينا بالمطر الأرض بإنبات ما ينبت فيها، وإن لم يتقدم ذكر المطر، فالسحاب يدل عليه، أو أحيينا بالسحاب، لأنه سبب المطر «بعد موتها» أي: بعد يبسها، استعمار الأحياء للنبات، والموت لليبس «كنكك للنشور» أي: كنكك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحياء الأرض بعد موتها، والنشور: البعث. من نشر الإنسان نشوراً، والكاف في محل رفع على الخيرية: أي: مثل إحياء موت الأرض إحياء الأموات، فكيف تنكرونها، وقد شاهدتم غير مرة ما هو مثله وشبيهه به «من كان يريد العزة» قال الفراء: معناه: من كان علم العزة لمن هي؟ فإنها الله جميعاً.

لازم، ويجوز: أن يضمن يمكرون معنى: يكسيون، فتكون السيئات مفعولاً به. قال مجاهد، وقتادة: هم أهل الرياء. وقال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبي ﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة. وقال الكلبي: هم الذين يعملون السيئات في الدنيا. وقال مقاتل: هم: المشركون، ومعنى ﴿لهم عذاب شديد﴾: لهم عذاب بالغ الغاية في الشدة ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ أي: يبطل، ويهلك، ومنه ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ [الفتح: 12] والمكر في الأصل: الخديعة، والاحتيال، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الذين مكروا السيئات على اختلاف الأقوال في تفسير مكرهم، وجملة ﴿هو يبور﴾ خبر مكر أولئك. ثم ذكر سبحانه لئلا آخر على البعث، والنشور، فقال: ﴿وإله خلقكم من تراب﴾ أي: خلقكم ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. وقال قتادة: يعني: آدم، والتقدير على هذا: خلق أباكم الأول، وأصلكم الذي ترجعون إليه من تراب ﴿ثم من نطفة﴾ أخرجها من ظهر أبائكم ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي: زوج بعضكم ببعض، فالذكر زوج الأنثى، أو جعلكم أصنافاً نكراناً وإنثاءً ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي: لا يكون حمل، ولا وضع إلا والله عالم به، فلا يخرج شيء عن علمه وتبديره ﴿وما يعقر من معقر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي: ما يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب: أي: في اللوح المحفوظ. قال الفراء: يريد آخر غير الأول، فكنى عنه بالضمير كانه الأول: لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول كانه قال: ولا ينقص من عمر معمر، فالكناية في عمره ترجع إلى آخر غير الأول، ومثله قولك: عندي درهم ونصفه: أي: نصف آخر. قيل: إنما سمي معمرًا باعتبار مصيره إليه. والمعنى: وما يمد في عمر أحد، ولا ينقص من عمر أحد، لكن لا على معنى: لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً، بل على معنى: أنه لا يجعل من الابتداء ناقصاً إلا وهو في كتاب. قال سعيد بن جبير: وما يعمر من معمر إلا كتب عمره: كم هو سنة، كم هو شهر، كم هو يوماً، كم هو ساعة، ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره ساعة، نقص من عمره يوم، نقص من عمره شهر، نقص من عمره سنة حتى يستوفي أجله، فما مضى من أجله، فهو: النقصان، وما يستقبل، فهو: الذي يعمره. وقال قتادة: المعمر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة. وقيل: والمعنى: إن الله كتب عمر الإنسان كذا إن أطاع، وبنوه إن عصى، فأيهما بلغ، فهو في كتاب، والضمير على هذا يرجع إلى معمر. وقيل: والمعنى: وما يعمر من معمر إلى الهرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب: أي: بقضاء الله قاله الضحاک، واختاره النحاس. قال: وهو أشبهها بظاهر التنزيل، والأولى أن يقال: ظاهر النظم القرآني أن تطويل العمر وتقصيره: هما بقضاء الله، وقدره لأسباب تقتضي التطويل، وأسباب تقتضي التقصير.

معاصي الله عز وجل، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلاً سبعين سنة، فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان، والكل في كتاب مبين، فلا تخالف بين هذه الآية، وبين قوله سبحانه: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [الأعراف: 34]، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد: 39]، وقد قُمنّا في تفسيرها ما يزيد ما نكرنا هنا وضوحاً وبياناً. قرأ الجمهور (ينقص) مبنياً للمفعول. وقرأ يعقوب، وسلام، وروي عن أبي عمرو (ينقص) مبنياً للفاعل. وقرأ الجمهور (من عمره) بضم الميم. وقرأ الحسن، والأعرج، والزهري بسكونها، والإشارة بقوله: ﴿إن ذلك﴾ إلى ما سبق من الخلق، وما بعده ﴿على الله يسير﴾ لا يصعب عليه منه شيء، ولا يعزب عنه كثير، ولا قليل، ولا كبير، ولا صغير. ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من بديع صنعه، وعجيب قدرته، فقال ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ فالمراد بالبحران العذب، والمالح، فالعذب الفرات الحلو، والأجاج المَرّ، والمراد به سائغ شرابه الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته. وقرأ عيسى بن عمر (سيغ) بتشديد الياء، وروي تسكينها عنه. وقرأ طلحة، وأبو نهيك (ملح) بفتح الميم ﴿ومن كل﴾ منهما ﴿تأكلون لحماً طرياً﴾، وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ الظاهر أن المعنى: وتستخرجون منهما حلية تلبسونها. وقال المبرّد: إنما تستخرج الحلية من المالح، وروي عن الزجاج: أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطتا، لا من كل واحد منهما على انفراد، ورجح النحاس قول المبرّد. ومعنى ﴿تلبسونها﴾: تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في الأصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرجل، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف، والدرع، ونحوهما ﴿وترى الفلك فيه﴾ أي: في كل واحد من البحرين. وقال النحاس: الضمير يعود إلى الماء المالح خاصة، ولولا ذلك لقال: فيهما ﴿مواخر﴾ يقال: مخرت السفينة تخر: إذا شقت الماء. فالمعنى: وترى السفن في البحرين شرايق للماء بعضها مقبلة، وبعضها مدبرة بريح واحدة، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة النحل، واللام في ﴿تلتبغوا من فضله﴾ متعلقة بما يدل عليه الكلام السابق: أي: فعل ذلك: لتبغوا، أو يماخر. قال مجاهد: ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة كما تقدم في البقرة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على ما أنعم عليكم به من ذلك. قال أكثر المفسرين: إن المراد من الآية ضرب المثل في حق المؤمن والكافر، والكفر والإيمان، فكما لا يستوي البحران كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، ولا الكفر والإيمان ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي: يضيف بعض أجزاءهما إلى بعض، فيزيد في

فمن أسباب التطويل: ما ورد في صلة الرّحم عن النبي ﷺ، ونحو ذلك. ومن أسباب التقصير الاستكثار من

أحدهما، بالنقص في الآخر، وقد تقدّم تفسيره في آل عمران، وفي مواضع من الكتاب العزيز ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ قدره الله لجريانهما، وهو: يوم القيامة. وقيل: هو المدة التي يقطعان في مثلها الفلك، وهو سنة للشمس، وشهر للقمر. وقيل: المراد به جري الشمس في اليوم، والقمر في الليلة. وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة لقمان، والإشارة بقوله: ﴿ذلكم﴾ إلى الفاعل لهذه الأفعال، وهو: الله سبحانه، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿الله ربكم له الملك﴾ أي: هذا الذي من صنعته ما تقدّم: هو: الخالق المقتدر، والقادر المقتدر المالك للعالم، والمتصرف فيه، ويجوز: أن يكون قوله: له الملك جملة مستقلة في مقابلة قوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ أي: لا يقدرون عليه، ولا على خلقه، والقطمير: القشرة الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة، وتصير على النواة كاللغافة لها. وقال المبرد: هو: شقّ النواة. وقال قتادة: هو: القمع الذي على رأس النواة. قال الجوهري: ويقال: هي: النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة. ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرّون، فقال: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ أي: إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم، لكنّها جمادات لا تترك شيئاً من المبركات ﴿ولو سمعوا﴾ على طريقة الفرض، والتقدير ﴿ما استجابوا لكم﴾ لعجزهم عن ذلك. قال قتادة: المعنى ولو سمعوا لم ينفعوكم. وقيل المعنى: لو جعلنا لهم سماعاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتهم إليه من الكفر ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي: يتبرّعون من عبادتكم لهم، ويقولون ﴿ما كنتم إنا تعبدون﴾ [يونس: 28] ويجوز: أن يرجع ﴿والذين تدعون من دونه﴾ [الأعراف: 197] وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار، وهم: الملائكة، والجنّ، والشياطين، والمعنى: أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وينكرون: أنهم أمروكم بعبادتهم ﴿ولا ينبغي لكم مثل خبير﴾ أي: لا يخبركم مثل من هو خبير بالأشياء عالم بها، وهو: الله سبحانه، فإنه لا أحد أخبر بخلقهم، وأقوالهم، وأفعالهم منه سبحانه، وهو الخبير بكنه الأمور، وحقائقها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، فلا يبقى خلق لله في السموات والأرض إلا من شاء الله إلا مات، ثم يرسل الله من تحت العرش منياً كمني الرجال، فتنبت أجسامهم ولحمهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ عبد الله ﴿الله الذي أرسل الرياح﴾ الآية. وأخرج أبو داود، والطائسي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال: «قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بأرض مجيبة، ثم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّزِفُوا لِلْفَقْرَةِ إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ قَوْلُ الْحَمِيدِ﴾ [١٧] لَمْ يَزِدْ بِشَيْءٍ يَدْعُكُمْ وَيَأْتِي بِحَقِّ جَبْرِ [١٨] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [١٩] وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَلَئِنْ دَعُوهُ لَبُذًا إِلَّا جَهَنَّمَ لَا يَحْتَمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نَذَرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَفَانُوا الْفُلُوكَ وَمَنْ سَرَّكَ

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهُمْ﴾ [النازعات: 45] وقوله: ﴿إِنَّمَا تَنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: 11] ومعنى ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: أنهم احتفلوا بأمرها، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يليهم ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ التزكي: التطهر من أدناس الشرك، والفواحش، والمعنى: أن من تطهر بترك المعاصي، واستكثر من العمل الصالح، فإنما يتطهر لنفسه، لأن نفع ذلك مختص به كما أن وزر من تدنس لا يكون إلا عليه لا على غيره. قرأ الجمهور (ومن تزكى فإنما يتزكى) وقرأ أبو عمرو⁽¹⁾ «فإنما يزكى» بإدغام التاء في الزاي، وقرأ ابن مسعود، وطلحة (ومن أركى فإنما يزكى) ﴿وَاللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ لا إلى غيره، نكر سبحانه أولاً: أنه لا يحمل أحد نوب أحد، ثم نكر ثانياً: أن المذنّب إن دعا غيره، ولو كان من قرابته إلى حمل شيء من ذنوبه لا يحمله، ثم نكر ثالثاً: أن ثواب الطاعة مختص بفاعلها ليس لغيره منه شيء. ثم ضرب مثلاً للمؤمن، والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ أي: المسلوب حاسة البصر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الذي له ملكة البصر، فشبّه الكافر بالاعمى، وشبّه المؤمن بالبصير ﴿وَالظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي: ولا تستوي الظلمات ولا النور، فشبّه الباطل بالظلمات، وشبّه الحقّ بالنور. قال الأخفش: ولا في قوله: ﴿وَالنُّورُ﴾، ﴿وَالْحُرُورُ﴾ زائدة، والتقدير وما يستوي الظلمات والنور، ولا الظلّ والحرور، والحرور شدة حرّ الشمس. قال الأخفش: والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسوموم يكون بالليل، وقيل: عكسه. وقال رؤبة بن العجاج: الحرور يكون بالليل خاصة، والسوموم يكون بالنهار خاصة. وقال الفراء: السوموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما. قال النحاس: وهذا أصح. وقال قطرب: الحرور الحرّ، والظلّ البرد، والمعنى: أنه لا يستوي الظلّ الذي لا حرّ فيه، ولا أذى، والحرّ الذي يؤذي. قيل: أراد الثواب والعقاب، وسمي الحرّ حروراً مبالغة في شدة الحرّ، لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى. وقال الكلبي: أراد بالظلّ الجنة، وبالحرور النار. وقال عطاء: يعني: ظلّ الليل، وشمس النهار. قيل: وإنما جمع الظلمات، وأقرّد النور لتعدّد فنون الباطل، واتحاد الحقّ. ثم نكر سبحانه تمثيلاً آخر للمؤمن، والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ﴾، فشبّه المؤمنين بالأحياء، وشبّه الكافرين بالأموات، وقيل: أراد تمثيل العلماء والجهلة. وقال ابن قتيبة: الأحياء العقلاء، والأموات الجاهل. قال قتادة: هذه كلها أمثال: أي: كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلّقهم لجنّته، ووفّقهم لطاعته ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يعني: الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم: أي: كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع

(1) يعني: في غير المشهور عنه اهـ. ع.

﴿إِنَّمَا يَنْزَعُكَ لِقَائِهِ﴾ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿٣٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٣٧﴾ وَلَا الظُّلَّ وَلَا الْهَرُورُ ﴿٣٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَّشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٣٩﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴿٤٢﴾ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

ثم نكر سبحانه افتقار خلقه إليه، ومزيد حاجتهم إليه فضله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا، فهم الفقراء إليه على الإطلاق، و﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ على الإطلاق ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي: المستحقّ للحمد من عباده بإحسانه إليهم. ثم نكر سبحانه نوعاً من الأنواع التي يتحقق عندها افتقارهم إليه، واستغناؤه عنهم، فقال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن يشاء يفتنكم، ويأت بخلق جديد بطيعونه، ولا يعصونه، أو يأت بنوع من أنواع الخلق، وعالم من العالم غير ما تعرفون ﴿وَمَا تُلْكُ﴾ إلا ذهاب لكم، والإتيان بأخرين ﴿وَعَلَى اللَّهِ بَعْرِيزٌ﴾ أي: بمرتفع، ولا متعسر، وقد مضى تفسير هذا في سورة إبراهيم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: نفس وازرة، فحذف الموصوف للعلم به، ومعنى تزر: تحمل. والمعنى: لا تحمل نفس حمل نفس أخرى: أي: إثمها بل كل نفس تحمل وزرها، ولا تخالف هذه الآية قوله: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ﴾ وإثقالاً مع أثقالهم ﴿[العنكبوت: 13]﴾ لأنهم إنما حملوا أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، والكل من أوزارهم، لا من أوزار غيرهم، ومثل هذا حديث «من سنّ سنة سيئة، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»، فإن الذين سنّ السنة السيئة إنما حمل وزر سنته السيئة، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى ﴿وَأَنْ تَدْعَ مَثَلَةً إِلَى حِمْلِهَا﴾ قال الفراء: أي: نفس مثقلة، قال: وهذا يقع للمذكر، والمؤنث. قال الأخفش: أي: وإن تدع مثقلة إنساناً إلى حملها، وهو: ذنوبها ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ﴾ أي: من حملها ﴿شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان الذي تدعوه ذا قرابة لها، لم يحمل من حملها شيئاً. ومعنى الآية: وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب، فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها، وبين الداعية لها؟ وقرئ (نو قربي) على أن كان تامة، كقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: 280] وجملة ﴿إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار، ومعنى ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾: أنه يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه، أو يخشونه عذابه، وهو غائب عنهم، أو يخشونه في الخلوات عن الناس. قال الزجاج: تأويله أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم، فكانك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعم الإنذار، كقوله:

تَكُونُ ﴿١٠﴾ يُؤْفِكُهُمْ أَجُورُهُمْ وَزَيَادَتُهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١١﴾ وَالَّذِي آتَيْنَاكَ مِنَّا لَكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ لَعَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِ انبَأَ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٣﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا لِمَ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِالَّذِي آذَاهُ عَنَّا لِمَنْزِلٍ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٥﴾ الَّذِي آتَيْنَاكَ دَارَ الْقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَسَبٌ وَلَا بِسْطٌ فِيهَا قُورٌ ﴿١٦﴾

ثم نكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته الباهرة، وخلقاً من مخلوقاته البديعة، فقال: ﴿لَم تَرَ﴾، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له ﴿إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهذه الرؤية هي: القلبية: أي ألم تعلم، وأن واسمها وخبرها سبقت مسدّ المفعولين ﴿فَلَاخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء، والنكتة في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع، وانتصاب ﴿مُخْتَلِفًا لَوَانُهَا﴾ على الوصف لثمرات، والمراد بالألوان الأجناس، والأصناف: أي: بعضها أبيض، وبعضها أحمر، وبعضها أصفر، وبعضها أخضر، وبعضها أسود ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ الجدد جمع جدة، وهي: الطريق. قال الأخفش: ولو كان جمع جديد لقال جدد بضم الجيم والدال، نحو سرير وسرر. قال زهير:

كانه أسفع الخدين نو جدد طار ويرتع بعد الصيف أحياناً
وقيل: الجدد القطع، مأخوذ من جدت الشيء إذا قطعت، حكاه ابن بحر. قال الجوهري: الجدة: الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه، والجدة الطريقة، والجمع جدد، وجدائد، ومن ذلك قول أبي نؤيب:

جون السراة له جدائد أربع

قال المبرد: جدد: طرائق وخطوط. قال الواحدي: ونحو هذا قال المفسرون في تفسير الجدد. وقال الفراء: هي: الطرق تكون في الجبال كالعروق بيض، وسود، وحمر، واحدها جدة، والمعنى: أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال، وهي: طرائقها، أو الخطوط التي فيها بأن لون بعضها البياض، ولون بعضها الحمرة، وهو معنى قوله: ﴿بَيَاضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ لَوَانُهَا﴾ قرأ الجمهور «جدة» بضم الجيم، وفتح الدال. وقرأ الزهري بضمهما جمع جديدة، وروي عنه: أنه قرأ بفتحهما، وردهما أبو حاتم وصححها غيره، وقال: الجدد الطريق الواضح البين ﴿وَوُغْرَابِيْبٌ سَوْدٌ﴾ الغريب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب. قال الجوهري:

تقول هذا أسود غريب: أي: شديد السواد، وإذا قلت غرابيب سود جعلت السود بدلاً من غرابيب. قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير تقديره: وسود غرابيب، لأنه يقال: أسود غريب، وقل ما يقال: غريب أسود، وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ لَوَانُهَا﴾ صفة لجدد، وقوله: ﴿وَوُغْرَابِيْبٌ﴾ معطوف على جدد على معنى: ومن الجبال جدد ببيض، وحمر، ومن الجبال

من مات قلبه، قرأ الجمهور بتنوين (مسمع) وقطعه عن الإضافة. وقرأ الحسن، وعيسى اللثقي، وعمرو بن ميمون بإضافته ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما أنت إلا رسول منذر ليس عليك إلا الإنذار، والتبليغ، والهدى، والضلالة بيد الله عز وجل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يجوز: أن يكون بالحق في محل نصب على الحال من الفاعل: أي: محققين، أو من المفعول: أي: محققاً، أو نعت لمصدر محذوف: أي: إرسالاً ملتبساً بالحق، أو هو متعلق ببشيراً: أي: بشيراً بالوعد الحق، ونذيراً بالوعد الحق، والأولى: أن يكون نعتاً للمصدر المحذوف، ويكون معنى بشيراً: بشيراً لأهل الطاعة، ونذيراً لأهل المعصية ﴿وَأَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها، واقتصر على نكر النذير دون البشير، لأنه الصق بالمقام، ثم سلى نبيه ﷺ، وعزاه، فقال: ﴿وَأَنْ يَكْتُوبُكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: كتب من قبلهم من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحة، والدلالات الظاهرة ﴿وَبِالْزُبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم كالنوراة، والإنجيل، قيل: الكتاب المنير داخل تحت الزبر، وتحت البينات، والعطف لتغاير المفهومات، وإن كانت متحدة في الصق، والأولى تخصيص البينات بالمعجزات، والزبر بالكتب التي فيها مواعظ، والكتاب بما فيه شرائع، وأحكام، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير يفيد التصريح بذهم بما في حيز الصلاة، ويشعر بعلة الأخذ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان نكيرهم عليهم، وعقوبتي لهم، وقرأ ورش عن نافع وشيبة بإثبات الياء في (نكير) وصلأ ولا وقفاً، وقد مضى بيان معنى هذا قريباً.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص: أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه، لا يجني والد على ولده، ولا مولود على والده» وأخرج سعيد بن منصور، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن مروي، والبيهقي في سننه عن أبي رمثة قال: انطلقت مع أبي نحو رسول الله ﷺ فلما رأيته قال لأبي: ابنك هذا؟ قال: أي، ورب الكعبة، قال: أما أنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْ يَكْتُوبُكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا لَوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ لَوْنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٧﴾ وَمِمَّنْ أُنْزِلَ مِنَ الْكِتَابِ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا لَوْنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ لَوْنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ

غرابيب على لون واحد، وهو: السواد، أو على حمر على معنى، ومن الجبال جند بيض، وحمر، وسود. وقيل: معطوف على بيض، ولا بد من تقدير مضاف محذوف قبل جند: أي: ومن الجبال نو جند، لأن الجند إنما هي في ألوان بعضها **﴿ومن للناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾** قوله مختلف صفة لموصوف محذوف: أي: ومنهم صنف، أو نوع، أو بعض مختلف ألوانه بالحمرة، والسواد، والبياض، والخضرة، والصفرة. قال الفراء: أي: خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات، والجبال، وإنما نكر سبحانه اختلاف الألوان في هذه الأشياء، لأن هذا الاختلاف من أعظم الالته على قدرة الله، وينبع صنعه، ومعنى **﴿كنك﴾** أي: مختلفاً مثل ذلك الاختلاف، وهو صفة لمصدر محذوف، والتقدير مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك: أي: كاختلاف الجبال، والثمار. وقرأ الزهري «والدواب» بتخفيف الباء. وقرأ ابن السميع «ألوانها». وقيل: إن قوله: **﴿كنك﴾** متعلق بما بعده: أي: مثل ذلك المطر، والاعتبار في مخلوقات الله، واختلاف ألوانها يخشى الله من عباده العلماء، وهذا اختاره ابن عطية، وهو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها. والراجح الوجه الأول، والوقف على كنك تام. ثم استؤنف الكلام، وأخبر سبحانه بقوله: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** أو هو من تنمة قوله: **﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾** [فاطر: 18] على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة، وأفعاله الجميلة، وعلى كل تقدير، فهو: سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته، وهم: العلماء به، وتعظيم قدرته. قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل. وقال مسروق: كفى بخشية الله علماء، وكفى بالاعتزاز جهلاً، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له. قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله، فليس بعالم. وقال الشعبي: العالم من خاف الله، ووجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية، ولو أخر انعكس الأمر. وقرأ عمر بن عبد العزيز برفع الاسم الشريف، ونصب العلماء، ورويت هذه القراءة عن أبي حنيفة قال في الكشف: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: أنه يجلبهم، ويعظمهم كما يجلب المهيب المخشي من الرجال بين الناس، وجملة **﴿إن الله عزيز غفور﴾** تعليل لوجوب الخشية لدلالة على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده **﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾** أي: يستمرون على تلاوته، ويؤدومونها. والكتاب هو: القرآن الكريم، ولا وجه لما قيل: إن المراد به جنس كتب الله **﴿واقاموا الصلاة﴾** أي: فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها، وإنكارها **﴿وانفقوا مما رزقناهم سراً وعانية﴾** فيه حث على الإنفاق كيف ما تها، فإن تها سراً، فهو أفضل، ولأفعلانية، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء، ويمكن أن يراد بالسّر صدقة النفل، وبالعلانية صدقة الفرض، وجملة **﴿يرجون تجارة لن تبور﴾** في محل رفع على خبرية إن كما قال ثعلب، وغيره، والمراد بالتجارة ثواب

الطاعة ومعنى **﴿لن تبور﴾**: لن تكسد، ولن تهلك، وهي صفة للتجارة، والإخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم، واللام في **﴿ليوفيههم أجورهم﴾** متعلق بلن تبور، على معنى: أنها لن تكسد لأجل أن يوفيههم أجور أعمالهم الصالحة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: **﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم﴾** ويزيدهم من فضله **﴿النساء: 173﴾** وقيل: إن اللام متعلقة بمحذوف دل عليه السياق: أي: فعلوا ذلك ليوفيههم، ومعنى **﴿ويزيدهم من فضله﴾** أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التي هي جزاء أعمالهم، وجملة **﴿إنه غفور شكور﴾** تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة: أي: غفور لثوبهم شكور لطاعتهم، وقيل: إن هذه الجملة هي: خبر إن، وتكون جملة يرجون في محل نصب على الحال، والأول أولى **﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب﴾** يعني: القرآن، وقيل: اللوح المحفوظ على أن من تبعيضية، أو ابتدائية، وجملة **﴿هو الحق﴾** خبر الموصول **﴿مصنفاً لما بين يديه﴾** منتصب على الحال: أي: موافقاً لما تقدمه من الكتب **﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾** أي: محيط بجميع أمورهم **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾** المفعول الأول لأورثنا الموصول، والمفعول الثاني الكتاب، وإنما قُدم المفعول الثاني لقصد التشريف، والتعظيم للكتاب، والمعنى: ثم أورثنا الذين اصطفينا من عبادنا الكتاب، وهو: القرآن: أي: قضينا، وقُدرنا بأن نورث العلماء من أمك يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك، ومعنى اصطفائهم: اختيارهم، واستخلاصهم، ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة، فمن بعدهم قد شرفهم الله على سائر العباد، وجعلهم أمة وسطاً؛ ليكونوا شهداء على الناس، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء، وسيد ولد آدم. قال مقاتل: يعني: قرآن محمد جعلناه ينتهي إلى الذين اصطفينا من عبادنا. وقيل: إن المعنى: أورثناه من الأمم السالفة: أي: أخرجنا عنهم، وأعطينا الذين اصطفينا، والأول أولى. ثم قسم سبحانه هؤلاء الذي أورثهم كتابه، واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام، فقال: **﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾** قد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية، لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من تلك المقسم، وهو من اصطفاهم من العباد، فكيف يكون من اصطفاه الله ظالماً لنفسه؟ فقيل: إن التقسيم هو راجع إلى العباد: أي: فمن عبادنا ظالم لنفسه، وهو: الكافر، ويكون ضمير يدخلونها عائداً إلى المقتصد والسابق. وقيل: المراد بالظالم لنفسه هو: المقصر في العمل به، وهو: المرجأ لأمر الله، وليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حق رعايته، لقوله: **﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾** [الاعراف: 169]، وهذا فيه نظر، لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء. وقيل: الظالم لنفسه: هو: الذي عمل الصغائر، وقد روي هذا القول عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، وأبي الدرداء، وعائشة، وهذا هو الراجح، لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء، ولا يمنعه

التفريط، وهذا من أهل الجنة، وأما السابق، فهو: الذي سبق غيره في أمور الدين، وهو خير الثلاثة.

وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد، وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه، والسابق أفضل منهما، فقيل: إن التقديم لا يقتضي التشريف كما في قوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ الحشر: 20، ونحوها من الآيات القرآنية التي فيها تقديم أهل الشرّ على أهل الخير، وتقديم المفضولين على الفاضلين. وقيل: وجه التقديم هنا: أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصي قليل، والسابقين بالنسبة إلى الفريقين أقل قليل، فقدم الأكثر على الأقل، والأول أولى، فإن الكثرة بمجردها لا تقتضي تقديم الذكر، وقد قيل: في وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لا حاجة إلى التطويل به، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى توريث الكتاب، والاصطفاء، وقيل: إلى السبق بالخيرات، والأول أولى، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هو الفضل للكبير﴾ أي: الفضل الذي لا يقاير قدره، وارتفاع ﴿جنان عدن﴾ على أنها مبتدأ، وما بعدها خبرها، أو على البديل من الفضل، لأنه لما كان هو السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب، وعلى هذا، فتكون جملة ﴿يدخلونها﴾ مستأنفة، وقد قدمنا: أن الضمير في يدخلونها يعود إلى الأصناف الثلاثة، فلا وجه لقصره على الصنف الأخير، وقرأ زرّ بن حبیش، والترمذي (جنة) بالإفراد، وقرأ الجحدري (جنان) بالنصب على الاشتغال، وجوز أبو البقاء: أن تكون جنات خبراً ثانياً لاسم الإشارة، وقرأ أبو عمرو (يدخلونها) على البناء للمفعول، وقوله: ﴿يحلّون﴾ خبر ثان لجنان عدن، أو حال مقترنة، وهو من حلّيت المرأة، فهي: حال، وفيه إشارة إلى سرعة الدخول، فإن في تحليلهم خارج الجنة تأخيراً للدخول، فلما قال: ﴿يحلّون فيها﴾ أشار أن دخولهم على وجه السرعة ﴿من أساور من ذهب﴾ من الأولى تبعية، والثانية بيانية: أي: يحلون بعض أساور كائنة من ذهب، والأساور جمع أسورة جمع سوار، وانتصاب ﴿لؤلؤاً﴾ بالعطف على محل ﴿من أساور﴾ وقرأ بالجر عطفاً على ذهب ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ قد تقدّم تفسير الآية مستوفى في سورة الحج ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ قرأ الجمهور (الحزن) بفتح الحاء. وقرأ جناح بن حبیش بضمة الحاء، وسكون الزاي. والمعنى: أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة. قال قتادة: حزن الموت. وقال عكرمة: حزن السيئات والذنوب، وخوف ردّ الطاعات. وقال القاسم: حزن زوال النعم، وخوف العقابة. وقيل: حزن أهوال يوم القيامة. وقال الكلبي: ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة. وقال سعيد بن جبیر: همّ الخبز في الدنيا، وقيل: همّ المعيشة. وقال الزجاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش، أو معاد. وهذا أرجح الأقوال، فإن الدنيا، وإن بلغ نعيمها أيّ بلغ لا تخلو من شوائب ونوائب تكثر لأجلها الأحزان، وخصوصاً أهل الإيمان، فإنهم لا يزالون وجلين من

من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتي. ووجه كونه ظالماً لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصفات المغفورة له، فإنه لو عمل مكان تلك الصفات طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظاً عظيماً، وقيل: الظالم لنفسه هو: صاحب الكبائر.

وقد اختلف السلف في تفسير السابق، والمقتصد، فقال عكرمة، وقتادة، والضحاك: إن المقتصد المؤمن العاصي، والسابق التقى على الإطلاق، وبه قال الفراء، وقال مجاهد في تفسير الآية: ﴿فمنهم ظالم لنفسه أصحاب﴾ المشامة ﴿ومنهم مقتصد﴾ أصحاب الميمنة ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ السابقون من الناس كلهم، وقال المبرد: إن المقتصد هو الذي يعطي الدنيا حقها، والآخرة حقها. وقال الحسن: الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته، والمقتصد الذي استوت حسناته، وسيئاته، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته. وقال مقاتل: الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة، والسابق الذي سبق إلى الأعمال الصالحة. وحكى النحاس: أن الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته، فتكون جنات عدن يدخلونها للذين سبقوا بالخيرات لا غير، قال: وهذا قول جماعة من أهل النظر، لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى. وقال الضحاك، فيهم ظالم لنفسه: أي: من نُرِيتهم ظالم لنفسه. وقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم لنفسه الجاهل. وقال نوّ النون المصري: للظالم لنفسه الذكر ش بلسانه فقط، والمقتصد الذكر بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال. وقال ابن عطاء: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبى، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق. وقيل: للظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبد طمعاً في الجنة، والسابق الذي يعبد لا لسبب. وقيل: الظالم الذي يحب نفسه، والمقتصد الذي يحب لينة، والسابق الذي يحب ربه. وقيل: الظالم الذي ينتصف ولا ينصف، والمقتصد الذي ينتصف، وينصف، والسابق الذي ينصف ولا ينتصف وقد ذكر الثعلبي، وغيره أقوالاً كثيرة، ولا شك أن المعاني اللغوية للظالم، والمقتصد، والسابق معروفة، وهو يصدق على الظلم للنفس بمجرّد إحرامها للحظ، وتقويت ما هو خير لها، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوتها من الثواب، وإن كان قائماً بما أوجب الله عليه تاركاً لما نهاه الله عنه، فهو من هذه الحيثية من اصطفاه الله، ومن أهل الجنة، فلا إشكال في الآية، ومن هذا قول آدم: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ [الأعراف: 23]، وقول يونس: ﴿إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: 87]، ومعنى المقتصد: هو من يتوسط في أمر الدين، ولا يميل إلى جانب الإفراط، ولا إلى جانب

عذاب الله خائفين من عقابه، مضطربي القلوب في كل حين، هل تقبل أعمالهم أو ترد؟ حذرين من عاقبة السوء، وخاتمة الشر، ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلوا الجنة. وأما أهل العصيان: فهم، وإن نفس عن خناتهم قليلاً في حياة الدنيا التي هي دار الغرور، وتناسوا دار القرار يوماً من دهرهم، فلا بد أن يشتد وجلهم، وتعظم مصيبتهم، وتغلي مراحل أحزانهم إذا شارقوا الموت، وقربوا من منازل الآخرة، ثم إذا قبضت أرواحهم، ولاح لهم ما يسؤوهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غماً، وحزناً، فإن تفضل الله عليهم بالمغفرة، وانظلمت الجنة، فقد أذهب عنهم أحزانهم، وأزال غموهم، وهمومهم ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور لمن عصاه، شكور لمن أطاعه ﴿الَّذِي لَحْنًا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: دار الإقامة التي يقام فيها أبداً، ولا ينتقل عنها تفضلاً منه ورحمة ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: لا يصيبنا في الجنة عناء، ولا تعب، ولا مشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، وهو: الإعياء من التعب، والكلال من النصب.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثَمَرَاتٌ مُخْتَلِفًا لَوَانُهَا﴾ قال: الأبيض، والأحمر، والأسود، وفي قوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق ﴿بَيْضٌ﴾ يعني: الألوان. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الغريبب الأسود الشديد السواد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق تكون في الجبل بيض ﴿وَحُمْرٌ﴾ فتلك الجند **وُغْرِيْبِبِ سَوْدٌ** قال: جبال سود ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ﴾ قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ اختلاف الناس، والدواب، والأنعام باختلاف الجبال، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: فصل لما قبلها. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: العلماء بالله الذين يخافونه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عدي عن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والطبراني عنه قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى باغترار بالله جهلاً. وأخرج أحمد في الزهد عنه أيضاً قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله. وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس: أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب

حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وأخرج الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم يدخلون الجنة. وفي إسناده رجلان مجهولان. قال الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا شعبة عن الوليد بن العيزار: أنه سمع رجلاً من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد. وأخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿قَالَ اللَّهُ: ثَمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فاما الذين سبقوا، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب. وأما الذين ظلموا أنفسهم، فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً. وأما الذين ظلموا أنفسهم، فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى آخر الآية. قال البيهقي: إذا كثرت روايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً واحداً، وفي إسناده أحمد محمد بن إسحاق، وفي إسناده ابن أبي حاتم رجل مجهول، لأنه رواه من طريق الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء، ورواه ابن جرير، عن الأعمش قال: نكر أبو ثابت. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، ثم يدخلون الجنة، وثلث يحصون، ويكشفون، ثم تأتي الملائكة، فيقولون وجنناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده، فيقول الله: أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده، وأحملوا خطاياهم على أهل التكذيب، وهي التي قال الله: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]، وتصديقها في التي نكر في الملائكة. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فجعلهم ثلاثة أفواج: فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف، ويمحص، ومنهم مقتصد، وهو الذي يحاسب حساباً يسيراً. ومنهم سابق بالخيرات، فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب، بإذن الله يدخلونها جميعاً. قال ابن كثير بعد نكر هذا الحديث: غريب جداً هـ وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضاً، ويجب المصير إليها، ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر، ويؤيدها ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أسامة بن زيد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة، وكلهم في الجنة، وما أخرجه الطيالسي، وعبد بن

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثَمَرَاتٌ مُخْتَلِفًا لَوَانُهَا﴾ قال: الأبيض، والأحمر، والأسود، وفي قوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق ﴿بَيْضٌ﴾ يعني: الألوان. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الغريبب الأسود الشديد السواد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ قال: طرائق تكون في الجبل بيض ﴿وَحُمْرٌ﴾ فتلك الجند **وُغْرِيْبِبِ سَوْدٌ** قال: جبال سود ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ﴾ قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ اختلاف الناس، والدواب، والأنعام باختلاف الجبال، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: فصل لما قبلها. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: العلماء بالله الذين يخافونه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عدي عن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والطبراني عنه قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى باغترار بالله جهلاً. وأخرج أحمد في الزهد عنه أيضاً قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية. وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله. وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس: أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب

يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا، فقال: إن عليهم التيجان، إن أنشئ لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُلُّوا الْحَمْدَ﴾ الآية قال: هم قوم في الدنيا يخافون الله، ويجتهدون له في العبادة سرا، وعلانية، وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم، فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التي سلفت، فعندما ﴿قُلُّوا الْحَمْدَ﴾ الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ غفر لنا العظيم، وشكر لنا القليل من أعمالنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في الآية قال: حزن النار.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقَنُّ عَلَيْهِمْ قِيمَتُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَسْتَوْحِشْ فِيهَا رَمًا لَفَرِحًا تَمَلَّ صَلَاحًا عَرَّ الَّذِي كُنَّا تَمَلُّ أَوَّلَ تَعْمُرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَهَاءُكُمْ التَّذَكُّرُ تَذَوُّقًا لِمَا لِلْعَالَمِينَ مِنْ نَيْمٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٩﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَلَهُ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقَاتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا حَسَارًا ﴿٢٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرَأَيْتُمْ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَرَأَيْتُمْ يَتْرِكُوا فِي السَّمَاءِ آرَاءَ الَّذِينَ كُنَّا قَبْلَهُمْ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُوبًا ﴿٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَتَسَاءَلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذِ انْتَفَخَتَا مِنْ أَمْرِي بَيِّنَةً إِنَّهُ كَانَ لَمِنَ أَفْعَالِهِ ﴿٢٢﴾ وَأَسْمُوا بِأَقْوَمِ جَهَدٍ أَيْتَهُمْ لَيْتَ جَاهَهُمْ يَذِيرُ لِيَكُونَ أَهْدَى مِنْ إِهْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَالَهُمْ إِلَّا تَوَلَّوْا ﴿٢٣﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْيُنِنَا فَبَلِّغْ نَبَأَهُمْ لِنُبَيِّنَ لَهُمْ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَغْدِرَ لَيْسَتْ اللَّهُ بِبَدِيلٍ وَلَنْ يَغْدِرَ لَيْسَتْ اللَّهُ بِبَدِيلٍ ﴿٢٤﴾ أَوَّلَ يُبَيِّنُ فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ مِنَ السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٢٥﴾ وَلَوْ يَرَى الْإِنْسَانُ مَا كَسَبَ مَا يَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلْيَكْ اللَّهُ كَانَ يَبْكَاوَهُ بَيْبَرًا ﴿٢٦﴾

ثم لما فرغ سبحانه من نكر جزاء عباده الصالحين، نكر جزاء عباده الطالحين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي: لا يقضى عليهم بالموت، فيموتوا، ويستريحوا من العذاب ﴿وَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها لينوقوا العذاب﴾ [النساء: 56] وهذه الآية هي مثل قوله سبحانه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: 74] قرأ الجمهور (فيموتوا) بالنصب جوابا للنفي، وقرأ عيسى بن عمر، والحسن بإثبات النون. قال المازني: على العطف على يقضى. وقال ابن عطية: هي قراءة ضعيفة، ولا وجه لهذا

حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم، وابن مريويه عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة: أرايت قول الله: ﴿ثُمَّ لَوْنُوا لِكِتَابِ﴾ الآية، قالت: أما السابق، فمن مضى في حياة رسول الله ﷺ، فشهد له بالجنة. وأما المقتصد، فمن تبع آثارهم، فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم. وأما الظالم لنفسه، فمثلي، ومثلك، ومن اتبعنا، وكل في الجنة. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا، وثلث يجيئون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا، فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، ثم قرأ ﴿ثُمَّ لَوْنُوا لِكِتَابِ﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب: أنه كان إذا نزع بهذه الآية ﴿ثُمَّ لَوْنُوا لِكِتَابِ﴾ قال: ألا إن سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له. وأخرجه العقيلي، وابن مريويه، والبيهقي في البعث من وجه آخر عنه مرفوعا. وأخرجه ابن النجار من حديث انس مرفوعا. وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه، وأصحاب الاعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن عثمان بن عفان: أنه نزع بهذه الآية، ثم قال: ألا إن سابقنا أهل جهننا، ألا وإن مقتصدنا أهل حضرةنا، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله: ﴿فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية قال: أشهد على الله أنه يدخلهم جميعا الجنة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مريويه عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَوْنُوا لِكِتَابِ﴾ للذين اصطفيينا من عباننا، قال: كلهم ناج، وهي هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، عن ابن عباس في الآية قال: هي مثل التي في الواقعة أصحاب الميمنة، وأصحاب المشامة. والسابقون: صفان ناجيان، وصنف هالك. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه في قوله: ﴿فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: هو الكافر، والمقتصد أصحاب اليمين. وهذا المروي عنه رضي الله عنه لا يطبق ما هو الظاهر من النظم القرآني، ولا يوافق ما قدمنا من الروايات عن رسول الله ﷺ، وعن جماعة من الصحابة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث: أن ابن عباس سأل كعبا عن هذه الآية، فقال: نجوا كلهم، ثم قال: تحلكت منكبيهم، ورب الكعبة، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم، وقد قدمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين، فتعارضت الأقوال عنه. وأخرج الترمذي، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ تلا قول الله: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَدِهَا

جعلكم خلائف في الأرض أي: جعلكم أمة خالفة لمن قبلها. قال قتادة: خلفاً بعد خلف، وقرناً بعد قرن، والخلف: هو التالي للمتقدم، وقيل: جعلكم خلفاء في أرضه **فمن كفر** منكم هذه النعمة **فعلية كفره** أي: عليه ضرر كفره، لا يتعداه إلى غيره **ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقْتاً** أي: غضباً، وبغضاً **ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً** أي: نقصاً وهلاكاً، والمعنى: أن الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم إلا المقْت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار. ثم أمره سبحانه أن يوبخهم، ويبكتهم، فقال: **قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله** أي: أخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة، وعبتموهم من دون الله، وجملة **أروني ماذا خلقوا من الأرض** بدل اشتمال من أرايتم، والمعنى: أخبروني عن شركائكم، أروني أي شيء خلقوا من الأرض؟ وقيل: إن الفعلان، وهما أرايتم، وأروني من باب التنازع. وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين **إم لهم شرك في السموات** أي: أم لهم شركة مع الله في خلقها، أو ملكها، أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة في الإلهية **إم آتيناهم كتاباً** أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بالشركة **فهم على بينات منه** أي: على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، وحفص عن عاصم (بينة) بالتحديد، وقرأ الباقون بالجمع. قال مقاتل: يقول: هل أعطينا كفار مكة كتاباً، فهم على بيان منه بأن مع الله شريكاً. ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره، فقال: **بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً** أي: ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً كما يفعله الرؤساء، والقادة من المواعيد لاتباعهم إلا غروراً يفرونهم به، ويزينونه لهم، وهو الأباطيل التي تغر، ولا حقيقة لها، وذلك قولهم: إن هذه الآلهة تتفجع، وتقربهم إلى الله، وتشفع لهم عنده. وقيل: إن الشياطين تعد للمشركين بذلك، وقيل: المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضاً هو: أنهم ينصرون على المسلمين، ويغلبونهم، وجملة **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا** مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه، وبيعه صنعه بعد بيان ضعف الأصنام، وعدم قدرتها على شيء، وقيل: المعنى: إن شركهم يقتضي زوال السموات والأرض كقوله: **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا * أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلِذَا** [مريم: 90 - 91] **وَلَوْ أَنَّ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ** أي: ما أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِ إِمْسَاكِهِ، أو من بعد زوالهما، والجملة سائدة مسددة جواب القسم والشرط، ومعنى **إِنْ تَزُولَا**: لثلاث زوايا، أو كرامة أن تزولا. قال الزجاج: المعنى: إن الله يمنع السموات والأرض من أن تزولا، فلا حاجة إلى التقدير. قال الفراء: أي: ولو زالتا ما أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ، قال: وهو مثل قوله: **وَلَوْ أَنَّ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ، قال: بعده يكفرون** [الروم: 51] وقيل: المراد زوالهما يوم القيامة،

التضعيف بل هي كقوله: **«وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَرُونَ»** [المرسلات: 36] **«كُنْكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ»** أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كل من هو مبالغ في الكفر، وقرأ أبو عمرو (نجزي) على البناء للمفعول **«وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا»** من الصراخ، وهو: الصياح أي: وهم يستغيثون في النار رافعين أصواتهم، والصراخ: المستغيث، ومنه قول الشاعر:

كنا إذا ما اتانا صارخ فزع كان الصارخ له قرع الطنابيب
«رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ»
أي: وهم فيها يصطرخون يقولون: ربنا إلخ. قال مقاتل: هو: أنهم يتأذون: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل: من الشرك والمعاصي، فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر، والطاعة بدل المعصية، وانتصاب صالحاً على أنه صفة لمصدر محذوف: أي: عملاً صالحاً، أو صفة لموصوف محذوف: أي: نعمل شيئاً صالحاً. قيل: وزيادة قوله: **«غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ»** للتحرر على ما عمله من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة، فأجاب الله سبحانه عليهم بقوله: **«أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ»** والاستفهام للتقريع، والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، وما نكرة موصوفة: أي: أو لم نعمركم عمراً يتمكن من التذكر فيه من تذكركم. فقل: هو ستون سنة، وقيل: أربعون، وقيل: ثمانين عشرة سنة. قال بالأول جماعة من الصحابة، وبالثاني الحسن، ومسروق، وغيرهما. وبالثالث عطاء، وقاتدة. وقرأ الأعمش (ما يذكر) بالإدغام **«وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ»** قال الواحدي: قال جمهور المفسرين: هو النبي ﷺ، وقال عكرمة، وسفيان بن عيينة، ووكيعة، والحسن بن الفضل، والفراء، وابن جرير: هو: الشيب، ويكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شبتكم، وقيل: هو القرآن، وقيل: الحمى. قال الأزهرى: معناه: أن الحمى رسول الموت: أي: كأنها تشعر بقدمه، وتذذر بمجيئه، والشيب نذير أيضاً، لأنه يأتي في سن الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذي هو سن اللهو واللعب، وقيل: هو موت الأهل، والأقارب، وقيل: هو كمال العقل، وقيل: البلوغ **«فَنُذِقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ»** أي: فنذقوا عذاب جهنم، لأنكم لم تعتبروا، ولم تتعظوا، فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله، ويحول بينكم وبينه. قال مقاتل، فنذقوا العذاب، فما للمشركين من مانع يمنعهم **«إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»** قرأ الجمهور بإضافة عالم إلى غيب، وقرأ جناح بن حبيش بالتثنية، ونصب غيب. والمعنى: أنه عالم بكل شيء، ومن ذلك أعمال لا تخفى عليه منها خافية، فلوربكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال سبحانه: **«وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوَّا عَنْهُ»** [الأنعام: 28] **«إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»** تحليل لما قبله، لأنه إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى من كل شيء علم ما فوقها بالاولى، وقيل: هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى **«هُوَ الَّذِي**

قبلها، وتلكيده: أي: ألم يسيروا في الأرض، فينظروا ما أنزلنا بعداء، وثمود، ومين، وأمثالهم من العذاب لما كتبوا الرسل، فإن ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل، ولا تحول، وأثار عذابهم، وما أنزل الله بهم موجودة في مسالكهم ظاهرة في منازلهم ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ وَأَطْلُوعُ أَعْمَارِهِمْ﴾ وأكثر أموالاً وأقوى أيداناً ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما كان ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء كائن ما كان فيهما ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾ أي: كثير العلم، وكثير القدرة لا يخفى عليه شيء، ولا يصعب عليه أمر ﴿وَلَوْ يَوَلَّوْاكَ اللَّهُ النَّاسُ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب، وعملوا من الخطايا ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ﴾ أي: الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الدواب التي تدب كائنة ما كانت، أما بنو آدم فللذنوب، وأما غيرهم فللشؤم معاصي بني آدم. وقيل: المراد ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب من بني آدم والجن، وقد قال بالآل ابن مسعود، وقتادة، وقال بالثاني الكلبي. وقال ابن جريج، والأخفش، والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو: يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ لِجُلُومِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا﴾ بصيراً ﴿أَي: بمن يستحق منهم الثواب، ومن يستحق منهم العقاب، والعامل في إذا هو جاء لا بصيراً، وفي هذا تسلية للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في السنن عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ قال: ستين سنة. وأخرج الحكيم الترمذي في نوارس الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عنه: أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ وفي إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومي، وفيه مقال. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة». وأخرج عبد بن حميد، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن سهل بن سعد مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، عن علي بن أبي طالب قال: العمر الذي عيرهم الله به ستون سنة. وأخرج الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وابن المنذر، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار امتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». قال الترمذي بعد إخرجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ثم أخرجه في موضع آخر من كتاب الزهد، وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روي من غير وجه عنه.

وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسَّمٰوٰتِ، والأرض ﴿وَوَاقِسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِنِجَاءِ جَاهِهِمْ نَذِيرٌ لِّكَوْنِ أَهْدَى الْأُمَمِ﴾ المراد قريش، أقسموا قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، ومعنى ﴿مِنْ أَحْدَى الْأُمَمِ﴾ يعني: المكذبة للرسل، والنذير: النبي، والهدى: الاستقامة، وكانت العرب تتمنى: أن يكون منهم رسول كما كان الرسل في بني إسرائيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ما تمنوه، وهو: رسول الله ﷺ الذي هو أشرف ﴿نَذِيرٌ﴾ وأكرم مرسل، وكان من أنفسهم ﴿مَا زَادَهُمْ مَجِيئُهُ إِلَّا نَفُورًا﴾ منهم عنه، وتباعدوا عن إجابته ﴿لِاسْتِكْبَارٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لأجل الاستكبار، والعنق ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مكر العمل السيئ، أو مكروا المكر السيئ، والمكر هو: الحيلة، والخداع، والعمل القبيح، وأضيف إلى صفته كقوله: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، وأنت إحدى لكن أمة مؤنثة كما قال الأخفش. وقيل: المعنى: من إحدى الأمم على العموم، وقيل: من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها. قرأ الجمهور (ومكر السيئ) بخفض همزة السيئ، وقرأ الأعمش، وحزمة بسكونها وصلاً. وقد غلط كثير من النحاة هذه القراءة، ونزها الأعمش على جلالت أن يقرأ بها، قالوا: وإنما كان يقف بالسكون، فغلط من روي عنه: أنه كان يقرأ بالسكون وصلاً، وتوجيه هذه القراءة ممكن، بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف كما في قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحبب إثمأمن الله ولا وأغل
بسكون الباء من لشرب، ومثله قراءة من قرأ: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾ [الأنعام: 109] بسكون الراء، ومثل ذلك قراءة أبي عمرو ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: 54] بسكون الهمزة، وغير ذلك كثير. قال أبو علي الفارسي: هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف، وقرأ ابن مسعود (ومكرأ سيئاً) ﴿وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئَ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء. قال الكلبي: يحقق بمعنى: يحيط، والحق الإحاطة، يقال: حاق به كذا إذا أحاط به، وهذا هو الظاهر من معنى يحقق في لغة العرب، ولكن قطرب فسره هنا بينزل، وأنشد:

وقد دفعوا المنية فاستقلت نراعاً بعد ما كانت تحيق
أي: تنزل ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فهل ينتظرون إلا سنة الأولين: أي: سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي سنّها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأن يحول ما جرت به سنة الله من العذاب، فيدفعه عنهم، ويضعه على غيرهم، ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما

الزجاج: على طريقة الأنبياء الذين تقدموك، ويجوز: أن يكون في محل نصب على الحال ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر برفع (تنزيل) على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي: هو تنزيل، ويجوز: أن يكون خبراً لقوله يس إن جعل اسماً للسورة، وقرأ الباقون بالنصب على المصدرية: أي: نزل الله ذلك تنزيل العزيز الرحيم. والمعنى: أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وقيل: المعنى: إنك يا محمد تنزيل العزيز الرحيم، والأول أولى. وقيل: هو منصوب على المدح على قراءة من قرأ بالنصب، وعبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس التنزيل، وقرأ أبو حيوة، والترمذي، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة (تنزيل) بالجر على النعت للقرآن، أو البدل منه، واللام في ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم﴾ يجوز: أن تتعلق بتنزيل، أو بفعل مضمر يدل عليه من المرسلين: أي: أرسلناك لتنذر، و «ما» في ﴿ما أنذر آبائهم﴾ هي: النافية: أي: لم ينذر آبائهم، ويجوز: أن تكون موصولة، أو موصوفة: أي: لتنذر قوماً الذي أنذر آبائهم، أو لتنذرهم عذاباً أنذر آبائهم، ويجوز: أن تكون مصدرية: أي: إنذار آبائهم، وعلى القول بأنها نافية يكون المعنى: ما أنذر آبائهم برسول من أنفسهم، ويجوز: أن يراد، ما أنذر آبائهم الأقربون لتطاول مدة الفترة، وقوله: ﴿فهم غافلون﴾ متعلق بنفي الإنذار على الوجه الأول: أي: لم ينذر آبائهم، فهم بسبب ذلك غافلون، وعلى الوجه الآخرة متعلق بقوله لتنذر: أي: فهم غافلون عما أنذرنا به آبائهم، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفي، وهو الظاهر من النظم لترتيب فهم غافلون على ما قبله، واللام في قوله: ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾ هي: الموطئة للقسم أي: والله لقد حق القول على أكثرهم؛ ومعنى حق: ثبت، ووجب القول: أي: العذاب على أكثرهم: أي: أكثر أهل مكة، أو أكثر الكفار على الإطلاق، أو أكثر كفار العرب، وهم من مات على الكفر، وأصر عليه طول حياته، فيتفرع قوله: ﴿فهم لا يؤمنون﴾ على ما قبله بهذا الاعتبار: أي: لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر، والموت عليه، وقيل: المراد بالقول المذكور هنا هو قوله سبحانه: ﴿فالحق والحق أقول * لاملأ جهنم منك وممن تبعك﴾ [ص: 84 - 85] وجملة ﴿إننا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ تقرير لما قبلها مثلث حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿فهي﴾ أي: الأغلال منتبهة ﴿إلى الأنقان﴾، فلا يقدرون عند ذلك على الالتفات، ولا يتمكنون من عطفها، وهو معنى قوله: ﴿فهم مقمحون﴾ أي: رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم، قال الفراء، والزجاج: المقمح: الغاض بصره بعد رفع رأسه؛ ومعنى الإقماح: رفع الرأس، وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه، وقمح: إذا رفع رأسه، ولم يشرب الماء، قال الأزهري: أراد الله أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أنقائهم، ورؤوسهم صعداء، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها. وقال قتادة: معنى مقمحون: مغلولون والأول أولى، ومنه قول الشاعر:

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح

خَلْفَهُمْ سَكَا فَأَغْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٣١﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٢﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوَّى الرَّحْمَنُ بِالْقَيْبِ فَفَيْتَرُهُ يَعْتَدِرْ وَأَخَّرَ كَرِيمٌ ﴿١٣٣﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَّرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٣٤﴾

قوله: ﴿يس﴾ قرأ الجمهور بسكون النون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، وحفص، وقالون، وورش بإدغام النون في الواو الذي بعدها، وقرأ عيسى بن عمر بفتح النون، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم بكسرهما، فالفتح على البناء، أو على أنه مفعول فعل مقدر تقديره: اتل يس، والكسر على البناء أيضاً كجبر، وقيل: الفتح، والكسر للفرار من التقاء الساكنين. وأما وجه قراءة الجمهور بالسكون للنون، فلكونها مسرودة على نمط التعديد، فلا حظ لها من الإعراب. وقرأ هارون الأعور، ومحمد بن السميع، والكلبي بضم النون على البناء كمنذ، وحيث، وقط، وقيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف: أي: هذه يس، ومنعت من الصرف للعلمية، والتانيث.

واختلف في معنى هذه اللفظة، فقيل: معناها: يا رجل، أو يا إنسان. قال ابن الأنباري: الوقف على يس حسن لمن قال: هو افتتاح للسورة، ومن قال: معناها: يا رجل لم يقف عليه. وقال سعيد بن جببر، وغيره: هو اسم من أسماء محمد ﷺ دليلاً ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ومنه قول السعد الحميري:

يا نفس لا تمحضي بالنصح جاهدة على المودة إلّا آل ياسين
ومنه قوله: ﴿سلام على آل ياسين﴾ [الصفات: 130] أي: على آل محمد، وسياطي في الصفات ما المراد بآل ياسين. قال الواحدي: قال ابن عباس، والمفسرون: يريد يا إنسان: يعني: محمداً ﷺ وقال أبو بكر الوراق: معناها: يا سيد البشر. وقال مالك: هو: اسم من أسماء الله تعالى، روى ذلك عنه أشهب. وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصائقي: أن معناها: يا سيد. وقال كعب: هو: قسم أقسم الله به، ورجع الزجاج أن معناها: يا محمد.

واختلفوا هل هو عربي أو غير عربي؟ فقال سعيد بن جببر، وعكرمة: حبشي. وقال الكلبي: سرياني تكلمت به العرب، فصار من لغتهم. وقال الشعبي: هو بلغة طي. وقال الحسن: هو بلغة كلب. وقد تقدم في طه، وفي مفتتح سورة البقرة ما يغني عن التطويل ما هنا ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ بالجر على أنه مقسم به ابتداء. وقيل: هو معطوف على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار القسم. قال النقاش: لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لمحمد ﷺ تعظيماً له وتمجيذاً، والحكيم المحكم الذي لا يتناقض، ولا يتخالف، أو الحكيم قائله، وجواب القسم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وهذا رد على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم: ﴿لست مرسلًا﴾ [الرعد: 43] وقوله: ﴿على صراط مستقيم﴾ خبر آخر لأن: أي: إنك على صراط مستقيم، والصراط المستقيم: الطريق القيم الموصل إلى المطلوب. قال

والحسن، ويحيى بن يعمر، وأبو رجا، وعكرمة بالعين المهملة من العشاء، وهو: ضعف البصر. ومنه ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن﴾ [الزخرف: 36] ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون﴾ أي: إنذارك إياهم، وعلمه سواء. قال الزجاج: أي: من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار، إنما ينتفع الإنذار من ذكر في قوله: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي: اتبع القرآن، وخشي الله في الدنيا، وجملة «لا يؤمنون» مستأنفة مبينة لما قبلها من الاستواء، أو في محل نصب على الحال، أو بدل، وبالغيب في محل نصب على الحال من الفاعل، أو المفعول ﴿فبشره بمغفرة ولجر كريم﴾ أي: بشر هذا الذي اتبع الذكر، وخشي الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة، وأجر كريم: أي: حسن، وهو: الجنة. ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى، فقال: ﴿إننا نحن نحيي الموتى﴾ أي: نبعثهم بعد الموت. وقال الحسن، والضحاك: أي: نحييهم بالإيمان بعد الجهل، والأول أولى. ثم توعدهم بكتب آثارهم، فقال: ﴿ونكتب ما قدموا﴾ أي: أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿وآثارهم﴾ أي: ما أبقوه من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت: كمن سنَّ سنة حسنة، أو نحو ذلك، أو السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها: كمن سنَّ سنة سيئة. قال مجاهد، وابن زيد: ونظيره قوله: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ [الانفطار: 5] وقوله: ﴿بيننا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [القيامة: 13] وقيل: المراد بالآية آثار المشائين إلى المساجد، وبه قال جماعة من الصحابة، والتابعين. قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية؛ لأنها نزلت في ذلك. ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير، والشر، ومن الخير تعليم العلم، وتصنيفه، والوقوف على القرب، وعمارة المساجد، والقناطر. ومن الشر ابتداء المظالم، وأحداث ما يضر بالناس، ويقتدي به أهل الجور، ويعملون عليه من مكس، أو غيره، ولهذا قال سبحانه: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ أي: وكل شيء من أعمال العباد، وغيرها كائنًا ما كان في إمام مبين: أي: كتاب مقتدى به موضح لكل شيء. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ، وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال. قرأ الجمهور (ونكتب) على البناء للفاعل. وقرأ زَرَّ، ومسروق على البناء للمفعول. وقرأ الجمهور (كل شيء أحصيناه) بنصب كل على الاشتغال. وقرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، وابن عباس في قوله: ﴿يس﴾ قالوا: يا محمد. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿يس﴾ قال: يا إنسان. وأخرج عبد بن حميد، عن الحسن، والضحاك، وعكرمة مثله. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد، فيجهر بالقراءة، حتى

قال الزجاج: قيل: للكانونين شهرا قماح، لأن الإبل إذا وردت الماء رفعت رءوسها لشدة البرد، وإنشد قول أبي زيد الهذلي:

فتى ما ابن الأغز إذا استوينا وجب الزاد في شهري قماح
قال أبو عبيدة: قماح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض، ولم يشرب. وقال أبو عبيدة أيضاً: هو مثل ضربه الله لهم في امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول، كما يقال: فلان حمار: أي: لا يبصر الهدى، وكما قال الشاعر:

لهم عن الرشدا أغلال وأقياد

وقال الفراء: هذا ضرب مثل: أي: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله، وهو كقوله: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ [الإسراء: 29] وبه قال الضحاك. وقيل: الآية إشارة إلى ما يفعل قوم في النار من وضع الأغلال في أعناقهم كما قال تعالى: ﴿إن الأغلال في أعناقهم﴾ [غافر: 71] وقرأ ابن عباس (إننا جعلنا في إيمانهم أغلالاً) قال الزجاج: أي: في أيديهم. قال النحاس: وهذه القراءة تفسير، ولا يقرأ بما خالف المصحف. قال: وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير: إننا جعلنا في أعناقهم، وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأنقان، فلفظ هي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا، ونظيره: ﴿سراويل تقيكم الحر﴾ [النحل: 81] وتقديره: وسراويل تقيكم البرد، لأن ما وقى من الحر، وقى من البرد، لأن الغل إذا كان في العنق، فلا بد أن يكون في اليد، ولا سيما، وقد قال الله ﴿فهي إلى الأنقان﴾، فقد علم أنه يراد به الأيدي، فهم مقمحون: أي: رافعو رءوسهم لا يستطيعون الإطراق، لأن من غلت يده إلى نقه ارتفع رأسه. وروي عن ابن عباس: أنه قرأ (إننا جعلنا في أيديهم أغلالاً)، وعن ابن مسعود: أنه قرأ (إننا جعلنا في إيمانهم أغلالاً) كما روي سابقاً من قراءة ابن عباس ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾ أي: منعناهم عن الإيمان بموانع، فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان، كالمضروب أمامه، وخلفه بالأسداد، والسد بضم السين، وفتحها لغتان. ومن هذا المعنى في الآية قول الشاعر:

ومن الحوائ لا أبالك أنني ضربت علي الأرض بالأسداد
لا أمتدي فيها لوضع تلعة بين العنيد وبين أرض مراد

﴿فأغشيناهم﴾ أي: غطينا أبصارهم ﴿فهم﴾ بسبب ذلك ﴿لا يبصرون﴾ أي: لا يقدرون على إبطار شيء. قال الفراء: فالبسنا أبصارهم غشوة: أي: عمى فم لا يبصرون سبيل الهدى، وكذا قال قتادة: إن المعنى: لا يبصرون الهدى. وقال السدي: لا يبصرون محمداً حين أئتمروا على قتله. وقال الضحاك: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾ أي: الدنيا، ﴿ومن خلفهم سداً﴾ أي: الآخرة، فأغشيناهم، فهم لا يبصرون: أي: عموا عن البعث، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا. وقيل: ما بين أيديهم الآخرة، وما خلفهم الدنيا، قرأ الجمهور بالغين المعجمة: أي: غطينا أبصارهم، فهو على حذف مضاف. وقرأ ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز،

قوله: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية﴾ قد تقدّم الكلام على نظير هذا في سورة البقرة، وسورة النمل، والمعنى: اضرب لأجلهم مثلاً، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلاً: أي: مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية، فعلى الأول لما قال تعالى: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ [يس: 3] وقال: ﴿لتنذر قوماً﴾ [يس: 6] قال: قل لهم: ما أنا بدعا من الرسل، فإن قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون، وأنزروهم بما أنذرتكم، ونكروا التوحيد، وخوفوا بالقيامة، وبشروا بنعيم دار الإقامة. وعلى الثاني لما قال: إن الإنذار لا ينفع من أضله الله، وكتب عليه أنه لا يؤمن، قال النبي ﷺ: اضرب لنفسك، ولقومك مثلاً: أي: مثل لهم عند نفسك مثلاً بأصحاب القرية حيث جاءهم ثلاثة رسل، ولم يؤمنوا، وصبر الرسل على الإيذاء، وأنت جئت إليهم واحداً، وقومك أكثر من قوم الثلاثة، فإنهم جاءوا إلى أهل القرية، وأنت بعثت إلى الناس كافة. والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية: أي: انكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية، فترك المثل، وأقيم أصحاب القرية مقامه في الإعراب. وقيل: لا حاجة إلى الإضمار، بل المعنى: اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً، على أن يكون مثلاً وأصحاب القرية مفعولين لاضرب، أو يكون أصحاب القرية بدلاً من مثلاً، وقد قُمتنا الكلام على المفعول الأول من هذين المفعولين هل هو: مثلاً، أو أصحاب القرية. وقد قيل: إن ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلاً كما في قوله: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأت نوح وامرات لوط﴾ [التحريم: 10]، ويستعمل أخرى في ذكر حالة غريبة، وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيره لها كما في قوله: ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ [إبراهيم: 45] أي: بينا لكم أحوالاً بديعة غريبة: هي في الغرابة كالأمثال؛ فقلوه سبحانه هنا: ﴿واضرب لهم مثلاً﴾ يصح اعتبار الأمرين فيه. قال القرطبي: هذه القرية هي: أنطاكية في قول جميع المفسرين، وقوله: ﴿إذ جاءهم المرسلون﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية، والمرسلون: هم أصحاب عيسى بعثهم إلى أهل أنطاكية للدعاة إلى الله، فاضاف الله سبحانه الإرسال إلى نفسه في قوله: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾، لأن عيسى أرسلهم بأمر الله سبحانه، ويجوز: أن يكون الله أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء، فكذبهما في الرسالة، وقيل: ضربوهما، وسجنوهما. قيل: واسم الاثنين يوحنا، وشمعون. وقيل: أسماء الثلاثة: صابق، ومصديق، وشلوم قاله ابن جرير، وغيره. وقيل: سمعان، ويحيى، وبولس (فعرزنا بثالث) قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاي. قال الجوهري: ﴿فعرزنا﴾ يخفف، ويشدد: أي: قويناً، وشددنا، فالقراءتان على هذا بمعنى. وقيل: التخفيف بمعنى: غلبنا، وقهرنا، ومنه ﴿وعزني في الخطاب﴾ [ص: 23] والتشديد بمعنى: قويناً، وكثرتنا. قيل: وهذا الثالث ذو شمعون، وقيل: غيره ﴿فقالوا إنا إليكم مرسلون﴾ أي: قال الثلاثة جميعاً، وجاءوا بكلامهم

تأذى به ناس من قريش، حتى قاموا؛ ليأخذوه، وإذا أبيهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا هم عمي لا يبصرون، فجاءوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، قال: ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة، فدعا النبي ﷺ حتى ذهب نلك عنهم، فنزلت ﴿يس﴾ ﴿والقرآن الحكيم﴾ إلى قوله: ﴿لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ قال: فلم يؤمن من نلك نفر أحد، وفي الباب: روايات في سبب نزول نلك هذه الرواية أحسنها، وأقربها إلى الصحة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: الأغلال ما بين الصدر إلى النحن ﴿فهم مقمحون﴾ كما تقمح الدابة بالجلجاء. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾ الآية قال: كانوا يمزون على النبي ﷺ، فلا يرونه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: اجتمعت قريش بباب النبي ﷺ ينتظرون خروجه؛ ليؤنوه، فشق ذلك عليه، فاتاه جبريل بسورة يس، وأمره بالخروج عليهم، فآخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها، ويذر التراب على رؤوسهم، فما رآه حتى جاز، فجعل أحدهم يلمس رأسه، فيجد التراب، وجاء بعضهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: ننتظر محمداً، فقال: لقد رأيته داخل المسجد، قال: قوموا، فقد سحركم. وأخرج عبد الرزاق، والترمذي وحسنه، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال: كان بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فأنزل الله ﴿إنا نحن نحبي الموتى ونكتب ما قنموا وأثارهم﴾، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال: إنه يكتب أثاركم، ثم قرأ عليهم الآية فتركوا. وأخرج الفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وفي صحيح مسلم، وغيره من حديث جابر قال: «إن بني سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم، ويتحولوا قريباً من المسجد، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا بني سلمة دياركم تكتب أثاركم».

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِدَالِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن قَبْلِهِ إِلَّا نَارٌ تَلْقَوْنَ فِيهَا قَالُوا وَمَا نُنَازِلُكُمْ إِلَهُكُمُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا عَلَيْنَا لِمَا أَلْبَسْتُمُ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَطَّعُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَّو نَشَاءُ لَتَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَسْجُرَّنَّا عَنَّا إِلَهُكُمُ لَئِن لَّا نَفْعَلْ لَكُمْ كَيْدَ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّآلِهَتِي قَوْمٌ فَشَرُّوهُ لَبِئْسَ أَقْصَا الدَّيْنَةِ رَبُّكَ يَقْنُتُ لَآلِهَتُهُمُ الْوُحُوشُ قَالُوا وَمَا نُنَازِلُكُمْ إِلَهُكُمُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٠﴾ أَتَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ وَإِن كُنْتُمْ لَبَشَرٌ مِّثْلِي لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمُ عَذَابِي وَإِن تَعْلَمُونَ أَنِّي إِلَهُكُمُ أَنزَلُ إِلَهُي فِي الْوَيْدِ لَنَكُنَّ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آلِهَتِكُمْ أَزْجَارًا يَذْحَكُون ﴿٢٢﴾ قَالُوا لَنَبْنِيَ مَذْبَحًا لَّآلِهَتِنَا لَنَعْبُدَ آلِهَتَنَّا وَإِنَّا لَفِي سَكَلِكُمُ الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا نَحْنُ آلَافِكُمْ وَأَنْتُمْ بِآيَاتِنَا كَاذِبُونَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا لَنَبْنِيَ مَذْبَحًا لَّآلِهَتِنَا لَنَعْبُدَ آلِهَتَنَّا وَإِنَّا لَفِي سَكَلِكُمُ الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا لَنَبْنِيَ مَذْبَحًا لَّآلِهَتِنَا لَنَعْبُدَ آلِهَتَنَّا وَإِنَّا لَفِي سَكَلِكُمُ الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا لَنَبْنِيَ مَذْبَحًا لَّآلِهَتِنَا لَنَعْبُدَ آلِهَتَنَّا وَإِنَّا لَفِي سَكَلِكُمُ الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢٧﴾

هذا مؤكداً لسبق التكنيب للأنثين، والتكنيب لهما تكنيب للثالث، لأنهم أرسلوا جميعاً بشيء واحد، وهو: الدعاء إلى الله عز وجل، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقتر: كأنه قيل: ما قال هؤلاء الرسل بعد التعزيز لهم بثالث؟ وكذلك جملة **﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾** فإنها مستأنفة جواب سؤال مقتر: كأنه قيل: فما قال لهم أهل انطاكية، فقيل: قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلاًنا: أي: مشاركون لنا في البشرية، فليس لكم ميزة علينا تختصون بها. ثم صرحوا ببحرود إنزال الكتب السماوية، فقالوا: **﴿يُومَا نُنْزِلُ لِلرَّحْمَنِ مِنْ شَيْءٍ﴾** مما تدعونه أنتم، ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل، واتباعهم **﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾** أي: ما أنتم إلا تكذيبون في دعوى ما تدعون من ذلك، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيداً بليغاً لتكرار الإنكار من أهل انطاكية، وهو قولهم: **﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾**، فأكفوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم: ربنا يعلم، ويؤمن، وباللام **﴿يُومَا عَلَيْنَا إِلَّا لِلْبَلَاغِ لِلْمَبِينِ﴾** أي: ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور، والوضوح، وليس علينا غير ذلك، وهذه الجملة مستأنفة كالتي قبلها، وكذلك جملة **﴿قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ﴾**، فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقتر: أي: إنا نشاءمنا بكم، لم تجبوا جواباً تجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب المبني على الجهل المنبئ عن الغباوة العظيمة، وعدم وجود حجة تدفعون الرسل بها. قال مقاتل: حبس عنهم المطر ثلاث سنين. قيل: إنهم أقاموا ينزرونهم عشر سنين، ثم رجعوا إلى التجبر، والتكبر لما ضاقت صدورهم، وأعبتهم العلل، فقالوا: **﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ﴾** أي: لئن لم تتركوا هذه الدعوى، وتعرضوا عن هذه المقالة: لنرجمنكم بالحجارة **﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** أي: شديد فظيع. قال الفراء: عامة ما في القرآن من الرجم المراد به القتل. وقال قتادة: هو على باب من الرجم بالحجارة. قيل: ومعنى العذاب الأليم: القتل، وقيل: الشتم، وقيل: هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع خاص، وهذا هو الظاهر. ثم أجاب عليهم الرسل دفعا لما زعموه من التطير بهم فـ **﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾** أي: شؤمكم معكم من جهة أنفسكم، لازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا. قال الفراء: طائركم معكم: أي: رزقكم وعملكم، وبه قال قتادة. قرأ الجمهور (طائرکم) اسم فاعل: أي: ما طار لكم من الخير، والشر، وقرأ الحسن (اطيرکم) أي: تطيركم **﴿لَئِنْ نَكَرْتُمْ﴾** قرأ الجمهور من السبعة، وغيرهم بهزمة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم في التسهيل، والتحقيق، وإسخال ألف بين الهمزتين، وعدمه. وقرأ أبو جعفر، وذر بن حبیش، وابن السميع، وطلحة بهمزتين مفتوحتين. وقرأ الاعمش، وعيسى بن عمر، والحسن «أين» بفتح الهمزة، وسكون الياء على صيغة الظرف.

يونس إلى أنه يجاب الشرط، وعلى القولين، فالجواب هنا محذوف: أي: إئن نكرتم، فطائرکم معكم لدلالة ما تقدم عليه. وقرأ الماچشون (أن نكرتم) بهزمة مفتوحة: أي: لأن نكرتم. ثم أضرىوا عما يقتضيه الاستفهام، والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم، فقالوا: **﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾** أي: ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في المعصية. قال قتادة: مسرفون في تطيركم. وقال يحيى بن سلام: مسرفون في كفركم، وقال ابن بحر: السرف هنا الفساد، والإسراف في الأصل مجاوزة الحاء في مخالفة الحق **﴿يُوجِءُ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾** هو: حبيب بن موسى النجار، وكان نجاراً، وقيل: إسكافاً، وقيل: قصاراً. وقال مجاهد، ومقاتل: هو: حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام. وقال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى، وجملة **﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾** مستأنفة جواب سؤال مقتر: كأنه قيل: فماذا قال لهم عند مجيئه؟ فقيل: قال: يا قوم اتبعوا المرسلين هؤلاء الذين أرسلوا إليكم، فإنهم جاءوا بحق. ثم أكد ذلك، وكرره، فقال: **﴿اتَّبِعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ أَجْرًا﴾** أي: لا يسألونكم أجراً على ما جاءكم به من الهدى **﴿وَهُمْ مَهْتَبُونَ﴾** يعني: الرسل. ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: **﴿يُومَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾**؟ أي: أي مانع من جانبي يمنعي من عبادة الذي خلقني، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه، فقال: **﴿وَالَّذِي تَرْجَعُونَ﴾** ولم يقل: إليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد، ثم عاد إلى المساق الأول لقصد التأكيد، ومزيد الإيضاح، فقال: **﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾**، فجعل الإنكار متوجهاً إلى نفسه. وهم المرادون به: أي: لا تأخذ من دون الله آلهة، وأعيدها، وأترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الذي فطرني. ثم بين حال هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم، وبياناً لضلال عقولهم، وقصور إدراكهم، فقال: **﴿إِنْ يَرِدْنا لِرَحْمَنٍ بَصَرٌ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾** أي: شيئاً من النفع كأنما ما كان **﴿وَلَا يَنْقُذُونَ﴾** من ذلك الضر الذي أرادني الرحمن به. وهذه الجملة صفة لآلهة، أو مستأنفة لبيان حالها في عدم النفع، والدفع، وقوله: **﴿لَا تُغْنِ﴾** جواب الشرط، وقرأ طلحة بن مصرف (إن يردني) بفتح الياء، قال: **﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** أي: إنني إذا اتخذت من دونه آلهة لفي ضلال مبين واضح، وهذا تعريض بهم كما سبق، والضلال الخسران، ثم صرح بإيمانه تصريحاً لا يبقى بعده شك، فقال: **﴿إِنِّي أَمُنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾** خاطب بهذا الكلام المرسلين. قال المفسرون: أرادوا القوم قتله، فأقبل هو على المرسلين، فقال: **﴿إِنِّي أَمُنْتُ بِرَبِّكُمْ أَيُّهَا الرُّسُلُ، فَاسْمِعُونِ﴾** أي: اسمعوا إيماني، وأشهدوا لي به. وقيل: إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلياً في الدين، وتشديداً في الحق، فلما قال هذا القول، وصرح بالإيمان، وثبوا عليه، فقتلوه، وقيل:

واختلف سيبويه، ويونس إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجاب الاستفهام، وذهب

﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾^(١٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِنَّا هُمْ كَايِدُونَ ﴿١٩﴾ يَحْضَرُهُ عَلَى الْوِسَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ يَرَوْنَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْكَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ كُلَّ لَنَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الَّتِي بَنَيْنَاهَا فَعَرَجْنَا مِنْهَا جَبًا فَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ فِيهَا مِنْ الْعُلْيَا لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَفْوَاجَ كُلَّهَا وَمَا تَنْبُتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنبَأْنَاهُ لَمَّا نَزَلَ الْقُبُورُ فَادَّاهُمْ مَطْلُومُونَ ﴿٢٦﴾ وَالْقَسَسَ يُخْرِجُ لِيُشْفِقَ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٧﴾ وَالْقَصَصَ فَذَرْنَاهُ سَاكِنًا حَتَّىٰ عَادَ الْكَافِرُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ قَدْ يُورَثُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَا إِلِيلَ سَابِقِ الْوَعْدِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٩﴾

لما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب الله له، وعجل لهم النعمة، وأهلكهم بالصيحة، ومعنى ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له، أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق ﴿مَنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لإهلاكهم، وللانتقام منهم: أي: لم تحتج إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبي ﷺ يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته، وحرب أعدائه ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي: وما صَحَّ في قضائنا، وحكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جنداً لسبق قضائنا، وقرنا بأن إهلاكهم بالصيحة لا يُلْزَمُ الجنود. وقال قتادة، ومجاهد، والحسن: أي: ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء، ولا نبي بعد قتله. وروي عن الحسن أنه قال: هم الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء، والظاهر أن معنى النظم القرآني تحقيق شأنهم، وتصغير أمرهم: أي: ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيدُه قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: إِنْ كَانَتْ العقوبة، أو النعمة، أو الأخذُ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً صاح بها جبريل، فأهلكهم. قال المفسرون: أخذ جبريل بعضاتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة، فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حسَّ كالنار إذا طفئت، وهو معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامُونَ﴾ أي: قوم خامدون ميتون، شبههم بالنار إذا طفئت، لأن الحياة كالنار الساطعة، والموت كخمودها. قرأ الجمهور (صيحة) بالنصب على أن كان ناقصة، واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قُمْنَا. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، والأعرج، ومعاذ القاري برفعها على أن كان تامة: أي: وقع، وحدث، وإنكر هذه القراءة أبو حاتم، وكثير من النحويين بسبب التانيث في قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: (إِنْ كَانَ إِلَّا صَيْحَةً)، وقدر الزجاج هذه القراءة بقوله: إِنْ كَانَتْ عليهم صيحة إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً، وقدرها غيره: ما وقعت عليهم إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً. وقرأ عبد الله بن مسعود «إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً»، والزقزية

وطئوه بأرجلهم، وقيل: حرقوه، وقيل: حفروا له حفيرة، والقوه فيها، وقيل: إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة، وبه قال الحسن، وقيل: نشره بالمنشار ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي: قيل له ذلك تكريماً له بدخولها بعد قتله كما هي سنة الله في شهداء عبادِهِ. وعلى قول من قال: إنه رفع إلى السماء، ولم يقتل يكون المعنى: إنهم لما أرادوا قتله نجاه الله من القتل، وقيل: له ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فلما سخطها، وشاهدها ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴿وَالْجَمْلَةُ مُسْتَانَفَةٌ جَوَابُ سَوَالٍ مُقَدَّرٍ﴾ أي: فمأذا قال بعد أن قيل له: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فدخلها. فقيل: قال: يَا لَيْتَ قَوْمِي الْخَ، وما في ﴿بِمَا غَفَر لِي﴾ هي: المصدرية: أي بغفران ربي، وقيل: هي الموصولة: أي: بالذي غفر لي ربي، والعائد محذوف: أي: غفره لي ربي، واستضعف هذا؛ لأنه لا معنى لتمني أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة، وليس المراد إِلَّا التمني منه بأن يعلم قومه بغفران ربه له. وقال الفراء: إنها استفهامية بمعنى: للتعجب، كأنه قال: بأي شيء غفر لي ربي. قال الكسائي: لو صح هذا لقال بم من غير ألف. ويجاب عنه بأنه قد ورد في لغة العرب إثباتها، وإن كان مكسوراً بالنسبة إلى حذفها، ومنه قول الشاعر:

على ما قام يشتمني لثيم - كخنزير تمرغ في بمان

وفي معنى تمنيه قولان: أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا بحاله؛ ليعلموا حسن ماله، وحيد عاقبته إرغاماً لهم. وقيل: إنه تمنى أن يعلموا بذلك؛ ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى مثل حاله.

وقد أخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ قال: هي أنطاكية. وأخرج ابن أبي حاتم عن بريدة مثله. وأخرج ابن سعد، وابن عساكر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان بين موسى بن عمران، وبين عيسى ابن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة، ولم يكن بينهما فترة، وأنه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى، والنبي ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث في أولها ثلاثة أنبياء، وهو قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، والذي عزَّز به شمعون، وكان من الحواريين، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿طَارِكُمْ مَعَكُمْ﴾ قال: شؤمكم معكم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ قال: هو: حبيب النجار. وأخرج ابن أبي حاتم عنه من وجه آخر، قال: اسم صاحب يس: حبيب، وكان الجذام قد أسرع فيه. وأخرج الحاكم عن ابن مسعود قال: لما قال صاحب يس ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ خنفوه، ليموت، فالتفت إلى الأنبياء، فقال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ أي: فاشهدوا لي.

الاستفهام في حين ما قبله، وكذا حكمها إذا كانت خبراً، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا، فجعل أنهم بدلاً من كم، وقد ردّ ذلك المبرد أشدّ ردّاً **﴿وإن كلّ لما جميع لدينا محضرون﴾** أي: محضرون لدينا يوم القيامة للجزاء. قرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة لما بتشديدها، وقرأ الباقون بتخفيفها. قال الفراء: من شدّد جعل لما بمعنى: إلا، وإن بمعنى: ما: أي: ما كلّ إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى جميع مجموعون، فهو فعيل بمعنى: مفعول، ولدينا ظرف له، وأما على قراءة التخفيف، فإن هي المخففة من الثقيلة، وما بعدها مرفوع بالابتداء، وتنوين **﴿كل﴾** عوض عن المضاف إليه، وما بعده الخبر، واللام هي: الفارقة بين المخففة والثاقية. قال أبو عبيدة: وما على هذه القراءة زائدة، والتقدير عنده: وإن كلّ لجميع. وقيل: معنى محضرون: معذبون، والأولى أنه على معناه الحقيقي من الإحضار للحساب. ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد، والحشر مع تعداد النعم، وتذكيرها، فقال: **﴿وآية لهم الأرض الميتة﴾**، فآية خبر مقدّم، وتذكيرها للتفخيم، ولهم صفتها، أو متعلقة بآية: لأنها بمعنى: علامة، والأرض ميتة، ويجوز: أن تكون آية مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة، وما بعدها الخبر. قرأ أهل المدينة «الميتة» بالتشديد، وخففها الباقون، وجملة **﴿أحييناها﴾** مستأنفة مبيّنة لكيفية كونها آية، وقيل: هي صفة للأرض، فنبههم الله بهذا على إحياء الموتى، ونكرهم نعمه، وكمال قدرته، فإنه سبحانه أحيأ الأرض بالنبات: وأخرج منها الحبوب التي ياكلونها، ويتغذون بها، وهو معنى قوله: **﴿وأخرجنا منها حَبّاً فمنه ياكلون﴾**، وهو ما يقتاتونه من الحبوب، وتقديم منه للدلالة على أن الحبّ معظم ما يؤكل، وأكثر ما يقوم به المعاش **﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب﴾** أي: جعلنا في الأرض جنات من أنواع النخل، والعنب، وخصصهما بالذكر: لأنهما أعلى الثمار، وأنفعها للعباد **﴿وفجّرنا فيها من العيون﴾** أي: فجّرنا في الأرض بعضاً من العيون، فحفّ الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، أو المفعول العيون، ومن زيادة على رأي من جوّز زيادتها في الإثبات، وهو الأخفش، ومن وافقه، والمراد بالعيون عيون الماء. قرأ الجمهور (فجّرنا) بالتشديد، وقرأ جناح بن حبيش بالتخفيف، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى، واللام في **﴿ليأكلوا من ثمره﴾** متعلق بجعلنا، والضمير في **﴿من ثمره﴾** يعود إلى المذكور من الجنات، والنخيل، وقيل: هو راجع إلى ماء العيون؛ لأن الثمر منه، قاله الجرجاني. قرأ الجمهور (ثمره) بفتح الثاء، والميم، وقرأ حمزة، والكسائي بضمهما، وقرأ الأعشى بضم الثاء، وإسكان الميم، وقد تقدّم الكلام في هذا في الأنعام، وقوله: **﴿وما عملته أيديهم﴾** معطوف على ثمره: أي: ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير، واللبس، ونحوهما، وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن ما موصولة، وقيل: هي نافية؛ والمعنى: لم يعملوه، بل العامل له

الصيحة قال النحاس: وهذا مخالف للمصحف، وأيضاً. فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح، ومنه المثل «ثقل من الزواقي»، فكان يجب على هذا أن تكون زقوة، ويجب عنه بما ذكره الجوهري قال: الزقو والزقي مصدر، وقد زقا الصدا يزقو. زقا: أي صاح: وكل صائح زاق، والزقية الصيحة (يا حسرة على العباد) قرأ الجمهور بنصب حسرة، على أنها منادى منكر كأنه نادى الحسرة، وقال لها: هذا أوانك فاحضري. وقيل: إنها منصوبة على المصدرية، والمنادى محذوف، والتقدير: يا هؤلاء تحسروا حسرة. وقرأ قتادة، وأبي في رواية عنه بضم حسرة على النداء. قال الفراء: في توجيه هذه القراءة: إن الاختيار النصب، وإنها لو رفعت النكرة لكان صواباً، واستشهد بأشياء نقلها عن العرب منها أنه سمع من العرب: يا مهتم بأمراً لا تهتم، وأنشد:

يا دار غيرها البلى تغييرا

قال النحاس: وفي هذا إبطال باب النداء، أو أكثره. قال: وتفسير ما ذكره: يابها المهتم لا تهتم بأمراً، وتقدير البيت: يا أيتها الدار. وحقيقة الحسرة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً. قال ابن جرير: المعنى: يا حسرة من العباد على أنفسهم، وتنمّا وتلقا في استهزائهم برسول الله، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس، وعلي بن الحسين (يا حسرة العباد) على الإضافة، ورويت هذه القراءة عن أبي. وقال الضحك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل. وقيل: هي من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة. وقيل: إن القائل: يا حسرة على العباد هم: الكفار المكذّبون، والعباد الرسل، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم، وتمنوا الإيمان قاله أبو العالية، ومجاهد، وقيل: إن التحسر عليهم هو من الله عزّ وجلّ بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه. وقرأ ابن هرمز، ومسلم بن جنب، وعكرمة، وأبو الزناد (يا حسره) بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف. وقرئ (يا حسرتا) كما قرئ بذلك في سورة الزمر، وجملة **﴿وما يأتينهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾** مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل، والاستهزاء بهم، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم. ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية، فقال: **﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾** أي: ألم يعلموا كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون التي أهلكناها من الأمم الخالية، وجملة **﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾** بدل من كم أهلكنا على المعنى. قال سيبويه: أن بدل من كم، وهي: الخبرية، فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام، والمعنى: ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون. وقال الفراء: كم في موضع نصب من وجهين: أحدهما: بيروا، واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود (ألم يروا من أهلكنا)، والوجه الآخر أن تكون كم في موضع نصب بأهلكنا. قال النحاس: القول الأوّل محال، لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنها استفهام، ومحال أن يدخل

هو الله: أي: وجنوها معمولة، ولا صنع لهم فيها، وهو قول الضحاك، ومقاتل. قرأ الجمهور (عملته) وقرأ الكوفيون «عملت» بحذف الضمير، والاستفهام في قوله: **﴿فَقُلْ يَشْكُرُونَ﴾** للتقريع، والتوبيخ لهم لعدم شكرهم للنعم، وجملة **﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾** مستأنفة مسوقة لتنزيهه سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة، والتعجب من إخلالهم بذلك. وقد تقدّم الكلام مستوفى في معنى: سبحانه، وهو في تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به، والأزواج: الأنواع، والأصناف، لأن كل صنف مختلف الألوان، والطعوم، والأشكال، و**﴿مِمَّا تَنْبَغُ الْأَرْضُ﴾** بيان للأزواج، والمراد كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة، وغيرها **﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾** أي: خلق الأزواج من أنفسهم، وهم: الذكور، والإناث **﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾** من أصناف خلقه في البر، والبحر، والسماء، والأرض **﴿وَأَيُّ لَهْمَ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارُ﴾** الكلام في هذا كما قدّمنا في قوله: **﴿وَأَيُّ لَهْمَ الْأَرْضِ اللَّيْلُ لِحَيَاتِنَا﴾**، والمعنى: أن ذلك علامة دالة على توحيد الله، وقدرته، وجوب الهيئته، والنسخ: الكشط، والنزع، يقال: سلخه الله من بدنه، ثم يستعمل بمعنى: الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء، وهو استعارة بليغة **﴿فَإِذَا هُمْ مَظْلُمُونَ﴾** أي: داخلون في الظلام مفاجأة وبغتة، يقال: اظلمنا: أي: دخلنا في ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر، وكذلك أصبحنا، وأمسينا، وقيل: **﴿مِنْهُ﴾** بمعنى: عنه، والمعنى: نسلخ عنه ضياء النهار. قال الفراء: يرمى بالنهار على الليل، فيأتي بالظلمة، وذلك أن الأصل هي: الظلمة، والنار داخل عليه، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل: أي: كشط، وأزيل، فتظهر الظلمة **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾** يحتمل: أن تكون الواو للعطف على الليل، والتقدير: وأية لهم الشمس، ويجوز: أن تكون الواو ابتدائية، والشمس مبتدأ، وما بعدها الخبر، ويكون الكلام مستأنفاً مشتملاً على ذكر أية مستقلة. قيل: وفي الكلام حذف، والتقدير: تجري لمجرى مستقر لها، فتكون اللام للعلّة: أي: لأجل مستقر لها، وقيل: اللام بمعنى: إلى وقد قرئ بذلك. قيل: والمراد بالمستقر: يوم القيامة، فعنده تستقر، ولا يبقى لها حركة، وقيل: مستقرها هو أبعد ما تنتهي إليه، ولا تجاوزه، وقيل: نهاية ارتفاعها في الصيف، ونهاية هبوطها في الشتاء، وقيل: مستقرها تحت العرش، لأنها تذهب إلى هناك، فتستجد، فتستأن في الرجوع، فيؤذن لها، وهذا هو الأرجح. وقال الحسن: إن للشمس في السنة ثلثمائة وستين مطلعاً تنزل في كل يوم مطلعاً، ثم لا تنزل إلى الحول، فهي تجري في تلك المنازل، وهو: مستقرها، وقيل: غير ذلك. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، وزين العابدين، وابنه الباقر، والصالح بن الباقر (لا مستقر لها) بلا التي لنفي الجنس، وبناء مستقر على الفتح. وقرأ ابن أبي عبله: (لا مستقر) بلا التي بمعنى: ليس، ومستقر

اسمها، ولها خبرها، والإشارة بقوله: **﴿ذَلِكَ﴾** إلى جري الشمس: أي: ذلك الجري **﴿تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ﴾** أي: الغالب القاهر **﴿الْعَلِيمِ﴾**: أي: المحيط علمه بكل شيء، ويحتمل: أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقر: أي: ذلك المستقر: تقدير الله **﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾**. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو برفع القمر على الابتداء. وقرأ الباقون بالنصب على الاشتغال، وانتصاب منازل على أنه مفعول ثانٍ، لأن قدرنا بمعنى صيرنا، ويجوز: أن يكون منتصباً على الحال: أي: قدرنا سيره حال كونه ذا منازل، ويجوز: أن يكون منتصباً على الظرفية: أي: في منازل. واختار أبو عبيد النصب في القمر، قال: لأن قبله فعلاً، وهو نسلخ، وبعده فعلاً، وهو قدرنا. قال النحاس: أهل العربية جميعاً فيما علمت على خلاف ما قال. منهم الفراء قال: الرفع أعجب إليّ، قال: وإنما كان الرفع عندهم أولى، لأنه معطوف على ما قبله، ومعناه: وآية لهم القمر. قال أبو حاتم: الرفع أولى، لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير، فرفعته بالابتداء، والمنازل: هي: الثمانية والعشرون التي ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها، وهي معروفة، وسيأتي ذكرها، فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع تلك المنازل من الفلك **﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾** قال الزجاج: العرجون هو عود العنق الذي فيه الشماريخ، وهو فعلون من الانعراج، وهو الانعطاف: أي: سار في منازل، فإذا كان في آخرها بقى، واستقوس، وصغر حتى صار كالعرجون القديم، وعلى هذا فالنون زائدة. قال قتادة: وهو: العنق اليابس المنحني من النخلة. قال ثعلب: العرجون الذي يبقى في النخلة إذا قطعت، والقديم: البالي. وقال الخليل: العرجون أصل العنق، وهو أصفر عريض، يشبه به الهلال إذا انحنى، وكذا قال الجوهري: إنه أصل العنق الذي يعوج، ويقطع منه الشماريخ، فيبقى على النخل يابساً، وعرجته: ضربته بالعرجون، وعلى هذا فالنون أصلية. قرأ الجمهور (العرجون) بضم العين، والجيم: وقرأ سليمان التيمي بكسر العين، وفتح الجيم، وهما لغتان، والقديم: العتيق **﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾** الشمس مرفوعة بالابتداء، لأنه لا يجوز أن تعمل لا في المعرفة: أي: لا يصح، ولا يمكن للشمس أن تترك القمر في سرعة السير، وتنزل في المنزل الذي فيه القمر، لأن لكل واحد منهما سلطاناً على انفراد، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر، فيذهب سلطانه إلى أن يائن الله بالقيامة، فتطلع الشمس من مغربها. وقال الضحاك: معناه: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. وقال مجاهد: أي: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. وقال الحسن: إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة، وكذا قال يحيى بن سلام. وقيل: معناه: إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منزل لا يشتركان فيه. وقيل: القمر في سماء الدنيا، والشمس في

وأربعة عشر منها يمانية، أولها الشرطين، والبطين، والثريا، والديبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجيبة، والديرة، والصرفة، والعواء، والسماك، وهو آخر الشامية، والغفر، والزباناء، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، ومقدم النلو، ومؤخر النلو، والحوت، وهو آخر اليمانية، فإذا سار هذه الثمانية وعشرين منزلاً «عاد كالعرجون للقديم» كما كان في أول الشهر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «كالعرجون للقديم»: يعني: أصل العنق العتيق.

وَأَيَّةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ أَنشَأْنَا رَفْعَهُمْ فَلَا يُرْجَعُ لَّهُمْ شَيْءٌ وَلَا هُمْ يُنْذَرُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٢﴾ وَلَئِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٤﴾ وَلَئِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَتَفَكَّرُوا لَا تَكُونُوا آمَنًا أُمْلِقُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ الَمَمَةَ إِنَّ اشْرَاقَ لَيْلٍ فِي سَكْنٍ مُبِينٍ ﴿١٥﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٧﴾ فَلَا يَسْتَظِلُّونَ رَحْمَةً وَلَا إِلَهَ إِلَّا هَلِيمٌ يُجْزِيهِمْ ﴿١٨﴾ وَفُتِحَ فِي السَّمَاءِ ﴿١٩﴾ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا يَا بَنِيَّانَا مَا نَعْنَا مِنْ مَرْقَدٍ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢١﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا عُصْمُونُ ﴿٢٢﴾ قَالِيَوْمَ لَا تُفْلَكُ نَفْسٌ فَرِيًّا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما امتن به على عباده من النعم، فقال: «وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ» أي دلالة وعلامة، وقيل: معنى «آية» هنا: العبرة، وقيل: النعمة، وقيل: النذارة.

وقد اختلف في معنى «إِنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ» وإلى من يرجع الضمير، لأن الضمير الأول، وهو قوله: «وَأَيَّةٌ لَهُمْ» لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو لكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد ﷺ، فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية، والمعنى: أن الله حمل ذرية القرون الماضية في الفلك المشحون، فالضميران مختلفان. وهذا حكاية النحاس عن علي بن سليمان الأخفش. وقيل: الضميران لكفار مكة، ونحوهم. والمعنى: أن الله حمل ذرية نبيهم من أولادهم، وضعفائهم على الفلك، فامتنت الله عليهم بذلك: أي إنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. وقيل: الذرية الآباء، والأجداد، والفلك هو: سفينة نوح: أي: إن الله حمل آباء هؤلاء، وأجدادهم في سفينة نوح. قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد. قال أبو عثمان: وسمي الآباء ذرية، لأن منهم ذرة الأبناء، وقيل: الذرية النطف الكائنة في بطون النساء، وشبهه البطون بالفلك المشحون، والراجح القول الثاني، ثم

السماء الرابعة. ذكره النحاس، والمهدوي. قال النحاس: وأحسن ما قيل في معناه، وأبينه: أن سير القمر سير سريع، والشمس لا تتركه في السير. وأما قوله: «وجمع الشمس والقمر» [القيامة: 9]، فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدم بيانه في الأنعام، ويأتي في سورة القيامة أيضاً، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا، وقيام الساعة «ولا لليل سابق للنهار» أي: لا يسبقه، فيفوته، ولكن يعاقبه، ويجيء كل واحد منهما في وقته، ولا يسبق صاحبه، وقيل: المراد من الليل، والنهار آيتاهما، وهما الشمس، والقمر، فيكون عكس قوله: «ولا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر» أي: ولا القمر سابق الشمس، وإيراد السابق مكان الإدراك لسرعة سير القمر «وكل في فلك يسبحون» التنوين في كل عوض عن المضاف إليه: أي: وكل واحد منهما، والفلك: هو الجسم المستدير، أو السطح المستدير، أو الدائرة، والخلاف في كون السماء مبسوطة، أو مستديرة معروف، والسبح: السير بانسلاط، وسهولة، والجمع في قوله «يسبحون» باعتبار اختلاف مطالعتهما، فكانهما متعبدان بتعديدهما، أو المراد: الشمس، والقمر، والكواكب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: «وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ» الآية يقول: ما كابدناهم بالجومع: أي، الأمر أيسر علينا من ذلك. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ» يقول: يا ويلاً للعباد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: يا حسرة على العباد قال: الندامة على العباد الذين «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» يقول: الندامة عليهم يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «وَمَا عَمَلُهُمْ إِلَّا يَبْهِمُ» قال: وجوه معمولاً لم عمله أي يبهيم: يعني: الفرات، ودجلة، ونهر بلخ، وأشباهاها «إفلا يشكرون» لهذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: «والشمس تجري لمستقر لها» قال: مستقرها تحت العرش، وفي لفظ للبخاري، وغيره من حديثه قال: «كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: «والشمس تجري لمستقر لها»». وفي لفظ من حديثه أيضاً عند أحمد، والترمذي، والنسائي، وغيرهم قال: يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها، فتستأنن في الرجوع، فيأنزلها، وكانها قد قيل لها: اطلعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها. ثم قرأ (ذلك مستقر لها) وذلك قراءة عبد الله. وأخرج الترمذي، والنسائي، وغيرهما من قول ابن عمر نحوه. وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في قوله: «والقمر قدرناه منازل» الآية قال: هي: ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها القمر في كل شهر: أربعة عشر منها شامية،

﴿الْعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي: رجاء أن ترحموا، أو كي ترحموا، أو راجين أن ترحموا ﴿وَمَا تَتَّبِعُهُمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ما: هي النافية، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد، ومن الأولى مزيدة للتوكيد، والثانية للتبعيض: والمعنى: ما تاتيه من آية دالة على نبوة محمد ﷺ، وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وظاهره يشمل الآيات التنزيلية، والآيات التكوينية، وجملة ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ في محل نصب على الحال كما مرّ تقريره في غير موضع. والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها، وترك النظر الصحيح فيها، وهذه الآية متعلقة بقوله: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: 30] أي: إذا جاءتهم الرسل كذبوا. وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ أي: تصدّقوا على الفقراء مما أعطاكم الله، وأنعم به عليكم من الأموال، قال الحسن: يعني: اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقال مقاتل: إن المؤمنين قالوا لكفار قريش: أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا نَرَا مِنَ الْحَرِّثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136]، فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ استهزاء بهم، وتهكما بقولهم: ﴿لَنْ نَطْعَمَ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي: من لو يشاء الله رزقه، وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون: إن الرزاق هو: الله، وأنه يغني من يشاء، ويفقر من يشاء، فكانهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين، وقالوا: نحن نوافق مشيئة الله، فلا نطعم من لم يطعمه الله، وهذا غلط منهم، ومكابرة، ومجادلة بالباطل، فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضاً، وأمر الغني أن يطعم الفقير، وأبتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة. وقولهم: ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ هو وإن كان كلاماً صحيحاً في نفسه، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله، أو إنكار جواز الأمر بالانفاق مع قدرة الله كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً. وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ من تمام كلام الكفار. والمعنى: أنكم أيها المسلمون في سؤال المال، وأمرنا بإطعام الفقراء لفي ضلال في غاية الرضوخ والظهور. وقيل: هو من كلام الله سبحانه جواباً على هذه المقالة التي قالها الكفار. وقال القشيري، والماوردي: إن الآية نزلت في قوم من الزناقة. وقد كان في كفار قريش وغيرهم من سائر العرب، قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين، ومناقضة لهم. وحكى نحو هذا القرطبي عن ابن عباس ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدونا به من العذاب، والقيامة، والمصير إلى الجنة أو النار. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون، وتعدونا به. قالوا ذلك استهزاء منهم، وسخرية بالمؤمنين. ومقصودهم إنكار ذلك بالمرّة، ونفي تحقّقه، وجحد وقوعه، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله:

الأول، ثم الثالث، وأما الرابع ففي غاية البعد، والنعارة. وقد تقدّم الكلام في الذرية، واشتقاقها في سورة البقرة مستوفي، والمشحون المملوء الموقر، والفلك يطلق على الواحد والجمع كما تقدّم في يونس، وارتفاع آية على أنها خير مقدّم، والمبتدأ ﴿إِنَّا حَمَلْنَا﴾، أو العكس على ما قدّمنا. وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ﴾ يرجع إلى العباد المذكورين في قوله: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: 30]؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمِ الْأَرْضُ الْمِيْتَةُ﴾ [يس: 33]، وقال: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمِ اللَّيْلُ﴾ [يس: 37]. ثم قال: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ إِنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فكانه قال: آية للعباد إِنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتِ الْعِبَادِ، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين البعض منهم، وبالضمير الآخر البعض الآخر، وهذا قول حسن ﴿وَوَخَّلْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي: وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ما هي: الموصولة. قال مجاهد، وقتادة، وجماعة من أهل التفسير: وهي: الإبل خلقها لهم للركوب في البرّ مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تسمي الإبل سفائن البرّ، وقيل: والمعنى: وخلقنا لهم سفناً أمثال تلك السفن يركبونها، قاله الحسن، والضحاك، وأبو مالك. قال النحاس: وهذا أصح؛ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس، وقيل: هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح ﴿وَوَيْنَا نَشْرًا نَغْرَقُهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ﴾ هذا من تمام الآية التي امتنّ الله بها عليهم، ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم في لجج البحار مع قدرته على ذلك، والضمير يرجع إما إلى أصحاب الذرية، أو إلى الذرية، أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال، والصريح بمعنى: المصرخ، والمصرخ هو: المغيث: أي: فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم، وقيل: هو المنعة. ومعنى ينقذون: يخلصون، يقال: أنقذه، واستنقذه، إذا خلصه من مكروه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ استثناء مفرّغ من أعْمِ العلل: أي: لا صريخ لهم، ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا، كذا قال الكسائي، والزجاج، وغيرهما، وقيل: هو استثناء منقطع: أي: لكن لرحمة منا. وقيل هو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر ﴿وَو﴾ انتصاب ﴿مَتَاعًا﴾ على العطف على رحمة: أي: نمتعهم بالحياة الدنيا ﴿إِلَى حِينٍ﴾ وهو: الموت، قاله قتادة. وقال يحيى بن سلام: إلى القيامة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: ما بين أيديكم من الآفات، والنوازل، فإنها محيطة بكم، وما خلفكم منها. قال قتادة: معنى ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ في الآخرة. وقال سعيد بن جبیر، ومجاهد: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما مضى من الذنوب ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما بقي منها. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الآخرة، قاله سفيان. وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما ظهر لكم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما خفي عنكم، وجواب إذا محذوف، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا كما يدل عليه ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

له احضر، فهذا اوان حضورك، وهؤلاء القائلون هم: الكفار. قال ابن الانباري: الوقف على يا ويلنا وقف حسن. ثم يبتدئ الكلام بقوله: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَنًا﴾ ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، وما داخلهم من الفزع انهم كانوا نياماً. قرأ الجمهور (يا ويلنا)، وقرأ ابن ابي ليلى (يا ويلتنا) بزيادة التاء. وقرأ الجمهور (من بعثنا) بفتح ميم من على الاستفهام. وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو نهيك بكسر الميم على أنها حرف جرّ، ورويت هذه القراءة عن علي بن ابي طالب. وعلى هذه القراءة تكون من متعلقة بالويل، وقرأ الجمهور (من بعثنا). وفي قراءة أبي (من اهبنا) من هب من نومه: إذا انتبه، وأشدّ ثعلب على هذه القراءة:

وعائلة هبت بليل تلومني ولم يعتمدني قبل ذاك عذول وقيل: إنهم يقولون ذلك إذا عابوا جهنم. وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور، وجعوا هجة إلى النفخة الثانية، وجملة ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ جواب عليهم من جهة الملائكة، أو من جهة المؤمنين. وقيل: هو من كلام الكفرة يجب به بعضهم على بعض. قال بالأول الفراء، وبالثاني مجاهد. وقال قتادة: هي من قول الله سبحانه، و «ما» في قوله: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ موصولة، وعائدها محذوف والمعنى: هذا الذي وعده الرحمن، وصق فيه المرسلون قد حق عليكم، ونزل بكم، ومفعولوا الوعد والصدق محذوفان أي: وعدكموه الرحمن، وصدقكموه المرسلون، والأصل وعدكم به، وصدقكم فيه، أو وعائده الرحمن، وصدقناه المرسلون على أن هذا من قول المؤمنين، أو من قول الكفار ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما كانت تلك النفخة المذكورة إلا صيحة واحدة صاحبها إسرافيل بنفخه في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: فإذا هم مجموعون محضرون لدينا بسرعة للحساب، والعقاب ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَتَّكِلُمْ أَنْفُسُكَ مِنَ النَّفْسِ﴾ مما تستحقه أي: لا ينقص من ثواب عملها شيئاً من النقص، ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ﴿وَلَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، أو إلا بما كنتم تعملونه أي: بسببه، أو في مقابلته.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن ابي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ﴾ الآية قال: في سفينة نوح حمل فيها من كل زوجين اثنين ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: السفن التي في البحر والأنهار التي يركب الناس فيها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي صالح نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن ابي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَخَّلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح. وأخرج ابن جرير، وابن ابي حاتم عنه في الآية قال: يعني: الإبل خلقها الله كما رايت، فهي: سفن البر يحملون عليها، ويركبونها. ومثله عن الحسن، وعكرمة، وعبد الله بن شداد، ومجاهد. وأخرج

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهي: نفخة إسرافيل في الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ في ذات بينهم في البيع، والشراء، ونحوهما من أمور الدنيا، وهذه هي النفخة الأولى، وهي: نفخة الصعق.

وقد اختلف القراء في ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، فقرأ حمزة بسكون الخاء، وتخفيف الصاد من خصم يخصم، والمعنى: يخصم بعضهم بعضاً، فالمفعول محذوف. وقرأ أبو عمرو، وقالون بإخفاء فتحة الخاء، وتشديد الصاد. وقرأ نافع، وابن كثير، وهشام كذلك إلا أنهم أخلصوا فتحة الخاء، وقرأ الباقون بكسر الخاء، وتشديد الصاد. والأصل في القراءات الثلاث يَخِصِّمُونَ، فادغمت التاء في الصاد، فنافع، وابن كثير، وهشام نقلوا فتحة التاء إلى الساكن قبلها نقلاً كاملاً، وأبو عمرو، وقالون اختلفوا حركتها تنبيهاً على أن الخاء أصلها السكون، والباقيون حذفوا حركتها، فالتقى ساكنان، فكسروا أولهما. وروي عن أبي عمرو، وقالون: أنهما قرءا بتسكين الخاء، وتشديد الصاد، وهي قراءة مشكلة لاجتماع ساكنين فيها. وقرأ أبي (يَخِصِّمُونَ) على ما هو الأصل ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ قَوْصِيَةً﴾ أي: لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له، وما عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة، والإقلاع عن المعاصي، بل يموتون في أسواقهم، ومواقعهم ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى منازلهم التي ماتوا خارجين عنها، وقيل: المعنى: لا يرجعون إلى أهلهم قولاً، وهذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى. ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وهي: النفخة التي يبعثون بها من قبورهم، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ أي: يسرعون، وبين النفختين أربعون سنة. وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي حيث قال: ﴿وَنُفِخَ﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان، وجعلوا هذه الآية مثلاً له، والصور بإسكان الواو: هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل كما وردت بذلك السنة، وإطلاق هذا الاسم على القرن معروف في لغة العرب، ومنه قول الشاعر:

نحن نطحنهم غداة الغورين نطحاً شديداً لا كنطح الصوريين أي: القرنين. وقد مضى هذا مستوفى في سورة الأنعام. وقال قتادة: الصور جمع صورة أي: نفخ في الصور الأرواح، والأجداث جمع جدث، وهو: القبر. وقرئ «الأجداث» بالفاء، وهي لغة، واللغة الفصيحة بالثاء المثلثة، والنسل، والنسلان: الإسراع في السير، يقال: نسل ينسل كضرب يضرب، ويقال: ينسل بالضم، ومنه قول امرئ القيس:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول الآخر:

عسلان الذيب أمسى قارنا برد الليل عليه فنسل قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَنًا﴾ أي: قالوا عند بعثهم من القبور بالنفخة: يا ويلنا: نالوا ويلهم، كأنهم قالوا

بالسماع. وقال ابن كيسان: بزيارة بعضهم بعضاً، وقيل: شغلهم كونهم ذلك اليوم في ضيافة الله. قرأ الكوفيون وابن عامر: (شغل) بضمّتين. وقرأ الباقر بن ميمون الشين، وسكون الغين: وهما لغتان كما قال الفراء. وقرأ مجاهد، وأبو السماك بفتحيتين. وقرأ يزيد النحوي، وابن هبيرة بفتح الشين، وسكون الغين. وقرأ الجمهور (فلكهون) بالرفع على أنه خبر ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر إن، وفلكهون خبر ثانٍ. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف (فلكهين) بالنصب على أنه حال، وفي شغل هو: الخبر. وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وأبو حيو، وأبو رجاء، وشيبة، وقتادة، ومجاهد (فكهون) قال الفراء: هما لغتان كالفار، والفرد، والحاذر، والحذر. وقال الكسائي، وأبو عبيدة الفاكه: نو الفاكهه مثل تامر ولابن، والفكه: المتفكه، والمتنعم. وقال قتادة: الفكهون المعجبون. وقال أبو زيد: يقال: رجل فكه: إذا كان طيب النفس ضحكاً. وقال مجاهد والضحاك كما قال قتادة. وقال السدي كما قال الكسائي **﴿هم وأزواجه في ظلّ على الأرائك متكئون﴾** هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية شغلهم، وتفكههم، وتكليفها بما يزيدهم سروراً، وبهجة من كون أزواجه معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك، فالضمير، وهو: هم مبتدأ، وأزواجه معطوف عليه، والخبر متكئون، ويجوز أن يكون هم تأكيداً للضمير في (فلكهون)، وأزواجه معطوف على ذلك الضمير، وارتفاع متكئون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وفي ظلّ متعلق به أو حال، وكذا على الأرائك، وجوز، أبو البقاء: أن يكون **﴿في ظلّ﴾** هو: الخبر، و **﴿على الأرائك﴾** مستأنف. قرأ الجمهور (في ظلّ) بكسر الظاء، وبالألف، وهو: جمع ظلّ. وقرأ ابن مسعود، وعبيد بن عمير، والأعمش، ويحيى بن ثابت، وحمرزة، والكسائي، وخلف (في ظلّ) بضم الظاء من غير ألف جمع ظلة، وعلى القراءتين، فالمراد الفرش، والسور التي تظللهم كالخيام، والحجال، والأرائك جمع أريكة، كسفائن جمع سفينة، والمراد بها السرر التي في الحجال. قال أحمد بن يحيى ثعلب: الأريكة لا يكون إلا سريراً في قبة. وقال مقاتل: إن المراد بالظلّ أكنان القصور، وجملة **﴿لهم فيها فاكهة﴾** مبنية لما يتمتعون به في الجنة من المأكّل، والمشارب، ونحوها. والمراد فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه **﴿ولهم ما يذعون﴾** ما هذه هي: الموصولة، والعائد محذوف، أو موصوفة، أو مصدرية، ويذعون مضارع أذعى. قال أبو عبيدة: يذعون يتمنون، والعرب تقول: أذع عليّ ما شئت: أي تمنّ، وفلان في خير ما يذعي أي: ما يتمنى. وقال الزجاج هو من الدعاء أي: ما يدعو أهل الجنة يأتيهم من دعوت غلامي، فيكون الافتعال بمعنى: الفعل كالاتعمال بمعنى: الحمل، والارتحال بمعنى: الرحل. وقيل: افتعل بمعنى: تفاعل أي: ما يتداعونه كقولهم: ارتموا، وتراموا. وقيل: المعنى: إن من ادّعى منهم شيئاً، فهو له، لأن الله قد

عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مرويّه عن أبي هريرة في قوله: **﴿فلا يستطيعون توصية﴾** الآية قال: تقوم الساعة، والناس في أسواقهم يتبائعون، ويذرعون الثياب، ويحلبون اللقاح، وفي حوائجهم، فلا يستطيعون توصية **﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾**، وأخرج عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر عن الزبير بن العوام قال: إن الساعة تقوم، والرجل يذرع الثوب، والرجل يحلب الناقة، ثم قرأ **﴿فلا يستطيعون توصية﴾** الآية. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿لتقوم الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبيهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقوم الساعة، وهو يلط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته، فلا يطعمه، ولتقوم الساعة، وقد رفع أكلته إلى فيه، فلا يطعمها.﴾** وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في قوله: **﴿من بعثنا من مرقنا﴾** قال: ينامون قبل البعث نومة.

إِنَّ أَحْسَبَ الْجَنَّةِ الَّذِينَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ رَأَوُا يُجْعَلُ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَسْمُوا إِلَيْهِ الْمَتَرُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعِدْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَادِمِينَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدْتُمْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَهَلَّ بِكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفْئَمْ تَكُونُوا تَقُولُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُؤَدُّونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَحُوا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنفُثُ أَرْوَاحَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْتُمُ عَلَى أَغْنِيهِمْ فَاسْتَخَفُّوا السَّيْرَ فَأَلَقُوا سَيْرَهُمْ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَائِبِهِمْ فَمَا اسْتَفْتَحُوا صَدْرًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَنَنْصِفُهُمْ نَخِيسُهُ فِي الْفَلَقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

لما ذكر الله سبحانه حال الكافرين أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين. وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم، وتكميلاً لجزعهم، وتثميماً لما نزل بهم من البلاء، وما شاهدوه من الشقاء، فإذا راوا ما أعدّه الله لهم من أنواع العذاب، وما أعدّه لأوليائه من أنواع النعيم، بلغ ذلك من قلوبهم مبلغاً عظيماً، وزاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها. والمعنى: **﴿إن أصحاب الجنة﴾** في ذلك **﴿اليوم﴾** في شغلهم بما هم فيه من اللذات التي هي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر عن الاهتمام بأمر الكفار، ومصيرهم إلى النار، وإن كانوا من قربائهم. والأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين. وقال قتادة، ومجاهد: شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى. وقال وكيع: شغلهم

طبعهم على أن لا يدعي أحد منهم شيئاً إلا وهو يحسن ويجمل به أن يدعيه، وما مبتدأ، وخبرها لهم، والجملة معطوفة على ما قبلها. وقرئ (يدعون) بالتخفيف، ومعناها واضح. قال ابن الأنباري: والوقف على يدعون وقف حسن، ثم يبتدئ ﴿سلام﴾ على معنى: لهم سلام، وقيل: إن سلام هو خبر ما أي: مسلم خالص، أو ذو سلامة. وقال الزجاج: سلام مرفوع على البذل من ما أي: ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا مني أهل الجنة، والأولى أن يحمل قوله: ﴿ولهم ما يدعون﴾ على العموم، وهذا السلام يدخل تحت دخول أولياء، ولا وجه لقصره على نوع خاص، وإن كان أشرف أنواعه تحقيقاً لمعنى العموم، ورعاية لما يقتضيه النظم القرآني. وقيل: إن سلام مرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: سلام يقال لهم ﴿قولاً﴾، وقيل: إن سلام مبتدأ، وخبره الناصب لقولاً: أي سلام يقال لهم قولاً، وقيل: خبره من رب العالمين، وقيل: التقدير: سلام عليكم هذا على قراءة الجمهور، وقرأ لبي، وابن مسعود، وعيسى (سلاماً) بالنصب إما على المصدرية، أو على الحالية بمعنى: خالصاً، والسلام: إما من التحية، أو من السلامة. وقرأ محمد بن كعب القرظي (سلم) كأنه قال: سلم لهم لا يتنازعون فيه، وانتصاب قولاً على المصدرية بفعل محذوف على معنى: قال الله لهم ذلك قولاً، أو يقوله لهم قولاً، أو يقال لهم قولاً: ﴿ومن رب رحيم﴾ أي: من جهته. قيل: يرسل الله سبحانه إليهم بالسلام. وقال مقاتل: إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من رب رحيم ﴿وامتازوا اليوم ليها المجرمون﴾ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين أي: ويقال للمجرمين: امتازوا أي: انزعزلوا، من مازة غيره، يقال: يقال: مزت الشيء من الشيء: إذا عزلته عنه، ونحيته. قال مقاتل: معناه اعتزلوا اليوم يعني: في الآخرة من الصالحين. وقال السدي: كونوا على حدة. وقال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين. وقال قتادة: عزلوا عن كل خير. وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبد الأوثان فرقة. وقال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء، فإنهم يكونون مع المجرمين. ثم وبخهم الله سبحانه، وقرعهم بقوله: ﴿لم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا للشيطان﴾، وهذا من جملة ما يقال لهم. والعهد: الوصية أي: ألم أوصيكم، وأبلغكم على السن رسلي: أن لا تعبدوا الشيطان أي: لا تطيعوه. قال الزجاج: المعنى: ألم أتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم. وقال مقاتل: يعني: الذين أمروا بالاعتزال. قال الكسائي: لا للنهي، وقيل: المراد بالعهد هنا: الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم. وقيل: هو ما نصبه الله لهم من الدلائل العقلية التي في سمواته، وأرضه، وجملة ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تعليل لما قبلها من النهي عن طاعة الشيطان، وقبول وسوسته، وجملة ﴿وإن

اعبدوني﴾ عطف على أن لا تعبدوا، وأن: في الموضعين هي المفسرة للعهد الذي فيه معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما أي: لم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا بأن اعبدوني، أو ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان، وفي عبادتي ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: عبادة الله، وتوحيده، أو الإشارة إلى دين الإسلام. ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبني آدم، فقال: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ اللام هي: الموطئة للقسم، والجملة مستأنفة للتقريع والتوبيخ أي: والله لقد أضل إلخ. قرأ نافع، وعاصم (جبلاً) بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر بضم الجيم، وسكون الباء، وقرأ الباقون بضميتين مع تخفيف اللام، وقرأ ابن أبي إسحاق، والزهري، وابن هرمز بضميتين مع تشديد اللام، وكذلك قرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والنضر بن أنس، وقرأ أبو يحيى، وحمام بن سلمة، والأشهب العقيلي بكسر الجيم، وإسكان الباء، وتخفيف اللام قال النحاس: وأبينها القراءة الأولى. والدليل على ذلك أنهم قد قرءوا جميعاً (والجملة الأولين) بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام. فيكون جبلاً جمع جملة، واشتقاق الكل من جبل الله الخلق أي: خلقهم، ومعنى الآية: أن الشيطان قد أغوى خلقاً كثيراً كما قال مجاهد. وقال قتادة: جموعاً كثيرة، وقال الكلبي: أمماً كثيرة. قال الثعلبي: والقراءات كلها بمعنى: الخلق، وقرئ (جبلاً) بالجيم، والياء التحتية. قال الضحاك: الجيل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصى إلا الله عز وجل، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب، والهمزة في قوله: ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ للتقريع، والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام كما تقدم في نظائره أي: اتشاهدون آثار العقوبات، أفلم تكونوا تعقلون، أو أفلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم، أو أفلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً. قرأ الجمهور (أفلم تكونوا تعقلون) بالخطاب. وقرأ طلحة، وعيسى بالغيبة ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ أي: ويقال لهم عند أن يدنوا من النار: هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على السنة الرسل، والقائل لهم الملائكة، ثم يقولون لهم: ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي: قاسوا حرها اليوم، وادخلوها، وذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون أي: بسبب كفركم بالله في الدنيا، وطاعتكم للشيطان، وعبادتكم للأوثان، وهذا الأمر أمر تنكيل، وإمانة كقوله: ﴿ئنك أنت العزيز الكريم﴾ [الدخان: 49] ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ اليوم ظرف لما بعده، وقرئ يختم على البناء للمفعول، والنائب الجار والمجرور بعده. قال المفسرون: إنهم ينكرون الشرك، وتكذيب الرسل كما في قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: 23]، فيختم الله على أفواههم ختماً لا يقدرين معه على الكلام، وفي هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيدان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم، ثم قال: ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ أي: تكلمت

يمضي مضياً: إذا ذهب في الأرض، ورجع يرجع رجوعاً: إذا عاد من حيث جاء ﴿ومن نعمة ننكسه في الخلق﴾ قرأ الجمهور (ننكسه) بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الكاف مخففة. وقرأ عاصم، وحمة بضم النون الأولى، وفتح الثانية، وكسر الكاف مشددة. والمعنى: من نطل عمره غير خلقه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً من القوة والطراوة. قال الزجاج: المعنى: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة الضعف، وبذل الشباب الهرم، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ [التين: 5]، ومعنى ﴿أفلا تعقلون﴾: أفلا تعلمون يعقلكم أن من قدر على ذلك قدر على البعث، والتشور. قرأ الجمهور (يعقلون) بالتحية. وقرأ نافع، وابن نكوان بالفوقية على الخطاب. ولما قال كفار مكة: إن القرآن شعر، وإن محمداً شاعر رد الله عليهم بقوله: ﴿وما علمناه الشعر﴾، والمعنى: نفى كون القرآن شعراً، ثم نفى أن يكون النبي شاعراً، فقال: ﴿وما ينبغي له﴾ أي: لا يصح له الشعر، ولا يتأتى منه، ولا يسهل عليه لو طلبه، وأراد أن يقول، بل كان ﷺ إذا أراد أن ينشد بيتاً قد قاله شاعر متمثلاً به كسر وزنه، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد المشهور، وهو قوله:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود
قال: ويأتيك من لم تزوده بالأخبار، وأنشد مرة أخرى قول العباس بن مرداس السلمي:

أشجع نهبي ونهب العبيد
دبين عيينة والأقرع
فقال: بين الأقرع وعيينة، وأنشد أيضاً:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ وقد وقع منه ﷺ كثير من مثل هذا. قال الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتى منه أهـ. ووجه عدم تعليمه الشعر، وعدم قدرته عليه. التكميل للحجة، والبعض للشبهة، كما جعله الله أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأما ما روي عنه من قوله ﷺ:

هل أنت إلا أصبع دमित وفي سبيل الله مألقيت
وقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
ونحو ذلك، فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتي ذلك في بعض آيات القرآن، وليس بشعر، ولا مراد به الشعر، بل اتفق ذلك اتفاقاً كما يقع في كثير من كلام الناس، فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره معتبر لكان على وزن الشعر، ولا يعنونه شعراً، وذلك كقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: 92] وقوله: ﴿وجفان

أبديهم بما كانوا يفعلونه، وشهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون. قرأ الجمهور (تكلمنا وتشهد)، وقرأ طلحة بن مصرف (ولتكلمنا وتشهد) بلام كي. وقيل: سبب الختم على أقواهم ليعرفهم أهل الموقف. وقيل: ختم على أقواهم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز. وقيل: ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في معاصي الله صارت شهوداً عليهم، وجعل ما تنطق به الأيدي كلاماً، وإقراراً؛ لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي، وجعل نطق الأرجل شهادة؛ لأنها حاضرة عند كل معصية، وكلام الفاعل إقرار، وكلام الحاضر شهادة، وهذا اعتبار بالغالب، وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدي مباشرة لها ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ أي: أذهبنا أعينهم، وجعلناها بحيث لا يبين لها شئ، ولا جفن. قال الكسائي: طمس يطمس، ويطمس، والمطموس، والطميس عند أهل اللغة الذي ليس في عينه شئ كما في قوله: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ [البقرة: 20] ومفعول المشيئة محذوف أي: لو نشاء أن نطمس على أعينهم لطمسنا. قال السدي، والحسن: المعنى: لتركناهم عمياً يترددون لا يبصرون طريق الهدى، واختار هذا ابن جرير ﴿فاستبقوا الصراط﴾ معطوف على لطمسنا أي: تبادروا إلى الطريق ليجوزوه، ويمضوا فيه، والصراط منصوب بنزع الخافض أي: فاستبقوا إليه، وقال عطاء، ومقاتل، وقتادة: المعنى: لو نشاء لفقنا أعينهم، وأعميناهم عن غيهم، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم، واهتدوا، وتبادروا إلى طريق الآخرة، ومعنى ﴿فأنى يبصرون﴾ أي: كيف يبصرون الطريق، ويحسنون سلوكه، ولا أبصار لهم. وقرأ عيسى بن عمر (فاستبقوا) على صيغة الأمر أي: فيقال لهم: استبقوا، وفي هذا تهديد لهم. ثم كرر التهديد لهم، فقال: ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ المسخ تبديل الخلقة إلى حجر، أو غيره من الجماد، أو بهيمة، والمكانة المكان أي: لو شئنا لبئنا خلقهم على المكان الذي هم فيه. قيل: والمكانة أخص من المكان كالمقامة، والمقام. قال الحسن: أي: لأتعبناهم ﴿فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾ أي: لا يقدرון على ذهب، ولا مجيء. قال الحسن: فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم؛ ولا يرجعوا وراءهم، وكذلك الجماد لا يتقدم، ولا يتأخر. وقيل: المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم، وقيل: لمسخناهم في المكان الذي فعلوا فيه المعصية. وقال يحيى بن سلام: هذا كله يوم القيامة، قرأ الجمهور (على مكانتهم) بالإفراد. وقرأ الحسن، والسلمي، وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم (مكاناتهم) بالجمع. وقرأ الجمهور (مضياً) بضم الميم، وقرأ أبو حيوة (مضياً) بفتحها، وروي عنه: أنه قرأ بكسرهما، ورويت هذه القراءة عن الكسائي. قيل: والمعنى: ولا يستطيعون رجوعاً، فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة، يقال: مضى

كالجواب وقدور راسيات ﴿سبأ: 13﴾ على أنه قد قال
الأخفش إن قوله:

إننا النسبي لا كذب

ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب العين: إن ما جاء من
السجع على جزأين لا يكون شعراً. قال ابن العربي: والأظهر
من حاله أنه قال: لا كذب برفع الباء من كذب، وبخفضها من
عبد المطلب قال النحاس: قال بعضهم: إنما الرواية بالإعراب،
وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً، لأنه إذا فتح الباء من
الأول، أو ضمهما، أو نونها، وكسر الباء من الثاني خرج عن
وزن الشعر. وقيل: إن الضمير في له عائذ إلى القرآن أي:
وما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً ﴿إن هو إلا نكر﴾ أي: ما
القرآن إلا نكر من الأنكار، وموعظة من المواعظ ﴿وقرآن
مبين﴾ أي: كتاب من كتب الله السماوية مشتمل على
الأحكام الشرعية ﴿لينذر من كان حياً﴾ أي: لينذر القرآن
من كان حياً أي: قلبه صحيح يقبل الحق، ويأبى الباطل، أو
لينذر الرسول من كان حياً. قرأ الجمهور بالياء التحتية، وقرأ
نافع، وابن عامر بالفوقية، فعلى القراءة الأولى المراد القرآن،
وعلى الثانية المراد: النبي ﷺ ﴿ويحق القول على
الكافرين﴾ أي: وتجب كلمة العذاب على المصيرين على
الكفر الممتنعين من الإيمان بالله، وبرسوله.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في
قوله: ﴿في شغل فاكهون﴾ قال: في اقتضاض الأبكار.
وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وعبد الله بن أحمد
في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود
في الآية قال: شغلهم اقتضاض العذارى. وأخرج عبد بن
حميد عن عكرمة، وقتادة مثله. وأخرج عبد الله بن أحمد في
زوائد الزهد عن ابن عمر قال: إن المؤمن كلما أراد زوجة
وجدها عذراء. وقد روي نحوه مرفوعاً عن أبي سعيد،
مرفوعاً عند الطبراني في الصغير، وأبي الشيخ في العظمة.
وروي أيضاً نحوه عن أبي هريرة مرفوعاً عند الضياء
المقدسي في صفة الجنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن
عباس في قوله: ﴿في شغل فاكهون﴾ قال: ضرب الأوتار.
قال أبو حاتم: هذا لعله خطأ من المستمع، وإنما هو
اقتضاض الأبكار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي
حاتم عنه قال: ﴿فاكهون﴾ فرحون. وأخرج ابن ماجه، وابن
أبي الدنيا في صفة الجنة، والبخاري، وابن أبي حاتم، والأجزي
في الرؤية، وابن مردويه عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «بينا
أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم،
فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم
يا أهل الجنة، وذلك قول الله: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾
قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من
النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى
نوره، وبركته عليهم في ديارهم»، قال ابن كثير: في إسناده
نظر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في

الآية قال: إن الله هو يسلم عليهم. وأخرج أحمد، ومسلم،
والنسائي، والبخاري، وابن أبي الدنيا في التوبة، واللفظ له، وابن
أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن
أنس في قوله: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ قال: «كنا عند
النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، قال: أتدرون مما
ضحكت؟ قلنا: لا يا رسول الله، قال: من مخاطبة العبد ربه
يقول: يا ربِّ ألم تجرنني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إني
لا أجيز عليّ إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك
شهيداً، وبالكلام الكاتبين شهداً، فيختم على فيه. ويقال
لأركانه: انطقي، فتتلق بأعماله، ثم يخلى بينه، وبين الكلام،
فيقول: بعداً لكن، وسحقاً، فعنكن كنت أناضل». وأخرج
مسلم، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد،
وأبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى العبد ربه،
فيقول الله: قل: ألم أكرمك، وأسودك، وأزودك، وأسخر لك
الخير، والإيل، وأذرك تراس، وترتع؟ فيقول: بلى أي ربِّ،
فيقول: أفتظن أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما
نسيتني. ثم يلقي الثاني، فيقول مثل ذلك، ثم يلقي الثالث،
فيقول له مثل ذلك، فيقول: أمنت بك، وبكتابك، وبرسولك،
وصليت، وصمت، وتصنعت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول:
ألا نبعت شاهداً عليك، فيفكر في نفسه من الذي يشهد
عليّ، فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، فتتلق فخذه،
وفمه، وعظامه بعمله ما كان، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك
المناقق، وذلك الذي يسخط عليه». وأخرج ابن جرير، وابن
أبي حاتم من حديث أبي موسى نحوه. وأخرج ابن جرير،
وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات
عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو نشاء لطمسنا على
أعينهم﴾ قال: أعميناهم، وأضللناهم عن الهدى ﴿فأنى
يبصرون﴾ فكيف يهتدون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي
حاتم عنه في قوله: ﴿ولو نشاء لمسخناهم﴾ قال: أهلكناهم
﴿على مكانتهم﴾ قال: في مساكنهم. وأخرج عبد الرزاق،
وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم
قال: بلغني أنه قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل
بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه
كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره يقول:
«ويأتيك من لم تزود بالأخبار، فقال أبو بكر: ليس هكذا، فقال
رسول الله ﷺ: إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي»، وهذا
يرد ما نقلناه عن الخليل سابقاً أن الشعر كان أحب إلى
رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، وأخرج ابن أبي شيبة
وأحمد عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر
تمثل ببيت طرفه:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: كان رسول الله
ﷺ يتمثل من الأشعار:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة قالت: ما جمع

رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً:

تفعل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحقق
قالت عائشة: ولم يقل تحقّقاً لثلاث عريه، فيصير شعراً،
وإسناده هكذا: قال: أخبرنا أبو عبيد الله الحافظ يعني: الحاكم
حديثاً أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم، حديثاً أبو محمد
عبد الله بن هلال النحوي الضري، حديثاً علي بن عمرو
الأنصاري، حديثاً سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عروة،
عن عائشة، فنكره. وقد سئل المزي عن هذا الحديث فقال:
هو منكرو، ولم يعرف شيخ الحاكم، ولا الضري.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَةً يَتَذَكَّرُونَ أَلَمَّا كَانُوا لَهُمْ مَلَكُوتٌ
وَكَلَّمْنَاهُ ثَمَّ فَمِنَ رُكُوبِهِمْ وَمِنَ بَاطِلِهِمْ ۖ وَكَلَّمْنَاهُ ثَمَّ فَمِنَ مَنَاجِئِهِ
وَمَنَاجِئِهِمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ۖ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يُسَبِّحُونَ ۖ لَا يَسْجُدُونَ لَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَجِدُوا مَحْضَرُونَ ۖ فَلَا
يُحِزُّكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُحِزُّوكَ وَمَا يُعِزُّوكَ وَمَا يُعِزُّوكَ ۖ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ
أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّفُوسٍ فَإِذَا هُوَ حَسِيصٌ تُبِي ۖ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّى
خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعِزُّكَ أَلَمْ نَعْلَمْ وَهِيَ رَبِّهِمْ ۖ قُلْ يُبَيِّنُ الْآيَاتِ أَنْشَاءَهَا
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۖ الْآيَاتِ جَمَلٌ لِّكَ مِنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْرَبَتْهُ تُوقِدُونَ ۖ أَوَلَيْسَ الْآيَاتِ خَلْقَ السَّمَكِ
وَالْأَرْضِ يَتَدَوَّرُ عَنْ أَن يُخَلَّقَ مِنْهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۖ إِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ فَسَبِّحْهُنَّ الْآيَاتِ
يَكُونُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ

ثم نكر سبحانه قدرته العظيمة، وإنعامه على عبده،
وجحد الكفار لنعمه، فقال: ﴿إِذَا لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا
عَمِلُوا أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ والهمزة للإنكار، والتعجب من
حالهم، والواو للعطف على مقترن كما في نظائره، والرؤية هي
القلبية أي: أو لم يعلموا بالتفكر، والاعتبار ﴿إِنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾
أي: لأجلهم ﴿مِمَّا عَمِلُوا أَيْدِينَا﴾ أي: مما أبدعناه، وعملناه
من غير واسطة، ولا شركة، وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة
في الاختصاص، والتفرد بالخلق كما يقول الواحد منا: عملته
بيدي للدلالة على تفرد عمله، وما بمعنى: الذي، وحذف
العائد لطول الصلة، ويجوز أن تكون مصدرية، والأنعام جمع
نعم، وهي: البقر، والغنم، والإبل، وقد سبق تحقيق الكلام
فيها، ثم نكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام،
فقال: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي: ضابطون قاهرون يتصرفون
بها كيف شاءوا، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم، ولم
يقدروا على ضبطها، ويجوز أن يكون المراد: إنها صارت في
أملأهم، ومعلوبة من جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة
الملك ﴿وَنَلْلَنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع
مما يريدون منها من منافعهم حتى النج، ويقودها الصبي،
فتنقاد له، ويزجرها، فتتزعجر، والفاء في قوله: ﴿فَعَمَلُهَا
رُكُوبُهُمْ﴾ لتقريع أحكام التنذيل عليه أي: فمنها مركوبهم
الذي يركبونه كما يقال: ناقة حلوب أي: مخلوبة. قرأ الجمهور

(ركوبهم) بفتح الراء. وقرأ الأعمش، والحسن، وابن السميع
بضم الراء على المصدر. وقرأ أبي، وعائشة (ركوبتهم)،
والركوب والركوبة واحد، مثل الحلوب والحلوبية، والحمول
والحمولة. وقال أبو عبيدة: الركوبة تكون للواحدة والجماعة،
والركوب لا يكون إلا للجماعة. وزعم أبو حاتم: أنه لا يجوز،
فمنها ركوبهم بضم الراء؛ لأنه مصدر، والركوب ما يركب،
وأجاز ذلك الفراء كما يقال: فمناها أكلهم، ومنها شربهم،
ومعنى ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: ما يأكلونه من لحمها، ومن
للتبعض ﴿وَلَهُمْ فِيهَا نَافِعٌ﴾ أي: لهم في الأنعام منافع غير
الركوب لها، والأكل منها، وهي ما ينتفعون به من أصوافها،
وأوبارها، وأشعارها، وما يتخذونه من الأدهان من شحومها،
وكذلك الحمل عليها، والحراثة بها ﴿وَمِنْهَا شَرِبُوا﴾ أي: ولهم
فيها مشارب مما يحصل من البانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله
على هذه النعم، ويوحونه، ويخصونه بالعبادة. ثم نكر
سبحانه جهلهم، واغترارهم، ووضعهم كفران النعم مكان
شكرها، فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ من الأصنام،
ونحوها يعبدونها، ولا قدرة لها على شيء، ولم يحصل لهم
منها فائدة، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة ﴿لَعَلَّهُمْ
يَنْصَرُونَ﴾ أي: رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم
عذاب، أو دهمهم أمر من الأمور، وجملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ﴾ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها، وأملوه من
نفعها، وجمعهم بالواو، والنون جمع العقلاء بناء على زعم
المشركين أنهم ينفعون، ويضررون، ويعقلون ﴿وَهُمْ لَهَا جُندٌ
مُحْضَرُونَ﴾ أي: والكفار جند للأصنام محضرون أي:
يحضرونهم في الدنيا. قال الحسن: ينعون منهم، ويدفعون
عنهم، وقال قتادة: أي: يغضبون لهم في الدنيا. قال الزجاج:
ينتصرون للأصنام، وهي لا تستطيع نصرهم. وقيل: المعنى
يعبدون الآلهة، ويقومون بها، فهم لهم بمنزلة الجند، هذه
الاقوال على جعل ضميرهم للمشركين، وضمير لهم للآلهة،
وقيل: وهم أي: الآلهة لهم أي: للمشركين جند محضرون
معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وقيل: معناه
وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم؛ لأنهم
يلعنونهم، ويتبرعون منهم. وقيل: المعنى: إن الكفار يعتقدون
أن الأصنام جند لهم يحضرون يوم القيامة لإعانتهم. هذا
القول هو ما يفيد حديثه ﷺ فقال: ﴿فَلَا يَحِزُّكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذا
القول هو ما يقولوا هؤلاء آلهتنا، وإنها شركاء لله في
المعبودية، ونحو ذلك. وهو نهي للرسول ﷺ عن التأثير
بنلك. وقيل: إنه نهي لهم عن الأسباب التي تحزن رسول الله
ﷺ، وإن النهي للرسول ﷺ عن التأثير لما يصدر منهم
هو من باب: لا أرينك ها هنا فإنه يراد به نهي من خاطبه
عن الحضور لديه، لا نهي نفسه عن الرؤية، وهذا بعيد،
والأول أولى، والكلام من باب التسلية كما ذكرنا، ويجوز أن
يكون المراد بالقول المنكور هو: قولهم إنه ساحر، وشاعر،
ومجنون. وجملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾

عن باغية، كذا قال البغوي، والقريطي، وقال بالأول صاحب الكشف. والأولى أن يقال: إنه فعيل بمعنى: فاعل، أو مفعول، وهو يستوي فيه المنكر، والمؤنث كما قيل في جريح، وصبور. ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل، فقال: ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتدأها، وخلقها أول مرة من غير شيء، ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، ولا يخرج عن علمه خارج كائن ما كان. وقد استدلل أبو حنيفة، وبعض أصحاب الشافعي بهذه الآية على أن العظام مما تحل الحياة. وقال الشافعي: لا تحل الحياة، وأن المراد بقوله: ﴿مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ﴾ من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف، ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم، فنبه سبحانه على وحدانيته، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود التدي الرطب، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان، وضرب أحدهما على الآخر انقذحت منهما النار، وهما أخضران. قيل: المرخ هو: الزكر، والعفار هو: الأنثى، ويسمى الأول الزند، والثاني الزندة، وقال: الأخضر، ولم يقل: الخضراء اعتباراً باللفظ. وقرئ (الخضر) اعتباراً بالمعنى، وقد تقرّر أنه يجوز تنكير اسم الجنس، وتثنيته كما في قوله: ﴿نَحْلٌ مَنْقَعَرٌ﴾ [القمر: 20] وقوله: ﴿نَحْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: 7] فبنو تميم، ونجد ينكرونه، وأهل الحجاز يؤنثونه إلا نادراً، والموصول بدل من الموصول الأول ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ تَوَقَّدُونَ﴾ أي: تقبحون منه النار، وتوقدون بها من ذلك الشجر الأخضر. ثم نكر سبحانه ما هو أعظم خلقاً من الإنسان، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ والهمزة للإنكار، والوار للتعطف على مقدّر كظائره، ومعنى الآية: أن من قدر على خلق السموات، والأرض، وهما في غاية العظم، وكبر الأجزاء يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة، كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57] قرأ الجمهور (يقادر) بصيغة اسم الفاعل. وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وسلام بن المنذر، وأبو يعقوب الحضرمي (يقدر) بصيغة الفعل المضارع. ثم أجاب سبحانه عما أقاده الاستفهام من الإنكار التقريري بقوله: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغ في الخلق، والعلم على أكمل وجه، وأتمه. وقرأ الحسن، والجحدري، ومالك بن دينار (وهو الخالق). ثم نكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته، وتيسر العبد، والإعادة عليه، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بشيء من الأشياء أن يقول له: احدث، فيحدث من غير توقف على شيء آخر

لتعليل ما تقدم من النهي، فإن علمه سبحانه بما يظهرون، ويضمرون مستلزم المجازاة لهم بذلك. وأن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافياً، أو باهياً سرّاً، أو جهراً مظهراً، أو مضمراً. وتقديم السرّ على الجهر للمبالغة في شمول علمه لجميع المعلومات، وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَطْفَةٍ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث، وللتعجيب من جهله، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام، وردّها كما كانت، والإنسان المنكور في الآية المراد به: جنس الإنسان كما في قوله: ﴿أَوَلَا يَنْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مریم: 67]، ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين كما قيل: إنه عبد الله بن أبي، وأنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. وقال الحسن: هو: أمية بن خلف. وقال سعيد بن جبیر: هو: العاص بن وائل السهمي. وقال قتادة، ومجاهد: هو: أبي بن خلف الجمحي، فإن أحد هؤلاء، وإن كان سبباً للنزول، فمعنى الآية: خطاب الإنسان من حيث هو، لا إنسان معين، ويخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً أولياً، والنطفة هي: اليسير من الماء، وقد تقدم تحقيق معناها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مَبِينٌ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخله معها في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، وإذا هي: الفجائية أي: ألم ير الإنسان أننا خلقناه من أضعف الأشياء، فجأ خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله، وبراهينه، والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدل، ومعنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته، وطلاقة لسانه، وهكذا جملة ﴿وَضَرْبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ معطوفة على الجملة المنفية داخله في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، فهي تكميل للتعجيب من حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، وإهماله للتفكير في نفسه فضلاً عن التفكير في سائر مخلوقات الله، ويجوز أن تكون جملة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ معطوفة على خلقنا، وهذه معطوفة عليها أي: أورد في شأننا قصة غريبة كالمثل: وهي إنكاره أحياناً للعظام، ونسي خلقه أي: خلقنا إياه، وهذه الجملة معطوفة على ضرب، أو في محل نصب على الحال بتقدير قد، وجملة ﴿قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ استئناف جواباً عن سؤال مقدّر كأنه قيل: ما هذا المثل الذي ضربه؟ فقيل: قال: من يحيي العظام، وهي رميم، وهذا الاستفهام للإنكار؛ لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد، فأنكر أن الله يحيي العظام البالية حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر، يقال: رمّ العظم يرمّ رمّاً إذا بلى، فهو رميم، ورمام، وإنما قال: رميم، ولم يقل: رمية مع كونه خبيراً للمؤنث؛ لأنه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرمة والرفات. وقيل: لكونه معذولاً عن فاعلة، وكل معذول عن وجهه يكون مصروفاً عن إعرابه كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمْكُ بَغِيًّا﴾ [مریم: 28]؛ لأنه مصروف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلَتِ سَافَا ① فَأَلْزَجَرَتْ زَجْرًا ② فَأَتَيْنَتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَهَهُمْ
 رَبُّهُمْ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ⑤ إِنَّ رَبَّنَا لَعَلَمٌ
 الْغَيْبِ ⑥ إِنَّ إِلَهَهُمُ الْكَوْكَبُ ⑦ وَجَعَلْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَازِلًا ⑧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ
 الْأَعْلَى ⑨ وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑩ سُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ⑪ إِلَّا مَنْ خُفِيَ
 لِقَائُهُ فَاتَّبَعُهُ شَهَابٌ نَارٌ ⑫ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا
 خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ⑬ كُلُّ عِجْبَةٍ وَسْخَرُونَ ⑭ وَإِنَّا ذَكَّرُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ
 ⑮ وَإِنَّا رَأَوْا تَائِبًا يَسْتَخَرُونَ ⑯ وَقَالُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑰ هُوَذَا يَنْتَهِبُونَ
 زُرَّكَ وَعَظَمَاءُ لَا يَتَّقُونَ ⑱ أَوْ يَأْتُوا الْآلُونَ ⑲ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ⑳
 فَإِنَّا هِيَ زَجْرًا وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ㉑

قوله: ﴿والصافات صفا﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة، وقيل: حمزة فقط بإدغام التاء من الصافات في صاد صفا، وإدغام التاء من الزاجرات في زاي زجراً، وإدغام التاء من التاليات في ذال نكراً، وهذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما سمعها. قال النحاس: وهي بعيدة في العربية من ثلاثة جهات: الجهة الأولى أن التاء ليست من مخرج الصاد، ولا من مخرج الزاي، ولا من مخرج الدال، ولا من أخواتهن. الجهة الثانية أن التاء في كلمة، وما بعدها في كلمة أخرى. الثالثة أنك إذا ادغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة. وقال الواحدي: إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين، ألا ترى أنهما من طرف اللسان. وقرأ الباقر بن إصطخار جميع ذلك، والواو للقسم، والمقسم به الملائكة: الصافات، والزاجرات، والتاليات. والمراد بالصافات: التي تصف في السماء من الملائكة كصفوف الخلق في الدنيا، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وقتادة. وقيل: إنها تصف أجنتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد. وقال الحسن: صفاً كصفوفهم عند ربهم في صلاتهم. وقيل: المراد بالصافات هنا الطير كما في قوله: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾ [الملك: 19] والأول أولى، والصف: ترتيب الجمع على خط كالصف في الصلاة. وقيل: الصافات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفاً في الصلاة، أو في الجهاد، ذكره القشيري. والمراد بـ ﴿الزاجرات﴾ الفاعلات للزجر من الملائكة، إما لأنها تزجر السحاب كما قال السدي، وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواظبة والنصائح. وقال قتادة: المراد بالزاجرات الزواجر من القرآن، وهي كل ما ينهى، ويذجر عن القبيح، والأول أولى. وانتصاب صفاً وزجراً على المصدرية لتأكيد ما قبلهما. وقيل: المراد بالزاجرات العلماء، لأنهم هم الذين يزجرون أهل المعاصي والزجر في الأصل: الدفع بقوة، وهو هنا قوة التصويت، ومنه قول الشاعر:

زجر أبي عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم
 ومنه زجرت الإبل، والغنم: إذا أقرعتها بصوتك، والمراد بـ

اصلاً، وقد تقدم تفسير هذا في سورة النحل، وفي البقرة. قرأ الجمهور (فيكون) بالرفع على الاستئناف. وقرأ الكسائي بالنصب عطفاً على يقول. ثم نزه سبحانه نفسه عن أن يوصف بغير القدرة، فقال: ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾، والملكوت في كلام العرب لفظ مبالغة في الملك كالجبوت، والرحموت كانه قال: فسبحان الذي بيده ملكية الأشياء الكلية. قال قتادة: ملكوت كل شيء: مفاتيح كل شيء. قرأ الجمهور (ملكوت) وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف، وإبراهيم التيمي (ملكة) بزنة شجرة، وقرئ (ملكة) بزنة مفعلة، وقرئ (ملك)، والملكوت أبلغ من الجميع. وقرأ الجمهور (واله ترجعون) بالفوقية على الخطاب مبنياً للمفعول. وقرأ السلمي، وزر بن حبيش، وأصحاب ابن مسعود بالتحية على الغيبة مبنياً للمفعول أيضاً. وقرأ زيد بن علي على البناء للفاعل أي: ترجعون إليه لا إلى غيره وذلك في الدار الآخرة بعد البعث.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في معجمه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففته بيده، فقال: يا محمد أحيي الله هذا بعد ما أرى؟ قال: «نعم يبعث الله هذا، ثم يميته، ثم يحييه، ثم يبخلك نار جهنم»، فنزلت الآيات من آخر يس ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة﴾ إلى آخر السورة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه قال: جاء عبد الله بن أبي في يده عظم حائل إلى النبي ﷺ، وذكر مثل ما تقدم قال ابن كثير: وهذا منكر، لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي إنما كان بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: جاء أبي بن خلف الجمحي، وذكر نحو ما تقدم. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال: نزلت في أبي جهل، وذكر نحو ما تقدم.

تفسير سورة الصافات

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، وابن النحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت بمكة. وأخرج النسائي، والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. قال ابن كثير: تفرد به النسائي. وأخرج ابن أبي داود في فضائل القرآن، وابن النجار في تاريخه من طريق نهشل بن سعد الورداني عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس، والصافات يوم الجمعة، ثم سأل الله أعطاه سؤاله». وأخرج أبو نعيم في الدلائل، والسلفي في الطيوريات عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ لما سأل ملوك حضرموت عند قدومهم عليه أن يقرأ عليهم شيئاً مما أنزل الله قرأ (والصافات صفاً) حتى بلغ (رب المشارق والمغارب)» [أي: سورة الصافات] الحديث.

تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعني، أو بدلاً من السماء بدل اشتغال، وانتصاب حفظاً على المصدرية بإضمار فعل أي: حفظناها حفظاً، أو على أنه مفعول لأجله أي: زينها بالكواكب للحفظ، أو بالعطف على محل زينة كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ أي: متمرد خارج عن الطاعة يرمى بالكواكب، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رَجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5] وجملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم، وقال أبو حاتم: أي: لئلا يسمعون، ثم حذف إن فرفع الفعل، وكذا قال الكلبي، والملا الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكل منهم أعلى بإضافته إلى ملا الأرض، والضمير في يسمعون إلى الشياطين. وقيل: إن جملة لا يسمعون صفة لكل شيطان، وقيل: جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ قرأ الجمهور (يسمعون) بسكون السين، وتخفيف الميم. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص عنه بتشديد الميم، والسين، والأصل يتسمعون، فأدغم التاء في السين، فالقراءة الأولى تدل على انتفاء سماعهم نون استماعهم، والقراءة الثانية تدل على انتفاءهم، وفي معنى القراءة الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: 212] قال مجاهد: كانوا يتسمعون، ولكن لا يسمعون. واختار أبو عبيدة القراءة الثانية، قال: لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، وتقول: تسمعت إليه ﴿وَيَقْنَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ بحوراء أي: يرمون من كل جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع، وانتصاب بحوراً على أنه مفعول لأجله، والحدود الطرد، تقول: نحرته نحرأً، وبحوراً: طربته. قرأ الجمهور (سحوراً) بضم الدال، وقرأ علي، والسلمي، ويعقوب الحضرمي، وابن أبي عبيدة بفتحها. وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ (يقنفون) مبنيًا للفاعل، وهي قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني، وقيل: إن انتصاب بحوراً على الحال أي: مدحورين، وقيل: هو جمع داحر نحو قاعد، وقعود، فيكون حالاً أيضاً. وقيل: إنه مصدر لمقدر أي: يحرون سحوراً. وقال الفراء: إن المعنى: يقنفون بما يحرقهم أي: بحور، ثم حذفت الباء، فانتصب بنزع الخافض.

وختلف هل كان هذا الرمي لهم بالشهب قبل المبعث، أو بعده، فقال بالاول طائفة، وبالأخر آخرون. وقالت طائفة بالجمع بين القولين: إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رمياً يقطعها عن السمع، ولكن كانت ترمى وقتاً، ولا ترمى وقتاً آخر، وترمي من جانب، ولا ترمى من جانب آخر، ثم بعد المبعث رميت في كل وقت، ومن كل جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شيء من السمع إلا من اختطف الخطفة، فاتبعه شهاب ثاقب، ومعنى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: ولهم عذاب دائم لا ينقطع، والمراد به: العذاب في

﴿التاليات نذكر﴾ الملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن جبير، والسدي. وقيل: المراد جبريل وحده، فنكر بلفظ الجمع تعظيماً له مع أنه لا يخلو من اتباع له من الملائكة. وقال قتادة: المراد كل من تلا نكر الله، وكتبه. وقيل: المراد آيات القرآن، ووصفها بالتلاوة، وإن كانت متلوة كما في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [النمل: 76]، وقيل: لأن بعضها يتلو بعضاً، ويتبعه. وذكر الماوردي: أن التاليات هم الأنبياء يتلون الذكر على أُممهم، وانتصاب نكراً على أنه مفعول به، ويجوز أن يكون مصدرأً كما قبله من قوله «صفأ» وزجرأً. قيل: وهذه الفاء في قوله: «فالزاجرات، فالتاليات» إما لترتب الصفات أنفسها في الوجود، أو لترتب موصوفاتها في الفضل، وفي الكل نظر، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم أي: أقسم الله بهذه الأقسام إنه واحد ليس له شريك. وأجاز الكسائي فتح إن الواقعة في جواب القسم ﴿رَبِّ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون خبرأً ثانياً، وأن يكون بدلاً من «لواحد»، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف. قال ابن الأنباري: الوقف على لواحد وقف حسن، ثم يبتدئ رب السموات، والأرض على معنى: هو رب السموات، والأرض. قال النحاس: ويجوز أن يكون بدلاً من لواحد. والمعنى في الآية: أن وجود هذه المخلوقات على هذا الشكل البديع من أوضح الدلائل على وجود الصانع، وقدرته، وأنه رب ذلك كله أي: خالقه، ومالكه. والمراد بما بينهما: ما بين السموات والأرض من المخلوقات. والمراد بـ ﴿المشارق﴾ مشارق الشمس. قيل: إن الله سبحانه خلق للشمس كل يوم مشرقاً، ومغرباً بعدد أيام السنة، تطلع كل يوم من واحد منها، وتغرب من واحد، كذا قال ابن الأنباري، وابن عبد البر. وأما قوله في سورة الرحمن: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17] فالمراد بالمشرقين: أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال، وأقصر يوم في الأيام القصار، وكذلك في المغربين. وأما ذكر المشرق، والمغرب بالافراد، فالمراد به الجهة التي تشرق منها الشمس، والجهة التي تغرب منها، ولعله قد تقدم لنا في هذا كلام أوسع من هذا ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ المراد بالسماء الدنيا: التي تلي الأرض، من الدنق، وهو: القرب، فهي أقرب السموات إلى الأرض. قرأ الجمهور (بزينة الكواكب) بإضافة زينة إلى الكواكب. والمعنى: زينها بتزيين الكواكب أي: بحسنها. وقرأ مسروق، والأعمش، والنخعي، وحمزة بثنوين (زينة)، وخفض (الكواكب) على أنها بدل من الزينة على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر، والتقدير بعد طرح المبدل منه: إنا زيننا السماء بالكواكب، فإن الكواكب في أنفسها زينة عظيمة، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بثنوين (زينة)، ونصب (الكواكب) على أن الزينة مصدر، وفاعله محذوف، والتقدير: بأن الله زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة في أنفسها، أو

أدري من قرأ بذلك. ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق، فقال: ﴿بل عجبت﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه **﴿ويسخرون﴾** منك بسبب تعجبك، أو ويسخرون منك بما تقوله من إثبات المعاد. قرأ الجمهور بفتح التاء من (عجبت) على الخطاب للنبي ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي بضمها. ورويت هذه القراءة عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، واختارها أبو عبيد، والفراء. قال الفراء: قرأها الناس بنصب التاء، ورفعها، ورفع أحب إلي؛ لأنها عن علي، وعبد الله، وابن عباس. قال: والعجب أن أسند إلى الله، فليس معناه من الله كمعناه من العباد. قال الهروي: وقال بعض الأئمة: معنى قوله: ﴿بل عجبت﴾ بل جازيتهم على عجبهم، لأن الله أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الخلق كما قال: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ص: 4] وقالوا: ﴿إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: 5] وكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ﴿يونس: 2﴾ وقال علي بن سليمان: معنى القراءة واحد، والتقدير: قل: يا محمد بل عجبت؛ لأن النبي ﷺ مخاطب بالقرآن. قال النحاس: وهذا قول حسن، وإضمار القول كثير. وقيل: إن معنى الإخبار من الله سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره، وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين. قال الهروي: ويقال: معنى عجب ربكم أي: رضي ربكم وأثاب، فسماه عجباً، وليس بعجب في الحقيقة، فيكون معنى عجبت هنا: عظم فعلهم عندي. وحكى النقاش: أن معنى بل عجبت: بل أنكرت. قال الحسن بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه، وهو لغة العرب، وقيل: معناه: أنه بلغ في كمال قدرته، وكثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها، وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها، والواو في **﴿ويسخرون﴾** للحال أي: بل عجبت، والحال أنهم يسخرون، ويجوز أن تكون للاستئناف **﴿وإذا نكروا لا ينكرون﴾** أي: وإذا عظمو بموعظة من مواظ الله، أو مواظ رسوله لا ينكرون أي: لا يتعظون بها ولا ينتفعون بما فيها. قال سعيد بن المسيب أي: إذا نكر لهم ما حل بالمكذبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا **﴿وإذا رآوا آية﴾** أي: معجزة من معجزات رسول الله ﷺ **﴿يستسخرون﴾** أي: يبالغون في السخرية. قال قتادة: يسخرون، ويقولون: إنها سخرية، يقال: سخر، واستسخر بمعنى: مثل قر واستقر، وعجب واستعجب. والأول أولى، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى. وقيل: معنى يستسخرون: يستدعون السخري من غيرهم. وقال مجاهد: يستهزئون **﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾** أي: ما هذا الذي تأتينا به إلا سحر واضح ظاهر **﴿وإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً﴾** الاستهزام للإنكار أي: أتبعث إذا متنا، فالعامل في إذا هو ما دل عليه **﴿إننا لمبعوثون﴾**، وهو أتبعث، لأنفس مبعوثين لتوسط ما يمنع من عمله فيه، وهذا الإنكار للبعث منهم هو السبب الذي لأجله كذبوا الرسول، وما نزل عليهم، واستهزؤا بما جاءوا به من المعجزات، وقد تقدم

الآخرة غير العذاب الذي لهم في الدنيا من الرمي بالشبه. وقال مقاتل: يعني: دائماً إلى النفخة الأولى، والأول أولى. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم. وقال السدي، وأبو صالح، والكلبي: هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب، مأخوذ من الوصب، وهو: المرض، وقيل: هو الشديد، والاستثناء في قوله: **﴿إلا من خطف للخطفة﴾** هو من قوله: **﴿لا يسمعون﴾**، أو من قوله: **﴿ويقنفون﴾**. وقيل: الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله: **﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾** [الشعراء: 212] بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة، ويدور بينهم مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض. والخطف الاختلاس مسارقة، وأخذ الشيء بسرعة. قرأ الجمهور (خطف) بفتح الخاء، وكسر الطاء مخففة، وقرأ قتادة، والحسن بكسرهما، وتشديد الطاء، وهي لغة تميم بن مر، وبكر بن وائل. وقرأ عيسى بن عمر بفتح الخاء، وكسر الطاء مشددة. وقرأ ابن عباس بكسرهما مع تخفيف الطاء، وقيل: إن الاستثناء منقطع **﴿فاتبعه شهاب ثاقب﴾** أي: لحقه، وتبعه شهاب ثاقب: نجم مضيء، فيحرقه، وربما لا يحرقه فيلقي إلى إخوانه ما خطفه، وليست الشهب التي يرمج بها هي من الكواكب الثوابت بل من غير الثوابت، وأصل الثوب الإضاءة. قال الكسائي: ثبت النار تنقب ثقبة، وثقوباً: إذا انتقدت، وهذه الآية هي كقوله: **﴿إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين﴾** [الحجر: 18] **﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا﴾** أي: أسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشد خلقاً، وأقوى أجساماً، وأعظم أعضاء، أم من خلقنا من السموات، والأرض، والملائكة؟ قال الزجاج: المعنى: فاسألهم سؤال تقرير أهم أشد خلقاً أي: أحكم صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالكذب فما الذي يؤمنهم من العذاب؟ ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: **﴿إننا خلقناهم من طين لازب﴾** أي: إنا خلقناهم في ضمن خلق أبيهم آدم من طين لازب أي: لاصق، يقال: لذب يلذب لزوباً: إذا لصق. وقال قتادة، وابن زيد: اللاذب اللازق. وقال عكرمة: اللاذب اللزج. وقال سعيد بن جبير: اللاذب الجيد الذي يلصق باليد. وقال مجاهد: هو اللازم، والعرب تقول: طين لازب، ولازم تبدل الباء من الميم، واللازم الثابت كما يقال: صار الشيء ضربة لازب، ومنه قول النابغة: لا تحسبون الخير لا شرب بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب وحكى الفراء عن العرب: طين لاتب بمعنى: لازم، واللاتب الثابت. قال الأصمعي: واللاتب اللاصق مثل اللاذب. والمعنى في الآية: أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد، وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف، ولم ينكره من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم، وأعظم، وأكمل، وأتم. وقيل: اللاذب هو: المنتن قاله مجاهد، والضحاك. قرأ الجمهور (أم من خلقنا) بتشديد الميم، وهي: أم المتصلة، وقرأ الأعمش بالتخفيف، وهو استفهام ثان على قراءته. قيل: وقد قرئ لازم، ولاتب، ولا

تَكْذِبُونَ ﴿١٦﴾ لَسْتُ أَشْرُؤَ الْبَشَرِ عَلَمُوا وَأَرْجَحَهُمْ وَمَا كَانُوا بِعِدَّةٍ ﴿١٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاقْدُومُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَكِيمِ ﴿١٨﴾ وَقَوْمُهُمْ لِيَهُمُ السُّؤْلُونَ ﴿١٩﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُمْ أَقْوَمُ مُسْتَنْبِتُونَ ﴿٢١﴾ وَأَقْبَلُ بَسْمُهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ بَنَاتِ لَوْلَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٣﴾ قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٢٥﴾ فَخَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لِلْآفَقُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَغْرَيْنَا كُنُوزَهُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٢٧﴾ فَأَنبَتْنَا يَوْمَئِذٍ فِي الْأَعْدَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣١﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْفَرَسَيْنِ ﴿٣٢﴾ إِنَّكُم لَدَائِبُوا الْعَدَابِ الْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾ وَمَا تَجْحَرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٥﴾ أُولَٰئِكَ هُمْ رِزْقُ مَعْلُومٍ ﴿٣٦﴾ تَوَكَّلْهُمْ مَكْرُونٍ ﴿٣٧﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣٨﴾ عَلَىٰ مُرْرٍ مُتَقِيلٍ ﴿٣٩﴾ يَتَلَاوَعُ عَلَيْهِمْ يَكَّاسٌ مِنْ تَعِينٍ ﴿٤٠﴾ بَيْتَاءَ لَدَوٍّ لَسَّوِينَ ﴿٤١﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٢﴾ وَوَعَدُكَ قَبِيرَتِ الْأُفْرَىٰ عَيْنٍ ﴿٤٣﴾ كَأَنَّهُمْ بَشَرٌ مَقْنُونٍ ﴿٤٤﴾

قوله: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ أي: قال أولئك المبعوثون لما عابنوا البيث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا: يا ويلنا، دعوا بالويل على أنفسهم. قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، وقال الفراء: إن أصله يا وي لنا، ووي بمعنى: الحزن كأنه قال: يا حزن لنا. قال النحاس: ولو كان كما قال لكان منفصلاً، وهو في المصحف متصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً، وجملة ﴿هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم، والدين الجزاء، فكأنهم قالوا: هذا اليوم الذي نجازي فيه بأعمالنا من الكفر، والتكذيب للرسول، فأجاب عليهم الملائكة بقولهم: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْنِبُونَ﴾، ويجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض، والفصل الحكم، والقضاء؛ لأنه يفصل فيه بين المحسن، والمسيء، وقوله: ﴿لِحَشْرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ هو أمر من الله سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين، وأزواجهم، وهم: أشباههم في الشرك، والمتابعون لهم في الكفر، والمشايعة لهم في تكذيب الرسول، كذا قال قتادة، وأبو العالية. وقال الحسن، ومجاهد: المراد بأزواجهم: نساؤهم المشركات الموافقات لهم على الكفر، والظلم. وقال الضحاك: أزواجهم قرنائهم من الشياطين يحشر كل كافر مع شيطانه، وبه قال مقاتل ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ * من دون الله، من الأصنام، والشياطين، وهذا العموم المستفاد من ما الموصولة، فإنها عبارة عن المعبودين، لا عن العابدين كما قيل مخصوص، لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح، ومنهم من عبد الملائكة، فيخرجون بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أُولَٰئِكَ عَنْهَا يُعْذَرُونَ﴾ [الأنبياء: 101]، ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبييت لعابديها، وتخجيلهم، وإظهار أنها لا تنفع، ولا تضر ﴿فَاهْذِهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَكِيمِ﴾ أي: عرفوا هؤلاء

تفسير معنى هذه الآية في مواضع ﴿أَوَابَاؤُنَا الْأُولُونَ﴾ هو مبتدأ، وخبره محذوف أي: أو آبائنا الأولين مبعوثون، وقيل: معطوف على محل إن واسمها، وقيل: على الضمير في مبعوثون لوقوع الفصل بينهما، والهمزة للإنكار داخل على حرف العطف، ولهذا قرأ الجمهور بفتح الواو، وقرأ ابن عامر، وقالون بسكونها على أن، أو هي العاطفة، وليست الهمزة للاستفهام. ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبكيثاً لهم، فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: نعم تبعثون، وأنتم صاغرون ذليلون. قال الواحدي: والنخور أشد الصغار، وجملة وأنتم داخرون في محل نصب على الحال. ثم ذكر سبحانه: أن بعثهم يقع بزجرة واحدة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الضمير للقصة، أو البعثة المفهومة مما قبلها أي: إنما قصة البعث، أو البعثة زجرة واحدة أي: صيحة واحدة من إسرافيل بنفخه في الصور عند البعث: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: يبصرون ما يفعل الله بهم من العذاب. وقال الحسن: هي: النفخة الثانية، وسميت الصيحة زجرة، لأن المقصود منها الزجر، وقيل: معنى ينظرون: ينتظرون ما يفعل بهم، والأول أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود: ﴿وَالصَّافَاتُ صَفَاءً﴾ قال: الملائكة ﴿فَالزَّجْرَاتُ زَجْرًا﴾ قال: الملائكة ﴿فَالنَّالِيَاتُ ذِكْرًا﴾ قال: الملائكة. وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد، وعكرمة مثله. وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أنه كان يقرأ ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَىٰ الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ﴾ مخففة، وقال: إنهم كانوا يسمعون، ولكن لا يسمعون. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ قال: دائم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً إذا رمي الشهاب لم يخط من رمي به، وتلا ﴿فَاتَّبِعْهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿فَاتَّبِعْهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ قال: لا يقتلون بالشهاب، ولا يموتون، ولكنها تحرق وتخبث وتجرح في غير قتل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَنْ طَيَّ لَازِبٌ﴾ قال: ملتصق. وأخرج ابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿مَنْ طَيَّنَ لَازِبٌ﴾ قال: اللزج الجيد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: اللازب، والحما، والطين واحد: كان أوله تراباً، ثم صار حمأ منتناً، ثم صار طيناً لازباً، فخلق الله منه آدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: اللازب الذي يلصق بعضه إلى بعض. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود: أنه كان يقرأ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ بالرفع للتاء من عجبته.

وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا بَشَرٌ أَلْهَىٰ كُنْتُ بِهِ

حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر بل كنتم من الأصل على الكفر، فاقمتم عليه **﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾** من تسلط بقهر، وغلبة حتى ندخلكم في الإيمان، ونخرجكم من الكفر **﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ﴾** أي: متجاوزين الحد في الكفر، والضلال، وقوله: **﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَانِقُونَ﴾** من قول المتبوعين أي: وجب علينا، وعليكم، ولزمنا قول ربنا، يعنون قوله تعالى: **﴿لَا مَلَأْنَا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ وَمِمَّنْ تَبِعَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [ص: 85] **﴿إِنَّا لَذَانِقُوا الْعَذَابِ أَهِي: إِنَّا جَمِيعًا لَذَانِقُوا الْعَذَابِ الَّذِي وَرَدَ بِهِ الْوَعْدُ. قَالَ الزَّجَاجُ: أَي: إِنْ الْمَضَلَّ وَالضَّالَّ فِي النَّارِ **﴿فَاغْوَيْنَاكُمْ﴾** أَي: أَضَلَّلْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى، وَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنَ الْغَيِّ، وَزَيْنَا لَكُمْ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ **﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾** فَلَا عَتَبَ عَلَيْنَا فِي تَعَرُّضِنَا لِغَوَايَاكُمْ، لَأَنَّا أَرَدْنَا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَنَا فِي الْغَوَايَةِ؛ وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَقْدَمْنَا عَلَى إِغْوَايَاكُمْ لَأَنَّا كُنَّا مُوصُوفِينَ فِي أَنْفُسِنَا بِالْغَوَايَةِ، فَأَقْرَأُوا هَا هُنَا بِأَنَّهُمْ تَسَبَّبُوا لِغَوَايَاهُمْ، لَكِنْ لَا بِطَرِيقِ الْقَهْرِ، وَالْغَلْبَةِ، وَنَفَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِيمَا سَبَقَ أَنَّهُمْ قَهَرُوهُمْ، وَغَلَبُوهُمْ، فَقَالُوا: **﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾** ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْإِتْبَاعِ، وَالْمَتَّبِعِينَ بِقَوْلِهِ: **﴿فَلْيَنْهَمُ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾** كَمَا كَانُوا مُشْتَرِكِينَ فِي الْغَوَايَةِ **﴿إِنَّا كُنَّا نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾** أَي: إِنَّا نَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ الْفِعْلِ بِالْمُجْرِمِينَ أَي: أَهْلُ الْإِجْرَامِ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ كَمَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾** أَي: إِذَا قِيلَ لَهُمْ: قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ الْقَبُولِ، وَمَحَلَّ يَسْتَكْبِرُونَ النَّصَبَ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ كَانَ، أَوْ الرَّفْعَ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ إِنْ، وَكَانَ مُلْغَاةً **﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارْكُوا أَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾** يَعْنُونَ: النَّبِيَّ ﷺ أَي: لِقَوْلِ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ، فَرَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: **﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾** يَعْنِي: الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْوَعْدِ، وَالْوَعْدِ **﴿وَصَلَّى الْمُرْسَلِينَ﴾** أَي: صَدَّقَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالْوَعْدِ، وَإِثْبَاتِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَخَالِفْهُمْ، وَلَا جَاءَ بِشَيْءٍ لَمْ تَأْتِ بِهِ الرِّسَالُ قَبْلَهُ **﴿إِنَّكُمْ لَذَانِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾** أَي: إِنَّكُمْ بِسَبَبِ شُرُكِكُمْ، وَتَكْذِيبِكُمْ لَذَانِقُوا الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْأَلِيمِ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ (لَذَانِقُوا) بِحَذْفِ النُّونِ، وَخَفَضَ الْعَذَابِ، وَقَرَأَ أَبَانُ بْنُ ثَعْلَبٍ عَنْ عَلَصَمٍ، وَأَبُو السَّمَاكِ بِحَذْفِهَا، وَنَصَبَ الْعَذَابِ، وَأَنْشَدَ سَيَبَوِيهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ بِالْحَذْفِ لِلنُّونِ، وَالنَّصَبَ لِلْعَذَابِ قَوْلَ الشَّاعِرِ:**

فَالْفَيْتِ غَيْرِ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا ذَاكَرَاهُ إِلَّا قَلِيلًا
وَأَجَازَ سَيَبَوِيهِ أَيْضًا **﴿وَالْمَقِيمِي الصَّلَاةِ﴾** [الحج: 35]
بِنَصَبِ الصَّلَاةِ عَلَى هَذَا التَّوْجِيهِ. وَقَدْ قَرِئَ بِإِثْبَاتِ النُّونِ، وَنَصَبَ الْعَذَابِ عَلَى الْأَصْلِ. ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ: أَنَّ مَا ذَاقُوهُ مِنَ الْعَذَابِ لَيْسَ إِلَّا بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: **﴿وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** أَي: إِلَّا جَزَاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْمَعَاصِي، أَوْ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. ثُمَّ اسْتَثْنَى الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: **﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ﴾**. قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَالْكُوفَةِ

المحشورين طريق النار، وسوقهم إليها، يقال: هديته الطريق، وهديته إليها أي: بللته عليها، وفي هذا تهكم بهم **﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾** أي: أحبسوهم، يقال: وقفت الدابة أقفها وقفًا، فوقفت هي وقوفًا يتعدى، ولا يتعدى، وهذا الحبس لهم يكون قبل السوق إلى جهنم أي: وقفوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك، وجملة **﴿إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾** تعليل للجملة الأولى. قال الكلبي: أي: مسؤولون عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم. وقال الضحاك: عن خطاياهم، وقيل: عن لا إله إلا الله، وقيل: عن ظلم العباد، وقيل: هذا السؤال هو المذكور بعد هذا بقوله: **﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾** أي: أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ لَا يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا تَوْبِيخٌ لَهُمْ، وَتَقْرِيعٌ وَتَهْكُمْ بِهِمْ، وَأَصْلُهُ تَتَنَاصَرُونَ فَطَرَحْتُ إِحْدَى الثَّانِيَيْنِ تَخْفِيفًا. قَرَأَ الْجُمْهُورُ (إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ) بِكسْرِ الهمزة، وقَرَأَ عِيسَى بْنُ عَمْرِو بْنِ بَقْتَحَا. قَالَ الْكِسَائِيُّ: أَي: لَأَنَّهُمْ، أَوْ بِأَنَّهُمْ، وَقِيلَ: الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: **﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾** إِلَى قَوْلِ أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ: **﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾** [القمر: 44]، ثُمَّ أَضْرَبَ سُبْحَانَهُ عَمَّا تَقَدَّمَ إِلَى بَيَانِ الْحَالَةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا هُنَاكَ، فَقَالَ: **﴿بَلْ هُمْ لِيَوْمٍ مُسْتَسْلِمُونَ﴾** أَي: مُنْقَادُونَ لِعِزِّهِمْ عَنِ الْحِيلَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: مُسْتَسْلِمُونَ فِي عَذَابِ اللَّهِ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: مَلْقُونَ بِأَيْدِيهِمْ، يُقَالُ: اسْتَسْلَمَ لِلشَّيْءِ: إِذَا انْقَادَ لَهُ وَخَضَعَ **﴿وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾** أَي: أَقْبِلْ بَعْضُ الْكَافِرِ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قِيلَ: هُمُ الْإِتْبَاعُ، وَالرُّؤَسَاءُ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُؤَالَ تَوْبِيخٍ وَتَقْرِيعٍ وَمَخَاصِمَةٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ قَوْلُ الْكَافِرِ لِلشَّيَاطِينِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ قَوْلُ الْإِنْسِ لِلْجَنِّ، وَالْأَوَّلُ أَوَّلَى لِقَوْلِهِ: **﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَتَوَنَّنَا عَنْ الْيَمِينِ﴾** أَي: كُنْتُمْ تَتَوَنَّنَا فِي الدُّنْيَا عَنِ الْيَمِينِ أَي: مِنْ جِهَةِ الْحَقِّ، وَالْيَمِينِ وَالطَّاعَةِ، وَتَصَوَّنَا عَنْهَا. قَالَ الزَّجَاجُ: كُنْتُمْ تَتَوَنَّنَا مِنْ قَبْلِ الدِّينِ، فَتَرَوْنَا أَنَّ الدِّينَ، وَالْحَقَّ مَا تَضَلُّوْنَا بِهِ، وَالْيَمِينِ عِبَارَةٌ عَنِ الْحَقِّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ: **﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾** [الأعراف: 17] قَالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: إِنَّ الرُّؤَسَاءَ كَانُوا قَدْ حَلَفُوا لَهُؤُلَاءِ الْإِتْبَاعِ أَنْ مَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، فَوَثَّقُوا بِأَيْمَانِهِمْ؛ فَمَعْنَى **﴿تَتَوَنَّنَا عَنْ الْيَمِينِ﴾** أَي: مِنْ نَاحِيَةِ الْإِيمَانِ الَّتِي كُنْتُمْ تَحْلِفُونَهَا، فَوَثَّقْنَا بِهَا. قَالَ: وَالْمُفَسِّرُونَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: تَتَوَنَّنَا عَنْ الْيَمِينِ الَّتِي نَحْبِهَا، وَنَتَفَاعَلُ بِهَا؛ لَتَغَرُّوْنَا بِذَلِكَ عَنْ جِهَةِ النَّصْحِ، وَالْعَرَبُ تَتَفَاعَلُ بِمَا جَاءَ عَنِ الْيَمِينِ، وَتَسْمِيهِ السَّانِحِ. وَقِيلَ: الْيَمِينُ بِمَعْنَى: الْقُوَّةُ؛ أَي: تَمْنَعُونَا بِقُوَّةٍ، وَغَلْبَةٍ، وَقَهْرٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ: **﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾** [الصفافات: 93] أَي: بِالْقُوَّةِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ جَوَابُ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، وَكَذَلِكَ جُمْلَةُ **﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** فَإِنَّهَا مُسْتَأْنَفَةٌ جَوَابُ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ؛ وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ قَالَ الرُّؤَسَاءُ، أَوْ الشَّيَاطِينُ لَهُؤُلَاءِ الْقَاتِلِينَ: كُنْتُمْ تَتَوَنَّنَا عَنْ الْيَمِينِ بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَمْ نَمْنَعَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ. وَالْمَعْنَى: أَنْكُمْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ قَطُّ

اللبن له لذة لذيذة، يقال: شراب لَذٌّ، ولذيد كما يقال: نبات غَضٌّ وغضيض، ومنه قول الشاعر:

بحديثها اللذ الذي لو كلمت أسد الفلاة به أتين سراعاً
واللذيد: كل شيء مستطاب، وقيل: البيضاء هي التي لم
يعتصرها الرجال. ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما
يتصف به خمر الدنيا، فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال
عقولهم، فتذهب بها، ولا يصيبهم منها مرض، ولا صداع
﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يَنْزَفُونَ﴾ أي: يسكرون يقال: نزف الشارب،
فهو منزوف، ونزف إذا سكر، ومنه قول امرئ القيس:

وإذا هي تمشي كمشي النزي - ف يصصره بالكثيب البهر
وقال أيضاً:

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت

ومنه قول الآخر:

فلثمت فاهاً أخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
قال الفراء: العرب تقول: ليس فيها غيلة، وغائلة، وغول
سواء. وقال أبو عبيدة: الغول أن تغتال عقولهم، وأنشد قول
مطيع بن إياس:

وما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول
وقال الواحدي: الغول حقيقته الإهلاك، يقال: غاله غولاً،
واغتاله أي: أهلكه، والغول كل ما اغتالك أي: أهلكك. قرأ
الجمهور (ينزفون) بضم الياء، وفتح الزاي مبنياً للمفعول.
وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء، وكسر الزاي من أنزف
الرجل: إذا ذهب عقله من السكر فهو: نزيف، ومنزوف،
ومنزف، يقال: أحصد الزرع: إذا حان حصاده، وأطف الكرم:
إذا حان قطافه. قال الفراء: من كسر الزاي، فله معنيان، يقال:
أنزف الرجل: إذا فنيت خمره، وأنزف: إذا ذهب عقله من
السكر، وتحمل هذه القراءة على معنى: لا ينفذ شرايبهم
لزيادة الفائدة. قال النحاس: والقراءة الأولى أبين، وأصح في
المعنى، لأن معنى لا ينزفون عند جمهور المفسرين: لا
تذهب عقولهم، فنفي الله عز وجل عن خمر الجنة الأقوات
التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع، والسكر. وقال
الزجاج، وأبو علي الفارسي: معنى لا ينزفون بكسر الزاي: لا
يسكرون. قال المهدوي: لا يكون معنى ينزفون: يسكرون،
لأن قبله ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، فيكون
تكريراً، وهذا يقوّي ما قاله قتادة: إن الغول وجع البطن، وكذا
روى ابن أبي نجيع عن مجاهد. وقال الحسن: إن الغول
الصداع. وقال ابن كيسان: هو: المغص، فيكون معنى الآية:
لا فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر في
الدنيا من مغص، أو وجع بطن، أو صداع، أو عريضة، أو لغو،
أو تأثيم، ولا هم يسكرون منها. ويؤيد هذا أن أصل الغول
الفساد الذي يلحق في خفاء، يقال: اغتاله اغتيالاً: إذا أقسد
عليه أمره في خفية، ومنه الغول، والغيلة القتل خفية. وقرأ
ابن أبي إسحاق (ينزفون) بفتح الياء، وكسر الزاي، وقرأ
طلحة بن مصرف بفتح الياء وضم الزاي. ولما نكر سبحانه
صفة مشروبهم نكر عقبه صفة منكوحهم، فقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ

(المخلصين) بفتح اللام أي: الذين أخلصهم الله لطاعته،
وتوحيده. وقرأ الباقون بكسرها أي: الذين أخلصوا الله
العبادة، والتوحيد، والاستثناء إما متصل على تقدير تعميم
الخطاب في تجزؤ لجميع المكلفين. أو منقطع أي: لكن عباد
الله المخلصين لا ينزفون العذاب، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾
إلى المخلصين، وهو: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ
مَعْلُومٌ﴾ أي: لهؤلاء المخلصين رزق يرزقهم الله إياه معلوم
في حسنه، وطيبه، وعدم انقطاعه. قال قتادة: يعني: الجنة،
وقيل: معلوم الوقت، وهو أن يعطوا منه بكرة، وعشية كما
في قوله: ﴿لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعِشَاءً﴾ [مريم: 62]
وقيل: هو المذكور في قوله بعده: ﴿فَوَاكِهِ﴾ فإنه بدل من
رزق، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو فواكه، وهذا هو الظاهر.
والفواكه جمع الفاكهة، وهي: الثمار كلها رطبها، ويابسها،
وخصص الفواكه بالذكر: لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه
كذا قيل. والأولى أن يقال: إن تخصيصها بالذكر: لأنها أطيب
ما ياكلونه، والذ ما تشتهيهم أنفسهم. وقيل: إن الفواكه من
اتباع سائر الأطعمة، فذكرها يغني عن نكر غيرها، وجملة
﴿وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: ولهم من
الله عز وجل إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده، وسماع
كلامه، ولقائه في الجنة. قرأ الجمهور (مكرمون) بتخفيف
الراء. وقرأ أبو مقسم بتشديد ها، وقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ
لِّلنَّعِيمِ﴾ يجوز أن يتعلق بمكرمون، وأن يكون خبراً ثانياً،
وأن يكون حالاً، وقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ يحتمل أن يكون حالاً،
وأن يكون خبراً ثالثاً، وانتصاب ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ على الحالية
من الضمير في مكرمون، أو من الضمير في متعلق على
سُرر. قال عكرمة، ومجاهد: معنى التقابل: أنه لا ينظر
بعضهم في قفا بعض، وقيل: إنها تدور بهم الأسرة كيف
شأوا، فلا يرى بعضهم قفا بعض. قرأ الجمهور (سرد)
بضم الراء. وقرأ أبو السّمك بفتحها، وهي لغة بعض تميم.
ثم نكر سبحانه صفة أخرى لهم، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بِكَاسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة
جواباً عن سؤال مقدّر، ويجوز أن تكون في محل نصب على
الحال من ضمير متقابلين، والكأس عند أهل اللغة اسم
شامل لكل إناء فيه الشراب، فإن كان فارغاً، فليس بكأس.
وقال الضحّاك، والسّدي: كل كأس في القرآن، فهي الخمر.
قال النحاس: وحكى من يوثق به من أهل اللغة: أن العرب
تقول للقدح إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر،
فهو قدح كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم
يكن عليه طعام: لم يقل له مائدة، ومن معين متعلق بمحذوف
هو: صفة لكأس. قال الزجاج: بكأس من معين أي: من خمر
تجري كما تجري العين على وجه الأرض. والمعين الماء
الجاري، وقوله: ﴿بِضَاءٍ لِّذَّةٍ لِلْمُشَارِبِينَ﴾ صفتان لكأس.
قال الزجاج: أي: ذات لذة، فحذف المضاف، ويجوز أن يكون
الوصف بالمصدر لقصد المبالغة في كونها لذة، فلا يحتاج
إلى تقدير المضاف. قال الحسن: خمر الجنة أشدّ بياضاً من

والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً معه يوم القيامة لازماً به لا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً، ثم قرأ ﴿وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مُسْؤُولُونَ﴾». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال: ذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه في قوله: ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال: كانوا إذا لم يشرك بالله يستنكبون، ﴿وَيَقُولُونَ أَأَنْتَ أَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ لا يعقل، قال: فحكي الله صبقه، فقال: ﴿بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصْنَقٌ لِّلْمُرْسَلِينَ﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الاسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله». وأنزل الله في كتابه، ونكر قوماً استكبروا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26] وهي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿يُنِطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ قال: الخمر «لا فيها غول» قال: ليس فيها صداع «ولا هم عنها ينزفون» قال: لا تذهب عقولهم. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فنزله الله خمر الجنة عنها، فقال: ﴿لا فيها غول﴾ لا تغول عقولهم من السكر «ولا هم عنها ينزفون» قال: يقيثون عنها كما بقيء صاحب خمر الدنيا عنها. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس «لا فيها غول» قال: هي الخمر ليس فيها وجع بطن. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ﴾ يقول: من غير أزواجهن ﴿كَانَهُنَّ بِيضٌ مَكْنُونٌ﴾ قال: اللؤلؤ المكنون. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿كَانَهُنَّ بِيضٌ مَكْنُونٌ﴾ قال: بياض البيضة ينزع عنها فوقها، وغشاؤها.

فَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿١٠١﴾ يَقُولُ أَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ مَسَاقِينٌ ﴿١٠٢﴾ أَهَؤُلَاءِ مِثْلَنَا وَكَانَ زَرْعًا وَنَحْنُ أَهْلًا لَمَسَكِينٍ ﴿١٠٣﴾ قَالَ هَلْ أُشْرِكُ بِمُطْلِقِينَ ﴿١٠٤﴾ فَأَنكَحَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ ﴿١٠٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كُنْتُ لَتَزَوِّينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْلَا بَيْعَةُ رَجُلٍ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١٠٧﴾ أَمَّا نَحْنُ حَرَمِيَّاتٌ ﴿١٠٨﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأَوَّلَ وَنَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ تَقَرَّرُ الْعُتُوبِ ﴿١١٠﴾ لِيُثَلَّ هَذَا قَلْبُكَ الْعَمِلُونَ ﴿١١١﴾ أَوَلَا حَزَنٌ تَزُولُ أَمْ

قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ ﴿١١٢﴾ أَي: نساء قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم، والقصر معناه الحبس، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو لب محول من النِّزْفِ فوق الأتْب منها لأثرا والمحول الصغير من النَّزْ، والأتْب القميص، وقيل: القاصرات: المحبوسات على أزواجهن، والأوّل أولى؛ لأنه قال: قاصرات الطرف. ولم يقل: مقصورات. والعين عظام العيون جمع عيناء، وهي: الواسعة العين. قال الزجاج: معنى «عين» كبار الأعين حسناها. وقال مجاهد: العين حسان العيون. وقال الحسن: هنّ: الشديداً بياض العين الشديداً سوادها. والأوّل أولى «كَانَهُنَّ بِيضٌ مَكْنُونٌ» قال الحسن، وأبو زيد: شبههنّ ببياض النعام تكمنها النعامة بالريش من الريح، والغبار. فلوته أبيض في صفرة، وهو أحسن ألوان النساء. وقال سعيد بن جبيرة، والسدّي: شبههنّ ببطن البيض قبل أن يقشر، وتمسه الأيدي، وبه قال ابن جرير، ومنه قول امرئ القيس:

وببيضة خدر لا يرام خباثتها تمتعت من لهوبها غير معجل قال المبرد: وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن، والنظافة كأنه بياض النعام المغطى بالريش. وقيل: المكنون: المصون عن الكسر أي: إنهنّ عذاري. وقيل: المراد بالبياض اللؤلؤ كما في قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ كأمثال اللؤلؤ المكنون [الواقعة: 22، 23] ومثله قول الشاعر:

وهي ببيضاء مثل لؤلؤة الفؤا ص ميزت من جوهر مكنون والأوّل أولى، وإنما قال: مكنون، ولم يقل: مكنونات؛ لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال: أمثالهم الذين هم مثلهم: يجيء أصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال: أمثالهم الذين هم مثلهم: يجيء أصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله:

﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال: أمثالهم الذين هم مثلهم: يجيء أصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال: أمثالهم الذين هم مثلهم: يجيء أصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الرِّبَا مع أصحاب الرِّبَا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله:

صار يحدث أصحابه في الجنة بما قال له قرينه في الدنيا، فرأى قرينه في وسط الجحيم. قال الزجاج: سواء كل شيء وسطه. قرأ الجمهور (مطلعون) بتشديد الطاء مفتوحة، ويفتح النون، فاطلع ماضياً مبنياً للفاعل من الطلوع. وقرأ ابن عباس، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو مطلعون بسكون الطاء، وفتح النون (فاطلع) بقطع الهمزة مضمومة، وكسر اللام ماضياً مبنياً للمفعول. قال النحاس: فاطلع فيه قولان على هذه القراءة أحدهما: أن يكون فعلاً مستقبلاً أي: فاطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام، والقول الثاني: أن يكون فعلاً ماضياً، وقرأ حماد بن أبي عمار (مطلعون) بتخفيف الطاء، وكسر النون، فاطلع مبنياً للمفعول، وأنكر هذه القراءة أبو حاتم، وغيره. قال النحاس: هي: لحن، لأنه لا يجوز الجمع بين النون، والإضافة، ولو كان مضافاً لقال: هل أنتم مطلعي، وإن كان سيبويه، والفراء قد حكيا مثله، وأنشدا:

هم القائلون الخير والأمرونه إذا ما خشوا من محدث الدهر معظما
ولكنه شاذ خارج عن كلام العرب ﴿قال تالله إن كنت لتريين﴾ أي: قال ذلك الذي من أهل الجنة لما اطلع على قرينه، ورآه في النار: تالله إن كنت لتريين أي: لتهلكني بالإغواء. قال الكسائي: لتريين لتهلكني، والردي الهلاك. قال المبرد: لو قيل: لتريين لتوقعني في النار لكان جائزاً. قال مقاتل: المعنى: والله لقد كنت أن تغويني، فأنزل منزلتك، والمعنى متقارب، فمن أغوى إنساناً، فقد أهلكه ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ أي: لولا رحمة ربي، وإنعامه عليّ بالإسلام، وهدايتي إلى الحق، وعصمتي عن الضلال لكنت من المحضرين معك في النار. قال الفراء: أي: لكنت معك في النار محضراً. قال الماوردي: وأحضر لا يستعمل إلا في الشر. ولما تم كلامه مع ذلك القرن الذي هو في النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة، فقال: ﴿أفما نحن بميتين﴾، والهمزة للاستفهام التقريري، وفيها معنى: التعجب، والفاء للعطف على محذوف كما في نظائره أي: نحن مخلصون منعمون، فما نحن بميتين ﴿إلا موتتنا الأولى﴾ التي كانت في الدنيا، وقوله هذا كان على طريقة الابتهاج، والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع، وأنهم مخلصون لا يموتون أبداً، وقوله: ﴿وما نحن بمعنين﴾ هو من تمام كلامه أي: وما نحن بمعنيين كما يعنب الكفار. ثم قال مشيراً إلى ما هم فيه من النعيم: ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ أي: إن هذا الأمر العظيم، والنعيم المقيم، والخلود الدائم الذي نحن فيه لهو الفوز العظيم الذي لا يقارن قدره، ولا يمكن الإحاطة بوصفه، وقوله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ من تمام كلامه أي: لمثل هذا العطاء، والفضل العظيم، فليعمل العاملون، فإن هذه هي التجارة الربحية، لا العمل للدنيا الزائلة، فإنها صفقة خاسرة نعيمها منقطع، وخيرها زائل، وصاحبها عن قريب منها راحل. وقيل: إن هذا من قول الله سبحانه، وقيل: من قول الملائكة، والأول

شجرة الزقوم ﴿إنما جعلتها نشة للقليلين﴾ ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ ﴿طلتها كأنه رؤوس الشياطين﴾ ﴿فإنهم لا يكونون فيها قائلون منها أبظرون﴾ ﴿ثم إن لهم عنها نسوة من غير﴾ ﴿ثم إنهم مزوجهم لول الجحيم﴾ ﴿إنهم القوا عاتبة من صالحين﴾ ﴿فهم على عاتقهم يهزون﴾ ﴿ولقد صدق عليهم أنكز الأولين﴾ ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾ ﴿فانظر كيف كان عقبة المُنذرين﴾ ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾

قوله: ﴿فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ معطوف على يطاف أي: يسأل هذا ذاك، وذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التي كانت في الدنيا، وذلك من تمام نعيم الجنة، والتقدير: فيقبل بعضهم على بعض، وإنما عبر عنه بالماضي للدلالة على تحقق وقوعه ﴿قال قائل منهم﴾ أي: قال قائل من أهل الجنة في حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث، وسؤال بعضهم لبعض ﴿إني كان لي قرين﴾ أي: صاحب ملازم لي في الدنيا كافر بالبعث منكر له كما يدل عليه قوله: ﴿أئتلك لمن المصنقين﴾ يعني: بالبعث، والجزاء، وهذا الاستفهام من القرن لتوبيخ ذلك المؤمن، وتبكيته بإيمانه، وتصديقه بما وعد الله به من البعث، وكان هذا القول منه في الدنيا. ثم ذكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده، وفي زعمه، فقال: ﴿عإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبينون﴾ أي: مجزيون بأعمالنا، ومحاسبون بها بعد أن صرنا تراباً، وعظاماً، وقيل: معنى مدينون: مسوسون، يقال دانه: إذا ساسه. قال سعيد بن جبير: قرينه شريكه، وقيل: أراد بالقرين الشيطان الذي يقارنه، وأنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث، وقد مضى ذكر قصتهما في سورة الكهف، والاختلاف في اسميهما، قرأ الجمهور (لمن المصنقين) بتخفيف الصاد من التصديق أي: لمن المصنقين بالبعث، وقرئ بتشديدها، ولا أدري من قرأ بها، ومعناها بعيد: لأنها من التصنق لا من التصديق، ويمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصنق بماله لطلب الثواب، وعلل ذلك باستبعاد البعث.

وقد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة، فقرأ نافع الأولى، والثانية بالاستفهام بهمزة، والثالثة بكسر الألف من غير استفهام، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، وابن عامر الأولى، والثالثة بهمزتين، والثانية بكسر الألف من غير استفهام، والباقيون بالاستفهام في جميعها. ثم اختلفوا، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة، وبعده ساكنة خفيفة، وأبو عمرو مطولة، وعاصم، وحمزة بهمزتين ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ القائل هو المؤمن الذي في الجنة بعد ما حكى لجلسائه فيها ما قاله له قرينه في الدنيا أي: هل أنتم مطلعون إلى أهل النار: لا ريك ذلك القرن الذي قال لي تلك المقالة كيف منزلته في النار؟ قال ابن الأعرابي: والاستفهام هو: بمعنى الأمر أي: اطلعوا، وقيل القائل: هو الله سبحانه، وقيل: الملائكة، والأول أولى ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾ أي: فاطلع على النار ذلك المؤمن الذي

الشوب الخلط. قال الفراء: يقال: شاب طعامه، وشرابه: إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشيابة، والحميم الماء الحار. فأخبر سبحانه: أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحار، ليكون أقطع لعذابهم، وأشنع لحالهم كما في قوله: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ [محمد: 15] قرأ الجمهور (شوباً) بفتح الشين، وهو: مصدر، وقرأ شيبان النحوي بالضم. قال الزجاج: المفتوح مصدر، والمضموم اسم بمعنى: المشوب، كالنقص بمعنى: المنقوص ﴿ثم إن مرجعهم إلى الجحيم﴾ أي: مرجعهم بعد شرب الحميم، وكل الرقوم إلى الجحيم، وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه، وهو خارج للجحيم كما تورد الإبل، ثم يردون إلى الجحيم كما في قوله سبحانه: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن: 44]، وقيل: إن الرقوم، والحميم نزل يقدّم إليهم قبل دخولها. قال أبو عبيدة: ثم بمعنى: الوالو، وقرأ ابن مسعود (ثم إن مقيليهم لا إلى الجحيم)، وجملة ﴿إنهم للقوا﴾ أي: وجدوا ﴿آباءهم ضالين﴾ تعليل لاستحقاقهم ما تقدم ذكره أي: صابغهم كذلك، فاقترنت بهم تقليداً، وضلالة لا لحجة أصلاً ﴿فهم على أنارهم يهرعون﴾ الإهرع الإسراع. قال الفراء: الإهرع الإسراع برعدة. وقال أبو عبيدة: يهرعون: يستحثون من خلفهم، يقال: جاء فلان يهرع إلى النار: إذا استحثه البرد إليها. وقال المفضل يزعجون من شدة الإسراع. قال الزجاج: هرع، وأهرع: إذا استحث، وانزعج، والمعنى: يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم ﴿ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾ أي: ضل قبل هؤلاء المذكورين أكثر الأولين من الأمم الماضية ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾ أي: أرسلنا في هؤلاء الأولين رسلاً أنذروهم العذاب، وبينوا لهم الحق، فلم ينجع ذلك فيهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة للمنذرين﴾ أي: الذين أنذرتهم الرسل، فإنهم صاروا إلى النار. قال مقاتل: يقول: كان عاقبتهم العذاب، يحذر كفر مكة، ثم استثنى عباده المؤمنين، فقال: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: إلا من أخلصهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان، والتوحيد، وقرئ (المخلصين) بكسر اللام أي: الذين أخلصوا لله طاعتهم، ولم يشوبوها بشيء مما يغيرها.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿فاطلع قرأه في سواء للجحيم﴾ قال: اطلع، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: لقد رأيت جماجم القوم تغلي. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: قول الله لأهل الجنة: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ [الطور: 19، والمرسلات: 43] قال هنيئاً أي: لا تموتون فيها، فعند ذلك قالوا: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعنيين * إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ قال: هذا قول الله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾. وأخرج ابن مريويه عن البراء بن عازب قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ يده في يدي، فرأى جنازة فأسرع المشي حتى أتى

أولى. قرأ الجمهور (بميتين)، وقرأ زيد بن علي (بميتين)، وانتصاب إلا موتتنا على المصدرية، والاستثناء مفرغ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً. أي: لكن الموتة الأولى التي كانت في الدنيا ﴿أنلك خير نزل أم شجرة الرقوم﴾ الإشارة بقوله لك إلى ما ذكره من نعيم الجنة، وهو: مبتدأ، وخبره خير، ونزلاً تمييزاً، والنزل في اللغة الرزق الذي يصلح أن ينزلوا معه، ويقيموا فيه، والخيرية بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره. قال الزجاج: المعنى: أنلك خير في باب الإنزال التي يبقون بها نزلاً، لم نزل أهل النار، وهو قوله: ﴿إم شجرة الرقوم﴾، وهو ما يكره تناوله قال الواحدي: وهو شيء مكره يكره أهل النار على تناوله، فهم يتزقموه، وهي على هذا مشتقة من التزقم، وهو البلع على جهد لكراحتها، ونبتها. واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي يعرفها العرب أم لا على قولين: أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا؛ فقال قطرب: إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر. وقال غيره: بل هو كل نبات قاتل. القول الثاني: أنها غير معروفة في شجر الدنيا. قال قتادة: لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: كيف تكون في النار شجرة. فأنزل الله تعالى: ﴿إننا جعلناها فتنة للظالمين﴾ قال الزجاج: حين افتتنوا بها، وكنوا بوجودها. وقيل: معنى جعلها فتنة لهم: أنها محنة لهم لكونهم يعذبون بها، والمراد بالظالمين هنا: الكفار، أو أهل المعاصي الموجبة للنار، ثم بين سبحانه أوصاف هذه الشجرة رداً على منكريها، فقال: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل للجحيم﴾ أي: في قعرها، قال الحسن: أصلها في قعر جهنم، وأغصانها ترفع إلى بركايتها، ثم قال: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ أي: ثمرها، وما تحمله كأنه في تناهي قبحة، وشناعة منظره رؤوس الشياطين، فشببه المحسوس بالمخيل، وإن كان غير مرئي للدلالة على أنه غاية في القبح كما تقول في تشبيه من يستقبحونه: كأنه شيطان، وفي تشبيه من يستحسنونه: كأنه ملك، كما في قوله: ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ [يوسف: 31]، ومنه قول امرئ القيس:

أبقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كانياب اغوال

وقال الزجاج، والفراء: الشياطين حيات لها رؤوس، وأعراف، وهي من أقبح الحيات، وأخبثها، وأخفها جسماً. وقيل: إن رؤوس الشياطين اسم لنبت قبيح معروف باليمن يقال له: الاستن، ويقال له: الشيطان. قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب. وقيل: هو شجر خشن منتن مكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين ﴿فإنهم لا يكون منها﴾ أي: من الشجرة، أو من طلوعها، والتأنيث لاكتساب الطلع التأنيث من إضافته إلى الشجرة ﴿فمائلون منها للبطون﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلئ بطونهم، فهذا طعامهم، وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة ﴿ثم إن لهم عليها﴾ بعد الأكل منها ﴿لشوبا من حميم﴾

بكم؟ وهو تحذير مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: 6] وقيل: المعنى: أي شيء توهمتوه بالله حتى أشركتم به غيره ﴿فَنَنْظُرُ نَفْثَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: كانوا يتعاطون علم النجوم، فعاملهم بذلك لثلاث ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكادهم في أصنامهم؛ ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، وأراد أن يتخلف عنهم، فاعتلّ بالسقم: وذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم، فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدل بها على حاله، فلما نظر إليها قال: إني سقيم أي: ساسقم. وقال الحسن: إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكر فيما يعمل، فالمعنى على هذا: أنه نظر فيما نجم له من الرأي أي: فيما طلع له منه، فعلم أن كل شيء يسقم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾. قال الخليل، والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في الشيء يبدره: نظر في النجوم. وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تتعاده فيها الحمى. وقال الضحاک: معنى: إني سقيم: ساسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب، ثم يموت، وهذا تورية، وتعريض كما قال للملك لما سأل عن سارة: هي أختي يعني: أخته الدين. وقال سعيد بن جبیر: أشار لهم إلى مرض يسقم، ويعدي، وهو: الطاعون، وكانوا يهربون من ذلك، ولهذا قال: ﴿فَقَتُلُوا عَنْهُ مَجْزِيَةً﴾ أي: تركوه، وذهبوا مخافة العنوى ﴿فَوَارِغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ﴾. يقال: راع يروغ روغاً، وروغاناً: إذا مال، ومنه طريق رائج أي: مائل. ومنه قول الشاعر:

فيريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب
وقال السدي: ذهب إليهم، وقال أبو مالك: جاء إليهم، وقال الكلبي: أقبل عليهم، والمعنى متقارب ﴿فَقَالَ لَا تَأْكُلُون﴾ أي: فقال إبراهيم للأصنام التي راع إليها استهزاء، وسخرية: لا تأكلون من الطعام الذي كانوا يصنعونه لها، وخطابها كما يخاطب من يعقل، لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾، فإنه خاطبهم خطاب من يعقل، والاستفهام للتهكم بهم؛ لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق. قيل: إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها، وليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم. وقيل: تركوه للسنة، وقيل: إن إبراهيم هو الذي قرب إليها الطعام مستهزئاً بها ﴿فَوَارِغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: فمال عليهم يضربهم ضرباً باليمين، فانتصابه على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أو هو مصدر لراع، لأنه بمعنى: ضرب. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: بيده اليمين يضربهم بها. وقال السدي: بالقوة، والقدر: لأن اليمين أقوى اليمين. قال الفراء، وثعلب: ضرباً بالقوة، واليمين القوة. وقال الضحاک، والربيع بن أنس: المراد باليمين: اليمين التي حلفها حين قال: ﴿يُوتَاكَ لَاكِينٌ أَصْنَامُكُمْ﴾ [الأنبياء: 57] وقيل: المراد باليمين هنا: العدل كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخْنَأْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: 44، 45] أي: بالعدل، واليمين كناية عن

ضمن معنى قلنا. قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود (سلاماً) منصوب بتركنا أي: تركنا عليه ثناءً حسناً، وقيل: المراد بالآخرين: أمة محمد ﷺ. وفي العالمين متعلق بما تعلق به الجار والمجرور الواقع خبراً، وهو على نوح أي: سلام ثابت، أو مستمر، أو مستقر على نوح في العالمين من الملائكة، والجن، والإنس، وهذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمد ﷺ كما قيل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه، وبقاء الثناء من الله عليه، وبقاء نريته أي: إنا كنَّا نَجْزِي من كان محسناً في أقواله، وأفعاله راسخاً في الإحسان معروفاً به، والكاف في كنَّا نعت مصدر محذوف أي: جزاء كنَّا الجزاء ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيان لكونه من المحسنين، وتعليل له بأنه كان عبداً مؤمناً مخلصاً لله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله، ولا صنفوا نوحاً. ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم، وبيّن: أنه ممن شايع نوحاً، فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من أهل دينه، وممن شايعه، ووافقه على الدعاء إلى الله، وإلى توحيده، والإيمان به. قال مجاهد: أي: على منهجه، وسنته. قال الأصمعي: الشيعة الأعوان، وهو مأخوذ من الشياخ، وهو الحطب الصغير الذي يوقد مع الكبار حتى يستوقد، وقال الفراء: المعنى: وإن من شيعة محمد لإبراهيم، فالهاء في شيعته على هذا لمحمد ﷺ، وكذا قال الكلبي. ولا يخفى ما في هذا من الضعف، والمخالفة للسياق. والظرف في قوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ منصوب بفعل محذوف أي: انكر، بما في الشيعة من معنى المتابعة. قال أبو حيان: لا يجوز؛ لأن فيه الفصل بين العامل، والمعمول بأجنبي، وهو: إبراهيم، والأولى أن يقال: إن لام الابتداء تمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها، والقلب السليم المخلص من الشرك، والشك. وقيل: هو الناصح لله في خلقه، وقيل: الذي يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين: أحدهما: عند دعائه إلى توحيده، وطاعته. الثاني: عند إلقائه في النار. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدل من الجملة الأولى، أو ظرف لسليم، أو ظرف لجاء، والمعنى: وقت قال لأبيه أزر، وقومه من الكفار: أي شيء تعبدون ﴿إِنْتَفَكَّا آلَهُ نُونًا تُرِيدُونَ﴾ انتصاب إنفاً على أنه مفعول لأجله، وانتصاب آلَهُ على أنه مفعول تريدون، والتقدير: أتريدون آلَهُ من نون الله للإفك، ونون ظرف لتريدون، وتقدير هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام. وقيل: انتصاب إنفاً على أنه مفعول به لتريدون، وآلَهُ بدل منه، جعلها نفس الإفك مبالغة، وهذا أولى من الوجه الأول. وقيل: انتصابه على الحال من فاعل تريدون أي: أتريدون آلَهُ آفكين، أو نوي إفك. قال المبرد: الإفك أسوأ الكذب، وهو الذي لا يثبت ويضطرب، ومنه انتفكت بهم الأرض ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ما ظنكم به إذا لقيتموه، وقد عبثتم غيره، وما ترونه يصنع

الكيد: المكر، والحيلة أي: احتالوا لإهلاكه، فجعلناهم الأسفلين المقهورين المغلوبين، لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التي لا يقدرُونَ على دفعها، ولا يمكنهم جدها، فإن النار الشديدة الانتقاد العظيمة الاضطرام المترامية الجمار إذا صارت بعد إلقائه عليها برداً وسلاماً، ولم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل، وصار المنكر له سافلاً ساقط الحجة ظاهر التعصب واضح التعسف، وسبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحاً، ويسوق إليهم الخير بما هو من صور الضير. ولما انقضت هذه الوقعة وأسفر الصبح لذي عينين، وظهرت حجة الله لإبراهيم، وقامت براهين نبوته، وسطعت أنوار معجزته ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي﴾ أي: مهاجر من بلد قومي الذين فعلوا ما فعلوا تعصبا للأصنام، وكفراً بالله، وتكذيباً لرسله إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه، أو إلى حيث أتمكن من عبادته ﴿سيهين﴾ أي: سيهينني إلى المكان الذي أمرني بالذهاب إليه، أو إلى مقصدي.

قيل: إن الله سبحانه أمره بالمسير إلى الشام، وقد سبق بيان هذا في سورة الكهف مستوفى، قال مقاتل: فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد، فقال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ أي: ولداً صالحاً من الصالحين يعينني على طاعتك، ويؤنسني في الغربة هكذا قال المفسرون، وعللوا ذلك بأن الهبة قد غلب معناها في الولد، فتحمل عند الإطلاق عليه، وإذا ورت مقيدة حملت على ما قيدت به كما في قوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ [مريم: 53]، وعلى فرض أنها لم تغلب في طلب الولد، فقله: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ يدل على أنه ما أراد بقوله: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ إلا الولد، ومعنى حليم: أن يكون حليماً عند كبره، فكانه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر، ويصير حليماً، لأن الصغير لا يوصف بالحلم. قال الزجاج: هذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر، وأنه يبقى حتى ينتهي في السن، ويوصف بالحلم ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ في الكلام حذف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة، والتقدير: فوهبنا له الغلام، فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه في أمور دنياه. قال مجاهد: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ أي: شب، وأثرك سعيه سعي إبراهيم. وقال مقاتل: لما مشى معه. قال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة. وقال الحسن: هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة. وقال ابن زيد: هو السعي في العبادة، وقيل: هو الاحتلام ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أُنحى﴾ قال إبراهيم لابنه لما بلغ معه ذلك المبلغ: إني رأيت في المنام هذه الرؤيا. قال مقاتل: رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات. قال قتادة: رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئاً فعلوه.

وقد اختلف أهل العلم في الذبيح؟ هل هو إسحاق، أو إسماعيل؟ قال القرطبي: فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق، ومن قال بذلك العباس بن عبد المطلب، وابنه عبد الله، وهو

العدل كما أن الشمال كناية عن الجور، وأول هذه الأقوال أولها ﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾ أي: أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما علموا بما صنعه بها، ويزفون في محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا. قرأ الجمهور (يزفون) بفتح الياء من زف الظليم يزف إذا عدا بسرعة، وقرأ حمزة بضم الياء من أزف يزف أي: دخل في الزفيف، أو يحملون غيرهم على الزفيف. قال الأصمعي: أزفت الإبل أي: حملتها على أن تزف، وقيل: هما لغتان، يقال: زف القوم، وأزفوا، وزفت العروس، وأزفتها، حكى ذلك عن الخليل. قال النحاس: زعم أبو حاتم: أنه لا يعرف هذه اللغة يعني: يزفون بضم الياء، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء، وشبهها بقولهم: أطربت الرجل أي: صيرته إلى ذلك، وقال المبرد: الزفيف الإسراع. وقال الزجاج: الزفيف أول عود النعام. وقال قتادة، والسدي: معنى يزفون: يمشون. وقال الضحاك: يسعون. وقال يحيى بن سلام: يرددون غضباً. وقال مجاهد: يخالون أي: يمشون مشي الخيل، وقيل: يتسللون تسللاً بين المشي، والعدو، والأولى تفسير يزفون بيسرعون، وقرئ (يزفون) على البناء للمفعول، وقرئ (يزفون) كيرمون. وحكى الثعلبي عن الحسن، ومجاهد، وابن السميع: أنهم قرءوا (يزفون) بالراء المهملة، وهي: ركض بين المشي والعدو ﴿قال اتعبدون ما تنحتون﴾ لما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام، نكر لهم الليل الدال على فساد عبادتها، فقال مبتكراً لهم، ومنكراً عليهم: ﴿تعبدون ما تنحتون﴾ أي: اتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها، والنحت النجر، والبري، نحته ينحته بالكسر نحاً أي: براه، والنحاة البراية، وجملة ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تعبدون، و «ما» في ﴿وما تعملون﴾ موصولة أي: وخلق الذي تصنعونه على العموم ويخل فيها الأصنام التي ينحتونها تحولاً أولياً، ويكون معنى العمل هنا: التصوير، والنحت، ونحوهما، ويجوز أن تكون مصدرية أي: خلقكم وخلق عملكم، ويجوز أن تكون استفهامية، ومعنى الاستفهام: التوبيخ، والتقريع أي: وأي شيء تعملون، ويجوز أن تكون نافية أي: إن العمل في الحقيقة ليس لكم، فأنتم لا تعملون شيئاً، وقد طول صاحب الكشاف الكلام في رد قول من قال: إنها مصدرية، ولكن بما لا طائل تحته، وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام، وجملة ﴿قالوا لبنوا له بنياناً قالوه في الجحيم﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كالجمل التي قبلها، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورده عليهم من الحجة الواضحة، فتشاوروا فيما بينهم أن يبنوا له حائطاً من حجارة، ويملؤوه حطباً ويضرموه، ثم يلقيه فيه، والجحيم: النار الشديدة الانتقاد قال الزجاج: وكل نار بعضها فوق بعض، فهي: جحيم، واللام في الجحيم عوض عن المضاف إليه أي: في جحيم ذلك البنيان، ثم لما ألقوه فيها نجاه الله منها، وجعلها عليه برداً وسلاماً، وهو معنى قوله: ﴿فأرانا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾

إنجاز الوعد في يعقوب، وأيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أن النبيح إسماعيل، ولو كان إسحاق لكان النبيح واقعاً ببית المقدس، وكل هذا أيضاً يحتمل المناقشة ﴿فانظر ماذا ترى﴾ قرأ حمزة، والكسائي (ترى) بضم الفوقية، وكسر الراء، والمفعولان محذوفان أي: انظر ماذا تريني إياه من صبرك، واحتمالك. وقرأ الباقر من السبعة بفتح التاء، والراء من الراء، وهو: مضارع رأيت، وقرأ الضحاك، والأعمش، (ترى) بضم التاء، وفتح الراء مبنياً للمفعول أي: ماذا يخيّل إليك، ويستح لخطرك. قال الفراء في بيان معنى القراءة الأولى: انظر ماذا ترى من صبرك، وجزعك. قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره، وإنما قال العلماء ماذا تشير أي: ما تريك نفسك من الرأي، وقال أبو عبيد: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة، وكذا قال أبو حاتم، وغلطهما النحاس وقال: هذا يكون من رؤية العين، وغيرها، ومعنى القراءة الثانية ظاهر واضح، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله، وإلا فروياً الأنبياء وحى، وامثالها لازم لهم محتّم عليهم ﴿قال يا ثبت افعل ما تؤمر﴾ أي: ما تؤمر به مما أوحى إليك من نبيح، وما موصولة، وقيل: مصدرية على معنى: افعل أمرك، والمصدر مضاف إلى المفعول، وتسمية المأمور به أمراً، والأول أولى ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ على ما ابتلاني به من النبيح، والتعليق بمشيئة الله سبحانه تبركاً بها منه ﴿فلما أسلما﴾ أي: استسلما لأمر الله، وأطاعاه، وانقادا له. قرأ الجمهور (أسلما)، وقرأ عليّ، وابن مسعود، وابن عباس (فلما سلما) أي: فوضا أمرهما إلى الله، وروي عن ابن عباس: أنه قرأ (استسلما) قال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله، وأسلم الآخر ابنه، يقال: سلم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد.

وقد اختلف في جواب لما ماذا هو؟ فقيل: هو محذوف، وتقديره ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما أجرهما، أو فديناه بكبش هكذا قال البصريون. وقال الكوفيون: الجواب هو: ناديهما، والواو زائدة مقحمة، واعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعاني، ولا يجوز أن تزاد، وقال الأخفش: الجواب ﴿وتله للجبين﴾، والواو زائدة، وروي هذا أيضاً عن الكوفيين، واعتراض النحاس يرد عليه كما ورد على الأول ﴿وتله للجبين﴾ التل: الصرع والدفع، يقال: تللت الرجل: إذا لقيته، والمراد أنه أضجعه على جبينة على الأرض، والجبين أحد جانبي الجبهة، فللوجه جبينان، والجبهة بينهما، وقيل: كبه على وجهه كيلا يرى منه ما يؤثر الرقة لقلبه.

واختلف في الموضع الذي أراد نبه فيه، فقيل: هو مكة في المقام، وقيل: في المنحدر بمنى عند الجمار، وقيل: على الصخرة التي باصل جبل ثبير، وقيل: بالشام ﴿وناديهما أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا﴾ أي: عزمت على الإتيان بما رأيته. قال المفسرون: لما أضجعه للنبيح نودي من الجبل يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وجعله مصنفًا بمجرد العزم،

الصحيح عن عبد الله بن مسعود، ورواه أيضاً عن جابر، وعليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمر بن الخطاب، قال: فهؤلاء سبعة من الصحابة. قال: ومن التابعين، وغيرهم: علقمة، والشعبي، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وكعب الأحبار، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، والقاسم بن أبي برزة، وعطاء، ومقاتل، وعبد الرحمن بن سابط، والزهري، والسدي، وعبد الله بن أبي الهذيل، ومالك بن أنس كلهم قالوا: النبيح إسحاق، وعليه أهل الكتابين اليهود، والنصارى، واختاره غير واحد، منهم النحاس، وابن جرير الطبري، وغيرهما. قال، وقال آخرون: هو إسماعيل، ومن قال بذلك: أبو هريرة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وروي ذلك عن ابن عمر، وابن عباس أيضاً، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، والشعبي، ويوسف بن مهران، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وعلقمة، وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن النبيح، فقال: يا أصمعي أين عذب عنك عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة. قال ابن كثير في تفسيره: وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن النبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال عن بعض الصحابة، وليس في ذلك كتاب، ولا سنة، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أخبار أهل الكتاب، وأخذ مسلماً من غير حجة، وكتاب الله شاهد، ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر الإشارة بالغلام الحليم، ونكر أنه النبيح، وقال بعد ذلك ﴿وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ ١ هـ.

واحتج القائلون بأنه إسحاق بأن الله عزّ وجلّ قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة، وابن أخيه لوط، فقال: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ أنه دعا، فقال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾، فقال تعالى: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ [مريم: 49]؛ ولأن الله قال: ﴿وفليناها بنبيح عظيم﴾، فنكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم، وإنما بشر بإسحاق، لأنه قال: ﴿وبشّرناه بإسحاق﴾، وقال هنا: ﴿بغلام حليم﴾، وذلك قبل أن يعرف هاجر، وقبل أن يصير له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق. قال الزجاج الله أعلم أيهما النبيح ١ هـ، وما استدلل به الفريقان يمكن الجواب عنه، والمناقشة له.

ومن جملة ما احتج به من قال إنه إسماعيل بأن الله وصفه بالصبر دون إسحاق كما في قوله: ﴿وإسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين﴾ [الأنبياء: 85]، وهو: صبره على النبيح، ووصفه بصديق الوعد في قوله: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ [مريم: 54]؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على النبيح، فوفى به، ولأن الله سبحانه قال: ﴿وبشّرناه بإسحاق نبياً﴾ فكيف يأمره بنبيه، وقد وعده أن يكون نبياً، وأيضاً فإن الله قال: ﴿وبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: 71]، فكيف يؤمر بنبيح إسحاق قبل

﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ أي: بشرنا إبراهيم بولد يولد له، ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك، وانتصاب نبياً على الحال، وهي: حال مقدرة. قال الزجاج: إن كان الذبيح إسحاق، فيظهر كونها مقدرة، والأولى أن يقال: إن من فسر الذبيح بإسحاق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته. وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنما الشرط المقارنة للفعل، و﴿ومن الصالحين﴾ كما يجوز أن يكون صفة لنبياً يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه، فتكون أحوالاً متداخلة ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: على إبراهيم، وعلى إسحاق بمرافقة نعم الله عليهما، وقيل: كثرتا ولدهما، وقيل: إن الضمير في عليه يعود إلى إسماعيل، وهو بعيد، وقيل: المراد بالمباركة هنا هي: الثناء الحسن عليهما إلى يوم القيامة ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: محسن في عمله بالإيمان، والتوحيد، وظالم لها بالكفر، والمعاصي لما نكر سبحانه البركة في الذرية بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف، والمحدث المبارك ليس بنافع لهم، بل إنما ينتفعون بأعمالهم لأبائهم، فإن اليهود، والنصارى، وإن كانوا من ولد إسحاق، فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال البين، والعرب، وإن كانوا من ولد إسماعيل، فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ يقول: لم يبق إلا ذرية نوح ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ يقول: يذكر بخير. وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ قال: حام، وسام، ويافث، وأخرج ابن سعد، وأحمد، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن سمرة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، حام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»، والحديثان هما من سماع الحسن عن سمرة، وفي سماعه منه مقال معروف، وقد قيل: إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة فقط، وما عدها فبواسطة. قال ابن عبد البر: وقد روي عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والخطيب في تالي التلخيص عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث، فولد سام العرب، وفارس، والروم، والخير فيهم، وولد يافث ياجوج، وماجوج، والترك، والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القبط، والبربر، والسودان»، وهو من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب عنه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ قال: من أهل دينه. وأخرج عبد بن حميد عنه في قوله: ﴿إني سقيم﴾ قال: مريض.

وإن لم ينبهه، لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب استسلامهما لأمر الله، وقد فعلا. قال القرطبي: قال أهل السنة: إن نفس الذبيح لم يقع، ولو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل، لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبيح ما تحقق الفداء. قال: ومعنى: ﴿صدقت الرؤيا﴾ فعلت ما أمكنت ثم امتنعت لما منعناك، هذا أصح ما قيل في هذا الباب. وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه، لأن معنى ذبحت الشيء: قطعته، وقد كان إبراهيم يأخذ السكين، فيمز بها على حلقه، فتقلب كما قال مجاهد. وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءاً التام، وقالت طائفة منهم السدي: ضرب الله على عنقه صفيحة نحاس، فجعل إبراهيم يحز، ولا يقطع شيئاً. وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أمر بالذبيح الحقيقي الذي هو فري الأوداج، وإنهار الدم، وإنما رأى أنه أضجعه للذبيح، فتوهم أنه أمر بالذبيح الحقيقي، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له: قد ﴿صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي: نجزيهم بالخلاص من الشدائد، والسلامة من المحن، فالجملة كالتعليل لما قبلها. قال مقاتل: جزاه الله سبحانه بإحسانه في طاعته العفو عن ذنب ابنه ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ البلاء، والابتلاء: الاختبار، والمعنى: إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث نتبره الله في طاعته بذبح ولده. وقيل: المعنى: إن هذا لهو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من الذبح، وفداه بالكبش، يقال: أبلاه الله إبلاءً وبلاءً: إذا أنعم عليه والأولى أولى، وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير، والشر، ومنه ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء: 35]، ولكن المناسب للمقام المعنى الأول. قال أبو زيد: هذا في البلاء الذي نزل به في أن ينبج ولده. قال: وهذا من البلاء المكروه ﴿وفديناه بنبح عظيم﴾ الذبيح: اسم المذبوح، وجمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون، وبالفتح المصدر، ومعنى عظيم: عظيم القدر، ولم يرد عظم الجثة، وإنما عظم قدره؛ لأنه فدى به الذبيح، أو لأنه متقبل. قال النحاس: العظيم في اللغة يكون للكبير، وللشريف، وأهل التفسير على أنه ها هنا للشريف أي: المتقبل. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: أنزل عليه كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وقال الحسن: ما فدى إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير، فنبحه إبراهيم فداء عن ابنه. قال الزجاج: قد قيل: إنه فدى بوعل، والوعل التيس الجبلي، ومعنى الآية: جعلنا الذبح فداء له، وخلصناه به من الذبح ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم﴾ أي: في الأمم الآخرة التي تأتي بعده، والسلام الثناء الجميل. وقال عكرمة: سلام منا، وقيل: سلامة من الآفات، والكلام في هذا كالکلام في قوله ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ وقد تقدم في هذه السورة بيان معناه، ووجه إعرابه ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من انقاد لأمر الله ﴿إنه من عبائنا لمؤمنين﴾ أي: الذين أعطوا العبودية حقها، ورسخوا في الإيمان بالله، وتوحيده

مترك عن علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وأخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه. وأخرج الدارقطني في الأفراد، والديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الذبيح إسحاق». وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ قال: «الذبيح إسحاق». وأخرج ابن مروي، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مروي عن بهار، وكانت له صحبة، قال: إسحاق ذبيح الله. وأخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن مسعود قال: سئل النبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله». وأخرج عبد الرزاق، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: الذبيح إسحاق. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب قال: الذبيح إسحاق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «وَوَفَّيْنَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ» قال: أكتبه على وجهه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: صرعه للذبيح. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن علي بن أبي طالب في قوله: «وَوَفَّيْنَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ» قال: كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة في أصل ثبير. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «وَوَفَّيْنَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ» قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وأخرج عبد بن حميد عنه قال: فدي إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مروي عن ابن عباس: أن رجلاً قال: نذرت لأنحر نفسي، فقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، ثم تلا «وَوَفَّيْنَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ»، فأمره بكبش، فنبحه. وأخرج الطبراني من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: «وَوَفَّيْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبيح، ولم تكن الإشارة بالنبوة عند مولده.

وبما سقناه من الاختلاف في الذبيح هل هو إسحاق، أو إسماعيل، وما استدلل به المختلفون في ذلك تعلم أنه لم يكن في المقام ما يوجب القطع، أو يتعين رجحانه تعيناً ظاهراً، وقد رجح كل قول طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير، فإنه رجح أنه إسحاق، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض مما سقناه ها هنا، وكابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل، وجعل الآية على ذلك أقوى، وأصح، وليس الأمر كما نكره، فإنها إن لم تكن نون آية القائلين بأن الذبيح إسحاق لم تكن فوقها، ولا أرجح منها، ولم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء. وما روي عنه، فهو إما موضوع، أو ضعيف جداً، ولم يبق إلا مجرد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، وهي محتملة، ولا تقوم حجة

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: مطعون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ» قال: يخرجون. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي» قال: حين هاجر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» قال: العمل. وأخرج الطبراني عنه أيضاً قال: لما أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق قال لأبيه: إذا نبحتنى، فاعتزل لا أضطرب، فينتضح عليك ممي، فشده، فلما أخذ الشفرة، وأراد أن يذبحه نودي من خلفه «إِنْ يَا إِبْرَاهِيمَ * قَدْ صَلَتِ الرُّؤْيَا» وأخرج أحمد عنه أيضاً مرفوعاً مثله مع زيادة، وأخرجه عنه موقوفاً. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضاً في قوله: «وَأَنْ مِنْ شِيعَتِهِ إِبْرَاهِيمَ» قال: من شيعة نوح على منهاجه، وسننه «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» قال: شب حتى بلغ سعيه سعي أبيه في العمل «فَلَمَّا اسْلَمَا» سلما ما أمر به «وَوَلَّهُ» وضع وجهه إلى الأرض. فقال: لا تبحنني، وأنت تنظر عسى أن ترحمني، فلا تجهز علي. وإن أجزع، فأنكص، فامتنع منك. ولكن أربط يدي إلى رقبتي، ثم ضع وجهي إلى الأرض، فلما أسخل يده لينبحه، فلم تحل المية حتى نودي: إن يا إبراهيم قد صلت الرؤيا، فامسك يده، قوله: «وَوَفَّيْنَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ» بكبش عظيم متقبل. وزعم ابن عباس: أن الذبيح إسماعيل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحي»، وأخرجه البخاري، وغيره من قول عبيد بن عمير، واستدل بهذه الآية. وأخرج ابن جرير، والحاكم من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق الشعبي، عن ابن عباس قال: الذبيح إسماعيل وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق مجاهد، ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال: الذبيح إسماعيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير من طريق يوسف بن ماهك، وأبي الطفيل، عن ابن عباس قال: الذبيح إسماعيل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عمر في قوله: «وَوَفَّيْنَاهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ» قال: إسماعيل ذبح عنه إبراهيم الكبش. وأخرج عبد بن حميد من طريق الفرزق الشاعر قال: رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول الله ﷺ، ويقول: إن الذي أمر بذبحه إسماعيل. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مروي عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «وقال نبي الله داود: يا رب أسمع الناس يقولون: رب إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فأجعلني رابعاً، قال: إن إبراهيم ألقى في النار، فصبر من أجلي، وإن إسحاق جاد لي بنفسه، وإن يعقوب غاب عنه يوسف، وتلك بلية لم تنلك»، وفي إسناده الحسن بن دينار البصري، وهو

وهو: أن يخرج السهم على من غلب. قال المبرد: أي: فقارع. قال: وأصله من السهام التي تجال، ومعنى **﴿فكان من المبحضين﴾**: فصار من المغلوبين. قال: يقال: بحضت حجتة، وأحضرها الله، وأصله من الزلق عن مقام الظفر، ومنه قول الشاعر:

قتلنا للمبحضين بكل فج فقد قرت بقتلهم العيون
أي: المغلوبين **﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾** يقال: لقمتم اللقمة، والتقمتها: إذا ابتلعها أي: فابتلعه الحوت، ومعنى **﴿وهو مليم﴾**: وهو مستحق للوم. يقال: رجل مليم إذا أتى بما يلام عليه، وأما الملووم، فهو: الذي يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا، وقيل: المليم المعيب، يقال: ألام الرجل إذا عمل شيئاً صار به معيباً. ومعنى هذه المساهمة: أن يونس لما ركب السفينة احتبست، فقال الملاحون: ها هنا عبد أبق من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها أبق لا تجري، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فقال: أنا الأبق، وزج نفسه في الماء. قال سعيد بن جبير: لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه في الماء أخذته الحوت **﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾** أي: الذاكرين لله، أو المصلين له **﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾** أي: لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث، وقيل: لبث في بطنه حياً.

واختلف المفسرون كم أقام في بطن الحوت؟ فقال السدي، والكلبي، ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. وقال الضحاک: عشرين يوماً. وقال عطاء: سبعة أيام. وقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقيل: ساعة واحدة. وفي هذه الآية ترغيب في ذكر الله، وتنشيط للذاكرين له **﴿فنبذناه بالعراء وهو سقيم﴾** النبذ الطرح، والعراء. قال ابن الأعرابي: هو: الصحراء، وقال الأخفش: الفضاء، وقال أبو عبيدة: الواسع من الأرض، وقال الفراء: المكان الخالي. وروي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال: هو وجه الأرض، وأنشد لرجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً لأخاف عثارها ونبتت بالبلد العراء ثيابي
والمعنى: أن الله طرحه من بطن الحوت في الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها، وهو عند القائه سقيم لما ناله في بطن الحوت من الضرر، قيل: صار بدنه كبطن الطفل حين يولد.

وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: **﴿فنبذناه بالعراء﴾**، وقوله في موضع آخر: **﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾** [القلم: 49] فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبد بالعراء. وأجاب النحاس، وغيره بأن الله سبحانه أخبرها هنا: أنه نبذ بالعراء، وهو غير مذموم، ولولا رحمته عز وجل لنبد بالعراء، وهو مذموم **﴿وانبتتنا عليه شجرة من يقطين﴾** أي: شجرة فوقه تظل عليه، وقيل: معنى عليه: عنده، وقيل: معنى عليه: له. واليقطين هي: شجرة النباء. وقال المبرد:

بياسين إلا الحسن، فإنه قرأ (الياسين) بإبدال آلة التعريف على ياسين، قيل: المراد على هذه القراءات كلها إلياس، وعليه وقع التسليم، ولكنه اسم أعجمي، والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية، ويكثر تغييرهم لها. قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً؛ فياسين، وإلياس، والياسين شيء واحد. قال الأخفش: العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلب. قال: فعلى هذا إنه سمي كل رجل منهم بالياسين. قال الفراء: يذهب بالياسين إلى أن يجعله جمعاً، فيجعل أصحابه داخلين معه في اسمه. قال أبو علي الفارسي: تقديره الياسيين إلا أن الباءين للنسبة حذفنا كما حذفنا في الأشعرين، والأعجمين. ورجح الفراء، وأبو عبيدة قراءة الجمهور قالوا: لأنه لم يقل في شيء من السور على آل فلان، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين؛ لأنه إنما هو بمعنى: إلياس، أو بمعنى: إلياس، وأتباعه. وقال الكلبي: المراد بآل ياسين آل محمد. قال الواحدي: وهذا بعيد؛ لأن ما بعده من الكلام، وما قبله لا يدل عليه، وقد تقدم تفسير **﴿إننا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾** مستوفى **﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾** قد تقدم ذكر قصة لوط مستوفاة **﴿إذ نجيناه وأهله لجمعين﴾** الظرف متعلق بمحذوف هو انكر، ولا يصح تعلقه بالمرسلين، لأنه لم يرسل وقت تنجيته **﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾** قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى: الماضي، ويكون بمعنى: الباقي، فالمعنى: إلا عجوزاً في الباقيين في العذاب، أو الماضيين الذين قد هلكوا **﴿ثم دمرنا الآخرين﴾** أي: أهلكناهم بالعقوبة، والمعنى: أن في نجاته، وأهله جميعاً إلا العجوز، وتدمير الباقيين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بيّنة على ثبوت كونه من المرسلين **﴿وانكم لتمرون عليهم مصبحين﴾** خاطب بهذا العرب، أو أهل مكة على الخصوص أي: تمرّون على منازلهم التي فيها آثار العذاب وقت الصباح **﴿وبالليل﴾**، والمعنى: تمرّون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام، ورجوعكم منه نهراً، وليلاً **﴿أفلا تعقلون﴾** ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتبرين **﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾** يونس هو: ذو النون، وهو: ابن متى. قال المفسرون: وكان يونس قد وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم، وقصد البحر، وركب السفينة، فكان بذهابه إلى البحر كالفار من مولاه، فوصف بالإباق، وهو معنى قوله: **﴿إذ أبق إلى الفلك المشحون﴾** وأصل الإباق الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به. وقال المبرد: تأويل أبق بباعد أي: ذهب إليه، ومن ذلك قولهم: عبد أبق.

وقد اختلف أهل العلم هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه، أو بعده؟ ومعنى المشحون: المملوء **﴿فساهم فكان من المبحضين﴾** المساهمة أصلها المغالبة، وهي: الاقتراع،

أمة محمد ﷺ المرحومة المغفور المثاب لها، فاشرفت على الوادي، فإذا طوله ثمانون ذراعاً وأكثر، فقال: من أنت؟ فقلت: أنس خادم رسول الله ﷺ، فقال: أين هو؟ فقلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فاته، وأقرئه مني السلام، وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فجاء حتى عانقه، وقعدا يتحدثان، فقال له: يا رسول الله إني إنما أكل في كل سنة يوماً، وهذا يوم فطري، فأكل أنا وأنت، فنزلت عليهما المائدة من السماء خبز، وحث، وكرفس، فاكلا، وأطعماني، وصليا العصر، ثم ودَّعه، ثم رأيته مرَّ على السحاب نحو السماء. قال الذهبي متعباً لتصحيح الحاكم له: بل موضوع قبح الله من وضعه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿تَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: صنماً. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْلِيسِينَ﴾ قال: نحن آل محمد آل ياسين. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث الله يونس إلى أهل قريته، فربُّوا عليه ما جاءهم به، فامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليهم إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا، وكذا. فأخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذي وعد الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه، فإن خرج من بين أظهرهم، فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبيحتها أبلغ، فراه القوم، فحذروا، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرَّقوا بين كل دابة، وولدها، ثم عجوا إلى الله، وأنابوا، واستقالوا، فأقالهم الله، وانتظر يونس الخبر عن القرية، وأهلها حتى مرَّ به ماراً، فقال: ما فعل أهل القرية؟ قال: إن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها، ثم عجوا إلى الله، وتابوا إليه، فتقبل منهم، وأخَّر عنهم العذاب، فقال يونس عند ذلك: لا أرجع إليهم كذاباً أبداً، ومضى على وجهه، وقد قدَّمنا الكلام على قصته، وما روي فيها في سورة يونس، فلا نكرهه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَسَاهُمْ﴾ قال: اقترح ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ قال: المقروعين. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قال: مسيء. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿قُلُوبًا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال: من المصلين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَنَبِّئْنَاهُ بِأَلْعَاءِ﴾ قال: ألقيناه بالساحل. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ قال: القرع. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عنه أيضاً قال: اليقطين كل شيء يذهب على وجه الأرض. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذ

اليقطين يقال: لكل شجرة ليس لها ساق، بل تمتد على وجه الأرض نحو الدباء، والبطيخ، والحنظل، فإن كان لها ساق يقلها، فيقال لها: شجرة فقط، وهذا قول الحسن، ومقاتل، وغيرهما. وقال سعيد بن جبير: هو كل شيء ينبت، ثم يموت من عامه. قال الجوهرى: اليقطين ما لا ساق له من شجر كشجر القرع، ونحوه. قال الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان أي: أقام به، فهو يفعل، وقيل: هو: اسم أعجمي. قال المفسرون: كان يستظل بظلها من الشمس، وقيض الله له أروية من الوحش تروح عليه بكرة، وعشية، فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه، ونبت شعره، ثم أرسله الله بعد ذلك. وهو معنى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر، وجرى له ما جرى بعد هربه كما قصه الله علينا في هذه السورة، وهم: أهل نينوى. قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل. وقد مر الكلام على قصته في سورة يونس مستوفى، «أو» في أو يزيدون قيل: هي بمعنى: الواو، والمعنى: ويزيدون. وقال الفراء: أو ها هنا بمعنى: بل، وهو قول مقاتل، والكلي. وقال المبرد، والزجاج، والأخفش: أو هنا على أصله، والمعنى: أو يزيدون في تقديركم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف، أو يزيدون، فالشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين. قال مقاتل، والكلي: كانوا يزيدون عشرين ألفاً. وقال الحسن: بضعا وثلاثين ألفاً. وقال سعيد بن جبير: سبعين ألفاً. وقرأ جعفر بن محمد، ويزيدون بون ألف الشك.

وقد وقع الخلاف بين المفسرين هل هذا الإرسال المذكور هو الذي كان قبل التقام الحوت له، وتكون الواو في: وأرسلناه لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت، وبين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق، وتأخير ما تأخر، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع على قولين؟ وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر، أو لم يرسل إلا بعد ذلك؟ والراجح: أنه كان رسولا قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس، وبقي مستمراً على الرسالة، وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته، ورسالته ﴿فَأَمْنُوا فَمَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: وقع منهم الإيمان بعد ما شاهدوا أعلام نبوته، فمعتهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم، ومنتهى أعمارهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: إلياس هو: إدريس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «الخضر هو: إلياس»، وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وضعفه عن أنس قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزل منزلاً، فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم اجعلني من

التقدير: وما منا إلا من له مقام معلوم، رجح البصريون التقدير الأول، ورجح الكوفيون الثاني. قال الزجاج: هذا قول الملائكة، وفيه مضمهر. المعنى: وما منا ملك إلا له مقام معلوم. ثم قالوا: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ أي: في مواقف الطاعة. قال قتادة: هم: الملائكة صفوا أقدامهم. وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ أي: المنزهون لله المقسوسون له عما أضافه إليه المشركون، وقيل: المصلون، وقيل: المراد بقولهم المسبحون: مجموع التسبيح باللسان، وبالصلاة، والمقصود أن هذه الصفات هي: صفات الملائكة، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله ﴿وإن كانوا ليقولون﴾ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين أي: كانوا قبل المبعث المحمدي إذا عبروا بالجهل قالوا: ﴿لو أن عندنا نكراً من الأولين﴾ أي: كتاباً من كتب الأولين كالتوراة، والإنجيل ﴿لكننا عباد الله المخلصين﴾ أي: لأخلصنا العبادة له، ولم نكفر به، وإن في قوله: ﴿وإن كانوا﴾ هي: المخففة من الثقل، وفيها ضمير شأن محذوف، واللام هي: الفارقة بينها، وبين النافية أي: وإن الشأن كان كفار العرب ليقولون الخ، والفاء في قوله: ﴿فكفروا به﴾ هي: الفصيحة الدالة على محذوف مقدر في الكلام. قال الفراء: تقديره: فجاءهم محمد بالذكر، فكفروا به، وهذا على طريق التعجب منهم ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: عاقبة كفرهم، ومغبتها، وفي هذا تهديد لهم شديد، وجملة ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعباننا المرسلين﴾ مستأنفة مقررة للوعيد، والمراد بالكلمة: ما وعدهم الله به من النصر، والظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة: قوله سبحانه: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: 21] وقال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم، والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا، فإنه قال: ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ * وإن جنننا لهم الغالبون ﴿فهذه هي الكلمة المذكورة سابقاً، وهذا تفسير لها، والمراد بجند الله حزبه، وهم الرسل، وأتباعهم. قال الشيباني: جاء هنا على الجمع: يعني: قوله ﴿لهم الغالبون﴾ من أجل أنه رأس آية، وهذا الوعد لهم بالنصر، والغلبة لا ينافية انهزامهم في بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو: انتصارهم على الأعداء، وغلبتهم لهم، فخرج الكلام مخرج الغالب، على أن العقاب المحمود لهم على كل حال، وفي كل موطن كما قال سبحانه: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: 128]، ثم أمر الله سبحانه رسوله بالإعراض عنهم، والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات، والضلالات، فقال: ﴿فتول عنهم حتى حين﴾ أي: أعرض عنهم إلى مدة معلومة عند الله سبحانه، وهي: مدة الكف عن القتال. قال السدي، ومجاهد: حتى نامرك بالقتال. وقال قتادة: إلى الموت، وقيل: إلى يوم بدر، وقيل: إلى يوم فتح مكة، وقيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وأيصروهم فسوف يبصرون﴾ أي: وأيصروهم إذا نزل بهم العذاب بالقتل،

أنفسهم يحضرون للحساب، والأول أولى، لأن الإحضار إذا أطلق، فالمراد العذاب. وقيل: المعنى: ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة. ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أو هو حكاية لتزنيه الملك لله عز وجل عما وصفه به المشركون، والاستثناء في قوله: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ منقطع، والتقدير: لكن عباد الله المخلصين بريئون عن أن يصفوا الله بشيء من ذلك. وقد قرئ بفتح اللام، وكسرهما، ومعناها ما بيناه قريباً. وقيل: هو استثناء من المحضرين أي: إنهم يحضرون النار إلا من أخلص، فيكون متصلاً لا منقطعاً، وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة. ثم خاطب الكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص، فقال: ﴿فإنكم وما تعبدون﴾ * ما أنتم عليه بفاتنين﴾ أي: فإنكم، وآلهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بفاتنين على الله بإفساد عبادته، وإضلالهم، وعلى متعلقة بفاتنين. والواو في وما تعبدون إما للعطف على اسم إن، أو هو بمعنى: مع، وما موصولة، أو مصدرية أي: فإنكم، والذي تعبدون، أو وعبادتكم، ومعنى: فاتنين: مضلين، يقال: فتنت الرجل، وافتنته، ويقال: فتته على الشيء، وبالشئ كما يقال: أضله على الشيء، وأضله به. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: فتنته، وأهل نجد يقولون: أفتنته، ويقال: فتن فلان على فلان امرأته أي: أقسدها عليه، فالفتنة هنا بمعنى: الإضلال، والإفساد. قال مقاتل: يقول: ما أنتم بمضلين أحداً بآلهتكم إلا من قدر الله له أن يصلي الجحيم، «وما في ﴿وما أنتم﴾ نافية و ﴿أنتم﴾ خطاب لهم، ولمن يعبدونه على التغليب. قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون فما علمت أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدر الله عز وجل عليه أن يضل، ومنه قول الشاعر:

فردفتنته كيداً عليه وكان لنا فاتناً
أي: مصلاً ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾ قرأ الجمهور (صال) بكسر اللام؛ لأنه منقوص مضاف حذف الياء لالتقاء الساكنين، وحمل على لفظ من، وأفرد كما أفرد هو. وقرأ الحسن، وابن أبي عبيدة بضم اللام مع واو بعدها، وروي عنهما: أنهما قرأ بضم اللام بدون واو. فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملاً على معنى: من، وحذفت نون الجمع للإضافة، وأما بدون الواو، فيحتمل أن يكون جمعاً، وإنما حذفت الواو خطأ كما حذفت لفظاً، ويحتمل أن يكون مفرداً، وحقه على هذا كسر اللام. قال النحاس: وجماعة أهل التفسير يقولون: إنه لحن؛ لأنه لا يجوز هذا قاض المدينة، والمعنى: أن الكفار وما يعبدونه لا يقرون على إضلال أحد من عباد الله إلا من هو من أهل النار، وهم المصرون على الكفر، وإنما يصرون على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة، وإنه ممن يصلي النار أي: يدخلها. ثم قال الملائكة مخبرين للنبي ﷺ كما حكاه الله سبحانه عنهم: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾، وفي الكلام حذف، والتقدير: وما منا أحد، أو وما منا ملك إلا له مقام معلوم في عبادة الله. وقيل:

والجحيم. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: لا تفتنون إلا من هو صال الجحيم. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ قال: الملائكة ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ قال: الملائكة. وأخرج محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد، أو قائم، وذلك قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ»». وأخرج محمد بن نصر، وابن عساكر عن العلاء بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أطت السماء، وحق لها أن تظط، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكم، أو ساجد، ثم قرأ: ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ»». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: «إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا، وعليه جبهة ملك، أو قدماء قائماً، أو ساجداً، ثم قرأ ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ»». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن مردويه عن أبي نر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أطت، وحق لها أن تظط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله». وقد ثبت في الصحيح، وغيره: «أن النبي ﷺ أمر الصحابة أن يصفوا كما تصف الملائكة عند ربهم، فقالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يقيمون الصفوف المقامة، ويتراصون في الصف». وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْ أَن عَشِيرَتَنَا نَذَرْنَا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: لما جاء المشركين من أهل مكة نكر الأولين، وعلم الآخرين كفروا بالكتاب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: «صبح رسول الله ﷺ خبيراً، وقد خرجوا بالمساحي، فلما نظروا إليه قالوا: محمد، والحميس، فقال: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين» الحديث. وأخرج ابن سعد، وابن مردويه من طريق سعيد، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلمتم على المرسلين، فسلموا علي، فإنما أنا بشر من المرسلين». وأخرج ابن مردويه من طريق أبي العوام، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً نحوه بأطول منه. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن مردويه، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين»». وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: كنا نعرف انصراف رسول الله ﷺ من الصلاة بقوله: «سبحان ربك» إلى

والأسر، فسوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار، وعبر بالإبصار عن قرب الأمر أي: فسوف يبصرون عن قريب. وقيل: المعنى: فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة. ثم هدهم بقوله سبحانه: ﴿فَتَبْعُذَابُنَا يُسْتَعْجِلُونَ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم: متى هذا العذاب؟ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: إذا نزل عذاب الله لهم بفنائهم، والساحة في اللغة: فناء الدار الواسع. قال الفراء: نزل بساحتهم، ونزل بهم سواء. قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل، قيل: المراد به نزول رسول الله ﷺ بساحتهم يوم فتح مكة. قرأ الجمهور (نزل) مبنياً للفاعل. وقرأ عبد الله بن مسعود على البناء للمفعول، والجار والمجرور قائم مقام الفاعل ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: بنس صبح الذين أنذروا بالعذاب، والمخصوص بالذم محذوف أي: صباحهم. وخص الصباح بالذكر: لأن العذاب كان يأتهم فيه. ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيداً للوعيد بالعذاب، فقال: ﴿وَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَابْصُرْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾، وحذف مفعول أبصر ما هنا، وذكره أولاً إما لدلالة الأول عليه، فتركه هنا اختصاراً، أو قصداً إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف. وقيل: هذه الجملة المراد بها أحوال القيامة، والجملة الأولى المراد بها عذابهم في الدنيا، وعلى هذا فلا يكون من باب التأكيد، بل من باب التأسيس. ثم نزه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم، فقال: ﴿سَبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ العزة: الغلبة، والقوة، والمراد: تنزيهه عن كل ما يصفونه به مما لا يليق بجناحه الشريف، ورب العزة بدل من ربك. ثم نكر ما يدل على تشريف رسله، وتكريمهم، فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الذين أرسلهم إلى عباده، وبلغوا رسالاته، وهو من السلام الذي هو: التحية، وقيل: معناه: أمن لهم، وسلامة من المكروه ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين، ومنذرين، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم، وما يثنون عليه به، وقيل: إنه الحمد على هلاك المشركين، ونصر الرسل عليهم، والأولى أنه حمد الله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيد حذف المحمود عليه، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرر في علم المعاني، والحمد هو: الثناء الجميل بقصد التعظيم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجْعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِيسًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ قال: فإنكم يا معشر المشركين، وما تعبدون يعني: الآلهة ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ قال: بمضلين ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ يقول: إلا من سبق في علمي أنه سيصلى الجحيم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية يقول: إنكم لا تصلون أنتم، ولا أضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال

فيه نذكركم] [الأنبياء: 10] أي: شرفكم، وقيل: أي: ذي الموعظة.

واختلف في جواب هذا القسم ما هو؟ فقال الزجاج، والكسائي، والكوفيون غير الفراء: إنه قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ [ص: 64]، وقال الفراء: لا نجده مستقيماً لتأخره جداً عن قوله: ﴿وَالْقُرْآنُ﴾، ورجح هو، وثعلب: أن الجواب قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، وقال الأخفش: الجواب هو: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذِبَ الرِّسْلِ فَحَقٌّ عِقَابُ﴾ [ص: 14]، وقيل: هو صاد، لأن معناه: حق، فهو: جواب لقوله: ﴿وَالْقُرْآنُ﴾ كما تقول: حقاً والله، وجب والله. ذكره ابن الأنباري، وروي أيضاً عن ثعلب، والفراء، وهو مبني على أن جواب القسم يجوز تقدّمه، وهو ضعيف. وقيل: الجواب محذوف، والتقدير: والقُرْآنُ ذي الذكر لتبعثن، ونحو ذلك. وقال ابن عطية: تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار، والقول بالحنف أولى. وقيل: إن قوله: ﴿صَ﴾ مقسم به، وعلى هذا القول تكون الواو في ﴿وَالْقُرْآنُ﴾ للعطف عليه، ولما كان الإقسام بالقُرْآن دالاً على صدقه، وأنه حق، وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، فاضرب عن ذلك، وكأنه قال: لا ريب فيه قطعاً، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه. بل هم في عِزَّةٍ عن قبول الحق أي: تكبر، وتجبر. وشقاق أي: امتناع عن قبول الحق، والعِزَّة عند العرب: الغلبة، والقهر، يقال: من عزَّ بَرَّ أي: من غلب سلب، ومنه ﴿وَعِزَّتِي فِي الْخُطَابِ﴾ [ص: 23] أي: غلبني، ومنه قول الشاعر:

يعزُّ على الطريق بمنكبه كما انترك الخليع على القداح
والشقاق: مأخوذ من الشق، وقد تقدّم بيانه. ثم خوّفهم سبحانه، وهذّهم بما فعله بمن قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني: الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل أي: كم أهلكنا من الأمم الخالية الذين كانوا أمنع من هؤلاء، وأشدّ قوة، وأكثر أموالاً، وكَم هي: الخبرية الدالة على التكرير، وهي في محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به، ومن قرن تمييز، «ومن» في ﴿مَنْ قَبْلِهِمْ﴾ هي لابتداء الغاية ﴿فَنَادُوا وَلَااتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ النداء هنا: هو نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب بهم، وليس الحين حين مناص. قال الحسن: نادوا بالتوبة، وليس حين التوبة، ولا حين ينفع العمل. والمناص مصدر ناص ينوص، وهو الفتور، والتأخر. ولات بمعنى: ليس بلغة أهل اليمن. وقال النحويون: هي: لا التي بمعنى: ليس زينت عليها التاء كما في قولهم: ربّ، وربت، وثمّ وثمت قال الفراء: النوص التأخر، وأنشد قول امرئ القيس:

أمن نكر ليليلي إذ نأتك تنوص

قال: يقال: ناص عن قرنه ينوص نوصاً أي: قرّ، وزاغ. قال الفراء: يقال: ناص ينوص: إذا تقدّم. وقيل: المعنى: أنه قال بعضهم لبعض مناص أي: عليكم بالفرار، والهزيمة، فلما اتّاهم العذاب قالوا: مناص، فقال الله: ﴿وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال سيبويه: لات مشبهة بليس، والاسم فيها مضمّر أي:

ليس حيننا حين مناص. قال الزجاج: التقدير وليس أواننا. قال ابن كيسان: والقول كما قال سيبويه، والوقف عليها عند الكسائي بالهاء، وبه قال المبرد، والأخفش. قال الكسائي، والفراء، والخليل، وسيبويه، والأخفش: والتاء تكتب منقطعة عن حين، وكذلك هي في المصاحف. وقال أبو عبيد: تكتب متصلة بحين، فيقال: (ولا تحين)، ومنه قول أبي، وجرة السعدي:

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ما من مطعم
وقد يستغنى بحين عن المضاف إليه كما قال الشاعر:
تنكر حبّ ليليلي لات حيناً وامسى الشيب قد قطع القرينا
قال أبو عبيد: لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين، وأوان، والآن. قلت: بل قد يزيدها في غير ذلك كما في قول الشاعر:

فلتعرفن خلائفا مشمولة ولتندمن ولات ساعة مندم
وقد أنشد الفراء هذا البيت مستديلاً به على أن من العرب من يخفض بها، وجملة ﴿وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير نادوا. قرأ الجمهور (لات) بفتح التاء، وقرئ (لات) بالكسر كجبر ﴿وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم في عِزَّةٍ وشقاق أن جاءهم منذر منهم أي: رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر، وأن وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض أي: من أن جاءهم، وهو كلام مستأنف مشتمل على نكر نوع من أنواع كفرهم ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر أي: هذا المدّعي للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات كذاب فيما يدّعيه من أن الله أرسله. قيل: ووضع الظاهر موضع المضمّر لإظهار الغضب عليهم وأن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون في الكفر. ثم أنكروا ما جاء به ﷺ من التوحيد، وما نفاه من الشركاء الله، فقالوا: ﴿اجْعَلِ الْكُفَّةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ أي: صيرها إلهاً واحداً، وقصرها على الله سبحانه ﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ أي: لأمر بالغ في العجب إلى الغاية. قال الجوهري: العجيب الأمر الذي يتعجب منه. وكذلك العجاب بالضم، والعجاب بالتشديد أكثر منه، قرأ الجمهور (عجَاب) مخففاً. وقرأ عليّ، والسلمي وعيسى بن عمر، وابن مقسم بتشديد الجيم. قال مقاتل: عجاب يعني: بالتخفيف لغة أزد شنوءة، قيل: والعجَاب بالتخفيف، والتشديد يدلان على أنه قد تجاوز الحد في العجب، كما يقال: الطويل الذي فيه طول. والطوال الذي قد تجاوز حدّ الطول، وكلام الجوهري يفيد اختصاص المبالغة بعجاب مشدّد الجيم لا بالمخفف، وقد قدّمنا في صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات ﴿وَانْطَلِقِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ مَرَادِ الْمَلَائِكَةِ﴾ الإشراف كما هو مقرر في غير موضع من تفسير الكتاب العزيز أي: انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب كما تقدم قائلين ﴿أَنْ أَمْشُوا﴾ أي: قائلين

لبعضهم بعضاً أمضوا على ما كنتم عليه، ولا تدخلوا في دينه ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ أي: اثبتوا على عبادتها، وقيل: المعنى: وانطلقوا لأشراف منهم، فقالوا للعوام: امشوا، وأصبروا على آلِهَتكم، و «أن» في قوله: ﴿إِنْ أَمَشُوا﴾ هي: المفسرة للقول المقدّر، أو لقوله: «وانطلق»، لأنه مضمن معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدّر، أو للمذكور أي: بأن امشوا. وقيل: المراد بالانطلاق: الاندفاع في القول، وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولايتها أي: اجتمعوا، واكثروا، وهو بعيد جداً، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق، والمشي بحقيقتهما، وخلاف ما تقدم في سبب النزول، وجملة ﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل لما تقدم من الأمر بالصبر أي: يريده محمد بنا، وبآلهتنا، ويودّ تمامه، ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً، فيتحكم فينا بما يريد، فيكون هذا الكلام خارجاً مخرج التحذير منه، والتنفير عنه. وقيل: المعنى: إن هذا الأمر يريده الله سبحانه، وما أراد، فهو كائن لا محالة، فاصبروا على عبادة آلِهَتكم. وقيل: المعنى: إن دينكم لشيء يراد أي: يطلب، ليؤخذ منكم، وتغلبوا عليه، والأوّل أولى ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد في الملة الآخرة. وهي: ملة النصرانية، فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام، كذا قال محمد بن كعب القرظي، وقتادة، ومقاتل، والكلبي، والسدي. وقال مجاهد: يعنون: ملة قريش، وروي مثله عن قتادة أيضاً. وقال الحسن: المعنى: ما سمعنا أن هذا يكون آخر الزمان. وقيل: المعنى: ما سمعنا من اليهود، والنصارى أن محمداً رسول ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُفُلًا﴾ أي: ما هذا إلا كذب اختلقه محمد، وافتراه. ثم استنكروا أن يخصّ الله رسوله بمزية النبوة دونهم، فقالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ والاستفهام للإنكار أي: كيف يكون ذلك، ونحن الرؤساء، والأشراف. قال الزجاج: قالوا: كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا، ونحن أكبر سناً، وأعظم شرفاً منه، وهذا مثل قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31] فانكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء. ولما نكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله ﷺ دونهم بين السبب الذي لأجله تركوا تصديق رسول الله ﷺ فيما جاء به، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ نَكْرِي﴾ أي: من القرآن، أو الوحي لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، وإماليهم لللاله الدالة على أنه حقّ منزل من عند الله ﴿بَلْ لَمَّا يَنْوِقُوا عَذَابَ﴾ أي: بل السبب أنهم لم ينوقوا عذابي، فاغترّوا بطول المهلة، ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك، والشكّ لصنّوا ما جثت به من القرآن، ولم يشكوا فيه ﴿لَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أي: مفاتيح نعم ربك، وهي النبوة، وما هو بونها من النعم حتى يعطوها من شاءوا، فما لهم، ولإنكار ما تفضل الله به على هذا النبي، واختاره له، واصطفاه لرسالته. والمعنى: بل أعندهم، لأن أم هي

ولو رام أسباب السماء يسلم
قال الربيع بن أنس: الأسباب أثق من الشعر، وأشد من الحديد، ولكن لا ترى. وقال السدي: ﴿فِي الْأَسْبَابِ﴾ في الفضل، والدين. وقيل: فليعملوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة، وهو قول أبي عبيدة. وقيل: الأسباب الحبال يعني: إن وجدوا حبالاً يصعدون فيها إلى السماء فعلاوا، والأسباب عند أهل اللغة كل شيء يتوصل به إلى المطلوب كائن ما كان. وفي هذا الكلام تهكم بكم، وتعجيز لهم ﴿جَنَدَ مَا هُنَاكَ مَهْزُومٍ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ هذا وعد من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالنصر عليهم، والظفر بهم، وجند مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم جند، يعني: الكفار مهزوم مكسور عما قريب، فلا تبال بهم، ولا تظن أنهم يصلون إلى شيء مما يضمرونه بك منا لكيد، و «ما» في قوله: ﴿مَا هُنَاكَ﴾ هي: صفة لجند لإفادة التعظيم، والتحقيق أي: جند أي جند. وقيل: هي زائدة، يقال: هزمت الجيش كسرته، وتهزمت القرية: إذا تكسرت، وهذا الكلام متصل بما تقدم، وهو قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تحزن لعزّتهم، وشقاقهم، فإنني أسلب عزّهم، وأهزم جمعهم، وقد وقع ذلك، وش الحمد في يوم بدر، وفيما بعده من مواطن الله.

وقد أخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: سئل جابر بن عبد الله، وابن عباس عن ﴿ص﴾، فقال: لا ندري ما هو. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: ص محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عنه ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ قال: ذي الشرف. وأخرج أبو داود الطيالسي، وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿فَنَادُوا وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال: ليس بحين نزو، ولا فرار. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه في الآية قال: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تنكرت ليلى لات حين تنكر وقد بنت منها والمناص بعيد
وأخرج عنه أيضاً في الآية قال: ليس هذا حين زوال. وأخرج ابن المنذر من طريق عطية عنه أيضاً قال: لا حين فرار. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس في

لبعضهم بعضاً أمضوا على ما كنتم عليه، ولا تدخلوا في دينه ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ أي: اثبتوا على عبادتها، وقيل: المعنى: وانطلقوا لأشراف منهم، فقالوا للعوام: امشوا، وأصبروا على آلِهَتكم، و «أن» في قوله: ﴿إِنْ أَمَشُوا﴾ هي: المفسرة للقول المقدّر، أو لقوله: «وانطلق»، لأنه مضمن معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدّر، أو للمذكور أي: بأن امشوا. وقيل: المراد بالانطلاق: الاندفاع في القول، وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولايتها أي: اجتمعوا، واكثروا، وهو بعيد جداً، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق، والمشي بحقيقتهما، وخلاف ما تقدم في سبب النزول، وجملة ﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل لما تقدم من الأمر بالصبر أي: يريده محمد بنا، وبآلهتنا، ويودّ تمامه، ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً، فيتحكم فينا بما يريد، فيكون هذا الكلام خارجاً مخرج التحذير منه، والتنفير عنه. وقيل: المعنى: إن هذا الأمر يريده الله سبحانه، وما أراد، فهو كائن لا محالة، فاصبروا على عبادة آلِهَتكم. وقيل: المعنى: إن دينكم لشيء يراد أي: يطلب، ليؤخذ منكم، وتغلبوا عليه، والأوّل أولى ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد في الملة الآخرة. وهي: ملة النصرانية، فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام، كذا قال محمد بن كعب القرظي، وقتادة، ومقاتل، والكلبي، والسدي. وقال مجاهد: يعنون: ملة قريش، وروي مثله عن قتادة أيضاً. وقال الحسن: المعنى: ما سمعنا أن هذا يكون آخر الزمان. وقيل: المعنى: ما سمعنا من اليهود، والنصارى أن محمداً رسول ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُفُلًا﴾ أي: ما هذا إلا كذب اختلقه محمد، وافتراه. ثم استنكروا أن يخصّ الله رسوله بمزية النبوة دونهم، فقالوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ والاستفهام للإنكار أي: كيف يكون ذلك، ونحن الرؤساء، والأشراف. قال الزجاج: قالوا: كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا، ونحن أكبر سناً، وأعظم شرفاً منه، وهذا مثل قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31] فانكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء. ولما نكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله ﷺ دونهم بين السبب الذي لأجله تركوا تصديق رسول الله ﷺ فيما جاء به، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ نَكْرِي﴾ أي: من القرآن، أو الوحي لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، وإماليهم لللاله الدالة على أنه حقّ منزل من عند الله ﴿بَلْ لَمَّا يَنْوِقُوا عَذَابَ﴾ أي: بل السبب أنهم لم ينوقوا عذابي، فاغترّوا بطول المهلة، ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك، والشكّ لصنّوا ما جثت به من القرآن، ولم يشكوا فيه ﴿لَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أي: مفاتيح نعم ربك، وهي النبوة، وما هو بونها من النعم حتى يعطوها من شاءوا، فما لهم، ولإنكار ما تفضل الله به على هذا النبي، واختاره له، واصطفاه لرسالته. والمعنى: بل أعندهم، لأن أم هي

من الأحزاب ﴿[ص: 11]؛ ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عدداً، وأقوى أبداناً، وأوسع أموالاً، وأعمالاً، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، ويجوز أن تكون خبراً، والمبتدأ قوله: ﴿وَعَادُ﴾ كذا قال أبو البقاء، وهو ضعيف، بل الظاهر أن عاد، وما بعده معطوفات على قوم نوح، والأولى أن تكون هذه الجملة خبراً لمبتدأ محذوف، أو بدلاً من الأمم المذكورة ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذِبُ الرِّسْلِ﴾ إن هي: النافية، والمعنى: ما كل حزب من هذه الأحزاب إلا كذب الرسل، لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل، أو هو من مقابلة الجمع بالجمع، والمراد تكذيب: كل حزب لرسوله، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما كل أحد من الأحزاب في جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل ﴿فَحَقُّ عِقَابٍ﴾ أي: فحق عليهم عقابي بتكذيبهم، ومعنى حق: ثبت، ووجب، وإن تأخر، فكانه واقع بهم، وكل ما هو آت قريب. قرأ يعقوب بإثبات الباء في (عقاب)، وحذفها الباقون مطابقة لرؤوس الآي ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صِحْحةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة، وهي: النفخة الكائنة عند قيام الساعة. وقيل: هي النفخة الثانية، وعلى الأول المراد: من عاصر نبينا ﷺ من الكفار، وعلى الثاني المراد كفار الأمم المذكورة أي: ليس بينهم، وبين حلول ما أعد الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية. وقيل: المراد بالصيحة: عذاب يفجؤهم في الدنيا كما قال الشاعر:

صاح الزمان بأل برمك صيحة خروا الشئبها على الأنقان
وجملة ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ في محل نصب صفة لصيحة. قال الزجاج: فواق، وفواق بفتح الفاء، وضمها أي: ما لها من رجوع، والفواق ما بين حلبيتي الناقة، وهو مشتق من الرجوع أيضاً، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين، وأفاق من مرضه أي: رجع إلى الصحة، ولهذا قال مجاهد، ومقاتل: إن الفواق الرجوع. وقال قتادة: ما لها من مثوية. وقال السدي: ما لها من إفاقة، وقيل: ما لها من مرد. قال الجوهري: ما لها من نظرة، وراحة وإفاقة، ومعنى الآية: أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم، فإذا جاءت لم ترجع، ولا ترد عنهم، ولا تصرف منهم، ولا تتوقف مقدار فواق ناقة، وهي ما بين حلبيتي الحالب لها، ومنه قول الأعشى:

حتى إذا فيقة في ضرعها اجتمعت جاءت لترضع شئ النفس لورضعها
والفيقة اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين، وجمعها فيق، وأفواق. قرأ حمزة، والكسائي ما لها من فواق بضم الفاء، وقرأ الباقون بفتحها. قال الفراء، وأبو عبيدة: الفواق بفتح الفاء الراحة أي: لا يفيقون فيها كما يفيق المريض، والمغشي عليه، وبالضم الانتظار ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قَطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لما سمعوا ما توعدهم الله به من العذاب قالوا هذه المقالة استهزاء، وسخرية، والقط في اللغة: النصيب من القط، وهو: القطع، وبهذا قال قتادة، وسعيد بن جبير، قال الفراء: القط في كلام العرب: الحظ والنصيب،

قوله: ﴿وَانْطَلِقَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الآية قال: نزلت حين انطلق اشراف قريش إلى أبي طالب، فكلّموه في النبي ﷺ. وأخرج ابن مربيوه عنه ﴿وَانْطَلِقَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ قال: أبو جهل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال: النصرانية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿فَلْيُرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ قال: في السماء.

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٥﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٦﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذِبُ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٧﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صِحْحةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا وَقَطَعْنَا قَلْبَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ آمَنَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرُ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَلَمِ إِنَّهُ أَوَّلُ ﴿٢٠﴾ إِنَّا سَخَرْنَا لِمَسَاءٍ سَمَ يَسِينُ وَالنَّاسِ وَالْأَشْرَاقِ ﴿٢١﴾ وَالنَّاسِ تَحْشُرُهُ كُلُّ لَمْ أَوَّلُ ﴿٢٢﴾ وَمَعَدْنَا مُلْكَهُمْ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ وَمَلَّ أَنْتَكَ نَبَأُ الْحَصَمِ إِذْ سَرُّوا الْيَحْرَابَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْثَ حَصَمَانِ بَنِي مُعَسَّأَ عَلَى بَعْضٍ فَتَكْفُرَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُسْطِطِ وَأَمِينًا إِلَى سِرِّهِ الْأَمْرِ ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَسْعَ وَنُصْنِ تَجْمَةً وَلَيْ تَجْمَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْبَلِيْنَا وَعَزَّيْ فِي الْخِطَابِ ﴿٢٦﴾ قَالَ لَقَدْ تَلَكَّ بِسْوَالٍ تَعْيِكَ إِنْ يَمَاجُؤُ وَإِنْ كِيرُكَ مِنْ لَقَطْلَةٍ بَيْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَصَلُوا الصَّلَاةَ وَقِيلَ تَاهُمْ وَكَلَّمَ دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَنَّهَ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٧﴾ فَفَرَّقْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ عِنَّا لَزَلَّةٌ وَسَخَّرْنَا مَحَاقِبَ ﴿٢٨﴾

لما ذكر سبحانه أحوال الكفار المعاصرين لرسول الله ﷺ ذكر أمثالهم ممن تقدّمهم، وعمل عملهم من الكفر والتكذيب، فقال: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قال المفسرون: كانت له لواتد يعذب بها الناس، وذلك أنه كان إذا غضب على أحد، وتد يديه، ورجليه، ورأسه على الأرض. وقيل: المراد بالأوتاد: الجموع، والجنود الكثيرة، يعني: أنهم كانوا يقرّون أمره، ويشيرون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا. قال ابن قتيبة: العرب تقول: هم في عزّ ثابت الأوتاد، وملك ثابت الأوتاد، يريدون ملكاً دائماً شديداً، وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت، ويقوم بالأوتاد. وقيل: المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم أي: وفرعون ذو الأبنية المحكمة. قال الضحاك: والبنيان يسمى أوتاداً، والأوتاد جمع وتد أقصحتها فتح الواو، وكسر التاء، ويقال: وتد بفتحهما، وودّ بإدغام التاء في الدال، وودت، قال الأصمعي: ويقال: وتد واند مثل شغل شاغل، وأنشد:

لاقت علي المأجديلاً واتدا ولم يكن يخلّفها المواعدا
﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ الآية الغيضة، وقد تقدّم تفسيرها، واختلاف القراءة في قراءتها في سورة الشعراء، ومعنى ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾: أنهم الموصوفون بالقوة، والكثرة كقولهم: فلان هو الرجل، وقريش، وإن كانوا حزباً كما قال الله سبحانه فيما تقدّم: ﴿حِجْدًا مَا هَالِكٌ مَهْزُومٌ

ومنه قيل: للصك قط. قال أبو عبيدة، والكسائي: القط الكتاب بالجوأز، والجمع القطوط، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته
بغبطة يعطي القطوط ويقاق
ومعنى يافق: يصلح، ومعنى الآية: سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم، وحظهم من العذاب، وهو مثل قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: 47، والعنكبوت: 53]. وقال السدي: سألوا ربهم، أن يمثل لهم منازلهم من الجنة، ليعلموا حقيقة ما يوعدون به، وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى: عجل لنا أرزاقنا، وبه قال سعيد بن جبير، والسدي. وقال أبو العالية، والكلبي، ومقاتل: لما نزل ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: 19، والانشقاق: 7] ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: 25] قالت قريش: زعمت يا محمد أنا نؤتي كتابنا بشمالنا، فعجل لنا قطننا قبل يوم الحساب. ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من أقوالهم الباطلة التي هذا القول المحكي عنهم من جملتها. وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿وَأَنْزَلْنَا عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ لما فرغ من ذكر قرون الضلالة، وأمم الكفر، والتكذيب، وأمر نبيه ﷺ بالصبر على ما يسمعه زاد في تسليته، وتأسيسه بذكر قصة داود، وما بعدها. ومعنى ﴿أَنْزَلْنَا عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾: أنكر قصته، فإنك تجد فيها ما تتسلى به، والأيد: القوة، ومنه رجل أيد أي: قوي، وتأييد الشيء: تقوى، والمراد: ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة. قال الزجاج: وكانت قوة داود على العبادة آتم قوة، ومن قوته ما أخبرنا به نبينا ﷺ: أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يصلي نصف الليل، وكان لا يفتر إذا لاقى العدو، وجملة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تحليل لكونه ذا الأيد، والأواب: الرجاء عن كل ما يكرهه الله سبحانه إلى ما يحبه، ولا يستطيع ذلك إلا من كان قوياً في دينه. وقيل: معناه: كلما ذكر ذنبه استغفر منه، وناب عنه، وهذا داخل تحت المعنى الأول، يقال: آب يثوب: إذا رجع ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: يقدس الله سبحانه، وينزهه عما لا يليق به. وجملة ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في محل نصب على الحال، وفي هذا بيان ما أعطاه الله من البرهان، والمعجزة، وهو: تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا نكر الله ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال. وقال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال نوي حسن، فهذا معنى: تسبيح الجبال، والأول أولى. وقيل: معنى ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: يصلين، و﴿مَعَهُ﴾ متعلق بسخرنا. ومعنى ﴿بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ قال الكلبي: غداة وعشية، يقال: أشرقت الشمس: إذا أضاءت، وذلك وقت الضحى. وأما شروقها، فطلوعها. قال الزجاج: شرقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معطوف على الجبال، وانتصاب محشورة على الحال من الطير أي: وسخرنا الطير حال كونها محشورة أي: مجموعة إليه تسبح الله معه. قيل:

كانت تجمعها إليه الملائكة. وقيل: كانت تجمعها الريح ﴿كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كل واحد من داود، والجبال، والطير رجاء إلى طاعة الله، وأمره، والضمير في له راجع إلى الله عز وجل. وقيل: الضمير لداود أي: لأجل تسبيح داود مسبح، فوضع أواب موضع مسبح، والأول أولى. وقد قدمنا أن الأواب: الكثير الرجوع إلى الله سبحانه ﴿وَوَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قُوْنَاهُ وَثَبَّتْنَاهُ بالنصر في المواطن على أعدائه وإلقاء الرعب منه في قلوبهم. وقيل: بكثرة الجنود ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾ المراد بالحكمة: النبوة، والمعرفة بكل ما يحكم به. وقال مقاتل: الفهم، والعلم. وقال مجاهد: العدل. وقال أبو العالية: العلم بكتاب الله. وقال شريح: السنة. والمراد بفصل الخطاب: الفصل في القضاء، وبه قال الحسن، والكلبي، ومقاتل. وحكى الواحدي عن الأكثر: أن فصل الخطاب الشهود، والإيمان؛ لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذا. وقيل: هو: الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ﴾ لما مدحه الله سبحانه بما تقدم نكره أرف ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له لما فيها من الأخبار العجيبة. قال مقاتل: بعث الله إلى داود ملكين، جبريل، وميكائيل؛ لينبهه على التوبة، فأتياه، وهو في محرابه. قال النحاس: ولا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم ها هنا الملكان، والخصم مصدر يقع على الواحد، والاثنتين، والجماعة. ومعنى ﴿تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ﴾: أتوه من أعلى سوره، ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع، وجاء بلفظ الجمع في تسوروا مع كونهم اثنين نظراً إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع. ومنه قول الشاعر:

وخصم غضاب قد نفضت لحامهم كنفض البرانين العراب المخاليا

والمحراب: الغرفة، لأنهم تسوروا عليه، وهو فيها، كذا قال يحيى بن سلام. وقال أبو عبيدة: إنه صدر المجلس، ومنه محراب المسجد. وقيل: إنهما كانا إنسيين، ولم يكونا ملكين، والعامل في «إذ» في قوله: ﴿إِذْ نَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ النبا أي: هل أتاك الخبر الواقع في وقت تسورهم، وبهذا قال ابن عطية، ومكي، وأبو البقاء. وقيل: العامل فيه أتاك. وقيل: معمول للخصم. وقيل: معمول لمحنوف أي: وهل أتاك نبا تحاكم الخصم. وقيل: هو معمول لتسوروا. وقيل: هو بدل مما قبله. وقال الفراء: إن أحد الطرفين المذكورين بمعنى: لما ﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ﴾، وذلك لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم، ودخلوا عليه بغير إذنه، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس. قال ابن الأعرابي: وكان محراب داود من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرتقي إليه أمني بحيلة، وجملة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا لداود لما فزع منهم، وارتفاع ﴿خَصْمَانِ﴾، على أنه خير مبتدأ محذوف أي: نحن خصمان، وجاء فيما سبق بلفظ الجمع، وهنا بلفظ التثنية لما نكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد، والمثنى، والمجموع، فالكل جائز. قال الخليل: هو كما تقول: نحن فعلنا كذا: إذا كنتم اثنين. وقال الكسائي:

مبتداً، وقليل خبره ﴿وَوَلَن دَاوُدَ إِنَّمَا فَتْنَاهُ﴾، قال أبو عمرو، والفراء: ظن يعني: أيقن. ومعنى ﴿فَتْنَاهُ﴾: ابتليناه، والمعنى: أنه عند أن تخاصمنا إليه، وقال ما قال علم عند ذلك أنه المراد، وأن مقصودهما التعريض به، وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته. قال الواحدي: قال المفسرون: فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه، فضحك، فعند ذلك علم داود بما أراده. قرأ الجمهور: ﴿فَتْنَاهُ﴾ بالتخفيف للقاء، وتشديد النون. وقرأ عمر بن الخطاب، والحسن، وأبو رجاء بالتشديد للقاء، والنون، وهي: مبالغة في الفتنة. وقرأ الضحاك (افتناه)، وقرأ قتادة، وعبيد بن عمير، وابن السمين (فتناه) بتخفيفهما، وإسناد الفعل إلى الملكين، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لثبته ﴿وَوَخَّرَ رَاكِعاً﴾ أي: ساجداً، وعبر بالركوع عن السجود، قال ابن العربي: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السجود، فإن السجود هو: الميل، والركوع هو: الانحناء، وأحدهما يدخل في الآخر، ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئة. ثم جاء في هذا على تسمية أحدهما بالآخر. وقيل: المعنى للسجود راكعاً أي: مصلياً. وقيل: بل كان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودهم ركوعاً ﴿وَوَانَابَ﴾ أي: رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه.

وقد اختلف المفسرون في ذنب داود الذي استغفر له، وتاب عنه على أقوال: الأول: أنه نظر إلى امرأة الرجل التي أراد أن تكون زوجة له، كذا قال سعيد بن جبير، وغيره. قال الزجاج: ولم يعتمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، وصارت الأولى له، والثانية عليه. القول الثاني: أنه أرسل زوجها في جملة الغزاة، الثالث: أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها، الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود، فزوجت منه لجلالته، فآغتم لذلك أوريا، فعتب الله عليه حيث لم يتركها لخطبها. الخامس: أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجن، ثم تزوج امرأته، فعاتبه الله على ذلك، لأن ذنوب الأنبياء، وإن صغرت، فهي عظيمة. السادس: أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدمنا.

وأقول: الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضاً لداود عليه السلام: أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها، ويضمها إلى نسائه، ولا ينافي هذا العصمة الكائنة للأنبياء، فقد نبهه الله على ذلك، وعرض له بإرسال ملائكته إليه، ليتخاصموا في مثل قصته حتى يستغفر لذنبه، ويتوب منه، فاستغفر وتاب. وقد قال سبحانه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121] وهو أبو البشر، وأول الأنبياء، ووقع لغیره من الأنبياء ما قصه الله علينا في كتابه. ثم أخبر سبحانه: أنه قبل استغفاره، وتوبته قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الذنب الذي استغفر منه. قال عطاء الخراساني، وغيره: إن داود بقي ساجداً أربعين يوماً حتى نبت الرعي حول وجهه، وغمر رأسه. قال ابن الأنباري: الوقف على قوله:

جمع لما كان خيراً، فلما انقضى الخبر، وجاءت المخاطبة أخير الاثنان عن أنفسهما، فقالا: خصمان، وقوله: ﴿يَبْغِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ هو على سبيل الفرض، والتقدير، وعلى سبيل التعريض: لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان. ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق، ونهايه عن الجور، فقالا: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ﴾ أي: لا تجر في حكمك، يقال: شط الرجل، وأشط شططاً، وإشططاً: إذا جار في حكمه. قال أبو عبيد: شططت عليه، وأشططت أي: جرت. وقال الأخفش: معناه: لا تسرف، وقيل: لا تفرط، وقيل: لا تمل. والمعنى متقارب، والأصل فيه البعد، من شطت الدار: إذا بعدت. قال أبو عمرو: الشطط مجاوزة القدر في كل شيء ﴿وَوَاهِدْنَا إِلَى سِوَاءِ الصَّرَاطِ﴾ سواء الصراط: وسطه. والمعنى: أرشدنا إلى الحق، واحملنا عليه. ثم لما أخبراه عن الخصومة إجمالاً شرعاً في تفصيلهما، وشرحها، فقالا: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً الْمَرَادُ بِالْأَخُوَةِ هُنَا: أَخُوَ الدِّينِ، أَوِ الصَّحْبَةِ، وَالنَّعْجَةُ هِيَ: الْأَنْثَى مِنَ الضَّأْنِ، وَقَدْ يُقَالُ لِبَقَرِ الْوَحْشِ: نَعْجَةٌ﴾ ﴿وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ قال الواحدي: النعجة البقرة الوحشية، والعرب تكني عن المرأة بها، وتشبه النساء بالنعاج من البقر. قرأ الجمهور (تسع وتسعون) بكسر التاء الفوقية. وقرأ الحسن، وزيد بن علي بفتحها. قال النحاس: وهي: لغة شاذة، وإنما عنى بـ «هذا»: داود؛ لأنه كان له تسع وتسعون امرأة، وعنى بقوله: ﴿وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [أوريا] زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود كما سيأتي بيان ذلك ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي: ضمها إلي، وأنزل لي عنها حتى أكفلها، وأصير بعلاً لها. قال ابن كيسان: أكلها كفلي، ونصيب ﴿وَوَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني، يقال: عزه يعزه عزاً: إذا غلبه. وفي المثل «من عزَّ برءً أي: من غلب سلب، والاسم العزة: وهي: القوة. قال عطاء: المعنى: إن تكلم كان أقصص مني. وقرأ ابن مسعود، وعبيد بن عمير (وعازني في الخطاب) أي: غلبني من المعازة، وهي: المغالبة ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجِكَ إِلَى نَعْجِهِ﴾ أي: بسؤاله نعجتك؛ ليضمها إلى نعلجه التسع والتسعين إن كان الأمر على ما تقول، واللام هي: الموطئة للقسم، وهي وما بعدها جواب للقسم المقدر. وجاء بالقسم في كلامه مبالغة في إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التي مع صاحبه، ولم يكن معه غيرها. ويمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الاعتراف من الآخر. قال النحاس: ويقال: إن خطيئة داود هي: قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾؛ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت ﴿وَأَنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ وهم: الشركاء، وأحدهم خليط: وهو المخالط في المال ﴿لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يتعدى بعضهم على بعض، ويظلمه غير مراع لحقه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فإنهم يتحامون ذلك، ولا يظلمون خليطاً، ولا غيره ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ أي: وقليل هم، وما زائدة للتوكيد، والتعجيب. وقيل: هي موصولة، وهم

﴿فغفرنا له ذلك﴾ تام، ثم يبتدئ الكلام بقوله: ﴿وإن له عندنا للزلفى وحسن مآب﴾ الزلفى: القربة، والكرامة بعد المغفرة لذنبه. قال مجاهد: الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة، والمراد بحسن المآب: حسن المرجع، وهو الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ما لها من فوق﴾ قال: من رجعة. ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطناً﴾ قال: سالوا الله أن يعجل لهم. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الزبير ابن عدي عنه ﴿عجل لنا قطناً﴾ قال: نصيبنا من الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿هذا الأيدى﴾ قال: القوة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الأواب المسبوح. وأخرج الدليمي عن مجاهد قال: سألت ابن عمر عن الأواب، فقال: سألت النبي ﷺ عنه، فقال: هو الذي ينكر ذنوبه في الخلاء، فيستغفر الله. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس قال: الأواب الموقن. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن عطاء الخراساني عنه قال: لم يزل في نفسي من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عنه أيضاً قال: لقد أتى علي زمان، وما أدري وجه هذه الآية ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾ حتى رأيت الناس يصلون الضحى. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عنه قال: كنت أمرُ بهذه الآية ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾ فما أدري ما هي؟ حتى حدثتني أم هانئ بنت أبي طالب: «أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الفتح، فدعا بوضوء، فتوضأ، ثم صلى الضحى، ثم قال: يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق». وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من وجه آخر عنه نحوه. والأحاديث في صلاة الضحى كثيرة جداً قد نكروناها في شرحنا للمنتقى. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: استعدى رجل من بني إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم، فقال: إن هذا غصيني بقرأ لي، فسأل داود الرجل عن ذلك، فجحد، فسأل الآخر البيبة، فلم يكن له بيبة، فقال لهما داود: قوماً حتى أنظر في أمركما، فقاما من عنده، فأتى داود في منامه فقيل له: اقتل الرجل الذي استعدى، فقال: إن هذه رؤيا، ولست أعجل حتى أثبت، فأتى الليلة الثانية في منامه، فامر أن يقتل الرجل، فلم يفعل، ثم أتى الليلة الثالثة، فقيل له: اقتل الرجل، أو تاتيكَ العقوبة من الله، فأرسل داود إلى الرجل، فقال: إن الله أمرني أن أقتلك، قال: تقتلني بغير بيبة، ولا تثبت؟ قال: نعم، والله لأنفذن أمر الله فيك، فقال الرجل: لا تعجل علي حتى أخبرك، إني والله ما أخذت بهذا الذنب، ولكنني كنت اغتلت والد هذا، فقتلته، فبذلك أخذت، فامر به داود، فقتل، فاشتدت هيبته في بني إسرائيل، وشد به ملكه، فهو قول الله: ﴿وشددنا ملكه﴾. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿وآتيناه الحكمة﴾ قال: أعطي الفهم. وأخرج ابن أبي حاتم، والدليمي عن أبي موسى الأشعري قال: أول من قال أما بعد داود عليه السلام ﴿ووهو﴾ هو

﴿فصل الخطاب﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الشعبي: أنه سمع زياد بن أبيه يقول: فصل الخطاب الذي أوتي داود: أما بعد. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن داود حث نفسه إذا ابتلي أنه يعتصم، فقيل له: إنك ستبتلي، وستعلم اليوم الذي تبتلي فيه، فخذ حذر، فقيل له: هذا اليوم الذي تبتلي فيه، فأخذ الزبور، وبخل المحراب، وأغلق باب المحراب، وأخذ الزبور في حجره، وأقعد منصفاً يعني: خادماً على الباب، وقال: لا تأذن لأحد علي اليوم، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كاحسن ما يكون للطير فيه من كل لون، فجعل يدور بين يديه، فدنا منه، فامكن أن يأخذه، فتناوله بيده، ليأخذه، فاستوفز من خلفه، فأطبق الزبور، وقام إليه، ليأخذه، فطار، فوقع على كوة المحراب، فدنا منه، ليأخذه، فافضى، فوقع على خص، فأشرف عليه لينظر أين وقع؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحوض، فلما رأت ظله حركت رأسها، فغطت جسدها أجمع بشعرها، وكان زوجها غائياً في سبيل الله، فكتب داود إلى رأس الغزاة: انظر أوريا، فأجعله في حملة التابوت، وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم، وإما أن يقتلوا، فقدمه في حملة التابوت، فقتل، فلما انقضت عتتها خطبها داود، فاشتربت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل، وكتب عليه بذلك كتاباً، فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان، وشب، فتسور عليه الملكان المحراب، وكان شائهما ما قص الله في كتابه، وخر داود ساجداً، فغفر الله له، وتاب عليه. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: ما أصاب داود بعد ما أصابه بعد القدر إلا من عجب عجب بنفسه، وذلك أنه قال: يا رب ما من ساعة من ليل، ولا نهار إلا، وعابد من آل داود يعبك يصلي لك، أو يسبح، أو يكبر، ونكر أشياء، ففكره الله ذلك، فقال: يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي، فلولا عوني ما قويت عليه، وعزتي، وجلالي لأكلنك إلى نفسك يوماً، قال: يا رب فأخبرني به، فأخبر به، فأصابته الفتنة ذلك اليوم. وأخرج أصل القصة الحكيم الترمذي في نوار الأصول، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً بإسناد ضعيف. وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين. عيسى مطولة. وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿إن هذا أخي﴾ قال: على ديني. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير، والطبراني عنه قال: ما زاد داود على أن ﴿فقال أكفنيها﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أكفنيها﴾ قال: ما زاد داود على أن قال: تحول لي عنها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وقليل ما هم﴾ يقول: قليل الذي هم فيه، وفي قوله: ﴿وظن داود أنما افتناه﴾ قال: اختبرناه.

الجنة، وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ تحليل للنهي عن اتباع الهوى، والوقوع في الضلال، والباء في ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ للسببية، ومعنى النسيان الترك أي: بسبب تركهم العمل لذلك اليوم قال الزجاج: أي: بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين، وإن كانوا ينثرون، وينكرون. وقال عكرمة، والسدي: في الآية تقييد، وتأخير، والتقدير: ولهم عذاب يوم الحساب ما نسوا أي: تركوا القضاء بالعدل، والأول أولى. وجملة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من أمر البعث، والحساب أي: ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً باطلاً خارجاً على الحكمة الباهرة، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا، فانتصاب باطلاً على المصدرية، أو على الحالية، أو على أنه مفعول لأجله، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى المنفي قبله، وهو مبتدأ، وخبره ﴿ظُلُّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: مظلونهم، فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض، ويقولون: إنه لا قيامة، ولا بعث، ولا حساب، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل أي: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم، وكفرهم. ثم وبخهم، وبكتهم فقال: ﴿إِنَّمَا نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطي في الآخرة كما تعطون، فنزلت، وأم هي: المنقطعة المقررة ببيل، والهمزة أي: بل أنجعل الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وعملوا بفرائضه كالمفسدين في الأرض بالمعاصي. ثم اضرب سبحانه إضراباً آخر، وانتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه، فقال: ﴿إِنَّمَا نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي: بل تجعل اتقياء المؤمنين كاشقياء الكافرين، والمنافقين، والمنهمكين في معاصي الله سبحانه من المسلمين، وقيل: إن الفجار هنا خاص بالكافرين، وقيل: المراد بالمتقين الصحابة، ولا وجه للتخصيص بغير مخصص، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ ارتفاع كتاب على أنه خير مبتدأ محذوف، وأنزلناه إليك صفة له، ومبارك خبر ثاني للمبتدأ ولا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب لما تقرر من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح، وقد جوزه بعض النحاة، والتقدير: القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد كثير الخير، والبركة. وقرئ (مباركاً) على الحال، وقوله: ﴿لِيَتَذَكَّرُوا﴾ أصله ليتنبهوا، فادغمت التاء في الدال، وهو متعلق بأنزلناه. وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر، والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بنون تدبر. قرأ الجمهور (ليتدبروا) بالإدغام. وقرأ أبو جعفر، وشيبة (لتدبروا) بالثاء الفوقية على الخطاب، ورويت هذه القراءة عن عاصم، والكسائي، وهي قراءة علي رضي الله عنه، والأصل لتتدبروا بثاءين، فحذف إحداهما تخفيفاً ﴿وَلْيَتَذَكَّرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: ليتعظ أهل العقول،

وأخرج أحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عنه أيضاً: أنه قال في السجود في صَ: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. وأخرج النسائي، وابن مردويه بسند جيد عنه أيضاً: «أن النبي ﷺ سجد في صَ، وقال: سجدها داود، ونسجدها شكرأ». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ سجد في صَ». وأخرج ابن مردويه عن أنس مثله مرفوعاً. وأخرج الدارمي، وأبو داود، وابن خزيمة، وابن حبان، والدارقطني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال: «قرأ رسول الله ﷺ، وهو على المنبر صَ، فلما بلغ السجدة نزل، فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تهياً للناس للسجود، فقال: إنما هي توبة، ولكني رأيتكم تهيتُم للسجود، فنزل، فسجد». وأخرج ابن مردويه، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ: «أنه ذكر يوم القيامة، فعظم شأنه، وشدته قال: ويقول الرحمن عزَّ وجلَّ لداود عليه السلام: مرَّ بين يدي، فيقول داود: يا ربَّ أخاف أن تَحْضَنِي خَطِيئَتِي، فيقول: خذْ بقدمي، فياخذُ بقدمه عزَّ وجلَّ، فيمرَّ، قال: فتلك الزلْفَى التي قال الله: ﴿وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزْلَفَى وَحَسَنَ مَّأَبٍ﴾»

يَدَّادُؤُا إِنَّا جَعَلْنٰكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَلَمَّ يَبْىِنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْطُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا النِّسَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِلِقَاءِ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿١٦٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مِيزَانًا
لْيَذْكُرُوا عَالَمَهُمْ وَلَسْتَ تَذْكُرُ أَزْوَاجَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٦٩﴾ وَوَعَدْنَا لِمَا تَدْعُونَ بِهِمُ الْمُعَذِّبُ
إِنَّهُ أَوْفَىٰ ﴿١٧٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَنِيَّةُ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِذْ هُمْ أَصْبَحُوا
حُبَّ الْخَيْرِ مِنْ ذِكْرِ رَبِّ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿١٧١﴾ رَدُّوهُمَا إِلَىٰ قَلْفُونِ سَتَا
بِالسُّوءِ وَالْأَعْمَانِ ﴿١٧٢﴾

لما تم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه، والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على ففرنا أي: وقلنا له ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ استخلفناك على الأرض، أو ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في الحكم بين العباد. وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل، وأن فيه شائبة من اتباع هوى النفس ﴿فَيُضِلْكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالنصب على أنه جواب للنهي، وفاعل يضلك هو الهوى، ويجوز أن يكون الفعل مجزوماً بالعطف على النهي، وإنما حرك الالتقاء الساكنين، فعلى الوجه الأول يكون المنهي عنه الجمع بينهما، وعلى الوجه الثاني يكون النهي عن كل واحد منهما على حدة. وسبيل الله: هو طريق الحق، أو طريق

والمنافع. «وعن» في ﴿عَنْ نَكْرِ رَبِّي﴾ بمعنى: على. والمعنى: أثرت حبّ الخيل على نكر ربي يعني: صلاة العصر ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ يعني: الشمس، ولم يتقدّم لها نكر، ولكن المقام يدلّ على ذلك. قال الزجاج: إنما يجوز الإضمار إذا جرى نكر الشيء، أو دليل النكر، وقد جرى هنا الدليل، وهو قوله: بالعشي. والتواري: الاستتار عن الأبصار، والحجاب: ما يحجبها عن الأبصار. قال قتادة، وكعب: الحجاب جبل أخضر محيط بالخلق، وهو جبل قاف، وسمي الليل حجاباً؛ لأنه يستر ما فيه، وقيل: الضمير في قوله: ﴿حتى توارت﴾ للخيل أي: حتى توارت في المسابقة عن الأعيان، والأول أولى، وقوله: ﴿رَوَّاهَا عَلَيَّ﴾ من تمام قول سليمان: أي: أعيدوا عرضها عليّ مرّة أخرى. قال الحسن: إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب الله، وقال: رَوَّاهَا عَلَيَّ أي: أعيدوها. وقيل: الضمير في رَوَّاهَا يعود إلى الشمس، ويكون ذلك معجزة له، وإنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلي العصر، والأول أولى، والفاء في قوله: ﴿قَطَّقْ مَسْحاً بالسوق والأعناق﴾ هي: الفصيحة التي تدل على محذوف في الكلام، والتقدير هنا: فرَّوْها عليه. قال أبو عبيدة: طفق يفعل مثل ما زال يفعل، وهو مثل ظلّ، وبات، وانتصاب مسحاً على المصدرية بفعل مقترّ أي: يمسح مسحاً؛ لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلاً مضارعاً، وقيل: هو مصدر في موضع الحال، والأول أولى. والسوق جمع ساق، والأعناق جمع عنق، والمراد: أنه طفق يضرب أعناقها، وسوقها، يقال: مسح علاوته أي: ضرب عنقه. قال الفراء: المسح هنا القطع، قال: والمعنى: أنه أقبل يضرب سوقها، وأعناقها؛ لأنها كانت سبب فوت صلاته، وكذا قال أبو عبيدة. قال الزجاج: ولم يكن يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له، وجائز أن يباح ذلك لسليمان، ويحضر في هذا الوقت. وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، فقال قوم: المراد بالمسح ما تقدّم. وقال آخرون: منهم الزهري وقاتدة: إن المراد به المسح على سوقها، وأعناقها لكشف الغبار عنها حباً لها. والقول الأول أولى بسياق الكلام، فإنه نكر أنه آخرها على نكر ربه حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم برَدِّها عليه؛ ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك، وما صدّه عن عبادة ربه، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردّها عليه هو كشف الغبار عن سوقها، وأعناقها بالمسح عليها بيده، أو بثوبه، ولا متمسك لمن قال: إن إفساد المال لا يصدر عن النبي، فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المتقرّر في شرعنا مع جواز أن يكون في شرع سليمان أن مثل هذا مباح على أن إفساد المال المنهي عنه في شرعنا إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح، وأما لغرض صحيح، فقد جاز مثله في شرعنا كما وقع منه ﷺ من إكفاء القدور التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة، ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر.

والألباب جمع لب وهو: العقل ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أخبر سبحانه: بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولداً، ثم مدح سليمان، فقال: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف أي: نعم العبد سليمان، وقيل: إن المدح هنا بقوله: نعم العبد هو لداود، والأول أولى، وجملة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل لما قبلها من المدح، والأواب: الرجاء إلى الله بالتوبة كما تقدم بيانه، والظرف في قوله: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ﴾ متعلق بمحذوف وهو: أنكر أي: أنكر ما صدر عنه وقت عرض الصافنات الجياد عليه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وقيل: هو متعلق بنعم، وهو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت، وقيل: متعلق بأواب، ولا وجه لتقييده كونه أواباً بذلك الوقت، والعشي من الظهر، أو العصر إلى آخر النهار، والصافنات جمع صافن.

وقد اختلف أهل اللغة في معناه، فقال القتيبي، والفراء: الصافن في كلام العرب: الواقف من الخيل، أو غيرها، وبه قال قتادة، ومنه الحديث: «من أحب أن يتمثل له الناس صفونا، فليتبوأ مقعده من النار»، أي: يديمون القيام له، واستدلوا بقول النابغة:

لنأقبة مضروبة بفنائها عتاق المهاري والجياد الصوافن ولا حجة لهم في هذا فإنه استدلال بمحل النزاع، وهو مصادرة؛ لأن النزاع في الصافن ماذا هو؟ وقال الزجاج: هو الذي يقف على إحدى اليدين، ويرفع الأخرى، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها حتى كأنه يقوم على ثلاث، وهي: الرجلان، وإحدى اليدين، وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه، وهي: علامة الفراهة. وأنشد الزجاج قول الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كانه مما يقوم على الثلاث كسير ومن هذا قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا فإن قوله: صفونا لا بد أن يحمل على معنى غيز مجرد القيام، لأن مجرد القيام قد استفيد من قوله: عاكفة عليه. وقال أبو عبيد: الصافن هو: الذي يجمع يديه، ويسويهما، وأما الذي يقف على سنبكه، فاسمه: المتخيم، والجياد جمع جواد، يقال: للفرس إذا كان شديداً العدو. وقيل: إنها الطوال الأعناق، مأخوذ من الجيد، وهو: العنق، قيل: كانت ملأه فرس، وقيل: كانت عشرين ألفاً، وقيل: كانت عشرين فرساً، وقيل: إنها خرجت له من البحر، وكانت لها أجنحة ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حَبَّ الْخَيْرِ عَنْ نَكْرِ رَبِّي﴾ انتصاب حب الخير على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى: أثرت. قال الفراء: يقول: أثرت حب الخير، وكل من أحب شيئاً، فقد أثره. وقيل: انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد، والناصب له أحببت، وقيل: هو مصدر تشبيهي أي: حباً مثل حب الخير، والأول أولى. والمراد بالخير هنا الخيل. قال الزجاج: الخير هنا الخيل. وقال الفراء: الخير، والخيل في كلام العرب واحد. قال النحاس: وفي الحديث: «الخيل معقود بئواصبيها الخير»، فكأنها سميت خيراً لهذا. وقيل: إنها سميت خيراً لما فيها من

يقاتل في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. وقيل غير ذلك. ثم بين سبحانه ما عاقبه به، فقال: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيهِ جَسَداً﴾ انتصاب جسداً على أنه مفعول القينا، وقيل: انتصابه على الحال على تأويله بالمشتق أي: ضعيفاً، أو فارغاً، والأول أولى. قال أكثر المفسرين: هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان هو شيطان اسمه: صخر، وكان متمرداً عليه غير داخل في طاعته، ألقى الله شبه سليمان عليه، وما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان، وذلك عند دخول سليمان الكنيف؛ لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف، فجاء صخر في صورة سليمان، فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان، فقعده على سرير سليمان، وأقام أربعين يوماً على ملكه، وسليمان هارب. وقال مجاهد: إن شيطاناً قال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فذهب ملكه، وقعد الشيطان على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان، فلم يقربهن، وكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفونني أطعموني؟ فيكنبوه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً، فشق بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً. وقيل: معنى أناب: رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه، وهذا هو الصواب، وتكون جملة ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ بدلاً من جملة أناب، وتفسيراً له أي: اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله. ثم لما قدم التوبة، والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته، فقال: ﴿وَهَبْ لِي مَلِكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ قال أبو عبيدة: معنى لا ينبغي لأحد من بعده: لا يكون لأحد من بعدي. وقيل: المعنى: لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلب، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته، وليس هذا من سؤال نبي الله سليمان عليه السلام للنبيا، وملكها، والشرف بين أهلها، بل المراد بسؤاله: الملك أن يتمكن به من إنفاذ أحكام الله سبحانه، والأخذ على يد المتمردين من عباده من الجن، والإنس، ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية في عباد الله، وجملة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده أي: فإنك كثير الهبات عظيم الموهوبات. ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته، وإعطائه لمسألته، فقال: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ أي: نزلناها له، وجعلناها منقاداً لأمره. ثم بين كيفية التسخير لها بقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً﴾ أي: لينة الهبوب ليست بالعاصف، مأخوذ من الرخاوة، والمعنى: أنها ريح لينة لا تزعزع، ولا تعصف مع قوة هبوبها، وسرعة جريها، ولا ينافي هذا قوله في آية أخرى ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء: 81] لأن المراد: أنها في قوة العاصفة، ولا تعصف. وقيل: إنها كانت تارة رخاء، وتارة عاصفة على ما يريده سليمان، ويشتهي، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: الذين آمنوا علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، والمفسدين في الأرض عتبة، وشيبة، والوليد. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ خيل خلقت على ما شاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ قال: صفون الفرس رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر، وفي قوله: ﴿الْجِيَادُ﴾ السراع. وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: ﴿حَبِّ الْخَيْرِ﴾ قال: الماء، وفي قوله: رَدُّهَا عَلَيَّ قال: الخيل ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾ قال: عقراً بالسيف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الصلاة التي فرط فيها سليمان صلاة العصر. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي في قوله: إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد قال: كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة، فعقرها. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن مسعود بقوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ قال: توارت من وراء ياقوتة خضراء، فخضرة السماء منها. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن عباس قال: كان سليمان لا يكلم أعظماً له، فلقد فاتته صلاة العصر، وما استطاع أحد أن يكلمه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يقول: من ذكر ربي ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾ بالسوق والأعناق. قال: قطع سوقها، وأعناقها بالسيف.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكاً لَا يُتَّبَعُ بِأَمْرِي إِلَّا بِإِذْنِكَ أَنزَلْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿١٦﴾ وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ أَلْفُ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَسْفَلِ ﴿١٧﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَتَنَّا أَوْ أَمْكُ بِمَعْرِ جِسَابِ ﴿١٨﴾ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْزٌ وَحَسَنَ نَّصَابِ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ابتليناه، واختبرناه. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين: تزوج سليمان امرأة من بنات الملوك، فعبدت الصنم في داره، ولم يعلم بذلك سليمان، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك. وقيل: إن سبب الفتنة: أنه تزوج سليمان امرأة يقال لها: جرادة، وكان يحبها حباً شديداً، فاختصم إليه فريقان: أحدهما: من أهل جرادة، فأحب أن يكون القضاء لهم، ثم قضى بينهم بالحق. وقيل: إن السبب: أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد. وقيل: إنه تزوج جرادة هذه، وهي مشركة؛ لأنه عرض عليها الإسلام، فقالت: اقتلني، ولا أسلم. وقال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غيرهم. وقيل: إن سبب فتنته ما ثبت في الحديث الصحيح: أنه قال: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس

فقال لها: هاتي خاتمي، فأعطته، فلما ليسه دانت له الإنس، والجن، والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاه قال: هاتي خاتمي، قالت: قد أعطيتك سليمان. قال: أنا سليمان، قالت: كذبت لست سليمان، فجعل لا يأتي أحداً يقول: أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله، وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان، فقالوا لهن: تتكرن من أمر سليمان شيئاً؟ قلن: نعم إنه يأتينا، ونحن نحض، وما كان يأتينا قبل ذلك، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتاباً فيها سحر، وكفر، فنفثوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها، وقرءوها على الناس، وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس، ويغلبهم، فأكفر الناس سليمان، فلم يزلوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم، فطرحه في البحر فتلقت سمكة، فاخذته، وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل، فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان، فقال: تحمل لي هذا السمك؟ قال: نعم، قال: بك، قال: بسمكة من هذا السمك، فحمل سليمان السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان، فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه، فلبسه، فلما لبسه دانت له الجن، والإنس، والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه، ولا يقدرون عليه حتى وجده يوماً نائماً، فجاءوا، فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ، فوثب، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انبسط معه الرصاص، فأخذه، فأوثقوه، وجاءوا به إلى سليمان، فأمر به، فنقر له تخت من رخام، ثم أدخله في جوفه، ثم شد بالنحاس، ثم أمر به، فطرح في البحر، فنلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فُتِنَا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ يعني: الشيطان الذي كان سيطر عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: صخر الجني تمثل على كرسيه على صورته. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَفْرِيَّتاً مِنَ الْجِنِّ جَعَلَ يَتَقَلَّبُ عَلَى الْبَارِحَةِ؛ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَكْنِي مِنْهُ، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سُورِ الْمَسْجِدِ حَتَّى تَصْبِحُوا، فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلَّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكاً لَا يَنْفِغِي أَحَدٌ مِنْ بَعْدِي﴾ فَزَدَهُ اللَّهُ خَاسِئاً. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَامَنْنَ﴾ يَقُولُ: اعْتَقَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ شَتَّتَ، وَأَمَسَكَ مِنْهُمْ مَنْ شَتَّتَ.

أي: حيث أراد. قال الزجاج: إجماع أهل اللغة، والمفسرين أن معنى حيث أصاب: حيث أراد، وحقيقته حيث قعد. وقال الأصمعي، وابن الأعرابي: العرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب. وقيل: إن معنى أصاب بلغة حمير: أراد، وليس من لغة العرب، وقيل: هو بلسان هجر، والأول أولى، وهو مأخوذ من إصابة السهم للغرض ﴿وَالشَّيَاطِينُ﴾ معطوف على الريح أي: وسخرنا له الشياطين، وقوله: ﴿كُلِّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ بدل من الشياطين أي: كل بناء منهم، وغواص منهم يبتون له ما يشاء من المباني، ويغوصون في البحر، فيستخرجون له الدر منه، ومن هذا قول الشاعر: إلا سليمان إذ قال الجليل له قم في البرية فلحدهما عن الغند وخبر الجن أنني قد أننت لهم يبنون تنمير بالصفايح والعمد ﴿وَأَخْرَجَ مَقْرَنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ﴾ معطوف على كل داخل في حكم البديل، وهم مردة الشياطين سخرنا له حتى قرنهم في الأصفا. يقال: قرنهم في الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة، والأصفا: الأغلال أحدها صغد. قال الزجاج: هي السلاسل، فكل ما شدته شداً وثيقاً بالحديد، وغيره، فقد صغفته. قال أبو عبيدة: صغفت الرجل، فهو: مصفود، وصغفته، فهو: مصغد، ومن هذا قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

فأبوا بالنهب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفينا
قال يحيى بن سلام: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم، ولم يسخرهم، والإشارة بقوله: «هذا» إلى ما تقدم من تسخير الريح، والشياطين له، وهو بتقدير القول أي: وقلنا له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الذي أعطيناك من الملك العظيم الذي طلبته ﴿فَامَنْنَ أَوْ أَمَسَكَ﴾ قال الحسن، والضحاك، وغيرهما أي: فأعط من شئت، وامنع من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء، أو الإمساك، أو عطاؤنا لك بغير حساب لكثرة، وعظمته. وقال قتادة: إن قوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع، وهذا لا وجه لقصر الآية عليه لو قرئنا أنه قد تقدم ذكره من جملة تلك المذكورات، فكيف يدعي اختصاص الآية به مع عدم ذكره ﴿وَإِنْ لَهُ عُنْدُنَا لَزُلْفَى﴾ أي: قربة في الآخرة ﴿وَحَسَنَ مَأْبٍ﴾، وحسن مرجع، وهو: الجنة.

وقد أخرج الفريابي، والحكيم الترمذي، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ فُتِنَا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوماً، وكان لسليمان امرأة يقال لها: جرادة، وكان بين بعض أهلها، وبين قوم خصومة، ففرض بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها، فأوحى الله إليه أن سيصيبك بلاء، فكان لا يدري آياته من السماء أم من الأرض؟ وأخرج النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، قال السيوطي بسند قوي: عن ابن عباس قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاه، فأعطى لجرادة خاتمه، وكانت جرادة امرأته، وكانت أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان،

وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَوْبَرَ إِذْ كَادَتْ رِيَّةُ أَبِي سَيِّئِ الشَّيْطَانُ يَنْصَبُ وَعَدَابُ
أَكْمَسَ رَجُلًا هَذَا مَقْسَلٌ بَارِدٌ وَكَرَّكَ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَنْهُمْ مِمَّنْ رَحِمَهُ

عين، فقلنا له: هذا مغتسل إلخ، وأسند المس إلى الشيطان مع أن الله سبحانه هو الذي مسه بذلك: إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك بذلك النصب، والعذاب. فقد قيل: إنه أعجب بكثرة ماله، وقيل: استغاثه مظلوم، فلم يغثه، وقيل: إنه قال ذلك على طريقة الالب، وقيل: إنه قال ذلك؛ لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه، فرفضوه، وأخرجوه من ديارهم، وقيل: المراد به. ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه، وابتلائه من تحسين الجزع، وعدم الصبر على المصيبة، وقيل غير ذلك. وقوله: ﴿ووهبنا له أهله﴾ معطوف على مقتر كانه قيل: فاغتسل، وشرب، فكشفنا بذلك ما به من ضرر، ووهبنا له أهله. قيل: أحياءهم الله بعد أن أماتهم، وقيل: جمعهم بعد تفرقهم، وقيل: غيرهم مثلهم، ثم زاده مثلهم معهم، وهو معنى قوله: ﴿ومثلهم معهم﴾ فكلنا مثلى ما كانوا من قبل ابتلائه، وانتصاب قوله: ﴿رحمة منا ونكرى لأولي الألباب﴾ على أنه مفعول لأجله أي: وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه، ولينذكر بحاله أولو الألباب، فيصبروا على الشدائد كما صبر، وقد تقدم في سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى، فلا نعيده ﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾ معطوف على اركض، أو على وهبنا؛ أو التقدير وقلنا له: ﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾، والضغث: عتكال النخل بشماريخه، وقيل: هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بياضها، وقيل: الحزمة الكبيرة من القضبان، وأصل المادة تدل على جمع المختلطات. قال الواحدي: الضغث ملء الكف من الشجر، والحشيش، والشماريخ ﴿فاضرب به ولا تحنث﴾ أي: اضرب بذلك الضغث، ولا تحنث في يمينك، والحنث: الإثم، ويطلق على فعل ما حلف على تركه، وكان أيوب قد حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلد.

واختلف في سبب ذلك، فقال سعيد بن المسيب: إنها جاءت بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز، فخاف خيانتها، فحلف ليضربنها. وقال يحيى بن سلام، وغيره: إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخله تقريباً إليه، فإنه إذا فعل ذلك برئ، فحلف ليضربنها إن عوفي مائة جلدة. وقيل: باعت نوابتها برغيفين إذ لم تجد شيئاً، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهاذا حلف ليضربنها. وقيل: جاءها إبليس في صورة طبيب، فدعته لمدواة أيوب، فقال: أدوايه على أنه إذا برئ قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواء، قالت: نعم، فأشارت على أيوب بذلك، فحلف ليضربنها.

وقد اختلف العلماء هل هذا خاص بأيوب، أو عام للناس كلهم؟ وأن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك. قال الشافعي: إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة، أو ضرباً، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينو بقلبه، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية، حكاه ابن المنذر عنه، وعن أبي ثور، وأصحاب الرأي. وقال عطاء: هو خاص بأيوب، ورواه ابن القاسم عن مالك. ثم اتنى الله سبحانه على أيوب، فقال: ﴿إنا وجدناه صابراً﴾

نَا وَذَكَرَ لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴿١٧﴾ وَخُذْ يَدَكَ مِنَّا فَاشْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ اللَّعْنَةُ مِنْهُ الْأَوَّلِ ﴿١٨﴾ وَذَكَرَ عَيْنًا مِنْهُمْ وَنَحْنُ أَوَّلِي الْأَعْيُنِ وَالْأَبْصَارِ ﴿١٩﴾ إِنَّا اخْتَصَمْتُمْ بِإِلَهِكُمْ ذِكْرِي الدَّارِ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّمَا عَيْنًا لِمَنِ الْمَصْطَفَيْنِ الْآخِيَارِ ﴿٢١﴾ وَذَكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْآخِيَارِ ﴿٢٢﴾ هَذَا ذِكْرٌ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَحْنًا مَنَابِ ﴿٢٣﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مِّنْهُمْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا يَنْعُونَ فِيهَا يُنْكِهِمْ مَكْرَهُمْ وَيَرْكَبُ ﴿٢٤﴾ وَعِنْدَهُمْ قَعَرَةٌ أَكْرَبُ أَبْصَارُ ﴿٢٥﴾ هَذَا مَا نُوَعِدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَذَا لَرْفَعْنَا مَا لَمْ يَنْفَعُوا ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿وانكر عينا أيوب﴾ معطوف على قوله: ﴿وانكر عينا داود﴾ [ص: 17] وأيوب عطف بيان، و ﴿إذ نادى ربه﴾ بدل اشتغال من عينا ﴿لني مسني للشيطان﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى ربه به، ولو لم يحكه لقال: إنه مسه. وقرأ عيسى بن عمر بكسرهما على إضمار القول. وفي نكر قصة أيوب إرشاد لرسول الله ﷺ إلى الاقتداء به في الصبر على المكاره. قرأ الجمهور بضم النون من قوله: (ينصب) وسكون الصاد، فقيل: هو جمع نصب بفتحيتين نحو أسد، وأسد، وقيل: هو لغة في النصب، نحو رشد، ورشد. وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة، وحفص، ونافع في رواية عنه بضميتين، ورويت هذه القراءة عن الحسن. وقرأ أبو حيوة، ويعقوب، وحفص في رواية بفتح، وسكون، وهذه القراءات كلها بمعنى واحد، وإنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات. وقال أبو عبيدة: إن النصب بفتحيتين: التعب، والإعياء، وعلى بقية القراءات الشر، والبلاء، ومعنى قوله: ﴿وعذاب﴾ أي: ألم. قال قتادة، ومقاتل: النصب في الجسد، والعذاب في المال. قال النحاس: وفيه بعد كذا قال. والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي، وهو: التعب، والإعياء، وتفسير العذاب بما يصنق عليه مسمى العذاب، وهو: الألم، وكلاهما راجع إلى البدن ﴿اركض برجلك﴾ هو بتقدير القول أي: قلنا له: اركض برجلك كذا قال الكسائي والركض: الدفع بالرجل، يقال: ركض الدابة برجله: إذا ضربها بها. وقال المبرد: الركض التحريك. قال الأصمعي: يقال: ركضت الدابة، ولا يقال: ركضت هي، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجله، ولا فعل لها في ذلك، وحكى سيبويه: ركضت الدابة، فركضت، مثل جبرت العظم، فجبر ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ هذا أيضاً من مقول القول المقدّر: المغتسل هو: الماء الذي يغتسل به، والشراب الذي يشرب منه. وقيل: إن المغتسل هو: المكان الذي يغتسل فيه. قال قتادة: هما عينان بارض الشام في أرض يقال لها: الجابية، فاغتسل من إحداهما، فاذهب الله ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فاذهب الله باطن دائه، وكذا قال الحسن. وقال مقاتل: نبعت عين جارية، فاغتسل فيها، فخرج صحيحاً، ثم نبعت عين أخرى، فشرب منها ماءً عذباً بارداً. وفي الكلام حذف، والتقدير: فركض برجله، فنبت

تذكر الدار، وهو أنهم يذكرون التأهب لها، ويزهدون في الدنيا، وذلك من شأن الأنبياء. وأما من أضاف، فالمعنى: أخلصنا لهم بأن خلصت لهم نكرى الدار، والخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل، والنكرى على هذا المعنى: الذكر **﴿وإنهم عنينا لمن المصطفين الأخيار﴾** الاصطفاء: الاختيار، والأخيار جمع خير بالتشديد، والتخفيف كأموات في جمع ميت مشدداً، ومخففاً؛ والمعنى: إنهم عنينا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار **﴿وانكر إسماعيل﴾** قيل: وجه إفراذه بالذكر بعد نكر أبيه، وأخيه، وابن أخيه للإشعار بأنه عريق في الصبر الذي هو المقصود بالتذكير هنا **﴿واليسع وذا الكفل﴾** قد تقدم ذكر اليسع، والكلام فيه في الانعام، وتقدم ذكر ذا الكفل، والكلام فيه في سورة الأنبياء، والمراد من نكر هؤلاء: أنهم من جملة من صبر من الأنبياء، وتحملوا الشدائد في نين الله. أمر الله رسوله ﷺ بأن يذكرهم؛ ليسلك مسلكهم في الصبر **﴿وكل من الأخيار﴾** يعني: الذين اختارهم الله لنبوته، واصطفاهم من خلقه **﴿هذا نكر﴾** الإشارة إلى ما تقدم من نكر أوصافهم أي: هذا نكر جميل في الدنيا، وشرف يذكرون به أبداً **﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾** أي: لهم مع هذا الذكر الجميل حسن مآب في الآخرة، والمآب المرجع، والمعنى: أنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله، ورضوانه، ونعيم جنته. ثم بين حسن المرجع، فقال: **﴿جنت عدن﴾** قرأ الجمهور (جنت) بالنصب بدلاً من حسن مآب، سواء كان جنت عدن معرفة، أو نكرة؛ لأن المعرفة تبدل من النكرة، وبالعكس، ويجوز أن يكون جنت عطف بيان إن كانت نكرة، ولا يجوز ذلك فيها إن كانت معرفة على مذهب جمهور النحاة، وقد جوز بعضهم ويجوز أن يكون نصب جنت بإضمار فعل. والعنن في الأصل الإقامة، يقال: عدن بالمكان؛ إذا أقام فيه، وقيل: هو اسم لقصر في الجنة، وقرئ برفع جنت على أنها مبتدأ. وخبرها مفتحة، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي جنت عدن، وقوله: **﴿مفتحة لهم الأبواب﴾** حال من جنت، والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل، والأبواب مرتفعة باسم المفعول: كقوله: **﴿وفتحت أبوابها﴾** [الزمر: 73] والرباط بين الحال، وصاحبها ضمير مقدر، أي: منها، أو الألف، واللام لقيامه مقام الضمير، إذ الأصل أبوابها. وقيل: إن ارتفاع الأبواب على البذل من الضمير في مفتحة العائد على جنت، وبه قال أبو علي الفارسي أي: مفتحة هي الأبواب. قال الفراء: المعنى: مفتحة أبوابها، والعرب تجعل الألف، واللام خلفاً من الإضافة. وقال الزجاج: المعنى: مفتحة لهم الأبواب منها. قال الحسن: إن الأبواب يقال لها: انفتحت، فتفتح انغلقي، فتغلقي، وقيل: تفتح لهم الملائكة الأبواب، وانتصاب **﴿متكئين فيها﴾** على الحال من ضمير لهم، والعامل فيه مفتحة، وقيل: هو حال من **﴿يدعون﴾** قدمت على العامل **﴿فيها﴾** أي: يدعون في الجنت حال كونهم متكئين فيها **﴿بفأكهة كثيرة﴾** أي: بالوان متنوعة متكررة

أي: على البلاء الذي ابتليناه به، فإنه ابتلي بالداء العظيم في جسده، وذهب ماله، وأهله، وولده، فصبر **﴿نعم العبد﴾** أي: أيوب **﴿إنه أواب﴾** أي: رجاع إلى الله بالاستغفار، والتوبة **﴿وانكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾** قرأ الجمهور (عبادنا) بالجمع. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، وابن محيصن، وابن كثير (عبدنا) بالإنفراد. فعلى قراءة الجمهور يكون إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب عطف بيان، وعلى القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان، وما بعده عطف على عبدنا لا على إبراهيم. وقد يقال: لما كان المراد بعبدنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه. وقيل: إن إبراهيم، وما بعده بدل، أو النصب بإضمار أعني، وعطف البيان أظهر، وقراءة الجمهور أبين، وقد اختارها أبو عبيد، وأبو حاتم **﴿أولي الأيدي والأبصار﴾** الأيدي، جمع اليد التي بمعنى: القوة، والقدرة. قال قتادة: أعطوا قوة في العبادة، ونصراً في الدين. قال الواحدي: وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والمفسرون. قال النحاس: أما الأبصار، فمتفق على أنها البصائر في الدين، والعلم. وأما الأيدي، فمختلف في تأويلها، فاهل التفسير يقولون: إنها القوة في الدين، وقوم يقولون: الأيدي جمع يد، وهي النعمة أي: هم أصحاب النعم، أي: الذين أنعم الله عز وجل عليهم، وقيل: هم أصحاب النعم على الناس، والإحسان إليهم، لأنهم قد أحسنوا، وقدموا خيراً، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور (أولي الأيدي) بإثبات الياء في الأيدي. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، والحسن، وعيسى (الأيد) بغير ياء، فقبل معناها: معنى القراءة الأولى، وإنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها، وقيل الأيد: القوة، وجملة **﴿إننا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾** تعليل لما وصفوا به. قرأ الجمهور (بخالصة) بالتثنية، وعدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى: الإخلاص، فيكون نكرى منصوباً به، أو بمعنى: الخلو، فيكون نكرى مرفوعاً به، أو يكون خالصة اسم فاعل على بابها، ونكرى بدل منها، أو بيان لها، أو بإضمار أعني، أو مرفوعة بإضمار مبتدأ، والدار يجوز أن تكون مفعولاً به لذكرى، وإن تكون ظرفاً: إما على الاتساع، أو على إسقاط الخافض، وعلى كل تقدير، فخالصة صفة لموصوف محذوف، والباء للسببية أي: بسبب خصلة خالصة. وقرأ نافع، وشيبة، وأبو جعفر، وهشام عن ابن عامر بإضافة خالصة إلى نكرى على أن الإضافة للبيان، لأن الخالصة تكون نكرى، وغير نكرى، أو على أن خالصة مصدر مضاف إلى مفعوله، والفاعل محذوف. أي: بأن أخلصوا نكرى الدار، أو مصدر بمعنى: الخلو مضافاً إلى فاعله. قال مجاهد: معنى الآية: استصفيناهم بذكر الآخرة، فأخلصناهم بذكرها. وقال قتادة: كانوا يدعون إلى الآخرة، وإلى الله. وقال السدي: أخلصوا بخوف الآخرة. قال الواحدي: فمن قرأ بالتثنية في خالصة كان المعنى: جعلناهم لنا خالسين بأن خلصت لهم نكرى الدار، والخالصة مصدر بمعنى: الخلو، والنكرى بمعنى: التذكر أي: خلص لهم

امي، فقام، فحلق رأسه، وقام يصلي، فربّ إبليس رنة سمعها أهل السماء، وأهل الأرض، ثم عرج إلى السماء، فقال: أي رب إنه قد اعتصم، فسلطني عليه، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك، قال: قد سلطتك على جسده، ولم أسطك على قلبه، فنزل، فنفخ تحت قدمه نفخة قرح ما بين قدمه إلى قرنه، فصار قرحة واحدة، وألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه، فكانت امرأته تسعى عليه، حتى قالت له: ألا ترى يا أيوب قد نزل، والله بي من الجهد، والفاقة ما إن بعث قروني برغيف، فاطعمتك، فأدع الله أن يشفيك، ويريحك قال: ويحك كنا في النعيم سبعين عاماً، فاصبري حتى نكون في الضراء سبعين عاماً، فكان في البلاء سبع سنين، ودعا، فجاء جبريل يوماً، فدعا بيده، ثم قال: قم، فقام، فحناه عن مكانه، وقال: اركض بركلك هذا مغتسل بارداً، وشراب، فركض بركله، فنبعت عين، فقال: اغتسل، فاغتسل منها، ثم جاء أيضاً، فقال: اركض بركلك، فنبعت عين أخرى فقال له: اشرب منها، وهو قوله: ﴿اركض بركلك هذا مغتسل بارداً وشراب﴾، وألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب، فجلس في ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله أين المبتلي الذي كان ها هنا؟ لعل الكلاب قد ذهبت به، أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك أنا أيوب قد ردّ الله علي جسدي، ورد علي ماله، وولده عياناً، ومثلهم معهم، وأمطر علي جراداً من ذهب، فجعل يأخذ الجراد بيده، ثم يجعله في ثوبه، وينشر كساءه، ويأخذه، فيجعل فيه، فأوحى الله إليه: يا أيوب أما شبعْتَ؟ قال: يا رب من ذا الذي يشبع من فضلك، ورحمتك.

وفي هذا نكارة شديدة، فإن الله سبحانه لا يمكن الشيطان من نبي من أنبيائه، ويسلط عليه هذا التسليط العظيم. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن ابن عباس قال: إن إبليس قعد على الطريق، وأخذ تابوتاً يدأوي الناس، فقالت امرأة أيوب: يا عبد الله إن ها هنا مبتلى من أمره كذا وكذا، فهل لك أن تدأويه قال: نعم بشرط إن أنا شفيت أن يقول: أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غيره. فأتت أيوب، فنكرت له ذلك، فقال: ويحك ذاك الشيطان، لله عليّ إن شفاني الله أن أجلك مائة جلد، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً، فيضربها به، فأخذ عنقاً فيه مائة شمراخ، فاضربها ضربة واحدة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَأَخْرَجَ بَيْنَكَ ضَغْثًا﴾ قال: هو الأسل. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الضغث القبضة من المرعى الرطب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الضغث الحزمة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، وابن عساکر من طريق أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: «حملت وليدة في بني ساعدة من زنا، فقيل لها: ممن حملك؟ قالت: من فلان المقعد، فسئل المقعد، فقال: صدقت. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: خنوا عنكولاً فيه مائة شمراخ، فاضربوه به

من الفواكه ﴿وشراب﴾ كثير، فحذف كثيراً لدلالة الأوّل عليه، وعلى جعل ﴿متكئين﴾ حالاً من ضمير لهم، والعامل فيه مفتحة، فتكون جملة ﴿يبدعون﴾ مستأنفة لبيان حالهم. وقيل: إن يبدعون في محل نصب على الحال من ضمير متكئين ﴿وعندهم قاصرات الطرف تراب﴾ أي: قاصرات طرفهنّ على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، وقد مضى بيانه في سورة الصافات. والأترب: المتحدات في السنّ، أو المتساويات في الحسن. وقال مجاهد: معنى أترب: أنهنّ متواخيات لا يتباغضن، ولا يتغابرن. وقيل: أترباً للأزواج. والأترب جمع ترب، واشتقاقه من التراب، لأنه يمسهنّ في وقت واحد لاتحاد مولدهنّ ﴿هَذَا مَا توعدون ليوم الحساب﴾ أي: هذا الجزء الذي وعنتم به لأجل يوم الحساب، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزء، أو المعنى: في يوم الحساب. قرأ الجمهور (ما توعدون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، ويعقوب بالتحية على الخبر، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: ﴿وإن للمتقين﴾، فإنه خبر ﴿إن هذا لرزقنا﴾ أي: إن هذا المنكور من النعم، والكرامات لرزقنا الذي أنعمنا به عليكم ﴿وما له من نفاق﴾ أي: انقطاع، ولا يفنى أبداً، ومثله قوله: ﴿عطاء غير مجدود﴾ [هود: 108] فنعمة الجنة لا تنقطع عن أهلها.

وقد أخرج أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وابن عساکر عن ابن عباس قال: إن الشيطان عرج إلى السماء، فقال: يا رب سلطني على أيوب، قال الله: لقد سلطتك على ماله، وولده، ولم أسطك على جسده، فنزل، فجمع جنوده، فقال لهم: قد سلطت على أيوب، فأروني سلطانكم، فصاروا نيراناً، ثم صاروا ماء، فبينما هم في المشرق إذا هم بالمغرب، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق. فأرسل طائفة منهم إلى زرع، وطائفة إلى أهله، وطائفة إلى بقره، وطائفة إلى غنمه، وقال: إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف، فاتوه بالمصائب بعضها على بعض، فجاء صاحب الزرع، فقال: يا أيوب ألم ترّ إلى ربك أرسل على زرعك ناراً، فأحرقتة؟ ثم جاء صاحب الإبل، فقال: يا أيوب ألم ترّ إلى ربك أرسل إلى إبلك عدواً، فذهب بها؟ ثم جاء صاحب البقر فقال: يا أيوب ألم ترّ إلى ربك أرسل إلى بقرك عدواً، فذهب بها؟ ثم جاءه صاحب الغنم فقال: يا أيوب ألم ترّ إلى ربك أرسل على غنمك عدواً، فذهب بها؟ وتقرد هو لبنيه، فجمعهم في بيت أكبرهم، فبينما هم ياكلون، ويشربون إذ هبت ريح، فأخذت بآركان البيت، فألقته عليهم، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام بأذنيه قرطان، فقال: يا أيوب ألم ترّ إلى ربك جمع بنيك في بيت أكبرهم، فبينما هم ياكلون، ويشربون إذ هبت ريح، فأخذت بآركان البيت، فألقته عليهم، فلو رأيتم حين اختلطت دماؤهم، ولحومهم بطعامهم، وشرابهم؟ فقال له أيوب: فأين كنت؟ قال: كنت معهم، قال: فكيف انفلت؟ قال: انفلت، قال أيوب: أنت الشيطان؟ ثم قال أيوب: أنا اليوم كيوم ولدتني

ضربة واحدة». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والطبراني، وابن عساکر نحوه من طريق أخرى عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن سعيد بن سعد بن عبادة. وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد نحوه. وأخرج ابن عساکر عن ابن مسعود قال: أيوب رأس الصابرين يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ قال: القوة في العبادة. و﴿أُولَى الْبَصَارِ﴾ قال: الفقه في الدين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ قال: النعمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِنَّا لَخُلَصْنَاكُمْ بِخَالِصَةٍ تَذَكَّرُ الدَّارَ﴾ قال: اخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعملوا لها.

هَذَا وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَنُزِقَنَّهُمْ مِنَ الْجَهَنَّمَ بِسُوءِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٥٧﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٥٨﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٥٩﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٠﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦١﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٢﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٣﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٤﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٥﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٦﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٧﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٨﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٦٩﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٠﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧١﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٢﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٣﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٤﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٥﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٦﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٧﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٨﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٧٩﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٠﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨١﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٢﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٣﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٤﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٥﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٦﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٧﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٨﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٨٩﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٠﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩١﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٢﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٣﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٤﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٥﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٦﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٧﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٨﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿٩٩﴾ هَذَا نَزَلَ مِنْ رَبِّكَ الْوَحْيُ ﴿١٠٠﴾

قوله: ﴿هَذَا﴾ قال الزجاج: هذا خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر هذا، فيوقف على هذا. قال ابن الأنباري: وهذا وقف حسن، ثم يبتدئ ﴿وَأَن لِّلطَّافِغِينَ﴾، ويجوز أن يكون هذا مبتدأ، وخبره محذوف أي: هذا كما نكر، أو هذا نكر. ثم نكر سبحانه ما لأهل الشر بعد أن نكر ما لأهل الخير، فقال: ﴿وَأَن لِّلطَّافِغِينَ لَّشَرٌّ مَّأَبٌ﴾ أي: الذين طغوا على الله، وكتبوا رسله ﴿لَّشَرٌّ مَّأَبٌ﴾ لشر منقلب ينقلبون إليه، ثم بين ذلك، فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، وانتصاب جهنم على أنها بدل من شر مأب، أو منصوبة بأعني، ويجوز أن يكون عطف بيان على قول البعض كما سلف قريباً، ويجوز أن يكون منصوباً على الاشتغال أي: يصلون جهنم يصلونها، ومعنى يصلونها: يخلونها، وهو في محل نصب على الحالية ﴿فَبِئْسَ الْمَهَادُ﴾ أي: بئس ما مهدوا لأنفسهم، وهو الفراش، مأخوذ من مهد الصبي، ويجوز أن يكون المراد بالمهد الموضع، والمخصوص بالذم محذوف أي: بئس المهاد هي كما في قوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ﴾ [الأعراف: 41] شبه الله سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد ﴿هَذَا فَلْيُنْقِضُوا حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ﴾ هذا في موضع رفع بالابتداء، وخبره حميم، وغساق على التقديم، والتأخير أي: هذا حميم، وغساق، فلينقضوه. قال الفراء: وتقدير الآية: هذا حميم، وغساق، فلينقضوه أو يقال لهم في ذلك اليوم: هذه المقالة. والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره، والغساق ما سال من جلود أهل النار من القيح، والصديد، من قولهم:

غسقت عينه إذا انصبت، والغسقان الانصباب. قال النحاس: ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا، وارتفاع حميم، وغساق على أنهما خبران لمبتدأ محذوف أي: هو حميم، وغساق، ويجوز أن يكون هذا في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ما بعده أي: لينقضوا هذا، فلينقضوه، ويجوز أن يكون حميم مرتفع على الابتداء، وخبره مقدر قبله، أي: منه حميم، ومنه غساق، ومثله قول الشاعر:

حتى ما إذا أضاء البرق في غلس وغودر البقل ملوئاً ومخضود
أي: منه ملوئاً، ومنه مخضود، وقيل: الغساق ما قتل ببرده، ومنه قيل لليل غاسق، لأنه أبرد من النهار، وقيل: هو الزمهرير، وقيل: الغساق المنتن، وقيل: الغساق عين في جهنم يسيل منه كل نوب حية، وعقرب. وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج النساء الزواني، ومن تنتن لحوم الكفرة، وجلودهم. وقال محمد بن كعب: هو: عصارة أهل النار، وقال السدي: الغساق الذي يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم، وكذا قال ابن زيد. وقال مجاهد، ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده، وتفسير الغساق بالبارد أنسب بما تقتضيه لغة العرب، ومنه قول الشاعر:

إذا ما تذكرت الحياة وطبيها إلى جري دمع من الليل غاسق
أي: بارد، وأنسب أيضاً بمقابلة الحميم. وقرأ أهل المدينة، وأهل البصرة، وبعض الكوفيين بتخفيف السين من (غساق)، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وحمزة بالتشديد، وهما لفتان بمعنى واحد كما قال الأخفش. وقيل: معناه مختلف: فمن خفف، فهو اسم مثل عذاب، وجواب، وصواب، ومن شدد قال: هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضرب، وقتال ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ﴾ قرأ الجمهور (وأخر) مفرد منكر، وقرأ أبو عمرو (وأخر) بضم الهمزة على أنه جمع، وإنكر قراءة الجمهور لقوله أزواج، وإنكر عاصم الجحدري قراءة أبي عمرو، وقال: لو كانت كما قرأ لقال: من شكلها، وارتفاع آخر على أنه مبتدأ، وخبره أزواج، ويجوز أن يكون من شكله خبراً مقدماً، وأزواج مبتدأ مؤخر، والجملة خبر آخر، ويجوز أن يكون خبراً آخر مقدراً أي: وآخر لهم، و ﴿مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ جملة مستقلة؛ ومعنى الآية على قراءة الجمهور: وعذاب آخر، أو منقذ آخر، أو نوع آخر من شكل العذاب، أو المنقذ، أو النوع الأول، والشكل المثل، وعلى القراءة الثانية يكون معنى الآية: ومنقذات آخر، أو أنواع آخر من شكل ذلك المنقذ، أو النوع المتقدم، وإفراد الضمير في شكله على تأويل المنكر أي: من شكل المنكر، ومعنى ﴿أَزْوَاجٌ﴾: أجناس، وأنواع وأشباه. وحاصل معنى الآية: أن لأهل النار حميماً، وغساقاً، وأنواعاً من العذاب من مثل الحميم، والغساق. قال الواحدي: قال المفسرون: هو: الزمهرير، ولا يتم هذا الذي حكاه عن المفسرين إلا على تقدير أن الزمهرير أنواع مختلفة، وأجناس متفاوتة؛ ليطابق معنى أزواج، أو على تقدير أن لكل فرد من أهل النار زمهريراً

كل واحد من الأمرين. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا: اتخنوهم سخرية، وزاغت عنهم أبصارهم. قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى: التوبيخ، والتعجب. قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن كثير⁽¹⁾، والأعمش بحذف همزة اتخنناهم في الوصل. وهذه القراءة تحتل أن يكون الكلام خبراً محضاً، وتكون الجملة في محل نصب صفة ثانية لرجالاً، وإن يكون المراد الاستفهام، وحذفت أدايته لدلالة أم عليها، فتكون أم على الوجه الأول منقطعة بمعنى: بل، والهمزة أي: بل أزاغت عنهم الأبصار على معنى: توبيخ أنفسهم على الاستسغار، ثم الإضراب، والانتقال منه إلى التوبيخ على الإذراء، والتحقيق، وعلى الثاني أم هي المتصلة. وقرأ الباقر بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل، ولا محل للجملة حينئذٍ، وفيه التوبيخ لأنفسهم على الأمرين جميعاً، لأن أم على هذه القراءة هي للتسوية. وقرأ أبو جعفر، ونافع، وشيبة، والمفضل، وهبيرة، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي (سخرية) بضم السين، وقرأ الباقر بكسرهما. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء، ومن ضم جعله من التسخير، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ لَّكَ﴾** إلى ما تقدم من حكاية حالهم، وخبر إن قوله: **﴿لَحَقَّ﴾** أي: لواقع ثابت في الدار الآخرة لا يتخلف البتة، و**﴿تَخَاصُمَ أَهْلَ النَّارِ﴾** خبر مبتدأ محذوف، والجملة بيان لذلك، وقيل: بيان لحق، وقيل: بدل منه، وقيل: بدل من محل ذلك، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وهذا على قراءة الجمهور برفع تخاصم. والمعنى: إن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق لا بد أن يتكلموا به، وهو تخاصم أهل النار فيها، وما قالته الرؤساء للاتباع، وما قالته الاتباع لهم. وقرأ ابن أبي عبله بنصب «تخاصم» على أنه بدل من ذلك، أو بإضمار أعني. وقرأ ابن السميع «تخاصم» بصيغة الفعل الماضي، فتكون جملة مستأنفة. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول قولاً جامعاً بين التخويف، والإرشاد إلى التوحيد، فقال: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مَذْذَرٌ﴾** أي: مخوف لكم من عقاب الله، وعذابه **﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾** الذي لا شريك له **﴿الْقَهَّارُ﴾** لكل شيء سواه **﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾** من المخلوقات **﴿الْعَزِيزُ﴾** الذي لا يغالبه مغالب **﴿الْغَفَّارُ﴾** لمن أطاعه، وقيل: معنى **﴿الْعَزِيزُ﴾**: المنيع الذي لا مثل له، ومعنى **﴿الْغَفَّارُ﴾**: الستار لذنوب خلقه. ثم أمره سبحانه أن يبالي في إنذارهم، ويبين لهم عظم الأمر، وجلالته، فقال: **﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾** أي: ما أنذركم به من العقاب وما بينته لكم من التوحيد هو خبر عظيم، ونبا جليل، من شأنه العناية به، والتعظيم له،

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ الفوج الجماعة، والاقترام السخول، وهذا حكاية لقول الملائكة الذين هم خزنة النار، وذلك أن القادة، والرؤساء إذا دخلوا النار، ثم دخل بعدهم الاتباع. قالت الخزنة للقادة: هذا فوج، يعنون: الاتباع **﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾** أي: داخل معكم إلى النار، وقوله: **﴿لَا مَرْحَباً بِهِمْ﴾** من قول القادة، والرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا: لا مرحباً بهم أي: لا اتسعت منازلهم في النار، والرحب السعة، والمعنى: لا كرامة لهم، وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار، وأن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة. وجملة لا مرحباً بهم دعائية لا محل لها من الإعراب، أو صفة للفوج، أو حال منه، أو بتقدير القول أي: مقولاً في حقهم لا مرحباً بهم. وقيل: إنها من تمام قول الخزنة. والأول أولى كما يدل عليه جواب الاتباع الآتي، وجملة **﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾** تعليل من جهة القائلين لا مرحباً بهم أي: إنهم صالوا النار كما صليناها، ومستحقون لها كما استحقيناها. وجملة **﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ﴾** مستأنفة جواب سؤال مقدر أي: قال الاتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم: بل أنتم لا مرحباً بكم أي: لا كرامة لكم، ثم عللوا ذلك بقولهم: **﴿أَنْتُمْ قَدْ تَمَتَّمْتُمْ لَنَا﴾** أي: أنتم قدتمت العذاب، أو الصلي لنا، وأوقعتونا فيه، ودعوتونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحق ما أنتم عليه، وإن الأنبياء غير صادقين فيما جاءوا به **﴿بِئْسَ الْقَرَارُ﴾** أي: بئس المقر جهنم لنا، ولكم. ثم حكى عن الاتباع أيضاً: أنهم أربفوا هذا القول بقول آخر، وهو **﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾** أي: زده عذاباً ذا ضعف، والضعف بأن يزيد عليه مثله، ومعنى من قدّم لنا هذا: من دعانا إليه، وسوّغ لنا. قال الفراء: المعنى: من سوّغ لنا هذا، وسنه، وقيل: معناه: قدّم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر، فزده عذاباً ضعفاً في النار أي: عذاباً بكفره، وعذاباً بدعائه إيانا، فصار ذلك ضعفاً، ومثله قوله سبحانه: **﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّوا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾** [الأعراف: 38] وقوله: **﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾** [الأحزاب: 68] وقيل: المراد بالضعف هنا: الحيات، والعقارب **﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾** قيل: هو من قول الرؤساء، وقيل: من قول الطاغين المذكورين سابقاً. قال الكلبي: ينظرون في النار، فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها، فعند ذلك قالوا: ما لنا لا نرى رجلاً كنا نعدّهم من الأشرار. وقيل: يعنون: فقراء المؤمنين كعمار، وخباب، وصهيب، وبلال، وسالم، وسلمان. وقيل: أراونا أصحاب محمد على العموم **﴿اتَّخَذْنَاهُمْ سَخِرِيًّا﴾** أم زاغت عنهم الأبصار. قال مجاهد: المعنى: اتخنناهم سخرية في الدنيا، فأخطأنا، أم زاغت عنهم الأبصار، فلم نعلم مكانهم؟ والإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى

(1) (قوله: وابن كثير) يريد في غير المشهور عنه، اهـ. مصحح

قال: أقاعي، وحيات. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ قال: الملائكة حين شورو في خلق آدم، فاختصموا فيه، وقالوا: لا تجعل في الأرض خليفة. وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال: هي: الخصومة في شأن آدم حيث قالوا: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30]. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن نصر في كتاب الصلاة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة ربي في أحسن صورة، أحسبه قال في المنام، قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قلت: لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو في نحري، فطلعت ما في السموات، والأرض، ثم قال لي: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قلت: نعم في الكفارات، والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، الحديث. وأخرج الترمذي وصححه، ومحمد بن نصر، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه من حديث معاذ بن جبل نحوه بأطول منه، وقال: «وإسباغ الوضوء في السبرات». وأخرج الطبراني، وابن مردويه من حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه، وأخرج أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه، وفي الباب أحاديث.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْأَعْلَى إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدًا ﴿٧٢﴾ سَجَدَ الْمَلَأُ كُلُّهُمْ جَمْعًا ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْكَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَتَكْبَرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَتَى خَلْقَ رَبِّي خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَخَرَجْنِي مِنْهَا فَكَفَّ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَعَزَّيْتُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الرُّجُوعِ أَلَمْ أَوْفِ أَلَمْ أَوْفِ قَالَ فَمَرْكِكَ أَكْفَرْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٢﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٣﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٤﴾ ثُلُثَ مَا أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا مَا تَعْدَى حِينَ

وعدم الاستخفاف به، ومثل هذه الآية قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ النِّبَا الْعَظِيمِ﴾ [النبا: 1، 2]، وقال مجاهد، وقتادة، ومقاتل: هو: القرآن، فإنه نبا عظيم؛ لأنه كلام الله. قال الزجاج: قل: النبا الذي أنبأكم به عن الله نبا عظيم؛ يعني: ما أنبأهم به من قصص الأولين، وذلك ليل على صدقه، ونبوته؛ لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله، وجملة ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرُضُونَ﴾ توبيخ لهم، وتقريع لكونهم أعرضوا عنه، ولم يتفكروا فيه، فعملوا صدقه، ويستدلوا به على ما أنكروه من البعث، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ استئناف مسوق لتقرير أنه نبا عظيم، والملاء الأعلى هم: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: وقت اختصامهم؛ فقوله: ﴿بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ متعلق بعلم على تضمينه معنى: الإحاطة، وقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ متعلق بمحذوف أي: ما كان لي فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملاء الأعلى وقت اختصامهم، والضمير في يختصمون راجع إلى الملاء الأعلى، والخصومة الكائنة بينهم هي في أمر آدم كما يفيد ما سيأتي قريباً، وجملة ﴿إِنْ يَوْحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ معترضة بين اختصامهم المجل، وبين تفصيله بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ﴾ [ص: 71]. والمعنى: ما يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين. قال الفراء: المعنى ما يوحى إليّ إلا أنني نذير مبين أبين لكم ما تاتون من الفرائض، والسنن، وما تدعون من الحرام، والمعصية. قال: كأنك قلت: ما يوحى إليّ إلا الإنذار. قال النحاس: ويجوز أن تكون في محل نصب بمعنى: ما يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين. قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها، وما في حيزها في محل رفع لقيامها مقام الفاعل أي: ما يوحى إليّ إلا الإنذار، أو إلا كوني نذيراً مبيناً، أو في محل نصب، أو جر بعد إسقاط لام العلة، والقائم مقام الفاعل على هذا الجاز والمجور. وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة؛ لأن في الوحي معنى القول، وهي: القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية، كأنه قيل: ما يوحى إليّ إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار، وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين. وقيل: إن الضمير في يختصمون عائد إلى قريش؛ يعني: قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، والمعنى: ما كان لي علم بالملائكة إذ تختصم فيهم قريش، والاولى أولى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَسَّاسُ﴾ قال: الزمهرير ﴿وَوَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ﴾ قال: من نحوه ﴿أَزْوَاجُ﴾ قال: ألوان من العذاب. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن بلواً من غساق يهرق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا». قال الترمذي بعد إخرجه: لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. قلت: ورشدين فيه مقال معروف. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَرَزَدَهُ عَذَابًا ضَعِيفًا فِي النَّارِ﴾

لما نكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالاً فيما تقدم نكرها هنا تفصيلاً، فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ إذ هذه هي بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: 69] لاشتغال ما في حيز هذه على الخصومة. وقيل: هي منصوبة بإضمار انكر، والاولى أولى إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يستخلف في الأرض. وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدم نكره، فالثاني أولى ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ أي: خالق فيما سيأتي من الزمن ﴿بَشَرًا﴾ أي: جسماً من جنس البشر مأخوذاً من مباشرته للأرض، أو من كونه بادي البشرية. وقوله: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ متعلق بمحذوف هو: صفة لبشر، أو بخالق، ومعنى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: صورته على صورة البشر،

وقول الآخر:

يسمع رمين الجمرام بثمانيا
ويحتمل أن يكون خبراً محضاً من غير إرادة للاستفهام،
فتكون «أم» منقطعة، والمعنى: استكبرت عن السجود الذي
أمرت به يا **﴿كنت من العالين﴾** أي: المستحقين للترفع
عن طاعة أمر الله المتعالين عن ذلك، وقيل: المعنى: استكبرت
عن السجود الآن، لم تزل من القوم الذين يتكبرون عن
ذلك، وجملة **﴿قال أنا خير منه﴾** مستأنفة جواب سؤال
مقدر، ادعى اللعين لنفسه: أنه خير من آدم، وفي ضمن
كلامه هذا: أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن. ثم علل
ما ادّعاه من كونه خيراً منه بقوله: **﴿خلقتني من نار
وخلقتهم من طين﴾**، وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من
عنصر الطين، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم
لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعت كما يستدعي الخادم،
ولن استغنى عنها طربت، وأيضاً فالطين يستولي على النار،
فيطفئها، وأيضاً فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر
الأرض، وعلى كل حال، فقد شرف آدم بشرف، وكرم بكرامة
لا يوازيها شيء من شرف العناصر، وذلك أن الله خلقه
ببيده، ونفخ فيه من روحه، والجواهر في أنفسها متجانسة،
وإنما تشرف بعارض من عوارضها، وجملة **﴿قال فالخرج
منها﴾** مستأنفة كالتي قبلها أي: فالخرج من الجنة، أو من
زمره الملائكة، ثم علل أمره بالخروج بقوله: **﴿فإنك رجيـم﴾**
أي: مرجوم بالكواكب مطرود من كل خير **﴿وإن عليك
لعنتي إلى يوم الدين﴾** أي: طردى لك عن الرحمة، وإبعادي
لك منها، ويوم الدين يوم الجزاء، فأخبر سبحانه وتعالى: أن
تلك اللعنة مستمرة له دائمة عليه ما دامت الدنيا، ثم في
الآخرة يلقي من أنواع عذاب الله، وعقوبته، وسخطه ما هو
به حقيق، وليس المراد: أن اللعنة تزول عنه في الآخرة، بل
هو ملعون أبداً، ولكن لما كان له في الآخرة ما ينسى عنده
اللعنة، ويذهل عند الوقوع فيه منها صارت كأنها لم تكن
بجنب ما يكون فيه، وجملة **﴿قال رب فأنظرني إلى يوم
يبعثون﴾** مستأنفة كما تقدم فيما قبلها أي: أمهلني، ولا
تعجلني إلى غاية هي يوم يبعثون: يعني: آدم، ونزيت **﴿قال
فإنك من المنظرين﴾** أي: الممهلين **﴿إلى يوم الوقت
المعلوم﴾** الذي قدره الله لفناء الخلائق، وهو عند النفخة
الآخرة، وقيل: هو النفخة الأولى. قيل: إنما طلب إبليس
الإنظار إلى يوم البعث؛ ليتخلص من الموت، لأنه إذا انظر
إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث، وعند مجيء البعث لا
يموت، فحينئذ يتخلص من الموت. فأجيب بما يبطل مراده،
وينقض عليه مقصده، وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم،
وهو الذي يعلمه الله، ولا يعلمه غيره، فلما سمع اللعين إنظار
الله له إلى ذلك الوقت **﴿قال فبِعزَّتِكَ لأغوينهم أجمعين﴾**
فأقسم بعزة الله أنه يضلل بني آدم بتزيين الشهوات لهم،
وإدخال الشبه عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً. ثم لما علم
أن كيده لا ينجح إلا في أتباعه، وأحزابه من أهل الكفر،

وصارت أجزاؤه مستوية **﴿ونفخت فيه من روحي﴾** أي:
من الروح الذي أملكه، ولا يملكه غيره. وقيل: هو تمثيل، ولا
نفخ، ولا منفوخ فيه. والمراد: جعله حياً بعد أن كان جماداً لا
حياة فيه. وقد مر الكلام في هذا في سورة النساء **﴿فقعوا
له ساجدين﴾** هو أمر من وقع يقع، وانتصاب ساجدين على
الحال، والسجود هنا هو سجود التحية لا سجود العبادة،
وقد مضى تحقيقه في سورة البقرة **﴿فسجد للملائكة﴾** في
الكلام حذف تدل عليه الفاء، والتقدير: فخلقه، فسواه، ونفخ
فيه من روحه، فسجد له الملائكة. وقوله: **﴿كلهم﴾** يفيد أنهم
سجدوا جميعاً، ولم يبق منهم أحد. وقوله: **﴿لجمعون﴾** يفيد
أنهم اجتمعوا على السجود في وقت واحد، فالأول: لقصد
الإحاطة، والثاني: لقصد الاجتماع. قال في الكشاف: فأقدا
معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد،
وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات.
وقيل: إنه أكد بتاكيدين للمبالغة في التعميم **﴿إلا إبليس﴾**
الاستثناء متصل على تقدير: أنه كان متصفاً بصفات
الملائكة داخلاً في عدادهم، فغلّبوا عليه، أو منقطع على ما
هو الظاهر من عدم دخوله فيهم أي: لكن إبليس **﴿لستكبر﴾**
أي: أنف من السجود جهلاً منه بأنه طاعة الله، **﴿وكان
استكباره استكبار كفر، فلذلك ﴿كان من الكافرين﴾** أي:
صار منهم بمخالفته لأمر الله، واستكباره عن طاعته، أو كان
من الكافرين في علم الله سبحانه، وقد تقدم الكلام على هذا
مستوفى في سورة البقرة، والأعراف، وبني إسرائيل،
والكهف، وطه. ثم إن الله سبحانه سأل عن سبب تركه
للسجود الذي أمره به **﴿قال يا إبليس ما منعك أن
تسجد لما خلقت بيدي﴾** أي: ما صرفك، وصنك عن
السجود لما توليت خلقه من غير واسطة؟ وأضاف خلقه إلى
نفسه تكريماً له، وتشريعاً، مع أنه سبحانه خالق كل شيء
كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والنافع، والمساجد. قال
مجاهد: اليد هنا بمعنى: التاكيد، والصلة مجازاً كقوله:
﴿ويبقى وجه ربك﴾ [الرَّحْمَنُ: 27]. وقيل: أراد باليد القدرة،
يقال: ما لي بهذا الأمر يد، وما لي به يدان أي: قدرة، ومنه
قول الشاعر:

تحملت من لفاء ما ليس لي يد ولال للجبال الراسيات يدان
وقيل: التثنية في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى: القوة،
والقدرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته
سبحانه، و «ما» في قوله: **﴿لما خلقت﴾** هي: المصدرية، أو
الموصولة. وقرأ الجحدري (لما) بالتشديد مع فتح اللام على
أنها ظرف بمعنى: حين كما قال أبو علي الفارسي. وقرئ
(بيدي) على الأفراد (استكبرت) قرأ الجمهور بهمزة
الاستفهام، وهو استفهام توبيخ، وتقريع و **﴿أم﴾** متصلة.
وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بالف وصل، ويجوز
أن يكون الاستفهام مراداً، فيوافق القراءة الأولى كما في قول
الشاعر:

تروح من الحي لم تبتر

وتوحيده، والترغيب إلى الجنة، والتحذير من النار ﴿يَعِدُ حِينَ﴾ قال قتادة، والزجاج، والفراء: بعد الموت. وقال عكرمة، وابن زيد: يوم القيامة. وقال الكلبي: من بقي علم ذلك لما ظهر أمره، وعلا، ومن مات علمه بعد الموت. وقال السدي: وذلك يوم بدر.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: أن الخصومة هي: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ إلخ. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي عن ابن عمر قال: خلق الله أربعاً بيده: العرش، وجنة عدن، والقلم، وأدم. وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده»، وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ قال: أنا الحق أقول الحق. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قال: قل يا محمد: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ما ادعوكم إليه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ عرض دنيا. وفي البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في المسجد، فقال فيما يقول: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: 10] قال: دخان يكون يوم القيامة يأخذ باسماص المنافقين، وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام، قال: قمنا حتى نخلنا على عبد الله، وهو في بيته، وكان متكئاً، فاستوى قاعداً، فقال: يا أيها الناس من علم منكم علماً، فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. وأخرج البخاري عن عمر قال: نهينا عن التكلف. وأخرج الطبراني، والحاكم، والبيهقي عن سلمان قال: نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف.

تفسير سورة الزمر

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد. وأخرج ابن الضريس، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الزمر بمكة. وأخرج النحاس في ناسخه عنه قال: نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاثة آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53 - 55] الثلاث الآيات. وقال آخرون: إلى سبع آيات من قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53 - 59] إلى آخر السبع. وأخرج النسائي عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل، والزمر»، وأخرجه الترمذي عنها بلفظ: «كان رسول الله ﷺ

والمعاصي، استثنى من لا يقدر على إضلاله، ولا يجد السبيل إلى إغوائه، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتهم لطاعتك، وعصمتهم من الشيطان الرجيم، وقد تقدّم تفسير هذه الآيات في سورة الحجر، وغيرها. وقد أقسم ما هنا بعرّة الله، وأقسم في موضع آخر بقوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: 16] ولا تنافي بين القسمين، فإن إغواء إياه من آثار عزّته سبحانه، وجملته ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها. قرأ الجمهور بنصب الحق في الموضعين على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم، فانتصب، أو هما منصوبان على الإغراء أي: الزموا الحق، أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والأعمش، وعاصم، وحمزة برفع الأول، ونصب الثاني، فرفع الأول على أنه مبتدأ، وخبره مقدّر أي: فالحق مني، أو فالحق أنا، أو خبره: لأملاّن، أو هو خبر مبتدأ محذوف، وأما نصب الثاني، فبالفعل المذكور بعده أي: وأنا أقول الحق، وإجاز الفراء، وأبو عبيد أن يكون منصوباً بمعنى: حقاً لأملاّن جهنم. واعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها. وروي عن سيبويه، والفراء أيضاً: أن المعنى: فالحق أن إملاء جهنم. وروي عن ابن عباس، ومجاهد: أنهما قرأ برفعها، فرفع الأول على ما تقدّم، ورفع الثاني بالابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، والعائد محذوف. وقرأ ابن السميّغ، وطلحة بن مصرف بخفضهما على تقدير حرف القسم. قال الفراء: كما يقول الله عزّ وجلّ: لأفعلنّ كذا، وغلطه أبو العباس ثعلب وقال: لا يجوز خفض بحرف مضمّر، وجملته ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ جواب القسم على قراءة الجمهور، وجملته ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ معترضة بين القسم، وجوابه، ومعنى ﴿مَنْكُ﴾ أي: من جنسك من الشياطين ﴿وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من ذرية آدم، فاطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلال، والغواية ﴿وَأَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للمعطوف، والمعطوف عليه أي: لأملاّن من الشياطين، وإتباعهم أجمعين. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله امتثال أمره لا عرض الدنيا الزائل، فقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ والضمير في عليه راجع إلى تبليغ الوحي، ولم يتقدّم له نكر، ولكنه مفهوم من السياق، وقيل: هو عائد إلى ما تقدّم من قوله: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: 8] وقيل: الضمير راجع إلى القرآن، وقيل: إلى الدّعاء إلى الله على العموم، فيشمل القرآن، وغيره من الوحي، ومن قول الرسول ﷺ والمعنى: ما أطلب منكم من جعل تعطوني عليه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ حتى أقول ما لا أعلم إذ ادعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوة إليه، والتكلف: التصنع ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ما هذا القرآن، أو الوحي، أو ما ادعوكم إليه إلا نكر من الله عزّ وجلّ للجّن، والإنس. قال الأعمش: ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ﴿وَوَلْتَعْلَمَنَّ﴾ أيها الكفار ﴿نَبَاهُ﴾ أي: ما أنبا عنه، وأخبر به من الدّعاء إلى الله،

لا ينأى حتى يقرأ الزمر، وبني إسرائيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِيَّاكَ الْكَتَبَ بِالْحَقِّ فَأَعْيِدْ اللَّهُ مَخْلُصًا لَهُ الْيَوْمَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَسْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَقُّ يَكْفُرُ أَيْلَ عَلَى الثَّهَارِ وَيُكَوِّرُ السَّهَابَ عَلَى الْبَلِّ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكَ مِنَ الْأَنْثَرِ نَجِيَّةً أَرْوِجَ يَخْلُقُكَ فِي بَطْنٍ أَيُّهَاكُمْ خَلَقًا مِنْ بَدَنٍ خَلَقَ فِي ظُلُمَاتٍ لَثَمَةً ذَلِكُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ مُرْءُونَ ﴿٦﴾

قوله: ﴿تنزيل الكتاب﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة أي: هذا تنزيل. وقال أبو حيان: إن المبتدأ المقتر لفظ هو ليعود على قوله: ﴿إن هو إلا نكر للعالمين﴾ [ص: 87]، كأنه قيل: وهذا النكر ما هو؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب، وقيل: ارتفاعه على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور بعده أي: تنزيل كائن من الله، وإلى هذا ذهب الزجاج، والفراء. قال الفراء: ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى: هذا تنزيل، وإجاز الفراء، والكسائي النصب على أنه مفعول به لفعل مقدر أي: اتبعوا، أو اقروا تنزيل الكتاب. وقال الفراء: يجوز نصبه على الإغراء أي: الزموا، والكتاب هو: القرآن، وقوله: ﴿ومن الله العزيز الحكيم﴾ على الوجه الأول صلة للتنزيل، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقتر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الباء سببية متعلقة بالإنزال أي: أنزلناه بسبب الحق، ويجوز أن تتعلق بمحذوف هو: حال من الفاعل أي: ملتبس بالحق، أو من المفعول أي: ملتبساً بالحق، والمراد كل ما فيه من إثبات التوحيد، والنبوة، والمعاد، وأنواع التكليف. قال مقاتل: يقول: لم ننزله باطلاً لغير شيء ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وانتصاب مخلصاً على الحال من فاعل اعبد، والإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه، والدين العبادة، والطاعة، ورأسها توحيد الله، وأنه لا شريك له. قرأ الجمهور (الدين) بالنصب على أنه مفعول مخلصاً. وقرأ ابن أبي عتبة برفعه على أن مخلصاً مسند إلى الدين على طريقة المجاز. قيل: وكان عليه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام. وفي الآية دليل على وجوب النية، وإخلاصها عن الشوائب؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال، والأفعال النية، كما في حديث: «إنما الأعمال

بالنيات»، وحديث: «لا قول ولا عمل إلا بنية»، وجملة ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص أي: إن الدين الخالص من شوائب الشرك، وغيره هو الله، وما سواه من الأديان، فليس بدين الله الخالص الذي أمر به. قال قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ لما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص، وإن الدين الخالص له لا لغيره بين بطلان الشرك الذي هو مخالف للإخلاص، والموصول عبارة عن المشركين، ومحل الرفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ وجملة ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول، والاستثناء مفرغ من أعم العلل، والمعنى: والذين لم يخلصوا العبادة لله، بل شابوها بعبادة غيره قائلين: ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، والضمير في نعبدهم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة، وعيسى، والأصنام، وهم: المرادون بالأولياء، والمراد بقولهم: ﴿إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ الشفاعة، كما حكاها الواحدي عن المفسرين. قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: من ربكم، وخالفكم، ومن خلق السموات، والأرض، وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم للأصنام؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده. قال الكلبي: جواب هذا الكلام قوله في سورة الأحقاف: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لآله﴾ [الأحقاف: 28]. والزلفى اسم أقيم مقام المصدر، كأنه قال: إلا ليقربونا إلى الله تقريباً. وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد (قالوا ما نعبدهم)، ومعنى ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ أي: بين أهل الأديان يوم القيامة، فيجازي كلا بما يستحقه. وقيل: بين المخلصين للدين، وبين الذين لم يخلصوا، وحذف الأول لدلالة الحال عليه، ومعنى ﴿في ما هم فيه يختلفون﴾ في الذي اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد، والشرك، فإن كل طائفة تدعي أن الحق معها ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ أي: لا يرشد لدينه، ولا يوفق للاهتداء إلى الحق من هو كاذب في زعمه: أن الآلهة تقربه إلى الله، وكفر باتخاذها آلهة، وجعلها شركاء الله، والكفار صيغة مبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية. وقرأ الحسن، والأعرج كذاب على صيغة المبالغة ككفار، ورويت هذه القراءة عن أنس ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى﴾ هذا مقدر لما سبق من إبطال قول المشركين: بأن الملائكة بنات الله لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق، فلو أراد أن يتخذ ولداً لامتنع اتخاذ الولد حقيقة، ولم يتأت ذلك إلا بأن يصطفى ﴿مما يخلق ما يشاء﴾ أي: يختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له، ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق لعدم المجانسة بينهما، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبداً كما يفيد التعبير بالاصطفاء مكان

على مقدر هو صفة لنفس. قال الفراء، والزجاج: التقدير خلقكم من نفس خلقها واحدة، ثم جعل منها زوجها، ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة أي: من نفس انفردت، ثم جعل إلخ، والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم أدخل في كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة، لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة في خلقه، وخلقها على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الأعراف، ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته الباهرة، فقال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، وهو معطوف على خلقكم، وعبر بالإنزال لما يروى: أنه خلقها في الجنة، ثم أنزلها، فيكون الإنزال حقيقة، ويحتمل أن يكون مجازاً، لأنها لم تعش إلا بالنبات، والنبات إنما يعيش بالماء، والماء منزل من السماء، كانت الأنعام كأنها منزلة، لأن سبب سببها منزل كما أطلق على السبب في قوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيها وإن كانوا غصابا
وقيل: إن أنزل بمعنى: أنشاء، وجعل، أو بمعنى: أعطى، وقيل: جعل الخلق إنزالاً، لأن الخلق إنما يكون بامر ينزل من السماء، والثمانية الأزواج هي ما في قوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 143] ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 144] ويعني بالاثنتين في الأربعة المواضع: الذكر، والأنثى، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأنعام، ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته البينة، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، والجملة استثنائية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة في خلقهم، وخلقاً مصدر مؤكد للفعل المذكور، و ﴿مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ صفة له أي: خلقاً كائناً من بعد خلق. قال قتادة، والسدي: نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظماً، ثم لحماً. وقال ابن زيد: خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم، وقوله: ﴿فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾، وهذه الظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة قاله مجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك. وقال سعيد بن جبیر: ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة الليل. وقال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرحم، والإشارة بقوله: ﴿ثَلَاثٌ﴾ إلى سببها باعتبار أفعاله السابقة، والاسم الشريف خبره ﴿رَبِّكُمْ﴾ خبر آخر ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ الحقيقي في الدنيا، والآخرة لا شركة لغيره فيه، وهو: خبر ثالث، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع ﴿فَأَنى تَصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته، وتقلبون عنها إلى عبادة غيره. قرأ حمزة (إمهاتكم) بكسر الهمزة، والميم. وقرأ الكسائي بكسر الهمزة، وفتح الميم. وقرأ الباقون بضم الهمزة، وفتح الميم.

وقد أخرج ابن مردويه، عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال: «يا رسول الله إنا نعطي أموالنا التماس الذكر، فهل لنا في

الاتخاذ؟ فمعنى الآية: لو أراد أن يتخذ ولداً لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد، بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته، ولهذا نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن ذلك، وجملة ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ مبنية لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات أي: هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته، فلا مماثل له القهار لكل مخلوقاته، ومن كان متصفاً بهذه الصفات استحال وجود الولد في حقه، لأن الولد مماثل لوالده، ولا مماثل له سبحانه، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّخْتَذْنَاهُ مِن دُونِهَا﴾ [الأنبياء: 17] ثم لما ذكر سبحانه كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً قهاراً ذكر ما يدل على ذلك من صفاته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً لغير شيء، ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك، أو صاحبة، أو ولد. ثم بين كيفية تصرفه في السموات، والأرض، فقال: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ التكوير في اللغة: طرح الشيء بعضه على بعض. يقال: كَوَّرَ المتاع: إذا لقي بعضه على بعض، ومنه كَوَّرَ العمامة؛ فمعنى تكوير الليل على النهار: تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه، ومعنى تكوير النهار على الليل: تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: 54] هكذا قال قتادة، وغيره. وقال الضحاك: أي: يلقي هذا على هذا، وهذا على هذا، وهو مقارب للقول الأول. وقيل: معنى الآية: أن ما نقص من الليل نخل في النهار، وما نقص من النهار نخل في الليل، وهو معنى قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: 13، والحديد: 6]، وقيل: المعنى: إن هذا يكرّ على هذا، وهذا يكرّ على هذا كروراً متتابعاً. قال الراغب: تكوير الشيء: إدارته، وضم بعضه إلى بعض ككوير العمامة اهـ. والإشارة بهذا التكوير المذكور في الآية إلى جريان الشمس في مطالعها، وانتقاص الليل، والنهار، وازديادهما. قال الرازي: إن النور، والظلمة عسكران عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك، وذاك هذا؛ ثم ذكر تسخيرهما لسلطان النهار، وسلطان الليل، وهما: الشمس، والقمر، فقال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: جعلهما متقادين لأمره بالطلوع، والغروب لمنافع العباد، ثم بين كيفية هذا التسخير، فقال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يجري في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا، وذلك يوم القيامة، وقد تقدم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى في سورة «يس» ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ألا: حرف تنبيه، والمعنى: تنبهوا أيها العباد، فإن الله هو الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة. ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته، وبيد صنعه، فقال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وهي: نفس آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ جاء بثم للدلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم، وتراخي عنه؛ لأنها خلقت منه، والعطف: إما

أعطى ولم يبخل ولم يبخل كرم النرى من خول المخول
﴿نسي ما كان يدعوا إليه من قبل﴾ أي: نسي الضرر
 الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما
 خوله، وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به، وتركه، أو
 نسي ربه الذي كان يدعو، ويتضرع إليه، ثم جاوز ذلك إلى
 الشرك بالله، وهو معنى قوله: **﴿وجعل الله أنداداً﴾** أي:
 شركاء من الأصنام، أو غيرها يستغيث بها، ويعبدها
﴿ليضل عن سبيله﴾ أي: ليضل الناس عن طريق الله التي
 هي الإسلام، والتوحيد. وقال السدي: يعني: أنداداً من الرجال
 يعتمد عليهم في جميع أمورهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله
 ﷺ أن يهتد من كان متصفاً بتلك الصفة، فقال: **﴿قل تمتع
 بكفرك قليلاً﴾** أي: تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، فمتاع الدنيا
 قليل، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إنك من أصحاب النار﴾** أي:
 مصيرك إليها عن قريب، وفيه من التهديد أمر عظيم. قال
 الزجاج: لفظه لفظ الأمر، ومعناه: التهديد، والوعيد. قرأ
 الجمهور (ليضل) بضم الياء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو
 بفتحها. ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين، وتمسكهم
 بغير الله عند انقضاء المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين،
 فقال: **﴿أمن هو قانت آناء الليل﴾**، وهذا إلى آخره من تمام
 الكلام المأمور به رسول الله ﷺ. والمعنى: ذلك الكافر

أحسن حالاً، ومالاً، آمن هو قائم بطاعات الله في السراء والضراء في ساعات الليل، مستمراً على ذلك، غير مقتصر على دعاء الله سبحانه عند نزول الضرر به. قرأ الحسن، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والكسائي (أمن) بالتشديد، وقرأ نافع، وابن كثير، وحزمة، ويحيى بن وثاب، والأعمش بالتحقيق، فعلى القراءة الأولى أم داخله على من الموصولة، وأدغمت الميم في الميم، وأم هي المتصلة، ومعالها محذوف تقديره: الكافر خير أم الذي هو قانت. وقيل: هي المنقطعة المقترنة بيل، والهمزة أي: بل آمن هو قانت كالكافر، وأما على القراءة الثانية، فقيل: الهمزة للاستفهام دخلت على من، والاستفهام للتقرير، ومقابله محذوف أي: آمن هو قانت كمن كفر. وقال الفرّاء: إن الهمزة في هذه القراءة للنداء، ومن منادى، وهي عبارة عن النبي ﷺ المأمور بقوله: ﴿قل تمتع﴾، والتقدير: يا من هو قانت، قل: كيت، وكيت، وقيل: التقدير: يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة. ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفرّاء، وضعف ذلك أبو حيان، وقال: هو أجنبى عما قبله، وعما بعده، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علي الفارسي، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم، والأخفش، ولا وجه لذلك، فإننا إذا ثبتت الرواية بطلت الدّرية.

وقد اختلف في تفسير القانت هنا، فقيل: المطيع، وقيل: الخاشع في صلاته، وقيل: القائم في صلاته، وقيل: الدّاعي لربه. قال النحاس: أصل القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه، فهو داخل في الطاعة، والمراد بأنّاء الليل: ساعاته، وقيل: جوفه، وقيل: ما بين المغرب، والعشاء، وانتصاب ﴿ساجداً وقائماً﴾ على الحال أي: جامعاً بين السجود، والقيام، وقدم السجود على القيام لكونه أدخل في العبادة، ومحل ﴿يحذر الآخرة﴾. النصب على الحال أيضاً أي: يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير، ومقاتل ﴿ويرجوا رحمة ربه﴾، فيجمع بين الرجاء، والخوف، وما اجتماعاً في قلب رجل إلا فاز. قيل: وفي الكلام حذف، والتقدير: كمن لا يفعل شيئاً من ذلك كما يدل عليه السياق. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً آخر يتبين به الحق من الباطل، فقال: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ أي: الذين يعلمون أن ما وعد الله به من البعث، والثواب، والعقاب حق، والذين لا يعلمون ذلك، أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله، والذين لا يعلمون ذلك، أو المراد: العلماء والجهال، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل. قال الزجاج: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون، والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع، والعاصي. وقيل: المراد بالذين يعلمون: هم العاملون بعلمهم، فإنهم المنتفعون به، لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي: إنما يتعظ، ويتدبر، ويتفكر أصحاب العقول، وهم المؤمنون لا الكفار، فإنهم، وإن زعموا أن لهم عقولاً، فهي كالعدم، وهذه الجملة ليست من جملة

الكلام المأمور به بل من جهة الله سبحانه ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم، ومن لا يعلم، وبين أنه ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أمر رسوله ﷺ بأن يامر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه، والإيمان به. والمعنى: يا أيها الذين صدّقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته، واجتناب معاصيه، وإخلاص الإيمان له، ونفي الشركاء عنه، والمراد: قل لهم قولي هذا بعينه. ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى بين لهم ما في هذه التقوى من الفوائد، فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي: للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة، وهي: الجنة، وقوله: ﴿في هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا، وقيل: هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة، والعافية، والظفر، والغنيمة، والأول أولى. ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات، والإحسان في وطنه أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة، فقال: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أي: فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة الله. والعمل بما أمر به، والترك لما نهى عنه، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء: 97]، وقد مضى الكلام في الهجرة مستوفى في سورة النساء، وقيل: المراد بالأرض هنا: أرض الجنة، رغبتهم في سعتها، وسعة نعيمها كما في قوله: ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ [آل عمران: 133]، والأول أولى. ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا، وكان لا بدّ في ذلك من الصبر على فعل الطاعة، وعلى كفّ النفس عن الشهوات، أشار إلى فضيلة الصبر، وعظيم مقداره، فقال: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي: يوفيه الله أجرهم في مقابلة صبرهم بغير حساب أي: بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسابه حاسب. قال عطاء: بما لا يهتدي إليه عقل، ولا وصف. وقال مقاتل: أجرهم الجنة، وأرزاقهم فيها بغير حساب. والحاصل: أن الآية تدلّ على أن ثواب الصابرين، وأجرهم لا نهاية له، لأن كل شيء يدخل تحت الحساب، فهو: متناه، وهذه فضيلة عظيمة، ومثوبة جليّة تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله، وطامع فيما عنده من الخير، أن يتوفر على الصبر، ويرمّ نفسه بزمّامه، ويقبدها بقيدته، فإن الجزع لا يردّ قضاء قد نزل، ولا يجلب خيراً قد سلب، ولا يدفع مكروهاً قد وقع، وإذا تصوّر العاقل هذا حقّ تصوّره، وتعلّقه حقّ تعلّقه علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، وظفر بهذا الجزء الخطير، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره، ولا يبلغ مداه، فضمّ إلى مصيبيته مصيبة أخرى، ولم يظفر بغير الجزع، وما أحسن قول من قال:

لرى الصبر محموداً وعنه مذاهب فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

قوله: ﴿**قل إني أخاف إن عصيت ربي**﴾ أي: بترك إخلاص العباداة له، وتوحيده، والدعاء إلى ترك الشرك، وتضليل أهله ﴿**عذاب يوم عظيم**﴾، وهو: يوم القيامة. قال أكثر المفسرين: المعنى: إني أخاف إن عصيت ربي بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله. قال أبو حمزة اليماني، وابن المسيب: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: 2] وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب، لأن قبله ﴿إنما أمرت أن أعبد الله﴾ [الزمر: 11]، فالمراد: عصيان هذا الأمر ﴿قل الله أعبد﴾ التقديم مشعر بالاختصاص أي: لا أعبد غيره لا استقلالاً، ولا على جهة الشركة، ومعنى ﴿مخلصاً له ديني﴾: أنه خالص لله غير مشوب بشرك، ولا رياء، ولا غيرهما، وقد تقدّم تحقيقه في أول السورة. قال الرازي: فإن قيل: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ [الزمر: 11]، وقوله: ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ قلنا: ليس هذا بتكرير، لأن الأول: إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإيمان، والعبادة، والثاني إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحداً غير الله ﴿فاعبدوا ما شئتم﴾ أن تعبوه ﴿من دونه﴾ هذا الأمر للتهديد، والتقريع، والتوبيخ كقوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ [فصلت: 40]، وقيل: إن الأمر على حقيقته، وهو منسوخ بأية السيف، والأول أولى ﴿قل إن للخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي: إن الكاملين في الخسران هم هؤلاء، لأن من نخل النار، فقد خسر نفسه، وأهله. قال الزجاج: وهذا يعني به الكفار، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد في النار، وخسروا أهلهم، لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، وجملة ﴿**ألا تلك هو الخسران المبين**﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها، وتصديرها بحرف التنبيه للإشعار بأن هذا الخسران الذي حلّ بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية، وكذلك تعريف الخسران، ووصفه بكونه مبيناً، فإنه يدل على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران؛ وأنه لا خسران يساويه، ولا عقوبة تدانيه. ثم بين سبحانه هذا الخسران الذي حلّ بهم، والبلاء النازل عليهم بقوله: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار أي: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم ﴿ومن تحتهم ظلل﴾ أي: أطباق من النار، وسمي ما تحتهم ظلاً لأنها تظلّ من تحتها من أهل النار، لأن طبقات النار صار في كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار، ومثل هذه الآية قوله: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ [الأعراف: 41]، وقوله: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ يعني: الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فيقولون لا إله إلا الله، ثم قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، وهم: عباده المخلصون الذين قال: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42]، فالزمهم شهادة أن لا إله إلا الله، وحبيباً إليهم. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ قال: لا يرضى لعباده المسلمين الكفر. وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة قال: والله ما رضي الله لعبده ضلالة، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكن رضي لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر عن ابن عمر: أنه تلا هذه الآية ﴿أَمِنْ هُوَ قَائِنٌ أُنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ قال: ذاك عثمان بن عفان، وفي لفظ: نزلت في عثمان بن عفان. وأخرج ابن سعد في طبقاته، وابن مريويه، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله: ﴿أَمِنْ هُوَ قَائِنٌ﴾ الآية قال: نزلت في عمار بن ياسر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ يقول: يحذر عذاب الآخرة. وأخرج الترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أنس قال: «دخل رسول الله ﷺ على رجل، وهو في الموت، فقال: كيف تجبلك؟ قال: أرجو الله، وأخاف ثنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمنه الذي يخاف»، أخرجه من طريق سيار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس. قال الترمذي: غريب، وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن النبي ﷺ مرسلًا.

قُلْ إِنِّي لَكَا فِ إِنْ عَصَيْتُمْ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عِظِيمٍ ﴿٧٧﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُوا مَا يُدْرِي قَاعِبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي لَمُخْبِرٌ الَّذِينَ خَافُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْمُنْزَلُ إِلَيْهِمْ ﴿٧٨﴾ لَمْ يَنْ يَنْ قَوْمَهُمْ مُنْزَلٌ مِنَ الْفَارِ وَنَ تَحْمِيهِمْ مُنْزَلٌ إِلَيْهِمْ بِحُفُوفِ اللَّهِ يَوْمَ عِبَادِهِمْ يَجِئُوا فَاتُفُونَ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغْيَانَ أَنْ يَبْعُدُوا وَأَتَاوْا إِلَى اللَّهِ هُمْ الشُّرُفُ يُفْتَرِ عِبَادُ ﴿٨٠﴾ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ

المعنى: أفانت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب، والمراد بكلمة العذاب هنا هي: قوله تعالى لإبليس: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: 85]، وقوله: ﴿لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ [الأعراف: 18] ومعنى الآية: التسليّة لرسول الله ﷺ، لأنه كان حريصاً على إيمان قومه، فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء، حقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله ﷺ أن ينقذه من النار بأن يجعله مؤمناً. قال عطاء: يريد أبا لهب، ولده، ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وفي الآية تنزيل لمن يستحق العذاب بمن قد صار فيه، وتنزيل دعائه إلى الإيمان منزلة الإخراج له من عذاب النار. ولما ذكر سبحانه فيما سبق أن لاهل الشقاوة ظلاً من فوقهم النار، ومن تحتهم ظلل استدرك عنهم من كان من أهل السعادة، فقال: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية﴾، وذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض، ومعنى «مبنية»: أنها مبنية بناء المنازل في إحكام أساسها، وقوة بنائها، وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها «تجري من تحتها الأنهار» أي: من تحت تلك الغرف، وفي ذلك كمال لبهجتها، وزيادة لرونقها، وانتصاب «وعد الله» على المصدرة المؤكدة لمضمون الجملة، لأن قوله: ﴿لهم غرف﴾ في معنى: وعدهم الله بذلك، وجملة «لا يخلف الله الميعاد» مقردة للوعد أي: لا يخلف الله ما وعد به الفريقين من الخير، والشر.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم﴾ الآية. قال: هم الكفار الذين خلقهم الله للنار زالت عنهم الدنيا، وحرمت عليهم الجنة. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿خسروا أنفسهم وأهليهم﴾ قال: أهلهم من أهل الجنة كانوا أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله، فغيبهم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: كان سعيد بن زيد، وأبو ذر، وسلمان يتبعون في الجاهلية أحسن القول، والكلام لا إله إلا الله قالوا بها، فأنزل الله على نبيه «يستمعون القول فيتبعون أحسنه» الآية. وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال: لما نزل: «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» أرسل رسول الله ﷺ نادياً فنادى: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، فاستقبل عمر الرسول، فردّه، فقال: يا رسول الله خشيت أن يتكل الناس، فلا يعملون، فقال رسول الله ﷺ: لو يعلم الناس قدر رحمة ربي لا تكلوا، ولو يعلمون قدر سخط ربي، وعقابه لاستصغروا أعمالهم»، وهذا الحديث أصله في الصحيح من حديث أبي هريرة.

[العنكبوت: 55]، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدّم نكره من وصف عذابهم في النار، وهو: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿يخوف الله به عباده﴾ أي: يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب: ليخافوه، فيتقوه، وهو: معنى «يا عباد فاتقون» أي: اتقوا هذه المعاصي الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار، ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم، وقيل: هو للكفار، وأهل المعاصي، وقيل: هو عامٌ للمسلمين، والكفار «والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها» الموصول مبتدأ، وخبره قوله: ﴿لهم البشري﴾ والطاغوت بناء مبالغة في المصدر كالرحموت، والعظمت، وهو: الأوثان، والشيطان. وقال مجاهد، وابن زيد: هو: الشيطان. وقال الضحاك، والسدي: هو: الأوثان. وقيل: إنه الكاهن، وقيل: هو اسم أعجمي مثل طالوت، وجالوت، وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطغيان. قال الأخفش: الطاغوت جمع، ويجوز أن يكون واحده مؤنثاً، ومعنى اجتنبوا الطاغوت: أعرضوا عن عبادته، وخصوا عبادتهم بالله عز وجل، وقوله: ﴿أن يعبدوها﴾ في محل نصب على البدل من الطاغوت، بدل احتمال، كأنه قال: اجتنبوا عبادة الطاغوت، وقد تقدّم الكلام على تفسير الطاغوت مستوفى في سورة الأقرة، وقوله: ﴿واتلوا إلى الله﴾ معطوف على اجتنبوا، والمعنى: رجعوا إليه، وأقبلوا على عبادته معرضين عما سواه «لهم البشري» بالثواب الجزيل، وهو: الجنة. وهذه البشري إما على السنة الرسل، أو عند حضور الموت، أو عند البعث «فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» المراد بالعباد هنا: العموم، فيدخل الموصوفون بالاجتناب، والإنابة إليه دخولاً أولياً، والمعنى: يستمعون القول الحق من كتاب الله، وسنة رسوله، فيتبعون أحسنه أي: محكمه، ويعملون به. قال السدي: يتبعون أحسن ما يؤمرون به، فيعملون بما فيه، وقيل: هو الرجل يسمع الحسن، والقبیح، فيحدث بالحسن، وينكف عن القبیح، فلا يحدث به، وقيل: يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن، وقيل: يستمعون الرخص والعزائم، فيتبعون العزائم، ويتركون الرخص، وقيل: يأخذون بالعفو، ويتركون العقوبة. ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المذكورين، فقال: ﴿أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ أي: هم الذين أوصلهم الله إلى الحق، وهم أصحاب العقول الصحيحة، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم، ولم ينتفع من عداهم بعقولهم. ثم نكر سبحانه من سبقت له الشقاوة، وحرّم السعادة فقال: ﴿أفمن حقّ عليه كلمة العذاب﴾ من هذه يحتمل أن تكون موصولة في محل رفع بالابتداء، وخبرها محنوف أي: كمن يخاف، أو فانت تخلصه، أو تتأسف عليه، ويحتمل أن تكون شرطية، وجوابه «أفانت تنقذ من في النار» فالفاء فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء، وأعيدت الهمزة الإنكارية لتأكيد معنى الإنكار. وقال سيبويه: إنه كرر الاستفهام لطول الكلام. وقال الفراء:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَ مِنْهُ نَبْيٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَزْدَحِكُ الْأَرْضُ فَرْجًا يُضْمِرُ ثُمَّ يُغْمِغِمْ حَطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْرَائِيلَ فَهَوَىٰ عَلَىٰ نُوْرٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلًا لِّفَتْنَةِ قُلُوبِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٢﴾ اللَّهُ تَزَلَّ

أَحْسَنَ لِلْعَالَمِينَ كِتَابًا مُنَشِّهًا شَتَايَ نَفْسِهِ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَحْتَرُونَ رَحْمَةً
ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ
يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٩﴾ آمَنَ بَنِيُّ يَوْجَهٍ سَوَّهَ
الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ دُورُ مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾ فَأَذَانُ اللَّهِ لَعْنَتُهُ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

لما نكر سبحانه الآخرة، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها، والشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها، والنفرة منها، فذكر تمثيلها في سرعة زوالها، وقرب اضمحلالها مع ما في ذلك من نكر نوع من أنواع قدرته الباهرة، وصنعه البديع، فقال: ﴿الْم تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب مطراً ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبَايِعُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فأنخله، وأسكنه فيها، والينابيع جمع ينبوع من ينبع الماء ينبع، والينبوع عين الماء، والأمكنة التي ينبع منها الماء، والمعنى: أنخل الماء النازل من السماء في الأرض، وجعله فيها عيوناً جارية، أو جعله في ينابيع أي: في أمكنة ينبع منها الماء، فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض. قال مقاتل: فجعله عيوناً، وركايا في الأرض ﴿ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي: يخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه من أصفر، وأخضر، وأبيض، وأحمر، أو من بر، وشعير، وغيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ﴿ثُمَّ يَهْبِيجُ﴾ يقال: هاج النبات يهيج هيجاً إذا تم جفافه. قال الجوهري: يقال: هاج النبات هياجاً: إذا يبس، وأرض هائجة يبس بقلها، أو أصفر، وهائجة الريح النبات أيبسته. قال المبرد: قال الأصمعي: يقال: هاجت الأرض تهيج: إذا ادبر نبتها، وولى. قال: وكذلك هاج النبات ﴿فَقَتَرَاهُ مَصْفُورًا﴾ أي: تراه بعد خضرته، ونضارته، وحسن رونقه مصفراً قد ذهب خضرته، ونضارته ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حَطَامًا﴾ أي: متفتتاً منكسراً، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس ﴿إِنْ فِي ثَلَاثِ لَيَالٍ لَنُكْرَى لِأُولَى الْأَبْلَابِ﴾ أي: فيما تقدم ذكره تنكير الأهل العقول الصحيحة، فإنهم الذين يتفكرون الأشياء على حقيقتها، فيفكرون، ويعتبرون، ويعلمون بأن الحياة الدُّنْيَا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم، وقرب التقضي، وذهاب بهجتها، وزوال رونقها، ونضارتها، فإذا انتج لهم التفكير، والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها، والميل إليها، وإثارة على دار النعيم الدائم، والحياة المستمرة، واللذة الخالصة، ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث، والحشر، لأن من قدر على هذا قدر على ذلك. وقيل: هو مثل ضربه الله للقرآن، ولصنوعه من في الأرض. والمعنى: أنزل من السماء قرآنًا، فسلكه في قلوب المؤمنين، ثم يخرج به ديناً بعضه أفضل من بعض، فاما المؤمن، فيزداد إيماناً و يقيناً، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير. قرأ الجمهور (ثم يجعله) بالرفع عطفاً على ما قبله، وقرأ أبو

بشر بالنصب بإضمار أن، ولا وجه لذلك. ثم لما ذكر سبحانه أن في ذلك لنكراً لأولي الأبواب، ذكر شرح الصدر للإسلام، لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به، فقال: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: وسعه لقبول الحق، وفتحته للاقتداء إلى سبيل الخير. قال السدي: وسع صدره للإسلام للفرح به، والطمأنينة إليه، والكلام في الهمزة، والفاء كما تقدم في ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: 19]، ومن مبتدأ، وخبرها محذوف تقديره كمن قسا قلبه، وخرج صدره، يدل على هذا الخبر المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ﴾ والمعنى: أقمن وسع الله صدره للإسلام، فقبله، وامتدّى بهديه ﴿فَهَوَّ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ فيفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره، فصار في ظلمات الضلالة، ولبليات الجهالة. قال قتادة: النور كتاب الله به يؤخذ، وإليه ينتهي. قال الزجاج: تقدير الآية: أقمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه، فلم يهتد لقسوته ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ نَكْرِ اللَّهِ﴾ قال الفراء، والزجاج: أي: عن نكر الله كما تقول: اتخمت عن طعام أكلته، ومن طعام أكلته، والمعنى: أنه غلظ قلبه، وجفا عن قبول نكر الله، يقال: قسا القلب إذا صلب، وقلب قاس أي: صلب لا يرق، ولا يلين، وقيل: معنى من نكر الله من أجل نكوه الذي حقه أن تنشرح له الصدور، وتطمئن به القلوب. والمعنى: أنه إذا نكر الله أشمازوا، والأول أولى، ويؤيده قراءة من قرأ عن نكر الله، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى القاسية قلوبهم، وهو: مبتدأ، وخبره ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: ظاهر واضح. ثم نكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز، فقال: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وسماه حديثاً: لأن النبي ﷺ كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما ينزل عليه منه. وفيه بيان أن أحسن القول المنكسر سابقاً هو: القرآن، وانتصاب ﴿كِتَابًا﴾ على البدل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه ﴿مُتَشَابِهًا﴾ صفة لكتاباً أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن، والأحكام، وصحة المعاني، وقوة المباني، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة، وقال قتادة: يشبه بعضه بعضاً في الآي، والحروف، وقيل: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه، و ﴿مُثَانِي﴾ صفة أخرى لكتاباً أي: تثني فيه القصص، وتكرر فيه المواعظ، والأحكام. وقيل: يثنى في التلاوة، فلا يمل سامعه، ولا يسام قارئه. قرأ الجمهور (مثنائي) بفتح الياء، وقرأ هشام عن ابن عامر، وبشر بسكونها تخفيفاً، واستقلالاً لتحريكها، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هو مثنائي، وقال الرازي: في تبين مثنائي أن أكثر الأشياء المذكورة في القرآن متكررة زوجين زوجين مثل الأمر والنهي والعلم والخاص، والمجمل والمفصل، وأحوال السموات والأرض، والجنة والنار، والنور والظلمة، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسي، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود من ذلك البيان: بأن كل ما سوى الحق زوج، وأن الفرد الأحد الحق هو: الله، ولا يخفى ما في كلامه

معطوف على يتقي أي: ويقال لهم، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق. قال عطاء: أي: جزاء ما كنتم تعملون، ومثل هذه الآية قوله: ﴿هَذَا مَا كُنْزُكُمْ لَانْفُسَكُمْ فذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 35]، وقد تقدّم الكلام على معنى النوق في غير موضع. ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ. والمعنى: أنهم كتبوا رسلهم ﴿فَاتَّاهَمَ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من جهة لا يحسبون إتيان العذاب منها، وذلك عند أمنهم، وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم ﴿فَإِذَا نَقَمُوهُ﴾ أي: الذل، والهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمسخ، والخسف، والقتل، والأسر، وغير ذلك ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ﴾ لكونه في غاية الشدة مع دوامه ﴿لَوْ كُنَّا نَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا ممن يعلم الأشياء، ويتفكر فيها، ويعمل بمقتضى علمه. قال المبرد: يقال: لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته أي: وصل إليها كما تصل الحلاوة، والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخزي المكروه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿الْمَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية قال: ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله: ﴿فَلَسْكَ يَنْبَاطُ فِي الْأَرْضِ﴾ فمن سرّه أن يعود الملح عذباً، فليصعده، وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿أَقَمْنِ شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال: أبو بكر الصديق. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: «تلا النبي ﷺ هذه الآية ﴿أَقَمْنِ شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ﴾ قلنا: يا نبي الله كيف انشراح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشراح، وانفسح. قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ فقال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». وأخرج ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظي مرفوعاً مرسلاً. وأخرج الحكيم الترمذي في نوازل الأصول عن ابن عمر: «أن رجلاً قال: يا نبي الله أي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم نكراً للموت وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور في القلب انفسح، واستوسع، فقالوا: ما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت». وأخرجه عن أبي جعفر عبد الله بن المسور، عن رسول الله ﷺ بنحوه، وزاد فيه: «ثم قرأ ﴿أَقَمْنِ شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾». وأخرج الترمذي، وابن مردويه، وابن شاهين في الترغيب في النكر، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكثرُوا الكلام بغير نكر الله، فإن كثرة الكلام بغير نكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: «يا رسول الله لو حدثتنا، فنزل ﴿اللَّهُ نَزَلَ لِحَسَنِ الْحَبِيثِ﴾ الآية». وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿مَثَانِي﴾ قال: القرآن كله مثاني. وأخرج ابن أبي حاتم عنه

هذا من التكلف، والبعد عن مقصود التنزيل ﴿تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون صفة لكتاباً، وأن تكون حالاً منه، لأنه وإن كان نكرة، فقد تخصص بالصفة، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثير لسماعيه، والاقشعرار التقبض، يقال: اقشعر جلد: إذا تقبض، وتجمع من الخوف. والمعنى: أنها تأخذهم منه قشعريرة. قال الزجاج: إذا نكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ﴿ثُمَّ تَلَيْنِ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ﴾ إذا نكرت آيات الرحمة. قال الواحدي: وهذا قول جميع المفسرين، ومن ذلك قول امرئ القيس:

فنبئت أكابيد ليل التمام والقلب من خشية مقشعر
وقيل: المعنى: أن القرآن لما كان في غاية الجزالة، والبلاغة، فكانوا إذا راوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاماً له، وتجباً من حسنه، وبلاغته ثم تلين جلودهم، وقلوبهم ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ عذى تلين بإلى لتضمينه فعلاً يتعدى بها، كانه قيل: سكنت، واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة، ومفعول نكر الله محذوف، والتقدير: إلى نكر الله رحمته، وثوابه، وجنته، وحذف للعلم به. قال قتادة: هذا نعت أولياء الله نعتهم بأنها تقشعر جلودهم، وتطمئن قلوبهم إلى نكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو: من الشيطان، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الكتاب الموصوف بتلك الصفات، وهو: مبتدأ، و ﴿هُدًى اللَّهُ﴾ خبره أي: ذلك الكتاب هدى الله ﴿يَهْدِي بِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديه من عباده، وقيل: إن الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما وهبه الله لهؤلاء من خشية عذابه، ورجاء ثوابه ﴿وَمَنْ يَضِلُّ اللَّهُ﴾ أي: يجعل قلبه قاسياً مظلماً غير قابل للحق ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق، ويخلصه من الضلال. قرأ الجمهور (من هاد) بغير ياء. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بالياء. ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا، وهو: الضلال، حكم عليهم في الآخرة بحكم آخر، وهو: العذاب، فقال: ﴿أَقَمْنِ يَتَقِي بَوَاجِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والاستفهام للإنكار، وقد تقدّم الكلام فيه، وفي هذه الفاء الداخلة على من في قوله: ﴿أَقَمْنِ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: 19]، ومن مبتدأ، وخبرها محذوف لدلالة المقام عليه، والمعنى: أقمن شأنه أن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شيء من ذلك، ولا يحتاج إلى الاتقاء. قال الزجاج: المعنى: أقمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة. قال عطاء، وابن زيد: يرمى به مكتوفاً في النار، فأول شيء تمس منه وجهه. وقال مجاهد: يجز على وجهه في النار. قال الأخفش: المعنى: أقمن يتقي بوجهه سوء العذاب أفضل أم من سعد؟ مثل قوله: ﴿أَقَمْنِ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرَ أَمِنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: 40]، ثم أخبر سبحانه عما تقوله الخزنة للكفار، فقال: ﴿وَقِيلِ لِلظَّالِمِينَ نُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهو

الكسائي: نصب رجلاً؛ لأنه تفسير للمثل، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض أي: ضرب الله مثلاً بـرجل، وقيل: إن رجلاً هو المفعول الأول، ومثلاً هو المفعول الثاني، وآخر المفعول الأول؛ ليتصل بما هو من تمامه، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة «يس»، وجملة «فيه شركاء» في محل نصب صفة لرجل، والتشاكس التخالف. قال الفراء: أي: مختلفون. وقال المبرد: أي: متعاسرون من شكس يشكس شكساً، فهو: شكس مثل عسر يعسر عسراً، فهو: عسر. قال الجوهري: التشاكس الاختلاف. قال: ويقال: رجل شكس بالتسكين أي: صعب الخلق، وهذا مثل من اشرك بالله، وعبد آلهة كثيرة. ثم قال: «ورجلاً سلماً لرجل» أي: خالصاً له، وهذا مثل من يعبد الله وحده. قرأ الجمهور (سلماً) بفتح السين، واللام، وقرأ سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو العالية بكسر السين، وسكون اللام. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والجدري، وأبو عمرو، وابن كثير، ويعقوب (سالمًا) بالالف، وكسر اللام اسم فاعل من سلم له، فهو: سالم، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأن السالم الخالص ضد المشترك، والسلم ضد الحرب، ولا موضع للحرب ها هنا، وأجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما، فالسلم، وإن كان ضد الحرب، فله معنى آخر بمعنى: سالم، من سلم له كذا: إذا خلص له. وأيضاً يلزمه في سالم ما ألزم به، لأنه يقال: شيء سالم أي: لا عاهة به، واختار أبو حاتم القراءة الأولى. والحاصل أن قراءة الجمهور هي على الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف أي: ذا سلم، ومثلها قراءة سعيد بن جبير، ومن معه. ثم جاء سبحانه بما يدل على التفاوت بين الرجلين، فقال: «هل يستويان مثلاً»، وهذا الاستفهام للإنكار، والاستبعاد، والمعنى: هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة يستخدمه كل واحد منهم، فيتعبد، وينصب مع كون كل واحد منهم غير راضٍ بخدمته، وهذا الذي يخدم واحداً لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه، وإذا عصاه عفا عنه. فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما، لأن أحدهما: في أعلى المنازل، والآخر: في أنهارها، وانتصاب مثلاً على التمييز المحول عن الفاعل؛ لأن الأصل هل يستوي مثلهما، وأقرد التمييز، ولم يثنه؛ لأن الأصل في التمييز الأفراد لكونه مبيناً للجنس، وجملة «الحمد لله» تقرير لما قبلها من نفي الاستواء، وللايدان للموحدين بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به. ثم أضرِب سبحانه عن نفي الاستواء المفهوم من الاستفهام الإنكاري إلى بيان أن أكثر الناس لا يعلمون، فقال: «هل أكثرهم لا يعلمون»، وهم: المشركون، فإنهم لا يعلمون ذلك مع ظهوره، ووضوحه. قال الواحدي، والبيهقي: والمراد بالأكثر الكل، والظاهر خلاف ما قاله، فإن المؤمنين بالله يعلمون ما في التوحيد من رفعة شأنه، وعلو مكانه، وإن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه، ولا يساويه

أيضاً في الآية قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويرد بعضه إلى بعض. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: كتاب الله مثاني ثني فيه الأمر متراراً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عسلكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجنتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرءوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قلت: فإن ناساً ها هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت: أعوذ بالله من الشيطان. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «فأمن يفتي بوجهه سوء العذاب» قال: ينطلق به إلى النار مكتوفاً، ثم يرمى به فيها، فأول ما تمس وجهه النار.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾
قُرْآنًا عَرَبِيًّا مَعْرُوفًا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾ صَرَّفَ اللَّهُ مَثَلًا يَتَذَكَّرُ فِيهِ شَرَكَاةَ مُشْرِكِيهِمْ وَرَجُلًا سَلَامًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِحَمْدِ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ مِثٌّ وَلَهُمْ مِثْرُونَ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَتَوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٨٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهمَ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

قوله: «ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل» قد قدّمنا تحقيق المثل، وكيفية ضربه في غير موضع، ومعنى: «من كل مثل»: ما يحتاجون إليه، وليس المراد ما هو أعم من ذلك، فهو هنا كما في قوله: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» [الأنعام: 38] أي: من شيء يحتاجون إليه في أمر دينهم، وقيل: المعنى: ما نكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء «لعلهم يتذكرون» يتعظّمون، فيعتبرون، وانتصاب «قرآنًا عربيًّا» على الحال من هذا، وهي حال مؤكدة، وتسمي هذه حالا موطئة، لأن الحال في الحقيقة هو: عربيًّا، وقرآنًا توطئة له، نحو جاءني زيد رجلاً صالحاً: كذا قال الأخفش، ويجوز أن ينتصب على المدح. قال الزجاج: عربيًّا منتصب على الحال، وقرآنًا توكيد، ومعنى «غير ذي عوج»: لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه. قال الضحّاك: أي: غير مختلف. قال النحاس: أحسن ما قيل في معناه قول الضحّاك، وقيل: غير متضاد. وقيل: غير ذي لبس، وقيل: غير ذي لحن، وقيل: غير ذي شك كما قال الشاعر:

وقد أتاك يمين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكذوب
«لعلهم يتقون» علة أخرى بعد العلة الأولى. وهي «لعلهم يتذكرون» أي: لكي يتقوا الكفر، والكذب. ثم ذكر سبحانه مثلاً من الأمثال القرآنية للتذكير، والإيقاظ، فقال: «ضرب الله مثلاً» أي: تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلاً. ثم بين المثل، فقال: «رجلاً فيه شركاء متشاكسون» قال

وفي قراءة الجمهور وإن كان مفرداً، فمعناه: الجمع، لأنه يراد به الجنس كما يفيدُه قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: المتصفون بالتقوى التي هي عنوان النجاة. وقرأ أبو صالح (وصدق به) مخففاً أي: صدق به الناس. ثم نكر سبحانه ما لهؤلاء الصالحين المصنفين في الآخرة، فقال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم كل ما يشاءونه من رفع الدرجات، ودفع المضرات، وتكفير السيئات، وفي هذا ترغيب عظيم، وتشويق بالغ، والإشارة بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ إلى ما تقدم نكره من جزائهم، وهو: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الذين أحسنوا في أعمالهم. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ الْإِحْسَانَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ». ثم بيّن سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم، فقال: ﴿لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَا الَّذِي عَمِلُوا﴾، فإن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم؛ لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما هو بطريقه الأولى، واللام متعلقة بيشاءون، أو بالمحسنين، أو بمحذوف. قرأ الجمهور (أسوا) على أنه أفعل تفضيل. وقيل: ليست للتفضيل بل بمعنى: سيء الذي عملوا. وقرأ ابن كثير في رواية عنه أسواء بالف بين الهمزة، والواو بزنة أجمال جمع سوء، «ويجزئهم لجبرهم بالحسن الذي كانوا يعملون»، لما نكر سبحانه ما يدل على دفع المضار عنهم نكر ما يدل على جلب أعظم المنافع إليهم، وإضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه، بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل. قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم، ولا يجزيهم بالمساوئ.

وقد أخرج الأجرى، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾ قال: غير مخلوق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ الآية قال: الرجل يعبد آلهة شتى، فهذا مثل ضربه الله لأهل الأوثان «ورجلاً مسلماً» يعبد إلهاً واحداً ضرب لنفسه مثلاً. وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ قال: ليس لأحد فيه شيء. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عمر قال: لقد لبثنا برهة من دهرنا، ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا، وفي أهل الكتابين من قبلنا «إنك ميت وإنهم ميتون» الآية، حتى رأيت بعضنا يضرب وجه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا. وأخرج نعيم بن حماد في الفتن، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً قال: نزلت علينا الآية «ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون»، وما ندرى ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا: هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وابن منيع، وعبد بن حميد، والترمذي

في وصف من الأوصاف، ويعلمون أن الله سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة، وأن الحمد مختص به. ثم أخبر سبحانه رسوله ﷺ بأن الموت يدركه، ويدركهم لا محالة، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ قرأ الجمهور (ميت، وميتون) بالتشديد، وقرأ ابن محيصن، وابن أبي عبيدة، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق، واليماني (ماتت وماتتون)، وبها قرأ عبد الله بن الزبير. وقد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته، وموتهم مستقبلاً، ولا وجه للاستحسان، فإن قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى. قال القراء: والكسائي: الميت بالتشديد من لم يموت، وسيموت، والميت بالتخفيف من قد مات، وفارقه الروح. قال قتادة: نعت إلى النبي ﷺ نفسه، ونعت إليهم أنفسهم. ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابه بأنه يموت، فقد كان بعضهم يعتقد، أنه لا يموت مع كونه توطئة، وتمهيداً لما بعده حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي: تخاصمهم يا محمد، وتحتج عليهم بأنك قد بلغتهم، وأنزرتهم، وهم يخاصمونك، أو يخاصم المؤمن الكافر، والظالم المظلوم. ثم بيّن سبحانه حال كل فريق من المختصمين، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فزعم أن له ولداً، أو شريكاً، أو صاحبة «وكذب بالصدق إذ جاءه»، وهو ما جاء به رسول الله ﷺ من دعاء الناس إلى التوحيد، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع، ونهيهم عن محرّماته، وإخبارهم بالبعث، والنشور، وما أعد الله للطيع، والعاصي. ثم استفهم سبحانه استفهاماً تقريرياً، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: ليس لهؤلاء المفسدين المكذّبين بالصدق، والمثوي: المقام، وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به يثوى ثواء، وثوياً، مثل مضى مضاء، ومضياً. وحكى أبو عبيد أنه يقال: آثوى، وأنشد قول الأعشى:

آثوى وأقصر ليله ليروداً فضمت وأخلف من قبيلة موعدا
وانكر ذلك الأصمعي، وقال: لا نعرف آثوى. ثم نكر سبحانه فريق المؤمنين المصدقين، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الموصول في موضع رفع بالابتداء، وهو: عبارة عن رسول الله ﷺ، ومن تابعه، وخبره «أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»، وقيل: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدّق به أبو بكر. وقال مجاهد: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدّق به علي بن أبي طالب. وقال السدي: الذي جاء بالصدق جبريل، والذي صدّق به رسول الله ﷺ. وقال قتادة، ومقاتل، وابن زيد: الذي جاء بالصدق النبي ﷺ، والذي صدّق به المؤمنون. وقال النخعي: الذي جاء بالصدق، وصدق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة. وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله، وأرشد إلى ما شرعه لعباده، واختار هذا ابن جرير، وهو: الذي اختاره من هذه الأقوال، ويؤيده قراءة ابن مسعود (والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به). ولغز الذي كما

عباده) بالإضافة، وقرئ (يكافي) بصيغة المضارع، وقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يجوز أن يكون في محل نصب على الحال، إذ المعنى: ليس كافيك حال تخويفهم إيّاك، ويجوز أن تكون مستأنفة، والذين من دونه عبارة عن المعبودات التي يعبدونها ﴿وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من حقّ عليه القضاء بضلاله، فما له من هاد يهديه إلى الرّشد، ويخرجه من الضلالة، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ يخرجـه من الهداية، ويوقعه في الضلالة ﴿وَالَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ أي: غالب لكل شيء قاهر له ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ ينتقم من عصائه بما يصبه عليهم من عذابه، وما ينزله بهم من سوط عقابه ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ نكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأن الله سبحانه مع عبادتهم للأوثان، واتخاذهم الأكلة من دُون الله، وفي هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة، وجهالة عظيمة؛ لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم، ولما يعبدون من دُون الله هو: الله سبحانه، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة؟ وقد كانوا ينكرون بحسن العقل، وكمال الإدراك، والفتنة التامة، ولكنهم لما قلّدوا أسلافهم، وأحسنوا الظنّ بهم هجروا ما يقتضيه العقل، وعملوا بما هو محض الجهل. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف، ويوبخهم، فقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ أي: أخبروني عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراد الله بي من الضرّ، والضرّ هو: الشدّة، أو أعلى ﴿أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ عني بحيث لا تصل إليّ، والرحمة النعمة، والرّخاء. قرأ الجمهور ممسكات، وكاشفات في الموضعين بالإضافة، وقرأهما أبو عمرو، بالتنوين. قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية سألهم النبي ﷺ فسكتوا، وقال غيره: قالوا: لا تنفع شيئاً من قدر الله، ولكنها تنفع، فنزل: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في جميع أمور في جلب النفع، ودفع الضرّ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: عليه، لا على غيره يعتمد المعتمدون، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة أبي عمرو، لأن كاشفات اسم فاعل في معنى: الاستقبال، وما كان كذلك، فتنوينه أجود، وبها قرأ الحسن، وعاصم، ثم أمره سبحانه أن يهدّهم، ويتوعدّهم، فقال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالتكم التي أنتم عليها، وتمكّنتم منها ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على حالتي التي أنا عليها، وتمكّنت منها، وحذف ذلك للعلم به مما قبله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يأتيه عذاب يخزيه ﴿أَي: يهينه، ويذلّ في الدنيا، فيظهر عند ذلك أنه المبتل، وخصمه المحقّ، والمراد بهذا العذاب عذاب: الدنيا، وما حلّ بهم من القتل، والأسر، والقهر، والذلة. ثم ذكر عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمرّ في الدار الآخرة، وهو: عذاب النار. ثم لما كان يعظم على رسول الله ﷺ إصرارهم على

وصححه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوام قال: «لما نزلت ﴿إِنَّكَ مِثٌ وَإِنَّهُمْ مِثُونَ﴾ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قلت: يا رسول الله أيكّر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواصّ الذنوب؟ قال: نعم ليكرّن عليكم ذلك حتى يؤدى إلى كل ذي حقّ حقه. قال الزبير: فوالله إن الأمر لشديده. وأخرج سعيد بن منصور، عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبينا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين، وشدّ بعضنا على بعض بالسيف، قلنا: نعم هو هذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّقِّ﴾ يعني: بلا إله إلا الله ﴿وَصِقِّ بِهِ﴾ يعني: برسول الله ﷺ ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يعني: اتقوا الشرك. وأخرج ابن جرير، والباوردي في معرفة الصحابة، وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان، وله صحبة عن عليّ بن أبي طالب قال: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصقّ به أبو بكر. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مثله.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْكِارٍ ۖ ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۖ ﴿٧٨﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَتَعْلَمُونَ مَا كَانَتْكُمْ إِيَّيَ عَسَلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ ﴿٧٩﴾ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخَوِّدُهُ وَيُسَلِّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُعْتَمِدٌ ۖ ﴿٨٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ لَعَلَّ هُمْ يَهْتَفِدُونَ ۖ ﴿٨١﴾ سَلِّ فَإِنَّمَا يَعْصِلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۖ ﴿٨٢﴾ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّذِي لَمْ يَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فَبِمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْهَا لَنُوقِئَنَّهَا مِنَ النَّارِ وَلَيَرْسِلُنَّ الْآخَرِينَ ۖ ﴿٨٣﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَهِ لِقَوْمِهِمْ يُنْفَكُونَ ۖ ﴿٨٤﴾

قوله: ﴿لَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ قرا الجمهور (عبده) بالإفراد. وقرا حمزة، والكسائي (عباده) بالجمع، فعلى القراءة الأولى المراد: النبي ﷺ، أو الجنس، ويخل فيه رسول الله ﷺ دخولاً أولاً، وعلى القراءة الأخرى المراد: الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع، واختار أبو عبيد قراءة الجمهور، لقوله عقبه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾، والاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كانها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره. وقيل: المراد بالعبد، والعباد: ما يعم المسلم، والكافر. قال الجرجاني: إن الله كاف عبده المؤمن، وعبده الكافر هذا بالثواب، وهذا بالعقاب. وقرئ (بكافى)

ذلك، ويتدبرونه، ويستلثون به على توحيد الله، وكمال قدرته. فإن في هذا التوفي، والإمسك، والإرسال موعظة للمتعظين، وتنكرة للمتنكرين.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية قال: نفس، وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فيتوفى الله النفس في منامه، ويدع الروح في جوفه تتقلب، وتعيش، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح، فمات. وإن أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، والضياء في المختارة عنه في الآية قال: تلتقي أرواح الأحياء، وأرواح الأموات في المنام، فيتساءلون بينهم ما شاء الله، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿إِلَى لُحُلٍ مَّسْمُومَةٍ﴾ لا يغلط بشيء منها، فنلك قوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً في الآية قال: كل نفس لها سبب تجري فيه، فإذا قضى عليها الموت نامت حتى ينقطع السبب، والتي لم تمت في منامها تترك. وأخرج البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرى أحكم إلى فراشه، فلينفضه بداخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي، وباسمك أرفعه، إن أمسكت نفسي، فارحمها، وإن أرسلتها، فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كُنَّا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّعْنَةُ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّكُونُ وَالْأَرْضُ نَزَلَتْ إِلَيْهِ تَرْجُمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ عَدُوَّهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٠٣﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالْقَلْبَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِي فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٠٥﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَنَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله: ﴿إِذَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل، والهمزة أي: بل اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله ﴿قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للإنكار، والتوبيخ، والواو للعطف على محذوف مقدر أي: أيشفعون، ولو كانوا الخ، وجواب لو محذوف تقديره تتخذونهم أي: وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم، ومعنى لا يملكون شيئاً: أنهم غير مالكين لشيء من الأشياء، وتنبخل الشفاعة في ذلك دخولاً أولياً، ولا يعقلون شيئاً من الأشياء: لأنها جمادات لا عقل لها، وجمعهم بالواو، والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون. ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم: أن الشفاعة لله وحده، فقال: ﴿قُلْ

الْكَفَرُ أَخْبِرَهُ بَأَنَّهُ لَمْ يَكْفِ إِلَّا بِالْبَيِّنِ، لَا بَأْسَ يَهْدِي مِنْ ضَلٍّ، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لأجلهم، ولبيان ما كفوا به، و﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من الفاعل، أو المفعول أي: محقين، أو ملتبساً بالحق ﴿فَمَنْ اهْتَدَى﴾ طريق الحق، وسلكها ﴿فَلَغْنَفْسَهُ وَمَنْ ضَلَّ﴾ عنها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه، فضرر ذلك عليه لا يتعدى إلى غيره ﴿وَمَا لَأَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بمكلف بهدائيتهم مخاطب بها، بل ليس عليك إلا البلاغ، وقد فعلت. وهذه الآيات هي منسوخة بآية السيف، فقد أمر الله رسوله بعد هذا أن يقتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا بأحكام الإسلام. ثم نكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته البالغة، وصنعتة العجيبة، فقال: ﴿إِلَهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبضها عند حضور أجلها، ويخرجها من الأبدان ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت أي: لم يحضر أجلها في منامها.

وقد اختلف في هذا، فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح في الجسد. وقال الفراء: المعنى: ويقبض التي لم تمت عند انقضاء أجلها قال: وقد يكون توفيتها نومها، فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمت، وفاتها نومها. قال الزجاج: لكل إنسان نفسان: أحدهما: نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام، فلا يعقل، والآخرى: نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس. قال القشيري: في هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد، ولهذا قال: ﴿فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْآخَرَىٰ﴾ أي: النائمة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مَّسْمُومَةٍ﴾، وهو الوقت المضروب لموته، وقد قال بمثل قول الزجاج: ابن الأنباري. وقال سعيد بن جبیر: إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْآخَرَىٰ﴾، فيعيدها، والأولى أن يقال: إن توفي النفس حال النوم بإزالة الإحساس، وحصول الآفة به في محل الحسن، فيمسك التي قضى عليها الموت، ولا يردها إلى الجسد الذي كانت فيه، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها. قيل: ومعنى ﴿يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ عِنْدَ مَوْتِهَا﴾: هو على حذف أي: عند موت أجسادها.

وقد اختلف العقلاء في النفس، والروح هل هما شيء واحد، أو شيئان؟ والكلام في ذلك يطول جداً، وهو معروف في الكتب الموضوعة لهذا الشأن. قرأ الجمهور (قضى) مبنيًا للفاعل أي: قضى الله عليها الموت، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعشى، ويحيى بن وثاب على البناء للمفعول، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الأولى لموافقتهما لقوله: ﴿إِلَهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾، والإشارة بقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم من التوفي، والإمسك، والإرسال للنفوس ﴿لآيَاتٍ﴾ أي: آيات عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة، ولكن ليس كون تلك آيات يفهمه كل أحد بل ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في

سفيان الثوري: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم، وقصتهم. وقال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله ﴿وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾، فانا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب ﴿وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: مساوئ أعمالهم من الشرك، وظلم أولياء الله، و«ما» يحتمل أن تكون مصدرية أي: سيئات كسبهم، وأن تكون موصولة أي: سيئات الذي كسبوه ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أحاط بهم، ونزل بهم ما كانوا يستهزئون به من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شِمَازَاتُ﴾ الآية قال: قست، ونفرت ﴿قُلُوبُ﴾ هؤلاء الأربعة ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أبو جهل بن هشام، والوليد بن عتبة، وصفوان، وأبي بن خلف ﴿وَإِذَا نَكَرَ النَّاسُ مِنْ دُونِهِ﴾ اللات، والعزى ﴿وَإِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وأخرج مسلم، وأبو داود، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللَّهُمَّ رَبِّ جَبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تُهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فَإِذَا سَمِعَ الْإِنْسَانُ مِرَدًا ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً يَنَاقُ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُمْ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ يَنْقَلِبُونَ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢﴾ فَأَنصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيِّئَاتِهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَهَمْ يَمُوجِينَ ﴿٣﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ قُلْ يَمَيِّزُ الَّذِينَ أَسْرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا رِجْلَهُمْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَلَيَبْئُوتُنَّ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٦﴾ وَأَنْبِئُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٧﴾ أَنْ تَقُولَ نَحْنُ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا قَرَّرْتُ فِي حُبِّ آلِهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرُونَ ﴿٨﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٩﴾ أَوْ تَقُولَ لِمَنِ الذُّنُوبُ الْعَذَابُ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْزِنِينَ ﴿١٠﴾ بَلْ قَدْ جَاءَ نَصْرِي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ الْيَقِينَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَهُمْ فِيهِ مُبْتَلُونَ ﴿١٢﴾ أَوَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتٌ لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَوْتِهِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَذِي عَذَابٍ مُتَعَدٍّ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعَ الْإِنْسَانُ﴾ المراد بالإنسان هنا: الجنس باعتبار بعض أفرادها، أو غالبها، وقيل: المراد به الكفار فقط، والأول أولى، ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص

له الشفاعة جميعاً، فليس لأحد منها شيء إلا أن يكون بإذنه لمن ارتضى، كما في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]، وانتصاب جميعاً على الحال، وإنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان، فصاعداً: لأنها مصدر يطلق على الواحد، والاثنين، والجماعة، ثم وصفه بسعة الملك، فقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يملكهما، ويملك ما فيهما، ويتصرف في ذلك كيف يشاء، ويفعل ما يريد ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، وذلك بعد البعث ﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شِمَازَاتُ قُلُوبِ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ انتصاب وحده على الحال عند يونس، وعلى المصدر عند الخليل، وسيبويه، والاشمئزاز في اللغة: النفور. قال أبو عبيدة: اشمازت نفرت، وقال المبرد: انقبضت. وبالأول قال قتادة، وبالثاني قال مجاهد، والمعنى متقارب. وقال المؤرج: أنكرت، وقال أبو زيد: اشماز الرجل زعر من الفزع، والمناسب للمقام تفسير اشمازت بانقبضت، وهو في الأصل: الأزوار، وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله انقبضوا، كما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا نَكَرَ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ نَفُورًا﴾ [الإسراء: 46]، ثم ذكر سبحانه استبشارهم بذكر أصنامهم، فقال: ﴿وَإِذَا نَكَرَ النَّاسُ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون بذلك، ويبتهجون به، والعامل في إذا في قوله: ﴿وَإِذَا نَكَرَ اللَّهُ﴾ الفعل الذي بعدهما، وهو: اشمازت، والعامل في إذا في قوله: ﴿وَإِذَا نَكَرَ النَّاسُ مِنْ دُونِهِ﴾ الفعل العامل في إذا الفجائية، والتقدير: فاجئوا الاستبشار وقت نكر الذين من دونه. ولما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به ﷺ من الدعاء إلى الخير، وصمموا على كفرهم، أمره الله سبحانه: أن يرد الأمر إليه، فقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقد تقدم تفسير فاطر السموات، وتفسير عالم الغيب، والشهادة، وهما منصوبان على النداء، ومعنى ﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾: تجازي المحسن بإحسانه، وتعاقب المسيء بإساءته، فإنه بذلك يظهر من هو المحق، ومن هو المبطل، ويرتفع عنده خلاف المختلفين، وتخاصم المتخاصمين. ثم لما حكي عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند نكر الله، والاستبشار عند نكر الأصنام نكر ما يدل على شدة عذابهم، وعظيم عقوبتهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: جميع ما في الدنيا من الأموال، والنخائر ﴿مِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: منضمّاً إليه ﴿لَافْتَنُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: من سوء عذاب ذلك اليوم، وقد مضى تفسير هذا في آل عمران ﴿وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ظهر لهم من عقوبات الله، وسخطه، وشدة عذابه ما لم يكن في حسابهم، وفي هذا وعيد عظيم، وتهديد بالغ، وقال مجاهد: عملوا أعمالاً توهوا أنها حسنات، فإذا هي سيئات، وكذا قال السدي. وقال

الإفراط في المعاصي، والاستكثار منها، ومعنى لا تقنطوا: لا تياسوا من رحمة الله من مغفرتة. ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يرفع ذلك، ويرفعه، ويجعل الرجاء مكان القنوط، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِر الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾.

واعلم أن هذه الآية أرجأ آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهاي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهاي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، ويفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالف القلب عند سماعه ظناً، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِر الذُّنُوبَ﴾، فالألف، واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفرادها، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائناً ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو: الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116]، ثم لم يكتف بما أخبر عباد به من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعاً﴾ فإيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم ببربهم الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاضمه ننبولا يبخل بمغفرتة، ورحمته على عباد المتوجهين إليه في طلب العفو الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلاً: إنه هو الغفور الرحيم. أي: كثير المغفرة، والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما، فمن أبى هذا التفضل العظيم، والعتاء الجسيم، وظن أن تقنيط عباد الله، وتاييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به، فقد ركب أعظم الشطط، وغلط أقيح الغلط، فإن التبشير، وعدم التقنيط الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز، والمسلك الذي سلكه رسوله ﷺ كما صح عنه من قوله: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا».

وإذا تقرّر لك هذا، فاعلم أن الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116] هو: أن كل ذنب كائناً ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له، على أنه يمكن أن يقال: إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعاً يدل على أنه يشاء غفرانها جميعاً، وذلك يستلزم: أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية. وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تنقييد هذه الآية بالتوبة، وإنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات. فهو: جمع بين الضب، والنون، وبين الملاح، والحادي، وعلى نفسها براقت تجني، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

سببه، لأن الاعتبار بعموم اللفظ، وفاء بحق النظم القرآني، ووفاء بمملوله، والمعنى: أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ضر من مرض، أو فقر، أو غيرهما دعا الله، وتضرع إليه في رفعه، ودفعه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجوه المكاسب، أو على خير عندي، أو على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: على علم علمني الله إياه، وقيل: قد علمت أنني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة، وجاء بالضمير في أوتيته مذكراً مع كونه راجعاً إلى النعمة؛ لأنها بمعنى: الإنعام. وقيل: إن الضمير عائد إلى ما، وهي: موصولة، والأول أولى ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ هذا رد لما قاله أي: ليس ذلك الذي أعطيناك لما نكرت، بل هو محنة لك، واختبار لحالك أتشكر أم تكفر؟ قال الفراء: إن الضمير في قوله: ﴿هِيَ﴾ لتأنيث الفتنة، ولو قال: بل هو فتنة لجاز. وقال النحاس: بل عطيته فتنة. وقيل: تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة، وتذكير الأول في قوله: ﴿أُوتِيتُهُ﴾ باعتبار معناها: ﴿وَلَكِن كَثُرْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك استدراج لهم من الله، وامتحان لما عندهم من الشكر، أو الكفر ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قال هذه الكلمة التي قالوها، وهي قولهم: إنما أوتيته على علم الذين من قبلهم كقارون، وغيره، فإن قارون قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن تكون ما هذه نافية أي: لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً، وأن تكون استفهامية أي: أي شيء أغنى عنهم ذلك ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات كسبهم، أو أصابهم سيئات هي جزاء كسبهم، وسمي الجزاء سيئات لوقوعها في مقابلة سيئاتهم، فيكون ذلك من باب المشاكلة كقوله: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، ثم أودع سبحانه الكفار في عصره، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ الموجودين من الكفار ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب من قبلهم، وقد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من القحط، والقتل، والأسر، والقهر ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين على الله بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسع له ﴿وَيُقَدِّرُ﴾ أي: يقبضه لمن يشاء أن يقبضه، ويضيقه عليه. قال مقاتل: وعظّم الله، ليعتبروا في توحيده، وذلك حين مطروا بعد سبع سنين، فقال: أو لم يعلموا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء، ويقتّر على من يشاء ﴿إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٌ﴾ أي: في تلك المذكور لدلالات عظيمة، وعلامات جلية ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وخصّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكرون فيها. ثم لما ذكر سبحانه ما نكره من الوعيد عقبه بذكر سعة رحمته، وعظيم مغفرتة، وأمر رسوله ﷺ: أن يبشروهم بذلك، فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ المراد بالإسراف:

أولى، لأن الذي يأتيهم بغتة هو: العذاب في الدنيا بالقتل، والأسر، والقهر، والخوف، والجذب، لا عذاب الآخرة، ولا الموت، لأنه لم يسند الإتيان إليه ﴿إِنْ تَقُولُ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ قال البصريون: أي: حنناً أن تقول. وقال الكوفيون: لئلا تقول. قال المبرد: بادروا خوف أن تقول، أو حنناً من أن تقول نفس. وقال الزجاج: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، قيل: والمراد بالنفس هنا: النفس الكافرة، وقيل: المراد به التكثير كما في قوله: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا أُحْضَرْتُ﴾ [التكوير: 14] قرأ الجمهور (يا حسرتا) بالالف بدلاً من الياء المضاف إليها، والأصل يا حسرتي، وقرأ ابن كثير (يا حسرتاه) بهاء السكت وقفاً، وقرأ أبو جعفر (يا حسرتي) بالياء على الأصل. والحسرة: الندامة، ومعنى ﴿عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾: على ما فرطت في طاعة الله، قاله الحسن. وقال الضحاك: على ما فرطت في ذكر الله، ويعني به: القرآن، والعمل به. وقال أبو عبيدة: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: في ثواب الله. وقال الفراء: الجنب القرب، والجوار أي: في قرب الله، وجواره، ومنه قوله: ﴿وَالصَّاحِبُ بِالْجَنْبِ﴾ [النساء: 36]، والمعنى على هذا القول، على ما فرطت في طلب جنب الله أي: في طلب جواره، وقربه، وهو: الجنة، وبه قال ابن الأعرابي، وقال الزجاج: أي: فرطت في الطريق الذي هو: طريق الله من توحيدِهِ، والإقرار بنبوة رسول الله ﷺ، وعلى هذا، فالجنب بمعنى: الجانب أي: قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله، ومنه قول الشاعر:

للناس جنب والأمير جنب

أي: الناس من جانب، والأمير من جانب ﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّاحِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله في الدنيا، ومحل الجملة النصب على الحال. قال قتادة: لم يكن أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك، والمعاصي، وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة، ويتعللون به من العلل الباطلة كما في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: 148]، فهي: كلمة حق يريدون بها باطلاً. ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوا، فقال: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرْةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين بالله الموحدين له، المحسنين في أعمالهم، وانتصاب أكون إما لكونه معطوفاً على كربة، فإنها مصدر، وأكون في تأويل المصدر كما في قول الشاعر:

لبس عبادة وتقرّ عيني أحب إلي من لبس الشفوف
وانشد الفراء على هذا:

فما لك منها غير نكرو وخشية وتسال عن ركبائها أين يمموا
وما لكونه جواب التمني المفهوم من قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرْةً﴾. ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴿[النساء: 48، 116]، فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنْ رِبْكَ لَنَا مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلَمِهِمْ﴾ [الرعد: 6] قال الواحدي: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي ﷺ.

قلت: هب أنها في هؤلاء القوم، فكان ماذا، فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم، ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله.

وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين، وغيرهما في هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حق معرفته، وقدره حق قدره علم صحة ما نكزنه، وعرف حقيقة ما حررناه. قرأ الجمهور (يا عبادي) بإثبات الياء، وصلاً، ووقفاً، وروى أبو بكر عن عاصم: أنه يقف بغير ياء. وقرأ الجمهور (تقنطوا) بفتح النون، وقرأ أبو عمرو، والكسائي بكسرها ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعاً، أمرهم بالرجوع إليه بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، وليس في هذا ما يدل على تقييد الآية الأولى بالتوبة لا بمطابقة، ولا تضمن، ولا التزام، بل غاية ما فيها: أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى، ثم دعاهم إلى الخير، وخوفهم من الشر على أنه يمكن أن يقال: إن هذه الجملة مستأنفة خطاباً للكفار الذين لم يسلموا ببليلى قوله: ﴿وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ جاء بها لتحذير الكفار، وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى، وتبشيرهم، وهذا، وإن كان بعيداً، ولكنه يمكن أن يقال به، والمعنى على ما هو الظاهر: أن الله جمع لعباده بين التبشير العظيم، والأمر بالإتابة إليه، والإخلاص له، والاستسلام لأمره، والخضوع لحكمه. وقوله: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الدنيا كما يفيد قوله: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ﴾، فليس في ذلك ما يدل على ما زعمه الزاعمون، وتمسك به القانطون المقلدون، والحمد لله رب العالمين ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن، يقول: أحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، والقرآن كله حسن. قال الحسن: التزموا طاعته، واجتنبوا معاصيه. وقال السدي: الأحسن ما أمر الله به في كتابه. وقال ابن زيد: يعني: المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه. وقيل: النسخ دون المنسوخ، وقيل: العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام، وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِغْتَةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من قبل أن يفاجتكم العذاب، وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به، وقيل: أراد أنهم يموتون بغتة، فيقعون في العذاب. والأول

المتعلقة بغير علة، فقال: ﴿بلى قد جاءتكم آياتي فكذبتم بها واستكبرتم وكنت من الكافرين﴾. المراد بالآيات هي: الآيات التنزيلية، وهو: القرآن، ومعنى التكذيب بها قوله: إنها ليس من عند الله، وتكبر عن الإيمان بها، وكان مع ذلك التكذيب، والاستكبار من الكافرين بالله. وجاء سبحانه بخطاب المذكر في قوله: جاءتكم، وكذبتم، واستكبرتم، وكنت، لأن النفس تطلق على المذكر، والمؤنث. قال المبرد: تقول العرب نفس واحد أي: إنسان واحد، وبفتح التاء في هذه المواضع قرأ الجمهور. وقرأ الجحدري، وأبو حيوة، ويحيى بن يعمر بكسرها في جميعها، وهي قراءة أبي بكر، وابنته عائشة، وأم سلمة، ورويت عن ابن كثير ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾، أي: ترى الذين كذبوا على الله بأن له شركاء، وصاحبة، وولدا وجوههم مسودة لما أحاط بهم من العذاب، وشاهدوه من غضب الله، ونقمته، وجملة ﴿وجوههم مسودة﴾ في محل نصب على الحال. قال الأخفش: ترى غير عامل في وجوههم مسودة، إنما هو: مبتدأ وخبر، والأولى أن ترى إن كانت من الرؤية البصرية، فجملة ﴿وجوههم مسودة﴾ حالية، وإن كانت قلبية، فهي في محل نصب على أنها المفعول الثاني ل ترى، والاستفهام في قوله: ﴿ليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ للتقرير أي: ليس فيها مقام للمتكبرين عن طاعة الله، والكبر هو: بطر الحق، وغمط الناس كما ثبت في الحديث الصحيح ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي: اتقوا الشرك، ومعاصي الله، والباء في ﴿بمفازاتهم﴾ متعلقة بمحذوف هو: حال من الموصول أي: ملتبسين بمفازاتهم. قرأ الجمهور بمفازتهم بالإفراد على أنها مصدر ميمي، والفوز: الظفر بالخير، والنجاة من الشر. قال المبرد: المفازة مفعلة من الفوز، وهو: السعادة، وإن جمع، فحسن كقولك: السعادة، والسعادات. والمعنى: ينجيهم الله بفوزهم أي: بنجاتهم من النار، وفوزهم بالجنة. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر بمفازاتهم جمع مفازة، وجمعها مع كونها مصدراً لاختلاف الأنواع، وجملة ﴿لا يمسهم السوء﴾ في محل نصب على الحال من الموصول، وكذلك جملة ﴿ولا هم يحزنون﴾ في محل نصب على الحال أي: ينفي السوء، والحزن عنهم، ويجوز أن تكون الباء في بمفازتهم للسببية أي: بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم، وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم؛ لأنهم رضوا بثواب الله، وأمنوا من عقابه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم قال السيوطي بسند صحيح، وابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآية في مشركي أهل مكة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: كنا نقول ليس لمفتن توبة، وما الله بقابل منه شيئاً، عرفوا الله، وأمنوا به، وصدقوا رسوله، ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم، وكانوا يقولونه لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله

فيهم ﴿يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآية؛ قال ابن عمر: فكتبت بها بيدي، ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصي وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعد قال: لما أسلم وحشي أنزل الله: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ [الفرقان: 68] قال وحشي، وأصحابه: قد ارتكبنا هذا كله، فأنزل الله ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآية. وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال: «خرج النبي ﷺ على رهط من أصحابه، وهم يضحكون، ويتحدثون، فقال: والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ثم انصرف، وأبكى القوم، وأوحى الله إليه: يا محمد لم تقنط عبادي فرجع النبي ﷺ، فقال: أبشروا، وسددوا، وقاربوا». وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب: أنها نزلت، فيمن أفتن. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس: أنها نزلت في مشركي مكة لما قالوا: إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك، وقتل الأنفس، وغير ذلك. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ثوبان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا، وما فيها بهذه الآية ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: ومن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، قال: الا، ومن أشرك ثلاث مرات». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم، وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً، ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود: أنه مر على قاض يذكر الناس، فقال: يا منكر الناس لا تقنط الناس، ثم قرأ ﴿يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال: قال علي: أي آية أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ [النساء: 11] الآية، ونحوها، فقال علي: ما في القرآن أوسع من ﴿يا عبادي﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلول، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء: «إنا لا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم» [المائدة: 74] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء من ﴿قال أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: 24]، وقال: «ما علمت لكم من إله غيري» [القصص: 38] قال ابن عباس: ومن آيس العباد من التوبة بعد هذا، فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن

اشتغال، وأن مضمرة معه أيضاً. ويجوز أن يكون غير منصوبة بفعل مقدر أي: أفتلزموني غير الله أي: عبادة غير الله، أو أعبد غير الله أعبد. أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دين آبائكم. قرأ الجمهور (تأمروني) بإدغام نون الرفع في نون الوقاية على خلاف بينهم في فتح الياء، وتسكينها. وقرأ نافع (تأمروني) بنون خفيفة، وفتح الياء، وقرأ ابن عامر (تأمروني) بالفك، وسكون الياء ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ أي: من الرسل ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك، وجه إيراده على هذا الوجه التحنير، والإنذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض، والتقدير، فهو محبط لعمل غيرهم من أمهم بطريق الأولى. قيل: وفي الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: ولقد أوحى إليك لئن أشركت، وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك. قال مقاتل: أي أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محنوف، ثم قال: لئن أشركت يا محمد؛ ليحبطن عملك، وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة. وقيل: أفراد الخطاب في قوله: ﴿لئن أشركت﴾ باعتبار كل واحد من الأنبياء كأنه قيل: أوحى إليك، وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام، وهو: لئن أشركت، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ [البقرة: 217] وقيل: هذا خاص بالأنبياء؛ لأن الشرك منهم أعظم ننبأ من الشرك من غيرهم، والأول أولى، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بتوحيده، فقال: ﴿يبل الله فاعبد﴾، وفي هذا رد على المشركين حيث أمره: بعبادة الأصنام. وجه الرد ما يفيد التقديم من القصر. قال الزجاج: لفظ اسم الله منصوب بأعبد قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين، والكوفيين. وقال الفراء: هو منصوب بإضمار فعل، وروي مثله عن الكسائي، والأول أولى. قال الزجاج: والفاء في فاعبد للمجازاة. وقال الأخفش: زائدة. قال عطاء، ومقاتل: معنى فاعبد: وحد، لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿وكن من الشاكرين﴾ لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد، والدعاء إلى دينه، واختصك به من الرسالة ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ قال المبرد: أي: ما عظموه حق عظمتهم، من قولك فلان عظيم القدر، وإنما وصفهم بهذا؛ لأنهم عبدوا غير الله، وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم في الشرك. وقرأ الحسن، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر قدروا بالتشديد ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ القبضة في اللغة ما قبضت عليه بجميع فكك، فأخبر سبحانه: عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها، وكثافتها في مقدوره كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون: هو في يد فلان، وفي قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرف فيه، وإن لم يقبض عليه، وكذا قوله: ﴿والسّموات

يتوب حتى يتوب الله عليه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أن تقول نفس﴾ قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا، وعلمهم قبل أن يعلموا.

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ. وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بَقَصَتْهُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧﴾ وَتُحِبُّ فِي السَّمَوَاتِ فَصِيقٌ مِّنَ السَّمَكَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ لَآ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم بَاطِلُونَ ﴿٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالشَّهَادَةُ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ أَهْلُ مَا يَمْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُرْجَأً إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَثُوا آبُورُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كُفَرْتُمْ لَسْتُمْ مَوْسُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ من الأشياء الموجودة في الدنيا، والآخرة كأنها ما كان من غير فرق بين شيء، وشيء، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الانعام ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: الأشياء كلها موكلة إليه، فهو: القائم بحفظها، وتبديرها من غير مشارك له ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ المقاليد، أحدها مقلد، ومقلاد، أو لا واحد له من لفظه كإسطير، وهي: مفاتيح السموات، والأرض، والرزق، والرحمة. قاله مقاتل، وقتادة، وغيرهما. وقال الليث: المقلاد الخزانة، ومعنى الآية: له خزائن السموات، والأرض، وبه قال الضحاک، والسدي. وقيل: خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات. وقيل: هي عبارة عن قدرته سبحانه، وحفظه لها، والأول أولى. قال الجوهري: الإقليد المفتاح، ثم قال: والجمع المقاليد. وقيل: هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقيل غير ذلك ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ أي: بالقرآن، وسائر الآيات الدالة على الله سبحانه، وتوحيده، ومعنى الخاسرون: الكاملون في الخسران؛ لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار ﴿قل أغير الله تأمروني أعبد إياها الجاهلون﴾ الاستهزاء للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على مقدر كمنظائره، وغير منصوب بأعبد، وأعبد معمول؛ لتأمروني على تقدير أن أعبد غير الله. قاله الكسائي، وغيره. والاصل: أقتامروني أن أعبد غير الله، وأعبد بدل منه بدل

الحال، وقرأ زيد بن علي بالنصب على أنه حال، والخبر ينظرون. والعامل في الحال ما عمل في إذا الفجائية. قال الكسائي: كما تقول خرجت، فإذا زيد جالساً ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الإشراق الإضاءة، يقال: أشرقت الشمس: إذا أضاءت، وشرقت: إذا طلعت، ومعنى بنور ربها: بعدل ربها، قاله الحسن، وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربها، والمعنى: أن الأرض أضاءت، وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها، وما قضى به من الحق فيهم، فالعدل نور، والظلم ظلمات. وقيل: إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض، فتشرق به غير نور الشمس، والقمر، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي، فإن الله سبحانه هو: نور السموات، والأرض. قرأ الجمهور (أشرقت) مبنياً للفعل، وقرأ ابن عباس، وأبو الجوزاء، وعبيد بن عمير على البناء للمفعول «وضع الكتاب» قيل: هو: اللوح المحفوظ. وقال قتادة: يعني: الكتب، والصحف التي فيها أعمال بني آدم، فأخذ بيمينه، وأخذ بشماله، وكذا قال مقاتل. وقيل: هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أي: وضع الكتاب للحساب ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ أي: جيء بهم إلى الموقف، فستلوا عما أجابتهم به أمهم ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد ﷺ كما في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، وقيل: المراد بالشهداء: الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله. وقيل: هم الحفظة كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21] ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ أي: وقضى بين العباد بالعدل، والصدق، والحال أنهم لا يظلمون أي: لا ينقصون من ثوابهم، ولا يزداد على ما يستحقونه من عقابهم ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ من خير، وشر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا لا يحتاج إلى كاتب، ولا حاسب، ولا شاهد، وإنما وضع الكتاب، وجيء بالنبيين، والشهداء لتكميل الحجة، وقطع المعذرة. ثم نكر سبحانه تفصيل ما نكره من توفية كل نفس ما كسبت، فقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي: سيق الكافرون إلى النار حال كونهم زمرأ أي: جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضاً. قال أبو عبيدة، والأخفش: زمرأ جماعات متفرقة بعضها إثر بعض، ومنه قول الشاعر:

وترى الناس إلى أبوابه زمرأ تنتابه بعد زمر
واشتقاقه من الزمر، وهو: الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ أي: فتحت أبواب النار، ليخلوها، وهي: سبعة أبواب، وقد مضى بيان ذلك في سورة الحجر ﴿وَقَالَ لَهُمْ خُزِّنْتُمْ هَٰذَا﴾ جمع خازن نحو سدة، وسانن ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسَلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: من أنفسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمُ﴾ التي أنزلها عليهم ﴿وَيَذَرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يخوِّفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم فيه، قالوا لهم هذا القول تقريراً، وتوبيخاً، فأجابوا بالاعتراف، ولم

مطويات بيمينه، فإن نكر اليمين للمبالغة في كمال القدرة كما يطوي الواحد منا الشيء المقثور له طيه بيمينه، واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى: القدرة، والملك. قال الأخفش: بيمينه يقول: في قدرته، نحو قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 3] أي: ما كانت لكم قدرة عليه، وليس الملك لليمين نون الشمال، وسائر الجسد، ومنه له سبحانه: ﴿لَاخُنَّا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: 45] أي: بالقوة، والقدرة، ومنه قول الشاعر:

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابية باليمين
وقول الآخر:

ولما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي بيمين
وقول الآخر:

عطست بأنف شامخ وتناولت يداي الشريا قاعداً غير قائم
وجملة ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾ في محل نصب على الحال أي: ما عظموه حق تعظيمه، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة. قرأ الجمهور برفع (قبضته) على أنها خبر المبتدأ، وقرأ الحسن بنصبها، ووجهه ابن خالويه بانه على الظرفية أي: في قبضته. وقرأ الجمهور (مطويات) بالرفع على أنها خبر المبتدأ، والجملة في محل نصب على الحال كالتي قبلها، وبيمينه متعلق بمطويات، أو حال من الضمير في مطويات، أو خبر ثان، وقرأ عيسى، والجحدري بنصب (مطويات)، ووجه ذلك: أن السموات معطوفة على الأرض، وتكون قبضته خبراً عن الأرض، والسموات، وتكون مطويات حالاً، أو تكون مطويات منصوبة بفعل مقدر، وبيمينه الخبر، وخصّ يوم القيامة بالذكر، وإن كانت قدرته شاملة، لأن الدعاوي تنقطع فيه كما قال سبحانه: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: 56]، وقال: ﴿مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4]، ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من المعبودات التي يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة، والحكمة الباهرة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ هذه هي: النفخة الأولى، والصور هو: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، وقد تقدّم غير مرة، ومعنى صعق: زالت عقولهم، فخرّوا مغشياً عليهم، وقيل: ماتوا. قال الواحدي: قال المفسرون: مات من الفزع، وشدة الصوت أهل السموات، والأرض. قرأ الجمهور (الصور) بسكون الواو، وقرأ قتادة، وزيد بن علي بفتحها جمع صورة، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ متصل، والمستثنى جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: رضوان، وحملة العرش، وخزنة الجنة، والنار ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ يجوز أن يكون أخرى في محل رفع على النياحة، وهي صفة لمصدر محنوف أي: نفخة أخرى، ويجوز أن يكون في محل نصب، والقائم مقام الفاعل فيه ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: الخلق كله قيام على أرجلهم ينظرون ما يقال لهم، أو ينتظرون ذلك. قرأ الجمهور (قيام) بالرفع على أنه خبر، وينظرون في محل نصب على

تكلف لتأويل، ولا تعسف لقال وقيل، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر، فرفع رجل من الأنصار يده، فطمه، فقال: أتقول هذا وفيما رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «قال الله: ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه نفخة أخرى فإذا هم قيام ينظرون»، فلكون أول من يرفع رأسه، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أرفع رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله. وأخرج أبو يعلى، والدارقطني في الإفراء، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: «إلا من شاء الله»، قال: «هم الشهداء متقلون أسياهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة»، الحديث. وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد من أقوال أبي هريرة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وأبو نصر السجزي في الإبانة، وابن مروي عن أنس: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: «إلا من شاء الله»، فقال: «جبريل، وميكائيل، وملاك الموت، وإسرافيل، وحملات العرش». وأخرج ابن المنذر عن جابر في قوله: «إلا من شاء الله»، قال: موسى، لأنه كان صعق قبل. والأحاديث الواردة في كيفية نفخ الصور كثيرة. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس في قوله: «وجيء بالنبیین والشهداء»، قال: النبيين الرسل، والشهداء الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان، ولا لعان. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه في الآية قال: يشهدون بتبليغ الرسالة، وتكذيب الأمم بإمام.

وَسَبَقَ إِلَيْكَ أَتَقُولُ رَبِّهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ زَمْرًا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ
وَنُفِخَتْ أَرْبَعُ نَفَاحَاتٍ خَرَجَتْ سَكْمٌ مَلَكُكُمْ يَشْرُ فَاذْهَبُوا
خَلِيلِينَ ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَبْرًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَمَّ أَجْرُ الْمَعْلِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَى
الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْمَرْيَسِ يَسْتَحُونَ بِمَحْمَدٍ رَبِّهِمْ وَفِيهِ يَتَنَبَّهُمُ
بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾

لما نكر فيما تقدم حال الذين كفروا، وسوقهم إلى جهنم، نكر هنا حال المتقين، وسوقهم إلى الجنة، فقال: «وسبق للذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا»، أي: ساقطهم الملائكة سوق إعزاز، وتشريف، وتكريم. وقد سبق بيان معنى الزمر «حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها» جواب إذا محذوف. قال المبرد تقييده: سعلوا، وفتحت، وأنشد قول الشاعر:
فلو أنها نفس تموت جميعاً ولكنها نفس تساقط أنفسا
فحذف جواب لو، والتقدير: لكان أروح. وقال الزجاج: القول عندي: أن الجواب محذوف على تقدير: حتى إذا جاءوها، وكانت هذه الأشياء التي نكرت دخولها، فالجواب دخولها، وحذف؛ لأن في الكلام بليلاً عليه. وقال الأخفش:

يقدروا على الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا لانكشاف الأمر، وظهوره، ولهذا «قالوا بلى» أي: قد أتتنا الرسل بآيات الله، وأنذرونا بما سنلقاه «ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين»، وهي: «لأملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين» [هود: 119] فلما اعترفوا هذا الاعتراف «قيل انخلوا أبواب جهنم» التي قد فتحت لكم؛ لتدخلوها، وانتصاب «خالين» على الحال أي: مقترنين الخلود «فقبض مئوى المتكبرين» المخصوص بالنم محذوف أي: بثس مئواهم جهنم، وقد تقدم تحقيق المئوى في غير موضع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «مقاليد السموات والأرض» قال: مفتاحها. وأخرج أبو يعلى، ويوسف القاضي في سننه، وأبو الحسن القطان، وابن السني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن عثمان بن عفان قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله «له مقاليد السموات والأرض»، فقال لي: «يا عثمان لقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلي، مقاليد السموات، والأرض: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، واستغفر الله الذي لا إله إلا هو، الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، يحيي، ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ثم نكر فضل هذه الكلمات». وأخرجه ابن مروي عن ابن عباس، عن عثمان قال: جاء إلى النبي ﷺ، فقال له: أخبرني عن مقاليد السموات، والأرض، فذكره. وأخرجه الحارث بن أبي أسامة، وابن مروي عن أبي هريرة، عن عثمان. وأخرجه العقيلي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر، عن عثمان. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس: أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطأون عقبه، فقالوا له: هذا لك يا محمد، وتكف عن شتم ألهتنا، ولا تنكرها بسوء. قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فجاء بالوحي «قل يا أيها الكافرون» [الكافرون: 1] إلى آخر السورة، وأنزل الله عليه «قل أغير الله تاملوني أعبد أيها الجاهلون» إلى قوله: «ومن الخاسرين». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: جاء خبر من الأبحار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: «وما قدر الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة»، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» وفي الباب أحاديث، وأثار تقتضي حمل الآية على ظاهرها من بون

تعالى على عله في الحكم، وقضائه بين عباده بالحق.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة». وأخرج، وغيرهما عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب الريان لا يدخله إلا الصائمون»، وقد ورد في كون أبواب الجنة ثمانية أبواب أحاديث في الصحيحين، وغيرهما. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: «وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ» قال: أرض الجنة. وأخرج هناك عن أبي العالية مثله.

تفسير سورة غافر

وهي مكية في قول الحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر. قال الحسن: إلا قوله: «وسبح بحمد ربك» [غافر: 35]، لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس، وقتادة: إلا آيتين نزلتا بالمدينة، وهما: «إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ» [غافر: 56]، والتي بعدها، وهي خمس وثمانون آية، وقيل: اثنتان وثمانون آية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة حمّ المؤمن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة. وأخرج ابن مردويه، والديلمي عن سمرة بن جندب قال: نزلت الحواميم جميعاً بمكة. وأخرج محمد بن نصر، وابن مردويه عن أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني السبع الحواميم مكان التوراة، وأعطاني الرءات إلى الطواسين مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم، والمفصل ما قرأه نبي قبلي». وأخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس قال: إن لكل شيء لباباً، وإن لباب القرآن آل حمّ. وأخرج أبو عبيد، وابن الضريس، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: الحواميم ديباج القرآن. وأخرج أبو عبيد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر عنه قال: إذا وقعت في آل حمّ وقعت في روضات دمثات أتانق فيهن. وأخرج أبو الشيخ، وأبو نعيم، والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الحواميم ديباج القرآن». وأخرج البيهقي في الشعب عن خليل بن مرة: أن رسول الله ﷺ قال: «الحواميم سبع، وأبواب النار سبع، تحي كل حمّ منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول: «اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي، ويقرؤني». وأخرج أبو عبيد، وابن سعد، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حمّ المؤمن أي: [غافر: 1 - 3]، وآية الكرسي [البقرة: 255] حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين

والكوفيون: الجواب فتحت، والواو زائدة، وهو خطأ عند البصريين، لأن الواو من حروف المعاني، فلا تزداد. قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله، والتقدير: حتى إذا جاءوها، وأبوابها مفتحة بدليل قوله: «جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِفْتَاحُهَا الْأَبْوَابُ» [ص: 50]، وجنّفت الواو في قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار، وفتحت بعد وقوفهم إذلاً، وترويعاً. نكر معناه النحاس منسوباً إلى بعض أهل العلم، قال: ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد. وعلى هذا القول تكون الواو وال حال بتقدير قد أي: جاءوها، وقد فتحت لهم الأبواب. وقيل: إنها واو الثمانية، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون في العدد: خمسة ستة سبعة، وثمانية، وقد مضى القول في هذا في سورة براءة مستوفى، وفي سورة الكهف أيضاً. ثم أخبر سبحانه: أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين، فقال: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أي: سلامة لكم من كل آفة «طَبِئْتُمْ» في الدنيا، فلم تتدنسوا بالشرك، والمعاصي. قال مجاهد: طبتم بطاعة الله، وقيل: بالعمل الصالح، والمعنى واحد. قال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قطرة بين الجنة، والنار، فيقتصر لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم حتى إذا هنيوا، وطيبوا قال لهم رضوان، وأصحابه: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» الآية «فَادْخُلُوهَا» أي: ادخلوا الجنة «خَالِدِينَ» أي: مقدرين الخلود، فعند ذلك قال أهل الجنة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَّقَنَا وَعْدَهُ» بالبعث، والثواب بالجنة «وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ» أي: أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم، فملكوها، وتصرفوا فيها، وقيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين. قاله أكثر المفسرين. وقيل: إنها أرض الدنيا، وفي الكلام تقديم، وتأخير «نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ» أي: نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء «فَنَعْمَ لَاجِرِ الْعَالَمِينَ» المخصوص بالمدح محذوف أي: فنعّم لاجر العالمين الجنة، وهذا من تمام قول أهل الجنة. وقيل: هو من قول الله سبحانه «وَوَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ» أي: محيطين محققين به، يقال: حفّ القوم بفلان إذا أطافوا به، و «من» مزيدة. قاله الأخفش، أو للابتداء والمعنى: أن الراي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم، وجملة «يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» في محل نصب على الحال أي: حال كونهم مسبحين لله ملتبسين بحمده، وقيل: معنى يسبحون: يصلون حول العرش شكراً لربهم، والحافين جمع حاف، قاله الأخفش. وقال الفراء: لا واحد له إذ لا يقع لهم هذا الاسم إلا مجتمعين «وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ» أي: بين العباد بإدخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار، وقيل: بين النبيين الذين جي بهم مع الشهداء، وبين أممهم بالحق، وقيل: بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب درجاتهم. والأول أولى «وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» القائلون هم: المؤمنون حمدوا الله على قضائه بينهم، وبين أهل النار بالحق، وقيل: القائلون هم: الملائكة حمدوا الله

يمسي، حفظ بهما حتى يصبح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ مَا يُجَدِّلُ فِي مَائِدَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْزِلُ فِيهِمْ مِنَ الْبَلَدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَهُمْ كَفَرُوا وَكَانَ مُوْسَى يَأْخُذُهُمْ وَكَانَ الْفَلَقُ فَاحْذَرُهُمْ فَكَفَرُوا كَانِ عِقَابُ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ شَيْءٍ حِكْمَتُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَلَمَهُمْ وَمَنْ سَوَّاهُمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ وَيَوْمَئِذٍ يَدْعُونَ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّجَنَاتِ وَمَنْ يَنْتَهِ سَجَنَاتٍ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبوعاً، وقرأ حمزة، والكسائي بإمالة إمالة محضة. وقرأ أبو عمرو بإمالة بين بين، وقرأ الجمهور حم بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة. وقرأ الزهري بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمرة، أو مبتدأ، والخبر ما بعده. وقرأ عيسى بن عمر الثقفي بفتحها على أنها منصوبة بفعل مقدر، أو على أنها حركة بناء لا حركة إعراب. وقرأ ابن أبي إسحاق، وأبو السماك بكسرها لالتقاء الساكنين، أو بتقدير القسم. وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم. وقرأ أبو جعفر بقطعها.

وقد اختلف في معناه، فقيل: هو اسم من أسماء الله، وقيل: اسم من أسماء القرآن. وقال الضحاک، والكسائي معناه: قضى، وجعله بمعنى حم أي: قضى، ووقع، وقيل: معناه حم أمر الله أي: قرب نصره لأوليائه، وانتقامه من أعدائه. وهذا كله تكلف لا موجب له، وتعسف لا ملجئ إليه، والحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة، وأمثالها: من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه كما قدمنا تحقيقه في فاتحة سورة البقرة ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ هو: خبر لحم على تقدير أنه مبتدأ، أو خبر لمبتدأ مضمرة، أو هو: مبتدأ، وخبره ﴿مَنْ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ قال الرازي: المراد بتنزيل المنزل، والمعنى: أن القرآن منزل من عند الله ليس بكذب عليه. والعزیز: الغالب القاهر، والعليم: الكثير العلم بخلقه، وما يقولونه، ويفعلونه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة، وهي: نكرة، ووجه قوله هذا: أن إضافتها لفظية، ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سيبويه: إن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة، وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة. وأما الكوفيون، فلم يستثنوا شيئاً بل جعلوا الصفة المشبهة كاسم الفاعل في جواز جعلها إضافة

محضة، وذلك حيث لا يراد بها زمان مخصوص، فيجوزون في شديد هنا أن تكون إضافته محضة. وعلى قول سيبويه: لا بد من تأويله بمشدد. وقال الزجاج: إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البدل. وروي عنه: أنه جعل غافر، وقابل مخفوضين على الوصف، وشديد مخفوض على البدل، والمعنى: غافر الذنب لأوليائه، وقابل توبتهم، وشديد العقاب لأعدائه، والتوب مصدر بمعنى: التوبة من تاب يتوب توبة، وتوباً، وقيل: هو جمع توبة، وقيل: غافر الذنب لمن قال: لا إله إلا الله، وقابل التوب من الشرك، وشديد العقاب لمن لا يوحده، وقوله: ﴿ذِي الطُّولِ﴾ يجوز أن يكون صفة، لأنه معرفة، وأن يكون بدلاً، وأصل الطول الإنعام، والتفضل أي: ذي الإنعام على عباده، والتفضل عليهم. وقال مجاهد: ذي الغنى، والسعة. ومنه قوله: ﴿مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ [النساء: 25] أي: غنى، وسعة، وقال عكرمة: ذي الطول ذي المن. قال الجوهري: والطول بالفتح المن يقال منه: طال عليه، ويطول عليه إذا امتد عليه. وقال محمد بن كعب: ذي الطول ذي التفضل. قال الماوردي: والفرق بين المن، والتفضل: أن المن عفو عن ذنب، والتفضل إحسان غير مستحق. ثم نكر ما يدل على توحده، وأنه الحقيق بالعبادة، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ لا إلى غيره، وذلك في اليوم الآخر. ثم لما نكر أن القرآن كتاب الله أنزله، ليهتدي به في الدين نكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله، فقال: ﴿مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يخاصم في نفع آيات الله، وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد: الجدل بالباطل، والقصد إلى حضي الحق كما في قوله: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُنْحَضُوا بِهِ الْحَقُّ﴾. فاما الجدل لاستيضاح الحق، ورفع اللبس، والبحث عن الراجح، والمرجوح، وعن المحكم، والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم، فهو من أعظم ما يتقرب المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: 187]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: 159]، وقال: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46] ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ لما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر، نهى رسوله ﷺ عن أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية، فقال: فلا يغرك ما يفعلونه من التجارة في البلاد، وما يحصلونه من الأرباح، ويجمعونه من الأموال، فإنهم معاقبون عما قليل، وإن أمهلوا، فإنهم لا يهملون. قال الزجاج: لا يغرك سلامتهم بعد كفرهم، فإن عاقبتهم الهلاك. قرأ الجمهور (لا يغرك) بفك الإدغام. وقرأ زيد بن علي، وعبيد بن عمير بالإدغام. ثم بين حال من كان قبلهم، وإن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك في التكذيب، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

والمبالغة بالتكرير، ووصف جنات عدن بأنها ﴿التي وعنتهم﴾ إياما ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم ونزياتهم﴾ أي: وأدخل من صلح، والمراد بالصلاح ما هنا: الإيمان بالله، والعمل بما شرعه الله، فمن فعل ذلك، فقد صلح لدخول الجنة، ويجوز عطف، ومن صلح على الضمير في وعنتهم أي: ووعدت من صلح، والأولى عطفه على الضمير الأول في وأدخلهم، قال الفراء، والزجاج: نصبه من مكانين إن شئت على الضمير في أدخلهم. وإن شئت على الضمير في وعنتهم. قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح. وقرأ ابن أبي عيسى بن عمر على الأفراد ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: الغالب القاهر الكثير الحكمة الباهرة ﴿وقهم السيئات﴾ أي: العقوبات، أو جزاء السيئات على تقدير مضاف محذوف. قال قتادة: وقهم ما يسوؤهم من العذاب ﴿ومن تق السيئات يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فقد رحمته﴾ يقال: وقاه يقيه وقاية أي: حفظه، ومعنى ﴿فقد رحمته﴾ أي: رحمته من عذابك، وأدخلته جنتك، والإشارة بقوله: ﴿وذلك﴾ إلى ما تقدم من إدخالهم الجنات، ووقايتهم السيئات، وهو مبتدأ، وخبره: ﴿هو الفوز العظيم﴾ أي: الفوز الذي لا ظفر مثله، والنجاة التي لا تساويها نجاة.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: ﴿حم﴾ اسم من أسماء الله. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وأبو عبيد، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول ليلة الخندق: «إن أتيتم الليلة، فقولوا حم لا ينصرون». وأخرج ابن أبي شيبة، والنسائي، والحاكم، وابن مردويه عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تلقون عدوكم، فليكن شعاركم حم لا ينصرون». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿ذي الطول﴾ قال: ذي السعة، والغنى. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله: ﴿غافر النضب﴾ الآية قال: غافر النضب لمن يقول: لا إله إلا الله ﴿قابل التوب﴾ ممن يقول: لا إله إلا الله ﴿شديد العقاب﴾ لمن لا يقول: لا إله إلا الله ﴿ذي الطول﴾ ذي الغنى ﴿لا إله إلا هو﴾ كانت كفار قريش لا يوحونه، فوجد نفسه ﴿إليه المصير﴾ مصير من يقول: لا إله إلا الله، فيدخله الجنة، ومصير من لا يقول: لا إله إلا الله، فيدخله النار. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «إن جدلاً في القرآن كفر». وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مراء في القرآن كفر».

والأحزاب من بعدهم﴾ الضمير في من بعدهم يرجع إلى قوم نوح أي: وكذبت الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح كعاد، وثمود ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ أي: همت كل أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم الذي أرسل إليهم: ليأخذوه؛ ليطعنوا منه، فيحبسوه، ويعذبوه، ويصيبوا منه ما أرادوا. وقال قتادة، والسدي: ليقتلوه، والأخذ قد يرد بمعنى: الإهلاك، كقوله: ف ﴿أخذتهم فكيف كان نكير﴾ [الحج: 44] والعرب تسمي الأسير الأخيد ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ أي: خاصموا رسولهم بالباطل من القول، ليدحضوا به الحق؛ ليزيلوه، ومنه مكان نحض أي: مزقة، ومزلة أقدام، والباطل داحض؛ لأنه يزلق، ويزول، فلا يستقر. قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك؛ ليطلوا به الإيمان ﴿فأخذه فكيف كان عقاب﴾ أي: فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل، فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به، وحذف ياء المتكلم من عقاب اجتزأ بالكسرة عنها وصلاً، ووقفا؛ لأنها رأس آية ﴿وكنك حقت كلمت ربك على الذين كفروا﴾ أي: وجبت، وثبتت، ولزمت، يقال: حق الشيء إذا لزم، وثبت، والمعنى: وكما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة لرسلهم حقت على الذين كفروا به، وجادلوك بالباطل، وتحزبوا عليك، وجملة ﴿أنهم أصحاب النار﴾ للتعليل أي: لأجل أنهم مستحقون للنار. قال الأخفش: أي: لأنهم، أو بأنهم. ويجوز أن تكون في محل رفع بدلاً من كلمة. قرأ الجمهور (كلمة) بالتوحيد، وقرأ نافع، وابن عامر (كلمات) بالجمع. ثم ذكر أحوال حملة العرش، ومن حوله، فقال: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾، والموصول مبتدأ، وخبره يسبحون بحمد ربهم، والجملة مستأنفة مسوقة لتسليية رسول الله ﷺ، ببيان أن هذا الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم يضمنون إلى تسبيحهم الله، والإيمان به الاستغفار للذين آمنوا بالله، ورسوله، وصنفوا، والمراد بمن حول العرش: هم الملائكة الذين يطوفون به مهللين مكبرين، وهو في محل رفع عطفاً على الذين يحملون العرش، وهذا هو الظاهر. وقيل: يجوز أن تكون في محل نصب عطفاً على العرش، والأول أولى. والمعنى: أن الملائكة الذين يحملون العرش، وكذلك الملائكة الذين هم حول العرش ينزهون الله ملتبسين بحمده على نعمه، ويؤمنون بالله، ويستغفرون الله لعباده المؤمنين به. ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين، فقال حاكياً عنهم: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾، وهو بتقدير القول أي: يقولون ربنا، أو قائلين: ربنا وسعت كل شيء رحمة، وعلماً انتصاب رحمة، وعلماً على التمييز المحوّل عن الفاعل، والأصل وسعت رحمتك، وعلما كل شيء ﴿فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ أي: أوقعوا التوبة عن الذنوب، واتبعوا سبيل الله، وهو دين الإسلام ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ أي: أحفظهم منه ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن﴾ ﴿وأدخلهم معطوف على قوله: «قهم»، ووسط الجملة الندائية لقصد

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْأَرُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠١﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا رَحِيمَتَكَ أَتْنَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُنُونِنَا فَأَمَّا إِلَى خُرُوجِ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٠٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ

إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَوْلَا يَسْتَرْكِيهِ تَوَسَّلُوا فَالْحَكْمَ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ مَا تُبْصِرُونَ وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿٦٨﴾ فَادْعُوا اللَّهَ عَاصِرِينَ لَهُ الْاِذِينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦٩﴾ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يَتَنَبَّأُ بِغُيُوبِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ غَيْبٍ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِهَا حَقٌّ عَلَى اللَّهِ مِنْهُم مَقْرَبٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٧٠﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٧١﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمًا مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا سَمِيعٌ يُطَاعُ ﴿٧٢﴾ يَعْلَمُ عَذَابَةَ الْعَذَابِ وَمَا تُعْطَى الْقُلُوبُ مِنْهُ وَاللَّهُ يَفْقَهُ بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ دَعْوَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٧٣﴾

لما ذكر سبحانه حال اصحاب النار، وانها حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم اصحاب النار ذكر احوالهم بعد دخول النار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون﴾. قال الواحدي: قال المفسرون: إنهم لما راوا أعمالهم، ونظروا في كتابهم، وأدخلوا النار، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد: ﴿لمقت الله﴾ إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان، فتكفرون ﴿أكبر من مقتكم أنفسكم﴾ اليوم. قال الأخفش: هذه اللام في لمقت هي: لام الابتداء أوقعت بعد ينادون: لأن معناه: يقال لهم، والنداء قول. قال الكلبي: يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار: مقتك يا نفس، فتقول الملائكة لهم، وهم في النار: لمقت الله إياكم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن: يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون: لمقت الله إياكم في الدنيا ﴿إذ تدعون إلى الإيمان﴾ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، والظرف في ﴿إذ تدعون﴾ منصوب بمقتّر محذوف دلّ عليه المذكور أي: مقتكم وقت دعائكم، وقيل: بمحذوف هو: انكروا، وقيل: بالمقت المذكور، والمقت أشدّ البغض ثم أخبر سبحانه عما يقولون في النار، فقال: ﴿قللوا ربنا أمتنا اثنتين وإحييتنا اثنتين﴾. اثنتين في الموضعين نعتان لمصدر محذوف أي: امتنا إمامتين اثنتين، وإحييتنا إحياءتين اثنتين، والمراد بالإمامتين: أنهم كانوا نطفاً لا حياة لهم في أصلاب آبائهم، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء في الدنيا، والمراد بالإحياءتين: أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا، ثم أحياهم عند البعث، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ [البقرة: 28]، وقيل: معنى الآية: أنهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم، ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال، ثم أميتوا، ثم أحياهم الله في الآخرة، ووجه هذا القول: أن الموت سلب الحياة، ولا حياة للنطفة. ووجه القول الأول: أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل، وقد ذهب إلى تفسير الأول جمهور السلف. وقال ابن زيد: المراد بالآية: أنه خلقهم في ظهر أم، واستخرجهم، وأحياهم، وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم. ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد

أن صاروا في النار بما كذبوا به في الدنيا، فقال حاكياً عنهم: ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرسل، والإشراك بالله، وترك توحيدِهِ، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقبلة لقولهم: ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ أي: هل إلى خروج لنا من النار، ورجوع لنا إلى الدنيا من سبيل، ومثل هذا قولهم الذي حكاه الله عنهم: ﴿فهل إلى مرد من سبيل﴾ [الشورى: 44]، وقوله: ﴿فارجعنا لعمل صالِحاً﴾ [السجدة: 12]، وقوله: ﴿يا ليتنا نرد﴾ [الأنعام: 27] الآية. ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا بقوله: ﴿نلكم بانه إذا دعي الله وحده كفرتم﴾ أي: ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعي الله في الدنيا وحده نون غيره كفرتم به، وتركتم توحيدِهِ ﴿وإن يشرك به﴾ غيره من الأصنام، أو غيرها ﴿تؤمنوا﴾ بالإشراك به، وتجبوا الداعي إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله، وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء، ومحل نلكم الرفع على أنه خير مبتدأ محذوف أي: الأمر نلكم، أو مبتدأ خبره محذوف أي: نلكم العذاب الذي أنتم فيه بذلك السبب، وفي الكلام حذف، والتقدير: فأجبوا بأن لا سبيل إلى الرد، ونلكم لأنكم كنتم إذا دعي الله إلخ ﴿فالحكم لله﴾ وحده نون غيره، وهو الذي حكم عليكم بالخلود في النار، وعدم الخروج منها، و﴿والعلي﴾ المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته، ولا صفاته، و﴿الكبير﴾ الذي كبر عن أن يكون له مثل، أو صاحبة، أو ولد، أو شريك ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ أي: دلائل توحيدِهِ، وعلامات قدرته ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ يعني: المطر، فإنه سبب الأزراق، جمع سبحانه بين إظهار الآيات، وإنزال الأزراق، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان، وبالأزراق قوام الأبدان، وهذه الآيات هي: التكوينية التي جعلها الله سبحانه في سمواته، وأرضه، وما فيهما، وما بينهما. قرأ الجمهور (ينزل) بالتشديد. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتخفيف ﴿وما يذكر إلا من ينيب﴾ أي: ما يتذكر، ويتعظ بتلك الآيات الباهرة، فيستدل بها على التوحيد، وصلى الوعد، والوعيد إلا من ينيب أي: يرجع إلى طاعة الله بما يستفيدة من النظر في آيات الله. ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه، وإخلاص الدين له، فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر من ذلك، فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها ﴿ولو كره الكافرون﴾ ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوه يموتوا بغيظهم، ويهلكوا بحسرتهم ﴿رفيع الدرجات﴾، وارتفاع رفيع الدرجات على أنه خير آخر عن المبتدأ المتقدم أي: هو الذي يريكم آياته، وهو رفيع الدرجات. وكذلك ﴿ذو العرش﴾ خبر ثالث، ويجوز أن يكون رفيع الدرجات مبتدأ، وخبره ﴿ذو العرش﴾، ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف، ورفيع

صفة مشبهة، والمعنى: رفيع الصفات، أو رفيع درجات ملائكته أي: معارجهم، أو رفيع درجات أنبيائه، وأوليائه في الجنة. وقال الكلبي، وسعيد بن جبير: رفيع السموات السبع، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى: رافع، ومعنى، نو العرش: ماله، وخالقه، والمتصرف فيه، وذلك يقتضي علو شأنه، وعظم سلطانه، ومن كان كذلك، فهو الذي يحق له العبادة، ويجب له الإخلاص، وجملة **﴿يلقي الروح من أمره﴾** في محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدم، أو للمقدر، ومعنى ذلك: أنه سبحانه يلقي الوحي **﴿على من يشاء من عباده﴾**، وسمي الوحي: روحاً، لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح، وقوله: **﴿من أمره﴾** متعلق بيلقي، و «من» لا ابتداء الغاية، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من الروح، ومثل هذه الآية قوله تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾** [الشورى: 52] وقيل: الروح جبريل كما في قوله: **﴿نزل به الروح الأمين﴾** على قلبك [الشعراء: 193، 194]، وقوله: **﴿نزله روح القدس من ربك بالحق﴾** [النمل: 102]، وقوله: **﴿على من يشاء من عباده﴾** هم: الأنبياء، ومعنى **﴿من أمره﴾** من قضائه **﴿لينذر يوم التلاق﴾** قرأ الجمهور (لينذر) مبنياً للفاعل، ونصب (اليوم)، والفاعل هو: الله سبحانه، أو الرسول، أو من يشاء، والمنذر به محذوف تقديره: لينذر العذاب يوم التلاق. وقرأ أبي، وجماعة كذلك إلا أنه رفع (اليوم) على الفاعلية مجازاً. وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن السميع (لتنذر) بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب، وهو: الرسول، أو ضمير يرجع إلى الروح؛ لأنه يجوز تأنيثها. وقرأ اليماني (لينذر) على البناء للمفعول، ورفع (يوم) على التانيية، ومعنى **﴿يوم التلاق﴾**: يوم يلتقي أهل السموات، والأرض في المحشر، وبه قال قتادة. وقال أبو العالية، ومقاتل: يوم يلتقي العابثون، والمعبوثون، وقيل: الظالم، والمظلوم، وقيل: الأزلون، والآخرين، وقيل: جزاء الأعمال، والعاملون، وقوله: **﴿يوم هم بارزون﴾** بدل من يوم التلاق. وقال ابن عطية: هو منتصب بقوله: **﴿لا يخفى على الله﴾** وقيل: منتصب بإضمار انكر، والأول أولى، ومعنى بارزون: خارجون من قبورهم لا يستريحون شيء، وجملة **﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾** مستأنفة مبنية ليبروزهم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير بارزون، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً للمبتدأ أي: لا يخفى عليه سبحانه شيء منهم، ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وجملة **﴿لمن الملك اليوم﴾** مستأنفة جواب عن سؤال مقتر كانه قيل: فإماذا يقال عند بروز الخلائق في ذلك اليوم، فقيل: يقال: لمن الملك اليوم؟ قال المفسرون: إذا ملك كل من في السموات، والأرض، فيقول الرب تبارك وتعالى: **﴿لمن الملك اليوم﴾** يعني: يوم القيامة، فلا يجيبه أحد، فيجيب تعالى نفسه، فيقول: **﴿الله الواحد القهار﴾** قال الحسن: هو السائل تعالى، وهو المجيب حين لا أحد يجيبه،

فيجيب نفسه، وقيل: إنه سبحانه يأمر منادياً ينادي بذلك، فيقول أهل المحشر مؤمنهم، وكافرهم: **﴿الله الواحد القهار﴾**، وقيل: إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار، وقيل: هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوي المبطلين، كما في قوله تعالى: **﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾** ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله [الانفطار: 17 - 19]، وقوله: **﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم لليوم إن الله سريع الحساب﴾** من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو: الله سبحانه، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم، أو بعضهم، فهو: مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم أي: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير وشر لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه، أو بزيادة في عقابه **﴿إن الله سريع الحساب﴾** أي: سريع حسابه، لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكير في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة. ثم أمر الله سبحانه رسوله: بإنذار عباده، فقال: **﴿ولنذرهم يوم الأزفة﴾** أي: يوم القيامة سميت بذلك لقربها، يقال: أزف فلان أي: قرب يازف أزفاً، ومنه قول النابغة:

أزف الترحل غير أن ركبنا لما نزل بركابنا وكان قد ومنه قوله تعالى: **﴿أزفت الأزفة﴾** [النجم: 57] أي: قربت الساعة، وقيل: إن يوم الأزفة هو: يوم حضور الموت، والأول أولى. قال الزجاج: وقيل لها: أزفة؛ لأنها قريبة، وإن استبعد الناس أمرها، وما هو كائن، فهو: قريب **﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾** وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحنجرة كقوله: **﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾** [الأحزاب: 10] **﴿كاظمين﴾** مغمومين مكروبين ممثلثين غماً، قال الزجاج: المعنى: إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم. قال قتادة: وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة، فهي لا تخرج، ولا تعود في أمكنتها. وقيل: هو إخبار عن نهاية الجزع، وإنما قال كاظمين باعتبار أهل القلوب، لأن المعنى: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، فيكون حالاً منهم. وقيل: حالاً من القلوب، وجمع الحال منها جمع العقلاء؛ لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء فجمعت جمعه. ثم بين سبحانه: أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد، فقال: **﴿ما للظالمين من حميم﴾** أي: قريب ينفعهم **﴿ولا شفيع يطاع﴾** في شفاعته لهم، وحل يطاع الجر على أنه صفة لشفيع. ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شيء، وإن كان في غاية الخفاء فقال: **﴿يعلم خائنة الأعين﴾**، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، والجملة خبر آخر لقوله: **﴿هو الذي يريكم﴾** قال المؤرخ: فيه تقديم، وتأخير أي: يعلم الأعين الخائنة. وقال قتادة: خائنة الأعين: الهمز بالعين فيما لا يجب الله. وقال الضحاک: هو قول الإنسان ما رأيت، وقد رأى، ورأيت، وما رأى. وقال

الصور قال: إذا قدر عليها أيزني بها أم لا؟ ألا أخبركم بالتي تليها **«والله يقضي بالحق»** قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيدة السيئة. وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن مروي عن سعد قال: «لما كان يوم فتح مكة آمن النبي ﷺ الناس إلا أربعة نفر، وامرأتين، وقال: اقتلوه، وإن وجتموهم متعلقين باستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاخبا عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به. فقال: يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يابى بيعته، ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه، فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأي كفت يدي عن بيعته، فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومات إلينا بعينك؟ فقال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين».

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَقَرَّوَتْ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كُنْتُمْ بِالْكَافِرِينَ إِلَّا فِي مَنَازِلٍ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢١﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّوتِ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِئٌ كَذَّابٌ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ لَكُمْ أَنُتُمُ الْغَالِبُونَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضَرُّهُمْ مِنْ بَإِسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَهُمْ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٤﴾﴾

لما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أرفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا، فقال: **«أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم»** أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم، فإن الذين مضوا من الكفار **«كانوا هم أشد منهم قوة»** من هؤلاء الحاضرين من الكفار، وأقوى **«وآثاراً في الأرض»** بما عمروا فيها من الحصون والقصور، وبما لهم من العند والعدة، فلما كتبوا رسلهم أهلكتهم الله، وقوله: **«ففينظروا»** إما مجزوم بالعطف على يسيروا، أو منصوب بجواب الاستفهام، وقوله: **«كانوا أشد منهم قوة»** بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك، وقوله: **«وآثاراً»** عطف على قوة. قرأ الجمهور (أشد منهم)، وقرأ ابن عامر (أشد منكم) على الالتفات **«فأخذهم الله**

سفيان: هي: النظرة بعد النظرة. والأول أولى، وبه قال مجاهد **«وما تخفي الصور»** من الضمائر، وتسره من معاصي الله **«والله يقضي بالحق»** فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير، وشر **«والذين تدعون من دونه»** أي: تعبدونهم من دون الله **«لا يقضون بشيء»**، لأنهم لا يعلمون شيئاً، ولا يقدرين على شيء. قرأ الجمهور (يدعون) بالتحية يعني: الظالمين، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ نافع، وشيبة، وهشام بالفوقية على الخطاب لهم **«إن الله هو السميع البصير»**، فلا يخفى عليه من المسموعات، والمبصرات خافية.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: **«أمتنا لثنتين وأحييتنا اثنتين»** قال: هي مثل التي في البقرة **«كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم»** [البقرة: 28] كانوا أمواتاً في صلب آبائهم، ثم أخرجهم، فأحياهم، ثم أماتهم، ثم يحييهم بعد الموت. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس في الآية قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم، فخلقكم، فهذه حياة، ثم يميتكم، فترجعون إلى القبور، فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة، فهذه حياة، فهما موتتان، وحياتان كقوله: **«كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»** الآية. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«يوم للتلاق»** قال: يوم القيامة يلتقي فيه آدم، وآخر ولده. وأخرج عنه أيضاً قال: **«يوم التلاق»** يوم الألفة، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله، وحضره عباده. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضاً قال: «ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس أتتكم الساعة، فيسمعها الأحياء، والأموات، وينزل الله إلى السماء الدنيا، فيقول: **«للمن الملك اليوم لله الولد القهار»**». وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث، والديلمي عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ مثله. وأخرج عبد بن حميد، عن ابن مسعود قال: «يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادي مناد: **«للمن الملك اليوم لله الولد القهار»** **«اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم لليوم إن الله سريع الحساب»** فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **«يعلم خائنة الأعين وما تخفي للصور»** قال: الرجل يكون في القوم، فتمر بهم المرأة، فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد أطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال: إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا **«وما تخفي**

غير مؤمن بالبعث، والنشور، ويدخل فرعون في هذا العموم سخولاً أولياً **﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾** قال الحسن، ومقاتل، والسدي: كان قبطياً، وهو: ابن عم فرعون، وهو الذي نجا مع موسى، وهو المراد بقوله: **﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى﴾** قال يا موسى: [القصص: 20] الآية، وقيل: كان من بني إسرائيل، ولم يكن من آل فرعون، وهو خلاف ما في الآية، وقد تحمل لذلك بأن في الآية تقليماً، وتأخيراً، والتقدير: وقال رجل مؤمن من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون. قال القشيري: ومن جعله إسرائيلياً، ففيه بعد، لأنه يقال: كتمه أمر كذا، ولا يقال: كتم منه كما قال سبحانه: **﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾** [النساء: 42]، وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول.

وقد اختلف في اسم هذا الرجل، فقيل: حبيب، وقيل: حزقيل، وقيل غير ذلك، قرأ الجمهور (رجل) بضم الجيم، وقرأ الأعمش، وعبد الوارث بسكونها، وهي: لغة تميم، ونجد، والأولى هي: الفصحية، وقرئ بكسر الجيم **﴿ومؤمن﴾** صفة لرجل، **﴿ومن آل فرعون﴾** صفة أخرى، و**﴿يكتم إيمانه﴾** صفة ثالثة، والاستفهام في **﴿اتقتلون رجلاً﴾** للإنكار، و**﴿أن يقول ربي الله﴾** في موضع نصب بنزع الخافض أي: لأن يقول، أو كرامة أن يقول، وجملة **﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾** في محل نصب على الحال أي: والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات، والدلالات الظاهرات على نبوته، وصحة رسالته، ثم تلتطف لهم في النفع عنه، فقال: **﴿وإن يك كائناً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾**، ولم يكن قوله هذا لشك منه، فإنه كان مؤمناً كما وصفه الله. ولا يشك المؤمن، ومعنى **﴿يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾** أنه إذا لم يصيبكم كله، فلا أقل من أن يصيبكم بعضه، وحذفت النون من يكن في الموضعين تخفيفاً لكثرة الاستعمال، كما قال سيبويه، وقال أبو عبيدة، وأبو الهيثم: بعض هنا بمعنى: كل أي: يصيبكم كل الذي يعدكم، وأنشد أبو عبيدة على هذا قول لبيد:

ترك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها
أي: كل النفوس، وقد اعترض عليه، وأجيب بأن البعض قد يستعمل في لغة العرب بمعنى: الكل كما في قول الشاعر:
قد يدرك المثاني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقول الآخر:

إن الأمور إذا الأحداث ببرها
بأن الشيوخ ترى في بعضها خلا
وليس في البيت ما يدل على ما زعموه، وأما بيت لبيد، فقيل: إنه أراد ببعض النفوس نفسه، ولا ضرورة تلجئ إلى حمل ما في الآية على ذلك، لأنه أراد التنزل معهم، وإيهامهم: أنه لا يعتقد صحة نبوته كما يفيد قوله: **﴿يكتم إيمانه﴾** قال أهل المعاني: وهذا على المظاهرة في الحجاج، كأنه قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم،

بنزوبهم أي: بسبب نزوبهم **﴿وما كان لهم من الله من واق﴾** أي: من دافع يدفع عنهم العذاب، وقد مر تفسير هذه الآية في مواضع، والإشارة بقوله: **﴿ذلك﴾** إلى ما تقدم من الأخذ **﴿بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾** أي: بالحجج الواضحة **﴿فكفروا﴾** بما جاءهم به **﴿فأخذهم الله إنه قوي﴾** يفعل كل ما يريد لا يعجزه شيء **﴿شديد العقاب﴾** لمن عصاه، ولم يرجع إليه، ثم نكر سبحانه قصة موسى، وفرعون: ليعتبروا، فقال: **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾** هي: التسع الآيات التي قد تقدم ذكرها في غير موضع **﴿وسلطان مبين﴾** أي: حجة بيّنة واضحة، وهي: التوراة **﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا﴾** إنه **﴿ساحر كذاب﴾** أي: فيما جاء به، وخصهم بالذكر: لأنهم رؤساء المكذبين بموسى، وفرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال، والكنوز **﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾**، وهي: معجزاته الظاهرة الواضحة **﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾** قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول، لأن فرعون قد كان أمسك عن قتل ولدان وقت ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل، فكان يامر بقتل الذكور، وترك النساء، ومثل هذا قول فرعون: **﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾** [الأعراف: 127] **﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾** أي: في خسران ووبال، لأنه يذهب باطلاً، ويحقيق بهم ما يريد الله عز وجل **﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى﴾** إنما قال هذا: لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب، والمعنى: اتركوني أقتله **﴿وليدع ربه﴾** الذي يزعم: أنه أرسله إلينا، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك أي: لا يهولنكم ذلك، فإنه لا رب له حقيقة: بل أنا ربكم الأعلى، ثم نكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله، فقال: **﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾** الذي أنتم عليه من عبادة غير الله، ويخلطهم في دينه الذي هو: عبادة الله وحده **﴿وأن يظهر في الأرض الفساد﴾** أي: يوقع بين الناس الخلاف، والفتنة، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى، وانتشاره في الأرض، واعتداء الناس به فساداً، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو، ومن تابعه. قرأ الكوفيون، ويعقوب (أو أن يظهر) بأو التي للإيهام، والمعنى: أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين. وقرأ الباقون (وأن يظهر) بدون ألف على معنى: وقوع الأمرين جميعاً، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بفتح الياء من (إني أخاف)، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص يظهر بضم الياء، وكسر الهاء من أظهر، وفاعله ضمير موسى، والفساد نصباً على أنه مفعول به، وقرأ الباقون بفتح الياء، والهاء، ورفع الفساد على الفاعلية **﴿وقال موسى إني عدتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾** قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي (عدت) بإدغام الذال، وقرأ الباقون بالإظهار، لما هنده فرعون بالقتل استعاذ بالله عز وجل من كل متعظم عن الإيمان بالله

فمن؟ قال: أبو بكر، رأيت رسول الله ﷺ، وأخذته قريش، فهذا يجنبه، وهذا يتلته، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً، قال: فواش ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا، ويجيء هذا، ويتلثل هذا، وهو يقول: ويلكم انتقلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع يده كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: انشدكم مؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ فواش لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، وذلك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَقَوَّمُوا إِلَىٰ آخَاةِكُمْ عَنَيْكُمْ يَنْتَلِي بِوَرِ الْأَخْرَابِ ﴿١٥﴾ وَنَلِ قَوْمَهُ فُجِعَ وَكَادُوا وَكُمُوا وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِ ﴿١٦﴾ يَتَقَوَّمُوا إِلَىٰ آخَاةِكُمْ عَنَيْكُمْ يَوْمَ النَّشَاةِ ﴿١٧﴾ يَوْمَ تَكُونُونَ مَنبُتِينَ مَّا كَلِمَةً مِن اللَّهِ مِن عَابِسِهِ وَمَن يُنْبِئِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن حَافٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مَوْسَىٰ مِنْ قَبْلِ الْإِسْمَاءِ فَمَا زِلْتُمْ فِي هَآئِكُمْ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٍ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي مَآبِئِ اللَّهِ بَدْعًا سَاطِنِينَ أَنْتَهُمْ كَعَبْرٌ مُّقَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ مَآسِيًا كَذَلِكَ يَطْلَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّكْتَرِبٍ جَنَابٍ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ رِثْوَنُ بَهْشَنُ ابْنِ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ الْأَمْسَابِ ﴿٢١﴾ أَسْتَجِبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَهًا إِلَهًا مُّوسَىٰ وَإِنِّي لِأَطْلُعُهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِيَزْعُونَ سَوْءَهُ عَلَيْهِمْ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الْوَلَدُ مَآرَكَ يَتَقَوَّمُوا أَيْتَمُورِي أَمْدَكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ ﴿٢٣﴾ يَتَقَوَّمُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتْنٌ وَلَكِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٤﴾ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا نِفْهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَتَمَّنْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٥﴾

ثُمَّ كَرَّرَ لَكَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنَ تَنْكِيرَهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِمَنْ قَبْلِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ حَاسِكِيًا عَنْهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أَي: مِثْلَ يَوْمِ عَذَابِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَقْرَدَ الْيَوْمَ، لِأَنَّ جَمْعَ الْأَحْزَابِ قَدْ أَغْنَى عَنْ جَمْعِهِ، ثُمَّ فَسَّرَ الْأَحْزَابَ، فَقَالَ: ﴿مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَي: مِثْلَ حَالِهِمْ فِي الْعَذَابِ، أَوْ مِثْلَ عَادَتِهِمْ فِي الْإِقَامَةِ عَلَى التَّكْنِيبِ، أَوْ مِثْلَ جَزَاءِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَالتَّكْنِيبِ ﴿وَمَا اللَّهُ يَرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أَي: لَا يَعْذِيبُهُمْ بِغَيْرِ نَنْبٍ، وَنَفْيِ الْإِرَادَةِ لِلظُّلْمِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الظُّلْمِ بِفَحْوَى الْخُطَابِ. ثُمَّ زَادَ فِي الْوَعْظِ، وَالتَّكْنِيبِ، فَقَالَ: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ (التَّنَادَ) بِتَخْفِيفِ الدَّالِ، وَحُفِّ الْيَاءِ، وَالْأَصْلُ التَّنَادِي، وَهُوَ: التَّفَاعُلُ مِنَ النَّدَاءِ، يَقَالُ: تَنَادَى الْقَوْمُ أَي: نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَرَأَ الْحَسَنُ، وَابْنُ السَّمِيعِ، وَيَعْقُوبُ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَمُجَاهِدٌ بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ عَلَى الْأَصْلِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَعِكْرَمَةُ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: هُوَ: لَحْنٌ، لِأَنَّهُ مِنْ نَدَّ يَنْدُ: إِذَا مَرَّ عَلَى

وفي بعض تلك هلاككم، فكان الحاصل بالعصيان هو الحاصل بالكل. وقال الليث: بعض ما هنا صلة يريد يصيحبكم الذي يعصمكم، وقيل: يصيحبكم هذا العذاب الذي يقوله في الدنيا، وهو بعض ما يتوعدكم به من العذاب وقيل: إنه وعدهم بالثواب، العقاب، فإذا كفروا أصابهم العقاب، وهو بعض ما وعدهم به ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن، وهو: احتجاج آخر ذو وجهين: أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات، ولا أيده بالمعجزات، وثانيهما: أنه إذا كان كذلك خذله الله، وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله، والمسرف المقيم على المعاصي المستكثر منها، والكذاب المفترى ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ لِمَلِكٌ يَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ نكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك، ليذكروا الله، ولا يتماذوا في كفرهم، ومعنى ظاهرين: الظهور على الناس، والغلبة لهم، والاستعلاء عليهم، والأرض أرض مصر. وانتصاب ظاهرين على الحال ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي: من يمنعنا من عذابه، ويحول بيننا، وبينه عند مجيئه، وفي هذا تحذير منه لهم من نقمة الله بهم، وإنزال عذابه عليهم، فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصيح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة، والرعاية بمكان مكين، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكاً يكون فيه جلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم، ولهذا قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ قال ابن زيد: أي: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي. وقال الضحك: ما أعلمكم إلا ما أعلم، والرؤية هنا هي القلبية لا البصرية، والمفعول الثاني هو إلا ما أرى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: ما أهدىكم بهذا الرأي إلا طريق الحق. قرأ الجمهور (الرشاد) بتخفيف الشين، وقرأ معاذ بن جبل بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضرب. وقال النحاس: هي: لحن، ولا وجه لذلك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قال: لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى الذي قال: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرَّوْنَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: 20] قال ابن المنذر: أخبرني أن اسمه حزقيل. وأخرج عبد بن حميد عن أبي إسحاق قال: اسمه حبيب. وأخرج البخاري، وغيره من طريق عروة قال: قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بيننا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذا قبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فاقبل أبو بكر، فأخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ، ثم قال: «تَقْتُلُون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»». وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة، والبراز عن علي بن أبي طالب، أنه قال: أيها الناس أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت. قال: أما أني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم،

حاتم، وأبو عبيد، وفي الكلام حذف، وتقديره: كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها، والمعنى: أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين، وقرأ أبو عمرو، وابن محيصن، وابن نكوان عن أهل الشام بتثوين قلب على أن متكبر صفة له، فيكون القلب مراداً به الجملة، لأن القلب هو: محل التكبر، وسائر الأعضاء تبع له في ذلك، وقرأ ابن مسعود على قلب كل متكبر. ثم لما سمع فرعون هذا رجع إلى تكبره، وتجبره معرضاً عن الموعظة نافراً من قبولها، وقال: ﴿يا هامان ابن لي صرحاً﴾ أي: قصرأ مشيداً كما تقدم بيان تفسيره ﴿لعلني أبلغ الأسباب﴾ أي: الطرق. قال قتادة، والزهري، والسدي، والأخفش: هي: الأبواب. وقوله: ﴿أسباب السفوات﴾ بيان للأسباب، لأن الشيء إذا أبهم، ثم فسر كان أوقع في النفوس، وانشد الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير:

ومن هاب أسباب المنيا ينلنه ولورام أسباب السماء يسلم
وقيل: أسباب السموات الأمور التي يستمسك بها
﴿فاطلع إلى إله موسى﴾ قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أبلغ، فهو على هذا داخل في حيز الترجي. وقرأ الأعرج، والسلمي، وعيسى بن عمر، وحفص بالنصب على جواب الأمر في قوله: ﴿إلين لي﴾، أو على جواب الترجي كما قال أبو عبيد، وغيره. قال النحاس: ومعنى النصب خلاف معنى الرفع، لأن معنى النصب: متى بلغت الأسباب اطلعت، ومعنى الرفع: لعلني أبلغ الأسباب، ولعلي أطلع بعد ذلك، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جداً ﴿واني لأظنه كاذباً﴾ أي: واني لأظن موسى كاذباً في ادعائه بأن له إلهاً، أو فيما يدعيه من الرسالة ﴿وكنك زين لفرعون سوء عمله﴾ أي: ومثل تلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك، والتكذيب فتمادى في الغي، واستمر على الطغيان ﴿وصد عن السبيل﴾ أي: سبيل الرشاد. قرأ الجمهور (وصد) بفتح الصاد، والدال أي: صد فرعون الناس عن السبيل، وقرأ الكوفيون (وصد) بضم الصاد مبنياً للمفعول، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، ولعل وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه في زين من البناء للمفعول، وقرأ يحيى بن وثاب، وعلقمة (صد) بكسر الصاد، وقرأ ابن أبي إسحاق، وعبد الرحمن بن أبي بكرة بفتح الصاد، وضم الدال منوناً على أنه مصدر معطوف على سوء عمله أي: زين له الشيطان سوء العمل، والصد ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ التباب: الخسارة، والهلاك، ومنه ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ [المسد: 1]، ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير، والتحذير كما حكى الله عنه بقوله: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾ أي: اقتدوا بي في الدين أهدكم طريق الرشاد، وهو: الجنة، وقيل: هذا من قول موسى، والأول أولى. وقرأ معاذ بن جبل (الرشاد) بتشديد

وجهه هارباً. قال النحاس: وهذا غلط، والقراءة حسنة على معنى التنافي. قال الضحاك: في معناه: أنهم إذا سمعوا بزفير جهنم ندوا هرباً، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله: ﴿يوم التناد﴾، وعلى قراءة الجمهور المعنى: يوم ينادي بعضهم بعضاً، أو ينادي أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة أهل النار، أو ينادي فيه بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، أو يوم ينادي فيه كل أناس بإمامهم، ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني، وقوله: ﴿يوم تولون متبرين﴾ يدل من يوم التناد أي: منصرفين عن الموقف إلى النار، أو فارين منها. قال قتادة، ومقاتل: المعنى: إلى النار بعد الحساب، وجملة ﴿ما لكم من الله من عاصم﴾ في محل نصب على الحال أي: ما لكم من يعصمكم من عذاب الله، ويمنعكم منه ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ يهديه إلى طريق الرشاد. ثم زاد في وعظهم، وتذكيرهم، فقال: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ أي: يوسف بن يعقوب، والمعنى: أن يوسف بن يعقوب جاءهم بالمعجزات، والآيات الواضحات من قبل مجيء موسى إليهم أي: جاء إلى آبائكم، فجعل المجيء إلى الآباء مجيئاً إلى الأبناء. وقيل: المراد بيوسف هنا: يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب، وكان أقام فيهم نبياً عشرين سنة. وحكى النقاش، عن الضحاك: أن الله بعث إليهم رسولا من الجن يقال له: يوسف، والأول أولى. وقد قيل: إن فرعون موسى أدرك أيام يوسف بن يعقوب لطول عمره ﴿فما زلتم في شك مما جاءكم به﴾ من البينات، ولم تؤمنوا به ﴿حتى إذا هلك﴾ يوسف ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾، فكفروا به في حياته، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ﴿كنك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ أي: مثل ذلك الضلال الواضح يضل الله من هو مسرف في معاصي الله مستكثر منها مرتاب في دين الله شك في وحدانيته، ووعده، ووعيده، والموصول في قوله: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ يدل من «من»، والجمع باعتبار معناها، أو بيان لها، أو صفة، أو في محل نصب بإضمار أعني، أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هم الذين، أو مبتدأ، وخبره يطبع، و ﴿بغير سلطان﴾ متعلق بيجادلون أي: يجادلون في آيات الله بغير حجة واضحة، و ﴿اتاهم﴾ صفة لسلطان ﴿كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾ يحتمل أن يراد به التعجب، وأن يراد به الدم كبش، وفاعل كبر ضمير يعود إلى الجدل المفهوم من يجادلون، وقيل: فاعله ضمير يعود إلى من في ﴿من هو مسرف﴾، والأول أولى. وقوله: ﴿عند الله﴾ متعلق بكبر، وكذلك ﴿عند الذين آمنوا﴾ قيل: هذا من كلام الرجل المؤمن، وقيل: ابتداء كلام من الله سبحانه ﴿كنك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ أي: كما طبع على قلوب هؤلاء المجالين، فكنك يطبع أي: يختم على كل قلب متكبر جبار. قرأ الجمهور بإضافة قلب إلى متكبر، واختار هذه القراءة أبو

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعَاءً فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْجُونَ عَنَّْا صَبِيحًا وَبَكَ النَّارِ ۖ قَالَ
الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ ۚ
وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ جَهَنَّمُ أَدْخُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ
الْعَذَابِ ۖ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا
فَادْعُوا رَبَّكُمْ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۚ إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ
آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۚ يَوْمَ لَا تَنْفَعُ الظَّالِمِينَ
مَعُونَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّدَارِ ۚ

كرد ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله، وصرح بإيمانهم،
ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامهم لهم أنه منهم، وأنه
إنما تصدى التنكير كرامة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به
موسى كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن
الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه، فقال: ﴿ويا قوم ما
لي ادعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ أي:
أخبروني عنكم كيف هذه الحال: ادعوكم إلى النجاة من النار،
وبدول الجنة بالإيمان بالله، وإجابة رسله، وتدعونني إلى
النار بما تريدونه مني من الشرك. قيل: معنى ﴿ما لي
ادعوكم﴾: ما لكم ادعوكم كما تقول: ما لي أراك حزينا أي:
ما لك. ثم فسر الدعوتين، فقال: ﴿تدعونني لأكفر بالله
وأشرك به ما ليس لي به علم﴾، فقلوه: تدعونني بدل من
تدعونني الأولى، أو بيان لها ﴿ما ليس لي به علم﴾ أي: ما
لا علم لي بكونه شريكا لله ﴿وإنا ادعوكم إلى العزيز
للعفار﴾ أي: إلى العزيز في انتقامه ممن كفر ﴿والغفار﴾
لننوب من آمن به ﴿لا جرم﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة
هود، وجرم فعل ماض بمعنى: حق، ولا الداخلة عليه لنفي ما
أنعوه، ورد ما زعموه، وفاعل هذا الفعل هو: قوله: ﴿إنما
تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾
أي: حق، ووجب بطلان دعوته، قال الزجاج: معناه: ليس له
استجابة دعوة تنفع، وقيل: ليس له دعوة توجب له الألوهية
في الدنيا، ولا في الآخرة. وقال الكلبي: ليس له شفاعة
﴿وإن مرئنا إلى الله﴾ أي: مرجعنا، ومصيرنا إليه بالموت
أولا، وبالبعث آخر، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير،
وشر ﴿وإن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي:
المستكثرين من معاصي الله. قال قتادة، وابن سيرين: يعني:
المشركين. وقال مجاهد، والشعبي: هم السفهاء السفاكون
للنماء بغير حقها، وقال عكرمة: الجبارون، والمتكبرون. وقيل:
هم الذين تعبوا حدود الله، ﴿وإن﴾ في الموضوعين عطف على
﴿إن﴾ في قوله: ﴿إنما تدعونني إليه﴾، والمعنى: وحق أن
مرئنا إلى الله، وحق أن المسرفين إلخ ﴿فستذكرون ما أقول
لكم﴾ إذا نزل بكم العذاب، وتعلمون أنني قد بلغت في
نصحكم، وتنكيركم، وفي هذا الإيهام من التخويف، والتهديد
ما لا يخفى ﴿وافوض أمري إلى الله﴾ أي: اتوكل عليه،
واسلم أمري إليه. قيل: إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به. قال
مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل، فلم يقدروا عليه. وقيل:
القاتل هو: موسى، والأول أولى ﴿فوقاه الله سيئات ما

الذين كما تقدم قريبا في قول فرعون، ووقع في المصحف
اتبعون بدون ياء، وكذلك قرأ أبو عمرو، ونافع بحذفها في
الوقف، وإثباتها في الوصل، وقرأ يعقوب، وابن كثير بإثباتها
وصلا، ووقفا، وقرأ الباقون بحذفها وصلا، ووقفا، فمن أثبتا
فعلى ما هو الأصل، ومن حذفها، فلكونها حذفت في
المصحف ﴿ويا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ يتمتع
بها أياما، ثم تنقطع، وتزول ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾
أي: الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع، ومستمرة لا تزول
﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ أي: من عمل في
دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت، فلا يجزى إلا
مثلها، ولا يعذب إلا بقدرها، والظاهر شمول الآية لكل ما
يطلق عليه اسم السيئة، وقيل: هي خاصة بالشرك، ولا وجه
لذلك ﴿ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾
أي: من عمل عملا صالحا مع كونه مؤمنا بالله، وبما جاءت
به رسله ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين العمل الصالح،
والإيمان ﴿ينخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾
أي: بغير تقدير، ومحاسبة. قال مقاتل: يقول: لا تبعة عليهم
فيما يعطون في الجنة من الخير، وقيل: العمل الصالح، هو:
لا إله إلا الله. قرأ الجمهور (ينخلون) بفتح التحتية مبنيا
للفاعل. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو، ويعقوب،
وأبو بكر عن عاصم بضمها مبنيا للمفعول.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿مثل داب﴾ قال:
مثل حال. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عن قتادة
﴿مثل داب قوم نوح﴾ قال: هم الأحزاب: قوم نوح، وعاد،
وشمود. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ولقد
جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ قال: رؤيا يوسف، وفي
قوله: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ قال: يهود. وأخرج
ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا في
تباب﴾ قال: خسران. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد
نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما
هذه الحياة الدنيا متاع﴾ قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة
سبعة آلاف سنة. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة قال:
قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الحياة الدنيا متاع، وليس من
متاعها شيء أفضل من المرأة الصالحة، التي إذا نظرت إليها
سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها، ومالها﴾.

﴿وَقَفَّيْ مَا يَدْعُوكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونَنِي
لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ
الَّتِي لَا جَرَمَ لَهَا تَدْعُونَنِي إِلَى لَيْسَ لَمْ تَدْعُونِي إِلَى الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ
وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْأَشْرَفِينَ هُمْ أَسْحَبُ النَّارِ ۖ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا
أَقُولَ لَكُمْ وَأَنْفُسُ أُمِرَتْ إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَعِثُ الْبُيُوتَ ۖ وَقَدْ
أَنَّ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَّرُوا وَكَافٍ بِكَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْمَكَابِ ۖ النَّارُ
يَعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ ۖ وَإِنَّ جَهَنَّمَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّالُّونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

والجملة خبر إن، قاله الأخفش. وقرأ ابن السميع، وعيسى بن عمر (كلا) بالنصب. قال الكسائي، والفراء على التأكيد لاسم إن بمعنى: كلنا، وتنوينه عوض عن المضاف إليه، وقيل: على الحال، ورجحه ابن مالك ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: قضى بينهم بأن فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من الأمم الكافرة، مستكبرهم، وضعيفهم ﴿لَخَزَنَةٌ لَهُمْ﴾ جمع خازن، وهو القوام بتعذيب أهل النار ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَى عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ يوماً ظرف؛ ليخفف، ومفعول يخفف محذوف أي: يخفف عنا شيئاً من العذاب مقدار يوم، أو في يوم، وجملة ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، والاستفهام للتوبيخ، والتقرير ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: آتونا بها، فكذبناهم، ولم تؤمن بهم، ولا بما جاءوا به من الحجج الواضحة، فلما اعترفوا ﴿قَالُوا﴾ أي: قال لهم الملائكة الذين هم: خزنة جهنم ﴿فادعوا﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك، فادعوا أنتم، فإننا لا ندعو لمن كفر بالله، وكذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة. ثم أخبرهم: بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً، فقالوا: ﴿يَوْمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في ضياع، وبطلان، وخسار، وتبار، وجملة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مستأنفة من جهته سبحانه أي: نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، والموصول في محل نصب عطفاً على رسلنا أي: لننصر رسلنا، وننصر الذين آمنوا معهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما عودهم الله من الانتقام منهم بالقتل، والسلب، والأسر، والقهر ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وهو: يوم القيامة. قال زيد بن أسلم: الأشهاد هم: الملائكة، والنبيون. وقال مجاهد، والسدي: الأشهاد الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب. قال الزجاج: الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب، وأصحاب. قال النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال، ولا يقاس عليه، ولكن ما جاء منه مسموعاً أدّى على ما يسمع، فهو على هذا جمع شهيد، مثل شريف، وأشراف، ومعنى نصرهم يوم يقوم الأشهاد: أن الله يجازيهم بأعمالهم، فيدخلهم الجنة، ويكرمهم بكرامته، ويجازي الكفار بأعمالهم، فيلعنهم، ويدخلهم النار، وهو معنى قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَارِ﴾ أي: النار، ويوم بدل من يوم يقوم الأشهاد، وإنما لم تنفعهم المعذرة؛ لأنها معذرة باطلة، وتعلة داحضة، وشبهة زائغة. قرأ الجمهور (تنفع) بالفوقية. وقرأ نافع، والكوفيون بالتحتيّة، والكل جائز في اللغة.

وقد أخرج البخاري في تاريخه، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ قال: السفاكين للدماء بغير حقها. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحذكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل

مكروا﴾ أي: وقاه الله ما أرادوا به من المكر السيئ، وما أرادوه به من الشر. قال قتادة: نجاه الله مع بني إسرائيل ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: أحاط بهم، ونزل عليهم سوء العذاب. قال الكسائي: يقال: حاق يحيق حيقاً، وحيوقاً: إذا نزل، ولزم. قال الكلبي: غرقوا في البحر، ودخلوا النار، والمراد بآل فرعون: فرعون، وقومه، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره لكونه أولى بذلك منهم، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه. والأول أولى؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعاً بالغرق، وسيعذبون في الآخرة بالنار، ثم بيّن سبحانه ما أجمله من سوء العذاب، فقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب، وقيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره يعرضون، والأول أولى، ورجحه الزجاج، وعلى الوجهين الآخرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر. وقرئ بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى أي: يصلون النار يعرضون عليها، أو على الاختصاص، وإجاز الفراء الخفض على البديل من العذاب. وذهب الجمهور أن هذا العرض هو في البرزخ، وقيل: هو في الآخرة. قال الفراء: ويكون في الآية تقديم، وتأخير أي: أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب النار يعرضون عليها غُدُوًّا وَعَشِيًّا، ولا ملجئ إلى هذا التكلف، فإن قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ، وقوله: ﴿أَدْخَلُوا﴾ هو بتقدير القول أي: يقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون، و﴿أَشَدّ الْعَذَابِ﴾ هو: عذاب النار. قرأ حمزة، والكسائي، ونافع، وحفص (أدخلوا) بفتح الهمزة، وكسر الخاء، وهو على تقدير القول كما نكر. وقرأ الباقون (أدخلوا) بهمزة وصل من بخل يدخل أمراً لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء أي: أدخلوا يا آل فرعون أشدّ العذاب ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ الظرف منصوب بإضمار أذكرك. والمعنى: أذكرك لقومك وقت تخاصمهم في النار، ثم بيّن سبحانه هذا التخاصم، فقال: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد للأنبياء، والاتباع لهم، وهم: رؤساء الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع لتابع، كخدم، وخادم، أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل أي: تابعين، أو على حذف مضاف أي: نوبي تبع. قال البصريون: التابع يكون واحداً، ويكون جمعاً. وقال الكوفيون: هو جمع لا واحد له ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونٌ﴾ معنا نصيباً من النار أي: هل تدفعون عنا نصيباً منها، أو تحملونه معنا، وانتصاب نصيباً بفعل مقدر يدل عليه مغنون أي: هل تدفعون عنا نصيباً، أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين أي: هل أنتم حاملون معنا نصيباً، أو على المصدرية ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والمعنى: إنا نحن، وأنتم جميعاً في جهنم، فكيف تغني عنكم. قرأ الجمهور (كل) بالرفع على الابتداء، وخبره ﴿فِيهَا﴾،

النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»، زاد ابن مردويه: «ثم قرأ ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشيا﴾». وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن مسلم، أو كافر إلا أثابه الله، قلنا: يا رسول الله ما إثابة الكافر؟ قال: المال، والولد، والصحة، وأشباه ذلك، قلنا: وما إثابته في الآخرة؟ قال: عذاباً دون العذاب، وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾». وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن أبي الدنيا، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه نار جهنم يوم القيامة، ثم تلا ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾». وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة مثله.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَزَلْنَا بِهِنَّ سَبِيلَ الْكَذِبِ ﴿١٦﴾ هُدى وَذَكَرْنَاهُ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَحَدِّثْ إِلَى اللَّهِ حَقًّا وَاسْتَفِيزْ لِذَلِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَمِيِّ وَالْكَبِيرِ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِحَسْرَةٍ سُلْطَانِهِمْ إِنَّ فِي مَقُودِهِمْ إِلَّا كَيْدًا مَا هُمْ بِبَالِيَةٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُمْ السَّكِينُ الْبَعِيرُ ﴿١٩﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا الْمُسْلِمُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَلِخِيذًا ﴿٢٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهَا وَالْكَافَرُ مُبْعِدًا إِنَّ اللَّهَ لَدَرُّ قَصَبٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقَ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٥﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُمُ اللَّهُ الْيَقِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْمَدُونَ ﴿٢٦﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَمَوَدَّةً بَيْنَكُمْ فَاصْبِرْ صُورَكُمْ وَرَفِّقْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ هذا من جملة ما قصه الله سبحانه قريباً من نصره لرسله أي: آتيناها التوراة، والنبوة، كما في قوله سبحانه: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ قال مقاتل: الهدى من الضلالة يعني: التوراة ﴿وإورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أي: هدى وذكرى لأولي الألباب المراد بالكتاب: التوراة، ومعنى أورثنا: أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيها، وتوارثوها خلفاً عن سلف. وقيل: المراد بالكتاب: سائر الكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل بعد موت موسى، وهدى،

ونكرى في محل نصب على أنهما مفعول لأجله أي: لأجل الهدى، والذكر، أو على أنهما مصدران في موضع الحال أي: هادياً ومنكراً، والمراد بأولي الألباب: أهل العقول السليمة. ثم أمر الله، رسوله ﷺ بالصبر على الأذى، فقال: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي: اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل إن وعد الله الذي وعد به رسله حق لا خلف فيه، ولا شك في وقوعه كما في قوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ [غافر: 51]، وقوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبين﴾ [الصافات: 171 - 173] قال الكلبي: نسخ هذا بآية السيف. ثم أمره سبحانه بالاستغفار لذنبه، فقال: ﴿واستغفر لذنبك﴾ قيل: المراد ذنب أمتك، فهو على حذف مضاف، وقيل: المراد الصفائر عند من يجوزها على الأنبياء، وقيل: هو مجرد تعبد له ﷺ بالاستغفار لزيادة الثواب، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾ أي: دم على تنزيه الله ملتبساً بحمده، وقيل: المراد صل في الوقتين صلاة العصر، وصلاة الفجر. قاله الحسن، وقادة، وقيل: هما صلاتان ركعتان غداة، وركعتان عشية، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان قائم﴾ أي: بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة الله سبحانه ﴿إن في صدورهم إلا كبراً﴾ أي: ما في قلوبهم إلا تكبراً عن الحق يحملهم على تكنيك، وجملة ﴿ما هم ببالغيه﴾ صفة لكبر قال الزجاج: المعنى: ما في صدورهم إلا كبراً ما هم ببالغي إرادتهم فيه، فجعله على حذف المضاف. وقال غيره: ما هم ببالغي الكبر. وقال ابن قتيبة: المعنى: إن في صدورهم إلا كبراً أي: تكبر على محمد ﷺ، وطمع أن يغلبوه، وما هم ببالغي ذلك، وقيل: المراد بالكبر: الأمر الكبير أي: يطلبون النبوة، أو يطلبون أمراً كبيراً يصلون به إليك من القتل، ونحوه، ولا يبلغون ذلك. وقال مجاهد: معناه: في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها. والمراد بهذه الآية: المشركون، وقيل: اليهود كما سيأتي بيانه آخر البحث إن شاء الله. ثم أمره الله سبحانه بأن يستعذ بالله من شرورهم، فقال: ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾ أي: فالتجئ إليه من شرهم، وكيدهم، وبغيهم عليك إنه السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. ثم بين سبحانه عظيم قدرته، فقال: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ أي: أعظم في النفوس، وأجل في الصدور، لعظم أجزائهما، واستقرارهما من غير عمد، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب، فكيف ينكرون البعث، وإحياء ما هو دونهما من كل وجه كما في قوله: ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ [يس: 81] قال أبو العالية: المعنى: لخلق السموات، والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاج على منكري البعث أي: هما أكبر من إعادة خلق الناس ﴿ولكن أكثر

﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ من الحركات في طلب الكسب لكونه جعله مظلماً بارداً تناسبه الراحة بالسكون، والنوم ﴿والنهار مبصراً﴾ أي: مضيئاً، لتبصروا فيه حوائجكم، وتنصرفوا في طلب معاشكم ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ يتفضل عليهم بنعمه التي لا تحصى ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ النعم، ولا يعترفون بها، إما لجحودهم لها، وكفرهم بها كما هو شأن الكفار، أو لإغفالهم للنظر، وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم، وهم: الجاهلون ﴿نلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ بين سبحانه في هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده، قرأ الجمهور خالق بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأول عن المبتدأ، وقرأ زيد بن علي بنصبه على الاختصاص ﴿فأنى تؤفكون﴾ أي: فكيف تنقلبون عن عبادته، وتنصرفون عن توحيده ﴿كنك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجدون﴾ أي: مثل الإفك يؤفك الجاحنون آيات الله المنكرون لتوحيده، ثم ذكر لهم سبحانه نوعاً آخر من نعمه التي أنعم بها عليهم مع ما في ذلك من الدلالة على كمال قدرته، وتفردّه بالإلهية، فقال: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً﴾ أي: موضع قرار فيها تحبون، وفيها تموتون ﴿والسماء بناءً﴾ أي: سقفاً قائماً ثابتاً، ثم بين بعض نعمه المتعلقة بانفس العباد، فقال: ﴿وصوركم فاحسن صوركم﴾ أي: خلقكم في أحسن صورة. قال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله. قرأ الجمهور (صوركم) بضم الصاد، وقرأ الأعمش، وأبو رزين بكسرهما. قال الجوهري: والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي: المستلذات ﴿نلكم﴾ المبعوث بهذه النعوت الجليلة ﴿الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ أي: كثرة خيره، وبركته ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ أي: الباقي الذي لا يفنى المنفرد بالالوهية ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة، والعبادة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الفراء: هو خبر، وفيه إضمار أمر أي: احموه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم. قال السيوطي: بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان، ويكون في أمره، فعضوا أمره، وقالوا: نصنع كذا، ونصنع كذا، فأنزل الله ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ قال: لا يبلغ الذي يقول: ﴿فاستعذ بالله﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال لخلق السموات، والأرض أكبر من خلق الدجال. وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في الآية قال: هم: اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ قال: عظمة قريش. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن

الناس لا يعلمون﴾ عظيم قدرة الله، وأنه لا يعجزه شيء. ثم لما ذكر سبحانه الجدل بالباطل نكر مثلاً للباطل، والحق، وأنهما لا يستويان، فقال: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ أي: الذي يجادل بالباطل، والذي يجادل بالحق ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾ أي: ولا يستوي المحسن بالإيمان، والعمل الصالح، والمسيء بالكفر، والمعاصي، وزيادة «لا» في، ولا المسيء للتأكيد ﴿قليلًا ما تتذكرون﴾ قرأ الجمهور (يتذكرون) بالتحية على الغيبة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، لأن قبلها، وبعدها على الغيبة لا على الخطاب، وقرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات أي: تذكرًا قليلًا ما تتذكرون ﴿إن الساعة آتية لا ريب فيها﴾ أي: لا شك في مجيئها، وحصولها ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك، ولا يصدقونه لقصور أقدامهم، وضعف عقولهم عن إدراك الحجة، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث. ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه، ولا شبهة، أرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة في دار الخلود، فأمر رسوله ﷺ: أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه، وهو: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ قال أكثر المفسرين المعنى: وادعوني، وأعبديني أتقبل عبادتكم، وأغفر لكم، وقيل: المراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع، وبفح الضر. قيل: الأول أولى؛ لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو: العبادة. قلت: بل الثاني أولى؛ لأن معنى الدعاء حقيقة، وشرعاً هو: الطلب، فإن استعمل في غير ذلك، فهو: مجاز، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو: عبادة، بل مخ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فأنه سبحانه قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعده الحق، وما يبذل القول لديه، ولا يخلف الميعاد. ثم صرح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي، وهو الطلب هو من عبادته، فقال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي: نذلين صاغرين، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستنفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة، فإيا عباد الله وجهوا رغباتكم، وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلى التعويل عليه، وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين، قيل: وهذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة أي: استجب لكم إن شئت كقوله سبحانه: ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ [الأنعام: 41] الله، قرأ الجمهور (سيدخلون) بفتح الياء، وضم الخاء مبنياً للفاعل، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وورش، وأبو جعفر بضم الياء، وفتح الخاء مبنياً للمفعول. ثم نكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده، فقال:

يَرْجُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَهُمْ مَنْ قَضَعْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ تَقُصَّ عَنْكَ وَلَمَّا كَانَ لِرُسُلِهِمْ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا يُلَاقُوا اللَّهَ فَإِذَا جَاءَهُمْ أَنْزَلَهُمْ فَوَقَّعُوا فِيهِمْ وَكَيْفَ يَكُونُ الْعَذَابُ الْكَبِيرُ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْفَ لِيَتَرَكَّبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُلُوحِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرًا مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَأَعَادُوا فِي الْأَرْضِ مِمَّا أَفْنَى عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يُكَفِّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْوِلْدَانِ وَكَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِمْ يَسْتَخْبِرُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَعَدُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ فَمَا كُنَّا بِمُشْرِكِينَ ﴿٨٥﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِسْتِغْنَاهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

أمر الله سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن الله ناه عن عبادة غيره، وأمره بالتوحيد، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي: الأصنام. ثم بين وجه النهي، فقال: ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ وهي: الآلة العقلية والنقلية، فإنها توجب التوحيد ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: استسلم له بالانقياد، والخضوع. ثم أرفف هذا بذكر دليل من الآلة على التوحيد، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ أي: خلق أباكم الأول، وهو: الله، وخلق من تراب يستلزم خلق نزيته منه ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قد تقدم تفسير هذا في غير موضع ﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً، وأقرده لكونه اسم جنس، أو على معنى: يخرج كل واحد منكم طفلاً ﴿ثُمَّ لِيَتَّبِعُوا لَكُمْ مَسَكِنًا﴾ وهي: الحالة التي تجتمع فيها القوة، والعقل وقد سبق بيان الأشد مستوفى في الانعام، واللام التعليلية في لاتبغوا معطوفة على علة أخرى، ليخرجكم مناسبة لها، والتقدير: لتكبروا شيئاً، فشيئاً، ثم لتبغوا غاية الكمال، وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شِيخًا﴾ معطوف على لتبغوا، قرأ نافع، وحفص، وأبو عمرو، وابن محيصن، وهشام (شيوخاً) بضم الشين، وقرأ الباقون بكسرها، وقرأ وشيخاً على الأفراد لقوله طفلاً، والشيخ من جاوز أربعين سنة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلِ﴾ أي: من قبل الشيوخة ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجْلاً مَسْمُومًا﴾ أي: وقت الموت، أو يوم القيامة، واللام هي: لام العقاب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم، وقرته البالغة في خلقكم على هذه الأطوار المختلفة ﴿هُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيَمِيتُ﴾ أي: يقدر على الإحياء، والإماتة ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ من الأمور التي يريد بها ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ من غير توقف، وهو: تمثيل لتأثير قدرته في المقدورات عند تعلق إرادته بها، وقد تقدم تحقيق معناه في البقرة، وفيما بعدها، ثم عجب سبحانه من أحوال المجالين في آيات الله، فقال: ﴿هَلْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَجَالِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، وقد سبق بيان معنى المجاللة ﴿هَٰؤُلَاءِ يَصْرِفُونَ﴾ أي:

المعذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو: العبادة، ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ قال: عن دعائي ﴿سَيُخْلِدُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾». قال الترمذي: حسن صحيح. وأخرج ابن مروي، والخطيب عن البراء: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدعاء هو العبادة، وقال ربكم: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾». وأخرج ابن جرير، وابن مروي، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: وحولني أغفر لكم. وأخرج الحاكم وصححه، عن جرير بن عبد الله في الآية قال: اعينوني. وأخرج ابن مروي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء الاستغفار». وأخرج ابن أبي شيبة، والحاكم، وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله يغضب عليه». وأخرج أحمد، والحاكم الترمذي، وأبو يعلى، والطبراني، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «لا ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء». وأخرج الترمذي، والحاكم الترمذي في نوازل الأصول عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مع العبادة». وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: أفضل العبادة الدعاء، وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية. وأخرج البخاري في الأدب عن عائشة قالت: «سئل النبي ﷺ: أي العبادة أفضل؟ فقال: دعاء المرء لنفسه». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: من قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأَمَرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْكَافِرِينَ﴾ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علق ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبغوا أجلاً مسمى ثم لتكبروا شيئاً، فشيئاً، ثم لتبغوا غاية الكمال ثم لتكبروا مسموماً، ثم يوفى من قبلي ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجْلاً مَسْمُومًا وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فَيَكُونُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ أي: الذين كفروا بالله ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِهِمْ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا وَمِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿إِذْ الْأَعْقَالُ فِي أَصْنَعِهِمْ وَالْأَسْكَالُ يُسْحَرُونَ﴾ في التعبير ثم في التأييد ﴿يَسْحَرُونَ﴾ ثم قيل لهم آيت ما كنتم تكفرون ﴿يَنْذَرُ اللَّهُ الَّذِينَ سَلَوْا عَنَّا أَنْ لَوْ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ عَيْنًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿لَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِتَرَكِّهِمْ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ﴿أَعْلَوْا أَوْرَثَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا قَلِيلٌ مِمَّا تَكْفُرُونَ﴾ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ كَلِمَاتُ رَبِّكَ بَعْضُ الَّذِي قَدْهُمْ أَوْ تَرْفَعُكَ فَإِنَّمَا

يعبدون ما لا يبصر، ولا يسمع، ولا يضر، ولا ينفع، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ﴿كُنْكَ لَ يَضِلُّ الله الكافرين﴾ أي: مثل تلك الضلال يضلُّ الله الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلى النار، والإشارة بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ إلى الإضلال المنلول عليه بالفعل أي: تلك الإضلال ﴿بِذِّ سَبَبِ﴾ سبب ﴿مَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله والسرور بمخالفة رسله، وكتبه، وقيل: بما كنتم تفرحون به من المال، والاتباع، والصحة، وقيل: بما كنتم تفرحون به من إنكار البعث، وقيل: المراد بالفرح هنا: البطر، والتكبر، وبالمرح: الزيادة في البطر. وقال مجاهد، وغيره: تفرحون أي: تبطرون، وتأشرون. وقال الضحاک: الفرح السرور، والمرح العوان. وقال مقاتل: المرح البطر، والخيلة ﴿اِخْلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقترنين الخلود فيها ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول الحق جهنم. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر، فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا نَرَيْنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ من العذاب في الدنيا بالقتل، والأسر، والقهر، وما في ﴿فَإِذَا زَائِدَةٌ عَلَى مَذْهَبِ الْمَجْرَدِ، وَالزَّجَاجِ، وَالْأَصْلُ فَإِنَّ نَرْكَ، وَلَحَقَتْ بِالْفَعْلِ نُونُ التَّكْيِيدِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَتَوَفَّيْكَ﴾ معطوف على نرينك أي: أو نتوفيك قبل إنزال العذاب بهم ﴿فَإِذَا يَرْجِعُونَ﴾ يوم القيامة، فنعذبهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مِنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي: أنبأناك بأخبارهم، وما لقوه من قومهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ خبره، ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينه، وبين قومه ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لا من قبل نفسه، والمراد بالآية: المعجزة الدالة على نبوته ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: إذا جاء الوقت المعين لعذابهم في الدنيا، أو في الآخرة ﴿قَضَى بِالْحَقِّ﴾ فيما بينهم، فينجي الله بقضائه الحق عباده المحقين ﴿وَوَخَّسَ هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت ﴿الْمُيَبْطِلُونَ﴾ الذين يتبعون الباطل، ويعملون به، ثم امتنَّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ أي: خلقها لأجلكم، قال الزجاج: الأنعام ها هنا الإبل، وقيل: الأزواج الثمانية ﴿لَتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ من للتبعيض، وكذلك في قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ويجوز أن تكون لا ابتداء الغاية في الموضعين، ومعناها: ابتداء الركوب، وابتداء الأكل، والأول أولى. والمعنى: لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أخر غير الركوب، والأكل من الوبر، والصوف، والشعر، والزبد، والسمن، والجبن، وغير ذلك ﴿وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد، ومقاتل، وقتادة: تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في سورة النحل ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ

كيف يصرفون عنها مع قيام الأدلة الدالة على صحتها، وإنما في أنفسها موجبة للتوحيد. قال ابن زيد: هم: المشركون بدليل قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ قال القرطبي: وقال أكثر المفسرين: نزلت في القدرية. قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية، فلا أدري فيمن نزلت، ويحاج عن هذا بأن الله سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدل على غير ما قالوه، فقال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالقرآن، وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقة من فرق الإسلام، والموصول إما في محل جر على أنه نعت للموصول الأول، أو بدل منه، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم، والمراد بالكتاب: إما القرآن، أو جنس الكتب المنزلة من عند الله، وقوله: ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ معطوف على قوله بالكتاب، ويراد به ما يوحى إلى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام في الكتاب للجنس، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم، وبإل كفرهم، وفي هذا وعيد شديد، والظرف في قوله: ﴿إِذَا الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ متعلق بيعلمون أي: فسوف يعلمون وقت كون الأغلال في أعناقهم ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ معطوف على الأغلال، والتقدير: إذ الأغلال، والسلاسل في أعناقهم، ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه، ويجوز أن يكون خبره ﴿يَسْحَبُونَ﴾ في الحميم، بحذف العائد أي: يسحبون بها في الحميم، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وأبو الجوزاء بنصبها، وقرأوا (يسحبون) بفتح الياء مبنياً للفاعل، فتكون السلاسل مفعولاً مقملاً، وقرأ بعضهم بجر السلاسل. قال الفراء: وهذه القراءة محمولة على المعنى، إذ المعنى: أعناقهم في الأغلال، والسلاسل. وقال الزجاج: المعنى على هذه القراءة: وفي السلاسل يسحبون، واعترضه ابن الأنباري: بأن ذلك لا يجوز في العربية، ومحل يسحبون على تقدير عطف السلاسل على الأغلال، وعلى تقدير كونها مبتدأ، وخبرها في أعناقهم النصب على الحال، أو لا محل له، بل هو مستأنف جواب سؤال مقدر، والحميم هو: المتناهي في الحر، وقيل: الصديد، وقد تقدم تفسيره ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يَسْحَبُونَ﴾ يقال: سحرت التنور أي: أوقدته، وسجرت ملاته بالوقود، ومنه ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: 6] أي: المملوء، فالمعنى: توقد بهم النار، أو تملأ بهم. قال مجاهد، ومقاتل: توقد بهم النار، فصاروا وقودها ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله هذا توبيخ، وتقريع لهم أي: أين الشركاء الذين كنتم تعبدهم من دون الله ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا، وفقدناهم، فلا نراهم، ثم أضرَبوا عن ذلك، وانتقلوا إلى الإخبار بعدمهم، وأنه لا وجود لهم، فقالوا: ﴿جَلَّ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: لم نكن نعبد شيئاً، قالوا هذا لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة، والجهالة، وأنهم كانوا

رأوا العذاب.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في البعث والنشور، عن عبد الله بن عمرو قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَسْجُرُونَ﴾، فقال: لو أن رصاصة مثل هذه، وأشار إلى جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً لليل، والنهار قبل أن تبلغ أصلها، أو قال قعرها». وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار، عن ابن عباس قال: يسحبون في الحميم، فينسلخ كل شيء عليهم من جلد، ولحم، وعرق حتى يصير في عقبه حتى إن لحمه قدر طول، وطوله ستون ذراعاً، ثم يكسى جلد آخر، ثم يسجر في الحميم. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مروي عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْهِ﴾ قال: بعث الله عبداً حبشياً، فهو ممن لم يقصص على محمد.

تفسير سورة فصلت

قال القرطبي: وهي مكية في قول الجميع. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس، وابن الزبير: أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر، عن جابر بن عبد الله قال: «اجتمع قريش يوماً، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليات هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكنه، ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: اثبت يا أبا الوليد، فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخله قط أشام على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما تنتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيف، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباء، فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجنك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: فرغت؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حَمَّ * تَنْزِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابُ فَصَلَتْ آيَاتِهِ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْزَلْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 1 - 13]، فقال عتبة: حسبك حسبك ما عنك غير هذا؟ قال: لا، فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، فقالوا:

تَحْمِلُونَ﴾ أي: على الإبل في البر، وعلى السفن في البحر. وقيل: المراد بالحمل على الأنعام هنا: حمل ولدان، والنساء بالهوادج ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: دلالاته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته ﴿فَإِذَا آيَاتُ اللَّهِ تَنْكُرُونَ﴾، فإنها كلها من الظهور، وعدم الخفاء بحيث لا ينكرها منكر، ولا يجدها جاحد، وفيه تقريع لهم، وتوبيخ عظيم، ونصب أي بتنكرون، وإنما قدم على العامل فيه، لأن له صدر الكلام. ثم أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار، والتفكير في آيات الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم التي عصت الله، وكذبت رسلاً، فإن الآثار الموجودة في ديارهم تدل على ما نزل بهم من العقوبة، وما صاروا إليه من سوء العاقبة. ثم بين سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء في الكثرة، والقوة، فقال: ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: أكثر منهم عدداً، وأقوى منهم أجساداً، وأوسع منهم أموالاً، ﴿وَوَجَدُوا مِنْهُمْ بَقِيَّةً فِي الْأَرْضِ﴾ بالعمائر، والمصانع، والحرف ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن تكون ما الأولى استفهامية أي: أي شيء أغنى عنهم، أو نافية أي: لم يغن عنهم، وما الثانية يجوز أن تكون موصولة، وأن تكون مصدرية ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج الواضحات، والمعجزات الظاهرات ﴿فَرَحُوا بِمَا عَنْدهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: أظهروا الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم من الشبه الداحضة، والدعاوي الزائفة، وسماه علماء تهكأ بهم، أو على ما يعتقدونه، وقال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نعذب، ولن نبعث، وقيل: المراد من علم أحوال الدنيا لا الدين كما في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: 7]، وقيل: الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم: الرسل، وذلك أنه لما كذبهم قومهم أعلمهم الله بأنه مهلك الكافرين، ومنجي المؤمنين، ففرحوا بذلك ﴿وَحَقَّاقُ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: أحاط بهم جزاء استهزائهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا عذابنا النازل بهم ﴿فَقَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مَشْرِكِينَ﴾، وهي: الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿فَلَمَّ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عند معاناة عذابنا، لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه، فإنه إنما ينفع الإيمان الاختياري لا الإيمان الاضطراري ﴿سَنَتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: التي قد مضت في عبادته، والمعنى: أن الله سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب، وقد مضى بيان هذا في سورة النساء، وسورة التوبة، وانتصاب سنة على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد الله، وما أشبهه من المصادر المؤكدة. وقيل: هو منصوب على التحذير: أي: احذروا يا أهل مكة سنة الله في الأمم الماضية، والأول أولى ﴿وَوَخَّسَ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ﴾ أي: وقت رؤيتهم بأس الله، ومعانيتهم لعذابه. قال الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا

فهل أجابك؟ قال: والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد، وثمود، قالوا: ويك يكلمك الرجل بالعربية، وما تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير نكر الصاعقة، وأخرج أبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عمر قال: «لما قرأ النبي ﷺ على عتبة بن ربيعة ﴿حَمَّ﴾ تنزِيل من الرحمن الرحيم» [فصلت: 1، 2] أتى أصحابه فقال: يا قوم أطيعوني في هذا اليوم، وأعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذنّي قط كلاماً مثله، وما دريت ما أُرِد عليه». وفي هذا الباب روايات تدلّ على اجتماع قريش، وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوته ﷺ أوّل هذه السورة عليه.

نَصَبُ عَلَى الْمَدْح، وَقِيلَ: عَلَى الْمَصْدَرَةِ أَي: بِقَرُوءِهِ قَرَأْنَا، وَقِيلَ: مَفْعُول ثَانٍ لِفَصْلَت، وَقِيلَ: عَلَى إِضْمَارِ فَعْلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ فَصْلَتُ أَي: فَصْلَانَهُ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَي: يَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ، وَيَفْهَمُونَهَا وَهُمْ: أَهْلُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ. قَالَ الضَّحَّاكُ: أَي: يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَنَزَّلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَي: يَعْلَمُونَ أَنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَاللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ صِفَةً أُخْرَى لِقُرْآنٍ أَي: كَأَنَّهَا لِقَوْمٍ، أَوْ مُتَعَلِّقَةٌ بِفَصْلَت، وَالْأَوَّلُ أَوَّلِي، وَكَذَلِكَ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صَفَتَانِ أُخْرَيَانِ لِقُرْآنًا، أَوْ حَالَانِ مِنْ كِتَابٍ، وَالْمَعْنَى: بِشِيرًا لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَنَذِيرًا لِأَعْدَائِهِ. وَقُرِئَ (بَشِيرٍ وَنَذِيرٍ) بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُمَا صِفَةٌ لِكِتَابٍ، أَوْ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ بِمَحْذُوفٍ ﴿فَاعْرِضْ أَكْثَرَهُمْ﴾ الْمُرَادُ بِالْأَكْثَرِ هُنَا: الْكُفَّارَ أَي: فَاعْرِضْ الْكُفَّارَ عَمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ النَّذَارَةِ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سَمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أَي: فِي أَغْطِيَةٍ مِثْلَ الْكِنَانَةِ الَّتِي فِيهَا السَّهَامُ، فَهِيَ لَا تَفْهَمُ مَا تَقُولُ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا قَوْلُكَ، وَالْأَكِنَّةُ جَمْعُ كِنَانٍ، وَهُوَ: الْغَطَاءُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْكِنَانُ لِلْقَلْبِ كَالْجَنَّةِ لِلنَّبْلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا فِي الْبَقَرَةِ ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أَي: صَمٌّ، وَأَصْلُ الْوَقْرِ الثَّقُلُ. وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مَرْصُوفٍ (وَقَر) بِكَسْرِ الْوَاوِ. وَقُرِئَ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَالْقَافِ، وَ «مَنْ» فِي ﴿وَمَنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ لِبَدَءِ الْغَايَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْحِجَابَ ابْتَدَأَ مِنَّا، وَابْتَدَأَ مِنْكَ، فَالْمَسَافَةُ الْمُتَوَسِّطَةُ بَيْنَ جِهَتِنَا، وَجِهَتِكَ مُسْتَوِيَةٌ بِالْحِجَابِ لَا فَرَاغَ فِيهَا، وَهَذِهِ تَمَثُّلَاتٌ لِنَبْوِ قُلُوبِهِمْ عَنْ إدْرَاكِ الْحَقِّ، وَمَجَّاسُ اسْمَاعِيلُ لَهُ، وَامْتِنَاعُ الْمَوَاصِلَةِ بَيْنَهُمْ، وَبَيِّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أَي: اْعْمَلْ عَلَى بَيْنِكَ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَى دِينِنَا. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: اْعْمَلْ فِي هَلَاكِنَا، فَإِنَّا عَامِلُونَ فِي هَلَاكِكَ. وَقَالَ مِقَاتِلُ: اْعْمَلْ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَكَ، فَإِنَّا نَعْمَلُ لِأَهْلِكَ الَّتِي نَعْبُدُهَا، وَقِيلَ: اْعْمَلْ لِأَخْرَجَتِكَ، فَإِنَّا عَامِلُونَ لَدِينَانَا. ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجِيبَ عَنْ قَوْلِهِمْ هَذَا، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أَي: إِنَّمَا أَنَا كَرَاخٍ مِنْكُمْ لَوْلَا الْوَحْيُ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ جِنْسِ مَغَايِرِ لَكُمْ حَتَّى تَكُونَ قُلُوبُكُمْ فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِكُمْ وَقْرٌ، وَمَنْ بَيْنِي، وَبَيْنَكُمْ حِجَابٌ، وَلَمْ أَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يَخَالَفُ الْعَقْلَ، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ. قَرَأَ الْجُمْهُورُ (يُوحَى) مُبْنِيًا لِلْمَفْعُولِ. وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ، وَالتَّخَفِيُّ مُبْنِيًا لِلْفَاعِلِ أَي: يُوحَى اللَّهُ إِلَيَّ. قِيلَ: وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ قَسْرًا، فَإِنِّي بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، وَلَا أَمْتِيَّازَ لِي عَنْكُمْ إِلَّا أَنِّي أُوْحِي إِلَيَّ التَّوْحِيدَ، وَالْأَمْرَ بِهِ، فَعَلِي الْبَلَاغُ وَحْدَهُ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ رَشِدْتُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ هَلَكْتُمْ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: إِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، وَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيَّ دُونَكُمْ، فَصُرْتُ بِالْوَحْيِ نَبِيًّا، وَوَجِبَ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعِي. وَقَالَ الْحَسَنُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: إِنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَّمَ رَسُولَهُ ﷺ كَيْفَ يَتَوَاضَعُ ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ عَدَاهُ بِإِلَى لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى: تَوَجَّهُوا، وَالْمَعْنَى: وَجَّهُوا اسْتِقَامَتَكُمْ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ، وَلَا تَمِيلُوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لِمَا فَرَطَ مِنْكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ. ثُمَّ هَدَى

فهل أجابك؟ قال: والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد، وثمود، قالوا: ويك يكلمك الرجل بالعربية، وما تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير نكر الصاعقة، وأخرج أبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عمر قال: «لما قرأ النبي ﷺ على عتبة بن ربيعة ﴿حَمَّ﴾ تنزِيل من الرحمن الرحيم» [فصلت: 1، 2] أتى أصحابه فقال: يا قوم أطيعوني في هذا اليوم، وأعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذنّي قط كلاماً مثله، وما دريت ما أُرِد عليه». وفي هذا الباب روايات تدلّ على اجتماع قريش، وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوته ﷺ أوّل هذه السورة عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿كُتِبَ فَلْيُتْلَ مَا كُتِبَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعِزٌّ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْنُ عَامِلُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَرَبِّ لَأَشْهَرَكَ لِقَوْمٍ إِلَى لَا يُوْثِقُونَ الزُّكُورَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرٌ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَصَمْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَصَلِّ فِيهَا رُكُوعًا مِنْ قَوْفٍ وَرُكْلًا فِيهَا وَقَدِّرْ فِيهَا أُقُوتًا فِي أَرْمَةٍ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِّلْمَسْأَلِينَ﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ سَمَاءٌ مُقَاتِلَةٌ لَهَا وَالْأَرْضُ انْتِنَاءٌ مُوْتَاةٌ أَوْ كَرَّةٌ قَالَتْ أَنِنَا عَلَى الْأَمِينِ﴾ ﴿فَقَضَيْنَا سَبْعَ سَعَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَلَاةٍ أَمْرًا وَرَدَّنا أَلْسِنَهُمُ الدُّنْيَا يَصْنَعُ وَجَعَلْنَا ذَلِكَ تَعْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغَةً مِثْلَ صِغَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَبَنِي خَلْفِهِمْ أَلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ قد تقدم الكلام على إعرابه، ومعناه في السورة التي قبل هذه السورة، فلا نعيده، وكذلك تقدم الكلام على معنَى: ﴿تَنْزِيلٍ﴾، وإعرابه. قال الزجاج، والأخفش: تنزيل مرفوع بالابتداء، وخبره ﴿كِتَابَ فَصْلَتٍ﴾ وقال الفراء: يجوز أن يكون على إضمار هذا، ويجوز أن يقال: كتاب بدل من قوله تنزيل، و «مَنْ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» متعلق بتنزيل، ومعنى: ﴿فَصْلَتُ آيَاتِهِ﴾ بيّنات، أو جعلت أساليب مختلفة، قال قتادة: فصلت ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته. وقال الحسن: بالوعد، والوعيد. وقال سفيان: بالثواب، والعقاب، ولا مانع من الحمل على الكل. والجملة في محل نصب صفة لكتاب. وقُرِئَ (فَصْلَت) بِالتَّخْفِيفِ أَي: فَرَقْتُ بَيْنَ الْحَقِّ، وَالْبَاطِلِ، وَانْتَصَبَ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ عَلَى الْحَالِ أَي: فَصْلَتُ آيَاتِهِ حَالُ كَوْنِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا. وَقَالَ الْأَخْفَشُ:

المشركين، وتوعدهم، فقال: ﴿وويل للمشركون﴾، ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾ أي: يمنعونها، ولا يخرجونها إلى الفقراء. وقال الحسن، وقتادة: لا يقرّون بوجوبها. وقال الضحاك، ومقاتل: لا يتصدقون، ولا ينفقون في الطاعة. وقيل: معنى الآية، لا يشهدون أن لا إله إلا الله لأنها زكاة الأنفس، وتطهيرها. وقال الفراء: كان المشركون ينفقون النفقات، ويسقون الحجيج، ويطعمونهم، فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ معطوف على لا يؤتون داخل معه في حيز الصلة أي: منكرون للآخرة جاحدون لها، والمجيء بضمير الفصل لقصد الحصر ﴿إن للذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ أي: غير مقطوع عنهم، يقال: مننت الحبل: إذا قطعته، ومنه قول الأصمعي الأودي: إنني لعمرك ما أبي يذلي علقى على الصديق ولا خيري بمننون وقيل: الممنون المنقوص، قاله قطرب، وأنشد قول زهير: فضل الجواد على الخيل البطا أن يعطى بذلك ممنوناً ولا مرقاً قال الجوهري: المَنّ القطع، ويقال: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿لهم أجر غير ممنون﴾، وقال لبيد: عنسا كواسب لا يميناً طعامها

وقال مجاهد: غير ممنون: غير محسوب، وقيل: معنى الآية: لا يمين عليهم به لانه إنما يمين بالتفضل، فأما الأجر، فحق أدائه. وقال السدي: نزلت في المرضى، والزمنى، والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كاصح ما كانوا يعملون فيه. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يوبخهم، ويقرعهم، فقال: ﴿قل ائتكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ أي: لتكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم، وقدرته هذه القدرة الباهرة. قيل: اليومان هما يوم الأحد، ويوم الاثنين، وقيل: المراد مقدار يومين، لأن اليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجود الأرض، والسما. قرأ الجمهور (ائتكم) بهمتين الثانية بين بين، وقرأ ابن كثير بهمزة، وبعدها ياء خفيفة ﴿وتجعلون له أنداداً﴾ أي: أضداداً، وشركاء، والجملة معطوفة على تكفرون داخلية تحت الاستفهام، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى الموصول المتصف بما نكر، وهو مبتدأ وخبره ﴿رب العالمين﴾، ومن جملة العالمين ما تجعلونها أنداداً لله، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته، وقوله: ﴿وجعل فيها رواسي﴾ معطوف على خلق أي: كيف تكفرون بالذي خلق الأرض، وجعل فيها رواسي أي: جبلاً ثوابت من فوقها، وقيل: جملة، وجعل فيها رواسي مستأنفة غير معطوفة على خلق لوقوع الفصل بينهما بالاجتنبي. والاول أولى لأن الجملة الفاصلة هي مقررّة لمضمون ما قبلها، فكانت بمنزلة التأكيد، ومعنى ﴿من فوقها﴾: أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض، وإنما خالفها باعتبار الارتفاع، فكانت من هذه الحثيثة كالمغايرة لها ﴿وبارك فيها﴾ أي: جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد. قال السدي:

أنبت فيها شجرها ﴿وقدر فيها اقواتها﴾ قال قتادة، ومجاهد: خلق فيها أنهارها، وأشجارها، وبوابها، وقال الحسن، وعكرمة، والضحاك: قدر فيها أرزاق أهلها، وما يصلح لمعايشهم من التجارات، والأشجار، والمنافع، جعل في كل بلد ما لم يجعله في الأخرى؛ ليهيش بعضهم من بعض بالتجارة، والأسفار من بلد إلى بلد، ومعنى ﴿في أربعة أيام﴾ أي: في تتمة أربعة أيام باليومين المتقدمين. قاله الزجاج، وغيره. قال ابن الأنباري: ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً أي: في تتمة خمسة عشر يوماً، فيكون المعنى: أن حصول جميع ما تقدّم من خلق الأرض، وما بعدها في أربعة أيام. وانتصاب ﴿سواء﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محنوف هو صفة للأيام أي: استوت سواء بمعنى: استواء، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من الأرض، أو من الضمائر الراجعة إليها. قرأ الجمهور بنصب (سواء)، وقرأ زيد بن علي، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى، ويعقوب، وعمرو بن عبيد بخفضه على أنه صفة لأيام. وقرأ أبو جعفر برفعه على أنه خبر مبتدأ محنوف. قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة، وقوله: ﴿للسائلين﴾ متعلق بسواء أي: مستويات للسائلين، أو بمحنوف كأنه قيل: هذا الحصر للسائلين في كم خلقت الأرض، وما فيها؟ أو متعلق بقدر أي: قدر فيها اقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها. قال الفراء: في الكلام تقديم، وتأخير، والمعنى: وقدر فيها اقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام، واختار هذا ابن جرير. ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض، وما فيها نكر كيفية خلقه للسّموات، فقال: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي: عمد، وقصد نحوها قصداً سوياً. قال الرازي: هو من قولهم: استوى إلى مكان كذا: إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر، وهو من الاستواء الذي هو ضدّ الاعوجاج، ونظيره قولهم: استقام إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فاستقيموا إليه﴾ والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السموات بعد خلق الأرض، وما فيها. قال الحسن: معنى الآية: صعد أمره إلى السماء ﴿وهي بخان﴾ اللخان ما ارتفع من لهب النار، ويستعار لما يرى من بخار الأرض. قال المفسرون: هذا اللخان هو: بخار الماء، وخصّ سبحانه الاستواء إلى السماء مع كون الخطب المترتب على ذلك متوجهاً إليها، وإلى الأرض كما يفيد قوله: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ استغناء بما تقدّم من نكر تقديرها، وتقدير ما فيها، ومعنى ائتيا: افعل ما أمركم به، وجئنا به، كما يقال: أتت ما هو الأحسن أي: افعله. قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه قال: أما أنت يا سماء، فاطلعي شمسك، وقمرك، ونجومك، وأما أنت يا أرض، فشقي أنهارك، وأخرجي ثمارك، ونباتك. قرأ الجمهور (ائتيا) أمراً من الإتيان. وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد (أتيا) قائلاً: أتينا بالمدّ فيهما، وهو إما من المؤاتاة، وهي: الموافقة

متقمة خلقاً متأخرة بحواً، وهذا ظاهر، ولعله يأتي عند تفسيرنا لقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها﴾ زيادة إيضاح للمقام إن شاء الله: ﴿وَزِينَا السَّمَاءَ النُّجُومَ بِمَصَابِيحَ﴾ أي: بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلال المصابيح، ﴿وَوَاحٍ﴾ انتصاب ﴿حَفَظَهَا﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف أي: وحفظناها حفظاً، أو على أنه مفعول لأجله على تقدير: وحفظنا المصابيح زينة، وحفظاً، والأول أولى. قال أبو حيان: في الوجه الثاني هو: تكلف، وعدول عن السهل البين، والمراد بالحفظ: حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع، والإشارة بقوله: ﴿بَلَدًا﴾ إلى ما تقدم ذكره ﴿تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: البليغ القدرة الكثير العلم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن التدبر والتفكير في هذه المخلوقات ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ أي: فقل لهم يا محمد أنذرتكم خوفاً من صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، أي: عذاباً مثل عذابهم، والمراد بالصاعقة: العذاب المهلك من كل شيء. قال المبرد: الصاعقة المرأة المهلكة لأي شيء كان. قرأ الجمهور (صاعقة) في الموضعين بالالف، وقرأ ابن الزبير، والنخعي، والسلمي، وابن محيصن صعقة في الموضعين، وقد تقدم بيان معنى الصاعقة، والصعقة في البقرة، وقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ ظرف لأنذرتكم، أو لصاعقة، لأنها بمعنى العذاب أي: أنذرتكم العذاب الواقع وقت مجيء الرسل، أو حال من صاعقة عاد. وهذا أولى من الوجهين الأولين، لأن الإنذار لم يقع وقت مجيء الرسل، فلا يصح أن يكون ظرفاً له، وكذلك الصاعقة لا يصح أن يكون الوقت ظرفاً لها، وقوله: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ متعلق بجاءتهم أي: جاءتهم من جميع جوانبهم وقيل: المعنى: جاءتهم الرسل المتقدمون، والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم منزلة مجيئهم أنفسهم، فكان الرسل قد جاءوهم، وخاطبوهم بقولهم: ﴿إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا على أنها المصدرية، ويجوز أن تكون التفسيرية، أو المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شان محذوف، ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به على الرسل، فقال: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَكًا﴾ أي: لأرسلهم إلينا، ولم يرسل إلينا بشراً من جنسنا، ثم صرحوا بالكفر، ولم يتلعموا، فقالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: كافرون بما تزعمونه من أن الله أرسلكم إلينا، لأنكم بشر مثلاً لا فضل لكم علينا، فكيف اختصكم برسالته دوننا، وقد تقدم نفع هذه الشبهة الداحضة التي جاءوا بها في غير موضع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُوْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وفي قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال: غير منقوص. وأخرج ابن جرير، والنحاس في ناسخه، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه: «أن اليهود أتت النبي ﷺ، فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: خلق

أي: لتوافق كل منكما الأخرى، أو من الإيتاء، وهو: الإعطاء، فوزنه على الأول فاعلاً كقاتلاً، وعلى الثاني أفعلاً ككمرها ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ مصدران في موضع الحال أي: طائعتين، أو مكرهتين، وقرأ الأعمش (كرهاً) بالضم. قال الزجاج: أطيعا طاعة أو تكرهاً كرهاً. قيل: ومعنى هذا الأمر لهما التسخير أي: كونا، فكانتا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]، فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته، واستحالة امتناعها ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: أتينا أمرك متقادين، وجمعهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء. قال القرطبي: قال أكثر أهل العلم: إن الله سبحانه خلق فيهما الكلام، فتكلمتا كما أراد سبحانه، وقيل: هو تمثيل لظهور الطاعة منهما، وتأثير القدرة الربانية فيهما ﴿فَفَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي: خلقهن، وأحكمهن، وفرغ منهن، كما في قول الشاعر:

وعليهما مسرودتان قضاها
والضمير في قضاها إما راجع إلى السماء على المعنى؛ لأنها سبع سموات، أو مبهم مفسر بسبع سموات، وانتصاب سبع سموات على التفسير، أو على البديل من الضمير. وقيل: إن انتصابه على أنه المفعول الثاني لقضاها؛ لأنه مضمن معنى صبرهن، وقيل: على الحال أي: قضاها حال كونهن معبودات بسبع، ويكون قضى بمعنى: صنع، وقيل: على التمييز، ومعنى ﴿فَفِي يَوْمَيْنِ﴾ كما سبق في قوله: ﴿خُلِقَ الْأَرْضُ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فالجملة ستة أيام، كما في قوله سبحانه: ﴿خُلِقَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54، ويونس: 3]، وقد تقدم بيانه في سورة الأعراف. قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كالف سنة مما تعدون. قال عبد الله بن سلام: خلق الأرض في يوم الأحد، ويوم الاثنين، وقدر فيها أقواتها يوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، وخلق السموات في يوم الخميس، ويوم الجمعة، وقوله: ﴿وَوَاحٍ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرُهَا﴾ عطف على قضاها. قال قتادة، والسدي: أي: خلق فيها شمسها، وقمرها، ونجومها، وأفلاكها، وما فيها من الملائكة، والبحار، والبرد، والثلوج. وقيل: المعنى: أوحى فيها ما أراد ما أمر به، والإيحاء قد يكون بمعنى: الأمر كما في قوله: ﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَى﴾ [الزلزلة: 5]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: 111] أي: أمرتهم.

وقد استشكل الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها﴾ [النازعات: 30]، فإن ما في هذه الآية من قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ مشعر بأن خلقها متأخر عن خلق الأرض، وظاهره يخالف قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها﴾، فقيل: إن «ثم» في «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» ليست للتراخي الزمني بل للتراخي الرتبى، فينبغ الإشكال من أصله. وعلى تقدير أنها للتراخي الزمني، فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدم على خلق السماء، وبحواها بمعنى: بسطها هو أمر زائد على مجرد خلقها، فهي

اللَّهُ لَا يَمَلِكُ كَثِيرًا مِمَّا سَأَلُونَهُ ﴿٣٨﴾ وَذَلِكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ الَّذِي عَذَّبْنَا بِرَبِّكَ أَزْدَنَكَ فَأَصْحَبْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٩﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِزُّوا فَلَهُمُ مِنَ الْعَذَابِ مَا هُمْ بِمُعْذِرِينَ ﴿٤٠﴾

لما نكر سبحانه عادًا، وثمود إجمالاً نكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلاً، فقال: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، وتصنيق رسله، واستعلوا على من في الأرض بغير الحق أي: بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر، والتجبر. ثم نكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار، فقال: ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾، وكانوا ذوي أجسام طوال، وقوة شديدة، فاعتزوا بجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب، ومرادهم بهذا القول: أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾، والاستفهام للاستنكار عليهم، وللتوبيخ لهم أي: أو لم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله كن، فيكون ﴿وكانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي: بمعجزات الرسل التي خصهم الله بها، وجعلها دليلاً على نبوتهم، أو بآياتنا التي أنزلناها على رسلنا، أو بآياتنا التكوينية التي نصبناها لهم، وجعلناها حجة عليهم، أو بجميع ذلك. ثم نكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه، فقال: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ الصرصر: الريح الشديدة الصوت من الصرّة، وهي: الصيحة. قال أبو عبيدة: معنى صرصر: شديدة عاصفة. وقال الفراء: هي: الباردة تحرق كما تحرق النار. وقال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: هي: الباردة، وأشد قطرب قول الحطيئة:

المطعمون إذا هبت بصرصرة والحاملون إذا استوبوا عن الناس أي: إذا سئلوا الدية. وقال مجاهد: هي: الشديدة السموم، والأولى تفسيرها بالبرد، لأن الصر في كلام العرب البرد، ومنه قول الشاعر:

لها غدر كقرون النسب
ركبت في يوم ريع وصر
قال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصر، وهو: البرد، ويجوز أن يكون من صرصر الباب، ومن الصرة وهي: الصيحة، ومنه ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ [الذاريات: 29]. ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم، فقال: ﴿في أيام نحسات﴾ أي: مشؤمات نوات نحوس. قال مجاهد، وقتادة: كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك سبع ليال، وثمانية أيام حسوماً، وقيل: نحسات باردات، وقيل: متتابعات، وقيل: شداد، وقيل: نوات غبار. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (نحسات) بإسكان الحاء على أنه جمع نحس، وقرأ الباقر بكسرها، واختار أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: ﴿في يوم نحس مستمر﴾ [القمر: 19] واختار أبو عبيد القراءة الثانية ﴿لننقيهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي: لكي ننيقهم، والخزي هو: الذل،

الله الأرض في يوم الأحد، والاثنين، وخلق الجبال، وما فيها من منافع يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والحجر، والماء، والمدائن، والعمران، والخراب، فهذه أربعة أيام، فقال تعالى: ﴿قل انكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له انداداً﴾ * ذلك رب العالمين * وجعل فيها رولسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقوتها في أربعة أيام سواء للسائلين، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم، والشمس، والقمر، والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاث الأجل حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى فيها من كل شيء مما ينتفع به، وفي الثالثة خلق آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة، قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: ثم استراح، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، فنزل: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ * فاصبر على ما يقولون﴾ [ق: 38، 39]. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وقدر فيها اقوتها﴾ قال: شق الأنهار، وغرس الأشجار، ووضع الجبال، وأجرى البحار، وجعل في هذه ما ليس في هذه، وفي هذه ما ليس في هذه. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال: إن الله تعالى خلق يوماً، فسماه الأحد، ثم خلق ثانياً، فسماه الاثنين، ثم خلق ثالثاً، فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعاً، فسماه الأربعاء، ثم خلق خامساً، فسماه الخميس، ونكر نحو ما تقدم. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: إن الله فرغ من خلقه في ستة أيام، ونكر نحو ما تقدم. وأخرج ابن جرير، عن أبي بكر نحو ما تقدم عن ابن عباس. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها﴾ قال: قال للسماء: أخرجي شمسك، وقمرك، ونجومك، وللأرض شقي أنهارك، وأخرجي ثمارك ﴿قالا تينا طائعين﴾، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ائتيا﴾ قال: أعطيا، وفي قوله: ﴿قالا تينا﴾ قال: أعطينا.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدِثُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحَسَاتٍ لِّيُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ رَهْمًا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْكَفَىٰ فَأَخَذَتْنَاهُمْ صِيفَةً أَلَمْدَابِ آمُونٍ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٠﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَمْدَادَهُ اللَّهُ إِلَى الْآثَارِ فَهُمْ يَوْمَعُونَ ﴿٤٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَسُلُوكُهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْمُرُونَ ﴿٤٣﴾ وَقَالُوا لِيُؤْمِرُوا بِهِ لَسْمُودِهِمْ لَمْ يَشْهَدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيكَ تَرْجِعُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّا

والهوان بسبب ذلك الاستكبار ﴿ولعذاب الآخرة اخزى﴾ أي: أشد إهانة، وذلك، ووصف العذاب بذلك، وهو في الحقيقة وصف للمعذبين، لأنهم الذين صاروا متصفين بالخزي ﴿وهم لا ينصرون﴾ أي: لا يمنعون من العذاب النازل بهم، ولا يدفعه عنهم دافع. ثم ذكر حال الطائفة الأخرى، فقال: ﴿وإما نعوذ فبهيناهم﴾ أي: بينا لهم سبيل النجاة، وللنجاهم على طريق الحق بإرسال الرسل إليهم، ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله، فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله، ويصدق رسله. قال الفراء: معنى الآية: للنجاهم على مذهب الخير بإرسال الرسل. قرأ الجمهور (وإما نعوذ) بالرفع، ومنع الصرف. وقرأ الأعمش، وابن وثاب بالرفع، والصرف، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، وعاصم في رواية بالنصب، والصرف وقرأ الحسن، وابن هرمز، وعاصم في رواية بالنصب، والمنع، فاما الرفع، فعلى الابتداء والجملة بعده الخبر، واما النصب فعلى الاشتغال، واما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب، أو الحي، واما المنع فعلى تأويله بالقبيلة ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان، وقال السدي: اختاروا المعصية على الطاعة ﴿فلاخنتهم صاعقة العذاب الهون﴾ قد تقدم أن الصاعقة اسم للشيء المهلك لأي شيء كان، والهون الهوان والإهانة، فكانه قال: أصابهم مهلك العذاب ذي الهوان أو الإهانة، ويقال عذاب هون أي: مهين كقوله: ﴿ما لبثوا في العذاب المهين﴾ [سبأ: 14]، والباء في ﴿بما كانوا يكسبون﴾ للسببية أي: بسبب الذي كانوا يكسبون، أو بسبب كسبهم ﴿وننجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾، وهم: صالح ومن معه من المؤمنين، فإن الله نجاهم من تلك العذاب، ثم لما ذكر سبحانه ما عاقبهم به في الدنيا ذكر ما عاقبهم به في الآخرة، فقال: ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار﴾، وفي وصفهم بكونهم أعداء الله مبالغة في ذمهم، والعامل في الظرف محذوف دل عليه ما بعده تقديره: يساق للناس يوم يحشر، أو بأنكر أي: أنكر يوم يحشرهم. قرأ الجمهور (يحشر) بفتح مضمومة، ورفع أعداء على النيابة، وقرأ نافع (نحشر) بالنون، ونصب أعداء، ومعنى حشرهم إلى النار: سوقهم إليها، أو إلى موقف الحساب، لأنه يتبين عنده فريق الجنة، وفريق النار ﴿فهم يوزعون﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم، ليتلاحقوا ويجتمعوا، كذا قال قتادة، والسدي، وغيرهما، وقد سبق تحقيق معناه في سورة النمل مستوفى ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ أي: جاءوا النار التي حشروا إليها، أو موقف الحساب، و «ما» مزيدة للتوكيد ﴿شهد عليهم سمعهم وبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ في الدنيا من المعاصي. قال مقاتل: تنطق جوارحهم بما كتمت الألسن من عملهم بالشرك، والمراد بالجلود هي: جلودهم المعروفة في قول أكثر المفسرين. وقال السدي، وعبيد الله بن أبي جعفر، والفراء: أراد بالجلود الفروج، والأول أولى ﴿وقالوا

لجلودهم لم شهنتم علينا﴾ وجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها ما ذكره الرازي أن الحواس الخمس وهي: السمع، والبصر، والشم، والنوق، واللمس، وآلة المس هي الجلد، فالحس سبحانه ذكر هنا ثلاثة أنواع من الحواس، وهي: السمع، والبصر، واللمس، وأهمل ذكر نوعين، وهما: النوق، والشم، فالنوق داخل في اللمس من بعض الوجوه، لأن إدراك النوق إنما يتأتى بأن تصوير جلدة اللسان مماسة لجرح الطعام، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصوير جلدة الحنك مماسة لجرح المشموم، فكانا داخليين في جنس اللمس، وإذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال، لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس، فكان تأتي المعصية من جهتها أكثر وأما على قول من فسر الجلود بالفروج، فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر، لأنه ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحاً، وأجلب للخزي والعقوبة، وقد قدمنا وجه إفراء السمع، وجمع الأبصار ﴿قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء﴾ أي: انطق كل شيء مما ينطق من مخلوقاته، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، وقيل: المعنى: ما نطقنا باختيارنا، بل انطقنا الله، والأول أولى ﴿وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ قيل: هذا من تمام كلام الجلود، وقيل: مستأنف من كلام الله، والمعنى: أن من قدر على خلقكم، وإنشاءكم ابتداء قدر على إعانتكم، ورجعكم إليه ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ هذا تقرير لهم، وتوبيخ من جهة الله سبحانه، أو من كلام الجلود أي: ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة حذراً من شهادة الجوارح عليكم، ولما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا: ترك المعصية. وقيل: معنى الاستتار: الانتفاء أي: ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة، فتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة و «أن» في قوله: ﴿أن تشهد﴾ في محل نصب على العلة أي: لأجل أن تشهد، أو مخافة أن تشهد. وقيل: منصوبة بنزع الخافض، وهو: الباء أو عن أو من. وقيل: إن الاستتار مضمن معنى الظن أي: وما كنتم تظنون أن تشهد، وهو: بعيد ﴿ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون﴾ من المعاصي، فاجترأتم على فعلها، قيل: كان الكفار يقولون: إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكن يعلم ما نظهر لئلا ننسأ. قال قتادة: الظن هنا بمعنى: العلم، وقيل: أريد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي، وما هو فوقه من العلم، ﴿و﴾ الإشارة بقوله: ﴿لأنكم﴾ إلى ما ذكر من ظنهم، وهو: مبتدأ وخبره ﴿ظننتم الذي ظننتم بربكم﴾، وقوله: ﴿أرداكم﴾ خبر آخر للمبتدأ وقيل: إن أرداكم في محل نصب على الحال المقدرة. وقيل: إن ظننكم بدل من لأنكم، والذي ظننتم خبره، وأرداكم خبر آخر، أو حال، وقيل: إن ظننكم خبر أول، والموصول وصلته خبر ثان، وأرداكم خبر ثالث، والمعنى: أن ظننكم بأن الله لا

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْغَيِّ وَالْإِنِّ إِنتَهَرُوا كَانُوا
 خَبِيرِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
 تَكْفُرُونَ ﴿٥٧﴾ فَلْيَدْعُوا اللَّهَ عَلَّامَ الْغُيُوبِ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ
 بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِكُلِّ بَغْيٍ وَإِنَّا
 نَجْعَلُهَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَ مِنَ الْإِسْقَاتِ ﴿٦٠﴾ إِنَّكَ أَلَمَّا بِكَ فَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ
 ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلِ كَمَا لَا تَحْسَبُونَ وَلَا تَحْزَنُوا وَابْتَهِرُوا
 بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦١﴾ تَحْتِ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
 الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٦٢﴾
 تِلْكَ مِنْ عَفْوَهِمْ رَجِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ
 صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْمُسْنَدُ وَلَا أَسْنَدُهُ أَدْفَعَ
 بِأَنِّي هِيَ أَحْسَنُ فَإِنَّ الَّذِي يَنْتَكِبُ بَيْنَهُ عَذَاوَةٌ كَانَتْ وَلِيٍّ حَسِيمٍ ﴿٦٥﴾ وَمَا
 يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٦٦﴾ وَمَا يَرْتَعَنُ
 مِنَ الشَّيْطَانِ نَجَسٌ فَاسْتَوِدَّ بِاللهِ إِنَّمَا هُوَ السَّيِّعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٧﴾

قوله: ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ أي: هيانا قرناء من
 الشياطين. وقال الزجاج: سببنا لهم قرناء حتى أضلواهم،
 وقيل: سلطنا عليهم قرناء. وقيل: قدرنا، والمعاني متقاربة،
 وأصل التقييض التيسير، والتهية، والقرناء جمع قرين، وهم:
 الشياطين، جعلهم بمنزلة الأخلاء لهم، وقيل: إن الله قويض
 لهم قرناء في النار، والاولى أن ذلك في الدنيا لقوله:
 ﴿فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾، فإن المعنى:
 زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها، وحملوه
 على الوقوع في معاصي الله بانهاكهم فيها، وزينوا لهم ما
 خلفهم من أمور الآخرة، فقالوا: لا بعث، ولا حساب، ولا
 جنة، ولا نار. وقال الزجاج: ما بين أيديهم ما عملوه، وما
 خلفهم ما عزموا على أن يعملوه. وروي عن الزجاج أيضاً،
 أنه قال: ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث، ولا جنة،
 ولا نار، وما خلفهم من أمر الدنيا ﴿وحوق عليهم القول﴾
 أي: وجب، وثبت عليهم العذاب، وهو قوله سبحانه: ﴿لأملأن
 جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: 85] و ﴿في
 أمم﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم،
 والمعنى: كلثنين في جملة أمم، وقيل: في بمعنى مع أي: مع
 أمم من الأمم الكافرة التي ﴿قد خلت﴾ ومضت ﴿ومن قبلهم
 من الجن والإنس﴾ على الكفر، وجملة ﴿إنهم كانوا
 خاسرين﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب ﴿وقال الذين كفروا
 لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ أي: قال بعضهم لبعض: لا
 تسمعوه، ولا تنصتوا له، وقيل: معنى لا تسمعوا: لا تطيعوا،
 يقال: سمعت لك أي: أطعتك ﴿والغوا فيه﴾ أي: عارضوه
 باللغو والباطل، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له. وقال
 مجاهد: الغوا فيه بالمكاء، والتصديق، والتخليط
 في الكلام حتى يصير لغواً. وقال الضحاك: أكثروا الكلام؛
 لاختلط عليه ما يقول. وقال أبو العالية: قعوا فيه، وعيروه.

يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم، وطرحكم في النار
 ﴿فأصباحكم من الخاسرين﴾ أي: الكاملين في الخسران. ثم
 أخبر عن حالهم، فقال: ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾
 أي: فإن يصبروا على النار، فالنار مثواهم أي: محل
 استقرارهم، وإقامتهم لا خروج لهم منها. وقيل: المعنى: فإن
 يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار، فالنار مثوى لهم
 ﴿وإن يستعبدوا فما هم من المعتبرين﴾ يقال: اعتبني فلان
 أي: أرضاني بعد إسقاطه إليّ، واستعبدته طلبت منه أن
 يرضى، والمعنى: أنهم إن يسألوا أن يرجع بهم إلى ما
 يحبون لم يرجع، لأنهم لا يستحقون ذلك. قال الخليل: تقول:
 استعبدته، فاعتبني أي: استرضيته، فأرضاني، ومعنى الآية:
 إن يطلبوا الرضى لم يقع الرضى عنهم، بل لا بد لهم من
 النار. قرأ الجمهور (يستعبدوا) بفتح التحتية، وكسر التاء
 الفوقية الثانية مبنيًا للمفاعل، وقرأوا (من المعتبرين) بفتح
 الفوقية اسم مفعول، وقرأ الحسن، وعبيد بن عمير، وأبو
 العالية (يستعبدوا) مبنيًا للمفعول (فما هم من المعتبرين)
 اسم فاعل أي: إنهم إن أقالهم الله، وردهم إلى الدنيا لم
 يعملوا بطاعته كما في قوله سبحانه: ﴿ولو ردوا لعادوا لما
 نهوا عنه﴾ [الأنعام: 8].

وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس في قوله: ﴿فهم
 يوزعون﴾ قال: يحبس أولهم على آخرهم. وأخرج ابن
 المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: يدفعون. وأخرج
 البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: كنت
 مستتراً باستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر: قرشي وثقيان، أو
 ثقيي وقرشيان، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فتكلموا
 بكلام لم أسمع، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا
 هذا؟ فقال الآخرون: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإنا إذا لم
 نرفعه لم يسمعه، فقال الآخرون: إن سمع منه شيئاً سمعه
 كله؛ قال: فنكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله ﴿وما كنتم
 تستترون أن يشهد عليكم سمعكم﴾ إلى قوله: ﴿من
 الخاسرين﴾. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، والنسائي، وابن
 المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في
 البعث عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ:
 «تحشرون ها هنا، وأوماً بيده إلى الشام، مشاة وركبانا،
 وعلى وجوهكم، وتعرضون على الله، وعلى أفواهكم القدماء،
 وأول ما يعرب عن أحدكم، فخذوه وكفوه، وتلا رسول الله ﷺ:
 ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا
 أبصاركم ولا جلوبكم﴾». وأخرج أحمد، وأبو داود
 الطيالسي، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه،
 وابن حبان، وابن مريويه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ:
 «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى، فإن قوماً
 قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله: ﴿وولتكم ظنكم الذي
 ظننتم برأيكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾».

﴿وَقَيَّسْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ

الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد، وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفضيل بن عياض: زهدوا في الفانية، ورغبوا في الباقية ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ من عند الله سبحانه بالبشرى التي يريونها من جلب نفع، أو دفع ضرر، أو رفع حزن. قال ابن زيد، ومجاهد: تنزل عليهم عند الموت. وقال مقاتل، وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال وكيع: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث ﴿إِنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أن هي: المخففة، أو المفسرة، أو الناصبة، و «لا» على الوجهين الأولين ناهية، وعلى الثالث نافية، والمعنى: لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل، وولد، ومال. قال مجاهد: لا تخافوا الموت، ولا تحزنوا على أولادكم، فإن الله خليفتمكم عليهم. وقال عطاء: لا تخافوا ردّ ثوابكم، فإنه مقبول، ولا تحزنوا على نوبكم، فإني أغفرها لكم. والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين، وعدم تقييد نفي الخوف، والحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق في الجميع ﴿وَلْيُشْرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في الدنيا، فإنكم واصلون إليها مستقرّون بها خالدون في نعيمها. ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله، فقال: ﴿نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نحن المتولون لحفظكم، ومعونتكم في أمور الدنيا، وأمور الآخرة، ومن كان الله وليه فاز بكلّ مطلب، ونجا من كلّ مخافة. وقيل: إن هذا من قول الملائكة. قال مجاهد: يقولون لهم: نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا: لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. وقال السدي: نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا، وأولياؤكم في الآخرة. وقيل: إنهم يشفعون لهم في الآخرة، ويتلقونهم بالكرامة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ من صنوف اللذات، وأنواع النعم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: ما تتمنون، افتعال من الدعاء بمعنى: الطلب، وقد تقدّم بيان معنى هذا في قوله ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ [يس: 57] مستوفى، والفرق بين الجملتين: أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم، والثانية باعتبار ما يطلبونه أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أولاً. وقال الرازي: الأقرب عندي أن قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة في قوله: ﴿دَعَاوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10] الآية، وانتصاب ﴿نَزَلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ على الحال من الموصول، أو من عائده، أو من فاعل تدعون، أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف أي: أنزلناه نزالاً، والنزل: ما يعدّ لهم حال نزولهم من الرزق، والضيافة، وقد تقدم تحقيقه في سورة آل عمران ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى توحيد الله، وطاعته. قال الحسن: هو المؤمن أجاب الله دعوته، ودعا الناس إلى ما

قرأ الجمهور (والغوا) بفتح الغين، من لغا إذا تكلم باللغو، وهو: ما لا فائدة فيه، أو من لغى بالفتح يلغى بالفتح أيضاً كما حكاه الأخفش، وقرأ عيسى بن عمر، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وبكر بن حبيب السهمي، وقتادة، والسماك، والزعفراني بضم الغين. وقد تقدّم الكلام في اللغو في سورة البقرة ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: لكي تغلبوهم، فيسكتوا. ثم توعدهم سبحانه على ذلك، فقال: ﴿فَلَنَنْقِصَنَّ لَكُمْ أَعْزَابَكُمْ﴾ وهذا وعيد لجميع الكفار، ويندل فيه من النين السياق معهم دخولاً أولاً ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ولنجزينهم في الآخرة جزاء أتين أعمالهم التي عملوها في الدنيا. قال مقاتل: وهو: الشرك. وقيل: المعنى: أنه يجازيهم بمساوئ أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام، وإكرام الضيف، لأن ذلك باطل لا أجر له مع كفرهم، والإشارة بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ إلى ما تقدّم، وهو: مبتدأ وخبره جزاء أعداء الله، أو خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر لك، وجملة ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾ مبنية للجملة التي قبلها، والأول أولى، وتكون النار عطف بيان للجزاء، أو بدلاً منه، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ والخبر ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾. وعلى الثلاثة الوجوه الأولى تكون جملة لهم فيها دار الخلد مستأنفة مقرّرة لما قبلها، ومعنى دار الخلد: دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات الله. قال مقاتل: يعني: القرآن يجحدون أنه من عند الله، وعلى هذا يكون التعبير عن اللغو بالجحود لكونه سبباً له، إقامة للسبب مقام المسبب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا لِلَّذِينَ أُضِلُّوا مِنْ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قالوا: هذا وهم في النار، ونكره بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، والمراد: أنهم طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريق الجن، والإنس من الشياطين الذين كانوا يسؤلون لهم، ويحملونهم على المعاصي، ومن الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر. وقيل: المراد إبليس، وقابيل لأنهما سنا المعصية لبني آدم. قرأ الجمهور (أرنا) بكسر الراء. وقرأ ابن محيصن، والسوسني عن أبي عمرو، وابن عامر بسكون الراء، وبها قرأ أبو بكر، والمفضل، وهما لغتان بمعنى واحد. وقال الخليل: إذا قلت أرني ثوبك بالكسر، فمعناه بصرنيه، وبالسكون أعطيني ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: نسهما بأقدامنا، لنشتفي منهم، وقيل: نجعلهم أسفل منا في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ فيها مكاناً، أو ليكونا من الأقلين المهانين، وقيل: ليكونا أشدّ عذاباً منا، ثم لما ذكر عقاب الكافرين، وما أعدّه لهم نكر حال المؤمنين، وما أنعم عليهم به، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: وحده لا شريك له ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على التوحيد، ولم يلتفتوا إلى إله غير الله. قال جماعة من الصحابة، والتابعين: معنى الاستقامة: إخلاص العمل لله. وقال قتادة، وابن زيد: ثم استقاموا على طاعة الله. وقال الحسن: استقاموا على أمر

الدفع بالتي هي أحسن، فاستعذ بالله من شره، وجعل النزغ نازغاً على المجاز العقلي كقولهم: جدّ جدّه، وجملته **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** تعليل لما قبلها أي: السميع لكل ما يسمع، والعليم بكل ما يعلم، ومن كان كذلك، فهو يعيذ من استعاذ به.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطربون الناس عنه، ويقولون: **﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَخْلِبُونَ﴾** وكان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحب أن يسمع القرآن، فأنزل الله: **﴿لَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾** [الإسراء: 110]، وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، وابن عساكر عن علي بن أبي طالب: أنه سئل عن قوله: **﴿رَبَّنَا آتِنَا الَّذِينَ اِضْلَلْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾** قال: هو: ابن آدم الذي قتل أخاه، وإبليس، وأخرج الترمذي، والنسائي، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عدي، وابن مروي عن أنس قال: «قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: قد قالها ناس من الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حين يموت، فهو ممن استقام عليها». وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، ومسدد، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق سعيد بن عمران، عن أبي بكر الصديق في قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: الاستقامة أن لا يشركوا بالله شيئاً. وأخرج ابن راهويه، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية من طريق الأسود بن هلال عن أبي بكر الصديق أنه قال: ما تقولون في هاتين الآيتين: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾**، **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾** [الأنعام: 82]؟ قالوا: الذين قالوا: ربنا الله، ثم عملوا بها، واستقاموا على أمره، فلم يذنبوا، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم لم يذنبوا، قال: لقد حملتموهما على أمر شديد **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾** يقول: بشرك، **﴿وَالَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾**، فلم يرجعوا إلى عبادة الاوثان. وأخرج ابن مروي عن بعض الصحابة: ثم استقاموا على فرائض الله. وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس **﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: على شهادة أن لا إله إلا الله. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: استقاموا بطاعة الله، ولم يروغوا روغان التغلب. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والبخاري في تاريخه، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، عن

أجاب الله فيه من طاعته **﴿وَعَمَلٌ صَالِحًا﴾** في إجابته **﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** لربي. وقال ابن سيرين، والسدي، وابن زيد: هو: رسول الله ﷺ، وروي هذا أيضاً عن الحسن. وقال عكرمة، وقيس بن أبي حازم، ومجاهد: نزلت في المؤمنين. ويجاب عن هذا بأن الآية مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة. والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها بخلاً أولاً، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله، وعمل عملاً صالحاً، وهو: تادية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم، فلا شيء أحسن منه، ولا أوضح من طريقته، ولا أكثر ثواباً من عمله. ثم بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال، ومساوئها، فقال: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾** أي: لا تستوي الحسنات التي يرضى الله بها، ويثيب عليها، ولا السيئة التي يكرهها الله، ويعاقب عليها، ولا وجه لتخصيص الحسنات بنوع من أنواع الطاعات، وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي، فإن اللفظ أوسع من ذلك. وقيل: الحسنات التوحيد، والسيئة الشرك. وقيل: الحسنات المداراة، والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنات العفو، والسيئة الانتصار. وقيل: الحسنات العلم، والسيئة الفحش. قال الفراء: «لا» في قوله، ولا السيئة زائدة **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** أي: انفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، والاحتمال للمكروهات. وقال مجاهد، وعطاء: بالتي هي أحسن يعني: بالسلام إذا لقي من يعاينه، وقيل: بالمصافحة عند التلاقي **﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن، والمعنى: أنك إذا فعلت ذلك دفع صار العدو كالصديق، والبعيد عنك كالقريب منك. وقال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب كان معادياً للنبي ﷺ، فصار له ولياً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه، ثم أسلم، فصار ولياً في الإسلام حميماً بالصهارة، وقيل غير ذلك، والأولى حمل الآية على العموم **﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾** قال الزجاج: ما يلقي هذه الفعلة، وهذه الحالة، وهي: نفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، واحتمال المكروه **﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا نُوْحٌ عَظِيمٌ﴾** في الثواب والخير. وقال قتادة: الحظ العظيم: الجنة أي: ما يلقيها إلا من وجبت له الجنة؛ وقيل: الضمير في يلقيها عائذ إلى الجنة، وقيل: راجع إلى كلمة التوحيد. قرأ الجمهور (يلقيها) من التلقية، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن كثير في رواية عنه (يلاقها) من الملاقة، ثم أمره سبحانه بالاستعاذة من الشيطان، فقال: **﴿وَمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾** النزغ شبهه النخس شبه به الوسوسة، لأنها تبعث على الشر؛ والمعنى: وإن صرفك الشيطان عن شيء مما شرعه الله لك، أو عن

عرب لا نفهم لغة العجم، والاستفهام في قوله: ﴿ءاعجمي وعربي﴾ للإنكار، وهو من جملة قول المشركين أي: لقالوا لكلام أعجمي، ورسول عربي. والأعجمي: الذي لا يفصح سواء كان من العرب، أو من العجم. والأعجم ضد الفصح وهو: الذي لا يبين كلامه، ويقال للحيان غير الناطق: أعجم. قرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي (ءاعجمي) بهمزتين محققتين. وقرأ الحسن، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، وهشام بهمزة واحدة على الخبر، وقرأ الباقون بتسهيل الثانية بين بين، وقيل: المراد: هلا فصلت آياته، فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم، وبعضها عربياً لإفهام العرب. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيبهم، فقال: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ أي: يهتدون به إلى الحق، ويشفقون به من كل شك، وشبهة، ومن الأسقام، والآلام ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ أي: صمم عن سماعه، وفهم معانيه، ولهذا تواصلوا باللغو فيه ﴿وهو عليهم عمى﴾ قال قتادة: عموا عن القرآن، وصموا عنه. وقال السدي: عميت قلوبهم عنه، والمعنى: وهو عليهم ذو عمى، أو وصف بالمصدر للمبالغة، والموصول في قوله: ﴿والذين لا يؤمنون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿في آذانهم وقر﴾، أو الموصول الثاني عطف على الموصول الأول، وقر عطف على هدى عند من جَوَّزَ العطف على عاملين مختلفين، والتقدير: هو للأولين هدى، وشفاء، وللآخرين، وقر في آذانهم. قرأ الجمهور (عمى) بفتح الميم منوثة على أنه مصدر، وقرأ ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعمرو بن العاص، وابن عمر بكسر الميم منوثة على أنه اسم منقوص على أنه وصف به مجازاً. وقرأ عمرو بن دينار بكسر الميم، وفتح الياء على أنه فعل ماضٍ، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقوله أولاً ﴿وهدى وشفاء﴾، ولم يقل هاد، وشاف، وقيل: المعنى: والوقر عليهم عمى، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الذين لا يؤمنون، وما في حيزه، وخبره ﴿ينابون من مكان بعيد﴾ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة لا يسمع صوت من يناديه منها. قال الغراء: تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تنادي من مكان بعيد. وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد. وقال مجاهد: من مكان بعيد من قلوبهم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه كان يسجد بأخر الآيتين من حمَّ السجدة، وكان ابن مسعود يسجد بالأولى منهما. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة من طريق نافع عن ابن عمر: أنه كان يسجد بالأولى. وأخرج سعيد بن منصور عنه: أنه كان يسجد في الآية الأخيرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إن الذين يلحقون في آياتنا﴾ قال: هو: أن يضع الكلام على غير موضعه. وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿إنهم يلقي في

المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة. وظاهر الآية العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: المراد بمن يلقي في النار: أبو جهل، ومن يأتي أمنا: النبي ﷺ، وقيل: حمزة، وقيل: عمر بن الخطاب، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ﴿واعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ هذا أمر تهديد أي: اعملوا من أعمالكم التي تلقاكم في النار ما شئتم إنه بما تعملون بصير، فهو مجازيكم على كل ما تعملون. قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، ومعناه: الوعيد ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وخبر إن محذوف أي: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم، أو هلكون، أو يعذبون، وقيل: هو قوله: ﴿ينابون من مكان بعيد﴾، وهذا بعيد، وإن رجحه أبو عمرو بن العلاء. وقال الكسائي: إنه سدَّ مسدَّه الخبر السابق، وهو: ﴿لا يخفون علينا﴾. وقيل: إن الجملة بدل من الجملة الأولى، وهي: الذين يلحقون في آياتنا، وخبر إن هو: الخبر السابق ﴿ولأنه لكتاب عزيز﴾ أي: القرآن الذي كانوا يلحقون فيه أي: عزيز عن أن يعارض، أو يطعن فيه الطاعنون، منيع عن كل عيب. ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه، فقال: ﴿لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. قال الزجاج: معناه: أنه محفوظ من أن ينقص منه، فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزداد فيه، فيأتيه الباطل من خلفه، وبه قال قتادة، والسدي. ومعنى الباطل على هذا: الزيادة، والنقصان. وقال مقاتل: لا يأتية التكنيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله، وبه قال الكلبي، وسعيد بن جبير. وقيل: الباطل هو: الشيطان أي: لا يستطيع أن يزيد فيه، ولا ينقص منه. وقيل: لا يزداد فيه، ولا ينقص منه، لا من جبريل، ولا من محمد ﷺ ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ هو خبر مبتدأ محذوف، أو صفة أخرى لكتاب عند من يجوزُ تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح، وقيل: إنه الصفة لكتاب، وجملة لا يأتية معترضة بين الموصوف، والصفة. ثم سلى سبحانه رسوله ﷺ عن ما كان يتأثر له من أية الكفار، فقال: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ أي: ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر، والكنب، والجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء، وقيل: المعنى: ما يقال لك من التوحيد، وإخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك، وقيل: هو استفهام أي: أي شيء يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴿إن ربك لنو مغفرة﴾ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين بايعوك، وبايعوا من قبلك من الأنبياء ﴿ونو عقاب لليم﴾ للكفار المكذبين المعانين لرسل الله، وقيل: לנו مغفرة للأنبياء، ونو عقاب لأعدائهم ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً﴾ أي: لو جعلنا هذا القرآن الذي تقرأه على الناس بغير لغة العرب ﴿لقالوا لولا فصلت آياته﴾ أي: بينت بلغتنا، فإننا

النار قال: أبو جهل بن هشام ﴿ألم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ قال: أبو بكر الصديق. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر عن بشير بن تميم قال: نزلت هذه الآية في أبي جهم، وعمار بن ياسر. وأخرج ابن عساكر عن عكرمة مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ قال: هذا لأهل بدر خاصة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً﴾ الآية يقول: لو جعلنا القرآن أعجمياً، ولسانك يا محمد عربي لقالوا: أعجمي، وعربي تاتينا به مختلفاً، أو مختلطاً ﴿ولو فصلت آياته﴾ هلا بينت آياته، فكان القرآن مثل اللسان. يقول: فلم تفعل لئلا يقولوا، فكانت حجة عليهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاسْتَخَفَّ بِذِهِ وَكَذَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُوعٍ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ شَاكٍ مِنْهُ رَبِّهِ ﴿١٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ ﴿١٦﴾ إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ إِنَّهُمْ لَشُرَكَاءُ قَالُوا مَا أَذْنُكَ مَا مِثْلُ مِنْ شَيْءٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا هُمْ مِنْ عَيْبِهِ ﴿١٧﴾ لَا يَنْصَحُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْآخِرِ لَئِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَمُ قَنُوطٌ ﴿١٨﴾ وَلَئِنْ أَدْنَتْهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبَةٍ مَسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطْلُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَاقِ الْآخِرِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٩﴾ وَإِذَا أَعْتَصَا عَلَى الْإِنْسَانِ عُرْضًا وَنَا يَحْيَاهُ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذَلَّوْهُ دَعَاوُ عَرِيضٍ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيرٍ ﴿٢١﴾ سَرُّهُمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ مِنْ رَبِّكَ نَمْرٌ عَلَى كُلِّ قَوْمٍ مُهْجِدٌ ﴿٢٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي رَمْيِهِ مِنْ لَدُنَّا رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُمْ بِكُلِّ مَقَامٍ مُخِيطٌ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن تسليية رسول الله ﷺ عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه، وطعنهم في القرآن، فأخبره أن هذا عادة قديمة في أمم الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة إليهم، والمراد بالكتاب: التوراة، والضمير من قوله: ﴿فيه﴾ راجع إليه، وقيل: يرجع إلى موسى، والأول أولى ﴿ولو لا كلمة سبقت من ربك﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين من أمتك كما في قوله: ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ [النمل: 61، وفاطر: 45] ﴿لقضيب بينهم﴾ بتعجيل العذاب لمن كذب منهم ﴿وانهم لفي شك منه مريب﴾ أي: من كتابك المنزل عليك، وهو: القرآن، ومعنى الشك المريب: الموقع في الريبة، أو الشديدي الريبة. وقيل: إن المراد اليهود، وانهم في شك من التوراة مريب، والأول أولى ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ أي: من أطاع الله، وآمن برسوله، ولم يكذبهم، فتواب ذلك راجع إليه، ونفقه خاص به ﴿ومن أساء

فعليها﴾ أي: عقاب إساءته عليه لا على غيره ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾، فلا يعذب أحداً إلا بذنبه، ولا يقع منه الظلم لأحد كما في قوله سبحانه: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ [يونس: 44] وقد تقدم الكلام على معنى هذه الآية في سورة آل عمران عند قوله: ﴿وإن الله ليس بظلام للعبيد﴾ [آل عمران: 182]، وفي سورة الأنفال أيضاً. ثم أخبر سبحانه: أن علم الساعة، ووقت قيامها لا يعلمه غيره، فقال: ﴿إليه يرد علم الساعة﴾، فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه لا إلى غيره، وقد روي أن المشركين قالوا: يا محمد إن كنت نبياً، فخيرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت و «ما» في قوله: ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ نافية، ومن الأولى للاستعراق، ومن الثانية لابتداء الغاية، وقيل: هي موصولة في محل جر عطفاً على الساعة أي: علم الساعة، وعلم التي تخرج، والأول أولى. والأكمام جمع كم بكسر الكاف، وهو: وعاء الثمرة، ويطلق على كل ظرف لمال، أو غيره. قال أبو عبيدة: أكمامها أوعيتها، وهي ما كانت فيه الثمرة، واحداً كم، وكمة. قال الراغب: الكم ما يغطي اليد من القميص، وما يغطي الثمرة، وجمعه أكمام، وهذا يدل على أن الكم بضم الكاف، لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص، وكم الثمرة، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم. ويمكن أن يقال: إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لغتين. قرأ الجمهور (من ثمرة) بالإنفراد، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص بالجمع ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي: ما تحمل أنثى حملاً في بطنها، ولا تضع ذلك الحمل إلا بعلم الله سبحانه، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع في حال من الأحوال إلا كأننا بعلم الله، فإليه يرد علم الساعة كما إليه يرد علم هذه الأمور ﴿ويوم ينالهم﴾ أي: ينادي الله سبحانه المشركين، وذلك يوم القيامة، فيقول لهم: ﴿أين شركائي﴾ الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الدنيا من الأصنام، وغيرها، فادعوهم الآن، فليشفعوا لكم، أو يدفعوا عنكم العذاب، وهذا على طريقة التهكم بهم. قرأ الجمهور (شركائي)، بسكون الياء، وقرأ ابن كثير بفتحها، والعامل في يوم محذوف أي: انكر ﴿قالوا أنناك ما منا من شهيد﴾ يقال: آئن يائن: إذا أعلم، ومنه قول الشاعر:

أَنْتَنَّا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ شَاوِيْمَلْ مِنْهُ الشَّوَاءُ

والمعنى: أعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً، وذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرعوا من الشركاء، وتبرأت منهم تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها. وقيل: إن القائل بهذا هي: المعبودات التي كانوا يعبدونها أي: ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين، والأول أولى ﴿ووضل عنهم ما كانوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: زال، وبطل في الآخرة ما كانوا يعبدون في الدنيا من الأصنام، ونحوها ﴿وظنوا ما لهم من محيص﴾ أي: أيقنوا، وعلموا أنه لا محيص لهم، يقال: حاص يحيص حيصاً: إذا هرب. وقيل: الظن على معناه

وأعرض في الدعاء: إذا أكثر، والمعنى: أنه إذا مسه الشرّ تضرّع إلى الله، واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به، واستكثر من ذلك، فنكره في الشدة، ونسيه في الرخاء، واستغاث به عند نزول النعمة، وتركه عند حصول النعمة، وهذا صنيع الكافرين، ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين، ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار، ومحاجتهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَي: أَخْبِرُونِي﴾ **﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾** أي: القرآن **﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾** أي: كذبتم به، ولم تقبلوه، ولا علمتم بما فيه **﴿مَنْ أَضَلُّ مِنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾** أي: لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم، وشدة عداوتكم، والأصل: **﴿أَيُّ شَيْءٍ أَضَلُّ مِنْكُمْ، فَوَضَعَ﴾** موضع **﴿مَنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾** موضع الضمير لبيان حالهم في المشاققة، وأنها السبب الأعظم في ضلالهم **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾** أي: سنريهم دلالات صدق القرآن، وعلامات كونه من عند الله في الآفاق **﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾** الآفاق جمع أفق، وهو: الناحية. والآفاق بضم الهمزة، والفاء، كذا قال أهل اللغة. ونقل الراغب أنه يقال: أفق بفتحهما، والمعنى: سنريهم آياتنا في النواحي، وفي أنفسهم. قال ابن زيد: في الآفاق آيات السماء، وفي أنفسهم حواشي الأرض. وقال مجاهد: في الآفاق فتح القرى التي يسر الله فتحها لرسوله، وللخلفاء من بعده، ونصار دينه في آفاق الدنيا شرقاً، وغرباً، ومن الظهور على الجبابرة، والأكاسرة، وفي أنفسهم فتح مكة، ورجح هذا ابن جرير. وقال قتادة، والضحاك: في الآفاق وقائع الله في الأمم، وفي أنفسهم في يوم بدر. وقال عطاء: في الآفاق يعني: أقطار السموات، والأرض من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات، والأشجار، والجبال، والبحار، وغير ذلك، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة، وبيد الحكمة، كما في قوله: **﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾** [الذاريات: 21] **﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾** الضمير راجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإسلام الذي جاءهم به رسول الله، وقيل: إلى ما يريهم الله، ويفعل من ذلك، وقيل: إلى محمد ﷺ: أنه الرسول الحق من عند الله، والأول أولى **﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** الجملة مسوقة لتوبيخهم، وتقريعهم، و «بربك» في موضع رفع على أنه الفاعل؛ ليكف، والباء زائدة، و «أنه» بدل من ربك، والهمزة للإنكار. والمعنى: ألم يغنهم عن الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن أنه سبحانه شهيد على جميع الأشياء. وقيل: المعنى: أو لم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار. وقيل: أو لم يكف بربك شاهداً على أن القرآن منزل من عنده. والشهيد بمعنى: العالم، أو هو بمعنى: الشهادة التي هي: الحضور. قال الزجاج: ومعنى الكناية ها هنا: أن الله عز وجل قد بين لهم ما فيه كفاية في الدلالة، والمعنى: أو لم يكف ربك أنه على كل شيء شهيد شاهد للأشياء لا يغيب عنه شيء **﴿إِلَّا أَنْهُمْ فِي مَرِيةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾** أي: في شك من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب

الحقيقي؛ لأنه بقي لهم في تلك الحال ظنّ، ورجاء، والأول أولى. ثم نكر سبحانه بعض أحوال الإنسان، فقال: **﴿لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ﴾** أي: لا يملّ من دعاء الخير لنفسه، وجلبه إليه، والخير هنا: المال، والصحة، والسلطان، والرفعة. قال السدّي: والإنسان هنا يرد به الكافر، وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأمّية بن خلف. والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خلص العباد. وقرأ عبد الله بن مسعود (لا يسام الإنسان من دعاء المال) **﴿وَأَنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطُ﴾** أي: وإن مسه البلاء، والشدة، والفقر، والمرض، فيتوسّ من روح الله قنوط من رحمته. وقيل: يتوسّ من إجابة دعائه قنوط بسوء الظنّ بربه. وقيل: يتوسّ من زوال ما به من المكروه قنوط بما يحصل له من ظنّ نواحه، وهما صيغتنا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط **﴿وَلَوْ أَنَّ خَيْرَآءَ رَحْمَةٍ مَنَا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مُسْتَهَةٍ﴾** أي: ولئن آتيناه خيراً، وعافية، وغنى من بعد شدة، ومرض، وفقر **﴿لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي﴾** أي: هذا شيء استحقه على الله لرضاه بعمله، فظنّ أن تلك النعمة التي صار فيها، وصلت إليه باستحقاقه لها، ولم يعلم أن الله يبتلي عباده بالخير والشرّ، ليتبين له الشاكر من الجاحد، والصابر من الجزع. قال مجاهد: معناه: هذا بعمله، وأنا محقّق به **﴿وَمَا أَظُنُّ لِسَاعَةِ قَائِمَةٍ﴾** أي: ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء، أو لست على يقين من البعث، وهذا خاص بالكافرين، والمنافقين، فيكون المراد، بالإنسان المذكور في صدر الآية: الجنس باعتبار غالب أفراده، لأن اليأس من رحمة الله، والقنوط من خيره، والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين، أو المتردّلين في الدين المتظاهرين بالإسلام المبطنين للكفر **﴿وَلَوْ أَنَّ رَجَعْتَ إِلَى رَبِّي﴾** على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء: من قيام الساعة، وحصول البعث، والنشور **﴿إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِيِّ﴾** أي: للحالة الحسنى من الكرامة، فظنّ أنه استحق خير الدنيا بما فيه من الخير، واستحق خير الآخرة بذلك الذي اعتقده في نفسه، وأثبت له، وهو: اعتقاد باطل، وظنّ فاسد **﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾** أي: لنخبرنهم بها يوم القيامة **﴿وَلَنُنْزِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** شديد بسببذنوبهم، واللام هذه، والتي قبلها هي الموطئة للقسم **﴿وَأَوْدَأْنَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾** أي: على هذا الجنس باعتبار غالب أفراده **﴿أَعْرَضَ﴾** عن الشكر **﴿وَوَنَى بِجَانِبِهِ﴾** أي: ترفع عن الانقياد للحق، وتكبر، وتجبر، والجانب هنا مجاز عن النفس، ويقال: نايت، وتناعت أي: بعدت وتباعدت، والمتناى: الموضع البعيد. ومنه قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتناى عنك واسع
وقرأ يزيد بن القعقاع (وناء بجانبه) بالالف قبل الهمزة **﴿وَأَوْدَأْنَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾** أي: البلاء، والجهد، والفقر، والمرض **﴿فَنَفُو دَعَاءَ عَرِيضٍ﴾** أي: كثير، والعرب تستعمل الطول، والعرض في الكثرة مجازاً، يقال: أطال فلان في الكلام،

المدينتين. أقول: هذا الحديث لا يصح، ولا يثبت، وما أظنه إلا من الموضوعات المكذوبات، والحامل لواضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول، والحق من شأنهم، والإزراء عليهم. وأخرج أبو يعلى، وابن عساكر قال السيوطي بسند ضعيف: قلت بل بسند موضوع، ومتن مكذوب عن أبي معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر، فقال: أيها الناس هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر حم عسق، فوثب ابن عباس فقال: إن حم اسم من أسماء الله، قال: فعين قال: عاين المنكور عذاب يوم بدر، قال: فسين، قال: «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» [الشعراء: 227] قال: ففاف، فسكت، فقام أبو نر، ففسر كما قال ابن عباس، وقال: قاف: قارعة من السماء تصيب الناس. قال ابن كثير في الحديث الأول: إنه غريب عجيب منكر، وفي الحديث الثاني: إنه أغرب من الحديث الأول. وعندي أنهما موضوعان مكذوبان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ ۝ الْكَافِرُ ۝ لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ عَنْ يَدَيْهِ وَالْأَرْضُ بِأَيْدِيهِمْ يَوْمَئِذٍ ۝ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَتَىٰ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْبَلْعِ لَا رَبَّ فِيهِ قَوْلٌ وَلَئِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ ثُمَّ وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةٍ وَالْغَالِيُونَ نَالَمُ مِنْ قَوْلِي وَلَا نَسِيرُ ۝ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاَللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتُومَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ قَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَكُمْ كَيْفَ لَكُمْ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَمْ يَمَالِدِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسُّطَ الرَّزْقُ لِمَنْ يَشَاءُ وَتَوَدُّرُ إِنْ يَكُنْ مِنْ عِلْمِهِ ۝

قوله: ﴿حَمْدٌ * عَسَىٰ﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذه الفتوحات، وسئل الحسن بن الفضل لم قطع ﴿حَمْدٌ * عَسَىٰ﴾، ولم يقطع كهيحص، فقال: لأنها سور أولها حم، فجرت مجرى نظائرها، فكان حم مبتدأ، وعَسَىٰ خبره، ولأنهما عدا آيتين، وأخواتهما مثل: كهيعص، والمزم، والمص آية واحدة. وقيل: لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كهيعص، وأخواتها أنها حروف التهجى لا غير، واختلفوا في حم، فقيل معناها: حم أي: قضى كما تقدم، وقيل: إن ح حلمه، وم مجده، وع علمه، وس سناه، وق قدرته، أقسم الله بها، وقيل غير ذلك مما هو متكلف متعسف لم يدل عليه دليل، ولا جاءت به حجة، ولا شبهة حجة، وقد ذكرنا قبل هذا ما روي في ذلك مما لا أصل له، والحق ما قدمناه لك في فاتحة سورة البقرة. وقيل: هما اسمان للسورة، وقيل: اسم واحد

﴿إلا إنه بكل شيء محيط﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات، وأحاطت قدرته بجميع المقدورات، يقال: أحاط يحيط إحاطة، وحيطه، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن من أحاط بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: في قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ سبق لهم من الله حين، وأجل هم بالغوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ قال: حين تطلع. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْتَ أَكْبَرُ﴾ قال: أعلمناك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ﴾ قال: لا يمل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عنه في الآية قال: ما يفتح الله من القرى ﴿وفي أنفسهم﴾ قال: فتح مكة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: أمسك المطر عن الأرض كلها ﴿وفي أنفسهم﴾ قال: البلايا التي تكون في أجسامهم. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال: كانوا يسافرون، فيرون آثار عاد، وثمود، فيقولون: والله لقد صدق محمد، وما أراهم في أنفسهم قال: الأمراض.

تفسير سورة الشورى

أخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿حَمْدٌ * عَسَىٰ﴾ [أي سورة الشورى] بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله، وكذا قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروي عن ابن عباس، وقتادة: أنها مكية إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: 23 - 26] إلى آخرها. وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، ونعيم بن حماد، والخطيب عن أرطاة بن المنذر قال: جاء رجل إلى ابن عباس، وعنده حذيفة بن اليمان فقال: أخبرني عن تفسير حم عسق، فأعرض عنه، ثم كرر مقالته، فأعرض عنه، وكرر مقالته، ثم كررها الثالثة، فلم يجبه، فقال له حذيفة: أنا أنبتك بها لم كرهها؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الله، أو عبد الله تنزل على نهر من أنهار المشرق، يبنى عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقاً، يجتمع فيهما كل جبار عنيد، فإذا آمن الله في زوال ملكهم، وانقطاع بولتهم، ومديتهم بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبيتها متعجبة كيف اقلنت، فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها، وبهم جميعاً، فلذلك قوله: ﴿حَمْدٌ * عَسَىٰ﴾ يعني: عزيمة من الله، وفتنة، وقضاء جمع يعني: عدلاً منه، سين يعني: سيكون، ق: لهاتين

لها، فعلى الأول يكونان خبرين لمبتدأ محذوف، وعلى الثاني يكون خبراً لذلك المبتدأ المحذوف. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس (حم * سق) **﴿كُنْكَ لَ يُوْحِي إِلَيْكَ وَاللَّيْنِ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** هذا كلام مستأنف غير متعلق بما قبله أي: مثل تلك الإيحاء الذي أوحى إلى سائر الأنبياء من كتب الله المنزل عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد، والبعث يوحي إليك يا محمد في هذه السورة. وقيل: إن حم عسق، أوحيت إلى من قبله من الأنبياء، فتكون الإشارة بقوله: **﴿كُنْكَ لَ﴾** إليها. قرأ الجمهور (يوحي) بكسر الحاء مبنياً للفاعل، وهو: الله. وقرأ مجاهد، وابن كثير، وابن محيصن بفتحها مبنياً للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على كُنْكَ، والتقدير: مثل تلك الإيحاء يوحي هو إليك، أو القائم مقام الفاعل إليك، أو الجملة المنكورة أي: يوحي إليك هذا اللفظ، أو القرآن، أو مصدر يوحي، وارتفاع الاسم الشريف على أنه فاعل لفعل محذوف كأنه قيل: من يوحي؟ فقيل: الله العزيز الحكيم. وأما قراءة الجمهور فهي واضحة اللفظ، والمعنى، وقد تقدّم مثل هذا في قوله: **﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رَجُلًا﴾** [النور: 36، 37]، وقرأ أبو حيوة، والأعمش، وأبان «نوحى» بالنون، فيكون قوله: **﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** في محل نصب، والمعنى: نوحى إليك هذا اللفظ **﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾** نكر سبحانه لنفسه هذا الوصف، وهو ملك جميع ما في السموات، والأرض لدلالته على كمال قدرته، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته **﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾** قرأ الجمهور (تكاد) بالفوقية، وكذلك (تتفطرن) قرءوه بالفوقية مع تشديد الطاء. وقرأ نافع، والكسائي، وابن وثاب يكاد (يتفطرن) بالتحية فيهما، وقرأ أبو عمرو، والمفضل، وأبو بكر، وأبو عبيد (يتفطرن) بالتحية، والنون من الانفطار كقوله: **﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾** [الانفطار: 1] والتفطر: التشقق. قال الضحاك، والسدي: يتفطرن يتشققن من عظمة الله، وجلاله من فوقهن، وقيل: المعنى: تكاد كل واحدة منها تفطر فوق التي تليها من قول المشركين اتخذ الله ولداً، وقيل: من فوقهن: من فوق الأرضين، والأول أولى. «ومن» في **﴿مَنْ فَوْقَهُنَّ﴾** لا ابتداء الغاية أي: يبتدئ التفطر من جهة الفوق. وقال الأخفش الصغير: إن الضمير يعود إلى جماعات الكفار أي: من فوق جماعات الكفار، وهو بعيد جداً، ووجه تخصيص جهة الفوق: أنها أقرب إلى الآيات العظيمة، والمصنوعات الباهرة، أو على طريق المبالغة كأن كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت في جهة الفوق، فتأثيرها في جهة التحت بالأولى **﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾** أي: ينزهونه عما لا يليق به، ولا يجوز عليه متلبسين بحمده. وقيل: إن التسبيح موضوع موضع التعجب أي: يتعجبون من جراءة المشركين على الله. وقيل: معنى **﴿يُحَمِّدُ رَبَّهُمْ﴾**: بأمر ربهم قاله السدي **﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾** من عباد الله

المؤمنين كما في قوله: **﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** [غافر: 7]، وقيل: الاستغفار منهم بمعنى: السعي فيما يستدعي المغفرة لهم، وتأخير عقوبتهم طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق، فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين، وإن كانوا داخلين فيها سخولاً أولاً **﴿إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** أي: كثير المغفرة والرحمة لاهل طاعته، وأوليائه، أو لجميع عبادته، فإن تأخير عقوبة الكفار، والعصاة نوع من أنواع مغفرته، ورحمته **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾** أي: أصناماً يعبدونها **﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾** أي: يحفظ أعمالهم؛ ليجازيهم بها **﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾** أي: لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بذنوبهم، ولا وكل إليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف **﴿وَكُنْكَ لَ أُوحِينَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾** أي: مثل تلك الإيحاء أوحينا إليك، وقرأنا مفعول أوحينا؛ والمعنى: أنزلنا عليك قرآناً عربياً بلسان قومك كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه **﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾**، وهي: مكة، والمراد أهلها **﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾** من الناس، والمفعول الثاني محذوف أي: لتنذرهم العذاب **﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾** أي: ولتنذر يوم الجمع وهو: يوم القيامة، لأنه مجمع الخلائق. وقيل: المراد جمع الأرواح بالأجساد، وقيل: جمع الظالم، والمظلوم، وقيل: جمع العامل، والعمل **﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾** أي: لا شك فيه، والجملة معترضة مقررة لما قبلها، أو صفة ليوم الجمع، أو حال منه **﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾** قرأ الجمهور برفع (فريق) في الموضعين، إما على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور، وشاع الابتداء بالنكرة، لأن المقام مقام تفصيل، أو على أن الخبر مقدّر قبله أي: منهم فريق في الجنة، ومنهم فريق في السعير، أو أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو ضمير عائد إلى المجموعين المملول عليهم بذكر الجمع أي: هم فريق في الجنة، وفريق في السعير. وقرأ زيد بن علي (فريقاً) بالنصب في الموضعين على الحال من جملة محذوفة أي: افترقوا حال كونهم كذلك، وأجاز الفراء، والكسائي النصب على تقدير: لتنذر فريقاً **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** قال الضحاك: أهل دين واحد، إما على هدى، وإما على ضلالة، ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وهو معنى قوله: **﴿وَلَكِنْ يَنْخَلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾** في الدين الحق وهو: الإسلام **﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾** أي: المشركون ما لهم من ولي ينعف عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم في تلك المقام، ومثل هذا قوله: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾** [الأنعام: 35]، وقوله: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا﴾** [السجدة: 13]، وما هنا مخاصمات بين المتمذهبين المحامين على ما درج عليه أسلافهم، فبدوا عليه من بعدهم، وليس بنا إلى نكر شيء من ذلك فائدة كما هو عادتنا في تفسيرنا هذا، فهو تفسير سلفي يمشي مع الحق، ويدور مع مللوات النظم الشريف، وإنما يعرف ذلك من رسخ قدمه،

وضمير فيه راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل، وقيل: راجع إلى ما نكر من التبدير، وقال الفراء، والزجاج، وابن كيسان: معنى **﴿يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾**: يكثركم به أي: يكثركم بجعلكم أزواجاً؛ لأن ذلك سبب النسل. وقال ابن قتيبة: **﴿يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾** أي: في الزوج، وقيل: في البطن، وقيل: في الرحم **﴿ليس كمثله شيء﴾** المراد بذكر المثل هنا: المبالغة في النفي بطريق الكناية، فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى كقولهم: مثلك لا يبخل، وغيره لا يوجد، وقيل: إن الكاف زائدة للتوكيد أي: ليس مثله شيء، وقيل: إن مثل زائدة قاله ثعلب، وغيره كما في قوله: **﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾** [البقرة: 137] أي: بما آمنتم به، ومنه قول

أوس بن حجر:

وقتل كمثل جنوح النخيل ل يغشاهم مطر منهمر
أي: كجنوح، والأول أولى، فإن الكناية باب مسلول للعرب، ومهيح مكوف لهم، ومنه قول الشاعر:

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه في الفضائل
وقال آخر:

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن بات من ليلى على الياس طوايا
وقال آخر:

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم فما كمثلهم في الناس من أحد
قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا أي: أنا لا يقال لي. وقال أبو البقاء مرجحاً لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة، لأفضى ذلك إلى المحال، إذ يكون المعنى: إن له مثلاً، وليس لمثله مثل، وفي ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل، فلمثله مثل، وهو: هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال، وهذا تقرير حسن، ولكنه ينبغي ما أورده بما نكرنا من كون الكلام خارجاً مخرج الكناية، ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: **﴿وهو السميع البصير﴾**، فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمائل قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، وانتلاج القلوب، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة، والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة، وترغم بها أناف طوائف من المتكلفين، ولا سيما إذا ضمنت إليه قول الله سبحانه: **﴿ولا يحيطون به علماً﴾** [طه: 110]، فإنك حينئذ قد أخذت بطرفي جبل ما يسمونه علم الكلام، وعلم أصول الدين:

ودع عنك نهبا صيح في حجراته ولكن حديث ما حديث الرواحل
﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي: خزائنها، أو مفاتيحها، وقد تقدم تحقيقه في سورة الزمر، وهي: جمع إقليد، وهو: المفتاح جمع على خلاف القياس. قال النحاس: والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن. ثم لما ذكر سبحانه أن بيده مقاليد السموات، والأرض ذكر بعده البسط، والقبض، فقال: **﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾** أي: يوسع لمن

وتبرأ من التعصب قلبه، ولحمه، ودمه، وجملته **﴿إم لتخذوا من دونه أولياء﴾** مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء كون للظالمين، ولياً، ونصيراً، وأم هذه هي المنقطعة المقررة ببطل المفيدة للانتقال، وبالهزمة المفيدة للإنكار أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها؟ **﴿فأله هو الولي﴾** أي: هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً، فإنه الخالق الرازق الضار النافع، وقيل: الفاء جواب شرط محذوف أي: إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة فأله هو الولي **﴿وهو﴾** أي: ومن شأنه أنه **﴿يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾** أي: يقدر على كل مقدور، فهو: الحقيق بتخصيصه بالالوهية، وإفراده بالعبادة **﴿وما تختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾** هذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه، ومرجعه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه، ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل، ويتميز فريق الجنة، وفريق النار. قال الكلبي: وما اختلفتم فيه من شيء أي: من أمر الدين، فحكمه إلى الله يقضي فيه. وقال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وآمن به بعضهم، فنزلت، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ويمكن أن يقال: معنى حكمه إلى الله: أنه مردود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه يرد إلى كتاب الله. ومثله قوله: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾** [النساء: 59]، وقد حكم سبحانه بأن الدين هو: الإسلام، وأن القرآن حق، وأن المؤمنين في الجنة، والكافرين في النار، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة، وعدهم الله بذلك يوم القيامة **﴿نلكم﴾** الحاكم بهذا الحكم **﴿الله ربي عليه توكلت﴾** اعتمدت عليه في جميع أموري، لا على غيره، وفوضته في كل شؤني **﴿والله أنيب﴾** أي: أرجع في كل شيء يعرض لي لا إلى غيره **﴿فاطر السموات والأرض﴾** قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر آخر لنلكم، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ وخبره ما بعده، أو نعت لربي؛ لأن الإضافة محضة، ويكون **﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾** معترضاً بين الصفة، والموصوف. وقرأ زيد بن علي (فاطر) بالجر على أنه نعت للاسم الشريف في قوله: **﴿إلى الله﴾**، وما بينهما اعتراض، أو بدل من الهاء في عليه أو إليه، وأجاز الكسائي النصب على النداء، وأجازه غيره على المدح. والفاطر: الخالق المبدع، وقد تقدم تحقيقه **﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾** أي: خلق لكم من جنسكم نساء، أو المراد: حواء لكونها خلقت من ضلع آدم. وقال مجاهد: نسلاً بعد نسل **﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾** أي: وخلق للأنعام من جنسها إناثاً، أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور، والإناث، وهي: الثمانية التي نكرها في الأنعام **﴿يذُرُوكُمْ فِيهِ﴾** أي: يبتكم، من الذرة وهو: البث، أو يخلقكم، وينشئكم، والضمير في يذُرُوكُم للمخاطبين، والأنعام إلا أنه غلب فيه العقلاء،

الخطاب في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ لامة محمد ﷺ أي: بين، وأوضح لكم من الدين ﴿وَمَا وَصَى بِهِ نُوْحًا﴾ من التوحيد، ودين الإسلام، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل، وتوافقت عليها الكتب ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن، وشرائع الإسلام، والبراءة من الشرك، والتعبير عنه بالموصول لتفخيم شأنه، وخص ما شرعه لنبينا ﷺ بالإيحاء مع كون ما بعده، وما قبله منكرواً بالتوصية للتصريح برسالاته ﴿وَمَا وَصَيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ مما تطابقت عليه الشرائع. ثم بيّن ما وصى به هؤلاء، فقال: ﴿أَن أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي: توحيد الله، والإيمان به، وطاعة رسله، وقبول شرائعه، وأن هي: المصدرية، وهي وما بعدها في محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما ذلك الذي شرعه الله؟ فقيل: هو إقامة الدين، أو هي: في محل نصب بدلاً من الموصول، أو في محل جرّ بدلاً من الدين، أو هي المفسرة، لأنه قد تقدمها ما فيه معنى القول. قال مقاتل: يعني: أنه شرع لكم، ولمن قبلكم من الأنبياء ديناً واحداً. قال مقاتل: يعني: التوحيد. قال مجاهد: لم يبعث الله نبياً قط إلاّ وصاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم. وقال قتادة: يعني: تحليل الحلال، وتحريم الحرام، وخصّ إبراهيم، وموسى، وعيسى بالذكر مع نبينا ﷺ؛ لأنهم أرباب الشرائع. ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين، نهامهم عن الاختلاف فيه، فقال: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: لا تختلفوا في التوحيد، والإيمان بالله، وطاعة رسله، وقبول شرائعه، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها للشرائع، وتوافقت فيها الأديان، فلا ينبغي الخلاف في مثلها، وليس من هذا فروق المسائل التي تختلف فيها الآلة، وتتعارض فيها الامارات، وتتباين فيها الأفهام، فإنها من مطارح الاجتهاد، ومواطن الخلاف. ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شقّ على المشركين، فقال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: عظم، وشق عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد، ورفض الأوثان. قال قتادة: كبر على المشركين، واشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده، وضاق بها إبليس، وجنوده، فابى الله إلاّ أن ينصرها، ويعليها، ويظهرها، ويظفرها على من ناواها. ثم خصّ أولياءه، فقال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يختار، والاجتباء الاختيار، والمعنى: يختار لتوحيده، والدخول في دينه من يشاء من عباده ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يَنبِي﴾ أي: يوفق لدينه، ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، ويقبل إلى عبادته. ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين، وعمم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرّق، والاختلاف، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مَن بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: ما تفرّقوا إلاّ عن علم بأن الفرقة ضلالة، ففعلوا ذلك التفرّق للبغي بينهم بطلب الرياسة، وشدة الحمية، قيل: المراد قريش هم الذين تفرّقوا بعد ما جاءهم العلم، وهو: محمد ﷺ ﴿بَغْيًا﴾، منهم عليه، وقد كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم

يشاء من خلقه، ويضيقه على من يشاء ﴿إنه بكل شيء﴾
من الأشياء ﴿عليم﴾ فلا تخفى عليه خافية، وإحاطة علمه
بكل شيء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع، ومعصية
العاصي. فهو يجازي كلا بما يستحقه من خير، وشر.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عن عبد الله بن عمرو، قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ، وفي يده كتابان، فقال: اتشرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا، إلا أن نخبرنا يا رسول الله، قال: للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين باسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزداد فيهم، ولا ينقص منهم، ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين باسماء أهل النار، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزداد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سدّوا، وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أيّ عمل، وإن صاحب النار يختّم له بعمل أهل النار، وإن عمل أيّ عمل له. قال رسول الله ﷺ بيديه، فنبذهما، ثم قال: فرغ ربكم من العباد «فريق في الجنة، وفريق في السعير». قال الترمذي بعد إخرجه: حديث حسن صحيح غريب. وروى ابن جرير طرغافاً منه عن ابن عمرو موقوفاً عليه. قال ابن جرير: وهذا الموقوف أشبه بالصواب، قلت: بل المرفوع أشبه بالصواب. فقد رفعه الثقة، ورفعته زيادة ثابتة من وجه صحيح، ويقوّي الرّفْع ما أخرجه ابن مريويه عن البراء. قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ في يده كتاب ينظر فيه قالوا: انظروا إليه كيف، وهو أمّي لا يقرأ، قال: فعلمها رسول الله ﷺ، فقال: هذا كتاب من ربّ العالمين باسماء أهل الجنة، وأسماء قبائلهم لا يزداد منهم، ولا ينقص منهم، وقال: «فريق في الجنة، وفريق في السعير» فرغ ربكم من أعمال العباد».

﴿١٠﴾ نَزَّلَ لَكُمْ مِنَ الذِّكْرِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُهُ لِيُتَجَنَّبَ إِلَهُهُ مِنَ يَشْكَا وَيَهْدَى إِلَهُهُ مِنَ الْيُبْسِ ﴿١١﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَّا أَجَلٌ مَسْمُوعٌ لَفُصِّيَتْ بَيْنَهُمْ وَلِئِنْ الذِّينَ أُوْرِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنْ يَشْكِيَ إِلَهُكَ مِنْهُمْ ﴿١٢﴾ لَئِذَا لَكَ مِنْهُمْ غُرُوبٌ ﴿١٣﴾ لَئِذَا لَكَ قَاعٌ مُتَوَفِّجٌ مِمَّا أُثِرْتُمْ وَلَا تَنْبَغُ أَمْوَالُهُمْ وَقُلْ أَمْسَتْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُثِرْتُمْ لِأَقْدُولَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّكُمْ لَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَكُمْ آخِرَةُ دِينًا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَهُ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يُخَاجِرُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمُ دَاجِيَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٥﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْيَقِينِ وَالْبَيِّنَاتِ وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٦﴾ يَسْتَجِيبُ لِمَا الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ أَمَّاوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي السَّاعَةِ لِي فَكُلَّ بَعِيدٍ ﴿١٧﴾

بقوله: ﴿وَاتَّسَمُوا بِاللَّهِ جِئِدَ إِيمَانِهِمْ لِئَن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 42] الآية، ويقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: 89] وقيل: المراد أمم الأنبياء المتقدمين، وأنهم فيما بينهم اختلَفوا لما طال بهم المدى، فأمن قوم، وكفر قوم، وقيل: اليهود، والنصارى خاصة كما في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 4] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ، وَهِيَ: تَأْخِيرُ الْعُقُوبَةِ﴾ إلى أجل مسمى، وهو: يوم القيامة كما في قوله: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: 46]، وقيل: إلى الأجل الذي قضاه الله لعذابهم في الدنيا بالقتل، والأسر، والذل، والقهر ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة، وقيل: لقضى بين من آمن منهم، ومن كفر بنزول العذاب بالكافرين، ونجاة المؤمنين ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود، والنصارى ﴿مَنْ بَعْدَهُمْ﴾ من بعد من قبلهم من اليهود، والنصارى ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي: من القرآن، أو من محمد ﴿مَرِيبٌ﴾ موقع في الريب، ولذلك لم يؤمنوا. وقال مجاهد: معنى من بعدهم، من قبلهم يعني: من قبل مشركي مكة، وهم اليهود، والنصارى. وقيل: المراد كفار المشركين من العرب الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم، وصفهم بأنه في شك من القرآن مريب. قرأ الجمهور (أورثوا) وقرأ زيد بن علي (ورثوا) بالتشديد ﴿فَلَنُكَفِّرَنَّ﴾ واستقم: أي: فلأجل ما نكر من التفريق، والشك، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع، فادع، واستقم: أي: فادع إلى الله، وإلى توحيد، واستقم على ما دعوت إليه. قال الفراء، والزجاج: المعنى: فإلى ذلك، فادع كما تقول: دعوت إلى فلان، وفلان، وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد. وقيل: في الكلام تقسيم، وتأخير. والمعنى: كبر على المشركين ما ندعوههم إليه، فلذلك فادع. قال قتادة: استقم على أمر الله. وقال سفيان: استقم على القرآن. وقال الضحاك: استقم على تبليغ الرسالة ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾ بذلك من جهة الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة، وتعصياتهم الزائفة، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك في نكر الله ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله، لا كالذين آمنوا ببعض منها، وكفروا ببعض ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ في أحكام الله إذا ترافعت إلي، ولا أحيف عليكم زيادة على ما شرعه الله، أو بنقصان منه. وأبلغ إليكم ما أمرني الله بتبليغه كما هو، واللام لام كي أي: أمرت بذلك الذي أمرت به، لكي أعدل بينكم، وقيل: هي زائدة، والمعنى: أمرت أن أعدل، والأول أولى. قال أبو العالية: أمرت، لأسوي بينكم في الدين، فأومن بكل كتاب، وبكل رسول. والظاهر: أن الآية عامة في كل شيء، والمعنى: أمرت: لأعدل بينكم في كل شيء ﴿اللَّهُ رِبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: إلهنا، وإلهكم، وخالقنا، وخالقكم ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي: ثوابها، وعقابها خاص بنا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: ثوابها، وعقابها خاص بكم ﴿لَا حِجَةَ بَيْنُنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لا خصومة بيننا، وبينكم. لأن الحق قد

ظهر، ووضح ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنُنَا﴾ في المحشر ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: للمرجع يوم القيامة، فيجازي كلا بعمله: وهذا منسوخ بآية السيف. قيل: الخطاب لليهود، وقيل: للكفار على العموم ﴿وَالَّذِينَ يَحَابُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾ أي: يخاضعون في دين الله من بعد ما استجاب الناس له، وبخلوا فيه. قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: هؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود. وقال قتادة: هم اليهود، والنصارى، ومحاجتهم قولهم: نبينا قبل نبيكم، وكتابتنا قبل كتابكم، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب، وأنهم أولاد الأنبياء، وكان المشركون يقولون: ﴿إِنَّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: 73]، فنزلت هذه الآية، والموصول مبتدأ، وخبره الجملة بعده، وهي: ﴿حُجَّتُهُمْ دَلِيسَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا ثبات لها كالشيء الذي يزول عن موضعه، يقال: انحضت حجته دحوضاً: بطلت، والإنحاض: الإزلاق، ومكان دحض أي: زلق، وبحضت رجله: زلقت. وقيل: الضمير في له راجع إلى الله. وقيل: راجع إلى محمد ﷺ. والأول أولى ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: غضب عظيم من الله لمجانلتهم بالباطل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ المراد بالكتاب: الجنس، فيشمل جميع الكتب المنزلة على الرسل. وقيل: المراد به القرآن خاصة، وبالحق متعلق بمحنوف أي: ملتبساً بالحق، وهو: الصدق ﴿وَوَعَدُ اللَّهِ﴾ المراد بـ ﴿بِالْمِيزَانِ﴾ العدل، كذا قال أكثر المفسرين، قالوا: وسمي العدل ميزاناً؛ لأن الميزان آلة الإنصاف، والتسوية بين الخلق. وقيل: الميزان ما بين في الكتب المنزلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به. وقيل: هو: الجزء على الطاعة بالثواب، وعلى المعصية بالعقاب، وقيل: إنه الميزان نفسه أنزل الله من السماء، وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تطالم، وتباخس كما في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25] وقيل: هو محمد ﷺ ﴿وَمَا يَدْرِكُ لَعْلَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ﴾ أي: أي شيء يجعلك دارياً بها، عالماً بوقتها لعلها شيء قريب، أو قريب مجيئها، أو ذات قرب. وقال: قريب، ولم يقل: قريبة لأن تانيئها غير حقيقي. قال الزجاج: المعنى: لعل البعث، أو لعل مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: قريب نعت ينعت به المؤنث، والمذكر كما في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56] ومنه قول الشاعر:

وَكُنَّا قَرِيبًا وَالْيَارَ بَعِيدَةً فَلَمَّا وَصَلْنَا نَصَبَ أَعْيُنِهِمْ غَيْبَنَا
قيل: إن النبي ﷺ نكر الساعة، وعنده قوم من المشركين، فقالوا: متى تكون الساعة؟ تكتئباً لها، فأنزل الله الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال: استهزاء منهم بها، وتكتئباً بمجيئها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وجلون من مجيئها. قال مقاتل: لأنهم لا يدرون على ما يهجمون عليه. وقال الزجاج: لأنهم يعلمون أنهم محاسبون،

وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٧﴾ وَلَوْ سَئَطُ اللَّهِ ارْتَفَعَتْ لِإِيمَانِهِمْ لَبَنَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَرْزُقُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِإِيمَانِهِمْ خَبِيرٌ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْفَتَنَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٩﴾

قوله: **﴿الله لطيف بعباده﴾** أي: كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم. قال مقاتل: لطيف بالبار، والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم. قال عكرمة: بار بهم. وقال السدي: رفيق بهم، وقيل: حفي بهم. وقال القرطبي: لطيف بهم في العرض، والمحاسبة، وقيل غير ذلك. والمعنى: أنه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم، ومن جملة تلك الرزق الذي يعيشون به في الدنيا، وهو: معنى قوله: **﴿يرزق من يشاء﴾** منهم كيف يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا **﴿وهو القوي﴾** العظيم القوة الباهرة القادرة **﴿العزیز﴾** الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء **﴿ومن كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾** الحرث في اللغة: الكسب، يقال: هو يحرث لعياله، ويحترث أي: يكتسب. ومنه سمي الرجل حارثاً، وأصل معنى الحرث: إلقاء البذر في الأرض، فاطلق على ثمرات الأعمال، وفوائدها بطريق الاستعارة والمعنى: من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له تلك الحسنات بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وقيل: معناه: يزيد في توفيقه، وإعانتته، وتسهيل سبل الخير له **﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثته منها﴾** أي: من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الدنيا، وهو: متاعها، وما يربح الله به عباده منها نعطه منها ما قضت به مشيئتنا، وقسم له في قضائنا. قال قتادة: معنى **﴿نؤثته منها﴾**: نقدر له ما قسم له كما قال: **﴿عجلنا له فيها ما نشاء﴾** [الإسراء: 18]، وقال قتادة أيضاً: إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا. قال القشيري: والظاهر أن الآية في الكافر، وهو: تخصيص بغير مخصص. ثم بين سبحانه أن هذا الذي يريد بعمله الدنيا لا نصيب له في الآخرة، فقال: **﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾**؛ لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الإسراء **﴿إنا لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به الله﴾** لما بين سبحانه القانون في أمر الدنيا، والآخرة أرفقه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار، والهزيمة لاستفهام التقرير والتقريع، وضمير شرعوا عائد إلى الشركاء، وضمير لهم إلى الكفار، وقيل: العكس، والأول أولى. ومعنى **﴿ما لم ياذن به الله﴾**: ما لم ياذن به من الشرك، والمعاصي **﴿ولولا كلمة الفصل﴾**، وهي: تأخير عذابهم حيث قال: **﴿بئس الساعة موعدهم﴾** [القمر: 46] **﴿لقضي بينهم﴾** في الدنيا، فعولوا بالعقوبة، والضمير في بينهم راجع إلى المؤمنين، والمشركون، أو إلى المشركون، وشركائهم **﴿وان الظالمين لهم عذاب اليم﴾** أي: المشركون، والمكذبين لهم عذاب اليم في الدنيا، والآخرة. قرأ الجمهور (وان الظالمين) بكسر الهمزة على الاستئناف. وقرأ

ومجزون **﴿ويعلمون أنها الحق﴾** أي: أنها آتية لا ريب فيها، ومثل هذا قوله: **﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون﴾** [المؤمنون: 60]. ثم بين ضلال الممارين فيها، فقال: **﴿إلا إن الذين يمارون في الساعة﴾** أي: يخاضعون فيها مخاصمة شك، وريبة، من المماراة، وهي: المخاصمة، والمجادلة، أو من المرية، وهي: الشك، والريبة **﴿لفي ضلال بعيد﴾** عن الحق؛ لأنهم لم يتفكروا في الموجبات للإيمان بها من الدلائل التي هي: مشاهدة لهم منصوبة لأعينهم مفهومة لعقولهم، ولو تفكروا لعلموا أن الذين خلقهم ابتداء قادر على الإعادة.

وقد أخرج ابن جرير عن السدي **﴿أن اقيموا الدين﴾** قال: اعملوا به. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: **﴿أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾** قال: ألا تعلموا أن الفرقة ملكة، وأن الجماعة ثقة **﴿كبير على المشركين ما تدعوهم إليه﴾**، قال: استكبر المشركون أن قيل لهم: لا إله إلا الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد **﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾** قال: يخلص لنفسه من يشاء. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾** قال: هم أهل الكتاب كانوا يجاللون المسلمين، ويصدونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله. وقال: هم: قوم من أهل الضلالة، وكانوا يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة في قوله: **﴿والذين يحاجون في الله﴾** الآية، قال: هم اليهود، والنصارى. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾** [النصر: 1] قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا، فنزلت **﴿والذين يحاجون في الله﴾** الآية.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِإِيمَانِهِمْ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ مِنْ حَرْثِهِ. وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٨﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِحَ رِيقُ الَّذِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ تَرَى الَّذِينَ أُنْصِفُوا مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ يَوْمَهُمُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رِزْقَاتِ الْفُتَنَاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ آيَاتِ الدِّينِ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقَرِّقْ حَسَنَةً نَزَدَ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَحْمِلْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخْلِقْ لِمَنْ يَكُونَتِ لَهُ عِلْمٌ بِلَايَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعُوذُ بِالنَّاصِيَاتِ وَيَسْأَلُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

الله بموئنته، فلما هاجر أوته الأنصار ونصروه، فأنزل الله عليه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109]، وأنزل عليه ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: 47]، وسيأتي في آخر البحث ما يتضح به الثواب، ويظهر به معنى الآية إن شاء الله ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ أصل القرف الكسب، يقال: فلان يقرف لعياله أي: يكتسب. والاقتراف: الاكتساب، مأخوذ من قولهم رجل قرفة: إذا كان محتالاً. والمعنى: من يكتسب حسنة نزيد له هذه الحسنة حسناً بمضاعفة ثوابها. قال مقاتل: المعنى: من يكتسب حسنة واحدة نزيد له فيها حسناً نضاعفها بلواحدة عشرًا فصاعداً. وقيل: المراد بهذه الحسنة هي: المودة في القربى، والحمل على العموم أولى، ويدخل تحته المودة في القربى دخولاً أولياً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين. قال قتادة: غفور للذنوب شكور للحسنات. وقال السدي: غفور للذنوب آل محمد ﴿إِمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أم هي المنقطعة أي: بل يقولون: افترى محمد على الله كذباً بدعوى النبوة، والإنكار للتوبيخ. ومعنى افتراء الكذب: اختلاؤه. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا، فقال: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: لو افترى على الله الكذب لشاء عدم صوره منه، وختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله شيئاً مما كذب فيه كما تزعمون. قال قتادة: يختم على قلبك، فينسبك القرآن، فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد، ومقاتل: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم. وقيل: الخطاب له، والمراد الكفار أي: إن يشأ يختم على قلوب الكفار، ويعاجلهم بالعقوبة، ذكره القشيري. وقيل: المعنى: لو حدثتك نفسك أن تفترى على الله كذباً لطبع على قلبك، فإنه لا يجترئ على الكذب إلا من كان مطبوعاً على قلبه، والأول أولى، وقوله: ﴿وَيُمِحِ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ استثناء مفرّ لما قبله من نفي الافتراء. قال ابن الأنباري: يختم على قلبك تام، يعني: وما بعده مستأنف. وقال الكسائي: فيه تقديم، وتأخير أي: والله يمحو الباطل. وقال الزجاج: أم يقولون: افترى على الله كذباً تاماً، وقوله: ﴿وَيُمِحِ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي ﷺ أي: لو كان ما أتى به النبي ﷺ باطلاً لمحاه كما جرت به عادته في المفترين ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أي: الإسلام، فيبينه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: بما أنزل من القرآن ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالم بما في قلوب العباد، وقد سقطت الواو من، ويمحو في بعض المصاحف كما حكاه الكسائي ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يقبل من المذنبين من عباده توبتهم إليه مما عملوا من المعاصي، واقتربوا من السيئات، والتوبة: الندم على المعصية، والعزم على عدم المعاودة لها. وقيل: يقبل التوبة عن أوليائه، وأهل طاعته. والأول أولى، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد

مسلم، والأعرج، وابن هرمز بفتحها عطفاً على كلمة الفصل ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: خائفين وجلين مما كسبوا من السيئات، وذلك الخوف، والوجل يوم القيامة ﴿وَهُوَ وَقَعَ بِهِمْ﴾ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير مضاف قاله الزجاج أي: وجزاء ما كسبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة أشفقوا، أو لم يشفقوا، والجملة في محل نصب على الحال. ولما نكر حال الظالمين نكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ روضات جمع روضة. قال أبو حيان: اللغة الكثيرة تسكين الواو، ولغة هذيل فتحها، والروضة: الموضع النزه الكثير الخضرة، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم، وروضة الجنة: أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا لأحسن أمكنتها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِهِمْ﴾ من صنوف النعم، وأنواع المستلذات، والعامل في عند ربهم يشاءون، أو العامل في روضات الجنات، وهو: الاستقرار، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما نكر للمؤمنين قبله، وخبره الجملة المنكورة بعده، وهي ﴿هُوَ الْفُضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى معرفة حقيقته، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾ إلى الفضل الكبير أي: يبشرهم به. ثم وصف العباد بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فهؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه هم: المبشرون بتلك البشارة. قرأ الجمهور (يبشر) مشدداً من بشر. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس بضم التحتية، وسكون الموحدة، وكسر الشين من أبشر. وقرأ بفتح التحتية، وضم الشين بعض السبعة، وقد تقدّم بيان القراءات في هذه اللفظة. ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه، أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثواباً منهم، فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قل يا محمد: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً، ولا نفعاً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلاً أي: إلا أن تولّدوني لقرباتي بينكم، أو تولّدوا أهل قرباتي. ويجوز أن يكون منقطعاً. قال الزجاج: إلا المودة استثناء ليس من الأول أي: إلا أن تولّدوني لقرباتي، فتحفظوني، والخطاب لقريش. وهذا قول عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والشعبي، فيكون المعنى على الانقطاع: لا أسألكم أجراً قط، ولكن أسألكم المودة في القربى التي بيني وبينكم، أرقبوني فيها، ولا تعجلوا إلي، ودعوني والناس، وبه قال قتادة، ومقاتل، والسدي، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم، وهو الثابت عن ابن عباس كما سيأتي. وقال سعيد بن جبير، وغيره: هم: آل محمد، وسيأتي ما استدلل به القائلون بهذا، وقال الحسن، وغيره: معنى الآية: إلا التوّد إلى الله عزّ وجل، والتقرب بطاعته. وقال الحسن بن الفضل: ورواه ابن جرير عن الضحاك: إن هذه الآية منسوخة، وإنما نزلت بمكة، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ، فأمرهم

هذه الأمة بالسوء، والرفعة، والنصر، والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب». وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ»** الآية، ثم قال: يقول الله: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملات صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك». وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر عن علي قال: الحرت حرتان، فحرت الدنيا المال، والبون، وحرت الآخرة الباقيات الصالحات. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله: **«إِلَّا الْمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى»** قال سعيد بن جبيرة: قرأه آل محمد. قال ابن عباس: عجلت أن النبي ﷺ لم يكن بطن من قریش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: **«إِلَّا أَنْ تَصْلُوا مَا بَيْنِي، وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقُرْبَاةِ»**. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طريق سعيد بن جبيرة عنه قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسالكم عليه أجراً إلا أن تولدوني في نفسي لقرابتي، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم». وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا في هذه الآية **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى»**، فكتبتنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك، فقال: إن رسول الله ﷺ كان واسط النسب في قریش ليس بطن من بطونهم إلا، وله فيه قرابة، فقال الله: **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً»** على ما ادعوكم إليه **«إِلَّا الْمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى»** أن تولدوني لقرابتي منكم، وتحفظوني بها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية قال: كان لرسول الله ﷺ قرابة من جميع قریش، فلما كذبوه، وأبوا أن يبايعوه قال: «يا قوم إذا أبيت أن تبايعوني، فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي، ونصرتي منكم». وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عنه نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً نحوه. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً من طريق أخرى نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس قال: «قالت الأنصار: فعلنا، وفعلنا، وكانهم فخرُوا. فقال العباس: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم، فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أئمة، فاعزكم الله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أفلا تجيبون؟ قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: ألا تقولون: ألم يخرجك قومك، فأويناك؟ ألم يكذبوك، فصنقناك؟ ألم يخذلوك، فنصرتناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا، وما في أيدينا الله، ورسوله، فنزلت **«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوْدَةَ فِي الْقُرْبَى»**، وفي

مسلمهم، وكافرهم إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية، وعزيمة صحيحة **«ويعفوا عن السيئات»** على العموم لمن تاب عن سيئته **«ويعلم ما تفعلون»** من خير، وشر، فيجازي كلا بما يستحقه. قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف (تفعلون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر، واختار القراءة الثانية أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأن هذا الفعل وقع بين خبرين **«ويعتجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات»** الموصول في موضع نصب أي: يستجيب الله الذين آمنوا، ويعطيهم ما طلبوه منه، يقال: أجاب، واستجاب بمعنى. وقيل المعنى: يقبل عبادة المخلصين. وقيل: التقدير، ويستجيب لهم، فحذف اللام كما حذف في قوله: **«وَإِذَا كَالَهُمْ»** [المطففين: 3] أي: كالأول لهم، وقيل: إن الموصول في محل رفع أي: يجيبون ربهم إذا دعاهم كقوله: **«استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم»** [الأنفال: 24] قال المبرد: معنى **«ويعتجيب الذين آمنوا»**: ويستدعي الذين آمنوا الإجابة، هكذا حقيقة معنى استعمل، فالذين في موضع رفع، والأول أولى **«ويزيدهم من فضله»** أي: يزيدهم على ما طلبوه منه، أو على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً منه، وقيل: يشفعهم في إخوانهم **«والكافرون لهم عذاب شديد»** هذا للكافرين مقابلاً ما ذكره للمؤمنين فيما قبله **«ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض»** أي: لو وسع الله لهم رزقهم لبغوا في الأرض لعصوا فيها، ويطروا النعمة، وتكبروا، وطلبوا ما ليس لهم طلبه، وقيل: المعنى: لو جعلهم سواء في الرزق لما اتفاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع، والأول أولى. والظاهر عموم أنواع الرزق، وقيل: هو: المطر خاصة **«ولكن ينزل بقدر ما يشاء»** أي: ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته، وما تقتضيه حكمته البالغة **«إنه بعباده خبير»** بأحوالهم **«بصير»** بما يصلحهم من توسيع الرزق، وتضييقه، فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه، ويكفه عن الفساد بالبنى في الأرض **«وهو الذي ينزل الغيث»** أي: المطر الذي هو أنفع أنواع الرزق، وأعمها فائدة، وأكثرها مصلحة **«مَنْ بَعْدَ مَا قُطِنُوا»** أي: من بعد ما أيسوا عن ذلك، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه **«وهو الولي»** للصالحين من عباده بالإحسان إليهم، وجلب المنافع لهم، و دفع الشرور عنهم **«الحميد»** المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصاً وعموماً.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ»** قال: عيش الآخرة **«يُزَادُ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتَهُ مِنْهَا»** الآية. قال: من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً فرغ منه، وقسم له. وأخرج أحمد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن حبان عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «بشر

فذكره. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قرظة به. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب. قال السيوطي: بسند صحيح عن أبي هانئ الخولاني قال: سمعت عمر بن حريث، وغيره يقولون: إنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبِغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عليّ مثله.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَنْثَى وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا أَمْسَكَكُمْ مِنْ مُصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْرِفُونَ عَنْ كَيْبَرِ ﴿١٢﴾ وَمَا أَشْرَ بِمُجْرِمِينَ فِي الْأَنْثَى وَمَا لَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ اللَّهِ مِنْ وَلَدٍ وَلَا نَسَبٍ ﴿١٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْخَوَارِجُ مِنَ الْأَنْثَى كَالْأُنْثَى ﴿١٤﴾ إِنْ يَشَاءُ يُسَوِّدُ الْوَجْهَ وَيُأَكِّدُ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ بَصِيرٍ شَكُورٍ ﴿١٥﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَيَعْلَمُ عَنْ كَيْبَرِ ﴿١٦﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُخَيَّلُونَ فِي مَالِهِمَا مَا لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ قَدْ أَتَيْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ فَتَعْلَمُ لِمَ تُولَدُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ فِي الْأَنْثَى وَالْوَجْهِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَقْرُونُ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنزَلَتْهُمْ شُرُكٌ مِنْهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبُرْءُ هُمْ يَقْتَضُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَرَّوْا سِنِينَ سَنَةً يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا وَرَأْسُكُمْ قَائِمٌ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي الْفُلُودِينَ ﴿٢١﴾ وَلَكِنْ أَنْتُمْ بِهَدْيِهِ مَلَكُونَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢٢﴾ إِنَّا الْبَيْتُ عَلَى الْأَنْثَى يَتَخَلَّفُونَ النَّاسَ وَيَبْشُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَنْ أَوْلَيْتُمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَلَكِنْ سَبَرْنَا وَعَسَى أَنْ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٢٤﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلَدٍ مِنْ بَرٍّ وَرَى الْفُلُودِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوتُ هَلْ إِلَى مَرَدٍ مِنْ

نكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجهة لتوحيده، وصق ما وعد به من البعث، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلقهما على هذه الكيفية العجيبة، والصنعة الغريبة ﴿وَمَا بَيْنَ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يجوز عطفه على خلق، ويجوز عطفه على السموات، والدابة اسم لكل ما دب. قال الفراء: أراد ما دب في الأرض دون السماء كقوله: ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمُ اللَّوْثُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 22]، وإنما يخرج من الملح دون العذب. وقال أبو علي الفارسي: تقديره: وما دب في أحدهما، فحذف المضاف. قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكة، والناس، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 8] ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي: حشرهم يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾، الظرف متعلق بجمعهم لا بقدير قال أبو البقاء: لأن ذلك يؤدي، وهو على جمعهم قدير إذا يشاء، فتتعلق القدرة بالمشيئة، وهو محال، قال شهاب الدين: ولا نري ما وجه كونه محالاً على مذهب أهل السنة. فإن كان يقول يقول المعتزلة، وهو: أن القدرة تتعلق بما لم

إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو: ضعيف، والأولى أن الآية مكية لا مدنية، وقد أشرنا في أول السورة إلى قول من قال: إن هذه الآية، وما بعدها مدنية، وهذا متمسكهم. وأخرج أبو نعيم، والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: تحفظوني في أهل بيتي، وتودونهم بي. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي، وفاطمة، وولداهما، وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية بمكة، وكان المشركون يؤنون رسول الله ﷺ، فانزل الله: قل لهم يا محمد ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: على ما ادعوكم إليه ﴿إِلَّا أَجْرًا﴾ عرضاً من الدنيا ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ إلا الحفظ لي في قرابتي فيكم، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: 47] يعني: ثوابه، وكرامته في الآخرة كما قال نوح: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109]، وكما قال هود، وصالح، وشعيب لم يستثنوا أجراً كما استثنى النبي ﷺ، فردّه عليهم، وهي: منسوخة. وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طريق مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في الآية: قل: لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات، والهدى أجراً إلا أن تولوا الله، وأن تتقربوا إليه بطاعته. هذا حاصل ما روي عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية. والمعنى الأول هو: الذي صح عنه، ورواه عنه الجمع الجَمُّ من تلامذته، فمن بعدهم، ولا ينافيه ما روي عنه من النسخ، فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن في مكة بأن يؤده كفار قريش لما بينه، وبينهم من القربى، ويحفظوه بها، ثم ينسخ ذلك، ويذهب هذا الاستثناء من أصله كما يدل عليه ما نكرنا مما يدل على أنه لم يسأل على التبليغ أجراً على الإطلاق، ولا يقوي ما روي من حملها على آل محمد ﷺ على معارضة ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة، وقد أغنى آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة، والمزايا الجميلة، وقد بينا بعض ذلك عند تفسيرنا لقوله: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: 33]، وكما لا يقوي هذا على المعارضة، فذلك لا يقوي ما روي عنه أن المراد بالموَدَّة في القربى: أن يولوا الله، وأن يتقربوا إليه بطاعته، ولكنه يشد من عضد هذا أنه تفسير مرفوع إلى رسول الله ﷺ وإسناده عند أحمد في المسند هكذا: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا قرظة بن سويد، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد عن ابن عباس: أن النبي ﷺ،

يسكن الريح ﴿قرأ الجمهور بهمز (يشأ)، وقرأ ورش عن نافع بلا همز. وقرأ الجمهور (الريح) بالإفراد، وقرأ نافع (الرياح) على الجمع أي: يسكن الريح التي تجري بها السفن ﴿فيظللن﴾ أي: السفن ﴿رواكذ﴾ أي: سواكن ثوابت ﴿على ظهره﴾ البحر، يقال: ركذ الماء ركوداً: سكن، وكذلك ركبت الريح، وركبت السفينة، وكل ثابت في مكان، فهو راكذ. قرأ الجمهور (فيظللن) بفتح اللام الأولى، وقرأ قتادة بكسرهما، وهي لغة قليلة ﴿إن في ذلك﴾ الذي نكر من أمر السفن ﴿آيات﴾ دلالات عظيمة ﴿لعل صبار شكور﴾ أي: لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء. قال قطرب: الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر. قال عون بن عبد الله:

فكم من منعم عليه غير شاكر وكـم من مبتلي غير صابر
﴿أو يوبقهن بما كسبوا﴾ معطوف على يسكن أي: يهلكهن بالغرق، والمراد أهلهن بما كسبوا من الذنوب، وقيل: بما أشركوا. والأول أولى، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك، يقال: أوبقه أي: أهلكه ﴿ويعف عن كثير﴾ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم، فينجيهم من الغرق. قرأ الجمهور (يعف) بالجزم عطفًا على جواب الشرط. قال القشيري: وفي هذه القراءة إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح، فتبقي تلك السفن رواكذ، أو يهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف ﴿يعف﴾ على هذا، لأنه يصير المعنى: إن يشأ يعف، وليس المعنى ذلك، بل المعنى: الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو: إن عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى، وقد قرأ قوم (ويعفو) بالرفع، وهي جيدة في المعنى. قال أبو حيان: وما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم ملول التركيب، والمعنى: إلا أنه تعالى أهلك ناساً، وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم، وقرأ الأعمش (ويعفو) بالرفع، وقرأ بعض أهل المدينة بالنصب بإضمار أن بعد الواو كما في قول النابغة:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ: يعف بذناب عيش أجب الظاهر ليس له سنام
بنصب ونأخذ ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ قرأ الجمهور بنصب (يعلم) قال الزجاج: على الصرف، قال: ومعنى الصرف: صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى، قال: وذلك أنه لما لم يحسن عطف ويعلم مجزوماً على ما قبله إذ يكون المعنى: إن يشأ يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله، ولا يتأتى ذلك إلا بإضمار أن، لتكون مع الفعل في تأويل اسم، ومن هذا بيتا النابغة المذكوران قريباً، وكما قال الزجاج، قال المبرد، وأبو علي الفارسي: واعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته. وقيل: النصب على العطف على تحليل محذوف، والتقدير: لينتقم منهم، ويعلم. واعترضه أبو حيان بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم، ونجاة قوم، فلا يحسن تقدير لينتقم

يشأ الله مشى كلامه، ولكنه مذهب رديء لا يجوز اعتقاده ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أي: ما أصابكم من المصائب كائنة ما كانت، فبسبب ما كسبت أيديكم من المعاصي. قرأ نافع، وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء، وقرأ الباقون بالفاء. «وما» في ﴿وما أصابكم﴾ هي: الشرطية، ولهذا دخلت الفاء في جوابها على قراءة الجمهور، ولا يجوز حذفها عند سيبويه، والجمهور، وجوز الأخفش الحذف كما في قوله: ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ [الأنعام: 121]، وقول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلاًن
وقيل: هي الموصولة، فيكون الحنف، والإثبات جائزين، والأول أولى. قال الزجاج: إثبات الفاء أجود؛ لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، ومن حذف الفاء فعلى أن ما في معنى: الذي، والمعنى: الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم. قال الحسن: المصيبة هنا الحدود على المعاصي، والأولى الحمل على العموم كما يفيد وقوع النكرة في سياق النفي، وبخول من الاستغراقية عليها ﴿ويعفوا عن كثير﴾ من المعاصي التي يفعلها العباد، فلا يعاقب عليها، فمعنى الآية: أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب، ويعفو عن كثير من الذنوب. وقد ثبتت الأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا يؤجر عليه، أو يكفر عنه من ذنوبه. وقيل: هذه الآية مختصة بالكافرين على معنى: أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنوب، ولا محصلاً لثواب، ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم، فلا يعاجلهم في الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة. والأولى حمل الآية على العموم، والعفو يصدق على تأخير العقوبة كما يصدق على محو الذنب، ورفع الخطاب به. قال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله؛ لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله مع المؤمنين. وأما الكافر، فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: بفائتين عليه هرباً في الأرض، ولا في السماء لو كانوا فيها بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم ﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ يواليك، فيمنع عنكم ما قضاه الله ﴿ولا نصير﴾ ينصركم من عذاب الله في الدنيا، ولا في الآخرة. ثم نكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده، وصدق ما وعد به، فقال: ﴿ومن آياته الجوار﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو (الجواري) بإثبات الياء في الوصل، وأما في الوقف، فإثباتها على الأصل، وحذفها للتخفيف، وهي: السفن وأحدثها جارية أي: سائرة ﴿في البحر كالاعلام﴾ أي: الجبال جمع علم، وهو الجبل، ومنه قول الخنساء:

وإن صخرأتأت الهداة به كأنه علم في رأسه نار
قال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب، فهو علم. وقال مجاهد: الاعلام القصور واحدا علم ﴿إن يشأ

وورود النقيب إليهم حين اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به، والنصرة له. وقيل: المراد تشاورهم في كل أمر يعرض لهم، فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي، وما أحسن ما قاله بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فريش الخوافي قوة للقوادم
وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في أموره، وأمره الله سبحانه بذلك، فقال: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: 159]. وقد قدمنا في آل عمران كلاما في الشورى ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: ينفقونه في سبيل الخير، ويتصدقون به على المحاييج. ثم ذكر سبحانه الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها، فقال: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أي: أصابهم بغير من بغي عليهم بغير الحق، نكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغي ليس من صفات من جعل الله له العزة حيث قال: ﴿له العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: 8]، فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة. قال النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فيجترئ عليهم السفهاء، ولكن هذا الانتصار مشروط بالاعتصام على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثله﴾، فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو: الاعتصام على المساواة، وظاهر هذا العموم. وقال مقاتل، والشافعي، وأبو حنيفة، وسفيان: إن هذا خاص بالمجرور ينتقم من الجارح بالقصاص بون غيره. وقال مجاهد، والسدي: هو جواب القبيح إذا قال: أخزأك الله يقول: أخزأك الله من غير أن يعتدي، وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه، أو على طريق المشاكلة لتشابههما في الصورة. ثم لما بين سبحانه أن جزاء السيئة بمثلها حق جائز بين فضيلة العفو، فقال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ أي: من عفا عن ظلمه، وأصلح بالعفو بينه، وبين ظالمه أي: أن الله سبحانه يآجره على ذلك، وإبهم الأجر تعظيماً لشانه، وتنبيهاً على جلالته. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة، وقد بينا هذا في سورة آل عمران. ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التي هي سبب الفوز، والنجاة، فقال: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي: المبتدئين بالظلم قال مقاتل: يعني: من يبدأ بالظلم، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب من يعتدي في الاقتصاص، ويجاوز الحد فيه؛ لأن المجاوزة ظلم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ مصدر مضاف إلى المفعول أي: بعد أن ظلمه الظالم له، واللام هي: لام الابتداء. وقال ابن عطية: هي: لام القسم، والأول أولى. ومن هي الشرطية، وجوابه ﴿قاولك ما عليهم من سبيل﴾ بمؤاخضة وعقوبة، ويجوز أن تكون من هي الموصولة، وبخلت الفاء في جوابها تشبيهاً للموصولة بالشرطية، والأول أولى. ولما نفى سبحانه السبيل على من

منهم. وقرأ نافع، وابن عامر برفع (يعلم) على الاستئناف، وهي قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ. وقرئ بالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى: وإن يشأ يجمع بين الإهلاك، والنجاة، والتحذير، ومعنى ﴿ما لهم من محيص﴾: ما لهم من فرار، ولا مهرب، قاله قطرب. وقال السدي: ما لهم من ملجأ، وهو مأخوذ من قولهم: حاص به البعير حيصة: إذا رمى به، ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق أي: يميل عنه ﴿فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ذكر التنفير عن الدنيا أي: ما أعطيتهم من الغنى، والسعة في الرزق، فإنما هو متاع قليل في أيام قليلة ينقضي، ويذهب. ثم رغبتهم في ثواب الآخرة، وما عند الله من النعيم المقيم، فقال: ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ أي: ما عند الله من ثواب الطاعات، والجزاء عليها بالجنات خير من متاع الدنيا، وأبقى؛ لأنه دائم لا ينقطع، ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة. ثم بين سبحانه لمن هذا، فقال: ﴿الذين آمنوا﴾ أي: صدقوا، وعملوا على ما يوجب الإيمان ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي: يفوضون إليه أموره، ويعتمدون عليه في كل شؤونهم لا على غيره ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ الموصول في محل جر معطوف على الذين آمنوا، أو بدلاً منه، أو في محل نصب بإضمار: أعني والأول أولى، والمعنى: أن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وللذين يجتنبون. والمراد بكبائر الإثم: الكبائر من الذنوب، وقد قدمنا تحقيقها في سورة النساء. قرأ الجمهور (كبائر) بالجمع، وقرأ حمزة، والكسائي (كبير) بالإفراد، وهو يفيد مفاد الكبائر، لأن الإضافة للجنس كاللام. والفواحش هي من الكبائر، ولكنها مع وصف كونها فاحشة كانتا فوقها، وذلك كالقتل، والزنا، ونحو ذلك. وقال مقاتل: الفواحش موجبات الحدود. وقال السدي: هي: الزنا ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي: يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم، ويكظمون الغيظ، ويحلمون على من ظلمهم، وخص الغضب بالفقران؛ لأن استيلاءه على طبع الإنسان، وغلبته عليه شديدة، فلا يغفر عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره، وخصه بمزية الحلم، ولهذا أثنى الله سبحانه عليهم بقوله في آل عمران ﴿والكاظمين الغيظ﴾ [آل عمران: 134] قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين: صنفاً يعفون عن ظالمهم، فبدأ بذكرهم، وصنفاً ينتصرون من ظالمهم، وهم الذين سيأتي ذكرهم ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾ أي: أجابوه إلى ما نداهم إليه، وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة. قال ابن زيد: هم: الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة، وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها، وهيئاتها ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم، ولا يعجلون، ولا ينفردون بالرأي، والشورى مصدر شاورته مثل البشرى، والنكرى. قال الضحاک: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله ﷺ،

عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر». وأخرج ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿فَيُظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ قال: يتحركن، ولا يجريان في البحر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: رواكِدَ قال: وقروفاً ﴿وَأَوْ يَوْبِقُهُنَّ﴾ قال: يهلكهن. وأخرج النسائي، وابن ماجه، وابن مردويه عن عائشة، قالت: «دخلت علي زينب، وعندي رسول الله ﷺ، فاقبلت علي، فسببني، فردعها النبي ﷺ، فلم تنته، فقال لي: سببها، فسببتها حتى جف ريقها في فمها، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً». وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا من شيء»، فعلى البادئ حتى يعتدي المظلوم، ثم قرأ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي: ألا ليقيم من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا». وذلك قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. وأخرج البيهقي عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: من كان له أجر على الله، فليخل الجنة مرتين، فيقوم من عفا عن أخيه، قال الله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾».

وَرَوَى الْفَلَّاحِيُّ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَّا سَرَّ مِنْ سَبِيلِ ۝ وَرَنَّهُمْ يَمْرُؤُونَ عَلَيْهَا حَسِيصِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْغَائِبَاتِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الْفَلَّاحِينَ فِي عَذَابٍ مُبِينٍ ۝ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۝ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بَعْضُكُمْ يَوْمَ لَا مَرَدَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرٍ يُنصِّرُكُمْ ۝ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْإِنشَاءُ وَإِنَّا أَقْدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِّجْ بَعْضًا لِنُصِيبَهُمْ سَيِّئَاتِهِمَا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ۝ اللَّهُ مَلِكٌ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَهَبَ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَوِيرٌ ۝ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ وَرَاءَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝ وَكَذَلِكَ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَمَا نَزَّلْنَا بِهَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْإِنشَاءِ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بَعْضَ مَنْ يَشَاءُ وَإِنَّا بِعَدْوَانِكَ لَهَيَّاءٌ ۝ إِلَّا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَىٰ اللَّهِ يَصِيرُ الْأُمُورُ ۝

قوله: ﴿وَوَرَىٰ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المشركين المكذبين بالبعث ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: حين نظروا النار، وقيل: نظروا ما أعد الله لهم عند الموت ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَّا مَرَدٌ مِنْ سَبِيلِ﴾ أي: هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق ﴿وَوَرَاهُمْ يَعْزِفُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي:

انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل، فقال ﴿إِنَّمَا لِلْسَبِيلِ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي: يتعنون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر. وقال ابن جريج: أي: يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ﴿وَيُيَفِّغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يعملون في النفوس، والأموال بغير الحق كذا قال الأكثر. وقال مقاتل: بغيرهم عملهم بالمعاصي، وقيل: يتكبرون، ويتجبرون. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً، والإشارة بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ﴾ إلى الذين يظلمون الناس، وهو مبتدأ، وخبره ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لهم بهذا السبب عذاب شديد الألم. ثم رغب سبحانه في الصبر، والعفو، فقال: ﴿وَلِمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الآذى، وغفر لمن ظلمه، ولم ينتصر، والكلام في هذه اللام، ومن كالكلام في، ولمن انتصر ﴿إِنَّ لَكُمْ﴾ الصبر، والمغفرة ﴿لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ أي: أن ذلك منه، فحذف لظهوره، كما في قولهم:

السمن منون بدرهم

قال مقاتل: من الأمور التي أمر الله بها. وقال الزجاج: الصابر يؤتى بصبره ثواباً، فالرغبة في الثواب أتم عزماً. قال ابن زيد: إن هذا كله منسوخ بالجهاد، وأنه خاص بالمشركين. وقال قتادة: إنه عام، وهو ظاهر النظم القرآني ﴿وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: فماله من أحد يلي هدايته، وينصره، وظاهر الآية العموم، وقيل: هي خاصة بمن أعرض عن النبي ﷺ، ولم يعمل بما دعاه إليه من الإيمان بالله، والعمل بما شرعه، والأول أولى.

وقد أخرج أحمد، وابن راهويه، وابن منيع، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن علي بن أبي طالب قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حثنا بها رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، وسافسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فإله أكرم من أن يعود بعد عفوّه. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي عن أبي موسى، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصيب عبداً نكبة، فما فوقها أو دونها إلا بنزب، وما يعفو الله عنه أكثر، وقرأ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ الآية». وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الكفارات، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن عمران بن حصين: أنه دخل عليه بعض أصحابه، وكان قد ابتلي في جسده، فقال: إنا لنبتش لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتش لما ترى، فإن ما ترى بنزب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ إلى آخرها. وأخرج أحمد عن معاوية بن أبي سفيان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته». وأخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما

عليك غير ذلك، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وإنا إذا أنقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾ أي: إذا أعطيناه رضاء، وصحة، وغنى فرح بها بطراً، والمراد بالإنسان: الجنس، ولهذا قال ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ أي: بلاء، وشدة، ومرض ﴿بما قُتلت أيبيهم﴾ من الذنوب ﴿فإن الإنسان كفور﴾ أي: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان. ثم ذكر سبحانه سعة ملكه، ونفاذ تصرفه، فقال: ﴿لله ملك السموات والأرض﴾ أي: له التصرف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ﴿يخلق ما يشاء﴾ من الخلق ﴿يهب لمن يشاء إنثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾. قال مجاهد، والحسن، والضحاك، وأبو مالك، وأبو عبيدة: يهب لمن يشاء إنثاً لا تذكور معه، ويهب لمن يشاء ذكراً لا إنث معهم. قيل: وتعريف الذكور بالآلف، واللام للدلالة على شرفهم على الإنث، ويمكن أن يقال: إن التقديم للإنث قد عارض ذلك، فلا دلالة في الآية على المفاضلة بل هي مسوقة لمعنى آخر. وقد دل على شرف الذكور قوله سبحانه: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله﴾ [النساء: 34]، وغير ذلك من الآلة الدالة على شرف الذكور على الإنث، وقيل: تقديم الإنث لكثرتها بالنسبة إلى الذكور، وقيل: لتطبيب قلوب آبائهن، وقيل لغير ذلك مما لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿أو يزوجهن ذكراً وإنثاً﴾ أي: يقرن بين الإنث، والذكور، ويجعلهم أزواجاً فيهبهما جميعاً لبعض خلقه. قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاماً، ثم تلد جارية، ثم تلد غلاماً، ثم تلد جارية. وقال القتيبي: التزويج هنا هو الجمع بين البنين، والبنات تقول العرب: تزجت إبلي: إذا جمعت بين الصغار، والكبار، ومعنى الآية أوضح من أن يختلف في مثله، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إنثاً، ويهب لبعض ذكراً، ويجمع لبعض بين الذكور، والإنث ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ لا يولد له ذكر، ولا أنثى، والعقيم الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم، وعقمت المرأة تعقم عقماً، وأصله القطع، ويقال: نساء عقم، ومنه قول الشاعر:

عقم النساء فما يلدن شببيه إن النساء بمثله عقم

﴿إنه عليم قدير﴾ أي: بليغ العلم عظيم القدرة ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ أي: ما صح لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله بوجه من الوجوه إلا بأن يوحي إليه، فيلهم، ويقنف ذلك في قلبه قال مجاهد: نفث ينفث في قلبه، فيكون إلهاماً منه كما أوحى إلى أم موسى، وإلى إبراهيم في نبح ولده ﴿أو من وراء حجاب﴾ كما كلم موسى، يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى، وهو: تمثيل بحال الملك المحتجب الذي يكلم خواصه من وراء حجاب ﴿أو يرسل رسولا فيوحي بإنثه ما يشاء﴾ أي: يرسل ملكاً، فيوحي ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله، وتيسيره ما يشاء أن يوحي إليه. قال الزجاج: للمعنى: أن

ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النار لما لحقهم من الذل، والهوان، والضمير في عليها راجع إلى العذاب، وإنث، لأن العذاب هو: النار، وقوله: ﴿يعرضون﴾ في محل نصب على الحال، لأن الرؤية بصرية، وكذلك خاشعين، ومن الذل يتعلق بخاشعين أي: من أجله ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ من هي التي لا ابتداء الغاية أي: يبتدئ نظره إلى النار، ويجوز أن تكون تبعية، والطرف الخفي الذي يخفي نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذل، والخوف، والوجل. قال مجاهد: ﴿من طرف خفي﴾ أي: دليل قال: وإنما ينظرون بقلوبهم؛ لأنهم يحشرون عمياً، وعين القلب طرف خفي. وقال قتادة، وسعيد بن جبير، والسدي، والقرظي: يسارقون النظر من شدة الخوف. وقال يونس: إن «من» في ﴿من طرف﴾ بمعنى الباء أي: ينظرون بطرف ضعيف من الذل، والخوف، وبه قال الأخفش ﴿وقال للذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي: أن الكاملين في الخسران هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس، والأهليين في يوم القيامة. أما خسرانهم لأنفسهم، فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسرانهم لأهليهم، فلأنهم إن كانوا معهم في النار، فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حيل بينهم، وبينهم، وقيل: خسران الأهل: أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين ﴿إلا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ هذا يجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين. ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه أي: هم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أي: لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب، وأنصار ينصرونهم في ذلك الموطن من دون الله، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ أي: من طريق يسلكها إلى النجاة. ثم أمر سبحانه عباده بالاستجابة له، وحذرهم، فقال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن ياتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي: استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به، وبكتبته، ورسله من قبل أن ياتي يوم لا يقدر أحد على رده، ودفعه، على معنى: من قبل أن ياتي من الله يوم لا يردّه أحد، أو لا يردّه الله بعد أن حكم به على عباده، ووعدهم به، والمراد به: يوم القيامة، أو يوم الموت ﴿وما لكم من ملجأ يومئذ﴾ تلجئون إليه، ﴿وما لكم من نكير﴾ أي: إنكار، والمعنى: ما لكم من إنكار يومئذ، بل تعترفون بنوكم. وقال مجاهد ﴿وما لكم من نكير﴾ أي: ناصر ينصركم، وقيل: النكير بمعنى: المنكر، كالأليم بمعنى: المؤلم أي: لا تجدون يومئذ منكراً لما ينزل بكم من العذاب قاله الكلبي، وغيره، والأول أولى. قال الزجاج: معناه: أنهم لا يقدر أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: حافظاً تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلأ بهم رقيباً عليهم ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي: ما عليك إلا البلاغ لما أمرت بإبلاغه، وليس

بضمّ التاء، وكسر الدال من أهدي، وفي قراءة أبي (وإنك لتدعو)، ثم بيّن الصراط المستقيم بقوله: ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾، وفي هذه الإضافة للصراط إلى الاسم الشريف من التعظيم له، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى، ومعنى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: أنه المالك لذلك، والمتصرف فيه ﴿إلا إلى الله تصير الأمور﴾ أي: تصير إليه يوم القيامة لا إلى غيره جميع أمور الخلائق، وفيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال: نليل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال: يسارقون النظر إلى النار. وأخرج ابن مريويه، وابن عساكر عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ قال: «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى، لأن الله قال: ﴿يهب لمن يشاء إنثاً﴾ ويهب لمن يشاء الذكور». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ قال: الذي لا يولد له. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ قال: إلا أن يبعث ملكاً يوحي إليه من عنده، أو يلهمه، فيخفف في قلبه، أو يكلمه من وراء حجاب. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وكنكك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ قال: القرآن. وأخرج أبو نعيم في الدلائل، وابن عساكر عن علي قال: «قيل لمحمد ﷺ هل عبيت وثناً قط؟ قال: لا، قالوا: فهل شربت خمراً قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب، ولا الإيمان، وبذلك نزل القرآن ﴿وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾».

تفسير سورة الزخرف

قال القرطبي: هي مكية بالإجماع. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة حمّ الزخرف بمكة. قال مقاتل: إلا قوله: ﴿وإرسال من قبلنا﴾ من رسلنا [الزخرف: 45] يعني: فإنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبِيَاءِ لَمَكْرٌ حَكِيمٌ ٤ أَنْفَضَرُبْ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُشْرِكِينَ ٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ فَأَهْلَكْنَا أَسَدِّئَهُمْ بَطْشًا وَمَعْنَى نَسْلُ الْأَوَّلِينَ ٨ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ

كلام الله للبشر: إما أن يكون بإلهام يلهمهم، أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم. وتقدير الكلام: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً، أو يكلمه من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً. ومن قرأ ﴿يرسل﴾ رفعاً أراد، وهو يرسل، فهو ابتداء، واستئناف اهـ قرأ الجمهور بنصب (أو يرسل)، وينصب (فيوحي) على تقدير أن، وتكون أن، وما سخلت عليه معطوفين على وحياً، ووحياً في محل الحال، والتقدير: إلا موحياً، أو مرسلًا، ولا يصح عطف، أو يرسل على أن يكلمه لأنه يصير التقدير: وما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً، وهو فاسد لفظاً، ومعنى. وقد قيل: في توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف. وقرأ نافع (أو يرسل) بالرفع، وكذلك (فيوحي) بإسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أو هو يرسل كما قال الزجاج، وغيره، وجملة ﴿إنه علي حكيم﴾ تعليل لما قبلها أي: متعال عن صفات النقص، حكيم في كل أحكامه.

قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى، فنزلت ﴿وكنكك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ أي: وكالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، المراد به: القرآن، وقيل: النبوة. قال مقاتل: يعني: الوحي بأمرنا، ومعناه: القرآن، لأنه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر. ثم نكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحي إليه، فقال: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾ أي: أي شيء هو، لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ، ولا يكتب، وذلك لخلل في الإعجاز، وادل على صحة نبوته، ومعنى: ﴿ولا الإيمان﴾: أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع، ولا يهتدي إلى معالمها، وخص الإيمان؛ لأنه رأسها، وأساسها، وقيل: أراد بالإيمان هنا: الصلاة. قال بهذا: جماعة من أهل العلم منهم: إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، واحتج بقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: 143] يعني: الصلاة، فسمّاها إيماناً. وذهب جماعة إلى أن الله سبحانه لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به، وقالوا: معنى الآية: ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، وقيل: كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً، وفي المهد، وقال الحسين بن الفضل: إنه على حذف مضاف أي: ولا أهل الإيمان، وقيل: المراد بالإيمان دين الإسلام، وقيل: الإيمان هنا عبارة عن الإقرار بكل ما كلف الله به العباد ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء﴾ أي: ولكن جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياءً، ولبلاً على التوحيد، والإيمان نهدي به من نشاء هدايته ﴿ومن عباننا﴾ ونرشده إلى الدين الحق ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ قال قتادة، والسدي، ومقاتل: وإنك لتدعو إلى الإسلام، فهو: الصراط المستقيم. قرأ الجمهور (لتهدي) على البناء للفاعل. وقرأ ابن حوشب على البناء للمفعول. وقرأ ابن السميع

إسرافكم، وكفركم. وقال قتادة: المعنى: أفنهلكم، ولا نأمركم، ولا ننهلكم. وروي عنه: أنه قال: المعنى: أفنمسخكم عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به. وقيل: الذكر التنكير، كأنه قال: أنترك تنكيركم ﴿إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، قرأ نافع، وحزمة، والكسائي: إِنْ كُنْتُمْ بِكُسرٍ إِنْ عَلَى أَنَّهَا الشَّرْطِيَّةُ، والجزء محذوف لدلالة ما قبله عليه. وقرأ الباقون بفتحها على التعليل أي: لأن كنتم قوماً منهكين في الإسراف مصريّن عليه، واختار أبو عبيد قراءة الفتح. ثم سلى سبحانه رسوله ﷺ، فقال: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ كم هي: الخبرية التي معناها التكرير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك ﴿فَإِهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: أهلكنا قوماً أشدَّ قوّة من هؤلاء القوم، وانتصاب بطشاً على التمييز أو الحال أي: باطشين ﴿وَمَضَىٰ مِثْلَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلف في القرآن نكرهم غير مرة. وقال قتادة: عقوبتهم، وقيل: صفتهم، والمثل: الوصف والخبر. وفي هذا تهديد شديد، لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل، وهؤلاء إِنْ استمروا على تكذيبهم والكفر بما جئت به هلكوا مثلهم ﴿وَلَوْ أَنَّ سَالَتِهِمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ أي: لئن سألت هؤلاء الكفار من قومك من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية؟ أقروا بأن الله خالقهم ولم ينكروا، وذلك أسوأ لحالهم وأشدَّ لعقوبتهم، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوه شريكاً له، بل عمدوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر من المخلوقات وهي: الأصنام فجعلوها شركاء لله. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم نعمته على عباده وكمال قدرته في مخلوقاته فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ وهذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا: الذي جعل لنا الأرض مهاداً، والمهاد الفراش والبساط، وقد تقدّم بيانه، قرأ الجمهور (مهاداً) وقرأ الكوفيون (مهداً) ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طرقاً تسلكونها إلى حيث تريدون، وقيل: معاش تعيشون بها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي: بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرائعكم ويهدم منازلكم ويهلككم بالغرق، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقييد أخرى ﴿فَنَنْشُرُهُمْ فِي بَلَدٍ مِثْلًا﴾ أي: أحياناً بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات. قرأ الجمهور (ميتاً) بالتخفيف. وقرأ عيسى وأبو جعفر بالتشديد ﴿كَذَلِكَ نَخْرِجُونَ﴾ من قبوركم أي: مثل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها تبعثون من قبوركم أحياء، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك، وقد مضى بيان هذا في آل عمران والأعراف. قرأ الجمهور (تخرجون) مبنياً

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُقَدِّرُ فَنَنْشُرُهُمْ فِي بَلَدٍ مِثْلًا كَذَلِكَ نَخْرِجُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا رَجْعًا لَّعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ لِيَسْتَأْذِنَ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا إِلَهُكُمُ الرَّحْمَنُ فَاسْجُدُوا لَنَا لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنِ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنَّمَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ضَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلُوا التَّمْلِيكَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنِّ شَاءَ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَنًا سَكَنَهُمْ وَنَسْتَعْلَمُ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿حَمَّ﴾ والكتاب المبين: الكلام ها هنا في الإعراب كالكلام الذي قدمناه في ﴿يَسَّ﴾ والقرآن الحكيم: [يس: 1، 2]، فإن جعلت حمّ قسمًا كانت الواو عاطفة، وإن لم تجعل قسمًا، فالواو للقسمة، وجواب القسم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾، وقال ابن الأنباري: من جعل جواب، والكتاب حمّ كما تقول: نزل، والله، وجب والله وقف على الكتاب المبين، ومعنى جعلناه أي: سميناه، ووصفناه، ولذلك تعدى إلى مفعولين. وقال السدي: المعنى: أنزلناه ﴿قَرَأْنَاهُ﴾. وقال مجاهد: قلناه. وقال سفيان الثوري: بيناه ﴿عَرَبِيًّا﴾، وكذا قال الزجاج أي: أنزل بلسان العرب، لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه. وقال مقاتل: لأن لسان أهل الجنة عربي ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: جعلنا ذلك الكتاب قرآنًا عربيًّا لكي تفهموه، وتتعلقوا معانيه، وتحيطوا بما فيه. قال ابن زيد: لعلكم تتفكرون ﴿وَوَإِنَّ فِي لَمَّا لَلْكَتَابِ﴾ أي: وإن القرآن في اللوح المحفوظ ﴿لِلْبَيْنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلَّيْ حَكِيمٍ﴾ رفيع القدر محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف، ولا تناقض، والجملة عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها. قال الزجاج: أم الكتاب أصل الكتاب، وأصل كل شيء أمه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ كما قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ في لوح محفوظ ﴿البروج: 21، 22﴾ وقال ابن جريج: المراد بقوله: ﴿وَوَإِنَّ﴾ أعمال الخلق من إيمان، وكفر، وطاعة، ومعصية. قال قتادة: أخبر عن منزلته، وشرفه، وفضله أي: إن كنتم به يا أهل مكة، فإنه عندنا شريف رفيع محكم من الباطل ﴿فَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ يقال: ضربت عنه، وأضربت عنه: إذا تركته، وأمست عنه، كذا قال الفراء، والزجاج، وغيرهما، وانتصاب صفحاً على المصدرية، وقيل: على الحال على معنى: أفنضرب عنكم الذكر صافحين، والصفح مصدر قولهم: صفحت عنه إذا عرضت عنه، وذلك أنك توليه صفحة وجهك، وعنقك، والمراد بالذكر هنا: القرآن، والاستفهام للإنكار، والتوبيخ. قال الكسائي: المعنى: أفنضرب عنكم الذكر طياً فلا تعوظون، ولا تؤمرون. وقال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: أفنضرب عنكم العذاب، ولا نعاقبكم على

بالجزاء هنا: الملائكة فإنهم جعلوهم أولاداً لله سبحانه قاله مجاهد والحسن. قال الأزهري: ومعنى الآية: أنهم جعلوا الله من عبادته نصيباً على معنى: أنهم جعلوا نصيب الله من الولدان ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ مَّبِينٍ﴾ أي: ظاهر الكفران مبالغ فيه، قيل: المراد بالإنسان هنا: الكافر، فإنه الذي يجحد نعم الله عليه جحوداً بيناً، ثم أنكر عليهم هذا فقال: ﴿أَمْ لَتَأْخُذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ﴾ وهذا استفهام تقريع وتوبيخ. وأم هي: المنقطعة، والمعنى: أخذ ريكب لنفسه البنات ﴿وَأَصْصَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ فجعل لنفسه المفضل من الصنفين ولكم الفاضل منهما، يقال: أصفيته بكذا أي: أثرته به، وأصفيته الود: أخلصته له، ومثل هذه الآية قوله: ﴿الْكَمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الْإُنْثَى﴾ * تلك إذا قسمة صيرى [النجم: 21] وقوله: ﴿أَصْصَاكُمْ رَيْكَبُ بِالْبَنِينَ﴾ [الإسراء: 40] وجملة وأصفاكم معطوفة على اتخذ داخلة معها تحت الإنكار. ثم زاد في تقييدهم وتوبيخهم فقال: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات، والمعنى: أنه إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتم لذلك وظهر عليه أثره، وهو معنى قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مَسْوُودًا﴾ أي: صار وجهه مسووداً بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له ذكراً مكانها ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: شديد الحزن كثير الكرب مملوء منه. قال قتادة: حزين. وقال عكرمة: مكروب، وقيل: ساكت، وجملة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في محل نصب على الحال. ثم زاد في توبيخهم وتقييدهم فقال: ﴿وَأَوْمَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مَبِينٍ﴾ معنى ينشأ: يربى، والنشوء: التربية، والحلية: الزينة، ومن في محل نصب بتقدير مقدر معطوف على جعلوا: والمعنى: أو جعلوا له سبحانه من شأنه أن يربى في الزينة وهو عاجز عن أن يقوم بأمور نفسه، وإذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته وبلغ ما يجالده به خصمه لنقصان عقله وضعف رأيه. قال المبرد: تقدير الآية: أو يجعلون له من ينشأ في الحلية أي: ينبت في الزينة. قرأ الجمهور (ينشأ) بفتح الياء وإسكان النون، وقرأ ابن عباس والضحاك، وابن وثاب، وحفص، وحزمة، والكسائي، وخلف بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين. واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار للثانية أبو عبيد. قال الهروي: الفعل على القراءة الأولى لازم، وعلى الثانية متعذر. والمعنى: يربى ويكبر في الحلية. قال قتادة: قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وقال ابن زيد والضحاك: الذي ينشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنِائًا﴾ الجعل هنا بمعنى القول، والحكم على الشيء كما تقول: جعلت زيداً أفضل الناس أي: قلت بذلك، وحكمت له به. قرأ الكوفيون (عباد) بالجمع، وبها قرأ ابن عباس. وقرأ الباقون (عند الرحمن) بنون ساكنة، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، لأن الإسناد فيها أعلى، ولأن الله إنما كذبهم في قوله: إنهم بنات الله،

للمفعول، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحزمة، والكسائي، وابن زكوان عن ابن عامر مبنياً للفاعل ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ المراد بالأزواج هنا: الأصناف، قال سعيد بن جبير: الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والسموات والأرض، والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى، وقيل: أزواج النبات، كقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: 7] و: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: 7، ولقمان: 10] وقيل: ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر، وإيمان وكفر، والأول أولى ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البحر والبر أي: ما تركبونه ﴿لَتَسْتَغْوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الضمير راجع إلى ما قاله أبو عبيد. وقال الفراء: أضاف الظهور إلى واحد، لأن المراد به: الجنس، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك ذكر، وجمع الظهر لأن المراد: ظهور هذا الجنس والاستواء: الاستلاء أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا لَسْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هذه النعمة التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبر. وقال مقاتل والكلبي: هو أن يقول: الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي: نل لنا هذا المركب، وقرأ علي بن أبي طالب (سبحان من سخر لنا هذا) قال قتادة: قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتهم، ومعنى ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مَقْرِنِينَ﴾ ما كنا له مطيقين، يقال: اقترن هذا البعير إذا أطلقه. وقال الأخفش وأبو عبيدة: مقرنين ضابطين، وقيل: مماثلين له في القوة، من قولهم هو: قرن فلان إذا كان مثله في القوة، وأنشد قطرب قول عمرو بن معيكر: لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنيننا وقال آخر:

ركبتهم صعبتي أشروجن ولستم للصعاب بمقرنيننا والمراد بالأنعام هنا الإبل خاصة، وقيل الإبل والبقر، والأول أولى ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون إليه، وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة. ثم رجع سبحانه إلى نكر الكفار الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ قال قتادة: أي: عدلاً، يعني: ما عبد من دون الله. وقال الزجاج والمبرد: الجزء هنا البنات، والجزء عند أهل العربية البنات، يقال: قد أجزأت المرأة: إذا ولدت البنات، ومنه قول الشاعر:

إن أجزأت حزة يوماً فلا عجب قد تجزئ الحرة المنكار لحياناً

وقد جعل صاحب الكشف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير، وصرح بأنه مكنوب على العرب. ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي من قوله: ﴿أَمْ لَتَأْخُذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِائًا﴾ وقيل: المراد

فإنها في مصحفي (عند الرحمن) قال: فامحها، واكتبها **﴿عباد الرحمن﴾**.

أَمْ أَنْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَأَنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُنْهَدُونَ ﴿١٧﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَأَنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُنْهَدُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أُولَئِكَ جُنُودٌ لَّهُمْ هَدَىٰ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِم مَّارَآةً مَّا قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ فَانقَضْنَا مِنْهُمْ فَاظْفَرُ كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرجِعُونَ ﴿٢٣﴾ بَلْ مَنَعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٤﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢٦﴾ أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّهُمْ قَسَمْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْخِزْيَةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سَفْهًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَاجٍ عَلَيْهِمْ يُظْهِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَلِيُؤْيِسَهُمُ الْآيَاتُ وَهُمْ لَا يَكَادُونَ ﴿٢٩﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعٌ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾

قوله: **﴿إمام أتيناها كتاباً من قبله﴾** أم هي المنقطعة أي: بل أعطيناهم كتاباً من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله **﴿فهم به مستمسكون﴾** يأخذون بما فيه، ويحتجون به، ويجعلونه لهم دليلاً، ويحتمل: أن تكون أم معاملة لقوله: **﴿اشهدوا﴾** [الزخرف: 19]، فتكون متصلة، والمعنى: أحضروا خلقهم أم أتيناها كتاباً إلخ. وقيل: إن الضمير في **﴿من قبله﴾** يعود إلى أنعائهم أي: أم أتيناها كتاباً من قبل أنعائهم ينطق بصحة ما يدعونه، والأول أولى. ثم بين سبحانه: أنه لا حجة بأيديهم، ولا شبهة، ولكنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة، فقال: **﴿بيل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾**، فاعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم، ومعنى على أمة: على طريقة، ومذهب، قال أبو عبيد: هي: الطريقة، والدين، وبه قال قتادة، وغيره. قال الجوهري: والأمة: الطريقة، والدين، يقال: فلان لا أمة له أي: لا دين له، ولا نحلة، ومنه قول قيس بن الخطيم:

كنا على أمة آبائنا ونقتدي بالأول الأول
وقول الآخر:

وهل يستوي ذا أمة وكفور

وقال الفراء، وقطرب: على قيلة. وقال الأخفش: على استقامة، وأنشد قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل ياتمن نومة وموطئ
قرأ الجمهور (أمة) بضم الهمزة، وقرأ مجاهد، وقاتدة، وعمر بن عبد العزيز بكسرها. قال الجوهري: والإمة

فأخبرهم أنهم عباده، ويؤيد هذه القراءة قوله: **﴿بيل عباد مكرمون﴾** [الأنبياء: 26]، واختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: وتصديق هذه القراءة قوله: **﴿إن الذين عند ربك﴾** [الأعراف: 206]، ثم وبخهم، وقرعهم، فقال: **﴿اشهدوا خلقهم﴾** أي: أحضروا خلق الله إياهم، فهو من الشهادة التي هي: الحضور، وفي هذا تهكم بهم، وتجهيل لهم. قرأ الجمهور (اشهدوا) على الاستفهام بدون واو. وقرأ نافع (أو اشهدوا). وقرأ الجمهور (ستكتب شهادتهم) بضم التاء، الفوقية، وبناء الفعل للمفعول، ورفع شهادتهم، وقرأ السلمي، وابن السميعة، وهبيرة عن حفص بالنون، وبناء الفعل للفاعل، ونصب شهادتهم، وقرأ أبو رجاء (شهاداتهم) بالجمع، والمعنى: سنكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم، لنجازيهم على ذلك **﴿ويسألون﴾** عنها يوم القيامة **﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبناهم﴾** هذا فن من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء، والسخرية، ومعناه: لو شاء الرحمن في زعمكم ما عبنا هذه الملائكة، وهذا كلام حق يراد به باطل، وقد مضى بيانه في الانعام، فبين سبحانه جهلهم بقوله: **﴿وما لهم بذلك من علم﴾** أي: ما لهم بما قالوه من أن الله لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما عبدهم من علم، بل تكلموا بذلك جهلاً، وأرادوا بما صورته صورة الحق باطلاً، وزعموا أنه إذا شاء، فقد رضي. ثم بين انتفاء علمهم بقوله: **﴿إن هم إلا يخرصون﴾** أي: ما هم إلا يكذبون، فيما قالوا، ويتمحلون تحلاً باطلاً. وقيل: الإشارة بقوله: **﴿ذلك﴾** إلى قوله: **﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾**. قاله قتادة، ومقاتل، والكلبي، وقال مجاهد، وابن جريج أي: ما لهم بعبادة الأوثان من علم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن أول ما خلق الله من شيء القلم، وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، والكتاب عنده، ثم قرأ **﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾**. وأخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعاً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿افنضرب عنكم الذكر صفحاً﴾** قال: أحببت أن يصفح عنكم، ولم تفعلوا ما أمرتم به. وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر ركب راحلته، ثم كبر ثلاثاً، ثم قال: **﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾** * **﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وما كنا له مقرنين﴾** قال: مطبقين. وأخرج عبد بن حميد عنه **﴿أو عن ينشأ في الحلية﴾** قال: هو: للنساء فرق بين زيهن، وزِي الرجال، ونقصهن من الميراث، وبالشهادة، وأمرهن بالقعدة، وسماهن الخوالف. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال: كنت أقرأ هذا الحرف (الذين هم عباد الرحمن إناثاً)، فسألت ابن عباس فقال: عباد الرحمن؟ قلت:

بالكسر: النعمة، والإمة: أيضاً لغة في الأمة. ومنه قول عدي بن زيد:

ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك قبور
ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم إلى
هذه المقالة، وقال بها، فقال: ﴿وَكُنْكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى
أَمَةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ متترفوها: أغنيأوها،
ورؤسأوها، قال قتادة: مقتدون متبعون، ومعنى الاهتداء،
والاقتداء متقارب، وخصص المترفين تنبيهاً على أن التمتع
هو سبب إهمال النظر. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن
يردّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ أُولُو جُنُتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجِئْتُمْ
عَلَيْهِهَ آبَاءَكُمْ﴾ أي: اتّبعون آباءكم، ولو جئتكم بدين أهدى
من دين آبائكم، قال الزجاج: المعنى: قل لهم اتّبعون ما
وجئتم عليه آباءكم، وإن جئتكم بآهدى منه. قرأ الجمهور
(قل أُولُو جُنُتِكُمْ)، وقرأ ابن عامر، وحفص (قال أو لو
جئتكم)، وهو حكاية لما جرى بين المنذرين، وقومهم أي:
قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته، وقيل: إن كلا
القراءتين حكاية لما جرى بين الأنبياء، وقومهم، كأنه قال:
لكل نبي قل، بدليل قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ﴾، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد،
وقبحه، فإن هؤلاء المقلدة في الإسلام إنما يعملون بقول
أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتنون بهم، فإذا رام الداعي إلى
الحق أن يخرجهم من ضلالة، أو يدفعهم عن بدعة قد
تمسكوا بها، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير، ولا حجة
واضحة، بل بمجرد قال، وقيل لشبهة داحضة، وحجة زائفة،
ومقالة باطلة، قالوا: بما قاله المترفون من هذه الملل: إنا
وجدنا آبائنا على أمة، وإنا على آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، أو بما يلاقي
معناه معنى ذلك، فإن قال لهم الداعي إلى الحق: قد جمعنا
الملة الإسلامية، وشملنا هذا الدين المحمدي، ولم يتبعينا
الله، ولا تعبدكم، وتعيد آباءكم من قبلكم إلا بكتابه الذي أنزله
على رسوله، وبما صحّ عن رسوله، فإنه المبين لكتاب الله
الموضح لمعانيه، الفارق بين محكمه، ومتشابهه، ففعلوا نردّ
ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله، وسنة رسوله كما أمرنا الله
بنلك في كتابه بقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]، فإن الردّ إليهما أهدى لنا، ولكم من
الردّ إلى ما قاله أسلافكم، ودرج عليه آبائكم، نفروا نفور
الوحوش، ورموا الداعي لهم إلى ذلك بكل حجر، ومنر، كأنهم
لم يسمعوا قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا
دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا
وَاطَعْنَا﴾ [النور: 51]، ولا قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً
مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: 65]، فإن قال لهم
القاتل: هذا العالم الذي تقتنون به، وتتبعون أقواله هو مثلكم
في كونه متعبداً بكتاب الله، وسنة رسوله، مطلوباً منه ما هو
مطلوب منكم، وإذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل، فذلك

رخصة له لا يحلّ أن يتبعه غيره عليها، ولا يجوز له العمل
بها، وقد وجدوا الدليل الذي لم يجده، وما أنا أوجبكموه في
كتاب الله، أو فيما صحّ من سنة رسوله، وذلك أهدى لكم مما
وجئتم عليه آباءكم، قالوا: لا نعمل بهذا، ولا سمع لك، ولا
طاعة، ووجدوا في صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب،
والسنة، ولم يسلموا ذلك، ولا أذعنوا له، وقد وهب لهم
الشيطان عصي يتوكلون عليها عند أن يسمعوا من يدعوهم
إلى الكتاب، والسنة، وهي: أنهم يقولون: إن إمامنا الذي
قلدناه، واقتدينا به أعلم منك بكتاب الله، وسنة رسوله، وذلك
لأن أذهانهم قد تصوّرت من يقتنون به تصوراً عظيماً بسبب
تقدّم العصر، وكثرة الاتباع، وما علموا أن هذا منقوض
عليهم مدفوع به في وجوههم، فإنه لو قيل لهم: إن في
التابعين من هو أعظم قدراً، وأقدم عصراً من صاحبكم، فإن
كان لتقدم العصر، وجلالة القدر مزية حتى توجب الاقتداء،
ففعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصراً، وأجل قدراً، فإن
أبيتم ذلك، ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدراً
من صاحبكم علماً، وفضلاً، وجلالة قدر، فإن أبيتم ذلك، فما
أنا ألكم علي من هو أعظم قدراً، وأجل خطراً، وأكثر أتباعاً،
وأقدم عصراً، وهو: محمد بن عبد الله نبينا، ونبيكم، ورسول
الله إلينا، وإليكم، ففعالوا، فهذه سنته موجودة في دفاتر
الإسلام، ودواوينه التي تليقها جميع هذه الأمة قرناً بعد
قرن، وعصراً بعد عصر، وهذا كتاب ربنا خالق الكل، ورازق
الكل، وموجد الكل بين أظهرنا موجود في كل بيت، وبيد كل
مسلم لم يلحقه تغيير، ولا تبديل، ولا زيادة، ولا نقص، ولا
تحريف، ولا تصحيف، ونحن، وأنتم ممن يفهم ألفاظه،
ويتعلل معانيه، ففعالوا لناخذ الحق من معنائه، ونشرب صفو
الماء من منبعه، فهو أهدى مما وجئتم عليه آباءكم، قالوا: لا
سمع، ولا طاعة، إما بلسان المقال، أو بلسان الحال، فتعبر
هذا، وتامله إن بقي فيك بقية من إنصاف، وشعبة من خير،
ومزعة من حياة، وحصّة من دين، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العليّ العظيم. وقد أوضحت هذا غاية الإيضاح في كتابي
الذي سمّيته «أدب الطلب ومنتهى الأرب»، فارجع إليه إن
رمت أن تنجلي عنك ظلمات التعصب، وتتقشع لك سحائب
التقليد ﴿فَانْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾، وذلك الانتقام ما أوقعه الله بقوم
نوح، وعاد، وثمود ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ من
تلك الأمم، فإن آثارهم موجودة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِ﴾ أي: وانكر لهم وقت قوله لأبيه، وقومه الذين قلدوا
آباءهم، وعبدوا الأصنام ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء
مصدر نعت به للمبالغة، وهو يستعمل للواحد، والمثنى،
والمجموع، والمنكر، والمؤنث. قال الجوهري: وتبرأت من
كذا، وأنا منه براء، وخلاء، لا يثنى، ولا يجمع لأنه مصدر في
الأصل، ثم استثنى خالقه من البراءة، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِي
فَطَرَنِي﴾ أي: خلقتني ﴿فَإِنَّهُ سَيَّهَدِينِ﴾ سيرشدني لدينه،
ويثبتني على الحق، والاستثناء إما منقطع أي: لكن الذي
فطرني، أو متصل من عموم ما، لأنهم كانوا يعبدون الله،

ورفع درجات بعضهم على بعض، فكيف لا يقتنعون بقسمته في أمر النبوة، وتفويضها إلى من يشاء من خلقه. قال مقاتل: يقول: أبائهم مفاتيح الرسالة، فيضعونها حيث شاءوا؟ قرأ الجمهور (معيشتهم) بالإفراد، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن (معاشهم) بالجمع ﴿و﴾ معنى ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾: أنه فاضل بينهم، فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق، والرياسة، والقوة، والحرية، والعقل، والعلم، ثم نكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض، فقال: ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي: ليستخدم بعضهم بعضاً، فيستخدم الغني الفقير، والرئيس المرعوس، والقوي الضعيف، والحر العبد، والعاقل من هو بونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم، وينتظم معاشهم، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم لئون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض، لهذا، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا هذا. قال السدي، وابن زيد: سخرنا خولنا، وخدمنا يسخر الأغنياء الفقراء، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً، وقيل: هو من السخرية التي بمعنى: الاستهزاء، وهذا، وإن كان مطابقاً للمعنى اللغوي، ولكنه بعيد من معنى القرآن، ومنافٍ لما هو مقصود السياق ﴿ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ يعني بالرحمة: ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، وقيل: هي النبوة لأنها المراد بالرحمة المتقدمة في قوله: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ ولا مانع من أن يراد كل ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولاً أو بدلاً، ومعنى ﴿مما يجمعون﴾: ما يجمعونه من الأموال، وسائر متاع الدنيا. ثم بين سبحانه حقارة الدنيا عنده، فقال: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ أي: لولا أن يجتمعوا على الكفر ميلاً إلى الدنيا، وزخرفها ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة﴾ جمع الضمير في بيوتهم، وأفرده في يكفر باعتبار معنى من لفظها، ولبيوتهم بدل اشتغال من الموصول، والسقف جمع سقف، قرأ الجمهور بضم السين، والقاف كرهن، وrehن. قال أبو عبيدة: ولا ثالث لهما. وقال الفراء: هو جمع سقيف نحو كثيب، وكثب، ورغيف، ورغف، وقيل: هو جمع سقوف، فيكون جمعاً للجمع. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح السين، وإسكان القاف على الإفراد، ومعناه الجمع لكونه للجنس. قال الحسن: معنى الآية: لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا، وتركهم الآخرة لأعطيتهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند الله، وقال بهذا أكثر المفسرين. وقال ابن زيد: لولا أن يكون الناس أمة واحدة في طلب الدنيا، واختيارهم لها على الآخرة. وقال الكسائي: المعنى: لولا أن يكون في الكفار غني، وفقير، وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهواتها ﴿ومعارج عليها

والأصنام، وإخباره بأنه سيهديه جزماً لثقتة بالله سبحانه، وقوة يقينه ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ الضمير في جعلها عائذ إلى قوله: ﴿إلا الذي فطرني﴾، وهي بمعنى التوحيد كأنه قال: وجعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم، وهم: نزيته، فلا يزال فيهم من يوحد الله سبحانه، وفاعل جعلها إبراهيم، وذلك حيث وصاهم بالتوحيد، وأمرهم بأن يدينوا به كما في قوله: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ [البقرة: 132] الآية، وقيل: الفاعل هو الله عز وجل أي: وجعل الله عز وجل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم، والعقب من بعد. قال مجاهد، وقتادة: الكلمة لا إله إلا الله لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة. وقال عكرمة: هي: الإسلام. قال ابن زيد: الكلمة هي: قوله: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ [البقرة: 131]، وجملة ﴿لعلهم يرجعون﴾ تعليل للجعل أي: جعلها باقية رجاء أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحد. وقيل: الضمير في لعلهم راجع إلى أهل مكة أي: لعل أهل مكة يرجعون إلى دينك الذي هو: دين إبراهيم. وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير: فإنه سيهديهم لعلهم يرجعون، وجعلها الخ. قال السدي: لعلهم يتوبون، فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله. ثم نكر سبحانه نعمته على قريش، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم، فقال: ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم﴾ أضرب عن الكلام الأول إلى نكر ما متعهم به من الأنفس، والأهل، والأموال، وأنواع النعم، وما متع به آباءهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة، فاغترأوا بالمهلة، واكبوا على الشهوات ﴿حتى جاءهم الحق﴾ يعني: القرآن ﴿ورسول مبين﴾ يعني: محمداً ﷺ، ومعنى مبين: ظاهر الرسالة واضحا، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فلم يجيبوه، ولم يعملوا بما أنزل عليه. ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحق، فقال: ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ أي: جاحدون، فسموا القرآن سحراً، وجحدوه. واستحقروا رسول الله ﷺ ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ المراد بالقريتين: مكة، والطائف، وبالرجلين: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف كذا قال قتادة، وغيره. وقال مجاهد، وغيره: عتبة بن ربيعة من مكة، وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وقيل غير ذلك. وظاهر النظم أن المراد: رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسود في قومه والمعنى: أنه لو كان قرأناً لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ يعني: النبوة، أو ما هو أعم منها، والاستقهام للإنكار. ثم بين أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا، فقال: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾، ولم نفوض ذلك إليهم، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده، وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم،

وسرر فضة، وزخرفاً وهو: الذهب. وأخرج الترمذي وصححه، وابن ماجه، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تنز عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء».

وَمَنْ يَمُتْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يَرَيْنِ ﴿١٧٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٧١﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمُتَرَفَةِ قَيْسَ الْقَرْيَةِ ﴿١٧٢﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُحَرِّفُونَ الْكَلِمَاسَ مَوَازِينَ ﴿١٧٣﴾ أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُونَ السَّمْعَ أَوْ تَهْدِي السَّمْعَ وَمَنْ كَانَتْ فِي صُلْبِكَ مُيَبِّدٌ ﴿١٧٤﴾ فَإِنَّمَا نَذِيرٌ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْ يُمِيقُونَ ﴿١٧٥﴾ أَوْ يُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّتَذَكِّرُونَ ﴿١٧٦﴾ فَاسْتَسْمِعْ بِآلِئِ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّمَا لَكَ لَذَكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْشَرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَرَسُولٌ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله: ﴿وَمَنْ يَمُتْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يقال: عشوت إلى النار: قصديتها، وعشوت عنها أعرضت عنها، كما تقول: عدلت إلى فلان، وعدلت عنه، وملت إليه، وملت عنه، كذا قال الفراء، والزجاج، وأبو الهيثم، والأزهري. فالمعنى: ومن يعرض عن ذكر الرحمن. قال الزجاج: معنى الآية: أن من أعرض عن القرآن، وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان يقبضه له حتى يضل، ويلزمه قريناً له، فلا يهتدي مجازاة له حين أثر الباطل على الحق البين. وقال الخليل: العشو النظر الضعيف، ومنه:

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريح هبت والمكان جديب والظاهر أن معنى البيت: القصد إلى النار لا النظر إليها ببصر ضعيف كما قال الخليل، فيكون دليلاً على ما قدمنا من أنه يأتي بمعنى: القصد، وبمعنى: الإعراض، وهكذا ما أنشده الخليل مستشهداً به على ما قاله من قول الحطيئة:

متى تآته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد فإن الظاهر أن معناه: تقصد إلى ضوء ناره، لا تنظر إليها ببصر ضعيف. ويمكن أن يقال: إن المعنى في البيتين: المبالغة في ضوء النهار، وسطوعها، بحيث لا ينظرها الناظر إلا كما ينظر من هو معشي البصر لما يلحق بصره من الضعف عند ما يشاهده من عظم وقودها. وقال أبو عبيدة، والأخفش: إن معنى: ﴿وَمَنْ يَمُتْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، ومن تظلم عينه، وهو نحو قول الخليل، وهذا على قراءة الجمهور (من يعش) بضم الشين من عشا يعشو. وقرأ ابن عباس، وعكرمة (ومن يعش) بفتح الشين، يقال: عشي الرجل يعشى عشيًا إذا عسى، ومنه قول الأعشى:

رأت رجلاً غائب الوافدين ومختلف الخلق أعشى ضريرا وقال الجوهري: والعشا مقصور مصدر الأعشى وهو: الذي لا يبصر بالليل، ويبصر بالنهار، والمرأة عشواء. وقرئ (يعشو) بالواو على أن «من» موصولة غير متضمنة معنى الشرط. قرأ الجمهور (نقيض له شيطانا) بالنون وقرأ

يظهرون﴾ المعارج: الدرج جمع معراج، والمعراج السلم. قال الأخفش: إن شئت جعلت الواحدة معرج، ومعرج مثل: مرقاة، ومرقاة، والمعنى: فجعلنا لهم معارج من فضة عليها يظهرون أي: على المعارج يرتقون، ويصعدون، يقال ظهرت على البيت أي: علوت سطحه، ومنه قول النابغة:

بلغنا السماء مجداً وفخراً وسودداً وإننا لنرجو فوق ذلك مظهراً
أي: مصعداً ﴿وَلِيَبْيُوتَهُمْ أَبْوَاباً وَسِرّاً﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة، وسرراً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ﴾ أي: على السرر، وهو جمع سرير، وقيل: جمع أسرة، فيكون جمعاً للجمع، والاتكاء، والتوكؤ: التحامل على الشيء، ومنه ﴿أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا﴾ [طه: 18] واتكأ على الشيء، فهو: متكئ، والموضع متكئ، والزخرف: الذهب. وقيل: الزينة أعم من أن تكون ذهباً، أو غيره. قال ابن زيد: هو: ما يتخذها الناس في منازلهم من الأمثلة، والأثاث. وقال الحسن: النقوش، وأصله الزينة، يقال: زخرفت الدار أي: زينتها، ﴿وَوُجُوهٌ زَاخِرَةٌ﴾ بفعل مقدر أي: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً، أو بنزع الخافض أي: أبواباً، وسرراً من فضة، ومن ذهب، فلما حنف الخافض انتصب. ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا، فقال: ﴿وَأَنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا مَتَاعٌ لِّحَيَاتِهِ الدُّنْيَا﴾ قرأ الجمهور (لما) بالتحفيف، وقرأ عاصم، وحمره، وهاشم عن ابن عامر بالتشديد. فعلى القراءة الأولى تكون إن هي المخففة من الثقيلة، وعلى القراءة الثانية هي النافية، ولما بمعنى إلا أي: ما كل ذلك إلا شيء يتمتع به في الدنيا. وقرأ أبو رجاء بكسر اللام من (لما) على أن اللام لليلة، وما موصولة، والعائد محذوف أي: للذي هو متاع ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الشرك، والمعاصي، وأمن بالله وحده، وعمل بطاعته، فإنها الباقية التي لا تفنى، ونعيمها الدائم الذي لا يزول.

وقد أخرج ابن جرير، عن ابن عباس ﴿وَأَنَا وَجِنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ قال: على دين. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿فِي عَقِبِهِ﴾ قال: عقب إبراهيم ولده. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عنه أيضاً: أنه سئل عن قول الله: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ما القريةتان؟ قال: الطائف، ومكة، قيل: فمن الرجلان؟ قال: عمير بن مسعود، وخيار قریش. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً قال: يعني بالقريةتين: مكة والطائف، والعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، وحبيب بن عمير الثقفي. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعنون أشرف من محمد: الوليد بن المغيرة من أهل مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية يقول: لولا أن نفعل الناس كلهم كافراً لجعلت لبيوت الكفار سقفاً من فضة، ومعارج من فضة، وهي: درج عليها يصعدون إلى الغرف،

كثير من المفسرين: قد أراه الله ذلك يوم بدر. وقال الحسن، وقتادة: هي: في أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبي ﷺ من الفتن، وقد كان بعد النبي ﷺ فتنة شديدة، فآكرم الله نبيه ﷺ، وذهب به، فلم يره في أمته شيئاً من ذلك، والأول أولى **﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾** أي: من القرآن. وإن كُتِبَ به من كُتِبَ **﴿إنك على صراط مستقيم﴾** أي: طريق واضح، والجملة تعليل لقوله **﴿فاستمسك﴾** **﴿وإنه لنذكر لك ولقومك﴾** أي: وإن القرآن لشرف لك، ولقومك من قريش إذ نزل عليك، وأنت منهم بلغتك، ولغتهم، ومثله قوله: **﴿لقد أنزلنا إليك كتاباً فيه نكرمك﴾** [الأنبياء: 10]، وقيل: بيان لك، ولامتك فيما لكم إليه حاجة. وقيل: تنكرة تذكرون بها أمر الدين، وتعملون به **﴿وسوف تستلثون﴾** عما جعله الله لكم من الشرف، كذا قال الزجاج، والكليبي، وغيرهما. وقيل: يستلثون عما يلزمهم من القيام بما فيه، والعمل به **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا لجعلنا من بون الرحمن آلهة يعبدون﴾** قال الزهري، وسعيد بن جبير، وابن زيد: إن جبريل قال ذلك للنبي ﷺ لما أسري به. فالمراد: سؤال الأنبياء في ذلك الوقت عند ملاقاته لهم، وبه قال جماعة من السلف. وقال المبرد، والزجاج، وجماعة من العلماء: إن المعنى: واسأل أمم من قد أرسلنا. وبه قال مجاهد، والسدي، والضحاك، وقتادة، وعطاء، والحسن ومعنى الآية على القولين: سؤالهم هل آمن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل، وهل سوغ ذلك لأحد منهم؟ والمقصود: تقرير مشركي قريش بأن ما هم عليه لم يأت في شريعة من الشرائع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشاً قالت: قيسوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه، فقيضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله، فأتاه، وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعونني؟ قال: ادعوك إلى عبادة اللات، والعزى. قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: أولاد الله. قال: وما العزى. قال: بنات الله. قال أبو بكر: فمن أهمهم؟ فسكت طلحة، فلم يجبه، فقال لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأنزل الله **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾** الآية. وثبت في صحيح مسلم، وغيره أن مع كل إنسان قريناً من الجن. وأخرج ابن مردويه عن علي في قوله: **﴿إما نذهبن بك﴾** قال: ذهب نبيه ﷺ، وبقيت نغمته في عدوه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾** قال: يوم بدر. وأخرج ابن جريج، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق عنه في قوله: **﴿وإنه لنذكر لك ولقومك﴾** قال: شرف لك، ولقومك. وأخرج ابن عدي، وابن مردويه عن علي، وابن عباس قالاً: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة، ويعددهم الظهور، فإذا قالوا: لمن الملك بعنك؟ أمسك، فلم يجبههم بشيء؛ لأنه لم يؤمر في

السلامي، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، وعصمة عن عاصم، والاعمش بالتحية مبنياً للفاعل، وقرأ ابن عباس بالتحية مبنياً للمفعول ورفع شيطان على النياحة **﴿فهو له قرين﴾** أي: ملازم له لا يفارقه، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه **﴿وإنهم ليصنّونهم عن السبيل﴾** أي: وإن الشياطين الذين يقضيه الله لكل أحد ممن يعشو عن نكر الرحمن كما هو معني من ليصنّونهم أي: يحولون بينهم، وبين سبيل الحق، ويمنعونهم منه، ويوسسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنون صدق ما يوسسون به، وهو معني قوله: **﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾** أي: يحسب الكفار بأن الشياطين مهتدون، فيطيعونهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم في انفسهم مهتدون **﴿حتى إذا جاءنا﴾** قرأ الجمهور بالتثنية أي: الكافر، والشيطان المقارن له، وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وحفص بالإفراد أي: الكافر، أو جاء كل واحد منها **﴿قال﴾** الكافر مخاطباً للشيطان **﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾** أي: بعد ما بين المشرق، والمغرب، فغلب المشرق على المغرب. قال مقاتل: يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة من مشرق أقصر يوم في السنة، والأول أولى، وبه قال الفراء **﴿فبئس القرين﴾** المخصوص بالذم محذوف أي: أنت أيها الشيطان **﴿ولن ينفعكم اليوم﴾** هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة **﴿إذ ظلمتم﴾** أي: لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، وقيل: إن «إذ» بدل من اليوم؛ لأنه تبين في ذلك اليوم أنهم ظلموا أنفسهم في الدنيا. قرأ الجمهور (أنكم في العذاب مشتركون) بفتح أن على أنها، وما بعدها في محل رفع على الفاعلية أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب. قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب؛ لأن لكل أحد من الكفار، والشياطين الحظ الأوفر منه. وقيل: إنها للتعليل لنفي النفع أي: لأن حقكم أن تشاركوا أنتم، وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا، ويقوّي هذا المعنى قراءة ابن عامر على اختلاف عليه فيها بكسر إن، ثم نكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة، والوعظ من سبقت له الشقاوة، فقال: **﴿فأنت تسمع الصمّ أو تهدي العمي﴾** الهزئة لإنكار التعجب أي: ليس لك ذلك، فلا يضيق صدرك إن كفروا، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وإخبار له أنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، وقوله: **﴿ومن كان في ضلال مبين﴾** عطف على العمي أي: إنك لا تهدي من كان كذلك، ومعنى الآية: أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصمّ الذين لا يعقلون ما جئت به، وبمنزلة العمي الذين لا يبصرون لإفراطهم في الضلالة، وتمكنهم من الجهالة **﴿فإما نذهبن بك﴾** بالموت قبل أن ينزل العذاب بهم **﴿فإننا منهم منتقمون﴾** إما في الدنيا، أو في الآخرة. وقيل: المعنى: نخرجك من مكة **﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾** من العذاب قبل موتك **﴿فإننا عليهم مقتدرون﴾** متى شئنا عذبناهم. قال

ذلك بشيء حتى نزلت ﴿وَإِنَّهُ لَنُكَرُّ لَكَ وَلِقَوْمَكَ﴾، فكان بعد إذا سئل قال: قريش، فلا يجيبونه حتى قبلته الانتصار على ذلك. وأخرج عبد بن حميد عن طريق الكلبي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ قال: أسال الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْزَنُونَ ﴿٢﴾ وَمَا يُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَبُ مِنْهُمْ جِجَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْكَاذِبُ سَاءَ عَهْدُ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُرُونَ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يُتَوَارَىٰ آلِيسَ لِي مَلِكٌ وَمَعَهُ هَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ خَرَّ مِنْ هَٰذَا الْآلِ هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبُيِّنُ ﴿٧﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسْرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُفَرِّقِينَ ﴿٨﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٩﴾ فَلَمَّا ءَامَسُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ ﴿١١﴾

لما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عبوه، ونكر اتفاق الأنبياء على التوحيد اتبعه بنكر قصة موسى، وفرعون، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النعمة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾، وهي: التسع التي تقدم بيانها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ الملا: الأشراف ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني إليكم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْزَنُونَ﴾ استهزاء وسخرية، وجواب لما هو إذا الفجائية، لأن التقدير: فاجئوا وقت ضحكهم ﴿وَمَا نُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها، وأعظم قدرًا مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها، وقيل: المعنى: إن الأولى تقتضي علماء، والثانية تقتضي علماء، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح، ومعنى الأخوة بين الآيات: أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها على صحة نبوة موسى كما يقال: هذه صاحبة هذه أي: هما قرينتان في المعنى. وجملة ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ في محل جر صفة لآية، وقيل: المعنى: أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات، ومثل هذا قول القائل:

من تلق منهم ثقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري
﴿وَأَخْبَنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: بسبب تكذيبهم بتلك الآيات، والعذاب هو المنكور في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: 130] الآية، وبين سبحانه أن العلة في أخذه لهم بالعذاب هو: رجاء رجوعهم، ولما عابنا ما جاءهم به من الآيات البينات، والدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْكَاذِبُ﴾، وكانوا يسمون العلماء سحرة، ويوقرون السحرة، ويعظمونهم، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم. قال الزجاج: خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر

بت مثل قرن الشمس في ريق الضحى وصورتها أم أنت في العين أملح أي: بل أنت. وحكي الفراء أن بعض القراء قرأ (أما أنا خير) أي: الست خيراً من هذا الذي هو مهين أي: ضعيف حقير ممتهن في نفسه لا عز له ﴿وَلَا يَكَادُ بَيِّنُ﴾ الكلام لما في لسانه من العقدة، وقد تقدم بيانه في سورة طه ﴿فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ اسْمُورَةُ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: فهلا حلى بأسورة الذهب إن كان عظيماً، وكان الرجل فيهم إذا سؤوه سؤوه بسوار من ذهب، وطؤوه بطوق من ذهب. قرأ الجمهور (أسورة) جمع أسورة جمع سوار. وقال أبو عمرو بن العلاء: واحد الأسورة، والأساور، والأساوير

﴿لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَقَالُوا
 الْمَلَأْنَا خَيْرًا مِنْهُمَا صُرِفُوا لَكَ إِلَّا جَدًّا لَمْ يَفَرْقُوا حَصُونًا ﴿٧٨﴾ إِنَّ هُوَ
 إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَمَعْنَا بَيْنَكَ
 مَلَائِكَتَكَ فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَعْلَمُونَ إِلَّا السَّاعَةَ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَالْيَهُودُ
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٨١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٨٢﴾
 وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
 تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَتَوْا اللَّهَ وَطَاعَتَهُ ﴿٨٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا
 صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٨٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
 عَذَابٍ يَوْمَ الْبَاسِ ﴿٨٥﴾ مَلْ يَطْرُقُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
 يَشْعُرُونَ ﴿٨٦﴾ الْأَخْلَاقُ يَوْمَهُمْ تَعْلَمُهُمْ لِبَعْضِ عَذَابٍ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٨٧﴾
 يَوْمَئِذٍ لَا تَخَافُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنتَ تَحْزَنُورُونَ ﴿٨٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا
 وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ اتَّخَذُوا الْجَنَّةَ أَنتَ وَأَزْوَاجُكَ حَصُونًا ﴿٩٠﴾
 يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُيهِ النَّاسُ وَتَكُنُّ
 الْأَعْيُنُ وَأَنْتَ فِيهَا خَالِدٌ ﴿٩١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورَثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٩٣﴾

لما قال سبحانه: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
 أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] تعلق
 المشركون بأمر عيسى، وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتخذ
 إلهًا كما اتخذ النصارى عيسى ابن مريم، فأنزل الله:
 ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ كذا قال قتادة، ومجاهد.
 وقال الواحدي: أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في
 مجادلة ابن الزبيري مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى:
 ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:
 98]، فقال ابن الزبيري: خصمتك، ورب الكعبة، اليس
 النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيزًا، وبنو مليح
 الملائكة؟ ففرح بذلك من قوله، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ
 لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101]،
 ونزلت هذه الآية المذكورة هنا، وقد مضى هذا في سورة
 الأنبياء. ولا يخفك أن ما قاله ابن الزبيري من دفع من أصله،
 وباطل برمته، فإن الله سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾
 [الأنبياء: 98]، ولم يقل: ومن تعبدون حتى يدخل في ذلك
 العقلاء كالمسيح، وعزير، والملائكة ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ
 يَصِدُّونَ﴾ أي: إذا قومك يا محمد من ذلك المثل المضروب
 يصدون أي: يضجون، ويصيحون فرحًا بذلك المثل
 المضروب، والمراد بقومه هنا: كفار قريش. قرأ الجمهور
 (يصدون) بكسر الصاد، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي
 بضمها. قال الكسائي، والفراء، والزجاج، والأخفش: هما
 لغتان، ومعناها: يضجون قال الجوهري: صَدَّ يَصْدُ صَدِيدًا
 أي: ضج. وقيل: إنه بالضم الإعراض، وبالكسر من الضجيج،
 قاله قطرب. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق
 لقال: إذا قومك عنه يصدون. وقال الفراء: هما سواء منه،
 وعنه. وقال أبو عبيدة: من ضَمَّ فمعناه: يعدلون، ومن كسر،

أسوار، وهي لغة في سوار. وقرأ حفص (أسورة) جمع
 سوار، وقرأ أبي: أساور، وابن مسعود أساور. قال مجاهد:
 كانوا إذا سجدوا رجالًا سجدوا بسوارين، وطوقوه بطوق
 ذهب علامة لسيادته ﴿وَأُجَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مَقَرَّنِينَ﴾
 معطوف على ألقى، والمعنى: هلا جاء معه الملائكة متتابعين
 متقارنين إن كان صادقًا يعينونه على أمره، ويشهدون له
 بالنبوة، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على
 هيئة الجبابرة، ومحفوظين بالملائكة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
 فَاطَاعُوهُ﴾ أي: حملهم على خفة الجهل، والسفه بقوله،
 وكيد، وغروره، فاطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكذبوا
 موسى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة
 الله. قال ابن الأعرابي: المعنى: فاستجهل قومه، فاطاعوه
 بخفة أحلامهم، وقلة عقولهم، يقال: استخفه الفرح أي:
 ازعجه، واستخفه أي: حملة، ومنه: ﴿وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا
 يَوْقِنُونَ﴾ [الروم: 60]، وقيل: استخف قومه أي: وجدهم
 خفاف العقول، وقد استخف بقومه، وقهرهم حتى اتبعوه
 ﴿فَلَمَّا أَسْفَوْنا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال المفسرون: أغضبونا،
 والأسف الغضب، وقيل: أشد الغضب، وقيل: السخط، وقيل:
 المعنى: أغضبوا رسلنا. ثم بين العذاب الذي وقع به الانتقام،
 فقال: ﴿فَاغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في البحر ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ
 سُلَفًا﴾ أي: قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار في استحقاق
 العذاب. قرأ الجمهور (سُلَفًا) بفتح السين، واللام جمع سالف
 كخدم، وخادم، ورصد، وراصد، وحرس، وحارس، يقال:
 سلف يسلف: إذا تقدم، ومضى. قال الفراء، والزجاج:
 جعلناهم متقدمين؛ ليتعظ بهم الآخرون، وقرأ حمزة،
 والكسائي: (سُلَفًا) بضم السين، واللام. قال الفراء: هو: جمع
 سليف، نحو سرر، وسرير. وقال أبو حاتم: هو: جمع سلف
 نحو خشب، وخشب. وقرأ علي، وابن مسعود، وعلقمة، وأبو
 وائل، والنخعي، وحديد بن قيس بضم السين، وفتح اللام
 جمع سلفة، وهي: الفرقة المتقدمة نحو غرف، وغرفة، كذا
 قال النضر بن شميل ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ أي: عبرة،
 وموعظة لمن يأتي بعدهم، أو قصة عجيبة تجري مجرى
 الأمثال.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَكادُ
 يَبِينُ﴾ قال: كانت بموسى لثغة في لسانه. وأخرج ابن
 جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَلَمَّا أَسْفَوْنا﴾ قال: أسخطونا.
 وأخرج عنه أيضًا أسفونا قال: أغضبونا، وفي قوله:
 ﴿سُلَفًا﴾ قال: أهواء مختلفة. وأخرج أحمد، والطبراني،
 والبيهقي في الشعب، وابن أبي حاتم عن عتبة بن عامر: أن
 رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء، وهو
 مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له، وقرأ ﴿فَلَمَّا
 أَسْفَوْنا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾». وأخرج ابن
 المنذر، وابن أبي حاتم عن طارق بن شهاب قال: كنت عند
 عبد الله، فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن،
 وحسرة على الكافر، فلما أسفونا انتقمنا منهم.

فمعناه: يضجون ﴿وقالوا﴾ ألهتنا خير أم هو؟ أي: ألهتنا خير أم المسيح؟ قال السدي، وابن زيد: خاصموه، وقالوا: إن كان كل من عبد غير الله في النار، فنحن نرضى أن تكون ألهتنا مع عيسى، وعزير، والملائكة. وقال قتادة: يعنون محمداً أي: ألهتنا خير أم محمد؟ ويقوي هذا قراءة ابن مسعود: ألهتنا خير أم هذا. قرأ الجمهور بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وقرأ الكوفيون، ويعقوب بتحقيقها ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾ أي: ما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجاليلوك، على أن جدلاً منتصب على العلة، أو مجاليلين على أنه مصدر في موضع الحال، وقرأ ابن مقسم (جدلاً) ﴿بل هم قوم خصمون﴾ أي: شديداً الخصومة كثيره اللد عظيمو الجدل. ثم بين سبحانه أن عيسى ليس رباً، وإنما هو عبد من عباده اختصه بنبوته، فقال: ﴿إن هو إلا عبد أتعمتا عليه﴾ بما أكرمناه به ﴿وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل﴾ أي: آية، وعبرة لهم يعرفون به قدرة الله سبحانه، فإنه كان من غير أب، وكان يحيي الموتى، ويبرئ الأكف والأبرص، وكل مريض ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ أي: لو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يخلفون أي: يخلفونكم فيها. قال الأزهري: ومن قد تكون للبدل كقوله: ﴿لجعلنا منكم﴾ يريد بدلاً منكم. وقيل: المعنى: لو نشاء لجعلنا من بني آدم ملائكة، والأول أولى. ومقصود الآية: أنا لو نشاء لاسكننا الملائكة الأرض وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا. وقيل: معنى ﴿يخلفون﴾: يخلف بعضهم بعضاً ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ قال مجاهد، والضحاك، والسدي، وقاتلة: إن المراد المسيح، وإن خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطاً من أشراتها، لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج النبال من أعلام الساعة. وقال الحسن وسعيد بن جبير: المراد القرآن، لأنه يدل على قرب مجيء الساعة، وبه يعلم وقتها وأحوالها وأحوالها، وقيل المعنى: أن حدوث المسيح من غير أب وإحياءه للموتى دليل على صحة البعث. وقيل: الضمير لمحمد ﷺ، والأول أولى. قرأ الجمهور (لعلم) بصيغة المصدر جعل المسيح علماً مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله، وقرأ ابن عباس، وأبو هريرة، وأبو مالك الغفاري، وقاتلة، ومالك بن دينار، والضحاك، وزيد بن علي بفتح العين واللام أي: خروجه علم من أعلامها، وشرط من شروطها، وقرأ أبو نضرة وعكرمة: (وإنه للعلم) بلامين مع فتح العين واللام أي: للعلامة التي يعرف بها قيام الساعة ﴿فلا تمترون بها﴾ أي: فلا تشكروا في وقوعها ولا تكذبوا بها، فإنها كائنة لا محالة ﴿ولاتبعون هذا صراط مستقيم﴾ أي: اتبعوني فيما أمركم به من التوحيد وبطلان الشرك، وفرائض الله التي فرضها عليكم، هذا الذي أمركم به وأدعوك إليه طريق قيم موصل إلى الحق. قرأ الجمهور بحذف الياء من (اتبعون) وصلاً ووقفاً، وكذلك قرعوا بحذفها

في الحاليين في (اطيعون)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلاً ووقفاً فيهما، وقرأ أبو عمرو وهي: رواية عن نافع بحذفها في الوصل بون الوقف ﴿ولا يصننكم الشيطان﴾ أي: لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعي، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه. ثم علل نهيهم عن أن يصننهم شيطان ببيان عداوته لهم فقال: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي: مظهر لعداوته لكم غير متحاش عن ذلك ولا متكتف به كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين آدم وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين ﴿ولما جاء عيسى بالبينات﴾ أي: جاء إلى بني إسرائيل بالمعجزات الواضحة والشرائع. قال قتادة: البينات هنا: الإنجيل. قال قد جئتمكم بالحكمة أي النبوة، وقيل: الإنجيل، وقيل: ما يرغب في الجميل ويكف عن القبيح ﴿ولابئين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ من أحكام التوراة. وقال قتادة: يعني: اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى. قال الزجاج: الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه، فبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم. وقال أبو عبيدة: إن البعض هنا بمعنى الكل كما في قوله: ﴿يصبكم بعض الذي يعكم﴾ [غافر: 28] وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿ولاحل لكم بعض الذي حرّم عليكم﴾ [آل عمران: 50] يعني: ما أحل في الإنجيل مما كان محرماً في التوراة كالحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت واللام في ﴿ولابئين لكم﴾ معطوفة على مقتر كانه قال: قد جئتمكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولابئين لكم. ثم أمرهم بالتقوى والطاعة فقال: ﴿فاتقوا الله﴾ أي: اتقوا معاصيه ﴿واطيعون﴾ فيما أمركم به من التوحيد والشرائع ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه﴾ هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: عبادة الله وحده والعمل بشرائعه ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾. قال مجاهد، والسدي: الأحزاب هم: أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وقال الكلبي، ومقاتل: هم فرق النصارى اختلفوا في أمر عيسى. قال قتادة: ومعنى ﴿من بينهم﴾: أنهم اختلفوا فيما بينهم، وقيل: اختلفوا من بين من يث إليهم من اليهود والنصارى، والأحزاب هي: الفرق المتحزبة ﴿فويل للذين ظلموا﴾ من هؤلاء المختلفين، وهم الذين أشركوا بالله ولم يعملوا بشرائعه ﴿من عذاب يوم اليم﴾ أي: اليم عذابه وهو يوم القيامة ﴿هل ينظرون إلا الساعة﴾ أي: هل يرتقب هؤلاء الأحزاب وينتظرون إلا الساعة ﴿إن تأتيهم بغتة﴾ أي: فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي: لا يفتنون بذلك، وقيل: المراد بالأحزاب: الذين تحزبوا على النبي ﷺ وكذبوه، وهم المرادون بقوله: ﴿هل ينظرون إلا الساعة﴾ والأول أولى ﴿الآخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾ أي: الآخلاء في الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم

مشاهدتها، تقول لئَلَّ الشيء يلذ لذائذاً، ولذاذة: إذا وجده لذياً والتذ به، وفي مصحف عبد الله بن مسعود (تشتهي الأنفس وتلذذه الأعين) ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا تموتون، ولا تخرجون منها ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة أي: صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث بما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة، واسم الإشارة مبتدأ، والجنة صفته، والتي أورثتموها صفة للجنة، والخبر بما كنتم تعملون، وقيل: الخبر الموصول مع صلته، والأول أولى ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ الفاكهة معروفة، وهي: الثمار كلها رطبها، ويابسها أي: لهم في الجنة سوى الطعام، والشرب فاكهة كثيرة الأنواع، والأصناف ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من تبعية، أو ابتدائية، وقدم الجار لأجل الفاصلة.

وقد أخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير، قالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً، وعبداً من عباد الله صالحاً، وقد عبدته النصارى؟ فإن كنت صادقاً، فإنه كآلهتهم، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قلت: وما يصدون؟ قال: يضحون ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّ لِمَسَاعٍ﴾ قال: خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة». وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجلال، ثم تلا هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾» [الزخرف: 58]. وقد ورد في ذم الجدل بالباطل أحاديث كثيرة. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس: «أن المشركين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: أرايت ما نعبد من دون الله أين هم؟ قال: في النار، قالوا: والشمس، والقمر؟ قال: والشمس، والقمر قالوا: فعيسى ابن مريم قال: قال الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾». وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، ومسدد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني من طرق عنه في قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّ لِمَسَاعٍ﴾ قال: خروج عيسى قبل يوم القيامة. وأخرجه الحاكم، وابن مريويه عنه مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن مريويه عن سعد بن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام، وقلت الأنساب، وذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله، وذلك قوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وحמיד بن زنجويه في تربيته، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليتان كافران توفى أحد المؤمنين، فبشر بالجنة،

لبعض عدو أي: يعادي بعضهم بعضاً، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها آخلاء أسباباً للعذاب فصاروا أعداء. ثم استثنى المتقين فقال: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم آخلاء في الدنيا والآخرة، لأنهم وجدوا تلك الخلقة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب فبقيت خلقتهم على حالها ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة فيذهب عند ذلك خوفهم ويرتفع حزنهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الموصول يجوز أن يكون نعتاً لعبادي، أو بدلاً منه، أو عطف بيان له، أو مقطوعاً عنه في محل نصب على المدح، أو في محل رفع بالابتداء وخبره ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ على تقدير: يقال لهم ادخلوا الجنة. والأول أولى، وبه قال الزجاج. قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد: يا عبادي لا خوف عليكم، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم، فيقال: الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين. قرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو (يا عبادي) بإثبات الباء ساكنة وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو بكر وزر بن حبيب بإثباتها وفتحها في الحالين، وقرأ الباقر بن حفص في الحالين ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ المراد بالأزواج: نسائهم المؤمنات، وقيل: قرنائهم من المؤمنين، وقيل: زوجاتهم من الحور العين ﴿تَحْبِرُونَ﴾ تكرمون، وقيل: تنعمون، وقيل: تفرحون، وقيل: تسرون، وقيل: تعجبون، وقيل: تلهنون بالسماع، والأولى تفسير ذلك بالفرح والسرور الناشئين عن الكرامة والنعمة ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ الصحف جمع صفحة وهي: القصعة الواسعة العريضة. قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة، وهي تشعب عشرة، ثم الصفحة، وهي تشعب خمسة، ثم المكيلة وهي تشعب الرجلين والثلاثة، والمعنى: أن لهم في الجنة أطعمة يطاف عليهم بها في صحاف الذهب ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ فِيهَا أَشْرُبَةٌ﴾ يطاف عليهم بها في الكؤوب، وهي جمع كؤوب. قال الجوهرى: الكؤوب كؤوز لا عروة له، والجمع: أكواب. قال الأعشى:

صريفية طيب طعمها لها زبد بسين كؤوب وإن
وقال آخر:

متكئاً تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكؤوب
قال قتادة: الكؤوب المدور القصير العنق القصير العروة، والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة. وقال الأخفش: الأكواب الإبريق التي لا خراطيم لها. وقال قطرب: هي الإبريق التي ليست لها عرى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ قرأ الجمهور (تشتهي) وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص (تشتهي) بإثبات الضمير العائد على الموصول، والمعنى: ما تشتهي أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ونحوهما مما تطلبه النفس وتهواه كائنًا ما كان، وتلذذ الأعين من كل المستلذات التي تستلذ بها وتطلب

على انه خبر كان، والضمير ضمير فصل. وقرأ أبو زيد النحوي (الظالمون) بالرفع على أن الضمير مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر كان ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾ أي: نادى المجرمون هذا النداء، ومالك هو: خازن النار. قرأ الجمهور (يا مالِك) بدون ترخيم. وقرأ عليّ، وابن مسعود، ويحيى بن وثاب، والأعمش (يا مال) بالترخيم ﴿لِيَقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بالموت توسلوا بمالك إلى الله سبحانه؛ ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت؛ ليستريحوا من العذاب ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ﴾ أي: مقيمون في العذاب، قيل: سكنت عن إجاباتهم ثمانين سنة، ثم أجابهم بهذا الجواب، وقيل: سكنت عنهم ألف عام، وقيل: مائة سنة، وقيل: أربعين سنة ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله سبحانه، ويحتمل أن يكون من كلام مالك، والأول أظهر؛ والمعنى: إنا أرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب، فدعوكم، فلم تقبلوا، ولم تصدقوا، وهو معنى قوله: ﴿وَلَوْ كُنَّا أَكْثَرُكُمْ لَلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لا يقبلونه، والمراد بالحق: كل ما أمر الله به على السنن رسله، وأنزله في كتبه. وقيل: هو خاص بالقرآن. قيل: ومعنى أكثركم: كلكم. وقيل: أراد الرؤساء، والقادة، ومن عداهم أتباع لهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ أَمْرًا فَلَمَّا مَرِمُونَ﴾ أم هي: المنقطعة التي بمعنى بل، والهمزة أي: بل أبرموا أمراً. وفي ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء، والإبرام: الإتيان، والإحكام، يقال: أبرمت الشيء: أحكمته، واتقنته، وأبرم الحبل: إذا أحكم فتلته، والمعنى: بل أحكموا كيداً للنبي ﷺ، فلما محكومون لهم كيداً قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42] وقيل: المعنى: أم قضاوا أمراً، فلما قاضون عليهم أمرنا بالعذاب قاله الكلبي ﴿إِنَّمَا يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: بل أئحسبون أننا لا نسمع ما يسرون به في أنفسهم، أو ما يتحادثون به سرا في مكان خالٍ، وما يتناجون به فيما بينهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك، ونعمل به ﴿وَرُسُلَنَا لِيهِمْ يَكْتُوبُونَ﴾ أي: الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول، أو فعل، والجملة في محل نصب على الحال، أو معطوفة على الجملة التي تدل عليها بلى. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة، ويقطع ما يوردونه من الشبهة، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: إن كان له ولد في قولكم، وعلى زعمكم، فأنا أول من عبد الله وحده، لأن من عبد الله وحده، فقد دفع أن يكون له ولد، كذا قال ابن قتيبة. وقال الحسن، والسدي: إن المعنى: ما كان للرحمن ولد، ويكون قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ابتداء كلام، وقيل: المعنى: قل يا محمد إن ثبت لله ولد، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد. وفيه نفي للولد على أبلغ وجه، وإتم عبارة، وأحسن أسلوب، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني، ومن هذا القبول قوله

فذكر خليله، وقال: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمري بطاعتك، وطاعة رسولك، ويأمري بالخير، وينهاني عن الشر، وينبئني أنني ملائكتك، اللهم لا تضله بعدي حتى تريبه مثل ما أريتنى، وترضى عنه كما رضيت عني، فيقال له: اذهب؛ فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً، ولبكيت قليلاً، ثم يموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم صاحب، ونعمل الخليل؛ وإذا مات أحد الكافرين بشر بالنار، فيذكر خليله، فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمري بمعصيتك، ومعصية رسولك، ويأمري بالشر، وينهاني عن الخير، وينبئني أنني غير ملائكتك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريبه مثل ما أريتنى، وتسخط عليه كما سخطت عليّ، فيموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل منهما لصاحبه: بثس الأخ، وبثس صاحب، وبثس الخليل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الأكواب الجرار من الفضة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾».

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٧١﴾ لَا يَغْنَرُ عَنْهُمْ فِيهِ مُبِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٣﴾ وَنَادَا بِمَلَكٍ لِّيَقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مَكِيدٌ ﴿٧٤﴾ لَقَدْ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمُ الْهَوَىٰ كَذِبُونَ ﴿٧٥﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٦﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سَرَّهُمْ وَيَخْتَبِرُونَ بَيْنَ رُؤُوسِنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٧٨﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْمَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٩﴾ فَذَرَهُمْ يَمْشُوا وَيَلْمِزُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُدُونَ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكُمُ الْكُفْرُ وَالْأَنكَارُ وَالْإِنْفِرَارُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شِئَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴿٨٣﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٤﴾ وَقِيلَ لَهُ بَرِّبِّ إِنَّ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٥﴾ فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ أي: أهل الإجمام الكفرية، كما يدل عليه إيرادهم في مقابلة المؤمنين الذين لهم ما نكره الله سبحانه قبل هذا ﴿فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ أي: لا يخفف عنهم العذاب أبداً ﴿لَا يَغْنَرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يخفف عنهم ذلك العذاب، والجملة في محل نصب على الحال ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبِلُونَ﴾ أي: أيسون من النجاة، وقيل: ساكتون سكوت يأس، وقد مضى تحقيق معناه في الانعام ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: ما عذبناهم بغير نذ، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب. قرأ الجمهور (الظالمين) بالنصب

الارض، أو مستحق للعبادة في السماء، والعبادة في الارض. قال أبو علي الفارسي: وإله في الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: وهو الذي في السماء هو إله، وفي الارض هو إله، وحسن حذفه لطول الكلام، قال: والمعنى: على الإخبار بالإلهية، لا على الكون فيهما. قال قتادة: يعبد في السماء، والارض، وقيل: في بمعنى على أي: هو القادر على السماء، والارض كما في قوله: ﴿وَلَا صَلْبَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: 71] وقرأ عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود: (وهو الذي في السماء الله وفي الارض الله) على تضمين العلم معنى المشتق، فيتعلق به الجار والمجرور من هذه الحثية ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي: البليغ الحكمة الكثير العلم ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك تفاعل من البركة، وهي: كثرة الخيرات، والمراد بما بينهما: الهواء، وما فيه من الحيوانات ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم الوقت الذي يكون قيامها فيه ﴿وَالْيَهُ تَرْجِعُونَ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير، وشر، وفيه وعيد شديد. قرأ الجمهور (ترجعون) بالفوقية، وقرأ ابن كثير، وحمة، والكسائي، بالتحثية ﴿وَلَا يَمْلِكُ النَّاسُ أَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يملك من يدعونه من دون الله من الأصنام، ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم. قرأ الجمهور (يدعون) بالتحثية، وقرأ السلمي، وابن وثاب بالفوقية ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: هم على علم، وبصيرة بما شهدوا به، والاستثناء يحتمل: أن يكون متصلاً، والمعنى: إلا من شهد بالحق، وهم: المسيح، وعزير، والملائكة، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها. وقيل: هو منقطع، والمعنى: لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً أي: لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق. قال سعيد بن جببر، وغيره: معنى الآية: أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق، وأمن على علم، وبصيرة. وقال قتادة: لا يشفعون لعباديهما، بل يشفعون لمن جعل الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله، ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُوا اللَّهُ﴾ اللام هي: الموطئة للمقسم، والمعنى: لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام من خلقهم أقرؤا واعترفوا بأن خالقهم الله، ولا يقدرون على الإنكار، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر، وجلاته ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم، أو حيوان، وعبده مع الله، أو عبده وحده، فقد عبد بعض مخلوقات الله، وفي هذا من الجهل ما لا يقارن قدره. يقال: أفكه يافكه إفكاً: إذا قلبه، وصرفه عن الشيء، وقيل: المعنى:

تعالى: ﴿إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: 24]، ومثل هذا قول الرجل لمن ينظره: إن ثبت ما تقوله بالدليل، فإنا أول من يعتقده، ويقول به، فتكون «إن» في «إن كان» شرطية، ورجح هذا ابن جرير، وغيره. وقيل: معنى العابدين: الأنفين من العبادة، وهو تكلف لا ملجئ إليه، ولكن قرأ أبو عبد الرحمن اليماني (العبيدين) بغير ألف، يقال: عبد يعبد عبداً بالتحريك: إذا أنف، وغضب، فهو: عبد، والاسم العبدة مثل الأنفة، ولعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى ﴿فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، وليس بمستبعد، ولا مستنكر. وقد حكى الجوهرى عن أبي عمرو في قوله: ﴿فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أنه من الأنف، والغضب. وحكاها الماوردي عن الكسائي، والقتيبي، وبه قال الفراء. وكذا قال ابن الأعرابي: إن معنى العابدين: الغضاب الأنفين. وقال أبو عبيدة: معناه: الجاحدين، وحكى عبيدني حقي أي: جحدي، وقد أنشدوا على هذا المعنى الذي قالوه قول الفرزدق:

أولئك أحلاسى فجئني بمثلهم وأعبدن أهجو كليباً بدارم
وقوله أيضاً:

أولئك أناس لو هجوني هجوتهم وأعبدن يهجي كليب بدارم
ولا شك أن عبد، وأعبد بمعنى: أنف، أو غضب ثابت في لغة العرب، وكفى ينقل هؤلاء الأئمة حجة، ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا ملجئ إليه، ومن التعسف الواضح. وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال عبد يعبد، فهو: عبد، وقل ما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة، ولا الشاذ. قرأ الجمهور (ولد) بالإنفراد، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً (ولد) بضم الواو، وسكون اللام ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً له، وتقديساً عما يقولون من الكذب بأن له ولداً، ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجناحه، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه، فقد نزه نفسه عما قالوه، وإن كان من تمام كلام رسوله الذي أمره بأن يقوله، فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاه عنهم بزعهم الباطل تنزيهه ربه، وتقديسه ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: اترك الكفار حيث لم يهتوا بما هديتهم به، ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في إبطيلهم، ويلهوا في نياهم ﴿حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ﴾ وهو: يوم القيامة، وقيل: العذاب في الدنيا، قيل: وهذا منسوخ بآية السيف، وقيل: هو غير منسوخ، وإنما أخرج مخرج التهديد. قرأ الجمهور (يلقوا)، وقرأ مجاهد، وابن محيصن، وحמיד، وابن السميع (حتى يلقوا) بفتح الباء، وإسكان اللام من غير ألف، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ الجار، والمجرور في الموضعين متعلق بإله؛ لأنه بمعنى: معبود، أو مستحق للعبادة، والمعنى: وهو الذي معبود في السماء، ومعبود في

وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: إن يكن للرحمن ولد ﴿فإننا أول العابدين﴾ قال: الشاميين. وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ قال: هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط أي: ما كان. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

تفسير سورة الدخان

قال القرطبي: هي مكية باتفاق إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ [الدخان: 15]. وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير: أن سورة الدخان نزلت بمكة. وأخرج الترمذي، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حمَّ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث. وأخرج الترمذي، ومحمد بن نصر، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حمَّ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدم يضعف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد، ويشهد له ما أخرجه ابن الضريس، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حمَّ الدخان في ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة بنى الله له بها بيتاً في الجنة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمَّا مَنْ عِنْدَنَا إِنَّا كُنَّا مُسْتَجِبِينَ ۝ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ عَابَادِكُمْ ۝ الْأَوَّلُونَ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَأَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ أَلَمْ نَكُنْ عِنَّا الْغَدَابُ ۝ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَفَلَمْ نَذْكُرْكَ إِذْ جَاءَتْكَ رُسُلُنَا مِن قَبْلُ ۝ ثُمَّ تَوَلَّاهُ وَكَانَ اللَّهُ مُتَوَكِّلًا ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝ إِنَّكَ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَاطِلَةَ أَكْبَرُ ۝ إِنَّا مُنْقِمُونَ ۝

قوله: ﴿حَمْدٌ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ قد تقدم في السورتين المتقدمتين قبل هذه السورة الكلام على هذا معنى، وإعراباً،

ولئن سألت المسيح، وعزيراً، والملائكة من خلقهم ليقولن: الله، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار في اتخاذهم لها آلهة. وقيل: المعنى: ولئن سألت العابدين، والمعبودين جميعاً. قرأ الجمهور (وقيله) بالنصب عطفاً على محل الساعة، كأنه قيل: إنه يعلم الساعة، ويعلم قبيله، أو عطفاً على سرهم، ونجواهم أي: يعلم سرهم، ونجواهم، ويعلم قبيله، أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف أي: يكتبون ذلك، ويكتبون قبيله، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف أي: يعلمون ذلك، ويعلمون قبيله، أو هو مصدر أي: قال قبيله، أو منصوب بإضمار فعل أي: الله يعلم قيل: رسوله، أو هو معطوف على محل بالحق أي: شهد بالحق، وقبيله، أو منصوب على حذف حرف القسم. ومن المجوزين للوجه الأول: المبرد، وابن الأنباري، ومن المجوزين للثاني الفراء، والأخفش، ومن المجوزين للنصب على المصدرية الفراء، والأخفش أيضاً. وقرأ حمزة، وعاصم (وقيله) بالجر عطفاً على لفظ الساعة أي: وعنده علم الساعة، وعلم قبيله، والقول والقال، والقيل بمعنى واحد، أو على أن الواو للقسم. وقرأ قتادة، ومجاهد، والحسن، وأبو قلابه، والأعرج، وابن هرمز، ومسلم بن جنب (وقيله) بالرفع عطفاً على علم الساعة أي: وعنده علم الساعة، وعنده قبيله، أو على الابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، أو خبره محذوف تقديره، وقبيله كيت، وكيت، أو وقيله مسموع. قال أبو عبيد: يقال: قلت قولاً، وقيلاً، وقالاً، والضمير في وقيله راجع إلى النبي ﷺ. قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه، وقيل: الضمير عائذ إلى المسيح، وعلى الوجهين، فالمعنى: أنه قال منادياً لربه: ﴿يَا رَبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ثم لما نادى ربه بهذا أجابه بقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن دعوتهم ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: أمري تسليم منكم، ومتاركة لكم. قال عطاء: يريد مداراة حتى ينزل حكمي، ومعناه: المتاركة كقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55]. وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفح منسوخاً بالسيف، وقيل: هي محكمة لم تنسخ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تهديد شديد، وعيد عظيم من الله عز وجل. قرأ الجمهور (يعلمون) بالتحية، وقرأ نافع، وابن عامر بالفوقية. قال الفراء: إن سلام مرفوع بإضمار عليكم.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾ قال: يمكث عنهم ألف سنة، ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُمْ مَكْنُونُونَ﴾. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها، قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون أن الله يسمع كلامنا؟ فقال واحد منهم: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت ﴿لَمْ يَحْسِبُوا أَنَّا لَا نَسْمَعُ سَرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

إنزالاً. وقال الأخفش: انتصابه على الحال أي: أمرين. وقيل: هو منصوب على الاختصاص أي: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا، وفيه تخيم لسان القرآن، وتعظيم له. وقد نكر بعض أهل العلم في انتصاب أمرًا اثني عشر وجهًا أظهرها ما ذكرناه، وقرأ زيد بن علي (أمر) بالرفع أي: هو أمر ﴿إنا كنا مرسلين﴾ هذه الجملة إما بدل من قوله: ﴿إنا كنا منذرين﴾، أو جواب ثالث للقسام، أو مستأنفة. قال الرازي: المعنى: إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل إنا كنا مرسلين للأنبياء ﴿رحمة من ربك﴾ انتصاب رحمة على العلة أي: إنزاله للرحمة، قاله الزجاج. وقال المبرد: إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين أي: إنا كنا مرسلين رحمة. وقيل: هي مصدر في موضع الحال أي: راحمين، قاله الأخفش. وقرأ الحسن (رحمة) بالرفع على تقدير هي رحمة ﴿إنه هو السميع﴾ لمن دعاه ﴿العليم﴾ بكل شيء. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم قدرته الباهرة، فقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ الجمهور (رَبِّ) بالرفع عطفًا على السميع العليم، أو على أنه مبتدأ، وخبره لا إله إلا هو، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هو رَبِّ، وقرأ الكوفيون (رَبِّ) بالجر على أنه بدل من ربك، أو بيان له، أو نعت ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بانه رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وما بينهما، وقد أقرُّوا بذلك كما حكاه الله عنهم في غير موضع، وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مستأنفة مقرزة لما قبلها، أو خبر رَبِّ السموات كما مر، وكذلك جملة ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فإنها مستأنفة مقرزة لما قبلها ﴿رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ أي: هو ربكم، أو على أنه بدل من رَبِّ السموات، أو بيان، أو نعت له، وقرأ الكسائي في رواية الشيرازي عنه، وابن محيصن، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة، والحسن بالجر، ووجه الجر ما ذكرناه في قراءة من قرأ بالجر في رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴿يُجَلِّهِمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ﴾ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم في شك من التوحيد والبعث، وفي إقرارهم بأن الله خالقهم، وخالق سائر المخلوقات، وأن ذلك منهم على طريقة اللعب والهز، ومحل يلعبون الرفع على أنه خبر ثان، أو النصب على الحال ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن كونهم في شك، ولعب يقتضي ذلك؛ والمعنى: فانتظر لهم يا محمد يوم تأتي السماء بدخان مبين، وقيل المعنى: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين.

وقد اختلف في هذا الدخان المذكور في الآية متى يأتي؟ فقيل: إنه من أشرط الساعة، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً. وقد ثبت في الصحيح: أنه من جملة العشر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة، وقيل: إنه أمر قد مضى، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً، وهذا ثابت في الصحيحين، وغيرهما: وذلك حين دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني

وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ جواب القسم، وإن جعلت الجواب حَمَّ كانت هذه الجملة مستأنفة، وقد أنكر بعض النحويين أن تكون هذه الجملة جواباً للقسام، لأنها صفة للمقسم به، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقسام، وقال: الجواب ﴿إنا كنا منذرين﴾، واختاره ابن عطية، وقيل: إن قوله: ﴿إنا كنا منذرين﴾ جواب ثان، أو جملة مستأنفة مقرزة للإنزال، وفي حكم العلة له كانه قال: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار، والضمير في أنزلناه راجع إلى الكتاب المبين، وهو: القرآن. وقيل: المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة والضمير في أنزلناه راجع إلى القرآن على معنى: إنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزلة: أنه أنزل القرآن، والأول أولى. واللييلة المباركة: ليلة القدر كما في قوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: 1] ولها أربعة أسماء: اللييلة المباركة، ولييلة البراءة، ولييلة الصلوة، ولييلة القدر. قال عكرمة: اللييلة المباركة هنا ليلة النصف من شعبان. وقال قتادة: أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب، وهو: اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله سبحانه على نبيه ﷺ في الليالي، والأيام في ثلاث وعشرين سنة، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا في البقرة عند قوله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ [البقرة: 185] وقال مقاتل: كان ينزل من اللوح كل ليلة قدر من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثلها من العام، ووصف الله سبحانه هذه اللييلة، بأنها مباركة لنزول القرآن فيها، وهو مشتمل على مصالح الدين والدنيا، ولكونها تنزل فيها الملائكة، والروح كما سيأتي في سورة القدر، ومن جملة بركتها ما ذكره الله سبحانه ما هنا بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، ومعنى يفرق: يفصل، ويبين من قولهم: فرقت الشيء أفرقه فرقاءً، والأمر الحكيم: المحكم، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت، وبسط وقبض، وخير وشر، وغير ذلك، كذا قال مجاهد، وقتادة، والحسن، وغيرهم: وهذه الجملة إما صفة أخرى للييلة، وما بينهما اعتراض، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها. قرأ الجمهور (يفرق) بضم الياء، وفتح الراء مخففاً، وقرأ الحسن، والأعمش، والأعرج بفتح الياء وضم الراء، ونصب (كل أمر)، ورفع (حكيم) على أنه الفاعل. والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه اللييلة المباركة هي: ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان، لأن الله سبحانه أجملها هنا، وبينها في سورة البقرة بقوله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ [البقرة: 185] ويقول في سورة القدر: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: 1]، فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف، ولا ما يقتضي الاشتباه ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾ قال الزجاج، والفراء: انتصاب أمراً بيفرق أي: يفرق فرقاءً، لأن أمراً بمعنى: فرقاءً. والمعنى: إنا نأمر ببيان ذلك، ونسخه من اللوح المحفوظ، فهو على هذا منتصب على المصدرية مثل قولك: يضرب ضرباً. قال المبرد: أمراً في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه

يفرق كل أمر حكيم قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق وموت، وحياء، ومطر، حتى يكتب الحاج: يحج فلان، ويحج فلان. وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر: «فيها يفرق كل أمر حكيم» قال: أمر السنة إلى السنة إلا الشقاء والسعادة، فإنه في كتاب الله لا يبدل، ولا يغير. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب قال: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى، ثم قرأ: «إنا أنزلناه في ليلة مباركة» الآية، يعني: ليلة القدر، قال: ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت، أو حياة، أو رزق، كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها. وأخرج ابن زنجويه، والديلمي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقطع الأجل من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح، ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى». وأخرجه ابن أبي الدنيا، وابن جرير، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس، وهذا مرسل، ولا تقوم به حجة، ولا تعارض بمثله صرائح القرآن. وما روي في هذا، فهو إما مرسل، أو غير صحيح. وقد أورد ذلك صاحب الدر المنثور، وأورد ما ورد في فضل ليلة النصف من شعبان، وذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله: في ليلة مباركة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن مسعود: «أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، وأبطأوا عن الإسلام قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابهم قحط، وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه، وبينها كهينة الدخان من الجوع، فأنزل الله: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» الآية، فأتى النبي ﷺ فقيل: يا رسول الله استسقى الله لضر، فاستسقى لهم، فسقوا، فأنزل الله: «إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون» فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون»، فانتقم الله منهم يوم بدر، فقد مضى البطشة، والدخان، واللزام». وقد روي عن ابن مسعود، نحو هذا من غير وجه، وروي نحوه عن جماعة من التابعين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن أبي مليكة قال: دخلت على ابن عباس فقال: لم أتم هذه الليلة، فقلت: لم؟ قال: طلع الكوكب، فخشيت أن يطرق الدخان. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وكذا صححه السيوطي، ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية. وقد عرفت أن لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يترأى لقريش من الجوع، وبين كون الدخان من آيات الساعة، وعلاماتها، وأشراتها، فقد وردت أحاديث صحاح، وحسان، وضعاف بذلك، وليس فيها أنه سبب نزول الآية، فلا حاجة بنا إلى التويل بذكرها، والواجب التمسك بما ثبت في الصحيحين، وغيرهما: أن دخان قريش عند الجهد، والجوع هو سبب النزول، وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجع أنه الدخان

يوسف، فأصابهم قحط، وجهد حتى أكلوا العظام، وكان الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه، وبينها كهينة الدخان من الجهد، وقيل: إنه يوم فتح مكة، وسيأتي في آخر البحث بيان ما يدل على هذه الأقوال، وقوله: «يفشى الناس» صفة ثانية لدخان أي: يشملهم، ويحيط بهم «هذا عذاب اليم» أي: يقولون هذا عذاب اليم، أو قائلين ذلك، أو يقول الله لهم ذلك «ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون» أي: يقولون ذلك، وقد روي أنهم أتوا النبي ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا، والمراد بالعذاب: الجوع الذي كان يسببه ما يروونه من الدخان، أو يقولونه إذا رآوا الدخان الذي هو: من آيات الساعة، أو إذا رآوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال. والراجح منها: أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجهد، وشدة الجوع، ولا ينافي ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة، فإن ذلك دخان آخر، ولا ينافيه أيضاً ما قيل: إنه الذي كان يوم فتح مكة، فإنه دخان آخر على تقدير صحة وقوعه «أتى لهم الذكرى» أي: كيف يتذكرون، ويتعظون بما نزل بهم «و» الحال أن «قد جاءهم رسول مبين» يبين لهم كل شيء يحتاجون إليه من أمر الدين، والدنيا «ثم تولوا عنه» أي: أعرضوا عن ذلك الرسول الذي جاءهم، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل جاوزوه «وقالوا معلم مجنون» أي قالوا: إنما يعلم القرآن بشر، وقالوا: إنه مجنون، فكيف يتذكر هؤلاء، وأتى لهم الذكرى. ثم لما دعا الله بأن يكشف عنهم العذاب، وأنه إذا كشفه عنهم آمنوا أجاب سبحانه عليهم بقوله: «إنا كاشفوا للعذاب قليلاً» أي: إنا نكشفه عنهم كشافاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، ثم أخبر الله سبحانه عنهم أنهم لا ينزجرون عما كانوا عليه من الشرك، ولا يقفون بما وعدوا به من الإيمان، فقال: «إنكم عائدون» أي: إلى ما كنتم عليه من الشرك، وقد كان الأمر هكذا، فإن الله سبحانه لما كشف عنهم ذلك العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، والعناد، وقيل المعنى: إنكم عائدون إلينا بالبعث، والنشور، والأول أولى «يوم نبطش البطشة الكبرى» الظرف منصوب بإضمار انكر، وقيل: هو بدل من يوم تأتي السماء، وقيل: هو متعلق بمنقمون، وقيل: بما دل عليه منتقمون، وهو منتقم. والبطشة الكبرى: هي: يوم بدر، قاله الأكثر. والمعنى: أنهم لما عادوا إلى التكذيب، والكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم الله منهم بوقعة بدر. وقال الحسن، وعكرمة: المراد بها: عذاب النار، واختار هذا الزجاج، والأول أولى. قرأ الجمهور (نبطش) بفتح النون، وكسر الطاء أي: نبطش بهم، وقرأ الحسن، وأبو جعفر بضم الطاء وهي: لغة، وقرأ أبو رجا، وطلحة بضم النون، وكسر الطاء.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس «في ليلة مباركة» قال: أنزل القرآن في ليلة القدر، ونزل به جبريل على رسول الله ﷺ نجوماً لجواب الناس. وأخرج محمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: «فيها

إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بأن أدوا؛ والمعنى: أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بني إسرائيل. قال مجاهد: المعنى: أرسلوا معي عباد الله، وأطلقوهم من العذاب، فعباد الله على هذا مفعول به. وقيل المعنى: أدوا إليّ عباد الله ما يجب عليكم من حقوق الله، فيكون منصوباً على أنه منادى مضاف. وقيل: أدوا إليّ سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربكم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ هو: تعليل لما تقدّم أي: رسول من الله إليكم أمين على الرسالة غير متهم ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتجبروا، وتتكبروا عليه، بترفعكم عن طاعته، ومتابعة رسله، وقيل: لا تبغوا على الله، وقيل: لا تقتروا عليه، والأول أولى. وبه قال ابن جريج، ويحيى بن سلام، وجملة ﴿إِنِّي أَتَيْكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ تعليل لما قبله من النهي أي: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. وقال قتادة: بعذر بين. والأول أولى، وبه قال يحيى بن سلام. قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿إِنِّي﴾، وقرئ بالفتح بتقدير اللام ﴿وَأِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ استعاذ بالله سبحانه لما تورعده بالقتل، والمعنى: من أن ترجمون. قال قتادة: ترجموني بالحجارة، وقيل: تشتمون، وقيل: تقتلون ﴿وَأَنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتِزِلُونِ﴾ أي: إن لم تصدّقوني، وتقرّوا بنبوّتي، فاتركوني، ولا تتعرّضوا لي بأذى. قال مقاتل: دعوني كفافاً لا علي، ولا لي. وقيل: كونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا، وقيل: فخلوا سبيلي، والمعنى متقارب. ثم لما لم يصدّقوه، ولم يجيبوا دعوته، رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى الله عنه بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَا يَدْعُوهُ إِلَّا مَنْ يَشَاءُ﴾. قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجرّ أي: دعاه بأن هُوَ لَا، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول، وفي الكلام حذف أي: فكفروا فدعا ربه، والمجرمون الكافرون، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين، لأنهم قد استحقوقوا بذلك الدعاء عليهم ﴿فَأَسْرَىٰ بَعْثَادٍ لِّيَلًا﴾ أجاب الله سبحانه دعاءه، فأمره أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، يقال: سرى، وأسرى لغتان، قرأ الجمهور (فأسر) بالقطع. وقرأ أهل الحجاز بالوصل، ووافقهم ابن كثير، فالقراءة الأولى من أسرى، والثانية من سرى، والجملة بتقدير القول أي: فقال الله لموسى أسر بعبادي ﴿إِنَّكُمْ مُّقْتَبِعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون، وجنوده، وقد تقدّم في غير موضع خروج فرعون بعدهم ﴿وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ أي: ساكنًا، يقال: رها يرهو رهوا: إذا سكن لا يتحرك. قال الجوهري: يقال: أفلح ذلك رهواً أي: ساكناً على هيئتك، وعيش راه أي: ساكن، ورها البحر سكن، وكذا قال الهروي، وغيره، وهو المعروف في اللغة، ومنه قول الشاعر: والخيّل ترح رها في أعنتها كالطير تنجم من الشرنوب ذي الوبر أي: والخيّل ترح في أعنتها ساكنة، والمعنى: اترك البحر ساكناً على صفته بعد أن ضربته بعصاك، ولا تامره أن يرجع كما كان ليخله آل فرعون بعدك، وبعد بني إسرائيل،

الذي هو من أشرط الساعة كابن كثير في تفسيره، وغيره، وهكذا ينفع قول من قال: إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال: كان يوم فتح مكة دخان، وهو قول الله ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فإن هذا لا يعارض ما في الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله عنه ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية، ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها. وأخرج ابن جريج، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح. وقال ابن كثير قبل هذا: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدّم، وروي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه، وعن أبي بن كعب، وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً. انتهى.

قلت: بل الظاهر أنه يوم بدر، وإن كان يوم القيامة يوم بطشة أكبر من كل بطشة، فإن السياق مع قریش، فتفسيره بالبطشة الخاصة بهم أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس والجن.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ أَنْ أَذْأَبُ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٤﴾ وَإِنْ لَرَأَوْهُمْ لِي فَاصْطَلُوا ﴿٥﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَا يَدْعُوهُ إِلَّا مَنْ يَشَاءُ ﴿٦﴾ فَأَسْرَىٰ بِمَدْيَنَ لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّقْتَبِعُونَ ﴿٧﴾ وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَوُونَ ﴿٨﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَبَلٍ وَجَبُونَ ﴿٩﴾ وَرُودُوعٍ وَمَعَادٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا مِنِكَيْنِ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمَ الْآخَرِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْهَمْنَاهُمْ أَنْ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَانُ عَالِيًا مِنَ الشَّرِّ فَرَىٰ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَأَنبَأْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَقَائِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿١٨﴾ فَأَنَّا يَا بَابِلَةَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ أَهَمْ حَرَّمَ قَوْمٌ تَبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ابتليناهم، ومعنى الفتنة هنا: أن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأمرهم بما شرعه لهم، فكذبوهم، أو وسع عليهم الأرزاق، فطغوا وبغوا. قال الزجاج: بلوناهم، والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم، وقرئ (فتنا) بالتشديد ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي: كريم على الله كريم في قومه، وقال مقاتل: حسن الخلق بالتجاوز، والصفح. وقال الفراء: كريم على ربه إذا اختصه بالنبوة ﴿وَأَنْ أَذْأَبُ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾ أن هذه هي المفسرة لتقدّم ما هو بمعنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، والمعنى: أن الشأن، والحديث أدوا

يصعد لهم إلى السماء عمل طيب يبكي عليهم به، والمعنى: أنه لم يصب بفقدهم، وهلاكهم أحد من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء، والأرض أي: عمت مصيبيته، ومن ذلك قول جرير: لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع ومنه قول النابغة:

بكى حارث الحولان من فقد ربه وحواران منه خاشع متضائل
وقال الحسن: في الكلام مضاف محذوف أي: ما يبكي عليهم أهل السماء، والأرض من الملائكة، والناس. وقال مجاهد: إن السماء، والأرض تبيكان على المؤمن أربعين صباحاً، وقيل: إنه يبكي على المؤمن مواضع صلاته، ومساعد عمله **﴿وما كانوا منظرين﴾** أي: مهلين إلى وقت آخر بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم، وشدة عنادهم **﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾** أي: خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد، وقتل الأبناء واستحياء النساء، وتكليفهم للأعمال الشاقة، وقوله: **﴿من فرعون﴾** بدل من العذاب إما على حذف مضاف أي: من عذاب فرعون، وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب، فأبيل منه، أو على أنه حال من العذاب تقديره صائراً من فرعون، وقرأ ابن عباس (من فرعون) بفتح الميم على الاستفهام التحقيري كما يقال لمن افتخر بحسبه، أو نسبه: من أنت؟ ثم بين سبحانه حاله، فقال: **﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾** أي: عالياً في التكبر، والتجبر من المسرفين في الكفر بالله، وارتكاب معاصيه كما في قوله: **﴿إن فرعون علا في الأرض﴾** [القصص: 4]، ولما بين سبحانه كيفية دفعه للضر عن بني إسرائيل بين ما أكرمهم به، فقال: **﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾** أي: اختارهم الله على عالمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، وليس المراد: أنه اختارهم على جميع العالمين بدليل قوله في هذه الأمة: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** [آل عمران: 110] وقيل: على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم، ومحل على علم النصب على الحال من فاعل اخترناهم أي: حال كون اختياري لهم على علم منا، وعلى العالمين متعلق باخترناهم **﴿وآتيناهم من الآيات﴾** أي: معجزات موسى **﴿ما فيه بلاء مبين﴾** أي: اختبار ظاهر، وامتحان واضح لننظر كيف يعملون. وقال قتادة: الآيات إنجاؤهم من الفرق، وخلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن، والسليوى لهم. وقال ابن زيد: الآيات هي: النسر الذي كفهم عنه، والخير الذي أمرهم به. وقال الحسن، وقتادة: البلاء المبين: النعمة الظاهرة كما في قوله: **﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾** [الأنفال: 17]، ومنه قول زهير:

فبإلهامها خير البلاء الذي يبلى

والإشارة بقوله: **﴿إن هؤلاء﴾** إلى كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر **﴿ليقولون﴾** * إن هي إلا موتتنا

فينطبق عليهم، فيغرقون. وقال أبو عبيدة: رها بين رجله يرهو رهواً أي: فتح.. قال: ومنه قوله: **﴿واترك البحر رهواً﴾**، والمعنى: اتركه منفرجاً كما كان بعد دخولكم فيه، وكذا قال أبو عبيد: وبه قال مجاهد، وغيره. قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف لفظهما، لأن البحر إذا سكن جريه انفرج. قال الهروي: ويجوز أن يكون رهواً نعتاً لموسى أي: سر ساكناً على هيئتك. وقال كعب، والحسن: رهواً: طريقاً. وقال الضحك، والربيع: سهلاً. وقال عكرمة: ييسأ كقوله: **﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾** [طه: 77] وعلى كل تقدير، فالمعنى: اتركه ذا رهو، أو اتركه رهواً على المبالغة في الوصف بالمصدر **﴿إنهم جند مغرقون﴾** أي: إن فرعون، وقومه مغرقون. أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه، ويطمئن جاشه. قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف لقصد الإخبار بذلك، وقرأ بالفتح على تقدير لأنهم **﴿كم﴾** هي الخبرية المفيدة للتكثير، وقد مضى الكلام في معنى الآية في سورة الشعراء. قرأ الجمهور: (ومقام) بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام، وقرأ ابن هرمز، وقتادة، وابن السميغ، وروى عن نافع بضمها اسم مكان الإقامة **﴿ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾** النعمة بالفتح التنعم يقال: نعمه الله، وناعمه، فتنعم، وبالكسر المنة، وما أنعم به عليك، وفلان واسع النعمة أي: واسع المال ذكر معنى هذا الجوهري. قرأ الجمهور (فاكهين) بالالف. وقرأ أبو رجاء، والحسن، وأبو الأشهب، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة (فكهين) بغير الف، والمعنى على القراءة الأولى: متنعمين طيبة أنفسهم، وعلى القراءة الثانية: أشربين بطرين. قال الجوهري: فكه الرجل بالكسر، فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاجاً، والفكه أيضاً: الأشر البطر. قال: وفلكهين أي: ناعمين. وقال الثعلبي: هما لغتان كالحائر، والحذر، والفاره والفره. وقيل: إن الفاكهة هو: المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة **﴿كنلك ولورثانها قوماً آخرين﴾** الكاف في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف. قال الزجاج: أي: الأمر كذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب، والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا أي: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، وقيل: مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم. فعلى الوجه الأول يكون قوله: **﴿ولورثانها﴾** معطوفاً على **﴿تركوا﴾**، وعلى الوجوه الآخرة يكون معطوفاً على الفعل المقتر. والمراد بالقوم الآخرين: بنو إسرائيل، فإن الله سبحانه ملكهم أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين أي: أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث، ومثل هذا قوله: **﴿ولورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾** [الأعراف: 137] **﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾** هذا بيان لعدم الاكتراث بهلاكهم. قال المفسرون: أي: إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم به، ولم

والأرض ﴿١﴾ ونكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم، ولا من عملهم كلام صالح، فتفقدتهم، فتبكي عليهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب نحوه من قول ابن عباس. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: يقال: الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلًا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء، والأرض، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: إنهما لا يبكيان على كافر». وأخرج ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع، عن علي بن أبي طالب قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء، ثم تلا الآية. وأخرج ابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس قال: إن الأرض لتبكي على ابن آدم أربعين صباحاً، ثم قرأ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم». وأخرجه أحمد، والطبراني، وابن ماجه، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ فنكر مثله، وروي نحو هذا عن غيرهما من الصحابة، والتابعين.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعَاتٍ ﴿١٧٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَمِئْتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٠﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٨١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ يَمُزُّهُمُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨٢﴾ إِنَّكَ شَكَّرْتَ الْزُّكُورَ ﴿١٨٣﴾ لَعَلَّ الْأُنثَى ﴿١٨٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٨٥﴾ كَغَلِي الْحَبِيرِ ﴿١٨٦﴾ حَذُّهُ فَاتِفَاتُوهٖ إِنَّ سَوَاءَ الْحَبِيرِ ﴿١٨٧﴾ ثُمَّ صُبُورٌ قَوِّقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿١٨٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿١٩٠﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي مَقَادِيرِ آيَاتٍ ﴿١٩١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٩٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَنَكِّلِينَ ﴿١٩٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٩٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ كَامِيَةٍ ﴿١٩٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَتْهُمُ عَذَابُ الْحَبِيرِ ﴿١٩٦﴾ فَضَلَّ عَنْ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٩٧﴾ فَلَمَّا يَنْزَغُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ لَمَلَهُمْ يَنْتَكِرُونَ ﴿١٩٨﴾ فَأَرْزَقَهُمْ مَرْثِيُونَ ﴿١٩٩﴾

قوله: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما﴾ أي: لغير غرض بين جنسي السماء والأرض ﴿لاعبين﴾ أي: لغير غرض صحيح. قال مقاتل: لم نخلقهما عابثين لغير شيء. وقال الكلبي: لاهين، وقيل: غافلين. قرأ الجمهور (وما بينهما) وقرأ عمرو بن عبدي (وما بينهن) لأن السموات، والأرض جمع، وانتصاب لاعبين على الحال ﴿ما خلقناهما﴾ أي: وما بينهما ﴿إلا بالحق﴾ أي: إلا بالأمر الحق، والاستثناء مفرغ

الأولى: أي: ما هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها في الدنيا، ولا حياة بعدها، ولا بعث، وهو معنى قوله: ﴿وما نحن بمفشرين﴾ أي: بمبعوثين، وليس في الكلام قصد إلى إثبات مorte أخرى، بل المراد: ما العاقبة، ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزملة للحياة الدنيوية، قال الرازي: المعنى: أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلاً، وهو: حجة داحضة، فقالوا: ﴿فأتوا بأبائنا﴾ أي: أرجعهم بعد موتهم إلى الدنيا ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تقولونه، وتختبرونا به من البعث. ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ أي: أهم خير في القوة، والمنعة، أم قوم تبع الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه، وغلب أهلها، وقهرهم، وفيه وعيد شديد. وقيل: المراد بقوم تبع: جميع أتباعه لا واحد بعينه. وقال الفراء: الخطاب في قوله: ﴿فأتوا بأبائنا﴾ لرسول الله ﷺ وحده كقوله: ﴿رب أرجعون﴾ [المؤمنون: 99]، والأولى أنه خطاب له، ولأتباعه من المسلمين ﴿وهم﴾ المراد بـ ﴿الذين من قبلهم﴾ عاد، وثمود، ونحوهم، وقوله: ﴿أهلكناهم﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم، وعاقبة أمرهم، وجملة ﴿إنهم كانوا مجرمين﴾ تعليل لإهلاكهم، والمعنى: أن الله سبحانه قد أهلك هؤلاء بسبب كونهم مجرمين، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرماً مع ضعفه، وقصور قدرته بالأولى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولقد فتننا﴾ قال: ابتلينا ﴿قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم﴾ قال: هو: موسى ﴿أن ادعوا إلى عباد الله﴾ أرسلوا معي بني إسرائيل ﴿وأن لا تعبدوا على الله﴾ قال: لا تعبدوا ﴿إني أنيكم بسلطان مبين﴾ قال: بعذر مبين ﴿وإني عندي بربي وربكم أن ترجموني﴾ قال: بالحجارة ﴿وأن لم تؤمنوا لي فاعزّلوني﴾ أي: خلوا سبيلي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿أن ادعوا إلى عباد الله﴾ قال: يقول: اتبعوني إلى ما أَدْعُوكُمْ إليه من الحق، وفي قوله: ﴿وأن لا تعبدوا على الله﴾ قال: لا تفتروا وفي قوله: ﴿أن ترجموني﴾ قال: تشتمون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿رهوا﴾ قال: سمنا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿رهوا﴾ قال: كهيشته، وامضه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً: أنه سال كعباً عن قوله: ﴿واترك البحر رهوا﴾ قال: طريفاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس أيضاً قال: الرهو: أن يترك كما كان. وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أيضاً في قوله: ﴿ومقام كريم﴾ قال: المنابر. وأخرج ابن مردويه، عن جابر مثله. وأخرج الترمذي، وابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا وله بلان: باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات، فقدها، وبكى عليه، وتلا هذه الآية ﴿فما بكت عليهم السماء

وقيل العتل: أن يأخذ بتلابيب الرجل، ومجامعه، فيجره، ومنه قول الشاعر يصف فرساً:

نقرعه قرعاً ولسنا نعتله

ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً:

حتى ترد إلى عطية تعتل

قرأ الجمهور **﴿فَاعْتَلَوْهُ﴾** بكسر التاء. وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر بضمها، وهما: لغتان **﴿إلى﴾** سواء **﴿للحجيم﴾** أي: إلى وسطه، كقوله: **﴿فَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ﴾** [الصفات: 55] **﴿ثُمَّ صَبَوْا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾** من هي التبعية أي: صبوا فوق رأسه بعض هذا النوع، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان أي: عذاب هو الحميم، وهو: الماء الشديد الحرارة كما تقدم **﴿نَقَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾** أي: وقولوا له تهكماً، وتقريعاً، وتوبيخاً: نَقَّ العذاب إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. وقيل: إن أبا جهل كان يزعم أنه أعزُّ أهل الوادي، وأكرمهم، فيقولون له: نَقَّ العذاب أيها المتعزِّز المتكبر في زعمك، وفيما كنت تقول. قرأ الجمهور (إِنَّكَ) بكسر الهمزة، وقرأ الكسائي، وروي ذلك عن عليّ بفتحها أي لأنك. قال الفراء: أي: بهذا القول الذي قلته في الدنيا، والإشارة بقوله: **﴿إِنْ هَذَا﴾** إلى العذاب **﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾** أي: تشكون فيه حين كنتم في الدنيا، والجمع باعتبار جنس الأثيم. ثم ذكر سبحانه مستقرَّ المتقين، فقال: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾** أي: الذين اتقوا الكفر، والمعاصي. قرأ الجمهور (مقام) بفتح الميم، وقرأ نافع، وابن عامر بضمها. فعلى القراءة الأولى هو: موضع القيام، وعلى القراءة الثانية هو: موضع الإقامة قاله الكسائي، وغيره. وقال الجوهري: قد يكون كل واحد منهما بمعنى: الإقامة، وقد يكون بمعنى: موضع القيام. ثم وصف المقام بأنه أمين يأمن صاحبه من جميع المخاوف **﴿فِي جَنَّاتٍ وَعِوْنٍ﴾** بدل من مقام أمين، أو بيان له، أو خبر ثانٍ **﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾** خبر ثانٍ، أو ثالث، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، والسندس: ما رقَّ من اللباج، والإستبرق ما غلظ منه، وقد تقدم بيانه في سورة الكهف، وانتصاب **﴿مُتَقَابِلِينَ﴾** على الحال من فاعل يلبسون أي: متقابلين في مجالسهم ينظر بعضهم إلى بعض، والكاف في قوله: **﴿عَنْكَ﴾** إما نعت مصدر محذوف أي: نفعل بالمتقين فعلاً كذلك. أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك **﴿وَزُجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾** أي: أكرمناهم بأن زُجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ، والحوار جمع حوراء وهي: البيضاء، والعين جمع عينا، وهي الواسعة العينين. وقال مجاهد: إنما سميت الحوراء حوراء، لأنه يحار الطرف في حسنها، وقيل: هو من حور العين وهو: شدة بياض العين في شدة سوادها كذا قال أبو عبيدة. وقال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين. قال أبو عمرو: الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الأطباء، والبقرة، قال: وليس في بني آدم حور،

من أمم الأحوال. وقال الكلبي: إلا للحق، وكذا قال الحسن، وقيل: إلا لإقامة الحق، وإظهاره **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أن الأمر كذلك، وهم المشركون **﴿إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: إن يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل مِيقَاتُهُمْ أي: الوقت المَجْعُول لتمييز المحسن من المسيء، والمحق من المبطل، أجمعين لا يخرج عنهم أحد من ذلك. وقد اتفق القراء على رفع مِيقَاتُهُمْ على أنه خبر إن، واسمها يوم الفصل. وأجاز الكسائي، والفراء نصبه على أنه اسمها، ويوم الفصل خبرها. ثم وصف سبحانه ذلك اليوم، فقال: **﴿يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً﴾** يوم بدل من يوم الفصل، أو منتصب بفعل مضمّر يدل عليه الفصل أي: يفصل بينهم يوم لا يغني، ولا يجوز أن يكون معمولاً للفصل؛ لأنه قد وقع الفصل بينهما باجني، والمعنى: أنه لا ينفع في ذلك اليوم قريب قريباً، ولا يدفع عنه شيئاً، ويطلق المولى على الولي، وهو: القريب، والناصر **﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾** الضمير راجع إلى المولى باعتبار المعنى؛ لأنه نكرة في سياق النفي، وهي من صيغ العموم أي: ولا هم يمتنعون من عذاب الله **﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾** قال الكسائي: الاستثناء منقطع أي: لكن من رحم الله، وكذا قال الفراء. وقيل: هو متصل، والمعنى: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤنن لهم في الشفاعة، فيشفعون، ويجوز أن يكون مرفوعاً على البذل من مولى الأول، أو من الضمير في ينصرون **﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** أي: الغالب الذي لا ينصر من أراد عذابه الرحيم لعباده المؤمنين. ثم لما وصف اليوم ذكر بعده، وعيد الكفار، فقال: **﴿إِنْ شَجَرَتُ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾** شجرة الزُّقُوم هي: الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها، فاكلوا منها، وقد مضى الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات، والأثيم الكثير الإثم. قال في الصحاح: أثم الرجل بالكسر إثماً، ومائماً: إذا وقع في الإثم، فهو: أثم، وأثوم. فمعنى طعام الأثيم: ذي الإثم **﴿كَالْمُهْلِ﴾** وهو: دردي الزيت، وعكر القطران. وقيل: هو النحاس المذاب. وقيل: كل ما ينوب في النار **﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغْلِي الْحَمِيمِ﴾** قرأ الجمهور تغلي بالفوقية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الشجرة، والجملة خبر ثانٍ، أو حال، أو خبر مبتدأ محذوف أي: تغلي غلياً مثل غلي الحميم، وهو: الماء الشديد الحرارة. وقرأ ابن كثير، وحفص، وابن محيصن، وورش، عن يعقوب (يغلي) بالتحية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام، وهو: في معنى الشجرة. ولا يصح أن يكون الضمير عائداً إلى المهل؛ لأنه مشبه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل، وقوله: **﴿كَغْلِي الْحَمِيمِ﴾** صفة مصدر محذوف أي: غلياً كغلي الحميم **﴿خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَجِيمِ﴾** أي: يقال للملائكة الذين هم خزنة النار: خذوه أي: الأثيم، فاعتلوه، العتل: القود بالعنف، يقال: عتله يعتله، إذا جرّه، وذهب به إلى مكروه،

في قوله: ﴿إِنْ شَجَرَتِ الرُّقُومُ * طَعَامَ الْإِثْمِ﴾ قال: المهل. وأخرج عنه أيضاً: ﴿نَدَقَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال: هو أبو جهل بن هشام.

تفسير سورة الجاثية⁽¹⁾

وهي مكية كلها في قول الحسن، وجابر، وعكرمة. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس، وابن الزبير أنها نزلت بمكة، ودوي عن ابن عباس، وقتادة أنها قالوا: إلا آية منها، وهي قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: 14] فإنها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب، كما سيأتي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ① نَزَلَ الْكِتَابَ مِنْ اللَّهِ الْغَوِي الْمَكْرِي ② إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلَّذِينَ يَعْقِلُونَ ③ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْتَلِيكُمْ مِنْ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ④ وَلَيُخْلِفَ الْأَبْلَى وَالْكَارِ وَمَا نُرِيهِمْ إِلَّا أَفْهَامًا ⑤ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَتَصْرِيفِ الْآيَاتِ ⑥ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُقَالُونَ ⑦ إِنَّكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْهِ وَالْحَقُّ يَأْتِي حَسْبَيْهِ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ⑧ وَلَيْسَ أَفْهَامُ أَيْمِرٍ ⑨ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ يُعْرِضُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْ فَتِيرًا يَدَّابِ أَلِيمٍ ⑩ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُواً أُولَئِكَ لَمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ⑪ وَمِنْ دُونِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا أُخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ وَقَدْ عَذِّبَ عَظِيمٌ ⑫ هَذَا هَدَى الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهُونَ بِهِمْ لَمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ⑬ وَاللَّهُ أَلْوَى سَعَرٌ لَكَ الْبَحْرُ لِيَجْزِيَ الْفُلُوكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنْزِلَ فِي قُلُوبِهِمْ وَلِكُلِّ شَيْءٍ قُدْرَةٌ ⑭ وَسَعَرٌ لَكَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا إِنَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⑮ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ⑯ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِنْ رَجَعُوا رُحِمُوا ⑰

قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ قد تقدّم الكلام في هذه الفاتحة، وفي إعرابها في فاتحة سورة غافر، وما بعدها، فإن جعل اسماً للسورة، فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وإن جعل حروفاً مسرودة على نمط التعديد، فلا محلّ له، وقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ﴾ على الوجه الأول خير ثان، وعلى الوجه الثاني خبر المبتدأ، وعلى الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ وخبره ﴿مَنْ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة، فقال: ﴿إِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فيها نفسها، فإنها من فنون

وإنما قيل للنساء حور: لأنهنّ شبّهن بالظباء، والبقر. قيل: والمراد بقوله: ﴿زُوجُجْنَاهُمْ﴾ قرنائهم، وليس من عقد التزويج، لأنه لا يقال: زُوِّجَتْ بامرأة. وقال أبو عبيدة: وجعلناهم أزواجاً لهم كما يزوّج البعل بالبعلة أي: جعلناهم اثنين اثنين، وكذا قال الأخفش ﴿يُدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكْهَةٍ آمْنِينَ﴾ أي: يأمرون بلحاضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم آمنين من التختّم، والأسقام، والآلام. قال قتادة: آمنين من الموت، والوصب، والشيطان، وقيل: من انقطاع ما هم فيه من النعيم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ أي: لا يموتون فيها أبداً إلا الموتة التي ذاقوها في الدنيا، والاستثناء منقطع أي: لكن الموتة التي قد ذاقوها في الدنيا كذا قال الزجاج والفراء، وغيرهما، ومثل هذه الآية قوله: ﴿لَا تَنْكَحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 22] وقيل: إن إلا بمعنى بعد، كقولك: ما كلمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عنك أي: بعد رجل عنك، وقيل: هي بمعنى سوى أي: سوى الموتة الأولى. وقال ابن قتبية: إنما استثنى الموتة الأولى وهي في الدنيا، لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله، وقدرته إلى أسباب من الجنة يلقون الروح، والريحان، ويرون منازلهم من الجنة، وتفتح لهم أبوابها، فإذا ماتوا في الدنيا، فكانهم ماتوا في الجنة لاتصالهم بأسبابها، ومشاهدتهم إياها، فيكون الاستثناء على هذا متصلاً. واختار ابن جرير أن إلا بمعنى بعد، واختار كونها بمعنى سوى ابن عطية ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾. قرأ الجمهور (وقاهم) بالتخفيف، وقرأ أبو حنيفة بالتشديد على المبالغة ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: لأجل الفضل منه، أو إعطاهم ذلك عطاء فضلاً منه ﴿وَلَكُنتُمْ أَهْلُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ﴾ أي: ذلك الذي تقدّم ذكره هو: الفوز الذي لا فوز بعده المتناهي في العظم. ثم لما بين سبحانه الدلائل، وذكر الوعد، والوعيد، قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنما أنزلنا القرآن بلغتك كي يفهمه قومك، فيتذكروا، ويعتبروا، ويعملوا بما فيه، أو سهلناه بلغتك عليك، وعلى من يقرؤه لعلهم يتذكرون ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أي: فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم، وإهلاكهم على يدك، فإنهم منتظرون ما ينزل بك من موت، أو غيره، وقيل: انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم، فإنهم منتظرون بك نواذب الدهر، والمعنى متقارب.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿نَدَقَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ يقول: لست بعزیز، ولا كريم. وأخرج الأموي في مغازيه، عن عكرمة قال: «لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فقال: إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ ثم أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ [القيامة: 34، 35] قال: فنزع يده من يده، وقال: ما تستطيع لي أنت، ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أنني أمتع أهل بطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله يوم بدر، وأنله، وعيره بكلمته، وأنزل: ﴿نَدَقَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾». وأخرج ابن مريويه، عن ابن عباس

(1) تنبيه: جرى المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع، مع تعرضه للقراءات السبع، وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني.

محل نصب على الحال، وقيل: استئناف، والأول أولى، وقوله: ﴿تَتَلَّى عَلَيْهِ﴾ في محل نصب على الحال ﴿ثُمَّ يَصْرُ﴾ على كفره، ويقوم على ما كان عليه حال كونه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: يتمادى على كفره متعظماً في نفسه عن الانقياد للحق، والإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحني عليها صراً أننيه. قال مقاتل: إذا سمع من آيات القرآن شيئاً اتخذها هزواً، وجملته ﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾: في محل نصب على الحال، أو مستأنفة؛ وإن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف ﴿فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا من باب التهكم أي: فبشّره على إصراره واستكباره، وعدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شيئاً﴾ قرأ الجمهور (علم) بفتح العين، وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل. وقرأ قتادة، ومطر الوراق على البناء للمفعول. والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله ﴿اتَّخَذَهَا﴾ أي: الآيات ﴿هَزْوَاً﴾ وقيل: الضمير في اتخذها عائد إلى شيئاً؛ لأنه عبارة عن الآيات، والأول أولى. والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى كلّ أفاك متصف بتلك الصفات ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِهِينٌ﴾ بسبب ما فعلوا من الإصرار، والاستكبار عن سماع آيات الله، واتخاذها هزواً، والعذاب المهين هو المشتغل على الإذلال، والفضيحة ﴿مَنْ وَرِثَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: من وراء ما هم فيه من التعزّز بالدنيا، والتكبر عن الحقّ جهنّم؛ فإنها من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إليها، وعبر بالوراء عن القدام، كقوله: ﴿مَنْ وَرِثَهُ جَهَنَّمَ﴾ [إبراهيم: 16] وقول الشاعر:

ليس ورثائي إن تراخت منيتي

وقيل: جعلها باعتبار إعراضهم عنها، كأنها خلفهم ﴿وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شيئاً﴾ أي: لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم، وأولاهم شيئاً من عذاب الله، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ﴾ معطوف على ما كسبوا أي: ولا يغني عنهم ما اتخذوا من دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ من الأصنام، و«ها» في الموضعين إما مصدرية، أو موصولة، وزيادة لا في الجملة الثانية للتأكيد ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في جهنم التي هي من ورثتهم ﴿هَٰذَا هَٰذِي﴾ جملة مستأنفة من مبتدأ، وخبر يعني: هذا القرآن هدى للمهتدين به ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ القرآنية ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾ الرجز أشدّ العذاب. قرأ الجمهور (أليم) بالجرّ صفة للرجز. وقرأ ابن كثير، وحفص، وابن محيصن بالرفع صفة لعذاب ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ﴾ أي: جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بإذنه وإقداره لكم ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة تارة، والغوص للدرّ، والمعالجة للصيد وغير ذلك ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا النعم التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ أي: سَخَّرَ لعباده جميع ما خلقه في سماواته، وأرضه

الآيات، أو في خلقها. قال الزجاج: ويدلّ على أن المعنى في خلق السموات والأرض قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: في خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة. قال مقاتل: من تراب، ثم من نطفة إلى أن يصير إنساناً، ﴿وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَلِيلَةٍ آيَاتٍ﴾ أي: وفي خلق ما يبتُّ من دابة، وارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر، وخبره الظرف قبله، وبالرفع قرأ الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي (آيات) بالنصب عطفًا على اسم إن، والخبر قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ كأنه قيل: وإن في خلقكم وما يبتُّ من دابة آيات، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى. وقرأ الجمهور أيضاً (آيات لقوم يعقلون) بالرفع، وقرأ حمزة، والكسائي بنصبها مع اتفاقهم على الجرّ في اختلاف، أما جرّ اختلاف، فهو على تقدير حرف الجرّ أي: ﴿وَفِي﴾ في اختلاف الليل والنهار ﴿آيَاتٍ﴾ فمن رفع آيات، فعلى أنها مبتدأ، وخبرها في اختلاف، وأما النصب فهو من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين. قال الفراء: الرفع على الاستئناف بعد إن، تقول العرب: إن لي عليك مالا، وعلى أخيك مال، ينصبون الثاني ويرفعونه، وللنحاة في هذا الموضع كلام طويل. والبحث في مسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين، وحجج المجوّزين له، وجوابات المانعين له مقرر في علم النحو مبسوط في مطولاته. ومعنى: ﴿مَا يَبُتُّ مِنْ دَلِيلَةٍ﴾ ما يفرقه وينشره ﴿وَلِاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما، أو تفاوتهما في الطول والقصر، وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ معطوف على اختلاف، والرزق المطر؛ لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به، وإحياء الأرض: إخراج نباتها، و﴿مَوْتِهَا﴾ خَلَوَهَا عن النبات ﴿وَفِي﴾ معنى ﴿تَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾: أنها تهب تارة من جهة وتارة من أخرى، وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة، وتارة نافعة، وتارة ضارة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ﴾ أي: هذه الآيات المنكورة هي حجج الله وبراهينه، ومحل نزلها عليك بالنصب على الحال، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة، وآيات الله بيان له، أو بدل منه، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من فاعل نزل، أو من مفعوله أي: محققين، أو ملتبسة بالحق، ويجوز أن تكون الباء للسببية، فتتعلق بنفس الفعل ﴿فَبَيَّأَ حَيْثُ بَعَدَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ يَوْمُنُونَ﴾ أي: بعد حديث الله وبعده آياته، وقيل إن المقصود: فبَيَّأَ حديث بعد آيات الله، وذكر الاسم الشريف ليس إلّا لقصد تعظيم الآيات، فيكون من باب: أعجبني زيد، وكومه. وقيل المراد: بعد حديث الله، وهو القرآن كما في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: 23]، وهو المراد بالآيات، والعطف لمجرد التغاير العنواني. قرأ الجمهور (تؤمنون) بالفوقية، وقرأ حمزة، والكسائي بالتحية. والمعنى: يؤمنون بأيّ حديث، وإنما قدّم عليه؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام ﴿وَوَيْلٌ لَكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: لكل كذاب كثير الإثم مرتكب لما يوجب، والويل: واد في جهنم. ثم وصف هذا الأفّاك بصفة أخرى، فقال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتَلَّى عَلَيْهِ﴾ وقيل: إن يسمع في

والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن طاووس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مِمَّ خلق الخلق؟ قال: من الماء، والنور والظلمة، والهواء والتراب، قال: فمم خلق هؤلاء؟ قال: لا أدري. ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير، فسأله، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو، فأتى ابن عباس، فسأله مِمَّ خلق الخلق؟ فقال: من الماء، والنور والظلمة، والرياح والتراب، قال: فمم خلق هؤلاء؟ فقرا ابن عباس **﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾** فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿قُلْ لِلنَّاسِ أَمْنُوْا يَغْفِرُوْا﴾** الآية قال: كان نبي الله ﷺ يعرض عن المشركين إذا أنوه، وكانوا يستهزئون به ويكذبونه، فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة، فكان هذا من المنسوخ.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرٰٓءِيلَ الْكِتٰٓبَ وَلَمَّا كَثُرَ الْاَشْكُرُ وَالْكُفْرُ وَرَفَقْتُمْ بِنِ الْاٰمِنِيْنَ وَفَضَّلْنٰهُمْ عَلَى الْاٰمِنِيْنَ ﴿١٧﴾ وَمَا تَنبَهُنَّ يَنْبِتُ مِنَ الْاَمْرِ كَمَا تَخْتَلِفُوْنَ اِلَّا مِنْۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْاَمْلُ بَعِيًا يَنْهٰهُمْ اِنَّ رَبَّكَ يَفْضِيْ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَيَمَآ كَانُوْا فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلٰى شَرِيْعَةٍ مِّنَ الْاَمْرِ فَاَتٰىهَا وَلَا تَخِجْ اَهْوَاَ الْاٰمِنِيْنَ لَا يَسْمَعُوْنَ ﴿١٩﴾ اِنَّهُمْ لَنُفَعُوْا عَلٰى مَا نَكُنَّ مِنْ اَللّٰهِ شَرِيْعًا وَاِنَّ الْاٰمِنِيْنَ بِمَعْصِيَّتِهِمُ الْاٰمِنِيْنَ بَعِيًا وَكَانَ الْاَمْنِيْنَ ﴿٢٠﴾ هٰذَا بَصَرٌ لِّلنَّاسِ وَهٰذَا وَجْهٌ لِّقَوْمٍ يُؤْتُوْنَ ﴿٢١﴾ اَمْ حَسِبَ الْاٰمِنِيْنَ اَجْعَلُوْا الْاَمْنِيْنَ اَنْ يَّجْمَعُوْهُمْ كَالَّذِيْنَ مَآسُوْا وَجَعَلُوْا الصَّلٰٓحَةَ سَوَآءَ عَيْنِهِمْ وَمَسَآئِهِمْ سَآءًا مَا يَحْكُمُوْنَ ﴿٢٢﴾ وَعَلَى اَللّٰهِ اَلْتَوَكَّلُ وَالْاَرْضُ لِمَنۢ وَلِيَ وَلَنُجْزِيَنَّ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُوْنَ ﴿٢٣﴾ اَفَرَأَيْتَ مَنِ اَقْبَدَ الْاَلِهَ هَوْنَةً وَّاسْمُهُ اَللّٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ رَّحِيْمٍ عَلَىٰ سَمِيْعٍ وَكَلِيْمٍ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَّهْدِيْهِ يَهْدِيْهِ اَللّٰهُ اَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوْا مَا هٰٓؤُلَآءَ اِلَّا حَيٰٓةُ الْاٰمِنِيْنَ نَمُوْتُ وَفِيْهَا مَا يَبْلُغُكَ اِلَّا اَلْاٰخِرَةُ وَمَا لَكُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ اِنْ هُمْ اِلَّا يَظُنُّوْنَ ﴿٢٥﴾ وَاِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ اِنَّا نَزَّلْنَا نَبِيًّا تَاۤىٔا كَانَ حُجَّتُهُمْ اِلَّا اَنْ قَالُوْا اَنْتُمْۤ اِنَّا بَآئِنًا اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿٢٦﴾ قُلِ اَللّٰهُ يُخَيِّكُمۡ ثُمَّ يُمَيِّكُمۡ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيْهِ وَلٰكِنْ اَكْثَرُ الْاَنَاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴿٢٧﴾

قوله: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرٰٓءِيلَ الْكِتٰٓبَ﴾** والمراد بالكتاب: التوراة، وبالحكم: الفهم والفقه الذي يكون بهما الحكم بين الناس وفصل خصوماتهم، وبالنبوة: من بعثه الله من الأنبياء فيهم **﴿وَوَرَقْنَا هُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾** أي: المستلذات التي أحلها الله لهم، ومن ذلك المن والسلوى **﴿وَوَفَّلْنَا هُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر ونحوه، وقد تقدم بيان هذا في سورة البقرة **﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾** أي: شرائع واضحات في الحلال والحرام، أو معجزات ظاهرات، وقيل: العلم بمبعث النبي ﷺ، وشواهد نبوته، وتعيين مهاجرة **﴿فَمَا اخْتَلَفُوا اِلَّا مِنْۢ بَعْدَ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾** أي: فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر إلا بعد مجيء العلم إليهم ببيانه، وإيضاح معناه، ففعلوا ما يوجب

مما تتعلق به مصالحهم، وتقوم به معاشيهم، ومما سخره لهم من مخلوقات السموات: الشمس والقمر، والنجوم النيرات، والمطر والسحاب والرياح، وانتصاب جميعاً على الحال من ما في السموات وما في الأرض، أو تأكيد له، وقوله: منه يجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لجمعياً أي: كائنة منه، ويجوز أن يتعلق بسخر، ويجوز أن يكون حالاً من ما في السموات، أو خبراً لمبتدأ محذوف، والمعنى: أن كل ذلك رحمة منه لعباده **﴿إِنْ فِيْ ذٰلِكَ لَمُنْكَوْرٌ مِّنَ التَّسْخِيْرِ﴾** أي: لايات لقوم يتفكرون، وخص المتفكرين؛ لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها، فإنه ينتقل من التفكير إلى الاستدلال بها على التوحيد **﴿قُلْ لِلنَّاسِ أَمْنُوْا يَغْفِرُوْا﴾** أي: قل لهم اغفروا يغفروا **﴿لِلنَّاسِ لَا يَرْجُوْنَ اِيَّامَ اَللّٰهِ﴾** وقيل: هو على حذف اللام، والتقدير: قل لهم ليغفروا. والمعنى: قل لهم يتجاوزوا عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه أي: لا يتوقعونها، ومعنى الرجاء هنا: الخوف، وقيل: هو على معناه الحقيقي، والمعنى: لا يرجون ثوابه في الأوقات التي وقَّتها الله لثواب المؤمنين، والأول أولى، والأيام يعبر بها عن الوقائع كما تقدم في تفسير قوله: **﴿وَنُذَكِّرُهُمْ بِاَيَّامِ اَللّٰهِ﴾** [إبراهيم: 5] قال مقاتل: لا يخشون مثل عذاب الله للامم الخالية، وذلك أنهم لا يؤمنون به، فلا يخافون عقابه. وقيل المعنى: لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه، وقيل: لا يخافون البعث. قيل: والآية منسوخة بآية السيف **﴿لِيُجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُوْنَ﴾** قرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي (لنجزى) بالنون أي: لنجزى نحن. وقرأ باقي السبعة بالتحية مبنياً للفاعل، أي: ليجزي الله. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وعاصم بالتحية مبنياً للمفعول مع نصب قوماً، فقيل: النائب عن الفاعل مصدر للفعل أي: ليجزي الجزاء قوماً، وقيل: إن النائب الجار والمجرور، كما في قول الشاعر: ولو ولدت فقيرة جرو كلب لَسَبَّ بِنُكَّ الْجُرُ الْكَلَابَا وقد أجاز ذلك الأخفش، والكوفيون، ومنه البصريون، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة، والمراد بالقوم: المؤمنون، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكره. وقيل المعنى: ليجزي الكفار بما عملوا من السيئات كأنه قال: لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن، والأول أولى. ثم نكر المؤمنين وأعمالهم، والمشركين وأعمالهم، فقال: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾** والمعنى: أن عمل كل طائفة من إحسان، أو إساءة لعامله لا يتجاوز به إلى غيره، وفيه ترغيب وتهديد **﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾** فيجازي كلاً بعمله إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة من طريق عكرمة، عن ابن عباس في قوله: **﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾** قال: منه النور والشمس والقمر. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كل شيء هو من الله. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر،

سواء، وقرأ الأعمش، وعيسى بن عمر (مما تهم) بالنصب على معنى سواء في محياهم ومماتهم، فلما سقط الخافض انتصب، أو على البذل من مفعول نجعلهم بدل احتمال **﴿سواء ما يحكمون﴾** أي: سواء حكمهم هذا الذي حكموا به **﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق﴾** أي: بالحق المقتضي للعدل بين العباد، ومحل بالحق النصب على الحال من الفاعل، أو من المفعول، أو الباء للسببية، وقوله: **﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾** يجوز أن يكون على الحق؛ لأن كلا منهما سبب، فعطف السبب على السبب، ويجوز أن يكون معطوفاً على محذوف، والتقدير: خلق الله السموات والأرض؛ ليدل بهما على قدرته ولتجزى، ويجوز أن تكون اللام للضرورة **﴿وهم لا يظلمون﴾** أي: النفوس المملول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، ثم عجب سبحانه من حال الكفار، فقال: **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾** قال الحسن، وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبته، وقال عكرمة: يعبد ما يهواه، أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئاً، وهواه اتخذه إلهاً. قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر **﴿واضله الله على علم﴾** أي: على علم قد علمه، وقيل المعنى: أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه، وقال مقاتل: على علم منه أنه ضال؛ لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر. قال الزجاج: على سوء في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، ومحل على علم النصب على الحال من الفاعل، أو المفعول **﴿وختم على سمعه وقلبه﴾** أي: طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى **﴿وجعل على بصره غشاوة﴾** أي: غطاء حتى لا يبصر الرشيد. قرأ الجمهور (غشاوة) بالالف مع كسر الغين، وقرأ حمزة، والكسائي (غشوة) بغير ألف مع فتح الغين، ومنه قول الشاعر:

لئن كنت البستني غشوة لقد كنت أصفيتك لو حينا
وقرأ ابن مسعود، والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهي لغة ربيعة، وقرأ الحسن، وعكرمة بضمها وهي لغة عكل **﴿فمن يهديه من بعد الله﴾** أي: من بعد إضلال الله له **﴿أفلا تذكرون﴾** تذكر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال، ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال: **﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾** أي: ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها **﴿نموت ونحيا﴾** أي: يصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، وقيل: نموت نحن، ويحيا فيها أولادنا، وقيل: نكون نطفاً ميتة، ثم نصير أحياء. وقيل: في الآية تقييم وتأخير أي: نحيا ونموت، وكذا قرأ ابن مسعود، وعلى كل تقدير، فمرادهم بهذه المقالة: إنكار البعث وتكذيب الآخرة **﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾** أي: إلا مرور الأيام والليالي قال مجاهد: يعني: السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر، والمعنى واحد. وقال قطرب: المعنى: وما يهلكنا إلا الموت. وقال عكرمة: وما يهلكنا إلا الله **﴿وما لهم بذلك من**

زوال الخلاف موجباً لثبوته، وقيل المراد بالعلم: يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم، وقيل: نبوة محمد ﷺ، فاختلوا فيها حسداً وغبياً، وقيل: **﴿غبياً﴾** من بعضهم على بعض يطلب الرئاسة **﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** من أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر﴾** الشريعة في اللغة: المذهب والملة والمنهاج ويقال: لمشرة الماء وهي مورد شاربيه شريعة، ومنه الشارح؛ لأنه طريق إلى المقصد، فالمراد بالشريعة هنا: ما شرعه الله لعباده من الدين، والجمع شرائع أي: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق **﴿فاتبعها﴾** فاعمل بأحكامها في امتك **﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾** توحيد الله وشرائعه لعباده، وهم كفار قريش ومن وافقهم **﴿إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً﴾** أي: لا يدفعون عنك شيئاً مما اراده الله بك إن اتبعت أهواءهم **﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾** أي: أنصار ينصر بعضهم بعضاً قال ابن زيد: إن المنافقين أولياء اليهود **﴿والله ولي المتقين﴾** أي: ناصرهم، والمراد بالمتقين: الذين اتقوا الشرك والمعاصي، والإشارة بقوله: **﴿هَذَا﴾** إلى القرآن، أو إلى اتباع الشريعة، وهو مبتدأ وخبره **﴿بصائر للناس﴾** أي: براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، جعل تلك بمنزلة البصائر في القلوب، وقرئ (هذه بصائر) أي: هذه الآيات؛ لأن القرآن بمعناها، كما قال الشاعر:

سائل بني أسد ما هذه الصوت

لأن الصوت بمعنى الصيحة **﴿وهذئ﴾** أي: رشد، وطريق يؤدي إلى الجنة لمن عمل به **﴿ورحمة﴾** من الله في الآخرة **﴿لقوم يوقنون﴾** أي: من شأنهم الإيقان، وعدم الشك، والتزلزل بالشبه **﴿أم حسب الذين لجنوا﴾** للسيئات أم هي المنقطعة المقدرة ببطل، والهزمة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهزمة لإنكار الحسبان، والاجترار الاكتساب، ومنه الجوارح، وقد تقدم في المائدة، والجملة مستأنفة؛ لبيان تباين حالي المسيئين والمحسنين، وهو معنى قوله: **﴿إن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** أي: نسوي بينهم مع اجتراحهم السيئات، وبين أهل الحسنات **﴿سواء محياهم ومماتهم﴾** في دار الدنيا وفي الآخرة، كلا لا يستور، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة. وقيل المراد: إنكار أن يستوروا في الممات، كما استوروا في الحياة. قرأ الجمهور (سواء) بالرفع على أنه خبر مقدم، والمبتدأ محياهم ومماتهم والمعنى: إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص (سواء) بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله: **﴿كالذين آمنوا﴾** أو على أنه مفعول ثان لحسب، واختار قراءة النصب أبو عبيد، وقال معناه: نجعلهم

كما تركتم العمل لهذا اليوم، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعاً؛
لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه ﴿وَمَوْلَاكُمْ النَّارُ﴾
أي: مسكنكم ومستقركم الذين تأوّن إليه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ
فَاصِرِينَ﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب ﴿ذَلِكَ بِأَنكُمْ
اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: تلكم العذاب بسبب أنكم
اتخذتم القرآن هُزُوًا ولعباً ﴿وَوَغَرْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي:
خدعتم بخرافها وأباطيلها، فظننتم أنه لا دار غيرها، ولا
بعث ولا نشور ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار.
قرأ الجمهور (يخرجون) بضم الياء، وفتح الراء مبنياً
للمفعول وقرأ حمزة، والكسائي بفتح الياء وضم الراء مبنياً
للفاعل، والانتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم ﴿وَلَا هُمْ
يَسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يسترضون، ويطلب منهم الرجوع إلى
طاعة الله؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبة، ولا تنفع فيه معذرة
﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
لا يستحقّ الحمد سواه. قرأ الجمهور (ربّ) في المواضع
الثلاثة بالجرّ على الصفة للاسم الشريف، وقرأ مجاهد،
وحميد، وابن محيصن بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ
أي: هو ربّ السموات إلخ ﴿وَلِلَّهِ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أي: الجلال والعظمة والسلطان، وخصّ السموات
والأرض لظهور ذلك فيهما ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي:
العزیز في سلطانه، فلا يغالبه مغالب، الحكيم في كل أفعاله
وأقواله وجميع أفضيته.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في
زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن
عبد الله بن باباه قال: قال رسول الله ﷺ: «كأنّي أراكم
بالكوم بون جهنم جاثين، ثم قرأ سفيان (ويرى كل أمة
جاثية)». وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله: ﴿وَوَتَرَى
كُلَّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً﴾ قال: كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول
الله ﷺ على كرم قد علا الخلاق، فذلك المقام المحمود.
وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا
يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ قال: هو أمّ الكتاب فيه أعمال بني آدم
﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: هم الملائكة
يستنسخون أعمال بني آدم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي
حاتم عنه بمعناه مطوّلاً، فقام رجل فقال: يا ابن عباس، ما
كنا نرى هذا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة، فقال ابن
عباس: إنكم لستم قوماً عرباً ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب. وأخرج ابن
جرير عنه نحوه أيضاً، وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي
طالب قال: إن لله ملائكة ينزلون في كل يوم بشيء يكتبون
فيه أعمال بني آدم. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحو ما
روي، عن ابن عباس. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في
الآية قال: يستنسخ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم،
فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أمّ الكتاب، وأخرج
نحوه الحاكم عنه وصححه. وأخرج الطبراني عنه أيضاً في
الآية قال: إن الله وكل ملائكته ينسخون من ذلك العام في

هذا من تمام ما يقال لهم، والقائل بهذا: هم الملائكة وقيل:
هو من قول الله سبحانه أي: يشهد عليكم، وهو استعارة،
يقال: نطق الكتاب بكذا أي: بين، وقيل: إنهم يقرءونه فيذكرون
ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذي لا زيادة فيه، ولا
نقصان، ومحل ينطق النصب على الحال، أو الرفع على أنه
خبر آخر لاسم الإشارة، وجملة: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تحليل للنطق بالحق أي: نامر الملائكة بنسخ
أعمالكم أي: بكتبها، وتثبيتها عليكم. قال الواحدي: وأكثر
المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن
الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم،
فيجئون ذلك موافقاً لما يعملونه قالوا: لأن الاستنساخ لا
يكون إلا من أصل. وقيل المعنى: نامر الملائكة بنسخ ما
كنتم تعملون. وقيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمل
العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات
والسيئات، وتركوا المباحات. وقيل: إن الملائكة إذا رفعت
أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده
منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا
عقاب ﴿فَمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِيْهِمْ خَلْفٌ
رَّبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: الجنة، وهذا تفصيل لحال الفريقين،
فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الإدخال
في رحمته ﴿هُوَ الْغَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر الواضح ﴿وَمَا
الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم
ذلك، وهو استفهام توبيخ؛ لأن الرسل قد اتتهم وتلت عليهم
آيات الله، فكذبوها ولم يعملوا بها ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
مَّجْرُمِينَ﴾ أي: تكبرتم عن قبولها، وعن الإيمان بها، وكنتم
من أهل الإجمام، وهي الآثام، والاجترام الاكتساب، يقال:
فلان جريمة أهله: إذا كان كاسبهم، فالمجرم من كسب الآثام
بفعل المعاصي ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعده
بالبعث والحساب، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلية
واقع لا محالة ﴿وَالسَّاعَةِ﴾ أي: القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾
أي: في وقوعها. قرأ الجمهور (والساعة) بالرفع على
الابتداء، أو العطف على موضع اسم إن، وقرأ حمزة بالنصب
عطفًا على اسم إن ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: أي
شيء هي؟ ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: نحس حسناً ونتوهم
توهمًا. قال المبرد: تقديره: إن نحن إلا نظن ظناً، وقيل
التقدير: إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً، وقيل: إن نظن مضمن
معنى نعتقد أي: ما نعتقد إلا ظناً لا علماً، وقيل: إن ظناً له
صفة مقدرة أي: إلا ظناً بيناً، وقيل: إن الظن يكون بمعنى
العلم والشك، فكانهم قالوا: ما لنا اعتقاد إلا الشك ﴿وَمَا
نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: لم يكن لنا يقين بذلك، ولم يكن معنا
إلا مجرد الظن أن الساعة آتية ﴿وَوَيْدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
عَمِلُوا﴾ أي: ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التي
هي عليها ﴿وَوَحَاقُ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: لحاط
بهم، ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ
نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: نترككم في النار

الإلهية، وقوله: ﴿وَلَجَلْ مَسْمًى﴾ معطوف على الحقّ أي: بالحقّ، وبأجل مسمى على تقدير مضاف محذوف أي: وبتقدير أجل مسمى، وهذا الأجل هو يوم القيامة، فإنها تنتهي فيه السموات والأرض وما بينهما، وتبدّل الأرض غير الأرض والسموات. وقيل: المراد بالأجل المسمى هو: انتهاء أجل كلّ فرد من أفراد المخلوقات، والأوّل أولى، وهذا إشارة إلى قيام الساعة، وانقضاء مدة الدنيا، وأن الله لم يخلق خلقه طلاً وعبثاً لغير شيء، بل خلقه للثواب والعقاب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: عما أنذروا وخوفوا به في القرآن من البعث والحساب، والجزاء معرضون مولون غير مستعدين له، والجملة في محل نصب على الحال أي: والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به، و«ما» في قوله: ﴿مَا أُنْذِرُوا﴾ يجوز أن تكون الموصولة، ويجوز أن تكون المصدرية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أخبروني ما تعبدون من دون الله من الأصنام ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أي شيء خلقوا منها، وقوله: ﴿أَرُونِي﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً لقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني إروني، والمفعول الثاني لأرأيتُم ماذا خلقوا، ويحتمل أن لا يكون تأكيداً، بل يكون هذا من باب التنازع؛ لأن أرايتم يطلب مفعولاً ثانياً، وأروني كذلك ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم هذه هي المنقطعة المقترنة ببل والهمزة، والمعنى: بل لهم شركة مع الله فيها، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿إِن تَوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ هذا تبيكت لهم، وإظهار لحجّهم، وقصورهم عن الإتيان بذلك، والإشارة بقوله هذا إلى القرآن، فإنه قد صرح ببطلان الشرك، وأن الله واحد لا شريك له، وأن الساعة حق لا ريب فيها، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب، أو حجة تنافي هذه الحجة ﴿أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ﴾. قال في الصحاح: أو إثارة من علم بقية منه، وكذا الأثره بالتحريك. قال ابن قتيبة: أي: بقية من علم الأولين. وقال الفراء، والمبرد: يعني: ما يؤثر عن كتب الأولين. قال الواحدي: وهو معنى قول المفسرين. قال عطاء: أو شيء تأثرونه عن نبي كان قبل محمد ﷺ. قال مقاتل: أو رواية من علم عن الأنبياء. وقال الزجاج: أو إثارة أي: علامة، والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة، وأصل الكلمة من الأثر، وهي الرواية يقال: أثرت الحديث أثره أثره وأثارة وأثر؛ إذا نكرته عن غيرك. قرأ الجمهور (أثارة) على المصدر كالسماحة والغواية. وقرأ ابن عباس، وزيد بن علي، وعكرمة، والسلمي، والحسن، وأبو رجاء بفتح الهمزة والياء من غير الف. وقرأ الكسائي (أثرة) بضم الهمزة وسكون الاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم التي تدعونها، وهي قولكم إن الله شريكاً، ولم تأتوا بشيء من ذلك، فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلي، والنقلي على خلافه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أي: لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع في الإجابة فضلاً عن جلب نفع، أو دفع ضرر؟ فتبين بهذا أنه

رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثله من السنة المقبلة، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «اليوم ننساكم كما نسبتم لقاء يومكم هذا» قال: نترككم. وأخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في الاسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: الكبرياء رداي، والعظمة إزاري» فمن نازعني واحداً منهما ألقته في النار».

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية. قال القرطبي: في قول جميعهم. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس، وابن الزبير قالا: نزلت سورة حمّ الأحقاف بمكة. وأخرج ابن الضريس، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: «أقرّاني رسول الله ﷺ سورة الأحقاف وأقرأها آخر، فخالف قراءته، فقلت: من أقرأكها؟ قال: رسول الله ﷺ، فقلت: والله لقد أقرّاني رسول الله ﷺ غير ذاك، فأتينا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألم تقرّني كذا وكذا؟ قال: بلى، وقال الآخر: ألم تقرّني كذا وكذا؟ قال: بلى، فتمعر وجه رسول الله ﷺ، فقال: ليقرا كل واحد منكما ما سمع، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف.»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ❶ تَنذِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ❷ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ
❸ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي
السَّمَوَاتِ أَفَنُفِثُوا بِكَتَبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَكْتَرُوا مِنْ عِلْمِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ❹ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ
الْقِسْطِ وَمَنْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ❺ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ❻ وَإِذَا نُنِجَ عَلَيْهِمْ يَأْتِيَانَا يَقْتُلُونَ قُلْ أَلَيْسَ كَقَوْلِهِمْ لَوْ لَنَا
جَاهٌ هَذَا سِوَ شَيْءٍ ❼ أَوْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَا قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُوا لِي مِنْ
أَلَلِهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَتَبَ بِيَدِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَبِمَنْزُورٍ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ❽ قُلْ مَا دَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ
إِلَّا مَا يَوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ❾

قوله: ﴿حَمَّ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿﴾
قد تقدّم الكلام على هذا في سورة غافر وما بعدها
مستوفى، وذكرنا وجه الإعراب، وبيان ما هو الحقّ من أن
فواتح السور من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى من
أنزله ﴿ما خلقنا السّموات والأرض وما بينهما﴾ من
المخلوقات بأسرها ﴿إلا بالحقّ﴾ هو استثناء مفرّغ من أعمّ
الاحوال أي: إلا خلقاً ملتبساً بالحقّ الذي تقتضيه المشيئة

كذا قال الأخفش، وأنشد قطرب:

فما أنا بدع من حوالت تعتري رجلاً غنت من بعد موسى وأسعدا
وقرأ عكرمة، وأبو حيوة، وابن أبي عبيدة (بدعاً) بفتح
الدال على تقدير حذف المضاف أي: ما كنت ذا بدع، وقرأ
مجاهد بفتح الباء، وكسر الدال على الوصف «وما أدري ما
يفعل بي ولا بكم» أي: ما يفعل بي فيما يستقبل من
الزمان هل أبقي في مكة، أو أخرج منها؟ وهل أموت أو
أقتل؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ وهذا إنما هو في
الدنيا. وأما في الآخرة، فقد علم أنه وأمته في الجنة، وإن
الكافرين في النار. وقيل: إن المعنى: ما أدري ما يفعل بي
ولا بكم يوم القيامة، وإنها لما نزلت فرح المشركون، وقالوا:
كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له
علينا؟ فنزل قوله تعالى: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك
وما تأخر» [الفتح: 2] والأول أولى «إن اتبع إلا ما يوحى
إلي» قرأ الجمهور (يوحى) مبنياً للمفعول أي: ما اتبع إلا
القرآن، ولا أبتدع من عندي شيئاً، والمعنى: قصر أفعاله ﴿﴿﴾
على الوحي لا قصر اتباعه على الوحي «وما أنا إلا نذير
مبين» أي: أنذركم عقاب الله، وأخوفكم عذابه على وجه
الإيضاح.

وقد أخرج أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني،
وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن
عباس «أو إثارة من علم» قال: الخط. قال سفيان: لا أعلم
إلا عن النبي ﴿﴿﴾، يعني: أن الحديث مرفوع لا موقوف على
ابن عباس. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عن أبي
هريرة قال: قال رسول الله ﴿﴿﴾ «كان نبي من الأنبياء يخط،
فمن صاف مثل خطه علم» ومعنى هذا ثابت في الصحيح
ولاهل العلم فيه تفاسير مختلفة. ومن أين لنا أن هذه
الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط، وأين السند الصحيح إلى
ذلك النبي، أو إلى نبينا ﴿﴿﴾ أن هذا الخط هو على صورة
كذا، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات.
وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد، عن النبي ﴿﴿﴾: «أو
إثارة من علم» قال: حسن الخط. وأخرج الطبراني في
الأوسط، والحاكم من طريق الشعبي، عن ابن عباس «أو
إثارة من علم» قال: خط كان يخطه العرب في الأرض.
وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس «أو إثارة
من علم» يقول: بينة من الأمر. وأخرج ابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في قوله: «قل ما
كنت بدعاً من الرسل» يقول: لست بأول الرسل «وما
أدري ما يفعل بي ولا بكم» فانزل الله بعد هذا «ليغفر لك
الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» [الفتح: 2] وقوله: «ليدخل
المؤمنين والمؤمنات جنات» [الفتح: 5] الآية، فاعلم سبحانه
نبيه ما يفعل به، وبالمؤمنين جميعاً. وأخرج أبو داود في
ناسخه عنه أيضاً أن هذه الآية منسوخة بقوله: «ليغفر لك
الله» وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أم
العلاء قالت: لما مات عثمان بن مظعون قلت: رحمك الله أبا

أجهل الجاهلين وأضل الضالين، والاستفهام للتقريع
والتوبيخ، وقوله: «إلى يوم القيامة» غاية لعدم الاستجابة
«وهم عن دعائهم غافلون» الضمير الأول للأصنام،
والثاني لعبادها، والمعنى: والأصنام التي يدعونها عن
دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون
لكونهم جمادات، والجمع في الضميرين باعتبار معنى من،
وأجري على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها
أنها تعقل «وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء» أي: إذا
حشر الناس العابدون للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ
بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً وقد قيل: إن الله
يخلق الحياة في الأصنام، فتكذبهم. وقيل المراد: أنها تكذبهم،
وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال. وأما الملائكة،
والمسيح، وعزير، والشياطين، فإنهم يتبرءون ممن عبدتهم
يوم القيامة، كما في قوله تعالى: «تبرأنا إليك ما كانوا إيانا
يعبدون» [القصص: 63] «وكانوا بعبادتهم كافرين» أي:
كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين أي: جاحدين
مكذبين وقيل: الضمير في كانوا للمعبدين، كما في قوله:
«والله ربنا ما كنا مشركين» [الأنعام: 23]، والأول أولى
«وإذا تتلى عليهم آياتنا» أي: آيات القرآن حال كونها
«بينات» وأضحت المعاني ظاهرات الدلالات «قال الذين
كفروا للحق» أي: لأجله وفي شأنه، وهو عبارة عن الآيات
«لما جاءهم» أي: وقت أن جاءهم «هذا سحر مبين»
أي: ظاهر السحرية «أم يقولون افتراء» أم هي المنقطعة
أي: بل يقولون افتراء، والاستفهام للإنكار والتعجب من
صنيعهم، وبإل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى
قولهم: إن رسول الله افتري ما جاء به، وفي ذلك من التوبيخ
والتقريع ما لا يخفى، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم
فقال: «قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً» أي:
قل إن افتريته على سبيل الفرض، والتقدير: كما تدعون، فلا
تقدرون على أن تروا عني عقاب الله، فكيف افتري على الله
لأجلكم، وأنتم لا تقدرون على نفع عقابه عني «هو أعلم
بما تفيضون فيه» أي: تخوضون فيه من التكذيب،
والإفاضة في الشيء الخوض فيه، والانفاد فيه، يقال:
أفاضوا في الحديث أي: اندفعوا فيه، وأفاض البعير: إذا نفع
جزته من كرشه والمعنى: الله أعلم بما تقولون في القرآن،
وتخوضون فيه من التكذيب له، والقول بأنه سحر وكهانة
«كفى به شهيداً بيني وبينكم» فإنه يشهد لي بأن القرآن
من عنده، وأني قد بلغتكم، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود،
وفي هذا وعيد شديد «وهو الغفور الرحيم» لمن تاب
وأمن، وصلى بالقرآن وعمل بما فيه أي: كثير المغفرة
والرحمة بليغهما «قل ما كنت بدعاً من الرسل» البدع من
كل شيء المبدأ أي: ما أنا بأول رسول، قد بعث الله قبلي
كثيراً من الرسل. قيل: البدع بمعنى البديع كالحف والخفيف،
والبديع ما لم ير له مثل، من الابتداء وهو الاختراع، وشيء
بدع بالكسر أي: مبتدع، وفلان بدع في هذا الأمر أي: بديع

وقد اختلف في جواب الشرط ماذا هو؟ فقال الزجاج: محذوف تقديره أتؤمنون، وقيل قوله: ﴿فَأَمَّنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وقيل محذوف تقديره: فقد ظلمتم لدلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عليه، وقيل تقديره: فمن أضل منكم، كما في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ﴾ [فصلت: 52] الآية. وقال أبو علي الفارسي: تقديره أتؤمنون عقوبة الله، وقيل التقدير: ألستم ظالمين. ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم، ويجوز أن تكون هذه اللام هي لام التبليغ ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيراً ما سبقونا إليه؛ لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويصطفى لدينه من يشاء. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، وقيل: بالإيمان ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾، فجاوزوا نفي خبرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم، كما قالوا أساطير الأولين، والعامل في إذ مقدر أي: ظهر عنادهم، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ لتضاد الزمانين أغني: المضى والاستقبال ولأجل الفاء أيضاً، وقيل: إن العامل فيه فعل مقدر من جنس المنكور أي: لم يهتدوا به، وإن لم يهتدوا به فسيقولون: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ قرأ الجمهور بكسر الميم من (من) على أنها حرف جر، وهي مع مجرورها خبر مقدم، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة، والكلام مسوق لرد قولهم: ﴿هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾ فإن كونه قد تقدم القرآن كتاب موسى، وهو التوراة وتوافقاً في أصول الشرائع يدل على أنه حق، وأنه من عند الله، ويقتضي بطلان قولهم. وقرأ بفتح ميم من على أنها موصولة ونصب كتاب أي: وأتينا من قبله كتاب موسى، ورويت هذه القراءة عن الكلبي ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ أي: يقتدى به في الدين، ورحمة من الله لمن آمن به، وهما منتصبان على الحال، قاله الزجاج وغيره. وقال الأخفش على القطع، وقال أبو عبيدة: أي: جعلناه إماماً ورحمة ﴿وَهَذَا كِتَابُ مُصَدِّقٍ﴾ يعني: القرآن فإنه مصدق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، ولغيره من كتب الله، وقيل: مصدق للنبي ﷺ، وانتصاب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ على الحال الموصولة، وصاحبها الضمير في مصدق العائد إلى كتاب، وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً لمصدق، والأول أولى، وقيل: هو على حذف مضاف أي: ذا لسان عربي، وهو النبي ﷺ ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قرأ الجمهور (لينذر) بالتحته على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب أي: لينذر الكتاب الذين ظلموا، وقيل: الضمير راجع إلى الله، وقيل: إلى الرسول، والأول أولى. وقرأ نافع، وابن عامر، والبرقي بالفوقية على أن فاعله النبي ﷺ، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، وقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ في محل نصب عطفاً على محل لينذر. وقال

السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرم؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أنري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم، قالت أم العلاء: فوالله لا أزكي بعده أحداً.

قُلْ أَزَيِّنُ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَيَهْدِي شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ، فَأَمَّنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ سَبَقُوا لَكُمْ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا يُسْئِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِي لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٨﴾ أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ وَوَعَدْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْنِهِ إِسْحَاقَ حَمَلَةً أُمُّهُ كَرَمًا وَوَعَدْتُهُ كَرَمًا وَحَمَلَهُ وَوَعَدْنَا لَنُؤْتِيَهُنَّ كَرَمًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَإِنِّي أَخْلَعُ صَليحاً رَضِيَةً وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَلْنَاهُمْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْأَمْرِ وَتَدَّ الْأَصْدِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني: ما يوحى إليه من القرآن، وقيل المراد: محمد ﷺ، والمعنى: إن كان مرسلاً من عند غير الله، وقوله: ﴿وَوَكُفَرْتُمْ بِهِ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير قد، وكذلك قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ والمعنى: أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة من عند الله والحال أنكم قد كفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوراة على مثله أي: القرآن من المعاني الموجودة في التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد، والبعث والنشور وغير ذلك، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني، وإن اختلفت الالفاظ. وقال الجرجاني: مثل صلة، والمعنى: وشهد شاهد عليه أنه من عند الله، وكذا قال الواحدي، ﴿فَأَمَّنْ﴾ الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله، ومن جنس ما ينزله على رسله، وهذا الشاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام، كما قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة وغيرهم، وفي هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة، فيكون المراد بالشاهد: رجلاً من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن في مكة وصلى، واختار هذا ابن جرير، وسيأتي في آخر البحث ما يترجح به أنه عبد الله بن سلام، وأن هذه الآية مننية لا مكية. وروي عن مسروق أن المراد بالرجل: موسى عليه السلام، وقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ معطوف على شهد أي: آمن الشاهد، واستكبرتم أنتم عن الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فحرمهم الله سبحانه الهداية؛ لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله له ضل.

بالالف، وقرأ الحسن، ويعقوب، وقتادة، والجحدري (وفصله) بفتح الفاء، وسكون الصاد بغير ألف، والفصل والفصال بمعنى: كالفطم والفطام، والقطف والقطاف ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي: بلغ استحكام قوته وعقله، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى، ولا بد من تقدير جملة تكون حتى غاية لها أي: عاش واستمرت حياته حتى بلغ أشده، قيل: بلغ عمره ثمانين عشرة سنة، وقيل: الأشد الحلم قاله الشعبي، وابن زيد. وقال الحسن: هو بلوغ الأربعين، والأول أولى لقوله: ﴿وبلغ أربعين سنة﴾، فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شيء وراء بلوغ الأشد. قال المفسرون: لم يبعث الله نبياً قط إلا بعد أربعين سنة ﴿قال رب أوزعني﴾ أي: الهمني. قال الجوهري: استوزعت الله فأوزعني أي: استلهمته فآلهمني ﴿إن شكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ أي: الهمني شكر ما أنعمت به علي من الهداية، وعلى والدي من التحنن علي منهما حين ربياني صغيراً. وقيل: أنعمت علي بالصحة والعافية، وعلى والدي بالغنى والثروة، والأولى عدم تقييد النعمة عليه، وعلى أبويه بنعمة مخصوصة ﴿وان أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي: والهمني أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه مني ﴿وأوصلح لي في ذريتي﴾ أي: اجعل ذريتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه. وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات، وقد روي أنها نزلت في أبي بكر، كما سيأتي في آخر البحث ﴿إني تبت إليك﴾ من ذنوبي ﴿وإني من المسلمين﴾ أي: المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك، والإشارة بقوله ﴿أولئك﴾ إلى الإنسان المنكور، والجمع لأنه يراد به الجنس، وهو مبتدأ، وخبره ﴿الذين نتقبل عنهم لحسن ما عملوا﴾ من أعمال الخير في الدنيا، والمراد بالأحسن الحسن، كقوله: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم﴾ [الزمر: 55] وقيل: إن اسم التفضيل على معناه، ويراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال، لاما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن، وليس بأحسن ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾ فلا نعاقبهم عليها. قرأ الجمهور (يتقبل، ويتجاوز) على بناء الفعلين للمفعول. وقرأ حمزة، والكسائي بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه، والتجاوز الغفران، وأصله من جزت الشيء: إذا لم تقف عليه، ومعنى ﴿في أصحاب الجنة﴾: أنهم كائنون في عدادهم منتظمون في سلوكهم، فالجاء والمجرور في محل النصب على الحال كقولك: أكرمني الأمير في أصحابه أي: كائنًا في جملتهم، وقيل: إن في بمعنى مع أي: مع أصحاب الجنة، وقيل: إنهما خبر مبتدأ محذوف أي: هم في أصحاب الجنة ﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ وعد الصدق مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة: لأن قوله: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم﴾ إلخ في معنى الوعد بالتقبل والتجاوز، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف أي: وعدهم الله وعد الصدق الذي كانوا يوعدون به على السن الرسل في الدنيا.

الزجاج: الأجود أن يكون في محل رفع أي: وهو بشري، وقيل: على المصدرية لفعل محذوف أي: وتبشر بشري، وقوله: ﴿للمحسنين﴾ متعلق ببشرى ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أي: جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة، وقد تقدم تفسير هذا في سورة السجدة ﴿فلا خوف عليهم﴾ الفاء زائدة في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط ﴿ولا هم يحزنون﴾ المعنى: أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم، ولا يحزنون من فوات محبوب، وإن ذلك مستمر دائم ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ أي: أولئك الموصوفون بما نكر أصحاب الجنة التي هي دار المؤمنين حال كونهم ﴿خالين فيها﴾ وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإن نفي الخوف والحزن على الدوام، والاستقرار في الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواه، ولا تتشوف إلى ما عداه ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي: يجزون جزاء بسبب أعمالهم التي عملوها من الطاعات لله، وترك معاصيه ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ قرأ الجمهور (حسناً) بضم الحاء، وسكون السين. وقرأ علي، والسلمي بفتحهما، وقرأ ابن عباس، والكوفيون (إحساناً) وقد تقدم في سورة العنكبوت ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ من غير اختلاف بين القراء، وتقدم في سورة الأنعام، وسورة بني إسرائيل ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ [الإسراء: 23] فلعل هذا هو وجه اختلاف القراء في هذه الآية، وعلى جميع هذه القراءات، فانتصابه على المصدرية أي: وصيناه أن يحسن إليهما حسناً، أو إحساناً، وقيل: على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى: الزمنا، وقيل: على أنه مفعول له ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ قرأ الجمهور (كرهاً) في الموضعين بضم الكاف. وقرأ أبو عمرو، وأهل الحجاز بفتحهما. قال الكسائي: وهما لغتان بمعنى واحد. قال أبو حاتم: الكره بالفتح لا يحسن؛ لأنه الغضب والغلبة، واختار أبو عبيد قراءة الفتح قال: لأن لفظ الكره في القرآن كله بالفتح إلا التي في سورة البقرة: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [البقرة: 216] وقيل: إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره. وإنما نكر سبحانه حمل الأم ووضعها تأكيداً لوجوب الإحسان إليها الذي وصى الله به، والمعنى: أنها حملته ذات كره، ووضعته ذات كره، ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله فقال: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ أي: منتهما هذه المدة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع أي: يطم عنه، وقد استدلل بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع سنتان أي: مدة الرضاع الكامل، كما في قوله: ﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: 233] فنكر سبحانه في هذه الآية أقل مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع. وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم أكد من حق الأب؛ لأنها حملته بمشقة، ووضعته بمشقة وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك. قرأ الجمهور (وفصاله)

نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال: إني لصاحب المرأة التي أتى بها عمر وضعت لسته أشهر، فأنكر الناس ذلك، فقلت لعمر: لم تظلم؟ قال: كيف؟ قلت أقرأ: ﴿وَحَمَلَهُ وَفَصَّالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ [البقرة: 233] كم الحول؟ قال: سنة، قلت: كم السنة؟ قال: اثنا عشر شهراً، قلت: فأربعة وعشرون شهراً حولان كاملاً، ويؤخر الله من الحمل ما شاء، ويقدم ما شاء، فاستراح عمر إلى قولي. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاهها من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاهها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسته أشهر، فحولان كاملاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَحَمَلَهُ وَفَصَّالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً قال: أنزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق **﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني﴾** الآية، فاستجاب الله له، فأسلم والداه جميعاً وإخوته وولده كلهم، ونزلت فيه أيضاً **﴿فأما من أعطى واتقى﴾** [الليل: 5] إلى آخر السورة.

وَالَّذِي قَالَ لِوَلِيِّهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتُ الْغُرُورُ مِنْ بَقِيَّةِ وَهْمَا يُسْتَفْهِمَا اللَّهُ وَنَلَّكَ آمِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ يَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَيِّنَاتٌ وَآيَاتٌ وَلَكِنْ خَرِبُوا خَيْرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلٌ وَأُولَئِكَ يَرْجِعُهُمْ فِيهَا فَعَلَهُمُ اللَّهُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يَرْضَى الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى الْآثَانِ أَذْهَبَتْ بَيِّنَاتُكَ فِي حَتَاكَرِ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعَمَ بِهَا قَالَتِمْ يُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَفَرْتُمْ فَسَتَكُونُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِأَكْثَرِ نَفْسُونِ ﴿٢٠﴾

لما نكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه، وعلى والديه نكر من قال لهما قولاً يدل على التضجر منهما عند دعوتيهما له إلى الإيمان، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفٍّ لَكُمَا﴾ الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول، ولهذا أخبر عنه بالجمع، وأف كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه. قرأ نافع وحفص (أف) بكسر الفاء مع التنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وابن محيصن بفتحها من غير تنوين، وقرأ الباقون بكسر من غير تنوين وهي لغات. وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة بني إسرائيل [أي: سورة الإسراء]، واللام في قوله: ﴿لَكُمَا﴾ لبيان التأنيف أي: التأنيف لكما، كما في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23] قرأ الجمهور (أتداني) بنونين مخففتين وفتح ياءه أهل المدينة ومكة، وأسكنها الباقون. وقرأ أبو حيوة، والمغيرة، وهشام بإدغام إحدى النونين في الأخرى، ورويت هذه القراءة عن نافع. وقرأ الحسن، وشيبة، وأبو جعفر، وعبد الوارث عن أبي عمرو بفتح النون الأولى، كأنهم فرّوا من توالي مثلين مكسورين. وقرأ الجمهور (أن أخرج) بضم الهمزة وفتح الراء مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن، ونصر، وأبو

وقد أخرج أبو يعلى، وابن جرير، والطبراني، والحاكم وصححه عن عوف بن مالك الأشجعي: «انطلق النبي ﷺ، وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكروها دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله تعالى عن كل يهودي تحت أنيم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا، فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً، فقال: ابستم فوالله لانا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفى آمنتم أو كنتم، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمد فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك ولا من أبوك ولا من جندك، قال: فياني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل، قالوا: كذبت، ثم رثوا عليه وقالوا شراً، فقال رسول الله ﷺ: كذبت من يقبل منكم قولكم، فخرجنا ونحن ثلاثة، رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام، فأنزل الله **﴿قل أرايتم إن كان من عند الله﴾** إلى قوله: **﴿لا يهدي القوم الظالمين﴾**، وصححه السيوطي. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزلت: **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾** وأخرج الترمذي، وابن جرير، وابن مريويه عن عبد الله بن سلام قال: نزل في آيات من كتاب الله نزلت في: **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾** ونزل في **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾** [الرعد: 43]. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس **﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾** قال: عبد الله بن سلام، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين. وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية، فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال: قال ناس من المشركين: نحن أعز ونحن ونحن فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان، فنزل: **﴿وقال للذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾**. وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها: زنيرة، وكان عمر يضربها على الإسلام، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة، فأنزل الله في شأنها **﴿وقال للذين كفروا﴾** الآية. وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة، يقولون: لو كان خيراً ما جعلهم الله أول الناس فيه». وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزل قوله: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾** الآية إلى قوله: **﴿وعد الصديق الذي كانوا يوعدون﴾** في أبي بكر الصديق. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن

(أنهيتهم) بهزمة واحدة، وقرأ الحسن، ونصر، وأبو العالية، ويعقوب، وابن كثير بهزمتين مخففتين. ومعنى الاستفهام: التقرير والتوبيخ. قال الفراء، والزجاج: العرب توبخ بالاستفهام وبغيره، فالتوبيخ كائن على القراءتين. قال الكلبي: المراد بالطيبات اللذات، وما كانوا فيه من المعاش **«ولاستمتعتم بها»** أي: بالطيبات، والمعنى: أنهم اتبعوا الشهوات، واللذات التي في معاصي الله سبحانه، ولم يبالوا بالذنوب تكنياً منهم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب **«فاليوم تجزون عذاب الهون»** أي: العذاب الذي فيه نل لكم، وخزي عليكم. قال مجاهد، وقتادة: الهون الهوان بلغة قريش **«وبما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق»** أي: بسبب تكبركم عن عبادة الله، والإيمان به وتوحيده **«وبما كنتم تفسقون»** أي: تخرجون عن طاعة الله، وتعملون بمعاصيه، فجعل السبب في عذابهم أمرين: التكبر عن اتباع الحق، والعمل بمعاصي الله سبحانه وتعالى، وهذا شأن الكفرة، فإنهم قد جمعوا بينهما.

وقد أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه: **«والذي قال لوالديه أف لكما»** فقالت عائشة: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عندي. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر، وعمر، فقال عبد الرحمن: سنة هرقل، وقيصر، فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه: **«والذي قال لوالديه أف لكما»** الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي نزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان، ومروان في صلبه، فمروان من لعنه الله. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في الآية قال: هذا ابن لابي بكر. وأخرج نحوه أبو حاتم عن السدي، ولا يصح هذا كما قدمنا.

﴿وَأَذْكُرُ مَا عَاوَدَ إِذْ أَدَّرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ خَلَّى النُّذُرَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا مَنَادُوا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لَمَّا عَلِمْتَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١١٠ قَالُوا أَجِئْنَا بِبِأَفْكَارَةٍ مَالِهَا قَائِيًا يَمَّا نُوَدِّعُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١١١ قَالَ إِنَّمَا أَلَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُنْفِئُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. وَلَكِنْ أَتَيْتُكُمْ قَوْمًا يَحْمِلُونَ ١١٢ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٣ تُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَسْبِغُوا لَهُ يَمِينًا وَلَا يَرُوهَا مَكْنَتُكُمْ كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ١١٤ وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمًا وَابْتِصَارًا وَأَفْتَدَاهُ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمُهُمْ وَلَا ابْتِصَارُهُمْ وَلَا أَفْتَدَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَحْمَدُونَ بِأَيِّدِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ١١٥ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا كَانُوا يَحْمَدُونَ مِنَ الْفَرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ

العالية، والأعشى، وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء مبنياً للفاعل. والمعنى: أتعذاني أن أبعث بعد الموت، وجملة **«وقد خلعت القرون من قبلي»** في محل نصب على الحال أي: والحال أن قد مضت القرون من قبلي فماتوا، ولم يبعث منهم أحد، وهكذا جملة: **«وهما يستغيثان الله»** في محل نصب على الحال أي: والحال أنهما يستغيثان الله له، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان، واستغاث يتعدى بنفسه وبالباء يقال: استغاث الله، واستغاث به. وقال الرازي: معناه يستغيثان بالله من كفره، فلما حذف الجار وصل الفعل، وقيل: الاستغاث الدعاء، فلا حاجة إلى الباء. قال الفراء: يقال: أجاب الله دعاءه وغواثه، وقوله: **«ويلك»** هو بتقدير القول أي: يقولان له: ويلك، وليس المراد به الدعاء عليه، بل الحث له على الإيمان، ولهذا قالوا له: **«أمن إن وعد الله حق»** أي: أمن بالبعث إن وعد الله حق لا خلف فيه **«فيقول»** عند ذلك مكذباً لما قاله: **«وما هذا إلا أساطير الأولين»** أي: ما هذا الذي تقولونه من البعث إلا أحاديث الأولين، وأباطيلهم التي سطرها في الكتب. قرأ الجمهور (إن وعد الله) بكسر إن على الاستئناف، أو التعليل وقرأ عمر بن فايد، والأعرج بفتحها على أنها معمولة لأمن بتقدير الباء. أي: أمن بأن وعد الله بالبعث حق **«أولئك الذين حق عليهم القول»** أي: أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حق عليهم القول أي: وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس: **«الاملأ جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين»** [ص: 85] كما يفيد قوله: **«في أمم قد خلعت من قبلهم من الجن والإنس»**، وجملة: **«إنهم كانوا خاسرين»** تعليل لما قبله، وهذا ينفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر، وأنه الذي قال لوالديه ما قال، فإنه من أفاضل المؤمنين، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب، وسيأتي بيان سبب النزول في آخر البحث إن شاء الله **«ولكل درجات مما عملوا»** أي: لكل فريق من الفريقين المؤمنين، والكافرين من الجن، والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلاً، ودرجات أهل الجنة تذهب علواً **«وليوفيهم أعمالهم»** أي: جزاء أعمالهم. قرأ الجمهور (لنوفيهم) بالنون. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وعاصم، وأبو عمرو، ويعقوب بالياء التحتية. واختار أبو عبيد القراءة الأولى، واختار الثانية أبو حاتم **«وهم لا يظلمون»** أي: لا يزداد مسيء، ولا ينقص محسن، بل يوفى كل فريق ما يستحقه من خير وشر، والجملة في محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقررة لما قبلها **«ويوم يعرض الذين كفروا على النار»** الظرف متعلق بمحذوف أي: أنكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء، فينظرون إلى النار ويقربون منها، وقيل: معنى يعرضون يعذبون من قولهم: عرضه على السيف، وقيل: في الكلام قلب. والمعنى: تعرض النار عليهم **«أنهيتهم طيباتكم في حياتكم الدنيا»** أي: يقال لهم ذلك، قيل: وهذا المقدر هو الناصب للظرف، والأول أولى قرأ الجمهور

يَرْجُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ؕ إِلَٰهًا بَلَّ صَلَواتُ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿وانكر اخا عاد﴾ أي: وانكر يا محمد لقومك أخا عاد، وهو هود بن عبد الله بن رباح كان أخاهم في النسب، لا في الدين، وقوله: ﴿إِذْ أَنْذَرْتَهُمْ قَوْمَهُ﴾ بدل اشتمال منه أي: وقت إنذاره إياهم ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ وهي ديار عاد جمع حقف، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره، وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم، والمعنى: أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم، ليتعظوا ويخافوا، وقيل: أمره بأن يتذكر في نفسه قصتهم مع هود؛ ليقنّدي به ويهون عليه تكذيب قومه. قال عطاء: الأحقاف رمال بلاد الشحر. وقال مقاتل: هي باليمن في حضرموت، وقال ابن زيد: هي رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبلاً ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ أي: وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده، كذا قال الفراء وغيره. وفي قراءة ابن مسعود (من بين يديه ومن بعده) والجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود، وبين قوله لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ والأول أولى. والمعنى: أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله، والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره، ثم رجع إلى كلام هود لقومه، فقال حاكياً عنه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام، وأوفق بالمعنى ﴿قَالُوا لَجِئْنَا لَتُفَاكِنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: لتصرفنا عن عبادتها، وقيل: لتزلينا، وقيل: لثمننا والمعنى متقارب، ومنه قول عروة بن أبنية:

إِنْ تَكُ عَنْ حَسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْفُوكاً فَنَفِي آخِرِينَ قَدْ أَفْكُوا
يقول: إن لم توفق للإحسان، فانت في قوم قد صرفوا عن ذلك ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعْنَانَا﴾ من العذاب العظيم ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعك لنا به ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لا عندي ﴿وَأَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار، فأما العلم بوقت مجيء العذاب، فما أوحاه إلي ﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث بقيتم مصرين على كفركم، ولم تهتدوا بما جئكم به، بل اقترحتم علي ما ليس من وظائف الرسل ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ الضمير يرجع إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَا تَعْنَانَا﴾. وقال المبرد، والزجاج: الضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ يعود إلى غير مذكور، وبينه قوله: ﴿عَارِضًا﴾، فالضمير يعود إلى السحاب أي: فلما رأوا السحاب عارِضاً، فعارِضاً نصب على التكرير يعني: التفسير، وسمي السحاب عارِضاً لأنه يبدو في عرض السماء. قال الجوهري: العارض السحاب يعترض في الأفق، ومنه قوله: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مَمْطَرُنَا﴾ وانتصاب عارِضاً على الحال، أو التمييز ﴿مُسْتَقْبَلُ أُوَيْيْتِهِمْ﴾ أي: متوجهاً نحو

أوييتهم. قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له: المعتب، فلما رأوه مستقبل أوييتهم استبشروا، و﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مَمْطَرُنَا﴾ أي: غيم فيه مطر، وقوله: ﴿مُسْتَقْبَلُ أُوَيْيْتِهِمْ﴾ صفة لعارض؛ لأن إضافته لفظية لا معنوية، فصح وصف النكرة به، وهكذا ممطراً، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود، فقال: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ يعني: من العذاب حيث قالوا: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعْنَانَا﴾ وقوله: ﴿رِيحٌ﴾ بدل من ما، أو خبر مبتدأ محذوف، وجملة: ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفة لريح، والريح التي عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ هذه الجملة صفة ثانية لريح أي: تهلك كل شيء مَرَّتْ به من نفوس عاد وأموالها، والتدمير: الإهلاك، وكذا الدمار، وقرئ (يدمر) بالتحية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم، ورفع (كل) على الفاعلية من دمر دماراً، ومعنى ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: أن ذلك بقضائه وقدره ﴿فَاصْبِحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ أي: لا ترى أنت يا محمد، أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم. قرأ الجمهور (لا تَرَى) بالفوقية على الخطاب، ونصب مساكنهم. وقرأ حمزة، وعاصم بالتحية مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع مساكنهم. قال سيبويه: معناه لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الثانية. قال الكسائي، والزجاج: معناها لا يرى شيء إلا مساكنهم، فهي محمولة على المعنى كما تقول: ما قام إلا هند، والمعنى: ما قام أحد إلا هند، وفي الكلام حذف، والتقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم، فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي هؤلاء، وقد مر بيان هذه القصة في سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ مَكَانَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ﴾ قال المبرد: ما في قوله فيما فيما بمنزلة الذي، وإن بمنزلة ما يعني: النافية، وتقديره: ولقد مكانهم في الذي ما مكانكم فيه من المال وطول العمر وقوة الأبدان، وقيل: «إن» زائدة وتقديره: ولقد مكانهم فيما مكانكم فيه، وبه قال اللقيبي، ومثله قول الشاعر:

فَمَا إِنْ طَبَنَ جَبِينٌ وَلَكِنْ مَنَابِئَانَا وَبُولَةُ آخِرِينَا
والأول أولى؛ لأنه أبلغ في التوبيخ لكفار قريش، وأمثالهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي: إنهم أعرضوا عن قبول الحجة، والتكرار مع ما أعطاهم الله من الحواس التي بها تترك الأدلة، ولهذا قال: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: فما نفعمهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد، وصحة الوعد والوعيد، وقد قَمْنَا من الكلام على وجه إفراء السمع، وجمع البصر ما يغني عن الإعادة، و«من» في ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ زائدة، والتقدير: فما أغنى عنهم شيء من الإغناء، ولا نفعمهم بوجه من وجوه النفع ﴿إِذْ

الكراهية، قال: «يا عائشة: وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرا وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، فإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج وبخل وأقبل وأبدر، فإذا مطرت سرى عنه، فسألته فقال: لا أبري، لعله كما قال قوم عاد: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾». وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْبَيْتِهِمْ﴾ قالوا: غيم فيه مطر، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من رجالهم، ومواشيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش نخلوا بيوتهم، وغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم، ومالت عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبع ليال، وثمانية أيام حسوما لهم أنين، ثم أمر الله الريح، فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم في البحر، فهو قوله: ﴿فَلَمَّا صَبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمي هذا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَانَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ﴾ يقول: لم نمكنكم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: عاد مكنوا في الأرض أفضل مما مكنت فيه هذه الأمة، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأطول أعماراً.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُيِّمُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ شُذِرُوا ﴿١٦﴾ قَالُوا يَنْقُوتُ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُدْعِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقَ شَيْتَانٍ ﴿١٧﴾ يَنْقُوتُ أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَإِنَّمَا بِهِ يُغَيِّرُ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُجَزِّمُ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٨﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي سُلْبِكُمُ الشُّيُءِ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَنِينَ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَاؤُا الَّذِي مِنَ الْأَرْسَلِ وَلَا تَسْجَلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوُّ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ هَٰذَا نَهْلَ هَٰذَا إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٢﴾

لما بين سبحانه أن في الإنس من آمن، وفيهم من كفر بين أيضاً أن في الجن كذلك، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ العامل في الظرف مقدر أي: وانكر إذ صرفنا، أي: وجهنا إليك نفرًا من الجن، وبعثناهم إليك، وقوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ في محل نصب صفة ثانية لنفراً أو حال؛ لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى

كانوا يجحدون بآيات الله ﷻ الظرف متعلق بأغنى، وفيها معنى التعليل أي: لأنهم كانوا يجحدون ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾ أي: أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا: ﴿فَإِنَّا نَحْنُ بِمَا تَعْبُدُونَ﴾. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﷻ الخطاب لأهل مكة، والمراد بما حولهم من القرى: قرى ثمود، وقرى لوط، ونحوهما مما كان مجاوراً لبلاد الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: بينا الحجج ونوعناها؛ لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا، ثم نكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر، فقال: ﴿فَقُلُوا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فهلا نصرهم آلهتهم التي تقربوا بها بزمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم. قال الكسائي: القربان كل ما يتقرب به إلى الله من طاعة ونسيكة والجمع قربانين كالرهبان والرهابين، وأحد مفعولي اتخذوا ضمير راجع إلى الموصول، والثاني آلهة، وقرباناً حال، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً، وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى، وقيل: يصح ذلك ولا يفسد المعنى، ورجحه ابن عطية، وأبو البقاء، وأبو حيان، وانكر أن يكون في المعنى فساد على هذا الوجه ﴿يَبُلْ ضُلُوكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عن نصرهم، ولم يحضروا عند الحاجة إليهم، وقيل: بل هلكوا، وقيل: الضمير في ضلوا راجع إلى الكفار أي: تركوا الأصنام وتبرعوا منها، والأول أولى، والإشارة بقوله: ﴿وَنُفِّلْهُمْ﴾ إلى ضلال آلهتهم. والمعنى: وذلك الضلال والضياح أثر ﴿إِنْفِكْهُمْ﴾ الذي هو اتخاذهم إياها آلهة وزعمهم أنها تقربهم إلى الله. قرأ الجمهور (إنفكهم) بكسر الهمزة، وسكون الفاء مصدر أفك يافك أفكاً أي: كذبهم. وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل أي: ذلك القول صرفهم عن التوحيد. وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء أي: صيرهم أفكين. قال أبو حاتم: يعني: قلبهم عما كانوا عليه من النعيم، وروي عن ابن عباس أنه قرأ بالمد، وكسر الفاء بمعنى صارفهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ معطوف على إنفكهم أي: وأثر افترائهم، أو أثر الذي كانوا يفترونه. والمعنى: وذلك إنفكهم أي: كذبهم الذي كانوا يقولون إنها تقربهم إلى الله، وتشفع لهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ أي: يكذبون أنها آلهة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأحقاف جبل بالشام. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه في قوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ قال: هو السحاب. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر. وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك

من أهل القرى﴾ [يوسف: 109]. وقال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: 20] وقال سبحانه في إبراهيم الخليل: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ [العنكبوت: 27]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم، فهو من ذريته، وأما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: 130] فقيل: المراد من مجموع الجنسين، وصق على أحدهما، وهم الإنس: كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: 22] أي: من أحدهما ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ أي: لا يفوت الله، ولا يسبقه، ولا يقدر على الهرب منه؛ لأنه وإن هرب كل مهرب، فهو في الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها، وفي هذا ترهيب شديد ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ أي: أنصار يمنعون من عذاب الله. بين سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة غيره، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى من لا يجب داعي الله، وأخبر أنهم ﴿في ضلال مبين﴾ أي: ظاهر واضح، ثم ذكر سبحانه دليلاً على البعث، فقال: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض﴾ الرؤية هنا هي القلبية التي بمعنى العلم، والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر أي: ألم يتفكروا، ولم يعلموا أن الذي خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداءً ﴿ولم يعي بخلقهن﴾ أي: لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه، يقال عي بالامر وعيي: إذا لم يهتد لوجهه، ومنه قول الشاعر:

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضتها الحمامة

قرأ الجمهور (ولم يعي) بسكون العين، وفتح الياء مضارع عي. وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء ﴿يقادر على أن يحيي الموتى﴾. قال أبو عبيدة، والأخفش: الياء زائدة للتوكيد، كما في قوله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: 79]. قال الكسائي، والفراء، والزجاج: العرب تدخل الياء مع الجحد والاستفهام، فتقول: ما أظنك بقاتم، والجار والمجرور في محل رفع على أنهما خبر لأن، وقرأ ابن مسعود، وعيسى بن عمر، والأعرج، والجحدري، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، وزيد بن علي (يقدر) على صيغة المضارع، واختار أبو عبيد القراءة الأولى، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال: لأن دخول الياء في خبر أن قبيح ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ الظرف متعلق بقول مقدر أي: يقال ذلك اليوم للذين كفروا ﴿اليس هذا بالحق﴾ وهذه الجملة هي المحكية بالقول، والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار، وفي الاكتفاء بمجرد الإشارة من التهويل للمشار إليه، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى؛ كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدل عليه ﴿قالوا بلى وربنا﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، وأكادوا هذا الاعتراف بالقسم؛ لأن المشاهدة هي

﴿فلما حضروه﴾ أي: حضروا القرآن عند تلاوته، وقيل: حضروا النبي ﷺ، ويكون في الكلام التغات من الخطاب إلى الغيبة، والأول أولى ﴿قالوا انصتوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض استكتوا، أمروا بعضهم بعضاً بذلك؛ لأجل أن يسموا ﴿فلما قضى﴾ قرأ الجمهور (قضى) مبنياً للمفعول أي: فرغ من تلاوته. وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير، ولحق بن حميد، وأبو مجلز على البناء للمفاعل أي: فرغ النبي ﷺ من تلاوته، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير في ﴿حضره﴾ للقرآن، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبي ﷺ ﴿ولو إلى قومهم منذرين﴾ أي: انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن، ومحذرين لهم، وانتصاب: منذرين على الحال المقدرة أي: مقدرين الإنذار، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبي ﷺ، وسيأتي في آخر البحث بيان ذلك ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ يعنون: القرآن؛ وفي الكلام حذف، والتقدير: فوصلوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا. قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلموا ﴿مصطلقاً لما بين يديه﴾ أي: لما قبله من الكتب المنزلة ﴿يهدي إلى الحق﴾ أي: إلى الدين الحق ﴿والى طريق مستقيم﴾ أي: إلى طريق الله القويم. قال مقاتل: لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ ﴿يا قومنا لجيبوا داعي الله وآمنوا به﴾ يعنون: محمداً ﷺ، أو القرآن ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي: بعضها، وهو ما عدا حق العباد، وقيل: إن من هنا لا ابتداء الغاية. والمعنى: أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب، ثم ينتهي إلى غفران ترك ما هو الأولى، وقيل: هي زائدة ﴿ويجركم من عذاب اليم﴾ وهو عذاب النار، وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس في الثواب والعقاب، والتعبد بالأوامر والنواهي. وقال الحسن: ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار، وبه قال أبو حنيفة، والأول أولى، وبه قال مالك، والشافعي، وابن أبي ليلى. وعلى القول الأول، فقال القائلون به أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم: كونوا تواباً، كما يقال للبهائم والثاني أرجح. وقد قال الله سبحانه في مخاطبة الجن والإنس: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن: 46، 47] فامتدَّ سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولا ينافي هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إيجازتهم من عذاب اليم، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة، وهو مقام فضل، ومما يؤيد هذا أيضاً ما في القرآن الكريم في غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة، وجزاء من عمل الصالحات الجنة، وجزاء من قال لا إله إلا الله الجنة، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة.

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلاً منهم أم لا، وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط، كما في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم

تفسير سورة محمد

وتسمى سورة القتال، وسورة الذين كفروا. وهي تسع وثلاثون آية، وقيل: ثمان وثلاثون.

وهي مدنية. قال الماوردي: في قول الجميع؛ إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَكَايَنَ مِنْ قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيَّتِكَ﴾ [محمد: 13] وقال الثعلبي: إنها مكية. وحكاها ابن هبة الله عن الضحاک، وسعيد بن جبیر وهو غلط من القول، فالسورة مدنية كما لا يخفى. وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة. وأخرج النحاس، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر: أن النبي ﷺ كان يقرأ بهم في المغرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محمد: 1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَكْثَلُ أَغْلَظَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْتَبِعُوا الْقِبْلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَغْنَتْهُمُ نَفْسُهُمُ الْوَلَاقِ فَإِمَّا مَأْتٍ بَعْدَ وَإِمَّا يَنْفَاقُ حَتَّى تَصْعَ لَعُنَ الرَّجُلُ زُرْقَاهُ ذَلِكَ وَلَوْ يَدْرَأَهُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ يُبَدِّلْ أَمْرَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً يُضَلُّ بِأَلَمٍ ﴿٤﴾ وَيُضِلُّهُمْ لَبِئْسَ عَرْفَهَا لَهُمْ ﴿٥﴾ تَتَابَعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ نَصَرَكُمُ اللَّهُ وَبَيَّضَ أَعْيُنَكُمْ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمْ وَأَسْأَلُ أَغْلَظَهُمْ ﴿٧﴾ ذَلِكَ يَأْتُهُمْ كُرْهُو مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَظْ أَغْلَظَهُمْ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّهُمْ آتَتْهُمُ ﴿٩﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّى يَجْرِيَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَهُمْ لَا يَأْمُرُونَ كَمَا تَأْمُرُ الْأَتَمُّمُ وَالَّذِي تَمُرُّ لَهُمْ ﴿١١﴾

قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم كفار قريش كفروا بالله، وصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو دين الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه، كذا قال مجاهد، والسدي. وقال الضحاک: معنى عن سبيل الله: عن بيت الله بمنع قاصديه. وقيل: هم أهل الكتاب، والموصول مبتدأ، وخبره ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها وجعلها ضائعة. قال الضحاک: معنى ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم في كفرهم. وقيل: أبطل ما عملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق، من صلة

الأرحام، وفك الأسارى وقرى الأضياف، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها، لكن المعنى أنه سبحانه حكم بطلانها. ولما ذكر فريق الكافرين اتبعهم بذكر فريق المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ ظاهر هذا العموم، فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ولا يمنع من ذلك خصوص سببها؛ فقد قيل: إنها نزلت في الأنصار، وقيل: في ناس من قريش، وقيل: في مؤمني أهل الكتاب، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ بالذكر مع اندراجهم تحت مطلق الإيمان المذكور قبله تنبيهاً على شرفه وعلو مكانه، وجملة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معترضة بين المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وبين خبره، وهو قوله: ﴿كُفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ومعنى كونه الحق: أنه الناسخ لما قبله، وقوله: ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ في محل نصب على الحال، ومعنى ﴿كُفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: السيئات التي عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان، والعمل الصالح ﴿وَأَصْلَحَ بِأَعْمَالِهِمْ﴾ أي: شأنهم وحالهم. قال مجاهد: شأنهم، وقال قتادة: حالهم. وقيل: أمرهم، والمعاني متقاربة. قال المبرد: البال الحال ها هنا. قيل والمعنى: أنه عصمهم عن المعاصي في حياتهم، وأرشدهم إلى أعمال الخير، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال، ونحو ذلك، وقال النقاش: إن المعنى أصلح نياتهم، ومنه قول الشاعر:

فإن تقبلي بالود أقبل بمثلها وإن تدبري أذهب إلى حال بالياً
والإشارة بقوله: ﴿فَلْيَكُنْ لَهُمُ الْآيَةُ﴾ إشارة إلى ما مر مما أورد به الكفار، ووعد به المؤمنين، وهو مبتدأ خبره ما بعده، وقيل: إنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك ﴿بِسَبَبِ﴾ أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، فالباطل الشرك، والحق التوحيد والإيمان، والمعنى: أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين، وإصلاح بألهم بسبب اتباعهم للحق الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان، وعمل الطاعات ﴿وَكُنْ لَهُمُ الْآيَةُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ أي: مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم أي: أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة. قال الزجاج: كذلك يضرب يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين يعني: أن من كان كافراً أضل الله عمله، ومن كان مؤمناً كفر الله سيئاته ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار، والمراد بالذين كفروا: المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، وانتصاب ضرب على أنه مصدر لفعل محذوف. قال الزجاج: أي: فاضربوا الرقاب ضرباً، وخص الرقاب بالذكر؛ لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها، وقيل: هو منصوب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولهم: يا نفس

كثير من العلماء: إن الآية محكمة، والإمام مخير بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخير بين المن والفداء. وبه قال مالك، والشافعي، والثوري، والأوزاعي، وأبو عبيد وغيرهم. وهذا هو الراجح؛ لأن النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك. وقال سعيد بن جبيرة: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان، والقتل بالسيف لقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 67] فإذا أسر بعد ذلك، فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل، أو غيره ﴿لَكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ تَنْتَصِرَ مِنْهُمْ﴾ محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك، وقيل: في محل نصب على المفعولية بتقدير فعل أي: افعلوا ذلك، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره محذوف يدل عليه ما تقدم أي: تلك حكم الكفار، ومعنى ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ تَنْتَصِرَ مِنْهُمْ﴾ أي: قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم، وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب ﴿وَلَكِنْ﴾ أمرهم بحربهم ﴿لِيَلْبُوا بِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ﴾ أي: ليختبر بعضكم ببعض، فيعلم المجاهدين في سبيله، والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم، ويعذب الكفار بأيديهم ﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قرأ الجمهور (قاتلوا) مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو، وحفص (قتلوا) مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن بالتشديد مبنياً للمفعول أيضاً. وقرأ الجحدري، وعيسى بن عمر، وأبو حيو (قتلوا) على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف، والمعنى على القراءة الأولى، والرابعة: أن المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع، وعلى القراءة الثانية، والثالثة: أن المقتولين في سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد. ثم ذكر سبحانه ما لهم عنده من جزيل الثواب فقال: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: سيهديهم الله سبحانه إلى الرشd في الدنيا، ويعطيهم الثواب في الآخرة ﴿وَيُصَلِّحْ بِهِمُ﴾ أي: حالهم وشأنهم وأمرهم. قال أبو العالية: قد ترد الهداية، والمراد بها: إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان، والطريق المفضية إليها، وقال ابن زيد: يهديهم إلى محاجة منكر ونكير ﴿وَيُخَلِّمُ الْجَنَّةَ عَنْفَهَا لَهُمْ﴾ أي: يبينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرقوا إلى منازلهم. قال الواحدي: هذا قول عامة المفسرين. وقال الحسن: وصف الله لهم الجنة في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. وقيل: فيه حذف أي: عرفوا طرقها ومسكنها وبيوتها. وقيل: هذا التعريف بليل يلهم عليها، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل. وقيل: معنى ﴿عرفها لهم﴾: طيبها بأنواع الملائة، مأخوذ من العرف، وهو الرائحة. ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرِكُمْ﴾ أي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار، ويفتح لكم، ومثله قوله: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: 40]. قال قطرب: إن تنصروا نبي الله ينصركم ﴿وَيُنْصِبْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: عند القتال، وتنصيب الأقدام عبارة عن النصر،

صبراً، وقيل التقدير: اقصوا ضرب الرقاب. وقيل: إنما خص ضرب الرقاب؛ لأن في التعبير عنه من الغلظة، والشدة ما ليس في نفس القتل، وهي حرّ العنق، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه، وأحسن أعضائه ﴿حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمَوْهُمْ﴾ أي: بالغتم في قتلهم، وأكثرتم القتل فيهم، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب، لا لبيان غاية القتل، وهو مأخوذ من الشيء التخين أي: الغليظ، وقد مضى تحقيق معناه في سورة الأنفال ﴿فَشَبَّوا لَوْثًا﴾ الوثاق بالفتح ويجيء بالكسر: اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط. قال الجوهري: وأوثقه في الوثاق أي: شدّه، قال: والوثاق بكسر الواو لغة فيه. قرأ الجمهور (فشَبَّوا) بضم الشين، وقرأ السلمي بكسرها. وإنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق؛ لئلا ينفلتوا، والمعنى: إذا بالغتم في قتلهم فأسروهم، وأحيطوهم بالوثاق ﴿فَإِذَا مَنَّا بَعْدَ إِذَا فَدَاؤُهُ﴾ أي: فيما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا، أو تفدوا فداء، والمن: الإطلاق بغير عوض، والفداء: ما يفدي به الأسير نفسه من الأسر، ولم ينكر القتل هنا اكتفاء بما تقدم. قرأ الجمهور (فدأ) بالمد. وقرأ ابن كثير (فدَى) بالقصر، وإنما قدّم المنّ على الفداء، لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به، كما قال شاعرهم:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم
ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك، فقال: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أوزار الحرب التي لا تقوم إلا بها من السلاح والكرّاع، أسند الوضع إليها، وهو لاهلها على طريق المجاز، والمعنى: أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور إلى غاية هي أن لا يكون حرب مع الكفار. قال مجاهد: المعنى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام، وبه قال الحسن، والكلبي. قال الكسائي: حتى يسلم الخلق. قال الفراء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقيل المعنى: حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة، أو المودعة. وروي عن الحسن، وعطاء أنها قالوا: في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: فضرِب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، فإذا أتختموهم، فشَبَّوا الوثاق.

وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة في أهل الأوثان، وإنه لا يجوز أن يفانوا، ولا يمنّ عليهم، والناسخ لها قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]، وقوله: ﴿فَإِذَا تَثَقَّفْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأنفال: 57]، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36] وبهذا قال قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جريج، وكثير من الكوفيين، قالوا: والمائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان، ومن تؤخذ منه الجزية، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة، وقيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5] روي ذلك عن عطاء وغيره. وقال

جري الأنهار من تحت الجنات، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَحِنُونَ وَيَاكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: يمتحنون بمتاع الدنيا وينتفعون به؛ كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، سامون عن العقابة لاهون بما هم فيه ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقام يقيمون به، ومنزل ينزلونه ويستقرون فيه، والجملة في محل نصب على الحال، أو مستأنفة.

وقد أخرج الغريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: هم أهل المدينة الانصار ﴿وَأَصْلَحَ بِالنَّارِ﴾ قال: أمرهم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال: كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملاً. وأخرج النحاس عنه أيضاً في قوله: ﴿فَإِذَا مَنَا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ﴾ قال: فجعل الله النبي، والمؤمنين بالخيار في الأسارى، إن شاءوا قتلوه، وإن شاءوا استعبدوهم، وإن شاءوا فادوهم. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: هذا منسوخ نسختها ﴿فَإِذَا انْشَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5]. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن الحسن قال: أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا إنما قال الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمَوْهُمْ فَشَتَّوْا الْوُثَاقَ فِإِنَّمَا مَنَا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ﴾. وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، وابن مردويه عن ليث قال: قلت لمجاهد: بلغني أن ابن عباس قال: لا يحل قتل الأسارى؛ لأن الله قال: ﴿فَإِنَّمَا مَنَا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ﴾ فقال مجاهد: لا تعب بهذا شيئاً أدركت أصحاب رسول الله ﷺ، وكلهم ينكر هذا، ويقول: هذه منسوخة إنما كانت في الهدنة التي كانت بين النبي ﷺ وبين المشركين، فأما اليوم فلا، يقول الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5] ويقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ﴾ فإن كان من مشركي العرب لم يقبل شيء منهم إلا الإسلام، فإن لم يسلموا فالقتل، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا، فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاءوا قتلوه، وإن شاءوا استحيوهم، وإن شاءوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم، فإن أظهروا الإسلام لم يقاتلوا. ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الصغير، والمرأة، والشيوخ، والفاني. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهدياً وحكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، وتوضع الجزية، وتضع الحرب أوزارها». وأخرج ابن سعد، وأحمد، والنسائي، والبيهقي، والطبراني، وابن مردويه عن سلمة بن نفيل، عن النبي ﷺ من حديث قال: «لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج ياجوج، ومأجوج». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس

والمعونة في مواطن الحرب، وقيل: على الإسلام، وقيل: على الصراط ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ﴾ الموصول في محل رفع على أنه مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: فتعسوا بلبيل ما بعده، وبخلت الفاء تشبيهاً للمبتدأ بالشرط، وانتصاب تعساً على المصدر للفعل المقدر خبراً. قال الفراء: مثل سقياً لهم ورعياء، وأصل التعس الانحطاط والعتار. قال ابن السكيت: التعس أن يجز على وجهه، والتكس أن يجز على رأسه، قال: والتعس أيضاً الهلاك. قال الجوهري: وأصله الكب، وهو ضد الانتعاش، ومنه قول مجمع بن هلال:

تقول وقد أقربتها من حليها تعست كما اتعستني يا مجمع قال المبرد: أي: فمكروهاً لهم، قال ابن جرير: بعداً لهم، وقال السدي: خزيماً لهم. وقال ابن زيد: شقاء لهم، وقال الحسن: شتماً لهم. وقال ثعلب: هلاكاً لهم، وقال الضحاك: خيبة لهم، وقيل: قبحاً لهم، حكاه النقاش. وقال الضحاك: رغباً لهم. وقال ثعلب أيضاً: شراً لهم. وقال أبو العالوية: شقوة لهم. واللام في لهم للبيان، كما في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23] وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ معطوف على ما قبله داخل معه في خبرية الموصول. والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم مما نكره الله من التعس والإضلال أي: الأمر ذلك، أو ذلك الأمر ﴿بِإِنَّمَا كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله من القرآن، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما في القرآن من التوحيد والبيع ﴿فَاحْبِطْ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بذلك السبب، والمراد بالأعمال: ما كانوا عملوا من أعمال الخير في الصورة، وإن كانت باطلة من الأصل؛ لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه. ثم خوف سبحانه الكفار، وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم، فقال: ﴿أَقْلَمُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألم يسيروا في أرض عاد، وثمود، وقوم لوط وغيرهم؛ ليعتبروا ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: آخر أمر الكافرين قبلهم، فإن آثار العذاب في ديارهم باقية. ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال: ﴿نُفِّرْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والتدمير الإهلاك أي: أهلكهم واستأصلهم، يقال: دمره ودمر عليه بمعنى، ثم توعد مشركي مكة فقال: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ أَهْمَالُهَا﴾ أي: لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة. قال الزجاج، وابن جرير: الضمير في أمثالها يرجع إلى عاقبة الذين من قبلهم، وإنما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدد الأمم المعذبة، وقيل: أمثال العقوبة، وقيل: الهلكة، وقيل: التدمير، والأول أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما نكر من أن للكافرين أمثالها ﴿بِإِنَّمَا اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بسبب أن الله ناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر يدفع عنهم. وقرأ ابن مسعود (ثُمَّ بَانَ اللَّهُ وَلِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا) قال قتادة: نزلت يوم أحد ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ الَّذِينَ يَكْفُرُ وَأَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قد تقدم تفسير الآية في غير موضع، وتقدم كيفية

﴿وللكافرين أمثالها﴾ قال: لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى، فاهلكوا بالسيف.

وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلُكُهَا فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ۖ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُوعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَنْ يُدْرِكْ مِنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ قَدْ خَلَّى فِي النَّارِ نَسْفًا مَاءً حَرِيمًا فَفَقَّعَ أَشْعَارُهُمْ ۚ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ ﴿١٨﴾ وَكَانَ أَهْدَىٰ أَهْدَىٰ الْأُمَمِ ۚ ﴿١٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتَ أَهْلُهَا ۚ ﴿٢٠﴾ إِذَا جَاءَهُمْ وَكَرِهَتْهُمْ ۚ ﴿٢١﴾ فَاعْلَمْ أَنَّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۚ ﴿٢٢﴾

خوف سبحانه الكفار؛ بأنه قد اهلك من هو أشد منهم فقال: ﴿وكاين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك اهلكناهم﴾ قد قدمنا أن كاين مركبة من الكاف وأي، وإنها بمعنى كم الخبرية أي: وكم من قرية، وأنشد الأخفش قول الوليد:

وكاين رأينا من ملوك وسوقة ومفتاح قيد للالسير المكبل ومعنى الآية: وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك التي أخرجوك منها اهلكناهم ﴿فلا ناصر لهم﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم وهم قريش الذين هم أهل قرية النبي ﷺ وهي مكة، فالكلام على حذف المضاف، كما في قوله: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: 82] قال مقاتل: أي: اهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم. ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن، وحال الكافر فقال: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقتر كنظائره، ومن مبتدأ، والخبر ﴿كمين زين له سوء عمله﴾ وأقر في هذا باعتبار لفظ من، وجمع في قوله: ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ باعتبار معناها، والمعنى: أنه لا يستوي من كان على يقين من ربه، ولا يكون كمين زين له سوء عمله، وهو عبادة الأوثان، والإشراك بالله، والعمل بمعاصي الله، واتبعوا أهواءهم في عبادتها، وأنهمكوا في أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلاً عن حجة نيرة. ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الانتهاء، والضلال بين الفرق في مرجعها ومآلها فقال: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة، وبيان ما فيها؛ ومعنى ﴿مثل الجنة﴾: وصفها العجيب الشأن، وهو مبتدأ، وخبره محذوف. قال النضر بن شميل: تقديره: ما يسمعون، وقتره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة، قال: والمثل هو الوصف، ومعناه: وصف الجنة، وجملة ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ إلخ مفسرة للمثل. وقيل: إن مثل زائدة، وقيل: إن مثل الجنة مبتدأ، والخبر فيها أنهار، وقيل: خبره كمن هو خالد، والأسن المتغير، يقال: أسن الماء يأسن

أسوئاً: إذا تغيرت رائحته، ومثله الآسن، ومنه قول زهير: قد أترك القرن مصفراً أنامله يمد في الرمح ميد المالح الأسن قرأ الجمهور (أسن) بالمد. وقرأ حميد، وابن كثير بالقصر، وهما لغتان كحاذر وحذر. وقال الأخفش: إن المملود يراد به الاستقبال، والمقصود يراد به الحال ﴿وانهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ أي: لم يحمض، كما تغير اللبن الدنيا؛ لأنها لم تخرج من ضرور الإبل والغنم والبقر ﴿وانهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي: لنيذة لهم طيبة الشرب لا يكرهاها الشاربون، يقال: شراب لذ ولنيذ وفيه لذة بمعنى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ [الصفات: 46] قرأ الجمهور (لذة) بالجر صفة لخم، وقرئ بالنصب على أنه مصدر، أو مفعول له. وقرئ بالرفع صفة لانهار ﴿وانهار من عسل مصفى﴾ أي: مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكبر ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ أي: لاهل الجنة في الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات أي: من كل صنف من أصنافها، و «من» زائدة للتوكيد ﴿ومغفرة من ربهم﴾ للنوهم، وتنكير مغفرة للتعظيم أي: ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم ﴿كمين هو خالد في النار﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أم من هو في نعيم الجنة على هذه الصفة خالداً فيها كمين هو خالد في النار، أو خبر لقوله: مثل الجنة كما تقدم، ورجح الأول الفراء، فقال: أراد أن كان في هذا النعيم كمين هو خالد في النار. وقال الزجاج: أي: أقمن كان على بينة من ربه، وأعطى هذه الأشياء كمين زين له سوء عمله، وهو خالد في النار، فقوله: ﴿كمين﴾ بدل من قوله: «أقمن زين له سوء عمله» وقال ابن كيسان: ليس مثل الجنة التي فيها الثمار والانهار، كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم، وليس مثل أهل الجنة في النعيم، كمثل أهل النار في العذاب الآليم، وقوله: ﴿وسقوا ماء حميمًا﴾ عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية لكنه راعى في الأولى لفظ من، وفي الثانية معناها، والحميم: الماء الحار الشديد الغليان، فإذا شربوه قطع أمعاءهم، وهو معنى قوله: ﴿فقطع أمعاءهم﴾ لفرط حرارته، والأمعاء جمع معى، وهي ما في البطن من الحوايا ﴿ومنها من يستمع إليك﴾ أي: من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون، كما تأكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون، أقر الضمير باعتبار لفظ من، وجمع في قوله: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك﴾ باعتبار معناها، والمعنى: أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله ﷺ، ومواطن خطبه التي يملئها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ وهم علماء الصحابة، وقيل: عبد الله بن عباس، وقيل: عبد الله بن مسعود، وقيل: أبو الدرداء، والأول أولى أي: سألوا أهل العلم فقالوا لهم: ﴿ماذا قال آنفاً﴾ أي: ماذا قال النبي الساعة على طريقة الاستهزاء، والمعنى: أنا لم نلتفت إلى قوله، وأنفاً يراد به الساعة التي هي أقرب الاوقات، ومنه أمر آنف أي:

والمؤمنات فإن المراد به: استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من تنويبهم **﴿والله يعلم متقلبكم﴾** في أعمالكم **﴿ومثواكم﴾** في الدار الآخرة، وقيل: متقلبكم في أعمالكم نهراً، ومثواكم في ليحكم نيماً. وقيل: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم في الأرض أي: مقامكم فيها. قال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن في الدنيا، ومثواكم في القبور.

وقد أخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: أنت أحب بلاد الله إلي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج، فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية، فأنزل الله: **﴿وكانين من قرية﴾** الآية». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿أنهار من ماء غير آسن﴾** قال: غير متغير. وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها». وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده، والبيهقي عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل في الجنة، ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جببر، عن ابن عباس في قوله: **﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا﴾** قال: كنت فيمن يسأل. وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه في الآية قال: أنا منهم. وفي هذا منقبة لابن عباس جليلة؛ لأنه كان إذ ذاك صبياً غير بالغ، فإن النبي ﷺ مات وهو في سن البلوغ، فسؤال الناس له عن معاني القرآن في حياة النبي ﷺ، ووصف الله سبحانه للمسؤولين بأنهم الذين أوتوا العلم وهو منهم، من أعظم الأدلة على سعة علمه، ومزيد فقهه في كتاب الله، وسنة رسوله، مع كون أتباعه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس: ماذا قال آنفا؟ فيقول: كذا وكذا، وكان ابن عباس أصغر القوم، فأنزل الله الآية، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن عساكر عن ابن بريدة في الآية قال: هو عبد الله بن مسعود. وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: هو عبد الله بن مسعود. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾** قال: لما أنزل القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناس من المنسوخ زادهم هدى. وأخرج ابن المنذر عنه: **﴿فقد جاء أشرافها﴾** قال: أول الساعات، وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله

ﷺ، وروضة أنف أي: لم يرعها أحد، وانتصابه على الظرفية أي: وقتاً مؤتلفاً، أو حال من الضمير في قال. قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء: إذا ابتدأته، وأصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه، مستعار من الجارحة، ومنه قول الشاعر:

ويحرم سرّ جارثهم عليهم ويأكل جواهرهم أنف القصاع
والإشارة بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى المذكورين من المنافقين **﴿الذين طبع الله على قلوبهم﴾** فلم يؤمنوا، ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير **﴿ولتبعضوا هواءهم﴾** في الكفر والعناد. ثم ذكر حال أضدادهم فقال: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾** أي: والذين اهتدوا إلى طريق الخير، فأمنوا بالله، وعملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق، وقيل: زادهم النبي ﷺ، وقيل: زادهم القرآن. وقال الفراء: زادهم إعراض المنافقين واستهزأؤهم هدى. وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى، وعلى كل تقدير، فالمراد: أنه زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين **﴿وآتاهم تقواهم﴾** أي: ألهمهم إياها وأعانهم عليها، والتقوى قال الربيع: هي الخشية، وقال السدي: هي ثواب الآخرة، وقال مقاتل: هي التوفيق للعمل الذي يرضاه، وقيل: العمل بالناسخ وترك المنسوخ، وقيل: ترك الرخص والأخذ بالعزائم **﴿فهل ينظرون إلا الساعة﴾** أي: القيامة **﴿أن تأتيهم بغتة﴾** أي: فجأة، وفي هذا وعيد للكفار شديد، وقوله: **﴿أن تأتيهم بغتة﴾** بدل من الساعة بدل اشتغال. وقرأ أبو جعفر الرواسي (إن تأتيهم) بـإن الشرطية **﴿فقد جاء أشرافها﴾** أي: أماراتها وعلاماتها، وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن النبي ﷺ آخر الأنبياء، فبعثته من أشرافها، قاله الحسن، والضحاك، والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها. وقيل: المراد بأشرافها هنا: أسبابها التي هي نون معظمها. وقيل: أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر والدخان، كذا قال الحسن. وقال الكلبي: كثرة المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام، ومنه قول أبي زيد الأسود:

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت أشراف أوله تبتو
﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ نكراهم مبتدأ، وخبره فأنى لهم أي: أنى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله: **﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾** [الفجر: 23] وإذا جاءتهم اعتراض بين المبتدأ والخبر **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾** أي: إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة، ومدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصي الله، فاعلم أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، والمعنى: أثبت على ذلك واستمر عليه؛ لأنه ﷺ قد كان عالماً بأنه لا إله إلا الله قبل هذا، وقيل: ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً. وقيل المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم **﴿واستغفر لذنوبك﴾** أي: استغفر الله أن يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى. وقيل: الخطاب له، والمراد: الأمة، ويأبى هذا قوله: **﴿وللمؤمنين﴾**

كل سورة نكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين، وفي قراءة ابن مسعود (فيذا أنزلت سورة محنته) أي: محنته النزول، قرأ الجمهور (فيذا أنزلت) ونكر على بناء الفعلين للمفعول، وقرأ زيد بن علي، وابن عمير (نزلت) ونكر على بناء الفعلين للمفاعل، ونصب القتال ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك، وهم المنافقون ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجنهم عن القتال، وميلهم إلى الكفار. قال ابن قتبية، والزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظراً شديداً، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت ﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ﴾ قال الجوهرى: وقولهم أولى لك: تهديد وعيد، وكذا قال مقاتل، والكلبي، وقتادة. قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد أولى لك أي: وليك، وقاربك ما تكره، وأنشد قول الشاعر:

فعداى بين هابيتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث
أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل في أولى أحسن مما قاله الأصمعي. وقال المبرد: يقال لمن هم بالغضب ثم أقلت: أولى لك أي: قاربت الغضب. وقال الجرجاني: هو مأخوذ من الويل أي: فويل لهم، وكذا قال في الكشاف، قال قتادة أيضاً: كانه قال العقاب أولى لهم، وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف أي: أمرهم طاعة، أو طاعة وقول معروف خير لكم. قال الخليل، وسيبويه: إن التقدير طاعة وقول معروف أحسن، وأمثل لكم من غيرهما. وقيل: إن طاعة خير أولى، وقيل: إن طاعة صفة لسورة، وقيل: إن لهم خير مقدم، وطاعة مبتدأ مؤخر، والأول أولى ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ عزم الأمر جد الأمر أي: جد القتال ووجب وفرض، وأسند العزم إلى الأمر، وهو لأصحابه مجازاً، وجواب إذا قيل: هو ﴿فَلَوْ صَاحَقُوا اللَّهَ﴾ وقيل: محنوف تقديره كرهوه. قال المفسرون: معناه إذا جد الأمر، ولزم فرض القتال خالفوا وتخلفوا ﴿فَلَوْ صَاحَقُوا اللَّهَ﴾ في إظهار الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ هذا خطاب للذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتقريع. قال الكلبي: أي: فهل عسيتم إن توليتمت الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال كعب: ﴿إِنْ تَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضاً، وقال قتادة: إن توليتمت عن طاعة كتاب الله عز وجل أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء، وتقطعوا أرحامكم. وقال ابن جريج: إن توليتمت عن الطاعة، وقيل: أعرضتم عن القتال، وفارقتم أحكامكم. قرأ الجمهور (توليتمت) مبنياً للمفاعل، وقرأ علي بن أبي طالب بضم التاء والواو وكسر اللام مبنياً للمفعول، وبها قرأ ابن أبي إسحاق، وورش عن يعقوب، ومعناها: فهل عسيتم إن ولي عليكم ولاية جاثرين أن تخرجوا عليهم في الفتنة، وتحاربوهم وتقطعوا أرحامكم بالبغي، والظلم، والقتل. وقرأ الجمهور (وتقطعوا) بالتشديد على التكثير، وقرأ أبو

﴿﴿﴾﴾: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالوسطى والسبابة»، ومثله عند البخاري من حديث سهل بن سعد. وفي الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراف الساعة، وبيان ما قد وقع منها، وما لم يكن قد وقع، وهي تأتي في مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أفضل النكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الاستغفار، ثم قرأ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة». وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الله بن سرجس قال: «أتيت النبي ﷺ، فكلت معه من طعام، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، قال: ولك، فقلت: استغفر لك يا رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، ولكم وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾». وقد ورد لأحاديث في استغفاره ﷺ لنفسه ولأمته، وترغيبه في الاستغفار. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وَقَوْلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذِكْرَ فِيهَا الْقِتَالِ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ﴿١٧﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ كَذَّبُوا أَنَّهُ كَانَ مِثْرًا لَهُمْ ﴿١٨﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّهُمْ أَصْرَهُمْ ﴿٢٠﴾ أَنَّى يَذْكُرُونَ الْقُرْآنَ أَنِ عَلَّ قُلُوبٌ أَفْقَاهَا ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ السَّيِّئِينَ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيئَتُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَسِّرُ سَبِيلَ إِسْرَارِهِمْ ﴿٢٣﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَلَّيْتُمْ أَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ مَلَكُوتُكُمْ يَخْبِرُوكُمْ رُجُومُهُمْ وَأَذَانُكُمْ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْعَبُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٥﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَتَهُمْ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَكَّتْهُمْ فِئَتُهُمْ لِيَكُونُوا فِي سِعَةِ الْأَرْضِ وَلَنِزَّلْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَسِّرُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٧﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ لِنَبَارِكَنَّ ﴿٢٨﴾

سال المؤمنون ربهم عز وجل أن ينزل على رسوله ﷺ سورة يامرهم فيها بقتال الكفار حرصاً منهم على الجهاد، ونيل ما أعد الله للمجاهدين من جزيل الثواب، فحكي الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلا نزلت ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ أي: غير منسوخة ﴿وَنُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: فرض الجهاد قال قتادة:

﴿تِلْكَ﴾ إلى الإملاء، وقيل: إلى التسويل، والأول أولى. ويؤيد كون القائلين المنافقين، والكارهين اليهود قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لِنُخْرِجَنَّكُمْ وَلَا نطيع فيكم أحداً أبداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: 11] ولما كان قولهم المنكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السرّ بينهم. قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سرّ، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ الكوفيون، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن وثاب، والأعمش بكسر الهمزة على المصدر أي: إخفاءهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وكيف في محل رفع على أنها خبر مقدّم، والتقدير: فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة، أو في محل نصب بفعل محذوف أي: فكيف يصنعون، أو خبر لكان مقدّرة أي: فكيف يكونون، والظرف معمول للمقدّر، قرأ الجمهور (توفتهم) وقرأ الأعمش (توفاهم)، وجملة ﴿يُضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَنْبَارَهُمْ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل توفتهم، أو من مفعوله أي: ضاربين وجوههم وضاربين أنبارهم، وفي الكلام تخويف وتشديد، والمعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب، فسيكون حالهم هذا، وهو تصوير لتوفيتهم على أقبح حال وأشنعه. وقيل ذلك: عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ﷺ، وقيل ذلك: يوم القيامة، والأول أولى، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى التوفي المذكور على الصفة المذكورة، وهو مبتدأ وخبره ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ أي: بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي، وقيل: كتمانهم ما في التوراة من نعت نبينا ﷺ، والأول أولى لما في الصيغة من العموم ﴿وَكُفِّرُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي: كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة ﴿فَلَا حِطَّ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بهذا السبب، والمراد بأعمالهم: الأعمال التي صورتها صورة الطاعة والإلّا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني: المنافقين المنكوريين سابقاً، وأم هي المنقطعة أي: بل أحسب المنافقون ﴿أَنْ لَنْ يَخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الإخراج بمعنى الإظهار، والأضغان جمع ضغن، وهو ما يضر من المكروه، واختلف في معناه، فقيل: هو الغش، وقيل: الحسد وقيل: الحقد. قال الجوهري: الضغن والضغينة الحقد، وقال قطرب: هو في الآية العداوة، وأن هي المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شأن مقتر ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ﴾ أي: لأعلمناكم، وعرفناكم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب: سارك ما أصنع أي: سأعلمك ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسْمَاهُمْ﴾ أي: بعلامتهم الخاصة بهم التي يتميزون بها. قال الزجاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة، وهي السيماء، فلعرفتهم بتلك العلامة، والفاء لترتيب المعرفة على الإرادة، وما بعدها معطوف على جواب لو، وكررت في المعطوف

عمر في رواية عنه، وسلام، وعيسى، ويعقوب بالتخفيف من القطع يقال: عسيت أن أفعل كذا، وعسيت بالفتح والكسر لغتان، نكره الجوهري وغيره، وخبر عسيتم هو ﴿أَنْ تَفْسِدُوا﴾، والجملة الشرطية بينهما اعتراض، والإشارة بقوله: ﴿أَوَّلُكُمْ﴾ إلى المخاطبين بما تقدّم وهو مبتدأ، وخبره ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، وطردهم عنها ﴿فَأَصْصَهُمْ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث، وحقية سائر ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ للإنكار، والمعنى: أفلا يتفهمونه، فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ والزاجرة، والحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة التي تكفي من له فهم وعقل، وتزجره عن الكفر بالله، والإشراك به، والعمل بمعاصيه ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أم هي المنقطعة أي: بل أعلى قلوب أقفالها، فهم لا يفهمون ولا يعقلون. قال مقاتل: يعني الطبع على القلوب، والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق، وإضافة الأقفال إلى القلوب للتنبية على أن المراد بها: ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب، ومعنى الآية: أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والشرك، لأن الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بهذه القلوب: قلوب هؤلاء المخاطبين. قرأ الجمهور (أقفالها) بالجمع، وقرأ (أقفالها) بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَنْبَارِهِمْ﴾ أي: رجعوا كفاراً كما كانوا. قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبي ﷺ بعد ما عرفوا نعتهم عندهم، وبه قال ابن جرير. وقال الضحاک، والسدي: هم المنافقون قعدوا عن القتال، وهذا أولى؛ لأن السياق في المنافقين ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة، والدلائل الواضحة ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زَيَّنَ لَهُمْ خطاياهم، وسهل لهم الوقوع فيها، وهذه الجملة خبر إن، ومعنى ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾: أن الشيطان مدّ لهم في الأمل، ووعدهم طول العمر، وقيل: إن الذي أملى لهم هو الله عزّ وجلّ على معنى: أنه لم يعاجلهم بالعقوبة. قرأ الجمهور (أملى) مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو جعفر، وشيبة على البناء للمفعول قيل: وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله، أو الشيطان كالقراءة الأولى، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفراء، والمفضل، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريباً، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تقدّم من ارتدادهم، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ﴾ أي: بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أنبارهم قالوا للذين كرهوا: ما نزل الله، وهم المشركون ﴿سَنُطِيعُكَمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ﴾ وهذا البعض هو عداوة رسول الله ﷺ، ومخالفة ما جاء به. وقيل المعنى: إن المنافقين قالوا لليهود: سنطيعكم في بعض الأمور، وقيل: إن القائلين اليهود، والذين كرهوا ما أنزل الله المنافقون، وقيل: إن الإشارة بقوله:

لِيُسَبِّحُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْغِلُ وَمَنْ يَبْغِلْ فَإِنَّمَا يَبْغِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٦٥﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المراد بهؤلاء: هم المنافقون، وقيل: أهل الكتاب، وقيل: هم المطعمون يوم بدر من المشركين، ومعنى صدّهم عن سبيل الله: منعهم للناس عن الإسلام، واتباع الرسول ﷺ ﴿وَوَصَّيْنَا الْيَهُودَ﴾ معنى ﴿شَاقُوا لِلرَّسُولِ﴾: عابوه وخالفوه ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: علموا أنه ﷺ نبي من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة، والحجج القاطعة ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر، وما ضروا إلا أنفسهم ﴿وَيَسْجِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: يبطلها، والمراد بهذه الأعمال: ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير، وإن كانت باطلة من الأصل، لأن الكفر مانع، وقيل: المراد بالأعمال المكائد التي نصبوها لإبطال دين الله، والغوائل التي كانوا يبعثونها برسول الله ﷺ، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمرتم به من الشرائع المنكورة في كتاب الله وسنة رسوله؛ ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم، كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرار على الكفر، فقال: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ قال الحسن أي: لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي. وقال الزهري: بالكبائر. وقال الكلبي، وابن جريج: بالرياء والسمعة. وقال مقاتل: بالمن. والظاهر النهائي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كائناً ما كان من غير تخصيص بنوع معين. ثم بين سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر، والصدّ عن سبيل الله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حياً، وظاهر الآية العموم وإن كان السبب خاصاً. ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف، فقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: تضعفوا عن القتال، والوهن الضعف ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداءً منكم، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف. قال الزجاج: منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح، وأمرهم بحربهم حتى يسلموا. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (وتدعوا) بتشديد الدال من ادعى القوم وتدعوا. قال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتهما.

واختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ فقيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61] وقيل: منسوخة بهذه الآية. ولا يخفak أنه لا مقتضى للقول بالنسخ، فإن الله

للتأكيد، وأما اللام في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فهي جواب قسم محذوف. قال المفسرون: لحن القول فحواه ومقصده ومغزاه، وما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين، وكان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه. قال أبو زيد: لحن له اللحن: إذا قلت له قولاً يفقهه عنك، ويخفى على غيره، ومنه قول الشاعر:

منطق صائب وتلحن أحياناً وخير الكلام ما كان لحناً
أي: أحسنه ما كان تعريضاً يفهمه المخاطب، ولا يفهمه غيره لفطنته ونكاته، وأصل اللحن إمالة الكلام إلى نحو من الانحاء لغرض من الأغراض ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها، وفيه وعيد شديد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي: لنعاملنكم معاملة المختبر، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد، وصبر على دينه، ومشاق ما كلف به. قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحية فيها كلها، ومعنى ﴿وَنَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ﴾: نظهرها ونكشفها امتحاناً لكم، ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به، ومن عصى، ومن لم يمتثل. وقرأ الجمهور (ونبلوا) بنصب الواو عطفاً على قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾. وروى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحْمَ بِحَقِّ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ أَتَرْضَى أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعُ مِنْ قَطْعِكَ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ؛ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَقْرَعُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ الآية إلى قوله: ﴿إِنَّمَا عَلَى قُلُوبِ أَهْلِيهَا﴾. والأحاديث في صلة الرحم كثيرة جداً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَنبِيَائِهِمْ﴾ قال: هم أهل النفاق. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنَّ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ قال: أعمالهم خبيثهم، والحسد الذي في قلوبهم، ثم دل الله تعالى النبي ﷺ بعد على المنافقين، فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق. وأخرج ابن مريويه، وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ قال: ببغضهم علي بن أبي طالب.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصُرُوا إِلَىٰ اللَّهِ شَيْئًا وَسَيُحْطِ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿٦٥﴾ يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَا يَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٦٧﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَىٰ السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرُكَ أَعْمَالُكُمْ ﴿٦٨﴾ لَمَّا لَبِثُوا الْأَدْنَىٰ لَمَبٌ وَلَهُمْ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْتَقِبْ يُجْرِكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْثَلَكُمْ ﴿٦٩﴾ إِنْ يَسْتَلِكُمْ فَيَبْغِضَكُمْ يَبْغِضُوا وَتَحْجِجْ أَمْثَلَكُمْ ﴿٧٠﴾ مَا أَشْرَ هَؤُلَاءِ لَتَدْعُونَ

في سبيل الله، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال، ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: يمنعه الأجر والثواب ببخله، وبخل يتعدى بعلى تارة وبعن أخرى. وقيل: إن أصله أن يتعدى بعلى، ولا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ﴾ المطلق المتنزه عن الحاجة إلى أموالكم ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إلى الله، وإلى ما عنده من الخير والرحمة، وجملة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ معطوفة على الشرطية المتقدمة، وهي وإن تؤمنوا، والمعنى: وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى، يستبدل قوماً آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا آمَنًا لَكُمْ﴾ في التولي عن الإيمان والتقوى. قال عكرمة: هم فارس، والروم. وقال الحسن: هم العجم. وقال شريح بن عبيد: هم أهل اليمن، وقيل: الأنصار، وقيل: الملائكة، وقيل: التابعون. وقال مجاهد: هم من شاء الله من سائر الناس. قال ابن جرير: والمعنى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا آمَنًا لَكُمْ﴾ في البخل بالإتفاق في سبيل الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله نيب، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل، ولفظ عبد بن حميد: فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم. وأخرج ابن نصر، وابن جرير، وابن مروي عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، فكنّا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116] فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك. وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿يُتْرَكُ﴾ قال: يظلمكم. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن قال: «لما نزلت: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قالوا: من هؤلاء، وسلمان إلى جانب النبي ﷺ؟ فقال: هم الفرس، هذا وقومه، وفي إسناده مسلم بن خالد الزنجي وقد تفرد به، وفيه مقال معروف. وأخرجه عنه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان، ثم قال: هذا

سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالأيتان محكمتان، ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ، أو التخصيص، وجملة ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقرزة لما قبلها من النهي أي: وأنتم الغالبون بالسيف والحجة. قال الكلبي: أي: آخر الأمر لكم، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وكذا جملة قوله: ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ في محل نصب على الحال أي: معكم بالنصر، والمعونة عليهم ﴿وَلَنْ يَتْرُكُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، يقال: وتره يتره وتراً: إذا نقصه حقه، وأصله من وترت الرجل: إذا قتل له قريباً، أو نهبت له مالا، ويقال فلان ماتور: إذا قتل له قتيل، ولم يؤخذ بدمه. قال الجوهري: أي: لن ينقصكم في أعمالكم، كما تقول دخلت البيت وأنت تريد في البيت. قال الفراء: هو مشتق من الوتر وهو البخل، وقيل: مشتق من الوتر وهو الفرد، فكان المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب ﴿وَإِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: باطل وغرور لا أصل لشيء منها، ولا ثبات له ولا اعتداد به ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: إن تؤمنوا بالله، وتتقوا الكفر والمعاصي يؤتكم أجوركم ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ والأجر والثواب على الطاعة ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة وسائر وجوه الطاعات، بل يأمركم بإخراج القليل منها، وهو الزكاة. وقيل المعنى: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله؛ لأنه أملك لها، وهو المنعم عليكم بإعطائها. وقيل: لا يسألكم أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة، كما في قوله: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: 57] والاولى ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ عَنْهَا﴾ أي: أموالكم كلها ﴿فِيحَقِّكُمْ﴾ قال المفسرون: يجهنكم، ويلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفى بالمسألة والحف والمعنى واحد، والمحفي المستقصي في السؤال، والإحفاء الاستقصاء في الكلام، ومنه إحفاء الشارب أي: استئصاله، وجواب الشرط قوله: ﴿تَبْخُلُوا﴾ أي: إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها، وتمتنعوا من الامتنال ﴿وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ﴾ معطوف على جواب الشرط، ولهذا قرأ الجمهور (يخرج) بالجزم، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بالرفع على الاستئناف، وروي عنه أنه قرأ بفتح الياء وضم الراء، ورفع أضغانكم، وروي عن يعقوب الحضرمي أنه قرأ بالنون، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن، وحמיד بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء، وعلى قراءة الجمهور، فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه، أو إلى البخل المدلول عليه بتبخلوا. والأضغان: الأحقاد، والمعنى: أنها تظهر عند ذلك. قال قتادة: قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنَفْسِكُمْ﴾ أي: ما أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون: لتنفقوا في الجهاد وفي طريق الخير ﴿فَمَنْكُمْ مَنِ يَبْخُلُ﴾ بما يطلب منه، ويدعى إليه من الإنفاق

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ اختلف في تعيين هذا الفتح، فقال الأكثر: هو صلح الحديبية، والصلح قد يسمى فتحاً. قال الفراء: والفتح قد يكون صلحاً، ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مسلولاً متعزراً حتى فتحه الله. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام. قال الشعبي: لقد أصاب رسول الله ﷺ في الحديبية ما لم يصب في غزوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، وبويع بيعة الرضوان، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدى محله، وظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقال قوم: إنه فتح مكة. وقال آخرون: إنه فتح خيبر. والأول أرجح، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت في شأن الحديبية. وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتح، وقيل: هو ما فتح له من النبوة، والدعوة إلى الإسلام، وقيل: فتح الروم، وقيل: المراد بالفتح في هذه الآية: الحكم والقضاء. كما في قوله: ﴿أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الاعراف: 89] فكانه قال: إنا قضينا لك قضاءً مبيناً أي: ظاهراً واضحاً مكشوفاً. ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ اللام متعلقة بفتحنا، وهي لام العلة. قال ابن الأنباري: سألت أبا العباس: يعني: المبرد عن اللام في قوله: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ فقال: هي لام كي معناها: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً؛ لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كي، وغلط من قال ليس الفتح سبب للمغفرة. وقال صاحب الكشاف: إن اللام لم تكن علة للمغفرة؛ ولكن لاجتماع ما عدت من الأمور الأربعة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز. كانه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرك على عدوك؛ لنجمع لك بين عز الدارين، وأعراض العاجل والآجل. وهذا كلام غير جيد، فإن اللام داخلة على المغفرة فهي علة للفتح، فكيف يصح أن تكون معللة. وقال الرازي في توجيه التعليل: إن المراد بقوله: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ التعريف بالمغفرة تقديره: إنا فتحنا لك؛ لتعرف أنك مغفور لك معصوم. وقال ابن عطية: المراد أن الله فتح لك؛ لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك، فكانها لام الصيرورة. وقال أبو حاتم: هي لام القسم وهو خطأ، فإن لام القسم لا تكسر، ولا ينصب بها.

واختلف في معنى قوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر بعدها قاله مجاهد، وسفيان الثوري، وابن جرير، والواحدي، وغيرهم. وقال عطاء: ما تقدم من ذنبك يعني: ذنب أبويك آدم وحواء، وما تأخر من ذنوب أمتك. وما أبعد هذا عن معنى القرآن. وقيل: ما تقدم من ذنب أبيك إبراهيم، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده، وهذا كالذي قبله. وقيل: ما تقدم من ذنب

وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس»، وفي إسناده أيضاً مسلم بن خالد الزنجي. وأخرج ابن مريويه من حديث جابر نحوه.

تفسير سورة الفتح

قال القرطبي: بالإجماع. وقد أخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الفتح بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن إسحاق، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالوا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها، وهذا لا ينافي بالإجماع على كونها مدنية؛ لأن المراد بالسور المدنية: النازلة بعد الهجرة من مكة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته، ففرج فيها. وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم، عن أبيه: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: هلكت أم عمر نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، فقال عمر: فحركات بعيري، ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل في قرآن، فبحث رسول الله ﷺ، فسلمت عليه، فقال: لقد أنزلت علي سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، [أي: سورة الفتح]. وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ الآية إلى قوله: ﴿هُوَ أَعْظَمُ﴾ [الفتح: 1-5] مرجعه من الحديبية وهم مخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحروا الهدى بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُزِيلَ عَنْكَ اللَّهُ صَدْرَكَ وَيُخَفِّضَ اللَّهُ رِجْلَكَ وَيُنْزِلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ وَيَعَذِّبُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ أَطْلَاقًا بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَعَظَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٤﴾ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥﴾

المشركين دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً، وأحقّ منهم بما وعدهم الله به، ثم وصف الفريقين، فقال: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ﴾ وهو ظنهم أن النبي ﷺ يغلب، وأن كلمة الكفر تعلق كلمة الإسلام.

ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنَا يَنْقَلِبَ الرُّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: 12] ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: ما يظنون، ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم، والمعنى: أن العذاب، والهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم. قال الخليل، وسيبويه: السوء هنا الفساد. قرأ الجمهور (السوء) بفتح السين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بضمها ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم في الدنيا بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعة، وعذاب جهنم ﴿وَهُوَ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرر هذه الآية؛ لقصد التأكيد، وقيل: المراد بالجنود هنا جنود العذاب، كما يفيد التعبير بالعزة هنا مكان العلم هنالك.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال: «شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم إذ الناس يوجفون الأباغر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ فقالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، فقال رجل: إي رسول الله أو فتح هو؟ قال: إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح، فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسائة منهم ثلثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهماً. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، وكان إذا أتاه اشتد عليه، فسرى عنه، وبه من السرور ما شاء الله، فأخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. وأخرج البخاري وغيره عن انس في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: الحديبية. وأخرج البخاري، وغيره عن البراء قال: تعلمون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: فتح مكة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال: «كان النبي ﷺ يصلي حتى تتورم قدماه، فقيل

يوم بدر، وما تأخر من ذنب يوم حنين، وهذا كالقولين الأولين في البعد. وقيل: لو كان ذنب قديم، أو حديث؛ لغفرناه لك، وقيل غير ذلك مما لا وجه له، والأول أولى. ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة: ترك ما هو الأولى، وسمي ذنباً في حقه لجلالة قدره، وإن لم يكن ذنباً في حق غيره ﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإظهار دينك على الدين كله، وقيل: بالجنة، وقيل: بالنبوة والحكمة، وقيل: بفتح مكة، والطائف، وخيبر، والأولى أن يكون المعنى: ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة، والهداية إلى صراط مستقيم، وهو الإسلام. ومعنى يهديك: يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ﴿وَيُنْصَرِكُ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يتبعه ذل ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: السكون والطمانينة بما يسره لهم من الفتح؛ لئلا تترزع نفوسهم لما يرد عليهم ﴿لِيُزَادُوا إِيْمَانًا﴾ مع إيمانهم، أي: ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيماناً منضماً إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل. قال الكلبي: كلما نزلت آية من السماء، فصدّقوا بها ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم، وقال الربيع بن أنس: خشية مع خشيتهم. وقال الضحك: يقيناً مع يقينهم ﴿وَهُوَ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين يدير أمرهم كيف يشاء، ويسلط بعضهم على بعض، ويحوط بعضهم ببعض ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ كثير العلم بليغ ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله وأقواله ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدل عليه ما قبله تقديره يبتلي بتلك الجنود من يشاء، فيقبل الخير من أهله، والشر ممن قضى له به؛ ليدخل ويعذب. وقيل: متعلقة بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ كانه قال: إنا فتحنا لك ما فتحنا؛ ليدخل ويعذب، وقيل: متعلقة بينصرك أي: نصرك الله بالمؤمنين؛ ليدخل ويعذب، وقيل: متعلقة بيزدادوا أي: يزدادوا، ليدخل ويعذب، والأول أولى ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: يسترها، ولا يظهرها ولا يعذبهم بها، وقدم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس للمسارة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: وكان ذلك الوعد بإبخالهم الجنة، وتكفير سيئاتهم عند الله، وفي حكمه فوزاً عظيماً أي: ظفراً بكل مطلوب، ونجاة من كل غم، وجلباً لكل نفع ودفعا لكل ضرر، وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من فوزاً؛ لأنه صفة في الأصل، فلما قدم صار حالاً أي: كائناً عند الله، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين، وجزاء المنافقين والمشركين، ثم لما فرغ مما وعد به صالحى عباده نكر ما يستحقه غيرهم، فقال: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ﴾ وهو معطوف على يدخل أي: يعذبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم، والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب جهنم. وفي تقديم المنافقين على

وتسبحوه» الخلاف بين القراء في هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف في «لتؤمنوا» كما سلف، ومعنى تعزروه: تعظموه وتفخموه؛ قاله الحسن، والكلبي، والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه. وقال عكرمة: تقاتلون معه بالسيف، ومعنى توقروه: تعظموه. وقال السدي: تسوؤوه، قيل: والضميران في الفعلين للنبي ﷺ وهنا وقف تام، ثم يبتدئ وتسبحوه أي: تسبحوا الله عز وجل «بكرة واصيلاً» أي: غدوة وعشية، وقيل: الضمائر كلها في الأفعال الثلاثة لله عز وجل، فيكون معنى تعزروه وتوقروه: تثبتون له التوحيد، وتتفون عنه الشركاء، وقيل: تنصروا دينه وتجاهدوا مع رسوله. وفي التسييح وجهان، أحدهما: التنزيه له سبحانه من كل قبيح، والثاني: الصلاة «إن الذين يبائعونك» يعني: بيعة الرضوان بالحديبية، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش «إنما يبائعون الله» أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله ﷺ هي بيعة له كما قال: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» [النساء: 80] وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، وجملة «يبد الله فوق أيديهم» مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل، في محل نصب على الحال، والمعنى: أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت. وقال الكلبي: المعنى: إن نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. وقيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء. وقال ابن كيسان: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه» أي: فمن نقض ما عقد من البيعة، فإنما ينقض على نفسه؛ لأن ضرر نكث راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره «ومن أوفى بما عاهد عليه الله» أي: ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه في البيعة لرسوله. قرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء وقرأ حفص، والزهرري بضمها «فسيؤتيه أجراً عظيماً» وهو الجنة. قرأ الجمهور (فسيؤتيه) بالتحية، وقرأ نافع، وقرأ كثير، وابن عامر بالنون، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم، واختار القراءة الثانية الفراء «سيقول لك المخلفون من الأعراب» هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية. قال مجاهد، وغيره يعني: أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والنبل، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة. وقيل: تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه، والمخلف المتروك «هشغلتنا أموالنا وأهلونا» أي: منعنا عن الخروج معك ما لنا من الأموال، والنساء، والذاري، وليس لنا من يقوم بهم، ويخلفنا عليهم «فاستغفر لنا» ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب، ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء، وكانت بواطئهم مخالفة لظواهرهم، فضحهم الله سبحانه بقوله: «يقولون بالاستغفار ما ليس في قلوبهم» وهذا هو صنيع المنافقين، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوي

له: اليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر قال: اقلاً أكون عبداً شكوراً، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين» قال: السكينة هي الرحمة وفي قوله: «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» قال: إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الحج، فلما صدقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم، فقال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» [المائدة: 3]. قال ابن عباس: «فاثق إيمان أهل السماء، وأهل الأرض، وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله». وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» قال: تصديقاً مع تصديقهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: لما أنزل على النبي ﷺ: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» مرجعه من الحديبية. قال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي مما على الأرض، ثم قرأها عليهم، فقالوا: منياً مريئاً يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: «ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار» حتى بلغ: «فوزاً عظيماً».

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّيْرُوهُ وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ بِاللَّهِ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ إِجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلَانَا فَاسْتَغْفِرْنَا لَنَا بِقَوْلِنَا إِلَى الَّذِينَ بُعِثُوا إِلَى اللَّهِ أَنَّهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ طَعْنْتُمْ أَنْ لَنْ يَغْلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا وَزَيَّيْتُمْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَلَتَنْتَهُنَّ ظُرُوكَ النَّوَى وَكَثُرَ قَوْمًا بَوْرًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِكُمْ إِنَّا نَعُذُّوكمَا دَرُونا نَنَاصُكُمْ مَبِيتُكُمْ أَنْ يَسْأَلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَنصُرُونَا كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ بِنِ قَبْلُ فَيَقُولُونَ بَلْ نَحْشُدُونَك بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

قوله: «إنما أرسلناك شاهداً، أي: على امتك بتبليغ الرسالة إليهم «ومبشراً» بالجنة للمطيعين «ونذيراً» لأهل المعصية «لتؤمنوا بالله ورسوله» قرأ الجمهور (لتؤمنوا) بالفوقية. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتحية، فعلى القراءة الأولى: الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته، وعلى القراءة الثانية المراد: المبشرين والمنذرين، وانتصاب شاهداً ومبشراً ونذيراً على الحال المقدره «وتعزروه وتوقروه

﴿نَرُونَا نَتَّبِعُكُمْ﴾ أي: اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر. وأصل القصة أنه لما انصرف النبي ﷺ ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر، وخص بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون: نرؤنا نتبعكم، فقال الله سبحانه: ﴿يَرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: يغيروا كلام الله، والمراد بهذا الكلام الذي أرادوا أن يبدلوه: هو مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر.

وقال مقاتل: يعني: أمر الله لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم. وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَأْنِذُوا لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: 83] واعترض هذا ابن جرير، وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر، وبعد فتح مكة، والأول أولى، وبه قال مجاهد، وقتادة، ورجحه ابن جرير، وغيره. قرأ الجمهور (كلام الله) وقرأ حمزة، والكسائي (كلم الله) قال الجوهري: الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات؛ لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يمنعهم من الخروج معه، فقال: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ هذا النفي هو في معنى النهي، والمعنى: لا تتبعونا ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ يعني: المناققين عند سماع هذا القول، وهو قوله: ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ ﴿يَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد؛ لئلا تشارككم في الغنيمة، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿يَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يعلمون إلا علما قليلا، وهو علمهم بامر الدنيا، وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، وهو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ يعني: الإجلال ﴿وَتُوقَرُوهُ﴾ يعني: التعظيم، يعني: محمدا ﷺ، وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والضياء في المختارة عنه في قوله: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ قال: تضربوا بين يديه بالسيف، وأخرج ابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال: «لما أنزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ قال لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: لتعنصروه». وأخرج أحمد، وابن مردويه عن عباد بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب، فتمنعه مما تمنع منه أنفسنا، وأزواجنا، وأبنائنا، ولنا الجنة، فمن وفى وفى الله له، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه». وفي الصحيحين من حديث جابر: «أنهم

عليه بواطنهم، ويجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير وشر، ثم بين ذلك، فقال: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضُرًّا﴾ أي: إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل. قرأ الجمهور (ضرًا) بفتح الضاء، وهو مصدر ضررته ضرًا. وقرأ حمزة، والكسائي بضمها وهو اسم ما يضر، وقيل: هما لغتان ﴿وَإِنْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: نصرا وغنيمة، وهذا رد عليهم حين ظنوا أن للتخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنه الضر، ويجلب لهم النفع، ثم أضرب سبحانه عن ذلك، وقال: ﴿يَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك، بل للشك والنفاق، وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله، ولهذا قال: ﴿يَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وهذه الجملة مفسرة لقوله: ﴿يَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لما فيها من الإبهام أي: بل ظننتم أن العبر يستأصل المؤمنين بالمرة، فلا يرجع منهم أحد إلى أهله، فلاجل ذلك تخلفتم لا لما نكرتم من المعانير الباطلة ﴿وَوَزِينَ لَكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فقبلتموه. قرأ الجمهور (وزين) مبنيا للمفعول، وقرئ مبنيا للفاعل ﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أن الله سبحانه لا ينصر رسوله، وهذا الظن إما هو الظن الأول، والتكرير للتأكيد والتوبيخ، والمراد به ما هو أعم من الأول، فيبخل الظن الأول تحته دخولا أوليا ﴿وَوَكُنْتُمْ قَوْمًا يَوْرَأُ﴾ أي: هلكى، قال الزجاج: هالكين عند الله، وكذا قال مجاهد. قال الجوهري: البور الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه. قال أبو عبيد ﴿قَوْمًا يَوْرَأُ﴾ هلكى، وهو جمع بائر، مثل حائل وحول، وقد بار فلان أي: هلك، وأبارة الله أهلكه ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله أي: ومن لم يؤمن بهما، كما صنع هؤلاء المخلفون، فجزأهم ما أعدّه الله لهم من عذاب السعير ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وإنما تعبدكم بما تعبدكم لئيب من أحسن ويعاقب من أساء، ولهذا قال: ﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يعذبه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده ﴿سَيَقُولُ الْمَخْلَفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ المخلفون هؤلاء المذكورون سابقا، والظرف متعلق بقوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ والمعنى: سيقولون عند انطلاقتكم أيها المسلمون ﴿إِلَى مَغَانِمَ﴾ يعني: مغانم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ لتحوزوها

من تحتها الأنهار ﴿قرا الجمهور﴾ (يدخله) بالتحنية، واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد، وقرا نافع، وابن عامر بالنون ﴿ومن يتولَّ يعذبه الله عذاباً لئماً﴾ أي: ومن يعرض عن الطاعة يعذبه الله عذاباً شديداً لئماً، ثم نكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم، وشهدوا بيعة الرضوان، فقال: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ أي: رضي الله عنهم وقت تلك البيعة، وهي بيعة الرضوان، وكانت بالحبشية، والعامل في ﴿تحت﴾ إما يبايعونك، أو محذوف على أنه حال من المفعول، وهذه الشجرة المذكورة هي شجرة كانت بالحبشية وقيل: سدره، وكانت البيعة على أن يقتلوا قريشاً، ولا يفروا. ودوي أنه بايعهم على الموت، وقد تقدم نكر عدد أهل هذه البيعة قريباً، والقصة مبسطة في كتب الحديث والسير ﴿فعلهم ما في قلوبهم﴾ معطوف على يبايعونك، قال الفراء: أي: علم ما في قلوبهم من الصنق والوفاء. وقال قتادة، وابن جريج: من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفروا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على الموت ﴿فأنزل للسكينة عليهم﴾ معطوف على رضي، والسكينة: الطمأنينة وسكون النفس، كما تقدم، وقيل: الصبر ﴿وأتابهم فتحاً قريباً﴾ هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحبشية، قاله قتادة، وابن أبي ليلى، وغيرهما، وقيل: فتح مكة، والأول أولى ﴿ومغانم كثيرة ياخذونها﴾ أي: وأتابكم مغانم كثيرة، أو وأتاكم، وهي غنائم خيبر، والاتفات لتشريفهم بالخطاب ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي: غالباً مصدراً أفعاله وأقواله على أسلوب الحكمة ﴿وعندكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ في هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة ياخذونها في أوقاتها التي قدر وقوعها فيها ﴿ففعجل لكم هذه﴾ أي: غنائم خيبر، قاله مجاهد وغيره، وقيل: صلح الحبشية ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ أي: وكف أيدي قريش عنكم يوم الحبشية بالصلح، وقيل: كف أيدي أهل خيبر، وانصارهم عن قتالكم، وقذف في قلوبهم الرعب. وقال قتادة: كف أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي ﷺ إلى الحبشية، وخيبر، ورجع هذا ابن جرير، قال: لأن كف أيدي الناس بالحبشية مذكور في قوله: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾ [الفتح: 24] وقيل: ﴿كف أيدي الناس عنكم﴾ يعني: عيينة بن حصن الفزاري، وعوف بن مالك النضري ومن كان معهما، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبي ﷺ لهم ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقتر بعده أي: فعل ما فعل من التعجيل والكف، لتكون آية، أو على علة محذوفة تقديرها: وعد فعجل وكف، لتنتفعوا بذلك، ولتكون آية. وقيل: إن الواو مزيدة، واللام لتعليل ما قبله أي: وكف لتكون، والمعنى: ذلك الكف آية يعلم بها صنق رسول الله ﷺ في جميع ما يعكم به ﴿ويهيئكم صراطاً مستقيماً﴾ أي: يزيئكم بتلك الآية هدى، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحق ﴿والأخرى لم تقدروا عليها﴾ معطوف على هذه أي:

كانوا في بيعة الرضوان خمس عشرة مائة. وفيهما عنه: أنهم كانوا أربع عشرة مائة. وفي البخاري من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب أنه سألهم كم كانوا في بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، فقال له: إن جابراً قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال رحمه الله: وهم هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّوْنَ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بَأْسٍ شَهِيرٍ تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ طَلَبُوا يُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلَئِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَمْذِبْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَنْزِلَةً كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَالْأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الْفِرْنَ كَدْرًا لَوَلَّوْا الْأَنْدَادَ ثُمَّ لَا يَعْدُونَ رِجْلًا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُبْحَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِ وَلَيْسَ لَكَ بِهَا نَصِيرًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَابْدِئَهُمْ مِنْهُمْ بِطَنٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿قل للمخلفين من الأعراب﴾ هم المذكورون سابقاً ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ قال عطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وابن أبي ليلى، وعطاء الخراساني: هم فارس. وقال كعب، والحسن: هم الروم. ودوي عن الحسن أيضاً أنه قال: هم فارس، والروم. وقال سعيد بن جبيرة: هم هوازن، وثقيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين. وقال الزهري، ومقاتل: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة، وحكى هذا القول الواحد عن أكثر المفسرين ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ أي: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام لا ثالث لهما، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية. قال الزجاج: التقدير، أو هم يسلمون، وفي قراءة أبي (أو يسلموا) أي: حتى يسلموا ﴿فإن طلعوا يؤتكم الله أجراً حسناً﴾ وهو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وإن تتولوا﴾ أي: تعرضوا ﴿كما توليتم من قبل﴾ وذلك عام الحبشية ﴿يعينكم عذاباً لئماً﴾ بالقتل والأسر والقهر في الدنيا، ويعذاب النار في الآخرة؛ لتضاعف جرمكم ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أي: ليس على هؤلاء المعنورين بهذه الأعذار حرج في التخلف عن الغزو؛ لعدم استطاعتهم. قال مقاتل: عذر الله أهل الزمالة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحبشية بهذه الآية، والخرج: الإثم ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ فيما أمراه به ونهاه عنه ﴿ينخله جنات تجري

فبايعناه، فنلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت، ونحن ها هنا، فقال رسول الله ﷺ: لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن نافع قال: بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها، فأمر بها فقطعت. وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قيل: على أي شيء كنتم تبايعونه يومئذ؟ قال: على الموت. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر قال: بايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». وأخرج مسلم من حديثه مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فَانْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: الفتح. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً ﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: خير ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني: أهل مكة أن يستحلوا حرم الله، ويستحل بكم وأنتم حرم ﴿وَلَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: سنة لمن بعدكم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَاخِرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عنه أيضاً ﴿وَلَاخِرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا﴾ قال: هي خيبر. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية، هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرة رسول الله، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِيُيَسِّمَ عَنْهُمْ ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾. وفي صحيح مسلم، وغيره: أنها نزلت في نفر أسره سلمة بن الأكوع يوم الحديبية. وأخرج أحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل في سبب نزول الآية: «أن ثلاثين شاباً من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين في السلاح، فثاروا في وجوههم، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماهم. ولفظ الحاكم: بأبصارهم، فقام إليهم المسلمون فأخذوهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فنزلت هذه الآية».

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنَى مَكْرُهَاً أَنْ يَبَيعَ بَحْلُهُمْ وَلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَسَاءَ مَقْرَرٌ لَمْ تَقْدُرُوا أَنْ تَقْلُوبُوا مَنَابِدَ كَفَرُوا بِكُمْ مَعَرَّةً يَوْمَ لَمْ يَدْخُلِ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَنْتَهَى لَوْ

فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ الْمَغَانِمَ، وَمَغَانِمَ أُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا، وَهِيَ الْفَتْوحُ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِ كِفَارِ، وَالرُّومِ وَنَحْوِهِمَا، كَذَا قَالَ الْحَسَنُ، وَمَقَاتِلُ، وَابْنُ أَبِي لَيْلَى، وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ: هِيَ خَيْبَرُ وَعَدَهَا اللَّهُ نَبِيَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَهَا، وَلَمْ يَكُونُوا يَرْجُونَهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَالَ عِكْرَمَةُ: حَنِينَ، وَالْأَوَّلُ أَوَّلَى ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ صِفَةً ثَانِيَةً لِأُخْرَى. قَالَ الْفَرَاءُ: أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا لَكُمْ حَتَّى تَفْتَحُوهَا وَتَأْخُذُوهَا، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ أَعَدَّهَا لَكُمْ، وَجَعَلَهَا كَالشَّيْءِ الَّذِي قَدْ أَحْبَطَ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، فَهُوَ مُحْصُورٌ لَا يَفُوتُ مِنْهُ شَيْءٌ، فَهَمَّ وَإِنْ لَمْ يَقْدُرُوا عَلَيْهَا فِي الْحَالِ فَهِيَ مُحْبُوسَةٌ لَكُمْ لَا تَفُوتُكُمْ، وَقِيلَ: مَعْنَى أَحَاطَ: عَلِمَ أَنَّهَا سَتَكُونُ لَكُمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا تَخْتَصُّ قُدْرَتُهُ بِبَعْضِ الْمَقْدُورَاتِ بَدَلِ بَعْضٍ ﴿وَلَوْ قَاتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَبْجَارُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي: كَفَارَ قَرِيشَ بِالْحَبِيبِيَّةِ، وَقِيلَ: أَسَدٌ، وَغُطْفَانُ الَّذِينَ أَرَادُوا نَصْرَ أَهْلِ خَيْبَرِ، وَالْأَوَّلُ أَوَّلَى ﴿ثُمَّ لَا يَجْنُونَ وِلْيَاءً﴾ يَوَالِيَهُمْ عَلَى قَاتَالِكُمْ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَنْصُرُهُمْ عَلَيْكُمْ ﴿سَنَةِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِ﴾ أَي: طَرِيقَتَهُ وَعَادَتَهُ الَّتِي قَدْ مَضَتْ فِي الْأَمَمِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَانْتِصَابِ سَنَةِ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ بِفَعْلٍ مَحْذُوفٍ أَي: بَيَّنَّ اللَّهُ سَنَةَ اللَّهِ، أَوْ هُوَ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمُضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْذِيلًا﴾ أَي: لَنْ تَجِدَ لَهَا تَغْيِيرًا، بَلْ هِيَ مُسْتَمِرَّةٌ ثَابِتَةٌ ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِيُيَسِّمَ عَنْهُمْ ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ أَي: كَفَّ أَيْدِيَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَيْدِيَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا جَاءُوا يَصْنُفُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْبَيْتِ عَامَ الْحَبِيبِيَّةِ، وَهِيَ الْمَرَادُ بِبَطْنِ مَكَّةَ. وَقِيلَ: إِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَبْلِ جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِحِينَ يَرِيدُونَ غُرَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخَذَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، ثُمَّ تَرَكُوهُمْ. وَفِي الرِّوَايَةِ اخْتِلَافٌ سِيَائِي بَيَانَهُ آخِرُ الْبَحْثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَكْثِ شَيْءٍ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوَّلَى بِلَاسٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: فارس. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنهم الأكراد. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: فارس، والروم. وأخرج الفريابي، وابن مروي عنه قال: هوازن، وبني حنيفة. وأخرج الطبراني، قال السيوطي: بسند حسن عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، وإني لواضع القلم على أنني إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى، فقال: «كيف لي وأنا ذاهب البصر؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ الآية». قال: هذا في الجهاد، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطبقوا. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن سلمة بن الأكوع قال: «بينما نحن قاتلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة،

﴿مَعْرَءَةٌ﴾ أي: مشقة بما يلزمهم في قتلهم من كفارة وعيب، وأصل المعرّة: العيب مأخوذة من العرّ، وهو الجرب، وذلك أن المشركين سيقولون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم. قال الزجاج: لولا أن تقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات، فتصيبكم منهم معرة أي: إثم، وكذا قال الجوهري، وبه قال ابن زيد. وقال الكلبي، ومقاتل، وغيرهما: المعرّة كفارة قتل الخطأ، كما في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: 92] وقال ابن إسحاق: المعرّة، غرم الدية. وقال قطرب: المعرّة الشدة، وقيل: الغم، و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بأن تظنّوهم أي: غير عالمين، وجواب لولا محنوف، والتقدير: لأن الله لكم، أو لما كف أيديكم عنهم، واللام في ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ متعلقة بما يدل عليه الجواب المقدّر أي: ولكن لم ياذن لكم أو كف أيديكم؛ ليدخل الله في رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا في مكة، فيتم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرائي الكفار، ويفك أسرهم، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب. وقيل: اللام متعلقة بمحنوف غير ما ذكر، وتقديره: لو قتلتموهم لأنزلهم الله في رحمته، والأول أولى. وقيل: إن من يشاء عباده ممن رغب في الإسلام من المشركين ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا النَّارِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ التّزَيَّل: التّميز أي: لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم؛ لعذبنا الذين كفروا، وقيل التّزَيَّل: التّفريق أي: لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء، وقيل: لو زال المؤمنون من بين أظهرهم، والمعاني متقاربة، والعذاب الأليم هو القتل والأسر والقهر، والظرف في قوله: ﴿إِذَا جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منصوب بفعل مقدّر أي: أنكر وقت جعل الذين كفروا ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وقيل: متعلق بعذبنا، والحميّة: الأنفة، يقال: فلان ذو حميّة أي: ذو أنفة وغضب أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم، والجعل بمعنى: الإلقاء، وحميّة الجاهلية بدل من الحميّة. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا، وإخواننا، ويدخلون علينا في منازلنا، فتتحدّث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفسنا، واللات والعزى لا يدخلونها علينا، فهذه الحميّة هي حميّة الجاهلية التي دخلت قلوبهم. وقال الزهري: حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة. قرأ الجمهور (لو تزيّلوا) وقرأ ابن أبي عبيدة، وأبو حيوة، وابن عون (لو تزيّلوا) والتزيّل التباين ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما نخل أهل الكفر من الحميّة، وقيل: ثبتهم على الرضى والتسليم ﴿وَأَوْفَرَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي: «لا إله إلا الله» كذا قال الجمهور، وزاد بعضهم: «محمد رسول الله» وزاد بعضهم: «وحده لا شريك له». وقال الزهري هي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وذلك أن الكفار لم يقرّوا بها، وامتنعوا من كتابتها في كتاب الصلح الذي كان بينهم، وبين رسول الله

تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا النَّارِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩٢﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمِيَّةً حَمِيَّةً لِمَنَاجِيَةً فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَعْلَاهَا وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِفُهُ نَحْوَ عِلْمًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آلُؤْبًا بِالْحَقِّ لَنَدْخُلَنَّ السَّجْدَ فَالْحَرَامُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِيَّتٌ يُخْلِفُونَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَعْمَلُونَ فَعَمَلٌ مِمَّا لَمْ تَعْمَلُوا فَعَمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَمَّا قَرِيبٌ ﴿٩٤﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٩٥﴾ تَحَمَّدَ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّةً عَلَى الْكُفَّارِ رَمَاءً بَيْنَهُمْ تَرْدَهُمْ رَكْمًا سَجْدًا يَتَنَبَّهُونَ فَضَلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي رُءُوسِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُورِ ذَلِكَ مُلَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَتَعْلَمُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَ أَخْرَجَ سُلَيْمٌ قَنَازِيَهُ فَاسْتَفْلَقَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّارَ لِيُخَيِّطَ لَهُمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٦﴾

قوله: ﴿هم الذين كفروا وصنّوكم عن المسجد الحرام﴾ يعني: كفار مكة، ومعنى: صنّوكم عن المسجد الحرام: أنهم منعوكم أن يطوفوا به، ويحلوا عن عمرتهم ﴿واللهدي معكوفاً﴾ قرأ الجمهور بنصب (الهدي) عطفاً على الضمير المنصوب في صنّوكم، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجر عطفاً على المسجد، ولا بدّ من تقدير مضاف أي: عن نحر الهدي، وقرئ بالرفع على تقدير، وصدّ الهدي، وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدي وسكون الدال، ودروي عن أبي عمرو، وعاصم بكسر الدال وتشديد الياء، وانتصاب معكوفاً على الحال من الهدي أي: محبوساً. قال الجوهري: عكفه أي: حبسه ووقفه، ومنه ﴿واللهدي معكوفاً﴾ ومنه الاعتكاف في المسجد، وهو الاحتباس. وقال أبو عمرو بن العلاء: معكوفاً مجموعاً، وقوله: ﴿أَنْ يَبْلُغَ مُحَلَّهُ﴾ أي: عن أن يبلغ محله، أو هو مفعول لأجله، والمعنى: صدّوا الهدي كراهة أن يبلغ محله، أو هو بدل من الهدي بدل اشتغال، ومحله منحره، وهو حيث يحل نحره من الحرم، وكان الهدي سبعين بنية، ورخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذي وصلوا إليه، وهو الحديبية محلاً للنحر. وللعلماء في هذا كلام معروف في كتب الفروع ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم﴾ يعني: المستضعفين من المؤمنين بمكة، ومعنى ﴿لم تعلموهم﴾: لم تعرفوهم وقيل: لم تعلموا أنهم مؤمنون ﴿أَنْ تَطْنُوهُمْ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من رجال ونساء، ولكنه غلب الذكور، وأن يكون بدلاً من مفعول تعلموهم، والمعنى: أن تظنّوهم بالقتل والإيقاع بهم، يقال: وطئت القوم أي: أوقعت بهم، وذلك أنهم لو كسبوا مكة، وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار، وعند ذلك لا يأمّنوا أن يقتلوا المؤمنين، فتلزمهم الكفارة، وتلقهم سبة، وهو معنى قوله: ﴿فتصيبكم منهم﴾ أي: من جهتهم

﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي: يعليه على كل الأديان، كما يفيد توكيد الجنس، وقيل: ليظهر رسوله، والأول أولى. وقد كان ذلك بحمد الله، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان، وانقهر له كل أهل الملل ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ الباء زائدة كما تقدم في غير موضع أي: كفى الله شهيداً على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به، وعلى صحة نبوة نبيه ﷺ ﴿محمد رسول الله﴾ محمد مبتدأ، ورسول الله خبره، أو هو خبر مبتدأ محذوف، ورسول الله بدل منه، وقيل: محمد مبتدأ ورسول الله نعت له ﴿والذين معه﴾ معطوف على المبتدأ وما بعده الخبر، والأول أولى، والجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به. ﴿والذين معه﴾ قيل: هم أصحاب الحديبية، والأولى الحمل على العموم ﴿اشدء على الكفار﴾ أي: غلاظ عليهم، كما يغلظ الأسد على فريسته، وهو جمع شديد ﴿رحماء بينهم﴾ أي: متوائمون متعاطفون، وهو جمع رحيم، والمعنى: أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقه الرحمة والرافة. قرأ الجمهور برفع (اشدء)، و(رحماء) على أنه خبر للموصول، أو خبر لمحمد، وما عطف عليه، كما تقدم. وقرأ الحسن بنصبهما على الحال، أو المدح، ويكون الخبر على هذه القراءة ﴿تراهم ركعاً سجداً﴾ أي: تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر، أو استئناف أعني قوله: ﴿تراهم﴾ و﴿يبستغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي: يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم، وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور، أو في محل نصب على الحال من ضمير تراهم، وهكذا ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ السيماء العلامة، وفيها لغتان المد والقصر أي: تظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة، وكثرة التعبد بالليل والنهار. وقال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفراً، فجعل هذا هو السيماء. وقال الزهري: مواضع السجود أشد وجوههم بياضاً يوم القيامة. وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، وبالأول أعني: كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود قال سعيد بن جبير، ومالك. وقال ابن جرير: هو الوقار. وقال الحسن: إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى، وقيل: هو البهاء في الوجه وظهور الأنوار عليه، وبه قال سفيان الثوري، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من هذه الصفات الجليلة، وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مثلهم في التوراة﴾ أي: وصفهم الذي وصفوا به في التوراة، ووصفهم الذي وصفوا به ﴿في الإنجيل﴾ وتكرير ذكر المثل لزيادة تقريره، وللتنبية على غرابته، وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة ﴿كزرع أخرج شطأه﴾ إلخ كلام مستأنف أي: هم كزرع إلخ، وقيل: هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهملة لم يرد به ما تقدم من الأوصاف، وقيل: هو خبر لقوله: ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ أي: ومثلهم في الإنجيل كزرع قال الفراء: فيه وجهان: إن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل يعني: كمثلهم في القرآن، فيكون

كما ثبت ذلك في كتب الحديث والسير، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين والزمهم بها. والأول أولى: لأن كلمة التوحيد هي التي يتقى بها الشرك بالله، وقيل: كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد والثبات عليه ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أي: وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم: لأن الله سبحانه أهلهم لدينه، وصحبة رسوله ﷺ ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية، كانه هو وأصحابه حلقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحديبية، ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام، فانزل الله هذه الآية، وقيل: إن الرؤيا كانت بالحديبية، وقوله: ﴿بالحق﴾ صفة لمصدر محذوف أي: صدقاً ملتبساً بالحق، وجواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله: ﴿لندخلن المسجد الحرام﴾ أي: في العام القابل، وقوله: ﴿إن شاء الله﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه، كما في قوله: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً﴾ * إلا أن يشاء الله [الكهف: 23، 24] قال ثعلب: إن الله استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون. وقيل: كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه في الحديبية، فوقع الاستثناء لهذا المعنى، قاله الحسن بن الفضل. وقيل: معنى إن شاء الله: كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: إن بمعنى إذ يعني: إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك، وانتصاب ﴿أمنين﴾ على الحال من فاعل لتدخلن، وكذا ﴿محلقين رعوسكم ومقصرين﴾ أي: أمنين من العدو، ومحلقياً بعضكم ومقصراً بعضكم، والحلق والتقصير خاص بالرجال، والحلق أفضل من التقصير، كما يدل على ذلك الحديث الصحيح في استغفاره ﷺ للمحلقيين في المرة الأولى والثانية، والقاتل يقول له وللمقصرين، فقال في الثالثة: وللمقصرين، وقوله: ﴿لا تخافون﴾ في محل نصب على الحال أو مستأنف، وفيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله: ﴿أمنين﴾ ﴿فعلم ما لم تعلموا﴾ أي: ما لم تعلموا من المصلحة في الصلح لما في دخولكم في عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين، وهو معطوف على صدق أي: صدق رسوله الرؤيا، فعلم ما لم تعلموا به ﴿فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ أي: فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله، فتحاً قريباً. قال أكثر المفسرين: هو صلح الحديبية. وقال ابن زيد، والضحاك: فتح خيبر. وقال الزهري: لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية، ولقد دخل في تلك السنتين في الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر، فإن المسلمين كانوا في سنة ست، وهي سنة الحديبية ألفاً وأربعمائة وكانوا في سنة ثمان عشرة آلاف ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ أي: إرسالاً ملتبساً بالهدى ﴿وبين الحق﴾ وهو الإسلام

ابن عباس **«لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم»** قال: حين ربّوا النبي ﷺ **«أن تظنّوهم»** بقتلكم إياهم **«لولا تزيّلوا»** يقول: لو تزيّل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلكم إياهم. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين: «اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ، وبين المشركين، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله السنّا على الحق، وهم على الباطل؟ اليس قتلنا في الجنة، وقتلهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولم يضيّعني الله أبداً، فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر السنّا على الحق، وهم على الباطل؟ قال: بلى، اليس قتلنا في الجنة، وقتلهم في النار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله، ولم يضيّع الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر، فأقرأه إياها، قال: يا رسول الله أفتح هو؟ قال: نعم. وأخرج الترمذي، وعبد الله بن أحمد في زوائد المستند، وابن جرير، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ **«والزمهم كلمة التقوى»** قال: «لا إله إلا الله» وفي إسناده الحسن بن قزعة، قال الترمذي بعد إخراجها: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وكذا قال أبو زرعة. وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن علي بن أبي طالب مثله من قوله. وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد عن المسور بن مخرمة، ومروان نحوه، وروي عن جماعة من التابعين نحو ذلك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس **«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق»** قال: هو دخول محمد البيت، والمؤمنين محلّقين ومقصّرين، وقد ورد في الدعاء للمحلّقين والمقصّرين في الصحيحين، وغيرهما أحاديث منها ما قدّمنا الإشارة إليه، وهو في الصحيحين من حديث ابن عمر، وفيهما من حديث أبي هريرة أيضاً. وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: **«سيماهم في وجوههم»** قال: أما إنه ليس الذي يروونه، ولكنه سيما الإسلام، وسمته وخشوعه. وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال: هو السمّ الحسن. وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند حسن عن أبي بن كعب

الوقف على الإنجيل، وإن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة، ثم تبدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع. قرأ الجمهور (شطاه) بسكون الطاء، وقرأ ابن كثير، وابن نكوان بفتحها، وقرأ انس، ونصر بن عاصم، ويحيى بن وثاب (شطاه) كعصاه. وقرأه الجحدري، وابن أبي إسحاق (شطه) بغير همزة، وكلها لغات قال الأخفش والكسائي: شطاه أي: طرفه. قال الفراء: شطا الزرع فهو مشطى إذا خرج. قال الزجاج: **«لخرج شطاه»** أي: نباته. وقال قطرب: الشطا سوى السنبيل، وروي عن الفراء أيضاً أنه قال: هو السنبيل، وقال الجوهري: شطا الزرع والنبات، والجمع أشطاء، وقد أشطا الزرع خرج شطوه **«فأزره»** أي: قوّاه وأعانه وشده، قيل للمعنى: إن الشطا قوّى الزرع، وقيل: إن الزرع قوّى الشطا، ومما يدلّ على أن الشطا خروج النبات. قول الشاعر:

أخرج الشطا على وجه الثرى ومن الأشجار أقنان الثمر
قرأ الجمهور (فأزره) بالمد. وقرأ ابن نكوان، وأبو حيوة، وحמיד بن قيس بالقصر، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

بمحنية قد أزر الضال نباتها بجرّ جيوش غانمين وخيب
قال الفراء: أزرت فلاناً أزره أزرأ إذا قوّيته **«فاستغلظ»** أي: صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان دقيقاً **«فاستوى على سوقه»** أي: فاستقام على أعواده، والسوق جمع ساق. وقرأ قبيل (سوّقه) بالهمزة الساكنة **«يعجب للزراع»** أي: يعجب هذا الزرع زارعه لقوّته وحسن منظره، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي ﷺ، وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً، ثم يزدانون ويكثرّون ويقوون كالزراع، فإنه يكون في الابتداء ضعيفاً ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه. قال قتادة: مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنه سيخرج من قوم ينبئون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم نكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه ﷺ، وتقويته لهم فقال: **«ليغيظ بهم الكفار»** أي: كثّره وقوّاهم، ليكونوا غيظاً للكافرين، واللام متعلقة بمحذوف أي: فعل ذلك ليغيظ **«وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وإجراً عظيماً»** أي: وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد ﷺ أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجراًهم بإخلائهم الجنة التي هي أكبر نعمة وأعظم منة.

وقد أخرج أحمد، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نحروا يوم الحديبية سبعين بنته، فلما صدّت عن البيت حنّت، كما تحنّ إلى أولادها. وأخرج الحسن بن سفيان، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن قانع، والباوردي، والطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند جيد عن أبي جمعة حنيد بن سبيع قال: «قابلت رسول الله ﷺ أوّل النهار كافراً، وقابلت معه آخر النهار مسلماً وفيما نزلت: **«لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات»** وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان»، وفي رواية عند ابن أبي حاتم: «كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن

أُولَئِكَ، ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل مسموع ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل معلوم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير. ويحتمل أن يكون المراد: المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط، والأوّل أولى. والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبي ﷺ. قال المفسرون: المراد من الآية: تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، وأن لا يناوئه كما ينادي بعضهم بعضاً ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه، كما تعادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضاً. قال الزجاج: أمرهم الله بتجليل نبيه، وأن يغضوا أصواتهم، ويخاطبوه بالسكينة والوقار، وقيل: المراد بقوله ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾: لا تقولوا يا محمد ويا أحمد؛ ولكن يا نبي الله ويا رسول الله توقيراً له، والكاف في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف أي: جهراً مثل جهر بعضهم لبعض، وليس المراد برفع الصوت والجهر في القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف، فإن ذلك كفر، وإنما المراد أن يكون الصوت في نفسه غير مناسب لما يقع في مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره. والحاصل أن النهي هنا وقع عن أمور، الأوّل: عن التقدّم بين يديه بما لا يائنه به من الكلام. والثاني: عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته سواء كان في خطابه، أو في خطاب غيره. والثالث: ترك الجفاء في مخاطبته، ولزوم الألب في مجاورته؛ لأن المقابلة المجهورة إنما تكون بين الكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره. ثم علل سبحانه ما نكره بقوله: ﴿إِنَّ تَحْبِطُ أَعْمَالَكُمْ﴾ قال الزجاج: أن تحبط أعمالكم التقدير؛ لأن تحبط أعمالكم أي: فتحبط، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال، وهذه العلة يصح أن تكون للنهي أي: نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط، أو كراهة أن تحبط، أو علة للمنهاي أي: لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدي إلى الحبوط، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثاني لا إلى الوجه الأوّل، وجملة: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال، وفيه تحنير شديد ووعد عظيم. قال الزجاج: وليس المراد ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم، ثم رغب سبحانه في امتثال ما أمر به، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أصل الغض النقص من كل شيء. ومنه نقص الصوت ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ قال الفراء: أخلص قلوبهم للتقوى، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديته، ويسقط خبيثه. وبه قال مقاتل، ومجاهد وقتادة. وقال الأخفش: اختصها للتقوى، وقيل: طهرها من كل قبيح، وقيل: وسعها وسرحها،

قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وَجْهِهِمْ﴾ من أثر السجود، قال: النور يوم القيامة. وأخرج البخاري في تاريخه، وابن نصر عن ابن عباس في الآية قال: يبيض يغشى وجوههم يوم القيامة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿لَكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ يعني: نعتهم مكتوب في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أنس ﴿كَزُرْعٍ لَخُرَجِ شَطَاهُ﴾ قال: نباته فروخه.

تفسير سورة الحجرات

قال القرطبي: بالإجماع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُذُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَقُورَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُبَشِّرُوا قَوْمًا بِمَهْلَكِهِمْ فَتُصِحُّوا عَلَٰمَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ يُبَشِّرُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَمْثَرِ لَعَلَّكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّاهَ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْأَعْيَابَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّاهُ اللَّهُ وَبَشَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْرٌ ﴿٨﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ الجمهور (تقدّموا) بضم المثناة الفوقية، وتشبيد الدال مكسورة، وفيه وجهان: أحدهما أنه متعذر، وحذف مفعوله لقصد التعميم، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل كقولهم: هو يعطي ويمنع، والثاني أنه لازم نحو وجه وتوجه، ويعضده قراءة ابن عباس، والضحاك، ويعقوب (تقدّموا) بفتح التاء والقاف والدال. قال الواحدي: قدم ما هنا بمعنى تقدّم، وهو لازم. قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدّم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي: لا تعجل بالأمر دونه والنهي؛ لأن المعنى: لا تقدّموا قبل أمرهما ونهيهما، وبين يدي الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدي الإنسان، ومعنى الآية: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تعجلوا به. وقيل: المراد معنى بين يدي فلان بحضرته؛ لأن ما يحضره الإنسان، فهو بين يديه ﴿وَأَنْقُذُوا اللَّهَ﴾ في كل أموركم، ويدخل تحتها الترك للتقدّم بين يدي الله ورسوله بخلاً

بصواب؛ لوقعتهم في العنت، وهو التعب والجهد والإثم والهلاك، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه **﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان﴾** أي: جعله أحب الأشياء إليكم، أو محبوباً إليكم، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه، ويقتضيه من الأمور الصالحة، وترك التسرع في الأخبار، وعدم التثبت فيها، قيل: والمراد بهؤلاء من عدا الأولين؛ لبيان براءتهم عن أوصاف الأولين، والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان، وتوجيه محبته التي جعلها الله في قلوبهم **﴿ويزينه في قلوبكم﴾** أي: حسنه بتوفيقه حتى جروا على ما يقتضيه في الأقوال والأفعال **﴿وذكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾** أي: جعل كل ما هو من جنس الفسوق، ومن جنس العصيان مكروهاً عنكم، وأصل الفسق الخروج عن الطاعة، والعصيان جنس ما يعصى الله به، وقيل: أراد بذلك الكتب خاصة، والأول أولى **﴿أولئك هم الراشدون﴾** أي: الموصوفون بما نكرهم الراشدون. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب، من الرشادة؛ وهي الصخرة **﴿فضلاً من الله ونعمة﴾** أي: لأجل فضله وإنعامه، والمعنى: أنه حبيب إليكم ما حبيب، وكره ما كره، لأجل فضله وإنعامه، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك، وقيل: النصب بتقدير فعل أي: تبتغون فضلاً ونعمة **﴿والله عليم﴾** بكل معلوم **﴿حكيم﴾** في كل ما يقضي به بين عباده ويقدره لهم.

وقد أخرج البخاري وغيره، عن عبد الله بن الزبير قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾** حتى انقضت الآية. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾** قال: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. وأخرج ابن مردويه عن عائشة في الآية قالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم، وأخرج البخاري في تاريخه عنها قالت: كان أناس يتقدمون بين يدي رمضان بصيام يعني: يوماً أو يومين، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقموا بين يدي الله ورسوله﴾**. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنها أيضاً: أن ناساً كانوا يتقدمون الشهر، فيصومون قبل النبي ﷺ، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** الآية. وأخرج البزار، وابن عدي، والحاكم، وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال: أنزلت هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾** قلت: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار، وفي إسناد حصين بن عمر، وهو ضعيف؛ ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد، والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: لما نزلت: **﴿إن الذين يَغضون أصواتهم عند رسول الله﴾** قال أبو بكر: والذي أنزل عليك

من محنت الأنبياء: إذا وسعته. وقال أبو عمرو: كل شيء جهده فقد محتته، واللام في اللتقوى متعلقة بمحذوف أي: صالحة للتعوى كقولك أنت صالح لكذا، أو للتعليق الجاري مجرى بيان السبب، كقولك جئتكم؛ لأداء الواجب أي: ليكون مجيئي سبباً لأداء الواجب **﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾** أي: أولئك لهم، فهو خبر آخر لاسم الإشارة، ويجوز أن يكون مستأنفاً لبيان ما أعد الله لهم في الآخرة **﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾** هم جفاة بني تميم كما سيأتي بيانه، ووراء الحجرات خارجها وخلفها، والحجرات جمع حجرة، كالفرفرات جمع غرفة، والظلمات جمع ظلمة، وقيل: الحجرات جمع حجرة، والحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. قرأ الجمهور (الحجرات) بضم الجيم. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بفتحها تخفيفاً، وقرأ ابن أبي عتبة بإسكانها، وهي لغات، و «من» في «من وراء» لابتداء الغاية، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى **﴿أكثرهم لا يعقلون﴾** لغلبة الجهل عليهم، وكثرة الجفاء في طباعهم **﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾** أي: لو انتظروا خروجك، ولم يعملوا بالمناداة لكان أصلح لهم في دينهم وديارهم، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، ورعاية جانبه الشريف والعمل بما يستحقه من التعظيم والتجليل. وقيل: إنهم جاءوا شفعاء في أسارى، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى نصفهم، ولو صبروا لأعتق الجميع، نكر معناه مقاتل **﴿والله غفور رحيم﴾** كثير المغفرة، والرحمة بليغهما لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾** قرأ الجمهور (فتبينوا) من التبين، وقرأ حمزة، والكسائي (فتثبتوا) من التثبت، والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر. قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، كما سيأتي بيانه إن شاء الله. وقوله: **﴿أن تصيبوا قوماً بجهالة﴾** مفعول له أي: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر، ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة؛ لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى: ملتبس بجهالة بحالهم **﴿فتصيحوا على ما فعلتم﴾** بهم من إصابتهم بالخطأ **﴿نادمين﴾** على ذلك مغتمين له مهتمين به، ثم وعظهم الله سبحانه، فقال: **﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾** فلا تقولوا قولاً باطلاً، ولا تتسرعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين، وإن وما في حيزها سادة مسد مفعولي أعلموا، وجملة **﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾** في محل نصب على الحال من ضمير فيكم، أو مستأنفة، والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة، وتشيرون به عليه من الآراء التي ليست

بقوله: «تقتل عماراً الفئة الباغية»، وقوله ﷺ في شأن الخوارج: «يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق». **﴿ها أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾** السخرية: الاستهزاء. وحكى أبو زيد: سخرت به، وضحكت به، وهزأت به. وقال الأخفش: سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزأت منه وهزأت به، كل ذلك يقال، والاسم السخرية والسخرى، وقرئ بهما في: **﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾** [الزخرف: 32]، ومعنى الآية: النهي للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض، وعلل هذا النهي بقوله: **﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾** أي: أن يكون المسخور بهم عند الله خيراً من الساخرين بهم، ولما كان لفظ قوم مختصاً بالرجال؛ لأنهم القوم على النساء أقرد النساء بالذكر فقال: **﴿ولا نساء من نساء﴾** أي: ولا يسخر نساء من نساء **﴿عسى أن يكن﴾** المسخور بهن **﴿خيراً منهن﴾** يعني: خيراً من الساخرات منهن، وقيل: أقرد النساء بالذكر؛ لأن السخرية منه أكثر **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** اللمز العيب، وقد مضى تحقيقه في سورة براءة عند قوله: **﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾** [التوبة: 58] قال ابن جرير: اللمز باليد والعين واللسان والإشارة، والهزم لا يكون إلا باللسان، ومعنى: **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** لا يلمز بعضكم بعضاً، كما في قوله: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾** [النساء: 29] وقوله: **﴿فسلموا على أنفسكم﴾** [النور: 61]. قال مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير: لا يطعن بعضكم على بعض. وقال الضحاك: لا يلعن بعضكم بعضاً **﴿ولا تتنازروا بالألقاب﴾** التناز: التفاعل من التناز بالتسكين، وهو المصدر، والتناز بالتحريك اللقب، والجمع ألقاب، والألقاب جمع لقب، وهو اسم غير الذي سمي به الإنسان، والمراد هنا لقب السوء، والتناز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضاً. قال الواحدي: قال المفسرون: هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي يا نصراني، قال عطاء: هو كل شيء أخرجت به أخاك من الإسلام، كقولك: يا كلب يا حمار يا خنزير. قال الحسن، ومجاهد: كان الرجل يعير بكفره، فيقال له: يا يهودي يا نصراني فنزلت، وبه قال قتادة، وأبو العالية، وعكرمة **﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾** أي: بئس الاسم الذي ينكروا بالفسق بعد دخولهم في الإيمان، والاسم هنا بمعنى النكر. قال ابن زيد: أي: بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته. وقيل المعنى: أن من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنذب، فهو فاسق. قال القرطبي: إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالاعرج والأحطب، ولم يكن له سبب يجد في نفسه منه عليه، فجوزته الأئمة، واتفق على قوله أهل اللغة اهـ. **﴿ومن لم يَتُب﴾** عما نهى الله عنه **﴿فأولئك هم الظالمون﴾** لارتكابهم ما نهى الله عنه، وامتناعهم من التوبة، فظلموا من لقبوه، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم **﴿ها أيها الذين**

بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيتها، واجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعلنوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى. ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعلنوا في كل أمرهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتلتين فقال: **﴿واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾** أي: واعلوا إن الله يحب العادلين، ومحبتة لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء. قال الحسن، وقتادة، والسدي: **﴿فاصلحوا بينهما﴾** بالداء إلى حكم كتاب الله، والرضى بما فيه لهما وعليهما **﴿فإن بغت إحداهما﴾** وطلبت ما ليس لها، ولم ترجع إلى الصلح **﴿فقاتلوا التي تبغي﴾** حتى ترجع إلى طاعة الله، والصلح الذي أمر الله به، وجملة: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، والمعنى: أنهم راجعون إلى أصل واحد، وهو الإيمان. قال الزجاج: الدين يجمعهم، فهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم، فرجعوا بالاتفاق في الدين إلى أصل النسب؛ لأنهم لأدم وحواء **﴿فاصلحوا بين أخويكم﴾** يعني: كل مسلمين خاصصا وتقاتلا، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى. قرأ الجمهور (بين أخويكم) على التنثية، وقرأ زيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، والحسن، وحمام بن سلمة، وابن سيرين (إخوانكم) بالجمع، وروي عن أبي عمرو، ونصر بن عاصم، وأبي العالية، والجحدري، ويعقوب أنهم قرءوا (بين إخوانكم) بالفوقية على الجمع أيضاً. قال أبو علي الفارسي في توجيه قراءة الجمهور: أراد بالأخوين الطائفتين؛ لأن لفظ التنثية قد يرد، ويراد به الكثرة. وقال أبو عبيدة: أي: اصلحوا بين كل أخوين **﴿واتقوا الله﴾** في كل أموركم **﴿لعلكم ترحمون﴾** بسبب التقوى، والترجي باعتبار المخاطبين أي: راجين أن ترحموا، وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيتها على الإمام، أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستنداً بقوله ﷺ: «قتال المسلم كفره»، فإن المراد بهذا الحديث، وما ورد في معناه قتال المسلم الذي لم يبع. قال ابن جرير: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل لما أقيم حق، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دماهم بأن يتحزّبوا عليهم، ولكّف المسلمين أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله ﷺ: «خذوا على أيدي سفهائكم». قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، وعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ

إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التفتير عن الغيبة، والتوبيخ لها، والتوبيخ لفاعله، والتشنيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجيلة البشرية، فضلاً عن كونه محرماً شرعاً **﴿فكرهتموه﴾** قال الفراء: تقديره: فقد كرهتموه فلا تفعلوا، والمعنى: فكما كرهتم هذا، فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً. قال الرّازي: الفاء في تقدير جواب كلام؛ كأنه قال: لا يحبّ أحكم أن يأكل لحم أخيه، فكرهتموه إذن. وقال أبو البقاء: هو معطوف على محنوف تقديره: عرض عليكم ذلك، فكرهتموه **﴿واتقوا الله﴾** بترك ما أمركم باجتنابه **﴿إن الله تواب رحيم﴾** لمن اتقاه، وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: «لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه قال: إليك عني، فوالله لقد أذاني ربح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فنزلت فيهم: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾** الآية. وقد روي نحو هذا من وجوه آخر. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عمر قال: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية، إني لم أقاتل هذه الفئة الباغية، كما أمرني الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إن الله أمر النبي ﷺ، والمؤمنين إذا اقتتل طائفة من المؤمنين أن يدعوه إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾** الآية قال: كان قتال بالنعال والعصي، فأمرهم أن يصلحوا بينهما. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن عائشة قالت: ما رأيت مثل ما رغب عنه هذه الأمة في هذه الآية: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما﴾**. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾** قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال، وسلمان، وعمار، وخباب، وصهيب، وابن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في الأب، وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** قال: لا يطعن بعضكم على بعض. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب وأهل السنن

أمّنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ: الظنّ هنا: هو مجرد التهمة التي لا سبب لها كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، وأمر سبحانه باجتناب الكثير؛ ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه؛ لأن من الظنّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم؛ ولكن هذا الظنّ الذي يجب العمل به قد قوي بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به، فارتفع عن الشك والتهمة. قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءاً، فأما أهل السوء والفسوق، فلنا أن نظنّ بهم مثل الذي ظهر منهم. قال مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان: هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءاً، ولا بأس به ما لم يتكلم به، فإن تكلم بذلك الظنّ وأبداه أثم. وحكى القرطبي عن أكثر العلماء: أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظنّ القبيح بمن ظاهره القبيح، وجملة **﴿إن بعض الظنّ إثم﴾**: تحليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير، والإثم هو ما يستحقه الظنّ من العقوبة. ومما يدل على تقييد هذا الظنّ بالأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى: **﴿وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً﴾** [الفتح: 12] فلا يدخل في الظنّ الأمور باجتنابه شيء من الظنّ بالأمور باتباعه في مسائل الدين، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كبادئ اللذين، وشنؤنا عن جمهور المسلمين، وقد جاء التعبد بالظنّ في كثير من الشريعة المطهرة بل في أكثرها. ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسس فقال: **﴿ولا تجسسوا﴾** التجسس: البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معائب الناس ومثالبهم. قرأ الجمهور (تجسسوا) بالجيم، ومعناه ما نكرنا. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وابن سيرين بالحاء. قال الأخفش: ليس يبعد أحدهما من الآخر؛ لأن التجسس بالجيم: البحث عما يكتم عنك، والتجسس بالحاء: طلب الأخبار، والبحث عنها. وقيل: إن التجسس بالجيم هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس: إذا كان يبحث عن الأمور، وبالحاء ما أتركه الإنسان ببعض حواسه. وقيل: إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه، وبالجيم أن يكون رسلاً لغيره، قاله ثعلب **﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾** أي: لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه، والغيبة: أن تذكر الرجل بما يكرهه، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: نترك أخاك بما يكره، فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه، فقد بهته»، **﴿أحب أحكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾** مثل سبحانه الغيبة بأكل الميت؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، ذكر معناه الزجاج. وفيه

كُنْتُمْ مَدِينَةً ﴿٧﴾ إِنَّ اللَّهَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٨﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ هما آدم وحواء، والمقصود أنهم متساوون؛ لاتصالهم بنسب واحد، وكونه يجمعهم أب واحد وأم واحدة، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالانساب، وقيل المعنى: أن كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين، وهو الحي العظيم: مثل مضر، وربيعة، والقبايل دونها كبني بكر من ربيعة، وبني تميم من مضر. قال الواحدي: هذا قول جماعة من المفسرين، سموا شعباً لتشعبهم، واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة، والشعب من أسماء الأضداد، يقال شعبته: إذا جمعته، وشعبته إذا فرقته، ومنه سميت النملة شعوباً لأنها مفرقة، فأما الشعب بالكسر: فهو الطريق في الجبل. قال الجوهري: الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب. وقال مجاهد: الشعوب البعيد من النسب، والقبايل دون ذلك. وقال قتادة: الشعوب النسب الأقرب. وقيل: إن الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبايل من ربيعة، ومضر، وسائر عدنان. وقيل: الشعوب بطون العجم، والقبايل بطون العرب. وحكى أبو عبيد أن الشعب أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة. ومما يؤيد ما قلناه الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر:

قبايل من شعوب ليس فيهم كريم قديع ولا نجيب
قرأ الجمهور (لتعارفوا) بتخفيف التاء، وأصله: لتتعارفوا، فحذفت إحدى التامين. وقرأ البرقي بتشديدها على الإدغام. وقرأ الأعمش بتامين واللام متعلقة بخلقناكم أي: خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً. وقرأ ابن عباس (لتعارفوا) مضارع عرف، والفائدة في التعارف أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه، ولا يعتري إلى غيره. والمقصود من هذا أن الله سبحانه خلقهم كذلك؛ لهذه الفائدة لا للتفاخر بانسابهم، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة، وهذا البطن أشرف من هذا البطن. ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهي عن التفاخر، فقال: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَتَفَاخَرُوا﴾ أي: إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن تلبس بها فهو المستحق؛ لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها، وأشرف وأفضل، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالانساب، فإن ذلك لا يوجب كرمًا، ولا يثبت شرفًا، ولا يقتضي فضلاً. قرأ الجمهور (إن أكرمكم) بكسر إن. وقرأ ابن عباس بفتحها أي: لأن أكرمكم ﴿إِنْ أَلَّاهُ عَلَيْهِمْ﴾ بكل معلوم، ومن ذلك أعمالكم ﴿خَيْرٌ﴾ بما تسرون، وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية. ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله اتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان نكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان؛ لثبوت لهم الشرف والفضل، فقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ وهو بنو أسد أظهروا الإسلام في سنة مجيبة يريدون الصدقة، فأمر الله

الأربع، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والشيرازي في الألقاب، والطبراني، وابن السني في عمل يوم ليلة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان، أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يكرهه، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات، ثم تاب منها وراجع الحق، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في الآية قال: إذا كان الرجل يهودياً، فاسلم، فيقول: يا يهودي يا نصراني يا مجوسي، ويقول للرجل المسلم: يا فاسق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَجِنتَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظُّلِّ﴾ قال: نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءاً. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْسَبُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْكَحَ، أَوْ يَتَرَكَ.﴾ وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾ قال: نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن زيد بن وهب قال: أتى ابن مسعود، ف قيل: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال ابن مسعود: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذه. وقد روت أحاديث في النهي عن تتبع عورات المسلمين، والتجسس عن عيوبهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية قال: حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء، كما حرم الميتة. والأحاديث في تحريم الغيبة كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٦﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفَكَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذَرِيعٌ ﴿١٣٧﴾ إِنَّا التَّائِبِينَ الَّذِينَ مَأْسُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قُلْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَهَنَّمُ أَنْ يُؤْمِلَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْلَاهُمْ هُمْ السَّادِقُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ بِرَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ يَتُوبُ عَلَيْكَ إِنَّ

أن يقول لأولئك الأعراب وأما لهم قولاً آخر لما ادَّعوا أنهم مؤمنون، فقال: ﴿قُلْ تَعْلَمُونَ اللَّهَ بَيْنَكُمْ﴾ التعليم ها هنا بمعنى الإعلام، ولهذا دخلت الباء في بَيْنَكُمْ أي: أتخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدَّعون من الإيمان، والجملة في محل نصب على الحال من مفعول تعلمون ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، وقد علم ما تبطنونه من الكفر، وتظهرونه من الإسلام؛ لخوف الضراء ورجاء النفع. ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المنع عليه منهم بما يدَّعون من الإسلام فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي: يعنون إسلامهم منة عليك حيث قالوا: جئناك بالانقياد والعيال، ولم نقاتك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي: لا تعنوه منة علي، فإن الإسلام هو المنة التي لا يطلب موليتها ثواباً لمن أنعم بها عليه، ولهذا قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ يَمَنَ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: أرشدكم إليه، وأراكم طريقه سواءً وصلتكم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه، وانتصاب إسلامكم إما على أنه مفعول به على تضمين يَمُنُّونَ معنى يعنون، أو بنزع الخافض أي: لأن أسلموا، وهكذا قوله: ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ فإنه يحتمل الوجهين ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدَّعون، والجواب محذوف يدل عليه ما قبله أي: إن كنتم صادقين، فلله المنة عليكم. قرأ الجمهور (أن هداكم) بفتح أن، وقرأ عاصم بكسرهما ﴿إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشَّرَّ شراً. قرأ الجمهور (تعملون) على الخطاب، وقرأ ابن كثير على الغيبة.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقي بلال فأتى على الكعبة، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة. وقال بعضهم: إن يسخط الله هذا يغيره، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. وأخرج أبو داود في مراسيله، وابن مريويه، والبيهقي في سننه عن الزهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله، أنزج بناتنا موليئنا؟ فنزلت هذه الآية. وأخرج ابن مريويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ هي مكية، وهي للعرب خاصة الموالى أي: قبيلة لهم، وأي شعاب، وقوله: ﴿إِنْ أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ فقال: اتقاكم للشرك. وأخرج البخاري، وابن جرير عن ابن عباس قال: الشعوب القبائل العظام، والقبائل البطون. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: الشعوب الجماع، والقبائل الأفخاذ التي يتعارفون بها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عنه أيضاً قال: القبائل الأفخاذ، والشعوب الجمهور

سبحانه رسوله ﷺ أن يردَّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ لِمَ تُمْنُوا﴾ أي: لم تصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب، وخلوص نية، وطمأنينة ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسبي، أو للطمع في الصدقة، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر الأمر، ولم تؤمن قلوبهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ مَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم يكن ما أظهرتموه بالسننكم عن مواطاة قلوبكم، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح، ولا نية خالصة، والجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها، أو في محل نصب على الحال، وفي «لما» معنى التوقع. قال الزجاج: الإسلام إظهار الخضوع، وقبول ما أتى به النبي ﷺ، وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب، فنذلك الإيمان وصاحبه المؤمن. وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله: ﴿وَلَوْ مَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصدقوا، وإنما أسلمتم تعوذاً من القتل ﴿وَأَنْ تَطْلِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ طاعة صحيح صابرة عن نيات خالصة، وقلوب مصدقة غير منافقة ﴿لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ يقال لا يلت: إذا نقص، ولاته يلاته ويلوته: إذا نقصه، والمعنى: لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً، قرأ الجمهور (يلتكم) من لاته يلاته كباع يبيعه. وقرأ أبو عمرو (لا يالتكم) بالهمز من آله يالته بالفتح في الماضي، والكسر في المضارع، واختار قراءة أبي عمرو، أبو حاتم لقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: 21] وعليها قول الشاعر:

أبلغ بني أسد عني مغلغلة جهر الرسالة لا التاولا كذبا
واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، وعليها قول رؤبة بن العجاج:

وليلة ذات ندى سريرت ولم يلتني عن سراها ليت
وهما لغتان فصيحتان ﴿إِنْ اللَّهَ غُفُورٌ﴾ أي: بليغ المغفرة؛ لمن فرط منه ذنب ﴿رَحِيمٌ﴾ بليغ الرحمة لهم. ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا، ولا دخل الإيمان في قلوبهم، بين المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إيماناً صحيحاً خالصاً عن مواطاة القلب واللسان ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يدخل قلوبهم شيء من الريب، ولا خالطهم شك من الشكوك ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته وابتغاء مرضاته، ويدخل في الجهاد الأعمال الصالحة التي أمر الله بها، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤتيه، كما أمر الله سبحانه، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة، وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿هُمْ﴾ للصادقون ﴿أَيُّ الصَّائِقِينَ فِي الْإِيمَانِ﴾ أي: الصائغون في الاتصاف بصفة الإيمان، والدخول في عداد أهله، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه، وادَّعى أنه مؤمن، ولم يطمئن بالإيمان قلبه، ولا وصل إليه معناه، ولا عمل بأعمال أهله، وهم الأعراب الذين تقدّم ذكرهم، وسائر أهل النفاق. ثم أمر الله سبحانه رسوله

يَوْمَ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْجَوْشَنِ ۝ وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِّيَبَاقٍ وَأَحْيَا يَوْمَ بَلَدَةٍ مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝ كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ رُوحٍ وَأَصْحَابُ الْأَرْشِ وَمَوَدَّةٍ ۝ وَكَادَ وَرَعُونَ لَوْلَا رُوحُ ۝ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ بِجِ كَلَّمَ الْأَرْسُلَ مَعَهُ وَبَعْدَ ۝ أَتَيْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ حَلْقِي جَبْرِ ۝

قوله: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ الكلام في إعراب هذا الكلام الذي قدمنا في قوله: ﴿ق وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1] وفي قوله: ﴿حَمَّ * وَالْكِتَابَ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف، والدخان: 1، 2] واختلف في معنى ق، فقال الواحدي: قال المفسرون: هو اسم جبل يحيط بالندى من زبرجد، والسماء مقببة عليه، وهو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة. قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في ق لأنه اسم، وليس بهجاء. قال: ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل: قلت لها قفي، فقالت: قاف، أي: أنا واقفة. وحكى الفراء، والزجاج: أن قوما قالوا: معنى ق: قضى الأمر، وقضى ما هو كائن، كما قيل في حم: حم الأمر. وقيل: هو اسم من أسماء الله أقسم به. وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن. وقال الشعبي: فاتحة السورة. وقال أبو بكر الوراق معناه: قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما، وقيل غير ذلك مما هو أضعف منه، والحق أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، كما حققنا ذلك في فاتحة سورة البقرة، ومعنى المجيد: أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزلة. وقال الحسن: الكريم، وقيل: الرفيع القدر، وقيل: الكبير القدر، وجواب القسم قال الكوفيون: هو قوله: ﴿يَلْجِ الْجَبَّارُ﴾ وقال الأخفش: جوابه محذوف كأنه قال: ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ لتبعتن، يدل عليه ﴿إِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَابًا﴾ وقال ابن كيسان جوابه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ [ق: 18] وقيل: هو ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ بتقدير اللام أي: لقد علمنا، وقيل: هو محذوف وتقديره أنزلناه إليك لتتذكر، كأنه قيل: ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ أنزلناه إليك؛ لتتذكر به الناس. قرأ الجمهور قاف بالسكون. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، ونصر بن عاصم بكسر الفاء. وقرأ عيسى الثقفي بفتح الفاء. وقرأ هارون، ومحمد بن السميعف بالضم ﴿يَلْجِ الْجَبَّارُ﴾ أن جاءهم منذر منهم بل للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال، وأن في موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم. والمعنى: بل عجب الكفار؛ لأن جاءهم منذر منهم، وهو محمد ﷺ، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، وقيل: هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيداً، وقد تقدم تفسير هذا في سورة ص. ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله: ﴿فَقَالُوا لَكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وفيه زيادة تصريح وإيضاح. قال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إله واحد، وقيل: تعجبهم من البعث، فيكون لفظ «هذا» إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله: ﴿إِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إلخ، والأول أولى. قال الرازي: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر،

مثل مضر. وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله اتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسالك، قال: فلكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسالك، قال: فعن معاني العرب تسألوني؟ قالوا: نعم، قال: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. وقد وردت أحاديث في الصحيح، وغيره أن التقوى هي التي يتفاضل بها العباد. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قال: أعراب بني أسد، وخزيمة، وفي قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ مخافة القتل والسبي. وأخرج ابن جرير عن قتادة أنها نزلت في بني أسد. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مريويه قال السيوطي: بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى: أن ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فانزل الله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾. وأخرج النسائي، والبزار، وابن مريويه عن ابن عباس نحوه، ونكر أنهم بنو أسد.

تفسير سورة ق

وهي مكة كلها في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروي عن ابن عباس، وقاتدة أنها مكة إلا آية، وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسْنَا مِنْ لَّغْوٍ﴾ [ق: 38] وهي أول المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ق بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وقد أخرج مسلم، وغيره عن قطبة بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر في الركعة الأولى ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [أي: سورة ق]». وأخرج أحمد، ومسلم، وأهل السنن عن أبي واقد الليثي قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد بقاف، و ﴿اقتربت﴾ [أي: سورة القمر]. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، والبيهقي عن أم هشام ابنة حارثة قلت: ما أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ إلا من في رسول الله ﷺ، كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس، وهو في صحيح مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ۝ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاثِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ لَوْ أَنَّا مِتْنَا بِكُفْرًا وَلَئِنَّا بِكُفْرٍ كَانَتْنَا ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ۝ أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَاهَا نَبَاتًا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ ۝ وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عِبْدٍ مُّسَبِّحٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا

الزجاج، وغيره. وقال قتادة: مختلف. وقال الحسن: ملتبس، والمعنى متقارب، وقيل: فاسد، والمعاني متقاربة، ومنه قولهم: مرجت أمانات الناس أي: فسدت، ومرج الدين، والامر اختلط **﴿أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾** الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم **﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾**، وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه **﴿وَزِينَاهَا﴾** بما جعلنا فيها من المصابيح **﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾** أي: فتوق وشقوق وصلوع، وهو جمع فرج، ومنه قول امرئ القيس: يسدُّ به فرجاً من بئر

قال الكسائي: ليس فيها تفاوت، ولا اختلاف، ولا فتوق **﴿وَالْأَرْضَ مَدْنَاهَا﴾** أي: بسطناها **﴿وَوَلَقِينَا فِيهَا رُوسِي﴾** أي: جبالاً ثوابت، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة الرعد **﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ بهيج﴾** أي: من كل صنف حسن، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة الحج **﴿تَبَصَّرَ وَنَكَّرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾** هما علتان لما تقدّم منتصبان بالفعل الأخير منها، أو بقدر أي: فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير، قاله الزجاج. وقال أبو حاتم: انتصبا على المصدرية أي: جعلنا ذلك تبصرة ونكراً. والمنيب الراجع إلى الله بالتوبة المتدبر في بيع صنعه، وعجائب مخلوقاته. وفي سياق هذه الآيات تذكير لمنكري البعث، وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه، وهكذا قوله: **﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾** أي: نزلنا من السحاب ماءً كثير البركة؛ لانتفاع الناس به في غالب أمورهم **﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾** أي: أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة **﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾** أي: ما يقتات ويحصد من الحبوب، والمعنى: وحَبَّ الزرع الحصيد، وخصَّ الحَبَّ لأنه المقصود، كذا قال البصريون. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه كمسجد الجامع، حكاة الفراء. قال الضحاك: حَبَّ الحصيد البرّ والشعير، وقيل: كل حَبَّ يحصد ويدخر ويقتات **﴿وَالنَّخْلَ بِاسْقَاتِ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾** هو معطوف على جنات أي: وأنبتنا به النخل، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار، وانتصاب باسقات على الحال، وهي حال مقدرة؛ لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة. قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: الباسقات الطوال، وقال سعيد بن جبير: مستويات. وقال الحسن، وعكرمة، والفراء: مواقير حوامل، يقال للشاة إذا بسقت: ولنت، والأشهر في لغة العرب الأوّل، يقال: بسقت النخلة بسوقاً؛ إذا طالت، ومنه قول الشاعر:

لناخمر وليست خمر كرم ولكن من نتاج الباسقات
كرام في السماء نهمين طولاً وفات ثمارها أيدي الجنات
وجملة **﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾**: في محل نصب على الحال من النخل، الطلع هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل، يقال: طلع الطلع طلوعاً، والنضيد المتراكب الذي نضد بعضه على

ثم قالوا: **﴿إِنَّا مَتَنَّا﴾** وأيضاً قد وجدها هنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب، وهو قولهم: **﴿تِلْكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾** فإنه استبعاد وهو كالتعجب، فلو كان التعجب بقولهم: **﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾** عائداً إلى قولهم: **﴿إِنَّا لَكَانَ كَالْتَّكَرَارِ، فَإِنْ قِيلَ: التَّكَرُّارُ الصَّرِيحُ يُلْزَمُ مِنْ قَوْلِكَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنَّهُ يَعُودُ إِلَى مَجِيءِ الْمُنْذَرِ، فَإِنْ تَعَجَّبَهُمْ مِنْهُ عِلْمٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ، فَقَوْلُهُ: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يَكُونُ تَكَرُّاراً، فَنَقُولُ تِلْكَ لَيْسَ بِتَكَرُّارٍ بَلْ هُوَ تَقْرِيرٌ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: بَلْ عَجِبُوا بِصِيغَةِ الْفَعْلِ وَجَازَ أَنْ يَتَعَجَّبَ الْإِنْسَانُ مِمَّا لَا يَكُونُ عَجَباً كَقَوْلِهِ: ﴿تَتَعَجَّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: 73] وَيُقَالُ فِي الْعَرَفِ: لَا وَجْهَ لَتَعَجُّبِكَ مِمَّا لَيْسَ بِعَجَبٍ، فَكَانَهُمْ لَمَّا عَجِبُوا قَبْلَ لَهْمٍ: لَا مَعْنَى لَتَعَجُّبِكُمْ، فَقَالُوا: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فَكَيْفَ لَا نَعَجِبُ مِنْهُ، وَيَدُلُّ عَلَى تِلْكَ قَوْلُهُ هَذَا: **﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾** بالفاء، فإنها تدلُّ على أنه مترتب على ما تقدّم، قرأ الجمهور (إنّا متنا) بالاستفهام. وقرأ ابن عامر في رواية عنه، وأبو جعفر، والأعمش، والأعرج بهمزة واحدة، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور، وهمزة الاستفهام مقدرة، ويحتمل أن معناه الإخبار، والعامل في الظرف مقدر أي: أبيعثنا، أو أنرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه، هذا على قراءة الجمهور، وأما على القراءة الثانية، فجواب إذا محذوف أي: رجعنا، وقيل: تلك رجع، والمعنى: استنكرهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم تراباً. ثم جزموا باستبعادهم للبعث، فقالوا: **﴿تِلْكَ﴾** أي: البعث **﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾** أي: بعيد عن العقول، أو الأفهام، أو العادة، أو الإمكان، يقال: رجعته أرجعه رجعاً، ورجع هو يرجع رجوعاً. ثم ردّ سبحانه ما قالوه، فقال: **﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾** أي: ما تاكل من أجسادهم، فلا يضلّ عنا شيء من ذلك، ومن لحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث، ولا يستبعد منه، وقال السدي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم، ومن يبقى؛ لأن من مات دفن، فكان الأرض تنقص من الأموات، وقيل المعنى: من يدخل في الإسلام من المشركين، والأوّل أولى **﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾** أي: حافظ لعدّتهم وأسمائهم ولكل شيء من الأشياء، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: المراد بالكتاب هنا: العلم والإحصاء، والأوّل أولى. وقيل: حفيظ بمعنى محفوظ أي: محفوظ من الشياطين، أو محفوظ فيه كل شيء، ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأوّل وانتقل إلى ما هو أشنع منه فقال: **﴿يَبْلُ كُنُوبُوا بِالْحَقِّ﴾** فإنه تصريح منهم بالكذب بعد ما تقدّم عنهم من الاستبعاد، والمراد بالحق هنا: القرآن. قال الماوردي في قول الجميع، وقيل: هو الإسلام، وقيل: محمد، وقيل: النبوة الثابتة بالمعجزات **﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾** أي: وقت مجيئه إليهم من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر، قرأ الجمهور بفتح اللام وتشديد الميم. وقرأ الجحدري بكسر اللام وتخفيف الميم **﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾** أي: مختلط مضطرب، يقولون مرة ساحر، ومرة شاعر، ومرة كاهن، قاله**

أعمالهم محفوظة مكتوبة نكر بعده ما ينزل بهم من الموت، والمراد بسكرة الموت: شتته وغمرته التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله، ومعنى بالحق: أنه عند الموت يتضح له الحق، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد، وقيل: الحق هو الموت، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: وجاءت سكرة الحق بالموت، وكذا قرأ أبو بكر الصديق، وابن مسعود. والسكرة هي الحق، فاضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين، وقيل: الباء للملاسة كالتي في قوله: ﴿تَنْبِتُ بِالْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: 20] أي: تلتبث بالحق أي: بحقيقة الحال، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الموت، والحيد الميل أي: ذلك الموت الذي كنت تميل عنه، وتفتر منه، يقال: حاد عن الشيء يحيد حيوداً، وحيدة وحيدة: مال عنه وعدل، ومنه قول طرفة:

أبو منذر رمت الوفاء فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض وقال الحسن: تحيد تهرب ﴿ونفخ في الصور﴾ عبر عنه بالماضي؛ لتحقيق وقوعه، وهذه هي النفخة الآخرة للبعث ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ أي: تلك الوقت الذي يكون فيه النفخ في الصور يوم الوعيد الذي أوعد الله به الكفار. قال مقاتل: يعني بالوعيد: العذاب في الآخرة، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعاً لتحويله ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ أي: جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها، ومن يشهد لها، أو عليها.

واختلف في السائق والشهيد، فقال الضحاك: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم يعني: الأيدي والأرجل. وقال الحسن، وقتادة: سائق يسوقها، وشاهد يشهد عليها بعملها، وقال ابن مسلم: السائق قرينها من الشياطين، سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها. وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان. وقيل: السائق الملك، والشهيد العمل، وقيل: السائق كاتب السجلات، والشهيد كاتب الحسنات، ومحل الجملة النصب على الحال ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا، والجملة في محل نصب على الحال من نفس، أو مستأنفة كأنه قيل: ما يقال له، قال الضحاك: المراد بهذا: المشركون لأنهم كانوا في غفلة من عواقب أمورهم. وقال ابن زيد: الخطاب للنبي ﷺ أي: لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة. وقال أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برّهم، وفاجرهم، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور بفتح التاء من (كنت)، وفتح الكاف في غطاءك، وبصرك حملاً على ما في لفظ كل من التذكير، وقرأ الجحدري، وطلحة بن مصرف بالكسر في الجميع على أن المراد النفس ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ الذي كان في الدنيا يعني: رفعنا الحجاب الذي كان بينك، وبين أمور الآخرة، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي: نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في الدنيا. قال السدي: المراد بالغطاء أنه كان في بطن أمه فولد، وقيل: إنه كان في القبر فنشر، والأول أولى. والبصر قيل: هو بصر

نفسه، هذا كلام مبتدأ يتضمن نكر بعض القدرة الربانية، والمراد بالإنسان: الجنس، وقيل: آدم، والوسوسة هي في الأصل الصوت الخفي، والمراد بها هنا: ما يختلج في سره وقلبه وضميره أي: نعلم ما يخفي، ويكن في نفسه، ومن استعمال الوسوسة في الصوت الخفي قول الأعشى: تسمع للحلي وسواساً إذا انصرف

فاستعمل لما خفي من حديث النفس ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ هو حبل العاتق، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان من عن يمين وشمال. وقال الحسن: الوريد اللوتين، وهو عرق معلق بالقلب، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده، والإضافة بيانية أي: حبل هو الوريد. وقيل: الحبل هو نفس الوريد، فهو من باب مسجد الجامع. ثم نكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان، ويحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة فقال: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ الظرف منتصب بما في ﴿أقرب﴾ من معنى الفعل، ويجوز أن يكون منصوباً بمقدر هو انكر، والمعنى: أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به ما يلفظ به، وما يعمل به أي: يأخذان ذلك ويثبتانه، والتلقي الأخذ أي: نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظ الموكلين به، وإنما جعلنا ذلك إلزاماً للحجة، وتوكيداً للامر. قال الحسن، وقتادة، ومجاهد: المتلقيان ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. وقال مجاهد أيضاً: وكل الله بالإنسان ملكين بالليل، وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ إنما قال قعيد، ولم يقل قعيدان وهما اثنان؛ لأن المراد: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كذا قال سيوبه كقول الشاعر: نحن بما عنبنا وإنت بما عندك راض والرأي مختلف وقول الفرزدق:

وأتى وكان وكنت غير عنور

أي: وكان غير عنور، وكنت غير عنور، وقال الأخفش، والفراء: إن لفظ قعيد يصلح للواحد والاثنتين والجمع ولا يحتاج إلى تقدير في الأول. قال الجوهري، وغيره من أئمة اللغة والنحو: فعيل وفعل مما يستوي فيه الواحد والاثنتان والجمع، والقعيد المقاعد كالجلس بمعنى المجالس ﴿وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي: ما يتكلم من كلام، فيلفظه ويرميه من فيه إلا لديه أي: لدى تلك الالفاظ رقيب أي: ملك يرقب قوله ويكتبه، والرقيب: الحافظ المتتبع لأمر الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر، فكتاب الخير هو ملك اليمين، وكتاب الشر ملك الشمال. والعتيد: الحاضر المهيأ. قال الجوهري: العتيد الحاضر المهيأ، يقال: عتده تعتيذاً وأعتده اعتداداً أي: أعدّه، ومنه ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾ [يوسف: 31] والمراد هنا: أنه معدٌ للكتابة مهيو لها ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ لما بين سبحانه أن جميع

هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر؛ كأنه قيل: فماذا قال الله؟ فقيل: ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ يعني: الكافرين وقرناءهم، نهاهم سبحانه عن الاختصاص في موقف الحساب، وجملة ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أن قد قدمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، والباء في ﴿بالوعيد﴾ مزيدة للتأكيد، أو على تضمين قدم معنى تقدم ﴿ما يبذل القول لدي﴾ أي: لا خلف لوعدي، بل هو كائن لا محالة، وقد قضيت عليكم بالعذاب، فلا تبديل له، وقيل: هذا القول هو قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثله﴾ [الأنعام: 160] وقيل: هو قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود: 119] وقال الفراء، وابن قتيبة: معنى الآية: أنه ما يكذب عندي بزيادة في القول، ولا ينقص منه لعلمي بالغيب، وهو قول الكلبي. واختاره الواحدي، لأنه قال: ﴿لدي﴾ ولم يقل وما يبذل قولي، والأول أولى. وقيل: إن مفعول قدمت إليكم هو ما يبذل أي: وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد، وهذا بعيد جداً ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ أي: لا أعنّبهم ظلماً بغير جرم اجترمه، ولا ننب أننبوه. ولما كان نفي الظلام لا يستلزم نفي مجرد الظلم قيل: إنه هنا بمعنى الظالم كالتأمر بمعنى التامر. وقيل: إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير نيب في معرض المبالغة في الظلم. وقيل: صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده، وظلام لعبده، وقيل غير ذلك، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران، وفي سورة الحج ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ قرأ الجمهور (تقول) بالنون، وقرأ نافع وأبو بكر بالياء، وقرأ الحسن (أقول). وقرأ الأعمش (يقال)، والعامر في الظرف ﴿ما يبذل القول لدي﴾، أو محذوف أي: انكر، أو انذرهم، وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل، ولا سؤال ولا جواب، كذا قيل، والأولى أنه على طريقة التحقيق، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع. قال الواحدي: قال المفسرون: أراها الله تصديق قوله: ﴿لأملأن جهنم﴾ [هود: 119] فلما امتلأت قال لها: ﴿هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ أي: قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلئ، وبهذا قال عطاء، ومجاهد، ومقاتل بن سليمان. وقيل: إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة أي: إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها. وقيل: إن المعنى أنها طلبت أن يزداد في سعتها؛ لتضايقها بأهلها، والمزيد إما مصدر كالمحيد، أو اسم مفعول كالمنيع، فالأول بمعنى هل من زيادة، والثاني بمعنى هل من شيء تزيوني، ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع في بيان حال المؤمنين، فقال: ﴿وأنزلت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ أي: قربت للمتقين تقريباً غير بعيد، أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها في الموقف، وينظرون ما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويجوز أن يكون انتصاب

القلب، وقيل: بصر العين، وقال مجاهد: بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك، وبه قال الضحاک ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾ أي قال الملك الموكل به: هذا ما عندي من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته، كذا قال الحسن، وقتادة، والضحاک. وقال مجاهد: إن الملك يقول للرب سبحانه: هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته، وأحضرت ديوان عمله. وروي عنه أنه قال: إن قرينه من الشياطين يقول ذلك أي: هذا ما قد هيأته لك بإغوائي وإضاللي. وقال ابن زيد: إن المراد هنا قرينه من الإنس، وعتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة، وإن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ هذا خطاب من الله عز وجل للسائق والشهيد. قال الزجاج: هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق، والشاهد: كل كفار للنعم عنيد مجانب للإيمان ﴿مناع للخير﴾ لا يبذل خيراً ﴿معتد﴾ ظالم لا يقرب بتوحيد الله ﴿هريب﴾ شك في الحق، من قولهم أراب الرجل: إذا صار ذا ريب. وقيل: هو خطاب للملكين من خزنة النار، وقيل: هو خطاب لواحد على تنزيل ثنية الفاعل منزلة ثنية الفعل وتكريره. قال الخليل، والأخفش: هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون: ارحلها وأزجرها وخذاه وأطلقاه للواحد. قال الفراء: العرب تقول للواحد: قوما عنا. وأصل ذلك أن أنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك، ومنه قولهم للواحد في الشعر: خليلي كما قال امرؤ القيس:

خليلي مرأبي على أم جنب
نقض لبانات الفؤاد المعنب
وقوله:

فأنك من نكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين البخول فحول
وقول الآخر:

فإن تزجراني يابن عفان أنزجر
وإن تدعواني أحم عرضاً ممنعا
قال المازني: قوله: ﴿ألقيا﴾ يدل على ألق ألق. قال المبرد: هي ثنية على التوكيد، فأناب ألقيا مناب ألق ألق. قال مجاهد، وعكرمة: العنيد المعاند للحق، وقيل: المعرض عن الحق، يقال: عند يعند بالكسر عنواً: إذا خالف الحق ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ يجوز أن يكون بدلاً من كل، أو منصوباً على الذم، أو بدلاً من كفار، أو مرفوعاً بالابتداء، أو الخبر ﴿فألقياه في العذاب الشديد﴾ تأكيد للأمر الأول، أو بدل منه ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القرين، والمراد بالقرين هنا: الشيطان الذي قبض لهذا الكافر، أنكر أن يكون أطغاه، ثم قال: ﴿ولوكن كان في ضلال بعيد﴾ أي: عن الحق فدعوته، فاستجاب لي، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، وقيل: إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئاته، وإن الكافر يقول: رب إنه أعجلني فيجيبه بهذا، كذا قال مقاتل، وسعيد بن جبير، والأول أولى، وبه قال الجمهور، ﴿قال لا تختصموا لدي﴾

تكلّم به من خير، أو شرّ حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله، وعمله فأقرّ منه ما كان من خير أو شرّ وألقى سائرته، فنلك قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: 39]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: إنما يكتب الخير والشرّ، لا يكتب يا غلام اسرج الفرس يا غلام اسقني الماء. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل، أو تكلّم». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، والحكيم الترمذي، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب عن عمرو بن نرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل، فليتق الله عبد، ولينظر ما يقول». وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً مثله. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، والبيهقي في البعث، وابن عساكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال: سائق يسوقها إلى أمر الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة في الآية قال: السائق الملك، والشهيد العمل. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: السائق من الملائكة، والشهيد شاهد عليه من نفسه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ قال: هو الكافر. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ قال: الحياة بعد الموت. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً، و﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال شيطانه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيَ﴾ قال: إنهم اعتزلوا بغير عنز، فأبطل الله حجّتهم، وردّ عليهم قولهم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً. في قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ قال: ما أنا بمعنّب من لم يجترم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً. في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لَجَنَّهُمْ هَلْ امْتَلَأْتُمْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ قال: وهل فيّ من مكان يزاد فيّ. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط وعزّتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر، فيسكنهم في فضول الجنة». وأخرج أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٌ﴾ قال: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور عن أنس، في قوله: ﴿وَوَلِينَا مَزِيدٌ﴾ قال:

﴿غير بعيد﴾ على الحال. وقيل المعنى: أنها زينت قلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب، فصارت قريبة من قلوبهم، والأوّل أولى. والإشارة بقوله: ﴿هَذَا مَا تَوْعَدُونَ﴾ إلى الجنة التي أزلّت لهم على معنى: هذا الذي ترونه من فنون نعيمها ما توعدون، والجملة بتقدير القول: أي: ويقال لهم: هذا ما توعدون. قرأ الجمهور (توعدون) بالفوقية، وقرأ ابن كثير بالتحية ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٌ﴾ هو بدل من للمتقين بإعادة الخافض، أو متعلق بقول محذوف هو حال أي: مقولاً لهم لكل أَوَّابٍ، والأَوَّاب الرجاء إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية، وقيل: هو المسبح، وقيل: هو الذّاكر لله في الخلوة. قال الشعبي، ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة، فيستغفر الله منها. وقال عبيد بن عمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله فيه، والحفيظ: هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها. وقال قتادة: هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته، قاله مجاهد. وقيل: هو الحافظ لأمر الله. وقال الضحاك: هو الحافظ لوصية الله له بالقبول ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ الموصول في محل جر بدلاً، أو بياناً لكل أَوَّابٍ، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من المتقين، وفيه نظر؛ لأنه لا يتكرر البديل والمبدل منه واحد، ويجوز أن يكون في محل رفع على الاستئناف، والخبر انخلوها بتقدير يقال لهم: انخلوها، والخشية بالغيب أن يخاف الله ولم يكن رآه. وقال الضحاك، والسديّ: يعني: في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب، وبالفحش متعلق بمحذوف هو حال، أو صفة لمصدر خشي ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: راجع إلى الله مخلص لطاعته، وقيل: المنيب المقبل على الطاعة، وقيل: السليم ﴿انخلوها﴾ هو بتقدير القول أي: يقال لهم: انخلوها، والجمع باعتبار معنى من أي: انخلوا الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ أي: ببسالة من العذاب. وقيل: بسلام من الله وملائكته، وقيل: ببسالة من زوال النعم، وهو متعلق بمحذوف هو حال أي: ملتبسين بسلام، والإشارة بقوله: ﴿وَنُفُكٌ﴾ إلى زمن تلك اليوم، كما قال أبو البقاء، وخبره ﴿يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ وسماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له، بل هو دائم أبداً ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ما تشتهي أنفسهم، وتلد أعينهم من فنون النعم وأنواع الخير ﴿وَوَلِينَا مَزِيدٌ﴾ من النعم التي لم تخطر لهم على بال، ولا مرّت لهم في خيال.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «نزل الله من ابن آدم أربع منازل: هو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو يحول بين المرء وقلبه، وهو أخذ بناصية كل دابة، وهو معهم أينما كانوا». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ حَبَلَ الْوَرِيدَ﴾ قال: عروق العنق. وأخرج ابن المنذر عنه قال: هو نياط القلب. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً. في قوله: ﴿وَمَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما

سمعت إلي أي: استمع مني، والمعنى: أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحي الحاكي لما جرى على تلك الأمم. قرأ الجمهور (ألقى) مبنياً للفاعل. وقرأ السلمي، وطلحة، والسدي على البناء للمفعول، ورفع السمع ﴿وهو شهيد﴾ أي: حاضر الفهم، أو حاضر القلب؛ لأن من لا يفهم في حكم الغائب وإن حضر بجسمه، فهو لم يحضر بفهمه. قال الزجاج: أي: وقلبه حاضر فيما يسمع. قال سفيان: أي: لا يكون حاضراً وقلبه غائب. قال مجاهد، وقتادة: هذه الآية في أهل الكتاب، وكذا قال الحسن. وقال محمد بن كعب، وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، وغيرها ﴿وما مسنا من لغوب﴾ اللغوب: التعب والإعياء، تقول: لغب يلغب بالضم لغوياً. قال الواحدي: قال جماعة المفسرين: إن اليهود قالوا: خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، أولها الأحد وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، فأكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ فاصبر على ما يقولون. هذه تسليية للنبي ﷺ، وأمر لهم بالصبر على ما يقوله المشركون أي: هون عليك، ولا تحزن لقولهم، وتلق ما يرد عليك منه بالصبر ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ أي: نزه الله عما لا يليق بجنابه العالي ملتبساً بحمده وقت الفجر ووقت العصر، وقيل: المراد: صلاة الفجر وصلاة العصر، وقيل: الصلوات الخمس، وقيل: صل ركعتين قبل طلوع الشمس، وركعتين قبل غروبها، والأول أولى ﴿ومن الليل فسبحه﴾ من للتعبيض أي: سبّحه بعض الليل، وقيل: هي صلاة الليل، وقيل: ركعتا الفجر، وقيل: صلاة العشاء، والأول أولى ﴿وابار السجود﴾ أي: وسبّحه أعقاب الصلوات. قرأ الجمهور (البار) بفتح الهمزة جمع دير. وقرأ نافع، وابن كثير، وحمزة بكسرهما على المصدر، من أدبر الشيء إياباً: إذا ولى، وقال جماعة من الصحابة والتابعين: إibar السجود الركعتان بعد المغرب، وإibar النجوم الركعتان قبل الفجر، وقد اتفق القراء السبعة في إibar النجوم أنه يكسر الهمزة، كما سيأتي ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ أي: استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة: يوم ينادي المناد، وهو إسرأفيل، أو جبريل، وقيل: استمع النداء، أو الصوت، أو الصيحة، وهي صيحة القيامة أعني: النفخة الثانية في الصور من إسرأفيل، وقيل: إسرأفيل ينفخ، وجبريل ينادي أهل المحشر، ويقول: هلموا للحساب، فالنداء على هذا في المحشر، قال مقاتل: هو إسرأفيل ينادي بالمحشر فيقول: يا أيها الناس هلموا للحساب ﴿من مكان قريب﴾ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر. قال قتادة: كنا نحدث أنه ينادي من صخرة بيت المقدس. قال الكلبي: وهي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً، وقال كعب: بثمانية عشر ميلاً ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ هو

يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة. وأخرج البيهقي في الروية، والديلمي عن علي في الآية قال: يتجلى لهم الرب عز وجل، وفي الباب أحاديث.

وَكَمْ أَعْلَسَنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْإِلْدَادِ هَلْ مِنْ عَاجِمِينَ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿١٦٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿١٦٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿١٦٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الْكُجُورِ ﴿١٧٠﴾ وَأَسْبَحْ يَوْمَ يَكُونُ النَّادِينَ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿١٧١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيَّةَ بِالْإِثْمِ ذَلِكَ يَوْمَ الْمُنْجُزِ ﴿١٧٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَلِلَّآئِ الْفَصِيرِ ﴿١٧٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاجًا ذَلِكَ حُشْرٌ عَلَيْكَ يُسِيرُ ﴿١٧٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْآيَاتِ مَنْ عِثَارٌ وَعِمِيرٌ ﴿١٧٥﴾

خوف سبحانه أهل مكة بما اتفق للمقرون الماضية ﴿قبلهم﴾ أي: قبل قريش ومن وافقهم ﴿من قرن﴾ أي: من أمة هم أشد منهم بطشاً: أي: قوة كعاد، وثمود، وغيرها ﴿فنفقوا في البلاد﴾ أي: ساروا وتقلبوا فيها وطافوا بقاعها وأصله من النقب، وهو الطريق. قال مجاهد: ضربوا وطافوا. وقال النضر بن شميل: دوروا، وقال المؤرج: تباعدوا. والأول أولى، ومنه قول امرئ القيس:

وقد نقتبت في الأفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
ومنه قول الحارث بن حلزة:

نقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال
وقرأ ابن عباس، والحسن، وأبو العالية، وأبو عمرو في رواية (نقبوا) بفتح القاف مخففة، والنقب هو الخرق والطريق في الجبل، وكذا المنقب والمنقبة، كذا قال ابن السكيت، وجمع النقب نقوب. وقرأ السلمي، ويحيى بن يعمر بكسر القاف مشددة على الأمر للتهديد أي: طوفوا فيها وسيروا في جوانبها. وقرأ الباقر بفتح القاف مشددة على الماضي ﴿هل من محيص﴾ أي: هل لهم من مهرب يهربون إليه، أو مخلص يتخلصون به من العذاب. قال الزجاج: لم يروا محيصاً من الموت، والمحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصاً وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاناً أي: عدل وحاد، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم، وفي هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت والعذاب مفراً ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ أي: فيما نذكر من قصتهم تذكروا وموعظة ﴿لمن كان له قلب﴾ أي: عقل. قال الفراء: وهذا جائز في العربية، تقول: ما لك قلب وما قلبك معك، أي: ما لك عقل وما عقلك معك، وقيل: المراد القلب نفسه؛ لأنه إذا كان سليماً أترك الحقائق وتفكر كما ينبغي. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبير عن ذلك بالقلب؛ لأنه وطنها ومعين حياتها، ومنه قول امرئ القيس:

أغرك مني أن حبك قاتلي وإنك مهما تامري النفس تفعل
﴿أو ألقى السمع﴾ أي: استمع ما يقال له، يقال: ألقى

﴿وَمَا جَاءَ بِهِ، أَوْ عَنِ الْحَقِّ، وَهُوَ الْبُعْثُ وَالتَّوْحِيدُ مِنْ صَرْفٍ. وَقِيلَ: يَصْرِفُ عَنْ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافُ مِنْ صَرْفِهِ اللَّهُ عَنْهُ بِالْعَصْمَةِ وَالتَّوْفِيقِ، يُقَالُ: أَفَكَه يَأْفَكُهُ إِفْكَاً أَيْ: قَلْبَهُ عَنِ الشَّيْءِ وَصَرْفَهُ عَنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ﴾ [الْأَحْقَافُ: 22] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُؤْفَنُ عَنْهُ مِنْ أَفْنٍ، وَالْأَفْنُ فَسَادُ الْعَقْلِ، وَقِيلَ: يَحْرِمُهُ مِنْ حَرَمٍ. وَقَالَ قَطْرِبٌ: يَجْدَعُ عَنْهُ مِنْ جَدَعٍ. وَقَالَ الْيَزِيدِيُّ: يَدْفَعُ عَنْهُ مِنْ دَفْعٍ ﴿قَتْلُ الْخَرَاصُونَ﴾ هَذَا دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ. وَحَكَى الْوَاحِدِيُّ عَنِ الْمَفْسَرِينَ جَمِيعاً أَنَّ الْمَعْنَى: لَعَنَ الْكَذَّابُونَ. قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَالْقَتْلُ إِذَا أَخْبِرَ بِهِ عَنْ اللَّهِ كَانَ بِمَعْنَى اللَّعْنِ؛ لِأَنَّ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمَقْتُولِ الْهَالِكِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَى قَتْلَ لَعْنٍ. وَالْخَرَاصُونَ الْكَذَّابُونَ الَّذِينَ يَتَخَرَّصُونَ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ، فَيَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ كَذَّابٌ شَاعِرٌ سَاحِرٌ. قَالَ الرَّجَّازُ: الْخَرَاصُونَ هُمُ الْكَذَّابُونَ، وَالْخَرَصُ: حَزَرٌ مَا عَلَى النُّخْلِ مِنَ الرُّطْبِ ثَمَرًا، وَالْخَرَاصُ: الَّذِي يَخْرِصُهَا، وَلَيْسَ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ أَيْ: فِي غَفْلَةٍ، وَعَمَى جِهَالَةً عَنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ، وَمَعْنَى سَاهُونَ: لَاهُونَ غَافِلُونَ، وَالسَّهْوُ: الْغَفْلَةُ عَنِ الشَّيْءِ وَذَهَابُهُ عَنِ الْقَلْبِ، وَأَصْلُ الْغَمْرَةِ مَا سَتَرَ الشَّيْءَ وَغَطَّاهُ، وَمِنْهَا غَمَرَاتُ الْمَوْتِ ﴿يَسْأَلُونَ إِيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَيْ: يَقُولُونَ مَتَى يَوْمُ الْجَزَاءِ تَكْنِيئاً مِنْهُمْ وَاسْتِهْزَاءً، ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَقَالَ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ﴾ أَيْ: يَحْرِقُونَ وَيَعَذِّبُونَ، يُقَالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ: إِذَا أَحْرَقْتَهُ لَتَحْتَبِرَهُ، وَأَصْلُ الْفِتْنَةِ الْاِخْتِبَارُ. قَالَ عِكْرَمَةُ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الذَّهَبَ إِذَا أُنْخِلَ النَّارَ قِيلَ: فَتَنَ. وَانْتَصَابَ يَوْمَ بِمَضْمَرٍ أَيْ: الْجَزَاءُ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ يَوْمِ الدِّينِ، وَالْفَتْحُ لِلْبِنَاءِ لِكَوْنِهِ مَضَافًا إِلَى الْجُمْلَةِ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْصُوبٌ بِتَقْدِيرِ أَعْنِي. وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ بَرْفَعُ (يَوْمَ) عَلَى الْبَدَلِ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ، وَجُمْلَةُ ﴿نُوقُوا فَتَنْتَكُمْ﴾ هِيَ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ: نُوقُوا عَذَابَكُمْ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: حَرِيْقَكُمْ، وَرَجَّحَ الْأَوَّلَ الْفَرَّاءُ، وَجُمْلَةُ: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مِنْ جُمْلَةٍ مَا هُوَ مُحْكِي بِالْقَوْلِ أَيْ: هَذَا مَا كُنْتُمْ تَطْلُبُونَ تَعْجِيلَهُ اسْتِهْزَاءً مِنْكُمْ، وَقِيلَ: هِيَ بَدَلٌ مِنْ فَتَنْتَكُمْ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ حَالَ أَهْلِ النَّارِ ذَكَرَ حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَيْ: هُمْ فِي بَسْتَانَيْنِ فِيهَا عُيُونٌ جَارِيَةٌ لَا يَبْلُغُ وَصْفُهَا الْوَاصِفُونَ ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَيْ: قَابِلِينَ مَا أَعْطَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْكَرَامَةِ. وَجُمْلَةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ تَعْلِيلٌ لَمَّا قَبْلُهَا أَيْ: لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُحْسِنِينَ فِي أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ مِنْ فَعَلٍ مَا أَمُرُوا بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَوْا عَنْهُ. ثُمَّ بَيَّنَ إِحْسَانَهُمُ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ، فَقَالَ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الْهَجُوعُ: النَّوْمُ بِاللَّيْلِ بَيْنَ النَّهَارِ، وَالْمَعْنَى: كَانُوا قَلِيلًا مَا يَنَامُونَ مِنَ اللَّيْلِ، وَمَا زَائِدَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُصَدِّرِيَّةً، أَوْ مُوصُولَةً أَيْ: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ هَجُوعَهُمْ، أَوْ مَا يَهْجَعُونَ فِيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي قَيْسٍ بِنِ الْأَسْلَتِ:

فإنها توصف بجميع ذلك؛ لأنها تذرو التراب، وتحمل السحاب، وتجري في الهواء، وتقسم الأمطار، وهو ضعيف جداً. وانتصاب أمراً على المفعول به، وقيل: على الحال أي: مأمورة، والأول أولى ﴿إِنَّمَا تَوَعْدُونَ لَصَادِقٍ﴾ هَذَا جَوَابُ الْقِسْمِ أَيْ: إِنَّمَا تَوَعْدُونَ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، لَكَاثِنٌ لَا مُحَالَةٍ. وَ﴿وَمَا﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُوصُولَةً وَالْعَائِدُ مُحذُوفٌ، وَأَنْ تَكُونَ مُصَدِّرِيَّةً. وَوَجْهٌ تَخْصِيصٌ هَذِهِ الْأُمُورَ بِالْإِقْسَامِ بِهَا كَوْنُهَا أُمُوراً بِبَدِيعَةٍ مُخَالَفَةً لِمُقْتَضَى الْعَادَةِ، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهَا، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْبُعْثِ الْمَوْعُودِ بِهِ ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْحَبْكَ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ (الْحَبْكَ) بِضَمِّ الْحَاءِ وَالْبَاءِ، وَقَرَأَ بَعْضُ الضَّمِّ وَبُكْسَرِ الْحَاءِ وَفَتْحِ الْبَاءِ، وَبُكْسَرِ الْحَاءِ وَضَمِّ الْبَاءِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ: هِيَ لُغَاتٌ، وَالْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ هُنَا: هِيَ الْمَعْرُوفَةُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا السَّحَابُ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى.

واختلف المفسرون في تفسير الحبك؛ فقال مجاهد، وقتادة، والربيع، وغيرهم: المعنى ذات الخلق المستوي الحسن. قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسن عمله، فقد حبكته واحتبكته. وقال الحسن، وسعيد بن جبيرة: ذات الزينة. وروي عن الحسن أيضاً أنه قال: ذات النجوم. وقال الضحاك: ذات الطرائق، وبه قال الفرَّاء، يقال لما تراه من الماء والرَّمْلِ إِذَا أَصَابَتْهُ الرِّيحُ: حَبَكَ. قَالَ الْفَرَّاءُ: الْحَبْكَ بِكْسَرٍ: كُلُّ شَيْءٍ كَالرَّمْلِ إِذَا مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ السَّاكِنَةُ، وَالْمَاءُ إِذَا مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ، وَيُقَالُ لِدُرْعِ الْحَيِّدِ: حَبَكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

كأنما جلجلها الحواك طنفسه في وشيها حبك

أَيْ: طَرِقَ، وَقِيلَ: الْحَبْكَ الشَّدَّةُ، وَالْمَعْنَى: وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الشَّدَّةِ، وَالْمَحْبُوكُ الشَّدِيدُ الْخَلْقُ مِنْ فَرَسٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوك ممز

وقول الآخر:

مرج السدين فأعسنت له مشرف الحارك محبوك الكند
قال الواحدي بعد حكاية القول الأول: هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ﴾ هَذَا جَوَابُ الْقِسْمِ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحَبْكَ أَيْ: إِنَّكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ مُتَنَاقِضٍ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ، بَعْضُكُمْ يَقُولُ: إِنَّهُ شَاعِرٌ. وَبَعْضُكُمْ يَقُولُ: إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَبَعْضُكُمْ يَقُولُ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ. وَوَجْهٌ تَخْصِيصٌ الْقِسْمِ بِالسَّمَاءِ الْمُتَصَفَةِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ تَشْبِيهِ أَقْوَالِهِمْ فِي اِخْتِلَافِهَا بِاِخْتِلَافِ طَرَائِقِ السَّمَاءِ، وَاسْتِعْمَالِ الْحَبْكَ فِي الطَّرَائِقِ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ اللُّغَةِ، وَإِنْ كَانَ الْأَكْثَرُ مِنَ الْمَفْسَرِينَ عَلَى خِلَافِهِ، عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تَرْجِعَ تِلْكَ الْأَقْوَالُ فِي تَفْسِيرِ الْحَبْكَ إِلَى هَذَا، وَذَلِكَ بِأَنَّهُ يُقَالُ: إِنَّ مَا فِي السَّمَاءِ مِنَ الطَّرَائِقِ يَصْحُ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِمَزِيدِ حُسْنِهَا، وَاسْتَوَاءِ خَلْقِهَا، وَحُصُولِ الزَّيْنَةِ فِيهَا، وَمَزِيدُ الْقُوَّةِ لَهَا. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِكَوْنِهِمْ فِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ أَنْ بَعْضُهُمْ يَنْفِي الْحَشْرَ، وَبَعْضُهُمْ يَشْكُ فِيهِ، وَقِيلَ: كَوْنُهُمْ يَقْرَءُونَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُمْ، وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنْ أَفْكَ﴾ أَيْ: يَصْرِفُ عَنِ الْإِيمَانِ بِرَسُولِ اللَّهِ

الرَّسَل، فإنه خلقهم نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظاماً إلى أن ينفخ فيه الروح. ثم تختلف بعد ذلك صورهم والوانهم وطباعهم وألسنتهم، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم، وعظم وأعضاء، وحواس ومجاري ومنافس. ومعنى ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾: أفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستلون بذلك على الخالق الرزاق المتفرد بالالوهية، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند، وإن وعده الحق، وقوله الحق، وأن ما جاءت إليكم به رسله هو الحق الذي لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه. وقيل: المراد بالانفاس: الأرواح أي: وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقَكُمْ﴾ أي: سبب رزقكم، وهو المطر، فإنه سبب الأرزاق. قال سعيد بن جبیر، والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وتلج. وقيل: المراد بالسماء السحاب أي: وفي السحاب رزقكم، وقيل: المراد بالسماء المطر، وسماء سماء؛ لأنه ينزل من جهتها، ومنه قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيانها وإن كانوا غصابا
وقال ابن كيسان: يعني: وعلى رب السماء رزقكم، قال: ونظيره: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود: 6] وهو بعيد. وقال سفيان الثوري: أي: عند الله في السماء رزقكم. وقيل المعنى: وفي السماء تقدير رزقكم. قرأ الجمهور (رزقكم) بالإنفراد، وقرأ يعقوب، وابن محيصن، ومجاهد (أرزاقكم) بالجمع ﴿وما توعدون﴾ من الجنة والنار، قاله مجاهد. قال عطاء: من الثواب والعقاب، وقال الكلبي: من الخير والشر، قال ابن سيرين: ما توعدون من أمر الساعة، وبه قال الربيع. والأولى الحمل على ما هو أعم من هذه الأقوال، فإن جزاء الأعمال مكتوب في السماء، والقضاء والقدر ينزل منها، والجنة والنار فيها. ثم أقسم سبحانه بنفسه، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي: ما أخبركم به في هذه الآيات. قال الزجاج: هو ما ذكر من أمر الرزق والآيات. قال الكلبي: يعني: ما قص في الكتاب. وقال مقاتل: يعني: من أمر الساعة. وقيل: إن ﴿وما﴾ في قوله: ﴿وما توعدون﴾ مبتدأ، وخبره ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، فيكون الضمير لما. ثم قال سبحانه: ﴿مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ قرأ الجمهور بنصب (مثل) على تقدير: كمثل نطقكم وما زائدة، كذا قال بعض الكوفيون إنه منصوب بنزع الخافض. وقال الزجاج، والفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد أي: لحق حقاً مثل نطقكم. وقال المازني: إن «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح. وقال سيبويه: هو مبني لإضافته إلى غير متمكن، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، والاعمش (مثل) بالرفع على أنه صفة لحق لأن مثل نكرة وإن أضيفت، فهي لا تتعرّف بالإضافة كغير. ورجح قول المازني أبو علي الفارسي قال: ومثله قول حميد:

ويحاً لمن لم يدرك ما من ويحما

فبني ويح مع ما ولم يلحقه التنوين، ومعنى الآية تشبيه

قد حصت البيضة رأسي فما اطعم يوماً غير تهجاع
والتهجاع: القليل من النوم، ومن ذلك قول عمرو بن معدي كرب.

أمن ريحانة الداعي السميع يهيجني وأصحابي مجوع
وقيل: ما نافية أي: ما كانوا ينامون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير منه، وهذا ضعيف جداً. وهذا قول من قال: إن المعنى كان عدهم قليلاً. ثم ابتداء فقال: ﴿ما يهجعون﴾ وبه قال ابن الأنباري، وهو أضعف مما قبله. وقال قتادة في تفسير هذه الآية: كانوا يصلون بين العشاءين، وبه قال أبو العالية، وابن وهب ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ أي: يطلبون في أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم. قال الحسن: مَوَّا الصلاة إلى الأسحار. ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار. وقال الكلبي، ومقاتل، ومجاهد: هم بالأسحار يصلون، وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة. وقال الضحاك: هي صلاة الفجر. ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: يجعلون في أموالهم على أنفسهم حقاً للسائل والمحروم تقريباً إلى الله عز وجل. وقال محمد بن سيرين، وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة، والأول أولى، فيحمل على صدقة النفل، وصلة الرحم، وقرى الضيف؛ لأن السورة مكية، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة، وسيأتي في سورة سال سائل: ﴿وفي أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم﴾ [المعارج: 24، 25] بزيادة معلوم، والسائل هو الذي يسأل الناس لفاقته.

واختلف في تفسير المحروم، فقيل: هو الذي يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنياً، فلا يتصدقون عليه، وبه قال قتادة، والزهرى. وقال الحسن، ومحمد ابن الحنفية: هو الذي لا سهم له في الغنيمة، ولا يجري عليه من الفيء شيء. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أصيب ثمره، أو زرعه، أو ماشيته. قال القرطبي: هو الذي أصابته الجائحة. وقيل: الذي لا يكتسب. وقيل: هو الذي لا يجد غنى يغنيه، وقيل: هو الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه، وقيل: هو المملوك. وقيل: الكلب. وقيل غير ذلك. قال الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ، والذي ينبغي التعويل عليه ما يدل عليه المعنى اللغوي، والمحروم في اللغة الممنوع من الحرمان وهو المنع، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل، ومن أصيب ماله بجائحة أذهبته، ومن حرم العطاء، ومن حرم الصدقة لتعفقه. ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل الدالة على توحيده، وصدق وعده ووعيده، فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي: دلائل واضحة، وعلامات ظاهرة من الجبال والبحر والأشجار والأنهار والثمار، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذبة لما جاءت به رسل الله ودعتهم إليه، وخص الموقنين بالله لأنهم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه، فينتفعون به ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ أي: وفي أنفسكم آيات تدل على توحيد الله وصدق ما جاءت به

تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمي ووجوده، وهذا كما تقول: إنه لحق كما أنك ها هنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم، والمعنى: أنه في صنفه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، والدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرُوءًا﴾ قال: الرياح ﴿فَالْحَامِلَاتُ وِقْرًا﴾ قال: السحاب ﴿فَالْجَارِيَاتُ يُسْرًا﴾ قال: السفن ﴿فَالْمَقْسَمَاتُ أُمْرًا﴾ قال: الملائكة. وأخرج البزار، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، وابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله، ورفعته إلى رسول الله ﷺ، وفي إسناده أبو بكر بن سبرة، وهو لين الحديث، وسعيد بن سلام، وليس من أصحاب الحديث، كذا قال البزار. قال ابن كثير: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر. وأخرج الفريابي، وابن مردويه عن ابن عباس مثل قول علي. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْحَبْكِ﴾ قال: حسننها واستوّاها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه في الآية قال: ذات البهاء والجمال، وإن بنيانها كالبرد المسلسل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: ذات الخلق الحسن. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن منيع عن علي قال: هي السماء السابعة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾ قال: يضل عنه من ضل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿قَتْلَ الْخُرَاصُونَ﴾ قال: لعن المرتابون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هم الكهنة ﴿الْبَنِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال: في غفلة لاهون. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الغمرة الكفر والشك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: في ضلالتهم يتمانون، وفي قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال: يعذبون. وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله: ﴿أَخْلَيْنَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال: الفرائض ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ قال: قبل أن تنزل الفرائض يعملون. وأخرج هؤلاء أيضاً، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه أيضاً ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال: ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها. وأخرج ابن نصر، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في الآية يقول: قليلاً ما كانوا ينامون. وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أنس في الآية قال: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عمر ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ

يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: يصلون. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ قال: سوى الزكاة يصل بها رحماً، أو يقري بها ضعيفاً، أو يعين بها محروماً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: السائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي ليس له سهم من فيء المسلمين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه، ولا يسأل الناس، فأمر الله المؤمنين برفده. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت: هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وأخرج الترمذي، والبيهقي في سننه عن فاطمة بنت قيس، «أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية قال: إن في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامِ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 177]. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال: سبيل الغايط والبول.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَافٍ لِإِبْرَاهِيمَ الْكَرِيمِ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٧٦﴾ فَأَنَّ لَكَ أَعْلَاهُ فَجَاءَ يَعِصِلُ سَيِّدِينَ ﴿١٧٧﴾ فَفَرَّجَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَنْخَفُ وَتَنْشَرُوا بِشَيْءٍ عَلَيْنَا ﴿١٧٩﴾ فَأَقْبَصَ أَبْصَارَهُمْ فِي صَرْزَرٍ فَكُنَّتْ رِجْلُهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْكَاشِفُ الْعَلِيمُ ﴿١٨١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٨٢﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿١٨٣﴾ لِنُرِيَهُمْ جِبَادَهُ يَنْ يُلِينِ ﴿١٨٤﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿١٨٥﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٦﴾ مَا يَسْعَا فِيهَا مَعَهُ بَنِي إِسْرَافِيلَ ﴿١٨٧﴾

قوله: ﴿هل أتاك حديث ضاف إبراهيم الكريم﴾ نكر سبحانه قصة إبراهيم؛ ليبين أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك. وفي الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله ﷺ، وأنه إنما علمه بطريق الوحي. وقيل: إن هل بمعنى قد، كما في قوله: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ [الإنسان: 1] والضيف مصدر يطلق على الواحد والاثنتين والجماعة، وقد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم في سورة هود، وسورة الحجر، والمراد بكونهم مكرمين: أنهم مكرمون عند الله سبحانه؛ لأنهم ملائكة جاءوا إليه في صورة بني آدم، كما قال تعالى في وصفهم في آية أخرى: ﴿هَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26] وقيل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. وقال مقاتل، ومجاهد: أكرمهم إبراهيم وأحسن إليهم وقام على رؤوسهم، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف، وأمر امرأته أن تخدمهم. وقال الكلبي: أكرمهم بالعجل ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ العامل في الظرف حديث أي: هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه، أو العامل فيه ضيف لأنه مصدر، أو العامل فيه المكرمين، أو العامل فيه فعل مضمر أي: انكر ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك

والصيحة، والصرّة: الجماعة، والصرّة: الشدة من كرب أو غيره، والمعنى: أنها أقبلت في صيحة، أو في ضجة، أو في جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة، ومن هذا قول امرئ القيس:

فالحق بالهيات وبونه جراجرها في صرّة لم تزيل
وقوله: ﴿فِي صرّة﴾ في محل نصب على الحال
﴿فصكت وجهها﴾ أي: ضربت بيدها على وجهها، كما جرت
بذلك عادة النساء عند التعجب. قال مقاتل، والكلمي: جمعت
أصابعها، فضربت جبينها تعجباً. ومعنى الصك: ضرب
الشيء بالشيء العريض، يقال: صكه أي: ضربه. ﴿وَقَالَتْ
عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوزٌ عقيم. استبعت ذلك
لكبر سنّها؛ ولكونها عقيماً لا تلد. ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾
أي: كما قلنا لك وأخبرناك قال ربك، فلا تشكي في ذلك ولا
تعجبي منه، فإن ما أراه الله كائن لا محالة، ولم نقل ذلك
من جهة أنفسنا، وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة،
وإبراهيم ابن مائة سنة، وقد سبق بيان هذا مستوفى،
وجملة: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لما قبلها أي:
حكيم في أفعاله وأقواله، عليم بكل شيء، وجملة: ﴿قَالَ فَمَا
خَطْبُكُمْ إِلَيْهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقدّر،
كانه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة؟
والخطب الشأن والقصة، والمعنى: فما شأنكم وما قصتكم
أيها المرسلون من جهة الله، وما ذاك الأمر الذي لأجله
أرسلكم سوى هذه البشارة؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ
مَجْرُمِينَ يَرِيدُونَ قَوْمَ لُوطٍ لَنَرَسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
طِينٍ﴾ أي: لنرجمهم بحجارة من طين متحجر، وانتصاب
﴿مَسْؤُومَةٍ﴾ على الصفة لحجارة، أو على الحال في الضمير
المستكنّ في الجار والمجرور، أو من الحجارة؛ لكونها قد
وصفت بالجار والمجرور، ومعنى ﴿مَسْؤُومَةٍ﴾: معلمة
بعلامات تعرف بها، قيل: كانت مخططة بسواد وبياض، وقيل:
بسواد وحمرة، وقيل: معروفة بأنها حجارة العذاب، وقيل:
مكتوب على كل حجر من يهلك بها، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾
ظرف لمسؤومة أي: معلمة عنده. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتممين في
الضلالة المجاوزين الحد في الفجور. وقال مقاتل: للمشركين،
والشرك أسرف الذنوب وأعظمها. ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا كلام من جهة الله سبحانه أي: لما أردنا
إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قري قوم لوط من قومه
المؤمنين به ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
أي: غير أهل بيت. يقال: بيت شريف ويراد به أهله، قيل:
وهم أهل بيت لوط، والإسلام: الانقياد والاستسلام لأمر الله
سبحانه، فكل مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ
أَمَّا قُلْ لَمْ تَوْفُونَا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: 14] وقد
أوضح الفرق رسول الله ﷺ بين الإسلام، والإيمان في
الحديث في الصحيحين، وغيرهما الثابت من طرق أنه سئل
عن الإسلام، فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة،
وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان»، وسئل عن

سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: قال إبراهيم سلام. قرأ الجمهور
بنصب (سلاماً) الأول، ورفع الثاني فنصب الأول على
المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا، والمراد به التحية،
ويحتمل أن يكون المعنى: فقالوا كلاماً حسناً؛ لأنه كلام سلم
به المتكلم من أن يلغو، فيكون على هذا مفعولاً به. وأما
الثاني: فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر أي: عليكم سلام،
وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الاسمية للدوام
والثبات، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدد والحدث، ولهذا
قال أهل المعاني: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة،
وقرئ بالرفع في الموضعين، وقرئ بالنصب فيهما. وقرأ
أهل الكوفة إلا عاصماً بكسر السين، وقرئ (سلم) فيهما،
﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف
أي: أنتم قوم منكرون. قيل: إنه قال هذا في نفسه ولم
يخاطبهم به؛ لأن ذلك يخالف الإكرام. قيل: إنه أنكرهم
لكونهم ابتدءوا بالسلام، ولم يكن ذلك معهوداً عند قومه،
وقيل: لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية، وقيل:
لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم، وقيل غير
ذلك ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ قال الزجاج: أي: عدل إلى أهله،
وقيل: ذهب إليهم في خفية من ضيوفه، والمعنى متقارب
وقد تقدم تفسيره في سورة الصافات. يقال: راغ وإراغ إلى كذا: مال
بمعنى طلب، وماذا يريغ أي: يريد ويطلب، وإراغ إلى كذا: مال
إليه سرّاً وحاد ﴿فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾ أي: فجاء ضيفه
بعجل قد شواه لهم، كما في سورة هود ﴿بِعَجَلٍ حَنِيزٍ﴾
[هود: 69] وفي الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة أي:
فذهب عَجلاً فحذنه فجاء به ﴿فَفَقَرِיהَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: قَرَّبَ العجل
إليهم ووضعه بين أيديهم ﴿فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ﴾ الاستفهام
لِلإِنكَارِ، وذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه. قال في
الصحاح: العجل ولد البقر والعجول مثله، والجمع العجاجيل،
والأنثى عجلة، وقيل: العجل في بعض اللغات الشاة
﴿فَأَوْجِسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أحس في نفسه خوفاً منهم لما
لم يأكلوا مما قربه إليهم. وقيل: معنى أوجس اضمر، وإنما
وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه. ومن لخلق الناس أن
من أكل من طعام إنسان صار آمناً منه، فظن إبراهيم أنهم
جاءوا للشرك، ولم يأتوا للخير. وقيل: إنه وقع في قلبه أنهم
ملائكة، فلما رآوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف ﴿قَالُوا لَا
تَخَفْ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله
سبحانه ﴿وَيُبَشِّرُهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ أي: بشره بغلام يولد له
كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال، والمبشر به عند
الجمهور هو إسحاق. وقال مجاهد وحده: إنه إسماعيل، وهو
مردود بقوله: ﴿وَيُبَشِّرُنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: 112] وقد
قدّمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره
﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صرّةٍ﴾ لم يكن هذا الإقبال من مكان
إلى مكان، وإنما هو كقولك: أقبل يشتمني أي: أخذ في
شتمي، كذا قال الفراء، وغيره. والصرّة: الصيحة والضجة،
وقيل: الجماعة من الناس. قال الجوهري: الصرّة: الضجة

يكون متعلقاً بجعلنا مقدراً لدلالة «وتركنا عليه» قيل: ويجوز أن يعطف على «وتركنا» [الذاريات: 37] على طريقة قول القائل:

عَلَفْتَهَا تَبْنَاءُ وَمَاءً بَارِدًا

والتقدير: وتركنا فيها آية، وجعلنا في موسى آية. قال أبو حيان: ولا حاجة إلى إضمار، وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجرور، وتركنا. والوجه الأول هو الأولى، وما عداها متكلف متعسف لم تلجئ إليه حاجة، ولا دعت إليه ضرورة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية أي: كائنة وقت إرساله، أو بآية نفسها، والأول أولى. والسلطان المبين: الحجة الظاهرة الواضحة، وهي العصا، وما معها من الآيات ﴿فَقَتُلُوا بِرُكْنِهِ﴾ التولي: الإعراض، والركن: الجانب، قاله الأخفش. والمعنى: أعرض بجانبه، كما في قوله: ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء: 83] قال الجوهري: ركن الشيء جانبه الأقوى، وهو يلوي إلى ركن شديد أي: عزّ ومنعة. وقال ابن زيد، ومجاهد، وغيرهما: الركن جمعه وجنوده الذين كان يتقوّى بهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْيَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80] أي: عشيرة ومنعة، وقيل: الركن: نفس القوة، وبه قال قتادة وغيره، ومنه قول عنتره:

فما أوهى مراس الحرب ركني ولكن ما تقادم من زماني
﴿وقال ساحر أو مجنون﴾ أي: قال فرعون في حق
موسى: هو ساحر، أو مجنون، فرئد فيما رآه من أحوال
موسى بين كونه ساحراً، أو مجنوناً، وهذا من اللعين مغالطة
وإيهام لقومه، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر
على يد ساحر، ولا يفعله من به جنون. وقيل: إن أو بمعنى
الواو؛ لأنه قد قال ذلك جميعاً ولم يتردد، قاله المؤرج،
والفراء، كقوله: ﴿ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً﴾ [الإنسان: 24]
﴿فلحنناه وجنودهم﴾ فنبئناهم في اليم: أي: طرحناهم
في البحر، وجملة: ﴿وهو مليم﴾ في محل نصب على الحال
أي: أت بما يلام عليه حين ادّعى الربوبية، وكفر بالله وطغى
في عصيانه ﴿وفي عاد﴾ أي: وتركنا في قصة عاد آية ﴿إذ
أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ وهي التي لا خير فيها ولا
بركة، لا تلق شجراً ولا تحمل مطراً، إنما هي ريح الإهلاك
والعذاب. ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال: ﴿ما تذر من
شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم﴾ أي: ما تذر من شيء
مرّت عليه من أنفسهم، وأنعامهم، وأموالهم إلا جعلته
كالشئء الهالك البالي. قال الشاعر:

تركنتي حين كفَّ الدهر من بصري وإذ بقيت كعظم الرُمة البالي
وقال قتادة: إنه الذي ديس من يابس النبات، وقال السدي،
وأبو العالية: إنه التراب المدقوق، وقال قطرب: إنه الرماد،
وأصل الكلمة من رَمَ العظم: إذا بلي فهو رميم، والرُمة:
العظام البالية ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾
أي: وتركنا في قصة ثمود آيةً وقت قلنا لهم: عيشوا ممتعين
ماليها إلى حين وقت الهلاك، وهو ثلاثة أيام، كما في قوله:

الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله، وملأكته وكتبه ورسله، والقرآن خيره وشره»، فالمرجع في الفرق بينهما هو هذا الذي قاله الصالح المصنوق، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلة متناقضة، وأما ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان، فذلك باعتبار المعاني اللغوية والاستعمالات العربية، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ أي: وتركنا في تلك القرى علامة، ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب، كل من يخاف عذاب الله، ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم، وهذه الآية هي آثار العذاب في تلك القرى، فلإنها ظاهرة بيّنة، وقيل: هي الحجارة التي رجموا بها، وإنما خصّ الذين يخافون العذاب الأليم؛ لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ، ويتفكرون في الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك وهم المشركون المكذبون بالبعث، والوعد والوعيد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فِي صِرَاطٍ﴾ قال: في صيحة ﴿فَصَكَتَ وَجْهَهَا﴾ قال: لظمت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال: لوط وأبنتيه. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا ثلاثة عشر.

وَفِي مَوْعِزَةٍ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ رِجْسَةٍ بِأَسْطَلِيٍّ يُثِيبُ ﴿١٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رِجْسَهُ وَقَالَ سَمِعَ
أَوْ حِمْلًا ﴿١٩﴾ فَأَعْلَنَهُ وَحَدَّثَهُمْ فَتَنَّبَتْهُمِ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٢٠﴾ رَدَّىٰ عَاذَ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ
عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٢١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ ﴿٢٢﴾ وَفِي
تَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَسْبَحُوا حَتَّىٰ يَبْرُكَ ﴿٢٣﴾ فَعَبَّوْا عَنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَعْدَيْنَاهُمْ الضُّفَادَ
وَعَمَّ بِطَلُورٍ ﴿٢٤﴾ مَا اسْتَعْلَمُوا مِنْ بَيَارٍ وَمَا كَانُوا شُعَيْرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ
قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّامَةَ بَنِيهَا يَاجُوتَ وَيَأْجُوتَ لَمُوسَىٰ ﴿٢٧﴾
وَالْأَرْضَ فَرَسَتْهَا قَيْمَمُ الْمَهْدُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ كُلِّ قَوْمٍ خَلَقْنَا رَجُلَيْنِ لِمَلَكٍ
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٩﴾ فَفَرَّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٣٠﴾ وَلَا جَعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
مَّاخِرًا إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٣١﴾ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ حَمِيمٌ ﴿٣٢﴾ أَوْ أَصْحَابُ بَيْتٍ لَهُمْ قَوْمٌ مَّا لَوْهُمْ ﴿٣٣﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَامَ
أَنْتَ يَمْكُورٌ ﴿٣٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَئِ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِهِ ﴿٣٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٣٧﴾ إِنَّ
اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ النَّتِيظِ ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنْبًا بِذِلِّ ذُنُوبِهِمْ أَنْصَبُ
فَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٩﴾ قَوْلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٠﴾

قوله: ﴿وفي موسى﴾ معطوف على قوله فيها بإعادة الخافض، والتقدير: وتركنا في قصة موسى آية، أو معطوف على ﴿وفي الأرض﴾ [الذاريات: 20] والتقدير: وفي الأرض، وفي موسى آيات، قاله الفراء، وابن عطية، والزمخشري. قال أبو حيان: وهو بعيد جداً ينزه القرآن عن مثله، ويجوز أن

الإنذار ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالقرار إلى الله، وجملة ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْ نَذِيرٍ مُبِينٍ﴾: تحليل للنهي ﴿كُنْكَ مَا تَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ في هذا تسليية لرسول الله ﷺ ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة وأن ما وقع من العرب من التكنيب لرسول الله، ووصفه بالسحر، والجنون قد كان ممن قبلهم لرسولهم، و﴿كُنْكَ﴾ في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك، ثم فسر ما أجمله بقوله: ﴿مَا تَتَى﴾ إلخ، أو في محل نصب نعتاً لمصدر محذوف أي: أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدمني من الرسل الذين أنذروا قومهم، والأول أولى ﴿اتَّوَصَّوْا بِهِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والتعجب من حالهم أي: هل أوصى أولهم آخرهم بالتكنيب، وتواطؤوا عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن التواصي إلى ما جمعهم من الطغيان أي: لم يتواصوا بذلك، بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الكفر، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالإعراض عنهم، فقال: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، وكف عن جدالهم، ودعائهم إلى الحق، فقد فعلت ما أمرك الله به وبلغت رسالته ﴿فَمَا أَنْتَ بِمُطْلُومٌ﴾ عند الله بعد هذا لأنك قد أدت ما عليك، وهذا منسوخ بآية السيف، ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير، والموعظة بالتي هي أحسن فقال: ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الكلبي: المعنى عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم، وقال مقاتل: عظ كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان في علم الله أنه يؤمن، وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله، وخص المؤمنين بالتذكير لأنهم المنتفعون به، وجملة ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجَنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾: مستأنفة مقررّة لما قبلها؛ لأن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير، وينشطهم للإجابة. قيل: هذا خاص في من سبق في علم الله سبحانه أنه يعبد، فهو عموم مراد به الخصوص. قال الواحدي: قال المفسرون: هذا خاص لأهل طاعته، يعني: من أهل من الفريقين. قال: وهذا قول الكلبي، والضحاك، واختيار الفراء، وابن قتيبة. قال القشيري: والآية نخلها التخصيص بالقطع؛ لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة، ولا أراداهم منهم، وقد قال: ﴿وَلَقَدْ نَرَأَى لَهُنَّ كَثِيرًا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: 179] ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود، وأبي بن كعب: (وما خلقت الجنّ والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون). وقال مجاهد: إن المعنى: إلا ليعرفوني. قال الثعلبي: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده، وروي عن مجاهد أنه قال: المعنى إلا لأمرهم وإنهاهم، ويدل عليه قوله: ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سبحانه عما يشركون﴾ [التوبة: 31] واختار هذا الزجاج. وقال زيد بن أسلم: هو ما جبلوا عليه من للسعادة والشقاوة، فخلق السعداء من الجن

﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65] ﴿فَمَتَّعْتُهُمْ رِبْهِمْ﴾ أي: تكبروا عن امتثال أمر الله ﴿فَاخْتَنَمَ الصَّاعِقَةُ﴾ وهي كل عذاب مهلك. قرأ الجمهور (الصاعقة) وقرأ عمر بن الخطاب، وحميد، وابن محيصن، ومجاهد، والكسائي (الصعقة)، وقد مرّ الكلام على الصاعقة في البقرة، وفي مواضع ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: يرونها عياناً، والجملة في محل نصب على الحال، وقيل: إن المعنى: ينتظرون ما وعدوه من العذاب، والأول أولى ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي: لم يقدروا على القيام. قال قتادة: من نهوض يعني: لم ينهضوا من تلك الصرعة، والمعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلاً عن الهرب. ومثله قوله: ﴿فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78] ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء المهلكين، فإن زمانهم متقدم على زمن فرعون، وعاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. قرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو بخفض (قوم) أي: وفي قوم نوح آية. وقرأ الباقون بالنصب. أي: وأهلكنا قوم نوح، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة، أو على مفعول نبذناهم أي: نبذناهم ونبذنا قوم نوح، أو يكون العامل فيه أنكر ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة وقدر، قرأ الجمهور بنصب (السما) على الاشتغال، والتقدير: وبنيينا السماء بنيانها. وقرأ أبو السماك، وابن مقسم برفعها على الابتداء ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الموسع ذو الوسع والسعة، والمعنى: إنا لنوسع بخلقها، وخلق غيرها لا نعجز عن ذلك، وقيل: لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة والقدر، وقيل: إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهري: وأوسع الرجل: صار ذا سعة وغنى ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ قرأ الجمهور بنصب (الأرض) على الاشتغال. وقرأ أبو السماك، وابن مقسم برفعها، كما تقدم في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ [الذاريات: 47] ومعنى فرشناها: بسطانها كالفراش ﴿فَنَنعِمُ الْمَاهُونَ﴾ أي: نحن، يقال مهنت الفراش: بسطته ووطأته، وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها ﴿وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صنفين، ونوعين من ذكر وأنثى، وبرّ وبحر، وشمس وقمر، وحلو ومرّ، وسما وأرض، وليل ونهار، ونور وظلمة، وجنّ وإنس، وخير وشرّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا، فتعرفوا أنه خالق كل شيء، وتستدلوا بذلك على توحيده، وصلى وعده ووعدته ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ففروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر والمعاصي، وجملة: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تحليل للأمر بالفرار، وقيل: معنى ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أخرجوا من مكة. وقال الحسين بن الفضل: احتزروا من كل شيء غير الله، فمن قرّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقيل: فَرُّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن، وقيل: فَرُّوا من الجهل إلى العلم، ومعنى: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي: من جهته منذر بين

بركنه» عن ابن عباس قال: بقومه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه في قوله: ﴿الرَّيحُ الْعَقِيمُ﴾ قال: الشديدة التي لا تلقح شيئاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب، وفي قوله: ﴿إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ﴾ قال: كالشيء الهالك. وأخرج الفريابي، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الريح العقيم النكباء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ قال: بقوة. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ قال: أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم، وعز محمد ﷺ، ثم قال: ﴿وَنُكَرُ فَاِنَّ لِلنَّكَرِ تَنَفُّعٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فنسختها. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجَنَّةَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ قال: ليقربوا بالعبودية طوعاً أو كرهاً. وأخرج ابن المنذر عنه في الآية قال: على ما خلقتهم عليه من طاعتي ومعصيتي، وشقوتي وسعائتي. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً في قوله: ﴿الْمُتِينَ﴾ يقول: الشديد. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿نُذُوبًا﴾ قال: دلوأ.

تفسير سورة الطور

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت الطور بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور. وأخرج البخاري، وغيره عن أم سلمة: «أنها سمعت رسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت بالطور» وكتاب مسطور [أي: سورة الطور].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ① وَكَتَبَ مَسْطُورِ ② فِي رَفٍّ مَشْهُورِ ③ وَأَلَيْتَ الْمَعْمُورِ ④
وَأَلَيْتَ الْمَرْجُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ أَسْأَلُكَ مَوَدَّةً ⑨ وَرَبِّبُكَ أَيْجَالُ سَكْرٍ ⑩ تَوَلَّى يَوْمَهُ
لِلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْصٍ يَلْمِزُونَ ⑫ يَوْمَ يَدْعُورُ ⑬ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ⑭ هَذِهِ آتَارُ آلِي كُتُبٍ بِهَا تُكَذَّبُونَ ⑮ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْشَأْ لَا نَبِيَّ مَعَهُ ⑯ أَصْلَحُوا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ بِنَاكُمْ كُتُبٌ تَمْلِكُونَ ⑰ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَنَجِيمٍ ⑱ فَتُكْفَى بِمَا ءَانَتْهُمْ رَيْبُهُمْ وَوَقَّتَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْحَجِيرِ ⑲ كَلَّا وَتَرَوْهُ مُخِيبًا بِمَا كُتِبَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُحْشَرُونَ ⑳

قوله: ﴿وَالطُّورِ﴾ قال الجوهري: هو الجبل الذي كلم الله

والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء للمعصية. وقال الكلبي: المعنى إلا ليوحدون، فأما المؤمن، فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر، فيوحده في الشدة بون النعمة، كما في قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: 32] وقال جماعة: إلا ليخضعوا لي ويتنلوا، ومعنى العبادة في اللغة: الذل والخضوع والانقياد، وكل مخلوق من الإنس والجن، خاضع لقضاء الله مثل لأمشيته منقاد لما قرره عليه. خلقهم على ما أراد، ورزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعاً، ولا ضرراً. ووجه تقديم الجن على الإنس ما هنا تقدم وجودهم ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ هذه الجملة فيها بيان استغنائهم سبحانه عن عباده، وأنه لا يريد منهم منفعة، كما تريده السادة من عبيدهم، بل هو الغني المطلق الرازق المعطي. وقيل المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي، ولا أن يرزقوا أنفسهم، ولا يطعموا أحداً من خلقي، ولا يطعموا أنفسهم، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله، فمن أطعم عيال الله، فهو كمن أطعمه. وهذا كما ورد في قوله ﷺ: «يقول الله: عبدي استطعمتك فلم تطعمني»، أي: لم تطعم عبداً، ومن في قوله: ﴿مَنْ رِزْقٍ﴾ زائدة لتأكيد العموم. ثم بين سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَّاقُ﴾ لا رزاق سواه، ولا معطي غيره، فهو الذي يرزق مخلوقاته، ويقوم بما يصلحهم فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة ﴿هُوَ الْقُوَّةُ الْمَتِينُ﴾ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق، أو لنو، أو خير مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. قرأ الجمهور (الرزاق) وقرأ ابن محيصن (الرازق) وقرأ الجمهور (المتين) بالرفع، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش بالجر صفة للقوة، والتذكير لكون ثانيها غير حقيقي. قال الفراء: كان حقه المتينة فنكرها؛ لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل، يقال: جبل متين أي: محكم الفتل، ومعنى المتين: الشديدة القوة هنا ﴿فَإِنَّ لِلنَّاسِ ظَلَمُوا نُنُوبًا مِثْلَ نُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فإن لهم نُنُوبًا أي: نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة. قال ابن الأعرابي: يقال: يوم نُنُوبٍ أي: طويل الشر لا ينقضي، وأصل النُوب في اللغة الدلو العظيمة، ومن استعمال النُوب في النصيب من الشيء قول الشاعر:

لعمرك والمنيأ طارقات لكل بني أب منها نُنُوبٌ

وما في الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالبلو الكبير، فهو تمثيل جعل النُوب مكان الحظ والنصيب، قاله ابن قتبية ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: لا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب، كما في قولهم: ﴿فَاتِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: 70] ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ قيل: هو يوم القيامة وقيل: يوم بدر، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر في قوله: ﴿فَتَوَلَّى﴾

وأبو عبيدة: وأنشدا بيت الأعشى:

كان مشيها من بيت جارتها مشي السحابة لا ريث ولا عجل
وليس في البيت ما يدل على ما قاله إلا إذا كانت هذه
المشيئة المذكورة في البيت يطلق المور عليها لغة. وقال
الضحاك: يموج بعضها في بعض، وقال مجاهد: تدور دوراً،
وقيل: تجري جرياً، ومنه قول الشاعر:

وما زالت القتلى تمور دماؤها بسجلة حتى ماء بجلة أشكل
ويطلق المور على الموج، ومنه ناقة مواراة اليد أي:
سريعة تموج في مشيها موجاً، ومعنى الآية: أن العذاب يقع
بالعصاة، ولا يدفعه عنهم دافع في هذا اليوم الذي تكون فيه
السماء هكذا، وهو يوم القيامة. وقيل: إن السماء ها هنا
الفلك، وموره: اضطراب نظمها واختلاف سيره ﴿وتسير
الجبال سيراً﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها
كسير السحاب، وتكون هباءً منبثاً، قيل: ووجه تأكيد الفعلين
بالمصدر الدالة على غرابتهما، وخروجهما عن المعبود، وقد
تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف ﴿فويل يومئذ
للمكذبين﴾ ويل كلمة تقال للمهلك، واسم واد في جهنم،
وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة أي: إذا وقع
ما نكر من مور السماء، وسير الجبال فويل لهم. ثم وصف
المكذبين بقوله: ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي: في
تردد في الباطل، واندفاع فيه يلهون لا ينكرون حساباً، ولا
يخافون عقاباً، والمعنى: أنهم يخوضون في أمر محمد ﷺ
بالتكذيب والاستهزاء، وقيل: يخوضون في أسباب الدنيا،
ويعرضون عن الآخرة ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾
الدع الدع بعنف وجفوة يقال: دعته أدعه دعا أي: دفعته،
والمعنى: أنهم يدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً شديداً. قال
مقاتل: تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى
أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم. قرأ
الجمهور بفتح الدال وتشديد العين، وقرأ علي والسلمي، وأبو
رجاء، وزيد بن علي، وابن السميع بسكون الدال وتخفيف
العين مفتوحة أي: يدعون إلى النار من الدعاء. ويوم إما بدل
من يوم تمور، أو متعلق بالقول المقدر في الجملة التي بعد
هذه، وهي ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي: يقال
لهم تلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعا أي: هذه النار التي
تشاهدونها، هي النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا،
والقائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار، ثم ويخهم سبحانه،
أو أمر ملائكته بتوبيخهم، فقال: ﴿افسحوا هذا﴾ الذي ترون
وتشاهدون، كما كنتم تقولون لرسول الله المرسل، ولكتبته
المنزلة، وقدم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الذي وقع
الاستفهام عنه، وتوجه التوبيخ إليه ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾
أي: أم أنتم عمي عن هذا، كما كنتم عمياً عن الحق في الدنيا
﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا﴾ أي: إذا لم يمكنكم
إنكارها، وتحققتم أن تلك ليس بسحر، ولم يكن في أبصاركم
خلل، فالآن ادخلوها وقاسوا شنتها، فاصبروا على العذاب أو
لا تصبروا، وافعلوا ما شئتم، فالأمران ﴿سواء عليكم﴾ في

عليه موسى. قال مجاهد، والسدي: الطور بالسريرية الجبل،
والمراد به طور سيناء. قال مقاتل بن حيان: هما طوران،
يقال لأحدهما: طور سيناء، وللآخر: طور زيتا؛ لأنهما ينبتان
التين والزيتون. وقيل: هو جبل مدين، وقيل: إن الطور كل
جبل ينبت، وما لا ينبت فليس بطور، أقسم الله سبحانه بهذا
الجبل تشريفاً له وتكريماً ﴿وكتاب مسطور﴾ المسطور:
المكتوب، والمراد بالكتاب: القرآن، وقيل: هو اللوح المحفوظ،
وقيل: جميع الكتب المنزلة، وقيل: الواح موسى، وقيل: ما
تكتبه الحفظة قاله الفراء، وغيره، ومثله: ﴿ونخرج له يوم
القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ [الإسراء: 13] وقوله: ﴿وإذا
الصحف نشرت﴾ [التكوير: 10] ﴿في رق منشور﴾ متعلق
بمسطور أي: مكتوب في رق. قرأ الجمهور (في رق) بفتح
الراء، وقرأ أبو السماك بكسرهما. قال الجوهري: الرق بالفتح
ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿في رق
منشور﴾ قال المبرد: الرق ما رق من الجلد ليكتب فيه،
والمنشور المبسوط. قال أبو عبيدة: وجمعه رقوق، ومن هذا
قول الممتلئ:

فكانما هي من تقادم عهدها رق أتيج كتابها مسطور
وأما الرق بالكسر، فهو المملوك، يقال: عبد رق، وعبد
مروق ﴿والبيت المعمور﴾ في السماء السابعة. وقيل: في
سماها الدنيا، وقيل: هو الكعبة، فعلى القولين الأولين يكون
وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة، ويعبد
الله فيه. وعلى القول الثالث، يكون وصفه بالعمارة حقيقة، أو
مجازاً باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بني آدم ﴿والسقف
المرفوع﴾ يعني: السماء، سماها سقفاً لكونها كالسقف
للأرض، ومنه قوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾
[الأنبياء: 32] وقيل: هو العرش ﴿والبحر المسجور﴾ أي:
الموقد، من السجر: وهو إيقاد النار في التنور، ومنه قوله:
﴿وإذا البحار سجرت﴾ [التكوير: 6] وقد روي أن البحار
تسجر يوم القيامة فتكون ناراً، وقيل: المسجور المملوء، قيل:
إنه من أسماء الأضداد، يقال: بحر مسجور أي: مملوء، وبحر
مسجور أي: فارغ، وقيل: المسجور الممسوك، ومنه ساجور
الكلب لأنه يمسكه. وقال أبو العالية: المسجور الذي ذهب
ماؤه، وقيل: المسجور المفجور، ومنه: ﴿وإذا البحار فجرت﴾
[الإنفطار: 3] وقال الربيع بن أنس: هو الذي يختلط فيه
العذب بالمالح. والأول أولى، وبه قال مجاهد، والضحاك،
ومحمد بن كعب، والأخفش، وغيرهم ﴿إن عذاب ربك
لواقع﴾ هذا جواب القسم أي: كائن لا محالة لمن يستحقه
﴿وما له من دافع﴾ يدفعه ويرده عن أهل النار، وهذه الجملة
خبر ثانٍ لأن، أو صفة لواقع، ومن مزيدة للتأكيد. ووجه
تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالة على
كمال القدرة الربانية ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ العامل في
الظرف لواقع أي: إنه لواقع في هذا اليوم، ويجوز أن يكون
العامل فيه دافع. والمور: الاضطراب والحركة. قال أهل اللغة:
مار الشيء يمور موراً: إذا تحرك وجاء وذهب، قاله الأخفش،

السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعوبون إليه حتى تقوم الساعة، وفي الصحيحين وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة، ثم رفع إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعوبون إليه». وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن أبي الطفيل أن ابن الكوّاء سأل علياً عن البيت المعمور فقال: ذلك الضراح⁽¹⁾ بيت فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعوبون إليه أبداً إلى يوم القيامة. وأخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر ورفعه، قال: «إن البيت المعمور لبحيال الكعبة لو سقط منه شيء لسقط عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً، ثم لا يعوبون إليه». وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه، وضعف إسناده السيوطي. وأخرج ابن راهويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله: «والسقف المرفوع». قال: السماء. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: «والبحر المسجور». قال: بحر في السماء تحت العرش. وأخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المسجور المحبوس. وأخرج ابن المنذر عنه قال: المسجور المرسل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً «يوم تمور السماء موراً». قال: تحرك، وفي قوله: «يوم يدعون». قال: يدفعون. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: يوم يدعون «إلى نار جهنم دُعاً». قال: يدفع في أعناقهم حتى يربوا النار. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «كلوا واشربوا هنيئاً». أي: لا تموتون فيها، فعندما قالوا: «أقمنا نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين» [الصفافات: 58، 59].

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَتَتْهُمْ مِنْهُمُ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلٌّ لِّتَحْيَا كَسْبَ رَبِّهِ ۖ وَأَمَدَدَتْهُمْ وَيَكْفُرُوا وَلَكِنْ وَمَا يَنْتَهِونَ ۖ يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا لَكَلَامٌ لَا تُلَوِّحُ بِهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ۖ يَطْلُوبُونَ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤُ مَكْنُونٍ ۖ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَلَّلُونَ ۖ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُتْفِقِينَ ۖ قُلْ رَبِّ أَلَمْ يَقَعْ عَذَابُ السَّمُورِ ۖ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۖ فَذَكَّرَ قَا أَنْ يَتَسَلَّلَ رَبِّكَ يَكَاغِبُ وَلَا يَجْزِي ۖ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُ بِهِ رَبِّ السَّمُورِ ۖ قُلْ تَرَبَّصُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَبِّكَ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهُمْ

عدم النفع، وقيل: أيضاً تقول لهم الملائكة هذا القول، «وسواء» خبر مبتدأ محذوف أي: الأمران سواء، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أي: سواء عليكم الصبر وعدمه، وجملة «إنما تجزون ما كنتم تعملون» تعليل للاستواء، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعاً حتماً كان الصبر، وعدمه سواء «إن المتقين في جنات ونعيم» لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، ويجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة في غمهم وحسرتهم، والتثنية «في جنات ونعيم» للتفخيم «فاكهين بما آتاهم ربهم» يقال: رجل فاكه أي: نو فاكهة، كما قيل: لابن وتامر. والمعنى: أنهم نوو فاكهة من فواكه الجنة، وقيل: نوو نعمة وتلذذ بما صاروا فيه مما أعطاهم الله عز وجل مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وقد تقدم بيان معنى هذا. قرأ الجمهور (فاكهين) بالالف والنصب على الحال. وقرأ خالد (فاكهون) بالرفع على أنه خبر بعد خبر. وقرأ ابن عباس (فكهين) بغير الف، والفكه: طيب النفس، كما تقدم في الدخان، ويقال: للأشعر والبطر، ولا يناسب التفسير به هنا «ووقاهم ربهم عذاب الجحيم» معطوف على آتاهم، أو على خبر إن، أو الجملة في محل نصب على الحال بإضمار قد «كلوا واشربوا هنيئاً» أي: يقال لهم ذلك، والهنيء: ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر. قال الزجاج: أي: ليهنئكم ما صرتم إليه هناء، والمعنى: كلوا طعاماً هنيئاً، واشربوا شرباً هنيئاً، وقد تقدم تفسير هنيئاً في سورة النساء، وقيل: معنى هنيئاً: أنكم لا تموتون «متكئين على سرر مصفوفة» انتصابه على الحال من فاعل كلوا، أو من مفعول آتاهم، أو من مفعول وقاهم، أو من الضمير المستكن في الظرف، أو من الضمير في فاكهين. قرأ الجمهور (على سرر) بضم الراء الأولى. وقرأ أبو السماك بفتحها، والسرد جمع سرير. والمصفوفة المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفاً «وزوجناهم بحور عين» أي: قرناهم بها. قال يونس بن حبيب: تقول العرب: زوجت امرأة، وتزوجت بامرأة، وليس من كلام العرب زوجت بامرأة. قال: وقول الله تعالى: «وزوجناهم بحور عين» أي: قرناهم بهن. وقال الفراء: زوجت بامرأة لغة أزدشنوءة، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الدخان. قرأ الجمهور (بحور عين) من غير إضافة. وقرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس «والطور» قال: جبل. وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «الطور جبل من جبال الجنة، وكثير ضعيف جداً». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس «في رقي منشور» قال: في الكتاب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت المعمور في السماء

(1) الضراح: بالضم بيت في السماء، وهو البيت المعمور اه. صحاح الجوهري.

متنوعة، ولحم من انواع اللحمان مما تشتهيهم أنفسهم، ويستطيبونه ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون ويتناولون كأساً، والكأس إناء الخمر، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر، أو غيره، فإذا فرغ لم يسم كأساً ﴿لَا لِفُو فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ قال الزجاج: لا يجري بينهم ما يلغي، ولا ما فيه إثم، كما يجري بين من يشرب الخمر في الدنيا، والتأثير تفصيل من الإثم، والضمير في ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى الكأس، وقيل: لا لغو فيها أي: في الجنة، ولا يجري فيها ما فيه إثم، والأول أولى. قال ابن قتيبة: لا تذهب بعقولهم فيلغوا، كما يكون من خمر الدنيا، ولا يكون منهم ما يؤثمهم. وقال الضحاک: لا تأثم أي: لا كذب. قرأ الجمهور (لا لغو فيها ولا تأثم) بالرفع، والتثنية فيهما، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بفتحهما من غير تنوين. قال قتادة: اللغو الباطل. وقال مقاتل بن حيان: لا فضول فيها. وقال سعيد بن المسيب: لا رقت فيها. وقال ابن زيد: لا سباب ولا تخاصم فيها. والجملة في محل نصب على الحال صفة لكأسا ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَامَانِ لَهُمَا﴾ أي: يطوف عليهما بالكأس، والفواكه، والطعام، وغير ذلك مما يليك لهما، وقيل: أولاهم ﴿كَانَهُمَا﴾ في الحسن والبهاء ﴿لَوْلَوْ مَكُونُ﴾ أي: مستور مصون في الصنف لم تمسه الأيدي. قال الكسائي: كننت الشيء: سترته وصننته من الشمس، واكننته: جعلته في الكن، ومنه كننت الجارية، واكننتها فهي مكنونة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن حاله، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العقاب، فيحمدون الله الذي أذهب عنهم الحزن والخوف والهَمَّ، وما كانوا فيه من الكد، والنكد بطلب المعاش، وتحصيل ما لا بد منه من الرزق. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بم صرتم في هذه المنزلة الرفيعة؟ وقيل: إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور. والأول أولى، لدلالة السياق على أنهم قد صاروا في الجنة، وجملة ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل؟ فقيل: قالوا: إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي: قبل الآخرة، وذلك في الدنيا في أهلنا خائفين وجلين من عذاب الله، أو كنا خائفين من عصيان الله ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِ﴾ بالمغفرة والرحمة، أو بالتوفيق لطاعته ﴿وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ يعني: عذاب جهنم، والسوموم من أسماء جهنم، كذا قال الحسن، ومقاتل. وقال الكلبي، وأبو عبيدة: هو عذاب النار. وقال الزجاج: سموم جهنم ما يوجد من حرها. قال أبو عبيدة: السموم بالنهار، وقد يكون بالليل، والحرور بالليل، وقد يكون بالنهار، وقد يستعمل السموم في لفح البرد، وفي لفح الشمس، والحر أكثر، ومنه قول الشاعر:

اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا الومه
وقيل: سميت الريح سموماً؛ لأنها تدخل المسام: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نوحده الله ونعبده، أو نسأله أن يمن علينا بالمغفرة والرحمة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ قرأ

يَذَّأْ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴿٣٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِكَ لَا يَوْمُوتُ ﴿٣٤﴾ يَلَيَّأَوُا بِحَدِيثِ نَبِيِّهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٥﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم نكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ والموصول مبتدأ، وخبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدر أي: وكرمنا الذين آمنوا، ويكون إلحاقنا مفسراً لهذا الفعل المقدر. قرأ الجمهور (واتبعتهم) بإسناد الفعل إلى الذرية. وقرأ أبو عمرو (اتبعناهم) بإسناد الفعل إلى المتكلم، كقوله إلحاقنا. وقرأ الجمهور (نُرِيتَهُمْ) بالإنفراد. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بالجمع، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ (واتبعناهم)، ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع، والمشهور عنه كقراءة الجمهور. وقرأ الجمهور (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) بالإنفراد. وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب على الجمع، وجملة: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ معطوف على آمنوا أو معترضة، وبإيمان متعلق بالاتباع، ومعنى هذه الآية: أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه، وإن كانوا بونه في العمل؛ لتقر عينه، وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار، فإنهم وإن كانوا لاحقين بأبائهم، قبليل آخر غير هذه الآية. وقيل: إن الذرية تطلق على الكبار والصغار، كما هو المعنى اللغوي، فيلحق بالأباء المؤمنين صغار ذريتهم وكبارهم، ويكون قوله: ﴿بِإِيمَانٍ﴾ في محل نصب على الحال أي: بإيمان من الآباء. وقيل: إن الضمير في ﴿بِهِمْ﴾ راجع إلى الذرية المذكورة أولاً أي: إلحاقنا بالذرية المتبعة لأبائهم بإيمان ذريتهم. وقيل: المراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المهاجرون والأنصار فقط، وظاهر الآية العموم، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صح ذلك، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿وَمَا أَتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام من (التنا) وقرأ ابن كثير بكسرها أي: وما نقصنا الآباء بإلحاق ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئاً، فضمير المفعول عائد إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقيل المعنى: وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئاً لقصر أعمارهم، والأول أولى، وقد قدمنا تحقيق معنى لاته، وآلاته في سورة الحجرات. وقرأ ابن هرمز (ألتناهم) بالمد، وهو لغة. قال في الصحاح: يقال: ما ألتته من عمله شيئاً أي: ما نقصه ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ﴾ رهين بمعنى مرهون، والظاهر أنه عام، وأن كل إنسان مرتبه بعمله، فإن قام به على الوجه الذي أمره الله به فكه، وإلا أهلكه. وقيل: هو بمعنى رهن، والمعنى: كل امرئ بما كسب دائم ثابت. وقيل: هذا خاص بالكفار لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةً﴾ إلا أصحاب اليمين [المندر: 38، 39] ثم نكر سبحانه ما أمدهم به من الخير، فقال: ﴿وَأَمْدَنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة

تَقَمَّهَ، وأكثر جرأة وعناداً **﴿إِذْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾** أي: اختلق القرآن من جهة نفسه وافتعله، والتَقَوَّل لا يستعمل إلا في الكذب في الغالب، وإن كان أصله تكلف القول، ومنه اقتال عليه، ويقال: اقتال عليه بمعنى: تحكم عليه، ومنه قول الشاعر:

ومنزلة في دار صلق وغبطة وما اقتال في حكم علي طبيب
ثم أضرب سبحانه عن قولهم: **﴿تَقَوَّلَهُ﴾** وانتقل إلى ما هو أشد شناعة عليهم فقال: **﴿يَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** أي: سبب صدور هذه الأقوال المناقضة عنهم كونهم كفاراً لا يؤمنون بالله، ولا يصسقون ما جاء به رسوله ﷺ. ثم تحداهم سبحانه، والزمهم الحجة فقال: **﴿فَلْيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾** أي: مثل القرآن في نظمه، وحسن بيانه، وبيع أسلوبه **﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾** فيما زعموا من قولهم: إن محمداً ﷺ تقوله، وجاء به من جهة نفسه مع أنه كلام عربي، وهم رؤوس العرب وفصحاؤهم، والممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي عن ابن عباس قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا بونه في العمل؛ لتقر به عينه ثم قرأ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾** الآية. وأخرجه البزار، وابن مريويه عنه مرفوعاً. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سال عن أبيه، وزوجته، وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإحقاقهم به، وقرأ ابن عباس **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾** الآية. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار، ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية وإسناده هكذا. قال عبد الله بن أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي بن أبي طالب قال: «سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: هما في النار، فلما رأى الكراهة في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: يا رسول الله فولدي منك. قال: في الجنة، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار، ثم قرأ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية. وقال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب من أين لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك، وإسناده صحيح. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والحاكم عن ابن عباس **﴿وَمَا اتَّاهَاهُمْ﴾** قال: ما نقصناهم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه **﴿لَا لَغْوَ فِيهَا﴾** يقول:

الجمهور بكسر الهمزة على الاستئناف، وقرأ نافع، والكسائي بفتحها أي: لأنه والبر كثير الإحسان، وقيل: اللطيف، والرحيم كثير الرحمة لعباده **﴿فَنُفِكَرَ﴾** فانت بنعمت ربك بكاهن **﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾** أي: أثبت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير، والباء متعلقة بمحذوف هو حال أي: ما أنت متلبساً بنعمة ربك التي أنعم بها عليك من راحة العقل والنبوة بكاهن، ولا مجنون، وقيل: متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أي: ما أنت في حال إنكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، وقيل: الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية، والمعنى: انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك، كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد الله. وقيل: الباء للقسمة متوسطة بين اسم ما وخبرها، والتقدير: ما أنت ونعمة الله بكاهن ولا مجنون، والكاهن هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب من نون وحي أي: ليس ما تقوله كهانة، فإنما تنطق بالوحي الذي أمرك الله بإبلاغه. والمقصود من الآية رد ما كان يقول المشركون: إنه كاهن، أو مجنون **﴿إِذْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرِيبُ بِهِ رِيبَ لِّلْمُتُونِ﴾** أم هي المنقطعة، وقد تقدم الخلاف هل هي مقترنة ببل والهمزة، أو ببل وحدها؟ قال الخليل: هي هنا للاستفهام. قال سيبويه: خطوب العباد بما جرى في كلامهم. قال النحاس: يريد سيبويه أن أم في كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث، ونتريب في محل رفع صفة لشاعر، وريب المتون: صروف الدهر، والمعنى: ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره، أو يهلك كما هلك من قبله، والمتون يكون بمعنى الدهر، ويكون بمعنى المنيّة. قال الأخفش: المعنى نتريب إلى ريب المتون، فحذف حرف الجر، كما تقول: قصدت زيدا، وقصدت إلى زيد، ومن هذا قول الشاعر:

تربص بهار ريب المتون لعلها تطلق يوماً أو يموت خليلها
وقول أبي نؤيب الهذلي:

أمن المتون وريبها تترجع والدهر ليس بمعقب من يجزع
قال الأصمعي: المتون واحد لا جمع له. قال الفراء: يكون واحداً وجمعاً. وقال الأخفش: هو جمع لا واحد له. ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم، فقال: **﴿قُلْ تَرِيبُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَتَرِيبِينَ﴾** أي: انتظروا موتي، أو هلاكي، فإنني معكم من المتريبين لموتكم، أو هلاككم. قرأ الجمهور (نتريب) بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين. وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول **﴿إِذْ تَأْمُرُهُمْ إِحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾** أي: بل تأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض، فإن الكاهن هو المفرط في الفطنة والذكاء، والمجنون: هو ذاهب العقل فضلاً عن أن يكون له فطنة ونكاء. قال الواحدي: قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول، فازراً الله بحلومهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل **﴿إِذْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾** أي: بل أطغوا وجاوزوا الحد في العناد، فقالوا ما قالوا، وهذه الإضرابات من شيء إلى شيء مع الاستفهام، كما هو مدلول أم المنقطعة تدل على أن ما تعقبها أشنع مما

باطل **﴿ولا تأتيني﴾** يقول: كذب. وأخرج البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئ ذا، ويتكئ ذا، فيتحدثان بما كانوا في الدنيا، فيقول أحدهما: يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله فغفر لنا». وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت: لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الانملة لأحرقت الأرض ومن عليها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿إنه هو البر﴾** قال: اللطيف. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عنه أن قريشاً لما اجتمعوا إلى دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: أحبسوه في وثاق، وتربصوا به المنون حتى يهلك، كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك: **﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾**. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿ريب المنون﴾** قال: الموت.

أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿١٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلُوكٌ يَسْتَوُونَ فِيهِ لَيَالٍ سَتِيمَةٍ يَسْطَلْنَ فِيهِ ﴿١٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُوا عَنْكُمْ ﴿٢٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلَاءٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٢٤﴾ فَذَرْنَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٢٥﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَصْبَحَ لِمُكْرِمِكُمْ رُحُومٌ لَكُمْ فِئَتَانِ يَافَعَيْنَا وَنَسَجَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسٍ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ أَيْلٍ فَسَيَّحَ وَأَبَدَرُ الْأُنْجُورِ ﴿٢٩﴾

قوله: **﴿أم خلقوا من غير شيء﴾** أم هذه هي المنقطعة، كما تقدم فيما قبلها، وكما سيأتي فيما بعدها أي: بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة، والصنعة العجيبة من غير خالق لهم. قال الزجاج: أي: أخلقوا باطلاً لغير شيء لا يحاسبون، ولا يؤمرون، ولا ينهون، وجعل **﴿من﴾** بمعنى اللام. قال ابن كيسان: أم خلقوا عبثاً، وتركوا سدى لا يؤمرون، ولا ينهون. وقيل المعنى: أم خلقوا من غير أب ولا أم، فهم كالجماد لا يفهمون، ولا تقوم عليهم حجة **﴿أم هم الخالقون﴾** أي: بل يقولون هم الخالقون لأنفسهم، فلا يؤمرون ولا ينهون مع أنهم يقولون أن الله خالقهم، وإذا أقروا لزمتهم الحجة **﴿أم خلقوا السفوات والأرض﴾** وهم لا يدعون ذلك، فلزمتهم الحجة، ولهذا أضرب عن هذا، وقال **﴿بل لا يوقنون﴾** أي: ليسوا على يقين من الأمر، بل يخطبون في ظلمات الشك في وعد الله ووعيده **﴿أم عندهم خزائن ربك﴾** أي: خزائن أرزاق العباد، وقيل: مفاتيح الرحمة. قال مقاتل: يقول: أبائهم مفاتيح ربك بالرسالة،

فيضعونها حيث شاءوا؟ وكذا قال عكرمة: وقال الكلبي: خزائن المطر والرزق **﴿أم هم المصيطرون﴾** أي: المسلطون الجبارون، قال في الصحاح: المسيطر المسلط على الشيء، ليشرف عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب عمله، وأصله من السطر؛ لأن الكتاب يسطر. وقال أبو عبيدة: سطرت علي: اتخذتني خولاً لك. قرأ الجمهور (المصيطرون) بالصاد الخالصة، وقرأ ابن محيصن، وحמיד، ومجاهد، وقنبل، وهشام بالسين الخالصة، ورويت هذه القراءة عن حفص، وقرأ خلاد بصاد مشمة زايًا **﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾** أي: بل يقولون إن لهم سلماً منصوباً إلى السماء يصعدون به، ويستمعون فيه كلام الملائكة، وما يوحى إليهم، ويصلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمد ﷺ بطريق الوحي، وقوله: **﴿فيه﴾** صفة لسلم، وهي للظرفية على بابها، وقيل: هي بمعنى على أي: يستمعون عليه كقوله: **﴿ولاصلبنكم في جذوع النخل﴾** [طه: 71] قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة: يستمعون به. وقال الزجاج: المعنى: أنهم كجبريل الذي يأتي النبي ﷺ بالوحي، وقيل: هي في محل نصب على الحال أي: صاعدين فيه **﴿فليأت مستمعهم﴾** إن ادعى ذلك **﴿بسلطان مبين﴾** أي: بحجة واضحة ظاهرة **﴿أم له البنات ولكم البنون﴾** أي: بل اتقولون لله البنات ولكم البنون، سفه سبحانه أحلامهم، وضلل عقولهم ووبخهم أي: ائضيضون إلى الله البنات وهي أضعف الصنفين، ويجعلون لأنفسهم البنين، وهم أعلاهما، وفيه إشعار بأن من كان هذا رايه، فهو بمحل سافل في الفهم والعقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث وجحد التوحيد. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله ﷺ، فقال: **﴿أم تسألهم أجرًا﴾** أي: بل اتسألهم أجرًا يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة **﴿فهم من مغرم مثقلون﴾** أي: من التزام غرامة تطلبها منهم مثقلون أي: مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل. قال قتادة: يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجرًا فجهدهم، فلا يستطيعون الإسلام **﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾** أي: بل أيّدعون أن عندهم علم الغيب، وهو ما في اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب. قال قتادة: هذا جواب لقولهم: **﴿نتربص به ريب المنون﴾** [الطور: 30] يقول الله: أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمداً يموت قبلهم، فهم يكتبون. قال ابن قتبية: معنى يكتبون: يحكمون بما يقولون **﴿أم يريدون كيدًا﴾** أي: مكرًا برسول الله ﷺ، فيهلكونه بذلك المكر **﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾** أي: الممكور بهم المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم **﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾** [فاطر: 43] وقد قتلهم الله في يوم بدر، وأثلهم في غير موطن، ومكر سبحانه بهم **﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾** [آل عمران: 54] **﴿أم لهم إله غير الله﴾** أي: بل أيّدعون أن لهم إلهاً غير الله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم. ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال: **﴿سبحان الله عما يشركون﴾** أي: عن شركهم به، أو عن

الفجر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أمره الله سبحانه أن يسبحه في بعض الليل. قال مقاتل: أي: صلِّ المغرب والعشاء، وقيل: ركعتي الفجر ﴿وَابْأَبَارِ النُّجُومِ﴾ أي: وقت إبدارها من آخر الليل، وقيل: صلاة الفجر، واختاره ابن جرير، وقيل: هو التسبيح في إبدار الصلوات، قرأ الجمهور (إبدار) بكسر الهمزة على أنه مصدر، وقرأ سالم بن أبي الجعد، ومحمد بن السميع، ويعقوب، والمنهال بن عمر بفتحها على الجمع أي: أعقاب النجوم وإبدارها: إذا غربت، ودبر الأمر: آخره، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة «ق».

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا هُمْ الْمَصِيطَرُونَ﴾ قال: المسلطون، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: أم هم المنزلون. وأخرج عنه أيضاً ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ قال: عذاب القبر قبل يوم القيامة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، والحاكم، وابن مريويه عن أبي برزة الأسلمي قال: «كان رسول الله ﷺ بآخرة إذا قام من المجلس يقول: سبحانك اللهم وبحمك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك. فقال رجل: يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنت تقول فيما مضى، قال: كفارة لما يكون في المجلس». وأخرجه النسائي، والحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية، عن رافع بن خديج، عن النبي ﷺ. وأخرج الترمذي، وابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس، فكثّر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك». قال الترمذي: حسن صحيح. وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: «﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ قال: الركعتان قبل صلاة الصبح». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَابْأَبَارِ النُّجُومِ﴾ قال: ركعتي الفجر.

تفسير سورة النجم

وهي مكية جميعها في قول الجمهور. وروي عن ابن عباس، وعكرمة أنها مكية إلا آية منها، وهي قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: 32] الآية. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النجم بمكة، وأخرج أيضاً عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [أي: سورة النجم] فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب، فسجد عليه، فرأيت بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود قال: أول سورة استعلن بها

الذين يجعلونهم شركاء له. ثم نكر سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ الكسف جمع كسفة: وهي القطعة من الشيء، وانتصاب ساقطاً على الحال، أو على أنه المفعول الثاني، والمركوم: المجمعول بعضه على بعض. والمعنى: أنهم إن يروا كسفاً من السماء ساقطاً عليهم لعذابهم، لم ينتهوا عن كفرهم بل يقولون: هو سحب متراكم بعضه على بعض، وقد تقدّم اختلاف القراء في كسفاً، قال الأخفش: من قرأ كسفاً، يعني: بكسر الكاف وسكون السين جعله واحداً، ومن قرأ كسفاً، يعني: بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعاً. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتركهم، فقال: ﴿فَذَرِهِمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي: اتركهم وخلّ عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم، أو يوم قتلهم بيد، أو يوم القيامة. قرأ الجمهور (يلاقوا) وقرأ أبو حيوة (يلقوا) وقرأ الجمهور يصعقون على البناء للمفاعِل، وقرأ ابن عامر، وعاصم على البناء للمفعول، والصعقة: الهلاك على ما تقدّم بيانه ﴿يَوْمٌ لَا يَغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ هو بدل من يومهم أي: لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم الذي كانوا به رسول الله ﷺ في الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي: ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع، بل هو واقع بهم لا محالة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والمعاصي عذاباً في الدنيا دون عذاب يوم القيامة أي: قبله، وهو قتلهم يوم بدر. وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا من الأوجاع، والأسقام، والبلايا، وذهاب الأموال والأولاد. وقال مجاهد: هو الجوع، والجهد سبع سنين، وقيل: عذاب القبر، وقيل: المراد بالعذاب: هو القحط، وبالعذاب الذي يأتي بعده: هو قتلهم يوم بدر ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من عذاب الله، وما أعده لهم في الدنيا والآخرة ﴿وَوَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إلى أن يقع لهم العذاب الذي وعدناهم به ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى ومنظر منا وفي حفظنا وحمايتنا، فلا تبال بهم. قال الزجاج: إنك بحيث نراك ونحفظك، ونرعاك فلا يصلون إليك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: نزه ربك عما لا يليق به مثل بساً بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك. قال عطاء، وسعيد بن جبيرة، وسفيان الثوري، وأبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمك عند قيامه من كل مجلس يجلسه. وقال محمد بن كعب، والضحاك، والربيع بن أنس: حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحاك: يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وفيه نظر؛ لأن التكبير يكون بعد القيام لا حال القيام، ويكون التسبيح بعد التكبير، وهذا غير معنى الآية، فالأول أولى. وقيل المعنى: صلِّ الله حين تقوم من منامك، وبه قال أبو الجوزاء، وحسان بن عطية. وقال الكلبي: وأنكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة، وهي صلاة

تسبح بها الأباعر وهي تهوى هوى اللؤلؤ أسلمها الرشاء ويقال: هوى في السير: إذا مضى؛ ومنه قول الشاعر:

بينما نحن بالبالاك فالفقا ع سراعاً والعيس تهوى هويًا
خطرت خطرة على القلب من نكـراك وهنا فما استطعت مضيا

ومعنى الهوى على قول من فسر النجم بالقرآن: أنه نزل من أعلا إلى أسفل، وأما على قول من قال إنه الشجر الذي لا ساق له، أو أنه محمد ﷺ، فلا يظهر للهوى معنى صحيح، والعامل في الظرف فعل القسم المقدر، وجواب القسم قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ أي: ما ضلَّ محمد ﷺ عن الحق والهدى، ولا عدل عنه، والغنى: ضد الرشد، أي: ما صار غاويًا ولا تكلم بالباطل، وقيل: ما خاب فيما طلب، والغنى: الخيبة، ومنه قول الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغنى لاثماً
وفي قوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله، والخطاب لقريش ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ أي: ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن، ولا بغيره، فعن على بابها. وقال أبو عبيدة: إن عن بمعنى الباء أي: بالهوى. قال قتادة: أي: ما ينطق بالقرءاء عن هواه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: ما هو الذي ينطق به إلا وحى من الله يوحى إليه. وقوله: ﴿يُوحَى﴾ صفة لوحى تفيد الاستمرار التجديدي، وتفيد نفي المجاز أي: هو وحى حقيقة لا لمجرد التسمية ﴿عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ القوى جمع قوة، والمعنى: أنه علمه جبريل الذي هو شديد قواه، هكذا قال أكثر المفسرين إن المراد: جبريل. وقال الحسن: هو الله عز وجل، والأول أولى، وهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ المرة: القوة والشدة في الخلق، وقيل: ذو صفة جسم وسلامة من الآفات، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي». وقيل: ذو حصانة عقل، ومتانة رأي. قال قطرب: تقول لكل من هو جزل الرأي: حصيف العقل ذو مرة، ومنه قول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذامرةً عندي لكل مخاصم ميزانه
والتفسير للمرة بهذا أولى، لأن القوة والشدة قد أفادها قوله: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ قال الجوهري: المرة إحدى الطبائع الأربع، والمرة: القوة وشدة العقل، والفاء في قوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ للمعطف على علمه، يعني جبريل أي: ارتفع وعاد إلى مكانه في السماء بعد أن علم محمداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وقيل: معنى استوى: قام في صورته التي خلقه الله عليها؛ لأنه كان يأتي النبي ﷺ في صورة الأدميين، وقيل المعنى: فاستوى القرآن في صدره ﷺ. وقال الحسن: فاستوى يعني: الله عز وجل على العرش ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى، والمراد بالأفق الأعلى: جانب المشرق، وهو فوق جانب المغرب، وقيل المعنى: فاستوى عالياً، والأفق: ناحية السماء، وجمعه أفاق، قال قتادة، ومجاهد: هو الموضع الذي تطلع

النبي ﷺ يقرؤها، ﴿وَالنَّجْمِ﴾. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ، فقرأ النجم، فسجد بنا، فاطل السجود». وأخرج ابن مردويه عن عائشة: «أن النبي ﷺ قرأ النجم، فلما بلغ السجدة سجد فيها». وأخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والطبراني، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: قرأت النجم عند النبي ﷺ، فلم يسجد فيها. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في النجم بمكة، فلما هاجر إلى المدينة تركها. وأخرج أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ (٤) عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ (٩) فَأَرَىٰ إِلَىٰ غَيْبِهِ مَا أُوْحَىٰ ۝ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ (١١) أَفَتَرَىٰ عُزْلَةَ عَنَّا مَا رَأَىٰ ۝ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ (١٣) عَنذَ سِدْرَةِ الْاُنْتَىٰ ۝ (١٤) عِندَ جَنَّةِ الْمَأْوَىٰ ۝ (١٥) إِذْ يَنْشَىٰ الْغَدَاةُ مَا يَتَشَىٰ ۝ (١٦) مَا رَآكَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَىٰ ۝ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِن ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ (١٩) وَنَزْلَةَ أَشْجَاتٍ ۝ (٢٠) الْخُفَىٰ ۝ (٢١) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ (٢٢) إِذَا مَسَّ الْغَمُّ الْغَمَّ ۝ (٢٣) إِنَّ فِيَ الْآيَاتِ لَمُبْتَلَىٰ ۝ (٢٤) أَنْتُمْ رِءَاكُكُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَبْهَمُونَ إِلَّا أَنْ لَّهُمْ عِلْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝ (٢٥) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۝ (٢٦) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ (٢٧) فَلِلَّ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝ (٢٨) وَكَرَّرَ مِنْ مَّالِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَنفِي شَعْنَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَدَلٍ ۝ (٢٩) أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِيَهُ ۝ (٣٠)

قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ التعريف للجنس، والمراد به: جنس النجوم، وبه قال جماعة من المفسرين، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

أحسن النجم في السماء الثريا والثريا في الأرض زين النساء
وقيل: المراد به الثريا، وهو اسم غلب فيها، تقول العرب: النجم وتريد به الثريا، وبه قال مجاهد، وغيره، وقال السدي، النجم هنا هو الزهرة؛ لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها، وقيل: النجم هنا: النبات الذي لا ساق له، كما في قوله: ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6] قاله الأخفش. وقيل: النجم محمد ﷺ، وقيل: النجم القرآن، وسمي نجماً لكونه نزل منجماً مفزقاً، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفروق: المنجم، وبه قال مجاهد، والفراء، وغيرهما، والأول أولى. قال الحسن: المراد بالنجم: النجوم إذا سقطت يوم القيامة. وقيل المراد بها: النجوم التي ترجم بها الشياطين، ومعنى هويه: سقوطه من علو، يقال: هوى النجم يهوي هويًا: إذا سقط من علو إلى سفلى، وقيل: غرويه، وقيل: طلوعه، والأول أولى، وبه قال الأصمعي وغيره، ومنه قول زهير:

منه الشمس، وقيل: هو يعني جبريل، والنبى ﷺ بالافق الأعلى ليلة المعراج، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة **﴿ثم بنا فتلى﴾** أي: بنا جبريل بعد استوائه بالافق الأعلى أي: قرب من الأرض فتلى، فنزل على النبى ﷺ بالوحي، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ثم تلى فبنى، قاله ابن الأنباري، وغيره. قال الزجاج: معنى **﴿بنا فتلى﴾** واحد أي: قرب وزاد في القرب؛ كما تقول: فدنا مني فلان وقرب، ولو قلت: قرب مني ودنا جاز. قال الفراء: الفاء في **﴿فتلى﴾** بمعنى الواو، والتقدير: ثم تلى جبريل ودنا، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً أن تقدم أيهما شئت. قال الجمهور: والذي بنا فتلى هو جبريل، وقيل: هو النبى ﷺ والمعنى: دنا منه أمره وحكمه، والأول أولى. قيل: ومن قال: إن الذي استوى هو جبريل، ومحمد فالمعنى عنده: ثم دنا محمد من ربه نذر كرامة، فتلى أي: هوى للسجود، وبه قال الضحاک **﴿فكان قاب قوسين أو أنى﴾** أي: فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ، أو ما بين محمد وربه قاب قوسين أي: قدر قوسين عربيين. والقاب والقيب، والقاد والقيد: المقدار، ذكر معناه في الصحاح. قال الزجاج: أي: فيما تقدرون أنتم، والله سبحانه عالم بمقايير الأشياء، ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا. وقيل: أو بمعنى الواو أي: وإنى، وقيل: بمعنى بل أي: بل أنى. وقال سعيد بن جببر، وعطاء، وأبو إسحاق الهمداني، وأبو وائل شقيق بن سلمة **﴿فكان قاب قوسين﴾**: قدر زراعين، والقوس: النزاع يقاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين، وقيل: هي لغة أزد شنوءة. وقال الكسائي: فكان قاب قوسين أراد قوساً واحدة **﴿فاوحى إلى عبده ما أوحى﴾** أي: فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى، وفيه تفخيم للوحي الذي أوحى إليه، والوحي: إلقاء الشيء بسرعة، ومنه الوحا وهو السرعة، والضمير في عبده يرجع إلى الله، كما في قوله: **﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾** [قاطر: 45] وقيل المعنى: فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى، وبالأول قال الربيع، والحسن، وابن زيد، وقتادة. وقيل: فأوحى الله إلى عبده محمد. قيل: وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد، أو ما أوحاه الله إلى عبده جبريل، أو إلى محمد ولم يبينه لنا، فليس لنا أن نتعرض لتفسيره. وقال سعيد بن جببر: الذي أوحى إليه هو **﴿الم نشرح لك صدرك﴾** [الشرح: 1] إلخ، و **﴿الم يجعل يتيماً فآوى﴾** [الضحى: 6] إلخ. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تسلكها، وعلى الأمم حتى تسلكها أمتك. وقيل: إن ما للعموم لا للإبهام، والمراد: كل ما أوحى به إليه، والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾** أي: ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بصره ليلة المعراج، يقال: كذب إذا قال له الكذب، ولم يصدقه. قال المبرد: معنى الآية: أنه رأى شيئاً فصق فيه، قرأ الجمهور (ما كذب) مخففاً، وقرأ هشام، وأبو جعفر بالتشديد **﴿وما﴾** في **﴿ما رأى﴾** موصولة أو مصدرية في

محل نصب بكذب مخففاً ومشدداً **﴿افتمارونه على ما يرى﴾**. قرأ الجمهور (افتمارونه) بالالف من المماراة، وهي المجادلة والملاحاة، وقرأ حمزة، والكسائي (افتمرونه) بفتح التاء وسكون الميم أي: افتجدونه، واختار أبو عبيد القراءة الثانية. قال: لأنهم لم يماروه، وإنما جحدوه، يقال: مراه حقه أي: جحدوه، ومريته أنا: جحدته، قال: ومنه قول الشاعر: لأن هجوت أخاصق ومكرمة لقد مريت أخاً ما كان يمريكا أي: جحدته. قال المبرد: يقال: أمراه عن حقه، وعلى حقه: إذا منعه منه ودفعه. وقيل: على بمعنى عن، وقرأ ابن مسعود، والشعبي، ومجاهد، والأعرج (افتمرونه) بضم التاء من أمرت أي: اتريبون وتشكون فيه، قال جماعة من المفسرين: المعنى على قراءة الجمهور افتجابلونه، وذلك أنهم جابلوه حين أسري به، فقالوا: صف لنا مسجد بيت المقدس، أي: افتجابلونه جدالاً ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه، واللام في قوله: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾** هي الموطئة للقسم أي: والله لقد رآه نزلة أخرى، والنزلة المرة من النزول، فانتصابها على الظرفية، أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال أي: رأى جبريل نازلاً نزلة أخرى، أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف أي: رآه رؤية أخرى. قال جمهور المفسرين: المعنى أنه رأى محمد جبريل مرة أخرى، وقيل: رأى محمد ربه مرة أخرى بفؤاده **﴿عند سدرة المنتهى﴾** الظرف منتصب برآه، والسر: هو شجر النبق، وهذه السدرة هي في السماء السادسة، كما في الصحيح، وروي أنها في السماء السابعة، والمنتهى: مكان الانتهاء، أو هو مصدر ميمي، والمراد به الانتهاء نفسه، قيل: إليها ينتهي علم الخلاق، ولا يعلم أحد منهم ما وراءها، وقيل: ينتهي إليها ما يعرج به في الأرض، وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء، وقيل غير ذلك. وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه **﴿عندها جنة المأوى﴾** أي: عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم، وقيل: إن أرواح المؤمنين تأوى إليها. قرأ الجمهور (جنة) برفع جنة على أنها مبتدأ، وخبرها الظرف المتقدم. وقرأ علي، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وابن الزبير، وأئس، وزر بن حبيش، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وأبو سبرة الجهني (جنة) فعلاً ماضياً من جنّ يجن أي: ضمه المبيت، أو ستره إيواء الله له، قال الأخفش: أدركه، كما تقول: جنة الليل أي: ستره وأدركه، والجملة في محل نصب على الحال **﴿إن يغشى السدرة ما يغشى﴾** العامل في الظرف رآه أيضاً، وهو ظرف زمان، والذي قبله ظرف مكان، والغشيان بمعنى التغطية والستر، وبمعنى الإتيان يقال: فلان يغشاني كل حين أي: يأتيني، وفي الإبهام في قوله: **﴿ما يغشى﴾** من التفخيم ما لا يخفى، وقيل: يغشاها جراد من ذهب، وقيل: طوائف من الملائكة. وقال مجاهد: رفرغ أخضر، وقيل: رفرغ من طيور خضر، وقيل: غشيتها أمر الله، والمجيء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً

سمرات ببطن نخلة. وقال سعيد بن جبيرة: العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه. وقال قتادة: هي بيت كان ببطن نخلة ﴿ومناة﴾ صنم بني هلال. وقال ابن هشام: صنم هذيل وخزاعة. وقال قتادة: كانت للانصار. قرأ الجمهور (منة) بالغ من نون همزة، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحמיד، ومجاهد، والسلمي بالمد والهمز. فأما قراءة الجمهور، فاشتقاقها من منى بمعنى، أي: صب؛ لأن دماء النساء كانت تصب عندها يتقربون بذلك إليها. وأما على القراءة الثانية، فاشتقاقها من النوء، وهو المطر؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، وقيل: هما لغتان للعرب، ومما جاء على القراءة الأولى قول جرير:

أزيد مناة تواعد يابن تميم تامل أين تاه بك الوعيد
ومما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثي:

ألا هل أتى التيم بن عبد مناة على السرفيما يبين ابن تميم
وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعاً لرسم المصحف، ووقف ابن كثير، وابن محيصن عليها بالهاء. قال في الصحاح: ومناة اسم صنم كان بين مكة والمدينة، والهاء للتانيث، ويسكت عليها بالتاء، وهي لغة، قوله: ﴿الثالثة الأخرى﴾ هذا وصف لمناة، وصفها بأنها ثالثة، وبأنها أخرى، والثالثة لا تكون إلا أخرى. قال أبو البقاء: فالوصف بالأخرى للتأكيد، وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى، والعرب إنما تصف به الثانية، فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رموس الأي كقوله: ﴿مأرب أخرى﴾ [طه: 18] وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: أقرأتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة. وقيل: إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم؛ لأنها كانت عند المشركين عظيمة، وقيل: إن ذلك للتحقير والذم، وإن المراد المتأخرة للوضعية، كما في قوله: ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ [الأعراف: 38] أي: وضعاؤهم لرؤسائهم. ثم كثر سبحانه توبيخهم وتقريعهم بمقالة شتعا قالوها، فقال: ﴿لكم الذكر وله الأنثى﴾ أي: كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث، وتجعلون لأنفسكم ما تحبون من الذكور، قيل: وذلك قولهم إن الملائكة بنات الله، وقيل المراد: كيف تجعلون اللات والعزى ومناة، وهي إناث في زعمكم شركاء لله، ومن شأنهم أن يحتقروا الإناث. ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية، والقسمه المفهومة من الاستفهام قسمة جائرة، فقال: ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ قرأ الجمهور (ضيزى) بياء ساكنة بغير همزة، وقرأ ابن كثير بهمزة ساكنة، والمعنى: أنها قسمة خارجة عن الصواب جائرة عن العدل مائلة عن الحق. قال الأخفش: يقال: ضاز في الحكم أي: جار، وضاز به حقه يضيئه ضيزاً أي: نقصه ويخسه، قال: وقد يهمن، وأنشد:

فلن تناء عنا ننتقصك وإن تغب فححك مضشوز وأنفك راغم
وقال الكسائي: ضاز يضيئ ضيزاً، وضاز يضور ضوزاً؛ إذا تعدى وظلم ويخس وانتقص، ومنه قول الشاعر:

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالنناب

للصورة البديعة، أو للدلالة على الاستمرار التجديدي ﴿ما زاغ البصر﴾ أي: ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه ﴿وما طغى﴾ أي: ما جاوز ما رأى، وفي هذا وصف أئب النبي ﷺ في ذلك المقام، حيث لم يلتفت، ولم يمل بصره، ولم يمد إلى غير ما رأى، وقيل: ما جاوز ما أمر به ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ أي: والله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف، قيل: رأى رفقاً سد الأفق، وقيل: رأى جبريل في حلة خضراء قد ملا ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح، كذا في صحيح مسلم، وغيره، وقال الضحاك: رأى سدره المنتهى، وقيل: هو كل ما رآه تلك الليلة في مسراه وعوده، ومن للتبعيض، ومفعول رأى الكبرى، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً أي: رأى شيئاً عظيماً من آيات ربه، ويجوز أن تكون من زائدة ﴿أقرأتم اللات والعزى﴾ * ومناة الثالثة الأخرى ﴿لما قص الله سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين: موبخاً لهم ومقرعاً﴾ ﴿أقرأتم﴾ أي: أخبروني عن الألهة التي تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها، وهل أوجت إليكم شيئاً، كما أوحى الله إلى محمد، أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع. ثم نكر هذه الأصنام الثلاثة التي اشتهرت في العرب، وعظم اعتقادهم فيها. قال الواحدي وغيره: وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى، فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزى، وهي تانيث الأعر بمعنى العزيزة، ومناة منى الله الشيء إذا قدره. قرأ الجمهور (اللات) بتخفيف التاء، فقيل: هو مأخوذ من اسم الله سبحانه كما تقدم، وقيل: أصله لات يليت فالتاء أصلية، وقيل: هي زائدة، وأصله لوى يلوى؛ لأنهم كانوا يلون أعناقهم إليها، أو يلتون عليها، ويطوفون بها. واختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء، أو بالهاء؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء، ووقف عليها الكسائي بالهاء، واختار الزجاج، والفراء الوقف بالتاء؛ لاتباع رسم المصحف، فإنها تكتب بالتاء، وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، ومنصور بن المعتمر، وأبو الجوزاء، وأبو صالح، وحמיד (اللات) بتشديد التاء، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، فقيل: هو اسم رجل كان يلبث السوق، ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، فهو اسم فاعل في الأصل غلب على هذا الرجل. قال مجاهد: كان رجلاً في رأس جبل يتخذ من لبنها وسمنها حيساً، ويطعم الحاج، وكان ببطن نخلة فلما مات عبده. وقال الكلبي: كان رجلاً من ثقيف له صرمة غنم، وقيل: إنه عامر بن الظرب العدواني، وكان هذا الصنم لثقيف، وفيه يقول الشاعر:

لا ننصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصركم من ليس ينتصر
قال في الصحاح: واللات اسم صنم لثقيف، وكان بالطائف، وبعض العرب يقف عليها بالتاء، وبعضهم بالهاء ﴿والعزى﴾ صنم قريش، وبني كنانة. قال مجاهد: هي شجرة كانت بطفان، وكانوا يعبدونها، فبعث إليها النبي ﷺ خالد بن الوليد، فقطعها، وقيل: كانت شيطانة تأتي ثلاث

جملة تلك أمنياتهم الباطلة، وأطماعهم الفارغة، ثم أكد ذلك، وزاد في إبطال ما يتمنونونه، فقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ وكَم هنا هي الخبرية المفيدة للتكثير ومحلها الرفع على الابتداء، والجملة بعدها خبرها، ولما في كم من معنى التكثير جمع الضمير في شفاعتهم مع أفراد الملك، والمعنى: التوبيخ لهم بما يتمنون، ويطمعون فيه من شفاعاة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها، وكرامتها على الله لا تشفع إلا لمن أنن أن يشفع له، فكيف بهذه الجمادات الفاقدة للعقل والفهم، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ﴾ ﴿لَمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَى﴾ بالشفاعاة له لكونه من أهل التوحيد، وليس للمشركين في ذلك حظ، ولا يأن الله بالشفاعاة لهم ولا يرضاهم؛ لكونهم ليسوا من المستحقين لها.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ قال: إذا انصب. وأخرج ابن المنذر عنه قال: هو الثريا إذا تلت. وأخرج عنه أيضاً قال: أقسم الله أن ما ضل محمد، ولا غوى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿هُوَ مَرَّةٌ﴾ قال: ذو خلق حسن. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود: «أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة: فإنه سأل أن يراه في صورته فأراه صورته، فسد الأفق، وأما الثانية: فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿هُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾»، ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: خلق جبريل. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت جبريل عند سدة المنتهى له ستمائة جناح»، وأخرجه أحمد عنه أيضاً. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿هُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ قال: مطلع الشمس. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قال: «رأى النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح». وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عنه في قوله: ﴿هُمَا كَذِبَ الْفُؤَادِ مَا رَأَى﴾ قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلقاً رفرف أخضر قد ملا ما بين السماء والأرض». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ نَبَأَ فَتَلَّى﴾ قال: هو محمد ﷺ لنا فتلى إلى ربه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عنه قال: «نابا ربه فتلى». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قال: لنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: القاب القيد، والقوسين الذراعين. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما أسري بالنبي ﷺ اقترب

قال الفراء: وبعض العرب يقول: ضئزى بالهمز، وحكى أبو حاتم عن أبي زيد أنه سمع العرب تهمز ضيزى، قال البغوي: ليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت إنما تكون في الأسماء مثل ذكرى، قال المؤرج: كرهوا ضم الضاد في ضيزى، وخافوا انقلاب الياء وأواً وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا في جمع أبيض بيض، وكذا قال الزجاج: وقيل: هي مصدر كنكرى، فيكون المعنى: قسمة ذات جور وظلم، ثم رد سبحانه عليهم بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: ما الأوثان، أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها؛ لأنها لا تبصر ولا تسمع، ولا تعقل ولا تفهم، ولا تضر ولا تنفع، فليست إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآبائكم، قلد الآخر فيها الأول، وتبع في تلك الأبناء الآباء، وفي هذا من التحقير لسانها ما لا يخفى، كما تقول في تحقير رجل: ما هو إلا أسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة معتبرة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا﴾ [يوسف: 40] يقال: سميت زيداً وسميته بزيد، فقوله: سميتموها صفة لأصنام، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام أي: جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء. وقيل: إن قوله: ﴿هِيَ﴾ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة، والأول أولى ﴿هُمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أنزل بها من حجة ولا برهان. قال مقاتل: لم ينزل لنا كتاباً لكم فيه حجة، كما تقولون إنها آلهة، ثم أخبر عنهم بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون فيما نكر من التسمية، والعمل بموجبها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعرافاً عنهم وتحقيراً لشأنهم، فقال: ﴿هُمَا تَهْوَى الْأَنْفُسَ﴾ أي: تميل إليه، وتشتهي من غير التفت إلى ما هو الحق الذي يجب الاتباع له. قرأ الجمهور (يتبعون) بالتحية على الغيبة، وقرأ عيسى بن عمر، وأيوب، وابن مسعود، وابن عباس، والخطاب، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وابن وثاب ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي: البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يتبعون، ويجوز أن يكون اعتراضاً، والأول أولى. والمعنى: كيف يتبعون ذلك، والحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله على لسان رسوله الذي بعثه الله بين ظهرانيهم، وجعله من أنفسهم ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل، والهمزة التي للإنكار، فاضرب عن اتباعهم الظن الذي هو مجرد التوهم، وعن اتباعهم هوى الأنفس، وما تميل إليه، وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم، وتشفع لهم. ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله: ﴿فَلْيَلْهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي: أن أسوأ الآخرة والندنيا بأسرها لله عز وجل، فليس لهم معه أمر من الأمور، ومن

أَعْلَمُ بِمَنِ أَنْفَعُ ﴿١٧﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿١٨﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْتَفَى ﴿١٩﴾ أَصَدُّهُ
عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٢٠﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٢١﴾ وَإِذْ يُرِيدُ الَّذِي
وَلَّى ﴿٢٢﴾ أَنْ نَزِعَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْوَادِيَةِ ﴿٢٣﴾ وَأَنَّ لِلَّذِينَ لَا مَأْسَىٰ ﴿٢٤﴾ وَأَنَّ
سَعْيُهُمْ سَوْفَ يُرَى ﴿٢٥﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ ﴿٢٦﴾ وَأَنَّ إِلَهُكَ رَيْكَ
الْمُنْتَنَىٰ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تسمية الانثى﴾ أي: إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث، وما بعده من الدار الآخرة، وهم الكفار يسمون إلى كفرهم مقالة شنعاء، وجهالة جهلاء، وهي أنهم يسمون الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الانثى، وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله، فجعلوهم إناثًا، وسموهم بنات ﴿وما لهم به من علم﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أي: يسمونهم هذه التسمية، والحال أنهم غير عالمين بما يقولون، فإنهم لم يعرفوهم، ولا شاهدوهم، ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التي يخبر المخبرون عنها، بل قالوا ذلك جهلاً وضلالةً وجراً. وقرئ (ما لهم بها) أي: بالملائكة، أو التسمية ﴿وَأَن يَقْبَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون في هذه المقالة إلا مجرد الظن، والتوهم. ثم أخبر سبحانه عن الظن وحكمه، فقال: ﴿وَأَنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: إن جنس الظن لا يغني من الحق شيئاً من الإغناء، والحق هنا العلم. وفيه دليل على أن مجرد الظن لا يقوم مقام العلم، وأن الظن غير عالم. وهذا في الأمور التي يحتاج فيها إلى العلم، وهي المسائل العلمية؛ لا فيما يكتفي فيه بالظن، وهي المسائل العملية، وقد قدمنا تحقيق هذا، ولا بد من هذا التخصص، فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد، ونحو تلك ظنية، فالعمل بها عمل بالظن، وقد وجب علينا العمل به في مثل هذه الأمور، فكانت ألبه وجوبه العمل به فيها مخصصة لهذا العموم، وما ورد في معناه من الذم؛ لمن عمل بالظن؛ والنهي عن اتباعه ﴿فَاعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ تَكَرُّنًا﴾ أي: أعرض عمن أعرض عن تكرننا، والمراد بالترك هنا القرآن، أو نكر الآخرة، أو نكر الله على العموم، وقيل: المراد بالترك هنا الإيمان، والمعنى: اترك مجاللتهم، فقد بلغت إليهم ما أمرت به، وليس عليك إلا البلاغ، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لم يرد سواها، ولا طلب غيرها بل قصر نظره عليها، فإنه غير متأمل للخير، ولا مستحق للاعتناء بشأنه، ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر أمرهم، فقال: ﴿فَلْيَكُفُّهُمْ عَنِ الْعِلْمِ﴾ أي: إن ذلك التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ليس لهم غيره، ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين. قال الفراء: أي: ذلك قدر عقولهم، ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿فَلْيَكُفُّهُمْ عَنِ الْعِلْمِ﴾ إلى جعلهم للملائكة بنات الله، وتسميتهن لهم تسمية الانثى، والاولى. والمراد بالعلم هنا. مطلق الإدراك الذي يندرج تحته الظن الفاسد، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم،

من ربه، فكان قاب قوسين أو أدنى، ألم ترى إلى القوس ما أقربها من الوتر. وأخرج النسائي، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن عباس ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال: عبده محمد ﷺ. وأخرج مسلم، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي في الاسماء والصفات عنه في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ﴾ قال: رأى محمد ربه بقلبه مرتين. وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مروي. وأخرج ابن مروي عن انس قال: رأى محمد ربه. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه. وأخرج الطبراني، وابن مروي عنه قال: رأى محمد ربه مرتين مرة ببصره، ومرة بفؤاده. وأخرج الترمذي وحسنه، والطبراني، وابن مروي، والبيهقي عنه أيضاً قال: لقد رأى النبي ﷺ ربه عز وجل. وأخرج النسائي، والحاكم وصححه، وابن مروي عنه أيضاً قال: اتعجبون أن تكون الخلعة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد؟ وقد روي نحو هذا عنه من طرق. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن مروي عن أبي نذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه؟. وأخرج مسلم، وابن مروي عنه: «أنه سأل رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: رأيت نوراً». وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره. وأخرج مسلم عن أبي هريرة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ﴾ قال: جبريل. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن المنذر، وابن مروي، والبيهقي عن ابن مسعود قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة ينتهي ما يعرج من الأرواح، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها». وإذا يغشى للسدرة ما يغشى﴾ قال: فراش من ذهب. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال: «الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض السابعة السفلى». وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج. وأخرج الطبراني، وابن مروي عنه أن العزى كانت بطن نخلة، وأن اللات كانت بالطائف، وأن مناة كانت بقيد. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ضِيْزَى﴾ قال: جائرة لا حق لها.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تسمية الانثى ﴿١٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْمُرُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿١٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الظَّلَمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن مَّلَأَ سَدْرَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ أَنْفَعَهُ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَجْعَلُهُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آلِهَةً بَدَلَ اللَّهِ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ أَعِزَّ اللَّهُ لِدِينِهِ إِنَّ رَبَّكَ رَحِيمٌ مُّغْفِرٌ ﴿٢١﴾ هُوَ أَعْلَمُ بِكَ إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْشَأَ لَجَنَةً فِي بُطُونِ امْتِهَانِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ

وقول الآخر:

متى تاتنا تلمع بنا في بيارنا تجد حطباً جراً وناراً تاجراً
قال الزجاج: أصل اللوم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة
بعد المرة، ولا يتعمق فيه، ولا يقيم عليه، يقال: ألممت به: إذا
زرت، وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لماماً وإلماماً أي:
الحين بعد الحين، ومنه إلمام الخيال. قال الأعشى:

ألم خيال من قبيلة بعد ما وفى حبيلها من حبيلنا فتصرماً
قال في الصحاح: ألم الرجل من اللم وهو صفائر
الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير موقعة، وأنشد
غيره:

بزينب ألم قبل أن يرحل الركب وقُلْ أن تملينا فما ملك القلب
وقد اختلفت أقوال أهل العلم في تفسير هذا اللم
المنكور في الآية، فالجمهور على أنه صفائر الذنوب، وقيل:
هو ما كان دون الزنا من القبلة، والغمزة، والنظرة، وقيل: هو
الرجل يلم بذنوب، ثم يتوب، وبه قال مجاهد، والحسن،
والزهري، وغيرهم، ومنه:

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأني عبد لك إلا أئماً
اختار هذا القول الزجاج، والنحاس، وقيل: هو ذنوب
الجاهلية، فإن الله لا يؤاخذ بها في الإسلام، وقال نفطويه:
هو أن يأتي بذنوب لم يكن له بعبادة. قال: والعرب تقول: ما
تاتينا إلا لماماً أي: في الحين بعد الحين، قال: ولا يكون أن
يلم ولا يفعل: لأن العرب لا تقول ألم بنا إلا إذا فعل، لا إذا
هم ولم يفعل، والراجح الأول، وجملة: ﴿إِنْ رِبْكَ وَاسِعٌ
لِلْمَغْفِرَةِ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء أي: إن ذلك وإن خرج
عن حكم المواخذه، فليس يخلو عن كونه ذنباً يفتقر إلى
مغفرة الله، ويحتاج إلى رحمته، وقيل: إنه سبحانه يغفر لمن
تاب عن ذنبه. ثم نكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباد،
فقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ تُلَاحِظُونَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم
منها في ضمن خلق أبيكم آدم. وقيل: المراد آدم، فإنه خلقه
من طين ﴿وَإِذْ لَقِمْتُمْ لِحْجَةً﴾ أي: هو أعلم بأحوالكم وقت
كونكم أجنة، والأجنة جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن
سمي بذلك لاجتنانه أي: استتاره، ولهذا قال: ﴿فِي بَطُونٍ
أَمِهَاتِكُمْ﴾ فلا يسمى من خرج عن البطن جنيناً، والجملة
مستأنفة: لتقرير ما قبلها ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا
تمسحوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تثنوا عليها، فإن ترك
تزكية النفس أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع، وجملة
﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ بِمَنْ اتَّقَى﴾: مستأنفة مقررة للنهي أي: هو أعلم
بمَنْ اتقى عقوبة الله، وأخلص العمل له. قال الحسن: وقد علم
سبحانه من كل نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما
هي صائرة. ثم لما بين سبحانه جهالة المشركين على
العموم خص بالتمّ بعضهم فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾
أي: تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق ﴿وَأَعْطَى
قَلِيلًا وَكَذِبَ﴾ أي: أعطى عطاءً قليلاً، أو أعطى شيئاً قليلاً،
وقطع ذلك وأمسك عنه، وأصل أكدي من الكنية وهي
الصلابة، يقال لمن حفر بئراً ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتيها

وأتباعهم مجرّد الظن، وقيل: معترضة بين المعلل والعلة
وهي قوله: ﴿إِنْ رِبْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾، فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض،
والمعنى: أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق، وأعرض عنه،
ولم يهتد إليه، وأعلم بمن اهتدى، فقبل الحق، وأقبل إليه،
وعمل به، فهو مجاز كل عامل بعمله، إن خيراً، فخير، وإن
شراً فشر. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له بأن لا
يتعب نفسه في دعوة من أصرّ على الضلالة، وسبقت له
الشقاوة، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال، كما علم
حال الفريق الراشد. ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته،
وعظيم ملكه، فقال: ﴿وَهُوَ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك لذلك، والمتمصّر فيه لا يشاركه
فيه أحد، واللام في: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾
متعلقة بما دلّ عليه الكلام، كنهه قال: هو مالك ذلك يضلّ من
يشاء، ويهدي من يشاء ليجزي المسيء بإساءته، والمحسن
بإحسانه. وقيل: إن قوله: ﴿وَهُوَ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ﴾ معترضة، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن
سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي، وقيل: هي لام العاقبة
أي: وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن، والمسيء أن
يجزي الله كلاّ منهما بعمله. وقال مكي: إن اللام متعلقة
بقوله: ﴿لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ [النجم: 26] وهو بعيد من حيث
اللفظ، ومن حيث المعنى. قرأ الجمهور (ليجزي) بالتحية.
وقرأ زيد بن علي بالنون، ومعنى ﴿بِالْحَسَنَى﴾ أي: بالمتوبة
الحسنى، وهي الجنة، أو بسبب أعمالهم الحسنى، ثم وصف
هؤلاء المحسنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَايْرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشِ﴾ فهذا الموصول في محل نصب على أنه نعت
للموصول الأول في قوله: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وقيل: بدل
منه، وقيل: بيان له، وقيل: منصوب على المدح بإضمار
أعني، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم
الذين يجتنبون كبائر الإثم. قرأ الجمهور (كبائر) على الجمع.
وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب (كبير)
على الأفراد، والكبائر: كل ذنب توعده الله عليه بالنار، أو نمّ
فاعله نمّاً شديداً، ولأهل العلم في تحقيق الكبائر كلام طويل.
وكما اختلفوا في تحقيق معناها، وماهيتها، اختلفوا في
عدها، والفواحش جمع فاحشة: وهي ما فحش من كبائر
الذنوب كالزنا، ونحوه. وقال مقاتل: كبائر الإثم كل ذنب ختم
بالنار، والفواحش كل ذنب فيه الحد، وقيل: الكبائر الشرك،
والفواحش الزنا، وقد قُتِمْنَا في سورة النساء ما هو أبسط
من هذا، وأكثر فائدة، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ منقطع،
وأصل اللوم في اللغة ما قلّ وصغر، ومنه ألم بالمكان قلّ
لبث فيه، وألم بالطعام قلّ أكله منه. قال المبرد: أصل اللوم
أن تلمّ بالشيء من غير أن تركبه يقال: ألم بكذا إذا قاربته ولم
يخالطه. قال الأزهري: العرب تستعمل الإلمام في معنى الننؤ
والقرب، ومنه قول جرير:

بنفسني من تجنبه عزيز عليّ ومن زيارته لمام

الأوفى تفسيراً للجزاء الملل عليه بالفعل، كما في قوله: ﴿اعملوا هو أقرب﴾ [المائدة: 8] قال الأخفش: يقال: جزيته الجزء، وجزيته بالجزء سواء لا فرق بينهما ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ أي: المرجع والمصير إليه سبحانه لا إلى غيره، فيجازيهم بأعمالهم.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿النبي يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ قال: الكبائر ما سمي الله فيه النار، والفواحش: ما كان فيه حد الدنيا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصنق ذلك، أو يكذبه». وأخرج عبد الزقاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله: ﴿إلا للمم﴾ قال: زنا العينين: النظر، وزنا الشفتين: التقبيل، وزنا اللبدين: البطش، وزنا الرجلين: المشي، ويصنق ذلك الفرج، أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم. وأخرج مسدد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه سئل عن قوله: ﴿إلا للمم﴾ قال: هي: النظرة، والغمزة، والقبلة، والمباشرة، فإذا مس الختان الختان، فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وأخرج سعيد بن منصور، والترمذي وصححه، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال في قوله: ﴿إلا للمم﴾ هو: الرجل يلم بالفاحشة، ثم يتوب منها. قال: وقال رسول الله ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جمعاً وأني عبد لك لا إله إلا أنا» وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿إلا للمم﴾ يقول: إلا ما قد سلف. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة في قوله: ﴿إلا للمم﴾ قال: اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، فذلك الإلمام. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس قال: اللمم كل شيء بين الحذنين: حد الدنيا، وحد الآخرة يكفره الصلاة، وهو دون كل موجب، فاما حد الدنيا، فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا؛ وأما حد الآخرة، فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخر عقوبته إلى الآخرة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم في المعرفة عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كذب يهود ما من نسمة يخلقها في بطن أمها إلا أنه شقي، أو سعيد، فانزل الله عند ذلك ﴿هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض﴾ الآية كلها». وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت بزة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكو أنفسكم الله أعلم بأهل البر»

له فيه حفر: قد اكدى، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتم، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره، ومنه قول الحطيئة:

فأعطى قليلاً ثم اكدى عطاؤه ومن يبدل المعروف في الناس يحمد قال الكسائي، وأبو زيد، ويقال: كديت أصابعه: إذا ملحت من الحفر، وكدت يده: إذا كلت، فلم تعمل شيئاً، وكدت الأرض: إذا قل نباتها، وكدبت الرجل عن الشيء رددته، وكدى الرجل: إذا قل خير، قال الفراء: معنى الآية: أمسك من العطية وقطع. وقال المبرد: منع منعاً شديداً. قال مجاهد، وابن زيد، ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد أتبع رسول الله ﷺ على دينه، فعيّره بعض المشركين، فترك ورجع إلى شركه. قال مقاتل: كان الوليد مدح القرآن، ثم أمسك عنه، فأعطى قليلاً من لسانه من الخير ثم قطعه. وقال الضحاك: نزلت في النضر بن الحارث. وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب، فهو يعلم ذلك ﴿لم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى﴾ أي: ألم يخبر، ولم يحث بما في صحف موسى يعني: أسفاره، وهي التوراة، وبما في صحف إبراهيم الذي وفى أي: تم وأكمل ما أمر به. قال المفسرون: أي: بلغ قومه ما أمر به وأذاه إليهم، وقيل: بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه، ثم بين سبحانه ما في صحفهما، فقال: ﴿ألا تزرؤا وزر أخرى﴾ أي: لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، وأن هي المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شأن مقدر، وخبرها الجملة بعدها، ومحل الجملة الجز على أنها بدل من صحف موسى، وصحف إبراهيم، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، وقد مضى تفسير هذه الآية في سورة الأنعام ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ عطف على قوله: ﴿ألا تزرؤا﴾ وهذا أيضاً مما في صحف موسى، والمعنى: ليس له إلا أجر سعيه، وجزاء عمله، ولا ينفع أحداً عمل أحد، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه: ﴿الحقنا بهم نزياتهم﴾ [الطور: 21]، وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء، والملائكة للعباد، ومشروعية دعاء الأحياء للأموات، ونحو ذلك، ولم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور، فإن الخاص لا ينسخ العام بل يخصه، فكل ما قام الليل على أن الإنسان ينتفع به، وهو من غير سعيه كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ أي: يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة ﴿ثم يجزأه﴾ أي: يجزئ الإنسان سعيه، يقال: جزأه الله بعمله، وجزاء على عمله، فالضمير المرفوع عائذ إلى الإنسان، والمنصوب إلى سعيه. وقيل: إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر وهو قوله: ﴿الجزء الأوفى﴾ فيكون الضمير راجعاً إلى متأخر عنه هو مفسر له، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعاً إلى الجزاء الذي هو مصدر يجزأه، ويجعل الجزاء

والقاضي بسببه. قال الحسن، والكليبي: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سره، وأبكى من شاء بأن غمه. وقال سهل بن عبد الله: أضحك المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط **﴿وأنه هو أمات وإحيا﴾** أي: قضى أسباب الموت والحياة، ولا يقدر على ذلك غيره، وقيل: خلق نفس الموت والحياة، كما في قوله: **﴿خلق الموت والحياة﴾** [الملك: 2] وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء، وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث، وقيل: المراد بهما النوم واليقظة. وقال عطاء: أمات بعدله وأحيا بفضل، وقيل: أمات الكافر وأحيا المؤمن، كما في قوله: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾** [الأنعام: 122] **﴿وأنه خلق للزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى﴾** المراد: بالزوجين الذكر، والأنثى من كل حيوان، ولا يدخل في ذلك آدم، وحواء، فإنهما لم يخلقا من النطفة والنطفة الماء القليل، ومعنى **﴿إذا تمنى﴾** إذ تصب في الرحم وتدفق فيه، كذا قال الكليبي، والضحاك، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم، يقال: مني الرجل وأمنى أي: صب المنى. وقال أبو عبيدة **﴿إذا تمنى﴾** إذا تقدر، يقال: منيت الشيء: إذا قدرته ومنى له أي: قدر له، ومنه قول الشاعر:

حتى تلاقي ما يمني لك الماني

والمعنى: أنه يقدر منها الولد **﴿وإن عليه النشأة الأخرى﴾** أي: إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده. قرأ الجمهور (النشأة) بالقصر بوزن الضربة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالممد بوزن الكفالة، وهما على القراءتين مصدران **﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾** أي: أغنى من شاء وأقنى من شاء، ومثله قوله: **﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾** [الرعد: 26] وقوله: **﴿يقبض ويبسط﴾** [البقرة: 245] قاله ابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد، وقتادة، والحسن: أغنى: مؤل، وأقنى: لخدم، وقيل: معنى أقنى: أعطى القنية، وهي ما يتأهل من الأموال. وقيل: معنى أقنى: أرضى بما أعطى أي: أغناه ثم رضاه بما أعطاه. قال الجوهري: قنى الرجل قنًى، مثل غني غنى أي: أعطاه ما يقتني، وأقناه أرضاه، والقنى الرضى. قال أبو زيد: تقول العرب: من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى، ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى، ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى. قال الاخفش، وابن كيسان: أقنى أقفر، وهو يؤيد القول الأول **﴿وأنه هو رب الشعري﴾** هي كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعيدها، والمراد بها: الشعري التي يقال لها العبور، وهي أشد ضياء من الشعري التي يقال لها الغميضاء، وإنما نكر سبحانه أنه رب الشعري مع كونه رباً لكل الأشياء للرد على من كان يعبدها، وأول من عبدها أبو كبشة، وكان من اشراف العرب، وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: ابن أبي كبشة تشببها له به لمخالفته دينهم، كما خالفهم أبو كبشة، ومن ذلك قول أبي سفيان يوم الفتح: لقد أمر ابن أبي

منكم سموها زينب». وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: **﴿وأعطي قليلاً واكثى﴾** قال: قطع، نزلت في العاص بن وائل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: أطاع قليلاً ثم انقطع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والشيرازي في الألقاب، والديلمي قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي أمانة عن النبي ﷺ قال: «اتدرون ما قوله: **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: وفى عمل يومه بأربع ركعات كان يصلهن، وزعم أنها صلاة الضحى»، وفي إسناده جعفر بن الزبير، وهو ضعيف. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن عباس قال: سهام الإسلام ثلاثون سهماً لم يتمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال الله: **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾**. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: يقول إبراهيم الذي استكمل الطاعة فيما فعل بآبائه حين رأى الرؤيا، والذي في صحف موسى: **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾** إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح، وأمسى: **﴿فيسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾** [الروم: 17] إلى آخر الآية»، وفي إسناده ابن لهيعة. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن ابن عباس، قال: لما نزلت **﴿والنجم﴾** فبلغ **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾** قال: وفى **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾** إلى قوله **﴿ومن للذكر الأولى﴾**. وأخرج أبو داود، والنحاس كلاهما في التامخ، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه عنه قال: **﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** فانزل الله بعد ذلك: **﴿والذين آمنوا واتبعتهم نزيهتهم بإيمان أحقنا بهم نزيهتهم﴾** [المطور: 21]، فانزل الله الآباء الجنة بصلاح الآباء. وأخرج ابن مريويه عنه أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: **﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** وإن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى استرجع واستكان. وأخرج الدارقطني في الأفراد، والبغوي في تفسيره عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله: **﴿وإن إلى ربك المنتهى﴾** قال: لا فكرة في الرب.

وَأَنَّهُ هُوَ أَشَدُّ وَتَكْرًا ۖ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَكْيَا ۖ وَأَنَّهُ عَلَقَ الرَّجِيَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى ۖ بِنَ تُلْعَقُو إِذَا نَسَخَ ۖ وَأَنَّهُ عَلِيٌّ أَلَمَّ الشَّاةَ الْآخِرَى ۖ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ۖ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الْيَمْرِى ۖ وَأَنَّهُ أَمَلَكَا عَادَا الْأَوَّلَى ۖ وَمَوْرَا قَا أَهْنَى ۖ وَفَمَ نَجَّ بِنَ قَبْلَ يَمِّهِمْ كَاوْأَهْمَ أَهْلَمَ وَأَلْفَقَى ۖ وَالْمَوْنِيَكَا أَمْرَى ۖ فَشَنَّهُمَا مَاعَشَى ۖ فَإِنَّا نَالَهُ رَبِّكَ تَنَمَاوَى ۖ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ الْكَثْرِ الْأَوَّلَى ۖ أَرَفَتِ الْآرَافَى ۖ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ ۖ أَفَنَ هَذَا لَمَكْرِبِ تَجَبَّوْنَ ۖ وَتَضَمَّوْنَ وَلَا تَكُونُونَ ۖ وَأَنَّهُ سَيِّدُونَ ۖ فَاتَّخَذُوا وَاوْءَا عِبَادًا ۖ

قوله: **﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾** أي: هو الخالق لذلك

ليستعزوا لها. قال في الصحاح: أزفت الأزفة: يعني: القيامة، وأزف الرجل عجل، ومنه قول الشاعر:

أزف الترحل غير أن ركبنا لما نزل برحالنا وكان قد

ليس لها من دون الله كاشفة. أي: ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه، وقيل: كاشفة بمعنى انكشاف، والهاء فيها كالهاء في العاقبة والداهية، وقيل: كاشفة بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة كراوية، والأول أولى. وكاشفة صفة لموصوف محذوف، كما ذكرنا، والمعنى: أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها، وأهوالها أحد غير الله، كذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، وغيرهم. ثم وبخهم سبحانه، فقال: ﴿اقمن هذا الحديث تعجبون﴾. المراد بالحديث: القرآن أي: كيف تعجبون منه تكذيباً وتضحكون. منه استهزاء مع كونه غير محل للتكذيب، ولا موضع للاستهزاء ولا تبكون. خوفاً وانزعاجاً لما فيه من الوعيد الشديد، وجملة ﴿وانتم سامدون﴾ في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها، والسمود: الغفلة والسهو عن الشيء، وقال في الصحاح: سمد سموداً رفع رأسه تكبراً، فهو سمد قال الشاعر:

سوامد الليل خفاف الأزواد

وقال ابن الأعرابي: السمود اللهو، والسماد اللاهي، يقال للقينة أسمدينا أي: الهينا بالغناء، وقال المبرد: سامدون خاملون. قال الشاعر:

رمى الحدثن نسوة آل عمرو بمقدار سمدن له سموداً فرد شعورهن السود بيضاً ورد وجوههن البيض سوداً

﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ لما وبخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن، والضحك منه، والسخرية به، وعدم الانتفاع بمواعظه، وزواجه أمر عباده المؤمنين بالسجود لله، والعبادة له، والفاء جواب شرط محذوف أي: إذا كان الأمر من الكفار كذلك، فاسجدوا لله واعبدوا، فإنه المستحق لذلك منكم، وقد تقدم في فاتحة السورة أن النبي ﷺ سجد عند تلاوة هذه الآية، وسجد معه الكفار، فيكون المراد بها سجود التلاوة، وقيل: سجود الفرض.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وانه هو اغنى واقنى﴾ قال: أعطى وأرضى. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿وانه هو رب الشعري﴾ قال: هو الكوكب الذي يدعى الشعري. وأخرج الفلكي عنه أيضاً قال: نزلت هذه الآية في خزاعة، وكانوا يعبدون الشعري، وهو الكوكب الذي يتبع الجوزاء. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ قال: محمد ﷺ. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الأزفة من أسماء القيامة. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿اقمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون﴾، فما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسم.

كبشة ﴿وانه اهلك عاداً الأولى﴾ وصف عاداً بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود. قال ابن زيد: قيل لها عاداً الأولى: لأنهم أول أمة أهلكت بعد نوح. وقال ابن إسحاق: هما عادان، فالأولى أهلكت بالصرصر، والأخرى أهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى قوم هود، وعاد الأخرى إرم. قرأ الجمهور (عاداً الأولى) بالتنوين والهمز، وقرأ نافع، وابن كثير، وابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام، وإدغام التنوين فيها ﴿وثموداً فما أبقى﴾ أي: وأهلك ثموداً كما أهلك عاداً، فما أبقى أحداً من الفريقين، وثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة، وقد تقدم الكلام على عاد، وثمود في غير موضع ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي: وأهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد، وثمود ﴿إنهم كانوا هم أضل وأظلم﴾ أي: أضل من عاد وثمود وأظلم منهم، أو أضل وأظلم من جميع الفرق الكفرية أو أضل وأظلم من مشركي العرب، وإنما كانوا كذلك لأنهم عتوا على الله بالمعاصي مع طول مدة دعوة نوح لهم، كما في قوله: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ [العنكبوت: 14] ﴿وللمؤتفة أهوى﴾ الائتفak الانقلاب، والمؤتفة مدائن قوم لوط، وسميت المؤتفة لأنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها، تقول: أفكته إذا قلبته، ومعنى أهوى أسقط أي: أهواها جبريل بعد أن رفعها. قال المبرد: جعلها تهوي ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي: البسها ما البسها من الحجارة التي وقعت عليها، كما في قوله: ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ [الحجر: 74] وفي هذه العبارة تهويل للأمر الذي غشاها به، وتعظيم له، وقيل: إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة أي: فغشاها من العذاب ما غشى على اختلاف أنواعه ﴿فبأي آلاء ربك تتمازى﴾ هذا خطاب للإنسان المكذب أي: فبأي نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشك وتعتري، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لغيره، وقيل: لكل من يصلح له، وإسناد فعل التمازي إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه، وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء أي: نعماً مع كون بعضها نقماً لا نعماً، لأنها مشتملة على العير والمواظ، ولكون فيها انتقام من العصاة، وفي تلك نصرة للأنبياء والصالحين. قرأ الجمهور (تتمازي) من غير إدغام، وقرأ يعقوب، وابن محيصن بإدغام إحدى التاءين في الأخرى ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدمين قبله، فإنه أنذرهم، كما أنذروا قومهم، كذا قال ابن جريج، ومحمد بن كعب، وغيرهما. وقال قتادة: يريد القرآن، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى، وقيل: هذا الذي أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بالولك، كذا قال أبو مالك. وقال أبو صالح: إن الإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ إلى ما في صحف موسى، وإبراهيم، والأول أولى ﴿أزفت الأزفة﴾ أي: قربت الساعة وابتدت، سماها أزفة لقرب قيامها، وقيل: لدنوها من الناس، كما في قوله: ﴿اقتربت الساعة﴾ [القمر: 1] أخبرهم بذلك

الْوَجْدِ وَدُسِّرَ ﴿١٠﴾ يَحْيَىٰ بِأُمِّيَّتِهِ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴿١١﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿١٢﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقَوْمَانَ لِلَّذِي هُمْ فِي مُذَكِّرٍ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ أي: قربت، ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة ما بقي بعد قيام النبوة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة. ويمكن أن يقال: إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكل أت قريب ﴿وانشق القمر﴾ أي: وقد انشق القمر، وكذا قرأ حنيفة بزيادة قد، والمراد الانشقاق الواقع في أيام النبوة معجزة لرسول الله ﷺ وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. قال الواحدي: وجماعة المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى سينشق القمر، والعلماء كلهم على خلافه. قال: وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر: لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ، ونبوته وزمانه من اشراط اقتراب الساعة. قال ابن كيسان: في الكلام تقويم، وتأخير أي: ﴿انشق القمر﴾، واقتربت الساعة. وحكى القرطبي عن الحسن مثل قول عطاء أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة. وقيل: معنى وانشق القمر: وضح الأمر وظهر، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه، وطلوعه في اثنائها، كما يسمى الصبح فلحاً لانفلاق الظلمة عنه. قال ابن كثير: قد كان الانشقاق في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. قال: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. قال الزجاج: زعم قوم عناؤنا عن القصد، وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة، والأمر بين في اللفظ، وإجماع أهل العلم، لأن قوله: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ يدل على أن هذا كان في الدنيا لا في القيامة انتهى، ولم يأت من خالف الجمهور، وقال إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد، فقال: لأنه لو انشق في زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء. ويجاب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلاً، ولا شرعاً، ولا عادة، ومع هذا، فقد نقل إلينا بطريق التواتر، وهذا بمجرد ينفع الاستبعاد، ويضرب به في وجه قائله.

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله، فقد أخبرنا بأنه انشق، ولم يخبرنا بأنه سينشق، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ، فقد ثبت في الصحيح، وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم، فقد اتفقوا على هذا، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ، واستبعاد من استبعد، وسيأتي ذكر بعض ما ورد في ذلك إن شاء الله ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: لما انشق القمر قال المشركون:

ولفظ عبد بن حميد: فما روي النبي ﷺ ضاحكاً، ولا متبسماً حتى ذهب من الدنيا. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿سامدون﴾ قال: لاهون معرضون عنه. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في ذم الملاحي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عنه ﴿وانتم سامدون﴾ قال: الغناء باليمانية، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا. وأخرج الفريابي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿سامدون﴾ قال: كانوا يمزون على النبي ﷺ شامخين، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخاً. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن أبي خالد الوالبي قال: خرج علي بن أبي طالب علينا، وقد أقيمت الصلاة، ونحن قيام ننظره ليتقدم، فقال: ما لكم سامدون لا أنتم في صلاة ولا أنتم في جلوس تنتظرون؟

تفسير سورة القمر

وهي مكية كلها في قول الجمهور. وقال مقاتل: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿إنهم يقولون نحن جميع منتصر﴾ إلى قوله: ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر: 44 - 46] قال القرطبي: ولا يصح. وأخرج: ابن الضريس، وابن مردويه، والنحاس، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: اقتربت تدعى في التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه. قال البيهقي: منكر. وأخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه: «من قرأ ﴿اقتربت الساعة﴾ [أي: سورة القمر] في كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة، ووجهه كالقمر ليلة البدر». وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه، وقد تقدم: «أن النبي ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة في الأضحية، والقطر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَلَئِن يَرَوْا آيَةً يُرْجَوْا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِجٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمْرٍ مُّسْتَعِجٌ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِيَّةٌ فَمَا تَنَزَّلُ لَهُمْ ﴿٥﴾ فَكُلُّهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّالِغَ إِلَىٰ قَوْمِهِ مُكْرِئٌ ﴿٦﴾ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ فَيُهْلِكُهُمُ الْإِلَاحُ يَوْمَ يَكُونُ الْكُفُورُونَ هَذَا يَوْمَ عِيسَىٰ ﴿٨﴾ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدًا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ﴿٩﴾ فَنَدَّاهُمْ أَنِ امْكُتُوا فَأَنْتَاهُمْ فَنَجَّاهُنَا أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا وَلَوْ كُنْتُمْ مُّشْكِرِينَ ﴿١٠﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١١﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ

محذوف، أو بديل من ما بديل كل من كل، أو بديل اشتغال، والمعنى: أن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ليس فيها نقص ولا خلل، وقرأ بالنصب على أنها حال من ما أي: حال كون ما فيه مزيج حكمة بالغة ﴿فَمَا تَعْنِ النَّذْرُ﴾ ما يجوز أن تكون استفهامية، وأن تكون نافية أي: أي شيء تغني النذر، أو لم تغن النذر شيئاً، والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر، أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر. ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم، فقال: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار، وهي منسوخة بآية السيف ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ انتصاب الظرف إما بفعل مقدر أي: انكر، وإما بيخرجون المنكر بعده، وإما بقوله: ﴿فَمَا تَعْنِ﴾، ويكون قوله: ﴿فَقُولْ عَنْهُمْ﴾ اعتراض، أو بقوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ أو بقوله: ﴿خُشَعَاءُ﴾ وسقطت الواو من يدع اتباعاً للفظ، وقد وقعت في الرسم هكذا، وحذفت الياء من الداع للتخفيف، واكتفاء بالكسرة، والداع هو إسرافيل، والشئ النكر: الأمر الفظيع الذي ينكره استعظاماً له لعدم تقدم العهد لهم بمثله. قرأ الجمهور بضم الكاف. وقرأ ابن كثير بسكونها تخفيفاً. وقرأ مجاهد، وقتادة بكسر الكاف، وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول ﴿خُشَعَاءُ ابْصَارَهُمْ﴾ قرأ الجمهور (خشعاً) جمع خاشع. وقرأ حمزة، والكسائي وأبو عمرو (خاشعاً) على الأفراد، ومنه قول الشاعر:

وشباب حسن أوجههم من إسد بن نزار بن معد
وقرأ ابن مسعود (خاشعة) قال الفراء: الصفة إذا تقدمت على الجماعة جاز فيها التنكير، والتانيث، والجمع يعني: جمع التكسير لا جمع السلامة؛ لأنه يكون من الجمع بين فاعلين، ومثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد
وانتصاب خشعاً على الحال من فاعل يخرجون، أو من الضمير في عنهم، والخشوع في البصر الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأن العز والذل يتبين فيها ﴿يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: يخرجون من القبور، وواحد الأجداث جراد، وهو القبر، كأنهم لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر أي: منبث في الأقطار مختلط بعضهم ببعض ﴿مَهْطَعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الإطاع: الإسراع أي: قال كونهم مسرعين إلى الداعي، وهو إسرافيل، ومنه قول الشاعر:

بجلة دارهم ولقد أراهم بجلة مهطعين إلى السماع
أي: مسرعين إليه، وقال الضحاك: مقبلين، وقال قتادة: عامدين. وقال عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت، والأول أولى، وبه قال أبو عبيدة، وغيره، وجملة: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسَرٍ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿مَهْطَعِينَ﴾، والرباط مقدر، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر؛ كأنه قيل: فماذا يكون حينئذ، والعسر: الصعب الشديد، وفي إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد

سحرنا محمد، فقال الله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ يعني: انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها، ويقولوا: سحر قوي شديد يعلو كل سحر، من قولهم استمر الشيء: إذا قوي واستحكم، وقد قال بأن معنى مستمر: قوي شديد جماعة من أهل العلم. قال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدة فتله، وبه قال أبو العالية، والضحاك، واختاره النحاس، ومنه قول لقيط:

حتى استمر على شر لا يزنه صدق العزيمة لارثاً ولا ضرعاً
وقال الفراء، والكسائي، وأبو عبيدة: ﴿سحر مستمر﴾ أي: ذاهب، من قولهم مر الشيء، واستمر: إذا ذهب، وبه قال قتادة، ومجاهد، وغيرهما، واختاره النحاس. وقيل: معنى ﴿مستمر﴾: دائم مطرد، ومنه قول الشاعر:

الا إنما الدنيا ليالٍ وأعصر وليس على شيء قديم بمستمر
أي: بدائم باق، وقيل: مستمر باطل، روي هذا عن أبي عبيدة أيضاً. وقيل: يشبه بعضه بعضاً، وقيل: قد مر من الأرض إلى السماء، وقيل: هو من المرارة يقال: مر الشيء صار مرّاً أي: مستبشع عندهم. وفي هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان، كما قررناه سابقاً. ثم نكر سبحانه تكذيبهم، فقال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: وكذبوا رسول الله، وما عابوا من قدرة الله، واتبعوا أهواءهم، وما زينه لهم الشيطان الرجيم، وجملة: ﴿وَكُلَّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٍّ﴾ مستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب، واتباع الأهواء أي: وكل أمر من الأمور منته إلى غاية، فالخير يستقر باهل الخير، والشر يستقر باهل الشر. قال الفراء: يقول يستقر قرار تكذيبهم، وقرار قول المصنفين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب. قال الكلبي: المعنى لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فسيظهر، وما كان منه في الآخرة فسيعرف. قرأ الجمهور (مستقر) بكسر القاف، وهو مرتفع على أنه خبر المبتدأ وهو ﴿كُلَّ﴾. وقرأ أبو جعفر، وزيد بن علي بجر (مستقر) على أنه صفة لأمر، وقرأ شيبه بفتح القاف، ورويت هذه القراءة عن نافع. قال أبو حاتم: ولا وجه لها، وقيل: لها وجه بتقدير مضاف محذوف أي: وكل أمر نو استقرار، أو زمان استقرار، أو مكان استقرار، على أنه مصدر، أو ظرف زمان، أو ظرف مكان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْجِرٌ﴾ أي: ولقد جاء كفار مكة، أو الكفار على العموم من الأنبياء، وهي أخيار الأمم المكذبة المقصودة علينا في القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْجِرٌ﴾ أي: ازنجار على أنه مصدر ميمي، يقال زجرت: إذا نهيت عن السوء ووعظته، ويجوز أن يكون اسم مكان، والمعنى: جاءهم ما فيه موضع ازنجار أي: أنه في نفسه موضع لذلك، وأصله مزجج، وتاء الافتعال تقلب دالاً مع الزاي والدال، والذال، كما تقرر في موضعه، وقرأ زيد بن علي (مزجج) بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي في الزاي، ومنه في قوله: ﴿مَنْ الْأَنْبَاءِ﴾ للتبويض وهي وما نخلت عليه في محل نصب على الحال، وارتفاع ﴿حِكْمَةً بِالْفَاءِ﴾ على أنها خبر مبتدأ

التي تشدُّ بها الألواح واحدها دسار، وكل شيء أدخل في شيء يشده فهو الدسر، وكذا قال قتادة، ومحمد بن كعب، وابن زيد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وقال الحسن، وشهر بن حوشب، وعكرمة: الدسر ظهر السفينة التي يضربها الموج، سميت بذلك لأنها تدر الماء أي: تدفعه، والدسر الدفع. وقال الليث: الدسار خيط تشدُّ به ألواح السفينة. قال في الصحاح: الدسار واحد الدسر وفي خيوط تشدُّ بها ألواح السفينة، ويقال: هي المسامير **﴿تجري بأعيننا﴾** أي: بمنظر ومراى منا وحفظ لها، كما في قوله: **﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾** [هود: 37] وقيل: بأمرنا وقيل: بوحينا، وقيل: بالأعين النابعة من الأرض، وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها **﴿جزاء لمن كان كفراً﴾** قال الفراء: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائهم، وإغراقهم ثواباً لمن كفر به وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، فإنه كان لهم نعمة كفروها، فان تصاب جزءا على العلة، وقيل: على المصدورية بفعل مقتر أي: جازيناهم جزءا. قرأ الجمهور (كفر) مبنياً للمفعول، والمراد به نوح. وقيل: هو الله سبحانه، فإنهم كفروا به، وجحدوا نعمته. وقرأ يزيد بن رومان، وقاتدة، ومجاهد، وحديد، وعيسى (كفر) بفتح الكاف، والفاء مبنياً للمفعول أي: جزءا وعقاباً لمن كفر بالله **﴿ولقد تركناها آية﴾** أي: السفينة تركها الله عبرة للمعتبرين، وقيل المعنى: ولقد تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة، وموعظة **﴿فهل من منكر﴾** أصله منكر، فأبيلت التاء دالاً مهملة، ثم أبيلت المعجمة مهملة لتقاربهما، وأدغمت الدال في الذال، والمعنى: هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية، ويعتبر بها **﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾** أي: إنذاري. قال الفراء: الإنذار والنذر مصدران، والاستفهام للتوهيل والتعجيب أي: كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف، وقيل: نذر جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾** أي: سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، وقيل: هيأناه للتذكر والاعتاظ **﴿فهل من منكر﴾** أي: متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره، وفي الآية الحث على درس القرآن، والاستكثار من تلاوته، والمسارة في تعلمه، و**﴿مذكر﴾** أصله منكر، كما تقدم قريباً.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقيتين حتى راوا حراء بينهما». وروي عنه من طريق أخرى عند مسلم، والترمذي، وغيرهم وقال: فنزلت: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾** وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا». وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عنه قال: رايت القمر منشقاً شقيتين مرتين: مرة بمكة قبل أن يخرج النبي ﷺ: شقة على

على المؤمنين. ثم نكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدم من الأنبياء المجملة فقال: **﴿كنيت قبلهم قوم نوح﴾** أي: كنابوا نبيهم، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، وقوله: **﴿فكنبوا عينا﴾** تفسير لما قبله من التكنيب المبهم، وفيه مزيد تقرير، وتأكيد أي: فكنبوا عينا نوحاً، وقيل المعنى: كنبت قوم نوح الرسل، فكنبوا عينا نوحاً بتكنيبهم للرسل فإنه منهم. ثم بين سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرد التكنيب، فقال: **﴿وقالوا مجنون﴾** أي: نسبوا نوحاً إلى الجنون، وقوله: **﴿وازجر﴾** معطوف على **﴿قالوا﴾** أي: وزجر عن دعوى النبوة، وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر، والدال بدل من تاء الافتعال، كما تقدم قريباً، وقيل: إنه معطوف على **﴿مجنون﴾** أي: وقالوا إنه أذجر أي: أذجرته الجن، وذهبت بلبه، والأول أولى. قال مجاهد: هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر وزجر بالسب وأنواع الأذى. قال الرازي: وهذا أصح؛ لأن المقصود تقوية قلب النبي ﷺ بذكر من تقدمه **﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾** أي: دعا نوح ربه على قومه بأن ي مغلوب من جهة قومي، لتمردهم عن الطاعة، وزجرهم لي عن تبليغ الرسالة، فانتصر لي أي: انتقم لي منهم. طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لما آيس من إجابتهم، وعلم تمردهم وعوهم، وإصرارهم على ضلالتهم. قرأ الجمهور (الني) بفتح الهمزة أي: بأنني. وقرأ ابن أبي إسحاق، والأعمش بكسر الهمزة، ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول أي: فقال. ثم نكر سبحانه ما عاقبهم به فقال: **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾** أي منصّب انصباباً شديداً، والهمز: الصبّ بكثرة، يقال: همر الماء والدمع يهمر همرأ، وهموراً: إذا كثر، ومنه قول الشاعر: أعينني جوداً بالدموع الهوامر على خير باد من معدّ وحاضر ومنه قول امرئ القيس يصف عينا:

راح تمرّ به الصبا ثم انتحى فيه بشؤبوب جنوب منهمر
قرأ الجمهور (فتحنا) مخففاً. وقرأ ابن عامر، ويعقوب بالتشديد **﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾** أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة، والأصل فجرنا عيون الأرض. قرأ الجمهور (فجرنا) بالتشديد. وقرأ ابن مسعود، وأبو حيوة، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف. قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها، فتفجرت بالعيون **﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾** أي: التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم أي: كائنأ على حال قدرها الله وقضى بها. وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يرد أحدهما على الآخر، بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء. قال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يغرقوا. وقرأ الجحدري (فالتقى المان) وقرأ الحسن (فالتقى الماوان) ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب، ومحمد بن كعب **﴿وحملناه على ذات ألواح ونسر﴾** أي: وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح، وهي الأخشاب العريضة **﴿ونسر﴾** قال الزجاج: هي المسامير

نَحْضَرُ ﴿١٥﴾ قَاتِلَا سُلَيْمٍ قَتَلْتُمَا هَازِلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّمَةً رَّجُلًا تَكَاثُرُوا بِهِ لِيُحْيِيَ اللَّحْظِيرَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ يَمَنَّا الْفَرَّانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكَرٍ ﴿١٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٢٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاسِبًا ﴿٢١﴾ إِلَّا مَا لَ لُوطٍ بَخْتِهِمْ إِيَّاهُ ﴿٢٢﴾ يَتَمَتَّعُ مِنْ غَدَاةٍ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ طُغْيَانًا غَمَارًا يُلْأَثَرُ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ مَيْمُونِهِ فَلَكَسَتْ أَبْصَابُهُمْ فَنَذَرْنَاهُ غَدَابًا مُعْتَزِّلًا ﴿٢٥﴾ فَذَرُونَا إِنَّا نَحْنُ الْمُغْنِيانَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ يَمَنَّا الْفَرَّانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكَرٍ ﴿٢٧﴾ وَنَذِيرٌ ﴿٢٨﴾

قوله: ﴿كذبت عاد﴾ هم: قوم عاد ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي: فاسمعوا كيف كان عذابي لهم وإنذارني إياهم، ونذر مصدر بمعنى إنذار، كما تقدم تحقيقه، والاستفهام للتهويل، والتعظيم ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا﴾ هذه الجملة مبنية لما أجمله سابقا من العذاب، والصرصر شدة البرد أي: ريح شديدة البرد، وقيل: للصرصر شدة الصوت، وقد تقدم بيانه في سورة حم السجدة ﴿في يوم نحس مستمر﴾ أي: دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه، وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم، قال الزجاج: قيل: في يوم الأربعاء في آخر الشهر. قرأ الجمهور (في يوم نحس) بإضافة يوم إلى نحس مع سكون الحاء، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، أو على تقدير مضاف أي: في يوم عذاب نحس. وقرأ الحسن بتووين (يوم) على أن نحس صفة له. وقرأ هارون بكسر الحاء. قال الضحاك: كان ذلك اليوم مرأ عليهم. وكذا حكى الكسائي عن قوم أنهم قالوا: هو من المرارة، وقيل: هو من المرة بمعنى القوة أي: في يوم قوي الشؤم مستحكمه كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه، والظاهر أنه من الاستمرار، لا من المرارة، ولا من المرة أي: دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم، وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم، وجملة ﴿تفرغ الناس﴾: في محل نصب على أنها صفة لريحا، أو حال منها، ويجوز أن يكون استثناء أي: تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها. قال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتتق أعناقهم، وتبين رؤوسهم من أجسادهم، وقيل: تنزع الناس من البيوت، وقيل: من قبورهم؛ لأنهم حفروا حفائر وبخلوها ﴿كانهم أعجاز نخل منقعر﴾ الأعجاز جمع عجز، وهو مؤخر الشيء، والمنقعر: المنقطع المنقلع من أصله، يقال: قعرت النخلة: إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط، شبههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح، وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست لها رؤوس، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً، ثم كتبتهم على وجوههم، وتذكير منقعر مع كونه صفة أعجاز نخل وهي: مؤنثة اعتباراً باللفظ، ويجوز تأنيثه اعتباراً بالمعنى، كما قال: ﴿اعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة: 7] قال المبرد: كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً. وقيل: إن النخل والنخيل ينكر ويؤنث ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ قد تقدم تفسيره

أبي قبيس، وشقة على السويداء. ونكر أن هذا سبب نزول الآية. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم عنه أيضاً قال: رأيت القمر وقد انشق، وأبصرت الجبل بين فرجتي القمر. وله طرق عنه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمن النبي ﷺ. وله طرق عنه. وأخرج مسلم، والترمذي، وغيرهما عن ابن عمر في قوله: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ قال: كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فرقتين: فرقة من لون الجبل، وفرقة خلفه، فقال النبي ﷺ: اللهم اشهد. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي عن جبير بن مطعم عن أبيه في قوله: ﴿وانشق القمر﴾ قال: انشق القمر، ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن مروي، وأبو نعيم عن عبد الرحمن السلمي قال: «خطبنا حنيفة بن اليمان بالمداخن، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، إلا وإن الساعة قد اقتربت، إلا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ، إلا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، اليوم المضمار وغدا السباق». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مهطعين﴾ قال: ناظرين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿فففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ قال كثير: لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم، ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى المأان. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿على ذات ألواح ودسر﴾ قال: الألواح ألواح السفينة، والدسر: معارضها التي تشد بها السفينة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿ودسر﴾ قال: المسامير. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه قال: الدسر كللك السفينة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والبيهقي عنه أيضاً في قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ قال: لولا أن الله يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله. وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿فهل من منكر﴾ قال: هل من متذكر.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿١٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَرْمِراً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٦﴾ تَفَزَّعَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَعْتَابًا تَفَزَّعَ نَحْلٌ وَفَتِيرٌ ﴿١٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ يَمَنَّا الْفَرَّانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكَرٍ ﴿١٩﴾ كَذَّبَتْ نَمُودُ وَالنَّذِيرُ ﴿٢٠﴾ فَقَالُوا ابْنُوا لَنَا رِجَالًا نَبْعُمَهُمْ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا سَبَلَنَا وَشَرُّهُ ﴿٢١﴾ أَلَيْسَ الْذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيِّنَاتٍ لَوْ أَنَّهُ كَذَّابٌ أَتَى ﴿٢٢﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَكْبَرِ ﴿٢٣﴾ إِنَّا مَرْيَلُوا أَلْفَاةً فَتَنَّا لَهُمْ فَأَفْزَعَهُمْ وَأَمْلَحَهُمْ ﴿٢٤﴾ وَنَبَيَّهُمْ أَنَّ الْكَلِمَةَ فِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ

لقومه، وجملة: ﴿إنا مرسلوا الناقة﴾ مستأنفة لبيان ما تقدم إجماله من الوعيد أي: إنا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه ﴿فتنة لهم﴾ أي: ابتلاء وامتحاناً، وانتصاب فتنة على العلة ﴿فارتقبهم﴾ أي: انتظر ما يصنعون ﴿واصطبر﴾ على ما يصيبك من الأذى منهم ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي: بين ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ [الشعراء: 155] وقال: ﴿نبئهم﴾ بضمير العقلاء تغليظاً لكل شرب محتضر الشرب بكسر الشين الحظ من الماء. ومعنى ﴿محتضر﴾: أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوماً، وهم يحضرونه يوماً. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون. قرأ الجمهور (قسمة) بكسر القاف بمعنى مقسوم، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها ﴿فناولوا صاحبهم﴾ أي: نادى ثمود صاحبهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها ﴿فتعاطى فعقر﴾ أي: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر. قال محمد بن إسحاق: كمن لها في أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، ثم شد عليها بالسيف، فكسر عرقوبها، ثم نحرها، والتعاطى: تناول الشيء بتكلف ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ قد تقدم تفسيره في هذه السورة. ثم بين ما أجمله من العذاب فقال: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة﴾ قال عطاء: يريد صيحة جبريل، وقد مضى بيان هذا في سورة هود، وفي الأعراف ﴿فكانوا كهشيم المحتظر﴾ قرأ الجمهور بكسر الظاء، والهشيم: حطام الشجر ويابس، والمحتظر: صاحب الحظيرة، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرِّيح، يقال: احتظر على غنمه: إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض. قال في الصحاح: والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة. وقرأ الحسن، وقتادة، وأبو العالية بفتح الظاء أي: كهشيم الحيرة، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة ومعنى الآية: أنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة، وداسته الغنم بعد سقوطه، ومنه قول الشاعر:

أثرن عجابه كخضن نار تشب بغرقد بال هشيم
وقال قتادة: هو العظام النخرة المحترقة. وقال سعيد بن جببر: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصي. قال ابن زيد: العرب تسمي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً، ومنه قول الشاعر:

ترى جيف المطي بجانيبه كأن عظامها خشب الهشيم
﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مكور﴾ قد تقدم تفسير هذا في هذه السورة. ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كنوا رسل الله، كما كنهم غيرهم، فقال: ﴿كنيت قوم لوط بالنذر﴾ وقد تقدم تفسير النذر قريباً. ثم بين سبحانه

قريباً، وكذلك قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مكور﴾، ثم لما نكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود، فقال: ﴿كنيت ثمود بالنذر﴾ يجوز أن يكون جمع نذير أي: كذبت بالرسل المرسلين إليهم، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإنذار أي: كذبت بالإنذار الذي أنذروا به، وإنما كان تكذيبهم لرسلهم وهو صالح تكنيياً للرسل؛ لأن من كذب واحداً من الأنبياء فقد كذب سائرهم؛ لاتفاقهم في الدعوة إلى كليات الشرائع ﴿فقالوا ابشراً منا ولحداً نتبعه﴾ الاستفهام للإنكار أي: كيف نتبع بشراً كائنًا من جنسنا منفرداً وحده لا متابع له على ما يدعو إليه. قرأ الجمهور بنصب (بشراً) على الاشتغال أي: أتتبع بشراً واحداً. وقرأ أبو السمال، والداني، وأبو الأشهب، وابن السميع بالرفع على الابتداء، وواحدًا صفة، ونتبعه خبره. وروي عن أبي السمال أنه قرأ برفع (بشراً) ونصب (واحدًا) على الحال ﴿إنا إذا لفي ضلال﴾ أي: إنا إذا اتبعناه لفي خطأ، وذهب عن الحق ﴿وسعر﴾ أي: عذاب وعناء وشدة كذا قال الفراء، وغيره. وقال أبو عبيدة: هو جمع سعير، وهو لهب النار، والسعر: الجنون يذهب كذا وكذا لما يلتهب به من الحدة. وقال مجاهد: وسعر ويعد عن الحق. وقال السدي: في احتراق، وقيل المراد به هنا: الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة أي: كانت من شدة نشاطها مجنونة، ومنه قول الشاعر يصف ناقة:

تخال بها سعراً إذ السعر هذا نميل وليقاع من السير متعب
ثم كذبوا الإنكار والاستبعاد فقالوا: ﴿ألقي للذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف خص من بيننا بالوحي والنبوّة، وفينا من هو أحقّ بذلك منه؟ ثم أضربوا عن الاستنكار، وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذاباً أشراً فقالوا: ﴿بئس هو كذاب فشر﴾ والأشهر: المرح والنشاط، أو البطر والتكبر، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام، ومنه قول الشاعر:

أشرم بليس الخزلما لبستم ومن قبل لا ترون من فتح القرى
قرأ الجمهور (أشر) كفرح. وقرأ أبو قلابه، وأبو جعفر بفتح الشين، وتشديد الزاء على أنه أفعال تفضيل، ونقل الكسائي عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة. ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ والمراد بقوله ﴿غداً﴾: وقت نزل العذاب بهم في الدنيا، أو في يوم القيامة جراً على عادة الناس في التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر وإن بعد، كما في قولهم: إن مع اليوم غداً، وكما في قول الحطيئة:

للموت فيها سهام غير مخطئة من لم يكن ميتاً في اليوم ملك غدا
ومنه قول أبي الطماح:

ألا عللاني قبل نوح النوائج وقبل اضطراب النفس بين الجوانح
وقبل غدا يلهف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائح
قرأ الجمهور (سيعلمون) بالتحية إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحزمة بالفوقية على أنه خطاب من صالح

المنذر عنه ﴿كانهم أعجاز نخل﴾ قال: أصول النخل ﴿منقعر﴾ قال: منقلع. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: أعجاز سواد النخل. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿وسعر﴾ قال شقاء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: ﴿كهشيم للمحتظر﴾ قال: كحظائر من الشجر محترقة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: كالعظام المحترقة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه قال: كالخشيش تاكله الغنم.

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّبَتْ لَهُمُ النَّحْلُ أَنْذَرَهُمْ مُّوسَى ﴿٢﴾ أَكْفَرْتُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَنَّ لَكُمْ بَرَكَةً فِي الزَّيْتِ ﴿٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ شُبُهْرٌ ﴿٤﴾ سَيَهْرَمُ الْخَمْرُ وَيَقُولُونَ الْذَّبُّ ﴿٥﴾ بِي السَّامَةِ مَوَدُّهُمْ وَالسَّامَةُ أَدْنَى وَأَمْرٌ ﴿٦﴾ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِهِ وَسُحَّرُوا بِرِيمَ يُسْحَرُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُرْقًا مِّنْ سَفَرٍ ﴿٧﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٨﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذَكِّيرٍ ﴿١٠﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿١١﴾ وَكُلُّ صَفِيرٍ مُّكْبِرٍ مُّسْتَطَرٍ ﴿١٢﴾ إِنَّ لِلَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ وَبَرٍّ ﴿١٣﴾ فِي مَقَرٍّ يَصِدَّقُوا فِيهِ لِيَكُونَ لَهُمْ مَقَرٌّ مِّنْهُمْ

﴿النذر﴾ يجوز أن يكون جمع نذير، ويجوز أن يكون مصدر بمعنى الإنذار كما تقدم، وهي الآيات التي أنذرهم بها موسى، وهذا أولى لقوله: ﴿كتبوا بآياتنا كلها﴾ فإنه بيان لذلك، والمراد بها: الآيات التسع التي تقدم نكرها ﴿فأخفناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ أي: أخذناهم بالعذاب أخذ غالب في انتقامه قاصر على إهلاكهم لا يعجزه شيء، ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال: ﴿أفكاركم خير من أولئكم﴾ والاستفهام للإنكار، والمعنى النفي أي: ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا مشعر العرب خير من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم، فكيف تطمعون في السلامة من العذاب، وأنتم شر منهم. ثم أضرب سبحانه عن ذلك، وانتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيته بالوجه الأول، فقال: ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ والزبر هي الكتب المنزلة على الأنبياء، والمعنى: إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله في شيء من كتب الأنبياء، ثم أضرب عن هذا التبكيته، وانتقل إلى التبكيته لهم بوجه آخر، فقال: ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ أي: جماعة لا تطلق لكثرة عدنا وقوتنا، أو أمرنا مجتمع لا تغلب، وأفرد منتصراً اعتباراً بلفظ جميع. قال الكلبي: المعنى نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿سيهزم الجمع﴾ أي: جمع كفار مكة، أو كفار العرب على العموم. قرأ الجمهور (سيهزم) بالتحية مبنياً للمفعول. وقرأ ورش عن يعقوب (سنهزم) بالنون وكسر الزاي ونصب (الجمع). وقرأ أبو حية، وابن أبي عبيدة بالتحية مبنياً للفاعل، وقرأ بالفوقية مبنياً للفاعل ﴿ويقولون الجبر﴾ قرأ الجمهور (يولون) بالتحية، وقرأ عيسى، وابن أبي إسحاق، وورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب، والمراد بـ ﴿الجبر﴾: الجنس، وهو في معنى الإبداء،

ما عنهم به، فقال: ﴿إننا أرسلنا عليهم حاصباً﴾ أي: ريحاً ترميهم بالحصباء، وهي الحصى. قال أبو عبيدة، والنضر بن شميل: الحاصب الحجارة في الريح. قال في الصحاح: الحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء، ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربها بحاصب كنديف القطن منثور
﴿إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾ يعني: لوطاً ومن تبعه، والسحر آخر الليل، وقيل: هو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار، وانصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة، ولو قصد معيناً لامتنع. كذا قال: الزجاج، والأخفش، وغيرهما. وانتصاب ﴿نعمة من عنيها﴾ على العلة، أو على المصدورية أي: إنعاماً منا على لوط، ومن تبعه ﴿كنلك نجزي من شكر﴾ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعمتنا، ولم يكفرها ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا﴾ أي: أنذر لوط قومه بطشة الله بهم، وهي عذابه الشديدة، وعقوبته البالغة ﴿فتصاروا بالنذر﴾ أي: شكوا في الإنذار ولم يصدقوه، وهو تفاعلوا من المرية، وهي الشك ﴿ولقد راووه عن ضيفه﴾ أي: أرادوا منه تمكينهم ممن آتاه من الملائكة ليفجروا بهم، كما هو دأبهم، يقال راووته عن كذا مراودة ورواد أي: أريته، وراد الكلام يروده رواد أي: طلبه، وقد تقدم تفسير المراودة مستوفى في سورة هود ﴿فطمسنا أعينهم﴾ أي: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شيئاً، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم، فلم يروا الرسل، فرجعوا ﴿فتنوقوا عذابي ونذر﴾ قد تقدم تفسيره في هذه السورة ﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر﴾ أي: أتاهم صباحاً عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم. قال مقاتل: استقر بهم العذاب بكرة، وانصرف (بكرة) لكونه لم يرد بها وقتاً بعينه، كما سبق في (بسحر). ﴿فتنوقوا عذابي ونذر﴾ * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من منكرو؟ قد تقدم تفسير هذا في هذه السورة، ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إننا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ قال: باردة ﴿في يوم نحس﴾ قال: أيام شداد. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»، وأخرجه عنه ابن مروي عن وجه آخر مرفوعاً. وأخرجه ابن مروي عن علي مرفوعاً. وأخرجه ابن مروي أيضاً عن أنس مرفوعاً، وفيه «قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: أغرق الله فيه فرعون وقومه، وأهلك فيه عاداً، وثموداً». وأخرج ابن مروي، والخطيب بسند. قال السيوطي: ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر». وأخرج ابن

عثمان البتي (في مقاعد صدق).

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿اكفاركم خير من أولئككم﴾ يقول: ليس كفاركم خير من قوم نوح، وقوم لوط. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عنه في قوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون السبر﴾ قال: كان ذلك يوم بدر قالوا: ﴿نحن جميع منتصر﴾ فنزلت هذه الآية. وفي البخاري، وغيره عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال، وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً، فأخذ أبو بكر بيده، وقال: حسبك يا رسول الله الححت على ربك، فخرج، وهو يثب في الدرع، ويقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون السبر﴾ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾. وأخرج مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس». وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ قال: مسطور في الكتاب اهـ.

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية. قال القرطبي: كلها في قول الحسن، وعروة بن الزبير، وعكرمة، وعطاء، وجابر قال: قال ابن عباس: لا آية منها، وهي قوله: ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ [الرحمن: 29] الآية. وقال ابن مسعود، ومقاتل: هي منية كلها، والأول أصح، ويدل عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزل بمكة سورة الرحمن. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة ﴿الرحمن﴾ علم القرآن بمكة. وأخرج أحمد، وابن مردويه. قال السيوطي: بسند حسن عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قيل أن يصعد بما يؤمر، والمشركون يسمعون: ﴿فبأي آلاء ربكما تكدبان﴾ ويؤيد القول الثاني ما أخرجه ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بالمدينة، ويمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة، وبعضها بالمدينة. وأخرج الترمذي، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه. فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: ما لي أراكم سكوتاً لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم كلما أتيت على قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكدبان﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد». قال الترمذي بعد

وقد هزمهم الله يوم بدر، ولولا الألبار، وقتل رؤساء الشرك، وأساطين الكفر، فله الحمد ﴿بل الساعة موعدهم﴾ أي: موعد عذابهم الآخروي، وليس هذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل والأسر والقهر، وهو تمام ما وعدوا به من العذاب، وإنما هو مقدمة من مقدماته وطلعيته من طلائعه، ولهذا قال: ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ أي: وعذاب الساعة أعظم في الضرر وأفظع، مأخوذ من الدهاء، وهو النكر والفظاعة، ومعنى أمر: أشد مرارة من عذاب الدنيا، يقال: دهاه أمر كذا أي: أصابه دهواً ودهياً ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ أي: في ذهاب عن الحق وبعد عنه، وقد تقم في هذه السورة تفسير ﴿وسعر﴾، فلا نعيده ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ والظرف منتصب بما قبله أي: كائنون في ضلال، وسعر يوم يسحبون، أو بقول مقتر بعده أي: يوم يسحبون يقال لهم: ﴿نوقوا مس سقر﴾ أي: قاسوا حرماً وشدة عذابها، وسقر علم لجهنم. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بإدغام سين (مس) في سين (سقر) ﴿إننا كل شيء خلقناه بقدر﴾ قرأ الجمهور بنصب (كل) على الاشتغال. وقرأ أبو السماك بالرفع، والمعنى: أن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبساً بقدر قدره، وقضاء قضاه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، والقدر التقدير، وقد قدمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي: إلا مرة واحدة، أو كلمة واحدة كلمح بالبصر في سرعتها، والملح: النظر على العجلة والسرعة. وفي الصحاح لمحه والمحه: إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم للمحه. قال الكلبي: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر ﴿ولقد أهلكنا نسياً﴾ أي: أشباهكم ونظراءكم في الكثر من الأمم، وقيل: أتباعكم وأعاونكم ﴿فهل من منكر﴾ يتنكر ويتعظ بالمواعظ، ويعلم أن ذلك حق، فيخاف العقوبة، وأن يحل به ما حل بالأمم السالفة ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي: جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتب الحفظة ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ أي: كل شيء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم مسطور في اللوح المحفوظ صغيره وكبيره، وجليله وحقيقه يقال: سطر يسطر سطرأ كتب، وأسطر مثله، ثم لما فرغ سبحانه من نكر حال الأشقياء نكر حال السعداء فقال: ﴿إن للمتقين في جنات ونهر﴾ أي: في بساتين مختلفة، وجنات متنوعة، وأنهار متدفقة، قرأ الجمهور (ونهر) بفتح الهاء على الإفراد، وهو جنس يشمل أنهار الجنة، وقرأ مجاهد، والأعرج، وأبو السماك بسكون الهاء وهما لغتان، وقرأ أبو مجلز، وأبو نهشل، والأعرج، وطلحة بن مصرف، وقتادة (نهر) بضم النون، والهاء على الجمع ﴿في مقعد صدق﴾ أي: في مجلس حق لا لغو فيه ولا تافه، وهو الجنة ﴿عند مليك مقتدر﴾ أي: قاهر على ما يشاء لا يعجزه شيء، و﴿عند﴾ هاهنا كناية عن الكرامة، وشرف المنزل، وقرأ

بالقلم. والأولى حمل الإنسان على الجنس، وحمل البيان على تعليم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان بحساب، ومنازل لا يعوانها، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين. قال قتادة، وأبو مالك: يجريان بحسبان في منازل لا يعوانها، ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد، وابن كيسان: يعني: أن بهما تحسب الأوقات، والأجال والأعمار، ولولا الليل والنهار، والشمس والقمر لم يدرك أحد كيف يحسب؛ لأن الدهر يكون كله ليلاً أو نهاراً. وقال الضحاك: معنى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾: بقدر. وقال مجاهد: بحسبان كحسبان الرحي يعني: قطبيهما الذي يدوران عليه. قال الأخفش: الحسبان جماعة الحساب، مثل شهب وشهبان. وأما الحسبان بالضم فهو العذاب، كما مضى في سورة الكهف ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ النجم ما لا ساق له من النبات، والشجر ما له ساق. قال الشاعر:

لقد أنجم القاع الكثير عضاهه وتم به حيا تميم وواشل وقال زهير:

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح الجنوب لضاحي ما به حبك والمراد: بسجودهما انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين. وقال الفراء: سجودهما: أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما في قوله: ﴿يَتَّبِعُوا ظِلَّاهُ﴾ [النحل: 48] وقال الحسن، ومجاهد: المراد بالنجم نجم السماء، وسجوده طلوعه، ورجع هذا ابن جرير. وقيل: سجوده أقوله، وسجود الشجر: تمكينها من الاجتناء لثمارها. قال النحاس: أصل السجود الاستسلام والانقياد لله، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران للرحمن، وترك الرابط فيهما لظهوره كانه قيل: الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان له ﴿وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا﴾ قرأ الجمهور بنصب (السماء) على الاشتغال. وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء، والمعنى: أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ المراد بالميزان العدل أي: وضع في الأرض العدل الذي أمر به، كذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وغيرهم. قال الزجاج: المعنى: أنه أمرنا بالعدل، ويدل عليه قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: لا تتجاوزوا العدل. وقال الحسن، والضحاك: المراد به: آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف. وقيل: الميزان القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، وبه قال الحسين بن الفضل، والأول أولى. ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضع لهم، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: قوموا وزنكم بالعدل وقيل المعنى: أقيموا لسان الميزان بالعدل، وقيل المعنى: أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال، و «أن» في قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ مصدرية أي: لتلا تطغوا، ولا نافية أي: وضع الميزان لتلا تطغوا، وقيل هي مفسرة: لأن في الوضع معنى اللقول، والطفين مجاوزة الحد، فمن قال الميزان العدل، قال: طغيانه الجور ومن قال: الميزان الآلة التي يوزن بها، قال:

إخراجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. وحكي عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير، وقال البزار: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه. وأخرجه البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه، والخطيب في تاريخه من حديث ابن عمر، وصحح السيوطي إسناده. وقال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. وأخرج البيهقي في الشعب عن علي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَكْهَةٌ وَكَأْتَلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَكَلْبٌ ذُو الْفَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَوَضَعَ الْجَبْنَ مِنْ نَارٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ رَبُّ الْفَرَقِينَ ۝ رَبُّ الْغَرَقِينَ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِيانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُثُودُ وَالْغَرَابُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْتَكَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝

قوله: ﴿الرَّحْمَنُ * علم القرآن﴾ ارتفاع الرحمن على أنه مبتدأ، وما بعده من الأفعال أخبار له، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: الله الرحمن. قال الزجاج: معنى: ﴿علم القرآن﴾ يشره. قال الكلبي: علم القرآن محمداً، وعلمه محمد أمته، وقيل: جعله علامة لما يعبد الناس به، قيل: نزلت هذه الآية جواباً لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، وقيل: جواباً لقولهم: وما الرحمن؟ ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده قدم النعمة التي هي أجلها قدرأ، وأكثرها نفعا، وأتمها فائدة، وأعظمها عائدة، وهي نعمة تعليم القرآن، فإنها مدار سعادة الدارين، وقطب رحي الخيرين، وعماد الأمرين. ثم امتن بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور، ومرجع جميع الأشياء، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ثم امتن ثالثاً بتعليمه البيان الذي يكون به التفاهم، ويدور عليه التخاطب، وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد؛ لأنه لا يمكن إبراز ما في الضمائر، ولا إظهار ما يدور في الخلد إلا به. قال قتادة، والحسن: المراد بالإنسان: آدم، والمراد بالبيان: أسماء كل شيء، وقيل: المراد به: اللغات. وقال ابن كيسان: المراد بالإنسان ها هنا: محمد ﷺ، وبالبيان: بيان الحلال من الحرام، والهدى من الضلال، وهو بعيد. وقال الضحاك: البيان الخير والشر. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه مما يضره، وقيل: البيان الكتابة

الجمهور (والحبّ ذو العصف والريحان) برفع الثلاثة عطفاً على فاكهة. وقرأ ابن عامر، وأبو حيوة، والمغيرة بنصبيهما عطفاً على (الأرض)، أو على إضمار فعل أي: وخلق الحبّ ذا العصف والريحان. وقرأ حمزة، والكسائي، (والريحان) بالجرّ عطفاً على العصف ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ الخطاب للجنّ والإنس؛ لأن لفظ الأنام يعهما وغيرهما، ثم خصّص بهذا الخطاب من يعقل. وبهذا قال: الجمهور من المفسرين، ويدلّ عليه قوله فيما سيأتي: ﴿سنفرغ لكم أبيه الثقلان﴾ [الرحمن: 31] ويدلّ على هذا ما قلّمنا في فاتحة هذه السورة أن النبي ﷺ قراها على الجنّ والإنس، وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية، كما قلّمنا في قوله: ﴿ألقيا في جهنم﴾ [ق: 24] والآلاء النعم. قال القرطبي: وهو قول جميع المفسرين، واحدها: إلى مثل معى وعصى. وقال ابن زيد: إنها القدرة أي: فبأي قدرة ربكما تكذبان، وبه قال الكلبي. وكرّر سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة، وتأكيداً للتذكير بها على عادة العرب في الاتساع. قال القتيبي: إن الله عند في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبئهم على النعم ويقرّهم بها، كما تقول لمن تتابع له إحسانك، وهو يكفره: ألم تكن فقيراً فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملاً فعزّزتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلاً فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا، ومنه قول الشاعر:

لا تقتلي رجلاً إن كنت مسلمة إياك من دم إياك إياك

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة وتأکید للحجة ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ لما نكر سبحانه خلق العالم الكبير، وهو السماء والأرض وما فيهما، نكر خلق العالم الصغير، والمراد بالإنسان هنا: آدم. قال القرطبي: باتفاق من أهل التأويل، ولا يبعد أن يراد الجنس؛ لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم، والصلصال: الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، وقيل: هو طين خلط برمل، وقيل: هو الطين المنتن يقال: صلّ اللحم وأصل: إذا أنتن، وقد تقدّم بيانه في سورة الحجر، والفخار الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يسه الخزف ﴿وخلق الجنّ من مارج من نار﴾ يعني: خلق أبا الجنّ، أو جنس الجنّ من مارج من نار، والمارج: اللهب الصافي من النار، وقيل: الخالص منها، وقيل: لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وقال الليث: المارج الشعلة الصاعدة ذات اللهب الشديد. قال الميرد: المارج النار المرسلّة التي لا تمنع، وقال أبو عبيدة: المارج خلط النار، من مرج إذا اختلط واضطرب. قال الجوهرى: ﴿مارج من نار﴾، نار لا يخان لها خلق منها الجنّ ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإنه أنعم عليكما في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى ﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾ قرأ الجمهور (ربّ)

طغيانه البخس ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ أي: لا تنقصوه أمر سبحانه أولاً بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الذي هو المجاوزة للحد بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس. قرأ الجمهور (تخسروا) بضم التاء، وكسر السين من أخسر، وقرأ بلال بن أبي برزة، وأبان بن عثمان، وزيد بن علي بفتح التاء، والسين من خسر، وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان وخسرت. ثم لما نكر سبحانه لثمة رفع السماء نكر أنه وضع الأرض، فقال: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ أي: بسطها على الماء لجميع الخلق مما له روح وحياة، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجنّ. قرأ الجمهور بنصب (الأرض) على الاشتغال، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء وجملة ﴿فيها فاكهة﴾: في محل نصب على أنها حال من الأرض مقفّرة، وقيل: مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها، والمراد بها: كل ما يتفككه به من أنواع الثمار. ثم أقرّد سبحانه النخل بالذكر لشرفه، ومزيد فائدته على سائر الفواكه فقال: ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ الأكمام جمع كم بالكسر، وهو وعاء التمر. قال الجوهرى: والكم بالكسر، والكمأة وعاء الطلع، وغطاء التنور، والجمع كماء وكمأة واكماء. قال الحسن: ذات الأكمام أي: ذات الليف، فإن النخلة تكمم بالليف، وكمامها ليفها، وقال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق. وقال عكرمة: ذات الاحمال ﴿والحبّ ذو العصف والريحان﴾ الحبّ هو جميع ما يقتات من الحبوب والعصف. قال السدي، والفراء: هو بقل الزرع، وهو أول ما ينبت به. قال ابن كيسان: يبني أولاً ورقاً، وهو العصف، ثم يبني له ساق، ثم يحدث الله فيه اكماماً، ثم يحدث في الأكمام الحبّ. قال الفراء: والعرب تقول: خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرک، وكذا قال في الصحاح. وقال الحسن: العصف التبن، وقال مجاهد: هو ورق الشجر والزرع. وقيل: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس، ومنه قوله: ﴿عصف مأكول﴾ [الفيل: 5]، وقيل: هو الزرع الكثير، يقال: قد أعصف الزرع، ومكان معصف أي: كثير الزرع، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

إذا جمادى منعت قطرها إن جناني عطش معصف
والريحان: الورق في قول الأكثر. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: إنه الريحان الذي يشم. وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. وقال الكلبي: إن العصف هو الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو الحب المأكول. وقال الفراء أيضاً: العصف المأكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل، وقيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح. قال ابن الأعرابي: يقال: شيء ريحاني وروحاني أي: له روح. وقال في الصحاح: الريحان نبت معروف، والريحان الرزق، تقول: خرجت لبتغي ريحان الله. قال النمر بن تولب:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماءه
وقيل: العصف رزق البهائم، والريحان رزق الناس. قرأ

الساكنين، وقرأ ابن مسعود، والحسن، وأبو عمرو في رواية عنه برفع الراء تناسياً للحذف، وقرأ يعقوب بإثبات الياء، وقرأ الجمهور (المنشآت) بفتح الشين، وقرأ حمزة، وأبو بكر في رواية عنه بكسر الشين ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكذيبه، ولا إنكاره.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قال: بحساب ومنازل يرسلان. وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم عنه ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ قال: للناس. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: للخلق. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: كل شيء فيه روح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ﴾ قال: أوعية الطلع. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ قال: التبن. ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ قال: خضرة الزرع. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: ﴿العصْف﴾ ورق الزرع إذا يبس ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ ما أنبتت الأرض من الريحان الذي يشم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿العصْف﴾ الزرع أول ما يخرج بقلاً ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ حين يستوي على سوقه، ولم يسنب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: كل ريحان في القرن فهو رزق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ قال: يعني: بأي نعمة الله. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعني الجن والإنس. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿هَـنَ مَارِجٌ مِنْ نَارٍ﴾ قال: من لهب النار. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: خالص النار. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ قال: للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الصيف غير مطلعها في الشتاء وغير مغربها في الشتاء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: مشرق الفجر ومشرق الشفق، ومغرب الشمس ومغرب الشفق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال: أرسل البحرين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ قال: حاجز ﴿لَا يَبِغِيَانِ﴾ لا يختلطان. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: بحر السماء وبحر الأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبِغِيَانِ﴾ قال: بينهما من البعد ما لا يبغى كل واحد منهما على صاحبه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال: إذا مطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أقواهما، فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ.

بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو ربّ المشرقين والمغربين، وقيل: مبتدأ، وخبره ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وما بينهما اعتراض، والأول أولى، والمراد بالمشرقين: مشرقا الشتاء والصيف، وبالمغربين: مغرباهما ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ فإن في ذلك من النعم ما لا يحصى، ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفرادها ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ المرج التخلية والإرسال، يقال: مرجت الدابة: إذا أرسلتها، وأصله الإهمال، كما تمرج الدابة في المرعى، والمعنى: أنه أرسل كل واحد منهما، ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يتجاوزان لا فصل بينهما في مرأى العين، ومع ذلك فلم يختلطا، ولهذا قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز يحجز بينهما ﴿لَا يَبِغِيَانِ﴾ أي: لا يبغى أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه ويختلط به. قال الحسن، وقتادة: هما بحر فارس والروم. وقال ابن جريج: هما البحر المالح، والأنهار العذبة، وقيل: بحر المشرق والمغرب، وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان، وقيل: بحر السماء وبحر الأرض. قال سعيد بن جبيرة: يلتقيان في كل عام، وقيل: يلتقي طرفاهما. وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ في محل نصب على الحال من البحرين، وجملة: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة، وأن تكون حالا ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ فإن هذه الآية وأمثالها لا يتيسر تكذيبها بحال ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾. قرأ الجمهور (يخرج) بفتح الياء، وضم الراء مبنياً للفاعل، وقرأ نافع، وأبو عمرو بضم الياء، وفتح الراء مبنياً للمفعول، واللؤلؤ: الدرّ، والمرجان: الخرز الأحمر المعروف. وقال الفرّاء: اللؤلؤ العظام، والمرجان ما صغر. قال الواحدي: وهو قول جميع أهل اللغة. وقال مقاتل، والسدي، ومجاهد: اللؤلؤ صغاره، والمرجان كبارها، وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب؛ لأنه إذا خرج من أحدهما، فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج، وغيره. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب حذف المضاف أي: من أحدهما كقوله: ﴿على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: 31] وقال الأخفش: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب، وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان، وقيل: هما بحر السماء وبحر الأرض، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً، فصار خارجاً منهما ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ فإن في ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه، ولا يقدر على إنكاره ﴿وَالْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ المراد بـ ﴿الْجَوَارِ﴾: السفن الجارية في البحر، و﴿الْمُنشآتُ﴾: المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت، وطالت حتى صارت في البحر كالأعلام وهي الجبال، والعلم: الجبل الطويل. وقال قتادة: المنشآت المخلوقات للجري. وقال الأخفش: المنشآت المجريات، وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة الشورى. قرأ الجمهور (الجوار) بكسر الراء وحذف الياء لالتقاء

الذي تضمنه الخبر، والتقدير: استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات، واليوم عبارة عن الوقت، والشأن هو الأمر، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم، وتباين أغراضهم. قال المفسرون: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويفقر، ويعز ويذل، ويمرض ويشفي، ويعطي ويمنع، ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك مما لا يحصى. وقيل: المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا ويوم الآخرة، قال ابن بحر: الدهر كله يومان: أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، وقيل: المراد كل يوم من أيام الدنيا ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن اختلاف شؤونه سبحانه في تدبير عباده نعمة لا يمكن جدها، ولا يتيسر لمكذب تكذيبها ﴿سَنُفَرِّغُ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ﴾ وهذا وعيد شديد من الله سبحانه للجن والإنس. قال الزجاج، والكسائي، وابن الأعرابي، وأبو علي الفارسي: إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل، ولكن تأويله القصد أي: سنقصده لحسابكم. قال الواحدي حاكياً عن المفسرين: إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده، ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده: إنن اتفرغ لك أي: أقصد قصصك، وفرغ يجيء بمعنى قصد، وأنشد ابن الأنباري قول الشاعر:

الآن وقد فرغت إلى نمير - فهذا حين كنت له عذاباً
يريد وقد قصصت، وأنشد النحاس قول الشاعر:

فرغت إلى العبد المقيد في الحبل

أي: قصصت، وقيل: إن الله سبحانه وعد على التقوى، وأوعد على المعصية، ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم، ونوصل كلاً إلى ما وعدناه، وبه قال الحسن، ومقاتل، وابن زيد، ويكون الكلام على طريق التمثيل. قرأ الجمهور (سنفرغ) بالنون وضّم الراء، وقرأ حمزة، والكسائي بالفتح مفتوحة مع ضم الراء، أي: سيفرغ الله، وقرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء. قال الكسائي: هي لغة تميم، وقرأ عيسى الثقفي بكسر النون وفتح الراء، وقرأ الأعمش، وإبراهيم بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول، وسمى الجن والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض، وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياناً، وأمواتاً كما في قوله: ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2] وقال جعفر الصائق: سميا ثقلين لأنهما مقلان بالثوب، وجمع في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿آيَةَ الثَّقَلَانِ﴾؛ لأنهما فريقان، وكل فريق جمع. قرأ الجمهور (آية الثقلان) بفتح الهاء، وقرأ أهل الشام بضمها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملة ما في هذا التهديد من النعم، فمن ذلك أنه ينزجر به المسيء عن إساءته، ويزداد به المحسن إحساناً، فيكون ذلك سبباً للفوز بنعيم الدار الآخرة الذي هو النعيم في الحقيقة ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قَدْ جَاءَ هُنَا لَكُنْ خَلَقَ أَبْنَاءَهُمْ مُتَقَبِّحِينَ عَلَى خَلْقِ أُنْثَى، وَلَوْ جُودَ جَنْسَهُمْ قَبْلَ جَنْسِ الْإِنْسِ ﴿إِنْ لَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُتُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن علي بن أبي طالب قال: المرجان عظام اللؤلؤ. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: اللؤلؤ: ما عظم منه، والمرجان: اللؤلؤ الصغار. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود قال: المرجان الخرز الأحمر.

كُلُّ مَنْ عَلَيَّ قَاتِلٌ ﴿١٧٧﴾ رَبَّنَا رَبِّهِ رَبِّكَ دُو الْكَلِّ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٧٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧٩﴾ يَنْتَظِرُكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿١٨٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨١﴾ سَنُفَرِّغُ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ ﴿١٨٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨٣﴾ يَنْتَظِرُكُمْ الْيَوْمَ وَالْآخِرَ إِنْ أَنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ ﴿١٨٤﴾ تَنْتَظِرُونَ أَنْ تَنْتَظِرُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَاتِلُكُمْ لَا تَنْتَظِرُونَ إِلَّا سُلْطَانٍ ﴿١٨٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨٦﴾ يَرْسُلُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْصَرِفَانِ ﴿١٨٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨٨﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿١٨٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩٠﴾ فَيُؤَيِّدُ بَاسْمِهِ الْفُلُوكَ وَالْجِبَالَ وَالْأَنْدَادَ ﴿١٩١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩٢﴾ يَرْسُلُ الْمُرُومَ يَسْبِقُهُمْ فَيُؤَيِّدُ الْبَرْقَ وَالْأَنْدَادَ ﴿١٩٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩٤﴾ هَلْ يَرَوْنَ جَهَنَّمَ أَلَيْ كَذِبٌ بِهَا الْفُتُورُ ﴿١٩٥﴾ يَطُورُونَ بَيْنَ وَبَيْنٍ يُبِيرُونَ ﴿١٩٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩٧﴾

قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيَّ قَاتِلٌ﴾ أي: كل من على الأرض من الحيوانات هالك، وغلب العقلاء على غيرهم، فعبّر عن الجميع بلفظ من، وقيل: أراد من عليها من الجن والإنس ﴿وَيُؤَيِّدُ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده، وقد تقدم في سورة البقرة بيان معنى هذا، وقيل: معنى ﴿يُؤَيِّدُ وَجْهَ رَبِّكَ﴾ تبقى حجة التي يتقرب بها إليه، والجلال: العظمة والكبرياء، واستحقاق صفات المدح، يقال: جُلَّ الشيء أي: عظم، وأجلته أي: أعظمته، وهو اسم من جُلَّ. ومعنى ذو الإكرام: أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به، وقيل: إنه ذو الإكرام لأوليائه، والخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له، قرأ الجمهور (ذو الجلال) على أنه صفة لوجه، وقرأ أبي، وابن مسعود (ذي الجلال) على أنه صفة لرب ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وجه النعمة في فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب. وقال مقاتل: وجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام ﴿يَسْأَلُهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يسألونه جميعاً؛ لأنهم محتاجون إليه لا يستغني عنه أحد منهم. قال أبو صالح: يسأله أهل السموات المغفرة، ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعاً. وقال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة، وتسال لهم الملائكة أيضاً الرزق والمغفرة، وكذا قال ابن جرير. وقيل: يسألونه الرحمة. قال قتادة: لا يستغني عنه أهل السماء، ولا أهل الأرض. والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال، أو لسان الحال ما يطلبونه من خيرى الدارين، أو من خيرى إحداهما ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ انتصاب كل بالاستقرار

السموات والأرض، ونواحيهما هرباً من قضاء الله وقدره ﴿فَاتَفَنُوا﴾ منها، وخلصوا أنفسهم، يقال: نفذ الشيء من الشيء: إذا خلس منه، كما يخلص السهم ﴿لَا تَتَفَنُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تقدرُونَ على النفوذ إلا بقوة وقهر، ولا قوة لكم على ذلك، ولا قدرة، والسلطان: القوة التي يتسلط بها صاحبها على الأمر، والأمر بالنفوذ: أمر تعجيز. قال الضحّاك: بينما الناس في أسواقهم إذ انفتحت السماء، ونزلت الملائكة فهرب الجن، والإنس، فتحقق بهم الملائكة، فنلك قوله: ﴿لَا تَتَفَنُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. قال ابن المبارك: إن ذلك يكون في الآخرة. وقال الضحّاك أيضاً: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا من الموت، فاهربوا. وقيل: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض، فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان أي: ببينة من الله. وقال قتادة: معناها لا تنفذوا إلا بملك، وليس لكم ملك. وقيل: الباء بمعنى إلى أي: لا تنفذون إلا إلى سلطان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومن جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد، فإنها تزيد المحسن إحساناً، وتكفّر المسيء عن إساءته، مع أن من حرّركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة ﴿يُرْسِلْ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ﴾ قرأ الجمهور (يرسل) بالتحية مبنياً للمفعول، وقرأ زيد بن علي بالنون ونصب (شواط) والشواط: اللهب الذي لا دخان معه. وقال مجاهد: الشواط اللهب الأخضر المتقطع من النار. وقال الضحّاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. وقال الأخفش، وأبو عمرو: هو النار، والدخان جميعاً. قرأ الجمهور (شواط) بضم الشين، وقرأ ابن كثير بكسرهما وهما لغتان، وقرأ الجمهور (ونحاس) بالرفع عطفاً على شواط، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، ومجاهد، وأبو عمرو بخفضه عطفاً على نار، وقرأ الجمهور (نحاس) بضم النون، وقرأ مجاهد، وعكرمة، وحמיד، وأبو العالية بكسرهما. وقرأ مسلم بن جندب، والحسن (ونحاس)، والنحاس: الصفر المذاب يصب على رؤوسهم، قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وقال سعيد بن جبیر: هو الدخان الذي لا لهب له، وبه قال الخليل. وقال الضحّاك: هو ردي الزيت المغلي. وقال الكسائي هو النار التي لها ریح شديدة، وقيل: هو المهل ﴿فَلَا تَتَنَصَّرُونَ﴾ أي: لا تقدران على الامتناع من عذاب الله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الذي يكون به الانزجار عن الشر، والرغوب في الخير ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي: انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: كوردة حمراء. قال: سعيد بن جبیر، وقتادة: المعنى فكانت حمراء، وقيل: فكانت كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة. قال الفراء، وأبو عبيدة: تصير السماء كالاديهم لشدّة حرّ النار. وقال الفراء أيضاً: شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل، وشبه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، والدهان جمع دهن، وقيل: المعنى تصير السماء في حمرة الورد، وجريان الدهن

أي: تنوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لنوبانها، وقيل: الدهان الجلد الأحمر. وقال الحسن كالدهان أي: كصيب الدهن، فإنك إذا صبيبته ترى فيه ألواناً. وقال زيد بن أسلم: إنها تصير كصير الزيت. قال الزجاج: إنها اليوم خضراء، وسيكون لها لون أحمر. قال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وإنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإن من جملتها ما في هذا التهديد، والتخويف من حسن العقابة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجن عن ذنبه؛ لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم، والجمع بين هذه الآية، وبين مثل قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِكِينَ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 92] أن ما هنا يكون في موقف، والسؤال في موقف آخر من مواقف القيامة، وقيل: إنهم لا يسألون هنا سؤال استقهام عن ذنوبهم؛ لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال، وحفظها على العباد، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصاص: 78] قال أبو العالية: المعنى: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. وقيل: إن عدم السؤال هو عند البعث، والسؤال هو في موقف الحساب ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد؛ لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد يعرف للمجرمون بسيماهم. هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيماء: العلامة. قال الحسن: سيماءهم سواد الوجوه وزرقة الأعين، كما في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: 102] وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهُ وَتَسْوَدُّ وَجُوهُ﴾ [آل عمران: 106] وقيل: سيماءهم ما يعلمهم من الحزن والكآبة ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ الجار والمجرور في محل رفع على أنه النائب، والنواصي شعور مقدم الرؤوس، والمعنى: أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي، وتلقيهم الملائكة في النار. قال الضحّاك: يجمع بين ناصيته، وقدمه في سلسلة من وراء ظهره، وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارة تأخذ بنواصيهم وتجرحهم على وجوههم، وتارة تأخذ بأقدامهم، وتجرحهم على رؤوسهم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد، والوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب، وتضطرب لهول الأحشاء ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم عند ذلك: هذه جهنم التي تشاهدونها، وتنتظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون إنها لا تكون، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام. فقيل: يقال لهم: هذه جهنم تقريباً لهم وتوبيخاً ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا﴾ أي: بين جهنم فتحرقهم ﴿وَيَبِينُ حَمِيمٌ أَنَّهُ فَنُصِبَ عَلَيْهِ وَجُوهُهُمْ، وَالْحَمِيمُ: اللّام الحارّ، والآن: الذي قد انتهى حرّه وبلغ غايته،

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وَيُؤَيِّنُ حَمِيمٌ أَنْ﴾ قال: هو الذي انتهى حره.

وَلَمَّا عَافَ مَمَّاءَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ١١ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ١٢ ذَوَاتَا أَفْئَانٍ ١٣ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ١٤ فَيَسْمَعُ عَيْنَانِ تَحْرِيكٍ ١٥ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ١٦ فَيَسْمَعُ مِنْ كُلِّ فِكْهَةٍ ذَرْبَانِ ١٧ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ١٨ مُتَكَبِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَلَائِيهَا مِنْ إِسْتَرْفٍ وَبَعَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ١٩ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٢٠ فَيَنْفَعِرُتِ الظُّرُبُ لَمْ يَلْمِزْنَهُ إِشْرَ فَيَسْمَعُهُمْ وَلَا جَانَّ ٢١ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٢٢ كَانَتْهُنَّ أَلْيَافُوتٌ وَالْمَرِيَّاتُ ٢٣ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٢٤ مَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنَ ٢٥ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٢٦ وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٌ ٢٧ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٢٨ تَكْذِبَانِ ٢٩ مُدْعَاتَانِ ٣٠ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٣١ فَيَسْمَعُ عَيْنَانِ تَحْرِيكٍ ٣٢ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٣٣ فَيَسْمَعُ مِنْ كُلِّ فِكْهَةٍ وَغُلَّ رَوَّامٌ ٣٤ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٣٥ فَيَنْفَعِرُتِ جِسْمَانِ ٣٦ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٣٧ حُرٌّ مُقْسَرَّتٌ فِي الْخِيَارِ ٣٨ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٣٩ لَمْ يَلْمِزْنَهُ إِشْرَ فَلَمْ يَمْ وَلَا جَانَّ ٤٠ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٤١ مُتَكَبِّينَ عَلَى رَوْرِي خُمُرٍ وَتَقَرَّرِي حِسَانِ ٤٢ فَيَأْتِي مَالَهُ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ٤٣ بَرَّكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ ٤٤

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين نكر نعمة الآخورية التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ مقامه سبحانه: هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6] فالمقام مصدر بمعنى القيام، وقيل: المعنى خاف قيام ربه عليه، وهو إشرافه على أحواله، وإطلاعه على أفعاله وأقواله، كما في قوله: ﴿هَافِمٌ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33] قال مجاهد، والنخعي: هو الرجل يهيم بالمعصية فينكر الله، فيدعها من خوفه.

واختلف في الجنتين، فقال مقاتل: يعني: جنة عدن وجنة النعيم، وقيل: إحداهما التي خلقت له والآخرة ورثها، وقيل: إحداهما منزله والآخرة منزل أزواجه، وقيل: إحداهما أسافل القصور والآخرة أعاليها، وقيل: جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجنّي، وقيل: جنة لفعل الطاعة وآخرة لترك المعصية، وقيل: جنة للعقيدة التي يعتقدها وآخرة للعمل الذي يعمل، وقيل: جنة بالعمل وجنة بالتفضل، وقيل: جنة روحانية وجنة جسمانية، وقيل: جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته، وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة، والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآي. قال النحاس: وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله، فإن الله يقول: ﴿جَنَّاتٍ﴾ ويصفهما بقوله فيها إلخ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جعلتها من هذه النعم العظيمة، وهي إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفيتين بالصفات الجليلة العظيمة ﴿ذَوَاتَا أَفْئَانٍ﴾ هذه صفة للجنتان، وما بينهما اعتراض، والأفئان

كذا قال الفراء، قال الزجاج: أُنْثَى يَأْتِي أَثْنَى، فهو أن: إذا انتهى في النضج والحرارة، ومنه قول النابغة النيباني:

وتخضب لحيه غلرت وخانت بأحمر من نجيع الجوف أن وقيل: هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون فيه. قال قتادة: يطوفون مرة في الحميم، ومرة بين الجحيم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جعلتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف، وما يحصل به من الترغيب في الخير والترهيب عن الشر.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مرويه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ لِلْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ قال: نو الكبرياء والعظمة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ قال: مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو في ذلك. وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده، والبخاري، وابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن منده، وابن مرويه، وأبو نعيم، وابن عساكر عن عبد الله بن منيب قال: «تلا علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فقلنا: يا رسول الله، وما ذلك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنبا، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين». وأخرج البخاري في تاريخه، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر، والبيهقي وأبو الشيخ في العظمة، وابن مرويه، وابن عساكر، والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في الآية قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»، زاد البزار: «ويجيب داعياً» وقد رواه البخاري تعليقا، وجعله من كلام أبي الدرداء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿سَنُفْرِغُ لَكُمْ إِلَيْهِ الْغُلَاقَ﴾ قال: هذا وعيد من الله لعباده، وليس بالله شغل، وفي قوله: ﴿لَا تَنْفَعُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ يقول: لا تخرجون من سلطاني. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ﴾ قال: لهب النار ﴿وَنَحْلَسُ﴾ قال: نخان النار. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً، ونحاس: قال للصفر يعنبون به. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ يقول: حمراء ﴿كَالِدِهَانٍ﴾ قال: هو الأليم الأحمر. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالِدِهَانٍ﴾ قال: مثل لون الفرس الورد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿فَيُؤَمِّدُ لَا يُسَالُ عَنْ نَجْبِهِ إِنْ سَ وَلَا جَانَ﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لهم: لم عملتم كذا وكذا. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مرويه، والبيهقي في البعث والنشور عنه أيضاً في قوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ قال: تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه، ويجمع فيكسر، كما يكسر الحطب في التنوير.

والجنى: ما يجتنى من الثمار، قيل: إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها، ومنه قول الشاعر:

هنا جنناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه
قرأ الجمهور (فرش) بضم فتن، وقرأ أبو حيوة بضمه وسكون، وقرأ الجمهور (جنى) بفتح الجيم، وقرأ عيسى بن عمر بكسرهما، وقرأ عيسى أيضاً بكسر النون على الإمالة ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْتُمُ﴾ فإنها كلها بموضع لا يتيسر لمكذب أن يكذب بشيء منها لما تشتمل عليه من الفوائد العاجلة والآجلة ﴿فَإِنَّ قَاصِرَاتِ الطُّرَفِ﴾ أي: في الجنيتين المذكورتين، قال الزجاج: وإنما قال: فيهن لأنه عنى الجنيتين، وما أعد لصاحبهما فيهما من النعيم، وقيل: فيهن أي: في الفرش التي بطائنها من استبرق، ومعنى ﴿قَاصِرَاتِ الطُّرَفِ﴾: أنهن يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، وقد تقدم تفسير هذا في سورة الصافات ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانٌ﴾ قال الفراء: الطمئنت الافتضاض وهو النكاح بالتدسية، يقال: طمئت الجارية: إذا افترعها. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يطامن ولم يغشهن ولم يجامعهن قبلهم أحد. قال مقاتل: لأنهن خلقن في الجنة، والضمير في قبلهم يعود إلى الأزواج المملول عليه بقاصرات الطرف، وقيل: يعود إلى متكئين، والجملة في محل رفع صفة لقاصرات لأن إضافتها لفظية، وقيل: الطمئنت المس أي: لم يمسسهن، قاله أبو عمرو. وقال المبرد: أي: لم يذللهن، والطمئنت التذليل، ومن استعمال الطمئنت فيما نكره الفراء قول الفرزدق:

نفعن إلي لم يطمئن قبلي وهن أصح من بيض النعام
وقرأ الجمهور (يطمئنن) بكسر الميم، وقرأ الكسائي بضمها، وقرأ الجحدري، وطلحة بن مصرف بفتحها، وفي هذه الآية بل في كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه، وعملوا بفرائضه، وانتهوا عن مناهيه ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْتُمُ﴾ فإن في مجرد هذا الترفيع في هذه النعم جملة عظيمة، لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة، والفرار من الأعمال الطالحة، فكيف بالوصول إلى هذه النعم، والتنعيم بها في جنات النعيم بلا انقطاع، ولا زوال ﴿كَانَهُنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾ هذا صفة لقاصرات، أو حال منهن، شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرة بالياقوت والمرجان، والياقوت: هو الحجر المعروف، والمرجان قد قدمنا الكلام فيه في هذه السورة على الخلاف في كونه صفار الدر، أو الأحمر المعروف. قال الحسن: هن في صفاء الياقوت، وبياض المرجان، وإنما خص المرجان على القول بأنه صفار الدر: لأن صفاءها أشد من صفاء كبار الدر ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْتُمُ﴾ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها كائنة ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة والمنن الجزيلة ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ هذه الجملة مقررة

الأغصان، واحدها فتن، وهو الغصن المستقيم طولاً، وبهذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطية، وغيرهم. وقال الزجاج: الأفنان الألوان واحدها فن، وهو الضرب من كل شيء، وبه قال عطية، وسعيد بن جببر، وجمع عطاء بين القولين، فقال: في كل غصن فنون من الفاكهة، ومن إطلاق الفن على الغصن قول النابغة:

دعاء حمامة تدعو هبيلاً مفعجة على فنن تغني
وقول الآخر:

ما هاج شوقك من هدير حمامة تدعو على فنن الغصون حماما
وقيل: معنى ﴿فَنُونًا أَفْنَانُ﴾: ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، قاله قتادة، وقيل: الأفنان: ظل الأغصان على الحيطان، روي هذا عن مجاهد، وعكرمة ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْتُمُ﴾ فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب، ولا بموضع للإنكار ﴿فَإِنَّ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ هذا أيضاً صفة أخرى لجنات أي: في كل واحدة منهما عين جارية. قال الحسن: إحداهما السلسبيل والأخرى التسنيم. وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين، قيل: كل واحدة منهما مثل الدنيا أضغافاً مضاعفة ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْتُمُ﴾ فإن من جعلتها هذه النعمة الكائنة في الجنة لأهل السعادة ﴿فَإِنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكْهَةٍ زَوْجَانِ﴾ هذا صفة لثلاثة لجنات، والزوجان الصنفان والتنوعان، والمعنى: أن في الجنتين من كل نوع يتفكه به ضربيين يستلذ بكل نوع من أنواعه، قيل: أحد الصنفين رطب، والآخر يابس لا يقصر أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْتُمُ﴾ فإن في مجرد تعداد هذه النعم، ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترفيع إلى فعل الخير، والترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم، وذلك نعمة عظيمة، ومنة كبرى، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه ﴿مُتَكِّئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ انتصاب متكئين على الحال من فاعل قوله ﴿وَلَمْ يَخَفْ﴾ وإنما جمع حملاً على معنى من، وقيل: عاملها محذوف، والتقدير: يتنعمون متكئين، وقيل: منصوب على المدح، والفرش جمع فرش، والبطائن: هي التي تحت الظهائر، وهي جمع بطانة. قال الزجاج: هي ما يلي الأرض، والاستبرق: ما غلظ من الديباج، وإذا كانت البطائن من استبرق، فكيف تكون الظهائر؟ قيل لسعيد بن جببر: البطائن من استبرق فما الظواهر؟ قال: هذا بما قال الله فيه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17] قيل: إنما اقتصر على ذكر البطائن لأنه لم يكن أحد في الأرض يعرف ما في الظهائر. وقال الحسن: بطائنها من استبرق، وظواهرها من نور جامد. وقال الحسن: البطائن هي الظهائر، وبه قال الفراء وقال: قد تكون البطانة الظهارة، والظهارة البطانة لأن كل واحد منهما يكون وجهاً، والعرب تقول هذا: ظهر السماء، وهذا بطن السماء لظواهرها الذي نراه، وإنكر ابن قتيبة هذا، وقال: لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ﴾ مبتدأ وخبر،

أهل العلم، ولم يخالف في ذلك إلا أبو حنيفة، وقد خالفه أصحابه أبو يوسف، ومحمد ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها هذه النعم التي في جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها تأثير في نفوس السامعين، وتجذبهم إلى طاعة ربِّ العالمين ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ قرأ الجمهور (خيرات) بالتخفيف، وقرأ قتادة، وابن السميع، وأبو رجاء العطاردي، وبكر بن حبيب السهمي، وابن مقسم، والنهدي بالتشديد، فعلى القراءة الأولى هي جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين، يقال: امرأة خيرة وأخرى شرّة، أو جمع خيرة مخففة خيرة، وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد. قال الواحدي: قال المفسرون: الخيرات النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه. قيل: وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع، ولا وجه لهذا، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهن قاصرات الطرف ﴿كَانَهُنَّ الياقوت والمرجان﴾ وبين الصفتين بون بعيد ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن شيئاً منها كائناً ما كان لا يقبل التكذيب ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أي: محبوسات، ومنه القصر لأنه يحبس من فيه، والهور جمع حوراء وهي شديدة بياض العين شديدة سوادها، وقد تقدّم بيان معنى الحوراء، والخلاف فيه. وقيل: معنى ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ أنهنّ قصرن على أزواجهنّ، فلا يرهنّ غيرهنّ، وحكاها الواحدي عن المفسرين. والأول أولى، وبه قال أبو عبيدة، ومقاتل، وغيرهما. قال في الصحاح: قصرت الشيء أقصره قصرأ حبسته، والمعنى: أنهنّ خُذِرْنَ في الخيام، والخيام جمع خيمة، وقيل: جمع خيم، والخيم جمع خيمة، وهي أعواد تنصب وتظلّل بالثياب، فتكون أبرد من الأخية، قيل: الخيمة من خيام الجنة برة مجوفة، فرسخ في فرسخ، وارتفاع حور على البلية من خيرات ﴿لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ قد تقدّم تفسيره في صفة الجنتين الأوليين ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنها كلها نعم لا تكفر، ومنن لا تجحد ﴿مَتَكَلِّفَيْنِ عَلَى رُفْرَفٍ خَضِرٍ﴾ انتصاب متكئين على الحال، أو المدح كما سبق، قال أبو عبيدة: الرّفارف البسط، وبه قال الحسن، ومقاتل، والضحاك، وغيرهم. وقال ابن عيينة: هي الزرابي. وقال ابن كيسان: هي المرافق. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضرب من الثياب الخضرة، وقيل: الفرش المرتفعة، وقيل: كل ثوب عريض. قال في الصحاح: والرّفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس، الواحدة رفرفة. وقال الزجاج: قالوا الرّفرف هنا: رياض الجنة، وقالوا الرّفرف: الوسائد، وقالوا الرّفرف: المحابس. ومن القائلين بأنها رياض الجنة: سعيد بن جبير، واشتقاق الرّفرف من رفّ يرفّ: إذا ارتفع، ومنه رفرقة الطائر، وهي تحريك جناحيه في الهواء. قرأ الجمهور (رفرف) على الأفراد. وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، والجحدري (رّفارف) على الجمع ﴿وَعَبَقَرِي حَسَنَاتٌ﴾ العبقري الزرابي، والطنافس الموشية. قال أبو عبيدة: كل وشي من البسط عبقرى، وهو منسوب إلى أرض

لمضمون ما قبلها، والمعنى: ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كذا قال ابن زيد، وغيره. قال عكرمة: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله إلا الجنة، وقال الصابق: هل جزاء من أحسنت إليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد. قال الرازي: في هذه الآية وجوه كثيرة حتى قيل: إن في القرآن ثلاث آيات في كل واحدة منها مائة قول: إحداها قوله تعالى: ﴿فَنُكَرُونِي أَنْكُرَكُمْ﴾ [البقرة: 152] وثانيها: ﴿وَإِنْ عَذَبْنَا﴾ [الإسراء: 8] وثالثها: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾. قال محمد بن الحنفية: هي للبرّ والفاجر: البرّ في الآخرة، والفاجر في الدنيا ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها الإحسان إليكم في الدنيا والآخرة بالخلق والبرزق والإرشاد إلى العمل الصالح، والرجوع عن العمل الذي لا يرضاه ﴿وَمَنْ يَدْنُهَا جَنَّتَانِ﴾ أي: ومن دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدمة جنتان أخريان، لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة، ومعنى من نونهما أي: من أمامهما، ومن قبلهما أي: هما أقرب منهما، وأدنى إلى العرش، وقيل: الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى. قال ابن جريج: هي أربع جنت: جنتان منهما للسابقين المقربين ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ﴿وَعَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وجنتان لأصحاب اليمين ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾ و ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَصْلَخَتَانِ﴾ قال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقربين، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنها كلها حق، ونعم لا يمكن جحدها، ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين، فقال: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ وما بينهما اعتراض. قال أبو عبيدة والزجاج: من خضرتهما قد أسوئتا من الري، وكل ما علاه السواد رياء فهو مدهم. قال مجاهد: مسوئتان، والدمية في اللغة: السواد، يقال: فرس أدهم، وبغير أدهم: إذا اشتدت ورقته حتى ذهب البياض الذي فيه ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَصْلَخَتَانِ﴾ النضج فوران الماء من العين، والمعنى: أن في الجنتين المذكورتين عينين فوارتين. قال أهل اللغة: والنضج بالخاء المعجمة أكثر من النضج بالخاء المهملة. قال الحسن، ومجاهد: تنضج على أولياء الله بالمسك، والعنبر، والكافور في نور أهل الجنة، كما ينضج رش المطر. وقال سعيد بن جبير: إنها تنضج بأنواع الفواكه، والماء ﴿فَبَإِي آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب، ولا بمكان للجحد ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريباً، والنخل والرمون وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما، وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه، كما حكاها الزجاج، والأزهري، وغيرهما. وقيل: إنما خصصهما لكثرة في أرض العرب، وقيل: خصصهما لأن النخل فاكهة وطعام، والرمون فاكهة ودواء. وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور

جنتان فقلت: وإن زنى، وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ. **الثانية** «ولمن خاف مقام ربه جنتان» فقلت: وإن زنى، وإن سرق؟ فقال الثالثة: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» فقلت: وإن زنى، وإن سرق؟ قال: نعم، وإن رغم أنف أبي الدرداء. وأخرج ابن مروييه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ. «ولمن خاف مقام ربه جنتان» فقال أبو الدرداء: وإن زنى، وإن سرق يا رسول الله؟ قال: وإن زنى، وإن سرق، وإن رغم أنف أبي الدرداء. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن يسار مولى آل معاوية عن أبي الدرداء في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال: قيل: لأبي الدرداء: وإن زنى وإن سرق؟ قال: من خاف مقام ربه لم يزن، ولم يسرق. وأخرج ابن مروييه عن ابن شهاب قال: كنت عند هشام بن عبد الملك، فقال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال أبو هريرة: وإن زنى، وإن سرق؟ فقلت: إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «جنان الفردوس أربع جنان: جنتان من ذهب حليتهما وأبنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة حليتهما وأبنيتهما وما فيهما، وما بين القوم، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروييه عن أبي موسى عن النبي ﷺ في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» وفي قوله: «ومن دونهما جنتان» قال: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروييه، والبيهقي في البعث عن أبي موسى في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال: جنتان من ذهب للمساكين، وجنتان من فضة للتابعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: «ذواتا أفنان» قال: ذواتا ألوان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: فن غصونها يمس بعضها بعضاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الفَن الغصن. وأخرج القرطبي، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروييه، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله: «مكتئين على فرش بطائنها من استبرق» قال: أخبرتم بالبطائن، فكيف بالظواهر. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل: له بطائنها من استبرق، فما الظواهر؟ قال: ذلك مما قال الله ﷻ «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» [السجدة: 17]. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه في قوله: «وجنى الجنتين دان» قال: جناها ثمرها، والداني: القريب منك يناله القائم والقاعد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عنه أيضاً

يعمل فيها الوشي. قال الفراء: العبقرى الطنافس الثمان، وقيل: الزرابي، وقيل: البسط، وقيل: الديباج. قال ابن الأنباري: الأصل فيه أن عبقر قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل فائق. قال الخليل: العبقرى عند العرب كل جليل فاضل فاخر من الرجال والنساء، ومنه قول زهير:

تخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوماً أن ينالوا فيستملوا
قال الجوهرى: العبقرى موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال ليبيد:

كهول وشبان كجنة عبقرى

ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من خلقه وجودة صنعته وقوته، فقالوا: عبقرى، وهو واحد وجمع. قرأ الجمهور (عبقرى) وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، والجمهور (عبقرى) وقرأ (عباقر) وهما نسبة إلى عباقر اسم بلد. وقال قطرب: ليس بمنسوب، وهو مثل كرسى وكراسي، وبختي وبختي. قرأ الجمهور (خضر) بضم الخاء وسكون الضاد، وقرأ بضمهما، وهي لغة قليلة «فبأي آلاء ربكما تكذبان» فإن كل واحد منها أجل من أن يتطرق إليه التكذيب، وأعظم من أن يجحده جاحد، أو ينكره منكر، وقد قدمنا في أول هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده «تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام» تبارك تفاعل من البركة. قال الرأزي: وأصل التبارك من التبرك، وهو الدوام والثبات، ومنه برك البعير، وبركه الماء فإن الماء يكون دائماً والمعنى: دام اسمه وثبت أو دام الخير عنده؛ لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير، أو يكون معناه: علا وارتفع شأنه. وقيل معناه: تنزيه الله سبحانه وتقديسه، وإذا كان هذا التبارك منسوباً إلى اسمه عز وجل، فما ظنك بذاته سبحانه؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة، وقيل: هو مقحم كما في قول الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
وقد تقدم تفسير ذي الجلال، والإكرام في هذه السورة. قرأ الجمهور (ذي الجلال) على أنه صفة للرب سبحانه. قرأ ابن عامر (نو الجلال) على أنه صفة لاسم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» قال: وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه، فأثروا فرائضه الجنة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية يقول: خاف ثم اتقى، والخائف: من ركب طاعة الله وترك معصيته. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أنها نزلت في أبي بكر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شونب مثله. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في الآية قال: لمن خافه في الدنيا. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن منيع، والحاكم، والترمذي، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروييه عن أبي الدرداء «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: «ولمن خاف مقام ربه

قوله: ﴿خيرات حسان﴾ قال: لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مراحل ولا طماحات، ولا بخرات ولا نفرات، حور عين كأنهن بيض مكنون. وأخرج ابن مريويه من وجه آخر عنه مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿حور﴾ قال: بيض ﴿مقصورات﴾ قال: محبوسات ﴿في الخيام﴾ قال: في بيوت اللؤلؤ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الحور سود الحنق. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الخيام رُءُ مجوف». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «الخيمة رُءُ مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن». وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿مكتئين على رفرف﴾ قال: فضول المحابس والفرش والبسط. وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب قال: هي فضول المحابس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن عباس ﴿رفرف خضر﴾ قال: المحابس ﴿وعبقرى حسان﴾ قال: الزرابي. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: الرفرف الرِّياض، والعبقرى الزرابي.

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر، وعطاء. وقال ابن عباس، وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة: 82]، وقال الكلبي: إنها مكية إلا أربع آيات منها، وهي: ﴿أقبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة: 81، 82] وقوله: ﴿ثلة من الأولين﴾ * وقليل من الآخرين﴾ [الواقعة: 13، 14]. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الواقعة بمكة. وأخرج ابن مريويه، عن ابن الزبير مثله. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الضريس، والحارث بن أبي أسامة، وأبو يعلى، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً». وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «سورة الواقعة سورة الغنى، فاقروها، وعلموها أولادكم». وأخرج النيلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا نساءكم سورة الواقعة، فإنها سورة الغنى»، وقد تقدم قوله ﷺ: «شيبتي هود، والواقعة، ا هـ.

في قوله: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ يقول: عن غير أزواجهن ﴿لم يطمئنهن﴾ يقول: لم يئن منهن، أو لم يمتنهن. وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «في قوله: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ قال: تنظر إلى وجهها في خمرها أصفى من المرأة، وإن أنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً، وينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك». وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد بن السري، والترمذي، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها، وذلك أن الله يقول: كأنهن الياقوت والمرجان، فاما الياقوت، فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيت لرأيت من ورثته»، وقد رواه الترمذي موقوفاً وقال: هو أصح. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب وضعفه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». وأخرج الحكيم الترمذي في نوارب الأصول، والبيهقي في تفسيره، والديلمي في مسند الفردوس، وابن النجار في تاريخه عن أنس مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مريويه عن جابر مرفوعاً في الآية قال: «هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة». وأخرج ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب مرفوعاً مثل حديث ابن عمر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ قال: هل جزاء من قال لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة. وأخرج ابن عدي، وأبو الشيخ، وابن مريويه، والديلمي، والبيهقي في الشعب، وضعفه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله علي هذه الآية في سورة الرحمن للكافر والمسلم: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾». وأخرج ابن مريويه موقوفاً على ابن عباس. وأخرج هناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مدهامتان﴾ قال: هما خضران. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: قد اسوتنا من الخضرة من الزبي من الماء. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿مدهامتان﴾ قال: خضراوان. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فناضخان﴾ قال: فأنضخان بالماء. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن مسعود في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا رَفَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْفَعِهَا كَذِبٌ ۚ خَاصَّةً رَافِعَةً ۚ إِذَا رُفِعَتِ الْأَرْضُ رَبَّهَا ۚ وَنُسِيتِ الْجِبَالُ بَسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۚ وَكُنْتُمْ أَزْجًا نُلْكَةً ۚ تَأْسَفُخُ الْيَمِينُ مَا أَصْحَبَ الْيَمِينُ ۚ وَأَسْحَبُ الْبَقَعُ مَا أَصْحَبَ الشَّيْخَةُ ۚ وَالْمُتَّقُونَ الْيَتِيمُونَ ۚ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ فِي جَنَّةٍ الْيَمِينِ ۚ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَلَقَدْ يَنْزِلُ الْآخِرِينَ ۚ عَلَى سُرُرٍ مَوْشَوْنَ ۚ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۚ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۚ يَأْكُوبُ وَأُكُوبُ ۚ يَقَابِلُ يَنْ يَمِينٍ ۚ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُغْرَوْنَ ۚ وَنَكَحَتْهُمْ نِسَاءً يَسْوَدْنَ ۚ وَلَهُنَّ خِلَافٌ يَنْتَهَبُونَ ۚ وَهُنَّ فِيهَا رُحَمَاءٌ رِشْوَةٌ ۚ كَانَتْ لِلزَّوْجِ الْكَثْرُونَ ۚ جَزَاءُ يَمَنَّا كَأَنَّهُمْ يَمَلُونُ ۚ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْلِيمًا ۚ إِلَّا فِيلًا سَلَكَا سَبِيلًا ۚ

قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ الواقعة اسم للقيامة كالأزفة وغيرها، وسميت واقعة لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد، وانتصاب إذا بمضمر أي: انكر وقت وقوع الواقعة، أو بالنفي المفهوم من قوله: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي: لا يكون عند وقوعها تكذيب، والكاذبة مصدر كالعاقبة أي: ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً، وقيل: إذا شرطية، وجوابها مقدر أي: إذا وقعت كان كيت وكيت، والجواب هذا هو العامل فيها، وقيل: إنها شرطية، والعامل فيها الفعل الذي بعدها، واختار هذا أبو حيان، وقد سبق إلى هذا مكي فقال: والعامل وقعت. قال المفسرون: والواقعة هنا هي النفخة الآخرة، ومعنى الآية: أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلاً، أو لا يكون هناك نفس تكذب على الله، وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة. قال الزجاج: ليس لوقعتها كاذبة أي: لا يردّها شيء، وبه قال الحسن، وقتادة، وقال الثوري: ليس لوقعتها أحد يكذب بها، وقال الكسائي: ليس لها تكذيب أي: لا ينبغي أن يكذب بها أحد ﴿خافضة رافعة﴾ قرأ الجمهور برفعها على إضمار مبتدأ أي: هي خافضة رافعة. وقرأ الحسن وعيسى الثقفي بنصبهما على الحال. قال عكرمة، والسدي، ومقاتل: خفضت الصوت فاسمعت من لنا، ورفعت الصوت فاسمعت من نأى أي: اسمعت القريب والبعيد. وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله. وقال: محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين، والعرب تستعمل الخفض والرفع في المكان والمكانة، والعز والإمانة، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز، والخافض والرافع في الحقيقة، هو الله سبحانه ﴿إِذَا رَجِيتِ الْأَرْضُ رَجْبًا﴾ أي: إذا حركت حركة شديدة، يقال رَجَبَهُ يَرْجِبُهُ رَجْبًا إذا حركه، والرَّجَّةُ الاضطراب، وارتج البحر اضطرب. قال المفسرون: ترتج، كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها. قال قتادة، ومقاتل، ومجاهد: معنى رجت زلزلت، والظرف متعلق بقوله: ﴿خافضة رافعة﴾ أي:

تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض، وينخفض ما هو مرتفع. وقيل: إنه بدل من الظرف الأول نكرة الزجاج، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رج الأرض وبس الجبال ﴿وبست للجبال بسًا﴾ البس: الفت، يقال: بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتاً، ويقال بس السويق: إذا لته بالسمن، أو بالزيت. قال مجاهد، ومقاتل: المعنى أن الجبال فتت فتاً. وقال السدي: كسرت كسراً. وقال الحسن: قلعت من أصلها. وقال مجاهد أيضاً: بست كما يبس اللقيح بالسمن، أو بالزيت، والمعنى: أنها خلطت فصارت كاللقيح الملتوت. وقال أبو زيد: البس السوق، والمعنى على هذا: سيقت الجبال سوقاً، قال أبو عبيد: بس الإبل، وابسها لغتان: إذا زجرها. وقال عكرمة: المعنى هبت هذا ﴿فكانت هباءً منبثًا﴾ أي: غباراً متفرقاً منتشراً. قال مجاهد: الهباء الشعاع الذي يكون في الكوة كهيئة الغبار، وقيل: هو الزهج الذي يسطع من حوافر الدواب، ثم يذهب، وقيل: ما تطاير من النار إذا اضطمرت على سورة الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً، وقد تقدّم بيانه في الفرقان عند تفسير قوله: ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾ [الفرقان: 23] قرأ الجمهور (منبثاً) بالمثلثة. وقرأ مسروق، والنخعي، وأبو حيوة بالتاء المثناة من فوق أي: منقطعاً، من قولهم بته الله أي: قطعه. ثم نكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ والخطاب لجميع الناس، أو للأمة الحاضرة، والأزواج الأصناف، والمعنى: وكنتم في ذلك اليوم أصنافاً ثلاثة. ثم فسّر سبحانه هذه الأصناف فقال: ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ أي: أصحاب اليمين، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، ﴿وأصحاب الميمنة﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ أي: أي شيء هم في حالهم، وصفتهم، والاستفهام للتعظيم والتفخيم، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرابط، كما في قوله: ﴿الحاقة﴾ [الحاقة: 1، 2] ﴿القارعة﴾ [القارعة: 1، 2] ما أصحاب المشأمة ما أصحاب الميمنة، والمراد: الذي يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم، والمراد: تعجيب السامع من حال الفريقين في الفخامة والفضاعة؛ كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في نهاية السعادة وحسن الحال، وأصحاب المشأمة في نهاية الشقاوة وسوء الحال. وقال السدي: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الثرية من صلبه، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا عن شماله. وقال زيد بن أسلم: أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن، وأصحاب المشأمة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر. وقال ابن جريج: أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات. وقال الحسن، والربيع:

يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة، ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، والمقابلة بين الثلثين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة، كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة. وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور. ثم نكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين، فقال: ﴿على سرر موضونة﴾ قرأ الجمهور (سرر) بضم السين والراء الأولى، وقرأ أبو السماك، وزيد بن علي بفتح الراء، وهي لغة كما تقدم، والموضونة المنسوجة، والوضن: النسج المضاعف. قال الواحدي: قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، وقيل: مشبكة بالدر، والياقوت، والزبرجد، وقيل: إن الموضونة المصنوفة. وقال مجاهد: الموضونة المرمولة بالذهب، وانتصاب ﴿مكتئين عليها﴾ على الحال، وكذا انتصاب ﴿مقابلين﴾ والمعنى: مستقرين على سرر مكتئين عليها مقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض ﴿يطوف عليهم ولدان مخلون﴾ الجملة في محل نصب على الحال من المقربين، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعد الله لهم من النعيم، والمعنى: يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون، ولا يتغيرون، بل شكلهم شكل الولدان دائماً. قال مجاهد: المعنى لا يموتون. وقال الحسن، والكلبي: لا يهرمون، ولا يتغيرون. قال الفراء: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلد. وقال سعيد بن جبيرة: مخلون مقرطون. قال الفراء: ويقال: مخلون مقرطون، يقال: خلد جاريته: إذا حلاها بالخلدة، وهي القرطة. وقال عكرمة: مخلون منعوم، ومنه قول امرئ القيس:

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأرجال
وقيل: مستورون بالحلية، وروي نحوه عن الفراء، ومنه قول الشاعر:

ومخلدات باللعجين كأنما أعجازهن أقارص الكشبان
وقيل: مخلون ممنطقون، قيل: وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة، وقيل: هم أطفال المشركين، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة، والأكواب: هي الأقفاص المستديرة الأفواه التي لا أذان لها ولا عرى، وقد مضى بيان معناها في سورة الزخرف، والأباريق: هي ذات العرى والخراطيم، واحدها إبريق، وهو الذي يبرق لونه من صفائه ﴿وكأس من معين﴾ أي: من خمر جارية، أو من ماء جار، والمراد به ها هنا: الخمر الجارية من العيون، وقد تقدم بيان معنى الكأس في سورة الصافات ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: لا تتصدع رؤوسهم من شربها، كما تتصدع من شرب خمر الدنيا. والصداع: هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه، وقيل: معنى لا يصدعون لا يتفرون كما يتفرق الشراب،

أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشامة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة. وقال المبرد: أصحاب الميمنة أصحاب التقدم، وأصحاب المشامة أصحاب التأخر، والعرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك أي: اجعلني من المتقدمين، ولا تجعلني من المتأخرين، ومنه قول ابن الميمنة:

أبني تي أفي يميني بديك جعلتني فافرح لم صيرتني في شمالك
ثم نكر سبحانه الصنف الثالث، فقال: ﴿والسابقون السابقون﴾ والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم، كما مر في القسمين الأولين، كما تقول أنت أنت، وزيد زيد، والسابقون مبتدأ، وخبره السابقون. وفيه تأويلان أحدهما: أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك. والثاني: أن متعلق السابقين مختلف، والتقدير: والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة. والأول أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم. قال الحسن، وقتادة: هم السابقون إلى الإيمان من كلامه. وقال محمد بن كعب: إنهم الأنبياء. وقال ابن سيرين: هم الذين صلوا إلى القبليتين. وقال مجاهد: هم الذين سبقوا إلى الجهاد، وبه قال الضحاك. وقال سعيد بن جبيرة: هم السابقون إلى التوبة وأعمال البر. وقال الزجاج: المعنى: والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله. قيل: وجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأولين هو أن يقتدر به ما بعده، وهو قوله: ﴿أولئك المقربون﴾ في جنات النعيم، فالإشارة هي إليهم أي: المقربون إلى جزيل ثواب الله، وعظيم كرامته، أو الذين قربت درجاتهم، وأعليت مراتبهم عند الله. وقوله: ﴿في جنات النعيم﴾ متعلق بالمقربون أي: مقربون عند الله في جنات النعيم. ويجوز أن يكون خبراً ثانياً لأولئك، وأن يكون حالاً من الضمير في المقربون أي: كائنين فيها. قرأ الجمهور (في جنات) بالجمع، وقرأ طلحة بن مصرف (في جنة) بالإنفراد، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه، كما يقال: دار الضيافة، ودار الدعوة، ودار العدل، وارتفاع ﴿ثلة من الأولين﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلة، والثلة الجماعة التي لا يحصر عددها. قال الزجاج: معنى ثلة معنى فرقة، ومن ثلث الشيء: إذا قطعته، والمراد بالأوليين: هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي: من هذه الأمة، وسموا قليلاً بالنسبة إلى من كان قبلهم، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم، وكثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا، قال الزجاج: الذين عابنوا جميع الأنبياء وصنقوا بهم أكثر ممن عابن النبي ﷺ، ولا يخالف هذا ما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة، ثم قال: ثلث أهل الجنة، ثم قال: نصف أهل الجنة»، لأن قوله: ﴿ثلة من الأولين﴾ و﴿قليل من الآخرين﴾ إنما هو تفصيل للسابقين فقط، كما سيأتي في نكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن

يتكلمون بما فيه إثم ﴿إِلَّا قَلِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ القيل القول، والاستثناء منقطع أي: لكن يقولون قليلاً، أو يسمعون قليلاً، وانتصاب سَلاماً سَلاماً على أنه بدل من قليلاً، أو صفة له، أو هو مفعول به لقيلاً أي: إلا أن يقولوا سَلاماً سَلاماً، واختار هذا الزجاج، أو على أنه منصوب بفعل هو محكي بقليلاً أي: إلا قليلاً سلموا سَلاماً سَلاماً، والمعنى في الآية: أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض. قال عطاء: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وقيل: إن الاستثناء متصل وهو بعيد؛ لأن التحية ليست مما يندرج تحت اللغو والتأنيث، قرئ (سلام سلام) بالرفع. قال مكي: ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ وخبر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قال: يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَانِيَةً﴾ قال: ليس لها مردٌ يردُّ ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: تخفض ناساً وترفع آخرين. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: اسمعت القريب والبعيد. وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا رَجَوتِ الْأَرْضُ رُجُومًا﴾ قال: زلزلت ﴿وَبُيُوتُ الْجِبَالِ بُشًا﴾ قال: فتت ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ قال: شعاع الشمس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ قال: الهباء الذي يطير من النار إذا أضرمت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الهباء ما يثور مع شعاع الشمس، وانبثائه تفرقه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: الهباء المنبث ريج الدواب، والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وَوُكِنْتُمْ إِزْوَاجًا﴾ قال: اصنافاً. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَوُكِنْتُمْ إِزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32]. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى، ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب سبق إلى رسول الله ﷺ. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون؛ وحبيب النجار الذي نكر في يس، وعلي بن أبي طالب، وكل رجل منهم سابق أمته، وعلي أفضلهم سبقاً. وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِصْحَابُ الْيَمِينِ - وَإِصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ فقبض بيديه قبضتين، فقال: هذه في الجنة ولا أبالي، وهذه في النار ولا أبالي. وأخرج أحمد أيضاً عن عائشة عن رسول الله ﷺ

ويقوي هذا المعنى قراءة مجاهد (يصدعون) بفتح الياء وتشديد الصاد، والأصل يتصدعون أي: يفرقون، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم، أو في محل نصب على الحال، وجملة: ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، وقد تقدم اختلاف القراء في هذا الحرف في سورة الصافات، وكذلك تقدم تفسيره أي: لا يسكرون فتذهب عقولهم، من أنزف الشارب: إذا نفذ عقله، أو شرابه، ومنه قول الشاعر:

لعمرى لئن أنزفتم أو صحتم لبئس الندامى كنتم آل أبجر
﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي: يختارونه، يقال: تخيرت الشيء: إذا أخذت خيره. قرأ الجمهور (وفاكهة) بالجر ﴿وَوُكِنْتُمْ إِزْوَاجًا﴾ عطفاً على أكواف أي: يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به. وقرأ زيد بن علي، وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء، والخبر مقتر أي: ولهم فاكهة ولحم، ومعنى: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مما يتمنونه وتشتهيهم أنفسهم ﴿وَوُحُورٌ عَيْنٍ﴾ كامثال اللؤلؤ للمكنون، قرأ الجمهور (حور عين) برفعهما عطفاً على ولدان أو على تقدير مبتدأ أي: نساؤهم حور عين، أو على تقدير خبر أي: ولهم حور عين، وقرأ حمزة، والكسائي بجرهما عطفاً على أكواف. قال الزجاج: وجائز أن يكون معطوفاً على جنات أي: هم في جنات وفي حور على تقدير مضاف محذوف أي: وفي معاشرة حور. قال الفراء: في توجيهه العطف على أكواف إنه يجوز الجزء على الاتباع في اللفظ، وإن اختلفا في المعنى؛ لأن الحور لا يطاق بهن، كما في قول الشاعر:

إذا ما السفانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا
والعين لا تزجج، وإنما تكحل، ومن هذا قول الشاعر:

علفتها تبناً وماء بارداً

وقول الآخر:

متقلداً سيفاً ورمحاً

قال قطرب: هو معطوف على الأكواف والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطاق عليهم بالحور: ويكون لهم في ذلك لذة. وقرأ الأشهب العقيلي، والنخعي، وعيسى بن عمر بنصيبهما على تقدير إضمار فعل، كأنه قيل: ويزوجون حوراً عيناً، أو يعطون، ورجح أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة الجمهور. ثم شبههن سبحانه باللؤلؤ المكنون، وهو الذي لم تمسه الأيدي، ولا وقع عليه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاءً وانتصاب جزاء في قوله: ﴿حِزَابٌ بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ على أنه مفعول له أي: يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم. ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل محذوف أي: يجزون جزاءً، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الطور وغيرها ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ للغو: الباطل من الكلام، والتأنيث: النسبة إلى الإثم. قال محمد بن كعب: لا يؤثم بعضهم بعضاً، وقال مجاهد: لا يسمعون شتماً، ولا مائماً، والمعنى: أنه لا يقول بعضهم لبعضهم أثم؛ لأنهم لا

والمخضود الذي خضد شوكة أي: قطع فلا شوكة فيه. قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة:

إن الحداثق في الجنان ظليلة فيها الكواكب سدرها مخضود
وقال الضحاك، ومجاهد، ومقاتل بن حيان: إن السدر
المخضود الموقر حملاً **«وطلح منضود»** قال أكثر
المفسرين: إن الطلح في الآية هو شجر الموز. وقال جماعة:
ليس هو شجر الموز، ولكنه الطلح المعروف وهو أعظم
أشجار العرب. قال الفراء، وأبو عبيدة: هو شجر عظام لها
شوك. قال الزجاج: الطلح هو أم غيلان، ولها نور طيب،
فخوطبوا ووعوا ما يحبون، إلا أن فضله على ما في الدنيا
كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا. قال: ويجوز أن
يكون في الجنة، وقد أزيل شوكة. قال السدي: طلع الجنة
يشبه طلع الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل، والمنضود:
المتراكب الذي قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق
بارزة. قال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها
نضيد ثمر كله، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها
«وظلل ممدود» أي: دائم باق لا يزول، ولا تنسخه الشمس.
قال أبو عبيدة: والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع:
ممدود، ومنه قوله: **«الم تد إلى ربك كيف مد الظل»**
[الفرقان: 45] والجنة كلها ضل لا شمس معه. قال
الربيع بن أنس: يعني ظل العرش، ومن استعمال العرب
للممدود في الدائم الذي لا ينقطع قول لبيد:

غلب العزاء وكان غير مغلب دهر طويل دائم ممدود
«وماء مسكوب» أي: منصّب يجري بالليل، والنهار
أينما شاءوا لا ينقطع عنهم، فهو مسكوب يسكب الله في
مجاربه، وأصل السكب الصب، يقال: سكب سكباً أي: صب
«وفواكه كثيرة» أي: ألوان متنوعة متكررة **«لا مقطوعة»**
في وقت من الأوقات، كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض
الأوقات **«ولا ممنوعة»** أي: لا تمتنع على من أرادها في
أي وقت على أي صفة، بل هي معدة لمن أرادها لا يحول
بينه وبينها حائل. قال ابن قتيبة: يعني: أنها غير محظورة
عليها كما يحظر على بساتين الدنيا **«وفرش مرفوعة»** أي:
مرفوع بعضها فوق بعض، أو مرفوعة على الأسرة. وقيل: إن
الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة، وارتفاعها
كونها على الأرائك، أو كونها مرتفعات الأقدار في الحسن
والكمال **«إننا أنشأناهن إنشاء»** أي: خلقناهن خلقاً جديداً
من غير توالد، وقيل: المراد نساء بني آدم. والمعنى: أن الله
سبحانه أعادهن بعد الموت إلى حال الشباب، والنساء، وإن
لم يتقدم لهن نكر لكنهن قد دخلن في أصحاب اليمين، وأما
على قول من قال: إن الفرش المرفوعة عين النساء، فمرجع
الضمير ظاهر **«فجعلناهن إبنكاراً»** **«لم يطمئنهن إنس**
قبلهم ولا جان» [الرحمن: 56] **«عرباً قريالاً»** العرب جمع
عروب، وهي المتحبة إلى زوجها. قال المبرد: هي العاشقة
لزوجها، ومنه قول لبيد:

وفي الخباء عروب غير فاحشة ربا الرواف يعشي ضوءها البصرا

أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟ قالوا:
الله ورسوله أعلم، قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا
سئلوا بذلوا، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم». وأخرج
أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي
هريرة قال: «لما نزلت: **«ثلاثة من الأولين * وقليل من**
الآخرين» شق على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت: **«ثلاثة**
من الأولين * وثلاثة من الآخرين» [الواقعة: 39، 40] فقال
النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث الجنة،
بل أنتم نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة، وتقاسمونهم
النصف الثاني». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في
البعث عن ابن عباس **«على سرر موضونة»** قال:
مصفوفة. وأخرج سعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد،
وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث
عنه. قال: مرمولة بالذهب. وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة
الجنة، والبخاري، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن
عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتتظر
إلى الطير في الجنة، فتشتبهه فيخبر بين يديك مشوياً». وأخرج
أحمد، والترمذي، والضياء عن أنس قال: قال رسول
الله ﷺ: «إن طير الجنة كامثال البخت ترعى في شجر
الجنة، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه الطير لناعمة، قال:
أكلها أنعم منها، وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها، وفي
الباب أحاديث. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله:
«كامثال اللؤلؤ المكنون» قال: الذي في الصدف. وأخرج
ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«لا يسمعون فيها لغواً»**
قال: باطلاً **«ولا ثانيماً»** قال: كنياً.

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٧٧﴾ فِي سِدْرٍ مَشْجُورٍ ﴿٧٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْشُورٍ ﴿٧٩﴾
وَقُلُوبٌ مَّدْجُورٌ ﴿٨٠﴾ وَمَا تَسْكُوبُ ﴿٨١﴾ وَلَكِنَّهُمْ كَثِيرٌ ﴿٨٢﴾ لَا مَقْطُوعٌ وَلَا
مَنْعُوعٌ ﴿٨٣﴾ وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿٨٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٨٥﴾ لَجَعَلْنَاهُمْ إِبْنَكِرًا ﴿٨٦﴾ عَرَبًا
أَزْرَبًا ﴿٨٧﴾ لَا يَصْحَبُ الْيَمِينِ ﴿٨٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٩٠﴾
وَأَصْحَابُ الْإِشْرَاقِ مَا أَصْحَابُ الْإِشْرَاقِ ﴿٩١﴾ فِي سُورٍ مَّكَرٍمَةٍ ﴿٩٢﴾ طَلْحٍ بَيْنَ يَمِينٍ ﴿٩٣﴾
﴿٩٤﴾ لَا بَأْسَ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٩٥﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَكِينَ ﴿٩٦﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى
الْحَنِثِ الْكَلِيمِ ﴿٩٧﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَهَذَا مَتَا وَكُنَّا شُرَكَاءَ بِعَدُوِّنَا لَبِيعُونَ ﴿٩٨﴾
﴿٩٩﴾ أَوْ مَبَايِقَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٠٠﴾ قَدْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٠١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى
مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْدُومٍ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ لَكُمْ فِيهَا الْمَأْثُورَةُ الْكَافُورَةُ ﴿١٠٣﴾ لَكُونُوا مِنْ شَجَرٍ يَنْزُورُ ﴿١٠٤﴾
﴿١٠٥﴾ قَائِرِينَ فِيهَا الْطُيُورُ ﴿١٠٦﴾ فَتَسْرِوْنَ عَلَيْهِ مِنْ لَّيْمٍ ﴿١٠٧﴾ فَتَسْرِوْنَ شَرِبَ الْيَمِينِ ﴿١٠٨﴾
﴿١٠٩﴾ مَتَا تَزْلَمُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١٠﴾

لما فرغ سبحانه من نكر أحوال السابقين، وما أعدّه لهم
من النعيم المقيم، نكر أحوال أصحاب اليمين، فقال:
«وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين» قد قدمنا وجه
إعراب هذا الكلام، وما في هذه الجملة الاستفهامية من
التفخيم والتعظيم، وهي خبر المبتدأ، وهو أصحاب اليمين،
وقوله: **«في سدر مخضود»** خبر ثان، أو خبر مبتدأ
محذوف أي: هم في سدر مخضود، والسدر نوع من الشجر،

الشرك أي: كانوا لا يتوبون عن الشرك. وبه قال الحسن، والضحاك، وابن زيد. وقال قتادة، ومجاهد: هو الذنب العظيم الذي لا يتوبون عنه. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس، ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الهمزة في الموضعين للإنكار والاستبعاد، وقد تقدّم الكلام على هذا في الصفات، وفي سورة الرعد. والمعنى: أنهم أنكروا واستبعدوا أن يبعثوا بعد الموت، وقد صاروا عظاماً وتراباً، والمراد: أنه صار لحمهم وجلودهم تراباً، وصارت عظامهم نخرة بالية، والعامل في الظرف ما يدلّ عليه مبعوثون؛ لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله أي: أتبعث إذا متنا؟ إلخ ﴿وَإِذَا نُنَادُوا لِلْأُولَى﴾ معطوف على الضمير في لمبعوثون؛ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة. والمعنى: أن بعث آبائهم الأولين أبعد؛ لتقدّم موتهم، وقرئ: (وَأَبَاؤُنَا). ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجب عليهم ويردّ استبعادهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد: إن الأولين من الأمم، والآخريين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجمعون بعد البعث إلى ميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ مِنْهَا لَالضَّالُّونَ الْمَكْنُونُونَ﴾ هذا وما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول، وهو معطوف على ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ﴾ ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين، وهما الضلال عن الحق والتكذيب له ﴿لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾ أي: لا تكونون في الآخرة من شجر كرية المنظر كرية الطعم. وقد تقدّم تفسيره في سورة الصفات، ومن الأولى لابتداء الغاية والثانية بيانية، ويجوز أن تكون الأولى مزيدة والثانية بيانية، وأن تكون الثانية مزيدة والأولى للابتداء ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي: مائلون من شجر الزقوم بطونكم؛ لما يلحقكم من شدة الجوع ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ الضمير في عليه عائد إلى الزقوم، والحميم الماء الذي قد بلغ حرّه إلى الغاية، والمعنى: فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحار، ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر؛ لأنه يذكر ويؤنث. ويجوز أن يعود إلى الأكل المبلول عليه بقوله: ﴿لَا تَكُونُونَ﴾ وقرئ (من شجرة) بالإنفراد ﴿فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ﴾ قرأ الجمهور (شرب الهيم) بفتح الشين، وقرأ نافع، وعاصم، وحمة بضمها. وقرأ مجاهد، وأبو عثمان النهدي بكسرهما، وهي لغات. قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرهما. قال المبرد: الفتح على أصل المصدر، والضم اسم المصدر، والهيم: الإبل العطاش التي لا تروى لئلا يصيبها. وهذه الجملة بيان لما قبلها أي: لا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم التي تعطش ولا تروى بشرب الماء، ومفرد الهيم أهيم، والأنثى هيماء. قال قيس بن الملوّح:

يقال به داء الهيم أصابه وقد علمت نفسي مكان شفائيا
وقال الضحاك، وابن عيينة، والأخفش، وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل، والمعنى: أنهم يشربون، كما

وقال زيد بن أسلم: هي الحسنة الكلام. قرأ الجمهور بضم العين والراء. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء، وهما لغتان في جمع فعول، والأتراپ: هنّ اللواتي على ميلاد واحد، وسنّ واحد. وقال مجاهد: أتراًپاً أمثالا وأشكالاً. وقال السدي: أتراًپاً في الأخلاق لا تباغض بينهم ولا تحاسد. قوله: ﴿لِلْأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلق بإنشائهم، أو بجعلنا، أو بأتراًپاً، والمعنى: أن الله أنشأهم لأجلهم، أو خلقهم لأجلهم، أو هنّ مساويات لأصحاب اليمين في السنّ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف أي: هنّ الأصحاب اليمين ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ هذا راجع إلى قوله: ﴿وَأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: هم ثلثة من الأولين، وثلثة من الآخرين، وقد تقدم تفسير الثلثة عند ذكر السابقين، والمعنى: أنهم جماعة، أو أمة، أو فرقة، أو قطعة من الأولين، وهم من لدن آدم إلى نبينا ﷺ، وجماعة، أو أمة، أو فرقة، أو قطعة من الآخرين، وهم أمة محمد ﷺ. وقال أبو العالية، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: من سابقي هذه الأمة، ﴿وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة من آخرها. ثم لما فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع في ذكر أصحاب الشمال، وما أعدّه لهم، فقال: ﴿وَأَصْحَابِ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابِ الشَّامِلِ﴾ الكلام في إعراب هذا وما فيه من التفخيم، كما سبق في أصحاب اليمين، وقوله: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ إما خبر ثان لأصحاب الشمال، أو خبر مبتدأ محذوف، والسوم: حرّ النار، والحميم: الماء الحارّ الشديد الحرارة، وقد سبق بيان معناه. وقيل: السوم: الريح الحارة التي تنخل في مسام البدن ﴿وَوُظِّلَ مَنْ يَحْمُومُ﴾ اليموم يفعل من الأحم: وهو الأسود؛ والعرب تقول: أسود يحموم: إذا كان شديد السواد، والمعنى: أنهم يفزعون إلى الظلّ، فيجبدونه ظلاً من دخان جهنم شديد السواد. وقيل: وهو مأخوذ من الحم، وهو الشحم المسوّد بالحقار النار. وقيل: مأخوذ من الحمم، وهو الفحم. قال الضحاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكل ما فيها أسود. ثم وصف هذا الظلّ بقوله: ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ ليس كغيره من الظلال التي تكون باردة، بل هو حار لأنه من دخان نار جهنم. قال سعيد بن المسيب: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي: ليس فيه حسن منظر، وكلّ ما لا خير فيه، فليس بكريم، وقال الضحاك: ولا كريم، ولا عذب. قال الفراء: العرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه وصفاً تنوي به الذم، تقول: ما هو بسمين ولا بكريم، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة. ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ وهذه الجملة تعليل لما قبلها أي: إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل بهم مترفين في الدنيا أي: منعمين بما لا يحل لهم، والمترف المتنعم. وقال السدي: مشركين، وقيل: متكبرين، والأوّل أولى ﴿وَكَانُوا يَصْرُونَ عَلَى الْحَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ الحنث الذنب أي: يصرون على الذنب العظيم. قال الواحدي: قال أهل التفسير: عني به

له: يا أمير المؤمنين أنحكها في المصحف؟ قال: لا يهاج القرآن اليوم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿منضود﴾ قال: بعضه على بعض. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم ﴿وَوَظَلَّ مَمْدُودٌ﴾». وأخرج البخاري، وغيره نحوه من حديث أنس. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما نحوه من حديث أبي سعيد. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: «﴿ووفرش مرفوعة﴾ قال: ارتفاعها، كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام». قال الترمذي بعد إخراجها: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى، ورشدين ضعيف. وأخرج الفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: «﴿إنا أنشأناهم إنشاء﴾» قال: إن المنشئات التي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً. قال الترمذي بعد إخراجها: غريب، وموسى يزيد ضعيفان. وأخرج الطيالسي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن قانع، والبيهقي في البعث عن سلمة بن يزيد الجعفي سمعت النبي ﷺ يقول في قوله: «﴿إنا أنشأناهم إنشاء﴾» قال: الثيب والابكار اللاتي كن في الدنيا. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: خلقهن غير خلقهن الأول. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: «﴿للكار﴾» قال: عذاري. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «﴿عربا﴾» قال: عواشق «﴿أقربا﴾» يقول: مستويات. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: «﴿عربا﴾» قال: عواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون «﴿أقربا﴾» قال: في سن واحد ثلاثاً وثلاثين سنة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: العروب الملقاة لزوجها. وأخرج مسدد في مسنده، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكرة عن النبي ﷺ في قوله: «﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين﴾» قال: جميعهما من هذه الأمة. وأخرج أبو داود الطيالسي، ومسدد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن أبي بكرة في قوله: «﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين﴾» قال: هما جميعاً من هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن عدي، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند ضعيف عن ابن عباس في قوله: «﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين﴾» قال: قال رسول الله ﷺ: هما جميعاً من أمتي. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس قال: الثلثان جميعاً من هذه الأمة. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن

تشرب هذه الأرض الماء، ولا يظهر له فيها أثر. قال في الصحاح: الهيام بالضم: أشد العطش، والهيام كالجنون من العشق، والهيام: داء يأخذ الإبل تهيم في الأرض لا ترعى، يقال: ناقة هيماء، والهيماء أيضاً: المغازاة لا ماء بها، والهيام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك في اليد لينه، والجمع هيم مثل قذال وقذل، والهيام بالكسر الإبل العطاش ﴿هَذَا نَزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ قرأ الجمهور (نزلهم) بضمتين، وروي عن أبي عمرو، وابن محيصن بضمّة وسكون، وقد تقدم أن النزل ما يعدّ للضيف، ويكون أوّل ما يأكله، ويوم الدين يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، والمعنى: أن ما نكر من شجر الزقوم، وشراب الحميم هو الذي يعدّ لهم ويكلونه يوم القيامة، وفي هذا تهكم بهم؛ لأن النزل هو ما يعدّ للأضياف تكرمة لهم، ومثل هذا قوله: ﴿فَنُفِثَهُمْ بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾ [آل عمران: 21].

وقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي أمامة قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله نذكر في القرآن شجرة مؤنية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال: وما هي؟ قال: للسدر، فإن لها شوكة، فقال رسول الله ﷺ: اليس الله يقول: ﴿فِي سَدْرٍ مَخْضُودٍ﴾؟ يخضد الله شوكة، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تثبت ثمرأً يتفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر». وأخرج ابن أبي داود، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية، وابن مريويه عن عيينة بن عبد السلمى قال: «كنت جالساً مع النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعت تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكةً منها يعني: الطلع، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصبة التيس الملبود يعني: الخصي منها، فيها سبعون لوناً من الطعام لا يشبه لون آخر». وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ قال: خضده وقره من الحمل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه قال: المَخْضُود الذي لا شوك فيه. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال: المَخْضُود الموقر الذي لا شوك فيه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مريويه عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ﴾ قال: هو الموز. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن أبي هريرة مثله. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري مثله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أنه قرأ (وطلع منضود). وأخرج ابن جرير، وابن الأتباري في المصاحف عن قيس بن عباد قال: قرأت على علي بن أبي طالب ﴿وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ﴾ فقال علي: ما بال طلع، أما تقرأ وطلع؟ ثم قال: ﴿طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: 10]، فقبل

عباس في قوله: ﴿وِظَلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ﴾ قال: من دخان أسود، وفي لفظ: من دخان جهنم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿شَرْبُ الْهَيْمِ﴾ قال: الإبل العطاش.

نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُقُونَ ﴿٦٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا مِثْقَالَ النَّوْثِ وَأَعْيَنَ مَسْبُوقِينَ ﴿٧٠﴾ عَلَّاءَ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَتُنَبِّئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ عَفَتْهُ الشَّأَةُ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٢﴾ أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٧٣﴾ أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٧٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا تَطَّعَتْهُمُ أَغْلَامُهُ ﴿٧٥﴾ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَهُ ﴿٧٦﴾ بَلْ نَحْنُ حَرَمُهُمْ ﴿٧٧﴾ أَرَأَيْتُمْ إِلَاءَ اللَّهِ إِلَيْنَا تَسْأَلُونَ ﴿٧٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهَ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٧٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ جِبَالًا فَلَوَلَا تَشْكُرُونَ ﴿٨٠﴾ أَرَأَيْتُمْ أَنْزَلَ آلَيْنَا آتَيْنِ آلَيْنَا تُورُونَ ﴿٨١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٨٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمْنًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٨٤﴾

قوله: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصنعون﴾ التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة توبيخاً لهم، وإلزاماً للحجة أي: فهلا تصدقون بالبعث، أو بالخلق. قال مقاتل: خلقناكم ولم تكونوا شيئاً، وأنتم تعلمون ذلك، فهلا تصدقون بالبعث؟ ﴿أفأرأيتم ما تمنون﴾ أي: ما تقفون وتصبون في أرحام النساء من النطف، ومعنى ﴿أفأرأيتم﴾: أخبروني، ومفعولها الأول ما تمنون، والثاني الجملة الاستفهامية، وهي ﴿أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ أي: تقدرون وتصورونه بشراً سوا أم نحن المقدرين المصورين له، وأم هي المتصلة، وقيل: هي المنقطعة، والأول أولى. قرأ الجمهور (تمنون) بضم الفوقية من أمني يعني. وقرأ ابن عباس، وأبو السماك، ومحمد بن السميع، والأشهب العقيلي بفتحها من منى يعني، وهما لغتان، وقيل: معناه مختلف، يقال: أمني إذا أنزل عن جماع، ومنى إذا أنزل عن احتلام، وسمي المنى منياً؛ لأنه يعني أي: يراق ﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾ قرأ الجمهور (قدرنا) بالتشديد، وقرأ مجاهد، وحميد، وابن محيصن، وابن كثير بالتخفيف، وهما لغتان، يقال: قدرت الشيء وقدرته أي: قسمناه عليكم، ووقتنا لكل فرد من أفرانكم، وقيل: قضينا، وقيل: كتبنا، والمعنى متقارب. قال مقاتل: فمنكم من يموت كبيراً، ومنكم من يموت صغيراً. وقال الضحاك: معناه أنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ بمغلوبين، بل قادرين: ﴿على أن نبذل أمثالكم﴾ أي: نأتي بخلق مثلكم. قال الزجاج: إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا. قال ابن جرير: المعنى نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبذل أمثالكم بعد موتكم بأخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في أجالكم أي: لا يتقدم متأخر، ولا يتأخر متقدم ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ من الصور والهيئات. قال الحسن أي: نجعلكم قدرة وخنازير، كما فعلنا بأقوام قبلكم، وقيل المعنى: ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا.

وقال سعيد بن المسيب: ﴿فيما لا تعلمون﴾ يعني: في حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف، وبرهوت واد باليمن. وقال مجاهد: ﴿فيما لا تعلمون﴾ يعني: في أي خلق شئنا، ومن كان قادراً على هذا فهو قادر على البعث ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾ وهي ابتداء الخلق من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ولم تكونوا قبل ذلك شيئاً. وقال قتادة، والضحاك: يعني: خلق آدم من تراب ﴿فلولا تذكرون﴾ أي: فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة، وتقيسونها على النشأة الأولى. قرأ الجمهور (النشأة) بالقصر، وقرأ مجاهد، والحسن، وابن كثير، وأبو عمرو بالمد، وقد مضى تفسير هذا في سورة العنكبوت ﴿أفأرأيتم ما تحرثون﴾ أي: أخبروني ما تحرثون من أرضكم، فطرحون فيه البذر ﴿أنتم تزرعون﴾ أي: تنبتونه وتجعلونه زرعاً، فيكون فيه السنبل والحب ﴿أم نحن الزارعون﴾ أي: المنبتون له الجاعلون له زرعاً لا أنتم. قال المبرد: يقال زرع الله أي: أنما، فإذا أقرتم بهذا، فكيف تنكرون البعث ﴿ولو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ أي: لو نشاء لجعلنا ما تحرثون حطاماً أي: متحطماً متكسراً، والحطام: الهشم الذي لا ينتفع به، ولا يحصل منه حب، ولا شيء مما يطلب من الحرث ﴿فظلتم تفكهون﴾ أي: صرتم تعجبون. قال الفراء: تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم في زرعكم. قال في الصحاح: وتفكه تعجب، ويقال: تندم. قال الحسن، وقتادة، وغيرهما: معنى الآية: تعجبون من ذهابها، وتندمون مما حل بكم. وقال عكرمة: تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله. وقال أبو عمرو، والكسائي: هو التلطف على ما فات. قرأ الجمهور (فظلتم) بفتح الظاء مع لام واحدة. وقرأ أبو حيوة، وأبو بكر في رواية عنه بكسر الظاء. وقرأ ابن عباس، والجحدري (فظلتم) بلامين: أولهما مكسورة على الأصل، وروي عن الجحدري فتحها، وهي لفة. وقرأ الجمهور (تفكهون) وقرأ أبو حزام العكلي (تفكنون) بالنون مكان الهاء أي: تندمون. قال ابن خالويه: تفكه تعجب، وتفكّن تندم. وفي الصحاح: التفكّن التندم ﴿إننا لمغرمون﴾ قرأ الجمهور بهمة واحدة على الخبر، وقرأ أبو بكر، والمفضل، وزر بن حبيش بهمزيين على الاستفهام، والجملة بتقدير القول أي: تقولون إننا لمغرمون أي: ملزمون غمراً بما هلك من زرعنا، والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، قاله الضحاك، وابن كيسان. وقيل المعنى: إننا لمعذبون، قاله قتادة، وغيره. وقال مجاهد، وعكرمة: لمولع بنا، ومنه قول النمر بن تولب:

سلا عن تذكره تكتماً وكان رهيناً بها مفرماً
يقال: أغرم فلان بفلان أي: أوع. وقال مقاتل: مهلكون. قال النحاس: مأخوذ من الغرام، وهو الهلاك، ومنه قول الشاعر:

ويوم النسار ويوم الجبا ركان عليكم عذاباً مقيماً
والظاهر من السياق المعنى الأول أي: إننا لمغرمون

وكذا أي: ما أكلت شيئاً، وبات فلان القوي أي: بات جائعاً، ومنه قول الشاعر:

وإني لأختار القوي طاري الحشا محافظة من أن يقال لشيم
وقال قطرب: القوي من الأضداد يكون بمعنى الفقر، ويكون بمعنى الغنى، يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، وأقوى: إذا قويت دوابه وكثر ماله. وحكى الثعلبي عن أكثر المفسرين القول الأول، وهو الظاهر ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من نكر الله سبحانه، وتنزيهه على ما قبلها مما عده من النعم التي أنعم بها على عباده، وجود المشركين لها، وتكثيرهم بها.

وقد أخرج البزار، وابن جرير، وابن مروي، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب، وضعفه عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحكم زعت، ولكن يقول حرث». قال أبو هريرة: ألم تسمعو الله يقول: ﴿أفرايتم ما تحرثون﴾ * أفتم ترزعوه أم نحن الزارعون. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿تفكهون﴾ قال: تعجبون. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: قال: ﴿المرزء﴾ السحاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن طرق عن ابن عباس ﴿نحن جعلناها تنكرة﴾ قال: تنكرة للنار الكبرى ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ قال: للمسافرين.

﴿فَكَأَنَّهُمْ يُوقِعُ الْجُورِ﴾ (٧٠) وَإِنَّهُمْ لَنَسَوُاْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧١) إِنَّهُمْ لَنَرَوْنَهُ كَيْفَ (٧٢) فِي كَيْسٍ كَثِيرٍ (٧٣) لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطَهَّرُونَ (٧٤) تَزِيلُ بَيْنَ رَبِّ الْمَكِينِ (٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا أَنْتُمْ تُدْهِئُونَ (٧٦) وَتَقُولُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ نَكْذِبُونَ (٧٧) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُ (٧٨) وَاسْتَأْذَنُواْ تَنْظُرُونَ (٧٩) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٠) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨١) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٢) فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَرَبِّينَ (٨٣) فَرِحَ وَرَجَعَا وَرَجَعَتْ بُيُوتُهُمْ (٨٤) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَعْمَى إِلِيٍّ (٨٥) فَسَلِّمْ لَهُ مِنْ أَصْحَابِ إِلِيٍّ (٨٦) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ الْعَالِينَ (٨٧) فَزَلِّمْ لَهُ مِنْ جُورٍ (٨٨) وَتَعْلِيَةِ جَبْرِ (٨٩) إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ إِلَيْنِ (٩٠) فَسَجِّ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩١)

قوله: ﴿فلا أقسم﴾ ذهب جمهور المفسرين إلى أن لا مزيدة للتوكيد، والمعنى: فأقسم، ويؤيد هذا قوله بعد: ﴿وإنه لأقسم﴾ وقال جماعة من المفسرين: إنها للنفي، وإن المنفي بها محذوف، وهو كلام الكفار الجاحدين. قال الفراء: هي نفي، والمعنى: ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف، فقال: أقسم، وضعف هذا بأن حذف اسم لا، وخبرها غير جائز، كما قال أبو حيان، وغيره. وقيل: إنها لام الابتداء، والأصل: فلا أقسم، فاشبعت الفتحة، فتولد منها ألف، كقول الشاعر:

أعوذ بالله من العقرب

وقد قرأ هكذا (فلا أقسم) بدون ألف، الحسن، وحמיד، وعيسى بن عمر، وعلى هذا القول، وهذه القراءة بقدر مبتدأ محذوف، والتقدير: فلأنا أقسم بذلك. وقيل: إن لا هنا بمعنى

بذهاب ما حرثناه، ومصيره حطاماً، ثم أضربوا عن قولهم هذا، وانتقلوا فقالوا: ﴿بئس نحن محرومون﴾ أي: حرماً رزقنا بهلاك زرعنا، والمحروم الممنوع من الرزق الذي لا حظ له فيه، وهو المحارف ﴿أفرايتم الماء الذي تشربون﴾، فتسكنون به ما يلحقكم من العطش، وتدفعون به ما ينزل بكم من الظما. واقتصر سبحانه على نكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده، ولجل منافعه ﴿أفتم أنزلتموه من المزن﴾ أي: السحاب. قال في الصحاح: قال أبو زيد: المزنة السحابة البيضاء، والجمع مزن، والمزنة المطر. قال الشاعر:

ألم تر أن الله أنزل مزنة وغفر للظبا في الكنائس تجمع
ومما يدل على أنه السحاب قول الشاعر:

فنحن كماء المزن ماني نصابنا كهام ولا فينا يعدّ بخيل
وقول الآخر:

فلا مزنة وبقت وبها ولا أرض أبقل إبقالها
﴿أم نحن المنزلون﴾ له بقدرتنا دون غيرنا، فإذا عرفتم ذلك، فكيف لا تقرّون بالتوحيد، وتصنّفون بالبعث. ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال: ﴿لو نشاء جعلناها لاجباً﴾ الإجاج الماء الشديد الملوحة الذي لا يمكن شربه، وقال الحسن: هو الماء المر الذي لا ينتفعون به في شرب، ولا زرع، ولا غيرهما ﴿فلولا تشكرون﴾ أي: فهل تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم ماء عذباً تشربون منه وتنتفعون به ﴿أفرايتم النار التي تورون﴾ أي: أخبروني عنها، ومعنى ﴿تورون﴾: تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب، يقال: أوريث النار إذا قدحتها ﴿أفتم أنشأتم شجرتها﴾ التي يكون منها الزنود، وهي المرخ والعفار، تقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار ﴿أم نحن المنشؤون﴾ لها بقدرتنا دونكم، ومعنى الإنشاء: الخلق، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما في ذلك من ببيع الصنعة، وعجيب القدرة ﴿نحن جعلناها تنكرة﴾ أي: جعلنا هذه النار التي في الدنيا تنكرة لنار جهنم الكبرى. قال مجاهد، وقتادة: تبصرة للناس في الظلام، وقال عطاء: موعظة ليتعظ بها المؤمن ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ أي: منفعة للذين ينزلون بالقواء، وهي الأرض القفر كالمسافرين، وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة، يقال: أرض قواء بالمد والقصر أي: مقفرة، ومنه قول النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقال عنتره:

حييت من طلل تقام عهده أتوى وأقرب بعد لم الهيثم
وقول الآخر:

ألم تسال الربيع فينطق وهل يخبرنك اليوم ببيده سملق
ويقال: أقوى إذا سافر أي: نزل القوى. وقال مجاهد: المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ، والخبز، والاصطلاء، والاستضاءة، وتذكر نار جهنم. وقال ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم، يقال: أقوى منذ كذا

المطهرون من الشرك. وقال الربيع بن أنس: المطهرون من الذنوب والخطايا. وقال محمد بن الفضل وغيره: معنى ﴿لَا يَمْسُهُ﴾: لا يقرؤه إلا المطهرون أي: إلا الموحدون. وقال الفراء: لا يجد نفعه وبركته إلا المطهرون أي: المؤمنون. وقال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق. وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مسّ المصحف، وبه قال عليّ، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعطاء، والزهري، والنخعي، والحكم، وحماة وجماعة من الفقهاء منهم مالك، والشافعي. وروي عن ابن عباس، والشعبي، وجماعة منهم أبو حنيفة، أنه يجوز للمحدث مسه، وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا للمتقي، فليرجع إليه. قرأ الجمهور (المطهرون) بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول. وقرأ سلمان الفارسي بكسر الهاء على أنه اسم فاعل أي: المطهرون أنفسهم. وقرأ نافع، وابن عمر في رواية عنهما، عيسى بن عمر بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، اسم مفعول من أظهر، وقرأ الحسن، وزيد بن عليّ، وعبد الله بن عوف بتشديد الطاء وكسر الهاء، وأصله المتطهرون ﴿تَنْزِيلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ الجمهور بالرفع، وقرأ بالنصب، فالرفع على أنه صفة أخرى لقرآن، أو خبر مبتدأ محذوف، والنصب على الحال ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهَنُونَ﴾ الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة، والمدمن والمداهن المتناقض. كذا قال الزجاج وغيره. وقال عطاء وغيره: هو الكذاب. وقال مقاتل بن سليمان، وقتادة: مدهنون كافرون، كما في قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَدَهَنَ فَيَدْهَنُونَ﴾ [القلم: 9] وقال الضحّاك: مدهنون معرضون، وقال مجاهد: ممالئون للكفر على الكفر، وقال أبو كيسان: المدمن الذي لا يعقل حق الله عليه، ويدفعه بالعلل. والأول أولى؛ لأن أصل المدمن الذي ظاهره خلاف باطنه؛ كأنه يشبه الدهن في سهولته. قال المؤرج: المدمن المتناقض الذي يلين جانبه؛ ليخفي كفره، والإدهان والمداهنة: التكنيب، والكفر، والنفاق، وأصله اللين، وإن يسر خلاف ما يظهر، وقال في الكشف: مدهنون أي: متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي: يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به انتهى. قال الراغب: والإدهان في الأصل مثل التدهين؛ لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة، وترك الجذ: كما جعل التقريد، وهو نزع القراد عبارة عن ذلك، ويؤيد ما ذكره قول أبي قيس بن الأسلت:

الحزم والقوة خير من الـ إدهان والعصه والهاع
﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ في الكلام مضاف محذوف، كما حكاه الواحدي عن المفسرين أي: تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله، فتضعون التكذيب موضع الشكر. وقال الهيثم: إن أژشنوة يقولون: ما رزق فلان أي: ما شكر؛ وعلى هذه اللغة لا يكون في الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر. ووجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق، فيكون

إلا التي للتنبيه، وهو بعيد. وقيل: لا هنا على ظاهرها، وإنما لنفي القسم أي: فلا أقسم على هذا؛ لأن الأمر أوضح من ذلك، وهذا مدفوع بقوله: ﴿وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ مع تعيين المقسم به، والمقسم عليه، ومعنى قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ مساقطها، وهي مغاربها كذا قال قتادة، وغيره. وقال عطاء بن أبي رباح: منازلها. وقال الحسن: انكدارها وانتثارها يوم القيامة، وقال الضحّاك: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون مطرنا بنوء كذا. وقيل: المراد بمواقع النجوم: نزول القرآن نجوماً من اللوح المحفوظ، وبه قال السدي، وغيره، وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن: قرأ الجمهور (مواقع) على الجمع، وقرأ ابن مسعود، والنخعي، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن⁽¹⁾ وورش عن يعقوب (بموقع) على الأفراد. قال المبرد: موقع هاهنا مصدر، فهو يصلح للواحد والجمع. ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم وتفضيحه، فقال: ﴿وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ هذه الجملة معترضة بين المقسم به، والمقسم عليه، وقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة معترضة بين جزأي الجملة المعترضة، فهو اعتراض في اعتراض. قال الفراء، والزجاج: هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن، والضمير في إنه على القسم الذي يدل عليه أقسم، والمعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون. ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ أي: كرمه الله وأعزه، ورفع قدره على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحراً أو كهانة أو كذبا، وقيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالي الأمور، وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارئه. وحكى الواحدي عن أهل المعاني أن وصف القرآن بالكريم لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين. قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمده، والقرآن كريم يحمده لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أي: مستور مصون، وقيل: محفوظ عن الباطل، وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة، وقيل: هو كتاب. وقال عكرمة: هو التوراة والإنجيل فيهما نكر القرآن، ومن ينزل عليه، وقال السدي: هو الزبور. وقال مجاهد، وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون أي: لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة وقيل: هم الملائكة والرسل من بني آدم، ومعنى ﴿لَا يَمْسُهُ﴾ المسّ الحقيقي، وقيل: معناه لا ينزل به إلا المطهرون، وقيل: معناه لا يقرؤه، وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن، فقيل: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والانبجاس. كذا قال قتادة، وغيره. وقال الكلبي:

(1) هكذا بالأصل، وصوابه ورويس اهـ ع.

للمرحوم، والريحان: الرزق في الجنة، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، ومقاتل. قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير، يقال: خرجت أطلب ريحان الله أي: رزقه، ومنه قول النمر بن تولب:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء در

وقال قتادة: إنه الجنة. وقال الضحاك: هو الرحمة. وقال الحسن: هو الريحان المعروف الذي يشم. قال قتادة، والربيع بن خيثم: هذا عند الموت، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث، وكذا قال أبو الجوزاء، وأبو العالية، ومعنى وجنة نعيم أنها ذات تنعم، وارتفاع روح، وما بعده على الابتداء، والخبر محذوف أي: فله روح ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ ذلك المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وقد تقدّم ذكرهم، وتفصيل أحوالهم، وما أعدّه الله لهم من الجزاء ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة، فلا تهتم بهم، فإنه يسلمون من عذاب الله، وقيل: المعنى: سلام لك منهم أي: أنت سالم من الاغتمام بهم، وقيل المعنى: إنهم يدعون لك، ويسلمون عليك، وقيل: إنه ﷺ يحيي بالسلام إكراماً، وقيل: هو إخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض، وقيل المعنى: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْنُوبِينَ لِلضَّالِّينَ﴾ أي: المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم، وتفصيل أحوالهم ﴿فَنَزَلَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: فله نزل يعدّ لنزوله من حميم، وهو الماء الذي قد تناهت حرارته، وذلك بعد أن ياكل من الزقوم كما تقدم بيانه: ﴿وَتُوصَلِيهِ جَحِيمٌ﴾ يقال أصلاه النار وصلاه أي: إذا جعله في النار، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أو إلى المكان. قال المبرد: وجواب الشرط في هذه الثلاثة المواضع محذوف، والتقدير: مهما يكن من شيء فروح إلخ، وقال الأخفش: إن الفاء في المواضع الثلاثة هي جواب أما، وجواب حرف الشرط. قرأ الجمهور (وتصلية) بالرفع عطفاً على فنزل. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجر عطفاً على حميم أي: فنزل من حميم، ومن تصلية جحيم ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر في هذه السورة، أو إلى المنكور قريباً من أحوال المتفرقين لهو حق اليقين أي: محض اليقين وخالصة، وإضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشيء إلى نفسه. قال المبرد: هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين، هذا عند الكوفيين وجوزوا ذلك؛ لاختلاف اللفظ، وأما البصريون، فيجعلون المضاف إليه محذوفاً، والتقدير: حق الأمر اليقين، أو الخبر اليقين، والفاء في ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي: نزهه عما لا يليق بشأنه، والباء متعلقة بمحذوف أي: فسبح ملتبساً باسم ربك للتبرك به، وقيل المعنى: فصل بذكر ربك، وقيل: الباء زائدة، والاسم بمعنى الذات. وقيل: هي للتعنية؛ لأن سبّح يتعدى بنفسه تارة، ويتعدى بالحرف أخرى، والأول أولى.

الشكر رزقاً تعبيراً بالسبب عن المسبب، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقامهم الله، وأنزل عليهم المطر: سقيناً بنوء كذا، ومطرنا بنوء كذا. قال الأزهري: معنى الآية: وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذي رزقكم الله التكنيب بانه من عند الله الرزاق. وقرأ علي وابن عباس (وتجعلون شكركم) وقرأ الجمهور (أنكم تكذبون) بالتشديد من التكنيب، وقرأ علي، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف من الكذب ﴿فَقُلُوا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومُ﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح، أو النفس الحلقوم عند الموت، ولم يتقدم لها نكر؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة، ومنه قول حاتم طي:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
﴿وَأَنْتُمْ حِينَتٌ تَنْظُرُونَ﴾ إلى ما هو فيه ذلك الذي بلغت نفسه أو روحه الحلقوم. قال الزجاج: وأنتم يا أهل الميت في تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، والمعنى: أنهم في تلك الحال لا يمكنهم البغ عن، ولا يستطيعون شيئاً ينفعه، أو يخفف عنه ما هو فيه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي: بالعلم، والقدرة، والرؤية، وقيل: أراد ورسلا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم ﴿وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ أي: لا ترون ذلك؛ لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه ﴿فَقُلُوا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ * ترجعونها، يقال: دان السلطان رعيته: إذا ساسهم واستعبدهم. قال الفراء: ننته ملكته، وأنشد للحطيئة:

لقد ننت أمر بنيك حتى تركتهم أبق من الطحين
أي: ملكت، ويقال: دانه إذا أنله واستعبدته، وقيل: معنى ﴿مَدِينِينَ﴾ محاسبين، وقيل: مجزيين، ومنه قول الشاعر:

ولم يبق سوى العنوا ن نأهم كما دانوا
والمعنى الأول الصق بمعنى الآية أي: فهلا إن كنتم غير مريبين ومملوكين ترجعونها أي: النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مقرها الذي كانت فيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولن ترجعوها، فيطل زعمكم إنكم غير مريبين ولا مملوكين، والعامل في قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ هو قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾، ولولا الثانية تأكيداً للآولى قال الفراء: وربما أعانت العرب الحرفين ومعناها واحد، ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدم تفصيل أحوالهم ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ قرأ الجمهور (روح) بفتح الراء، ومعناه: الراحة من الدنيا، والاستراحة من أحوالها. وقال الحسن: الروح: الرحمة. وقال مجاهد: الروح: الفرح. وقرأ ابن عباس، وعائشة، والحسن، وقتادة، ونصر بن عاصم، والجحدري (فروح) بضم الراء، ورويت هذه القراءة عن يعقوب، قيل: ومعنى هذه القراءة: الرحمة لأنها كالحياة

وقد أخرج النسائي، وابن جرير، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فُرق في السنين، وفي لفظ: ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً، ثم قرأ: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عنه ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ قال: القرآن ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ قال: القرآن. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً في الآية قال: نجوم القرآن حين ينزل. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في المعرفة من طرق عن ابن عباس أيضاً ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ قال: الكتاب المنزل في السماء لا يمسه إلا الملائكة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن أنس ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ قال: الملائكة. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن علقمة قال: أتينا سلمان الفارسي، فخرج علينا من كنيف، فقلنا له: لو توضأت يا أبا عبد الله، ثم قرأت علينا سورة كذا، وكذا قال: إنما قال الله: ﴿في كتاب مكنون﴾ لا يمسه إلا المطهرون، وهو الذي في السماء لا يمسه إلا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي داود، وابن المنذر، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال: في كتاب النبي ﷺ لعمر بن حزم: «لا تمس القرآن إلا على طهر». وأخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر. وأخرجه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر» وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاص، وفي أسانيدنا نظر. وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئاً. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال: كنا مع سلمان فأنطلق إلى حاجة، فتوارى عنا، ثم خرج إلينا، فقلنا: لو توضأت، فسألتك عن أشياء من القرآن، فقال: سلوني، فإنني لست أمسه إنما يمس المطهرون، ثم تلا: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾. وأخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمس القرآن إلا طاهر» وأخرج ابن مروي عن معاذ بن جبل: «أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن كتب له في عهده: أن لا يمس القرآن إلا طاهر». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لنتم مدهنون﴾ قال: مكنون. وأخرج مسلم، وابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس قال: «مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكراً ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، وكذا، فنزلت هذه الآية: ﴿فلا

أقسم بمواقع النجوم﴾ حتى بلغ ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾» وأصل الحديث بدون نكر أنه سبب نزول الآية ثابت في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني، ومن حديث أبي سعيد الخدري، وفي الباب أحاديث. وأخرج أحمد، وابن منيع، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي، والضياء في المختارة عن علي عن النبي ﷺ في قوله ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ قال: «شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا، وكذا، وبنجم كذا وكذا». وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن عائشة قالت: ما فسر رسول الله ﷺ من القرآن إلا آيات يسيرة قوله ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ قال: «شكركم». وأخرج ابن مروي عن علي «أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿وتجعلون شكركم﴾». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿وتجعلون شكركم﴾ قال: يعني الأنواء، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا، وكذا، فأنزل الله: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾. وأخرج ابن مروي عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي أنه قرأ: ﴿وتجعلون شكركم﴾ وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأها كذلك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿غير مبينين﴾ قال: غير محاسنين. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الربيع بن خيثم ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ الآية قال: هذا له عند الموت ﴿وجنة نعيم﴾ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث ﴿وإنما إن كان من المكثبين للضالين﴾ فنزل من حميم قال: هذا عند الموت ﴿وتصلية جحيم﴾ قال: تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فروح﴾ قال: رائحة ﴿وريحان﴾ قال: استراحة. وأخرج ابن جرير عنه قال: يعني بالريحان المستريح من الدنيا ﴿وجنة نعيم﴾ يقول: مغفرة ورحمة. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: الريحان الرزق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ قال: تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿إن هذا لهو حق اليقين﴾ قال: ما قصصنا عليك في هذه السورة. وأخرج عنه أيضاً ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال: فصل لربك. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامر الجهني قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: 1] قال: اجعلوها في سجودكم».

تفسير سورة الحديد

كل موجود يدل على الصانع. وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة، وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وإنما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ [الأنبياء: 79] فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة، وفعل التسبيح قد يتعدى بنفسه تارة، كما في قوله: ﴿وسبحوه﴾ [الأحزاب: 42] وباللام أخرى كهذه الآية، وأصله أن يكون متعدياً بنفسه؛ لأن معنى سبحته: بعثته عن السوء، فإذا استعمل باللام، فهي إما مزيدة للتأكيد، كما في شكرته، وشكرت له، أو هي للتعليل أي: أفعَل التسبيح؛ لأجل الله سبحانه خالصاً له، وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضياً كهذه الفاتحة، وفي بعضها مضارعاً، وفي بعضها أمراً للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات لا يختص تسبيحها بوقت نون وقت، بل هي مسبحة أبداً في الماضي، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل ﴿وهو العزيز﴾ أي: القادر الغالب الذي لا ينازعه أحد، ولا يمانعه ممانع كائن ما كان ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل أفعال الحكمة والصواب ﴿له ملك السموات والأرض﴾ يتصرف فيه وحده، ولا ينفذ غير تصرفه وأمره، وقيل: أراد خزائن المطر والنبات، وسائر الأرزاق ﴿يحيي ويميت﴾ الفعلان في محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال من ضمير له، أو كلام مستأنف، لبيان بعض أحكام الملك، والمعنى: أنه يحيي في الدنيا ويميت الأحياء، وقيل: يحيي النطف وهي موات، ويميت الأحياء، وقيل: يحيي الأموات للبعث ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء كائن ما كان ﴿هو الأول﴾ قبل كل شيء ﴿والآخر﴾ بعد كل شيء أي: الباقي بعد فناء خلقه ﴿والظاهر﴾ العالي الغالب على كل شيء، أو الظاهر وجوده بالادلة الواضحة ﴿والباطن﴾ أي: العالم بما بطن، من قولهم: فلان يبطن أمر فلان أي: يعلم داخلته أمره، ويجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار، والعقول، وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله ﷺ، كما سيأتي، فبتعين المصير إلى ذلك ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ لا يعزب عن علمه شيء من المعلومات ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض. وقد تقدم تفسيره في سورة الأعراف وفي غيرها مستوفى ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: يدخل فيها من مطر وغيره ﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وغيره ﴿وما ينزل من السماء﴾ من مطر وغيره ﴿وما يعرج فيها﴾ أي: يصعد إليها من الملائكة، وأعمال العباد، وقد تقدم تفسير هذا في سورة سبأ ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ أي: بقدرته، وسلطانه، وعلمه، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا في الأرض من بر وبحر ﴿والله بما تعملون بصير﴾ لا يخفى عليه من

وهي مدينة. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن
الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس
قال: نزلت سورة الحديد بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن
ابن الزبير مثله. وأخرج الطبراني، وابن مريويه قال
السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله
ﷺ: «نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء، وخلق الله الحديد يوم
الثلاثاء، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء، ونهى رسول الله
ﷺ عن الحجامه يوم الثلاثاء». وأخرج الديلمي عن جابر
مرفوعاً «لا تحتجموا يوم الثلاثاء، فإن سورة الحديد أنزلت
عليّ يوم الثلاثاء». وأخرج أحمد، والترمذي، وحسنه،
والنسائي، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن
العرباض بن سارية: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ
المسبحات قبل أن يرقد، وقال: إن فيها آية أفضل من ألف
آية»، وفي إسناده بقية بن الوليد، وفيه مقال معروف. وقد
أخرجه النسائي عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله
ﷺ، ولم ينكر العرباض بن سارية، فهو مرسل. وأخرج ابن
الضريس عن يحيى بن أبي كثير قال: «كان رسول الله ﷺ
لا ينام حتى يقرأ المسبحات، وكان يقول: إن فيها آية أفضل
من ألف آية، قال يحيى: فقرأها الآية التي في آخر الحشر.
وقال ابن كثير في تفسيره: والآية المشار إليها، والله أعلم
هي قوله: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ [الحديد: 3]
الآية. والمسبحات المذكورة هي: الحديد، والحشر، والصف،
والجمعة، والتغابن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ
وَالْأَرْضُ نَجَمٌ. وَبَيَّتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدْرِكُ مَا بَلَغَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَمْ
يَلِدْكَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَبُّكَ الْأُمُّورُ ﴿٥﴾ يُؤْتِي الْبَلَّ الْمَوْتَ وَيُؤْتِي
الْعَذَابَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِالذَّاكِرِينَ ﴿٦﴾

قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: نَزِّهْه ومجده. قال المقاتلان: يعني كل شيء من ذي روح وغيره، وقد تقدّم الكلام في تسبيح الجمادات عند تفسير قوله: ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44] والمراد بالتسبيح المسند إلى ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم، والحيوانات والجمادات هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجنّ، ولسان الحال كتسبيح غيرهم، فإن

المسلمين الاستمرار عليه، أو الزيادة منه. ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإتفاق في سبيل الله، فقال: ﴿وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: جعلكم خلفاء في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، فإن المال مال الله، والخلفاء خلفاء الله في أمواله، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه وقيل: جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترثونه، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم، فلا تبخلوا به. كذا قال الحسن وغيره.

وفيه الترغيب إلى الإتفاق في سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم، ويصير إلى غيرهم. والظاهر أن معنى الآية الترغيب في الإتفاق في الخير، وما يرضاه الله على العموم، وقيل: هو خاص بالزكاة المفروضة، ولا وجه لهذا التخصيص. ثم نكر سبحانه ثواب من اتفق في سبيل الله فقال: ﴿قَالَتَيْنِ آمَنُوا مِنْكُمْ وَانْفِقُوا لَهُمْ لُجْرَ كَبِيرٍ﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، وبين الإتفاق في سبيل الله لهم أجر كبير، وهو الجنة ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ هذا الاستفهام، للتوبيخ والتقريع أي: أي عذر لكم، وأي مانع من الإيمان، وقد أزيحت عنكم العلل، «وما مبتداء ولكم خبره، ولا تؤمنون في محل نصب على الحال من الضمير في لكم، والعامل ما فيه من معنى الاستقرار، وقيل: المعنى: أي شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا؟ وجملة: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل، ولتؤمنوا متعلق بدعوكم أي: يدعوكم للإيمان، والمعنى أي: عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه، وينبهم عليه؟ وجملة: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضاً أي: والحال أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم، أو بما نصب لكم من الآلة الدالة على التوحيد، ووجوب الإيمان. قرأ الجمهور (وقد أخذ) مبنياً للفاعل، وهو الله سبحانه لتقدم نكرة. وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما أخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج والدلائل، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته ﴿هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتَ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات ظاهرات، وهي الآيات القرآنية، وقيل: المعجزات والقرآن أعظمها ﴿ليُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات، أو بالدعوة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لكثير الرأفة والرحمة بليغهما حيث أنزل كتبه، وبعث رسله لهداية عباده، فلا رافة ولا رحمة أبلغ من هذه، والاستفهام في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ للتقريع والتوبيخ، والكلام في إعراب هذا كالكلام في إعراب قوله ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الإتفاق المأمور به في قوله ﴿وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ هو الإتفاق في سبيل الله، كما بينا ذلك، والمعنى: أي عذر لكم، وأي شيء يمنكم من ذلك، والأصل في أن لا تنفقوا، وقيل:

أعمالكم شيء ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا التكرير للتأكيد ﴿وَاللَّهُ يَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ لا إلى غيره. قرأ الجمهور (ترجع) مبنياً للمفعول. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر على البناء للفاعل ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة آل عمران، وفي مواضع ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بضمائر الصدور ومكنوناتها، لا يخفى عليه من ذلك خافية.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، والترمذي، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: «جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تسأله خالماً، فقال: قلبي: اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، وربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، قال: الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت أخذ بناصيته، أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعكك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر». وأخرج أحمد، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً مثل هذا في الأربعة الأسماء المذكورة، وتفسيرها. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شيء، فماذا كان قبل الله؟ فإن قالوا لكم ذلك، فقولوا: هو الأول قبل كل شيء، والآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فوق كل شيء، وهو الباطن دون كل شيء، وهو بكل شيء عليم». وأخرج أبو داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أجده في صدري، قال ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: شيء من شك؟ قال، وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال حتى أنزل الله: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: 94] الآية قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ قال: عالم بكم أينما كنتم.

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ قَالَتَيْنِ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَمْ أَمَرِ كَيْفَ ﴿١٦﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ مَائِدَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ الشُّعُورُ وَالْأَرْضُ لَا يَسْأَلُ مِنْكُمْ شَيْئاً مِنْ أَشْيٍ قِيلَ الْفَتْحُ وَقَدْ أَخَذَ أُولَئِكَ أَنْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَدَنٍ وَقَتَلُوا وَلَوْ وَجَدَ اللَّهُ أَلْسِنَةً أَلَمَّا بِمَا صَمَلُوا خَيْرٌ ﴿١٩﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُوكُمْ اللَّهُ فَرَضًا حَسَنًا فَتُضَيِّقَهُ لَكُمْ وَلَكِنْ أَمَرَ كَرِيمٌ ﴿٢٠﴾

قوله: ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: صدقوا بالتوحيد، وبوصحة الرسالة، وهذا خطاب لكفار العرب. ويجوز أن يكون خطاباً للجميع، ويكون المراد بالأمر بالإيمان في حق

سبيل الله، فإنه كمن يقرضه، والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً قد اقترض، ومنه قول الشاعر:

وإذا جوزيت قرضاً فأجزه إنما يجزي الفتى ليس الجمل
قال: الكلبي **«قرضاً» أي: صدقة «حسناً» أي:**
محسباً من قلبه بلا من ولا أذى. قال مقاتل: حسناً طيبة
به نفسه، وقد تقدم تفسير الآية في سورة البقرة **«فيضاعفه له»** قرأ ابن عامر، وابن كثير (فيضاعفه)
بإسقاط الالف إلا أن ابن عامر، ويعقوب نصبوا الفاء، وقرأ
نافع، وأهل الكوفة، والبصرة، (فيضاعفه) بالالف وتخفيف
العين إلا أن عاصماً نصب الفاء، ورفع الباقون. قال ابن
عطية: الرفع على العطف على يقرض، أو الاستئناف
والنصب لكون الفاء في جواب الاستفهام. وضعف النصب
أبو علي الفارسي قال: لأن السؤال لم يقع عن القرض،
وإنما وقع عن فاعل القرض، وإنما تنصب الفاء فعلاً
مرتباً على فعل مستقيم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك
على المعنى: كان قوله: **«من ذا الذي يقرض الله»** بمنزلة
قوله أيقرض الله أحد **«وله اجر كريم»** وهو الجنة،
والمضاعفة هنا هي كون الحسنات بعشرة أمثالها إلى
سبعمائة ضعف على اختلاف الأحوال والأشخاص
والأوقات.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو
نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار
عن أبي سعيد الخدري قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام
الحبيبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ: يوشك أن
يأتي قوم يحرقون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا من هم يا
رسول الله؟ أقريش؟ قال: لا، ولكنهم أهل اليمن هم: أرق
أقنذة، وألين قلوباً قلنا: أهم خير منا يا رسول الله؟ قال: لو
كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه،
إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس **«لا يستوي منكم من
أنفق من قبل للفتح وقاتل»** الآية وهذا الحديث قال ابن
كثير: هو غريب بهذا الإسناد، وقد رواه ابن جرير، ولم يذكر
فيه الحبيبية. وأخرج أحمد عن أسد قال: «كان بين خالد بن
الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد
الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ النبي
ﷺ فقال: دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم
مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم» والذي في
الصحيح عن رسول الله ﷺ بلفظ «لا تسبوا أصحابي،
فوالذي نفسي بيده لو أن أحكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك
مد أحدهم ولا نصيفه» وفي لفظ «ما بلغ مد أحدهم ولا
نصيفه» أخرج هذا الحديث البخاري، ومسلم وغيرهما من
حديث أبي سعيد الخدري. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن
عمر قال: لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة
خير من عمل أحدهم عمره.

يَمْ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ قُرُومَهُنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَيْسُرُهُنَّ

إن أن زائدة، وجملة **«ووه ميراث السموات والأرض»** في
محل نصب على الحال من فاعل **«لا تنفقوا»** أو من
مفعوله، والمعنى: أي شيء يمنعكم من الإنفاق في ذلك
الوجه، والحال أن كل ما في السموات والأرض راجع إلى الله
سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى الوراث، ولا
يبقى لهم منه شيء، وهذا أدخل في التوبيخ، وأكمل في
التقريع، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها، وتصير لله
سبحانه، ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى في إيجاب الإنفاق
عليهم من كونها لله في الحقيقة، وهم: خلفاؤه في التصرف
فيها. ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله،
فقال: **«لا يستوي منكم من أنفق من قبل للفتح»** قيل:
المراد بالفتح فتح مكة، وبه قال أكثر المفسرين. وقال
الشعبي، والزهري: فتح الحديبية، قال قتادة: كان قتالان
أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من
الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال
والنفقة بعد ذلك، وكذا قال مقاتل وغيره، وفي الكلام حذف،
والتقدير: لا يستوي من أنفق من قبل الفتح **«وقاتل»** ومن
أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف لظهوره، وللدلالة ما سيأتي
عليه، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة
والقتال بعد الفتح؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، وهم
أقل وأضعف، وتقديم الإنفاق على القتال للإيدان بفضيلة
الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة، فإنهم كانوا يجوبون
بأنفسهم، ولا يجوبون ما يجوبون به من الأموال. والوجود
بالنفس أقصى غاية الجود، والإشارة بقوله: **«ولذلك»** إلى
«من» باعتبار معناها، وهو مبتدأ وخبره **«أعظم درجة من
الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا»** أي: أرفع منزلة، وأعلى رتبة
من الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله من بعد الفتح، وقاتلوا
مع رسول الله ﷺ، قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين
أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها. قال الزجاج: لأن المتقدمين
نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم
أيضاً أنفذ.

وقد أرشد ﷺ إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صَحَّ عنه:
«لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا
نصيفه» وهذا خطاب منه ﷺ للمتأخرين وصحبه، كما
يرشد إلى ذلك السبب الذي ورد فيه هذا الحديث **«وكلاً
وعد الله للحسنى»** أي: وكل واحد من الفريقين وعد الله
المثوبة الحسنى، وهي الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها. قرأ
الجمهور (وكلاً) بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر.
وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء، والجملة بعده خبره،
والعائد محذوف، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، ومثل هذا
قول الشاعر:

قد أصبحت لم الخيار تدعي علي نبدأكله لم أصنع

«والله بما تعملون خبير» لا يخفى عليه من ذلك
شيء. ثم رغب سبحانه في الصدقة فقال: **«من ذا الذي
يقرض الله قرضاً حسناً»** أي: من ذا الذي ينفق ماله في

وقيل: معنى انظرونا: انظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيستضيئون بنورهم ﴿فَنَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: نستضيء منه، والقبس: الشعلة من النار والسراج، فلما قالوا ذلك ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي: قال لهم المؤمنون، أو الملائكة زجراً لهم، وتهكماً بهم أي: ارجعوا ورائكم إلى الموضع الذي أخذنا منه النور ﴿فَالْتَمَسُوا نَوْراً﴾ أي: اطلبوا هناك نوراً لأنفسكم، فإنه من هناك يفتبس، وقيل المعنى: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان، والأعمال الصالحة، وقيل: أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكماً بهم ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُوراً﴾ السور: هو الحاجز بين الشيئين، والمراد به هنا الحاجز بين الجنة والنار، أو بين أهل الجنة وأهل النار. قال الكسائي: والباء في بسور زائدة، ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال: ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: باطن ذلك السور. وهو الجانب الذي يلي أهل الجنة فيه الرحمة: وهي الجنة ﴿وَوَظَاهِرُهُ﴾ وهو الجانب الذي يلي أهل النار ﴿مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: من جهته عذاب جهنم، وقيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة، والمنافقون يحصلون في العذاب وبينهم السور، وقيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين، ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك، فقال: ﴿يِينَانِيهِمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: موافقين لكم في الظاهر نصلي بصلاتكم في مساجدكم، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم، والجملة مستأنفة كأنه قيل: فماذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم وبين المؤمنين؟ فقال: ﴿يِينَانِيهِمْ﴾، ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أي: كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَكِنكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالفتاق وإبطان الكفر، قال مجاهد: أهلكتموها بالفتاق، وقيل: بالشهوات واللذات ﴿وَتَرْبِصْتُمْ﴾ بمحمد ﷺ، وبمن معه من المؤمنين حوادث الدهر، وقيل: تربصتم بالتوبة، والأول أولى ﴿وَارْتَبِصْتُمْ﴾ أي: شككتم في أمر الدين ولم تصدقوا ما نزل من القرآن، ولا بالمعجزات الظاهرة ﴿وَعَزَّيْتُمُ الْأَمَانِي﴾ الباطلة التي من جملتها ما كنتم فيه من التريص، وقيل: هو طول الأمل، وقيل: ما كانوا يتمنون من ضعف المؤمنين وقال قتادة: الأماني هنا غرور الشيطان، وقيل: الدنيا، وقيل: هو طمعهم في المغفرة، وكل هذه الأشياء تدخل في مسمى الأماني ﴿حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت، وقيل: نصره سبحانه لنبيه ﷺ. وقال قتادة: هو إلقاءهم في النار ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِأَشْهُارِكُمْ﴾ قرأ الجمهور (الغرور) بفتح الغين، وهو صفة على فعل، والمراد به الشيطان: أي خدعكم بحلم الله، وإمهاله الشيطان. وقرأ أبو حية، ومحمد بن السميع، وسماك بن حرب بضمها، وهو مصدر ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِتْنَةً﴾ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ظاهراً وباطناً ﴿وَمَوَازِئَ النَّارِ﴾ أي: منزلكم الذي تأوون

الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقِينَ لِلَّهِ مَأْوَاً أَنْظَرْنَا نَفْسَ مِنْ فُؤَادِكُمْ وَيَلْ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٢﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبَسْتُمْ مِنْكُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودَ ﴿١٣﴾ فَاَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِتْنَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمِنْ تَحْتِهَا أُمُودٌ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ العامل في الظرف مضمر وهو انكر، أو كريم، أو فيضاعفه، أو العامل في لهم، وهو الاستقرار، والخطاب لكل من يصلح له، وقوله ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ في محل نصب على الحال من مفعول ترى، والنور هو الضياء الذي يرى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وذلك على الصراط يوم القيامة، وهو دليلهم إلى الجنة. قال قتادة: إن المؤمن يضيء له نور كما بين عندي صنعاء، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه. وقال الضحاك، ومقاتل: وبأيمانهم كتبهم التي أعطوها، فكتبهم بأيمانهم، ونورهم بين أيديهم، قال الفراء: الباء بمعنى في: أي في أيمانهم، أو بمعنى عن، قال الضحاك أيضاً: نورهم هداهم، وبأيمانهم كتبهم، واختار هذا ابن جرير الطبري أي: يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي إيمانهم كتب أعمالهم. قرأ الجمهور (بأيمانهم) جمع يمين. وقرأ سهل بن سعد الساعدي، وأبو حية (بأيمانهم) بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر، وقيل: هو القرآن، والجار والمجرور في الموضعين في محل نصب على الحال من نورهم أي: كائناً بين أيديهم وبأيمانهم ﴿بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بشراكم مبتدأ، وخبره جنتات على تقدير مضاف أي: نخول جنتات، والجملة مقول قول مقتر أي: يقال لهم هذا، والقائل لهم هم الملائكة. قال مكي: وأجاز الفراء نصب جنتات على الحال، ويكون اليوم خير بشراكم، وهذا بعيد جداً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة، والإشارة بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ إلى النور والبشرى، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: لا يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره، ولا اعتداد بما سواه ﴿يَوْمَ يَقُولُ لِلْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقَاتِ﴾ يوم بدل من يوم الأول، ويجوز أن يكون العامل فيه الفوز العظيم، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقتر أي: انكر ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللام للتبليغ كظايرها. قرأ الجمهور (انظرونا) أمراً بوصل الهمزة وضم اللطاء من النظر بمعنى الانتظار أي: انتظرونا، يقولون ذلك لما راوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة. وقرأ الأعمش، وحمزة، ويحيى بن وثاب بقطع الهمزة وكسر اللطاء من الإنظار أي: امهلونا، وأخرونا، يقال أنظرته واستنظرته أي: أمهلته واستمهلته. قال الفراء: تقول العرب انظرني أي: انتظرني، وأنشد قول عمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا ، وانظرنا نخبرك اليقيناً

سوراً مضروراً بين المؤمنين والمنافقين، فما معنى تفسير باطن السور، وما فيه من الرحمة بالمسجد، وإن كان المراد أن الله يسوق فريقين المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس، فيجعل المؤمنين داخل السور في المسجد، ويجعل المنافقين خارجه، فهم إذ ذاك على الصراط وفي طريق الجنة، وليسوا ببيت المقدس، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتاً عن رسول الله ﷺ قبلناه، وأما به، وإلا فلا كرامة ولا قبول. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَكِنَّمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ قال: بالشهوات واللذات ﴿وَوَتَرِصْتُمْ﴾ قال: بالتوبة ﴿وَوَغَرْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قال: الموت ﴿وَوَغَرْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾ قال: الشيطان.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ أَمْرٍ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَكُلَّ أَمْرٍ عَلَيْهِمْ الْأَمْرُ فَفَسَدُوا وَمِنْهُمْ نَفْسٌ تَبْغِي الْفِتْنَةَ ۚ أَقْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَكُمْ تَقْوِيلٌ ۚ إِنَّ الْمَصْدُوقَ وَالْمُؤَيَّدَ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَمًا حَسَنًا يَصْنَعُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْيُوقِنُونَ وَاللَّهُ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۚ﴾

قوله: ﴿هَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقال: أنى لك يأتي أنى: إذا حان. قرأ الجمهور (الم يأن) وقرأ الحسن، وأبو السماك (الما يأن)، وأشد ابن السكيت:

الما يأن لي أن تجلى عمايتي وأقصر عن ليلي بلى قد أنى ليا و﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فاعل يأن أي: ألم يحضر خشوع قلوبهم ووجيء وقته، ومنه قول الشاعر:

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلاً وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلاً
هذه الآية نزلت في المؤمنين. قال الحسن: يستبطنهم، وهم أحب خلقه إليه. وقيل: إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى بنون محمد. قال الزجاج: نزلت في طائفة من المؤمنين، حثوا على الرقة والخشوع، فأما من وصفهم الله بالرقة والخشوع، فطبقة فوق هؤلاء. وقال السدي وغيره: المعنى ألم يأن للذين آمنوا في الظاهر، وأسروا الكفر أن تخشع قلوبهم ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، وسياطي في آخر البحث ما يقوي قول من قال إنها نزلت في المسلمين، والخشوع لين القلب ورقته. والمعنى: أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعاً ورقة، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ولا يخشع له ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ معطوف على ذكر الله، والمراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عده مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب، وقيل: المراد بالذكر هو القرآن، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير، أو باعتبار تغاير المفهومين. قرأ الجمهور (نزل) مشدداً مبتدئاً للفاعل. وقرأ نافع، وحفص بالتخفيف مبتدئاً للفاعل. وقرأ الجحدري، وأبو جعفر، والأعمش، وأبو عمرو في رواية عنه مشدداً مبتدئاً للمفعول. وقرأ ابن مسعود

إليه النار ﴿هِيَ مَوَلاَكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم، والمولى في الأصل من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن يلازمه، وقيل: معنى ﴿مَوَلاَكُمْ﴾: مكانكم عن قرب، من الولي، وهو القرب. وقيل: إن الله يركب في النار الحياة والعقل، فهي تتميز غيظاً على الكفار، وقيل المعنى: هي ناصركم على طريقة قول الشاعر:

تحية بينهم ضرب وجيع

﴿وَبُنُسَ الْمَصِيرِ﴾ الذي تصيرون إليه وهو النار.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يَمُرُّونَ على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وإنهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرة، ويوقد أخرى. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور ليلهم من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم، فاظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: ﴿نَنْظُرُونَ نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فلما كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ﴿فَالْتَمَسُوا﴾ هناك النور. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترأ منه على عبادته، وأما عند الصراط، فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً، وكل منافق نوراً، فإذا استوتروا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿نَنْظُرُونَ نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ﴾ وقال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: 8] فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً، وفي الباب أحاديث، وأثار. وأخرج عبد بن حميد عن عباد بن الصامت: أنه كان على سور بيت المقدس، فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هاهنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن السور الذي ذكره الله في القرآن ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ يَسُورَ﴾ هو: السور الذي ببيت المقدس الشرقي ﴿بِاطْنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ المسجد ﴿وُظَاهَرَهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ يعني: وادي جهنم، وما يليه.

ولا يخفك أن تفسير السور المذكور في القرآن في هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال ما لا يدفعه مقال، ولا سيما بعد زيادة قوله: ﴿بِاطْنِهِ﴾ فيه الرحمة المسجد، فإن هذا غير ما سبقت له الآية، وغير ما نلت عليه، وأين يقع بيت المقدس، أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقين المؤمنين والمنافقين، وأي معنى لنكر مسجد بيت المقدس هاهنا، فإن كان المراد أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس، ويجعله في الدار الآخرة

يَكْتَبُوهُمْ. وقال مجاهد: هذه الآية للشهداء خاصة، وهم الأنبياء الذين يشهدون للآدم وعليهم، واختار هذا الفراء، والزجاج. وقال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، وكذا قال ابن جرير، وقيل: هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ، والظاهر أن معنى الآية: إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعاً بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الدرجة عند الله، وقيل: إن الصديقين هم المبالغون في الصلح حيث آمنوا بالله، وصنفوا جميع رسله، والقائمون لله سبحانه بالترحيب. ثم بين سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ والضمير الأول راجع إلى الموصول، والضميران الآخران راجعان إلى الصديقين والشهداء أي: لهم مثل أجرهم ونورهم، وأما على قول من قال: إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد، والمعنى: لهم الأجر والنور الموعودان لهم. ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم، ذكر حال الكافرين وعقابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَتَبُوا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات، والإشارة بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصول باعتبار ما في صلته من اتصافهم بالكفر والتكذيب، وهذا مبتدأ، وخبره ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعذبون بها، ولا أجر لهم ولا نور، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة.

وقد أخرج ابن مريويه عن أنس عن النبي ﷺ قال: «استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: «خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه في المسجد، وهم يضحكون، فسحب رداءه محمراً وجهه فقال: اتضحكون، ولم يأتكم أمان من ربكم بانه قد غفر لكم، ولقد أنزل عليّ في ضحككم آية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قالوا: يا رسول الله، فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون بقدر ما ضحكتم». وأخرج مسلم، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا أربع سنين. وأخرج نحوه عنه ابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه من طريق أخرى. وأخرج أبو يعلى، وابن مريويه عنه أيضاً قال: لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض أي شيء أحدثنا أي شيء صنعنا؟ وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن أبي رواد أن أصحاب النبي ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك، فنزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس «اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها» قال: يعني أنه

(أنزل) مبنياً للفاعل ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ لَوُتُوا﴾ الكتاب من قبل ﴿قرأ الجمهور بالتحية على الغيبة جرياً على ما تقدم. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبة بالفوقية على الخطاب للنفات، وبها قرأ عيسى، وابن إسحاق، والجملة معطوفة على تخشع أي: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم، ولا يكونوا، والمعنى: النهي لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي: طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم. قرأ الجمهور (الأمدة) بتخفيف الدال، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بتشديدها أي: الزمن الطويل، وقيل: المراد بالأمدة على القراءة الأولى الأجل والغاية، يقال أمد فلان كذا أي: غايته ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بذلك السبب، فلذلك حرّفوا وبكّلوا، فنهى الله سبحانه أمة محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله؛ لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم، وحرّفوا وبكّلوا، ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ﷺ. وقيل: هم الذين ابتعدوا الرهبانية، وهم أصحاب الصوامع ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها، ويلين القلوب بعد قسوتها ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: كي تعقلوا ما تضمنته من المواعظ، وتعملوا بموجب ذلك ﴿إِنَّ الْمَصْنُوقِينَ وَالْمَصْنُوقَاتِ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الصاد في الموضعين من الصنقة، وأصله المصنّوقين والمصنّوقات، فأدغمت التاء في الصاد. وقرأ أبي (المصنّوقين والمصنّوقات) بإثبات التاء على الأصل. وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي: صنّفوا رسول الله ﷺ فيما جاء به ﴿وَاقْرَءُوا﴾ الله قرضاً حسناً معطوف على اسم الفاعل في المصنّوقين؛ لأنه لما وقع صلة للآلف واللام الموصولة حل محل الفعل، فكانه قال: إن الذين تصنّفوا وقرءوا، كذا قال أبو علي الفارسي وغيره. وقيل: جملة، وقرءوا معترضة بين اسم إن وخبرها، وهو ﴿يُضَاعَفُ﴾ وقيل: هي صلة لموصول محذوف أي: والذين أقرءوا، والقرض الحسن عبارة عن التصديق والإنفاق في سبيل الله مع خلوص نية، وصحة قصد، واحتساب أجر. قرأ الجمهور (يضاعف لهم) بفتح العين على البناء للمفعول، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور، أو ضمير يرجع إلى المصنّوقين على حذف مضاف أي: ثوابهم، وقرأ الأعمش (يضاعفه) بكسر العين وزيادة الهاء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب (يضعف) بتشديد العين وفتحها ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ جميعاً، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصول، وخبره قوله: ﴿هُمْ الصَّادِقُونَ وَالشَّاهِدُونَ﴾ والجملة خبر الموصول. قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق. قال المقاتلان: هم الذين لم يشكوا في الرسل حين أخبرهم ولم

يغطونه بالتراب، ومعنى ﴿نباته﴾: النبات الحاصل به ﴿ثم يهيج﴾ أي: يجف بعد خضرته ويبيس ﴿فتراه مصفراً﴾ أي: متغيراً عما كان عليه من الخضرة والزروق إلى لون الصفرة والنبول ﴿ثم يكون حطاماً﴾ أي: قتاتاً هشياً متكسراً متحطماً بعد يبسه، وقد تقدم تفسير هذا المثل في سورة يونس والكهف، والمعنى: أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه، لخضرته وكثرة نضارته، ثم لا يلبث أن يصير هشياً تبناً كان لم يكن. وقرأ (مصفراً) والكاف في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، ثم لما نكر سبحانه حقارة الدنيا، وسرعة زوالها، نكر ما أعدّه للعصاة في الدار الآخرة فقال: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾ وأتبعه بما أعدّه لأهل الطاعة، فقال: ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾، والتذكير فيهما للتعظيم. قال قتادة: عذاب شديد لأعداء الله، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته. قال الفراء: التقدير في الآية إما عذاب شديد وإما مغفرة، قلا يوقف على شديد. ثم نكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا، فقال: ﴿وما للحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ لمن اغتر بها ولم يعمل لآخرته. قال سعيد بن جبير: متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه. وهذه الجملة مقربة للمثل المتقدم ومؤكدة له، ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح، فإن ذلك سبب إلى الجنة، فقال: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي: سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم، وتوبوا مما وقع منكم من المعاصي، وقيل: المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام قاله مكحول، وقيل: المراد الصف الأول، ولا وجه لتخصيص ما في الآية بمثل هذا، بل هو من جملة ما تصلّق عليه صنفاً شمولياً أو بلياً ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ أي: كعرضهما، وإذا كان هذا قدر عرضها، فما ظنك بطولها. قال الحسن: يعني جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبها، وقيل: المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة. وقال ابن كيسان: عني به جنة واحدة من الجنات، والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشيء بعرضه دون طوله، ومن ذلك قول الشاعر:

كان بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل
وقد مضى تفسير هذا في سورة آل عمران. ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى، فقال: ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة. وفي هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرد الإيمان بالله ورسله، ولكن هذا مقيد بالدالة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه، واجتنب ما نهى الله عنه، وهي ألة كثيرة في الكتاب والسنة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة، وهو مبتدأ وخبره

يلين القلوب بعد قسوتها. وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مؤمنو أمي شهداء ثم تلا النبي ﷺ ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: كل مؤمن صديق وشهيد. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: «إن الرجل ليموت على فراشه، وهو شهيد، ثم تلا هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾ قال: هذه مفصلة ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾. وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت للصلوات الخمس، وأتيت الزكاة، وصمت رمضان، وقمته فممن أنا؟ قال: من الصديقين والشهداء».

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُحْيٌ وَقُرْ وَزِينَةً وَتَفَاخُرًا بَيْنَكُمْ وَكَثَائِرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَجْبَحَ الْكُفَّارَ بَنَانُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَرَّتْهُ مَسَافِرُهُمْ يَكُونُ حُطْبًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٠١﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فُضِّلَ لَهُ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٢﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كُتُبٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٠٣﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُتَعَالٍ فَخُورٍ ﴿١٠٤﴾ الَّذِينَ يَبْتَغُلُونَ زِينَةَ النَّاسِ بِالْبَغْيِ وَمَن يُؤَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٠٥﴾

قوله: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ لما نكر سبحانه حال الفريق الثاني، وما وقع منهم من الكفر والتكذيب، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها، بين لهم حقارتها وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة، واللعب هو الباطل، اللهو كل شيء يتلهى به ثم يذهب. قال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. قال مجاهد: كل لعب لهو، وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا، واللهو ما لهى عن الآخرة وشغل عنها، وقيل: اللعب الاقتناء، واللهو النساء، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة الأنعام، والزينة التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة ﴿وتفاحر بينكم﴾ قرأ الجمهور بتنوين (تفاخر) والظرف صفة له، أو معمول له، وقرأ السلمي بالإضافة أي: يفخر به بعضكم على بعض، وقيل: يتفاخرون بالخلقة والقوة، وقيل: بالأنساب والأحساب، كما كانت عليه العرب ﴿وتكاثروا في الأموال والأولاد﴾ أي: يتكاثرون بأموالهم وأولادهم، ويتطاولون بذلك على الفقراء، ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبهة، وضرب لها مثلاً فقال: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾ أي: كمثل مطر أعجب الزرع نباته، والمراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر أي:

الجنس، فيدخل فيه كتاب كل رسول **﴿والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾** قال قتادة، ومقاتل بن حيان: الميزان العدل، والمعنى: أمرناهم بالعدل، كما في قوله: **﴿والسمااء رفعها ووضع الميزان﴾** [الرحمن: 7] وقوله: **﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾** [الشورى: 17] وقال ابن زيد: هو ما يوزن به ويتعامل به، ومعنى: **﴿ليقوم الناس بالقسط﴾**: ليتبعوا ما أمروا به من العدل، فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة، والقسط العدل، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل، ومعنى إنزاله: إنزال أسبابه وموجباته. وعلى القول بأن المراد به الآلة التي يوزن بها، فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه، وإلهامهم الوزن به، ويكون الكلام من باب: علفتها تبناً وماء بارداً

﴿وانزلنا الحديد﴾ أي: خلقناه، كما في قوله: **﴿وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾** [الزمر: 6] والمعنى: أنه خلقه من المعادن، وعلم الناس صنعتة، وقيل: إنه نزل مع آدم **﴿فيه بأس شديد﴾** لأنه تتخذ منه آلات الحرب. قال الزجاج: يمتنع به ويحارب، والمعنى: أنه تتخذ منه آلة للفتح، وآلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنة وسلاح، ومعنى **﴿ومنافع للناس﴾**: أنهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين، والفأس، والإبرة، وآلات الزراعة، والنجارة، والعمارة **﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾** معطوف على قوله: ليقوم الناس أي: لقد أرسلنا رسلنا، وفعلنا كيت وكيت، ليقوم الناس وليعلم، وقيل: معطوف على علة مقترنة، كأنه قيل: ليستعملوه وليعلم الله، والأول أولى. والمعنى: أن الله أمر في الكتاب الذي أنزل بنصره دينه ورسله، فمن نصر دينه ورسله علمه ناصراً، ومن عصى علمه بخلاف ذلك، وبالغيب في محل نصب على الحال من فاعل ينصره، أو من مفعوله أي: غائباً عنهم، أو غائبين عنه **﴿إن الله قوي عزيز﴾** أي: قادر على كل شيء غالب لكل شيء، وليس له حاجة في أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله، بل كلفهم بذلك؛ لينتفعوا به إذا امتثلوا، ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين **﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم﴾** لما نكر سبحانه إرسال الرسل إجمالاً أشار هنا إلى نوع تفصيل، فنكر رسالته لنوح وإبراهيم، وكرر القسم للتوكيد **﴿وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾** أي: جعلنا فيهم النبوة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم، وقيل: جعل بعضهم أنبياء، وبعضهم يتلون الكتاب **﴿فمنهم مهتدي﴾** أي: فمن النظرية من اهتدى بهدي نوح وإبراهيم، وقيل: المعنى فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى **﴿وكثير منهم فاسقون﴾** خارجون عن الطاعة **﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا﴾** أي: اتبعنا على آثار النظرية، أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى، وإلياس، وداود، وسليمان، وغيرهم **﴿وقفينا بعيسى ابن مريم﴾** أي: أرسلنا رسلاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، وهو من ذرية إبراهيم من جهة

أمه **﴿وآتيناه الإنجيل﴾** وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه، وقد تقدم نكر اشتقاقه في سورة آل عمران. قرأ الجمهور (الإنجيل) بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بفتحها **﴿وجعلنا في قلوب الذين تبعوه رافة ورحمة﴾** الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله في قلوبهم مودة لبعضهم البعض، ورحمة يترحمون بها، بخلاف اليهود، فإنهم ليسوا كذلك، وأصل الرافة اللين، والرحمة الشفقة، وقيل: الرافة أشد الرحمة **﴿ورهبانية ابتدعوها﴾** انتصاب رهبانية على الاشتغال أي: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، وليس بمعطوفة على ما قبلها، وقيل: معطوفة على ما قبلها أي: وجعلنا في قلوبهم رافة ورحمة، ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم. والأول أولى، ورجحه أبو علي الفارسي وغيره، وجعله **﴿ما كتبناها عليهم﴾** صفة ثانية لرهبانية، أو مستأنفة مقررة؛ لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم، والمعنى: ما فرضناها عليهم، والرهبانية بفتح الراء وضمها، وقد قرئ بهما، وهي بالفتح الخوف من الرب، وبالضم منسوبة إلى الرهبان، وذلك لأنهم غلوا في العبادة، وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا، وبقي منهم نفر قليل، فترهبوا وتبتلوا، نكر معناه الضحك، وفتادة، وغيرهما **﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾** الاستثناء منقطع أي: ما كتبناها نحن عليهم رأساً، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. وقال الزجاج: ما كتبناها عليهم، معناه لم نكتب عليهم شيئاً لئلا، ويكون **﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾** بدلاً من الهاء والألف في كتبناها، والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله **﴿فما رعوها حق رعايتها﴾** أي: لم يراعوا هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم، بل صنعوها وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبكروا، وتركوا الترهيب، ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم، وهم المرادون بقوله: **﴿فأتينا الذين آمنوا منهم لجرهم﴾** الذي يستحقونه بالإيمان، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله **﴿وكثير منهم فاسقون﴾** خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به، وجه النّم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا الزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة، وأن الله يرضاها، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاهم بما يعتقدونه ديناً. وأما على القول بأن الاستثناء متصل، وأن التقدير: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا لئيتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها، فوجه النّم ظاهر، ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسول المتقدمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ، فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾** بترك ما نهاكم عنه **﴿وآمنوا برسوله﴾** محمد ﷺ **﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾** أي: نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، وأصل الكفل الحظ والنصيب، وقد تقدم

علفتها تبناً وماء بارداً

﴿وانزلنا الحديد﴾ أي: خلقناه، كما في قوله: **﴿وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾** [الزمر: 6] والمعنى: أنه خلقه من المعادن، وعلم الناس صنعتة، وقيل: إنه نزل مع آدم **﴿فيه بأس شديد﴾** لأنه تتخذ منه آلات الحرب. قال الزجاج: يمتنع به ويحارب، والمعنى: أنه تتخذ منه آلة للفتح، وآلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنة وسلاح، ومعنى **﴿ومنافع للناس﴾**: أنهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين، والفأس، والإبرة، وآلات الزراعة، والنجارة، والعمارة **﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾** معطوف على قوله: ليقوم الناس أي: لقد أرسلنا رسلنا، وفعلنا كيت وكيت، ليقوم الناس وليعلم، وقيل: معطوف على علة مقترنة، كأنه قيل: ليستعملوه وليعلم الله، والأول أولى. والمعنى: أن الله أمر في الكتاب الذي أنزل بنصره دينه ورسله، فمن نصر دينه ورسله علمه ناصراً، ومن عصى علمه بخلاف ذلك، وبالغيب في محل نصب على الحال من فاعل ينصره، أو من مفعوله أي: غائباً عنهم، أو غائبين عنه **﴿إن الله قوي عزيز﴾** أي: قادر على كل شيء غالب لكل شيء، وليس له حاجة في أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله، بل كلفهم بذلك؛ لينتفعوا به إذا امتثلوا، ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين **﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم﴾** لما نكر سبحانه إرسال الرسل إجمالاً أشار هنا إلى نوع تفصيل، فنكر رسالته لنوح وإبراهيم، وكرر القسم للتوكيد **﴿وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾** أي: جعلنا فيهم النبوة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم، وقيل: جعل بعضهم أنبياء، وبعضهم يتلون الكتاب **﴿فمنهم مهتدي﴾** أي: فمن النظرية من اهتدى بهدي نوح وإبراهيم، وقيل: المعنى فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى **﴿وكثير منهم فاسقون﴾** خارجون عن الطاعة **﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا﴾** أي: اتبعنا على آثار النظرية، أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى، وإلياس، وداود، وسليمان، وغيرهم **﴿وقفينا بعيسى ابن مريم﴾** أي: أرسلنا رسلاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، وهو من ذرية إبراهيم من جهة

الكلام على تفسيره في سورة النساء ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني: على الصراط كما قال: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾ [التحريم: 8] وقيل: المعنى ويجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلف من ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: بليغ للمغفرة والرحمة ﴿لَيْسَ يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اللام متعلقة بما تقدم من الأمر بالإيمان والتقوى، والتقدير: اتقوا وآمنوا يؤتكم كذا وكذا؛ ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب ﴿أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ولا في قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ زَائِدَةٌ لِلتَّوَكُّدِ﴾ قاله الفراء، والأخفش، وغيرهما، وإن في قوله: ﴿أَنْ لَا يَقْدِرُونَ﴾ هي المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شأن محنوف، وخبرها ما بعدها، والجملة في محل نصب على أنها مفعول يعلم، والمعنى: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضل به على من آمن بمحمد ﷺ، ولا يقدرُونَ على دفع ذلك الفضل الذي تفضل الله به على المستحقين له، وجملة ﴿وَأَنْ لِّلْفَضْلِ بَيْدُ اللَّهِ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها أي: ليعلموا أنهم لا يقدرُونَ، وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه، وقوله: ﴿بِإِوَاتِيهِ مِنْ يَشَاءٍ﴾ خبر ثان لأن، أو هو الخبر، والجاز والمجورور في محل نصب على الحال ﴿وَاللَّهُ نَزَّ لِلْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، والمراد بالفضل هنا ما تفضل به على الذين اتقوا وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف. وقال الكلبي: هو رزق الله، وقيل: نعم الله التي لا تحصى، وقيل: هو الإسلام، وقد قيل: إن «لا» في لئلا غير مزيدة، وضمير لا يقدرُونَ للنبي ﷺ وأصحابه. والمعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه، والأول أولى. وقرأ ابن مسعود (لكيلا يعلم) وقرأ خطاب بن عبد الله (لأن يعلم) وقرأ عكرمة (ليعلم) وقرئ (ليلاً) بقلب الهمزة ياء، وقرئ بفتح اللام.

وقد أخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوافر الأصول، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الله، قلت: لبيك يا رسول الله ثلاث مرات، قال: هل تدري أي عرى الإسلام أوثق؟ قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: أفضل الناس أقضاهم عملاً إذ فقهوا في دينهم؛ يا عبد الله هل تدري أي الناس أعلم؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصراً بالعمل، وإن كان يزحف على استه، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهما: فرقة وأزرت الملوك وقتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك، فاقاموا بين ظهرائي قومهم فدعوه إلى دين الله ودين عيسى، فقتلهم الملوك ونشروهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولا

بالمقام معهم، فساحوا في الجبال وترهبوا فيها، وهم الذين قال الله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وَكثير منهم فاسقون﴾ الذين جحدوني وكفروا بي». وأخرج النسائي، والحكيم الترمذي في نوافر الأصول، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت ملوك بعد عيسى بنلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فليل لملوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمنا هؤلاء إنهم يقرءون ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44] ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45] ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47] مع ما يعيروننا به من أعمالنا في قراءتهم، فادعوه فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمننا، فدعاهم فجمعهم، وعرض عليهم القتل، أو ليتروا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنا لنا أسطوانة، ثم أرفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، ولا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم وناكل مما تاكل منه الوحوش، ونشرب مما تشرب، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنا لنا دوراً في الغياض، ونحتفر الآبار، ونحرق البقول، فلا نرد عليكم ولا نمر بكم، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم، ففعلوا ذلك، فأنزل الله ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك، وفني من فني منهم قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساج فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث النبي ﷺ، ولم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته، وجاء السياح من سياحته، وصاحب الدير من دير، فأمنوا به وصدقوه، فقال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أجريين بإيمانهم بعيسى، ونصب أنفسهم، والتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد وتصديقهم ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ. وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، وأبو يعلى، والبيهقي في الشعب عن أنس أن النبي ﷺ قال: «إن لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري في قوله: ﴿كُفْلَيْنِ﴾ قال: ضعفين وهي بلسان الحبشة. وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كُفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ قال: الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءاً من رحمة الله.

تفسير سورة المجادلة

وهي مندية. قال القرطبي: في قول الجميع، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني، وباقها مكّي. وقال الكلبي: نزلت جميعها بالمدينة غير قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7] نزلت بمكة. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مرويّه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المجادلة بالمدينة. وأخرج ابن مرويّه عن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أَهْنُهُنَّ إِنْ أَهْنُهُنَّ إِلَّا إِلَىٰ وَلَدْنَهُنَّ وَلَهُنَّ يَتُولُونَ شُكْرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعُودٌ عَوْدٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحَرِيرٌ رَقَبَةٍ قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا دَلِكُمْ تَوَعَّلَطُوا بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَمِيسَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسَلَّاتَا فَمَنْ لَمْ يَسَلَّطْ فَلِلْعَامِ سِتَيْنِ يَسْكُنَا ذَلِكَ لِيُؤْمَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ قرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي بإدغام الدال في السين، وقرأ الباقر بالإظهار. قال الكسائي: من بين الدال عند السين، فلسانه أعجمي وليس بعربي ﴿قَوْلِ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: تراجعك الكلام في شأنه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف على تجالك. والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها: قد حرمت عليه، قالت: والله ما نكر طلاقاً، ثم تقول أشكو إلى الله فافقتي ووحدتي، وإن لي صبية صفاراً إن ضمنتهم إليه ضاعوا، وإن ضمنتهم إلي جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء، وتقول: اللهم إني أشكو إليك، فهذا معنى قوله: ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت، وكان به لعم، فاشتد به لعمه ذات يوم، فظاهر منها، ثم ندم على ذلك، وكان الظاهر طلاقاً في الجاهلية، وقيل: هي خولة بنت حكيم، وقيل: اسمها جميلة، والأول أصح، وقيل: هي بنت خويلد، وقال الماوردي: إنها نسبت تارة إلى أبيها، وتارة إلى جدها، وأحدهما أبوها، والآخر جدها، فهي: خولة بنت ثعلبة بن خويلد، وجملة ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها أي: والله يعلم تراجعكما في الكلام ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل مسموع، ويبصر كل مبصر، ومن جملة ذلك ما جالطت به هذه المرأة. ثم بين سبحانه شأن الظاهر في نفسه، ونكر حكمه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾

نسائهم ﴿قرأ الجمهور﴾ (يظهرون) بالتشديد مع فتح حرف المضارعة. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي (يظاهرون) بفتح الياء، وتشديد الظاء، وزيادة ألف، وقرأ أبو العالية، وعاصم، ويزيد بن حبيش (يظاهرون) بضم الياء، وتخفيف الظاء، وكسر الهاء، وقد تقدم مثل هذا في سورة الأحزاب. وقرأ لبي (يتظاهرون) بفك الإدغام، ومعنى الظهار أن يقول لامرأته: أنت علي كظهر أمي أي: ولا خلاف في كون هذا ظهاراً. واختلفوا إذا قال: أنت علي كظهر ابنتي، أو اختي، أو غير ذلك من نوات المحارم، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار، وبه قال الحسن، والنخعي، والزهرري، والأوزاعي، والثوري. وقال جماعة منهم قتادة والشعبي: إنه لا يكون ظهاراً بل يختص الظهار بالأم وحدها. واختلفت الرواية عن الشافعي، فروي عنه كالقول الأول، وروي عنه كالقول الثاني، وأصل الظهار مشتق من الظهر.

واختلفوا إذا قال لامرأته: أنت علي كراس أمي، أو يدها، أو رجلها، أو نحو ذلك؟ هل يكون ظهاراً أم لا وهكذا إذا قال: أنت علي كأمي ولم يذكر الظهر، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهاراً. وروي عن أبي حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهاراً، وروي عن الشافعي أنه لا يكون الظهار إلا في الظهر وحده.

واختلفوا إذا شبه امرأته باجنبة فقيل: يكون ظهاراً وقيل: لا، والكلام في هذا مبسوط في كتب الفروع، وجملة ﴿هَٰؤُلَاءِ مِنْ أَمْهَاتِهِمْ﴾ في محل رفع على أنها خبر الموصول أي: ما نسأهم بأمهاتهم، فذلك كذب منهم، وفي هذا توبيخ للمظاهرين وتبيكت لهم. قرأ الجمهور (أمهاتهم) بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال «ما» عمل ليس. وقرأ أبو عمرو، والسلمي بالرفع على عدم الإعمال، وهي لغة نجد، وبني أسد. ثم بين سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال: ﴿إِنَّ أَمْهَاتِهِمْ إِلَّا ثَلَاثِينَ وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم إلا النساء الثلاث ولدنهم، ثم زاد سبحانه في توبيخهم وتقريرهم، فقال: ﴿وَأُولَٰئِكَ لِيَقُولُوا مَنكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكراً من القول أي: فظيلاً من القول ينكره الشرع، والزور الكذب، وانتصاب منكراً، وزوراً على أنهما صفة لمصدر محذوف أي: قولاً منكراً وزوراً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ أي: بليغ العفو والمغفرة إذ جعل الكفارة عليهم مخلصاً لهم عن هذا القول المنكر ﴿وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ لما نكر سبحانه الظهار إجمالاً وبوخ فاعليه شرع في تفصيل أحكامه، والمعنى: والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور، ثم يعيدون لما قالوا أي: إلى ما قالوا بالتدراك والتلافي، كما في قوله: ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ [النور: 17] أي: إلى مثله، قال الأخفش: ﴿لِمَا قَالُوا﴾ وإلى ما قالوا يتعاقبان. قال ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43] وقال: ﴿فَهَامُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23] وقال: ﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهُ﴾ [الزلزلة: 5] وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ يعني: صيام شهرين متتابعين **﴿فَإِطْعَامَ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾** أي: فعلية أن يطعم ستين مسكيناً، لكل مسكين مدان، وهما نصف صاع، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. وقال الشافعي وغيره: لكل مسكين مد واحد، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم، وبعضهم في يوم آخر، والإشارة بقوله: **﴿لَكُمْ﴾** إلى ما تقدم نكره من الأحكام، وهو مبتدأ، وخبره مقدر أي: تلك واقع **﴿لَتَوْمُنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل نصب، والتقدير: فعلنا ذلك لتؤمنوا أي: لتصدقوا أن الله أمر به وشرعه، أو لتطيعوا الله ورسوله في الأوامر والنواهي، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها، ولا تعودوا إلى الظاهر الذي هو منكر من القول وزور، والإشارة بقوله: **﴿وَتِلْكَ﴾** إلى الأحكام المذكورة، وهو مبتدأ، وخبره **﴿حُدُودِ اللَّهِ﴾** فلا تجاوزوا حدوده التي حدّها لكم، فإنه قد بين لكم أن الظاهر معصية، وإن كفارته المنكورة توجب العفو والمغفرة **﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾** الذين لا يقفون عند حدود الله، ولا يعملون بما حدّه الله لعباده **﴿عَذَابَ الْيَمِّ﴾** وهو عذاب جهنم، وسماه كفراً تغليظاً وتشديداً.

وقد أخرج ابن ماجه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكل شياي، ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات **﴿وَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَالِسُكَ فِي زَوْجِهَا﴾** وهو أوس بن الصامت، وأخرج النحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: كان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها: خولة بنت خويلد، فظاهر منها، فأسقط في يده وقال: ما أراك إلا قد حرمت علي، فانطلق إلى النبي ﷺ، فأسأله، فأنت النبي ﷺ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه، فأخبرته، فقال: «يا خولة ما أمرنا في أمرك بشيء»، فانزل الله على النبي ﷺ فقال: يا خولة أبشري؟ قالت: خيراً، قال: خيراً، فقرأ عليها **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَالِسُكَ فِي زَوْجِهَا﴾** الآيات، وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال: «حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت: في، والله، وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، فدخل علي يوماً فراجعتني بشيء، فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي، ثم رجع، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي، فإذا هو يرينني عن نفسي، قلت: كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إلي، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله

نوح] [هود: 36] وقال الفراء: اللام بمعنى عن، والمعنى: ثم يرجعون عما قالوا، ويريدون الوطء. وقال الزجاج: المعنى: ثم يعوبون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. قال الأخفش أيضاً: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى: والذين يظهرون من نسائهم، ثم يعوبون لما كانوا عليه من الجماع **﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾** لما قالوا أي: فعلية تحرير رقبة من أجل ما قالوا. فالجاء في قوله: **﴿لَمَّا قَالُوا﴾** متعلق بالمحذوف الذي هو خبر المبتدأ، وهو فعلية.

واختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال: الأول أنه العزم على الوطء، وبه قال العراقيون أبو حنيفة وأصحابه، وروي عن مالك. وقيل: هو الوطء نفسه، وبه قال الحسن، وروي أيضاً عن مالك. وقيل: هو أن يمسكها زوجة بعد الظاهر مع القدرة على الطلاق، وبه قال الشافعي. وقيل: هو الكفارة، والمعنى: أنه لا يستبج وطأها إلا بكفارة، وبه قال الليث بن سعد، وروي عن أبي حنيفة. وقيل: هو تكرير الظاهر بلفظه، وبه قال أهل الظاهر. وروي عن بكير بن الأشبح، وأبي العالية، والفراء، والمعنى: ثم يعوبون إلى قول ما قالوا. والموصول مبتدأ، وخبره **﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾** على تقدير، فعلية تحرير رقبة، كما تقدم، أو قالوا يجب عليهم إعتاق رقبة، يقال: حررت أي: جعلته حراً، والظاهر أنها تجزئ أي رقبة كانت، وقيل: يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة في كفارة القتل؛ وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه، وبالثاني قال: مالك، والشافعي، واشترطوا أيضاً سلامتها من كل عيب **﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا﴾** المراد بالتماس هنا الجماع، وبه قال الجمهور، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفر، وقيل: إن المراد به الاستمتاع بالجماع، أو اللمس، أو النظر إلى الفرج بشهوة، وبه قال مالك، وهو أحد قول الشافعي، والإشارة بقوله: **﴿لَكُمْ﴾** إلى الحكم المذكور وهو مبتدأ، وخبره **﴿تَوْعُظُونَ بِهِ﴾** أي: تؤمرون به، أو تزجرون به عن ارتكاب الظاهر، وفيه بيان لما هو المقصود من شرع للكفارة. قال الزجاج: معنى الآية لكم التغليظ في الكفارة توعظون به أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظاهر **﴿وَأَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾** لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها. ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة، فقال: **﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾** أي: فمن لم يجد الرقبة في ملكه، ولا تمكن من قيمتها، فعليه صيام شهرين متتابعين متوالين لا يفطر فيهما، فإن أقطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر، وإن كان لعذر من سفر، أو مرض، فقال سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، والشعبي، والشافعي، ومالك: إنه يبيني، ولا يستأنف. وقال أبو حنيفة: إنه يستأنف، وهو مروي عن الشافعي؛ ومعنى **﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا﴾** هو ما تقدم قريباً، فلو وطئ ليلاً أو نهاراً عمداً أو خطأ استأنف، وبه قال أبو حنيفة، ومالك، وقال الشافعي: لا يستأنف إذا وطئ ليلاً؛ لأنه ليس محلاً للصوم، والأول أولى

فاخبرته خبري، فقال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذلك، قال: أنت
بذاك؟ قلت: أنا بذلك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذلك، وها أنا ذا،
فأمض في حكم الله، فإني صابر لنلك، قال: أعتق رقبة،
فضربت عنقي بيدي، فقالت: لا والذي بعثك بالحق ما
أصبحت أملاك غيرها، قال: فصم شهرين متتابعين، فقالت: هل
أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: «فاتعم ستين
مسكيناً»، قالت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً
ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق، فقل
له: فليقعها إليك، فاتعم عندك منها وسقاً ستين مسكيناً، ثم
استعن بسائرهما عليك، وعلى عيالكَ، فرجعت إلى قومي
فقلت: وجبت عندكم الضيق، وسوء الرأي، ووجبت عند
رسول الله ﷺ السعة والبركة، أمر لي بصدقتكم، فانفعوها
إلَيَّ، فنفعوها إليه.

[illegible]

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحَارُونُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لما نكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده نكر المحاذين، والمحاذة المشاقة، والمعبادة، والمخالفة، ومثله قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحَارُونُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال الزجاج: المحاذة أن تكون في حدٍ يخالف صاحبك، وأصلها الممانعة، ومنه الحديد، ومنه الحداد لليؤاب ﴿كَبِتُوا كَمَا كَبَتِ النَّيْنُ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: أنلوا وأخزوا، يقال: كبت الله فلاناً إذا أنله، والمربود بالنذل يقال له: مكبوت. قال المقاتلان: أخزوا، كما أخزي الذين من قبلهم من أهل الشرك، وكذا قال قتادة، وقال أبو عبيدة، والأخفش: أهلكوا. وقال ابن زيد: عذبوا. وقال السدي: لعنوا. وقال الفراء: أغبطوا، والمراد بمن قبلهم: كفار الأمم الماضية المعادين لرسول الله، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وقيل المعنى: على الماضي، وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر، والقهر، وجملة ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ في محل نصب على الحال من الواو في كبتوا أي: والحال أننا قد أنزلنا آيات واضحة فيمن حاد الله ورسله من الأمم

فينا، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ، فنكرت ذلك له، فما برحت حتى نزل القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ علي: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك﴾ إلى قوله: ﴿عذاب اليم﴾ فقال رسول الله ﷺ: مريه، فليعتق رقبة، قلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: فليصم شهرين متتابعين، قلت: والله إنه لشيوخ كبير ما به من صيام، قال: فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر، قلت: والله ما ذلك عنده، قال رسول الله ﷺ: فانا ساعينه بعرق من تمر، فقلت: وأنا يا رسول الله ساعينه بعرق آخر، فقال: قد أصبت، وأحسن، فاذهبي، فتصدقي به عنه، ثم استوصي بلبن عمك خيراً، قالت، ففعلت وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: ﴿ثم يعوديون لما قالوا﴾ قال: هو الرجل يقول لامراته: أنت علي كظهر أمي، فإذا قال ذلك فليس يحل له أن يقربها بتركاح، ولا غيره حتى يُكفر بعق رقبة ﴿فمن﴾ فإن ﴿لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾ والمسن النكاح ﴿فمن﴾ فإن ﴿لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً﴾ وإن هو قال لها: أنت علي كظهر أمي إن فعلت كذا، فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحث، فإن حثت، فلا يقربها حتى يُكفر، ولا يقع في الظهار طلاق. وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال ثلاث: فيه مدّ كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الصيام. وأخرج البزار، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: «أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني ظاهرت من امرأتي، فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر، فوقعت عليها قبل أن أكفر، فقال النبي ﷺ: ألم يقل الله ﴿من قبل أن يتماسا﴾، قال: قد فعلت يا رسول الله، قال: أمسك عنها حتى تُكفر». وأخرج عبد الرزاق، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي عن ابن عباس «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها من قبل أن أكفر، فقال: وما حملك على ذلك؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر، قال: فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله». وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والطبراني، والبيهقي في معجمه، والحاكم وصححه عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقاً من أن أصيب منها في ليلي، فالتابع في ذلك، ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت غلوت على قومي، فأخبرتهم خبري، فقلت: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بأمري، فقالوا: لا، والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها؛ ولكن اذهب أنت، فاصنم ما بدا لك قال: «فخرجت، فاتيت رسول الله ﷺ،

المتقدمة، وقيل: المراد الفرائض التي أنزلها الله سبحانه، وقيل: هي المعجزات **﴿ولللكافرين عذاب مهين﴾** أي: للكَافِرِينَ بكل ما يجب الإيمان به. فتدخل الآيات المنكورة هنا دخولاً أولياً، والعذاب المهين: الذي يهين صاحبه، وينله، ويذهب بعزّه **﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾** الظرف منتصب بإضمار أنكر، أو بمهين، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار، أو بإحصاء المذكور بعده، وانتصاب جميعاً على الحال أي: مجتمعين في حالة واحدة، أو يبعثهم كلهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث **﴿فينبئهم بما عملوا﴾** أي: يخبرهم بما عملوه في الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخاً لهم وتبكيّاً، ولتكميل الحجة عليهم، وجملة **﴿إحصاء الله ونسوه﴾** مستأنفة جواب سؤال مقتر، كأنه قيل كيف ينبتهم بذلك على كثرتهم واختلاف أنواعه، فقيل: إحصاء الله جميعاً، ولم يفته منه شيء، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه، بل وجنوه حاضراً مكتوباً في صحائفهم **﴿والله على كل شيء شهيد﴾** لا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل هو مطلع وناظر، ثم أكد سبحانه بيان كونه عالماً بكل شيء، فقال: **﴿الم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾** أي: ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما، وجملة **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة﴾** إلخ مستأنفة؛ لتقرير شمول علمه وإحاطته بكل المعلومات. قرأ الجمهور (يكون) بالتحية. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، والأعرج، وأبو حيوه بالفوقية، وكان على القراءتين تأمة، ومن مزيدة للتأكيد، ونجوى فاعل كان، والنجوى السرار، يقال: قوم نجوى أي: نو نجوى، وهي مصدر. والمعنى: ما يوجد من تناجي ثلاثة، أو من نوري نجوى ويجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين، فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه، وعلى الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البديل من نجوى، أو الصفة لها. قال القراء: ثلاثة نعت للنجوى، فأنخفضت، وإن شئت أضفت نجوى إليها، ولو نصبت على إضمار فعل جاز، وهي قراءة ابن أبي عبيدة، ويجوز رفع ثلاثة على البديل من موضع نجوى **﴿إلا هو ربهم﴾** هذه الجملة في موضع نصب على الحال، وكذا قوله: **﴿إلا هو سادسهم﴾** **﴿إلا هو معهم﴾** أي: ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا في حال من هذه الأحوال، فلا استثناء مفرغ من أعم الأحوال، ومعنى: ربهم جاعلهم أربعة، وكذا سادسهم جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم في الإطلاع على تلك النجوى **﴿ولا خمسة﴾** أي: ولا نجوى خمسة، وتخصيص العديدين بالذكر؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة، أو خمسة؛ أو كانت الواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثلاثة في موضع، وخمسة في موضع. قال الفراء: العدد غير مقصود؛ لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر، يعلم السر والجهر، لا تخفى عليه خافية **﴿ولا أنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم﴾** أي: ولا أقل من العدد المذكور: كالأحد والاثنين، ولا أكثر

منه كالسنة والسبعة إلا هو معهم يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شيء. قرأ الجمهور، (ولا أكثر) بالجر بالفتحة عطفاً على لفظ نجوى. وقرأ الحسن، والأعمش، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوه، ويعقوب، وأبو العالية، ونصر، وعيسى بن عمر، وسلام بالرفع عطفاً على محل نجوى. وقرأ الجمهور، (ولا أكثر) بالمثلثة. وقرأ الزهري، وعكرمة بالموحدة. قال الواحدي: قال المفسرون: إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم، فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله هذه الآيات، ومعنى **﴿أينما كانوا﴾** إحاطة علمه بكل تناج يكرن منهم في أي مكان من الأمكنة **﴿ثم ينبئهم﴾** أي: يخبرهم **﴿بما عملوا يوم القيامة﴾** توبيخاً لهم، وتبكيّاً، وإلزاماً للحجة **﴿إن الله بكل شيء عليم﴾** لا يخفى عليه شيء كائنًا ما كان **﴿الم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعيدون لما نهوا عنه﴾** هؤلاء الذين نهوا، ثم عادوا لما نهوا عنه، هم من تقدم ذكره من المنافقين واليهود. قال مقاتل: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة، فإذا مر بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شراً، فنهاهم الله، فلم ينتهوا، فنزلت. وقال ابن زيد: كان الرجل يأتي النبي ﷺ، فيسأله الحاجة، ويناجيه، والأرض يومئذ حرب، فيتهمون أنه يناجيه في حرب، أو بلية، أو أمر مهم، فيفزعون لذلك **﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول﴾** قرأ الجمهور (يتناجون) بوزن يتفاعلون، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، لقوله فيما بعد: **﴿إذا تناجيتم فلا تنلاجوا﴾**. وقرأ حمزة، وخلف، وورش عن يعقوب، (وينتجون) بوزن يفتعلون، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتیان بمعنى واحد نحو تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا، ومعنى الإثم ما هو إثم في نفسه كالكدب والظلم، والعدوان ما فيه عدوان على المؤمنين، ومعصية الرسول مخالفته. قرأ الجمهور (ومعصية) بالإفراد. وقرأ الضحاک، وحמיד، ومجاهد (ومعصيات) بالجمع **﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به﴾** قال القرطبي: إن المراد بها اليهود كانوا ياتون النبي ﷺ، فيقولون: السام عليك يريدون بذلك السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبي ﷺ: عليكم. وفي رواية أخرى، وعليكم **﴿ويقولون في أنفسهم﴾** أي: فيما بينهم **﴿لولا يعنينا الله بما نقول﴾** أي: هلا يعنينا بذلك، ولو كان محمد نبياً لعنينا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به. وقيل المعنى: لو كان نبياً لاستجيب له فيما حيث يقول: وعليكم، ووقع علينا الموت عند ذلك **﴿حسبهم جهنم﴾** عذاباً **﴿يصلونها﴾** يخلونها **﴿فبئس المصير﴾** أي: المرجع، وهو جهنم **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تنلاجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾** لما فرغ

يناجون النبي ﷺ ويقولون: إنه أذن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحداً من مناجاته، وكان ذلك يشق على المسلمين؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعَوْنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: 9]، فلم ينتهوا، فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صلقة، وشق ذلك على أهل الإيمان، وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصلقة، فخفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه، والإشارة بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ إلى ما تقدم من تقديم الصلقة بين يدي النجوى، وهو مبتدأ وخبره ﴿خَيْرَ لَكُمْ وَأَطْرَهُ﴾ لما فيه من طاعة الله، وتقبيد الأمر بكون أمثاله خيراً لهم من عدم الامتثال، وأطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر ننب لا أمر وجوب ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: من كان منهم لا يجد تلك الصلقة المأمور بها بين يدي النجوى، فلا حرج عليه في النجوى بدون صلقة ﴿وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتُ﴾ أي: أخفتم الفقر والعيلة؛ لأن تقدموا ذلك، والإشفاق: الخوف من المكروه، والاستفهام للتقرير. وقيل المعنى: أبخلتم، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليالٍ، ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال قتادة: ما كان إلا ساعة من النهار ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به من الصلقة بين يدي النجوى، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصلق به، ولم يفعل، وأما من لم يجد، فقد تقدم الترخيص له بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم في الترك، ﴿وَإِذْ عَلَى بَابِهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَضِيِّ﴾ وقيل: هي بمعنى إذا، وقيل: بمعنى إن، وتاب معطوف على لم تفعلوا أي: وإذا لم تفعلوا، وإذ تاب عليكم ﴿فَاقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ والمعنى: إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصلقة بين يدي النجوى، فاثبتوا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء، فهو مجازيكم، وليس في الآية ما يدل على تقصير المؤمنين في امتثال هذا الأمر، أما الفقهاء منهم، فالأمر واضح، وأما من عداهم من المؤمنين، فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصلقة بل أمروا بالصلقة إذا أرادوا المناجاة فمن ترك المناجاة، فلا يكون مقصراً في امتثال الأمر بالصلقة، على أن في الآية ما يدل على أن الأمر للننب، كما قلنا. وقد استدل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل، وليس هذا الاستدلال بصحيح، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل، وأيضاً قد فعل ذلك البعض، فتصلق بين يدي نجواه، كما سيأتي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: أنزلت هذه الآية ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ يوم

يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا. ﴿وَإِذَا قِيلَ لِنَشْزُوا فَانْشَرُوا﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين فيها، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم بضمها فيها، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: نشز أي: ارتفع، ينشز وينشز كعكف ويعكف، والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا فانهضوا. قال جمهور المفسرين أي: انهضوا إلى الصلاة، والجهد، وعمل الخير. وقال مجاهد، والضحك، وعكرمة: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة، ف قيل لهم: إذا نودي للصلاة، فانهضوا. وقال الحسن: انهضوا إلى الحرب. وقال ابن زيد: هذا في بيت النبي ﷺ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لِنَشْزُوا﴾ عن النبي ﷺ ﴿فَانْشَرُوا﴾ فإن له حوائج، فلا تمكثوا. وقال قتادة: المعنى اجبيوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف، والظاهر حمل الآية على العموم؛ والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور البينية، فانهضوا ولا تتثاقلوا، ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصاً، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق، ويندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجاً أولياً، وهكذا يندرج ما فيه السياق، وهو التفسيح في المجلس اندراجاً أولياً، وقد قلنا أن معنى نشز ارتفع، وهكذا يقال: نشز ينشز: إذا تنحى عن موضعه، ومنه امرأة ناشز أي: متنحية عن زوجها، وأصله مأخوذ من النشز، وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى، ذكر معناه النحاس ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيها ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتُ﴾ أي: ويرفع الذين أُوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، ومعنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أُوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات، وقيل: المراد بالذين آمنوا من الصحابة، وكذلك الذين أُوتوا العلم، وقيل: المراد بالذين أُوتوا العلم الذين قرءوا القرآن. والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن، وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة، ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض، وفي هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله، وقد دل على فضله وفضله آيات قرآنية وأحاديث نبوية ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم من خير وشر، فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتُ﴾ المناجاة المسارعة، والمعنى: إذا أردتم مسارعة الرسول في أمر من أموركم، فقدموا بين يدي مسارعتكم له صلقة. قال الحسن: نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبي ﷺ يناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشق عليهم ذلك، فأمرهم الله بالصلقة عند النجوى؛ لتقطعهم عن استخلائه. وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا

نجواكم صدقة ﴿ كان عندي دينار، فبعته بعشرة دراهم، فكننت كلما ناجيت رسول الله ﷺ قُدمت بين يدي نجواي درهماً، ثم نسخت، فلم يعمل بها أحد، فنزلت: ﴿اشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَمِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتُ﴾ الآية. وأخرج الطبراني، وابن مردويه. قال السيوطي: بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾، فقدمت شعيرة، فقال رسول الله ﷺ: إنك لزهيد، فنزلت الآية الأخرى ﴿اشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَمِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتُ﴾. »

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَيْبَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْكَذِبِ وَهُمْ يَقُولُونَ ﴿١﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَمْسُكُونَ ﴿٢﴾ أَفَعَدَّوْا إِلَيْنَا جَنَّةً مَصْدُورًا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَهَبْ لَهُمْ عَذَابَ يُغْنِي عَنْهُمْ عَنْهُمْ آمَنُوكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْدَادِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَبْتَسِمُ اللَّهُ جِيْمًا يَجْعَلُونَ لَمْ كَمَا يَجْعَلُونَ لَكُمْ وَصَحَّوْنَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ آلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿٤﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنشَأَهُمْ لَكُمْ آوَلَيْكَ جَزْبَ الشَّيْطَانِ الْآلَا إِنَّ جَزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٦﴾ كَذَبَ اللَّهُ لِلْعَدْلِ أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ اللَّهُ قَوْلُ عَزِيزٍ ﴿٧﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿هَلْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ أي: والوهم. قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود. وقال السدي: ومقاتل: هم اليهود تولوا المنافقين، ويدل على الأول قوله: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فإن المغضوب عليهم هم اليهود، ويدل على الثاني قوله: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ فإن هذه صفة المنافقين، كما قال الله فيهم: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: 143] وجملة ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة ﴿وَيُحِلِّفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أي: يحلفون أنهم مسلمون، أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود، والجملة عطف على تولوا داخلة في حكم التعجب من فعلهم، وجملة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له ﴿وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بسبب هذا التولي والحلف على الباطل ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿لَتَحْضُوْا إِيْمَانَهُمْ جَنَّةً﴾ قرأ الجمهور (إيمانهم) بفتح الهمزة جمع يمين، وهي ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقيا من القتل، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دماءهم، كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو

جمعة، ورسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر، وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردَّ النبي ﷺ عليهم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشق ذلك عليه، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: ﴿مَهْ يَا فُلَانُ، وَأَنْتَ يَا فُلَانُ، فَلَمْ يَزَلْ يَقِيمُهُمْ بَعْدَ النَّفَرِ الَّذِينَ هُمْ قِيَامُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أَقِيمَ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.﴾ وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: ذلك في مجلس القتال ﴿وَأِذَا قِيلَ لِنَاشِرُوهُ﴾ قال: إلى الخير والصلاة. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في المنخل عن ابن عباس في قوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ قال: يرفع الله الذين أُوتُوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية قال: يرفع الله الذين آمنوا منكم، وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات. وأخرج ابن المنذر عنه قال: ما خصَّ الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ الآية قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما قال ذلك ظن كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا ﴿اشْفَقْتُمْ﴾ الآية، فوسع الله عليهم ولم يضيق. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ قال لي النبي ﷺ: ما ترى دينار؟ قلت: لا يطبقونه. قال: فنصف دينار؟ قلت: لا يطبقونه، قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد، قال: فنزلت: ﴿اشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَمِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتُ﴾ الآية، فبني خفف الله عن هذه الأمة، والمراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب، وليس المراد واحدة من حب الشعير. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه قال: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت، وما كانت إلا ساعة يعني: آية النجوى. وأخرج سعيد بن منصور، وابن راهويه، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه أيضاً قال: إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ

السورة، والجملة تعليل لما قبلها **﴿أُولَئِكَ فِي الْأَنْلَيْن﴾** أي: أولئك المحاذون لله ورسوله، المتصفون بتلك الصفات المتقدمة من جملة من آتاه الله من الأمم السابقة واللاحقة؛ لأنهم لما حادوا الله ورسوله صاروا من الذل بهذا المكان. قال عطاء: يريد الذل في الدنيا، والخزي في الآخرة **﴿وَكُتِبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَ أَنَا وَرُسُلِي﴾** الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم في الأنلين أي: كتب في اللوح المحفوظ، وقضى في سابق علمه: لأغلبن أنا ورسلي بالحجة والسيف. قال الزجاج: معنى غلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب، فهو غالب في الحرب، ومن بعث منهم بغير الحرب، فهو غالب بالحجة. قال الفراء: كتب بمعنى قال، وقوله: **﴿إِنَّا﴾** تأكيد، ثم نكر مثل قول الزجاج **﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** فهو قوي على نصر أوليائه غالب لأعدائه لا يغلبه أحد **﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾** الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له أي: يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهم، وجملة **﴿يُوَادُّونَ﴾** في محل نصب على أنها المفعول الثاني لتجد إن كان متعدياً إلى مفعولين، أو في محل نصب على الحال إن كان متعدياً إلى مفعول واحد، أو صفة أخرى لقوماً أي: جامعون بين الإيمان والمودة لمن حاد الله ورسوله **﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾** أي: ولو كان المحاذون لله ورسوله آباء المؤمنين، إلخ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك، ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة **﴿أُولَئِكَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾** يعني: الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، ومعنى **﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾**: خلقه، وقيل: أثبته، وقيل: جعله، وقيل: جمعه، والمعاني متقاربة **﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾** قوامهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيا أمرهم، وقيل: هو نور القلب. وقال الربيع بن أنس: بالقرآن والحجة، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإيمان، وقيل: برحمة. قرأ الجمهور (كتب) مبنياً للفاعل، ونصب الإيمان على المفعولية. وقرأ زُرَّ بن حبيش، والمفضل عن عاصم على البناء للمفعول، ورفع الإيمان على النياية. وقرأ زُرَّ بن حبيش: (عشيراتهم) بالجمع، ورويت هذه القراءة عن عاصم **﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** على الأبد **﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** أي: قبل أعمالهم، وأقاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة **﴿وَوَرَضُوا عَنْهُ﴾** أي: فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وأجلاً **﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾** أي: جنده الذين يمثلون أوامره، ويقاثلون أعداءه، وينصرون أوليائه، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم، وتكريم فخير **﴿إِلَّا إِنْ حِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾** أي: الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح.

سهم. وقرأ الحسن، وأبو العالية (إيمانهم) بكسر الهمزة أي: جعلوها تصديقهم جنة من القتل، فأمنت ألسنتهم من خوف القتل، ولم تؤمن قلوبهم **﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** أي: منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط، وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم، وقيل المعنى: فصددوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام **﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** أي: يهينهم ويخزيهم، قيل: هو تكرير لقوله: **﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾** للتأكيد، وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة، ولا وجه للقول بالتكرار، فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة **﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾** أي: لن تغني عنهم من عذابه شيئاً من الإغناء قال مقاتل. قال المنافقون: إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إننا، فوالله لننصرن يوم القيامة بانفسنا، وأموالنا، وأولادنا إن كان قيامة، فنزلت الآية **﴿أُولَئِكَ﴾** الموصوفون بما نكر **﴿إِصْحَابِ النَّارِ﴾** لا يفارقونها **﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** لا يخرجون منها **﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾** الظرف منصوب بقوله: **﴿مُهْمِينَ﴾**، أو بمقدَّر أي: انكر **﴿فِيحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾** أي: يحلفون لله يوم القيامة على الكذب كما يحلفون لكم في الدنيا، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم، فإن يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة، فكيف يجترئون على أن يكتبوا في تلك الموقف ويحلفون على الكذب **﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾** أي: يحسبون في الآخرة أنهم بتلك الإيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعاً، أو يدفع ضرراً، كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا **﴿إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾** أي: الكاملون في الكذب المتهالكون عليه البالغون فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه بلقائهم عليه، وعلى الإيمان الفاجرة في موقف القيامة بين يدي الرحمن **﴿اسْتَحْذَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ﴾** أي: غلب عليهم واستولى واستولى. قال المبرد: استحوذ على الشيء حواه وأحاط به، وقيل: قوي عليهم، وقيل: جمعهم، يقال: أحوذ الشيء أي: جمعه وضَمَّ بعضه إلى بعض، والمعاني متقاربة؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوي عليهم وغلبهم واستولى عليهم واستولى، وأحاط بهم **﴿فَانْسَاهُمْ نَذْرَ اللَّهِ﴾** أي: أوامره والعمل بطاعته، فلم يذكروا شيئاً من ذلك، وقيل: زواجه في النهي عن معاصيه، وقيل: لم يذكروا بقلوبهم ولا بألسنتهم، والإشارة بقوله: **﴿أُولَئِكَ﴾** إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات، وهو مبتدأ، وخبره **﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾** أي: جنوده، واتباعه، ورهطه **﴿إِلَّا إِنْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** أي: الكاملون في الخسران حتى كان خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة، وكذبوا على الله وعلى نبيه، وحلفوا بالإيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة **﴿إِنَّ السَّيِّئِينَ يَصْنَعُونَ اللَّهُ وَرُسُلَهُ﴾** تقدّم معنى المحاذة لله ورسوله في أول هذه

بیارهم **لأول الحشر** هم بنو النضير، وهم: رهط من اليهود من نرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظاراً منهم لمحمد ﷺ، فغدروا بالنبي ﷺ بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصره رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء. قال الكلبي: كانوا أول من أجلي من أهل النمة من جزيرة العرب، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر بن الخطاب، فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة، وآخر حشر إجلاء عمر لهم. وقيل: إن أول الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام، وقيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر، وهي الشام. قال عكرمة: من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام، فليقرأ هذه الآية، وأن النبي ﷺ قال لهم: «اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر». قال ابن العربي: الحشر أول وأوسط وآخر، فالأول إجلاء بني النضير، والأوسط إجلاء أهل خيبر، والآخر يوم القيامة.

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المنكوريين في الآية هم بنو النضير، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري فقال: هم بنو قريظة، وهو غلط، فإن بني قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. واللام في لأول الحشر متعلقة بأخرج، وهي لام التوقيت كقوله: «للولك الشمس» [الإسراء: 78]. «وما ظننتم أن يخرجوا» هذا خطاب للمسلمين أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من بيارهم؛ لعزتهم، ومنعتهم، وذلك أنهم كانوا أهل حصون ماعة، وعقار، ونخيل واسعة، وأهل عدد وعدة «وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله» أي: وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وقوله: «مانعتهم» خبر مقدم، «وحصونهم» مبتدأ مؤخر، والجملة خبر أنهم، ويجوز أن يكون مانعتهم خبر أنهم، وحصونهم فاعل مانعتهم، ورجع الثاني أبو حيان، والأول أولى «فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» أي: اتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلالهم وكانوا لا يظنون ذلك، وقيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قاله ابن جريج، والسدي، وأبو صالح، فإن قتله أضعف شوكتهم. وقيل: إن الضمير في اتاهم، ولم يحتسبوا للمؤمنين أي: فاتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا، والأول أولى لقوله: «وقف في قلوبهم الرعب» فإن قذف الرعب كان في قلوب بني النضير، لا في قلوب المسلمين. قال أهل اللغة: الرعب الخوف الذي يرعب الصدر أي: يملؤه، وقذفه إثباته فيه. وقيل: كان قذف الرعب في قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، والأولى عدم تقييده بذلك، وتفسيره به، بل المراد بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو الذي ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

وقد أخرج أحمد، والبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيأتيكم إنسان، فينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم، فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال: نرني أتيتك بهم، فحلفوا، واعتذروا، فأنزل الله: **«يوم يبيعنهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم»** الآية والتي بعدها. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في سننه عن عبد الله بن شونب قال: جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتقصد لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة، فقتله، فنزلت: **«لا تجد قوماً يؤمنون بالله»** الآية.

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحشر بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: سورة النضير يعني: أنها نزلت في بني النضير، كما صرح بذلك في بعض الروايات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَلَتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ يَدِيَهُمْ بِيَدَيْهِمْ وَيُلَاقِيهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ② وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا قُطِعَ مِنْ رِيسَةٍ أَوْ رَكَضَتْهَا فَامْتَصَّ عَلَى أَمْرٍ لَهَا فَيَازَنُ اللَّهُ وَبِخَرَى الْقَتِيلِينَ ⑤ وَمَا اللَّهُ أَكْبَرُ عَلَى رَسُولِهِ يَنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَاكِبٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَطَ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ مَا اللَّهُ أَكْبَرُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلْيَبْزُوا فِئَةً وَلْيَرْوِلْ رِجْلُ الْقُرَى وَالْمَسْكِينِ وَالْأَنْفِيَّةِ ⑦ وَكَانَ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَنْفِيَّةِ يَكْفُرُ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا رُسُلُ اللَّهِ فَخُذُوا مَا يَكْفُرُ عَنْكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑧

قوله: «سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم» قد تقدم تفسير هذا في سورة الحديد وهو الذي أخرج للنين كفروا من أهل الكتاب من

للمسلمين، وقال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعبد؛ فنزل القرآن بتصديق من نهي عن قطع النخل، وتحليل من قطعه من الإثم فقال: ﴿مَا قُطِعَ مِنْ لِينَةٍ﴾ قال قتادة، والضحاك: إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة، فقال بنو النضير، وهم أهل كتاب: يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الإصلاح، أقمن الصلاح قطع النخل، وحرق الشجر؛ وهل وجدت، فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، ووجد المسلمون في أنفسهم، فنزلت الآية، ومعنى الآية: أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله، والضمير في تركتموها عائد إلى «ما» لتفسيرها باللين، وكذا في قوله: ﴿قَائِمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا﴾ ومعنى ﴿عَلَى أَصُولِهَا﴾: أنها باقية على ما هي عليه.

وختلف المفسرون في تفسير اللينة، فقال الزهري، ومالك، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والخليل: إنها النخل كله إلا العجوة. وقال مجاهد: إنها النخل كله، ولم يستثن عجوة ولا غيرها. وقال الثوري: هي كرام النخل. وقال أبو عبيدة: إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرني. وقال جعفر بن محمد: إنها العجوة خاصة، وقيل: هي ضرب من النخل، يقال لتمره اللون: تمره أجود التمر. وقال الأصمعي: هي النقل، وأصل اللينة لونة، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وجمع اللينة لين، وقيل: ليان. وقرأ ابن مسعود (ما) قطعتم من لينة ولا تركتم قوماً على أصولها) أي: قائمة على سوقها، وقرئ: (على أصلها)، وقرئ: (قائماً على أصولها) ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ليزل الخارجين عن الطاعة، وهم اليهود، ويغيظهم في قطعها وتركها، لأنهم إذا راوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاءوا من القطع والترك ازدادوا غيظاً. قال الزجاج: وليخزي الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك، والتقدير: وليخزي الفاسقين أن في ذلك، يدل على المحذوف قوله: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وقد استدلل بهذه الآية على جواز الاجتهاد، وعلى تصويب المجتهدين، والبحث مستوفى في كتب الأصول ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: ما رده عليه من أموال الكفار، يقال: فاء يفيء إذا رجع، والضمير في منهم عائد إلى بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقال: وجف الفرس والبعير يجف وجفاً، وهو سرعة السير، وأوجفه صاحبه: إذا حملة على السير السريع، ومنه قول تميم بن مقبل:

مذ لو بد بالبيض الحنيد صفالها عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا وقال نصيب:

ألا رب ركب قد قطعت وجيفهم إليك ولولا أنت لم يوجب الركب

و«ما» في ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ نافية، والفاء جواب الشرط إن كانت «ما» في قوله: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ شرطية، وإن موصولة، فالفاء زائدة، ومنه في قوله: ﴿مَنْ خَيْلٍ﴾ زائدة للتأكيد، والركاب ما يركب من الإبل خاصة، والمعنى: أن ما

﴿يُخْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل، والمسلمون من خارج. قال قتادة والضحاك: كان المؤمنون يخربون من خارج، ليدخلوا، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم. قال الزجاج: معنى تخريبها بأيدي المؤمنين أنهم عرضوها لذلك. قرأ الجمهور (يخربون) بالتخفيف، وقرأ الحسن، والسلمي، ونصر بن عاصم، وأبو العالية، وأبو عمرو بالتشديد. قال أبو عمرو: إنما اخترت القراءة بالتشديد، لأن الإخراب ترك الشيء خراباً، وإنما خربوها بالهدم. وليس ما قاله بمسلم، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد. قال سيبويه: إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته، وأفرحته وفرحته. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم. قال الزهري، وابن زيد، وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبي ﷺ على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا يستحسنون الخشبة، أو العمود، فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها. وقال الزهري أيضاً: يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة، وأيدي المؤمنين بالمقاتلة، وقال أبو عمرو: بأيديهم في تركهم لها، وبأيدي المؤمنين في إجلائهم عنها، والجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه، أو في محل نصب على الحال ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: اتعظوا وتدبروا، وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر. قال الواحدي: ومعنى الاعتبار النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهم فِي الدُّنْيَا﴾ أي: لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه، وقضى به عليهم لعذبهم بالقتل والسبي في الدنيا، كما فعل ببني قريظة. والجلاء مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاء، وأجلاه غيره إجلأه. والفرق بين الجلاء والإخراج، وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً من جهتين: إحداهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لجماعة ولواحد، كذا قال الماوردي ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ لَنَارٍ﴾ هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب لولا متضمنة لبيان ما يحصل لهم في الآخرة من العذاب، وإن نجوا من عذاب الدنيا، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم ذكره من الجلاء في الدنيا، والعذاب في الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: بسبب المشاقة منهم لله ولرسوله بعدم الطاعة، والميل مع الكفار، ونقض العهد ﴿وَمَنْ يَشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ اقتصر هاهنا على مشاقة الله؛ لأن مشاقته مشاقة لرسوله. قرأ الجمهور (يشاق) بالإنغام، وقرأ طلحة بن مصرف، ومحمد بن السميعف: (يشاقق) بالفك ﴿مَا قُطِعَ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: إن بعض المهاجرين وقعوا في قطع النخل، فنهاهم بعضهم، وقالوا: إنما هي مغنم

المطلب لأنهم قد منعوا من الصدقة، فجعل لهم حقاً في الفيء. قيل: تكون القسمة في هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول الله ﷺ، وخمسه يقسم أخماساً. للرسول خمس، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس، وقيل: يقسم أسداساً. الساس سهم الله سبحانه، ويصرف إلى وجوه القرب، كعمارة المساجد، ونحو ذلك ﴿كَيْلَا يَكُونَ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي: كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء دون الفقراء، والدولة اسم للشيء يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرةً ولهذا مرةً. قال مقاتل: المعنى: أنه يغلب الأغنياء الفقراء، فيقسمونه بينهم. قرأ الجمهور (يكون) بالتحية دولة بالنصب أي: كيلا يكون الفيء دولة. وقرأ أبو جعفر، والأعرج، وهشام، وأبو حيان: (تكون) بالفوقية دولة بالرفع أي: كيلا تقع، أو توجد دولة، وكان تامة. وقرأ الجمهور (دولة) بضم الدال. وقرأ أبو حيوة، والسلمي بفتحها. قال عيسى بن عمر، ويونس، والأصمعي: هما لغتان بمعنى واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدولة بالفتح الذي يتداول من الأموال، وبالضم الفعل، وكذا قال أبو عبيدة. ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاعتداء برسوله ﷺ فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أي: ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه، ولا تأخذوه. قال الحسن، والسدي: ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه، وما منعكم منه فلا تطلبوه. وقال ابن جريج: ما آتاكم من طاعتي فاقبلوا، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر أو نهي، أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل شيء آتانا به من الشرع، فقد أعطانا إياه، وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها. ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول، وترك ما نهاهم عنه أمرهم بتقواه، وخوفهم شدة عقوبته، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فهو معاقب من لم يأخذها ما آتاه الرسول، ولم يترك ما نهاه عنه.

وقد أخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم، ونخلهم في ناحية المدينة، فحاصره رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمثلة، والأموال إلا الحلقة يعني: السلاح، فأنزل الله فيهم ﴿سَبِّحْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا أُولَ الْبَشَرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا﴾ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الإجماع، وجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصيبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأما قوله: ﴿لَا أُولَ الْبَشَرِ﴾ فكان إجلالهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

رد الله على رسوله من أموال بني النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً، ولا إبلًا، ولا تجشمت لها شقة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله ﷺ، خاصة لهذا السبب، فإنه افتتحها صلحاً، وأخذ أموالها، وقد كان سألهم المسلمون أن يقسم لهم، فنزلت الآية: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من أعدائه، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله ﷺ، دون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل، ولا ركاب، بل مشوا إليها مشياً، ولم يقاسوا فيها شيئاً من شدائد الحروب ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يسלט من يشاء على من أراد، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء ﴿لَا يَسَالُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَالُونَ﴾ [الأنبياء: 23] ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول الله ﷺ خاصة، والتكرير لقصد التأكيد، ووضع أهل القرى موضع قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحاً، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب. قيل: والمراد بالقرى بنو النضير، وقريظة، وفلذ، وخيبر. وقد تكلم أهل العلم في هذه الآية والتي قبلها؟ هل معناهما متفق، أو مختلف؟ فقيل: معناهما متفق كما نكرنا، وقيل: مختلف وفي ذلك كلام لأهل العلم طويل. قال ابن العربي: لا إشكال أنها ثلاثة معانٍ في ثلاث آيات. أما الآية الأولى، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ فهي خاصة برسول الله ﷺ خالصة له، وهي أموال بني النضير وما كان مثلها. وأما الآية الثانية، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأول بمستحق غير الأول، وإن اشتركت هي، والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً آفاه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال، وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال، وعريت الآية الثانية، وهي قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ عن ذكر حصوله بقتال، أو بغير قتال، فنشأ الخلاف من ها هنا؛ فطائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهي مال الصلح، وطائفة قالت: هي ملحقة بالثالثة، وهي آية الأنفال. والذين قالوا: إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هي منسوخة، أو محكمة؟ هذا معنى حاصل كلامه. وقال مالك: إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله ﷺ، والآية الثانية: هي في بني قريظة، ويعني: أن معناها يعود إلى آية الأنفال. ومذهب الشافعي أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي ﷺ وهي بعده لمصالح المسلمين ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَلِأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ المراد بقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أنه يحكم فيه بما يشاء ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ يكون ملكاً له ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهو بنو هاشم، وبنو

﴿صَفَايَا فِي النَّضِيرِ، وَخَيْرٌ، وَفَكَ، فَأَمَّا بَنُو النَّضِيرِ فَكَانَتْ حَبَسًا لِنَوَائِبِهِ، وَأَمَّا فَكَ فَكَانَتْ لِابْنِ السَّبِيلِ، وَأَمَّا خَيْرٌ فَجَزَأُهَا ثَلَاثَةُ أَجْزَاءٍ: قَسَمَ مِنْهَا جُزْءَيْنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَبَسَ جُزْءًا لِنَفْسِهِ وَلِنَفَقَةِ أَهْلِهِ، فَمَا فَضَلَ عَنْ نَفَقَةِ أَهْلِهِ رَدَّهَا عَلَى فَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ. وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ سَعْدٍ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنُ زُنْجُوهِ فِي الْأُمُودِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُسْلِمٌ إِلَّا وَلَهُ فِي هَذَا الْفَيْءِ حَقٌّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَأَشْمَاتَ وَالْمُسْتَوْشِمَاتَ، وَالْمَتَمَتَّصَاتَ، وَالْمَتَفَلِّجَاتِ لِلْحَسَنِ الْمَغِيرَاتِ لَخَلْقِ اللَّهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَمْرًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَتْ: بَلَّغْنِي أَنْكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، قَالَ: وَمَا لِي لَا لَعْنٌ مِنْ لَعْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ النَّفْتَيْنِ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ شَيْئًا مِنْ هَذَا، قَالَ: لَنْ تَكُنْتَ قَرَأْتَهُ لَقَدْ وَجَدْتَهُ، أَمَا قَرَأْتَ ﴿مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ».

لَقَدْ نَهَى الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ أَقْوَرِ وَرِثَتِكُمْ وَرِثَتُكَ اللَّهُ وَرِثَتُكَ أَوْلِيكَ هُمْ أَصْدِقُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَتِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦١﴾

قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ قيل: هو بدل من ﴿لِلَّذِي الْقَرِيبِ﴾ [الحشر: 7] وما عطف عليه، ولا يصح أن يكون بدلا من الرسول، وما بعده لثلاثا يستلزم وصف رسول الله ﷺ بالفقر، وقيل التقدير: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دَوْلَةً﴾ [الحشر: 59] ولكن يكون للفقراء، وقيل التقدير: اعجبوا للفقراء، وقيل التقدير: والله شديد العقاب للفقراء أي: شديد العقاب للكفار بسبب الفقر، وقيل: هو عطف على ما مضى بتقدير الواو، كما تقول المال لزيد لعمرو ليكر، والمراد بـ ﴿الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ رغبة في الدين ونصرة له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار، والأموال، والأهلين، ومعنى ﴿أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: أن كَفَرُوا مَكَّةَ أَخْرَجُوهُمْ مِنْهَا، وَأَضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ، وَكَانُوا مِائَةَ رَجُلٍ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، أَي: يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا، وَبِالرِّضْوَانِ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بِالْجِهَادِ لِلْكَفَرِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى يَبْتَغُونَ، وَمَحَلُّ الْجُمْلَتَيْنِ النَّصَبُ عَلَى الْحَالِ، الْأُولَى مَقَارَنَةً، وَالثَّانِيَّةُ مَقْدَرَةٌ أَيْ: نَاوِينَ لَذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مَقَارَنَةً: لِأَنَّ خُرُوجَهُمْ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ نَصْرَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ اتَّصَفَهُمْ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، وَهُوَ مَبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ هُمْ

وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْبَعْثِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَنْ شَكَّ أَنَّ الْمُحْشَرَّ بِالشَّامِ فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ آيَةَ ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ: أَخْرِجُوا، قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى أَرْضِ الْمُحْشَرِّ. وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ مَرْبُودٍ، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي الدَّلَائِلِ، وَابْنُ عَسَاكِرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ حَاصِرَهُمْ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَأَعْطَوْهُ مَا أَرَادَ مِنْهُمْ، فَصَالِحُهُمْ عَلَى أَنْ يَحْقِنَ لَهُمْ دِمَاءَهُمْ، وَأَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، وَأَنْ يَسِيرُوا إِلَى أَثْرَعَاتِ الشَّامِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرًا وَسَقَاءً. وَفِي الْبُخَارِيِّ، وَمُسْلِمٍ، وَغَيْرِهِمَا عَنْ ابْنِ عَمَرَ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَقَطَعَ وَهِيَ الْبُؤْيُورَةُ، وَلَهَا يَقُولُ حَسَانُ:

لَهَانَ عَلَى سِرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُؤْيُورَةِ مُسْتَطِيرٌ فَانْزِلْ اللَّهُ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيخِزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾. وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْبُودٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ قَالَ: «لِللِّينَةِ النَّخْلَةُ» وَلِيخِزِيَ الْفَاسِقِينَ قَالَ: اسْتَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَصُونِهِمْ، وَأَمَرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ، فَكَانَ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكْنَا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ لَنَا فِيهَا قُطْعَانٌ مِنْ أَجْرٍ، وَهَلْ عَلَيْنَا فِيهَا تَرْكُنَا مِنْ زَرْعٍ؟ فَانْزِلْ اللَّهُ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ آيَةَ، وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ، وَالْكَلَامُ فِي صَلَاحِ بَنِي النَّضِيرِ مَبْسُوطٌ فِي كِتَابِ السَّيْرِ. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: كَانَتْ أُمُودُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَقَامَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَمِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، وَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَةً، فَكَانَ يَنْفَقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةً سَنَةً، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالْكَرَاعِ عِدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَأَخْرَجَ ابْنَ مَرْبُودٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فَجَعَلَ مَا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْكُمُ فِيهِ مَا أَرَادَ، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ خَيْلٌ وَلَا رِكَابٌ يُوجِفُ بِهَا. قَالَ: وَالْإِبْجَافُ أَوْ يُوضَعُوا السَّيْرِ، وَهِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ، وَفَكَ، وَفَرَى عَرِينَةً. وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْمَدَ لِيَنْبِيعَ، فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاحْتَوَاهَا كُلُّهَا، فَقَالَ نَاسٌ: هَلَا قَسَمَهَا اللَّهُ، فَانْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا أَقَامَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ آيَةَ. وَأَخْرَجَ ابْنَ مَرْبُودٍ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ: كَانَ مَا أَقَامَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ خَيْرٍ نَصَفَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالنَّصَفُ الْآخِرُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ الَّذِي لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ ذَلِكَ الْكَثِيَّةُ، وَالْوَطِيحُ، وَالسَّلَامُ، وَوَحْدُهُ، وَكَانَ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ الشَّقُّ، وَالشَّقُّ ثَلَاثَةٌ: عَشْرُ سَهْمًا، وَنِطَاطُ خَمْسَةِ أَسْهُمٍ، وَلَمْ يَقْسَمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ خَيْرٍ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ الْحَدِيثِيَّةَ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَخَلُّفَ عَنْهُ عِنْدَ مَخْرَجِهِ إِلَى الْحَدِيثِيَّةِ أَنْ يَشْهَدَ مَعَهُ خَيْرٌ إِلَّا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ الْأَنْصَارِيُّ. وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَرْبُودٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ

حرص نفسه. قال سعيد بن جبير: شَحَّ النفس هو أخذ الحرام، ومنع الزكاة. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه، فقد وقى شَحَّ نفسه. قال طاووس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، والشَحَّ أن يشَحَّ بما في أيدي الناس، يحِبُّ أن يكون له ما في أيديهم بالحلال والحرام لا يقنع. وقال ابن عيينة: الشَحَّ الظلم. وقال الليث: ترك الفراض وانتهاك المحارم. والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شَحَّ النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشَحَّ بها شرعاً من زكاة، أو صدقة، أو صلة رحم، أو نحو ذلك، كما تفيد إضافة الشَحَّ إلى النفس، والإشارة بقوله: ﴿فَإُولَئِكَ﴾ إلى «من» باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هُمْ الْمَفْلُحُونَ﴾ والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب. ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار، نكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، وقيل: هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلام، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم في عصر النبوة، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصلق على الكل أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار، والموصول مبتدأ، وخبره ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾، فيكون يقولون في محل نصب على الحال، أو مستأنف لا محل له، والمراد بالآخوة هنا أخوة النَّبِيِّ، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم، ولمن تقدّمهم من المهاجرين والأنصار ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: غشاً وبغضاً وحسداً. أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغلّ للذين آمنوا على الإطلاق، فينبخل في تلك الصحابة دخولاً أولاً لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم، ويطلب رضوان الله لهم، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم، فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه، وخير أمة نبيه ﷺ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجأ إلى الله سبحانه، والاستغاثة به، بأن ينزع عن قلبه ما طرقة من الغلّ لخير القرون، وأشرف هذه الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم، فقد انقاد للشيطان بزمام، ووقع في غضب الله وسخطه، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلي بمعلم من الرافضة، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان، وزين لهم الأكاذيب المختلفة، والاقاصيص المفتراة، والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وعن سنة رسول الله ﷺ، المنقولة إلينا

لِلصَّادِقُونَ﴾ أي: الكاملون في الصديق الراسخون فيه. ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الانصار فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ المراد بالدار المدينة، وهي دار الهجرة، ومعنى تبوَّءتهم الدار والإيمان أنهم اتخذوها مباءة أي: تمكنوا منها تمكناً شديداً، والتبَّوُّوا في الأصل إنما يكون للمكان، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلاً للحال منزلة المحل، وقيل: إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المنكور، والتقدير: واعتقدوا الإيمان، أو وأخلصوا الإيمان كذا قال أبو علي الفارسي. ويجوز أن يكون على حذف مضاف أي: تبَّوَّءوا الدار وموضع الإيمان، ويجوز أن يكون تبَّوَّءوا مضمناً لمعنى لزموها، والتقدير: لزموها الدار والإيمان، ومعنى ﴿مَنْ قَبْلَهُمْ﴾: من قبل هجرة المهاجرين، فلا بد من تقدير مضاف، لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين، والموصول مبتدأ، وخبره ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾. وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين، وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ أي: لا يجد الأنصار في صدورهم حسداً، وغيظاً، وحزاة ﴿وَمَا أُوْتُوا﴾ أي: مما أوتي المهاجرون نونهم من الفقه، بل طابت أنفسهم بذلك. وفي الكلام مضاف محذوف أي: لا يجدون في صدورهم مسَّ حاجة، أو أثر حاجة، وكل ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة. وكان المهاجرون في دور الانصار فلما غنم النبي ﷺ بني النضير دعا الأنصار، وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: «إن أحببتهم قسمت ما آفأ الله علي من بني النضير بينكم وبين المهاجرين، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم، والمشاركة لكم في أموالكم، وإن أحببتهم أعطيتهم ذلك، وخرجوا من دياركم»، فرضوا بقسمة ذلك في المهاجرين، وطابت أنفسهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة، يقال: آثرته بكذا أي: خصصته به، والمعنى: ويقفون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وفقير، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت، وهي الفرج التي تكون فيه، وجملة ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ في محل نصب على الحال، وقيل: إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص، وهو الانفراد بالأمر، فالخصاصة الانفراد بالحاجة، ومنه قول الشاعر:

إن الربيع إذا يكون خصاصة عاش السقيم به وأثرى المقتر
﴿وَمَنْ يوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَإُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾ قرأ الجمهور (يوق) بسكون الواو، وتخفيف القاف من الوقاية، وقرأ ابن أبي عتبة، وأبو حيوة بفتح الواو، وتشديد القاف. وقرأ الجمهور (شَحَّ) بنفسه) بضم الشين. وقرأ ابن عمر، وابن أبي عتبة بكسرهما. والشَحَّ: البخل مع حرص، كذا في الصحاح، وقيل: الشَحَّ أشدُّ من البخل. قال مقاتل: شَحَّ نفسه

على الاستمرار، وجعلهم إخواناً لهم لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر، واللام في إخوانهم هي لام التبليغ، وقيل: هو من قول بني النضير لبني قريظة، والأول أولى؛ لأن بني النضير، وبني قريظة هم يهود، والمنافقون غيرهم، واللام في قوله: ﴿لئن أخرجتم﴾ هي الموطئة للقسم أي: والله لئن أخرجتم من دياركم لنخرجن معكم. هذا جواب القسم أي: لنخرجن من ديارنا في صحبتكم ﴿ولا نطيع فيكم﴾ أي: في شأنكم، ومن أجلكم ﴿أحدًا﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم، وإن طال الزمان، وهو معنى قوله: ﴿أبدًا﴾. ثم لما وعدوهم بالخروج معهم، وعدوهم بالنصرة لهم، فقالوا: ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ على عدوكم. ثم كذبهم سبحانه فقال: ﴿والله يشهد إنهم لكانبون﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم. ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به فصل ما كذبوا فيه فقال: ﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ وقد كان الأمر كذلك، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود، وهم بنو النضير ومن معهم، ولم ينصروا من قوتل من اليهود، وهم بنو قريظة وأهل خيبر ﴿ولئن نصروهم﴾ أي: لو قدر وجود نصرهم إياهم؛ لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده. قال الزجاج: معناه لو قصدوا نصر اليهود ﴿ليولن الأنبار﴾ منهزمين ﴿ثم لا ينصرون﴾ يعني: اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصروهم، وهم المنافقون، وقيل: يعني لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك، بل يذلهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم، وقيل معنى الآية: لا ينصرونهم طائعين، ولئن نصروهم مكرهين ليولن الأنبار، وقيل: معنى ﴿لا ينصرونهم﴾ لا يدمون على نصرهم، والأول أولى، ويكون من باب قوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: 28] ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أي: لأنتم يا معشر المسلمين أشد خوفًا وخشية في صدور المنافقين، أو صدور اليهود، أو صدور الجميع من الله أي: من رهبة الله، والرهبة هنا بمعنى المرهوبة؛ لأنها مصدر من المبني للمفعول، وانتصابها على التمييز ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي: ما نكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشيء من الأشياء، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم، وضعف نكايتهم فقال: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾ يعني: لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقتلونكم على ذلك ﴿إلا في قرى محصنة﴾ بالدروب والدور ﴿أو من وراء جدر﴾ أي: من خلف الحيطان التي يستترون بها لجبنهم ودهبتهم. قرأ الجمهور (جدر) بالجمع، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن، وابن كثير، وأبو عمرو (جدار) بالإفراد. واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأنها موافقة لقوله: ﴿قرى محصنة﴾. وقرأ بعض المكيين (جدر) بفتح الجيم، وإسكان الدال، وهي لغة في الجدار

﴿باسمهم بينهم شديد﴾ أي: بعضهم غليظ فظ على بعض، وقلوبهم مختلفة، ونياتهم متباينة. قال السدي: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد. وقال مجاهد: باسمهم بينهم شديد بالكلام والوعيد ليفعلن كذا، والمعنى: أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، وإذا لا قوا عدوًا نلوا وخضعوا، وانهزموا، وقيل: المعنى أن باسمهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله في قلوبهم من الرعب، والأول أولى لقوله: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم الموصوف بالشدة، ومعنى ﴿شتى﴾ متفرقة، قال مجاهد: يعني اليهود والمنافقين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى. وروي عنه أيضاً أنه قال: المراد المنافقون. وقال الثوري: هم المشركون، وأهل الكتاب. قال قتادة: تحسبهم جميعاً أي: مجتمعين على أمر ورأي، وقلوبهم شتى متفرقة، فأهل الباطل مختلفة آرائهم مختلفة شهادتهم مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق، وقرأ ابن مسعود: (وقلوبهم اشت) أي: أشد اختلافاً ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: ذلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئاً، ولو عقلوا؛ لعرفوا الحق واتبعوه ﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ أي: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، والمعنى: أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين ﴿قريباً﴾ يعني: في زمان قريب، وانتصاب قريباً على الظرفية أي: يشبهونهم في زمن قريب، وقيل: العامل فيه ذاقوا أي: ذاقوا في زمن قريب، ومعنى ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ أي: سوء عاقبة كفرهم في الدنيا بقتلهم يوم بدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر، قاله مجاهد، وغيره، وقيل: المراد بنو النضير حيث أمكن الله منهم، قاله قتادة. وقيل: قتل بني قريظة، قاله الضحاك. وقيل: هو عام في كل من انتقم الله منه بسبب كفره، والأول أولى ﴿ولهم عذاب اليم﴾ أي: في الآخرة. ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً آخر فقال: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: مثلهم في تخانلهم وعدم تناصرهم، فهو إما خير مبتدأ محذوف، أو خير آخر للمبتدأ المقتر قبل قوله: ﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ على تقدير حذف حرف العطف، كما تقول: أنت عاقل، أنت عالم، أنت كريم. وقيل: المثل الأول خاص باليهود، والثاني خاص بالمنافقين، وقيل: المثل الثاني بيان للمثل الأول، ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال: ﴿إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: أغراه بالكفر، وزينه له، وحمله عليه، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، وقيل: هو عابد كان في بني إسرائيل حمله الشيطان على الكفر، فاطاعه ﴿فلما كفر قال إني بريء منك﴾ أي: فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان، وقبولاً لتزيينه قال الشيطان: إني بريء منك، وهذا يكون منه يوم القيامة، وجملة ﴿إني لخاف الله رب العالمين﴾ تعليل

لبرأته من الإنسان بعد كفره، وقيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، والأول أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم، قيل: وليس قول الشيطان: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّي من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ قرأ الجمهور (إني) بإسكان الياء، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بفتحها ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ قرأ الجمهور (عاقبتهم) بالنصب على أنه خير كان، واسمها أنهما في النار. وقرأ الحسن، وعمر بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، والخبر ما بعده، والمعنى: فكان عاقبة الشيطان، وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قرأ الجمهور (خالدين) بالنصب على الحال، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وزيد بن علي، وابن أبي عبيدة (خالدان) على أنه خبر أن، والنظر متعلق به ﴿وَوَلَّكَ جِزَاءَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الخلود في النار جزاء الظالمين، ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً. ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه ﴿وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: لتنتظر أي شيء قَدَّمت من الأعمال ليوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد، وقيل: ذكر الغد تنبيهاً على قرب الساعة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كَرَّرَ الأمر بالتقوى للتأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره، أو ما قدره حق قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك ﴿فَانْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقّعهم فيه، ففي الكلام مضاف محذوف أي: أنساهم حظوظ أنفسهم. قال سفيان: نسوا حق الله، فأنساهم حق أنفسهم، وقيل: نسوا الله في الرخاء، فأنساهم أنفسهم في الشدائد ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الكاملون في الخروج عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ في الفضل، والرتبة، والمراد الفريقان على العموم، فيدخل في فريق أهل النار من نسي الله منهم دخولاً أولياً، ويدخل في فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولاً أولياً؛ لأن السياق فيهم، وقد تقدّم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة، وفي سورة السجدة، وفي سورة ص. ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفي التساوي بينهم، وبين أهل النار فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه.

لبرأته من الإنسان بعد كفره، وقيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، والأول أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم، قيل: وليس قول الشيطان: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّي من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ قرأ الجمهور (إني) بإسكان الياء، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بفتحها ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ قرأ الجمهور (عاقبتهم) بالنصب على أنه خير كان، واسمها أنهما في النار. وقرأ الحسن، وعمر بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، والخبر ما بعده، والمعنى: فكان عاقبة الشيطان، وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قرأ الجمهور (خالدين) بالنصب على الحال، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وزيد بن علي، وابن أبي عبيدة (خالدان) على أنه خبر أن، والنظر متعلق به ﴿وَوَلَّكَ جِزَاءَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الخلود في النار جزاء الظالمين، ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً. ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه ﴿وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: لتنتظر أي شيء قَدَّمت من الأعمال ليوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد، وقيل: ذكر الغد تنبيهاً على قرب الساعة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كَرَّرَ الأمر بالتقوى للتأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره، أو ما قدره حق قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك ﴿فَانْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقّعهم فيه، ففي الكلام مضاف محذوف أي: أنساهم حظوظ أنفسهم. قال سفيان: نسوا حق الله، فأنساهم حق أنفسهم، وقيل: نسوا الله في الرخاء، فأنساهم أنفسهم في الشدائد ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الكاملون في الخروج عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ في الفضل، والرتبة، والمراد الفريقان على العموم، فيدخل في فريق أهل النار من نسي الله منهم دخولاً أولياً، ويدخل في فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولاً أولياً؛ لأن السياق فيهم، وقد تقدّم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة، وفي سورة السجدة، وفي سورة ص. ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفي التساوي بينهم، وبين أهل النار فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ قال: عبد الله بن أبي بن سلول، ورفاعة بن تابوت، وعبد الله بن نبيل، وأوس بن قيطي، وإخوانهم بنو النضير. وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو

لبرأته من الإنسان بعد كفره، وقيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، والأول أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم، قيل: وليس قول الشيطان: ﴿إِنِّي لَخَافُ اللَّهَ﴾ على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّي من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ قرأ الجمهور (إني) بإسكان الياء، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بفتحها ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ قرأ الجمهور (عاقبتهم) بالنصب على أنه خير كان، واسمها أنهما في النار. وقرأ الحسن، وعمر بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، والخبر ما بعده، والمعنى: فكان عاقبة الشيطان، وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قرأ الجمهور (خالدين) بالنصب على الحال، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وزيد بن علي، وابن أبي عبيدة (خالدان) على أنه خبر أن، والنظر متعلق به ﴿وَوَلَّكَ جِزَاءَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الخلود في النار جزاء الظالمين، ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً. ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه ﴿وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: لتنتظر أي شيء قَدَّمت من الأعمال ليوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد، وقيل: ذكر الغد تنبيهاً على قرب الساعة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كَرَّرَ الأمر بالتقوى للتأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره، أو ما قدره حق قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك ﴿فَانْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقّعهم فيه، ففي الكلام مضاف محذوف أي: أنساهم حظوظ أنفسهم. قال سفيان: نسوا حق الله، فأنساهم حق أنفسهم، وقيل: نسوا الله في الرخاء، فأنساهم أنفسهم في الشدائد ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الكاملون في الخروج عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ في الفضل، والرتبة، والمراد الفريقان على العموم، فيدخل في فريق أهل النار من نسي الله منهم دخولاً أولياً، ويدخل في فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولاً أولياً؛ لأن السياق فيهم، وقد تقدّم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة، وفي سورة السجدة، وفي سورة ص. ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفي التساوي بينهم، وبين أهل النار فقال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه.

لما فرغ سبحانه من نكر أهل الجنة وأهل النار، وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء نكر تعظيم كتابه الكريم، وأخبر عن جلالاته، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب، وترقّ له الأنفذة، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من شانه، وعظمته، وجودة الفاظه، وقوة مبانيه، وبلاغته، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيت مع كونه في غاية القسوة،

خائفاً فامنه غيره **﴿المهيمن﴾** أي: الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم. كذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل. يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن: إذا كان رقيباً على الشيء. قال الواحدي: وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، والأول أولى، وقد قدمنا الكلام على المهيمن في سورة المائدة **﴿العزیز﴾** الذي لا يوجد له نظير، وقيل: القاهر، وقيل: الغالب غير المغلوب، وقيل: القوي **﴿الجبار﴾** جبروت الله عظمته، والعرب تسمي الملك الجبار، ويجوز أن يكون من جبر إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير، ويجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد، فهو الذي جبر خلقه على ما أراد منهم، وبه قال السدي، ومقاتل، واختاره الزجاج، والفراء، قال: هو من أجبره على الأمر أي: قهره. قال: ولم أسمع فعلاً من أفعل إلا في جبار من أجبر، وبرك من أترك، وقيل: الجبار الذي لا تطاق سطوته **﴿المتكبر﴾** أي: الذي تكبر عن كل نقص، وتعظم عما لا يليق به، وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد، ومنه قول حميد بن ثور:

عفت مثل ما يعفو للفصيل فاصبحت بها كبرياء الصعب وهي تلؤلؤ والكبر في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم. قال قتادة: هو الذي تكبر عن كل سوء. قال ابن الأنباري: المتكبر ذو الكبرياء، وهو الملك، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين، فقال: **﴿سبحان الله عما يشركون﴾** أي: عما يشركونه، أو عن إشراكهم به **﴿هو الله الخالق﴾** أي: المقتدر للأشياء على مقتضى إرادته ومشئته **﴿البارئ﴾** أي: المنشئ المخرج للأشياء الموجد لها. وقيل: المميز لبعضها من بعض **﴿المصور﴾** أي: الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة، فالتصوير مترتب على الخلق والبرائة وتابع لهما، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل، قال النابغة:

الخالق البارئ المصور في الدار أحلام ماء حتى يصير دما
وقرأ حاطب بن أبي بلتعة الصحابي (المصور) بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للبارئ أي: الذي برأ المصور أي: ميزه **﴿له الأسماء الحسنى﴾** قد تقدم بيانها، والكلام فيها عند تفسير قوله: **﴿وه الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** [الأعراف: 180] **﴿يسبح له ما في السموات والأرض﴾** أي: ينطق بتنزيهه بلسان الحال أو المقال كل ما فيها **﴿وه العزیز الحكيم﴾** أي: الغالب لغيره الذي لا يغالبه مغالب، الحكيم في كل الأمور التي يقضي بها.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس، في قوله: **﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾** قال: يقول لو إنني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع، وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخونه بالخشية الشديدة والتخشع. قال: كذلك يضرب الله

وشدة الصلابة، وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً أي: متشققاً من خشية الله سبحانه حذراً من عقابه، وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخيل يقتضي علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب، ويدل على هذا قوله: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾** فيما يجب عليهم التفكر فيه؛ ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر، وفيه توبيخ، وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره، والخاشع: الذليل المتواضع. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ أي: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت، ولتصدع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك، وثبتناك له، وقويكنا عليه، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي ﷺ، لأن الله سبحانه ثبت له لما لا تثبت له الجبال الرواسي. ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته، فقال: **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾** وفي هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** أي: عالم ما غاب من الإحساس وما حضر، وقيل: عالم السر والعلانية، وقيل: ما كان وما يكون، وقيل: الآخرة والندى، وقدم الغيب على الشهادة لكونه متقدماً وجوداً **﴿هو الرحمن الرحيم﴾** قد تقدم تفسير هذين الاسمين **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾** كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقةً بذكر **﴿الملك القدوس﴾** أي: الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص، والقدس بالتحريك في لغة أهل الحجاز السطلي؛ لأنه يتطهر به، ومنه القدوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء. قرأ الجمهور (القدوس) بضم القاف. وقرأ أبو نذر، وأبو السمك بفتحها، وكان سيويو يقول: سبوح قدوس بفتح أولهما، وحكي أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يقرأ (القدوس) بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فاعول فهو مفتوح الأول إلا السبوح والقدوس، فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان **﴿السلام﴾** أي: الذي سلم من كل نقص وعيب، وقيل: المسلم على عباده في الجنة، كما قال: **﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾** [يس: 58] وقيل: الذي سلم الخلق من ظلمه، وبه قال الأكثر، وقيل: المسلم لعباده، وهو مصدر وصف به للمبالغة **﴿المؤمن﴾** أي: الذي وهب لعباده الأمن من عذابه، وقيل: المصنق لرسله بإظهار المعجزات، وقيل: المصنق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصنق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، يقال: آمنه من الأمن وهو ضد الخوف، ومنه قول النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبنا مكة بين الغيل والسند
وقال مجاهد: المؤمن الذي وحد نفسه بقوله: **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾** [آل عمران: 18]. قرأ الجمهور (المؤمن) بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى آمن. وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله: **﴿واختار موسى قومه﴾** [الأعراف: 155] وقال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة؛ لأن معناه أنه كان

بإيمانهم ﴿[الممتحنة: 10].﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِهِ مَرْحَلًا تُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَنْتَفِرُوا مِنْكُمْ لَأَن يَقُولُوا إِنَّكُمْ كَيْدٌ مِنْكُمْ وَيَسْتَفْتُوا أَوْلِيَاءَ بَيْنَهُمْ وَالْأَشْرَارُ هُمْ أَكْثَرُ فَتَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ أَزِيدَكُمْ فِي رِزْقِكُمْ وَلَا تَجْعَلُوا أَمْوَالَكُمْ لِأَنْتُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٣﴾

قال المفسرون: نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء﴾ في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم، وسيأتي ذكر القصة آخر البحث إن شاء الله، وقوله: ﴿عدوِّي﴾ هو المفعول الأول ﴿وعدوكم﴾ معطوف عليه، والمفعول الثاني أولياء، وأضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيماً لجرمهم، والعدو مصدر يطلق على الواحد، والاثنتين، والجماعة، والآية تدل على النهي عن موالاته الكفار بوجه من الوجوه ﴿تلقون إليهم بالموادة﴾ أي: توصلون إليهم بالموادة على أن الباء زائدة، أو هي سببية. والمعنى: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ بسبب الموادة التي بينكم وبينهم. قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، وسره بالموادة التي بينكم وبينهم، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا؛ ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لقصد الإخبار بما تضمنته، أو لتفسير موالاتهم إياهم، ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء، وجملة ﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تلقون، أو من فاعل لا تتخذوا، ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لبيان حال الكفار. قرأ الجمهور (بما جاءكم) بالباء الموحدة، وقرأ الجحدري، وعاصم في رواية عنه: (لما جاءكم) باللام أي: لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به أي: كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم، أو في محل نصب على الحال، وقوله: ﴿إن تؤمنوا بالله ربكم﴾ تعليل للإخراج أي: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كرامة أن تؤمنوا ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ جواب الشرط محذوف أي: إن كنتم كذلك، فلا تلقوا إليهم بالموادة، أو إن كنتم كذلك، فلا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء، وانتصاب جهاداً وابتغاء على اللة أي: إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي؛ ولأجل ابتغاء مرضاتي، وجملة ﴿تسرون إليهم بالموادة﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ أي: تسرون إليهم الأخبار بسبب الموادة، وقيل: هي بدل من قوله: ﴿تلقون﴾. ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم

الأمثال للناس لعلهم يتفكرون. وأخرج الديلمي عن ابن مسعود وعليّ مرفوعاً في قوله: ﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾ إلى آخر السورة قال: هي «رقية الصداق». رواه الديلمي بإسنادين لا ندري كيف حال رجالهما. وأخرج الخطيب في تاريخه بإسناداه إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على حمزة، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسلًا هكذا إلى ابن مسعود فقال: فإني قرأت على النبي ﷺ، فلما بلغت هذه الآية قال لي: «ضع يدك على رأسك، فإن جبريل لما نزل بها قال لي: ضع يدك على رأسك، فإني شفاء من كل داء إلا السلام»، والسلام الموت. قال الذهبي: هو باطل. وأخرجه ابن السني في عمل يوم وليلة، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً إذا أوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال: «إن مت مت شهيداً». وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكاً يطردون عنه شياطين الإنس والجن إن كان ليلاً حتى يصبح، وإن كان نهاراً حتى يمسي». وأخرج أحمد، والدارمي، والترمذي وحسنه، والطبراني، وابن الضريس، والبيهقي في الشعب عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار، فمات من يومه أو ليلته أوجب الله له الجنة». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ قال: السر والعلانية. وفي قوله: ﴿المؤمن﴾ قال: المؤمن خلقه من أن يظلمهم، وفي قوله: ﴿المهيمن﴾ قال: الشاهد.

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الممتحنة بالمدنية. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. والممتحنة بكسر الحاء اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازاً، كما سميت سورة براءة الفاضحة لكشفها عن عيوب المنافقين، وقيل: الممتحنة بفتح الحاء اسم مفعول إضافة إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، لقوله سبحانه: ﴿فما تحزنوهنَّ الله أعلم

همزتين، ككرماء في كريم. وقرأ عيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بكسر الباء وهمزة واحدة بعد ألف، ككرام في جمع كريم. وقرأ أبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف ﴿ومما تعبدون من دون الله﴾ وهي الأصنام ﴿كفرنا بكم﴾ أي: بما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا﴾ أي: هذا دأبنا معكم ما دمت على كفركم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة، والبغضاء محبة ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لا استغفرن لك﴾ هو استثناء متصل من قوله: ﴿في إبراهيم﴾ بتقدير مضاف محذوف؛ ليصح الاستثناء أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه، أو من أسوة حسنة، وصح ذلك؛ لأن القول من جملة الأسوة، كانه قيل: قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله، وأفعاله إلا قوله لأبيه، أو من التبزي والقطيعة التي نكرت أي: لم يواصله إلا قوله، نكر هذا ابن عطية، أو هو منقطع أي: لكن قول إبراهيم لأبيه لا استغفرن لك، فلا تأتسوا به، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه، أو أن ذلك إنما وقع منه؛ لأنه ظن أنه قد أسلم ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ [التوبة: 114] وقد تقدم تحقيق هذا في سورة براءة ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ هذا من تمام القول المستثنى يعني: ما أغني عنك، وما أنفع عنك من عذاب الله شيئاً، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل لا استغفرن، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد، فإنه إظهار للعجز، وتفويض للأمر إلى الله، وذلك من خصال الخير ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه، ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها، وقيل: هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول، والتوكل هو تفويض الأمور إلى الله، والإنابة الرجوع، والمصير المرجع، وتقديم الجاز والمجرور لقصر التوكل والإنابة، والمصير على الله ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ قال الزجاج: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق، فيفتنوا بذلك. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز﴾ أي: الغالب الذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ نر الحكمة البالغة ﴿لقد كان لكم فيهاهم إسوة حسنة﴾ أي: لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قدوة حسنة، وكرر هذا للمبالغة والتأكيد، وقيل: إن هذا نزل بعد الأول بمدة ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾ بدل من قوله: ﴿لكم﴾ بدل بعض من كل، والمعنى: أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله، ويخاف عقاب الآخرة، أو يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة ﴿ومن يقول فإن الله هو الغني الحميد﴾ أي: يعرض عن ذلك، فإن الله هو الغني عن خلقه الحميد إلى أوليائه ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ وذلك بأن

يسلموا، فيصيروا من أهل دينكم، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسلامهم، ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة، وجاهدوا، وفعلوا الأفعال المقررة إلى الله. وقيل: المراد بالمودة هنا تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان. ولا وجه لهذا التخصيص، وإن كان من جملة ما صار سبباً إلى المودة، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله ﷺ، ولكنها لم تحصل المودة إلا بإسلامه يوم الفتح وما بعده ﴿والله قدير﴾ أي: بليغ القدرة كثيرها ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: بليغهما كثيرهما. ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداة الكفار وترك موافقتهم، فصل القول فيمن يجوز برّه منهم ومن لا يجوز، فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ أي: لا ينهاكم عن هؤلاء ﴿أن تبرؤهم﴾ هذا بدل من الموصول بدل اشتمال، وكذا قوله: ﴿وتقتلوا الذين﴾ يقال: أقتطت إلى الرجل: إذا عاملته بالعدل. قال الزجاج: المعنى، وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ أي: العادلين؛ ومعنى الآية: أن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل. قال ابن زيد: كان هذا في أول الإسلام عند المودة؛ وترك الأمر بالقتال، ثم نسخ. قال قتادة: نسخها ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: 5] وقيل: هذا الحكم كان ثابتاً في الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم. وقيل: هي خاصة في حلفاء النبي ﷺ، ومن بينه وبينه عهد، قاله الحسن. وقال الكلبي: هم خزاعة، وبنو الحارث بن عبد مناف. وقال مجاهد: هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا، وقيل: هي خاصة بالنساء والصبيان. وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة. ثم بين سبحانه من لا يحل برّه، ولا العدل في معاملته فقال: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم﴾ وهم صناديد الكفر من قريش ﴿وظاهروا على إخراجكم﴾ أي: عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك، وهم سائر أهل مكة، ومن دخل معهم في عهدهم، وقوله: ﴿أن تولوهم﴾ بدل اشتمال من الموصول، كما سلف ﴿ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون﴾ أي: الكاملون في الظلم؛ لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عنواً لله ولرسوله ولكتابه، وجعلوهم أولياء لهم.

وقد أخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه﴾ قال: نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه، وقوله: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندكم، فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه ﴿لقد كان لكم فيهاهم إسوة حسنة﴾ قال: في صنيع إبراهيم كله إلا في الاستغفار لأبيه،

وَأَرْجُلُهُمْ وَلَا يَصُونُكَ فِي مَرْوَفٍ قَابِعُهُمْ وَاسْتَفْعِرَ لَكَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ
رَجِمَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَزَلَّوْا قُرْمًا غَلِيظًا اللَّهُ عَلَيْهِ قَدْ يَسْرُ مِنْ
الْآخِرَةِ كَمَا يَسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْصَى الْقُبُورِ ﴿١٨﴾

لما نكر سبحانه حكم فريق الكافرين في جواز البر،
والإسقاط للفريق الأول دون الفريق الثاني نكر حكم من يظهر
الإيمان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهَاجِرَاتٌ﴾ من بين الكفار، وذلك أن النبي ﷺ لما صالح
قريشاً يوم الحديبية على أن يرده عليهم من جاءهم من
المسلمين، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يردن إلى
المشركين، وأمر بامتحانهن فقال: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي:
فاختبروهن. وقد اختلف فيما كان يمتحن به، فقيل: كان
يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من
أرض إلى أرض، ولا لالتماس دنيا بل حباً لله ولرسوله،
ورغبة في دينه، فإذا حلفت كذلك أعطى النبي ﷺ زوجها
مهرها، وما أنفق عليها، ولم يردها إليه، وقيل: الامتحان هو
أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وقيل: ما
كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله ﷺ الآية، وهي
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ إلى آخرها.

واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا؟
على قولين، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة
لنكاح العهد، وبه قال الأكثر. وعلى القول بعدمه لا نسخ، ولا
تخصيص. ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ هذه الجملة معترضة لبيان
أن حقيقة حالهن لا يعلمها إلا الله سبحانه، ولم يتعبدنكم
بنكاحهن، وإنما تعبدنكم بامتحانهن حتى يظهر لكم ما يدل على
صدق دعواهن في الرغبة في الإسلام ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ
مُؤْمِنَاتٌ﴾ أي: علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي
أمرتم به ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: إلى أزواجهن
الكافرين، وجملة ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾
تعليل للنهي عن إرجاعهن. وفيه دليل على أن المؤمنة لا
تحل لكافر، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لا
مجرد هجرتها، والتكرير لتأكيد الحرمة، أو الأول لبيان زوال
النكاح، والثاني لامتناع النكاح الجديد ﴿وَأَتَوْهُمَا مَا أَنْفَقُوا﴾
أي: وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن مثل ما
أنفقوا عليهن من المهور. قال الشافعي: وإذا طلبها غير
الزوج من قرباتها منع منها بلا عوض ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لأنهن قد صرن من أهل دينكم ﴿إِذَا
آتَيْتُمُوهُنَّ لُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهرهن، وذلك بعد انقضاء
عنتهن، كما تدل عليه أدلة وجوب العدة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا
بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ قرأ الجمهور (تمسكوا) بالتخفيف من
الإسكان، واختار هذه القراءة أبو عبيد، لقوله: ﴿فَامْسِكُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: 2] وقرأ الحسن، وأبو العالية، وأبو
عمرو بالتشديد من التمسك، والعصم جمع عصمة، وهي ما
يعتصم به، والمراد هنا عصمة عقد النكاح. والمعنى أن من
كانت له امرأة كافرة، فليست له بأمارة لانقطاع عصمتها

وهو مشرك. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم
عنه أيضاً في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا قَتْلَهُنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال:
لا تسلطهم علينا، فيقتلونا. وأخرج ابن مريويه عن الزهري
عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: أول من
قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب،
وفيه نزلت هذه الآية ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ
الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن
الزهري أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب
على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل، فلقي ذا
الخنجر مرتدداً، فكان أول من قاتل في الردة، وجاهد عن
الدين. قال: وهو فمين قال الله فيه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾. وأخرج عبد بن
حميد، وابن المنذر، وابن عدي، وابن مريويه، والبيهقي في
الدلائل، وابن عساکر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن
ابن عباس في الآية قال: كانت المودة التي جعل بينهم
تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم
المؤمنين، فصار معاوية خال المؤمنين. وفي صحيح مسلم
عن ابن عباس «أن أبا سفيان قال: يا رسول الله ثلاث
أعطنيهن، قال: نعم، قال: تؤمريني حتى أقاتل الكفار، كما كنت
أقاتل المسلمين، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين
يديك، قال: نعم، قال: وعندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة
بنت أبي سفيان أزوجكها، الحديث. وأخرج الطيالسي،
وأحمد، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، والحاكم وصححه، وابن
مريويه عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت
عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا: ضباب،
واقط، وسمن، وهي مشركة، فابت أسماء أن تقبل هديتها، أو
تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا
رسول الله ﷺ، فسالته، فأنزل الله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ
الَّذِينَ لَمْ يِقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الآية، فأمرها أن تقبل
هديتها، وتدخلها بيتها، وزاد ابن أبي حاتم في المدة التي
كانت بين قريش ورسول الله ﷺ، وفي البخاري وغيره، عن
أسماء بنت أبي بكر قالت: «أتتني أمي راغبة، وهي مشركة
في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فسالته النبي ﷺ
أصلها؟ فأنزل الله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، فقال: نعم صلي
أمك».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِكُنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ
لَهُنَّ وَأَتَوْهُمَا مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ لُجُورَهُنَّ وَلَا
تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَتَتَلَوْا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَفْوَاقُ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَنْصَحُ
بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَنْ تَنكِحُوا نِسَاءَ الْكُفَّارِ حَتَّى تَأْتِيَهُنَّ الْفَتْوَا فَأَنْتُمْ
فَتَاوَا الْذِّكْرَ ذَهَبَتْ أَرْجُلُهُمْ بِذَلِكَ مَا أَنْفَقُوا وَالَّذِي اللَّهُ أَلْفَبُّ أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ
﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ بِإِيمَانِكُمْ عَلَنَ أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا
يَسْرِفْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهِنَّ بِفَرْجَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ

الإيمان الذي أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك **﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك﴾** أي: قاصدات لمبايعتك على الإسلام، **﴿وعلى أن لا يشركن بالله شيئاً﴾** من الأشياء كائناً ما كان، هذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة اتين رسول الله ﷺ يبایعنه، فأمره الله أن يأخذ عليهن **﴿أن لا يشركن ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن﴾** وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات **﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾** أي: لا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهن. قال الفراء: كانت المرأة تلقت المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، وذلك أن الولد إذا وضعت الأم سقط بين يديها ورجليها، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها، لأن ذلك قد سئل تحت النهي عن الزنا **﴿ولا يعصينك في معروف﴾** أي: في كل أمر هو طاعة الله. قال عطاء: في كل بر وتقوى، وقال المقاتلان: عني بالمرعوف النهي عن النوح وتمزيق الثياب، وجرح الشعر، وشق الجيب، وخمش الوجوه، والدعاء بالويل، وكذا قال قتادة، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن السائب، وزيد بن أسلم، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه. قيل: ووجه التقييد بالمرعوف، مع كونه ﷺ لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق **﴿فبایعهن﴾** هذا جواب «إذا»، والمعنى إذا بايعتك على هذه الأمور، فبایعهن، ولم ينكر في بيعتهن الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين، وشعائر الإسلام، وإنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء **﴿واستغفر لهن الله﴾** أي: اطلب من الله المغفرة لهن بعد هذه المبايعات لهن منك **﴿إن الله غفور رحيم﴾** أي: بليغ المغفرة والرحمة لعباده **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾** هم جميع طوائف الكفر، وقيل: اليهود خاصة وقيل: المنافقون خاصة وقال الحسن: اليهود والنصارى. والأول أولى؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها **﴿قد يئسوا من الآخرة﴾** «من» لابتداء الغاية أي: أنهم لا يوقنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم **﴿كما يئس للكفار من أصحاب القبور﴾** أي: كياسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث، وقيل: كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة، لأنه قد وقفوا على الحقيقة، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة، فتكون «من» على الوجه الأول ابتدائية، وعلى الثاني بيانية، والأول أولى.

وقد أخرج البخاري عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل الله **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾** حتى بلغ **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. وأخرجه أيضاً من حديثهما بأطول من هذا، وفيه، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى

باختلاف الدين. قال النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر، وكان الكفار يزوجون المسلمين، والمسلمون يتزجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب. وقيل: عامة في جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها. وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثني أو كتابي لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدة، وقال بعض أهل العلم: يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولاً بها، وأما إذا كانت غير مدخول بها، فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها **﴿واسألوها ما أنفقتم﴾** أي: اطلبوا مهر نسائكم اللاحقات بالكفار **﴿وليسألوها ما أنفقوا﴾** قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد، يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين، وأسلمت: رثوا مهرها على زوجها الكافر **﴿نلكم حكم الله﴾** أي: نلكم المذكور من إرجاع المهر من الجهتين حكم الله، وقوله: **﴿يحكم بينكم﴾** في محل نصب على الحال. أو مستأنفة **﴿والله عليم حكيم﴾** أي: بليغ العلم لا تخفى عليه خافية بليغ الحكمة في أقواله وأفعاله، قال القرطبي: وكان هذا مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾** لما نزلت الآية المتقدمة، قال المسلمون: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا، فنزل قوله: **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾** مما نفعتهم إياه من مهر النساء المسلمات، وقيل المعنى: وإن أنفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة **﴿فعاقبتهم﴾** قال الواحدي: قال المفسرون: فعاقبتهم فغنمتم. قال الزجاج: تأويله، وكانت العقوبة لكم أي: كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم **﴿فأتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾** من مهر المهاجرة التي تزوجوها، ونفعوه إلى الكفار، ولا تؤتوه زوجها الكافر. قال قتادة، ومجاهد: إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفء والغنيمة، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح. وحاصل معناها أن **﴿من أزواجكم﴾** يجوز أن يتعلق بفاتكم أي: من جهة أزواجكم، ويراد بالشيء المهر الذي غرمه الزوج، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء، ثم يجوز في شيء أن يراد به المهر، ولكن لا بد على هذا من مضاف محذوف أي: من مهر أزواجكم، ليتطابق الموصوف وصفته، ويجوز أن يراد بشيء النساء أي نوع وصنف منهن، وهو ظاهر قوله: **﴿من أزواجكم﴾** وقوله: **﴿فأتوا الذين ذهبت أزواجهم﴾** والمعنى: أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشركين، فكفرت، ولم يرد عليه المشركون مهرها، كما حكم الله مثل ذلك المهر الذي أنفقه عليها من الغنيمة **﴿ولتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾** أي: احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم، فإن

فتجعل مكانها غلاماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية. قال: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ﴿وَلَا يَعصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت: «قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ قال: لا تنحن، قلت: يا رسول الله إن بني فلان أسعدوني على عمي لا بد لي من قضائهن، فأبى علي فعاوبته مراراً فأتني لي في قضائهن، فلم أتح بعد، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا أن لا نشرك بالله شيئاً، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة منا يدها، فقالت: يا رسول الله إن فلانة أسعدتني وأنا أريد أن أجزيها، فلم يقل لها شيئاً. فذهبت، ثم رجعت، فقالت: ما فتننا وامرأة إلا أم سليم، وأم العلاء، وبنت أبي سيرة امرأة معاذ، أو بنت أبي سيرة، وامرأة معاذ. وقد روت أحاديث كثيرة في النهي عن النوح. وأخرج أبو إسحاق، وابن المنذر عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن عمرو، وزيد بن الحارث يودان رجلاً من اليهود، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود في قوله: ﴿قَدْ يَتَّبِعُونَ مِنَ الْغَايِبِ﴾ قال: فلا يؤمنون بها، ولا يرجونها، كما يشك الكافر إذا مات، وعائين ثوابه واطلع عليه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: هم الكفار أصحاب القبور الذين يتسوا من الآخرة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: من مات من الذين كفروا، فقد يتس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله.

تفسير سورة الصف

وهي مدنية. قال الماوردي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بمكة، ولعل هذا لا يصح عنه، ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ، فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يبق أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً رجلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة يعني: سورة الصف كلها. وأخرج ابن أبي حاتم، وقال في آخره: فنزلت فيهم هذه السورة. وأخرج أيضاً الترمذي، وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في الشعب والسنن.

رسول الله ﷺ، وهي عائق، فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ يرجعها إليهم حتى أنزل الله في المؤمنين ما أنزل. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَامْتَحْنُوهُمْ﴾ قال: كان امتحانهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا علموا أن ذلك حقاً منهم لم يرجعوا إلى الكفار، وأعطى بعلها في الكفار الذين عقد لهم رسول الله ﷺ صداقتها الذي أصبقها، وأهلهم للمؤمنين إذا أتوهن أجورهن. وأخرج ابن مردويه عنه قال: نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح، فكان من أسلم من نسائهم، فستلت ما أخرجك؟ فإن كانت خرجت قراراً من زوجها، ورغبة عنه ردت، وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسكت، وردت على زوجها مثل ما أنفق، وأخرج ابن أبي أسامة، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، وابن مردويه بسند حسن، كما قال السيوطي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ فَامْتَحْنُوهُنَّ﴾ قال: كان إذا جاءت المرأة النبي ﷺ حلفها عمر بن الخطاب بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس نكاح، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله. وأخرج ابن منيع عن طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب، وتآخرت امرأته في المشركين، فأنزل الله ﴿وَلَا تَمْسُكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنين بهذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ﴾ إلى قوله: ﴿غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، والله ما مست يده يد امرأة قط من المبايعات ما يابعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت: «أتيت النبي ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقال: فيما استطعتن، وأطقتن، فقلنا: الله، ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: إني لا أصافح النساء، إنما قولني لأمأة امرأة كقولني لامرأة واحدة، وفي الباب أحاديث. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «يايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنا، وقرأ آية النساء، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له». وأخرج ابن المنذر عن طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَاتَيْنَ بِيَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ﴾ قال: كانت الحرة تولد لها الجارية،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُبْنَئُونَ لِكُلِّ سَبِيلِهِ صَفًا كَالَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْكَ مَرْصُومٌ ﴿٤﴾ رَأَىٰ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُغْوَوْنَ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَنَلُّوهُ أَتَىٰ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَبُشْرَىٰ بِرُسُلِي بِأَنِّي بَدِئْتُ آيَةً أَمَّا أَجِدُ لِمَا أَنَا عَلَيْهِمُ الْيَتِيمَ فَلَأَمْ لَا هَٰذَا بَشَرٌ مِّثْلِي ۖ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَتَوْتُمْ عَلَىٰ اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٨﴾

قوله: ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾ قد تقدم الكلام على هذا، ووجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها، وقد قدمنا نحو هذا في أول سورة الحديد ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: الغالب الذي لا يغالb الحكيم في أفعاله وأقواله ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه، ولم مركبة من اللام الجازمة، وما الاستفهامية، وحذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها، كما في نظائرها، ثم نهم سبحانه على ذلك فقال: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ أي: عظم ذلك في المقت، وهو البغض، والمقت والمقاة مصدران، يقال رجل مقت، وممقوت: إذا لم يحبه الناس، قال الكسائي ﴿أن تقولوا﴾ في موضع رفع؛ لأن كبر فعل بمعنى بش، ومقتاً منتصب على التمييز، وعلى هذا فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالنكرة، وأن تقولوا هو المخصوص بالذم، ويجيء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء، وخبره الجملة المتقدمة عليه، أو خبره محذوف، أو هو خبر مبتدأ محذوف. وقيل: إنه قصد بقوله: ﴿كبر﴾ التعجب، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب. وقيل: إنه ليس من أفعال الذم، ولا من أفعال التعجب، بل هو مسند إلى أن تقولوا، ومقتاً تمييز محوّل عن الفاعل ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: وبدنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه حتى نعمله، ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون﴾ الآية، وانتصاب صفاً على المصدرية، والمفعول محذوف أي: يصفون أنفسهم صفاً، وقيل: هو: مصدر في موضع الحال أي: صافين، أو مصفوفين. قرأ الجمهور (يقاتلون) على البناء للفاعل. وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول، وقرأ (يقتلون) بالتشديد، وجملة ﴿كانهم بنيان مرصوص﴾ في

محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون، أو من الضمير في صفاً على تقدير أنه مؤوّل بصافين، أو مصفوفين، ومعنى ﴿مرصوص﴾: ملتزم بعضه ببعض، يقال: رصصت البناء أرصه رصاً إذا ضمنت بعضه إلى بعض. قال الفراء: مرصوص بالرصاص. قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء: إذا لايمت بينه وقاربت حتى يصير قطعة واحدة، وقيل: هو من الرصيص، وهو ضمّ الأشياء بعضها إلى بعض، والتراص التلاصق ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ لما نكر سبحانه أنه يحب المقاتلين في سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، والظرف متعلق بمحذوف هو انكر أي: انكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى، ويجوز أن يكون وجه نكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لامة محمد ﷺ أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما ﴿يا قوم لم تؤنوني﴾ هذا مقول القول أي: لم تؤنوني بمخالفة ما أمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم، أو لم تؤنوني بالشتم والانتقاص، ومن تلك رمية بالآلدة، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب، وجملة ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ في محل نصب على الحال، «وقد» لتحقق العلم، أو لتأكيد، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والمعنى: كيف تؤنوني مع علمكم بأنني رسول الله، والرسول يحترم ويعظم، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي، وتفديكم العلم بها علماً يقينياً ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي: لما أصرّوا على الزيغ، واستمروا عليه أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وصرفها عن قبول الحق، وقيل: فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب. قال مقاتل: لما عدلوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه، يعني: أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها. قال الزجاج: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق، والمعنى: أنه لا يهدي كل متصف بالفسق، وهؤلاء من جملتهم ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم﴾ معطوف على ﴿وإذ قال موسى﴾ معمول لعامله، أو معمول لعامل مقدر معطوف على عامل الظرف الأول ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: إني رسول الله إليكم بالإنجيل مصدقاً لما بين يدي من التوراة لأنني لم أتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على التبشير بي، فكيف تنفرون عني وتخالفونني، وانتصاب مصدقاً على الحال، ﴿وهو﴾ كذا ﴿مبشراً﴾، والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال، والمعنى: أني أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً بمن يأتي بعدي، وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير، فلا مقتضى لتكنيي، وأحمد اسم نبينا ﷺ، وهو علم منقول من الصفة، وهي

الأديان المتعدّدة، وجواب لو في الموضوعين محذوف،
والتقدير أتمه وأظهره.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: وبدنا لو أن الله أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به، فأخبر الله نبيه ﷺ أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان، ولم يقرؤا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه في قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال: هذه الآية في القتال وحده، وهم قوم كانوا يأتون النبي ﷺ، فيقول الرجل: قتلت وضربت بسيفي، ولم يفعلوا، فنزلت. وأخرج عبد بن حميد، وابن مريويه عنه أيضاً قال: قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لفعلناه، فأخبرهم الله، فقال: ﴿إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيانَ مَرْصُوصٍ﴾. فكروها ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿كَانَهُمْ بَنِيانَ مَرْصُوصٍ﴾ قال: مثبت لا يزول ملصق بعضه على بعض. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب: والعاقب الذي ليس بعده نبي».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَتَاكُمْ عَلَىٰ بُعْدٍ شَيْءٌ مِّنْ عِلَالٍ أَلِمَ ﴿١٦﴾ تَقُولُونَ
يَا أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْتُواكُمْ وَالْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ جَزَاءُ لِّكَ إِنَّكُمْ
كُنتُمْ تَقُولُونَ لَكُمْ دُونُكُمْ وَيَدْعَاكُمْ حَتَّىٰ تَقْرَىٰ مِنْ بَيْنِهِمَا الْإِنشَارَ وَسَكَرَ
لَيْلِيَةٌ فِي حَتَّىٰ عَدُوٌّ ذَٰلِكَ الْقَوْمِ الْعَظِيمِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ أَتَوْهَا نَصْرًا مِّنَ اللَّهِ وَوُتِّعَ
قُرْبَىٰ وَبَنَىٰ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ لِّلْحَارِثِينَ مِّنْ أَنصَارِهِ إِيَّايَ أَفُو قَالَ لِّلْحَارِثِينَ قَدْ أَنصَارَ اللَّهُ فَأَمَّا
عَلَانِيَةً مِّنْ بَيْنِ إِسْرَائِيلَ وَكَذَرْتَ عَلَانِيَةً فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَذْرَائِكُمْ فَلْيَصْبِرُوا
عَلَيْهِمْ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَلِكم عَلَى تِجَارَةِ أَنْتُمْ بِمِمْزَلَةٍ﴾ جعل العمل المذكور بمِمْزَلَةٍ التِّجَارَةِ؛ لأنهم يربحون فيه، كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة، ونجاتهم من النار. قرأ الجمهور (تَنْجِيكٍ) بالتخفيف من الإِنْجَاء. وقرأ الحسن، وابن عامر، وأبو حنيفة بالتشديد من التَّجْيَةِ. ثم بيَّن سبحانه هذه التجارة التي دلَّ عليها فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ وهو خير في معنى الأمر للإِذْنِ بوجوب الامتثال، فكانه قد وقع، فأخبر بوقوعه، وقَدَّم نكر الأموال على الأنفس؛ لأنها هي التي يبدأ بها في

تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها أنه أكثر حمداً لله من غيره، أو من المفعول، فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره. قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والسلمي، وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم (من بعدى) بفتح الياء. وقرأ الباقون بإسكانها ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ أي: لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر، وقيل: المراد محمد ﷺ أي: لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة، والأول أولى. قرأ الجمهور (سحر) وقرأ حمزة، والكسائي (ساحر) ﴿ومن أنظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ أي: لا أحد أكثر ظلماً منه حيث يفترى على الله الكذب، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذي هو خير الأديان وأشرفها؛ لأن من كان كذلك، فحقه أن لا يفترى على غيره الكذب، فكيف يفترى على ربه. قرأ الجمهور (وهو يدعى) من الدعاء مبنياً للمفعول. وقرأ طلحة بن مصرف (يدعى) بفتح الياء وتشديد الدال من الأدعاء مبنياً للفاعل، وإنما عدّي بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانتساب ﴿وإله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها. والمعنى: لا يهدي من اتصف بالظلم، والمنكوبون من جملتهم ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأقواهم﴾ الإطفاء: الإخماد، وأصله في النار، واستعير لما يجري مجراها من الظهور. والمراد بنور الله القرآن أي: يريدون إبطاله، وتكنيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمد ﷺ، أو الحجج والدلائل، أو جميع ما ذكر، ومعنى ﴿بأقواهم﴾: بأقوالهم الخارجة من أقوالهم المتضمنة للطعن ﴿وإله مقيم نوره﴾ بإظهاره في الآفاق وإعلانه على غيره. قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم (مقيم نوره) بالإضافة، والباقون بتثوين مقيم ﴿ولو كره الكافرون﴾ ذلك، فإنه كائن لا محالة، والجملة في محل نصب على الحال. قال ابن عطية: واللام في ليطفئوا لام مؤكدة نخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقمّ كقولك: لزيد ضربت، ولرويتك قصدت، وقيل: هي لام العلة، والمفعول محنوف أي: يريدون إبطال القرآن، أو نفع الإسلام، أو هلاك الرسول؛ ليطفئوا، وقيل: إنها بمعنى أن الناصبة، وأنها ناصبة بنفسها. قال الفراء: العرب تجعل لام كي في موضع أن في أراد وأمر، وإليه ذهب الكسائي، ومثل هذا قوله: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ [النساء: 26]. وجملة: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها، والهدى القرآن، أو المعجزات، ومعنى ﴿دين الحق﴾: الملة الحقّة، وهي ملة الإسلام؛ ومعنى ﴿ليظهره﴾: ليجعلها ظاهرة على جميع الأنبياء عالياً عليها غالباً لها، ولو كره المشركون ذلك، فإنه كائن لا محالة. قال مجاهد: ذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام، والدين مصدر يعبر به عن

ما أئتم عليه من نصره الدين. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع (أنصاراً لله) بالتونين، وترك الإضافة. وقرأ الباقون بالإضافة، والرسم يحتمل القراءتين معاً، واختار أبو عبيدة قراءة الإضافة لقوله: ﴿نحن أنصار الله﴾ بالإضافة ﴿كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله﴾ أي: أنصروا بين الله مثل نصره الحواريين لما قال لهم عيسى: ﴿من أنصاري إلى الله﴾ فقالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ والكاف في ﴿كما قال﴾ نعت مصدر محذوف تقديره: كونوا كونه، كما قال، وقيل: الكاف في محل نصب على إضمار الفعل، وقيل: هو كلام محمول على معناه بون لفظه، والمعنى: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله، وقوله: ﴿إلى الله﴾ قيل: إلى بمعنى مع أي: من أنصاري مع الله، وقيل: التقدير من أنصاري فيما يقرب إلى الله، وقيل: التقدير: من أنصاري متوجهاً إلى نصرته الله، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران، والحواريون هم أنصار المسيح وخلص أصحابه، وأول من آمن به، وقد تقدم بيانهم ﴿فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ أي: أمنت طائفة بعيسى وكفرت به طائفة، وذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرقوا وتقاتلوا ﴿فأيننا للذين آمنوا على عدوهم﴾ أي: قويتا المحقين منهم على المبطلين ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ أي: عالين غالبين، وقيل المعنى: فأيننا الآن المسلمين على الفرقتين جميعاً.

وقد أخرج ابن مريويه عن أبي هريرة قال: قالوا: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؟ فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أأنلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم﴾ فكرهوا، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إلى قوله: ﴿بنيان مرصوص﴾ [الصف: 2 - 4]. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً، فبايعوه عند العقبة وأووه ونصروه حتى أظهر الله دينه. وأخرج ابن إسحاق، وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة: «أخرجوا إليّ اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم». وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ للنقباء: «إنكم كفلاء على قومكم كفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا: نعم». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿فأيننا الذين آمنوا﴾ قال: فقويتا الذين آمنوا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه، فأيننا الذين آمنوا بمحمد ﷺ وأتمته على عدوهم، فأصبحوا اليوم ظاهرين.

الإنفاق والتجهز إلى الجهاد. قرأ الجمهور (تؤمنون) وقرأ ابن مسعود (أمنوا، وجاهدوا) على الأمر. قال الأخفش: تؤمنون عطف بيان لتجارة، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها، والإشارة بقوله: ﴿أنلكم﴾ إلى ما ذكر من الإيمان والجهاد، وهو مبتدأ، وخبره ﴿خير لكم﴾ أي: هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي: إن كنتم ممن يعلم، فإنكم تعلمون أنه خير لكم، لا إذا كنتم من أهل الجهل، فإنكم لا تعلمون ذلك ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ هذا جواب الأمر المبلول عليه بلفظ الخبر، ولهذا جزم. قال الزجاج، والمبرد: قوله: ﴿تؤمنون﴾ في معنى آمنوا، ولذلك جاء يغفر لكم مجزوماً. وقال الفراء: يغفر لكم جواب الاستفهام، فجعله مجزوماً لكونه جواب الاستفهام، وقد غلطه بعض أهل العلم. قال الزجاج: ليسوا إذا نلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقال الرازي في توجيه قول الفراء: إن ﴿هل أنلكم﴾ في معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت سألكت أي: أسكت، وبيانه أن هل بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً، والحث كالإغراء، والإغراء أمر. وقرأ زيد بن علي (تؤمنوا، وتجاهدوا) على إضمار لام الأمر. وقيل: إن ﴿يغفر لكم﴾ مجزوم بشرط مقدّر أي: إن تؤمنوا يغفر لكم، وقرأ بعضهم بالإدغام في يغفر لكم، والأولى ترك الإدغام؛ لأن الراء حرف متكرر، فلا يحسن إدغامه في اللام ﴿ويبخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ قد تقدم بيان كيفية جري الأنهار من تحت الجنات ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ أي: في جنات إقامة ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي: ذلك المنكور من المغفرة، وإنخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذي لا فوز بعده، والظفر الذي لا ظفر يماثله ﴿والآخرى تحبونها﴾ قال الأخفش، والفراء: أخرى معطوفة على تجارة فهي في محل خفض أي: وهل أنلكم على خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة، وقيل: هي في محل رفع أي: ولكم خصلة أخرى، وقيل: في محل نصب أي: ويعطيكم خصلة أخرى. ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال: ﴿ننصر من الله وفتح قريب﴾ أي: هي نصر من الله لكم، وفتح قريب يفتح عليكم، وقيل: نصر يدل من أخرى على تقدير كونها في محل رفع، وقيل: التقدير ولكم نصر وفتح قريب. قال الكلبي: يعني النصر على قريش وفتح مكة. وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم ﴿ويبشر المؤمنين﴾ معطوف على محذوف أي: قل يا أيها الذين آمنوا، وبشر، أو على تؤمنون؛ لأنه في معنى الأمر، والمعنى: وبشر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح، أو، وبشرهم بالنصر في الدنيا والفتح، وبالجنة في الآخرة، أو، وبشرهم بالجنة في الآخرة. ثم حض سبحانه المؤمنين على نصرته بينه فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ أي: يوموا على

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجمعة بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله. وأخرج مسلم، وأهل السنن عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة سورة الجمعة و «إذا جاءك المنافقون» [أي: سورة المنافقون]. وأخرج مسلم، وأهل السنن عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن حبان، والبيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة «قل يا أيها الكافرون» [أي: سورة الكافرون] و «قل هو الله أحد» [أي: سورة الإخلاص] وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِلَّذِينَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلِينَ
 ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَيْسَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ②
 وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الصَّالَةَ
 ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِِمَثَلِ الْفَرَسِ الْقَوِيِّ الْأَيَّانِ
 كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ⑤ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
 هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَقَاتُوا مَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ⑥ وَلَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ بِمَا ذُرِّعَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
 ⑦ قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَيْكَ يَتُورُكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكُكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى
 عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْفِقْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧

قوله: «يُسَبِّحُ لله ما في السموات وما في الأرض» قد تقدم تفسير هذا في أول سورة الحديد، وما بعدها من المسبحات «الملك القنوس العزيز الحكيم» قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات الأربع على أنها نعت لله، وقيل: على البدل، والاول أولى. وقرأ أبو وائل بن محارب، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، ورؤية بالرفع على إضمار مبتدأ. وقرأ الجمهور (القنوس) بضم القاف، وقرأ زيد بن علي بفتحها، وقد تقدم تفسيره «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم» المراد بالأميين العرب، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، والأمي في الأصل الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وكان غالب العرب كذلك، وقد مضى بيان معنى الأمي في سورة البقرة، ومعنى «منهم» من أنفسهم، ومن جنسهم، ومن جملتهم، وما كان حي من أحياء العرب إلا ورسول الله ﷺ فيهم قرابة، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة؛ لأن الجنس

أميل إلى جنسه وأقرب إليه «يتلوا عليهم آياته» يعني: القرآن مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا تعلم ذلك من أحد، والجملة صفة لرسولاً، وكذا قوله: «ويزكّيهم» قال ابن جريج، ومقاتل: أي: يطهرهم من نَسَس الكفر والذنوب، وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم، وقيل: يجعلهم أذكى القلوب بالإيمان «ويعلمهم الكتاب والحكمة» هذه صفة ثالثة لرسولاً، والمراد بالكتاب القرآن، وبالحكمة السنة، كذا قال الحسن. وقيل: الكتاب الخط بالقلم، والحكمة الفقه في الدين، كذا قال مالك بن انس «وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» أي: وإن كانوا من قبل بعثت فيهم في شرك وذهاب عن الحق «وآخرين منهم» معطوف على الأميين أي: بعث في الأميين وبعث في آخرين منهم «لما يلحقوا بهم» ذلك الوقت، وسيلحقون بهم من بعد، أو هو معطوف على المفعول الأول في يعلمهم أي: ويعلم آخرين، أو على مفعول يزكّيهم أي: يزكّيهم ويزكي آخرين منهم، والمراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة، وقيل: المراد بهم من أسلم من غير العرب. وقال عكرمة: هم التابعون. وقال مجاهد: هم الناس كلهم، وكذا قال ابن زيد، والسدي، وجملة «لما يلحقوا بهم» صفة لآخرين، والضمير في منهم ولهم راجع إلى الأميين، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، وهو ﷺ، وإن كان مرسلأ إلى جميع الثقلين، فتخصيص العرب ها هنا لقصد الامتنان عليهم، وذلك لا ينافي عموم الرسالة، ويجوز أن يراد بالآخرين العجم؛ لأنهم وإن لم يكونوا من العرب فقد صاروا بالإسلام منهم، والمسلمون كلهم أمة واحدة وإن اختلفت أجناسهم «وهو العزيز الحكيم» أي: بليغ العزة والحكمة، والإشارة بقوله: «ذلك» إلى ما تقدم ذكره. وقال الكلبي: يعني: الإسلام. وقال قتادة: يعني: الوحي والنبوة. وقيل: إلحاق العجم بالعرب، وهو مبتدأ، وخبره «فضل الله يؤتيه من يشاء» أي: يعطيه من يشاء من عباده «والله ذو الفضل العظيم» الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها» ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً فقال: «مثل الذين حملوا التوراة» أي: كلفوا القيام بها والعمل بما فيها «ثم لم يحملوها» أي: لم يعملوا بموجبيها، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها «كمثل الحمار يحمل أسفارا» هي جمع سفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل؟ فهكذا لليهود. وقال الجرجاني: هو يعني: حملوا من الحملية بمعنى الكفالة أي: ضمنوا أحكام التوراة، وقوله: «يحمل» في محل نصب على الحال، أو صفة للحمار إذ ليس المراد به حماراً معيناً، فهو في حكم النكرة، كما في قول الشاعر:

ولقد أمر على اللثيم يسبني فمضيت ثم قلت لا يعنيني

«بئس مثل القوم الذين كتبوا بآيات الله» أي: بئس

هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على سلمان الفارسي، وقال: والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثرثيا لناله رجال من هؤلاء». وأخرجه أيضاً مسلم من حديثه مرفوعاً بلفظ: «لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس، أو قال: من أبناء فارس». وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان الإيمان بالثرثيا لناله ناس من أهل فارس». وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء من امتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحِقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارًا﴾ [البقرة: 111] فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادعوا هذه الدعوى الباطلة ﴿فَتَمْنُوا لِمَوْتٍ﴾ لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة في زعمكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في هذا الزعم، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحب الخلوص من هذه الدار. قرأ الجمهور (فتمنوا) بضم الواو، وقرأ ابن السميع بفتحها تخفيفاً، وحكى الكسائي إبدال الواو همزة، ثم أخبر الله سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبداً بسبب ذنوبهم فقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي، والتحريف والتبديل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعني: على العموم، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم بخولا أولياً. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم، وأنه نازل بهم، فقال: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأَقِيكُمْ﴾ لا محالة، ونازل بكم بلا شك، والفاء في قوله: ﴿فإنه﴾ داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط، قال الزجاج: لا يقال: إن زيداً فمطلق، وما هنا قال: فإنه ملاقيكم لما في معنى الذي من الشرط والجزاء أي: إن فررتُم منه، فإنه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه، وقيل: إنها مزيدة، وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله ﴿تَفْرُونَ مِنْهُ﴾ ثم ابتداء فقال ﴿فإنه ملاقيكم﴾ ثم ترثون إلى عالم الغيب والشهادة، وذلك يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال القبيحة، ويجازيكم عليها.

وقد أخرج ابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة في التوراة بسبعمائة آية ﴿يَسْبَحُ شَهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِلْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أول سورة الجمعة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «نأمة أمية لا نكتب ولا نحسب». وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ حين نزلت سورة الجمعة، فتلاها، فلما بلغ ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحِقُوا بِهِمْ﴾ قال له رجل: يا رسول الله من

يَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَكَّعَ الصَّلَاةَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْتَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَلْبًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى لِلصَّلَاةِ﴾ أي: وقع النداء لها، والمراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ نداء سواء، وقوله: ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ بيان لإذا وتفسير لها. وقال أبو البقاء: إن من بمعنى: في، كما في قوله: ﴿أَوْنِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: 40] أي: في الأرض. قرأ الجمهور (الجمعة) بضم الميم. وقرأ عبد الله بن الزبير، والأعمش بإسكانها تخفيفاً. وهما لغتان، وجمعها جمع وجمعات. قال الفراء: يقال: الجمعة بسكون الميم وبفتحها وبضمها. وهي صفة لليوم أي: يوم يجمع الناس. قال الفراء أيضاً، وأبو عبيد: والتخفيف أخف وأقيس، نحو غرفة وغرف، وطرفة وطرف، وحجرة وحجر. وفتح الميم لغة عقيل. وقيل: إنما سميت جمعة؛ لأن الله جمع فيها خلق آدم، وقيل: لأن الله فرغ فيها من خلق كل شيء، فاجتمعت فيها جميع المخلوقات، وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال عطاء: يعني الذهاب والمشى إلى الصلاة. وقال الفراء: المضى والسعي والذهاب في معنى واحد، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب، وابن مسعود (فامضوا) إلى نكر الله) وقيل: المراد القصد. قال الحسن: والله ما هو سعي على الأقدام ولكنه قصد بالقلوب والنيات، وقيل: هو العمل كقوله: ﴿مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: 19] وقوله: ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَتَى﴾ [الليل: 4] وقوله:

وقد أخرج ابن المنذر، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة في التوراة بسبعمائة آية ﴿يَسْبَحُ شَهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِلْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أول سورة الجمعة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «نأمة أمية لا نكتب ولا نحسب». وأخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ حين نزلت سورة الجمعة، فتلاها، فلما بلغ ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحِقُوا بِهِمْ﴾ قال له رجل: يا رسول الله من

للذين ذهبتم إليهما، وتركتم البقاء في المسجد، وسماع خطبة النبي ﷺ لأجلها ﴿وَالله خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فمَنه اطلبوا الرزق، وإليه توسلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن مروي عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله لأي شيء سمي يوم الجمعة؟ قال: لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم، وفيه الصعقة والبعة، وفي آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له. وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مروي عن سلمان قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قالها ثلاث مرات، ثم قال في الثالثة: هو اليوم الذي جمع الله فيه أبائكم آدم أقلاً احتُكَمَ عن يوم الجمعة»، الحديث. وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن مروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة، وفي الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم.

ورد في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة، وكذلك في فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها، وفي الساعة التي فيها، وأنه يستجاب الدعاء فيها، وقد أوضحنا ذلك في شرحي للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن خروسة بن الحر قال: رأى معي عمر بن الخطاب لوحاً مكتوباً فيه ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فقال: من أملى عليك هذا؟ قلت: أبي بن كعب، قال: إن أباي أقرأنا للمنسوخ أقرأها (فامضوا إلى ذكر الله) وروى هؤلاء ما عدا أبا عبيد عن ابن عمر قال: لقد توفي رسول الله ﷺ، وما نقرأ هذه الآية التي في سورة الجمعة إلا (فامضوا إلى ذكر الله) وأخرجه عنه أيضاً الشافعي في الأم، وعبد الرزاق، والغريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأخرجوا كلهم أيضاً عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (فامضوا إلى ذكر الله) قال: ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط رداي. وأخرج عبد بن حميد عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: فامضوا. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» قال: ليس لطلب دنيا، ولكن عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله. وأخرج ابن مروي عن

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: 39] قال القرطبي: وهذا قول الجمهور، ومنه قول زهير:

سعى بعمهم قوم لكي يدركهم

وقال أيضاً:

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعدما تنزل ما بين العشيرة بالدم أي: فاعملوا على المضى إلى نكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه، ويؤيد هذا القول قول الشاعر:

أسعى على جل بني مالك كل امرئ في شأنه ساعي ﴿وَذَرُوا لِلْبَيْعِ﴾ أي: اتركوا المعاملة به، ويلحق به سائر المعاملات. قال الحسن: إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع، والإشارة بقوله: ﴿فَلَكُمْ﴾ إلى السعي إلى نكر الله، وترك البيع، وهو مبتدأ، وخبره ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي: خير لكم من فعل البيع، وترك السعي لما في الامتنال من الأجر والجزاء. وفي عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجباً للعقوبة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: إذا فعلتم الصلاة وأبتموها وفرغتم منها ﴿فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: من رزقه الذي يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب، وقيل: المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر بعمل الطاعات، واجتناب ما لا يحل ﴿وَأَنْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: نكراً كثيراً بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي، وكذا أنكروه بما يقربكم إليه من الإنكار، كالحمد، والتسبيح، والتكبير، والاستغفار، ونحو ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: كي تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة، فاقبلت غير من الشام، والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فانتفل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً في المسجد، ومعنى ﴿انفَضُوا إِلَيْهَا﴾: تفرقوا خارجين إليها. وقال المبرد: ملأوا إليها، والضمير للتجارة، وخصت بإرجاع الضمير إليها بون الله؛ لأنها كانت أهم عندهم، وقيل التقدير: وإذا رأوا تجارة انفَضُوا إليها، أو لهواً انفَضُوا إليه، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه، كما في قول الشاعر:

نحن بما عنئنا وأنت بما عنئك راضٍ والرأي مختلف وقيل: إنه اقتصر على ضمير التجارة؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان منموماً مع الحاجة إليها، فكيف بالانفضاض إلى الله، وقيل: غير ذلك ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: على المنبر؛ ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للأخرة خير من العمل للدنيا، فقال: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: من الجزاء العظيم وهو الجنة ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾

وحضروا مجلسك، وجواب الشرط قالوا، وقيل: محذوف، وقالوا: حال، والتقدير: جاءوك قائلين كيت وكيت، فلا تقبل منهم، وقيل: الجواب ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ وهو بعيد ﴿قالوا نشهد أنك لرسول الله﴾ أكدوا شهادتهم بأنّ واللام للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم، والمراد بالمنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، ومعنى نشهد نحلف، فهو يجري مجرى القسم، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم، ومن هذا قول قيس بن زريح: وأشهد عند الله أنني أحبها فهذا لها عندي فما عندها ليا ومثل نشهد نعلم، فإنه يجري مجرى القسم كما في قول الشاعر:

ولقد علمت لثأين منيتي إن المنايا لا تطيش سهامها
وجملة ﴿والله يعلم أنك لرسوله﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، وهو ما أظهوره من الشهادة، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ أي: في شهادتهم التي زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد؛ لا إلى منطوق كلامهم، وهو الشهادة بالرسالة، فإنه حق، والمعنى: والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد وطمأنينة قلب، وموافقة باطن لظاهر ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ أي: جعلوا حلفهم الذي حلفوا لكم به إنهم لكم، وإن محمداً لرسول الله وقلية تقيهم منك، وسترة يستترون بها من القتل والأسر، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه، وقد تقدم قول من قال إنها جواب الشرط. قرأ الجمهور (إيمانهم) بفتح الهمزة، وقرأ الحسن بكسرها، وقد تقدم تفسير هذا في سورة المجادلة ﴿فصنوا عن سبيل الله﴾ أي: منعوا الناس عن الإيمان والجهد، وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح في النبوة. هذا معنى الصد الذي بمعنى الصرغ، ويجوز أن يكون من الصدود أي: اعرضوا عن الدخول في سبيل الله وإقامة أحكامه ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ من النفاق والصد، وفي ساء معنى التعجب، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم ذكره من الكذب، والصد، وقبح الأعمال، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بأنهم آمنوا﴾ أي: بسبب أنهم آمنوا في الظاهر نفاقاً ﴿ثم كفروا﴾ في الباطن، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين، وأظهروا الكفر للكافرين، وهذا صريح في كفر المنافقين، وقيل: زلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا، والأول أولى، كما يفيد السياق ﴿فقطيع على قلوبهم﴾ أي: ختم عليها بسبب كفرهم، قرأ الجمهور (فقطيع) على البناء للمفعول، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده، وقرأ زيد بن علي على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه، ويدل على هذا قراءة الأعمش (فقطيع الله على قلوبهم) ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما فيه من صلاحهم ورشادهم، وهو الإيمان ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ أي: هيئاتهم ومناظرهم، يعني: أن لهم أجساماً

ابن عباس في الآية قال: «لم تؤمروا بشيء من طلب الدنيا إنما هو: عيادة مريض، وحضور جنازة، وزيارة أخ في الله». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة، فابتدراها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً، أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ إلى آخر السورة. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال: «جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشتري، وبعضهم يريد أن ينظر إلى نحية، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة، فقال رسول الله ﷺ: لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً. وفي الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة وغيرهم.

تفسير سورة المنافقون

وهي منبئة. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المنافقين بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج سعيد بن منصور، والطبراني في الأوسط، قال السيوطي بسند حسن عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيحرض بها على المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين، فيقترع بها المنافقين. وأخرج البزار، والطبراني عن أبي عتبة الخولاني مرفوعاً نحوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغِيَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فُهْمٌ لَا يَقْفَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ تَسْمَعُ مَسَدَةً يُحْسِنُ كُلٌّ صِيغَةً عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوا فَبَشِّرْهُم بِأَنَّهُمْ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَاكَلْنَا مِنْهُ يَسْتَفْهِرُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَفَلَا تُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَهِرُونَ وَهُمْ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٦﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَفْضَلُوا وَلَهُ خِزَانُ الْمُنَافِقِينَ وَالْأَرْضُ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ ﴿٨﴾ يَقُولُونَ لَيْسَ رِجْسًا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيْسَ خَرِجَ الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَدْلُ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

قوله: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ أي: إذا وصلوا إليك

﴿أَنْتِ يَوْفُكُون﴾ كيف يصرفون عن الحق، ويميلون عنه إلى الكفر. قال قتادة: معناه يعلنون عن الحق. وقال الحسن معناه يصرفون عن الرشد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إذا قال لهم القائل من المؤمنين قد نزل فيكم ما نزل من القرآن، فتوبوا إلى الله ورسوله، وتعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴿لَوْوَا رءوسهم﴾ أي: حركوها استهزاء بذلك. قال مقاتل: عطفوا رءوسهم رغبة عن الاستغفار. قرأ الجمهور (لَوْوَا) بالتشديد. وقرأ نافع بالتخفيف، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ﴿وَوَرَّايْتَهُمْ يَصْنَوْنَ﴾ أي: يعرضون عن قول من قال لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، أو يعرضون عن رسول الله ﷺ، وجملة ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى، وهي يَصْنَوْنَ؛ لأن الرؤية بصرية، فيصنَوْنَ في محل نصب على الحال، والمعنى: ورأيتهن صائتين مستكبرين ﴿سِوَاهُ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: الاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق، واستمرارهم على الكفر. قرأ الجمهور (استغفرت) بهمة مفتوحة من غير مد، وحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها. وقرأ يزيد بن القعقاع بهمة ثم ألف ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: ما داموا على النفاق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الكاملين في الخروج عن الطاعة، والانهمك في معاصي الله، ويدخل فيهم المنافقون بخلاً أولاً. ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ أي: حتى يتفرقوا عنه، يعنون بذلك فقراء المهاجرين، والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لقسقهم، أو لعدم مغفرة الله لهم. قرأ الجمهور (ينفضوا) من الانفضاض، وهو التفرق، وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي (ينفضوا) من انفض القوم: إذا فنيت أزوادهم، يقال: نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض. ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال: ﴿وَهُوَ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين؛ لأن خزائن الرزق له فيعطي من شاء ما شاء، ويمنع من شاء ما شاء ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك، ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل، وأنه الباسط القابض المعطي المانع. ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلُّ﴾ القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبي راس المنافقين، وعنى بالأعز نفسه ومن معه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه، ومراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة، وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم، وهو عبد الله بن أبي، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون. ثم ردَّ الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال: ﴿وَهُوَ الْعَزَّ وَرَسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحيه

تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق ﴿وَأَنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ فتحسب أن قولهم حق وصلى لفصاحتهم، وذلاقة السننهم، وقد كان عبد الله بن أبي رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، وكان يحضر مجلس النبي ﷺ، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته. قال الكلبي: المراد عبد الله بن أبي، وجد بن قيس، ومعتب بن قيس كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة، والخطاب للنبي ﷺ، وقيل: لكل من يصلح له، ويدل عليه قراءة من قرأ (يسمع) على البناء للمفعول، وجملة ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ مستأنفة لتقرير ما تقدم من أن أجسامهم تعجب الراثي وتروق الناظر، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، شبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لا تفهم ولا تعلم، وهم كذلك خلغهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه، قال الزجاج: وصفهم بتمام الصور، ثم أعلم أنهم في ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب. قرأ الجمهور (خشب) بضمين، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وقبل بإسكان الشين، وبها قرأ البراء بن عازب، واختارها أبو عبيد؛ لأن واحدها خشبة كينة وبدن، واختار القراءة الأولى أبو حاتم. وقرأ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب بفتحيتين، ومعنى ﴿مُسْنَدَةٌ﴾: أنها أسندت إلى غيرها، من قولهم: أسندت كذا إلى كذا، والتشديد للتكثير. ثم عابهم الله سبحانه بالجبن، فقال: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم نازلة بهم لفرط جبنهم ورعب قلوبهم، وفي المفعول الثاني للحسبان وجهان: أحدهما أنه عليهم، ويكون قوله: ﴿هُمْ الْعَدُوُّ﴾ جملة مستأنفة: لبيان أنهم الكاملون في العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون، والوجه الثاني أن المفعول الثاني للحسبان هو قوله: ﴿هُمْ الْعَدُوُّ﴾، ويكون قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلقاً بصيحة، وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر، وكان حقه أن يقال: هو العدو، والوجه الأول أولى. قال مقاتل، والسدي: أي إذا نادى مناد في العسكر، أو انفلتت دابة، أو أنشئت ضالة ظنوا أنهم المرادون لما في قلوبهم من الرعب، ومن هذا قول الشاعر:

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكثر عليهم ورجالا
وقيل: كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم. ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال: ﴿فَاحْذَرُهُمْ﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك، أو يطلعوا على شيء من أسرارك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار. ثم دعا عليهم بقوله: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْتِ يَوْفُكُون﴾ أي: لعنهم الله، وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب، كقولهم: قاتله الله من شاعر، أو ما أشعره، وليس بمراد هنا، بل المراد ذمهم وتوبيخهم، وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته عز وجل أن يلعنهم ويخزيهم، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك؛ ومعنى

أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

لما ذكر سبحانه قبايح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغياً لهم في ذكره فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهمهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، ومعنى ﴿لَا تَلْهَكُمْ﴾: لا تشغللكم، والمراد بالذكر فرائض الإسلام، قاله الحسن. وقال الضحاك: الصلوات الخمس، وقيل: قراءة القرآن، وقيل: هو خطاب للمنافقين، ووصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا تظاهراً، والأول أولى ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يلتقي بالدنيا عن الدين ﴿فَاوْلُكُ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران ﴿وَاتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومه، ومن للتبعيض أي: أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير، وقيل: المراد الزكاة المفروضة ﴿مَنْ قِيلَ أَنْ يَأْتِي أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ بأن تنزل به أسبابه، ويشاهد حضور علاماته، وقدم المفعول على الفاعل للاهتمام ﴿فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى لَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: يقول عند نزول ما نزل به منادياً لربه هلا أمهلتنى وأخرت موتي إلى أجل قريب أي: أمد قصير ﴿فَاصْصِقْ﴾ أي: فاتصق بمالي ﴿وَإِذَا كُنْتَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قرأ الجمهور (فاصصق) بادغام التاء في الصاد، وانتصابه على أنه جواب التمني، وقيل: إن لا في لولا زائدة، والأصل لو أخرتني. وقرأ أبي، وابن مسعود، وسعيد بن جبير (فاتصصق) بدون إدغام على الأصل. وقرأ الجمهور (واكن) بالجزم على محل، فاتصصق، كانه قيل: إن قيل: إن أخرتني أتصصق واكن. قال الزجاج: معناه هلا أخرتني، وجزم اكن على موضع، فاصصق، لأنه على معنى إن أخرتني أصصق واكن. وكذا قال أبو علي الفارسي، وابن عطية، وغيرهم. وقال سيبويه حاكياً عن الخليل: إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير:

بدالي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً

فخض، ولا سابق عطفاً على مدرك الذي هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه. وقرأ أبو عمرو، وابن محيصن، ومجاهد (واكون) بالنصب عطفاً على فاصصق، ووجهها واضح. ولكن قال أبو عبيد: رأيت في مصحف عثمان (واكن) بغير واو، وقرأ عبيد بن عمير (واكون) بالرفع على الاستئناف أي: وأنا اكون. قال الضحاك: لا ينزل بأحد الموت لم يحج ولم يؤد زكاة إلا سأل الرجعة، وقرأ هذه الآية: ثم أجاب الله سبحانه عن هذا التمني فقال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي: إذا حضر أجلها وانقضى عمرها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء منه، فهو مجازيك بأعمالكم. قرأ الجمهور (تعملون) بالفوقية على الخطاب، وقرأ أبو بكر عن عاصم، والسلمي بالتحية على الخبر.

عباده لاغيرهم. اللهم كما جعلت العزة للمؤمنين على المنافقين، فاجعل العزة للعالمين من عبائك، وأنزل النلة على الجائرين الظالمين ﴿وَلَكِنِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بما فيه النفع فيفعلونه، وبما فيه الضرر فيجتنبونه، بل هم كالانعام لفرط جهلهم ومزيد حيرتهم، والطبع على قلوبهم.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: ﴿لَا تَنْفَقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ من حوله، وقال: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبي، فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كذب زيد رسول الله، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي في ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾، فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم، وهو قوله: ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مَسْنَدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء. وأخرجه عنه باطل من هذا ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: إنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿لَتُخْذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ قال: حلفهم بالله إنهم لمنكم اجتنوا بإيمانهم من القتل والحرب. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿كَانَهُمْ خَشَبٌ مَسْنَدَةٌ﴾ قال: نخل قيام. وأخرج ابن مريويه، والضياء في المختارة عنه أيضاً. قال: نزلت هذه الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفَقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ في عسيف لعمر بن الخطاب. وأخرج ابن مريويه عن زيد بن أرقم، وابن مسعود أنهما قرءا (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله). وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ في غزاة، قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري يا للمهاجرين، وقال الأنصاري يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال دعوة الجاهلية؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: دعوها، فإنها منتنة، فسمع ذلك عبد الله بن أبي، فقال: أو قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منه الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، زاد الترمذي «فقال له ابنه عبد الله: والله لا تنقلت حتى تقر أنك اللئيل، ورسول الله العزيز، ففعل».

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَعْلَمَ رَبُّ لَوْكَ لَمْ تَرْتَبِ إِلَ

قوله: ﴿يسبح الله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: يذمه سبحانه جميع مخلوقاته التي في سمواته وأرضه عن كل نقص وعيب ﴿وله الملك وله الحمد﴾ يختصان به ليس لغيره منهما شيء، وما كان لعباده منهما، فهو من فيضه وراجع إليه ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ أي: فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن. قال الضحاک: فمنكم كافر في السر مؤمن في العلانية كالمنافق، ومنكم مؤمن في السر كافر في العلانية كعمار بن ياسر ونحوه ممن أكره على الكفر. وقال عطاء: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب. قال الزجاج: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه لأن وجود خلاف المقدّر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبي: وهذا أحسن الأقوال، وهو الذي عليه جمهور الأمة، وقدم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن ﴿والله بما تعملون بصير﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم. ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال: ﴿خلق للسموات والأرض بالحق﴾ أي: بالحكمة البالغة. وقيل: خلق ذلك خلقاً يقيناً لا ريب فيه، وقيل: الباء بمعنى اللام أي: خلق ذلك لإظهار الحق، وهو أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال: ﴿ووصوركم فأحسن صوركم﴾ قيل: المراد آدم خلقه بيده كرامة له، كذا قال مقاتل، وقيل: المراد جميع الخلاق، وهو الظاهر أي: أنه سبحانه خلقهم في أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل. والتصوير: التخطيط والتشكيل. قرأ الجمهور (فأحسن صوركم) بضم الصاد، وقرأ زيد بن علي، والأعمش، وأبو زيد بكسرهما ﴿والله المصير﴾ في الدار الآخرة، لا إلى غيره ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ أي: ما تخفونه وما تظهرونه، والتصريح به مع اندرجه فيم قبله لمزيد التأكيد في الوعد والوعيد ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم، وهي تذييلية ﴿الم ياتكم نبا الذين كفروا من قبل﴾ وهم كفار الأمم الماضية كقوم نوح، وعاد، وثمود، والخطاب لكفار العرب ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ بسبب كفرهم، والوبال: الثقل والشدة، والمراد: بامرهم هنا ما وقع منهم من الكفر والمعاصي، وبالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا ﴿ولهم عذاب اليم﴾ وذلك في الآخرة هو عذاب النار؛ والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما ذكر من العذاب في الدارين، وهو مبتدأ، وخبره ﴿بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بسبب أنها كانت

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم﴾ الآية قال: هم عباد من أمتي الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن الصلوات الخمس المفروضة. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له مال يبلغه حج بيت الله، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكافر، فقال: سألتو عليكم بذلك قرأنا ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلى آخر السورة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿فأصتق ولكن من الصالحين﴾ قال: أحج.

تفسير سورة التغابن

وهي مدنية في قول الأكثر. وقال الضحاک: هي مكية. وقال الكلبي: هي مدنية ومكية. وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده، فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ [التغابن: 14 - 18] إلى آخر السورة. وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه. وأخرج ابن حبان في الضعفاء، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن» قال ابن كثير: وهو غريب جداً بل منكر. وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال: «ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَكُونُونَ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَمْكُرُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِمَّا مَا يُشِيرُونَ وَمَا شِيرُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَكَالَ أَمْرِهم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَآتَمَقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ غَفِيْرٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ﴾ بل هي التي لإيجاب النفي، فالمعنى: بلَى تبعثون. ثم أقسم على ذلك، وجواب القسم لتبعثنَّ أي: لتخرجنَّ من قبوركم، لتنبؤنَّ ﴿بِمَا عَمَلْتُمْ﴾ أي: لتخبرنَّ بذلك إقامة للحجة عليكم، ثم تجزون به ﴿وَلَكُمْ﴾ البعث والجزاء ﴿عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ الإعادة أيسر من الابتداء ﴿فَأَمْنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ﴾ الفاء هي الفصيحة الدالة على شرط مقتر أي: إذا كان الأمر هكذا، فصلقوا بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا﴾ وهو القرآن؛ لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أفعالكم وأعمالكم، فهو مجازيكم على ذلك ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ العامل في الظرف لتنبؤنَّ، قاله النحاس. وقال غيره: العامل فيه خبير، وقيل: العامل فيه محنوف هو أنكر. وقال أبو البقاء: العامل فيه ما دلَّ عليه الكلام أي: تتفاوتون يوم يجمعكم. قرأ الجمهور (يجمعكم) بفتح الباء وضم العين، وروي عن أبي عمرو إسكانها، ولا وجه لذلك إلا التخفيف، وإن لم يكن هذا موضعاً له، كما قرئ في ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾ [الأنعام: 109] يسكون الراء، وكقول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحبٍ إثمًا من الله ولا واصل

بإسكان باء أشرب، وقرأ زيد بن علي، والشعبي، ويعقوب، ونصر، وابن أبي إسحاق، والجحدري (نجمعكم) بالنون، ومعنى ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ ليوم القيامة، فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله، وبين كل نبي وأمه، وبين كل مظلوم وظالمه ﴿وَلَكُمْ يَوْمَ التَّغَابُنِ﴾ يعني: أن يوم القيامة هو يوم التغابن، وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضاً، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار، فنزلوا منازلهم التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار، فكان أهل النار استبدلوا الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك. يقال: غبنت فلاناً إذا بايعته، أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة، كذا قال المفسرون، فالمغبون من غبن أهله، ومنازلهم في الجنة ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً تَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ أي: من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته، قرأ الجمهور (يكفر) (ويبخله) بالتحية، وقرأ نافع، وابن عامر بالنون فيهما، وانتصاب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ على أنها حال مقتر، والإشارة بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ إلى ما نكر من التكفير والإسخال، وهو مبتدأ، وخبره ﴿وَالْفَوْزَ الْعَظِيمَ﴾ أي: الظفر الذي لا يساويه ظفر. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المراد بالآيات إما التنزيلية أو ما هو أعم منها. نكر

تأنيهم الرسل المرسله إليهم بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوا ابشِرْ يَهُودُنَا﴾ أي: قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكرب أن يكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك، وأراد بالبشر الجنس، ولهذا قال يهودنا ﴿فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أي: كفروا بالرسول وبما جاءوا به، وأعرضوا عنهم ولم يتدبروا فيما جاءوا به، وقيل: كفروا بهذا القول الذي قالوه للرسول ﴿وَأَسْتَغْنَىٰ اللَّهُ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم. وقال مقاتل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات، وقيل: استغنى بسلطانه عن طاعة عباده ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فخرج به إلى الرب فيقول: يا رب أنكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاق، وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: ﴿وَصُورَكُمْ فَاخْصَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾». وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «العبد يولد مؤمناً، ويعيش مؤمناً، ويموت مؤمناً، والعبد يولد كافراً، ويعيش كافراً، ويموت كافراً، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة، ثم يدركه ما كتب له فيموت شقياً، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء، ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً».

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾ فَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَتَرْتُمُونَا أَنْ نَبْعَثَ النَّبِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْحُجَّةِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّنَائُفِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُجِزْهُ جَنَّتِ جَمْرَىٰ مِنْ عَذَابِهَا أَلَّا تَهْتَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ أَفْعَالُ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْهُ اللَّهُ كَيْفَ شَاءَ عِلْمَهُ ﴿٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ الزعم: هو القول بالظن، ويطلق على الكذب. قال شريح: لكل شيء كنية، وكنية الكذب زعموا، وإن لَنْ يُبْعَثُوا قائم مقام مفعول زعم، وأن هي المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب، والمراد بالكفار كفار العرب؛ والمعنى: زعم كفار العرب أن الشأن لن يبعثوا أبداً. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بأن يرد عليهم ويبطل زعمهم فقال:

فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَزِرُكُمْ ذُنُوبُكُمْ وَأَنْتُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَامْنَحُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَتَّقُوا اللَّهَ فَاتَّكِلُوا عَلَيْهِ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَمْرُكُمْ وَتَقَاتُوا اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَطِيعُوا أَوْفِقُوا خَيْرًا لَأُنْفِيسُكُمْ وَنَافِقٌ شَخْصٌ نَفْسُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰتِلُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنْ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ فَاقْرَبُوا إِلَيْهِ حَتَّى يُصَنِّعَ لَكُمْ وَتَتَّقُوا اللَّهَ وَتَتَّقُوا اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ أَلَيْسَ بِالْهَدَىٰ وَالْهَدَىٰ الْهَدَىٰ لَكُمْ لِكَيْتُمْ ﴿١٦٠﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم. يعني: أنهم يعادونكم ويشغلونكم عن الخير، ويدخل في ذلك سبب النزول لخواص أولياء، وهو أن رجالاً من مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا، فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم، فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم، فلا يطيعوهم في شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريده الله، والضمير في ﴿فاحذروهم﴾ يعود إلى العدو، أو إلى الأزواج والأولاد لكن لا على العموم، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم، وإنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول: لأن العدو يطلق على الواحد، والاثنتين، والجماعة، ثم أرشدهم الله إلى التجاوز، فقال: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا﴾ أي: تعفوا عن نوبهم التي ارتكبوها، وتتركوا التثريب عليها وتستروها ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم، قيل: كان الرجل الذي شبط أزواجه وأولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها، وفقهوا في الدين هم أن يعاقب أزواجه وأولاده، فأنزل الله ﴿وإن تعفوا﴾ الآية، والآية تعم وإن كان السبب خاصاً، كما عرفناك غير مرة. قال مجاهد: والله ما عابوهم في الدنيا، ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذا لهم الحرام، فأعطوهم إياه. ثم أخبر الله سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي: بلاء واختبار ومحنة، يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله، فلا تطيعوهم في معصية الله ﴿والله عنده أجر عظيم﴾ لمن أقر طاعة الله، وترك معصيته في محبة ماله وولده. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ أي: ما أطقتم وبلغ إليه جهنكم. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه: ﴿فاتقوا الله حق تقاته﴾ [آل عمران: 102] ومنهم قتادة، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد، وقد أوضحنا الكلام في قوله: ﴿فاتقوا الله حق تقاته﴾ [آل عمران: 102] ومعنى ﴿واسمعوا وأطيعوا﴾ أي: اسمعوا ما تؤمرون به، وأطيعوا الأوامر. قال مقاتل ﴿اسمعوا﴾ أي: اصغوا إلى ما ينزل عليكم، وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم وينهاكم. وقيل: معنى ﴿اسمعوا﴾ أقبلا ما تسمعون؛ لأنه لا فائدة في مجرد السماع ﴿وانفقوا خيراً لأنفسكم﴾ أي:

سبحانه حال السعداء، وحال الأشقياء هاهنا لبيان ما تقدم من التغابن، وأنه سيكون بسبب التكفير، وإدخال الجنة للطائفة الأولى، وبسبب إدخال الطائفة الثانية النار، وخلوهم فيها ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ أي: ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن الله أي: بقضائه وقدره، قال الفراء: إلا بإذن الله أي: بأمر الله، وقيل: إلا يعلم الله. قيل: وسبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ أي: من يصنق ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء. قال مقاتل بن حيان: يهد قلبه عند المصيبة، فيعلم أنها من الله، فيسلم لقضائه ويسترجع. وقال سعيد بن جببر: يهد قلبه عند المصيبة، فيقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: 156] وقال الكلبي: هو إذا ابتلي صبر، وإذا انعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر. قرأ الجمهور (يهد) بفتح الياء، وكسر الدال أي: يهده الله، وقرأ قتادة، والسلمي، والضحاك، وأبو عبد الرحمن بضم الياء، وفتح الدال على البناء للمفعول، وقرأ طلحة بن مصرف، والأعرج، وسعيد بن جببر، وابن هرمز، والأزرق (نهد) بالنون، وقرأ مالك بن دينار، وعمرو بن دينار، وعكرمة (يهدا) بهمزة ساكنة، ورفع قلبه أي: يطمئن ويسكن ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي: بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي: هؤنوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله ﴿فإن توليتم﴾ أي: أعرضتم عن الطاعة ﴿فإنما على رسولنا لبلاغ المبين﴾ ليس عليه غير ذلك وقد فعل، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فلا بأس على الرسول، وجملة ﴿فإنما على رسولنا﴾ تعليل للجواب المحذوف، ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل فقال: ﴿والله لا إله إلا هو﴾ أي: هو المستحق للعبودية دون غيره، فوجهه ولا تشركوا به ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يفوضوا أمورهم إليه، ويعتمدوا عليه لا على غيره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبيهقي، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قيل له: ما سمعت النبي ﷺ يقول: في زعموا؟ قال: سمعته يقول: «بئس مطية الرجل». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عنه أنه كره زعموا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يوم التغابن من أسماء يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ قال: غبن أهل الجنة أهل النار، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود في قوله: ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ قال: هي المصيبات تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يهد قلبه﴾ قال: يعني يهد قلبه لليقين،

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، وابن النحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الطلاق بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَ ذُنُوبَهُنَّ وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ
أَنَّ رِبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ
بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ
لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ
فَأَمَّا كَرِهَ يُعْرَضُونَ أَوْ فَرَّقُوهُنَّ بِمَرْوِيٍّ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِمَّنْ
وَأَمَّا الشَّهَدَةُ لِلَّهِ فَإِنَّكُمْ يُعْطَى بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِغَمَلٍ لَهُ بَعْزًا ﴿٢﴾ وَزَوْجُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّذِي يَتَمَنَّاهُ مِنَ الْحَيْثُ مِنْ سَأَلِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ
فَمَنْهُمْ ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٌ وَالَّتِي لَمْ يَحْضُرْ وَأُولَئِكَ الْأَحْزَابُ أَجَلُهُمْ أَنْ
يَضَعَنَّ حَتَمَهُنَّ وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِغَمَلٍ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُفَرِّقُ ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ
اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِكُفْرٍ عَنْهُ سَمِيعًا يُعْطَى لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ نادى النبي ﷺ أولاً تشريعاً له، ثم خاطبه مع أمته، أو الخطاب له خاصة، والجمع للتعظيم، وأمه أسوته في ذلك، والمعنى: إذا أردتم تطليقهن وعزمتن عليه ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَ ذُنُوبَهُنَّ﴾ أي: مستقبلات لعنتهن، أو في قبل عدتهن، أو لقبيل عدتهن. وقال الجرجاني: إن اللام في لعنتهن بمعنى في، أي: في عدتهن. وقال أبو حيان: هو على حذف مضاف أي: لاستقبال عدتهن، واللام للتوقيف نحو لقيته لليلة بقيت من شهر كذا، والمراد أن يطلقوهن في طهر لم يقع فيه جماع، ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن، فإذا طلقوهن هكذا، فقد طلقوهن لعنتهن، وسيأتي بيان هذا من السنة في آخر البحث إن شاء الله ﴿وَأَحْضُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة، وهي ثلاثة قروء، والخطاب للأزواج، وقيل: للزوجات، وقيل: للمسلمين على العموم، والاول أولى؛ لأن الضمائر كلها لهم ﴿وَلَتَقُوا اللَّهَ رِيكَمَ﴾ فلا تعصوه فيما أمركم ولا تضاروهن ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْتِهِنَّ﴾ أي: التي كنَّ فيها عند الطلاق ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النبي، وبيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة، ومثله قوله: ﴿وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ﴾ [الأحزاب: 34] وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33] ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التي وقع الطلاق وهنَّ فيها نهى

أنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير ولا تداخلوا بها، وقوله: ﴿خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ﴾ منتصب بفعل مضمر دل عليه أنفقوا، كأنه قال: اثبتوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم، أو قدّموا خيراً لها، كذا قال سيبويه. وقال الكسائي، والفرّاء: هو نعت لمصدر محذوف أي: إنفاقاً خيراً. وقال أبو عبيدة: هو خبر لكان المقدرة أي: يكن الإنفاق خيراً لكم. وقال الكوفيون: هو منتصب على الحال، وقيل: هو مفعول به لأنفقوا أي: فإنفقوا خيراً. والظاهر: في الآية الإنفاق مطلقاً من غير تقييد بالزكاة الواجبة، وقيل: المراد زكاة الفريضة، وقيل: النافلة، وقيل: النفقة في الجهاد ﴿وَمَنْ يوقْ شَخْ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي: ومن يوق شَخْ نفسه، فيفعل ما أمر به من الإنفاق، ولا يمنعه ذلك منه، فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب، وقد تقدم تفسير هذه الآية ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ فتصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس ﴿يُضَاعَفْ لَكُمْ﴾ فيجعل الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقد تقدم تفسير هذه الآية، واختلاف القراء في قراءتها في سورة البقرة، وسورة الحديد ﴿وَيُغْفَرُ لَكُمْ﴾ أي: يضم لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ما غاب وما حضر لا تخفى عليه منه خافية، وهو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة. وقال ابن الأنباري: الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِيَالٌ لَكُمْ فَاحْضَرُوهُمْ﴾ في قوم من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجه وأولادهم أن يدعوه، فلما أتوا رسول الله ﷺ، فرأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبهم، فنزلت إلى قوله: ﴿فَإِنْ اللَّهَ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يخطب، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما واحداً من ذا الشقّ، وواحداً من ذا الشقّ ثم صعد المنبر فقال: «صلى الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ﴾، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله استقرضت عيدي فأبى أن يقرضني، وشتمني عيدي وهو لا يدري، يقول: وادهراه، وادهراه، وأنا الدهر»، ثم تلا أبو هريرة ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يَضَاعَفْ لَكُمْ﴾.

«وَأَشْهَدُوا نَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ» أمراً بنفس الإِشهاد، ويكون قوله: «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ» أمراً بأن تكون خالصة لله، والإشارة بقوله: «ثَلَاثًا» إلى ما تقدّم من الأمر بالإِشهاد، وإقامة الشهادة لله، وهو مبتدأ، وخبره «يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» وخص المؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه المنتفع بذلك دون غيره «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا» أي: من يتق الله عذاب الله بامتثال أوامره، واجتنب نواهيه، والوقوف على حدوده التي حدّها لعباده، وعدم مجاوزتها يجعل له مخرجاً مما وقع فيه من الشدائد والمحن «وَيُزِيلُ عَنْهُ سَبَابَ» أي: من وجه لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه. قال الشعبي، والضحاك: هذا في الطلاق خاصة أي: من طلق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العدة، وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدة. وقال الكلبي: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة. وقال الحسن: مخرجاً مما نهى الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس. وقال الحسين بن الفضل: ومن يتق الله في أداء الفرائض يجعل له مخرجاً من العقوبة، ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب أي: يبارك له فيما آتاه. وقال سهل بن عبد الله: ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجاً من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب، وقيل: غير ذلك. وظاهر الآية العموم، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص، ويخل ما فيه السياق بخلاً أولاً «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» أي: ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أمه «إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» قرأ الجمهور (بالغ أمره) بتنوين بالغ، ونصب أمره، وقرأ حفص بالإضافة، وقرأ ابن أبي عمير، ودأود بن أبي هند، وأبو عمرو في رواية عنه بتنوين بالغ، ورفع أمره على أنه فاعل بالغ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر، وبالح خبر مقدم. قال الفراء في توجيه هذه القراءة أي: أمره بالغ؛ والمعنى على القراءة الأولى، والثانية: أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، وعلى القراءة الثالثة: أن الله نافذ أمره لا يردّه شيء. وقرأ المفضل (بالغاً) بالنصب على الحال، ويكون خبر إن قوله: «فَدَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» أي: تقديرًا وتوقيتًا أو مقدارًا. فقد جعل سبحانه للشدة أجلًا تنتهي إليه، وللرخاء أجلًا ينتهي إليه. وقال السدي: هو قدر الحيض والعدة «وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ» وهن الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه «إِنْ ارْتَبْتُمْ» أي: شككتن وجهلتم كيف علتن «فَعِدَّتُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ» لصغرن، وعدم بلوغهن سن الحيض أي: فعدتن ثلاثة أشهر، وحذف هذا لدلالة ما قبله عليه «وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» أي: انتهاء عدتهن وضع الحمل، وظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن، وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة البقرة مستوفى، وحققنا البحث في هذه

الزوجات عن الخروج أيضاً فقال: «وَلَا يَخْرُجْنَ» أي: لا يخرجن من تلك البيوت ما بمن في العدة إلا لأمر ضروري، كما سيأتي بيان ذلك، وقيل: المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أنزلهن الأزواج، فلا بأس، والأول أولى «إِلَّا أَنْ يَتَيَسَّرَ لِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ» هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى أي: لا تخرجوهن من بيوتهن، لا من الجملة الثانية. قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا، وذلك أن تزني، فتخرج لإقامة الحدّ عليها. وقال الشافعي وغيره: هي البذاء في اللسان، والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت، ويؤيد هذا ما قال عكرمة: إن في مصحف أبي (إلا أن يفحشن عليكم) وقيل المعنى: إلا أن يخرجن تعدياً، فإن خروجهن على هذا الوجه فاحشة، وهو بعيد، والإشارة بقوله: «وَتِلْكَ» إلى ما نكر من الأحكام وهو مبتدأ، وخبره «حُدُودُ اللَّهِ» والمعنى: أن هذه الأحكام التي بينها لعباده هي حدوده التي حدّها لهم لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ» أي: يتجاوزها إلى غيرها، أو يخل بشيء منها «فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» بإيرادها مورد الهلاك، وأوقعها في مواقع الضرر بعقوبة الله له على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه، وجملة «لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وتعليقه. قال القرطبي: قال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة؛ والمعنى: التحريض على طلاق الواحدة، والنهي عن الثلاث، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضرم بنفسه عند الندم على الفراق، والرغبة في الارتجاع، فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً. وقال مقاتل بعد ذلك أي: بعد طلاقه أو طلاقين أمراً بالمراجعة. قال الواحدي: الأمر الذي يحدث أن يوقع في قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلاق والطلاقين. قال الزجاج: وإذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد، فلا معنى لقوله: «لَعَلَّ اللَّهَ يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» أي: قاريبن انقضاء أجل العدة، وشارفن آخرها «فَامْسُكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» أي: راجعوهن بحسن معاشره، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن «أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، فيملكن نفوسهن مع إيفائهن بما هو لهن عليكم من الحقوق، وترك المضارة لهن «وَأَشْهَدُوا نَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ» على الرجعة، وقيل: على الطلاق، وقيل: عليهما قطعاً للتنازع، وحسماً لمادة الخصومة، والأمر للندب، كما في قوله: «وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ» [البقرة: 282] وقيل: إنه للوجوب، وإليه ذهب الشافعي قال: الإِشهاد واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل. وفي قول للشافعي: إن الرجعة لا تفتقر إلى الإِشهاد كسائر الحقوق، وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ» هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقريباً إلى الله، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة، وقيل: الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة أي: الشهود عند الرجعة، فيكون قوله:

(فطلقوهن لقبل عدتهن). وأخرج ابن الأنباري، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عن مجاهد أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد الرزاق، وأبو عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ كذلك. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: من أراد أن يطلق للسنّة، كما أمره الله، فليطلقها طاهراً في غير جماع. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: طاهراً من غير جماع، وفي الباب أحاديث. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود: ﴿واحصوا العدة﴾ قال: الطلاق طاهراً في غير جماع. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر في قوله: ﴿ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال: خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هي الفاحشة المبينة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال: الزنا. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: الفاحشة المبينة أن تبذل المرأة على أهل الرجل، فإذا بذت عليهم بلسانها، فقد حلّ لهم إخراجها. وأخرج ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس في قوله: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ قالت: هي الرجعة. وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلاً سأل عمران بن حصين أن رجلاً طلق، ولم يشهد، قال: بش ما صنع، طلق في بدعة وارتجع في غير سنّة، فليشهد على طلاقه وعلى مراجعته، ويستغفر الله. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال: مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله، وأن الله هو الذي يعطيه وهو يمنعه، وهو يبتليه وهو يعافيه وهو يدفع عنه، وفي قوله: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ قال: من حيث لا يدري. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة. وأخرج الحاكم وصححه، وضعفه الذهبي من طريق سالم بن أبي الجعد عن جابر قال: «نزلت هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: اتق الله واصبر، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابوه، فأتى رسول الله ﷺ، فسأله عنها، وأخبره خبرها، فقال: كلها، فنزلت: ﴿ومن يتق الله﴾ الآية. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن ابني أسره العدو، وجزعت أمه، فما تأمرني؟ قال: أملك، وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا

الآية وفي الآية الأخرى ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ [البقرة: 234] وقيل: معنى ﴿إن ارتبتم﴾ إن تيقنتم، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك، وهو الظاهر. قال الزجاج: إن ارتبتم في حيضها، وقد انقطع عنها الحيض، وكانت ممن يحيض مثلها. وقال مجاهد: إن ارتبتم: يعني لم تعلموا عدة الأيسة والتي لم تحض فالعدة هذه. وقيل المعنى: إن ارتبتم في الدم الذي يظهر منها هل هو حيض أم لا بل استحاضة، فالعدة ثلاثة أشهر ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي: من يتقه في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة. وقال الضحاك: من يتق الله، فليطلق للسنّة يجعل له من أمره يسراً في الرجعة. وقال مقاتل: من يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما نكر من الأحكام أي: ذلك المنكح من الأحكام ﴿أمر الله أنزله إليكم﴾ أي: حكمه الذي حكم به بين عباده، وشرعه الذي شرعه لهم، ومعنى ﴿أنزله إليكم﴾ أنزله في كتابه على رسوله، وبينه لكم وفصل أحكامه، وأوضح حلاله وحرامه ﴿ومن يتق الله﴾ بترك ما لا يرضاه ﴿يكفر عنه سيئاته﴾ التي اقترفها؛ لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب ﴿ويعظم له أجراً﴾ أي: يعطه من الأجر في الآخرة أجراً عظيماً، وهو الجنة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ فقيل له: راجعها، فإنها صوامة قوامة، وهي من أزواجك في الجنة. وأخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلأ. وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال: «طلق عبد يزيد أبو ركانة لم ركانة، ثم نكح امرأة من مزينة، فجاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله ما يغني عني إلا ما تغني عني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها، فأخذت رسول الله ﷺ حمية عند ذلك، فدعا رسول الله ﷺ ركانة وإخوته، ثم قال لجلسائه: «أترون كذا من كذا، فقال رسول الله ﷺ لعبد يزيد: طلقها، ففعل، فقال لأبي ركانة ارتجعها، فقال: يا رسول الله إنني طلقها، قال: قد علمت ذلك، فارتجعها، فنزلت: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾. قال الذهبي: إسناده واه، والخبر خطأ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: أنه طلق امرأته، وهي حائض، فنكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ، ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»، وقرأ النبي ﷺ (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن). وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قرأ (فطلقوهن في قبل عدتهن)». وأخرج ابن الأنباري عن ابن عمر أنه قرأ

سلمة: أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ. وفي الباب أحاديث.

أَسْكَنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْهِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِضَيْقِ عَالِيَهُنَّ
وَأَنْ كُنَّ أُولَاتِ حِلٍّ فَلْيَفْقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ
فَأَوْهَنْ جُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُنْكِرُ بِعَرُوفٍ وَأَنْ تَعَارَفْتُمْ فَتَرْضَعْنَ لَكُمْ أَخْرَى
﴿يُنْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُوْرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَتْهُ
اللَّهُ لَا يَكْفِلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَيْنَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

قوله: ﴿أَسْكَنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى، ومن للتبعيض أي: بعض مكان سكناكم، وقيل: زائدة ﴿مِنْ وَجْهِكُمْ﴾ أي: من سعتكم وطافتكم، والوجد القدرة. قال الفراء: يقول على ما يجد، فإن كان موسعاً عليه، وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر ذلك. قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه.

وقد اختلف أهل العلم في المطلقة ثلاثاً، هل لها سكنى ونفقة أم لا؟ فذهب مالك، والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها. وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة. وذهب أحمد، وإسحاق، وأبو ثور أنه لا نفقة لها ولا سكنى، وهذا هو الحق، وقد قرره في شرحي للمتنقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِضَيْقِ عَالِيَهُنَّ﴾ نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن في المسكن والنفقة. وقال مجاهد: في المسكن. وقال مقاتل: في النفقة. وقال أبو الضحى: هو أن يطلقها، فإذا بقي يومان من عنتها راجعها، ثم طلقها ﴿وَأَنْ كُنَّ أُولَاتِ حِلٍّ فَلْيَفْقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: إلى غاية هي وضعهن للحمل. ولا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة؛ فاما الحامل المتوفى عنها زوجها، فقال علي، وابن عمر، وابن مسعود، وشريح، والنخعي، والشعبي، وحمام، وابن أبي ليلى، وسفيان وأصحابه: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. وقال ابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة وأصحابه: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، وهذا هو الحق للأدلة الواردة في ذلك من السنة ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أولاكم بعد ذلك ﴿فَأَوْهَنْ جُورَهُنَّ﴾ أي: أجور إرضاعهن والمعنى: أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهنّ منهنّ، فلهنّ أجورهنّ على ذلك ﴿وَأَتَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِعَرُوفٍ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات أي: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل، وأصل معناه ليأمر بعضكم بعضاً بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم. قال مقاتل: المعنى ليرتاض الأب والأم على أجر مسمى، قيل: والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر، والمعروف الجميل منها أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر ﴿وَأَنْ تَعَارَفْتُمْ﴾ أي: في أجر الرضاع،

قوة إلا بالله، فقالت المرأة: نعم ما أمرك، فجعلنا يكثران منها، فتغفل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ الآية. وفي الباب روايات تشهد لهذا. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت: يكفيه هم الدنيا وغمها. وأخرج أحمد وصححه وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي عن أبي نر قال: «جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب» فجعل يرزقها حتى نعست، ثم قال: يا أبا نر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم، وفي الباب أحاديث. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ قال: ليس المتوكل الذي يقول تقضي حاجتي، وليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه، ودفع عنه ما يكره، وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ قال: يقول قاضي أمره على من توكل، وعلى من لم يتوكل، ولكن المتوكل يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، وفي قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ قال: يعني أجلاً ومنتهاً ينتهي إليه. وأخرج ابن المبارك، والطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وأخرج إسحاق بن راهويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي بن كعب أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكر في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع حيضهنّ، ونوات الحمل، فأنزل الله: ﴿وَاللَّائِي يُمْسِنُ مِنَ الْحَمِيضِ﴾ الآية. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وأبو يعلى، والضياء في المختارة، وابن مردويه عن أبي بن كعب قال: «قلت للنبي ﷺ: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أمي المطلقة ثلاثاً، أو المتوفى عنها؟ قال: هي المطلقة ثلاثاً، والمتوفى عنها». وأخرج نحوه عنه مرفوعاً ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والدارقطني من وجه آخر. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً قال: تعدت آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته إن الآية التي في سورة النساء القصصى نزلت بعد سورة البقرة ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ بكذا وكذا أشهراً، وكل مطلقة، أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها. وروي نحو هذا عنه من طرق، وبعضها في صحيح البخاري. وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أم

آل عمران وغيرها ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ أي: شديداً على أهلها في الحساب بما عملوا. قال مقاتل: حاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب، وهو معنى قوله: ﴿وعذبناها عذاباً نكراً﴾ أي: عذبنا أهلها عذاباً عظيماً منكرًا في الآخرة، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: عذبنا أهلها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقحط، والسيف والخسف والمسخ، وحاسبناهم في الآخرة حساباً شديداً. والذكر المنكر ﴿فذاقت وبال أمرها﴾ أي: عاقبة كفرها ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً﴾ أي: هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ في الآخرة، وهو عذاب النار، والتكرير للتأكيد ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي: يا أولي العقول الراجعة، وقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ في محل نصب بتقدير أعني بياناً للمنادى بقوله: ﴿يا أولي الألباب﴾ أو عطف بيان له أو نعت ﴿قد أنزل الله إليكم نكراً رسولاً﴾ قال الزجاج: إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل أي: أنزل إليكم قرآنًا، وأرسل إليكم رسولاً، وقال أبو علي الفارسي: إن رسولاً منصوب بالمصدر، وهو نكراً؛ لأن المصدر الممنون يعمل. والمعنى: أنزل إليكم ذكر الرسول. وقيل: إن رسولاً بدل من نكراً؛ وكأنه جعل الرسول نفس الذكر مبالغة، وقيل: إنه بدل منه على حذف مضاف من الأول تقديره: أنزل ذا نكر رسولاً، أو صاحب نكر رسولاً. وقيل: إن رسولاً نعت على حذف مضاف أي: نكراً ذا رسول، فذا رسول نعت للذكر. وقيل: إن رسولاً بمعنى رسالة، فيكون رسولاً بدلاً صريحاً من غير تأويل، أو بياناً. وقيل: إن رسولاً منتصب على الإغراء، كأنه قال: الزموا رسولاً. وقيل: إن الذكر ما هنا بمعنى الشرف كقوله: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ [الأنبياء: 10] وقوله: ﴿وإنه لنكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: 44]. ثم بيّن هذا الشرف فقال: ﴿ورسولاً﴾ وقد ذهب الأكثر إلى أن المراد بالرسول هنا محمد ﷺ. وقال

الكلبي: هو جبريل، والمراد بالذكر القرآن، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة، كما لا يخفى. ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله: ﴿يتلوا عليكم آيات الله مبينات﴾ أي: حال كونها مبينات، قرأ الجمهور (مبينات) على صيغة اسم المفعول أي: بيّنها الله وأوضحها، وقرأ ابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي على صيغة اسم الفاعل أي: الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام. ورجّح القراءة الأولى أبو حاتم، وأبو عبيد لقوله: ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ [آل عمران: 118] ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ اللام متعلقة ببتلو أي: ليخرج الرسول الذي يتلو الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، ويجوز أن تتعلق اللام بانزول، فيكون المخرج هو الله سبحانه ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ أي: يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ قرأ الجمهور (يسخله)

فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر، وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر ﴿فسترضع له أخرى﴾ أي: يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده، ولا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة، ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر. قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر ﴿فلينفق ذو سعة من سعته﴾ فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسايتهم على قدر سعتهم ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ أي: كان رزقه بمقدار القوت، أو مضيق ليس بموسع ﴿فلينفق مما آتاه الله﴾ أي: مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه﴾ أي: ما أعطاه من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه، بل عليه ما يقدر عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ أي: بعد ضيق وشدة سعة وغنى.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن وجدكم﴾ قال: من سعتكم ﴿ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن﴾ قال في المسكن. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿وإن كنَّ أولات حمل﴾ الآية، قال: فهذه في المرأة يطلقها زوجها، وهي حامل، فأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع، وإن أرضعت حتى تنقضي عنتها ولا نفقة لها. وأخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام، فبعث إليه بالغ دينار، وقال للرسول: انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها؟ فما لبث أن لبس ألين الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول، فأخبره، فقال: رحمه الله تأول هذه الآية ﴿فلينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾.

وَكُنْ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا رُسُلُوهَ ۚ فَاصْبِرْ لَهَا حَسَابًا شَدِيدًا ۖ وَصَلِّهَا عَذَابًا لَّكَرًا ۖ فَذَاقَتْ بِآلِهَا حَسْرَةً ۖ أَفَدَّ اللَّهُ لَهَا ۖ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَتْلِبُ الَّذِينَ آمَنُوا ۖ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ رُسُلًا يَلْعَلُ عَلَيْكُمْ مَا يُبَيِّنُ اللَّهُ مِيزَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ أَتْلَفْتُمْ إِلَى التَّوْبَةِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَصَلَّ مِلًّا بِرَحْمَةٍ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ أَلَا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا ۖ اللَّهُ الَّذِي عَلَّمَ سَبْعَ مِثْرَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ وَمِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ ۖ يَبَيِّنُ لِلْعَالَمِينَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ

لما ذكر سبحانه ما تقدّم من الأحكام، حذر من مخالفتها، وذكر عتق قوم خالفوا أوامره، فحل بهم عذابه، فقال: ﴿ووكاين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ يعني: عصت، والمراد أهلها، والمعنى: وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله، أو أعرضوا عن أمر الله ورسله على تضمين عتت معنى أعرضت، وقد قدّمنا الكلام في كلين في سورة

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ يقول: لم ترحم ﴿وعذبناها عذاباً نكراً﴾ يقول: عذاباً عظيماً منكرًا. وأخرج ابن مردويه عنه: ﴿قد أنزل الله إليكم نكراً رسولاً﴾ قال: محمداً ﷺ. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال له رجل: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ إلى آخر السورة، فقال ابن عباس: ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر؟ وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبىكم، وأدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى، قال البيهقي: هذا إسناد صحيح، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد ملك. والثانية مسجن الرياح، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الرياح أن يرسل عليهم ريحاً يهلك عاداً، فقال: يا رب أرسل عليهم من الرياح قدر منخر الثور؟ فقال له الجبار: إن تكفا الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهي التي قال الله في كتابه: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ [الذاريات: 42] والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، فقالوا: يا رسول الله للنار كبريت؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده: إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسي لماعت، إلى آخر الحديث. قال الذهبي متعقباً للحاكم: هو حديث منكر. وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي عن ابن عباس قال: سيد السموات السماء التي فيها العرش، وسيد الأرضين الأرض التي نحن فيها.

تفسير سورة التحريم

وهي منسية. قال القرطبي: في قول الجميع، وتسمى سورة النبي. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة التحريم بالمدينة، ولطف ابن مردويه سورة المحرم. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء، ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ [أي: سورة التحريم].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ بَيْنَ مَرْجَاتِ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَجِمَ ❶ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلِيلَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ❷ وَلَا أَمْرَ أَتَىٰ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاجِهِمْ حَيًّا قَلَّمَا بَأَتْ بِهِمْ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ

بالتحتية، وقرأ نافع، وابن عامر بالنون، وجمع الضمير في ﴿خالدين فيها أبداً﴾ باعتبار معنى من، ووحدته في يخله باعتبار لفظها، وجملة ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في خالدين على التداخل، أو من مفعول يخله على التراناف؛ ومعنى ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ أي: وسع له رزقه في الجنة ﴿الله الذي خلق سبع سموات﴾ الاسم الشريف مبتدأ، وخبره الموصول مع صلته ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أي: وخلق من الأرض مثلهن يعني: سبعاً.

واختلف في كيفية طبقات الأرض. قال القرطبي في تفسيره: واختلف فيهن على قولين: أحدهما، وهو قول الجمهور أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة، كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله. وقال الضحاك: إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. والأول أصح؛ لأن الأخبار دالة عليه في الترمذي، والنسائي، وغيرهما، وقد مضى ذلك مبيناً في البقرة قال: وفي صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين» إلى آخر كلامه، وسيأتي في آخر البحث ما يقوي قول الجمهور. قرأ الجمهور (مثلهن) بالنصب عطفاً على ﴿سبع سموات﴾ أو على تقدير فعل أي: وخلق من الأرض مثلهن. وقرأ عاصم في رواية عنه بالرفع على الابتداء، والجار والمجرور قبله خبره ﴿يُنْزَلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها، والأمر الوحي. قال مجاهد: ينزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين. وقال الحسن: بين كل سماء وبين الأرض. وقال قتادة: في كل أرض من أرضه، وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره، وقضاء من قضائه، وقيل: بينهن إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أدناها، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها، وقيل: هو ما يبرر فيهن من عجب تبديره، فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار، والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها، فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: وهذا هو مجال اللغة واتساعها، كما يقال للموت: أمر الله وللريح والسحاب، ونحوها. قرأ الجمهور (ينزل الأمر) من التنزل، ورفع الأمر على الفاعلية، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه (ينزل) من الإنزال، ونصب الأمر على المفعولية، والفاعل الله سبحانه، واللام في ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾ متعلق بخلق، أو ببيتنزل، أو بمقدر أي: فعل ذلك؛ لتعلموا كمال قدرته، وإحاطته بالأشياء، وهو معنى ﴿وان الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان، وانتصاب علماً على المصدورية؛ لأن أحاط بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محذوف أي: أحاط إحاطة علماً، ويجوز أن يكون تمييزاً.

التي ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هي سبب نزول الآية أنه حَرَّمَ أَوْلَاهُ، ثم حلف ثانياً، كما قَدَّمْنَا ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم، والمتولي لاموركم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله ﴿وَإِنْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال أكثر المفسرين: هي حفصة كما سبق، والحديث، هو تحريم مارية، أو العسل، أو تحريم التي وهبت نفسها له، والعامل في الظرف فعل مقدر أي: وانكر إذ أسر. وقال الكلبي: أسر إليها أن أبك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي ﴿فَلَمَّا نَبَاتَ بِهِ﴾ أي: أخبرت به غيرها ﴿وَإِظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها ﴿وَعَرَفَ بَعْضُهُ﴾ أي: عَرَفَ حفصة بعض ما أخبرت به. قرأ الجمهور (عَرَفَ) مشدداً من التعريف، وقرأ علي، وطلحة بن مصرف، وأبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وقتادة، والكلبي بالتخفيف. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الأولى لقوله: ﴿وَإِعْرَاضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي: لم يعرفها إياه، ولو كان مخففاً لقال في ضده: وأنكر بعضاً ﴿وَإِعْرَاضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي: وأعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر في الناس، وقيل: الذي أعرض عنه هو حديث مارية. وللمفسرين ما هنا خبط وخلط، وكل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف، والإعراض بما يطابق بعض ما ورد في سبب النزول، وسنوضح لك ذلك إن شاء الله ﴿فَلَمَّا نَبَاهَا بِهِ﴾ أي: أخبرها بما أفشيت من الحديث ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا﴾ أي: من أخبرك به ﴿قَالَ نَبَاتِي لِلْعَلِيمِ الْخَبِيرِ﴾ أي: أخبرني الذي لا يخفى عليه خافية ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب لعائشة وحفصة أي: إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، ومعنى ﴿صَغَتْ﴾ عدلت ومالت عن الحق، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله ﷺ، وهو إفشاء الحديث. وقيل المعنى: إن تتوبا إلى الله، فقد مالت قلوبكما إلى التوبة، وقال: قلوبكما، ولم يقل قلوبكما؛ لأن العرب تستكره الجمع بين تثنييتين في لفظ واحد ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: تتظاهرا، قرأ الجمهور (تظاهرا) بحذف إحدى التاءين تخفيفاً. وقرأ عكرمة (تتظاهرا) على الأصل. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، ونافع، وعاصم⁽¹⁾ في رواية عنهما (تظهرا) بتشديد الظاء، والهاء بدون الف، والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون، والمعنى: وإن تعاضدا وتعاونوا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سره ﴿فَإِنْ اللَّهُ هُوَ مَوْلَاهُ وَجَبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فإن الله يتولى نصره وكذلك جبريل، ومن صلح من عباده المؤمنين، فلن يعدم ناصر ينصره ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد نصر الله له، ونصر جبريل، وصالح المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي: أعوان يظهرونه، والملائكة مبتدأ، وخبره ظهير. قال أبو علي الفارسي: قد جاء

عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَاهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَاتِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٠﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجَبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿١١﴾ عَنِ زَيْدٍ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَبُولَهُ أَرْزَبًا خَيْرًا مِنْكَ مُمْلِكِينَ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَدْخَالُهُ عَلَيْكَ وَتَنْكِحِي وَأَنْكَحَا ﴿١٢﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ اختلف في سبب نزول الآية على أقوال: الأول قول أكثر المفسرين. قال الواحدي: قال المفسرون: «كان النبي ﷺ في بيت حفصة، فزارت أباه، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبي ﷺ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، فلما رأى النبي ﷺ في وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها: لا تخبري عائشة، ولك علي أن لا أقربها أبداً، فأخبرت حفصة عائشة، وكانتا متصافيتين، فغضبت عائشة، ولم تزل بالنبي ﷺ حتى حلف أن لا يقرب مارية». فأنزل الله هذه السورة. قال القرطبي: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة، وذكر القصة. وقيل: السبب أنه كان ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولوا له إذا دخل عليهما إنا نجد منك ريح مغافير. وقيل: السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. وسيأتي دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله، وستعرف كيفية الجمع بينهما، وجملة ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ مستأنفة، أو مفسرة لقوله: ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو في محل نصب على الحال من فاعل تحرم أي: مبتغياً به مرضاة أزواجك، ومرضاة اسم مصدر، وهو الرضى، وأصله مرضوة، وهو مضاف إلى المفعول أي: أن ترضي أزواجك، أو إلى الفاعل أي: أن يرضين هن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك، قيل: وكان لك ذنباً من الصفات، فلذا عاتبه الله عليه، وقيل: إنها معاتبة على ترك الأولى ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: شرع لكم تحليل أيمانكم، وبين لكم ذلك، وتحلة أصلها تحلة، فادغمت. وهي من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية، فكان اليمين عقد، والكفارة حل؛ لأنها تحل للحالف ما حرّمه على نفسه. قال مقاتل: المعنى قد بين الله كفارة أيمانكم في سورة المائدة. أمر الله نبيه ﷺ أن يكفر يمينه، ويراجع ولييته، فأعتق رقبة. قال الزجاج: وليس لأحد أن يحرم ما أحل الله.

قلت: وهذا هو الحق أن تحريم ما أحل الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه. فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره، ومعاتبته لنبيه ﷺ في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك، والبحث طويل، والمذاهب فيه كثيرة، والمقالات فيه طويلة، وقد حققناه في مؤلفتنا بما يشفي.

واختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا؟ وفي ذلك خلاف، وليس في الآية ما يدل على أنه يمين؛ لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له، ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وقد ورد في القصة

(1) قوله: ونافع وعاصم، وذلك في غير المشهور الآن عنهما اه. ع.

عائشة: نحلها تجرس عرفطاً فحرمها، فنزلت الآية. وأخرج النسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ﴾ وأخرج البزار، والطبراني، قال السيوطي: بسند صحيح عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المراتن اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة، وكان يدور الحديث في شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة، فقالت: يا رسول الله لقد جئت إلي بشيء ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومي وفي يوري على فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرمها، فلا أقربها أبداً؟» قالت: بلى فحرمها وقال: لا تنكري ذلك لأحد، فنكرت لعائشة، فآظهره الله عليه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ﴾ الآيات كلها، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كثر عن يمينه وأصاب مارية. وأخرجه ابن سعد، وابن مردويه عنه باطل من هذا، وأخرجه ابن مردويه أيضاً من وجه آخر عنه باخصر منه، وأخرجه ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عنه مختصراً بلفظ قال: حرم سريته، وجعل ذلك سبب النزول في جميع ما روي عنه من هذه الطرق، وأخرج الهيثم بن كليب في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تحذني أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام، فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: فوالله لا أقربها، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن أبي هريرة أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف، وسنده ضعيف. فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه. وأما ما قيل: من أن السبب هو تحريم المرأة التي وهبت نفسها، فليس في ذلك إلا ما روى ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. قال السيوطي: وسنده ضعيف. ويرد هذا أيضاً أن النبي ﷺ لم يقبل تلك الواهبه لنفسها، فكيف يصح أن يقال: إنه نزل في شأنها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ فإن من رد ما وهب له لم يصح أن يقال: إنه حرّمه على نفسه، وأيضاً لا ينطبق على هذا السبب قوله: ﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾ إلى آخر ما حكاه الله. وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المراتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، فأخبره أنهما عائشة وحفصة، ثم نكر قصة الإيلاء، كما في الحديث الطويل، فليس في هذا نفي لكون السبب هو ما قدمنا من قصة العسل، وقصة السرية؛ لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين، وذكر فيه أن أزواج النبي ﷺ

فعليل للكثرة كقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ [المعارج: 10] قال الواحدي: وهذا من الواحد الذي يؤدي عن الجمع كقوله: ﴿وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء: 69] وقد تقرّر في علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع. وقيل: كان التظاهر بين عائشة وحفصة في التحكم على النبي ﷺ في النفقة ﴿عَسَى رَبِّهِ أَنْ يُلْقِيَكُمْ أَنْ يَبْلُغَ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُمْ﴾ أي: يعطيه بلكن أزواجاً أفضل منكم، وقد علم الله سبحانه أنه لا يلقهون؛ ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبيله خيراً منهن تخويفاً لهن. وهو كقوله: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدُّكُمْ قَوْمًا يَبْغُوا﴾ [محمد: 38] فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم. ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله: ﴿مَسْلَمَاتٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ أي: قاتمات بفرائض الإسلام مصنفات باله وملائكته، وكتبه ورسله، والقدر خيره وشره. وقال سعيد بن جبير: ﴿مَسْلَمَاتٌ﴾ أي: مخلصات وقيل معناه: مسلمات لأمر الله ورسوله ﴿قَاتِمَاتٌ﴾ مطيعات لله، والقنوت الطاعة، وقيل: مصليات ﴿تَائِبَاتٌ﴾ يعني: من الذنوب ﴿عَابِدَاتٌ﴾ لله متذللات له. قال الحسن، وسعيد بن جبير: كثيرات العبادة ﴿سَائِحَاتٌ﴾ أي: صائحات. وقال زيد بن أسلم: مهاجرات، وليس في أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة. قال ابن قتبية، والفراء، وغيرهما: وسمي الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه، وقيل المعنى: ذاهبات في طاعة الله، من ساح الماء إذا ذهب، وأصل السياحة الجولان في الأرض، وقد مضى الكلام على السياحة في سورة براءة ﴿ثِيَابٌ وَبِكَارٍ﴾ وسط بينهما العاطف لتتألفيهما، والثياب: جمع ثياب، وهي المرأة التي قد تزوجت، ثم ثابت عن زوجها فعانت، كما كانت غير ذات زوج. والأبكار جمع بكر، وهي العنراء، سميت بذلك؛ لأنها على أول حالها التي خلقت عليه.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمشك عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها لبناً، أو عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة إن آتينا نخل عليها النبي ﷺ، فلتقلل إني أجد منك ريح مغافير، فيخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: «لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود»، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فدخل على حفصة، فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، وأه لا أشربه أبداً»، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ﴾ الآية. وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ﴾ قالت: كانت عندي عكة من عسل أبيض، فكان النبي ﷺ يلعق منها، وكان يحبه. فقالت له

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا قَوًّا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوُّهُمَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا إِلَيْهِمْ إِلَّا عُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا يُبَوِّأُ لَهُمْ إِلَى اللَّهِ تُوبَةً تَوْفِيقًا فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ أَلَّا يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَهُمْ يُحِلُّ لَكُمْ جَنَّتَيْ بَيْتِهَا يُحَرِّمُ الْآخَرَتَيْنِ يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَآخِرُ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بفعل ما أمركم به، وترك ما نهلكم عنه ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بأمرهم بطاعة الله، ونهيهم عن معاصيه ﴿نَارًا وَقَوُّهُمَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي نارا عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، وقد تقدم بيان هذا في سورة البقرة. قال مقاتل بن سليمان: المعنى: قوا أنفسكم وأهليكم بالآداب الصالحة النار في الآخرة. وقال قتادة، ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم. قال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الآداب، ومن هذا قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132] وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ أي: على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها، غلاظ على أهل النار شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحمهم؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه، وحبب إليهم تعذيب خلقه، وقيل: المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان، وقيل: غلاظ الأقوال شداد الأفعال، وقيل: الغلاظ ضخام الأجسام، والشداد الأقوياء ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أي: لا يخافونه في أمره، و«ما» في «ما أمرهم» يجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف أي: لا يعصون الله الذي أمرهم به، ويجوز أن تكون مصدرية أي: لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتغال من الاسم الشريف، أو على تقدير نزع الخافض أي: لا يعصون الله في أمره ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: يؤذونه في وقته من غير تراخ لا يؤخروه عنه ولا يقدمونه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم هذا القول عند إسخالهم النار تأليسا لهم وقطعا لأطماعهم ﴿إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال في الدنيا، ومثل هذا قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: 57] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي: تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه، وصفت بذلك على الإسناد المجازي، وهو في الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنوب، وترك المعاودة له.

والتوبة فرض على الأعيان. قال قتادة: التوبة النصوح الصالحة، وقيل: الخالصة. وقال الحسن: التوبة النصوح أن يفيض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا نكره. وقال الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع

يراجعنه، وتهجره إحداهما اليوم إلى الليل، وإن نكس سبب الاعتزال لا سبب نزول ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْزَمُ مَا أَحْلَ اللَّهُ لَكَ﴾. ويؤيد هذا ما قدمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر: من المراتان اللتان تظاهرتا؟ فأخبره بأنهما حفصة وعائشة، وبين له أن السبب قصة مارية. هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية، ونفع الاختلاف في شأنه، فاشدد عليه يدك؛ لتنجو به من الخبط والخلط الذي وقع للمفسرين. وأخرج عبد الرزاق، والبخاري، وابن مردويه عن ابن عباس قال: في الحرام يكفر، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]. وأخرج ابن المنذر، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عنه أنه جاءه رجل، فقال: إني جعلت امرأتي علي حراما، فقال: «كذبت ليست عليك بحرام، ثم تلا ﴿لِمَ تَحْزَمُ مَا أَحْلَ اللَّهُ لَكَ﴾ قال: عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة». وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن عائشة قالت: لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح، فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ فأحل يمينه وانفق عليه. وأخرج ابن عدي، وابن عساکر عن عائشة في قوله: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قالت: أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي. وأخرج ابن عدي، وأبو نعيم في الصحابة، والعشاري في فضائل الصديق، وابن مردويه، وابن عساکر من طرق عن علي، وابن عباس قال: والله إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال لحفصة: «أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي، فإياك أن تخبري أحدا بهذا». قلت: وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْزَمُ مَا أَحْلَ اللَّهُ لَكَ﴾ بل فيه أن الحديث الذي أسره ﷺ هو هذا، فعلى فرض أن له إسنادا يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة، وهي مقومة عليه ومرجحة بالنسبة إليه. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ قال: زأغت وأثمت. وأخرج ابن المنذر عنه قال: مالت. وأخرج ابن عساکر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه في قوله: ﴿وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: أبو بكر وعمر. وأخرج ابن عساکر عن ابن مسعود مثله. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في فضائل الصحابة من وجه آخر عنه مثله. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر، وابن عباس مثله. وأخرج الحاكم عن أبي أمامة مرفوعا مثله. وأخرج ابن أبي حاتم. قال السيوطي بسند ضعيف عن علي مرفوعا قال: هو علي بن أبي طالب. وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب». وأخرج ابن مردويه، وابن عساکر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: هو علي بن أبي طالب. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن بريدة في قوله: ﴿ثِيَابًا وَبِكَارًا﴾ قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذه أن يزوجه بالثياب أسية امرأة فرعون، وبالبكر مريم بنت عمران.

وصححه عن ابن مسعود قال: التوبة النصوح تكفر كل سيئة، وهو القرآن، ثم قرأ هذه الآية. وأخرج الحاكم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: **﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهَ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى﴾** الآية قال: ليس لأحد من الموحدين إلا يعطى نورا يوم القيامة، فاما المنافق فيطفا نوره، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: **﴿ربنا اتمم لنا نورنا﴾**.

يَتَأْتِي النَّبِيُّ جِهَدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنُفْسُ النَّصِيرِ ① ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٌ نُوحٌ وَأَمْرَأَتٌ لُوطٌ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَفِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِطِينَ ② وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتٌ رَعِيَّةٌ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَتَى لِي عِنْدَكَ بَيِّنَاتٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَتُخْبِنُ مِنْ رِعْوَنٍ وَعَلَيْهِ وَتُخْبِنُ مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ③ وَرَبِّهِ أَتَتْ عِمْرَانَ الْكَلْبَ أَصْنَتٌ رَجُلًا فَفَتَحْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْغَائِبِينَ ④

قوله: **﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾** أي: بالسيف والحجة، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة براءة **﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾** أي: شدد عليهم في الدعوة، واستعمل الخشونة في أمرهم بالشرائع. قال الحسن: أي: جاهدكم بإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود **﴿وما واهم جهنم﴾** أي: مصيرهم إليها يعني: الكفار والمنافقين **﴿ونفس النصير﴾** أي: المرجع الذي يرجعون إليه **﴿ضرب الله مثلا للنذين كفروا﴾** قد تقدم غير مرة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة أي: جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة، وأنه لا يغني أحد عن أحد **﴿امرات نوح وامرات لوط﴾** هذا هو المفعول الأول، ومثلا للمفعول الثاني حسبما قدما تحقيقه، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له، وإيضاح لمعناه **﴿كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين﴾** وهما نوح ولوط أي: كانتا في عصمة نكاحهما **﴿فخانتاهما﴾** أي: فوقعت منهما الخيانة لهما. قال عكرمة، والضحاك: بالكفر، وقيل: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه، وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبي قط. وقيل: كانت خيانتها للنفق، وقيل: خانتاهما بالنميمة **﴿فلم يفتيا عنهما من الله شيئا﴾** أي: فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئا من النفع، ولا نفعاً عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله شيئا من الدفع **﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾** أي: وقيل لهما في الآخرة، أو عند موتهما: ادخلا النار مع الداخلين لها من أهل الكفر والمعاصي. وقال يحيى بن سلام: ضرب الله مثلا للنذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه. وما أحسن من قال، فلن نكر امرأتي النبين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله

بالبدن، والاطمئنان على أن لا يعود. وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة. قرأ الجمهور (نصوحاً) بفتح النون على الوصف للتوبة أي: توبة بالغة في النصح، وقرأ الحسن، وخارجة، وأبو بكر عن عاصم بضمها أي: توبة نصح لأنفسكم، ويجوز أن يكون جمع ناصح، وإن يكون منصراً يقال: نصح نصيحة ونصوحاً. قال المبرد: أراد توبة ذات نصح **﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** بسبب تلك التوبة، وعسى وإن كان أصلها للإطعام، فهي من الله واجبة؛ لأن الثواب من الذنب كمن لا ذنب له، ويخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه، وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ بالجزء عطفاً على محل عسى كأنه قال: توبوا بوجوب تكفير سيئاتكم، ويخلكم **﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾** الظرف متعلق ببيخلكم أي: يبخلكم يوم لا يخزي الله النبي **﴿والذين آمنوا معه﴾** والموصول معطوف على النبي، وقيل: الموصول مبتدأ، وخبره **﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبإيمانهم﴾** والأول أولى، وتكون جملة **﴿نورهم يسعى﴾** في محل نصب على الحال، أو مستأنفة لبيان حالهم، وقد تقدم في سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط، وجملة **﴿يقولون ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا﴾** إنك على كل شيء قدير في محل نصب على الحال أيضاً، وعلى الوجه الآخر تكون خبراً آخر، وهذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين، كما تقدم بيانه وتفصيله.

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب في قوله: **﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾** قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأنبؤهم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهلكم بالذكر ينحكم الله من النار. وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال: أتبوا أهليكم. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب لحدهم مسيرة مائة خريف ليس في قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لنن قرنه إلى قمه. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح، قال: أن يتوب الرجل من العمل السيء، ثم لا يعود إليه أبداً. وأخرج أحمد، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «التوبة من الذنب أن يتوب منه، ثم لا يعود إليه أبداً»، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف، والصحيح الموقوف، كما أخرجه موقوفاً عنه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي. وأخرج الحاكم

يرشد أتم إرشاد ويلوح أبليغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً، وقد عصمهما الله عن نذب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون﴾ الكلام في هذا الكلام في المثل الذي قبله أي: جعل الله حال امرأة فرعون مثلاً لحال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة والتمسك بالدين، والصبر في الشدة، وأن صولة الكفر لا تضرهم، كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت كفر الكافرين، وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ الظرف متعلق بضرب، أو بمثلاً أي: ابن لي بيتاً قريباً من رحمتك، أو في أعلى درجات المقربين منك، أو في مكان لا يتصرف فيه إلا بإذنك، وهو الجنة ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾ أي: من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشر ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ قال الكلبي: هم أهل مصر. وقال مقاتل: هم القبط. قال الحسن، وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجا، ورفعها إلى الجنة فهي تاكل وتشرب ﴿ومريم لبنت عمران التي أحصنت فرجها﴾ معطوف على امرأة فرعون أي: وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران أي: حالها وصفتها، وقيل: إن الناصب لمريم فعل مقتر أي: وانكر مريم، والمقصود من نكرها أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفاهما على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿التي أحصنت فرجها﴾ أي: عن الفواحش، وقد تقدم تفسير هذا في سورة النساء. قال المفسرون: المراد بالفرج هنا الجيب لقوله: ﴿ففحننا فيه من روحنا﴾ وذلك أن جبريل نفخ في جيب درعها فحبلت بعبسى ﴿وصنعت بكلمات ربها﴾ يعني: شرائعه التي شرعها لعباده، وقيل: المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ [مريم: 19] الآية. وقال مقاتل: يعني بالكلمات: عيسى. قرأ الجمهور (وصنعت) بالتشديد، وقرأ حمزة الأموي، ويعقوب، وقتادة، وأبو مجلز، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف. وقرأ الجمهور (بكلمات) بالجمع، وقرأ الحسن، ومجاهد، والجحدري (بكلمة) بالإنفراد. وقرأ الجمهور (وكتابه) بالإنفراد، وقرأ أهل البصرة، وحفص (كتبه) بالجمع، والمراد على قراءة الجمهور الجنس، فيكون في معنى الجمع، وهي الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿وكانت من القانتين﴾ قال قتادة: من القوم المطيعين لربهم. وقال عطاء: من المصلين، كانت تصلي بين المغرب والعشاء، ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة، وقال: من القانتين، ولم يقل من القانتات؛ لتغليب الذكور على الإناث.

وإبن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فحنناهما﴾ قال: ما زنتا؛ أما خيانة امرأة نوح، فكانت تقول للناس: إنه مجنون؛ وأما خيانة امرأة لوط، فكانت تدل على الضيف، فترك خيانتها. وأخرج ابن المنذر عنه: قال: ما بغت امرأة نبي قط، وقد رواه ابن عساکر مرفوعاً. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة: أن فرعون وتد لامراته أربعة أوتاد، وأضعفها على صدرها⁽¹⁾، وجعل على صدرها رحي، واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء، فـ ﴿قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ إلى قوله: ﴿من الظالمين﴾ ففرج الله لها عن بيتها في الجنة فزات. وأخرج أحمد، والطبراني، والحاكم، وصححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرها في القرآن قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً﴾ الآية. وفي الصحيحين، وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». وأخرج وكيع في الغرر عن ابن عباس في قوله: ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾ قال: من جماعته.

تفسير سورة الملك

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة تبارك الملك. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن الضريس، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾» [أي: سورة الملك]. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾». وأخرج الترمذي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن نصر، والبيهقي في الدلائل عن ابن

وقد أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر،

(1) لعله: على ظهرها بدليل قوله بعد: وحمل على صدرها اهـ. مصححه.

عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خيابه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية تنجي من عذاب القبر». قال الترمذي بعد إخراجها: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر». وأخرجه أيضاً النسائي وصححه، والحاكم. وأخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج، وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت علي سورة تبارك، وهي ثلاثون آية جملة واحدة، وهي المانعة في القبور». وأخرج عبد بن حميد في مسنده، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا اتحلف بحديث تفرح به؟ قال: بلى قال: اقرا «تبارك الذي بيده الملك» وعلمها اهلك، وجميع ولك، وصبيان بيتك، وجيرانك، فإنها المنجية، والمجالدة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن ينجيها الله من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر. قال رسول الله ﷺ: «لو بدت أنها في قلب كل إنسان من امتي».

بالبدين واتصاله به، وقيل: هي ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حياً، وقيل: المراد الموت في الدنيا، والحياة في الآخرة. وقدم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة، والحياة عارضة لها، وقيل: لأن الموت أقرب إلى القهر. وقال مقاتل: خلق الموت يعني: النطفة، والمضغة والعلقة، والحياة يعني: خلقه إنساناً، وخلق الروح فيه، وقيل: خلق الموت على صورة كبش لا يمر على شيء إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس لا تمر بشيء إلا حيي، قاله مقاتل والكلبي. وقد ورد في التنزيل: ﴿قُلْ يَتُوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11] وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتُوفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: 50] وقوله: ﴿تُوفَّتْ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61] وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَتُوفَى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42] وغير ذلك من الآيات ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللام متعلقة بخلق أي: خلق الموت والحياة؛ ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملاً، فيجازيكم على ذلك، وقيل المعنى: ليبلوكم أيكم أكثر للموت نكراً وأشد منه خوفاً، وقيل: أيكم أسرع إلى طاعة الله، وأودع عن محارب الله. وقال الزجاج: اللام متعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت. وقال الزجاج أيضاً، والفراء: إن قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ لم يقع على أي، لأن فيما بين البلوى وأي إضمار فعل، كما تقول: بلوكم لأنظر أيكم أطوع، ومثله قوله: ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ﴾ [القلم: 40] أي: سلم ثم انظر أيهم، فايكم في الآية مبتدأ، وخبره أحسن؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبح لا إلى الحسن والاحسن فقط، للإيدان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يغالب ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب وأناب ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ الموصول يجوز أن يكون تابعاً للعزيز، الغفور نعتاً، أو بياناً، أو بدلاً، وأن يكون منقطعاً عنه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح، وطباقاً صفة لسبع سموات أي: بعضها فوق بعض، وهو جمع طبق نحو جبل وجبال، أو جمع طبقة نحو رجة ورحاب، أو مصدر طابق، يقال: طابق مطابقة وطباقاً، ويكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف أي: ذات طباق، ويجوز أن يكون منتصباً على المصدرية بفعل محذوف أي: طوبقت طباقاً ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ هذه الجملة صفة ثانية لسبع سموات، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له، و«من» مزيدة لتأكيد النفي. قرأ الجمهور (من تفاوت). وقرأ ابن مسعود وأصحابه، وحمزة، والكسائي (تَفَوُّتٍ) مشدداً بنون ألف، وهما لغتان كالتعاهد والتعهد، والتحامل والتحمل، والمعنى على القراءتين ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين، ولا اعوجاج ولا تخالف، بل هي مستوية مستقيمة دالة على خالقها، وإن

عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خيابه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية تنجي من عذاب القبر». قال الترمذي بعد إخراجها: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر». وأخرجه أيضاً النسائي وصححه، والحاكم. وأخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج، وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت علي سورة تبارك، وهي ثلاثون آية جملة واحدة، وهي المانعة في القبور». وأخرج عبد بن حميد في مسنده، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا اتحلف بحديث تفرح به؟ قال: بلى قال: اقرا «تبارك الذي بيده الملك» وعلمها اهلك، وجميع ولك، وصبيان بيتك، وجيرانك، فإنها المنجية، والمجالدة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن ينجيها الله من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر. قال رسول الله ﷺ: «لو بدت أنها في قلب كل إنسان من امتي».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ أَلْهَافُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي عَلَّمَ الْقُرْآنَ وَالْقَوَىٰ يُسَلِّمُهُ أَكْبَرُ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ الَّذِي عَلَّمَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَاتَّخِذِ الْبَصَرَ كُلَّ تَرْتِيبٍ مِنْ طُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ اتَّخِذِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذِّينَ يَصْنَعُونَ وَجْهًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرِيبُهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أَقْبَلُوا بِهَا عَمْرًا مَّا شَهِقُوا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلُوا مِنْ حَزَنَتِهَا أَلَمْ يَأْكُرْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلْ قَدِ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن مَّوَدٍّ إِنَّهُ سَمْعٌ وَلَا فِي سُلَكٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَصْحَابُ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

قوله: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ تبارك تفاعل من البركة، والبركة النماء والزيادة، وقيل: تعالى وتعظم عن صفات المخلوقين، وقيل: دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده، ولا آخر لدوامه. وقال الحسن: تبارك تقس، وصيغة التفاعل للمبالغة، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء، والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء، وقيل: المراد بالملك ملك النبوة، والأول أولى؛ لأن الحمل على العموم أكثر مدحاً وأبلغ ثناء، ولا وجه للتخصيص ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام، ورفع ووضع، وإعطاء ومنع ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ الموت انقطاع تعلق الروح بالبدين ومفارقة له، والحياة تعلق الروح

يكون باقياً على مصدريته، ويقدر مضاف محذوف أي: ذات رجم، وجمع المصدر باعتبار أنواعه. وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ راجع إلى المصابيح على حذف مضاف أي: شهباء، وهي نارها المقتبسة منها لا هي نفسها؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خُفِضَ الْخُفَّةُ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفوات: 10] ووجه هذا أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول ولا يرجم بها، كذا قال أبو علي الفارسي جواباً لمن سأل: كيف تكون المصابيح زينة وهي رجوم؟ قال القشيري: وأمثلة من قوله هذا أن نقول: هي زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك، فقد تكلم فيما لا يعلم، وتعدى وظلم؛ وقيل: معنى الآية: وجعلناها ظنوناً للشياطين الإنس، وهم المنجمون ﴿وَوَاعْتَبْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: واعتدنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب عذاب السعير أي: عذاب النار، والسعير: أشد الحريق، يقال: سعرت النار، فهي مسعورة ﴿وَاللَّيْنِ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من كفار بني آدم، أو من كفار الفريقين ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ الجمهور برفع (عذاب) على أنه مبتدأ، وخبره ﴿وَاللَّيْنِ كَفَرُوا﴾. وقرأ الحسن، والضحاك، والأعرج بنصبه عطفاً على ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ما يصيرون إليه، وهو جهنم ﴿وَإِذَا لَقُوا فِيهَا﴾ أي: طرحوا فيها كما يطرح الحطب في النار ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ أي: صوتاً كصوت الحمير عند أول نهيقها، وهو أقبح الأصوات، وقوله: ﴿لَهَا﴾ في محل نصب على الحال أي: كأنها لها، لأنه في الأصل صفة، فلما قُضِيَتْ صارت حالا. وقال عطاء: الشهيق هو من الكفار عند إلقاءهم في النار، وجملة ﴿وَهِيَ تَقُورُ﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل، ومنه قول حسان:

تركتم قلوبكم لأشيء فيه وقدر الفير حمامية تغور
﴿تَكَادُ تَمِيزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: تكاد تنقطع وينفصل بعضها من بعض من تغيطها عليهم. قال ابن قتيبة: تكاد تنشق غيظاً على الكفار. قرأ الجمهور (تميز) بقاء واحدة مخففة، والأصل تتميز بقاءين. وقرأ طلحة بقاءين على الأصل. وقرأ البزي عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى التاءين في الأخرى. وقرأ الضحاك (تمايز) بالالف وتاء واحدة، والأصل تمايز، وقرأ زيد بن علي (تميز) من ماز يميز، والجملة في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ، وجملة: ﴿كَلِمَا لَقِيَ فِيهَا فُوجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مستأنفة لبيان حال أهلها، أو في محل نصب على الحال من فاعل تميز، والفوج الجماعة من الناس أي: كلما لقي في جهنم جماعة من الكفار سألهم خزانة من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع ﴿إِلَّا مَن ياتُكُمُ﴾ في الدنيا ﴿فَنَذِيرٌ﴾ ينذركم هذا اليوم، ويحذركم منه، وجملة ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل:

اختلفت صورها وصفاتها، فقد اتفقت من هذه الحيثية ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ الفطور: الشقوق والصدور والخروق أي: اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعينة. أخبر أولاً بأنه لا تفاوت في خلقه، ثم أمر ثانياً بترديد البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة. قال مجاهد، والضحاك: الفطور الشقوق جمع فطر وهو الشق. وقال قتادة: هل ترى من خلل؟ وقال السدي: هل ترى من خروق، وأصله من التفطر والانفطار، وهو التشقق والانشقاق، ومنه قول الشاعر:

بنى لكم بلا عمد سماء وزينها فما فيها فطور
وقول الآخر:

شقت القلب ثم ردت فيه هواك فليمن فالتام الفطور
﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتين مرة بعد مرة، وانتصابه على المصدر، والمراد بالتثنية التكرير، كما في لبيك وسعديك أي: رجعة بعد رجعة وإن كثرت. ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة، أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية، ولهذا قال أولاً: ﴿ثُمَّ تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ ثم قال ثانياً ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ ثم قال ثالثاً ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة، وأقطع للمعذرة ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً عن أن يرى شيئاً من ذلك، وقيل: معنى خاسئاً: مبعداً مطروداً عن أن يبصر ما التمسه من العيب، يقال: خسات الكلب أي: أبعدته وطردته. قرأ الجمهور (ينقلب) بالجزم جواباً للامر. وقرأ الكسائي في رواية بالرفع على الاستئناف ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليلاً منقطع. قال الزجاج: أي: وقد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً، وهو فاعيل بمعنى فاعل من الحسور، وهو الإعياء، يقال: حسر بصره يحسر حسوراً أي: كل وانقطع، ومنه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إلي الطرف وهو حسير
﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ بَيَّنَّ سبحانه بعد خلق السموات، وخلوها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة، فصارت في أحسن خلق وأكمل صورة وأبهج شكل، والمجيء بالقسم لإبراز كمال العناية، والمصابيح جمع مصباح، وهو السراج، وسميت الكواكب مصابيح؛ لأنها تضيء كإضاءة السراج وبعض الكواكب، وإن كان في غير سماء الدنيا من السموات التي فوقها، فهي تتراءى كأنها كلها في سماء الدنيا؛ لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونها أجراماً صقيلة شفافة ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: وجعلناها المصابيح رجوماً يرجم بها الشياطين، وهذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى، وهي كونها زينة للسماء الدنيا؛ والمعنى أنها يرجم بها الشياطين الذين يستترون السم، والرجوم جمع رجم بالفتح، وهو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به، كما في قولهم: الدرهم ضرب الأمير أي: مضروبة، ويجوز أن

وفي هذا وعيد شديد. ثم خوف سبحانه الكفار. فقال: ﴿ءَأَمْنْتُمْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: عقوبة من في السماء، وقيل: من في السماء قدرته، وسلطانه، وعرشه، وملأئكته، وقيل: من في السماء من الملائكة، وقيل: المراد جبريل، ومعنى ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ يقلعها ملتبسة بكم، كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم نلولا تمشون في مناكبها، وقوله: ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ بدل اشتغال من الموصول أي: ءَأَمْنْتُمْ خسفه، أو على حذف من أي: من أن يخسف ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب، وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون. قرأ الجمهور (ءَأَمْنْتُمْ) بهزتين، وقرأ البصريون، والكوفيون بالتخفيف، وقرأ ابن كثير بقلب الأولى وأوا. ثم كرر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر، فقال: ﴿لَأَمْنْتُمْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، وقيل: سحب فيها حجارة، وقيل: ريح فيها حجارة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ أي: إنذاري إذا عاينتم العذاب، ولا ينفعكم هذا العلم، وقيل: النذير هنا محمد ﷺ، قاله عطاء، والضحاك. والمعنى: ستعلمون رسولي وصدقه، والأول أولى. والكلام في ﴿أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ كالقلم في ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ فهو: إما بدل اشتغال، أو بتقدير من ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية. كقوم نوح، وعاد، وشمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الرس، وقوم فرعون ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم بما أصبتم به من العذاب الفظيع ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للعطف على مقدر أي: أغفلوا ولم ينظروا، ومعنى ﴿صَافَاتٍ﴾ أنها صافاة لأجنحتها في الهواء، وتبسيطها عند طيرانها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يضممن أجنحتهن. قال النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحه صافاً، وإذا ضمها قابض كأنه يقبضها، وهذا معنى الطيران، وهو بسط الجناح، وقبضه بعد البسط، ومنه قول أبي خراش:

وفي هذا وعيد شديد. ثم خوف سبحانه الكفار. فقال: ﴿ءَأَمْنْتُمْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: عقوبة من في السماء، وقيل: من في السماء قدرته، وسلطانه، وعرشه، وملأئكته، وقيل: من في السماء من الملائكة، وقيل: المراد جبريل، ومعنى ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ يقلعها ملتبسة بكم، كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم نلولا تمشون في مناكبها، وقوله: ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ بدل اشتغال من الموصول أي: ءَأَمْنْتُمْ خسفه، أو على حذف من أي: من أن يخسف ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب، وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون. قرأ الجمهور (ءَأَمْنْتُمْ) بهزتين، وقرأ البصريون، والكوفيون بالتخفيف، وقرأ ابن كثير بقلب الأولى وأوا. ثم كرر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر، فقال: ﴿لَأَمْنْتُمْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، وقيل: سحب فيها حجارة، وقيل: ريح فيها حجارة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ أي: إنذاري إذا عاينتم العذاب، ولا ينفعكم هذا العلم، وقيل: النذير هنا محمد ﷺ، قاله عطاء، والضحاك. والمعنى: ستعلمون رسولي وصدقه، والأول أولى. والكلام في ﴿أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ كالقلم في ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ فهو: إما بدل اشتغال، أو بتقدير من ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية. كقوم نوح، وعاد، وشمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الرس، وقوم فرعون ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم بما أصبتم به من العذاب الفظيع ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للعطف على مقدر أي: أغفلوا ولم ينظروا، ومعنى ﴿صَافَاتٍ﴾ أنها صافاة لأجنحتها في الهواء، وتبسيطها عند طيرانها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يضممن أجنحتهن. قال النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحه صافاً، وإذا ضمها قابض كأنه يقبضها، وهذا معنى الطيران، وهو بسط الجناح، وقبضه بعد البسط، ومنه قول أبي خراش:

يبادر جنح الليل فهو مزابل تحت الجناح بالتبسط والقبض وإنما قال: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ولم يقل قابضات، كما قال صافات! لأن القبض يتجدد تارة فتارة، وأما البسط فهو الأصل، كذا قيل. وقيل: إن معنى ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران، لا قبضها في حال الطيران، وجملة ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يقبضن، أو مستأنفة: لبيان كمال قدرة الله سبحانه. والمعنى: أنه ما يمسكهن في الهواء عند الطيران إلا الرحمن القادر على كل شيء ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء كأنه ما كان ﴿إِنَّمَا هَذَا الَّذِي هُوَ جَنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَوْنِ الرَّحْمَنِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله، والجند الحزب والمنعة. قرأ الجمهور (أَمْن) هذا بتشديد

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، وأبو عبيدة بن الجراح. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿فِي مَنَاقِبِهَا﴾ قال: جبالها. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: أطرافها. وأخرج الطبراني، وابن عدي، والبيهقي في الشعب، والحكيم الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يَحِبَّ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جِبِلَّ لِحَوَىٰ فِي عَتَوٍ﴾ ونفور: قال: في ضلال.

أَمَّنْ يَتَّقِي مُرْكَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَمَّنْ يَتَّقِي سَوَاءً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ رَجُلًا وَكَلَّمَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَلَّلَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُعْشَرُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنَّمَا الْوَعْدُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾ تَلَمَّأَ رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَكَانَ وَعْدُهُ كَمَا فَتَنَّا لَمَسْنَا لَهُمْ مِنَ الْفِتَنِ فَوَلَّوْا الْفِتَنَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَبَ مَاؤُهُمْ غَوَا فَمَنْ يَأْتِيهِمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٢٤﴾

ضرب سبحانه مثلاً للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان مآلهما، فقال: ﴿إِنَّمَا يَمْشِي مَكْبَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ والمكب والمكب: الساقط على وجهه، يقال: كببته فاكب وانكب، وقيل: هو الذي يكب رأسه، فلا ينظر يمينا ولا شمالاً ولا أماماً، فهو لا يامن العثور والانكباب على وجهه. وقيل: أراد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق، فلا يزال

مشيه ينكسه على وجهه. قال قتادة: هو الكافر يكب على معاصي الله في الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على وجهه. والهمزة للاستفهام الإنكاري أي: هل هذا الذي يمشي على وجهه أهدي إلى المقصد الذي يريده **﴿أَفَن يمشي سويًا﴾** معتدلاً ناظرًا إلى ما بين يديه **﴿على صراط مستقيم﴾** أي: على طريق مستوي لا اعوجاج به ولا انحراف فيه، وخبر «من» محذوف لدلالة خبر «من» الأولى، وهو أهدي عليه، وقيل: لا حاجة إلى ذلك؛ لأن «من» الثانية معطوفة على «من» الأولى عطف المفرد على المفرد، كقولك: أزيد قائم أم عمرو؟ وقيل: أراد بمن يمشي مكباً على وجهه من يحشر على وجهه إلى النار، ومن يمشي سويًا من يحشر على قدميه إلى الجنة، وهو كقول قتادة الذي نكرناه، ومثله قوله: **﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾** [الإسراء: 97] **﴿قل هو الذي أنشأكم﴾** أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يخبرهم بأن الله هو الذي أنشأهم النشأة الأولى **﴿وجعل﴾** لهم **﴿السمع﴾** ليسمعوا به **﴿والأبصار﴾** ليبصروا بها، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل والكثير، وقد قدمنا بيان هذا في مواضع مع زيادة في البيان **﴿والأفئدة﴾** القلوب التي يتفكرون بها في مخلوقات الله، فنكر سبحانه ها هنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات أيضاً للحجة وقطعاً للمعززة، ونما لهم على عدم شكر نعم الله، ولهذا قال: **﴿قليلاً ما تشكرون﴾** وانتصاب قليلاً على أنه نعت مصدر محذوف، وهما مزيدة للتأكيد أي: شكراً قليلاً أو زمناً قليلاً، وقيل: أراد بقلّة الشكر عدم وجوده منهم. قال مقاتل: يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتروحونه **﴿قل هو الذي نراكم في الأرض وإليه تحشرون﴾** أمر الله رسوله ﷺ بأن يخبرهم أن الله هو الذي خلقهم في الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها، وأن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره. ثم نكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال: **﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾** أي: متى هذا الوعد الذي تنكرونه لنا من الحشر والقيامة، والنار والعذاب إن كنتم صادقين في ذلك، والخطاب منهم للنبي ﷺ ولمن معه من المؤمنين، وجواب الشرط محذوف، والتقدير إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فيئونه لنا، وهذا منهم استهزاء وسخرية. ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عليهم، فقال: **﴿قل إنما العلم عند الله﴾** أي: إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره، ومثله قوله: **﴿قل إنما علمها عند ربي﴾** [الأعراف: 187] ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال: **﴿وانما أنا نذير مبين﴾** أنذركم وأخوفكم عاقبة كفركم، وأبين لكم ما أمرني الله ببيانه. ثم نكر الله سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال: **﴿فلما راوه زلفة﴾** يعني: راوا العذاب قريباً، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل أي: مزلفاً، أو حال من مفعول راوا بتقدير مضاف أي: ذا زلفة وقرب، أو

ظرف أي: راوه في مكان ذي زلفة. قال مجاهد: أي: قريباً. وقال الحسن: عياناً. قال أكثر المفسرين: المراد عذاب يوم القيامة، وقال مجاهد: المراد عذاب بدر، وقيل: راوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم، كما يدل عليه قوله: **﴿وإليه تحشرون﴾** وقيل: لما راوا عملهم السيء قريباً **﴿سبيئت وجوه الذين كفروا﴾** أي: أسوت وعلتها الكعبة وغشيتها الذلة، يقال: ساء الشيء يسوء، فهو سيء إذا قبح. قال الزجاج: للمعنى تبين فيها السوء أي: ساءهم ذلك العذاب، فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدل على كفرهم كقوله: **﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾** [آل عمران: 106]. قرأ الجمهور بكسر السين بنون إشماع، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن بالإشمام **﴿وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾** أي: قيل لهم توبيخاً وتقريعاً هذا المشاهد الحاضر من العذاب، هو العذاب الذي كنتم به تدعون في الدنيا أي: تطلبونه وتستعجلون به استهزاءً، على أن معنى تدعون الدعاء. قال الفراء: تدعون تفتعلون من الدعاء أي: تتمنون وتسألون، وبهذا قال الأكثر من المفسرين. وقال الزجاج: هذا الذي كنتم به تدعون الأباطيل والأحاديث. وقيل: معنى **﴿تدعون﴾**: تكذبون، وهذا على قراءة الجمهور (تدعون) بالتشديد، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر، أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه، والمعنى: أنهم كانوا يدعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار. وقرأ قتادة، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، والضحاك (تدعون) مخففاً، ومعناها ظاهر. قال قتادة: هو قولهم: **﴿ربنا عجل لنا قطنًا﴾** [ص: 16] وقال الضحاك: هو قولهم: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾** [الأنفال: 32] الآية. قال النحاس: تدعون وتدعون بمعنى واحد، كما تقول قدر واقتدر، وغدا واغتدى، إلا أن أفعل معناه مضى شيئاً بعد شيء، وفعل يقع على القليل والكثير **﴿قل أرايتم إن أهلكني الله ومن معي﴾** أي: أخبروني إن أهلكني الله بموت أو قتل ومن معي من المؤمنين **﴿أو رحمتنا﴾** بتأخير ذلك إلى أجل، وقيل المعنى: إن أهلكني الله ومن معي بالعذاب، أو رحمتنا فلم يعذبنا **﴿فمن يجير الكافرين من عذاب اليم﴾** أي: فمن يمنهم ويؤمنهم من العذاب. والمعنى: أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه، كما كان الكفار يمتنون أو أمهلهم. وقيل: المعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، ووضع الظاهر موضع المضمرة للتسجيل عليهم بالكفر، وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم **﴿قل هو للرحمن آمنا به﴾** وحده لا تشرك به شيئاً **﴿وعليه توكلنا﴾** لا على غيره، والتوكل: تفويض الأمور إليه عز وجل **﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾** منا ومنكم، وفي هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف. قرأ الجمهور (ستعلمون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الكسائي بالتحية على الخبر، ثم احتج سبحانه عليهم ببعض نعمه، وخوفهم بسلب تلك

الْمَقْتُولُ ﴿١﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْزَيْنِ ﴿٢﴾ فَلَا تُلَاحِظْ السَّكَّانَ ﴿٣﴾ وَذُرُوا لَوْنَهُنَّ يَذْهَبْنَ ﴿٤﴾ وَلَا تَطْلُعْ كُلَّ حَلَابٍ مَّهِينٍ ﴿٥﴾ هَكَذَا تَقْلَمُ بِبَيْسٍ ﴿٦﴾ مَتَّاعٌ لِلْحَيِّرِ مُعْتَلٍ أَيْبٍ ﴿٧﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٍ ﴿٨﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٩﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ عَائِلَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ تَتَّبِعُهُمُ الْغَاظُونَ ﴿١١﴾

قوله: ﴿١﴾ قرأ أبو بكر، وورش، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن، وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها في الواو، وقرأ الباقون بالإظهار، وقرأ أبو عمرو، وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل. وقرأ ابن عامر، ونصر، وابن إسحاق بكسرهما على إضمار القسم، أو لأجل الالتقاء الساكنين، وقرأ محمد بن السميع وهارون بضمهما على البناء. قال مجاهد، ومقاتل، والسدي: هو الحوت الذي يحمل الأرض، وبه قال مرة الهذلي، وعطاء الخراساني، والكلبي. وقيل: إن نون آخر حرف من حروف الرحمن. وقال ابن زيد: هو قسم أقسم الله به. وقال ابن كيسان: هو فاتحة السورة. وقال عطاء، وأبو العالية: هي النون من نصر وناصر. قال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين، وقيل: هو حرف من حروف الهجاء، كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتحة بذلك، وقد عرفت أن ما هو الحق في مثل هذه الفواتح في أول سورة البقرة، والواو في قوله: ﴿وَالْقَلَمُ﴾ واو القسم، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان، وهو واقع على كل قلم يكتب به. وقال جماعة من المفسرين: المراد به القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ، أقسم الله به تعظيماً له. قال قتادة: القلم من نعمة الله على عباده ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ما موصولة أي: والذي يسطرون، والضمير عائذ إلي أصحاب القلم المملول عليهم بنكره، لأن ذكر آلة الكتابة تدل على الكاتب. والمعنى: والذي يسطرون أي: يكتبون كل ما يكتب، أو الحفظة على ما تقدم. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية أي: وسطروهم، وقيل: الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة، وإجرائها مجرى العقلاء، وجواب القسم قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ما نافية، وأنت اسمها، ويمجنون خبرها. قال الزجاج: أنت هو اسم ما، ويمجنون خبرها، وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ كلام وقع في الوسط أي: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، قيل: الباء متعلقة بمضمر هو حال، كأنه قيل: أنت بريء من الجنون ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة. وقيل: الباء للقسم أي: وما أنت ونعمة ربك بمجنون. وقيل: النعمة هنا الرحمة، والآية رد على الكفار حيث قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ النُّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6] ﴿وَأَنْ لَّكَ لَاجِرٌ﴾ أي: ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة، وقاسيت من أنواع الشدائد ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل إذا قطعت. وقال مجاهد: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير محسوب، وقال الحسن: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مكدر باليمن. وقال الضحاك:

النعمة عنهم فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: أخبروني إن صار ماؤكم غائراً في الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلاً، أو صار ذاهباً في الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء، يقال: غار الماء غوراً أي: نضب، والغور الغائر، وصف بالمصدر للمبالغة، كما يقال: رجل عدل، وقد تقدم مثل هذا في سورة الكهف ﴿فَمَنْ يَأْتِيَكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي: ظاهر تراه العيون وتناله الدلاء، وقيل: هو من معن الماء أي: كثرة. وقال قتادة، والضحاك: أي: جار، وقد تقدم معنى المعين في سورة المؤمن. وقرأ ابن عباس (فمن يأتاكم بماء معن).

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فَمَنْ يَمْشِي مَكْبًا﴾ قال: في الضلالة ﴿فَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ قال: مهتدياً. وأخرج الخطيب في تاريخه، وابن النجار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه، وليقرأ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾». وأخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه، وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ إلى ﴿يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98] و ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ فإنه يبرأ بإذن الله». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ قال: داخلاً في الأرض ﴿فَمَنْ يَأْتِيَكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ قال: الجاري. وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ قال: يرجع في الأرض. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ قال: ظاهر. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً ﴿بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ قال: عنب.

تفسير سورة القلم

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. وروي عن ابن عباس، وقاتدة أن من أولها إلى قوله: ﴿سَنَسْمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ [ن: 16] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿مَنْ الصَّالِحِينَ﴾ [ن: 17 - 52] مدني، وباقيها مكي كذا قال الماوردي. وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [أي: سورة العلق] ثم نون، ثم المزمل، ثم الم نشر. وأخرج النحاس، وابن مردويه، والبيهقي عنه قال: نزلت سورة ن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِمَعْنٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْخُلَاقِ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَبِحَمْدِ مَا يَبْدِئُكَ

وكذا قال الكلبي. وقال الضحالك، والسدي: وتوا لو تكفر فيتمناوا على الكفر. وقال الربيع بن أنس: وتوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: وتوا لو تذهب عن هذا الأمر، فيذهبون معك. وقال الحسن: وتوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك. وقال مجاهد: وتوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيماليونك. قال ابن قتيبة: كانوا أرادوه على أن يعبد الهتهم مدة، ويعبدوا الله مدة، وقوله: ﴿فَيَدْهَنُونَ﴾ عطف على تدهن داخل في حيز لو، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي: فهم يدهنون. قال سيبويه: وزعم قالون أنها في بعض المصاحف (وتوا لو تدهن فيدهنوا) بدون نون، والنصب على جواب التمني المفهوم من وتوا، والظاهر من اللغة في معنى الإدهان، هو ما ذكرناه أولاً ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حِلَافٍ﴾ أي: كثير الحلف بالباطل ﴿مَهِينٌ﴾ فعيل من المهانة، وهي القلة في الرأي والتمييز. وقال مجاهد: هو الكذاب. وقال قتادة: المكثار في الشر. وكذا قال الحسن. وقيل: هو الفاجر العاجز، وقيل: هو الحقير عند الله، وقيل: هو الذليل، وقيل: هو الوضع ﴿هَمَازٌ مَشَاءٌ بَنَمِيمٍ﴾ الهماز المغتاب للناس. قال ابن زيد: هو الذي يهزم بأخيه، وقيل: الهماز الذي يذكر الناس في وجوههم، والماز الذي يذكرهم في مغيبيهم، كذا قال أبو العالية، والحسن، وعطاء بن أبي رباح، وقال مقاتل عكس هذا. والمشاء بنميم: الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نَمَ يَنَمُ إذا سعى بالفساد بين الناس، ومنه قول الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده لمولاه إلا سعيه بنميم
وقيل: النميم جمع نميمة ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل بالمال لا ينفقه في وجهه، وقيل: هو الذي يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام. قال الحسن: يقول لهم من بخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً ﴿مَعْتَدٌ أَتِيمٌ﴾ أي: متجاوز الحد في الظلم كثير الإثم ﴿عَتَلٌ﴾ قال الواحدي: المفسرون يقولون: هو الشديد الخلق الفاحش الخلق. وقال الفراء: هو الشديد الخصومة في الباطل. وقال الزجاج: هو الغليظ الجافي. وقال الليث: هو الأكل المنوع، يقال: عتل الرجل أعتله إذا جتيت جنباً عنيفاً، ومنه قول الشاعر:

نقرعه قرعاً ولسننا نعتله

﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ أي: هو بعد ما عد من معايبه زنيم، والزنيم هو الدعي الملتصق بالقوم وليس هو منهم؛ مأخوذ من الزنمة المتبالية في حلق الشاة أو الماعز، ومنه قول حسان:

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع
وقال سعيد بن جبير: الزنيم المعروف بالشر، وقيل: هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة، وقيل: هو الظلوم ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَا تَطْعُ﴾ أي: لا تطع من هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنتين. قال الفراء، والزجاج: أي لأن كان، والمعنى لا تطعه لماله وبنيه. قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، والمغيرة، وأبو حيوة (أن كان) بهمزة

أجراً بغير عمل، وقيل: غير مقدّر، وقيل: غير ممنون به عليك من جهة الناس ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل: هو الإسلام والدين، حكى هذا الواحدي عن الأكثرين. وقيل: هو القرآن، روي هذا عن الحسن والعوفي. وقال قتادة: هو ما كان ياتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله. قال الزجاج: المعنى إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن، وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم، وقيل المعنى: إنك على طبع كريم. قال الماوردي: وهذا هو الظاهر، وحقيقة الخلق في اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الألب. وقد ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سألت عن خلق النبي ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، وهذه الجملة، والتي قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: ستبصر يا محمد وببصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة ﴿بِأَيْكُمْ الْمُفْتُونَ﴾ الباء زائدة للتأكيد أي: المفتون بالجنون، كذا قال الأخفش، وأبو عبيدة، وغيرهما، ومنه قول الشاعر:

نحن بنو جمعة أصحاب العليج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج
وقيل: ليست الباء زائدة، والمفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور، والتقدير: بأيكم الفتون أو الفتنة، ومنه قول الشاعر الراعي:

حتى إذا لم يتركوا العظامه لحمياً ولا لفؤاده معقولا
أي: عقلا. وقال الفراء: إن الباء بمعنى في أي: في أيكم المفتون، أي الفريق الذي أنت فيه أم في الفريق الآخر؟ ويؤيد هذا قراءة ابن أبي عبلة (في أيكم المفتون)، وقيل: الكلام على حذف مضاف أي: بأيكم فتن المفتون، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، روي هذا عن الأخفش أيضاً. وقيل: المفتون المعذب، من قول العرب فتنن الذهب بالنار إذا أحيمته، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: 13]، وقيل: المفتون هو الشيطان، لأنه مفتون في دينه، والمعنى: بأيكم الشيطان. وقال قتادة: هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر، والمعنى: سترى ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون، وجملة ﴿إِنْ رَكَّ هُوَ أَعْلَمَ يَمُنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ تعليل للجملة التي قبلها، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل، واختيارهم ما فيه ضرهم فيهما، والمعنى: هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة، فهو مجاز كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿فَلَا تَطْعُ الْمَكْنِبِينَ﴾ نهاء سبحانه عن ممايلة المشركين، وهم رؤساء كفار مكة؛ لأنهم كانوا يدعونهم إلى دين آبائهم، فنهأهم الله عن طاعتهم، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة مجرد الإدارة بإظهار خلاف ما في الضمير، فنهأهم الله عن ذلك، كما يدل عليه قوله: ﴿وَتَوَّأَلَوْا تَدْهَنَ فَيَدْهَنُونَ﴾ فإن الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداواة. قال الفراء: المعنى لو تلتين فيلنوا لك،

الأرضين، والقلم الذي خط به ربنا عز وجل القدر خيره وشـره، وضـره ونفعه ﴿وما يسطرون﴾ قال: الكرام الكاتبين. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وما يسطرون﴾ قال: ما يكتبون. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿وما يسطرون﴾ قال: وما يعلمون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾. وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والواحدي عنها قالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما نداه أحد من أصحابه، ولا من أهل بيته إلا قال: «لبيك»، فلذلك أنزل الله ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أبي النرداء قال: سُئِلَت عائشة عن خُلُقِ رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه. وأخرج ابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، وابن مردويه عن أبي عبد الله الجبلي قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: لم يكن فاحشاً ولا متفاحشاً، ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ قال: تعلم ويعلمون يوم القيامة ﴿بأيكم المفلتون﴾ قال: الشيطان، كانوا يقولون: إنه شيطان، وأنه مجنون. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: بأيكم المجنون. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿وأنوا لو تدهن فيدهنون﴾ يقول: لو ترخص لهم فيرخصون. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ الآية قال: يعني: الأسود بن عبد يغوث. وأخرج ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي قال: قال مروان لما بايع الناس ليزيد: سئـة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: إنها ليست بسئـة أبي بكر وعمر، ولكنها سئـة هرقل، فقال مروان: هذا الذي أنزل فيه: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ [الأحقاف: 17] الآية، قال: فسمعت ذلك عائشة فقالت: إنها لم تنزل في عبد الرحمن، ولكن نزل في أبيك: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين هــماز مشاء بنميم﴾. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل على النبي ﷺ ﴿ولا تطع كل حلاف مهين هــماز مشاء بنميم﴾ فلم نعرف حتى نزل عليه بعد ذلك زعيم، فعرفناه له زئمة كزئمة الشاة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: العتل هو الدعى، والزئيم هو المريب الذي يعرف بالشر. وأخرج عبد بن حميد، وابن عساكر عنه قال: الزئيم: هو الدعى. وأخرج القرطبي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه عنه أيضاً قال: الزئيم الذي يعرف بالشر كما

واحدة مملوذة على الاستفهام. وقرأ حمزة، وأبو بكر، والمفضل (أن كان) بهمزيين مخففتين، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التي حوَّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله. وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط، وجملة ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي، وقد تقدّم معنى أساطير الأولين في غير موضع ﴿سنسئمه على الخرطوم﴾ أي: سنسئمه بالكى على خرطومه. قال أبو عبيدة، وأبو زيد، والمبرد: الخرطوم الأنف. قال مقاتل: سنسئمه بالسواد على الأنف، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار. قال الفراء: والخرطوم وإن كان قد خصّ بالسمة، فإنه في مذهب الوجه؛ لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض. قال الزجاج: سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من أسوداد وجوههم. وقال قتادة: سنلحق به شيئاً لا يفارقه، واختار هذا ابن قتيبة، قال: والعرب تقول: قد سئمه ميسم سوء يريبون الصق به عاراً لا يفارقه، فالمعنى: أن الله الحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الخرطوم، وقيل: معنى ﴿سنسئمه﴾: سنحطمه بالسيف. وقال النضر بن شميل: المعنى سنحدّه على شرب الخمر، وقد يسمى الخمر بالخرطوم، ومنه قول الشاعر:

تظل يومك في لهو وفي طرب واثت بالليل شراب الخراطيم
وقد أخرج عبد الرزاق، والفرغاني، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الاسماء والصفات، والخطيب في تاريخه، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: إن أول شيء خلقه الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب، وما اكتب؟ قال: اكتب القدر، فجـرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طوى الكتاب ورفع القلم، وكان عرشه على الماء فارتفع بخار الماء، ففتقت منه السموات ثم خلق النون، فبسطت الأرض عليه، والأرض على ظهر النون، فاضطرب النون فمادت الأرض، فاثبتت الجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس: (نون) والقلم وما يسطرون. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجـرى بما هو كائن إلى الأبد». وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون، وهي الدواة: وخلق القلم، فقال: اكتب، قال: وما اكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: نّ الدواة. وأخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النون السمكة التي عليها قرار

كالصريم أي: كالشيء الذي صرمت ثماره أي: قطعت، فعيل بمعنى مفعول، وقال الفراء: كالصريم كالليل المظلم، ومنه قول الشاعر:

تطاول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم
والمعنى: أنها حرقت فصارَت كالليل الأسود، قال:

والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة. وقال الأخفش: أي كالصبح انصرم من الليل، يعني: أنها يبست وابتضت. وقال المبرد: الصريم الليل، والصريم النهار أي: ينصرم هذا عن هذا، وذلك عن هذا، وقيل: سمي الليل صريماً لأنه يقطع بظلمته عن التصرف. وقال الموزج: الصريم الرملة؛ لأنها لا يثبت عليها شيء ينتفع به. وقال الحسن: صرم منها الخير أي: قطع **«فقتلوا مصيحين»** أي: نادى بعضهم بعضاً داخلين في الصباح. قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم لبعض **«إن اغدوا على حرككم»** و«إن» في قوله: **«إن اغدوا»** هي المفسرة لأن في التنادي معنى القول، أو هي المصدرية أي: بأن اغدوا، والمراد أخرجوا غداة، والمراد بالحرث الثمار والزرع **«إن كنتم صارمين»** أي: قاصدين للصرم، والغدو يتعدى بالي وعلى، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم صارمين فاغدوا، وقيل: معنى صارمين ماضين في العزم، من قولك سيف صارم **«فانطلقوا وهم يتخافتون»** أي: ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرون الكلام بينهم؛ لئلا يعلم أحد بهم، يقال: خفت يخفت إذا سكن ولم ينبس، ومنه قول نريد بن الصمة:

واني لم أهلك مالا ولم أمت خفتاً وكلا ظنه بي عومر
وقيل المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروه، فيقصدهم، كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد، والأوّل أولى لقوله: **«إن لا يخللها اليوم عليكم مسكين»** فإن «إن» هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول، والمعنى: يسر بعضهم إلى بعض هذا القول، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، فيطلب منك أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم **«وغدوا على حرد قادرين»** الحرد يكون بمعنى المنع والقصد. قال قتادة، ومقاتل، والكلبي، والحسن، ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد؛ لأن القاصد إلى الشيء حارد. يقال: حرد يحرد إذا قصد، تقول: حردت حردك أي: قصدت قصدك، ومنه قول الرازي:

أقبل سيل جاء من عند الله يحرد حرد الجنة المحل
وقال أبو عبيدة، والمبرد، والقيتيبي: على حرد على منع، من قولهم: حردت الإبل حرداً: إذا قلت البانها، والحرد من النوق هي القليلة اللبن. وقال السدي، وسفيان، والشعبي **«على حرد»** على غضب، ومنه قول الشاعر:

إن أجباد الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب وحرد
وقول الآخر:

تساقوا على حرد دماء الأساود

ومنه قيل: أسد حارد. وروي عن قتادة، ومجاهد أيضاً

تعرف الشاة بزمنتها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: هو الرجل يمر على القوم، فيقولون رجل سوء. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **«زنيم»** قال: ظلوم. وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل: في الوليد بن المغيرة.

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْتُلُوا لَيْسَرَتَهُمْ مَصِيرُهُمْ ۖ وَلَا يَسْتَأْذِنُوا ۚ فَنُفِثُوا عَنْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُوَ تَائِبُونَ ۝ فَاصْبَحَ أَكْثَرُهُمْ كَالصَّرِيمِ ۝ فَتَنَادَوْا مُصَيَّرِينَ ۚ أُنْزِلُوا عَلَىٰ رُكُودٍ لِّئَلَّا تُبْصِرُوا وَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ ۚ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْيَوْمَ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ وَغَدَا عَلَىٰ حَرٍّ قَدِيدٍ ۝ فَمَا زَبَدُوا وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ۚ لَعَذَابُ الْغَرُورِ ۝ قَالَ أَوْسَلُمْكُمْ آلُكُمْ لَكَؤُلَآءَ لَنُصِيبَنَّ أَهْلَهُمْ ثُمَّ لَنَكُونَنَّ ۚ إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ مُتَعَدِينَ ۚ فَاقْبَلْ بُشْرَتَهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ يَتْلُمُونَ ۚ قَالُوا يَبْرَأَكُمَا إِنَّا كُنَّا مِنكُمْ ۚ عَمَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَ حُبَّآ مِّنْهَا إِنَّا كُنَّا رَبِّكَ رَغِيْبُونَ ۚ كَذَلِكَ الْفِتْنَةُ ۚ وَلَكِنَّ الْآخِرَ أَكْثَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۚ

قوله: **«إنا بلوناهم»** يعني: كفار مكة، فإن الله ابتلاهم بالجووع والقحط بدعوة رسول الله ﷺ عليهم، والابتلاء الاختبار، والمعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط **«كما بلونا أصحاب الجنة»** المعروف خبرهم عندهم، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حق الله منها، فمات، وصارت إلى أولاده، فمتعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله فيها. قال الواحدي: هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ورثوا من أبائهم ضيعة فيها جنان وزرع ونخيل، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام، فقالت بنوه: المال قليل والعيال كثير، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، وعزموا على حرمان المساكين، فصارَت عقابتهُم إلى ما قصَّ الله في كتابه. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاههم الله بأن حرق جنتهم. وقيل: هي جنة كانت بصوران، وصوران على فراسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى ببسير **«إذ أقسموا ليصرمها مصيحين»** أي: حلفوا ليقطعنها داخلين في وقت الصباح، والصرم القطع للثمر والزرع، وانتصاب **«مصيحين»** على الحال من فاعل ليصرمها، والكاف في **«كما بلونا»** نعت مصدر محذوف أي: بلوناهم ابتلاء كما بلونا، وما مصيرية أو بمعنى الذي، وإن ظرف لبلونا منتصب به، وليصرمها جواب القسم **«ولا يستثنون»** يعني: ولا يقولون إن شاء الله، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم أو حال. وقيل المعنى: ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان ينفقه أبوهم إليهم، قاله عكرمة. **«فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون»** أي: طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه، والطائف قيل: هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء، كذا قال مقاتل وقيل: الطائف جبريل اقتلعها، وجملة **«وهم نائمون»** في محل نصب على الحال **«فاصبحت**

لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة ﴿يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ﴾ «يوم» ظرف لقوله: ﴿فَلْيَاتُوا﴾ أي: فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق، ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل مقدر أي: أنكر يوم يكشف. قال الواحدي: قال المفسرون في قوله: ﴿عَنْ سَاقٍ﴾ عن شدة من الأمر. قال ابن قتيبة: أصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجِدِّ فيه شمر عن ساقه، فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدة، وأنشد لدريد بن الصمة:

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد
وقال: وتأويل الآية يوم يشتد الأمر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق. قال أبو عبيدة: إذا اشتد الحرب، والأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه، والأصل فيه من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدِّ شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدة، وهكذا قال غيره من أهل اللغة، وقد استعملت ذلك العرب في أشعارها، ومن ذلك قول الشاعر:

أخوال الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرها
وقول آخر:

والخيل تعبر عند وقت الإشراف وقامت الحرب بنا على ساق
وقول آخر أيضاً:

قد كشفت عن ساقها فشدوا وجئت الحرب بكم فجئوا
وقول آخر أيضاً في سنة:

قد كشفت عن ساقها حمرا ً تبرى اللحم عن عراقها
وقيل: ساق الشيء أصله وقوامه كساق الشجرة، وساق الإنسان أي: يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه،

وقيل: يكشف عن ساق جهنم، وقيل: عن ساق العرش، وقيل: عبارة عن القرب، وقيل: يكشف الرب سبحانه عن نوره،

وسياتي في آخر البحث ما هو الحق، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. قرأ الجمهور (يكشف) بالثَّخْتِ مَبْنِياً للمفعول،

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن أبي عبيدة (تكشف) بالفوقية مَبْنِياً للفاعل أي: الشدة أو الساعة، وقرئ بالفوقية مَبْنِياً للمفعول، وقرئ بالنون، وقرئ بالفوقية المضمومة وكسر الشين من اكشف الأمر أي: دخل في الكشف

﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السَّجْدِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة، ويبقى الكفار والمنافقون يريون أن يسجدوا فلا يستطيعون؛ لأن

أصلاهم يبست فلا تلين للسجود. قال الربيع بن أنس: يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا، فيسجدون له، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا، وانتصاب ﴿خَاشِعَةً

أَبْصَارِهِمْ﴾ على الحال من ضمير يدعون، وأبصارهم مرفوع به على الفاعلية، ونسبة الخشوع إلى الأبصار، وهو الخشوع والنزلة لظهور أثره فيها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي:

تغشاهم ذلة شديدة وحسرة وندامة ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السَّجْدِ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أي: معافون

النعيم﴾ أي: المتقين ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي عنده عَزَّ وَجَلَّ في الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذي لا يشوبه كدر، ولا ينغصه خوف زوال ﴿فَتَنْجَعِلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمَجْرِمِينَ﴾ الاستفهام للإنكار، وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا، وقلة حظوظ المسلمين فيها، فلما سمعوا بذكر الآخرة، وما يعطي الله المسلمين فيها قالوا: إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، فقال الله مكذباً لهم راداً عليهم: ﴿فَتَنْجَعِلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآية، والفاء للعطف على مقدر كنظائره، ثم وبخهم الله، فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج كان أمر الجزاء مفروض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرعون فيه، فتجدون المطيع كالعاصي، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ فاتوا بكتابكم ﴿[الصفافات: 156 . 157]﴾ ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ قرأ الجمهور بكسر (إن) على أنها معمولة لتدرسون أي: تدرسون في الكتاب ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله: علمت إنك لعاقل بالكسر، أو على الحكاية للمدروس، كما في قوله: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سلام على نوح في العالمين ﴿[الصفافات: 78 . 79]﴾. وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ ثم ابتداء فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: ليس لكم ذلك، وقرأ طلحة بن مصرف، والضحاك (أن لكم) بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد، ومعنى ﴿تَخَيَّرُونَ﴾: تختارون وتشتبهون. ثم زاد سبحانه في التوبيخ فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ إِيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ﴾ أي: عهود مؤكدة موثقة متناهية، والمعنى أم لكم إيمان على الله استوثقت بها في أن يدخلكم الجنة، وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ لِلْقِيَامَةِ﴾ متعلق بالمقدر في لكم أي: ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ لأن معنى: ﴿أَمْ لَكُمْ إِيْمَانٌ﴾ أي: أم أقسمنا لكم. قال الرازي: والمعنى أم ضمنا لكم، وأقسمنا لكم بإيمان مغلفة متناهية في التوكيد. وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ لِلْقِيَامَةِ﴾ ثم ابتداء، فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك. قرأ الجمهور (بالغة) بالرفع على التثنية لإيمان، وقرأ الحسن، وزيد بن علي بنصبها على الحال من إيمان؛ لأنها قد تخصصت بالوصف، أو من الضمير في لكم؛ أو من الضمير في علينا ﴿سَلَامٌ لَّهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: سل يا محمد الكفار موبخاً لهم ومقرعاً، إهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها، وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى. وقال الحسن: الزعيم الرسول ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم فيه ﴿فَلْيَاتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما يقولون، وهو أمر تعجيز، وجواب الشرط محذوف، وقيل: المعنى أم

علمه، قيل: والحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرة رسول الله ﷺ عليهم، وقيل: هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة، قيل: وهذا منسوخ بأية السيف ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: يونس - عليه السلام - أي: لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة، والظرف في قوله: ﴿إِذْ نَادَى﴾ منصوب بمضاف محذوف أي: لا تكن حالك كحالته وقت نداءه، وجملة ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل نادى، والمكظوم المملوء غيظاً وكرباً. قال قتادة: إن الله يعزّي نبيه ﷺ، ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت، - وقد تقدّم بيان قصته في سورة الأنبياء ويونس والصفات - وكان النداء منه بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] وقيل: إن المكظوم: المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس. قال المبرد، وقيل: هو المحبوس، والأول أولى، ومنه قول ذي الرمة:

وَأَنْتَ مِنْ حَبٍّ مَيٍّ مَضْمُرُ حَزْنًا عَانَى الْفُؤَادَ قَرِيحَ الْقَلْبِ مَكْظُومٌ
﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله، وهي توفيقه للتوبة، فتاب الله عليه ﴿لَتَبَذَ بِالْعِرَاءِ﴾ أي: لألقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: يذم ويلام بالذنب الذي أنذبه، ويطرده من الرحمة، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير نبذ. قال الضحاك: النعمة هنا النبوة. وقال سعيد بن جببر: عيادته التي سلفت. وقال ابن زيد: هي نداؤه بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] وقيل: مذموم مبعد. وقيل: مذنب. قرأ الجمهور (تداركه) على صيغة الماضي، وقرأ الحسن، وابن هرمز، والأعمش بتشديد الدال، والأصل تداركه بتاءين مضارعاً، فادغم، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية، وقرأ أبي، وابن مسعود، وابن عباس (تداركته) بتاء التانيث ﴿فَلَجَّابَهُ رَبُّهُ﴾ أي: استخلصه واصطفاه، واختاره للنبوة ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح، وعصمه من الذنب، وقيل: رد إليه النبوة وشفعه في نفسه وفي قومه، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون، كما تقدّم ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ «إن» هي المخففة من الثقيلة. قرأ الجمهور (ليزلقونك) بضم الباء من أزلقه أي: أزل رجله، يقال: أزلقه عن موضعه إذا نحاه، وقرأ نافع، وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه: إذا تنحى. قال الهروي: أي: فيغتلونك بعيونهم، فيزلقونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوة لك، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، والأعمش، ومجاهد، وأبو وائل (ليزهقونك) أي: يهلكونك. وقال الكلبي: «يزلقونك» أي: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة، وكذا قال السدي، وسعيد بن جببر. وقال النضر بن شميل، والأخفش: يفتنونك. وقال الحسن، وابن كيسان: ليقتلونك. قال الزجاج: في الآية مذهب أهل اللغة، والتأويل أنهم من شدة إ بغاضهم وعداوتهم يكادون ينظروهم نظر البغضاء أن يصرعوك، وهذا مستعمل في الكلام، يقول القائل: نظر إلي

عن العلل متمكنون من الفعل. قال إبراهيم التيمي: يدعون بالأذان والإقامة فيأبون. وقال سعيد بن جببر: يسمعون حيي على الفلاح، فلا يجيبون. قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. وقيل: يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون، وجملة ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير يدعون ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: خل بيني وبينه، وكل أمره إلي فانا أكفيكه. قال الزجاج: معناه لا يشتغل به قلبك، كله إلي فانا أكفيك أمره. والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها، ومنه «منصوب بالعطف على ضمير المتكلم، أو على أنه مفعول معه، والمراد بهذا الحديث القرآن، قاله السدي. وقيل: يوم القيامة، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، وجملة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾، والضمير عائد إلى من باعتبار معناها، والمعنى: سنأخذهم بالعذاب على غفلة، ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنهم يظنونهم إنعاماً، ولا يفكرون في عاقبته وما سيلقون في نهايته. قال سفيان الثوري: يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر. وقال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه. والاستدراج ترك المعالجة، وأصله النقل من حال إلى حال، ويقال: استدراج فلان فلاناً أي: استخرج ما عنده قليلاً قليلاً، ويقال: درجته إلى كذا واستدرجه يعني: أنباه إلى التدرج، فتدرج هو. ثم ذكر سبحانه أنه يمهّل الظالمين، فقال: ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم ليزدأوا إثمًا، وقد مضى تفسير هذا في سورة الأعراف والطور، وأصل الملاوة المدة من الدهر، يقال: أملى الله له أي: أطال له المدة، والملا: مقصور الأرض الواسعة، سميت به لامتدادها ﴿إِنْ كِيدِيِ مَتِينٌ﴾ أي: قوي شديد، فلا يفوتني شيء، وسمى سبحانه إحسانه كيداً، كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد باعتبار عاقبته، ووصفه بالمتانة لقوة أثره في التسبب للهلاك ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي أم تلتبس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مَقْلُوبُونَ﴾ المغرم الغرامة أي: فهم من غرامة ذلك الأجر، ومقلوبون أي: يثقل عليهم حملة لشحهم ببذل المال، فاعرضوا عن إجابتك بهذا السبب، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم، والمعنى: أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم ﴿أَمْ عَنْدهمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي: اللوح المحفوظ، أو كل ما غاب عنهم، فهم من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدل على قولهم، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون، ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتنال لما تقوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضائه الذي قد قضاه في سابق

في الدنيا وهم آمنون، فالיום يدعون وهم خائفون. وأخرج الديهقي في الشعب عنه في الآية قال: الرجل يسمع الأذان فلا يجيب للصلاة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه أيضاً في قوله: ﴿لِيُزَلِّقُونَكَ بَابِصَارِهِمْ﴾ قال: يَنْقُضُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ.

تفسير سورة الحاقة

وهي مكة. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحاقة بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج الطبراني عن أبي برزة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بالحاقة ونحوها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

قوله: ﴿وَالْحَاقَّةُ﴾ هي القيامة؛ لأن الأمر يحق فيها، وهي تحقق في نفسها من غير شك. قال الأزهري: يقال: حاقت، فحقته أحقه غالبته فغلبته أغلبه. فالقيامة حاقة؛ لأنها تحقق كل محاق في دين الله بالباطل، وبخاصم كل مخاصم. وقال في الصحاح: حاقه أي: خاصمه في صفار الأشياء، ويقال: ماله فيها حق ولا حقائق ولا خصومة، والحقاق التخاصم، والحاقة والحقه والحق ثلاث لغات بمعنى واحد. قال الواحدي: هي القيامة في قول كل المفسرين، وسميت بذلك لأنها ذات الحقائق من الأمور، وهي الصائقة الواجبة الصلح، وجميع أحكام القيامة صائقة واجبة الوقوع والوجود. قال الكسائي، والمؤرج: للحاقة يوم الحق، وقيل: سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله، وقيل: سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار، وأحقت لقوم الجنة، وهي مبتدأ، وخبرها قوله: ﴿وَالْحَاقَّةُ﴾ على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان، وخبره الحاقة، والجملة خبر للمبتدأ الأول، والمعنى: أي شيء هي في حالها أو صفاتها، وقيل: إن ما الاستفهامية خبر لما بعدها، وهذه الجملة، وإن كان لفظها لفظ الاستفهام، فمعناها التعظيم والتفخيم ل شأنها، كما تقول: زيد ما زيد،

نظراً يكاد يصرعني، ونظراً يكاد ياكطني. قال ابن قتيبة: ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، كما قال الشاعر:

يتعارضون إذا التفتوا في مجلس نظراً بيزيل مواطئ الأقدام
﴿لما سمعوا الذكر﴾ أي: وقت سماعهم للقرآن لكرهاتهم
لذلك أشد كراهة، ولما ظرفية منصوبة بيزلقون؛ وقيل: هي
حرف، وجوابها محذوف دلالة ما قبله عليه؛ أي: لما سمعوا
الذكر كانوا يزلقونك ﴿ويقولون إنه جنون﴾ أي: ينسبونه
إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن، فردّ الله عليهم بقوله:
﴿وما هو إلا نكر للعالمين﴾ والجملة مستأنفة، أو هي
محل نصب على الحال من فاعل يقولون: أي: والحال أنه
تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه، أو شرف لهم، كما قال
سبحانه: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: 44] وقيل:
الضمير لرسول الله ﷺ، وإنه مذكر للعالمين، أو شرف لهم.

وقد أخرج البخاري، وغيره عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً، وهذا الحديث ثابت من طرق في الصحيحين وغيرهما، وله ألفاظ في بعضها طول، وهو حديث مشهور معروف. وأخرج ابن منده عن أبي هريرة في الآية قال: يكشف الله عز وجل عن ساقه. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن منده عن ابن مسعود في الآية قال: يكشف عن ساقه تبارك وتعالى. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وضعفه، وابن عساكر عن أبي موسى عن النبي ﷺ في الآية قال: «عن نور عظيم، فيخرون له سجداً». وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن منده، والبيهقي عن إبراهيم النخعي عن ابن عباس في الآية قال: يكشف عن أمر عظيم، ثم قال: قد قامت الحرب على ساق. قال: وقال ابن مسعود: يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن، ويقسو ظهر الكافر فيصير عظماً واحداً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: «يوم يكشف عن ساق» قال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ليوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

قال ابن عباس: هذا يوم كرب شديد، روي عنه نحو هذا من طرق أخرى، وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ، كما عرفت، وذلك لا يستلزم تحسباً ولا تشبيهاً، فليس كمنه شء.

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في بيته كمخاطر
وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا
يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ لَهُمْ سَالِمُونَ﴾ قال: هم الكفار يدعون

صاحبه يكرى بالمكواة ثم يتابع ذلك عليه، ومنه قول أبي نؤاد:

يفرق بينهم زمن طويل تتابع فيه أعواماً حسوماً
وقال المبرد: هو من قولك حسمت الشيء: إذا قطعته
وفصلته عن غيره، وقيل: الحسم الاستئصال، ويقال للسيف:
حسام، لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته،
والمعنى: أنها حسمتهم، أو قطعتهم وأذهبتهم، ومنه قول
الشاعر:

فأرسلت ريحاً بربوراً عقيماً فدارت عليهم فكانت حسوماً
قال ابن زيد: أي: حسمتهم فلم تبق منهم أحداً. وروي
عنه أنه قال: حسمت الأيام والليالي حتى استوفتها؛ لأنها
بدلت بطول الشمس من أول يوم، وانقطعت بغروب الشمس
من آخر يوم. وقال الليث: الحسوم هي الشؤم أي: تحسم
الخير عن أهلها، كقوله: ﴿في أيام نحسات﴾ [فصلت: 16].

واختلف في أولها، فقيل: غداة الأحد، وقيل: غداة الجمعة،
وقيل: غداة الأربعاء. قال وهب: وهذه الأيام هي التي تسميها
العرب أيام العجوز، كان فيها برد شديد وريح شديدة، وكان
أولها يوم الأربعاء، وآخرها يوم الأربعاء ﴿ففترى القوم فيها
صرعى﴾ الخطاب لكل من يصلح له على تقدير أنه لو كان
حاضراً حينئذ لراى ذلك، والضمير في فيها يعود إلى الليالي
والأيام، وقيل: إلى مهاب الريح، والأول أولى. وصرعى جمع
صريع يعني: موتى ﴿كانهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي:
أصول نخل ساقطة أو بالية، وقيل: خالية لا جوف فيها،
والنخل يذكر ويؤنث، ومثله قوله: ﴿كانهم أعجاز نخل
منقعر﴾ [القمر: 20] وقد تقدّم تفسيره، وهو إخبار عن عظم
أجسامهم. قال يحيى بن سلام: إنما قال خاوية؛ لأن أبدانهم
خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية ﴿فهول ترى لهم من
باقية﴾ أي: من فرقة باقية، أو من نفس باقية، أو من بقية
على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية. قال ابن جريج: أقاموا
سبع ليالٍ وثمانية أيام أحياء في عذاب الريح، فلما أمسوا في
اليوم الثامن ماتوا، فاحتلمتهم الريح فألقتهم في البحر
﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ أي: من الأمم الكافرة. قرأ
الجمهور (قبله) بفتح القاف وسكون الباء أي: ومن تقدّمه من
القرون الماضية والأمم الخالية، وقرأ أبو عمرو، والكسائي
بكسر القاف وفتح الباء أي: ومن هو في جهته من أتباعه،
واختار أبو حاتم، وأبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود
وابنٍ ومن معه، ولقراءة أبي موسى ومن يلقيه
﴿والمؤتفكات﴾ قرأ الجمهور (المؤتفكات) بالجمع، وهي
قرى قوم لوط، وقرأ الحسن، والجحدري (المؤتفكة) بالإنفراد،
واللام للجنس، فهي في معنى الجمع، والمعنى: وجاءت
المؤتفكات ﴿بالخاطئة﴾ أي: بالفعل الخاطئة، أو الخطأ على
أنها مصدر. والمراد: أنها جاءت بالشرك والمعاصي. قال
مجاهد: بالخطايا، وقال الجرجاني: بالخطأ العظيم ﴿فعضوا
رسول ربهم﴾ أي: فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها.
قال الكلبي: هو موسى، وقيل: لوط لأنه أقرب، قيل: ورسول

وقد قدّمنا تحقيق هذا المعنى في سورة الواقعة. ثم زاد
سبحانه في تفخيم أمرها وتغليظ شأنها وتهويل حالها،
فقال: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ أي: أي شيء أعلمك ما هي؟
أي: كائنك لست تعلمها إذا لم تعينها وتشاهد ما فيها من
الأموال، فكانها خارجة عن دائرة علم المخلوقين. قال
يحيى بن سلام: بلغني أن كل شيء في القرآن وما أدراك،
فقد أدراه إياه وعلمه، وكل شيء قال فيه: وما يدريك، فإنه
أخبره به. وما مبتدأ، وخبره أدراك، وما الحاقة جملة من
مبتدأ، وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض؛ لأن أدري
يتعدى إلى المفعول الثاني بالياء، كما في قوله: ﴿ولا أدركم
به﴾ [يونس: 16] فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت
في موضع المفعول الثاني، ويدون الهزمة يتعدى إلى مفعول
واحد بالياء نحو دريت بكذا، وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى
مفعولين، وجملة، وما أدراك معطوفة على جملة ما الحاقة
﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ أي: بالقارعة، وسميت بذلك
لأنها تفرق الناس بأهوالها. وقال المبرد: عنى بالقارعة القرآن
الذي نزل في الدنيا على أنبيائهم، وكانوا يخوفونهم بذلك
فيكذبونهم، وقيل: القارعة مأخوذة من القرعة؛ لأنها ترفع
أقواماً وتحط آخرين، والأول أولى، ويكون وضع القارعة
موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وقطاعة
حالتها، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة ﴿فأما
ثمود فاهلكوا بالطاغية﴾ ثمود هم قوم صالح، وقد تقدّم
بيان هذا في غير موضع، وبيان منازلهم، وأين كانت،
والطاغية الصيحة التي جاوزت الحد، وقيل: بطغيانهم
وكفرهم، واصل الطغيان مجاوزة الحد ﴿وأما عاد فاهلكوا
بريح صرصر﴾ عاد هم قوم هود، وقد تقدّم بيان هذا،
ونكر منازلهم، وأين كانت في غير موضع، والريح الصرصر
هي الشديدة البرد، مأخوذ من الصرّ، وهو البرد، وقيل: هي
الشديدة الصوت. وقال مجاهد: الشديدة السموم، والعاتية
التي عتت عن الطاعة، فكانها عتت على خزانها، فلم تطعمهم
ولم يقدروا على ردها لشدة هبوبها، أو عتت على عاد، فلم
يقدروا على ردها بل أهلكتهم ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ﴾
هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم، ومعنى
﴿سخرها﴾ سلطها، كذا قال مقاتل، وقيل: أرسلها. وقال
الزجاج: أقامها عليهم كما شاء، والتسخير: استعمال الشيء
بالاقتدار، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح، وأن تكون
حالاً منها لتخصيصها بالصفة، أو من الضمير في عاتية
﴿وثمانية أيام﴾ معطوف على ﴿سبع ليالٍ﴾، وانتصاب
﴿حسوماً﴾ على الحال أي: ذات حسوم، أو على المصدر
بفعل مقدر أي: تحسمهم حسوماً، أو على أنه مفعول به،
والحسوم التابع، فإذا تتابع الشيء ولم ينقطع أوله عن آخره
قليل له الحسوم. قال الزجاج: الذي ترجبه اللغة في معنى
قوله ﴿حسوماً﴾ أي: تحسمهم حسوماً تفنيهم وتذهبهم.
قال النضر بن شميل: حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم. وقال
الفراء: الحسوم الاتباع من حسم الداء، وهو الكي؛ لأن

هنا بمعنى رسالة، ومنه قول الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول
أي: برسالة ﴿فاخذهم لخذة ربية﴾ أي: أخذهم الله
أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم، والمعنى: أنها بالغة في
الشدة إلى الغاية، يقال: ربي الشيء يريو: إذا زاد وتضاعف.
قال الزجاج: تزيد على الأخذات. قال مجاهد: شديدة ﴿إنما لما
طغى الماء﴾ أي: تجاوز حدّه في الارتفاع والعلو، وذلك في
زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر وكذبوه، وقيل: طغى
على خزانه من الملائكة غضباً لربه، فلم يقدرُوا على حبسه.
قال قتادة: زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً ﴿حملناكم
في الجارية﴾ أي: في أصلاب آبائكم، أو حملناهم وحملناكم
في أصلابهم تغليبا للمخاطبين على الغائبين. والجارية
سفينة نوح، وسميت جارية لأنها تجري في الماء، ومحل في
الجارية النصب على الحال أي: رفعناكم فوق الماء حال
كونكم في السفينة، ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه
الأمم، وذكر ما حلّ بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن
الاعتداء بهم في معصية الرسول، قال: ﴿لنجعلها لكم
تذكرة﴾ أي: لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد
عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله وبيد
صنعه، أو لنجعل هذه الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء
المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة ﴿وتعيها أذن
واعية﴾ أي: تحفظها بعد سماعها أنن حافظاً لما سمعت.
قال الزجاج: يقال: أوعيت كذا أي: حفظته في نفسي أعيه
وعياً، ووعيت العلم، ووعيت ما قلته كله بمعنى، وأوعيت
المتاع في الوعاء، ويقال لكل ما وعيته في غير نفسك:
أوعيته بالآلف، ولما حفظته في نفسك وعيته بغير آلف. قال
قتادة في تفسير الآية: أنن سمعت وعقلت ما سمعت. قال
الفراء: المعنى: لتحفظها كل أنن عظة لمن يأتي بعد.
قرأ الجمهور (تعيها) بكسر العين. وقرأ طلحة بن مصرف،
وحميد الأعرج، وأبو عمرو في رواية عنه بإسكان العين
تشبيهاً لهذه الكلمة برحم وشهد وإن لم تكن من ذلك. قال
الرازي: وروي عن ابن كثير إسكان العين، جعل حرف
المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة، فخفف وأسكن
كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكتف. انتهى.
والأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف،
كما في قراءة من قرأ ﴿وما يشعركم﴾ [الأنعام: 109]
بسكون الراء، قال القرطبي: واختلفت القراءة فيها عن عاصم،
وابن كثير: يعني: تعيها ﴿فلذا نفخ في الصور نفخة
واحدة﴾ هذا شروع في بيان الحاقة، وكيف وقوعها بعد
بيان شأنها بإهلاك المكذبين. قال عطاء: يريد النفخة الأولى.
وقال الكلبي، ومقاتل يريد النفخة الأخيرة. قرأ الجمهور
(نفخة واحدة) بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على
النيابة، ولوحدة تأكيد لها، وحسن تذكير الفعل لوقوع
الفصل. وقرأ أبو السماك بنصبهما على أن الناثب هو الجار
والمجرور. قال الزجاج: قوله: ﴿في الصور﴾ يقوم مقام ما

لم يسمّ فاعله ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ أي: رفعت من
أمكنها وقلعت عن مقارها بالقدرة الإلهية. قرأ الجمهور
(حملت) بتخفيف الميم. وقرأ الأعمش، وابن أبي عبيدة، وابن
مقسم، وابن عامر في رواية عنه بتشديد الميم للتكثير أو
للتعديّة ﴿فنيكتا نكة واحدة﴾ أي: فكسرتا كسرة واحدة لا
زيادة عليها، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى
صارتا كتائباً مهيلاً وهباءً منبثاً. قال الفراء: ولم يقل فنيكتا
لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، ومثله قوله تعالى:
﴿ولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً
ففتقناهما﴾ [الأنبياء: 30] وقيل: نكتا بسطاً بسيطة واحدة،
ومنه اندك سنن البعير: إذا انفرش على ظهره ﴿فيومئذ
وقعت الواقعة﴾ أي: قامت القيامة ﴿وانشقت السماء فهي
يومئذ وهية﴾ أي: انشقت بنزول ما فيها من الملائكة فهي
في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية. قال الزجاج: يقال لكل ما
ضعف جداً: قد وهي فهو واه، وقال الفراء: وهيا تشققها
﴿والملك على أرجائها﴾ أي: جنس الملك على أطرافها
وجوانبها، وهي جمع رجي مقصور، وتثنيته رجوان مثل
قفا وقفوان، والمعنى: أنها لما تشققت السماء، وهي
مساكنتهم لجثوا إلى أطرافها. قال الضحّاك: إذا كان يوم
القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقق، وتكون الملائكة على
حافاتهما حتى يأمرهم الربّ، فينزلون إلى الأرض ويحيطون
بالأرض ومن عليها. وقال سعيد بن جبير: المعنى: والملك
على حافات الدنيا أي: ينزلون إلى الأرض، وقيل: إذا صارت
السماء قطعاً يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست
متشقة في أنفسها ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ
ثمانية﴾ أي: يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية
أملاك، وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا
الله عزّ وجلّ. وقيل: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من
الملائكة، قاله الكلبي وغيره ﴿يومئذ تعرضون﴾ أي:
تعرض العباد على الله لحسابهم، ومثله ﴿وعرضوا على
ربك صفّاً﴾ [الكهف: 48] وليس ذلك العرض عليه سبحانه
ليعلم به ما لم يكن عالماً به وإنما عرض الاختبار والتوبيخ
بالأعمال، وجملة ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ في محل نصب
على الحال من ضمير تعرضون أي: تعرضون حال كونه لا
يخفى على الله سبحانه من نواتكم أو أقوالكم وأفعالكم
خافية كائنة ما كانت، والتقدير: أي نفس خافية أو فعلة
خافية.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال:
﴿الحاقة﴾ من أسماء القيامة. وأخرج الفريابي، وعبد بن
حميد، وابن جرير عنه قال: ما أرسل الله شيئاً من ريح إلا
بمكيال، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد.
فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه، فلم يكن لهم عليه
سبيل، ثم قرأ ﴿إنما لما طغا الماء﴾ وأما يوم عاد فإن الريح
عتت على خزائنها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿يريح
صرصر عاتية﴾. وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب

إِلَّا اللَّهَ، ويقال: ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش في السماء السابعة، وأقدامهم في الأرض السفلى، ولهم قرون كقرون الوعلة، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعانيز، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله». وأخرج ابن جرير، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود نحوه.

فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بَيِّنَةٍ فَقَوْلًا هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْفَةَ ﴿١٨﴾ إِنْ لَمْ نَكُنْ أَنْفَ مَتْنِي حِسَابَةٍ ﴿١٩﴾ نَهَى فِي عَيْتِهِ رَأْيِيَّةٍ ﴿٢٠﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢١﴾ فُتُوهُنَا دَائِيَّةٌ ﴿٢٢﴾ كَلَّمُوا وَاتَّبَعُوا حَيْثُ مَا أَشْفَقْتُمْ فِي الْآيَاتِ لِلْآيَةِ ﴿٢٣﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بِشَاكِلِهِ فَقَوْلًا يَتَنَبَّأُ لَوْ أَنَّ كَيْفَةَ ﴿٢٤﴾ وَكَرَّ أَدْرَ مَا حِسَابَةٍ ﴿٢٥﴾ يَتَنَبَّأُ كَانَتْ الْقَائِيَّةُ ﴿٢٦﴾ مَا أَفَقَ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢٧﴾ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ غَدْرُهُ فُتُوهُنَا ﴿٢٩﴾ تَرَى لَبَّيْمَ سَلَوُهُ ﴿٣٠﴾ تَرَى فِي سِلَاسِهِ دَنَمَهَا سَمَوْنٍ وَرَاكَ قَسَلُكُوهُ ﴿٣١﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يَتَوَيْنُ بِأَمْرِ الطَّيْبِ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَمُتُ عَلَى طَعَامِ السَّكِينِ ﴿٣٣﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَمُّ هُنَا حَيْمٌ ﴿٣٤﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَنِيِّي ﴿٣٥﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْغَنِيُّونَ ﴿٣٦﴾ فَلَا أَقِيمَ بِمَا تُبْشِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا لَا تُبْشِرُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٩﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُذَكِّرُونَ ﴿٤١﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَيْنًا بِغَضِّ الْأَفْوَاحِ لَاحْذَرْنَا مِنْهُ بِالْبَيِّنِ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ لَنَقْلُبَنَّ أَمْرَهُنَّ الرَّبِّينَ ﴿٤٤﴾ فَمَا يَنْكُرُونَ مِنْ أَحْوَجِهِ حَيْرِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا لَنَذَكِّرَنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّمَا لَنَعْلَمَنَّ أَنَّ مَنْكَرَ مُكْذِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّمَا لَنَسْرَعَنَّ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّمَا لَنَحْنُ الْبَيِّنِ ﴿٤٩﴾ نَسْجَ وَأَسْمَ رَبِّكَ الطَّيْبِ ﴿٥٠﴾

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بَيِّنَةٍ﴾ أي: أعطي كتابه بيمينه. الحفظه عليه من أعماله ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كَيْفَتِهِ﴾ يقول ذلك سروراً وابتهاجاً. قال ابن السكيت، والكسائي: العرب تقول: ها يا رجل، وللانثين هاؤما يا رجلان، وللجمع هاؤم يا رجال، قيل: والأصل هاؤكم، فأبطلت الهمزة من الكاف، قال ابن زيد: ومعنى هاؤم تعالوا. وقال مقاتل: هلم، وقيل: خذوا؛ والذي صرح به النحاة أنها بمعنى خذ، يقول: ها بمعنى خذ، وهاؤما بمعنى خذ، وهاؤم بمعنى خذوا، فهي اسم فعل، وقد يكون فعلاً صريحاً لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، وفيها ثلاث لغات، كما هو معروف في علم الإعراب، وقوله: ﴿كَيْفَتِهِ﴾ معمول لقوله: ﴿أَقْرَبُوا﴾ لأنه أقرب الفعلين، ومعمول ﴿هاؤم﴾ محذوف يدل عليه معمول ﴿أَقْرَبُوا﴾ والتقدير: هاؤم كتابته أقرءوا كتابته، والهاء في كتابته وحسابيه وسلطانيه وماليه، هي هاء السكت. قرأ الجمهور في هذه بإثبات الهاء وفقاً ووصلاً مطابقة لرسم المصحف، ولولا ذلك لحذفت في الوصل، كما هو شأن هاء السكت، واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة

نحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالجبور». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعاً: «قال ما أمر الخزان على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الریح، فعتت على الخزان، فخرجت من نواحي الأبواب، فلذلك قوله: ﴿بُيْرِيحٍ صَرَصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ قال: عتوما عتت على الخزان». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بُيْرِيحٍ صَرَصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ قال: الغالبة. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: ﴿حُسُومًا﴾ قال: متتابعات. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿حُسُومًا﴾ قال: تباعاً، وفي لفظ: متتابعات. وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ قال: هي أصولها، وفي قوله: ﴿خُلَاوِيَّةٌ﴾ قال: خربة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ قال: طغى على خزانه فنزل، ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال، أو ميزان إلا زمن نوح، فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل ولا وزن. وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية من طريق مكحول عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَوَعِيهَا أَذُنٌ وَأَعِيَّةٌ﴾ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، فقال علي: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيتها». قال ابن كثير: وهو حديث مرسل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والواحدي، وابن مردويه، وابن عساکر، وابن النجار عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلني: إن الله أمرني أن أنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك، وأن تعني، وحق لك أن تعني، فنزلت هذه الآية ﴿وَوَعِيهَا أَذُنٌ وَأَعِيَّةٌ﴾ فانت أذن وأعية، يا علي». قال ابن كثير: (ولا يصح). وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عمر في قوله: ﴿أَذُنٌ وَأَعِيَّةٌ﴾ قال: أذن عقلت عن الله. وأخرج الحاكم، والبيهقي في البعث عن أبي بن كعب في قوله: ﴿وَوَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَكُتَّتَا دُكَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين، وذلك قوله: ﴿وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: 40، 41]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ قال: متخرقة. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ قال: على حافاتها على ما لم يهيئ منها. وأخرج عبد بن حميد، وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن خزيمة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والخطيب في [تالي التلخيص] عنه أيضاً في قوله: ﴿وَيُحْمَلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً﴾ قال: ثمانية أملاك على صورة الأرواح. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً من طرق في الآية قال: يقال: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم

عني، كذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدي، والضحاك. وقال ابن زيد: يعني: سلطاني الذي في الدنيا، وهو الملك، وقيل: تسلطي على جوارحي. قال مقاتل: يعني: حين شهدت عليه الجوارح بالشرك، وحينئذ يقول الله عز وجل: ﴿خُنُوهُ فَغُلُوهُ﴾ أي: اجتمعوا يده إلى عنقه بالاغلال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلْوُهُ﴾ أي: أدخلوه الجحيم، والمعنى: لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظيمة ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ السلسلة حلق منتظمة، وذرعها طولها. قال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو. قال نوف الشامي: كل ذراع سبعون باعاً، كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان نوف في رحبة الكوفة. قال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، ومعنى ﴿فاسْلُكُوهُ﴾: فاجعلوه فيها، يقال: سلكته الطريق إذا أدخلته فيه. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في بئر حتى تخرج من فيه. قال الكلبي: تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ. وقال سويد بن أبي نجيح: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وتقييم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقييم الجحيم، وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل لما قبلها ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لا يحث على إطعام المسكين من ماله، أو لا يحث الغير على إطعامه، ووضع الطعام موضع الإطعام، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء، كما قال الشاعر:

أكفراً بعدد موتي عني وبعد عطائك المال الرعابا
أي: بعد إعطائك، ويجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر، والمعنى: أنه لا يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين، وفي جعل هذا قريناً لترك الإيمان بالله من الترغيب في التصنق على المساكين وسد فاقاتهم، وحث النفس والناس على ذلك ما يدلّ أبليغ دلالة، ويفيد اكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشدّ المآثم ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي: ليس له يوم القيامة في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له؛ لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ﴾ أي: وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار، وما ينغسل من أبدانهم من القيح والصديد، وغسلين فعلين من الغسل. وقال الضحاك، والربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. وقال قتادة: هو شرّ الطعام. وقال ابن زيد: لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله تعالى. وقال سبحانه في موضع آخر ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: 6] فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، وقيل: في الكلام تقويم وتأخير، والمعنى فليس له اليوم هاهنا حميم إلا من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار ﴿وَلَا طَعَامَ﴾ أي: ليس لهم طعام ياكلونه، ولا ملجئ لهذا التقويم والتأخير، وجملة ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ صفة لغسلين، والمراد أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب. قال الكلبي: المراد الشرك. قرأ الجمهور (الخاطئون) مهموزاً، وهو

في إلحاق الهاء في السكت، ويوافق الخط، يعني: خط المصحف. قرأ ابن محيصن، وابن أبي إسحاق، وحميد، ومجاهد، والأعمش، ويعقوب بحذفها وصلًا، وإثباتها وقفًا في جميع هذه الألفاظ. ورويت هذه القراءة عن حمزة، واختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعاً للغة. وروي عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلًا وقفًا ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ﴾ أي: علمت وأيقنت في الدنيا أنني أحاسب في الآخرة، وقيل المعنى: إنني ظننت أن يأخذني الله بسيئاتي، فقد تفضل عليّ بعفوهِ ولم يؤاخضني. قال الضحاك: كل ظنّ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك. قال مجاهد: ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك. قال الحسن في هذه الآية: إن المؤمن أحسن الظنّ بربه فأحسن العمل للآخرة، وإن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل. قيل: والتعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لا يقدر في الاعتقاد ما يهيج في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: في عيشة مرضية لا مكروهة، أو ذات رضى أي: يرضى بها صاحبها. قال أبو عبيدة، والفراء: راضية أي: مرضية كقوله: ﴿مَاءٌ دَافِقٌ﴾ [الطارق: 6] أي: مدفوق، فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها، فكان ذلك من المجاز في الإسناد ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة المكان لأنها في السماء، أو مرتفعة المنازل، أو عظيمة في النفوس ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ القطوف: جمع قطف بكسر القاف، ما يقطف من الثمار، والقطف بالفتح المصدر، والقطف بالفتح والكسر وقت القطف، والمعنى: أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: يقال لهم: كلوا واشربوا في الجنة ﴿هَنِيئًا﴾ أي: أكلاً وشرباً هنيئاً لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿يَمَّا اسَلِفْتُمْ فِي الْإِيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا. وقال مجاهد: هي أيام الصيام ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ حزناً وكرباً لما رأى فيه من سيئاته ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيهِ﴾ أي: لم أعط كتابيه ﴿وَلَمْ أَدْرَأْ مَا حِسَابِيهِ﴾ أي: لم أدرك أي شيء حسابي لأن كله عليه ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي: ليت الموتة التي مَتَّهَا كانت القاضية، ولم أحي بعدها، ومعنى ﴿القاضية﴾: القاطعة للحياة، والمعنى: أنه تمنى لوام الموت، وعدم البيع لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب، فالضمير في [ليتها] يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها، وإن لم تكن منكرة؛ لأنها لظهورها كانت كالمنكرة. قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره منه، وشرّ من الموت ما يطلب منه الموت. وقيل: الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب، والمعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت عليّ ﴿يَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ﴾ أي: لم يدفع عني من عذاب الله شيئاً على أن ما نافية، أو استفهامية، والمعنى: أي شيء أغنى عني مالي ﴿هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ أي: هلكت عني حجتى وضلت

حتى يتصل بالقلب، وهو تصوير لإهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه. قال الواحدي: والمفسرون يقولون: إنه نياط القلب. انتهى. ومن هذا قول الشاعر:

إذا بلغتنني وحملت رحلي عرابة فاشركي بدم الوتين
﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي: ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا عنه، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه، ولا تقدرين على الدفع منه، والحجز المنع ﴿وحاجزين﴾ صفة لأحد، أو خبر لما الحجازية ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ أي: إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ أي: أن بعضكم يكتب بالقرآن، فنحن نجازيهم على ذلك، وفي هذا وعيد شديد ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ أي: وإن القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين، وقيل: هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحييمهم بأن يأتوا بسورة من مثله ﴿وإنه لحق لليقين﴾ أي: وإن القرآن لكونه من عند الله حق، فلا يحول حوله ريب ولا يتطرق إليه شك ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزهه عما لا يليق به، وقيل: فصل لربك، والاول أولى.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إني ظننت﴾ قال: أيقنت. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب ﴿قطوفها دانية﴾ قال: قريبة. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن البراء في الآية قال: يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿فاسلكوه﴾ قال: السلسلة تدخل في استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظّمون فيها كما ينظّم الجراد في العود، ثم يشوى. وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي الدرداء قال: إن الله سلسلة لم تزل تغلي منها أرجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى في أعناق الناس، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحضي على طعام المسكين يا أمّ الدرداء. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين الدم والماء والصيد الذي يسيل من لحومهم. وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: «لو أن دلوًا من غسيلين يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الغسلين اسم طعام من أطعمة أهل النار. وأخرج ابن جرير عنه ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ يقول: بما ترون وما لا ترون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿لأخذاً منه باليمين﴾ قال: بقدرة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه قال: ﴿الوتين﴾ عرق القلب. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن

اسم فاعل من خطئ إذا فعل غير الصواب متعمداً، والمخطئ من يفعله غير متعمد. وقرأ الزهري، وطلحة بن مصرف، والحسن (الخطيبون) بياء مضمومة بدل الهمزة. وقرأ نافع في رواية عنه بضم الطاء بدون همزة ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ هذا ردّ لكلام المشركين كأنه قال: ليس الأمر كما تقولون، ولا زائدة، والتقدير: فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر، فيدخل في هذا جميع المخلوقات، وقيل: إن «لا» ليست زائدة، بل هي لنفي القسم أي: لا احتاج إلى قسم لوضوح الحق في ذلك، والاول أولى ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ أي: إن القرآن لتلاوة رسول كريم، على أن المراد بالرسول محمد ﷺ، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم. قال الحسن، والكلبي، ومقاتل: يريد به جبريل، دليله قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ ذي قوة عند ذي العرش مكين [التكوير: 19، 20] وعلى كل حال، فالقرآن ليس من قول محمد ﷺ، ولا من قول جبريل عليه السلام، بل هو قول الله، فلا بد من تقدير التلاوة أو التبليغ ﴿وما هو بقول شاعر﴾ كما تزعمون: لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾ أي: إيماناً قليلاً تؤمنون، وتصديقاً يسيراً تصنقون، وما زائدة ﴿ولا بقول كاهن﴾ كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي: تذكر أقلّ، أو زماناً قليلاً تتذكرون، وما زائدة، والقلة في الموضوعين بمعنى النفي أي: لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلاً ﴿تنزيل من ربّ العالمين﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو تنزيل. وقرأ أبو السماك بالنصب على المصيرية بإضمار فعل أي: نزل تنزيلاً، والمعنى: إنه لقول رسول كريم، وهو تنزيل من ربّ العالمين على لسانه ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ أي: ولو تقول ذلك الرسول، وهو محمد أو جبريل على ما تقدّم، والتقول تكلف القول، والمعنى: أو تكلف ذلك وجاء به من جهة نفسه، وسمي الافتراء تقولاً لأنه قول مكتلف، وكلّ كاذب يتكلف ما يكذب به. قرأ الجمهور (تقول) مبنياً للفاعل. وقرئ مبنياً للمفعول مع رفع بعض. وقرأ ابن نكوان (ولو يقول) على صيغة المضارع، والأقاول جمع أقوال، والأقوال جمع قول ﴿لأخذاً منه باليمين﴾ أي: بيده اليمين. قال ابن جرير: إن هذا الكلام خرج مخرج الإلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب. وقال الفراء، والمبرد، والزجاج، وابن قتيبة: ﴿لأخذاً منه باليمين﴾ أي: بالقوة والقدرة. قال ابن قتيبة: وإنما أقام اليمين مقام القوة؛ لأن قوة كل شيء في يمامته، ومن هذا قول الشاعر:

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابية باليمين
وقول الآخر:

ولما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي بيمينتي
﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ الوتين عرق يجري في الظهر

كيوم بدر، أو في الآخرة، وقوله: ﴿للكافرين﴾ صفة أخرى لعذاب أي: كائن للكافرين، أو متعلق بواقع، واللام للعلة، أو بسأل على تضمينه معنى دعا، أو في محل رفع على تقدير: هو للكافرين، أو تكون اللام بمعنى على، ويؤيده قراءة أبي (بعذاب واقع على الكافرين). قال الفرّاء: التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم، فالواقع من نعت العذاب، وجملة ﴿ليس له دافع﴾ صفة أخرى لعذاب، أو حال منه، أو مستأنفة، والمعنى: أنه لا يدفع تلك العذاب الواقع به أحد، وقوله: ﴿من الله﴾ متعلق بواقع أي: واقع من جهته سبحانه، أو بدافع أي: ليس له دافع من جهته تعالى ﴿ذي المعارج﴾ أي: ذي الدرجات التي تصعد فيها الملائكة، وقال الكلبي: هي السموات، وسماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها، وقيل: المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق، وقيل: المعارج العظمة، وقيل: هي الغرف. وقرأ ابن مسعود (ذي المعارج) بزيادة الياء، يقال: معارج ومعارج مثل مفاتيح ومفاتيح ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ أي: تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم، وقرأ الجمهور (تعرج) بالفوقية، وقرأ ابن مسعود، وأصحابه، والكسائي، والسلمي بالتحنية، والروح جبريل، أفرد بالذكر بعد الملائكة لشرفه، ويؤيد هذا قوله: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ [الشعراء: 193]، وقيل: الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل. وقال أبو صالح: إنه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة الناس، وليسوا من الناس. وقال قبيصة بن نؤيب: إنه روح الميت حين تقبض، والأول أولى. ومعنى ﴿إليه﴾: أي: إلى المكان الذي ينتهون إليه، وقيل: إلى عرشه، وقيل: هو كقول إبراهيم: ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ [الصافات: 99] أي: إلى حيث أمرني ربي ﴿وفي يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال ابن إسحاق، والكلبي، وهوب بن منبه: أي عرج الملائكة إلى المكان الذي هو محلها في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة. وبه قال مجاهد. وقال عكرمة: وروي عن مجاهد أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدري أحدكم مضى، ولا كم بقي، ولا يعلم ذلك إلا الله. وقال قتادة، والكلبي، ومحمد بن كعب: إن المراد يوم القيامة، يعني: أن مقدار الأمر فيه لو تولاها غيره سبحانه خمسون ألف سنة، وهو سبحانه يفرغ منه في ساعة، وقيل: إن مدة موقف العباد للحساب هي هذا المقدار، ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وقيل: إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة، وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر، وقيل: نكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره، كما تصف العرب أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر، ويشبهون اليوم القصير بإيهام القطة والطويل بظل الرمح، ومنه قول الشاعر:

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزرق عنا واصطفاف المزاهر

المنذر، وابن أبي حاتم والحاكم عنه أيضاً قال: ﴿الوتين﴾ نياط القلب. وأخرج ابن المنذر، والحاكم، وصححه عنه أيضاً قال: هو حبل القلب الذي في الظهر.

تفسير سورة المعارج

وهي مكية. قال القرطبي: باتفاق. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة سال بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكٰفِرِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ۝ يِّنْ اَللّٰهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَمْرُجُ الْمَكٰئِكُ وَالرُّوْحُ اِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمِيْسَ اَلْفِ سَنَةٍ ۝ اَقْسَرُ مِنْ رَّجُلٍ يَّجِيْدٌ ۝ اِيَّاهُمْ يَرْوِيْهِ بَيِّنًا ۝ وَرَبُّهُ قَرِيْبٌ ۝ يَوْمَ تَكُوْنُ اَنْسَاكُهُمْ كَالْعِهْنِ ۝ وَتَكُوْنُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ وَلَا يَنْصَلُّ مِنْهُمْ اَحَدٌ ۝ يَجْعَلُوْنَهُمْ يَوْمَ الْمَعْزَمِ ۝ كَوْفَتَدَى مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ يَبِيْدٌ ۝ وَرَحْمَتِيْءُ وَاَحِبُّهُ ۝ وَصَبَّيْنِيْ اِلَيْ قُوْبٍ ۝ وَمَنْ فِى الْاَرْضِ رَيْبًا ۝ ثُمَّ يُجِيْهِ ۝ كَلَّا اِنَّمَا لَقْنِيْ ۝ نَزَاعًا لِّاَسْوَى ۝ دَعَاوًا اَدْرَ وَتَوَكَّلْ ۝ وَدَعَّ اَعْوَى ۝

قوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ وقع ﴿قرأ الجمهور﴾ (سأل) بالهمزة، وقرأ نافع، وابن عامر، بغير همزة، فمن همز، فهو من السؤال وهي اللغة الفاشية، وهو إما مضمن معنى الدعاء، فلذلك عدى بالياء، كما تقول دعوت كذا، والمعنى: دعا داع على نفسه بعذاب واقع، ويجوز أن يكون على أصله، والباء بمعنى عن كقوله: ﴿فاسأل به خبيراً﴾ [الفرقان: 59] ومن لم يهزم، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفاً، فيكون معناها معنى قراءة من همز، أو يكون من السيلان، والمعنى: سأل والد في جهنم، يقال له: سائل، كما قال زيد بن ثابت، ويؤيده قراءة ابن عباس (سأل سيل) وقيل: إن سأل بمعنى التمس، والمعنى: التمس ملتمس عذاباً للكفار، فتكون الباء زائدة كقوله: ﴿تنتب بالدهن﴾ [المؤمنون: 20] والوجه الأوّل هو الظاهر. وقال الأخفش: يقال: خرجنا نسال عن فلان وبفلان. قال أبو علي الفارسي: وإذا كان من السؤال، فاصله أن يتعدى إلى مفعولين، ويجوز الاختصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر، وهذا السائل هو النضر بن الحارث حين قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: 32] وهو ممن قتل يوم بدر صبراً، وقيل: هو أبو جهل، وقيل: هو الحارث بن النعمان الفهري، والأول أولى لما سيأتي. وقرأ أبي، وابن مسعود (سال سال) مثل مال مال على أن الأصل سائل، فحذفت العين تخفيفاً، كما قيل: شك في شائك السلاح. وقيل: السائل هو نوح عليه السلام، سأل العذاب للكافرين، وقيل: هو رسول الله ﷺ دعا بالعقاب عليهم، وقوله: ﴿بعذاب واقع﴾ يعني: إما في الدنيا

القريب عن قريبه، والخليل عن خليفه، كما قال سبحانه ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِسُورَةِ الْمَعَارِجِ بِإِذْنِ الْمَلَأِكَةِ وَالرُّوحِ إِلَيْهِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْجَمْعَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السَّجْدَةِ: 5] فَارْجِعْ إِلَيْهِ.

وقد قيل في الجمع: إن من أسفل العالم إلى العرش خمسون ألف سنة، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة؛ لأن غلط كل سماء خمسمائة عام، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسون ألف سنة، وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة، وسيأتي في آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله، وهذا معنى الصبر الجميل، وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى بأنه مصاب. قال ابن زيد، وغيره: هي منسوخة بآية السيف ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي: يرون العذاب الواقع بهم، أو يرون يوم القيامة بعيداً أي: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به، فمعنى ﴿بَعِيدًا﴾ أي: مستبعداً محالاً، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب. قال الأعمش: يرون البعث بعيداً؛ لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة، كما تقول لمن تناظره هذا بعيداً أي: لا يكون ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ أي: نعلمه كائنًا قريباً؛ لأن ما هو آت قريب. وقيل المعنى: ونراه هيناً في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر، والجملة تعليل للأمر بالصبر. ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ والظرف متعلق بمضمر دل عليه واقع، أو بدل من قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ على تقدير تعلقه بواقع، أو متعلق بقريباً، أو مقدر بعده أي: يوم تكون... إلخ، كان كيت وكيت، أو بدل من الضمير في نراه، والأول أولى. والتقدير: يقع بهم العذاب ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ والمهل: ما أنيب من النحاس والرصاص والفضة. وقال مجاهد: هو القيقع من الصديد والدم. وقال عكرمة، وغيره: هو ردي الزيت، وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف والبخان ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي: كالصوف المصبوغ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغاً. قال الحسن: تكون الجبال كالعهن، وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، وقيل: العهن الصوف ذو الألوان، فشبه الجبال به في كونها ألواناً، كما في قوله: ﴿جَدِيدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ﴾ و«غرايب سود» [فاطر: 27] فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت

القريب عن قريبه، والخليل عن خليفه، كما قال سبحانه ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِسُورَةِ الْمَعَارِجِ بِإِذْنِ الْمَلَأِكَةِ وَالرُّوحِ إِلَيْهِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْجَمْعَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السَّجْدَةِ: 5] فَارْجِعْ إِلَيْهِ.

وقد قيل في الجمع: إن من أسفل العالم إلى العرش خمسون ألف سنة، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة؛ لأن غلط كل سماء خمسمائة عام، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسون ألف سنة، وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة، وسيأتي في آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس. ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله، وهذا معنى الصبر الجميل، وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى بأنه مصاب. قال ابن زيد، وغيره: هي منسوخة بآية السيف ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي: يرون العذاب الواقع بهم، أو يرون يوم القيامة بعيداً أي: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به، فمعنى ﴿بَعِيدًا﴾ أي: مستبعداً محالاً، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب. قال الأعمش: يرون البعث بعيداً؛ لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة، كما تقول لمن تناظره هذا بعيداً أي: لا يكون ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ أي: نعلمه كائنًا قريباً؛ لأن ما هو آت قريب. وقيل المعنى: ونراه هيناً في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر، والجملة تعليل للأمر بالصبر. ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ والظرف متعلق بمضمر دل عليه واقع، أو بدل من قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ على تقدير تعلقه بواقع، أو متعلق بقريباً، أو مقدر بعده أي: يوم تكون... إلخ، كان كيت وكيت، أو بدل من الضمير في نراه، والأول أولى. والتقدير: يقع بهم العذاب ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ والمهل: ما أنيب من النحاس والرصاص والفضة. وقال مجاهد: هو القيقع من الصديد والدم. وقال عكرمة، وغيره: هو ردي الزيت، وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف والبخان ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي: كالصوف المصبوغ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغاً. قال الحسن: تكون الجبال كالعهن، وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، وقيل: العهن الصوف ذو الألوان، فشبه الجبال به في كونها ألواناً، كما في قوله: ﴿جَدِيدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ﴾ و«غرايب سود» [فاطر: 27] فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت

المعارج قال: ذي العلو والفواضل. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة، و﴿يوم كان مقداره ألف سنة﴾ [السجدة: 5] قال: يعني بذلك ينزل الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: غلط كل أرض خمسمائة عام، وغلط كل سماء خمسمائة عام، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام، فذلك أربعة عشر ألف عام، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام، فذلك قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ قال: هذا في الدنيا ترج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون، وفي قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة. وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي عنه أيضاً في قوله: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم. قال: يعني يوم القيامة. وقد قدمنا عن ابن عباس الوقف في الجمع بين الآيتين في سورة السجدة. وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال: «يقيل يا رسول الله ﷺ ﴿يوم كان يوم مقداره خمسين ألف سنة﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال: والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا، وفي إسناده دراج عن أبي الهيثم، وهما ضعيفان. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة مرفوعاً قال: ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا أقدر ما بين الظهر إلى العصر. وأخرج الحكيم الترمذي في نوارى الأصول عن ابن عباس في قوله: ﴿فأصبر صبراً جميلاً﴾ قال: لا تشكر إلى أحد غيري. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والخطيب في المتفق والمفترق، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ قال: كدردي الزيت. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿يبيضونهم﴾ يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون، ثم يفر بعضهم بعضاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿نزاعة للشوى﴾ قال: تنزع ثم الرأس.

﴿إِنَّ الْأَنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ خَاسِرٌ﴾ ﴿إِنَّمَا أَنشَرُ جُرُومًا﴾ ﴿وَإِنَّمَا سَعَى النَّفْسِ النَّامُوسَ﴾ ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَزْمَانِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ ﴿لِسَائِلِ وَالْحَرُورِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُصَيِّفُونَ بَيُورَ الْأَيْمِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابٍ رَجِيمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِزُرُوعِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْزَاقِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

قوله: ﴿إنها لظى﴾ عائد إلى النار المدلول عليها بذكر العذاب، أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده، وظى علم لجهم، واشتقاقها من التلظى في النار، وهو التلهب، وقيل: أصله لظظ بمعنى نواص العذاب، فقلبت إحدى الظاهرين ألفاً، وقيل لظى: هي الدركة الثانية من طباق جهنم ﴿نزاعة للشوى﴾ قرأ الجمهور (نزاعة) بالرفع على أنه خبر ثانٍ، لأن، أو خبر مبتدأ محذوف، أو تكون لظى بدلاً من الضمير المنصوب، ونزاعة خبر إن، أو على أن نزاعة صفة للظى على تقدير عدم كونها علماً، أو يكون الضمير في إنها للقصة، ويكون لظى مبتدأ، ونزاعة خبره، والجملة خبر إن، وقرأ حفص عن عاصم، وأبو عمر، وفي رواية عنه، وأبو حيو، والزعفراني، والترمذي، وابن مقسم (نزاعة) بالنصب على الحال. وقال أبو علي الفارسي: حمله على الحال بعيد؛ لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال، وقيل: العامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلظى، أو النصب على الاختصاص، والشوى الأطراف، أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس، ومنه قول الأعشى:

قالت قتيلة ماله قد جللت شيباً شواته

وقال الحسن، وثابت البناني: ﴿نزاعة للشوى﴾ أي: لمكارم الوجه وحسنه، وكذا قال أبو العالية، وقتادة. وقال قتادة: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئاً. وقال الكسائي: هي المفصلات. وقال أبو صالح: هي أطراف اليدين والرجلين ﴿تدعوا من أنبر﴾ أي: تدعو لظى من أنبر عن الحق في الدنيا ﴿وتولى﴾ أي: أعرض عنه ﴿وجمع فاعوى﴾ أي: جمع المال فجعله في وعاء، وقيل: إنها تقول إلي يا مشرك، إلي يا منافق، وقيل: معنى تدعو تهلك، تقول العرب: دعك الله أي: أهلكك، وقيل: ليس هو الدعاء باللسان، ولكن دعاءها إياهم تمكنها من عذابهم، وقيل: المراد أن خزنة جهنم تدعو الكافرين والمنافقين، فأسند الدعاء إلى النار، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحل، وقيل: هو تمثيل وتخييل، ولا دعاء في الحقيقة، والمعنى: أن مصيرهم إليها، كما قال الشاعر:

ولقد هبطنا الواد بين قوائنا ندعو الأنيس به الغصيص الأبكم والغصيص الأبكم: الذئب، وهي لا تدعو، وفي هذا نم لمن جمع المال فاعواه، وكثره ولم ينفقه في سبل الخير، أو لم يؤد زكاته.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿سأل سائل﴾ قال: هو النضر بن الحارث قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: 32] وفي قوله: ﴿يعذاب واقع﴾ قال: كائن للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج قال: ذي الدرجات. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿سأل سائل﴾ قال: سأل وإد في جهنم. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ذي

خائفون، وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقاقاً لأعمالهم، واعترافاً بما يجب لله سبحانه عليهم. وجملة ﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ مقررّة لمضمون ما قبلها مبينة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمّنه أحد، وأن حق كل أحد أن يخافه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَامُونَ﴾ قد تقدم تفسيره في سورة المؤمنين مستوفى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها، ولا ينقضون شيئاً من العهود التي يعقدونها على أنفسهم. قرأ الجمهور (لأماناتهم) بالجمع، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن (لأمانتهم) بالإفراد، والمراد الجنس ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، أو رفيع أو ضيع، ولا يكتونها ولا يغيرونها، وقد تقدّم القول في الشهادة في سورة البقرة. قرأ الجمهور (بشهاداتهم) بالإفراد، وقرأ حفص، ويعقوب، وهي رواية عن ابن كثير بالجمع. قال: الواحدي والإفراد أولى لأنه مصدر، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات. قال الفراء: ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى: ﴿وَاقِيمُوا شَهَادَاتِهِ﴾ [الطلاق: 2] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ﴾ أي: على أنكارها وأركانها وشرائطها، لا يخلون بشيء من ذلك. قال قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها. وقال ابن جريج: المراد التطوّع، وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أولاً، وما وصفهم به ثانياً، فإن معنى الدوام: هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل، كما سلف؛ ومعنى المحافظة: أن يراعي الأمر التي لا تكون صلاة بدونها، وقيل: المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها، وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقل بموصوف منفرد، والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ مَكْرُومٍ﴾ أي: مستقرّون فيها، مكرمون بأنواع الكرامات، وخبر المبتدأ قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، وقوله: ﴿مَكْرُومٍ﴾ خبر آخر، ويجوز أن يكون الخبر مكرمون، وفي جنات متعلق به ﴿فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ﴾ أي: أي شيء لهم حواليك مسرعين، قال الأخفش: مهطعين مسرعين، ومنه قول الشاعر:

بمكة أملها ولقد أراهم إليهم مهطعين إلى السماع
وقيل المعنى: ما بالهم يسرعون إليك يجلسون حواليك، ولا يعملون بما تأمرهم، وقيل: ما بالهم مسرعين إلى التكنيب. وقيل: ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك، فيكذبونك ويستهزئون بك. وقال الكلبي: إن معنى ﴿مَهْطَعِينَ﴾: ناظرين إليك. وقال قتادة: عاملين، وقيل: مسرعين إليك مادي أعناقهم ميممي النظر إليك ﴿عَنِ اليمين وعن الشمال عزين﴾ أي: عن يمين النبي ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة، وعزين جمع عزة، وهي العصبة من الناس، ومنه قول الشاعر:

فَأَنَّهُمْ عِزٌّ مُلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ فَنَاقَتْ رَبَّهُ ذَلِكَ تَأْوِيلُكَ مُرَّ الْكَادِرِ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَسْتَشِيرَهُمْ لَعَنَ رَبُّهُمْ أَغْلًا ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿١٥٣﴾ أُولَئِكَ فِي جَهَنَّمَ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ أَتَىٰ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِئِينَ ﴿١٥٥﴾ عَنِ الْآيِينَ وَرَبِّ الْآيَاتِ عَزِيزٌ ﴿١٥٦﴾ أَلَيْسَ كُلُّ أَمْرٍ إِنَّمَا يَكُن مِثْلُ حُبِّهِمْ أَن يُدْخَلَ جَهَنَّمَ نَمِيرٌ ﴿١٥٧﴾ كَلَّا إِنَّا مَحْسَبُهُمْ رَبًّا يَلْعَنُ ﴿١٥٨﴾

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ قال في الصحاح: الهلع في اللغة: أشد الحرص، وأسوأ الجزع وأقحشه يقال: هلع بالكسر، فهو هَلُوعٌ وهَلُوعٌ على التثنية. وقال عكرمة: هو الضجور. قال: الواحدي، والمفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعني قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ * وإذا مَسَّهُ للخير منوعاً، أي: إذا أصابه الفقر والحاجة، أو المرض، أو نحو ذلك، فهو جزوع؛ أي: كثير الجزع، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة، ونحو ذلك، فهو كثير المنع والإمسك. وقال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مَسَّهُ الخير لم يشكر، وإذا مَسَّهُ الشر لم يصبر. قال ثعلب: قد فسّر الله الهلوع: هو الذي إذا أصابه الشر أظهر شدة الجزع، وإذا أصابه الخير بخل به ومنعه الناس، والعرب تقول: ناقه هلوع، وهلوع إذا كانت سريعة السير خفيفته، ومنه قول الشاعر:

شكنا ذليلاً إذا استديرتها حرج إذا استقبلتها هلوع
والذليّة: الناقة السريعة، وانتصاب هلوعاً وجزوعاً ومنوعاً على أنها أحوال مقدّرة، أو محققة؛ لكونها طبائع جبل الإنسان عليها، والظرفان معمولان لجزوعاً ومنوعاً ﴿إِلَّا لِلْمُصْلِينَ﴾ أي: المقيمين للصلاة، وقيل: المراد بهم أهل التوحيد يعني: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع؛ وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضية؛ لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير. ثم بيّنهم سبحانه. فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: لا يشغلهم عنها شاغل، ولا يصرفهم عنها صارف، وليس المراد بالنوم أنهم يصلون أبداً. قال الزجاج: هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة. وقال الحسن، وابن جريج: هو التطوع منها. قال النخعي: المراد بالمصلين الذين يؤتون الصلاة المكتوبة، وقيل: الذين يصلونها لوقتها، والمراد بالآية جميع المؤمنين، وقيل: الصحابة خاصة، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ قال قتادة، ومحمد بن سيرين: المراد الزكاة المفروضة. وقال مجاهد: سوى الزكاة، وقيل: صلة الرحم، والظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوماً، ولجعله قريناً للصلاة، وقد تقدّم تفسير السائل والمحروم في سورة الذاريات مستوفى. ﴿وَالَّذِينَ يَصْنَعُونَ بَيْتُومَ اللَّيْلِ﴾ أي: بيوم الجزاء، وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يجحون، وقيل: يصنّفونه بأعمالهم، فيتعبون أنفسهم في الطاعات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي:

«يقول الله: ابن آدم أتى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعملتك مشيت بين بردين، ولالأرض منك وثيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أواتى أوان الصدقة».

قَالَ أَتَمُّ رَبِّكَ الشَّرِيفُ وَالْكَرِيمُ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿١٥﴾ عَلَّ أَنْ يُبْدَلَ خَيْرًا مِنْكُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْرُورِينَ ﴿١٦﴾ فَذَرَهُمْ مَحْضُوا وَغَلَبُوا حَتَّى يَسْلُفُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْدَادِ يَرْكَاكَهُمْ إِلَى نَسَبٍ يَوْمَعُدُونَ ﴿١٨﴾ خَتِمْتَ أَسْرُسَهُمْ زَهْفَهُمْ ذَلِكَ يَوْمَ الَّذِي كَانُوا يَوْمَعُدُونَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿فلا أقسم﴾ «لا زائدة كما تقدم قريباً، والمعنى: فاقسم ﴿برب المشارق والمغارب﴾ يعني: مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربيه. قرأ الجمهور (المشارق والمغارب) بالجمع، وقرأ أبو حيو، وابن محيصن، وحמיד بالإفراد ﴿إننا لقادرون على أن نبذل خيراً منهم﴾ أي: على أن نخلق أمثلاً منهم، وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء ﴿وما نحن بمسيوقين﴾ أي: بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر؛ ولكن مشيتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء، وعدم تبديلهم بخلق آخر ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في نياتهم، واشتغل بما أمرت به ولا يعظم عليك ما هم فيه، فليس عليك إلا البلاغ ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، وهذه الآية منسوخة بآية السيف. قرأ الجمهور (يلاقوا)، وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن، وحמיד، ومجاهد (حتى يلقوا) ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ يوم بدل من يومهم، وسراعاً منتصب على الحال من ضمير يخرجون، قرأ الجمهور (يخرجون) على البناء للفاعل. وقرأ السلمي، والاعمش، والمغيرة، وعاصم في رواية على البناء للمفعول، والأجداث جمع جدث، وهو القبر ﴿كانهم إلى نصب يوفضون﴾ قرأ الجمهور (نصب) بفتح النون وسكون الصاد. وقرأ ابن عامر، وحفص بضم النون والصاد، وقرأ عمرو بن ميمون، وأبو رجاء بضم النون وإسكان الصاد. قال في الصحاح: والنصب ما نصب فعبد من دون الله، وكذا النصب بالضم، وقد يحرك. قال الأعشى:

وذا للنصب المنصوب لا تعينه ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا والجمع: الأنصاب، وقال الأخفش، والفراء: النصب جمع النصب، مثل رهن ورهن، والأنصاب جمع النصب فهو جمع الجمع، وقيل: النصب جمع نصاب، وهو حجر أو صنم ينبع عليه، ومنه قوله: ﴿وما نبح على النصب﴾ [المائدة: 3] وقال النحاس: نصب ونصب بمعنى واحد، وقيل معنى ﴿إلى نصب﴾: إلى غاية، وهي التي تنصب إليها بصرك، وقال الكلبي: إلى شيء منصوب علم أو راية أي: كأنهم إلى علم يدعون إليه، أو راية تنصب لهم يوفضون، قال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم. وقال أبو عمرو:

ترانا عنده والليل داج على أبوابه خلقاً عزيزنا وقال الراعي:
أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سراتهم إليك عزيزنا وقال عنتره:

وقرن قد تركت لذي ولي عليه الطير كالعصب العزيزنا وقيل: أصلها عزوة من العز؛ كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى. قال في الصحاح: والعزة للفرقة من الناس، والهاء عوض من التاء، والجمع عزى وعزون، وقوله: ﴿عن اليمين وعن الشمال﴾ متعلق بعزى، أو بمهطعين ﴿ياطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ قال المفسرون: كان المشركون يقولون: لئن نخل هؤلاء الجنة لندخل قبلهم، فنزلت الآية، قرأ الجمهور (أن يدخل) مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن، وزيد بن علي، وطلحة بن مصرف، والأعرج، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء، وعاصم في رواية عنه على البناء للفاعل. ثم رد الله سبحانه عليهم فقال: ﴿كلا إننا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي: من القدر الذين يعلمون به، فلا ينبغي لهم هذا التكبر، وقيل المعنى: إننا خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو امتثال الأمر والنهي، وتعريضهم للثواب والعقاب، كما في قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: 56]، ومنه قول الأعشى:

«أزمت من آل ليلى ابتكاراً وشطت على ذي هوى أن يزلزا وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن الهلوع، فقال: هو كما قال الله: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ وإذا مسه الخير منوعاً. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿هلوعاً﴾ قال: الشره. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: على مواقيتها. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن عمران بن حصين ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: الذي لا يلتفت في صلاته. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مرونه عن عقبة بن عامر ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا. وأخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿فمال للذين كفروا بقلبك مهطعين﴾ قال: ينظرون ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ قال: العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر قال: نخل علينا رسول الله ﷺ المسجد، ونحن خلق متفرقون فقال: «ما لي أراكم عزين». وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن سعد، وابن أبي عاصم، والباوردي، وابن قانع، والحاكم، والبيهقي في الشعب، والضياء عن بشر بن جحاش قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فمال للذين كفروا بقلبك مهطعين﴾ إلى قوله: ﴿كلا إننا خلقناهم مما يعلمون﴾، ثم بنق رسول الله ﷺ على كفه، ووضع عليها أصبعه، وقال:

سَكَنَ يَبَانَ ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُجُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۝ وَاللَّهُ
أَبْتَرُ مِنْ الْأَرْضِ يَبَانَ ۝ ثُمَّ يُبَدِّلُ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَاللَّهُ
جَمَلٌ لِّكَ الْأَرْضُ بِسَاطًا ۝ تَسْلُكُوا فِيهَا سَبِيلًا ۝

قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ قد تقدم أن نوحاً
أول رسول أرسله الله، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن
لخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم، وقد تقدم مدة لبثه في
قومه، وبيان جميع عمره، وبيان السن التي أرسل وهو فيها
في سورة العنكبوت ﴿أَن أَنْذَرُ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذر على
أنها مصدرية. ويجوز أن تكون هي المفسرة: لأن في
الإرسال معنى القول. وقرا ابن مسعود (أنذر) بدون أن،
وذلك على تقدير القول: أي: فقلنا له أنذر ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ
يَلْتَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ أي: عذاب شديد الألم، وهو عذاب النار.
وقال الكلبي: هو ما نزل بهم من الطوفان، وجملة ﴿قَالَ يَا
قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً على
تقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قال نوح؟ فقال: قال لهم إلخ.
والمعنى: إني لكم منذر من عقاب الله ومخوف لكم، ومبين
لما فيه نجاتكم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ «أن»
هي التفسيرية لنذير، أو هي المصدرية أي: بأن عبدوا الله
ولا تشركوا به غيره، واتقوه أي: اجتنبوا ما يوقعكم في
عذابه، وأطيعوا فيما أمركم به فإني رسول إليكم من عند الله
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ هذا جواب الأمر، و«من»
للتبعية أي: بعض ذنوبكم، وهو ما سلف منها قبل طاعة
الرسول وإجابة دعوته. وقال السدي: المعنى يغفر لكم
ذنوبكم، فتكون «من» على هذا زائدة، وقيل: المراد بالبعض
ما لا يتعلق بحقوق العباد، وقيل: هي لبيان الجنس، وقيل:
يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتهم منها ﴿وَيُؤْخِرْكُمْ إِلَى
لَاجِلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي
قدره الله لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدره لكم، على
تقدير بقاءكم على الكفر والعصيان. وقيل: التأخير بمعنى
البركة في أعمارهم أن آمنوا، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا.
قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى أجالكم. وقال الزجاج: أي
يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستاصلين بالعذاب.
وقال الفراء: المعنى لا يميّتكم غرقاً ولا حرقاً ولا قتلاً ﴿إِن
لَّجَلَّ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤْخِرُ﴾ أي: ما قدره لكم على تقدير
بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء، وأنتم باقون على الكفر
لا يؤخر بل يقع لا محالة، فبادروا إلى الإيمان والطاعة. وقيل
المعنى: إن أجل الله، وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان.
وقيل المعنى: إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو
بغير عذاب ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئاً من العلم
لسارعتم إلى ما أمركم به، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا
يؤخر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: قال
نوح منادياً لربه، وحاكياً له ما جرى بينه وبين قومه، - وهو
أعلم به - منه إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن أدعوه
إليه من الإيمان دعاء دائماً في الليل والنهار من غير تقصير

النصب شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها
مخافة انفلاته. ومعنى يوفضون: يسرعون، والإيفاض
الإسراع. يقال: أوفض إيفاضاً أي: أسرع إسراعاً، ومنه قول
الشاعر:

فوارس نبيان تحت الحديد كالجن يوفض من عبقر
وعبقر: قرية من قرى الجن، كما تزعم العرب، ومنه قول
ليبيد:

كهول وشبان كجنة عبقر

وانتصاب ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارِهِمْ﴾ على الحال من ضمير
يوفضون، وأبصارهم مرتفعة به، والخشوع النلة والخضوع
أي: لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب ﴿تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾
أي: تغشاهم ذلة شديدة. قال قتادة هي: سواد الوجوه، ومنه
غلام مراهق: إذا غشيه الاحتلام، يقال: رهقه بالكسر يرهقه
رهقاً أي: غشيه، ومثل هذا قوله: ﴿وَلَا يَرْمُقُ وَجُوهَهُمْ قُتَرٌ
وَلَا ذُلَّةٌ﴾ [يونس: 26] والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم
ذكره. وهو مبتدأ وخبره ﴿الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي:
الذي كانوا يوعدونه في الدنيا على السنة الرسل قد حاق
بهم وحضر، ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به، وإن كان
مستقبلاً، فهو في حكم الذي قد وقع لتحقيق وقوعه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:
﴿فَلَا اقْسَمْ رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ قال: للشمس كل
يوم مطلع تطلع فيه، ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس
وغير مغربها بالأمس. وأخرج ابن جرير عنه ﴿إِلَى نَصَبِ
يُوفُضُونَ﴾ قال: إلى علم يستبقون.

تفسير سورة نوح

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مريويه عن
عبد الله بن الزبير قال: نزلت سورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾
[أي: سورة نوح] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
۝ قَالَ يَتُوبُونَ إِلَيَّ لَكُنْ ذَرِيرٌ شَيْئٌ ۝ أَنْ أَغِيْبُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا
۝ يَتُوبُونَ لَكُنْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْخِرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ
لَا يُؤْخَرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمَّ
يَرَوْهُمْ كَذِبًا وَلَا يَفْهَمُونَ ۝ وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِيُغَيِّرَ لَهُمْ جَمَلًا أَسْمِعُهُمْ
فِي أَعْيُنِهِمْ ۝ وَأَسْتَفْهِنُوا فِيهَا ۝ وَأَمَرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتَكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي
دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَهْلَكْتُ لَهُمْ وَأَشْرَرْتُ لَهُمْ إِشْرَارًا ۝ فَفَلَّتُ
أَسْتَفْهِنُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا غَفَّارًا ۝ يُرْسِلُ السَّحَابَ عَلَيْكُمْ يُدْرِكُوا ۝
وَيُنْذِرُكُمْ بِاتُّوَالٍ ۝ وَيَنْبَغِي لَكُنْ جَنَّتْ وَجَعَلَ لَكُنْ أَتَهْرًا ۝ مَا لَكُنْ لَا
رَبُّنَا لِلَّهِ وَقَالَ ۝ وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا ۝ أَتَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَجَّ

إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي: أي عزركم في ترك الرجاء، والرجاء هنا بمعنى الخوف أي: ما لكم لا تخافون الله، والوقار العظمة من التوقير، وهو التعظيم، والمعنى لا تخافون حقَّ عظمته، فتوحنونه وتطيعونه، و ﴿لا ترجون﴾ في محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين، والعامل فيه معنى الاستقرار في لكم، ومن إطلاق الرجاء على الخوف قول الهنلي:

إذا لسعت النحل لم يرج لسعها

وقال سعيد بن جبير، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثواباً، ولا تخافون منه عقاباً. وقال مجاهد، والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمة. قال قطرب: هذه لغة حجازية. وهنيل، وخزاعة، ومضر يقولون: لم أرج لم أبل. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان. وقال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤدبون لله طاعة. وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون الله حقاً، ولا تشكرون له نعمة، وجملة ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ في محل نصب على الحال أي: والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة: نطفة، ثم مضغة، ثم علقة إلى تمام الخلق، كما تقدم بيانه في سورة المؤمنين، والطور في اللغة: المرة، وقال ابن الأنباري: الطور الحال، وجمعه أطوار، وقيل: أطواراً صبياناً، ثم شباناً، ثم شيوخاً، وقيل: الأطوار اختلافهم في الأفعال والأقوال والأخلاق، والمعنى: كيف تقصرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة ﴿فلم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ الخطاب لمن يصلح له، والمراد الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته وبديع صنعه، وأنه الحقيق بالعبادة، والطباق المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقبايق. قال الحسن: خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء، وأرض وأرض خلق وأمر، وقد تقدم تحقيق هذا في قوله: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: 12] وانتصاب طباقاً على المصدرية، تقول طابقه مطابقة وطباقاً، أو حال بمعنى ذات طباق، فحذف ذات وأقام طباقاً مقامه، وأجاز الفراء في غير القرآن جرَّ طباقاً على النعت ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ أي: منوراً لوجه الأرض، وجعل القمر في السموات مع كونها في سماء الدنيا؛ لأنها إذا كانت في إحداها فهي فيهن، كذا قال ابن كيسان. قال الأخفش: كما تقول: اتاني بنو تميم، والمراد بعضهم. وقال قطرب: فيهن بمعنى معهن أي: خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض، كما في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال
أي: مع ثلاثة أحوال ﴿وجعل الشمس سرلاً﴾ أي: كالمصباح لأهل الأرض؛ ليتوصلوا بذلك إلى التصرف فيما يحتلجون إليه من المعاش ﴿ووالله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾

﴿فلم يزدكم دعائي إلا فراراً﴾ عما دعوتهم إليه وبعداً عنه. قال مقاتل: يعني تباعداً من الإيمان، وإسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها، كما في قوله: ﴿زادتهم إيماناً﴾ [الأنفال: 2]. قرأ الجمهور (دعائي) بفتح الياء، وقرأ الكوفيون، ويعقوب، والدوري عن أبي عمرو بإسكانها، والاستثناء مفرغ ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾ أي: كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بك، والطاعة لك ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ لئلا يسمعوا صوتي ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروني، وقيل: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدَّ الآذان، وقيل: هو كناية عن العداوة، يقال: لبس فلان ثياب العداوة، وقيل: استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوه ﴿واصروا﴾ أي: استمروا على الكفر، ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه ﴿واستكبروا﴾ عن قبول الحق، وعن امتثال ما أمرهم به ﴿استكبروا﴾ شديداً ﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ أي: مظهراً لهم الدعوة مجاهراً لهم بها ﴿ثم إني أعلنت لهم﴾ أي: دعوتهم معلناً لهم بالدعاء ﴿واسررت لهم إسراراً﴾ أي: وأسررت لهم الدعوة إسراراً كثيراً، قيل المعنى: أن يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سراً فيما بينه وبينه، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، فلم ينجح ذلك فيهم. قال مجاهد: معنى أعلنت: صحت، وقيل: معنى ﴿واسررت﴾: أتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها. وانتصاب جهاراً على المصدرية؛ لأن الدعاء يكون جهاراً ويكون غير جهار، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم: قعد القرفصاء، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف أي: دعاء جهاراً، وأن يكون مصدراً في موضع الحال أي: مجاهراً، ومعنى ﴿ثم﴾: الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما. قرأ الجمهور (إني) بسكون الياء، وقرأ أبو عمرو والحرميين بفتحها ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ أي: سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية ﴿إنه كان غفاراً﴾ أي: كثير المغفرة للذنوب، وقيل: معنى استغفروا: توبوا عن الكفر إنه كان غفاراً للتائبين ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، وقيل: المراد بالسماء المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بارض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
والمدار: الدور، وهو التحلب بالمطر، وانتصابه إما على الحال من السماء، ولم يؤنث، لأن مفعلاً لا يؤنث؛ تقول امرأة مثنات ومثكار، أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي: إرسالاً مدراراً، وقد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر. وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق، ولهذا قال: ﴿ويمدكم بأموال وينين ويجعل لكم جنات﴾ يعني: بساتين ﴿ويجعل لكم أنهاراً﴾ جارية. قال عطاء: المعنى يكثر أموالكم وأولادكم. أعلمهم نوح عليه السلام أن

يعني: آدم خلقه الله من أديم الأرض، والمعنى: أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبات لإنشاء لكونه أدل على الحدث والتكوين، ونباتاً إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد، أو مصدر لفعل محذوف أي: أنبتكم من الأرض، فنبتم نباتاً. وقال الخليل، والزجاج: هو مصدر محمول على المعنى؛ لأن معنى أنبتكم: جعلكم تنبتون نباتاً. وقيل المعنى: والله أنبت لكم من الأرض النبات، فنبتاً على هذا مفعول به. قال ابن بحر: أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر، وبالطول بعد القصر **﴿فَنَمَّ يَعْصِيكُمْ فِيهَا﴾** أي: في الأرض **﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾** يعني: يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة **﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾** أي: فرشها وبسطها لكم لتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم **﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾** أي: طرقاً واسعة، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع، كذا قال الفراء، وغيره، وقيل الفج: المسلك بين الجبلين، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الأنبياء، وفي سورة الحج مستوفى.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿وَجَعَلُوا أَصَابِعُهم فِي آذَانِهِم﴾** قال: لئلا يسمعوا ما يقول **﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُم﴾** قال: ليتكروا، فلا يعرفهم **﴿وَأَسْتَكَبرُوا اسْتِكْبَارًا﴾** قال: تركوا التوبة. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه **﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُم﴾** قال: غطوا وجوههم لئلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله: **﴿هَما لَكُمْ لَا تَرْجُونَ شَيْءًا﴾** قال: لا تعلمون شئ عظمة. وأخرج ابن جرير، والبيهقي عنه أيضاً **﴿وَقَارَأَهُ﴾** قال: عظمة. وفي قوله: **﴿وَقَدْ خَلَقْكُمْ أَطْوَارًا﴾** قال: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: لا تخافون شئ عظمة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب: «أن النبي ﷺ رأى ناساً يغتسلون عراة ليس عليهم أزر، فنادى بأعلى صوته **﴿هَما لَكُمْ لَا تَرْجُونَ شَيْءًا﴾**». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال: الشمس والقمر، وجوههما قبل السماء وأتفيتها قبل الأرض، وأنا أقرأ بذلك عليكم أنه من كتاب الله **﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾**. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمر قال: تضيء لاهل السموات، كما تضيء لاهل الأرض. وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب، فتعاتبا فذهب ذلك، فقال عبد الله بن عمرو لكعب: سلني عما شئت، فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قلبي من القرآن، فقال له: أرايت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات

قوله: **﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾** أي: استمروا على عصياني ولم يجيبوا دعوتي، شكاهم إلى الله عز وجل، وأخبره بأنهم عصوه ولم يتبعوه، وهو أعلم بذلك **﴿وَاتَّبَعُوا مِنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خُسَارًا﴾** أي: اتبع الأصغر رؤساءهم؛ وأهل الثروة منهم الذين لم يزددهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة. قرأ أهل المدينة، والشام، وعاصم، (ولده) بفتح الواو واللام. وقرأ الباقر بسكون اللام، وهي لغة في الولد، ويجوز أن يكون جمعاً، وقد تقدم تحقيقه، ومعنى **﴿وَاتَّبَعُوا﴾**: أنهم استمروا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع **﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾** أي: مكرًا كبيراً عظيماً، يقال: كبير وكبار⁽¹⁾، وكبار مثل عجيب وعجاب وعجاب، وجميل وجمال وجمال. قال المبرد: كباراً بالتشديد للمبالغة، ومثل كباراً قراء لكثير القراءة، وأنشد ابن السكيت:

بيضاء تصطاد القلوب وتستبي بالحسن قلب السلم القراء
قرأ الجمهور (كباراً) بالتشديد. وقرأ ابن محيصن، وحميد، ومجاهد بالتخفيف. قال أبو بكر: هو جمع كبير كأنه جعل مكرًا مكان ذنوب أو أفاعيل، فلذلك وصفه بالجمع. وقال عيسى بن عمر: هي لغة يمانية.

واختلف في مكرهم هذا ما هو؟ فقيل: هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح، وقيل: هو تغريهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفة: لولا أنهم على الحق

(1) اللثاني بالتخفيف، والثالث بالتشديد اهـ مصححه.

اضلوا، ومعنى: **﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾** إلا عذاباً: كذا قال ابن بحر، واستدل على ذلك بقوله: **﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾** [القمر: 47]، وقيل: إلا خسراً، وقيل: إلا فتنة بالمال والولد، وقيل: الضياع، وقيل: ضلالاً في مكرهم **﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾** «ما» مزيدة للتأكيد، والمعنى: من خطيئاتهم أي: من أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان **﴿فَانْخَلُوا نَارًا﴾** عقب ذلك، وهي نار الآخرة، وقيل: عذاب القبر. قرأ الجمهور (خطيئاتهم) على جمع السلامة، وقرأ أبو عمرو: «خطاياهم» على جمع التكسير، وقرأ الجحدري، وعمرو بن عبيد، والأعمش، وأبو حيوة، وأشبهب العقيلي (خطيئتهم) على الإفراد، قال الضحاك: غنوا بالنار في الدنيا مع الغرق في حالة واحدة كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في جانب. قرأ الجمهور (أغرقوا) من أغرق، وقرأ زيد بن علي (أغرقوا) بالتشديد **﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾** أي: لم يجنوا أحداً يمنعونهم من عذاب الله ويدفعه عنهم **﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ لَيارًا﴾** معطوف على **﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾** لما آتس نوح - عليه السلام - من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك. قال قتادة: دعا عليهم بعد أن أوحى إليه **﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾** [هود: 36] فأجاب الله دعوته وأغرقهم. وقال محمد بن كعب، ومقاتل، والزبيح بن أنس، وابن زيد، وعطية: إنما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الأبناء قبل العذاب بسبعين سنة، وقيل: باريعين. قال قتادة: لم يكن فيهم صبي وقت العذاب. وقال الحسن، وأبو العالية: لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم، وعدلاً فيهم، ولكن أهلك نرثتهم وأطفالهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب، ومعنى **﴿لَيارًا﴾**: من يسكن الديار، وأصله ديوار على فيعال، من دار يدور، فقلت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى، مثل القيام أصله قيوم، وقال القتيبي: أصله من الدار، أي: نازل بالدار، يقال: ما بالدار ديار أي: أحد، وقيل الديار: صاحب الديار، والمعنى: لا تدع أحداً منهم إلا أهلكته **﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ﴾** أي: إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحق **﴿وَلَا يَلْبُوا إِلَّا فُاجِرًا كَفَرًا﴾** أي: إلا فاجراً يترك طاعتك كفاراً لنعمتك أي: كثير الكفران لها، والمعنى: إلا من سيفجر ويكفر. ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين، فقال: **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾** وكانا مؤمنين، وأبوه لأمك بن متوشلخ، كما تقدم، وأمه سمحاء بنت أنوش، وقيل: أراد آدم وحواء. وقال سعيد بن جبیر: أراد بوالديه أباه وجده. وقرأ سعيد بن جبیر (ولوآلدي) بكسر الدال على الإفراد. **﴿وَلَمَنْ نَخْلُ بَيْتِي﴾** قال الضحاك، والكلبي: يعني مسجده، وقيل: منزله الذي هو ساكن فيه، وقيل: سفينته، وقيل: لمن نخل في دينه، وانتصاب **﴿مُؤْمِنًا﴾** على الحال، أي: لمن نخل بيتي متصفاً بصفة الإيمان، فيخرج من دخله غير متصف بهذه

لما أوتوا هذه النعم. وقال الكلبي: هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد. وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لاتباعهم لا تذرني الهتك، وقيل: مكرهم كفرهم **﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾** أي: لا تتركوا عبادة الهتك، وهي الأصنام والصور التي كانت لهم، ثم عبثتها العرب من بعدهم، وبهذا قال الجمهور **﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سِوَاةَ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾** أي: لا تتركوا عبادة هذه. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من تلك الوقت، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء، لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم. وقال عروة بن الزبير وغيره: إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم، وكان ود أكبرهم. قال الماوردي: فاما ود، فهو أول صنم معبود، سمي ودًا لودهم له، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل في قول ابن عباس، وعطاء، ومقاتل، وفيه يقول شاعرهم:

حياك ود فلن لا يحل لنا لهر النساء وإن الدين قد غربا

وأما سِوَاة فكان لهذيل بساحل البحر، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة. وقال المهدوي: لمراد ثم لغطفان؛ وأما يعوق فكان لهمدان في قول قتادة، وعكرمة، وعطاء. وقال الثعلبي: كان لكهلان بن سبأ، ثم توارثوه حتى صار في همدان، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني:

يريش الله في الدنيا ويبري ولا يبري يعوق ولا يريش

وأما نسر فكان لذي الكلاع من حمير في قول قتادة، ومقاتل. قرأ الجمهور (ودًا) بفتح الواو. وقرأ نافع بضمها. قال الليث: ود بضم الواو صنم لقريش، وبفتحها صنم كان لقوم نوح، وبه سمي عمرو بن ود. قال في الصحاح، والود بالفتح: الود في لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال. وقرأ الجمهور (ولا يغوث ويعوق) بغير تنوين، فإن كانا عربيين، فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، وإن كانا عجميين، فللعجمة والعلمية. وقرأ الأعمش (ولا يغوثا ويعوقا) بالصرف. قال ابن عطية: وذلك وهم. ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها **﴿وَقَدْ اضْلَوْا كَثِيرًا﴾** أي: أضل كبرائهم ورؤسائهم كثيراً من الناس، وقيل: الضمير راجع إلى الأصنام: أي: ضل بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم: **﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ اضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾** [إبراهيم: 36] وأجرى عليهم ضمير من يعقل لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل **﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾** معطوف على **﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾** ووضع الظاهر موضع المضمرة تسجيلاً عليهم بالظلم. وقال أبو حيان: إنه معطوف على قد

لم يرههم؟ فظاهر القرآن أنه لم يرههم؛ لأن المعنى: قل يا محمد لأمتك أوحى إليّ على لسان جبريل ﴿أنه استمع نقر من الجن﴾ ومثله قوله: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ [الأحقاف: 29] ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ وما رآهم. قال عكرمة: والسورة التي كان يقرؤها رسول الله ﷺ هي ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [أي: سورة العلق] وقد تقدّم في سورة الأحقاف نكر ما يفيد زيادة في هذا. قوله: ﴿أنه استمع نقر من الجن﴾ هذا هو القائم مقام الفاعل، ولهذا فتحت أن، والضمير للشان، وعند الكوفيين والأخفش يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجارّ والمجرور، والنقر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة. قال الضحّاك: والجنّ ولد الجنّ وليسوا شياطين. وقال الحسن: إنهم ولد إبليس. قيل: هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية والهوائية، وقيل: نوع من الأرواح المجردة، وقيل: هي النفوس البشرية المارقة لأبدانها.

وقد اختلف أهل العلم في دخول مؤمني الجنّ الجنة، كما يخل عصاتهم النار لقوله في سورة تبارك: ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ [الملك: 5] وقول الجنّ فيما سيأتي في هذه السورة، ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ [الجن: 15] وغير ذلك من الآيات، فقال الحسن: يدخلون الجنة، وقال مجاهد: لا يدخلونها، وإن صرفوا عن النار. والأوّل أولى لقوله في سورة الرحمن: ﴿لم يطمئنهٗ إنس قبلهم ولا جان﴾ [الرحمن: 56] وفي سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك فراجعها، وقد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلاً منهم، بل الرسل جميعاً من الإنس، وإن أشعر قوله: ﴿لم ياتكم رسل منكم﴾ [الزمر: 71] بخلاف هذا، فهو منفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بني آدم، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول، والمراد الإشارة بأخصر عبارة ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبا﴾ أي: قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم أي: سمعنا كلاماً مقروءً عجبا في فصاحته وبلاغته، وقيل: عجبا في مواعظه، وقيل: في بركته، وعجبا مصدر وصف به للمبالغة، أو على حذف المضاف أي: ذا عجب، أو المصدر بمعنى اسم الفاعل أي: معجبا ﴿يهدي إلى الرشده﴾ أي: إلى مرشد الأمور، وهي الحق والصواب، وقيل: إلى معرفة الله، والجملة صفة أخرى للقرآن ﴿فأما به﴾ أي: صلّينا به بأنه من عند الله ﴿ولن نشرك بربنا أحدا﴾ من خلقه، ولا نتخذ معه إلهاً آخر؛ لأنه المتفرد بالربوبية، وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنّت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به، ولم ينتفع كفار الإنس لا سيما رؤسائهم وعظماؤهم بسماعه مرّات متعدّدة، وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة مع كون الرسل منهم يتلوه عليهم بلسانهم لا جرم صرعههم الله أنزل

الصفة كامراته وولده الذي قال: ﴿سَأَرِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصَمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43] ثم عمم الدعوة، فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: واغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث. ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين، فقال: ﴿وَلَا تَزِدْ لِلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارُكًا﴾ أي: لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكاً، وخسراناً ودماراً وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة، كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَذَرْنِ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قال: هذه الأصنام كانت تعبد في زمن نوح. وأخرج البخاري، وابن المنذر، وابن مردويه عنه قال: صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب. أما وُد فكانت للكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطف، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الذي كانوا يجلسون فيه أنصاباً، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت.

تفسير سورة الجن

وهي مكية. قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة، وابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنَكَ عَجْبًا ۖ
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَشْأًا ۖ ۝١ وَأَنَّهُ تَكَلَّمَ جِدًّا رُبَّمَا
اِخْتَفَىٰ صَوْتُهُ وَلَا وِلْدًا ۖ ۝٢ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَوِيًّا عَلَى اللَّهِ ضَلُوكًا ۖ ۝٣
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ ۝٤ وَأَنَّهُ كَانَ يَظَالِمُ يَن
الْإِنسَ يُوْدُونَ يَظَالِمُوْنَ ۖ ۝٥ وَالْجِنِّ قَرَادِثَهُمْ هَفَاً ۖ ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ
يَمِيعَ اللَّهُ أَشْأًا ۖ ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا حُرْمًا شَدِيدًا
رُشْدًا ۖ ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمِعَ الْآلَانَ يَجِدْ لَّهُ
شَيْهًا رَّصَدًا ۖ ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَوْدَىٰ يَمُنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ
رُدًّا ۖ ۝١٠ وَأَنَّا إِنَّا الْغَالِيُونَ رَبَّنَا ذُوقْ ذَلِيلَكَ كَمَا طَأَتْهُ يَدُكَ ۖ ۝١١ وَأَنَّا
ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُمَجِّزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُشْجِرَهُ هَرَبًا ۖ ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا
الْمَدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ رَبَّهُ، فَلَا يَغَافُ حَسًّا وَلَا هَفَاً ۖ ۝١٣

قوله: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ﴾ قرأ الجمهور «أُوحي» رباعياً. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو إياس، والعتكعي عن أبي عمرو (وحي) ثلاثياً، وهما لغتان. واختلف هل رَأَهم النبي ﷺ أم

على الله شططا» الضمير في أنه للحديث، أو الأمر، وسفيها
يجوز أن يكون اسم كان، ويقول: الخبر، ويجوز أن يكون
سفيها فاعل يقول، والجملة: خبر كان، واسمها ضمير يرجع
إلى الحديث، أو الأمر، ويجوز أن تكون كان زائدة، ومرادهم
بسفيهم: عصاتهم ومشركوهم. وقال مجاهد، وابن جريج،
وقتادة: أرادوا به إبليس، والشطط: الغلو في الكفر. وقال أبو
مالك: الجور، وقال الكلبي: الكذب، وأصله البعد عن القصد
ومجاوزة الحد، ومنه قول الشاعر:

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا وما ذاك إلا حيث يملك الوخط
«وإنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا»
أي: إنا حسبنا أن الإنس والجن كانوا لا يكذبون على الله بأن
له شريكا وصاحبة وولدا، فلذلك صنفناهم في ذلك حتى
سمعنا القرآن، فعلمنا بطلان قولهم، وبطلان ما كنا نظنه بهم
من الصدق، وانتصاب كذبا على أنه مصدر مؤكد ليقول: لأن
الكنب نوع من القول، أو صفة لمصدر محذوف أي: قولاً
كذبا. وقرأ يعقوب، والجحدري، وابن أبي إسحاق (أن لن
تقول) من التقول، فيكون على هذه القراءة كذبا مفعول به
«وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن»
قال الحسن، وابن زيد، وغيرهما: كان العرب إذا نزل الرجل
بواو قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه،
فبييت في جواره حتى يصبح، فنزلت هذه الآية. قال مقاتل:
كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن، ثم من بني
حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله
وتركوه «فزانوهم رهقا» أي: زاد رجال الجن من تعوذ
بهم من رجال الإنس رهقا، أي: سفها وطغيانا، أو تكبرا
وعتوا، أو زاد المستعيزون من رجال الإنس من استعانوا
بهم من رجال الجن رهقا؛ لأن المستعان بهم كانوا يقولون:
سدا الجن والإنس. وبالأول قال مجاهد، وقتادة، والثاني
قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد. والرهق
في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، ورجل رقيق: إذا كان
كذلك، ومنه قوله: «ترهقهم نلة» [يونس: 27] أي: تغشاهم،
ومنه قول الأعشى:

لا شيء ينفعني من لون رؤيتها هل يشتقي عاشق مالم يصب رهقا
يعني: إثما. وقيل: الرهق: الخوف أي: أن الجن زالت
الإنس بهذا التعوذ بهم خوفا منهم، وقيل: كان الرجل من
الإنس يقول: أعوذ بفلان من سادات العرب من جن هذا
الوادي، ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على
الجن، فيكون قوله: «برجال» وصفاً لمن يستعيزون به من
رجال الإنس أي: يعونون بهم من شر الجن، وهذا فيه بعد،
وإطلاق لفظ رجال على الجن على تسليم عدم صحته لغة لا
مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة «وإنهم ظنوا
كما ظننتم أن لن يبعث الله لهما نبيا» هذا من قول الجن
للإنس أي: وإن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث.
وقيل المعنى: وإن الإنس ظنوا، كما ظننتم أيها الجن،

مصرع، وقتلهم أقبح مقتل، ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا
يعلمون «وإنه تعالى جد ربنا» قراءة حمزة، والكسائي،
وابن عامر، وحفص، وعلقمة، ويحيى بن وثاب، والأعمش،
وخلف، والسلمي (وإنه تعالى) بفتح أن، وكذا قرءوا فيما
بعدها مما هو معطوف عليها، وذلك أحد عشر موضعا إلى
قوله: «وإنه لما قام عبد الله» [الجن: 19] وقرأ الباقون
بالكسر في هذه المواضع كلها إلا في قوله: «وإن المساجد
للله» [الجن: 18] فإنهم اتفقوا على الفتح، أما من قرأ بالفتح
في هذه المواضع، فعلى العطف على محل الجار، والمجرب
في «فأما به» كانه قيل: فصنّفناه، وصنّفنا أنه تعالى جد
ربنا إلخ، وأما من قرأ بالكسر في هذه المواضع، فعلى
العطف على إنا سمعنا أي: فقالوا: إنا سمعنا قرأنا، وقالوا:
إنه تعالى جد ربنا إلى آخره. واختار أبو حاتم، وأبو عبيد
قراءة الكسر؛ لأنه كله من كلام الجن ومما هو محكي عنهم
بقوله: فقالوا: إنا سمعنا. وقرأ أبو جعفر، وشعبة بالفتح في
ثلاثة مواضع، وهي: «وإنه تعالى جد ربنا» «وإنه كان
يقول سفيها» «وإنه كان رجال من الإنس» قال: لأنه
من الوحي، وكسرا ما بقي لأنه من كلام الجن. وقرأ
الجمهور (وإنه لما قام عبد الله) بالفتح؛ لأنه معطوف على
قوله: «إنه استمع». وقرأ نافع، وابن عامر، وشيبة، وزيد بن
حبيش، وأبو بكر، والمفضل عن عاصم بالكسر في هذا
الموضع عطفاً على فأما به بذلك التقدير السابق، واتفقوا
على الفتح في «إنه استمع»، كما اتفقوا على الفتح في
«أن للمساجد» وفي «وإن لو استقاموا» واتفقوا على
الكسر في «فقالوا إنا سمعنا» و«قل إنما ادعوا ربي»
و«قل إن أدري» و«قل إني لا أملك لكم». والجد عند أهل
اللغة العظمة والجلال، يقال: جد في عيني أي: عظم، فالمعنى:
ارتفع عظمة ربنا وجلاله، وبه قال عكرمة، ومجاهد، وقال
الحسن: المراد تعالى غناه، ومنه قيل للحظ، جد: ورجل
مجدود، أي: محظوظ، وفي الحديث: «ولا ينفع ذا الجد منك
الجد» قال أبو عبيد، والخليل، أي: لا ينفع ذا الغنى منك الغنى
أي: إنما تنفعه الطاعة، وقال القرطبي، والضحاك: جدّه آؤه،
ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة، والأخفش: ملكه وسلطانه.
وقال السدي: أمره. وقال سعيد بن جبيرة «وإنه تعالى جد
ربنا» أي: تعالى ربنا، وقيل: جدّه قدرته. وقال محمد بن
علي بن الحسين، وابنه جعفر الصانق، والربيع بن أنس: ليس
ش جد، وإنما قالته الجن للجهالة. قرأ الجمهور (جد) بفتح
الجيم، وقرأ عكرمة، وأبو حيوة، ومحمد بن السميع بكسر
الجيم، وهو ضد الهزل، وقرأ أبو الأشهب (جدي ربنا) أي:
جداؤه ومنفعته. وروي عن عكرمة أيضاً أنه قرأ بتكوين (جد)
ورفع (ربنا) على أنه بدل من جد «ما اتخذ صاحبة ولا
ولدا» هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه. قال الزجاج: تعالى
جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً، وكان الجن
نهبوا بهذا على خطا الكفار الذين ينسبون إلى الله الصاحبة
والولد، ونزّهموا الله سبحانه عنهما «وإنه كان يقول سفيها

والأولى أن هذا من قول الجنّ فيما بينهم، وليس من قول إيليس كما قال ابن زيد ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: وأنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح ﴿وَمِنَّا بَنُونَ﴾ أي: قوم بنون ذلك أي: بنون الموصوفين بالصلاح، وقيل: أراد بالصلحين المؤمنين، وبينهم هم بنون ذلك الكافرين، والأول أولى، ومعنى ﴿كُنَّا طَرِيقًا قَدَدًا﴾ أي: جماعات متفرقة وأصنافاً مختلفة، والقدة: القطعة من الشيء، وصار القوم قدداً: إذا تفرقت أحوالهم، ومنه قول الشاعر:

القباض الباسط الهادي لطاعته في فتنة الناس إذا هؤلؤهم قد
والمعنى: كنا نؤدي طرائق قدداً، أو كانت طرائقنا طرائق قدداً، أو كنا مثل طرائق قدداً ومن هذا قول لبيد:

لم تبلغ العين كل نهمتها يوم تمشي الجياد بالقد
وقوله أيضاً:

ولقد قلت وزيد حاسر يوم ولت خيل عمرو قدداً
قال السدي، والضحاك: أدياناً مختلفة، وقال قتادة: أهواء متباينة. وقال سعيد بن المسيب: كانوا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس وكذا قال مجاهد. قال الحسن: الجنّ أمثالكم قدرية، ومرجئة، ورافضة، وشيعية، وكذا قال السدي: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين أي: ولنا علمنا أن الشأن لن نعبد الله في الأرض أينما كنا فيها، ولن نفوته إن أراد بنا أمراً ﴿وَلَنْ نَعْبُدَ هَرَبًا﴾ أي: هاربين منها، فهو مصدر في موضع الحال ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدْيَ﴾ يعنون القرآن ﴿أَمْنَا بِهِ﴾ وصنّفنا أنه من عبد الله ولم نكذب به، كما كذبت به كفرة الإنس ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: لا يخاف نقصاً في عمله وثوابه، ولا ظلماً ومكروهاً يغشاه، والبخس النقصان، والرهق العدوان والطغيان، والمعنى: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزداد في سيئاته، وقد تقدّم تحقيق الرهق قريباً. قرأ الجمهور (بخساً) بسكون الخاء. وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش (فلا يخف) جزماً على جواب الشرط، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء، والتقدير: فهو لا يخاف، والأمر ظاهر.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وغيرهم عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها؛ لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ، وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له قالوا: هذا والله الذي حال

والمعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ هذا من قول الجنّ أيضاً، أي: طلبنا خبرها، كما به جرت عادتنا ﴿فَوَجَدْنَاهَا مَلْتًا حَرَسًا﴾ من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، والحرس جمع حارس، و﴿شديدًا﴾ صفة لحرساً أي: قويا ﴿وَشَهَبًا﴾ جمع شهاب، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب، كما تقدّم بيانه في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5] ومحل قوله: ﴿مَلْتًا حَرَسًا شَدِيدًا﴾ النصب على أنه ثاني مفعولي وجدنا؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، ويجوز أن يكون متعدياً إلى مفعول واحد، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد، وحرساً منصوب على التمييز، ووصفه بالمفرد اعتباراً باللفظ، كما يقال: السلف الصالح أي: الصالحين ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعِدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ﴾ أي: كنا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع، أي: مواضع نقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء، وللسمع متعلق بنقعد أي: لأجل السمع، أو بمضمر هو صفة لمقاعد أي: مقاعد كائنة للسمع، والمقاعد جمع مقعد اسم مكان، وذلك أن مرده الجنّ كانوا يفعلون ذلك؛ ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء؛ فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله ﷺ بالشهب المحرقة، وهو معنى قوله: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصْدًا﴾ أي: أرصد له ليرمي به، أو لأجله لمنعه من السماع، وقوله: ﴿الْآنَ﴾ هو ظرف للحال، واستعير للاستقبال، وانتصاب رصداً على أنه صفة لشهَاب، أو مفعول له، وهو مفرد ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرس.

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا؟ فقال قوم: لم يكن ذلك. وحكى الواحدي عن معمر قال: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعِدُ مِنْهَا﴾ الآية، قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ. قال ابن قتيبة: إن الرجم قد كان قبل مبعثه، ولكنه لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً. وقال عبد الملك بن سائبور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد، فلما بعث محمد ﷺ حرس السماء ورميت الشياطين بالشهب، ومنعت من الدنو إلى السماء. وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمي، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب، وقد تقدّم البحث عن هذا ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: لا ندري أشراً أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء، أم أراد بهم ربهم رشداً أي: خيراً. قال ابن زيد: قال إيليس: لا ندري أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً، أو يرسل إليهم رسولا، وارتفاع ﴿أَشَرٌّ﴾ على الاشتغال، أو على الابتداء، وخبره ما بعده، والأول أولى، والجملة ساذة مسدّ مفعولي ندري،

اللَّهُ يَدْعُوهُ كَادُوا يُكْفَرُونَ عَلَيْهِ لَيْدًا ﴿١٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ شَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُغِيرَ مِنَ اللَّهِ أَحَدًا وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٣﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿١٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ﴿١٥﴾ قُلْ إِنَّ أَدْرَىٰ أَقْرَبَ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا ﴿١٦﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْهَىٰ عَنِ غَيْبِهِ رَسَدًا ﴿١٨﴾ لَيْسَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٩﴾

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ مِنَ الْمَسْلُومِينَ﴾ هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ ﴿وَمِنَ الْقَاسِطِينَ﴾ أي: الجاثرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق ومالوا إلى طريق الباطل، يقال: قسط إذا جار، واقسط: إذا عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: قصصوا طريق الحق. قال الفراء: أمرو الهدى ﴿وَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: وقوداً للنار توقد بهم، كما توقد بكفرة الإنس ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ هذا ليس من قول الجن بل هو معطوف على ﴿وَأَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: 1] والمعنى: وأوحى إلي أن الشأن لو استقام الجن أو الإنس، أو كلاهما على الطريقة، وهي طريقة الإسلام. وقد قدمنا أن القراء اتفقوا على فتح أن ههنا. قال ابن الأنباري: والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها، والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل، يقال في الكلام: والله لو قمت لقمت، كما في قول الشاعر:

أما والله أن لو كنت حراً ولا بالحرأنت ولا العتيق
قال: أو عليّ أوحى إلي أنه استمع، وأن لو استقاموا، أو على أمانة به أي: أمانة به، وبأن لو استقاموا. قرأ الجمهور بكسر الواو من (لو) لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن وثاب، والأعمش بضمها ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً واسعاً. قال مقاتل: ماء كثيراً من السماء، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. وقال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعاً لو سغنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق مثلاً؛ لأن الخير كله والرزق بالمطر، وهذا كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [المائدة: 65] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿[الطلاق: 2، 3] وقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴿وَيَمْدِكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 10 - 12] الآية. وقيل المعنى: وأن لو استقام أبوه على عبادته، وسجد لآدم ولم يكفر، وتبعه ولده على الإسلام لانعمنا عليهم، واختار هذا الزجاج. والماء الغدق: هو الكثير في لغة العرب ﴿وَلَنَقُصِّيهنَّ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم. وقال الكلبي: المعنى، وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر، فكانوا كلهم كفاراً، لاوسعنا أرزاقهم مكرراً بهم واستدرجاً حتى يفتنوا

بينكم وبين خير السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوا﴾ يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجباً﴾ * يهدي إلى الرشد فأماناً به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ فانزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن. وأخرج ابن مريويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: كانوا من جن نصيبين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: آلاؤه وعظمته. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: أمره وقدرته. وأخرج ابن مريويه، والدليمي، قال السيوطي بسند وادع عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ قال: إبليس. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مريويه، وابن عساکر عن عكرمة بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أوّل ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فأولانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء نثب، فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي أنا جارك، فنادى منادٍ يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشد حتى نخل في الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقَالُوا هُمْ رَهَقًا﴾ قال: إنمّا. وأخرج ابن مريويه عنه قال: كان القوم في الجاهلية إذا نزلوا بلوادي قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه، فلا يكون بشيء أشدّ ولعاً منهم بهم، فذلك قوله: ﴿فَقَالُوا هُمْ رَهَقًا﴾. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: كانت الشياطين لهم مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زابوا فيها تسعاً، فاما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زابوا فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك. فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده، فوجئوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين بمكة، فاتوه فاخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ ابْنِ دُونِ ذَلِكَ﴾ يقول: منا المسلم ومن المشرک، ﴿وَكُنَّا طَرَفُوقَ قَدَدًا﴾ أمواء شتى. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال: لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته.

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْمُتَشَكِّكِينَ مَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَلَّةً عَدَا ﴿٢٢﴾ لَنَنْصُرَنَّ فِيهِ مَنْ يُعْرِضُ عَنْ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿٢٤﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ

بها، فنعذبهم في الدنيا والآخرة. وبه قال الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، والثماللي، ويمان بن زيان، وابن كيسان، وأبو مجلز، واستدلوا بقوله: ﴿فلما نسوا ما نكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ [الأنعام: 44] وقوله: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة﴾ [الزخرف: 33] الآية، والأول أولى. **ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً** أي: ومن يعرض عن القرآن، أو عن العبادات، أو عن الموعظة، أو عن جميع ذلك يسلكه أي: يدخله عذاباً صعباً، أي: شاقاً صعباً. قرأ الجمهور (نسلكه) بالنون مفتوحة. وقرأ الكوفيون، وأبو عمرو في رواية عنه بالياء التحتية، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: **عن ذكر ربه** ولم يقل عن ذكرنا. وقرأ مسلم بن جنب، وطلحة بن مصرف، والأعرج بضم النون وكسر اللام من أسلكه، وقراءة الجمهور من سلكه. والصعد في اللغة المشقة، تقول تصعد بي الأمر: إذا شق عليك، وهو مصدر صعد، يقال: صعد صعداً وصعوداً، فوصف به العذاب مبالغة؛ لأنه يتصعد المعذب، أي: يعلوه ويغلبه فلا يطيعه. قال أبو عبيد: الصعد مصدر أي: عذاباً ذا صعد. وقال عكرمة: الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حذر إلى جهنم، كما في قوله: **سأرهقه صعوداً** [المثدر: 17] والصعود: العقبة الكثيرة. **وإن المساجد لله** قد قدمنا اتفاق القراء هنا على الفتح، فهو معطوف على أنه استمع، أي: وأوحى إلي أن المساجد مختصة بالله. وقال الخليل: التقدير: ولأن المساجد والمساجد: المواضع التي بنيت للصلاة فيها. قال سعيد بن جبير: قالت الجن: كيف لنا أن نأتي المساجد، ونشهد معك الصلاة، ونحن نأوون عنك؟ فنزلت. وقال الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأن الأرض كلها مسجد. وقال سعيد بن المسيب، وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدين والجبهة، يقول: هذه أعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله، وكذا قال عطاء. وقيل: المساجد هي الصلاة؛ لأن السجود من جملة أركانها، قاله الحسن: **فلا تدعوا مع الله أحداً** من خلقه كائناً ما كان **وإنه لما قام عبد الله** قد قدمنا أن الجمهور قرؤوا هنا بفتح «أن»، عطفاً على أنه استمع أي: وأوحى إلي أن الشأن لما قام عبد الله، وهو النبي ﷺ **يدعوه** أي: يدعو الله ويعبده، وذلك ببطن نخلة، كما تقدم حين قام رسول الله ﷺ يصلي ويتلو القرآن، وقد قدمنا أيضاً قراءة من قرأ بكسر «إن» هنا، وفيها غموض وبعد عن المعنى المراد **كانوا يكونون عليه لبيداً** أي: كأد الجن يكونون على رسول الله لبيداً، أي: متراكمين من ازحامهم عليه لسماع القرآن منه. قال الزجاج: ومعنى **لبيداً**: يركب بعضهم بعضاً، ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التي تفرش. قرأ الجمهور (لبيداً) بكسر اللام وفتح الباء. وقرأ مجاهد، وابن محيصن، وهشام بضم اللام وفتح الباء، وقرأ

أخنى عليها الذي أخنى على لبيد

قال إنما ادعوا ربّي أي: قال عبد الله إنما ادعوا ربي وأعبده **ولا تشرك به أحداً** من خلقه. قرأ الجمهور (قال) وقرأ عاصم، وحزمة (قل) على الأمر. وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عادت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجبرك **قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً** أي: لا أقدر أن أدفع عنك ضرراً ولا أسوق إليكم خيراً، وقيل: الضر الكفر، والرشد الهدى، والأول أولى لوقوع التكرتين في سياق النفي، فهما يعمان كل ضرر وكل رشد في الدنيا والدن **قل إني لن يجيرني من الله أحداً** أي: لا يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي **ولن أجد من بونه ملتحداً** أي: ملجأ ومعدلاً وحرزاً، والملتحذ معناه في اللغة الممال، أي: موضعاً أميل إليه. قال قتادة: مولى. وقال السدي: حرزاً، وقال الكلبي: متخلاً في الأرض مثل السرب، وقيل: مذهباً ومسلكاً، والمعنى متقارب، ومنه قول الشاعر:

يا لهف نفسي ولهفاً غير مجنية عني وما من قضاء الله ملتحذ والاستثناء في قوله: **إلا بلاغاً من الله** هو من قوله لا أملك أي: لا أملك ضرراً ولا رشداً إلا التبليغ من الله، فإن فيه أعظم الرشد، أو من ملتحذاً أي: لن أجد من بونه ملجأ إلا التبليغ. قال مقاتل: ذلك الذي يجيرني من عذابه. وقال قتادة: إلا بلاغاً من الله، فذلك الذي أملكه بتوفيق الله، فاما الكفر والإيمان فلا أملكهما. قال الفراء: لكن أبلغكم ما أرسلت به، فهو على هذا منقطع. وقال الزجاج: هو منصوب على البذل من قوله: **ملتحذاً** أي: ولن أجد من بونه ملتحذاً إلا أن أبلغ ما يأتي من الله، وقوله: **ورسالاته** معطوف على بلاغاً أي: إلا بلاغاً من الله، وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم، أو إلا أن أبلغ عن الله، وأعمل برسالاته، فأخذ نفسي بما أمر به غيري، وقيل: الرسالات معطوفة على الاسم

من رسول ﴿ فإنه يطلعه على بعض غيبه، وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة، وأحكام التكليف، وجزاء الأعمال، وما يبينه من أحوال الآخرة، لا ما لا يتعلق برسالته من الغيوب، كوقت قيام الساعة ونحوه. قال الواحدي: وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تنله على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن. قال في الكشف: وفي هذا إبطال للكرامات، لأن الذين تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، وقد خصَّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب، وإبطال للكهانة والتنجيم؛ لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء، وأدخله في السخط. قال الرازي: وعندي لا دلالة في الآية على شيء مما قالوه إذ لا صيغة عموم في غيبه، فتحمل على غيب واحد، وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله: ﴿أقرب ما توعدون﴾ الآية. فإن قيل: فما معنى الاستثناء حينئذ؟ قلنا: لعله إذا قربت القيامة يظهره، وكيف لا؟ وقد قال: ﴿يوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تزيلاً﴾ [الفرقان: 25] فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة، أو هو استثناء منقطع، أي: من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شرّ مردة الجنّ والإنس. ويدل على أنه ليس المراد به لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات أنه ثبت، كما يقارب التواتر أن شقاً وسطياً كانا كاهنين وقد عرفا بحديث النبي ﷺ قبل ظهوره، وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى. فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات، وأيضاً أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلية، ويكون صادقاً فيها، وأيضاً قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان، وسألها عن أمور مستقبلية، فأخبرته بها، فوقعت على وفق كلامها. قال: وأخبرني ناس محققون في علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل، فكانت على وفق خبرها. وبالحق أبو البركات في كتاب التعبير في شرح حالها، وقال: فحصت عن حالها ثلاثين سنة، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً. وأيضاً فإننا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضاً، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة، وإن كانت قد تتخلف، ولو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن، فيكون التأويل ما نكرناه، انتهى كلامه.

قلت: أما قوله إذ لا صيغة عموم في غيبه، فباطل، فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم، كما صرح به أئمة الأصول وغيرهم. وأما قوله: أو هو استثناء منقطع، فمجرد دعوى بإبائه النظم القرآني. وأما قوله: إن شقاً وسطياً إلخ، فقد كانا في زمن تسترق فيه الشياطين السمع، ويلقون ما يسمعون إلى الكهان، فيخلطون الصدق بالكذب، كما ثبت في الحديث الصحيح. وفي قوله: ﴿الآ من خطف الخطفة﴾ [الصافات: 10] ونحوها من الآيات، فباب

الشريف، أي: إلا بلاغاً عن الله وعن رسالاته، كذا قال أبو حيان ورجحه ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ في الأمر بالتحديد لأن السياق فيه ﴿فإن له نار جهنم﴾ قرأ الجمهور بكسر (إن) على أنها جملة مستأنفة. وقرئ بفتح الهمزة: لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء، والتقدير: فجزاؤه أن له نار جهنم، أو فحكمه أن له نار جهنم، وانتصاب ﴿خالدين فيها﴾ على الحال أي: في النار، أو في جهنم، والجمع باعتبار معنى من كما أن التوحيد في قوله: ﴿فإن له﴾ باعتبار لفظها، وقوله: ﴿إبداء﴾ تأكيد لمعنى الخلود، أي: خالدين فيها بلا نهاية ﴿حتى إذا رآوا ما يوعدون﴾ يعني: من العذاب في الدنيا أو في الآخرة. والمعنى لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبي ﷺ والمؤمنين حتى إذا رآوا الذي يوعدون به ﴿فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً﴾ أي: من هو أضعف جنداً ينتصر به، وأقلّ عدداً أم المؤمنين؟ ﴿قل إن أدري أقرب ما توعدون﴾ أي: ما أدري أقرب حصول ما توعدون من العذاب ﴿أم يجعل له ربي أمداً﴾ أي: غاية ومدة، أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له: متى يكون هذا الذي توعدنا به؟ قال عطاء: يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله وحده، والمعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله. قرأ الجمهور (ربي) بإسكان الياء. وقرأ الحرميان، وأبو عمرو بفتحها، ﴿ومن﴾ في ﴿من أضعف﴾ موصولة، وأضعف خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أضعف، والجملة صلة الموصول، ويجوز أن تكون استئنافية مرتفعة على الابتداء، وأضعف خبرها، والجملة في محل نصب سادة مسدّ مفعولي أدري، وقوله: ﴿أقرب﴾ خبر مقدم، ﴿وما توعدون﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عالم الغيب﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربي، أو بيان له، أو خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من عدم الدراية. وقرئ بالنصب على المدح. وقرأ السري (علم الغيب) بصيغة الفعل ونصب الغيب، والفاء في ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ لترتيب عدم الإظهار على تفرده بعلم الغيب أي: لا يطلع على الغيب الذي يعلمه، وهو ما غاب عن العباد أحداً منهم، ثم استثنى فقال: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ أي: إلا من اصطفاه من الرسل، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه؛ ليكون ذلك دالاً على نبوته. قال القرطبي: قال العلماء: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به بون خلقه كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضى من الرسل، فلأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكف، ويجزر بالطين ممن ارتضاه من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر بالله مفر على نفسه وتخمينه وكذبه. وقال سعيد بن جبير: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ هو جبريل، وفيه بعد. وقيل: المراد بقوله: ﴿إلا من ارتضى

القبيل، والكل من الفيض الرباني بواسطة الجناب النبوي. ثم نكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسول فقال: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء، والمعنى: أنه يجعل سبحانه بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب، أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرساً من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، والمراد من جميع الجوانب. قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره، وإن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. قال ابن زيد: ﴿رصداً﴾ أي: حفظة يحفظون النبي ﷺ من أمامه وورائه من الجن والشياطين. قال قتادة، وسعيد بن المسيب: هم أربعة من الملائكة حفظة. وقال الفراء: المراد جبريل. قال في الصحاح: الرصد القوم يرصدون كالحرص يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث، والرصد للشئ الراقب له، يقال: رصده يرصده رصداً ورصداً، والترصد الترقب، والمرصد موضع الرصد ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ اللام متعلق بيسلك، والمراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل، وإن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والخبر الجملة، والرسالات عبارة عن الغيب الذي أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول، وضمير أبلغوا يعود إلى الرصد. وقال قتادة، ومقاتل: ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة، وفيه حذف تتعلق به اللام، أي: أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ. وقيل: ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه، قاله سعيد بن جبيل. وقيل: ليعلم الرسل أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم. وقيل: ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط. وقال ابن قتيبة أي: ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم، ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم. وقال مجاهد: ليعلم من كتب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم. قرأ الجمهور (ليعلم) بفتح التحتية على البناء للفاعل. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، ويعقوب، وزيد بن علي بضمها على البناء للمفعول أي: ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا. وقال الزجاج: ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته، أي: ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيباً. وقرأ ابن أبي عبيدة، والزهري بضم الياء وكسر اللام ﴿واحاط بما لديهم﴾ أي: بما عنده الرصد من الملائكة، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد، أي: والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال. قال سعيد بن جبيل: ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته ﴿واحصى كل شيء عدداً﴾ من جميع الأشياء التي كانت والتي ستكون،

الكهانة قد ورد بيانه في هذه الشريعة، وأنه كان طريقاً لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية. وقالوا: ﴿إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً﴾ * وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ [الجن: 8 - 9] فباب الكهانة في الوقت الذي كانت فيه مخصوص بالئله، فهو من جملة ما يخص به هذا العموم، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية. وأما حديث المرأة الذي أورده فحديث خرافة، ولو سلم وقوع شيء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد في الحديث «إن في هذه الأمة محدثين، وإن منهم عمر» فيكون كال تخصيص للعموم هذه الآية لا اقتضاء لها، وأما ما اجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله في آخر كلامه، فلو قلنا: إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن، فيقال له: ما هذه بأول زلة من زلاتك، وسقطة من سقطاتك، وكم لها لديك من أشباه ونظائر نبض بها عرق فلسفتك، وركض بها الشيطان الذي صار يتخبطك في مباحث تفسيرك، يا عجيباً لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجباً لتطرق الطعن إلى القرآن، وما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا: وإذا رامت النبابة للشمس - س غطاء ملئت عليها جناحا وقلت من أبيات:

مهب رياح سدّه بجناح وقابل بالمصباح ضوء صباح
فإن قلت: إن قد تقرّر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته؟ قلت: نعم، ولا مانع من ذلك. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة، فمن ذلك ما صح أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن ونحوها، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه، وكذلك ما ثبت من أن حنيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله ﷺ بما يحدث من الفتن بعده، حتى سأل عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا إليه. وثبت في الصحيح وغيره «أن عمر بن الخطاب سأل عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال: إن بينك وبينها باباً، فقال عمر: هل يفتح أو يكسر؟ فقال: بل يكسر، فعلم عمر أنه الباب، وأن كسره قتله»، كما في الحديث الصحيح المعروف أنه قيل لحذيفة: هل كان عمر يعلم ذلك؟ فقال: نعم كان يعلم أن نون غد الليلة. وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي نر بما يحدث له، وإخباره لعلي بن أبي طالب بخبر ذي الندية، ونحو هذا مما يكثر تعدده، ولو جمع لجاء منه مصنف مستقل. وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله، وأظهرها رسوله لبعض أمته، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا

أيضاً «**رصداء**» قال: هي معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى تبين الذي أرسل إليهم به، وذلك حتى يقول أهل الشرك: قد أبلغوا رسالات ربهم. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً قال: ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها، حتى يؤنوا إلى رسول الله ﷺ، ثم قرأ «**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**» يعني: الملائكة الأربعة «**فليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم**» اهـ.

تفسير سورة المزمل

وهي مكية. قال الماوردي: كلها في قول الحسن، وعكرمة، وجابر، قال: وقال ابن عباس، وقتادة: [المزمل: 10 - 11] والتي تليها. وقال الثعلبي: [المزمل: 20] «**إِنْ رِبْكَ يَعْلَمُ أَنْكَ تَقُومُ**» [المزمل: 20] إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة. وأخرج ابن الضريس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت «**يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ**» [أي: سورة المزمل] بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة المزمل بمكة [أي: آيتين] «**إِنْ رِبْكَ يَعْلَمُ أَنْكَ تَقُومُ**» [أي: سورة المزمل] وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً تصنون الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن؛ قالوا: مجنون؛ قالوا: ليس بمجنون؛ قالوا: ساحر؛ قالوا: ليس بساحر، ففترق المشركون على ذلك، فبلغ النبي ﷺ، فتمزمل في ثيابه وتشر فيها، فاتاه جبريل، فقال: «**يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ**» [أي: سورة المزمل]. قال البزار بعد إخرجه من طريق معلى بن عبد الرحمن: إن معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه، لكنه إذا تفرد بالأحاديث لا يتابع عليها. وأخرج أبو داود، والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: «بث عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر «**يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ**»».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ لَآ قِيْلَا ﴿٢﴾ يَضْمَهُ أَوْ أَنْشَ مِنْهُ قِيْلَا ﴿٣﴾ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَأَيْتَ الْقَوْمَ تَزْيِلَا ﴿٤﴾ إِنْ سَلَّيْتُ عَلَيْكَ قَوْلَا قِيْلَا ﴿٥﴾ إِنْ نَكَيْتَ أَيْلَ جِي أَنْدَ وَتَكَ وَأَقْرَمَ قِيْلَا ﴿٦﴾ إِنْ لَكَ فِي الْآخِرِ سَبَابًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَوَلَّى إِلَيْهِ تَبَيُّلًا ﴿٨﴾ رَبُّكَ لَشَرِّقٍ وَالْقَرِيبَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْ رُكْبَاتًا ﴿٩﴾ وَأَسِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَعْبِرْهُمْ هَجْرًا جِيْلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى الْقَسَمَةِ هُمْ كَذِبُوا قِيْلَا ﴿١١﴾ إِنْ لَدَيْنَا أُنْكَاكُا وَرَحِمَا ﴿١٢﴾ وَنَعْلَمَا مَاذَا عَصَا وَعَدَاكَ أَلِيْسَا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ

وهو معطوف على أحاط، وعدداً يجوز أن يكون منتصباً على التمييز محولاً من المفعول به أي: وأحصى عدد كل شيء، كما في قوله: «وفجرتنا الأرض عيوناً» [القمر: 12] ويجوز أن يكون منصوباً على المصدرية، أو في موضع الحال: معطوفاً، والمعنى: أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال، بل على وجه التفصيل، أي: لأحصى كل فرد من مخلوقاته على حدة.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال «**القاسطون**» العادلون عن الحق. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: «**وَقُلُوْا لِسِتْقَامَا عَلَى الطَّرِيقَةِ**» قال: أتأموا ما أمروا به «**لِاسْقِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**» قال: معيّنًا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن السدي قال: قال عمر: «**وَقُلُوْا لِسِتْقَامَا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِسْقِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**» قال: حيثما كان الماء كان المال، وحيثما كان المال كانت الفتنة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس «**لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**» قال: لنتليهم به. وفي قوله: «**وَمَنْ يَعْرِضْ عَنْ نَكَرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**» قال: شقة من العذاب يصعد فيها. وأخرج هناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه عنه في قوله: «**يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**» قال: حبلاً في جهنم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً «**عَذَابًا صَعَدًا**» قال: لا راحة فيه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: «**وَأَنْتَ الْمَسْجِدُ لِلَّهِ**» قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا مسجد الحرام ومسجد إيلياء ببית المقدس. وأخرج ابن مروي، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال: «خرج رسول الله ﷺ قبل الهجرة إلى نواحي مكة، فخط لي خطاً، وقال: «لا تحذثن شيئاً حتى أتيك، ثم قال: لا يهولك شيئاً تراه»، فتقدم شيئاً؛ ثم جلس، فإذا رجال سود كأنهم رجال الزط، وكانوا كما قال الله تعالى: «**كَانُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**». وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن ابن عباس في الآية قال: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كانوا يركبونه من الحرص لما سمعوه، وبنوا منه، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول، فجعل يقرئه «**قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنَّ**». وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مروي، والضياء في المختارة عنه أيضاً في الآية قال: «لما أتى الجن إلى رسول الله، وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، فعجبوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم: لما قام عبد الله يدعوهم كادوا يكونون عليه لبداً». وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً: «لما قام عبد الله يدعوهم أي: يدعو الله». وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه «**كَانُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**» قال: أعواناً. وأخرج ابن المنذر، وابن مروي عنه أيضاً «**فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**» قال: أعلم الله الرسول من الغيب الوحي، وأظهره عليه مما أوحى إليه من غيبه، وما يحكم الله، فإنه لا يعلم ذلك غيره. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عنه

للقيام، فكان النبي ﷺ وطائفة معه يقومون على هذه المقابر، وشق ذلك عليهم، فكان الرجل لا يدري كم صلى، أو كم بقي من الليل، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم، وقيل: الضميران في منه وعليه راجعان للآقل من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصفه، أو قم أنقص من ذلك الأقل، أو أزيد منه قليلاً، وهو بعيد جداً، والظاهر أن نصفه بدل من قليلاً، والضميران راجعان إلى النصف المبدل من قليلاً.

واختلف في الناسخ لهذا الأمر، فقيل: هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أُمْنًى مِنْ ثَلَاثِي اللَّيْلِ وَنُصْفِهِ وَثُلُثَهُ﴾ [المزمل: 20] إلى آخر السورة، وقيل: هو قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ وقيل: هو قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى﴾ وقيل: هو منسوخ بالصلوات الخمس، وبهذا قال مقاتل، والشافعي، وابن كيسان، وقيل: هو قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20] وذهب الحسن، وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو قدر حلب شاة ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي: اقراه على مهل مع تدبر. قال الضحاك: اقراه حرفاً حرفاً. قال الزجاج: هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع. وأصل الترتيل التضييد، والتنسيق، وحسن النظام، وتأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: سنوحى إليك القرآن، وهو قول ثقيل. قال قتادة: ثقيل، والله فرائضه وحجوده. قال مجاهد: حلاله وحرامه. قال الحسن: العمل به. قال أبو العالية: ثقيلاً بالوعود الوعيد، والحلال والحرام. وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين والكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم، وسبب الهتيم. وقال السدي: ثقيل بمعنى كريم من قولهم فلان ثقيل علي أي: يكرم علي. قال الفراء: ثقيلاً رزيناً ليس بالرخيف السفساف. لأنه كلام ربنا. وقال الحسين بن الفضل: ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد، وقيل: وصفه بكونه ثقيلاً حقيقة لما ثبت أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائنها على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعاته وأوقاته؛ لأنها تنشأ أولاً فأولاً، يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ابتداءً وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشئ، وإنشأ الله فنشأ، ومنه نشأت السحاب: إذا بدأت، فناشئة فاعلة من نشأ ينشأ، فهي ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كل ما نشأ منه أي: حدث، فهو ناشئة، قال الواحدي: قال المفسرون: الليل كله ناشئة، والمراد أن ساعات الليل الناشئة، فاكتمى بالوصف عن الاسم الموصوف. وقيل: إن ناشئة الليل هي النفس التي تنشأ من مضجعتها للعبادة أي: تنهض، من نشأ من مكانه: إذا نهض. وقيل: الناشئة بالحبشية قيام الليل، وقيل: إنما يقال لقيام الليل ناشئة: إذا

كَبِئْرًا مَبِيلًا ﴿١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ رِجْسَةٍ رَسُولًا ﴿٢﴾ فَصَبْرٌ رِجْسٌ أَرْسَلْنَا فَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَيَلًا ﴿٣﴾ فَكَيْفَ تَنْتَوَنُّونَ إِنْ كُنْتُمْ بِوَمَا يُجْمَلُ الْوَلَدَانِ شَيْئًا ﴿٤﴾ السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ بِكُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَقُولًا ﴿٥﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ أصله المزمل، فادغمت اللام في الزاي، والمزمل التلطف في الثوب. قرأ الجمهور (المزمل) بالإدغام. وقرأ أبي (المزمل) على الأصل. وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي، ومثل هذه القراءة قول امرئ القيس:

كان ثبيراً في أفانين وبيله كبير أناس في لحاء مَزْمَل
وهذا الخطاب للنبي ﷺ، وقد اختلف في معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل بثنائه في أول ما جاءه جبريل بالوحي فرأى منه حتى انس به، وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالنبوة، والمليزم للرسالة. وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ (يا أيها المزمل) بتخفيف الزاي وفتح الميم مشددة اسم مفعول، وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالقرآن. وقال الضحاك: تزمل بثنائه لمنامه، وقيل: بلغه من المشركين سوء قول، فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَثْثَرُ﴾ [أي: سورة المَثْثَر]. وقد ثبت أن النبي ﷺ لما سمع صوت الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: «زملوني بثروني»، وكان خطابه ﷺ بهذا الخطاب في أول نزول الوحي. ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة ﴿قُم لِلَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قم للصلاة في الليل. قرأ الجمهور (قم) بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك بضمها اتباعاً لضمة القاف. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأي حركة تحرك فقد وقع الغرض. وانتصاب الليل على الظرفية. وقيل: إن معنى قم صل، عبر به عنه واستعير له. واختلف هل كان هذا القيام الذي أمر به فرضاً عليه أو نفلاً وسيأتي إن شاء الله ما روي في ذلك. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل، أي: صل الليل كله إلا يسيراً منه، والقليل من الشيء هو ما دون النصف، وقيل: ما دون السدس، وقيل: ما دون العشر. وقال مقاتل، والكلبي: المراد بالقليل هنا الثلث، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله ﴿نُصْفَهُ﴾ إلخ، وانتصاب نصفه على أنه بدل من الليل. قال الزجاج: نصفه بدل من الليل، وإلا قليلاً استثناء من النصف، والضمير في منه وعليه عائد إلى النصف. والمعنى: قم نصف الليل، أو أنقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين، فكانه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن نصفه بدل من قوله قليلاً، فيكون المعنى: قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه، قال الأخفش: نصفه أي: أو نصفه، كما يقال: أعطه درهماً درهمين ثلاثة، يريد، درهماً أو درهمين، أو ثلاثة. قال الواحدي: قال المفسرون: أو أنقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين، جعل له سعة في مدة قيامه في الليل، وخيره في هذه الساعات

فراغ للاستدراك. وقرأ يحيى بن يعمر، وأبو وائل، وابن أبي عيلة (سبخاً) بالخاء المعجمة، قيل: ومعنى هذه القراءة: الخفة والسعة والاستراحة. قال الأصمعي: يقال: سبخ الله عنك الحمى أي: خففها، وسبخ الحرّ فتر وخفّ، ومنه قول الشاعر:

فسبخ عليك الهم وأعلم بأنه إذا قدر الرحمن شيئاً فكأنه أي: خفف عنك الهم، والتسبيخ من القطن ما ينسج بعد الندف، ومنه قول الأخطل:

فارسلوهم يذرين التراب كما تنزي سبائح قطن ندف أوتار
قال ثعلب: السبخ بالخاء المعجمة التردّد والاضطراب، والسبخ السكون. وقال أبو عمرو: السبخ النوم والفراغ **﴿وانكر اسم ربك﴾** أي: ادع باسمائه الحسن، وقيل: اقرأ باسم ربك في ابتداء صلاتك، وقيل: انكر اسم ربك في وعده ووعيدته لتوفر على طاعته، وتبعد عن معصيته، وقيل المعنى: لم على نكر ربك ليلاً ونهاراً، واستكثر من ذلك. وقال الكلبى: المعنى صلّ لربك **﴿وتبتل إليه تبتلاً﴾** أي: انقطع إليه انقطاعاً بالاشتغال بعبادته، والتبتل الانقطاع، يقال: بتلت الشيء أي: قطعته وميزته من غيره، وصدقة بتلة أي: منقطعة من مال صاحبها، ويقال للراهب متبتل: لانقطاعه عن الناس، ومنه قول الشاعر:

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
وضع تبتلاً مكان تبتلاً لرعاية الفواصل. قال الواحدي: والتبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله **﴿ربّ المشرق والمغرب﴾** قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، وابن عامر بجرّ (ربّ) على النعت لربك، أو البذل منه، أو البيان له. وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ، وخبره **﴿لا إله إلا هو﴾** أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو ربّ المشرق، وقرأ زيد بن عليّ ينصبه على المدح. وقرأ الجمهور (المشرق والمغرب) مفربين، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس (المشرق والمغرب) على الجمع، وقد قدّمنا تفسير المشرق والمغرب، والمشرقين والمغربيين، والمشارق والمغارب **﴿فاتخذهم وكيلاً﴾** أي: إذا عرفت أنه المختص بالربوبية، فاتخذهم وكيلاً أي: قائماً بأمورك، وعوّل عليه في جميعها، وقيل: كفيلاً بما وعك من الجزاء والنصر **﴿واصبر على ما يقولون﴾** من الأذى والسب والاستهزاء، ولا تجزع من ذلك **﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾** أي: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافاتهم، وقيل: الهجر الجميل الذي لا جزع فيه، وهذا كان قبل الأمر بالقتال **﴿وذرني والمكذبين﴾** أي: دعني وإياهم، ولا تهتم بهم فإنني أكفيك أمرهم وانتقم لك منهم. قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، وهم عشرة وقد تقدّم نكرهم. وقال يحيى بن سلام: هم بنو المغيرة. وقال سعيد بن جبير: أخبرني أنهم اثنا عشر **﴿أولي النعمة﴾** أي: أرباب الغنى والسعة والترف واللذة في الدنيا **﴿ومهلهم قليلاً﴾** أي: تمهياً قليلاً على أنه نعت لمصدر محذوف، أو زماناً قليلاً

كان بعد نوم. قال ابن الأعرابي: إذا نمت من أول الليل ثم قمت فتلك المنشأة والنشأة، ومنه ناشئة الليل. قيل: وناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاء، لأن معنى نشأ ابتداء، ومنه قول نصيب:

ولو أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي للنشء الصغار
قال عكرمة، وعطاء: إن ناشئة الليل بدو الليل. وقال مجاهد وغيره: هي في الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار، واختار هذا مالك. وقال ابن كيسان: هي القيام من آخر الليل. قال في الصحاح: ناشئة الليل أول ساعاته. وقال الحسن: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح **﴿هي أشد وطأ﴾** قرأ الجمهور (وطأ) بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ أبو العالية، وابن أبي إسحاق، ومجاهد، وأبو عمرو، وابن عامر، وحמיד، وابن محيصن، والمغيرة، وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، فالمعنى على القراءة الأولى أن الصلاة في ناشئة الليل أثقل على المصلي من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة: المعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتنت على القوم وطأة السلطان؛ إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، ومنه قوله **﴿اللهم أشد وطأتك على مضره﴾** والمعنى على القراءة الثانية أنها أشد مواطأة أي: موافقة، من قولهم: واطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطأه؛ إذا وافقته عليه. قال مجاهد، وابن أبي مليكة: أي أشد موافقة بين السمع والبصر، والقلب واللسان لانقطاع الأصوات والحركات فيها، ومنه **﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾** [التوبة: 37] أي: ليوافقوا. وقال الأخفش: أشد قياماً. وقال الفرّاء أي: أثبت للعمل، وأوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالعاش، فعبادته تنوم ولا تنقطع. وقال الكلبى: أشد نشاطاً **﴿واقوم قليلاً﴾** أي: وأشدّ مقالاً، وأثبت قراءة لحضور القلب فيها وهندؤ الأصوات، وأشدّ استقامة واستمراراً على الصواب؛ لأن الأصوات فيها هائلة والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه. قال قتادة، ومجاهد: أي أصوب للقراءة، وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. قال أبو عليّ الفارسي: أقوم قليلاً أي: أشد استقامة لفراغ البال بالليل. قال الكلبى: أي أبين قولاً بالقرآن. وقال عكرمة: أي تمّ نشاطاً وإخلاصاً وأكثر بركة. وقال ابن زيد: أجدر أن يتفقه في القرآن، وقيل: أعجل إجابة للدعاء **﴿إن لك في النهار سبحة طويلاً﴾** قرأ الجمهور (سبخاً) بالخاء المعجمة أي: تصرفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً، وذهاباً ومجيئاً، والسبح: الجري والدوران، ومنه السباحة في الماء لتقلبه بيّنه ورجليه، وفرس سابح أي: شديد الجري. وقيل: السبح الفراغ أي: إن لك فراغاً بالنهار للحاجات، فصل بالليل. قال ابن قتيبة: أي تصرفاً، وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك. وقال الخليل: إن لك في النهار سبحة أي: نوماً، والتسبيح التمدّد. قال الزجاج: المعنى إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت فوارس مالك أكلأ وببلا
﴿فكيف تتقون﴾ أي: كيف تقون أنفسكم **﴿إن كفرتكم﴾**
 أي: إن بقيتم على كفركم **﴿يوماً﴾** أي: عذاب يوم **﴿يجعل**
الولدان شيباً﴾ لشدة هوله أي: يصير الولدان شيوخاً،
 والشيب جمع أشيب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة، وأنهم
 يصيرون كذلك، أو تمثيلاً؛ لأن من شاهد الهول العظيم
 تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه، وصار كالشيخ في
 الضعف وسقوط القوة، وفي هذا تقرير لهم شديد وتوبيخ
 عظيم. قال الحسن: أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً
 إن كفرتكم، وكذا قرأ ابن مسعود، وعطية، ويوماً مفعول به
 لتتقون. قال ابن الأنباري: ومنهم من نصب اليوم بكفرتكم،
 وهذا قبيح، والولدان الصبيان، ثم زاد في وصف ذلك اليوم
 بالشدّة، فقال: **﴿السماء منفطر به﴾** أي: متشققة به لشدته
 وعظيم هوله، والجملة صفة أخرى ليوم، والباء سببية، وقيل:
 هي بمعنى في أي: منفطر فيه، وقيل: بمعنى اللام أي:
 منفطر له، وإنما قال: منفطر ولم يقل: منفطرة لتنزّل السماء
 منزلة شيء لكونها قد تغيرت، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه
 بالشيء. وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطرة؛ لأن
 مجازها السقف، كما قال الشاعر:

فلورفع السماء إليه قوماً لحقنا بالسماء وبالسحاب
 فيكون هذا، كما في قوله: **﴿وجعلنا السماء سقفاً**
محفوظاً﴾ [الأنبياء: 32] وقال الفراء: السماء تذكر وتؤنث.
 وقال أبو علي الفارسي: هو من باب الجراد المنتشر،
 والشجر الأخضر و**﴿عجاز نخل منقعر﴾** [القمر: 20] قال
 أيضاً: أي السماء ذات انقطاع. كقولهم امرأة مرضع أي: ذات
 أرضاع على طريق النسب، وانقطاعها لنزول الملائكة، كما
 قال: **﴿إذا السماء انفطرت﴾** [الانفطار: 1] وقوله:
﴿والسموات يتفطرن من فوقهن﴾ [الشورى: 5] وقيل:
 منفطر به أي: بالله، والمراد: بأمرة، والأول أولى **﴿كان وعده**
مفعولاً﴾ أي: وكان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب
 وغير ذلك كائناً لا محالة، والمصدر مضاف إلى فاعله، أو
 وكان وعد اليوم مفعولاً، فالمصدر مضاف إلى مفعوله. وقال
 مقاتل: كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي،
 ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة، والبيهقي في سننه عن
 سعد بن هشام قال: قلت لعائشة: أنبئني عن قيام رسول
 الله، قالت: ألست تقرأ هذه السورة **﴿يا أيها المزمل﴾**؟ قلت:
 بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة،
 فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفتحت أقدامهم،
 وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل
 التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من
 بعد فرضه، وقد روي هذا الحديث عنها من طرق. وأخرج
 ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم،
 ومحمد بن نصر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي
 في سننه عن ابن عباس قال: لما نزلت أول المزمل كانوا

على أنه صفة لزمان محذوف، والمعنى أمهلهم إلى انقضاء
 أجالهم، وقيل: إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر، والأول
 أولى لقوله: **﴿إن لبينا لنكالا﴾** وما بعده، فإنه وعيد لهم
 بعذاب الآخرة، والانكال جمع نكل، وهو القيد، كذا قال
 الحسن، ومجاهد، وغيرهما. وقال الكلبي: الانكال: الأغلال،
 والأول أعر في اللغة، ومنه قول الخنساء:

أتوك فقطعت أنكالهم وقد كنّ قبلك لا تقطع

وقال مقاتل: هي أنواع العذاب الشديد. وقال أبو عمران
 الجوني: هي قيود لا تحل **﴿وجحيماً﴾** أي: ناراً مؤججة
﴿وطعاماً ذا غصة﴾ أي: لا يسورغ في الحلق بل ينشب
 فيه، فلا ينزل، ولا يخرج. قال مجاهد: هو الزقوم. وقال
 الزجاج: هو الضريع، كما قال: **﴿ليس لهم طعام إلا من**
ضريع﴾ [الغاشية: 6] قال: وهو شوك العوسج، قال عكرمة:
 هو شوك يأخذ بالحلقي لا يدخل ولا يخرج، والغصة: الشجا
 في الحلق، وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره، وجمعها
 غصص **﴿وعذاباً أليماً﴾** أي: رنوعاً آخر من العذاب غير ما
 ذكر **﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾** انتصاب الظرف إما
 بنزني، أو بالاستقرار المتعلق به لبينا، أو هو صفة لعذاب،
 فيتعلق بمحذوف أي: عذاباً واقعاً يوم ترجف، أو متعلق
 باليماً. قرأ الجمهور (ترجف) بفتح التاء وضم الجيم مبنياً
 للفاعل، وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول، مأخوذ من
 أرجفها، والمعنى: تتحرك وتضطرب بمن عليها، والرجفة:
 الزلزلة والردة الشديدة **﴿وكانت الجبال كتيباً مهيلاً﴾** أي:
 وتكون الجبال، وإنما عبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه،
 والكتيب الرمل للمجتمع، والمهيل الذي يمر تحت الأرجل.
 قال الواحدي أي: رملأ سائلاً يقال لكل شيء أرسلته إرسالاً
 من تراب، أو طعام: أهله هيلاً. قال الضحاک، والكلبي: المهيل
 الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله انهل.
 ومنه قول حسان:

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي في الورق القشيب
﴿إنا أرسلنا إليكم رسلاً شاهداً عليكم﴾ الخطاب
 لأهل مكة أو لكفار العرب أو لجميع الكفار، والرسول محمد
 ﷺ، والمعنى: يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم **﴿كما**
أرسلنا إلى فرعون رسلاً﴾ يعني: موسى **﴿فعضى**
فرعون الرسول﴾ الذي أرسلناه إليه وكتبه، ولم يؤمن بما
 جاء به، ومحل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر
 محذوف، والمعنى: إنا أرسلنا إليكم رسلاً فعضيتهم، كما
 أرسلنا إلى فرعون رسلاً فعضاه **﴿فأخذه أخذاً ويبلاً﴾**
 أي: شديداً ثقيلاً غليظاً، والمعنى: عاقبنا فرعون عقوبة
 شديدة غليظة بالغرق؛ وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل
 بهم من العقوبة مثل ما نزل به، وإن اختلف نوع العقوبة.
 قال الزجاج أي: ثقيلاً غليظاً، ومنه قيل للمطر: وابل. وقال
 الأخفش: شديداً، والمعنى متقارب، ومنه طعام وبيل: إذا كان
 لا يستمر، ومنه قول الخنساء:

زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس **﴿وطعاً ما ذا غصة﴾** قال: شجرة الزقوم. وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله: **﴿كثيباً مهيلاً﴾** قال: المهيل الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك آخره. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿كثيباً مهيلاً﴾** قال: الرمل السائل، وفي قوله: **﴿أخذاً وبيلاً﴾** قال: شديداً. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عنه أيضاً **﴿أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿يجعل للولدان شيئا﴾ قال: ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لأبى: قم، فابعت من نريتك بعثاً إلى النار، قال: من كم يا رب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وينجو واحد، فاشتد ذلك على المسلمين، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم: إن بني آدم كثير، وإن ياجوج، وماجوج من ولد آدم، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم﴾**. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله: **﴿السماء منقطر به﴾** قال: ممتلئة بلسان الحبشة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: مثقلة موقرة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعني: تشقق السماء.

إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَهَهُ سَيْبِلًا ۚ إِنَّ رَبَّكَ بِمَا يَكْمُرُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي إِلَهِ ۖ وَنُصْفُهُ ۚ وَتَلْزَمُ رُكْبَانَهُ ۖ مِنَ الَّذِينَ مَكَرَ اللَّهُ بِقُرْءِ الْإِنِّلِ وَالْبَهَارِ ۖ عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُخْصِرَهُ قَابَ عِلَاقٍ ۖ فَاقْرَأُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ ۖ عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَضًى ۖ وَمَا حَرُونَ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ وَمَا حَرُونَ يَبْتَغُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَأُوا مَا يَنْشُرُ مِنْهُ ۖ وَأَيُّمُوا الصَّلَاةَ ۖ وَمَا كُنَّا الْأَكْوَافُ ۖ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَبًا سَكَنًا ۖ وَمَا قَرَأُوا إِلَّا بِمَا كُنَّا مِنْ خَيْرِ عِبَادِهِ عِنْدَ اللَّهِ ۖ هُوَ خَيْرٌ وَأَقْطَمَ أَجْرًا ۖ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾

الإشارة بقوله: **﴿إن هذه﴾** إلى ما تقدم من الآيات، والتذكرة الموعظة، والإشارة إلى جميع آيات القرآن، لا إلى ما في هذه السورة فقط **﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾** أي: اتخذ بالطاعة التي أهم أنواعها التوحيد إلى ربه طريقاً توصله إلى الجنة **﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل﴾** معنى أدنى: أقل، استعير له الأدنى؛ لأن المسافة بين السنين إذا دنت قل ما بينهما **﴿ونصفه﴾** معطوف على أدنى **﴿وثلثه﴾** معطوف على نصفه، والمعنى: أن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقل من ثلثي الليل، ويقوم نصفه، ويقوم ثلثه، وبالنصب قرأ ابن كثير، والكوفيون، وقرأ الجمهور (ونصفه وثلثه) بالجر عطفاً على ثلثي الليل، والمعنى: أن الله يعلم أن رسوله ﷺ يقوم أقل من ثلثي الليل، وأقل من نصفه، وأقل من ثلثه، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: **﴿علم أن لن تحصوه﴾** فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه. وقال الفراء: القراءة الأولى أشبه بالصواب؛ لأنه قال: أقل من ثلثي الليل، ثم فسر

يقومون نحوه من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن نصر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: لما نزلت يا أيها المزمّل قاموا حولاً حتى ورمّت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت **﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾** [المزمّل: 20] فاستراح الناس. وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن نصر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: في المزمّل **﴿قم الليل إلا قليلاً نصفه﴾** نسختها الآية التي فيها: **﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾** [المزمّل: 20] وناشئة الليل أوله كان صلاتهم أول الليل، يقول: هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدرك متى يستيقظ، وقوله: **﴿اقوم قليلاً﴾** هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن، وقوله: **﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾** يقول: فراغاً طويلاً. وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله: **﴿يا أيها المزمّل﴾** قال: زملت هذا الأمر فقم به. وأخرج ابن المنذر عنه في الآية أيضاً قال: يتزمل بالثياب. وأخرج الفريابي، عن أبي صالح عنه أيضاً **﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾** قال: تقرأ آيتين ثلاثاً ثم تقطع لا تهدر. وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن منيع في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ومحمد بن نصر عنه أيضاً: **﴿ورتل للقرآن ترتيلاً﴾** قال: بينه تبيناً. وأخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب مرفوعاً نحوه. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن نصر، والحاكم وصححه عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه، وهو على ناقته وضعت جرائنها، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه، وتلت **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾**. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن نصر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: **﴿إن ناشئة الليل﴾** قال: قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا: نشأ. وأخرج البيهقي عنه قال: **﴿ناشئة الليل﴾** أوله. وأخرج ابن المنذر، وابن نصر عنه أيضاً قال: الليل كله ناشئة. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: **﴿ناشئة الليل﴾** بالحبشة قيام الليل. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن نصر، والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: **﴿ناشئة الليل﴾** ما بين المغرب والعشاء. وأخرج عبد بن حميد، وابن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى عن ابن عباس في قوله: **﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾** قال: السبح الفراغ للحاجة والنوم. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت: لما نزلت: **﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾** لم يكن إلا يسيراً حتى كانت وقعة بدر. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود **﴿إن لدينا انكالا﴾** قال: قيوداً. وأخرج عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في

التطوع. وأيضاً الأحاديث الصحيحة المصروفة بقول السائل لرسول الله ﷺ هل عليّ غيرها، يعني: الصلوات الخمس؟ فقال: «لا، إلا أن تطوع» تدل على عدم وجوب غيرها. فارتفع بهذا وجوب قيام الليل، وصلاته على الأمة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبي ﷺ بقوله: «ومن الليل فتجهّد به نافلة لك»، قال الواحدي: قال المفسرون في قوله: «فأقروا ما تيسر منه» كان هذا في صدر الإسلام، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين، وثبت على النبي ﷺ خاصة، وذلك قوله: «واقموا الصلاة». ثم نكر سبحانه عزهم فقال: «علم أن سيكون منكم مرضى» فلا يطيقون قيام الليل «وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله» أي: يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم فلا يطيقون قيام الليل «وآخرون يقاتلون في سبيل الله» يعني: المجاهدين، فلا يطيقون قيام الليل. نكر سبحانه ما هنا ثلاثة أسباب مقتضية للتريخ، ورفع وجوب قيام الليل، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعداء التي تنوب بعضهم. ثم نكر ما يفعلونه بعد هذا التريخ فقال: «فأقروا ما تيسر منه» وقد سبق تفسيره قريباً، والتكرير للتأكيد «واقموا الصلاة» يعني: المفروضة، وهي الخمس لوقتها «وأتوا الزكاة» يعني: الواجبة في الأموال. وقال الحارث العكلي: هي صدقة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك، وقيل: صدقة التطوع، وقيل: كل أفعال الخير «واقترضوا الله قرضاً حسناً» أي: أنفقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقاً حسناً، وقد مضى تفسيره في سورة الحديد. قال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل، وقيل: النفقة في الجهاد، وقيل: هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن، فيكون تفسيراً لقوله «وأتوا الزكاة» والأول أولى لقوله: «وما تقنموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله» فإن ظاهره العموم أي: أي خير كان مما نكر ومما لم يذكر «هو خيراً وأعظم أجراً» مما تؤخرونه إلى عند الموت، أو توصون به ليخرج بعد موتكم، وانتصاب خيراً على أنه ثاني مفعولي تجدوه، وضمير هو ضمير فصل، وبالنصب قرأ الجمهور، وقرأ أبو السماك، وابن السميع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ، وخير خبره، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي تجدوه. قال أبو زيد: وهي لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، وأنشد سيبويه:

نحن إلى ليلى وأنت تركتها وكنت عليها بالملاء أنت أندر
وقرأ الجمهور أيضاً (وأعظم) بالنصب عطفاً على خيراً،
وقرأ أبو السماك، وابن السميع بالرفع، كما قرأ برفع (خير)، وانتصاب (أجراً) على التمييز «واستغفروا الله» أي: اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم، فإنكم لا تخلون من ذنوب تقترفونها «إن الله غفور رحيم» أي: كثير المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن استرحمه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والطبراني عن

نفس القلة «وطائفة من النبيين معك» معطوف على الضمير في تقوم أي: وتقوم تلك القدر معك طائفة من أصحابك «والله يقدر الليل والنهار» أي: يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، ويختص بذلك نون غيره، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: يريد لا يفوته علم ما تفعلون. أي: أنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم قدر الذي تقومونه من الليل «علم أن لن تحصوه» أن لن تطبقوا علم مقادير الليل والنهار على الحقيقة، وفي أن ضمير شأن محذوف، وقيل المعنى: لن تطبقوا قيام الليل. قال القرطبي: والأول أصح، فإن قيام الليل ما فرض كله قط، قال مقاتل وغيره: لما نزل «قم الليل إلا قليلاً» نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه [المزمل: 2، 4] شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفتحت أقدامهم وانتفتحت ألوانهم، فرحمهم الله، وخفف عنهم فقال: «علم أن لن تحصوه» أي: علم أن لن تحصوه؛ لأنكم إن زبتم ثقل عليكم واحتجتم إلى تكلف ما ليس فرضاً، وإن نقصتم شق ذلك عليكم «ففتاب عليكم» أي: فعاد عليكم بالعفو، ورخص لكم في ترك القيام. وقيل: فتاب عليكم من فرض القيام إذا عجزتم، وأصل التوبة الرجوع، كما تقدّم؛ فالمعنى: رجع بكم من التثقل إلى التخفيف، ومن العسر إلى اليسر «فأقروا ما تيسر من القرآن» أي: فأقروا في الصلاة بالليل ما خف عليكم، وتيسر لكم منه من غير أن ترتقبوا وقتاً. قال الحسن: هو ما نقرأ في صلاة المغرب والعشاء. قال السدي: ما تيسر منه هو مائة آية. قال الحسن: أيضاً من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين، وقال سعيد: خمسون آية، وقيل: معنى «فأقروا ما تيسر منه»: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرأناً كقوله: «وقرآن الفجر» [الإسراء: 78] قيل: إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه، والنقصان من النصف والزيادة عليه، فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضاً ثابتاً، ويحتمل أن يكون منسوخاً لقوله: «ومن الليل فتجهّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» [الإسراء: 79]. قال الشافعي: الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين. فوجنا سنة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس. وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ في حقه ﷺ وفي حق أمته. وقيل: نسخ التقدير بمقدار وبقي أصل الوجوب. وقيل: إنه نسخ في حق الأمة، وبقي فرضاً في حقه ﷺ والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه ﷺ وفي حق أمته، وليس في قوله: «فأقروا ما تيسر منه» ما يدل على بقاء شيء من الوجوب؛ لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن، فقد وجدت في صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة، وإن كان المراد به الصلاة من الليل، فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من

ابن عباس، عن النبي ﷺ «فأفقرعوا ما تيسر منه» قال: «مائة آية». وأخرج الدراقطني، والبيهقي في سننه، وحسنه عن قيس بن أبي حازم قال: صليت خلف ابن عباس، فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين، وأول آية من البقرة، ثم ركع، فلما انصرفنا أقبل علينا، فقال: إن الله يقول: «فأفقرعوا ما تيسر منه» قال ابن كثير: وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا في معجم الطبراني. وأخرج أحمد، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر». وقد قُدمنا في البحث الأول من هذه السورة ما روي أن هذه الآيات المذكورة هنا هي الناسخة لوجوب قيام الليل، فارجع إليه.

تفسير سورة المدثر

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المدثر بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله، وسيأتي أن أول هذه السورة أول ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيِّنَاتٍ لِّلْمُذْثَرِّ ۝ ثُرَ قَانُورٍ ۝ وَرَبِّكَ كَذَّابٌ ۝ وَبَيْتَكَ تَكْذِبُ ۝ وَالرَّحْمَنُ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَتَنَزَّاهُ فِي مَكْنَزٍ ۝ وَالرَّحْمَنُ فَاهْجُرْ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝ ذَرَقَ وَمَنْ خَلَقَتْ رَجِجًا ۝ وَجَعَلَتْ لَهُ مَلَأَ مَتَدُونًا ۝ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝ وَمَهْدَتْ لَهُ نَهْمِيًا ۝ ثُمَّ يَلْمِزُ أَنْ أَرِيدَ ۝ كَلَّا إِنَّكَ كَانْتَ لَذِينًا عَيْنًا ۝ سَأَلْتَهُمْ صَمُودًا ۝ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَفَعَلُوا ۝ فَقِيلَ كَيْفَ مَقَرُّ ۝ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ مَقَرُّ ۝ ثُمَّ نَظَرُوا ۝ ثُمَّ عَسَى وَبَرَّ ۝ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاتَّخَذَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَحْرٌ مُّؤْتَرٌ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأَلِيهِ سَرًّا ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۝ لَا بُدَّيْ وَلَا يَنْزَرُ ۝ وَأَنَّى لِلْإِنْسَانِ ۝ عَلِيمًا بِسَمْعٍ عَذْرَ ۝

قال الواحدي: قال المفسرون: لما بدئ رسول الله ﷺ بالوحي أتاه جبريل، فراه رسول الله ﷺ على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلالي، ففرغ ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل على خديجة، ودعا بماء، فصبه عليه، وقال: «نثروني نثروني»، فثروه بقطيفة، فقال: «يا أيها المدثر * قم فأنذر» ومعنى «يا أيها المدثر»: يا أيها الذي قد نثر بثيابه أي: تغشى بها، وأصله المتدثر، فادغمت التاء في الدال لتجانسهما. وقد قرأ الجمهور بالإدغام، وقرأ أبي (المدثر) على الأصل، والنثار: هو ما يلبس فوق الشعار، والشعار: هو الذي يلي الجسد، وقال عكرمة: المعنى: يا أيها المدثر بالنبوة وأثقالها. قال ابن العربي: وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبياً إذ ذاك «قم فأنذر» أي: انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا، أو قم من مضجعك، أو قم قيام عزم وتصميم، وقيل: الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوته، وقيل:

وقال عكرمة: المعنى البسها على غير غدر وغير فجرة. وقال: أما سمعت قول الشاعر:
واني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره اتقنع
والشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفي، ومن إطلاق الثياب على النفس قول عنقرة:
فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
وقول الآخر:

ثياب بني عوف طهارى نقيه

وقال الحسن، والقرطبي: إن المعنى، وأخلاقك فطهر؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه، ومنه قول الشاعر:

ويحسى لا يلام بسوء خلق ويحسى طاهر الاثواب خر
وقال الزجاج: المعنى، وثيابك فقصر؛ لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجز على الأرض، وبه قال طائوس، والأول أولى؛ لأنه المعنى الحقيقي. وليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق، وليس في مثل هذا الأصل: أعني الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف، وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة «والرجز فاهجر» الرجز معناه في اللغة العذاب، وفيه لغتان كسر الراء وضمها، وسمى الشرك وعبادة الاوثان رجزاً لأنها سبب الرجز. قرأ الجمهور (الرجز) بكسر الراء. وقرأ الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وحفص، وابن محيصن بضمها. وقال مجاهد، وعكرمة: الرجز الاوثان، كما في قوله: «فاجتنبوا الرجس من الاوثان» [الحج: 30] وبه قال ابن زيد. وقال إبراهيم النخعي: الرجز المائم، والهجر الترك. وقال قتادة: الرجز إساف وثائلة،

في هذا في سورة الأنعام وسورة النحل، والفاء للسببية، كأنه قيل: أصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم، والعامل في إذا ما دل عليه قوله: ﴿فَئِنَّكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإن معناه: عسر الأمر عليهم، وقيل: العامل فيه ما دل عليه ﴿فَئِنَّكَ﴾ لأنه إشارة إلى النقر، ويومئذ بدل من إذا، أو مبتدأ، وخبره يوم عسير، والجملة خبر فئِنَّكَ، وقيل: هو ظرف للخبر؛ لأن التقدير وقوع يوم عسير، وقوله: ﴿غَيْرِ يَسِيرٍ﴾ تأكيد لعسره عليهم؛ لأن كونه غير يسير، قد فهم من قوله: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ * ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً﴾ أي: دعني، وهي كلمة تهديد ووعيد، والمعنى: دعني والذي خلقتك حال كونه وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، هذا على أن وحيداً منتصب على الحال من الموصول، أو من الضمير العائد إليه المحذوف، ويجوز أن يكون حالاً من الياء في ذرني أي: دعني وحدي معه، فإني أكفيك في الانتقام منه، والأول أولى. قال المفسرون: وهو الوليد بن المغيرة. قال مقاتل: يقول: خلّ بيني وبينه، فأنا أنفرد بهلكته، وإنما خص بالذكر لمزيد كفره، وعظيم جوده لنعم الله عليه، وقيل: أراد بالوحيد الذي لا يعرف أبوه، وكان يقال في الوليد بن المغيرة: إنه دعني ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ أي: كثيراً، أو يمد بالزيادة والنماء شيئاً بعد شيء. قال الزجاج: مالا غير منقطع عنه، وقد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه، قيل: كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار، وقيل: أربعة آلاف دينار، وقيل: ألف دينار ﴿وَبَيْنَ شُهُوداً﴾ أي: جعلت له بنين حضوراً بمكة معه لا يسافرون، ولا يحتاجون إلى التفرق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم. قال الضحاك: كانوا سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولداً. وقال مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. وقيل: معنى شهوداً أنه إذا نكر نكروا معه، وقيل: كانوا يشهدون معه ما كان يشهده، ويقومون بما كان يبشره ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أي: بسطت له في العيش وطول العمر والرياسة في قريش، والتمهيد عند العرب التوطئة، ومنه مهد الصبي. وقال مجاهد: إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهّد الفراش ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: يطمع بعد هذا كله في الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه للنعم، وإشراكه بالله. قال الحسن: لم يطمع أن أدخله الجنة، وكان يقول: إن كان محمد صادقاً، فما خلقت الجنة إلّا لي. ثم رده الله سبحانه وزجره فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: لست أزيد. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ أي: معانداً لها كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا، يقال: عند يعند بالكسر إذا خالف الحق ورده، وهو يعرفه، فهو عنيد وعاند، والعائد الذي يجوز عن الطريق، ويعدل عن القصد، ومنه قول الحارثي:

وهما صنمان كانا عند البيت. وقال أبو العالية، والربيع، والكسائي: الرجز بالضم الوثن، وبالكسر العذاب. وقال السدي: الرجز بضم الراء الوعيد، والأول أولى ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ قرأ الجمهور (لا تمنن) بفك الإدغام، وقرأ الحسن، وأبو اليمان، والأشهب العقيلي بالإدغام، وقرأ الجمهور (تستكثر) بالرفع على أنه حال أي: ولا تمنن حال كونك مستكثر، وقيل: على حذف أن، والأصل ولا تمنن أن تستكثر، فلما حذفت رفع. قال الكسائي: فإذا حذف أن رفع الفعل. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش (تستكثر) بالنصب على تقدير أن، وبقاء عملها، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود (ولا تمنن أن تستكثر) بزيادة أن. وقرأ الحسن أيضاً، وابن أبي عبيدة (تستكثر) بالجزم على أنه بدل من تمنن، كما في قوله: ﴿يَلِيقُ أَثَاماً * يَضَاعَفُ لَهُ﴾ [الفرقان: 68 - 69]، وقول الشاعر:

متى تاتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطباً جزلاً وناراً تاججا
أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف كما في قول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحب إثمأ من الله ولا وأغل
بتسكين أشرب. وقد اعترض على هذه القراءة؛ لأن قوله تستكثر لا يصح أن يكون بدلاً من تمنن؛ لأن الممن غير الاستكثر، ولا يصح أن يكون جواباً للثني.

واختلف السلف في معنى الآية، فقليل المعنى: لا تمنن على ربك بما تتحملة من أعباء النبوة كالذي يستكثر ما يتحملة بسبب الغير، وقيل: لا تعط عطية تلتبس فيها أفضل منها، قاله عكرمة، وقتادة. قال الضحاك: هذا حرّمه الله على رسوله؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق، وأباحه لأمته. وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير، من قولك جبل متين: إذا كان ضعيفاً. وقال الربيع بن أنس: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير. وقال ابن كيسان: لا تستكثر عملاً فتراه من نفسك، إنما عملك منه من الله عليك إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته. وقيل: لا تمنن بالنبوة، والقرآن على الناس، فتأخذ منهم أجراً تستكثره. وقال محمد بن كعب: لا تعط مالك مصانعة. وقال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطية فأعطها لربك ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: لوجه ربك، فاصبر على طاعته وقرائضه، والمعنى: لأجل ربك وثوابه. وقال مقاتل، ومجاهد: أصبر على الأذى والتكذيب. وقال ابن زيد: حملت أمراً عظيماً، فحاربك العرب والعجم، فاصبر عليه. وقيل: أصبر تحت موارد القضاء لله، وقيل: فاصبر على البلوى، وقيل: على الأوامر والنواهي ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ﴾ الناقور فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب الصوت، ومنه قول امرئ القيس:

أخفضه بالنقر لما علوته

ويقولون: نقر باسم الرجل إذا دعاه، والمراد هنا النفخ في الصور، والمراد النفخة الثانية، وقيل: الأولى، وقد تقدّم الكلام

حكاه الله عنه، قال الله عز وجل: ﴿صَاصِلِيهِ سَقَر﴾ أي: ساءخله النار، وسقر من أسماء النار، ومن دركات جهنم، وقيل: إن هذه الجملة بدل من قوله: ﴿سَارِهَقْهُ صَعُوداً﴾ ثم بالغ سبحانه في وصف النار وشدة أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر﴾ أي: وما أعلمك أي شيء هي، والعرب تقول: وما أدراك ما كذا: إذا أربوا المبالغة في أمره، وتعظيم شأنه وتهويل خطبه، وما الأولى مبتداً، وجملة ﴿مَا سَقَر﴾ خبر المبتداً. ثم فسر حالها، فقال: ﴿لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال سقر، والكشف عن وصفها، وقيل: هي في محل نصب على الحال، والعامل فيها معنى التعظيم؛ لأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر﴾ يدل على التعظيم، فكانه قال: استعظموا سقر في هذه الحال، والأول أولى، ومفعول الفعلين محذوف. قال السدي: لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً. وقال عطاء: لا تبقي من فيها حياً ولا تذر ميتاً، وقيل: هما لفظان بمعنى واحد، كررا للتأكيد كقولك: صد عني وأعرض عني ﴿لَوْلَا حَةُ لِلْبَشَرِ﴾ قرأ الجمهور (لَوْحَةً) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقيل: على أنه نعت لسقر، والأول أولى. وقرأ الحسن، وعطية العوفي، ونصر بن عاصم، وعيسى بن عمر، وابن أبي عبيدة، وزيد بن عليّ بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل، يقال: لاح يلوح أي: ظهر، والمعنى: أنها تظهر للبشر. قال الحسن: تلوح لهم جهنم حتى يرونها عياناً كقوله: ﴿وَيُبرزُ الجحيمَ لمن يرى﴾ [النازعات: 36] وقيل: معنى ﴿لَوْلَا حَةُ لِلْبَشَرِ﴾ أي: مغيرة لهم ومسودة. قال مجاهد: والعرب تقول: لاحه الحر والبرد والسقم والحزن: إذا غيره، وهذا أرجح من الأول، وإليه ذهب جمهور المفسرين، ومنه قول الشاعر:

وتعجب هند أن رأتني شاحباً تقول لشيء لوحته السمايم
أي: غيرته، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

لَوْحٌ مِنْهُ بَعْدَ بَدْنٍ وَشَبَقٌ تَلْوِيحُكَ الضَّامِرُ يَطْوِي لِلْسَبَقِ
وقال الأخفش: المعنى أنها معطشة للبشر، وأنشد:

سَقَنَنِي عَلَى لَوْحٍ مِنَ الْمَاءِ شَرِبَةً سَقَاهَا بِهِ اللَّهُ الرَّهَامُ الْغَوَايَا
والمراد بالبشر إما جلدة الإنسان الظاهرة، كما قاله الأكثر، أو المراد به أهل النار من الإنس، كما قال الأخفش ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ﴾ قال المفسرون: يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، وقيل: تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة، وقيل: تسعة عشر صفواً من صفوفهم، وقيل: تسعة عشر نقيباً مع كل نقيب جماعة من الملائكة، والأول أولى. قال الثعلبي: ولا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحدة يقبض أرواح جميع الخلاق كان أخرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق. قرأ الجمهور (تسعة عشر) بفتح الشين من عشر. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وطلحة بن سليمان بإسكانها.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: إن أول ما نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقال له يحيى بن أبي كثير:

إذا ركبت فاجعلاني وسطاً إنني كبير لا أطيق العندا
قال أبو صالح: عنيداً معناه مبعداً. وقال قتادة: جاحداً. وقال مقاتل: معرضاً ﴿سَارِهَقْهُ صَعُوداً﴾ أي: ساكلفه مشقة من العذاب، وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذي لا يطاق، وقيل المعنى: إنه يكلف أن يصعد جبلاً من نار، والإرهاق في كلام العرب: أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل، وجملة ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليل لما تقدم من الوعيد أي: إنه فكر في شأن النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، وقدر في نفسه أي: هيا الكلام في نفسه، والعرب تقول: هياك الشيء إذا قدرته، وقدرت الشيء إذا هيأته، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه، وقدر في نفسه ما يقول، فذمه الله، وقال: ﴿فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: لعن وعذب كيف قدر أي: على أي حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال في الكلام: لأضربنه كيف صنع أي: على أي حال كانت منه، وقيل المعنى: قهر وغلب كيف قدر، ومنه قول الشاعر:

وما نرفت عينك إلا لتضربني بسهميك في أعشار قلب مقتل
وقال الزمهرى: عذب، وهو من باب الدعاء عليه، والتكرير في قوله: ﴿ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ للمبالغة والتأكيد ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: بأي شيء يدفع القرآن ويدفع فيه، أو فكر في القرآن وتبصر ما هو ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به في القرآن، والعبس مصدر عبس مخففاً، يعبس عبساً وعبوساً إذا قطب، وقيل: عبس في وجوه المؤمنين، وقيل: عبس في وجه النبي ﷺ ﴿وَيَسَّرَ﴾ أي: كلح وجهه وتغير، ومنه قول الشاعر:

صبحنا تميماً غداة الحفار بشهباء ملموسة بأسره
وقول الآخر:

وقد رايتني منها صدوداً رأيت وإعراضها عن حاجتي وبسورها
وقيل: إن ظهور العيوس في الوجه يكون بعد المحاورة، وظهور البسور في الوجه قبلها، والعرب تقول: وجه بأسر إذا تغير وأسود. وقال الراغب: البسر استعجال الشر قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته أي: طلبها في غير أوانها. قال: ومنه قوله: ﴿عَبَسَ وَيَسَّرَ﴾ أي: أظهر العيوس قبل أوانه وقبل وقته، وأهل اليمن يقولون: بسر المركب وأبسر أي: وقف لا يتقدم ولا يتأخر، وقد أبسرنا أي: صرنا إلى البسور ﴿ثُمَّ أَنْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: أعرض عن الحق، وذهب إلى أهله، وتعظم عن أن يؤمن ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِأَسْحَرُ يَوْثَرُ﴾ أي: يائره عن غيره ويرويه عنه. والسحر: إظهار الباطل في صورة الحق، أو الخديعة على ما تقدم بيانه في سورة البقرة، يقال: أثرت الحديث بآثره إذا نكرته عن غيرك، ومنه قول الأعشى:

إن الذي فيه تحاربتما بين السامع والأثر
﴿إِنَّ هَذَا لِأَقْوَلُ لِلْبَشَرِ﴾ يعني: أنه كلام الإنس، وليس بكلام الله، وهو تأكيد لما قبله، وسيأتي أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة، وأن عليه طلاوة إلى آخر كلامه. ولما قال هذا القول الذي

هو وحده لا يقدر على علم نكح أحد. وقال عطاء: يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله، والمعنى: أن خزنة النار، وإن كانوا تسعة عشر، فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. ثم رجع سبحانه إلى نكر سقر، فقال: **﴿وَمَا هِيَ إِلَّا نَكَرَى لِلْبِشْرِ﴾** أي: وما سقر، وما نكر من عدد خزنتها إلا تنكرة وموعظة للعالم، وقيل: **﴿وَمَا هِيَ﴾** أي: الدلائل والحجج والقرآن إلا تنكرة للبشر. وقال الزجاج: نار الدنيا تنكرة لنار الآخرة، وهو بعيد. وقيل: **﴿وَمَا هِيَ﴾** أي: عذبة خزنة جهنم إلا تنكرة للبشر؛ ليعلموا كمال قدرة الله، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار، وقيل: الضمير في **﴿وَمَا هِيَ﴾** يرجع إلى الجنود. ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال: **﴿كَلَّا وَلَقَمْرٍ﴾** قال الفراء: كلا صلة للقسم، التقدير أي: والقمر، وقيل المعنى: حقاً والقمر. قال ابن جرير: المعنى ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم أي: ليس الأمر كما يقول، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده، وهذا هو الظاهر من معنى الآية **﴿وَاللَّيْلُ إِذَا أْبْرَ﴾** أي: رلى. قرأ الجمهور (إذا) بزيادة الألف، ببر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان، وقرأ نافع، وحفص، وحزمة (إذا) بنون ألف، أوبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان وببر، وأدبر لغتان، كما يقال: أقبل الزمان وقيل الزمان، يقال: دبر الليل وأدبر: إذا تولى ذاهباً **﴿وَالصَّيْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾** أي: أضاء وتبين **﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكَبْرِ﴾** هذا جواب القسم، والضمير راجع إلى سقر أي: إن سقر لإحدى الدواهي، أو البليات الكبرى، والكبر جمع كبرى، وقال مقاتل: إن الكبر اسم من أسماء النار، وقيل: إنها أي: تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبرى، وقيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبرى، ومنه قول الشاعر:

يا بن المعلى نزلت لإحدى الكبرى داهية الدهر وصماء الغير
قرأ الجمهور (إحدى) بالهمزة، وقرأ نصر بن عاصم، وابن محيصن، وابن كثير في رواية في رواية عنه (إنها إحدى) بدون همزة. وقال الكلبي: أراد بالكبر دركات جهنم وأبوابها **﴿نَذِيرًا لِلْبِشْرِ﴾** انتصاب نذيراً على الحال من الضمير في إنها، قاله الزجاج. وروي عنه، وعن الكسائي، وأبي علي الفارسي أنه حال من قوله: **﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾** [المثدر: 2] أي: قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر. وقال الفراء: هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدر، وقيل: إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التنظيم كأنه قيل: أعظم الكبر إنذاراً، وقيل: إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور في أول السورة، وقيل: منصوب بإضمار أعني، وقيل: منصوب بتقدير ادع، وقيل: منصوب بتقدير ناد أو بلغ، وقيل: إنه مفعول لأجله، والتقدير: وإنها لإحدى الكبرى؛ لأجل إنذار البشر. قرأ الجمهور بالنصب، وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي نذير، أو هو نذير.

وقد اختلف في النذير، فقال الحسن: هي النار، وقيل:

المديرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطبق الملائكة ومن يغلبهم، فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة؛ لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرافة، وقيل: لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له، وأشدهم بأساً وأقوامهم بطشاً **﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾** أي: ضلالة **﴿لِلنَّاسِ﴾** استقلوا عددهم، ومحنة لهم، والمعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم، حتى قالوا ما قالوا، ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم. وقيل: معنى **﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾** إلا عذاباً، كما في قوله: **﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ﴾** [الذاريات: 13] أي: يعذبون، واللام في قوله: **﴿لَيْسَتِيقِنَ النَّاسُ أَوْتُوا لِكِتَابِ﴾** متعلق بجعلنا، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عذبة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم. قاله قتادة، والضحاك، ومجاهد، وغيرهم، والمعنى: أن الله جعل عذبة الخزنة هذه العذبة؛ ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد ﷺ لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم **﴿وَيَزِدَادَ النَّاسِ آمَنُوا إِيْمَانًا﴾** وقيل: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وقيل: أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمة محمد ﷺ، والمعنى: ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم، وجملة **﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أَوْتُوا لِكِتَابِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾** مقررة لما تقدم من الاستيقان وازدياد الإيمان، والمعنى نفى الارتياب عنهم في النّين، أو في أن عذبة خزنة جهنم تسعة عشر، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك **﴿وَلِيَقُولَ النَّاسُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾** المراد بالنّين في قلوبهم مرض هم المنافقون؛ والسورة وإن كانت مكية، ولم يكن إذ ذاك نفاق، فهو إخبار بما سيكون في المدينة، أو المراد بالمرض مجرّد حصول الشك والريب، وهو كائن في الكفار. قال الحسين بن الفضل: السورة مكية، ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف، والمراد بقوله: **﴿وَالْكَافِرُونَ﴾** كفار العرب من أهل مكة، وغيرهم، ومعنى **﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾** أي: شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل. قال الليث: المثل الحديث، ومنه قوله: **﴿مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾** [الرعد: 35] أي: حديثها، والخبر عنها **﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مِنْ يَشَاءُ﴾** أي: مثل تلك الإضلال المتقدم نكره، وهو قوله: **﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** **﴿يَضِلُّ اللَّهُ مِنْ يَشَاءُ﴾** من عباده، والكاف نعت مصدر محذوف **﴿وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ﴾** من عباده، والمعنى: مثل تلك الإضلال للكاكفرين والهداية للمؤمنين، يضل الله من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته، وقيل المعنى: كذلك يضل الله عن الجنة من يشاء ويهدي إليها من يشاء **﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾** أي: ما يعلم عدد خلقه، ومقدار جموعه من الملائكة، وغيرهم إلا

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَنْهَأَهُ اللَّهُ عَنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ النَّارِ ۖ ﴿٥٦﴾

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: مأخوذة بعملها ومرتهنة به، إما خلصها وإما أربقها، والرهينة اسم بمعنى الرهن، كالشيمة بمعنى الشيم، وليست صفة، ولو كانت صفة لقليل: رهين؛ لأن فاعيلًا يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم.

واختلف في تعيينهم، فقيل: هم الملائكة، وقيل: المؤمنون، وقيل: أولاد المسلمين، وقيل: الذين كانوا عن يمين آدم، وقيل: أصحاب الحق، وقيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، وقيل: هم الذين اختارهم الله لخدمته ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئناف جواباً عن سؤال نشأ مما قبله، ويجوز أن يكون في جنات حالاً من أصحاب اليمين، وأن يكون حالاً من فاعل يتساءلون، وأن يكون ظرفاً ليتساءلون، وقوله: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يجوز أن يكون على بابه أي: يسأل بعضهم بعضاً، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون أي: يسألون غيرهم، نحو دعيته وتداعيته، فعلى الوجه الأول يكون ﴿عَنِ الْمَجْرِمِينَ﴾ متعلقاً بـ يتساءلون أي: يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين، وعلى الوجه الثاني تكون عن زائدة أي: يسألون المجرمين، وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ هو على تقدير القول أي: يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم: ما سَلَكَكُمْ في سَقَر، أو يسألونهم قائلين لهم: ما سَلَكَكُمْ في سَقَر، والجملة على كلا التقديرين في محل نصب على الحال، والمعنى: ما أدخلكم في سَقَر، تقول سلكت الخيط في كذا: إذا دخلته فيه. قال الكلبي: يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان ما سَلَكَكَ في النار. وقيل: إن الملائكة يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم: ما سَلَكَكُمْ في سَقَر. قال الفراء: في هذا ما يقوِّي أن أصحاب اليمين هم ولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب. ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال: ﴿قَالُوا لِمَ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ﴾ أي: من المؤمنين الذين يصلون لله في الدنيا ﴿وَلِمَ نَكُ نَطْعَمُ الْمُسْكِينِ﴾ أي: لم نتصدق على المساكين، قيل: وهذا محمولان على الصلاة الواجبة والصنقة الواجبة؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات ﴿وَوَكُنَّا نَخْضُوعٌ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي: نخالط أهل الباطل في باطلهم. قال قتادة: كلما غوى غاي غوينا معه. وقال السدي: كنا نكذب مع المكذبين. وقال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم: كاذب مجنون ساحر شاعر ﴿وَوَكُنَّا نَكْذِبُ بَيُومَ الدِّينِ﴾ أي: بيوم الجزاء والحساب ﴿حَتَّىٰ تَأْتَا الْيَقِينَ﴾ وهو: الموت، كما في قوله: ﴿وَأَعْبَدَ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99] ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أي: شفاعة الملائكة والنبیین، كما تنفع

محمد ﷺ. وقال أبو رزين: المعنى أنا نذير لكم منها، وقيل: القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ هو بدل من قوله: ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي: نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر عنها، والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر، وقيل: فاعل المشيئة هو الله سبحانه أي: لمن شاء الله أن يتقدم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر، والأول أولى. وقال السدي: لمن شاء منكم أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخر إلى الجنة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما سمع أبو جهل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. قال لقريش: تكلنكم أمهاتكم، اسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم اللّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم؟ وأخرج ابن مردويه عنه في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَنْتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو الأشد: خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا كفيكم مؤنتهم، قال: وحشنت أن النبي ﷺ وصف خزائن جهنم فقال: «كان أعينهم البرق، وكان أقوامهم الصياصي يجرون أشعارهم، لهم مثل قوة الثقلين، يقبل أحدهم بالآمة من الناس يسوقهم على رقبته جبل حتى يرمي بهم في النار فيرمي بالجبل عليهم». وأخرج الطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ عن أبي سعيد الخدري: «أن رسول الله ﷺ حشنتهم عن ليلة أسري به قال: فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل، وهو صاحب سماء الدنيا، وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف، وتلا هذه الآية ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾». وأخرج أحمد عن أبي نر قال: قال رسول الله ﷺ: «أطمت السماء، وحق لها أن تثنط، ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد». وأخرجه الترمذي، وابن ماجه. قال الترمذي: حسن غريب، ويروى عن أبي نر موقوفاً. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿إِذْ أَبْرَكَ﴾ قال: دبور ظلامه. وأخرج مسدد في مسنده، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَجَ﴾ فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان، ناداني يا مجاهد هذا حين دبر الليل. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قال: من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٥٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٥٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسْتَلُونَ ﴿٦٠﴾ عَنِ النَّجْمِينَ ﴿٦١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٦٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ ﴿٦٣﴾ وَلَوْ نَكُ نَطْعَمُ الْمُسْكِينِ ﴿٦٤﴾ وَكُنَّا نَخْضُوعٌ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٦٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيُومَ الدِّينِ ﴿٦٦﴾ حَتَّىٰ تَأْتَا الْيَقِينَ ﴿٦٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٦٨﴾ فَمَا نَكُ عَنِ النَّجْمِينَ مُرْصِينَ ﴿٦٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مَشْتَفِيرَةٌ ﴿٧٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٧١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُفُتَّ شُحًّا مُنْتَرَةً ﴿٧٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٧٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٧٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوا ﴿٧٥﴾

وقوله (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) استثناء مفرغ من أعم الأحوال. قال مقاتل: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ لهم الهدى ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ أي: هو الحقيق بأن يتيقن المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعته ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة، فيغفر ذنوبهم.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةً﴾ قال: مأخوذة بعملها. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿إِلَّا أَصْحَابُ اليمين﴾ قال: هم المسلمون. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب: ﴿إِلَّا أَصْحَابُ اليمين﴾ قال: هم أطفال المسلمين. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿حَتَّى آتَانَا اليمين﴾ قال: الموت. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي موسى الأشعري في قوله: ﴿فَوَزَتْ مِنْ قِسْوَةٍ﴾ قال: هم الرماة رجال القسي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس قال: القسورة الرجال الرماة القنص. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي جمره قال: قلت لابن عباس: القسورة الأسد، فقال: ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد هم عصابة الرجال. وأخرج سفيان بن عيينة، وعبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس: ﴿مِنْ قِسْوَةٍ﴾ قال: هو ركز الناس يعني: أصواتهم. وأخرج أحمد، والدارمي، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عدي وصححه، وابن مروي عن أنس «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فقال: قال ربكم: أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً، فأنأ أهل أن أغفر له». وأخرج ابن مروي عن أبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس مرفوعاً نحوه.

تفسير سورة القيامة

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة القيامة، وفي لفظ سورة لا أقسم بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير قال: أنزلت سورة لا أقسم بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ① وَلَا أُقِيمُ بِالْفَنَسِ الْقَوَامَةِ ② أَيْسَبُ الْإِنْسَنِ ③ أَنْ يَجْمَعَ عَظَامَهُ ④ بَلَّ قَدِيرِهِ عَلَى أَنْ شَوَى بَنَانَهُ ⑤ بَلَّ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يَنْتَعِرُ أَمَامَهُ ⑥ يَنْتَلِ إِيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ⑦ فَإِنَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ⑧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑨

الصالحين ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّنْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ التَّنْكِرَةُ التَّنْكِيرُ بمواضع القرآن، والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التَّنْكِرَةِ على ما قبله من موجبات الإقبال عليها، وانتصاب معرضين على الحال من الضمير في متعلق الجاز والمجرور أي: أي شيء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذي هو مشتمل على التَّنْكِرَةِ الكبرى والموعظة العظمى، ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بالحر فقال: ﴿كَانَهُمْ حَمَرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ والجملة حال من الضمير في معرضين على التداخل، ومعنى ﴿مُسْتَنْفَرَةٌ﴾: نافرة، يقال: نفر واستنفر، مثل عجب واستعجب، والمراد الحر الوحشية. قرأ الجمهور (مستنفرة) بكسر الفاء أي: نافرة، وقرأ نافع، وابن عامر بفتحها أي: منفرة مذعورة، واختار القراءة الثانية أبو حاتم، وأبو عبيد. قال في الكشف: المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له، وحملها عليه، ﴿فَوَزَتْ مِنْ قِسْوَةٍ﴾ أي: من رماة يرمونها، والقسور الرامي، وجمعه قسورة، قاله سعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن كيسان، وقيل: هو الأسد، قاله عطاء والكلبي. قال ابن عرفة: من القسر بمعنى القهر؛ لأنه يقهر السباع، وقيل: القسورة أصوات الناس، وقيل: القسورة بلسان العرب الأسد، ولسان الحبشة الرماة. وقال ابن الأعرابي: القسورة أول الليل أي: فرت من ظلمة الليل، وبه قال عكرمة، والأول أولى، وكل شديد عند العرب فهو: قسورة، ومنه قول الشاعر: يا بنت كوني خيرة لخيره أخوالها الحي وأهل القسورة ومنه قول لبيد:

إذا ما هتفنا هتفاً في نيينا اثنا رجال العابدين القساور
ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر:

مضمر تحذره الأبطال كأنه القسور الرمال
﴿بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مَنشُورَةً﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التَّنْكِرَةِ بل يريد. قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لمحمد ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله. والصحف الكتب وأحبتها صحيفة، والمنشورة المنشورة المفتوحة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه﴾ [الإسراء: 93] قرأ الجمهور (منشورة) بالتشديد. وقرأ سعيد بن جبيرة بالتخفيف. وقرأ الجمهور أيضاً بضم الحاء من صحف. وقرأ سعيد بن جبيرة بإسكانها. ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ يعني: عذاب الآخرة؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات، وقيل: كلا بمعنى حقاً. ثم كرر الردع والزجر لهم فقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَنكُرَةٌ﴾ يعني: القرآن، أو حقاً إنه تنكرة، والمعنى: أنه يتنكر به ويتعظ بمواعظه ﴿فَمَنْ شَاءَ نَكُرْهُ﴾ أي: فمن شاء أن يتعظ به اتعظ، ثم رد سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال: ﴿وَمَا يَنْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قرأ الجمهور (ينكرون) بالياء التحتية. وقرأ نافع، ويعقوب بالفوقية، واتفقا على التخفيف،

وَمَجَّعَ النَّفْسَ وَالْقَسَرَ ① يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنِّي لَكَلَّمْتُ ② نَفْسِي لَوْلَا ③ لَا وَدَّ ④ لَوْلَا ⑤ رَيْبًا يَوْمَئِذٍ اتَّقَتَّرَ ⑥ يَبْكُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ ⑦ وَلَكَّرَ ⑧ بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى ⑨ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑩ وَلَوْ أَلْقَى مَكَايِدُهُ ⑪ لَا تَحَرَّكَ بِهِ لِسَانُكَ لِيَتَكَلَّمَ بِهِ ⑫ لَمَّا عَيْنًا ⑬ عَيْنًا جَمَعَهُمُ وَفُودَانَهُ ⑭ فَلَمَّا قَرَأْتَهُ فَاتَّخَذَ قُرْآنَهُ ⑮ ثُمَّ إِنَّ عَيْنَنَا ⑯ بَيَّانَهُ ⑰ كَلَّا بَلْ يُحِيطُونَ الْعَاقِبَةَ ⑱ وَتَذَرُونَهُ الْآخِرَةَ ⑲ دُجْرًا يَوْمَئِذٍ نَافِرَةً ⑳ إِنَّ رَبَّهَا نَظِيرَةٌ ㉑ وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ㉒ تَكُنْ أَنْ يَحْكَمَ بِهَا فَأَمْرٌ ㉓

حَسَنًا سَائِفًا. وقيل: اللؤامة هي الملوثة المذمومة، فهي صفة نَمَ، وبهذا احتج من نفى أن يكون قسماً، إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به. قال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله. والأول أولى ﴿ايحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه﴾ المراد بالإنسان الجنس، وقيل: الإنسان الكافر، والهزمة للإنكار، وأن هي المخففة من الثقلية، واسمها ضمير شأن محذوف، والمعنى: ليحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجعل عظامه بعد أن صارت رفاتاً، فتعيدها خلقاً جديداً، وذلك حسبان باطل، فإننا نجعلها، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللؤامة ليجعلن العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف أي: ليعبثن، والمعنى: أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان، وإنما خصَّ العظام لأنها قالب الخلق ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ بلى إيجاب لما بعد النفي المنسحب إليه الاستفهام، والوقف على هذا اللفظ وقف حسن، ثم يبتدئ الكلام بقوله: ﴿قادرين﴾ وانتصاب قادرين على الحال أي: بلى نجعلها قادرين، فالحال من ضمير الفعل المقدَّر، وقيل للمعنى: بل نجعلها بقدر قادرين. قال الفراء: أي نقدر ونقوى قادرين على أكثر من ذلك. وقال أيضاً: إنه يصلح نصبه على التكرير أي: بلى فليحسبنا قادرين، وقيل التقدير: بلى كنا قادرين. وقرأ ابن أبي عبلة، وابن السميعة (بلى قادرين) على تقدير مبتدأ أي: بلى نحن قادرين، ومعنى ﴿على أن نسوي بنانه﴾: على أن نجعل بعضها إلى بعض، فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبه سبحانه بالبنان، وهي الأصابع على بقية الأعضاء، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظفار والعروق اللطاف والعظام الدقاق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر، وبهذا قال الزجاج، وابن قتيبة. وقال جمهور المفسرين: إن معنى الآية: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً، كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها، فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما، ولكننا فرقنا أصابعه لينتفع بها. وقيل المعنى: بل نقدر على أن نعبد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها، والأول أولى، ومنه قول عنترة:

وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندوان
فنبه بالبنان على بقية الأعضاء ﴿بلى يريد الإنسان ليفجر إمامه﴾ هو عطف على أيحسب، إما على أنه استفهام مثله، وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام. والمعنى: بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة. قال ابن الأنباري: يريد أن يفجر ما امتدَّ عمره، وليس في نيته أن يرجع عن ذنب

وَمَجَّعَ النَّفْسَ وَالْقَسَرَ ① يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنِّي لَكَلَّمْتُ ② نَفْسِي لَوْلَا ③ لَا وَدَّ ④ لَوْلَا ⑤ رَيْبًا يَوْمَئِذٍ اتَّقَتَّرَ ⑥ يَبْكُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ ⑦ وَلَكَّرَ ⑧ بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى ⑨ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑩ وَلَوْ أَلْقَى مَكَايِدُهُ ⑪ لَا تَحَرَّكَ بِهِ لِسَانُكَ لِيَتَكَلَّمَ بِهِ ⑫ لَمَّا عَيْنًا ⑬ عَيْنًا جَمَعَهُمُ وَفُودَانَهُ ⑭ فَلَمَّا قَرَأْتَهُ فَاتَّخَذَ قُرْآنَهُ ⑮ ثُمَّ إِنَّ عَيْنَنَا ⑯ بَيَّانَهُ ⑰ كَلَّا بَلْ يُحِيطُونَ الْعَاقِبَةَ ⑱ وَتَذَرُونَهُ الْآخِرَةَ ⑲ دُجْرًا يَوْمَئِذٍ نَافِرَةً ⑳ إِنَّ رَبَّهَا نَظِيرَةٌ ㉑ وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ㉒ تَكُنْ أَنْ يَحْكَمَ بِهَا فَأَمْرٌ ㉓

قوله: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ قال أبو عبيدة، وجماعة المفسرين: إن «لا» زائدة، والتقدير: أقسم. قال السمرقندي: أجمع المفسرون أن معنى لا أقسم: أقسم، واختلفوا في تفسير لا، فقال بعضهم: هي زائدة، وزيلاتها جارية في كلام العرب، كما في قوله: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ [الأعراف: 12] يعني: أن تسجد، و: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد: 29] ومن هذا قول الشاعر:

تذكرت ليلي فاعترتني صباية وكاد صميم القلب لا يتقطع
وقال بعضهم: هي ردٌ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم، أقسم بيوم القيامة، وهذا قول الفراء، وكثير من النحويين، كقول القائل: لا والله، فلا ردٌ لكلام قد تقدمها، ومنه قول الشاعر:

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أني أقر
وقيل: هي للنفي، لكن لا لنفي الإقسام، بل لنفي ما ينبيء عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كان معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك. وقيل: إنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر، وقد تقدم الكلام على هذا في تفسير قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: 75] وقرأ الحسن، وابن كثير في رواية عنه، والزهرى، وابن هرمز (لا أقسم) بدون لف على أن اللام لام الابتداء، والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال، وقد اعترض عليه الرازي بما لا يقدح في قوته، ولا يفت في عضد رجحانه، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، والله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ﴿ولا أقسم بالنفس اللؤامة﴾ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللؤامة، كما أقسم بيوم القيامة، فيكون الكلام في «لا» هذه كالكلام في الأولى، وهذا قول الجمهور. وقال الحسن: أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللؤامة. قال الثعلبي: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً، ومعنى ﴿النفس اللؤامة﴾: النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أرتب بكذا ما أرتب بكذا، والفاجر لا يعاتب نفسه. قال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم تعمله؟ وعلى الخير لم تستكثر منه؟ قال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا أرتبت، وإن كانت عملت سوءاً قالت: ليتني لم أعمل. وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها

قال الماوردي: يحتمل وجهين: أحدهما: ابن المفز من الله سبحانه استحياء منه. والثاني: ابن المفز من جهنم حذراً منها. وقرأ الجمهور: «أين المفز» بفتح الميم والفاء مصدراً، كما تقدم. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان أي: أين مكان الفرار. وقال الكسائي: هما لغتان مثل مدب ومدب، ومصح ومصح، وقرأ الزهري بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار، ومنه قول امرئ القيس:

مكراً مفزاً مقبل مبرر معاً كجلود صخر حطه السيل من عل
أي: جيد الفرز والكرك **«كلا لا وزر»** أي: لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله. وقال ابن جبير: لا محيص ولا منعة. والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصن أو جبل أو غيرهما، ومنه قول طرفة:

ولقد تعلم بكراننا فاضلوا الرأي وفي الروع وزر
وقال آخر:

لعمرى ما لغتني من وزر من الموت يدركه والكبر
قال السدي: كانوا إذا فرغوا في الدنيا تحصنوا بالجبال، فقال لهم الله: لا وزر يعصمكم مني يومئذ، وكلاً للردع أو لنفي ما قبلها، أو بمعنى حقاً **«إلى ربك يومئذ المستقر»** أي: المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره، وقيل: إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره، وقيل المستقر: الاستقرار حيث يقَرّه الله **«يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ»** أي: يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشر. وقال قتادة: بما عمل من طاعة وما أخر من طاعة فلم يعمل بها. وقال زيد بن أسلم: بما قَدَّمَ من أمواله وما خلف للورثة. وقال مجاهد: بأول عمله وآخره. وقال الضحاك: بما قَدَّمَ من فرض وأخر من فرض. قال القشيري: هذا الإنشاء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت. قال القرطبي: والأول أظهر **«بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ»** ارتفاع بصيرة على أنها خير الإنسان، على نفسه متعلق ببصيرة. قال الأخفش: جعله هو البصيرة، كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك، وقيل المعنى: إن جوارحه تشهد عليه بما عمل، كما في قوله: **«يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَسِنَّتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»** [النور: 24] وأنشد الفراء:

كان على ذي العقل عينا بصيرة بمقعد أو منظر هو ناظر
فيكون المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة. قال أبو عبيدة، والقتبي: إن هذه الهاء في بصيرة هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كما في قولهم: علامة. وقيل: المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشر، والتاء على هذا للثانيتين. وقال الحسن: أي: بصير بعيوب نفسه **«وَلَوْ لَقِيَ مَعَانِيرَهُ»** أي: ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك. يقال: معذرة ومعانير. قال الفراء: أي وإن اعتذر فعليه من يكذب عنده. وقال الزجاج: المعانير

يرتكبه. قال مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدي، وسعيد بن جبير: يقول سوف أتوب، ولا يتوب حتى يأتية الموت. وهو على أشد أحواله. قال الضحاك: هو الأمل، يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا، ولا ينكر الموت، والفجور أصله الميل عن الحق، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل، ومنه قول الشاعر:

أقسم بالله أبو حفص عمر ما مسها من نقب ولا ببر
اغفر له اللهم إن كان فجر

وجملة **«يسأل أيان يوم القيامة»** مستأنفة لبيان معنى يفجر، والمعنى: يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد واستهزاء **«فإذا برق البصر»** أي: فزغ وتحير من برق الرجل: إذا نظر إلى البرق فدهش بصره. قرأ الجمهور (برق) بكسر الراء. قال أبو عمرو بن العلاء، والزجاج وغيرهما: المعنى تحير فلم يطرف، ومنه قول ذي الرمة:

ولو أن لقمان الحكيم تعرّضت لعينيه مَيَّ بسافراً كاد يبرق
وقال الخليل، والفراء: برق بالكسر: فزع وبهت وتحير، والعرب تقول للإنسان المبهوت: قد برق، فهو بارق، وأنشد الفراء:

ونفسك فائع ولا تنعني وداء الكلوم ولا تبرق
أي: لا تفزع من كثرة الكلوم التي بك. وقرأ نافع، وإبان عن عاصم (برق) بفتح الراء أي: لمع بصره من شدة شخوصه للموت. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت، وقيل: برق يبرق شق عينيه وفتحهما. وقال أبو عبيدة: فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى **«وخسف القمر»** قرأ الجمهور (خسف) بفتح الخاء والسين مبنياً للفاعل. وقرأ ابن أبي إسحاق، وعيسى، والأعرج، وابن أبي عبيدة، وأبو حيوة بضم الخاء وكسر السين مبنياً للمفعول، ومعنى **«خسف القمر»**: ذهب ضوؤه، ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا، ويقال: خسف: إذا ذهب جميع ضوؤه، وكسف: إذا ذهب بعض ضوؤه **«وجمع الشمس والقمر»** أي: ذهب ضوؤهما جميعاً، ولم يقل جمعت لأن التانيث مجازي، قاله المبرد. وقال أبو عبيدة: هو لتغليب المذكر على المؤنث. وقال الكسائي: حمل على معنى جمع النيران. وقال الزجاج، والفراء: ولم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما في ذهاب نورهما، وقيل: جمع بينهما في طلوعهما من الغرب أسودين مكرزين مظلمين. قال عطاء: يجمع بينهما يوم القيامة، ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار. وقرأ ابن مسعود (وجمع بين الشمس والقمر) **«يقول الإنسان يومئذ أين المفز»** أي: يقول عند وقوع هذه الأمور أين المفز أي: الفرار، والمفز مصدر بمعنى الفرار. قال الفراء: يجوز أن يكون موضع الفرار، ومنه قول الشاعر:

أين المفز والكباش تنتطح وكل كبش فر منها يفتضح

وقول مجاهد خطأ؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، إذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرت، كما في قول الشاعر:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب
فإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه، كما قال الشاعر:

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لفعال
وقول الآخر:

إنني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

أي: انظر إليك نظر ذل كما ينظر الفقير إلى الغني، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جداً، ووجه مبتدأ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة؛ لأن المقام مقام تفصيل، وناضرة صفة لوجه، ويومئذ ظرف لناضرة، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله: **«ناضرة»** مسوغاً للابتداء بها، ولكن مقام التفصيل بمجرده مسوغ للابتداء بالنكرة **«ووجوه يومئذ بأسرة»** أي: كالحة عابسة كثيبة. قال في الصحاح: بسر الرجل وجهه بسوراً أي: كبح. قال السدي: بأسرة أي: متغيرة، وقيل: مصفرة والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار **«تظن أن يفعل بها فاقرة»** الفاقرة: الداهية العظيمة، يقال: فقرته الفاقرة أي: كسرت فقار ظهره. قال قتادة: الفاقرة الشر، وقال السدي: الهلاك، وقال ابن زيد: دخول النار. وأصل الفاقرة: الوسم على أنف البعير بحديدة، أو نار حتى تخلص إلى العظم، كذا قال الأصمعي، ومن هذا قولهم: قد عمل به الفاقرة. قال النابغة:

أبالي قبر لا يزال مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاقره

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: **«لا أقسم بيوم القيامة»** قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه، قلت: **«ولا أقسم بالنفس اللوامة»** قال: النفس اللوامة، قلت: **«أحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه»** قال: لو شاء لجعله خفاً أو حافراً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **«اللوامة»** قال: المنومة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً قال: التي تلوم على الخير والشر تقول: لو فعلت كذا وكذا. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: تندم على ما فات وتلوم عليه. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **«بل يريد الإنسان ليفجر أمامه»** قال: يمضي قدماً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: هو الكافر الذي يكذب بالحساب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: يعني الأمل، يقول: أعمل ثم أتوب. وأخرج ابن أبي الدنيا في نَمَ الأمل، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في الآية قال: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه،

الستور، والواحد معذار أي: وإن أرحى الستور يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه، كذا قال الضحاك، والسدي. والستر بلغة اليمن يقال له: معذار، كذا قال المبرد، ومنه قول الشاعر:

ولكنها ضنت بمنزل ساعة علينا واطت يومها بالمعائر

والأول أولى، وبه قال مجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبیر، وابن زيد، وأبو العالية، ومقاتل، ومثله قوله: **«يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم»** [غافر: 52] وقوله: **«ولا يؤذن لهم فيعتزون»** [المرسلات: 36] وقول الشاعر:

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عائر

«لا تحرك به لسانك لتعجل به» كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصاً على أن يحفظه ﷺ، فنزلت هذه الآية أي: لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك، ومثل هذا قوله: **«ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك وأبيه»** [طه: 114] الآية **«إن علينا جمعه»** في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء **«وقرآنه»** أي: إثبات قراءته في لسانك. قال الفراء: القراءة والقرآن مصدران. وقال قتادة: **«فاتبع قرآنه»** أي: شراعه وأحكامه **«فإذا قرآنه»** أي: أتممتا قراءته عليك بلسان جبريل **«فاتبع قرآنه»** أي: قراءته **«ثم إن علينا بيانه»** أي: تفسير ما فيه من الحلال والحرام، وبيان ما أشكل منه. قال الزجاج: المعنى علينا أن ننزله عليك قرآناً عربياً فيه بيان للناس. وقيل المعنى: إن علينا أن نبينه بلسانك **«كلا بل تحبون العجلة»** كلا للردع عن العجلة، والترغيب في الأناة، وقيل: هي ردع لمن لا يؤمن بالقرآن ويكون بيناً من الكفار. قال عطاء: أي: لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه. قرأ أهل المدينة، والكوفيون (بل تحبون) (وتدرون) بالفوقية في الفعلين جميعاً. وقرأ الباقرن بالتحته فيهما، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريراً وتوبيخاً، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام عائداً إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس، والمعنى: تحبون الدنيا، وتتركون **«الآخرة»** فلا تعملون لها **«وجوه يومئذ ناضرة»** أي: ناعمة غضة حسنة، يقال: شجر ناضر، وروض ناضر أي: حسن ناعم، وناضرة العيش حسنه وبهجته. قال الواحدي، والمفسرون: يقولون مضيئة مسفرة مشرقة **«إلى ربها ناظرة»** هذا من النظر أي: إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة أي: تنظر إليه، هكذا قال جمهور أهل العلم، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام. وقال مجاهد: إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب، وروي نحوه عن عكرمة، وقيل: لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده. قال الأزهري:

نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس بونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه. وقد قدمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها، وهي تأتي في مصنف مستقل، ولم يتمسك من نفاها واستبعدا بشيء يصلح للتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله. وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانته وأزواجه ونعيمه وخمسه، وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غفوة، وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَجْهٌ يُومِئُ نَاضِرَةٌ﴾ إلى ربها ناضرة». وأخرجه أحمد في المسند من حديثه بلفظ: «إن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين». وأخرج النسائي، والدارقطني وصححه، وأبو نعيم عن أبي هريرة قال: «قلنا: يا رسول الله هل نرى ربنا؟ قال: هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها؟ قلنا: نعم، قال: فإنكم سترون ربكم عز وجل، حتى إن أحلكم ليحاضر ربه محاضرة، فيقول: عبيدي هل تعرفن ذنبا كذا وكذا؟ فيقول: ألم تغفري لي؟ فيقول: بمغفرتي صرت إلى هذا».

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْآثَانَ ﴿١٨٨﴾ فَلَيْلٌ مِّنْ لَّيَالِي ۖ وَكَأَنَّهَا الْآثَانُ ﴿١٨٩﴾ وَالنَّجْمُ الثَّاقِبُ يُدَانُ ﴿١٩٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لِّلنَّاسِ ﴿١٩١﴾ كَلَّا سَدَّ لَا مَلَّ ﴿١٩٢﴾ وَلَكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٩٣﴾ ثُمَّ دَبَّ إِلَيْهِ فَأَشْرَقَتْ ﴿١٩٤﴾ أَفَلَا لَكَ قَوْلٌ ﴿١٩٥﴾ ثُمَّ أَفَلَا لَكَ قَوْلٌ ﴿١٩٦﴾ أَلَيْسَ الْإِنسَانُ بِرَبِّكَ سَدَّ ﴿١٩٧﴾ أَتَرَى لَكَ ثَلَاثَةً مِّنْ يَّحْيِي ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ كَانَ عَقَبُهُ مَقْلَقٌ مَّوْئِي ﴿١٩٩﴾ جَعَلَ بَيْنَهُ الْوَيْطِينَ الْأَكْثَرَ وَالْأَقْثَرَ ﴿٢٠٠﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَنَّا أَن يَّحْيِيَ الْكُوفَّةَ ﴿٢٠١﴾

قوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر أي: بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف، فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي﴾ أي: بلغت النفس أو الروح التراقي، وهي جمع ترقوة، وهي عظم بين شفرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت، ومثله قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: 83] وقيل معنى ﴿كَلَّا﴾: حقاً أي: حقاً أن المساق إلى الله إذا بلغت التراقي، والمقصود تنكيرهم شدة الحال عند نزول الموت. قال دريد بن الصمة:

وَرَبِّ كَرِيهَةٌ دَافَعَتْ عَنْهَا وَقَدْ بَلَغَتْ نَفُوسُهُمُ التَّرَاقِي
﴿وَقِيلَ مِنْ رَاقٍ﴾ أي: قال من حضر صاحبها: من يرقيه ويشتفي بريقته؟ قال قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً، وبه قال أبو قلابة، ومنه قول الشاعر:

هَلْ لَلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِي أَمْ هَلْ لَهَا مِنْ حَمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِي
وقال أبو الجوزاء: هو من رقى يرقى إذا صعد، والمعنى:

والبيهقي في الشعب عنه أيضاً ﴿يُحْيِي الْإِنْسَانَ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يقول: سوف اترب ﴿يَسْأَلُ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: يقول متى يوم القيامة؟ قال: فبين له ﴿إِذَا بَرَقَ لِلْبَصَرِ﴾. وأخرج ابن جرير عنه قال: ﴿إِذَا بَرَقَ لِلْبَصَرِ﴾ يعني: الموت. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَا وَزَرَ﴾ قال: لا حصن. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا وَزَرَ﴾ قال: لا حصن ولا ملجأ، وفي لفظ: لا حرز، وفي لفظ: لا جبل. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ قال: بما قدم من عمل، وآخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شر. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بما قدم من المعصية وآخر من الطاعة فينبئ بذلك. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه في قوله: ﴿يُحْيِي الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ﴾ قال: شهد على نفسه وحده ﴿وَلَوْ لَقِيَ مَعَانِيرَهُ﴾ قال: ولو اعترت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿يُحْيِي الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ﴾ قال: سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه ﴿وَلَوْ لَقِيَ مَعَانِيرَهُ﴾ قال: ولو تجرد من ثيابه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفثيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل الله ﴿لَا تَحْرَكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ قال: يقول إن علينا أن نجمله في صدرك ثم نقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ يقول: إذا أنزلناه عليك ﴿فَتَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فاستمع له واتتبعه ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أن نبينه بلسانك، وفي لفظ: علينا أن نقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق. وفي لفظ: استمع، فإذا ذهب قراه كما وعده الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ قال: بيناه ﴿فَتَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ يقول: اعمل به. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ قال: عجلت لهم الدنيا شرها وخيرها، وغيبت الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَجْهٌ يُومِئُ نَاضِرَةٌ﴾ قال: ناعمة. وأخرج ابن المنذر، والأجري في الشريعة، واللالكائي في السنة، والبيهقي في الرؤية عنه ﴿وَجْهٌ يُومِئُ نَاضِرَةٌ﴾ قال: يعني: حسنها ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ﴾ قال: نظرت إلى الخالق. وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى وجه ربها. وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَجْهٌ يُومِئُ نَاضِرَةٌ﴾ إلى ربها ناضرة. قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية، ولا حد محسود، ولا صفة معلومة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: «قال الناس: يا رسول الله هل

وقد دانيت، وأصله من الولي، وهو القرب، وأنشد الفراء:
 فأولى أن يكون لك الولاء
 أي: قارب أن يكون لك، وأنشد أيضاً:
 أولى لمن هاجت له أن يكمد

﴿أحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ أي: هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يحاسب ولا يعاقب، وقال السدي: معناه المهمل، ومنه إبل سدى أي: ترعى بلا راع، وقيل المعنى: أحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث، وجملة ﴿الم يك نطفة من مني يمنى﴾ مستأنفة: أي: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني يراق في الرحم، وسمي المنى منياً لإراقته، والنطفة: الماء القليل، يقال نطف الماء إذا قطر. قرأ الجمهور (الم يك) بالتحية على إرجاع الضمير إلى الإنسان. وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخاً له. وقرأ الجمهور أيضاً (تمنى) بالفوقية على أن الضمير للنطفة. وقرأ حفص، وابن محيصن، ومجاهد، ويعقوب بالتحية على أن الضمير للمنى، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو، واختارها أبو حاتم ﴿ثم كان علقه﴾ أي: كان بعد النطفة علقه أي: نماً ﴿فخلق﴾ أي: فقدر بأن جعلها مضغة مخلقة ﴿فسوى﴾ أي: فعنقه وكمل نشأته، ونفخ فيه الروح ﴿فجعل منه﴾ أي: حصل من الإنسان، وقيل: من المنى ﴿الزوجين﴾ أي: الصنفين من نوع الإنسان. ثم بين ذلك فقال: ﴿الذكر والأنثى﴾ أي: الرجل والمرأة ﴿ليس لك﴾ أي: ليس لك الذي أنشأ هذا الخلق للبيع وقدر عليه ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ أي: يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا، فإن إعادة أهون من الابتداء، وأيسر مؤنة منه. قرأ الجمهور (بقادر) وقرأ زيد بن علي (يقدر) فعلاً مضارعاً، وقرأ الجمهور (يحيي) بنصبه بأن، وقرأ طلحة بن سليمان، والفياض بن غزوان بسكونها تخفيفاً، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف، كما مر في مواضع.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وقيل من راق﴾ قال: تنتزع نفسه حتى إذا كانت في تراقيه، قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. ﴿ولتفت الساق بالساق﴾ قال: لتفت عليه الدنيا والآخرة، وملائكة العذاب أيهم يرقى به. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿وقيل من راق﴾ قل: من راق يرقى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ولتفت الساق بالساق﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿يتمطى﴾ قال: يختال. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿أولى لك فأولى﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر،

من يرقى بروحه إلى السماء ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إنه يقول ذلك ملك الموت، وذلك أن نفس الكافر تركه الملائكة قريباً ﴿وظن أنه لفراق﴾ أي: وأيقن الذي بلغت روحه التراقي أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد ﴿ولتفت الساق بالساق﴾ أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به. وقال جمهور المفسرين: المعنى تتابعت عليه الشدائد. وقال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت، وقيل: ماتت رجلاه وببست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جواراً عليهما. وقال الضحاک: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه. وبه قال ابن زيد. والعرب لا تذكر الساق إلا في الشدائد الكبار والمحن العظام، ومنه قولهم: قامت الحرب على ساق. وقيل: الساق الأول تعذيب روحه عند خروج نفسه، والساق الآخر شدة البعث وما بعده ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ أي: إلى خالقك يوم القيامة المرجع، وذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ أي: لم يصدق بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، والضمير يرجع إلى الإنسان المنكور في أول هذه السورة. قال قتادة: فلا صدق بكتاب الله ولا صلى لله، وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببيته. قال الكسائي: لا بمعنى لم، وكذا قال الأخفش: والعرب تقول: لا ذهب أي: لم يذهب، وهذا مستفيض في كلام العرب، ومنه: إن تغفر اللهم تغفر رجماً وأني عسبد لك لا السما ﴿ولكن كذب وتولى﴾ أي: كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى عن الطاعة والإيمان ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ أي: يتبختر ويختال في مشيته افتخاراً بذلك. وقيل: هو مأخوذ من المطي، وهو الظهر، والمعنى: يلوي مطاه. وقيل: أصله يتمطط، وهو التمدد والثقال: أي: يتثقل ويتكاسل عن الداعي إلى الحق ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى، أي: وليك الوليل، وأصله: أولاك الله ما تكرهه، واللام مزيدة، كما في ﴿ورب لكم﴾ [النمل: 72] وهذا تهديد شديد، والتكرير للتأكيد أي: يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة. قال الواحدي: قال المفسرون: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل، ثم قال: ﴿أولى لك فأولى﴾ فقال أبو جهل: بأي شيء تهدنني، لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، وإني لأعز أهل هذا الوادي، فنزلت هذه الآية. وقيل معناه: الوليل لك، ومنه قول الخنساء:

هممت بنفسي بعض الهموم فأولى لنفسي أولى لها
 وعلى القول بأنه الوليل، قيل: هو من المقلوب كأنه قيل: أوليل لك، ثم آخر الحرف المعتل. قيل: ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات، والويل لك حياً، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تسخل النار. وقيل المعنى: إن لئم لك أولى لك من تركه. وقيل المعنى: أنت أولى وأجدر بهذا العذاب، قاله ثعلب. وقال الأصمعي: أولى في كلام العرب معناه مقاربة الهلاك. قال المبرّد: كأنه يقول: قد وليت الهلاك

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ حتى إذا أتى على نكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه، فقال النبي ﷺ: مات شوقاً إلى الجنة». وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعاً مرسلاً. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن منيع، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والضياء عن أبي نر قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿هل أتى على الإنسان﴾ حتى ختمها، ثم قال: إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطلت السماء وحق لها أن تظلم ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما لتذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله عز وجل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتِغِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَآفَافًا وَسَوِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّا الْأَبْرَارَ يَمْشُونَ فِي كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ هِيَ يَمْشِي بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَتِّرُونَهَا تَفْثِيرًا ﴿٦﴾ يُؤْتُونَ بِالنَّارِ زَعْمًا يَوْمَآ كَانَتْ شَرًّا مُّسْتَلِيرًا ﴿٧﴾ وَيُظَلِّمُونَ الْأَعْمَامَ عَلَىٰ عُيُودٍ وَمَنْجَنِقَاتٍ وَأَيُّهَا ﴿٨﴾ إِنَّمَا ظَلَمُوا رَبَّهُمْ بِلَا يُدْرِي سَكْرَتِهِمْ وَلَا ذِكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَحْنُ الْغَنِيُّونَا عَمَّا قَسَمُوا قَسَمًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرًّا ذَلِكَ الْبُيُوتِ وَأَقْنَمَهُمُ نَصْرًا وَرُكُودًا ﴿١١﴾ وَبَرَزَهُمْ بَمَا صَبَرُوا جَهَنَّمَ وَخُيُودًا ﴿١٢﴾

حكى الواحدي عن المفسرين، وأهل المعاني أن ﴿هل﴾ هنا بمعنى قد، وليس باستفهام، وقد قال بهذا سيبويه، والكسائي، والفراء، وأبو عبيدة، قال الفراء: هل تكون جحداً، وتكون خبراً، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك تقررته بأنك أعطيت، والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا، وقيل: هي وإن كانت بمعنى قد، ففيها معنى الاستفهام، والأصل: أهل أتى، فالمعنى: أقد أتى، والاستفهام للتقرير والتقريب، والمراد بالإنسان هنا آدم، قاله قتادة، والثوري، وعكرمة، والسدي وغيرهم ﴿حين من الدهر﴾ قيل: أربعون سنة قيل أن ينفخ فيه الروح، وقيل: إنه خلق من طين أربعين سنة، ثم من حما مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة. وقيل: الحين المنكور هنا لا يعرف مقداره، وقيل المراد بالإنسان بنو آدم، والحين مدة الحمل، وجملة ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ في محل نصب على الحال من الإنسان، أو في محل رفع صفة لحين. قال الفراء، وقطرب، وشعلب: المعنى أنه كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً لا ينكر، ولا يعرف ولا يدري ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً. وقال يحيى بن سلام: لم يكن شيئاً مذكوراً في الخلق، وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً، وقيل: ليس المراد بالذكر هنا الإخبار، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم، بل هو الذكر بمعنى

وإبن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أن يترك سدى﴾ قال: هملأ. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري عن صالح أبي الخليل قال: «كان النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية ﴿ليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ قال: سبحانك اللهم، وبلى». وأخرج ابن مريويه عن البراء بن عازب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ قال رسول الله ﷺ: «سبحانك ربي، وبلى». وأخرج ابن النجار في تاريخه عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عند قراءته لهذه الآية: «بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين». وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿والتين والزيتون﴾، فأنتهى إلى آخرها: ﴿ليس الله باحكم الحاكمين﴾ [التين: 1 - 8] فليقل: بلى وأنا عل ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾، فأنتهى إلى قوله: ﴿ليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فبلغ: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [المرسلات: 50] فليقل: آمنا بالله». وفي: إسناده رجل مجهول. وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأت ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فبلغت: ﴿ليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ فقل: بلى».

تفسير سورة الإنسان

قال الجمهور: هي منبئة. وقال مقاتل، والكلبي: هي مكية. وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله، وقيل: فيها مكي من قوله: ﴿إننا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾ [الإنسان: 23 - 31] إلى آخر السورة، وما قبله منبئ. وأخرج الطبراني، وابن مريويه، وابن عساکر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «سل، واستفهم، فقال: يا رسول الله، فضلت علينا بالألوان والصور والنبوة، أفرأيت إن أمنت بما أمنت به، وعملت بما عملت به: أني كائن معك في الجنة، قال: نعم، والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام، ثم قال: لا إله إلا الله كان له عهد عند الله. ومن قال: سبحان الله ويحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ونزلت هذه السورة ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ [الإنسان: 1 - 20] إلى قوله: ﴿ملكاً كبيراً﴾ فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة، قال: نعم، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رايت رسول الله ﷺ يلبيه في حفرته بيده». وأخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدثني الثقة: «أن رجلاً أسود كان يسأل رسول الله ﷺ عن التسبيح والتهلل، فقال له عمر بن الخطاب: أكثر على رسول الله، فقال: مه يا عمر. وأنزلت على النبي

﴿إِذَا﴾ هي إن شرطية زيدت بعدها ما أي: بينا له الطريق إن شكر وإن كفر. واختار هذا الفراء، ولا يجيزه البصريون؛ لأن إن الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضم بعدها فعل، ولا يصح هنا إضمار الفعل؛ لأنه كان يلزم رفع شاكراً وكفوراً. ويمكن أن يضم فعل ينصب شاكراً وكفوراً، وتقديره: إن خلقناه شاكراً فشكور، وإن خلقناه كافراً فكفور، وهذا على قراءة الجمهور (إما شاكراً وإما كفوراً) بكسر همزة إما. وقرأ أبو السماك، وأبو العجاج بفتحها، وهي على الفتح إما العاطفة في لغة بعض العرب، أو هي التفصيلية، وجوابها مقدر، وقيل: انتصب شاكراً وكفوراً بإضمار كان، والتقدير: سواء كان شاكراً أو كان كفوراً. ثم بين سبحانه ما أعد للكافرين فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾. قرأ نافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وهشام عن ابن عامر (سلاسلًا) بالتثنية، ووقف قنبل عن ابن كثير، وحمزة بغير ألف، والباقون وقفوا بالالف. ووجه من قرأ بالتثنية في سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب؛ لأن ما قبله وهو ﴿إِذَا شَكَرَّا﴾ وإما كفوراً، وما بعده وهو ﴿أَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ منون، أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف، كما حكاه الكسائي، وغيره من الكوفيين عن بعض العرب. قال الأخفش: سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف؛ لأن الأصل في الأسماء الصرف، وترك الصرف لعراض فيها. قال الفراء: هو على لغة من يجر الأسماء كلها إلا قولهم: هو أظرف منك، فإنهم لا يجرونه، وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم:

كان سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدي لاعبيننا
ومن ذلك قول الشاعر:

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار
بكسر السين من نواكس، وقول لبيد:
وحسور أستاذ دعوني لحفتها بمعالق متشابهة إعلاقها
وقوله أيضاً:

فضلاً ونوكرم يعين على الندى سمح لشوب رغائب غنامها

وقيل: إن التثنية لموافقة رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فإنها فيها بالالف، وقيل: إن هذا التثنية بدل من حرف الإطلاق، ويجري الوصل مجرى الوقف، والسلاسل قد تقدم تفسيرها، والخلاف فيها هل هي القيود، أو ما يجعل في الأعناق، كما في قول الشاعر:

..... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل والأغلال

جمع غل تغل به الأيدي إلى الأعناق، والسعير: الوقود الشديد، وقد تقدم تفسير السعير، ثم نكر سبحانه ما أعدّه للشاكرين، فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾. الأبرار: أهل الطاعة والإخلاص والصدق، جمع بر أو بار. قال في الصحاح: جمع البر الأبرار، وجمع البار البررة، وفلان يبر خالقه ويبرره أي: يطيعه. وقال الحسن: البر الذي لا يؤذي الذر. وقال قتادة: الأبرار الذين يؤتون حق الله ويوفون بالنذر.

الخطر والشرف، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنُكَرِّ لَكَ وَلَقَوْمَكَ﴾ [الزخرف: 44]. قال القشيري: ما كان منكراً للخلق وإن كان منكراً لله سبحانه. قال الفراء: كان شيئاً ولم يكن منكوراً. فجعل النفي متوجهاً إلى القيد. وقيل المعنى: قد مضت أزيمة وما كان آدم شيئاً، ولا مخلوقاً ولا منكوراً لأحد من الخليفة. وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن شيئاً منكوراً؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيوان ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ المراد بالإنسان هنا ابن آدم. قال القرطبي: من غير خلاف، والنفطة: الماء الذي يقطر، وهو المنى، وكل ماء قليل في وعاء فهو نفطة، وجمعها نطف، و ﴿أَمْشِاجٍ﴾ صفة لنطفة، وهي جمع مشج أو مشيج، وهي الأخطا، والمراد: نفطة الرجل ونفطة المرأة واختلاطهما. يقال: مشج هذا بهذا، فهو ممشوج أي: خلط هذا بهذا فهو مخلوط. قال المبرد: مشج يمشج إذا اختلط، وهو هنا اختلاط النفطة بالدم. قال روبة بن العجاج:

يطرحن كل معجل مشاج لم يكس جلدأ من دم أمشاج

قال الفراء: أمشاج اختلاط ماء الرجل وماء المرأة، والدم والعلة، ويقال مشج هذا: إذا خلط، وقيل الأمشاج: الحمرة في البياض والبياض في الحمرة. قال القرطبي: وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة. قال الهذلي:

كان الريش والفوقين منه حلاف النصل نيط به مشيج

وذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فيخلق منهما الولد. قال ابن السكيت: الأمشاج: الأخطا لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة. وقيل: الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار، ويؤيد هذا وقوعه نعتاً لنطفة، وجملة ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل خلقنا أي: مريدين ابتلاء، ويجوز أن يكون حالاً من الإنسان، والمعنى: نبتليه بالخير والشر وبالتكليف.

قال الفراء: معناه والله أعلم ﴿جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ نبتليه، وهي: مقدمة معناها التأخير؛ لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، وعلى هذا تكون هذه الحال مقفلة، وقيل: مقارنة. وقيل: معنى الابتلاء: نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة، والأول أولى، ثم نكر سبحانه أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: بينا له، وعرفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، كما في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]

قال مجاهد: أي بينا السبيل إلى الشقاء والسعادة. وقال الضحاك، والسدي، وأبو صالح: السبيل هنا خروجه من الرحم، وقيل: منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله، وانتصاب شاكراً وكفوراً على الحال من مفعول هديناه أي: مكانه من سلوك الطريق في حالتيه جميعاً، وقيل: على الحال من سبيل على المجاز أي: عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً. وحكى مكي عن الكوفيين أن قوله:

ويفجر إلى هنا وهنا. قال مجاهد: يقولونها حيث شاءوا، وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم، والجملة صفة أخرى لعبنا، وجملة «يوفون بالنذر» مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما نكر، وكذا ما عطف عليها، ومعنى النذر في اللغة الإيجاب، والمعنى: يوفون بما أوجب الله عليهم من الطاعات. قال قتادة، ومجاهد: يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما. وقال عكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله سبحانه، والنذر في الشرع ما أوجب المكلف على نفسه، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم. قال الفراء: في الكلام إضمار أي: كانوا يوفون بالنذر في الدنيا. وقال الكلبي: يوفون بالعهد أي: يتممون العهد. والأولى حمل النذر هنا على ما أوجب العبد على نفسه من غير تخصيص «ويخافون يوماً كان شره مستطيراً» المراد يوم القيامة، ومعنى استطارة شره فشوه وانتشاره، يقال: استطار يستطير استطارة، فهو مستطير، وهو استفعل من الطيران، ومنه قول الأعشى:

فباتت وقد أثار في الفؤاد دسداً على نايها مستطيراً
والعرب تقول: استطار الصدع في القارورة والزجاجة: إذا امتد، ويقال استطار الحريق: إذا انتشر. قال الفراء: المستطير المستطيل. قال قتادة: استطار شرّك اليوم حتى ملأ السموات، والأرض. قال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات، فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً» أي: يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لنبيهم وقتله عندهم. قال مجاهد: على قتله، وجبهه إياه وشهوتهم له؛ فقوله: على حبه في محل نصب على الحال أي: كائنين على حبه، ومثله قوله: «لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون» [آل عمران: 92] وقيل: على حبّ الإطعام لرغبتهم في الخير. قال الفضيل بن عياض: على حبّ إطعام الطعام. وقيل: الضمير في حبه يرجع إلى الله أي: يطعمون الطعام على حبّ الله أي: يطعمون إطعاماً كائناً على حبّ الله، ويؤيد هذا قوله: «إنما نطعمكم لوجه الله» والمسكين نون المسكنة، وهو الفقير، أو من هو أفقر من الفقير، والمراد باليتيم يتامى المسلمين، والأسير الذي يؤسر فيجس. قال قتادة، ومجاهد: الأسير المحبوس. وقال عكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثمالي: الأسير المرأة. قال سعيد بن جبير: نسخ هذا الإطعام آية الصدقات، وآية السيف في حق الأسير الكافر. وقال غيره: بل هي محكمة، وإطعام المسكين واليتيم على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام، وجملة «إنما نطعمكم لوجه الله» في محل نصب على الحال بتقدير القول أي: يقولون إنما نطعمكم، أو قائلين إنما نطعمكم يعني: أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريون ثناء الناس عليهم بذلك. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يستكملوا بهذا، ولكن علمه الله من قلوبهم فأنشئ عليهم، وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك

والكأس في اللغة هو الإناء الذي فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأساً، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة، بل يكون من الزجاج ومن الذهب والفضة والصيني وغير ذلك، وقد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة، وقد يطلق الكاس على نفس الخمر، كما في قول الشاعر:

وكأس شربت على لذة وأخرى تدلّوت منها بها
«كان مزاجها كافوراً» أي: يخالطها، وتمزج به، يقال: مزجه يمزجه مزجاً أي: خلطه يخلطه خلطاً، ومنه قول الشاعر:

كان سببية من بيت رأس كان مزاجها عسل وماء
وقول عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

معنفة كان الخصّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
ومنه مزاج البدن، وهو ما يمازجه من الأخلاط، والكافور قيل: هو اسم عين في الجنة يقال لها: الكافوري تمزج خمر الجنة بماء هذه العين. وقال قتادة، ومجاهد: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك. وقال عكرمة: مزاجها طعمها، وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها. وقيل: إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده، لأن الكافور لا يشرب، كما في قوله: «حتى إذا جعله ناراً» [الكهف: 96] أي: كنار. وقال ابن كيسان: طيبها المسك والكافور والزنجبيل. وقال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا، وإنما سمي الله ما عنده بما عنكم حتى تهدي له القلوب، والجملة في محل جرّ صفة لكأس. وقيل: إن كان هنا زائدة أي: من كأس مزاجها كافوراً «عيناً يشرب بها عباد الله» انتصاب عيناً على أنها بدل من كافوراً؛ لأن ماها في بياض الكافور. وقال مكي: إنها بدل من محل «من كأس» على حذف مضاف، كأنه قيل: يشربون خمرًا خمر عين، وقيل: إنها منتصبه على أنها مفعول يشربون أي: عيناً من كأس، وقيل: هي منتصبه على الاختصاص، قاله الأخفش، وقيل: منتصبه بإضمار فعل يفسره ما بعده: أي: يشربون عيناً يشرب بها عباد الله، والأول أولى، وتكون جملة «يشرب بها عباد الله» صفة لعينا. وقيل: إن الباء في «يشرب بها» زائدة، وقيل: بمعنى من قاله الزجاج، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة يشربها عباد الله. وقيل: إن يشرب مضمن معنى يلتذ، وقيل: هي متعلقة بيشرب، والضمير يعود إلى الكأس. وقال الفراء: يشربها ويشرب بها سواء في المعنى، وكان يشرب بها يروى بها، وينتفع بها وأنشد قول الهذلي:

شربن بماء البحر ثم ترفعت

قال: ومثله تكلم بكلام حسن، وتكلم كلاماً حسناً «يفجرونها تفجيراً» أي: يجرونها إلى حيث يريدون، وينتفعون بها كما يشاءون، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه، فهم يشقونها شقاً، كما يشقّ النهر

خوفاً من الله ورجاء ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي: لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام، ولا نريد منكم الشكر لنا، بل هو خالص لوجه الله، وهذه الجملة مقرونة لما قبلها؛ لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة، ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي: نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين، ومعنى «عبوساً»: أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشنته، فالمعنى: أنه ذو عبوس. قال الفراء: وأبو عبيدة، والمبرد: يوم قمطير وقمطر: إذا كان صعباً شديداً، وأنشد الفراء:

بني عمنا هل تذكرين بلأنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر
قال الاخفش: القمطير أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء، ومنه قول الشاعر:

فغزوا إذا ما الحرب ثار غبارها ولج بها اليوم العبوس القماطر
قال الكسائي: اقمطر اليوم وازمهز: إذا كان صعباً شديداً، ومنه قول الشاعر:

بنو الحرب أوصينا لهم بقمطرة ومن يلحق منا ذلك اليوم يهرب
وقال مجاهد: إن العبوس بالشتفتين، والقمطير بالجبهة والحاجبين، فجعلهما من صفات المتغير في ذلك اليوم لما يراه من الشدائد، وأنشد ابن الأعرابي:

يقرر على الصيد يعود منكسر ويقمطر ساعة ويكفهر
قال أبو عبيدة: يقال: قمطير أي: منقبض ما بين العينين والحاجبين. قال الزجاج: يقال اقمطرت الناقة: إذا رفعت ذنبها وجمعت قنطريها ورمت بانفها ما يسبقها من القطر، وجعل الميم مزيدة ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: نفع عنهم شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه ﴿وَلَقَاهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ أي: أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجود وسروراً في القلوب. قال الضحاك: والنضرة البياض والنقاء في وجوههم. وقال سعيد بن جبير: والحسن والبهاء، وقيل: النضرة أثر النعمة ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب صبرهم على التكليف، وقيل: على الفقر، وقيل: على الجوع، وقيل: على الصوم. والأولى حمل الآية على الصبر على كل شيء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه، وما مصدرية، والتقدير: بصبرهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: أسخلمهم الجنة والبسهم الحرير، وهو لباس أهل الجنة عوضاً عن تركه في الدنيا امتثالاً لما ورد في الشرع من تحريره، وظاهر هذه الآيات العموم في كل من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه، والسبب وإن كان خاصاً، كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولاً أولياً.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿هَلْ تَنَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ قال: كل إنسان. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله: ﴿أَمْشِجًا﴾ قال: أمشاجها عروقتها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عروقها. قال: العروق. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿مَنْ نَفْطَةَ أَمْشِجًا﴾ قال: ماء الرجل وماء المرأة حين يختلطان. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: ﴿أَمْشِجًا﴾ ألوان: نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء وحمراء. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الأمشاج الذي يخرج على أثر البول كقطع الأوتار، ومنه يكون الولد. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿كَأَن شَرَّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ قال: فاشياً. وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ قال: هو المشرك. وأخرج ابن مريويه، وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿مُسْكِينًا﴾ قال: فقيراً ﴿وَيَتِيمًا﴾ قال لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ قال: المملوك والمسجون. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ﴾ الآية قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا ضَيِّقًا﴾ قَمْطَرِيرًا قال: طويلاً. وأخرج ابن مريويه عن انس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ قال: يقبض ما بين الأبصار. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عن ابن عباس قال: القمطير الرجل المنقبض ما بين عينيه ووجهه. وأخرج ابن المنذر عنه ﴿وَلَقَاهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ قال: نضرة في وجوههم، وسروراً في صدورهم.

قوله: ﴿مَتَكْنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْثِ﴾ منصوب على الحال من مفعول جزاهم، والعامل فيها جزى، ولا يعمل فيها صبروا؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة. قال الفراء: وإن شئت جعلت متكنين تابعاً، كأنه قال: جزاهم جنة متكنين فيها. وقال الاخفش: يجوز أن يكون منصوباً على المدح، والضمير من فيها يعود إلى الجنة، والأرائك: السرر في الحجال، وقد تقدم تفسيرها في سورة الكهف ﴿لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الجملة في محل نصب على الحال من مفعول جزاهم، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير في متكنين، فتكون من الحال المتداخلة، أو صفة أخرى للجنة، والزَمْهَرِيرُ أشد البرد والمعنى: أنهم لا يرون في الجنة حر الشمس ولا برد الزَمْهَرِيرِ، ومنه قول الأعشى:

منعمة طفلة كالمها لم تر شمساً ولا زَمْهَرِيرًا

قوله: ﴿هَلْ تَنَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أي: هل تنهى الإنسان عن فعله السيئ؟ وقوله: ﴿أَمْشِجًا﴾ أي: أمشجها عروقها.

قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: أسيرها.

قوله: ﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: يتيماً.

قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: أسيرها.

قوله: ﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: يتيماً.

قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: أسيرها.

قوله: ﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: يتيماً.

قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: أسيرها.

قوله: ﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: يتيماً.

قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: أسيرها.

قوله: ﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: يتيماً.

قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: أسيرها.

وقال ثعلب: الزمهرير القمر بلغة طي، وأنشد لشاعرهم:
وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر
ويروى ما ظهر أي: لم يطلع القمر، وقد تقدم تفسير هذا
في سورة مريم ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ قرأ الجمهور
(دانية) بالنصب عطفًا على محل لا يرون، أو على متكئين،
أو صفة لمحذوف أي: وجنة دانية، كأنه قال: وجزاهم جنة
دانية. وقال الزجاج: هو صفة لجنة المتقدم نكرها. وقال
الفراء: هو منصوب على المدح. وقرأ أبو حيوة (ودانية)
بالرفع على أنه خبر مقدم، وظلالها مبتدأ مؤخر، والجملة في
موضع النصب على الحال، والمعنى: أن ظلال الأشجار
قريبة منهم مظلة عليهم زيادة في نعيمهم، وإن كان لا
شمس هنالك. قال مقاتل: يعني: شجرها قريب منهم. وقرأ
ابن مسعود (ودانيًا عليهم) ﴿وونلت قطوفها تنليلاً﴾
معطوف على دانية كأنه قال: ومنلة. ويجوز أن تكون الجملة
في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم، ويجوز
أن تكون مستأنفة، والقطوف الثمار، والمعنى: أنها سخرت
ثمارها لمتناولها تسخيرًا كثيرًا بحيث يتناولها القائم والقاعد
والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك. قال النحاس:
المنزل القريب المتناول، ومنه قولهم حائط نليل أي: قصير.
قال ابن قتيبة: نلت أنيت، من قولهم حائط نليل أي: كان
قصير السلك، وقيل: نلت أي: جعلت منقادة لا تمتنع على
قطافها كيف شاءوا ﴿ويطاف عليهم بأنية من فضة
واكواب﴾ أي: تدور عليهم الخدم إذا أراوا الشراب بأنية
الفضة، والأكواب جمع ركوب، وهو: الكوز العظيم الذي لا
أن له ولا عروة، ومنه قول عدي:

منكئ تفرع أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقد مضى تفسيره في سورة الزخرف ﴿كانت قواريراً
* قواريراً من فضة﴾ أي: في وصف القوارير في الصفاء
وفي بياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج، ولونها لون
الفضة. قرأ نافع، والكسائي، وأبو بكر (قواريراً * قواريراً)
بالتنوين فيهما مع الوصل، وبالوقف عليهما بالالف، وقد
تقدم وجه هذه القراءة في تفسير قوله: ﴿سلاسل﴾
[الإنسان: 4] من هذه السورة، وبينا هنالك وجه صرف ما
فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه. وقرأ حمزة بعدم
التنوين فيهما، وعدم الوقف بالالف، ووجه هذه القراءة ظاهر
لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع. وقرأ هشام بعدم
التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالالف، وقرأ ابن كثير
بتنوين الأوّل دون الثاني، والوقف على الأوّل بالالف دون
الثاني. وقرأ أبو عمرو، وحفص، وابن نكوان بعدم التنوين
فيهما، والوقف على الأوّل بالالف دون الثاني، والجملة في
محل جرّ صفة لأكواب. قال أبو البقاء: وحسن التكرير لما
اتصل به من بيان أصلها. قال الواحدي: قال المفسرون:
جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة، فاجتمع لها بياض
الفضة وصفاء القوارير. قال الزجاج: القوارير التي في الدنيا
من الرمل، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة

آليت حبّ العراق الدهر أكله والحب ياكله في القرية السوس

أي: آليت علي حبّ العراق ﴿ويسقون فيها كأساً كان
مزجها زنجبيلاً﴾ قد تقدم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر،
وإذا كان خالياً عن الخمر، فلا يقال له كأس، والمعنى: أن
أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر، ممزوجة
بالزنجبيل وقد كانت العرب تستلذّ مزج الشراب بالزنجبيل
لطيب رائحته. وقال مجاهد، وقناة: الزنجبيل اسم للعين
التي يشرب بها المقرّبون. وقال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه
زنجبيل الدنيا ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ انتصاب عيناً
على أنها بدل من كأساً. ويجوز أن تكون منصوبة بفعل
مقتدر أي: يسقون عيناً، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع
الخافض أي: من عين، والسلسبيل: الشراب اللذيذ، مأخوذ
من السلاسة، تقول العرب: هذا شراب سلس، وسلسال،
وسلسبيل أي: طيب لذّيع. قال الزجاج: السلسبيل في اللغة
اسم لماء في غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ في
حلوهم، ومنه قول حسان بن ثابت:

يسقون من ورد البيريص عليهم كأساً يصفق بالرحيق السلسل

﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ لما فرغ سبحانه من
وصف شرابهم ووصف أنيتهم، ووصف السقاة الذين
يسقونهم تلك الشراب. ومعنى ﴿مخلدون﴾: باقون على ما
هم عليه من الشباب، والطراوة، والنضارة، لا يهرمون، ولا
يتغيرون، وقيل معنى ﴿مخلدون﴾: لا يموتون، وقيل:
التخليد التحلية أي: محلون ﴿إذا رايتهم حسبتهم لؤلؤاً
منثوراً﴾ إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم، وصفاء

و ثياب إستبرق، والجمهور من القراء اختلفوا في خضر وإستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه؛ فقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وابن محيصن بجرّ خضر نعتاً لسندس، ورفع إستبرق عطفاً على ثياب أي: عليهم ثياب سندس وعليهم إستبرق. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر برفع خضر نعتاً لثياب، وجرّ إستبرق نعت لسندس. واختار هذه القراءة أبو حاتم، وأبو عبيد؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتاً للثياب فهي مرفوعة، والإستبرق من جنس السندس. وقرأ نافع، وحفص برفع (خضر وإستبرق) لأن خضر نعت للثياب، وإستبرق عطف على الثياب. وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي بجرّ (خضر وإستبرق) على أن خضر نعت للسندس، وإستبرق معطوف على سندس. وقرأوا كلهم بصرف إستبرق إلا ابن محيصن، فإنه لم يصرفه، قال: لأنه أعجمي، ولا وجه لهذا؛ لأنه نكرة إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب. والسندس: ما رقّ من الديباج. والإستبرق: ما غلظ منه، وقد تقدّم تفسيرهما في سورة الكهف ﴿وَحَلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ عطف على يطوف عليهم. نكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة، وفي سورة فاطر: ﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [فاطر: 33] وفي سورة الحج: ﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: 23] ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة، وسوارات الفضة تارة، وسوارات اللؤلؤ تارة، أو أنه يلبس كل أحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال من ضمير عليهم بتقدير قد ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هذا نوع آخر من الشراب الذي يمنّ الله عليهم به. قال الفراء: يقول هو طهور ليس بنجس، كما كان في الدنيا موصوفاً بالنجاسة. والمعنى: أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا. قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غش، وغلّ، وحسد. قال أبو قلابة، وإبراهيم النخعي: يؤتون بالطعام، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتضمّر بطونهم من ذلك، ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي: يقال لهم: إن هذا الذي نكر من أنواع النعم كان لكم جزاء بأعمالكم أي: ثواباً لها ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ أي: كان عملكم في الدنيا بطاعة الله مرضياً مقبولاً، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: الزمهرير هو البرد الشديد، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربي أكل بعضي بعضاً، فجعل لها نفسين: نفساً في الصيف، ونفساً في الشتاء، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون في

أوانهم، ونضارة وجوههم لؤلؤاً مفروقاً. قال عطاء: يريد في بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً. قال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة، ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم، وقيل: إنما شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين. فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون؛ لأنهن لا يمتنن بالخدمة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أي: وإذا رميت ببصرك هناك، يعني: في الجنة رأيت نعيماً لا يوصف، وملكاً كبيراً لا يقاير قدره، وثم ظرف مكان، والعامل فيها رأيت. قال الفراء: في الكلام ما مضى، أي: وإذا رأيت ما ثم، كقوله: ﴿لَقَدْ قَطَعْتَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94] أي: ما بينكم. قال الزجاج معترضاً على الفراء: إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن رأيت يتعدى في المعنى إلى ثم. والمعنى: إذا رأيت ببصرك ثم، ويعني بثم: الجنة. قال السدي: النعيم ما يتنعم به، والملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم، وكذا قال مقاتل، والكلبي. وإن رأيت ليس له مفعول ملفوظ، ولا مقدّر ولا منوي، بل معناه: أن بصرك أينما وقع في الجنة رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سَنَدَسٌ﴾ قرأ نافع، وحمزة، وابن محيصن (عاليهم) بسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، أو على أن عاليهم مبتدأ، وثياب مرتفع بالفاعلية، وإن لم يعتمد الوصف، كما هو مذهب الأخفش. وقال الفراء: هو مرفوع بالابتداء، وخبره: ثياب سندس، واسم الفاعل مراد به الجمع. وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الياء على أنه ظرف في محل رفع على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قيل فوقهم ثياب. قال الفراء: إن عاليهم بمعنى فوقهم، وكذا قال ابن عطية. قال أبو حيان: عال وعالية اسم فاعل، فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون متقولاً من كلام العرب، وقد تقدّمه إلى هذا الزجاج وقال: هذا مما لا نعرفه في الظروف ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء، ولكنه نصب على الحال من شيئين: أحدهما الهاء والميم في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الأبرار ﴿وَالِدَانِ﴾ عالياً الأبرار ﴿ثِيَابٌ سَنَدَسٌ﴾ أي: يطوف عليهم في هذه الحال. والثاني أن يكون حالاً من الولدان أي: إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منتوراً في حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علي الفارسي: العامل في الحال إما لقاهم نضرة وسروراً، وإما جزاهم بما صبروا. قال: ويجوز أن يكون ظرفاً. وقرأ ابن سيرين، ومجاهد، وأبو حيوة، وابن أبي عبيدة (عليهم)، وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة. واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود (عاليتهم). وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبيدة بتنوين ثياب، وقطعها عن الإضافة، ورفع سندس، و﴿خَضِرَ وَإِسْتَبْرَقَ﴾ على أن السندس نعت للثياب؛ لأن السندس نوع من الثياب، وعلى أن خضر نعت لسندس؛ لأنه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس أي:

الصيف من الحر من سموها. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السري، وعبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله: ﴿وَدَانِيَةَ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ قال: قريبة ﴿وَوَلَلْتُ قَطُوفَهَا تَذْلِيلًا﴾ قال: إن أهل الجنة ياكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً، ومضطجعين وعلى أي حال شاءوا. وفي لفظ قال: نللت فيتناولون منها كيف شاءوا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: ﴿أَنِيَّةٌ مِنْ فُضَّةٍ﴾ وصفاء كصفاء القوارير ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قال: قَدَّرْتُ للكم. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبيهقي عنه قال: لو أخذت فضة من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيت في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. وأخرج الفريابي عنه أيضاً في قوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قال: أتوا بها على قدر الغم لا يفضلون شيئاً، ولا يشتهون بعدها شيئاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قال: قَدَّرْتُها السقاة. وأخرج ابن المبارك، وهناد، وعبد بن حميد، والبيهقي في البعث عن ابن عمرو قال: إن أننى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه، وتلا هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٥٠﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَلْعَلْ يَنْتَهُمَ نَارًا أَوْ كُفُورًا ﴿١٥١﴾ وَادْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ بِكُورٍ وَاسِيًا ﴿١٥٢﴾ زَيْنَ أَيْلٍ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَمِّهِ يَاكَ طَوِيلًا ﴿١٥٣﴾ إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُحِبُّونَ الْكَلِيلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ﴿١٥٤﴾ نَحْنُ عَلَّمْنَاهُمْ سِرَّكَ وَأَشْرَعْنَا لَكَ إِشْرَافًا بِذَلِكَ أَنْتَلَاهُمْ بَدِيلًا ﴿١٥٥﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٥٦﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٥٧﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥٨﴾

أهل أن يتبعوا، وكل واحد منهما أهل أن يتبع. وقال الفراء: «أو» هنا بمنزلة لا، كأنه قال: ولا كفوراً. وقيل المراد بقوله: ﴿أَنَّمَا﴾ عتبه بن ربيعة، ويقول: ﴿أَوْ كُفُورًا﴾ الوليد بن المغيرة: لأنهما قالاً للنبي ﷺ: أرجع عن هذا الأمر، ونحن نرضيك بالمال والتزويج ﴿وَوَانِكِرْ اسْمَ رَبِّكَ بِكُورٍ وَاسِيًا﴾ أي: دم على نكره في جميع الأوقات. وقيل المعنى: صل لربك أول النهار وآخره، فأول النهار صلاة الصبح، وآخره صلاة العصر ﴿وَمَنْ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي: صل المغرب والعشاء. وقيل: المراد الصلاة في بعضه من غير تعيين، ومن للتبعيض على كل تقدير ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي: نزهه عما لا يليق به، فيكون المراد: النكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة، أو في غيرها. وقيل: المراد التطوع في الليل. قال ابن زيد، وغيره: إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس. وقيل: الأمر للندب. وقيل: هو مخصوص بالنبي ﷺ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ يعني: كفار مكة ومن هو موافق لهم. والمعنى: أنهم يحبون الدار العاجلة، وهي دار الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا﴾ أي: يتركون، ويدعون وراءهم أي: خلفهم، أو بين أيديهم وإمامهم يوماً شديداً عسيراً، وهو يوم القيامة، وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال. ومعنى كونه يذرونه وراءهم: أنهم لا يستعينون له، ولا يعيئون به، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به، واستخفافاً بشأنه، وإن كانوا في الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي: ابتدأنا خلقهم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿وَوَشَدَدْنَا لَأْسَهُمْ﴾ الأسر: شدة الخلق، يقال شد الله أسر فلان أي: قوى خلقه. قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل، وغيرهم: شددنا خلقهم. قال الحسن: شددنا أوصالهم بعضاً إلى بعض بالعروقي، والعصب. قال أبو عبيد: يقال فرس شديد الأسر أي: الخلق. قال لبيد:

سامم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوب القصد
وقال الأخطل:

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالاً
وقال ابن زيد: الأسر القوة، واشتقاقه من الإسار، وهو اللقْد الذي تشد به الاقتاب، ومنه قول ابن أحرر يصف فرساً: يمشي بأوطفة شداد أسرها شم السبائك لا تفي بالجدجدا
﴿وَإِذَا شِئْنَا بِكُلِّ مَآلِهَمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: لو شئنا لا ملكناهم، وجئنا باطوع الله منهم. وقيل المعنى: مسخناهم إلى اسمج صورة، وأقبح خلقه ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ تَذْكُرُونَ﴾ يعني: إن هذه السورة تنكير وموعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً يتوسل به إليه، وذلك بالإيمان، والطاعة. والمراد إلى ثوابه، أو إلى جنته ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: وما تشاءون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلا أن يشاء الله، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم. والخير والشر بيده، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فمشيئة العبد مجردة لا

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ أي: فرقناه في الإنزال، ولم ننزله جملة واحدة. وقيل المعنى: نزلناه عليك، ولم تأت به من عنك، كما يدعيه المشركون ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضائه، ومن حكمه، وقضائه تلخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته. قيل: وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ أَنَّمَا أَوْ كُفُورًا﴾ أي: لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال في كفر، فنهاه الله سبحانه عن ذلك. قال الزجاج: إن الألف هنا أكد من الواو وحدها؛ لأنك إذا قلت: لا تطع زيداً، وعمرأ، فاطعاً لحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره أن لا يطيع الاثنين، فإذا قال: لا تطع منهم أثماً أو كفوراً دل ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى، كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، فقد قلت إنهما

فَقَدَرْنَا وَنَمَّ الْقَيُّومُ ﴿٢٢﴾ رَبُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِبِينَ ﴿٢٣﴾ أَوَّحَمِلَ الْأَرْضَ كَثَاتًا ﴿٢٤﴾ أَمْهَلَكُهُمْ وَأَمْرًا ﴿٢٥﴾ وَبَدَّلْنَا بِهَا رَكَبَهُ لِيِخْلُغَهُ وَتَجَنَّبَنِي لَأَسْتَحَيَنَّكَ فَأَنَّ فَرَاقًا ﴿٢٦﴾ رَبُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِبِينَ ﴿٢٧﴾

قوله: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال جمهور المفسرين: هي الرياح، وقيل: هي الملائكة، وبه قال مقاتل، وأبو صالح، والكلبى، وقيل: هم الأنبياء، فعلى الأول أقسم سبحانه بالرياح المرسله لما يأمراها به، كما في قوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ [الحجر: 22] وقوله: ﴿ومن يرسل الرياح﴾ [الزلزال: 63] وغير ذلك. وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسله بوحيه وأمره ونهيه، وعلى الثالث أقسم سبحانه برسوله المرسله إلى عباده لتبليغ شرائعه، وانتصاب ﴿عرفاً﴾ إما على أنه مفعول لأجله أي: المرسلات لأجل العرف، وهو ضد النكر، ومنه قول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضاً
كعرف الفرس، تقول العرب: سار الناس إلى فلان عرفاً واحداً: إذا توجهوا إليه، وهم على فلان كعرف الضبع: إذا تابعوا عليه، أو على أنه مصدر كانه قال: والمرسلات إرسالاً أي: متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض أي: والمرسلات بالعرف. قرأ الجمهور (عرفاً) بسكون الراء، وقرأ عيسى بن عمر بضمها، وقيل: المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي الرياح الشديدة الهبوب. قال القرطبي بغير اختلاف: يقال عصف بالشئ: إذا أباده وأهلكه، وناقعة عصفو أي: تعصف براكبها، فتعصف كأنها ريح في السرعة، ويقال عصف الحرب بالقوم إذا ذهب بهم، وقيل: هي الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، وقيل: يعصفون بروح الكافر، وقيل: هي الآيات المهلكة كالزلازل، ونحوها ﴿والناشرات نشرأ﴾ يعني: الرياح تأتي بالمطر، وهي تنشر السحاب نشرأ، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها، أو ينشرون أجنتهم في الجوّ عند النزول بالوحي، أو هي الأمطار لأنها تنشر النباتات. وقال الضحاك: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. وقال الربيع: إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر ﴿فالفارقات فرقا﴾ يعني: الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام. وقال مجاهد: هي الريح تفرق بين السحاب فتبذره، وروي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل، وقيل: هي الرسل فرقوا ما بين ما أمر الله به ونهى عنه، وبه قال الحسن: ﴿فالملقيات نكرأ﴾ هي الملائكة. قال القرطبي: بإجماع أي: تلقي الوحي إلى الأنبياء، وقيل: هو جبريل، وسمي باسم الجمع تعظيماً له، وقيل: هي الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم، قاله قطرب. قرأ الجمهور (فالملقيات) بسكون اللام، وتخفيف القاف اسم فاعل، وقرأ ابن عباس بفتح اللام، وتشديد القاف من التلقية وهي إيصال

تأتي بخير ولا تدفع شرّاً، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة، ويؤجر على قصد الخير، كما في حديث «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». قال الزجاج أي: لستم تشاءون إلا بمشيئة الله ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ في أمره ونهيه أي: بليغ العلم والحكمة ﴿يبدل من يشاء في رحمته﴾ أي: يبدل في رحمته من يشاء أن يبدلها فيها، أو يبدل في جنته من يشاء من عباده، قال عطاء: من صدقت نيته أدخله جنته ﴿والظالمين أعد لهم عذاباً ليماً﴾ انتصاب الظالمين بفعل مقدر يدل عليه ما قبله أي: يعذب الظالمين، نصب الظالمين: لأن ما قبله منصوب أي: يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين أي: المشركين، ويكون أعد لهم تفسيراً لهذا المضمّر، والاختيار النصب، وإن جاز الرفع، وبالنصب قرأ الجمهور. وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء، ووجه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿وشدنا أسرهم﴾ قال: خلقهم. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة ﴿وشدنا أسرهم﴾ قال: هي المفاصل.

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. قال قتادة: إلا آية منها وهي: قوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ [المرسلات: 48] فإنها مدنية، وروي هذا عن ابن عباس. وأخرج النحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المرسلات بمكة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: «بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى إذ نزلت سورة المرسلات عرفاً، فإنه ليتلوها، وإنني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: اقتلوها، فابتدرناه، فذهبت، فقال النبي ﷺ: وقيت شركم، كما وقيت شركها». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته، وهو يقرأ: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فقالت: يا بني لقد ذكرتني بقرآئك هذه السورة، إنها آخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتُ عِزًّا ﴿١﴾ فَأَلْهَمَنَ الْغَمَامَ ﴿٢﴾ وَالشَّيْرُوكَ تَنَكُّرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَوْهُنَّ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَيْنَ فِي دَكِّهَا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ تَذَرًا ﴿٦﴾ إِنَّا وَعَدْنَاهُ لَرُجْعًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا أَكْثَرُهُمُ مُّسَوِّدًا ﴿٨﴾ وَإِنَّا لَنَسْكُنُهُنَّ فَحِشًّا ﴿٩﴾ وَإِنَّا لَجَالِبٌ لِّهِنَّ ﴿١٠﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَا نُفُوسًا ﴿١١﴾ لِيَلْزِمْنَ يَوْمَئِذٍ أُنْفُسَهُنَّ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَئِذٍ هُمْ كَالْفَصْلِ ﴿١٣﴾ رَبُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِبِينَ ﴿١٤﴾ أَوَّحَمِلَ الْأَرْضَ كَثَاتًا ﴿١٥﴾ وَأَمْهَلَكُهُمْ وَأَمْرًا ﴿١٦﴾ وَبَدَّلْنَا بِهَا رَكَبَهُ لِيِخْلُغَهُ وَتَجَنَّبَنِي لَأَسْتَحَيَنَّكَ فَأَنَّ فَرَاقًا ﴿١٧﴾ رَبُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِبِينَ ﴿١٨﴾ وَبَدَّلْنَا بِهَا رَكَبَهُ لِيِخْلُغَهُ وَتَجَنَّبَنِي لَأَسْتَحَيَنَّكَ فَأَنَّ فَرَاقًا ﴿١٩﴾ رَبُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِبِينَ ﴿٢٠﴾ وَبَدَّلْنَا بِهَا رَكَبَهُ لِيِخْلُغَهُ وَتَجَنَّبَنِي لَأَسْتَحَيَنَّكَ فَأَنَّ فَرَاقًا ﴿٢١﴾ رَبُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِبِينَ ﴿٢٢﴾

التأقيت تبين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أمهم، ثم بين هذا اليوم فقال: ﴿ليوم الفصل﴾ قال قتادة: يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار، ثم عظم ذلك اليوم فقال: ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾ أي: وما أعلمك بيوم الفصل يعني: أنه أمر ببيع هائل لا يقاشر قدره، وما مبتدأ وأدراك خبره، أو العكس كما اختاره سيبويه. ثم نكر حال الذين كتبوا بذلك اليوم فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: ويل لهم في ذلك اليوم الهائل، وويل أصل مصدر ساء مسد فعله، وعدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات، والويل الهلاك، أو هو اسم واد في جهنم، وكرر هذه الآية في هذه السورة: لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب. ثم نكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال: ﴿ألم نهلك الأولين﴾ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لئن آمن إلى محمد ﷺ قال مقاتل: يعني: بالعذاب في الدنيا حين كتبوا رسالهم ﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾ يعني: كفار مكة، ومن وافقهم حين كتبوا محمداً ﷺ قرأ الجمهور (نتبعهم) بالرفع على الاستثناف أي: ثم نحن نتبعهم. قال أبو البقاء: ليس بمعطوف؛ لأن العطف يوجب أن يكون المعنى: أهلكنا الأولين ثم اتبعناهم الآخرين في الإهلاك. وليس كذلك؛ لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد. ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود (ثم سنتبعهم الآخرين) وقرأ الأعرج، والعباس عن أبي عمرو وكتبهم بالجزم عطفاً على نهلك، قال شهاب الدين: على جعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله: ﴿ألم نهلك﴾ ﴿كذلك نفعل بالمرجمين﴾ أي: مثل ذلك الفعل القطيع نفعل بهم، يريد من يهلكه فيما بعد، والكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف أي: مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما في الدنيا أو في الآخرة ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله، قيل: الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا لعذاب الدنيا ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ أي: ضعيف حقير، وهو النطفة ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾ أي: مكان حريز، وهو الرحم ﴿إلى قدر معلوم﴾ أي: إلى مقدار معلوم وهو مدة الحمل، وقيل: إلى أن يصور ﴿فقدَرنا﴾ قرأ الجمهور (فقدَرنا) بالتخفيف. وقرأ نافع، والكسائي بالتشديد من التقدير. قال الكسائي، والفراء: وهما لغتان بمعنى تقول: قدَرْتُ كذا وقدرته ﴿فنعم القادرون﴾ أي: نعم المقدرُونَ نحن، قيل المعنى: قدَرناه قصيراً أو طويلاً، وقيل: معنى قدَرنا ملكنا ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بقدرتنا على ذلك. ثم بين لهم ببيع صنعه، وعظيم قدرته ليعتبروا فقال: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾ معنى الكفت في اللغة: الضم والجمع، يقال كفت الشيء: إذا ضمه وجمعه، ومن هذا يقال: للجرب والقدر كفت، والمعنى: ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها، والأموات في

الكلام إلى المخاطب، والراجح أن الثلاثة الأول للريح، والرابع والخامس للملائكة، وهو الذي اختاره الزجاج، والقاضي، وغيرهما ﴿عذراً أو نذراً﴾ انتصابهما على البدل من نكراً، أو على المفعولية، والعامل فيهما المصدر المنون، كما في قوله: ﴿أو أطعم في يوم ذي مسغبة﴾ * يتيماً [البلد: 14، 15] أو على المفعول لأجله أي: للإعذار والإنذار، أو على الحال بالتأويل المعروف أي: معترين أو منذرين. قرأ الجمهور بإسكان النذال فيهما. وقرأ زيد بن ثابت، وابنه خارجة بن زيد، وطلحة بضمهما. وقرأ الحرميان، وابن عامر، وأبو بكر بسكونها في عنراً وضمها في نذراً. وقرأ الجمهور (عنراً أو نذراً) على العطف بالواو بدون ألف، والمعنى: أن الملائكة تلقي الوحي إعذاراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه، كذا قال الفراء، وقيل: عنراً للمحقين ونذراً للمبطلين. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثقيل جمع عاذر ونذر كقوله: ﴿هَذَا نذير من النذر الأولى﴾ [النجم: 56] فيكون نصباً على الحال من الإلقاء أي: يلقون النذر في حال العذر والإنذار أو مفعولان لنكراً أي: تنكر عنراً أو نذراً. قال المبرد: هما بالتثقيل جمع، والواحد عذير ونذير. ثم نكر سبحانه جواب القسم فقال: ﴿إنما توعدون لواقع﴾ أي: إن الذي توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة، ثم بين سبحانه متى يقع ذلك، فقال: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ أي: محي نورها، وذهب ضوؤها، يقال طمس الشيء: إذا درس وذهب أثره ﴿وإذا السماء فرجت﴾ أي: فتحت وشقت، ومثله قوله: ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ [النبأ: 19] ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ أي: قلعت من مكانها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته: إذا أخذته بسرعة. وقال الكلبي: سويت بالأرض، والعرب تقول: نسفت الناقة الكلاً: إذا رعت، وقيل: جعلت كالحب الذي ينسف بالمنسف، ومنه قوله: ﴿ويست الجبال بساً﴾ [الواقعة: 5] والأول أولى. قال المبرد: نسفت قلعت من مواضعها ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ الهمزة في أقتت بدل من الواو المضمومة، وكل واو انضمت، وكانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة، وقد قرأ بالواو أبو عمرو، وشيبة، والأعرج، وقرأ الباقون بالهمزة، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، والمعنى: جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كما في قوله سبحانه: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ [المائدة: 109] وقيل: هذا في الدنيا أي: جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كتبها، والأول أولى. قال أبو علي الفارسي أي: جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً، وقيل أقتت: أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به ﴿لأي يوم لجلت﴾ هذا الاستفهام للتعظيم والتعجيب أي: لأي يوم عظيم يعجب العباد منه لشدة ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذا، أو في محل نصب على الحال من الضمير في أقتت. قال الزجاج: المراد بهذا

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿١٦﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شَجَرٍ ﴿١٧﴾ لَا ظِلُّهُ وَلَا يَقِي مِنَ الْهَمِّ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا تَرَى بِكُسْرٍ مَا أَكْفَرُ ﴿١٩﴾ كَأَنَّهُمْ يَنْتَكِبُونَ سُرَّةَ ﴿٢٠﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَكْذِبِينَ ﴿٢١﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَظُنُّونَ ﴿٢٢﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَكْذِبِينَ ﴿٢٤﴾ هَذَا يَوْمٌ الْقَصْرِ ﴿٢٥﴾ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٢٧﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَكْذِبِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الشَّيْءَ فِي ظُلُلٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٩﴾ وَفَوَيْكِهِمَا يَشْتَهَوْنَ ﴿٣٠﴾ كُلُّوْا وَأَشْرَبُوا هَيْتَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَكْذِبِينَ ﴿٣٣﴾ كُلُّوْا وَتَشْتَبِهُوا فَيَلَا إِنَّكُمْ تُجْرَبُونَ ﴿٣٤﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَكْذِبِينَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا يَدُكُمْ أَتَتْكُمْ لَازِكُوا لَا يُرْكَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلْبَسُونَ لِتَكْذِبِينَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي حَسِبْتُ بِهَذَا يَوْمُتُونُ ﴿٣٨﴾

﴿انطلقوا إلى ما كنتم﴾ هو بتقدير القول أي: يقال لهم توبيخاً وتقريعاً ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ في الدنيا، تقول لهم ذلك خزنة جهنم أي: سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب، وهو عذاب النار ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ أي: إلى ظل من دخان جهنم قد سطع، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب، وهذا شأن اللخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعباً، قرأ الجمهور (انطلقوا) في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد. وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضي في الثاني أي: لما امرؤا بالانطلاق امتثلوا ذلك، فانطلقوا. وقيل: المراد بالظل هنا هو السرائق، وهو لسان من النار يحيط بهم، ثم يتشعب ثلاث شعب، فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم، ثم يصيرون إلى النار. وقيل: هو الظل من يحوم، كما في قوله: ﴿في سموم وحميم * وظل من يحوم﴾ [الواقعة: 42، 43] على ما تقدم. ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكماً بهم فقال: ﴿لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ أي: لا يظل من الحر، ولا يغني من اللهب. قال الكلبي: لا يرد حر جهنم عنكم. ثم وصف سبحانه النار فقال: ﴿إنها ترمي بشرور كالقصر﴾ أي: كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها، والشرر: ما تطاير من النار متفرقاً، والقصر: البناء العظيم. وقيل: القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل حمر وحمرة، وتمر وتمرة، وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ. قال سعيد بن جببر، والضحاك: وهي أصول الشجر العظام، وقيل: أعناقها. قرأ الجمهور (كالقصر) بإسكان الصاد، وهو واحد القصور، كما تقدم. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحמיד، والسلمي بفتح الصاد أي: أعناق النخل، والقصرة العنق جمعه قصر وقصرات. وقال قتادة: أعناق الإبل. وقرأ سعيد بن جببر بكسر القاف، وفتح الصاد، وهي أيضاً جمع قصرة مثل بدر وبدر، وقصع وقصعة. وقرأ الجمهور (بشرور) بفتح الشين. وقرأ ابن عباس، وابن مقسم بكسرها مع ألف بين الراعين. وقرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين، وهي لغات، ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال: ﴿كانه جمالات صفر﴾ وهي جمع جمال، وهي الإبل، أو جمع

باطنها تضمهم وتجمعهم. قال الفراء: يريد تكفتم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم وتكفتم أمواتاً في بطنها أي: تحوزهم وهو معنى قوله: ﴿أحياء وأموات﴾ وأنشد سيبويه: كرام حين تنكفت الأفاعي إلى أبحارهم من الصقيع قال أبو عبيدة: كفاتاً أوعية، ومنه قول الشاعر:

فانت اليوم فوق الأرض حي وانت غداً تضمن في كفات أي: في قبر، وقيل: معنى جعلها كفاتاً: أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات. وقال الأخفش، وأبو عبيدة: الأحياء والأموات وصفان للأرض أي: الأرض منقسمة إلى حي وهو الذي ينبت، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت. قال الفراء: انتصاب أحياء، وأمواتاً بوقوع الكفات عليه أي: لم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات، فإذا نَوْنُ نصب ما بعده، وقيل: نصباً على الحال من الأرض أي: منها كذا ومنها كذا، وقيل: هو مصدر نعت به للمبالغة. وقال الأخفش: كفاتاً جمع كافئة، والأرض يراد بها الجمع، فنعتت بالجمع. وقال الخليل: التكتفت تقلب الشيء ظهراً لبطن، أو بطناً لظهر، ويقال انكفت القوم إلى منازلهم أي: ذمبوا ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ أي: جبلاً طوالاً، والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال، وكل عال فهو شامخ ﴿وولسقيناكم ماء فراتاً﴾ أي: عنباً، والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به. قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بما اتعنا عليهم من نعمنا التي هي من جعلتها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي هريرة ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: هي الملائكة أرسلت بالعرف. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الريح ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ قال: الريح. وأخرج ابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب أنه جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فقال: ما العاصفات عصفاً؟ قال الرياح. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الريح ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ قال: الريح ﴿فالفارقات فرقا﴾ قال: الملائكة ﴿فالمليقيات نكراً﴾ قال: الملائكة. وأخرج ابن المنذر عنه: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال: الملائكة ﴿فالفارقات فرقا﴾ قال: الملائكة، فرقت بين الحق والباطل ﴿فالمليقيات نكراً﴾ قال: بالتنزيل. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن ابن مسعود قال: ويل واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فجعل للمكذبين. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿من ماء مهين﴾ قال: ضعيف. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه ﴿كفاتاً﴾ قال: كنا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿رواسي شامخات﴾ قال: جبلاً مشرفات، وفي قوله: ﴿فراتاً﴾ قال: عنباً.

جمالة. قرأ الجمهور (جمالات) بكسر الجيم. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص (جمالة) جمع جمل. وقرأ ابن عباس، والحسن، وابن جبير، وقتادة، وأبو رجا: (جمالات) بضم الجيم، وهي حبال السفن. قال الواحدي: والصفر معناها السود في قول المفسرين. قال الفراء: الصفر سواد الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة، لذلك سمت العرب سود الإبل صفراً. قيل: والشر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، ومنه قول الشاعر:

تلك خيلي وتلك ركابي من صفر لولاهما كالزبيب

أي: من سود، قيل: وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فينسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قال بهذا، وقد قال تعالى: ﴿جمالات صفر﴾. وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور، فهي مضيئة، فلما خلق الله جهنم، وهي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلاطانه وغضبه، فأسوت من سلاطانه وازدادت سواداً، وصارت أشد سواداً من كل شيء، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء.

قلت: وهذا الجواب لا ينفع ما قاله القائل؛ لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء، فلو كان الأمر، كما نكره المصيب من أسوداد النار، وأسوداد شررها، لقال الله: كأنها جمالات سود، ولكن إذا كانت العرب تسمي الأسود أصفر لم يبق إشكال؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، وقد نقل الثقات عنهم ذلك، فكان ما في القرآن هنا وارداً على هذا الاستعمال العربي ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ لرسول الله وآياته ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ أي: لا يتكلمون قال الواحدي: قال المفسرون: في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها يتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون. وقد قدمنا الجمع بهذا في غير موضع. وقيل: إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون؛ لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت. وقال الحسن: لا ينطقون بحجة، وإن كانوا ينطقون. قرأ الجمهور برفع (يوم) على أنه خبر لإسم الإشارة. وقرأ زيد بن علي، والأعرج، والأعمش، وأبو حيوة، وعاصم في رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل، ومحل الرفع على الخبرية، وقيل: هو منصوب على الظرفية، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الوعيد؛ كأنه قيل: هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون ﴿ولا يؤذن لهم فيعتنون﴾ قرأ الجمهور: (يؤذن) على البناء للمفعول، وقرأ زيد بن علي (ولا يائن) على البناء للفاعل أي: لا يائن الله لهم أي: لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن كما لو نصب. قال الفراء: الفاء في فيعتنون نسق على يؤذن، وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون، ولو قال فيعتنوا لم يوافق الآيات، وقد قال: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ [فاطر: 36] بالنصب، والكل صواب ﴿ويل يومئذ

للمكذبين﴾ بما دعته إلى الرسل، وأنذرتهم عاقبته ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ أي: ويقال لهم: هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلاق، ويتميز فيه الحق من الباطل، والخطاب في جمعناكم للكفار في زمن نبينا محمد ﷺ، والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية ﴿فإن كان لكم كيد﴾ أي: إن قدرتم على كيد الآن ﴿فكيون﴾ وهذا توبيخ وتوبيخ لهم. قال مقاتل: يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم، وقيل المعنى: فإن قدرتم على حرب فحاربون، وقيل: إن هذا من قول النبي ﷺ، فيكون كقول هود:

﴿فكيونى جميعاً ثم لا تنظرون﴾ [هود: 55] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ لأنه قد ظهر لهم عجزهم، وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا، ثم نكر سبحانه المؤمنين فقال: ﴿إن المتقين في ظلال وعيون﴾ أي: في ظلال الأشجار وظلال القصور، لا كالظلل الذي للكفار من السخان، أو من النار كما تقدم. قال مقاتل، والكبي: المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله؛ لأن السورة من أولها إلى آخرها في توبيخ الكفار على كفرهم. قال الرازي: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض، وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها، وإنما يتم النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم، فاما جعله سبباً للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال والمراد بالعيون الأنهار، وبالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم

﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ أي: يقال لهم ذلك، فالجملة مقفلة بالقول، وهي في محل نصب على الحال من ضمير المتقين، والباء للسببية أي: بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي المحسنين في أعمالهم، قرأ الجمهور (في ظلال). وقرأ الأعمش، والزهري، وطلحة، والأعرج: (في ظلل) جمع ظلة ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ حيث صاروا في شقاء عظيم، وصار المؤمنون في نعيم مقيم ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ الجملة بتقدير القول في محل نصب على الحال من المكذبين أي: الوليل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تنكير لهم بحالهم في الدنيا، أو يقال لهم هذا في الدنيا، والمجرمون المشركون بالله، وهذا وإن كان في اللفظ أمراً فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ كرهه لزيادة التوبيخ والتقريع ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ أي: وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون. قال مقاتل: نزلت في تقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبي ﷺ بها فقالوا: لا ننحنى، فلإنها مسبة علينا، فقال النبي ﷺ: «لا خير في بين ليس فيه ركوع ولا سجود». وقيل: إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. وقيل: المعنى بالركوع: الطاعة والخشوع ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهي ﴿فبأي حيث بعده يؤمنون﴾ أي: فبأي حديث بعد القرآن يصنقون إذا لم يؤمنوا به. قرأ الجمهور

سَيَكُونُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ لَا سَيَكُونُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنًا ﴿٣﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٤﴾ وَخَلَقْتَهُمْ أَزْوَاجًا ﴿٥﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٦﴾ وَجَعَلْنَا قِيَامَكُمْ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿٨﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٠﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١١﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٢﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٣﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفُتُوحِ كَانَ يَوْمَ يَقِينًا ﴿١٤﴾ يَوْمَ يُفْعَلُ فِي السَّاعَةِ الْقَافُونَ ﴿١٥﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ الْكُتُبِ ﴿١٦﴾ وَآيَاتُ أَنْبِيَآئِهَا ﴿١٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿١٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿١٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٠﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢١﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٢﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٣﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٤﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٥﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٦﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٢٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٠﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣١﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٢﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٣﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٤﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٥﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٦﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٣٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٠﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤١﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٢﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٣﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٤﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٥﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٦﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٤٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٠﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥١﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٢﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٣﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٤﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٥﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٦﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٥٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٠﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦١﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٢﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٣﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٤﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٥﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٦﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٦٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٠﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧١﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٢﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٣﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٤﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٥﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٦﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٧٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٠﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨١﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٢﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٣﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٤﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٥﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٦﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٨٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٠﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩١﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٢﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٣﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٤﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٥﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٦﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٧﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٨﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿٩٩﴾ وَآيَاتُ الْبُرْجِ وَالْمِيقَاتِ ﴿١٠٠﴾

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصله عن ما فادغمت النون في الميم؛ لأن الميم تشاركها في الغنة، كذا قال الزجاج، وحذفت الالف؛ ليطييز الخبر عن الاستفهام، وكذلك فيم ومم ونحو ذلك، والمعنى: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً. قرأ الجمهور: (عم) بحذف الالف لما نكرونا، وقرأ أبي، وابن مسعود، وعكرمة، وعيسى بإثباتها، ومنه قول الشاعر:

علاما قام يشتمني لثيم كخنزير تمرغ في دمان
ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، وقرأ البزي بهاء السكت عوضاً عن الالف، وروي ذلك عن ابن كثير. قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، والمعنى تفخيم القصة كما تقول: أي شيء تريد: إذا عظمت شأنه. قال الواحدي: قال المفسرون: لما بعث رسول الله ﷺ، وأخبرهم بتوحيد الله، والبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون: ماذا جاء به محمد، وما الذي أتى به؟ فأنزل الله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال الفراء: التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتيقار، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن بينهم سؤال. قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لي قريبين [الصفات: 50، 51] الآية، وهذا يدل على أنه التحدث، ولفظ ما موضوع لطالب حقائق الأشياء، وذلك يقتضي كون المطلوب مجهولاً، فجعل الشيء العظيم الذي يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول، ولهذا جاء سبحانه بلفظ ما، ثم نكر سبحانه تسألهم عن ماذا وبينه فقال: ﴿عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ﴾ فأورد سبحانه أولاً على طريقة الاستفهام مبهماً؛ لتتوجه إليه أذهانهم، وتلفتت إليه أفهامهم، ثم بينه بما يفيد تعظيمه، وتفخيمه كأنه قيل: عن أي شيء يتساءلون هل أخبركم به؟ ثم قيل بطريق الجواب: ﴿عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ﴾ على منهاج قوله: ﴿لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ الله الواحد القهار [غافر: 16] فالجاء والمجرور متعلق بالفعل الذي قبله، أو بما يدل عليه. قال ابن عطية: قال أكثر النحاة: عن النبا العظيم متعلق ببيتساءلون الظاهر، كأنه قال: لم يتساءلون عن النبا العظيم، وقيل: ليس بمتعلق بالفعل المنكسر؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام، فيكون التفسير أعن النبا العظيم؟

(يؤمنون) بالتحية على الغيبة. وقرأ ابن عامر في رواية عنه، ويعقوب بالفوقية على الخطاب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿بِشْرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كالقصر العظيم، وقوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفَرٍ﴾ قال: قطع النحاس. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مروي عن طريق عبد الرحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس يسأل عن قوله: ﴿إِنَّمَا نَزْمِي بِشْرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل، فنرفعه للشتاء، فنسميه القصر. قال: وسمعت يسأل عن قوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفَرٍ﴾ قال: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كالوساط للرجال. ولفظ البخاري: كنا نعدد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿كَانَهُ جَمَالَاتٍ صَفَرٍ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كالوساط للرجال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أنه قرأ (كالقصر) بفتح القاف والصاد. وقال قصر النخل يعني: الأعناق. وأخرج ابن مروي عنه أيضاً قال: كانت العرب في الجاهلية تقول: أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر النزاع والنزاعين. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط عن ابن مسعود في قوله: ﴿نَزْمِي بِشْرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: إنها ليست كالشجر والجبال، ولكنها مثل المدائن والحصون. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ قال: هو القصر، وفي قوله: ﴿جَمَالَاتٍ صَفَرٍ﴾ قال: الإبل. وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال: سألت نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿وَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108] و﴿أَقْبِلْ بِعُضْهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: 27] و﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾ [الحاقة: 19] فقال له: ويحك هل سألت عن هذا أحداً قبلي؟ قال: لا، قال: أما أنك لو كنت سألت هلكت، أليس قال الله: ﴿وَأَنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْلُونَ﴾ [الحج: 47] قال بلى، قال: فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لو أن من الألوان. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَأِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود، فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا.

تفسير سورة النبا

وهي مكية عند الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّزِ الرَّكَّزِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٣﴾

تكذيبهم ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ يعني: المؤمنين عاقبة تصديقهم، وقيل: بالعكس، وقيل: هو وعيد بعده وعيد، وقيل المعنى: ﴿كلا سيعلمون﴾ عند النزاع ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ عند البعث، ثم ذكر سبحانه بديع صنعه، وعظيم قدرته؛ ليعرفوا توحيد، ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال: ﴿الم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً﴾ أي: قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على إعادة بالبعث، والمهاد الوطاء، والفرش، كما في قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ [البقرة: 22] قرأ الجمهور (مهاداً) وقرأ مجاهد، وعيسى، وبعض الكوفيين: (مهاداً) والمعنى: أنها كالمنجد للصبي وهو ما يهد له فينوم عليه، والأوتاد جمع وتد: أي: جعلنا الجبال أوتاداً للأرض؛ لتسكن ولا تتحرك، كما يرسي الخيام بالأوتاد، وفي هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن، ولا عن نبوة محمد ﷺ، كما قيل: لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ معطوف على المضارع المنفي داخل في حكمه، فهو في قوة أما خلقناكم، والمراد بالأزواج هنا الأصناف أي: الذكور والإناث، وقيل: المراد بالأزواج الألوان، وقيل: يسئل في هذا كل زوج من المخلوقات عن قببح وحسن وطويل وقصير ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي: راحة لأبدانكم. قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بنه: أي: جعلنا نومكم راحة لكم. قال ابن الأنباري: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم؛ لأن أصل السبت القطع، وقيل: أصله التمدد، يقال سبتت المرأة شعرها: إذا حلتها وأرسلته، ورجل مسبوت الخلق: أي: مملوؤه، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدد، فسمي النوم سباتاً، وقيل المعنى: وجعلنا نومكم موتاً، والنوم أحد الموتين، فالمسبوت يشبه الميت، ولكنه لم تفارقه الروح، ومنه قول الشاعر:

ومطوية الأقارب أما نهارها فسبت وأما ليلها فندميل

ومن هذا قوله: ﴿إله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ [الزمر: 42] الآية، وقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: 60] ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي: نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس. وقال سعيد بن جبير، والسدي: أي: سكناً لكم، وقيل: المراد به ما يستريحه عند النوم من اللحاف ونحوه، وهو بعيد؛ لأن الجعل وقع على الليل، لا على ما يستتر به النائم عند نومه ﴿وجعلنا للنهار معاشاً﴾ أي: وقت معاش، والمعاش العيش، وكل شيء يعاش به فهو معاش، والمعنى: أن الله جعل لهم النهار مضياً؛ ليسعوا فيما يقوم به معاشهم، وما قسمه الله لهم من الرزق ﴿وبيننا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء، ولهذا وصفها بالشدّة، وغلظ كلّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، كما ورد ذلك ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ المراد به الشمس، وجعل هنا بمعنى خلق، وهكذا قوله: ﴿وجعلنا نومكم

فلزم أن يتعلق بمتسألون آخر مقدّر، وإنما كان ذلك النبا: أي: القرآن عظيماً؛ لأنه ينبئ عن التوحيد، وتصديق الرسول، ووقوع البعث والنشور. قال الضحّاك: يعني: نبأ يوم القيامة، وكذا قال قتادة، وقد استدلّ على أن النبا العظيم هو القرآن بقوله: ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم شعراً، وبعضهم كهانة، وبعضهم قال: هو أساطير أوليين. وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره. ويمكن أن يقال: إنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة، فصنّف به المؤمنون، وكتب به الكافرون، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل ومما يدلّ على أنه القرآن قوله سبحانه: ﴿قل هو نبيّ عظيم﴾ * أنتم عنه معرضون﴾ [ص: 67، 68] ومما يدلّ على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتباه عقولهم السخيفة. وأيضاً، فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم في البعث؛ فاثبت النصراني المعاد الروحاني، وأثبت طائفة من اليهود المعاد الجسماني، وفي التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ جننيداً بجيم مفتوحة، ثم نون ساكنة، ثم عين مكسورة مهملة، ثم تحتية ساكنة، ثم ذال معجمة بعدها ألف. وفي الإنجيل في مواضع كثيرة التصريح بالمعاد، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين، والعذاب للعاصين، وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجنّات: 24] ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ [المؤمنون: 37] وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكّة فيه، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ [الجنّات: 32] وما حكاها عنهم بقوله: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت: 50] فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة. وقد قيل: إن الضمير في قوله: يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار؛ لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه، فأما المسلم، فيزداد يقيناً واستعداداً، وبصيرة في دينه، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية. قال الرازي: ويحتمل أنهم يسألون الرسول، ويقولون: ما هذا الذي يعدنا به من أمر الآخرة، والموصول في محل جرّ صفة للنبا بعد وصفه بكونه عظيماً فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه ﴿كلا سيعلمون﴾ ردع لهم وزجر، وهذا يدلّ على أن المختلفين فيه هم: الكفار، وبه يتنفق ما قيل: إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين فإنه إنما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط، وقيل: كلا بمعنى حقاً، ثم كرّر الردع والزجر فقال: ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد. قرأ الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على الغيبة. وقرأ الحسن، وأبو العالية، وابن دينار، وابن عامر في رواية عنه بالفوقية على الخطاب. وقرأ الضحّاك الأوّل بالفوقية والثاني بالتحية. قال الضحّاك أيضاً ﴿كلا سيعلمون﴾ يعني: الكافرين عاقبة

سبائاً وما بعده؛ لأن هذه الأفعال قد تعلت إلى مفعولين، فلا بد من تضمينها معنى فعل يتعدى إليهما كالخلق والتصيير ونحو ذلك. وقيل: إن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع في جميع هذه المواضع، والمراد به الإنشاء التكويني الذي بمعنى التقدير والتسوية. قال الزجاج: الوهاج الوقاد، وهو الذي وهج، يقال وهجت النار تهيج وهجاً وهجاناً. قال مقاتل: جعل فيه نوراً وحرّاً، والوهج يجمع النور والحرارة ﴿وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ المعصرات هي: السحاب التي ينعصر بالماء ولم تمطر بعد، كالمرأة المعصرة التي قربنا حيضها، كذا قال سفيان والربيع، وأبو العالية، والضحاك. وقال مجاهد، ومقاتل، وقتادة، والكلبي: هي الرياح، والرياح تسمى معصرات، يقال أعصرت الريح تعصر إعصاراً؛ إذا أثارت العجاج. قال الأزهري: هي الرياح نوات الأعاصير، وذلك أن الرياح تستدر المطر. وقال الفراء: المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر. قال النحاس: وهذه الأقوال صحاح، يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات، والرياح تلحق السحاب فيكون المطر. ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً، ويكون المعنى: وأنزلنا من نوات المعصرات ماء ثجاجاً. قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعتصر بالمطر، وعصر القوم أي: مطروا. قال المبرد: يقال سحاب معصر أي: ممسك للماء يعتصر منه شيء بعد شيء. وقال أبي بن كعب، والحسن، وابن جبير، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان: المعصرات السموات والثجاج: المنصب بكثرة على جهة التتابع، يقال ثَجَّ الماء أي: سال بكثرة، وثَجَّه أي: أساله. قال الزجاج: الثجاج الصباب. قال ابن زيد: ثجاجاً كثيراً ﴿لنخرج به حباً ونباتاً﴾ أي: لنخرج بذلك الماء حباً يقات: كالحنطة والشعير ونحوهما، والنبات ما تاكله الدواب من الحشيش وسائر النبات ﴿وجنات ألفافاً﴾ أي: بساتين ملتف بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد للألفاف: كالأوزاع والأخفاف، وقيل: واحداً لف بكسر اللام وضمها، نكره الكسائي. وقال أبو عبيدة: واحداً لفيف كشریف وأشرف، روي عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء، ونبت لف، والجمع لف بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف، وقيل هو جمع ملتفة بحذف الزوائد. قال الفراء: الجنة ما فيه النخيل، والفردوس ما فيه الكرم ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ أي: وقتاً، ومجمعاً، وميعاداً للأوليين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب، وسمي يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين خلقه، وهذا شروع في بيان ما يتساءلون عنه من البعث، وقيل معنى ميقاتاً: أنه حد توقت به الدنيا وتنتهي عنده، وقيل: حد للخلائق ينتهون إليه ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أقبولاً﴾ أي: يوم ينفخ في الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث ﴿فتأتون﴾ أي: إلى موضع العرض ﴿أقبولاً﴾ أي: زمراً زمراً، وجماعات جماعات، وهي

جمع فوج، وانتصاب ﴿يوم ينفخ﴾ على أنه بدل من يوم الفصل، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله، وإن كان الفصل متأخراً عن النفخ، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني، وانتصاب أقبولاً على الحال من فاعل تأتون، والفاء في فتأتون فصيحة تدل على محنوف أي: فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أقبولاً ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ معطوف على ينفخ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي: فتحت لنزول الملائكة ﴿فكانت أبواباً﴾ كما في قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ [الفرقان: 25] وقيل معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب، وقيل: أبوابها طرقها، وقيل: تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب، وقيل: إن لكل عبد بابين في السماء: باب لرزقه، وباب لعمله، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب، وظاهر قوله: ﴿فكانت أبواباً﴾ أنها صارت كلها أبواباً، وليس المراد ذلك، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة. قرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي فتحت مخففاً، وقرأ الباقون بالتشديد ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ أي: سيرت عن أماكنها في الهواء، ولعلت عن مقارها، فكانت هباء منبهاً يظن الناظر أنها سراب، والمعنى: أن الجبال صارت كلاً شيء، كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء، وليس بماء، وقيل معنى سيرت: أنها نسفت من أصولها، ومثل هذا قوله: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر من السحاب﴾ [النمل: 88] وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ولكن الجمع بينها أن نقول: أول أحوالها الانكسار، وهو قوله: ﴿وحملت الأرض والجبال فكانت كتة واحدة﴾ [الحاقة: 14] وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ [القارعة: 5] وثالث أحوالها أن تصير كالهباء، وهو قوله: ﴿وبست الجبال بساً﴾ فكانت هباء منبهاً [الواقعة: 5، 6] ورابع أحوالها أن تنسف وتحملها الرياح، كما في قوله: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر من السحاب﴾ [النمل: 88] وخامس أحوالها أن تصير سراباً أي: لا شيء، كما في هذه الآية. ثم شرع سبحانه في تفصيل أحكام الفصل فقال: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ قال الأزهري: المرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو. قال المبرد: مرصاداً يرصدون به أي: هو معد لهم يرصد به خزنتها الكفار. قال الحسن: إن على الباب رصداً لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجيء بجواز حبس. وقال مقاتل: محبساً، وقيل: طريقاً وممرّاً. قال في الصحاح: الراصد للشيء الراقب له يقال رصده يرصده رصداً، والرصد الترقب، والمرصد موضع الرصد. قال الأصمعي: رصده أرصده ترقبته، ومعنى الآية: أن جهنم كانت في حكم الله، وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار؛ ليعذبوهم فيها، أو هي في نفسها مطلعة لمن يأتي إليها من الكفار، كما يتطلع الرصد لمن يمر به ويأتي إليهم، والمرصد

وافق أعمالهم. قال الفرّاء: الوفاق جمع الوفق، والوفوق والموافق واحد. قال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا نذب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. وقال الحسن، وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوؤهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يرجون ثواب حساب. قال الزجاج: كانوا لا يؤمنون بالبعث، فيرجون حسابهم، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ أي: كذبوا بالآيات القرآنية، أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيباً شديداً، وفعال من مصادر التفعّل. قال الفرّاء: هي لغة فصيحة يمانية، تقول كذبت كذاباً، وخرقت القميص خرقاً. قال في الصحاح: وكذبوا بآياتنا كذاباً هو أحد مصادر المشدّد؛ لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم، وعلى فعال مثل كذاب، وعلى تفعلة مثل توصية، وعلى مفعّل مثل: ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ [سبا: 19] قرأ الجمهور (كذاباً) بالتشديد. وقرأ علي بن أبي طالب بالتخفيف. وقال أبو عليّ الفارسي التخفيف والتشديد جميعاً مصدر المكاتب. وقرأ ابن عمر: (كذاباً) بضم الكاف والتشديد، جمع كاذب. قال أبو حاتم ونصبه على الحال. قال الزمخشري: وقد يكون يعني: على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ في الكذب، تقول: رجل كذاب كقولك حسان وبخال ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ لِّحْصِينَاهُ كِتَابًا﴾ قرأ الجمهور (وكل) بالنصب على الاشتغال أي: وأحصينا كل شيء أحصيناه. وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء، وما بعده خبره، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب، وانتصاب كتاباً على المصدرية لأحصيناه؛ لأن أحصيناه في معنى كتبناه، وقيل: هو منتصب على الحال أي: مكتوباً، قيل: المراد كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، وقيل: أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم، وقيل: المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان، والأول أولى لقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ لِّحْصِينَاهُ فِي إِمَامٍ مَّبِينٍ﴾ [يس: 12] ﴿فَنُذِقُوا فَلَئِنْ نَزَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم، وتكذيبهم بالآيات. قال الرّازي: هذه الفاء للجزاء، فنبه على أن الأمر بالنزق معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم؛ ومن الزيادة في عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بذلك جلوداً غيرها، وكلما خبت النار زادهم الله سعيراً.

وقد أخرج ابن مرويّه عن ابن عباس: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ قال: القرآن: وهذا مروى عن جماعة من التابعين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ قال: مضيئاً ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ قال: السحاب ﴿مَاءٌ ثَجَاجًا﴾ قال: منصّباً. وأخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ثَجَاجًا﴾ قال: منصّباً. وأخرج الشافعي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مرويّه عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾ قال: يبعث الله الريح، فتحمل

مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار. ثم ذكر من هي مرصد له فقال: ﴿لِلطَّاغِيْنَ مَبَآءٌ﴾ أي: مرجعاً يرجعون إليه، والمآب المرجع، يقال آب يثوب: إذا رجع، والطاغي هو من طغى بالكفر، ولِلطَّاغِيْنَ نعت لمرصداً متعلق بمحذوف، ومآباً بدل من مرصداً، ويجوز أن يكون للطاغيين في محل نصب على الحال من مآباً قدّمت عليه لكونه نكرة، وانتصاب ﴿لِلْبَيْتَيْنِ فِيهَا﴾ على الحال المقترنة من الضمير المستكن في الطاغيين. قرأ الجمهور (للبيتين) بالالف. وقرأ حمزة، والكسائي (البيتين) بدون الف، وانتصاب ﴿لِحَقَابٍ﴾ على الظرفية أي: ملاكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، وكلما مضى حقب جاء حقب، وهي جمع حقب بضمّتين، وهو الدهر، والأحقاب الدهور، والحقب بضم الحاء، وسكون القاف، قيل: هو ثمانون سنة، وحكى الواحدي عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة، السنة ثلثمائة وستون يوماً، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق، فإذا انقضت، فيكون لهم نوع آخر من العذاب. وقال السدي: الحقب سبعون سنة. وقال بشير بن كعب: ثلثمائة سنة. وقال ابن عمر أربعون سنة، وقيل: ثلاثون ألف سنة. قال الحسن: الأحقاب لا يدرى أحد كم هي، ولكن نكروا أنها مائة حقب، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كالف سنة. وقيل: الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار، والأولى ما ذكرناه أولاً من أن المقصود بالآية التابيد لا التقييد. وحكى الواحدي: عن الحسن أنه قال: والله ما هي إلا أنه إذا مضى حقب نخل آخر، ثم آخر، ثم كذلك إلى الأبد، وجملة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ إلا حميماً وغساقاً مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون في جهنم، أو في الأحقاب برداً ينفعهم من حرّها، ولا شراباً ينفعهم من عطشها إلا حميماً، وهو الماء الحارّ، وغساقاً وهو صديد أهل النار، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير الطاغيين، أو صفة للأحقاب، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم، ويجوز أن يكون متصلاً من قوله: ﴿شَرَابًا﴾ وقال مجاهد، والسديّ وأبو عبيدة، والكسائي، والفضل بن خالد، وأبو معاذ النحوي: البرد المذكور في هذه الآية هو: النوم، ومنه قول الكندي:

بردت مرأشفا عليّ فصنّني عنها وعن تقبيلها البرد

أي: النوم. قال الزجاج: أي: لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم فجعل البرد يشمل هذه الأمور. وقال الحسن، وعطاء، وابن زيد: برداً أي: روحاً وراحة. قرأ الجمهور (غساقاً) بالتخفيف، وقرأ حمزة، والكسائي بتشديد السين، وقد تقدّم تفسيره، وتفسير الحميم، والخلاف فيهما في سورة ص ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أي: موافقاً لأعمالهم، وجزاء منتصب على المصدر، ووفقاً نعت له. قال الفرّاء، والأفش: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم، قال الزجاج: جوزوا جزاء

وابن جرير، وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال: ما أنزلت على أهل النار آية قط أشد منها ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فهم في مزيد من عذاب الله أبداً.

إِنَّ لِلنَّارِ مَنَازِلَ ۖ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۖ وَكَوَاعِبَ أَزْجَارًا ۖ وَكَأْسًا هَاقًا ۖ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ۖ بَرَّكَ لَهُ مِنْ رَبِّكَ عَذَابًا ۖ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۖ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۚ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ لِكَرْبِهِ مَنَازِلَ ۖ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۖ

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ هذا شروع في بيان حال المؤمنين، وما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين، وما أعد الله لهم من الشر، والمفاز مصدر بمعنى الفوز، والظفر بالنعمة، والمطلوب، والنجاة من النار، ومنه قيل: للفلاة مفازة تفضلاً بالخلاص منها، ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال: ﴿حَدَائِقُ وَأَعْنَابًا﴾ وانتصابهما على أنهما بدل من مفازاً بدل اشتمال، أو بدل كل من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني، وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز، فيقدر مضاف محذوف أي: فوز حدائق، وهي جمع حديقة، وهي: البستان المحوط عليه، والأعنان جمع عنب أي: كروم أعنان ﴿وَكَوَاعِبَ أَقْرَابًا﴾ الكواعب جمع كاعبة: وهي الناهدة، يقال: كعبت الجارية تكعب تكعيباً وكعوباً، ونهت تنهد نهوداً، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت أي: صارت ثديهن كالكعب في صدورهن، قال الضحاك: الكواعب العذاري، قال قيس بن عاصم:

وكم من حصان قد حوينا كريمة
وكم كاعب لم تدر ما اليوس معصر

وقال عمر بن أبي ربيعة:

وكان مجنى بون ما كنت أتقي
ثلاث شخوص كاعبات ومعصر
والأتراب: الأقران في السن، وقد تقدّم تحقيقه في سورة البقرة ﴿وَكَأْسًا هَاقًا﴾ أي: ممتلئة، قال الحسن، وقتادة، وابن زيد: أي: مترعة مملوءة، يقال أدهقت الكأس أي: ملأته، ومنه قول الشاعر:

ألا أسقني صرفاً سفاك الساقبي
من مائها بكأسك الدهاق

وقال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد: ﴿هَاقًا﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضاً، وقال زيد بن أسلم: ﴿هَاقًا﴾ صافية، والمراد بالكأس الإناء المعروف، ولا يقال له الكأس إلا إذا كان فيه الشراب ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا﴾ أي: لا يسمعون في الجنة لغواً، وهو الباطل من الكلام، ولا كذاباً أي: ولا يكذب بعضهم بعضاً، قرأ الجمهور (كذاباً) بالتشديد، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف، ووافق الجماعة على التشديد في قوله: (وكذبوا بأياتنا كذاباً) المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك، وقد قدمنا الخلاف في كذاباً هل هو من مصادر التفعيل، أو من مصادر المفاعلة؟ ﴿حِزَاءَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: جازاهم بما تقدم نكره جزاء، قال الزجاج:

الماء، فيمر به السحاب، فتدر كما تدر اللقحة، والثجاج ينزل من السماء أمثال العزالي فتصرفه الرياح فينزل متفرقاً. وأخرج ابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة قال: في قراءة ابن عباس ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ بالرياح. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَجَنَّاتُ هَاقًا﴾ قال: ملتفة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: يقول: التف بعضها ببعض. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سُرَابًا﴾ قال: سراب الشمس الآل. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: سنين. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن سالم بن أبي الجعد قال: سأل علي بن أبي طالب هلال الهجري ما تجنون الحقب في كتاب الله؟ قال: نجده ثمانين سنة كل سنة منها اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة. وأخرج سعيد بن منصور، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. وأخرج البزار عن أبي هريرة رفعه قال: الحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كالف سنة مما تعدون. وأخرج عبد بن حميد عنه قال: الحقب ثمانون عاماً اليوم منها كسدس الدنيا. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مريويه. قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبي ﷺ: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: الحقب ألف شهر، والشهر ثلاثون يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم منها ألف سنة مما تعدون، فالحقب ثلاثون ألف سنة. وأخرج البزار، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً، والحقب بضع وثمانون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم ألف سنة مما تعدون». قال ابن عمر: فلا يتكلم أحد أنه يخرج من النار. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن مريويه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الحقب أربعون سنة» وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان في قوله: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب لأن الله يقول: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾. وأخرج ابن مريويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «وفي قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ إلا حميماً» قال: قد انتهى حره «وغساقاً» قد انتهت حره، وإن الرجل إذا أنسى الإناء من فيه سقط فروة وجهه، حتى يبقى عظماً تققع. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿حِزَاءَ وَفَاقًا﴾ قال: وافق أعمالهم. وأخرج عبد بن حميد،

ومجاهد، وقيل: هم أشراف الملائكة قاله مقاتل بن حيان. وقيل: هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبي نجيب. وقيل: هم بنو آدم قاله الحسن، وقتادة. وقيل: هم أرواح بني آدم تقوم صفاءً وتقوم الملائكة صفاءً، وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام قاله عطية العوفي. وقيل: إنه القرآن قاله زيد بن أسلم. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ضمير يتكلمون، وأن يكون منصوباً على أصل الاستثناء، والمعنى: لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن له الرحمن ﴿وَوُكِّلَ كَانَ ذَلِكَ الشَّخْصَ مِمَّنْ قَالُوا صَوَاباً﴾ قال الضحاك، ومجاهد: صواباً يعني: حقاً. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله. وأصل الصواب السداد من القول والفعل. قيل لا يتكلمون يعني: الملائكة والروح الذين قاموا صفاءً هيبة وإجلالاً إلا من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة، وهم قد قالوا صواباً. قال الحسن: إن الروح تقوم يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح، ولا النار إلا بالعمل. قال الواحدي: فهم لا يتكلمون يعني: الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن، وهم المؤمنون والملائكة، وقال في الدنيا صواباً أي: شهد بالتوحيد، والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة، وهو مبتدأ وخبره ﴿اليوم الحق﴾ أي: الكائن الواقع المتحقق ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءَ﴾ أي: مرجعاً يرجع إليه بالعمل الصالح؛ لأنه إذا عمل خيراً قرَّبه إلى الله، وإذا عمل شراً باعده منه، ومعنى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ إلى ثواب ربه، قال قتادة: مأباً: سبيلاً. ثم زاد سبحانه في تخويف الكفار فقال: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ يعني: العذاب في الآخرة، وكل ما هو آتٍ، فهو قريب، ومثله قوله: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضَحَاةً﴾ [النازعات: 46] كذا قال الكلبي، وغيره. وقال قتادة: هو عذاب الدنيا؛ لأنه أقرب العذابين. قال مقاتل: هو قتل قريش ببدر، والأولى أولى لقوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فإن الطرف إما يدل من عذاب، أو ظرف لمضمر هو صفة له أي: عذاباً كائنًا: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ أي: يشاهد ما قَدَّمَهُ من خير أو شر، وما موصولة أو استفهامية. قال الحسن: والمرء هنا هو المؤمن أي: يجد لنفسه عملاً، فاما الكافر، فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنى أن يكون تائباً، وقيل: المراد به الكافر على العموم، وقيل: أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، والأولى أولى لقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَائِباً﴾ فإن الكافر واقع في مقابلة المرء، والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون تائباً لما يشاهده مما قد أعدَّ الله له من أنواع العذاب، والمعنى: أنه يتمنى أنه كان تائباً في الدنيا فلم يخلق، أو تائباً يوم القيامة. وقيل: المراد بالكافر أبو جهل، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وقيل: إبليس، والأولى أولى اعتباراً بعموم اللفظ، ولا يتنافى خصوص السبب، كما تقدَّم غير مرة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

المعنى جزاءهم جزاء، وكذا ﴿عطاء﴾ أي: وأعطاهم عطاء ﴿حساباً﴾ قال أبو عبيدة: كافياً. وقال ابن قتيبة: كثيراً، يقال أحسبت فلاناً أي: أكثرت له العطاء، ومنه قول الشاعر:

ونعطي وليد الحي إن كان جائعاً ونحسبه إن كان ليس بجائع
قال ابن قتيبة: أي: نعطيهِ حتى يقول حسبي. قال الزجاج: حساباً أي: ما يكفيهم. قال الأخفش: يقال لحسبني كذا أي: كفاني. قال الكلبي: حاسبهم، فأعطاهم بالحسنة عشرة. وقال مجاهد: حساباً لما عملوه، فالحساب بمعنى القدر أي: يقتر ما وجب له في وعد الرب سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشرة، ووعد لقوم سبعمائة ضعف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله: ﴿إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] وقرأ أبو هاشم (حساباً) بفتح الحاء، وتشديد السين أي: كافياً. قال الأصمعي: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته، ومنه قول الشاعر:
إذا أتاه ضيفه يحسبه

وقرأ ابن عباس (حساناً) بالنون ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلرَّحْمَنِ﴾. قرأ ابن مسعود، ونافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وزيد عن يعقوب، والمفضل عن عاصم برفع (رَبِّ) و (الرَّحْمَنِ) على أن ربَّ مبتدأ، والرَّحْمَنُ خبره، أو على أن ربَّ خبر مبتدأ مقتر أي: هو ربَّ، والرَّحْمَنُ صفة، و (لا يملكون) خبر ربَّ، أو على أن ربَّ مبتدأ، والرَّحْمَنُ مبتدأ ثانٍ، ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول. وقرأ يعقوب في رواية عنه، وابن عامر، وعاصم في رواية عنه بخفضهما على أن ربَّ يدل من ربك، والرَّحْمَنُ صفة له. وقرأ ابن عباس، وحمرزة، والكسائي بخفض الأول على البذل، ورفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو الرَّحْمَنُ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال هذه القراءة أعلوها، فخفض ربَّ لقربه من ربك، فيكون نعتاً له، ورفع الرَّحْمَنُ لبعده منه على الاستئناف، وخبره ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ أي: لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه. وقال الكسائي: لا يملكون منه خطاباً بالشفاعة إلا بإذنه، وقيل: الخطاب الكلام أي: لا يملكون أن يخاطبوا الربَّ سبحانه إلا بإذنه، نليله: ﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: 105] وقيل: أراد الكفار، وأما المؤمنون فيشفعون. ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال على ما تقدَّم بيانه، ويجوز أن تكون مستأنفة مقررة لما تفيده الربوبية من العظمة والكبرياء ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ الظرف منتصب بلا يتكلمون، أو بلا يملكون، وصفاً منتصب على الحال أي: مصطفين، أو على المصدرية أي: يصفون صفاءً، وقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة لتقرير ما قبله.

واختلف في الروح: فقيل: إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال، وقيل: هو جبريل قاله الشعبي، والضحاك، وسعيد بن جبير. وقيل: الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة قاله أبو صالح،

سَبَّحًا ۝ قَالَتِ بَرَاتٍ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ
يَوْيْزُ وَاجِعَةً ۝ أَصْدَرُهَا حَنِيمَةٌ ۝ يَبُولُونَ أَوْثًا لَرُدُّوهُمْ فِي لَهَابٍ ۝
أَوْثًا كُنَّا عَطَلَكُمَا نَجْرَةً ۝ نَالُوا إِلَيْكَ إِذَا كُرْهُ خَاسِرَةٌ ۝ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ
وَجِيدَةٌ ۝ فَإِذَا هُمْ وَالنَّجْمَةُ ۝ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ
الْقَيْنِ مَوَدَّى ۝ أَتَاهُ بِإِنْ فَيَوْمَ إِتْرَ طَعْنُ ۝ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكُ ۝
وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَحْشَى ۝ فَارْتَدَّ الْآيَةُ الْكَبِيرَى ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ
يَسْتَكْبِرُ ۝ فَتَنَزَّلُ فَأَتَى ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْآخِلُ ۝ فَكَلَّمَ اللَّهُ نَارًا الْآخِرَةَ
وَالْأُولَى ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَتَخَفُ ۝

اقسم سبحانه بهذه الأشياء التي نكرها، وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد، وكذا المراد: بالناشطات، والسابحات، والسابحات، والمديرات، يعني: الملائكة، والعطف مع اتحاد الكل؛ لتتزيل التغيرات الوصفية منزلة التغيرات الذاتية، كما في قول الشاعر:

إلى الملك القدم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزجم
وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.
وقال السدي «النازعات» هي النفوس حين تغرق في الصور. وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفس. وقال قتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، من قولهم: نزع إليه إذا ذهب، أو من قولهم: نزع بالحبل أي: إنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر. وبه قال أبو عبيدة، والأخفش، وابن كيسان. وقال عطاء، وعكرمة: النازعات القسي تنزع بالسهم، وإغراق النازع في القوس أن يمدّه غاية المد حتى ينتهي به إلى النصل. وقال يحيى بن سلام: تنزع بين الكل وتنفر، وقيل: أراد بالنازعات الغزاة الرماة، وانتصاب «غرقاً» على أنه مصدر بحذف الزوائد أي: إغراقاً، والناصب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي: إغراقاً في النزاع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد، أو على الحال أي: ثوات إغراق، يقال أغرق في الشيء يغرق فيه: إذا أوغل فيه وبلغ غايته «و» معنى «الناشطات» أنها تنشط النفوس أي: تخرجها من الأجساد، كما ينشط العقال من يد البعير: إذا حلّ عنه، ونشط الرجل اللو من البئر: إذا أخرجها، والنشاط الجذب بسرعة، ومنه الانشطة للعقدة التي يسهل حلها. قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقنته، وأنشطته أي: حللته، وأنشطت الحبل أي: مددته. قال الفراء: أنشط العقال أي: حل، ونشط أي: ربط الحبل في يديه، قال الأصمعي: بئر أنشط أي: قريبة القعر يخرج اللو منها بجذبة واحدة، وبئر نشوط، وهي التي لا يخرج منها اللو حتى ينشط كثيراً. وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفس الإنسان. وقال السدي: هي النفوس حين تنشط من القدمين. وقال عكرمة، وعطاء: هي الأرواق التي تنشط السهم، وقال قتادة، والحسن، والأخفش: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي: تذهب. قال في الصحاح: والناشطات نشطاً: يعني: النجوم من برج إلى برج

والبيهقي عن ابن عباس في قوله: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا» قال: منتزهاً «ووكواعب» قال: نواهد «اترأباً» قال: مستويات «ووكاساً دهاقاً» قال: ممتلئاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: «ووكاساً دهاقاً» قال: هي الممتلئة المترعة المتتابعة، وربما سمعت العباس يقول: يا غلام أسقنا، وادهق لنا. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه دهاقاً، قال دراكاً. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال: إذا كان فيها خمر فهي: كاس، وإذا لم يكن فيها خمر، فليس بكاس. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس، وأيد، وأرجل ثم قرأ: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» قال: هؤلاء جند، وهؤلاء جند». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ» قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: الروح في السماء الرابعة، وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفّاً واحداً. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائضه فرقاً من عذاب الله، يقول: سبحانه لا إله إلا أنت ما عبيدك حق عبادتك، ما بين منكبيه، كما بين المشرق والمغرب، أما سمعت قول الله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا». وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في قوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ» قال: يعني: حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفتين قبل أن تردّ الروح إلى الأجساد. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً «وَقَالَ صَوَابًا» قال: لا إله إلا الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم، والدواب، والطير وكل شيء، فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فنلك حين يقول الكافر «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا».

تفسير سورة النازعات

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة النازعات بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّزِ الرَّكَّزِ
وَالْأَرْكَزِ تَشْطًا ۝ وَالْأَرْكَزِ سَبَّحًا ۝ قَالَتِ بَرَاتٍ

معاذ بن جبل، وفي تدبيرها الأمر وجهان: أحدهما تدبير طلوعها، وأقولها. الثاني تدبير ما قضاه الله فيها من الأحوال. ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام، وتقصيلها، والفاعل للتدبير في الحقيقة، وإن كان هو الله عز وجل، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به. وقيل: إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك قيل: لها مديرات. قال عبد الرحمن بن سابط: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل، فأما جبريل، فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل، فموكل بالقطر والنبات، وأما عزرائيل، فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل، فهو ينزل بالأمر عليهم، وجواب القسم بهذه الأمور التي أقسم الله بها محذوف أي: والنازعات، وكذا، وكذا لتبعثن. قال الفراء: وحذف لمعرفة السامعين به، ويدل عليه قوله: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً﴾ وقيل: إن جواب القسم قوله: ﴿إِنْ فِي تِلْكَ لَعِبْرَةٌ لِمَن يَخْشَى﴾ أي: إن في يوم القيامة، ونكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى. قال ابن الأنباري: وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما، وقيل: جواب القسم ﴿هَلْ تَرَكَ حَدِيثَ مُوسَى﴾ لأن المعنى: قد أتاك، وهذا ضعيف جداً، وقيل الجواب: ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾ على تقدير ليم ترفج الراجفة تتبعها الرادفة. وقال السجستاني: يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالسامرة والنازعات. قال ابن الأنباري: وهذا خطأ، لأن الفاء لا يفتح بها الكلام، والأول أولى ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدر للقسم، أو بإضمار انكر، والراجفة المضطربة، يقال رَجَفَ يَرْجِفُ: إذا اضطرب، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد، وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق، والرادفة: النفخة الثانية التي تكون عند البعث، وسميت رادفة؛ لأنها ردت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسرين. وقال ابن زيد: الراجفة الأرض، والرادفة الساعة. وقال مجاهد: الرادفة الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة، وقيل: الراجفة اضطراب الأرض، والرادفة الزلزلة، وأصل الرجفة الحركة، وليس المراد: التحرك هنا فقط، بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم: رَجَفَ الرعد يَرْجِفُ رَجْفًا وَرَجِيفًا: إذا ظهر صوته، ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها، وظهور الأصوات فيها، ومنه قول الشاعر:

أبالأراجيف يا ابن اللؤم توعندي وفي الأراجيف خلت اللؤم والخورا
ومحل ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ النصب على الحال من الراجفة، والمعنى: لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قلوب مبتدأ، ويومئذ منصوب بواجفة، وواجفة صفة قلوب، وجملة ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ خبر قلوب، والراجفة المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة. قال جمهور المفسرين أي: خائفة وجلّة. وقال السدي: زائلة عن أماكنها،

كالثور الناشط من بلد إلى بلد، والهموم تنشط بصاحبها. وقال أبو عبيدة، وقتادة: هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد. وقيل: الناشطات لأرواح المؤمنين، والنازعات لأرواح الكافرين؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق، وتجذب روح الكافر بعنف، وقوله: ﴿نَشْطًا﴾ مصدر، وكذا سبَحًا وسبقًا ﴿وَالسَّابِحَاتُ﴾ الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه، وقال مجاهد، وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفارس الجواد سابح إذا أسرع في جريه. وقال مجاهد أيضاً: السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم. وقيل: هي الخيل السابحة في الغزو، ومنه قول عنترة:

والخيل تعلم حين تسد بح في حياض الموت سبحا
وقال قتادة، والحسن: هي النجوم تسبح في أفلأكلها، كما في قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40] وقال عطاء: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله ﴿فَالسَّابِقَاتُ سَبِقًا﴾ هم: الملائكة على قول الجمهور كما سلف، قال مسروق، ومجاهد: تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء. وقال أبو روق: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير، والعمل الصالح، وروي نحوه عن مجاهد. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الربيع: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله. وقال مجاهد أيضاً: هو الموت يسبق الإنسان. وقال قتادة، والحسن، ومعمار: هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضاً. وقال عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد. وقيل: هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار. قال الجرجاني: عطف السابقات بالفاء، لأنها مسببة من التي قبلها أي: واللاتي يسبحن فيسبقن، تقول قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب، ولو قلت قام وذهب بالواو لم يكن القيام سبباً للذهاب. قال الواحدي: وهذا غير مطرد في قوله: ﴿فَالْمَدِيرَاتُ أَمْرًا﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير. قال الرازي: ويمكن الجواب عما قاله الواحدي: بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فديرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض كقوله: قام زيد فذهب، ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم، ففوض إليهم التدبير. ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير كسببية السبح للسبق، والقيام للذهاب، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية، والأولى أن يقال العطف بالفاء في المديرات طوبى به ما قبله من عطف السابقات بالفاء، ولا يحتاج إلى نكتة، كما احتاج إليها ما قبله؛ لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته ﴿فَالْمَدِيرَاتُ أَمْرًا﴾ قال القشيري: أجمعوا على أن المراد هنا: الملائكة. وقال الماوردي: فيه قولان: أحدهما الملائكة وهو قول الجمهور. والثاني إنها الكواكب السبع، حكاه خالد بن معدان عن

ونقيت أوساطها، والنخرة التي فسدت كلها. وقال مجاهد نخرة أي: مرفوعة، كما في قوله: ﴿رفاتاً﴾ [الإسراء: 49، 98]، وقد قرئ: (إذا كنا) و(إذا كنا) بالاستفهام، وبمعناه. ثم نكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال: ﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي: رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران، والمعنى: أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسر بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد. وقيل: معنى خاسرة كاذبة أي: ليست بكاشنة، كذا قال الحسن وغيره. وقال الربيع بن أنس: خاسرة على من كذب بها. وقال قتادة، ومحمد بن كعب أي: لئن رجعنا بعد الموت لنخسر بالنار، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعوا بالنار، والكرة الرجعة، والجمع كرات. وقوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ تحليل لما يدل عليه ما تقدم من استبعادهم لبعث العظام النخرة، وإحياء الأموات، والمعنى: لا تستبعدوا ذلك فإنما هي زجرة واحدة، وكان ذلك الإحياء، والبعث، والمراد بالزجرة الصيحة وهي النفخة الثانية التي يكون البعث بها. وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿إنما هي﴾. راجع إلى الرافعة المتقدم ذكرها ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ أي: فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض، قال الواحدي: المراد بالساهرة وجه الأرض، وظاهرها في قول الجميع. قال الفراء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نوم الحيوان، وسهرهم، وقيل: لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها، فسميت بذلك، ومنه قول أبي كثير الهذلي:

يردون ساهرة كأن حميمها وغميمها أسداف ليل مظلم
وقول أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم
يريد لحم حيوان أرض ساهرة. قال في الصحاح: الساهرة وجه الأرض، ومنه قوله: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ وقال: الساهرة أرض بيضاء، وقيل: أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها، وقيل: الساهرة الأرض السابعة يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق. وقال سفيان الثوري: الساهرة أرض الشام. وقال قتادة: هي جهنم أي: فإذا هؤلاء الكفار في جهنم، وإنما قيل لها ساهرة؛ لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم، وجملة: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عن تكذيب قومه، وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم، ومعنى هل أتاك: قد جاءك وبلفك، هذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما، وعلى تقدير أن هذا أول ما نزل عليه في شأنهما، فيكون المعنى على الاستفهام أي: هل أتاك حديث أنا أخبرك به ﴿إذا ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ الظرف متعلق بحديث لا بتاتك لاختلاف وقتيهما، وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية، وقد تقدم الاختلاف بين الفراء في طوى في سورة طه. والواد المقدس: المبارك المطهر. قال الفراء: طوى واد بين المدينة ومصر. قال: وهو معدول من

نظيره: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: 18] وقال المؤرج: قلقة مستوفزة. وقال المبرد: مضطربة، يقال وجف القلب يجف وجيفاً: إذا خفق، كما يقال وجب وجب وجيباً، والإيجاف: السير السريع، فاصل الوجيف اضطراب القلب، ومنه قول قيس بن الخطيم:

إن بني جحجبي وقومهم اكباننا من ورائهم تجف
أبصارها خاشعة أي: أبصار أصحابها، فحذف المضاف، والخاشعة الذليلة، والمراد أنها تظهر عليهم الذلة، والخضوع عند معاناة أهوال يوم القيامة كقوله: ﴿خاشعين من الذل﴾ [الشورى: 45] قال عطاء: يريد أبصار من مات على غير الإسلام، ويدل على هذا أن السياق في منكري البعث ﴿يقولون إنا لمردونون في الحافرة﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون أي: أنرد إلى أول حالنا، وابتداء أمرنا، فنصير أحياء بعد موتنا، يقال رجع فلان في حافرتة أي: رجع من حيث جاء، والحافرة عند العرب اسم لأول الشيء، وابتداء الأمر، ومنه قولهم رجع فلان على حافرتة: أي على الطريق الذي جاء منه، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة أي: عند أول ما التقوا، وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة، ومن هذا قول الشاعر:

أحافرة على صلح وشيب معاذ الله من سفه وعار
أي: أرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل بعد الشيب والصلح، وقيل الحافرة: العاجلة، والمعنى: إنا لمردونون إلى الدنيا، وقيل الحافرة: الأرض التي تحفر فيها قبورهم، ومنه قول الشاعر:

أليت لا أنساكم فاعلموا حتى يرث الناس في الحافرة
والمعنى: إنا لمردونون في قبورنا أحياء، كذا قال الخليل، والفراء، وبه قال مجاهد. وقال ابن زيد: الحافرة النار، واستدل بقوله: ﴿تلك إذا كرة خاسرة﴾ قرأ الجمهور (في الحافرة) وقرأ أبو حيو (في الحفرة) ﴿إذا كنا عظاماً نخرة﴾ أي: بالية متفتتة، يقال نخر العظم بالكسر: إذا بلي وهذا تأكيد لإنكار البعث أي: كيف نرد أحياء، ونبعث إذا كنا عظاماً نخرة، والعامل في إذا مضمير يدل عليه مردونون أي: إذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة. قرأ الجمهور (نخرة) وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر (ناخرة)، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم، واختار القراءة الثانية الفراء، وابن جرير، وأبو معاذ النحوي. قال أبو عمرو بن العلاء: النخرة التي لم تنخر بعد أي: لم تبلى ولا بد أن تنخر. وقيل: هما بمعنى، تقول العرب: نخر الشيء، فهو ناخر ونخر، وطمع، فهو طامع وطمع ونحو ذلك. قال الأخفش: هما جميعاً لغتان أيهما قرأت فحسن. قال الشاعر:

يظل بها الشيخ الذي كان باننا يدب على عوج له نخرات
يعني: على قوائم عوج، وقيل: النخرة التي اكلت أطرافها

والأولى» النكال نعت مصدر محنوف أي: أخذه أخذ نكال، أو هو مصدر لفعل محنوف أي: أخذه الله، فنكله نكال الآخرة، والأولى، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار، ونكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق. وقال مجاهد: عذاب أول عمره وآخره. وقال قتادة: الآخرة قوله: «أنا ربكم الأعلى» والأولى تكذيبه لموسى. وقيل: الآخرة قوله: «أنا ربكم الأعلى» والأولى قوله: «ما علمت لكم من إله غيري» وكان بين الكلمتين أربعون سنة، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له أي: أخذه الله لأجل نكال، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض أي: بنكال. ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد، قال: لأن معنى أخذه الله نكل الله به، فأخرج من معناه لا من لفظه. وقال الفراء أي: أخذه الله أخذاً نكالاً أي: للنكال، والنكال اسم لما جعل نكالاً للغير أي: عقوبة له، يقال: نكل فلان بفلان إذا عقابه، وأصل الكلمة من الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، والنكل القيد «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى» أي: فيما ذكر من قصة فرعون، وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه، ويخاف عقوبته، ويحاذر غضبه.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب في قوله: «وَالنَّازِعَاتُ غُرَقًا» قال: هي الملائكة تنزع روح الكفار «وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا» قال: هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها «وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا» هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض «فَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا» هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله «فَالْمُمِيزَاتُ أَمْرًا» هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «وَالنَّازِعَاتُ غُرَقًا» قال: هي أنفس الكفار تنزع، ثم تنشط، ثم تفرق في النار. وأخرج الحاكم وصححه عنه «وَالنَّازِعَاتُ غُرَقًا» و«النَّاشِطَاتُ نَشْطًا» قال: الموت. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود: «وَالنَّازِعَاتُ غُرَقًا» قال: الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله: «وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا» قال: الملائكة. وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لَا تَمُرَّقُ النَّاسَ، فْتَمُرَّقَ كَلَابُ النَّارِ، قَالَ اللَّهُ: «وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا» أَتَدْرِي مَا هُوَ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا هُوَ؟ قَالَ: كَلَابُ فِي النَّارِ تَنْشِطُ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ». وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن ابن الكواء سأل عن «الْمُمِيزَاتُ أَمْرًا» قال: هي الملائكة يدبرون نكر الرحمن وأمره. وأخرج ابن أبي الدنيا في نكر الموت عن ابن عباس قال: «الْمُمِيزَاتُ أَمْرًا» ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم، فمنهم من يعرج بالروح، ومنهم من يؤمّن على الدّعاء، ومنهم من يستغفر للميت حتى يُصلى عليه ويلى في حفرته. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجَافَةُ» قال: النفخة الأولى «تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ» قال: النفخة الثانية

طاو كما عدل عمر من عامر. قال: والصرف أحب إليّ إذ لم أجد في المعدول نظيراً له. وقيل: طوى معناه يا رجل بالعبرانية، فكانه قيل يا رجل اذهب، وقيل المعنى: إن الوادي المقدس بورك فيه مرتين، والأول أولى. وقد مضى تحقيق القول فيه: «أذهب إلى فرعون إنه طغى» قيل: هو على تقدير القول، وقيل: هو تفسير للنداء أي: ناداه نداء هو قوله اذهب. وقيل: هو على حذف أن المفسرة، ويؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب: لأن في النداء معنى القول، وجملة: «إِنَّهُ طَغَى» تحليل للأمر أو لوجوب الامتنال أي: جاوز الحد في العصيان، والتكبر، والكفر بالله «فَقُلْ» له «هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى» أي: قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكي وهو التطهر من الشرك، وأصله تَزَكَّى فحذفت إحدى التاءين. قرأ الجمهور (تَزَكَّى) بالتخفيف. وقرأ نافع، وابن كثير بتشديد الزاي على إدغام التاء في الزاي. قال أبو عمرو بن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكياً مؤمناً ومعنى قراءة التشديد الصفة، وفي الكلام مبتدأ مقدر يتعلق به إلى، والتقدير: هل لك رغبة، أو هل لك توجه، أو هل لك سبيل إلى التزكي، ومثل هذا قولهم هل لك في الخير؟ يريون هل لك رغبة في الخير، ومن هذا قول الشاعر:

فهل لكم فيها إليّ فأنسي بصير بما أعبا النطاسي جنبما
«وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى» أي: أرشدك إلى عبادته، وتوحيده، فتخشى عقابه، وإلقاء لترتيب الخشية على الهداية؛ لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد «فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى» هذه الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن كلام محنوف، يعني: فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله في غير موضع، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال: «إِنْ كُنْتَ جِثَّتْ بَآيَةٌ فَاتْ بِهَا» [الأعراف: 106] فعند ذلك أراه الآية الكبرى. واختلف في الآية الكبرى ما هي؟ فقيل: العصا، وقيل: يده، وقيل: فلق البحر، وقيل: هي جميع ما جاء به من الآيات التسع «فَكَتَبَ وَعَصَى» أي: فلما أراه الآية الكبرى كُتِبَ بموسى، وبما جاء به، وعصى الله عز وجل، فلم يطعه «ثُمَّ أَنْبِرْ» أي: تولى، وأعرض عن الإيمان «يَسْعَى» أي: يعمل بالفساد في الأرض، ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى، وقيل: أنبر هارباً من الحية يسعى خوفاً منها. وقال الرازي: معنى: «الْبِرْ يَسْعَى» أقبل يسعى، كما يقال أقبل يفعل كذا أي: أنشأ يفعل كذا، فوضع أنبر موضع أقبل؛ لثلا يوصف بالإقبال «فَحَشَرَ» أي: فجمع جنوده للقتال والمحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة، أو جمع الناس للحضور؛ ليشاهدوا ما يقع، أو جمعهم ليمنعوه من الحية «فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» أي: قال لهم بصوت عال، أو أمر من ينادي بهذا القول. ومعنى: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» أنه لا ربّ فوقه. قال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها وقال: أنا ربّ أصنامكم، وقيل: أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم. والأول أولى لقوله في آية أخرى: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» [القصص: 38] «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ»

[81] ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال: ﴿بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، ورفع سمكها أي: أعلاه في الهواء، فقلوه: ﴿رَفَعَ سَمَكُهَا﴾ بيان للبناء، يقال سمكت الشيء أي: رفعته في الهواء، وسمك الشيء سموكاً: ارتفع. قال الفراء كل شيء حمل شيئاً من البناء أو غيره فهو سمك، وبناء مسموك، وسنام سامك أي: عال، والسموكات: السموات؛ ومنه قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
قال البغوي: رفع سمكها أي: سققها. قال الكسائي، والفراء، والزجاج: تم الكلام عند قوله: ﴿أَمَ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف التي، ومثل هذا الحذف جائز. ومعنى ﴿فَسَوَّاهَا﴾ فجعلها مستوية الخلق معلة الشكل لا تفاوت فيها، ولا عوجاج، ولا فطور، ولا شقوق ﴿وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا﴾ الغطش الظلمة أي: جعله مظلماً، يقال غطش الليل وأغطشه الله، كما يقال أظلم الليل وأظلمه الله، ورجل أغطش، وامرأة غطشى لا يهتديان. قال الراغب: وأصله من الأغطش، وهو الذي في عينه عمش، ومنه فلاة غطشى لا يهتدى فيها، والتغطاش التعامي. قال الأعشى:

ودهاء بالليل غطشى الفلاة يؤنسنني صوت قيادها
وقوله:

وغامرهم ملهم غطش

يعني: غمرهم سواد الليل، وأضاف الليل إلى السماء؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضافة إلى السماء ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس، وعبر عن النهار بالضحى؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها، وأضافه إلى السماء؛ لأنه يظهر بظهور الشمس، وهي منسوبة إلى السماء ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاهَا﴾ أي: بعد خلق السماء، ومعنى نحاها بسطها، وهذا يدل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، ولا معارضة بين هذه الآية، وبين ما تقدم في سورة فصلت من قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: 11] بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير منحوة، ثم خلق السماء، ثم نحا الأرض، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك، وقدّمنا أيضاً بحثاً في هذا في أول سورة البقرة عند قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: 29] ونكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع، كما في قوله: ﴿عَتَلْ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾ [القلم: 13]، وقيل: بعد بمعنى قبل، كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: 105] أي: من قبل الذكر، والجمع الذي نكرناه أولى، وهو قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير. يقال نحوت الشيء أنحوه: إذا بسطته، ويقال لعش النعامة أنحى؛ لأنه مبسوط على الأرض، وأتشد المبرد:

نحاها فلما أراها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا
وقال أمية بن أبي الصلت:
وبث الخلق فيها إذا نحاها فهم قطانها حتى التنادي

﴿قُلُوبَ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قال: خائفة ﴿أَتُنَّا لَمْرُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قال: الحياة. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن أبي بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربيع الليل قام فقال: أيها الناس انكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرانفة، جاء الموت بما فيه». وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ترجف الأرض رجفاً وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تتبعها الرانفة» يقول: مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿قُلُوبَ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قال: وجلة متحركة. وأخرج عبد بن حميد عنه: ﴿أَتُنَّا لَمْرُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قال: خلقاً جديداً. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الأنباري في الوقف والابتداء، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً أنه سئل عن قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ فقال: السامرة وجه الأرض، وفي لفظ قال: الأرض كلها سامرة، ألا ترى قول الشاعر:

صيد بحر وصيد سامرة

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى﴾ قال: هل لك أن تقول: لا إله إلا الله. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: ﴿فَلَاخِذْهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ قال: قوله: ﴿إِنَّا رَيْكُمُ الْأَعْلَى﴾ والأولى قال: قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: كان بين كلمتيه أربعون سنة.

يَوْمَئِذٍ أَتَتْهُ خَلْقٌ أَرِئْتُمْ بَنَاتُهُ ۖ زَفَعَ سَمَكُهَا مَوَّجَهَا ۖ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا
وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۖ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاهَا ۖ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۖ
وَالْبَحَالَ أَوْسَاهَا ۖ نَسَّاكُمْ وَلِأَعْمِيكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْهَلَاكُ الْكَبِيرُ ۖ يَوْمَ
يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۖ وَرَزَقَهُ الْجَبِيذَ لِمَنْ رَى ۖ فَأَمَّا مَنْ مَلَئَ ۖ
وَأَتَى الْجَنَّةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَبِيذَ فِي النَّارِ ۖ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ النَّارُ ۖ يَتَذَكَّرُكَ عَنِ الشَّاعَةِ إِيَّانَ مَرْسَلَهَا
ۖ يَوْمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهِمْ ۖ إِنْ رَزَقَ مِنْهُمْ ۖ إِنْ أَنْتَ مُنْذِرٌ مَن يَحْشَنهَا
ۖ كَانَهُمْ يَوْمَ رَزَقَهُمْ لَمْ يَكُنُوا إِلَّا شَيْئَةً أَوْ حُكْمًا ۖ

قوله: ﴿إِنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءَ﴾ أي: أخلقكم بعد الموت، وبعثكم أشد عندكم، وفي تقديرهم أم خلق السماء والخطاب لكفار مكة، والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيت؛ لأن من قدر على خلق السماء التي لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة؟ ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57] وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتَ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس:

وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

واسلمت وجهي لمن اسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلاً
لحاما فلما استوت شدّها بأيدي وأرسي عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال، وقرأ الحسن، وعمرو بن ميمون، وابن أبي عبيدة، وأبو حيوة، وأبو السماك، وعمرو بن عبيد، ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء. **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾** أي: فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون وأخرج منها مرعاها أي: الثبات الذي يربى، ومرعاها مصدر ميمي أي: رعيها، وهو في الأصل موضع الرعي، والجملة إما بيان وتفسير لحاما؛ لأن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المكل والمشرّب. وإما في محل نصب على الحال **﴿والجبال أرساها﴾** أي: أثبتتها في الأرض، وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر، وإن لا تميد بأهلها. قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال. وقرأ الحسن، وعمرو بن ميمون، وأبو حيوة، وأبو السماك، وعمرو بن عبيد، ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء، قيل: ولعل وجه تقديم نكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر الماكل والمشرّب **﴿متاعاً لكم ولانعامكم﴾** أي: منفعة لكم ولانعامكم من البقر، والإبل، والغنم، وانتصاب متاعاً على المصدرية أي: متمك بذلك متاعاً أو هو مصدر من غير لفظه؛ لأن قوله: **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾** بمعنى متع بذلك، أو على أنه مفعول له أي: فعل ذلك لأجل التمتع، وإنما قال: **﴿لكم ولانعامكم﴾** لأن فائدة ما نكر من الدوح، وإخراج الماء، والمرعى كائنة لهم ولانعامهم، والمرعى يعم ما ياكله النلس والدواب **﴿فإذا جاء الطامة الكبرى﴾** أي: الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات. قال الحسن، وغيره: وهي النفخة الثانية. وقال الضحاك، وغيره: هي القيامة سميت بذلك، لأنها تطم على كل شيء لعظم هولها. قال المبرد: الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طمّ الفرس طمياً: إذا استفرغ جهده في الجري، وطمّ الماء: إذا ملا النهر كله. وقال غيره: هو من طمّ السيل الركبة أي: دفنها، وطمّ الدفن. قال مجاهد، وغيره: الطامة الكبرى هي التي تسلم أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها، وجواب إذا قيل: هو قوله: **﴿فأما من طغى﴾** وقيل: محذوف أي: فإن الأمر كذلك، أو عاينوا أو علموا، أو أدخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة. وقال أبو البقاء: العامل فيها جوابها وهو معنى: **﴿يومئذ يتنكر الإنسان﴾** [الفجر: 23] فإنه منصوب بفعل مضمر أي: أعني يوم يتنكر، أو يوم يتنكر يكون كيت، وكيت. وقيل: إن الظرف بدل من إذا، وقيل: هو بدل من الطامة الكبرى؛ ومعنى تنكر الإنسان ما سعي: أنه يتنكر ما عمله من خير، أو شر؛ لأنه يشاهده مدوناً في صحائف

عمله، وماء مصدرية، أو موصولة **﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾** معطوف على جاءت، ومعنى برزت: أظهرت إظهاراً لا يخفى على أحد. قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق، وقيل: **﴿لمن يرى﴾** من الكفار، لا من المؤمنين؛ والظاهر أن تبرز لكل راء، فأما المؤمن، فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها، وأما الكافر فيزداد غماً إلى غمه، وحسرة إلى حسرته. قرأ الجمهور (لمن يرى) بالتحية، وقرأت عائشة، ومالك بن دينار، وعكرمة، وزيد بن عليّ بالفوقية أي: لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد. وقرأ ابن مسعود (لمن رأى) على صيغة الفعل الماضي **﴿فأما من طغى﴾** أي: جاوز الحد في الكفر والمعاصي **﴿وأثر الحياة الدنيا﴾** أي: قسّمها عن الآخرة، ولم يستعد لها، ولا عمل عملها **﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾** أي: مأواه، والألف واللام عوض عن المضاف إليه، والمعنى: أنها منزله الذي ينزله، ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها. ثم نكر القسم الثاني من القسمين فقال: **﴿وأما من خاف مقام ربه﴾** أي: حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة. قال الربيع: مقامه يوم الحساب. قال قتادة: يقول إن الله عز وجل مقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل عند واقعة الذنب فيقلع عنه، نظيره قوله: **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾** [الرحمن: 46] والأول أولى **﴿ونهى النفس عن الهوى﴾** أي: زجرها عن الميل إلى المعاصي والمحارم التي تشتهيها. قال مقاتل: هو الرجل يهمل بالمعصية، فينكر مقامه للحساب، فيتركها **﴿فإن الجنة هي المأوى﴾** أي: المنزل الذي ينزله، والمكان الذي يأوي إليه لا غيرها **﴿يسألونك عن الساعة إيانا مرساها﴾** أي: متى وقوعها وقيامها. قال الفراء: أي: منتهى قيامها كرسو السفينة. قال أبو عبيدة: ومرسى السفينة حين تنتهي، والمعنى: يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله، وقد مضى بيان هذا في سورة الأعراف **﴿فيم أنت من ذكرها﴾** أي: في أي شيء أنت يا محمد من نكر القيامة والسؤال عنها، والمعنى: لست في شيء من علمها، ونكراها إنما يعلمها الله سبحانه، وهو إنكار ورد لسؤال المشركين عنها أي: فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه **﴿إلى ربك منتهاها﴾** أي: منتهى علمها، فلا يوجد علمها عند غيره، وهذا كقوله: **﴿قل إنما علمها عند ربي﴾** [الأعراف: 187] وقوله: **﴿إن الله عنده علم الساعة﴾** [لقمان: 34] فكيف يسألونك عنها، ويطلبون منك بيان وقت قيامها **﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾** أي: مخوف لمن يخشى قيام الساعة، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة، ونحوه مما استأثر الله بعلمه، وخصّ الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار، وإن كان منذراً لكل مكلف من مسلم وكافر. قرأ الجمهور بإضافة (منذر) إلى ما بعده. وقرأ عمر بن عبد العزيز، وأبو جعفر، وطلحة، وابن محيصن، وشيبة، والأعرج، وحמיד بالتثنية، ورويت هذه

مشركي مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا: متى الساعة استهزاء منهم؟ فأنزل الله: **﴿يسألونك عن الساعة إيان مرساها﴾** يعني: مجيئها **﴿فيم أنت من نكراها﴾** يعني: ما أنت من علمها يا محمد **﴿إلى ربك منتهاها﴾** يعني: منتهى علمها. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: «كانت الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ سألوه عن الساعة، فينظر إلى أحدث إنسان منهم، فيقول: إن يعيش هذا قامت عليكم ساعتكم».

تفسير سورة عبس

وهي مكية في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة عبس بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَسَىٰ وَرَوْكَ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَحْسَىٰ ۝٢ مَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ بُرْكَ ۝٣ أَوْ يَكُونُ ۝٤ تَتَجَمَّعُ الذُّكُرُ ۝٥ أَمَا مَنِي اسْتَقَىٰ ۝٦ فَالْتَمَ صَدَقَ ۝٧ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا بَرْكَ ۝٨ وَأَلَّا مَن جَاءَهُ يَسْأَلُ ۝٩ وَفَوْ يَخْتَلُ ۝١٠ فَالْتَمَ عَنْهُ لَلَّي ۝١١ كَلَّا إِنَّمَا ۝١٢ نَفْسٌ ۝١٣ مِّن شَأْنٍ ذَكَّرَ ۝١٤ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٥ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٦ بِأَيْدِي سَفَرٍ ۝١٧ كَرَامٍ مَّزِينٍ ۝١٨ قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ ۝١٩ مَن آتَىٰ قَوْمَهُ خَلْقًا ۝٢٠ مِّن نَّفْسٍ خَلْقًا فَقَدَّرَ ۝٢١ ثُمَّ اتَّخَذَ لِشِرْرِ ۝٢٢ ثُمَّ أَمَانَةً فَأَقْبَرَ ۝٢٣ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۝٢٤ كَلَّا لَئِن لَّا يَفْقَهُ شَأْنَ آتِهِ ۝٢٥ لَيَفْخَرَنَّهُ الْإِنْسَانُ إِنَّهُ لَطَائِفٌ ۝٢٦ أَلَّا صَبَّ إِلَهُ مَاءً ۝٢٧ ثُمَّ تَنَفَّسَ الْأَرْضَ نَفَا ۝٢٨ فَأَنْفَسَ فِيهَا جَاءً ۝٢٩ وَفَعَا ۝٣٠ وَفَعَا ۝٣١ وَزَيَّنَّا لِلْفَلَكِ ۝٣٢ زِينَةً عَلَا ۝٣٣ وَفَعَا ۝٣٤ وَفَعَا ۝٣٥ وَفَعَا ۝٣٦ وَفَعَا ۝٣٧ وَفَعَا ۝٣٨ وَفَعَا ۝٣٩ وَفَعَا ۝٤٠ وَفَعَا ۝٤١ وَفَعَا ۝٤٢ وَفَعَا ۝٤٣ وَفَعَا ۝٤٤ وَفَعَا ۝٤٥ وَفَعَا ۝٤٦ وَفَعَا ۝٤٧ وَفَعَا ۝٤٨ وَفَعَا ۝٤٩ وَفَعَا ۝٥٠ وَفَعَا ۝٥١ وَفَعَا ۝٥٢ وَفَعَا ۝٥٣ وَفَعَا ۝٥٤ وَفَعَا ۝٥٥ وَفَعَا ۝٥٦ وَفَعَا ۝٥٧ وَفَعَا ۝٥٨ وَفَعَا ۝٥٩ وَفَعَا ۝٦٠ وَفَعَا ۝٦١ وَفَعَا ۝٦٢ وَفَعَا ۝٦٣ وَفَعَا ۝٦٤ وَفَعَا ۝٦٥ وَفَعَا ۝٦٦ وَفَعَا ۝٦٧ وَفَعَا ۝٦٨ وَفَعَا ۝٦٩ وَفَعَا ۝٧٠ وَفَعَا ۝٧١ وَفَعَا ۝٧٢ وَفَعَا ۝٧٣ وَفَعَا ۝٧٤ وَفَعَا ۝٧٥ وَفَعَا ۝٧٦ وَفَعَا ۝٧٧ وَفَعَا ۝٧٨ وَفَعَا ۝٧٩ وَفَعَا ۝٨٠ وَفَعَا ۝٨١ وَفَعَا ۝٨٢ وَفَعَا ۝٨٣ وَفَعَا ۝٨٤ وَفَعَا ۝٨٥ وَفَعَا ۝٨٦ وَفَعَا ۝٨٧ وَفَعَا ۝٨٨ وَفَعَا ۝٨٩ وَفَعَا ۝٩٠ وَفَعَا ۝٩١ وَفَعَا ۝٩٢ وَفَعَا ۝٩٣ وَفَعَا ۝٩٤ وَفَعَا ۝٩٥ وَفَعَا ۝٩٦ وَفَعَا ۝٩٧ وَفَعَا ۝٩٨ وَفَعَا ۝٩٩ وَفَعَا ۝١٠٠

قوله: **﴿عبس وقولي﴾** أي: كلج بوجهه وأعرض. وقرئ عبس بالتشديد **﴿إن جاءه الأعمى﴾** مفعول لأجله: أي؛ لأن جاءه الأعمى، والعامل فيه إما عبس، أو تولى على الاختلاف بين البصريين، والكوفيين في التنازع هل المختار إعمال الأول أو الثاني؟

وقد اجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية: أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ، وقد طمع في إسلامهم، فاقبل عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه، فأعرض عنه، فنزلت، وسيأتي في آخر البحث بيان هذا إن شاء الله **﴿وما يدريك لعله يزكي﴾** التفت سبحانه إلى خطاب نبيه ﷺ، لأن المشافهة أدخل في العتاب: أي أي شيء يجعلك دارياً بحاله حتى تعرض عنه، وجملة **﴿لعله يزكي﴾** مستأنفة لبيان أن له شأنًا ينافي الإعراض عنه أي: لعله يتطهر من الذنوب

القراءة عن أبي عمرو. قال الفراء: والتونين، وتركه في منذر صواب كقوله: **﴿بالغ أمره﴾** [الطلاق: 3] و **﴿موهن كيد الكافرين﴾** [الأنفال: 18]. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن تكون الإضافة للماضي، نحو ضارب زيد أمس **﴿كانهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾** أي: إلا قدر آخر نهار أو أوله، أو قدر الضحى الذي يلي تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال: **﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾** [الأحقاف: 35] وقيل: لم يلبثوا في قبورهم إلا عشية أو ضحاها. قال الفراء: والزجاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب، يقولون: أتيتك الغداة أو عشيتها، وأتيتك العشية أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار. ومنه قول الشاعر:

نحن صبحنا عامراً في دارها جرداً تعادى طرفي نهارها

عشية الهلال أو سرارها

والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿رفع سمكها﴾** قال: بناها **﴿وواغطش ليلها﴾** قال: اظلم ليلها. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **﴿واغطش ليلها﴾** قال: واظلم ليلها **﴿وأخرج ضحاها﴾** قال: أخرج نهارها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾** قال: مع ذلك. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه أيضاً أن رجلاً قال له: أبتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى، فقال: إنما أتيت من قبل رايك، قال: اقرا: **﴿قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾** حتى بلغ: **﴿ثم استوى إلى السماء﴾** [فصلت: 9 - 11] وقوله: **﴿والأرض بعد ذلك نحاها﴾** قال: خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء، ثم نحى الأرض بعد ما خلق السماء، وإنما قوله: **﴿نحاها﴾** بسطها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: **﴿نحاها﴾** أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال، والرمال، والسبل، والأكام وما بينهما في يومين. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الطامة من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن مريويه عن علي بن أبي طالب: «كان النبي ﷺ يسأل عن الساعة فنزلت: **﴿فيم أنت من نكراها﴾**». وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن عائشة قالت: «ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله: **﴿فيم أنت من نكراها﴾** * إلى ربك منتهاها» فأنتهى، فلم يسأل عنها. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر نكر الساعة حتى نزلت: **﴿فيم أنت من نكراها﴾** * إلى ربك منتهاها» فكف عنها. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس. قال السيوطي بسند ضعيف: إن

بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، فالضمير في لعله راجع إلى الأعمى، وقيل: هو راجع إلى الكافر أي: وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكي، أو ينكر، والأول أولى. وكلمة الترتجي باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجو التزكي مما لا يجوز. قرأ الجمهور (أن جاءه الأعمى) على الخبر بدون استفهام، ووجهه ما تقدم. وقرأ الحسن (أن جاءه) بالمذ على الاستفهام، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دل عليه عيس وتولى، والتقدير، أن جاءه الأعمى تولى وأعرض، ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنعام: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ [الأنعام: 52] وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: 28] وقوله: ﴿أو يذكر﴾ عطف على يزكي داخل معه في حكم الترتجي أي: أو يتذكر، فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿فتفتحه الذكر﴾ أي: الموعظة. قرأ الجمهور (فتفتحه) بالرفع، وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق، وعيسى، والسلمي، وزد بن حبش بالنصب على جواب الترتجي ﴿لما من استغنى﴾ أي: كان ذا ثروة وغنى، أو استغنى عن الإيمان، وعما عنك من العلم ﴿فأنت له تصدى﴾ أي: تصغي لكلامه، والتصدي الإصغاء. قرأ الجمهور (تصدى) بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفاً، وقرأ نافع، وابن محيصن بالتشديد على الإدغام، وفي هذا مزيد تنفير له ﷺ عن الإقبال عليهم، والإصغاء إلى كلامهم ﴿وما عليك أن لا يزكى﴾ أي: أي شيء عليك في أن لا يسلم، ولا يهتدي، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بامر من كان هكذا من الكفار، ويجوز أن تكون ما نافية أي: ليس عليك بأس في أن لا يتزكى من تصدّيت له، وأقبلت عليه، وتكون الجملة في محل نصب على الحال من ضمير تصدّى. ثم زاد سبحانه في معاتبته رسوله ﷺ فقال: ﴿وما من جاءك يسعى﴾ أي: وصل إليك حال كونه مسرعاً في المجيء إليك طالباً منك أن ترشده إلى الخير، وتعظه بمواعظ الله، وجملة ﴿وهو يخشى﴾ حال من فاعل يسعى على التداخل، أو من فاعل جاءك على الترانف ﴿فأنت عنه تلهي﴾ أي: تتشاغل عنه، وتعرض عن الإقبال عليه، والتلهي التشاغل، والتغافل، يقال لهيت عن الأمر إلهي أي: تشاغلته عنه، وكذا تلهيت، وقوله: ﴿كلا﴾ ردع له ﷺ عما عوتب عليه أي: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني، والتشاغل به، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكي، والقبول للموعظة، وهذا الواقع من النبي ﷺ هو: من باب ترك الأولى، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به ﴿إنها تنكرة﴾ أي: أن هذه الآيات، أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها، وتقبلها وتعمل بموجبها، ويعمل بها كل أمتك ﴿فمن شاء نكرة﴾ أي: فمن رغب فيها اتعظ بها، وحفظها، وعمل بموجبها، ومن رغب عنها، كما فعله من استغنى، فلا

حاجة إلى الاهتمام بأمره. قيل: الضميران في إنها، وفي نكره للقرآن، وتنايت الأولى لتنايت خبره. وقيل: الأولى للسورة، أو للآيات السابقة. والثاني للتنكرة: لأنها في معنى النكر، وقيل إن معنى: ﴿فمن شاء نكرة﴾ فمن شاء الله الهمة، وفهم القرآن حتى ينكره، ويتعظ به، والأول أولى. ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التنكرة، وجلالتها فقال: ﴿في صحف﴾ أي: إنها تنكرة كاثنة في صحف، فالجار، والمجرور صفة للتنكرة، وما بينهما اعتراض، والصحف جمع صحيفة، ومعنى ﴿مكرمة﴾: أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، وقيل: المراد بالصحف: كتب الأنبياء، كما في قوله: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ * صحف إبراهيم وموسى. [الأعلى: 18، 19] ومعنى ﴿مرفوعة﴾ أنها رفيعة القدر عند الله، وقيل: مرفوعة في السماء السابعة. قال الواحدي: قال المفسرون: مكرمة يعني: اللوح المحفوظ ﴿مرفوعة﴾ يعني: في السماء السابعة. قال ابن جرير: مرفوعة القدر، والنكر، وقيل: مرفوعة عن الشبه، والتناقض ﴿مطهرة﴾ أي: منزهة لا يمسها إلا المطهرون. قال الحسن: مطهرة من كل دنس. قال السدي: مصانة عن الكفار لا ينالونها ﴿بأيدي سفرة﴾ السفرة جمع سافر ككتبة، وكتاب، والمعنى: أنها بأيدي كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ. قال الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله، من السفارة وهو: السعي بين القوم، وأنشد:

فما أذع السفارة بين قومي ولا أمشي بغير أب نسيب
قال الزجاج: وإنما قيل: للكتاب سفر بكسر السين، والكتاب سافر؛ لأن معناه أنه بين، يقال أسفر الصباح: إذا أضاء، وأسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة أي: أصلحت بينهم. قال مجاهد: هم: الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد. وقال قتادة: السفرة هنا هم القراء؛ لأنهم يقرءون الأسفار. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب النبي ﷺ. ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال: ﴿كرام بررة﴾ أي: كرام على ربهم كذا قال الكلبي. وقال الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها. وقيل: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو قضى حاجته. وقيل: يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم. وقيل: يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. والبررة جمع بارٍ مثل كفرة، وكافر أي: اتقاء مطيعون لربهم صابقون في إيمانهم، وقد تقدم تفسيره ﴿قتل الإنسان ما اكفره﴾ أي: لعن الإنسان الكافر ما أشد كفره، وقيل: عذب، قيل: والمراد به عتبة بن أبي لهب، ومعنى: ما اكفره التعجب من إفراط كفره. قال الزجاج: معناه أعجبوا أنتم من كفره، وقيل: المراد بالإنسان من تقدم نكره في قوله: ﴿لما من استغنى﴾ وقيل: المراد به الجنس، وهذا هو الأولى، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية نخولاً أولاً، ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا

لام العلة. قال الزجاج: الكسر على الابتداء والاستئناف، والفتح على معنى البذل من الطعام. المعنى: فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صباً، وأراد بصب الماء المطر. وقرأ الحسن بن علي بالفتح، والإمالة ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا﴾ أي: شققناها بالثبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقاً بديعاً لا ثاقاً بما يخرج منه في الصغير، والكبير، والشكل، والهيئة. ثم بيّن سبب هذا الشقّ، وما وقع لأجله، فقال: ﴿فَانْبِثْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ يعني: الحبوب الذي يتغذى بها، والمعنى: أن النبات لا يزال ينمو، ويتزايد إلى أن يصير حباً، وقوله: ﴿وَعَنَابًا﴾ معطوف على حباً أي: وانبتنا فيها عنباً، قيل: وليس من لوازم العطف أن يقيّد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه، فلا ضير في خلوّ إنبات العنب عن شقّ الأرض، والقضب: هو القثّ الرطب الذي يقضب مرّة بعد أخرى تطف به الدواب، ولهذا سمي قضباً على مصدر قضبه أي: قطعه كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع. قال الخليل: القضب الفصفصة الرطبة، فإذا يبست فهي: القثّ. قال في الصحاح: والقضبة، والقضب الرطبة، قال: والموضع الذي ينبت فيه مقضبة. قال القتيبي، وثعلب: وأهل مكة يسمون العنب القضب. والزيتون هو ما يعصر منه الزيت، وهو شجرة الزيتون المعروفة، والنخل هو جمع نخلة ﴿وَوَحْدَانًا غَلْبًا﴾ جمع حديقة، وهي البستان، والغلب العظام الغلاظ الرقاب. وقال مجاهد، ومقاتل: الغلب الملتفّ بعضها ببعض، يقال: رجل أغلب: إذا كان عظيم الرقبة، ويقال للأسد أغلب: لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلاّ جميعاً. قال العجاج:

مازلت يوم البين الري صلبى والراس حتى صرت مثل الأغلب
وجمع أغلب، وغلباء غلب، كما جمع أحمر، وحمرأ على حمر. وقال قتادة، وابن زيد: الغلب النخل الكرام. وعن ابن زيد أيضاً، وعكرمة: هي غلاظ الأوساط، والجنوع. والفاكهة ما يكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب، والتين، والخوخ، ونحوها. والأبّ كل ما أنبتت الأرض مما لا يكله الناس، ولا يزرعون من الكلال، وسائر أنواع المرعى، ومنه قول الشاعر:

جئنا قيس ونجد دارنا ولنا الأبّ بها والمكرع
قال الضحاك: الأبّ كل شيء ينبت على وجه الأرض. وقال ابن أبي طلحة: هو الثمار الرطبة. وروي عن الضحاك أيضاً أنه قال: هو التين خاصة، والأوّل أولى. ثم شرع سبحانه في بيان أحوال المعاد فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ يعني: صيحة يوم القيامة، وسميت صاخة لشدة صوتها؛ لأنها تصخ الأذان: أي تصمها، فلا تسمع، وقيل: سميت صاخة؛ لأنها يصيح لها الأسماع، من قولك أصاخ إلى كذا أي: استمع إليه، والأوّل أصح. قال الخليل: الصاخة صيحة تصخ الأذان حتى تصمها بشدة وقعها، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذة من الصكّ الشديد، يقال صكه بالحجر: إذا صكه بها، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله: ﴿لِكُلِّ امْرئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: فإذا جاءت الصاخة اشتغل

الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره، ويكفّ عن طغيانه فقال: ﴿مَنْ أَيُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: من أي شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير. ثم فسر ذلك فقال: ﴿مَنْ نَطَقَهُ خَلَقَهُ﴾ أي: من ماء مهين، وهذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين، ومعنى ﴿فَقَدَرَهُ﴾ أي: فسوّاه، وهياه لمصالح نفسه، وخلق له اليدين، والرجلين، والعينين، وسائر الآلات، والحواس، وقيل: قدره أطواراً من حال إلى حال، نطفة، ثم علقة إلى أن تمّ خلقه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ أي: يسرّ له الطريق إلى الخير والشر. وقال السدي، ومقاتل، وعطاء، وقاتدة: يسره للخروج من بطن أمه، والأوّل أولى. ومثله قوله: ﴿وَهَيَّاهُ النَّجْدِينَ﴾ [البلد: 10] وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور أي: يسر السبيل يسره ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي: جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تكله السباع، والطير، كذا قال الفراء وقال أبو عبيدة: جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه. وقال أقبره، ولم يقل قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، ومنه قول الأعشى:

لو أسندت ميتاً إلى صدرها عاش ولم ينقل إلى قابر
﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي: ثم إذا شاء إنشأه أنشأه أي: أحياء بعد موته، وعلق الإنشأ بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين، بل هو: تابع للمشيئة. قرأ الجمهور (أنشأه) بالالف، وروى أبو حيوة عن نافع، وشعيب بن أبي حمزة نشره بغير ألف، وهما لغتان فصيحتان. ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضُ مَا أَمَرَهُ﴾ كلا ردع، وزجر للإنسان الكافر أي: ليس الأمر كما يقول. ومعنى: لما يقض ما أمره، لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وقيل: المراد الإنسان على العموم، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة؛ لأنه لا يخلو من تقصير. قال الحسن: أي: حقاً لم يعمل ما أمر به. وقال ابن فورك: أي: كلا لما يقض لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له. قال ابن الأنباري: الوقف على كلا قبيح، والوقف على أمره جيد، وكلا على هذا بمعنى حقاً. وقيل المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره، بل أخلّ به: بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان، وما قضى ما أمره الله إلاّ القليل. ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه على عباده؛ ليشكروها، وينزجروا عن كفرانها بعد نكر النعم المتعلقة بحوثه فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي: ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الآخروية؟ قال مجاهد: معناه، فلينظر الإنسان إلى طعامه أي: إلى مدخله، ومخرجه، والأوّل أول. ثم بيّن ذلك سبحانه فقال: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ قرأ الجمهور (إنّا) بالكسر على الاستئناف. وقرأ الكوفيون، ودويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتغال لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام، فهو كالمشتمل عليه، أو بتقدير

ابن جرير، وابن مروييه عن ابن عباس قال: «بينما رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فاقبل عليهم رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم يمشي، وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقري النبي ﷺ آية من القرآن قال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعيس في وجهه، وتولى، وكره كلامه، واقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله **﴿عيس وتولى﴾** الآية، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبي ﷺ، وكلمه وقال له: ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده قال: هل لك حاجة في شيء؟ قال ابن كثير: فيه غرابة، وقد تكلم في إسناده. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿بأيدي سفرة﴾** قال: كتبة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه **﴿بأيدي سفرة﴾** قال: هم بالنبطية القراء. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **﴿كرام بررة﴾** قال: الملائكة. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه، وهو عليه شاق له أجران». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس **﴿ثم السبيل يسره﴾** قال: يعني: بذلك خروجه من بطن أمه يسره له. وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير في قوله: **﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾** قال: إلى مixelه، ومخرجه. وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس: **﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾** قال: إلى خرثه. وأخرج ابن المنذر عنه: **﴿إننا صبينا الماء صيا﴾** قال: المطر. **﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾** قال: عن النبأ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: **﴿وقضبا﴾** قال: الفصفصة يعني: القث **﴿وحدائق غلبا﴾** قال: طوالاً **﴿وفاكهة ولبا﴾** قال: الثمار الرطبة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحدائق كل ملتف، والغلب ما غلظ، والآب ما أثبتت الأرض مما تاكله الدواب، ولا ياكله الناس. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً **﴿وحدائق غلبا﴾** قال: شجر في الجنة يستظل به لا يحمل شيئاً. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: الآب الكلا والمرعى. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق عن الآب ما هو؟ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما أعلم؟ وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد: أن رجلاً سأل عمر عن قوله: **﴿ولبا﴾** فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة. وأخرج ابن سعد، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، والخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر: **﴿فأنبتنا فيها حباً وعنباً﴾** إلى قوله: **﴿ولبا﴾** قال: كل هذا قد عرفناه، فما الآب؟ ثم رفض عصي كانت في يده

كل أحد بنفسه، والظرف في قوله: **﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وابنيه * وصاحبته وبنيه﴾** إما يدل من إذا جاءت، أو منصوب بمقدر أي: أعني، ويكون تفسيراً للصراحة، أو بدلاً منها مبني على الفتح، وخَصَّ هؤلاء بالذكر؛ لأنهم لخصَّ القرابة، وأولاهم بالحنو، والرافة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم، وخطب فظيع **﴿للكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾** أي: لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء، ويصرفه عنهم. وقيل: إنما يفر عنهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم، وقيل: يفر عنهم؛ لثلا يروا ما هو فيه من الشدة، وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه، ولا يغنون عنه شيئاً، كما قال تعالى: **﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً﴾** [الدخان: 41] والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار. قال ابن قتيبة: يغنيه أي: يصرفه عن قرابته، ومنه يقال أغن عني وجهك أي: أصرفه. قرأ الجمهور (يغنيه) بالغين المعجمة. وقرأ ابن محيصن بالغين المهملة مع فتح الياء أي: يهيم، من عناه الأمر إذا أهيم **﴿ووجوه يومئذ مسفرة﴾** وجوه مبتدأ، وإن كان نكرة؛ لأنه في مقام التفصيل، وهو من مسوغات الابتداء بالنكرة، ويومئذ متعلق به، ومسفرة خبره، ومعنى مسفرة: مشرقة مضيئة، وهي: وجوه المؤمنين؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم، والكرامة، يقال أسفر الصبح: إذا أضاء. قال الضحاک: مسفرة من آثار الوضوء، وقيل: من قيام الليل **﴿ضاحكة مستبشرة﴾** أي: فرحة بما نالته من الثواب الجزيل. ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال: **﴿ووجوه يومئذ عليها غيرة﴾** أي: غبار، وكثيرة لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب **﴿ترهقها قفرة﴾** أي: يغشاها ويعلوها سواد، وكسوف، وقيل: نلة، وقيل: شدة، والقتر في كلام العرب الغبار، كذا قال أبو عبيدة، وأنشد قول الفرزدق:

متوج برداء الملك يتبعه فوج ترى فوقه الرايات والقترا
ويبلغ ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة، فإنها واحدة الغبار. وقال زيد بن أسلم: القفرة ما ارتفعت إلى السماء، والغبرة ما انحطت إلى الأرض **﴿ولولك﴾** يعني: أصحاب الوجوه **﴿هم للكفرة الفجرة﴾** أي: الجامعون بين الكفر بالله، والفجور، يقال فجر أي: فسق، وفجر أي: كتب، وأصله الميل، والفاجر المائل عن الحق.

وقد أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مروييه عن عائشة قالت: «أنزلت عيس وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول لا، ففي هذا أنزلت». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو يعلى عن أنس قال: «جاء ابن أم مكتوم، وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: **﴿عيس وتولى﴾** أن جاءه الأعمى» فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه. وأخرج

بها. فالحاصل أن التكويد إما بمعنى لف جرمها، أو لف ضوئها، أو الرمي بها ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي: تهافت، وانقضت، وتناكرت، يقال: انكدر الطائر من الهواء إذا انقض، والأصل في الانكدار الانصباب. قال الخليل: يقال: انكدر عليهم القوم إذا جاءوا أرسالاً، فانصبوا عليهم. قال أبو عبيدة: انصب، كما ينصب العقاب. قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجوماً، فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض، وقيل: انكدارها طمس نورها ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: قلعت عن الأرض، وسيرت في الهواء، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: 47]. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها الواحدة عشراء، وهي التي قد أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع. وخص العشار لأنها انفس مال عند العرب، وأعره عندهم، ومعنى عطلت: تركت هملأ بلا راع، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم، قيل: وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة تكون فيه ناقة عشراء، بل المراد: أنه لو كان للرجل ناقة عشراء في ذلك اليوم، أو نوق عشراء لتركها، ولم يلتفت إليها اشتغالاً بما هو فيه من هول يوم القيامة، وسيأتي آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا في الدنيا. وقيل: العشار السحاب، فإن العرب تشبهها بالحامل، ومنه قوله: ﴿فَالْحَامِلَاتُ وَفَرَأْنَ﴾ [الذاريات: 2] وتعطيلها عدم إظهارها قرا الجمهور (عطلت) بالتشديد، وقرا ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف. وقيل: المراد أن البوار تعطل، فلا تسكن، وقيل: الأرض التي تعشر زرعها تعطل، فلا تزرع ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الوحوش ما توحش من نواب البر، ومعنى حشرت: بعثت حتى يقتص بعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء. وقيل: حشرها موتها، وقيل: إنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبئدها في الصحارى تضم تلك اليوم إليهم. قرا الجمهور (حشرت) بالتخفيف، وقرا الحسن، وعمرو بن ميمون بالتشديد. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أوقدت، فصارت ناراً تضطرم. وقال الفراء: ملئت بأن صارت بحراً واحداً، وكثر ماؤها، وبه قال الربيع بن خثيم، والكلبي، ومقاتل، والحسن، والضحاك. وقيل: أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها حتى امتلأت، وقيل: فجرت، فصارت بحراً واحداً. وروي عن قتادة، وابن حبان أن معنى الآية: يبست، ولا يبقى فيها قطرة، يقال: سجرت الحوض أسجره سجراً إذا ملأته. وقال القشيري: هو من سجرت التنوير أسجره سجراً إذا حميته. قال ابن زيد، وعطية، وسفيان، وهب، وغيرهم: أوقدت، فصارت ناراً، وقيل: معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم، من قولهم عين سجراء أي: حمراء. قرا الجمهور (سجرت) بتشديد الجيم. وقرا ابن كثير، وأبو عمرو، بتخفيفها ﴿وَإِذَا الْنُفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء في النار. وقال عطاء:

فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب، فاعملوا عليه، وما لم تعرفوه، فكلوه إلى ربه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس قال: الصاخة من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿مُسْفَرَةٌ﴾ قال: مشرقة، وفي قوله: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ قال: تغشاهما شدة، ونزلة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه: ﴿قَتَرَةٌ﴾ قال: سواد الوجه.

تفسير سورة التكويد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة، وابن الزبير مثله. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [أي: سورة التكويد]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [أي: سورة الانفطار]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [أي: سورة الانشقاق].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا النَّشْ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا النُّفُوسُ شُجِرَتْ ⑧ وَإِذَا الْيَمِينُ تُبِّلَتْ ⑨ وَإِذَا الْخُشْيُ شُيِّرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُيِّرَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَنَّةُ سُيِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْبَلَدُ انْزَلَتْ ⑬ عِلَّتْ نَفْسٌ مَّا أُخِثَتْ ⑭ فَلَا أَقِيمُ بِمَقِينٍ ⑮ لِلْمَوَارِ الْكَلْبِ ⑯ وَالْقَلْبُ إِذَا تَمَسَّ ⑰ وَالصَّبْحُ إِذَا تَنَسَّ ⑱ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⑳ تَلَاكُمُ ㉑ أَمِينٌ ㉒ وَمَا سَاجِدُكُمْ يَعْبُدُونَ ㉓ لَقَدْ رَءَاهُ الْآخِزُ الْكَلْبِي ㉔ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِغَيْبٍ ㉕ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ كَذِبٍ ㉖ فَآيَنَ تَذَهَبُونَ ㉗ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ㉘ لَمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَوِي ㉙ وَمَا تَنَازَعُونَ إِلَّا أَن يَسَّاءَ اللَّهُ رَبُّهُ الْمَلَكِيَتِ ㉚

قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال، وهذا عند البصريين، وأما عند الكوفيين، والأخفش، فهو مرتفع على الابتداء، والتكويد الجمع، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكوها. قال الزجاج: لفت، كما تلف العمامة، يقال: كورت العمامة على رأسي أكوها كوراً، وكورتها تكويراً: إذا لففتها. قال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة تلف، فتجمع. قال الربيع بن خثيم: كورت أي: رمى بها، ومنه كورته، فتكور أي: سقط. وقال مقاتل، وقتادة، والكلبي: ذهب ضوؤها. وقال مجاهد: اضمحلت. قال الواحدي: قال المفسرون: تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف، فيرمى

سعرت ﴿أي: أوقدت لأعداء الله إيقاداً شديداً. قرأ الجمهور (سعرت) بالتخفيف، وقرأ نافع، وابن نكوان، وحفص بالتشديد؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة. قال قتادة: سعتها غضب الله، وخطايا بني آدم ﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ أي: قربت إلى المتقين، وأنيت منهم. قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها. وقال ابن زيد: معنى أزلفت تزينت. والأول أولى لأن الزلفى في كلام العرب القرب. قيل: هذه الأمور الاثنا عشر: ست منها في الدنيا، وهي من أول السورة إلى قوله: ﴿وإذا البحار سجرت﴾، وست في الآخرة وهي: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ إلى هنا، وجواب الجميع قوله: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ على أن المراد الزمان الممتد من الدنيا إلى الآخرة، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء هذا الوقت الممتد، بل المراد: علمت ما أحضرت عند نشر الصحف يعني: ما عملت من خير، أو شر، ومعنى ما أحضرت: ما أحضرت من أعمالها، والمراد حضور صحائف الأعمال، أو حضور الأعمال نفسها، كما ورد أن الأعمال تصور بصور تدل عليها وتعرف بها، وتكثير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس، أو لبعض منها للإيدان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور، والوضوح بحيث لا يخفى على أحد، ويدل على هذا قوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ [آل عمران: 30] وقيل: يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت، فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم على ما فعلت، وربما ندم الإنسان على فعله ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ لا زائدة، كما تقدم تحقيقه، وتحقيق ما فيه من الأقوال في أول سورة القيامة أي: فاقسم بالخنس، وهي: الكواكب وسميت الخنس من خنس: إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار، فتخفى ولا ترى، وهي: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، كما ذكره أهل التفسير. ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس، وتقطع المجرة. وقال في الصحاح: الخنس الكواكب كلها لأنها تخنس في المغيب، أو لأنها تخفى نهاراً، أو يقال هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة. قال الفراء: إنها الكواكب الخمسة المذكورة لأنها تخنس في مجراها، وتكنس أي: تستتر، كما تكنس الظباء في المغار، ويقال: سميت خنساً لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم. يقال: خنس عنه يخنس خنوساً إذا تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه، والخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، ومعنى: ﴿الجوار﴾ أنها تجري مع الشمس والقمر، ومعنى: ﴿الكنس﴾ أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوءها، وقيل: خنوسها خفاؤها بالنهار، وكنوسها غروبها. قال الحسن، وقاتدة: هي النجوم التي

زُوجت نفوس المؤمنين بالصور العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين. وقيل: قرن كل شكل إلى شكله في العمل، وهو راجع إلى القول الأول. وقيل: قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما في قوله: ﴿أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات: 22] وقال عكرمة: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ يعني: قرنت الأرواح بالأجساد. وقال الحسن: الحق كل امرئ بشيعته اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقيل: يقرن الغاري بمن أغواه من شيطان، أو إنسان، وقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الانبياء والمؤمنين. وقيل: قرنت النفوس بأعمالها ﴿وإذا الموءودة سئلت﴾ أي: المبنية حياة، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنوها حياة مخافة العار، أو الحاجة، يقال: وأد يثد وأدأ، فهو وائد، والمفعول به موءود، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تنفن، فيطرح عليها التراب، فيثقلها فتموت، ومنه: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ [البقرة: 255] أي: لا يثقله، ومنه قول متم بن نويرة:

وموءودة مقبورة في مفارة

ومنه قول الرازي:

سميتها إذ ولست تموت والقبر صهرضامن رميت
قرأ الجمهور: (الموءودة) بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة. وقرأ البري في رواية عنه بهمزة مضمومة، ثم وار ساكنة. وقرأ الأعمش: (المودة) بزنة الموءدة. وقرأ الجمهور (سئلت) مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل. وقرأ الجمهور (قتلت) بالتخفيف مبنياً للمفعول، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التثنية. وقرأ علي، وابن مسعود، وابن عباس سالت مبنياً للفاعل (قتلت) بضم التاء الأخيرة، ومعنى سئلت على قراءة الجمهور أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلتها حتى كان لا يستحق أن يخاطب، ويسأل عن ذلك، وفيه تبيك لقاتلتها، وتوبيخ له شديد. قال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلتها لأنها قتلت بغير نذب، وفي مصحف أبي (وإذا الموءودة سالت بأي نذب قتلتني) ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ يعني: صحائف الأعمال نشرت للحساب؛ لأنها تطوى عند الموت، وتنتشر عند الحساب، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مال هذا الكتاب لا يغابر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ [الكهف: 49] قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو (نشرت) بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد على التثنية ﴿وإذا السماء كشطت﴾ الكشط قلع عن شدة التزاق، فالسما ككشط، كما يكشط الجلد عن الكبش، والقشط بالقاف لغة في الكشط، وهي: قراءة ابن مسعود. قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. وقال الفراء: نزعت، فطويت. وقال مقاتل: كشفت عما فيها. قال الواحدي: ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه ﴿وإذا الجحيم

ظرف مكان للبعيد، والعامل فيه مطاع، أو ما بعده، والمعنى: أنه مطاع في السموات، أو أمين فيها أي: مؤتمن على الوحي وغيره، وقرأ هشيم، وأبو جعفر، وأبو حيوة بضمها على أنها عاطفة، وكان العطف بها للتراخي في الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، ومن قال: إن المراد بالرسول محمد ﷺ، فالمعنى: أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع بطيعة، من أطاع الله أمين على الوحي ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ الخطاب لأهل مكة، والمراد بصاحبهم رسول الله ﷺ، والمعنى: وما محمد يا أهل مكة بمجنون، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون، وغيره في شيء، وأنهم افترخوا عليه تلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم، فاقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ﷺ ليس كما يقولون من أنه مجنون، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه ﴿ولقد رأه بالافق المبين﴾ اللام جواب قسم محذوف أي: وتالله لقد رأى محمد جبريل بالافق المبين أي: بمطلع الشمس من قبل المشرق لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين لأن من جهته ترى الأشياء. وقيل: الأفق المبين أقطار السماء ونواحيها، ومنه قول الشاعر:

لخذنا بأقطار السماء عليك لنا قمرها والنجوم الطوالع
ولما قال سبحانه: ﴿ولقد رأه بالافق المبين﴾ مع أنه قد رأه غير مرة لأنه رأى هذه المرة في صورته له ستمائة جناح، قال سفيان: إنه رأى في أفق السماء الشرقي. وقال ابن بحر: في أفق السماء الغربي. وقال مجاهد: رأه نحو أجياد وهو مشرق مكة، والمبين صفة للأفق قاله الربيع. وقيل: صفة لمن رأى قاه مجاهد: وقيل معنى الآية: ولقد رأى محمد ربه عز وجل، وقد تقدم القول في هذا في سورة النجم ﴿وما هو﴾ أي: محمد ﷺ ﴿على الغيب﴾ يعني: خبر السماء وما أطلع عليه مما كان غائبا علمه من أهل مكة ﴿بضنين﴾ بمتهم أي: هو ثقة فيما يؤذي عن الله سبحانه. وقيل: بضنين ببخيل أي: لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي (بظنين) بالطاء المشالة أي: بمتهم، والظنة التهمة، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأنهم لم ييخلوا ولكن كتبوه. وقرأ الباقون بضنين بالضاد أي: ببخيل، من ضننت بالشيء أضنّ ضنا: إذا بخلت. قال مجاهد أي: لا يضمن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه. وقيل: المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين، والأول أولى ﴿وما هو يقول شيطان رجيم﴾ أي: وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشبه. قال الكلبي: يقول إن القرآن ليس بث شعر لا كهانة، كما قالت قريش. قال عطاء: يريد بالشيطان الشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل يريد أن يفتنه. ثم بكثهم سبحانه وبخهم، فقال: ﴿فان تذهبون﴾ أي: أين

تخس بالنهار، وإذا غربت، والمعنى متقارب لأنها تتأخر في النهار عن البصر لخبائها فلا ترى، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها. وقيل: المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس، وبالجوار، وبالكنس. وقال عكرمة: الخنس البقر، والكنس الظباء، فهي: تخنس إذا رأت الإنسان، وتنقيض، وتتأخر، وتدخل كناسها. وقيل: هي الملائكة. والأول أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا، والكنس مأخوذ من الكناس الذي يختفى فيه الوحش، والخنس جمع خانس وخانسة، والكنس جمع كانس وكانسة ﴿والليل إذا عسعس﴾ قال أهل اللغة: هو من الأضداد، يقال: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس إذا أدير، ويدل على أن المراد هنا أدير قوله: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدير، كذا حكاه عنه الجوهري، وقال الحسن: أقبل بظلامه. قال الفراء: العرب تقول: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس الليل إذا أدير، وهذا لا ينافي ما تقدم عنه، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه في هذه الآية على أدير، وإن كان في الأصل مشتركا بين الإقبال والإدبار. قال المبرد: هو من الأضداد. قال: والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو: ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره. قال روية بن العجاج:

يا هند ما أسرع ما تعسسا من بعد ما كان فتى ترعرعا
وقال امرؤ القيس:
عسعس حتى لو نشاء إذ لنا كان لنا من ناره مقتبس
وقوله:

الماء على الربيع القديم تعسسا
﴿والصبح إذا تنفس﴾ التنفس في الأصل: خروج النسيم من الجوف، وتنفس الصبح إقباله لأنه يقبل بروج ونسيم، فجعل ذلك تنفسا له مجازا. قال الواحدي: تنفس أي: امتد ضوءه حتى يصير نهارا، ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس. وقيل: ﴿إذا تنفس﴾ إذا انشق، وانفلق، ومنه تنفست القوس أي: تصدعت. ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني: جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ، وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلا به، وقيل: المراد بالرسول في الآية محمد ﷺ، والأول أولى. ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ أي: ذي قوة شديدة في القيام بما كلف به، كما في قوله: ﴿شديد القوى﴾ [النجم: 5]، ومعنى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أنه ذو رفعة عالية، ومكانة مكيبة عند الله سبحانه، وهو في محل نصب على الحال من مكين، وأصله الوصف، فلما قدم صار حالا، ويجوز أن يكون نعتا لرسول، يقال مكن فلان عند فلان مكانة أي: صار ذا منزلة عنده ومكانة. قال أبو صالح: من مكانته عند ذي العرش أنه يخل سبعين سراقا بغير إذن، ومعنى ﴿مطاع﴾ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه، ويطيعونه ﴿ثم أمين﴾ قرأ الجمهور بفتح (ثم) على أنها

تعللون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قاله قتادة. وقال الزجاج: معناه أي: طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم، يقال أين تذهب، وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهبت الشام، وخرجت العراق، وانطلقت السوق أي: إليها. قال: سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة، وأنشد لبعض بني عقيل:

تصبح بنا حنيفة إذ راتنا رأي الأرض تذهب بالصباح
تريد إلى أي الأرض تذهب، فحنف إلى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَكْرَ
لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ما القرآن إِلَّا موعظة للخلق أجمعين، وتذكير
لهم، وقوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بدل من العالمين
بإعادة الجار، ومفعول المشيئة ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي: لمن شاء
منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وما تشاءون الاستقامة
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تلك المشيئة، فاعلمهم سبحانه أَنْ المشيئة
في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك إِلَّا بمشيئة الله
وتوقيفه، ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْفَّيَ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: 100] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمْ
الْمَلَأُكَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 111] وقوله: ﴿إِنْكَ
لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: 56]
وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،
والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿إِذَا لِلشَّمْسِ
كَوُورٌ﴾ قال: أظلمت ﴿وِإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ قال: تغيرت.
وأخرج ابن أبي حاتم، والديلمي عن أبي مريم أن النبي ﷺ
قال في قوله: ﴿إِذَا لِلسَّمَاءِ كُورٌ﴾ قال: كُورٌ في جهنم
﴿وِإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ قال: انكدرت في جهنم، فكل من
عبد من دون الله فهو: في جهنم، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عِيسَى وَآلِهِ،
ولو رضى أن يعبدوا للخلافا. وأخرج عبد بن حميد، وابن
المنذر عن أبي العالية قال: ست آيات من هذه السورة في
الدنيا، والناس ينظرون إليها، وست في الآخرة ﴿إِذَا الشَّمْسُ
كُوِّرَتْ﴾ إلى ﴿وِإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾ هذه في الدنيا،
والناس ينظرون إليها ﴿وِإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إلى ﴿وِإِذَا
الْجَنَّةُ أُنْفِثَتْ﴾ هذه في الآخرة. وأخرج ابن أبي الدنيا في
الآهوال، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال:
ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب
ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه
الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففرغت الجنَّ إلى
الإنس، والإنس إلى الجنَّ، واختلطت الدوابُّ، والطير،
والوحش، فمأجوا بعضهم في بعض ﴿وِإِذَا الْوُحُوشُ
حَشِرَتْ﴾ قال: اختلطت ﴿وِإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أعملها
أملها ﴿وِإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾ قال: الجن للإنس نحن نأتيكم
بالخبر، فانطلقوا إلى البحر، فإذا هو نار تاجج، فبينما هم
كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة،
وإلى السماء السابعة، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح

فأماتهم. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن
حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مروي عن ابن
عباس في قوله: ﴿وِإِذَا الْوُحُوشُ حَشِرَتْ﴾ قال: حشر
البهائم موتها، وحشر كل شيء الموت غير الجنَّ والإنس،
فإنهما يوافقان يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي
حاتم، والخطيب في المتفق، والمفتقر عنه في قوله: ﴿وِإِذَا
الْوُحُوشُ حَشِرَتْ﴾ قال: يحشر كل شيء يوم القيامة حتى
إن الدوابَّ لتحشر. وأخرج البيهقي في البعث عنه أيضاً في
قوله: ﴿وِإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾ قال: تسجر حتى تصير ناراً.
وأخرج الطبراني عنه: ﴿سَجَرَتْ﴾ قال: اختلط ماؤها بماء
الأرض. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور،
وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مروي، وأبو نعيم
في الحلية، والبيهقي في البعث عن النعمان بن بشير عن
عمر بن الخطاب في قوله: ﴿وِإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال:
يقرب بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة، ويقرب بين
الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، كذلك تزويج
الأنفس وفي رواية: ثم قرأ: ﴿احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفافات: 22] وأخرج نحوه ابن مروي عن
النعمان بن بشير مرفوعاً. وأخرج البزار، والحاكم في الكنى،
والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب قال: «جاء قيس بن
عاصم التميمي إلى رسول الله ﷺ فقال: إني وأنت ثمان
بنات لي في الجاهلية، فقال له رسول الله ﷺ: أعتق عن كل
واحدة رقبة، قال: إني صاحب إبل، قال: فأهد عن كل واحدة
بذنة». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وِإِذَا الْجَنَّةُ
أُنْفِثَتْ﴾ قال: قربت. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن
حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من
طريق عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فَلَا أَقْسَمُ
بِالْخُنُسِ﴾ قال: هي الكواكب تكس بالليل، وتخس بالنهار،
فلا ترى. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿وَلَا أَقْسَمُ
بِالْخُنُسِ﴾ قال خمسة أنجم: زحل، وعطارد، والمشتري،
وبهرام، والزهرة، ليس شيء يقطع المجرة غيرها. وأخرج
ابن مروي، والخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في
الآية قال: هي النجوم السبعة: زحل، وبهرام، وعطارد،
والمشتري، والزهرة، والشمس، والقمر، خنوسها رجوعها،
وكنوسها تغييبها بالنهار. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن
سعد، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه من
طريق عن ابن مسعود في قوله: ﴿بِالْخُنُسِ الْجَوَارِي
لِلْكَنُسِ﴾ قال: هي بقرة الوحش. وأخرج ابن أبي حاتم عن
ابن عباس قال: هي البقرة تكس إلى الظل. وأخرج ابن المنذر
عنه قال: تكس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه.
وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: هي الظباء. وأخرج ابن
راهويه، وعبد بن حميد، والبيهقي في الشعب عن علي بن
أبي طالب في قوله: ﴿وَلِلْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾ قال: هي الكواكب.

رأي عين، فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [أي: سورة التكويد]،
﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [أي: سورة الانفطار]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ
انْشَقَّتْ﴾ [أي: سورة الانشقاق].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَزَعَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ
بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ
رَبِّكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا
كَبِيرِينَ ﴿١١﴾ يَتْلُونَ مَا تُحَمِّلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَجْمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي
نَجْمٍ ﴿١٤﴾ يَتْلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآزِينِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآزِينِ ﴿١٧﴾ يَوْمَ لَا تَنفَعُ نَفْسٌ نَفْسًا وَلَا آثَرُ
يَوْمَئِذٍ نَفْسٌ ﴿١٨﴾

قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ قال الواحدي: قال
المفسرون: انفطارها انشقاقها كقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ
بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: 25] والفطر: الشق،
يقال: فطرت فانفطرت، ومنه فطر ناب البعير إذا طلع، قيل:
والمراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها، وقيل: انفطرت
لهيبة الله ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَزَعَتْ﴾ أي: تساقطت متفرقة
يقال: نثرت الشيء أنثره نثرًا ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي:
فجر بعضها في بعض، فصارت بحرًا واحدًا، واختلط العنب
منها بالمالح. وقال الحسن: معنى فجرت ذهب ماؤها،
ويبيست، وهذه الأشياء بين يدي الساعة، كما تقدّم في
السورة التي قبل هذه ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قلب
ترابها، وأخرج الموتى الذين هم فيها، يقال: بعثر يبعثر
بعثرة إذا قلب التراب، ويقال: بعثر المتاع قلبه ظهرًا لبطن،
وبعثرت الحوض وبعثرت إذا هدمته، وجعلت أعلاه أسفل،
قال الفراء: بعثرت أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة،
وذلك من أشراف الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها،
ثم نكر سبحانه الجواب عما تقدّم فقال: ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا
قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾ والمعنى: أنها علمته عند نشر الصحف لا
عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير
أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، والكلام في أفراد
نفس هنا، كما تقدّم في السورة الأولى في قوله: ﴿عَلِمْتَ
نَفْسَ مَا أَحْضَرْتَ﴾ [التكوير: 14] ومعنى ﴿مَا قَدَّمْتَ
وَأَخَّرْتَ﴾ ما قَدَّمْتَ من عمل خير أو شر، وما أَخَّرْتَ من
سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن
الحسنة، وأجر من عمل بها، وعليها وزر ما سنته من السنن
السيئة، ووزر من عمل بها، وقال قتادة: ما قَدَّمْتَ من
معصية، وأخرت من طاعة، وقيل: ما قَدَّمْتَ من فرض، وأخّر
من فرض، وقيل: أوّل عمله وآخره، وقيل: إن النفس تعلم عند
البعث بما قَدَّمْتَ وأخرت علمًا إجماليًا لأن المطيع يرى آثار
السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة، ولما العلم التفصيلي،

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿الْخَنَسُ﴾ البقر
﴿وَالْجَوَارُ الْخَنَسُ﴾ الظباء، ألم ترها إذا كانت في الظل كيف
تكس بأعناقها، ومثّت نظرها. وأخرج أبو أحمد الحاكم في
الكنى عن أبي العديس قال: كنا عند عمر بن الخطاب، فاتاه
رجل، فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿الْجَوَارُ الْخَنَسُ﴾ قطعن
عمر بمخصرة معه في عمامة الرجل، فالحقاها عن رأسه،
فقال عمر: أحروري؟ والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو
وجنتك مخلوقًا لأنحيت القمل عن رأسك، وهذا منكرو،
فالحرورية لم يكونوا في زمن عمر، ولا كان لهم في ذلك
الوقت نكر. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم
من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسْعَسَ﴾
قال: إذا أوبر ﴿وَالصَّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قال: إذا بدا النهار حين
طلوع الفجر. وأخرج الطبراني عنه ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾ قال:
إقبال سواده. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ قال: جبريل. وأخرج ابن مريويه، وأبو نعيم
في الدلائل عن ابن مسعود ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ﴾ قال:
رأى جبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق. وأخرج الطبراني،
وابن مريويه عن ابن عباس في الآية قال: إنما عنى جبريل
أن محمداً رآه في صورته عند سدرة المنتهى. وأخرج ابن
مريويه عنه بالأفق المبين، قال: السماء السابعة. وأخرج
سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن
مريويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ (بضنين)
بالضاد، وقال: ببخيل. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن
حميد، وابن المنذر، وابن مريويه عن ابن مسعود أنه قرأ
(وما هو على الغيب بظنين) بالظاء قال: ليس بمتهم. وأخرج
الدارقطني في الأفراد، والحاكم وصححه، وابن مريويه،
والخطيب في تاريخه عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقرؤه
﴿بِظُنِّينَ﴾ بالظاء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن
أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾
قالوا: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم،
فهبط جبريل على رسول الله ﷺ فقال: كذبوا يا محمد
﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس،
وابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ﴾ بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله.
وأخرج النسائي عن جابر قال: «قام معاذ ف صلى العشاء
فطوّل، فقال النبي ﷺ: اقتان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [أي: سورة الأعلى]،
﴿وَالضُّحَى﴾ [أي: سورة الضحى]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾
وأصل الحديث في الصحيحين، ولكن بدون نكر: ﴿إِذَا
السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ وقد تفرّد بها النسائي، وقد تقدّم في
سورة التكويد حديث: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة

فإنما يحصل عند نشر الصحف ﴿ياليها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم﴾ هذا خطاب الكفار: أي: ما الذي غرَّك، وخذك حتى كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بأكمل خلقك وحواسك، وجعلك عاقلاً فاهماً، ورزقك وأنعم عليك بنعمة التي لا تقدر على جحد شيء منها. قال قتادة: غرَّه شيطانه المسلط عليه. وقال الحسن: غرَّه شيطانه الخبيث، وقيل: حمقه وجهله. وقيل: غرَّه عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أوَّل مرَّة، كذا قال مقاتل ﴿الذي خلقك فسوَّك فعملك﴾ أي: خلقك من نطفة، ولم تك شيئاً، فسوَّك رجلاً تسمع وتبصر وتعقل، فعملك جعلك معتدلاً. قال عطاء: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة. وقال مقاتل: عدل خلقك في العينين، والأذنين، واليدين، والرجلين، والمعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء. قرأ الجمهور: (فعملك) مشدداً، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بالتخفيف، واختار أبو حاتم، وأبو عبيد القراءة الأولى. قال الفراء، وأبو عبيد: يدل عليها قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: 4] ومعنى القراءة الأولى: أنه سبحانه جعل أعضائه متعابلة لا تفاوت فيها، ومعنى القراءة الثانية: أنه صرفه، وأماله إلى أي صورة شاء، إما حسناً وإما قبيحاً، وإما طويلاً وإما قصيراً ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ في أي صورة متعلق بركبك، وما مزيدة، وشاء صفة لصورة: أي: ركبك في أي صورة شاءها من الصور المختلفة، وتكون هذه الجملة كالبيان لقوله: ﴿فعملك﴾ والتقدير: فعملك ركبك في أي صورة شاءها، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال أي: ركبك حاصلاً في أي صورة. ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعملك. واعترض عليه بأن أي لها صدر الكلام، فلا يعمل فيها ما قبلها. قال مقاتل، والكلبي، ومجاهد: في أي شبه من أب أو أم، أو خال أو عم. وقال مكحول: إن شاء نكراً، وإن شاء أنثى، وقوله: ﴿كلاماً للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله، وجعله نزيعة إلى الكفر به، والمعاصي له، ويجوز أن يكون بمعنى حقاً، وقوله: ﴿بل تكذبون بالبين﴾ إضراب عن جملة مقترنة ينساق إليها الكلام، كأنه قيل: بعد الردع، وأنتم لا تردعون عن ذلك بل تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء، أو بدين الإسلام. قال ابن الأنباري: الوقف الجيد على الدين، وعلى ركبك، وعلى كلاً قبيح، والمعنى: بل تكذبون يا أهل مكة بالدين أي: بالحساب، وبل لنفي شيء تقيم، وتحقيق غيره، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم، وإن لم يجر له نكر. قال الفراء: كلا ليس الأمر، كما غررت به. قرأ الجمهور (تكذبون) بالفوقية على الخطاب. وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة بالتحية على الغيبة، وجملة: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تكذبون أي: تكذبون، والحال أن عليكم من يدفع تكذبيكم، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذبيهم، والحافظين الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم، ويكتبونها في الصحف.

ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد، وجملة: ﴿يعلمون ما تفعلون﴾ في محل نصب على الحال من ضمير كاتبين، أو على النعت، أو مستأنفة. قال الرازي: والمعنى التعجب من حالهم كأنه قال: إنكم تكذبون بيوم الدين، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره قوله تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: 17، 18]. ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال: ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذي سيقى له، وهي كقوله سبحانه: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [الشورى: 17] وقوله: ﴿يصلونها يوم الدين﴾ صفة لجحيم، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجار، والمجرور، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل ما حالهم؟ فقيل: ﴿يصلونها يوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به، ومعنى يصلونها: أنهم يلزمونها مقاسين لوجهها، وحرَّها يومئذ. قرأ الجمهور (يصلونها) مخففاً مبنياً للفعل، وقرأ بالتشديد مبنياً للمفعول. ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي: لا يفارقونها أبداً، ولا يغيبون عنها، بل هم فيها، وقيل المعنى: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرَّها في قبورهم، ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال: ﴿وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، وكرَّره تعظيماً لقدره، وتفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره، كما في قوله: ﴿القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة﴾ [القارعة: 1 - 3] و﴿الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة﴾ [الحاقة: 1 - 3] والمعنى: أي شيء جعلك دارياً ما يوم الدين. قال الكلبي: الخطاب للإنسان الكافر. ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو برفع: (يوم) على أنه بدل من يوم الدين، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو عمرو في رواية: (يوم) بالتثنية، والقطع عن الإضافة. وقرأ الباقر بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير: أعني أو أنكر، فيكون مفعولاً به، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأي الكوفيين، وهو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه بدل من يوم الدين. قال الزجاج: يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه مبني على الفتح لإضافته إلى قوله: ﴿لا تملك﴾ وما أضيف إلى غير المتمكن، فقد بينى على الفتح، وإن كان في موضع رفع، وهذا الذي نكره إنما يجوز عند الخليل، وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي، وأما إلى الفعل المستقبل، فلا يجوز عندهما، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو علي الفارسي، والفراء، وغيرهما، والمعنى: أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئاً من النفع أو الضرر ﴿والأمر يومئذ لله﴾ وحده لا يملك شيئاً من الأمر غيره كائناً ما كان. قال مقاتل:

عَلِيمٌ ﴿٦﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَمِينَ ﴿٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَبِئْسَ مِن كِتَابٍ ﴿٨﴾ وَتَآذُرُكَ سَاجِدِينَ ﴿٩﴾ كِتَابٌ مَّرْهُومٌ ﴿١٠﴾ نَزَلَ بِرُوحٍ مُّكَرَّمٍ ﴿١١﴾ قِيلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ يَوْمَئِذٍ بَدِيعٌ ﴿١٣﴾ وَمَا يَكْتُوبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُ الْأَقْلَامِ ﴿١٥﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْتُبُونَ ﴿١٦﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحُمُومُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ هَٰذَا إِلَٰهِي كُفُّوا يَوْمَئِذٍ تَكْدِيرُونَ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿ويل للمطففين﴾ ويل مبتدأ، وسَوْغُ الابتداء به كونه دعاء، ولو نصب لجاز. قال مكي، والمختار: في ويل، وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع، ويجوز النصب، فإن كان مضافاً أو معرفاً كان الاختيار فيه النصب نحو قوله: ﴿ويلكم لا تفتروا﴾ [طه: 61] وللمطففين خبره، والمطفف المنقص، وحقيقته الأخذ في الكيل، أو الوزن شيئاً طفيفاً أي: نزراً حقيراً. قال أهل اللغة: المطفف مأخوذ من الطفف، وهو القليل، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف، لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. قال أبو عبيدة، والمبرد: المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن، والمراد بالويل هنا شدة العذاب، أو نفس العذاب، أو الشر الشديد، أو هو واد في جهنم. قال الكلبي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسبون كيلهم، ووزنهم لغيرهم، ويستوفون لأنفسهم، فنزلت هذه الآية. وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وكان بها رجل يقال له أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فأنزل الله هذه الآية. قال الفراء: هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلاً إلى يومهم هذا. ثم بين سبحانه المطففين من هم؟ فقال: ﴿الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون﴾ أي: يستوفون الاكتيال، والأخذ بالكيل. قال الفراء: يريد اکتالوا من الناس، وعلى ومن في هذا الموضع يعتقبان، يقال: اکتلت منك أي: استوفيت منك، وتقول: اکتلت عليك أي: أخذت ما عليك. قال الزجاج: إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، ولم يذكر ائتزنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع، فأحدهما يدل على الآخر. قال الواحدي: قال المفسرون: يعني: الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا، وهو معنى قوله: ﴿وإذا کالوهم أو وزنهم يخسرون﴾ أي: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول، فهو من باب الحذف والإيصال، ومثله نصحتك، ونصحت لك، كذا قال الأخفش، والكسائي، والفراء. قال الفراء: وسمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس آتينا التاجر، فيكيلنا المد والمئين إلى الموسم المقبل. قال: وهو من كلام أهل الحجاز، ومن جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير، ومن الناس من يجعله توكيداً أي: توكيداً للضمير المستكن في الفعل، فيجوز الوقف على كالوا أو وزنوا، قال أبو عبيد:

يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة. قال قتادة: ليس ثم أحد يقضي شيئاً، أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين، والمعنى: أن الله لا يملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً من الأمور، كما ملكهم في الدنيا، ومثل هذا قوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [غافر: 16].

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا البحار فجرت﴾ قال: بعضها في بعض، وفي قوله: ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال: بحثت. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ قال: ما قدمت من خير، وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، أو سنة سيئة تعمل بعده، فإن عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيئاً. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: «من استثن خيراً فاستثن به فله أجره، ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم، ومن استثن شراً فاستثن به، فعليه وزره، ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم». وتلا حذيفة: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾. وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية: ﴿ما غرك بريك الكريم﴾ قال: غره والله جهله. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره.

تفسير سورة المطففين

قال القرطبي: وهي مكية في قول ابن مسعود، والضحاك، ومقاتل، ومدينة في قول الحسن، وعكرمة. وقال مقاتل أيضاً: هي أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس، وقاتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات من قوله: ﴿إن الذين أجمعوا﴾ إلى آخرها [المطففين: 29 - 36]. وقال الكلبي، وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة. وأخرج النحاس، وابن مروي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المطففين بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: آخر ما نزل بمكة سورة المطففين. وأخرج ابن مروي، والبيهقي في الشعب، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله ﴿ويل للمطففين﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمَ

الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة، ولفظ سجين علم له. وقال قتادة، وسعيد بن جبير، ومقاتل، وكعب: إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب، فيجعل كتاب الفجار تحتها، وبه قال مجاهد، فيكون في الكلام على هذا القول مضاف محذوف، والتقدير: محل كتاب مرقوم. وقال أبو عبيدة، والأخفش، والمبرد، والزجاج **﴿لُفِي سَجِين﴾** لُفِي حَبَسَ وضيق شديد، والمعنى: كانوا في حبس، جعل ذلك ليلًا على خساسة منزلتهم وهوانها. قال الولاودي: نكر قوم أن قوله: **﴿كتاب مرقوم﴾** تفسير لسجين، وهو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب في شيء على ما حكىناه عن المفسرين، والوجه أن يجعل بيانًا لكتاب المذكور في قوله: **﴿إن كتاب الفجار﴾** على تقدير هو كتاب مرقوم أي: مكتوب قد بينت حروفه انتهى، والأولى ما ذكرناه، ويكون المعنى: إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطفون أي: ما يكتب من أعمالهم، أو كتابة أعمالهم لُفِي ذلك الكتاب المنون للقبائح المختص بالشر، وهو سجين. ثم نكر ما يدل على تهويله، وتعظيمه، فقال: **﴿وما أدراك ما سجين﴾** ثم بيّنه بقوله: **﴿كتاب مرقوم﴾**. قال الزجاج: معنى قوله: **﴿وما أدراك ما سجين﴾** ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك. قال قتادة: ومعنى مرقوم: رقم لهم بشرّ كانه أعلم بعلمة يعرف بها أنه كافر. وكذا قال مقاتل. وقد اختلفوا في نون سجين، فقيل: هي أصلية، واشتقاقه من السجن، وهو الحبس، وهو بناء مبالغة كخمير، وسكير، وفسيق من الخمر والسكر والفسق. وكذا قال أبو عبيدة، والمبرد، والزجاج. قال الواحدي: وهذا ضعيف؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً. ويجاب عنه بأنه رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة، وتدل على أنه من لغة العرب، ومنه قول ابن مقبل:

ورقة يضربون البيض ضاحية ضريباً تواصت به الأبطال سجيناً
وقيل: النون بدل من اللام، والأصل سجيل، مشتقاً من السجل، وهو الكتاب. قال ابن عطية: من قال إن سجيناً موضع، فكتاب مرفوع على أنه خبر إن، والظرف وهو قوله: **﴿لُفِي سَجِين﴾** ملغى، ومن جعله عبارة عن الكتاب، فكتاب خبر مبتدأ محذوف، التقدير: هو كتاب، ويكون هذا الكلام مفسراً لسجين ما هو؟ كذا قال. قال الضحّاك: مرقوم مختم بلغة حمير، وأصل الرقم الكتابة. قال الشاعر:

سارقم بالماء القراح إليك على بعدكم إن كان للماء راقم
﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ هذا متصل بقوله: **﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** وما بينهما اعتراض، والمعنى: ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث، وبما جاءت به الرسل. ثم بيّن سبحانه هؤلاء المكذبين فقال: **﴿الذين يكنون بيوم الدين﴾** والموصول صفة للمكذبين، أو بدل منه **﴿وما يكذب به إلا كل معتد أثيم﴾** أي: فاجر جائر متجاوز في الإثم منهمك في أسبابه **﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾** المنزلّة على محمد ﷺ **﴿قال أساطير الأولين﴾**

وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين، ويقف على كالأو وزنوا، ثم يقول: هم يخسرون. قال: وأحسب قراءة حمزة كذلك. قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداها الخط، ولذلك كتبوها بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالواو وزنوا بالألف. والأخرى أنه يقال: كلتك، ووزنتك بمعنى: كلت لك، ووزنت لك، وهو كلام عربي؛ كما يقال صدّتك وصدت لك، وكسبتك وكسبت لك، وشكرتك وشكرت لك، ونحو ذلك. وقيل: هو على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف المكيل والموزون أي: وإذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم، ومعنى يخسرون: ينقصون كقوله: **﴿ولا تخسروا الميزان﴾** [الرحمن: 9] والعرب تقول: خسرت الميزان، وأخسرت: ثم خوّفهم سبحانه فقال: **﴿إلا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾** والجملة مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف، وتفضيحه، وللتعجب من حالهم في الاجترأ عليه، والإشارة بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى المطففين، والمعنى: أنهم لا يخطر عليهم بباليهم أنهم مبعوثون، فمسؤولون عما يفعلون. قيل: والظن هنا بمعنى اليقين أي: لا يوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن، وقيل: الظن على باب، والمعنى: إن كانوا لا يستيقنون البعث، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه، ويبحثوا عنه، ويتركوا ما يخشون من عاقبته. واليوم العظيم هو يوم القيامة، ووصفه بالعظم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب، ودخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال: **﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** انتصاب الظرف بمبعوثين المذكور قبله، أو بفعل مقدر يدل عليه مبعوثون. أي: يبعثون يوم يقوم الناس، أو على البذل من محل ليوم، أو بإضمار أعني، أو هو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل جرّ على البذل من لفظ ليوم، وإنما بني على الفتح في هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل. قال الزجاج: يوم منصوب بقوله: مبعوثون، المعنى: إلا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة، ومعنى يوم يقوم الناس: يوم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين، أو لجزائه، أو لحسابه، أو لحكمه وقضائه. وفي وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه، ووصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف، ومزيد إثم، وقطاعة عقابه. وقيل المراد بقوله: **﴿يوم يقوم الناس﴾** قيامهم في رشحهم إلى أنصاف أذانهم، وقيل: المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد، وقيل: المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء، والأول أولى. قوله: **﴿كلا﴾** هي: للردع، والزرع للمطففين الغافلين عن البعث، وما بعده. ثم استأنف فقال: **﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾** وعند أبي حاتم أن كلا بمعنى: حقاً متصلة بما بعدها على معنى: حقاً إن كتاب الفجار لفي سجين، وسجين هو ما فسر به سبحانه من قوله: **﴿وما أدراك ما سجين﴾** كتاب مرقوم، فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم أي: مسطور، قيل: هو كتاب جامع لأعمال

عمر قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: «يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال: فكيف إذا جمعكم الله، كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم». وأخرج أبو يعلى، وابن حبان، وابن مريويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «يوم يقوم الناس لرب العالمين» بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهبون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً. وأخرج ابن مريويه من حديثه مرفوعاً. وأخرج الطبراني عن ابن عمر أنه قال: يا رسول الله كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة؟ قال: «ألف سنة لا يؤذن لهم». وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: «كلا إن كتاب الفجار لفي سجين» قال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، فيهبط بها إلى الأرض، فتأبى أن تقبلها، فيدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين، وهو خد إبليس، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم، ويوضع تحت خد إبليس. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «سجين» أسفل الأرضين. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفلق جب في جهنم مغطى، وأما سجين فمفتوح». قال ابن كثير: هو حديث غريب منكر لا يصح. وأخرج ابن مريويه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «سجين» الأرض السابعة السفلى». وأخرج ابن مريويه عن جابر نحوه مرفوعاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن ماجه، والطبراني، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: لما حضرت كعباً الوفاة أثنى أم بشر بنت البراء فقالت: إن لقيت ابني، فأقرته مني السلام، فقال: غفر الله لك يا أم بشر نحن أشغل من ذلك، فقالت: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حين شاءت، وإن نسمة الكافر في سجين؟» قال: بلى، قالت: فهو ذلك. وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زالت حتى تغلف قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن: «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»».

أي: أحاسينهم وإباطيلهم التي زخرفوها. قرأ الجمهور (إذا تتلى) بفوقيتين. وقرأ أبو حيو، وأبو السماك، والأشهب العقيل، والسلمي بالتحتيّة، وقوله: «كلا» للردع، والزجر للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له، وقوله: «بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» بيان للسبب الذي حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين. قال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها ريناً، وريوناً، وكل ما غلبك، وعلاك فقد ران بك، وران عليك. قال الفراء: هو أنها كثرت منهم المعاصي والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب. قال مجاهد: القلب مثل الكف، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب ذنباً آخر انقبض، وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه. قال: وكانوا يرون أن ذلك هو الرين. ثم قرأ هذه الآية. قال أبو زيد: يقال قد رين بالرجل ريناً: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل له به. وقال أبو معاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، والإقبال أشد من الطبع. قال الزجاج: الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين. ثم كرر سبحانه الردع، والزجر فقال: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» وقيل: كلا بمعنى حقا أي: حقا إنهم، يعني: الكفار عن ربهم يوم القيامة لا يرونه أبداً. قال مقاتل: يعني: أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم. قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيدهم حجبهم في الآخرة عن رؤيته. قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة. وقال جل ثناؤه: «يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة» [القيامة: 22، 23] فأعلم جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه. وقيل: هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك. وقال قتادة، وابن أبي مليكة: هو أن لا ينظر إليهم برحمته، ولا يذكهم. وقال مجاهد: محجوبون عن كرامته، وكذا قال ابن كيسان «ثم إنهم لصالوا الجحيم» أي: داخلوا النار، وملازموها غير خارجين منها، وثم لتراخي الرتبة؛ لأن صلي الجحيم أشد من الإهانة، وحرمان الكرامة «ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون» أي: تقول لهم خزنة جهنم تبيكتاً وتويخاً: هذا الذي كنتم به تكذبون في الدنيا، فانظروه ونوقروه.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عوهم، ولا طفقوا الكيل إلا منعوا النيات، وأخذوا بالسنين». وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر: «أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين» حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أنفيه». وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في البعث عن ابن

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلَیِّیْنَ ﴿٧٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلَیُّوْنَ ﴿٧٧﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٧٨﴾ یَسْتَهُدُّ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّ الْأَنْبَارَ لَفِي نَعِیمٍ ﴿٨٠﴾ عَلَى الْأَرْدَاقِ یَنْظُرُونَ ﴿٨١﴾ تَمَرُّونَ فِي وَجْهِهِمْ نَعْرَةَ النَّعِیمِ ﴿٨٢﴾ یَسْتَوْنَ مِنْ رَحِیقٍ مَحْمُورٍ ﴿٨٣﴾ یَحْتَمِلُ مَسَكٌ فِي ذَلِكَ فَلَیْتَائِشِ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَرَامُهُمْ فِي تَنْجِیمٍ ﴿٨٥﴾ عِذَا یَنْتَرِبُ إِلَیْهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ الْأَوَّلَیْكَ أَجْرَمُوا كَأُولَئِیْنَ ءَامَنُوا یَضْحَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا

في جمالهم، وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف. قرأ الجمهور (تعرف) بفتح الفوقية، وكسر الراء، ونصب نصره، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، ويعقوب، وشيبة، وطلحة، وابن أبي إسحاق بضم الفوقية، وفتح الراء على البناء للمفعول، ورفع نصرته بالنيابة ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ قال أبو عبيدة، والأخفش، والمبرد، والزجاج: الرحيق من الخمر ما لا غش فيه، ولا شيء يفسده. والمختوم الذي له ختام. وقال الخليل: الرحيق أجود الخمر، وفي الصحاح الرحيق صفرة للخمر. وقال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية، ومنه قول حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم بردي يصفق بالرحيق السلسل
قال مجاهد ﴿مختوم﴾ ملين كانه ذهب إلى معنى الختم بالطين، ويكون المعنى: أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للابرار. وقال سعيد بن جببر، وإبراهيم النخعي: ختامه آخر طعمه. وهو معنى قوله: ﴿ختامه مسك﴾ أي آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك. وقيل: مختوم ألوانه من الأكواب، والأباريق بمسك مكان الطين، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته، وطيب رائحته. والحاصل أن المختوم، والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه، كما تختم الأشياء بالطين، ونحوه. قرأ الجمهور: (ختامه) وقرأ علي، وعلمة، وشقيق، والضحاك، وطاوس، والكسائي: (خاتمه) بفتح الخاء، والتاء، وألف بينهما. قال علمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتمه مسكاً، أي: آخره، والخاتم، والختام يتقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر، كذا قال الفراء قال في الصحاح: والختام الطين الذي يختم به، وكذا قال ابن زيد. قال الفرزدق:

وبتن بجانبي مصرعات وبنت اقحز أغلاف الختام
﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي: فليرغب الراغبون، والإشارة بقوله: «ذلك» إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة، وقيل: إن في معنى إلى أي: وإلى ذلك، فليتبار المتبارون في العمل، كما في قوله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصفات: 61] وأصل التنافس التشاجر على الشيء، والتنازع فيه، بأن يحب كل واحد أن يتفرد به دون صاحبه، يقال نفست الشيء عليه نفسه نفاسة أي: ظننت به، ولم أحب أن يصير إليه. قال البيهقي: أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، فيريده كل واحد لنفسه، وينفَس به على غيره أي: يضمن به. قال عطاء: المعنى: فليستبق المستبقون. وقال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعين، وقوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ معطوف على ﴿ختامه مسك﴾ صفة أخرى لرحيق أي: ومزاج ذلك الرحيق من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب الجنة، وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه

مَرُوا بِهِمْ يَنْصَارُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢٧﴾ إِذَا رَأَوْهُمُ
قَالُوا إِن هَؤُلَاءَ لَصَالُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَطِيئِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَلَيْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٠﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣١﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

قوله: ﴿كلا﴾ للردع، والزجر عما كانوا عليه، والتكرير للتأكيد، وجملة: ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته، ويجوز أن يكون كلا بمعنى حقاً، والأبرار هم المطيعون، وكتابهم صحائف حسناتهم. قال الفراء: عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له، ووجه هذا أنه منقول من جمع علي من العلو. قال الزجاج: هو إعلاء الأمكنة. قال الفراء والزجاج: فأعرب كإعراب الجمع؛ لأنه على لفظ الجمع، ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين، وعشرين، وقسرين، قيل: هو علم لديوان الخير الذي نون فيه ما عمله الصالحون. وحكى الواحدي عن المفسرين أنه السماء السابعة. قال الضحاك، ومجاهد، وقتادة يعني: السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وقال الضحاك: هو سدره المنتهى ينتهي إليه كل شيء من أمر الله لا يعدوها، وقيل هو الجنة، وقال قتادة أيضاً: هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليميني، وقيل: إن عليين صفة للملائكة، فإنهم في الملأ الأعلى، كما يقال فلان في بني فلان أي: في جملتهم ﴿وما أدراك ما عليون﴾ كتاب مرقوم أي: وما أعلمك يا محمد أي شيء عليون على جهة التفخيم والتعظيم لعليين، ثم فسره فقال: ﴿كتاب مرقوم﴾ أي: مسطور، والكلام في هذا كالكلام المتقدم في قوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾ كتاب مرقوم [المطففين: 8، 9] وجملة: ﴿يشهده المقربون﴾ صفة أخرى لكتاب، والمعنى: أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم، وقيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة. قال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا إسرافيل، فإذا عمل المؤمن عمل البر صعدت الملائكة بالصحيفة، ولها نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض حتى تنتهي بها إلى إسرافيل، فيختم عليها. ثم نكر سبحانه حالهم في الجنة بعد نكر كتابهم، فقال: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ أي: إن أهل الطاعة لفي نعيم عظيم لا يقادر قدره ﴿على الأراك ينظرون﴾ الأراك: الأسرة التي في الحجال، وقد تقدم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة. قال الحسن: ما كنا ندرى ما الأراك حتى قدم علينا رجل من اليمن، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. ومعنى: ﴿ينظرون﴾ أنهم ينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات، كذا قال عكرمة، ومجاهد، وغيرهما. وقال مقاتل: ينظرون إلى أهل النار، وقيل: ينظرون إلى وجهه، وجلاله ﴿تعرف في وجوههم نصرته النعيم﴾ أي: إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه في وجوههم من النور، والحسن، والبياض، والبهجة، والرونق، والخطاب لكل راء يصلح لذلك، يقال انضر النبات: إذا أزهى ونور. قال عطاء: وذلك أن الله زاد

أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأراك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، فنلك قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانَُوا يَفْعَلُونَ﴾ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين، والاستهزاء بهم، والاستفهام للتقرير، وثوب بمعنى: أثيب، والمعنى: هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ وقيل: الجملة في محل نصب بينظرون، وقيل: هي على إضمار القول: أي يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوب الكفار، والثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويطلق على الخير والشر.

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال: روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء، ففتحت لها أبواب السماء، وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهي بها إلى العرش، وتخرج الملائكة، فيخرج لها من تحت العرش رقى، فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال: الجنة، وفي قوله: ﴿يَشْهَدُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ قال: أهل السماء. وأخرج أحمد، وأبو داود، والطبراني، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين». وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿نُصْرَةَ النَّعِيمِ﴾ قال: عين في الجنة يتوضئون منها ويقتسلون، فتجري عليهم نضرة النعيم. وأخرج عبد بن حميد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ قال: الرحيق الخمر، والمختوم يجنون عاقبتها طعم المسك. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿مَخْتُومٍ﴾ قال: ممزوج ﴿خَتَامَهُ مَسْكَ﴾ قال: طعمه وريحه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿مَنْ رَحِيقٍ﴾ قال: خمر، وقوله: ﴿مَخْتُومٍ﴾ قال: ختم بالمسك. وأخرج الفريابي، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن مسعود في قوله: ﴿خَتَامَهُ مَسْكَ﴾ قال: ليس بخاتم يختم به، ولكن خلطه مسك، ألم تر إلى المرأة من نسائك تقول خلطه من الطيب كذا وكذا. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن أبي الدرداء ﴿خَتَامَهُ مَسْكَ﴾ قال: هو: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شربهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجه، لم يبق نور روح إلا وجد ريحها. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿تَسْنِمُ﴾ أشرف شراب أهل الجنة، وهو صرف للمتقين، ويمزج

سنام البعير لعلوه من بدنه، ومنه تسنيم القبور، ثم بين ذلك فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ وانتصاب عيناً على المدح. وقال الزجاج: على الحال، وإنما جاز أن تكون عيناً حالاً مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ وقال الأخفش: إنها منصوبة بيسقون أي: يسقون عيناً، أو من عين، وقال الفراء: إنها منصوبة بتسنيم على أنه مصدر مشتق من السنام، كما في قوله: ﴿أَوْ إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ ﴿يَتِيمًا﴾ [البلد: 14، 15] والأول أولى، وبه قال المبرد. قيل: والباء في بها زائدة أي: يشربها، أو بمعنى من أي: يشرب منها. قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش، قيل: يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين. ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَجَرَمُوا﴾ وهم كفار قريش، ومن وافقهم على الكفر ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي: كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون منهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ أي: وإذا مر المؤمنون بالكفار وهم في مجالسهم ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ من الغمز، وهو الإشارة بالجفون والحواجب: أي: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم، وقيل: يعيرونهم بالإسلام، ويعيبونهم به ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ أي: الكفار ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ من مجالسهم ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: معجبين بما هم فيه متلذذين به، يتفكهون بذكر المؤمنين، والطعن فيهم، والاستهزاء بهم، والسخرية منهم. والانتقال: الانصراف. قرأ الجمهور: (فاكهين) وقرأ حفص، وابن القعقاع، والأعرج، والسلمي: (فكهين) بغير الف. قال الفراء: هما لغتان، مثل طمع وطماع، وحذر وحاذر. وقد تقدم بيانه في سورة البخان أن الفك: الأشر البطر، والفاكه: الناعم المتنعم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: إذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ في اتباعهم محمداً، وتسكهم بما جاء به، وتركهم التنعم الحاضر، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول، والأول أولى، وجملة: ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل قالوا: أي: قالوا ذلك أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المراد باليوم: اليوم الآخر ﴿مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ والمعنى: أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، وجملة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يضحكون: أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الحال الفظيخ، وقد تقدم تفسير الأرائك قريباً. قال الواحدي: قال المفسرون: إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله، وهم يعذبون في النار، فضحكوا منهم، كما ضحكوا منهم في الدنيا. وقال أبو صالح: يقال لأهل النار لخروج، ويفتح لهم

تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله: ﴿حتى إذا جاءوها، وفتح أبوها﴾ [الزمر: 73] ومع لما، كقوله: ﴿فلما أسلما وتله للجبين * ونابيهما﴾ [الصافات: 103، 104] ولا تقحم مع غير هذين. وقيل: إن الجواب قوله: ﴿فملاقية﴾ أي: فانت ملاقية، وبه قال الأخفش. وقال المبرد: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا أي: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا، فملاقية إذا السماء انشقت. وقال المبرد أيضًا: إن الجواب قوله: ﴿فاما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وبه قال الكسائي، والتقدير: إذا السماء انشقت، فمن أوتي كتابه بيمينه، فحكمه كذا، وقيل هو: ﴿يا أيها الإنسان﴾ على إضمار الفاء، وقيل: إنه ﴿يا أيها الإنسان﴾ على إضمار القول أي: يقال له يا أيها الإنسان وقيل: الجواب محذوف تقديره بعنتم، أو لاقى كل إنسان عمله، وقيل: هو ما صرح به في سورة التكوين أي: علمت نفس هذا، على تقدير أن إذا شرطية، وقيل: ليست بشرطية وهي منصوبة بفعل محذوف أي: انكر، أو هي مبتدأ، وخبرها إذا الثانية، والواو مزيدة، وتقديره: وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض، ومعنى: ﴿وأننت لربها﴾ أنها أطاعته في الانشقاق من الإن، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه ﴿ووحقت﴾ أي: وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع، ومن استمع الإن في الاستماع قول الشاعر:

صم إذا سمعوا خيراً نكرت به وإن نكرت بسوء عندهم أننوا
وقول الآخر:

إن يأننوا ربية طاروا بها فرحاً مني وما أننوا من صالح دفنوا

وقيل المعنى: وحق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق: أي: جعلها حقيقة بذلك. قال الضحاك: حقت أطاعت، وحق لها أن تطيع ربها لأنه خلقها، يقال فلان محقوق بكذا، ومعنى طاعتها: أنها لا تمتنع مما أراه الله بها. قال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك، ومن هذا قول كثير:

فان تكن العنبي فاهلاً ومرحباً وحق لها العنبي لدينا وقلت

﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: بسطت كما تبسط الأرض؛ وبكت جبالها حتى صارت قاعاً صافصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً. قال مقاتل: سويت كمد الأديم، فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا نخل فيها، وقيل: مدت زيد في سعتها، من المد، وهو: الزيادة ﴿وولقت ما فيها﴾ أي: أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز، وطرحتهم إلى ظهرها ﴿وتخلت﴾ من ذلك. قال سعيد بن جببر: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء، ومثل هذا قوله:

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ [الزلزلة: 2] ﴿وأننت لربها﴾ أي: سمعت وأطاعت لما أمرها من الإلقاء والتخلي ﴿ووحقت﴾ أي: جعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له، وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا ﴿يا أيها الإنسان﴾ المراد جنس الإنسان، فيشمل المؤمن والكافر، وقيل: هو الإنسان الكافر، والأول أولى لما سيأتي من التفصيل ﴿إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ الكدح في كلام العرب: السعي في

لأصحاب اليمين. وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿مزاجه من تسنيم﴾ قال: عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين، ويشربها المقربون صرفاً. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ قال: هذا مما قال الله ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: 17].

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانشقاق بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرا: ﴿إذا السماء انشقت﴾ [أي: سورة الانشقاق] فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى الفاء. وأخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إذا السماء انشقت﴾ و﴿اقرأ باسم ربك﴾ [أي: سورة العلق]. وأخرج ابن خزيمة، والرويان في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة عن بريدة: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر ﴿إذا السماء انشقت﴾ ونحوها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا النُّجُومُ انْشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا رَحْمَةً ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَشَلَتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقًّا ۖ تَبَاطُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَارِحٌ ۖ إِنَّ رَبَّكَ كَدَسٌ ۖ فَلْيَلْبَسْ ۖ فَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كَيْفَ رُسَيْدِهِ ۖ فَسَوْفَ يَنصَابُ يَصَابًا ۖ وَيَنْفِلُ ۖ إِلَهُ أَهْلِهِ مَسْرُومًا ۖ وَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كَيْفَ رِزْقَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصَلِّ سِيمًا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِأَهْلِهِ مَسْرُومًا ۖ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۖ بَلْ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۖ فَلَا أَفْهَمَ يَأْتَفَفُ ۖ وَأَكْتَلٰ وَنَسَى ۖ وَالْقَمَرِ إِذَا أَشَقَّ ۖ لَتَرَكُنَّ بَطِيقًا عَنْ يَدَيْهِ ۖ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ۖ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُكْفَرُونَ ۖ فَتَرَاهُمْ مَعَدًا ۖ أَيْمًا ۖ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ

قوله: ﴿إذا السماء انشقت﴾ هو: كقوله: ﴿إذا الشمس كورت﴾. [التكوين: 1] في إضمار الفعل وعدمه. قال الواحدي: قال المفسرون: انشقاقها عن علامات القيامة، ومعنى انشقاقها: انفطارها بالغمام الأبيض، كما في قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ [الفرقان: 25] وقيل: تنشق من المجرة، والمجرة باب السماء.

واختلف في جواب إذا، فقال الفراء: إنه أننت، والواو زائدة، وكذلك ألقت. قال ابن الأنباري: هذا غلط لأن العرب لا

النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحور بالضم، وفي المثل، حور في محار: أي: نقصان في نقصان، ومنه قول الشاعر:

والدم يسفى ورأى القوم في حور

والحور أيضاً الهلكة، ومنه قول الراجز:

في بئر لا حور سراما شعر

قال أبو عبيدة: أي: في بئر حور، ولا زائدة **﴿بلى﴾** إن ربه كان به بصيراً **﴿بلى﴾** إيجاب للمنفى بلى أي: بلى ليحورن وليبعثن. ثم علل ذلك بقوله: **﴿إن ربه كان به بصيراً﴾** أي: كان به وباعماله عالماً لا يخفى عليه منها خافية. قال الزجاج: كان به بصيراً قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه **﴿فلا أقسم بالشفق﴾** لازادة، كما تقدم في أمثال هذه العبارة، وقد تقدمنا الاختلاف فيها في سورة القيامة، فارجع إليه، والشفق: الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة. قال الواحدي: هذا قول المفسرين، وأهل اللغة جميعاً. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كانه الشفق، وكان أحمر، وحكاه القرطبي عن أكثر الصحابة، والتابعين والفقهاء. وقال أسد بن عمر، وأبو حنيفة: في إحدى الروايتين عنه إنه البياض، ولا وجه لهذا القول، ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع. قال الخليل: الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة. قال في الصحاح: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب العتمة، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا، ومنه قول الشاعر:

قم يا غلام أعنى غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق
وقال آخر:

لحمر اللون كحمرة الشفق

وقال مجاهد: الشفق النهار كله ألا تراه قال: **﴿والليل وما وسق﴾** وقال عكرمة: هو ما بقي من النهار، وإنما قال هذا لقوله بعده: **﴿والليل وما وسق﴾** فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام، ولا وجه لهذا، على أنه قد روي عن عكرمة أنه قال: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء، وروي عن أسد بن عمر الرجوع **﴿والليل وما وسق﴾** الوسق عند أهل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، يقال استوسقت الإبل: إذا اجتمعت وانضمت، والراعي يسقها: أي: يجمعها، قال الواحدي: المفسرون يقولون: وما جمع، وضم، وحوى، ولف، والمعنى: أنه جمع، وضم ما كان منتشرًا بالنهار في تصرفه، وذلك أن الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه، ومنه قول ضائب بن الحرث البرجمي:

فإنني وإياكم وسوقاً إليكم كقباض شيئاً لم تنله أنامله

وقال عكرمة **﴿وما وسق﴾** أي: وما ساق من شيء إلى حيث يأوي، فجعله من السوق لا من الجمع، وقيل: **﴿وما وسق﴾** أي: وما جئ واستر، وقيل: **﴿وما وسق﴾** أي: وما حمل، وكل شيء حملته فقد وسقته، والعرب تقول: لا أحمله ما وسقت عيني الماء: أي: حملته، ووسقت الناقة تسق وسقاً:

الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شراً، والمعنى: أنك ساع إلى ربك في عملك، أو إلى لقاء ربك، مأخوذ من كدح جلده: إذا خدشه. قال ابن مقبل:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبغني العيش لكدح

قال قتادة، والضحاك، والكلبي: عامل لربك عملاً **﴿فملاقية﴾** أي: فملاق عملك، والمعنى: أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله، وما يترتب عليه من الثواب والعقاب. قال القتيبي: معنى الآية: أنك كادح: أي: عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك، والملاقاة بمعنى اللقاء: أي: تلقى ربك بعملك، وقيل: فملاق كتاب عملك؛ لأن العمل قد انقضى **﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾** وهم: المؤمنون **﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾** لا مناقشة فيه. قال مقاتل: لأنها تغفر ذنوبه، ولا يحاسب بها. وقال المفسرون: هو أن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله، فهو الحساب اليسير **﴿ويقلب إلى أهله مسروراً﴾** أي: وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم في الجنة من عشيرته، أو إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد، وقد سبقوه إلى الجنة، أو إلى من أعد الله له في الجنة من الحور العين، والولدان المخلدين، أو إلى جميع هؤلاء مسروراً مبتهجاً بما أوتي من الخير والكرامة **﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾** قال الكلبي: لأن يمينه مغلولة إلى عنقه، وتكون يده اليسرى خلفه. وقال قتادة، ومقاتل: تفك ألواح صدره وعظامه، ثم تنخل يده وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك **﴿فسوف يدعوا ثبوراً﴾** أي: إذا قرأ كتابه قال: يا ويلاه يا ثبوراه، والثبور الهلاك **﴿ويصلى سعيراً﴾** أي: يخلها، ويقاسي حر نارها وشذتها. قرأ أبو عمرو، وحمزة، وعاصم بفتح الياء، وسكون الصاد، وتخفيف اللام. وقرأ الباقر بن ضم الصاد، وفتح اللام، وتشديد الهاء، وروى إسماعيل المكي عن ابن كثير، وكذلك خارجة عن نافع، وكذلك روى إسماعيل المكي عن ابن كثير أنهم قرءوا بضم الياء، وإسكان الصاد من أصلى يصلي **﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾** أي: كان بين أهله في الدنيا مسروراً باتباع هواه، وركوب شهوته بطراً أشراً لعدم خطور الآخرة بباله، والجملة تعليل لما قبلها، وجملة: **﴿إنه ظن أن لن يحور﴾** تعليل لكونه كان في الدنيا في أهله مسروراً، والمعنى: أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله، ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث، وجحده للدار الآخرة، وأن في قوله: **﴿أن لن يحور﴾** هي: المخففة من الثقيلة سائدة مع ما في حيزها مسد مفعولي ظن، والحور في اللغة: الرجوع، يقال حار يحور: إذا رجع، وقال الراغب: الحور التردد في الأمر، ومنه نعوذ بالله من الحور بعد الكور: أي من التردد في الأمر بعد المضي فيه، ومحاورة الكلام مراجعته، والمحار المرجع والمصير. قال عكرمة، وداود بن أبي هند: يحور كلمة بالحشية، ومعناها يرجع. قال القرطبي: الحور في كلام العرب: الرجوع، ومنه قوله **﴿اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور﴾** يعني: من الرجوع إلى

مسلم: المراد الخضوع، والاستكانة. وقيل: المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة. وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا؟ وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الليل على السجود ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْنُبُونَ﴾ أي: يكتبون بمحمد ﷺ، وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد، والبعث، والثواب، والعقاب ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوْعُونَ﴾ أي: بما يضمرونه في أنفسهم من التكنيب، وقال مقاتل: يكتمون من أفعالهم. وقال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه، ومنه قول الشاعر:

الخبر أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
ويقال: وعاه حفظه، وعيت الحديث أعياه وعياً، ومنه: ﴿أَنْتَ وَأَعِيَّةُ﴾ [الحاقة: 12] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: اجعل تلك بمنزلة البشارة لهم؛ لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعنيبهم، والأليم المؤلم المومع، والكلام خارج مخرج التهكم بهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذا الاستثناء منقطع أي: لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله، والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون أي: غير مقطوع، يقال مننت الحبل: إذا قطعته، ومنه قول الشاعر:

فترى خلفهن من سرعة الرجاء مع منيناً كأنه أهباء
قال المبرد: المنين الغبار؛ لأنه تقطعه وراءها، وكل ضعيف منين وممنون، وقيل: معنى غير ممنون أنه لا يمن عليهم به، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً إن أريد من آمن منهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ قال: تنشق السماء من المجرة. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿وَأَنْتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ قال: سمعت حين كلمها. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿وَأَنْتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ قال: أطاعت، وحقت بالطاعة. وأخرج الحاكم عنه وصححه قال: سمعت وأطاعت ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ قال: يوم القيامة ﴿وَوَلَقْتَ مَا فِيهَا﴾ قال: أخرجت ما فيها من الموتى ﴿وَوَخَلَّتْ﴾ عنهم. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿وَوَلَقْتَ مَا فِيهَا﴾ قال: سوري الذهب. وأخرج الحاكم: قال السيوطي بسند جيد عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَنَحًا﴾ قال: عامل عملاً ﴿فَمَلَأْكَ﴾ قال: فملاق عملك. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، فقلت: ليس يقول الله: ﴿فَمَا مِنْ أَوْتَى كِتَابِهِ بِيَمِينِهِ فَسُوفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: ليس ذلك بالحساب، ولكن تلك العرض، ومن نوقش الحساب هلك». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه

أي: حملت. قال قتادة، والضحاك، ومقاتل بن سليمان: وما وسق، وما حمل من الظلمة، أو حمل من الكواكب. قال القشيري: ومعنى حمل ضم جمع، والليل يحمل بظلمته كل شيء. وقال سعيد بن جبير: وما وسق أي: وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار، والأول أولى ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي: اجتمع، وتكامل. قال الفراء: اتساقه امتلاؤه، واجتماعه، واستواؤه ليلة ثالث عشر، ورابع عشر إلى ست عشرة. وقد افتعل من الوسق الذي هو الجمع. قال الحسن: اتسق امتلاً، واجتمع. وقال قتادة: استدار، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، ويقال: أمر فلان متسق أي: مجتمع منتظم، ويقال اتسق الشيء: إذا تتابع ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم. قرأ حمزة، والكسائي، وابن كثير، وأبو عمرو لتركبن بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد، وهو النبي ﷺ، أو لكل من يصلح له، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وأبي العالية، ومسروق، وأبي وائل، ومجاهد، والنخعي، والشعبي، وسعيد بن جبير، وقرأ الباقون بضم الموحدة خطاباً للجمع، وهم الناس. وقال الشعبي، ومجاهد: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء قال الكلبي: يعني: تصعد فيها، وهذا على القراءة الأولى، وقيل: درجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة في القرب من الله ورفعة المنزلة، وقيل المعنى: لتركبن حالاً بعد حال كل حالة منها مطابقة لاحتها في الشدة، وقيل المعنى: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم حياً، وميتاً، وغنياً، وفقيراً، فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَنَحًا﴾ واختار أبو عبيد، وأبو حاتم القراءة الثانية قالوا: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ. وقرأ عمر (ليركبن) بالتحية، وضم الموحدة على الإخبار، وروي عنه وعن ابن عباس أنهما قرأا بالفتية، وفتح الموحدة أي: ليركبن الإنسان، وروي عن ابن مسعود، وابن عباس أنهما قرأا بكسر حرف المضارعة وهي لغة، وقرئ بفتح حرف المضارعة، وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس. وقيل: إن معنى الآية: ليركبن القمر أحوالاً من سرار، واستهلال، وهو بعيد. قال مقاتل ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يعني: الموت والحياة. وقال عكرمة: رضيع، ثم فطيم، ثم غلام، ثم شاب، ثم شيخ. ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقاً أي: طبقاً مجاوزاً لطبق، أو على الحال من ضمير لتركبن أي: مجاوزين، أو مجاوزاً ﴿فَمَالَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام للانكار، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار، والتعجب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة، أو من غيرها على الاختلاف السابق، والمعنى: أي شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ هذه الجملة الشرطية، وجوابها في محل نصب على الحال أي: أي مانع لهم حال عدم سجودهم، وخضوعهم عند قراءة القرآن. قال الحسن، وعطاء، والكلبي، ومقاتل: ما لهم لا يصلون. وقال أبو

الآية قال: السماء تكون كالمهل، وتكون وردة كالدَّهْمَانِ، وتكون واهية، وتشقق، فتكون حالاً بعد حال. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَوْعُونَ﴾ قال: يسرون.

تفسير سورة البروج

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿والسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾ [أي: سورة البروج] بمكة. وأخرج أحمد قال: حدثنا عبد الصمد حدثنا زريق بن أبي سلمى حدثنا أبو المهزم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿السَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾ ﴿والسَّمَاءُ وَالطَّارِقُ﴾ [أي: سورة الطارق]. وأخرج الطيالسي، وابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والطبراني، والبيهقي، في سننه عن جابر بن سمرة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿السَّمَاءُ وَالطَّارِقُ﴾، ﴿والسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ۝ وَنَجْمِهِ ۝ قُلْ أَصْحَابُ الْأُفُقِ ۝ الْأَنْزَارِ ذَاتِ الْوُجُوهِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَا يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْكَافِرِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَجْعَلْ لِكُلِّ فِتْنَةٍ مِّنْهُمْ حِجَابًا ۝ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝ إِذْ يَبْعَثُ رَبُّكَ لَشِدْدِ ۝ إِنَّهُمْ هُمُ الْيَائِسُونَ ۝ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْأَوْدِيُّ ۝ ذُو الْعَرْشِ الْحَكِيمُ ۝ قَالُوا لِمَا يَدْعُو ۝ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ ۝ بِلِ الْيَمِّ كَفَرُوا فِي تَكْذِبٍ ۝ وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي سَحَابٍ مِّمَّنْ ۝ هُوَ قَرِيبٌ مِّنْ حُجُومِ ۝ فِي تَوَجُّعٍ مَّحْمُومِ ۝

قوله: ﴿والسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾ قد تقدّم الكلام في البروج عند تفسير قوله: ﴿جعل في السماء بروجاً﴾ [الفرقان: 61] قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: هي النجوم، والمعنى: والسماء ذات النجوم. وقال عكرمة، ومجاهد أيضاً: هي قصور في السماء. وقال المنهال بن عمرو: ذات الخلق الحسن. وقال أبو عبيدة، ويحيى بن سلام وغيرهما: هي المنازل للكوكب، وهي اثنا عشر برجاً لآلئها عشر كوكبا، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والبلق، والحوث. والبروج في كلام العرب: القصور، ومنه قوله: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ [النساء: 78] شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها، وقيل هي أبواب السماء، وقيل هي منازل القمر، وأصل البرج الظهور،

عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً، فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه، فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب هلك» وفي بعض الفاظ الحديث الأول، وهذا الحديث الآخر: «من نوقش الحساب عذب». وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، والبيهقي، والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه يحاسبه الله حساباً يسيراً، ويخله الجنة برحمته: تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ قال: الول. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: ﴿إِنَّهُ ظَنُّ أَنْ لَّنْ يَحُورَ﴾ قال: يبعث. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿أَنْ لَّنْ يَحُورَ﴾ قال: أن لن يرجع. وأخرج سمويه في فوائده عن عمر بن الخطاب قال: ﴿الشفق﴾ الحمرة. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله. وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: ﴿الشفق﴾ النهار كله. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿والليل وما وسق﴾ قال: وما لخل فيه. وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه: ﴿وما وسق﴾ قال: وما جمع. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿والقمر إذا تنسق﴾ قال: إذا استوى. وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿والليل وما وسق﴾ قال: وما جمع، أما سمعت قوله:

إِن لَنَا قُلُوبًا نَقَانًا مستوسقات لو وجدن سائقا
وأخرج عبد بن حميد عنه: ﴿والقمر إذا تنسق﴾ قال: ليلة ثلاثة عشر. وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب «لتركبن طبقاً عن طبق» قال: حالاً بعد حال. وأخرج البخاري عن ابن عباس «لتركبن طبقاً عن طبق» حالاً بعد حال، قال: هذا نبأكم ﷺ. وأخرج أبو عبيد في القراءات، وسعيد بن منصور، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «لتركبن طبقاً عن طبق» يعني: بفتح الباء من تركب. وقال: يعني: نبأكم ﷺ حالاً بعد حال. وأخرج الطيالسي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني عنه قال: «لتركبن» يا محمد السماء «طبقاً عن طبق». وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم في الكنى، والطبراني، وابن منده، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: (لتركبن) يعني: بفتح الباء. وقال لتركبن يا محمد سماء بعد سماء. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عنه: «لتركبن طبقاً عن طبق» قال: يعني: السماء تنفطر، ثم تنشق، ثم تحمر. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي عنه أيضاً في

السجستاني، وابن الأنباري أيضاً: في الكلام تقديم وتأخير أي: قتل أصحاب الأخنود، والسماء ذات البروج، واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال: والله قام زيد، والأخنود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخايد، ومنه الخد لمجاري المومع، والمخدة لأن الخد يوضع عليها، ويقال تخد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخايد من خراج، ومنه قول طرفة:

وجه كان الشمس القت رداءها عليه نقي اللون لم يتخذ
وسياتي بيان حيث أصحاب الأخنود إن شاء الله. قرأ الجمهور (النار ذات الوقود) بجر النار على أنها بدل اشتغال من الأخنود؛ لأن الأخنود مشتمل عليها، وذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة، والوقود: الحطب الذي توقد به، وقيل: هو بدل كل من كل، لا بدل اشتغال. وقيل: إن النار مخفوضة على الجوار، كذا حكى مكي عن الكوفيين. وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود، وقرأ قتادة، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم بضمها. وقرأ أشهب العقيلي، وأبو حيوة، وأبو السمك العلوي، وابن السميع، وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي النار، أو على أنها فاعل فعل محذوف أي: أحرقتهم النار (إذ هم عليها قعود) العامل في الظرف قتل أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها، ويقرب إليها. قال مقاتل: يعني: عند النار قعود يعرضونهم على الكفر. وقال مجاهد: كانوا قعوداً على الكرسي عند الأخنود (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) أي: الذين خنوا الأخنود، وهم: الملك وأصحابه، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار؛ ليرجعوا إلى دينهم شهود: أي حضور، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به. وقيل: يشهدون بما فعلوا يوم القيامة، ثم تشهد عليهم السننهم وأيديهم وأرجلهم. وقيل: على بمعنى مع، والتقير: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود. قال الزجاج: أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم، وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله (وما نقموا منهم) أي: ما أنكروا عليهم، ولا عابوا منهم (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) أي: إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال. قال الزجاج: ما أنكروا عليهم نذراً إلا إيمانهم، وهذا كقوله: (هل تتقون منا إلا أن آمنا بالله) [المائدة: 59] وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم، كما في قوله:

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم
وقول الآخر:

ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذاك عناق الطير شكلاً عيونها
قرأ الجمهور (نقموا) بفتح النون، وقرأ أبو حيوة بكسرهما، والفصحى الفتح. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم، والفخامة فقال: (الذي له ملك السموات والأرض) ومن كان هذا شأنه، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحّد (والله على كل شيء شهيد) من فعلهم بالمؤمنين

سميت بذلك لظهورها (واليوم للموعود) أي: الموعود به، وهو يوم القيامة. قال الواحدي: في قول جميع المفسرين (وشاهد ومشهود) المراد: بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق أي: يحضر فيه والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب، وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه، والمشهود يوم عرفة؛ لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج، وتحضره الملائكة. قال الواحدي: وهذا قول الأكثر. وحكى القشيري عن ابن عمر، وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى. وقال سعيد بن المسيب: الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة. وقال النخعي: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر؛ وقيل: الشاهد هو الله سبحانه. وبه قال الحسن، وسعيد بن جبيرة، لقوله: (وكفى بالله شهيداً) [الفتح: 28] وقوله: (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم) [الأنعام: 19] وقيل: الشاهد محمد ﷺ لقوله: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) [النساء: 41] وقوله: (ها أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) [الأحزاب: 45] وقوله: (ويكون الرسول عليكم شهيداً) [البقرة: 143] وقيل: الشاهد جميع الأنبياء لقوله: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) وقيل: هو عيسى بن مريم لقوله: (وكنتم عليهم شهيداً ما مدت فيهم) [المائدة: 117] والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما أمة محمد، أو أمم الأنبياء، أو أمة عيسى. وقيل: الشاهد آدم. والمشهود نريته. وقال محمد بن كعب: الشاهد الإنسان لقوله: (وكفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) [الإسراء: 14] وقال مقاتل: أعضاؤه لقوله: (يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) [النور: 24] وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم لقوله: (وكنلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) [البقرة: 143] وقيل: الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم، وقيل: الأيام والليالي. وقيل: الشاهد الخلق يشهدون لله عز وجل بالوحدانية، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه، وسياتي بيان ما ورد في تفسير الشاهد والمشهود، وبيان ما هو الحق إن شاء الله (قتل أصحاب الأخنود) هذا جواب القسم، واللام فيه مضمرة، وهو الظاهر، وبه قال الفراء، وغيره، وقيل تقديره: لقد قتل، فحذفت اللام، وقد، وعلى هذا تكون الجملة خبرية، والظاهر أنها دعائية؛ لأن معنى قتل لعن. قال الواحدي: في قول الجميع، والدعائية لا تكون جواباً للقسم، فقيل: الجواب قوله: (إن الذين فتنوا المؤمنين) وقيل: قوله: (إن بطش ربك لشديد) وبه قال المبرد: واعترض عليه بطول الفصل، وقيل: هو مقدر يدل عليه قوله: (قتل أصحاب الأخنود) كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون، كما لعن أصحاب الأخنود، وقيل: تقدير الجواب: لتبعن، واختاره ابن الأنباري. وقال أبو حاتم

يفضحهم بها، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه. قال مجاهد: الواوُ لأوليائه، فهو فعول بمعنى فاعل. وقال ابن زيد: معنى الوبود الرحيم. وحكى المبريد عن إسماعيل القاضي أن الوبود هو الذي لا ولد له، وأنشد:

واركب في الروع عريانة نلول الجناح لقاحاً ووداً
أي: لا ولد لها تحن إليه. وقيل: الوبود بمعنى الموبود أي: يوده عباده الصالحون، ويحبونه، كذا قال الأزهري. قال: ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل أي: يكون محباً لهم. قال: وكلتا الصفتين مدح؛ لأنه جلّ نكره إن أحبّ عباده المطيعين فهو فضل منه، وإن أحبّه عباده العارفون؛ فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه. قرأ الجمهور: (نو العرش المجيد) الآية برفع المجيد على أنه نعت لذو، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم قالوا: لأن المجد هو: النهاية في الكرم والفضل، والله سبحانه هو المنعوت بذلك. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بالجر على أنه نعت للعرش. وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم، كما في آخر سورة المؤمنون. وقيل: هو نعت لربك، ولا يضّرّ الفصل بينهما؛ لأنها صفات لله سبحانه. وقال مكي: هو خبر بعد خبر، والأول أولى. ومعنى ذو العرش: ذو الملك والسلطان، كما يقال: فلان على سرير ملكه، ومنه قول الشاعر:

راوا عرشى تثلم جانباه فلما أن تثلم أفروني
وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
وقيل: المراد خالق العرش **﴿فَعَالٌ لَمَا يَرِيدُ﴾** أي: من الإبداء والإعادة. قال عطاء: لا يعجز عن شيء يريد، ولا يمتنع منه شيء طلبه، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرة محضة. قال ابن جرير: رفع فعال، وهو نكرة محضة على وجه الابتاع لإعراب الغفور الودود، وإنما قال: فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة. ثم نكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَيِثُ الْجَنُودِ﴾** والجملة مستأنفة مقررة لما تقدم من شدة بطشه سبحانه، وكونه فعالاً لما يريد، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ أي: هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها. ثم بينهم فقال: **﴿فَرَعُونَ وَثُمُودُ﴾** وهو بدل من الجنود، والمراد بفرعون هو وقومه، والمراد بثمود: القوم المعروفون، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد، وما وقع عليهم من العذاب، وقصتهم مشهورة قد تكرر في الكتاب العزيز نكرها في غير موضع، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب، وعند مشركي العرب، ودلّ بهما على أمثالهما. ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره ﷺ لمن تقدّم نكره، وبين أنهم أشدّ منهم في الكفر والتكذيب فقال: **﴿هَلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ﴾** أي: بل هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب

لا يخفى عليه منه خافية، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد خير لمن غلبوه على دينه من أولئك المؤمنين. ثم بين سبحانه ما أعدّ لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾** أي: حرقوهم بالنار، والعرب تقول: فتنت الشيء أي: أحرقت، وفتنت الدرهم والدينار: إذا أسخّته النار؛ لتتغير جودته. ويقال دينار مفتون، ويسمى الصائغ الفتان، ومنه قوله: **﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ﴾** [الذاريات: 13] أي: يحرقون، وقيل: معنى فتنوا المؤمنين: محنهم في دينهم ليرجعوا عنه، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم، ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم فلهم عذاب جهنم أي: لهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم، والجملة في محل رفع على أنها خبر إن، أو الخبر لهم، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، ولا يضّرّ نسخه بأنّ خلافاً للأخفش، ولهم عذاب الحريق أي: ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم، وهو عذاب الحريق الذي وقع منهم للمؤمنين، وقيل: إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعير، وقيل: إنهم يعذبون في جهنم بالزهمير، ثم يعذبون بعذاب الحريق، فالأول عذاب يبردها، والثاني عذاب يحرّما. وقال الربيع بن أنس: إن عذاب الحريق أصيبوا به في الدنيا، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه، فأحرقتهم، وبه قال الكلبي. ثم نكر سبحانه ما أعدّ للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** وظاهر الآية العموم، فيدخل في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولاً أولياً، والمعنى: أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات **﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** أي: لهم بسبب الإيمان، والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة. وقد تقدّم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات في غير موضع، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار، فجري الأنهار من تحتها واضح، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر؛ لأنها ساترة لساحتها، والإشارة بقوله: **﴿وَلَكُمْ فِيهَا جُرُودٌ مِمَّا تَشْتَبُونَ﴾** [الأنعام: 125] أي: لكم في تلك الجنات أشجار من تحتها تستأمنون، وهو الذي لا يعذب فيه، ولا يقاربه ولا يدانيه، والفوز الظفر المطلوب، وجملة: **﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾** مستأنفة لخطاب النبي ﷺ مبنية لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه، والمغفرة لمن أطاعه أي: أخذه للجبرية والظلمة شديد، والبطش: الأخذ بعنف، ووصفه بالشدة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم، ومثل هذا قوله: **﴿إِنَّ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ﴾** [مرد: 102] **﴿إِنَّهُ هُوَ يَدِي وَيُعِيدُ﴾** أي: يخلق الخلق أولاً في الدنيا، ويعيدهم أحياء بعد الموت. كذا قال الجمهور، وقيل: بيدئ للكفار عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده لهم في الآخرة، واختار هذا ابن جرير، والأول أولى **﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾** أي: بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا

قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة». وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس، وأبي هريرة مثله موقوفاً. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهد يوم عرفة، وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب. وأخرج ابن ماجه، والطبراني، وابن جرير عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرنا من الصلاة علي يوم الجمعة، فإنه يوم مشهد تشهد الملائكة». وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب في الآية قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن الحسن بن علي أن رجلاً سأله عن قوله: **«وشاهد ومشهود»** قال: هل سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت ابن عمر، وابن الزبير فقالا: يوم الذبح، ويوم الجمعة. قال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ، ثم قرأ: **«وجئنا بك على هؤلاء شهيداً»** [النساء: 41] والمشهد يوم القيامة، ثم قرأ: **«ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود»** [هود: 103]. أخرج عبد بن حميد، والطبراني في الأوسط، والصغير، وابن مردويه عن الحسين بن علي في الآية قال: الشاهد جدِّي رسول الله ﷺ، والمشهد يوم القيامة، ثم تلا: **«إنا أرسلناك شاهداً»** [الأحزاب: 45] **«ذلك يوم مشهود»**. وأخرج عبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي الدنيا، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساکر من طرق عن ابن عباس قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد محمد ﷺ، والمشهد يوم القيامة، ثم تلا: **«ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود»** [هود: 103]. وأخرج ابن جرير عنه قال: الشاهد الله، والمشهد يوم القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الشاهد الله. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الشاهد الله، والمشهد يوم القيامة.

قلت: وهذه التفاسير عن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفت كما ترى، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم، واستدل من استدل منهم بآيات نكر الله فيها أن نك الشيء شاهد أو مشهود، فجعله ليلاً على أنه المراد بالشاهد، والمشهد في هذه الآية المطلقة، وليس نك بديل يستدل به على أن الشاهد، والمشهد المذكورين في هذا المقام هو: نك الشاهد، والمشهد الذي نكر في آية أخرى، وإلا لزم أن يكون قوله هنا: **«وشاهد ومشهود»** هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز، أو السنة المطهرة أنه يشهد، أو أنه مشهود، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض، ولم يقل قائل بذلك. فإني قلت: هل في المرفوع الذي نكرته من حديثي أبي هريرة، وحديث أبي مالك، وحديث جبير بن مطعم، ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود، والشاهد والمشهد؟ قلت: أما

شديد لك، ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار **«والله من ورائهم محيط»** أي: يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، والإحاطة بالشيء: الحصر له من جميع جوانبه، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط. ثم رد سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال: **«بيل هو قرآن مجيد»** أي: متناه في الشرف والكرام، والبركة لكونه بياناً لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا، وليس هو كما يقولون إنه شعر وكهانة وسحر **«في لوح محفوظ»** أي: مكتوب في لوح، وهو أم الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه. قرأ الجمهور محفوظ بالجر على أنه نعت للوح، وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن أي: بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح. واتفق القراء على فتح اللام من لوح إلا يحيى بن يعمر، وابن السميع، فإنهما قرأاً بضمها. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. قيل: والمراد باللوح بضم اللام: الهواء الذي فوق السماء السابعة. قال أبو الفضل: اللوح بضم اللام: الهواء، وكذا قال ابن خالويه. قال في الصحاح: اللوح بالضم: الهواء بين السماء والأرض.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال **«البروج»** قصور في السماء. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل عن: **«السماء ذات البروج»** فقال: الكواكب، وسئل عن قوله: **«الذي جعل في السماء بروجاً»** [الفرقان: 61] قال: الكواكب. وعن قوله: **«في بروج مشيدة»** [النساء: 78] قال: القصور. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **«والليوم الموعود * وشاهد ومشهود»** قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة، وهو الحج الأكبر، فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد وأمه، وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله، وأحب الأعمال فيه إلى الله، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه. وأخرج عبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعجز من شيء إلا أعاده منه». وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة رفعه: **«وشاهد ومشهود»** قال: الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة، والمشهد هو الموعود يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والمشهد يوم النحر، والشاهد يوم الجمعة. وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهد يوم عرفة». وأخرج ابن مردويه، وابن عساکر عن جبير بن مطعم

الجبل، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أرابوا أن يلقوه منه جعلوا يتهاقنون من ذلك الجبل، ويترون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، ثم رجع الغلام، فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر، فيلقوه فيه، فانطلقوا به إلى البحر، فغرق الله الذين كانوا معه، وإنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لن تقتلني حتى تصلبني وترميني، وتقول إذا رميتني: بسم الله رب الغلام، فأمر به فصلب، ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم، ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد، فإننا نؤمن برب هذا الغلام، فقيل للملك: أجزعت أن خالفك ثلاثة، فهذا العالم كله قد خالفوك، قال: فخذ أخدوداً، ثم ألقني فيه الحطب والنار، ثم جمع الناس، فقال: من رجع عن دينه تركناه، ومن لم يرجع القيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود، فقال: يقول الله: **﴿قتل أصحاب الأخدود﴾** للنار ذات الوقود حتى بلغ **﴿العزیز الحمید﴾** فأما الغلام، فإنه دفن، ثم أخرج، فينكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب، وأصبه على صدغه، كما وضعها حين قتل، ولهذا القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف. وقد رواها مسلم في أواخر الصحيح عن هبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به. وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان، وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: **﴿أصحاب الأخدود﴾** قال: هم الحبشة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بني إسرائيل خدوا أخدوداً في الأرض أودوا فيه نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعرضوا عليها. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: **﴿والسما ذات البروج﴾** إلى قوله: **﴿وشاهد مشهود﴾** قال: هذا قسم على **﴿إن بطش ربك لشديد﴾** إلى آخرها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: **﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾** قال: يبدئ العذاب، ويعيده. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء، والصفات عن ابن عباس في قوله: **﴿الوود﴾** قال: الحبيب، وفي قوله: **﴿لوعرش المجيد﴾** قال: الكريم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: **﴿في لوح محفوظ﴾** قال: أخبرته لوح النكر لوح واحد فيه النكر، وإن ذلك اللوح من نور، وإنه مسيرة ثلثمائة سنة. وأخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الذي نكره الله في قوله: **﴿بيل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾** في جبهة إسرافيل، وأخرج أبو الشيخ، قال السيوطي بسند جيد عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق: اكتب علمي في خلقي، فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة اهـ.

اليوم الموعود، فلم تختلف هذه الروايات التي نكر فيها، بل اتفقت على أنه يوم القيامة، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم الجمعة، وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي حديث أبي مالك أنه يوم الجمعة، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة، وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة، فاتفقت هذه الأحاديث عليه، ولا تضر زيادة يوم عرفة عليه في حديث أبي هريرة الثاني؛ وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم عرفة، وفي حديثه الثاني أنه يوم القيامة، وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة، وفي حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة، وكذا في حديث سعيد، فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وأما اليوم الموعود، فقد قدمنا أنه وقع الاجتماع على أنه يوم القيامة.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والطبراني عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم، وكان لذلك الملك كاهن يَكهن له فقال له ذلك الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً، أو قال فطناً لقناً، فأعلمه علمي، فإنني أخاف أن أموت، فينقطع منكم هذا العلم، ولا يكون فيكم من يعلمه، قال: فنظروا له على ما وصف، فأمره أن يحضر ذلك الكاهن، وأن يختلف إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، وكان على طريق الغلام راهب في صومعة، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به، فلم يزل به حتى أخبره، فقال: إنما أعبد الله، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب، ويبطئ على الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك أين كنت؟ فقل عند أهلي، وإذا قال لك أهلك أين كنت؟ فأخبرهم أنني كنت عند الكاهن، فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة، يقال إنها كانت أسداً، فأخذ الغلام حجراً فقال: اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً، فأسالك أن تقتل هذه الدابة، وإن كان ما يقول للكاهن حقاً، فأسالك أن لا تقتلها، ثم رمى فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ فقالوا الغلام، ففرغ الناس، وقالوا: قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد، فسمع أعمى، فجاءه، فقال له: إن أنت رددت علي بصري، فلك كذا، وكذا، فقال الغلام: لا أريد منك هذا، ولكن أريد أن أرجع عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك؟ قال نعم، فدعا الله، فردَّ عليه بصره، فأمن الأعمى، فبلغ الملك أمرهم، فبعث إليهم، فأتى بهم، فقال: لاقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى، فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، وقتل الآخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام، فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا، وكذا، فآلقوه من رأسه، فانطلقوا به إلى ذلك

تفسير سورة الطارق

به فقال: ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ * النجم الثاقب﴾ الثاقب: المضيء، ومنه يقال ثقب النجم ثقباً، وثقابة إذا أضاء، وتقويه ضوؤه، ومنه قول الشاعر:

أنا به في الناس حتى كانه بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدي: الطارق يقع على كل ما طرق ليلاً، ولم يكن النبي ﷺ يدري ما المراد به لو لم يبينه بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾ قال مجاهد: الثاقب المتوهج. قال سفيان: كل ما في القرآن ﴿وما أدراك﴾، فقد أخبره، وكل شيء قال: ﴿وما يدريك﴾ لم يخبره به، وارتفاع قوله: ﴿النجم الثاقب﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله، كأنه قيل ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ هذا جواب القسم، وما بينهما اعتراض، وقد تقدم في سورة هود اختلاف القراء في: (لما)، فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدر، وهو اسمها، واللام هي الفارقة، وما مزيدة أي: إن الشأن كل نفس لعلها حافظ، ومن قرأ بالتشديد، فإن نافية، ولما بمعنى إلا أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر، وعاصم، وحمرزة. وقرأ الباقر بالتخفيف. قيل: والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها، وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشر، وقيل: الحافظ هو الله عز وجل، وقيل: هو العقل يرشدهم إلى المصالح، ويكفهم عن المفاسد، والأول أولى لقوله: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ [الأنعام: 61] وقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه﴾ [الرعد: 11] والحافظ على الحقيقة هو الله عز وجل، كما في قوله: ﴿فإنه خير حافظاً﴾ [يوسف: 64] وحفظ الملائكة من حفظه؛ لأنهم بأمره ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه؛ ليعلم قدرة الله على ما هو نون ذلك من البعث. قال مقاتل: يعني: المكذب بالبعث ﴿مم خلق﴾ من أي شيء خلقه الله، والمعنى: فلينظر نظر التفكر، والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته. ثم بين سبحانه ذلك فقال: ﴿خلق من ماء دافق﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، والماء: هو المنى، والنفق: اللص، يقال نفقت الماء أي: صبيبته، يقال ماء دافق أي: منفوق، مثل: ﴿عيشة راضية﴾ [القارة: 7] أي: مرضية. قال الفراء: والأخفش: ماء دافق أي: مصبوب في الرحم. قال الفراء: وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم: سر كاتم أي: مكتوم، وهم ناصب: أي منصوب، وليل نائم، ونحو ذلك. قال الزجاج: من ماء ذي انغفاق، يقال دارع، وقايس، ونابل: أي ذو درع، وقوس، ونبل، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما، ثم وصف هذا الماء، فقال: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أي: صلب

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت، ﴿والسما، والطارق﴾ [أي: سورة الطارق] بمكة، وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، والطبراني، وابن مردويه عن خالد العدواني: «أنه أبصر رسول الله ﷺ في سوق ثقيف، وهو قائم على قوس، أو عصي حين أتاهم يبتغي النصر عندهم، فسمعه يقرأ: ﴿والسما، والطارق﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعنتي ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل، فقرأتها، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنزَلَ الْطَارِقَ ﴿١﴾ وَمَا أَزْكَى مَا الْكَارِثُ ﴿٢﴾ أَنزَلَ الْفَاقِثَ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ قَسْرِ لَّمَّا عَلَيَّ حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خَلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ نَّوْءٍ دَاقِقٍ ﴿٦﴾ يَمْزِجُ مِرْأً بَيْنَ السَّالْبِ وَالَّتْرَابِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَّ رَبِّهِ لَكَاثٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَكُنُ الْأَنْفُسُ فَا لَمْ مِنْ نَوْءٍ وَلَا نَابِرٍ ﴿٩﴾ وَأَنزَلَ ذَاتَ الْصَاحِجِ ﴿١٠﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١١﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَرَجِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٣﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٤﴾ فَيَوْمَ أَكْفَرِينَ أَنهَلَهُمْ رَدْدًا ﴿١٥﴾

اقسم سبحانه به **﴿السما والطارق﴾** وهو: النجم الثاقب، كما صرح به التنزيل. قال الواحدي: قال المفسرون: اقسم الله بالسما والطارق، يعني: الكواكب تطرق بالليل، وتخفى بالنهار. قال الفراء: الطارق النجم؛ لأنه يطالع بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق. وكذا قال الزجاج، والمبرد: ومنه قول امرئ القيس:

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فإلهيتها عن ذي ثامم محول وقوله أيضاً:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

وقد اختلف في الطارق هل هو: نجم معين، أو جنس النجم؟ فقيل: هو زحل، وقيل: الثريا، وقيل: هو الذي ترمى به الشياطين، وقيل: هو جنس النجم. قال في الصحاح: والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح، ومنه قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

أي: إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء، وأصل الطروق اللق، فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى اللق. وقال قوم: إن الطروق قد يكون نهاراً، والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين أي: مرتين، ومنه قوله ﷺ: «أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير». ثم بين سبحانه ما هو الطارق، تخميماً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام

الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس تلك الماء حتى لا يخرج لقادر، والأول أظهر، ورجحه ابن جرير، والثعلبي، والقرطبي ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ العامل في الظرف على التفسير الأول، هو رجع، وقيل: لقادر. واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم، وقيل: العامل فيه مقتر أي: يرجعه يوم تبلى السرائر، وقيل: العامل فيه مقتر، وهو أنكر، فيكون مفعولاً به، وأما على قول من قال: إن المراد رجع الماء، فالعامل في الظرف مقتر، وهو أنكر، ومعنى تبلى السرائر: تختبر، وتعرف، ومنه قول الرازي:

قد كنت قبل اليوم تزديني فالיום أبلك وتبتليني أي: أختبرك وتختبرني، وأمتحك وتمتحنني، والسرائر: ما يسر في القلوب من العقائد والنيات، وغيرها، والمراد هنا عرض الأعمال، ونشر الصحف، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح، والغث من السمين ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي: فما للإنسان من قوة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله، ولا ناصر ينصره مما نزل به. قال عكرمة: هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر. قال سفيان: القوة العشرية، والناصر الحليف، والأول أولى ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ﴾ الرجع: المطر. قال الزجاج: الرجع المطر؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. قال الخليل: الرجع المطر نفسه، والرجع نبات الربيع. قال أهل اللغة: الرجع المطر. قال المتنخل يصف سيفاً له:

أبيض كالرجع رسوب إذا ما باح في محتفل يختلي

قال الواحدي: الرجع المطر في قول جميع المفسرين، وفي هذا الذي حكاه عن جميع المفسرين نظر، فإن ابن زيد قال: الرجع الشمس، والقمر، والنجوم يرجعون في السماء تطلع من ناحية، وتغيب في أخرى. وقال بعض المفسرين: ذات الرجع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد. وقال بعضهم: معنى ذات الرجع: ذات النفع، ووجه تسمية المطر رجعاً ما قاله الكفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت، وهو إعانته، وكذا المطر لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعاً. وقيل: إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض، وقيل: سمته العرب رجعاً لأجل التقاؤل ليرجع عليهم، وقيل: لأن الله يرجعه وقتاً بعد وقت ﴿وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّدْعِ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات، والثمار والشجر، والصدع: الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتتصدع له. قال أبو عبيدة، والفراء: تتصدع بالنبات. قال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المياه، وقيل: ذات الحرث لأنه يصدعها، وقيل: ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث.

والحاصل أن الصدع إن كان اسماً للنبات فكانه قال: والأرض ذات النبات؛ وإن كان المراد به الشق، فكانه قال: والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ أي: إن القرآن لقول يفصل

الرجل، وتراثب المرأة، والتراثب جمع تريبة، وهي موضع القلادة من الصدر، والولد لا يكون إلا من الماءين. قرأ الجمهور (يخرج) مبنياً للمفاعل. وقرأ ابن أبي عبلة، وابن مقسم مبنياً للمفعول، وفي الصلب وهو الظهر لغات. قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام، وقرأ أهل مكة بضم الصاد واللام. وقرأ اليماني بفتحهما، ويقال صالِب على وزن قالب. ومنه قول العباس بن عبد المطلب:

تنقل من صلب إلى رحم

في أبياته المشهورة في مدح النبي ﷺ. وقد تقدم كلام في هذا عند تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: 23] وقيل: التراثب ما بين الثديين. وقال الضحاك: تراثب المرأة: اليدن، والرجلين، والعينين. وقال سعيد بن جبيرة: هي الجيد. وقال مجاهد: هي ما بين المنكبين والصدر. وروي عنه أيضاً أنه قال: هي الصدر. وروي عنه أيضاً أنه قال: هي التراقي. وحكى الزجاج: أن التراثب عصارة القلب، ومنه يكون الولد، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر، والنحر، ومنه قول نريد بن الصمة:

فإن تدبروا ناخذكم في ظهوركم وإن تقبلوا ناخذكم في التراثب

قال عكرمة: التراثب الصدر، وأنشد:

نظام يز على تراثبها

قال في الصحاح: التريبة واحدة التراثب. وهي عظام الصدر. قال أبو عبيدة: جمع التريبة تريب، ومنه قول المتنبي العبدى:

ومن ذهب بنين على تريب كلون العاج ليس بذى غضون وقول امرئ القيس:

تراثبها مصقولة كالسجنجل

وحكى الزجاج: أن التراثب أربع أضلاع من يمين الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر. قال قتادة، والحسن: المعنى، ويخرج من صلب الرجل، وتراثب المرأة. وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب يكون معنى من بين الصلب، من الصلب، وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ولا يخالف هذا ما في الآية؛ لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والتراثب، وقيل: إن المعنى: يخرج من جميع أجزاء البدن، ولا يخالف هذا ما في الآية؛ لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والتراثب، باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هي: الصلب والتراثب، وما يجاورها، وما فوقها مما يكون تنزله منها ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ الضمير في إنه يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله: ﴿خَلَقَ﴾ عليه، فإن الذي خلقه هو الله سبحانه، والضمير في رجع عائد إلى الإنسان، والمعنى: أن الله سبحانه على رجع الإنسان أي: إعانته بالبعث بعد الموت: ﴿لِقَادِرٌ﴾ هكذا قال جماعة من المفسرين: وقال مجاهد: على أن يرد الماء في الإحليل. وقال عكرمة، والضحاك: على أن يرد الماء في الصلب. وقال مقاتل بن حيان يقول: إن شئت رددته من الكبير إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن

بإذن الله عن الأموال والنبات. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ قال: حق ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَازِلِ﴾ قال: بالباطل، وفي قوله: ﴿أَمَهُلَهُمْ رَوْدَاهُ﴾ قال: قريباً.

تفسير سورة الأعلى

وهي مكية في قول الجمهور. وقال الضحاك: هي مدنية. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [أي: سورة الأعلى] بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير، وعائشة مثله. وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرأنا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سورة مثلاً. وأخرج أحمد، والبخاري، وابن مريويه عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. لخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن توير بن أبي فاختة عن أبيه عن علي. وأخرج أحمد، ومسلم، وأهل السنن عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [أي: سورة الغاشية]، وإن وافق يوم جمعة قراهما جميعاً، وفي لفظ: «وربما اجتمعا في يوم واحد، فقراهما»، وفي الباب أحاديث. وأخرج مسلم، وغيره عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ: «كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾». وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون]، وأخرج أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿سُبْحِ﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثالثة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوذتين، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، والشمس، وضحاها» [أي: سورة الشمس]، و ﴿اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، [أي: سورة الليل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① أَلَيْكَ خَلْقُ سَمَوَاتٍ ② وَأَلَيْكَ قَدَرُ فَهَاتِ ③
وَأَلَيْكَ أَتْرَجُ الْكَرَى ④ فَبِمَا غَضَّيْنَا أَعْوَى ⑤ سَنُورُكَ فَلَا تَنْهَى ⑥ إِلَّا

بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَازِلِ﴾ أي: لم ينزل باللب، فهو جد ليس بالهزل، والهزل ضد الجد. قال الكمي:

تجدد بنا في كل يوم وتهزل

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكرون في إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحق. قال الزجاج: يخانلون النبي ﷺ، ويظهرون ما هم على خلافه ﴿وَإِكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: استدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيهم جزاء كيدهم، قيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: آخرهم، ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم، وأرض بما يديره لك في أمورهم، وقوله: ﴿أَمَهُلَهُمْ﴾ بدل، من مهل ومهل، وأمهل بمعنى: مثل نزل وأنزل، والإمهال الإنظار، وتمهل في الأمر اتاده، وانتصاب ﴿رَوْدَاهُ﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المنكور، أو نعت لمصدر محذوف أي: أمهلهم إمهالاً رويداً أي: قريباً أو قليلاً. قال أبو عبيدة: والرويد في كلام العرب تصغير لروء، وأنشد:

كانها تمشي على روء

أي: على مهل، وقيل: تصغير أرواد مصدر رود تصغير الترخيم، ويأتي اسم فعل نحو رويد زيداً أي: أمهله، ويأتي حالاً نحو سار القوم رويداً أي: متمهلين، نكر معنى هذا الجوهري، والبحث مستوفى في علم النحو.

وقد أخرج ابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قال: أقسم ربك بالطارق: وكل شيء طرقت بالليل فهو طارق. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قال: كل نفس عليها حفظة من الملائكة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ قال: النجم المضيء ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ قال: إلا عليها حافظ. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالْقَرْنِ﴾ قال: ما بين الجيد والنحر. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: تربية المرأة، وهي موضع القلاية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً قال: الترائب بين ثديي المرأة. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال: للترائب أربعة أضلاع من كل جانب من أسفل الأضلاع. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عنه أيضاً: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ قال: على أن يجعل الشيخ شاباً، والشاب شيخاً. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ قال: للمطر بعد المطر ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال: صدعها عن النبات. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ تصدع الأرض. وأخرج ابن منده، والديلمي عن معاذ بن أنس مرفوعاً ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال: تصدع

العشب، وما ترعاه النعم من النبات الأخضر ﴿فَجَعَلَهُ غِثَاءً أَحْوَى﴾ أي: فجعله بعد أن كان أخضر غثاء أي: هشيماً جافاً كالغثاء الذي يكون فوق السيل أحوى أي: أسود بعد اخضراره، وذلك أن الكلا إذا يبس أسود. قال قتادة: الغثاء الشيء اليابس، ويقال: للبلبل والحشيش إذا انحطم، ويبس غثاء وهشيم. قال امرؤ القيس:

كأن نرى رأس المجمر غدوة من السيل والأغثاء فلكة مغزل وانتصاب غثاء على أنه المفعول الثاني، أو على الحال، وأحوى صفة له، وقال الكسائي: هو حال من المرعى أي: أخرجه أحوى من شدة الخضرة والري ﴿فَجَعَلَهُ غِثَاءً﴾ بعد ذلك، والأحوى مأخوذ من الحوة، وهي: سواد يضرب إلى الخضرة. قال في الصحاح: والحوة سمرة الشفة، ومنه قول ذي الرمة:

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثا وفي أنيابها شنب ﴿سَنَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ أي: سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرؤه، والجملة مستأنفة لبيان هدايته الخاصة به بعد بيان الهداية العامة، وهي هدايته لحفظ القرآن. قال مجاهد، والكليبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها مخافة أن ينساه، فنزلت: ﴿سَنَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي: لا تنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه. قال الفراء: وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد ﷺ شيئاً كقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: 107]، وقيل: إلا ما شاء الله أن تنسى، ثم تذكر بعد ذلك، فإن قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً. وقيل: بمعنى النسخ أي: إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته. وقيل: معنى فلا تنسى: فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه. وقيل المعنى: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل: ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ للنهي. والالف مزيدة لرعاية الفاصلة، كما في قوله: ﴿فَأُضِلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: 67] يعني: فلا تغفل قراءته وتذكره ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ الجملة تعليل لما قبلها أي: يعلم ما ظهر وما يطن، والإعلان والإسرار، وظاهره العموم، فيندرج تحته ما قيل: إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن، وما يخفى هو ما نسخ من صدره، ويدخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصنعة، وما يخفى هو إخفاؤها، ويدخل تحته أيضاً ما قيل: إن الجهر جهرة ﷺ بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتقلت عليه، وما يخفى ما في نفسه مما يدعوه إلى الجهر ﴿وَنُفِيسِرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ معطوف على سنقرتك، وما بينهما اعتراض. قال مقاتل أي: نهون عليك عمل الجنة، وقيل: نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، وقيل: للشرعية اليسرى، وهي الحنيفية السهلة، وقيل: نهون

مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَمْلِكُ الْغَيْبَ وَمَا يَخْفَى ﴿وَنُفِيسِرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ قَدْ كُنَّ إِذْ نَمَسَ الْأَوَّلَى ﴿سَيَذَرُكَ مَنْ يَخْفَى﴾ وَرَجَعَكَ الْأَتَقَى ﴿أَلَمْ يَصْلُ الْأَوَّلَ الْكَثْرَى﴾ ثُمَّ لَا يَبُوءُ بِهَا وَلَا يَخْفَى ﴿تَدَّ الْقَلَمُ مَنْ زَكَّى﴾ وَذَكَرَ أَسَدَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿إِنَّ هَذَا لَنَبِيٍّ الْأَوَّلَى﴾ صُفِّ إِلَهُهُمْ وَتُوسَى ﴿

قوله: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي: نزهه عن كل ما لا يليق به. قال السدي: سَبَّحَ اسم ربك الأعلى: أي: عظمه، قيل: والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم، كما في قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر والمعنى: سَبَّحَ ربك الأعلى. قال ابن جرير: المعنى نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه، فلا تكون على هذا مقحمة. وقيل المعنى: نزه تسمية ربك، ولذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكرك محترم. وقال الحسن: معنى سَبَّحَ اسم ربك الأعلى: صل له. وقيل المعنى: صل بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية. وقيل المعنى: ارفع صوتك بذكر ربك، ومنه قول جرير:

تبع الإله وجوه تغلب كلما سَبَّحَ الحجيح وكَبَّرُوا تكبيرا والأعلى صفة للرب، وقيل للاسم، والأول أولى، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى﴾ صفة أخرى للرب. قال الزجاج: خلق الإنسان مستوياً، ومعنى سَوَّى: عدل قامته. قال الضحاک: خلقه فسوى خلقه، وقيل: خلق الأجساد، فسوى الأقدام، وقيل: خلق الإنسان وهياه للتكليف ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ صفة أخرى للرب، أو معطوف على الموصول الذي قبله. قرأ علي بن أبي طالب، والكسائي، والسلمي: (قدر) مخففاً، وقرأ الباقر بالتشديد، قال الواحدي: قال المفسرون: قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة، وروي عنه أيضاً أنه قال في معنى الآية: قدر السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدر أرزاقهم وأقواتهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر، ثم هداها للخروج من الرحم. قال الفراء: أي قدر، فهدى، وأصل فاكتفى بأحدهما، وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا. والأولى عدم تعيين فرد، أو أفراد مما يصلق عليه قدر، وهدى إلا بليل يدل عليه، ومع عدم الليل يحمل على ما يصلق عليه معنى الفعلين، إما على البدل، أو على الشمول، والمعنى: قدر أجناس الأشياء وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وأجاليها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسره لما خلق له، وألهمه إلى أمور دينه وبنياه ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ صفة أخرى للرب أي: أنبت

صداقة الفطر. قال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدم زكاتي بين يدي صلاتي، وأصل الزكاة في اللغة النماء. وقيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها، وقيل: المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال؛ لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكي لا تزكي ﴿ونذكر اسم ربه فصل﴾ قيل المعنى: نذكر اسم ربه بالخوف، فعبدته وصلى له، وقيل: نذكر اسم ربه بلسانه فصلى أي: فاقام الصلوات الخمس، وقيل: نذكر موقفه ومعاده فعبدته، وهو كالقول الأول. وقيل: نذكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بذكره، وهو: قوله «الله أكبر» وقيل: نذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى، وقيل: هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة، وقيل: المراد بالصلاة هنا صلاة العيد، كما أن المراد بالتزكي في الآية الأولى زكاة الفطر، ولا يخفى بعد هذا القول؛ لأن السورة مكية، ولم تفرض زكاة الفطر، وصلاة العيد إلا بالمدينة ﴿بل تؤثرن الحياة الدنيا﴾ هذا إضراب عن كلام مقتر يدل عليه السياق أي: لا تفعلون ذلك بل تؤثرن اللذات الفانية في الدنيا، قرأ الجمهور (تؤثرن) بالفوقية على الخطاب، ويؤيدها قراءة أبي (بل أنتم تؤثرن) وقرأ أبو عمرو بالتحته على الغيبة. قيل: والمراد بالآية الكفرة، والمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها، والاطمئنان إليها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، وقيل: المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر، والمراد بإيثارها ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة، والتوجه إلى تحصيل منافعها، والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات وجملة: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تؤثرن أي: والحال أن الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل، وأبوم من الدنيا. قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفتنى، والآخرة من خرف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خرف يبقى على ذهب يفتنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خرف يفتنى؟ والإشارة بقوله: ﴿إن هذا﴾ إلى ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده، وقيل: إنه إشارة إلى جميع السورة، ومعنى ﴿لفي الصحف الأولى﴾ أي: ثابت فيها، وقوله: ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ بدل من الصحف الأولى. قال قتادة، وابن زيد: يريد بقوله: ﴿إن هذا﴾ والآخرة خير وأبقى. وقال الحسن: تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا. وقال الحسن: تتابعت كتب الله جل ثناؤه إن هذا لفي الصحف الأولى، وهو قوله ﴿قد افلح﴾ إلى آخر السورة. قرأ الجمهور (في الصحف الأولى صحف إبراهيم) بضم الحاء في الموضعين، وقرأ الأعمش، وهارون، وأبو عمرو في رواية عنه بسكونها فيهما، وقرأ الجمهور (إبراهيم) بالالف بعد الراء، وبالياء بعد الهاء، وقرأ أبو رجاء بحنفهما وفتح الهاء، وقرأ أبو موسى، وابن الزبير إبراهيم بالقيين.

وقد أخرج أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهني قال: «لما نزلت:

عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به، والأولى حمل الآية على العموم: أي: نوفقك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمرهما التي تتوجه إليك ﴿فنفكر إن نفعت النكري﴾ أي: عظم يا محمد الناس بما أوحينا إليك، وأرشدهم إلى سبل الخير، وأهدهم إلى شرائع الدين. قال الحسن: تنكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. قال الواحدي: إن نفعت أو لم تنفع؛ لأن النبي ﷺ بعث مبلغاً للإعذار والإنذار، فعليه التنكير في كل حال نفع، أو لم ينفع ولم ينكر الحالة الثانية كقوله: ﴿سراويل تقيكم الحر﴾ [النحل: 81] الآية. قال الجرجاني: التنكير واجب، وإن لم ينفع، فالمعنى: إن نفعت النكري أو لم تنفع. وقيل: إنه مخصوص في قوم بأعيانهم، وقيل: إن بمعنى ما، أي: فنكر ما نفعت النكري؛ لأن النكري نافعة بكل حال، وقيل: إنها بمعنى قد، وقيل: إنها بمعنى إذ. وما قاله الواحدي، والجرجاني أولى، وقد سبقهما إلى القول به الفراء، والنحاس. قال الرازي: إن قوله: ﴿إن نفعت النكري﴾ للتنبيه على أشرف الحالين، وهو: وجود النفع الذي لأجله شرعت النكري، والمعلق بيان على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء، ويدل عليه آيات: منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ [البقرة: 172] ومنها قوله: ﴿ولا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم﴾ [النساء: 101] فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه، ومنها قوله: ﴿ولا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ [البقرة: 230] والمراجعة جائزة بدون هذا الظن، فهذا الشرط فيه فوائد: منها ما تقدم، ومنها البعث على الانتفاع بالنكري، كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، وهو تنبيه للنبي ﷺ على أنها لا تنفعهم النكري، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فاما الدعاء الأول فعلم انتهى. ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه النكري، ومن لا تنفعه، فقال: ﴿سيتذكر من يخشى﴾ أي: سيتعظ بوعظك من يخشى الله، فيزداد بالتنكير خشية وصلاًحاً ﴿ويجتنبها الأشقي﴾ أي: ويتجنب النكري، ويبعد عنها الأشقي من الكفار لإصراره على الكفر بالله، وأنهم ماله في معاصيه. ثم وصف الأشقي فقال: ﴿الذي يصلي النار الكبرى﴾ أي: العظيمة الفظيعة؛ لأنها أشد حراً من غيرها. قال الحسن: النار الكبرى نار جهنم، والنار الصغرى نار الدنيا. وقال الزجاج: هي السفلى من أطباق النار ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ أي: لا يموت فيها، فيستريح مما هو فيه من العذاب، ولا يحيا حياة ينتفع بها، ومنه قول الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقض عناها ولا تحيا حياة لها طعم
وثم للتراخي في مراتب الشدة؛ لأن التردد بين الموت، والحياة أقطع من صلي النار الكبرى ﴿قد افلح من تزكى﴾ أي: من تطهر من الشرك، فأمن بالله ووحده، وعمل بشرائعه. قال عطاء، والربيع: من كان عمله زكياً نامياً. وقال قتادة: تزكى بعمل صالح. قال قتادة، وعطاء، وأبو العالية: نزلت في

الصلوات الخمس. وأخرج البيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس **﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: من قال لا إله إلا الله. وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه والبيهقي في سننه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن النبي **﴿أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد، ويتلو هذه الآية ﴿قد افلح من تزكى﴾ وذكر اسم ربه فصلى﴾**. وفي لفظ قال: «سئل النبي **﴿عن زكاة الفطر، فقال: ﴿قد افلح من تزكى﴾﴾** قال: هي زكاة الفطر» وكثير بن عبد الله ضعيف جداً، قال فيه أبو داود: هو ركن من أركان الكذب، وقد صحح الترمذي حديثاً من طريقه، وخطئ في ذلك، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله **﴿يقول: ﴿قد افلح من تزكى﴾ وذكر اسم ربه فصلى﴾** ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر، وليس في هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول، بل فيهما أنه **﴿تلا الآية، وقوله: هي زكاة الفطر، يمكن أن يراد به أنها مما يصنع عليه التزكي، وقد قلنا أن السورة مكية، ولم تكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري: ﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد **﴿ونكر اسم ربه فصلى﴾** قال: خرج إلى العيد وصلى. وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن ابن عمر قال: إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد **﴿قد افلح من تزكى﴾** ونكر اسم ربه فصلى. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال: قلت لابن عباس: أرايت قوله: **﴿قد افلح من تزكى﴾** للفظ قال: لم أسمع بذلك، ولكن للزكاة كلها. ثم عابته فقال لي: والصدقات كلها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان عن عرفة الثقفى قال: استقرأت ابن مسعود **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فلما بلغ **﴿بل يؤثرون للحياة الدنيا﴾** ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، فقال: أثرتنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: أثرتنا الدنيا لأنا رأينا زينتها، ونساءها، وطعامها، وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل، وقال: **﴿بل يؤثرون للحياة الدنيا﴾** بالياء. وأخرج البزار، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾** صحف إبراهيم وموسى. قال رسول الله **﴿هي كلها في صحف إبراهيم وموسى﴾**. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه في الآية قال: نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى. وفي لفظ: هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساکر عن أبي نر قال: «قلت يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: مائة كتاب، وأربعة كتب» الحديث.

﴿سبح باسم ربك العظيم﴾ [الحاقة: 52] قال لنا رسول الله **﴿اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى] قال: اجعلوها في سجودكم ولا مطعن في إسناده. وأخرج أحمد، وأبو داود، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس: أن رسول الله **﴿كان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: 1] قال: «سبحان ربي الأعلى»، قال أبو داود: خولف فيه وكيع، فرواه شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً. وأخرجه موقوفاً أيضاً عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى»، وفي لفظ لعبد بن حميد عنه قال: «إذا قرأت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾. فقل: سبحان ربي الأعلى». وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب أنه قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى» وهو في الصلاة، فقبل له أتزيد في القرآن؟ قال: لا، إنما أمرنا بشيء، فقلته. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة: **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى». وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال: سمعت ابن عمر يقرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى»، وكذلك هي في قراءة أبي بن كعب. وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر أنه قال: إذا قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** قال: «سبحان ربي الأعلى». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ **﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾** فقال: «سبحان ربي الأعلى» وهو في الصلاة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿فجعل غثاء﴾** قال: مشيماً **﴿أحوى﴾** قال متغيراً. وأخرج ابن مردويه عنه قال: كان النبي **﴿يستذكر القرآن مخافة أن ينسى، فقبل له قد كفيته ذلك، ونزلت: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾**. وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿إلا ما شاء الله﴾** يقول: إلا ما شئت أنا، فأنسيك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً **﴿ونيسرك لليسرى﴾** قال: للخير. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود **﴿ونيسرك لليسرى﴾** قال: الجنة. وأخرج البزار، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي **﴿في قوله: ﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وقطع الانتداد، وشهد أنني رسول الله **﴿ونكر اسم ربه فصلى﴾** قال: هي الصلوات الخمس، والمحافظة عليها، والاهتمام بموافقتها». قال البزار: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿قد افلح من تزكى﴾** قال: من الشرك **﴿ونكر اسم ربه﴾** قال: وحده الله **﴿فصلى﴾** قال:****

تفسير سورة الغاشية

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وقد تقدم حديث النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ «سبح اسم ربك الأعلى» [أي: سورة الأعلى]، والغاشية في صلاة العيد، ويوم الجمعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وَجُوهٌُ يُوَسِّدُ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصَلَّى نَارًا كَاسِيَةً ۝ تُشَقُّ مِنْ عَيْنٍ رَايَةٍ ۝ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ۝ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝ وَجُوهٌُ يُوَسِّدُ ۝ قَاعَةً ۝ لَسَعَهَا رَايَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُيَّةٌ ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَوْسُومَةٌ ۝ وَنَارٌ مَقْشُوفَةٌ ۝ وَزَوَاجٌ مَبْنُوءَةٌ ۝ أَلَّا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَلِلَّهِ أَلْمَعُ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَلِلَّهِ الْإِلَاحُ كَيْفَ نُسِيتُ ۝ وَلِلَّهِ الْأَنْزَامُ كَيْفَ سُلِيطَتْ ۝ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝ إِذْ إِتَنَّا بِآبَائِهِمْ ۝ ثُمَّ إِذْ عَلَيْنَا جَسَدَهُمْ ۝

قوله: «هل أتاك حديث الغاشية» قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، وبه قال قطرب: أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. وقيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجب مما في خبره، والتشويق إلى استماعه أولى. وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين. وقال سعيد بن جبير، ومحمد بن كعب: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله: «وتغشى وجوههم النار» [إبراهيم: 50] وقيل: الغاشية أهل النار؛ لأنهم يغشونها ويقتحمونها والأول أولى. قال الكلبي: المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك «وجوه يومئذ خاشعة» الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما هو؟ أو مستأنفة استئنافاً نحوياً لبيان ما تضمنته من كون، ثم وجوه في تلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة، ووجوه مرتفع على الابتداء، وإن كانت نكرة لوقوعه في مقام التفصيل، وقد تقدم مثل هذا في سورة القيامة، وفي سورة النازعات. والتنوين في يومئذ عوض عن المضاف إليه أي: يوم غشيان الغاشية، والخاشعة: الذليلة الخاضعة، وكل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال خشع الصوت: إذا خفي، وخشع في صلاته: إذا تذل ونكس رأسه. والمراد بالوجوه هنا أصحابها. قال مقاتل: يعني الكفار؛ لأنهم تكبروا عن عبادة الله. قال قتادة، وابن زيد: خاشعة في النار، وقيل: أراد

وجوه اليهود والنصارى على الخصوص، والأول أولى. قوله: «عاملة ناصبة» معنى عاملة أنها تعمل عملاً شاقاً. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: عمل يعمل عملاً، ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملاً. قيل: وهذا العمل هو جزّ السلاسل والأغلال، والخوض في النار «ناصبة» أي: تعب، يقال نصب بالكسر ينصب نصباً: إذا تعب، والمعنى: أنها في الآخرة تعب لما تلاقيه من عذاب الله. وقيل: إن قوله: «عاملة» في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة أي: تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي، وتنصب في ذلك. وقيل: إنها عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، والأول أولى. قال قتادة «عاملة ناصبة» تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها الله، وأنصبها في النار بجزّ السلاسل الثقيل، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» [المعارج: 4] قال الحسن، وسعيد بن جببر: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب فأعملها، وأنصبها في جهنم. قال الكلبي: يجزون على وجوههم في النار. وقال أيضاً: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل، والأغلال، والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل. قرأ الجمهور (عاملة ناصبة) بالرفع فيها على أنها خبران آخران للمبتدأ، أو على تقدير مبتدأ، وهما خبران له، وقرأ ابن محيصن، وعيسى، وحמיד، وابن كثير في رواية عنه بنصبهما على الحال، أو على الذم، وقوله: «تصلى ناراً حامية» خبر آخر للمبتدأ أي: تدخل ناراً متناهية في الحر، يقال: حمى النهار، وحمى التنور أي: اشتد حرهما. قال الكسائي: يقال: اشتد حمى النهار، وحموه بمعنى. قرأ الجمهور (تصلى) بفتح التاء مبنياً للفاعل. وقرأ أبو أبو عمرو، ويعقوب، وأبو بكر بضمها مبنياً للمفعول. وقرأ أبو رجاء بضم التاء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، والضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات، والمراد أصحابها، كما تقدم، وهكذا الضمير «تسقى من عين آنية» والمراد بالعين الآنية: المتناهية في الحر، والآني: الذي قد انتهى حره، من الإيناء بمعنى التأخر، يقال آناه يؤنيه إيناء أي: أخره وجبسه، كما في قوله: «يطوفون بينها وبين حميم آن» [الرحمن: 44] قال الواحدي: قال المفسرون: لو وقعت منها نطفة على جبال الدنيا لذابت. ولما ذكر سبحانه شراهم عقبه بنكر طعامهم فقال: «ليس لهم طعام إلا من ضريع» هو: نوع من الشوك يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع. كذا قال مجاهد، وقاتدة، وغيرهما من المفسرين. قيل: وهو سمّ قاتل، وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه، وقيل: هو شيء يرمي به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع، وهلكت هزلاً. قال الخليل: الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمي به البحر. وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأول، ومنه قول أبي ذؤيب:

رعى الشبرق الزيان حتى إذا نوى وعاد ضريعاً بأن عنه التحايص وقال الهنلي ينكر إبلاً، وسوء مراعاة:

وحسن في هرم الضريع وكلها قرناء دامية السيلين جرود وقال سعيد بن جبير: الضريع الحجارة، وقيل: هو شجرة في نار جهنم. وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله من العذاب. وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده ويلنون، ويتضرعون إلى الله بالخلاص منه، فسمي بذلك؛ لأن أكله يضرع إلى الله في أن يعفى عنه لكرامته وخشونته. قال النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع وهو النليل أي: من شربه يلحقه ضراعة وثلة. وقال الحسن أيضاً: هو الزقوم، وقيل: هو واد في جهنم، وقد تقدم في سورة الحاقة: ﴿فليس له اليرم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين﴾ [الحاقة: 35، 36] والغسلين غير الضريع، كما تقدم، وجمع بين الآيتين بأن النار دركات، فمنهم من طعامه الضريع، ومنهم من طعامه الغسلين. ثم وصف سبحانه الضريع فقال: ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ أي: لا يسمن الضريع أكله، ولا يدفع عنه ما به من الجوع. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية، قال المشركون: إن إبلاً تسمن من الضريع، فنزلت: ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ وكذبوا في قولهم هذا، فإن الإبل لا تاكل الضريع ولا تقربه. وقيل: اشتبه عليهم أمره، فظنوه كغيره من النبات النافع. ثم شرع سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ أي: ذات نعمة وبهجة، وهي وجوه المؤمنين صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وما أعدّه الله لهم من الخير الذي يفوق الوصف، ومثله قوله: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ [المطففين: 24] ثم قال: ﴿لسعيها راضية﴾ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها، وقرّت به عيونها، والمراد بالوجوه هنا أصحابها، كما تقدم ﴿في جنة عالية﴾ أي: عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة، أو عالية القدر؛ لأن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ قرأ الجمهور (لا تسمع) بفتح الفوقية، ونصب لاغية أي: لا تسمع أنت أيها المخاطب، أو لا تسمع تلك الوجوه. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتحية مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع لاغية. وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنياً للمفعول، ورفع لاغية. وقرأ الفضل، والجندري بفتح التحية مبنياً للفاعل ونصب لاغية، واللغو الكلام الساقط. قال الفراء، والأخفش أي: لا تسمع فيها كلمة لغو. قيل: المراد بذلك الكذب والبهتان، والكفر قاله قتادة، وقال مجاهد: أي: الشتم. وقال الفراء: لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب. وقال الكلبي: لا تسمع في الجنة حالفاً بيمين برة ولا فاجرة. وقال الفراء أيضاً: لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم، وهذا أرجح الأقوال؛ لأن النكرة في سياق النفي

من صيغ العموم، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص، ولاغية إما صفة موصوف محنوف أي: كلمة لاغية، أو نفس لاغية، أو مصدر أي: لا تسمع فيها لغواً ﴿فيها عين جارية﴾ قد تقدم في سورة الإنسان أن فيها عيوناً، والعين هنا بمعنى العيون، كما في قوله: ﴿علمت نفس﴾ [التكوير: 14] ومعنى جارية أنها تجري مياهها، وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة. قال الكلبي: لا أبري بماء أو بغيره ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ أي: عالية مرتفعة السمك، أو عالية القدر ﴿واكواب موضوعة﴾ قد تقدم أن الاكواب جمع كواب، وأنه القدر الذي لا عروة له، ومعنى موضوعة: أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها ﴿ونمارق مصفوفة﴾ النمارق: الوسائد. قال الواحدي: في قول الجميع، وأحدثها نمرقة بضم النون، وزاد الفراء سماعاً عن العرب نمرقة بكسرها. قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض، ومنه قول الشاعر:

وإن للنجري الكاس بين شروينا وبين أبي قابوس فوق النمارق وقال الآخر:

كهول وشبان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق قال في الصحاح: النمرق، والنمرقة وسادة صغيرة، وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب ﴿وزرابي ميثوثة﴾ يعني: البسط، وأحدها زربي وزربية. قال أبو عبيدة، والفراء: الزرابي الطنافس التي لها خمل رقيق، وأحدها زربية، والميثوثة المبسوطة قاله قتادة. وقال عكرمة: بعضها فوق بعض. قال الواحدي: ويجوز أن يكون المعنى: أنها مفرقة في المجالس. وبه قال القتيبي. وقال الفراء: معنى ميثوثة كثيرة، والظاهر أن معنى البث: التفرق مع كثرة، ومنه: ﴿وثب فيها من كل دابة﴾ [البقرة: 164] ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والفاء للطف على مقتر، كما في نظائره مما مر غير مرة، والجملة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه، وكذا ما بعدها، وكيف منصوبة بما بعدها، والجملة في محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل، والمعنى: أينكرون أمر البعث، ويستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم، وأكبر ما يشاهدونه من المخلوقات ﴿كيف خلقت﴾ على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جنتها، ومزيد قوتها، وبيد أوصافها. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما خصّ الإبل؛ لأنها من نوات الأربع تبرك فتحمل عليها الحمولة، وغيرها من نوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم، قال الزجاج: نبههم على عظيم من خلقه قد نلله للصغير يقوده، وينبئهم، وينهضه، ويحمل عليه الثقل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقل حمله، وليس ذلك في شيء من الحوامل غيره، فأراهم عظيماً من خلقه ليدل بذلك على توحيده. وسئل الحسن عن هذه الآية، وقيل له الفيل أعظم في الأعاجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به، ثم هو

عباس قال: الغاشية من أسماء القيامة. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿هل تلك الغاشية﴾ قال: الساعة ﴿وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة﴾ قال: تعمل، وتنصب في النار ﴿تسقى من عين أنية﴾ قال: هي التي قد طال أينها ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ قال: الشبرق. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة﴾ قال: يعني اليهود والنصارى تخشع، ولا ينفعها عملها ﴿تسقى من عين أنية﴾ قال: قد أني غليانها. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿تصلى نارا حامية﴾ قال: حارة، ﴿تسقى من عين أنية﴾ قال: انتهى حرها ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ يقول: من شجر من نار. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً ﴿إلا من ضريع﴾ قال: الشبرق اليابس. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿لا تسمع فيها لأغية﴾ يقول: لا تسمع أذى ولا باطل، وفي قوله: ﴿فيها سرور مرفوعة﴾ قال: بعضها فوق بعض ﴿ونمارق﴾ قال: مجالس. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ونمارق﴾ قال: المرافق. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ قال: جبار ﴿إلا من تولى وكفر﴾ قال: حسابه على الله. وأخرج أبو داود في ناسخه عنه أيضاً ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ ثم نسخ ذلك فقال: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدهم﴾ [التوبة: 5] وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿إن لنا إياهم﴾ قال: مرجعهم.

تفسير سورة الفجر

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: نزلت ﴿والفجر﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير، وعائشة مثله. وأخرج النسائي عن جابر قال: «صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطول، فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جئت أصلي فطول علي، فانصرفت فصليت في ناحية المسجد، فعلقت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: اقتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى]، ﴿والشمس وضحاها﴾ [أي: سورة الشمس] والفجر، ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: سورة الليل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ① وَيَالِ يَوْمٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنزَرُ ④
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّئَلَّا يُخَبَّرَ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ ⑥
نَارِ الْوَمَاوِ ⑦ أَلَيْسَ لَمْ يَخْلَقْ سَلْهًا فِي الْبَلَدِ ⑧ وَنَوْمُ اللَّيْلِ جَاوُوا
الْحَصَرَ بِالْوَادِ ⑨ وَوَعْدَ ذِي الْأَرْوَاحِ ⑩ الَّذِينَ طَعَمُوا فِي الْبَلَدِ ⑪

خنزير لا يركب ظهره، ولا يؤكل لحمه، ولا يحلب دمه، والإبل من أعز مال العرب وأنفسه، تاكل النوى والقت، وتخرج اللبن، ويأخذ الصبي بزمامها، فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها. وقال المبرد: الإبل هنا هي القطع العظيمة من السحاب، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة. وروي عن الأصمعي أنه قال: من قرأ (خلقت) بالتخفيف عنى به البعير، ومن قرأ بالتشديد عنى به السحاب ﴿والى السماء كيف رفعت﴾ أي: رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل، وقيل: رفعت فلا ينالها شيء ﴿والى الجبال كيف نصبت﴾ على الأرض مرساة راسخة لا تميد ولا تميل ولا تزول ﴿والى الأرض كيف سطحت﴾ أي: بسطت، والسطح بسط الشيء، يقال: لظهر البيت إذا كان مستوياً: سطح. قرأ الجمهور (سطحت) مبنياً للمفعول مخففاً. وقرأ الحسن: بالتشديد. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن السميع، وأبو العالية: خلقت، ورفعت، ونصبت، وسطحت على البناء للفاعل، وضم التاء فيها كلها. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بالذكر فقال: ﴿فذكر﴾ والفاء لترتيب ما بعدما على ما قبلها أي: فعظمهم يا محمد، وخوفهم ثم علل الأمر بالذكر فقال: ﴿إنما أنت مذكر﴾ أي: ليس عليك إلا ذلك، ﴿ولست عليهم بمسيطر﴾ المسيطر المسيطر بالسين والصاد: المسلط على الشيء ليشرف عليه، ويتعهد أحواله كذا في الصحاح أي: لست عليهم بمسيطر حتى تكرهم على الإيمان، وهذا منسوخ بآية السيف. قرأ الجمهور (بمسيطر) بالصاد، وقرأ هشام، وقنبل في رواية بالسين. وقرأ خلف بإشمام الصاد زائياً. وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول ﴿إلا من تولى وكفر﴾ هذا استثناء منقطع أي: لكن من تولى عن الوعظ والتذكير ﴿فيعننه الله العذاب الأكبر﴾ وهو عذاب جهنم الدائم. وقيل: هو استثناء متصل من قوله: ﴿فذكر﴾ أي: فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه، وتولى فاستحق العذاب الأكبر، والأول أولى. وإنما قال: ﴿الأكبر﴾ لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط، والقتل والأسر. وقرأ ابن مسعود (فإنه يعذبه الله) وقرأ ابن عباس، وقتادة (إلا من تولى) على أنها إلا التي للتنبيه والاستفتاح ﴿إن لنا إياهم﴾ أي: رجوعهم بعد الموت، يقال أب يثوب: إذا رجع، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يثوب وغائب الموت لا يؤوب
قرأ الجمهور (إياهم) بالتخفيف، وقرأ أبو جعفر، وشيبة بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام، وقيل: هما لغتان بمعنى. قال الواحدي: وأما (إياهم) بتشديد الياء، فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ يعني: جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث، ثم للتراخي في الرتبة لبعد منزلة الحساب في البشارة عن منزلة الإياب.
وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن

يخفك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين، والضعف الظاهر، والاحتكال في التعيين على مجرد الرأي الزائف، والخطر الخاطئ.

والذي ينبغي التعويل عليه، ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب، وهما معروفان واضحيان، فالشفع عند العرب الزوج، والوتر الفرد. فالمراد بالآية إما نفس العبد، أو ما يصلى عليه من المعدادات بأنه شفع أو وتر. وإذا قام ليل على تعيين شيء من المعدادات في تفسير هذه الآية، فإن كان الليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك، وإن كان الليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره. قرأ الجمهور (الوتر) بفتح الواو. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف بكسرها، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، وهما لغتان، والفتح لغة قريش وأهل الحجاز، والكسر لغة تميم. قال الأصمعي: كل فرد وتر، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد. وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو، وكسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِر﴾** قرأ الجمهور (يسر) بحذف الياء وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف. وقرأ نافع، وأبو عمرو بحذفها في الوقف، وإثباتها في الوصل. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف. قال الخليل: تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي. قال الزجاج: والحذف أحب إلي لأنها فاصلة، والفواصل تحذف منها الياءات. قال الفراء: قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد بعضهم:

كفك كف ما تليق برهما جوداً وأخرى تعط بالسيف دما
ما تليق أي: ما تمسك. قال المؤرج: سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من يسر فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة، فقال: الليل لا يسري، وإنما يسري فيه، فهو مصروف عن جهته، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، ألا ترى إلى قوله: **﴿وما كانت أمك بغياً﴾** [مريم: 28] ولم يقل بغية؛ لأنه صرفها من بغية.

وفي كلام الأخفش هذا نظر، فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه، ولو صح ذلك للزم في كل المجازات العقلية واللفظية، واللازم باطل، فالملزوم مثله، والأصل ههنا إثبات الياء؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع، ولم تحذف لعله من العلل إلا لاتباع رسم المصحف، وموافقة رؤوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي؛ ومعنى **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِر﴾** إذا يمضي، كقوله: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا نَبَرَ﴾** [المدثر: 33] **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَس﴾** [التكوير: 17] وقيل: معنى يسر: يسار فيه، كما يقال ليل نائم، ونهار صائم، كما في قول الشاعر:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم
وبهذا قال الأخفش، والقتيبي وغيرهما من أهل المعاني،

﴿فَاكْزُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [نصب عليهم ربك سوط عذاب] **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَا يَرْصَدُ﴾**

أقسم سبحانه بهذه الأشياء، كما أقسم بغيرها من مخلوقاته. واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا فقيل: هو الوقت المعروف، وسمي فجراً؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم. وقال قتادة: إنه فجر أول يوم من شهر محرم، لأن منه تتفجر السنة. وقال مجاهد: يريد يوم النحر. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأن الله قرن الأيام به فقال: **﴿وَلَيَالٍ عَشْر﴾** أي ليالي عشر من ذي الحجة، وبه قال السدي، والكلبي. وقيل المعنى: وصلاة الفجر، أو رب الفجر. والأول أولى، وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله: **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾** كذا قال ابن الأنباري، وقيل: محذوف لدلالة السياق عليه أي: ليجازين كل أحد بما عمل، أو ليعذبين، وقتره أبو حيان بما قلت عليه خاتمة السورة التي قبله أي: والفجر إلخ لإيابهم إلينا، وحسابهم علينا، وهذا ضعيف جداً، وأضعف منه قول من قال: إن الجواب قوله: **﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْر﴾** وإن هل بمعنى قد؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً **﴿وَلَيَالٍ عَشْر﴾** هي عشر ذي الحجة في قول جمهور المفسرين. وقال الضحاك: إنها الأواخر من رمضان. وقيل: العشر الأول من المحرم إلى عاشرها يوم عاشوراء. قرأ الجمهور (ليال) بالتثنية، وعشر صفة لها. وقرأ ابن عباس (وليالي عشر) بالإضافة، قيل: والمراد ليالي أيام عشر، وكان حقه على هذا أن يقال عشرة لأن المعداد مذكر. وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعداد جاز الوجهان **﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾** الشفع والوتر يعلمان كل الأشياء شفعها ووترها، وقيل: شفع الليالي ووترها. وقال قتادة: الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها، منها شفع، ومنها وتر. وقيل: الشفع يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر. وقال مجاهد، وعطية العوفي: الشفع الخلق، والوتر الله الواحد الصمد، وبه قال محمد بن سيرين، ومسروق، وأبو صالح، وقاتادة. وقال الربيع بن أنس، وأبو العالية: هي صلاة المغرب فيها ركعتان، والوتر الركعة. وقال الضحاك: الشفع عشر ذي الحجة، والوتر أيام منى الثلاثة، وبه قال عطاء. وقيل: هما آدم وحواء؛ لأن آدم كان وتراً فشفع بحواء. وقيل: الشفع درجات الجنة وهي ثمان، والوتر دركات النار وهي سبع، وبه قال الحسين بن الفضل. وقيل: الشفع الصفا والمروة، والوتر الكعبة. وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة: الوتر: هو الله سبحانه، وهو الشفع أيضاً لقوله: **﴿وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾** [المجالة: 7] الآية. وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما. وقيل: الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر مسجد بيت المقدس. وقيل: الشفع حجج القرآن، والوتر الأفراد. وقيل: الشفع الحيوان لأنه ذكر وأنثى، والوتر الجماد. وقيل: الشفع ما سمي، والوتر ما لا يسمى. ولا

من عاد، وقيل: هما عادان، فالأولى هي إرم، ومنه قول قيس بن الرقيات:

مجداً تليداً ببناء أولهم أترك عاداً وقبيلة إرم
قال معمر: إرم إليه مجتمع عاد وثمود، وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود، وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم، قال أبو عبيدة: هما عادان، فالأولى إرم. ومعنى ذات العماد: ذات القوة والشدة، مأخوذ من قوة الأعمدة، كذا قال الضحاک. وقال قتادة، ومجاهد: إنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع، فإذا هاج التبت رجعوا إلى منازلهم. وقال مقاتل: ذات العماد يعني طولهم، كان طول الرجل منهم اثني عشرة ذراعاً ويقال: رجل طويل العماد أي: القامة. قال أبو عبيدة: ذات العماد ذات الطول، يقال رجل معمد إذا كان طويلاً. وقال مجاهد، وقاتدة: أيضاً كان عماداً لقومهم، يقال: فلان عميد القوم وعمودهم أي: سيدهم. وقال ابن زيد: ذات العماد يعني إحكام البنيان بالعمد. قال في الصحاح: والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عماد الحي خرت على الإخفاض نمنع من يلبينا
وقال عكرمة، وسعيد المقبري هي دمشق، ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك. وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ هذه صفة لعاد: أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ [فصلت: 15] أو صفة للقرية على قول من قال: إن إرم اسم لقريتهم، أو للأرض التي كانوا فيها. والأول أولى، ويدل عليه قراءة أبي: (التي لم يخلق مثلهم في البلاد) وقيل: الإرم الهلاك. قال الضحاک إرم ذات العماد أي: أهلهم فجعلهم رميماً، وبه قال شهر بن حوشب. وقد نكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها وبورها، وبساتينها، وإن حصباها جواهر، وترابها مسك، وليس بها أنيس، ولا فيها ساكن من بني آدم، وإنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع، فتارة تكون باليمن، وتارة تكون بالشام، وتارة تكون بالعراق، وتارة تكون بسائر البلاد، وهذا كذب بحث لا ينفق على من له أننى تميز. وزاد الثعلبي في تفسيره فقال: إن عبد الله بن قلابة في زمان معاوية دخل هذه المدينة، وهذا كذب على كذب، واقتراء على افتراء، وقد أصيب الإسلام، وأهله بدهاية دهاء، وفارقة عظمى ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الجالين الذين يجترئون على الكذب، تارة على بني إسرائيل، وتارة على الأنبياء، وتارة على الصالحين، وتارة على رب العالمين، وتضاعف هذا الشر، وزاد كثرة بتصر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف، والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة، والأقاصيص المنحولة، والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه، فحرقوا، وغيروا، وبكروا. ومن أراد أن يقف على

وبالأول قال جمهور المفسرين. وقال قتادة، وأبو العالية: ﴿والليل إذا يسر﴾ أي: جاء، وأقبل. وقال النخعي أي: استوى. قال عكرمة، وقاتدة، والكلبي، ومحمد بن كعب: هي ليلة المزلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه، وقيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها. والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دون أخرى ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به، وتفخيمه من هذه الأمور المنكورة، والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى تلك الأمور، والتذكير بتأويل المنكور أي: هل في ذلك المنكور من الأمور التي أقسمنا بها قسم أي: مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار ﴿لذي حجر﴾ أي: عقل ولب، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به، ومثل هذا قوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: 76] قال الحسن ﴿لذي حجر﴾ أي: لذي حلم. وقال أبو مالك: لذي ستر من الناس. وقال الجمهور: الحجر العقل. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد، لذي عقل، ولذي حلم، ولذي ستر، الكل بمعنى العقل. وأصل الحجر المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لنر حجر، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلايته، ومنه حجر الحاكم على فلان أي: منعه. قال، والعرب تقول: إنه لنر حجر: إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها. ثم نكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم، وعنادهم وتكذيبهم للرسول تحذيراً للكفار في عصر نبينا ﷺ وتخويفاً لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ * إرم ذات العماد ﴿قرأ الجمهور بتثوين (عاد) على أن يكون إرم عطف بيان لعاد، والمراد بعاد اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة، أو بدلاً منه، وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث. وقيل: المراد بعاد أولاد عاد، وهم عاد الأولى، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى، فيكون نكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل، للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى، ولا بد من تقدير مضاف على كلا القولين أي: أهل إرم، أو سبط إرم؟ فإن إرم هو: جد عاد؛ لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقرأ الحسن، وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم. وقرأ الجمهور (إرم) بكسر الهمزة، وفتح الراء، والميم. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقاتدة، والضحاک (إرم) بفتح الهمزة، والراء، وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفاً، وقرئ بإضافة إرم إلى ذات العماد. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التي هي الأعلام واحدها إرم، وفي الكلام تقديم وتأخير أي: والفجر وكذا، وكذا ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ألم تر أي: ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له، وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب؛ لأن ديارهم متصلة بديار العرب، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون. وقال مجاهد أيضاً: إرم أمة من الأمم، وقال قتادة: هي قبيلة

خلط الشيء بعضه ببعض، ومنه قول كعب بن زهير:
لكن خلة قد سيط من مها فجع وولع وإخلاف وتبديل
وقال الآخر:

أحارث إنالو تساط دماؤنا تزايلن حتى لا يمس دم دما
وقال آخر:

فسطها نميم للرأي غير موفق فلست على تسويتها بمعان
﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قد قَدَّمنا قول من قال إن هذا
جواب القسم، والأولى أن الجواب محنوف، وهذه الجملة
تعليل لما قبلها، وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه ﷺ
سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار، ومعنى بالمرصاد: أنه
يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً،
وبالشر شراً. قال الحسن، وعكرمة أي: عليه طريق العباد لا
يفوته أحد، والرصد والمرصاد: الطريق. وقد تقدّم بيانه في
سورة براءة، وتقدّم أيضاً عند قوله: ﴿إن جهنم كانت
مرصاداً﴾ [النبا: 21].

وقد أخرج القرطبي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم
وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله:
﴿والفجر﴾ قال: فجر النهار. وأخرج ابن جرير عنه قال:
يعني: صلاة الفجر. وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي في
الشعب، وابن عساكر عنه أيضاً في قوله: ﴿والفجر﴾ قال:
هو: المحرم فجر السنة، وقد ورد في فضل صوم شهر
محرم أحاديث صحيحة، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية
لا مطابقة، ولا تضمناً، ولا التزاماً. وأخرج أحمد، والنسائي،
والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن
مرويه، والبيهقي في الشعب عن جابر: «أن النبي ﷺ قال:
﴿والفجر وليال عشر﴾ * والشفع والوتر﴾ قال: إن العشر
عشر الأضحي، والوتر: يوم عرفة، والشفع: يوم النحر. وفي
لفظ: هي ليالي من ذي الحجة». وأخرج عبد بن حميد عن
طلحة بن عبد الله أنه نخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن
عبد الرحمن؛ فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة، فقال
أبو سلمة: أليس هذه الليالي العشر التي ذكرها الله في
القرآن؟ فقال ابن عمر: وما يدريك؟ قال: ما أشك، قال: بلى،
فأشكك. وقد ورد في فضل هذه العشر أحاديث، وليس فيها
ما يدل على أنها المرادة بما في القرآن هنا بوجه من
الوجوه. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس
في قوله: ﴿وليل عشر﴾ قال: هي العشر الأواخر من
رمضان. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن
جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مرويه
عن عمران بن حصين، «أن النبي ﷺ سئل عن الشفع
والوتر، فقال: هي الصلاة بعضها شفع، وبعضها وتر، وفي
إسناده رجل مجهول، وهو الراوي له عن عمران بن حصين.
وقد روي عن عمران بن عصام على عمران بن حصين
بإسقاط الرجل المجهول. وقال الترمذي بعد إخراج
بإسناد الذي فيه الرجل المجهول هو حديث غريب لا

بعض ما نكرنا، فليتنظر في كتابي الذي سميته [الفوائد
المجموعة في الأحاديث الموضوعة]. ثم عطف سبحانه
القبيلة الآخرة، وهي: ثمود على قبيلة عاد فقال: ﴿والمود
الذين جابوا للصخر بالواد﴾ وهم: قوم صالح سموا باسم
جدهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، ومعنى
جابوا الصخر قطعوه، والجوب القطع، ومنه جاب البلاد: إذا
قطعها، ومنه سمي جيب القميص؛ لأنه جيب أي: قطع. قال
المفسرون: أول من نحت الجبال والصخور ثمود، فبنوا من
المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومنه قوله
سبحانه: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتا آمنين﴾ [الحجر: 82]
وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الانقَاب بيوتا
يسكنون فيها، وقوله: ﴿بالواد﴾ متعلق بجابوا، أو بمحنوف
على أنه حال من الصخر، وهو وادي القرى. قرأ الجمهور
(ثمود) بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة، ففيه التانيث
والتعريف. وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم
لأبيها. وقرأ الجمهور أيضاً بالواد بحذف الياء وصلأ، ووفقاً
اتباعاً لرسم المصحف. وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما. وقرأ
قنبل في رواية عنه بإثباتها في الوصل دون الوقف
﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: ذو الجنود الذين لهم خيام
كثيرة يشنونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتاداً لأنهم
يشنون الملك، كما تشد الأوتاد الخيام، وقيل: كان له أوتاد
يعذب الناس بها ويشدهم إليها. وقد تقدّم بيان هذا في
سورة ص ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ الموصول صفة لعاد
وثمود وفرعون أي: طغت كل طائفة منهم في بلادهم،
وتمرت، وعتت، والطغيان مجاوزة الحد ﴿فاكثروا فيها
للفساد﴾ بالكفر، ومعاصي الله، والجور على عباده، ويجوز
أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ
محذوف أي: هم الذين طغوا، أو في محل نصب على الذم
﴿فصَبَّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي: أفرغ عليهم وألقى
على تلك الطوائف سوط عذاب، وهو ما عذبهم به. قال
الزجاج: جعل صوته الذي ضربهم به العذاب، يقال: صبَّ
على فلان خلعة أي: ألغاهما عليه، ومنه قول النابغة:

فصَّبَ عليه الله أحسن صبغة وكان له بين البرية ناصر
ومنه قول الآخر:

ألم تر أن الله أظهر دينه وصَبَّ على الكفار سوط عذاب
ومعنى سوط عذاب: نصيب عذاب، ونكر السوط إشارة
إلى أن ما ألحه بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة
إلى ما أعدّه لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما
يعذب به. وقيل: نكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم،
وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به. قال الفراء: هي
كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك أن
السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب إذا
كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل معناه: عذاب يخالط اللحم
والدم، من قولهم ساطه يسوطه سوطاً أي: خلطه، فالسوط

الامانة، وجسر عليه الرحم، وجسر عليه الرب عز وجل.

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٦٧﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٦٨﴾ كَلَّا بَلْ لَا
تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَعِظُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴿٧٠﴾ وَتَأْكُلُونَ
الْثَرَاتِ أَكْلًا لَسًا ﴿٧١﴾ وَتَحْبِرُونَ الْأَالَ حَبًّا جَمًّا ﴿٧٢﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ
الْأَرْضُ دُكًّا دَكًّا ﴿٧٣﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٧٤﴾ وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ
بِئَمَتُهُ يَوْمَئِذٍ بَيِّنَاتٌ لِلَّذِينَ ابْنَلَهُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّ لَهُ الْذِكْرُ ﴿٧٥﴾ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي
قَدَمْتُ لِلْيَاقِي ﴿٧٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَمْدُبُ عَلَيْهِمْ أَمْدٌ ﴿٧٧﴾ وَلَا يُؤْنِسُ وَاقَهُ أَمْدٌ
﴿٧٨﴾ يَتَأْتِيهِمُ الْغَشَّاءُ الْمُغْشِيَةُ ﴿٧٩﴾ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُنِيبَةً ﴿٨٠﴾ فَادْخُلْ
فِي عِبَادِي ﴿٨١﴾ وَادْخُلْ جَنَّاتٍ ﴿٨٢﴾

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباد الله عند إصابة الخير، وعند إصابة الشر، وإن مطمح أنظارهم، ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال: ﴿فَأَمَّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه﴾ أي: امتحنه، واختبره بالنعم ﴿فأكرمه ونعمه﴾ أي: أكرمه بالمال، ووسع عليه رزقه ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ فرحاً بما نال وسروراً بما أعطي، غير شاكر لله على ذلك، ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه، واختبار لحاله وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع، والشكر للنعمة وكفرانها، و «ما» في قوله: ﴿إذا ما﴾ زائدة، وقوله: ﴿فأكرمه ونعمه﴾ تفسير للابتلاء ومعنى: ﴿أكرمن﴾ أي: فضلني بما أعطاني من المال، وأسبغه علي من النعم لمزيد استحقاقي لذلك، وكوني موضعاً له، والإنسان مبتدأ وخبره: ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ وبخلت الفاء فيه لتضمن أما معنى الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر، وإن تقدم لفظاً فهو مؤخر في المعنى أي: فأما الإنسان فيقول ربي أكرمني وقت ابتلائي بالإنعام. قال الكلبي: الإنسان هو الكافر أبي بن خلف. وقال مقاتل: نزلت في أمية بن خلف، وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة، وأبي حنيفة بن المغيرة ﴿وإما إذا ما ابتلاه﴾ أي: اختبره، وعامله معاملة من يختبره ﴿فقدر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، ولم يوسع له، ولا بسط له فيه ﴿فيقول ربي أهانن﴾ أي: أولاني هواناً، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث؛ لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع في متاعها، ولا إهانة عنده إلا قوتها، وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها، فأما المؤمن، فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، ويوفقه لعمل الآخرة، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير، وما أصيب به من الشر في الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. قرأ نافع بإثبات الياء في (أكرمن وأهانن) وصلأ وحذفهما وقفأ، وقرأ ابن كثير في رواية البزي عنه، وابن محيصن، ويعقوب بإثباتهما وصلأ، ووقفأ، وقرأ الباقرن بحذفهما في الوصل،

نعرفه إلا من حديث قتادة. قال ابن كثير: وعندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه، والله أعلم. قال: ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر. وقد أخرج هذا الحديث موقوفاً على عمران بن حصين عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، فهذا يقوي ما قاله ابن كثير. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله: ﴿والشفع والوتر﴾ فقال: كل شيء شفع، فهو اثنان، والوتر واحد. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند ضعيف عن أبي أيوب عن النبي ﷺ: «أنه سئل عن الشفع والوتر فقال: يومان وليلة، يوم عرفة، ويوم النحر، والوتر ليلة النحر ليلة جمع». وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «الشفع يومان، والوتر اليوم الثالث». وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير أنه سئل عن الشفع والوتر فقال: الشفع قول الله: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ [البقرة: 203] والوتر اليوم الثالث. وفي لفظ: الوتر أوسط أيام التشريق. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال: الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة. وأخرج ابن جرير عنه ﴿والليل إذا يسر﴾ قال: إذا ذهب. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿والفجر﴾ إلى قوله: ﴿إذا يسر﴾ قال: هذا قسم على إن ربك بالمرصاد. وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿قسم لذي حجر﴾ قال: لذي حجى وعقل ونهي. وأخرج ابن جرير عنه في قوله: ﴿بعداد إرم﴾ قال: يعني: بالإرم الهالك، ألا ترى أنك تقول إرم بنو فلان ﴿ذات العماد﴾ يعني: طولهم مثل العماد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن المقدم بن معدي كرب عن النبي ﷺ أنه ذكر ﴿إرم ذات العماد﴾ فقال: كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة، فيحملها على كاهله، فيلقها على أي حي أراد فيهلكهم، وفي إسناده رجل مجهول؛ لأن معلوية بن صالح رواه عن حنثه عن المقدم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿جبابوا الصخر بالواد﴾ قال: خرقوها. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ﴿ووفرعون ذي الأوتاد﴾ قال: الأوتاد: الجنود الذين يشنون له أمره. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ذي الأوتاد﴾ قال: وقد فرعون لامراته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال: يسمع ويرى. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال: من وراء الصراط جسور: جسر عليه

ملومة، وللاكل يلمّ الثريد، فيجمعه، ثم ياكله، وقال مجاهد: يسفه سفاً. وقال ابن زيد: هو إذا أكل ماله ألمّ بمال غيره، فاكله، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب ﴿وتحبون المال حبا جماعاً﴾ أي: حباً كثيراً؛ والجَمّ الكثير، يقال جَمّ الماء في الحوض: إذا كثر واجتمع، والجمّة: المكان الذي يجتمع فيه الماء. ثم كَرَّرَ سبحانه الردع لهم والزجر فقال: ﴿كلا﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم، ثم استأنف سبحانه فقال: ﴿إذا دكت الأرض دكا دكا﴾ وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر، والدك: الكسر واللق، والمعنى هنا: أنها زلزلت، وحركت تحريكاً بعد تحريك. قال ابن قتيبة: دكت جبالها حتى استوت. قال الزجاج: أي: تزلزلت، فنك بعضها بعضاً. قال الميزد: أي: بسطت، وذهب ارتفاعها. قال والدك: حط المرتفع باليسط، وقد تقدّم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، وفي سورة الحاقة، والمعنى: أنها دكت مرة بعد أخرى، وانتصاب بكاً الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل، وبكاً الثاني تأكيد للأول، كذا قال ابن عصفور. ويجوز أن يكون النصب على الحال أي: حال كونها منكوك مرة بعد مرة، كما يقال: علمته الحساب باباً باباً، وعلمته الخط حرفاً حرفاً، والمعنى: أنه كَرَّرَ ذلك عليها حتى صارت هباء منبثاً ﴿وجاء ربك﴾ أي: جاء أمره وقضاؤه، وظهرت آياته، وقيل المعنى: أنها زالت الشبه في ذلك اليوم، وظهرت المعارف، وصارت ضرورية، كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه، وقيل: جاء قهر ربك وسلطانه، وانفراده بالأمر، والتبشير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئاً من ذلك ﴿والملك صفاً صفاً﴾ انتصاب صفأً صفأً على الحال: أي: مصطفين، أو نوي صفوف. قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، وأهل كلّ سماء صفّ على حدة. قال الضحاك: أهل كلّ سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفأً صفأً محيطين بالأرض ومن فيها، فيكونون سبعة صفوف ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ يومئذ منصوب بجيء، والقائم مقام الفاعل بجهنم، وجوز مكي أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل، وليس بذلك. قال الواحدي: قال جماعة من المفسرين: جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجزونها حتى تنصب عن يسار العرش، فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثاً لركبتيه يقول: يا رب نفسي نفسي. وسيأتي الذي هذا نقله عن جماعة المفسرين مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ إن شاء الله ﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾ يومئذ هذا بدل من يومئذ الذي قبله أي: يوم جيء بجهنم يتذكر الإنسان أي: يتعظ، وينكر ما فرط منه، ويندم على ما قدّمه في الدنيا من الكفر والمعاصي. وقيل: إن قوله: ﴿يومئذ﴾ الثاني بدل من قوله: ﴿إذا دكت﴾ والعامل فيهما هو قوله: ﴿يتذكر الإنسان وإنسى له النكري﴾ أي: ومن أين له التذكر والاتعاظ، وقيل: هو على حذف مضاف أي: ومن أين له منفعة النكري. قال الزجاج: يظهر التوبة، ومن أين له التوبة؟ ﴿يقول يا ليتني قدّمت لحياتي﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه

والوقف اتباعاً لرسم المصحف، ولموافقة رؤوس الآي، والأصل إثباتها؛ لأنها اسم، ومن الحذف قول الشاعر:

ومن كاشح ظاهر غمره إذا ما انتصبت له أنكرن
أي: أنكرني. وقرأ الجمهور (فقدّر) بالتخفيف، وقرأ ابن عامر بالتشديد، وهما لغتان. وقرأ الحرمان، وأبو عمرو: ربي بفتح الباء في الموضعين وأسكنها الباقر. وقوله: ﴿كلا﴾ ردع للإنسان القائل في الحالتين ما قال وزجر له، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق، ويبسط النعم للإنسان لا لكرامته، ويضيقة عليه لا لإهانتة، بل للاختبار والامتحان، كما تقدّم. قال الفراء: كلا في هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله على الغنى والفقر. ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أحوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال: ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ، والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالتحية على الخبر، وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال، فقرأ الجمهور (تحضون) وتلكون وتحبون بالفوقية على الخطاب فيها. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالتحية فيها، والجمع في هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان؛ لأن المراد به الجنس أي: بل لكم أفعال هي أقبح مما نكر، وهي أنكم تتركون إكرام اليتيم، فتلكون ماله، وتمنعونه من فضل أموالكم. قال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف ﴿ولا تحضون على طعام المسكين﴾ قرأ الجمهور: (تحضون) من حضه على كذا أي: أغراه به، ومفعوله محذوف أي: لا تحضون أنفسكم، أو لا يحض بعضكم بعضاً على ذلك، ولا يأمر به، ولا يرشد إليه، وقرأ الكوفيون تحاضون بفتح التاء والحاء بعدها ألف، وأصله تتحاضون، فحذف إحدى التاءين أي: لا يحض بعضكم بعضاً. وقرأ الكسائي في رواية عنه والسلمي (تحاضون) بضم التاء من الحضّ، وهو الحث، وقوله: ﴿على طعام المسكين﴾ متعلق بتحضون، وهو إما اسم مصدر أي: على إطعام المسكين، أو اسم للمطعم، ويكون على حذف مضاف أي: على بذل طعام المسكين، أو على إعطاء طعام المسكين ﴿وتأكلون التراث﴾ أصله الوارث، فأبيلت التاء من الوار المضمومة، كما في تجاه، ووجه، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قرايباتهم، وكذلك أموال النساء، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون أموالهم ﴿أكلا لماً﴾ أي: أكلاً شديداً، وقيل: معنى لماً جمعاً، من قولهم: لمت الطعام: إذا أكلته جميعاً. قال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب اليتيم، وكذا قال أبو عبيدة. وأصل اللّم في كلام العرب: الجمع، يقال لمت الشيء أله لماً: جمعته، ومنه قولهم: لمّ الله شعثي أي: جمع ما تفرّق من أموره، ومنه قول النابغة:

ولست بمستبق لآخا لتلمه على شعث أي الرجال المهذب

قال الليث: اللّم الجمع الشديد، ومنه حجر ملموم، وكتيبة

كل نفس مطمئنة على العموم، ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِكْلَامًا﴾ قال: سفا، وفي قوله: ﴿حِبًّا جَمًّا﴾ قال: شديداً، وأخرج ابن جرير عنه ﴿إِكْلَامًا﴾ قال: شديداً. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿إِذَا نَكَتِ الْأَرْضُ نَكًّا دَكًّا﴾ قال: تحريكها. وأخرج مسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَأَنَّى لَهُ الْفُكْرَى﴾ يقول: وكيف له؟ وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿فَيُؤْمِنُ لَا يَعْذِبُ﴾ الآية قال: لا يعذب بعذاب الله أحد، ولا يؤثّق بوثق الله أحد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي، والضياء في المختارة عنه أيضاً في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ قال: المؤمنة ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يقول: إلى جسدك. قال: «نزلت هذه الآية، وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا، فقال: أما إنه سيقال لك هذا». وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مروي، وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبيرة نحوه مرسلًا. وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول نحوه عن أبي بكر الصديق، وأخرج ابن مروي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ قال: هو النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه قال: ﴿النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ المصنقة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: تردّ الأرواح يوم القيامة في الأجساد. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً﴾ قال: بما أعطيت من الثواب ﴿مَرْضِيَةً﴾ عنها بعملها ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ المؤمنين. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني عن سعيد بن جبيرة قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خلقته، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندري من تلاها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً * فَانْخَلِي فِي عِبَادِي * وَانْخَلِي جَنَّتِي﴾. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن عكرمة مثله.

تفسير سورة البلد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [أي: سورة البلد] بمكة. وأخرج ابن مروي عن ابن الزبير مثله.

قيل: ماذا يقول الإنسان، ويجوز أن تكون بدل اشتغال من قوله: يتنكر، والمعنى: يتمنى أنه قَدِمَ الخير، والعمل الصالح، واللام في لحياتي بمعنى لأجل حياتي، والمراد حياة الآخرة، فإنها الحياة بالحقيقة؛ لأنها دائمة غير منقطعة. وقيل: إن اللام بمعنى في، والمراد حياة الدنيا: أي: يا ليتني قَدِمْتُ الأعمال الصالحة في وقت حياتي في الدنيا انتفع بها هذا اليوم، والأوّل أولى. قال الحسن: علم والله أنه صاف حياة طويلة لا موت فيها ﴿فَيُؤْمِنُ لَا يَعْذِبُ عَذَابَهُ لُحْدٌ﴾ أي: يوم يكون زمان ما نكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد ﴿وَلَا يُوَثِّقُ كَ وَثَاقِهِ لُحْدٌ﴾ أو لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواء إذ الأمر كله له، والضميران على التقديرين في عذابه ووثاقه لله عز وجل، وهذا على قراءة الجمهور يعذب، ويوثق مبنين للفاعل. وقرأ الكسائي على البناء للمفعول فيهما، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان أي: لا يعذب كعذاب تلك الإنسان أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، والمراد بالإنسان الكافر أي: لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر، وقيل: إبليس، وقيل: المراد به أبي بن خلف. قال الفراء: المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد لتناهي في الكفر والعناد. وقيل المعنى: أنه لا يعذب مكانه أحد، ولا يوثق مكانه أحد، فلا تؤخذ منه فدية، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَزِدْ وَازِرَةً وَزِدْ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164] والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى التوثيق، واختار أبو عبيد، وأبو حاتم قراءة الكسائي، قال: وتكون الهاء في الموضعين ضمير الكافر؛ لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة: أي لا يعذب أحد أحداً مثل تعذيب هذا الكافر. ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء نكر بعض أحوال السعداء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ المطمئنة هي الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله، الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شك، ولا يعتريها ريب. قال الحسن: هي المؤمنة الموقنة. وقال مجاهد: الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل هي الآمنة المطمئنة. وقال ابن كيسان: المطمئنة بذكر الله، وقيل: المخلصة. قال ابن زيد: المطمئنة؛ لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أرجعي إلى الله ﴿رَاضِيَةً﴾ بالثواب الذي أعطاك ﴿مَرْضِيَةً﴾ عنده، وقيل: أرجعي إلى موعدة، وقيل: إلى أمره. وقال عكرمة، وعطاء: معنى ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى جسدك الذي كنت فيه، واختاره ابن جرير، ويدل على هذا قراءة ابن عباس: (فانخلي في عبادي) بالإنفراد، والأوّل أولى ﴿فَانْخَلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في زمرة عبادي الصالحين، وكوني من جملتهم، وانتظمي في سلكهم ﴿وَانْخَلِي جَنَّتِي﴾ معهم قيل: إنه يقال لها أرجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا، ويقال لها: انخلي في عبادي، وانخلي جنتي يوم القيامة، والمراد بالآية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَكْوِينٍ ﴿٤﴾ أَلَيْسَ أَنْ لَنْ يَفْقَرُ عَلَيْكَ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ
أَهْلَكْتُ مَا لَا بَلَدًا ﴿٦﴾ أَلَيْسَ أَنْ لَمْ يَرَوْا أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَا السَّبِيلَ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكَيْ رَفَعَهُ ﴿١٣﴾ أَوْ إِنْ لَمْ تُدْرِكْ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَرٍ ﴿١٤﴾
يَبِينَا ذَا مَفْرَقَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ وَسْطَكُمَا ذَا مَفْرَقٍ ﴿١٦﴾ ثُبُورًا كَانَ مِنَ الَّذِينَ مَاتُوا
وَوُفَاؤًا بِالْعَهْدِ ﴿١٧﴾ وَوُفَاؤًا بِالْعُرْوَةِ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ اصْطَبَأْنَا لَلَيِّنَةِ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَكْفَيْنَا لَهُمْ صَحْبُهُ الْمَشْتَقَةُ ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ نَارُ مُؤَمَّدَةٍ ﴿٢١﴾

قوله: ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ لا زائدة، والمعنى أقسم ﴿بهذا البلد﴾ وقد تقدم الكلام على هذا في تفسير - ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمٍ لِلْقِيَامَةِ﴾ - [القيامة: 1] ومن زيادة «لا» في الكلام في غير القسم قول الشاعر:

تذكرت ليلي فاعترتني صبابه وكاد صميم القلب لا يتصدع

أي: يتصدع، ومن ذلك قوله: ﴿وما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف: 12] أي: أن تسجد. قال الواحدي: أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة. قرأ الجمهور (لا أقسم) وقرأ الحسن، والأعمش: (لأقسم) من غير ألف، وقيل: هو نفي للقسم، والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. وقال مجاهد: إن ﴿لا﴾ رد على من أنكر البعث، ثم ابتداء، فقال أقسم، والمعنى: ليس الأمر كما تحسبون، والأول أولى. والمعنى: أقسم بالبلد الحرام الذي أنت حل فيه. وقال الواسطي: إن المراد بالبلد المنينة، وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضاً مدفوع لكن السورة مكية لا مدنية، وجملة قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ معترضة، والمعنى: أقسم بهذا البلد ﴿ووالد وما ولد﴾ * لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ واعترض بينهما بهذه الجملة، والمعنى: ومن المكابد أن مثلك عليّ عظيم حرمة يستحل بهذا البلد، كما يستحل الصيد في غير الحرم. وقال الواحدي: الحل والحلال والمحل واحد، وهو ضد المحرم، أحل الله لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح حتى قاتل، وقد قال ﷺ: «لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار» قال: والمعنى أن الله لما نكر القسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حراماً، فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً. انتهى. فالمعنى: وأنت حل بهذا البلد في المستقبل، كما في قوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: 30] قال مجاهد: المعنى ما صنعت فيه من شيء فانت حل. قال قتادة أنت حل به لست بأثم يعني: أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي. وقيل المعنى: لا أقسم

بهذا البلد وأنت حال به، ومقيم فيه، وهو محلّك، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى: لا أقسم به وأنت حال به، فانت لحق بالإقسام بك، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم، ولكن هذا إذا تقدّر في لغة العرب أن لفظ حلّ يجيء بمعنى حال، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال ﴿ووالد وما ولد﴾ عطف على البلد. قال قتادة، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وأبو صالح، ﴿ووالد﴾ أي: أُم ﴿وما ولد﴾ أي: وما تناسل من ولده أقسم بهم؛ لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون. وقال أبو عمران الجوني: الوالد إبراهيم، وما ولد: نريته. قال الفراء: إن: «ما» عبارة عن الناس كقوله: ﴿وما طاب لكم﴾ [النساء: 3] وقيل: الوالد إبراهيم، والولد إسماعيل، ومحمد ﷺ. وقال عكرمة، وسعيد بن جببر: ﴿ووالد﴾ يعني: الذي يولد له ﴿وما ولد﴾ يعني: العاقر الذي لا يولد له، وكأنهما جعلاً ما نافية، وهو بعيد، ولا يصح ذلك إلا بإضمار الموصول أي: ووالد والذي ما ولد، ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين، وقال عطية العوفي: هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات، واختار هذا ابن جرير ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ﴾ هذا جواب القسم، والإنسان هو هذا النوع الإنساني، والكبد: الشدة والمشقة، يقال كابنت الأمر: قاسيت شدته، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا، ومقاساة شدائدتها حتى يموت، وأصل الكبد الشدة، ومنه تكبد اللبن: إذا غلظ واشتد، ويقال كبد الرجل: إذا وجعت كبده، ثم استعمل في كل شدة ومشقة، ومنه قول أبي الأصبغ:

لي ابن عم لو أن الناس في كبد لظل محتجراً بالنبل يرميني
قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال أيضاً: يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء، لا يخلو عن أحدهما. قال الكلبي: نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له أبو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العكاظي ويجعله تحت رجله ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجنيه عشرة حتى يتمزق، ولا تزول قدماء، وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل ﴿أليحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ يعني: لقوته، ويكون معنى ﴿في كبد﴾ على هذا: في شدة خلق، وقيل معنى: ﴿في كبد﴾ أنه جريء القلب غليظ الكبد ﴿أليحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ أي: يظن ابن أُم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد، أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد، وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقتر. ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال: ﴿يقول أهلك ما لا لبداً﴾ أي: كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض. قال الليث: مال لبد لا يخاف فناؤه من

وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

أي: فلم يبدها؛ ولم يتقدم، وقيل: هو جار مجرى الدعاء كقولهم: لا نجاه. قال أبو زيد، وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلا اقتحم العقبة. ثم بين سبحانه العقبة فقال: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ أي: أي شيء أعلمك ما اقتحامها ﴿فك رغبة﴾ أي: هي إعتاق رقبة، وتخليصها من أسار الرق، وكل شيء أطلقته فقد فككته، ومنه: فك الرهن، وفك الكتاب، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المنكورة التي تكون بها النجاة من النار. قال الحسن، وقتادة: هي عقبة شديدة في النار بون الجسر، فاقتموها بطاعة الله. وقال مجاهد، والضحاك، والكلبي: هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف. وقال كعب: هي نار بون الجسر. قيل: وفي الكلام حذف أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ قرأ أبو عمرو، وابن كثير، والكسائي (فك رغبة) على أنه فعل ماض، ونصب رغبة على المفعولية، وهكذا قرأ، أو أطمع: على أنه فعل ماض. وقرأ الباقر (فك، أو إطعام) على أنهما مصدران، وجر رغبة بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من اقتحم، أو بياناً له كانه قيل: فلا فك ولا أطمع، والفك في الأصل: حل القيد، سمي العتق فكاً؛ لأن الرق كالقيد، وسمي المرقوق رغبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ للمسغبة المجاعة، والسغب الجوع، والسأغب الجائع. قال الراغب: يقال منه سغب الرجل سغباً، وسغبوا فهو سائب، وسغبان، والمسغبة مفعلة منه، وأنشد أبو عبيدة:

فلو كنت حرأيا بن قيس بن عاصم لما بئ شبعاناً وجارك ساغباً

قال النخعي: ﴿في يوم ذي مسغبة﴾ أي: عزيز فيه الطعام ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ أي: قرابة، يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي، واليتيم في الأصل: الضعيف يقال: يتم الرجل: إذا ضعف، واليتيم عند أهل اللغة: من لا أب له، وقيل: هو من لا أب له ولا أم، ومنه قول قيس بن الملوح:

إلى الله أشكو فقد ليلي كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي: لا شيء له كانه لصق بالتراب لفقره، وليس له مأوى إلا التراب، يقال: ترب الرجل: يترب ترباً ومتربة: إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرراً. قال مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره. وقال قتادة: هو ذو العيال. وقال عكرمة: هو المديون. وقال أبو سنان: هو ذو الزمانة. وقال ابن جبير: هو الذي ليس له أحد. وقال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، والأول أولى، ومنه قول الهذلي:

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البنين في تربة الحال

كثرت. قال الكلبي، ومقاتل: يقول أهلكت في عداوة محمد مالا كثيراً. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل: أننب، فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ نخلت في بين محمد. قرأ الجمهور (لبداً) بضم اللام، وفتح الباء مخففاً. وقرأ مجاهد، وحמיד بضم اللام والباء مخففاً. وقرأ أبو جعفر بضم اللام، وفتح الباء مشدداً. قال أبو عبيدة: لبداً فعل من التلبيد، وهو المال الكثير بعضه على بعض. قال الزجاج: فعل للكثرة، يقال رجل حطم: إذا كان كثير الحطم. قال الفراء: وأحدثه لبدة، والجمع لبداً. وقد تقدم بيان هذا في سورة الجن ﴿إنحسب أن لم يره أحد﴾ أي: أيظن أنه لم يعاينه أحد. قال قتادة: أيظن أن الله سبحانه لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه، وأين أنفق؟ وقال الكلبي: كان كاذباً لم ينفق ما قال، فقال الله: أيظن أن الله لم ير ذلك منه، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق. ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال: ﴿إلم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما ﴿ولساناً﴾ ينطق به ﴿وشفتين﴾ يستر بهما ثغره. قال الزجاج: المعنى ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه، والشفة محنوفة اللام، وأصلها شفة بلبل تصغيرها على شفة ﴿وهبيناه النجدين﴾ النجد: الطريق في ارتفاع. قال المفسرون: بينا له طريق الخير وطريق الشر. قال الزجاج: المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر، مبينتين كتبين الطريقين العاليتين. وقال عكرمة، وسعيد بن المسيب، والضحاك: النجدان: الثديان؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد، ورزقه، والأول أولى. وأصل النجد المكان المرتفع، وجمعه نجود، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان الطريقان العاليان، ومنه قول امرئ القيس:

فريقان منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كعب

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ الاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قحوماً أي: رمى بنفسه فيه من غير روية، وتقحم النفس في الشيء: إبخالها فيه من غير روية، والقحمة بالضم المهلكة. والعقبة في الأصل الطريق التي في الجبل، سميت بذلك لصعوبة سلوكها، وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة. قال الفراء، والزجاج: ذكر سبحانه هنا: «لا مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام آخر كقوله: ﴿فلا صبق ولا صلى﴾ [القيامة: 31] وإنما أفردها هنا دلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ قائماً مقام التكرير كانه قال: فلا اقتحم العقبة، ولا آمن. قال المبرد، وأبو علي الفارسي: إن «لا» هنا بمعنى لم أي: فلم يقتحم العقبة، وروي نحو ذلك عن مجاهد، فلماذا لم يحتج إلى التكرير، ومنه قول زهير:

الرجال والنساء. وأخرج ابن جرير، والطبراني عنه أيضاً
 ووالد قال: ألم **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: في
 اعتدال وانتصاب. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: **﴿لقد خلقنا
 الإنسان في كبد﴾** قال: في نصب. وأخرج ابن جرير عنه
 أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: في شدة.
 وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،
 وابن أبي حاتم عنه أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾**
 قال: في شدة خلق ولانته، ونبت أسنانه، ومعيشته، وختانه.
 وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه
 أيضاً: **﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾** قال: خلق الله كل
 شيء يمشي على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً.
 وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً:
﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ قال: منتصباً في بطن أمه
 أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه
 لولا ذلك لغرق في الدم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في
 قوله: **﴿مالاً لبدا﴾** قال: كثيراً. وأخرج عبد الرزاق،
 والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن
 أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود
 في قوله: **﴿وهديناه النجدين﴾** قال: سبيل الخير والشر.
 وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
 عباس: **﴿وهديناه النجدين﴾** قال: الهدى والضلالة. وأخرج
 عبد بن حميد، وابن جرير عنه قال: سبيل الخير والشر.
 وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس
 قال: قال النبي ﷺ: «هما نجدان، فما جعل نجد الشر أحب
 إليكم من نجد الخير» تفرد به سنان بن سعد، ويقال
 سعد بن سنان. وقد وثقه يحيى بن معين. وقال الإمام أحمد،
 والنسائي، والجوزجاني: منكر الحديث. وقال أحمد: تركت
 حديثه لاضطراره، قد روى خمسة عشر حديثاً منكراً كلها
 ما أعرف منها حديثاً واحداً، يشبه حديثه حديث الحسن
 البصري، لا يشبه حديث أنس. وأخرجه عبد الرزاق،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه من طرق عن
 الحسن قال: نكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول، فنكره. وهذا
 مرسل، وكذا رواه قتادة مرسلأ. أخرجه عنه ابن جرير،
 ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن أبي أمامة أن النبي ﷺ
 قال: «يا أيها الناس إنهما نجدان: نجد خير، ونجد شر، فما
 جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» ويشهد له أيضاً
 ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ
 قال: «إنما هما نجدان، نجد الخير، ونجد الشر، فلا يكن نجد
 الشر أحب إليكم من نجد الخير». وأخرج عبد الرزاق،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن
 عباس في قوله: **﴿وهديناه النجدين﴾** قال: الثديين. أخرج
 ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في
 قوله: **﴿فلا اقتحم العقبة﴾** قال: جبل زلال في جهنم.
 وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العقبة النار. وأخرج
 عبد بن حميد عنه قال: العقبة بين الجنة والنار. وأخرج

قرا الجمهور (ذي مسغبة) على أنه صفة ليوم، ويتيمماً
 هو مفعول إطعام. وقرا الحسن: (ذا مسغبة) بالنصب على
 أنه مفعول إطعام أي: يطعمون ذا مسغبة، ويتيمماً بدل منه
﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ عطف على المنفي بلا، وجاء
 بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله. وفيه
 دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان، وقيل
 المعنى: ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم. وقيل
 المعنى: أنه أتى بهذه القرب لوجه الله **﴿وتواصوا
 بالصبر﴾** معطوف على آمنوا أي: أوصى بعضهم بعضاً
 بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من
 البلايا، والمصائب **﴿وتواصوا بالمرحمة﴾** أي: بالرحمة
 على عباد الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين،
 واستكثر من فعل الخير بالصنقة ونحوها، والإشارة
 بقوله: **﴿أولئك﴾** إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات
 المذكورة هم **﴿أصحاب الميمنة﴾** أي: أصحاب جهة
 اليمين، أو أصحاب اليمن، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم،
 وقيل: غير ذلك مما قد قدمنا ذكره في سورة الواقعة
﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ أي: بالقرآن، أو بما هو أعم منه،
 فتدخل الآيات التنزيلية، والآيات التكوينية التي تدل على
 الصانع سبحانه **﴿هم أصحاب المشأمة﴾** أي: أصحاب
 الشمال، أو أصحاب الشؤم، أو الذين يعطون كتبهم
 بشمالهم، أو غير ذلك مما تقدم **﴿عليهم نار مؤصدة﴾**
 أي: مطبقة مغلقة، يقال: أصدت الباب، وأوصنته إذا أغلقته،
 وأطبقت، ومنه قول الشاعر:

تحن إلى أجيال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة
 قرا الجمهور (موصدة) بالواو. وقرا أبو عمرو، وحزمة،
 وحفص بالهمزة مكان الواو، وهما: لغتان، والمعنى واحد.
 وقد أخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في
 قوله: **﴿لا أقسم بهذا البلد﴾** قال: مكة **﴿وأنت حل بهذا
 البلد﴾** يعني: بذلك النبي ﷺ، أحل الله له يوم نزل مكة أن
 يقتل من شاء، ويستحيي من شاء، فقتل له يومئذ ابن خطل
 صبراً، وهو أخذ بأستار الكعبة، فلم يحل لأحد من الناس
 بعد النبي ﷺ أن يفعل فيها حراماً حرّمه الله، فأحل الله له
 ما صنع بأهل مكة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن
 مردويه عنه في قوله: **﴿لا أقسم بهذا البلد﴾** قال: مكة
﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ قال: أنت يا محمد يحل لك أن
 تقتل فيه، وأما غيرك فلا. وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة
 الأسلمي قال: نزلت هذه الآية: **﴿لا أقسم بهذا البلد * وأنت
 حل بهذا البلد﴾** في، خرجت، فوجدت عبد الله بن خطل
 وهو متعلق بأستار الكعبة، فضربت عنقه بين الركن والمقام.
 وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس: **﴿لا أقسم بهذا
 البلد﴾** قال: أحل له أن يصنع فيه ما شاء **﴿ووالد وما
 ولد﴾** قال: يعني: بالوالد آدم، وما ولد ولده. وأخرج الفريابي،
 وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه
 في الآية قال: الوالد الذي يلد، وما ولد العاقر لا يلد من

تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْأَنْثَى وَضَحَى ❶ وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ❷ وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا ❸ وَالْأَيْلَ إِذَا يَمَسَّنَهَا ❹ وَالْأَنْثَى وَمَا بَلَّهَا ❺ وَالْأَرْضَ وَمَا حَمَلَهَا ❻ وَتَشْرَى وَمَا سَوَّيَهَا ❼ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ❽ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ❾ وَقَدْ حَاطَ مِنَ دَسَنَهَا ❿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ❶❶ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ❶❷ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ❶❸ فَكَذَّبُوهُ فَفُتُّوهُمْ فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَرَّبَهُمْ قُرُونًا ❶❹ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ❶❺

اقسم سبحانه بهذه الأمور، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقال قوم: إن القسم بهذه الأمور، ونحوها مما تقدم، ومما سيأتي هو على حذف مضاف أي: ﴿وَالْأَنْثَى وَضَحَى﴾ وب﴿الشمس﴾ وب﴿القمر﴾، وهكذا سائرهما، ولا ملجئ إلى هذا، ولا موجب له، وقوله: ﴿وَضَحَاهَا﴾ هو: قسم ثان قال مجاهد: وضحاها أي: ضوئها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، وكذا قال الكلبي. وقال قتادة: ضحاها نهارها كله. قال الفراء: الضحى هو النهار. وقال المبرد: أصل الضحى الصبح، وهو نور الشمس. قال أبو الهيثم: الضحى نقيض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله الضحى، فاستقلوا الياء، فقلبوها ألفاً. قيل: والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضحاء بالممد. قال المبرد: الضحى، والضحوة مشتقان من الضح، وهو النور، فأبطلت الألف، والوارى من الحاء.

واختلف في جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَاهَا﴾ قاله الزجاج وغيره. قال الزجاج وحذفت اللام؛ لأن الكلام قد طال، فصار طوله عوضاً منها، وقيل: الجواب محذوف أي: والشمس، وكذا لتبعث، وقيل تقديره: ليدمدن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما يمدن على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وأما: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَاهَا﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء، وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف، والمعنى: قد أفلح من رزقها، وقد خاب من بساها، والشمس وضحاها والأول أولى ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا﴾ أي: تبعها، وذلك بأن طلع بعد غروبها، يقال تلا يتلو تلوأ: إذا تبع. قال المفسرون: وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة، وخلفها في النور. قال الزجاج: تلاها حين استدار، فكان يتلو الشمس في الضياء والنور، يعني: إذا كمل ضوءه، فصار تابعاً للشمس في الإضاءة، يعني: كان مثلاً في الإضاءة، وذلك في الليالي البيض. وقيل: إذا تلا طلوعه طلوعها. قال قتادة: إن تلك ليلة الهلال إذا سقطت رؤى

الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عائشة قالت: «لما نزل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ قيل: يا رسول الله ما عند أحدنا ما يعقب إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه، فلو أمرناهم بالزنا، فجنن بالآلاد، فاعتقناهم، فقال رسول الله ﷺ: لأن امتع بسوط في سبيل الله أحب إلي من أن أمر بالزنا، ثم اعتق الولد». وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ: «لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من هذا». وقد ثبت الترغيب في عتق الرقاب بأحاديث كثيرة: منها في الصحيحين، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من اعتق رقبة مؤمنة اعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى الفرج بالفرج». وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال: مجاعة. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال: جوع. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ قال: ذا قرابة، وفي قوله: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ قال: بعيد التربة، أي: غريباً عن وطنه، وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً: ﴿ذُو مَسْكِينٍ ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ قال: هو المطروح الذي ليس له بيت. وفي لفظ للحاكم: هو الذي لا يقيه من التراب شيء. وفي لفظ: هو اللازق بالتراب من شدة الفقر. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي ﷺ: ﴿مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ قال: «الذي ماواه المزابل». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ يعني: بذلك رحمة الناس كلهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: ﴿مَوْصِدَةً﴾ قال: مغلقة الأبواب. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة: ﴿مَوْصِدَةً﴾ قال مطبقة.

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿وَالْشَّمْسُ وَضَحَاهَا﴾ [أي: سورة الشمس] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي عن بريدة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة العشاء: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا﴾، وأشباهاها من السور». وقد تقدم حديث جابر في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [أي: سورة الأعلى]، ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [أي: سورة الليل] وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بـ﴿اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا﴾. وأخرج البيهقي في الشعب عن عتبة بن عامر قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلّي ركعتي الضحى بسورتَيْهَا بـ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا﴾، ﴿وَالضُّحَى﴾».

وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام، فإن التبيين والتعليم، والتعريف بون الإلهام، والإلهام أن يوقع في قلبه، ويجعل فيه، وإذا أوقع الله في قلب عبده شيئاً ألزمه ذلك الشيء. قال: وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه، وفي الكافر فجوره **﴿قد افلح من زكاه﴾** أي: قد فاز من زكى نفسه وأنماها، وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب، وقد قلنا أن هذا جواب القسم على الراجح، وأصل الزكاة: النمو والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر **﴿وقد خاب من نساها﴾** أي: خسر من أضلها وأغواها. قال أهل اللغة: نساها أصله نسسها، من الندسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فمعنى نساها في الآية: أخفاها وأخملها، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح، وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها، فيقصدها الضيوف، وكانت لثام العرب تنزل الهضاب، والأمكنة المنخفضة؛ ليخفى مكانها عن الوافدين. وقيل: معنى نساها: أغواها، ومنه قول الشاعر:

وانت الذي نسيت عمر فاصبحت حلالتك منه أرامل ضيعا
وقال ابن الأعرابي: **﴿وقد خاب من نساها﴾** أي: نس نفسه في جملة الصالحين، وليس منهم **﴿كذبت ثمود بطغواها﴾** الطغوى: اسم من الطغيان كالدعوى من الدعاء. قال الواحدي: قال المفسرون: كذبت ثمود بطغيانها أي: الطغيان حملتهم على التكذيب، والطغيان مجازة الحد في المعاصي، والباء للسببية. وقيل: كذبت ثمود بطغواها أي: بعذابها الذي وعدت به، وسمي العذاب طغوى لأنه طغى عليهم، فتكون الباء على هذا للمتعية. وقال محمد بن كعب: بطغواها أي: باجمعها. قرأ الجمهور (بطغواها) بفتح الطاء. وقرأ الحسن، والجحدري، ومحمد بن كعب، وحمام بن سلمة بضم الطاء؛ فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان، وإنما قلبت الياء والواو للفرق بين الاسم والصفة؛ لأنهم يقلبون الياء في الأسماء كثيراً نحو تقوى، وسرور، وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى، ونحوهما، وقيل: هما لغتان **﴿إذ اتبعنا أشقاها﴾** العامل في الظرف كذبت، أو بطغواها: أي: حين قام أشقى ثمود، وهو قدار بن سالف، فعقر الناقة، ومعنى اتبعنا: انتدب لذلك وقام به، يقال بعثته على الأمر، فاتبعت له، وقد تقدم بيان هذا في الأعراف: **﴿فقال لهم رسول الله﴾** يعني: صالحاً **﴿ناقة الله﴾** قال الزجاج: ناقة الله منصوبة على معنى: نروا ناقة الله. قال الفراء: حذرهم إياها، وكل تحذير فهو نصب **﴿وسقياها﴾** معطوف على ناقة، وهو شربها من الماء. قال الكلبي، ومقاتل: قال لهم صالح: نروا ناقة الله، فلا تعقروها، وذروا سقياها، وهو شربها من النهر، فلا تعرضوا له يوم شربها، فكذبوا بتحذيره إياهم: **﴿ففعقروها﴾** أي: عقرها الأشقى، وإنما أسند العقر إلى الجميع؛ لأنهم رضوا بما فعله. قال قتادة: إنه لم يعقروا حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، ونكرهم وأنثاهم. قال الفراء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل

الهلال. قال ابن زيد: إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع، وفي آخرها يتلوها بالغروب، وقال الفراء تلاها أخذ منها يعني: أن القمر يأخذ من ضوء الشمس **﴿والنهار إذا جلاها﴾** أي: جلى الشمس، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء، فكانه جلاها مع أنها الذي تبسطه. وقيل: الضمير عائذ إلى الظلمة، أي: جلى الظلمة، وإن لم يجر للظلمة نكر؛ لأن المعنى معروف. قال الفراء: كما تقول أصبحت باردة أي: أصبحت غداً باردة، والأول أولى. ومنه قول قيس بن الحطيم:

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب
وقيل المعنى: جلى ما في الأرض من الحيوانات، وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل، وقيل: جلى الدنيا، وقيل: جلى الأرض **﴿والليل إذا يغشاها﴾** أي: يغشى الشمس، فيذهب بضوئها، فتغيب، وتظلم الأفاق، وقيل: يغشى الأفاق، وقيل: الأرض، وإن لم يجر لهما نكر؛ لأن ذلك معروف، والأول أولى **﴿والسما وما بناها﴾** يجوز أن تكون ما مصدرية أي: والسما وبنائها، ويجوز أن تكون موصولة: أي: والذي بناها، وإيثار «ما» على من لإرادة الوصفية لقصد التفضيم كأنه قال: والقادر العظيم الشأن الذي بناها. ورجح الأول الفراء، والزجاج، ولا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مخلاً بالنظم. ورجح الثاني ابن جرير **﴿والأرض وما طحاها﴾** الكلام في «ما» هذه كالكلام في التي قبلها، ومعنى طحاها بسطها، كذا قال عامة المفسرين، كما في قوله: **﴿نحاها﴾** قالوا: طحاها ودحاها واحد أي: بسطها من كل جانب، والطحو البسط، وقيل: معنى طحاها قسمها، وقيل: خلقها، ومنه قول الشاعر:

وما يدرى جنيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع
والأول أولى. والطحو أيضاً: الذهاب. قال أبو عمرو بن العلاء: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض، يقال ما أبري أين طحا؟ ويقال طحا به قلبه: إذا ذهب به، ومنه قول الشاعر:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
﴿ونفس وما سواها﴾ الكلام في «ما» هذه، كما تقدم، ومعنى سواها خلقها وأنشأها، وسوى أعضائها. قال عطاء: يريد جميع ما خلق من الجن والإنس، والتذكير للتفخيم، وقيل: المراد نفس آدم **﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾** أي: عرّفها وأقهمها حالهما، وما فيهما من الحسن والقبح. قال مجاهد: عرّفها طريق الفجور، والتقوى، والطاعة، والمعصية. قال الفراء: فألهمها عرّفها طريق الخير، وطريق الشر، كما قال: **﴿وهيناه النجدين﴾** [البلد: 10]. قال محمد بن كعب: إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به. قال ابن زيد: جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلته إياها للفجور، واختار هذا الزجاج، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان. قال الواحدي:

والطبراني، وابن مردويه من حديث ابن عباس، وزاد «كان إذا تلا هذه الآية: ﴿ونفس وما سواها﴾ فإلهما فجورها وتقواها» قال: فنكره، وزاد أيضاً: «وهو في الصلاة». وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضاً. وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس «قد أفلح من زكاه» يقول: قد أفلح من زكى الله نفسه «وقد خاب من بساها» يقول: قد خاب من بس الله نفسه فأضله «ولا يخاف عقباها» قال: لا يخاف من أحد تبعه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه «وقد خاب من بساها» يعني: مكر بها. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: «سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿قد أفلح من زكاه﴾ الآية أفلحت نفس زكاه الله، وخابت نفس خبيها الله من كل خير» وجويبر ضعيف. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: «يطغواها» قال: اسم العذاب الذي جاءها الطغوى، فقال: كذبت ثمود بعداها، وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال: «خطب رسول الله ﷺ فنكر الناقة، ونكر الذي عقرها، فقال: ﴿إذ أنبعت لشقاها﴾ قال: أنبعت لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة». وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم، وأبو نعيم في الدلائل عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «لا أحزنك بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال رجلان: أحمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذا «يعني»: قرنه «حتى تبطل منه هذه» يعني: لحيته.

تفسير سورة الليل

وهي مكية عند الجمهور، وقيل: مدنية. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة «والليل إذا يغشى» [أي: سورة الليل] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الظهر والعصر: «والليل إذا يغشى» ونحوها». وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس «أن رسول الله ﷺ صلى بهم الهجرة، فرفع صوته، فقرأ: «والشمس وضحاها» [أي: سورة الشمس] «والليل إذا يغشى» فقال له أبي بن كعب: يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء؟ قال: لا، ولكن أرئت أن أوقت لكم، وقد تقدم حديث: «فهلأ صليت به» يسبح اسم ربك الأعلى» [أي: سورة الأعلى]، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى؟». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إني لأقول إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل «والليل إذا يغشى».

الناس، وهذان خير الناس، فلهذا لم يقل أشقياها «قدمم عليهم ربهم بنبيهم فسواها» أي: أهلهم، وأطبق عليهم العذاب، وحقيقة الدمة: تضعيف العذاب، وترتيده، يقال دممت على الشيء أي: أطبقت عليه، ودمم عليه القبر أي: أطبقته، وناقمة مدمومة: إذا لبسها الشحم، والدمة: إهلاك باستئصال، كذا قال المؤرج. قال في الصحاح: دممت الشيء: إذا الرقته بالأرض، وطحطحته، ودمم الله عليهم أي: أهلهم. وقال ابن الأعرابي: دمم إذا عذب عذاباً تاماً. والضمير في فسواها يعود إلى الدمة، أي: فسوى الدمة عليهم، وعلمهم بها، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم، وقيل: يعود إلى الأرض أي: فسوى الأرض عليهم، فجعلهم تحت التراب، وقيل: يعود إلى الأمة أي: ثمود. قال الفراء: سوى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم. قرأ الجمهور (قدمم) بميم بين الدالين، وقرأ ابن الزبير (فدهم) بهاء بين الدالين. قال القرطبي: وهما لغتان، كما يقال: امتنع لونه، وامتنع لونه «فلا يخاف عقباها» أي: فعل الله ذلك بهم غير خائف من عاقبة، ولا تبعه، والضمير في عقباها يرجع إلى الفعلة، أو إلى الدمة المللول عليها بدمم. وقال السدي، والضحاك، والكبي: إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه أي: لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع. وقيل: لا يخاف رسول الله ﷺ عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، والأول أولى. قرأ الجمهور (ولا يخاف) بالواو، وقرأ نافع، وابن عامر، بالفاء.

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس «وضحاها» قال: ضوئها «والقمر إذا تلاها» قال: تبعها «والنهار إذا جلاها» قال: أضاءها «والسما وما بناها» قال: الله بنى السماء «والأرض وما طحاها» قال: نحاساً «فإلهما فجورها وتقواها» قال: علمها الطاعة، والمعصية. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه «والأرض وما طحاها» يقول: قسمها «فإلهما فجورها وتقواها» قال: من الخير والشر. وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً «فإلهما» قال: ألزمها فجورها وتقواها. وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عمران بن حصين: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكفون فيه شيء قد قضى عليهم، ومضى في قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما آتاهم نبيهم، واتخذت عليهم به الحجة، قال: بل شيء قد قضى عليهم؟ قال: فلم يعملون إن؟ قال: من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهينه لعملها، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ونفس وما سواها﴾ فإلهما فجورها وتقواها» وسيأتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث. وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكها، أنت وليها ومولاها». وأخرجه ابن المنذر،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنبَأَ إِذَا يَفْتَقَ ① وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا عَلَّمَ الذِّكْرَ وَالْأَنثَى ③ إِنَّ سَيِّئَكَ لَشَتَّى ④ فَمَا مَنَ أَعْطَى وَالْفَقْرَ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑦ وَأَمَّا مَنَ جَعَلَ ⑧ وَاسْتَفْتَى ⑨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑪ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑫ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ⑬ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ⑭ فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلَدَّى ⑮ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑯ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑰ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑱ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ⑲ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ⑳ إِلَّا إِتْيَاءَهُ رَبِّهِ رِزْقَ الْآثَى ㉑ وَلَسَوْفَ رِزْقٌ ㉒

بشبهات الدنيا عن نعيم الآخرة ﴿وَكُذِّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالخلف من الله عز وجل، وقال مجاهد: بالجنة، وروي عنه أيضاً أنه قال: بلا إله إلا الله ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أي: فسنيته للخصلة العسرى، ونسبها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، فيؤديه ذلك إلى النار. قال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيراً. قيل العسرى الشر، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب، والعسرة في العذاب، والمعنى: سنيته للشر بأن نجريه على يديه. قال الفراء: سنيسه سنيته، والعرب تقول: قد يسرت الغنم إذا ولدت، أو تهايت للولادة. قال الشاعر:

هـما سيدانا يزعمان وإنما يسوداننا إن يسرت غنماهما
﴿وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أي: لا يغني عنه شيئاً ماله الذي بخل به، أو أي شيء يغني عنه إذا تردى أي: هلك، يقال: ردى الرجل يردى ردى، وتردى يتردى: إذا هلك. وقال قتادة، وأبو صالح، وزيد بن أسلم: إذا تردى: إذا سقط في جهنم، يقال ردى في البئر، وتردى: إذا سقط فيها، ويقال: ما أبري أين ردى أي: أين ذهب؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أي: إن علينا البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان: بيان حرامه، وطاعته، ومعصيته. قال الفراء: من سلك الهدى، فعلى الله سبيله، لقوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ [النحل: 9] يقول: من أراد الله، فهو على السبيل القاصد. قال الفراء أيضاً: المعنى إن علينا للهدى والإضلال، فحذف الإضلال كقوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل: 81] وقيل المعنى: إن علينا ثواب هداية الذي هديناه ﴿وَأَنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ أي: لنا كل ما في الآخرة، وكل ما في الدنيا تنصرف به كيف نشاء، فمن أرادهما أو أحدهما، فليطلب ذلك منا، وقيل المعنى: إن لنا ثواب الآخرة، وثواب الدنيا ﴿فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلَدَّى﴾ أي: حذرتك وخوفتكم ناراً تتوقد وتتوهج، وأصله تلتظى، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً. وقرأ على الأصل عبيد بن عمير، ويحيى بن يعمر، وطلحة بن مصرف ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي: يصلها صلياً لازماً على جهة الخلود إلا الأشقى وهو الكافر، وإن صليها غيره من العصاة، فليس صليها كصليها، والمراد بقوله يصلها: يدخلها، أو يجد صلاها، وهو حرها. ثم وصف الأشقى فقال: ﴿الَّذِي كُذِّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: كذب بالحق الذي جاء به الرسل، وأعرض عن الطاعة والإيمان. قال الفراء ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ إلا من كان شقياً في علم الله جل ثناؤه. قال أيضاً: لم يكن كذب برده ظاهراً، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكتيباً، كما تقول لقي فلان العدو، فكذب: إذا نكل، ورجع عن اتباعه. قال الزجاج: هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ ولأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار. والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب، فجدير أن يعذب به، وقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ

قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أي: يغطي بظلمته ما كان مضيقاً. قال الزجاج: يغشى الليل الأفق، وجميع ما بين السماء والأرض، فيذهب ضوء النهار، وقيل: يغشى النهار، وقيل: يغشى الأرض، والأول أولى ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي: ظهر وانكشف، ووضع لزوال الظلمة التي كانت في الليل، وذلك بطلوع الشمس ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ما هنا هي الموصولة أي: والذي خلق الذكر والأنثى، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية، ولقصد التفخيم أي: والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى. قال الحسن، والكلبى: معناه، والذي خلق الذكر والأنثى فيكون قد أقسم بنفسه. قال أبو عبيدة: وما خلق أي: ومن خلق. وقال مقاتل: يعني: وخلق الذكر والأنثى فتكون «ما» على هذا مصدرية. قال الكلبى، ومقاتل: يعني: آدم وحواء، والظاهر العموم. قرأ الجمهور (وما خلق الذكر والأنثى) وقرأ ابن مسعود (والذكر والأنثى) بدون ما خلق ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ هذا جواب القسم أي: إن عملكم لمختلف: فمته عمل للجنة، ومته عمل للنار. قال جمهور المفسرين: السعي العمل، فساع في فكك نفسه، وساع في عطبها، وشتى جمع شتيت: كمرضى ومريض، وقيل: للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض ﴿فَمَا مَنَ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أي: بذل ماله في وجوه الخير، واتقى محارم الله التي نهى عنها ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالخلف من الله. قال المفسرون: فاما من أعطى المعسرين. وقال قتادة: أعطى حق الله الذي عليه. وقال الحسن: أعطى الصديق من قلبه، وصدق بالحسنى: أي: بلا إله إلا الله، وبه قال الضحاك، والسلمي. وقال مجاهد: بالحسنى بالجنة. وقال زيد بن أسلم: بالصلاة، والزكاة، والصوم، والأول أولى. قال قتادة: بالحسنى: أي: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه. قال الحسن: بالخلف من عطاؤه، واختار هذا ابن جرير ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أي: فسنيته للخصلة العسرى، وهي: عمل الخير، والمعنى: فسنيسه له الإنفاق في سبيل الخير، والعمل بالطاعة لله. قال الواحدي: قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله ﴿وَمَا مَنَ يَخِلُّ وَاسْتَفْتَى﴾ أي: بخل بماله، فلم يبذله في سبيل الخير، واستغنى أي: زهد في الأجر والثواب، أو استغنى

تعالى؛ ومعنى الآية: أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتي من ماله مجازاتها، وإنما قال تجزى مضارعاً مبنياً للمفعول لأجل الفواصل، والأصل يجزيها إياه، أو يجزيه إياها ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ قرأ الجمهور (إلا ابتغاء) بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجها تحت جنس النعمة أي: لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول له على المعنى أي: لا يؤتي إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة. قال الفراء: هو منصوب على التأويل أي: ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله، وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البذل من محل نعمة؛ لأن محلها الرفع إما على الفاعلية، وإما على الابتداء، ومن مزيدة، والرفع لغة تميم؛ لأنهم يجزؤون البذل في المنقطع، ويجزونه مجرى المتصل. قال مكي: وأجاز الفراء الرفع في «ابتغاء» على البذل من موضع نعمة، وهو بعيد. قال شهاب الدين: كأنه لم يطلع عليها قراءة، واستبعاده، هو البعيد فإنها لغة فاشية، وقرأ الجمهور أيضاً (ابتغاء) بالمد، وقرأ ابن أبي عبلة بالقصر والأعلى: نعت للرب ﴿ولسوف يرضى﴾ اللام هي: الموطئة للقسم أي: وتالله لسوف يرضى بما نعطي من الكرامة والجزاء العظيم. قرأ الجمهور (يرضى) مبنياً للفعل، وقرئ مبنياً للمفعول.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿والليل إذا يغشى﴾ قال: إذا اظلم. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر عن ابن مسعود قال: إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف، وأبي بن خلف ببردة، وعشر أواق، فاعتقه الله، فأنزل الله: ﴿والليل إذا يغشى﴾ إلى قوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ سعي أبي بكر، وأميه وأبي إلى قوله: ﴿وكتب بالحسنى﴾ قال: لا إله إلا الله إلى قوله: ﴿فستيسره للعسرى﴾ قال: النار. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿فاما من أعطى﴾ من الفضل ﴿والتقى﴾ قال: اتقى ربه ﴿وصنق بالحسنى﴾ قال: صنق بالخلف من الله ﴿فستيسره للعسرى﴾ قال: للخير من الله ﴿واما من بخل واستغنى﴾ قال: بخل بماله، واستغنى عن ربه ﴿وكتب بالحسنى﴾ قال: بالخلف من الله ﴿فستيسره للعسرى﴾ قال: للشّر من الله. وأخرج ابن جرير عنه: ﴿وصنق بالحسنى﴾ قال: أيقن بالخلف. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً: ﴿وصنق بالحسنى﴾ يقول: صنق بلا إله إلا الله ﴿واما من بخل واستغنى﴾ يقول: من أغناه الله، فيبخل بالزكاة، وأخرج ابن جرير، وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاً، فلو أنك تعتق رجالاً جلدأ يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك. قال: أي أبت إنما أريد ما عند الله، قال:

يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 48] فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فائدة. وقال في الكشف: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين. فقيل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلي كان النار لم تخلق إلا له، وقيل: الاتقى، وجعل مختصاً بالنجاة كان الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: المراد بالأشقى أبو جهل، أو أمية بن خلف، وبالاتقى: أبو بكر الصديق، ومعنى: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ سيباعد عنها المتقي للكفر اتقاء بالفاء. قال الواحدي: الاتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين انتهى، والأولى حمل الأشقى والاتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين، ويكون المعنى أنه لا يصلحاً صلياً تماماً إلا الكامل في الشقاء، وهو الكافر، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل في التقوى، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة المسلمين النار دخولاً غير لازم، ولا تبعد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعداً غير بالغ مبلغ تبعد الكامل في التقوى عنها. والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله: ﴿لا يصلحها إلا الأشقى﴾ زاعماً أن الأشقى الكافر؛ لأنه الذي كذب وتولى، ولم يقع التكنيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول في قوله: ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلا الكامل في التقوى، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار، فإن أولت الاتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى، فخذ إليك هذه مع تلك، وكما قال الشاعر:

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا علي ولا ليه
وقيل: أراد بالأشقى، والاتقى الشقي، والتقوى، كما قال طرفة بن العبد:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فذلك سبيل لست فيها باوحد
أي: بواحد، ولا يخفك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكنيب، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر، فلا يتم ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين. ثم ذكر سبحانه صفة الاتقى فقال: ﴿الذي يؤتي ماله﴾ أي: يعطيه، ويصرفه في وجه الخير، وقوله: ﴿يتزكى﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يؤتي أي: حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة، ويجوز أن يكون بدلاً من يؤتي داخلاً معه في حكم الصلة. قرأ الجمهور (يتزكى) مضارع تزكى. وقرأ علي بن الحسين بن علي: (تزكى) بإدغام التاء في الزاي ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ الجملة مستأنفة؛ لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافي الخلوص أي: ليس ممن يتصنق بماله ليجازي بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها، وإنما يبتغي بصدقته وجه الله

عنه، وزاد فيه، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ إلى قوله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساکر عنه نحو هذا من وجه آخر. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ قال: هو: أبو بكر الصديق.

تفسير سورة الضحى

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس: نزلت: ﴿والضحى﴾ بمكة. وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن المقرئ قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطين، فلما بلغت: ﴿والضحى﴾ قال: كبر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك. وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك. وأخبره أبي أن رسول الله ﷺ أمره بذلك. وأبو الحسن المقرئ المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ. قال ابن كثير: فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات. وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أخذت عنه، وكذلك أبو جعفر العجلي قال: هو منكر الحديث. قال ابن كثير: ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير، وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر الليل إذا يغشى، وقال آخرون: من آخر الضحى. وكيفية التكبير عند بعضهم: أن يقول الله أكبر ويقتصر، ومنهم من يقول الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر. وذكرنا في مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ، وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه: ﴿والضحى﴾ * والليل إذا سجى﴾ [أي: سورة الضحى] السورة كبر فرحاً وسروراً، ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن جندب الجلي قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلتين، أو ثلاثاً، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله: ﴿والضحى﴾ * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾. وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن جندب قال: أبطأ جبريل عن النبي ﷺ، فقال المشركون: قد ودع محمد، فنزلت: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ [الضحى: 3]. وأخرج الطبراني عن جندب قال: احتبس جبريل عن النبي ﷺ، فقالت بعض بنات عمه: ما أرى صاحبك إلا قد قلاك، فنزلت: والضحى. وأخرجه الترمذي وصححه، وابن أبي حاتم عن جندب، وفيه: فقالت له

فحسنتي بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ * وصنق بالحسنى * فسنيسره ليسرى﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساکر عن ابن عباس في قوله: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ * وصنق بالحسنى﴾ قال: أبو بكر الصديق ﴿وأما من بخل واستغنى﴾ * وكذب بالحسنى﴾ قال: أبو سفيان بن حرب. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن علي بن أبي طالب قال: «كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، فقالوا: يا رسول الله أفلا ننكل؟ قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فييسر لعمل أهل الشقاء ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ * وصنق بالحسنى﴾ إلى قوله: ﴿للعسرى﴾». وأخرج أحمد، ومسلم، وغيرهما عن جابر بن عبد الله: «أن سراقاً بن مالك قال: يا رسول الله في أي شيء نعمل؟ أي شيء ثبتت فيه المقادير، وجرت به الأقاليم، أم في شيء يستقبل فيه العمل؟ قال: بل في شيء ثبتت فيه المقادير، وجرت فيه الأقاليم، قال سراق: ففيم العمل إن يا رسول الله؟ قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ إلى قوله: ﴿فسنيسره للعسرى﴾». وقد تقدم حديث عمران بن حصين في السورة التي قبل هذه. وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: «لتنخلن الجنة إلا من يابى، قالوا: ومن يابى أن يدخل الجنة؟ فقرأ: ﴿الذي كذب وتولى﴾». وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة، إلا من شرد على الله، كما يشرد البعير السوء على أهله، فمن لم يصدقني فلان الله يقول: ﴿لا يصلها إلا الأشقى﴾ * الذي كذب وتولى﴾ كذب بما جاء به محمد ﷺ، وتولى عنه. وأخرج أحمد، والحاكم، والضياء عن أبي أمامة الباهلي أنه سئل عن آيتين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله». وأخرج أحمد، وابن ماجه، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي. قيل: ومن الشقي؟ قال: الذي لا يعمل لله طاعة، ولا يترك لله معصية». وأخرج أحمد، والبخاري عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تنخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى، قالوا: ومن يابى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني نخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق اعتق سبعة كلهم يعذب في الله: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية، وابنتها، وزنيرة، وأم عيسى، وأمة بني المؤمل، وفيه نزلت: ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ إلى آخر السورة. وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير ما قدمنا

قال الزجاج: وما أبغضك، وقال: وما قلّي، ولم يقل، وما قلاك لموافقة رؤوس الأبي، والمعنى: وما أبغضك، ومنه قول امرئ القيس:

ولست بمقلّي الخلال ولا قالي

﴿ولآخره خير لك من الأولى﴾ اللام جواب قسم محذوف أي: الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه ﷺ قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف، ويتضاءل بالنسبة إليه كل مكربة في الدنيا؛ ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية، وكانت الحياة فيها كاحلام نائم، أو كظل زائل لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئاً؛ ولما كانت طريقاً إلى الآخرة، وسبباً لنيل ما أعدّه الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير في الجملة من هذه الحيثية ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ هذه اللام قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره، ولأنّ سوف يعطيك الخ، وليست للقسمة؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، وقيل: هي للقسمة. قال أبو عليّ الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: إن زيداً لقاتم، بل هي التي في قولك لأقومن، ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قال: وليعطينك. قيل المعنى: ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة، فترضى. وقيل: الحوض والشفاقة، وقيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، وقيل: غير ذلك، والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة، ومن أهم ذلك عنده، وأقدمه لديه قبول شفاعته لامته ﴿ألم يجعلك يتيماً فأوى﴾ هذا شروع في تعداد ما أقاضه الله سبحانه عليه من النعم أي: وجك يتيماً لا أب لك، فأوى أي: جعل لك مأوى تأوي إليه، قرأ الجمهور (فأوى) بالفتح بعد الهمزة رباعياً، من آواه يؤويه، وقرأ أبو الأشهب (فأوى) ثلاثياً، وهو إما بمعنى الرباعي، أو هو من أوى له إذا رحمه. وعن مجاهد معنى الآية: ألم يجعلك واحداً في شرفك لا نظير لك، فأواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطنونك، فجعل يتيماً من قولهم درة يتيمة، وهو بعيد جداً، والهمزة لإنكار النفي، وتقرير المنفي على أبلغ وجه، فكأنه قال: قد وجك يتيماً فأوى، والوجود بمعنى العلم، ويطيماً مفعوله الثاني، وقيل: بمعنى المصافاة، ويطيماً حال من مفعوله ﴿ووجك ضالاً فهدى﴾ معطوف على المضارع المنفي، وقيل: هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذي قبله، كما نكرنا أي: قد وجك يتيماً فأوى، ووجك ضالاً فهدى، والضلال هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله: ﴿لا يضلّ ربي ولا ينسى﴾ [طه: 52] وكما في قوله: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: 3] والمعنى: أنه وجك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، واختار هذا الزجاج. وقيل: معنى ضالاً لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهداك لذلك. وقال الكلبي، والسدي، والفراء: وجك في قوم ضلال،

امراً: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت: والضحي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضَّحَى ﴿١﴾ وَالْأَيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْتَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيماً فَاَوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

والمراد بالضحي هنا النهار كله، لقوله: ﴿والليل إذا سجي﴾ فلما قابل الضحي بالليل دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه. وهو في الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس، كما تقدّم في قوله: ﴿والشمس وضحاها﴾ [الشمس: 1] والظاهر أن المراد به الضحي من غير تعيين. وقال قتادة، ومقاتل، وجعفر الصادق: إن المراد به الضحي الذي كلم الله فيه موسى، والمراد بقوله: ﴿والليل إذا سجي﴾ ليلة المعراج، وقيل: المراد بالضحي هو الساعة التي خرّ فيها السحرة سجداً، كما في قوله: ﴿وإن يحشر الناس ضحى﴾ [طه: 59] وقيل: المقسم به مضاف مقدر، كما تقدّم في نظائره أي: وربّ الضحي، وقيل تقديره: وضحاوة الضحي، ولا وجه لهذا، فله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه؛ وقيل: الضحي نور الجنة، والليل ظلمة النار، وقيل: الضحي نور قلوب العارفين، والليل سواد قلوب الكافرين ﴿والليل إذا سجي﴾ أي: سكن، كذا قال قتادة، ومجاهد، وابن زيد، وعكرمة، وغيرهم؛ يقال: ليلة ساجية أي: ساكنة، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية، يقال: سجا الشيء يسجو سجواً: إذا سكن. قال عطاء: سجا إذا غطي بالظلمة. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي: سجا امتدّ ظلامه. وقال الأصمعي: سجو الليل تغطيته النهار، مثل ما يسجي الرجل بالثوب، وقال الحسن: غشي بظلامه. وقال سعيد بن جبير: أقبل. وقال مجاهد: أيضاً استوى، والأول أولى، وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة. ومعنى سكونه: استقرار ظلامه واستواؤه، فلا يزداد بعد ذلك ﴿وما ودّعك ربك﴾ هذا جواب القسم أي: ما قطعك قطع المودع. قرأ الجمهور (ما ودّعك) بتشديد الدال من التوديع، وهو توديع المفاقر، وقرأ ابن عباس، وعروة بن الزبير، وابنه هاشم، وابن أبي عبيدة، وأبو حيوة بتخفيفها، من قولهم ودّعه أي: تركه، ومنه قول الشاعر:

سل أميرى ما الذي غيره عن وصالي اليوم حتى ودّعه والتوديع أبلغ في الودع؛ لأن من ودّع مفارقاً، فقد بالغ في تركه. قال المبرد: لا يكاون يقولون ودع ولا ونر لضعف الواو إذا قدّمت، واستغنوا عنها بترك. قال أبو عبيدة: ودّع من التوديع، كما يودّع المفاقر. وقال الزجاج: لم يقطع الوحي، وقد قدّمنا سبب نزول هذه الآية في فاتحة هذه السورة ﴿وما قلّي﴾ القلي البغض، يقال: قلاه يقلبه قلاء.

سبحانه بالتحثّ بنعم الله عليه، وإظهارها للناس، وإشهارها بينهم. والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها، أو نوع من أنواعها. وقال مجاهد، والكلي: المراد بالنعمة هنا القرآن. قال الكلبي: وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرأه. قال الفراء: وكان يقرؤه ويحدّث به. وقال مجاهد أيضاً: المراد بالنعمة النبوة التي أعطاه الله. واختار هذا الزجاج فقال: أي: بلغ ما أرسلت به، وحدّث بالنبوة التي أتاك الله، وهي أجل النعم. وقال مقاتل: يعني: اشكر ما نكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة، وجبر اليتيم، والإغناء بعد العيلة، فاشكر هذه النعم. والتحدّث بنعمة الله شكر، والجاء والمجرور متعلق بحدّث، والفاء غير مانعة من تعلقه به، وهذه النواهي لرسول الله ﷺ هي نواه له ولائته؛ لأنهم أسوته، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهى بكل فرد من أفراد هذه النواهي.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿والليل إذا سجي﴾ قال: إذا أقبل. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عنه: ﴿إذا سجي﴾ قال: إذا ذهب ﴿وما ودّعك ربك﴾ قال: ما تركك ﴿وما قلبي﴾ قال: ما أبغضك. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض عليّ ما هو مفتوح لأمّتي بعدي، فأنزل الله: ﴿والآخر خير لك من الأولى﴾». وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي، وأبو نعيم عنه أيضاً قال: «عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمّته من بعده، فسرّ بذلك، فأنزل الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾» فاعطاه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ قال: رضاه أن يدخل أمّته كلهم الجنة. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: من رضا محمد أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه أيضاً في الآية قال: لا يرضى محمد، وأحد من أمّته في النار، ويدلّ على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمر: «أن النبي ﷺ تلا قول الله في إبراهيم: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ [إبراهيم: 36] وقول عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ [المائدة: 118] الآية، فرفع يديه، وقال: اللهم أمّتي أمّتي، وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمّتك، ولا تسوؤك». وأخرج ابن المنذر، وابن مريويه، وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين أرايت هذه الشفاعة التي يتحدّث بها أهل العراق أحقّ هي؟ قال: إي والله. حدّثني محمد بن الحنفية عن عليّ أن رسول الله ﷺ قال: «اشفع لأمّتي حتى يتأبيني ربي أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت، ثم أقبل عليّ فقال: إنكم تقولون يا معشر

فهداهم الله لك. وقيل: وجبك طالباً للقبلة، فهداك إليها، كما في قوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ [البقرة: 144] ويكون الضلال بمعنى الطلب. وقيل: وجبك ضائعاً في قومك فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى الضياع. وقيل: وجبك محباً للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قول الشاعر:

عجباً لعة في اختيار ططيعتي بعد الضلال فحبيلها قد خلقتا
وقيل: وجبك ضالاً في شعاب مكة، فهداك أي: ربك إلى جنتك عبد المطلب ﴿ووجبك عائلاً فاغنى﴾ أي: وجبك فقيراً لا مال لك فاغنك، يقال: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر، ومنه قول أحيحة بن الجلاح:

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل
أي: يفتقر، قال الكلبي: فاغنى: أي رضاك بما أعطاك من الرزق، واختار هذا الفراء، قال: لأنه لم يكن غنياً من كثرة، ولكن الله سبحانه رضاه بما أتاه، وذلك حقيقة الغنى. وقال الأخفش: عائلاً ذا عيال، ومنه قول جرير:

الله أنزل في الكتاب فريضة لابن السبيل، وللفقير العائل
وقيل: فاغنى بما فتح لك من الفتوح، وفيه نظر؛ لأن السورة مكية، وقيل: بمال خبيجة بنت خويلد، وقيل: وجبك فقيراً من الحجج والبراهين، فاغنك بها. قرأ الجمهور (عائلاً) وقرأ محمد بن السميع، واليماني (عيلاً) بكسر الياء المشددة كسيد. ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: لا تقهره بوجه من وجوه القهر كأنك ما كان. قال مجاهد: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيماً. قال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، انفع إليه حقه، وانكر يتمك. قال الفراء، والزجاج: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في حقّ اليتامى تأخذ أموالهم، وتظلمهم حقوقهم، وكان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتيم، ويبرّه، ويوصي باليتامى. قرأ الجمهور (فلا تقهر) بالقاف، وقرأ ابن مسعود، والنخعي، والشعبي، والأشهب العقيلي (تكهر) بالكاف. والعرب تعاقب بين القاف والكاف. قال النحاس: إنما يقال كهره: إذا اشتدّ عليه وغلظ. وقيل: القهر الغلبة، والكهر الزجر. قال أبو حيان: هي لغة يعني قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور، واليتيم منصوب بتقهر ﴿وأما للسائل فلا تنهر﴾ يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره، فهو نهى عن زجر السائل والإغلاظ له، ولكن يبذل له اليسير، أو يرده بالجميل. قال الواحدي: قال المفسرون: يريد السائل على الباب، يقول لا تنهره: إذا سألك فقد كنت فقيراً، فلما أن طعمته، وإما أن ترده ردّاً ليناً. قال قتادة: معناه ردّ السائل برحمة ولين. وقيل: المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين، فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين، كذا قال سفيان، والسائل منصوب بتنهر، والتقدير: مهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أمره

تفسير سورة الشرح

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مروي، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿الم نشرح﴾ [أي: سورة الشرح] بمكة، وزاد: بعد الضحى. وأخرج ابن مروي عن عائشة قالت: نزلت سورة الم نشرح بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ
أَلَمْ نَقْرَأَكَ الْإِنشَارَ ۖ وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ
إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝

معنى شرح الصدر: فتحه بإذهاب ما يصد عن الإدراك والاستفهام إذا دخل على النفي قوّره، فصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك، وإنما خص الصدر؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم، والإدراكات، والمراد: الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره، وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة، وحفظ الوحي، وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله: ﴿أقمّن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: 22] ﴿ووضّعنا عنك ويزرك﴾ معطوف على معنى ما تقدّم، لا على لفظه أي: قد شرحنا لك صدرك، ووضّعنا الخ، ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

الستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
أي: أنتم خير من ركب المطايا، وأندى الخ. قرأ الجمهور (نشرح) بسكون الحاء بالجزم، وقرأ أبو جعفر المنصور العباسي بفتحها، قال الزمخشري: قالوا لعله بين الحاء، وأشبعها في مخرجها، فظن السامع أنه فتحها. وقال ابن عطية: إن الأصل الم نشرح بالنون الخفيفة، ثم إبدالها ألفاً، ثم حذفها تخفيفاً، كما أنشد أبو زيد:

من أي يومي من الموت أفر أيوم لم يقنّ أم يوم قدر
بفتح الراء من لم يقدر، ومثله قوله:

أضرب عنك الهموم طارقتها ضربك بالسيف قونس الفرس
بفتح الباء من أضرب، وهذا مبني على جواز تأكيد المجزوم بلم، وهو قليل جداً كقوله:

يحسبه الجاهل ما لم يعلم شيخاً على كرسيه معمماً
فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة: الأول تأكيد المجزوم بلم، وهو ضعيف. الثاني إبدالها ألفاً، وهو خاص بالوقف، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف. والثالث حذف الالف، وهو ضعيف أيضاً؛ لأنه خلاف الأصل، وخرّجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلم، ومنه قول الشاعر:

أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: 53] قلت: إنا لنقول ذلك، قال: فكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهي الشفاعة. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾». وأخرج العسكري في المواعظ، وابن مروي، وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال: «دخل رسول الله 1 على فاطمة، وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من جلد الإبل، فلما نظر إليها قال: يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة، فانزل الله: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مروي، والبيهقي، وأبو نعيم، وابن عساکر عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «سألت ربي مسألة وندت أني لم أكن سألته، قلت: قد كانت قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فقال تعالى: يا محمد ألم أجعلك يتيماً، فأويتك؟ ألم أجعلك ضالاً، فهديتك؟ ألم أجعلك عائلاً، فأغنيتك؟ ألم أشر لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أرفع لك نكر؟ قلت بلى يا رب». وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿والضحى﴾ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: يمين علي ربي وأهل أن يمين ربي». وأخرج ابن مروي عنه في قوله: ﴿ووجحك ضالاً فهدي﴾ قال: وجحك بين الضالين، فاستنقذك من ضالتهم. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بن علي في قوله: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ قال: ما علمت من الخير. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال: إذا أصبت خيراً، فحدث إخوانك. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والبيهقي في الشعب، والخطيب في المتفق، قال السيوطي بسند ضعيف عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة». وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن حبان، والبيهقي، والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره». وأخرج البخاري في الأدب، وأبو داود، والضياء عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطى عطاء فوجد، فليجز به، فإن لم يجد فليئن به. فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أولى معروفاً فليكناف به، فإن لم يستطع فليذكره، فإن من نكره، فقد شكره».

قول حسان:

اغتر عليه للنبي خاتم من الله مشهور يلوح، ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه إذا قال في الخمس المؤمن أشهد
وشق له من اسمه ليحمله فنو العرش محمود، وهذا محمد

﴿فإن مع العسر يسراً﴾ أي: إن مع الضيقة سعة،
ومع الشدة رخاء، ومع الكرب فرج. وفي هذا وعد منه
سبحانه بأن كل عسير يتيسر، وكل شديد يهون، وكل
صعب يلين. ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتأكيذاً،
فقال: مكرراً له بلفظ ﴿إن مع العسر يسراً﴾ أي: إن مع
ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر لما تقرّر من أنه إذا
أعيد المعرّف يكون الثاني عين الأوّل سواء كان المراد به
الجنس أو العهد، بخلاف المنكر إذا أعيد، فإنه يراد بالثاني
فرد مغاير لما أريد بالفرد الأوّل في الغالب، ولهذا قال
النبي ﷺ في معنى هذه الآية: «لن يغلب عسر يسرين» قال
الواحدي: وهذا قول النبي ﷺ والصحاب والمفسرين على
أن العسر واحد، واليسر اثنان. قال الزجاج: نكر العسر مع
الألف واللام ثم ثنى نكره، فصار المعنى: إن مع العسر
يسرين. قيل، والتذكير في اليسر للتفخيم والتعظيم، وهو في
مصحف ابن مسعود غير مكرّر. قرأ الجمهور بسكون السين
في العسر، واليسر في الموضعين. وقرأ يحيى بن وثاب،
وأبو جعفر، وعيسى بضمها في الجميع ﴿فإذا فرغت
فانصب﴾ أي: إذا فرغت من صلاتك، أو من التبليغ، أو من
الغزو، فانصب أي: فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك،
أو فانصب في العبادة، والتصب التعب، يقال: نصب ينصب
نصباً أي: تعب. قال قتادة، والضحاك، ومقاتل، والكلبي: إذا
فرغت من الصلاة المكتوبة، فانصب إلى ربك في الدعاء،
وارغب إليه في المسألة يعطك، وكذا قال مجاهد. قال
الشعبي: إذا فرغت من التشهد، فادعوا لذيالك وأخرتك، وكذا
قال الزهري. وقال الكلبي أيضاً: إذا فرغت من تبليغ الرسالة
فانصب أي: استغفر لذنبك، وللمؤمنين والمؤمنات. وقال
الحسن، وقاتلة: إذا فرغت من جهاد عدوك، فانصب لعبادة
ربك. وقال مجاهد أيضاً: إذا فرغت من دنياك، فانصب في
صلاتك ﴿وإلى ربك فارغب﴾ قال الزجاج: أي: اجعل رغبتك
إلى الله وحده. قال عطاء: يريد أنه يضرع إليه راهباً من
النار، راغباً في الجنة، والمعنى: أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى
غيره كائناً من كان، فلا يطلب حاجاته إلا منه، ولا يعول في
جميع أموره إلا عليه. قرأ الجمهور (فارغب) وقرأ زيد بن
علي، وابن أبي عبيدة (فرغب) بتشديد الغين: أي: فرغب
الناس إلى الله، وشوقهم إلى ما عنده من الخير.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن
ابن عباس في قوله: ﴿الم نشرح لك صدرك﴾ قال: شرح الله
صدره للإسلام. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر،
وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في
الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «أتاني

في كل ما هم أمضى رأيه قدما ولم يشاورني إقدامه أحدا
بنصب الراي من يشاور، وهذه اللغة لبعض العرب ما
أظنها تصح، وإن صحت، فليست من اللغات المعتمدة، فإنها
جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها. وعلى كل حال،
فقراءة هذا الرجل مع شدة جوره، ومزيد ظلمه، وكثرة
جبروته، وقلة علمه ليس بحقيقة بالاشتغال بها. والوزن:
الذنب أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية. قال
الحسن، وقاتلة، والضحاك، ومقاتل: المعنى حططنا عنك
الذي سلف منك في الجاهلية، وهذا كقوله: ﴿ليغفر لك الله ما
تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: 2] ثم وصف هذا الوزر
فقال: ﴿الذي انقض ظهره﴾ قال المفسرون: أي: أثقل
ظهره. قال الزجاج: أثقله حتى سمع له نقيض: أي: صوت،
وهذا مثل معناه: أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره،
وأهل اللغة يقولون: انقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمع له
صري، ومنه قول جميل:

وحتى تداعت بالنقيض حباله وهمت ثواني زوره لن تحطما
وقول العباس بن مرداس:

وانقض ظهري ما تطويت منهم وكنت عليهم مشفقاً متحنناً

قال قتادة: كان للنبي ﷺ ثوب قد أثقلته فغفرها الله له،
وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التي تثقل
الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له:
وكذا قال أبو عبيدة وغيره وقرأ ابن مسعود (وحللنا عنك
وقرك) ثم نكر سبحانه منته عليه وكرامته فقال: ﴿ورفعنا
لك نورك﴾ قال الحسن: وذلك أن الله لا يذكر في موضع إلا
نكر معه ﷺ قال قتادة: رفع الله نكره في الدنيا والآخرة،
فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ينادي،
فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله.
قال مجاهد: ﴿ورفعنا لك نورك﴾ يعني: بالتأني. وقيل
المعنى: نكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله،
وأمرناهم بالبطانة به، وقيل: رفعنا نورك عند الملائكة في
السماء، وعند المؤمنين في الأرض. والظاهر أن هذا الرفع
لنكره الذي امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور، فكل
واحد منها من أسباب رفع الذكر، وكذلك أمره بالصلاة
والسلام عليه، وإخياره ﷺ عن الله عز وجل أن من صلى
عليه، واحدة صلى الله عليه بها عشراً، وأمر الله بطاعته
كقوله: ﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول﴾ [النور: 54] وقوله:
﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾
[الحشر: 7] وقوله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
يحببكم الله﴾ [آل عمران: 31] وغير ذلك. وبالجمله فقد ملا
نكره الجليل السموات والأرضين، وجعل الله له من لسان
الصديق، والذكر الحسن، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد
من عباده ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
العظيم﴾ [الحديد: 21] اللهم صل وسلم عليه وعلى آله عدد
ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان، وما أحسن

قال: أنزلت سورة التين بمكة. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن البراء بن عازب قال: «كان النبي ﷺ في سفر فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين ﴿التين والزيتون﴾ [أي: سورة التين]، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً، ولا قراءة منه». وأخرج الخطيب عنه قال: «صليت مع رسول الله ﷺ المغرب، فقرأ: ﴿التين والزيتون﴾». وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد في مسنده، والطبراني عن عبد الله بن يزيد: «أن النبي ﷺ قرأ في المغرب، ﴿والتين والزيتون﴾». وأخرج ابن قانع، وابن السكن، والشيрази في الألقاب عن زرة بن خليفة قال: «أتيت النبي ﷺ من اليمامة، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، فلما صلينا الغداة قرأ ﴿التين والزيتون﴾، و﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾» [أي: سورة القدر].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَالرَّيْسِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ فَهُمْ أَجْرٌ مِمَّنْ شَرُوا ﴿٧﴾ كَمَا يَكُونُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴿٨﴾

قال أكثر المفسرين: هو التين الذي يأكله الناس ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ الذي يعصرون منه الزيت، وإنما أقسم بالتين؛ لأنه فاكهة مخلصنة من شوائب التنغيص، وفيها أعظم عبرة لدالاتها على من هيأها لذلك، وجعلها على مقدار اللقمة. قال كثير من أهل الطب: إن التين أنفع الفواكه للبدن، وأكثرها غذاء، وذكروا له فوائد، كما في كتب المفردات والمركبات، وأما الزيتون، فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم، ويدخل في كثير من الأدوية. وقال الضحاك: التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى. وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس؛ وقال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال عكرمة، وكعب الأحبار: التين دمشق، والزيتون بيت المقدس.

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العنول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية، والعنول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل. وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية. قال الفراء: سمعت رجلاً يقول: التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. قلت: هب أنك سمعت هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة، ولا هو نقل عن الشارع. وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء، وقيل: إنه على حنف مضاف أي: ومنابت التين والزيتون. قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل،

جبريل فقال: إن ربك يقول: تدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إذا ذكرت ذكرت معي، وإسناد ابن جرير هكذا: حثني يونس أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد. وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج. وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به. وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ الآية قال: لا يذكر الله إلا نكر معه. وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: «كان النبي ﷺ جالساً، وحياه جحر، فقال: «العسر لو دخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه. فأنزل الله: ﴿إِن مَعَ الْعَسْرِ يَسراً﴾ * ﴿إِن مَعَ الْعَسْرِ يَسراً﴾، ولفظ الطبراني: «وتلا رسول الله ﷺ ﴿إِن مَعَ الْعَسْرِ يَسراً﴾ * ﴿إِن مَعَ الْعَسْرِ يَسراً﴾». وأخرج ابن النجار عنه مرفوعاً نحوه. وأخرج الطبراني، وابن مريويه عنه أيضاً مرفوعاً نحوه. قال السيوطي، وسنده ضعيف. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الصبر، وابن المنذر، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعاً: «لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه، فيخرجه، ولن يغلب عسر يسرين إن الله يقول: ﴿إِن مَعَ الْعَسْرِ يَسراً﴾ * ﴿إِن مَعَ الْعَسْرِ يَسراً﴾، قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح. قال فيه أبو حاتم الرازي: في حيثه ضعف، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل عن عبد الله بن مسعود. وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي عن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك، ويقول: «لن يغلب عسر يسرين، ﴿إِن مَعَ الْعَسْرِ يَسراً﴾ * ﴿إِن مَعَ الْعَسْرِ يَسراً﴾». وهذا مرسل. وروي نحوه مرفوعاً مرسلًا عن قتادة. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ الآية قال: إذا فرغت من الصلاة فانصَب في الدعاء، واسأل الله، وأرغب إليه. وأخرج ابن مريويه عنه قال: قال الله لرسوله: إذا فرغت من الصلاة وتشهدت، فانصَب إلى ربك وأسأله حاجتك. وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن ابن مسعود: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ إلى الدعاء ﴿وَالْيَ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ في المسألة. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ قال: إذا فرغت من الفرائض، فانصَب في قيام الليل.

تفسير سورة التين

وهي مكية في قول الجمهور. وروى القرطبي عن ابن عباس أنها منبئية، ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مريويه، والبيهقي عن ابن عباس

ولا مانع من كون الكفار، والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل، وقوله: ﴿أسفل سافلين﴾ إما حال من المفعول أي: رددناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمقدر محذوف: أي: مكاناً أسفل سافلين ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا الاستثناء على القول الأول منقطع: أي لكن الذين آمنوا إلخ، ووجهه أن الهرم والرّد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن، كما يصاب به الكافر، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى. وعلى القول الثاني يكون الاستثناء متصلاً من ضمير رددناه، فإنه في معنى الجمع أي: رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار ﴿إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات﴾ [العصر: 3] ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي: غير مقطوع أي: فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم؛ فهذه الجملة على القول الأول مبنية لكيفية حال المؤمنين، وعلى القول الثاني مقررة لما يفيد الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرّد، وقال: أسفل سافلين على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، ولو قال: أسفل سافل لجاز؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد. وقيل: معنى رددناه أسفل سافلين: رددناه إلى الضلال، كما قال: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [العصر: 2، 3] أي: إلا هؤلاء، فلا يردّون إلى ذلك: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ الخطاب للإنسان الكافر، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، والزّام الحجة أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردّك أسفل سافلين، فما يملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؟ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ أي: أي شيء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة، فاستيقن مع ما جاءه من الله أنه أحكم الحاكمين. قال الفراء، والأخفش: المعنى فمن يكذب أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، كأنه قال: من يقدر على ذلك؟ أي: على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر، واختار هذا ابن جرير. والدين الجزء، ومنه قول الشاعر:

نُنا تميماً كما كانت أوائلنا دانت أوائلهم من سالف الزمن
وقال الآخر:

ولما صرّح الشرّ فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدو نلّاهم كما دانوا

﴿ليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي: ليس الذي فعل ما فعل مما نكرنا بأحكم الحاكمين صنعاً وتديباً؟ حتى تترحم عدم الإعادة والجزاء، وفيه وعيد شديد للكفار، ومعنى: أحكم الحاكمين: اتقن الحاكمين في كل ما يخلق، وقيل: أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً. والاستفهام إذا دخل على النفي صار الكلام إيجاباً، كما تقدّم تفسير قوله: ﴿الم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: 1].

وقد أخرج الخطيب، وابن عساكر قال السيوطي بسند فيه مجهول عن الزهري عن أنس قال: لما أنزلت سورة التين

ولا من قول من لا يجوزّ خلافه ﴿وطور سينين﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى اسمه الطور، ومعنى سينين: المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة. وقال مجاهد: هو المبارك بالسريانية. وقال مجاهد، والكلبي: سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، وسيناء بلغة النبط. قال الأخفش: طور جبل، وسينين شجر، وأحدثه سينة. قال أبو علي الفارسي: سينين، فعليل، فكرّرت اللام التي هي نون فيه، ولم ينصرف سينين، كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل اسماً للبقعة، وإنما أقسم بهذا الجبل؛ لأنه بالشام، وهي الأرض المقدسة، كما في قوله: ﴿إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ [الإسراء: 1] وأعظم بركة حلت به، ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه. قرأ الجمهور (سينين) بكسر السين، وقرأ ابن إسحاق، وعمرو بن ميمون، وأبو رجاء بفتحة، وهي لغة بكر وتميم. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، والحسن، وطلحة (سيناء) بالكسر والمد ﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني: مكة، سماه آميناً؛ لأنه آمن، كما قال: ﴿إنا جعلنا حرمًا آمناً﴾ [العنكبوت: 67] يقال آمن الرجل أمانة فهو أمين. قال الفراء وغيره: الأمين بمعنى الآمن، ويجوز أن يكون، فعلاً بمعنى مفعول من أمته؛ لأنه مأمون الغوائل ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا جواب القسم أي: خلقنا جنس الإنسان كائناً في أحسن تقويم وتعديل. قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان، خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده، ومعنى التقويم: التعديل، يقال: قوّمته، فاستقام. قال القرطبي: هو اعتداله واستواء شأنه، كذا قال عامة المفسرين. قال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلاً سمياً بصيراً مديراً حكماً، وهذه صفات الرب سبحانه، وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ ﴿إن الله خلق آدم على صورته﴾ يعني: على صفاته التي تقدم نكرها. قلت: وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: 11] وقوله: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [طه: 110] ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق، وعجيب الصنع، فلينظر في كتاب [العبر والاعتبار] للجاحظ، وفي الكتاب الذي عقده النيسابوري على قوله: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: 21] وهو في مجلدين ضخمين ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي: رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم، والضعف بعد الشباب، والقوة حتى يصير كالصبي، فيخرف وينقص عقله، كذا قال جماعة من المفسرين. قال الواحدي: والسافلون هم: الضعفاء، والزمناء، والأطفال، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً. وقال مجاهد، وأبو العالية، والحسن: المعنى ثم رددنا الكافر إلى النار، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ [النساء: 145]

والزيتون ﴿فقرأ: ﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين» وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً «إذا قرأت ﴿التين والزيتون﴾ فقرأت: ﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾ فقل بلى». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: ﴿اليس الله باحكم الحاكمين﴾ قال: سبحانك اللهم فبلى اهـ

تفسير سورة العلق

وهي مكية بلا خلاف، وهي أول ما نزل من القرآن. وأخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: أول ما نزل من القرآن ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [أي: سورة العلق]. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن الأنباري، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية عن أبي موسى الأشعري قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ أول سورة أنزلت على محمد. وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي وصححه عن عائشة قالت: إن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل الحديث الطويل الثابت في البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث عائشة، وفيه: «فجاءه الحق وهو في غار حراء، فقال له اقرأ» الحديث، وفي الباب أحاديث، وأثار عن جماعة من الصحابة. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴿٦﴾ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ تَقُولَ ﴿٧﴾ إِنْ كُنَّا إِلَّا لِلنَّاسِ نَكْبَرُ ﴿٨﴾ إِنْ كُنَّا إِلَّا لِلنَّاسِ نَكْبَرُ ﴿٩﴾ إِنْ كُنَّا إِلَّا لِلنَّاسِ نَكْبَرُ ﴿١٠﴾ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١١﴾ أَزَى يَمْرُؤَ أَنْ اللَّهُ رَبُّهُ فَلَا يَمْنَعُهُ آيَاتُنَا ﴿١٢﴾ فَلْيَعْنِ نَادِيَهُ ﴿١٣﴾ سَتَجِدُنَا أَزَايَاةً ﴿١٤﴾ فَلَا تَنْفَعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٥﴾

قرأ الجمهور (اقرأ) بسكون الهمزة أمراً من القراءة. وقرأ عاصم في رواية عنه بفتح الراء، وكأنه قلب الهمزة ألفاً ثم حذفها للأمر، والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً، فالتقدير: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أمرت بقراءته، وقوله: ﴿باسم ربك﴾ متعلق بمحذوف هو حال أي: اقرأ ملتبساً باسم ربك، أو مبتدئاً باسم ربك، أو مفتتحاً، ويجوز أن تكون الباء زائدة، والتقدير: اقرأ اسم ربك كقول الشاعر:

سود المحاجر لا يقرآن بالصور

قاله أبو عبيدة. وقال أيضاً: الاسم صلة أي: اذكر ربك. وقيل الباء بمعنى على، أي: اقرأ على اسم ربك، يقال افعل

والزيتون على رسول الله ﷺ فرحاً شديداً حتى تبين لنا شدة فرحه، فسالنا ابن عباس عن تفسيرها فقال: التين بلاد الشام، والزيتون بلاد فلسطين، وطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى وهذا البلد الأمين مكة: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ محمداً ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ عبدة اللات والعزى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي: ﴿فما يكتفك بعد بالين﴾ ليس الله باحكم الحاكمين ﴿إذ بعثك فيهم نبياً، وجمعك على التقوى يا محمد، ومثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدم من كون في إسناده ذلك المجهول.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿والتين والزيتون﴾ قال: مسجد نوح الذي بني على الجودي، والزيتون قال: بيت المقدس: ﴿وطور سينين﴾ قال: مسجد الطور ﴿وهذا البلد الأمين﴾ قال: مكة ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ثم رددناه أسفل سافلين يقول: يرد إلى أرذل العمر كبر حتى ذهب عقله، هم نفر كانوا على عهد رسول الله ﷺ، فسل رسول الله ﷺ حين سفهت عقولهم، فانزل الله عنهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم: ﴿فما يكتفك بعد بالين﴾ يقول: بحكم الله. وأخرج ابن مردويه عنه نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً ﴿والتين والزيتون﴾ قال: الفاكهة التي ياكلها الناس ﴿وطور سينين﴾ قال: الطور الجبل، والسينين المبارك. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: سينين هو الحسن. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ قال: في أعدل خلق: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ يقول: إلى أرذل العمر: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ يعني غير منقوص، يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ولم يضره ما عمل في كبره، ولم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر. وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً. وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ يقول: إلى الكبر وضعفه، فإذا كبر وضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبابه. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إذا مرض العبد، أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً». وأخرج الترمذي، وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً «من قرأ ﴿التين

والرؤية هنا بمعنى العلم، ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد لأن ذلك من خواص باب علم، ونحوه. قال الفراء: لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتني، ومتى ترك خارجاً، ومتى تظنك خارجاً، قيل: والمراد هنا أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال. قرأ الجمهور (أن رآه) بمد الهمزة. وقرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها. قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالا زاد في ثيابه، ومركبه، وطعامه، وشرابه، فنلك طفيلانه، وكذا قال الكلبي. ثم هدد سبحانه وخوف، فقال: **﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعِي﴾** أي: المرجع، والرجعي والمرجع والرجوع مصادر، يقال: رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعي، وتقم الجار والمجرور للقصر أي: الرجعي إليه سبحانه لا إلى غيره **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾** قال المفسرون: الذي ينهي أبو جهل، والمراد بالعبد محمد ﷺ، وفيه تقبيح لصنعه، وتشنيع لفعله حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية **﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهَدَىٰ﴾** يعني العبد المنهي إذا صلى، وهو محمد ﷺ **﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾** أي: بالإخلاص والتوحيد، والعمل الصالح الذي تتقي به النار **﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾** يعني أبا جهل، كذب بما جاء به رسول الله ﷺ، وتولى عن الإيمان، وقوله: **﴿أَرَأَيْتَ﴾** في الثلاثة المواضع بمعنى أخبرني لأن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرثي أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها، والخطاب لكل من يصلح له. وقد نكر هنا أرايت ثلاث مرات، وصرح بعد الثالث منها بجملة استفهامية، فتكون في موضع المفعول الثاني لها، ومفعولها الأول محذوف، وهو ضمير يعود على الذي ينهي الواقع مفعولاً أولاً لأرايت الأولى، ومفعول أرايت الأولى الثاني محذوف، وهو جملة استفهامية كالجمله الواقعة بعد أرايت الثانية، وأما أرايت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول، ولا ثاني، حذف الأول لدلالة مفعول أرايت الثالثة عليه فقد حذف الثاني من الأولى، والأول من الثالثة، والاثنان من الثانية، وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع؛ لأنه يستدعي إضماراً، والجمل لا تضر، إنما تضر المفردات، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة، وأما جواب الشرط المذكور مع أرايت في الموضعين الآخرين. فهو محذوف تقديره: إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى: **﴿لَمْ يَعْلَمْ بِإِنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾** وإنما حذف لدلالة نكره في جواب الشرط الثاني، ومعنى: **﴿لَمْ يَعْلَمْ بِإِنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾** أي: يطلع على أحواله، فيجازه به، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ. وقيل: أرايت الأولى مفعولها الأول الموصول، ومفعولها الثاني الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المندلول عليه بالمذكور، وأرايت في الموضعين تكرير للتأكيد، وقيل كل واحدة من أرايت بدل من

كذا بسم الله، وعلى اسم الله قاله الأخفش. وقيل: الباء للاستعانة أي: مستعيناً باسم ربك، ووصف الرب بقوله: **﴿الَّذِي خَلَقَ﴾** لتذكير النعمة لأن الخلق هو أعظم النعم، وعليه يترتب سائر النعم. قال الكلبي: يعني الخلاق **﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾** يعني بني آدم، والعلق الدم الجامد، وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: من علق بجمع علق؛ لأن المراد بالإنسان الجنس، والمعنى: خلق جنس الإنسان من جنس العلق، وإذا كان المراد بقوله: **﴿الَّذِي خَلَقَ﴾** كل المخلوقات، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفاً له لما فيه من بديع الخلق، وعجيب الصنع، وإذا كان المراد بالذي خلق الذي خلق الإنسان فيكون الثاني تفسيراً للاول. والنكتة ما في الإيهام، ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولاً، ثم فسر ثانياً. ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقوير، فقال: **﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾** أي: افعل ما أمرت به من القراءة، وجملة: **﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾** مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله: «ما أنا بقارئ» يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وهو أمي، فقيل له: اقرأ، وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم. قال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم، وقيل: إنه أمره بالقراءة أولاً لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، والأول أولى **﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾** أي: علم الإنسان الخط بالقلم، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب. قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم. قال قتادة: القلم نعمة من الله عز وجل عظيمة، لولا ذلك لم يقيم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما نوت العلوم، ولا قيت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين، ولا أمور الدنيا، وسمي قلماً لأنه يقلم أي: يقطع **﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** هذه الجملة بدل اشتمال من التي قبلها أي: علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها، قيل: المراد بالإنسان هنا آدم كما في قوله: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾** [البقرة: 31] وقيل: الإنسان هنا رسول الله ﷺ. والأولى حمل الإنسان على العموم، والمعنى: أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم، وقوله: **﴿كَلَّا﴾** ردع وزجر. لمن كفر نعم الله عليه بسبب طفيلانه وإن لم يتقدم له ذكر، ومعنى **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ﴾** أنه يجاوز الحد، ويستكبر على ربه. وقيل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، وهو المراد بهذا، وما بعده إلى آخر السورة، وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة في أول هذه السورة. وقيل: **﴿كَلَّا﴾** هنا بمعنى حقاً قاله الجرجاني، وعلل ذلك بأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون كلا رداً له، وقوله: **﴿إِنْ رَأَىٰ اسْتَغْنَىٰ﴾** علة ليطغى: أي ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً،

كَرَّرَ الردع والزجر فقال: ﴿كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ﴾ أي: لا تطعمه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة: ﴿وَأَسْجُدْ﴾ أي: صلِّ لله غير مكترث به، ولا مبال بنهيهِ: ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ أي: تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة. وقيل المعنى: إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء. وقال زيد بن أسلم: واسجد أنت يا محمد، واقترب أنت يا أبا جهل من النار، والأول أولى. والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة، وقيل سجود التلاوة، ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من السجود عند تلاوة هذه الآية، كما سيأتي إن شاء الله.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال: أتاني جبريل محمداً ﷺ فقال: يا محمد اقرأ. فقال: وما أقرأ؟ فضمه ثم قال: يا محمد اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وفي الصحيحين: وغيرهما من حديث عائشة «فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقال: قلت ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾» الآية. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً» وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عنه قال: «كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني، فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾» فجاء النبي ﷺ يصلي، فقيل: ما يمنعك؟ فقال: قد أسود ما بيني وبينه». قال ابن عباس: والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه. وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: واللوات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأن على رقبته، قال: فما فجئته منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده، فقيل له مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» قال: وأنزل الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاجٍ * اسْتَفْتَنِيَ﴾ إلى آخر السورة: يعني أبا جهل ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ يعني قومه ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ يعني الملائكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾

الأولى، و: ﴿لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ الخير. قوله ﴿كَلَّا﴾ ردع للنهي، واللام في قوله: ﴿لَنْ لَمْ يَنْتَه﴾ هي الموطئة للقسم أي: والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ السفع الجنب الشديد، والمعنى: لناخذن بناصيته، ولنجرته إلى النار وهذا كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41] ويقال سفعت الشيء: إذا قبضته وجنبتة، ويقال: سفع بناصية فرسه. قال الراغب: السفع الأخذ بسفحة الفرس أي: بسواد ناصيته، وباعتبار السواد قيل: به سفعة غضب اعتباراً بما يعلو من اللون البخاني وجه من اشتد به الغضب، وقيل للسكر أسفع لما فيه من لمع السواد، وامرأة سفعاء اللون انتهى، وقيل: هو مأخوذ من سفع النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى سواد. ومنه قول الشاعر:

أثافي سفعا في معرس مرجل

وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية، وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله: ﴿كَانِبَةٌ خَاطِئَةٌ﴾ وهذا على مذهب الكوفيين فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط وصفها. وأما على مذهب البصريين، فيجوز إبدال النكرة من المعرفة، وأنشدوا:

فلا وأبيك خير منك إنني ليؤنيني التحمحم والصهيل
قرأ الجمهور بجر (ناصية كائبة خاطئة) والوجه ما ذكرنا. وقرأ الكسائي في رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ أي: هي ناصية، وقرأ أبو حيرة، وابن أبي عبيدة، وزيد بن علي بنصيحها على الذم. قال مقاتل: أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ، فقال: ناصية كائبة خاطئة، تأويلها: صاحبها كائب خاطئ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: أهل ناديه، والنادي: المجلس الذي يجلس فيه القوم، ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة؛ والمعنى: ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه، ومنه قول الشاعر:

واستب بعك يا كليب المجلس

أي: أهله. قيل: إن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: اتهدني وأنا أكثر الوادي نادياً؟ فنزلت: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ * سندع الزبانية. أي: الملائكة الغلاظ الشداد، كذا قال الزجاج. قال الكسائي، والأخفش وعيسى بن عمر: واحدهم زابن، وقال أبو عبيدة: زبينة، وقيل زباني، وقيل: هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعبايد وأبايل. وقال قتادة: هم الشرط في كلام العرب، وأصل الزبن الدفع، ومنه قول الشاعر:

ومستعجب مما يرى من أتنانا ولو زبنته الحرب لم يترمرم
والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه، ومنه قول الشاعر:

مطاعم في القصوى مطاعين في الوغى زبانية غلب عظام حلومها

قرأ الجمهور (سندع) بالنون، ولم ترسم الواو، كما في قوله: ﴿يوم يدع الداع﴾ [القمر: 6] وقرأ ابن أبي عبيدة (سيدعى) على البناء للمفعول، ورفع الزبانية على التثنية. ثم

شهر قال كثير من المفسرين أي: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، واختار هذا الفراء، والزجاج، ولك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع، فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة. وقيل: أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تنكر الألف في كثير من الأشياء على طريق المبالغة. وقيل: وجه نكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فجعل الله سبحانه لامة محمد عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها. وقيل: إن النبي ﷺ رأى أعمار أمته قصيرة، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم، وقيل: غير ذلك مما لا طائل تحته، وجملة: **﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** مستأنفة مبينة لوجه فضلها موضحة للعلة التي صارت بها خيراً من ألف شهر، وقوله: **﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** يتعلق بتنزل، أو بمحذوف، هو حال، أي: ملتبسين بإذن ربهم، والإذن الأمر، ومعنى تنزل: تهبط من السموات إلى الأرض. والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين: أي: تنزل الملائكة ومعهم جبريل، ووجه نكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه. وقيل الروح صنف من الملائكة هم أشرافهم، وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة، وقيل: الروح الرحمة، وقد تقدم الخلاف في الروح عند قوله: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾** [النبا: 38] قرأ الجمهور (تنزل) بفتح التاء، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن السميع بضمها على البناء للمفعول، وقوله: **﴿مَنْ كُلُّ أَمْرٍ﴾** أي: من أجل كل أمر من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة، وقيل: إن من بمعنى اللام أي: لكل أمر، وقيل: هي بمعنى الباء أي: بكل أمر، قرأ الجمهور (أمر) وهو واحد الأمور، وقرأ علي، وابن عباس، وعكرمة، والكلبي (امرئ) مذكر امرأة أي: من أجل كل إنسان، وتاولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة، فيسلمون على كل إنسان، فمن على هذا بمعنى على، والأول أولى. وقد تم الكلام عند قوله من كل أمر، ثم ابتداء فقال: **﴿سَلَامٌ هِيَ﴾** أي: ما هي إلا سلامة وخير كلها لا شر فيها، وقيل هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن أو مؤمنة. قال مجاهد: هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى. وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمزون على كل مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن، وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض. قال عطاء: يريد سلام على أولياء الله، وأهل طاعته: **﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾** أي: حتى وقت طلوعه. قرأ الجمهور (مطلع) بفتح اللام. وقرأ الكسائي، وابن محيصن بكسرها، فقيل: هما

عبد إذا صلى قال: أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله ﷺ بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عز وجل. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: **﴿لِنُسْفَعَنَّ﴾** قال: لناخذن. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً **﴿فَلْيَدْعُ نَابِيَهُ﴾** قال: ناصره، وقد قدمنا أن النبي ﷺ كان يسجد في: **﴿إِذَا الْمَسَاءُ انشَقَّتْ﴾** [الإنشقاق: 1] وفي: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾**.

تفسير سورة القدر

وهي مكية عند أكثر المفسرين. كذا قال الماوردي. وقال الثعلبي: هي: منبئية في قول أكثر المفسرين، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة أنها نزلت بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمٍّ ۝ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝

الضمير في أنزلناه للقرآن، وإن لم يتقدم له نكر، أنزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، وكان ينزل على النبي ﷺ نجوماً على حسب الحاجة، وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله ﷺ ثلاث وعشرون سنة، وفي آية أخرى **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ﴾** [الضحى: 3] وهي: ليلة القدر؛ وفي آية أخرى **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾** [البقرة: 185] وليلة القدر في شهر رمضان. قال مجاهد: في ليلة للقدر ليلة الحكم: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾** ليلة الحكم، قيل سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقرر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة. وقيل: إنها سميت بذلك لعظيم قدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر أي: شرف ومنزلة، كذا قال الزهري. وقيل: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً، وثواباً جزيلاً. وقال الخليل: سميت ليلة القدر؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، كقوله: **﴿وَمَنْ قَدَرُ عَلَيْهِ رَزَقُهُ﴾** [الطلاق: 7] أي ضيق.

وقد اختلف في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً، قد ذكرناها بإبالتها، وبيننا الراجح منها في شرحنا للمتنقئ: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾** هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدرك بها إلا الله سبحانه. قال سفيان: كل ما في القرآن من قوله: وما أدراك، فقد أدراه، وكل ما فيه وما يدريك، فلم يدركه، وكذا قال الفراء. والمعنى: أي شيء تجعله دارياً بها؟ وقد قدمنا الكلام في إعراب هذه الجملة في قوله **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾** [الحاقة: 3] ثم قال: **﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ**

تفسير سورة البينة

وهي مدنية في قول الجمهور، وقيل: مكية. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿لم يكن﴾ [أي: سورة البينة] بالمدينة. وأخرج ابن مريويه عن عائشة قالت: نزلت سورة لم يكن بمكة. وأخرج أبو نعيم في المعرفة عن إسماعيل بن أبي حكيم المزني، حدثني فضل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يستمع قراءة ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ فيقول: أبشر عبي، وعزتي، وجلالي لامكنن لك في الجنة حتى ترضى» قال ابن كثير: حديث غريب جداً. وأخرجه أبو موسى المديني عن مطر المزني، أو المديني بنحوه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ قال: وسماي لك؟ قال: نعم، فبكي. وأخرج أحمد، وابن قانع في معجم الصحابة، والطبراني، وابن مريويه عن أبي حية البديري قال: «لما نزلت ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرأها أبياً، فقال النبي ﷺ لأبي: إن جبريل أمرني أن أقرأك هذه السورة»، فقال أبي: وقد تكررت ثم يا رسول الله؟ قال: نعم، فبكي».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَرْ يَكْفُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالشُّرَكِيِّينَ مُتَوَكِّلِينَ عَلَى تَأْيِيدِهِمُ
الْبَيِّنَةُ ١ رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ٢ فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ ٣
وَمَا تَفَرَّقُوا الَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ٤ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا أَنْ يَمْدُدُوا إِلَهُهُمُ لَهُ الْإِلَهِ حُفَّتْ وَرُيُوشُوا الْعُلُوفُ وَرَوُّوا الزُّكُوفَ وَذَلِكَ
دِينُ الْقِسْمَةِ ٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالشُّرَكِيِّينَ فِي تَارِ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْوَرِثَةِ ٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْوَرِثَةِ ٧ جَزَاءَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ مَعْدِنُ يَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضُوا عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ لِمَنْ حَقَّ
رَبُّهُ ٨

المراء بـ «الذين كفروا من أهل الكتاب» اليهود، والنصارى، «و» المراد بـ «المشركين» مشركو العرب، وهم عبدة الأوثان، و «منفكين» خبر كان، يقال فككت الشيء فانفك: أي انفصل، والمعنى: أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم، ولا منتهين عنه «حتى تأتيهم البينة» وقيل: الانفكك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية أي: لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم، فيموتوا حتى تأتيهم البينة، وقيل: منفكين زائلين أي: لم تكن منهم؛ لتزول حتى تأتيهم البينة، يقال ما انفك فلان قائماً أي: ما زال قائماً، وأصل الفك الفتح، ومنه فك الخلال، وقيل: منفكين بارجحين أي: لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة. وقال ابن كيسان: المعنى

لغتان في المصدر، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل، وقيل: بالفتح اسم مكان، وبالكسر المصدر، وقيل: العكس، وحتى متعلقة يتنزل على أنها غاية لحكم التنزل أي: لمكتهم في محل تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر، وقيل متعلقة بسلام بناءً على أن الفصل بين المصدر، ومعموله بالمتبداً مغتفر.

وقد أخرج ابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: أنزل القرآن في ليلة القدر حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد وأعمالهم. وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال: العمل في ليلة القدر، والصدقة، والصلاة، والزكاة أفضل من ألف شهر. وأخرج الترمذي وضعفه، وابن جرير، والطبراني، والحاكم، وابن مريويه، والبيهقي في الدلائل عن الحسن بن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره، فسأه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّا عَاطَيْنَاكَ الْكُوثَرُ﴾ [الكثرة: 1] يا محمد يعني نهراً في الجنة، ونزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * يملكها بعنك بنو أمية. قال القاسم: فعدنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً، ولا تنقص يوماً، والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور في إسناده. قال الترمذي: إن يوسف هذا مجهول، يعني يوسف بن سعد الذي رواه عن الحسن بن علي. قال ابن كثير: فيه نظر، فإنه قد روى عنه جماعة: منهم حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد. وقال فيه يحيى بن معين هو مشهور. وفي رواية عن ابن معين قال: هو ثقة، ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن. قال ابن كثير، ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً. قال المزي: هو حديث منكر، وقول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بني أمية فوجدتها ألف شهر لا تزيد، ولا تنقص ليس بصحيح، فإن جملة منتهم من عند أن استقل بالملك معاوية، وهي سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس، وهي سنة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة. وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس نحو ما روي عن الحسن بن علي. وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعاً مرسلاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن مريويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَلَامٌ﴾ قال: في تلك الليلة تصفد مردة الشياطين، وتغل عفاريت الجن، وتفتح فيها أبواب السماء كلها، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب، فلذا قال: ﴿سَلَامٌ﴾ هي حتى مطلع الفجر. قال: وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر، والأحاديث في فضل ليلة القدر كثيرة، وليس هذا موضع بسطها، وكذلك الأحاديث في تعيينها، والاختلاف في ذلك.

والتقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله، وقوله: ﴿يَتْلُو صَحْفاً مَطْهُرَةً﴾ يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول، أو حالاً من متعلق الجار والمجرور قبله. ومعنى يتلو: يقرأ، يقال تلا يتلو تلاوة، والصحف جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ومعنى مطهرة: أنها منزهة من الزور والضلال. قال قتادة: مطهرة من الباطل، وقيل: مطهرة من الكذب، والشبهات، والكفر، والمعنى واحد؛ والمعنى: إنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها؛ لأنه كان ﷺ يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب كما تقدم، وقوله: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ صفة لصحفاً، أو حال من ضميرها، والمراد الآيات، والأحكام المكتوبة فيها، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة، من قول العرب: قام الشيء: إذا استوى وصح. وقال صاحب النظم: الكتب بمعنى الحكم كقوله: ﴿كُتِبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21] أي: حكم، وقوله ﷺ في قصة العسيف: «لأقضي بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالرجم، وليس الرجم في كتاب الله، فالمعنى: لأقضي بينكما بحكم الله، وبهذا يندفع ما قيل: إن الصحف هي الكتب، فكيف قال ﴿صَحْفاً مَطْهُرَةً﴾ فيها كتب قيمة؟ وقال الحسن: يعني: بالصحف المطهرة التي في السماء، يعني في اللوح المحفوظ، كما في قوله: ﴿يَلِ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ في لوح محفوظ. [البروج: 21، 22] ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم، وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وظهور الصواب. قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمداً، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فأمن به بعضهم، وكفر آخرون. وخص أهل الكتاب، وإن كان غيرهم مثلهم في التفرق بعد مجيء البينة؛ لأنهم كانوا أهل علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أنخل في هذا الوصف، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ مفرغ من أعم الأوقات: أي: وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، وهي: بعثة رسول الله ﷺ بالشريعة الغراء، والمحجة البيضاء، وقيل البينة: البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل كقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [آل عمران: 19] قال القرطبي: قال العلماء: من أول السورة إلى قوله: ﴿كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركون، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركون بعد قيام الحجج، وجملة: ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا ليعبدوا الله﴾ في محل نصب على الحال مفيدة؛ لتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة أي: والحال أنهم ما أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله، ويوحده حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه، أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين، وقيل: إن اللام في ليعبدوا بمعنى أن، أي: ما أمروا إلا

لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ حتى بعث، فلما بعث حسدوه وجحدوه، وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: 89] وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أنهم ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ حتى بعث، فإنهم كانوا يسمونه الأمين، فلما بعث عابوه وأساءوا القول فيه. وقيل: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ هالكين، من قولهم: انفك صلبه: أي: انفصل، فلم يلتئم فيهلك، والمعنى: لم يكونوا معذبين، ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم. وقيل: إن المشركين هم أهل الكتاب، فيكون وصفاً لهم؛ لأنهم قالوا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله. قال الواحدي: ومعنى الآية: إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم، وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان، وهذا بيان عن النعمة، والانتقاد به من الجهل والضلالة، والآية فيمن آمن من الفريقين. قال: وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظاماً وتفسيراً، وقد تخطب فيها الكبار من العلماء، وسلكوا في تفسيرها طرقاً لا تفضي بهم إلى الصواب. والوجه ما أخبرتك، فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير ليس ولا إشكال. قال: ويدل على أن البينة محمد ﷺ أنه فسرها وأبدل منها فقال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صَحْفاً مَطْهُرَةً﴾ يعني: ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن، ويدل على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب انتهى كلامه. وقيل: إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود به، فلما بعث تفرقوا، كما حكاها الله عنهم في هذه السورة. والبينة على ما قاله الجمهور هو: محمد ﷺ؛ لأنه في نفسه بينة وحجة، ولذلك سماه سراجاً منيراً، وقد فسر الله سبحانه هذه البينة الم جملة بقوله: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فاتضح الأمر، وتبين أنه المراد بالبينة. وقال قتادة، وابن زيد: البينة هي القرآن كقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الْكِتَابِ الْأُولَى﴾ [طه: 133] وقال أبو مسلم: المراد بالبينة مطلق الرسل، والمعنى: حتى تأتيهم رسل من الله، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفاً مطهرة، والأول أولى قرأ الجمهور (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون) وقرأ ابن مسعود (لم يكن المشركون وأهل الكتاب) قال ابن العربي: وهي قراءة في معرض البيان، لا في معرض التلاوة. وقرأ الأعمش، والنخعي: والمشركون بالرفع عطفاً على الموصول. وقرأ أبي (فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون) قرأ الجمهور (رسول من الله) برفع رسول على أنه بدل كل من كل مبالغة، أو بدل اشتمال. قال الزجاج: رسول رفع على البدل من البينة. وقال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة أي: هي رسول، أو هو رسول. وقرأ أبي، وابن مسعود (رسولاً) بالنصب على القطع، وقوله: ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول أي: كائن من الله، ويجوز تعلقه بنفس رسول، وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً من صحف،

ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان، والعمل الصالح ﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار﴾ والمراد بجنات عدن هي أوسط الجنات وأفضلها، يقال عدن بالمكان يعنى عدناً أي: أقام، ومعنى الشيء: مركزه ومستقره، ومنه قول الأعشى:

وإن يتضافوا إلى علمه يضافوا إلى راجح قد عدن
وقد قمتنا في غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار المختلفة، فجرى الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر، فجرى الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر ﴿خالسين فيها أبداً﴾ لا يخرجون منها، ولا يظعنون عنها، بل هم دائمون في نعيمها مستمرّون في لذاتها ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء، وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره، وقبلوا شرائعه، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً، وأن تكون في محل نصب على الحال بإضمار قد ﴿ذلك لمن خشى ربه﴾ أي: ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه خشية الله سبحانه في الدنيا، وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجرد الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه، فإنها ليست بخشية على الحقيقة.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿منفكين﴾ قال: برحين. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: اتعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، وأقروا إن شئتم: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: «قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله؟ قال: يا عائشة أما تقرين: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾». وأخرج ابن عساکر عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ، فأقبل عليّ، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ فكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل قالوا: قد جاء خير البرية. وأخرج ابن عدي، وابن عساکر عن أبي سعيد مرفوعاً: «علي خير البرية». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ قال رسول الله ﷺ: لعليّ هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين». وأخرج ابن مردويه عن عليّ مرفوعاً نحوه، وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هية استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى،

بأن يعبدوا كقوله: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ [النساء: 26] أي: أن يبين، و ﴿يريدون ليطفئوا نور الله﴾ [الصف: 8] أي: أن يطفئوا قرأ الجمهور (مخلصين) بكسر اللام. وقرأ الحسن بفتحها. وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات؛ لأن الإخلاص من عمل القلب، وانتصاب ﴿حنفاء﴾ على الحال من ضمير مخلصين، فتكون من باب التداخل، ويجوز أن تكون من فاعل يعبدوا، والمعنى: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. قال أهل اللغة: أصله أن يحنف إلى دين الإسلام أي: يميل إليه ﴿ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة﴾ أي: يفعلوا الصلوات في أوقاتها، ويعطوا الزكاة عند محلها، وخص الصلاة والزكاة؛ لأنهما من أعظم أركان الدين. قيل: إن أريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة، فالأمر ظاهر، وإن أريد ما في شريعتنا، فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا، وهما: من جملة ما وقع الأمر به فيها ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي: وذلك المنكور من عبادة الله، وإخلاصها، وإقامة الصلاة، والزكاة ﴿دين القيمة﴾ أي: دين الملة المستقيمة. قال الزجاج أي: ذلك دين الملة المستقيمة، فالقيمة صفة لموصوف محذوف. قال الخليل: القيمة جمع القيم، والقيم القائم. قال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة، وهو نعت لاختلاف اللغظين. وقال أيضاً: هو من إضافة الشيء إلى نفسه، وبخلت الهاء للمدح والمبالغة، ثم بين سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا فقال: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم﴾ الموصول اسم إن، والمشركين معطوف عليه، وخبرها في نار جهنم، و﴿خالسين فيها﴾ حال من المستكن في الخبر، ويجوز أن يكون قوله: والمشركين مجروراً عطفاً على أهل الكتاب ومعنى كونهم في نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى من تقدم نكرهم من أهل الكتاب، والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم، والخلود فيها ﴿هم شر البرية﴾ أي: الخليقة، يقال براً أي: خلق، والبراء الخلق، والبرية الخليقة. قرأ الجمهور (البرية) بغير همز في الموضعين، وقرأ نافع، وابن نكوان فيها بالهمز. قال الفراء: إن أخذت البرية من البراء، وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ، وإن أخذتها من برئت القلم أي: قُبرته دخلت. وقيل: إن الهمز هو الأصل، لأنه يقال براً الله الخلق بالهمز أي: ابتدعه واخترعه ومنه قوله: ﴿من قبل أن نبرأها﴾ [الحديد: 22] ولكنها خففت الهمزة، والتزم تخفيفها عند عامة العرب. ثم بين حال الفريق الآخر فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أولئك﴾ المنعوتون بهذا ﴿هم خير البرية﴾ قال: والمراد أن أولئك شر البرية في عصره ﷺ، ولا يبعد أن يكون كفار الأمم من هو شر منهم، وهؤلاء خير البرية في عصره ﷺ ولا يبعد أن يكون في مؤمني الأمم السابقة من هو خير منهم ﴿جزأؤهم عند ربهم﴾ أي

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: إذا حركت حركة شديدة، وجواب الشرط: تحدث، والمراد: تحركها عند قيام الساعة، فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها. قال مجاهد: وهي النفخة الأولى لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 6، 7] ونكر المصدر للتأكيد، ثم أضافه إلى الأرض، فهو مصدر مضاف إلى فاعله، والمعنى: زلزالها المخصوص الذي يستحقه، ويقتضيه جرمها وعظمها. قرأ الجمهور (زلزالها) بكسر الزاي، وقرأ الجحدري، وعيسى بفتحها، وهما مصدران بمعنى: وقيل: المكسور مصدر، والمفتوح اسم. قال القرطبي: والزلزال بالفتح مصدر كالسوساس، والقلقل بالفتح. وأخرجت الأرض أثقالها أي: ما في جوفها من الأموات والدفائن، والانتقال جمع ثقل، قال أبو عبيدة، والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها، فهو ثقل عليها. قال مجاهد: أثقالها موتها تخرجهم في النفخة الثانية، وقد قيل: للإنس والجن الثقلان، وإظهار الأرض في موضع الإضممار لزيادة التقرير ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ أي: قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت؟ لما يدهمه من أمرها، ويبهره من خطبها، وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وقوله: ما لها مبتدأ وخبر، وفيه معنى التعجب أي: أي شيء لها، أو لأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها؟ وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ بَدَلْ مِنْ إِذَا وَالْعَامِلُ فِيهَا قَوْلُهُ﴾ ﴿تَحْدِثُ أَخْبَارَهَا﴾ ويجوز أن يكون العامل في إذا محذوفاً، والعامل في يومئذٍ تحدث، والمعنى: يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها، وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر، وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة، أو بلسان المقال، بأن ينطقها الله سبحانه. وقيل هذا متصل بقوله: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ أي: قال ما لها ﴿تَحْدِثُ أَخْبَارَهَا﴾ متعجباً من ذلك، وقال يحيى بن سلام: تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها، وقيل: تحدث بقيام الساعة، وأنها قد أتت، وإن الدنيا قد انقضت. قال ابن جرير: تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة، وإخراج الموتى، ومفعول تحدث الأول محذوف، والثاني هو أخبارها، أي: تحدث الخلق أخبارها ﴿بِإِنْ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ متعلق بتحدث، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها، وقيل: الباء زائدة، وإن وما في حيزها بدل من أخبارها، وقيل: الباء سببية أي: بسبب إحياء الله إليها. قال الفراء: تحدث أخبارها بوحى الله وإنه لها، واللام في أوحى لها بمعنى إلى وإنما أثرت على إلى لموافقة الفواصل، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى، كذا قال أبو عبيدة. وقيل: إن أوحى يتعدى باللام تارة، وبإلى أخرى، وقيل: إن اللام على بابها من كونها لليلة، والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، والتقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض أي: لأجل ما يفعلون فيها، والأول أولى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ الظرف إما بدل من يومئذٍ

قال: الذي يسأل باش ولا يعطي به. قال أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبو هريرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ، فنكروه.

تفسير سورة الزلزلة

وهي منذية في قول ابن عباس، وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود، وعطاء، وجابر. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال زلزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بالمدينة. وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو قال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله، قال: اقرأ ثلاثاً من نوات الرء، فقال الرجل: كبر سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: اقرأ ثلاثاً من نوات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبحات فقال مثل مقالته الأولى، وقال: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [أي: سورة الزلزلة] حتى فرع منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها، فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرويحل، أفلح الرويحل. وأخرج الترمذي، وابن مردويه، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [أي: سورة الصمد] عدلت له بثلاث القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [أي: سورة الكافرون] عدلت له بربع القرآن». وأخرج الترمذي، وابن الضريس، ومحمد بن نصر، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن». قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. وأخرج الترمذي عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: ليس معك ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ قال بلى، قال: ثلث القرآن، قال: ليس معك ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [أي: سورة النصر]؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: ليس معك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؟ قال بلى، قال: ربع القرآن، قال: ليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾؟ قال بلى، قال: ربع القرآن تزوج». قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ في ليلة إذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا ﴿١﴾ وَخُرْجَتِ الْأَرْضُ أَشْقَالًا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخْرِجُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾

توهم أن من موصولة، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقترنة في الفعل.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن عباس: «إذا زلزلت الأرض زلزالها» قال: تحركت من أسفلها «ولخرجت الأرض أثقالها» قال: الموتى «وقال الإنسان ما لها» قال: الكافر يقول ما لها «يومئذ تحدث أخبارها» قال: قال لها ربك قولي «يان ربك أوحى لها» قال: أوحى لها «يومئذ يصدر الناس أشتاتاً» قال: من كل من ههنا، وههنا. وأخرج ابن المنذر عنه «ولخرجت الأرض أثقالها» قال: الكنوز والموتى. وأخرج مسلم، والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تبقى الأرض أقاليد كبدتها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: «قرأ رسول الله ﷺ: «يومئذ تحدث أخبارها» قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل كذا، وكذا، فهذا أخبارها». وأخرج ابن مريويه، والبيهقي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأرض لتجيء يوم القيامة بكل عمل عمل على ظهرها. وقرأ رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت الأرض زلزالها» حتى بلغ «يومئذ تحدث أخبارها»». وأخرج الطبراني عن ربيعة الخرخشي أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً، أو شراً إلا وهي مخبرة». وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم في تاريخه، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: «بينما أبو بكر الصديق يكلل مع النبي ﷺ إذ نزلت عليه «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» فرجع أبو بكر يده، وقال: يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر. فقال: «يا أبا بكر أرايت ما ترى في الدنيا مما تكره، فيمثايل ذر الشر؟ ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة». وأخرج إسحاق بن راهويه، وعبد بن حميد، والحاكم، وابن مريويه عن أبي أسماء قال: «بينما أبو بكر يتغذى مع رسول الله ﷺ إذ نزلت هذه الآية: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» فامسك أبو بكر وقال: يا رسول الله ما عملنا من شر رأينا، فقال: ما ترون مما تكرهون، فذاك مما تجزون، ويؤخر الخير لأهل في الآخرة. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، والطبراني، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «أنزلت: «إذا زلزلت الأرض

الذي قبله، وإما منصوب بمقدر هو انكر، وإما منصوب بما بعده، والمعنى: يوم إذ يقع ما نكر يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتاً أي: متفرقين، والصدر: الرجوع وهو ضد الورد، وقيل: يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار، وانتصاب أشتاتاً على الحال والمعنى: أن بعضهم آمن، وبعضهم خائف، وبعضهم بلون أهل الجنة، وهو البياض، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين، وبعضهم إلى جهة الشمال، مع تفرقهم في الأديان، واختلافهم في الأعمال «ليروا أعمالهم» متعلق ببصر، وقيل: فيه تقديم وتأخير أي: تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها: ليروا أعمالهم «يومئذ يصدر الناس أشتاتاً». قرأ الجمهور (ليروا) مبنياً للمفعول، وهو من رؤية البصر أي: ليريه الله أعمالهم. وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة، وحماة بن سلمة، ونصر بن عاصم، وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل، ورويت هذه القراءة عن نافع، والمعنى: ليروا أجزاء أعمالهم «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» أي: وزن نملة، وهي أصغر ما يكون من النمل. قال مقاتل: فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره يوم القيامة في كتابه، فيفرج به، «و» كذلك «فمن يعمل مثقال ذرة شراً يره» أي: يوم القيامة فيسوءه، ومثل هذه الآية قوله: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة» [النساء: 40] وقال بعض أهل اللغة: إن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق من التراب، فهو الذرة، وقيل: الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، والأول أولى، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الاتب منها لأثرا
و «من» الأولى عبارة عن السعداء، و «من» الثانية عبارة عن الأشقياء. وقال محمد بن كعب: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا، وفي نفسه، وماله، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله، ونفسه، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شر، والأول أولى. قال مقاتل: نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة، وكان الآخر يتهاون بالذنوب اليسير، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكافرين. قرأ الجمهور (يره) في الموضعين بضم الهاء وصلأ، وسكونها وقفأ، وقرأ هشام بسكونها وصلأ وقفأ. ونقل أبو حيان عن هشام، وأبي بكر سكونها، وعن أبي عمرو ضمها مشبعة، وبأقي السبعة بإشباع الأولى، وسكون الثانية، وفي هذا الثقل نظر، والصواب ما نكرنا. وقرأ الجمهور (يره) مبنياً للفاعل في الموضعين. وقرأ ابن عباس، وابن عمر، والحسن والحسين ابناً علي، وزيد بن علي، وأبو حيوة، وعاصم، والكسائي في رواية عنهما، والجحدري، والسلمي، وعيسى على البناء للمفعول فيهما أي: يريه الله إياه. وقرأ عكرمة (يراه) على

لشديد، وحنف من آخره نكر الحب؛ لأنه قد جرى نكره، ولرؤوس الآي كقوله: ﴿في يوم عاصف﴾ [إبراهيم: 18] والعصوف للريح لا لليوم، كأنه قال: في يوم عاصف الريح ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي: يفعل ما يفعل من القبائح، فلا يعلم، وبعثر معناه نثر وبث أي: نثر ما في القبور من الموتى، وبث عنهم وأخرجوا. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه. قال الفراء: سمعت بعض العرب من بني أسد يقول: بحثر بالحاء مكان العين، وقد تقدم الكلام على هذا في قوله: ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ [الأنفطار: 4] ﴿وحصل ما في الصدور﴾ أي: ميز وبين ما فيها من الخير والشر، والتحصيل التمييز، كذا قال المفسرون، وقيل: حصل أبرز. قرأ الجمهور (حصل) بضم الحاء، وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول. وقرأ عبيد بن عمير، وسعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم حصل بفتح الحاء والصاد، وتخفيفها مبنياً للفعل: أي: ظهر ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي: إن رب الميعوثين بهم لخبير لا تخفى عليه منهم خافية، فيجازيهم بالخير خيراً، وبالشّر شراً. قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى: إن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم، ومثله قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ [النساء: 63] معناه: أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم. قرأ الجمهور (إن ربهم) بكسر الهمزة، وبالإلام في لخبير. وقرأ أبو السّمك بفتح الهمزة، وإسقاط اللام من لخبير.

وقد أخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «بعث رسول الله ﷺ خيلاً، فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خير، فنزلت: ﴿والعائيات ضبحاً﴾ ضبحت بأرجلها. ولفظ ابن مردويه: ضبحت بمنارها ﴿فالموريات قبحاً﴾ قبحت بحوافرها الحجارة، فأورت ناراً ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ صبحت القوم بغارة ﴿فأثّرن به نفعاً﴾ أثّرت بحوافرها التراب ﴿فوسطن به جمعاً﴾ صبحت القوم جمعاً. وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية إلى العدو، فأبطأ خبرها، فشق ذلك عليه، فأخبره الله خبرهم، وما كان من أمرهم، فقال: ﴿والعائيات ضبحاً﴾ قال: هي الخيل. والضحيع نخير الخيل حين تنخر ﴿فالموريات قبحاً﴾ قال: حين تجري الخيل توري ناراً أصابت سناكبها الحجارة ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ قال: هي الخيل أغارت، فصبحت العدو ﴿فأثّرن به نفعاً﴾ قال: هي الخيل أثّرت بحوافرها، يقول بعدو الخيل، والنقع الغبار ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال: الجمع العدو. وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: تقول أنا، وعكرمة في شأن العائيات، فقال: قال ابن عباس: هي الخيل في القتال، وضبحها حين ترخي مشافرها إذا عدت ﴿فالموريات

وهذا هو المناسب لمعنى الآية، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى، فإن قولك أغارت الخيل على بني فلان صباحاً، فأثّرن به صوتاً، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة، وقيل النقع: شقّ الجيوب، وقال محمد بن كعب: النقع ما بين مزلفة إلى منى، وقيل: إنه طريق الوادي. قال في الصحاح: النقع الغبار، والجمع أنقاع، والنقع محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه، والنقع الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء ﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي: توسطن بذلك الوقت، أو توسطن ملتبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء، والباء إما للتعدية، أو للحالية، أو زائدة، يقال: وسطت المكان أي: صرت في وسطه، وانتصاب جمعاً على أنه مفعول به، والفأّت في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها. قرأ الجمهور (فوسطن) بتخفيف السين، وقرأ بالتشديد. ﴿إنّ الإنسان لرهيب﴾ هذا جواب القسم، والمراد بالإنسان بعض أقراده، وهو الكافر، والكنود: الكفور للنعمة، وقوله: ﴿لربه﴾ متعلق بكنود، قدّم لرعاية القواصل، ومنه قول الشاعر:

كنود لنعماء الرجال ومن يكن
كنوداً لنعماء الرجال يبعد
أي: كفور لنعماء الرجال، وقيل: هو الجاحد للحق، قيل: إنها إنما سميت كنودة، لأنها جحدت أباها. وقيل: الكنود مأخوذ من الكند. وهو القطع، كأنه قطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر. يقال كند الحبل: إذا قطعه، ومنه قول الأعشى:

وصول حبال وكثادها

وقيل: الكنود البخيل، وأنشد أبو زيد:

إن نفسي لم تطب منك نفساً غير أني أمسي بدين كنود
وقيل: الكنود الحسود، وقيل: الجهول لقدره، وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام؛ والجاحد للنعمة كافر لها، ولا يناسب المقام سائر ما قيل: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ أي: وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه، وقيل المعنى: وإن الله جلّ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، وبه قال الجمهور. وقال بالأول الحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، وهو أرجح من قول الجمهور لقوله: ﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾ فإن الضمير راجع إلى الإنسان، والمعنى: إنه لحبّ المال قويّ مجدّ في طلبه، وتحصيله مثالك عليه، يقال هو شديد لهذا الأمر وقويّ له: إذا كان مطيقاً له، ومنه قوله تعالى: ﴿إن ترك خيراً﴾ [البقرة: 180] ومنه قول عدي بن حاتم:

مأنا ترجى النفوس من طلب الـ خير وحبّ الحياة كانبها
وقيل المعنى: وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل، والأول أولى. والإلام في: ﴿لحبّ﴾ متعلقة بشديد. قال ابن زيد: سمى الله المال خيراً، وعسى أن يكون شراً، ولكن الناس يجوبونه خيراً، فسماه خيراً. قال الفراء: أصل نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحبّ للخير، فلما قدّم الحبّ قال:

عن ابن عباس: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الخيل ضبחה زحيرها، ألم تر أن الفرس إذا عدا قال: أح، فذلك ضبחה. وأخرج ابن المنذر عن علي قال: الضبح من الخيل الحممة، ومن الإبل النفس. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود: ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَحْحًا﴾ إذا سفت الحصى بمناسمها، فضرب الحصى بعضه بعضاً، فيخرج منه النار ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا﴾ حين يفيضون من جمع ﴿فَاتَرْنَ بِهِ نَعْعًا﴾ قال: إذا سرن يثرن التراب. وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: الكنود بلساننا أهل البلد الكفور. وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ قال لكفور. وأخرج عبد بن حميد، والبخاري في الألب، والحكيم الترمذي، وابن مردويه عن أبي أمامة قال: الكنود الذي يمنع رفده، وينزل وحده، ويضرب عبده، ورواه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والديلمي، وابن عساكر مرفوعاً، وضعف إسناده السيوطي، وفي إسناد جعفر بن الزبير، وهو متروك، والموقوف أصح؛ لأنه لم يكن من طريقه. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قال: الإنسان ﴿وَأَنَّهُ لَحَبِيبٌ خَيْرٌ﴾ قال: المال. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه: ﴿إِذَا بَعِثُوا فِي الْقُبُورِ﴾ قال: بحث ﴿وَحَصَلَ مَا فِي الصُّورِ﴾ قال: أبرز.

تفسير سورة القارعة

وقيل: مكية بلا خلاف. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة القارعة بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُورِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ نَقَلَ مَوَازِينَهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا وَصِيَّةُ ١٠ نَارٍ حَامِيَةٍ ١١

﴿القارعة﴾ من أسماء القيامة؛ لأنها تقرر القلوب بالفزع، وتقرر أعداء الله بالعذاب. والعرب تقول قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر فظيع. قال ابن أحمر:

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لراحت عنك حيناً وقال آخر:

متى نقرر بمرؤتكم نسؤكم ولم يوقد لنا في القدر نار والقارعة مبتدأ وخبرها قوله: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ وبالرفع قرأ الجمهور، وقرأ عيسى بنصبها على تقدير: احذروا القارعة،

قححاً أرت المشركين مكرهم ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا﴾ قال: إذا صبحت العدو ﴿فَوْسُطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: إذا توسط العدو. وقال أبو صالح: فقلت قال علي: هي الإبل في الحج ومولاي كان أعلم من مولاك. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال: بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل يسأل عن العاديات ضبحة، فقلت: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويوردون نارهم، فانقتل عني، فذهب إلى علي بن أبي طالب، وهو جالس تحت سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحة، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت عنها ابن عباس، فقال: هي الخيل حين تغير في سبيل الله، فقال: اذهب، فادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك، والله إن كانت لأوّل غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون ﴿العاديات ضبحة﴾ إنما العاديات ضبحة من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أروا إلى المزدلفة أوقدوا النيران، والمغيرات صبحاً: من المزدلفة إلى منى، فذلك جمع، وأما قوله: ﴿فَاتَرْنَ بِهِ نَعْعًا﴾ فهي: نزع الأرض تطؤه بأخفافها وحوافرها. قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الإبل، أخرجوه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعي. قال إبراهيم: وقال علي بن أبي طالب: هي الإبل. وقال ابن عباس هي الخيل. فبلغ علياً قول ابن عباس: قال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كانت تلك في سرية بعثت. وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي قال: تمارى علي، وابن عباس في العاديات ضبحة. فقال ابن عباس: هي الخيل؛ وقال علي: كذبت يا ابن فلانة، والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق. قال: وكان يقول هي: الإبل، فقال ابن عباس: ألا ترى أنها تثير نفعاً، فما شيء تثير إلا بحوافرها. وأخرج عبد بن حميد، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الخيل ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَحْحًا﴾ قال: الرجل إذا أوى زنده ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا﴾ قال: الخيل تصبح العدو ﴿فَاتَرْنَ بِهِ نَعْعًا﴾ قال: التراب ﴿فَوْسُطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: العدو. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: قال ابن عباس: القتال. وقال ابن مسعود: الحج. وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: ليس شيء من اللواب يضح إلا الكلب، أو الفرس ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَحْحًا﴾ قال: هو مكر الرجل قدح، فأورى ﴿وَالْمَغِيرَاتِ صَبْحًا﴾ قال: غارة الخيل صبحاً ﴿فَاتَرْنَ بِهِ نَعْعًا﴾ قال: غباراً وقع سناك الخيل ﴿فَوْسُطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال: جمع العدو. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر

هي جمع ميزان، وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال، وعبر عنه بلفظ الجمع، كما يقال لكل حائثة ميزان، وقيل: المراد بالموازين الحجج والدلائل، كما فني قول الشاعر:

لقد كنت قبل لقائكم ذامرة عندي لكل مخاصم ميزانه
ومعنى عيشة راضية مرضية يرضاها صاحبها، قال الزجاج أي: ذات رضى يرضاها صاحبها، وقيل: عيشة راضية أي: فاعلة للرضى، وهو اللين، والانقياد لأهلها. والعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة: ﴿وَمَا مِنْ خَفْتِ مَوَازِينَهُ﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات يعتد بها ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ أي: فمسكرته جهنم، وسماها أمه؛ لأنه يأوي إليه، كما يأوي إلى أمه، والهاوية من أسماء جهنم، وسميت هاوية؛ لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فالأرض مقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد
وقول الآخر:

يا عمرو لو نالتك أرماحنا كنت كمن تهوي به الهاوية
والمهوى، والمهواة: ما بين الجبلين، وتهوى القوم في المهواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض. قال قتادة: معنى ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ فمصره إلى النار. قال عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه. قال الأخفش: أمه مستقره ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ هذا الاستقهام للتهويل، والتفظيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر، ولا تدري كنهها، ثم بينا سبحانه فقال: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أي: قد انتهت حرها، وبلغ في الشدة إلى الغاية، وارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي: هي نار حامية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ قال: كقوله هوت أمه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿فَإِمَامَهُ هَاوِيَةً﴾ قال: لم رأسه هاوية في جهنم. وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: رسول الله ﷺ: «إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ما فعلت فلانة؟ فإذا كان مات، ولم ياتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية، فبُست الأم، وبُست المربية». وأخرج ابن مردويه من حديث أبي أيوب الأنصاري نحوه. وأخرج ابن المبارك من حديث أبي أيوب نحوه أيضاً.

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية عند الجميع، وروى البخاري أنها مدنية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل بمكة ﴿الْهَآكِمِ التَّكَآثِرِ﴾. وأخرج الحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في كل

والاستقهام للمتعظيم، والتفخيم لشانها، كما تقدّم بيانه في قوله: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: 1-3] وقيل: معنى الكلام على التحذير. قال الزجاج: والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب، وأنشد قول الشاعر:

لجديرون بالسوء إذا قال أخو النجدة السلاح السلاح
والحمل على معنى التفخيم، والتعظيم أولى، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير، فإنه أدل على هذا المعنى، ويؤيده أيضاً قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها، ومزيد فظاعتها حتى كانت خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم، وما الاستقهامية مبتدأ، وأدراك خبرها، وما القارعة مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني؛ والمعنى: وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة؟ ثم بين سبحانه متى تكون القارعة فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة أي: تفرعهم يوم يكون الناس إلخ، ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير انكسر. وقال ابن عطية، ومكي، وأبو البقاء: هو منصوب بنفس القارعة، وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف، وإنما نصب لإضافته إلى الفعل، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب أي: هي يوم يكون إلخ. وقيل التقدير: ستاتيكم القارعة يوم يكون، وقرأ زيد بن علي برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقتر. والفراش: الطير الذي تراه يتساقط في النار، والسراج، والواحدة فراشة، كذا قال أبو عبيدة وغيره. قال الفراء: الفرش هو الطائر من بعوض وغيره، ومنه الجراد. قال وبه يضرب المثل في الطيش، والهوج، يقال: أمليش من فراشة، وأنشد:

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن يطلب نداء فكلب بونه كلب
وقول آخر:

وقد كان أقوام ربت حلومهم عليهم وكانوا كالفرش من الجهل
والمراد بالمبثوث المتفرق المنتشر، يقال بثه: إذا فرقه، ومثل هذا قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: 7] وقال المبثوث، ولم يقل المبثوثة؛ لأن الكل جائز، كما في قوله: ﴿أَعَاجِزٌ نَخْلٌ مُنْقَعَرٌ﴾ [القمر: 20] و﴿أَعَاجِزٌ نَخْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: 7] وقد تقدّم بيان وجه ذلك ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي: كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذي نقش بالنف، والعهن عند أهل اللغة: الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة، وقد تقدّم بيان هذا في سورة سأل سائل، وقد ورد في الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة. وقد قمنا ببيان الجمع بينها، ثم ذكر سبحانه أحوال الناس، وتفرقتهم فريقين على جهة الإجمال فقال: ﴿فَإِمَاماً مِنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ قد تقدّم القول في الميزان في سورة الأعراف، وسورة الكهف، وسورة الأنبياء.

وقد اختلف فيها هنا، فقيل: هي جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، وبه قال الفراء وغيره، وقيل:

بالأموات. وقيل: نزلت في حيين من الأنصار. والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها. وفي الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا، والمكاثرة بها، والمفاخرة فيها من الخصال الممنومة، وقال سبحانه: ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ولم يقل عن كذا، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبْلَغُ في الذمِّ؛ لأنه يذهب الوهم فيه كلَّ مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرَّر في علم البيان؛ والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن كل شيء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله، والعمل للأخرة، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر؛ لأن الميت قد صار إلى قبره، كما يصير الزائر إلى الموضع الذي يزوره هذا على قول من قال: إن معنى ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ مِتُّم، أما على قول من قال: إن معنى: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ نَكُرْتُمُ الْمَوْتِ، وعندهم للمفاخرة، والمكاثرة، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم، وقيل: إنهم كانوا يزورون المقابر، فيقولون هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان فيفتخرون بذلك ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر، وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة، وفيه وعيد شديد. قال الفراء أي: ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر. ثم كرَّر الردع والزجر، والوعيد فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وثم للدلالة على أن الثاني أبْلَغُ من الأول، وقيل: الأول عند الموت أو في القبر، والثاني يوم القيامة. قال الفراء: هذا التكرار على وجه التخليط والتأكيد. قال مجاهد: هو وعيد بعد وعيد. وكذا قال الحسن، ومجاهد ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقيناً كعلمكم ما هو متيقن عنكم في الدنيا، وجواب لو محذوف أي: لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر، أو لفعلتكم ما ينفعكم من الخير، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه، وكلا في هذا الموضع الثالث للزجر، والردع كالموضعين الأولين. وقال الفراء: هي بمعنى حقاً، وقيل: هي في المواضع الثلاثة بمعنى لا. قال قتادة: اليقين هنا الموت، وروي عنه أيضاً أنه قال: هو البعث. قال الأخفش: التقدير لو تعلمون علم اليقين ما الهاكم، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواب قسم محذوف، وفيه زيادة وعيد وتهديد أي: والله لتروُنَّ الجحيم في الآخرة. قال الرازي: وليس هذا جواب لو، لأن جواب لو يكون منفياً، وهذا مثبت؛ ولأنه عطف عليه ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ﴾ وهو: مستقبل لا بد من وقوعه قال: وحذف جواب لو كثير، والخطاب للكفار، وقيل: عام كقوله: ﴿وَلَنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71] قرأ الجمهور (لترون) بفتح التاء مبنياً للفعل وقرأ الكسائي، وابن عامر بضمها مبنياً للمفعول، ثم كرَّر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: ثم لتروُنَّ الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والمعانية، وقيل المعنى: لتروُنَّ الجحيم بآبصاركم على البعد منكم، ثم لتروُنَّها مشاهدة على القرب. وقيل المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها، والثاني رؤيتها حال دخولها. وقيل: هو إخبار عن

يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق، والديلمي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ألف آية لقي الله وهو ضاحك في وجهه، قيل: يا رسول الله، ومن يقوى على ألف آية؟ فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [أي: سورة التكاثر] إلى آخرها، ثم قال: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ألف آية». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وفي لفظ: وقد أنزلت عليه ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وهو يقول: ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت، فأفانيت». وأخرجه مسلم، وغيره من حديث أبي هريرة، ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة، ولا نزولها بلفظ: «يقول العبد مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاثة: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدَّق ففنى، وما سوى ذلك، فهو ذاهب، وتاركه للناس». وأخرج الحكيم الترمذي في نوارد الأصول، والبيهقي في الشعب، وضعفه عن جرير بن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إني قارئ عليكم سورة ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، فمن بكى، فله الجنة، فقرأها، فمنا من بكى، ومنا من لم يبكي، فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يا رسول الله أن نبكي، فلم نقدر عليه، فقال: إني قارئها عليكم الثانية، فمن بكى، فله الجنة، ومن لم يقدر أن يبكي، فليتبكى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ
الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ
الْأَعْمَارِ ⑧

قوله: ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد، والتفاخر بكثرتها، والتغالب فيها. يقال: الهاه عن كذا، والهاه إذا شغله، ومنه قول امرئ القيس:

فألهيتها عن ذي ثلثم محول

وقال الحسن: معنى الهاكم: أنساكم ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: حتى أنركم الموت، وأنتم على تلك الحال. وقال قتادة: إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: الهاكم التشاغل بالمعاش. وقال مقاتل، وقتادة أيضاً، وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، الهاهم ذلك حتى ماتوا. وقال الكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم تعانوا، وتكاثروا بالسيادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم: نحن أكثر سياداً، وأعزَّ عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر قائداً، فكثر بنو عبد مناف بني سهم، ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم بهم، فنزلت: ﴿الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فلم ترضوا ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ مفتخرين

كان عنه مسؤولاً [الإسراء: 36] وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** قال: الأمن، والصحة. وأخرج البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: النعيم العافية. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال: من أكل خبز البر، وشرب ماء الفرات مبرداً، وكان له منزل يسكنه، فذلك من النعيم الذي يسأل عنه. وأخرج ابن مريويه عن أبي النرداء قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: أكل خبز البر، والنوم في الظل، وشرب ماء الفرات مبرداً. ولعل رفع هذا لا يصح، فربما كان من قول أبي النرداء. وأخرج أحمد في الزهد، وابن مريويه عن أبي قلابة عن النبي ﷺ في الآية قال: «ناس من أمتي يعقدون السمن والعسل بالنقي، فياكلونه» وهذا مرسل. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية. قال الصحابة: يا رسول الله أي نعيم نحن فيه؟ وإنما ناكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ أن قل لهم: ليس تحتون النعال، وتشربون الماء البارد، فهذا من النعيم. وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وأحمد، وابن جرير، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن محمود بن لبيد قال: «لما نزلت: **«الهاكم التكاثر»** فقرا حتى بلغ: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** قالوا: يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: الماء، والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: أما إن نلك سيكون». وأخرجه عبد بن حميد، والترمذي، وابن مريويه من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مريويه من حديث الزبير بن العوام. وأخرج أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن حبان، وابن مريويه، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسلك، ونروك من الماء البارد؟». وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله قال: «جاءنا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، فاطعمناهم رطباً، وسقيناهم ماء، فقال رسول الله ﷺ: هذا من النعيم الذي تسألون عنه». وأخرج عبد بن حميد، وابن مريويه، والبيهقي من حديث جابر بن عبد الله نحوه. وأخرج مسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن أبي هريرة قال: «خرج النبي ﷺ، فإذا هو بابي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟ قالوا: الجوع يا رسول الله، قال: والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قلت: مرحباً، فقال النبي ﷺ: أين فلان؟ قالت: انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى النبي ﷺ وصاحبيه، فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم

نوام بقائهم في النار أي: هي رؤية دائمة متصلة. وقيل المعنى: لو تعلمون اليوم علم اليقين، وأنتم في الدنيا لترون الجحيم بعين قلوبكم، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأموالها **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** أي: عن نعيم الدنيا الذي الهاكم عن العمل للأخرة. قال قتادة: يعني: كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره، وأشركوا به. قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. وقال قتادة: إن الله سبحانه سائل كل ذي نعمة عما أنعم عليه، وهذا هو الظاهر، ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد، أو نوع من الأنواع؛ لأن تعريفه للجنس، أو الاستغراق، ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التي يسئل عنها، فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التي أنعم بها عليه فيم صرفها، وبم عمل فيها؟ ليعرف قصيره، وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر، وقيل: السؤال عن الأمن والصحة، وقيل: عن الصحة والفراغ، وقيل: عن الإبرك بالحواس، وقيل: عن ملاذ المأكول والمشروب، وقيل: عن الغذاء والعشاء، وقيل: عن بارد الشراب وظلال المساكين، وقيل: عن اعتدال الخلق، وقيل: عن لذة النوم، والأولى العموم، كما نكرنا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بردة في قوله: **«الهاكم التكاثر»** قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان، وفلان. وقال الآخرون: مثل نلك تفاخروا بالأحياء. ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر، ومثل فلان، وفعل الآخرون كذلك، فأنزل الله: **«الهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر»** لقد كان لكم فيما زرتم عبرة وشغل. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **«الهاكم التكاثر»** قال: في الأموال والأولاد. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مريويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ: **«الهاكم التكاثر»** يعني عن الطاعة **«حتى زرتم المقابر»** يقول: حتى يأتيكم الموت **«كلا سوف تعلمون»** يعني: لو قد نخلتم قبوركم **«ثم كلا سوف تعلمون»** يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم **«كلا لو تعلمون علم اليقين»** قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم **«لترون الجحيم»** وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فجاج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكدوش في نار جهنم **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** يعني: شبع البطون، وبارد الشرب، وظلال المساكين، واعتدال الخلق، ولذة النوم، وأخرج ابن مريويه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مريويه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: **«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»** قال: صحة الأبدان، والاسماع، والأبصار، وهو أعلم بئلك منهم، وهو قوله: **«إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك**

الجمهور (والعصر) يسكون الصاد. وقرءوا أيضاً (خسر) بضم الخاء، وسكون السين. وقرأ يحيى بن سلام (والعصر) بكسر الصاد. وقرأ الأعرج، وطلحة، وعيسى (خسر) بضم الخاء والسين، ورويت هذه القراءة عن عاصم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح، فإنهم في ربح لا في خسر؛ لأنهم عملوا للأخرة، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، والاستثناء متصل، ومن قال: إن المزداد بالإنسان الكافر فقط، فيكون منقطعاً، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة، ولا وجه لما قيل: من أن المراد الصحابة أو بعضهم، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان، والعمل الصالح ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: وصى بعضهم بعضاً بالحق الذي يحق القيام به، وهو الإيمان بالله، والتوحيد، والقيام بما شرعه الله، واجتناب ما نهى عنه. قال قتادة: بالحق أي: بالقرآن، وقيل: بالتوحيد، والحمل على العموم أولى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: بالصبر عن معاصي الله سبحانه، والصبر على فرائضه. وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره، وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153] وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فأفراده بالذكر، وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها.

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قال: الدهر. وأخرج ابن جرير عنه قال: هو ساعة من ساعات النهار. وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: هو ما قبل مغيب الشمس من العشي. وأخرج الفريابي، وأبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ (والعصر * ونوائب الدهر * إن الإنسان لفي خسر * وإنه فيه إلى آخر الدهر). وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (والعصر إن الإنسان لفي خسر * وإنه لفيه إلى آخر الدهر) اهـ.

تفسير سورة الهمة

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ [أي: سورة الهمة] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّكَّانِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنَادُّنَ فِي النَّفْسِ ۝٤ وَمَا أَزْدَرَاكَ مَا لَطَلْتَهُ ۝٥ تَارَ اللَّهُ أَلْمُونَدَهُ ۝٦ أَلَيْ تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقَدِ ۝٧ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَمِّنَةٌ ۝٨ فِي عَمْرِئِهِمْ ۝٩

أضيفاً مني، فانطلق، فجاء بعنق فيه بسر، وتمر. فقال: كلوا من هذا، وأخذ المنية، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوب، فنبح لهم فاكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ: لأبي بكر، وعمر: والذي نفسي بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة» وفي الباب أحاديث اهـ.

تفسير سورة العصر

وهي مكية عند الجمهور. وقال قتادة: هي مدنية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العصر بمكة. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب عن أبي مزينة الدارمي، وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر. ثم يسلم أحدهما على الآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّكَّانِ

وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣

اقسم سبحانه بالعصر، وهو الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار، وتعاقب الظلام والضياء، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل، وعلى توحيده، ويقال لليل عصر، وللنهار عصر، ومنه قول حميد بن ثور:

ولم ينته العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يبركما ما تمنيا ويقال للغداة والعشي عصران، ومنه قول الشاعر:

وأمله العصرين حتى يملني ويرضى بنصف الدين والأنف راغم وقال قتادة والحسن: المراد به في الآية العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، ومنه قول الشاعر:

يروح بنا عمرو وقد قصر العصر وفي الروحة الأولى الغنيمة والأجر وروي عن قتادة أيضاً أنه آخر ساعة من ساعات النهار. وقال مقاتل: إن المراد به صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها، وقيل: هو قسماً بعصر النبي ﷺ. قال الزجاج: قال بعضهم: معناه، ورب العصر، والأول أولى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسَرٍ﴾ هذا جواب القسم. الخسر، والخسران النقصان، وذهاب رأس المال، والمعنى: أن كل إنسان في المتاجر والمساغي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص، وضلال عن الحق حتى يموت. وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وقيل: جماعة من الكفار وهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم، ولدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش ﴿فِي خَسَرٍ﴾ في هلكة. وقال الفراء: عقوبة. وقال ابن زيد: لفي شر. قرأ

وعنده: إذا أمسكته. قال السدي: أحصى عدده. وقال الضحاك: أعد ماله لمن يرثه. وقيل: المعنى فاخر بكثرته وعنده، والمقصود نمه على جمع المال، وإمساكه، وعدم إنفاقه في سبيل الخير. وقيل: المعنى على قراءة التخفيف في عدده: أنه جمع عشيرته وأقاربه. قال المهدي: من خفف وعنده، فهو معطوف على المال أي: وجمع عدده، وجملة: **«يحسب أن ماله لخلده»** مستأنفة: لتقرير ما قبلها، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال أي: يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت. وقال عكرمة: يحسب أن ماله يزيد في عمره، والإظهار في موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ. وقيل: هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال. وقوله: **«كلا»** ردع له عن ذلك الحسبان أي: ليس الأمر على ما يحسبه هذا الذي جمع المال وعنده، واللام في: **«لينبذ في الحطمة»** جواب قسم محذوف أي: ليطرح في النار، وليلقين فيها. قرأ الجمهور (لينبذ) وقرأ علي، والحسن، ومحمد بن كعب، ونصر بن عاصم، ومجاهد، وحמיד، وابن محيصن (لينبذان) بالتثنية أي: لينبذ هو وماله في النار. وقرأ الحسن أيضاً (لينبذن) أي: لينبذن ماله في النار **«وما أدراك ما الحطمة»** هذا الاستفهام للمتهويل والتفخيم حتى كأنها ليست مما تتركه العقول، وتبلغه الأفهام. ثم بينها سبحانه فقال: **«نار الله الموقدة»** أي: هي نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه، وفي إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم، وكذلك في وصفها بالإيقاد: وسميت حطمة؛ لأنها تحطم كل ما يلقي فيها وتهشمه، ومنه: إنا حطمنا بالقضيب مصعباً يوم كسرنا أنفه ليفضبا قيل: هي الطبقة السانسة من طبقات جهنم، وقيل: الطبقة الثانية منها، وقيل: الطبقة الرابعة **«التي تطلع على الأفئدة»** أي: يخلص حرّاً إلى القلوب فيعلوها ويفشاها، وخصّ الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم؛ لأنها محلّ العقائد الزائفة، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها أي: إنهم في حال من يموت، وهم لا يموتون. وقيل معنى: **«تطلع على الأفئدة»** أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وذلك بأمارات عرفها الله بها **«إنها عليهم مؤصدة»** أي: مطبقة مغلقة، كما تقدّم بيانه في سورة البلد، يقال أصلت الباب: إذا أغلقته، ومنه قول قيس بن الرقيات:

إن في القصر لو دخلنا غزلاً مصيباً مؤصداً عليه الحجاب
«في عمد ممّدة» في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم أي: كائنين في عمد ممّدة موتقين فيها، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم في عمد، أو صفة لمؤصدة أي: مؤصدة بعمد ممّدة. قال مقاتل: أطلقت الأبواب عليهم، ثم شئت بأوتار من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح. ومعنى كون العمد ممّدة: أنها مطوّلة، وهي: أرسخ من القصيرة. وقيل: العمد أغلال

الويل: هو مرتفع على الابتداء، وسوّج الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم، وخبره **«لكل همزة لمزة»** والمعنى: خزي، أو عذاب، أو هلكة أو واد في جهنم لكل همزة لمزة. قال أبو عبيدة، والزجاج: الهمزة للهمزة الذي يغتاب الناس، وعلى هذا هما بمعنى وقال أبو العالية، والحسن، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح: الهمزة الذي يغتاب الرجل في وجهه، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه. وقال قتادة عكس هذا، وروي عن قتادة، ومجاهد أيضاً أن الهمزة: الذي يغتاب الناس في أنسابهم، وروي عن مجاهد أيضاً أن الهمزة: الذي يهزم الناس بيده، واللمزة الذي يلزمهم بلسانه. وقال سفيان الثوري: يهزمهم بلسانه، ويلزمهم بعينه. وقال ابن كيسان الهمزة: الذي يؤدي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جلسيه، ويشير بيده وبرأسه وبجانبه، والأول أولى، ومنه قول زياد الأعجم:

تدلي بود إذا لاقيتني كذباً وإن أغيب فانت الهامز للهمزة
 وقول الآخر:

إذا لقيت عن سخط تكاشرني وإن تغيبت كنت الهامز للهمزة
 وأصل الهمز الكسر، يقال: همز رأسه كسره، ومنه قول العجاج:

ومن همزنا رأسه تهشما

وقيل: أصل الهمز واللمز: الضرب والدفع، يقال: همزه يهزمه همزاً، ولمزه يلمزه لمزاً: إذا دفعه وضربه، ومنه قول الشاعر:

ومن همزنا عزه تبركعا على أسته زبيعة أو زبيعا
 البركة: القيام على أربع، يقال بركعه، فتبركع أي: صرعه، فوقع على أسته، كذا في الصحاح، وبناء فعلة يدل على الكثرة، ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيراً، وأنه قد صار ذلك عادة له، ومثله ضحكة ولعنة. قرأ الجمهور (همزة لمزة) بضم أولهما، وفتح الميم فيهما. وقرأ الباقر، والأعرج بسكون الميم فيهما. وقرأ أبو وائل، والنخعي، والأعمش (ويل للهمزة للهمزة) والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك، ولا ينافي نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب **«الذي جمع مالا وعدده»** الموصول بدل من كل، أو في محل نصب على الذم، وهذا أرجح؛ لأن البديل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف؛ لأنه يجري مجرى السبب، والعلة في الهمز واللمز، وهو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أنه الفضل، فلأجل ذلك يستقصر غيره. قرأ الجمهور (جمع) مخففاً. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي بالتشديد. وقرأ الجمهور (وعده) بالتشديد، وقرأ الحسن، والكلبي، ونصر بن عاصم، وأبو العالية بالتخفيف، والتشديد في الكلمتين يدل على التكثر وهو جمع الشيء بعد الشيء، وتعنيده مرة بعد أخرى. قال الفراء: معنى: عدده أحصاه. وقال الزجاج: وعدده لنوائب الدهور. يقال: أعدت الشيء

نكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله **﴿الْم يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾** أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة، واستباحة أهلها في تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم، والهمزة للتقرير كأنه قيل: قد جعل كيدهم في تضليل، والكيد: هو إرادة المضرة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبي، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم **﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾** أي: أقطيع يتبع بعضها بعضاً كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة: أبابيل جماعات في تفرقة، يقال جاءت الخيل أبابيل أي: جماعات من ههنا وههنا. قال النحاس: وحقيقتها أنها جماعات عظام، يقال فلان توبل على فلان أي: تعظم عليه، وتكبر، وهو مشتق من الإبل، وهو من الجمع الذي لا واحد له. وقال بعضهم: واحده إبول مثل عجول. وقال بعضهم: أبيل، قال الواحدي: ولم نر أحداً يجعل لها واحداً. قال الفراء: لا واحد له من لفظه. وزعم الرؤاسي وكان ثقة أنه سمع في واحدها: أبالة مشدداً. وحكى الفراء أيضاً: أبالة بالتخفيف. قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها. قال قتادة: هي: طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجله، وحجر في منقاره لا يصيب شيئاً إلاّ هشمه. وقيل: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كركؤوس السباع. وقيل: كان لها خراطيم كخراطيم الطير، وكفّ كالكف الكلاب. وقيل: في صفتها غير ذلك، والعرب تستعمل الأبابيل في الطير، كما في قول الشاعر:

تراهم إلى الداعي سراعاً كأنهم أبابيل طير تحت دجن مسجن
وتستعملها في غير الطير كقول الآخر:

كانت تهدّ من الأصوات راحلتي أن سالت الأرض بالجرد الأبابيل
﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ الجملة في محل نصب صفة لطير. قرأ الجمهور (ترميمهم) بالفوقية. وقرأ أبو حنيفة، وأبو معمر، وعيسى، وطلحة بالتحنية، واسم الجمع ينكر ويؤنث. وقيل: الضمير في القراءة الثانية لله عز وجل. قال الزجاج **﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾** أي: مما كتب عليهم العذاب به، مشتقاً من السجل. قال في الصحاح قالوا: هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم. قال عبد الرحمن بن أبيزى: **﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾** من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط، وقيل: من الجحيم التي هي سجين، ثم أبدلت النون لاماً، ومنه قول ابن مقبل:

ضرباً تواصت به الأبطال سجيلاً

وإنما هو سجيناً. قال عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجحدي، وكان الحجر كالحمصة، وفوق العنسة، وقد قَدَّمْنَا الكلام في سجيل في سورة هود **﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾** أي: جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته النواب

في جهنم، وقيل: القيود. قال قتادة: المعنى: هم في عمد يعتبون بها، واختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور (في عمد) بفتح العين، والميم. قيل: هو اسم جمع لعمود. وقيل: جمع له. قال الفراء: هي جمع لعمود كائيم وأنم. وقال أبو عبيدة: هي جمع عماد. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر بضم العين، والميم جمع عمود. قال الفراء: هما جمعان صحيحان لعمود. واختار أبو عبيد، وأبو حاتم وقراءة الجمهور. قال الجوهري: العمود عمود البيت، وجمع القلة أعمدة، وجمع الكثرة عمد وعمد، وقرئ بهما. قال أبو عبيدة: العمود كل مستطيل من خشب أو حديد.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مروي عن طريق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: **﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾** قال: هو المشاء بالنميمة، المفرق بين الجمع، المغري بين الإخوان. وأخرج ابن جرير عنه: **﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾** قال: طعان **﴿لُّمَزَةٍ﴾** قال: مغتاب. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله: **﴿إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَقَةٌ﴾** قال: مطبقة **﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾** قال: عمد من نار. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: هي الآدم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأبواب هي الممددة. وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: أدخلهم في عمد، فمئت عليهم في أعناقهم، فشئت بها الأبواب.

تفسير سورة الفيل

وأخرج ابن مروي عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة **﴿الْم تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾** [أي: سورة الفيل].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾

الاستفهام في قوله: **﴿الْم تَرَ﴾** لتقرير رؤيته **﴿بِإِنْكَارِ عَدَمِهَا﴾** قال الفراء: المعنى ألم تخبر، وقال الزجاج: ألم تعلم، وهو تعجيب له **﴿بِمَا فَعَلَ﴾** الله **﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾** الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة، وكيف منصوبة بالفعل الذي بعدها، ومعلقة لفعل الرؤية، والخطاب لرسول الله **﴿ﷺ﴾** ويجوز أن يكون لكل من يصلح له. والمعنى: قد علمت يا محمد، أو علم الناس الموجودون في عصرك، ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل، وما فعل الله بهم، فما لكم لا تؤمنون؟ والفيل هو الحيوان المعروف، وجمعه أفيال، وفيل، وفيلة. قال ابن السكيت: ولا تقول أفيلة، وصاحبه فيال، وسياتي

تفسير سورة قريش

وهي مكية عند الجمهور، وقال الضحاك، والكلبي: هي مدنية.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة: ﴿لإيلاف﴾ بمكة. وأخرج البخاري في تاريخه، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب، أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: أنني فيهم. وفي لفظ: النبوة فيهم، والخلافة فيهم، والحجبة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين. وفي لفظ: عشر سنين لم يعبد أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم: ﴿لإيلاف قريش﴾» [أي: سورة قريش] قال ابن كثير: هو: حديث غريب، ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد إلا قريش، وفضلهم بأنهم نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم، وهي: ﴿لإيلاف قريش﴾، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والسقاية». وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ آلَافُكُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤
اللام في قوله: ﴿لإيلاف﴾ قيل: هي متعلقة بآخر السورة التي قبلها، كأنه قال سبحانه: أهلك أصحاب الفيل لأجل تألف قريش. قال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه نكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة. ثم قال: ﴿لإيلاف قريش﴾ أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله عز وجل، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارته فيبني بها بيتاً في اليمن يحج الناس إليه، فاهلكهم الله عز وجل، فنكرهم نعمته أي: فعل ذلك لإيلاف قريش: أي: ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم، ونكر نحو هذا ابن قتبية. قال الزجاج: والمعنى: فجعلهم كعصف ماكول ﴿لإيلاف قريش﴾ أي: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف. وقال في الكشف: إن اللام متعلق بقوله: ﴿فليعبدوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، وبخلت الفاء لما في الكلام من معنى

فرمت به من أسفل، شبه تقطع أوصالهم بتفريق أجزائه. وقيل المعنى: أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقي منه بقايا، أو أكلت حبه، فبقي ببن حبه. والعصف جمع عصف، وعصافه، وعصيفة، وقد قدمنا الكلام في العصف في سورة الرحمن، فارجع إليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح، فأتاهم عبد المطلب فقال: إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحد، قالوا: لا نرجع حتى نهدمه، وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر، فدعا الله الطير الأبابل، فأعطاهما حجارة سوداً عليها الطين، فلما حانتهم رمتهن، فما بقي منهن أحد إلا أخذته الحكمة، فكان لا يحك الإنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه. وأخرج ابن المنذر، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي عنه قال: أقبل أصحاب الفيل حتى إذا نزلوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم: ما جاء بك إلينا؟ ألا بعثت، فناتيك بكل شيء؟ فقال: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن، فجئت أخيف أهله، فقال: إنا ناتيك بكل شيء تريد، فارجع، فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله، فاقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلمهم طير أبابيل التي قال الله: ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ فجعل الفيل يعج عجا ﴿فجعلهم كعصف ماكول﴾. وقصة أصحاب الفيل مبسطة مطولة في كتب التاريخ والسير، فلا نطول بنكرها. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ قال: حجارة مثل البنق، وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجله، وحجر في منقاره حلقت عليهم من السماء، ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة، فلم تعد عسكرهم. وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء، والضحك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل بريد مجتمعة، لها خراطيم تحمل حصاة في منقارها، وحصاتين في رجلها، ترسل واحدة على رأس الرجل، فيسيل لحمه ودمه ويبقى عظاماً خلوية لا لحم عليها ولا جلد ولا دم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً ﴿فجعلهم كعصف ماكول﴾ يقول: كالتبن. وأخرج ابن إسحاق في السيرة، والواقدي، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل، وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وأخرج الواقدي نحوه عن أسماء بنت أبي بكر. وأخرج أبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس قال: ولد النبي ﷺ عام الفيل. وأخرج ابن إسحاق، وأبو نعيم، والبيهقي عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل.

اطعمهم من جوع ﴿أي﴾ أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وقيل: إن هذا الإطعام هو أنهم لما كتبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها عليهم ستين كسني يوسف، فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون، فدعا، فأنصبا وزال عنهم الجوع، وارتفع القحط ﴿وآمنهم من خوف﴾ أي: من خوف شديد كانوا فيه. قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم. وقال الضحاك، والربيع، وشريك، وسفيان: آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

وقد أخرج أحمد، وابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿لا يزال قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ ويحكم يا قريش، أعبوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف». وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿لا يزال قريش﴾ قال: نعمتي على قريش ﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ قال: الكعبة ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال: الجذام. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه ﴿لا يزال قريش * إيلافهم﴾ قال: لزومهم ﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ يعني قريشاً أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال: ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ [البقرة: 126] ﴿وآمنهم من خوف﴾ حيث قال إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ [البقرة: 126] وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله: ﴿لا يزال قريش﴾ الآية، قال: نهاهم عن الرحلة، وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت، وكفاهم المؤنة، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، ولم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فاطعمهم الله بعد ذلك من جوع، وآمنهم من خوف، فالفوا للرحلة، وكان ذلك من نعمة الله عليهم. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال: أمروا أن يلقوا عبادة رب هذا البيت كإلفالهم رحلة الشتاء والصيف، وقد وردت أحاديث في فضل قريش، وإن الناس تبع لهم في الخير والشر، وإن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنان، وهي في دواوين الإسلام.

تفسير سورة الماعون

وهي مكية في قول عطاء، وجابر، وأحمد قولي ابن عباس، ومبنية في قول قتادة، وآخرين. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت: ﴿أرايت الذي يكذب بالدين﴾ [أي: سورة الماعون] بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

الشرط؛ لأن المعنى: أما لا، فليعبدوه. وقد تقدم صاحب الكشف إلى هذا القول الخليل بن أحمد، والمعنى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة. وقال الكسائي والأخفش: اللام لام التعجب: أي أعجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هي بمعنى إلى. قرأ الجمهور (الإلّاف) بالياء مهموزاً من ألفت أولف إثلافاً، يقال: ألفت الشيء ألفاً وألفاً. وألفته إيلافاً بمعنى، ومنه قول الشاعر:

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف
وقرأ ابن عامر (الإلاف) بدون الياء، وقرأ أبو جعفر (الإلف) وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر، فقال:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم ألف وليس لكم ألف
وقرأ عكرمة (ليالاف قريش) بفتح اللام على أنها لام الأمر، وكذلك هو: في مصحف ابن مسعود، وفتح لام الأمر لغة معروفة. وقرأ بعض أهل مكة (الألف قريش) واستشهد بقول أبي طالب:

تنود الوري من عصبة هاشمية إلّافهم في الناس خير إلّاف
وقريش هم: بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي، ومن لم يلد له النضر فليس بقرشي، وقريش يأتي منصرفاً إن أريد به الحي، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ومنه قول الشاعر:

وكفى قريش المعضلات وسادها

وقيل إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر، والأول أصح، وقوله: ﴿إيلافهم﴾ بدل من إيلاف قريش، و ﴿رحلة﴾ مفعول به لإيلافهم وأقربها، ولم يقل رحلتي الشتاء والصيف لأمن الإلباس، وقيل: إن إيلافهم تأكيد للآول لا بدل، والآول أولى. ورجحه أبو البقاء، وقيل: إن رحلة منصوبة بمصدر مقرر أي: ارتحالهم رحلة ﴿الشتاء والصيف﴾ وقيل: هي منصوبة على الظرفية والرحلة: الارتحال، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء؛ لأنها بلاد حارة، والرحلة الأخرى إلى الشام في الصيف؛ لأنها بلاد باردة. وروي أنهم كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف، والآول أولى، فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف في الجاهلية والإسلام. قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة، وكانت لهم رحلتان في كل سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرف ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم أي: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المنكورة، والبيت الكعبة. وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها، فميز نفسه عنها، وقيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك تنكيراً لنعمته ﴿الذي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَدَتْ أَلَّا يَكْذِبُ بِاللَّيْلِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمَصْلِينَ
﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ﴿٦﴾
وَيَسْتَمُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والاستفهام لقصد التعجب من حال من يكذب بالدين. والرؤية: بمعنى المعرفة، والدين: الجزاء والحساب في الآخرة. قيل: وفي الكلام حذف، والمعنى: أرايت الذي يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطئ: قال مقاتل، والكلي: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقال السدي: في الوليد بن المغيرة. وقال الضحاك: في عمرو بن عائذ. وقال ابن جريج في أبي سفيان، وقيل: في رجل من المنافقين. قرأ الجمهور (أرايت) بإثبات الهمزة الثانية. وقرأ الكسائي بإسقاطها. قال الزجاج: لا يقال في رأيت ريت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفاً، وقيل الرؤية: هي البصرية، فيتعدى إلى مفعول واحد، وهو الموصول أي: أبصرت المكذب. وقيل: إنها بمعنى أخبرني، فيتعدى إلى اثنين. الثاني محذوف: أي من هو ﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ الفاء جواب شرط مقدر: أن إن تأملت أو طلبته، فذلك الذي يدع اليتيم، ويجوز أن تكون عاطفة على الذي يكذب: إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة. فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ، وخبره الموصول بعده، أو خبر لمبتدأ محذوف أي: فهو ذلك، والموصول صفته. وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب. ومعنى يدع يدفع دفعا بعنف، وجفوة أي: يدفع اليتيم عن حقه يدفعاً شديداً، ومنه قوله سبحانه: ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ [الطور: 13] وقد قمنا أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي: لا يحض نفسه، ولا أهله، ولا غيرهم على ذلك بخلاً بالمال، أو تكتيياً بالجزاء، وهو مثل قوله في سورة الحاقة: ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ [الحاقة: 34] ﴿فويل﴾ يومئذ ﴿للمصلين﴾ الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل: إذا كان ما نكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين، فويل للمصلين ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ أي: عذاب لهم، أو هلاك، أو واد في جهنم لهم، كما سبق الخلاف في معنى الويل، ومعنى ساهون: غافلون غير مباليين بها، ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما نكر من قبائحهم، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح آخر غير ما نكر. قال الواحدي: نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صلوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا، وهو معنى قوله: ﴿الذين هم يراءون﴾ أي:

يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراءون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر: لينثوا عليهم. قال النخعي: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا، وهكذا ملتفتاً. وقال قطرب: هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله. وقرأ ابن مسعود الذين هم عن صلاتهم لاهون ﴿ويمنعون للماعون﴾. قال أكثر المفسرين: الماعون اسم لما يتعوزه الناس بينهم: من اللؤلؤ، والفأس، والقدر، وما لا يمنع كالماء، والملح. وقيل هو الزكاة أي: يمنعون زكاة أموالهم. وقال الزجاج: وأبو عبيد، والمبرد: الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفأس، واللؤلؤ، والقدر، والقداحة وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير، وأنشدوا قول الأعشى:

بأجود منه بماعونه إذا ما سماءهم لم تغم
قال الزجاج، وأبو عبيد، والمبرد أيضاً: والماعون في الإسلام الطاعة والزكاة، وأنشدوا قول الراعي:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفا نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى الله من أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا
قوم على الإسلام لما يمنعون ماعونهم ويضيعوا التهليلا
وقيل: الماعون الماء. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون الماء، وأنشدني:

تمج صبيرة الماعون صبا

والصبيرة السحاب، وقيل: الماعون: هو الحق على العبد على العموم، وقيل: هو المستغل من منافع الأموال، مأخوذ من المعن، وهو القليل. قال قطرب: أصل الماعون من القلة، والمعن: الشيء القليل، فسمى الله الصدقة والزكاة، ونحو ذلك من المعروف ماعوناً، لأنه قليل من كثير، وقيل: هو ما لا يبخل به كالماء، والملح، والنان.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿أرايت الذي يكذب بالدين﴾ قال: يكذب يحكم الله ﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ قال: يدفعه عن حقه. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عنه ﴿فويل للمصلين﴾ الذين هم عن صلاتهم ساهون قال: هم المنافقون يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم، وهي الماعون. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه أيضاً ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال: هم: المنافقون يتركون الصلاة في السر، ويصلون في العلانية. وأخرج القرطبي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن مصعب بن سعد قال: قلت لأبي: أرايت قول الله: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ أينما لا يسهو، أينما لا يحدث نفسه؟ قال: إنه ليس ذلك، إنه إضاعة الوقت. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن سعد بن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ نَصَلِّ لِرَبِّكَ وَنَحْمُرُ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ
هُوَ الْآخِرُ ﴿٣﴾

قرأ الجمهور (إنا أعطيناك) وقرأ الحسن، وابن محيصن، وطلحة، والزعفراني (أنطيناك) بالنون. قيل: هي لغة العرب العاربة. قال الأعشى:

حباؤك خير حبا بالملوك يسان الحلال وتنطى الحلولا
و «الكوثر» فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر، العرب تسمي كل شيء كثير في العدد، أو القدر، أو الخطر كوثرًا، ومنه قول الشاعر:

وقد نازع الموت حتى تكوثر

فالمعنى على هذا: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية. وذهب أكثر المفسرين، كما حكاه الواحدي إلى أن الكوثر نهر في الجنة، وقيل: هو حوض النبي ﷺ في الموقف قاله عطاء. وقال عكرمة: الكوثر النبوة. وقال الحسن: هو القرآن. وقال الحسن بن الفضل: هو تفسير القرآن، وتخفيف الشرائع. وقال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب والأمة. وقال ابن كيسان: هو الإيثار. وقيل هو الإسلام، وقيل: رفعة النكر، وقيل: نور القلب، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات، وقيل: إجابة الدعوة، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الصلوات الخمس، وسيأتي بيان ما هو الحق «فصل لربك» الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمراد الأمر له ﷺ بالنوام على إقامة الصلوات المفروضة «وانحر» البين التي هي خيار أموال العرب. قال محمد بن كعب: إن ناسًا كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فامر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له. وقال قتادة، وعطاء، وعكرمة: المراد صلاة العيد، ونحر الأضحية. وقال سعيد بن جبير: صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع. وانحر البين في منى، وقيل: النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر قاله محمد بن كعب. وقيل: هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبير إلى حذاء نحره. وقيل: هو أن يستقبل القبلة بنحره قاله الفراء، والكلبي، وأبو الأحوص. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول نتناحر: أي: نتقابل: نحر هذا إلى نحر هذا أي: قبالته، ومنه قول الشاعر:

إباحكم ما أنت عمرا مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

أي: المتقابل. وقال ابن الأعرابي: هو: انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر تتقابل. ودوي عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوي بين السجدين جالسًا حتى يبدو نحره. وقال سليمان التيمي: المعنى: وارفع يديك بالدعاء إلى نحر، وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة، ومطلق النحر، وأن يجعلهما لله عز وجل لا لغيره،

أبي وقاص قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: «الذين هم عن صلاتهم ساهون» قال: هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها. قال الحاكم، والبيهقي: الموقوف أصح. قال ابن كثير: وهذا يعني الموقوف أصح إسنادًا. قال: وقد ضعف البيهقي رفعه وصحّ وقفه، وكذلك الحاكم. وأخرج ابن جرير، وابن مروي عن قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي برزة الأسلمي قال: «لما نزلت هذه الآية: «الذين هم عن صلاتهم ساهون» قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته، وإن تركها لم يخف ربه، وفي إسناد جابر الجعفي، وهو ضعيف، وشيخه مبهم لم يسم. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هم الذين يؤخرونها عن وقتها. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مروي، والبيهقي في سننه من طرق عن ابن مسعود قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية اللو، والقدر، والفاس، والميزان، وما تتعاطون بينهم. وأخرج ابن مروي عنه قال: كان المسلمون يستعربون من المنافقين القدر، والفاس، وشبهه، فيمنعونهم، فانزل الله «ويمنعون للماعون» وأخرج أبو نعيم، والديلمي، وابن عساکر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في الآية قال: ما تلون الناس بينهم الفاس، والقدر، واللو، وأشباهه. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مروي عن قرّة بن دعموص النميري: «أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ما تعهد إلينا؟ قال: لا تمنعوا الماعون، قالوا: وما الماعون؟ قال: في الحجر، والحديدة، وفي الماء، قالوا: فأي الحديد؟ قال: قنوركم النحاس، وحديد الفاس الذي تمتنون به، قالوا: وما الحجر؟ قال: قنوركم الحجارة. قال ابن كثير: غريب جداً، ورفعه منكر، وفي إسناد من لا يعرف. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبي ﷺ الماعون: الفاس، والقدر، واللو. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في الآية قال: عارية متاع البيت. وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال: الماعون الزكاة المفروضة «يراعون» بصلاتهم «ويمنعون» زكاتهم.

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية في قول ابن عباس، والكلبي، ومقاتل. ومنية في قول الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقاتدة. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة أنها نزلت سورة الكوثر بمكة.

وأحمد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال: قال محارب بن نثار: قال سعيد بن جبير في الكوثر: قلت حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير، فقال: صدق إنه للخير الكثير، ولكن حدثنا ابن عمر قال: نزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافظه من ذهب يجري على الدرّ والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل». وأخرج البخاري، وابن جرير، والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير، فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوي كما عرفناك، ولكن رسول الله ﷺ قد فسّره فيما صح عنه أنه النهر الذي في الجنة، وإذا جاء نهر الله يطل نهر معقل. وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال: «لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فصل لربك وانحر» قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما هذه النخيرة التي أمرني بها ربّي؟ فقال: إنها ليست بنخيرة، ولكن يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا، وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة، قال النبي ﷺ: رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: 76] هو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصمعي بن نباتة عن علي. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: «إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرِكَ إذا كبرت للصلاة، فذاك النحر». وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ قال: وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى، ثم وضعهما على صدره في الصلاة. وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في سننه عن أنس عن النبي ﷺ مثله. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن شاهين في سننه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس ﴿فصل لربك وانحر﴾ قال: إذا صليت، فرفعت رأسك من الركوع، فاستو قائماً. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: الصلاة المكتوبة، والذبح يوم الأضحي. وأخرج البيهقي في سننه عنه: ﴿وانحر﴾ قال: يقول: وانبح يوم النحر. وأخرج البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة. فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، ألا ترى إلى هذا الصابئ

وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص، فهو في حكم التقييد له، وسياتي إن شاء الله ﴿إِن شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: إن ميغضك هو المنقطع عن الخير على العموم. فيعمّ خيرى الدنيا والآخرة، أو الذي لا عقب له، أو الذي لا يبقى نكره بعد موته، وظاهر الآية العموم، وإن هذا شأن كل من يبغض النبي ﷺ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما مرّ غير مرّة، قيل: كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا: قد بتر فلان، فلما مات ابن رسول الله ﷺ إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد، فنزلت الآية. وقيل: القائل بذلك عقبه بن أبي معيط. قال أهل اللغة: الأبتَر من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الواب: الذي لا نذب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتَر، وأصل البتر القطع، يقال بترت الشيء بترّاً: قطعته.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أنس قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتهماً فقال: إنه أنزل عليّ أنفاً سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربّي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمّتي يوم القيامة، أنيته كعند الكواكب يختلج العبد منهم فاقول يا ربّ إنه من أمّتي، فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعنك». وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه. وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة، فإذا أنا بنهر حافظه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أنفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله، وقد روي عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذي في الجنة. وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن جرير، وابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ في بطنان الجنة. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر في الجنة. وأخرج الطبراني في الأوسط عن حذيفة في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال: نهر في الجنة، وحسن السيوطي إسناده. وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعاً: «لأنه قيل لرسول الله ﷺ: إنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر، فقال: أجل، وأرضه ياقوت، ومرجان، وزبرجد، ولؤلؤ». وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن رجلاً قال: يا رسول الله ما الكوثر؟ قال: هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله، فهذه الأحاديث تدلّ على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة، فيتعين المصير إليها، وعدم التعويل على غيرها، وإن كان معنى الكوثر: هو الخير الكثير في لغة العرب، فمن فسّره بما هو أعمّ مما ثبت عن النبي ﷺ، فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي، كما أخرج ابن أبي شيبة،

ومن قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ فكانما قرأ ثلث القرآن. وأخرج أحمد، وابن الضريس، والبخاري، وحמיד بن زنجويه في تروغيه عن شيخ أترك النبي ﷺ قال: «خرجت مع النبي ﷺ في سفر فمرّ برجل يقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [أي: سورة الكافرون] فقال: أما هذا فقد برئ من الشرك، وإذا آخر يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ [أي: سورة الصمد] فقال النبي ﷺ: بها وجبت له الجنة»، وفي رواية «أما هذا فقد غفر له». وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه أنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال: «اقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك»، وأخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية الأشجعي: «إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فإنك إذا قلتها، فقد برئت من الشرك». وأخرج أحمد، والطبراني في الأوسط عن الحارث بن جبلة، وقال الطبراني عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة قال: «قلت يا رسول الله علمني شيئاً أقوله عند منامي قال: إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى تمرّ بأخرها، فإنها براءة من الشرك». وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «اقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عند منامك، فإنها براءة من الشرك». وأخرج أبو يعلى، والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أهلكم على كلمة تنجيكم من الإشرار بالله تقرأون ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عند منامكم». وأخرج البزار، والطبراني، وابن مردويه عن خباب أن النبي ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعك، فاقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وإن النبي ﷺ لم يأت فراشه قط إلا قرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى يختم». وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي الله بسورتين، فلا حساب عليه ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال: من قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾ في ليلة فقد أكثر وأطاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتُوبُ الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنتَ عَبدٌ مَا عَبُدُوا ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنتَ عَبدٌ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكَ دِينُكَ وَلِيَ دِينِ ۝

الالف، واللام في ﴿يا أيها الكافرون﴾ للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على

المنبت من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إن شأئك هو الأبتقر﴾ ونزلت: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ [النساء: 44] إلى قوله: ﴿قلن تجد له نصيراً﴾ [النساء: 52] قال ابن كثير: وإسناده صحيح. وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن أبي أيوب قال: لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا: إن هذا الصائب قد بتر الليلة، فأنزل الله: ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ إلى آخر السورة. وأخرج ابن سعد، وابن عساکر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم، وهو أول ميت من أهله، وولده بمكة، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتقر، فأنزل الله: ﴿إن شأئك هو الأبتقر﴾ وفي إسناده الكلبي. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿إن شأئك هو الأبتقر﴾ قال: أبو جهل. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه ﴿إن شأئك﴾ يقول: عدوك.

تفسير سورة الكافرون

وهي مكية في قول ابن مسعود، والحسن، وعكرمة. ومننية في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة ﴿يا أيها الكافرون﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزلت ﴿يا أيها الكافرون﴾ [أي: سورة الكافرون] بالمدينة. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر: «أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، و﴿قل هو الله أحد﴾ [أي: سورة الصمد] في ركعتي الطواف. وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر. وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، وابن مردويه عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة، أو بضع عشرة مرة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾». وأخرج الحاكم وصححه عن أبي قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بسبح، و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾. وأخرج محمد بن نصر، والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن، و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ تعدل ربع القرآن، وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر». وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ يا أيها الكافرون كانت له عدل ربع القرآن». وأخرج الطبراني في الصغير، والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فكانما قرأ ربع القرآن،

واحد، وهو لفظ لا في كل واحد منها، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة. وأما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال، فهو إقرار منه بالتكرار؛ لأن حمل هذا على معنى، وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل. وإذا تقرّر لك هذا، فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذاهبهم التي لا تجحد، واستعمالاتهم التي لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرّروا؛ كما أن مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه؛ لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء، ويبرهن على ما هو متنازع فيه. وأما ما كان من الوضوح، والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شك، ولا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القول والقليل. وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور، كما في سورة الرحمن، وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر، ومن ذلك قول الشاعر:

يا لبكر انشروا لي كليباً يا لبكر أين أين الفرار
وقول الآخر:

هلا سألت جموع كند دة يوم ولو أين أيننا
وقول الآخر:

يا علقمة يا علقمة يا علقمة خير تميم كلها وأكرمهم
وقول الآخر:

ألا يا أسلمى ثم أسلمى ثمت أسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم
وقول الآخر:

يا جعفر يا جعفر يا جعفر إنك لحداحاً فأنت أقصر
وقول الآخر:

أناك أذاك اللاحقك احبس احبس

وقد ثبت عن الصائغ المصدق، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات، وإذا عرفت هذا، ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوهم من عبادته آلهتهم، وإنما عبر سبحانه بما التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة؛ لأنه يجوز ذلك كما في قوله: سبحانه ما سخركن لنا، ونحوه، والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد، ولا يختلف. وقيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق. وقيل: إن «ماء» في المواضع الأربعة هي: المصدرية لا الموصولة: أي: لا أعبد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي إلخ، وجملة: **«لكنكم دينكم»** مستأنفة: لتقرير قوله: **«لا أعبد ما تعبدون»** وقوله: **«ولا أنا عابد ما عبدتم»** كما أن قوله: **«ولي دين»** تقرير لقوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** في

كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك؛ لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه. وسبب نزول هذه السورة أن الكفار سألو رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأمره الله سبحانه أن يقول لهم: **«لا أعبد ما تعبدون»** أي: لا أقبل ما تطلبون مني من عبادة ما تعبدون من الأصنام، قيل: والمراد فيما يستقبل من الزمان؛ لأن لا النافية لا تدخل في الغالب إلا على المضارع الذي في معنى الاستقبال، كما أن «ماء» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** أي: ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي **«ولا أنا عابد ما عبدتم»** أي: ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه، والمعنى: أنه لم يعهد مني ذلك **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** أي: وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته، كذا قيل، وهذا عل قول من قال إنه لا تكرر في هذه الآيات؛ لأن الجملة الأولى لنفي العبادة في المستقبل لما قمنا من أن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، والدليل على ذلك أن لن تأكيد لما تنفيه لا. قال الخليل في لن: إن أصله لا، فالمعنى: لا أعبد ما تعبدون في المستقبل، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهي. ثم قال: **«ولا أنا عابد ما عبدتم»** أي: ولست في الحال بعباد معبودكم، ولا أنتم في الحال بعبادين معبودي. وقيل: بعكس هذا، وهو أن الجملتين الأولىين للحال، والجملتين الأخريين للاستقبال بلبيل قوله: **«ولا أنا عابد ما عبدتم»** كما لو قال القائل: أنا ضارب زيداً، وأنا قاتل عمراً، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال. قال الأخفش، والفراء: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد. قال الزجاج: نفى رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال وفيما يستقبل، ونفى عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل. وقيل: إن كل واحد منهما يصلح للحال، والاستقبال، ولكننا نخص أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال رفعا للتكرار. وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: لا أعبد ما تعبدون للاستقبال، وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية، ولكنه لا يتم جعل قوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** للاستقبال؛ لأن الجملة اسمية تفيد النوام، والثبات في كل الأوقات، فندخل النفي عليها يرفع ما نلت عليه من النوام، والثبات في كل الأوقات، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله: **«ولا أنا عابد ما عبدتم»** وفي قوله: **«ولا أنتم عابدون ما أعبد»** فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال، وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس، لأن الجملة الثانية، والثالثة، والرابعة كلها جمل اسمية مصدرية بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده متفية كلها بحرف

النصر] حتى ختمها، فعرف رسول الله ﷺ أنها الوداع. وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: نعتيت إلي نفسي». وأخرج ابن مردويه عنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: نعتيت إلي نفسي، وقرب إلي اجلي». وأخرج النسائي، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عنه أيضاً قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نعتيت لرسول الله نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان قط اجتهداً في أمر الآخرة. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أم حبيبة قالت: «لما أنزل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: إن الله لم يبعث نبياً إلا عمر في أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة في بني إسرائيل، وهذه لي عشرون سنة، وأنا ميت في هذه السنة، فبكت فاطمة، فقال النبي ﷺ: أنت أول أهلي بي لحوقاً فتبسمت». وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: إنه نعتيت إلي نفسي، فبكت، ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعتيت إليه نفسه فبكت؟ فقال: اصبري، فإنك أول أهلي لحاقاً بي فضحكت» وقد تقدّم في تفسير سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَنْبَاءً ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّكَ كَانَتْ تَوَّابًا ﴿١﴾
النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها، ومنه قول الشاعر:

إذا انصرف لشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر
يقال نصره على عدوه ينصره نصراً: إذا أعانه، والاسم النصر، واستنصره على عدوه: إذا سأل أن ينصره عليه. قال الواحدي: قال المفسرون: ﴿إِذَا جَاءَ﴾ بك يا محمد «نصر الله» على من عاداك، وهم: قريش ﴿وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة، وقيل: المراد نصره ﷺ على قريش من غير تعيين، وقيل: نصره على من قاتله من الكفار، وقيل: هو فتح سائر البلاد، وقيل: هو ما فتحه الله عليه من العلوم، وعبر عن حصول النصر، والفتح بالمجيء للإيذان بأنهما متوجهان إليه ﷺ. وقيل: إذا بمعنى قد، وقيل: بمعنى إذ. قال الرازي: الفرق بين النصر والفتح: أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقاً، والنصر كالسبب للفتح، فلهاذا بدأ بذكر النصر، وعطف عليه الفتح؛ أو يقال النصر كمال الدين، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة؛ أو يقال: النصر الظفر، والفتح الجنة، هذا معنى كلامه. ويقال: الأمر أوضح من هذا وأظهر، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر

الموضعين أي: إن رضيتم ببنيكم، فقد رضيتم ببيني، كما في قوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [البقرة: 139] والمعنى: أن دينكم الذي هو الإشراف مقصور على الحصول لكم لا يتجاوز به إلى الحصول لي، كما تطمعون، وبيني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوز به إلى الحصول لكم. وقيل المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدين الجزاء. قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأنها أخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ. قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله (ولي) وقرأ نافع، وهشام، وحفص، والبرقي بفتحها. وقرأ الجمهور أيضاً بحذف الياء من بيني وقفاً ووصلاً، وأثبتها نصر بن عاصم، وسلام، ويعقوب، وصلاً ووقفاً. قالوا: لأنها اسم، فلا تحذف. ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ، وإن كانت اسماً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن عباس: «أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويؤجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا، ولا تنكرها بسوء، فإن لم تفعل، فإننا نعرض عليك خصلة واحدة، ولك فيها صلاح، قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة، وتعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فجاء الوحي من عند الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر السورة، وأنزل الله: ﴿قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَامِرُونِي أَعْبُدْ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: 64] إلى قوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 66].

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصالحف عن سعيد بن مينا مولى أبي البحتري قال: «لقي الوليد بن المغيرة، والحاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف رسول الله ﷺ قالوا: يا محمد هلم، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن، وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة». وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس أن قريشاً قالت: لو استسلمت آلهتنا لعبدنا إلهك، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة كلها.

تفسير سورة النصر

وهي منية بلا خلاف. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بالمدينة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. وأخرج ابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، والبرز، وأبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال: هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [أي: سورة

بالاستغفار أي: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتواب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين. وقد حكى الرازي في تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة نلت على نبي رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن مروي عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقالوا: فتح المدائن والقصور، قال: فانت يا ابن عباس ما تقول؟ قال: قلت مثل ضرب لمحمد ﷺ نعت له نفسه. وأخرج البخاري، وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمت، فدعاهم ذات يوم، فدخله معهم، فما رايت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريههم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول. وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبي بكر أن سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حين أنزلت على رسول الله أن نفسه نعت إليه. وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مروي عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، واستغفره وأتوب إليه، فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال: خبرني ربي أنني سارى علامة من أمتي، فإذا رايتها كثرت من قول سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقد رايتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفولاً﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً». وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن» يعني: إذا جاء نصر الله والفتح، وفي الباب لحديث. وأخرج ابن مروي عن أبي هريرة قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: جاء أهل اليمن هم أرق قلوباً، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية». وأخرج الطبراني، وابن مروي عن ابن عباس قال: «بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن، قوم رقيقة قلوبهم لبنة طاعتهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية». وأخرج ابن مروي عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفولاً، وسيخرجون منه أفولاً». وأخرج الحاكم

الأعداء وغلبهم، والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مسكن الأعداء، ويدخل منازلهم ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفولاً﴾ أي: أبصرت الناس من العرب، وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به جماعات فوجاً بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفولاً أي: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. قال عكرمة، ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، وذلك أنه ورد من اليمن سبع مائة إنسان مؤمنين وانتصاب أفولاً على الحال من فاعل يدخلون، ومحل قوله: يدخلون في دين الله النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، وإن كانت بمعنى العلم، فهو في محل نصب عى أنه المفعول الثاني ﴿فسبح بحمد ربك﴾ هذا جواب الشرط، وهو العامل فيه، والتقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله. وقال مكي: العامل في إذا هو جاء، ورجحه أبو حيان، وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، وقوله: ﴿بحمد ربك﴾ في محل نصب على الحال أي: فقل سبحان الله ملتبساً بحمده، أو حامداً له. وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤنن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له، وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر، والفتح لَمْ أَلْقِ التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افترؤا عليه من الأقوال الباطلة، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن. ونحو ذلك. ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار أي: اطلب منه المغفرة لذنبك هضماً لنفسك، واستقصاراً لعملك، واستدراكاً لما فرط منك من ترك ما هو الأولى، وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق الله، ويكثر من الاستغفار والتضرع، وإن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وقيل: إن الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعيدهم الله به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم. وقيل: إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لامته، وتعريضاً بهم فكانهم هم المأمورون بالاستغفار. وقيل: إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لامته لا لذنبه. وقيل: المراد بالتسبيح هنا الصلاة، والأولى حملة على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة، وفرحاً بما هياه الله من نصر الدين، وكبت أعدائه، ونزول الذلة بهم، وحصول القهر لهم. قال الحسن: أعلم الله رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح، والتوبة؛ ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمك اغفر لي إنك أنت التواب». قال قتادة، ومقاتل: وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين، وجملة: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ تعليل لأمره ﷺ

﴿وما كسب﴾ أن تكون استفهامية أي: وأي شيء كسب؟ ويجوز أن تكون مصدرية أي: وكسبه. والظاهر أن «ما» الأولى نافية، والثانية موصولة. ثم أوعده سبحانه بالنار فقال: ﴿سيعصلي ناراً ذات لهب﴾ قرأ الجمهور (سيعصلي) بفتح الياء، وإسكان الصاد، وتخفيف اللام: أي: سيعصلي هو بنفسه، وقرأ أبو رجاء، وأبو حيرة، وابن مقسم، والأشهب العقيلي، وأبو السماك، والأعمش، ومحمد بن السميغ بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، والمعنى سيعصلي الله، ومعنى «ذات لهب» ذات اشتعال وتوقد، وهي: نار جهنم ﴿وامراته حمالة الحطب﴾ معطوف على الضمير في يصلي، وجاز ذلك للفصل أي: وتصلي امراته ناراً ذات لهب، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وكانت تحمل الغصن والشوك، فتنطره بالليل على طريق النبي ﷺ، كذا قال ابن زيد، والضحاك، والربيع بن أنس، ومرة الهمداني. وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: إنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس. والعرب تقول: فلان يحطب على فلان: إذا نم به، ومنه قول الشاعر:

إن بني الأبرم حملوا الحطب هم الرشاة في الرضا والغضب
عليهم اللعنة تنرى والحرب

وقال آخر:

من البيض لم يصط على ظهر لامة ولم يمش بين الناس بالحطب الرطب
وجعل الحطب في هذا البيت رطباً لما فيه من التدخين الذي هو زيادة في الشر، ومن الموافقة للمشي بالنميمة. وقال سعيد بن جبير: معنى حمالة الحطب أنها حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحطب على ظهره، كما في قوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ [الأنعام: 31] وقيل: للمعنى حمالة الحطب في النار. قرأ الجمهور (حمالة) بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب، وأما على ما قدمنا من عطف، وامراته على الضمير في تصلى، فيكون رفع حمالة على النعت لامراته، والإضافة حقيقية؛ لأنها بمعنى المضى، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هي حمالة. وقرأ عاصم ينصب (حمالة) على الذم، أو على أنه حال من امراته. وقرأ أبو قلابة (حاملة الحطب) ﴿في جدها حبل من مسد﴾ الجملة في محل نصب على الحال من امراته، والجيد العنق، والمسد الليف الذي تقتل منه الحبال، ومنه قول النابغة:

مقنونة بحيض النحض نازلها له صريف صريف القواء بالمسد
وقول الآخر:

يامسد الخوض تعوذ مني إن كنت لسنالينا فإني
وقال أبو عبيدة: المسد هو الحبل يكون من صوف. وقال الحسن: هي حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد. وقد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها. قال الضحاك، وغيره: هذا في الدنيا، كانت تعير النبي ﷺ

وصححه عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ قال: ليخرجن منه أفواجا، كما دخلوا فيه أفواجا».

تفسير سورة المسد

وهي مكية بلا خلاف. وأخرج ابن مروي عن ابن عباس، وابن الزبير، وعائشة قالوا: نزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ [أي: سورة المسد] بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝

معنى: ﴿تبت﴾ هلك. وقال مقاتل: خسرت، وقيل: خابت. وقال عطاء: ضلت. وقيل: صفرت من كل خير، وخصّ اليبين بالتب، لأن أكثر العمل يكون بهما. وقيل: المراد باليبين نفسه، وقد يعبر باليد عن النفس، كما في قوله: ﴿بما قدمت يدك﴾ [الحج: 10] أي: نفسك، والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله، كقولهم: أصابته يد الدهر، وأصابته يد الغمايا، كما في قول الشاعر:

لما اكبت يد الرزايا عليه نادى الأخبـر

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، وقوله: ﴿وتب﴾ أي: هلك. قال الفراء: الأوّل دعاء عليه، والثاني خبر، كما تقول: أهلكه الله وقد هلك. والمعنى: أنه قد وقع ما دعا به عليه، ويؤيده قراءة ابن مسعود (وقد تب). وقيل: كلاهما إخبار، أراد بالأوّل هلاك عمله، وبالثاني هلاك نفسه. وقيل: كلاهما دعاء عليه، ويكون في هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص، وإن كان حقيقة اليبين غير مرادة، ونكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها، ولكون اسمه، كما تقدم عبد العزى، والعزى اسم صنم، ولكون في هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار؛ لأن اللهب هي لهب النار، وإن كان إطلاق ذلك عليه في الأصل لكونه كان جميلاً، وأن وجهه يتلهب لمزيد حسنه، كما تتلهب النار. قرأ الجمهور (لهب) بفتح اللام، والهاء. وقرأ مجاهد، وحמיד، وابن كثير وابن محيصن بإسكان الهاء، واتفقوا على فتح الهاء في قوله: ﴿ذات لهب﴾ وروى صاحب الكشف أنه قرئ: تبت يدا أبو لهب، ونكر وجه ذلك ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ أي: ما دفع عنه ما حلّ به من التباب، وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح والجاه، أو المراد بقوله: ماله ما ورثه من أبيه، ويقول: ﴿وما كسب﴾ الذي كسبه بنفسه. قال مجاهد: وما كسب من ولد، وولد الرجل من كسبه، ويجوز أن تكون «ما» في قوله: ﴿ما أغنى﴾ استفهامية أي: أي شيء أغنى عنه؟ وكذا يجوز في قوله:

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية في قول ابن مسعود، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر، ومندية في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي. وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، والترمذي، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن أبي عاصم في السنة، والبيهقي في معجمه، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب: «أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قل هو الله أحد لم يلد ولم يولد﴾ إلخ ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت، ولا يورث ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ قال: لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء» ورواه الترمذي من طريق أخرى عن أبي العالية مرسلاً، ولم يذكر أبيه، ثم قال: وهذا أصح. وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي عن جابر، قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قل هو الله أحد﴾ إلى آخر السورة» وحسن السيوطي إسناده. وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال: «قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة ﴿قل هو الله أحد﴾». وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عدي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس: «أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله: ﴿قل هو الله أحد﴾ * الله الصمد * لم يلد * فيخرج منه الولد. ولم يولد، فيخرج منه شيء». وأخرج أبو عبيد في فضائله، وأحمد، والنسائي في اليوم والليلة، وابن منيع، ومحمد بن نصر، وابن مريويه، والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فكانما قرأ ثلث القرآن». وأخرج ابن الضريس، والبزار، والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي ﷺ: «من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ مائتي مرة غفر له نيب مائتي سنة». قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبي جعفر، والأغلب بن تميم، وهما يتقاربان في سوء الحفظ. وأخرج أحمد، والترمذي، وابن الضريس، والبيهقي في سننه عن أنس قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة: ﴿قل هو الله أحد﴾، فقال رسول الله ﷺ: حبك إياها أدخلك الجنة». وأخرج ابن الضريس، وأبو يعلى، وابن الأنباري في المصاحف عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ ثلاث مرّات في ليلة؟ فإنها تعدل ثلث القرآن» وإسناده ضعيف. وأخرج محمد بن نصر، وأبو يعلى عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ خمسين مرّة غفر له نوب

بالفقر، وهي تحتطب في جبل تجعله في عنقها فخنقها الله به فاهلكها، وهو في الآخرة جبل من نار. وقال مجاهد، وعروة بن الزبير: هو سلسلة من نار تنخل في فيها وتخرج من أسفلها. وقال قتادة: هو قلادة من ودع كانت لها. قال الحسن: إنما كان خرزاً في عنقها. وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللّات والعزى، لأنفقنا في عداوة محمد، فيكون ذلك عذاباً في جسدها يوم القيامة. والمسد الفتل يقال: مسد حبله يمسده مسداً: لجاد فتلته اهـ.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿وانذر عشيرتک الاقربين﴾ [الشعراء: 214] خرج النبي ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل اكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإنني نذير لكم بني يدي عذاب شديد؛ فقال أبو لهب: تباً لك إنما جععتنا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ قال: خسرت. وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: إن أظيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ابنه من كسبه. ثم قرأت: ﴿وما أغنى عنه ماله وما كسبه﴾ قالت: وما كسب ولده. وأخرج عبد الرزاق، والحاكم، وابن مريويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كسب﴾ قال: كسبه ولده. وأخرج ابن جرير، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله: ﴿ولم يرته حمالة للحطب﴾ قال: كانت تحمل الشوك فتطرعه على طريق النبي ﷺ ليعقره وأصحابه، وقال ﴿حمالة للحطب﴾ نقالة الحديث ﴿حبل من مسد﴾ قال: هي حبال تكون بمكة. ويقال: المسد العصا التي تكون في البكرة. ويقال: المسد قلادة من ودع. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «لما نزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول:

منمما أبينا وبينه قلينا
وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآنًا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ [الإسراء: 45] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر إنني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا، ورب البيت ما هجاك فولت وهي تقول: قد علمت قريش أنني ابنة سيدها، وأخرج البزار بمعناه، وقال: لا نعلمه يروى بالحسن من هذا الإسناد.

فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخاري، ومسلم، وغيرهما: «أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قل هو الله أحد﴾، فلما رجعوا نكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال: أخبروه أن الله تعالى يحبه، هذا لفظ البخاري في كتاب التوحيد. وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الصلاة من حديث أنس قال: «كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة، فقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالآخرى، فلما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، قال: ما أنا بباركها إن أحببتكم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما اتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: إني أحبها، قال: حبك إياها أدخلك الجنة، وقد روي بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

قوله: ﴿قل هو الله أحد﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول، وأن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، والله مبتدأ ثان، وأحد خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن يكون الله بدلاً من هو، والخبر أحد. ويجوز أن يكون أحد خبراً أول، وأحد خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون أحد خبراً لمبتدأ محذوف أي: هو أحد. ويجوز أن يكون هو ضمير شأن؛ لأنه موضع تعظيم، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه، والأول أولى. قال الزجاج: هو كناية عن نكر الله، والمعنى: إن سألتم تبين ﴿قل هو الله أحد﴾، قيل: وهمزة أحد بدل من الواو، وأصله واحد. وقال أبو البقاء: همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوقة، ونكر أن أحد يفيد العموم بون واحد، ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري: أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى، لا يقال رجل أحد، ولا درهم أحد؛ كما يقال رجل واحد، ودرهم واحد، قيل: والواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد. وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد وأحد لا يدخل فيه. وردّ عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون، ونحوه، فقد دخله العدد، وهذا كما ترى، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل. قرأ الجمهور (قل هو الله أحد) بإثبات قل.

خمسین سنة» وإسناده ضعيف. وأخرج الترمذي، وابن عدي، والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مائتي مرة، كتب الله له ألفاً وخمس مائة حسنة، ومحى عنه ذنوب خمسین سنة، إلا أن يكون عليه دين» وفي إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخاري وغيره، ولفظ الترمذي: «من قرأ في يوم مائتي مرة: ﴿قل هو الله أحد﴾، محى عنه ذنوب خمسین سنة، إلا أن يكون عليه دين»، وفي إسناده حاتم بن ميمون المذکور. وأخرج الترمذي، ومحمد بن نصر، وأبو يعلى، وابن عدي، والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينام على فراشه من الليل، فنام على يمينه ثم قرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مائة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب: يا عبدي اسأل على يمينك الجنة، وفي إسناده أيضاً حاتم بن ميمون المذکور. قال الترمذي بعد إخراجها: غريب من حديث ثابت. وقد روي من غير هذا الوجه عنه. وأخرج ابن سعد، وابن الضريس، وأبو يعلى، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: «كان النبي ﷺ بالشام، وفي لفظ: بتبوك، فهبط جبريل فقال: يا محمد إن معاوية بن معاوية المزني هلك، افتح تصلي عليه؟ قال نعم، فضرب بجناحه الأرض، فتنصعصع له كل شيء، ولزق بالأرض ورفع له سريره، فصلى عليه، فقال النبي ﷺ: من أي شيء أوتي معاوية هذا الفضل، صلى عليه صفان من الملائكة في كل صف ستة آلاف ملك؟ قال: بقرأة ﴿قل هو الله أحد﴾ كان يقرؤها قائماً، وقاعداً، وجائياً، وذاهباً، وناثماً، وفي إسناده العلاء بن محمد الثقفي وهو متهم بالوضع. وروي عنه من وجه آخر باطول من هذا، وفي إسناده هذا المتهم. وفي الباب أحاديث في هذا المعنى وغيره. وقد روي من غير الوجه أنها تعدل ثلث القرآن، وفيها ما هو صحيح، وفيها ما هو حسن؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم، والترمذي وصححه، وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ ثم نخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: إنني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن». وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» يعني: ﴿قل هو الله أحد﴾. وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه «أيحز أحكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينما يطيق ذلك؟ فقال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن». وأخرج مسلم، وغيره من حديث أبي الدرداء نحوه. وقد روي نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة، وحديث ابن مسعود، وحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وروي نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن، وبعضها ضعيف، ولو لم يرد في

فقال: **«لم يلد ولم يولد»** قال الرازي: قدّم ذكر نفي الولد مع أن الولد مقّم للاهتمام، لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين: إن الملائكة بنات الله، واليهود: عزيز ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ولم يدع أحد أن له والدًا، فلهذا السبب بدأ بالاهم، فقال: **«لم يلد»** ثم أشار إلى الحجة فقال: **«ولم يولد»** كأنه قيل: الليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي، ولم ينكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل؛ لأنه ورد جواباً عن قولهم: ولد الله، كما حكى الله عنهم بقوله: **«إلا إنهم من إفكهم *** ليقولون ولد الله» [الصفات: 151، 152] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم، وهم: إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفي فيما مضى، وربت الآية لنفع قولهم هذا **«ولم يكن له كفواً أحد»** هذه الجملة مفرّدة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله ولا يشاركه في شيء، وأخر اسم كان لرعاية الفواصل، وقوله: «له» متعلق بقوله: «كفواً» قدم عليه لرعاية الاهتمام؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته. وقيل: إنه في محل نصب على الحال، والأول أولى. وقد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية؛ لأن سيبويه قال: إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخبر، وهنا لم يجعل خبراً مع تقدّمه، وقد ردّ على المبرد بوجهين: أحدهما أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوازاً. والثاني أننا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر، بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال وحكى في الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربي للفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لفظ غير مستقر، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أوّل كلام سيبويه، ولم ينظر إلى آخره، فإنه قال في آخر كلامه: والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير. انتهى. قرأ الجمهور (كفواً) بضم الكاف والفاء، وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعرج، وسيبويه، ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء، وروي ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة وأوّاً وصلّاً ووقفاً، وقرأ نافع في رواية عنه (كفاً) بكسر الكاف، وفتح الفاء من غير مدّ، وقرأ سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العباس كذلك مع المد، وأنشد قول النابغة:

لا تقنّني بركن لا كفاه له

والكفء في لغة العرب النظير، يقول هذا كفوك أي: نظيرك، والاسم الكفاءة بالفتح.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والمحامي في أماليه، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن بريد لا أعلمه إلا رفعه. قال: **«الصمد»** الذي لا جوف له، ولا يصح رفع هذا. وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: **«الصمد»** الذي لا جوف له، وفي لفظ: ليس له أحشاء. وأخرج ابن أبي عاصم، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله.

وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي (الله أحد) بدون قل. وقرأ الأعمش (قل هو الله الواحد) وقرأ الجمهور: بتنوين أحد، وهو: الأصل. وقرأ زيد بن عليّ، وأبان بن عثمان، وابن أبي إسحاق، والحسن، وأبو السماك، وأبو عمرو في رواية عنه بحذف التنوين للخفة، كما في قول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجايف
وقيل: إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين. ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأوّل منهما بالكسر **«الله الصمد»** الإسم الشريف مبتدأ، والصمد خبره. والصمد هو الذي يصمد إليه في الحاجات أي: يقصد لكونه قادراً على قضائها، فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض؛ لأنه مصمود إليه أي: مقصود إليه، قال الزجاج: الصمد السند الذي انتهى إليه السؤدد، فلا سيد فوقه. قال الشاعر:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
وقيل معنى الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول، وقيل: معنى الصمد ما ذكر بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد. وقيل: هو المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقيل: هو المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأوّل. وقيل: هو الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقيل: هو الكامل الذي لا عيب فيه. وقال الحسن، وعكرمة، والضحاك، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعطاء، وعطية العوفي، والسديّ، الصمد هو المصمت الذي لا جوف، ومنه قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جباهه عوايس يعلكن الشكيم المصمدا
وهذا لا ينافي القول الأوّل لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحواش، ولهذا أطبق على القول الأوّل أهل اللغة وجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر:

علوته بحسام ثم قلت له خذها حنيف فأتى السيد الصمد
وقال الزبير بن بدر:

سيروا جميعاً بصف الليل واعتموا ولا رهينة إلا سيد صمد
وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، وحذف العاطف من هذه الجملة؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى، وقيل: إن الصمد صفة للاسم الشريف، والخبر هو ما بعده. والأول أولى؛ لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة **«لم يلد ولم يولد»** أي: لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء، لأنه لا يجانسه شيء، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً. قال قتادة: إن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله. وقالت اليهود: عزيز ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فأكنبهم الله

«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» [أي: سورة الفلق] و «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» [أي: سورة الناس]. وأخرج ابن الضريس، وابن الأنباري، والحاكم وصححه، وابن مروييه في الشعب عن عقبة بن عامر قال: «قلت يا رسول الله: أقرئني سورة يوسف، وسورة هود، قال: يا عقبة أقرأ: بقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، فإنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله، وأبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك، فافعل». وأخرج ابن سعد، والنسائي، والبغوي، والبيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا حابس أخبرك بأفضل ما تتعوذ به المتعونون؟ قال بلى يا رسول الله، قال: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» و «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» هما: المعوذتان». وأخرج الترمذي وحسنه، وابن مروييه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان، ومن عين الإنس، فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما، وترك ما سوى ذلك». وأخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه عن ابن مسعود «أن النبي ﷺ كان يكره عشر خصال، ومنها أنه كان يكره الرقي إلا بالمعوذتين». وأخرج ابن مروييه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب السور إلى الله «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» و «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»». وأخرج النسائي، وابن الضريس، وابن حبان في صحيحه، وابن الأنباري، وابن مروييه عن جابر بن عبد الله قال: «أخذ بمنكبي رسول الله ﷺ ثم قال اقرأ، قلت: ما اقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ»؛ ثم قال اقرأ، قلت: بأبي أنت وأمي ما اقرأ؟ قال: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»، ولم تقرأ بمثلهما». وأخرج مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين، وينفض، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه رجاه بركتهما». وأخرجه البخاري، ومسلم في صحيحيهما من طريق مالك بالإسناد المذكور. وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن زيد بن أرقم قال: «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى، فاتاه جبريل، فنزل عليه بالمعوذتين، وقال: إن رجلاً من اليهود سحر، والسحر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء به، فأمره أن يحل العقد، ويقرأ آية، ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال». وأخرجه ابن مروييه، والبيهقي من حديث عائشة مطولاً، وكذلك أخرجه ابن مروييه من حديث ابن عباس. وقد ورد في فضل المعوذتين، وفي قراءة رسول الله ﷺ لهما في الصلاة، وغيرهما أحاديث، وفيما ذكرناه كفاية. وأخرج الطبراني في الصغير عن علي بن أبي طالب قال: «لدغت النبي ﷺ عقرب، وهو: يصلي، فلما فرغ قال: لعن الله العقرب لا تدع مصلياً، ولا غيره، ثم دعا بماء، وملح وجعل يمسح عليهما، ويقرأ: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» [أي: سورة الكافرون]، و«قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» [أي: سورة الصمد]، و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ»، و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»».

وأخرج ابن المنذر عنه قال: «الصمد» الذي لا يطعم، وهو المصمت. وقال: أو ما سمعت النائحة، وهي تقول:

لقد بكر الناعي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
وكان لا يطعم عند القتال، وقد روي عنه أن الذي يصمد إليه في الحوائج، وأنه انشد البيت، واستدل به على هذا المعنى، وهو أظهر في المدح، وأدخل في الشرف، وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الاسماء والصفات من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: «الصمد» السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفو وليس كمثل شيء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال: «الصمد» هو السيد الذي قد انتهى سؤده، فلا شيء أسود منه. وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: «الصمد» الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء. وأخرج ابن جرير من طرق عنه في قوله: «ولم يكن له كفواً أحد» قال: ليس له كفو ولا مثل.

تفسير سورة الفلق

وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، ومنية في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، وأخرج أحمد، والبزار، والطبراني، وابن مروييه من طرق. قال السيوطي: صحيحة عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين في المصحف يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما. قال البزار: لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وأثبتنا في المصحف. وأخرج أحمد، والبخاري، والنسائي، وغيرهم عن زب بن حبيش قال: «أتيت المدينة، فلقيت أبي بن كعب، فقلت له: أبا المنذر إني رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فقال: أما والذي بعث محمداً بالحق لقد سألت رسول الله ﷺ عنهما، وما سألني عنهما أحد منذ سألته غيرك، قال: قيل لي قل، فقلت: فقولوا فنحن نقول: كما قال رسول الله ﷺ». وأخرج الطبراني عن ابن مسعود: «أن النبي ﷺ سئل عن هاتين السورتين، فقال: قيل لي، فقلت: فقولوا كما قلت». وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت علي الليلة آيات لم أر مثلهن قط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

يخلقه، ومنهم عمرو بن عبدي، وعمرو بن عائذ ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الغاسق الليل، والغسق الظلمة، يقال غسق الليل يغسق إذا أظلم. قال الفراء: يقال غسق الليل، وأغسق إذا أظلم، ومنه قول قيس بن الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت لهم والأرقا
وقال الزجاج: قيل لليل غاسق؛ لأنه أبعد من النهار، والغاسق البارد، والغسق البرد، ولأن في الليل تخرج السباع من أجسامها، والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد، كذا قال، وهو: قول بارد، فإن أهل اللغة على خلافه، وكذا جمهور المفسرين ووقوبه: دخول ظلامه، ومنه قول الشاعر:

وقب العذاب عليهم فكانهم لحقتهم نار السموم فأخمدوا

أي: نخل العذاب عليهم، ويقال وقبت الشمس: إذا غابت، وقيل: الغاسق الثريا، وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين، وإذا طلعت ارتفع ذلك، وبه قال ابن زيد. وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق. وقال الزهري: هو الشمس إذا غربت، وكأنه لاحظ معنى الوقوب، ولم يلاحظ معنى الغسوق، وقيل: هو القمر إذا خسف، وقيل: إذا غاب. وبهذا قال قتادة، وغيره. واستدلوا بحديث أخرجه أحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، وابن مريويه عن عائشة قالت: «نظر رسول الله ﷺ يوماً إلى القمر لما طلع فقال: يا عائشة استعيني بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب». قال الترمذي: بعد إخراجه حسن صحيح، وهذا لا ينافي قول الجمهور؛ لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وهكذا يقال في جواب من قال: إنه الثريا. قال ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث: وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر. وقيل الغاسق: الحية إذا لدغت. وقيل الغاسق: كل هاجم يضر كائناً ما كان، من قولهم غسقت القرحة: إذا جرى صديدها، وقيل: الغاسق هو السائل، وقد عرفناك أن الراجح في تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول، ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر، والتحرز من الشرور فيه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ النفاثات هن السواحر أي: ومن شر النفوس النفاثات، أو النساء النفاثات، والنثث النفخ، كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر، وقيل: مع ريق، وقيل: بدون ريق، والعقد جمع عقدة، وذلك أنهم كن ينقثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها، ومنه قول عنترة:

فإن يبرأ فلم أنثث عليه وإن يعقد فحق له العقود
وقول متم بن نويرة:

نثث في الخيط شببه الرقي من خشية الجنة والحاسد
قال أبو عبيدة: النفاثات هي: بنات لبيد الأعصم اليهودي، سحرن النبي ﷺ. قرأ الجمهور (النفاثات) جمع نفاثة على

﴿الفلق﴾ الصبح، يقال: هو أبين من فلق الصبح، وسمى فلماً، لأنه يفلق عنه الليل، وهو فعل بمعنى مفعول قال الزجاج: لأن الليل ينفلق عنه الصبح، ويكون بمعنى مفعول، يقال: هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح، وهذا قول جمهور المفسرين، ومنه قول ذي الرمة:

حتى إذا ما انجلي عن وجهه فلق هائلة في أخريات الليل منتصب
وقول الآخر:

يا ليلة لم أتمها بت مرتفعاً أرعى النجوم لي أن نور الفلق
وقيل: هو سجن في جهنم، وقيل: هو اسم من أسماء جهنم، وقيل: شجرة في النار، وقيل: هو الجبال والصخور، لأنها تغلق بالمياه أي: تشقق، وقيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تنشق من خوف الله. قال النحاس: يقال لكل ما اطمأن من الأرض فلق، ومنه قول زهير:

ما زلت أرمقهم حتى إذا هبطت أيدي الركاب بهم من ركس فلما
والركس: بطن الوادي، ومثله قول النابغة:

ونوني ركس فالضولاج

وقيل: هو الرحم تتفلق بالحيوان، وقيل: هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان والصبح والحب والنوى، وكل شيء من نبات، وغيره قاله الحسن، والضحاك. قال القرطبي: هذا القول يشهد له الانشقاق، فإن الفلق الشق، ففلقت الشيء فلماً: شققته، والتفليق مثله، يقال فلقت، فانفلق وتفلق، فكل ما انفلق عن شيء من حيوان، وصبح، وحب، ونوى، وماء فهو فلق، قال الله سبحانه: ﴿فالق الإصباح﴾ [الأنعام: 96] وقال: ﴿فالق الحب والنوى﴾ [الأنعام: 95]. انتهى. والقول الأول أولى؛ لأن المعنى، وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق. وقد قيل في وجه تخصيص الفلق بالإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه، ويخشاه، وقيل: طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرح؛ فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصبح، كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاة، وقيل: غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير ﴿من شر ما خلق﴾ متعلق بأعوذ أي: من شر كل ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته، فيعم جميع الشرور، وقيل: هو إبليس ونزيته وقيل: جهنم، ولا وجه لهذا التخصيص، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية. وقد حرف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه، وتقوياً لباطله، ففروا بتكوين شر على أن: «ماء نافية. والمعنى: من شر لم

ابن جرير عنه في الآية قال: هو ما خالط السحر من الرقي. وأخرج النسائي، وابن مريويه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من عقد عقدة ثم نثف فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه». وأخرج ابن سعد، وابن ماجه، والحاكم، وابن مريويه عن أبي هريرة قال: «جاء النبي ﷺ يعوذني فقال: ألا أرقيك برقية رقاني بها جبريل؟ فقلت: بلى يا بني أنت وأمي، قال: بسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل داء فيك» **﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾** * ومن شر حاسد إذا حسد ﴿فرقى بها ثلاث مرّات. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: **﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾** قال: نفس ابن آدم وعينه اهـ

تفسير سورة الناس

والخلاف في كونها مكية، أو مدنية كالخلاف الذي تقدّم في سورة الفلق. وأخرج ابن مريويه عن ابن عباس قال: أنزل بمكة: **﴿قل أعوذ برب الناس﴾** [أي: سورة الناس]. وأخرج ابن مريويه عن ابن الزبير قال: أنزل بالمدينة: **﴿قل أعوذ برب الناس﴾** وقد قلّمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة، وما ورد في فضلها، فارجع إليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْكَافِرِينَ ١ مَلِكِ الْكَافِرِينَ ٢ إِلَهِ الْكَافِرِينَ ٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الْكَافِرِينَ ٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ٦

وقرأ الجمهور: **﴿قل أعوذ﴾** بالهمزة. وقرأ بحذفها، ونقل حركتها إلى اللام. وقرأ الجمهور بترك الإمالة في الناس، وقرأ الكسائي بالإمالة. ومعنى ربّ الناس: مالك أمرهم، ومصالح أحوالهم، وإنما قال ربّ الناس مع أنه ربّ جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم، ولكون الاستعاذة وقعت من شرّ ما يوسوس في صدورهم، وقوله: **﴿ملك الناس﴾** عطف بيان جيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربيّة سائر الملاك لما تحت أيديهم من ممالكهم، بل بطريق الملك الكامل، والسلطان القاهر **﴿إله الناس﴾** هو أيضاً عطف بيان كالذي قبله لبيان أن ربوبيته، وملكوته قد انضمّ إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالاتحاد والإعلاء، وأيضاً الربّ قد يكون ملكاً، وقد لا يكون ملكاً، كما يقال ربّ الدار، وربّ المتاع، ومنه قوله: **﴿اتخذوا أحبارهم وريبانهم أرباباً من دون الله﴾** [التوبة: 31] فبين أنه ملك الناس. ثم الملك قد يكون إلهاً، وقد لا يكون، فبين أنه إله؛ لأن اسم الإله خاصّ به لا يشاركه فيه أحد، وأيضاً بدأ باسم الربّ، وهو اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك، فنكر أنه ملك الناس. ثم لما

المبالغة. وقرأ يعقوب، وعبد الرحمن بن سابط، وعيسى بن عمر (النافثات) جمع نافثة. وقرأ الحسن (النافثات) بضم النون. وقرأ أبو الربيع (النفثات) بدون ألف **﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾** الحسد: تمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، ومعنى إذا حسد: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه، وحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود. قال عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال:

قل للحسود إذا تنفس طعنة يا ظالماً وكأنه مظلوم
نكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شرّ كل مخلوقاته على العموم، ثم نكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجها تحت العموم لزيادة شرّه، ومزيد ضرره، وهو الفاسق، والنافثات، والحاسد، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشرّ حقيقون بإفراط كل واحد منهم بالنكر.

وقد أخرج ابن مريويه عن عمرو بن عبسة قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقرا: **﴿قل أعوذ برب الفلق﴾** فقال: يا ابن عبسة أتدري ما الفلق؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: بئر في جهنم. وأخرجه ابن أبي حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع. وأخرج ابن مريويه عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ: **﴿قل أعوذ برب الفلق﴾** هل تدري ما الفلق؟ باب في النار إذا فتحت سعرت جهنم». وأخرج ابن مريويه، والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿قل أعوذ برب الفلق﴾** فقال: هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون، وإن جهنم لتتعوذ بالله منه». وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفلق جبّ في جهنم».

وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ لكان المصير إليها واجباً، والقول بها متعيناً. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الفلق سجن في جهنم. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مريويه عن جابر بن عبد الله قال: الفلق الصبح. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: الفلق الخلق. وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مريويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: **﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾** وقال: النجم هو الغاسق، وهو الثريا. وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع. وقد قدّمنا تأويل هذا، وتأويل ما ورد أن الغاسق القمر. وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ارتفعت النجوم رقت كل عامّة عن كل بلد»، وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس **﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾** قال: الليل إذا أقبل. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس **﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾** قال: الساحرات. وأخرج

جاء نفر من الجنّ، فقليل لهم: من أنتم؟ قالوا: ناس من الجنّ. وأيضاً قد سماهم الله رجلاً في قوله: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رَجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُونُونَ بِرَجُلٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: 6] وقيل: يجوز أن يكون المراد أعوذ برّبّ الناس من الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس، ومن الجنة والناس، كأنه استعاذ ربّه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ برّبّه من جميع الجنة، والناس، وقيل: المراد بالناس الناسي، وسقطت الياء كسقوطها في قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ﴾ [القمر: 6] ثم بيّن بالجنة والناس؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان، وأحسن من هذا أن يكون قوله: ﴿وَالنَّاسُ﴾ معطوفاً على الوسواس أي: من شرّ الوسواس، ومن شرّ الناس كأنه أمر أن يستعيذ من شرّ الجنّ والإنس. قال الحسن: أما شيطان الجنّ، فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس، فيأتني علانية. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطين، وإن من الإنس شياطين، فعوذ بالله من شياطين الجنّ والإنس، وقيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجنّ، كما يوسوس في صدور الإنس، وواحد الجنة جنيّ كما أن واحد الإنس إنسيّ. والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذي قدّمنا، ويكون هذا البيان تنكير الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة.

وقد أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ﴾ قال: مثل الشيطان كمثل ابن عرس وأضع فمه على فم القلب، فيوسوس إليه، فإن نكر الله خنس، وإن سكّت عاد إليه فهو الوسواس الخنّاس. وأخرج ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان، وأبو يعلى، وابن شاهين، والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان وأضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن نكر الله خنس، وإن نسيه التقم قلبه، فذلك الوسواس الخنّاس». وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ﴾ قال: الشيطان جاث على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا نكر الله خنس. وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة، والبيهقي عنه قال: ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس، فإذا نكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، فذلك قوله: ﴿الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ﴾ وقد ورد في معنى هذا غيره، وظاهره أن مطلق نكر الله يطرد الشيطان، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة، ولنكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيري الدنيا والآخرة.

والى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن علي بن محمد الشوكاني، غفر الله له ذنوبه. وكان الفراغ منه في ضحوة يوم السبت لعله الثامن والعشرون من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية.

اللهم كما منّنت عليّ بإكمال هذا التفسير، وأعنتني على

علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنه عبد مخلوق، وأن خالقه إله معبود بيّن سبحانه أنه إله الناس، وكرّر لفظ الناس في الثلاثة المواضع؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار؛ ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس ﴿مَنْ شَرُّ الْوَسْوَاسِ﴾ قال الفراء: هو: بفتح الواو بمعنى الاسم أي: الوسوس، وبكسرهما المصدر أي: الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وقيل: هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة، والوسوسة: هي حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة أي: حثّته حديثاً، وأصلها الصوت الخفي، ومنه قيل: لأصوات الحلي وسواس، ومنه قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت

قال الزجاج: الوسواس هو الشيطان أي: ذي الوسوس، ويقال إن الوسواس ابن إبليس، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20] ومعنى ﴿الخنّاس﴾ كثير الخنس، وهو التأخر، يقال خنس يخنس: إذا تأخر، ومنه قول العلاء بن الحضرمي يمدح رسول الله ﷺ:

إذا بخسوا بالشرّ فاعف تكرّماً وإن خنسوا عند الحديث فلا تسلم

قال مجاهد: إذا نكر الله خنس وانقبض، وإذا لم يذكر انبسط على القلب. ووصف بالخنّاس؛ لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَّسِ﴾ [التكوير: 15] يعني: النجوم لاختفائها بعد ظهورها، كما تقدّم، وقيل: الخناس اسم لابن إبليس، كما تقدّم في الوسواس ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ الموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً للوسواس، ويجوز أن يكون منصوباً على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على تقدير مبتدأ. وقد تقدّم معنى الوسوسة. قال قتادة: إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل ابن آدم عن نكر الله وسوس له، وإذا نكر العبد ربه خنس. قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله على ذلك، ووسوسته هي للدعاء إلى طاعته بكلام خفيّ يصل إلى القلب من غير سماع صوت، ثم بيّن سبحانه الذي يوسوس بانه ضربان: جني، وإنسي، فقال: ﴿مَنْ الْجَنَّةُ وَالنَّاسُ﴾ أما شيطان الجنّ، فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس، فوسوسته في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق، فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته، كما قال سبحانه: ﴿شَیْطَانِیْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112] ويجوز أن يكون متعلقاً بـيوسوس أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجنة، ومن جهة الناس، ويجوز أن يكون بياناً للناس. قال الرازي، وقال قوم: من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ لأن القدر المشترك بين الجنّ والإنس يسمى إنساناً، والإنسان أيضاً يسمى إنساناً، فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس، والنوع بالاشتراك. والليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجنّ ما روي أنه

تحصيله، وتفضّلت عليّ بالفراغ منه، فامنن عليّ بقبوله، واجعله لي نخيرة خير عندك، واجزل لي المثوبة بما لاقيته من التعب والنصب في تحريره وتقريره، وانفع به من شئت من عبادك؛ ليوم لي الانتفاع به بعد موتي، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف، واجعله خالصاً لك، وتجاوز عني إذا خطر لي من خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص، واغفر لي ما لا يطابق مرادك، فإنني لم أقصد في جميع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق، وموافقة ما ترضاه، فإن أخطاء، فأنت غافر الخطيئات، ومسيل نيل الستر على

الهِفَوات، يا باري البريات، وأحمدك لا أحصي حمداً لك، وأشكرك لا أحصي شكرك، أنت كما أثّنت على نفسك، وأصلي وأسلم على رسولك وآله أ هـ.

تمّ سماعاً على مؤلفه حفظ الله عزّته يوم الاثنين صبح
اليوم الخامس من شهر ربيع الأوّل سنة 1241هـ.

كتبه

يحيى بن علي الشوكاني

غفر الله لهما

فهرس المحتويات

38	شيء من وصف الجنة وأهلها ونعيمها	9	مراجعه
39	ما حقيقة الحياء وما المراد منه في حق ربنا عز وجل	11	خطبة الكتاب
40	الفسق لغة وشرعاً		سورة الفاتحة
	الكلام في الفاسق هل هو مؤمن أو كافر؟	13	تمحيص الكلام في مكية الفاتحة مدنيته
41	ما الذي أمر الله به أن يوصل، وما الفساد في الأرض	13	أسماء الفاتحة
42	كم يموت الإنسان وكم يحيا؟		فضلها
42	هل الأصل في الأشياء الإباحة؟	14	هل البسملة آية من كل سورة أم لا؟
	ما الدليل على حرمة أكل الطين؟	15	فضل البسملة
	هل من المشكلات قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أم لا؟	16	الكلام على الحمد والمدح والشكر
	أيهما خلق أولاً: الأرض أم السماء؟	16	فضل الحمد
	ما المراد من عدد الأرضين؟	17	مبلغ رحمة ربنا
	الكلام على قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وجوابهم	18	ما هي العبادة؟
44	ما الذي عرض على الملائكة، الأسماء أم المسميات؟	18	ما هو الصراط المستقيم؟
	وأيهما فاز في هذا الامتحان هم أم سيدنا آدم	19	من هم المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون؟
45	عليه الصلاة والسلام	19	هل لفظ آمين مشروع بعد قراءة الفاتحة وما فضله؟
	هل كان يجوز السجود لغير الله في بعض الشرائع		سورة البقرة
46	المتقدمة	21	فضل سورة البقرة
	هل كان السجود لسيدنا آدم بوضع الجبهة على الأرض؟	22	الكلام في الحروف المقطعة واختيار المؤلف فيها
	من أي النوعين إبليس: من الجن أم من الملائكة؟	25	هل تختلف حقيقة الهدى؟
47	ما هي الشجرة التي نهى سيدنا آدم عن الأكل منها؟		من هم المتقون؟
	هل كلام إبليس لسيدنا آدم كان مشافهة؟	26	ما هو الغيب؟
48	هل كان سيدنا آدم نبياً		فضل المؤمنين بالغيب
	كم المرسلون عليهم الصلاة والسلام؟	27	ما هو الرزق؟
	كم الأنبياء؟	28	رقية تذهب اللهم
	مدة إقامة سيدنا آدم بالجنة		معنى الختم على القلوب وعلى السمع والغشاوة على الأبصار
49	كيف دخل إبليس الجنة؟	31	ما هو مرض القلوب؟
	ما الكلمات التي تلقاها سيدنا آدم من ربه فتاب بها عليه؟	32	هل في الإنس شياطين؟
50	استنكار الكلام في التناسب بين أي القرآن		معنى عمه القلوب؟
50	ما الحق في حكم الصلاة جماعة؟ هل ذلك فرض أم سنة	33	بيان مثل المنافقين؟
53	تقريع من يأمر الخير ولا يأتيه	34	ما هو الرعد، ما هو البرق؟
		35	بيان مثل آخر المنافقين
			من أين ينزل المطر؟
		37	ما الحق في وجه إعجاز القرآن؟

هل أمر سيدنا جبريل سيدنا إبراهيم أن يرمي إبليس	94
عند الجمرات الثلاث	94
هل أرى سيدنا جبريل سيدنا إبراهيم المناسك؟	101
بنذنة حول أهل الأهواء ومبلغ ضررهم	102
كيف صرفت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وبعد	102
كم شهر من دخول النبي المدينة كان ذلك؟	117
هل كان المكلف في ابتداء الإسلام مخيراً بين الصوم	
والفدية ثم نسخت الفدية؟	
مقدار الفدية	
هل نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا	118
في رمضان جملة، ثم نزل إلى الأرض مفرقاً؟	119
هل يقال رمضان بدون لفظ شهر؟	
إنزال كتب سماوية غير القرآن في رمضان	
الجمع بين نزول القرآن في رمضان وفي ليلة مباركة،	119
وفي ليلة القدر	
الدعاء وشيء من آدابه	
كيف كان الصيام في أول الإسلام، وبماذا نسخ؟	120
هل حكم الحاكم يحل الحرام؟	122
كيف كان الجهاد أول ما أذن فيه؟	123
ما هي الفتنة التي دونها القتل؟	123
إلى أي غاية ينتهي الأمر بالقتال؟	123
ما هو الاعتداء في القتال؟	
هل نسخ القتال في الأشهر الحرم؟	125
هل يجوز لمن اعتدي عليه أن ينتقم بنفسه؟	
رد المصنف على ابن عباس	
تفسير بديع جداً لسيدنا أبي أيوب الأنصاري لقوله	
تعالى: ﴿وَلَا تَقْوَا بِإِيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾	125
ما هو إتمام الحج والعمرة؟	
هل العمرة فرض أو سنة؟	126
ما الإحصار في الحج؟ وماذا يفعل المحصر؟	
ماذا يفعل من حلق رأسه لضرر هو محرم	128
وفي أي مكان يفعل ما يفعل؟	
ماذا يفعل المتمتع؟	128
ما هي أشهر الحج؟	129
بماذا يلزم الحج؟	129
هل تسمية الجبل بعرفات تطل؟	
لَمْ سمي عرفات عرفات؟	129
ما هما حسنتا الدنيا والآخرة؟	132
زمن الذكر في الأيام المعدودات	132

ما هو الخشوع؟	54
رجوع إلى الكلام فيمن يامر ولا ياتمر	
هل الصبر والصلاة معونتان يستعان بهما؟	55
ما المراد من العالمين الذين فضل بنو إسرائيل	56
عليهم؟	
ما السبب في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل	57
واستحيائه لبناتهم؟	
في أي يوم نجى الله سيدنا موسى وقومه وأغرق	58
فرعون وقومه؟	
ما الحق في رؤية ربنا في الجنة أ تكون أم لا تكون؟	59
ما هو المن والسلوى للذنان من بهما على بني	
إسرائيل؟	
ما القرية التي أمروا أن يدخلوها؟ وما الباب الذي	60
أمروا أن يدخلوا منه؟	
ما معنى السجود المأمور به عند دخولهم الباب؟	
كيف كان تبجيلهم؟ ما قيل لهم؟	
لَمْ سميت اليهود يهوداً والنصارى نصارى؟	63
ماذا جرى لليهود لما لم يقبلوا التوراة وبه قبلوها؟	65
بماذا نجا من المسخ من نجا منهم؟	65
قصة البقرة التي أمروا بذبحها؟	66
مصادر لم تنطق العرب بأفعالها	70
أقسام القلوب	74
كفر اليهود برسول الله لما جاء وكانوا يستنصرون به	
قبل بعثته	75
أسئلة اليهود وأجوبتها	78
بحث في السحر	79
الحق أن الله أنزل السحر ابتلاء للخلق	80
هل للسحر تأثير؟	
تبرئة سيدنا سليمان من السحر	
قصة الملكين مع الزهرة	81
تنفر بالغ من تعلم السحر	82
الكلام في النسخ	83
ما المراد بالسعي في خراب المساجد؟	87
معنى ﴿فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فَنَّمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾	
كلمات اليمة مع متبع هواه	89
ما المراد بالكلمات التي ابتلى الله بهنَّ خليله	90
معنى العهد الذي لا ينال الظالمين	91
جمع حسن بين حرمة مكة من مبدأ الخلق وتحريم	
إبراهيم لها	93

- 196 ﴿الله ما في السموات وما في الأرض﴾ إلخ ..
- 197 هل استجاب الله الدعوات التي في آخر السورة؟ ..
- 199 فضل الآيتين اللتين في آخر السورة وهو جليل وجليل ..
- سورة آل عمران**
- 200 فضل سورة آل عمران ..
- 201 الكلام على المحكم والمتشابه من كلام ربنا عز وجل
- ما هي شهوات الدنيا التي زينت للناس، وما الذي هو خير من هذه الشهوات؟ ..
- 207 فضل آية ﴿شهد الله﴾ إلخ، وإن الدين عند الله الإسلام﴾ وآية: ﴿قل اللهم﴾ ..
- 208 إلى أي حد بلغ قتل بني إسرائيل أنبياءهم؟ ..
- 210 تفسير آية ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ وما بعدها ..
- 211 هل تجوز موالة الكفار تقية، وما معنى هذه التقية؟
- اختصاص السيدة مريم وابنها بحفظهما عند الولادة من مس الشيطان ..
- 214 لم سمي المسيح مسيحاً؟ ..
- 218 تفسير قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك﴾ الآية ..
- 220 آية المباهلة وحديثها ..
- 222 هل أمده أهل بدر بملائكة أم لا؟ ..
- 241 ماذا كان يفعل الرسول ﷺ إذا أراد أن يدعو لأحد أو عليه؟ ..
- 243 معنى ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ ..
- 244 ما معنى أن الجنة عرضها السموات والأرض؟
- 244 اثتمار إبليس وجنوده على إضلال بني آدم ..
- 247 هل قتل نبي في حرب ومن هم الربيون؟ ..
- 252 قدر الاستشارة في الإسلام ..
- 253 لماذا فعل الله بالمسلمين ما فعل يوم أحد؟ ..
- 253 ما فعل المنافقون يوم أحد؟ ..
- ما هو الحق في حياة الشهداء الحقيقية هي أم مجازية؟ ..
- 254 ما هو المراد بالرزق المنسوب للشهداء؟ ..
- 255 بعض ما ورد في فضل الشهداء ..
- 256 ما جزاء من أوتي ما لا فلم يؤد زكاته ..
- 259 حادثة الصديق مع اليهودي ..
- 260 هل موضع سوط المؤمن في الجنة خير من الدنيا وما فيها؟ ..
- 261
- 133 ما هي الأيام المعهودات؟ ..
- معنى ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ ..
- 135 هل نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم؟ ..
- 141 الكلام على الخمر والميسر
- 144 زواج المشتركة والكتابية ..
- 145 الكلام على الحيض وشيء من أحكامه ..
- 147 معنى ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم﴾ ..
- 148 البمين اللغو ما هي؟ ..
- 149 الكلام في الإيلاء ..
- 151 الكلام على المطلقات وعدتهن ..
- 153 هل يجوز أن تفتدى المرأة بمال لتطلق؟ ..
- 153 هل يجوز الزواج للتحليل؟ ..
- 154 النهي الشديد عن طلب المرأة الطلاق بلا سبب ..
- 155 النهي عن مضارة المرأة في المعاشرة ..
- 157 النهي عن منع المرأة أن تتزوج مطلقها ..
- 157 شيء من أحكام الرضاعة ..
- 159 عدة المتوفى عنها زوجها ..
- 160 الكلام في خطبة النساء ..
- 161 شيء من أحكام المطلقات ..
- 164 ما هي الصلاة الوسطى؟ ..
- 167 الذين أماتهم الله لما خرجوا من بيوتهم حذر الموت ..
- 168 إلى أي حد يضاعف الله الحسنات؟ ..
- 169 الكلام على طالوت وجنوده ..
- 172 هل تتفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ ..
- 173 نهى المفسر عن التفسير بالرأي ..
- 173 هل نسخت الزكاة كل صدقة ونسخ رمضان كل صوم؟ ..
- 174 تفسير آية الكرسي ..
- 174 تفسير ﴿لا إكراه في الدين﴾ ..
- 178 المحاجة التي بين سيدنا إبراهيم والنمرود ..
- 179 قصة الذي قال: ﴿أنتي يحيي هذه الله بعد موتها﴾؟ ..
- الكلام على طلب الخليل أن يريه الله كيف يحيي الموتى وإجابة طلبه ..
- 180 إنفاق الأموال، وأدابه، وما يبطل ثوابه، وإلى أي حد يضاعف ذلك الثواب؟ ..
- 182 أبحاث آية الربا ..
- 189 الدين وما يتعلق به ..
- 192 هل نسخت آية ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ آية

299 أمر رسول الله ﷺ ابن مسعود أن يقرأ عليه
 301 ما معنى ملاسمة النساء؟
 رد المفسر على ابن السكيت وابن الأنباري في
 302 تفسير لفظ التيمم لغة
 302 بَمَ يكون التيمم؟
 هل يدخل جميع طوائف الكفار تحت قوله تعالى: ﴿إِنْ
 304 الله لا يغفر أن يشرك به﴾؟
 306 ما هو الفتيل والنقير والقطمير؟
 308 كيف يكون الحاكم بين الناس؟
 سبب نزول قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَرَبُّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
 310 الآية، مع ذلك قصة غريبة
 سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللهَ وَالرَّسُولَ
 311 فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية
 316 الكلام على السلام وردّه
 318 الكلام على القتل خطئه وعمده
 حديث محلم بن جثامة قاتل عامر بن الأضبط بعد أن
 321 سلم سلام الإسلام
 جزاء من أسلم بمكة ولم يهاجر من غير
 323 المستضعفين
 324 الكلام على صلاة الخوف
 تحريض المؤمنين على طلب الكفار وردّ أيّ عذرٍ منهم
 326 إن وهنوا في ذلك
 327 بيان أن الحكم بين الناس بما أنزل الله هو العدل . . .
 الليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد
 إلا بعد أن يعلم أنه محق
 328 بيان أحوال المناققين ونَمَ ما كانوا عليه
 328 الترغيب في تعجيل التوبة عقب الذنب
 بيان أن من اكتسب سوءاً فعليه عقابه، ومن كسب
 329 خيراً فله أجره
 329 ذم النجوى إلا في أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح
 بين الناس ابتغاء وجه الله، والأجر لفاعل ذلك .
 329 التهريب من مخالفة الرسول ﷺ والوعيد على ذلك
 تفويض غفران جميع الذنوب صغيرها وكبيرها إلى
 330 مشيئة الله تعالى ما عدا الشرك
 تسفيه عقول عبدة الأصنام ووعيد مَنْ اتبع
 الشيطان، لعنه الله
 331 الترغيب في الأعمال الصالحة ووعد الله الأجر
 العظيم عليها
 آراء العلماء في خصاء الحيوان أنمياً وغيره
 بيان أن العقابة المحمودة ليست بالأماني، وإنما هي

هل أخذ الله الميثاق على العلماء أن يبينوا ما أوحى
 262 الله؟
 ما المراد بالذكر في قول الله: ﴿يُذَكِّرُونَ اللهَ قِيَاماً
 262 وقعوداً وعلى جنوبهم﴾
 265 فضل الرباط في سبيل الله
 265 فضل الآيات العشرة من آخر سورة آل عمران . . .
سورة النساء
 فضل سورة النساء
 266 الكلام على قراءة ﴿وَالْأَرْحَامِ﴾ بالجر وإنكار المؤلف
 266 تواترها
 267 هل تجب صلة الرحم ويحرم قطعها؟
 الكلام بسعة على قوله تعالى: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا
 268 تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ الآية
 271 من هم السفهاء الذين لا يعطون المال؟
 272 ما هو الرشد الذي به تدفع أموال اليتامى إليهم؟ . .
 272 ما هو الأكل بالمعروف من مال اليتيم لوليه؟
 الوصية على اليتامى
 272 عذاب مَنْ يلكون أموال اليتامى ظلماً
 275 الكلام بسعة على التركات
 275 ما جزاء الحيف في الوصية؟
 279 ما جزاء مَنْ قطع ميراث وارثه؟
 هل للوصية حدٌ لا تتجاوزُه؟
 279 فضل تعلم علم الفرائض
 هل التوبة فرض على كل مؤمن باتفاق الأمة، وما هي
 281 التي تقبل؟
 رجوع سيدنا عمر عن تحديد مهر النساء لاعتراض
 283 امرأة عليه
 283 بحث مستفيض في المحرمات من النساء
 286 هل كانت المتعة جائزة أو لا؟ ثم نسخت
 الكلام على زواج الإمام
 291 حدّ الإمام إذا زنى
 293 بحث في كبائر الذنوب ما هي وما عدها؟
 294 الحسد والغبطة
 295 بَمَ جعل الله الرجال قوامين على النساء؟
 296 ما يفعل الرجل مع امرأته المستعصية عليه؟
 بَمَ نسخ التحالف الذي كان يورث به في صدر
 296 الإسلام؟
 296 الحكمان بين الزوجين وأحكامهما
 297 على مَنْ أمر الله أن تحسن؟

سورة المائدة

- 348 هل المائدة آخر سورة نزلت؟
 ما المنسوخ من المائدة، والتنبيه على حديث موضوع
 349 في فضلها
 حادثة فيلسوف في معارضة القرآن، ما هي العقود
 المأمور بالوفاء بها؟
 ما هي بهيمة الأنعام، وما الشعائر التي نهينا عن
 351 إحلالها، وما معنى الإحرام؟
 352 المحرم علينا من الحيوان
 353 هل للمضطر أن يأكل من الحيوان المحرم؟
 354 ماذا أحل لنا؟ والكلام على الصيد
 355 هل يحل لنا طعام أهل الكتاب وتكاح نسائهم؟ ...
 357 الكلام بسعة في اللؤسوء والتيمم
 ما نقيب بني إسرائيل بماذا بعثوا؟ وماذا فعل الله ببني
 360 إسرائيل لما نقضوا العهد؟
 362 هل كان أهل الكتاب يخفون من كتبهم شيئاً؟
 الرد على النصارى من قولهم إن الله هو المسيح،
 وعلى اليهود والنصارى معاً في دعواهم أنهم
 362 أبناء الله وأحباؤه
 الكلام في الفترة التي بين رسولنا ﷺ وسيدنا عيسى
 363 ﷺ
 تنكير سيدنا موسى لقومه، ودعوتهم للجهاد
 363 وتمردهم عليه، وعقابهم على ذلك
 365 الكلام في ابني آدم وقتل أحدهما أخاه
 الكلام على قاتل النفس والمتسبب في إحيائها،
 367 والكلام على البغاة
 370 ما هي الوسيلة؟ وما حال الكفاء يوم القيامة؟
 حكم السارق، والرد على من قال إن التوبة تسقط
 371 الحدود
 المنافقون واليهود، وتسليية الرسول عن مسارعته
 372 في الكفر، وشيء من أخلاق اليهود وأحكامهم .
 من من الحكام المحكوم عليه بالظلم والفسق والكفر
 إذا لم يحكم بما أنزل الله؟ ومعنى الظلم والفسق
 373 والكفر هنا
 أحكام القصاص في النفس والجوارح، والحق في
 373 شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟
 حكم موالاة غير المسلمين ووصف المنافقين
 والمؤمنين حقاً في هذه الموالاة، ومن هو ولي
 377 المؤمنين الولاية الصحيحة

- 331 بالأعمال الصالحة
 مدح دين الإسلام، والكلام على معنى الخلّة، بيان أنّ
 كل ما في السموات وما في الأرض مملوك لله
 332 تعالى
 الإيصاء بأمر اليتامى من النساء والمستضعفين من
 332 الولدان
 جواز المصالحة بين الرجل وزوجه عند خوف
 333 النشوز والتوصية بالنساء
 334 التوصية بتقوى الله سبحانه والترهيب من الكفر ..
 334 الترغيب فيما عند الله من الجزاء على العمل إذا كان
 خالصاً لوجهه
 335 الأمر بالعدل في جميع الأمور من غير محاباة ...
 الأمر بالإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم
 الآخر
 ذكر معائب المنافقين والتهكم بهم وإيعادهم الوعيد
 336 الشديد
 النهي عن الغيبة والنميمة وجميع الإيذاء إلا متظلماً أو
 339 مستفتياً أو مكرهاً ونحو ذلك والترغيب في العفو
 اختراع أهل الكتاب على رسول الله ﷺ، وإنزال كتاب
 من السماء، وتسليية رسول الله بذكر ما فعلت
 يهود مع موسى عليه السلام، إلى آخر ما قصه
 340 الله من شأنهم معه ﷺ
 بيان أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه ما قتل وما
 صُلب ولكن رفع إلى السماء وهو الآن حي، وأنه
 لا يموت يهودي ولا نصراني إلا آمن به قبل
 341 موته
 342 بيان أن المعاصي تنقص الرزق والدليل عليه
 الكلام على ﴿والمقيم الصلاة﴾ وما جاء فيه، والرد
 على المنكرين لبعثة محمد ﷺ، وأنه مثل من
 تقدم من الرسل صوات الله وسلامه عليهم
 343 أجمعين
 345 شهادة الله الملائكة بما جاء به النبي ﷺ
 نهى النصارى عن الغلو في المسيح وأنه كلمة الله
 القاهها إلى مريم وأن الله سبحانه منزّه عن الولد
 346 والولد، والنليل على ذلك
 بشارة المؤمنين ووعيد الكافرين
 347 الكلام في الكلالة وامتنان الله سبحانه علينا بالبيان .
 أنموذج من خط المؤلف رحمه الله من النسخة
 348 المطبوع عليها هذا التفسير

- آيات ثلاث هي أصعب ما في القرآن والكلام عليها . 400
الجواب عن نفي الرسل علمهم بما أجيبوا به من
أهمهم 403
الجواب عن الحواريين في قولهم هل يستطيع ربك؟ 404
هل نزلت المائدة وماذا كان عليها؟ 405
هل للتوفي معان متعددة، ما معنى توفي الله تعالى
لسيدنا عيسى؟ 406

سورة الأنعام

- فضل سورة الأنعام، وهو فضل عظيم 407
ما هي الظلمات والنور؟ ومعنى ثم في قوله: ﴿ثم
الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ 407
ما الأجل الذي قضاه الله والأجل المسمى عنده؟
إلى أي حد بلغ تصلب الكفار في تكذيبهم للرسول
ﷺ 409
حجج على وحدانية الله تعالى 411
مبلغ رحمة ربنا عز وجل 412
فيمن نزل قوله تعالى: ﴿وهم ينهون عنه وينأون
عنه﴾ 414
في أي شيء مثلنا الحيوانات؟ 417
تحريض شديد على التضرع إلى الله تعالى، هل في
الرخاء والسعة خير والمرء مقيم على المعاصي
غافل؟ 419
إنكار المفسر على من يشتغل بالمفاضلة بين الملائكة
والأنبياء 420
حملة على الدجالين الذين يدعون علم الغيب وما هي
مفاتيح الغيب؟ 423
أين تكون الروح إذا نام الإنسان، وما معنى ﴿فوق
عباده﴾؟ 424
النهى عن مجالسة أهل الأهواء الباطلة ونسخ
الترخيص في ذلك أولاً 426
إنكار سيدنا إبراهيم على أبيه في عبادة غير الله . 429
الحجة التي أوتيتها سيدنا إبراهيم على قومه 431
ما يكون للظالمين وهم في غمرات الموت؟ 434
عدة حجج على أنه تعالى الإله الواحد 435
هل رأى محمد ربه، ما معنى ﴿لا تتركه الأبصار﴾؟ 439
هل يترك النهي عن المنكر إذا خيف أن يترتب عليه
أشد منه؟ وجملة شديدة جداً على معاندي
الشرائع 440
حل الإشكال في قوله تعالى: ﴿وما يشعركم أنها إذا

- وصف قوم نهينا عن موالاتهم أيضاً، ووصف شر
منهم 380
قول اليهود: ﴿يد الله مغلولة﴾، وجزاؤهم على ذلك
وماذا كان يفعل الله بأهل الكتاب لو أقاموا التوراة
والإنجيل 382
استواء أهل البيت بجميع الناس في التبليغ لم
يختصوا وحدهم بشيء من الدين 384
حظ العلماء المخلصين من العصمة من الناس إذا
قاموا ببيان حجج الله 385
استغناء الرسول ﷺ عن الحراس لما وعد بالعصمة
من الناس 385
تخريج ﴿والصابئون﴾ المرفوع المعطوف على
المنصوب 385
حكم من قال: ﴿إن الله هو المسيح﴾ ومن قال: ﴿إن
الله ثالث ثلاثة﴾ 386
حقيقة سيدنا المسيح وأمه 386
لماذا لعن الكفار من بني إسرائيل؟ 387
من أشد الناس عداوة للمؤمنين، ومن أقرهم مودة
لهم؟ 388
بحث نفيس في تحريم العوام على أنفسهم بعض ما
أحل الله لهم، وأنه ليس من الدين في شيء لو
ترك تزهداً 390
ما هو اللغو من الإيمان، ما كفارة المنعقدة وما غلط
الغموس؟ 391
تحريم الخمر، وسر تحريمها بالتدريج ومضارها
الدنيوية والأخروية 392
الكلام في الميسر والنرد، وسواهما من الألعاب . 393
ابتلاء المؤمنين بتحريم الصيد وهم حرم، وجزاؤهم
الأخروي إن خالفوا 394
ما الجزاء الدنيوي لقاتل الصيد؟ 394
إباحة صيد البحر للمحرم 395
ما معنى كون الكعبة والأشهر الحرم والهدي والقلائد
قياماً للناس؟ 396
ما الخبيث والطيب ومعنى عدم استوائهما ولو كثر
الخبيث وأعجب الناظر؟ 397
النهى عن مسائل يسوء التكليف بها
ماذا كان لمن سألوها قبل المنهيين؟ 398
ما البحيرة والسائبة والوصيلة والحام؟
هل يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله
تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾ الآية؟ 399

- 474 ما معنى كون أبواب السماء لا تفتح للكفار؟
- 475 ردّ مفحم للمفسر على الزمخشري
- ماذا يقول الكافرون حين يرون منازلهم في الجنة؟
- ماذا يقول المؤمنون حينما يرون منازلهم في النار؟
- 475 مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار
- ما الحجاب الذي بين أهل الجنة وأهل النار وما الأعراف ومن أهلها؟
- نداء أهل النار أن يفيض أهل الجنة عليهم من الماء، والردّ عليهم
- 477 الاختلاف في استواء الله تعالى على العرش والحق في ذلك
- 478 فضل جليل جداً لعشرين آية من القرآن
- 479 معنى التضرّع، والاعتداء في الدعاء، ومعنى الفساد في الأرض والإصلاح فيها
- 481 قصة سيدنا نوح مع قومه
- 482 قصة سيدنا هود مع قومه
- 483 قصة سيدنا صالح مع قومه
- 485 قصة سيدنا لوط مع قومه
- 486 قصة سيدنا شعيب مع قومه
- سياسة الله تعالى مع كل الأمم قبل إهلاكهم وماذا كان يفعل الله مع أهل القرى الهالكين لو آمنوا وأنقوا
- 488 تهديد هذه الأمة أن يفعل معها الله كما فعل بالأمم السابقة إن لم تؤمن
- 489 قصة سيدنا موسى مع فرعون وملئه وآيات عظيمة لم يؤمن برؤيتها فرعون وقومه
- 490 أوضح برهان على بله بني إسرائيل
- 496 جواب ظاهر عن قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾
- 497 الصدع بالحق في رؤية الله تعالى يوم القيامة
- 498 ما هي دار الفاسقين، وما جزاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق؟
- 499 هل كان العجل الذي اتخذهُ بنو إسرائيل إلهاً ذا لحم ودم؟
- 500 رجفة السبعين الذين اختارهم سيدنا موسى وإيضاح كلامه ﷺ مع ربه
- 503 قصة أصحاب السبت
- 506 هل الأمر بالمعروف ينجي من سوء؟
- 507 الحق في أخذ نرية بني آدم من ظهورهم
- 510 من الذي آتاه الله آياته فأنسلخ منها؟
- 512

- 441 جاءت ﴿إِلَخ فُتَح هَمَزَةُ أَنَهَا
- الجنّ والشياطين هل بينهما اختلاف؟ ومتى يموت كل منهما؟
- 442 ما المراد أكثر أهل الأرض الذين يصدون من أطاعهم عن سبيل الله؟
- 443 الكلام على ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح
- 444 هل يسمى المؤمن حياً والكافر ميتاً؟
- 446 هل للهداية والضلال علامة، وما هي؟
- 448 هل يسلط الله على الظالم ظالماً بسبب ظلمه؟
- 449 كيف يرجح المشركون أصنامهم على ربّ العالمين؟
- 451 هل كان المشركون يحللون ويحرّمون افتراءً على الله؟
- 452 هل نسخ قول ربنا: ﴿وَأَتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؟
- هل في طاعة الله تعالى إسراف؟ والردّ على المحرّمين بعض الحيوانات بقوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾
- 453 إلخ
- ما زيد من المحرمات على ما تضمنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي إلَخ؟﴾
- 454 ماذا حرّم ربنا على اليهود لما بغوا؟
- 455 احتجاج المشركين بمشيئة الله على جواز إشراكهم والردّ عليهم
- 456 الوصايا العشر التي وصانا الله بها
- 457 ما ورد في هذه الوصايا، هل هذه الوصايا هي التي في التوراة؟ وإزالة إشكال
- 458 ما الذي ينتظره من لم يؤمن؟
- 460 أي آية التي إذا كانت لا ينفع نفساً إيمانها؟
- 461 كيف يكون جزاء الحسنات والسيئات

سورة الأعراف

- الجواب الحاسم عما يكون منفياً تارة ومثبتاً أخرى يوم القيامة
- 464 كيف توزن الأعمال؟ والبحث في حقائق أنكرها قوم هل الطين أفضل من النار، ولماذا؟
- 465 بناء على أي شيء قال إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾؟
- 467 هل تدل آية: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أنا لا نرى الشياطين؟
- 470 كلام جليل مع المقلدين
- 470 هل ترك ما أحلّ الله تعالى يقال له زهد ويمدح؟
- 471 حلّ إشكال الأجل إذا جاء كيف لا يتقدّم وقد جاء
- 473 الكلام في زيادة العمر ونقصه
- 474

استثناء مَنْ لم ينقضوا عهدهم من تلك البراءة، والامر
 557 بإتمام عهدهم إليهم
 ما هي الأشهر الحرم التي أمر المؤمنون أن يقاتلوا
 557 المشركين إذا انسخلت؟
 المعاني التي من أجلها لم يحترم عهد المشركين
 558 الذين لم يستقيموا على عهدهم
 بيان أن عمارة مساجد الله إنما تصح وتليق بالمؤمنين
 561 فقط
 تحريم موالاة الآباء والإخوان إذا لم يؤمنوا، والوعيد
 563 الشديد عليها
 ما كان يوم حنين؟
 منع المشركين من دخول المسجد الحرام، والخلاف
 564 في دخولهم غيره
 الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، والخلاف
 565 في مقدار هذه الجزية
 رأي المفسر في مقلدي المذاهب الأربعة
 لماذا قال اليهود عزيز ابن الله؟
 566 وعيد مَنْ يكنزون الذهب والفضة، وبيان أن كل ما
 569 أثبت زكاته فليس بكنز
 هل نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم أم لا يزال
 570 باقياً، وما هو النسيء؟
 التحريض الشديد على النفر في سبيل الله والوعيد
 572 العظيم لمن لم ينفر
 كلام الله مع رسوله لإنه للمناققين أن يتخلفوا عن
 575 الجهاد
 مصارف الزكاة
 578 قصة ثعلبة المناق الذي عاهد الله ولم يف
 587 لماذا لا ينفع استغفار رسول الله ﷺ للمناققين؟ ..
 588 تخلف المناققين عن غزوة تبوك وجزاؤهم على
 ذلك دنيا وآخره
 نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة على المناققين،
 والقيام على قبورهم، ولماذا ذلك؟
 589 ما جزاء مَنْ جاهد بماله ونفسه في سبيل الله؟ ...
 590 مَنْ هم المعذرون الذين جاءوا رسل الله ليأذن لهم في
 590 التخلف عن الجهاد؟
 رفع الحرج عن أرباب الأعذار الصحيحة إذا تخلفوا
 591 عن الجهاد وَمَنْ يُوَاضِدُ بالعقوبة لتخلفه عن الغزو
 592 اعتذار المناققين وحلفهم، وجزاؤهم على ذلك ...
 هل الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً، وهل من الأعراب قسم
 مؤمن يتقرب إلى الله بنفاقه خلاف القسم الذي

هل هناك آدمية أضلّ من الأنعام؟ 513
 كم نوع الإلحاد في أسماء الله، كم أسماء الله تعالى؟ 515
 كيف يكون الاستدراج؟ 515
 هل يعلم متى تقوم الساعة أحد غير الله؟ 517
 اعتراف سيد العالمين أنه لا يعلم الغيب 518
 الكلام على قول الله تعالى: ﴿جعلنا له شركاء فيما آتاهم﴾ 519
 صفات للأصنام تبين قدرها حق البيان 520
 كيف يتولى الله الصالحين؟ 520
 هل يجب سماع القرآن في كل حال؟ 521

سورة الأنفال

بحث في الأنفال أوّل الامر 523
 مَنْ هم المؤمن حقاً؟ 525
 أوائل غزوة بدر 526
 هل مدّ المؤمنون بملائكة يوم بدر بشرى لهم؟ ... 527
 ماذا فعل الله لمائة المؤمنين ونصرهم يوم بدر؟ . 528
 الوعيد على الفرار من الزحف 530
 متى كان الرمي في قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت﴾ 530
 بماذا تأمر الكفار على النبي ﷺ ونجاه الله منهم؟ .. 536
 هل أنزل الله أمانين لهذه الأمة: ذهب أمان وبقي أمان؟ 537
 كيف تقسم الغنائم؟ 537
 تثبيت قلوب المؤمنين ببدر برؤيا رسول الله المنامية
 وبرؤية المؤمنين للكفار قليلين ليطيعوا فيهم .. 542
 وصايا تضمن النصر للمؤمنين إن راعوها 543
 تكليف الله للمؤمن أن يحرم عليه أن يفِرَ من عشرة
 أوّل الامر وتخفيف الله ذلك عنهم وجعل الفرار
 المحرّم الفرار من اثنين فقط 549
 الكلام في فداء الأسرى يوم بدر 550
 المعاني التي كان بها التناصر بين المؤمنين
 والموالاة، والمعاني التي كان بها الإعراض عن
 بعض المؤمنين، والمعاني التي كانت بها المعادة

سورة براءة

أسماء سورة براءة، وسب سقوط البسمة من أوّلها 553
 براءة الله ورسوله من المشركين لنقضهم العهد
 وضرب مدة لهم يستعنون فيها للحرب والنداء
 يوم الحج الأكبر بهذه البراءة وبأشياء معها،
 وبيان ما هو الحج الأكبر 554

620	لا يتبعون إلا ظناً
624	الحجج على أن القرآن حق
626	صفات للكفار وتهديد لهم
627	رأي المفسر فيمن يستغيث برسول الله وإخوانه الأنبياء وأتباعهم الصالحين
632	إحاطة علم ربنا بكل شيء
632	ما هي بشرى الأولياء في الدنيا؟
635	قصة سيدنا نوح ﷺ مع قومه
636	قصة سيدنا موسى ﷺ مع قومه
642	الكلام على قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك﴾ الآيتين اختصاص قوم سيدنا يونس بنجاتهم من العذاب بعد أن علينوه
644	هل الضار النافع ربنا فقط؟

سورة هود

645	ما ورد في هود من الأحاديث
646	معنى إحكام آيات الكتاب وتفصيلها
647	ما جزاء من استغفر ربه وتاب إليه، وما جزاء من لم يفعل ذلك؟
647	شيء من صفة المنافقين هل خلق العرش كان قبل السموات والأرض؟
649	الكلام على قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك﴾ الآية
650	الجواب عن قول الكفار إن القرآن افتراه رسول الله ﷺ
651	من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط وجزاؤه ..
653	الكافرون والمؤمنون وجزاء كل، ومثل كل
654	قصة سيدنا نوح ﷺ مع قومه
661	قصة سيدنا هود ﷺ مع قومه
663	قصة سيدنا صالح ﷺ مع قومه
664	قصة سيدنا إبراهيم ﷺ مع الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم سيدنا لوط
667	قصة سيدنا لوط ﷺ مع قومه
669	قصة سيدنا شعيب ﷺ مع مدين
672	قصة سيدنا موسى ﷺ
673	كيف أخذ ربنا إذا أخذ القرى الأشقياء والسعداء وجزاء كل
674	ما معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ وإزالة هذا الإشكال
677	هل قول رسول الله ﷺ «شيبنتي هود وأخواتها» مرتبط بقول ربه عز وجل له: ﴿فاستقم﴾ الآية؟

593	يتخذ ما ينفق مغماً ويتربص بالمؤمنين الدوائر؟ ما جزاء السابقين الأولين من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان؟
595	عود إلى شرح خال المنافقين الذين بالمدينة وما حولها وما جزاؤهم
596	طائفة أخرى خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم
596	الاختلاف في الصدقة المأمور بأخذها منهم، أهى الفرض أم لا؟
597	التحريض على التوبة طائفة أخرى أرجى أمرهم لم يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها
598	مسجد الضرار ومن اتخذوه، وحكمهم عند الله تعالى، والمسجد الذي أسس على التقوى وأهله وحكمهم
601	فضل المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وصفاتهم
602	النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قرى، والجواب عن استغفار خليل الله لأبيه
604	ما هو الأواه؟
604	الكلام على قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ الآيات
605	تحريم التخلف عن رسول الله ﷺ في الغزو، وبيان ما للمجاهدين من ثواب في كل حال
606	تعليم المؤمنين أن تكون طائفة منهم تغزو، وطائفة منهم تتعلم العلم ليرشوا من لم يتعلم وتعليم المؤمنين أن يبيتوا بالأدنى في جهادهم
607	بقية من فضائل المنافقين
608	الكلام على قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول﴾ الآيتين

سورة يونس

610	إنكار عجب الكفار من إرسال الله تعالى لرسوله المُنذر المبشر، وذكر آيات جليلة على قدرته تعالى حتى لا يكون هناك محل لتعجب أولئك الكفار من إرساله الرسول ﷺ
610	شرح حال من يؤمن بالمعاد ومن لا يؤمن، وجزاء كل منهما
611	صفات للكفار يتخللها تهديد ووعد لهم
613	مثل الدنيا
619	الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات، وجزاء كل ..
	حجج دامغة على توحيدة تعالى وبيان أن المشركين

الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ

ظَلَمُوا﴾ 677

هل أعمال الصالحة تكفر صفائر المحرمات؟ 678

هل سبب استئصال الأمم السابقة بالعذاب كان بسبب أنه لم يكن فيهم من ينهون عن الفساد في الأرض؟ 679

هل لا يهلك الله أهل القرى بظلم يتلبسون به وأهلها مصلحون؟ 680

لمَ قصَّ الله تعالى على رسوله ما قصَّ في هذه السورة؟ 680

تهديد شديد للكافرين

هل خاتمة التوراة خاتمة هود؟ 681

سورة يوسف

فضل سورة يوسف عليه الصلاة والسلام 682

لماذا كانت سورة يوسف أحسن القصص؟ 683

الكلام على الكواكب التي رآها سيدنا يوسف 683

أسماء إخوة سيدنا يوسف واسم أمه 684

الكلام في نبوة إخوته ﷺ 684

هل كان نبياً سيدنا يوسف وقت المحنة؟ 686

شرح حادثة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف 689

الذين تكلموا في المهد، وبأي سن كان شاهد سيدنا يوسف 691

من هن النسوة اللاتي شغفن حب يوسف؟ 692

هل صورة الإنسان أحمل وأكمل صور الخلق؟ 693

ما هي الآيات التي رواها؟ 695

شرح رؤيا الملك 699

تحقيق الملك مع النسوة وظهور براءة سيدنا يوسف 700

هل للإنسان أن يمدح نفسه ويطلب الولاية إذا كان يتق بنفسه؟ 701

ما كان بين يوسف وإخوته لما حضروا مصر لشراء الطعام؟ 703

الرد على من ينكر تأثير العين والحكم في العائن .. 705

ماذا كان من يوسف لما أحضر له إخوته شقيقه بنيامين؟ 706

تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ إلخ الآيات .. 707

تعرف يوسف لإخوته ليعفوه وعدم عتابه لهم لما عرفوه واعتذاره له 712

أي قميص قميص يوسف؟ 713

هل كتب سيدنا يعقوب إلى سيدنا يوسف كتاباً وما هو؟ 714

كيف تحققت رؤيا سيدنا يوسف؟ 715

معنى قوله تعالى: وظنوا أنهم قد كذبوا 717

سورة الرعد

هل في قراءة سورة الرعد عند المحتضر فائدة؟ .. 719

عبرة وشرحها 720

معنى قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ 723

الكلام على سجود من في السموات والأرض، وعلى سجود الظلال 725

مثالان وشرحهما 727

الكلام على السحاب والرعد 727

صفات المؤمنين والكافرين والحكم على كل منهما . 728

قيمة النبيا، وما هي طوبى؟ 731

الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية 732

الكلام على قوله تعالى: ﴿يُمَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ عَنْدَهُ أَمَّ الْكِتَابِ﴾ 734

معنى نقص الأرض من أطرافها 736

من هو الذي عنده علم الكتاب؟ 736

سورة إبراهيم

هل يرسل الله الرسل بلسان قومهم ودفع اعتراض ضخم؟ 738

هل الشكر يستوجب المزيد؟ 739

معنى رد الكفار أيديهم في أفواههم 740

عود إلى الشكر وما يعقبه من المزيد 741

وصف شيء من عذاب الكفار وبيان عظمته وشدة 742

خطبة إبليس لأهل النار وإفحامه لهم إفحاماً عجيباً، والكلام على ذلك 744

مثل لكلمة الإيمان وكلمة الكفر 746

معنى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ 746

نعم يعددها ربنا ويمتن بها علينا 747

الجواب عما لعله يتهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَلَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَخِرَافًا وَهَارِجًا﴾ 750

السيدة سارة السيدة هاجر رضي الله عنهما 751

معنى ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلْتَّوَلُّوْا مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ 752

الأرض بعد أن تبذل 754

781	من شيء؟
782	كيف يفهم قول الله للشئ كن فيكون؟
782	ماذا أعد الله لمن هاجروا من بعد ما ظلموا؟
784	معنى يتعين لبيان الفوقية في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقَهُمْ﴾
784	دفع اعتراض ينبغي أن يحاط به
785	عجب عجيب؟ حال الكفار مع الله ومع الهتهم
786	حال العرب الوثنيين إذا بشروا بالأنثى
787	ماذا يفعل الله بالناس لو أخذهم بنوهم
788	معنى قوله تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ﴾
789	الكلام على سقى وأسقى لغة، وعلى الضمير المذكر الراجع إلى الأنعام
789	العبرة في خروج اللبن من بين فرث ودم خالصاً سائغاً للشاربين
789	الكلام على السكر في قوله تعالى: ﴿تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾
790	هل العسل شفاء لكل الأمراض أو لبعضها؟
	الكلام على ذلك
	أخبار وردت في العسل
791	مراتب العمر، والأرذل منه، ومعناه
793	مثال يفهم أن لا يصح التسوية بين خالق الخلق وبين الأصنام الجمادات
795	نعم يمتن علينا بها ربنا وما أجل ما يمتن به الحكيم القدير
798	الكلام على العدل والإحسان والفحشاء والمنكر
799	أفضل آية، وأجمع آية، وأكثر آية تفويضاً، وأرجى آية
799	الكلام على الوفاء بالعهد وعلى اليمين بعد توكيدها
801	ما هي الحياة الطيبة التي يحيي ربنا عليها المؤمن العامل للصالحات
801	ماذا يفعل مريد قراءة القرآن؟
802	من هذا البشر الذي زعموا أنه يعلم الرسل، والرد عليهم في ذلك؟
803	آثار في بيان الحياة الطيبة التي يحيها المؤمن الصالح
803	الكلام على من كفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان
804	هل يغفر الله لمن فتن إذا هاجر وجاهد وصبر؟
804	شيء من تعذيب الكفار لبعض المؤمنين المستضعفين وقت هجرتهم
805	ما هي القرية التي جعلها الله مثلاً؟
	الاستعارة التي في قوله تعالى ﴿فَإِذَا قُتِلَ﴾

سورة الحجر

755	متى يؤد الذين كفروا لو كانوا مسلمين؟
758	الكلام على البروج
	كيف حفظت السماء من الشياطين؟
759	معنى كون الرياح لواقع
	في معنى المستقدمين والمستأخرين
760	أصل الإنسان والجآن، وحادثه إبليس مع سيدنا آدم
762	الكلام على أبواب جهنم
763	ما أعد للمتقين وحالهم في الجنة
763	محاورة سيدنا إبراهيم مع الملائكة
764	الملائكة مع سيدنا لوط
765	حال قوم سيدنا لوط معه ﷺ
766	هل أجمع المفسرون على أن ربنا أقسم بحياة نبينا ﷺ
	من هم المتوسمون، هل هم أهل الفراسة؟
767	هل أصحاب الأيكة أهل مدين أمتان مختلفتان؟
768	ما هي السبع المثاني؟
769	من هم المقتسمون وما فعلوا بالقرآن؟
	المستهزئون الذين كفى الله نبيه منهم
	الكلام في الفاتحة وفضلها
769	حديث يتعلق بآخر السورة ينبغي أن يرى

سورة النحل

771	ما المراد بالأمر الذي أتى ونهوا عن استعجاله
	ما هو الروح الذي يلقيه ربنا على من يشاء من عبياده؟
772	من جلة امتن الله بها على عباده
774	الكلام على لحوم الخيل حلاً وحرمة
	رجوع إلى الكلام على لحوم الخيل
774	من أخرى يمتن بها علينا ربنا فليتاملها المؤمن
	هل من يخلق هذه المذن يصح أن يساوى بمن لا يخلق شيئاً؟
776	كيف لا نحصى نعم ربنا؟
777	قيمة الإلهة التي يدعونها من دون الله
778	عادة الله مع أهل المكر السيئ بدينه ورسله
779	معنى لا جرم ومن هو المتكبر وما جزاؤه؟
	الكفار والمؤمنون ووصف كل وجزاؤه
	كيف يفهم قول الكفار لو شاء الله ما عبدنا من دونه

834 مَن هو الإمام الذي يدعى كل أناس به
الكلام على قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى
فهو في الآخرة أعمى﴾

837 معنى قوله تعالى: ﴿ومن الليل فتجهده به نافلة لك﴾
ما هو المقام المحمود الذي وعده الرسول ﷺ؟

838 معنى منخل الصدق ومخرج الصدق

839 هل القرآن شفاء للقلوب أو الأبدان أو شفاء لكليهما؟

839 ما هو الروح والكلام فيه؟

841 هل يذهب القرآن من القلوب والمصاحف يوماً ما .
شبهة للكفار في أن يكون الرسول بشراً، والجواب
عنها

843 على أي حال يحشر الكافرون؟

845 ما هي التسع آيات التي أوتيتها سيدنا موسى؟ ...

848 الكلام على آية العز والآية قبلها

سورة الكهف

849 فضل سورة الكهف، وليراجع فإنه جليل

849 ما معنى ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾

850 قصة أهل الكهف، وهي من بدائع القرآن فلتأمل ..

855 معنى قوله تعالى: ﴿وانكر ربك إذا نسيت﴾

كلام ربنا مع نبيه في شأن فقراء المؤمنين وفي شأن
الكفار

857 ما أعد للكافرين وما أعد للمؤمنين

859 الكلام على الرجلين اللذين ضربهما الله مثلاً

862 مثل آخر هو مثل الحياة الدنيا والكلام عليه

862 الكلام على الباقيات الصالحات

معنى العرض، وكيف يعرض الناس؟

قصة إبليس مع سيدنا آدم، وبيان أنه من الجن لا
الملائكة

863 الكلام على قوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات
والأرض﴾

قصة سيدنا موسى مع فتاه ومع سيدنا الخضر،
وهي من عجائب القرآن

869 بقية قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر

872 الكلام على ذي القرنين وقصته

875 بقية هذه القصة، وفي ذلك الكلام على ياجوج ماجوج

878 مَن هم الأخسرون أعمالاً، وما هو جزاؤهم؟

ما هو جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟

879 هل يدخل الخوارج في الأخسرين أعمالاً؟

805 الجوع والخوف

807 ما معنى كون سيدنا إبراهيم أمة؟

807 كيف اختلف أهل السبت فيه؟

هل لمن أصيب بظلامة أن يعاقب بمثلاً وإن صبر
كان خيراً؟

ما هو السبب في نزول قوله تعالى: ﴿إن عاقبتكم﴾

808 الآية؟

سورة الإسراء

بحث لغوي في لفظ التسبيح والإسراء بم بارك الله
حول المسجد الأقصى؟

811 هل كان الإسراء ببين رسول الله ﷺ أم بروحه فقط؟
متى أسري به ﷺ؟

ما قضاه الله على بني إسرائيل من قهر عدوهم لهم
حين عصيانهم وقهرهم لعدوهم بعد ما تابوا .

813 معنى أن الله محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة

ما هو العذاب المنفي في قوله تعالى: ﴿ما كنا
معنبيين﴾ الآية، أهو عذاب الدنيا أم عذاب الآخرة؟

814 الكلام على قوله تعالى: ﴿أمرنا مترفياً ففسقوا
فليها﴾

814 الوصية على الوالدين والتشديد في عدم عقوقهما .

817 ما هو التبذير، وما قيمة المبذر في حكم الشرع؟ ..

819 نواو جازمة يجب أن تمتثل فلتراجع

معنى كون ولي القتاتل منصوراً، ومعنى نهيه عن
الإسراف في القتل

820 أوامر ونواه يجب أن تمتثل فلتعرف فإنها في غاية
الأهمية

822 ما الحق في تسبيح كل شيء بحمد ربنا هل هو
مجاز أم حقيقة؟ وليراجع هذا البحث

824 ما معنى المسحور؟

825 ما الحكمة في عدم إجابة الكفار فيما اقترحه من
الآيات؟

829 معنى كون الله لم يرسل الآيات إلا تخويفاً

830 ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنه للناس؟
ما هي الشجرة الملعونة في القرآن؟

قصة إبليس مع سيدنا آدم، وأنها ذكرت في القرآن

831 سبع مرات

رأي المفسر في قوله تعالى: ﴿وفضلناهم على كثير

833 ممن خلقنا تفضيلاً﴾

834 أحاديث في تفضيل بني آدم على الملائكة

- توعد فرعون لسيدنا موسى أن يأتيه بسحر مثل
آييته 912
الموعد للاجتماع لذلك 912
مبلغ عظم السحر الذي فعله سحرة فرعون 914
ابتلاع عصا سيدنا موسى كل ذلك السحر بعد أن
انقلبت ثعباناً 915

- إيمان السحرة بمجرد رؤيتهم هذه المعجزة
اتهام فرعون لهم بأنهم تلاميذ سيدنا موسى، وأنه
كبيرهم الذي علمهم السحر، وتهديده لهم
بقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على جنوع
النخل لأجل إيمانهم بموسى من غير إذنه
استخدامهم كل هذا التهديد ومضيههم على إيمانهم،
ولينظر ما قالوا فإنه يشف عن إيمان كالجبال
كيف نجى ربنا موسى وقومه، وكيف أغرق فرعون
وقومه؟ 916
جواب سيدنا موسى لما سأله ربّه لم استعجل وتقدم
قومه إلى الميقات؟ 918
غضب سيدنا موسى وتوبيخه لقومه لما أخبره مولاه
أن السامري أضلهم 918
كيف صنع السامري العجل وكيف أضل بني
إسرائيل

- تصميم بني إسرائيل على عبادة العجل حتى يرجع
سيدنا موسى رغم نهى سيدنا هارون لهم، وببإنه
فتنتهم بذلك العجل الذي اتخذوه إلهاً، وإنما إلههم
الرحمن 919
لوم سيدنا موسى أخاه سيدنا هارون على عدم إنكاره
على بني إسرائيل لما عبدوا العجل، وجواب
سيدنا هارون على ذلك اللوم 920
جواب السامري لما سأله سيدنا موسى لماذا صنع ما
صنع؟ 920

- عقوبة السامري الدنيوية على تلك الشنيعة
معنى تحريق ذلك العجل ثم نفسه في اليم
ماذا كان من سيدنا آدم بعد نهيه عن الأكل من
الشجرة، وكيف حاوره إبليس في ذلك الأكل؟ 924
هل صلاة الصبح والعصر هما التسبيح قبل طلوع
الشمس وقبل غروبها، وما فضل هاتين
الصلاتين؟ 928

سورة الأنبياء

- كلام للمؤلف في حدوث القرآن ورأيه فيما كان من
المتقديم في هذه المسألة 929

- الكلام على الجنة وخصوصاً جنة الفردوس
والتحريض على سؤالها
ما هي كلمات الله التي تنفد البحار ولا تنفذ؟ وهل هي
قابلة لأن تنفذ أم لا؟ 879
الكلام على قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء
ربه﴾ الآية

سورة مريم

- فضل هذه السورة 881
سيدنا زكريا وقصته
ما هو الحكم الذي أوتي سيدنا يحيى صبياً وفضل
سيدنا يحيى 882
قصة السيدة مريم في حملها ووضعها لسيدنا عيسى
وبراءتها 885
كيف امترى بنو إسرائيل في سيدنا عيسى ﷺ؟ .. 890
قصة سيدنا إبراهيم الأليل مع والده 890
فضل سيدنا موسى وسيدنا هارون وسيدنا إسماعيل
وسيدنا إدريس 891
معنى رفع ربنا لسيدنا إدريس مكاناً علياً، وتنبية على
غلط 892
معنى الورود في قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردة﴾
هل تكون الآلهة يوم القيامة ضداً لعبديها لا عزاً لهم؟
كيف يحشر الممتقون والمجرمون؟ 900
أي جريمة جريمة من يزعم أن الله اتخذ ولداً؟
ما هو العهد الذي يملك به الإنسان الشفاعة؟ 901
ما هو الود الذي سيجعله الله لعباده الصالحين؟ .. 902
لماذا يسر الله القرآن بلسانه ﷺ؟

سورة طه

- فضل هذه السورة 903
ما معنى لفظ ﴿طه﴾ 903
ما معنى ﴿الرحمن﴾ على العرش استوى؟ وما معنى
﴿السر وما أخفى﴾ 903
قصة سيدنا موسى حينما رأى ناراً
معنى ﴿أكاد أخفيها﴾ 905
منة ربنا على سيدنا موسى في تربيته منذ كان
رضيعاً وما يتصل بذلك حتى صار نبياً 908
قصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه بعد الرسالة .. 910
معنى قوله تعالى: ﴿أريناه آياتنا كلها﴾ 912

966	مَن القانع وَمَن المعتر؟
966	صفة مَن ينصرهم الله لأنهم ينصرونه
	هل أول آية نزلت في الجهاد ﴿أَن لِّلَّذِينَ يقاتلون﴾ الآية؟
	الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذا تَمَنى القى الشيطان في أَمْنِيته﴾
969	فضل الموت في سبيل الله
971	آيات وعبر ينبغي نظرها
972	مثل لمن عبد غير الله عزَّ وجلَّ
973	كيف لم يجعل الله علينا في ديننا من حرج؟
	سورة المؤمنون
977	هل الخشوع فريضة في الصلاة أم فضيلة؟
977	صفات للمؤمنين الذين أفلحوا
978	هل يفتدي ربنا المؤمنين من النار بالكافرين؟
	مراتب خلق الإنسان
979	آيات وعبر أخرى ينبغي أن ترى ليزداد ناظرها إيماناً
	ما وافق عمر فيه ربه والتنبيه على عدم اعتبار حديثين
981	قصة سيدنا نوح مع قومه
981	عادة الأمم مع رسلهم وعادة الله تعالى معهم
982	قصة سيدنا موسى مع قومه
984	هل قد تكون كثرة الأموال والأولاد إهانة لا كرامة؟
986	صفات للفضلاء من أهل الإيمان فليعرض العبد نفسه عليها
986	هل لو اتبع الحق أهواء الكفار كانت تفسد السموات والأرض؟
989	هل القرآن فخر وشرف لمن نزل لهم؟
989	هل سؤال المرشد من يرشدهم أجراً يصح أن يكون سبباً في إعراضهم عنه؟
	براهين على وحدانية الله تعالى تلجم المشركين الحجر لأنهم يعترفون بها
990	برهان آخر على نفي الولد والشريك لله عزَّ وجلَّ
991	هل العمل هو مناط الإكرام والإهانة يوم القيامة؟
992	هل السخرية بالمؤمن لإيمانه تخلد الساخر في النار، وهل صبر المؤمن على تلك السخرية مع ضعفه يكون سبباً في فوزه؟
994	تنزيه ربنا نفسه عن أن يكون خلق الناس عبثاً
	هل يسأل الكافر الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً ولا يسألها المؤمن؟

930	راي المفسر في التقليد
	الكلام على قوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾ الآية
931	لماذا تفسد السموات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله
932	الرد على مَن قالوا: إن الله اتخذ الملائكة بنات، وبيان قدر الملائكة
933	معنى فقق السموات والأرض بعد أن كانتا رتقا
934	هل يشفع في أهل الكبائر؟
934	فيمن نزل قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ ومعنى هذا التركيب
935	قصة سيدنا إبراهيم مع قومه وتشبيهه المصنف المقلدين للأئمة بقومه
938	كيف يفهم قول الله تعالى: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ الآية
939	ماذا كان لما ألقى سيدنا إبراهيم في النار
940	فضل ربنا على إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح
940	قضية الحرث التي فهمها الله سليمان، والكلام عليها
941	فضل الله على داود وسليمان
942	ماذا فعل ربنا مع سيدنا أيوب لما دعاه؟
944	الكلام على سيدنا ذي الكفل
945	قصة سيدنا يونس لما ذهب مغاضباً
945	معنى قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها﴾ الآية، وإزالة إشكالاتها
947	بيان وضع حديث السجل
950	كيف أن نبينا أرسل رحمة للعالمين؟

سورة الحج

952	تفسير سورة الحج، وهل لها فضل؟
952	هل يوم القيامة وإلى أي حد يصل؟
952	مراتب خلق ربنا للإنسان
954	بعث النار من بني آدم ومقدار هذه الأمة
958	أهل النار وأهل الجنة وما أعد لكل منهما في داره
	الكلام على قوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ الآية
960	بحث جليل في بيوت مكة باعتبار أنها للجميع الطارئ والمقيم
961	مَن المأمور بقوله تعالى: ﴿وأن في الناس بالحج﴾؟
964	هل تعدل شهادة الزور الشرك بالله؟

- 1021 أوصاف للمنافقين
 1022 كيف يكون المؤمنون إذا دعوا لحكم الله ورسوله؟
 1025 بيان آية استئذان الممالك والصغار
 1029 الكلام على القواعد من النساء
 في أي شيء رفع الحرج عن الأعمى والأعرج
 1029 والمريض؟
 البيوت التي لا حرج على المرء أن يأكل منها بلا إذن
 أهلها إذا كان الطعام مبنولاً له غير محرر ولا
 1029 ممنوع
 صفة المؤمنين مع رسول الله ﷺ إذا كانوا معه على
 1030 أمر جامع
 1030 كيف يكون المؤمنون مع الرسول ﷺ إذا دعوه؟ ..

سورة الفرقان

- 1031 تفسير سورة الفرقان، وأنها مكية في قول الجمهور
 الكلام على مادة تبارك، وهل لا تطلق إلا على الله
 1031 سبحانه وتعالى؟
 الرد على طوائف المشركين، ومبلغ ألهمهم من العجز
 1032 ما قاله الكافرون فيه ﷺ؛ ورد الله عليهم، ووعيده لهم
 على ذلك القول، ووعده تعالى لرسوله وللمؤمنين
 1033 بما أعد لهم في جنته
 تكذيب المعبدوين لمن كانوا يعبدونهم حينما يسألهم
 الله عز وجل يوم القيامة أهم الذين أضلوا أولئك
 1035 المشركين؟
 ما المراد بقول المجرمين عند مشاهدتهم الملائكة
 1037 حجراً محجوراً؟
 معنى تشقق السماء بالغمام
 1038 حشرات الكفار يوم القيامة على أن فاتهم اتباع
 1039 الرسول ﷺ
 أمم أهلهم الله تعالى لما كذبوا رسلكم
 1041 آيات على قدرته تعالى
 1043 صفات صالح عباد الله عز وجل
 1047 صفات صالح عباد الله عز وجل

سورة الشعراء

- تفسير سورة الشعراء، وبيان أنها مكية، وبيان فضل
 1052 الطواسين
 قصة سيدنا موسى وهارون مع فرعون وقومه ...
 1053 قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
 1058 قصة سيدنا نوح مع قومه
 1061 قصة سيدنا هود مع قومه
 1062 قصة سيدنا هود مع قومه

- الجمع بين قوله تعالى: ﴿ولا يتساءلون﴾ وقوله:
 ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾
 هل ينفع نسب رسول الله ﷺ يوم القيامة وإن عدم
 994 نفع الأنساب في وقت مخصوص؟
 كيف كلوح أهل النار، وهم فيها؟
 أي فضل فضل الآيات الأربعة آخر هذه السورة؟

سورة النور

- تفسير سورة النور
 995 هل هي مدنية، وهل أمرنا أن نعلم نساءنا هذه
 السورة؟
 إعراب أول السورة
 ما هو الزنا، وما حد الزاني البكر البالغ الحر وما حد
 996 الأرقاء، وما حد الأحرار المحصنين؟
 الكلام على قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو
 997 مشركة﴾
 أحكام القذف
 998 أحكام اللعان
 999 ما هي التوبة من القذف؟
 1000 قصة الإفك
 1001 من الذي تولى كبر الإفك؟
 1001 ما المراد بالخبيثات والطيبات؟
 1005 الكلام على الاستئذان
 1006 ما هي البيوت الغير مسكونة؟
 1006 الكلام على أدب غض البصر للنساء والرجال
 1007 النهي عن إيذاء المرأة الزينة إلا ما ظهر منها، والمراد
 1008 من هذا الظاهر
 1008 من يباح للمرأة أن تبدي زينتها امامهم
 لمن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى﴾
 1011 وحكم النكاح
 معنى تقيد النهي عن إكراه الفتيات على البغاء بشرط
 1012 إرادتهن التحصن
 ما هو الخير المشروط علمه ف القن ليتوجه علينا
 1013 الأمر بكتابته
 الكلام على قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾
 1014 الآية
 معنى قوله تعالى: ﴿في بيوت أنن الله أن ترفع﴾ الآية
 1015 مثلاً لأعمال الكفار
 1017 الكلام على قوله تعالى: ﴿الم نر أن الله يزجي
 1019 سبحانه﴾ الآية

هل لم تكن أم موسى نبية، وأن الوحي إليها وحي إلهام؟	1063
معنى كون اللام للعاقبة في مثل: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾	1064
من أي شيء كان فارغاً قلب أم موسى لما لقيته في اليوم	1065
الوسيلة التي بها ردّ ربنا سيدنا موسى إلى أمه	1066
بعد كم سنة يبلغ الإنسان الأشد، بعد كم يستوي؟	1071
الكلام على قتل سيدنا موسى القبطي لما استغاثه الإسرائيلي	1072
هل الإسرائيلي هو الذي قال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟	1073
من الذي نصح سيدنا موسى بالخروج لائتجار الملا على قتله	1074
قصة سيدنا موسى مع بنتي سيدنا شعيب، ومع سيدنا شعيب	1075
قصته وهو راجع من مدين إلى مصر	1076
امتنان الله على نبيه بإخباره بحوادث لم يكن في زمنها	1077
هل أهل مكة لم يأتهم رسل قبل نبينا ﷺ	1078
ماذا قال المشركون لما أرسل إليهم نبينا، وماذا علمه الله أن يقول لهم؟	1079
هل لمؤمني أهل الكتاب أجرهم مرتين لإيمانهم بموسى محمد وكتايبهما؟	1080
اعتذار من الكفار عن الإيمان وجوابه النافي له	1081
هل لم يهلك الله قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسولا؟	1082
أيهما أفضل من وعد جنات النعيم، وهو لا بد داخلها أم من متع أياماً قليلة ثم مصيره إلى النار؟	1083
هل الصحيح أن «ما» نافية في قوله تعالى: ﴿وما كان لهم الخيرة﴾؟	1084
هل من ممن الله علينا أنه لم يجعل الزمن ليلاً كله ولا نهراً دائماً	1085
قصة قارون مع سيدنا موسى ﷺ	1086
هل جعل الله الجنة لمن لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً؟	1087

سورة العنكبوت

تفسير سورة العنكبوت	1113
هل لا بد من ابتلاء الناس ليتبين حالهم؟	1113
الوصية ببر الوالدين وطاعتها إلا في المعصية	1114

قصة سيدنا صالح مع قومه	1063
قصة سيدنا لوط مع قومه	1064
قصة سيدنا شعيب مع قومه	1065
التنويه بقدر القرآن الكريم وما يفعله الله بمن كذب به	1066

سورة النمل

تفسير سورة النمل	1071
ماكان من سيدنا موسى وله وهو عائد بأهله من مدين إلى مصر حينما رأى ناراً، والمراد من هذه النار	1072
من هو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إلا من ظلم ثم بذل حسناً﴾ إلخ	1073
ما هي التسع الآيات؟ وهل هي غير العصا واليد، أم هي تسع بهما؟	1073
ماذا فعل فرعون وقومه لما رأوا هذه الآيات وماذا فعل الله بهم؟	1073
امتنان الله تعالى على داود وسليمان بإيتائهما العلم في أي شيء ورث سليمان داود، وهل علم سيدنا سليمان منطق الطير فقط أم كان يعلم لغة كل الحيوانات؟	1074
خطبة النملة للنمل، وما كان من سيدنا سليمان لما سمع هذه الخطبة	1075
قصة سيدنا سليمان مع الهدهد لما تفقد الطير وصافيه غائباً	1076
قصة سيدنا سليمان مع بلقيس، وما كان منها مع قومها لما ألقى الهدهد كتاب سيدنا سليمان إليها	1076
قصة سيدنا صالح مع قومه	1082
قصة سيدنا لوط مع قومه	1084
آيات على قدرته تعالى ووحدانيته، وعلى أنه لا نعمة للإنسان إلا وهو المنعم بها	1085
هل استأثر الله وحده بعلم الغيب ولا يعلم أحد سواه من ذلك شيئاً؟	1086
معنى قوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ إلخ	1088
الكلام على قوله عزّ جل: ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ إلخ	1088
من هم المستثنون من الفرع حينما ينفخ في الصور؟	1090

سورة القصص

تفسير سورة القصص	1092
كلمة للزجاج تبين مبلغ حمق فرعون في قتله لأبناء بني إسرائيل	1093

- الكلام على لفظ لقمان وعلى شخصه
وصايا لقمان لابنه 1141
امتحان من الله بأنه سخر لنا ما في السموات وما في
الأرض 1141
وصف للمشركين بأنهم يتكلمون في ربنا بغير علم
يقلدون آباءهم 1144
ما هي كلمات الله التي لا تنفذ؟ 1145
دلائل على قدرة الله ووحدانيته 1145
وصية الإنسان بالتقوى وخشية يوم القيامة 1146
مفاتيح الغيب الخمس التي لا يعلمها إلا الله 1146

سورة السجدة

- تفسير سورة السجدة وهل لها فضل؟ 1147
اقل كلام على قوله تعالى: ﴿ثم يخرج إليه في يوم كان
مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ 1148
لم أفرد الله السمع دون الأبصار والأفئدة؟ 1149
من هو المؤمن بآيات الله حقاً وما جزاؤه؟ 1151
هل بين المؤمن والكافر فرق؟ وما هو هذا الفرق؟ 1152
معنى ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ 1153
هل يوم الفتح هو يوم القيامة؟ 1154

سورة الأحزاب

- تفسير سورة الأحزاب 1155
هل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ وما ينبغي أن
يكون عليه المؤمنون معه ﷺ إزاء ذلك؟ 1157
هل نساؤه ﷺ أمهات للمؤمنين فقط أو للمؤمنات
أيضاً؟ 1157
سبب نزول قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلوبين
في جوفه﴾ 1157
غزوة الخندق وما كان فيها للمؤمنين والكافرين 1158
لكلام على قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك
الآية 1165
هل يضاعف ثواب أمهات المؤمنين إن عملن
الصالحات، ويضاعف عذابهن إن لم يستقمن؟ 1166
تأنيب ربنا لنساء رسوله ﷺ وهو يشمل سواهن 1166
ما هي الجاهلية الأولى؟ 1167
من هم أهل البيت؟ والإقامة في ذلك
صفات من اتصف بها من المؤمنين والمؤمنات غفر
له ونال أجراً عظيماً؟ 1170

- هل الكافر هو الذي يسوي فتنة الناس وإيذاءهم
بعذاب الله، وأما المؤمن فيصبر؟
هل لا يحمل أحد إلا وزر نفسه؟ 1115
قصة سيدنا نوح مع قومه، وقصة سيدنا إبراهيم مع
قومه 1116
قصة سيدنا لوط مع قومه وقصة سيدنا شعيب مع
قومه 1119
هو ذكر الله الذي حكم ربنا عليه بأنه أكبر؟ 1121
الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب﴾
الآية 1121
هل أمية الرسول ﷺ برهان على صدق رسالته .. 1123
الرد على من اقترحوا آيات على الرسول بأن معجزة
القرآن تكفيهم 1124
هل تجب الهجرة من أرض لا يمكن للعبد أن يعبد ربه
فيها، ولا يمكنه أن يغير ما بها من المعاصي؟ 1124
الوعد بالجنة على الهجرة
طعن وجيه في حديث 1126

سورة الروم

- تفسير سورة الروم 1127
معجزة من معجزات القرين تبرهن على أنه من عند
الله 1127
التحريض على السير في الأرض للاعتبار 1128
على أي حال يكون الكافرون والمؤمنون يوم القيامة؟
آية تتضمن أمر بالصلوات الخمس 1129
دلائل على قدرة ربنا ووحدانيته 1130
مثل يبرهن على توحيد الله تعالى 1133
بحث في الفطرة ما هي؟ 1133
حال الناس في الشدة والرخاء 1134
التحريض على مواساة الفقراء، والتحذير من الربا
بمعنييه هنا 1135
الكلام على قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر
والبحر﴾ الآية 1136
هل يسمع الكفار الميتون من يخاطبهم؟ 1138

سورة لقمان

- تفسير سورة لقمان 1139
ما هو لهو الحديث وشيء من صفات الكافر؟ 1140
مقارنة يتبين منها أن الله هو الإله، وأن الأصنام لا
شيء 1141

يعبدونهم؟ 1200
فضل الإنفاق في غير إسراف لا تقتير وأن الله يخلقه

ما يقوله الكافرون إذا تتلى عليهم آيات الله 1201
الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾
الآية

سورة فاطر

تفسير سورة فاطر 1204
مَنْ هم الرسل من الملائكة؟

لا يستطيع أحد أن يمسك رحمة فتحها ربنا أو يرسل
رحمة أمسكها 1204

تحذير الناس من الدنيا ومن الشياطين
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ 1206
هل يزيد العمل وينقص؟ الكلام في ذلك 1207

إفهام المشركين مبلغ اقتداره تعالى ومبلغ ضعف
التهتم ليؤمنوا 1208

هل ربنا الغني ونحن الفقراء إليه؟ وهل إن شاء أذهبنا
وأتى بسوانا؟ وهل لا تحمل نفس شيئاً من وزر

غيرها ولو كان ذا قربي؟ 1209
أمثال للمؤمن والكافر والإيمان والكفر تدرك بالحس 1209

شيء يدل على باهر قدرته تعالى 1210
هل خشية الله تعالى مختص بها العلماء به وبآياته . 1211

الكلام على قوله تعالى: ﴿هُمْ أَوْثَنُ الْكِتَابِ الَّذِينَ

اصطفينا من عبادنا﴾ الآيات، وهو مهم 1211
الذين كفروا وجزأؤهم وحالهم في النار وندأؤهم 1214

والرد عليهم 1214
آية من آيات قدرته عز وجل وهي من البدائع 1215

هل لو أخذ الله الناس بظلمهم كان يهلكهم ويهلك كل
دابة بشؤم معاصيهم؟ 1216

سورة يس

تفسير سورة يس، وما ورد في فضلها 1217
معنى لفظ يس، وهل هو عربي أم غير عربي؟ 1218

قسم الله بالقرآن على أن نبينا من المرسلين لينذر
قوماً ما أنذر آبأؤهم 1218

هل حق القول على أكثر هؤلاء الذين لم ينذر
آبأؤهم فلا يؤمنون بحال

هل يحيي الله الموتى للجزاء ويكتب ما قدّموا

هل يحرم على المؤمن إذا قضى الله ورسوله أمراً أن
يخالف؟ 1170

قصة سيدنا زيد وزوجه السيدة زينب، وما يتعلق
برسول الله ﷺ من ذلك 1171

فضل ذكر ربنا عز وجل وأنه أفضل الطاعات 1173
عدّة المطلقة قبل الدخول 1175

مَنْ أحلّ الله لنبيه من النساء، ولماذا أحلّ ذلك؟ 1175
رفع الوجوب عن النبي ﷺ في القسم بين نسائه . 1176

الكلام على قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ

بَعْدِهَا الْآيَةُ

آداب المؤمنين معه ﷺ ومع أزواجه 1179
مَنْ لا يجب على نسائه أن يحتجبن منه من الرجال . 1180

إفاضة في الصلاة والسلام عليه ﷺ 1181
أنب النساء إذا خرجن 1183

تهديد المنافقين إن لم ينتهوا عن نفاقهم بإغراء النبي
ﷺ بهم 1184

تمني الكفار وهم في النار أن لو كانوا اتبعوا الرسول،
وندمهم على اتباع كبرائهم 1185

سبب نزول آية الحجاب والأمر بإنشاء نساء
المؤمنين عليهن من جلابيهن

بأي شيء أذى بنو إسرائيل موسى 1185
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ الآية . 1186

رجوع إلى ما أودى به سيننا موسى 1187

سورة سبأ

تفسير سورة سبأ 1188
نعم الله على سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما

الصلاة والسلام 1190
قصة سبأ 1193

إفهام الكافرين أن لا قيمة لألتهم التي يدعونها . . 1194
إعراب لفظ «كافة» من قوله تعالى: ﴿هُمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

كافة للناس﴾ 1198
استعجال الكفار بيوم القيامة، وجوابهم على ذلك . . 1198

مجادلة المستضعفين والمستكبرين من الكفار يوم
القيامة

كفر المترفين في كل زمان بالرسول فهماً منهم أنهم
أفضل من الرسل بكثرة المال، وإفهامهم قدر

المال، وأنه لا ينفع عند الله إلا صالحات الأعمال
مع الإيمان 1199

جواب الملائكة عن سؤال الله إياهم هل كان الكفار

- 1252 نسباً
هل يمكن الكفار وآلهتهم أن يضلوا مَنْ لم يسبق له
1254 الشقاء
1254 فضل قوله تعالى: ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ الآية .

سورة ص

- 1255 تفسير سورة صّ وسبب نزول أولها
1256 كلام عن كفار قريش لما جاءهم النبي ﷺ
أمم كذت قبل هؤلاء، وما نزل بهم من العذاب
1258 لتكذيبهم رسلهم
سيدنا داود ونعمة الله عليه، وقصته مع من تسوروا
1259 عليه المحراب
1262 وصية ربنا لسيدنا داود في حكمه بين الناس
هل يجوز أن يسوّي ربنا بين المتقين والفجار
1262 قصة سيدنا سليمان مع الخيل لما شغلته عن الصلاة
1263 فتنة سيدنا سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه وما
هو هذا الجسد؟
1264 مبلغ نعمة مولانا تعالى على سيدنا سليمان عليه
الصلاة والسلام
1265 قصة سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام
1266 قدر سيدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب عند ربنا
1267 قدر سيدنا إسماعيل واليسع وذئ الكفل وما للمتقين
عند ربهم؟
1267 ما للطاغين عند ربهم وخصامهم في النار
1269 رأيهم في المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم لما لم
يروهم معهم في النار
1270 قصة إبليس لما أمر مع الملائكة بالسجود لسيدنا آدم
1271

سورة الزمر

- 1273 تفسير سورة الزمر ما ورد فيها من الفضل
1274 هل يجب الإخلاص في العبادة؟
تكذيب ربنا للكفار في قولهم: ﴿ما نعبدكم إلا ليقربونا
1274 إلى الله زلفى﴾
وأنهم جعلوها مثله ماذا كان ينبغي لو أراد ربنا أن
يتخذ ولداً؟
1274 براهين على أنه تعالى الإله الواحد القهار
الكلام في كفر العباد وشركهم ماذا يرضاه تعالى
1276 منهما؟
1276 حال الإنسان إذا مسه الضر وإذا نال نعمة
هل مَنْ يخشى الله تعالى ويطيعه كمن لا يكون منه

- وآثارهم؟
1219 قصة قرية انطاكية مع الرسل الثلاثة الذين أرسلوا
إليها
1220 قصة أحدهم معهم وهو ينصحهم باتباع الرسل
1221 آيات على قدرة ربنا ووحدانيته
1223 معنى قوله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في
الفلك المشحون﴾
1225 هل ينفخ في الصور نفخة للموت ونفخة للبعث؟
1227 ماذا يقول الكافرون إذا قاموا من القبور
1227 مَنْ يقول ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق
المرسلون﴾
1228 حال أهل الجنة فيها
لماذا لم يعلم الله نبينا الشعر وتوجيه ما روي عنه
يشابه الشعر
1230 نعمة الله تعالى في الأنعام ومنافعها
1332 حجة على البعث تلجم منكريه وتفهمهم
1233

سورة الصافات

- تفسير سورة الصافات، وهل لها فضل؟ وما ورد في
ذلك
1234 ما هي الصافات والزاجرات والتاليات؟
1234 الكواكب ومنافعها في السماء الدنيا
1235 الكلام مع منكري البعث
1236 مجادلة الكفار رؤسائهم وضعفائهم وجزاؤهم
1238 المؤمنون وجزاؤهم
1239 مؤمن في الجنة يتذكر صديقاً له كان منكراً للبعث
1240 فيطلع في النار فراه ويكلّمه
شجرة الزقوم ووصفها وكونها طعام أهل النار مع
شوب من الحميم
1242 قصة سيدنا نوح مع قومه
1243 قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
1244 قصة سيدنا إبراهيم مع ولده الذبيح، ومَنْ هو
إسماعيل أم إسحاق؟
1245 سيدنا موسى وسيدنا هارون مع قومهما
1249 سيدنا إلياس مع قومه
1249 سيدنا لوط مع قومه
1250 سيدنا يونس مع قومه وما كان له حينما أبق إلى
الفلك المشحون
الكلام مع مَنْ يعتقدون أنت الملائكة بنات الله
1252 الكلام على قوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة

- شهادة جلود أعداء الله تعالى عليهم، والمحاورة بينهم
 1313 وبين تلك الجلود
 1314 مَن اللذان أضلّا الإنس والجن؟
 1314 ما هي الاستقامة وما لأهلها؟
 1315 هل المؤمن الداعي إلى الله أحسن الناس قولاً؟ ...
 كيف تدفع السيئة، وأي درجة درجة العاملين بهذا
 1316 الأنب؟
 1316 بماذا يغلب الإنسان الشيطان إذا وسوس له؟
 هل الليل النهار والشمس والقمر الأرض عند نزول
 1317 الماء عليها آيات على قدرته تعالى وتوحيده؟ ..
 1317 وعد للمؤمن وتهديد شديد للكافر
 1318 أي قدر قدر القرآن الكريم؟
 1318 أثر القرآن فيمن آمن به ومن كفر به
 1319 هل اختص ربنا بعلم الساعة؟
 1319 حال الكفار يوم القيامة
 1320 حالهم في الدنيا
 1320 جهة الدلالة في الآفاق والآنفس على أن القرآن حق

سورة الشورى

- تفسير سورة الشورى 1321
 الكلام في فاتحة هذه السورة 1321
 الكلام على قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ 1323
 الكلام على قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين﴾ الآية 1324
 أي فرق بين مَن يؤمن بالساعة مَن لا يؤمن؟ 1325
 ماذا يفعل الله مع مَن يريد ثواب الدنيا ومَن يريد ثواب
 1326 الآخرة
 ما المراد من قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ 1327
 إلا المودة في القربى
 هل يقبل الله توبة المذنبين وما هي التوبة؟ 1327
 هل كل ما يصيبنا بسبب ما فعلناه من المعاصي وما
 1330 عفا الله عنه كثير؟
 آية الجواني على قدرة ربنا عز وجل 1330
 لمن ما عند الله خير وأبقى، وهو موضوع يتعين
 1331 النظر فيه
 حال الكفار حينما يرون العذاب يوم القيامة 1332
 تصرف الله تعالى في نعمة الأبناء وتنويعها 1333
 أنواع تكليم الله تعالى للبشر 1333
 هل الوحي يسمى روحاً؟ 1334

- ذلك: وهل يستوي العالم والجاهل؟ 1277
 أجر الصابرين وعظمه عظماً فوق العقول وهل يهاجر
 الإنسان من وطنه إذا لم يتمكن من إحسان عمله 1277
 هل أهل النار مغمورون فيها لهم من فوقهم ظلل منها
 1278 ومن تحتهم ظلل؟
 هل أهل الجنة لهم غرف من فوقها غرف 1279
 العبرة بالماء النازل من السماء وبما يخرج من
 1280 الزرع
 مثل للتوحيد والشرك وتوضيحه 1280
 الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ الآية 1285
 كلام جليل على قوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا
 1287 على أنفسهم﴾ الآية
 من المستثنى حين نفخة الصعق؟ 1291
 المؤمنون والكافرون في سوق كل إلى داره 1291

سورة غافر

- تفسير سورة غافر، وما ورد في الحواميم عامة وفي
 1293 غافر خاصة
 هل الملائكة يدعون للتائبين التابعين سبيل ربهم؟ 1295
 ما هما الموتان والحياتان اللتان اعترف بهما الكفار 1296
 قصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه 1299
 نصائح المؤمن الذي كان يكتم إيمانه لفرعون وقومه،
 1299 ما اسمه من أي فريق هو
 محاجة الكفار في النار ضعفائهم ومستكبريهم 1303
 الكلام على قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب
 1305 لكم﴾ الآية
 برهان عظيم على قدرته تعالى وحدانيته، ووعيد
 1306 شديد للكافرين المشركين
 منافع الأنعام وتقريع المشكرين بأنه وحده الذي
 1307 جعلها
 هل الإيمان الاختياري هو الذي ينفع نون
 1308 الاضطرابي
 سورة حم

- تفسير سورة حم السجدة، وقصة عتبة بن ربيعة معه
 1308
 الإنكار على المشركين الذين ينكرون توحيد الله تعالى
 بخلقه السموات الأرض الإفاضة في بيان هذا
 1309 الخلق
 ما فعله الله تعالى بعباد وثمود وما فعلوه سبباً لذلك 1312

- 1357 ما المراد بالعالمين الذين فضل عليهم بنو إسرائيل؟
 1358 هل يستوي المسيء والمحسن؟
 مَنْ هو الذي اتخذ إِلَهه هواه وأضله الله على علم؟
 كلام لمنكري البعث والرد عليهم
 1359 حال المبطلين يوم القيامة وما يقال لهم
 هل استنساخ الملائكة لأعمالنا معناه نسخها من
 اللوح المحفوظ ويكون ما ينسخ منه موافقاً لما
 1360 يقع منا تماماً؟
 1360 للمؤمنون والكافرون وأعمال كلٍّ وجزاؤه

سورة الأحقاف

- حديث يدل على أن القرآن لم ينزل في قراءته بوجه
 واحد 1361
 1361 كلام مع المشركين وبيان قيمة شركائهم
 1364 جزاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
 1364 وصية الله تعالى للأبناء على الآباء والأمهات
 هل ينبغي لمن بلغ أربعين سنة أن ينيب إلى ربه، وما
 1364 جزاؤه على ذلك؟
 1365 قدر سيدنا عبد الله بن سلام رضي الله عنه
 1365 جزاء مَنْ لم يطع والديه في دعوتها له إلى الإيمان
 1367 ماذا فعلت عاد مع رسولها وماذا فعل الله بهم؟ ...
 الجن الذين استمعوا القرآن من النبي ﷺ، وما كان
 1369 منهم لقومهم
 1369 دليل باهر على قدرة ربنا على البعث يفهم منكروه ..

سورة محمد

- ما يفعله الله تعالى بأعمال الكفار، وما يفعله مع
 المؤمنين، والسبب الذي له فعل ذلك 1371
 1371 ماذا نفعل بالكفار إذا لقيناهم في ميدان القتال؟ ...
 هل أمرنا الله بالجهاد ابتلاءً لنا وكان قادراً أن ينصرنا
 1372 بلا حرب؟
 هل إذا دخلنا الجنة عرفنا منازلنا فيها؟
 هل ينصر الله مَنْ ينصر دينه؟
 هل أهلك الله الكفار وأحبط أعمالهم بأنهم كرهوا ما
 أنزل الله؟ 1373
 وعيد الله لكفار مكة أن يهلكهم كما فعل بالكفار
 قبلهم لأنه مولى المؤمنين، وأولئك الكفار لا
 مولى لهم.
 هل يدخل الله المؤمنين الجنة لإيمانهم وصالح
 أعمالهم، ويدخل الكافرين النار لأنهم كانوا

سورة الزخرف

- تفسير سورة الزخرف 1334
 هل القرآن في اللوح المحفوظ 1335
 آيات على قدرته تعالى وتوحيده 1335
 الكلام مع مَنْ قالوا إن الملائكة بنات الله 1336
 هل كل أمة كذبت رسولها بتقليد آبائها؟ والرد عليهم
 في تقليدهم ذلك؟ 1338
 حملة من المؤلف على المقلدين 1338
 1338 كلام سيدنا إبراهيم مع قومه لما أرسل لهم
 هل قسم الله الأرزاق بين الناس ولماذا رفع بعضهم
 على بعض 1339
 مبلغ حقارة الدنيا ولينظر بإمعان هذا الموضوع .. 1340
 ماذا يفعل الله بمن يعرض عن الإيمان بالقرآن 1340
 قصة سيدنا موسى مع قومه 1342
 جدل قريش في سيدنا عيسى ورد ربنا عز وجل
 عليهم 1343
 هل نزول سيدنا عيسى من أشراط الساعة علاماتها
 هل الأخلاء يوم القيامة كلهم يكونون أعداء لبعضهم
 1344 إلا المتقين؟
 المتقون يوم القيامة وما لهم والكافرون وما لهم .. 1345
 الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾
 الآية 1346

سورة الدخان

- تفسير سورة الدخان وما ورد فيها 1348
 هل الليلة المباركة هي ليلة القدر، وأي معنى لفرق كل
 1350 أمر حكيم فيها
 هل البطشة الكبرى ما نزل بالكفار يوم بدر؟ 1350
 وهل الدخان الجوع الذي أصاب قريشاً حتى كانوا
 يتراءى لهم دخان أمامهم من شدة ما هم فيه؟
 قصة سيدنا موسى مع قومه
 1351 إنكار قريش البعث وتهديد ربنا لهم على ذلك 1353
 ما يكون فيه الكافر والمؤمن يوم القيامة 1354

سورة الجاثية

- آيات على قدرته عز وجل، ولتراجع 1355
 صفات للكافر ووعيده على هذه الصفات 1356
 منن لربنا علينا وهي من آياته

سورة ق

- 1396 ما ورد فيها
 1396 الكلام على لفظ «ق»
 عجب الكفار من مجيء منذر لهم، ومن القول البعث
 1397 لفت الكفار إلى ما يسهل عليهم الإيمان بالبعث ...
 1398 ماذا كان للأمم السابقة لما كذبت كما كذب هؤلاء؟
 برهان مفحم لمن ينكر البعث
 هل كل ما يلفظ به الإنسان يكتب عليه؟ الموت وما
 بعده من عذاب للكافر ونعيم للمؤمن 1399

سورة الذاريات

- ما هي الذاريات والحاملات وقرأ والجاريات يسراً
 1403 والمقمسات أمراً؟
 1404 هل الحبك الخلق المستوي الحسن؟
 جزاء الكفار على إنكارهم يوم القيامة واختلافهم في
 1404 شأن الرسول ﷺ
 هل المتقون، في جنات وعيون بماذا كانوا هكذا؟
 1405 عبر لفتنا ربنا إليها لنعتبر بها
 1406 قصة سيدنا إبراهيم مع الملائكة لما دخلوا عليه ..
 1408 قصة سيدنا موسى مع قومه
 ماذا فعل الله بعد واثمود وقوم نوح لما كذبوا
 رسلهم؟
 1408 عبر أخرى دعانا ربنا للاعتبار بها
 الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلقتِ الجنَّ والإنسَ إِلَّا ليعبدون﴾
 1409

سورة الطور

- 1410 ما ورد فيها
 1410 الكلام على الأقسام التي في أول السورة
 هل لا يدفع العذاب عن العصاة يوم تمور السماء
 1411 وتسير الجبال؟
 1412 كيف يكون المتقون في ذلك اليوم؟
 رد الله على القائلين إن الرسول مجنون ومتقول
 1414 للقرآن
 1415 كلام مع أولئك الكفار

سورة النجم

- 1416 ما ورد فيها
 1417 ما هو النجم؟

يتمتعون ويلكون كما تاكل الانعام؟

- 1374 انهار الجنة
 1374 المنافقون وهم يستمعون إلى الرسول ﷺ
 ما هي اشراط الساعة التي يقول القرآن إنها
 جاءت؟
 1376 حال المنافقين إذا نزلت آية وذكر فيها القتال
 كلام مع المنافقين
 نهى المؤمنين عن أن يضعفوا أمام الكافرين ويدعوهم
 1378 إلى السلم ابتداء

سورة الفتح

- 1380 ما ورد في فضلها
 الكلام على قوله تعالى: الكلام على قوله تعالى: ﴿إنا
 1380 فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله﴾ إلخ ...
 1382 هل من بايع الرسول ﷺ كأنه بايع الله؟
 الكلام في شأن الأعراب المنافقين الذين تخلفوا عن
 1382 رسل الله ﷺ حين خرج علم الحديبية
 هل الفتح القريب الذي آتاه به الله المؤمنين حينما
 1384 بايعوا بيعة الرضوان هو فتح خيبر؟
 ما هي كلمة التقوى التي كان المؤمنون أحق بها
 1386 وأهلها؟
 ما هي الرؤيا التي ذكر الله تعالى أن يصدق فيها
 1387 رسوله؟
 صفة أصحاب رسول الله ﷺ

سورة الحجرات

- 1389 آداب أنب الله بها الأمة مع رسوله ﷺ
 1390 كيف نكون مع النمام؟
 1392 ماذا نفعل لو اقتتل طائفتان من المؤمنين؟
 1392 النهي عن السخرية والسخر في ذلك
 النهي عن أن يعيب الرجل أخاه أو يشتمه بنحو: يا
 فاسق يا منافق
 النهي عن ظن سوء والتجسس والغيبة
 1394 هل نحن أبناء رجل واحد وامرأة واحدة؟
 لا فضل لواحد على أخيه إلا بالتقوى
 الكلام مع قوم من الأعراب أسلموا ليتصدق عليهم
 ولم يكونوا مخلصين
 1395 المؤمنون حقاً
 تائب من مُنْ بالإسلام، وإفهامه أن المنّة لله عزّ
 وجل

سورة الواقعة

- 1442 ما ورد فيها
- 1443 آيات لقيام القيامة
- هل الناس يوم القيامة يكونون أصنافاً ثلاثة، أهل يمين وأهل شمال وسابقون؟
- 1443 السابقون، والكلام عليهم
- 1446 أهل اليمين والكلام عليهم
- 1447 أهل الشمال والكلام عليهم
- 1449 الكلام مع منكري البعث
- الكلام على «لا» في مثل قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾
- 1450 ما هو الكتاب الذي لا يمسه إلا المطهرون؟ من هم المطهرون؟
- 1451 معنى ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾
- التنصيص على حال كل قسم من الأقسام الثلاثة السابقة
- 1452 الكلام على المضاف والمضاف إليه في مثل حقّ اليقين وعين اليقين

سورة الحديد

- 1454 ما ورد فيها
- هل تسبيح الجمادات والحيوانات غير العاقلة بلسان الحال أم بلسان المقال؟
- 1454 صفات الله سبحانه وتعالى
- 1455 التحريض على الإيمان والإنفاق في سبيل الله
- هل من أنفق وقاتل قبل الفتح أجل ممن فعل ذلك بعد الفتح وكل موعود بالجنة؟
- 1456 حال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة
- 1457 تحريض لطائفة من المؤمنين أن ترقّ تخشع لله عزّ وجلّ
- 1458 أجر المؤمنين بالله ورسله، وعقاب المكذب الكافر
- 1459 مثل الحياة الدنيا
- 1460 هل كل مصيبة تنزل بالعالم مكتوبة قبل أن تخلق؟
- 1461 ليحزنوا المؤمنين

سورة المجادلة

- قصة ظهار سيدنا أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة، وما يتعلق به من الأحكام
- 1464 حال من حادّ الله ورسوله في الدنيا والآخرة
- 1466 شمول العلم الإلهي لتناجي من كانوا يتناجون ليحزنوا المؤمنين
- 1467 ليحزنوا المؤمنين

- 1417 هل شديد القوى هو سيدنا جبريل؟
- هل المرّة جزالة الرأي وحصافة العقل؟
- هل الذي بالافق الأعلى ودنا هو سيدنا جبريل دنا من النبي فكان قاب قوسين أو أدنى؟
- 1417 هل المرثي نزلة أخرى عند سدره المنتهى هو سيدنا جبريل رآه سيد الوجود ﷺ؟
- 1418 ما هي الآيات الكبرى؟
- 1419 كلام مع المشركين
- هل الظنّ لا يغني في الأمور العلمية دون العملية؟
- 1421 النهي عن تزكية الإنسان نفسه لأن الله أعلم بمن اتقى
- 1422 الكلام مع بعض المشركين
- 1424 الكلام مع بعض المشركين

سورة القمر

- 1426 ما ورد فيها
- الكلام على أن انشقاق القمر كان في عهد النبوة، وهو ببيع فلينظر
- 1426 قصة سيدنا نوح مع قومه
- 1428 قصة سيدنا هود مع قومه
- 1429 قصة سيدنا صالح مع قومه
- قصة سيدنا لوط مع قومه
- 1430 قصة سيدنا موسى مع قومه
- 1431 الكلام مع كفار مكة

سورة الرحمن

- 1432 ما ورد فيها
- الامتنان بتعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان وبنعم أخرى
- 1433 الحكمة في تكرير ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ بعد كل نعمة ذكرت في هذه السورة
- 1434 معنى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ معنى ﴿سنفرغ لكم آية الثقلان﴾
- 1436 معنى ﴿فكانت وردة كالدّهان﴾
- 1437 الجمع بين قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ وبين قوله: ﴿فوريك لنساء﴾
- 1437 أجمعين
- 1438 ما هما الجنتان اللتان لمن خاف مقام ربه؟
- الكلام على الجنتين اللتين من دون الجنتين السابقتين، ومعنى كونهما من لونهما
- 1440 ما هو الرفرف الخضرة؟
- 1440 ما هو العبقري؟

- 1487 عيسى؟
هل أحد أظلم ممن يفتري على الله الكذب وهو
يدعى إلى الإسلام؟
ما هي التجارة التي تنجي من عذاب إليم، وما جزاؤها
1488 فوق تلك النجاة؟
1489 دعوة المؤمنين أن يكونوا كائنصار سيدنا عيسى ..

سورة الجمعة

- 1490 فضل ربنا على هذه أمة
هل مثل اليهود لما لم يعملوا بالتوراة كمثل الحمار
يحمل أسفاراً؟
تكذيب اليهود في زعمهم أنهم أولياء الله من دون
الناس
1491 شيء من أحكام الجمعة

سورة المنافقون

- 1493 شيء من صفات المنافقين
تحذير المؤمنين أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر
الله الذي هو فرائض الإسلام 1495
أمر المؤمنين بالإنفاق الذي منه الزكاة قبل أن
يموتوا ويتمنوا الرجعة

سورة التغابن

- 1496 ما ورد فيها
نعت لربنا عز وجل
زعم الكافرين أن لن يبعثوا والرد عليهم لماذا سمي
يوم القيامة يوم الجمع ويوم التغابن؟ 1497
هل كل مصيبة تنزل بمخلوق بإذن الله؟ 1498
ما معنى هداية الله لقلب من يؤمن بالله؟
التحذير من الأزواج والأولاد لأن منهم أعداء 1498
التحريض البالغ على الإنفاق في وجوه الخير ... 1498

سورة الطلاق

- 1499 كيف يطلق الإنسان زوجته، ويتعلق بذلك أحكام
جزء من يتقي الله ويتوكل عليه 1500
عدّة اليائسات ومن لم يحضن وأولات الأحمال ... 1500
نفقة المطلقة وسكانها وأجرة إرضاعها إذا أرضعت 1502

سورة التحريم

عتاب الله تعالى لنبيه لما حرّم السيدة مارية، وما

- التعجب من هؤلاء المتناجين لعودهم إلى التناجي بعد
نهيمهم عنه 1467
تحية هؤلاء المتناجين للرسول وجزاؤهم وتعليم
المؤمنين كيف يتناجون
1468 أنب المؤمنين في مجالسهم
أمر المؤمنين بالصدقة إذا أرادوا مناجاة الرسول،
ونسخ ذلك تخفيفاً 1469
المنافقون في توليهم اليهود، وشيء من صفاتهم
1470 وجزاؤهم

سورة الحشر

- امتنان الله تعالى على المؤمنين بإخراج بني النضير
من حصونهم وكان يظن أن لا يخرجوا، وما
يتعلق بهذه الغزوة من الأحكام 1472
مصارف ما أقاء الله على رسوله من أهل القرى ... 1473
هل كان الأنصار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم
خصاصة؟ 1476
ما هو الشخ المذموم؟

- المنافقون ووعدهم لأهل الكتاب أن ينصروهم وما
يتعلق بذلك 1477
هل لو كان للجبل عقل كان يتصدع ويخشع لو نزل
عليه القرآن الكريم؟ 1479
نعت لربنا عز وجل 1480
ما ورد في آخر الحشر 1480

سورة الممتحنة

- نهى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء وما يتعلق
بذلك 1481
ندب المؤمنين أن يقتدوا بسيدنا إبراهيم وقومه لما
تبرءوا من الكافرين 1482
من الكافرون الذين نهى المؤمنون عن موالاتهم؟ ... 1483
امتحان المؤمنات اللاتي يهاجرن إلى المؤمنين وما
يتعلق بهن من الأحكام 1484
مبايعة النساء وشروطها 1485

سورة الصف

- 1486 ما ورد فيها
تقريع من يقولون ولا يفعلون 1487
هل يحب الله تعالى من يقاتلون في سبيله صفاً
كانهم بنين مرصوص؟
ماذا قال سيدنا موسى لقومه؟ وماذا قال سيدنا

- 1527 شعر وكهانة وتقرير حقيقته
 ماذا يكون من ربنا مع نبيه لو تقول عليه بعض
 1527 الاقاويل

سورة سال سائل

- 1528 ما هو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة
 1529 الحال يوم القيامة
 أصناف استثنائهم ربنا ونزهمهم عن وصف الهلع الذي
 1531 خلق عليه الإنسان
 1531 جزاء أولئك الأصناف
 إياه ربنا أن يدخل المشركون الجنة وتذكيرهم
 1532 بأصلهم القنر
 حال الكفار يوم القيامة وقسم ربنا أنه قادر على أن
 يهلكهم ويبدل خيراً منهم

سورة نوح

- ماذا قال سيدنا نوح ﷺ لقومه لما أرسل إليهم؟ وماذا
 1553 كان حالهم معه؟
 شكوى سيدنا نوح قومه إلى ربه ثم دعاؤه عليهم ثم
 1535 دعاؤه لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ..

سورة الجن

- هل رأى رسول الله ﷺ الجن حين استمعوا وهو يقرأ
 1537 القرآن؟
 ماذا قال الجن لما سمعوا القرآن
 1540 ماذا يكون من ربنا لمن يستقيم على الطريقة الإلهية؟
 1541 ماذا يكون لمن يعرض عن ذلك؟
 الكلام على قوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على
 1542 غيبه أحداً﴾ وليراجع ..

سورة المزمل

- ما ورد فيها
 1544 المقدار الذي أمر أن يقومه ﷺ من الليل
 1545 ما هي ناشئة الليل التي هي أشد وطأ وأقوم قبلاً؟
 1545 وعيد المكذبين أولي الغنى والسعة
 1546 تهديد المشركين أن يفعل الله بهم ما فعل بفرعون
 لما عصى رسوله
 1549 هل نسخ قيام الليل في حقه ﷺ وفي حق الأمة؟

سورة المدثر

- سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾ إلخ
 1550

- يتعلق بذلك
 1504 أمر المؤمنين أن يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً وقودها
 1507 الناس والحجارة
 1507 أمر المؤمنين بالتوبة النصوح وجزاءهم على ذلك ..
 1507 أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين وأن يغلظ
 1508 عليهم
 مثل للذين كفروا ومثل للذين آمنوا، وما هي خيانة
 امرأة سيدنا نوح وامرأة سيدنا لوط

سورة الملك

- ما ورد في فضلها
 1509 هل خلقنا الله ليلولنا إنا أحسن عملاً؟
 1510 الدعوة إلى العبرة بالسماء
 1510 ما للذين كفروا يوم القيامة؟ وكيف تكون معهم النار،
 واعترافاتهم حينئذٍ
 1511 عبر وترهيبات
 1512

سورة ن

- الكلام على ن والقلم
 1515 قسم ربنا أن نبيه ليس بمجنون وأن له أجراً غير
 مقطوع، وأنه على خلق عظيم
 صفات في غاية الشناعة لمن نهى سيد الوجود ﷺ
 1516 أن يطيعه
 1516 عود إلى الكلام على ن والقلم
 1517 قصة أصحاب البستان البخلاء، وما كان منهم ولهم
 1518 ما للمتقين عند ربهم، والرد على المشركين في
 قولهم: إن صح رجوعنا يوم القيامة فسنكون
 أوفر حظاً من المسلمين، وبعد ذلك من التقريع ما
 1519 يبهت الكافر
 1519 حال الكفار يوم يدعون إلى السجود في القيامة ..
 1520 معنى الساق في قوله تعالى: ﴿يكشف عن ساق﴾

سورة الحاقة

- ما ورد فيها
 1522 ماذا فعل ربنا بعد وثمود لما كذبوا بيوم القيامة؟
 1523 ماذا فعل بفرعون وقومه لما كذبوا رسول ربهم؟
 1523 ماذا فعل بقوم سيدنا نوح لما كذبوه؟
 1524 ماذا يكون إذا نفخ في الصور؟
 1525 ما لاهل اليمين وما لاهل الشمال؟
 1525 قسم ربنا في الرد على الكفار الذين يقولون إن القرآن

- 1570 الأخروي الذي يكذبون به
لماذا كررت آية ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ في هذه
1570 السورة؟
براهين محسنة يقيمها ربنا على قدرته على بعث
1570 أولئك الكفار المنكرين للبعث
ما يقال للكفار يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً وهم
1571 مسوقون إلى جهنم ومقدار شررها
هل لا ينطق الكفار يوم القيامة ولا يعتذرون؟ والجمع
1572 بين ذلك وبين ما يفيد نطقهم؟
كيف يكون المتقون حينئذ؟

سورة عم

- هل النبأ العظيم الذي يتساءل عنه المشركون هو
1573 البعث؟
دلائل على قدرته تعالى على البعث
1574 ميقات البعث، وماذا يكون بعد النفخ في الصور؟
1575 هل جهنم تنتظر الكفار ولا يزيدهم الله فيها إلا عذاباً،
ولماذا ذلك؟
1575 ما للمتقين عند ربهم؟
1577 هل لا يتكلم من الملائكة إلا من أذن له الرحمن؟
1578 هل يتمنى الكافر يوم القيامة أن يكون تراباً؟

سورة النازعات

- ما هي النازعات والناشطات والسابحات والسابحات
1579 والمديرات أمراً؟
ماذا يكون حال الكفار حين نفخ في الصور النفخة
1580 الأولى ثم الثانية؟
قصة سيدنا موسى لما أرسله الله إلى فرعون، وما
1581 فعله تعالى بفرعون لما كذب
براهين على قدرته تعالى على البعث، وهي براهين
1583 مسكتة
ما هو مأوى الكافر والمؤمن إذا جاءت الطامة الكبرى؟
1584 هل لا يعلم وقت قام القيامة إلا الله تعالى؟
1584

سورة عبس

- قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ
1585 براهين قاطعة ساطعة على قدرته تعالى على البعث
1587 هل إذا جاءت القيامة يفزع المرء من أحب الناس إليه؟
1587 هل يومئذ تكون الوجوه قسمين قسماً مسرفراً ضاحكاً
مستبشراً، وقسماً عليه غيرة ترهقه قفرة،

- هل إذا نفخ في الصور يكون يوم القيامة يوماً عسيراً
على الكافرين؟
1551 وعيد ربنا عز وجل للوليد بن المغيرة وبيان حاله
المستوجبة لذلك الوعيد
لماذا جعل الله المدبرين لأمر النار ملائكة وجعل
عنتهم تسعة عشر؟
1553 هل أصحاب اليمين مستثنون لا يكونون رهناء
أعمالهم، بل يعفى عنهم لصلحتهم؟
1555 هل يسأل أهل الجنة أهل النار ما سلككم في
سقر؟ وما هو جواب أهل سقر؟
تمثيل الكفار في إعراضهم عن الموعظة بحمر نافرة
فرّت من الرماة التي يصيدونها
1556

سورة القيامة

- هل الجمهور على زيادة «لا» في مثل قوله تعالى: ﴿لا
أقسم بيوم القيامة ولا أقسم﴾ إلخ؟
1557 الرد على منكري البعث
هل لا مفز ولا وزر ولا معذرة لمنكر البعث إذا قامت
القيامة؟
1558 طمأنة الرسول ﷺ على القرآن أن يذهب منه، ونهيه
عن تحريك لسانه به إذا أوحى
1559 بحث رؤية الله في الجنة، وهو مهم فليراجع
عود إلى ذلك
1560 الكلام على ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾
وهو وعيد شديد لمن لم يصدق لم يصل ولكنه
كذب وتولى
1561 برهان على البعث مفحم لمن ينكر البعث
1561 ماذا يقول من ختم هذه السورة؟

سورة الإنسان

- ما ورد فيها
1562 من هو الإنسان الذي أتى عليه حين من الدهر لم يكن
شيئاً مذكوراً؟
1462 ما الذي أعدّه الله للكافرين؟
1563 الأبرار وصفاتهم، ما أعد الله لهم في دار كرامته
1563

سورة المرسلات

- ما ورد فيها
1569 ما هي المرسلات والعاصفات والناشرات
والفارقات والمليقات ذكرها؟
أمور إذا كانت وقع ما يوعد الكفار به من العذاب

- لتركبن طبقاً عن طبق، ومعنى هذا الطبق الذي
1601 نركبه عن طبق
هل تهكم أمر النبي ﷺ أن يبشّر المكذّبين بعذاب
1602 اليم؟
جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات

سورة البروج

- ما ورد فيها 1603
ما هي البروج، وما هو اليوم الموعود، وما هو
1603 الشاهد والمشهود؟
ما هو جواب القسم في قوله تعالى: ﴿والسماوات
1604 البروج﴾ إلخ
الكلام على أصحاب الأخدود وما فعلوا بالمؤمنين
1605 ما جزاء هؤلاء الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات؟ ..
ما لمن آمن وعمل صالحاً؟
1607 تفصيل ما فعل أصحاب الأخدود

سورة الطارق

- ما ورد فيها 1608
تأكد أنّ كل نفس لما عليها حافظ حتى أقسم على
1608 ذلك ربنا بالسماء والطارق
برهان على قدرة ربنا على رجوع الإنسان بعد موته
1609 قسم ربنا بالسماء والأرض إن القرآن قول فصل وما
1609 هو بالهزل

سورة الأعلى

- ما ورد فيها 1610
نعت لمولانا تعالى هو بها جنير أن يسبحه ما سواه
1611 الكلام على قوله تعالى: ﴿فذكر إن نفعنا الذكرى﴾ .
1612 هل من لا ينتفع بالذكرى من أهل النار؟
هل إثثار الحياة الدنيا خلق مذموم؟

سورة الغاشية

- ما ورد فيها 1614
هل الغاشية القيامة؟ 1614
أهل النار وأهل الجنة يومئذ، وحال كل منهما
لفت منكري البعث إلى خلق ما يروونه بأعينهم من
1615 الإبل والسماء والجبال والأرض

سورة الفجر

- ما ورد فيها 1616

والأولون المؤمنون والآخرين الكافرون؟ 1588

سورة التكوير

- ما ورد فيها 1589
أمور إذا كانت علمت كل نفس ما أحضرت من أعمال
1590 قسم الله بالخنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا
تنفس إن القرآن قول جبريل، وتوجيه معنى كونه
1590 قوله، ووصف جبريل بأوصاف جليلة
هل رأى نبينا ﷺ سيدنا جبريل بالافق المبين؟
1591 ووصفه ﷺ بأنه ليس بمتهم على الغيب

سورة الانفطار

- ما ورد فيها 1593
أمور إذا كانت علمت كل نفس ما قدّمت وأخرت ... 1593
تقريع الكفار على كفرهم بالله وهو ربهم الكريم
الذي خلقهم وسوّاهم وعدلهم في أي صورة
شاء

- التعجيب من أولئك الكافرين الذين يكذبون بيوم
القيامة وعليهم حفظة يكتبون ما يعملون
1594 أين يكون الأبرار يوم القيامة، وأين يكون الفجار؟ ..
هل يفارق الكفار النار أبداً؟
هل يكون الأمر كله لله يوم القيامة ليس لأي أحد
أي تصرف في أي أمر ظاهراً وباطناً؟

سورة المطففين

- ما ورد فيها 1595
وصف المطففين 1595
هل خطورة البعث بالبال على سبيل اليقين يردع
عن المعاصي؟
هل سجين هو الكتاب المرقوم؟ وفي ذلك أقوال أخرى؟ 1596
حال المنكبين يوم القيامة
1598 حال الأبرار يومئذ، وهل عليون هو الكتاب المرقوم .
هل يضحك المؤمنون يوم القيامة من الذين أجروا
كما كان أولئك المجرمون يضحكون منهم في
1599 الدنيا؟

سورة الانشقاق

- ما ورد فيها 1600
جواب «إذا» في ﴿إذا السماء انشقت﴾ إلخ
1601 كيف يكون المؤمنون والكافرون يوم القيامة؟
قسم ربنا بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق

سورة التين

- 1636 ما ورد فيها
هل التين والزيتون هما المعلومان؟
هل الطور هو الجبل الذي كلم الله سيدنا موسى
عليه؟ وهل البلد الأمين مكة؟ 1637
هل لم يخلق الله مخلوقاً أحسن خلقاً من الإنسان؟
معنى ردّ الله تعالى للإنسان إلى أسفل سافلين
هل جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجر غير
ممنون؟

- توبيخ وتقريع للمكذب بالبعث وهو يرى أنه مخلوق
في أحسن تقويم ويردّ إلى أسفل سافلين 1637

سورة اقرا

- 1638 ما ورد فيها
هل يطغى الإنسان إذا رأى نفسه استغنى؟ 1639
التعجب ممن ينهي عبداً إذا صلى 1639
ماذا يكون لو لم ينته هذا الناهي؟

سورة القدر

- وهي تتضمن فضل ليلة القدر 1641

سورة لم يكن الذين كفروا

- 1642 ما ورد فيها
معنى الآية الأولى من هذه السورة، وهي من
المشكلات 1642
أين الكافرون من أهل الكتاب والمشرّكين يوم القيامة؟
وأين الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ وما قيمة كل
منهما؟ 1644

سورة الزلزلة

- ما ورد فيها، وهي في أمور الآخرة 1645

سورة العاديات

- 1647 ما ورد فيها
أقسام أقسم بها ربنا إن الإنسان كفور بنعمته، وإنه
على ذلك شهيد، وإن حبه للمال شديد، وتهديده
بأن ربه عليم به ويجازيه على هذه الغفلة

سورة القارعة

- وهي تمثل حال الناس يوم القيامة، تبين أين من ثقلت

ما جواب هذه الأقسام؟ ﴿والفجر وليال عشر﴾
إلخ، وما معناها؟

- هل كذب ما يقال في عاد إرم ذات العماد من أنها
مدينة مبنية بالذهب إلخ؟ 1618
هل كافر الذي يعتبر النعم كرامة والفقر إهانة؟ ... 1620
هل مذموم عدم إكرام اليتيم وعمد الحض على طعام
المسكين واكل التراث أكلاً لئماً، وحب المال حباً
جماً؟ 1621
هل يتمنى الإنسان يوم القيامة أن لو قدم صالحاً
لحياته الأبدية؟ 1621

سورة البلد

- قسم ربنا على أن الإنسان خلق في كبد ومشقة، فهو
لا يزال في دنياه في تعب 1622
الإنكار عليه حيث لم يقتحم العقبة وهي فك رقبة إلخ 1624

سورة الشمس

- 1626 ما ورد فيها
معنى «ما» في قوله تعالى: ﴿والسماء وما بناها﴾
وكذا ما بعدها 1627
ما هو جواب الأقسام: والشمس وضحاها إلخ ... 1627
قصة قوم سيدنا صالح معه، وما فعلوا بالناقة، وما
نزل بهم

سورة الليل

- 1628 ما ورد فيها
اختلاف أعمالنا صلاحاً وفساداً، وقسم ربنا على ذلك 1629
جزاء من أعطى واتقى وصنّق بالحسنى، ومن بخل
واستغنى وكذب بالحسنى
هل الذي على الله البيان وله الآخرة والأولى؟ 1629
معنى كون النار لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب
وتولى
هل سيجنب النار الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى؟

سورة الضحى

- ما ورد فيها وكلها من عظمى يمتنّ بها ربنا على نبيه 1631

سورة ألم نشرح

- وهي: كسابقتها 1634
تأكيد مولانا الغني الكريم أن العسر معه يسرّان، وهو
وعد تطرب له الأذان سروراً 1635
معنى ﴿فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب﴾

- 1662 توجيه التكرار الذي في السورة
هل الآية ﴿لکم دینکم ولی دین﴾ منسوخة؟

سورة النصر

- 1663 ما ورد فيها
1663 ما المراد بالفتح
1664 لماذا أمر الانبياء بالاستغفار؟
هل أعلم الله رسوله باقتراب أجله لما أمره أن
يسبح بحمده ويستغفره؟

سورة تبت

- 1665 وهي في أبي لهب وامراته

سورة الإخلاص

- 1666 ما ورد فيها وهي صفة ربنا تعالى

سورة الفلق

- 1669 ما ورد فيها. وفي سورة الناس وسبب نزولهما ...
1670 ما هو الفلق؟
ما هو الراجح في معنى قوله تعالى: ﴿غاسق إذا
وقب﴾
هل النفاثات الساحرات؟
1671 ما هو الحسد، ومعنى قوله تعالى: ﴿إذا حسد﴾ ..
أحاديث في معنى الفاظ هذه السورة لو صحت
وجب المصير إليها

سورة الناس

- 1671 لم كرر لفظ الناس، ولم يؤت الضمير بعد الأول ..
1672 لم سمي الشيطان خناساً، وما هي وسوسته؟
معنى قوله تعالى: ﴿من الجنة والناس﴾

- 1649 موازينه ومن خفت موازينه

سورة التكاثر

- ما ورد فيها وكلها تهديد للناس على شغلهم بالدنيا
1650 عن الآخرة

سورة العصر

- 1653 ما ورد فيها وهي تبين الخاسرين والمفلحين

سورة الهمة

- وهي تهدد بالنار الهمة للهمة الذي يحسب أن ماله
يخلده في الدنيا 1653

سورة الفيل

- هي تتضمن قصة أصحاب الفيل الذين كانوا يريدون
هدم الكعبة وتخريبها 1655

سورة قريش

- ما ورد فيها، وهي: تتضمن الامتنان على قريش بما
فيها من الآلاء 1656

سورة أرايت

- وهي تتضمن التهديد بالويل للمكذبين بالآخرة؟ الذين
وصفهم ربنا في السورة بالقسوة على اليتيم
والمسكين والرياء في الصلاة إن صلوا 1657

سورة الكوثر

- وهي امتنان على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ
بالخير الكثير الذي أعطيه، وأمره بالصلاة
ونحر النسك، ورد على من قال إنه أبتربأنه هو
الأبتربالمقطوع عن رحمة الله 1659

سورة الكافرون

- 1661 ما ورد فيها

ISBN 9953 - 420 - 75 - 0



التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
بيروت-لبنان ٠١/٤٥٠٤٦٧-٠١/٤٥٠٤٥٤